40285

* (فهرسة الجزء الخامس من الفخر الرازى) *

صحيفة

٥ المسئلة الاولى فى بيان طريق اثبات نبوة الانبياء عليهم الصلاة والسلام
١٣ المسئلة الاولى فى بيان حقيقة الولى
١٥ المسئلة الثانية فى بيان الاستدلال على أن أهل الثواب لا يحصل لهم خوف فى محفل القيامة
٥٠ (سورة هود عليه السلام وفيها المسائل الآتية)
٨٣ المسئلة الثانية فى بيان صفة سفينة نوح عليه السلام
١٠٧ المسئلة الثالثة فى بيان قصة ابراهيم عليه السلام مع ضيفه
١٤٩ (سورة يوسف عليه السلام وفيها من القصص مالا يخفى)
٢٥٨ (سورة الرعد وفيها المسائل الآتية)
٢٥٩ المسئلة الثانية فى بيان الاستدلال باحوال السموات على وجود الصانع
٢٦٢ الكلام فى الاستدلال بخلقة الارض وأحوالها على وجود الصانع
٢٦٤ المسئلة الاولى فى بيان الاستدلال بعجائب خلقة النبات على وجود الصانع
٢٦٦ المسئلة الاولى فى بيان أنه لا يجوز أن يكون حدوث الحوادث لاجل الاتصالات الفلكية
٢٧٩ المسئلة الثالثة فى بيان الاستدلال بحدوث البرق والسحاب والرعد على قدرة الله تعالى وحكمته
٢٨٥ المسئلة الاولى فى بيان استدلال أهل السنة على مسئلة خلق الافعال
٢٨٦ المسئلة الثانية فى بيان انه هل يجوز أن يطلق عليه تعالى اسم الشئ أم لا
٢٨٦ المسئلة الثالثة فى بيان استدلال المعتزلة على قولهم ان الله تعالى عالم بذاته لا بالعلم
٢٩٧ الكلام فى بيان شبهات منكرى النبوة والجواب عنها
٣١٠ المسئلة الخامسة فى ابطال استدلال الرافضة على قولهم ان البداء جائز على الله تعالى
٣١٢ الكلام فى بيان الاستدلال على نبوته عليه الصلاة والسلام
٣١٣ (سورة ابراهيم عليه السلام وفيها المسائل الآتية)
٣١٣ المسئلة الثانية فى استدلال المعتزلة على قولهم ان أفعال الله تعالى معللة بالاغراض
٣١٤ المسئلة الرابعة فى بيان استدلال المعتزلة على ابطال القول بالجبر
٣١٧ المسئلة الثالثة فى بيان استدلال أهل السنة على أن الخالق لافعال العباد هو الله تعالى

صحيفة

٣١٩ المسئلة الثانية فى بيان استدلال بعض الناس على ان اللغات اصطلاحية لاتوقيفية
٣١٩ المسئلة الثالثة فى بيان استدلال العيسوية على أن محمدا مرسل الى العرب خاصة
٣١٩ المسئلة الرابعة فى بيان استدلال أهل السنة على أن الهدى والضلال من الله تعالى
٣٢٨ المسئلة الثانية فى بيان أن الفطرة الاولية شاهدة بوجود الصانع الحكيم
٣٣٠ المسئلة الرابعة فى بيان استدلال أهل السنة على انه تعالى قد يغفر الذنوب من غير توبة
٣٤٢ المسئلة الاولى فى بيان استدلال المعتزلة على أن العبد خالق لافعال نفسه
٣٤٣ المسئلة الثانية فى بيان الاستدلال على أن الشيطان الاصلى هو النفس وفى بيان حقيقتها
٣٥٤ الكلام فى بيان الدلائل الدالة على وجود الصانع الحكيم المختار
٣٥٩ المسئلة الثالثة فى بيان احتجاج أهل السنة على أن الكفر والايمان بخلق الله تعالى
٣٧٢ (سورة الحجر وفيها المسائل الآتية)
٣٧٧ المسئلة الثالثة فى بيان استدلال أهل السنة على ان من قتل فهو ميت بأجله
٣٨١ المسئلة الثانية فى بيان احتجاج أهل السنة على ان الله تعالى يخلق الباطل فى قلوب الكفار
٣٨٥ الكلام فى الاستدلال بالاحوال السماوية على وجود الصانع المختار
٣٨٦ الكلام فى الاستدلال بالاحوال الارضية على وجود الصانع المختار
٣٩٠ المسئلة الثانية فى بيان استدلال المعتزلة على أن المعدوم شئ والجواب عنه
٣٩٢ الكلام فى الاستدلال بحصول الاحياء والاماتة لهذه الحيوانات على وجود الصانع المختار
٣٩٣ المسئلة الثانية فى بيان الاستدلال على أنه لابد من انتهاء الناس الى انسان هو أول الناس
٤٠٠ المسئلة الاولى فى بيان الاستدلال على أن الكذب فى غاية الخساسة
٤٢١ (سورة النحل وفيها المسائل الآتية)
٤٢٥ الكلام فى بيان أن دلائل الالهيات هى التمسك بطريقة الامكان اما فى الذات أو فى الصفات
٤٢٦ الكلام فى الاستدلال على وجود الصانع بخلقة الانسان

صحيفة

٤٢٧ المسئلة الاولى فى بيان وجه الاستدلال بأحوال النفس الانسانية على وجود الصانع
٤٢٨ المسئلة الثانية فى بيان منافع الانعام
٤٣٢ المسئلة الثانية فى بيان احتجاج المعتزلة على أنه يجب على الله تعالى الارشاد والهداية
٤٣٢ المسئلة الثالثة فى بيان احتجاج أهل السنة على انه تعالى ماشاء هداية الكفار
٤٣٢ الكلام فى بيان الاستدلال بعجائب أحوال النبات على وجود الصانع الحكيم المختار
٤٣٥ المسئلة الاولى فى بيان الاستدلال على أنه لايجوز أن يكون حدوث الحوادث بتأثير الطبائع
٤٣٧ الكلام فى بيان الاستدلال على وجود الصانع بعجائب أحوال العناصر وفى بيان منافع البحار
٤٣٩ الكلام فى ذكر بعض الامم التى خلقها الله تعالى فى الارض
٤٤٢ المسئلة الاولى فى بيان ابطال عبادة غير الله تعالى
٤٤٣ المسئلة الثالثة فى بيان احتجاج أهل السنة على أن العبد غير خالق لافعال نفسه
٤٤٣ المسئلة الاولى فى بيان أن العبد لايمكنه الاتيان بالعبودية على سبيل التمام والكمال
٤٤٤ المسئلة الثانية فى بيان انه هل لله على الكافر نعمة أم لا
٤٥٤ المسئلة الثالثة فى بيان احتجاج أهل السنة على أن الهدى والضلال من الله تعالى
٤٥٧ المسئلة الرابعة فى بيان احتجاج أهل السنة على قدم القرآن
٤٥٩ المسئلة الثانية فى بيان الاستدلال على انه تعالى ماارسل أحدا من النساء ولا من الملائكة
٤٦٠ المسئلة الثالثة فى بيان احتجاج نفاة القياس على قولهم والجواب عنه
٤٦٧ المسئلة الثانية فى بيان استدلال القائلين بالفوقية والجواب عنه
٤٦٧ المسئلة الرابعة فى بيان استدلال من قال ان الملك أفضل من البشر
٤٦٨ المسئلة الاولى فى بيان قوله لاتتخذوا الهين اثنين وفى تقرير ان الاثنينية منافية للالهية
٤٧١ المسئلة الثانية فى بيان استدلال أهل السنة على ان الايمان حصل بخلق الله
٤٧٥ المسئلة الثانية فى بيان استدلال المعتزلة على بطلان القول بالجبر وجواب أهل

صحيفة
السنة عنه
٤٧٦ المسألة الاولى فى بيان احتجاج الطاعنين فى عصمة الانبياء والجواب عنه
٤٧٦ المسألة الثانية فى بيان الاحتجاج على أن الاصل فى المضار الحرمة
٤٨١ المسألة الثالثة فى بيان كيفية هضم الاغذية ووصول منافعها الى الاعضاء
٤٨٢ المسألة الربعة فى بيان اشتمال حدوث اللبن فى الثدى على حكم عجيبة وأسرار بديعة
٤٨٤ المسألة الخامسة فى بيان الاستدلال بحدوث اللبن على امكان الحشر والنشر
٤٨٥ المسألة الاولى فى بيان مايصدر من النحل من الاعمال العجيبة التى يعجز عنها البشر
٤٨٩ المسألة الاولى فى بيان مراتب عمر الانسان وفى استدلال الطبائعيين على قولهم والجواب عنه
٤٩٧ المسألة الثالثة فى بيان احتجاج الفقهاء على أن العبد لايملك شيئا
٥٠٠ المسألة الثالثة فى بيان أقسام المعارف والعلوم
٥٠١ المسألة الثانية فى بيان الاستدلال بخلقة الطير وتحيرها فى الجو على قدرة الله وحكمته
٥٠٨ المسألة الاولى فى بيان فضائل قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان الآية
٥١٣ المسألة الثالثة فى اتفاق أهل السنة والمعتزلة على ان تذكر الاشياء من فعل الله تعالى
٥٢٠ المسألة الثالثة فى بيان احتجاج الشافعى رضى الله عنه على ان القرآن لاينسخ بالسنة
٥٢٠ الكلام فى حكاية شبهة من شبهه منكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وتقرير الجواب عنها
٥٢٤ المسألة الرابعة فى بيان الاكراه الذى يجوز عنده التلفظ بكلمة الكفر
٥٢٤ المسألة السادسة فى بيان الاستدلال على انه لايجب على المكره التكلم بكلمة الكفر
٥٢٥ المسألة الثامنة فى بيان مايقبل الاكراه عليه من الافعال ومالايقبل
٥٢٥ المسألة العاشرة فى بيان الاستدلال على أن محل الايمان هو القلب
٥٤٠ ﴿ سورة بنى اسرائيل وفيها المسائل الآتية ﴾
٥٤٠ المسألة الثانية فى بيان الاختلاف فى كيفية الاسراء
٥٤٨ المسألة الثانية فى بيان احتجاج أهل السنة على قولهم فى مسألة القضاء والقدر
٥٦٠ المسألة الثالثة فى استدلال أهل السنة على أن وجوب شكر المنعم لايثبت بالعقل بل بالسمع
٥٦٢ المسألة الثانية فى بيان استدلال أهل السنة على صحة مذهبهم فى الارادة

صحيفة
٥٨١ المسئلة الثانية في بيان أن الاصل في القتل هو الحرمة المغلظة
٥٨٨ المسئلة الثانية في بيان احتجاج نفاة القياس على قولهم والجواب عنه
٥٩٤ المسئلة الثانية في بيان احتجاج المعتزلة على أن افعال الله تعالى معللة بالاغراض والجواب عنه
٥٩٤ المسئلة الثانية في بيان احتجاج أهل السنة على انه تعالى ما أراد الايمان من الكفار
٦١٧ الكلام في ذكر النعم التي بها فضل الانسان على غيره
٦٢٦ المسئلة الثالثة في بيان احتجاج الطاعنين في عصمة الانبياء والجواب عنه
٦٢٦ المسئلة الرابعة في بيان احتجاج أهل السنة على أنه لا عصمة عن المعاصي الا بتوفيق الله
٦٣١ المسئلة الخامسة في بيان فوائد قوله تعالى وقرآن الفجر الآية
٦٣٧ الكلام في بيان أن القرآن شفاء من الامراض الروحانية ومن الامراض الجسمانية
٦٤٠ المسئلة الاولى في بيان المراد من الروح المذكورة في قوله تعالى ويسألونك عن الروح الآية
٦٤١ المسئلة الثانية في ذكر سائر الاقوال المقولة في الروح المذكورة في هذه الآية
٦٤٣ المسئلة الثالثة في شرح مذاهب الناس في حقيقة الانسان
٦٤٦ المسئلة الرابعة في شرح مذاهب القائلين بأن الانسان جسم موجود في داخل البدن
٦٤٨ المسئلة الخامسة في بيان دلائل مثبتي النفس من جهة العقل
٦٥٤ المسئلة السادسة في اثبات أن النفس ليست بجسم من الدلائل السمعية
٦٥٦ المسئلة الثانية في بيان احتجاج المعتزلة على قولهم بأن القرآن مخلوق والجواب عنه
٦٥٦ المسئلة الاولى في بيان كيفية اعجاز القرآن
٦٦٤ المسئلة الثانية في بيان ما ذكر في القرآن من معجزات موسى عليه السلام
٦٧٢ (سورة الكهف وفيها المسائل الآتية)
٦٧٣ المسئلة الثالثة في بيان ان انزال الكتاب نعمة على الرسول عليه الصلاة والسلام ونعمة علينا
٦٧٦ المسئلة الثانية في بيان الطوائف الذين أثبتوا الولد لله تعالى وفي ابطال مقالاتهم
٦٨٢ المسئلة السادسة في بيان احتجاج أهل السنة الصوفية على صحة القول بالكرامات
٦٩١ المسئلة السابعة في بيان الفرق بين الكرامات والاستدراج
٦٩٣ المسئلة الثامنة في بيان أن الولي هل يعرف كونه وليا أم لا
٧٠٤ المسئلة الثالثة في مذهب أهل السنة والمعتزلة في ارادة الافعال وعدمها

صحيفه

٧٠٤ المسئلة الرابعة فى بيان احتجاج القائلين بان المعدوم شئ على قولهم والجواب عنه
٧٠٧ المسئلة الرابعة فى بيان اختلاف الناس فى زمان أهل الكهف وفى مكانهم
٧٠٨ المسئلة الخامسة فى بيان أن مدار القول بالبعث والقيامة على أصول ثلاثة
٧١٠ المسئلة الاولى فى بيان احتجاج أهل السنة على انه تعالى هو الذى يخلق الجهل والغفلة
٧١٣ المسئلة الثانية فى استدلال المعتزلة على ان الكفر والايمان والطاعة والمعصية مفوض الى العبد
٧١٣ المسئلة الثالثة فى بيان فوائد قوله تعالى فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر
٧٢٥ المسئلة الثانية فى بيان استدلال المشبهة على انه تعالى يحضر فى المكان والجواب عنه
٧٤١ المسئلة الثانية فى بيان احتجاج أهل السنة على ان الاستطاعة لا تكون قبل الفعل
٧٤١ المسئلة الاولى فى بيان احتجاج الطاعنين فى عصمة الانبياء على قولهم والجواب عنه
٧٥٠ المسئلة الثانية فى بيان ان ذا القرنين من هو وفى سبب تسميته بهذا الاسم
٧٥٢ المسئلة الثالثة فى بيان أن ذا القرنين هل كان من الانبياء أم لا
٧٦٣ ﴿ سورة مريم عليها السلام وفيها المسائل الآتية ﴾
٧٧٧ القول فى فوائد قصة زكريا عليه السلام
٧٩٨ المسئلة الثانية فى بيان احتجاج أهل السنة على قدم كلام الله تعالى
٨٠٨ الكلام فى تقرير احتجاج من طعن فى عصمة الانبياء والجواب عنه

(تمت)

الجزء الخامس من مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير
الكبير للامام محمد الرازى فخر الدين
ابن العلامة ضياء الدين عمر
المشتهر بخطيب الرى
نفع الله به المسلمين
آمين

م
* (وبهامشه تفسير العلامة أبى السعود) *

١٩٥٩ ٣٧٦
Acc.
Call.
Sub.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قوله تعالى (و يستنبؤنك أحق هو قل اى ور بى انه لحق وما أنتم بمعجزين ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الارض لافتدت به وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) اعلم انه سبحانه أخبر عن الكفار بقوله و يقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين واجاب عنه بما تقدم فحكى عنهم انهم رجعوا الى الرسول مرة أخرى فى عين هذه الواقعة وسألوه عن ذلك السؤال مرة أخرى وقالوا أحق هو واعلم ان هذا السؤال جهل محض من وجوه (أولها) انه قد تقدم هذا السؤال مع الجواب فلا يكون فى الاعادة فائدة (وثانيها) انه تقدم ذكر الدلالة العقلية على كون محمد رسولا من عند الله وهو بيان كون القرآن معجزا واذا صحت نبوته لزم القطع بصحة كل ما يخبر عن وقوعه فهذه المعانى توجب الاعراض عنهم و ترك الالتفات الى سؤالهم واختلفوا فى الضمير فى قوله أحق هو فقيل أحق ما جئتنا به من القرآن والنبوة والشرائع وقيل ما تعدنا من البعث والقيامة وقيل ما تعدنا من نزول العذاب علينا فى الدنيا ثم انه تعالى أمره ان يجيبهم بقوله قل اى ور بى انه لحق والفائدة فيه أمور (أحدها) ان يستميلهم و يتكلم معهم بالكلام المعتاد ومن الظاهر ان من أخبر عن شئ وأكده بالقسم فقد أخرجه عن الهزل وادخله فى باب الجد (وثانيها) ان الناس طبقات فمنهم من لا يقر بالشئ الا بالبرهان الحقيق ومنهم من لا ينتفع بالبرهان الحقيق بل ينتفع بالاشياء الاقناعية نحو القسم فان الاعرابى الذى جاء الرسول عليه السلام وسأل عن نبوته ورسالته اكتفى فى تحقيق تلك الدعوى بالقسم فكذا ههنا ثم انه تعالى اكد ذلك بقوله وما أنتم بمعجزين ولا بد فيه من تقدير محذوف فيكون المراد وما أنتم بمعجزين

(و يستنبؤنك) أى يستخبرونك فيقولون على طريقة الاستهزاء أو الانكار (أحق هو) أحق خبر قدم على المبتدا الذى هو والضمير للا[illegible]تام ب[illegible]قوله تعالى انه لحق أو مبتدأ والضمير مرتفع به ساد مسد الخبر والجملة فى موقع النصب بيستنبؤنك وقرئ ألحق [illegible] هو تعريضا بأنه باط[illegible] كأنه قيل أهو الحق لا الباطل أو أهو ال[illegible] سميتموه الحق (قل) لهم غير ملتفت الى استهزائهم مغضبا عما قصدوا و بانيا للامر على أساس الحكمة (اى ور بى) اى من حروف الايجاب بمعنى نعم فى القسم خاصة كما أن هل بمعنى قد فى الاستفهام خاصة ولذلك يوصل بواوه (انه) أى العذاب الموعود (لحق) لثابت البتة أكد الجواب بأتم وجوه التاكيد حسب شدة انكارهم وقوته وقد زيد تقريرا وتحقيقا بقوله عز اسمه (وما أنتم بمعجزين) أى بفائتين العذاب بالهرب وهو لاحق بكم لا محالة وهو اما معطوف على جواب القسم أو مستأنف سيق لبيان عجزهم عن الخلاص مع ما فيه من التقرير المذكور (ولو ان لكل نفس ظلمت) بالشرك أو التعدى على الغير أو غير ذلك من أصناف الظلم ولو مرة حسبما يفيده كون الصفة فعلا (ما فى الارض) أى ما فى الدنيا من خزائنها وأموالها ومنافعها قاطبة بما كثرت (لافتدت به) أى لجعلته فدية لها ﴿ لمن ﴾ من العذاب من افتداه بمعنى فداه (وأسروا) أى النفوس المدلول عليها بكل نفس والعدول الى صيغة الجمع مع تحقق العموم فى صورة الافراد أيضا لافادة تهويل الخطب بكون الاسرار بطريق المعية والاجتماع وانما لم يراع ذلك فيما سبق لتحقيق

لمن وعدكم بالعذاب ان ينزله عليكم والغرض منه التنبيه على أن أحدا لا يجوز ان يمانع ربه ويدافعه عما أراد وقضى ثم انه تعالى بين ان هذا الجنس من الكلمات انما يجوز عليهم ماداموا فى الدنيا فاما اذا حضروا محفل القيامة وعاينوا قهر الله تعالى وآثار عظمته تركوا ذلك واشتغلوا باشياء أخرى ثم انه تعالى حكى عنهم ثلاثة أشياء (أولها) قوله ولو ان لكل نفس ظلمت ما فى الارض لافتدت به الا ان ذلك متعذر لانه فى محفل القيامة لا يملك شيئا كما قال تعالى وكلهم آتيه يوم القيامة فردا وبتقدير ان يملك خزائن الارض لا ينفعه الفداء لقوله تعالى ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون وقال فى صفة هذا اليوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة (وثانيها) قوله وأسروا الندامة لما رأوا العذاب واعلم ان قوله واسروا الندامة جاء على لفظ الماضى والقيامة من الامور المستقبلة الا انها لما كانت واجبة الوقوع جعل الله مستقبلها كالماضى واعلم ان الاسرار هو الاخفاء والاظهار وهو من الاضداد أما ورود هذه اللفظة بمعنى الاخفاء فظاهر وأما ورودها بمعنى الاظهار فهو من قولهم سر الشئ واسره اذا أظهره اذا عرفت هذا فنقول من الناس من قال المراد منه اخفاء تلك الندامة والسبب فى هذا الاخفاء وجوه (الاول) انهم لما رأوا العذاب الشديد صاروا مبهوتين متحيرين فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخا سوى اسرار الندم كالحال فيمن يذهب به ليصلب فانه يبقى مبهوتا متحيرا لا ينطق بكلمة (الثانى) انهم أسروا الندامة من سفلتهم واتباعهم حياء منهم وخوفا من توبيخهم فان قيل ان مهابة ذلك الموقف تمنع الانسان عن هذا التدبير فكيف قدموا عليه قلنا ان هذا الكتمان انما يحصل قبل الاحتراق بالنار فاذا احترقوا تركوا هذا الاخفاء واظهروه بدليل قوله تعالى قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا (الثالث) انهم أسروا تلك الندامة لانهم اخلصوا لله فى تلك الندامة ومن اخلص فى الدعاء اسره وفيه تهكم بهم وباخلاصهم يعنى انهم لما اتوا بهذا الاخلاص فى غير وقته لم ينفعهم بل كان من الواجب عليهم ان يأتوا به فى دار الدنيا وقت التكليف وأما من فسر الاسرار بالاظهار فقوله ظاهر لانهم انما اخفوا الندامة على الكفر والفسق فى الدنيا لاجل حفظ الرياسة وفى القيامة بطل هذا الغرض فوجب الاظهار (وثالثها) قوله تعالى وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون فقيل بين المؤمنين والكافرين وقيل بين الرؤساء والاتباع وقيل بين الكفار بانزال العقوبة عليهم واعلم ان الكفار وان اشتركوا فى العذاب فانه لا بد وان يقضى الله تعالى بينهم لانه لا يمتنع أن يكون قد ظلم بعضهم بعضا فى الدنيا وخانه فيكون فى ذلك القضاء تخفيف من عذاب بعضهم وتثقيل لعذاب الباقين لان العدل يقتضى أن ينتصف للمظلومين من الظالمين ولا سبيل اليه الا بأن يخفف من عذاب المظلومين ويثقل فى عذاب الظالمين * قوله تعالى

(الا ان لله ما فى السموات والارض الا ان وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون هو يحيي ويميت واليه ترجعون) اعلم ان من الناس من قال ان تعلق هذه الآية بما قبلها هو انه تعالى

ما يتوخى من فرض كون جميع ما فى الارض لكل واحدة من النفوس وايثار صيغة جمع المذكر لحمل لفظ النفس على الشخص أو لتغليب ذكور مدلوله على اناثه (الندامة) على ما فعلوا من الظلم أى أخفوها ولم يظهروها لكن لا للاصطبار والتجلد هيهات ولات حين اصطبار بل لانهم بهتوا (لما رأوا العذاب) أى عند معاينتهم من فظاعة الحال وشدة الاهوال ما لم يكونوا يحتسبون فلم يقدروا على أن ينطقوا بشئ فلما بمعنى حين منصوب بأسروا أو حرف شرط حذف جوابه لدلالة ما تقدم عليه وقيل أسرها رؤساؤهم ممن أضلوهم حياء منهم وخوفا من توبيخهم ولكن الامر أشد من أن يعتريهم هناك شئ غير خوف العذاب وقيل أسروا الندامة اخلصوها لان اسرارها اخلاصها أو لان سر الشئ خالصته حيث تخفى ويضن بها ففيه تهكم بهم وقيل اظهروا الندامة من قولهم سر الشئ وأسره اذا أظهره حين عيل صبره وفنى تجلده (وقضى بينهم) أى أوقع القضاء بين الظالمين من المشركين وغيرهم من أصناف أهل الظلم بأن أظهر الحق سواء كان من حقوق الله سبحانه أو من حقوق العباد من الباطل وعومل أهل كل منهما بما يليق به (بالقسط) بالعدل وتخصيص الظلم بالتعدى وحمل القضاء على مجرد الحكومة بين الظالمين والمظلومين من غير أن يتعرض لحال المشركين وهم أظلم الظالمين لا يساعده المقام فان مقتضاه اما كون الظلم عبارة عن الشرك أو عما يدخل فيه دخولا أوليا (وهم) أى الظالمون (لا يظلمون) فيما فعل بهم من العذاب بل هو من مقتضيات ظلمهم ولوازمه الضرورية (ألا ان لله ما فى السموات والارض) أى ما وجد فيهما داخلا فى حقيقتهما أو خارجا عنهما متمكنا فيهما وكلمة ما لتغليب غير العقلاء على العقلاء فهو تقرير لكمال قدرته سبحانه على جميع الاشياء

قال قبل هذه الآية ولوان لكل نفس ظلمت ما في الارض لافتدت به فلا جرم قال في هذه الآية ليس للظالم شيء يفتدى به فان كل الاشياء ملك الله تعالى وملكه واعلم ان هذا التوجيه حسن اما الاحسن أن يقال انا قدذكرنا أن الناس على طبقات فنهم من يكون انتفاعه بالاقناعيات أكثر من انتفاعه بالبرهانيات أما المحققون فانهم لا يلتفتون الى الاقناعيات وانما تعويلهم على الدلائل البينة والبراهين القاطعة فلما حكى الله تعالى عن الكفار انهم قالوا أحق هو أمر الرسول عليه السلام بأن يقول اى وربى وهذا جار مجرى الاقناعيات فلما ذكر ذلك أتبعه بما هو البرهان القاطع على صحته وتقريره ان القول بالنبوة والقول بصحة المعاد يتفرعان على اثبات الاله القادر الحكيم وان كل ماسواه فهو ملكه وملكه فعبر عن هذا المعنى بقوله الا ان لله ما في السموات والارض ولم يذكر الدليل على صحة هذه القضية لانه تعالى قد استقصى في تقرير هذه الدلائل فيما سبق من هذه السورة وهو قوله ان في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والارض وقوله هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل فلما تقدم ذكر هذه الدلائل القاهرة اكتفى بذكرها وذكر ان كل ما في العالم من نبات وحيوان وجسد وروح وظلمة ونور فهو ملكه وملكه ومتى كان الامر كذلك كان قادرا على كل الممكنات عالما بكل المعلومات غنيا عن جميع الحاجات منزها عن النقائص والآفات فهو تعالى لكونه قادرا على جميع الممكنات يكون قادرا على انزال العذاب على الاعداء في الدنيا وفي الآخرة ويكون قادرا على ايصال الرحمة الى الاولياء في الدنيا وفي الآخرة ويكون قادرا على تأييد رسوله عليه السلام بالدلائل القاطعة والمعجزات الباهرة ويكون قادرا على اعلاء شأن رسوله واظهار دينه وتقوية شرعه ولما كان قادرا على كل ذلك فقد بطل الاستهزاء والتعجب ولما كان منزها عن النقائص والآفات كان منزها عن الخلف والكذب وكل ما وعد به فلا بد وان يقع هذا اذا قلنا انه تعالى لا يراعي مصالح العباد أما اذا قلنا انه تعالى يراعيها فنقول الكذب انما يصدر عن العاقل اما للعجز أو للجهل أو للحاجة ولما كان الحق سبحانه منزها عن الكل كان الكذب عليه محالا فلما اخبر عن نزول العذاب بهؤلاء الكفار وبحصول الحشر والنشر وجب القطع بوقوعه فثبت بهذا البيان ان قوله تعالى الا ان لله ما في السموات والارض مقدمة توجب الجزم بصحة قوله الا ان وعد الله حق ثم قال ولكن أكثرهم لا يعلمون والمراد انهم غافلون عن هذه الدلائل مغرورون بظواهر الامور فلا جرم بقوا محرومين عن هذه المعارف ثم انه أكد هذه الدلائل فقال هو يحيى ويميت واليه ترجعون والمراد انه لما قدر على الاحياء في المرة الاولى فاذا أماته وجب أن يبقى قادرا على احيائه في المرة الثانية فظهر بما ذكرنا انه تعالى أمر رسوله بأن يقول اى وربى ثم انه تعالى اتبع ذلك الكلام بذكر هذه الدلائل القاهرة واعلم ان في قوله الا ان لله ما في السموات والارض دقيقة اخرى وهي كلمة الا وذلك لان هذه الكلمة انما تذكر عند

و بيان لاندراج الكل تحت ملكوته يتصرف فيه كيفما يشاء ايجادا واعداما واثابة وعقابا (الا ان وعد الله) اظهار الاسم الجليل لتفخيم شان الوعد والاشعار بعلة الحكم وهو اما بمعنى الموعود أي جميع ما وعد به كائنا ما كان فيندرج فيه العذاب الذي استعجلوه وما ذكر في أثناء بيان حاله اندراجا أوليا أو بمعناه المصدري أي وعده بجميع ما ذكر فمعنى قوله تعالى (حق) على الاول ثابت واقع لامحالة وعلى الثاني مطابق للواقع وتصدير الجملتين بحرف التنبيه والتحقيق للتسجيل على تحقق مضمونهما المقرر لمضمون ما سلف من الآيات الكريمة والتنبيه على وجوب استحضاره والمحافظة عليه (ولكن أكثرهم) لقصور عقولهم واستيلاء الغفلة عليهم والفهم بالاحوال المحسوسة المعتادة (لا يعلمون) ذلك فيقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون (هو يحيى ويميت) في الدنيا من غير دخل لاحد في ذلك (واليه ترجعون) في الآخرة بالبعث والحشر

تنبيه الغافلين وايقاظ النائمين وأهل هذا العالم مشغولون بالنظر الى الاسباب الظاهرة فيقولون البستان للامير والدار للوزير والغلام لزيد والجارية لعمرو فيضيفون كل شئ الى مالك آخر والخلق لكونهم مستغرقين فى نوم الجهل ورقدة الغفلة يظنون صحة تلك الاضافات فالحق نادى هؤلاء النائمين الغافلين بقوله ألا ان لله ما فى السموات والارض وذلك لانه لما ثبت بالعقل ان ما سوى الواحد الاحد الحق ممكن لذاته وثبت ان الممكن مستند الى الواجب لذاته اما ابتداء او بواسطة فثبت ان ما سواه ملكه وملكه واذا كان كذلك فليس لغيره فى الحقيقة ملك فلما كان أكثر الخلق غافلين عن معرفة هذا المعنى غير عالمين به لاجرم أمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام أن يذكر هذا النداء لعل واحدا منهم يستيقظ من نوم الجهالة ورقدة الضلالة * قوله تعالى (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن الطريق الى اثبات نبوة الانبياء عليهم السلام أمران (الاول) أن نقول ان هذا الشخص قد ادعى النبوة وظهرت المعجزة على يده وكل من كان كذلك فهو رسول من عند الله حقا وصدقا وهذا الطريق مما قد ذكره الله تعالى فى هذه السورة وقرره على أحسن الوجوه فى قوله وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين وقد ذكرنا فى تفسير هذه الآية ما يقوى الدين ويورث اليقين ويزيل الشكوك والشبهات ويبطل الجهالات والضلالات (وأما الطريق الثانى) فهو أن نعلم بعقولنا ان الاعتقاد الحق والعمل الصالح ما هو فكل من جاء ودعا الخلق اليه وحملهم عليه وكانت لنفسه قوة قوية فى نقل الناس من الكفر الى الايمان ومن الاعتقاد الباطل الى الاعتقاد الحق ومن الاعمال الداعية الى الدنيا الى الاعمال الداعية الى الآخرة فهو النبى الحق الصادق المصدق وتقريره ان نفوس الخلق قد استولى عليها أنواع النقص والجهل وحب الدنيا ونحن نعلم بعقولنا ان سعادة الانسان لا تحصل الا بالاعتقاد الحق والعمل الصالح وحاصله يرجع الى حرف واحد وهو ان كل ما قوى نفرتك عن الدنيا ورغبتك فى الآخرة فهو العمل الصالح وكل ما كان بالضد من ذلك فهو العمل الباطل والمعصية واذا كان الامر كذلك كانوا محتاجين الى انسان كامل قوى النفس مشرق الروح علوى الطبيعة ويكون بحيث يقوى على نقل هؤلاء الناقصين من مقام النقصان الى مقام الكمال وذلك هو النبى فالحاصل أن الناس أقسام ثلاثة الناقصون والكاملون الذين لا يقدرون على تكميل الناقصين والقسم الثالث هو الكامل الذى يقدر على تكميل الناقصين فالقسم الاول هو عامة الخلق والقسم الثانى هم الاولياء والقسم الثالث هم الانبياء ولما كانت القدرة على نقل الناقصين من درجة النقصان الى درجة

(يا أيها الناس) التفات ورجوع الى استمالتهم نحو الحق واستنزالهم الى قبوله واتباعه غب تحذيرهم من غوائل الضلال بما تلى عليهم من القوارع الناعية عليهم سوء عاقبتهم وايذان بأن جميع ذلك مسوق لمصالحهم ومنافعهم (قد جاءتكم موعظة) هى والوعظ والعظة التذكير بالعواقب سواء كان بالزجر والترهيب أو بالاستمالة والترغيب وكلمة من فى قوله تعالى (من ربكم) ابتدائية متعلقة بجاءتكم أو تبعيضية متعلقة بمحذوف وقع صفة لموعظة أى موعظة كائنة من مواعظ ربكم وفى التعرض لعنوان الربوبية من حسن الموقع ما لا يخفى (وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين)

الكمال مراتبها مختلفة ودرجاتها متفاوتة لا جرم كانت درجات الانبياء فى قوة النبوة مختلفة ولهذا السر قال النبي صلى الله عليه وسلم علماء أمتى كأنبياء بنى اسرائيل اذا عرفت هذه المقدمة فنقول انه تعالى لما بين صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بطريق المعجزة فى هذه الآية بين صحة نبوته بالطريق الثانى وهذا الطريق طريق كاشف عن حقيقة النبوة معرف لماهيتها فالاستدلال بالمعجز هو الذى تسميه المنطقيون برهان الان وهذا الطريق هو الطريق الذى يسمونه برهان اللم وهو أشرف وأعلى وأكمل وأفضل (المسئلة الثانية) اعلم أنه تعالى وصف القرآن فى هذه الآية بصفات أربعة (أولها) كونه موعظة من عند الله (وثانيها) كونه شفاء لما فى الصدور (وثالثها) كونه هدى (ورابعها) كونه رحمة للمؤمنين ولابد لكل واحد من هذه الصفات من فائدة مخصوصة فنقول ان الارواح لما تعلقت بالاجساد كان ذلك التعلق بسبب عشق طبيعى وحب للروح على الجسد ثم ان جوهر الروح التذ بشتهيات هذا العالم الجسدانى وطيباته بواسطة الحواس الخمس وتمرن على ذلك وألف هذه الطريقة واعتادها ومن المعلوم ان نور العقل انما يحصل فى آخر الدرجة حيث قويت العلائق الحسية والحوادث الجسدانية فصار ذلك الاستغراق سببا لحصول العقائد الباطلة والاخلاق الذميمة فى جوهر الروح وهذه الاحوال تجرى مجرى الامراض الشديدة لجوهر الروح فلابد لها من طبيب حاذق فان من وقع فى المرض الشديد فان لم يتفق له طبيب حاذق يعالجه بالعلاجات الصائبة مات لامحالة وان اتفق ان صادفه مثل هذا الطبيب وكان هذا البدن قابلا للعلاجات الصائبة فربما حصلت الصحة وزال السقم اذا عرفت هذا فنقول ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان كالطبيب الحاذق وهذا القرآن عبارة عن مجموع أدويته التى بتركيبها تعالج القلوب المرضية ثم ان الطبيب اذا وصل الى المريض فله معه مراتب أربعة (الاولى) أن ينهاه عن تناول مالاينبغى ويأمره بالاحتراز عن تلك الاشياء التى بسببها وقع فى ذلك المرض وهذا هو الموعظة فانه لامعنى للوعظ الا الزجر عن كل ما يبعد عن رضوان الله تعالى والمنع عن كل مايشغل القلب بغير الله (وثانيها) الشفاء وهو أن يسقيه أدوية تزيل عن باطنه تلك الاخلاط الفاسدة الموجبة للمرض فكذلك الانبياء عليهم السلام اذا منعوا الخلق عن فعل المحظورات صارت ظواهرهم مطهرة عن فعل مالاينبغى فحينئذ يأمرونهم بطهارة الباطن وذلك بالمجاهدة فى ازالة الاخلاق الذميمة وتحصيل الاخلاق الحميدة وأوائلها ماذكره الله تعالى فى قوله ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى وذلك لانا ذكرنا ان العقائد الفاسدة والاخلاق الذميمة جارية مجرى الامراض فاذا زالت فقد حصل الشفاء للقلب وصار جوهر الروح مطهرا عن جميع النقوش المانعة عن مطالعة عالم الملكوت (والمرتبة الثالثة) حصول الهدى وهذه المرتبة لايمكن حصولها الابعد المرتبة الثانية لان جوهر الروح الناطقة قابل للجلايا القدسية والاضواء الالهية وفيض الرحمة

أى كتاب جامع لهذه الفوائد ومنافع فانه كاشف عن أحوال الاعمال حسناتها وسيآتها مرغب فى الاولى ورادع عن الاخرى ومبين للمعارف الحقة التى هى شفاء لما فى الصدور من الادواء القلبية كالجهل والشك والشرك والنفاق وغيرها من العقائد الزائغة وهاد الى طريق الحق واليقين بالارشاد الى الاستدلال بالدلائل المنصوبة فى الآفاق والانفس وفى مجيئه رحمة للمؤمنين حيث نجوا به من ظلمات الكفر والضلال الى نور الايمان ١ وتخلصوا من دركات النيران وارتقوا الى درجات الجنان والتنكير فى الكل للتفخيم

عام غير منقطع على ماقال عليه الصلاة والسلام ان لربكم فى أيام دهركم نفحات الا فتعرضوا لها وأيضا فالمنع انما يكون اما للعجز أو للجهل أو للبخل والكل فى حق الحق ممتنع فالمنع فى حقه ممتنع فعلى هذا عدم حصول هذه الاضواء الروحانية انما كان لاجل ان العقائد الفاسدة والاخلاق الذميمة طبعها طبع الظلمة وعند قيام الظلمة يمتنع حصول النور فاذا زالت تلك الاحوال فقد زال العائق فلابد وأن يقع ضوء عالم القدس فى جوهر النفس القدسية ولا معنى لذلك الضوء الا الهدى فعند هذه الحالة تصير هذه النفس بحيث قد انطبع فيها نقش الملكوت وتجلى لها قدس اللاهوت وأول هذه المرتبة هو قوله ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك وأوسطها قوله تعالى ففروا الى الله وآخرها قوله قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ومجموعها قوله ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون وسيجئ تفسير هذه الآيات فى مواضعها باذن الله تعالى وهذه المرتبة هى المراد بقوله سبحانه وهدى (وأما المرتبة الرابعة) فهى أن تصير النفس البالغة الى هذه الدرجات الروحانية والمعارج الربانية بحيث تفيض أنوارها على أرواح الناقصين فيض النور من جوهر الشمس على اجرام هذا العالم وذلك هو المراد بقوله ورحمة للمؤمنين وانما خص المؤمنين بهذا المعنى لان أرواح المعاندين لا تستضئ بأنوار أرواح الانبياء عليهم السلام لان الجسم القابل للنور عن قرص الشمس هو الذى يكون وجهه مقابلا لوجه الشمس فان لم تحصل هذه المقابلة لم يقع ضوء الشمس عليه فكذلك كل روح لم تتوجه الى خدمة أرواح الانبياء المطهرين لم تنتفع بأنوارهم ولم يصل اليها آثار تلك الارواح المطهرة المقدسة وكما أن الاجسام التى لا تكون مقابلة لقرص الشمس مختلفة الدرجات والمراتب فى البعد عن هذه المقابلة ولا تزال تتزايد درجات هذا البعد حتى ينتهى ذلك الجسم الى غاية بعده عن مقابلة قرص الشمس فلاجرم يبقى خالص الظلمة فكذلك تتفاوت مراتب النفوس فى قبول هذه الانوار عن أرواح الانبياء ولا تزال تتزايد حتى تنتهى الى النفس التى كنت ظلمتها وعظمت شقاوتها وانتهت فى العقائد الفاسدة والاخلاق الذميمة الى أقصى الغايات وأبعد النهايات فالحاصل أن الموعظة اشارة الى تطهير ظواهر الخلق عما لا ينبغى وهو الشريعة والشفاء اشارة الى تطهير الارواح عن العقائد الفاسدة والاخلاق الذميمة وهو الطريقة والهدى وهو اشارة الى ظهور نور الحق فى قلوب الصديقين وهو الحقيقة والرحمة وهى اشارة الى كونها بالغة فى الكمال والاشراق الى حيث تصير مكملة للناقصين وهى النبوة فهذه درجات عقلية ومراتب برهانية مدلول عليها بهذه الالفاظ القرآنية لا يمكن تأخير ما تقدم ذكره ولا تقديم ما تأخر ذكره ولما نبه الله تعالى فى هذه الآية على هذه الاسرار العالية الالهية قال قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون والمقصود منه الاشارة الى ماقرره حكماء الاسلام من أن السعادات الروحانية أفضل من السعادات الجسمانية وقد سبق فى مواضع كثيرة

(قل) تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأمر الناس بان يغتنموا ما فى مجئ القرآن العظيم من الفضل والرحمة (بفضل الله وبرحمته) المراد بهما اما ما فى مجئ القرآن من الفضل والرحمة واما الجنس وهما داخلان فيه دخولا أوليا والباء متعلقة بمحذوف وأصل الكلام ليفرحوا بفضل الله وبرحمته وتكرير الباء فى رحمته للايذان باستقلالها فى استيجاب الفرح ثم قدم الجار والمجرور على الفعل لافادة القصر ثم أدخل عليه الفاء لافادة معنى السببية فصار بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ثم قيل (فبذلك فليفرحوا) للتأكيد والتقرير ثم حذف الفعل الاول لدلالة الثانى عليه والفاء الاولى جزائية

من هذا الكتاب المبالغة فى تقرير هذا المعنى فلا فائدة فى الاعادة انتهى (المسئلة الثالثة) قوله قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا تقديره بفضل الله و برحمته فليفرحوا ثم يقول مرة أخرى فبذلك فليفرحوا والتكرير للتأكيد وأيضا قوله فبذلك فليفرحوا يفيد الحصر يعنى يجب أن لا يفرح الانسان الا بذلك واعلم ان هذا الكلام يدل على أمرين (أحدهما) أنه يجب أن لا يفرح الانسان بشئ من الاحوال الجسمانية و يدل عليه وجوه (الاول) ان جماعة من المحققين قالوا لا معنى لهذه اللذات الجسمانية الا دفع الآلام والمعنى العدمى لا يستحق أن يفرح به (والثانى) ان بتقدير أن تكون هذه اللذات صفات ثبوتية لكنها معنوية من وجوه (الاول) ان التضرر بآلامها أقوى من الانتفاع بلذاتها الا ترى ان أقوى اللذات الجسمانية لذة الوقاع ولا شك ان الالتذاذ بها أقل مرتبة من الاستضرار بألم القولنج وسائر الآلام القوية (والثانى) أن مداخل اللذات الجسمانية قليلة فانه لا سبيل الى تحصيل اللذة الجسمانية الا بهذين الطريقين أعنى لذة البطن والفرج وأما الآلام فان كل جزء من أجزاء بدن الانسان معه نوع آخر من الآلام ولكل نوع منها خاصية ليست للنوع الآخرة (والثالث) ان اللذات الجسمانية لا تكون خالصة البتة بل تكون ممزوجة بانواع من المكاره فلو لم يحصل فى لذة الاكل والوقاع الا اتعاب النفس فى مقدماتها وفى لواحقها لكفى (الرابع) ان اللذات الجسمانية لا تكون باقية فكلما كان الالتذاذ بها أكثر كانت الحسرات الحاصلة من خوف فواتها أكثر وأشد ولذلك قال المعرى

ان حزنا فى ساعة الموت أضعا * ف سرور فى ساعة الميلاد

فمن المعلوم ان الفرح الحاصل عند حدوث الولد لا يعادل الحزن الحاصل عند موته (الخامس) ان اللذات الجسمانية حال حصولها تكون ممتنعة البقاء لان لذة الاكل لا تبقى بحالها بل كما زال ألم الجوع زال الالتذاذ بالاكل ولا يمكن استبقاء تلك اللذة (السادس) ان اللذات الجسمانية التذاذ باشياء خسيسة فانها التذاذ بكيفيات حاصلة فى أجسام رخوة سريعة الفساد مستعدة للتغير فاما اللذات الروحانية فانها بالضد فى جميع هذه الجهات فثبت ان الفرح باللذات الجسمانية فرح باطل وأما الفرح الكامل فهو الفرح بالروحانيات والجواهر المقدسة وعالم الجلال ونور الكبرياء (والبحث الثانى) من مباحث هذه الآية أنه اذا حصلت اللذات الروحانية فانه يجب على العاقل أن لا يفرح بها من حيث هى هى بل يجب أن يفرح بها من حيث انها من الله تعالى و بفضل الله و برحمته فلهذا السبب قال الصديقون من فرح بنعمة الله من حيث انها تلك النعمة فهو مشرك أما من فرح بنعمة الله من حيث انها من الله كان فرحه بالله وذلك هو غاية الكمال ونهاية السعادة فقوله سبحانه قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا يعنى فليفرحوا بتلك النعم لا من حيث هى هى بل من حيث انها بفضل الله و برحمة الله فهذه اسرار عالية اشتملت عليها هذه الالفاظ التى ظهرت من عالم الوحى و التنزيل هذا ما تلخص عندنا فى هذا الباب

والثانية للدلالة على السببية والاصل ان فرحوا بشئ فبذلك ليفرحوا لا بشئ آخر ثم أدخل الفاء للدلالة على السببية ثم حذف الشرط ومعنى البعد فى اسم الاشارة للدلالة على بعد درجة فضل الله تعالى ورحمته و يجوز أن يراد بفضل الله و برحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا و يجوز أن يتعلق الباء بجاءتكم أى جاءتكم موعظة بفضل الله و برحمته فبذلك أى فبمجيئها فليفرحوا وقرئ فلتفرحوا وقرأ أبى فافرحوا وعن أبى بن كعب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قل بفضل الله و برحمته فقال بكتاب الله والاسلام وقيل فضله الاسلام ورحمته ما وعد عليه (هو) أى ما ذكر من فضل الله ورحمته (خير مما يجمعون) من حطام الدنيا وقرئ تجمعون أى فبذلك فليفرح المؤمنون هو خير مما يجمعون ايها المخاطبون

(قل أرأيتم) اى أخبرونى (ماأنزل الله لكم من رزق) مامنصوبة المحل بمابعدها أو بماقبلها واللام للدلالة على أن المراد بالرزق ماحل لهم وجعله منزلا لانه مقدر فى السماء محصل هو أومايتوقف عليه وجودا أو بقاء بأسباب سماوية من المطر والكواكب فى الانضاج والتلوين (فجعلتم منه) اى جعلتم بعضه (حراما) اى حكمتم بانه حرام (وحلالا) اى وجعلتم بعضه حلالا اى حكمتم بحله مع كون كله حلالا وذلك قولهم هذه ﴿ ٩ ﴾ أنعام وحرث حجر الآية وقولهم مافى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ونحو ذلك وتقديم الحرام لظهور أثر الجعل فيه ودوران التوبيخ عليه (قل) تكرير لتأكيد الامر بالاستخبار اى أخبرونى (آلله أذن لكم) فى ذلك الجعل فأنتم فيه ممتثلون بأمره تعالى (أم على الله تفترون) أم متصلة والاستفهام للتقرير والتبكيت لتحقق العلم بالشق الاخير قطعا كأنه قيل أم لم يأذن لكم بل تفترون عليه سبحانه فأظهر الاسم الجليل وقدم على الفعل دلالة على كمال قبح افترائهم وتأكيدا للتبكيت اثر تأكيد مع مراعاة الفواصل ويجوز أن يكون الاستفهام للانكار وأم منقطعة ومعنى بل فيها الاضراب والانتقال من التوبيخ والزجر بانكار الاذن الى ماتفيده همزتها من التوبيخ على الافتراء عليه سبحانه وتقريره وتقديم الجار والمجرور وعلى هذا يجوز أن يكون للقصر كأنه قيل بل أعلى الله تعالى خاصة تفترون (وماظن الذين يفترون على الله الكذب) كلام مسوق من قبله تعالى لبيان هول ماسيلقونه غير داخل تحت القول المأمور به والتعبير عنهم ﴿ ٢ ﴾ نا بالموصول فى موقع الاضمار لقطع احتمال الشق الاول من الترديد والتسجيل عليهم بالافتراء وزيادة الكذب مع أن الافتراء لايكون الا كذبا لاظهار كمال قبح مافعلوا وكونه كذبا فى اعتقادهم أيضا وكلمة مااستفهامية وقعت مبتدأ وظن خبرها ومفعولاه محذوفان وقوله عز وجل (يوم القيامة) ظرف لنفس الظن اى أى شئ ظنهم فى ذلك

أما المفسرون فقالوا فضل الله الاسلام ورحمته القرآن وقال أبو سعيد الخدرى فضل الله القرآن ورحمته ان جعلكم من أهله (المسئلة الرابعة) قرئ فلتفرحوا بالتاء قال الفراء وقد ذكر عن زيد بن ثابت أنه قرأ بالتاء وقال معناه فبذلك فلتفرحوا يا أصحاب محمد هو خير مما يجمع الكفار قال وقريب من هذه القراءة قراءة أبى فبذلك فافرحوا والاصل فى الامر للمخاطب والغائب اللام نحو لتقم يا زيد وليقم زيد وذلك لان حكم الامر فى الصورتين واحد الا ان العرب حذفوا اللام من فعل المأمور المخاطب لكثرة استعماله وحذفوا التاء أيضا وأدخلوا ألف الوصل نحو اضرب واقتل ليقع الابتداء به وكان الكسائى يعيب قولهم فليفرحوا لانه وجده قليلا فجعله عيبا الا أن ذلك هو الاصل وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى بعض المشاهد لتاخذوا مصافكم يريد به خذوا هذا كله كلام الفراء وقرئ تجمعون بالتاء ووجهه انه تعالى عنى المخاطبين والغائبين الا أنه غلب المخاطب على الغائب كما يغلب التذكير على التأنيث فكأنه أراد المؤمنين هكذا قاله أهل اللغة وفيه دقيقة عقلية وهو أن الانسان حصل فيه معنى يدعوه الى خدمة الله تعالى والى الاتصال بعالم الغيب ومعارج الروحانيات وفيه معنى آخر يدعوه الى عالم الحس والجسم واللذات الجسدانية ومادام الروح متعلقا بهذا الجسد فانه لا ينفك عن حب الجسد وعن طلب اللذات الجسمانية فكأنه تعالى خاطب الصديقين العارفين وقال حصلت الخصومة بين الحوادث العقلية الالهية وبين النوازع النفسانية الجسدانية والترجيح لجانب العقل لانه يدعو الى فضل الله ورحمته والنفس تدعو الى جمع الدنيا وشهواتها وفضل الله ورحمته خير لكم مما تجمعون من الدنيا لان الآخرة خير وأبقى وماكان كذلك فهو أولى بالطلب والتحصيل * قوله تعالى (قل أرأيتم ماأنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون وماظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لايشكرون) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن الناس ذكروا فى تعلق هذه الآية بماقبلها وجوها ولا أستحسن واحدا منها والذى يخطر بالبال والعلم عند الله تعالى وجهان (الاول) ان المقصود من هذا الكلام ذكر طريق ثالث فى اثبات النبوة وتقريره انه عليه الصلاة والسلام قال للقوم انكم تحكمون بحل بعض الاشياء وحرمة بعضها فهذا الحكم تقولونه على سبيل الافتراء على الله تعالى وتعلمون أنه حكم حكم الله به والاول طريق باطل بالاتفاق فلم يبق الا الثانى ثم من المعلوم انه تعالى ماخاطبكم به من غير واسطة ولما بطل هذا ثبت ان هذه الاحكام انما وصلت اليكم بقول رسول أرسله الله اليكم ونبى بعثه الله اليكم وحاصل الكلام ان حكمكم بحل بعض الاشياء وحرمة بعضها مع اشتراك الكل فى الصفات المحسوسة والمنافع المحسوسة يدل على اعترافكم بصحة النبوة والرسالة واذا كان الامر كذلك فكيف يمكنكم أن تبالغوا هذه المبالغات العظيمة فى انكار

اليوم يوم عرض الافعال والاقوال والمجازاة عليها مثقالا بمثقال والمراد تهويله وتفظيعه بهول ما يتعلق به مما يصنع بهم يومئذ وقيل هو ظرف لما يتعلق به ظنهم اليوم من الامور التى ستقع يوم القيامة تنزيلا له ولما فيه من الاحوال لكمال وضوح أمره فى التقرر والتحقق منزلة المسلم عندهم اى أى شئ ظنهم لما سيقع يوم القيامة أيحسبون انهم لايسئلون عن افترائهم أو لايجازون عليه أو يجازون جزاء يسيرا ولاجل ذلك يفعلون ما يفعلون كلا انهم لفى أشد العذاب لان معصيتهم أشد المعاصى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا وقرئ على لفظ الماضى اى أى ظن ظنوا يوم القيامة وايراد صيغة الماضى لانه كائن فكأنه قد كان (ان الله لذو فضل) اى عظيم لايكتنه كنهه (على الناس) اى جميعا حيث أنعم عليهم بالعقل المميز بين الحق والباطل والحسن والقبيح ورحمهم بانزال الكتب وارسال الرسل وبين لهم الاسرار التى لاتستقل العقول فى ادراكها وأرشدهم الى ما يهمهم من أمر المعاش والمعاد (ولكن أكثرهم لايشكرون) تلك النعمة الجليلة فلا يصرفون قواهم ومشاعرهم الى ما خلقت له ولا يتبعون دليل العقل فيما يستبد به ولا دليل الشرع فيما لايدرك الا به وقد تفضل عليهم ببيان ما سيلقونه يوم القيامة فلا يلتفتون اليه فيقعون فيما يقعون فهو تذييل سبق مقرر لمضمونه (وما تكون فى شأن) اى فى أمر من شأنت شأنه اى قصدت قصده مصدر بمعنى المفعول (وما تتلو منه) الضمير للشأن والظرف صفة لمصدر محذوف اى تلاوة كائنة من الشأن اذ هى معظم شؤونه عليه السلام أو للتنزيل والاضمار قبل الذكر لتفخيم شأنه ومن ابتدائية ﴿ وهو ﴾ أو تبعيضية أو لله عزوجل ومن ابتدائية والتى فى قوله تعالى (من قرآن) مزيدة لتأكيد النفى او ابتدائية على الوجه الاول وبيانية او تبعيضية على الثانى والثالث (ولا تعملون من عمل) تعميم للخطاب اثر تخصيصه بمقتدى الكل وقد روعى فى كل من المقامين ما يليق به حيث ذكر أولا من الاعمال ما فيه فخامة وجلالة وثانيا ما يتناول الجليل

النبوة والرسالة وحمل الآية على هذا الوجه الذى ذكرته طريق حسن معقول (الطريق الثانى) فى حسن تعلق هذه الآية بما قبلها هو أنه عليه الصلاة والسلام لما ذكر الدلائل الكثيرة على صحة نبوة نفسه وبين فساد سؤالاتهم وشبهاتهم فى انكارها أتبع ذلك ببيان فساد طريقتهم فى شرائعهم وأحكامهم وبين ان التمييز بين هذه الاشياء بالحل والحرمة مع أنه لم يشهد بذلك لاعقل ولانقل طريق باطل ومنهج فاسد والمقصود ابطال مذاهب القوم فى أديانهم وفى أحكامهم وأنهم ليسوا على شئ فى باب من الابواب (المسئلة الثانية) المراد بالشئ الذى جعلوه حراما ما ذكروه من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وأيضا قوله تعالى وقالوا هذه أنعام وحرث حجر الى قوله وقالوا ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وأيضا قوله تعالى ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين والدليل عليه أن قوله فجعلتم منه حراما اشارة الى أمر تقدم منهم ولم يحك الله تعالى عنهم الا هذا فوجب توجه هذا الكلام اليه ثم لما حكى تعالى عنهم ذلك قال لرسوله عليه الصلاة والسلام قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون وهذه القسمة صحيحة لان هذه الاحكام اما أن تكون من الله تعالى أو لم تكن من الله فان كانت من الله تعالى فهو المراد بقوله آلله أذن لكم وان كانت ليست من الله فهو المراد بقوله أم على الله تفترون ثم قال تعالى وما ظن الذين يفترون على الله الكذب وهذا وان كان فى صورة الاستعلام فالمراد منه تعظيم وعيد من يفترى على الله وقرأ عيسى بن عمر وما ظن على لفظ الفعل ومعناه أى ظن ظنوه يوم القيامة وجىء به على لفظ الماضى لما ذكرنا ان أحوال القيامة وان كانت آتية الا أنها لما كانت واجبة الوقوع فى الحكمة لاجرم عبر الله عنها بصيغة الماضى ثم قال ان الله لذو فضل على الناس أى باعطاء العقل وارسال الرسل وانزال الكتب ولكن أكثرهم لايشكرون فلا يستعملون العقل فى التأمل فى دلائل الله تعالى ولا يقبلون دعوة أنبياء الله ولا ينتفعون باستماع كتب الله (المسئلة الثالثة) ما فى قوله تعالى قل أرأيتم ما أنزل الله فيه وجهان (أحدهما) بمعنى الذى فينتصب برأيتم والآخر أن يكون بمعنى أى فى الاستفهام فينتصب بأنزل وهو قول الزجاج ومعنى أنزل ههنا خلق وأنشأ كقوله وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج وجاز أن يعبر عن الخلق بالانزال لان كل ما فى الارض من رزق فما أنزل من السماء من ضرع وزرع وغيرهما فلما كان ايجاده بالانزال سمى انزالا ❊ قوله تعالى (وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنه لما أطال الكلام فى أمر الرسول بايراد الدلائل على فساد مذاهب الكفار وفى أمره بايراد الجواب عن شبهاتهم وفى أمره بتحمل أذاهم وبالرفق معهم ذكر هذا الكلام ليحصل به تمام السلوة والسرور للمطيعين وتمام الخوف والفزع للمذنبين

والحقير (الا كنا عليكم شهودا) استثناء مفرغ من أعم أحوال المخاطبين بالافعال الثلاثة اى ما تلابسون بشئ منها فى حال من الاحوال الا حال كوننا رقباء مطلعين عليه حافظين له (اذ تفيضون فيه) اى تخوضون وتندفعون فيه وأصل الافاضة الاندفاع بكثرة أو بقوة وحيث اريد بالافعال السابقة الحالة المستمرة الدائمة المقارنة للزمان الماضى أيضا أوثر فى الاستثناء صيغة الماضى وفى الظرف كلمة اذ التى تفيد المضارع معنى الماضى (وما يعزب عن ربك) اى لا يبعد ولا يغيب عن علمه الشامل وفى التعرض لعنوان الربوبية من الاشعار باللطف ما لا يخفى وقرئ بكسر الزاى (من مثقال ذرة) كلمة من مزيدة لتأكيد النفى اى ما يعزب عنه ما يساوى فى الثقل نملة صغيرة أو هباء (فى الارض ولا فى السماء) اى فى دائرة الوجود والامكان فان العامة لا تعرف سواهما ممكنا ليس فى أحدهما أو متعلقا بهما وتقديم الارض لان الكلام فى حال أهلها والمقصود اقامة البرهان على احاطة علمه تعالى بتفاصيلها وقوله تعالى (ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين) كلام برأسه مقرر لما قبله ولا نافية للجنس وأصغر اسمها وفى كتاب خبرها وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر ومن عطف على لفظ مثقال ذرة وجعل الفتح بدل الكسر لامتناع الصرف أو على محله مع الجار جعل الاستثناء منقطعا كأنه قيل لا يعزب عن ربك شئ ما لكن جميع الاشياء فى كتاب مبين فكيف يعزب عنه شئ منها وقيل يجوز أن يكون الاستثناء متصلا و يعزب بمعنى يبين و يصدر والمعنى لا يصدر عنه تعالى شئ الا وهو فى كتاب مبين والمراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ (ألا ان أولياء الله) بيان على وجه التبشير والوعد لما هو نتيجة لاعمال المؤمنين وغاية لما ذكر قبله من كونه تعالى مهيمنا على نبيه عليه السلام وأمته فى كل ما يأتون وما يذرون واحاطة علمه سبحانه بجميع ما فى السماء والارض و كون الكل مثبتا فى الكتاب المبين بعدما أشير الى فظاعة حال المفترين على الله تعالى يوم القيامة وما سيعتريهم من الهول اشارة اجمالية على طريق

وهو كونه سبحانه عالما بعمل كل واحد و بما فى قلبه من الدواعى والصوارف فان الانسان ربما أظهر من نفسه نسكا وطاعة وزهدا وتقوى و يكون باطنه مملوأ من الخبثور بما كان بالعكس من ذلك فاذا كان الحق سبحانه عالما بما فى البواطن كان ذلك من أعظم أنواع السرور للمطيعين ومن أعظم أنواع التهديد للمذنبين (المسئلة الثانية) اعلم أنه تعالى خصص الرسول فى أول هذه الآية بالخطاب فى أمرين ثم أتبع ذلك بتعميم الخطاب مع كل المكلفين فى شئ واحد أما الامران المخصوصان بالرسول عليه الصلاة والسلام (فالاول) منهما قوله وما تكون فى شأن واعلم ان ما ههنا جحدوا لشأن الخطب والجمع الشؤن تقول العرب ما شأن فلان أى ما حاله قال الاخفش وتقول ما شأنت شأنه اى ما عملت عمله وفيه وجهان قال ابن عباس وما تكون يا محمد فى شأن يريد من أعمال البر وقال الحسن فى شأن من شأن الدنيا وحوائجك فيها (والثانى) منهما قوله تعالى وما تتلو منه من قرآن واختلفوا فى أن الضمير فى قوله منه الى ماذا يعود وذكروا فيه ثلاثة أوجه (الاول) أنه راجع الى الشأن لان تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو معظم شأنه وعلى هذا التقدير فكان هذا داخلا تحت قوله وما تكون فى شأن الا أنه خصه بالذكر تنبيها على علو مرتبته كما فى قوله تعالى وملائكته وجبريل وميكال وكما فى قوله واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم (الثانى) ان هذا الضمير عائد الى القرآن والتقدير وما تتلو من القرآن من قرآن وذلك لانه كما أن القرآن اسم للمجموع فكذلك هو اسم لكل جزء من أجزاء القرآن والاضمار قبل الذكر يدل على التعظيم (الثالث) أن يكون التقدير وما تتلو من قرآن من الله اى نازل من عند الله وأقول قوله وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن أمران مخصوصان بالرسول صلى الله عليه وسلم وأما قوله ولا تعملون من عمل فهذا خطاب مع النبى ومع جميع الامة والسبب فى أن خص الرسول بالخطاب أولا ثم عمم الخطاب مع الكل هو ان قوله وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن وان كان بحسب الظاهر خطابا مختصا بالرسول الا ان الامة داخلون فيه ومرادون منه لانه من المعلوم أنه اذا خوطب رئيس القوم كان القوم داخلين فى ذلك الخطاب والدليل عليه قوله تعالى يا أيها النبى اذا طلقتم النساء ثم انه تعالى بعد أن خص الرسول بذينك الخطابين عمم الكل بالخطاب الثالث فقال ولا تعملون من عمل فدل ذلك على كونهم داخلين فى الخطابين الاولين ثم قال تعالى الا كنا عليكم شهودا وذلك لان الله تعالى شاهد على كل شئ وعالم بكل شئ أما على أصول أهل السنة والجماعة فالامر فيه ظاهر لانه لا محدث ولا خالق ولا موجد الا الله تعالى فكل ما يدخل فى الوجود من أفعال العباد وأعمالهم الظاهرة والباطنة فكلها حصلت بايجاد الله تعالى واحداثه والموجد للشئ لا بد وأن يكون عالما به فوجب كونه تعالى عالما بكل المعلومات وأما على أصول المعتزلة فقد قالوا انه تعالى حى وكل من كان حيا فانه يصح أن يعلم كل واحد من المعلومات

التهديد والوعيد وصدرت الجملة بحرفي التنبيه والتحقيق لزيادة تقرير مضمونها والولي لغة القريب والمراد بأولياء الله خلص المؤمنين لقربهم الروحاني منه سبحانه وتعالى كما سيفصح عنه تفسيرهم (لا خوف عليهم) في الدارين من لحوق مكروه (ولا هم يحزنون) من فوات مطلوب اى لا يعتريهم ما يوجب ذلك لا انه يعتريهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون ولا انه لا يعتريهم خوف وحزن أصلا بل يستمرون على النشاط والسرور كيف لا واستشعار ﴿ ١٢ ﴾ الخوف والخشية استعظاما لجلال الله سبحانه وهيبته واستقصارا للجد والسعي في اقامة حقوق العبودية من خصائص الخواص والمقربين والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر في الجملة الثانية مضارعا لما مر مرارا من أن النفي وان دخل على نفس المضارع يفيد الاستمرار والدوام بحسب المقام وانما لا يعتريهم ذلك لان مقصدهم ليس الا طاعة الله تعالى ونيل رضوانه المستتبع للكرامة والزلفى وذلك مما لا ريب في حصوله ولا احتمال لفواته بموجب الوعد بالنسبة اليه تعالى وأما ما عدا ذلك من الامور الدنيوية المترددة بين الحصول والفوات فهي بمعزل من الانتظام في سلك مقصدهم وجودا وعدما حتى يخافوا من حصول ضارها أو يحزنوا بفوات نافعها وقوله عز وجل (الذين آمنوا) اى بكل ما جاء من عند الله تعالى (وكانوا يتقون) اى يقون أنفسهم عما يحق وقايتها عنه من الافعال والتروك وقاية دائمة حسبما يفيده الجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل بيان وتفسير لهم واشارة الى ما به نالوا ما نالوا على طريقة الاستئناف المبني على السؤال ومحل الموصول الرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف ﴿الكشاف﴾ كأنه قيل من أولئك وما سبب فوزهم بتلك الكرامة فقيل هم الذين جمعوا بين الايمان والتقوى المفضيين الى كل خير المنجيين عن كل شر وقيل محله النصب أو الرفع على المدح أو على انه وصف مادح للاولياء ولا يقدح في ذلك توسط الخبر والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منها الجامعة

والموجب لتلك العالمية هو ذاته سبحانه فنسبة ذاته الى اقتضاء حصول العالمية ببعض المعلومات كنسبة ذاته الى اقتضاء حصول العالمية بسائر المعلومات فلما اقتضت ذاته حصول العالمية ببعض المعلومات وجب أن تقتضي حصول العالمية بجميع المعلومات فثبت كونه تعالى عالما بجميع المعلومات أما قوله تعالى اذ تفيضون فيه فاعلم ان الافاضة ههنا الدخول في العمل على جهة الانصباب اليه وهو الانبساط في العمل يقال أفاض القوم في الحديث اذا اندفعوا فيه وقد أفاضوا من عرفة اذا دفعوا منه بكثرتهم فتفرقوا فان قيل اذ ههنا بمعنى حين فيصير تقدير الكلام الا كنا عليكم شهودا حين تفيضون فيه وشهادة الله تعالى عبارة عن علمه فيلزم منه أن يقال انه تعالى ما علم الاشياء الا عند وجودها وذلك باطل قلنا هذا السؤال بناء على أن شهادة الله تعالى عبارة عن علمه وهذا ممنوع فان الشهادة لا تكون الا عند وجود المشهود عليه وأما العلم فلا يمتنع تقدمه على الشيء والدليل عليه ان الرسول عليه السلام لو أخبرنا عن زيد أنه يأكل غدا كنا من قبل حصول تلك الحالة عالمين بها ولا نوصف بكوننا شاهدين لها واعلم ان حاصل هذه الكلمات أنه لا يخرج عن علم الله شيء ثم انه تعالى أكد هذا الكلام زيادة تأكيد فقال وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) أصل العزوب من البعد يقال كلأ عازب اذا كان بعيد المطلب وعزب الرجل بابله اذا أرسلها الى موضع بعيد من المنزل والرجل سمي عزبا لبعده عن الاهل وعزب الشيء عن علمي اذا بعد (المسئلة الثانية) قرأ الكسائي وما يعزب بكسر الزاي والباقون بالضم وفيه لغتان عزب يعزب وعزب يعزب (المسئلة الثالثة) قوله من مثقال ذرة اى وزن ذرة ومثقال الشيء ما يساويه في الثقل والمعنى ما يساوي ذرة والذر صغار النمل واحدها ذرة وهي تكون خفيفة الوزن جدا وقوله في الارض ولا في السماء فالمعنى ظاهر فان قيل لم قدم الله ذكر الارض ههنا على ذكر السماء مع انه تعالى قال في سورة سبأ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض قلنا حق السماء أن تقدم على الارض الا انه تعالى لما ذكر في هذه الآية شهادته على أحوال أهل الارض وأعمالهم ثم وصل بذلك قوله لا يعزب عنه ناسب أن تقدم الارض على السماء في هذا الموضع ثم قال ولا أصغر من ذلك ولا أكبر وفيه قراءتان قرأ حمزة ولا أصغر ولا أكبر بالرفع فيهما والباقون بالنصب واعلم ان قوله وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة تقديره وما يعزب عن ربك مثقال ذرة فلفظ مثقال عند دخول كلمة من عليه مجرور بحسب الظاهر ولكنه مرفوع في المعنى فالمعطوف عليه ان عطف على الظاهر كان مجرورا الا ان لفظ أصغر وأكبر غير منصرف فكان مفتوحا وان عطف على المحل وجب كونه مرفوعا ونظيره قوله ما أتاني من أحد عاقل وعاقل وكذا قوله ما لكم من اله غيره وغيره وقال الشاعر ٭ فلسنا بالجبال ولا الحديدا ٭ هذا ما ذكره النحويون قال صاحب

لما تحتها من مرتبة التوقى عن الشرك التى يفيدها الايمان أيضا ومرتبة التجنب عن كل مايؤثم من فعل وترك اعنى تنزه الانسان عن كل مايشغل سره عن الحق والتبتل اليه بالكلية وهى التقوى الحقيقى المأمور به فى قوله تعالى ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته و به يحصل الشهود والحضور والقرب الذى عليه يدور اطلاق الاسم عليه وهكذا كان حال كل من دخل معه عليه السلام تحت الخطاب بقوله عزوجل ﴿ ١٣ ﴾ ولاتعملون من عمل خلا أن لهم فى شأن التبتل والتنزه درجات متفاوتة حسب تفاوت درجات استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة المبنية على الحكم الالهية اقصاها ماانتهى اليه همم الانبياء عليهم السلام حتى جمعوا بذلك بين رياستى النبوة والولاية ولم يعقهم التعلق بعالم الاشباح عن الاستغراق فى عالم الارواح ولم تصدهم الملابسة بمصالح الخلق عن التبتل الى جناب الحق لكمال استعداد نفوسهم الزكية المؤيدة بالقوة القدسية فلاك أمر الولاية هو التقوى المذكور فاولياء الله هم المؤمنون المتقون و يقرب منه ماقيل من انهم الذين تولى الله هدايتهم بالبرهان وتولوا القيام بحق عبودية الله تعالى والدعوة اليه ولايخالفه ماقيل من انهم الذين يذكر الله برؤيتهم لماروى عن سعيد بن جبير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل من أولياء الله فقال هم الذين يذكر الله برؤيتهم اى بسمتهم واخباتهم وسكينتهم ولاماقيل من انهم المتحابون فى الله لماروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول ان من عباد الله عبادا ليسوا بانبياء ولاشهداء يغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله قالوا يارسول الله خبرنا من هم وماأعمالهم فلعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام منهم ولاأموال يتعاطونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى منابر من نور لايخافون اذاخاف الناس ولايحزنون اذاحزن الناس فانماذكر من حسن السمت والسكينة المذكرة لله تعالى والتحاب فى الله سبحانه من الاحكام الدنيوية اللازمة للايمان

الكشاف لوصح هذا العطف لصار تقدير هذه الآية ومايعزب عنه شئ فى الارض ولافى السماء الافى كتاب وحينئذ يلزم أن يكون الشئ الذى فى الكتاب خارجا عن علم الله تعالى وانه باطل وأجاب بعض المحققين عنه بوجهين (الاول) أنا بينا ان العزوب عبارة عن مطلق البعد واذاثبت هذا فنقول الاشياء المخلوقة على قسمين قسم أوجده الله تعالى ابتداء من غير واسطة كالملائكة والسموات والارض وقسم آخر اوجده الله بواسطة القسم الاول مثل الحوادث الحادثة فى عالم الكون والفساد ولاشك ان هذا القسم الثانى قد يتباعد فى سلسلة العلية والمعلولية عن مرتبة وجود واجب الوجود فقوله ومايعزب عنه مثقال ذرة فى الارض ولافى السماء ولاأصغر من ذلك ولااكبر الافى كتاب مبين اى لايبعد عن مرتبة وجوده مثقال ذرة فى الارض ولافى السماء الاوهو فى كتاب مبين وهو كتاب كتبه الله تعالى وأثبت صور تلك المعلومات فيه ومتى كان الامر كذلك فقد كان عالما بها محيطا بأحوالها والغرض منه الرد على من يقول انه تعالى غير عالم بالجزئيات وهو المراد من قوله انا كنا نستنسخ ماكنتم تعملون (والوجه الثانى) فى الجواب أن نجعل كلمة الافى قوله الافى كتاب مبين استثناء منقطعا بمعنى لكن هو فى كتاب مبين وذكر أبو على الجرجانى صاحب النظم عنه جوابا آخر فقال قوله ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولافى السماء ولاأصغر من ذلك ولاأكبر ههنا تم الكلام وانقطع ثم وقع الابتداء بكلام آخر وهو قوله الافى كتاب مبين اى وهو أيضا فى كتاب مبين قال والعرب تضع الاموضع واو النسق كثيرا على معنى الابتداء كقوله تعالى انى لايخاف لدى المرسلون الامن ظلم يعنى ومن ظلم وقوله لئلا يكون للناس عليكم حجة الاالذين ظلموا يعنى والذين ظلموا وهذا الوجه فى غاية التعسف وأجاب صاحب الكشاف بوجه رابع فقال الاشكال انما جاء اذا عطفنا قوله ولاأصغر من ذلك ولاأكبر على قوله من مثقال ذره فى الارض ولافى السماء اما بحسب الظاهر أو بحسب المحل لكنا لانقول ذلك بل نقول الوجه فى القراءة بالنصب فى قوله ولاأصغر من ذلك الحمل على نفى الجنس وفى القراءة بالرفع الحمل على الابتداء وخبره قوله فى كتاب مبين وهذا الوجه اختيار الزجاج * قوله تعالى (ألاان أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) اعلم انا بينا ان قوله تعالى وماتكون فى شأن وماتتلو منه من قرآن مماتقوى قلوب المطيعين ومماتكسر قلوب الفاسقين فأتبعه الله تعالى بشرح أحوال المخلصين الصادقين الصديقين وهو المذكور فى هذه الآية وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انا نحتاج فى تفسير هذه الآية الى أن نبين أن الولى من هو ثم نبين تفسير نفى الخوف والحزن عنه فنقول أما ان الولى من هو فيدل عليه القرآن والخبر والاثر والمعقول أما القرآن فهو قوله فى هذه الآية الذين آمنوا وكانوا يتقون فقوله آمنوا اشارة الى كمال حال القوة النظرية وقوله وكانوا يتقون

والتقوى والآثار الخاصة بهما الحقيقة بالتخصيص بالذكر لظهورها وقربها من أفهام الناس قد أورد رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا من ذلك حسبما يقتضيه مقام الارشاد والتذكير ترغيبا للسائلين أو غيرهم من الحاضرين فيما خصه بالذكر هناك من احكامهما فلعل الحاضرين أولا كانوا محتاجين الى اصلاح الحال من جهة الاقوال والافعال والملابس ونحو ذلك والحاضرين ثانيا مفتقرين الى تأليف قلوبهم ﴿ ١٤ ﴾ وعطفها نحو المؤمنين الذين لاعلاقة بينهم و بينهم من جهة النسب والقرابة وتأكيد ما بينهم من الاخوة الدينية ببيان عظم شانها ورفعة مكانتها وحسن عاقبتها ليراعوا حقوقها ويهجروا من لايوافقهم فى الدين من أرحامهم وأما ماذكر من انه يغبطهم الانبياء فتصوير لحسن حالهم على طريقة التمثيل قال الكواشى وهذا مبالغة والمعنى لو فرض قوم بهذه الصفة لكانوا هؤلاء وقيل أولياء الله الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة وبجعل قوله عز وجل الذين آمنوا وكانوا يتقون تفسيرا لتوليهم اياه تعالى وقوله عز وجل (لهم البشرى فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة) تفسير لتوليه تعالى اياهم ولاريب فى أن اعتبار القيد الاخير فى مفهوم الولاية غير مناسب لمقام ترغيب المؤمنين فى تحصيلها والثبات عليها و بشارتهم بآثارها ونتائجها بل مخل بذلك اذ التحصيل انما يتعلق بالمقدور والاستبشار لايحصل الابعلم وجود سببه والقيد المذكور ليس بمقدور لهم حتى يحصلوا الولاية بتحصيله ولابمعلوم لهم عند حصوله حتى يعرفوا حصول الولاية لهم و يستبشروا بمحاسن آثارها بل التولى ﴿ وحزن ﴾ بالكرامة عين نتيجة الولاية فاعتباره فى عنوان الموضوع ثم الاخبار بعدم الخوف والحزن مما لايليق بشأن التنزيل الجليل فالذى يقتضيه نظمه الكريم أن الاول تفسير للاولياء حسبما شرح والثانى بيان لما أولاهم من خيرات الدارين بعد بيان إنجائهم من شرورهما ومكارههما والجملة مستأنفة كما سبق كأنه قيل هل لهم وراء ذلك من نعمة وكرامة فقيل

اشارة الى كمال حال القوة العملية وفيه مقام آخر وهو أن يحمل الايمان على مجموع الاعتقاد والعمل ثم نصف الولى بانه كان متقيا فى الكل أما التقوى فى موقف العلم فلأن جلال الله أعلى من أن يحيط به عقل البشر فالصديق اذا وصف الله سبحانه بصفة من صفات الجلال فهو يقدس الله عن أن يكون كماله وجلاله مقتصرا على ذلك المقدار الذى عرفه ووصفه به واذا عبد الله تعالى فهو يقدس الله تعالى عن أن تكون الخدمة اللائقة بكبريائه متقدرة بذلك المقدار فثبت انه ابدا يكون فى مقام الخوف والتقوى وأما الاخبار فكثيرة روى عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى منابر من نور لايخافون اذا خاف الناس ولايحزنون اذا حزن الناس ثم قرأ هذه الآية وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال هم الذين يذكر الله تعالى برؤيتهم قال أهل التحقيق السبب فيه أن مشاهدتهم تذكر أمر الآخرة لما يشاهد فيهم من آيات الخشوع والخضوع ولماذكر الله تعالى سبحانه فى قوله سيماهم فى وجوههم من أثر السجود واما الاثر فقال أبو بكر الاصم أولياء الله هم الذين تولى الله تعالى هدايتهم بالبرهان وتولوا القيام بحق عبودية الله تعالى والدعوة اليه وأما المعقول فنقول ظهر فى علم الاشتقاق أن تركيب الواو واللام والياء يدل على معنى القرب فولى كل شئ هو الذى يكون قريبا منه والقرب من الله تعالى بالمكان والجهة محال فالقرب منه انما يكون اذا كان القلب مستغرقا فى نور معرفة الله تعالى سبحانه فان راى رأى دلائل قدرة الله وان سمع سمع آيات الله وان نطق نطق بالثناء على الله وان تحرك تحرك فى خدمة الله وان اجتهد اجتهد فى طاعة الله فهنالك يكون فى غاية القرب من الله فهذا الشخص يكون وليا لله تعالى واذا كان كذلك كان الله تعالى وليا له ايضا كما قال الله تعالى الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ويجب ان يكون الامر كذلك لان القرب لايحصل الامن الجانبين وقال المتكلمون ولى الله من يكون آتيا بالاعتقاد الصحيح المبنى على الدليل و يكون آتيا بالاعمال الصالحة على وفق ماوردت به الشريعة فهذا كلام مختصر فى تفسير الولى وأما قوله تعالى فى صفتهم لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ففيه بحثان (البحث الاول) أن الخوف انما يكون فى المستقبل بمعنى أنه يخاف حدوث شئ فى المستقبل من المخوف والحزن انما يكون على الماضى اما لاجل أنه كان قد حصل فى الماضى ماكرهه أو لانه فات شئ أحبه (البحث الثانى) قال بعض المحققين ان نفى الحزن والخوف اما أن يحصل للاولياء حال كونهم فى الدنيا أو حال انتقالهم الى الآخرة والاول باطل لوجوه (أحدها) أن هذا لايحصل فى دار الدنيا لانها دار خوف وحزن والمؤمن خصوصا لايخلو من ذلك على ماقاله الرسول عليه الصلاة والسلام الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وعلى ماقال حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات (وثانيها) ان المؤمن وان صفا عيشه فى الدنيا فانه لايخلو من هم بأمر الآخرة شديد

لهم مايسرهم فى الدارين وتقديم الاول لما أن التخلية سابقة على التحلية مع مافيه من مراعاة حق المقابلة بين حسن حال المؤمنين وسوء حال المفترين وتعجيل ادخال المسرة بتبشير الخلاص عن الاهوال وتوسيط البيان السابق بين بشارة الخلاص عن المحذور و بشارة الفوز بالمطلوب لاظهار كمال العناية بتفسير الاولياء مع الايذان بأن انتفاء الخوف والحزن لاتقائهم عما يؤدى اليهما من الاسباب والبشرى ﴿ ١٥ ﴾ مصدر أريد به المبشر به من الخيرات العاجلة كالنصر والفتح والغنيمة وغير ذلك والآجلة الغنية عن البيان وايثار الابهام والاجمال للايذان بكونه وراء البيان والتفصيل والظرفان فى موقع الحال منه والعامل ما فى الخبر من معنى الاستقرار اى لهم البشرى حال كونها فى الحياة الدنيا وحال كونها فى الآخرة اى عاجلة وآجلة أو من الضمير المجرور اى حال كونهم فى الحياة الخ ومن البشرى العاجلة الثناء الحسن والذكر الجميل ومحبة الناس * عن أبي ذر رضى الله عنه قلت يارسول الله الرجل يعمل العمل لله و يحبه الناس فقال عليه السلام تلك عاجل بشرى المؤمن هذا وقيل البشرى مصدر والظرفان متعلقان به * أما البشرى فى الدنيا فهى البشارات الواقعة للمؤمنين المتقين فى غير موضع من الكتاب المبين وعن النبى صلى الله عليه وسلم هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له وعنه عليه الصلاة والسلام ذهبت النبوة و بقيت المبشرات وعن عطاء لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة قال الله تعالى تتنزل عليهم الملائكة أن لاتخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة * وأما البشرى فى الآخرة فتلقى الملائكة اياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة ومايرون من بياض وجوههم واعطاء الصحائف بايمانهم ومايقرؤن منها وغير ذلك من البشارات فتكون هذه بشارة بماسيقع من البشارات العاجلة والآجلة المطلوبة لغاياتها لا لذواتها ولايخفى أن صرف البشارة الناجزة عن المقاصد بالذات الى وسائلها مما لايساعده جلالة شأن التنزيل الكريم

وحزن على مايفوته من القيام بطاعة الله تعالى واذا بطل هذا القسم وجب حمل قوله تعالى لاخوف عليهم ولاهم يحزنون على أمر الآخرة فهذا كلام محقق وقال بعض العارفين ان الولاية عبارة عن القرب فولى الله تعالى هو الذى يكون فى غاية القرب من الله تعالى وهذا التقرير قد فسرناه باستغراقه فى معرفة الله تعالى بحيث لايخطر بباله فى تلك اللحظة شئ مما سوى الله ففى هذه الساعة تحصل الولاية التامة ومتى كانت هذه الحالة حاصلة فان صاحبها لايخاف شيئا ولايحزن بسبب شئ وكيف يعقل ذلك والخوف من الشئ والحزن على الشئ لايحصل الابعد الشعور به والمستغرق فى نور جلال الله غافل عن كل ماسوى الله تعالى فيمتنع أن يكون له خوف أو حزن وهذه درجة عالية ومن لم يذقها لم يعرفها ثم ان صاحب هذه الحالة قد تزول عنه هذه الحالة وحينئذ يحصل له الخوف والحزن والرجاء والرغبة والرهبة بسبب الاحوال الجسمانية كما يحصل لغيره وسمعت أن ابراهيم الخواص كان بالبادية ومعه واحد يصحبه فاتفق فى بعض الليالى ظهور حالة قوية وكشف تام له فجلس فى موضعه وجاءت السباع ووقفوا بالقرب منه والمريد تسلق على رأس شجرة خوفا منها والشيخ ماكان فازعا من تلك السباع فلما أصبح وزالت تلك الحالة ففى الليلة الثانية وقعت بعوضة على يده فأظهر الجزع من تلك البعوضة فقال المريد كيف تليق هذه الحالة بما قبلها فقال الشيخ انا انما تحملنا البارحة ما تحملناه بسبب قوة الوارد الغيبى فلما غاب ذلك الوارد فأنا أضعف خلق الله تعالى (المسئلة الثانية) قال أكثر المحققين ان أهل الثواب لايحصل لهم خوف فى محفل القيامة واحتجوا على صحة قولهم بقوله تعالى ألا ان أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون و بقوله تعالى لايحزنهم الفزع الاكبر وتتلقاهم الملائكة وأيضا فالقيامة دار الجزاء فلا يليق به ايصال الخوف ومنهم من قال بل يحصل فيه أنواع من الخوف وذكروا فيه أخبارا تدل عليه الا أن ظاهر القرآن أولى من خبر الواحد وأما قوله الذين آمنوا وكانوا يتقون ففيه ثلاثة أوجه (الاول) النصب بكونه صفة للاولياء (والثانى) النصب على المدح (والثالث) الرفع على الابتداء وخبره لهم البشرى وأما قوله تعالى لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ففيه أقوال (الاول) المراد منه الرؤيا الصالحة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال البشرى هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له وعنه عليه الصلاة والسلام ذهبت النبوة و بقيت المبشرات وعنه عليه الصلاة والسلام الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فاذا حلم أحدكم حلما يخافه فليتعوذ منه وليبصق عن شماله ثلاث مرات فانه لايضره وعنه صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة وعن ابن مسعود الرؤيا ثلاثة الهم يهم به الرجل من النهار فيراه فى الليل وحضور الشيطان والرؤيا التى هى الرؤيا الصادقة وعن ابرهيم الرؤيا ثلاثة فالمبشرة من الله جزء من سبعين جزأ من النبوة والشئ يهم به أحدكم بالنهار فلعله يراه بالليل والتخويف من الشيطان فاذا رأى أحدكم مايحزنه

(لاتبديل لكلمات الله) لاتغير لاقواله التى من جملتها مواعيدة الواردة بشارة للمؤمنين المتقين فيدخل فيها البشارات الواردة ههنا دخولا أوليا و يثبت امتناع الاخلاف فيها ثبوتا قطعيا وعلى تقدير كون المراد بالبشرى الرؤيا الصالحة فالمراد بعدم تبديل كلماته تعالى ليس عدم الخلف بينها و بين نتائجها الدنيوية والاخروية بل عدم الخلف بينها و بين مادل على ثبوتها ووقوعها فيما سيأتى بطريق الوعد من قوله تعالى لهم البشرى فتدبر (ذلك) اشارة الى ما ذكر من ان لهم البشرى فى الدارين (هو الفوز العظيم) الذى لافوز وراءه وفيه تفسير لما أبهم فيما سبق وهاتيك الجملة والتى قبلها اعتراض لتحقيق المبشر به وتعظيم شانه وليس من شرطه أن يكون بعده كلام متصل بما قبله أو هذه تذييل والسابقة اعتراض (ولا يحزنك قولهم) تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما كان يلقاه من جهتهم من الاذية الناشئة عن مقالاتهم الموحشة وتبشير له عليه الصلاة والسلام بأنه عز وجل ينصره ويعزه عليهم اثر بيان أن له ولاتباعه أمنا من كل محذور وفوزا بكل مطلوب وقرئ ولا يحزنك من أحزنه وهو فى الحقيقة نهى له عليه السلام عن الحزن كأنه قيل لاتحزن بقولهم ولا تبال بتكذيبهم وتشاورهم فى تدبير هلاكك وابطال أمرك وسائر ما يتفوهون به فى شانك مما لاخير فيه وانما وجه النهى الى قولهم للمبالغة فى نهيه عليه السلام عن الحزن لما أن النهى عن التأثير نهى عن التأثر باصله ونفى له بالمرة وقد يوجه النهى الى اللازم والمراد هو النهى عن الملزوم كما فى قولك لاأرينك ههنا وتخصيص النهى عن الحزن بالايراد مع شمول النفى السابق ﴿ والكرامة ﴾ للحزن أيضا لما انه لم يكن فيه عليه السلام شائبة خوف حتى ينهى عنه وربما كان يعتريه عليه السلام فى بعض الاوقات نوع حزن فسلى عن ذلك وقوله تعالى (ان العزة) تعليل للنهى على طريقة الاستئناف اى الغلبة والقهر (لله جميعا) اى فى ملكته وسلطانه لايملك أحد شيئا منها أصلا لاهم ولاغيرهم فهو يقهرهم ويعصمك منهم و ينصرك عليهم

فليقل أعوذ بما عاذت به ملائكة الله من شر رؤياى التى رأيتها أن تضرنى فى دنياى أو فى آخرتى واعلم أنا اذا حملنا قوله لهم البشرى على الرؤيا الصادقة فظاهر هذا النص يقتضى أن لاتحصل هذه الحالة الا لهم والعقل أيضا يدل عليه وذلك لان ولى الله هو الذى يكون مستغرق القلب والروح بذكر الله ومن كان كذلك فهو عند النوم لايبقى فى روحه الا معرفة الله ومن المعلوم أن معرفة الله ونور جلال الله لايفيده الا الحق والصدق وأما من يكون متوزع الفكر على أحوال هذا العالم الكدر المظلم فانه اذا نام يبقى كذلك فلاجرم لااعتماد على رؤياه فلهذا السبب قال لهم البشرى فى الحياة الدنيا على سبيل الحصر والتخصيص (القول الثانى) فى تفسير البشرى أنها عبارة عن محبة الناس له وعن ذكرهم اياه بالثناء الحسن عن أبى ذر قال قلت يارسول الله ان الرجل يعمل العمل لله و يحبه الناس فقال تلك عاجل بشرى المؤمن واعلم أن المباحث العقلية تقوى هذا المعنى وذلك أن الكمال محبوب لذاته لالغيره وكل من اتصف بصفة من صفات الكمال صار محبوبا بالكل أحد ولا كمال للعبد أعلى وأشرف من كونه مستغرق القلب بمعرفة الله مستغرق اللسان بذكر الله مستغرق الجوارح والاعضاء بعبودية الله فاذا ظهر عليه أمر من هذا الباب صارت الالسنة جارية بمدحه والقلوب مجبولة على حبه وكلما كانت هذه الصفات الشريفة أكثر كانت هذه المحبة أقوى وأيضا فنور معرفة الله مخدوم بالذات ففى أى قلب حضر صار ذلك الانسان مخدوما بالطبع ألاترى ان البهائم والسباع قد تكون أقوى من الانسان ثم انها اذا شاهدت الانسان هابته وفرت منه وما ذاك الا المهابة النفس الناطقة (والقول الثالث) فى تفسير البشرى انها عبارة عن حصول البشرى لهم عند الموت قال تعالى تتنزل عليهم الملائكة أن لاتخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة وأما البشرى فى الآخرة فسلام الملائكة عليهم كما قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم وسلام الله عليهم كما قال سلام قولا من رب رحيم ويندرج فى هذا الباب ما ذكره الله فى هذا الكتاب الكريم من بياض وجوههم واعطاء الصحائف بايمانهم وما يلقون فيها من الاحوال السارة فكل ذلك من المبشرات (والقول الرابع) ان ذلك عبارة عما بشر الله عباده المتقين فى كتابه وعلى ألسنة أنبيائه من جنته وكريم ثوابه ودليله قوله يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان واعلم ان لفظ البشارة مشتق من خبر سار يظهر أثره فى بشرة الوجه فكل ما كان كذلك دخل فى هذه الآية ومجموع الامور المذكورة مشتركة فى هذه الصفة فيكون الكل داخلا فيه فكل ما يتعلق من هذه الوجوه بالدنيا فهو داخل تحت قوله لهم البشرى فى الحياة الدنيا وكل ما يتعلق بالآخرة فهو داخل تحت قوله وفى الآخرة ثم انه تعالى لما ذكر صفة أولياء الله وشرح أحوالهم قال تعالى لاتبديل لكلمات الله والمراد انه لاخلف فيها والكلمة والقول سواء ونظيره قوله ما يبدل القول لدى وهذا أحد ما يقوى أن المراد بالبشرى وعد الله بالثواب

وقد كان كذلك فهى من جملة المبشرات العاجلة وقرئ بفتح ان على صريح التعليل أى لان العزة لله (هو السميع العليم) يسمع ما يقولون فى حقك ويعلم ما يعزمون عليه وهو مكافئهم بذلك (ألا ان لله من فى السموات ومن فى الارض) أى العقلاء من الملائكة والثقلين وتخصيصهم بالذكر للايذان بعدم الحاجة الى التصريح بغيرهم فانهم مع شرفهم وعلو طبقتهم اذا كانوا عبيدا لله سبحانه مقهورين تحت قهره وملكته فما عداهم من الموجودات أولى بذلك وهو مع ما فيه من التأكيد لما سبق من اختصاص العزة لله تعالى الموجب لسلوته عليه السلام وعدم مبالاته بالمشركين وبمقالاتهم تمهيد لما لحق من قوله تعالى (وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) وبرهان على بطلان ظنونهم وأعمالهم المبنية عليها وما اما نافية وشركاء مفعول يتبع ومفعول يدعون محذوف لظهوره أى ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فى الحقيقة وان سموها شركاء فاقتصر على أحدهما لظهور دلالته على الآخر ويجوز أن يكون المذكور مفعول يدعون ويكون مفعول يتبع محذوفا لانفهامه من قوله تعالى (ان يتبعون الا الظن) أى ما يتبعون يقينا انما يتبعون ظنهم الباطل واما موصولة معطوفة على من كأنه قيل ولله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء أى وله شركاؤهم وتخصيصهم بالذكر مع دخولهم فيما سبق عبارة أو دلالة للمبالغة فى بيان بطلان اتباعهم وفساد ما بنوا عليه من ظنهم شركاءهم معبودين مع كونهم عبيد الله سبحانه واما استفهامية أى وأى شئ يتبعون أى لا يتبعون شيئا ما يتبعون الا الظن والخيال الباطل كقوله تعالى ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها الخ وقرئ تدعون بالتاء فالاستفهام للتبكيت والتوبيخ كأنه قيل وأى شئ يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين تقريرا لكونهم متبعين لله تعالى مطيعين له وتوبيخا لهم على عدم اقتدائهم بهم فى ذلك كقوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة

والكرامة لمن أطاعه بقوله يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان ثم بين تعالى ان ذلك هو الفوز العظيم وهو كقوله تعالى واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ثم قال القاضى قوله لا تبديل لكلمات الله يدل على أنها قابلة للتبديل وكل ما قبل العدم امتنع أن يكون قديما ونظير هذا الاستدلال بحصول النسخ على ان حكم الله تعالى لا يكون قديما وقد سبق الكلام على أمثال هذه الوجوه * قوله تعالى (ولا يحزنك قولهم ان العزة لله جميعا هو السميع العليم ألا ان لله من فى السموات ومن فى الارض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون) اعلم ان القوم لما أوردوا أنواع الشبهات التى حكاها الله تعالى عنهم فيما تقدم من هذه السورة وأجاب الله عنها بالاجوبة التى فسرناها وقررناها عدلوا الى طريق آخر وهو انهم هددوه وخوفوه وزعموا انا أصحاب التبع والمال فنسعى فى قهرك وفى ابطال أمرك والله سبحانه أجاب عن هذا الطريق بقوله ولا يحزنك قولهم ان العزة لله جميعا واعلم أن الانسان انما يحزن من وعيد الغير وتهديده ومكره وكيده لوجوز كونه مؤثرا فى حاله فاذا علم من جهة علام الغيوب أن ذلك لا يؤثر خرج من أن يكون سببا لحزنه ثم انه تعالى كما أزال عن الرسول حزن الآخرة بسبب قوله ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فكذلك أزال حزن الدنيا بقوله ولا يحزنك قولهم ان العزة لله جميعا فاذا كان الله تعالى هو الذى أرسله الى الخلق وهو الذى أمره بدعوتهم الى هذا الدين كان لا محالة ناصرا له ومعينا ولما ثبت ان العزة والقهر والغلبة ليست الا له فقد حصل الامن وزال الخوف فان قيل فكيف آمنه من ذلك ولم يزل خائفا حتى احتاج الى الهجرة والهرب ثم من بعد ذلك يخاف حالا بعد حال قلنا ان الله تعالى وعده الظفر والنصرة مطلقا والوقت ما كان معينا فهو فى كل وقت كان يخاف من أن لا يكون هذا الوقت المعين ذلك الوقت فحينئذ يحصل الانكسار والانهزام فى هذا الوقت وأما قوله تعالى ان العزة لله جميعا ففيه ابحاث (البحث الاول) قال القاضى ان العزة بالالف المكسورة وفى فتحها فساد يقارب الكفر لانه يؤدى الى ان القوم كانوا يقولون ان العزة لله جميعا وان الرسول عليه الصلاة والسلام كان يحزنه ذلك أما اذا كسرت الالف كان ذلك استئنافا وهذا يدل على فضيلة علم الاعراب قال صاحب الكشاف وقرأ أبو حيوة ان العزة بالفتح على حذف لام العلة يعنى لان العزة على صريح التعليل (البحث الثانى) فائدة ان العزة لله فى هذا المقام أمور (الاول) المراد منه ان جميع العزة والقدرة هى لله تعالى يعطى ما يشاء لعباده والغرض منه أنه لا يعطى الكفار قدرة عليه بل يعطيه القدرة عليهم حتى يكون هو بذلك أعز منهم فآمنه الله تعالى بهذا القول من اضرار الكفار به بالقتل والايذاء ومثله قوله تعالى كتب الله لاغلبن أنا ورسلى انا لننصر رسلنا (الثانى) قال الاصم المراد ان المشركين يتعززون بكثرة خدمهم وأموالهم ويخوفونك بها وتلك الاشياء كلها لله تعالى فهو القادر

على أن يسلب منهم كل تلك الاشياء وان ينصرك وينقل أموالهم وديارهم اليك فان قيل قوله ان العزة لله جميعا كالمضاد لقوله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين قلنا لا مضادة لان عزة الرسول والمؤمنين كلها بالله فهي لله أما قوله هو السميع العليم أي يسمع مايقولون ويعلم مايعزمون عليه وهو يكافئهم بذلك وأما قوله ألا ان لله من في السموات ومن في الارض ففيه وجهان (الاول) انه تعالى ذكر في الآيات المتقدمة ألا ان لله مافي السموات والارض وهذا يدل على ان كل مالا يعقل فهو ملك لله تعالى وملك له وأما ههنا فكلمة من مختصة بمن يعقل فتدل على ان كل العقلاء داخلون تحت ملك الله وملكه فيكون مجموع الآيتين دالا على ان الكل ملكه وملكه (والثاني) ان المراد من في السموات العقلاء المميزون وهم الملائكة والثقلان وانما خصهم بالذكر ليدل على ان هؤلاء اذا كانوا له وفي ملكه فالجمادات أولى بهذه العبودية فيكون ذلك قدحا في جعل الاصنام شركاء لله تعالى ثم قال تعالى ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ان يتبعون الا الظن وفي كلمة ما قولان (الاول) انه نفي وجحد والمعنى انهم مااتبعوا شريك الله تعالى انما اتبعوا شيئا ظنوه شريكا لله تعالى ومثاله ان أحدنا لو ظن ان زيدا في الدار وما كان فيها فخاطب انسانا في الدار ظنه زيدا فانه لا يقال انه خاطب زيدا بل يقال خاطب من ظنه زيدا (الثاني) ان ما استفهام كأنه قيل أي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء والمقصود تقبيح فعلهم يعني انهم ليسوا على شيء ثم قال تعالى ان يتبعون الا الظن والمعنى انهم انما اتبعوا ظنونهم الباطلة وأوهامهم الفاسدة ثم بين ان هذا الظن لا حكم له وان هم الا يخرصون وذكرنا معنى الخرص في سورة الانعام عند قوله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون * قوله تعالى (هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون) اعلم انه تعالى لما ذكر قوله ان العزة لله جميعا احتج عليه بهذه الآية والمعنى انه تعالى جعل الليل ليزول التعب والكلال بالسكون فيه وجعل النهار مبصرا أي مضيئا لتهتدوا به في حوائجكم بالابصار والمبصر الذي يبصر والنهار يبصر فيه وانما جعله مبصرا على طريق نقل الاسم من السبب الى المسبب فان قيل ان قوله هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه يدل على انه تعالى ماخلقه الا لهذا الوجه وقوله ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون يدل على أنه تعالى أراد بتخليق الليل والنهار أنواعا كثيرة من الدلائل قلنا ان قوله تعالى لتسكنوا لا يدل على أنه لا حكمة فيه الا ذلك بل ذلك يقتضي حصول تلك الحكمة أما قوله تعالى ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون فالمراد يتدبرون مايسمعون ويعتبرون به * قوله تعالى (قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني له مافي السموات ومافي الارض ان عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله مالا تعلمون) اعلم أن هذا نوع آخر من الاباطيل التي حكاها الله تعالى عن الكفار وهي قولهم اتخذ الله ولدا ويحتمل أن يكون المراد حكاية

ثم صرف الكلام عن الخطاب الى الغيبة فقيل ان يتبع هؤلاء المشركون الا الظن ولا يتبعون مايتبعه الملائكة والنبيون من الحق (وان هم الا يخرصون) يكذبون فيما ينسبونه اليه سبحانه ويحزرون ويقدرون انهم شركاء تقديرا باطلا (هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) تنبيه على تفرده تعالى بالقدرة الكاملة والنعمة الشاملة ليدلهم على توحده سبحانه باستحقاق العبادة وتقرير لما سلف من كون جميع الموجودات الممكنة تحت قدرته وملكه المفصح عن اختصاص العزة به سبحانه والجعل ان كان بمعنى الابداع والخلق فبصرا حال والا فلكم مفعوله الثاني أو هو حال كما في الوجه الاول والمفعول الثاني لتسكنوا فيه أو هو محذوف يدل عليه المفعول الثاني من الجملة الثانية كما أن العلة الغائية منها محذوفة اعتمادا على ما في الاولى والتقدير هو الذي جعل لكم الليل مظلما لتسكنوا فيه والنهار مبصرا لتتحركوا فيه لمصالحكم كما سيجيء نظيره في قوله تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله الآية فحذف في كل واحد من الجانبين ماذكر في الآخر اكتفاء بالمذكور عن المتروك واسناد الابصار الى النهار مجازي كالذي في نهاره صائم (ان في ذلك) أي في جعل كل منهما كما وصف أو فيهما وما في اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلة المشار اليه وعلو رتبته (لآيات) عجيبة كثيرة أو آيات أخر غير ماذكر (لقوم يسمعون) أي هذه الآيات المتلوة ونظائرها المنبهة على تلك الآيات التكوينية الآمرة بالتأمل فيها سماع تدبر واعتبار فيعملون بمقتضاها وتخصيص الآيات بهم مع انها منصوبة لمصلحة الكل لما ﴿ قوله ﴾ انهم المنتفعون بها (قالوا) شروع في ذكر ضرب آخر من أباطيلهم وبيان بطلانه (اتخذ الله ولدا) أي تبناه (سبحانه) تنزيه وتقديس له عما نسبوا اليه وتعجيب من كلمتهم الحمقاء (هو الغني) على الاطلاق عن كل شيء في كل شيء وهو علة لتنزيهه سبحانه وايذان بأن اتخاذ الولد من أحكام الحاجة وقوله

عز وجل (له ما فى السموات وما فى الارض) أى من العقلاء وغيرهم تقرير لغناه وتحقيق لمالكيته تعالى لكل ما سواه وقوله تعالى (ان عندكم من سلطان) أى حجة (بهذا) أى بما ذكر من قولهم الباطل توضيح لبطلانه بتحقيق سلامة ما أقيم من البرهان الساطع عن المعارض فمن فى قوله تعالى من سلطان زائدة لتأكيد النفى وهو مبتدأ والظرف المقدم خبره أو مرتفع على أنه فاعل الظرف لاعتماده على النفى وبهذا متعلق اما بسلطان لانه بمعنى الحجة والبرهان واما بمحذوف وقع صفة له واما بما فى عندكم من معنى الاستقرار كأنه قيل ان عندكم فى هذا القول من سلطان والالتفات الى الخطاب لمزيد المبالغة فى الالزام والافحام وتأكيد ما فى قوله تعالى (اتقولون على الله ما لا تعلمون) من التوبيخ والتقريع على جهلهم واختلاقهم وفيه تنبيه على أن كل مقالة لا دليل عليها فهى جهالة وأن العقائد لابد لها من برهان قطعى وأن التقليد بمعزل من الاعتداد به (قل) تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبين لهم سوء مغبتهم ووخامة عاقبتهم (ان الذين يفترون على الله الكذب) أى فى كل أمر فيدخل ما نحن بصدده من الافتراء بنسبة الولد والشريك اليه سبحانه دخولا أوليا (لا يفلحون) أى لا ينجون من مكروه ولا يفوزون بمطلوب أصلا وتخصيص عدم النجاة والفوز بما يندرج فى ذلك من عدم النجاة من النار وعدم الفوز بالجنة لا يناسب مقام المبالغة فى الزجر عن الافتراء عليه سبحانه (متاع فى الدنيا) كلام مستأنف سيق لبيان أن ما يتراءى فيهم بحسب الظاهر من نيل المطالب والفوز بالحظوظ الدنيوية على الاطلاق أو فى ضمن افترائهم بمعزل من أن يكون من جنس الفلاح كأنه قيل كيف لا يفلحون وهم فى غبطة ونعيم فقيل هو متاع يسير فى الدنيا وليس بفوز بالمطلوب ثم أشير الى انتفاء النجاة عن المكروه أيضا بقوله عز وعلا (ثم الينا مرجعهم) أى بالموت (ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) فيبقون فى الشقاء المؤبد بسبب كفرهم المستمر أو بكفرهم فى الدنيا فأين هم من الفلاح

قول من يقول الملائكة بنات الله ويحتمل أن يكون المراد قول من يقول الاوثان أولاد الله ويحتمل أن يكون قد كان فيهم قوم من النصارى قالوا ذلك ثم انه تعالى لما استنكر هذا القول قال بعده هو الغنى له ما فى السموات وما فى الارض واعلم ان كونه تعالى غنيا مالكا لكل ما فى السموات والارض يدل على أنه يستحيل أن يكون له ولد وبيان ذلك من وجوه (الاول) أنه سبحانه غنى مطلقا على ما فى هذه الآية والعقل أيضا يدل عليه لانه لو كان محتاجا لافتقر الى صانع آخر وهو محال وكل من كان غنيا فانه لابد وان يكون فردا منزها عن الاجزاء والابعاض وكل من كان كذلك امتنع أن ينفصل عنه جزء من أجزائه والولد عبارة عن أن ينفصل جزء من أجزاء الانسان ثم يتولد عن ذلك الجزء مثله واذا كان هذا محالا ثبت ان كونه تعالى غنيا يمنع من ثبوت الولد له (الحجة الثانية) انه تعالى غنى وكل من كان غنيا كان قديما أزليا باقيا سرمديا وكل من كان كذلك امتنع عليه الانقراض والانقضاء والولد انما يحصل للشئ الذى ينقضى وينقرض فيكون ولده قائما مقامه فثبت ان كونه تعالى غنيا يدل على انه يمتنع أن يكون له ولد (الحجة الثالثة) انه تعالى غنى وكل من كان غنيا فانه يمتنع أن يكون موصوفا بالشهوة واللذة واذا امتنع ذلك امتنع أن يكون له صاحبة وولد (الحجه الرابعه) انه تعالى غنى وكل من كان غنيا امتنع أن يكون له ولد لان اتخاذ الولد انما يكون فى حق من يكون محتاجا حتى يعينه ولده على المصالح الحاصلة والمتوقعة فمن كان غنيا مطلقا امتنع عليه اتخاذ الولد (الحجة الخامسة) ولد الحيوان انما يكون ولدا له بشرطين اذا كان مساويا له فى الطبيعة والحقيقة ويكون ابتداء وجوده وتكونه منه وهذا فى حق الله تعالى محال لانه تعالى غنى مطلقا وكل من كان غنيا مطلقا كان واجب الوجود لذاته فلو كان لواجب الوجود ولد لكان ولده مساويا له فيلزم أن يكون ولد واجب الوجود أيضا واجب الوجود لكن كونه واجب الوجود يمنع من تولده من غيره واذا لم يكن متولدا من غيره لم يكن ولدا فثبت ان كونه تعالى غنيا من أقوى الدلائل على انه تعالى لا ولد له وهذه الثلاثة مع الثلاثة الاول فى غاية القوة (الحجة السادسة) أنه تعالى غنى وكل من كان غنيا امتنع أن يكون له أب وأم وكل من تقدس عن الوالدين وجب أن يكون مقدسا عن الاولاد فان قيل يشكل هذا بالوالد الاول قلنا الوالد الاول لا يمتنع كونه ولدا لغيره لانه سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق الوالد الاول من أبوين يتقدمانه اما الحق سبحانه فانه يمتنع افتقاره الى الابوين والا لما كان غنيا مطلقا (الحجة السابعة) انه تعالى غنى مطلقا وكل من كان غنيا مطلقا امتنع أن يفتقر فى احداث الاشياء الى غيره اذا ثبت هذا فنقول هذا الولد اما أن يكون قديما أو حادثا فان كان قديما فهو واجب الوجود لذاته اذ لو كان ممكن الوجود لافتقر الى المؤثر وافتقار القديم الى المؤثر يقتضى ايجاد الموجود وهو محال واذا كان واجب الوجود لذاته لم يكن ولدا لغيره بل كان موجودا مستقلا بنفسه واما ان كان هذا الوالد حادثا والحق

وقيل المبتدأ المحذوف حياتهم أو تقلبهم وقد قيل انه افتراؤهم ولا يخفى ان المتاع انما يطلق على ما يكون متبوعا عند النفس مرغوبا فيه فى نفسه يتمتع و ينتفع به وانما عدم الاعتداد به لسرعة زواله ونفس الافتراء عليه سبحانه أقبح القبائح عند النفس فضلا عن أن يكون مطبوعا عندها وعده كذلك باعتبار اجراء حكم ما يؤدى اليه من رياستهم عليه مما لا وجه له فالوجه ما ذكر أولا وليس ببعيد ما قيل ان المحذوف هو الخبر أى لهم * ٢٠ * متاع والآية اما مسوقة من جهة الله تعالى لتحقيق عدم افلاحهم غير داخلة فى الكلام المامور به كما يقتضيه ظاهر قوله تعالى ثم الينا وقوله تعالى ثم نذيقهم واما داخلة فيه على أن النبى عليه الصلاة والسلام مأمور بنقله وحكايته عنه عز وجل (واتل عليهم) اى على المشركين من أهل مكة وغيرهم لتحقيق ما سبق من أنهم لا يفلحون وأن ما يتمتعون به على جناح الفوات وأنهم مشرفون على العذاب الخالد (نبأ نوح) أى خبره الذى له شأن وخطر مع قومه الذين هم أضراب قومك فى الكفر والعناد ليتدبروا ما فيه من زوال ما تمتعوا به من النعيم وحلول عذاب الغرق الموصول بالعذاب المقيم ليزدجروا بذلك عما هم عليه من الكفر أو تنكسر شدة شكيمتهم أو يعترف بعضهم بصحة نبوتك بأن عرفوا أن ما تتلوه موافقا لما ثبت عندهم من غير مخالفة بينهما أصلا مع علمهم بانك لم تسمع ذلك من أحد ليس الا بطريق الوحى وفيه من تقرير ما سبق من كون الكل لله سبحانه واختصاص العزة به تعالى وانتفاء الخوف والحزن عن أوليائه عز وعلا قاطبة وتشجيع النبى صلى الله عليه وسلم وحمله على عدم المبالاة بهم و بأقوالهم وافعالهم ما لا يخفى * من *
(اذ قال) معمول لنبأ أو بدل منه بدل اشتمال وأيا ما كان فالمراد بعض نبئه عليه السلام لا كل ما جرى بينه و بين قومه واللام فى قوله تعالى (لقومه) للتبليغ (يا قوم ان كان كبر) أى عظم وشق (عليكم مقامى) أى نفسى كما يقال فعلته لمكان فلان أى لفلان ومنه قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه أى خاف ربه أو قيامى ومكثى بين ظهرانيكم مدة

سبحانه غنى مطلقا فكان قادرا على احداثه ابتداء من غير تشريك شئ آخر فكان هذا عبدا مطلقا ولم يكن ولدا فهذه جملة الوجوه المستنبطة من قوله هو الغنى الدالة على انه يمتنع أن يكون له ولد أما قوله له ما فى السموات وما فى الارض فاعلم انه نظير قوله ان كل من فى السموات والارض الا آت الرحمن عبدا وحاصله يرجع الى أن ما سوى الواحد الاحد الحق ممكن وكل ممكن محتاج وكل محتاج محدث فكل ما سوى الواحد الاحد الحق محدث والله تعالى محدثه وخالقه وموجده وذلك يدل على فساد القول باثبات الصاحبة والولد ولما بين تعالى بالدليل الواضح امتناع ما أضافوا اليه عطف عليهم بالانكار والتوبيخ فقال ان عندكم من سلطان بهذا منبها بهذا على أنه لا حجة عندهم فى ذلك البتة ثم بالغ فى ذلك الانكار فقال أتقولون على الله ما لا تعلمون وقد ذكرنا أن هذه الآية يحتج بها فى ابطال التقليد فى أصول الديانات ونفاة القياس وأخبار الآحاد قد يحتجون بها فى ابطال هذين الاصلين وقد سبق الكلام فيه * قوله تعالى (قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع فى الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) اعلم انه تعالى لما بين بالدليل القاهر أن اثبات الولد لله تعالى قول باطل ثم بين انه ليس لهذا القائل دليل على صحة قوله فقد ظهر أن ذلك المذهب افتراء على الله ونسبة لما لا يليق به اليه فبين ان من هذا حاله فانه لا يفلح البتة ألا ترى انه تعالى قال فى أول سورة المؤمنون قد أفلح المؤمنون وقال فى آخر هذه السورة انه لا يفلح الكافرون واعلم أن قوله ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون يدخل فيه هذه الصورة ولكنه لا يختص بهذه الصورة بل كل من قال فى ذات الله تعالى وفى صفاته قولا بغير علم و بغير حجة بينة كان داخلا فى هذا الوعيد ومعنى قوله لا يفلح قد ذكرناه فى أول سورة البقرة فى قوله تعالى وأولئك هم المفلحون وبالجملة فالفلاح عبارة عن الوصول الى المقصود والمطلوب فمعنى انه لا يفلح هو انه لا ينجح فى سعيه ولا يفوز بمطلوبه بل خاب وخسر ومن الناس من اذا فاز بشئ من المطالب العاجلة والمقاصد الخسيسة ظن انه قد فاز بالمقصد الاقصى والله سبحانه أزال هذا الخيال بأن قال ان ذلك المقصود الخسيس متاع قليل فى الدنيا ثم لا بد من الموت وعند الموت لا بد من الرجوع الى الله وعند هذا الرجوع لا بد وأن يذيقه الله العذاب الشديد بسبب ذلك الكفر المتقدم وهذا كلام فى غاية الانتظام ونهاية الحسن والجزالة والله أعلم * قوله تعالى (واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه يا قوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الى ولا تنظرون فان توليتم فما سألتكم من أجر ان أجرى الا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) اعلم انه سبحانه لما بالغ فى تقرير الدلائل والبينات وفى الجواب عن الشبه والسؤالات شرع بعد ذلك فى بيان قصص الانبياء عليهم السلام لوجوه (أحدها) ان الكلام اذا طال فى تقرير نوع من أنواع العلوم فربما حصل نوع

طويلة اوقيامى (وتذكيرى بآيات الله) فانهم كانوا اذا وعظوا الجماعة يقومون على أرجلهم والجماعة قعود ليظهر حالهم ويسمع مقالهم (فعلى الله توكلت) جواب للشرط أى دمت على تخصيص التوكل به تعالى و يجوز أن يراد به احداث مرتبة مخصوصة من مراتب التوكل (فأجمعوا أمركم) عطف على الجواب والفاء لترتيب الامر بالاجماع على التوكل لا لترتيب نفس الاجماع عليه أوهو الجواب وماسبق جملة معترضة والاجماع العزم قيل هو متعد بنفسه وقيل فيه حذف وايصال قال السدوسى أجمعت الامر أفصح من أجمعت عليه وقال أبو الهيثم أجمع أمره جعله مجموعا بعدما كان متفرقا وتفرقه أنه يقول مرة أفعل كذا وأخرى أفعل كذا واذا عظم على أمر واحد فقد جمعه أى جعله جميعا (وشركاءكم) بالنصب على أن الواو بمعنى مع كما يدل عليه القراءة بالرفع عطفا على الضمير المتصل تنزيلا للفصل منزلة التأكيد واسناد الاجماع الى الشركاء على طريقة التهكم وقيل انه عطف على أمركم بحذف المضاف أى أمر شركائكم وقيل منصوب بفعل محذوف أى وادعوا شركاءكم وقد قرئ كذلك وقرئ فاجمعوا من الجمع أى فاعزموا على أمركم الذى تريدون بى من السعى فى اهلاكى واحتشدوا فيه على أى وجه يمكنكم (ثم لايكن امركم) ذلك (عليكم غمة) أى مستورا من غمه اذا ستره بل مكشوفا مشهورا تجاهروننى به فان السر انما يصار اليه لسد باب تدارك الخلاص بالهرب أونحوه فحيث استحال ذلك فى حقى لم يكن للستر وجه وانما خاطبهم عليه السلام بذلك اظهارا لعدم المبالاة بهم وأنهم لم يجدوا اليه سبيلا وثقة بالله سبحانه و بما وعده من عصمته وكلاءته فكلمة ثم للتراخى فى الرتبة واظهار الامر فى موقع الاضمار لزيادة تقرير تقتضيها مقام الامر بالاظهار الذى يستلزمه النهى عن الستر والاسرار وقيل المراد بأمرهم مايعتريهم من جهته عليه السلام من الحال الشديدة عليهم المكروهة لديهم والغمة الغم كالكربة والكرب وثم للتراخى الزمانى والمعنى لايكن

من أنواع الملالة فاذا انتقل الانسان من ذلك الفن من العلم الى فن آخر انشرح صدره وطاب قلبه ووجد من نفسه رغبة جديدة وقوة حادثة وميلا قويا (وثانيها) ليكون للرسول عليه الصلاة والسلام ولاصحابه اسوة بمن سلف من الانبياء فان الرسول اذا سمع ان معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل ماكانت الاعلى هذا الوجه خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة اذا عمت خفت (وثالثها) أن الكفار اذا سمعوا هذه القصص وعلموا ان الجهال وان بالغوا فى ايذاء الانبياء المتقدمين الا أن الله تعالى أعانهم بالآخرة ونصرهم وأيدهم وقهر أعداءهم كان سماع هؤلاء الكفار لأمثال هذه القصص سببا لانكسار قلوبهم ووقوع الخوف والوجل فى صدورهم وحينئذ يقللون من أنواع الايذاء والسفاهة (ورابعها) انا قد دللنا على ان محمدا عليه الصلاة والسلام لما لم يتعلم علما ولم يطالع كتابا ثم ذكر هذه الاقاصيص من غير تفاوت ومن غير زيادة ومن غير نقصان دل ذلك على أنه صلى الله عليه وسلم انما عرفها بالوحى والتنزيل * واعلم انه تعالى ذكر فى هذه السورة من قصص الانبياء عليهم السلام ثلاثة (فالقصة الاولى) قصة نوح عليه السلام وهى المذكورة فى هذه الآية وفيها وجهان من الفائدة (الاول) ان قوم نوح عليه السلام لما أصروا على الكفر وا لجحد عجل الله هلاكهم بالغرق فذكر الله تعالى قصتهم لتصير تلك القصة عبرة لهؤلاء الكفار وداعية الى مفارقة الجحد التوحيد والنبوة (والثانى) ان كفار مكة كانوا يستعجلون العذاب الذى يذكره الرسول عليه السلام لهم وكانوا يقولون له كذبت فانه ماجاءنا هذا العذاب فالله تعالى ذكر لهم قصة نوح عليه السلام لانه عليه السلام كان يخوفهم بهذا العذاب وكانوا يكذبونه فيه ثم بالآخرة وقع كما أخبر فكذا ههنا (المسئلة الثانية) ان نوحا عليه السلام قال لقومه ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت وهذا جملة من الشرط والجزاء أما الشرط فهو مركب من قيدين (القيد الاول) قوله ان كان كبر عليكم مقامى قال الواحدى فى البسيط يقال كبر يكبر كبرا فى السن وكبر الامر والشئ اذا عظم يكبر كبرا وكبارة قال ابن عباس ثقل عليكم وشق عليكم وعظم أمره عندكم والمقام بفتح الميم مصدر كالاقامة يقال أقام بين أظهرهم مقاما واقامة والمقام بضم الميم الموضع الذى يقام فيه وأراد بالمقام ههنا مكثه ولبثه فيهم وبالجملة فقوله كبر عليكم مقامى جار مجرى قولهم فلان ثقيل الظل واعلم أن سبب هذا الثقل أمران (أحدهما) انه عليه السلام مكث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما (والثانى) ان أولئك الكفار كانوا قد ألفوا تلك المذاهب الفاسدة والطرائق الباطلة والغالب أن من ألف طريقة فى الدين فانه يثقل عليه أن يدعى الى خلافها ويذكر له ركاكتها فان اقترن بذلك طول مدة الدعاء كان أثقل وأشد كراهية فان اقترن به ايراد الدلائل القاهرة على فساد ذلك المذهب كانت النفرة أشد فهذا هو السبب فى حصول ذلك الثقل (والقيد الثانى) هو قوله وتذكيرى بآيات الله واعلم أن الطباع المشغوفة بالدنيا الحريصة على طلب اللذات

حالكم عليكم غمة وتخلصوا باهلاكى من ثقل مقامى وتذكيرى ولا يخفى أنه لا يساعده قوله عز وجل (ثم اقضوا الى ولا تنظرون) أى ادوا الى أى أحكموا ذلك الامر الذى تريدون بى ولا تمهلونى كقوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر أو أدوا الى ما هو حق عليكم عندكم من اهلاكى كما يقضى الرجل غريمه فان توسط ما يحصل بعد الاهلاك بين الامر بالعزم على مباديه وبين الامر بقضائه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه وقرئ أفضوا ﴿ ٢٢ ﴾ بالفاء أى انتهوا الى بشركم أو ابرزوا الى من أفضى اذا خرج الى الفضاء (فان توليتم) الفاء لترتيب التولى على ما سبق فالمراد به اما الاستمرار عليه واما احداث التولى المخصوص أى ان أعرضتم عن نصيحتى وتذكيرى اثر ما شاهدتم منى من مخايل صحة ما أقول ودلائلها التى من جملتها دعوتى اياكم جميعا الى تحقيق ما تريدون بى من السوء غير مبال بكم وبما يأتى منكم واحجامكم من الاجابة علما منكم بأنى على الحق المبين مؤيد من عند الله العزيز (فما سألتكم) بمقابلة وعظى وتذكيرى (من أجر) تؤدونه الى حتى يؤدى ذلك الى توليكم اما لاتهامكم اياى بالطمع والسؤال واما لثقل دفع المسؤل عليكم أو حتى يضرنى توليكم المؤدى الى الحرمان فالاول لاظهار بطلان التولى ببيان عدم ما يصححه والثانى لاظهار عدم مبالاته عليه السلام بوجوده وعدمه وعلى التقديرين فالفاء الجزائية لسببية الشرط لاعلام مضمون الجزاء لا لنفسه والمعنى ان توليتم فاعلموا أن ليس فى مصحح له ولا تأثر منه وقوله عز وجل (ان أجرى الا على الله) ينتظم المعنيين جميعا خلا أنه على الاول تأكيد وعلى الثانى تعليل لاستغنائه ﴿ وشركاؤكم ﴾ عليه السلام عنهم أى ما ثوابى على العظة والتذكير الا عليه تعالى يثيبنى به آمنتم أو توليتم (وأمرت أن أكون من المسلمين) المنقادين لحكمه لا أخالف أمره ولا أرجو غيره أو المستسلمين لكل ما يصيب من البلاء فى طاعة الله تعالى (فكذبوه) فأصروا على ما هم عليه من التكذيب بعد ما ألزمهم الحجة وبين لهم المحجة وحقق أن توليهم ليس له سبب غير التمرد والعناد فلا

العاجلة تكون شديدة النفرة عن الامر بالطاعات والنهى عن المعاصى والمنكرات قوية الكراهة لسماع ذكر الموت وتقبيح صورة الدنيا ومن كان كذلك فانه يستثقل الانسان الذى يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر وفى الآية وجه آخر وهو أن يكون قوله ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله معناه انهم كانوا اذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم ظاهرا وكلامهم مسموعا كما يحكى عن عيسى عليه السلام انه كان يعظ الحواريين قائما وهم قعود واعلم ان هذا هو الشرط المذكور فى هذه الآية أما الجزاء ففيه قولان (الاول) ان الجزاء هو قوله فعلى الله توكلت يعنى ان شدة بغضكم لى تحملكم على الاقدام على ايذائى وانا لا أقابل ذلك الشر الا بالتوكل على الله واعلم أنه عليه السلام كان أبدا متوكلا على الله تعالى وهذا اللفظ يوهم أنه توكل على الله فى هذه الساعة لكن المعنى انه انما توكل على الله فى دفع هذا الشر فى هذه الساعة (والقول الثانى) وهو قول الاكثرين ان جواب الشرط هو قوله فاجمعوا أمركم وشركاءكم وقوله فعلى الله توكلت كلام اعترض به بين الشرط وجوابه كما تقول فى الكلام ان كنت أنكرت على شيئا فالله حسبى فاعمل ما تريد واعلم أن جواب هذا الشرط مشتمل على قيود خمسة على الترتيب (القيد الاول) قوله فأجمعوا أمركم وفيه بحثان (البحث الاول) قال الفراء الاجماع الاعداد والعزيمة على الامر وأنشد

يا ليت شعرى والمنى لا ينفع * هل اغدون يوما وأمرى مجمع

فاذا أردت جمع المتفرق قلت جمعت القوم فهم مجموعون وقال أبو الهيثم أجمع أمره أى جعله جميعا بعد ما كان متفرقا قال وتفرقه أى جعل يتدبره فيقول مرة افعل كذا ومرة افعل كذا فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه اى جعله جميعا فهذا هو الاصل فى الاجماع ومنه قوله تعالى وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم ثم صار بمعنى العزم حتى وصل بعلى فقيل أجمعت على الامر أى عزمت عليه والاصل أجمعت الامر (البحث الثانى) روى الاصمعى عن نافع فاجمعوا أمركم بوصل الالف من الجمع وفيه وجهان (الاول) قال أبو على الفارسى فاجمعوا ذوى الامر منكم فحذف المضاف وجرى على المضاف اليه ما كان يجرى على المضاف لو ثبت (الثانى) قال ابن الانبارى المراد من الامر ههنا وجوه كيدهم ومكرهم فالتقدير ولا تدعوا من أمركم شيئا الا أحضرتموه (والقيد الثانى) قوله وشركاءكم وفيه ابحاث (البحث الاول) الواو ههنا بمعنى مع والمعنى فأجمعوا أمركم مع شركائكم ونظيره قولهم لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها ولو خليت نفسك والاسد لاكلك (البحث الثانى) يحتمل أن يكون المراد من الشركاء الاوثان التى سموها بالآلهة ويحتمل أن يكون المراد منها من كان على مثل قولهم ودينهم فان كان المراد هو الاول فانما حث الكفار على الاستعانة بالاوثان بناء على مذهبهم من أنها تضر وتنفع وان كان المراد هو الثانى فوجه الاستعانة بها ظاهر (البحث الثالث) قرأ الحسن وجماعة من القراء

جرم حقت عليهم كلمة العذاب فنجيناه ومن معه فى الفلك) من المسلمين وكانوا ثمانين (وجعلناهم خلائف) من الهالكين (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) أى بالطوفان وتأخير ذكره عن ذكر الانجاء والاستخلاف حسبما وقع فى قوله عز وعلا ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة وغير ذلك من الآيات الكريمة لاظهار كمال العناية بشأن المقدم ولتعجيل المسرة للسامعين والايذان بسبق الرحمة التى هى من مقتضيات الربوبية على الغضب الذى هو من مستبعدات جرائم المجرمين (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) تهويل لما جرى عليهم وتحذير لمن كذب الرسول عليه الصلاة والسلام وتسلية له عليه السلام (ثم بعثنا) أى أرسلنا (من بعده) أى من بعد نوح عليه السلام (رسلا) التنكير للتفخيم ذاتا ووصفا أى رسلا كراما ذوى عدد كثير (الى قومهم) أى الى أقوامهم لكن لا بأن أرسلنا كل رسول منهم الى أقوام الكل أو الى قوم ما أى قوم كانوا بل كل رسول الى قومه خاصة مثل هود الى عاد وصالح الى ثمود وغير ذلك ممن قص منهم ومن لم يقص (فجاؤهم) أى جاء كل رسول قومه المخصوصين به (بالبينات) أى المعجزات الواضحة الدالة على صدق ما قالوا والباء اما متعلقة بالفعل المذكور على أنها للتعدية أو بمحذوف وقع حالا من ضمير جاؤا أى ملتبسين بالبينات لكن لا بأن يأتى كل رسول ببينة واحدة بل ببينات كثيرة خاصة به معينة له حسب اقتضاء الحكمة فان مراعاة انقسام الآحاد الى الآحاد انما هى فيما بين ضميرى جاؤهم كما أشير اليه (فما كانوا ليؤمنوا) بيان لاستمرار عدم ايمانهم فى الزمان الماضى لا لعدم استمرار ايمانهم كما مر مثله فى هذه السورة الكريمة غير مرة أى فما صح وما استقام لقوم من أولئك الاقوام فى وقت من الاوقات أن يؤمنوا بل كان ذلك ممتنعا منهم لشدة شكيمتهم فى الكفر والعناد ثم ان كان المحكى آخر حال كل قوم حسبما يدل عليه حكاية قوم نوح فالمراد بعدم ايمانهم المذكور ههنا اصرارهم على ذلك بعد اللتيا والتى وبما أشير

وشركاؤكم بالرفع عطفا على الضمير المرفوع والتقدير فأجمعوا أنتم وشركاؤكم قال الواحدى وجاز ذلك من غير تأكيد الضمير كقوله اسكن أنت وزوجك الجنة لان قوله أمركم فصل بين الضمير وبين المنسوق فكان كالعوض من التوكيد وكان الفراء يستقبح هذه القراءة لانها توجب أن يكتب وشركاؤكم بالواو وهذا الحرف غير موجود فى المصاحف (القيد الثالث) قوله ثم لا يكن أمركم عليكم غمة قال ابو الهيثم أى مبهما من قولهم غم علينا الهلال فهو مغموم اذا التبس قال طرفة

لعمرى ما أمرى على بغمة * نهارى ولا ليلى على بسرمد

وقال الليث انه لفى غمة من أمره اذا لم يهتد له قال الزجاج اى ليكن أمركم ظاهرا منكشفا (القيد الرابع) قوله ثم اقضوا الى وفيه بحثان (البحث الاول) قال ابن الانبارى معناه ثم امضوا الى بمكروهكم وما توعدونني به تقول العرب قضى فلان يريدون مات ومضى وقال بعضهم قضاء الشئ احكامه وامضاؤه والفراغ منه وبه يسمى القاضى لانه اذا حكم فقد فرغ فقوله ثم اقضوا الى أى افرغوا من أمركم وامضوا ما فى أنفسكم واقطعوا ما بينى وبينكم ومنه قوله تعالى وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب أى أعلمناهم اعلاما قاطعا قال تعالى وقضينا اليه ذلك الامر قال القفال رحمه الله تعالى ومجاز دخول كلمة الى فى هذا الموضع من قولهم برئت اليك وخرجت اليك من العهد وفيه معنى الاخبار فكأنه تعالى قال ثم اقضوا الى ما يستقر رأيكم عليه محكما مفروغا منه (البحث الثانى) قرئ ثم افضوا الى بالفاء بمعنى ثم انتهوا الى بشركم وقيل هو من أفضى الرجل اذا خرج الى الفضاء أى أصحروا به الى وابرزوا الى (القيد الخامس) قوله ولا تنظرون معناه لا تمهلون بعد اعلامكم اياى ما اتفقتم عليه فهذا هو تفسير هذه الالفاظ وقد نظم القاضى هذا الكلام على أحسن الوجوه فقال انه عليه السلام قال فى أول الامر فعلى الله توكلت فانى واثق بوعد الله جازم بانه لا يخلف الميعاد ولا تظنوا أن تهديدكم اياى بالقتل والايذاء يمنعنى من الدعاء الى الله تعالى ثم انه عليه السلام أورد ما يدل على صحة دعوته فقال فأجمعوا أمركم فكأنه يقول لهم أجمعوا كل ما تقدرون عليه من الاسباب التى توجب حصول مطلوبكم ثم لم يقتصر على ذلك بل أمرهم أن يضموا الى أنفسهم شركاءهم الذين كانوا يزعمون ان حالهم يقوى بمكانهم وبالتقرب اليهم ثم لم يقتصر على هذين بل ضم اليهما ثالثا وهو قوله ثم لا يكن أمركم عليكم غمة وأراد أن يبلغوا فيه كل غاية فى المكاشفة والمجاهرة ثم لم يقتصر على ذلك حتى ضم اليها رابعا فقال ثم اقضوا الى والمراد أن وجهوا كل تلك الشرور الى ثم ضم الى ذلك خامسا وهو قوله ولا تنظرون أى عجلوا ذلك باشد ما تقدرون عليه من غير انظار فهذا آخر هذا الكلام ومعلوم ان مثل هذا الكلام يدل على أنه عليه السلام كان قد بلغ الغاية فى التوكل على الله تعالى وانه كان قاطعا بان كيدهم لا يصل اليه ومكرهم لا ينفذ فيه * وأما قوله تعالى فان توليتم فما سألتكم من أجر

اليه فى قوله عز وجل (بما كذبوا به من قبل) تكذيبهم من حين مجىء الرسل الى زمان الاصرار والعناد وانما لم يجعل ذلك مقصودا بالذات كالاول حيث جعل صلة للموصول ايذانا بانه بين بنفسه غنى عن البيان وانما المحتاج الى ذلك عدم ايمانهم بعد تواتر البينات الظاهرة وتظاهر المعجزات الباهرة التى كانت تضطرهم الى القبول لو كانوا من أصحاب العقول والموصول الذى تعلق به الايمان والتكذيب سلبا وايجابا عبارة عن جميع الشرائع التى جاء بها كل رسول أصولها وفروعها وان كان المحكى جميع أحوال كل قوم منهم فالمراد بما ذكر أولا كفرهم المستمر من حين مجىء الرسل الى آخره وبما أشير اليه آخرا تكذيبهم قبل مجيئهم فلا بد من كون الموصول المذكور عبارة عن أصول الشرائع التى أجمعت عليها الرسل قاطبة ودعوا أممهم اليها آثر ذى أثير لاستحالة تبدلها وتغيرها مثل ملة التوحيد ولوزمها ومعنى تكذيبهم بها قبل مجىء رسلهم أنهم ما كانوا فى زمن الجاهلية بحيث لم يسمعوا بكلمة التوحيد قط بل كان كل قوم من أولئك الاقوام يتسامعون بها من بقايا من قبلهم كثمود من بقايا عاد وعاد من بقايا قوم نوح عليه السلام فيكذبونها ثم كانت حالتهم بعد مجىء الرسل كحالتهم قبل ذلك كأن لم يبعث اليهم أحد وتخصيص التكذيب وعدم الايمان بما ذكر من الاصول لظهور حال الباقى بدلالة النص فانهم حيث لم يؤمنوا بما أجمعت عليه كافة الرسل فلأن لا يؤمنوا بما تفرد به بعضهم أولى وعدم جعل هذا التكذيب مقصودا بالذات لما أن ما عليه يدور أمر العذاب والعقاب عند اجتماع المكذبين هو التكذيب الواقع بعد الدعوة حسبما يعرب عنه قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وانما ذكر ما وقع قبلها بيانا لعراقتهم فى الكفر والتكذيب وعلى التقديرين فالضمائر الثلاثة متوافقة فى المرجع وقيل ضمير كذبوا راجع الى قوم نوح عليه السلام والمعنى فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب بمثله قوم نوح ولا يخفى ما فيه من التعسف

فقال المفسرون هذا اشارة الى أنه ما أخذ منهم مالا على دعوتهم الى دين الله تعالى ومتى كان الانسان فارغا عن الطمع كان قوله أقوى تأثيرا فى القلب وعندى فيه وجه آخر وهو أن يقال انه عليه السلام بين انه لا يخاف منهم بوجه من الوجوه وذلك لان الخوف انما يحصل بأحد شيئين اما بايصال الشر أو بقطع المنافع فبين فيما تقدم انه لا يخاف شرهم وبين بهذه الآية انه لا يخاف منهم بسبب أن يقطعوا عنه خيرا لانه ما أخذ منهم شيئا فكان يخاف أن يقطعوا منه خيرا * ثم قال ان أجرى الا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين وفيه قولان (الاول) انكم سواء قبلتم دين الاسلام أو لم تقبلوه فانا مأمور بأن أكون على دين الاسلام (والثانى) أنى مأمور بالاستسلام لكل ما يصل الى لاجل هذه الدعوة وهذا الوجه أليق بهذا الموضع لانه لما قال ثم اقضوا الى بين لهم أنه مأمور بالاستسلام لكل ما يصل اليه فى هذا الباب والله اعلم * قوله تعالى (فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) اعلم انه تعالى لما حكى الكلمات التى جرت بين نوح وبين أولئك الكفار ذكر ما اليه رجعت عاقبة تلك الواقعة أما فى حق نوح وأصحابه فأمران (أحدهما) انه تعالى نجاهم من الكفار (الثانى) أنه جعلهم خلائف يعنى انهم يخلفون من هلك بالغرق وأما فى حق الكفار فهو انه تعالى أغرقهم وأهلكهم وهذه القصة اذا سمعها من صدق الرسول ومن كذب به كانت زجرا للمكلفين من حيث يخافون أن ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح وتكون داعية للمؤمنين على الثبات على الايمان ليصلوا الى مثل ما وصل اليه قوم نوح وهذه الطريقة فى الترغيب والتحذير اذا جرت على سبيل الحكاية عمن تقدم كانت أبلغ من الوعيد المبتدا وعلى هذا الوجه ذكر تعالى أقاصيص الانبياء عليهم السلام وأما تفاصيل هذه القصة فهى مذكورة فى سائر السور * قوله تعالى (ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم فجاؤهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين) اعلم أن المراد ثم بعثنا من بعد نوح رسلا ولم يسمهم وكان منهم هود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب صلوات الله عليهم أجمعين بالبينات وهى المعجزات القاهرة فأخبر تعالى عنهم انهم جروا على منهاج قوم نوح فى التكذيب ولم يزجرهم ما بلغهم من اهلاك الله تعالى المكذبين من قوم نوح عن ذلك فلهذا قال فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل وليس المراد عين ما كذبوا به لان ذلك لم يحصل فى زمانهم بل المراد بمثل ما كذبوا به من البينات لان البينات الظاهرة على الانبياء عليهم السلام أجمع كأنها واحدة ثم قال تعالى كذلك نطبع على قلوب المعتدين واحتج أصحابنا على أن الله تعالى قد يمنع المكلف عن الايمان بهذه الآية وتقريره ظاهر قال القاضى الطبع غير مانع من الايمان بدليل قوله تعالى بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا ولو كان هذا الطبع مانعا لما صح هذا الاستثناء (والجواب) ان الكلام فى هذه المسئلة قد سبق على الاستقصاء فى تفسير

وقيل الباء السببية أي بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل ولا يخفى ان ذلك يؤدي الى مخالفة الجمهور من جعل ما المصدرية من قبيل الاسماء كما هو رأي الاخفش وابن السراج ليرجع اليها الضمير وفي ارجاعه الى الحق بادعاء كونه مركوزا في الاذهان ما لا يخفى من التعسف (كذلك) اى مثل ذلك الطبع المحكم (نطبع) بنون العظمة وقرئ بالياء على أن الضمير لله سبحانه (على قلوب المعتدين) المتجاوزين عن الحدود المعهودة في الكفر والعناد المتجافين عن قبول الحق وسلوك طريق الرشاد وذلك بخذلانهم وتخليتهم وشأنهم لانهماكهم في الغي والضلال وفي أمثال هذه دلالة على أن الافعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد (ثم بعثنا) عطف على قوله تعالى ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم عطف قصة على قصة (من بعدهم) اى من بعد أولئك الرسل عليهم السلام (موسى وهرون) خصت بعثتهما عليهما السلام بالذكر ولم يكتف باندراج خبرهما فيما أشير اليه اشارة اجمالية من أخبار الرسل عليهم السلام مع أقوامهم وأوثر في ذلك ضرب تفصيل ايذانا بخطر شأن القصة وعظم وقعها كما في نبأ نوح عليه السلام (الى فرعون وملئه) اى أشراف قومه وتخصيصهم بالذكر لاصالتهم في اقامة المصالح والمهمات ومراجعة الكل النواز ليهم في لنوا الملمات (بآياتنا) اى تبسين بها وهي الآيات المفصلات في الاعراف (فاستكبروا) الاستكبار ادعاء الكبر من غير استحقاق والفاء فصيحة أي فأتياهم فبلغاهم الرسالة فاستكبروا عن اتباعهما وذلك قول اللعين لموسى عليه السلام ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين الخ (وكانوا قوما مجرمين) اعتراض مقرر لمضمون ما قبله أي كانوا معتادين لارتكاب الذنوب العظام فان الاجرام مؤذن بعظم الذنب ومنه الجرم أي الجثة فلذلك اجترؤا على ما اجترؤا عليه من الاستهانة برسالة الله تعالى وحمل الاستكبار على الامتناع عن قبول الآيات لا يساعده قوله

قوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم فلا فائدة في الاعادة (القصة الثانية) قصة موسى عليه السلام * قوله تعالى (ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون الى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون) اعلم أن هذا الكلام غني عن التفسير وفيه سؤال واحد وهو ان القوم لما قالوا ان هذا لسحر مبين فكيف حكى موسى عليه السلام أنهم قالوا أسحر هذا على سبيل الاستفهام (وجوابه) ان موسى عليه السلام ما حكى عنهم أنهم قالوا أسحر هذا بل قال أتقولون للحق لما جاءكم ما تقولون ثم حذف عنه مفعول أتقولون لدلالة الحال عليه ثم قال مرة أخرى أسحر هذا وهذا استفهام على سبيل الانكار ثم احتج على أنه ليس بسحر وهو قوله ولا يفلح الساحرون يعني أن حاصل صنعهم تخييل وتمويه ولا يفلح الساحرون وأما قلب العصا حية وفلق البحر فعلوم بالضرورة أنه ليس من باب التخييل والتمويه فثبت أنه ليس بسحر قوله تعالى (قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الارض وما نحن لكما بمؤمنين وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنه تعالى حكى عن فرعون وقومه أنهم لم يقبلوا دعوة موسى عليه السلام وعللوا عدم القبول بأمرين (الاول) قوله أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا قال الواحدي اللفت في أصل اللغة الصرف عن أمر وأصله اللي يقال لفت عنقه اذا لواها ومن هذا يقال التفت اليه اى أمال وجهه اليه قال الازهري لفت الشئ وفتله اذا لواه وهذا من المقلوب واعلم ان حاصل هذا الكلام انهم قالوا لا نترك الدين الذي نحن عليه لانا وجدنا آباءنا عليه فقد تمسكوا بالتقليد ودفعوا الحجة الظاهرة بمجرد الاصرار (والسبب الثاني) في عدم القبول قوله وتكون لكما الكبرياء في الارض قال المفسرون المعنى ويكون لكما الملك والعز في أرض مصر والخطاب لموسى وهرون قال الزجاج سمي الملك كبرياء لانه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا وأيضا فالنبي اذا اعترف القوم بصدقه صارت مقاليد أمر أمته اليه فصار أكبر القوم واعلم أن السبب الاول اشارة الى التمسك بالتقليد والسبب الثاني اشارة الى الحرص على طلب الدنيا والجد في بقاء الرياسة ولما ذكر القوم هذين السببين صرحوا بالحكم وقالوا وما نحن لكما بمؤمنين واعلم ان القوم لما ذكروا هذه المعاني حاولوا بعد ذلك وأرادوا أن يعارضوا معجزة موسى عليه السلام بأنواع من السحر ليظهر واعند الناس ان ما أتى به موسى من باب السحر فجمع فرعون السحرة وأحضرهم فقال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فان قيل كيف امرهم بالكفر والسحر

عز وعلا (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين) فانه صريح فى أن المراد باستكبارهم ما وقع منهم قبل مجىء الحق الذى سموه سحرا أعنى العصا واليد البيضاء كما ينبئ عنه سياق النظم الكريم وذلك أول ما أظهره عليه السلام من الآيات العظام والفاء فيه أيضا فصيحة معربة عما صرح به فى مواضع أخر كأنه قيل قال موسى قد جئتكم ببينة من ربكم الى قوله تعالى فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين فلما جاءهم الحق من عندنا وعرفوه قالوا من فرط عتوهم وعنادهم ان هذا لسحر مبين أى ظاهر كونه سحرا أو فائق فى بابه واضح فيما بين أضرابه وقرئ لساحر (قال موسى) استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الاذهان كأنه قيل فماذا قال لهم موسى حينئذ فقيل قال على طريقة الاستفهام الانكارى التوبيخى (أتقولون للحق) الذى هو أبعد شىء من السحر الذى هو الباطل البحت (لما جاءكم) اى حين مجيئه اياكم ووقوفكم عليه أو من أول الامر من غير تأمل وتدبر وكلا الحالين مما ينافى القول المذكور والمقول محذوف ثقة بدلالة ما قبله وما بعده عليه وايذانا بأنه مما لا ينبغى أن يتفوه به ولو على نهج الحكاية أى أتقولون له ما تقولون من انه سحر يعنى به أنه مما لا يمكن أن يقوله قائل ويتكلم به متكلم أو القول بمعنى العيب والطعن من قولهم فلان يخاف القالة وبين الناس تقاول اذا قال بعضهم لبعض ما يسوءه ونظيره الذكر فى قوله تعالى سمعنا فتى يذكرهم الخ فيستغنى عن المفعول أى أتعيبونه وتطعنون فيه وعلى الوجهين فقوله عز وجل (أسحر هذا) انكار مستأنف من جهته عليه السلام لكونه سحرا وتكذيب لقولهم وتوبيخ لهم على ﴿ هذا ﴾ ذلك اثر توبيخ وتجهيل بعد تجهيل أما على الاول فظاهر وأما على الثانى فوجه ايثار انكار كونه سحرا على انكار كونه معيبا بأن يقال مثلا أفيه عيب حسبما يقتضيه ظاهر الانكار السابق التصريح بالرد عليهم فى خصوصية ما عابوه به بعد التنبيه

والامر بالكفر كفر قلنا انه عليه السلام أمرهم بالقاء الحبال والعصى ليظهر للخلق ان ما أتوا به عمل فاسد وسعى باطل لا على طريق انه عليه السلام أمرهم بالسحر فلما ألقوا حبالهم وعصيهم قال لهم موسى ما جئتم به هو السحر الباطل والغرض منه ان القوم قالوا لموسى ان ما جئت به سحر فذكر موسى عليه السلام ان ما ذكرتموه باطل بل الحق أن الذى جئتم به هو السحر والتمويه الذى يظهر بطلانه ثم أخبرهم بأن الله تعالى يحق الحق ويبطل الباطل وقد اخبر الله تعالى فى سائر السور انه كيف أبطل ذلك السحر وذلك بسبب ان ذلك الثعبان قد تلقف كل تلك الحبال والعصى (المسئلة الثانية) قوله ما جئتم به السحر ما ههنا موصولة بمعنى الذى وهى مرتفعة بالابتداء وخبرها السحر قال الفراء وانما قال السحر بالالف واللام لانه جواب كلام سبق ألا ترى انهم قالوا لما جاءهم موسى هذا سحر فقال لهم موسى بل ما جئتم به السحر فوجب دخول الالف واللام لان النكرة اذا عادت عادت معرفة يقول الرجل لغيره لقيت رجلا فيقول له من الرجل فيعيده بالالف واللام ولو قال له من رجل لم يقع فى فهمه انه سأله عن الرجل الذى ذكره له وقرأ أبو عمرو آلسحر بالاستفهام وعلى هذه القراءة ما استفهامية مرتفع بالابتداء وجئتم به فى موضع الخبر كأنه قيل أى شىء جئتم به ثم قال على وجه التوبيخ والتقريع آلسحر كقوله تعالى أأنت قلت للناس والسحر بدل من المبتدا ولزم أن يلحقه الاستفهام ليساوى المبدل منه فى أنه استفهام كما تقول كم مالك أعشرون أم ثلاثون فجعلت أعشرون بدلا من كم ولا يلزم أن يضمر للسحر خبر لانك اذا أبدلته من المبتدا صار فى موضعه وصار ما كان خبرا عن المبدل منه خبرا عنه ثم قال تعالى ان الله سيبطله اى سيهلكه ويظهر فضيحة صاحبه ان الله لا يصلح عمل المفسدين اى لا يقويه ولا يكمله ثم قال ويحق الله الحق ومعنى احقاق الحق اظهاره وتقويته وقوله بكلماته اى بوعده موسى وقيل بما سبق من قضائه وقدره وفى كلمات الله أبحاث غامضة عميقة عالية وقد ذكرناها فى بعض مواضع من هذا الكتاب * قوله تعالى (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وان فرعون لعال فى الارض وانه لمن المسرفين) واعلم أنه تعالى بين فيما تقدم ما كان من موسى عليه السلام من المعجزات العظيمة وما ظهر من تلقف العصا لكل ما أحضروه من آلات السحر ثم انه تعالى بين أنهم مع مشاهدة المعجزات العظيمة ما آمن به منهم الا ذرية من قومه وانما ذكر تعالى ذلك تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه كان يغتم بسبب اعراض القوم عنه واستمرارهم على الكفر فبين ان له فى هذا الباب بسائر الانبياء اسوة لان الذى ظهر من موسى عليه السلام كان فى الاعجاز فى مرأى العين أعظم ومع ذلك فما آمن به منهم الا ذرية واختلفوا فى المراد بالذرية على وجوه (الاول) ان الذرية ههنا معناها تقليل العدد قال ابن عباس لفظ الذرية يعبر به عن القوم على وجه التحقير والتصغير ولا سبيل الى حمله على التحقير على وجه الاهانة فى

بالانكار السابق على أن ليس فيه شائبة عيب ما وما فى هذا من معنى القرب لزيادة تعيين المشار اليه واستحضار ما فيه من الصفات الدالة على كونه آية باهرة من آيات الله المنادية على امتناع كونه سحرا أى أسحر هذا الذى أمره واضح مكشوف وشأنه مشاهد معروف بحيث لا يرتاب فيه أحد ممن له عين مبصرة وتقديم الخبر للايذان بانه مصب الانكار ولما استلزم كونه سحرا كون من أتى به ساحرا أكد الانكار السابق وما فيه ﴿ ٢٧ ﴾ من التوبيخ والتجهيل بقوله عز وجل (ولا يفلح الساحرون) وهو جملة حالية من ضمير المخاطبين والرابط هو الواو بلا ضمير كما فى قول من قال جاء الشتاء ولست أملك عدة وقولك جاء زيد ولم تطلع الشمس أى أتقولون للحق انه سحر والحال أنه لا يفلح فاعله أى لا يظفر بمطلوب ولا ينجوا من مكروه فكيف يمكن صدوره من مثلى من المؤيدين من عند الله العزيز الحكيم الفائزين بكل مطلب الناجين من كل محذور وقوله تعالى أسحر هذا جملة معترضة بين الحال وصاحبها أكد بها الانكار السابق ببيان استحالة كونه سحرا بالنظر الى ذاته قبل بيان استحالته بالنظر الى صدوره عنه عليه السلام هذا وأما تجويز أن يكون الكل مقول القول على أن المعنى أجئتما بالسحر تطلبان به الفلاح ولا يفلح الساحرون فمما لا يساعده النظم الكريم أصلا أما أولا فلان ماقالوا هو الحكم بأنه سحر من غير أن يكون فيه دلالة على ما تعسف فيه من المعنى بوجه من الوجوه فصرف جوابه عليه السلام عن صريح ما خاطبوه به الى ما لا يفهم منه أصلا مما يجب تنزيه النظم التنزيلى عن الحمل على أمثاله وأما ثانيا فلان التعرض لعدم افلاح السحرة على الاطلاق من وظائف من تمسك بالحق المبين دون الكفرة المتشبثين باذيال بعض منهم فى معارضته عليه السلام ولو كان ذلك من كلامهم لناسب تخصيص عدم الافلاح بمن زعموا ساحرا بناء على غلبة من يأتون به من السحرة وأما ثالثا فلان قوله عز وجل (قالوا أجئتنا) الخ مسوق لبيان أنه عليه السلام ألقمهم الحجر فانقطعوا عن

هذا الموضع فوجب حمله على التصغير بمعنى قلة العدد (الثانى) قال بعضهم المراد أولاد من دعاهم لان الآباء استمروا على الكفر امالان قلوب الاولاد ألين أو دواعيهم على الثبات على الكفر أخف (الثالث) ان الذرية قوم كان آباؤهم من قوم فرعون وأمهاتهم من بنى اسرائيل (الرابع) الذرية من آل فرعون آسية امرأة فرعون وخازنه وامرأة خازنه وما شطتها وأما الضمير فى قوله من قومه فقد اختلفوا أن المراد من قوم موسى أو من قوم فرعون لان ذكرهما جميعا قد تقدم والاظهر أنه عائد الى موسى لانه أقرب المذكورين ولانه نقل ان الذين آمنوا به كانوا من بنى اسرائيل أما قوله على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ففيه أبحاث (البحث الاول) ان أولئك الذين آمنوا بموسى كانوا خائفين من فرعون جدا لانه كان شديد البطش وكان قد أظهر العداوة مع موسى فاذا علم ميل القوم الى موسى كان يبالغ فى ايذائهم فلهذا السبب كانوا خائفين منه (البحث الثانى) انما قال وملئهم مع أن فرعون واحد لوجوه (الاول) انه قد يعبر عن الواحد بلفظ الجمع والمراد التعظيم قال الله تعالى انا نحن نزلنا الذكر (الثانى) أن المراد بفرعون آل فرعون (الثالث) ان هذا من باب حذف المضاف كأنه اريد بفرعون آل فرعون ثم قال أن يفتنهم اى يصرفهم عن دينهم بتسليط أنواع البلاء عليهم ثم قال وان فرعون لعال فى الارض اى لغالب فيها قاهر وانه لمن المسرفين قيل المراد انه كثير القتل كثير التعذيب لمن يخالفه فى أمر من الامور والغرض منه بيان السبب فى كون أولئك المؤمنين خائفين وقيل انما كان مسرفا لانه كان من أخس العبيد فادعى الالهية ❁ قوله تعالى (وقال موسى ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ان قوله ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين جزاء معلق على شرطين أحدهما متقدم والآخر متأخر والفقهاء قالوا المتأخر يجب أن يكون متقدما والمتقدم يجب أن يكون متأخرا ومثاله أن يقول الرجل لامرأته ان دخلت الدار فأنت طالق ان كلمت زيدا وانما كان الامر كذلك لان مجموع قوله ان دخلت الدار فأنت طالق صار مشروطا بقوله ان كلمت زيدا والمشروط متأخر عن الشرط وذلك يقتضى أن يكون المتأخر فى اللفظ متقدما فى المعنى وأن يكون المتقدم فى اللفظ متأخرا فى المعنى والتقدير كأنه يقول لامرأته حال ما كلمت زيدا ان دخلت الدار فأنت طالق فلو حصل هذا التعليق قبل ان كلمت زيدا لم يقع الطلاق اذا عرفت هذا فنقول قوله ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين يقتضى أن يكون كونهم مسلمين شرطا لان يصيروا مخاطبين بقوله ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا فكأنه تعالى يقول للمسلم حال اسلامه ان كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل والامر كذلك لان الاسلام عبارة عن الاستسلام وهو اشارة الى الانقياد للتكاليف الصادرة عن الله تعالى واظهار الخضوع

الاتيان بكلام له تعلق بكلامه عليه السلام فضلا عن الجواب الصحيح واضطروا الى التشبث بذيل التقليد الذى هو دأب كل عاجر محجوج ودين كل معاند لجوج على أنه استئناف وقع جوابا عما قبله من كلامه عليه السلام على طريقة قوله تعالى قال موسى الخ حسبما أشير اليه كأنه قيل فاذا قالوا لموسى عليه السلام عند ما قال لهم ما قال فقيل قالوا عاجزين عن المحاجة أجئتنا (لتلفتنا) اى لتصرفنا فان الفتل واللفت اخوان (عما وجدنا عليه آباءنا) ﴿ ٢٨ ﴾ اى من عبادة الاصنام ولا ريب في أن ذلك انما ينبغى يكون ماذكر من تتمة كلامه عليه السلام على الوجه الذى شرح اذ على تقدير كونه محكيا من قبلهم يكون جوابه عليه السلام خاليا عن التبكيت الملجئ لهم الى العدول عن سنن المحاجة ولا ريب في أنه لا علاقة بين قولهم أجئتنا الخ وبين انكاره عليه السلام لما حكى عنهم مصححة لكونه جوابا عنه (وتكون لكما الكبرياء) اى الملك أو التكبر على الناس باستتباعهم وقرئ ويكون بالياء التحتانية وكلمة فى فى قوله تعالى (فى الارض) اى أرض مصر متعلقة بتكون أو بالكبرياء أو بالاستقرار فى لكما لوقوعه خبرا أو بمحذوف وقع حالا من الكبرياء أو من الضمير فى لكما لتحمله اياه (وما نحن لكما بمؤمنين) اى بمصدقين فيما جئتما به وتثنية الضمير فى هذين الموضعين بعد افراده فيما تقدم من المقامين باعتبار شمول الكبرياء لهما عليهما السلام واستلزام التصديق لاحدهما التصديق للآخر وأما اللفت والمجئ له فحيث كانا من خصائص صاحب الشريعة أسندا الى موسى عليه السلام خاصة (وقال فرعون) توحيد الفعل لان الامر من وظائف ﴿ دين ﴾ فرعون اى قال للملئه يأمرهم بترتيب مبادى الزامهما عليهما السلام بالفعل بعد اليأس من الزامهما بالقول (أئتونى بكل ساحر عليم) بفنون السحر حاذق ماهر فيه وقرئ سحار (فلما جاء السحرة) عطف على مقدر يستدعيه المقام قد حذف ايذانا بسرعة امتثالهم لامر فرعون كما هو شأن الفاء الفصيحة فى كل مقام اى

وترك التمرد وأما الايمان فهو عبارة عن صيرورة القلب عارفا بأن واجب الوجود لذاته واحد وان ما سواه محدث مخلوق تحت تدبيره وقهره وتصرفه واذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره الى الله تعالى ويحصل فى القلب نور التوكل على الله فهذه الآية من لطائف الاسرار والتوكل على الله عبارة عن تفويض الامور بالكلية الى الله تعالى والاعتماد فى كل الاحوال على الله تعالى واعلم أن من توكل على الله تعالى فى كل المهمات كفاه الله تعالى كل الملمات لقوله ومن يتوكل على الله فهو حسبه (المسئلة الثانية) أن هذا الذى أمر موسى قومه به وهو التوكل على الله هو الذى حكاه الله تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال فعلى الله توكلت وعند هذا يظهر التفاوت بين الدرجتين لان نوحا عليه السلام وصف نفسه بالتوكل على الله تعالى وموسى عليه السلام أمر قومه بذلك فكان نوح عليه السلام تاما وكان موسى عليه السلام فوق التمام (المسئلة الثالثة) انما قال فعليه توكلوا ولم يقل توكلوا عليه لان الاول يفيد الحصر كأنه عليه السلام أمرهم بالتوكل عليه ونهاهم عن التوكل على الغير والامر كذلك لانه لما ثبت أن كل ما سواه فهو ملكه وملكه وتحت تصرفه وتسخيره وتحت حكمه وتدبيره امتنع فى العقل أن يتوكل الانسان على غيره فلهذا السبب جاءت هذه الكلمة بهذه العبارة ثم بين تعالى أن موسى عليه السلام لما أمرهم بذلك قبلوا قوله وقالوا على الله توكلنا اى توكلنا عليه ولا نلتفت الى أحد سواه ثم لما فعلوا ذلك اشتغلوا بالدعاء فطلبوا من الله تعالى شيئين (أحدهما) أن قالوا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين وفيه وجوه (الاول) أن المراد لا تفتن بنا فرعون وقومه لانك لو سلطتهم علينا لوقع فى قلوبهم انا لو كنا على الحق لما سلطتهم علينا فيصير ذلك شبهة قوية فى اصرارهم على الكفر فيصير تسليطهم علينا فتنة لهم (الثانى) انك لو سلطتهم علينا لاستوجبوا العقاب الشديد فى الآخرة وذلك يكون فتنة لهم (الثالث) لا تجعلنا فتنة لهم اى موضع فتنة لهم اى موضع عذاب لهم (الرابع) أن يكون المراد من الفتنة المفتون لان اطلاق لفظ المصدر على المفعول جائز كالخلق بمعنى المخلوق والتكوين بمعنى المكون والمعنى لا تجعلنا مفتونين أى لا تمكنهم من أن يحملونا بالظلم والقهر على أن ننصرف عن هذا الدين الحق الذى قبلناه وهذا التأويل متأكد بما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وأما المطلوب الثانى فى هذا الدعاء فهو قوله تعالى ونجنا برحمتك من القوم الكافرين واعلم أن هذا الترتيب يدل على أنه كان اهتمام هؤلاء بأمر دينهم فوق اهتمامهم بأمر دنياهم وذلك لانا ان حملنا قولهم ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين على انهم ان سلطوا على المسلمين صار ذلك شبهة لهم فى ان هذا الدين باطل فتضرعوا الى الله تعالى فى أن يصون اولئك الكفار عن هذه الشبهة وقدموا هذا الدعاء على طلب النجاة لانفسهم وذلك يدل على ان عنايتهم بمصالح

فاتوابه فلماجاؤا (قال لهم موسٰى) لكن لافى ابتداء مجيئهم بل بعد ماقالوا له عليه السلام ماحكى عنهم فى السوّر الاخر من قولهم اما ان تلق وأما أن نكون نحن الملقين ونحوذلك (ألقوا ماأنتم ملقون) اى ملقون له كأئنا ماكان من أصناف السحر (فلماألقوا) ماألقوا من العصى والحبال واسترهبوا الناس وجاؤا بسحر عظيم (قال) لهم (موسى) غير مكترث بهم و بماصنعوا (ماجئتم به السحر) ماموصولة وقعت مبتدأ والسحر خبره اى هو السحر لاماسماه فرعون وقومه من آيات الله سبحانه أوهو من جنس السحر يريهم أن حاله بين لايعبأ به كأنه قال ماجئتم به مما لاينبغى أن يجاء به وقرئ آلسحر على الاستفهام فما استفهامية أى أى شئ جئتم به أهو السحر الذى يعرف حاله كل أحد ولا يتصدى له عاقل وقرئ ماجئتم به سحر وقرئ ما أتيتم به سحر ودلالتهما على المعنى الثانى فى القراءة المشهورة أظهر (ان الله سيبطله) اى سيمحقه بالكلية بمايظهره على يدى من المعجزة فلا يبقى له أثراً صلا أوسيظهر بطلانه للناس والسين للتأكيد (ان الله لايصلح عمل المفسدين) اى عمل جنس المفسدين على الاطلاق فيدخل فيه السحر دخولا أوليا أو عملكم فيكون من باب وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالافساد والاشعار بعلة الحكم وليس المراد بعدم اصلاح عملهم عدم جعل فسادهم صلاحا بل عدم اثباته واتمامه اى لايثبته ولايكمله ولايديمه بل يمحقه و يهلكه و يسلط عليه الدمار والجملة تعليل لماسبق من قوله ان الله سيبطله والكل اعتراض تذييلى وفيه دليل على أن السحر افساد وتمويه لاحقيقة له (و يحق الله الحق) عطف على قوله سيبطله اى يثبته و يقويه واظهار الاسم الجليل فى المقامين الاخيرين لالقاء الروعة وتربية المهابة (بكلماته) بأوامره وقضاياه وقرئ بكلمته (ولو كره المجرمون) ذلك والمراد بهم كل من اتصف بالاجرام من السحرة وغيرهم (فاآمن لموسى) معطوف على مقدر قدفصل فى مواقع اخرأى فألقى عصاه فاذاهى تلقف مايأفكون الخ وانمالم يذكر تعويلا

دين أعدائهم فوق عنايتهم بمصالح أنفسهم وان حملناه على أن لايمكن الله تعالى أولئك الكفار من أن يحملوهم على ترك هذا الدين كان ذلك أيضا دليلا على أن اهتمامهم بمصالح أديانهم فوق اهتمامهم بمصالح أبدانهم وعلى جميع التقديرات فهذه لطيفة شريفة * قوله تعالى (وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلوة و بشر المؤمنين) اعلم أنه لما شرح خوف المؤمنين من الكافرين وماظهر منهم من التوكل على الله تعالى أتبعه بأن أمر موسى وهرون باتخاذ المساجد والاقبال على الصلوات يقال تبوأ المكان أى اتخذه مبوأ كقوله توطنه اذا اتخذه وطنا والمعنى اجعلا بمصر بيوتا لقومكما ومرجعا ترجعون اليه للعبادة والصلاة ثم قال واجعلوا بيوتكم قبلة وفيه أبحاث (البحث الاول) من الناس من قال المراد من البيوت المساجد كما فى قوله تعالى فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ومنهم من قال المراد مطلق البيوت أما الاولون فقد فسروا القبلة بالجانب الذى يستقبل فى الصلاة ثم قالوا والمراد من قوله واجعلوا بيوتكم قبلة أى اجعلوا بيوتكم مساجد تستقبلونها لاجل الصلاة وقال الفراء واجعلوا بيوتكم قبلة أى الى القبلة وقال ابن الانبارى واجعلوا بيوتكم قبلة أى قبلا يعنى مساجد فأطلق لفظ الوحدان والمراد الجمع واختلفوا فى أن هذه القبلة أين كانت فظاهر أن لفظ القرآن لايدل على تعيينه الاأنه نقل عن ابن عباس أنه قال كانت الكعبة قبلة موسى عليه السلام وكان الحسن يقول الكعبة قبلة كل الانبياء وانماوقع العدول عنها بأمر الله تعالى فى أيام الرسول عليه السلام بعد الهجرة وقال آخرون كانت تلك القبلة جهة بيت المقدس وأما القائلون بأن المراد من لفظ البيوت المذكورة فى هذه الآية مطلق البيت فهؤلاء لهم فى تفسير قوله قبلة وجهان (الاول) المراد بجعل تلك البيوت قبلة أى متقابلة والمقصود منه حصول الجمعية واعتضاد البعض بالبعض وقال آخرون المراد واجعلوا دوركم قبلة أى صلوا فى بيوتكم (البحث الثانى) انه تعالى خص موسى وهرون فى أول هذه الآية بالخطاب فقال أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا ثم عمم هذا الخطاب فقال واجعلوا بيوتكم قبلة والسبب فيه أنه تعالى أمر موسى وهرون أن يتبوآ لقومهما بيوتا للعبادة وذلك مما يفوض الى الانبياء ثم جاء الخطاب بعد ذلك عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها لان ذلك واجب على الكل ثم خص موسى عليه السلام فى آخر الكلام بالخطاب فقال و بشر المؤمنين وذلك لان الغرض الاصلى من جميع العبادات حصول هذه البشارة فخص الله تعالى موسى بها ليدل بذلك على ان الاصل فى الرسالة هو موسى عليه السلام وأن هرون تبع له (البحث الثالث) ذكر المفسرون فى كيفية هذه الواقعة وجوها ثلاثة (الاول) ان موسى عليه السلام ومن معه كانوا فى أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا فى بيوتهم خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم و يفتنوهم عن دينهم كما كان المؤمنون على هذه الحالة فى أول الاسلام

على ذلك وايثار اللايجاز وايذانا بان قوله تعالى ان الله سيبطله مما لا يحتمل الخلف أصلا وعطفه على ذلك بالفاء مع كونه عدما مستمرا من قبيل ما فى قوله عزوجل فاتبعوا أمر فرعون وما فى قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر والسر فى ذلك أن الاتيان بالشئ بعد ورود ما يوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث اى فما آمن له عليه السلام بمشاهدة تلك الآيات القاهرة ﴿٣٠﴾ (الا ذرية من قومه) اى الا أولاد من أولاد قومه بنى اسرائيل حيث دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون واجابته طائفة من شبانهم وقيل الضمير لفرعون والذرية طائفة من شبانهم آمنوا به عليه السلام أو مؤمن آل فرعون وامرأته آسية وخازنه وامرأته وماشطته وهو بعيد (على خوف) اى كائنين على خوف عظيم (من فرعون وملئهم) الضمير لفرعون والجمع لما هو المعتاد فى ضمائر العظماء ولا يأباه مقام بيان علوه فى الفساد وغلوه فى الشر والتسلط على العباد أو لان المراد به آله كما يقال ربيعة ومضر أو للذرية أو للقوم أى على خوف من فرعون ومن أشراف بنى اسرائيل حيث كانوا يمنعون أعقابهم خوفا من فرعون عليهم وعلى أنفسهم (أن يفتنهم) اى يعذبهم وهو بدل اشتمال أو مفعول خوف فان اعمال المصدر المنكر كثير كما فى قوله عزوجل أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما أو مفعول له بعد حذف اللام واسناد الفعل الى فرعون خاصة لانه الآمر بالتعذيب (وان فرعون لعال فى الارض) لغالب فى أرض مصر (وانه لمن المسرفين) فى الظلم والفساد بالقتل وسفك الدماء أو فى الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية ﴿ واذا ﴾ واسترق أسباط الانبياء والجملتان اعتراض تذييلى مؤكد لمضمون ما سبق (وقال موسى) لما رأى تخوف المؤمنين منه (ياقوم ان كنتم آمنتم بالله) اى صدقتم به وبآياته (فعليه توكلوا) وبه ثقوا ولا تخافوا أحدا غيره فانه كافيكم كل شر وضر (ان كنتم مسلمين) مستسلمين لقضاء الله تعالى مخلصين له وليس هذا من تعليل الحكم بشرطين فان

فى مكة (الثانى) قيل انه تعالى لما أرسل موسى اليهم أمر فرعون بتخريب مساجد بنى اسرائيل ومنعهم من الصلاة فأمرهم الله تعالى أن يتخذوا مساجد فى بيوتهم ويصلوا فيها خوفا من فرعون (الثالث) أنه تعالى لما أرسل موسى اليهم وأظهر فرعون تلك العداوة الشديدة أمر الله تعالى موسى وهرون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الاعداء وتكفل تعالى أنه يصونهم عن شر الاعداء * قوله تعالى (وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) اعلم أن موسى لما بالغ فى اظهار المعجزات الظاهرة القاهرة ورأى القوم مصرين على الجحود والعناد والانكار أخذ يدعو عليهم ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولا سبب اقدامه على تلك الجرائم وكان جرمهم هو أنهم لاجل حبهم الدنيا تركوا الدين فلهذا السبب قال موسى عليه السلام ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا والزينة عبارة عن الصحة والجمال واللباس والدواب وأثاث البيت والمال ما يزيد على هذه الاشياء من الصامت والناطق ثم قال ليضلوا عن سبيلك وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى وعاصم ليضلوا بضم الياء وقرأ الباقون بفتح الياء (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على انه تعالى يضل الناس ويريد اضلالهم وتقريره من وجهين (الاول) ان اللام فى قوله ليضلوا لام التعليل والمعنى أن موسى قال يارب العزة انك أعطيتهم هذه الزينة والاموال لاجل أن يضلوا فدل هذا على انه تعالى قد يريد اضلال المكلفين (الثانى) أنه قال واشدد على قلوبهم فقال الله تعالى قد أجيبت دعوتكما وذلك أيضا يدل على المقصود قال القاضى لا يجوز أن يكون المراد من هذه الآية ما ذكرتم ويدل عليه وجوه (الاول) انه ثبت انه تعالى منزه عن فعل القبيح وارادة الكفر قبيحة (والثانى) أنه لو أراد ذلك لكان الكفار مطيعين لله تعالى بسبب كفرهم لانه لا معنى للطاعة الا الاتيان بما يوافق الارادة ولو كانوا كذلك لما استحقوا الدعاء عليهم بطمس الاموال وشد القلوب (والثالث) انا لو جوزنا أن يريد اضلال العباد لجوزنا أن يبعث الانبياء عليهم السلام للدعاء الى الضلال ولجاز أن يقوى الكذابين الضالين المضلين باظهار المعجزات عليهم وفيه هدم الدين وابطال الثقة بالقرآن (والرابع) أنه لا يجوز أن يقول لموسى وهرون عليهما السلام فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى وأن يقول ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ثم انه تعالى أراد الضلال منهم وأعطاهم النعم لكى يضلوا الا أن ذلك كالمناقضة فلا بد من حمل أحدهما على موافقة الآخر (الخامس) أنه لا يجوز أن يقال ان موسى عليه السلام دعا ربه بان يطمس على أموالهم لاجل ان لا يؤمنوا مع تشدده فى ارادة الايمان واعلم أنا بالغنا فى تكثير هذه الوجوه فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب

المعلق بالايمان وجوب التوكل عليه تعالى فانه المقتضى له والمشروط بالاسلام وجوده فانه لايتحقق مع التخليط ونظيره ان أحسن اليك زيد فاحسن اليه ان قدرت عليه (فقالوا) مجيبين له عليه السلام من غير تلعثم فى ذلك (على الله توكلنا) لانهم كانوا مؤمنين مخلصين ثم دعوا ربهم قائلين(ربنا لاتجعلنا فتنة) اى موقع فتنة(للقوم الظالمين) اى لاتسلطهم علينا حتى يعذبونا أو يفتنونا عن ديننا أو يفتنوا بنا ﴿ ٣١ ﴾ ويقولوا لوكان هؤلاء على الحق لما أصيبوا وقوله تعالى (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) دعاء منهم بالانجاء من سوء جوارهم وشؤم مصاحبتهم بعد الانجاء من ظلمهم ولذلك عبر عنهم بالكفر بعد ما وصفوا بالظلم وفى ترتيب الدعاء على التوكل تلويح أن الداعى حقه أن يبنى دعاءه على التوكل على الله تعالى (وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوا) أن مفسرة لان فى الوحى معنى القول اى اتخذا مباءة (لقومكما بمصر بيوتا) تسكنون فيها وترجعون اليها للسادة (واجعلوا) أنتما وقومكما (بيوتكم) تلك (قبلة) مصلى وقيل مساجد متوجهة نحو القبلة يعنى الكعبة فان موسى عليه السلام كان يصلى اليها (وأقيموا الصلوة) اى فيها أمروا بذلك فى اول أمرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم (وبشر المؤمنين) بالنصرة فى الدنيا اجابة لدعوتهم والجنة فى العقبى وانما ثنى الضمير أولا لان التبوأ للقوم واتخاذ المعابد مما يتولاه رؤساء القوم تشاور ثم جمع لان جعل البيوت مساجد والصلاة فيها مما يفعله كل أحد ثم وحد لان بشارة الامة وظيفة صاحب الشريعة ووضع المؤمنين موضع ضمير القوم لمدحهم بالايمان وللاشعار بأنه المدار فى التبشير (وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة) اى ما يتزين به من اللباس والمراكب ونحوها (وأموالا) وأنواعا كثيرة من المال(فى الحيوة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك) دعاء عليهم بلفظ الامر بما علم بممارسة أحوالهم أنه لايكون غيره كقولك لعن الله ابليس وقيل اللام للعاقبة وهى متعلقة بآتيت

واذا ثبت هذا فنقول وجب تأويل هذه الكلمة وذلك من وجوه (الاول) أن اللام فى قوله ليضلوا لام العاقبة كقوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ولما كانت عاقبة قوم فرعون هو الضلال وقد أعلمه الله تعالى لاجرم عبر عن هذا المعنى بهذا اللفظ (الثانى) أن قوله ربنا ليضلوا عن سبيلك أى لئلا يضلوا عن سبيلك فحذف لا لدلالة المعقول عليه كقوله يبين الله لكم أن تضلوا والمراد أن لاتضلوا وكقوله تعالى قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة والمراد لئلا تقولوا ومثل هذا الحذف كثير فى الكلام (الثالث) أن يكون موسى عليه السلام ذكر ذلك على سبيل التعجب المقرون بالانكار والتقدير كأنك آتيتهم ذلك لهذا الغرض فانهم لاينفقون هذه الاموال الا فيه وكأنه قال أآتيتهم زينة وأموالا لاجل أن يضلوا عن سبيل الله ثم حذف حرف الاستفهام كما فى قول الشاعر

كذبتك عينك أم رأيت بواسط ❊ غلس الظلام من الرباب خيالا

أراد أكذبتك فكذا ههنا (الرابع) قال بعضهم هذه اللام لام الدعاء وهى لام مكسورة تجزم المستقبل ويفتتح بها الكلام فيقال ليغفر الله للمؤمنين وليعذب الله الكافرين والمعنى ربنا ابتلهم بالضلال عن سبيلك (الخامس) أن هذه اللام لام التعليل لكن بحسب ظاهر الامر لا فى نفس الحقيقة وتقريره أنه تعالى لما أعطاهم هذه الاموال وصارت تلك الاموال سببا لمزيد البغى والكفر أشبهت هذه الحالة حالة من اعطى المال لاجل الاضلال فورد هذا الكلام بلفظ التعليل لاجل هذا المعنى (السادس) بينا فى تفسير قوله تعالى يضل به كثيرا فى أول سورة البقرة ان الضلال قد جاء فى القرآن بمعنى الهلاك يقال ضل الماء فى اللبن أى هلك فيه اذا ثبت هذا فنقول قوله ربنا ليضلوا عن سبيلك معناه ليهلكوا ويموتوا ونظيره قوله تعالى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا فهذا جملة ما قيل فى هذا الباب واعلم انا قد أجبنا عن هذه الوجوه مرارا كثيرة فى هذا الكتاب ولا بأس بأن نعيد بعضها فى هذا المقام فنقول الذى يدل على أن حصول الاضلال من الله تعالى وجوه (الاول) ان العبد لا يقصد الا حصول الهداية فلما لم تحصل الهداية بل حصل الضلال الذى لا يريده علمنا أن حصوله ليس من العبد بل من الله تعالى فان قالوا انه ظن بهذا الضلال انه هدى فلاجرم قد أوقعه وأدخله فى الوجود فنقول فعلى هذا يكون اقدامه على تحصيل هذا الجهل بسبب الجهل السابق فلو كان حصول ذلك الجهل السابق بسبب جهل آخر لزم التسلسل وهو محال فثبت ان هذه الجهالات والضلالات لابد من انتهائها الى جهل أول وضلال أول وذلك لا يمكن أن يكون باحداث العبد وتكوينه لانه كرهه وانما أراد ضده فوجب أن يكون من الله تعالى (الثانى) انه تعالى لما خلق الخلق بحيث يحبون المال والجاه حبا شديدا لا يمكنه ازالة هذا الحب عن نفسه البتة وكان حصول هذا الحب يوجب الاعراض

أوللعلة لان ايتاء النعم على الكفر استدراج وتثبيت على الضلال ولانهم لما جعلوها ذريعة الى الضلال فكانهم أوتوها ليضلوافيكون ربنا تكريرا للاول تأكيدا أوتنبيها على أن المقصود عرض ضلا لهم وكفرانهم تقدمة لقوله تعالى (ربنا اطمس على أموالهم) الطمس المحو وقرئ بضم الميم اى أهلكها (واشدد على قلوبهم) اى اجعلها قاسية واطبع عليها حتى لاتنشرح للايمان كماهوقضية شأنهم (فلايؤمنوا) جواب للدعاء أودعاء بلفظ النهى أوعطف على ليضلوا ومابينهما دعاء معترض (حتى يروا العذاب الاليم) اى يعاينوه ويوقنوا به بحيث لاينفعهم ذلك اذذاك (قال قدأجيبت دعوتكما) يعنى موسى وهرون عليهما السلام لانه كان يؤمن كما يشعر به اضافة الرب الى ضمير المتكلم مع الغير فى المواقع الثلاثة (فاستقيما) فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزام الحجة ولاتستعجلا فان ماطلبتما كائن فى وقته لامحالة روى انه مكث فيهم بعدالدعاء أربعين سنة (ولاتتبعان سبيل الذين لايعلمون) أى بعادات الله سبحانه فى تعليق الامور بالحكم والمصالح أوسبيل الجهلة فى الاستعجال أوعدم الوثوق بوعدالله تعالى وقرئ بالنون الخفيفة وكسرها لالتقاء الساكنين ولاتتبعان من تبع ولاتتبعان أيضا (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر) هومن جاوز المكان اذا تخطاه وخلفه والباء للتعدية اى جعلناهم مجاوزين البحر بأن جعلناه يبسا وحفظناهم حتى بلغوا الشط وقرئ جوزنا وهومن التجويز المرادف للمجاوزة لا لما هو بمعنى التنفيذ نحو ماوقع فى قول الاعشى * كما جوز السكى فى الباب فيتق * والاقيل وجوزنا بنى اسرائيل فى البحر وخلا النظم ﴿ الايمان ﴾ الكريم عن الايذان بانفصالهم عن البحر وبمقارنة العناية الالهية لهم عند الجواز كما هو المشهور فى الفرق بين أذهبه وذهب به (فأتبعهم) يقال تبعته حتى اتبعته اذا كان سبقك فلحقته اى أدركهم ولحقهم (فرعون وجنوده) حتى تراءت الفئتان وكاد يجتمع الجمعان (بغيا وعدوا) ظلما واعتداء اى باغين

عمن يستخدمه ويوجب التكبر عليه وترك الالتفات الى قوله وذلك يوجب الكفر فهذه الاشياء بعضها يتأدى الى البعض تأديا على سبيل اللزوم وجب أن يكون فاعل هذا الكفر هوالذى خلق الانسان مجبولا على حب المال والجاه (الثالث) وهوالحجة الكبرى ان القدرة بالنسبة الى الضدين على السوية فلايترجح أحد الطرفين على الثانى الالمرجح وذلك المرجح ليس من العبد والالعاد الكلام فيه فلابد وان يكون من الله تعالى واذاكان كذلك كانت الهداية والاضلال من الله تعالى (الرابع) انه تعالى أعطى فرعون وقومه زينة وأموالا وقوى حب ذلك المال والجاه فى قلوبهم وأودع فى طباعهم نفرة شديدة عن خدمة موسى عليه السلام والانقياد له لاسيما وكان فرعون كالمنعم فى حقه والمربى له والنفرة عن خدمة من هذا شأنه راسخة فى القلوب وكل ذلك يوجب اعراضهم عن قبول دعوة موسى عليه السلام واصرارهم على انكار صدقه فثبت بالدليل العقلى ان اعطاء الله تعالى فرعون وقومه زينة الدنيا وأموال الدنيا لابدوأن يكون موجبا اضلالهم فثبت ان ماأشعر به ظاهر اللفظ فقدثبت صحته بالعقل الصريح فكيف يمكن ترك ظاهر اللفظ فى مثل هذا المقام وكيف يحسن حمل الكلام على الوجوه المتكلفة الضعيفة جدا اذا عرفت هذا فنقول (أما الوجه الاول) وحمل اللام على لام العاقبة فضعيف لان موسى عليه السلام ماكان عالما بالعواقب فان قالوا ان الله تعالى أخبره بذلك قلنا فلما أخبر الله عنهم انهم لايؤمنون كان صدور الايمان منهم محالا لان ذلك يستلزم انقلاب خبر الله كذبا وهومحال والمفضى الى المحال محال (وأما الوجه الثانى) وهو قولهم يحمل قوله ليضلوا عن سبيلك على أن المراد لئلا يضلوا عن سبيلك فنقول ان هذا التاويل ذكره أبوعلى الجبائى فى تفسيره وأقول انه لما شرع فى تفسير قوله تعالى ماأصابك من حسنة فمن الله وماأصابك من سيئة فمن نفسك ثم نقل عن بعض أصحابنا انه قرأ فمن نفسك على سبيل الاستفهام بمعنى الانكار ثم انه استبعد هذه القراءة وقال انها تقتضى تحريف القرآن وتغييره وتفتح باب تأويلات الباطنية وبالغ فى انكار تلك القراءة وهذا الوجه الذى ذكره ههنا شرمن ذلك لانه قلب النفى اثباتا والاثبات نفيا وتجويزه يفتح باب أن لايبقى الاعتماد على القرآن لافى نفيه ولافى اثباته وحينئذ يبطل القرآن بالكلية وهذا بعينه هوالجواب عن قوله المراد منه الاستفهام بمعنى الانكار فان تجويزه يوجب تجويز مثله فى سائر المواطن فلعله تعالى انما قال أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة على سبيل الانكار والتعجب وأما بقية الجوابات فلايخفى ضعفها ثم انه تعالى حكى عن موسى عليه السلام أنه قال ربنا اطمس على أموالهم وذكرنا معنى الطمس عندقوله تعالى من قبل أن نطمس وجوها والطمس هوالمسخ قال ابن عباس رضى الله عنهما بلغنا أن الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأنصافا وأثلاثا وجعل سكرهم حجارة ثم قال واشدد على قلوبهم ومعنى الشد على القلوب الاستيثاق منها حتى لايدخلها

وعادين أو البغي والعدوان وقرئ وعدوا وذلك أن موسى عليه السلام خرج ببني اسرائيل على حين غفلة من فرعون فلما سمع به تبعهم حتى لحقهم ووصل ﴿ ٣٣ ﴾ الى الساحل وهم قد خرجوا من البحر ومسلكهم باق على حاله يبسا فسلكه بجنوده أجمعين فلما دخل آخرهم وهم أولهم بالخروج غشيهم من اليم ما غشيهم (حتى اذا أدركه الغرق) اى لحقه وألجمه (قال آمنت انه) اى بأنه والضمير للشأن وقرئ انه على الاستئناف بدلا من آمنت وتفسيرا له (لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل) لم يقل كما قاله السحرة آمنا برب العالمين رب موسى وهرون بل عبر عنه تعالى بالموصول وجعل صلته ايمان بنى اسرائيل به تعالى للاشعار برجوعه عن الاستعصاء وباتباعه لمن كان يستتبعهم طمعا فى القبول والانتظام معهم فى سلك النجاة (وأنا من المسلمين) اى الذين أسلموا نفوسهم لله اى جعلوها سالمة خالصة له تعالى وأراد بهم اما بنى اسرائيل خاصة واما الجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا والجملة على الاول عطف على آمنت وايثار الاسمية لادعاء الدوام والاستمرار وعلى الثانى يحتمل الحالية أيضا من ضمير ﴿ ٥ ﴾ نا المتكلم أى آمنت مخلصا لله منتظما فى سلك الراسخين فيه ولقد كرر المعنى الواحد بثلاث عبارات حرصا على القبول المفضى الى النجاة وهيهات هيهات بعد ما فات ما فات وأنى ما هو آت وقوله عز وجل (آلآن) مقول لقول مقدر معطوف على قال اي فقيل آلآن وهو

الايمان قال الواحدى وهذا دليل على ان الله تعالى يفعل ذلك بمن يشاء ولولا ذلك لما حسن من موسى عليه السلام هذا السؤال ثم قال فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم وفيه وجهان (احدهما) أنه يجوز أن يكون معطوفا على قوله ليضلوا والتقدير ربنا ليضلوا عن سبيلك فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم وقوله ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم يكون اعتراضا (والثانى) يجوز أن يكون جوابا لقوله واشدد والتقدير اطبع على قلوبهم وقسها حتى لا يؤمنوا فانها تستحق ذلك ثم قال تعالى قد أجيبت دعوتكما وفيه وجهان (الاول) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن موسى كان يدعو وهرون كان يؤمن فلذلك قال قد أجيبت دعوتكما وذلك لان من يقول عند دعاء الداعى آمين فهو أيضا داع لان قوله آمين تأويله استجب فهو سائل كما أن الداعى سائل أيضا (الثانى) لا يبعد أن يكون كل واحد منهما ذكر هذا الدعاء غاية ما فى الباب أن يقال انه تعالى حكى هذا الدعاء عن موسى بقوله وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا الا أن هذا لا ينافى أن يكون هرون قد ذكر ذلك الدعاء ايضا وأما قوله فاستقيما يعنى فاستقيما على الدعوة والرسالة والزيادة فى الزام الحجة فقد لبث نوح فى قومه ألف سنة الا قليلا فلا تستعجلا قال ابن جريج ان فرعون لبث بعد هذا الدعاء أربعين سنة وأما قوله ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ففيه بحثان (البحث الاول) المعنى لا تتبعان سبيل الجاهلين الذين يظنون أنه متى كان الدعاء مجابا كان المقصود حاصلا فى الحال فربما أجاب الله تعالى دعاء انسان فى مطلوبه الا أنه انما يوصله اليه فى وقته المقدر والاستعجال لا يصدر الا من الجهال وهذا كما قال لنوح عليه السلام انى أعظك أن تكون من الجاهلين واعلم ان هذا النهى لا يدل على أن ذلك قد صدر من موسى عليه السلام كما أن قوله لئن أشركت ليحبطن عملك لا يدل على صدور الشرك منه (البحث الثانى) قال الزجاج قوله ولا تتبعان موضعه جزم والتقدير ولا تتبعا الا أن النون الشديدة دخلت على النهى مؤكدة وكسرت لسكونها وسكون النون التى قبلها فاختير لها الكسرة لانها بعد الالف تشبه نون التثنية وقرأ ابن عامر ولا تتبعان بتخفيف النون ❁ قوله تعالى (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) اعلم أن تفسير اللفظ فى قوله وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر مذكور فى سورة الاعراف والمعنى أنه تعالى لما أجاب دعاءهما أمر بنى اسرائيل بالخروج من مصر فى الوقت المعلوم ويسر لهم أسبابه وفرعون كان غافلا عن ذلك فلما سمع أنهم خرجوا وعزموا على مفارقة مملكته خرج على عقبهم وقوله فأتبعهم اى لحقهم يقال اتبعه حتى لحقه وقوله بغيا وعدوا البغى طلب الاستعلاء بغير حق والعدو الظلم روى أن موسى عليه السلام لما خرج مع قومه وصلوا الى طرف

البحر وقرب فرعون مع عسكره منهم فوقعوا فى خوف شديد لانهم صاروا بين بحر مغرق وجند مهلك فأنعم الله عليهم بأن أظهر لهم طريقا فى البحر على ماذكر الله تعالى هذه القصة بتمامها فى سائر السور ثم ان موسى عليه السلام مع أصحابه دخلوا وخرجوا وأبقى الله تعالى ذلك الطريق يبسا ليطمع فرعون وجنوده فى التمكن من العبور فلما دخل مع جمعه أغرقه الله تعالى بان أوصل أجزاء الماء بعضها ببعض وأزال الفلق فهو معنى قوله فأتبعهم فرعون وجنوده وبين ماكان فى قلوبهم من البغى وهى محبة الافراط فى قتلهم وظلمهم والعدو وهو تجاوز الحد ثم ذكر تعالى انه لما أدركه الغرق أظهر كلمة الاخلاص ظنا منه أنه ينجيه من تلك الآفة وههنا سؤالان (السؤال الاول) ان الانسان اذا وقع فى الغرق لايمكنه أن يتلفظ بهذا اللفظ فكيف حكى الله تعالى عنه أنه ذكر ذلك (والجواب) من وجهين (الاول) ان مذهبنا أن الكلام الحقيقى هو كلام النفس لا كلام اللسان فهو انما ذكر هذا الكلام بالنفس لا بكلام اللسان ويمكن أن يستدل بهذه الآية على اثبات كلام النفس لانه تعالى حكى عنه أنه قال هذا الكلام وثبت بالدليل انه ماقاله باللسان فوجب الاعتراف بثبوت كلام غير كلام اللسان وهو المطلوب (الثانى) أن يكون المراد من الغرق مقدماته (السؤال الثانى) انه آمن ثلاث مرات أولها قوله آمنت وثانيها قوله لااله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وثالثها قوله وأنا من المسلمين فما السبب فى عدم القبول والله تعالى متعال عن أن يلحقه غيظ وحقد حتى يقال انه لاجل ذلك الحقد لم يقبل منه هذا الاقرار (والجواب) العلماء ذكروا فيه وجوها (الاول) انه انما آمن عند نزول العذاب والايمان فى هذا الوقت غير مقبول لان عند نزول العذاب يصير الحال وقت الالجاء وفى هذا الحال لاتكون التوبة مقبولة ولهذا السبب قال تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا (الوجه الثانى) هو انه انما ذكر هذه الكلمة ليتوسل بها الى دفع تلك البلية الحاضرة والمحنة الناجزة فما كان مقصوده من هذه الكلمة الاقرار بوحدانية الله تعالى والاعتراف بعزة الربوبية وذلة العبودية وعلى هذا التقدير فما كان ذكر هذه الكلمة مقرونا بالاخلاص فلهذا السبب ماكان مقبولا (الوجه الثالث) هو أن ذلك الاقرار كان مبنيا على محض التقليد ألا ترى أنه قال لااله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل فكأنه اعترف بأنه لايعرف الله الا أنه سمع من بنى اسرائيل أن للعالم الها فهو أقر بذلك الاله الذى سمع من بنى اسرائيل أنهم أقروا بوجوده فكان هذا محض التقليد فلهذا السبب لم تصر الكلمة مقبولة منه ومزيد التحقيق فيه أن فرعون على مابيناه فى سورة طه كان من الدهرية وكان من المنكرين لوجود الصانع تعالى ومثل هذا الاعتقاد الفاحش لاتزول ظلمته الا بنور الحجج القطعية والدلائل اليقينية وأما بالتقليد المحض فهو لايفيد لانه يكون ضما لظلمة التقليد الى ظلمة الجهل السابق (الوجه الرابع) رأيت فى بعض الكتب أن بعض أقوام من بنى اسرائيل لما جاوزوا البحر

الى قوله تعالى آية حكاية لما جرى منه سبحانه من الغضب على المخذول ومقابلة ما أظهره بالرد على وجه الانكار التوبيخى على تأخيره وتقريعه بالعصيان والافساد وغير ذلك ❁ ٣٤ ❁ وفى حذف الفعل المذكور وابراز الخبر المحكى فى صورة الانشاء من الدلالة على عظم السخط وشدة الغضب ما لايخفى كما يفصح عنه ماروى من أن جبريل دس فاه عند ذلك بحال البحر وسده به فانه تأكيد للرد القولى بالرد الفعلى ولا ينافيه تعليله بمخافة ادراك الرحمة فيما نقل أنه قال للنبى عليهما السلام فلو رأيتنى يا محمد وأنا آخذ من حال البحر فأدسه فى فيه مخافة أن تدركه الرحمة اذ المراد بها الرحمة الدنيوية اى النجاة التى هى طلبة المخذول وليس من ضرورة ادراكها صحة الايمان كما فى ايمان قوم يونس عليه السلام حتى يلزم من كراهته ما لايتصور فى شأن جبريل عليه السلام من الرضا بالكفر اذ لا استحالة فى ترتب هذه الرحمة على مجرد التفوه بكلمة الايمان وان كان ذلك فى حالة البأس واليأس فيحمل دسه عليه السلام على سد باب الاحتمال البعيد لكمال الغيظ وشدة الحرد فتدبر والله الموفق وحق العامل فى الظرف أن يقدر مؤخرا ليتوجه الانكار والتوبيخ الى تاخير ❁ اشتغلوا ❁ الايمان الى حد يمتنع قبوله فيه اى آلآن تؤمن حين يئست من الحياة وأيقنت بالممات وقوله عز وعلا (وقد عصيت قبل) حال من فاعل الفعل المقدر جئ به لتشديد التوبيخ والتقريع على تأخير الايمان الى

هذا الآن بيان أنه لم يكن تأخيره لعدم بلوغ الدعوة اليه ولا للتأمل والتدبر فى دلائله وآياته ولا لشىء آخر مما عسى يعد عذرا فى التأخير بل كان ذلك على طريقة الرد والاستعصاء والافساد فان قوله تعالى (وكنت من المفسدين) عطف على عصيت داخل فى حيز الحال اى وكنت من الغالين فى الضلال والاضلال عن الايمان كقوله تعالى الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون فهذا عبارة عن فساده الراجع الى نفسه والسارى الى غيره من الظلم والتعدى وصد بنى اسرائيل عن الايمان والاول عن عصيانه الخاص به (فاليوم ننجيك) اى نخرجك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك طافيا وفى التعبير عنه بالتنجية تلويح بأن مراده بالايمان هو النجاة كما مر وتهكم به أو نلقيك على نجوة من الارض ليراك بنو اسرائيل وقرئ ننجيك من الانجاء وننحيك بالحاء من التنحية اى نلقيك بناحية الساحل (ببدنك) فى موضع الحال من ضمير المخاطب اى ننجيك ملابسا ببدنك فقط لا مع روحك كما هو مطلوبك فهو تخييب له وحسم لاطماعه بالمرة أو عاريا عن اللباس أو كاملا سويا أو بدرعك وكانت له درع من الذهب يعرف بها وقرئ بأبدانك أى بأجزاء بدنك كلها كقولهم هوى بأجرامه أو بدروعك كأنه كان مظاهرا بينها (لتكون لمن خلفك آية) لمن وراءك علامة وهم بنو اسرائيل اذ كان فى نفوسهم من عظمته

اشتغلوا بعبادة العجل فلما قال فرعون آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل انصرف ذلك الى العجل الذى آمنوا بعبادته فى ذلك الوقت فكانت هذه الكلمة فى حقه سببا لزيادة الكفر (الوجه الخامس) ان اليهود كانت قلوبهم مائلة الى التشبيه والتجسيم ولهذا السبب اشتغلوا بعبادة العجل لظنهم أنه تعالى حل فى جسد ذلك العجل ونزل فيه فلما كان الامر كذلك وقال فرعون آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل فكأنه آمن بالاله الموصوف بالجسمية والحلول والنزول وكل من اعتقد ذلك كان كافرا فلهذا السبب ما صح ايمان فرعون (الوجه السادس) لعل الايمان انما كان يتم بالاقرار بوحدانية الله تعالى والاقرار بنبوة موسى عليه السلام فههنا لما أقر فرعون بالوحدانية ولم يقر بالنبوة لا جرم لم يصح ايمانه ونظيره أن الواحد من الكفار لو قال ألف مرة أشهد أن لا اله الا الله فانه لا يصح ايمانه الا اذا قال معه وأشهد أن محمدا رسول الله فكذا ههنا (الوجه السابع) روى صاحب الكشاف أن جبريل عليه السلام أتى فرعون بفتيا فيها ما قول الامير فى عبد نشأ فى مال مولاه ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادعى السيادة دونه فكتب فرعون فيها يقول أبو العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج على سيده الكافر بنعمته أن يغرق فى البحر ثم ان فرعون لما غرق رفع جبريل عليه السلام فتياه اليه * أما قوله تعالى آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ففيه سؤالات (السؤال الاول) من القائل له آلآن وقد عصيت قبل (الجواب) الاخبار دالة على أن قائل هذا القول هو جبريل وانما ذكر قوله وكنت من المفسدين فى مقابلة قوله وأنا من المسلمين ومن الناس من قال ان قائل هذا القول هو الله تعالى لأنه ذكر بعده فاليوم ننجيك ببدنك الى قوله وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون وهذا الكلام ليس الا كلام الله تعالى (السؤال الثانى) ظاهر اللفظ يدل على انه انما لم تقبل توبته للمعصية المتقدمة والفساد السابق وصحة هذا التعليل لا تمنع من قبول التوبة (والجواب) مذهب أصحابنا أن قبول التوبة غير واجب عقلا وأحد دلائلهم على صحة ذلك هذه الآية وأيضا فالتعليل ما وقع بمجرد المعصية السابقة بل بتلك المعصية مع كونه من المفسدين (السؤال الثالث) هل يصح أن جبريل عليه السلام أخذ يملأ فمه من الطين لئلا يتوب غضبا عليه (والجواب) الاقرب أنه لا يصح لان فى تلك الحالة اما أن يقال التكليف كان ثابتا أو ما كان ثابتا فان كان ثابتا لم يجز على جبريل عليه السلام أن يمنعه من التوبة بل يجب عليه أن يعينه على التوبة وعلى كل طاعة لقوله تعالى وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان وأيضا فلو منعه بما ذكروه لكانت التوبة ممكنة لان الاخرس قد يتوب بأن يندم بقلبه ويعزم على ترك معاودة القبيح وحينئذ لا يبقى لما فعله جبريل عليه السلام فائدة وأيضا لو منعه من التوبة لكان قد رضى ببقائه على الكفر والرضا بالكفر كفر وأيضا فكيف يليق بالله تعالى أن يقول لموسى وهرون عليهما

ماخيل اليهم انه لايهلك حتى يروى أنهم لم يصدقوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه الى ان عاينوه مطروحا على ممرهم من الساحل أو تكون لمن يأتى بعدك من الامم اذا سمعوا مآل أمرك ممن شاهدك عبرة ونكالا من الطغيان أو حجة تدلهم على ان الانسان وان بلغ الغاية القصوى من عظم الشان وعلو الكبرياء وقوة السلطان فهو مملوك مقهور بعيد عن مظان الربوبية وقرئ لمن خلفك فعلا ماضيا اى لمن خلفك من الجبابرة وقرئ لمن خلقك بالقاف اى لتكون لخالقك آية كسائر الآيات فان افراده سبحانه اياك بالالقاء الى الساحل دليل على أنه قصد منه لكشف تزويرك واماطة الشبهة فى امرك وبرهان نير على كمال علمه وقدرته وحكمته وارادته وهذا الوجه محتمل على القراءة المشهورة أيضا وفى تعليل تنجيته بما ذكر ايذان بأنها ليست لاعزازه أو لفائدة أخرى عائدة اليه بل لكمال الاستهانة به وتفضيحه على روس الاشهاد وزيادة تفظيع حاله كمن يقتل ثم يجر جثته فى الاسواق أو يدار برأسه فى البلاد واللام الاولى متعلقة بننجيك والثانية بمحذوف وقع حالا من آية اى كائنة لمن خلفك (وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) لايتفكرون فيها ولايعتبرون بها وهو اعتراض تذييلى جئ به عند الحكاية تقرير المضمون الكلام ﴿ عن ﴾ المحكى (ولقد بوأنا بنى اسرائيل) كلام مستانف سيق لبيان النعم الفائضة عليهم اثر نعمة الانجاء على وجه الاجمال

السلام فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ثم يأمر جبريل عليه السلام بأن يمنعه من الايمان ولو قيل ان جبريل عليه السلام انما فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله تعالى فهذا يبطله قول جبريل وما نتنزل الا بأمر ربك وقوله تعالى فى صفتهم وهم من خشيته مشفقون وقوله لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون وأما ان قيل ان التكليف كان زائلا عن فرعون فى ذلك الوقت فحينئذ لايبقى لهذا الفعل الذى نسب جبريل اليه فائدة أصلا ثم قال تعالى فاليوم ننجيك ببدنك وفيه وجوه (الاول) ننجيك ببدنك اى نلقيك بنجوة من الارض وهى المكان المرتفع (الثانى) نخرجك من البحر ونخلصك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ولكن بعد أن تغرق وقوله ببدنك فى موضع الحال اى فى الحال التى أنت فيه حينئذ لاروح فيك (الثالث) ان هذا وعدله بالنجاة على سبيل التهكم كما فى قوله فبشرهم بعذاب أليم كأنه قيل له ننجيك لكن هذه النجاة انما تحصل لبدنك لا لروحك ومثل هذا الكلام قد يذكر على سبيل الاستهزاء كما يقال نعتقك ولكن بعد الموت ونخلصك من السجن ولكن بعد أن تموت (الرابع) قرأ بعضهم ننحيك بالحاء المهملة اى نلقيك بناحية مما يلى البحر وذلك انه طرح بعد الغرق بجانب من جوانب البحر قال كعب رماه الماء الى الساحل كأنه ثور وأما قوله ببدنك ففيه وجوه (الاول) ماذكرنا أنه فى موضع الحال اى فى الحال التى كنت بدنا محضا من غير روح (الثانى) المراد ننجيك ببدنك كاملا سويا لم يتغير (الثالث) ننجيك ببدنك اى نخرجك من البحر عريانا من غير لباس (الرابع) ننجيك ببدنك اى بدرعك قال الليث البدن هو الدرع الذى يكون قصير الكمين فقوله ببدنك اى بدرعك وهذا منقول عن ابن عباس قال كان عليه درع من ذهب يعرف بها فأخرجه الله من الماء مع ذلك الدرع ليعرف أقول ان صح هذا فقد كان ذلك معجزة لموسى عليه السلام وأما قوله لتكون لمن خلفك آية ففيه وجوه (الاول) أن قوما ممن اعتقدوا فيه الالهية لما لم يشاهدوا غرقه كذبوا بذلك وزعموا أن مثله لايموت فاظهر الله تعالى أمره بأن أخرجه من الماء بصورته حتى شاهدوه وزالت الشبهة عن قلوبهم وقيل كان مطرحه على ممر بنى اسرائيل (الثانى) لايبعد أنه تعالى أراد أن يشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة بعد ما سمعوا منه قوله أنا ربكم الاعلى ليكون ذلك زجرا للخلق عن مثل طريقته و يعرفوا أنه كان بالامس فى نهاية الجلالة والعظمة ثم آل امره الى ما يرون (الثالث) قرأ بعضهم لمن خلقك بالقاف اى لتكون لخالقك آية كسائر آياته (الرابع) انه تعالى لما أغرقه مع جميع قومه ثم انه تعالى ما أخرج أحدا منهم من قعر البحر بل خصه بالاخراج كان تخصيصه بهذه الحالة العجيبة دالا على كمال قدرة الله تعالى وعلى صدق موسى عليه السلام فى دعوى النبوة وأما قوله وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون فالاظهر انه تعالى لما ذكر قصة موسى وفرعون وذكر حال عاقبة فرعون وختم ذلك بهذا الكلام وخاطب به محمدا عليه الصلاة والسلام فيكون ذلك زاجرا لامته

من الاعراض عن الدلائل وباعثا لهم على التأمل فيها والاعتبار بها فان المقصود من ذكر هذه القصص حصول الاعتبار كما قال تعالى لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب

* قوله تعالى (ولقد بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) اعلم انه تعالى لما ذكر ماوقع عليه الختم فى واقعة فرعون وجنوده ذكر أيضا فى هذه الآية ماوقع عليه الختم فى أمر بنى اسرائيل وههنا بحثان (البحث الاول) ان قوله بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق اى أسكناهم مكان صدق اى مكانا محمودا وقوله مبوأ صدق فيه وجهان (الاول) يجوز أن يكون مبوأ صدق مصدرا أى بوأناهم تبوأ صدق (الثانى) أن يكون المعنى منزلا صالحا مرضيا وانما وصف المبوأ بكونه صدقا لان عادة العرب أنها اذا مدحت شيئا أضافته الى الصدق تقول رجل صدق وقدم صدق قال تعالى وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق والسبب فيه أن ذلك الشئ اذا كان كاملا فى وقته صالحا للغرض المطلوب منه فكل مايظن فيه من الخير فانه لا بد وأن يصدق ذلك الظن (البحث الثانى) اختلفوا فى أن المراد بنى اسرائيل فى هذه الآية أهم اليهود الذين كانوا فى زمن موسى عليه السلام أم الذين كانوا فى زمن محمد عليه الصلاة والسلام (أما القول الاول) فقد قال به قوم ودليلهم أنه تعالى لما ذكر هذه الآية عقيب قصة موسى عليه السلام كان حمل هذه الآية على أحوالهم أولى وعلى هذا التقدير كان المراد بقوله ولقد بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق الشام ومصر وتلك البلاد فانها بلاد كثيرة الخصب قال تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله والمراد من قوله ورزقناهم من الطيبات تلك المنافع وأيضا المراد منها أنه تعالى أورث بنى اسرائيل جميع ما كان تحت أيدى قوم فرعون من الناطق والصامت والحرث والنسل كما قال وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها ثم قال تعالى فما اختلفوا حتى جاءهم العلم والمراد أن قوم موسى عليه السلام بقوا على ملة واحدة ومقالة واحدة من غير اختلاف حتى قرؤا التوراة فحينئذ تنبهوا للمسائل والمطالب ووقع الاختلاف بينهم ثم بين تعالى ان هذا النوع من الاختلاف لا بد وأن يبقى فى دار الدنيا وانه تعالى يقضى بينهم يوم القيامة (وأما القول الثانى) وهو ان المراد ببنى اسرائيل فى هذه الآية اليهود الذين كانوا فى زمان محمد عليه الصلاة والسلام فهذا قال به قوم عظيم من المفسرين قال ابن عباس وهم قريظة والنضير وبنو قينقاع أنزلناهم منزل صدق ما بين المدينة والشام ورزقناهم من الطيبات والمراد ما فى تلك البلاد من الرطب والتمر التى ليس مثلها طيبا فى البلاد ثم انهم بقوا على دينهم ولم يظهر فيهم الاختلاف حتى جاءهم العلم والمراد من العلم القرآن النازل على محمد عليه الصلاة والسلام وانما سماه علما لانه سبب العلم وتسمية السبب باسم المسبب مجاز مشهور

واخلالهم بشكرها وأداء حقوقها اى أسكناهم وأنزلناهم بعدما أنجيناهم وأهلكنا أعداءهم (مبوأ صدق) اى منزلا صالحا مرضيا وهو الشام ومصر ملكوهما بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا فى نواحيهما حسبما نطق به قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التى باركنا فيها (ورزقناهم من الطيبات) اى اللذائذ (فما اختلفوا) فى أمر دينهم (حتى جاءهم العلم) اى الا بعدما جاءهم العلم بقرأتهم التوراة وعلمهم بأحكامها أو فى أمر محمد عليه الصلاة والسلام الا من بعدما علموا صدق نبوته وتظاهر معجزاته فالمراد بالمختلفين أعقابهم الذين كانوا فى عصر النبى عليه الصلاة والسلام ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون (فيميز بين المحق والمبطل بالاثابة والتعذيب (فان كنت فى شك) أى فى شك ما يسير على الفرض والتقدير فان مضمون الشرطية انما هو تعليق شئ بشئ من غير تعرض لامكان شئ منهما كيف لا وقد يكون كلاهما ممتنعا كقوله عز وجل قل ان كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين وقوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك ونظائرهما (مما أنزلنا اليك) من القصص اى من جملتها قصة فرعون وقومه وأخبار بنى اسرائيل (فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك) فان ذلك محقق عندهم ثابت فى كتبهم حسبما ألقينا اليك والمراد اظهار نبوته عليه السلام بشهادة الاحبار حسبما هو

المسطور في كتبهم وان لم يكن اليه حاجة أصلا أو وصف أهل الكتاب بالرسوخ في العلم بصحة نبوته عليه السلام أو تهييج عليه السلام وزيادة تثبيته على ما هو عليه من اليقين

لا تجويز صدور الشك منه عليه السلام ولذلك قال عليه السلام لا أشك ولا أسأل وقيل المراد بالموصول مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وتميم الداري وكعب وأضرابهم وقيل الخطاب للنبي عليه السلام والمراد أمته أو لكل من يسمع اي ان كنت أيها السامع في شك مما أنزلنا اليك على لسان نبينا وفيه تنبيه على أن من خالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع الى حلها بالرجوع الى اهل العلم وقرئ فاسأل الذين يقرؤن الكتب (لقد جاءك الحق) الذي لا محيد عنه ولا ريب في حقيته (من ربك) وظهر ذلك بالآيات القاطعة التي لا يحوم حولها شائبة الارتياب وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام من التشريف مالا يخفى (فلا تكونن من الممترين) التزلزل عما أنت عليه من الجزم واليقين ودم على ذلك كما كنت من قبل (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله) من باب التهييج والالهاب والمراد به اعلام أن التكذيب من القبح والمحذور بحيث ينبغي ان ينهى عنه من لا يتصور امكان صدوره عنه فكيف بمن يمكن اتصافه به وفيه قطع لاطماع الكفرة (فتكون) بذلك (من الخاسرين) أنفسا وأعمالا (انا لذين حقت عليهم) شروع

وفي كون القرآن سببا لحدوث الاختلاف وجهان (الاول) ان اليهود كانوا يخبرون بمبعث محمد عليه الصلاة والسلام ويفتخرون به على سائر الناس فلما بعثه الله تعالى كذبوه حسدا وبغيا وايثارا لبقاء الرياسة وآمن به طائفة منهم فبهذا الطريق صار نزول القرآن سببا لحدوث الاختلاف فيهم (الثاني) أن يقال ان هذه الطائفة من بني اسرائيل كانوا قبل نزول القرآن كفارا محضا بالكلية وبقوا على هذه الحالة حتى جاءهم العلم فعند ذلك اختلفوا فآمن قوم وبقي أقوام آخرون على كفرهم وأما قوله تعالى ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون فالمراد منه أن هذا النوع من الاختلاف لا حيلة في ازالته في دار الدنيا وأنه تعالى في الآخرة يقضي بينهم فيتميز المحق من المبطل والصديق من الزنديق * قوله تعالى (فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم) اعلم أنه تعالى لما ذكر من قبل اختلافهم عند ما جاءهم العلم أورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية ما يقوي قلبه في صحة القرآن والنبوة فقال تعالى فان كنت في شك مما أنزلنا اليك وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الواحدي الشك في وضع اللغة ضم بعض الشيء الى بعض يقال شك الجواهر في العقد اذا ضم بعضها الى بعض ويقال شككت الصيد اذا رميته فضممت يده الى يده أو رجله الى رجله والشكائك من الهوادج ما شك بعضها ببعض والشكاك البيوت المصطفة والشكائك الادعياء لانهم يشكون أنفسهم الى قوم ليسوا منهم اي يضمون وشك الرجل في السلاح اذا دخل فيه وضمه الى نفسه وألزمه اياها فاذا قالوا شك فلان في الامور أرادوا أنه وقف نفسه بين شيئين فيجوز هذا ويجوز هذا فهو يضم الى ما يتوهمه شيئا آخر خلافه (المسئلة الثانية) اختلف المفسرون في أن المخاطب بهذا الخطاب من هو فقيل النبي عليه الصلاة والسلام وقيل غيره أما من قال بالاول فاختلفوا على وجوه (الاول) أن الخطاب مع النبي عليه الصلاة والسلام في الظاهر والمراد غيره كقوله تعالى يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين وكقوله لئن أشركت ليحبطن عملك وكقوله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس ومن الامثلة المشهورة * اياك أعني واسمعي يا جاره * والذي يدل على صحة ما ذكرناه وجوه (الاول) قوله تعالى في آخر السورة يا أيها الناس ان كنتم في شك من ديني فبين ان المذكور في أول الآية على سبيل الرمز هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح (الثاني) أن الرسول لو كان شاكا في نبوة نفسه لكان شك غيره في نبوته أولى وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية (والثالث) ان بتقدير أن يكون شاكا في نبوة نفسه فكيف يزول ذلك الشك باخبار أهل الكتاب عن نبوته مع انهم في الاكثر كفار وان حصل فيهم من كان

﴿ مؤمنا ﴾

مؤمنا الا أن قوله ليس بحجة لاسيما وقد تقرر أن ما فى أيديهم من التوراة والانجيل فالكل مصحف محرف فثبت أن الحق هو ان هذا الخطاب وان كان فى الظاهر مع الرسول صلى الله عليه وسلم الا أن المراد هو الامة ومثل هذا معتاد فان السلطان الكبير اذا كان له أمير وكان تحت راية ذلك الامير جمع فاذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص فانه لا يوجه خطابه عليهم بل يوجه ذلك الخطاب على ذلك الامير الذى جعله أميرا عليهم ليكون ذلك أقوى تأثيرا فى قلوبهم (الوجه الثانى) انه تعالى علم أن الرسول لم يشك فى ذلك الا أن المقصود أنه متى سمع هذا الكلام فانه يصرح و يقول يارب لا أشك ولا أطلب الحجة من قول أهل الكتاب بل يكفينى ما أنزلته على من الدلائل الظاهرة ونظيره قوله تعالى للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون والمقصود أن يصرحوا بالجواب الحق و يقولوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن وكما قال لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله والمقصود منه أن يصرح عيسى عليه السلام بالبراءة عن ذلك فكذا ههنا (الوجه الثالث) هو ان محمدا عليه الصلاه والسلام كان من البشر وكان حصول الخواطر المشوشة والافكار المضطربة فى قلبه من الجائزات وتلك الخواطر لا تندفع الا بايراد الدلائل وتقرير البينات فهو تعالى أنزل هذا النوع من التقريرات حتى ان بسببها تزول عن خاطره تلك الوساوس ونظيره قوله تعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك وأقول تمام التقرير فى هذا الباب ان قوله فان كنت فى شك فافعل كذا وكذا قضية شرطية والقضية الشرطية لا اشعار فيها البتة بأن الشرط وقع أو لم يقع ولا بأن الجزاء وقع أو لم يقع بل ليس فيها الا بيان ان ماهية ذلك الشرط مستلزمة لماهية ذلك الجزاء فقط والدليل عليه أنك اذا قلت ان كانت الخمسة زوجا كانت منقسمة بمتساويين فهو كلام حق لان معناه ان كون الخمسة زوجا يستلزم كونها منقسمة بمتساويين ثم لا يدل هذا الكلام على أن الخمسة زوج ولا على أنها منقسمة بمتساويين وكذا ههنا هذه الآية تدل على أنه لو حصل هذا الشك لكان الواجب فيه هو فعل كذا وكذا فأما ان هذا الشك وقع أو لم يقع فليس فى الآية دلالة عليه والفائدة فى انزال هذه الآية على الرسول أن تكثير الدلائل وتقويتها مما يزيد فى قوة اليقين وطمأنينة النفس وسكون الصدر ولهذا السبب أكثر الله فى كتابه من تقرير دلائل التوحيد والنبوة (والوجه الرابع) فى تقرير هذا المعنى أن تقول المقصود من ذكر هذا الكلام استمالة قلوب الكفار وتقريبهم من قبول الايمان وذلك لانهم طالبوه مرة بعد أخرى بما يدل على صحة نبوته وكأنهم استحيوا من تلك المعاودات والمطالبات وذلك الاستحياء صار مانعا لهم عن قبول الايمان فقال تعالى فان كنت فى شك من نبوتك فتمسك بالدلائل القلائل يعنى أولى الناس بأن لا يشك فى نبوته هو نفسه ثم مع هذا ان طلب هو من نفسه دليلا على نبوة نفسه بعد ما سبق من الدلائل الباهرة والبينات القاهرة فانه ليس فيه

فى بيان سر اصرار الكفرة على ما هم عليه من الكفر والضلال اى ثبتت ووجبت بمقتضى المشيئة المبنية على الحكمة البالغة (كلمة ربك) حكمه وقضاؤه بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون فى النار كقوله تعالى ولكن حق القول منى لأملأن جهنم الى آخره (لا يؤمنون) ابدا اذ لا كذب لكلامه ولا انتقاض لقضائه اى لا يؤمنون ايمانا نافعا واقعا فى أوانه فيندرج فيهم المؤمنون عند معاينة العذاب مثل فرعون باقيا عند الموت فيدخل فيهم المرتدون (ولو جاءتهم كل آية) واضحة المدلول مقبولة لدى العقول لان سبب ايمانهم وهو تعلق ارادته تعالى به مفقود لكن فقدانه ليس لمنع منه سبحانه مع استحقاقهم له بل لسوء اختيارهم المتفرع على عدم استعدادهم لذلك (حتى يروا العذاب الاليم) كدأب آل فرعون وأضرابهم (فلولا كانت) كلام مستأنف لتقرير ما سبق من استحالة ايمان من حقت عليهم كلمته تعالى لسوء اختيارهم مع تمكنهم من التدارك فيكون الاستثناء الآتى بيانا لكون قوم يونس عليه السلام ممن لم يحق عليه الكلمة لاهتدائهم الى التدارك فى وقته ولولا بمعنى هلا وقرئ كذلك اى فهلا كانت (قرية) من القرى المهلكة (آمنت) قبل معاينة العذاب ولم تؤخر ايمانها الى حين معاينته كما فعل فرعون وقومه (فنفعها ايمانها) بأن يقبله الله تعالى منها و يكشف بسببه العذاب عنها (الا قوم يونس) استثناء منقطع اى لكن

قوم يونس (لما آمنوا) أول مارأوا أمارة العذاب ولم يؤخروا الى حلوله (كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحيوة الدنيا) بعد ما أظلهم وكاد يحل بهم و يجوز أن تكون الجملة فى معنى النفى كما يفصح عنه حرف التحضيض فيكون الاستثناء متصلا اذ المراد بالقرى أهاليها كأنه قيل ما آمنت طائفة من الامم العاصية فنفعهم ايمانهم الا قوم يونس عليه السلام فيكون قوله تعالى لما آمنوا استئنافا لبيان نفع ايمانهم و يؤيده قراءة الرفع على البدلية (ومتعناهم) بمتاع الدنيا بعد كشف العذاب عنهم (الى حين) مقدر لهم فى علم الله سبحانه روى أن يونس عليه السلام بعث الى نينوى من أرض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضبا فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح وعجوا أربعين ليلة وقيل قال لهم يونس عليه السلام أجلكم أربعون ليلة فقالوا ان رأينا أسباب الهلاك آمنا بك فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيما اسود هائلا يدخن دخانا شديدا ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم و يسود سطوحهم فلبسوا المسوح و برزوا الى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين النساء والصبيان وبين الدواب واولادها فحن بعضها الى بعض وعلت الاصوات والعجيج وأظهروا الايمان والتوبة وتضرعوا الى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم وكان ذلك يوم عاشوراء يوم الجمعة

عيب ولا يحصل بسببه نقصان فاذا لم يستقبح منه ذلك فى حق نفسه فلان لا يستقبح من غيره طلب الدلائل كان أولى فثبت ان المقصود بهذا الكلام استمالة القوم وازالة الحياء عنهم فى تكثير المناظرات (الوجه الخامس) أن يكون التقدير انك لست شاكا البتة ولو كنت شاكا لكان لك طرق كثيرة فى ازالة ذلك الشك كقوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا والمعنى أنه لو فرض ذلك الممتنع واقعا لزم منه المحال الفلانى فكذا ههنا ولو فرضنا وقوع هذا الشك فارجع الى التوراة والانجيل لتعرف بهما ان هذا الشك زائل وهذه الشبهة باطلة (الوجه السادس) قال الزجاج ان الله خاطب الرسول فى قوله فان كنت فى شك وهو شامل للخلق وهو كقوله يا أيها النبى اذا طلقتم النساء قال وهذا أحسن الاقاويل قال القاضى هذا بعيد لانه متى كان الرسول داخلا تحت هذا الخطاب فقد عاد السؤال سواء أريد معه غيره أو لم يرد وان جاز أن يراد هو مع غيره فما الذى يمنع أن يراد بانفراده كما يقتضيه الظاهر ثم قال ومثل هذا التأويل يدل على قلة التحصيل (الوجه السابع) هو أن لفظ ان فى قوله ان كنت فى شك للنفى اى ما كنت فى شك قبل يعنى لا نأمرك بالسؤال لانك شاك لكن لتزداد يقينا كما ازداد ابراهيم عليه السلام بمعاينة احياء الموتى يقينا (وأما الوجه الثانى) وهو أن يقال هذا الخطاب ليس مع الرسول فتقريره أن الناس فى زمانه كانوا فرقا ثلاثة المصدقون به والمكذبون له والمتوقفون فى أمره الشاكون فيه فخاطبهم الله تعالى بهذا الخطاب فقال ان كنت أيها الانسان فى شك مما أنزلنا اليك من الهدى على لسان محمد فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته وانما وحده الله تعالى ذلك وهو يريد الجمع كما فى قوله يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك و يا أيها الانسان انك كادح وقوله فاذا مس الانسان ضر ولم يرد فى جميع هذه الآيات انسانا بعينه بل المراد هو الجماعة فكذا ههنا ولما ذكر الله تعالى لهم ما يزيل ذلك الشك عنهم حذرهم من أن يلحقوا بالقسم الثانى وهم المكذبون فقال ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى أن المسؤل منه فى قوله فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من هم فقال المحققون هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وعبد الله بن صوريا وتميم الدارى وكعب الاحبار لانهم هم الذين يوثق بخبرهم ومنهم من قال الكل سواء كانوا من المسلمين أو من الكفار لانهم اذا بلغوا عدد التواتر ثم قرؤا آية من التوراة والانجيل وتلك الآية دالة على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم فقد حصل الغرض فان قيل اذا كان مذهبكم أن هذه الكتب قد دخلها التحريف والتغيير فكيف يمكن التعويل عليها قلنا انهم انما حرفوها بسبب اخفاء الآيات الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام فان بقيت فيها آيات دالة على نبوته كان ذلك من أقوى الدلائل على صحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام لانها لما بقيت مع توفر دواعيهم على ازالتها دل ذلك على أنها كانت

فى غاية الظهور واما ان المقصود من ذلك السؤال معرفة اى الاشياء ففيه قولان (الاول) أنه القرآن ومعرفة نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم (والثانى) أنه رجع ذلك الى قوله تعالى فما اختلفوا حتى جاءهم العلم والاول أولى لانه هو الاهم والحاجة الى معرفته أتم واعلم انه تعالى لما بين هذا الطريق قال بعده لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله أى فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك وانتفاء التكذيب بآيات الله ويجوز أن يكون ذلك على طريق التهييج واظهار التشدد ولذلك قال عليه الصلاة والسلام عند نزوله لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق ثم قال ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين واعلم أن فرق المكلفين ثلاثة اما أن يكون من المصدقين بالرسول أو من المتوقفين فى صدقه أو من المكذبين ولا شك ان أمر المتوقف أسهل من أمر المكذب لا جرم قدم ذكر المتوقف بقوله ولا تكونن من الممترين ثم اتبعه بذكر المكذب وبين انه من الخاسرين ثم انه تعالى لما فصل هذا التفصيل بين أن لله عبادا قضى عليهم بالشقاء فلا يتغيرون وعبادا قضى لهم بالكرامة فلا يتغيرون فقال ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن عامر كلمات على الجمع وقرأ الباقون كلمة على لفظ الواحد وأقول انها كلمات بحسب الكثرة النوعية أو الصنفية وكلمة واحدة بحسب الوحدة الجنسية (المسئلة الثانية) المراد من هذه الكلمة حكم الله بذلك واخباره عنه وخلقه فى العبد مجموع القدرة والداعية الذى هو موجب لحصول ذلك الاثر اما الحكم والاخبار والعلم فظاهر وأما مجموع القدرة والداعى فظاهر أيضا لان القدرة لما كانت صالحة للطرفين لم يترجح أحد الجانبين على الآخر الا لمرجح وذلك المرجح من الله تعالى قطعا للتسلسل وعند حصول هذا المجموع يجب الفعل وقد احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم فى اثبات القضاء اللازم والقدر الواجب وهو حق وصدق ولا محيص عنه ثم قال تعالى ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم والمراد انهم لا يؤمنون البتة ولو جاءتهم الدلائل التى لا حد لها ولا حصر وذلك لان الدليل لا يهدى الا باعانة الله تعالى فاذا لم تحصل تلك الاعانة ضاعت تلك الدلائل (القصة الثالثة) من القصص المذكورة فى هذه السورة قصة يونس عليه السلام ❊ قوله تعالى (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين) اعلم انه تعالى لما بين من قبل ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم اتبعه بهذه الآية لانها دالة على ان قوم يونس آمنوا بعد كفرهم وانتفعوا بذلك الايمان وذلك يدل على ان الكفار فريقان منهم من حكم عليه بخاتمة الكفر ومنهم من حكم عليه بخاتمة الايمان وكل ما قضى الله به فهو واقع وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى كلمة لولا فى هذه الآية طريقان (الاولى) ان معناه النفى روى الواحدى فى البسيط قال قال أبو مالك صاحب ابن عباس كل

وعن ابن مسعود رضى الله عنه بلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم حتى ان الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه اساس بنائه فيرده الى صاحبه وقيل خرجوا الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فما ترى فقال لهم قولوا ياحى حين لاحى وياحى محيى الموتى وياحى لا اله الا أنت فقالوها فكشف عنهم وعن الفضيل ابن عياض قالوا ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله (ولو شاء ربك لآمن من فى الارض) تحقيق لدوران ايمان كافة المكلفين وجودا وعدما على قطب مشيئته تعالى مطلقا اثر بيان تبعية كفر الكفرة لكلمته ومفعول المشيئة محذوف لوجود ما يقتضيه من وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء وأن لا يكون فى تعلقها به غرابة كما هو المشهور أى لو شاء سبحانه ايمان من فى الارض من الثقلين لآمن (كلهم) بحيث لا يشذ منهم احد (جميعا) مجتمعين على الايمان لا يختلفون فيه لكنه لا يشاؤه لكونه مخالفا للحكمة التى عليها بنى أساس التكوين والتشريع وفيه دلالة على أن من شاء الله تعالى ايمانه يؤمن لا محالة (أفأنت تكره الناس) على ما لم يشأ الله منهم حسبما ينبئ عنه حرف الامتناع فى الشرطية والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قيل اربك لا يشاء ذلك فأنت تكرههم (حتى يكونوا مؤمنين) فيكون الانكار متوجها

قوله وما بالربع من احد هو بقية بيت النابغة وقفت فيها أصيلا لا اسائلها * عيت جوابا وما بالربع من احد * وقوله الا اوارى اول البيت الذى بعده اى أواخى الى ترتيب الاكراه المذكور على عدم مشيئته تعالى و يجوز أن تكون الفاء لترتيب الانكار على عدم مشيئته تعالى بناء على أن الهمزة متأخرة فى الاعتبار وانما قدمت لاقتضائها الصدارة كما هو رأى الجمهور وأيا ما كان فالمشيئة على اطلاقها اذ لا فائدة بل لا وجه لاعتبار عدم مشيئة الألجاء خاصة فى انكار الترتيب عليه أو ترتيب الانكار عليه وفى ايلاء الاسم حرف الاستفهام ايذان بأن الاكراه امر ممكن لكن الشأن فى المكره من هو وما هو الا هو وحده لا يشارك فيه لانه القادر على أن يعمل فى قلوبهم ما يضطرهم الى الايمان وذلك غير مستطاع للبشر وفيه ايذان باعتبار الالجاء فى المشيئة كما اشير اليه (وما كان لنفس) بيان لتبعية ايمان النفوس المؤمنة لمشيئته تعالى وجودا بعد بيان الدوران الكلى عليها وجودا وعدما أى ما صح وما استقام لنفس من النفوس التى علم الله تعالى أنها تؤمن (ان تؤمن الا باذن الله) أى بتسهيله ومنحه للالطاف وانما خصت النفس بمن ذكر ولم يجعل من قبيل قوله تعالى وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله لان الاستثناء مفرغ من اعم الاحوال أى ما كان لنفس أن تؤمن فى حال من أحوالها الا حال كونها ملابسة باذنه تعالى ﴿ شبهة ﴾ فلا بد من كون الايمان مما يؤل اليه حالها كما أن الموت مآل لكل نفس بحيث لا محيص لها عنه فلا بد من تخصيص النفس بمن ذكر فان النفوس التى علم الله انها لا تؤمن ليس لها حال

ما فى كتاب الله تعالى من ذكر لولا فمعناه هلا الا حرفين فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها معناه فما كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها وكذلك فلولا كان من القرون من قبلكم معناه فما كان من القرون فعلى هذا تقدير الآية فما كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس وانتصب قوله الا قوم يونس على انه استثناء منقطع عن الاول لان اول الكلام جرى على القرية وان كان المراد أهلها و وقع استثناء القوم من القرية فكان كقوله * وما بالربع من أحد * الا أوارى وقرئ أيضا بالرفع على البدل (الطريق الثانى) أن لولا معناه هلا والمعنى هلا كانت قرية واحدة من القرى التى أهلكناها تابت عن الكفر وأخلصت فى الايمان قبل معاينة العذاب الا قوم يونس وظاهر اللفظ يقتضى استثناء قوم يونس من القرى الا ان المعنى استثناء قوم يونس من أهل القرى وهو استثناء منقطع بمعنى ولكن قوم يونس لما آمنوا فعلنا بهم كذا وكذا (المسئلة الثانية) روى أن يونس عليه السلام بعث الى نينوى من ارض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضبا فلما فقدوه خافوا نزول العقاب فلبسوا المسوح وعجوا أربعين ليلة وكان يونس قال لهم ان أجلكم أربعون ليلة فقالوا ان رأينا أسباب الهلاك آمنا بك فلما مضت خمس وثلاثون ليلة ظهر فى السماء غيم أسود شديد السواد فظهر منه دخان شديد وهبط ذلك الدخان حتى وقع فى المدينة وسود سطوحهم فخرجوا الى الصحراء وفرقوا بين النساء والصبيان و بين الدواب وأولادها فحن بعضها الى بعض فعلت الاصوات وكثرت التضرعات وأظهروا الايمان والتوبة وتضرعوا الى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء يوم الجمعة وعن ابن مسعود بلغ من توبتهم أن ردوا المظالم حتى ان الرجل كان يقلع الحجر بعد ان وضع عليه بناء أساسه فيرده الى مالكه وقيل خرجوا الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فما ترى فقال لهم قولوا يا حى حين لا حى و يا حى يا محيى الموتى و يا حى لا اله الا أنت فقالوا فكشف الله العذاب عنهم وعن الفضل بن عباس انهم قالوا اللهم ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله (المسئلة الثالثة) ان قال قائل انه تعالى حكى عن فرعون أنه تاب فى آخر الامر ولم يقبل توبته وحكى عن قوم يونس انهم تابوا وقبل توبتهم فما الفرق (والجواب) ان فرعون انما تاب بعد ان شاهد العذاب وأما قوم يونس فانهم تابوا قبل ذلك فانهم لما ظهرت لهم امارات دلت على قرب العذاب تابوا قبل ان شاهدوا فظهر الفرق * قوله تعالى (ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله و يجعل الرجس على الذين لا يعقلون) اعلم ان هذه السورة من أولها الى هذا الموضع فى بيان حكاية شبهات الكفار فى انكار النبوة مع الجواب عنها وكانت احدى شبهاتهم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يهددهم بنزول العذاب على الكافرين و بعد اتباعه ان الله ينصرهم و يعلى شانهم و يقوى جانبهم ثم ان الكفار ما رأوا ذلك فجعلوا ذلك

تؤمن فيها حتى يستثنى تلك الحال من غيرها (ويجعل الرجس) أى الكفر بقرينة ماقبله عبر عنه بالرجس الذى هو عبارة من القبيح المستقذر المستكره لكونه علما في القبح والاستكراه وقيل هو العذاب أو الخذلان المؤدى اليه وقرئ بنـون العظمة وقرئ بالزاى أى يجعل الكفر ويبقيه (على الذين لايعقلون) لايستعملون عقولهم بالنظر فى الحجج والآيات أولايعقلون دلائله وأحكامه لما على قلوبهم من الطبع فلا يحصل لهم الهداية التى عبرعنها بالاذن فيبقون مغمورين بقبائح الكفر والضلال أومقهورين بالعذاب والنكال والجملة معطوفة على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم كأنه قيل فيأذن لهم بمنح الالطاف ويجعل الخ (قل) مخاطبا لاهل مكة بعثالهم على التدبر فى ملكوت السموات والارض ومافيهما من تعاجيب الآيات الانفسيه والآفاقية ليتضح لك أنهم من الذين لايعقلون وحقت عليهم الكلمة (انظروا) أى تفكروا وقرئ بنقل حركة الهمزة الى لام قل (ماذا فى السموات والارض) أى اى شئ بديع فيهما من عجائب صنعه الدالة على وحدته وكمال قدرته على ان ماذا جعل بالتركيب اسما واحدا مغلبا فيه الاستفهام على اسم الاشارة فهو مبتدأ خبره الظرف ويجوز أن يكون مامبتدأ وذا بمعنى الذى والظرف صلته والجملة خبر للمبتدا وعلى التقديرين فالمبتدأ والخبر فى محل النصب باسقاط الخافض وفعل النظر معلق

شبهة فى الطعن فى نبوته وكانوا يبالغون فى استعجال ذلك العذاب على سبيل السخرية ثم ان الله سبحانه وتعالى بين أن تأخير الموعود به لايقدح فى صحة الوعد ثم ضرب لهذا أمثلة وهى واقعة نوح وواقعة موسى عليهما السلام مع فرعون وامتدت هذه البيانات الى هذه المقامات ثم فى هذه الآية بين أن جد الرسول فى دخولهم فى الايمان لاينفع ومبالغته فى تقرير الدلائل وفى الجواب عن الشبهات لاتفيد لان الايمان لايحصل الا بتخليق الله تعالى ومشيئته وارشاده وهدايته فاذا لم يحصل هذا المعنى لم يحصل الايمان وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) احتج أصحابنا على صحة قولهم بان جميع الكائنات بمشيئة الله تعالى فقالوا كلمة لو تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره فقوله ولوشاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا يقتضى أنه ماحصلت تلك المشيئة وماحصل ايمان أهل الارض بالكلية فدل هذا على أنه تعالى ماأراد ايمان الكل أجاب الجبائى والقاضى وغيرهما بأن المراد مشيئة الالجاء أى لوشاء الله أن يلجئهم الى الايمان لقدر عليه ولصح ذلك منه ولكنه مافعل ذلك لان الايمان الصادر من العبد على سبيل الالجاء لاينفعه ولايفيده فائدة ثم قال الجبائى ومعنى الجاء الله تعالى اياهم الى ذلك أن يعرفهم اضطرارا انهم لوحاولوا تركه حال الله بينهم وبين ذلك وعند هذا لابد وأن يفعلوا ماالجئوا اليه كما أن من علم منا أنه ان حاول قتل ملك فانه يمنعه منه قهرا لم يكن تركه لذلك الفعل سببا لاستحقاق المدح والثواب فكذا ههنا واعلم ان هذا الكلام ضعيف وبيانه من وجوه (الاول) ان الكافر ان كان قادرا على الكفر فهل كان قادرا على الايمان أوما كان قادرا عليه فان قدر على الكفر ولم يقدر على الايمان فحينئذ تكون القدرة على الكفر مستلزمة للكفر فاذا كان خالق تلك القدرة هو الله تعالى لزم أن يقال انه تعالى خلق فيه قدرة مستلزمة للكفر فوجب أن يقال انه أراد منه الكفر وأما ان كانت القدرة صالحة للضدين كما هو مذهب القوم فرجحنا أحد الطرفين على الآخر ان لم يتوقف على المرجح فقد حصل الرجحان لا لمرجح وهذا باطل وان توقف على مرجح فذلك المرجح اما أن يكون من العبد أو من الله تعالى فان كان من العبد عاد التقسيم فيه ولزم التسلسل وهو محال وان كان من الله تعالى فحينئذ يكون مجموع تلك القدرة مع تلك الداعية موجبا لذلك الكفر فاذا كان خالق القدرة والداعية هو الله تعالى فحينئذ عاد الالزام (الثانى) ان قوله ولوشاء ربك لايجوز حمله على مشيئة الالجاء لان النبى صلى الله عليه وسلم ما كان يطلب أن يحصل لهم ايمان لايفيدهم فى الآخرة فبين تعالى انه لاقدرة للرسول على تحصيل هذا الايمان ثم قال ولوشاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا فوجب ان يكون المراد من الايمان المذكور فى هذه الآية هو هذا الايمان النافع حتى يكون الكلام منتظما فاما حمل اللفظ على مشيئة القهر والالجاء فانه لايليق بهذا الموضع (الثالث) المراد بهذا الالجاء اما أن يكون هو أن يظهر له آيات هائلة يعظم خوفه عند رؤيتها ثم يأتى بالايمان عندها واما أن يكون المراد خلق الايمان فيهم والاول باطل لانه تعالى

بالاستفهام (وماتغنى) أى ماتنفع وقرئ بالتذكير (الآيات) وهى التى عبر عنها بقوله تعالى ماذا فى السموات والارض (والنذر) جمع نذير على انه فاعل بمعنى منذر أو على أنه مصدر أى لاتنفع الآيات والرسل المنذرون أو الانذارات (عن قوم لايؤمنون) فى علم الله تعالى وحكمه فما نافية والجملة اما حالية أو اعتراضية ويجوز كون ما استفهامية انكارية فى موضع النصب على المصدرية أى أى اغناء تغنى الخ فالجملة حينئذ اعتراضية (فهل ينتظرون) أى مشركو مكة وأضرابهم (الامثل ايام الذين خلوا) أى الا يوما مثل أيام الذين خلوا (من قبلهم) من مشركى الامم الماضية أى مثل وقائعهم ونزول باس الله بهم اذلايستحقون غيره من قولهم ايام العرب لوقائعها (قل) تهديدا لهم (فانتظروا) ماهو عاقبتكم (انى معكم من المنتظرين) لذلك (ثم ننجى رسلنا) بالتشديد وقرئ بالتخفيف وهو عطف على مقدر يدل عليه قوله مثل أيام الذين خلوا وما بينهما اعتراض جئ به مسارعة الى التهديد ومبالغة فى تشديد الوعيد كأنه قيل اهلكنا الامم ثم نجينا رسلنا المرسلة اليهم (والذين آمنوا) وصيغة الاستقبال لحكاية الاحوال الماضية لتهويل أمرها باستحضار صورها وتأخير حكاية التنجية عن حكاية الاهلاك على عكس ما فى قوله تعالى فنجيناه ومن ﴿ ان ﴾ معه فى الفلك الخ ونظائره الواردة فى مواقع عديدة ليتصل به قوله عز وجل (كذلك) أى مثل ذلك الانجاء (حقا علينا)

بين فيما قبل هذه الآية ان انزال هذه الآيات لايفيد وهو قوله ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم وقال أيضا ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله وان كان المراد هو الثانى لم يكن هذا الجاء الى الايمان بل كان ذلك عبارة عن خلق الايمان فيهم ثم يقال لكنه ما خلق الايمان فيهم فدل على انه ما أراد حصول الايمان لهم وهذا عين مذهبنا واعلم انه تعالى لما ذكر هذا الكلام قال أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين والمعنى انه لاقدرة لك على التصرف فى أحد والمقصود منه بيان أن القدرة القاهرة والمشيئة النافذة ليست الا للحق سبحانه وتعالى (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا على صحة قولهم انه لاحكم للاشياء قبل ورود الشرع بقوله وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله قالوا وجه الاستدلال به أن الاذن عبارة عن الاطلاق فى الفعل ورفع الحرج وصريح هذه الآية يدل على انه قبل حصول هذا المعنى ليس له أن يقدم على هذا الايمان ثم قالوا والذى يدل عليه من جهة العقل وجوه (الاول) أن معرفة الله تعالى والاشتغال بشكره والثناء عليه لايدل العقل على حصول نفع فيه فوجب أن لايجب ذلك بحسب العقل بيان الاول ان ذلك النفع اما أن يكون عائدا الى المشكور أو الى الشاكر والاول باطل لان فى الشاهد المشكور ينتفع بالشكر فيسره الشكر ويسوءه الكفران فلاجرم كان الشكر حسنا والكفران قبيحا أما الله سبحانه فانه لايسره الشكر ولايسوءه الكفران فلاينتفع بهذا الشكر أصلا (والثانى) أيضا باطل لان الشاكر يتعب فى الحال بذلك الشكر ويبذل الخدمة مع أن المشكور لاينتفع به البتة ولايمكن أن يقال ان ذلك الشكر علة الثواب لان الاستحقاق على الله تعالى محال فان الاستحقاق على الغير انما يعقل اذا كان ذلك الغير بحيث لو لم يعط لاوجب امتناعه من اعطاء ذلك الحق حصول نقصان فى حقه ولما كان الحق سبحانه منزها عن النقصان والزيادة لم يعقل ذلك فى حقه فثبت ان الاشتغال بالايمان وبالشكر لايفيد نفعا بحسب العقل المحض وما كان كذلك امتنع أن يكون العقل موجبا له فثبت بهذا البرهان القاطع صحة قوله تعالى وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله قال القاضى المراد أن الايمان لايصدر عنه الا بعلم الله أو بتكليفه أو باقداره عليه وجوابنا ان حمل الاذن على ماذكرتم ترك للظاهر وذلك لايجوز لاسيما وقد بينا أن الدليل القاطع العقلى يقوى قولنا (المسئلة الثالثة) قرأ أبو بكر عن عاصم ونجعل بالنون وقرأ الباقون بالياء كناية عن اسم الله تعالى (المسئلة الرابعة) احتج أصحابنا على صحة قولهم بان خالق الكفر والايمان هو الله تعالى بقوله تعالى ويجعل الرجس على الذين لايعقلون وتقريره أن الرجس قد يراد به العمل القبيح قال تعالى انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا والمراد من الرجس ههنا العمل القبيح سواء كان كفرا أو معصية وبالتطهير نقل العبد من رجس الكفر والمعصية الى طهارة الايمان والطاعة فلما ذكر الله تعالى فيما قبل هذه الآية

أن الايمان لا يحصل الا بمشيئة الله تعالى وتخليقه ذكر بعده أن الرجس لا يحصل الا بتخليقه وتكوينه والرجس الذى يقابل الايمان ليس الا الكفر فثبت دلالة هذه الآية على ان الكفر والايمان من الله تعالى أجاب أبو على الفارسى النحوى عنه فقال الرجس يحتمل وجهين آخرين (أحدهما) أن يكون المراد منه العذاب فقوله و يجعل الرجس على الذين لا يعقلون أى يلحق العذاب بهم كما قال و يعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات (والثانى) أنه تعالى يحكم عليهم بانهم رجس كما قال انما المشركون نجس والمعنى ان الطهارة الثابتة للمسلمين لم تحصل لهم والجواب انا قد بينا بالدليل العقلى ان الجهل لا يمكن أن يكون فعلا للعبد لانه لا يريده ولا يقصد الى تكوينه وانما يريد ضده وانما قصد الى تحصيل ضده فلو كان به لما حصل الا ما قصده واوردنا السؤالات على هذه الحجة وأجبنا عنها فيما سلف من هذا الكتاب وأما حمل الرجس على العذاب فهو باطل لان الرجس عبارة عن الفاسد المستقذر المستكره فحمل هذا اللفظ على جهلهم وكفرهم أولى من حمله على عذاب الله مع كونه حقا صدقا صوابا وأما حمل لفظ الرجس على حكم الله برجاستهم فهو فى غاية البعد لان حكم الله تعالى بذلك صفته فكيف يجوز أن يقال ان صفة الله رجس فثبت ان الحجة التى ذكرناها ظاهرة

* قوله تعالى (قل انظروا ماذا فى السموات والارض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ عاصم وحمزة قل انظروا بكسر اللام لالتقاء الساكنين والاصل فيه الكسر والباقون بضمها نقلوا حركة الهمزة الى اللام (المسئلة الثانية) اعلم انه تعالى لما بين فى الآيات السالفة ان الايمان لا يحصل الا بتخليق الله تعالى ومشيئته أمر بالنظر والاستدلال فى الدلائل حتى لا يتوهم أن الحق هو الجبر المحض فقال قل انظروا ماذا فى السموات والارض واعلم ان هذا يدل على مطلوبين (الاول) انه لا سبيل الى معرفة الله تعالى الا بالتدبر فى الدلائل كما قال عليه الصلاة والسلام تفكروا فى الخلق ولا تتفكروا فى الخالق (والثانى) وهو ان الدلائل اما أن تكون من عالم السموات أو من عالم الارض أما الدلائل السماوية فهى حركات الافلاك ومقاديرها وأوضاعها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب وما يختص به كل واحد منها من المنافع والفوائد وأما الدلائل الارضية فهى النظر فى أحوال العناصر العلوية وفى أحوال المعادن وأحوال النبات وأحوال الانسان خاصة ثم ينقسم كل واحد من هذه الاجناس الى أنواع لا نهاية لها ولو ان الانسان أخذ يتفكر فى كيفية حكمة الله سبحانه فى تخليق جناح بعوضة لانقطع عقله قبل أن يصل الى أقل مرتبة من مراتب تلك الحكم والفوائد ولا شك ان الله سبحانه أكثر من ذكر هذه الدلائل فى القرآن المجيد فلهذا السبب ذكر قوله قل انظروا ماذا فى السموات والارض ولم يذكر التفصيل فكأنه تعالى نبه على القاعدة الكلية حتى ان العاقل يتنبه لاقسامها وحينئذ يشرع فى تفصيل حكمة كل واحد منها بقدر القوة العقلية البشرية ثم

اعتراض بين العامل والمعمول أى حق ذلك حقا وقيل بدل من المحذوف الذى ناب عنه كذلك أى انجاء مثل ذلك حقا والكاف متعلقة بقوله تعالى (ننجى المؤمنين) أى من كل شدة وعذاب والجملة تذييل لما قبلها مقرر لمضمونه والمراد بالمؤمنين اما الجنس المتناول للرسل عليهم السلام والاتباع واما الاتباع فقط وانما لم يذكر انجاء الرسل ايذانا بعدم الحاجة اليه وأيا ما كان ففيه تنبيه على أن مدار النجاة هو الايمان (قل) لجمهور المشركين (يا أيها الناس) اوثر الخطاب باسم الجنس مصدرا بحرف التنبيه تعميما للتبليغ واظهارا لكمال العناية بشأن ما بلغ اليهم (ان كنتم فى شك من دينى) الذى اتعبد الله عز وجل به وأدعوكم اليه ولم تعلموا ما هو وما صفته (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) فى وقت من الاوقات (ولكن اعبد الله الذى يتوفاكم) ثم يفعل بكم ما يفعل من فنون العذاب اى فاعلموا أنه تخصيص العبادة به ورفض عبادة ما سواه من الاصنام وغيرها مما تعبدونه جهلا وتقديم ترك عبادة الغير على عبادته تعالى لتقدم التخلية على التحلية كما فى كلمة التوحيد وللايذان بالمخالفة من أول الامر أو ان كنتم فى شك من صحة دينى وسداده فاعلموا أن خلاصته اخلاص العبادة لمن بيده الايجاد والاعدام دون ما هو بمعزل منهما من الاصنام فاعرضوها على عقولكم وأجيلوا فيها أفكاركم وانظروا فيها بعين الانصاف لتعلموا أنه حق لا ريب فيه وفى تخصيص التوفى بالذكر متعلقا بهم

مالايخفى من التهديد والتعبير عماهم فيه بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحة للايذان بأن أقصى مايمكن عروضه للعاقل فى هذا الباب هو الشك فى صحته وأما القطع بعدمها فمما لاسبيل اليه أوان كنتم فى شك من ثباتى على الدين فاعلموا أنى لاأتركه ابدا (وأمرت أن أكون من المؤمنين) ﴿ ٤٦ ﴾ بمادل عليه العقل ونطق به الوحى وهو تصريح بأن ماهو عليه من دين التوحيد ليس بطريق العقل الصرف بل بالامداد السماوى والتوفيق الالهى وحذف حرف الجر من أن يجوز أن يكون من باب الحذف المطرد مع أن وأن وان يكون خاصا كما فى قوله بفعل الامر * امرتك الخير فافعل ماامرت به * (وأن أقم وجهك للدين) عطف على أن اكون خلا أن صلة أن محكية بصيغة الامر ولاضير فى ذلك لان مناط جواز وصلها بصيغ الافعال دلالتها على المصدر وذلك لايختلف بالخبرية والطلبية ووجوب كون الصلة خبرية فى الموصول الاسمى انما هو للتوصل الى وصف المعارف بالجمل وهى لاتوصف الابالجمل الخبرية وليس الموصول الحرفى كذلك أى وأمرت بالاستقامة فى الدين والاستبداد فيه بأداء المأمور به والانتهاء عن المنهى عنه أو باستقبال القبلة فى الصلاة وعدم الالتفات الى اليمين والشمال (حنيفا) حال من الدين أو الوجه أى مائلا عن الاديان الباطلة ﴿ قل ﴾ (ولاتكونن من المشركين) عطف على أقم داخل تحت الامر اى لاتكونن منهم اعتقادا ولاعملا وقوله عز وعلا

انه تعالى لما أمر بهذا التفكر والتامل بين بعد ذلك ان هذا التفكر والتدبر فى هذه الآيات لاينفع فى حق من حكم الله تعالى عليه فى الازل بالشقاء والضلال فقال وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال النحويون ما فى هذا الموضع تحتمل وجهين (الاول) أن تكون نفيا بمعنى ان هذه الآيات والنذر لاتفيد الفائدة فى حق من حكم الله عليه بانه لايؤمن كقولك مايغنى عنك المال اذا لم تنفق (والثانى) أن تكون استفهاما كقولك أى شئ يغنى عنهم وهو استفهام بمعنى الانكار (المسئلة الثانية) الآيات هى الدلائل والنذر الرسل المنذرون أو الانذارات (المسئلة الثالثة) قرئ ومايغنى بالياء من تحت * قوله تعالى (فهل ينتظرون الامثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين) واعلم أن المعنى هل ينتظرون الاأياما مثل أيام الامم الماضية والمراد ان الانبياء المتقدمين عليهم السلام كانوا يتوعدون كفار زمانهم بمجئ أيام مشتملة على أنواع العذاب وهم كانوا يكذبون بها ويستعجلونها على سبيل السخرية وكذلك الكفار الذين كانوا فى زمان الرسول عليه الصلاة والسلام هكذا كانوا يفعلون ثم انه تعالى أمره بان يقول لهم فانتظروا انى معكم من المنتظرين ثم انه تعالى قال ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ الكسائى فى رواية نصير ننجى خفيفة وقرأ الباقون مشددة وهما لغتان وكذلك فى قوله ننجى المؤمنين (المسئلة الثانية) ثم حرف عطف وتقدير الكلام كانت عادتنا فيما مضى ان نهلكهم سريعا ثم ننجى رسلنا (المسئلة الثالثة) لما أمر الرسول فى الآية الاولى أن يوافق الكفار فى انتظار العذاب ذكر التفصيل فقال العذاب لاينزل الا على الكفار وأما الرسول وأتباعه فهم أهل النجاة ثم قال كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف أى مثل ذلك الانجاء ننصر المؤمنين ونهلك المشركين وحقا علينا اعتراض يعنى حق ذلك علينا حقا (المسئلة الثانية) قال القاضى قوله حقا علينا المراد به الوجوب لان تخليص الرسول والمؤمنين من العذاب الى الثواب واجب ولولاه لما حسن من الله تعالى أن يلزمهم الافعال الشاقة واذا ثبت وجوبه لهذا السبب جرى مجرى قضاء الدين للسبب المتقدم والجواب أنا نقول انه حق بسبب الوعد والحكم ولانقول انه حق بسبب الاستحقاق لما ثبت أن العبد لايستحق على خالقه شيئا * قوله تعالى (قل ياأيها الناس ان كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولاتكونن من المشركين ولاتدع من دون الله مالاينفعك ولايضرك فان فعلت فانك اذا من الظالمين) واعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل على أقصى الغايات وأبلغ النهايات أمر رسوله باظهار دينه وباظهار المباينة عن المشركين لكى تزول الشكوك والشبهات فى أمره وتخرج عبادة الله من طريقة السر الى الاظهار فقال

(ولا تدع) عطف على قوله تعالى قل يا أيها الناس غير داخل تحت الامر وقيل على ماقبله من النهى والوجه هو الاول لان مابعده من الجمل الى آخر الآيتين متسقة لايمكن فصل بعضها عن بعض كما ترى ولا وجه لادراج الكل تحت الامر وهو تأكيد للنهى المذكور وتفصيل لما أجمل فيه اظهارا لكمال العناية بالامر وكشفا عن وجه بطلان ماعليه المشركون أى لا تدع (من دون الله) استقلالا ولا اشتراكا (مالا ينفعك) اذا دعوته بدفع مكروه أو جلب محبوب (ولا يضرك) اذا تركته بسلب المحبوب دفعا أو رفعا أو بايقاع المكروه وتقديم النفع على الضرر غنى عن بيان السبب (فان فعلت) أى مانهيت عنه من دعاء مالا ينفع ولا يضر كنى به عنه تنويها لشأنه عليه السلام وتنبيها على رفعة مكانه من أن ينسب اليه عبادة غير الله سبحانه ولوفى ضمن الجملة الشرطيه (فانك اذا من الظالمين) جزاء للشرط وجواب لسؤال من يسأل عن تبعة ما نهى عنه (وان يمسسك الله بضر) تقريرلما أورد فى حيز الصلة من سلب النفع من الاصنام وتصوير لاختصاصه به سبحانه (فلا كاشف له) عنك كائنا من كان وما كان (الا هو) وحده فيثبت عدم كشف الاصنام بالطريق البرهانى وهو بيان لعدم النفع برفع المكروه المستلزم لعدم النفع بجلب المحبوب استلزاما ظاهرا فان رفع المكروه أدنى مراتب النفع فاذا انتفى انتفى النفع بالكلية (وان يردك بخير) تحقيق لسلب الضرر الوارد

قل يا أيها الناس ان كنتم فى شك من دينى واعلم ان ظاهر هذه الآية يدل على أن هؤلاء الكفار ماكانوا يعرفون دين رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى الخبر انهم كانوا يقولون فيه قد صبأ وهو صابئ فأمر الله تعالى أن يبين لهم أنه على دين ابراهيم حنيفا مسلما لقوله تعالى ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولقوله وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا ولقوله لا أعبد ماتعبدون والمعنى انكم ان كنتم لاتعرفون دينى فانا أبينه لكم على سبيل التفصيل ثم ذكر فيه أمورا (فالقيد الاول) قوله فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله وانما وجب تقديم هذا النفى لما ذكرنا أن ازالة النقوش الفاسدة عن اللوح لابد وأن تكون مقدمة على اثبات النقوش الصحيحة فى ذلك اللوح وانما وجب هذا النفى لان العبادة غاية التعظيم وهى لاتليق الا بمن حصلت له غاية الجلال والاكرام وأما الاوثان فانها أحجار والانسان أشرف حالا منها وكيف يليق بالاشرف أن يشتغل بعبادة الاخس (القيد الثانى) قوله ولكن اعبد الله الذى يتوفاكم والمقصود أنه لما بين انه يجب ترك عبادة غير الله بين أنه يجب الاشتغال بعبادة الله فان قيل ما الحكمة فى ذكر المعبود الحق فى هذا المقام بهذه الصفة وهى قوله الذى يتوفاكم قلنا فيه وجوه (الاول) يحتمل أن يكون المراد انى أعبد الله الذى خلقكم أولا ثم يتوفاكم ثانيا ثم يعيدكم ثالثا وهذه المراتب الثلاثة قد قررناها فى القرآن مرارا وأطوارا فههنا اكتفى بذكر التوفى منها لكونه منبها على البواقى (الثانى) ان الموت أشد الاشياء مهابة فخص هذا الوصف بالذكر فى هذا المقام ليكون أقوى فى الزجر والردع (الثالث) انهم لما استعجلوا نزول العذاب قال تعالى فهل ينتظرون الامثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا فهذه الآية تدل على أنه تعالى يهلك أولئك الكفار ويبقى المؤمنين ويقوى دولتهم فلما كان قريب العهد بذكر هذا الكلام لاجرم قال ههنا ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وهو اشارة الى ماقرره وبينه فى تلك الآية كأنه يقول أعبد ذلك الذى وعدنى باهلاككم وبابقائى (والقيد الثالث) من الامور المذكورة فى هذه الآية قوله وأمرت أن أكون من المؤمنين واعلم انه لما ذكر العبادة وهى من جنس أعمال الجوارح انتقل منها الى الايمان والمعرفة وهذا يدل على أنه مالم يصر الظاهر مزينا بالاعمال الصالحة فانه لايحصل فى القلب نور الايمان والمعرفة (والقيد الرابع) قوله وأن أقم وجهك للدين حنيفا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الواو فى قوله وأن أقم وجهك حرف عطف وفى المعطوف عليه وجهان (الاول) ان قوله وأمرت أن أكون قائم مقام قوله وقيل لى كن من المؤمنين ثم عطف عليه وأن أقم وجهك (الثانى) أن قوله وأن أقم وجهك قائم مقام قوله وأمرت باقامة الوجه فصار التقدير وأمرت بأن أكون من المؤمنين وباقامة الوجه للدين حنيفا (المسئلة الثانية) اقامة الوجه كناية عن توجيه العقل بالكلية الى طلب الدين لان من يريد أن ينظر الى شئ نظرا بالاستقصاء فانه يقيم وجهه فى مقابلته بحيث

[illegible] الصلاة أى أن يرد أن يصيبك بخير (فلا راد لفضله) الذى من جملته مااراد لك به من اثره فهو دليل على جواب لانفس الجواب وفيه ايذان بأن فيضان الخير منه تعالى بطريق التفضل من غير استحقاق عليه سبحانه أى [illegible] يقدر على رده كائنا ما كان فيدخل فيه الاصنام دخولا اوليا وهو [illegible] ضرها بدفع المحبوب قبل وقوعه المستلزم لعدم ضرها برفعه أو بايقاع المكروه استلزاما جليا ولعل ذكر الارادة مع الخير والمس مع الضر مع تلازم الامرين للايذان بان الخير مراد بالذات وأن الضر انما يمس من يمسه لما يوجبه من الدواعى الخارجية لا بالقصد الاولى أو اريد معنى الفعلين فى كل من الضر والخير وانه لا راد لما يريد منهما ولا مزيل لما يصيب به منهما فأوجز الكلام بأن ذكر فى احدهما المس وفى الآخر الارادة ليدل بما ذكر فى كل جانب على ما ترك فى الجانب الآخر على أنه قد صرح بالاصابة حيث قيل (يصيب به) اظهارا لكمال العناية بجانب الخير كما ينبئ عنه ترك الاستثناء فيه أى يصيب بفضله الواسع المنتظم لما أراد لك به من الخير وجعل الفضل عبارة عن ذلك الخير بعينه على أن يكون من باب وضع المظهر فى موضع المضمر لما ذكر من الفائدة يأباه قوله عزوجل ❊ ﴿ تعالى ﴾ (من يشاء من عباده) فان ذلك ينادى بعموم الفضل وقوله عز قائلا (وهو الغفور الرحيم) تذييل لقوله تعالى يصيب به الخ مقرر لمضمونه والكل تذييل للشرطية الاخيرة محقق لمضمونها

لا يصرفه عنه لا بالقليل ولا بالكثير لانه لو صرفه عنه ولو بالقليل فقد بطلت تلك المقابلة واذا بطلت تلك المقابلة فقد اختل الابصار فلهذا السبب حسن جعل اقامة الوجه للدين كناية عن صرف العقل بالكلية الى طلب الدين وقوله حنيفا أى مائلا اليه ميلا كليا معرضا عما سواه اعراضا كليا وحاصل هذا الكلام هو الاخلاص التام وترك الالتفات الى غيره فقوله أولا وأمرت أن أكون من المؤمنين اشارة الى تحصيل أصل الايمان وقوله وأن أقم وجهك للدين حنيفا اشارة الى الاستغراق فى نور الايمان والاعراض بالكلية عما سواه (والقيد الخامس) قوله ولا تكونن من المشركين واعلم أنه لا يمكن أن يكون هذا نهيا عن عبادة الاوثان لان ذلك صار مذكورا بقوله تعالى فى هذه الآية فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله فوجب حمل هذا الكلام على فائدة زائدة وهو أن من عرف مولاه فلو التفت بعد ذلك الى غيره كان ذلك شركا وهذا هو الذى تسميه أصحاب القلوب بالشرك الخفى (والقيد السادس) قوله تعالى ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك والممكن لذاته معدوم بالنظر الى ذاته وموجود بايجاد الحق واذا كان كذلك فما سوى الحق فلا وجود له الا بايجاد الحق وعلى هذا التقدير فلا نافع الا الحق ولا ضار الا الحق فكل شئ هالك الا وجهه واذا كان كذلك فلا حكم الا لله ولا رجوع فى الدارين الا الى الله ثم قال فى آخر الآية فان فعلت فانك اذا من الظالمين يعنى لو اشتغلت بطلب المنفعة والمضرة من غير الله فأنت من الظالمين لان الظلم عبارة عن وضع الشئ فى غير موضعه فاذا كان ما سوى الحق معزولا عن التصرف كانت اضافة التصرف الى ما سوى الحق وضعا للشئ فى غير موضعه فيكون ظلما فان قيل فطلب الشبع من الاكل والرى من الشرب هل يقدح فى ذلك الاخلاص قلنا لا لان وجود الخبز وصفاته كلها بايجاد الله وتكوينه وطلب الانتفاع بشئ خلقه الله للانتفاع به لا يكون منافيا للرجوع بالكلية الى الله الا ان شرط هذا الاخلاص أن لا يقع بصر عقله على شئ من هذه الموجودات الا و يشاهد بعين عقله انها معدومة بذواتها وموجودة بايجاد الحق وهالكة بأنفسها وباقية بابقاء الحق فحينئذ يرى ما سوى الحق عدما محضا بحسب أنفسها و يرى نور وجوده وفيض احسانه عاليا على الكل ❊ قوله تعالى (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه سبحانه وتعالى قرر فى آخر هذه السورة أن جميع الممكنات مستندة اليه وجميع الكائنات محتاجة اليه والعقول والهة فيه والرحمة والجود والوجود فائض منه واعلم أن الشئ اما أن يكون ضارا واما أن يكون نافعا واما أن يكون لا ضارا ولا نافعا وهذان القسمان مشتركان فى اسم الخير ولما كان الضر أمرا وجوديا لا جرم قال فيه وان يمسسك الله بضر ولما كان الخير قد يكون وجوديا وقد يكون عدميا لا جرم لم يذكر لفظ الامساس فيه بل قال وان يردك بخير والآية دالة على أن الضر والخير واقعان بقدرة الله

تعالى وبقضائه فيدخل فيه الكفر والايمان والطاعة والعصيان والسرور والآفات والخيرات والآلام واللذات والراحات والجراحات فبين سبحانه وتعالى أنه ان قضى لاحد شرا فلا كاشف له الا هو وان قضى لاحد خيرا فلا راد لفضله البتة ثم في الآية دقيقة أخرى وهي أنه تعالى رجح جانب الخير على جانب الشر من ثلاثة أوجه (الاول) انه تعالى لما ذكر امساس الضر بين أنه لا كاشف له الا هو وذلك يدل على أنه تعالى يزيل المضار لان الاستثناء من النفي اثبات ولما ذكر الخير لم يقل بأنه يد[illegible] بل قال انه لا راد لفضله وذلك يدل على أن الخير مطلوب بالذات وأن الشر مطلوب بالعرض كما قال النبي صلى الله عليه وسلم رواية عن رب العزة انه قال سبقت رحمتي غضبي (الثاني) انه تعالى قال في صفة الخير يصيب به من يشاء من عباده وذلك يدل على ان جانب الخير والرحمة أقوى وأغلب (والثالث) انه قال وهو الغفور الرحيم وهذا أيضا يدل على قوة جانب الرحمة وحاصل الكلام في هذه الآية أنه سبحانه وتعالى بين أنه منفرد بالخلق والايجاد والتكوين والابداع وأنه لا موجد سواه ولا معبود الا اياه ثم نبه على أن الخير مراد بالذات والشر مراد بالعرض وتحت هذا الباب أسرار عميقة فهذا ما نقوله في هذه الآية (المسئلة الثانية) قال المفسرون انه تعالى لما بين في الآية الاولى في صفة الاصنام انها لا تضر ولا تنفع بين في هذه الآية انها لا تقدر أيضا على دفع الضرر الواصل من الغير وعلى دفع الخير الواصل من الغير قال ابن عباس رضي الله عنهما ان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو يعني بمرض وفقر فلا دافع له الا هو وأما قوله وان يردك بخير فقال الواحدي هو من المقلوب معناه وان يرد بك الخير ولكنه لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز ابدال كل واحد منهما بالآخر وأقول التقديم في اللفظ يدل على زيادة العناية فقوله وان يردك بخير يدل على ان المقصود هو الانسان وسائر الخيرات مخلوقة لاجله فهذه الدقيقة لا تستفاد الا من هذا التركيب

* قوله تعالى (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل) واعلم أنه تعالى لما قرر الدلائل المذكورة في التوحيد والنبوة والمعاد وزين آخر هذه السورة بهذه البيانات الدالة على كونه تعالى مستبدا بالخلق والابداع والتكوين والاختراع ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية وفي تفسيرها وجهان (الاول) انه من حكم له في الازل بالاهتداء فسيقع له ذلك ومن حكم له بالضلال فكذلك ولا حيلة في دفعه (الثاني) وهو الكلام اللائق بالمعتزلة قال القاضي انه تعالى بين انه أكمل الشريعة وأزاح العلة وقطع المعذرة فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل فلا يجب على من السعي في ايصالكم الى الثواب العظيم وفي تخليصكم من العذاب الاليم أزيد مما فعلت قال ابن عباس هذه الآية منسوخة بآية القتال ثم انه تعالى ختم هذه الخاتمة بخاتمة اخرى لطيفة فقال (واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين) والمعنى انه تعالى أمره

(قل) مخاطبا لاولئك الكفرة بعدما بلغتهم ما اوحي اليك (يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم) وهو القرآن العظيم المشتمل على محاسن الاحكام التي من جملتها ما مر آنفا من أصول الدين واطلعتم على ما في تضاعيفه من البينات والهدى ولم يبق لكم عذر (فمن اهتدى) بالايمان به والعمل بما في مطاويه (فانما يهتدي لنفسه) أي منفعة اهتدائه لها خاصة (ومن ضل) بالكفر به والاعراض عنه (فانما يضل عليها) أي فوبال الضلال مقصور عليها والمراد تنزيه ساحة الرسالة عن شائبة غرض عائد اليه عليه السلام من جلب نفع أو ضر كما يلوح به اسناد المجيء الى الحق من غير اشعار بكون ذلك بواسطته (وما أنا عليكم بوكيل) بحفيظ موكول الى أمركم وانما أنا بشير ونذير (واتبع) اعتقادا وعملا وتبليغا (ما يوحى اليك) على نهج التجدد والاستمرار من الحق المذكور المتأكد يوما فيوما وفي التعبير عن بلوغه اليهم بالمجيء واليه عليه السلام بالوحي تنبيه على ما بين المرتبتين من التنائي (واصبر) على ما يعتريك من مشاق التبليغ (حتى يحكم الله) بالنصرة عليهم أو بالامر بالقتال (وهو خير الحاكمين) اذ لا يمكن الخطأ في حكمه لاطلاعه على السرائر اطلاعه على الظواهر * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة يونس أعطي له من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بيونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون والحمد لله وحده

(سورة هود عليه السلام مكية وهى مائة وثلاث وعشرون آية) (بسم الله الرحمن الرحيم) (الر) محله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف وقيل أنه مبتدأ والاول هو الاظهر كما أشير اليه فى سورة يونس او النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحوا ذكرا واقرأ على تقدير كونه اسما للسورة على ماعليه اطباق الاكثر أو لامحل له من الاعراب مسرود على نمط التعديد حسبما فصل فى أخواته وقوله تعالى (كتاب) خبره على الوجه الثانى ولمبتدا محذوف على الوجوه الباقية (احكمت آياته) نظمت نظما متقنا لايعتريه خلل بوجه من الوجوه أوجعلت حكيمة لانطوائها على جلائل الحكم البالغة ودقائقها أو منعت من النسخ بمعنى التغيير مطلقا أو أيدت بالحجج القاطعة الدالة على كونها من عند الله عز وجل أو على ثبوت مدلولاتها فالمراد بالآيات جميعها أو على حقية ماتشتمل عليه من الاحكام الشرعية فالمراد بها بعضها المشتمل عليها كما اذا فسر الاحكام بالمنع من النسخ بمعنى تبديل الحكم الشرعى خاصة وأما تفسيره بالمنع من الفساد أخذا من قولهم أحكمت الدابة اذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح ففيه ايهام مالايكاد يليق بشأن الآيات الكريمة من التداعى الى الفساد لولا المانع وفى اسناد الاحكام على الوجوه المذكورة الى آيات الكتاب دون نفسه لاسيما على الوجوه الشاملة لكل آية آية منه من حسن الموقع والدلالة على كونه فى اقصى غاية منه مالايخفى (ثم فصلت) أى جعلت فصولا من الاحكام والدلائل والمواعظ والقصص أو فصل فيها مهمات العباد فى المعاش والمعاد على الاسناد المجازى والتفسير بجعلها آية آية لايساعده المقام لان ذلك من الاوصاف الاولية لها فلا يناسب عطفه على أحكامها بكلمة التراخى وأما المعنيان الاولان فهما وان كانا مع الاحكام زمانا حيث لم تزل الآيات محكمة مفصلة لا أنها أحكمت أو فصلت بعد ان لم تكن كذلك اذا الفعلان من قبيل قولهم سبحان من صغر البعوض

باتباع الوحى والتنزيل فان وصل اليه بسبب ذلك الاتباع مكروه فليصبر عليه الى أن يحكم الله فيه وهو خير الحاكمين وأنشد بعضهم فى الصبر شعرا فقال

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبرى * واصبر حتى يحكم الله فى أمرى
سأصبر حتى يعلم الصبر أنى * صبرت على شئ أمر من الصبر

تم تفسير هذه السورة والله أعلم بمراده و باسرار كتابه بعون الله وحسن توفيقه يقول جامع هذا الكتاب ختمت تفسير هذه السورة يوم السبت من شهر الله الاصم رجب سنة احدى وستمائة وكنت ضيق الصدر كثير الحزن بسبب وفاة الولد الصالح محمد أفاض الله على روحه وجسده أنواع المغفرة والرحمة وأنا التمس من كل من يقرأ هذا الكتاب و ينتفع به من المسلمين أن يخص ذلك المسكين وهذا المسكين بالدعاء والرحمة والغفران والحمد لله رب العالمين وصلاته على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين

سورة هود عليه السلام مائة وثلاث وعشرون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان قوله الر اسم للسورة وهو مبتدأ وقوله كتاب خبره وقوله أحكمت آياته ثم فصلت صفة للكتاب قال الزجاج لايجوز أن يقال الر مبتدأ وقوله كتاب أحكمت آياته ثم فصلت خبر لان الر ليس هو الموصوف بهذه الصفة وحده وهذا الاعتراض فاسد لانه ليس من شرط كون الشئ مبتدأ أن يكون خبره محصورا فيه ولا أدرى كيف وقع للزجاج هذا السؤال ثم ان الزجاج اختار قولا آخر وهو أن يكون التقدير الر هذا كتاب أحكمت آياته وعندى أن هذا القول ضعيف لوجهين (الاول) أن على هذا التقدير يقع قوله الر كلاما باطلا لا فائدة فيه (والثانى) انك اذا قلت هذا كتاب فقولك هذا يكون اشارة الى أقرب المذكورات وذلك هو قوله الر فيصير حينئذ الر مخبرا عنه بانه كتاب أحكمت آياته فيلزمه على هذا القول مالم يرض به فى القول الاول فثبت ان الصواب ماذكرناه (المسئلة الثانية) فى قوله أحكمت آياته وجوه (الاول) أحكمت آياته نظمت نظما رصيفا محكما لا يقع فيه نقص ولا خلل كالبناء المحكم المرصف (الثانى) ان الاحكام عبارة عن منع الفساد من الشئ فقوله أحكمت آياته أى لم تنسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع بها واعلم ان على هذا الوجه لايكون كل الكتاب محكما لانه حصل فيه آيات منسوخة الا انه لما كان الغالب كذلك صح اطلاق هذا الوصف عليه اجراء للحكم الثابت فى الغالب مجرى الحكم الثابت فى الكل (الثالث) قال صاحب الكشاف أحكمت يجوز أن يكون نقلا بالهمزة من حكم بضم الكاف اذا صار حكيما أى جعلت حكيمة كقوله آيات الكتاب الحكيم (الرابع) جعلت آياته محكمة فى أمور (أحدها) ان معانى هذا الكتاب هى التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وهذه المعانى لاتقبل النسخ فهى فى غاية الاحكام (وثانيها) ان

وكبر القبيل الا أنهما حيث كانا من صفات الآيات باعتبار نسبة بعضها الى بعض على وجه يستتبع أحكاما مخصوصة وآثارا معتدا بها وبملاحظة مصالح العباد ناسب أن يشار الى تراخي رتبتهما عن رتبة الاحكام وان حمل جعلها آية آية على معنى تفريق بعضها عن بعض يكون من هذا القبيل الا أنه ليس في مثابته في استتباع ما يستتبعه من الاحكام والآثار أو فرقت في التنزيل منجمة بحسب المصالح فان أريد تنزيلهما المنجم بالفعل فالتراخي زماني وان أريد جعلها في نفسها بحيث يكون نزولها منجما حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فهو رتبي لان ذلك وصف لازم لها حقيق بأن يرتب على وصف احكامها وقرئ أحكمت آياته ثم فصلت على صيغة التكلم وعن عكرمة والضحاك ثم فصلت اى فرقت بين الحق والباطل (من لدن حكيم خبير) صفة للكتاب وصف بها بعد ما وصف باحكام آياته وتفصيلها الدالين على علو رتبته من حيث الذات ابانة لجلالة شأنه من حيث الاضافة أو خبر بعد خبر للمبتدا المذكور أو المحذوف أو صلة للفعلين وفي بنائهما للمفعول ثم ايراد الفاعل بعنوان الحكمة البالغة والاحاطة بجلائلها ودقائقها منكرا بالتنكير التفخيمي وربطهما به لا على النهج المعهود في اسناد الافاعيل الى فواعلها مع رعاية حسن الطباق من الجزالة والدلالة على فخامتهما وكونهما على أكمل ما يكون ما لا يكتنه كنهه (ألا تعبدوا الا الله) مفعول له حذف عنه اللام مع فقدان الشرط أعني كونه فعلا لفاعل الفعل المعلل جريا على سنن القياس المطرد في حذف حرف الجر مع أن المصدرية كأنه قيل كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لئلا تعبدوا الا الله أى لتتركوا عبادة غير الله عز وجل وتمحضوا في عبادته فان الاحكام والتفصيل على ما فصل من المعاني مما يدعوهم الى الايمان والتوحيد وما يتفرع عليه من الطاعات قاطبة وقيل أن مفسرة لما في التفصيل من معنى القول أى قيل لا تعبدوا الا الله (انى لكم منه) من جهة الله تعالى (نذير) انذركم عذابه ان لم تتركوا

الآيات الواردة فيه غير متناقضة والتناقض ضد الاحكام فاذا خلت آياته عن التناقض فقد حصل الاحكام (وثالثها) ان ألفاظ هذه الآيات بلغت في الفصاحة والجزالة الى حيث لا تقبل المعارضة وهذا أيضا مشعر بالقوة والاحكام (ورابعها) ان العلوم الدينية اما نظرية [illegible] أما النظرية فهي معرفة الاله تعالى ومعرفة الملائكة والكتب والرسل واليوم [illegible] الكتاب مشتمل على شرائف هذه العلوم ولطائفها وأما العملية فهي أما أن تكون عبارة عن تهذيب الاعمال الظاهرة وهو الفقه أو عن تهذيب الاحوال الباطنة وهي علم التصفية ورياضة النفس ولا نجد كتابا في العالم يساوي هذا الكتاب في هذه المطالب فثبت أن هذا الكتاب مشتمل على أشرف المطالب الروحانية وأعلى المباحث الالهية فكان كتابا محكما غير قابل للنقض والهدم وتمام الكلام في تفسير المحكم ذكرناه في تفسير قوله تعالى هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات (المسئلة الثالثة) في قوله فصلت وجوه (أحدها) ان هذا الكتاب فصل كما تفصل الدلائل بالفوائد الروحانية وهي دلائل التوحيد والنبوة والاحكام والمواعظ والقصص (والثاني) أنها جعلت فصولا سورة سورة وآية آية (الثالث) فصلت بمعنى انها فرقت في التنزيل وما نزلت جملة واحدة ونظيره قوله تعالى فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات والمعنى مجيء هذه الآيات متفرقة متعاقبة (الرابع) فصل ما يحتاج اليه العباد أي جعلت مبينة ملخصة (الخامس) جعلت فصولا حلالا وحراما وأمثالا وترغيبا وترهيبا ومواعظ وأمرا ونهيا لكل معنى فيها فصل قد أفرد به غير مختلط بغيره حتى تستكمل فوائد كل واحد منها ويحصل الوقوف على كل باب واحد منها على الوجه الاكمل (المسئلة الرابعة) معنى ثم في قوله ثم فصلت ليس للتراخي في الوقت لكن في الحال كما تقول هي محكمة أحسن الاحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل وكما تقول فلان كريم الاصل ثم كريم الفعل (المسئلة الخامسة) قال صاحب الكشاف قرئ أحكمت آياته ثم فصلت أي أحكمتها أنا ثم فصلتها وعن عكرمة والضحاك ثم فصلت أي فرقت بين الحق والباطل (المسئلة السادسة) احتج الجبائي بهذه الآية على ان القرآن محدث مخلوق من ثلاثة أوجه (الاول) قال المحكم هو الذي أتقنه فاعله ولولا أن الله تعالى يحدث هذا القرآن والا لم يصح ذلك لان الاحكام لا يكون الا في الافعال ولا يجوز أن يقال كان موجودا غير محكم ثم جعله الله محكما لان هذا يقتضي في بعضه الذي جعله محكما أن يكون محدثا ولم يقل أحد بأن القرآن بعضه قديم وبعضه محدث (الثاني) ان قوله ثم فصلت يدل على أنه حصل فيه انفصال وافتراق ويدل على ان ذلك الانفصال والافتراق انما حصل بجعل جاعل وتكوين مكون وذلك أيضا يدل على المطلوب (الثالث) قوله من لدن حكيم خبير والمراد من عنده والقديم لا يجوز أن يقال انه حصل من عند قديم آخر لانهما لو كانا قديمين لم يكن القول بان أحدهما حصل من عند الآخر أولى من العكس أجاب أصحابنا بان هذه

النعوت عائدة الى هذه الحروف والاصوات ونحن معترفون بانها محدثة مخلوقة وانما الذى ندعى قدمه أمر آخر سوى هذه الحروف والاصوات (المسئلة السابعة) قال صاحب الكشاف قوله من لدن حكيم خبير يحتمل وجوها (الاول) أن اذكرنا أن قوله كتاب خبر وأحكمت صفة لهذا الخبر وقوله من لدن حكيم خبير صفة ثانية والتقدير الكتاب من لدن حكيم خبير (والثانى) أن يكون خبرا بعد خبر والتقدير [illegible]ن حكيم خبير (والثالث) أن يكون ذلك صفة لقوله أحكمت وفصلت أى أحكمت وفصلت من لدن حكيم خبير وعلى هذا التقدير فقد حصل بين أول هذه الآية وبين آخرها نكتة لطيفة كأنه يقول أحكمت آياته من لدن حكيم وفصلت من لدن خبير عالم بكيفيات الامور * قوله تعالى ألا تعبدوا الا الله اننى لكم منه نذير و بشير وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى و يؤت كل ذى فضل فضله وان تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير الى الله مرجعكم وهو على كل شئ قدير) اعلم أن فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن فى قوله ألا تعبدوا الا الله وجوها (الاول) أن يكون مفعولا له والتقدير كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لاجل ألا تعبدوا الا الله وأقول هذا التأويل يدل على أنه لا مقصود من هذا الكتاب الشريف الا هذا الحرف الواحد فكل من صرف عمره الى سائر المطالب فقد خاب وخسر (الثانى) أن يكون أن مفسرة لان فى تفصيل الآيات معنى القول والحمل على هذا أولى لان قوله وأن استغفروا معطوف على قوله ألا تعبدوا فيجب ان يكون معناه أى لا تعبدوا ليكون الامر معطوفا على النهى فان كونه بمعنى لئلا تعبدوا يمنع عطف الامر عليه (والثالث) أن يكون التقدير الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ليأمر الناس أن لا يعبدوا الا الله و يقول لهم انى لكم منه نذير و بشير والله أعلم (المسئلة الثانية) اعلم أن هذه الآية مشتملة على التكليف من وجوه (الاول) انه تعالى أمر بان لا يعبدوا الا الله واذا قلنا الاستثناء من النفى اثبات كان معنى هذا الكلام النهى عن عبادة غير الله تعالى والامر بعبادة الله تعالى وذلك هو الحق لانا بينا أن ما سوى الله فهو محدث مخلوق مربوب وانما حصل بتكوين الله وايجاده والعبادة عبارة عن اظهار الخضوع والخشوع ونهاية التواضع والتذلل وهذا لا يليق الا بالخالق المدبر الرحيم المحسن فثبت أن عبادة غير الله منكرة والاعراض عن عبادة الله منكر واعلم أن عبادة الله مشروطة بتحصيل معرفة الله تعالى قبل العبادة لان من لا يعرف معبوده لا ينتفع بعبادته فكان الامر بعبادة الله أمرا بتحصيل المعرفة أولا ونظيره قوله تعالى فى أول سورة البقرة ياأيها الناس اعبدوا ربكم ثم أتبعه بالدلائل الدالة على وجود الصانع وهو قوله الذى خلقكم والذين من قبلكم وانما حسن ذلك لان الامر بالعبادة يتضمن الامر بتحصيل المعرفة فلاجرم ذكر ما يدل على تحصيل المعرفة ثم قال اننى لكم منه نذير و بشير وفيه مباحث (الاول) أن الضمير فى قوله منه عائد الى الحكيم الخبير والمعنى

عليه السلام عبادة غير الله تعالى (نذير وبشير) أبشركم بثوابه ان آمنتم به وتمحضتم فى عبادته ولما ذكر شؤن الكتاب لمبتدأ ... تفصيلها وكون ذلك من قبل الله تعالى وأورد معظم ما نظم فى سلك الغاية والامر من التوحيد وترك الاشراك المقام بحسب فريقيه أعنى الاستغفار والتوبة ذكر أن من نزل عليه ذلك الكتاب مرسل من عند الله تعالى لتبليغ أحكامه على نمط العد... مؤيدات من الوعد والوعيد للايذان بان التوحيد فى أقصى مراتب الاهمية حتى أفرد بالذكر وايد على الوجه لخطاب غب الكتاب آياته بالتصريح بانه كما لا يتحقق فى نفسه الا مقارنا للحكم برسالته عليه السلام كذلك فى الذكر لا ينفك أحدهما عن الآخر وقد روعى فى سوق الخطاب بتقديم الانذار على التبشير ما روعى فى الكتاب من تقديم النفى على الاثبات والتخلية على التحلية لتجاوب أطراف الكلام و يجوز أن يكون قوله تعالى ألا تعبدوا الا الله كلاما منقطعا عما قبله واردا على لسانه عليه السلام اغراء لهم على اختصاصه تعالى بالعبادة كأنه عليه السلام قال ترك عبادة غير الله أى الزموه على معنى اتركوا عبادة غير الله تركا مستمرا اننى لكم من جهة الله تعالى نذير وبشير أى نذير أنذركم من عقابه على تقدير استمراركم على الكفر وبشير أبشركم بثوابه على تقدير تركيكم له وتوحيدكم ولما سبق اليهم حديث التوحيد وأكد ذلك بخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم على وجه الانذار والتبشير شرع فى ذكر ما هو من تتماته على وجه يتضمن تفصيل ما أجمل فى وصف البشير والنذير فقيل (وأن استغفروا ربكم) وهو معطوف على أن لا تعبدوا على ماذكر من الوجهين فعلى الاول ﴿ انى ﴾ أن مصدرية لجواز كون صلتها امرا أو نهيا كما فى قوله تعالى وأن أقم وجهك للدين حنيفا لان مدار جواز كونها فعلا انما هو دلالته على المصدر وهو موجود فيهما ووجوب كونها خبرية فى صلة الموصول الاسمى انما هو للتوصل الى وصف المعارف بالجمل وهى لا توصف بها الا اذا كانت خبرية وأما الموصول الحرفى

انى لكم نذير و بشير من جهته (البحث الثانى) ان قوله ألاتعبدوا الا الله مشتمل على المنع عن عبادة غير الله وعلى الترغيب فى عبادة الله تعالى فهو عليه الصلاة والسلام نذير على الاول بالحاق العذاب الشديد لمن لم يأت بها و بشير على الثانى بالحاق الثواب العظيم لمن أتى بها وأعلم أنه صلى الله عليه وسلم مابعث الا لهذين الامرين وهو الانذار على فعل مالا ينبغى والبشارة على فعل ماينبغى (المرتبة الثانية) من الامور المذكورة فى هذه الآية قوله وأن استغفروا ربكم (والمرتبة الثالثة) قوله ثم توبوا اليه واختلفوا فى بيان الفرق بين هاتين المرتبتين على وجوه (الاول) أن معنى قوله وأن استغفروا اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ثم بين الشئ الذى يطلب به ذلك وهو التوبة فقال ثم توبوا اليه لان الداعى الى التوبة والمحرض عليها هو الاستغفار الذى هو عبارة عن طلب المغفرة وهذا يدل على انه لاسبيل الى طلب المغفرة من عند الله الا باظهار التوبة والامر فى الحقيقة كذلك لان المذنب معرض عن طريق الحق والمعرض المتمادى فى التباعد مالم يرجع عن ذلك الاعراض لايمكنه التوجه الى المقصود بالذات فالمقصود بالذات هو التوجه الى المطلوب الا ان ذلك لايمكن الا بالاعراض عما يضاده فثبت أن الاستغفار مطلوب بالذات وأن التوبة مطلوبة لكونها من متممات الاستغفار وماكان آخرا فى الحصول كان أولا فى الطلب فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة (الوجه الثانى) فى فائدة هذا الترتيب أن المراد استغفروا من سالف الذنوب ثم توبوا اليه فى المستأنف (الثالث) وأن استغفروا من الشرك والمعاصى ثم توبوا من الاعمال الباطلة (الرابع) الاستغفار طلب من الله لازالة مالاينبغى والتوبة سعى من الانسان فى ازالة مالاينبغى فقدم الاستغفار ليدل على أن المرء يجب أن لايطلب الشئ الا من مولاه فانه هو الذى يقدر على تحصيله ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لانها عمل يأتى به الانسان و يتوسل به الى دفع المكروه والاستعانة بفضل الله تعالى مقدمة على الاستعانة بسعى النفس واعلم انه تعالى لما ذكر هذه المراتب الثلاثة ذكر بعدها مايترتب عليها من الآثار النافعة والنتائج المطلوبة ومن المعلوم أن المطالب محصورة فى نوعين لانه اما أن يكون حصولها فى الدنيا أو فى الآخرة أما المنافع الدنيوية فهى المراد من قوله يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى وهذا يدل على ان المقبل على عبادة الله والمشتغل بها يبقى فى الدنيا منتظم الحال مرفه البال وفى الآية سؤالات (الاول) أليس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وقال أيضا خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل وقال تعالى ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة فهذه النصوص دالة على ان نصيب المشتغل بالطاعات فى الدنيا هو الشدة والبلية ومقتضى هذه الآية أن نصيب المشتغل بالطاعات الراحة فى الدنيا فكيف الجمع بينهما الجواب من وجوه (الاول) المراد انه تعالى لايعذبهم بعذاب الاستئصال كما استأصل أهل القرى

فليس كذلك ولما كان الخبر والانشاء فى الدلالة على المصدر سواء ساغ وقوع الامر والنهى صلة حسبما ساغ وقوع الفعل فيجرد عند ذلك عن معنى الامر والنهى نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال (ثم توبوا اليه) عطف على استغفروا والكلام فيه كالكلام فيه والمعنى فعل مافعل من الاحكام والتفصيل لتخصوا الله تعالى بالعبادة وتطلبوا منه ستر مافرط منكم من الشرك ثم ترجعوا اليه ﴿٥٣﴾ بالطاعة أو تستمروا على ما أنتم عليه من التوحيد والاستغفار أو تستغفروا من الشرك وتتوبوا من المعاصى وعلى الثانى أن مفسرة أى قيل فى أثناء تفصيل الآيات لاتعبدوا الا الله واستغفروه ثم توبوا اليه والتعرض لوصف الربوبية تلقين للمخاطبين وارشاد لهم الى طريق الابتهال فى السؤال وترشيح لما يعقبه من التمتيع وابناء الفضل بقوله تعالى (يمتعكم متاعا حسنا) أى يمتعوا وانتصابه على أنه مصدر حذف منه الزوائد كقوله تعالى انبتكم من الارض نباتا أو على أنه مفعول به وهو اسم لما يتمتع به من منافع الدنيا من الاموال والبنين وغير ذلك والمعنى يعيشكم عيشا مرضيا لايفوتكم فيه شئ مما تشتهون ولا ينغصه شئ من المكدرات (الى أجل مسمى) مقدر عند الله عز وجل وهو آخر أعماركم ولما كان ذلك غاية لايطمح وراءها طامح جرى التمتيع اليها مجرى التأبيد عادة أو لايهلككم بعذاب الاستئصال (ويؤت كل ذى فضل) فى الطاعة والعمل (فضله) جزاء فضله اما فى الدنيا أو فى الآخرة وهذه تكملة لما أجمل من التمتيع الى أجل مسمى وتبيين لما عسى يعسر فهم حكمته من بعض مايتفق فى الدنيا من تفاوت الحال بين العاملين فرب انسان له فضل طاعة وعمل لايمتع فى الدنيا أكثر مما متع آخر دونه فى الفضل وربما يكون المفضول أكثر تمتيعا فقيل ويعط كل فافضل جزاء فضله اما فى الدنيا كما يتفق فى بعض المواد واما فى الآخرة وذلك مما لامرد له وهذا ضرب تفصيل لما أجمل فيما سبق من البشارة ثم شرع فى الانذار فقيل (وان تولوا)

أى تتولوا عما ألقى اليكم من التوحيد والاستغفار والتوبة وانما أخر عن البشارة جريا على سنن تقدم الرحمة على الغضب أولان العذاب قد علق بالتولى عما ذكر من التوحيد والاستغفار والتوبة وذلك يستدعى سابقة ذكره وقرئ تولوا من ولى (فانى أخاف عليكم) موجب الشفقة والرأفة أو أتوقع (عذاب يوم كبير) هو يوم القيامة وصف بالكبر كما وصف بالعظم فى قوله تعالى ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم اما لكونه كذلك فى نفسه ﴿ ٥٤ ﴾ أو وصف بوصف ما يكون فيه كما وصف بالثقل فى قوله تعالى ثقلت فى السموات والارض وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا بقحط أكلوا فيه الجيف وأياما كان ففى اضافة العذاب اليه تهويل وتفظيع له (الى الله مرجعكم) رجوعكم بالموت ثم البعث للجزاء فى مثل ذلك اليوم لا الى غيره (وهو على كل شئ قدير) فيندرج فى تلك الكلية قدرته على اماتتكم ثم بعثكم وجزائكم فيعذبكم بأفانين العذاب وهو تقرير لما سلف من كبر اليوم وتعليل للخوف ولما ألقى اليهم فحوى الكتاب على لسان النبى صلى الله عليه وسلم وسيق اليهم ما ينبغى أن يساق من الترغيب والترهيب وقع فى ذهن السامع أنهم بعد ما سمعوا مثل هذا المقال الذى تخر له صم الجبال هل قابلوه بالاقبال أم تمادوا فيما كانوا عليه من الاعراض والضلال فقيل مصدرا بكلمة التنبيه اشعارا بأن ما يعقبها من هناتهم أمر يجب أن يفهم ويتعجب منه (ألا انهم يثنون صدورهم) يزورون عن الحق وينحرفون عنه أى يستمرون على ما كانوا عليه من التولى والاعراض لان من أعرض عن شئ ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه وهذا معنى جزل مناسب لما سبق وقد نحا ﴿ سبحانه ﴾ نحوه العلامة الزمخشرى ولكن حيث لم يصلح التولى سببا للاستخفاء فى قوله عز رجل (ليستخفوا منه) التجأ الى اضمار الارادة حيث قال ويريدون ليستخفوا من الله تعالى فلا يطلع رسوله والمؤمنين على اعراضهم وجعله فى قود المعنى اليه من قبيل الاضمار فى قوله تعالى اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فاضرب فانفلق ولا يخفى أن

الذين كفروا (الثانى) انه تعالى يوصل اليهم الرزق كيف كان واليه الاشارة بقوله وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك (الثالث) وهو الاقوى عندى أن يقال ان المشتغل بعبادة الله وبمحبة الله مشتغل بحب شئ يمتنع تغيره وزواله وفناؤه فكل من كان امعانه فى ذلك الطريق أكثر وتوغله فيه أتم كان انقطاعه عن الخلق أتم وأكمل وكلما كان الكمال فى هذا الباب أكثر كان الابتهاج والسرور أتم لانه أمن من تغير مطلوبه وأمن من زوال محبوبه فاما من كان مشتغلا بحب غير الله كان أبدا فى ألم الخوف من فوات المحبوب وزواله فكان عيشه منغصا وقلبه مضطربا ولذلك قال الله تعالى فى صفة المشتغلين بخدمته فلنحيينه حياة طيبة (السؤال الثانى) هل يدل قوله الى أجل مسمى على ان للعبد أجلين وأنه يقع فى ذلك التقديم والتأخير والجواب لا ومعنى الآية انه تعالى حكم بان هذا العبد لو اشتغل بالعبادة لكان أجله فى الوقت الفلانى ولو أعرض عنها لكان أجله فى وقت آخر لكنه تعالى عالم بانه لو اشتغل بالعبادة أم لا فان اجله ليس الا فى ذلك الوقت المعين فثبت أن لكل انسان أجلا واحدا فقط (السؤال الثالث) لم سمى منافع الدنيا بالمتاع الجواب لاجل التنبيه على حقارتها وقلتها ونبه على كونها منقضية بقوله تعالى الى أجل مسمى فصارت هذه الآية دالة على كونها حقيرة خسيسة منقضية ثم لما بين تعالى ذلك قال ويؤت كل ذى فضل فضله والمراد منه السعادات الاخروية وفيها لطائف وفوائد (الفائدة الاولى) ان قوله ويؤت كل ذى فضل فضله معناه ويؤت كل ذى فضل موجب فضله ومعلوله والامر كذلك وذلك لان الانسان اذا كان فى نهاية البعد عن الاشتغال بغير الله وكان فى غاية الرغبة فى تحصيل أسباب معرفة الله تعالى فحينئذ يصير قلبه فصا لنقش الملكوت ومرآة يتجلى بها قدس اللاهوت الا ان العلائق الجسدانية الظلمانية تكدر تلك الانوار الروحانية فاذا زالت هذه العلائق أشرقت تلك الانوار وتلألأت تلك الاضواء وتوالت موجبات السعادات فهذا هو المراد من قوله ويؤت كل ذى فضل فضله (الفائدة الثانية) ان هذا تنبيه على أن مراتب السعادات فى الآخرة مختلفة وذلك لانها مقدرة بمقدار الدرجات الحاصلة فى الدنيا فلما كان الاعراض عن غير الحق والاقبال على عبودية الحق درجات غير متناهية فكذلك مراتب السعادات الاخروية غير متناهية فلهذا السبب قال ويؤت كل ذى فضل فضله (الفائدة الثالثة) انه تعالى قال فى منافع الدنيا يمتعكم متاعا حسنا وقال فى سعادات الآخرة ويؤت كل ذى فضل فضله وذلك يدل على ان جميع خيرات الدنيا والآخرة ليس الا منه وليس الا بايجاده وتكوينه واعطائه وجوده ❊ وكان الشيخ الامام الوالد رحمه الله تعالى يقول لولا الاسباب لما ارتاب مرتاب وأكثر الناس عقولهم ضعيفة واشتغال عقولهم بهذه الوسائط الفانية يعميها عن مشاهدة أن الكل منه فأما الذين توغلوا فى المعارف الالهية وخاضوا فى بحار أنوار الحقيقة علموا أن ما سواه ممكن لذاته موجود بايجاده فانقطع نظرهم عما سواه وعلموا أنه

سبحانه وتعالى هو الضار والنافع والمعطى والمانع ثم انه تعالى لمابين هذه الاحوال قال وان تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير والامر كذلك لان من اشتغل بعبادة غيرالله صار فى الدنيا أعمى ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا والذى بين ذلك أن من أقبل على طلب الدنيا ولذاتها وطيباتها قوى حبه لها ومال طبعه اليها وعظمت رغبته فيها فاذامات بقى معه ذلك الحب الشديد والميل التام وصارعا جزا عن الوصول الى محبو به فحينئذ يعظم البلاء و يتكامل الشقاء فهذا القدر المعلوم عندنا من عذاب ذلك اليوم وأماتفا صيل تلك الاحوال فهى غائبة عنامادمنا فى هذه الحياة الدنيوية ثم بين أنه لابد من الرجوع الى الله تعالى بقوله الى الله مرجعكم وهوعلى كل شئ قدير واعلم أن قوله الى الله مرجعكم فيه دقيقة وهى ان هذا اللفظ يفيد الحصر يعنى ان مرجعنا الى الله لاالى غيره فيدل هذا على أنه لامدبر ولامتصرف هناك الاهو والامر كذلك أيضا فى هذه الحياة الدنيوية الاان أقواما اشتغلوا بالنظر الى الوسائط فعجزوا عن الوصول الى مسبب الاسباب فظنوا أنهم فى دار الدنيا قادرون على شئ وأما فى دار الآخرة فهذا الحال الفاسد زائل أيضا فلهذا المعنى بين هذا الحصر بقوله الى الله مرجعكم ثم قال وهوعلى كل شئ قدير وأقول ان هذا تهديد عظيم من بعض الوجوه و بشارة عظيمة من سائر الوجوه أما انه تهديد عظيم فلان قوله تعالى الى الله مرجعكم يدل على أنه ليس مرجعنا الااليه وقوله وهو على كل شئ قدير يدل على أنه قادر على جميع المقدورات لادافع لقضائه ولامانع لمشيئته والرجوع الى الحاكم الموصوف بهذه الصفة مع العيوب الكثيرة والذنوب العظيمة مشكل وأما انه بشارة عظيمة فلان ذلك يدل على قدرة غالبة وجلالة عظيمة لهذا الحاكم وعلى ضعف تام وعجز عظيم لهذا العبد والملك القاهر العالى الغالب اذارأى عاجزا مشرفا على الهلاك فانه يخلصه من الهلاك ومنه المثل المشهور ملكت فاسجح * يقول مصنف هذا الكتاب قد أفنيت عمرى فى خدمة العلم والمطالعة للكتب ولارجاءلى فى شئ الاانى فى غاية الذلة والقصور والكريم اذاقدر غفر وأسألك ياأكرم الاكرمين وياأرحم الراحمين وساتر عيوب المعيوبين ومجيب دعوة المضطرين أن تفيض سجال رحمتك على ولدى وفلذة كبدى وأن تخصنا بالفضل والتجاوز والجود والكرم * قوله تعالى (ألا انهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه الاحين يستغشون ثيابهم يعلم مايسرون ومايعلنون انه عليم بذات الصدور) اعلم انه تعالى لماقال وان تولوا يعنى عن عبادته وطاعته فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير بين بعده أن التولى عن ذلك باطنا كالتولى عنه ظاهرا فقال ألا انهم يعنى الكفار من قوم محمد صلى الله عليه وسلم يثنون صدورهم ليستخفوا منه واعلم أنه تعالى حكى عن هؤلاء الكفار شيئين (الاول) أنهم يثنون صدورهم يقال ثنيت الشئ اذاعطفته وطويته وفى الآية وجهان (الاول) روى أن طائفة من المشركين قالوا اذا أغلقنا أبوابنا وأرسلنا ستورنا واستغشينا ثيابنا وثنينا

انسياق الذهن الى توسيط الارادة بين ثنى الصدور و بين الاستخفاء ليس كانسياقه الى توسيط الضرب بين الامر به و بين الانفلاق ولعل الاظهر أن معناه يعطفون صدورهم على مافيها من الكفر والاعراض عن الحق وعداوة النبى صلى الله عليه وسلم بحيث يكون ذلك مخفيا مستورا فيها كماتعطف الثياب على مافيها من الاشياء المستورة وانمالم يذكر ذلك استهجانا بذكره أو ايماء الى أن ظهوره مغن عن ذكره أو ليذهب ذهن السامع الى كل مالاخير فيه من الامور المذكورة فيدخل فيه ماذكر من توليهم عن الحق الذى ألقى اليهم دخولا أوليا فحينئذ يظهر وجه كون ذلك سببا للاستخفاء و يؤيده ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما انها نزلت فى الاخنس بن شريق وكان رجلا حلو المنطق حسن السياق للحديث يظهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم المحبة ويضمر فى قلبه مايضادها وقال ابن شداد انها نزلت فى بعض المنافقين كان اذامر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كى لايراه النبى صلى الله عليه وسلم وكأنه انماكان يصنع مايصنع لانه لو رآه النبى صلى الله عليه وسلم لم يمكنه التخلف عن حضور مجلسه والمصاحبة معه ور بما يؤدى ذلك الى ظهور مافى قلبه من الكفر والنفاق وقرئ يثنونى صدورهم بالياء والتاء من اثنونى افعوعل من الثنى كاحلولى من الحلاوة وهو بناء مبالغة وعن ابن عباس رضى الله عنهما التثنونى وقرئ تثنون ٢ وأصله تثنونن من تفعوعل من الثن وهوماهش من الكلا وضعف يريد مطاوعة صدورهم للثنى كاينثنى الهش من

---

٢ قوله وقرئ تثنون الخ أفاد الشهاب انه بمثناة فوقية مفتوحة فمثلثة ساكنة فنون مفتوحة تتلوها واو مكسورة و بعدها نون مشددة وأصله تثنونن على وزن تفعوعل وقوله من الثن أى بكسر المثلثة وتشديد النون كمافى القاموس * وقوله وقرئ تثنئن أى على وزن تطمئن بأن يجعل مكان الواو المكسورة فى القراءة السابقة همزة مكسورة كمافى زاده اه مصححه

صدورنا على عداوة محمد فكيف يعلم بنا وعلى هذا التقدير كان قوله يثنون صدورهم كناية عن النفاق فكأنه قيل يضمرون خلاف مايظهرون ليستخفوا من الله تعالى ثم نبه بقوله ألا حين يستغشون ثيابهم على أنهم يستخفون منه حين يستغشون ثيابهم (الوجه الثانى) روى أن بعض الكفار كان اذا مر به رسول الله ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه والتقدير كأنه قيل انهم ينصرفون عنه ليستخفوا منه حين يستغشون ثيابهم لئلا يسمعوا كلام رسول الله ومايتلو من القرآن وليقولوا فى أنفسهم مايشتهون من الطعن وقوله ألا للتنبيه فنبه أولا على أنهم ينصرفون عنه ليستخفوا ثم كرر كلمة ألا للتنبيه على ذكر الاستخفاء لينبه على وقت استخفائهم وهو حين يستغشون ثيابهم كأنه قيل ألا انهم ينصرفون عنه ليستخفوا من الله ألا انهم يستخفون حين يستغشون ثيابهم ثم ذكر أنه لافائدة لهم فى استخفائهم بقوله يعلم مايسرون ومايعلنون * قوله تعالى (ومامن دابة فى الارض الاعلى الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) اعلم أنه تعالى لماذكر فى الآية الاولى أنه يعلم مايسرون ومايعلنون أردفه بمايدل على كونه تعالى عالما بجميع المعلومات فذكر أن رزق كل حيوان انمايصل اليه من الله تعالى فلولم يكن عالما بجميع المعلومات لما حصلت هذه المهمات وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الزجاج الدابة اسم لكل حيوان لان الدابة اسم مأخوذ من الدبيب وبنيت هذه اللفظة على هاء التأنيث وأطلق على كل حيوان ذى روح ذكراكان أو انثى الا أنه بحسب عرف العرب اختص بالفرس والمراد بهذا اللفظ فى هذه الآية الموضوع الاصلى اللغوى فيدخل فيه جميع الحيوانات وهذا متفق عليه بين المفسرين ولاشك أن أقسام الحيوانات وأنواعها كثيرة وهى الاجناس التى تكون فى البر والبحر والجبال والله يحصيها دون غيره وهو تعالى عالم بكيفية طبائعها وأعضائها وأحوالها وأغذيتها وسمومها ومساكنها ومايوافقها ومايخالفها فالاله المدبر لاطباق السموات والارضين وطبائع الحيوان والنبات كيف لايكون عالما باحوالها روى أن موسى عليه السلام عند نزول الوحى اليه تعلق قلبه باحوال أهله فأمره الله تعالى أن يضرب بعصاه على صخرة فانشقت وخرجت صخرة ثانية ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت وخرجت صخرة ثالثة ثم ضربها بالعصا فانشقت فخرجت منها دودة كالذرة وفى فمها شئ يجرى مجرى الغذاء لها ورفع الحجاب عن سمع موسى عليه السلام فسمع الدودة تقول سبحان من يرانى ويسمع كلامى ويعرف مكانى ويذكرنى ولاينسانى (المسئلة الثانية) تعلق بعضهم بانه يجب على الله تعالى بعض الاشياء بهذه الآية وقال ان كلمة على للوجوب وهذا يدل على أن ايصال الرزق الى الدابة واجب على الله وجوابه أنه واجب بحسب الوعد والفضل والاحسان (المسئلة الثالثة) تعلق أصحابنا بهذه الآية فى اثبات أن الرزق قد يكون حراما قالوا لانه ثبت أن ايصال الرزق الى كل حيوان واجب على الله تعالى بحسب الوعد وبحسب الاستحقاق والله تعالى لايخل بالواجب ثم قد نرى انسانا لايأكل من الحلال طول

الثبات أو أراد ضعف ايمانهم ورخاوة قلوبهم وقرى تثنئن من اثنان افعال منه ثم همز كما قيل ابياضت وادهامت وقرى تثنوى بوزن ترعوى (ألا حين يستغشون ثيابهم) أى يتغطون بها للاستخفاء على مانقل عن ابن شداد أو حين يأوون الى فراشهم ويتدثرون بثيابهم فان مايقع حينئذ حديث النفس عادة وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخى ستره ويحنى ظهره ويتغشى بثوبه ويقول هل يعلم الله مافى قلبى (يعلم مايسرون) أى يضمرون فى قلوبهم (ومايعلنون) أى يستوى بالنسبة الى علمه المحيط سرهم وعلنهم فكيف يخفى عليه ماعسى يظهرونه وانما قدم السر على العلن نعيا عليهم من أول الامر ماصنعوا وايذانا بافتضاحهم ووقوع مايحذرونه وتحقيقا للمساواة بين العلمين على أبلغ وجه فكان علمه بمايسرونه أقدم منه بمايعلنونه ونظيره قوله تعالى قل ان تخفوا مافى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله حيث قدم فيه الاخفاء على الابداء على عكس ماوقع فى قوله تعالى وان تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله اذ لم يتعلق باشعار أن المحاسبة بمايخفونه أولى منها بمايبدونه غرض بل الامر بالعكس وأما ههنا فقد تعلق باشعار كون تعلق علمه تعالى بمايسرونه أولى منه بمايعلنونه غرض مهم مع كونهما على السوية كيف لا وعلمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول الصورة بل وجود كل شئ فى نفسه علم بالنسبة اليه تعالى وفى هذا المعنى لايختلف الحال بين الاشياء البارزة والكامنة وأما قوله تعالى وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون فحيث كان واردا بصدد الخطاب مع الملائكة عليهم السلام المنزه مقامهم عن اقتضاء التأكيد والمبالغة فى الاخبار باحاطة علمه تعالى بالظاهر ﴿ عمره ﴾ والباطن لم يسلك فيه ذلك المسلك مع انه وقع الغيبة عنه بماقبله من قوله عز وجل انى أعلم غيب السموات والارض يجوز أن ذلك باعتبار أن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن اذ مامن شئ يعلن الا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمر فى القلب فتعلق علمه

عمره فلولم يكن الحرام رزقا لكان الله تعالى ماأوصل رزقه اليه فيكون تعالى قد أخل بالواجب و ذلك محال فعلمنا أن الحرام قد يكون رزقا وأما قوله ويعلم مستقرها ومستودعها فالمستقر هو مكانه من الارض والمستودع حيث كان مودعا قبل الاستقرار فى صلب أورحم أو بيضة وقال الفراء مستقرها حيث تأوى اليه ليلا أونهارا ومستودعها موضعها الذى تموت فيه وقدمضى استقصاء تفسير المستقر والمستودع فى سورة الانعام ثم قال كل فى كتاب مبين قال الزجاج المعنى ان ذلك ثابت فى علم الله تعالى ومنهم من قال فى اللوح المحفوظ وقد ذكرنا فائدة ذلك فى قوله ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين ❁ قوله تعالى (وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين) واعلم أنه تعالى لما أثبت بالدليل المتقدم كونه عالما بالمعلومات أثبت بهذا الدليل كونه تعالى قادرا على كل المقدورات وفى الحقيقة فكل واحد من هذين الدليلين يدل على كمال علم الله وعلى كمال قدرته واعلم أن قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام قدمضى تفسيره فى سورة يونس على سبيل الاستقصاء بقى ههنا أن نذكر وكان عرشه على الماء قال كعب خلق الله تعالى ياقوتة خضراء ثم نظر اليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء قال أبو بكر الاصم معنى قوله وكان عرشه على الماء كقولهم السماء على الارض وليس ذلك على سبيل كون أحدهما ملتصقا بالآخر وكيف كانت الواقعة فذلك يدل على أن العرش والماء كانا قبل السموات والارض وقالت المعتزلة فى الآية دلالة على وجود الملائكة قبل خلقهما لانه لايجوز أن يخلق ذلك ولا أحد ينتفع بالعرش والماء لانه تعالى لما خلقهما فاما أن يكون قد خلقهما لمنفعة أولا لمنفعة والثانى عبث فبقى الاول وهو انه خلقهما لمنفعة وتلك المنفعة اما أن تكون عائدة الى الله وهو محال لكونه متعاليا عن النفع والضرر أو الى الغير فوجب أن يكون ذلك الغير حيا لان غير الحى لاينتفع وكل من قال بذلك قال ذلك الحى كان من جنس الملائكة وأما أبو مسلم الاصفهانى فقال معنى قوله وكان عرشه على الماء أى بناؤه السموات كان على الماء وقدمضى تفسير ذلك فى سورة يونس و بين أنه تعالى اذا بنى السموات على الماء كانت أبدع وأعجب فان البناء الضعيف اذا لم يؤسس على أرض صلبة لم يثبت فكيف بهذا الامر العظيم اذا بسط على الماء ❁ وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما الفائدة فى ذكر ان عرشه كان على الماء قبل خلق السموات والارض (والجواب) فيه دلالة على كمال القدرة من وجوه (الاول) ان العرش مع كونه أعظم من السموات والارض كان على الماء فلولا انه تعالى قادر على امساك الثقيل بغير عمد لما صح ذلك (والثانى) انه تعالى أمسك الماء لا على قرار والا لزم أن يكون أقسام العالم غير متناهية

تعلقه بحالته الثانية (انه عليم بذات الصدور) تعليل لماسبق وتقرير له واقع موقع الكبرى من القياس وفى [illegible] وتحلية الصدور بلام الاستغراق والتعبير عن الضمائر بعنوان صاحبيتها من البراعة مالا يصفه الواصفون كأنه قيل انه مبالغ فى الاحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية المستكنة فى صدورهم بحيث لاتفارقها أصلا فكيف يخفى عليه مايسرون ومايعلنون ويجوز أن يراد بذات الصدور القلوب من ﴿ ٥٧ ﴾ قوله تعالى ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور والمعنى انه عليم بالقلوب وأحوالها فلا يخفى عليه سر من أسرارها (وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها) غذاؤها اللائق بها من حيث الخلق ومن حيث الايصال اليها بطريق طبيعى أوارادى لتكفله اياه تفضلا ورحمة وانما جيء به على طريق الوجوب اعتبارا لسبق الوعد وتحقيقا لوصوله اليها البتة وحملا للمكلفين على الثقة به تعالى والاعراض عن اتعاب النفس فى طلبه (ويعلم مستقرها) محل قرارها فى الاصلاب (ومستودعها) موضعها فى الارحام ومايجرى مجراها من البيض ونحوها وانما خص كل من الاسمين بما خص به من المحلين لان النطفة بالنسبة الى الاصلاب فى حيزها الطبيعى ومنشئها الخلقى وأما بالنسبة الى الارحام ومايجرى مجراها فهى مودعة فيها الى وقت معين او مسكنها من الارض حين وجدت بالفعل ومودعها من المواد والمقار حين كانت بعد بالقوة ولعل تقديم محلها باعتبار حالتها الاخيرة لرعاية المناسبة بينها وبين عنوان ﴿ ٨ ﴾ خا كونها دابة فى الارض والمعنى مامن دابة فى الارض الا يرزقها الله تعالى حيث كانت من أماكنها يسوقه اليها ويعلم موادها المتخالفة المتدرجة فى مراتب الاستعدادات المتفاوتة المتطورة فى الاطوار المتباينة ومقارها المتنوعة ويفيض عليها فى كل مرتبة مايليق بها من مبادى وجودها وكمالاتها المتفرعة عليه وقد فسر المستودع بأماكنها فى الممات ولايلائمه مقام التكفل بأرزاقها (كل) من الدواب ورزقها ومستقرها

ومستودعها (فى كتاب مبين) اى مثبت فى اللوح المحفوظ البين لمن ينظر فيه من الملائكة عليهم السلام او المظهر لما أثبت فيه للناظرين ولما انتهى الامر الى أنه سبحانه محيط بجميع أحوال مافى الارض من المخلوقات التى لاتكاد تحصى من مبدا فطرتها الى منتهاها اقتضى الحال التعرض لمبدا خلق السموات والارض والحكمة الداعية الى ذلك فقيل (وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام) السموات فى يومين والارض فى يومين وماعليهما من أنواع الحيوانات والنبات وغير ذلك فى يومين حسبما فصل فى سورة حم السجدة ولم يذكر خلق مافى الارض لكونه من تمات خلقها وهو السر فى جعل زمان خلقه تتمة زمان خلقها فى قوله تعالى فى أربعة أيام أى فى تتمة أربعة أيام والمراد بالايام الاوقات كما فى قوله تعالى ومن يولهم يومئذ دبره أى فى ستة أوقات أو مقدار ستة أيام فان اليوم فى المتعارف زمان كون الشمس فوق الارض ولا يتصور ذلك حين لا أرض ولا سماء وفى خلقها مدرجا مع القدرة التامة على خلقها دفعة دليل على انه قادر مختار واعتبار للنظار وحث على التأنى فى الامور وأما تخصيص ذلك بالعدد المعين فأمر استأثر بعلم مايقتضيه علام الغيوب جلت حكمته وايثار صيغة الجمع فى السموات لما هو المشهور من الاشارة الى كونها أجراما مختلفة الطبائع ومتفاوتة الآثار والاحكام (وكان عرشه) قبل خلقهما (على الماء) ليس تحته شئ غيره سواء كان بينهما فرجة أو كان موضوعا على متنه كما ورد فى الاثر فلا دلالة فيه على امكان الخلاء كيف لا ولو دل لدل على وجوده لا على امكانه فقط ولا على كون الماء أول ماحدث فى العالم بعد العرش وانما يدل على أن خلقهما أقدم من خلق السموات والارض من غير تعرض للنسبة بينهما (ليبلوكم) متعلق بخلق أى خلق السموات والارض ومافيهما من المخلوقات التى من جملتها أنتم ورتب فيهما جميع ماتحتاجون اليه من مبادى وجودكم وأسباب معايشكم وأودع فى تضاعيفهما من

وذلك يدل على ماذكرناه (والثالث) أن العرش الذى هو أعظم المخلوقات قد أمسكه الله تعالى فوق سبع سموات من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه وذلك يدل أيضا على ماذكرنا (السؤال الثانى) هل يصح ما يروى انه قيل يارسول الله أين كان ربنا قبل خلق السموات والارض فقال كان فى عماء فوقه هواء وتحته هواء (والجواب) ان هذه الرواية ضعيفة والاولى أن يكون الخبر المشهور أولى بالقبول وهو قوله صلى الله عليه وسلم كان الله وما كان معه شئ ثم كان عرشه على الماء (السؤال الثالث) اللام فى قوله ليبلوكم أيكم أحسن عملا يقتضى انه تعالى خلق السموات والارض لابتلاء المكلف فكيف الحال فيه والجواب ظاهر هذا الكلام يقتضى ان الله تعالى خلق هذا العالم الكثير لمصلحة المكلفين وقد قال بهذا القول طوائف من العقلاء ولكل طائفة فيه وجه آخر سوى الوجه الذى قال به الآخرون وشرح تلك المقالات لايليق بهذا الكتاب والذين قالوا ان أفعاله وأحكامه غير معللة بالمصالح قالوا لام التعليل وردت على ظاهر الامر ومعناه انه تعالى فعل فعلا لو كان يفعله من تجوز عليه رعاية المصالح لما فعله الا لهذا الغرض (السؤال الرابع) الابتلاء انما يصح على الجاهل بعواقب الامور وذلك عليه تعالى محال فكيف يعقل حصول معنى الابتلاء فى حقه (والجواب) ان هذا الكلام على سبيل الاستقصاء ذكرناه فى تفسير قوله تعالى فى أول سورة البقرة لعلكم تتقون واعلم أنه تعالى لما بين أنه خلق هذا العالم لاجل ابتلاء المكلفين وامتحانهم فهذا يوجب القطع بحصول الحشر والنشر لان الابتلاء والامتحان يوجب تخصيص المحسن بالرحمة والثواب وتخصيص المسئ بالعقاب وذلك لايتم الا مع الاعتراف بالمعاد والقيامة فعند هذا خاطب محمدا عليه الصلاة والسلام وقال ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين ومعناه انهم ينكرون هذا الكلام ويحكمون بفساد القول بالبعث فان قيل الذى يمكن وصفه بأنه سحر ما يكون فعلا مخصوصا وكيف يمكن وصف هذا القول بأنه سحر قلنا الجواب عنه من وجوه (الاول) قال القفال معناه ان هذا القول خديعة منكم وضعتموها لمنع الناس عن لذات الدنيا واحرازا لهم الى الانقياد لكم والدخول تحت طاعتكم (الثانى) أن معنى قوله ان هذا الا سحر مبين هو أن السحر أمر باطل قال تعالى حاكيا عن موسى عليه السلام ماجئتم به السحر ان الله سيبطله فقوله ان هذا الا سحر مبين أى باطل مبين (الثالث) ان القرآن هو الحاكم بحصول البعث وطعنوا فى القرآن بكونه سحرا لان الطعن فى الاصل يفيد الطعن فى الفرع (الرابع) قرأ حمزة والكسائى ان هذا الا ساحر يريدون النبى صلى الله عليه وسلم والساحر كاذب * قوله تعالى (ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة ليقولن مايحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ماكانوا به يستهزؤن) اعلم أنه تعالى حكى عن الكفار انهم يكذبون

تعاجيب الصنائع والعبر ما تستدلون به على مطالبكم الدينية ليعاملكم معاملة من يبتليكم (أيكم أحسن عملا) فيجازيكم بالثواب والعقاب غب ما تبين المحسن من المسيء وامتازت درجات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز طبقات علومهم واعتقاداتهم المترتبة على أنظارهم فيما نصب من الحجج والدلائل والامارات والمخايل ومراتب أعمالهم المتفرعة على ذلك فان العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره عليه السلام بقوله أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله فان لكل من القلب والقالب عملا مخصوصا به فكما أن الاول أشرف من الثانى فكذا الحال فى عمله كيف لا ولا عمل بدون معرفة الله عز وجل الواجبة على العباد آثر ذى أثير وانما طريقها النظرى التفكر فى بدائع صنائع الملك الخلاق والتدبر فى آياته البينات المنصوبة فى الانفس والآفاق ولا طاعة بدون فهم ما فى مطاوى الكتاب الحكيم من الاوامر والنواهى وغير ذلك مما له مدخل فى الباب وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تفضلونى على يونس بن متى فانه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الارض قالوا وانما كان ذلك التفكر فى أمر الله عز وجل الذى هو عمل القلب لان أحدا لا يقدر على أن يعمل فى اليوم بجوارحه مثل عمل أهل الارض وتعليق فعل البلوى أى تعقيبه بحرف الاستفهام لا التعليق المشهور الذى يقتضى عدم ايراد المفعول أصلا مع اختصاصه بأفعال القلوب لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالنظر ونظائره ولذلك أجرى مجراه بطريق التمثيل أو الاستعارة التبعية وايراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح أيضا لا الى الحسن والاحسن فقط للايذان بأن المراد بالذات والمقصود الاصلى مما ذكر من ابداع تلك البدائع على ذلك النمط الرائع انما هو ظهور كمال احسان المحسنين وان ذلك لكونه على أتم الوجوه اللائقة وأكمل الاساليب الرائقة يوجب العمل بموجبه بحيث لا يحيد أحد عن سننه المستبين بل يهتدى

الرسول صلى الله عليه وسلم بقولهم ان هذا الا سحر مبين فحكى عنهم فى هذه الآية نوعا آخر من أباطيلهم وهو أنه متى تأخر عنهم العذاب الذى توعدهم الرسول صلى الله عليه وسلم به أخذوا فى الاستهزاء ويقولون ما السبب الذى حبسه عنا فأجاب الله تعالى بأنه اذا جاء الوقت الذى عينه الله لنزول ذلك العذاب الذى كانوا يستهزؤن به لم ينصرف ذلك العذاب عنهم وأحاط بهم ذلك العذاب ❊ بقى ههنا سؤالات (السؤال الاول) المراد من هذا العذاب هو عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة (الجواب) للمفسرين فيه وجوه (الاول) قال الحسن معنى حكم الله فى هذه الآية أنه لا يعذب أحدا منهم بعذاب الاستئصال وأخر ذلك الى يوم القيامة فلما أخر الله عنهم ذلك العذاب قالوا على سبيل الاستهزاء ما الذى حبسه عنا (والثانى) ان المراد الامر بالجهاد وما نزل بهم يوم بدر وعلى هذا الوجه تأولوا قوله وحاق بهم أى نزل بهم هذا العذاب يوم بدر (السؤال الثانى) ما المراد بقوله الى أمة معدودة (الجواب) من وجهين (الاول) ان الاصل فى الامة هم الناس والفرقة فاذا قلت جاءنى أمة من الناس فالمراد طائفة مجتمعة قال تعالى وجد عليه أمة من الناس يسقون وقوله وادكر بعد أمة أى بعد انقضاء أمة وفنائها فكذا ههنا قوله ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة أى الى حين تقضى أمة من الناس انقرضت بعد هذا الوعيد بالقول لقالوا ما اذا يحبسه عنا وقد انقرض من الناس الذين كانوا متوعدين بهذا الوعيد وتسمية الشئ باسم ما يحصل فيه كقولك كنت عند فلان صلاة العصر أى فى ذلك الحين (الثانى) ان اشتقاق الامة من الأم وهو القصد كأنه يعنى الوقت المقصود بايقاع هذا الموعود فيه (السؤال الثالث) لم قال وحاق على لفظ الماضى مع ان ذلك لم يقع (والجواب) قد مر فى هذا الكتاب آيات كثيرة من هذا الجنس والضابط فيها انه تعالى أخبر عن أحوال القيامة بلفظ الماضى مبالغة فى التأكيد والتقرير ❊ قوله تعالى (ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى انه لفرح فخور الا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) اعلم أنه تعالى لما ذكر ان عذاب أولئك الكفار وان تأخر الا أنه لا بد وأن يحيق بهم ذكر بعده ما يدل على كفرهم وعلى كونهم مستحقين لذلك العذاب فقال ولئن أذقنا الانسان وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لفظ الانسان فى هذه الآية فيه قولان (الاول) ان المراد منه مطلق الانسان ويدل عليه وجوه (الاول) انه تعالى استثنى منه قوله الا الذين صبروا وعملوا الصالحات والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل فثبت ان الانسان المذكور فى هذه الآية داخل فيه المؤمن والكافر وذلك يدل على ما قلناه (الثانى) ان هذه الآية موافقة على هذا التقرير لقوله تعالى والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وموافقة أيضا لقوله تعالى ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا (الثالث) ان مزاج الانسان مجبول على الضعف والعجز قال ابن جريج

بكل فرد الى ما يرشد اليه من مطلق الايمان والطاعة وانما التفاوت بينهم فى مراتبهما بحسب القوة والضعف والكثرة والقلة والاعراض عن ذلك والوقوع فى مهاوى الضلال فبمعزل من الاندراج تحت الوقوع فضلا عن أن ينظم ظهوره فى سلك العلة الغائية لذلك الصنع البديع وانما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له ولا تقريب ولا يخفى ما فيه من الترغيب فى الترقى الى معارج العلوم ومدارج الطاعات والزجر عن مباشرة نقائضها والله تعالى أعلم (ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت) على ما يوجبه قضية الابتلاء ليترتب عليه الجزاء المتفرع على ظهور مراتب الاعمال (ليقولن الذين كفروا) ان وجه الخطاب فى قوله تعالى انكم الى جميع المكلفين فالموصول مع صلته للتخصيص أى ليقولن الكافرون منهم وان وجه الى الكافرين منهم فهو وارد على طريقة الذم (ان هذا الا سحر مبين) أى مثله فى الخديعة أو البطلان وهذا اشارة الى القول المذكور أو الى القرآن فان الاخبار عن كونهم مبعوثين وان لم يجب كونه بطريق الوحى المتلو الا أنهم عند سماعهم ذلك تخلصوا الى القرآن لانبائه عنه فى كل موضع وكونه علما عندهم فى ذلك فعمدوا الى تكذيبه وتسميته سحرا تماديا منهم فى العناد وتفاديا عن سنن الرشاد وقيل هو اشارة الى نفس البعث ولا يلائمه التسمية بالسحر فانه انما يطلق على شئ موجود ظاهرا لا أصل له فى الحقيقة ونفس البعث عندهم معدوم بحت وتعلق الآية الكريمة بما قبلها اما من حيث ان البعث كما أشير اليه من تمات الابتلاء المذكور فكأنه قيل الامر كما ذكر ومع ذلك ان اخبرتهم بمقدمة فذة من مقدماته وقضية فردة من تماته لا يتلعثمون فى الرد و يعدون ذلك من قبيل ما لا صحة له أصلا فضلا عن تصديق ما هذه من تماته واما من حيث ان البعث خلق جديد فكانه قيل وهو الذى خلق جميع المخلوقات ابتداء لهذه الحكمة البالغة ومع ذلك ان أخبرتهم بأنه يعيدهم تارة أخرى وهو أهون عليه يقولون

فى تفسير هذه الآية يا ابن آدم اذا نزلت بك نعمة من الله فأنت كفور فاذا نزعت منك فيؤس قنوط (والقول الثانى) ان المراد منه الكافر و يدل عليه وجوه (الاول) ان الاصل فى المفرد المحلى بالالف واللام ان يحمل على المعهود السابق لولا المانع وههنا لا مانع فوجب حمله عليه والمعهود السابق هو الكافر المذكور فى الآية المتقدمة (الثانى) أن الصفات المذكورة للانسان فى هذه الآية لا تليق الا بالكافر لانه وصفه بكونه يؤسا وذلك من صفات الكافر لقوله تعالى انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ووصفه أيضا بكونه كفورا وهو تصريح بالكفر ووصفه أيضا بأنه عند وجدان الراحة يقول ذهب السيآت عنى وذلك جراءة على الله تعالى ووصفه أيضا بكونه فرحا والله لا يحب الفرحين ووصفه أيضا بكونه فخورا وذلك ليس من صفات أهل الدين ثم قال الناظرون لهذا القول وجب أن يحمل الاستثناء المذكور فى هذه الآية على الاستثناء المنقطع حتى لا تلزمنا هذه المحذورات (المسئلة الثانية) لفظ الاذاقة والذوق يفيد أقل ما يوجد به الطعم فكان المراد أن الانسان بوجدان أقل القليل من الخيرات العاجلة يقع فى التمرد والطغيان و بادراك أقل القليل من المحنة والبلية يقع فى اليأس والقنوط والكفران فالدنيا فى نفسها قليلة والحاصل منها للانسان الواحد قليل والاذاقة من ذلك المقدار خير قليل ثم انه فى سرعة الزوال يشبه أحلام النائمين وخيالات الموسوسين فهذه الاذاقة قليل من قليل ومع ذلك فان الانسان لا طاقة له بتحملها ولا صبر له على الاتيان بالطريق الحسن معها وأما النعماء فقال الواحدى انها انعام يظهر أثره على صاحبه والضراء مضرة يظهر أثرها على صاحبها لانها خرجت مخرج الاحوال الظاهرة نحو حمراء وعوراء وهذا هو الفرق بين النعمة والنعماء والمضرة والضراء (المسئلة الثالثة) اعلم أن أحوال الدنيا غير باقية بل هى أبدا فى التغير والزوال والتحول والانتقال الا أن الضابط فيه انه اما ان يتحول من النعمة الى المحنة ومن اللذات الى الآفات واما أن يكون بالعكس من ذلك وهو أن ينتقل من المكروه الى المحبوب ومن المحرمات الى الطيبات (أما القسم الاول) فهو المراد من قوله واذا أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤس كفور وحاصل الكلام أنه تعالى حكم على هذا الانسان بأنه يؤس كفور وتقريره ان يقال انه حال زوال تلك النعمة يصير يؤسا وذلك لان الكافر يعتقد ان السبب فى حصول تلك النعمة سبب اتفاقى ثم أنه يستبعد حدوث ذلك الاتفاق مرة أخرى فلا جرم يستبعد عود تلك النعمة فيقع فى اليأس وأما المسلم الذى يعتقد أن تلك النعمة انما حصلت من الله تعالى وفضله واحسانه وطوله فانه لا يحصل له اليأس بل يقول لعله تعالى يردها الى بعد ذلك أكمل وأحسن وأفضل مما كانت وأما حال كون تلك النعمة حاصلة فانه يكون كفورا لانه لما اعتقد أن حصولها انما كان على سبيل الاتفاق أو بسبب أن الانسان حصلها بسبب جده وجهده فحينئذ لا يشتغل بشكر الله تعالى على تلك النعمة فالحاصل ان الكافر يكون عند زوال تلك

النعمة يؤوسا وعند حصولها يكون كفورا (وأما القسم الثانى) وهو أن ينقل الانسان من المكروه الى المحبوب والمحنة الى النعمة فههنا الكافر يكون فرحا فخورا أما قوة الفرح فلان منتهى طمع الكافر هو الفوز بهذه السعادات الدنيويه وهو منكر للسعادات الاخروية الروحانية فاذا وجد الدنيا فكانه قد فاز بغاية السعادات فلاجرم يعظم فرحه بها وأما كونه فخورا فلانه لما كان الفوز بسائر المطلوب نهاية السعادة لا جرم يفتخر به فحاصل الكلام انه تعالى بين أن الكافر عند البلاء لايكون من الصابرين وعند الفوز بالنعماء لا يكون من الشاكرين ثم لما قرر ذلك قال الاالذين صبروا وعملوا الصالحات والمراد منه ضد ما تقدم فقوله الاالذين صبروا المراد منه أن يكون عند البلاء من الصابرين وقوله وعملوا الصالحات المراد منه أن يكون عند الراحة والخير من الشاكرين ثم بين حالهم فقال أولئك لهم مغفرة وأجر كبير فجمع لهم بين هذين المطلوبين (أحدهما) زوال العقاب والخلاص منه وهو المراد من قوله لهم مغفرة (والثانى) الفوز بالثواب وهو المراد من قوله وأجر كبير ومن وقف على هذا التفصيل الذى ذكرناه علم ان هذا الكتاب الكريم كما أنه معجز بحسب ألفاظه فهو أيضا معجز بحسب معانيه

* قوله تعالى (فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك انما أنت نذير والله على كل شئ وكيل) اعلم أن هذا نوع آخر من كلمات الكفار والله تعالى بين أن قلب الرسول ضاق بسببه ثم انه تعالى قواه وأيده بالاكرام والتأييد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رؤساء مكة قالوا يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا ان كنت رسولا وقال آخرون ائتنا بالملائكة يشهدوا بنبوتك فقال لا أقدر على ذلك فنزلت هذه الآية واختلفوا فى المراد بقوله تارك بعض ما يوحى اليك قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال المشركون للنبى صلى الله عليه وسلم ائتنا بكتاب ليس فيه شتم آلهتنا حتى نتبعك ونؤمن بك وقال الحسن طلبوا منه لا يقول ان الساعة آتية وقال بعضهم المراد نسبتهم الى الجهل والتقليد والاصرار على الباطل (المسئلة الثانية) أجمع المسلمون على أنه لايجوز على الرسول عليه الصلاة والسلام أن يخون فى الوحى والتنزيل وأن يترك بعض مايوحى اليه لان تجويزه يؤدى الى الشك فى كل الشرائع والتكاليف وذلك يقدح فى النبوة وأيضا فالمقصود من الرسالة تبليغ تكاليف الله تعالى وأحكامه فاذا لم تحصل هذه الفائدة فقد خرجت الرسالة عن أن تفيد فائدتها المطلوبة منها واذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من قوله فلعلك تارك بعض مايوحى اليك شيئا آخر سوى أنه عليه السلام فعل ذلك وللناس فيه وجوه (الاول) لا يمتنع أن يكون فى معلوم الله تعالى أنه انما يترك التقصير فى أداء الوحى والتنزيل لسبب يرد عليه من الله تعالى أمثال هذه التهديدات البليغة (الثانى) انهم كانوا لايعتقدون بالقرآن و يتهاونون به فكان يضيق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يلقى اليهم

ما يقولون فسبحان الله عما يصفون وقرأ حمزة والكسائى الاساحر على أن الاشارة الى القائل أو الى القرآن على اسلوب شعر شاعر وقرئ بالفتح على تضمين قلت معنى ذكرت أو على أن أنك بمعنى عنك فى علك أى ولئن قلت لعلكم مبعوثون على أن الرجاء والتوقع باعتبار حال المخاطبين أى توقعوا ذلك ولاتبتوا القول بانكاره أو على انه مجاراة معهم فى الكلام تج على المساعدة لئلا يسارعوا الى اللجاج والعناد ريثما قرع اسماعهم بت القول بخلاف ما الفوا وألفوا عليه آباءهم من انكار البعث و يكون ذلك أدعى لهم الى التامل والتدبر ومافعلوه قاتلهم الله أنى يؤفكون (ولئن أخرنا عنهم العذاب) المترتب على بعثهم أو العذاب الموعود فى قوله تعالى فان تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير وقيل عذاب يوم بدر وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قتل جبريل عليه السلام للمستهزئين والظاهر أن المراد به العذاب الشامل للكفرة دون مايخص ببعض منهم على أنه لم يكن موعودا يستعجل منه المجرمون (الى أمة معدودة) الى طائفة من الايام قليلة لان مايحصره العد قليلة (ليقولن مايحبسه) أى أى شئ يمنعه من المجئ فكأنه يريده فيمنعه مانع وانما كانوا يقولون بطريق الاستعجال استهزاء لقوله تعالى ما كانوا به يستهزؤن ومرادهم انكار المجئ والحبس رأسا لا الاعتراف به والاستفسار عن حابسه (ألا يوم يأتيهم) ذلك (ليس مصروفا) محبوسا (عنهم) على معنى أنه لا يرفعه رافع أبدا ان اريد به عذاب الآخرة أو لا يدفعه عنكم دافع بل هو واقع بكم ان أريد به عذاب الدنيا و يوم منصوب بخبر ليس مقدما عليه واستدل به البصريون على جواز تقديمه على ليس اذ المعمول تابع للعامل فلا يقع الا حيث يقع متبوعه ورد بأن الظرف يجوز فيه مالايجوز فى غيره توسعا و بانه قد يقدم المعمول حيث لايجال لتقدم العامل كما فى قوله تعالى فاما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر فان اليتيم والسائل مع كونهما منصوبين بالفعلين المجزومين قد تقدما على لا الناهية مع امتناع تقدم الفعلين عليها

قال ابو حيان وقد تتبعت جملة من دواوين العرب فلم أظفر بتقديم خبر ليس عليها ولا بتقديم معموله الا ما دل عليه ظاهر هذه الآية الكريمة وقول الشاعر * فيابى فما يزداد الا لجاجة * وكنت أبيا فى الخنا لست أقدم * (وحاق بهم) أى أحاط بهم (ما كانوا به يستهزؤن) أى العذاب الذى كانوا يستعجلون به استهزاء وفى التعبير عنه بالموصول تهويل لمكانه واشعار بعلية ما ورد فى حيز الصلة من استهزائهم به لنزوله واحاطته والتعبير عنهما بالماضى وارد ﴿٦٢﴾ على عادة الله تعالى فى اخباره لانهما فى تحققهما وتيقنهما بمنزلة الكائنة الموجودة وفى ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر وتقرير وقوع المخبر به ما لا يخفى (ولئن أذقنا الانسان منا رحمة) أى أعطيناه نعمة من صحة وأمن وجدة وغيرها وأوصلناها اليه بحيث يجد لذتها (ثم نزعناها منه) أى سلبناه اياها وايراد النزع للاشعار بشدة تعلقه بها وحرصه عليها (أنه ليؤس) شديد القنوط من روح الله قطوع رجاءه من عود أمثالها عاجلا أو آجلا بفضل الله تعالى لقلة صبره وعدم توكله عليه وثقته به (كفور) عظيم الكفران لما سلف من النعم وفيه اشارة الى أن النزع انما كان بسبب كفرانهم بما كانوا يتقلبون فيه من نعم الله عز وجل وتأخيره عن وصف يأسهم مع تقدمه عليه لرعاية الفواصل على أن اليأس من فضل الله سبحانه وقطع الرجاء عن افاضة أمثاله فى العاجل وايصال أجره فى الآجل من باب الكفران للنعمة السالفة أيضا (ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته) كصحة بعد سقم وجدة بعد عدم وفرج بعد شدة وفى التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق المؤذن ﴿ المراد ﴾ بلذتهما وكونهما مما يرغب فيه وعن ملابسة الضراء بالمس المشعر بكونها فى أدنى ما ينطلق عليه اسم الملاقاة من مراتبها واسناد الاول الى الله عز وجل دون الثانى ما لا يخفى من الجزالة والدلالة على أن مراده تعالى انما هو ايصال الخير المرغوب فيه على أحسن ما يكون وأنه انما يريد بعباده اليسر دون العسر وانما

ما لا يقبلونه ويضحكون منه فهيجه الله تعالى لاداء الرسالة وطرح المبالاة بكلماتهم الفاسدة وترك الالتفات الى استهزائهم والغرض منه التنبيه على أنه ان أدى ذلك الوحى وقع فى سخريتهم وسفاهتهم وان لم يؤد ذلك الوحى اليهم وقع فى ترك وحى الله تعالى وفى ايقاع الخيانة فيه فاذا لا بد من تحمل احد الضررين وتحمل ضرر سفاهتهم أسهل من تحمل ايقاع الخيانة فى وحى الله تعالى والغرض من ذكر هذا الكلام التنبيه على هذه الدقيقة لان الانسان اذا علم ان كل واحد من طرفى الفعل والترك يشتمل على ضرر عظيم ثم علم ان الضرر فى جانب الترك أعظم وأقوى سهل عليه ذلك الفعل وخف فالمقصود من ذكر هذا الكلام ما ذكرناه فان قيل قوله فلعلك كلمة شك فما الفائدة فيها قلنا المراد منها الزجر والعرب تقول للرجل اذا أرادوا ابعاده عن أمر لعلك تقدر أن تفعل كذا مع أنه لا شك فيه ويقول لولده لو أمره لعلك تقصر فيما أمرتك به ويريد توكيد الامر فمعناه لا تترك وأما قوله وضائق به صدرك فالضائق بمعنى الضيق قال الواحدى الفرق بينهما أن الضائق يكون بضيق عارض غير لازم لان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفسح الناس صدرا ومثله قولك زيد سيد جواد تريد السيادة والجود الثابتين المستقرين فاذا أردت الحدوث قلت سائد وجائد والمعنى ضائق صدرك لاجل أن يقولوا لولا أنزل عليه فان قيل الكنز كيف ينزل قلنا المراد ما يكنز وجرت العادة على أنه يسمى المال الكثير بهذا الاسم فكان القوم قالوا ان كنت صادقا فى أنك رسول الاله الذى تصفه بالقدرة على كل شئ وانك عزيز عنده فهلا أنزل عليك ما تستغنى به وتغنى أحبابك من الكد والعناء وتستعين به على مهماتك وتعين أنصارك وان كنت صادقا فهلا أنزل الله معك ملكا يشهد لك على صدق قولك ويعينك على تحصيل مقصودك فتزول الشبهة فى أمرك فلما لم يفعل الهك ذلك فأنت غير صادق فبين تعالى أنه رسول منذر بالعقاب ومبشر بالثواب ولا قدرة له على ايجاد هذه الاشياء والذى أرسله هو القادر على ذلك فان شاء فعل وان شاء لم يفعل ولا اعتراض لاحد عليه فى فعله وفى حكمه ومعنى وكيل حفيظ أى يحفظ عليهم أعمالهم أى يجازيهم بها ونظير هذه الآية قوله تعالى تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا وقوله قالوا لن نؤمن لك الى قوله قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا * قوله تعالى (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) اعلم ان القوم لما طلبوا منه المعجز قال معجزى هذا القرآن ولما حصل المعجز الواحد كان طلب الزيادة بغيا وجهلا ثم قرر كونه معجزا بان تحداهم بالمعارضة وتقرير هذا الكلام بالاستقصاء قد تقدم فى سورة البقرة وفى سورة يونس وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) الضمير فى قوله افتراه عائد الى ما سبق من قوله يوحى اليك أى ان قالوا ان هذا الذى يوحى اليك مفترى فقل لهم حتى يأتوا بعشر سور مثله مفتريات وقوله مثله بمعنى أمثاله حملا على كل واحد من تلك السور ولا يبعد أيضا أن يكون

المراد هو المجموع لان مجموع السور العشرة شئ واحد (المسئلة الثانية) قال ابن عباس هذه السورة التى وقع بها هذا التحدى معينة وهى سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف والانفال والتوبة ويونس وهود عليهما السلام وقوله فأتوا بعشر سور مثله مفتريات اشارة الى السور المتقدمة على هذه السورة وهذا فيه اشكال لان هذه السورة مكية وبعض السور المتقدمة على هذه السورة مدنية فكيف يمكن أن يكون المراد من هذه العشر سور التى ما نزلت عند هذا الكلام فالاولى أن يقال التحدى وقع بمطلق السور التى يظهر فيها قوة تركيب الكلام وتأليفه واعلم ان التحدى بعشر سور لابد وأن يكون سابقا على التحدى بسورة واحدة وهو مثل أن يقول الرجل لغيره اكتب عشرة أسطر مثل ما أكتب فاذا ظهر عجزه عنه قال قد اقتصرت منها على سطر واحد مثله اذا عرفت هذا فنقول التحدى بالسورة الواحدة ورد فى سورة البقرة وفى سورة يونس كما تقدم أما تقدم هذه السورة على سورة البقرة فظاهر لان هذه السورة مكية وسورة البقرة مدنيــة وأما فى سورة يونس فالاشكال زائل أيضا لان كل واحدة من هاتين السورتين مكية والدليل الذى ذكرناه يقتضى أن تكون سورة هود متقدمة فى النزول على سورة يونس حتى يستقيم الكلام الذى ذكرناه (المسئلة الثالثة) اختلف الناس فى الوجه الذى لاجله كان القرآن معجزا فقال بعضهم هو الفصاحة وقال بعضهم هو الاسلوب وقال ثالث هو عدم التناقض وقال رابع هو اشتماله على العلوم الكثيرة وقال خامس هو الصرف وقال سادس هو اشتماله على الاخبار عن الغيوب والمختار عندى وعند الاكثرين أنه معجز بسبب الفصاحة واحتجوا على صحة قولهم بهذه الاية لانه لو كان وجه الاعجاز هو كثرة العلوم أو الاخبار عن الغيوب أو عدم التناقض لم يكن لقوله مفتريات معنى أما اذا كان وجه الاعجاز هو الفصاحة صح ذلك لان فصاحة الفصيح تظهر بالكلام سواء كان الكلام صدقا أو كذبا وايضا لو كان الوجه فى كونه معجزا هو الصرف لكان دلالة الكلام الركيك النازل فى الفصاحة على هذا المطلوب أوكد من دلالة الكلام العالى فى الفصاحة ثم انه تعالى لما قرر وجه التحدى قال وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين والمراد ان كنتم صادقين فى ادعاء كونه مفترى كما قال أم يقولون افتراه واعلم أن هذا الكلام يدل على انه لابد فى اثبات الدين من تقرير الدلائل والبراهين وذلك لانه تعالى أورد فى اثبات نبوة محمد عليه السلام هذا الدليل وهذه الحجة ولولا أن الدين لايتم الا بالدليل لم يكن فى ذكره فائدة ❋ قوله تعــالى (فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما انزل بعلم الله وان لا اله الا هو فهل أنتم مسلمون) اعلم ان الآية المتقدمة اشتملت على خطابين (أحدهما) خطاب الرسول وهو قوله قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات (والثانى) خطاب الكفار وهو قوله وادعوا من استطعتم من دون الله فلمــا أتبعه بقوله فان لم يستجيبوا لكم احتمل أن يكون المراد ان الكفار لم يستجيبوا فى المعــارضة لتعذرها عليهم واحتمل ان من

نالهم ذلك بسوء اختيارهم نيلا يسيرا كانما يلاصق البشرة من غير تأثير واما نزع الرحمة فانما صدر عنه بعضيه الحكمة الداعية الى ذلك وهى كفرانهم بها كما سبق وتنكير الرحمة باعتبار لحوق النزع بها (ليقولن ذهب السيآت عنى) أى المصائب التى تسوءنى ولن تعترينى بعد أمثالها كما هو شان أولئك الاشرار فان الترقب لورود أمثالها مما يكدر السرور و ينغص العيش (انه لفرح) بطر وأشر بالنعم مغتر بها (فخور) على الناس بما أوتى من النعم مشغول بذلك عن القيام بحقها واللام فى لئن فى الآيات الاربع موطئة للقسم وجوابه ساد مسد جواب الشرط (الا الذين صبروا) على ما أصابهم من الضراء سابقا أو لاحقا ايمانا بالله واستسلاما لقضائه (وعملوا الصالحات) شكرا عــلى آلائه الســالفة والآنفة واللام فى الانسان اما لاستغراق الجنس فالاستثناء متصــل أو للعهد فمنقطع (أولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم و بعد منزلتهم فى الفضل أى أولئك الموصوفون بتلك الصفات الحميدة (لهم مغفرة) عظيمة لذنوبهم وان جمت (وأجر) ثواب لاعمالهم الحسنة (كبير) ووجه تعلق الآيات الثلاث بما قبلهن من حيث ان اذاقة النعماء ومساس الضراء فصل من باب الابتلاء واقع موقع التفصيل من الاجمال الواقع فى قوله تعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا والمعنى ان كلا من اذاقة النعماء ونزعها مع كونه ابتلاء للانسان أيشكر أم يكفر لا يهتدى (٢) الى سنن الصواب بل يحيد فى كلتا الحالتين عنه الى مهاوى الضلال فلا يظهر منه باحسن عمل الا من الصابرين الصالحين أو من حيث ان انكارهم بالبعث واستهزاءهم العذاب بسبب بطرهم وفخرهم كأنه قيل انما فعلوا ما فعلوا لان طبيعة الانسان

---

٢ قوله لايهتدى الخ ظاهر العبارة خلوا الجملة من رابط يربطها باسم ان لان الضمير المستتر فى يهتدى عائد على الانسان كما لا يخفى فلعل الرابط محذوف والتقدير لا يهتدى فيه الخ تأمل اه مصححه

مجبولة على ذلك (فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك) من البينات الدالة على حقية نبوتك المنادية بكونها من عند الله عزوجل لمن له أذن واعية (وضائق به صدرك) أى عارض لك ضيق صدر بتلاوته عليهم وتبليغه اليهم فى أثناء الدعوة والمحاجة (أن يقولوا) لان يقولوا تعاميا عن تلك البراهين التى لا تكاد تخفى صحتها على أحد ممن له أدنى بصيرة وتماديا فى العناد على وجه الاقتراح (لولا أنزل عليه كنز) ﴿ ٦٤ ﴾ مال خطير مخزون يدل على صدقه (أو جاء معه ملك) يصدقه قيل قاله عبد الله بن أمية المخزومى * وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رؤساء مكة قالوا يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا ان كنت رسولا وقال آخرون ائتنا بالملائكة يشهدوا بنبوتك فقال لا أقدر على ذلك فنزلت فكأنه عليه الصلاة والسلام لما عاين اجتراءهم على اقتراح مثل هذه العظائم غير قانعين بالبينات الباهرة التى كانت تضطرهم الى القبول لو كانوا من أرباب العقول وشاهد ركوبهم من المكابرة متن كل صعب وذلول مسارعين الى المقابلة بالتكذيب والاستهزاء وتسميتها سحرا مثل حاله عليه الصلاة والسلام بحال من يتوقع منه أن يضيق صدره بتلاوة تلك الآيات الساطعة عليهم وتبليغها اليهم فحمل على الحذر منه بما فى لعل من الاشفاق فقيل (انما أنت نذير) ليس عليك الا الانذار بما أوحى اليك غير مبال بما صدر عنهم من الرد والقبول (والله على كل شئ وكيل) يحفظ أحوالك وأحوالهم فتوكل عليه فى جميع أمورك فانه فاعل بهم ما يليق بحالهم والاقتصار على النذير فى أقصى غاية من اصابة المحز (أم يقولون افتراه) اضراب بأم المنقطعة عن ذكر ترك ﴿ الاصول ﴾ اعتدادهم بما يوحى وتهاونهم به وعدم اقتناعهم بما فيه من المعجزات الظاهرة الدالة على كونه من عند الله عزوجل وعلى حقية نبوته عليه الصلاة والسلام وشروع فى ذكر ارتكابهم لما هو أشد منه وأعظم وما فيها من معنى الهمزة للتوبيخ والانكار والتعجب والضمير المستكن فى افتراه للنبى صلى الله عليه وسلم

دعونه من دون الله لم يستجيبوا فلهذا السبب اختلف المفسرون على قولين فبعضهم قال هذا خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين والمراد ان الكفار ان لم يستجيبوا لكم فى الاتيان بالمعارضة فاعلموا انما أنزل بعلم الله والمعنى فاثبتوا على العلم الذى أنتم عليه وازدادوا يقينا وثبات قدم على أنه منزل من عند الله ومعنى قوله فهل أنتم مسلمون أى فهل أنتم مخلصون ومنهم من قال فيه اضمار والتقدير فقولوا أيها المسلمون للكفار اعلموا انما أنزل بعلم الله والقول الثانى ان هذا خطاب مع الكفار والمعنى ان الذين تدعونهم من دون الله اذا لم يستجيبوا لكم فى الاعانة على المعارضة فاعلموا أيها الكفار أن هذا القرآن انما أنزل بعلم الله فهل أنتم مسلمون بعد لزوم الحجة عليكم والقائلون بهذا القول قالوا هذا أولى من القول الاول لانكم فى القو الاول احتجتم الى أن حملتم قوله فاعلموا على الامر بالثبات أو على اضمار القول وعلى هذا الاحتمال لا حاجة فيه الى اضمار فكان هذا أولى وأيضا فعود الضمير الى أقرب المذكورين واجب وأقرب المذكورين فى هذه الآية هو هذا الاحتمال الثانى وأيضا ان الخطاب الاول كان مع الرسول عليه الص[illegible] والسلام وحده بقوله قل فأتوا بعشر سور والخطاب الثانى كان مع جماعة الكفار بقوله وادعوا من استطعتم من دون الله وقوله فان لم يستجيبوا لكم خطاب مع الجماعة فكان حمله على هذا الذى قلناه أولى وفى الآية سؤالات (السؤال الاول) ما الشئ الذى لم يستجيبوا فيه (الجواب) المعنى فان لم يستجيبوا لكم فى معارضة القرآن وقال بعضهم فان لم يستجيبوا لكم فى جملة الايمان وهو بعيد (السؤال الثانى) من المشار اليه بقوله لكم والجواب ان حملنا قوله فان لم يستجيبوا لكم على المؤمنين فذلك ظاهر وان حملناه على الرسول فعنه جوابان (الاول) المراد فان لم يستجيبوا لك وللمؤمنين لان الرسول عليه السلام والمؤمنين كانوا يتحدونهم وقال فى موضع آخر فان لم يستجيبوا لك فاعلم (والثانى) يجوز أن يكون الجمع لتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم (السؤال الثالث) أى تعلق بين الشرط المذكور فى هذه الآية وبين ما فيها من الجزاء (الجواب) أن القوم ادعوا كون القرآن مفترى على الله تعالى فقال لو كان مفترى على الله لوجب أن يقدر الخلق على مثله ولما لم يقدروا عليه ثبت انه من عند الله فقوله انما أنزل بعلم الله كناية عن كونه من عند الله ومن قبله كما يقول الحاكم هذا الحكم جرى بعلمى (السؤال الرابع) أى تعلق لقوله وأن لا اله الا هو بعجزهم عن المعارضة والجواب فيه من وجوه (الاول) أنه تعالى لما أمر محمدا صلى الله عليه وسلم حتى يطلب من الكفار أن يستعينوا بالاصنام فى تحقيق المعارضة ثم ظهر عجزهم عنها فحينئذ ظهر انها لا تنفع ولا تضر فى شئ من المطالب البتة ومتى كان كذلك فقد بطل القول باثبات كونهم آلهة فصار عجز القوم عن المعارضة بعد الاستعانة بالاصنام مبطلا لالهية الاصنام ودليلا على ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فكان قوله وأن لا اله الا هو اشارة الى ما ظهر من فساد القول بالهية الاصنام (الثانى) انه ثبت فى علم

والبارز لما يوحى أى بل أيقولون افتراه وليس من عند الله (قل) ان كان الامر كما تقولون (فأتوا) أنتم أيضا (بعشر سور مثله) فى البلاغة وحسن النظم وهو نعت لسور أى أمثاله وتوحيده اما باعتبار مماثلة كل واحده منها أو لان المطابقة ليست بشرط حتى يوصف المثنى بالمفرد كما فى قوله تعالى أنؤمن لبشرين مثلنا أو للايماء الى أن وجه الشبه ومدار المماثلة فى الجميع شئ واحد هو البلاغة المؤدية الى مرتبة الاعجاز فكأن الجميع واحد (مفتريات) صفة أخرى لسور أخرت عن وصفها بالمماثلة لما يوحى لانها الصفة المقصودة بالتكليف اذ بها يظهر عجزهم وقعودهم عن المعارضة وأما وصف الافتراء فلا يتعلق به غرض يدور عليه شئ فى مقام التحدى وانما ذكر على نهج المساهلة وارخاء العنان ولانه لو عكس الترتيب لربما توهم أن المراد هو المماثلة فى الافتراء والمعنى فأتوا بعشر سور مماثلة له فى البلاغة مختلقات من عند أنفسكم ان صح أنى اختلقته من عندى فانكم أقدر على ذلك منى لانكم عرب فصحاء بلغاء قد مارستم مبادى ذلك من الخطب والاشعار وحفظتم الوقائع والايام وزاولتم أساليب النظم والنثر (وادعوا) للاستظهار فى المعارضة (من استطعتم) دعاءه والاستعانة به من آلهتكم التى تزعمون أنها ممدة لكم فى كل ما تأتون وما تذرون والكهنة ومدارهكم الذين تلجؤن الى آرائهم فى الملمات ليسعدوكم فيها (من دون الله) متعلق بادعوا أى متجاوزين الله تعالى (ان كنتم صادقين) فى أنى افتريته فان ذلك يستلزم امكان الاتيان بمثله وهو أيضا يستلزم قدرتكم عليه والجواب محذوف يدل عليه المذكور (فان لم يستجيبوا لكم) أى فان لم يفعلوا ما كلفوه من الاتيان بمثله كقوله تعالى فان لم تفعلوا وانما عبر عنه بالاستجابة ايماء الى أنه عليه الصلاة والسلام على كمال أمن من أمره كأن أمره لهم بالاتيان بمثله دعاء لهم الى أمر يريد وقوعه والضمير فى لكم للرسول عليه الصلاة والسلام والجمع للتعظيم كما فى قول من قال

الاصول ان القول بنفى الشريك عن الله من المسائل التى يمكن اثباتها بقول الرسول عليه السلام وعلى هذا فكأنه قيل لما ثبت عجز الخصوم عن المعارضة ثبت كونه قرآنا حقا وثبت كون محمد صلى الله عليه وسلم صادقا فى دعوى الرسالة ثم انه كان يخبر عن أنه لا اله الا الله فلما ثبت كونه محقا فى دعوى النبوة ثبت قوله أن لا اله الا هو (الثالث) ان ذكر قوله وان لا اله الا هو جار مجرى التهديد كأنه قيل لما ثبت بهذا الدليل كون محمد عليه السلام صادقا فى دعوى الرسالة وعلمتم أنه لا اله الا الله فكونوا خائفين من قهره وعذابه واتركوا الاصرار على الكفر واقبلوا الاسلام ونظيره قوله تعالى فى سورة البقرة عند ذكر آية التحدى فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين وأما قوله فهل أنتم مسلمون فان قلنا انه خطاب مع المؤمنين كان معناه الترغيب فى زيادة الاخلاص وان قلنا انه خطاب مع الكفار كان معناه الترغيب فى أصل الاسلام

* قوله تعالى (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) اعلم أن الكفار كانوا ينازعون محمدا صلى الله عليه وسلم فى أكثر الاحوال فكانوا يظهرون من أنفسهم ان محمدا مبطل ونحن محقون وانما نبالغ فى منازعته لتحقيق الحق وابطال الباطل وكانوا كاذبين فيه بل كان غرضهم محض الحسد والاستنكاف من المتابعة فأنزل الله تعالى هذه الآية لتقرير هذا المعنى ونظير هذه الآية قوله تعالى من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد وقوله من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان فى الآية قولين (الاول) انها مختصة بالكفار لان قوله من كان يريد الحياة الدنيا يندرج فيه المؤمن والكافر والصديق والزنديق لان كل أحد يريد التمتع بلذات الدنيا وطيباتها والانتفاع بخيراتها وشهواتها الا ان آخر الآية يدل على ان المراد من هذا العام الخاص وهو الكافر لان قوله تعالى أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون لا يليق الا بالكفار فصار تقدير الآية من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فقط أى تكون ارادته مقصورة على حب الدنيا وزينتها ولم يكن طالبا لسعادات الآخرة كان حكمه كذا وكذا ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فيه فمنهم من قال المراد منهم منكرو البعث فانهم ينكرون الآخرة ولا يرغبون الا فى سعادات الدنيا وهذا قول الاصم وكلامه ظاهر (والقول الثانى) ان الآية نزلت فى المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع الرسول عليه السلام الغنائم من دون أن يؤمنوا بالآخرة وثوابها (والقول الثالث) ان المراد اليهود والنصارى وهو منقول عن أنس (والقول الرابع) وهو الذى اختاره القاضى ان المراد من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها وعمل الخير قسمان العبادات وايصال المنفعة الى

وان شئت حرمت النساء سواكم * أولا وللمؤمنين لانهم أتباع له عليه الصلاة والسلام فى الامر بالتحدى وفيه تنبيه لطيف على أن حقهم أن لا ينفكوا عنه عليه الصلاة والسلام ويناصبوا معه لمعارضة المعارضين كما كانوا يفعلونه فى الجهاد وارشاد الى أن ذلك مما يفيد الرسوخ فى الايمان والطمأنينة فى الايقان ولذلك رتب عليه قوله عز وجل (فاعلموا) اى اعلموا حين ظهر لكم عجزهم عن المعارضة مع تهالكهم عليها علما يقينا متاخما لعين اليقين بحيث لا مجال معه لشائبة ريب بوجه من الوجوه كأن ما عداه من مراتب العلم ليس بعلم لكن لا للاشعار بانحطاط تلك المراتب بل بارتفاع هذه المرتبة وبه يتضح سر ايراد كلمة الشك مع القطع بعدم الاستجابة فان تنزيل سائر المراتب منزلة العدم مستتبع لتنزيل الجزم بعدم الاستجابة منزلة الشك فيه أو اثبتوا واستمروا على ما كنتم عليه من العلم (أنما أنزل) ملتبسا (بعلم الله) المخصوص به بحيث لا تحوم حوله العقول والافهام مستبدا بخصائص الاعجاز من جهتى النظم الرائق والاخبار بالغيب (وأن لا اله الا هو) اى واعلموا أيضا أن لا شريك له فى الالوهية وأحكامها ولا يقدر على ما يقدر عليه أحد (فهل أنتم مسلمون) اى مخلصون فى الاسلام أو ثابتون عليه وهذا من باب التثبيت والترقية الى معارج اليقين ويجوز أن يكون الخطاب فى الكل للمشركين من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم داخلا تحت الامر بالتحدى والضمير فى لم يستجيبوا لمن استطعتم اى فان لم يستجب لكم آلهتكم وسائر من اليهم تجارون فى مهماتكم وملماتكم الى ﴿ السعادات ﴾ المعاونة والمظاهرة فاعلموا أن ذلك خارج عن دائرة قدرة البشر وأنه منزل من خالق القوى والقدر فايراد كلمة الشك حينئذ مع الجزم بعدم الاستجابة من جهة آلهتهم تهكم بهم وتسجيل عليهم بكمال سخافة العقل وترتيب الامر بالعلم على مجرد عدم الاستجابة من حيث انه مسبوق بالدعاء المسبوق بجزمهم

الحيوان ويدخل فى هذا القسم الثانى البر وصلة الرحم والصدقة وبناء القناطر وتسوية الطرق والسعى فى دفع الشرور واجراء الانهار فهذه الاشياء اذا أتى بها الكافر لاجل الثناء فى الدنيا فان بسببها تصل الخيرات والمنافع الى المحتاجين فكلها تكون من أعمال الخير فلاجرم هذه الاعمال تكون طاعات سواء صدرت من الكافر أو المسلم وأما العبادات فهى انما تكون طاعات بنيات مخصوصة فاذا لم يؤت بتلك النية وانما أتى فاعلها بها على طلب زينة الدنيا وتحصيل الرياء والسمعة فيها صار وجودها كعدمها فلا تكون من باب الطاعات واذا عرفت هذا فنقول قوله من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها المراد منه الطاعات التى يصح صدورها من الكافر (القول الثانى) وهو أن نجرى الآية على ظاهرها فى العموم ونقول انه يندرج فيه المؤمن الذى يأتى بالطاعات على سبيل الرياء والسمعة ويندرج فيه الكافر الذى هذا صفته وهذا القول مشكل لان قوله أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار لا يليق بالمؤمن الا اذا قلنا المراد أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار بسبب هذه الاعمال الفاسدة والافعال الباطلة المقرونة بالرياء ثم القائلون بهذا القول ذكروا أخبارا كثيرة فى هذا الباب روى أن الرسول عليه السلام قال تعوذوا بالله من جب الحزن قيل وما جب الحزن قال عليه الصلاة والسلام واد فى جهنم يلقى فيه القراء المراؤن وقال عليه الصلاة والسلام أشد الناس عذابا يوم القيامة من يرى الناس ان فيه خير [illegible] فيه وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا كان يوم القيامة يدعى برجل جمع القرآن فيقال له ما عملت فيه فيقول يارب قمت به اناء الليل والنهار فيقول الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان قارئ وقد قيل ذلك ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له ألم أوسع عليك فماذا عملت فيما آتيتك فيقول وصلت الرحم وتصدقت فيقول الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد وقد قيل ذلك ويؤتى بمن قتل فى سبيل الله فيقول قاتلت فى الجهاد حتى قتلت فيقول الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان جرئ وقد قيل ذلك قال أبو هريرة رضى الله عنه ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ركبتى وقال يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق تسعر بهم النار يوم القيامة وروى أن أبا هريرة رضى الله عنه ذكر هذا الحديث عند معاوية قال الراوى فبكى حتى ظننا أنه هالك ثم أفاق وقال صدق الله ورسوله من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها (المسألة الثانية) المراد من توفية أجور تلك الاعمال هو أن كل ما يستحقون بها من الثواب فانه يصل اليهم حال كونهم فى دار الدنيا فاذا خرجوا من الدنيا لم يبق معهم من تلك الاعمال أثر من آثار الخيرات بل ليس لهم منها الا النار واعلم أن العقل يدل عليه قطعا وذلك لان من أتى بالاعمال لاجل طلب الثناء فى الدنيا ولاجل الرياء فذلك لاجل انه غلب على قلبه حب الدنيا ولم يحصل فى قلبه حب الآخرة اذ لو عرف حقيقة الآخرة وما فيها من

واضطرارهم فكأنه قيل فان لم يستجيبوا لكم عند التجائكم اليهم بعدما اضطررتم الى ذلك وضاقت عليكم الحيل وعيت بكم العلل أو من حيث ان من يستمدون بهم أقوى منهم في اعتقادهم فاذا ظهر عجزهم بعدم استجابتهم وان كان ذلك قبل ظهور عجز أنفسهم يكون عجزهم أظهر وأوضح واعلموا أيضا أن آلهتكم بمعزل عن رتبة الشركة في الالوهية وأحكامها فهل أنتم داخلون في الاسلام اذ لم يبق بعد شائبة شبهة في حقيته وفي بطلان ما كنتم فيه من الشرك فيدخل فيه الاذعان لكون القرآن من عند الله تعالى دخولا أوليا أو منقادون للحق الذي هو كون القرآن من عند الله تعالى وتاركون لما كنتم فيه من المكابرة والعناد وفي هذا الاستفهام ايجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر واقناط من أن يجيرهم آلهتهم من بأس الله عز سلطانه هذا والاول أنسب لما سلف من قوله تعالى وضائق به صدرك ولما سيأتي من قوله تعالى فلا تك في مرية منه وأشد ارتباطا بما يعقبه كما ستحيط به خبرا (من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها) اي ما يزينها ويحسنها من الصحة والامن والسعة في الرزق وكثرة الاولاد والرياسة وغير ذلك والمراد بالارادة ما يحصل عند مباشرة الاعمال لا مجرد الارادة القلبية لقوله تعالى (نوف اليهم أعمالهم فيها) وادخال كان عليها للدلالة على استمرارها منهم بحيث لا يكادون يريدون الآخرة أصلا وليس المراد باعمالهم أعمال كلهم فانه لا يجد كل متمن ما يتمناه ولا كل أحد ينال كل ما يهواه فان ذلك منوط بالمشيئة الجارية على قضية الحكمة كما نطق به قوله تعالى من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ولا كل أعمالهم بل بعضها الذي يترتب عليه الامور المذكورة بطريق الاجر والجزاء من أعمال البر وقد أطلقت وأريد بها ثمراتها فالمعنى نوصل اليهم ثمرات أعمالهم في الحياة الدنيا كاملة وقرئ يوف على الاسناد الى الله عز وجل وتوف بالفوقانية على البناء للمفعول ورفع أعمالهم وقرئ نوفي بالتخفيف والرفع لكون الشرط ماضيا كقوله

السعادات لامتنع أن يأتي بالخيرات لاجل الدنيا و ينسى أمر الآخرة فثبت ان الآتي بأعمال البر لاجل الدنيا لابد وأن يكون عظيم الرغبة في الدنيا عديم الطلب للآخرة ومن كان كذلك فاذا مات فانه يفوته جميع منافع الدنيا و يبقى عاجزا عن وجدانها غير قادر على تحصيلها ومن أحب شيأ ثم حيل بينه وبين المطلوب فانه لابد وأن تشتعل في قلبه نيران الحسرات فثبت بهذا البرهان العقلي أن كل من أتى بعمل من الاعمال لطلب الاحوال الدنيوية فانه يجد تلك المنفعة الدنيوية اللائقة بذلك العمل ثم اذا مات فانه لا يحصل له منه الا النار ويصير ذلك العمل في الدار الآخرة محبطا باطلا عديم الاثر * قوله تعالى (أفمن كان على بينة من ربه و يتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه انه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) اعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها ظاهر والتقدير أفمن كان على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم في الآخرة الا النار الا انه حذف الجواب لظهوره ومثله في القرآن كثير كقوله تعالى أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء وقوله أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما وقوله قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون واعلم ان أول هذه الآية مشتمل على ألفاظ أربعة كل واحد منها مجمل (فالاول) ان هذا الذي وصفه الله تعالى بأنه على بينة من ربه من هو (والثاني) انه ما المراد بهذه البينة [illegible] المراد بقوله يتلوه القرآن أو كونه حاصلا عقيب غيره (والرابع) ان هذا الشاهد ما هو فهذه الالفاظ الاربعة مجملة فلهذا كثر اختلاف المفسرين في هذه الآية (أما الاول) وهو أن هذا الذي وصفه الله تعالى بانه على بينة من ربه من هو فقيل [illegible] به النبي عليه الصلاة والسلام وقيل المراد به من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره وهو الاظهر لقوله تعالى في آخر الآية أولئك يؤمنون به وهذا صيغة جمع فلا يجوز رجوعه الى محمد صلى الله عليه وسلم والمراد بالبينة هو البيان والبرهان الذي عرف به صحة الدين الحق والضمير في يتلوه يرجع الى معنى البينة وهو البيان والبرهان والمراد بالشاهد هو القرآن ومنه اي من الله ومن قبله كتاب موسى اي ويتلو ذلك البرهان من قبل مجيء القرآن كتاب موسى واعلم ان كون كتاب موسى تابعا للقرآن ليس في الوجود بل في دلالته على هذا المطلوب واماما نصب على الحال فالحاصل أنه يقول اجتمع في تقرير صحة هذا الدين أمور ثلاثة (أولها) دلالة البينات العقلية على صحته (وثانيها) شهادة القرآن بصحته (وثالثها) شهادة التوراة بصحته فعند اجتماع هذه الثلاثة لا يبقى في صحته شك ولا ارتياب فهذا القول أحسن الاقاويل في هذه الآية وأقربها الى مطابقة اللفظ وفيها أقوال أخر (فالقول الاول) ان الذي وصفه الله تعالى بانه على بينة من ربه هو محمد عليه السلام والبينة هو القرآن والمراد بقوله يتلوه هو التلاوة بمعنى القراءة وعلى هذا التقدير فذكروا في تفسير الشاهد وجوها

وإن أتاه خليل يوم مسغبة * يقول لاغائب مالي ولاحرم (وهم فيها) اي في الحياة الدنيا (لايبخسون) اى لاينقصون وانما عبر عن ذلك بالبخس الذى هو نقص الحق مع أنه ليس لهم شائبة حق فيما أوتوه كما عبر عن اعطائه بالتوفية التى هى اعطاء الحقوق مع أن أعمالهم بمعزل من كونها مستوجبة لذلك بناء الامر على ظاهر الحال ومحافظة على صور الاعمال ومبالغة فى نفى النقص كأن ذلك نقص لحقوقهم فلايدخل تحت الوقوع والصدور عن الكريم أصلا والمعنى انهم فيها خاصة لاينقصون ثمرات أعمالهم وأجورها نقصا كليا مطردا اولايحرمونها حرمانا كليا وأما فى الآخرة فهم فى الحرمان المطلق واليأس المحقق كما ينطق به قوله تعالى (أولئك) الخ فانه اشارة الى المذكورين باعتبار ارادتهم الحياة الدنيا أو باعتبار توفيتهم أجورهم من غير بخس أو باعتبارهما معا ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى سوء الحال اى أولئك المريدون للحياة الدنيا وزينتها الموفون فيها ثمرات أعمالهم من غير بخس (الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار) لان هممهم كانت مصروفة الى الدنيا وأعمالهم مقصورة على تحصيلها وقد اجتنوا ثمرتها ولم يكونوا يريدون بها شيئا آخر فلاجرم لم يكن لهم فى الآخرة الا النار وعذابها المخلد (وحبط ما صنعوا فيها) اى ظهر فى الآخرة حبوط ما صنعوه من الاعمال التى كانت تؤدى الى الثواب لوكانت معمولة للآخرة أو حبط ما صنعوه فى الدنيا من أعمال البر اذ شرط الاعتداد بها الاخلاص (وباطل) اى فى نفسه (ما كانوا يعملون) فى أثناء تحصيل المطالب الدنيوية ولاجل أن الاول من شأنه استتباع الثواب والاجر وأن عدمه لعدم مقارنته للايمان والنية الصحيحة وان الثانى ليس له جهة صالحة قط علق بالاول الحبوط المؤذن بسقوط أجره بصيغة الفعل المنبئ عن الحدوث وبالثانى البطلان المفصح عن كونه بحيث لاطائل تحته أصلا بالاسمية الدالة على كون ذلك وصفا لازما له ثابتا فيه وفى زيادة

(أحدها) انه جبريل عليه السلام والمعنى أن جبريل عليه السلام يقرأ القرآن على محمد عليه السلام (وثانيها) ان ذلك الشاهد هو لسان محمد عليه السلام وهو قول الحسن ورواية عن محمد بن الحنفية عن على رضى الله عنهما قال قلت لابى أنت التالى قال ومامعنى التالى قلت قوله ويتلوه شاهد منه قال وددت أنى هو ولكنه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان الانسان انما يقرأ القرآن ويتلوه بلسانه لاجرم جعل اللسان تاليا على سبيل المجاز كما يقال عين باصرة وأذن سامعة ولسان ناطق (وثالثها) ان المراد هو على بن أبى طالب رضى الله عنه والمعنى انه يتلو تلك البينة وقوله منه اى هذا الشاهد من محمد وبعض منه والمراد منه تشريف هذا الشاهد بأنه بعض من محمد عليه السلام (ورابعها) أن لايكون المراد بقوله ويتلوه القرآن بل حصول هذا الشاهد عقيب تلك البينة وعلى هذا الوجه قالوا ان المراد ان صورة النبى عليه السلام ووجهه ومخايله كل ذلك يشهد بصدقه لان من نظر اليه بعقله علم انه ليس بمجنون ولا كاهن ولاساحر ولا كذاب والمراد بكون هذا الشاهد منه كون هذه الاحوال متعلقة بذات النبى صلى الله عليه وسلم (القول الثانى) ان الذى وصفه الله تعالى بأنه على بينة هم المؤمنون وهم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم والمراد بالبينة القرآن ويتلوه اى ويتلو الكتاب الذى هو الحجة يعنى ويعقبه شاهد من الله تعالى وعلى هذا القول اختلفوا فى ذلك الشاهد فقال بعضهم انه محمد عليه السلام وقال آخرون بل ذلك الشاهد هو كون القرآن واقعا على وجه يعرف كل من نظر فيه أنه معجزة وذلك الوجه هو اشتماله على الفصاحة التامة والبلاغة الكاملة وكونه بحيث لايقدر البشر على الاتيان بمثله وقوله شاهد منه اى من تلك البينة لان أحوال القرآن وصفاته من القراآت متعلقة به (وثالثها) قال الفراء ويتلوه شاهد منه يعنى الانجيل يتلوا القرآن وان كان قد أنزل قبله والمعنى انه يتلوه فى التصديق وتقريره أنه تعالى ذكر محمدا صلى الله عليه وسلم فى الانجيل وأمر بالايمان به واعلم أن هذين القولين وان كانا محتملين الا أن القول الاول أقوى وأتم واعلم أنه تعالى وصف كتاب موسى عليه السلام بكونه اماما ورحمة ومعنى كونه اماما انه كان مقتدى العالمين واماما لهم يرجعون اليه فى معرفة الدين والشرائع وأما كونه رحمة فلانه يهدى الى الحق فى الدنيا والدين وذلك سبب لحصول الرحمة والثواب فلما كان سببا للرحمة أطلق اسم الرحمة عليه اطلاقا لاسم المسبب على السبب ثم قال تعالى أولئك يؤمنون به والمعنى ان الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم فى صحة هذا الدين يؤمنون واعلم أن المطالب على قسمين منها مايعلم صحتها بالبديهة ومنها مايحتاج فى تحصيل العلم بها الى طلب واجتهاد وهذا القسم الثانى على قسمين لان طريق تحصيل المعارف اما الحجة والبرهان المستنبط بالعقل واما الاستفادة من الوحى والالهام فهذان الطريقان هما الطريقان اللذان يمكن الرجوع اليهما فى تعريف المجهولات فاذا اجتمعا واعتضد كل واحد منهما بالآخر بلغا الغاية فى القوة والوثوق

﴿ ثم ﴾

ثم ان فى أنبياء الله تعالى كثرة فاذا توافقت كلمات الانبياء على صحته وكان البرهان اليقينى قائما على صحته فهذه المرتبة قد بلغت فى القوة الى حيث لا يمكن الزيادة عليها فقوله أفمن كان على بينة من ربه المراد بالبينة الدلائل العقلية اليقينية وقوله ويتلوه شاهد منه اشارة الى الوحى الذى حصل لمحمد عليه السلام وقوله ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة اشارة الى وحى الذى حصل لموسى عليه السلام وعند اجتماع هذه الثلاثة قد بلغ هذا اليقين فى القوة والظهور والجلاء الى حيث لا يمكن الزيادة عليه ثم قال تعالى ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده والمراد من الاحزاب أصناف الكفار فيدخل فيهم اليهود والنصارى والمجوس روى سعيد بن جبير عن أبى موسى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لا يسمع بى يهودى ولا نصرانى فلا يؤمن بى الا كان من أهل النار قال أبو موسى فقلت فى نفسى ان النبى صلى الله عليه وسلم لا يقول مثل هذا الا عن القرآن فوجدت الله تعالى يقول ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده وقال بعضهم لما دلت الآية على أن من يكفر به فالنار موعده دلت على أن من لا يكفر به لم تكن النار موعده ثم قال تعالى فلا تك فى مرية منه انه الحق من ربك وفيه قولان (الاول) فلا تك فى مرية من صحة هذا الدين ومن كون القرآن نازلا من عند الله تعالى فكان متعلقا بما تقدم من قوله تعالى أم يقولون افتراه (الثانى) فلا تك فى مرية من ان موعد الكافر النار وقرئ مرية بضم الميم ثم قال ولكن أكثر الناس لا يؤمنون والتقدير لما ظهر الحق ظهورا فى الغاية فكن أنت متابعا له ولا تبال بالجهال سواء آمنوا أو لم يؤمنوا والاقرب أن يكون المراد لا يؤمنون بما تقدم ذكره من وصف القرآن * قوله تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم ويقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون) اعلم أن الكفار كانت لهم عادات كثيرة وطرق مختلفة فمنها شدة حرصهم على الدنيا ورغبتهم فى تحصيلها وقد أبطل الله هذه الطريقة بقوله من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها الى آخر الآية ومنها انهم كانوا ينكرون نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ويقدحون فى معجزاته وقد أبطل الله تعالى ذلك بقوله أفمن كان على بينة من ربه ومنها انهم كانوا يزعمون فى الاصنام أنها شفعاؤهم عند الله وقد أبطل الله تعالى ذلك بهذه الآية وذلك لان هذا الكلام افتراء على الله تعالى فلما بين وعيد المفترين على الله فقد دخل فيه هذا الكلام واعلم أن قوله ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا انما يورد فى معرض المبالغة وفيه دلالة على ان الافتراء على الله تعالى أعظم أنواع الظلم ثم انه تعالى بين وعيد هؤلاء بقوله أولئك يعرضون على ربهم وما وصفهم بذلك لانهم مختصون بذلك العرض لان العرض عام فى كل العباد كما قال وعرضوا على ربك صفا وانما أراد به أنهم يعرضون فيفتضحون بأن يقول الاشهاد عند عرضهم هؤلاء الذين كذبوا على ربهم فيحصل لهم من الخزى والنكال

كان فى الثانى دون الاول ايماء الى أن صدور أعمال البر منهم وان كان لغرض فاسد ليس فى الاستمرار والدوام كصدور الاعمال التى هى من مقدمات مطالبهم الدنيئة وقرئ وبطل على الفعل اى ظهر بطلانه حيث علم هناك أن ذلك وما يستتبعه من الحظوظ الدنيوية مما لا طائل تحته أو انقطع أثره الدنيوى فبطل مطلقا وقرئ وباطلا ما كانوا يعملون على أن ما ابهامية أو فى معنى المصدر كقوله ولا خارجا من فى زور كلام * وعن أنس رضى الله عنه أن المراد بقوله تعالى من كان يريد الخ اليهود والنصارى ان أعطوا سائلا أو وصلوا رحما عجل لهم جزاء ذلك بتوسعة فى الرزق وصحة فى البدن وقيل هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسهم لهم فى الغنائم وأنت خبير بأن ذلك انما كان بعد الهجرة والسورة مكية وقيل هم أهل الرياء يقال للقراء منهم أردت أن يقال فلان قارئ فقد قيل ذلك وهكذا لغيره ممن يعمل أعمال البر لا لوجه الله تعالى فعلى هذا لا بد من تقييد قوله تعالى ليس لهم الا النار بأن ليس لهم بسبب أعمالهم الريائية الا ذلك والذى تقتضيه جزالة النظم الكريم أن المراد به مطلق الكفرة بحيث يندرج فيهم القادحون فى القرآن العظيم اندراجا أوليا فانه عز وعلا لما أمر نبيه عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بأن يزدادوا علما ويقينا بأن القرآن منزل بعلم الله وبأن لا قدرة لغيره على شئ أصلا وهيجهم على الثبات على الاسلام والرسوخ فيه عند ظهور عجز الكفرة وما يدعون من دون الله عن المعارضة وتبين أنهم ليسوا على شئ أصلا اقتضى الحال أن يتعرض لبعض شؤونهم الموهمة لكونهم على شئ فى الجملة من نيلهم الحظوظ العاجلة واستيلائهم على المطالب الدنيوية وبيان أن ذلك بمعزل عن الدلالة عليه ولقد بين ذلك أى بيان ثم أعيد الترغيب فيما ذكر من الايمان بالقرآن والتوحيد والاسلام فقيل (أفمن كان على بينة من ربه) اى برهان نير عظيم الشان يدل على حقية ما رغب فى الثبات عليه من الاسلام وهو

مالامر يدعليه وفيه سؤالات (السؤال الاول) اذا لم يجز أن يكون الله تعالى فى مكان فكيف قال يعرضون على ربهم (والجواب) أنهم يعرضون على الاماكن المعدة للحساب والسؤال ويجوز أيضا ان يكون ذلك عرضا على من شاء الله من الخلق بأمر الله من الملائكة والانبياء والمؤمنين (السؤال الثانى) من الاشهاد الذين أضيف اليهم هذا القول (الجواب) قال مجاهدهم الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم فى الدنيا وقال قتادة ومقاتل الاشهاد الناس كما يقال على رؤس الاشهاد يعنى على رؤس الناس وقال الآخرون هم الانبياء عليهم الصلاة والسلام قال الله تعالى فلنسئلن الذين أرسل اليهم ولنسئلن المرسلين والفائدة فى اعتبار قول الاشهاد المبالغة فى اظهار الفضيحة (السؤال الثالث) الاشهاد جمع فما واحده والجواب يجوز أن يكون جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب وناصر وأنصار ويجوز أن يكون جمع شهيد مثل شريف وأشراف قال أبوعلى الفارسى وهذا كأنه أرجح لان ماجاء من ذلك فى التنزيل جاء على فعيل كقوله ويكون الرسول عليكم شهيدا وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ثم لما أخبر عن حالهم فى عذاب القيامة أخبر عن حالهم فى الحال فقال ألالعنة الله على الظالمين وبين أنهم فى الحال للعونون من عند الله ثم ذكر من صفاتهم انهم يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا يعنى انهم كما ظلموا أنفسهم بالتزام الكفر والضلال فقد أضافوا اليه المنع من الدين الحق والقاء الشبهات وتعويج الدلائل المستقيمة لانه لايقال فى العاصى يبغى عوجا وانما يقال ذلك فيمن يعرف كيفية الاستقامة وكيفية العوج بسبب القاء الشبهات وتقرير الضلالات ثم قال وهم بالآخرة هم كافرون قال الزجاج كلمة هم كررت على جهة التوكيد لثباتهم فى الكفر * قوله عزوجل (أولئك لم يكونوا معجزين فى الارض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون لاجرم انهم فى الآخرة هم الاخسرون) اعلم أن الله تعالى وصف هؤلاء المنكرين الجاحدين بصفات كثيرة فى معرض الذم (الصفة الاولى) كونهم مفترين على الله وهى قوله ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا (والصفة الثانية) انهم يعرضون على الله فى موقف الذل والهوان والخزى والنكال وهى قوله أولئك يعرضون على ربهم (والصفة الثالثة) حصول الخزى والنكال والفضيحة العظيمة وهى قوله ويقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم (والصفة الرابعة) كونهم ملعونين من عند الله وهى قوله ألالعنة الله على الظالمين (والصفة الخامسة) كونهم صادين عن سبيل الله مانعين عن متابعة الحق وهى قوله الذين يصدون عن سبيل الله (الصفة السادسة) سعيهم فى القاء الشبهات وتعويج الدلائل المستقيمة وهى قوله ويبغونها عوجا (الصفة السابعة) كونهم كافرين وهى قوله وهم بالآخرة هم كافرون (الصفة الثامنة) كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب الله وهى

القرآن وباعتباره أو بتأويل البرهان ذكر الضمير الراجع اليها فى قوله تعالى (ويتلوه) اى يتبعه (شاهد) يشهد بكونه من عند الله تعالى وهو الاعجاز فى نظمه المطرد فى كل مقدار سورة منه أو ما وقع فى بعض آياته من الاخبار بالغيب وكلاهما وصف تابع له شاهد بكونه من عند الله عزوجل غير أنه على التقدير الاول يكون فى الكلام اشارة الى حال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فى تمسكهم بالقرآن عند تبين كونه منزلا بعلم الله بشهادة الاعجاز (منه) اى من القرآن غير خارج عنه أومن جهة الله تعالى فان كلا منهما وارد من جهته تعالى للشهادة ويجوز على هذا التقدير أن يراد بالشاهد المعجزات الظاهرة على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فان ذلك أيضا من الشواهد التابعة للقرآن الوارد من جهته تعالى فالمراد بمن فى قوله تعالى أفمن كل من اتصف بهذه الصفة الحميدة فيدخل فيه المخاطبون بقوله تعالى فاعلموا فهل أنتم دخولا أوليا وقيل هو النبى صلى الله عليه وسلم وقيل مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه وقيل المراد بالبينة دليل العقل وبالشاهد القرآن فالضمير فى منه لله تعالى أو البينة القرآن ويتلوه من التلاوة والشاهد جبريل أو لسان النبى صلى الله عليه وسلم على أن الضمير له أو من التلو والشاهد ملك يحفظه والاولى هو الاول ولما كان المراد بتلو الشاهد للبرهان اقامة الشهادة بصحته وكونه من عند الله تعالى بحيث لايفارقه فى مشهد من المشاهد فان القرآن بينة باقية على وجه الدهر مع شاهدها الذى يشهد بأمرها الى يوم القيامة عند كل مؤمن وجاحد عطف كتاب موسى فى قوله ﴿ قوله ﴾ عز قائلا (ومن قبله كتاب موسى) على فاعله مع كونه مقدما عليه فى النزول فكأنه قيل أفمن كان على بينة من ربه ويشهد به شاهد منه وشاهد آخر من قبله هو كتاب موسى وانما قدم فى الذكر المؤخر فى النزول لكونه وصفا لازما له غير مفارق عنه ولعراقته فى وصف التلو والتنكير فى بينة وشاهد للتفخيم

(اماما) اى مؤتما به فى الدين ومقتدى وفى التعرض لهذا الوصف بصدد بيان تلو الكتاب ما لا يخفى من تفخيم شان المتلو (ورحمة) اى نعمة عظيمة على من أنزل اليهم ومن بعدهم الى يوم القيامة باعتبار أحكامه الباقية المؤيدة بالقرآن العظيم وهما حالان من الكتاب (أولئك) الموصوفون بتلك الصفة الحميدة وهى الكون على بينة من الله ولما أن ذلك عبارة عن مطلق التمسك بها وقد يكون ذلك بطريق التقليد لمن سلف من عظماء ﴿٧١﴾ الدين من غير عثور على دقائق الحقائق وصفهم بانهم (يؤمنون به) اى يصدقون حق التصديق حسبما تشهد به الشواهد الحقة المعربة عن حقيته (ومن يكفر به) اى بالقرآن ولم يصدق بتلك الشواهد الحقة (من الاحزاب) من أهل مكة ومن تحزب معهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم (فالنار موعده) يردها لا محالة حسبما نطق به قوله تعالى ليس لهم فى الآخرة الا النار وفى جعلها موعدا اشعار بان له فيها ما لا يوصف من أفانين العذاب (فلا تك فى مرية منه) اى فى شك من أمر القرآن وكونه من عند الله عز وجل حسبما شهدت به الشواهد المذكورة وظهر فضل من تمسك به (انه الحق من ربك) الذى يربيك فى دينك ودنياك (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) بذلك اما لقصور أنظارهم واختلال افكارهم واما لعنادهم واستكبارهم فمن فى قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربه مبتدأ حذف خبره لاغناء الحال عن ذكره وتقديره أفمن كان على بينة من ربه كأولئك الذين ذكرت أعمالهم وبين مصيرهم ومآلهم يعنى أن بينهما تفاوتا عظيما بحيث لا يكاد يتراءى ناراهما وايراد الفاء بعد الهمزة لانكار ترتب توهم المماثلة على ما ذكر من صفاتهم وعد من هناتهم كأنه قيل أبعد ظهور حالهم فى الدنيا والآخرة كما وصف يتوهم المماثلة بينهم وبين من كان على أحسن ما يكون فى العاجل والآجل كما قوله تعالى أفاتخذتم من دونه أولياء اى أبعد أن علمتموه رب السموات والارض اتخذتم من دونه اولياء

قوله أولئك لم يكونوا معجزين فى الارض قال الواحدى معنى الاعجاز المنع من تحصيل المراد يقال أعجزنى فلان أى منعنى عن مرادى ومعنى معجزين فى الارض أى لا يمكنهم أن يهربوا من عذابنا فان هرب العبد من عذاب الله محال لانه سبحانه وتعالى قادر على جميع الممكنات ولا تتفاوت قدرته بالبعد والقرب والقوة والضعف (الصفة التاسعة) انهم ليس لهم أولياء يدفعون عذاب الله عنهم والمراد منه الرد عليهم فى وصفهم الاصنام بأنها شفعاؤهم عند الله والمقصود ان قوله أولئك لم يكونوا معجزين فى الارض دل على انهم لا قدرة لهم على الفرار وقوله وما كان لهم من دون الله من أولياء هو أن أحدا لا يقدر على تخليصهم من ذلك العذاب فجمع تعالى بين ما يرجع اليهم وبين ما يرجع الى غيرهم وبين بذلك انقطاع حيلهم فى الخلاص من عذاب الدنيا والآخرة ثم اختلفوا فقال قوم المراد ان عدم نزول العذاب ليس لاجل انهم قدروا على منع الله من انزال العذاب ولا لاجل ان لهم ناصرا يمنع ذلك العذاب عنهم بل انما حصل ذلك الامهال لانه تعالى امهلهم كى يتوبوا فيزولوا عن كفرهم فاذا أبوا الا الثبات عليه فلا بد من مضاعفة العذاب فى الآخرة وقال بعضهم بل المراد لم يكونوا معجزين لله عما يريد انزاله عليهم من العذاب فى الآخرة او فى الدنيا ولا يجدون وليا ينصرهم ويدفع ذلك عنهم (والصفة العاشرة) قوله تعالى يضاعف لهم العذاب قيل سبب تضعيف العذاب فى حقهم أنهم كفروا بالله وبالبعث وبالنشور فكفرهم بالمبدا والمعاد صار سببا لتضعيف العذاب والاصوب أن يقال انهم مع ضلالهم الشديد سعوا فى الاضلال ومنع الناس عن الدين الحق فلهذا المعنى حصل هذا التضعيف عليهم (الصفة الحادية عشرة) قوله ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون والمراد ما هم عليه فى الدنيا من صمم القلب وعمى النفس واحتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى قد يخلق فى المكلف ما يمنعه الايمان روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال انه تعالى منع الكافر من الايمان فى الدنيا وفى الآخرة أما فى الدنيا ففى قوله تعالى ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون وأما فى الآخرة فهو قوله يدعون الى السجود فلا يستطيعون وحاصل الكلام فى هذا الاستدلال انه تعالى أخبر عنهم انهم لا يستطيعون السمع فاما أن يكون المراد انهم ما كانوا يستطيعون سمع الاصوات والحروف واما أن يكون المراد كونهم عاجزين عن الوقوف على دلائل الله تعالى والقول الاول باطل لان البديهة دلت على انهم كانوا يسمعون الاصوات والحروف فوجب حمل اللفظ على الثانى أجاب الجبائى عنه بان السمع اما أن يكون عبارة عن الحاسة المخصوصة أو عن معنى يخلقه الله تعالى فى صماخ الاذن وكلاهما لا يقدر العبد عليه لانه لو اجتهد فى أن يفعل ذلك أو يتركه لتعذر عليه واذا ثبت هذا كان اثبات الاستطاعة فيه محالا واذا كان اثباتها محالا كان نفى الاستطاعة عنه هو الحق فثبت ان ظاهر الآية لا يقدح فى قولنا ثم قال المراد بقوله ما كانوا يستطيعون السمع انما لهم له

قوله تعالى أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بان نسب اليه ما لا يليق به كقولهم للملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وقولهم لآلهتهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله يعني أنهم مع كفرهم بآيات الله تعالى مفترون عليه كذبا وهذا التركيب وان كان سبكه على انكار أن يكون أحد أظلم منهم من غير تعرض لانكار المساواة ونفيها ولكن المقصود به قصدا مطردا انكار المساواة ونفيها وافادة أنهم أظلم من كل ظالم كما ينبئ عنه ما سيتلى من قوله عز وجل لا جرم أنهم في الآخرة هم الاخسرون واذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل منه فالمراد منه حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل (أولئك) الموصوفون بالظلم البالغ الذي هو الافتراء على الله تعالى وبهذه الاشارة حصلت الغنية عن اسناد العرض الى أعمالهم واكتفى باسناده اليهم حيث قيل (يعرضون) لان عرضهم من تلك الحيثية وبذلك العنوان عرض لاعمالهم على وجه أبلغ فان عرض العامل بعمله أفظع من عرض عمله مع غيبته (على ربهم) الحق وفيه ايماء الى بطلان رأيهم في اتخاذهم أربابا من دون الله عز وجل (ويقول الاشهاد) عند العرض من الملائكة والنبيين أو من جوارحهم وهو جمع شاهد أو شهيد كأصحاب وأشراف (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) بالافتراء عليه كأن ذلك أمر واضح غني عن الشهادة بوقوعه وانما المحتاج الى الشهادة تعيين من صدر عنه ذلك فلذلك لا يقولون هؤلاء كذبوا على ربهم ويجوز أن يكون المراد بالاشهاد الحضار وهم جميع أهل الموقف على ما قاله قتادة ومقاتل ويكون قولهم هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ذما لهم بذلك لا شهادة عليهم كما يشعر به قوله تعالى ويقول دون ويشهد الخ وتوطئة لما تعقبه من قوله تعالى (ألا لعنة الله على الظالمين) بالافتراء المذكور ويجوز أن يكون هذا على الوجه الاول من كلام الله تعالى وفيه تهويل عظيم لما يحيق بهم من عاقبة ظلمهم اللهم انا نعوذ بك

﴿ ينفعهم ﴾

ونفورهم عنه كما يقول القائل هذا كلام لا أستطيع أن أسمعه وهذا مما يمجه سمعي وذكر غير الجبائي عذرا آخر فقال انه تعالى نفى أن يكون لهم أولياء والمراد الاصنام ثم بين نفي كونهم أولياء بقوله ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون فكيف يصلحون للولاية والجواب أما حمل الآية على أنه لا قدرة لهم على خلق الحاسة وعلى خلق المعنى فيها فباطل لان هذه الآية وردت في معرض الوعيد فلا بد وأن يكون ذلك معنى مختصا بهم والمعنى الذي قالوه حاصل في الملائكة والانبياء فكيف يمكن حمل اللفظ عليه وأما قوله ان ذلك محمول على انهم كانوا يستثقلون سماع كلام الرسول صلى الله عليه وسلم وابصار صورته فالجواب انه تعالى نفى الاستطاعة فحمله على معنى آخر خلاف الظاهر وأيضا ان حصول ذلك الاستثقال اما أن يمنع من الفهم والوصول الى الغرض أو لم يمنع فان منع فهو المقصود وان لم يمنع منه فحينئذ كان ذلك سببا أجنبيا عن المعاني المعتبرة في الفهم والادراك ولا تختلف أحوال القلب في العلم والمعرفة بسببه فكيف يمكن جعله ذما لهم في هذا المعرض وأيضا قد بينا مرارا كثيرة في هذا الكتاب أن حصول الفعل مع قيام الصارف محال فلما بين تعالى كون هذا المعنى صارفا عن قبول الدين الحق وبين فيه انه حصل حصولا على سبيل اللزوم بحيث لا يزول البتة في ذلك الوقت كان المكلف في ذلك الوقت ممنوعا عن الايمان وحينئذ يحصل المطلوب وأما قوله فانا نجعل هذه الصفة من صفة الاوثان فبعيد لانه تعالى قال يضاعف لهم العذاب ثم قال ما كانوا يستطيعون السمع فوجب أن يكون الضمير في هذه الآية المتأخرة عائدا الى عين ما عاد اليه الضمير المذكور في هذه الآية الاولى وأما قوله وما كانوا يبصرون فقيل المراد منه البصيرة وقيل المراد منه انهم عدلوا عن ابصار ما يكون حجة لهم (الصفة الثانية عشرة) قوله أولئك الذين خسروا أنفسهم ومعناه انهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى فكان هذا الخسران أعظم وجوه الخسران (الصفة الثالثة عشرة) قوله وضل عنهم ما كانوا يفترون والمعنى انهم لما باعوا الدين بالدنيا فقد خسروا لانهم أعطوا الشريف ورضوا بأخذ الخسيس وهذا عين الخسران في الدنيا ثم في الآخرة فهذا الخسيس يضيع ويهلك ولا يبقى منه أثر وهو المراد بقوله وضل عنهم ما كانوا يفترون (الصفة الرابعة عشرة) قوله لا جرم انهم في الآخرة هم الاخسرون وتقريره ما تقدم وهو انه لما أعطى الشريف الرفيع ورضي بالخسيس الوضيع فقد خسر في التجارة ثم لما كان هذا الخسيس بحيث لا يبقى بل لا بد وأن يهلك ويفنى انقلبت تلك التجارة الى النهاية في صفة الخسارة فلهذا قال لا جرم أنهم في الآخرة هم الاخسرون وقوله لا جرم قال الفراء انها بمنزلة قولنا لا بد ولا محالة ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقا تقول العرب لا جرم انك محسن على معنى حقا انك محسن وأما النحويون فلهم فيه وجوه (الاول) لا حرف نفي وجرم أي قطع فاذا قلنا لا جرم معناه انه لا قطع قاطع عنهم أنهم في الآخرة هم الاخسرون (الثاني) قال الزجاج ان كلمة لا نفي لما ظنوا انه

ينفعهم وجرم معناه كسب ذلك الفعل والمعنى لا ينفعهم ذلك وكسب ذلك الفعل لهم الخسران فى الدنيا والآخرة وقد ذكرنا جرم بمعنى كسب فى تفسير قوله تعالى لا يجرمنكم شنآن قوم قال الازهرى وهذا من احسن ما قيل فى هذا الباب (الثالث) قال سيبويه والاخفش لا رد على أهل الكفر كما ذكرنا وجرم معناه حق وصح والتأويل انه حق كفرهم ووقوع العذاب والخسران بهم واحتج سيبويه بقول الشاعر

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة * جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

أراد حقت الطعنة فزارة أن يغضبوا * قوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) اعلم انه تعالى لما ذكر عقوبة الكافرين وخسرانهم اتبعه بذكر أحوال المؤمنين والاخبات هو الخشوع والخضوع وهو مأخوذ من الخبت وهو الارض المطمئنة وخبت ذكره أى خفى فقوله أخبت أى دخل فى الخبت كما يقال فيمن صار الى نجد أنجد والى تهامة أتهم ومنه المخبت من الناس الذى أخبت الى ربه أى اطمأن اليه ولفظ الاخبات يتعدى بالى وباللام فاذا قلنا أخبت فلان الى كذا فمعناه اطمأن اليه واذا قلنا أخبت له فمعناه خشع له اذا عرفت هذا فنقول قوله ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اشارة الى جميع الاعمال الصالحة وقوله وأخبتوا اشارة الى ان هذه الاعمال لا تنفع فى الآخرة الا مع الاحوال القلبية ثم ان فسرنا الاخبات بالطمأنينة كان المراد انهم يعبدون الله وكانت قلوبهم عند أداء العبادات مطمئنة بذكر الله فارغة عن الالتفات الى ما سوى الله تعالى أو يقال انما قلوبهم صارت مطمئنة الى صدق الله بكل ما وعدهم من الثواب والعقاب وأما ان فسرنا الاخبات بالخشوع كان معناه انهم يأتون بالاعمال الصالحة خائفين وجلين من ان يكونوا أتوا بها مع وجود الاخلال والتقصير ثم بين ان من حصل له هذه الصفات الثلاثة فهم اصحاب الجنة ويحصل لهم الخلود فى الجنة * قوله تعالى (مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا افلا تذكرون) واعلم انه تعالى لما ذكر الفريقين ذكر فيهما مثالا مطابقا ثم اختلفوا فقيل انه راجع الى من ذكر آخرا من المؤمنين والكافرين من قبل وقال آخرون بل رجع الى قوله أفمن كان على بينة من ربه ثم ذكر من بعده الكافرين ووصفهم بأنهم لا يستطيعون السمع ولا يبصرون والسميع والبصير هم الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم واعلم ان وجه التشبيه هو انه سبحانه خلق الانسان مركبا من الجسد ومن النفس وكما ان للجسد بصرا وسمعا فكذلك حصل لجوهر الروح سمع وبصر وكما ان الجسد اذا كان أعمى أصم بقى متحيرا لا يهتدى الى شئ من المصالح بل يكون كالتائه فى حضيض الظلمات لا يبصر نورا يهتدى به ولا يسمع صوتا فكذلك الجاهل الضال المضل يكون أعمى وأصم القلب فيبقى فى ظلمات الضلالات حائرا [illegible]ال تعالى أفلا تذكرون منبها على انه يمكنه علاج هذا العمى وهذا الصمم واذا كان العلاج ممكنا من الضرر الحاصل بسبب

من الخزى على رؤس الاشهاد (الذين يصدون) أى كل من يقدرون على صده أو يفعلون الصد (عن سبيل الله) عن دينه القويم (ويبغونها عوجا) انحرافا أى يصفونها [illegible] بعد شئ منه أو يبغون أهلها أن ينحرفوا عنها يقال بغيتك خيرا أو شرا أى طلبت لك وهذا شامل لتكذيبهم بالق[illegible] من عند الله (وهم بالآخرة هم كافرون) أى يصفونها بالعوج والحال أنهم كافرون بها لا انهم يؤمنون بها [illegible] ان لها سبيلا سويا يهدون الناس اليه وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به كأن كفر غيرهم ليس بشئ عند كفرهم (أولئك) مع ما وصف من أحوالهم الموجبة للتدمير (لم يكونوا معجزين) الله تعالى مفلتين بأنفسهم من أخذه لو أراد ذلك (فى الارض) مع سعتها وان هربوا منها كل مهرب (وما كان لهم من دون الله من أولياء) ينصرونهم من بأسه ولكن أخر ذلك لحكمة تقتضيه والجمع اما باعتبار أفراد الكفرة كأنه قيل وما كان لاحد منهم من ولى أو باعتبار تعدد ما كانوا يدعون من دون الله تعالى فيكون ذلك بيانا لحال آلهتهم من سقوطها عن رتبة الولاية (يضاعف لهم العذاب) استئناف يتضمن حكمة تأخير المؤاخذة وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بالتشديد (ما كانوا يستطيعون السمع) لفرط تصامهم عن الحق وبغضهم له كأنهم لا يقدرون على السمع ولما كان قبح حالهم فى عدم اذعانهم للقرآن الذى طريق تلقيه السمع أشد منه فى عدم قبولهم لسائر الآيات المنوطة بالابصار بالغ فى نفى الاول عنهم حيث نفى عنهم الاستطاعة واكتفى فى الثانى بنفى الابصار فقال تعالى (وما كانوا يبصرون) لتعاميهم عن آيات الله المبسوطة فى الانفس والآفاق وهو استئناف وقع تعليلا لمضاعفة العذاب وقيل هو بيان لما نفى من ولاية الآلهة فانما لا يسمع ولا يبصر بمعزل من الولاية وقوله تعالى يضاعف لهم العذاب اعتراض وسط بينهما نعيا عليهم من أول الامر سوء العاقبة (أولئك) المنعوتون بما ذكر من القبائح (الذين خسروا أنفسهم) باشتراء عبادة الآلهة

حصول هذا العمى وهذا الصمم وجب على العاقل ان يسعى فى ذلك العلاج بقدر الامكان واعلم أنه قد جرت العادة بانه تعالى اذا اورد على الكافر انواع الدلائل اتبعها بالقصص ليصير ذكرها مؤكدا لتلك الدلائل على ما قررناه هذا المعنى فى مواضع كثيرة وفى هذه السورة ذكر انواعا من القصص (القصة الاولى) قصة نوح عليه السلام * قوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لك[illegible] مبين ان لاتعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) اعلم انه تعالى قد بدأ بذكر هذه القصة فى سورة يونس وقد أعادها فى هذه السورة أيضا لما فيها من زوائد الفوائد و بدائع الحكم وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى أنى بفتح الهمزة والمعنى أرسلنا نوحا بأنى لكم نذير مبين ومعناه ارسلناه ملتبسا بهذا الكلام وهو قوله انى لكم نذير مبين فلما اتصل به حرف الجر وهو الباء فتح كما فتح فى كأن وأما سائر القراء فقرؤا انى بالكسر على معنى قال انى لكم نذير مبين (المسئلة الثانية) قال بعضهم المراد من النذير كونه مهددا للعصاة بالعقاب ومن المبين كونه مبينا ما اعد الله للمطيعين من الثواب والاولى أن يكون المعنى انه نذير للعصاة من العقاب وانه مبين بمعنى انه بين ذلك الانذار على الطريق الاكمل والبيان الاقوى الاظهر ثم بين تعالى ان ذلك الانذار انما حصل فى النهى عن عبادة غير الله وفى الامر بعبادة الله لان قوله أن لاتعبدوا الا الله استثناء من النفى وهو يوجب نفى غير المستثنى واعلم ان تقدير الآية كانه تعالى قال ولقد أرسلنا نوحا الى قومه بهذا الكلام وهو قوله انى لكم نذير مبين ثم قال أن لاتعبدوا الا الله فقوله أن لاتعبدوا الا الله بدل من قوله انى لكم نذير ثم انه أكد ذلك بقوله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم والمعنى انه لما حصل الالم العظيم فى ذلك اليوم أسند ذلك الالم الى اليوم كقولهم نهارك صائم وليلك قائم * قوله تعالى (فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين) اعلم انه تعالى لما حكى عن نوح عليه السلام انه دعا قومه الى عبادة الله تعالى حكى عنهم انهم طعنوا فى نبوته بثلاثة أنواع من الشبهات (فالشبهة الاولى) انه بشر مثلهم والتفاوت الحاصل بين آحاد البشر يمتنع انتهاؤه الى حيث يصير الواحد منهم واجب الطاعة لجميع العالمين (والشبهة الثانية) كونه ما اتبعه الا الأراذل من القوم كالحياكة وأهل الصنائع الخسيسة قالوا ولو كنت صادقا لاتبعك الاكياس من الناس والاشراف منهم ونظيره قوله تعالى فى سورة الشعراء أنؤمن لك واتبعك الارذلون (والشبهة الثالثة) قوله تعالى وما نرى لكم علينا من فضل والمعنى لانرى لكم علينا من فضل لا فى العقل ولا فى رعاية المصالح العاجلة ولا فى قوة الجدل فاذا لم نشاهد فضلك علينا فى شىء من هذه الاحوال الظاهرة فكيف نعترف بفضلك علينا فى أشرف الدرجات وأعلى المقا[illegible]ذا خلاصة الكلام فى تقرير هذه الشبهات واعلم ان الشبهة الاولى لاتليق الا بالبراهمة الذين ينكرون نبوة البشر على الاطلاق أما

بنيابة الله وسلطانه (وضل عنهم ما كانوا يفترون) من الآلهة أو شفاعتها أو خسروا وامابذلوا وضاع عنهم ما حصلوا فلم يبق معهم سوى الحسرة والندامة (لاجرم) فيه ثلاثة أوجه الاول أن لا نافية لما سبق وجرم فعل بمعنى حق وأن مع ما فى حيز مفعوله والمعنى لاينفعهم ذلك الفعل حق (أنهم فى الآخرة هم الاخسرون) وهذا مذهب سيبويه والثانى جرم بمعنى كسب وما بعده مفعوله وفاعله ما دل عليه الكلام أى كسب ذلك خسرانهم فالمعنى ما حصل من ذلك الاظهور خسرانهم والثالث أن لاجرم بمعنى لابد أى لابد أنهم فى الآخرة هم الاخسرون وأيا ما كان فمعناه أنهم أخسر من كل خاسر فتبين أنهم أظلم من كل ظالم وهذه الايات الكريمة كما ترى مقررة لما سبق من انكار المماثلة بين من كان على بينة من ربه وبين من كان يريد الحياة الدنيا أبلغ تقرير فانهم حيث كانوا أظلم من كل ظالم وأخسر من كل خاسر لم يتصور مماثلة بينهم وبين أحد من الظلمة الاخسرين فاظنك بالمماثلة بينهم وبين من هو فى أعلى مدارج الكمال ولما ذكر فريق الكفار وأعمالهم وبين مصيرهم ومآلهم شرع فى بيان حال أضدادهم أعنى فريق المؤمنين وما يؤل اليه أمرهم من العواقب الحميدة تكملة لما سلف من محاسنهم المذكورة فى قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربه الآية ليتبين ما بينهما من التباين البين حالا ومآلا فقيل (ان الذين آمنوا) أى بكل ما يجب أن يؤمن به فيندرج تحته ما نحن بصدده من الايمان بالقرآن الذى عبر عنه بالكون على بينة من الله وانما تحصل ذلك باستماع الوحى والتدبر فيه ومشاهدة ما يؤدى الى ذلك فى الانفس والآفاق أو فعلوا الايمان كما فى يعطى و يمنع (وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم) أى اطمأنوا اليه وانقطعوا الى عبادته بالخضوع والتواضع من الخبت وهى الارض المطمئنة ومعنى أخبت دخل فى الخبت كأتهم وأنجد دخل فى تهامة ونجد (أولئك) النعوتون بتلك النعوت الجميلة (أصحاب الجنة هم فيها خالدون) دائمون وبعد بيان تباين حاليهما عقلا أريد بيان تباينهما حسيا

فقيل (مثل الفريقين) المذكورين اى حالهما العجيب لان المثل لا يطلق الا على ما فيه غرابة من الاحوال والصفات كالاعمى والاصم والبصير والسميع) أى كحال هؤلاء فيكون ذواتهم كذواتهم والكلام وان أمكن أن يحمل على تشبيه الفريق الاول بالاعمى و بالاصم وتشبيه الفريق الثانى بالبصير و بالسميع لكن الادخل فى المبالغة والاقرب الى ما يشير اليه لفظ المثل والانسب بماسبق من وصف الكفرة بعدم استطاعة السمع وبعدم الابصار أن يحمل على تشبيه الفريق الاول بمن جمع بين العمى والصمم وتشبيه الفريق الثانى بمن جمع بين البصر والسمع على أن تكون الواو فى قوله تعالى والاصم وفى قوله والسميع لعطف الصفة على الصفة كما فى قوله

من قال * الى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة فى المزدحم *

وأياما كان فالظاهر أن المراد بالحال المدلول عليها بلفظ المثل وهى التى يدور عليها أمر التشبيه ما يلائم الاحوال المذكورة المعتبرة فى جانب المشبه به من تعامى الفريق الاول عن مشاهدة آيات الله المنصوبة فى العالم والنظر اليها بعين الاعتبار وتصامهم عن استماع آيات القرآن الكريم وتلقيها بالقبول حسبما ذكر فى قوله تعالى ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون وانما لم يراع هذا الترتيب ههنا لكون الاعمى اظهر وأشهر فى سوء الحال من الاصم ومن استعمال الفريق الثانى لكل من أبصارهم وأسماعهم فيما ذكر كما ينبغى المدلول عليه بما سبق من الايمان والعمل الصالح والاخبات حسبما فسر به فيما مر فلا يكون التشبيه تمثيليا لاجمع الاحوال المعدودة لكل من الفريقين مما ذكر وما يؤدى اليه من العذاب المضاعف والخسران البالغ فى أحدهما ومن النعيم المقيم فى الاخر فان اعتبار ذلك ينزع الى كون التشبيه تمثيليا بان ينتزع من حال الفريق الاول فى تصامهم وتعاميهم المذكورين ووقوعهم بسبب ذلك فى العذاب المضاعف والخسران الذى لا خسران فوقه هيئة فتشبه بهيئة منتزعة ممن فقد مشعرى البصر والسمع فتخبط فى مسلكه فوقع

الشبهتان الباقيتان فيمكن أن يتمسك بهما من أقر بنبوة سائر الانبياء وفى لفظ الآية مسائل (المسئلة الاولى) الملأ الاشراف وفى اشتقاقه وجوه (الاول) انه مأخوذ من قولهم ملئ بكذا اذا كان مطيقا له وقد ملؤا بالامر والسبب فى اطلاق هذا اللفظ عليهم انهم ملؤا بترتيب المهمات وأحسنوا فى تدبيرها (الثانى) أنهم وصفوا بذلك لانهم يتمالؤن أى يتظاهرون عليه (الثالث) وصفوا بذلك لانهم يملؤن القلوب هيبة والمجالس أبهة (الرابع) وصفوا به لانهم ملؤا العقول الراجحة والآراء الصائبة ثم حكى الله تعالى عنهم الشبهة الاولى وهى قولهم ما نراك الا بشرا مثلنا وهو مثل ما حكى الله تعالى عن بعض العرب انهم قالوا لولا أنزل عليه ملك وهذا جهل لان من حق الرسول أن يباشر الامة بالدليل والبرهان والتثبت والحجة لا بالصورة والخلقة بل نقول ان الله تعالى لو بعث الى البشر ملكا لكانت الشبهة أقوى فى الطعن عليه فى رسالته لانه يخطر بالبال ان هذه المعجزات التى ظهرت لعل هذا الملك هو الذى أتى بها من عند نفسه بسبب أن قوته أكمل وقدرته أقوى فلهذه الحكمة ما بعث الله الى البشر رسولا الا من البشر ثم حكى الشبهة الثانية وهى قوله وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى والمراد منه قلة مالهم وقلة جاههم ودناءة حرفهم وصناعتهم وهذا أيضا جهل لان الرفعة فى الدين لا تكون بالحسب والمال والمناصب العالية بل الفقر أهون على الدين من الغنى بل نقول الانبياء ما بعثوا الا لترك الدنيا والاقبال على الآخرة فكيف تجعل قلة المال فى الدنيا طعنا فى النبوة والرسالة ثم حكى الله تعالى الشبهة الثالثة وهى قوله وما نرى لكم علينا من فضل وهذا أيضا جهل لان الفضيلة المعتبرة عند الله ليست الا بالعلم والعمل فكيف اطلعوا على بواطن الخلق حتى عرفوا نفى هذه الفضيلة ثم قالوا بعد ذكر هذه الشبهات لنوح عليه السلام ومن اتبعه بل نظنكم كاذبين وفيه وجهان (الاول) أن يكون هذا خطابا مع نوح ومع قومه والمراد منه تكذيب نوح فى دعوى الرسالة (والثانى) ان يكون هذا خطابا مع الاراذل فنسبوهم الى أنهم كذبوا فى أن آمنوا به واتبعوه (المسئلة الثانية) قال الواحدى الاراذل جمع رذل وهو الدون من كل شئ فى منظره وحالاته ورجل رذل الثياب والفعل والاراذل جمع الارذل كقولهم أكابر مجرميها وقوله عليه الصلاة والسلام أحاسنكم اخلاقا فعلى هذا الاراذل جمع الجمع وقال بعضهم الاصل فيه أن يقال هو أرذل من كذا ثم كثر حتى قالوا هو الارذل فصارت الالف واللام عوضا عن الاضافة وقوله بادى الرأى البادى هو الظاهر من قولك بدا الشئ اذا ظهر ومنه يقال بادية لظهورها وبروزها للناظر واختلفوا فى بادى الرأى وذكروا فيه وجوها (الاول) اتبعوك فى الظاهر و باطنهم بخلافه (والثانى) يجوز أن يكون المراد اتبعوك فى ابتداء حدوث الرأى وما احتاطوا فى ذلك الرأى وما أعطوه حقه من الفكر الصائب والتدبر الوافى (الثالث) انهم لما وصفوا القوم بالرذالة قالوا كونهم كذلك بادى الرأى امر ظاهر لكل من يراهم والرأى على هذا المعنى من رأى العين لا من رأى القلب

فى مهاوى الردى ولم يجد الى مقصده سبيلا وينتزع من حال الفريق الثانى فى استعمال مشاعرهم فى آيات الله تعالى حسبما ينبغى وفوزهم بدار الخلود هيئة فتشبه بهيئة منتزعة ممن له بصر وسمع يستعملهما فى مهماته فيهتدى الى سبيله وينال مرامه (هل يستويان) يعنى الفريقين المذكورين والاستفهام انكارى مذكر لماسبق من انكار المماثلة فى قوله عزوجل أفمن كان على بينة الآية (مثلا) أى حالا وصفة وهو تمييز من فاعل ﴿ ٧٦ ﴾ يستويان (أفلا تذكرون) أى أتشكون فى عدم الاستواء وما بينهما من التباين أو أتغفلون عنه فلا تتذكرونه بالتأمل فيما ضرب لكم من المثل فيكون الانكار واردا على المعطوفين معا أو أتسمعون هذا فلا تتذكرون فيكون راجعا الى عدم التذكر بعد تحقق مايوجب وجوده وهو المثل المضروب كما فى قوله تعالى أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم فان الفاء هناك لانكار الانقلاب بعد تحقق مايوجب عدمه من علمهم بخلو الرسل قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أفلا تفعلون التذكر أو أفلا تعقلون ومعنى الهمزة انكار عدم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين وأنه ليس مما يصح أن يقع لا من قبيل الانكار فى قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربى وقوله تعالى هل يستويان فان ذلك لنفى المماثلة ونفى الاستواء ولما بين من فاتحة السورة الكريمة الى هذا المقام أنها كتاب محكم الآيات مفصلها نازل فى شأن التوحيد وترك عبادة غير الله سبحانه وأن الذى أنزل عليه نذير وبشير من جهته تعالى وقرر فى تضاعيف ذلك ماله مدخل فى تحقيق هذا المرام من الترغيب والترهيب وإلزام المعاندين بما يقارنه من الشواهد الحقة الدالة ﴿ ولا ﴾ على كونه من عند الله تعالى وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما عراه من ضيق الصدر العارض له من اقتراحاتهم الشنيعة وتكذيبهم له وتسميتهم للقرآن تارة سحرا وأخرى مفترى وتثبيته عليه الصلاة والسلام والمؤمنين على التمسك به والعمل بموجبه على أبلغ وجه وأبدع أسلوب شرع فى تحقيق ماذكر وتقريره بذكر قصص الانبياء صلوات الله عليهم أجمعين

ويتأكد هذا التأويل بما نقل عن مجاهد أنه كان يقرأ الا الذين هم أراذلنا بادى رأى العين (المسئلة الثالثة) قرأ أبو عمرو ونصير عن الكسائى بادئ بالهمزة والباقون بالياء غير مهموز فمن قرأ بادئ بالهمزة فالمعنى أول الرأى وابتداؤه ومن قرأ بالياء غير مهموز كان من بدا يبدو أى ظهر وبادى نصب على المصدر كقولك ضربت اول الضرب * قوله تعالى (قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم انلزمكموها وانتم لها كارهون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما حكى شبهات منكرى نبوة نوح عليه الصلاة والسلام حكى بعده مايكون جوابا عن تلك الشبهات (فالشبهة الاولى) قولهم ما أنت الا بشر مثلنا فقال نوح حصول المساواة فى البشرية لا يمنع من حصول المفارقة فى صفة النبوة والرسالة ثم ذكر الطريق الدال على امكانه فقال أرأيتم ان كنت على بينة من ربى من معرفة ذات الله وصفاته وما يجب وما يمتنع وما يجوز عليه ثم انه تعالى آتانى رحمة من عنده والمراد بتلك الرحمة اما النبوة واما المعجزة الدالة على النبوة فعميت عليكم أى صارت مظنة مشتبهة ملتبسة فى عقولكم فهل أقدر على أن أجعلكم بحيث تصلون الى معرفتها شئتم أم أبيتم والمراد انى لا أقدر على ذلك البتة وعن قتادة والله لو استطاع نبى الله لالزمها ولكنه لم يقدر عليه وحاصل الكلام انهم لما قالوا وما نرى لكم علينا من فضل ذكر نوح عليه السلام ان ذلك بسبب ان الحجة عميت عليكم واشتبهت فاما لو تركتم العناد واللجاج ونظرتم فى الدليل لظهر المقصود وتبين أن الله تعالى آتانا عليكم فضلا عظيما (المسئلة الثانية) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم فعميت عليكم بضم العين وتشديد الميم على ما لم يسم فاعله بمعنى البست وشبهت والباقون بفتح العين مخففة الميم أى التبست واشتبهت واعلم ان الشئ اذا بقى مجهولا محضا أشبه المعمى لان العلم نور البصيرة الباطنة والابصار نور البصر الظاهر فحسن جعل كل واحد منهما مجازا عن الآخر وتحقيقه أن البينة توصف بالابصار قال تعالى فلما جاءتهم آياتنا مبصرة وكذلك توصف بالعمى قال تعالى فعميت عليهم الانباء وقال فى هذه الآية فعميت عليكم (المسئلة الثالثة) أنلزمكموها فيه ثلاث مضمرات ضمير المتكلم وضمير الغائب وضمير المخاطب وأجاز الفراء اسكان الميم الاولى وروى ذلك عن أبى عمرو قال وذلك ان الحركات توالت فسكنت الميم وهى أيضا مرفوعة وقبلها كسرة والحركة التى بعدها ضمة ثقيلة قال الزجاج جميع النحويين البصريين لا يجيزون اسكان حرف الاعراب الا فى ضرورة الشعر وما يروى عن أبى عمرو فلم يضبطه عنه الفراء وروى عن سيبويه أنه كان يخفف الحركة ويختلسها وهذا هو الحق وانما يجوز الاسكان فى الشعر كقول امرئ القيس * فاليوم أشرب غير مستحقب * قوله تعالى (وياقوم لا أسألكم عليه أجرا ان أجرى الا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون وياقوم من ينصرنى من الله ان طردتهم أفلا تذكرون ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك

المشتملة على ما اشتمل عليه فاتحة السورة الكريمة ليتأكد ذلك بطريق أحد همـا أن ما أمر به من التوحيد وفروعه مما أطبق عليه الانبياء قاطبة والثانى أن ذلك انما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الوحى فلا يبقى فى حقيته كلام أصلا وليتسلى بما يشاهده من معاناة الرسل قبله من أممهم ومقاساتهم الشدائد من جهتهم فقيل (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه) الواو ابتدائية واللام جواب قسم محذوف وحرفه الباء لا الواو كما فى سورة الاعراف لئلا يجتمع واوان ولا يكاد تطلق هذه اللام الامع قد لانها مظنة التوقع وأن المخاطب اذا سمعها توقع وقوع ما صدر بهـا ونوح هو ابن لمك بن متوشلخ بن ادريس عليهما السلام وهو أول نبى بعث بعده ❋ قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بعث عليه الصلاة والسلام على رأس أربعين من عمره ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة وكان عمره ألفا وخمسين سنة وقال مقـاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة قيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سـنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفـا وأربعمائة وخمسين سنة (انى لكم نذير) بالكسر على ارادة القول أى فقال أو قائلا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالفتح على اضمار حرف الجر أى أرسلناه ملتبسا بذلك الكلام وهو انى لكم نذير بالكسر فلما اتصل به الجار فتح كما فتح فى كأن والمعنى على الكسر وهو قولك ان زيدا كالاسد واقتصر على ذكر كونه عليه الصلاة والسلام نذيرا لالان دعوته عليه الصلاة والسلام كانت بطريق الانذار فقط ألا يرى الى قوله تعالى فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسـل السماء عليكم مدرارا الخ بل لانهم لم يغتنموا مغانم ابشاره عليه الصلاة والسلام (مبين) أبين لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص منه لان الانذار اعلام المحذور لا لمجرد التخويف والازعاج بل للحذر منه فيتعلق صفته بكلا وصفيـه (ألا تعبدوا الا الله) أى بأن لا تعبدوا على أن أن مصدرية والباء متعلقة بارسلنا

ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم انى اذا لمن الظالمين) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان هذا هو الجواب عن الشبهة الثانية وهى قولهم لا يتبعك الا الاراذل من الناس وتقرير هذا الجواب من وجوه (الاول) انه عليه الصلاة والسلام قال أنا لا أطلب على تبليغ دعوة الرسالة مالا حتى يتفاوت الحال بسبب كون المستجيب فقيرا أو غنيا وانما أجرى على هذه الطاعة الشاقة على رب العالمين واذا كان الامر كذلك فسواء كانوا فقراء أو أغنياء لم يتفاوت الحال فى ذلك (الثانى) كأنه عليه الصلاة والسلام قال لهم انكم لما نظرتم الى ظواهر الامور وجدتمونى فقيرا وظننتم انى انما اشتغلت بهذه الحرفة لاتوسل بها الى أخذ أموالكم وهذا الظن منكم خطأ فانى لا أسئلكم على تبليغ الرسالة أجرا ان أجرى الا على رب العالمين فلا تحرموا أنفسكم من سعادة الدين بسبب هذا الظن الفاسد (والوجه الثالث) فى تقرير هذا الجواب انهم قالوا ما نراك الا بشرا مثلنا الى قوله وما نرى لكم علينا من فضل فهو عليه السلام بين انه تعالى أعطاه أنواعا كثيرة توجب فضله عليهم ولذلك لم يسع فى طلب الدنيا وانما يسعى فى طلب الدين والاعراض عن الدنيا من أمهات الفضائل باتفاق الكل فلعل المراد تقرير حصول الفضيلة من هذا الوجه فاما قوله وما أنا بطارد الذين أمنوا فهذا كالدليل على ان القوم سألوه طردهم رفعا لانفسهم عن مشاركة أولئك الفقراء روى ابن جريج انهم قالوا ان أحببت يا نوح أن نتبعك فاطردهم فانا لا نرضى بمشاركتهم فقال عليه الصلاة والسلام وما أنا بطارد الذين آمنوا وقوله تعالى حكاية عنهم انهم قالوا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى كالدليل على أنهم طلبوا منه طردهم لانه كالدليل على انهم كانوا يقولون لو اتبعك أشرف القوم لوافقناهم ثم انه تعالى حكى عنـه انه ما طردهم وذكر فى بيان ما يوجب الامتناع من هذا الطرد أمورا (الاول) انهم ملاقوا ربهم وهذا الكلام يحتمل وجوها منها انهم قالوا هم منافقون فيما أظهروا فلا تغتر بهم فأجاب بان هـذا الامر ينكشف عند لقاء ربهم فى الآخرة ومنها انه جعله علة فى الامتناع من الطرد وأراد انهم ملاقوا ما وعدهم ربهم فان طردتهم استخصمونى فى الآخرة ومنها انه نبه بذلك الامر على انا نجتمع فى الآخرة فاعاقب على طردهم فلا اجد من ينصرنى ثم بين أنهم يبنون امرهم على الجهل بالعواقب والاغترار بالظواهر فقال ولكنى اراكم قوما تجهلون ثم قال بعده وياقوم من ينصرنى من الله ان طردتهم افلا تذكرون والمعنى ان العقل والشرع تطابقا على انه لابد من تعظيم المؤمن البر التقى ومن اهانة الفاجر الكافر فلو قلبت القصـة وعكست القضية وقربت الكافر الفاجر على سبيل التعظيم وطردت المؤمن التقى على سبيل الاهانة كنت على ضد أمر الله تعالى وعلى عكس حكمه وكنت فى هذا الحكم على ضد ما امر الله تعالى من ايصال الثواب الى المحقين والعقاب الى المبطلين وحينئذ اصير مستوجبا العقاب العظيم فمن ذا الذى ينصرنى من الله تعالى ومن الذى يخلصنى من عذاب

ولا ناهية اى ارسلناه ملتبسا بنهيهم عن الشرك الا أنه وسط بينهما بيان بعض أوصافه وأحواله عليه الصلاة والسلام وهو كونه نذيرا مبينا ليكون أدخل فى القبول ولم يفعل ذلك فى صدر السورة لئلا يفرق بين الكتاب ومضمونه بما ليس من أوصافه وأحواله أو مفسرة متعلقة به أو بنذيرا أو مفعول لمبين وعلى قراءة الفتح بدل من أنى لكم نذير مبين وتعيين لما يوجب وقوع المحذور وتبيين لوجه الخلاص [illegible] وهو عبادة الله تعالى وقوله ﴿ ٧٨ ﴾ تعالى (انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) تعليل لموجب النهى و[illegible] بالمحذور وتحقيق للانذار والمراد به يوم القيمة أو يوم الطوفان ووصفه بالاليم على الاسناد المجازى للمبالغة كما فى نهاره صائم وهذه المقالة وما فى معناها مما قاله عليه الصلاة والسلام فى أثناء الدعوة على ما عرى اليه فى سائر السور لما لم تصدر عنه عليه الصلاة والسلام مرة واحدة بل كان يكررها عليهم فى تلك المدة المتطاولة على ما نطق به قوله تعالى رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا الايات عطف على فعل الارسال المقارن لها أو القول المقدر بعده جوابهم المتعرض لاحوال المؤمنين الذين اتبعوه عليه الصلاة والسلام بعد اللتيا والتى بالفاء التعقيبية فقيل (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) أى الاشراف منهم من قولهم فلان ملئ بكذا أى مطيق له لانهم ملؤا بكفايات الامور أو لانهم ملؤا القلوب هيبة والمجالس أبهة أو لانهم ملؤا بالاحلام والآراء الصائبة ووصفهم بالكفر لذمهم والتسجيل عليهم بذلك من أول الامر لا لان بعض أشرافهم ليسوا بكفرة (ما نراك الا بشرا مثلنا) مرادهم ما أنت الا بشر ﴿ فقراء ﴾ مثلنا ليس فيك مزية تخصك من دوننا بما تدعيه من النبوة ولو كان كذلك لرأيناه لا أن ذلك محتمل ولكن لا نراه وكذا الحال فى قولهم (وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى) فالفعلان من رؤية العين وقوله تعالى الا بشرا مثلنا حال من المفعول وكذا قوله اتبعك فى موضع الحال منه اما على حاله أو بتقدير قد عند من يشترط ذلك ويجوز أن يكون من رؤية القلب

الله افلا تذكرون فتعلمون ان ذلك لا يصح ثم اكد هذا البيان بوجه ثالث فقال ولا اقول لكم عندى خزائن الله اى كما لا اسألكم فكذلك لا ادعى انى أملك مالا ولا لى غرض فى المال لا أخذا ولا دفعا ولا اعلم الغيب حتى أصل به الى ما أريد لنفسى ولا تباعى ولا أقول انى ملك حتى اتعظم بذلك عليكم بل طريقى الخضوع والتواضع ومن كان هذا شانه وطريقه فانه لا يستنكف عن مخالطة الفقراء والمساكين ولا يطلب مجالسة الامراء والسلاطين وانما شانه طلب الدين وسيرته مخالطة الخاضعين والخاشعين فلما كانت طريقتى توجب مخالطة الفقراء فكيف جعلتم ذلك عيبا على ثم انه أكد هذا البيان بطريق رابع فقال ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم وهذا كالدلالة على انهم كانوا ينسبون اتباعه مع الفقر والذلة الى النفاق فقال انى لا أقول ذلك لانه من باب الغيب والغيب لا يعلمه الا الله فربما كان باطنهم كظاهرهم فيؤتيهم الله ملك الآخرة فأكون كاذبا فيما أخبرت به فانى ان فعلت ذلك كنت من الظالمين لنفسى ومن الظالمين لهم فى وصفهم بانهم لا خير لهم مع ان الله تعالى آتاهم الخير فى الآخرة (المسئلة الثانية) احتج قوم بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الانبياء وقالوا ان الانسان اذا قال أنا لا أدعى كذا وكذا فهذا انما يحسن اذا كان ذلك الشئ أشرف من أحوال ذلك القائل فلما كان قائل هذا القول هو نوح عليه السلام وجب أن يكون درجة الملائكة أعلى وأشرف من درجات الانبياء ثم قالوا وكيف لا يكون الامر كذلك والملائكة داوموا على عبادة الله تعالى طول الدنيا مذ خلقوا الى أن تقوم الساعة وتمام التقرير أن الفضائل الحقيقية الروحانية ليست الا ثلاثة أشياء (اولها) الاستغناء المطلق وجرت العادة فى الدنيا أن من ملك المال الكثير فانه يوصف بكونه غنيا فقوله ولا أقول لكم عندى خزائن الله اشارة الى أنى لا أدعى الاستغناء المطلق (وثانيها) العلم التام واليه الاشارة بقوله ولا اعلم الغيب (وثالثها) القدرة التامة الكاملة وقد تقرر فى الخواطر أن اكمل المخلوقات فى القدرة والقوة هم الملائكة واليه الاشارة بقوله ولا أقول انى ملك والمقصود من ذكر هذه الامور الثلاثة بيان انه ما حصل عندى من هذه المراتب الثلاثة الا ما يليق بالقوة البشرية والطاقة الانسانية فاما الكمال المطلق فانا لا أدعيه واذا كان الامر كذلك فقد ظهر أن قوله ولا أقول انى ملك يدل على انهم اكمل من البشر وايضا يمكن جعل هذا الكلام جوابا عما ذكروه من الشبهة فانهم طعنوا فى أتباعه بالفقر فقال ولا اقول لكم عندى خزائن الله حتى اجعلهم اغنياء وطعنوا فيهم ايضا بانهم منافقون فقال ولا اعلم الغيب حتى اعرف كيفية باطنهم وانما اجرى الاحوال على الظواهر وطعنوا فيهم بانهم قد يأتون بافعال لا كما ينبغى فقال ولا اقول انى ملك حتى اكون مبرأ عن جميع الدواعى الشهوانية والبواعث النفسانية (المسئلة الثالثة) احتج قوم بهذه الآية على صدور الذنب من الانبياء فقالوا ان هذه الآية دلت على ان طرد المؤمنين لطلب مرضاة الكفار من اصول المعاصى ثم ان محمدا صلى الله عليه وسلم طرد

فقراء المؤمنين لطلب مرضاة الكفار حتى عاتبه الله تعالى فى قوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه وذلك يدل على اقدام محمد صلى الله عليه وسلم على الذنب والجواب بحمل الطرد المذكور فى هذه الآية على الطرد المطلق على سبيل التأبيد والطرد المذكور فى واقعة محمد صلى الله عليه وسلم على التقليل فى أوقات معينة لرعاية المصالح (المسألة الرابعة) احتج الجبائى على انه لا تجوز الشفاعة عند الله فى دفع العقاب بقول نوح عليه السلام من ينصرنى من الله ان طردتهم معناه ان كان هذا الطرد محرما فمن ذا الذى ينصرنى من الله أى من الذى يخلصنى من عقابه ولو كانت الشفاعة جائزة لكانت فى حق نوح عليه السلام أيضا جائزة وحينئذ يبطل قوله من ينصرنى من الله واعلم ان هذا الاستدلال يشبه استدلالهم فى هذه المسألة بقوله تعالى واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا الى قوله ولا هم ينصرون والجواب المذكور هناك هو الجواب عن هذا الكلام

* قوله تعالى (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين ولا ينفعكم نصحى ان أردت ان أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه ترجعون) فى الآية مسائل (المسألة الاولى) اعلم ان الكفار لما أوردوا تلك الشبهة وأجاب نوح عليه السلام عنها بالجوابات الموافقة الصحيحة أورد الكفار على نوح كلامين (الاول) أنهم وصفوه بكثرة المجادلة فقالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا وهذا يدل على أنه عليه السلام كان قد أكثر فى الجدال معهم وذلك الجدال ما كان الا فى اثبات التوحيد والنبوة والمعاد وهذا يدل على ان الجدال فى تقرير الدلائل وفى ازالة الشبهات حرفة الانبياء وعلى ان التقليد والجهل والاصرار على الباطل حرفة الكفار (والثانى) انهم استعجلوا العذاب الذى كان يتوعدهم به فقالوا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ثم انه عليه السلام أجاب عنه بجواب صحيح فقال انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين والمعنى أن انزال العذاب ليس الى وانما هو خلق الله تعالى فيفعله ان شاء كما شاء واذا أراد انزال العذاب فان أحدا لا يعجزه أى لا يمنعه منه والمعجز هو الذى يفعل ما عنده لتعذر مراد الغير فيوصف بانه أعجزه فقوله وما أنتم بمعجزين أى لا سبيل لكم الى فعل ما عنده فلا يمتنع على الله تعالى ما يشاء من العذاب ان أراد انزاله بكم وقد قيل معناه وما أنتم بمانعين وقيل وما أنتم بمصونين وقيل وما أنتم بسابقين الى الخلاص وهذه الاقوال متقاربة واعلم ان نوحا عليه السلام لما أجاب عن شبهاتهم ختم الكلام بخاتمة قاطعة فقال ولا ينفعكم نصحى ان أردت ان انصح لكم أى ان كان الله يريد أن يغويكم فانه لا ينفعكم نصحى البتة واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الله تعالى قد يريد الكفر من العبد وأنه اذا أراد منه ذلك فانه يمتنع صدور الايمان منه قالوا ان نوحا عليه السلام قال ولا ينفعكم نصحى ان أردت ان أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم والتقدير لا ينفعكم نصحى ان كان الله يريد أن يغويكم و يضلكم وهذا صريح

وهو الظاهر فهما المفعول الثانى وتعلق الرأى فى الاول بالمثلية لا بالبشرية فقط وانما لم يثبتوا القول بذلك مع جزمهم به واصرارهم عليه اراءة بان ذلك لم يصدر عنهم جزافا بل بعد التأمل فى الامر والتدبر فيه ولذلك اقتصروا على ذكر الظن فيما سيأتى ولتعريضا من أول الامر برأى المتبعين فكان قولهم وما نراك جواب عما يرد عليهم من أنه عليه الصلاة والسلام ليس مثلهم حيث عاين دلائل نبوته واغتنم اتباعه من له عين تبصر وقلب يدرك فزعموا أن هؤلاء أراذلنا أى اخساؤنا وأدانينا جمع أرذل فانه صار بالغلبة جاريا مجرى الاسم كالاكبر والاكابر أو جمع أرذل كآكالب وأكلب وكلب يعنون أنه لا عبرة باتباعهم لك اذ ليس لهم رزانة عقل ولا اصالة راى وقد كان ذلك منهم فى بادى الرأى أى ظاهره من غير تعمق من البدو أو فى أوله من البدء والياء مبدلة من الهمزة لانكسار ما قبلها وقد قرأه ابو عمرو بها وانتصابه على الظرفية على حذف المضاف أى وقت حدوث بادى الرأى والعامل فيه اتبعك وانما استرذلوهم مع كونهم أولى الالباب الراجحة لفقرهم فانهم لما لم يعلموا الا ظاهر الحياة الدنيا كان الاشرف عندهم الاكثر منها حظا والارذل من حرمها ولم يفقهوا أن ذلك لا يزن عند الله جناح بعوضه وأن النعيم انما هو نعيم الاخرة والاشرف من فاز به والارذل من حرمه نعوذ بالله تعالى من ذلك (وما نرى لكم) اى لك ولمتبعيك فغلب المخاطب على الغائبين (علينا من فضل) يعنون ان اتباعهم لك لا يدل على نبوتك ولا يجديهم فضيلة تستتبع اتباعنا لكم واقتصارهم ههنا على ذكر عدم رؤية الفضل بعد تصريحهم برذالتهم فيما سبق باعتبار حالهم السابق واللاحق ومرادهم انهم كانوا أراذل قبل اتباعهم لك ولا نرى فيهم وفيك بعد الاتباع فضيلة علينا (بل نظنكم كاذبين) جميعا لكون كلامكم واحدا ودعواكم واحدة او اياك فى دعوى النبوة واياهم فى تصديقك واقتصارهم على الظن احترازا منهم عن نسبتهم الى المجازفة ومجاراة معه عليه الصلاة والسلام بطريق الاراءة على نهج الانصاف

(قال ياقوم أرأيتم) اى اخبرونى وفيه ايماء الى ركاكة رأيهم المذكور (ان كنت على بينة) برهان ظاهر (من ربى) وشاهد يشهد بصحة دعواى (وآتانى رحمة من عنده) هى النبوة و يجوز أن تكون هى البينة نفسها جئ بها ايذانا بأنها مع كونها بينة من الله تعالى رحمة ونعمة عظيمة من عنده فوجه افراد الضمير فى قوله تعالى (فعميت عليكم) حينئذ ظاهر وان اريد بها النبوة و بالبينة البرهان الدال على صحتها فالافراد لارادة كل واحدة منهما اولكون الضمير للبينة والاكتفاء بذلك لاستلزام خفائها خفاء النبوة اولتقدير فعل آخر بعد البينة ومعنى عميت اخفيت وقرئ عميت ومعناه خفيت وحقيقته ان الحجة كما تجعل مبصرة و بصيرة تجعل عمياء لان الاعمى لايهتدى ولايهدى غيره وفى قراءة ابى فعماها عليكم على الاسناد الى الله عزوجل (انلزمكموها) اى انكرهكم على الاهتداء بها وهو جواب ارأيتم وساد مسد جواب الشرط وقرأ أبو عمرو باخفاء حركة الميم وحيث اجتمع ضميران منصوبان وقد قدم اعرفهما جاز فى الثانى الوصل والفصل فوصل كما فى قوله تعالى فسيكفيكهم الله (وانتم لها كارهون) لاتختارونها ولاتتأملون فيها ومحصول الجواب أخبرونى ان كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة دعواى الا انها خافية عليكم غير مسلمة عندكم ايمكننا ان نكرهكم على قبولها وانتم معرضون عنها غير متدبرين فيها اى لايكون ذلك وظاهره مشعر بصدوره عنه عليه الصلاة والسلام بطريق اظهار اليأس عن الزامهم والقعود عن محاجتهم كقوله تعالى ولاينفعكم نصحى الخ لكنه محمول على أن مراده عليه الصلاة والسلام ردهم عن الاعراض عنها وحثهم على التدبر فيها بصرف الانكار الى الالزام حال كراهتهم لها لا الى الالزام مطلقا هذا و يجوز أن يكون المراد بالبينة دليل العقل الذى هو ملاك الفضل و بحسبه يمتاز أفراد البشر بعضها من بعض و به يناط الكرامة عند الله عزوجل والاجتباء للرسالة و بالكون عليها التمسك به والثبات عليه و بخفائها على الكفرة على أن الضمير للبينة عدم ادراكهم

في عكس هذا أما المعتزلة فانهم قالوا ظاهر الآية يدل على ان الله تعالى ان أراد اغواء القوم لم ينتفعوا بنصح الرسول وهذا مسلم فانا نعرف أن الله تعالى لو أراد اغواء عبد فانه لاينفعه نصح الناصحين لكن لم قلتم انه تعالى أراد هذا الاغواء فان النزاع ما وقع الا فيه بل نقول ان نوحا عليه السلام انما ذكر هذا الكلام ليدل على انه تعالى ما أغواهم بل فوض الاختيار اليهم و بيانه من وجهين (الاول) انه عليه السلام بين انه تعالى لو أراد اغواءهم لما بقى فى النصح فائدة فلو لم يكن فيه فائدة لما أمره بان ينصح الكفار وأجمع المسلمون على انه عليه السلام مأمور بدعوة الكفار ونصيحتهم فعلمنا ان هذا النصح غير خال عن الفائدة واذا لم يكن خاليا عن الفائدة وجب القطع بأنه تعالى ما أغواهم فهذا صار حجة لنا من هذا الوجه (الثانى) انه لو ثبت الحكم عليهم بأن الله تعالى اغواهم لصار هذا عذرا لهم فى عدم اتيانهم بالايمان ولصار نوح منقطعا فى مناظرتهم لانهم يقولون له انك سلمت ان الله اذا أغوانا فانه لايبقى فى نصحك ولا فى جدنا واجتهادنا فائدة فاذا ادعيت بأن الله تعالى قد أغوانا فقد جعلتنا معذورين فلم يلزمنا قبول هذه الدعوة فثبت ان الامر لو كان كما قاله الخصم لصار هذا حجة للكفار على نوح عليه السلام ومعلوم أن نوحا عليه السلام لايجوز أن يذكر كلاما يصير بسببه مفحما ملزما عاجزا عن تقرير حجة الله تعالى فثبت بما ذكرنا ان هذه الآية لاتدل على قول المجبرة ثم انهم ذكروا وجوها من التأويلات (الاول) أولئك الكفار كانوا مجبرة وكانوا يقولون ان كفرهم بارادة الله تعالى فعند هذا قال نوح عليه السلام ان نصحه لاينفعهم ان كان الامر كما قالوا ومثاله ان يعاقب الرجل ولده على ذنبه فيقول الولد لا أقدر على غير ما أنا عليه فيقول الوالد فلن ينفعك اذا نصحى ولا زجرى وليس المراد انه يصدقه على ما ذكره بل على وجه الانكار لذلك (الثانى) قال الحسن معنى يغويكم أى يعذبكم والمعنى لاينفعكم نصحى اليوم اذا نزل بكم العذاب فآمنتم فى ذلك الوقت لان الايمان عند نزول العذاب لايقبل وانما ينفعكم نصحى اذا آمنتم قبل مشاهدة العذاب (الثالث) قال الجبائى الغواية هى الخيبة من الطلب بدليل قوله تعالى فسوف يلقون غيا أى خيبة من خير الآخرة قال الشاعر * ومن يغو لايعدم على الغى لائما * (الرابع) انه اذا أصر على الكفر وتمادى فيه منعه الله تعالى الالطاف وفوضه الى نفسه فهذا شبيه ما اذا أراد اغواءه فلهذا السبب حسن أن يقال ان الله تعالى أغواه هذا جملة كلمات المعتزلة فى هذا الباب والجواب عن امثال هذه الكلمات قد ذكرناه مرارا وأطوارا فلا فائدة فى الاعادة (المسئلة الثانية) قوله ولاينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم جزاء معلق على شرط بعده شرط آخر وهذا يقتضى أن يكون الشرط المؤخر فى اللفظ مقدما فى الوجود وذلك لان الرجل اذا قال لامرأته أنت طالق ان دخلت الدار ان كلمت زيدا كان المفهوم كون ذلك الطلاق من لوازم ذلك الدخول فاذا ذكر بعده شرطا آخر مثل أن يقول ان أكلت الخبز كان المعنى أن تعلق ذلك الجزاء بذلك الشرط الاول مشروط بحصول هذا الشرط الثانى والشرط

مقدم على المشروط فى الوجود فعلى هذا ان حصل الشرط الثانى تعلق ذلك الجزاء بذلك الشرط الاول اما ان لم يوجد الشرط المذكور ثانيا لم يتعلق ذلك الجزاء بذلك الشرط الاول هذا هو التحقيق فى هذا التركيب فلهذا المعنى قال الفقهاء ان الشرط المؤخر فى اللفظ مقدم فى المعنى والمقدم فى اللفظ مؤخر فى المعنى واعلم أن نوحا عليه السلام لما قرر هذه المعانى قال هو ربكم واليه ترجعون وهذا نهاية الوعيد أى هو الهكم الذى خلقكم ورباكم ويملك التصرف فى ذواتكم وفى صفاتكم قبل الموت وعند الموت وبعد الموت مرجعكم اليه وهذا يفيد نهاية التحذير ❁ قوله تعالى (أم يقولون افتراه قل ان افتريته فعلى اجرامى وأنا برىء مما تجرمون) اعلم أن معنى افتراه اختلقه وافتعله وجاء به من عند نفسه والهاء ترجع الى الوحى الذى بلغه اليهم وقوله فعلى اجرامى الاجرام اقتراح المحظورات واكتسابها وهذا من باب حذف المضاف لان المعنى فعلى عقاب اجرامى وفى الآية محذوف آخر وهو ان المعنى ان كنت افتريته فعلى عقاب جرمى وان كنت صادقا وكذبتمونى فعليكم عقاب ذلك التكذيب الا أنه حذف هذه البقية لدلالة الكلام عليه كقوله أمن هو قانت آناء الليل ولم يذكر البقية وقوله وأنا برىء مما تجرمون أى [illegible] عقاب جرمكم وأكثر المفسرين على أن هذا من بقية كلام نوح عليه السلام وهذه [illegible] ت فى قصة محمد صلى الله عليه وسلم فى أثناء حكاية نوح وقولهم بعيد جدا وأيضا قوله قل ان افتريته فعلى اجرامى لا يدل على أنه كان شاكا الا أنه قول يقال على وجه الانكار عند اليأس من القبول ❁ قوله تعالى (وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) فيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن عباس رضى الله عنهما لما جاءه هذا من عند الله تعالى دعا على قومه فقال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وقوله فلا تبتئس أى لا تحزن قال أبو زيد ابتأس الرجل اذا بلغه شئ يكرهه وأنشد أبو عبيده

ما يقسم الله أقبل غير مبتئس ❁ به وأقعد كريما ناعم البال

أى غير حزين ولا كاره (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم فى القضاء والقدر وقالوا انه تعالى أخبر عن قومه انهم لا يؤمنون بعد ذلك فلو حصل ايمانهم لكان اما مع بقاء هذا الخبر صدقا ومع بقاء هذا العلم علما أو مع انقلاب هذا الخبر كذبا ومع انقلاب هذا العلم جهلا والاول ظاهر البطلان لان وجود الايمان مع أن يكون الاخبار عن عدم الايمان صدقا ومع كون العلم بعدم الايمان حاصلا حال وجود الايمان جمع بين النقيضين والثانى ايضا باطل لان انقلاب خبر الله كذبا وعلم الله جهلا محال ولما كان صدور الايمان منهم لابد وأن يكون على هذين القسمين وثبت ان كل واحد منهما محال كان صدور الايمان منهم محالا مع أنهم كانوا مأمورين به وأيضا القوم كانوا مأمورين بالايمان ومن الايمان تصديق الله تعالى فى كل ما أخبر عنه ومنه قوله انه

لكونه عليه الصلاة والسلام عليها وبالرحمة النبوة التى أنكروا اختصاصه عليه السلام بها من بين ظهرانيهم والمعنى انكم زعمتم أن عهد النبوة لا يناله الا من له فضيلة على سائر الناس مستتبعة لاختصاصه به دونهم أخبرونى ان امتزت عنكم بزيادة مزية وحيازة فضيلة من ربى وآتانى بحسبها نبوة من عنده فخفيت عليكم تلك البينة ولم تصيبوها ولم تنالوها ولم تعلموا حيازتى لها وكونى عليها الى الآن حتى زعمتم أنى مثلكم وهى متحققة فى نفسها انلزمكم قبول نبوتى التابعة لها والحال أنكم كارهون لذلك فيكون الاستفهام للحمل على الاقرار وهو الانسب بمقام المحاجة وحينئذ يكون كلامه عليه الصلاة والسلام جوابا عن شبههم التى ادرجوها فى خلال مقالهم من كونه عليه السلام بشرا قصارى أمره أن يكون مثلهم من غير فضل له عليهم وقطعا لشأفة آرائهم الركيكة (وياقوم لا أسألكم عليه) أى على ما قلته فى أثناء دعوتكم (مالا) تؤدونه الى بعد ايمانكم واتباعكم لى فيكون ذلك أجرا لى فى مقابلة اهتدائكم (ان اجرى الا على الله) الذى يثيبنى فى الآخرة وفى التعبير عنه حين نسب اليهم بالمال ما لا يخفى من المزية (وما أنا بطارد الذين آمنوا) جواب عما لوحوا به بقولهم وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا من أنه لو اتبعه الاشراف لوافقوهم وأن اتباع الفقرا مانع لهم عن ذلك كما صرحوا به فى قولهم أنؤمن لك واتبعك الارذلون فكان ذلك التماسا منهم لطردهم وتعليقا لايمانهم به عليه الصلاة والسلام خا بذلك أنفة من الانتظام معهم فى سلك واحد (انهم ملاقو ربهم) تعليل لامتناعه عليه السلام عن طردهم أى انهم فائزون فى الآخرة بلقاء الله عز وجل كانه قيل لا أطردهم ولا أبعدهم عن مجلسى لانهم مقربون فى حضرة القدس والتعرض لوصف الربوبية لتربية وجوب رعايتهم وتحتم الامتناع عن طردهم أو مصدقون فى الدنيا بلقاء ربهم موقنون به عالمون انهم ملاقوه لا محالة فكيف اطردهم وحمله على معنى أنهم يلاقونه فيجازيهم على ما فى قلوبهم من ايمان صحيح

ثابت كما ظهر لي أو على خلاف ذلك مما تعرفونهم به من بناء ايمانهم على بادي الرأي من غير نظر وتفكر وما علي أن أشق عن قلوبهم وأتعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم ان كان الامر كما تزعمون يأباه الجزم بترتب غضب الله عز وجل على طردهم كما سيأتي وايضا فهم انما قالوا ان اتباعهم لك انما هو بحسب بادي الرأي بلا تأمل وتفكر وهذا لا يكاد يصلح مدارا للطرد في الدنيا ولا للمؤاخذة في الآخرة غايته أن لا يكونوا في مرتبة الموقنين وادعاء أن بناء الايمان على ظاهر الرأي [illegible] الى الرجوع عنه عند التأمل فكأنهم قالوا انهم اتبعوك بلا تأمل فلا يثبتون على دينك بل يرتدون عنه تعسف لا يخفى (ولكني أراكم قوما تجهلون) بكل ما ينبغي أن يعلم ويدخل فيه جهلهم بلقاء الله عز وجل وبمنزلتهم عنده وباستيجاب طردهم لغضب الله كما سيأتي وبركاكة رأيهم في التماس ذلك وتوقيف ايمانهم عليه أنفة عن الانتظام معهم في سلك واحد وزعما منهم أن الرذالة بالفقر والشرف بالغنى وايثار صيغة الفعل للدلالة على التجدد والاستمرار أو تتسافهون على المؤمنين بنسبتهم الى الخساسة (ويا قوم من ينصرني من الله) بدفع حلول سخطه عني (ان طردتهم) فان ذلك أمر لا مرد له لكون الطرد ظلما موجبا لحلول السخط قطعا وانما لم يصرح به اشعارا بأنه غني عن البيان لا سيما غب ما قدم ما يلوح به من أحوالهم فكأنه قيل من يدفع عني غضب الله تعالى ان طردتهم وهم بتلك المثابة من الكرامة والزلفى كما ينبئ عنه قوله تعالى (أفلا تذكرون) أي أتستمرون على ما أنتم عليه من الجهل المذكور فلا تتذكرون ما ذكر من حالهم حتى ﴿ وهو ﴾ تعرفوا أن ما تأتونه بمعزل عن الصواب ولكون هذه العلة مستقلة بوجه مخصوص ظاهر الدلالة على وجوب الامتناع عن الطرد أفردت عن التعليل السابق وصدرت بيا قوم (ولا أقول لكم) حين أدعي النبوة (عندي خزائن الله) اي رزقه وأمواله حتى تستدلوا بعدمها على كذبي بقولكم وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين فان النبوة أعز من أن تنال

لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فيلزم أن يقال انهم كانوا مأمورين بأن يؤمنوا بأنهم لا يؤمنون البتة وذلك تكليف بالجمع بين النقيضين وتقرير هذا الكلام قد مر في هذا الكتاب مرارا وأطوارا (المسئلة الثالثة) اختلفت المعتزلة في أنه هل يجوز أن ينزل الله تعالى عذاب الاستئصال على قوم كان في المعلوم أن فيهم من يؤمن أو كان في أولادهم من يؤمن فقال قوم انه لا يجوز واحتجوا بما حكى الله تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا وهذا يدل على أنه انما حسن منه تعالى انزال عذاب الاستئصال عليهم لاجل أنه تعالى علم أنه ليس فيهم من يؤمن ولا في أولادهم أحد يؤمن. قال القاضي وقال كثير من علمائنا ان ذلك من الله تعالى جائز وان كان منهم من يؤمن وأما قول نوح عليه السلام رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا فذلك يدل على أنه انما سأل ذلك من حيث انه كان في المعلوم أنهم يضلون عباده ولا يلدون الا فاجرا كفارا وذلك يدل على أن ذلك الحكم كان معللا بمجموع هاتين العلتين وأيضا فلا دليل فيه على انهما لو لم يحصلا لما جاز انزال الاهلاك والاقرب أن يقال ان نوحا عليه السلام لشدة محبته لايمانهم كان سأل ربه أن يبقيهم فأعلمه أنه لا يؤمن منهم أحد ليزول عن قلبه ما كان قد حصل فيه من تلك المحبة ولذلك قال تعالى من بعد فلا تبتئس بما كانوا يفعلون أي لا تحزن من ذلك ولا تغتم ولا تظن أن في ذلك مذلة فان الدين عزيز وان قل عدد من يتمسك به والباطل ذليل وان كثر عدد من يقول به * قوله تعالى (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون) واعلم أن قوله تعالى انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن يقتضي تعريف نوح عليه السلام أنه معذبهم ومهلكهم فكان يحتمل أن يعذبهم بوجوه التعذيب فعرفه الله تعالى أنه يعذبهم بهذا الجنس الذي هو الغرق ولما كان السبيل الذي به يحصل النجاة من الغرق تكوين السفينة لا جرم أمره الله تعالى باصلاح السفينة واعدادها فأوحى الله تعالى اليه أن يصنعها على مثال جؤجؤ الطائر فان قيل قوله تعالى واصنع الفلك أمر ايجاب أو أمر اباحة قلنا الاظهر انه أمر ايجاب لانه لا سبيل له الى صون روح نفسه وأرواح غيره عن الهلاك الا بهذا الطريق وصون النفس عن الهلاك واجب وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب ويحتمل أن لا يكون ذلك الامر أمر ايجاب بل كان أمر اباحة وهو بمنزلة أن يتخذ الانسان لنفسه دارا ليسكنها ويقيم بها اما قوله بأعيننا فهذا لا يمكن اجراؤه على ظاهره من وجوه (أحدها) انه يقتضي أن يكون لله تعالى أعين كثيرة وهذا يناقض ظاهر قوله تعالى ولتصنع على عيني (وثانيها) أنه يقتضي أن يصنع نوح عليه السلام ذلك الفلك بتلك الاعين كما يقال قطعت بالسكين وكتبت بالقلم ومعلوم ان ذلك باطل (وثالثها) انه ثبت بالدلائل القطعية العقلية كونه تعالى منزها عن الاعضاء والجوارح والاجزاء والابعاض فوجب المصير فيه الى التأويل

باسباب دنيوية تودعواها بمعزل عن انطاء المال والجاه (ولاأعلم الغيب) أي لاادعي في قولي اني لكم نذير مبين اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم علم الغيب حتى تسارعوا الى الانكار والاستبعاد (ولاأقول اني ملك) حتى تقولوا ما نراك الا بشرا مثلنا فان البشرية ليست من موانع النبوة بل من مباديها يعني انكم اتخذتم فقدان هذه الامور الثلاثة ذريعة الى تكذيبي والحال أني لاأدعي شيأ من ذلك ولا الذي أدعيه يتعلق بشيء منها وانما يتعلق بالفضائل النفسانية التي بها تتفاوت مقادير البشر (ولاأقول) مساعدة لكم كما تقولون (للذين تزدري أعينكم) أي تقتحمهم وتحتقرهم من زراه اذا عابه واسناد الازدراء الى أعينهم بالنظر الى قولهم وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا واما للاشعار بأن ذلك لقصور نظرهم ولو تدبروا في شأنهم ما فعلوا ذلك أي لا اقول في شأن الذين استرذلتموهم لفقرهم من المؤمنين (لن يؤتيهم الله خيرا) في الدنيا أو في الآخرة فعسى الله أن يؤتيهم خيري الدارين ان قلت هذا القول ليس مما تستنكره الكفرة ولا مما يتوهمون صدوره عنه عليه السلام أصالة أو استتباعا كادعاء الملكية وعلم الغيب وحيازة الخزائن مما نفاه عليه الصلاة والسلام عن نفسه بطريق التبرؤ والتنزه عنه فمن أي وجه عطف نفيه على نفيها قلت من جهة أن كلا النفيين رد لقياسهم الباطل الذي تمسكوا به فيما سلف فانهم زعموا أن النبوة تستتبع الامور المذكورة وأنها لاتتسنى ممن ليس على تلك الصفات فان العثور على مكانها واغتنام مغانمها ليس من دأب الاراذل فأجاب عليه الصلاة والسلام بنفي ذلك جميعا فكأنه قال لاأقول وجود تلك الاشياء من مواجب النبوة ولا عدم المال والجاه من موانع الخير (الله أعلم بما في أنفسهم) من الايمان وانما اقتصر على نفي القول المذكور مع أنه عليه الصلاة والسلام جازم بأن الله سبحانه سيؤتيهم خيرا عظيما في الدارين وأنهم على يقين راسخ في الايمان جريا على سنن الانصاف مع القوم واكتفاء بمخالفة كلامهم

وهو من وجوه (الاول) ان معنى بأعيننا أي بعين الملك الذي كان يعرفه كيف يتخذ السفينة يقال فلان عين على فلان نصب عليه ليكون متفحصا عن أحواله ولا تحول عنه عينه (الثاني) أن من كان عظيم العناية بالشيء فانه يضع عينه عليه فلما كان وضع العين على الشيء سببا لمبالغة الاحتياط والعناية جعل العين كناية عن الاحتياط فلهذا قال المفسرون معناه بحفظنا اياك حفظ من يراك ويملك دفع السوء عنك وحاصل الكلام ان اقدامه على عمل السفينة مشروط بأمرين (أحدهما) ان لايمنعه أعداؤه عن ذلك العمل (والثاني) أن يكون عالما بأنه كيف ينبغي تأليف السفينة وتركيبها ودفع الشر عنه وقوله ووحينا اشارة الى أنه تعالى يوحي اليه أنه كيف ينبغي عمل السفينة حتى يحصل منه المطلوب وأما قوله ولاتخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون ففيه وجوه (الاول) يعني لاتطلب مني تأخير العذاب عنهم فاني قد حكمت عليهم بهذا الحكم فلما علم نوح عليه السلام ذلك دعا عليهم بعد ذلك وقال رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا (الثاني) ولاتخاطبني في تعجيل ذلك العقاب على الذين ظلموا فاني لما قضيت انزال ذلك العذاب في وقت معين كان تعجيله ممتنعا (الثالث) المراد بالذين ظلموا امرأته وابنه كنعان *قوله تعالى (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) أما قوله تعالى ويصنع الفلك ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) في قوله ويصنع الفلك قولان (الاول) انه حكاية حال ماضية أي في ذلك الوقت كان يصدق عليه أنه يصنع الفلك (الثاني) التقدير وأقبل يصنع الفلك فاقتصر على قوله ويصنع الفلك (المسئلة الثانية) ذكروا في صفة السفينة أقوالا كثيرة (فاحدها) أن نوحا عليه السلام اتخذ السفينة في سنتين وقيل في أربع سنين وكان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعا وطولها في السماء ثلاثون ذراعا وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاث بطون فحمل في البطن الاسفل الوحوش والسباع والهوام وفي البطن الاوسط الدواب والانعام وفي البطن الاعلى جلس هو ومن كان معه مع ما احتاجوا اليه من الزاد وحمل معه جسد آدم عليه السلام (وثانيها) قال الحسن كان طولها ألفا ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع واعلم ان أمثال هذه المباحث لاتعجبني لانها أمور لاحاجة الى معرفتها البتة ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلا وكان الخوض فيها من باب الفضول لاسيما مع القطع بأنه ليس ههنا ما يدل على الجانب الصحيح والذي نعلمه أنه كان في السعة بحيث يتسع للمؤمنين من قومه ولما يحتاجون اليه ولحصول زوجين من كل حيوان لان هذا القدر مذكور في القرآن فأما غير ذلك القدر فغير مذكور أما قوله تعالى وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ففي تفسير الملا وجهان قيل جماعة وقيل طبقة من أشرافهم وكبرائهم واختلفوا فيما لاجله كانوا يسخرون وفيه وجوه (أحدها) انهم كانوا يقولون له يانوح كنت تدعي

رسالة الله تعالى فصرت بعد ذلك نجارا (وثانيها) انهم كانوا يقولون له لو كنت صادقا فى دعواك لكان الهك يغنيك عن هذا العمل الشاق (وثالثها) انهم ما رأوا السفينة قبل ذلك وما عرفوا كيفية الانتفاع بها وكانوا يتعجبون منه ويسخرون (ورابعها) ان تلك السفينة كانت كبيرة وهو كان يصنعها فى موضع بعيد من الماء جدا وكانوا يقولون ليس ههنا ماء ولا يمكنك نقلها الى الانهار العظيمة والى البحار فكانوا يعدون ذلك من باب السفه والجنون (وخامسها) انه لما طالت مدته مع القوم وكان ينذرهم بالغرق وما شاهدوا من ذلك المعنى خبرا ولا أثرا غلب على ظنونهم كونه كاذبا فى ذلك المقال فلما اشتغل بعمل السفينة لاجرم سخروا منه . كل هذه الوجوه محتملة ثم انه تعالى حكى عنه انه كان يقول ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون وفيه وجوه (الاول) التقدير ان تسخروا منا فى هذه الساعة فانا نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم اذا وقع عليكم الغرق فى الدنيا والخزى فى الآخرة (الثانى) ان حكمتم علينا بالجهل فيما نصنع فانا نحكم عليكم بالجهل فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله تعالى وعذابه فأنتم أولى بالسخرية منا (الثالث) أن تستجهلونا فانا نستجهلكم واستجهالكم أقبح وأشد لانكم لا تستجهلون الا لاجل الجهل بحقيقة الامر والاغترار بظاهر الحال كما هو عادة الاطفال والجهال فان قيل السخرية من آثار المعاصى فكيف يليق ذلك بالانبياء عليهم الصلاة والسلام قلنا انه تعالى سمى المقابلة سخرية كما فى قوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها أما قوله تعالى فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه أى فسوف تعلمون من هو أحق بالسخرية ومن هو أحمد عاقبة وفى قوله من يأتيه وجهان (أحدهما) أن يكون استفهاما بمعنى أى كأنه قيل فسوف تعلمون أينا يأتيه عذاب وعلى هذا الوجه فمحل من رفع بالابتداء (والثانى) أن يكون بمعنى الذى ويكون فى محل النصب وقوله تعالى ويحل عليه عذاب مقيم أى يجب عليه وينزل به * قوله تعالى (حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف حتى هى التى يبتدأ بعدها الكلام أدخلت على الجملة من الشرط والجزاء ووقعت غاية لقوله ويصنع الفلك أى فكان يصنعها الى أن جاء وقت الموعد (المسئلة الثانية) الامر فى قوله تعالى حتى اذا جاء أمرنا يحتمل وجهين (الاول) انه تعالى بين انه لا يحدث شئ الا بأمر الله تعالى كما قال انما أمرنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون فكان المراد هذا (والثانى) أن يكون المراد من الامر ههنا هو العذاب الموعد به (المسئلة الثالثة) فى التنور قولان (أحدهما) أنه التنور الذى يخبز فيه (والثانى) أنه غيره أما الاول وهو انه التنور الذى يخبز فيه فهو قول جماعة عظيمة من المفسرين كابن عباس والحسن ومجاهد وهؤلاء اختلفوا فمنهم من قال انه تنور لنوح عليه السلام وقيل كان لآدم قال الحسن كان

وارشادهم الى مسلك الهداية بأن اللائق بكل أحد أن لا يبت القول الا فيما يعلمه يقينا ويبنى أموره على الشواهد الظاهرة ولا يجازف فيما ليس فيه على بينة ظاهرة (انى اذا) أى اذا قلت ذلك (لمن الظالمين) لهم بحط مرتبتهم ونقص حقوقهم أو من الظالمين لانفسهم بذلك فان وباله راجع الى أنفسهم وفيه تعريض بأنهم ظالمون فى ازدرائهم واسترذالهم وقيل اذا قلت شيئاً مما ذكر من ادعاء الملكية وعلم الغيب وحيازة الخزائن وهو بعيد لان تبعة تلك الاقوال مغنية عن التعليل بلزوم الانتظام فى زمرة الظالمين (قالوا يا نوح قد جادلتنا) خاصمتنا (فأكثرت جدالنا) أى أطلته أو أتيته بأنواعه فان اكثار الجدال يتحقق بعد وقوع أصله فلذلك عطف عليه بالفاء أو أردت ذلك فأكثرته كما فى قوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ولما حجهم عليه الصلاة والسلام وأبرز لهم بينات واضحة المدلول وحججا تتلقاها العقول بالقبول وألقمهم الحجر برد شبههم الباطلة ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وقالوا (فأتنا بما تعدنا) من العذاب المعجل أو العذاب الذى أشير اليه فى قوله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم على تقدير أن لا يكون المراد باليوم يوم القيامة (ان كنت من الصادقين) فيما تقول (قال انما يأتيكم به الله ان شاء) يعنى ان ذلك ليس موكولا الى ولا هو مما يدخل تحت قدرتى وانما يتولاه الله الذى كفرتم به وعصيتموه يأتيكم به عاجلا أو آجلا ان تعلق به مشيئته التابعة للحكمة وفيه ما لا يخفى من تهويل الموعود فكأنه قيل الاتيان به أمر خارج عن دائرة القوى البشرية وانما يفعله الله عز وجل (وما أنتم بمعجزين) بالهرب أو بالمدافعة كما تدافعوننى فى الكلام (ولا ينفعكم نصحى) النصح كلمة جامعة لكل ما يدور عليه الخير من قول أو فعل وحقيقته امحاض ارادة الخير والدلالة عليه ونقيضه الغش وقيل هو اعلام موقع الغى ليتقى وموضع الرشد ليقتفى (ان أردت أن أنصح لكم) شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق عليه والتقدير ان أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحى وهذه الجملة

تنورا من حجارة وكان لحواء حتى صار لنوح عليه السلام واختلفوا فى موضعه فقال الشعبى انه كان بناحية الكوفة وعن على رضى الله عنه أنه فى مسجد الكوفة قال وقد صلى فيه سبعون نبيا وقيل بالشام بموضع يقال له عين وردان وهو قول مقاتل وقيل فار التنور بالهند وقيل ان امرأته كانت تخبز فى ذلك التنور فأخبرته بخروج الماء من ذلك التنور فاشتغل فى الحال بوضع تلك الاشياء فى السفينة (القول الثانى) ليس المراد من التنور تنور الخبز وعلى هذا التقدير ففيه أقوال (الاول) أنه انفجر الماء من وجه الارض كما قال ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر والعرب تسمى وجه الارض تنورا (الثانى) ان التنور أشرف موضع فى الارض وأعلى مكان فيها وقد أخرج اليه الماء من ذلك الموضع ليكون ذلك معجزة له وأيضا المعنى انه لما نبع الماء من أعالى الارض ومن الامكنة المرتفعة فشبهت لارتفاعها بالتنانير (الثالث) فار التنور أى طلع الصبح وهو منقول عن على رضى الله عنه (الرابع) فار التنور يحتمل أن يكون معناه اشتد الامر كما يقال حمى الوطيس ومعنى الآية اذا رأيت الامر يشتد والماء يكثر فانج بنفسك ومن معك الى السفينة فان قيل فما الاصح من هذه الاقوال قلنا الاصل حمل الكلام على حقيقته ولفظ التنور حقيقة فى الموضع الذى يخبز فيه فوجب حمل اللفظ عليه ولا امتناع فى العقل فى أن يقال ان الماء نبع أولا من موضع معين وكان ذلك الموضع تنورا فان قيل ذكر التنور بالالف واللام وهذا انما يكون معهود سابق معين معلوم عند السامع وليس فى الارض تنور هذا شانه فوجب أن يحمل ذلك على ان المراد اذا رأيت الماء يشتد نبوعه والامر يقوى فانج بنفسك وبمن معك قلنا لا يبعد أن يقال ان ذلك التنور كان معلوما لنوح عليه السلام بان كان تنور آدم أو حواء أو كان تنورا عينه الله تعالى لنوح عليه السلام وعرفه انك اذا رأيت الماء يفور فاعلم أن الامر قد وقع وعلى هذا التقدير فلا حاجة الى صرف الكلام عن ظاهره (المسئلة الرابعة) معنى فار نبع على قوة وشدة تشبيها بغليان القدر عند قوة النار ولا شبهة فى أن نفس التنور لا يفور فالمراد فار الماء من التنور والذى روى أن فور التنور كان علامة لهلاك القوم لا يمتنع لان هذه واقعة عظيمة وقد وعد الله تعالى المؤمنين النجاة فلا بد وأن يجعل لهم علامة بها يعرفون الوقت المعين فلا يبعد جعل هذه الحالة علامة لحدوث هذه الواقعة (المسئلة الخامسة) قال الليث التنور لفظة عمت بكل لسان وصاحبه تنار قال الازهرى وهذا يدل على ان الاسم قد يكون أعجميا فتعربه العرب فيصير عربيا والدليل على ذلك ان الاصل تنار ولا يعرف فى كلام العرب تنور قبل هذا ونظيره ما دخل فى كلام العرب من كلام العجم الديباج والدينار والسندس والاستبرق فان العرب لما تكلموا بهذه الالفاظ صارت عربية واعلم أنه لما فار التنور فعند ذلك أمره الله تعالى بأن يحمل فى السفينة ثلاثة أنواع من الاشياء (فالاول) قوله قلنا احمل

بدليل على ما حذف من جواب قوله تعالى (ان كان الله يريد أن يغويكم) والتقدير ان كان الله يريد ان يغويكم فان اردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحى هذا على ما ذهب اليه البصريون من عدم تقديم الجزاء على الشرط وأما على ما ذهب اليه الكوفيون من جوازه فقوله عز وعلا ولا ينفعكم نصحى جزاء للشرط الاول والجملة جزاء للشرط الثانى وعلى التقديرين فالجزاء متعلق بالشرط الاول وتعلقه به معلق بالشرط الثانى وهذا الكلام متعلق بقولهم قد جادلتنا فأكثرت جدالنا صدر عنه عليه الصلاة والسلام اظهارا للعجز عن الزامهم بالحجج والبينات لتماديهم فى العناد وايذانا بأن ما سبق منه ليس بطريق الجدال والخصام بل بطريق النصيحة لهم والشفقة عليهم وبأنه لم يأل جهدا فى ارشادهم الى الحق وهدايتهم الى سبيله المستبين وامحاض النصح لهم ولكن لا ينفعهم ذلك عند ارادة الله تعالى لاغوائهم وتقييد عدم نفع النصح بارادته مع أنه محقق لا محالة للايذان بأن ذلك النصح منه مقارن للارادة والاهتمام به ولتحقيق المقابلة بين ذلك وبين ما وقع بازائه من ارادته تعالى لاغوائهم وانما اقتصر فى ذلك على مجرد ارادة الاغواء دون نفسه حيث لم يقل ان كان الله يغويكم مبالغة فى بيان غلبة جنابه عز وعلا حيث دل ذلك على أن نصحه المقارن للاهتمام به لا يجديهم عند مجرد ارادة الله سبحانه لاغوائهم فكيف عند تحقيق ذلك وخلقه فيهم وزيادة كان للاشعار بتقدم ارادته تعالى زمانا كتقدمها رتبة وللدلالة على تجددها واستمرارها وانما قدم على هذا الكلام ما يتعلق بقولهم فأتنا بما تعدنا من قوله تعالى انما يأتيكم به الله ان شاء ردا عليهم من أول الامر وتسجيلا عليهم بحلول العذاب مع ما فيه من اتصال الجواب بالسؤال وفيه دليل على أن ارادته تعالى يصح تعلقها بالاغواء وأن خلاف مراده غير واقع وقيل معنى أن يغويكم أن يهلككم من غوى الفصيل غوى اذا بشم وهلك (هو ربكم) خالقكم ومالك أمركم (واليه ترجعون) فيجازيكم على أعمالكم لا محالة

(أم يقولون افتراه) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يعنى نوحا عليه الصلاة والسلام ومعناه بل أيقول قوم نوح ان نوحا افترى ماجاء به مسندا الى الله عزوجل (قل) يانوح (ان افتريته) بالفرض البحت (فعلى اجرامى) اثمى وو بال اجرامى وهو كسب الذنب وقرئ بلفظ الجمع و ينصره أن فسره الاولون بآثامى (وأنا برئ مما تجرمون) من اجرامكم فى اسناد الافتراء الى فلا وجه لاعراضكم عنى ومعاداتكم لى وقال مقاتل يعنى محمدا عليه الصلاة والسلام ومعناه بل أيقول مشركو مكة افترى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر نوح فكأنه انما جئ به فى تضاعيف القصه عند سوق طرف منها تحقيقا لحقيتها وتأكيدا لوقوعها وتشويقا للسامعين الى استماعها لاسيما وقد نص منها طائفة متعلقة بماجرى بينه عليه السلام و بين قومه من المحاجة و بقيت طائفة مستقلة متعلقه بعذابهم (وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك) أى المصرين على الكفر وهو اقناط له عليه السلام من ايمانهم واعلام لكونه كالمحال الذى لايصح توقعه (الا من قد آمن) الا من قد وجد منه ماكان يتوقع من ايمانه وهذا الاستثناء على طريقه قوله تعالى الا ماقد سلف (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) أى لاتحزن حزن بائس مستكين ولاتغتم بما كانوا يتعاطونه من التكذيب والاستهزاء والايذاء فى هذه المدة الطويلة فقد انتهى أفعالهم وحان وقت الانتقام منهم (واصنع الفلك) ملتبسا (بأعيننا) أى بحفظنا وكلاءتنا كأن معه من الله عزوجل حفاظا وحراسا يكلؤنه بأعينهم من التعدى من الكفره ومن الزيغ فى الصنعة (ووحينا) اليك ﴿ مما ﴾ كيف تصنعها وتعليمنا والهامنا * عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم يعلم كيف صنعة الفلك فأوحى الله تعالى اليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر والامر للوجوب اذلاسبيل الى صيانة الروح من الغرق الابه فيجب كوجوبها واللام اما للعهد بان يحمل على أن هذا مسبوق بوحى الله تعالى اليه عليه السلام أنه سيهلكهم بالغرق وينجيه ومن معه بشئ

من كل زوجين اثنين قال الاخفش تقول الاثنان هما زوجان قال تعالى ومن كل شئ زوجين فالسماء زوج والارض زوج والشتاء زوج والصيف زوج والنهار زوج والليل زوج وتقول للمرأة هى زوج وهو زوجها قال تعالى وخلق منها زوجها يعنى المرأه وقال وأنه خلق الزوجين الذكر والانثى فثبت ان الواحد قد يقال له زوج ومما يدل على ذلك قوله تعالى ثمانية أزواج من الضان اثنين ومن المعز اثنين ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين اذا عرفت هذا فنقول الزوجان عبارة عن كل شيئين يكون أحدهما ذكرا والآخر أنثى والتقدير كل شيئين هما كذلك فاحمل منهما فى السفينة اثنين واحد ذكر والآخر أنثى ولذلك قرأ حفص من كل بالتنوين وأراد واحمل من كل شئ زوجين اثنين الذكر زوج والانثى زوج لايقال عليه ان الزوجين لايكونان الا اثنين فما الفائده فى قوله زوجين اثنين لانا نقول هذا على مثال قوله لاتتخذوا الهين اثنين وقوله نفخة واحده وأما على القراءه المشهورة فهذا السؤال غير وارد واختلفوا فى أنه هل دخل فى قوله زوجين اثنين غير الحيوان أم لافنقول أما الحيوان فداخل لان قوله من كل زوجين اثنين يدخل فيه كل الحيوانات وأما النبات فاللفظ لايدل عليه الا أنه بحسب قرينة الحال لايبعد بسبب ان الناس محتاجون الى النبات بجميع أقسامه وجاء فى الروايات عن ابن مسعود رضى الله عنهما أنه قال لم يستطع نوح عليه السلام أن يحمل الاسد حتى ألقيت عليه الحمى وذلك أن نوحا عليه السلام قال يارب فمن أين أطعم الاسد اذا حملته قال تعالى فسوف أشغله عن الطعام فسلط الله تعالى عليه الحمى وأمثال هذه الكلمات الاولى تركها فان حاجة الفيل الى الطعام أكثر وليس به حمى (الثانى) من الاشياء التى أمر الله نوحا عليه السلام بحملها فى السفينة قوله تعالى وأهلك الامن سبق عليه القول قالوا كانوا سبعة نوح عليه السلام وثلاثة أبناءه وهم سام وحام و يافث ولكل واحد منهم زوجة وقيل أيضا كانوا ثمانية هؤلاء وزوجة نوح عليه السلام وأما قوله الامن سبق عليه القول فالمراد ابنه وامرأته وكانا كافرين حكم الله تعالى عليهما بالهلاك فان قيل الانسان اشرف من جميع الحيوانات فما السبب انه وقع الابتداء بذكر الحيوانات قلنا الانسان عاقل وهو لعقله كالمضطر الى دفع أسباب الهلاك عن نفسه فلاحاجة فيه الى المبالغة فى الترغيب بخلاف السعى فى تخليص سائر الحيوانات فلهذا السبب وقع الابتداء به واعلم أن أصحابنا احتجوا بقوله الامن سبق عليه القول فى اثبات القضاء اللازم والقدر الواجب قالوا لان قوله سبق عليه القول مشعر بأن كل من سبق عليه القول فانه لايتغير عن حاله وهو كقوله عليه الصلاه والسلام السعيد من سعد فى بطن أمه والشقى من شقى فى بطن أمه (النوع الثالث) من تلك الاشياء قوله ومن آمن قالوا كانوا ثمانين قال مقاتل فى ناحية الموصل قرية يقال لها قرية الثمانين سميت بذلك لان هؤلاء لما خرجوا من السفينة بنوها فسميت بهذا الاسم وذكروا ماهو أزيد منه وماهو أنقص منه وذلك

عما لا سبيل الى معرفته الا أن الله تعالى وصفهم بالقلة وهو قوله تعالى وما آمن معه الا قليل فان قيل لما كان الذين آمنوا معه ودخلوا فى السفينة كانوا جماعة فلم لم يقل قليلون كما فى قوله ان هؤلاء لشرذمة قليلون قلنا كلا اللفظين جائز والتقدير ههنا وما آمن معه الا نفر قليل فأما الذى يروى أن ابليس دخل السفينة فبعيد لانه من الجن وهو جسم نارى أو هوائى وكيف يؤثر الغرق فيه وأيضا كتاب الله تعالى لم يدل عليه وخبر صحيح ما ورد فيه فالاولى ترك الخوض فيه * قوله تعالى (وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ان ربى لغفور رحيم) أما قوله وقال يعنى نوح عليه السلام لقومه اركبوا والركوب العلو على ظهر الشئ ومنه ركوب الدابة وركوب السفينة وركوب البحر وكل شئ علا شيئا فقد ركبه يقال ركبه الدين قال الليث وتسمى العرب من يركب السفينة راكب السفينة وأما الركبان والركب من ركبوا الدواب والابل قال الواحدى ولفظة فى فى قوله اركبوا فيها لا يجوز أن تكون من صلة الركوب لانه يقال ركبت السفينة ولا يقال ركبت فى السفينة بل الوجه أن يقال مفعول اركبوا محذوف والتقدير اركبوا الماء فى السفينة وأيضا يجوز أن يكون فائدة هذه الزيادة أنه أمرهم أن يكونوا فى جوف الفلك لا على ظهرها فلو قال اركبوها لتوهموا أنه أمرهم أن يكونوا على ظهر السفينة أما قوله تعالى بسم الله مجريها ومرساها ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم مجريها بفتح الميم والباقون بضم الميم واتفقوا فى مرساها أنه بضم الميم وقال صاحب الكشاف قرأ مجاهد مجريها ومرسيها بلفظ اسم الفاعل مجرورى المحل صفتين لله تعالى قال الواحدى المجرى المصدر كالاجراء ومثله قوله منزلا مباركا وأدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق وأما من قرأ مجريها بفتح الميم فهو أيضا مصدر مثل الجرى واحتج صاحب هذه القراءة بقوله وهى تجرى بهم ولو كان مجراها لكان وهى تجريهم وحجة من ضم الميم أن جرت بهم وأجرتهم يتقاربان فى المعنى فاذا قال تجرى بهم فكأنه قال تجريهم وأما المرسى فهو أيضا مصدر كالارساء يقال رسا الشئ يرسو اذا ثبت وارساه غيره قال تعالى والجبال أرساها قال ابن عباس يريد تجرى بسم الله وقدرته وترسو بسم الله وقدرته وقيل كان اذا أراد أن تجرى بهم قال بسم الله مجريها فتجرى واذا أراد أن ترسو قال بسم الله مرسيها فترسو (المسئلة الثانية) ذكروا فى عامل الاعراب فى بسم الله وجوها (الاول) اركبوا بسم الله (والثانى) ابدؤا بسم الله (والثالث) بسم الله اجراؤها وارساؤها وقيل انها سارت لاول يوم من رجب وقيل لعشر مضين من رجب فسارت ستة أشهر واستوت يوم العاشر من المحرم على الجودى (المسئلة الثالثة) فى الآية احتمالان (الاول) أن يكون مجموع قوله وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها كلاما واحدا والتقدير وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها يعنى ينبغى أن يكون الركوب مقرونا بهذا الذكر (والاحتمال الثانى) أن يكونا كلامين والتقدير أن نوحا

ثم يصنعه بامره تعالى ووحيه من شأنه كيت وكيت واسمه كذا وأما الجنس قيل صنعها عليه الصلاة والسلام فى سنتين وقيل فى أربعمائة سنة وكانت من خشب الساج و جعلت ثلاثة بطون حمل فى البطن الاول الوحوش والسباع والهوام وفى البطن الاوسط الدواب والانعام وفى البطن الاعلى جنس البشر هو ومن معه مع ما يحتاجون اليه من الزاد وحمل معه جسد آدم عليه الصلاة والسلام وقيل جعل فى الاول الدواب والوحوش وفى الثانى الانس وفى الاعلى الطير قيل كان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعا وسمكها ثلاثين ذراعا وقال الحسن كان طولها ألفا ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وقيل ان الحواريين قالوا لعيسى عليه الصلاة والسلام لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها فانطلق بهم حتى انتهى الى كثيب من تراب فاخذ كفا من ذلك التراب فقال أتدرون من هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا كعب بن حام قال فضرب بعصاه وقال قم باذن الله فاذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال له عيسى عليه الصلاة والسلام أهكذا هلكت قال لا مت وأنا شاب ولكنى ظننت أنها الساعة فمن ثمة شبت فقال حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها ألفا ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات طبقة للدواب والوحش وطبقة للانس وطبقة للطير ثم قال عد باذن الله تعالى كما كنت فعاد ترابا (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا) أى لا تراجعنى فيهم ولا تدعنى باستدفاع العذاب عنهم وفيه من المبالغة ما ليس فيما لو قيل ولا تدعنى فيهم وحيث كان فيه ما يلوح بالسببية أكد التعليل فقيل (انهم مغرقون) أى محكوم عليهم بالاغراق قد مضى به القضاء وجف القلم فلا سبيل الى كفه ولزمتهم الحجة فلم يبق الا أن يجعلوا عبرة للمعتبرين ومثلا للآخرين (و يصنع الفلك) حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة وقيل تقديره واخذ يصنع الفلك أو أقبل يصنعها فاقتصر على يصنع وأياما كان ففيه ملاءمة للاستمرار المفهوم من الجملة الواقعة

[illegible]لام أمرهم بالركوب ثم أخبرهم بان مجريها ومرساها ليس الا بسم الله وأمره وقدرته (فالمعنى الاول) يشير الى أن الانسان لا ينبغى أن يشرع فى أمر من الامور الا ويكون فى وقت الشروع فيه ذاكر الاسم الله تعالى بالاذكار المقدسة حتى يكون ببركة ذلك الذكر سببا لتمام ذلك المقصود (والثانى) يدل على انه لما ركب السفينة أخبر القوم بأن السفينة ليست سببا لحصول النجاه بل الواجب ربط الهمة وتعليق القلب بفضل الله تعالى وأخبرهم أنه تعالى هو المجرى والمرسى للسفينة فاياكم أن تعولوا على السفينة بل يجب ان يكون تعويلكم على فضل الله فانه هو المجرى والمرسى لها فعلى التقدير الاول كان نوح عليه السلام وقت ركوب السفينة فى مقام الذكر وعلى التقدير الثانى كان فى مقام الفكر والبراءة عن الحول والقوه وقطع النظر عن الاسباب واستغراق القلب فى نور جلال مسبب الاسباب واعلم أن الانسان اذا تفكر فى طلب معرفة الله تعالى بالدليل والحجة فكأنه جلس فى سفينة التفكر والتدبر وامواج الظلمات والضلالات [illegible]علت تلك الجبال وارتفعت الى مصاعد القلال فاذا ابتدأت سفينة الفكره والرويه [illegible]كه وجب أن يكون هناك اعتماده على الله تعالى وتضرعه الى الله تعالى وان يكون [illegible] القلب ونظر العقل يقول بسم الله مجريها ومرساها حتى تصل سفينة فكره الى [illegible] النجاة وتخلص عن أمواج الضلالات واما قوله ان ربى لغفور رحيم ففيه سؤال وهو [illegible] ذلك الوقت وقت الاهلاك واظهار القهر فكيف يليق به هذا الذكر وجوابه لعل [illegible] الذين ركبوا السفينة اعتقدوا فى أنفسهم انا انما نجونا ببركة علمنا فالله تعالى نبههم بهذا الكلام لازالة ذلك العجب منهم فان الانسان لا ينفك عن أنواع الزلات وظلمات الشهوات وفى جميع الاحوال فهو محتاج الى اعانة الله وفضله واحسانه وان يكون رحيما لعقوبته غفور الذنوبه * قوله تعالى (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) واعلم ان فى قوله وهى تجرى بهم فى موج كالجبال مسائل (المسئلة الاولى) قوله وهى تجرى بهم فى موج متعلق بمحذوف والتقدير وقال اركبوا فيها فركبوا فيها يقولون بسم الله وهى تجرى بهم فى موج كالجبال (المسئلة الثانية) الامواج العظيمة انما تحدث عند حصول الرياح القوية الشديدة العاصفة فهذا يدل على انه حصل فى ذلك الوقت رياح عاصفة شديدة والمقصود منه بيان شدة الهول والفزع (المسئلة الثالثة) الجريان فى الموج هو أن تجرى السفينة داخل الموج وذلك يوجب الغرق فالمراد أن الامواج لما أحاطت بالسفينة من الجوانب شبهت تلك السفينة بما اذا جرت فى داخل تلك الامواج * ثم حكى الله تعالى عنه انه نادى ابنه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى أنه هل كان ابنا له وفيه أقوال (الاول) انه ابنه فى الحقيقة والدليل عليه انه تعالى

حالا من ضميره أعنى قوله تعالى (وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) استهزؤا به لعمله السفينة اما لانهم ما كانوا يعرفونها ولا كيفية استعمالها والانتفاع بها فتعجبوا من ذلك وسخروا منه واما لانه كان يصنعها فى برية بهاء فى أبعد موضع من الماء وفى وقت عزته عزه شديدة وكانوا يتضاحكون ويقولون يانوح صرت نجارا بعدما كنت نبيا وقيل لانه عليه الصلاه والسلام كان ينذرهم الغرق فلما طال مكثه فيهم ولم يشاهدوا منه عينا ولا أثرا عدوه ﴿٨٨﴾ من باب المحال ثم لما رأوا اشتغاله بأسباب الخلاص من ذلك فعلوا ما فعلوا ومدار الجميع انكار أن يكون لعمله عليه الصلاة والسلام عاقبة حميده مع ما فيه من تحمل المشاق العظيمة التى لاتكاد تطاق واستجهاله عليه السلام فى ذلك (قال ان تسخروا منا) مستجهلين لنا فيما نحن فيه (فانا نسخر منكم) أى نستجهلكم فيما أنتم عليه واطلاق السخرية عليه للمشاكله وجمع الضمير فى منا اما لان سخريتهم منه عليه الصلاه والسلام سخريه من المؤمنين أيضا أو لانهم كانوا يسخرون منهم أيضا الا أنه اكتفى بذكر سخريتهم منه عليه الصلاه والسلام ولذلك تعرض الجميع للمجازاة فى قوله تعالى فانا نسخر منكم الخ فتكافأ الكلام من الجانبين وتعليق استجهاله عليه الصلاه والسلام اياهم بما فعلوا من السخريه باعتبار اظهاره ومشافهته عليه الصلاة والسلام اياهم بذلك والا فعده عليه الصلاه والسلام اياهم جاهلين فيما يأتون ويذرون أمر مطرد لا تعلق له بسخريتهم منهم لكنه عليه الصلاه والسلام لم يكن يتصدى لاظهاره جريا على نهج الاخلاق الحميده وانما أظهره جزاء بما صنعوا بعد اللتيا والتى فان سخريتهم كانت مستمره ﴿ نص ﴾ ومتجدده حسب تجدد مرورهم عليه ولم يكن يجيبهم فى كل مرة والا لقيل ويقول ان تسخروا منا الخ بل انما أجابهم بعد بلوغ أذاهم الغاية كما يؤذن به الاستئناف فكأن سائلا سال فقال فما صنع نوح عند بلوغهم منه هذا المبلغ فقيل قال ان تسخروا منا اى ان تنسبونا فيما نحن بصدده

من التاهب والمباشرة لاسباب الخلاص من العذاب الى الجهل ونسخروا منا لاجله فانا ننسبكم اليه فيما أنتم فيه من الاعراض عن استدفاعه بالايمان والطاعة ومن الاستمرار على الكفر والمعاصي والتعرض لاسباب حلول سخط الله تعالى التي من جملتها استجهالكم ايانا وسخريتكم منا والتشبيه في قوله تعالى (كما تسخرون) اما في مجرد التحقق والوقوع أو في التجدد والتكرر حسبما صدر عن ملأ غب ملأ لا في الكيفيات والاحوال التي لاتليق بشأن النبي عليه الصلاة والسلام فكلا الامرين واقع في الحال وقيل نسخر منكم في المستقبل سخرية مثل سخريتكم اذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة ولعل مراده نعاملكم معاملة من يفعل ذلك لان نفس السخرية مما لايكاد يليق بمنصب النبوة ومع ذلك لاسداده لان حالهم اذذاك ليس مما يلائمه السخرية أو ما يجري مجراها فتأمل (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) وهو عذاب الغرق (ويحل عليه) حلول الدين المؤجل (عذاب مقيم) هو عذاب النار الدائم وهو تهديد بليغ ومن عبارة عنهم وهي اما استفهامية في حيز الرفع أو موصولة في محل النصب بتعلمون وما في حيزها ساد مسد مفعولين أو مفعول واحد ان جعل العلم بمعنى المعرفة ولما كان مدار سخريتهم استجهالهم اياه عليه الصلاة والسلام في مكابدة المشاق الفادحة لدفع مالايكاد يدخل تحت الصحة على زعمهم من الطوفان ومقاساة الشدائد في بناء السفينة وكانوا يعدونه عذابا قيل بعد استجهالهم فسوف تعلمون من يأتيه العذاب يعني أن ما أباشره ليس فيه عذاب لاحق بي فسوف تعلمون من المعذب ولقد أصاب العلم بعد استجهالهم محزه ووصف العذاب بالاخزاء لما في الاستهزاء والسخرية من لحوق الخزي والعار عادة والتعرض لحلول العذاب المقيم للمبالغة في التهديد وتخصيصه بالمؤجل وايراد الاول بالاتيان في غاية الجزالة (حتى اذا جاء أمرنا) حتى هي التي يبتدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية وهي مع

نص عليه فقال ونادى نوح ابنه ونوح أيضا نص عليه فقال يابني وصرف هذا اللفظ الى انه رباه فأطلق عليه اسم الابن لهذا السبب صرف للكلام عن حقيقته الى مجازه من غير ضرورة وانه لايجوز والذين خالفوا هذا الظاهر انما خالفوه لانهم استبعدوا أن يكون ولد الرسول المعصوم كافرا وهذا بعيد فانه ثبت ان والد رسولنا صلى الله عليه وسلم كان كافرا ووالد ابراهيم عليه السلام كان كافرا بنص القرآن فكذلك ههنا ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في انه عليه السلام لما قال رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا فكيف ناداه مع كفره فأجابوا عنه من وجوه (الاول) انه كان ينافق أباه فظن نوح أنه مؤمن فلذلك ناداه ولولا ذلك لما أحب نجاته (والثاني) انه عليه السلام كان يعلم انه كافر لكنه ظن انه لما شاهد الغرق والاهوال العظيمة فانه يقبل الايمان فصار قوله يابني اركب معنا كالدلالة على انه طلب منه الايمان وتأكد هذا بقوله ولاتكن مع الكافرين أي تابعهم في الكفر واركب معنا (والثالث) ان شفقة الابوة لعلها حملته على ذلك النداء والذي تقدم من قوله الا من سبق عليه القول كان كالمجمل فلعله عليه السلام جوز أن لا يكون هو داخلا فيه (القول الثاني) انه كان ابن امرأته وهو قول محمد بن على الباقر وقول الحسن البصري ويروى ان عليا رضي الله عنه قرأ ونادى نوح ابنها والضمير لامرأته وقرأ محمد بن علي وعروة بن الزبير ابنه بفتح الهاء يريدان ابنها الا انهما اكتفيا بالفتحة عن الالف وقال قتادة سألت الحسن عنه فقال والله ما كان ابنه فقلت ان الله حكى عنه انه قال ان ابني من أهلي وأنت تقول ما كان ابنا له فقال لم يقل انه مني ولكنه قال من أهلي وهذا يدل على قولي (القول الثالث) انه ولد على فراشه لغير رشدة والقائلون بهذا القول احتجوا بقوله تعالى في امرأة نوح وامرأة لوط فخانتاهما وهذا قول خبيث يجب صون منصب الانبياء عن هذه الفضيحة لاسيما وهو على خلاف نص القرآن أما قوله تعالى فخانتاهما فليس فيه ان تلك الخيانة انما حصلت بالسبب الذي ذكروه قيل لابن عباس رضي الله عنهما ما كانت تلك الخيانة فقال كانت امرأة نوح تقول زوجي مجنون وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه اذا نزلوا به ثم الدليل القاطع على فساد هذا المذهب قوله تعالى الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات وأيضا قوله تعالى الزاني لاينكح الا زانية أو مشركة والزانية لاينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين وبالجملة فقد دللنا على ان الحق هو القول الاول وأما قوله وكان في معزل فاعلم ان المعزل في اللغة معناه موضع منقطع عن غيره وأصله من العزل وهو التنحية والابعاد تقول كنت بمعزل عن كذا أي بموضع قد عزل منه واعلم ان قوله وكان في معزل لايدل على انه في معزل من أي شيء فلهذا السبب ذكروا وجوها (الاول) أنه كان في معزل من السفينة لانه كان يظن ان الجبل يمنعه من الغرق (الثاني) انه كان في معزل عن أبيه واخوته وقومه (الثالث) انه كان في معزل من الكفار كأنه انفرد عنهم فظن نوح عليه السلام ان ذلك

فلك عليه السلام وهو يصنع وما بينهما حال من الضمير فيه وسخروا منه جواب كلما وقال استئناف على تقدير سؤال سائل كأنه قيل فماذا قال وقيل هو الجواب وسخروا منه بدل من مر أو صفة لملأ وقد عرفت أن الحق هو الاول لان المقصود بيان تناهيهم في ايذائه عليه الصلاة والسلام وتحمله لأذيتهم لا مسارعته عليه الصلاة والسلام الى جوابهم كلما وقع منهم ما يؤذيه من الكلام (وفار التنور) نبع منه الماء وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها ﴿٩٠﴾ والتنور تنور الخبز وهو قول الجمهور روي أنه قيل لنوح عليه الصلاة والسلام اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب ومن معك في السفينة فلما نبع الماء أخبرته امرأته فركب وقيل كان تنور آدم عليه الصلاة والسلام وكان من حجارة فصار الى نوح وانما نبع منه وهو أبعد شيء من الماء على خرق العادة وكان في الكوفة في موضع مسجدها عن يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان عمل السفينة في ذلك الموضع أو في الهند أو في موضع بالشام يقال له عين وردة وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وعكرمة والزهري أن التنور وجه الارض وعن قتادة أشرف موضع في الارض اي أعلاه وعن علي رضي الله تعالى عنه فار التنور طلع الفجر (قلنا احمل فيها) اي في السفينة وهو جواب اذا (من كل) اي من كل نوع لابد منه في الارض (زوجين) الزوج ما له مشاكل من نوعه فالذكر زوج للانثى كما هي زوج له وقد يطلق على مجموعهما فيقابل الفرد ولازالة ذلك الاحتمال قيل (اثنين) كل منهما زوج للآخر وقرئ على الاضافة وانما قدم ذلك على أهله وسائر المؤمنين لكونه عريقا فيما أمر به من الحمل لانه يحتاج الى مزاولة الاعمال منه عليه الصلاة والسلام في تمييز بعضه من ﴿ لاعاصم ﴾ بعض وتعيين الازواج فانه روي أنه عليه الصلاة والسلام قال يارب كيف أحمل من كل زوجين اثنين فحشر الله تعالى اليه السباع والطير وغيرها فجعل يضرب بيديه في كل جنس فيقع الذكر في يده اليمنى والانثى في اليسرى فيجعلهما في السفينة وأما البشر

انما كان لانه أحب مفارقتهم أما قوله يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين فنقول قرأ حفص عن عاصم يابنى بفتح الياء في جميع القرآن والباقون بالكسر قال أبو علي الوجه الكسر وذلك ان اللام من ابن ياء أو واو فاذا صغرت ألحقت ياء التحقير فلزم أن ترد اللام المحذوفة والازم أن تحرك ياء التحقير بحركات الاعراب لكنها لا تحرك لانها لو حركت لزم أن تنقلب كما تنقلب سائر حروف المد واللين اذا كانت حروف اعراب نحو عصا وقفا ولو انقلبت بطلت دلالتها على التحقير ثم اذا أضفت الى نفسك اجتمعت ثلاث ياآت (الاولى) منها للتحقير (والثانية) لام الفعل (والثالثة) التي للاضافة تقول هذا بنى فاذا ناديته صار فيه وجهان اثبات الياء وحذفها والاختيار حذف الياء التي للاضافة وابقاء الكسرة دلالة عليه نحو ياغلام ومن قرأ يابنى بفتح الياء فانه أراد الاضافة أيضا كما أرادها من قرأ بالكسر لكنه أبدل من الكسرة الفتحة ومن الياء الالف تخفيفا فصار يابنيا كما قال

❁ ياابنة عما لا تلومي واهجعي ❁

ثم حذف الالف للتخفيف واعلم انه تعالى لما حكى عن نوح عليه السلام انه دعاه الى أن يركب السفينة حكى عن ابنه انه قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء وهذا يدل على ان الابن كان متماديا في الكفر مصرا عليه مكذبا لابيه فيما أخبر عنه فعند هذا قال نوح عليه السلام لاعاصم اليوم من أمر الله الا من رحم وفيه سؤال وهو ان الذي رحمه الله معصوم فكيف يحسن استثناء المعصوم من العاصم وهو قوله لاعاصم اليوم من أمر الله وذكروا في الجواب طرقا كثيرة (الاول) انه تعالى قال قبل هذه الآية وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ان ربي لغفور رحيم فبين انه تعالى رحيم وانه برحمته يخلص هؤلاء الذين ركبوا السفينة من آفة الغرق اذا عرفت هذا فنقول ان ابن نوح عليه السلام لما قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء قال نوح عليه السلام أخطأت لاعاصم اليوم من أمر الله الا من رحم والمعنى الا ذلك الذي ذكرت انه برحمته يخلص هؤلاء من الغرق فصار تقدير الآية لاعاصم اليوم من عذاب الله الا الله الرحيم وتقديره لا فرار من الله الا الى الله وهو نظير قوله عليه السلام في دعائه وأعوذ بك منك وهذا تأويل في غاية الحسن (الوجه الثاني) في التأويل وهو الذي ذكره صاحب حل العقد أن هذا الاستثناء وقع من مضمر هو في حكم الملفوظ لظهور دلالة اللفظ عليه والتقدير لاعاصم اليوم لاحد من أمر الله الا من رحم وهو كقولك لا تضرب اليوم الا زيدا فان تقديره لا تضرب أحدا الا زيدا الا انه ترك التصريح به لدلالة اللفظ عليه فكذا ههنا (الوجه الثالث) في التأويل ان قوله لاعاصم أي لا ذا عصمة كما قالوا رامح ولابن ومعناه ذو رمح وذو لبن وقال تعالى من ماء دافق وعيشة راضية ومعناه ما ذكرنا فكذا ههنا وعلى هذا التقدير العاصم هو ذو العصمة فيدخل فيه المعصوم وحينئذ يصح استثناء قوله الا من رحم منه (الوجه الرابع) قوله لاعاصم اليوم من أمر الله الا من رحم عنى بقوله الا من رحم نفسه لان نوحا وطائفته هم الذين خصهم الله تعالى برحمته والمراد

لاعاصم لك الا الله بمعنى أن بسببه تحصل رحمة الله كما أضيف الاحياء الى عيسى عليه السلام فى قوله وأحيي الموتى لاجل ان الاحياء حصل بدعائه (الوجه الخامس) ان قوله الامن رحم استثناء منقطع والمعنى لكن من رحمه الله معصوم ونظيره قوله تعالى ما لهم به من علم الا اتباع الظن ثم انه تعالى بين بقوله وحال بينهما الموج أى بسبب هذه الحيلولة خرج من أن يخاطبه نوح فكان من المغرقين * قوله تعالى (وقيل ياأرض ابلعى ماءك و ياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الامر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين) اعلم ان المقصود من هذا الكلام وصف آخر لواقعة الطوفان فكان التقدير انه لما انتهى أمر الطوفان قيل كذا وكذا ياأرض ابلعى ماءك يقال بلع الماء يبلعه بلعا اذا شربه وابتلع الطعام ابتلاعا اذا لم يمضغه وقال أهل اللغة الفصيح بلع بكسر اللام يبلع بفتحها و ياسماء أقلعى يقال أقلع الرجل عن عمله اذا كف عنه وأقلعت السماء بعد ما مطرت اذا أمسكت وغيض الماء يقال غاض الماء يغيض غيضا ومغاضا اذا نقص وغضته أنا وهذا من باب فعل الشئ وفعلته أنا ومثله جبر العظم وجبرته وفغر الفم وفغرته ودلع اللسان ودلعته ونقص الشئ ونقصته فقوله وغيض الماء أى نقص وما بقى منه شئ واعلم ان هذه الآية مشتملة على ألفاظ كثيرة كل واحد منها دال على عظمة الله تعالى وعلو كبريائه (فأولها) قوله وقيل وذلك لان هذا يدل على أنه سبحانه فى الجلال والعلو والعظمة بحيث انه متى قيل قيل لم ينصرف العقل الا اليه ولم يتوجه الفكر الا الى أن ذلك القائل هو هو وهذا تنبيه من هذا الوجه على انه تقرر فى العقول أنه لا حاكم فى العالمين ولا متصرف فى العالم العلوى والعالم السفلى الا هو (وثانيها) قوله ياأرض ابلعى ماءك و ياسماء أقلعى فان الحس يدل على عظمة هذه الاجسام وشدتها وقوتها فاذا شعر العقل بوجود موجود قاهر لهذه الاجسام مستول عليها متصرف فيها كيف شاء وأراد صار ذلك سببا لوقوف القوة العقلية على كمال جلال الله تعالى وعلو قهره وكمال قدرته ومشيئته (وثالثها) ان السماء والارض من الجمادات فقوله ياأرض و ياسماء مشعر بحسب الظاهر على أن أمره وتكليفه نافذ فى الجمادات فعند هذا يحكم الوهم بأنه لما كان الامر كذلك فلان يكون أمره نافذا على العقلاء كان أولى وليس مرادى منه أنه تعالى يأمر الجمادات فان ذلك باطل بل المراد ان توجيه صيغة الامر بحسب الظاهر على هذه الجمادات القوية الشديدة يقرر فى الوهم نوع عظمته وجلاله تقريرا كاملا وأما قوله وقضى الامر فالمراد ان الذى قضى به وقدره فى الازل قضاء جزما حتما فقد وقع تنبيها على ان كل ما قضى الله تعالى فهو واقع فى وقته وأنه لادافع لقضائه ولامانع من نفاذ حكمه فى أرضه وسمائه فان قيل كيف يليق بحكمة الله تعالى ان يغرق الاطفال بسبب جرم الكفار قلنا الجواب عنه من وجهين (الاول) ان كثيرا من المفسرين يقولون ان الله تعالى أعقم أرحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة فلم يغرق الامن بلغ سنه الى الاربعين ولقائل ان يقول لو كان الامر

فانما يدخل الفلك باختياره فيخفى صحة معنى الحمل او لانها انما تحصل بمباشرة البشر وهم انما يدخلونها بعد خلقهم اياها (واهلك) عطف على زوجين أو على اثنين والمراد امرأته و بنوه ونساؤهم (الامن سبق عليه القول) بانه من المغرقين بسبب ظلمهم فى قوله تعالى ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا الآية والمراد به ابنه كنعان وأمه واعلة فانهما كانا كافرين والاستثناء منقطع ان أريد بالاهل الاهل ايمانا وهو الظاهر ﴿ ٩١ ﴾ كما ستعرفه أو متصل ان أريد به الاهل قرابة و يكفى فى صحة الاستثناء المعلومية عند المراجعة الى أحوالهم والتفحص عن أعمالهم ومجئ يعلى لكون السابق ضارا لهم كما مجئ باللام فيما هو نافع لهم من قوله عز وجل ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين وقوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى (ومن آمن) من غيرهم وافراد الاهل منهم للاستثناء المذكور وايثار صيغة الافراد فى آمن محافظة على لفظ من للايذان بقلتهم كما أعرب عنه قوله عز قائلا (وما آمن معه الا قليل) قيل كانوا ثمانية نوح عليه الصلاة والسلام وأهله و بنوه الثلاثة ونساؤهم وعن ابن اسحق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة وعنه أيضا أنهم كانوا عشرة سوى نسائهم وقيل كانوا اثنين وسبعين رجلا وامرأة وأولاد نوح سام وحام و يافث ونساؤهم فالجميع ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء واعتبار المعية فى ايمانهم للايماء الى المعية فى مقر الامان والنجاة (وقال) اى نوح عليه الصلاة والسلام لمن معه من المؤمنين كما ينبئ عنه قوله تعالى ان ربى لغفور رحيم ولو رجع الضمير الى الله تعالى لناسب أن يقال ان ربكم ولعل ذلك بعد ادخال ما أمر بحمله فى الفلك من الازواج كأنه قيل فحمل الازواج وأدخلها فى الفلك وقال للمؤمنين (اركبوا فيها) كما يأتى مثله فى قوله تعالى وهى تجرى بهم والركوب العلو على شئ متحرك و يتعدى بنفسه واستعماله ههنا بكلمة فى ليس لان المأمور به كونهم فى جوفها لا فوقها كما ظن فان أظهر الروايات أنه عليه السلام جعل الوحوش ونظائرها

على ما ذكرتم لكان ذلك آية عجيبة قاهرة و يبعد مع ظهورها استرارهم على الكفر وأيضا فهب انكم ذكرتم ماذكرتم فما قولكم فى اهلاك الطير والوحش مع انه لاتكليف عليها البتة والجواب الثانى وهو الحق انه لا اعتراض على الله تعالى فى افعاله لايسأل عما يفعل وهم يسألون وأما المعتزلة فهم يقولون انه تعالى أغرق الاطفال والحيوانات وذلك يجرى مجرى اذنه تعالى فى ذبح هذه البهائم وفى استعمالها فى الاعمال الشاقة الشديدة. تعالى واستوت على الجودى فالمعنى واستوت السفينة على جبل بالجزيرة يقال له الجودى وكان ذلك الجبل جبلا منخفضا فكان استواء السفينة عليه دليلا على انقطاع مادة ذلك الماء وكان ذلك الاستواء يوم عاشوراء وأما قوله تعالى وقيل بعدا للقوم الظالمين ففيه وجهان (الاول) انه من كلام الله تعالى قال لهم ذلك على سبيل اللعن والطرد (والثانى) أن يكون ذلك من كلام نوح عليه السلام وأصحابه لان الغالب ممن يسلم من الامر الهائل بسبب اجتماع قوم من الظلمة فاذا اهلكوا ونجا منهم قال مثل هذا الكلام ولانه جار مجرى الدعاء عليهم فجعله من كلام البشر أليق * قوله تعالى (ونادى نوح ربه فقال رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يانوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ماليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين قال رب انى أعوذ بك ان أسألك ماليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى اكن من الخاسرين) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اعلم ان قوله رب ان ابنى من أهلى فقد ذكرنا الخلاف فى أنه هل كان ابناله أم لا فلا نعيده ثم انه تعالى ذكر انه قال يانوح انه ليس من أهلك واعلم انه لما ثبت بالدليل انه كان ابناله وجب حمل قوله انه ليس من أهلك على أحد وجهين (أحدهما) أن يكون المراد انه ليس من أهل دينك (والثانى) المراد انه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك والقولان متقاربان (المسئلة الثانية) هذه الآية تدل على ان العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب فان فى هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه ولكن لما انتفت قرابة الدين لاجرم نفاه الله تعالى بأبلغ الالفاظ وهو قوله انه ليس من أهلك ثم قال تعالى انه عمل غير صالح قرأ الكسائى عمل على صيغة الفعل الماضى وغير بالنصب والمعنى ان ابنك عمل عملا غير صالح يعنى أشرك وكذب وكلمة غير نصب لانها نعت لمصدر محذوف وقرأ الباقون عمل بالرفع والتنوين وفيه وجهان (الاول) ان الضمير فى قوله انه عائد الى السؤال يعنى ان هذا السؤال عمل وهو قوله ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق غير صالح لان طلب نجاة الكافر بعد ان سبق الحكم الجزم بانه لاينجى أحدا منهم سؤال باطل (الثانى) أن يكون هذا الضمير عائدا الى الابن وعلى هذا التقدير ففى وصفه بكونه عملا غير صالح وجوه (الاول) ان الرجل اذا كثر عمله واحسانه يقال له انه علم وكرم وجود فكذا ههنا لما كثر اقسام ابن نوح على الاعمال الباطلة حكم عليه بأنه فى نفسه عمل باطل (الثانى) أن يكون المراد انه ذو عمل باطل فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه (الثالث) قال بعضهم

فى كفاية لقوله و يصنع وما يتبعه ٭ وبسيط وركب هو ومن معه فى الاعلى بل ارتجالية بسائب المحلية والمكانية فى الفلك والسر فيه
وقيل هو الجواب و محروات ى له حركة اما ارادية كالحيوان أو قسرية كالسفينة والعجلة ونحوهما فاذا استعمل فى الاول
عليه الصلاة والسلام ونحو ل ركبت الفرس وعليه قوله عز من قائل والخيل والبغال والحمير لتركبوها وان استعمل فى الثانى يلوح
سمة فى فقال ركبت فى السفينة وعليه الآية ﴿ ٩٢ ﴾ الكريمة وقوله عز قائلا فاذا ركبوا فى الفلك وق
نبع منه الماء وارتفع
عا حتى اذا ركبا
والسلام
سفينة خرقها (بسم الله)
منها
متعلق باركبوا حال من فاعله اى اركبوا مسمين الله تعالى أو قائلين بسم الله (مجريها ومرساها) نصب على الظرفية أى وقت جريها وارسائها على أنهما اسما زمان أو مصدران كالاجراء والارساء بحذف الوقت كقولك آتيك خفوق النجم أو اسما مكان انتصبا بما فى بسم الله من معنى الفعل أو ارادة القول ويجوز أن يكون بسم مجريها ومرساها مستقلة من مبتدأ وخبر فى موضع الحال من ضمير الفلك أى اركبوا فيها مجراة ومرساة باسم الله بمعنى التقدير كقوله تعالى ادخلوها خالدين أو جملة مقتضبة على أن نوحا أمرهم بالركوب فيها ثم أخبرهم بأن اجراءها وارساءها باسم الله تعالى فيكونان كلامين له عليه الصلاة والسلام قيل كان عليه السلام اذا أراد أن يجريها يقول بسم الله فتجرى واذا أراد أن يرسيها يقول بسم الله فترسو ويجوز أن يكون الاسم مقحما كما فى قوله * الى الحول ثم اسم السلام عليكما * ويراد بالله اجراؤها وارساؤها اى بقدرته وأمره وقرئ مجريها ومرسيها على صيغة الفاعل مجرورى المحل ﴿ معنى ﴾ صفتين لله عز وجل ومجراها ومرساها بفتح الميم مصدرين أو زمانين أو مكانين من جرى ورسا (ان ربى لغفور) للذنوب والخطايا (رحيم) لعباده ولذلك نجاكم من هذه الطامة والداهية العامة ولولا ذلك لما فعله وفيه دلالة على أن نجاتهم ليست بسبب استحقاقهم لها بل بمحض فضل الله سبحانه وغفرانه

وبحجة تطلى بغلطيه رأى أهل السنة (وهى تجرى بهم) متعلق بالمحذوف دل عليه الامر بالركوب اى فركبوا فيها مسمين وهى تجرى ملتبسة بهم (فى موج كالجبال) وهو ما ارتفع من الماء عند اضطرابه كل موجة من ذلك كجبل فى ارتفاعها وتراكمها وماقيل من أن الماء طبق مابين السماء والارض وكانت السفينة تجرى فى جوفه كالحوت فغير ثابت والمشهور أنه علا شوامخ الجبال خمسة عشر ذراعا أو أربعين ذراعا ولئن صح ذلك فهذا الجريان انما هو قبل أن يتفاقم الخطب كما يدل عليه قوله تعالى (ونادى نوح ابنه) فان ذلك انما يتصور قبل أن تنقطع العلاقة بين السفينة والبر اذ حينئذ يمكن جريان ماجرى بين نوح عليه الصلاة والسلام وبين ابنه من المفاوضة بالاستدعاء الى السفينة والجواب بالاعتصام بالجبل وقرئ ابنها وابنه بحذف الالف على أن الضمير لامرأته وكان ربيبه وما يقال من أنه كان لغير رشدة لقوله تعالى فخانتاهما فارتكاب عظيمة لايقادر قدرها فان جناب الانبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه أرفع من أن يشار اليه باصبع الطعن وانما المراد بالخيانة الخيانة فى الدين وقرئ ابناه على الندبة ولكونها حكاية سوغ حذف حرفها وأنت خبير بأنه لايلائمه الاستدعاء الى السفينة فانه صريح فى أنه لم يقع فى حياته يأس بعد (وكان فى معزل) اى فى مكان عزل فيه نفسه عن أبيه واخوته وقومه بحيث لم يتناوله الخطاب باركبوا واحتاج الى النداء المذكور وقيل فى معزل عن الكفار قد انفرد عنهم وظن نوح أنه يريد مفارقتهم ولذلك دعاه الى السفينة وقيل كان ينافق أباه فظن أنه مؤمن وقيل كان يعلم أنه كافر الى ذلك الوقت لكنه عليه الصلاة والسلام ظن أنه عند مشاهدة تلك الاهوال يزدجر عما كان عليه ويقبل الايمان وقيل لم يكن الذى تقدم من قوله تعالى الامن سبق عليه القول نصا فى كون ابنه داخلا تحته بل كان كالمجمل فحملته شفقة الابوة على ذلك (يابنى) بفتح الياء اقتصارا عليه من الالف المبدلة من ياء الاضافة

معنى قوله انه عمل غير صالح أى انه ولد زنا وهذا القول باطل قطعا ثم انه تعالى قال لنوح عليه السلام فلا تسألن ماليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) احتج بهذه الآية من قدح فى عصمة الانبياء عليهم السلام من وجوه (الاول) ان قراءة عمل بالرفع والتنوين قراءة متواترة فهى محكمة وهذا يقتضى عود الضمير فى قوله انه عمل غير صالح اما الى ابن نوح واما الى ذلك السؤال فالقول بانه عائد الى ابن نوح لايتم الا باضمار وهو خلاف الظاهر ولايجوز المصير اليه الا عند الضرورة ولا ضرورة ههنا لانا اذا حكمنا بعود الضمير الى السؤال المتقدم فقد استغنينا عن هذا الضمير فثبت ان هذا الضمير عائد الى هذا السؤال فكان التقدير ان هذا السؤال عمل غير صالح أى قولك ان ابنى من أهلى لطلب نجاته عمل غير صالح وذلك يدل على أن هذا السؤال كان ذنبا ومعصية (الثانى) ان قوله فلا تسألن نهى له عن السؤال والمذكور السابق هو قوله ان ابنى من أهلى فدل هذا على انه تعالى نهاه عن ذلك السؤال فكان ذلك السؤال ذنبا ومعصية (الثالث) ان قوله فلا تسألن ماليس لك به علم يدل على ان ذلك السؤال كان قد صدر لاعن العلم والقول بغير العلم ذنب لقوله تعالى وأن تقولوا على الله مالا تعلمون (الرابع) ان قوله تعالى انى أعظك أن تكون من الجاهلين يدل على ان ذلك السؤال كان محض الجهل وهذا يدل على غاية التقريع ونهاية الزجر وأيضا جعل الجهل كناية عن الذنب مشهور فى القرآن قال تعالى يعملون السوء بجهالة وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين (الوجه الخامس) ان نوحا عليه السلام اعترف باقدامه على الذنب والمعصية فى هذا المقام فانه قال انى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين واعترافه بذلك يدل على انه كان مذنبا (الوجه السادس) فى التمسك بهذه الآية ان هذه الآية تدل على ان نوحا نادى ربه لطلب تخليص ولده من الغرق والآية المتقدمة وهى قوله ونادى نوح ابنه وقال يابنى اركب معنا تدل على انه عليه السلام طلب من ابنه الموافقة فنقول اما أن يقال ان طلب هذا المعنى من الله كان سابقا على طلبه من الولد أو كان بالعكس والاول باطل لان بتقدير أن يكون طلب هذا المعنى من الله تعالى سابقا على طلبه من الابن لكان قد سمع من الله انه تعالى لايخلص ذلك الابن من الغرق وانه تعالى نهاه عن ذلك الطلب وبعد هذا كيف قال له يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين وأما ان قلنا ان هذا الطلب من الابن كان متقدما فكان قد سمع من الابن قوله سآوى الى جبل يعصمنى من الماء وظهر بذلك كفره فكيف طلب من الله تخليصه وأيضا انه تعالى أخبر ان نوحا لما طلب ذلك منه وامتنع هو صار من المغرقين فكيف يطلب من الله تخليصه من الغرق بعد ان صار من المغرقين فهذه الآية من هذه الوجوه الستة تدل على صدور المعصية من نوح عليه السلام واعلم انه لما دلت الدلائل الكثيرة على وجوب تنزيه الله تعالى الانبياء عليهم السلام من المعاصى وجب

فى قولك يا ابنيا وقرئ بكسر الياء اقتصارا عليه من ياء الاضافة او سقطت الياء والالف لالتقاء الساكنين لان الراء بعدهما ساكنة (اركب معنا) قرأ ابو عمرو والكسائى وحفص بادغام الباء فى الميم لتقاربهما فى المخرج وانما أطلق الركوب عن ذكر الفلك لتعينها وللايذان بضيق المقام حيث حال الجريض دون القريض مع اغناء المعية عن ذلك (ولا تكن مع الكافرين) اى فى المكان وهو وجه الارض خارج الفلك لا فى الدين وان كان ذلك مما يوجبه كما يوجب ركوبه معه عليه الصلاة والسلام كونه معه فى الايمان لانه عليه الصلاة والسلام بصدد التحذير عن الهلكة فلا يلائمه النهى عن الكفر (قال سآوى الى جبل) من الجبال (يعصمنى) بارتفاعه (من الماء) زعما منه أن ذلك كسائر المياه فى أزمنة السيول المعتادة التى ربما يتقى منها بالصعود الى الربا وأنى له ذلك وقد بلغ السيل الزبى وجهلا بان ذلك انما كان لاهلاك الكفرة وان لا محيص من ذلك سوى الالتجاء الى ملجأ المؤمنين فلذلك أراد عليه الصلاة والسلام ان يبين له حقيقة الحال ويصرفه عن ذلك الفكر المحال وكان مقتضى الظاهر أن يجيب بما ينطبق عليه كلامه ويتعرض لنفى ما أثبته للجبل من كونه عاصما له من الماء بأن يقول لا يعصمك منه مفيدا لنفى وصف العصمة عنه فقط من غير تعرض لنفيه عن غيره ولا لنفى الموصوف أصلا لكنه عليه الصلاة والسلام حيث (قال لا عاصم اليوم من أمر الله) سلك طريقة نفى الجنس المنتظم لنفى جميع أفراد العاصم ذاتا وصفة كما فى قولهم ليس فيه داع ولا مجيب أى أحد من الناس للمبالغة فى نفى كون الجبل عاصما بالوجهين المذكورين وزاد اليوم للتنبيه على أنه ليس كسائر الايام التى تقع فيها الوقائع وتلم فيها الملمات المعتادة التى ربما يتخلص من ذلك بالالتجاء الى بعض الاسباب العادية وعبر عن الماء فى محل اضماره بامر الله أى عذابه الذى أشير اليه حيث قيل حتى اذا جاء أمرنا تفخيما لشأنه وتهويلا لامره وتنبيها لابنه على

حمل هذه الوجوه المذكورة على ترك الافضل والاكمل وحسنات الابرار سيآت المقربين فلهذا السبب حصل هذا العتاب والامر بالاستغفار لا يدل على سابقة الذنب كما قال اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره ومعلوم ان مجئ نصر الله والفتح ودخول الناس فى دين الله أفواجا ليست بذنب يوجب الاستغفار وقال تعالى واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات وليس جميعهم مذنبين فدل ذلك على ان الاستغفار قد يكون بسبب ترك الافضل (المسئلة الثانية) قرأ نافع برواية ورش واسمعيل بتشديد النون واثبات الياء تسألنى وقرأ ابن عامر ونافع برواية قالون بتشديد النون وكسرها من غير اثبات الياء وقرأ أبو عمرو بتخفيف النون وكسرها وحذف الياء تسألن أما التشديد فللتأكيد وأما اثبات الياء فعلى الاصل وأما ترك التشديد والحذف فللتخفيف من غير اخلال واعلم انه تعالى لما نهاه عن ذلك السؤال حكى عنه أنه قال رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين والمعنى انه تعالى لما قال له فلا تسألن ما ليس لك به علم فقال عند ذلك قبلت يا رب هذا التكليف ولا أعود اليه الا أنى لا أقدر على الاحتراز منه الا باعانتك وهدايتك فلهذا بدأ أولا بقوله انى أعوذ بك واعلم ان قوله انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم اخبار عما فى المستقبل أى لا أعود الى هذا العمل ثم اشتغل بالاعتذار عما مضى فقال والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين وحقيقة التوبة تقتضى أمرين (أحدهما) فى المستقبل وهو العزم على الترك واليه الاشارة بقوله انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم (والثانى) فى الماضى وهو الندم على ما مضى واليه الاشارة بقوله والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ونختم هذا الكلام بالبحث عن الزلة التى صدرت عن نوح عليه السلام فى هذا المقام فنقول ان أمة نوح عليه السلام كانوا على ثلاثة أقسام كافر يظهر كفره ومؤمن يعلم ايمانه وجمع من المنافقين وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة وحكم الكافرين هو الغرق وكان ذلك معلوما وأما أهل النفاق فبقى حكمهم مخفيا وكان ابن نوح منهم وكان يجوز فيه كونه مؤمنا وكانت الشفقة المفرطة التى تكون من الاب فى حق الابن تحمله على حمل أعماله وأفعاله لا على كونه كافرا بل على الوجوه الصحيحة فلما رآه بمعزل عن القوم طلب منه أن يدخل السفينة فقال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء وذلك لا يدل على كفره لجواز ان يكون قد ظن أن الصعود على الجبل يجرى مجرى الركوب فى السفينة فى أنه يصونه عن الغرق وقول نوح لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم لا يدل الا على انه عليه السلام كان يقرر عند ابنه انه لا ينفعه الا الايمان والعمل الصالح وهذا أيضا لا يدل على انه علم من ابنه أنه كان كافرا فعند هذه الحالة كان قد بقى فى قلبه ظن ان ذلك الابن مؤمن فطلب من الله تعالى تخليصه بطريق من الطرق اما بأن يمكنه من الدخول فى السفينة واما بأن يحفظه على قلة جبل فعند ذلك أخبره الله تعالى بانه منافق وانه ليس من

خطئه في تسميته ماء وتوهمه أنه كسائر المياه التي يتفصى منها بالهرب الى بعض المهارب المعهودة وتعليلا للنفي المذكور فان أمر الله لا يغالب وعذابه لا يرد وتمهيدا لحصر العصمة في جناب الله عز جاره بالاستثناء كأنه قيل لا عاصم من أمر الله الا هو وانما قيل (الا من رحم) تفخيما لشأنه الجليل بالابهام ثم التفسير وبالاجمال ثم التفصيل واشعارا بعلية رحمته في ذلك بموجب سبقها على غضبه وكل ذلك لكمال عنايته عليه الصلاة والسلام بتحقيق ما يتوخاه من نجاة ابنه ببيان شان الداهية وقطع أطماعه الفارغة وصرفه عن التعلل بما لا يغني عنه شيئا وارشاده الى العياذ بالمعاذ الحق عز جاره وقيل لا مكان يعصم من أمر الله الا مكان من رحمه الله وهو الفلك وقيل معنى لا عاصم لا ذا عصمة الا من رحمه الله تعالى (وحال بينهما الموج) اي بين نوح وبين ابنه فانقطع ما بينهما من المجاوبة لا بين ابنه وبين الجبل لقوله تعالى (فكان من المغرقين) اذ هو انما يتفرع على حيلولة الموج بينه عليه الصلاة والسلام وبين ابنه لا بينه وبين الجبل لانه بمعزل من كونه عاصما وان لم يحل بينه وبين الملتجئ اليه موج وفيه دلالة على هلاك سائر الكفرة على أبلغ وجه فكان ذلك أمرا مقرر الوقوع غير مفتقر الى البيان وفي ايراد كان دون صار مبالغة في كونه منهم (وقيل يا أرض ابلعي) اي انشفي استعير له من ازدراد الحيوان ما يأكله للدلالة على أن ذلك ليس كالنشف المعتاد التدريجي (ماءك) اي ما على وجهك من ماء الطوفان دون المياه المعهودة فيها من العيون والانهار وعبر عنه بالماء بعد ما عبر عنه فيما سلف بأمر الله تعالى لان المقام مقام النقص والتقليل لا مقام التفخيم والتهويل (ويا سماء أقلعي) اي أمسكي عن ارسال المطر يقال أقلعت السماء اذا انقطع مطرها وأقلعت الحمى اي كفت (وغيض الماء) اي نقص ما بين السماء والارض من الماء (وقضي الامر) اي أنجز ما وعد الله تعالى نوحا من اهلاك قومه وانجائه بأهله أو أتم الامر (واستوت) اي استقرت الفلك

أهل دينه فالزلة الصادرة عن نوح عليه السلام هو انه لم يستقص في تعريف ما يدل على نفاقه وكفره بل اجتهد في ذلك وكان يظن أنه مؤمن مع أنه أخطأ في ذلك الاجتهاد لانه كان كافرا فلم يصدر عنه الا الخطأ في هذا الاجتهاد كما قررنا ذلك في ان آدم عليه السلام لم تصدر عنه تلك الزلة الا لانه أخطأ في الاجتهاد فثبت بما ذكرنا ان الصادر عن نوح عليه السلام ما كان من باب الكبائر وانما هو من باب الخطأ في الاجتهاد والله أعلم * قوله تعالى (قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى أخبر عن السفينة انها استوت على الجودي فهناك قد خرج نوح وقومه من السفينة لا محالة ثم انهم نزلوا من ذلك الجبل الى الارض فقوله اهبط يحتمل أن يكون أمرا بالخروج من السفينة الى أرض الجبل وان يكون أمرا بالهبوط من الجبل الى الارض المستوية (المسئلة الثانية) انه تعالى وعده عند الخروج بالسلامة أولا ثم بالبركة ثانيا اما الوعد بالسلامة فيحتمل وجهين (الاول) انه تعالى أخبر في الآية المتقدمة ان نوحا عليه السلام تاب عن زلته وتضرع الى الله تعالى بقوله والا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين وهذا التضرع هو عين التضرع الذي حكاه الله تعالى عن آدم عليه السلام عند توبته من زلته وهو قوله ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين فكان نوح عليه السلام محتاجا الى أن بشره الله تعالى بالسلامة من التهديد والوعيد فلما قيل له يا نوح اهبط بسلام منا حصل له الامن من جميع المكاره المتعلقة بالدين (والثاني) ان ذلك الغرق لما كان عاما في جميع الارض فعند ما خرج نوح عليه السلام من السفينة علم انه ليس في الارض شيء مما ينتفع به من النبات والحيوان فكان كالخائف في انه كيف يعيش وكيف يدفع جميع الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب فلما قال الله تعالى اهبط بسلام منا زال عنه ذلك الخوف لان ذلك يدل على حصول السلامة من الآفات ولا يكون ذلك الا مع الامن وسعة الرزق ثم انه تعالى لما وعده بالسلامة أردفه بان وعده بالبركة وهي عبارة عن الدوام والبقاء والثبات ونيل الامل ومنه بروك الابل ومنه البركة لثبوت الماء فيها ومنه تبارك وتعالى أي ثبت تعظيمه ثم اختلف المفسرون في تفسير هذا الثبات والبقاء فالقول الاول انه تعالى صير نوحا أبا البشر لان جميع من بقي كانوا من نسله وعند هذا قال هذا القائل انه لما خرج نوح من السفينة مات كل من كان معه ممن لم يكن من ذريته ولم يحصل النسل الا من ذريته فالخلق كلهم من نسله وذريته وقال آخرون لم يكن في سفينة نوح عليه السلام الا من كان من نسله وذريته وعلى التقديرين فالخلق كلهم انما تولدوا منه ومن أولاده والدليل عليه قوله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين فثبت ان نوحا عليه السلام كان آدم الاصغر فهذا هو المراد من البركات التي وعده الله بها (والقول الثاني) انه تعالى لما وعده بالسلامة من الآفات وعده بان موجبات السلامة والراحة والفراغة يكون في التزايد واثبات والاستقرار ثم انه تعالى

لما شرفه بالسلامة والبركة شرح بعده حال أولئك الذين كانوا معه فقال وعلى أمم ممن معك واختلفوا في المراد منه على ثلاثة أقوال منهم من حمله على أولئك الاقوام الذين نجوا معه وجعلهم أمما وجماعات لانه ما كان في ذلك الوقت في جميع الارض أحد من البشر الا هم فلهذا السبب جعلهم أمما ومنهم من قال بل المراد ممن معك نسلا وتولدا قالوا ودليل ذلك انه ما كان معه الا الذين آمنوا وقد حكم الله تعالى عليهم بالقلة في قوله تعالى وما آمن معه الا قليل ومنهم من قال المراد من ذلك مجموع الحاضرين مع الذين سيولدون بعد ذلك والمختار هو القول الثاني ومن في قوله ممن معك لابتداء الغاية والمعنى وعلى أمم ناشئة من الذين معك واعلم انه تعالى جعل تلك الامم الناشئة من الذين معه على قسمين (أحدهما) الذين عطفهم على نوح في وصول سلام الله وبركاته اليهم وهم أهل الايمان (والثاني) أمم وصفهم بأنه تعالى سيمتعهم مدة في الدنيا ثم في الآخرة يمسهم عذاب أليم فحكم تعالى بان الامم الناشئة من الذين كانوا مع نوح عليه السلام لابد وأن ينقسموا الى مؤمن والى كافر قال المفسرون دخل في تلك السلامة كل مؤمن وكل مؤمنة الى يوم القيامة ودخل في ذلك المتاع وفي ذلك العذاب كل كافر وكافرة الى يوم القيامة ثم قال اهل التحقيق انه تعالى انما عظم شأن نوح بايصال السلامة والبركات منه اليه لانه قال بسلام منا وهذا يدل على ان الصديقين لا يفرحون بالنعمة من حيث انها نعمة ولكنهم انما يفرحون بالنعمة من حيث انها من الحق وفي التحقيق يكون فرحهم بالحق وطلبهم للحق وتوجههم الى الحق وهذا مقام شريف لا يعرفه الا خواص الله تعالى فان الفرح بالسلامة وبالبركة من حيث هما سلامة وبركة غير والفرح بالسلامة والبركة من حيث انهما من الحق غير والاول نصيب عامة الخلق والثاني نصيب المقربين ولهذا السبب قال بعضهم من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني ومن آثر العرفان لا للعرفان بل للمعروف فقد خاض لجة الوصول وأما أهل العقاب فقد قال في شرح أحوالهم وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم فحكم بانه تعالى يعطيهم نصيبا من متاع الدنيا فدل ذلك على خساسة الدنيا فانه تعالى لما ذكر أحوال المؤمنين لم يذكر البتة أنه يعطيهم الدنيا أم لا ولما ذكر أحوال الكافرين ذكر انه يعطيهم الدنيا وهذا تنبيه عظيم على خساسة السعادات الجسمانية والترغيب في المقامات الروحانية * قوله تعالى (تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين) واعلم انه تعالى لما شرح قصة نوح عليه السلام على التفصيل قال تلك أي تلك الآيات التي ذكرناها وتلك التفاصيل التي شرحناها من أنباء الغيب أي من الاخبار التي كانت غائبة عن الخلق فقوله تلك في محل الرفع على الابتداء ومن أنباء الغيب الخبر ونوحيها اليك خبر ثان وما بعده أيضا خبر ثالث ثم قال تعالى ما كنت تعلمها أنت ولا قومك والمعنى انك ما كنت تعرف هذه القصة بل قومك ما كانوا يعرفونها أيضا ونظيره أن تقول لانسان لا تعرف هذه المسئلة لا أنت ولا أهل

(على الجودي) هو جبل بالموصل أو بالشام أو بآمل روي انه عليه الصلاة والسلام ركب الفلك في عاشر رجب ونزل على الجودي في عاشر المحرم فصام ذلك اليوم شكرا فصار سنة (وقيل بعدا للقوم الظالمين) اي هلاكا لهم والتعرض لوصف الظلم للاشعار بعليته للهلاك ولتذكير ما سبق من قوله تعالى ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون ولقد بلغت الآية الكريمة من مراتب الاعجاز قاصيتها وملكت من غرر المزايا ناصيتها وقد تصدى لتفصيلها المهرة المتقنون ولعمري ان ذلك فوق ما يصفه الواصفون فحري بنا أن نوجز الكلام في هذا الباب ونفوض الامر الى تأمل أولي الالباب والله عنده علم الكتاب (ونادى نوح ربه) اي أراد ذلك بدليل الفاء في قوله تعالى (فقال رب ان ابني من أهلي) وقد وعدتني انجاءهم في ضمن الامر بحملهم في الفلك أو النداء على الحقيقة والفاء لتفصيل ما فيه من الاجمال (وان وعدك الحق) اي وعدك ذلك أو ان كل وعد تعده حق لا يتطرق اليه خلف فيدخل فيه الوعد المعهود دخولا أوليا (وأنت أحكم الحاكمين) لانك أعلمهم وأعدلهم أو أنت أكثر حكمة من ذوي الحكم على أن الحاكم من الحكمة كالدارع من الدرع وهذا الدعاء منه عليه الصلاة والسلام على طريقة دعاء أيوب عليه الصلاة والسلام اذ نادى ربه اني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين (قال يا نوح) لما كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام بتذكير وعده جل ذكره مبنيا على كون كنعان من أهله نفى أولا كونه منهم بقوله تعالى (انه ليس من أهلك) اي ليس منهم أصلا لان مدار الاهلية هو القرابة الدينية ولا علاقة بين المؤمن والكافر أو ليس من أهلك الذين أمرتك بحملهم في الفلك لخروجه عنهم بالاستثناء وعلى التقديرين ليس هو من الذين وعد بانجائهم ثم علل عدم كونه منهم على طريقة الاستئناف التحقيقي بقوله تعالى (انه عمل غير صالح) أصله انه ذو عمل غير صالح فجعل نفس العمل مبالغة كما في قول الخنساء * فانما هي اقبال وادبار

وإيثار غير صالح على فاسد اما لان الفاسد ربما يطلق على ما فسد ومن شأنه الصلاح فلا يكون نصا فيما هو من قبيل الفاسد المحض كالقتل والمظالم واما للتلويح بان نجاة من نجا انما هى لصلاحه وقرأ الكسائى ويعقوب انه عمل غير صالح اى عملا غير صالح ولما كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام مبنيا على ما ذكر من اعتقاد كون كنعان من أهله وقد نفى ذلك وحقق ببيان علته فرع على ذلك النهى عن سؤال انجائه الا أنه جئ بالنهى على وجه عام يندرج فيه ذلك اندراجا أوليا فقيل (فلا تسألنى) اى اذا وقفت على جلية الحال فلا تطلب منى (ما ليس لك به علم) اى مطلبا لا تعلم يقينا أن حصوله صواب وموافق للحكمة على تقدير كون ما عبارة عن المسؤل الذى هو مفعول السؤال أو طلبا لا تعلم أنه صواب على تقدير كونه عبارة عن المصدر الذى هو مفعول مطلق فيكون النهى واردا بصريحه فى كل من معلوم الفساد ومشتبه الحال ويجوز أن يكون المعنى ما ليس لك علم بأنه صواب أو غير صواب فيكون النهى واردا فى مشتبه الحال ويفهم منه حال معلوم الفساد بالطريق الاولى وعلى التقديرين فهو عام يندرج تحته ما نحن فيه كما ذكرناه وهذا كما ترى صريح فى أن نداءه عليه الصلاة والسلام ربه عز وعلا ليس استفسارا عن سبب عدم انجاء ابنه مع سبق وعده بانجاء أهله وهو منهم كما قيل فان النهى عن استفسار ما لم يعلم غير موافق للحكمة اذ عدم العلم بالشئ داع الى الاستفسار عنه لا الى تركه بل هو دعاء منه لانجاء ابنه حين حال الموج بينهما ولم يعلم بهلاكه بعد اما بتقريبه الى الفلك بتلاطم الامواج أو بتقريبها اليه وقيل او بانجائه فى قلة الجبل ويأباه تذكير الوعد فى الدعاء فانه مخصوص بالانجاء فى الفلك وقوله تعالى لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم ومجرد حيلولة الموج بينهما لا يستوجب هلاكه فضلا عن العلم به لظهور امكان عصمة الله تعالى اياه برحمته وقد وعد بانجاء أهله ولم يكن ابنه مجاهرا بالكفر كما ذكرناه حتى لا يجوز عليه عليه السلام

بذلك فان قيل أليس قد كانت قصة طوفان نوح عليه السلام مشهورة عند اهل العلم قلنا تلك القصة بحسب الاجمال كانت مشهورة اما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة ثم قال فاصبر ان العاقبة للمتقين والمعنى يا محمد اصبر أنت وقومك على أذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح وقومه على أذى أولئك الكفار وفيه تنبيه على ان الصبر عاقبته النصر والظفر والفرح والسرور كما كان لنوح عليه السلام ولقومه فان قال قائل انه تعالى ذكر هذه القصة فى سورة يونس ثم انه أعادها ههنا مرة أخرى فما الفائدة فى هذا التكرير قلنا ان القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه ففى السورة الاولى كان الكفار يستعجلون نزول العذاب فذكر تعالى قصة نوح فى بيان ان قومه كانوا يكذبونه بسبب ان العذاب ما كان يظهر ثم فى العاقبة ظهر فكذا فى واقعة محمد صلى الله عليه وسلم وفى هذه السورة ذكر هذه القصة لاجل ان الكفار كانوا يبالغون فى الايحاش فذكر الله تعالى هذه القصة لبيان ان اقدام الكفار على الايذاء والايحاش كان حاصلا فى زمان نوح الا انه عليه السلام لما صبر نال الفتح والظفر فكن يا محمد كذلك لتنال المقصود ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة فى كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خاليا عن الفائدة * قوله تعالى (والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ان أنتم الا مفترون يا قوم لا أسئلكم عليه اجرا ان أجرى الا على الذى فطرنى أفلا تعقلون) اعلم ان هذا هو القصة الثانية من القصص التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة واعلم ان هذا معطوف على قوله ولقد أرسلنا نوحا والتقدير ولقد أرسلنا الى عاد أخاهم هودا وقوله هودا عطف بيان واعلم انه تعالى وصف هودا بأنه أخوهم ومعلوم ان تلك الاخوة ما كانت فى الدين وانما كانت فى النسب لان هودا كان رجلا من قبيلة عاد وهذه القبيلة كانت قبيلة من العرب وكانوا بناحية اليمن ونظيره ما يقال للرجل يا أخا تميم ويا أخا سليم والمراد رجل منهم فان قيل انه تعالى قال فى ابن نوح انه ليس من أهلك فبين ان قرابة النسب لا تفيد اذا لم تحصل قرابة الدين وههنا أثبت هذه الاخوة مع الاختلاف فى الدين فما الفرق بينهما قلنا المراد من هذا الكلام استمالة قوم محمد صلى الله عليه وسلم لان قومه كانوا يستبعدون فى محمد مع أنه واحد من قبيلتهم أن يكون رسولا اليهم من عند الله فذكر الله تعالى أن هودا كان واحدا من عاد وان صالحا كان واحدا من ثمود لازالة هذا الاستبعاد واعلم انه تعالى حكى عن هود عليه السلام انه دعا قومه الى أنواع من التكاليف (فالنوع الاول) انه دعاهم الى التوحيد فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ان أنتم الا مفترون وفيه سؤال وهو أنه كيف دعاهم الى عبادة الله تعالى قبل ان أقام الدلالة على ثبوت الاله تعالى قلنا دلائل وجود الله تعالى ظاهرة وهى دلائل الآفاق والانفس وقلما توجد فى الدنيا طائفة ينكرون وجود الاله تعالى ولذلك قال تعالى فى صفة الكفار ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله * قال مصنف هذا الكتاب محمد بن عمر الرازى رحمه الله وختم له

إتي بمحوه الى الفلك أو يعوز به لانجائه واعتزاله عنه عليه الصلاة والسلام وقصده الالتجاء الى الجبل ليس بنص فى الاصرار على الكفر لظهور جواز أن يكون ذلك لجهله بانحصار النجاة فى الفلك وزعمه أن الجبل أيضا يجرى مجراه أو لكراهة الاحتباس فى الفلك بل قوله سآوى الى جبل يعصمنى من الماء بعد ما قال له نوح عليه الصلاة والسلام ولا تكن مع الكافرين ربما يطمعه عليه السلام فى ايمانه حيث لم يقل أكون معهم أو سآوى أو يعصمنا فان افراد نفسه بنسبة الفعلين المذكورين ربما يشعر بانفراده من الكافرين واعتزاله عنهم وامتثاله بعض ما أمره به نوح عليه الصلاة والسلام الا أنه عليه الصلاة والسلام لو تأمل فى شأنه حق التأمل وتفحص عن أحواله فى كل ما يأتى ويذر لما اشتبه عليه أنه ليس بمؤمن وأنه المستثنى من أهله ولذلك قيل (انى أعظك أن تكون من الجاهلين) فعبر عن ترك الاولى بذلك وقرئ فلا تسألن بغير ياء الاضافة وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء (قال رب انى أعوذ بك أن أسألك) أى أطلب منك من بعد (ما ليس لى به علم) أى مطلوبا لا أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة أو طلبا لا أعلم أنه صواب سواء كان معلوم الفساد أو مشتبه الحال أو لا أعلم أنه صواب أو غير صواب على ما مر وهذه توبة منه عليه السلام مما وقع منه وانما لم يقل أعوذ بك منه أو من ذلك مبالغة فى التوبة واظهارا للرغبة والنشاط فيها وتبركا بذكر ما لقنه الله تعالى وهو أبلغ من أن يقول أتوب اليك أن أسألك لما فيه من الدلالة على كون ذلك أمرا هائلا محذورا لا محيص منه الا بالعوذ بالله تعالى وأن قدرته قاصرة عن النجاة من المكاره الا بذلك (والا تغفر لى) ما صدر عنى من السؤال المذكور (وترحمنى) بقبول توبتى (أكن من الخاسرين) أعمالا بسبب ذلك فان الذهول عن شكر الله تعالى لا سيما عند وصول مثل هذه النعمة الجليلة التى هى النجاة وهلاك الاعداء والاشتغال بما لا يعنى خصوصا بمبادى خلاص من قيل فى شأنه انه عمل غير صالح والتضرع الى الله تعالى

بالحسنى دخلت بلاد الهند فرأيت أولئك الكفار مطبقين على الاعتراف بوجود الاله وأكثر بلاد الترك أيضا كذلك وانما الشان فى عبادة الاوثان فانها آفة عمت أكثر أطراف الارض وهكذا الامر كان فى الزمان القديم أعنى زمان نوح وهود وصالح عليهم السلام فهؤلاء الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم كانوا يمنعونهم من عبادة الاصنام فكان قوله اعبدوا الله معناه لا تعبدوا غير الله والدليل عليه أنه قال عقيبه ما لكم من اله غيره وذلك يدل على أن المقصود من هذا الكلام منعهم عن الاشتغال بعبادة الاصنام وأما قوله ما لكم من اله غيره فقرئ غيره بالرفع صفة على محل الجار والمجرور وقرئ بالجر صفة على اللفظ ثم قال ان أنتم الا مفترون يعنى انكم كاذبون فى قولكم ان هذه الاصنام تحسن عبادتها أو فى قولكم انها تستحق العبادة وكيف لا يكون هذا كذبا وافتراء وهى جمادات لا حس لها ولا ادراك والانسان هو الذى ركبها وصورها فكيف يليق بالانسان الذى صنعها أن يعبدها وأن يضع الجبهة على التراب تعظيما لها ثم انه عليه الصلاة والسلام لما أرشدهم الى التوحيد ومنعهم عن عبادة الاوثان قال يا قوم لا أسألكم عليه أجرا ان أجرى الا على الذى فطرنى وهو عين ما ذكره نوح عليه السلام وذلك لان الدعوة الى الله تعالى اذا كانت مطهرة عن دنس الطمع قوى تأثيرها فى القلب ثم قال أفلا تعقلون يعنى أفلا تعقلون انى مصيب فى المنع من عبادة الاصنام وذلك لان العلم بصحة هذا المنع كأنه مركوز فى بدائة العقول ❁ قوله تعالى (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين) اعلم أن هذا هو النوع الثانى من التكاليف التى ذكرها هود عليه السلام لقومه وذلك لانه فى المقام الاول دعاهم الى التوحيد وفى هذا المقام دعاهم الى الاستغفار ثم الى التوبة والفرق بينهما قد تقدم فى أول هذه السورة قال أبو بكر الاصم استغفروا أى سلوه أن يغفر لكم ما تقدم من شرككم ثم توبوا من بعده بالندم على ما مضى وبالعزم على أن لا تعودوا الى مثله ثم انه عليه السلام قال انكم متى فعلتم ذلك فالله تعالى يكثر النعم عندكم ويقويكم على الانتفاع بتلك النعم وهذا غاية ما يراد من السعادات فان النعم ان لم تكن حاصلة تعذر الانتفاع وان كانت حاصلة الا أن الحيوان قام به المنع من الانتفاع بها لم يحصل المقصود أيضا أما اذا كثرت النعمة وحصلت القوة الكاملة على الانتفاع بها فههنا تحصل غاية السعادة والبهجة فقوله تعالى يرسل السماء عليكم مدرارا اشارة الى تكثير النعم لان مادة حصول النعم هى الامطار الموافقة وقوله ويزدكم قوة الى قوتكم اشارة الى كمال حال القوى التى بها يمكن الانتفاع بتلك النعمة ولا شك ان هذه الكلمة جامعة فى البشارة بتحصيل السعادات وان الزيادة عليها ممتنعة فى صريح العقل ويجب على العاقل أن يتأمل فى هذه اللطائف ليعرف ما فى هذا الكتاب الكريم من الاسرار المخفية وأما المفسرون فانهم قالوا القوم كانوا مخصوصين فى الدنيا بنوعين من الكمال (أحدهما) أن بساتينهم ومزارعهم كانت فى غاية الطيب

والبهجة والدليل عليه قوله ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد (والثاني) أنهم كانوا في غاية القوة والبطش ولذلك قالوا من أشد منا قوة ولما كان القوم مفتخرين على سائر الخلق بهذين الامرين وعدهم هود عليه السلام انهم لو تركوا عبادة الاصنام واشتغلوا بالاستغفار والتوبة فان الله تعالى يقوى حالهم في هذين المطلوبين ويزيدهم فيهما درجات كثيرة ونقل أيضا ان الله تعالى لما بعث هودا عليه السلام اليهم وكذبوه وحبس الله عنهم المطر سنين وأعقم أرحام نسائهم فقال لهم هود ان آمنتم بالله أحيا الله بلادكم ورزقكم المال والولد فذلك قوله يرسل السماء عليكم مدرارا والمدرار الكثير الدر وهو من أبنية المبالغة وقوله ويزدكم قوة الى قوتكم ففسروا هذه القوة بالمال والولد والشدة في الاعضاء لان كل ذلك مما يتقوى به الانسان فان قيل حاصل الكلام هو أن هودا عليه السلام قال لو اشتغلتم بعبادة الله تعالى لانفتحت عليكم أبواب الخيرات الدنيوية وليس الامر كذلك لانه عليه الصلاة والسلام قال خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل فكيف الجمع بينهما وأيضا فقد جرت عادة القرآن بالترغيب في الطاعات بسبب ترتيب الخيرات الدنيوية والاخروية عليها فأما الترغيب في الطاعات لاجل ترتيب الخيرات الدنيوية عليها فذلك لا يليق بالقرآن بل هو طريق مذكور في التوراة (الجواب) انه لما أكثر الترغيب في السعادات الاخروية لم يبعد الترغيب أيضا في خير الدنيا بقدر الكفاية وأما قوله ولا تتولوا مجرمين فمعناه لا تعرضوا عني وعما أدعوكم اليه وأرغبكم فيه مجرمين أي مصرين على اجرامكم وآثامكم * قوله تعالى (قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال اني أشهد الله واشهدوا أني برىء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون اني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم) اعلم انه تعالى لما حكى عن هود عليه السلام ما ذكره للقوم حكى أيضا ما ذكره القوم له وهو أشياء (أولها) قولهم ما جئتنا ببينة أي بحجة والبينة سميت بينة لانها تبين الحق من الباطل ومن المعلوم أنه عليه السلام كان قد أظهر المعجزات الا أن القوم بجهلهم أنكروها وزعموا أنه ما جاء بشىء من المعجزات (وثانيها) قولهم وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وهذا أيضا ركيك لانهم كانوا يعترفون بأن النافع والضار هو الله تعالى وان الاصنام لا تنفع ولا تضر ومتى كان الامر كذلك فقد ظهر في بديهة العقل أنه لا تجوز عبادتها وتركهم آلهتهم لا يكون عن مجرد قوله بل عن حكم نظر العقل وبديهة النفس (وثالثها) قوله وما نحن لك بمؤمنين وهذا يدل على الاصرار والتقليد والجحود (ورابعها) قولهم ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء يقال اعتراه كذا اذا غشيه وأصابه والمعنى انك شتمت آلهتنا فجعلتك مجنونا وأفسدت عقلك ثم انه تعالى ذكر أنهم لما قالوا ذلك قال هود عليه السلام اني أشهد الله واشهدوا أني برىء مما تشركون من دونه وهو ظاهر ثم قال فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون وهذا نظير

في أمر معاملة غير رابحة وخسران مبين وتأخير ذكر هذا النداء عن حكاية الامر الوارد على الارض والسماء وما يتلوه من زوال الطوفان وقضاء الامر واستواء الفلك على الجودي والدعاء بالهلاك على الظالمين مع أن حقه أن يذكر عقيب قوله تعالى فكان من المغرقين حسبما وقع في الخارج اذ حينئذ يتصور الدعاء بالانجاء لا بعد العلم بالهلاك ليس لما قيل من استقلاله بغرض مهم هو جعل قرابة الدين غامرة لقرابة النسب وأن لا يقدم في الامور الدينية الاصولية الا بعد اليقين قياسا على ما وقع في قصة البقرة من تقديم ذكر الامر بذبحها على ذكر القتيل الذي هو أول القصة وكان حقها أن يقال واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة فاضربوه ببعضها كما قرر في موضعه فان تغيير الترتيب هناك للدلالة على كمال سوء حال اليهود بتعديد جناياتهم المتنوعة وتثنية التقريع عليهم بكل نوع على حدة فقوله تعالى واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة الخ لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة الى الامتثال وما يتبع ذلك وقوله تعالى واذ قتلتم نفسا الخ للتقريع على قتل النفس المحرمة وما يتبعه من الامور العظيمة ولو قصت القصة على ترتيبها لفات الغرض الذي هو تثنية التقريع ولظن أن المجموع تقريع واحد وأما ما نحن فيه فليس مما يمكن أن يراعى فيه مثل تلك النكتة أصلا وما ذكر من جعل القرابة الدينية غامرة للقرابة النسبية الخ لا يفوت على تقدير سوق الكلام على ترتيب الوقوع أيضا بل لان ذكر هذا النداء كما ترى مستدع لذكر ما مر من الجواب المستدعي لذكر ما مر من توبته عليه الصلاة والسلام المؤدي ذكرها الى ذكر قبولها في ضمن الامر الوارد بنزوله عليه الصلاة والسلام من الفلك بالسلام والبركات الفائضة عليه وعلى المؤمنين حسبما سيجىء مفصلا ولا ريب في أن هذه المعاني آخذ بعضها بحجزة بعض بحيث لا يكاد يفرق الآيات الكريمة المنطوية عليها بعضها من بعض وان ذلك انما يتم بتمام القصة ولا ريب أن ذلك انما يكون بتمام الطوفان فلا جرم

اقتضى الحال ذكر تمامها قبل هذا النداء وذلك انما يكون عند ذكر كون كنعان من المغرقين ولهذه النكتة ازداد حسن موقع الايجاز البليغ وفيه فائدة أخرى هي التصريح بهلاكه من أول الامر ولو ذكر النداء الثانى عقيب قوله تعالى فكان من المغرقين لربما توهم من أول الامر الى أن يرد قوله انه ليس من أهلك أنه ينجو بدعائه عليه الصلاة والسلام فنص على هلاكه من أول الامر ثم ذكر الامر الوارد على الارض والسماء الذى هو ﴿ ١٠٠ ﴾ عبارة عن تعلق الارادة الربانية الازلية بما ذكر من الغيض والاقلاع وبين بلوغ أمر الله محله وجريان قضائه ونفوذ حكمه عليهم بهلاك من هلك ونجاة من نجا بتمام ذلك الطوفان واستواء الفلك على الجودى فقصت القصة الى هذه المرتبة وبين ذلك أى بيان ثم تعرض لما وقع فى تضاعيف ذلك مما جرى بين نوح عليه السلام و بين رب العزة جلت حكمته فذكر بعد توبته عليه الصلاة والسلام قبولها بقوله (قيل يانوح اهبط) أى انزل من الفلك وقرئ بضم الباء (بسلام) ملتبسا بسلامة من المكاره كائنة (منا) أو بسلام وتحية منا عليك كما قال سلام على نوح فى العالمين (و بركات عليك) أى خيرات نامية فى نسلك ومايقوم به معاشك ومعاشهم من أنواع الارزاق وقرئ بركة وهذا اعلام و بشارة من الله تعالى بقبول توبته وخلاصه من الخسران بفيضان أنواع الخيرات عليه فى كل ما يأتى وما يذر (وعلى أمم) ناشئة (ممن معك) الى يوم القيامة متشعبة منهم فمن ابتدائية والمراد الامم المؤمنة المتناسلة ممن معه الى يوم القيامة (وأمم سنمتعهم) أى ومنهم على انه خبر حذف لدلالة ﴿ تدخل ﴾ ماسبق عليه فان ايراد الامم المبارك عليهم المتشعبة منهم نكرة يدل على أن بعض من يتشعب منهم ليسوا على صفتهم يعنى ليس جميع من تشعب منهم مسلما ومباركا عليه بل منهم أمم ممتعون فى الدنيا معذبون فى الآخرة وعلى هذا لايكون الكائنون مع نوح عليه السلام مسلما ومباركا عليهم صريحا وانما يفهم ذلك من كونهم مع نوح عليه الصلاة والسلام

ماقاله نوح عليه السلام لقومه فأجمعوا أمركم وشركاءكم الى قوله ولاتنظرون واعلم ان هذا معجزة قاهرة وذلك أن الرجل الواحد اذا أقبل على القوم العظيم وقال لهم بالغوا فى عداوتى وفى موجبات ايذائى ولاتؤجلون فانه لايقول هذا الا اذا كان واثقا من عند الله تعالى بأنه يحفظه ويصونه عن كيد الاعداء ثم قال مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها قال الازهرى الناصية عند العرب منبت الشعر فى مقدم الرأس و يسمى الشعر النابت هناك ناصية باسم منبته واعلم أن العرب اذا وصفوا انسانا بالذلة والخضوع قالوا ما ناصية فلان الا بيد فلان أى انه مطيع له لان كل من أخذت بناصيته فقد قهرته وكانوا اذا أسروا الاسير فأرادوا اطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره فخوطبوا فى القرآن بما يعرفون فقوله مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها أى مامن حيوان الا وهو تحت قهره وقدرته ومنقاد لقضائه وقدره ثم قال أن ربى على صراط مستقيم وفيه وجوه (الاول) انه تعالى لما قال مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها أشعر ذلك بقدرة عالية وقهر عظيم فأتبعه بقوله ان ربى على صراط مستقيم أى انه وان كان قادرا عليهم لكنه لايظلمهم ولايفعل بهم الا ما هو الحق والعدل والصواب قالت المعتزلة قوله مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها يدل على التوحيد وقوله ان ربى على صراط مستقيم يدل على العدل فثبت ان الدين انما يتم بالتوحيد والعدل (الثانى) انه تعالى لما ذكر أن سلطانه قهر جميع الخلق أتبعه بقوله ان ربى على صراط مستقيم يعنى أنه لايخفى عليه مستتر ولايفوته هارب فذكر الصراط المستقيم وهو يعنى به الطريق الذى لايكون لاحد مسلك الا عليه كما قال ان ربك لبالمرصاد (الثالث) أن يكون المراد ان ربى يدل على الصراط المستقيم أى يحث أو يحملكم بالدعاء اليه * قوله تعالى (فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم و يستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا ان ربى على كل شئ حفيظ) اعلم أن قوله فان تولوا يعنى فان تتولوا ثم فيه وجهان (الاول) تقدير الكلام فان تتولوا لم أعاتب على تقصير فى الابلاغ وكنتم محجوجين كأنه يقول أنتم الذين أصررتم على التكذيب (الثانى) فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم ثم قال و يستخلف ربى قوما غيركم يعنى يخلق بعدكم من هو أطوع لله منكم وهذا اشارة الى نزول عذاب الاستئصال ولا تضرونه شيئا يعنى ان اهلاككم لاينقص من ملكه شيئا ثم قال ان ربى على كل شئ حفيظ وفيه ثلاثة أوجه (الاول) حفيظ لاعمال العباد حتى يجازيهم عليها (الثانى) يحفظنى من شركم ومكركم (الثالث) حفيظ على كل شئ يحفظه من الهلاك اذا شاء و يهلكه اذا شاء * قوله تعالى (ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة و يوم القيامة ألا ان عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود) اعلم أن قوله ولما جاء أمرنا أى عذابنا وذلك هو ما نزل بهم من الريح العقيم عذبهم الله بها سبع ليال وثمانية أيام

وممن كون ذرياتهم كذلك بدلالة النص ويجوز أن تكون من بيانية أى وعلى امم هم الذين معك وانما سموا امما لانهم امم محزبة وجماعات متفرقة أو لان جميع الامم انما تشعبت منهم فحينئذ يكون المراد بالامم المشار اليهم فى قوله تعالى وأمم سنمتعهم بعض الامم المتشعبة منهم وهى الامم الكافرة المتناسلة منهم الى يوم القيامة ويبقى أمر الامم المؤمنة الناشئة منهم مبهما غير متعرض له ولا مدلول عليه ومع ذلك ففى دلالة المذكور على خبره ﴿ ١٠١ ﴾ المحذوف خفاء لان من المذكورة بيانية والمحذوفة تبعيضية أو ابتدائية فتأمل (ثم يمسهم) اما فى الآخرة أو فى الدنيا أيضا (منا عذاب أليم) عن محمد بن كعب القرظى دخل فى ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر وعن ابن زيد هبطوا والله عنهم راض ثم أخرج منهم نسلا منهم من رحم ومنهم من عذب وقيل المراد بالامم الممتعة قوم هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام وبالعذاب ما نزل بهم (تلك) اشارة الى ما قص من قصة نوح عليه الصلاة والسلام اما لكونها بتقضيها فى حكم البعيد أو للدلالة على بعد منزلتها وهى مبتدأ خبره (من انباء الغيب) أى من جنسها أى ليست من قبيل سائر الانباء بل هى نسيج وحدها منفردة عما عداها أو بعضها (نوحيها اليك) خبر ثان والضمير لها أى موحاة اليك أو هو الخبر ومن أنباء متعلق به فالتعبير بصيغة المضارع لاستحضار الصورة أو حال من أنباء الغيب أى موحاة اليك (ما كنت تعلمها انت ولا قومك) خبر آخر أى مجهولة عندك وعند قومك (من قبل هذا) أى من قبل ايحائنا اليك واخبارك بها أو من قبل هذا العلم الذى كسبته بالوحى أو من قبل هذا الوقت أو حال من الهاء فى نوحيها أو الكاف فى اليك أى جاهلا أنت وقومك بها وفى ذكر جهلهم تنبيه على أنه عليه الصلاة والسلام لم يتعلمه اذ لم يخالط غيرهم وانهم مع كثرتهم لما لم يعلموه فكيف بواحد منهم (فاصبر) متفرع على الايحاء أو العلم المستفاد منه المدلول عليه بقوله ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل

تدخل فى مناخرهم وتخرج من أدبارهم وتصرعهم على الارض على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية فان قيل فهذه الريح كيف تؤثر فى اهلاكهم قلنا يحتمل أن يكون ذلك لشدة حرها أو لشدة بردها أو لشدة قوتها فتخطف الحيوان من الارض ثم تضرب به على الارض فكل ذلك محتمل وأما قوله نجينا هودا فاعلم أنه يجوز اتيان البلية على المؤمن وعلى الكافر معا وحينئذ تكون تلك البلية رحمة على المؤمن وعذابا على الكافر فأما العذاب النازل بمن يكذب الانبياء عليهم السلام فانه يجب فى حكمة الله تعالى أن ينجى المؤمن منه ولولا ذلك لما عرف به كونه عذابا على كفرهم فلهذا السبب قال الله تعالى ههنا نجينا هودا والذين آمنوا معه * وأما قوله برحمة منا ففيه وجوه (الاول) أراد أنه لا ينجو أحد وان اجتهد فى الايمان والعمل الصالح الا برحمة من الله (والثانى) المراد من الرحمة ما هداهم اليه من الايمان بالله والعمل الصالح (الثالث) أنه رحمهم فى ذلك الوقت وميزهم عن الكافرين فى العقاب * وأما قوله ونجيناهم من عذاب غليظ فالمراد من النجاة الاولى هى النجاة من عذاب الدنيا والنجاة الثانية من عذاب القيامة وانما وصفه بكونه غليظا تنبيها على أن العذاب الذى حصل لهم بعد موتهم بالنسبة الى العذاب الذى وقعوا فيه كان عذابا غليظا والمراد من قوله تعالى ونجيناهم أى حكمنا بأنهم لا يستحقون ذلك العذاب الغليظ ولا يقعون فيه واعلم أنه تعالى لما ذكر قصة عاد خاطب قوم محمد صلى الله عليه وسلم فقال وتلك عاد فهو اشارة الى قبورهم وآثارهم كأنه تعالى قال سيروا فى الارض فانظروا اليها واعتبروا * ثم انه تعالى جمع أوصافهم ثم ذكر عاقبة أحوالهم فى الدنيا والآخرة فأما أوصافهم فهى ثلاثة (الصفة الاولى) قوله جحدوا بآيات ربهم والمراد أنهم جحدوا دلالة المعجزات على الصدق أو جحدوا دلالة المحدثات على وجود الصانع الحكيم ان ثبت أنهم كانوا زنادقة (الصفة الثانية) قوله وعصوا رسله والسبب فيه أنهم اذا عصوا رسولا واحدا فقد عصوا جميع الرسل لقوله تعالى لا نفرق بين أحد من رسله وقيل لم يرسل اليهم الا هود عليه السلام (الصفة الثالثة) قوله واتبعوا أمر كل جبار عنيد والمعنى ان السفلة كانوا يقلدون الرؤساء فى قولهم ما هذا الا بشر مثلكم والمراد من الجبار المرتفع المتمرد والعنيد العنود والمعاند وهو المنازع المعارض * واعلم أنه تعالى لما ذكر أوصافهم ذكر بعد ذلك أحوالهم فقال وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة أى جعل اللعن رديفا لهم ومتابعا ومصاحبا فى الدنيا وفى الآخرة ومعنى اللعنة الابعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير ثم انه تعالى بين السبب الاصلى فى نزول هذه الاحوال المكروهة بهم فقال ألا ان عادا كفروا ربهم قيل أراد كفروا بربهم فحذف الباء وقيل الكفر هو الجحد فالتقدير ألا ان عادا جحدوا ربهم وقيل هو من باب حذف المضاف أى كفروا نعمة ربهم ثم قال ألا بعدا لعاد قوم هود وفيه سؤالان (السؤال الاول) اللعن هو البعد فلما قال وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة فما الفائدة فى قوله ألا بعدا لعاد (والجواب)

التكرير بعبارتين مختلفتين يدل على غاية التأكيد (السؤال الثانى) ما الفائدة فى قوله لعاد قوم هود (الجواب) كان عاد عادين فالاولى القديمة هم قوم هود والثانية هم ارم ذات العماد فذكر ذلك لازالة الاشتباه (والثانى) ان المبالغة فى التنصيص تدل على مزيد التأكيد * قوله تعالى (والى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربى قريب مجيب قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا واننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب) اعلم ان هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة فى هذه السورة وهى قصة صالح مع ثمود ونظمها مثل النظم المذكور فى قصة هود الا ان ههنا لما أمرهم بالتوحيد ذكر فى تقريره دليلين (الدليل الاول) قوله هو أنشأكم من الارض وفيه وجهان (الاول) ان الكل مخلوقون من صلب آدم وهو كان مخلوقا من الارض وأقول هذا صحيح لكن فيه وجه آخر وهو أقرب منه وذلك لان الانسان مخلوق من المنى ومن دم الطمث والمنى انما تولد من الدم فالانسان مخلوق من الدم والدم انما تولد من الاغذية وهذه الاغذية اما حيوانية واما نباتية والحيوانات حالها كحال الانسان فوجب انتهاء الكل الى النبات وظاهر أن تولد النبات من الارض فثبت انه تعالى أنشأنا من الارض (والوجه الثانى) أن تكون كلمة من معناها فى والتقدير أنشأكم فى الارض وهذا ضعيف لانه متى أمكن حمل الكلام على ظاهره فلا حاجة الى صرفه عنه وأما تقرير أن تولد الانسان من الارض كيف يدل على وجود الصانع فقد شرحناه مرارا كثيرة (الدليل الثانى) قوله واستعمركم فيها وفيه ثلاثة أوجه (الاول) جعلكم عمارها قالوا كان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الانهار وغرس الاشجار لاجرم حصلت لهم الاعمار الطويلة فسأل نبى من أنبياء زمانهم ربه ماسبب تلك الاعمار فأوحى الله تعالى اليه انهم عمروا بلادى فعاش فيها عبادى وأخذ معاوية فى احياء أرض فى آخر عمره فقيل له ماحملك عليه فقال ماحملنى عليه الاقول القائل

ليس الفتى بفتى لايستضاء به * ولايكون له فى الارض آثار

(الثانى) أنه تعالى أطال أعماركم فيها واشتقاق واستعمركم من العمر مثل استبقاكم من البقاء (والثالث) انه مأخوذ من العمرى أى جعلها لكم طول أعماركم فاذا متم انتقلت الى غيركم واعلم أن فى كون الارض قابلة للعمارات النافعة للانسان وكون الانسان قادرا عليها دلالة عظيمة على وجود الصانع ويرجع حاصله الى ماذكره الله تعالى فى آية أخرى وهى قوله والذى قدر فهدى وذلك لان حدوث الانسان مع انه حصل فى ذاته العقل الهادى والقدرة على التصرفات الموافقة يدل على وجود الصانع الحكيم وكون الارض موصوفة بصفات مطابقة للمصالح موافقة للمنافع يدل أيضا على وجود الصانع الحكيم أما قوله فاستغفروه ثم توبوا اليه فقد تقدم تفسيره * وأما قوله ان ربى قريب مجيب يعنى انه

هذا أي وإذ قد أوحيناها اليك او علمتها بذلك فاصبر على مشاق تبليغ الرسالة وأذية قومك كما صبر نوح على ما سمعته من أنواع البلايا فى هذه المدة المتطاولة وهذا ناظر الى ماسبق من قوله تعالى فلعلك تارك بعض مايوحى اليك الخ (ان العاقبة) بالظفر فى الدنيا وبالفوز فى الآخرة (للمتقين) كما شاهدته فى نوح عليه الصلاة والسلام وقومه ولك فيه اسوة حسنة فهى تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليل للامر بالصبر فان كون العاقبة الحميدة للمتقين وهو فى أقصى درجات التقوى والمؤمنون كلهم متقون مما يسليه عليه الصلاة والسلام ويهون عليه الخطوب ويذهب عنه ما عسى يعتريه من ضيق صدره وهذا على تقدير أن يراد بالتقوى الدرجة الاولى منه اعنى التوقى من العذاب المخلد بالتبرؤ من الشرك وعليه قوله تعالى وألزمهم كلمة التقوى ويجوز أن يراد الدرجة الثالثة منه وهى أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق ويتبتل اليه بشراشره وهو التقوى الحقيقى المطلوب بقوله تعالى اتقوا الله حق تقاته فان التقوى بهذا المعنى منطو على الصبر المذكور فكأنه قيل فاصبر فان العاقبة للصابرين (والى عاد) متعلق بمضمر معطوف على قوله تعالى أرسلنا فى قصة نوح وهو الناصب لقوله تعالى (أخاهم) أى وأرسلنا الى عاد أخاهم أى واحدا منهم فى النسب كقولهم يا أخا العرب وتقديم المجرور على المنصوب ههنا للحذار عن الاضمار قبل الذكر وقيل متعلق بالفعل المذكور فيما سبق وأخاهم معطوف على نوحا وقد مر فى سورة الاعراف وقوله تعالى (هودا) عطف بيان لاخاهم وكان عليه الصلاة والسلام من جملتهم فانه هود بن عبدالله بن رباح بن الخلود بن العوص بن ارم بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام وقيل هود بن شالح بن ارفخشذ بن سام بن نوح ابن عم أبى عاد وانما جعل منهم لانهم أفهم لكلامه وأعرف بحاله وأرغب فى اقتفائه (قال) لما كان ذكر ارساله عليه الصلاة والسلام اليهم مظنة للسؤال عما قال لهم ودعاهم اليه أجيب عنه بطريق الاستئناف فقيل

قال (ياقوم اعبدوا الله) أى وحده كما ينبئ عنه قوله تعالى (مالكم من اله غيره) فانه استئناف يجرى مجرى البيان للعبادة المأمور بها والتعليل للامر بها كأنه قيل خصوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئا اذ ليس لكم من اله سواه وغيره بالرفع صفة لانه باعتبار محله وقرئ بالجر حملا له على لفظه (ان أنتم) ما أنتم باتخاذكم الاصنام شركاء له أو بقولكم ان الله أمرنا بعبادتها (الامفترون) عليه تعالى عن ذلك علوا كبيرا (ياقوم لااسألكم عليه أجرا ﴿١٠٣﴾ ان أجرى الاعلى الذى فطرنى) خاطب به كل نبى قومه ازاحة لما عسى يتوهمونه وامحاضا للنصيحة فانها مادامت مشوبة بالمطامع بمعزل عن التأثير وايراد الموصول للتفخيم وجعل الصلة فعل الفطرة لكونه أقدم النعم الفائضة من جناب الله تعالى المستوجبة للشكر الذى لايتأتى الا بالجريان على موجب أمره الغالب معرضا عن المطالب الدنيوية التى من جملتها الاجر (أفلا تعقلون) أى أتغفلون عن هذه القضية أو ألا تتفكرون فيها فلا تعقلونها او أتجهلون كل شئ فلا تعقلون شيئا أصلا فان هذا مما لاينبغى أن يخفى على أحد من العقلاء (وياقوم استغفروا ربكم) أى اطلبوا مغفرته لما سلف منكم من الذنوب بالايمان والطاعة (ثم توبوا اليه) أى توسلوا اليه بالتوبة وأيضا التبرؤ من الغير انما يكون بعد الايمان بالله تعالى والرغبة فيما عنده (يرسل السماء) أى المطر (عليكم مدرارا) أى كثير الدرور (ويزدكم قوة) مضافة ومنضمة (الى قوتكم) أى يضاعفها لكم وانما رغبهم بكثرة المطر لانهم كانوا أصحاب زروع وعمارات وقيل حبس الله تعالى عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاث سنين فوعدهم عليه الصلاة والسلام كثرة الامطار وتضاعف القوة بالتناسل على الايمان والتوبة (ولاتتولوا) أى لاتعرضوا عما دعوتكم اليه (مجرمين) مصرين على ما كنتم عليه من الاجرام (قالوا ياهود ماجئتنا ببينة) أى بحجة تدل على صحة دعواك وانما قالوه لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من البينات الفائتة للحصر (وما نحن بتاركى آلهتنا) أى بتاركى

قريب بالعلم والسمع مجيب دعاء المحتاجين بفضله ورحمته ثم بين تعالى أن صالحا عليه السلام لما قرر هذه الدلائل قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا وفيه وجوه (الاول) انه لما كان رجلا قوى العقل قوى الخاطر وكان من قبيلتهم قوى رجاؤهم فى أن ينصر دينهم ويقوى مذهبهم ويقرر طريقتهم لانه متى حدث رجل فاضل فى قوم طمعوا فيه من هذا الوجه (الثالث) قال بعضهم المراد انك كنت تعطف على فقرائنا وتعين ضعفاءنا وتعود مرضانا فقوى رجاؤنا فيك انك من الانصار والاحباب فكيف أظهرت العداوة والبغضة ثم انهم أضافوا الى هذا الكلام التعجب الشديد من قوله فقالوا أتنهانا ان نعبد مايعبد آباؤنا والمقصود من هذا الكلام التمسك بطريق التقليد ووجوب متابعة الآباء والاسلام ونظير هذا التعجب ما حكاه الله تعالى عن كفار مكة حيث قالوا أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشئ عجاب ثم قالوا واننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب والشك هو أن يبقى الانسان متوقفا بين النفى والاثبات والمريب هو الذى يظن به السوء فقوله واننا لفى شك يعنى به انه لم يترجح فى اعتقادهم صحة قوله وقوله مريب يعنى انه ترجح فى اعتقادهم فساد قوله وهذا مبالغة فى تزييف كلامه * قوله تعالى (قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله ان عصيته فما تزيدوننى غير تخسير) اعلم أن قوله ان كنت على بينة من ربى ورد بحرف الشك وكان على يقين تام فى أمره الا ان خطاب المخالف على هذا الوجه أقرب الى القبول فكأنه قال قدروا أنى على بينة من ربى وأنى نبى على الحقيقة وانظروا انى ان تابعتكم وعصيت ربى فى أوامره فمن يمنعنى من عذاب الله فما تزيدوننى على هذا التقدير غير تخسير وفى تفسير هذه الكلمة وجهان (الاول) ان على هذا التقدير تخسرون أعمالى وتبطلونها (الثانى) ان يكون التقدير فما تزيدوننى بما تقولون لى وتحملوننى عليه غير أن أخسركم أى أنسبكم الى الخسران وأقول لكم انكم خاسرون والقول الاول أقرب لان قوله فمن ينصرنى من الله ان عصيت كالدلالة على انه أراد ان اتبعكم فيما أنتم عليه من الكفر الذى دعوتمونى اليه لم ازدد الا خسرانا فى الدين فاصير من الهالكين الخاسرين * قوله تعالى (وياقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة ايام ذلك وعد غير مكذوب) اعلم ان العادة فيمن يدعى النبوة عند قوم يعبدون الاصنام أن يبتدئ بالدعوة الى عبادة الله ثم يتبعه بدعوى النبوة لابدوأن يطلبوا منه المعجز وأمر صالح عليه السلام هكذا كان * يروى أن قومه خرجوا فى عيد لهم فسألوه أن يأتيهم بآية وأن يخرج لهم من صخرة معينة أشاروا اليها ناقة فدعا صالح ربه فخرجت الناقة كما سألوا واعلم أن تلك الناقة كانت معجزة من وجوه (الاول) انه تعالى خلقها من الصخرة (وثانيها) انه تعالى خلقها فى جوف الجبل ثم شق عنها الجبل (وثالثها) انه تعالى خلقها حاملا من غير ذكر (ورابعها) انه خلقها على تلك الصورة دفعة واحدة من غير ولادة

عبادتها (عن قولك) أى صادرين عنه أى صادر تركنا عن ذلك بإسناد حال الوصف الى الموصوف ومعناه التعليل على أبلغ وجه لدلالته على كونه علة فاعلية ولا يفيده الباء واللام وهذا كقولهم المنقول عنهم فى سورة الاعراف أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا (وما نحن لك بمؤمنين) أى بمصدقين فى شىء ما تأتى وتذر فيندرج تحته ما دعاهم اليه من التوحيد وترك عبادة الآلهة وفيه من الدلالة على شدة الشكيمة وتجاوز الحد فى العتو ما لا يخفى (ان نقول الا اعتراك) أى ما نقول الا قولنا اعتراك أى أصابك (بعض آلهتنا بسوء) بجنون لسبك اياها وصدك عن عبادتها وحطك لها عن رتبة الالوهية والمعبودية بمسمع من قولك ما لكم من اله غيره ان أنتم الا مفترون والتنكير فى سوء للتقليل كأنهم لم يبالغوا فى السوء كما ينبئ عنه نسبة ذلك الى بعض آلهتهم دون كلها والجملة مقول القول والا لغو لان الاستثناء مفرغ وهذا الكلام مقرر لما مر من قولهم وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين فان اعتقادهم بكونه عليه الصلاة والسلام كما قالوا وحاشاه عن ذلك يوجب عدم الاعتداد بقوله وعده من قبيل الخرافات فضلا عن التصديق والعمل بمقتضاه يعنون انا لا نعد كلامك الا من قبيل ما لا يحتمل الصدق والكذب من الهذيانات الصادرة عن المجانين فكيف نصدقه ونؤمن به ونعمل بموجبه ولقد سلكوا فى طريقة المخالفة والعناد الى سبيل الترقى من الادنى الى الاعلى حيث أخبروا أولا عن عدم مجيئه بالبينة مع احتمال كون ما جاء به عليه الصلاة والسلام حجة فى نفسه وان لم تكن واضحة الدلالة على المراد وثانيا عن ترك الامتثال بقوله عليه الصلاة والسلام بقولهم وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك مع امكان تحقق ذلك بتصديقهم له عليه الصلاة والسلام فى كلامه ثم نفوا تصديقهم له عليه الصلاة والسلام بقولهم وما نحن لك بمؤمنين مع كون كلامه عليه الصلاة والسلام مما يقبل التصديق ثم نفوا عنه تلك المرتبة أيضا حيث قالوا ما قالوا قاتلهم الله

(وخامسها) ما روى أنه كان لها شرب يوم ولكل القوم شرب يوم آخر (وسادسها) انه كان يحصل منها لبن كثير يكفى الخلق العظيم وكل واحد من هذه الوجوه معجز قوى وليس فى القرآن الا أن تلك الناقة كانت آية ومعجزة فأما بيان أنها كانت معجزة من أى الوجوه فليس فيه بيانه * ثم قال فذروها تأكل فى ارض الله والمراد انه عليه السلام رفع عن القوم مؤنتها فصارت مع كونها آية لهم تنفعهم ولا تضرهم لانهم كانوا ينتفعون بلبنها على ما روى انه عليه السلام خاف عليها منهم لما شاهد من اصرارهم على الكفر فان الخصم لا يحب ظهور حجة خصمه بل يسعى فى اخفائها وابطالها بأقصى الامكان فلهذا السبب كان يخاف من اقدامهم على قتلها فلهذا احتاط وقال ولا تمسوها بسوء وتوعدهم ان مسوها بسوء بعذاب قريب وذلك تحذير شديد لهم من الاقدام على قتلها ثم بين الله تعالى انهم مع ذلك عقروها وذبحوها ويحتمل انهم عقروها لابطال تلك الحجة وأن يكون لانها ضيقت الشرب على القوم وأن يكون لانهم رغبوا فى شحمها ولحمها وقوله فيأخذكم عذاب قريب يريد اليوم الثالث وهو قوله تمتعوا فى داركم * ثم بين تعالى ان القوم عقروها فعند ذلك قال لهم صالح عليه السلام تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ومعنى التمتع التلذذ بالمنافع والملاذ التى تدرك بالحواس ولما كان التمتع لا يحصل الا للحى عبر به عن الحياة وقوله فى داركم فيه وجهان (الاول) ان المراد من الدار البلد وتسمى البلاد بالديار لانه يدار فيها أى يتصرف يقال ديار بكر أى بلادهم (الثانى) ان المراد بالديار الدنيا * وقوله ذلك وعد غير مكذوب أى غير كذب والمصدر قد يرد بلفظ المفعول كالمجلود والمعقول و بأيكم المفتون وقيل غير مكذوب فيه قال ابن عباس رضى الله عنهما انه تعالى لما أمهلهم تلك الايام الثلاثة فقد رغبهم فى الايمان وذلك لانهم لما عقروا الناقة أنذرهم صالح عليه السلام بنزول العذاب فقالوا وما علامة ذلك فقال تصير وجوهكم فى اليوم الاول مصفرة وفى الثانى محمرة وفى الثالث مسودة ثم يأتيكم العذاب فى اليوم الرابع فلما رأوا وجوههم قد اسودت أيقنوا بالعذاب فاحتاطوا واستعدوا للعذاب فصبحهم اليوم الرابع وهى الصيحة والصاعقة والعذاب فان قيل كيف يعقل أن تظهر فيهم هذه العلامات مطابقة لقول صالح عليه السلام ثم يبقون مصرين على الكفر قلنا ما دامت الامارات غير بالغة الى حد الجزم واليقين لم يمتنع بقاؤهم على الكفر واذا صارت يقينية قطعية فقد انتهى الامر الى حد الالجاء والايمان فى ذلك الوقت غير مقبول * قوله تعالى (فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ ان ربك هو القوى العزيز وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا ان ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) اعلم ان مثل هذه الآية قد مضى فى قصة عاد وقوله ومن خزى يومئذ فيه مسائل (المسئلة الاولى) الواو فى قوله ومن خزى واو العطف وفيه وجهان (الاول) أن يكون التقدير نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا من العذاب النازل بقومه ومن الخزى

يعنى أنكم وان بذلتم فى مضارتى مجهودكم لا تقدرون على شىء مما تريدون بى فانى متوكل على الله تعالى وانما جىء بلفظ الماضى لكونه أدل على الانشاء المناسب للمقام وواثق بكلاءتى وحفظى عن غوائلكم وهو مالكى ومالككم لا يصدر عنكم شىء ولا يصيبنى أمر الا بارادته ومشيئته ثم برهن عليه بقوله (ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها) أى الا هو مالك لها قادر عليها يصرفها كيف يشاء غير مستعصية عليه فان الاخذ بالناصية تمثيل لذلك (ان ربى على صراط مستقيم) تعليل لما يدل عليه التوكل من عدم قدرتهم على اضراره أى هو على الحق والعدل فلا يكاد يسلطكم على اذ لا يضيع عنده معتصم ولا يفتات عليه ظالم والاقتصار على اضافة الرب الى نفسه اما بطريق الاكتفاء لظهور المراد واما لان فائدة كونه تعالى مالكا لهم أيضا راجعة اليه عليه الصلاة والسلام (فان تولوا) أى تتولوا بحذف احدى التاءين أى ان تستمروا على ما كنتم عليه من التولى والاعراض (فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم) أى لم أعاتب على تفريط فى الابلاغ وكنتم محجوجين بان بلغكم الحق فأبيتم الا التكذيب والجحود (ويستخلف ربى قوما غيركم) استئناف بالوعيد لهم بأن الله تعالى يهلكهم ويستخلف فى ديارهم وأموالهم قوما آخرين أو عطف على الجواب بالفاء ويؤيده قراءة ابن مسعود رضى الله عنه بالجزم عطفا على الموضع كأنه قيل فان تولوا يعذرنى ويهلككم ويستخلف مكانكم آخرين وفى اقتصار اضافة الرب عليه عليه السلام رمز الى اللطف به والتدمير للمخاطبين (ولا تضرونه) بتوليكم (شيئا) من الضرر لاستحالة ذلك عليه ومن جزم ويستخلف أسقط منه النون ﴿ أن ﴾ (ان ربى على كل شىء حفيظ) أى رقيب مهيمن فلا تخفى عليه أعمالكم فيجازيكم بحسبها أو حافظ مستول على كل شىء فكيف يضره شىء وهو الحافظ للكل (ولما جاء أمرنا) أى نزل عذابنا وفى التعبير عنه بالامر مضافا الى ضميره جل جلاله وعن نزوله بالمجىء

رضى الله عنهما * ثم قال تعالى فأصبحوا فى ديارهم جاثمين والجثوم هو السكون يقال للطير اذا باتت فى أوكارها انها جثمت ثم ان العرب اطلقوا هذا اللفظ على ما لا يتحرك من الموت فوصف الله تعالى هؤلاء المهلكين بأنهم سكنوا عند الهلاك حتى كأنهم ما كانوا أحياء وقوله كأن لم يغنوا فيها أى كأنهم لم يوجدوا والمغنى المقام الذى يقيم الحى به يقال غنى الرجل بمكان كذا اذا أقام به * ثم قال تعالى ألا ان ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود قرأ حمزة وحفص عن عاصم ألا ان ثمود غير منون فى كل القرآن وقرأ الباقون ثمودا بالتنوين ولثمود كلاهما بالصرف والصرف للذهاب الى الحى أو الى الاب الاكبر ومنعه للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة * قوله تعالى (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب) اعلم ان هذا هو القصة الرابعة من القصص المذكورة فى هذه السورة وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال النحويون دخلت كلمة قد ههنا لان السامع لقصص الانبياء عليهم السلام يتوقع قصة بعد قصة وقد للتوقع ودخلت اللام فى لقد لتأكيد الخبر ولفظ رسلنا جمع وأقله ثلاثة فهذا يفيد القطع بحصول ثلاثة وأما الزائد على هذا العدد فلا سبيل الى اثباته الا بدليل آخر وأجمعوا على أن الاصل فيهم كان جبريل عليه السلام ثم اختلفت الروايات فقيل أتاه جبريل عليه السلام ومعه اثنا عشر ملكا على صورة الغلمان الذين يكونون فى غاية الحسن وقال الضحاك كانوا تسعة وقال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم السلام وهم الذين ذكرهم الله فى سورة والذاريات فى قوله هل أتاك حديث ضيف ابراهيم وفى الحجر ونبئهم عن ضيف ابراهيم (المسئلة الثانية) اختلفوا فى المراد بالبشرى على وجهين (الاول) ان المراد ما بشره الله بعد ذلك بقوله فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب (الثانى) ان المراد منه أنه بشر ابراهيم عليه السلام بسلامة لوط وباهلاك قومه * وأما قوله قالوا سلاما قال سلام ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى قالوا سلم قال سلم بكسر السين وسكون اللام بغير ألف وفى والذاريات مثله قال الفراء لا فرق بين القراءتين كما قالوا حل وحلال وحرم وحرام لان فى التفسير انهم لما جاؤا سلموا عليه قال أبو على الفارسى ويحتمل أن يكون سلم خلاف العدو والحرب كأنهم لما امتنعوا من تناول ما قدمه اليهم نكرهم وأوجس منهم خيفة قال انا سلم ولست بحرب ولا عدو فلا تمتنعوا من تناول طعامى كما يمتنع من تناول طعام العدو وهذا الوجه عندى بعيد لان على هذا التقدير ينبغى أن يكون تكلم ابراهيم عليه السلام بهذا اللفظ بعد احضار الطعام الا أن القرآن يدل على ان هذا الكلام انما وجد قبل احضار الطعام لانه تعالى قال قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ والفاء للتعقيب فدل ذلك على

مالايخفى من التفخيم والتهويل او وُرِد أمرنا بالعذاب (نجينا هودا والذين آمنوا معه) وكانوا أربعة الاف (برحمة) عظيمة كائنة (منا) وهى الايمان الذى أنعمنا به عليهم بالتوفيق له والهداية اليه (ونجيناهم من عذاب غليظ) أى كانت تلك التنجية تنجية من عذاب غليظ وهى السموم التى كانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أدبارهم فتقطعهم اربا اربا وقيل أريد بالثانية التنجية من عذاب الآخرة ولا عذاب أغلظ منه وأشد وهذه التنجية وان لم تكن مقيدة بمجئ الامر لكن جئ بها تكملة للنعمة عليهم وتعريضا بأن المهلكين كما عذبوا فى الدنيا بالسموم فهم معذبون فى الآخرة بالعذاب الغليظ (وتلك عاد) أنث اسم الاشارة باعتبار القبيلة أولان الاشارة الى قبورهم وآثارهم (جحدوا بآيات ربهم) كفروا بها بعدما استيقنوها (وعصوا رسوله) جمع الرسل مع أنه لم يرسل اليهم غير هود عليه الصلاة والسلام تفظيعا لحالهم واظهارا لكمال كفرهم وعنادهم ببيان أن عصيانهم له عليه الصلاة والسلام عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين لاتفاق كلمتهم على التوحيد لانفرق بين أحد من رسله فيجوز أن يراد بالآيات ماأتى به هود وغيره من الانبياء عليهم السلام وفيه زيادة ملائمة لما تقدم من جحود الآيات وماتأخر من قوله (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) من كبرائهم ورؤسائهم الدعاة الى الضلال والى تكذيب الرسل فكأنه قيل عصوا كل رسول واتبعوا أمر كل جبار وهذا الوصف ليس كما سبق من جحود الآيات وعصيان الرسل فى الشمول لكل فرد فرد منهم فان الاتباع للامر من أوصاف الاسافل دون الرؤساء وعنيد فعيل من عند عندا وعندا اذا طغا والمعنى عصوا من دعاهم الى الهدى وأطاعوا من دعاهم الى الردى (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة) ابعادا عن الرحمة وعن كل خير أى جعلت اللعنة لازمة لهم وعبر عن ذلك بالتبعية للمبالغة فكأنها لاتفارقهم وان ذهبوا كل مذهب بل تدور معهم حيثما داروا ولوقوعه فى صحبة اتباعهم رؤسائهم يعنى أنهم

أن مجيئه بذلك العجل الحنيذ كان بعد ذكر السلام (المسئلة الثانية) قالوا سلاما تقديره سلمنا عليك سلاما قال سلام تقديره أمرى سلام أى لست مريدا غير السلامة والصلح قال الواحدى ويحتمل أن يكون المراد سلام عليكم فجاء به مرفوعا حكاية لقوله كما قال وحذف عنه الخبر كما حذف من قوله فصبر جميل وانما يحسن هذا الحذف اذا كان المقصود معلوما بعد الحذف وههنا المقصود معلوم فلاجرم حسن الحذف ونظيره قوله تعالى فاصفح عنهم وقل سلام على حذف الخبر واعلم أنه انما سلم بعضهم على بعض رعاية للاذن المذكور فى قوله تعالى لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها (المسئلة الثالثة) أكثر مايستعمل سلام عليكم بغير ألف ولام وذلك لانه فى معنى الدعاء فهو مثل قولهم خير بين يديك فان قيل كيف جاز جعل النكرة مبتدأ قلنا النكرة اذا كانت موصوفة جاز جعلها مبتدأ فاذا قلت سلام عليكم فالتنكير فى هذا الموضع يدل على التمام والكمال فكأنه قيل سلام كامل تام عليكم ونظيره قولنا سلام عليك وقوله تعالى قال سلام عليك سأستغفر لك ربى وقوله سلام قولا من رب رحيم سلام على نوح فى العالمين والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم فاما قوله تعالى والسلام على من اتبع الهدى فهذا أيضا جائز والمراد منه الماهية والحقيقة وأقول قوله سلام عليكم أكمل من قوله السلام عليكم لان التنكير فى قوله سلام عليكم يفيد الكمال والمبالغة والتمام وأما لفظ السلام فانه لايفيد الا الماهية قال الاخفش من العرب من يقول سلام عليكم فيعرى قوله سلام عن الالف واللام والتنوين والسبب فى ذلك أن كثرة الاستعمال أباح هذا التخفيف والله أعلم * ثم قال تعالى فما لبث أن جاء بعجل حنيذ قالوا مكث ابراهيم خمس عشرة ليلة لايأتيه ضيف فاغتم لذلك ثم جاءه الملائكة فرأى اضيافا لم ير مثلهم فعجل وجاء بعجل حنيذ فقوله فما لبث أن جاء بعجل حنيذ معناه فما لبث فى المجئ به بل عجل فيه أو التقدير فما لبث مجيئه والعجل ولد البقرة أما الحنيذ فهو الذى يشوى فى حفرة من الارض بالحجارة المحماة وهو من فعل أهل البادية معروف وهو محنوذ فى الاصل كما قيل طبيخ ومطبوخ وقيل الحنيذ الذى يقطر دسمه يقال حنذت الفرس اذا ألقيت عليه الجل حتى تقطر عرقا ثم قال تعالى فلما رأى أيديهم لاتصل اليه أى الى العجل وقال الفراء الى الطعام وهو ذلك العجل نكرهم أى أنكرهم يقال نكره وأنكره واستنكره واعلم أن الاضياف انما امتنعوا من الطعام لانهم ملائكة والملائكة لايأكلون ولايشربون وانما أتوه فى صورة الاضياف ليكونوا على صفة يحبها وهو كان مشغوفا بالضيافة وأما ابراهيم عليه السلام فنقول اما أن يقال انه عليه السلام ماكان يعلم أنهم ملائكة بل كان يعتقد فيهم أنهم من البشر أو يقال انه كان عالما بأنهم من الملائكة أما على الاحتمال الاول فسبب خوفه أمران (أحدهما) أنه كان ينزل فى طرف من الارض بعيد من الناس فلما امتنعوا من الاكل خاف أن يريدوا به مكروها (وثانيهما) ان من

لما اتبعوهم أتبعوا ذلك جزاء لصنيعهم جزاء وفاقا (و يوم القيامة) اى أتبعوا يوم القيامة أيضا لعنة وهى عذاب النار المخلد حذفت لدلالة الاولى عليها وللايذان بكون كل من اللعنتين نوعا برأسه لم يجمعا فى قرن واحد بأن يقال وأتبعوا فى هذه الدنيا و يوم القيامة لعنة كما فى قوله تعالى واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة ايذانا باختلاف نوعى الحسنتين فان المراد بالحسنة الدنيوية نحو الصحة والكفاف والتوفيق ﴿ ١٠٨ ﴾ للخير وبالحسنة الاخروية الثواب والرحمة (ألا ان عادا كفروا ربهم) أى بربهم أونعمة ربهم جلاله على نقيضه الذى هو الشكر أو جحدوه (ألا بعدا لعاد) دعاء عليهم بالهلاك مع كونهم هالكين أى هلاك تسجيلا عليهم باستحقاق الهلاك واستيجاب الدمار وتكرير حرف التنبيه واعادة عاد للمبالغة فى تفظيع حالهم والحث على الاعتبار بقصتهم (قوم هود) عطف بيان لعاد فائدته التمييز عن عاد الثانية عاد ارم والايماء الى أن استحقاقهم للبعد بسبب ماجرى بينهم و بين هود عليه الصلاة والسلام وهم قومه (والى ثمود أخاهم صالحا) عطف على ماسبق من قوله تعالى والى عاد أخاهم هودا وثمود قبيلة من العرب سموا باسم أبيهم الاكبر ثمود بن عابر بن ارم بن سام وقيل انما سموا بذلك لقلة مائهم من الثمد وهو الماء القليل وصالح عليه الصلاة والسلام هو ابن عبيد بن اسف بن ماشح بن عبيد بن جادر بن ثمود ولما كان الاخبار بارساله اليهم مظنة لان يسئل و يقال ماذا قال لهم قيل جوابا عنه بطريق الاستئناف (قال ياقوم اعبدوا الله) أى وحده وعلل ذلك بقوله (مالكم من اله غيره) ثم زيد فيما يبعثهم ﴿ يعذبهم ﴾ على الايمان والتوحيد و يحثهم على زيادة الاخلاص فيه بقوله (هو أنشأكم من الارض) أى هو كونكم وخلقكم منها لاغيره قصر قلب أو قصر افراد فان خلق آدم عليه الصلاة والسلام منها خلق لجميع أفراد البشر منها لما مر مرارا من أن خلقته عليه الصلاة والسلام لم تكن مقصورة على نفسه بل كانت انموذجا منطويا على خلق جميع ذرياته التى ستوجد

لايعرف اذا حضر وقدم اليه طعام فان أكل حصل الامن وان لم يأكل حصل الخوف وأما الاحتمال الثانى وهو انه عرف انهم ملائكة الله تعالى فسبب خوفه على هذا التقدير أيضا أمران (أحدهما) انه خاف أن يكون نزولهم لامر أنكره الله تعالى عليه (والثانى) انه خاف أن يكون نزولهم لتعذيب قومه * فان قيل فأى هذين الاحتمالين أقرب وأظهر قلنا أما الذى يقول انه ماعرف انهم ملائكة الله تعالى فله أن يحتج بأمور (أحدها) أنه سارع الى احضار الطعام ولو عرف كونهم من الملائكة لما فعل ذلك (وثانيها) أنه لما رآهم ممتنعين من الاكل خافهم ولو عرف كونهم من الملائكة لما استدل بترك الاكل على حصول الشر (وثالثها) انه رآهم فى أول الامر فى صورة البشر وذلك لايدل على كونهم من الملائكة وأما الذى يقول انه عرف ذلك احتج بقوله لاتخف انا ارسلنا الى قوم لوط وانما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف بأى سبب ارسلوا * ثم بين تعالى أن الملائكة أزالوا ذلك الخوف عنه فقالوا لاتخف انا أرسلنا الى قوم لوط ومعناه أرسلنا بالعذاب الى قوم لوط لانه أضمر لقيام الدليل عليه فى سورة أخرى وهو قوله انا أرسلنا الى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجاره * ثم قال تعالى وامرأته قائمة يعنى ساره بنت آزر بن باحورا بنت عم ابراهيم عليه السلام وقوله قائمة قيل كانت قائمة من وراء الستر تستمع الى الرسل لانها ربما خافت أيضا وقيل كانت قائمة تخدم الاضياف وابراهيم عليه السلام جالس معهم و يؤكد هذا التأويل قراءة ابن مسعود وامرأته قائمة وهو قاعد * ثم قال تعالى فضحكت فبشرناها باسحق واختلفوا فى الضحك على قولين منهم من حمله على نفس الضحك ومنهم من حمل هذا اللفظ على معنى آخر سوى الضحك أما الذين حملوه على نفس الضحك فاختلفوا فى أنها لم ضحكت وذكروا وجوها (الاول) قال القاضى ان ذلك السبب لابد وأن يكون سببا جرى ذكره فى هذه الآية وماذاك الا أنها فرحت بزوال ذلك الخوف عن ابراهيم عليه السلام حيث قالت الملائكة لاتخف انا أرسلنا الى قوم لوط وعظم سرورها بسبب سروره بزوال خوفه وفى مثل هذه الحالة قد يضحك الانسان و بالجملة فقد كان ضحكها بسبب قول الملائكة لابراهيم عليه السلام لاتخف فكان كالبشارة فقيل لها نجعل هذه البشارة بشارتين فكما حصلت البشاره بزوال الخوف فقد حصلت البشارة أيضا بحصول الولد الذى كنتم تطلبونه من أول العمر الى هذا الوقت وهذا تأويل فى غاية الحسن (الثانى) يحتمل أنها كانت عظيمة الانكار على قوم لوط لما كانوا عليه من الكفر والعمل الخبيث فلما أظهروا انهم جاؤا لاهلاكهم لحقها السرور فضحكت (الثالث) قال السدى قال ابراهيم عليه السلام لهم ألا تأكلون قالوا لانأكل طعاما الا بالثمن فقال ثمنه ان تذكروا اسم الله تعالى على أوله وتحمدوه على آخره فقال جبريل لميكائيل عليهما السلام حق لمثل هذا الرجل أن يتخذه ربه خليلا فضحكت امرأته فرحا منها بهذا الكلام (الرابع) ان سارة قالت لابراهيم عليه السلام أرسل الى ابن أخيك وضمه الى نفسك فان الله تعالى لايترك قومه حتى

الى يوم القيامة انطواء اجماليا وقيل ان خلق آدم عليه الصلاة والسلام وانشاء مواد النطف التى منها خلق نسله من التراب انشاء لجميع الخلق من الارض فتدبر (واستعمركم) من العمر اى عمركم واستبقاكم (فيها) أو من العمارة أى أقدركم على عمارتها وأمركم بها وقيل هو من العمرى بمعنى أعمركم فيها دياركم و يرثها منكم بعد انصرام أعماركم أو جعلكم معمرين دياركم تسكنونها مدة عمركم ثم تتركونها لمن بعدكم ﴿ ١٠٩ ﴾ (فاستغفروه ثم توبوا اليه) فان ما فصل من فنون الاحسان داع الى الاستغفار عما وقع منهم من التفريط والتوبة عما كانوا يباشرونه من القبائح وقد زيد فى بيان ما يوجب ذلك فقيل (ان ربى قريب) أى قريب الرحمة كقوله تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين (مجيب) لمن دعاه وسأله وقد روعى فى النظم الكريم نكتة حيث قدم ذكر العلة الباعثة المتقدمة على الامر بالاستغفار والتوبة وأخر عنه ذكر الغائية المتأخرة عنهما فى الوجود أعنى الاجابة (قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا) أى كنا نرجو منك لما كنا نرى منك من دلائل السداد ومخايل الرشاد أن تكون لنا سيدا ومستشارا فى الامور وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فاضلا خيرا نقدمك على جميعنا وقيل كنا نرجو أن تدخل فى ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه (قبل هذا) الذى باشرته من الدعوة الى التوحيد وترك عبادة الآلهة أو قبل هذا الوقت فكأنهم لم يكونوا الى الآن على يأس من ذلك ولو بعد الدعوة الى الحق فالآن قد انصرم عنك رجاؤنا وقرأ طلحة مرجوأ بالمد والهمزة (أتنهانا ان نعبد ما يعبد آباؤنا) أى عبدوه والعدول الى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية (واننا لفى شك مما تدعونا اليه) من التوحيد وترك عبادة الاوثان وغير ذلك من الاستغفار والتوبة (مريب) أى موقع فى الريبة من أرابه أى أوقعه فى الريبة أى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة أو من أراب اذا كان ذا ريبة وأيهما كان فالاسناد مجازى والتنوين فيه وفى شك للتفخيم (قال يا قوم أرأيتم) أى اخبرونى (ان كنت

يعذبهم فعند تمام هذا الكلام دخل الملائكة على ابراهيم عليه السلام فلما أخبروه بأنهم انما جاؤا لاهلاك قوم لوط صار قولهم موافقا لقولها فضحكت لشدة سرورها بحصول الموافقة بين كلامها وبين كلام الملائكة (الخامس) ان الملائكة لما أخبروا ابراهيم عليه السلام أنهم من الملائكة لا من البشر وانهم انما جاؤا لاهلاك قوم لوط طلب ابراهيم عليه السلام منهم معجزة دالة على أنهم من الملائكة فدعوا ربهم باحياء العجل المشوى فطفر ذلك العجل المشوى من الموضع الذى كان موضوعا فيه الى مرعاه وكانت امرأة ابراهيم عليه السلام قائمة فضحكت لما رأت ذلك العجل المشوى قد طفر من موضعه (السادس) انها ضحكت تعجبا من أن قوما أتاهم العذاب وهم فى غفلة (السابع) لا يبعد أن يقال انهم بشروها بحصول مطلق الولد فضحكت اما على سبيل التعجب فانه يقال انها كانت فى ذلك الوقت بنت بضع وتسعين سنة وابراهيم عليه السلام ابن مائة سنة واما على سبيل السرور ثم لما ضحكت بشرها الله تعالى بان ذلك الولد هو اسحق ومن وراء اسحق يعقوب (الثامن) انها ضحكت بسبب أنها تعجبت من خوف ابراهيم عليه السلام من ثلاث أنفس حال ما كان معه حشمه وخدمه (التاسع) ان هذا على التقديم والتأخير والتقدير وامرأته قائمة فبشرناها باسحق فضحكت سرورا بسبب تلك البشارة فقدم الضحك ومعناه التأخير (الثانى) هو أن يكون معنى فضحكت حاضت وهو منقول عن مجاهد وعكرمة قالا ضحكت اى حاضت عند فرحها بالسلامة من الخوف فلما ظهر حيضها بشرت بحصول الولد وأنكر الفراء وأبو عبيدة أن يكون ضحكت بمعنى حاضت قال أبو بكر الانبارى هذه اللغة ان لم يعرفها هؤلاء فقد عرفها غيرهم حكى الليث فى هذه الآية فضحكت طمثت وحكى الازهرى عن بعضهم ان أصله من ضحاك الطلعة يقال ضحكت الطلعة اذا انشقت واعلم ان هذه الوجوه كلها زوائد وانما الوجه الصحيح هو الاول ثم قال تعالى ومن وراء اسحق يعقوب وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم ويعقوب بالنصب والباقون بالرفع أما وجه النصب فهو أن يكون التقدير بشرناها باسحق ومن وراء اسحق وهبنا لها يعقوب وأما وجه الرفع فهو أن يكون التقدير ومن وراء اسحق يعقوب مولود أو موجود (المسئلة الثانية) فى لفظ وراء قولان (الاول) وهو قول الاكثرين ان معناه بعد أى بعد اسحق يعقوب وهذا هو الوجه الظاهر (والثانى) ان الوراء ولد الولد عن الشعبى انه قيل له هذا ابنك فقال نعم من الوراء وكان ولد ولده وهذا الوجه عندى شديد التعسف واللفظ كانه ينبو عنه * قوله تعالى (قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا لشئ عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الفراء أصل الويل وى وهو الخزى ويقال وى لفلان أى خزى له فقوله ويلك أى خزى لك وقال سيبويه ويح زجر لمن أشرف على الهلاك وويل لمن وقع فيه قال الخليل ولم أسمع

فى الحقيقة (على بينة) اى حجة ظاهرة و برهان و بصيرة (من ربى) مالكى ومتولى أمرى (وآتانى منه) من جهته (رحمة) نبوة وهذه الامور وان كانت محققة الوقوع لكنها صدرت بكلمة الشك اعتبارا لحال المخاطبين ورعاية لحسن المحاورة لاستنزالهم عن المكابرة (فمن ينصرنى من الله) أى ينجينى من عذابه والعدول الى الاظهار لزيادة التهويل والفاء لترتيب انكار النصرة على ما سبق من ايتاء النبوة وكونه على بينة من ربه على تقدير العصيان حسبما يعرب عنه قوله تعالى (ان عصيته) أى بالمساهلة فى تبليغ الرسالة والمجاراة معكم فيما تأتون وتذرون فان العصيان ممن ذلك شانه أبعد والمؤاخذة عليه ألزم وانكار نصرته أدخل (فما تزيدوننى) اذن باستتباعكم اياى كما ينبئ عنه قولهم قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أى لا تفيدوننى اذ لم يكن فيه أصل الخسران حتى تزيدوه (غير تخسير) أى غير أن تجعلونى خاسرا بابطال أعمالى وتعريضى لسخط الله تعالى أو فما تزيدوننى بما تقولون غير أن أنسبكم الى الخسران وأقول لكم انكم لخاسرون فالزيادة على معناه والفاء لترتيب عدم الزياده على انتفاء الناصر المفهوم من انكاره على تقدير العصيان مع تحقق ما ينفيه من كونه عليه الصلاه والسلام على بينة من ربه وايتائه النبوة (ويا قوم هذه ناقة الله) الاضافة للتشريف والتنبيه على أنها مفارقة لسائر ما يجانسها من حيث الخلقة ومن حيث الخلق (لكم آية) معجزة دالة على صدق نبوتى وهى حال من ناقة الله والعامل ما فى هذه من معنى الفعل ولكم حال من آية متقدمة عليها لكونها نكرة ولو تأخرت لكانت صفة لها ويجوز أن يكون ناقة الله بدلا ﴿ من ﴾ من هذه أو عطف بيان ولكم خبرا وعاملا فى آية (فذروها) خلوها وشأنها (تأكل فى أرض الله) ترع نباتها وتشرب ماءها واضافة الارض الى الله تعالى لتربية استحقاقها لذلك وتعليل الامر بتركها وشأنها (ولا تمسوها بسوء) بولغ فى النهى عن التعرض لها بما يضرها حيث نهى عن المس الذى هو من مبادى الاصابة ونكر السوء أى لا تضربوها ولا تطردوها

على بنائه الاويح وويس وويك وويه وهذه الكلمات متقاربة فى المعنى وأما قوله ياويلتا فمنهم من قال هذه الالف ألف الندبة وقال صاحب الكشاف الالف فى ويلتا مبدلة من ياء الاضافة فى ياويلتى وكذلك فى يالهفا وياعجبا ثم أبدل من الياء والكسرة الالف والفتحة لان الفتح والالف أخف من الياء والكسرة أما قوله أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمر وآلد بهمزة ومدة والباقون بهمزتين بلا مد (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول انها تعجبت من قدرة الله تعالى والتعجب من قدرة الله تعالى يوجب الكفر بيان المقدمة الاولى من ثلاثة أوجه (أولها) قوله تعالى حكاية عنها فى معرض التعجب أألد وأنا عجوز (وثانيها) قوله ان هذا لشئ عجيب (وثالثها) قول الملائكة لها أتعجبين من أمر الله واما بيان ان التعجب من قدرة الله تعالى يوجب الكفر فلان هذا التعجب يدل على جهلها بقدرة الله تعالى وذلك يوجب الكفر (والجواب) انها انما تعجبت بحسب العرف والعادة لا بحسب القدرة فان الرجل المسلم لو أخبره مخبر صادق بأن الله تعالى يقلب هذا الجبل ذهبا ابريزا فلا شك انه يتعجب نظرا الى أحوال العاده لا لاجل أنه استنكر قدرة الله تعالى على ذلك (المسئلة الثالثة) قوله وهذا بعلى شيخا فاعلم ان شيخا منصوب على الحال قال الواحدى رحمه الله وهذا من لطائف النحو وغامضه فان كلمة هذا للاشارة فكان قوله وهذا بعلى شيخا قائم مقام أن يقال أشير الى بعلى حال كونه شيخا والمقصود تعريف هذه الحالة المخصوصة وهى الشيخوخة (المسئلة الرابعة) قرأ بعضهم وهذا بعلى شيخ على انه خبر مبتدا محذوف أى هذا بعلى وهو شيخ أو بعلى بدل من المبتدا وشيخ خبر أو يكونان معا خبرين ثم حكى تعالى ان الملائكة قالوا أتعجبين من أمر الله والمعنى انهم تعجبوا من تعجبها ثم قالوا رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت والمقصود من هذا الكلام ذكر ما يزيل ذلك التعجب وتقديره ان رحمة الله عليكم متكاثرة وبركاته لديكم متوالية متعاقبة وهى النبوة والمعجزات القاهرة والتوفيق للخيرات العظيمة فاذا رأيت ان الله خرق العادات فى تخصيصكم بهذه الكرامات العالية الرفيعة وفى اظهار خوارق العادات واحداث البينات والمعجزات فكيف يليق به التعجب وأما قوله أهل البيت فانه مدح لهم فهو نصب على النداء أو على الاختصاص ثم أكدوا ذلك بقولهم انه حميد مجيد والحميد هو المحمود وهو الذى تحمد أفعاله والمجيد الماجد وهو ذو الشرف والكرم ومن محامد الافعال ايصال العبد المطيع الى مراده ومطلوبه ومن أنواع الفضل والكرم ان لا يمنع الطالب عن مطلوبه فاذا كان من المعلوم انه تعالى قادر على الكل وأنه حميد مجيد فكيف يبقى هذا التعجب فى نفس الامر فثبت ان المقصود من ذكر هذه الكلمات ازالة التعجب * قوله تعالى (فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط ان ابراهيم لحليم أواه منيب) اعلم ان هذا هو القصة الخامسة وهى قصة لوط عليه السلام واعلم أن الروع هو الخوف وهو ما أوجس

ولا تمسوها بسوء من السوء فضلاً عن عقرها وقتلها (فيأخذكم عذاب قريب) أى قريب النزول روى انهم طلبوا منه أن يخرج من صخرة تسمى الكاتبة ناقة عشراء مخترجة جوفاء وبراء وقالوا ان فعلت ذلك صدقناك فأخذ صالح عليه الصلاة والسلام عليهم مواثيقهم لئن فعلت ذلك لتؤمنن فقالوا نعم فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء كما وصفوا وهم ينظرون ثم أنتجت ولدا مثلها فى العظم فآمن به جندع بن عمرو فى جماعة ومنع الباقين من الايمان ذواب بن عمرو والحباب صاحب أوثانهم ورباب كاهنهم فكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وترد الماء غبا فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل ما فيها ثم تتفحج فيحلبون ما شاؤا حتى تمتلئ اوانيهم فيشربون ويدخرون وكانت تصيف بظهر الوادى فتهرب منها أنعامهم الى بطنه وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم الى ظهره فشق عليهم ذلك (فعقروها) قيل زينت عقرها لهم عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار فعقروها واقتسموا لحمها فرقى سقبها جبلا اسمه قارة فرغا ثلاثا فقال صالح لهم أدركوا الفصيل عسى ان يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه وانفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها (فقال) لهم صالح (تمتعوا) أى عيشوا (فى داركم) أى فى منازلكم أو فى الدنيا (ثلاثة أيام) قيل قال لهم تصبح وجوهكم غدا مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودة ثم يصبحكم العذاب (ذلك) اشارة الى ما دل عليه الامر بالتمتع ثلاثة أيام من نزول العذاب عقبها والمراد بما فيه من معنى البعد تفخيمه (وعد غير مكذوب) أى غير مكذوب فيه فحذف الجار للاتساع المشهور كقوله * ويوم شهدناه سليما وعامرا * أو غير مكذوب كأن الواعد قال له أفى بك فان وفى به صدقه والا كذبه أو وعد غير كذب على أنه مصدر كالمجلود والمعقول (فلما جاء أمرنا) أى عذابنا أو أمرنا بنزوله وفيه ما لا يخفى من التهويل (نجينا صالحا والذين آمنوا معه) متعلق بنجينا أو بآمنوا (برحمة) بسبب رحمة عظيمة (منا) وهى بالنسبة الى صالح النبوة والى المؤمنين الايمان كما مر أو ملتبسين

من الخيفة حين أنكر أضيافه والمعنى أنه لما زال الخوف وحصل السرور بسبب مجئ البشرى بحصول الولد أخذ يجادلنا فى قوم لوط وجواب لما هو قوله أخذ الا أنه حذف فى اللفظ لدلالة الكلام عليه وقيل تقديره لما ذهب عن ابراهيم الروع جادلنا واعلم أن قوله يجادلنا أى يجادل رسلنا فان قيل هذه المجادلة ان كانت مع الله تعالى فهى جراءة على الله والجراءة على الله تعالى من أعظم الذنوب ولان المقصود من هذه المجادلة ازالة ذلك الحكم وذلك يدل على أنه ما كان راضيا بقضاء الله تعالى وانه كفر وان كانت هذه المجادلة مع الملائكة فهى أيضا عجيبة لان المقصود من هذه المجادلة أن يتركوا اهلاك قوم لوط فان كان قد اعتقد فيهم أنهم من تلقاء أنفسهم يجادلون فى هذا الاهلاك فهذا سوء ظن بهم وان اعتقد فيهم انهم بأمر الله جاؤا فهذه المجادلة تقتضى أنه كان يطلب منهم مخالفة أمر الله تعالى وهذا منكر (والجواب) من وجهين (الاول) وهو الجواب الاجمالى أنه تعالى مدحه عقيب هذه الآية فقال ان ابراهيم لحليم أواه منيب ولو كان هذا الجدل من الذنوب لما ذكر عقيبه ما يدل على المدح العظيم (والوجه الثانى) وهو الجواب التفصيلى أن المراد من هذه المجادلة سعى ابراهيم فى تأخير العذاب عنهم وتقريره من وجوه (الاول) ان الملائكة قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية فقال ابراهيم أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها قالوا الا قال فأربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا حتى بلغ العشرة قالوا لا قال أرأيتم ان كان فيها رجل مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان فيها لوطا وقد ذكر الله تعالى هذا فى سورة العنكبوت فقال ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين ثم قال ولما أن جاءت رسلنا لوطا سئ بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن انا منجوك وأهلك الا امرأتك فبان بهذا ان مجادلة ابراهيم عليه السلام انما كانت فى قوم لوط بسبب مقام لوط فيما بينهم (الثانى) يحتمل أن يقال انه عليه السلام كان يميل الى أن تلحقهم رحمة الله بتأخير العذاب عنهم رجاء أنهم ربما أقدموا على الايمان والتوبة عن المعاصى وربما وقعت تلك المجادلات بسبب ان ابراهيم كان يقول ان أمر الله ورد بايصال العذاب ومطلق الامر لا يوجب الفور بل يقبل التراخى فاصبروا مدة أخرى والملائكة كانوا يقولون ان مطلق الامر يقبل الفور وقد حصلت هناك قرائن دالة على الفور ثم أخذ كل واحد منهم يقرر مذهبه بالوجوه المعلومة فحصلت المجادلة بهذا السبب وهذا الوجه عندى هو المعتمد (الوجه الثالث) فى الجواب لعل ابراهيم عليه السلام سأل عن لفظ ذلك الامر وكان ذلك الامر مشروطا بشرط فاختلفوا فى ان ذلك الشرط هل حصل فى ذلك القوم أم لا فحصلت المجادلة بسببه وبالجملة نرى العلماء فى زماننا يجادل بعضهم بعضا عند التمسك بالنصوص وذلك لا يوجب القدح فى واحد منهما فكذا ههنا ثم قال تعالى ان ابراهيم لحليم أواه منيب وهذا مدح عظيم

من الله تعالى لابراهيم أما الحليم فهو الذي لا يتعجل بمكافأة غيره بل يتأنى فيه فيؤخر ويعفو ومن هذا حاله فانه يحب من غيره هذه الطريقة وهذا كالدلالة على أن جداله كان في أمر متعلق بالحلم وتأخير العقاب ثم ضم الى ذلك ما له تعلق بالحلم وهو قوله أواه منيب لان من يستعمل الحلم في غيره فانه يتأوه اذا شاهد وصول الشدائد الى الغير فلما رأى مجئ الملائكة لاجل اهلاك قوم لوط عظم حزنه بسبب ذلك وأخذ يتأوه عليه فلذلك وصفه الله تعالى بهذه الصفة ووصفه أيضا بأنه منيب لان من ظهرت فيه هذه الشفقة العظيمة على الغير فانه ينيب ويتوب ويرجع الى الله في ازالة ذلك العذاب عنهم أو يقال ان من كان لا يرضى بوقوع غيره في الشدائد فبأن لا يرضى بوقوع نفسه فيها كان أولى ولا طريق الى صون النفس عن الوقوع في عذاب الله الا بالتوبة والانابة فوجب فيمن هذا شأنه أن يكون منيبا * قوله تعالى (يا ابراهيم أعرض عن هذا انه قد جاء أمر ربك وانهم آتيهم عذاب غير مردود ولما جاءت رسلنا لوطا سئ بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب) اعلم أن قوله يا ابراهيم أعرض عن هذا معناه ان الملائكة قالوا له اترك هذه المجادلة لانه قد جاء أمر ربك بايصال هذا العذاب اليهم واذا لاح وجه دلالة النص على هذا الحكم فلا سبيل الى دفعه فلذلك أمروه بترك المجادلة ولما ذكروا أنه قد جاء أمر ربك ولم يكن في هذا اللفظ دلالة على ان هذا الامر ماذا جاء لا جرم بين الله تعالى أنهم آتيهم عذاب غير مردود أي عذاب لا سبيل الى دفعه ورده ثم قال ولما جاءت رسلنا لوطا سئ بهم وضاق بهم ذرعا وهؤلاء الرسل هم الرسل الذين بشروا ابراهيم بالولد عليهم السلام قال ابن عباس رضي الله عنهما انطلقوا من عند ابراهيم الى لوط وبين القريتين أربع فراسخ ودخلوا عليه على صورة شباب مرد من بني آدم وكانوا في غاية الحسن ولم يعرف لوط انهم ملائكة الله وذكروا فيه ستة أوجه (الاول) انه ظن انهم من الانس فخاف عليهم خبث قومه وان يعجزوا عن مقاومتهم (الثاني) ساءه مجيئهم لانه ما كان يجد ما ينفقه عليهم وما كان قادرا على القيام بحق ضيافتهم (والثالث) ساءه ذلك لان قومه منعوه من ادخال الضيف داره (الرابع) ساءه مجيئهم لانه عرف بالحذر انهم ملائكة وأنهم انما جاؤا لاهلاك قومه والوجه الاول هو الاصح لدلالة قوله تعالى وجاءه قومه يهرعون اليه وبقي في الآية ألفاظ ثلاثة لا بد من تفسيرها (اللفظ الاول) قوله سئ بهم ومعناه ساءه مجيئهم وساء يسوء فعل لازم مجاوز يقال سؤته فسئ مثل شغلته فشغل وسررته فسر قال الزجاج أصله سوئ بهم الا أن الواو سكنت ونقلت كسرتها الى السين (واللفظ الثاني) قوله وضاق بهم ذرعا قال الازهري الذرع يوضع موضع الطاقة والاصل فيه البعير يذرع بيده في سيره ذرعا على قدر سعة خطوته فاذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك فضعف ومد عنقه فجعل ضيق الذرع عبارة عن قدر الوسع والطاقة فيقال ما لي به ذرع ولا ذراع أي ما لي به طاقة والدليل على صحة ما قلناه انهم يجعلون الذراع في موضع الذرع فيقولون ضقت بالامر

في الحقيقة (ومن خزي يومئذ) أي ونجيناهم من خزي يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة كقوله تعالى ونجيناهم من عذاب غليظ على معنى أنه كانت تلك التنجية تنجية من خزي يومئذ أي من ذلته ومهانته أو ذلهم وفضيحتهم يوم القيامة كما فسر به العذاب الغليظ فيما سبق فيكون المعنى ونجيناهم من عذاب يوم القيامة بعد تنجيتنا إياهم من عذاب الدنيا وعن نافع بالفتح على اكتساب المضاف البناء من المضاف اليه هنا وفي المعارج ﴿ ١١٢ ﴾ في قوله تعالى من عذاب يومئذ وقرئ بالتنوين ونصب يومئذ (ان ربك) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم (هو القوي العزيز) القادر على كل شئ والغالب عليه لا غيره ولكون الاخبار بتنجية الاولياء لاسيما عند الانباء بحلول العذاب أهم ذكرها أولا ثم أخبر بهلاك الاعداء فقال (وأخذ الذين ظلموا) عدل عن المضمر الى المظهر تسجيلا عليهم بالظلم واشعارا بعليته لنزول العذاب بهم (الصيحة) أي صيحة جبريل عليه الصلاة والسلام وقيل أتتهم من السماء صيحة فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شئ في الارض فتقطعت قلوبهم في صدورهم وفي سورة الاعراف فأخذتهم الرجفة ولعلها وقعت عقيب الصيحة المستتبعة لتموج الهواء (فأصبحوا) أي صاروا (في ديارهم) أي بلادهم أو مساكنهم (جاثمين) هامدين موتى لا يتحركون والمراد كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب بهم من غير اضطراب وحركة كما يكون ذلك عند الموت المعتاد ولا يخفى ما فيه من الدلالة على شدة الاخذ وسرعته اللهم انا نعوذ بك من حلول غضبك قيل لما رأوا العلامات التي بينها صالح من اصفرار وجوههم واحمرارها واسودادها عمدوا الى قتله ﴿ ذراعا ﴾ عليه الصلاة والسلام فنجاه الله تعالى الى أرض فلسطين ولما كان ضحوة اليوم الرابع وهو يوم السبت تحنطوا وتكفنوا بالانطاع فأتتهم الصيحة فتقطعت قلوبهم فهلكوا (كأن لم يغنوا) أي كأنهم لم يقيموا (فيها) في بلادهم أو في مساكنهم وهو في موقع الحال أي أصبحوا جاثمين مماثلين لمن لم يوجد

ولم يقم فى مقام قط (ألا ان ثمود) وضع موضع الضمير لزيادة البيان ونونه أبو بكر هنا وفى النجم وقرأ حفص هنا وفى الفرقان والعنكبوت بغير تنوين (كفروا ربهم) صرح بكفرهم مع كونه معلوما مما سبق من أحوالهم تقبيحا لحالهم وتعليلا لاستحقاقهم بالدعاء عليهم بالبعد والهلاك فى قوله تعالى (ألا بعدا لثمود) وقرأ الكسائى بالتنوين (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم) وهم الملائكة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم جبريل ﴿ ١١٣ ﴾ وملكان وقيل هم جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم السلام وقال الضحاك كانوا تسعة وعن محمد بن كعب جبريل ومعه سبعة وعن السدى أحد عشر على صور الغلمان الوضاء وجوههم وعن مقاتل كانوا اثنى عشر ملكا وانما أسند اليهم مطلق المجىء بالبشرى دون الارسال لانهم لم يكونوا مرسلين اليه عليه السلام بل الى قوم لوط لقوله تعالى انا أرسلنا الى قوم لوط وانما جاؤه لداعية البشرى ولما كان المقصود فى السورة الكريمة ذكر سوء صنيع الامم السالفة مع الرسل المرسلة اليهم ولحوق العذاب بهم بسبب ذلك ولم يكن جميع قوم ابراهيم عليه الصلاة والسلام ممن لحق بهم العذاب بل انما لحق بقوم لوط منهم خاصة غير الاسلوب المطرد فيما سبق من قوله تعالى والى عاد أخاهم هودا والى ثمود أخاهم صالحا ثم رجع اليه حيث قيل والى مدين أخاهم شعيبا (بالبشرى) اى ملتبسين بها قيل هى مطلق البشرى المنتظمة للبشارة بالولد من سارة لقوله تعالى فبشرناها باسحق الآية وقوله تعالى وبشرناه بغلام حليم وقوله وبشروه ﴿ ١٥ ﴾ حا بغلام عليم وللبشارة بعدم لحوق الضرر به لقوله تعالى فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى لظهور تفرع المجادلة على مجيئها كما سيأتى وقيل هى البشارة بهلاك قوم لوط و يأباه مجادلته عليه الصلاة والسلام فى شأنهم والاظهر أنها البشارة بالولد وستعرف سر تفرع المجادلة على ذلك ولما كان الاخبار بمجيئهم بالبشرى مظنة لسؤال السامع بأنهم ما قالوا أجيب بأنهم (قالوا سلاما) اى سلمنا أو نسلم عليك سلاما

ذراعا (واللفظ الثالث) قوله هذا يوم عصيب أى يوم شديد وانما قيل للشديد عصيب لانه يعصب الانسان بالشر ✽ قوله تعالى (وجاءه قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوا يعملون السيآت قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد قال لو ان لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انه لما دخلت الملائكة دار لوط عليه السلام مضت امرأته عجوز السوء فقالت لقومه دخل دارنا قوم ما رأيت أحسن وجوها ولا أنظف ثيابا ولا أطيب رائحة منهم فجاءه قومه يهرعون اليه اى يسرعون وبين تعالى أن اسراعهم ربما كان لطلب العمل الخبيث بقوله ومن قبل كانوا يعملون السيآت نقل أن القوم دخلوا دار لوط وأرادوا أن يدخلوا البيت الذى كان فيه جبريل عليه السلام فوضع جبريل عليه السلام يده على الباب فلم يطيقوا فتحه حتى كسروه فمسح أعينهم بيده فعموا فقالوا يا لوط قد أدخلت علينا السحرة وأظهرت الفتنة ولاهل اللغة فى يهرعون قولان (الاول) ان هذا من باب ما جاءت صيغة الفاعل فيه على لفظ المفعول ولا يعرف له فاعل نحو أولع فلان فى الامر وأرعد زيد وزهى عمرو من الزهو (والقول الثانى) انه لا يجوز ورود الفاعل على لفظ المفعول وهذه الافعال حذف فاعلوها فتأويل أولع زيد أنه أولعه طبعه وأرعد الرجل أرعده غضبه وزهى عمرو معناه جعله ماله زاهيا واهرع معناه أهرعه خوفه أو حرصه واختلفوا أيضا فقال بعضهم الاهراع هو الاسراع مع الرعدة وقال آخرون هو العدو الشديد أما قوله تعالى قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ففيه قولان قال قتادة المراد بناته لصلبه وقال مجاهد وسعيد بن جبير المراد نساء أمته لانهن فى أنفسهن بنات ولهن اضافة اليه بالمتابعة وقبول الدعوة قال أهل النحو يكفى فى حسن الاضافة أدنى سبب لانه كان نبيا لهم فكان كالاب لهم قال تعالى وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم وهذا القول عندى هو المختار ويدل عليه وجوه (الاول) ان اقدام الانسان على عرض بناته على الاوباش والفجار أمر متبعد لا يليق بأهل المروأة فكيف بأكابر الانبياء (الثانى) وهو انه قال هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فبناته اللواتى من صلبه لا تكفى للجمع العظيم أما نساء أمته ففيهن كفاية للكل (الثالث) انه صحت الرواية انه كان له بنتان وهما زنتا وزعورا واطلاق لفظ البنات على البنتين لا يجوز لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة فأما القائلون بالقول الاول فقد اتفقوا على أنه عليه السلام ما دعا القوم الى الزنا بالنسوان بل المراد انه دعاهم الى التزوج بهن وفيه قولان (أحدهما) انه دعاهم الى التزوج بهن بشرط أن يقدموا الايمان (والثانى) انه كان يجوز تزويج المؤمنة من الكافر فى شريعته وهكذا كان فى أول الاسلام بدليل أنه عليه السلام زوج ابنته زينب من أبى العاص بن الربيع وكان مشركا وزوج ابنته من عتبة بن أبى لهب ثم نسخ ذلك بقوله تعالى ولا تنكحوا المشركات

ويجوز أن يكون نصبه بقالوا أى قالوا قولا ذا سلام أو ذكروا سلاما (قال سلام) اى عليكم سلام أو سلام عليكم حياهم بأحسن من تحيتهم وقرئ سلم كحرم فى حرام وقرأ ابن أبى عبلة قال سلاما وعنه أنه قرأ بالرفع فيهما (فما لبث) اى ابراهيم (أن جاء بعجل) اى فى المجئ به أو ما لبث مجيئه بعجل (حنيذ) أى مشوى بالرضف فى الاخدود وقيل سمين يقطر ودكه لقوله بعجل سمين من حنذت الفرس اذا عرقته بالجلال (فلما رأى أيديهم لاتصل اليه) لايمدون اليه أيديهم للاكل (نكرهم) اى أنكرهم يقال نكره وأنكره واستنكره بمعنى وانما أنكرهم لانهم كانوا اذا نزل بهم ضيف ولم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجئ بخير وقد روى أنهم كانوا ينكتون بقداح كانت فى ايديهم فى اللحم ولاتصل اليه أيديهم وهذا الانكار منه عليه الصلاة والسلام راجع الى فعلهم المذكور وأما انكاره المتعلق بأنفسهم فلا تعلق له برؤية عدم أكلهم وانما وقع ذلك عند رؤيته لهم لعدم كونهم من جنس ما كان يعهده من الناس ألا يرى الى قوله تعالى فى سورة الذاريات سلام قوم منكرون (وأوجس منهم) اى أحس أو أضمر من جهتهم (خيفة) لما ظن أن نزولهم لامر أنكره الله تعالى عليه أو لتعذيب قومه وانما أخر المفعول الصريح عن الظرف لان المراد الاخبار بأنه عليه الصلاة والسلام أوجس من جهتهم شيئا هو الخيفة لا أنه أوجس الخيفة من جهتهم لا من جهة غيرهم وتحقيقه أن تأخير ما حقه التقديم يوجب ترقب النفس اليه فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن (قالوا لاتخف) ما قالوه بمجرد ما ﴿ حل ﴾ أو أمنه مخايل الخوف ازالة له بعد اظهاره عليه الصلاة والسلام لما قال تعالى فى سورة الحجر قال انا منكم وجلون ولم يذكر ذلك ههنا اكتفاء بذلك (انا أرسلنا) ظاهره أنه استئناف فى معنى التعليل للنهى المذكور كما أن قوله تعالى انا نبشرك تعليل لذلك فان ارسالهم الى قوم آخرين [illegible] أمنهم من الخوف [illegible] أرسلنا بالعذاب (الى قوم لوط) خاصة الا انه [illegible] كذلك [illegible]

حتى يؤمن وبقوله ولاتنكحوا المشركين حتى يؤمنوا واختلفوا أيضا فقال الأكثرون كان له بنتان وعلى هذا التقدير ذكر الاثنين بلفظ الجمع كما فى قوله فان كان له اخوة فقد صغت قلوبكما وقيل انهن كن أكثر من اثنتين * أما قوله تعالى هن أطهر لكم ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ظاهر قوله هن أطهر لكم يقتضى كون العمل الذى يطلبونه طاهرا ومعلوم انه فاسد ولانه لاطهارة فى نكاح الرجل بل هذا جار مجرى قولنا الله أكبر والمراد انه كبير ولقوله تعالى أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ولاخير فيها ولما قال أبو سفيان اعل أحدا اعل هبل قال النبى الله أعلى وأجل ولامقاربة بين الله وبين الصنم (المسئلة الثانية) روى عن عبد الملك بن مروان والحسن وعيسى بن عمر أنهم قرؤا هن أطهر لكم بالنصب على الحال كما ذكرنا فى قوله تعالى وهذا بعلى شيخا الا ان أكثر النحويين اتفقوا على أنه خطأ قالوا لو قرئ هؤلاء بناتى هن أطهر كان هذا نظير قوله وهذا بعلى شيخا الا أن كلمة هن قد وقعت فى البين وذلك يمنع من جعل أطهر حالا وطولوا فيه * ثم قال فاتقوا الله ولاتخزون فى ضيفى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ أبو عمرو ونافع ولاتخزونى باثبات الياء على الاصل والباقون بحذفها للتخفيف ودلالة الكسر عليه (المسئلة الثانية) فى لفظ لاتخزونى وجهان (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما لاتفضحونى فى أضيافى يريد انهم اذا هجموا على أضيافه بالمكروه لحقته الفضيحة (والثانى) لاتخزونى فى ضيفى اى لاتخجلونى فيهم لان مضيف الضيف يلزمه الخجالة من كل فعل قبيح يوصل الى الضيف يقال خزى الرجل اذا استحيا (المسئلة الثالثة) الضيف ههنا قائم مقام الاضياف كما قام الطفل مقام الاطفال فى قوله تعالى أو الطفل الذين لم يظهروا ويجوز أن يكون الضيف مصدرا فيستغنى عن جمعه كما يقال رجال صوم ثم قال أليس منكم رجل رشيد وفيه قولان (الاول) رشيد بمعنى مرشد اى يقول الحق ويرد هؤلاء الاوباش عن أضيافى (والثانى) رشيد بمعنى مرشد والمعنى أليس فيكم رجل أرشده الله تعالى الى الصلاح وأسعده بالسداد والرشاد حتى يمنع عن هذا العمل القبيح والاول أولى ثم قال تعالى قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وفيه وجوه (الاول) مالنا فى بناتك من حاجة ولاشهوة والتقدير أن من احتاج الى شئ فكأنه حصل له فيه نوع حق فلهذا السبب جعل نفى الحق كناية عن نفى الحاجة (الثانى) أن نجرى اللفظ على ظاهره فنقول معناه انهن لسن لنا بازواج ولاحق لنا فيهن البتة ولايميل أيضا طبعنا اليهن فكيف قيامهن مقام العمل الذى نريده وهو اشارة الى العمل الخبيث (الثالث) مالنا فى بناتك من حق لانك دعوتنا الى نكاحهن بشرط الايمان ونحن لانجيبك الى ذلك فلايكون لنا فيهن حق * ثم انه تعالى حكى عن لوط انه عند سماع هذا الكلام قال لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) جواب لو محذوف لدلالة الكلام عليه والتقدير لمنعتكم ولبالغت فى دفعكم ونظيره قوله تعالى ولو أن قرآنا سيرت به الجبال وقوله ولو ترى اذ وقفوا

على النار قال الواحدى وحذف الجواب ههنا لان الوهم يذهب الى أنواع كثيرة من المنع والدفع (المسئلة الثانية) لو أن لى بكم قوة اى لو أن لى ما أتقوى به عليكم وتسمية موجب القوة بالقوة جائز قال الله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل والمراد السلاح وقال آخرون القدرة على دفعهم وقوله أو آوى الى ركن شديد المراد منه الموضع الحصين المنيع تشبيها له بالركن الشديد من الجبل فان قيل ما الوجه ههنا فى عطف الفعل على الاسم قلنا قال صاحب الكشاف قرئ أو آوى بالنصب باضمار أن كأنه قيل لو أن لى بكم قوة أو أويا واعلم ان قوله لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد لابد من حمل كل واحد من هذين الكلامين على فائدة مستقلة وفيه وجوه (الاول) المراد بقوله لو أن لى بكم قوه كونه بنفسه قادرا على الدفع وكونه متمكنا اما بنفسه واما بمعاونة غيره على قهرهم وتاديبهم والمراد بقوله أو آوى الى ركن شديد هو أن لا يكون له قدرة على الدفع لكنه يقدر على التحصن بحصن ليأمن من شرهم بواسطته (الثالث) انه لما شاهد سفاهة القوم واقدامهم على سوء الادب تمنى حصول قوة قوية على الدفع ثم استدرك على نفسه وقال بل الاولى أن آوى الى ركن شديد وهو الاعتصام بعناية الله تعالى وعلى هذا التقدير فقوله أو آوى الى ركن شديد كلام منفصل عما قبله ولا تعلق له به وبهذا الطريق لا يلزم عطف الفعل على الاسم ولذلك قال النبى عليه السلام رحم الله أخى لوطا كان يأوى الى ركن شديد ❊ قوله تعالى (قالوا يالوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك انه مصيبها ما أصابهم ان موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب) اعلم أن قوله تعالى مخبرا عن لوط عليه السلام أنه قال لو أن لى بكم قوه أو آوى الى ركن شديد يدل على أنه كان فى غاية القلق والحزن بسبب اقدام أولئك الاوباش على ما يوجب الفضيحة فى حق أضيافه فلما رأت الملائكة تلك الحالة بشروه بأنواع من البشارات (أحدها) انهم رسل الله (وثانيها) ان الكفار لا يصلون الى ما هموا به (وثالثها) انه تعالى يهلكهم (ورابعها) انه تعالى ينجيه مع أهله من ذلك العذاب (وخامسها) ان ركنك شديد وان ناصرك هو الله تعالى فحصل له هذه البشارات وروى ان جبريل عليه السلام قال له ان قومك لن يصلوا اليك فافتح الباب فدخلوا فضرب جبريل عليه السلام بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون الى بيوتهم وذلك قوله تعالى ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ومعنى قوله لن يصلوا اليك اى بسوء ومكروه فانا نحول بينهم وبين ذلك ثم قال فاسر بأهلك قرأ نافع وابن كثير فاسر موصولة والباقون بقطع الالف وهما لغتان يقال سريت بالليل وأسريت وأنشد حسان ❊ أسرت اليك ولم تكن تسرى ❊ فجاء باللغتين فمن قرأ بقطع الالف فحجته قوله سبحانه وتعالى سبحان الذى أسرى بعبده ومن وصل فحجته قوله والليل اذا يسر والسرى السير فى الليل يقال سرى يسرى اذا سار بالليل وأسرى بفلان

تعالى قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين صريح فى انهم قالوه جوابا عن سؤاله عليه الصلاة والسلام وقد أوجز الكلام اكتفاء بذلك (وامرأته قائمة) وراء الستر بحيث تسمع محاورتهم أو على رؤسهم للخدمة حسبما هو المعتاد والجملة حال من ضمير قالوا أى قالوه وهى قائمة تسمع مقالتهم (فضحكت) سرورا بزوال الخوف أو بهلاك أهل الفساد أو بهما جميعا وقيل بوقوع الامر حسبما كانت تقول فيما سلف فانها كانت تقول لابراهيم اضمم اليك لوطا فانى أرى أن العذاب نازل بهؤلاء القوم وقيل ضحكت حاضت ومنه ضحكت الشجرة اذا سال صمغها وهو بعيد وقرئ بفتح الحاء (فبشرناها باسحق) اى عقبنا سرورها بسرور أتم منه على ألسنة رسلنا (ومن وراء اسحق يعقوب) بالنصب على أنه مفعول لما دل عليه قوله بشرناها اى ووهبنا لها من وراء اسحق يعقوب وقرئ بالرفع على الابتداء خبره الظرف اى من بعد اسحق يعقوب مولود أو موجود وكلا الاسمين داخل فى البشارة كيحيى أو واقع فى الحكاية بعد أن ولدا فسميا بذلك وتوجيه البشارة ههنا اليها مع أن الاصل فى ذلك ابراهيم عليه الصلاة والسلام وقد وجهت اليه حيث قيل وبشرناه بغلام حليم وبشروه بغلام عليم للايذان بأن ما بشر به يكون منهما ولكونها عقيمة حريصة على الولد (قالت) استئناف ورد جوابا عن سؤال من سأل وقال فما فعلت اذ بشرت بذلك فقيل قالت (ياويلتا) أصل الويل الخزى ثم شاع فى كل أمر فظيع والالف مبدلة من ياء الاضافة كما فى يالهفا ويا عجبا وقرأ الحسن على الاصل وأمالها أبو عمرو وعاصم فى رواية وهو معناه يا ويلتى احضرى فهذا أوان حضورك وقيل هى ألف الندبة ويوقف عليها بهاء السكت (أألد وأنا عجوز) بنت تسعين أو تسع وتسعين سنة (وهذا) الذى تشاهدونه (بعلى) اى زوجى وأصل البعل القائم بالامر (شيخا) وكان ابن مائة وعشرين سنة ونصبه على الحال والعامل معنى الاشارة وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف اى هو شيخ

أوخبر بعد خبر أوهو الخبر وبعلى بدل من اسم الاشارة أو بيان له وكلتا الجملتين وقعت حالا من الضمير في أألد لتقرير مافيه من الاستبعاد وتعليله اى أألد وكلانا على حالة منافية لذلك وانما قدمت بيان حالها على بيان حاله عليه الصلاة والسلام لان مباينة حالها لما ذكر من الولادة أكثر اذ ربما يولد للشيوخ من الشواب أما العجائز داؤهن عقام ولان البشارة متوجهة اليها صريحا ولان العكس في البيان ربما يوهم من أول الامر نسبة المانع من الولادة الى جانب ابراهيم عليه الصلاة والسلام وفيه مالا يخفى من المحذور واقتصارها الاستبعاد على ولادتها من غير تعرض لحال النافلة لانها المستبعد وأما ولادة ولدها فلا يتعلق بها استبعاد (ان هذا) اى ماذكر من حصول الولد من هرمين مثلنا (لشئ عجيب) بالنسبة الى سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده وهذه الجملة لتعليل الاستبعاد بطريق الاستئناف التحقيقي ومقصدها استعظام نعمة الله تعالى عليها في ضمن الاستعجاب العادى لا استبعاد ذلك بالنسبة الى قدرته سبحانه وتعالى (قالوا أتعجبين من أمر الله) اى قدرته وحكمته أو تكوينه أو شأنه أنكروا عليها تعجبها من ذلك لانها كانت ناشئة في بيت النبوة ومهبط الوحى والآيات ومظهر المعجزات والامور الخارقة للعادات فكان حقها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهى سائر النساء من أمثال هذه الخوارق من ألطاف الله تعالى الخفية ولطائف صنعه الفائضة على كل أحد مما يتعلق بذلك مشيئته الازلية لاسيما على أهل بيت النبوة الذين ليست مرتبتهم عند الله سبحانه كمراتب سائر الناس وأن تسبح الله تعالى وتحمده وتمجده والى ذلك اشاروا بقوله تعالى (رحمة الله) التى وسعت كل شئ واستتبعت كل خير وانما وضع المظهر موضع المضمر لزيادة تشريفها (وبركاته) اى خيراته النامية المتكاثرة في كل باب التى من جملتها هبة الاولاد وقيل الرحمة النبوة والبركات الاسباط من بنى اسرائيل لان الانبياء منهم وكلهم من ولد

اذا سير به بالليل والقطع من الليل بعضه وهو مثل القطعة يريد اخرجوا ليلا لتسبقوا نزول العذاب الذى موعده الصبح قال نافع بن الازرق لعبدالله بن عباس رضى الله عنهما أخبرنى عن قول الله بقطع من الليل قال هو آخر الليل سحر وقال قتاده بعد طائفة من الليل وقال آخرون هو نصف الليل فانه في ذلك الوقت قطع بنصفين * ثم قال ولا يلتفت منكم أحد نهى من معه عن الالتفات والالتفات نظر الانسان الى ماوراءه والظاهر ان المراد انه كان لهم في البلده أموال وأقمشه وأصدقاء فالملائكة أمروهم بأن يخرجوا ويتركوا تلك الاشياء ولا يلتفتوا اليها البته وكان المراد منه قطع تعلق القلب عن تلك الاشياء وقد يراد منه الانصراف أيضا كقوله تعالى قالوا أجئتنا لتلفتنا اى لتصرفنا وعلى هذا التقدير فالمراد من قوله ولا يلتفت منكم أحد النهى عن التخلف * ثم قال الا امرأتك قرأ ابن كثير وأبو عمرو الا امرأتك بالرفع والباقون بالنصب قال الواحدى من نصب وهو الاختيار فقد جعلها مستثناة من الاهل على معنى فأسر بأهلك الا امرأتك والذى يشهد بصحة هذه القراءه ان في قراءه عبدالله فأسر بأهلك الا امرأتك فأسقط قوله ولا يلتفت منكم أحد من هذا الموضع وأما الذين رفعوا فالتقدير ولا يلتفت منكم احد الا امرأتك فان قيل فهذه القراءة توجب انها أمرت بالالتفات لان القائل اذا قال لا يقم منكم أحد الا زيد كان ذلك أمرا لزيد بالقيام وأجاب أبو بكر الانبارى عنه فقال معنى الا ههنا الاستثناء المنقطع على معنى لا يلتفت منكم أحد لكن امرأتك تلتفت فيصيبها ما أصابهم واذا كان هذا الاستثناء منقطعا كان التفاتها معصية ويتأكد ماذكرنا بما روى عن قتاده انه قال انها كانت مع لوط حين خرج من القرية فلما سمعت هذا العذاب التفتت وقالت ياقوماه فأصابها حجر فأهلكها واعلم ان القراءة بالرفع أقوى لان القراءه بالنصب تمنع من خروجها مع أهله لكن على هذا التقدير الاستثناء يكون من الاهل كأنه أمر لوطا بأن يخرج بأهله ويترك هذه المرأة فانها هالكة مع الهالكين وأما القراءه بالنصب فانها أقوى من وجه آخر وذلك لان مع القراءة بالنصب يبقى الاستثناء متصلا ومع القراءه بالرفع يصير الاستثناء منقطعا * ثم بين الله تعالى انهم قالوا انه مصيبها ما أصابهم والمراد انه مصيبها ذلك العذاب الذى أصابهم ثم قالوا ان موعدهم الصبح روى انهم لما قالوا للوط عليه السلام ان موعدهم الصبح قال أريد أعجل من ذلك بل الساعة فقالوا أليس الصبح بقريب قال المفسرون ان لوطا عليه السلام لما سمع هذا الكلام خرج بأهله في الليل * قوله تعالى (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) في الامر وجهان (الاول) ان المراد من هذا الامر ماهو ضد النهى ويدل عليه وجوه (الاول) ان لفظ الامر حقيقة في هذا المعنى مجاز في غيره دفعا للاشتراك (الثانى) ان الامر لا يمكن حمله ههنا على العذاب وذلك لانه تعالى قال فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وهذا

ابراهيم عليه الصلاة والسلام (عليكم أهل البيت) نصب على المدح أو الاختصاص لانهم أهل بيت خليل الرحمن وصرف الخطاب من صيغة الواحدة الى جمع المذكر لتعميم حكمه لابراهيم عليه الصلاة والسلام أيضا ليكون جوابهم لها جوابا له ايضا ان خطر بباله مثل ما خطر ببالها والجملة كلام مستأنف علل به انكار تعجبها كأنه قيل ليس المقام مقام التعجب فان الله تعالى على كل شئ قدير ولستم بأهل بيت النبوة والكرامة والزلفى كسائر الطوائف بل رحمته المستتبعة لكل خير الواسعة لكل شئ وبركاته اى خيراته النامية الفائضة منه بواسطة تلك الرحمة الواسعة لازمة لكم لا تفارقكم (انه حميد) فاعل ما يستوجب الحمد (مجيد) كثير الخير والاحسان الى عباده والجملة لتعليل ما سبق من قوله رحمة الله وبركاته عليكم (فلما ذهب عن ابراهيم الروع) اى ما أوجس منهم من الخيفة واطمأن قلبه بعرفانهم وعرفان سبب مجيئهم والفاء لربط بعض أحوال ابراهيم عليه الصلاة والسلام ببعض غب انفصالها بما ليس بأجنبى من كل وجه بل له مدخل تام فى السباق والسياق وتأخير الفاعل عن الظرف لانه مصب الفائدة فان بتأخير ما حقه التقديم تبقى النفس منتظرة الى وروده فيتمكن فيها عند وروده اليها فضل تمكن (وجاءته البشرى) ان فسرت البشرى بقولهم لا تخف فسببية ذهاب الخوف ومجئ السرور للمجادلة المدلول عليها بقوله تعالى (يجادلنا فى قوم لوط) اى يجادل رسلنا فى شأنهم وعدل الى صيغة الاستقبال لاستحضار صورتها أو لطفق يجادلنا ظاهرة وأما ان فسرت ببشارة الولد أو بما يعمها فلعل سببيتها لها من حيث انها تفيد زيادة اطمئنان قلب بسلامته وسلامة أهله كافة ومجادلته اياهم أنه قال لهم حين قالوا انا مهلكوا اهل هذه القرية ارأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال فأربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا حتى بلغ العشرة قالوا لا قال أرأيتم ان كان فيها رجل مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان

الجعل هو العذاب فدلت هذه الآية على ان هذا الامر شرط والعذاب جزاء والشرط غير الجزاء فهذا الامر غير العذاب وكل من قال بذلك قال انه هو الامر الذى هو ضد النهى (والثالث) انه تعالى قال قبل هذه الآية انا أرسلنا الى قوم لوط فدل هذا على انهم كانوا مأمورين من عند الله تعالى بالذهاب الى قوم لوط وبايصال هذا العذاب اليهم اذا عرفت هذا فنقول انه تعالى أمر جمعا من الملائكة بأن يخربوا تلك المدائن فى وقت معين فلما جاء ذلك الوقت أقدموا على ذلك العمل فكان قوله فلما جاء أمرنا اشارة الى ذلك التكليف فان قيل لو كان الامر كذلك لوجب أن يقال فلما جاء أمرنا جعلوا عاليها سافلها لان الفعل صدر عن ذلك المأمور قلنا هذا لا يلزم على مذهبنا لان فعل العبد فعل الله تعالى عندنا وأيضا ان الذى وقع منهم انما وقع بأمر الله تعالى وبقدرته فلم يبعد اضافته الى الله عز وجل لان الفعل كما تحسن اضافته الى المباشر فقد تحسن أيضا اضافته الى السبب (القول الثانى) أن يكون المراد من الامر ههنا قوله تعالى انما أمرنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون وقد تقدم تفسير ذلك الامر (القول الثالث) أن يكون المراد من الامر العذاب وعلى هذا التقدير فيحتاج الى الاضمار والمعنى ولما جاء وقت عذابنا جعلنا عاليها سافلها (المسئلة الثانية) اعلم أن ذلك العذاب قد وصفه الله تعالى فى هذه الآية بنوعين من الوصف (فالاول) قوله جعلنا عاليها سافلها روى ان جبريل عليه السلام أدخل جناحه الواحد تحت مدائن قوم لوط وقلعها وصعد بها الى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق الحمير ونباح الكلاب وصياح الديوك ولم تنكفئ لهم جرة ولم ينكب لهم اناء ثم قلبها دفعة واحدة وضرب بها على الارض واعلم ان هذا العمل كان معجزة قاهرة من وجهين (احدهما) ان قلع الارض واصعادها الى قريب من السماء فعل خارق للعادات (والثانى) ان ضرب بها من ذلك البعد البعيد على الارض بحيث لم تتحرك سائر القرى المحيطة بها البتة ولم تصل الآفة الى لوط عليه السلام وأهله مع قرب مكانهم من ذلك الموضع معجزة قاهرة أيضا (الثانى) قوله وأمطرنا عليها حجارة من سجيل واختلفوا فى السجيل على وجوه (الاول) انه فارسى معرب وأصله سنككل وانه شئ مركب من الحجر والطين بشرط أن يكون فى غاية الصلابة قال الازهرى لما عربته العرب صار عربيا وقد عربت حروفا كثيرة كالديباج والديوان والاستبرق (والثانى) سجيل اى مثل السجيل وهو الدلو العظيم (والثالث) سجيل اى شديد من الحجارة (الرابع) مرسلة عليهم من أسجلته اذا أرسلته وهو فعيل منه (الخامس) من أسجلته اى أعطيته تقديره مثل العطية فى الادرار وقيل كان كتب عليها أسامى المعذبين (السادس) وهو من السجل وهو الكتاب تقديره من مكتوب فى الازل اى كتب الله أن يعذبهم بها والسجل أخذ من السجيل وهو الدلو العظيمة لانه يتضمن أحكاما كثيرة وقيل مأخوذ من المساجلة وهى المفاخرة (والسابع) من سجين اى من جهنم أبدلت النون لاما (والثامن) من السماء

فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله ان قيل المتبادر من هذا الكلام أن يكون ابراهيم عليه السلام قد علم أنهم مرسلون لاهلاك قوم لوط قبل ذهاب الروع عن نفسه ولكن لم يقدر على مجادلتهم فى شأنهم لاشتغاله بشأن نفسه فلما ذهب عنه الروع فرغ لها مع أن ذهاب الروع انما هو قبل العلم بذلك لقوله تعالى قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط قلنا كان لوط عليه السلام على شريعة ابراهيم عليه السلام وقومه مكلفين بها فلما رأى من الملائكة مارأى خاف على نفسه وعلى كافة أمته التى من جملتهم قوم لوط ولا ريب فى تقدم هذا الخوف على قولهم لا تخف وأما الذى علمه عليه السلام بعيد النهى من الخوف فهو اختصاص قوم لوط بالهلاك لادخولهم تحت العموم فتأمل والله الموفق (ان ابراهيم لحليم) غير عجول على الانتقام ممن أساء اليه (أواه) كثير التأوه على الذنوب والتأسف على الناس (منيب) راجع الى الله تعالى والمقصود بتعداد صفاته الجميلة المذكورة بيان ماحمله عليه السلام على ما صدر عنه من المجادلة (يا ابراهيم) اى قالت الملائكة يا ابراهيم (أعرض عن هذا) الجدال (انه) اى الشأن (قد جاء أمر ربك) اى قدره الجارى على وفق قضائه الازلى الذى هو عبارة عن الارادة الازلية والعناية الالهيه المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص حسب تعلقها بالاشياء فى أوقاتها وهو المعبر عنه بالقدر (وانهم آتيهم عذاب غير مردود) لا بجدال ولا بدعاء ولا بغيرهما (ولما جاءت رسلنا لوطا) قال ابن عباس رضى الله عنهما انطلقوا من عند ابراهيم عليه السلام الى لوط عليه السلام و بين القريتين أربعة فراسخ ودخلوا عليه فى صور غلمان مرد حسان الوجوه فلذلك (سىء بهم) اى ساءه مجيئهم لظنه أنهم أناس فخاف أن يقصدهم قومه و يعجز عن مدافعتهم وقرأ نافع وابن عامر والكسائى وأبو عمرو سىء وسيئت باشمام السين الضم * روى أن الله تعالى قال للملائكة لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع

الدنيا وتسمى سجيلا عن أبى زيد (والتاسع) السجيل الطين لقوله تعالى حجارة من طين وهو قول عكرمة وقتادة قال الحسن كان أصل الحجر هو من الطين الا انه صلب بمرور الزمان (والعاشر) سجيل موضع الحجارة وهى جبال مخصوصة ومنه قوله تعالى من جبال فيها من برد * واعلم أنه تعالى وصف تلك الحجارة بصفات (فالصفة الاولى) كونها من سجيل وقد سبق ذكره (الثانى) قوله تعالى منضود قال الواحدى هو مفعول من النضد وهو وضع الشئ بعضه على بعض وفيه وجوه (الاول) ان تلك الحجارة كان بعضها فوق بعض فى النزول فأتى به على سبيل المبالغة (والثانى) ان كل حجر فان مافيه من الاجزاء منضود بعضها ببعض وملتصق بعضها ببعض (والثالث) انه تعالى كان قد خلقها فى معادنها ونضد بعضها فوق بعض وأعدها لاهلاك الظلمة واعلم ان قوله منضود صفة للسجيل (الصفة الثالثة) مسومة وهذه الصفة صفة للاحجار ومعناها المعلمة وقد مضى الكلام فيه فى تفسير قوله والخيل المسومة واختلفوا فى كيفية تلك العلامة على وجوه (الاول) قال الحسن والسدى كان عليها أمثال الخواتيم (الثانى) قال ابن صالح رأيت منها عند أم هانئ حجارة فيها خطوط حمر على هيئة الجزع (الثالث) قال ابن جريج كان عليها سيما لا تشارك حجارة الارض وتدل على انه تعالى انما خلقها للعذاب (الرابع) قال الربيع مكتوب على كل حجر اسم من رمى به ثم قال تعالى عند ربك اى فى خزائنه التى لا يتصرف فيها أحد الا هو ثم قال وماهى من الظالمين ببعيد يعنى به كفار مكة والمقصود انه تعالى يرميهم بها عن أنس أنه قال سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام عن هذا فقال يعنى عن ظالمى أمتك مامن ظالم منهم الا وهو بمعرض حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة وقيل الضمير فى قوله وماهى للقرى أى وما تلك القرى التى وقعت فيها هذه الواقعة من كفار مكة ببعيد وذلك لان تلك القرى كانت فى الشأم وهى قريب من مكة * قوله تعالى (والى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان انى أراكم بخير وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الارض مفسدين بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ) اعلم ان هذا هو القصة السادسة من القصص المذكورة فى هذه السورة واعلم ان مدين اسم ابن لابراهيم عليه السلام ثم صار اسما للقبيلة وكثير من المفسرين يذهب الى أن مدين اسم مدينة بناها مدين بن ابراهيم عليه السلام والمعنى على هذا التقدير وأرسلنا الى أهل مدين فحذف الاهل واعلم انا بينا ان الانبياء عليهم السلام يشرعون فى أول الامر بالدعوة الى التوحيد فلهذا قال شعيب عليه السلام ما لكم من اله غيره ثم انهم بعد الدعوة الى التوحيد يشرعون فى الاهم ثم الاهم ولما كان المعتاد من أهل مدين البخس فى المكيال والميزان دعاهم الى ترك هذه العادة فقال ولا تنقصوا المكيال والميزان والنقص فيه على وجهين (أحدهما) أن يكون

﴿ الايفاء ﴾

الا يفاء من قبلهم فينقصون من قدره (والآخر) أن يكون لهم الاستيفاء فيأخذون أزيد من الواجب وذلك يوجب نقصان حق الغير وفى القسمين حصل النقصان فى حق الغير ثم قال انى أراكم بخير وفيه وجهان (الاول) انه حذرهم من غلاء السعر وزوال النعمة ان لم يتوبوا فكأنه قال اتركوا هذا التطفيف والا أزال الله عنكم ما حصل عندكم من الخير والراحة (والثانى) أن يكون التقدير انه تعالى أتاكم بالخير الكثير والمال والرخص والسعة فلا حاجة بكم الى هذا التطفيف ثم قال وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط وفيه أبحاث (البحث الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما أخاف أى أعلم حصول عذاب يوم محيط وقال آخرون بل المراد هو الخوف لانه يجوز أن يتركوا ذلك العمل خشية أن يحصل لهم العذاب ولما كان هذا التخويف قائما فالحاصل هو الظن لا العلم (البحث الثانى) انه تعالى توعدهم بعذاب يحيط بهم بحيث لا يخرج منه أحد والمحيط من صفة اليوم فى الظاهر وفى المعنى من صفة العذاب وذلك مجاز مشهور كقوله هذا يوم عصيب (البحث الثالث) اختلفوا فى المراد بهذا العذاب فقال بعضهم هو عذاب يوم القيامة لانه اليوم الذى نصب لاحاطة العذاب بالمعذبين وقال بعضهم بل يدخل فيه عذاب الدنيا والآخرة وقال بعضهم بل المراد منه عذاب الاستئصال فى الدنيا كما فى حق سائر الانبياء والاقرب دخول كل عذاب فيه واحاطة العذاب بهم كاحاطة الدائرة بما فى داخلها فينالهم من كل وجه وذلك مبالغة فى الوعيد كقوله وأحيط بثمره ثم قال و ياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط فان قيل وقع التكرير فى هذه الآية من ثلاثة أوجه لانه قال أولا ولا تنقصوا المكيال والميزان ثم قال أوفوا المكيال والميزان وهذا عين الاول ثم قال ولا تبخسوا الناس أشياءهم وهذا عين ما تقدم فما الفائدة فى هذا التكرير قلنا ان فيه وجوها (الاول) ان القوم كانوا مصرين على ذلك العمل فاحتيج فى المنع منه الى المبالغة والتأكيد والتكرير يفيد التأكيد وشدة العناية والاهتمام (والثانى) ان قوله ولا تنقصوا المكيال والميزان نهى عن التنقيص وقوله أوفوا المكيال والميزان أمر بايفاء العدل والنهى عن ضد الشئ مغاير للامر به وليس لقائل أن يقول النهى عن ضد الشئ أمر به فكان التكرير لازما من هذا الوجه لانا نقول (الجواب) من وجهين (الاول) انه تعالى جمع بين الامر بالشئ وبين النهى عن ضده للمبالغة كما تقول صل قرابتك ولا تقطعهم فيدل هذا الجمع على غاية التأكيد (الثانى) أن نقول لا نسلم ان الامر كما ذكرتم لانه يجوز أن ينهى عن التنقيص و ينهى أيضا عن أصل المعاملة فهو تعالى منع من التنقيص وأمر بايفاء الحق ليدل ذلك على انه تعالى لم يمنع عن المعاملات ولم ينه عن المبايعات وانما منع من التطفيف وذلك لان طائفة من الناس يقولون ان المبايعات لا تنفك عن التطفيف ومنع الحقوق فكانت المبايعات محرمة بالكلية فلاجل ابطال هذا الخيال منع تعالى فى الآية الاولى من التطفيف وفى الآية الاخرى أمر بالايفاء

شهادات فلما مشى معهم منطلقا بهم الى منزله قال لهم أما بلغكم امر هذه القرية قالوا وما أمرها قال أشهد بالله انها لشر قرية فى الارض عملا يقول ذلك أربع مرات فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد فخرجت امرأته فاخبرت به قومها وقالت ان فى بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط (وضاق بهم ذرعا) اى ضاق بمكانهم صدره أو قلبه أو وسعه وطاقته وهو كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه وقيل ضاقت نفسه عن هذا الحادث وذكر الذرع مثل وهو المساحة وكانه قدر البدن مجازا أى ان بدنه ضاق قدره من احتمال ما وقع وقيل الذراع اسم للجارحة من المرفق الى الانامل والذرع مدها ومعنى ضيق الذرع فى قوله تعالى ضاق بهم ذرعا قصرها كما أن معنى سعتها و بسطتها طولها ووجه التمثيل بذلك أن القصير الذراع اذا مدها ليتناول لما يتناول الطويل الذراع تقاصر عنه وعجز عن تعاطيه فضرب مثلا للذى قصرت طاقته دون بلوغ الامر (وقال هذا يوم عصيب) شديد من عصبه اذا شده (وجاءه) اى لوطا وهو فى بيته مع أضيافه (قومه يهرعون اليه) اى يسرعون كانما يدفعون دفعا لطلب الفاحشة من أضيافه والجملة حال من قومه وكذا قوله تعالى (ومن قبل) اى من قبل هذا الوقت كانوا يعملون السيآت) اى جاءوا مسرعين والحال أنهم كانوا منهمكين فى عمل السيآت فضروا بها وتمرنوا فيها حتى لم يبق عندهم قباحتها ولذلك لم يستحيوا مما فعلوا من مجيئهم مهرعين مجاهرين (قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) فتزوجوهن وكانوا يطلبونهن من قبل ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لعدم مشروعيته فان تزويج المسلمات من الكفار كان جائزا وقد زوج النبى عليه الصلاة والسلام ابنتيه من عتبة بن أبى لهب وأبى العاص بن الربيع قبل الوحى وهما كافران وقيل كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنتيه وأيا ما كان فقد أراد به وقاية ضيفه وذلك غاية الكرم وقيل ما كان ذلك القول منه

مجرى على الحقيقة من ارادة النكاح بل كان ذلك مبالغة فى التواضع لهم واظهار الشدة امتعاضه مما أورد واعليه طمعا فى أن يستحيوا منه و يرقوا له اذا سمعوا ذلك فينزجروا عما أقدموا عليه مع ظهور الامر واستقرار العلم عنده وعندهم جميعا بأن لا مناكحة بينهم وهو الانسب بقولهم لقد علمت مالنا فى بناتك من حق كما ستقف عليه (فاتقوا الله) بترك الفواحش أو بايثارهن عليهم (ولا تخزون فى ضيفى) اى لا تفضحونى فى شانهم فان اخزاء ضيف الرجل و جاره اخزاء له أو لا تجعلونى من الخزاية وهى الحياء (أليس منكم رجل رشيد) يهتدى الى الحق الصريح و يرعوى عن الباطل القبيح (قالوا) معرضين عما نصحهم به من الامر بتقوى الله والنهى عن اخزائه مجيبين عن أول كلامه (لقد علمت مالنا فى بناتك من حق) مستشهدين بعلمه بذلك يعنون انك قد علمت أن لا سبيل الى المناكحة بيننا و بينك وما عرضت الاعرض سابرى ولا مطمع لنا فى ذلك (وانك لتعلم مانريد) من اتيان الذكران ولما يئس عليه السلام من ارعوائهم عما هم عليه من الغى (قال لو أن لى بكم قوة) اى لفعلت بكم مافعلت وصنعت ماصنعت كقوله تعالى ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أ وقطعت به الارض أو كلم به الموتى (أو آوى الى ركن شديد) عطف على أن لى بكم الى آخره لما فيه من معنى الفعل اى لو قويت على دفعكم بنفسى أو أويت الى ناصر عزيز قوى أتمنع به عنكم شبهه بركن الجبل فى الشدة والمنعة روى عن النبى صلى الله عليه سلم رحم الله أخى لوطا كان يأوى الى ركن شديد وروى أنه عليه السلام أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم ﴿ تعالى ﴾ وراء الباب فتسوروا الجدار فلما رأت الملائكة ماعلى لوط من الكرب (قالوا) اى الرسل لما شاهدوا عجزه عن مدافعة ومه (يالوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك) بضرر ولا مكروه فافتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن بريل عليه السلام ربه رب العزة جل جلاله فى عقوبتهم فأذن له فقام فى الصورة التى يكون فيها

وأما قوله ثالثا ولا تبخسوا الناس أشياءهم فليس بتكرير لانه تعالى خص المنع فى الآية السابقة بالنقصان فى المكيال والميزان ثم انه تعالى عمم الحكم فى جميع الاشياء فظهر بهذا البيان انها غير مكررة بل فى كل واحد منها فائدة زائدة (والوجه الثالث) انه تعالى قال فى الآية الاولى ولا تنقصوا المكيال والميزان وفى الثانية قال أوفوا المكيال والميزان والايفاء عبارة عن الاتيان به على سبيل الكمال والتمام ولا يحصل ذلك الا اذا أعطى قدرا زائدا على الحق ولهذا المعنى قال الفقهاء انه تعالى أمر بغسل الوجه وذلك لا يحصل الا عند غسل جزء من أجزاء الرأس فالحاصل انه تعالى فى الآية الاولى نهى عن النقصان وفى الآية الثانية أمر باعطاء قدر من الزيادة ولا يحصل الجزم واليقين بأداء الواجب الا عند أداء ذلك القدر من الزيادة فكانه تعالى نهى أولا عن سعى الانسان فى أن يجعل مال غيره ناقصا لتحصل له تلك الزيادة وفى الثانية أمر بالسعى فى تنقيص مال نفسه ليخرج باليقين عن العهدة وقوله بالقسط يعنى بالعدل ومعناه الامر بايفاء الحق بحيث يحصل معه اليقين بالخروج عن العهدة فالامر بايتاء الزيادة على ذلك غير حاصل ثم قال ولا تبخسوا الناس أشياءهم والبخس هو النقص فى كل الاشياء وقد ذكرنا ان الآية الاولى دلت على المنع من النقص فى المكيال والميزان وهذه الآية دلت على المنع من النقص فى كل الاشياء ثم قال ولا تعثوا فى الارض مفسدين فان قيل العثو الفساد التام فقوله ولا تعثوا فى الارض مفسدين جار مجرى أن يقال ولا تفسدوا فى الارض مفسدين قلنا فيه وجوه (الاول) أن من سعى فى ايصال الضرر الى الغير فقد حمل ذلك الغير على السعى الى ايصال الضرر اليه فقوله ولا تعثوا فى الارض مفسدين معناه ولا تسعوا فى افساد مصالح الغير فان ذلك فى الحقيقة سعى منكم فى افساد مصالح أنفسكم (والثانى) أن يكون المراد من قوله ولا تعثوا فى الارض مفسدين مصالح دنياكم وآخرتكم (والثالث) ولا تعثوا فى الارض مفسدين مصالح الاديان ثم قال بقية الله خير لكم قرئ تقية الله وهى تقواه ومراقبته التى تصرف عن المعاصى ثم نقول المعنى ما أبقى الله لكم من الحلال بعد ايفاء الكيل والوزن خير من البخس والتطفيف يعنى المال الحلال الذى يبقى لكم خير من تلك الزيادة الحاصلة بطريق البخس والتطفيف وقال الحسن بقية الله أى طاعة الله خير لكم من ذلك القدر القليل لان ثواب الطاعة يبقى أبدا وقال قتادة حظكم من ربكم خير لكم وأقول المراد من هذه البقية اما المال الذى يبقى عليه فى الدنيا واما ثواب الله واما كونه تعالى راضيا عنه والكل خير من قدر التطفيف اما المال الباقى فلان الناس اذا عرفوا انسانا بالصدق والامانة والبعد عن الخيانة اعتمدوا عليه ورجعوا فى كل المعاملات اليه فيفتح عليه باب الرزق واذا عرفوه بالخيانة والمكر انصرفوا عنه ولم يخالطوه البتة فتضيق أبواب الرزق عليه وأما ان حملنا هذه البقية على الثواب فالامر ظاهر لان كل الدنيا تفنى وتنقرض وثواب الله باق وأما ان حملناه على حصول رضا الله

تعالى فالامر فيه ظاهر فثبت بهذا البرهان ان بقية الله خير ثم قال ان كنتم مؤمنين وانما شرط الايمان فى كونه خيرا لهم لانهم ان كانوا مؤمنين مقرين بالثواب والعقاب عرفوا ان السعى فى تحصيل الثواب وفى الحذر من العقاب خير لهم من السعى فى تحصيل ذلك القليل واعلم أن المعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فهذه الآية تدل بظاهرها على ان من لم يحترز عن هذا التطفيف فانه لا يكون مؤمنا ثم قال تعالى وما أنا عليكم بحفيظ وفيه وجهان (الاول) أن يكون المعنى انى نصحتكم وأرشدتكم الى الخير وما أنا عليكم بحفيظ أى لا قدرة لى على منعكم عن هذا العمل القبيح (الثانى) انه قد أشار فيما تقدم الى ان الاشتغال بالبخس والتطفيف يوجب زوال نعمة الله تعالى فقال وما أنا عليكم بحفيظ يعنى لو لم تتركوا هذا العمل القبيح لزالت نعم الله عنكم وأنا لا أقدر على حفظها عليكم فى تلك الحالة ❁ قوله تعالى (قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء انك لانت الحليم الرشيد) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم أصلاتك بغير واو والباقون أصلواتك على الجمع (المسئلة الثانية) اعلم ان شعيبا عليه السلام أمرهم بشيئين بالتوحيد وترك البخس فالقوم أنكروا عليه أمره بهذين النوعين من الطاعة فقوله ان نترك ما يعبد آباؤنا اشارة الى انه أمرهم بالتوحيد وقوله أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء اشارة الى أنه أمرهم بترك البخس أما الاول فقد اشاروا فيه الى التمسك بطريقة التقليد لانهم استبعدوا منه أن يأمرهم بترك عبادة ما كان يعبد آباؤهم يعنى الطريقة التى أخذناها من آبائنا وأسلافنا كيف نتركها وذلك تمسك بمحض التقليد (المسئلة الثالثة) فى لفظ الصلاة ههنا قولان (الاول) المراد منه الدين والايمان لان الصلاة أظهر شعار الدين فجعلوا ذكر الصلاة كناية عن الدين أو نقول الصلاة أصلها من الاتباع ومنه أخذ المصلى من الخيل الذى يتلو السابق لان رأسه يكون على صلوى السابق وهما ناحيتا الفخذين والمراد دينك يأمرك بذلك (والثانى) ان المراد منه هذه الاعمال المخصوصة روى أن شعيبا كان كثير الصلاة وكان قومه اذا رأوه يصلى تغامزوا وتضاحكوا فقصدوا بقولهم أصلواتك تأمرك السخرية والهزؤ وكما أنك اذا رأيت معتوها يطالع كتبا ثم يذكر كلاما فاسدا فيقال له هذا من مطالعة تلك الكتب على سبيل الهزؤ والسخرية فكذا ههنا فان قيل تقدير الآية أصلواتك تأمرك أن نفعل فى أموالنا ما نشاء وهم انما ذكروا هذا الكلام على سبيل الانكار وهم ما كانوا ينكرون كونهم فاعلين فى أموالهم ما يشاؤن فكيف وجه التأويل قلنا فيه وجهان (الاول) التقدير أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا وأن نترك فعل ما نشاء وعلى هذا فقوله أو أن نفعل معطوف على ما فى قوله ما يعبد آباؤنا (والثانى) أن تجعل الصلاة آمرة وناهية والتقدير أصلواتك تأمرك بأن نترك عبادة الاوثان وتنهاك أن نفعل فى أموالنا ما نشاء وقرأ ابن أبى عبلة أو أن تفعل فى اموالنا

فنشر جناحه وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم كما قال عز وعلا فطمسنا أعينهم فصاروا لا يعرفون الطريق فخرجوا وهم يقولون النجاء النجاء فان فى بيت لوط قوما سحرة (فأسر بأهلك) بالقطع من الاسراء وقرأ ابن كثير ونافع بالوصل حيث جاء فى القرآن من السرى والفاء لترتيب الامر بالاسراء على الاخبار برسالتهم المؤذنة بورود الامر والنهى من جنابه عز وجل اليه عليه السلام (بقطع من الليل) بطائفة منه (ولا يلتفت منكم) أى لا يتخلف او لا ينظر الى ورائه (أحد) منك ومن أهلك وانما نهوا عن ذلك ليجدوا فى السير فان من يلتفت الى ما وراءه لا يخلو عن أدنى وقفة أو لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم (الا امرأتك) استثناء من قوله تعالى فأسر بأهلك ويؤيده أنه قرئ فأسر بأهلك بقطع من الليل الا امرأتك وقرئ بالرفع على البدل من أحد فالالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر الى الخلف كيلا يلزم التناقض بين القراءتين المتواترتين فان النصب يقتضى كونه عليه السلام غير مأمور بالاسراء بها والرفع كونه مأمورا بذلك والاعتذار بأن مقتضى الرفع انما هو مجرد كونها معهم وذلك لا يستدعى الامر بالاسراء بها حتى يلزم المناقضة لجواز أن تسرى هى بنفسها كما يروى انه عليه السلام لما أسرى بأهله تبعتهم فلما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت يا قوماه فأدركها حجر فقتلها وأن يسرى بها عليه السلام من غير أمر بذلك اذ موجب النصب انما هو عدم الامر بالاسراء بها لا النهى عن الاسراء بها حتى يكون عليه السلام بالاسراء بها مخالفا للنهى لا يجدى نفعا لان انصراف الاستثناء الى الالتفات يستدعى بقاء الاهل على العموم فيكون الاسراء بها مأمورا به قطعا وفى حمل الاهلية فى احدى القراءتين على الاهلية الدينية وفى الاخرى على النسبية مع أن فيه ما لا يخفى من التحكم والاعتساف كر على ما فر منه من المناقضة فالاولى حينئذ جعل الاستثناء

ماتشاء بناء الخطاب فيهما وهو ما كان يأمرهم به من ترك التطفيف والبخس والاقتناع بالحلال القليل وأنه خير من الحرام الكثير ثم قال تعالى حكاية عنهم انك لأنت الحليم الرشيد وفيه وجوه (الاول) أن يكون المعنى انك لانت السفيه الجاهل الا أنهم عكسوا ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية به كما يقال للبخيل الخسيس لو رآك حاتم لسجد لك (والثانى) أن يكون المراد انك موصوف عند نفسك وعند قومك بالحلم والرشد (والوجه الثالث) انه عليه السلام كان مشهورا عندهم بأنه حليم رشيد فلما أمرهم بمفارقة طريقتهم قالوا له انك لانت الحليم الرشيد المعروف الطريقة فى هذا الباب فكيف تنهانا عن دين ألفيناه من آبائنا وأسلافنا والمقصود استبعاد مثل هذا العمل ممن كان موصوفا بالحلم والرشد وهذا الوجه أصوب الوجوه * قوله تعالى (قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب وياقوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى رحيم ودود) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنه تعالى حكى عن شعيب عليه السلام ماذكره فى الجواب عن كلماتهم فالاول قوله أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وفيه وجوه (الاول) ان قوله ان كنت على بينة من ربى اشارة الى ما آتاه الله تعالى من العلم والهداية والدين والنبوة وقوله ورزقنى منه رزقا حسنا اشارة الى ما آتاه الله من المال الحلال فانه يروى أن شعيبا عليه السلام كان كثير المال واعلم أن جواب ان الشرطية محذوف والتقدير انه تعالى لما آتانى جميع السعادات الروحانية وهى البينة والسعادات الجسمانية وهى المال والرزق الحسن فهل يسعنى مع هذا الانعام العظيم أن أخون فى وحيه وأن أخالفه فى أمره ونهيه وهذا الجواب شديد المطابقة لما تقدم وذلك لانهم قالوا له انك لانت الحليم الرشيد فكيف يليق بك مع حلمك ورشدك أن تنهانا عن دين آبائنا فكأنه قال انما أقدمت على هذا العمل لان نعم الله تعالى عندى كثيرة وهو أمرنى بهذا التبليغ والرسالة فكيف يليق بى مع كثرة نعم الله تعالى على أن أخالف أمره وتكليفه (الثانى) أن يكون التقدير كأنه يقول لما ثبت عندى أن الاشتغال بعبادة غير الله والاشتغال بالبخس والتطفيف عمل منكر ثم أنا رجل أريد اصلاح أحوالكم ولا أحتاج الى أموالكم لاجل ان الله تعالى آتانى رزقا حسنا فهل يسعنى مع هذه الاحوال أن أخون فى وحى الله تعالى وفى حكمه (الثالث) قوله ان كنت على بينة من ربى أى ما حصل عنده من المعجزة وقوله ورزقنى منه رزقا حسنا المراد انه لا يسألهم أجرا ولا جعلا وهو الذى ذكره سائر الانبياء من قولهم لا أسألكم عليه أجرا ان أجرى الا على رب العالمين (المسئلة الثانية) قوله ورزقنى منه رزقا حسنا يدل على أن ذلك الرزق انما حصل من عند الله تعالى وباعانته وأنه لا مدخل

﴿ للكسب ﴾

محمول على القراءتين من قوله لا يلتفت مثل الذى فى قوله تعالى ما فعلوه الا قليل منهم فان ابن عامر قرأه بالنصب وان كان الافصح الرفع على البدل ولا بعد فى كون اكثر القراء على غير الافصح ولا يلزم من ذلك امرها بالالتفات بل عدم نهيها عنه بطريق الاستصلاح ولذلك علله على طريقة الاستئناف بقوله (انه مصيبها ما اصابهم) من العذاب وهو امطار الاحجار وان لم يصبها الخسف والضمير فى انه للشأن وقوله تعالى مصيبها خبر وقوله ما اصابهم مبتدأ والجملة خبر لان الذى اسمه ضمير الشأن وفيه ما لا يخفى من تفخيم شأن ما أصابهم ولا يحسن جعل الاستثناء منقطعا على قراءة الرفع (ان موعدهم الصبح) أى موعد عذابهم وهلاكهم تعليل للامر بالاسراء والنهى عن الالتفات المشعر بالحث على الاسراع (أليس الصبح بقريب) تأكيد للتعليل فان قرب الصبح داع الى الاسراع فى الاسراء للتباعد عن مواقع العذاب وروى أنه قال للملائكة متى موعد هلاكهم قالوا الصبح قال أريد أسرع من ذلك قالوا ذلك وانما جعل ميقات هلاكهم الصبح لانه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ أفظع ولانه انسب بكون ذلك عبرة للناظرين (فلما جاء امرنا) أى وقت عذابنا وموعده وهو الصبح (جعلنا عاليها) أى عالى قرى قوم لوط وهى التى عبر عنها بالمؤتفكات وهى خمس مدائن فيها أربعمائة ألف (سافلها) أى قلبناها على تلك الهيئة وجعل عاليها مفعولا أول للجعل وسافلها مفعولا ثانيا له وان تحقق القلب بالعكس أيضا لتهويل الامر وتفظيع الخطب لان جعل عاليها الذى هو مقارهم ومساكنهم سافلها أشد عليهم وأشق من جعل سافلها عاليها وان كان مستلزما له * وروى انه جعل جبريل عليه السلام جناحه فى أسفلها ثم رفعها الى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها عليهم واسناد الجعل والامطار الى ضميره سبحانه باعتبار أنه المسبب لتفخيم الامر وتهويل الخطب (وأمطرنا عليها) على أهل المدائن أو شذاذهم

حجارة من سجيل) من طين متحجر كقوله حجارة من طين وأصله سنك كل فعرب وقيل هو من أسجله اذا ارسله أو أدر عطيته والمعنى من مثل الشئ المرسل أو مثل العطية في الادرار أو من السجل أي مما كتب الله تعالى أن يعذبهم به وقيل أصله من سجين أي من جهنم فأبدلت نونه لاما (منضود) نضد في السماء نضدا معدا للعذاب وقيل يرسل بعضه اثر بعض كقطار الامطار (مسومة) معلمة للعذاب وقيل معلمة ببياض وحمرة أو بسيما تتميز به عن حجارة الارض او باسم من ترمى به (عند ربك) في خزائنه التي لا يتصرف فيها غيره عز وجل (وما هي) أي الحجارة الموصوفة (من الظالمين) من كل ظالم (ببعيد) فانهم بسبب ظلمهم مستحقون لها وملابسون بها وفيه وعيد شديد لاهل الظلم كافة ❁ وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سأل جبريل عليه السلام فقال يعني ظالمي امتك ما من ظالم منهم الا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة وقيل الضمير للقرى أي هي قريبة من ظالمي مكة يمرون بها في مسايرهم وأسفارهم الى الشأم وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر أو اجرائه على موصوف مذكر أي بشئ بعيد أو بمكان بعيد فانها وان كانت في السماء وهي في غاية البعد من الارض الا انها حين هوت منها فهي أسرع شئ لحوقا بهم فكأنها بمكان قريب منهم أو لانه على زنة المصدر كالزفير والصهيل والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث (والى مدين) أي أولاد مدين بن ابراهيم عليه السلام أو جعل اسما للقبيلة بالغلبة أو أهل مدين وهو بلد بناه مدين فسمي باسمه (أخاهم) أي نسيبهم (شعيبا) وهو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين وكان يقال له خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه والجملة معطوفة على قوله تعالى والى ثمود أخاهم صالحا أي وأرسلنا الى مدين أخاهم شعيبا (قال) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن صدر الكلام فكأنه قيل فاذا قال لهم فقيل قال كما قال من قبله من الرسل عليهم السلام (يا قوم اعبدوا الله) وحده ولا تشركوا به شيئا (ما لكم من اله

الكسب فيه وفيه تنبيه على أن الاعزاز من الله تعالى والاذلال من الله تعالى واذا كان الكل من الله تعالى فأنا لا أبالي بمخالفتكم ولا أفرح بموافقتكم وانما أكون على تقرير دين الله تعالى وايضاح شرائع الله تعالى (وأما الوجه الثاني) من الاجوبة التي ذكرها شعيب عليه السلام فقوله وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه قال صاحب الكشاف يقال خالفني فلان الى كذا اذا قصده وأنت مول عنه وخالفني عنه اذا ولى عنه وأنت قاصده ويلقاك الرجل صادرا عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول خالفني الى الماء يريد أنه قد ذهب اليه واردا وأنا ذاهب عنه صادرا ومنه قوله وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه يعني أن أسبقكم الى شهواتكم التي نهيتكم عنها لاستبد بها دونكم فهذا بيان اللغة وتحقيق الكلام فيه أن القوم اعترفوا بأنه حليم رشيد وذلك يدل على كمال العقل وكمال العقل يحمل صاحبه على اختيار الطريق الاصوب الاصلح فكأنه عليه السلام قال لهم لما اعترفتم بكمال عقلي فاعلموا أن الذي اختاره عقلي لنفسي لا بد وأن يكون أصوب الطرق وأصلحها والدعوة الى توحيد الله تعالى وترك البخس والنقصان يرجع حاصلهما الى جزأين التعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله تعالى وأنا مواظب عليهما غير تارك لهما في شئ من الاحوال البتة فلما اعترفتم لي بالحلم والرشد وترون اني لا أترك هذه الطريقة فاعلموا أن هذا الطريقة خير الطرق وأشرف الاديان والشرائع (واما الوجه الثالث) من الوجوه التي ذكرها شعيب عليه السلام فهو قوله ان أريد الا الاصلاح ما استطعت والمعنى ما أريد الا ان أصلحكم بموعظتي ونصيحتي وقوله ما استطعت فيه وجوه (الاول) أنه ظرف والتقدير مدة استطاعتي للاصلاح ومادمت متمكنا منه لا آلو فيه جهدا (والثاني) انه بدل من الاصلاح أي المقدار الذي استطعت منه (والثالث) أن يكون مفعولا له أي ما أريد الا أن أصلح ما استطعت اصلاحه واعلم ان المقصود من هذا الكلام أن القوم كانوا قد أقروا بانه حليم رشيد وانما أقروا له بذلك لانه كان مشهورا فيما بين الخلق بهذه الصفة فكأنه عليه السلام قال لهم انكم تعرفون من حالي أني لا أسعى الا في الاصلاح وازالة الفساد والخصومة فلما أمرتكم بالتوحيد وترك ايذاء الناس فاعلموا أنه دين حق وانه ليس غرضي منه ايقاع الخصومة واثارة الفتنة فانكم تعرفون أني أبغض ذلك الطريق ولا أدور الا على ما يوجب الصلح والصلاح بقدر طاقتي وذلك هو الابلاغ والانذار وأما الاجبار على الطاعة فلا أقدر عليه ثم انه عليه السلام أكد ذلك بقوله وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب وبين بهذا أن توكله واعتماده في تنفيذ كل الاعمال الصالحة على توفيق الله تعالى وهدايته واعلم ان قوله عليه السلام توكلت اشارة الى محض التوحيد لان قوله عليه السلام توكلت يفيد الحصر وهو أنه لا ينبغي للانسان أن يتوكل على أحد الا على الله تعالى وكيف وكل ما سوى الحق سبحانه ممكن لذاته فان بذاته ولا يحصل الا بايجاده وتكوينه واذا كان كذلك لم يجز التوكل الا على الله

تعالى وأعظم مراتب معرفة المبدا هو الذي ذكرناه وأما قوله واليه أنيب فهو اشارة الى معرفة المعاد وهو أيضا يفيد الحصر لان قوله واليه أنيب يدل على انه لا مرجع للخلق الا الى الله تعالى وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان اذا ذكر شعيب عليه السلام قال ذاك خطيب الانبياء لحسن مراجعته في كلامه بين قومه (وأما الوجه الرابع) من الوجوه التي ذكرها شعيب عليه السلام فهو قوله و ياقوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم قال صاحب الكشاف جرم مثل كسب في تعديته تارة الى مفعول واحد وأخرى الى مفعولين يقال جرم ذنبا وكسبه وجرمه ذنبا وكسبه اياه ومنه قوله تعالى لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم أي لا يكسبنكم شقاقي اصابة العذاب وقرأ ابن كثير يجرمنكم بضم الياء من أجرمته ذنبا اذا جعلته جارماله أي كاسباله وهو منقول من جرم المتعدي الى مفعول واحد وعلى هذا فلا فرق بين جرمته ذنبا وأجرمته اياه والقراءتان مستويتان في المعنى لا تفاوت بينهما الا أن المشهورة أفصح لفظا كما ان كسبه مالا أفصح من أكسبه اذا عرفت هذا فنقول المراد من الآية لا تكسبنكم معاداتكم اياي أي يصيبكم عذاب الاستئصال في الدنيا مثل ما حصل لقوم نوح عليه السلام من الغرق ولقوم هود من الريح العقيم ولقوم صالح من الرجفة ولقوم لوط من الخسف وأما قوله وما قوم لوط منكم ببعيد ففيه وجهان (الاول) ان المراد نفي البعد في المكان لان بلاد قوم لوط عليه السلام قريبة من مدين (والثاني) ان المراد نفي البعد في الزمان لان اهلاك قوم لوط عليه السلام اقرب الاهلاكات التي عرفها الناس في زمان شعيب عليه السلام وعلى هذين التقديرين فان القرب في المكان وفي الزمان يفيد زيادة المعرفة وكمال الوقوف على الاحوال فكأنه يقول اعتبروا بأحوالهم واحذروا من مخالفة الله تعالى ومنازعته حتى لا ينزل بكم مثل ذلك العذاب فان قيل لم قال وما قوم لوط منكم ببعيد وكان الواجب أن يقال ببعيدين أجاب عنه صاحب الكشاف من وجهين (الاول) أن يكون التقدير ما اهلاكهم بشيء بعيد (الثاني) أنه يجوز أن يسوى في قريب وبعيد وكثير وقليل بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التي هي الصهيل والنهيق ونحوهما (وأما الوجه الخامس) من الوجوه التي ذكرها شعيب عليه السلام فهو قوله واستغفروا ربكم عن عبادة الاوثان ثم توبوا اليه عن البخس والنقصان ان ربي رحيم بأوليائه ودود قال أبو بكر الانباري الودود في أسماء الله تعالى المحب لعباده من قولهم وددت الرجل أوده وقال الازهري في كتاب شرح أسماء الله تعالى و يجوز أن يكون ودود فعولا بمعنى مفعول كركوب وحلوب ومعناه ان عباده الصالحين يودونه و يحبونه لكثرة افضاله واحسانه على الخلق واعلم أن هذا الترتيب الذي راعاه شعيب عليه السلام في ذكر هذه الوجوه الخمسة ترتيب لطيف وذلك لانه بين اولا أن ظهور البينة له وكثرة انعام الله تعالى عليه في الظاهر والباطن يمنعه عن الخيانة في وحي الله تعالى و يصده عن التهاون في تكاليفه ثم بين ثانيا أنه مواظب على العمل بهذه

غيرة) تحقيق للتوحيد وتعليل للامر به و بعدما أمرهم بما هو ملاك أمر الدين وأول ما يجب على المكلفين نهاهم عن ترتيب مبادي ما اعتادوه من البخس والتطفيف عادة مستمرة فقال (ولا تنقصوا المكيال والميزان) كي تتوسلوا بذلك الى بخس حقوق الناس (انى اراكم بخير) أي ملتبسين بثروة وسعة تغنيكم عن ذلك او بنعمة من الله تعالى حقها أن تقابل بغير ما تأتونه من المسامحة والتفضل على الناس شكرا عليها أو أراكم بخير فلا تزيلوه بما أنتم عليه من الشر وهو على كل حال علة النهى عقبت بعلة أخرى أعنى قوله عز وجل (وانى أخاف عليكم) ان لم تنتهوا عن ذلك (عذاب يوم محيط) لا يشذ منه شاذ منكم وقيل عذاب يوم مهلك من قوله تعالى وأحيط بثمره وأصله من احاطة العدو والمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال ووصف اليوم بالاحاطة وهي حال العذاب على الاسناد المجازي وفيه من المبالغة مالا يخفى فان اليوم زمان يشتمل على ما وقع فيه من الحوادث فاذا احاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما اذا احاط بنعيمه و يجوز أن يكون هذا تعليلا للامر والنهى جميعا (و ياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط) أي بالعدل من غير زيادة ولا نقصان فان الزيادة في الكيل والوزن وان كان تفضلا مندوبا اليه لكنها في الآلة محظورة كالنقص فلعل الزائد للاستعمال عند الاكتيال والناقص للاستعمال وقت الكيل وانما أمر بتسويتهما وتعديلهما صريحا بعد النهى عن نقصهما مبالغة في الحمل على الايفاء والمنع من البخس وتنبيها على انه لا يكفيهم مجرد الكف عن النقص والبخس ﴿ الدعوة ﴾ بل يجب عليهم اصلاح ما أفسدوه وجعلوه معيارا لظلمهم وقانونا لعدوانهم (ولا تبخسوا الناس) بسبب نقصهما وعدم اعتدالهما (أشياءهم) التي يشترونها بهما وقد صرح بالنهي عن البخس بعد ما علم ذلك في ضمن النهى عن نقص المعيار والامر بايفائه اهتماما بشأنه وترغيبا في ايفاء الحقوق بعد الترهيب والزجر عن نقصها و يجوز أن

يكون المراد بالامر بايفاء المكيال والميزان الامر بايفاء المكيلات والموزونات و يكون النهى عن البخس عاما للنقص فى المقدار وغيره تعميما بعد التخصيص كما فى قوله تعالى (ولاتعثوا فى الارض مفسدين) فان العثى يعم نقص الحقوق وغيره من أنواع الفساد وقيل البخس المكس كاخذ العشور فى المعاملات قال زهير بن أبى سلمى * أفى كل أسواق العراق اتاوة * وفى كل ماباع أمرؤ مكس درهم * والعثى فى الارض السرقة وقطع الطريق والغارة وفائدة الحال اخراج مايقصد به الاصلاح كما فعله الخضر عليه السلام من خرق السفينة وقتل الغلام وقيل معناه ولاتعثوا فى الارض مفسدين أمر آخرتكم ومصالح دينكم (بقية الله) أى ما ابقاه لكم من الحلال بعد التنزه عن تعاطى المحرمات (خير لكم) مما تجمعون بالبخس والتطفيف فان ذلك هباء منثور بل شر محض وان زعمتم أن فيه خيرا كقوله تعالى يمحق الله الربوا ويربى الصدقات (ان كنتم مؤمنين) بشرط أن تؤمنوا فان خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالايمان لامحالة او ان كنتم مصدقين لى فى مقالتى لكم وقيل البقية الطاعة كقوله عز وجل والباقيات الصالحات خير عند ربك وقرئ تقية الله بالفوقانية وهى تقواه عن المعاصى (وما انا عليكم بحفيظ) أحفظكم من القبائح او أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم وانما أنا ناصح مبلغ وقد أعذرت اذ أنذرت ولم آل فى ذلك جهدا أو ما أنا بحافظ ومستبق عليكم نعم الله تعالى ان لم تتركوا ما أنتم عليه من سوء الصنيع (قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا) من الاوثان أجابوا بذلك أمره عليه السلام اياهم بعبادة الله وحده المتضمن لنهيهم عن عبادة الاصنام وقد بالغوا فى ذلك و بلغوا أقصى مراتب الخلاعة والمجون والضلال حيث لم يكتفوا بانكار الوحى الآمر بذلك حتى ادعوا أن لاآمر به من العقل واللب أصلا وأنه من أحكام الوسوسة والجنون وعلى ذلك بنوا استفهامهم وقالوا بطريق الاستهزاء أصلاتك التى هى من نتائج

الدعوة ولو كانت باطلة لما اشتغل هو بها مع اعترافكم بكونه حليما رشيدا ثم بين صحته بطريق آخر وهو أنه كان معروفا بتحصيل موجبات الصلاح واخفاء موجبات الفتن فلو كانت هذه الدعوة باطلة لما اشتغل بها ثم لما بين صحة طريقته أشار الى نفى المعارض وقال لاينبغى أن تحملكم عداوتى على مذهب ودين تقعون بسببه فى العذاب الشديد من الله تعالى كما وقع فيه أقوام الانبياء المتقدمين ثم انه لما صحح مذهب نفسه بهذه الدلائل عاد الى تقرير ما ذكره أولا وهو التوحيد والمنع من البخس بقوله ثم توبوا اليه ثم بين لهم ان سبق الكفر والمعصية منهم لاينبغى أن يمنعهم من الايمان والطاعة لانه تعالى رحيم ودود يقبل الايمان والتوبة من الكافر والفاسق لان رحمته لعباده وحبه لهم يوجب ذلك وهذا التقرير فى غاية الكمال * قوله تعالى (قالوا ياشعيب مانفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز) اعلم انه عليه السلام لما بالغ فى التقرير والبيان أجابوه بكلمات فاسدة فالاول قولهم ياشعيب مانفقه كثيرا مما تقول وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لقائل أن يقول انه عليه السلام كان يخاطبهم بلسانهم فلم قالوا مانفقه والعلماء ذكروا عنه أنواعا من الجوابات (فالاول) أن المراد مانفهم كثيرا مما تقول لانهم كانوا لايلقون اليه افهامهم لشدة نفرتهم عن كلامه وهو كقوله وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه (الثانى) انهم فهموه بقلوبهم ولكنهم ما أقاموا له وزنا فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة كما يقول الرجل لصاحبه اذا لم يعبأ بحديثه ماأدرى ماتقول (الثالث) ان هذه الدلائل التى ذكرها ما أقنعتهم فى صحة التوحيد والنبوة والبعث وما يجب من ترك الظلم والسرقة فقولهم مانفقه أى لم نعرف صحة الدلائل التى ذكرتها على صحة هذه المطالب (المسئلة الثانية) من الناس من قال الفقه اسم لعلم مخصوص وهو معرفة غرض المتكلم من كلامه واحتجوا بهذه الآية وهى قوله مانفقه كثيرا مما تقول فاضاف الفقه الى القول ثم صار اسما لنوع معين من علوم الدين ومنهم من قال انه اسم لمطلق الفهم يقال أوتى فلان فقها فى الدين أى فهما وقال النبى صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين أى يفهمه تأويله (والنوع الثانى) من الاشياء التى ذكروها قولهم وانا لنراك فينا ضعيفا وفيه وجهان (الاول) انه الضعيف الذى يتعذر عليه منع القوم عن نفسه (والثانى) ان الضعيف هو الاعمى بلغة حمير واعلم أن هذا القول ضعيف لوجوه (الاول) أنه ترك للظاهر من غير دليل (والثانى) ان قوله فينا يبطل هذا الوجه ألا ترى انه لو قال انا لنراك أعمى فينا كان فاسدا لان الاعمى أعمى فيهم وفى غيرهم (الثالث) أنهم قالوا بعد ذلك ولولا رهطك لرجمناك فنفوا عنه القوة التى أثبتوها فى رهطه ولما كان المراد بالقوة التى أثبتوها للرهط هى النصرة وجب أن تكون القوة التى نفوها عنه هى النصرة والذين حملوا اللفظ على ضعف البصر لعلهم انما حملوه عليه لانه سبب للضعف واعلم أن أصحابنا يجوزون العمى على الانبياء الا ان هذا اللفظ لايحسن

الوسوسة وأفاعيل المجانين تأمرك بأن نترك عبادة الأوثان التى توارثناها أباعن جد وانما جعلوه عليه السلام مأمورا مع أن الصادر عنه انما هو الامر بعبادة الله تعالى وغير ذلك من الشرائع لانه عليه السلام لم يكن يأمرهم بذلك من تلقاء نفسه بل من جهة الوحى وأنه كان يعلمهم بأنه مأمور بتبليغه اليهم وتخصيصهم باسناد الامر الى الصلاة من بين سائر أحكام النبوة لانه عليه الصلاة والسلام كان كثير الصلاة معروفا بذلك وكانوا اذا رأوه يصلى يتغامزون و يتضاحكون فكانت هى من بين سائر شعائر الدين ضحكة لهم وقرئ أصلواتك (أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء) جواب عن أمره عليه السلام بايفاء الحقوق ونهيه عن البخس والنقص معطوف على ما أى أو أن نترك أن نفعل فى أموالنا مانشاء من الاخذ والاعطاء والزيادة والنقص وقرئ بالتاء فى الفعلين عطفا على مفعول تأمرك اى صلاتك تأمرك أن تفعل أنت فى أموالنا مانشاء وتجويز العطف على ماقبل يستدعى أن يراد بالترك معنيان متخالفان والمراد بفعله عليه السلام ايجاب الايفاء والعدل فى معاملاتهم لانفس الايفاء فان ذلك ليس من أفعاله عليه السلام بل من أفعالهم وانما لم نقل عطفا على أن نترك لان الترك ليس مأمورا به على الحقيقة بل المأمور به تكليفه عليه السلام اياهم وأمره بذلك والمعنى أصلاتك تأمرك أن تكلفنا أن نترك مايعبد آباؤنا وحمله على معنى أصلاتك تأمرك بما ليس فى وسعك وعهدتك من أفاعيل غيرك ليكون ذلك تعريضا منهم بركاكة رأيه عليه السلام واستهزاء به من تلك الجهة يأباه دخول الهمزة على الصلاة دون الامر و يستدعى أن يصدر عنه عليه السلام فى أثناء الدعوة مايدل على ذلك أو يوهمه وأنى ذلك فتأمل وقرئ بالنون فى الاول والتاء فى الثانى عطفا على أن نترك أى أو أن نفعل نحن فى أموالنا عند المعاملة ماتشاء أنت من التسوية والايفاء (انك لانت الحليم الرشيد) وصفوه عليه السلام بالوصفين على طريقة التهكم وانما أرادوا بذلك

الاستدلال به فى اثبات هذا المعنى لمابيناه وأما المعتزلة فقد اختلفوا فيه فنهم من قال انه لايجوز لكونه متعبدا فانه لايمكنه الاحتراز عن النجاسات ولانه يخل بجواز كونه حاكما وشاهدا فلان يمنع من النبوة كان أولى والكلام فيه لايليق بهذه الآية لانا بينا أن الآية لادلالة فيها على هذا المعنى (والنوع الثالث) من الاشياء التى ذكروها قولهم ولولا رهطك لرجمناك وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الرهط من الثلاثة الى العشرة وقيل الى السبعة وقد كان رهطه على ملتهم قالوا لولا حرمة رهطك عندنا بسبب كونهم على ملتنا لرجمناك والمقصود من هذا الكلام انهم بينوا أنه لاحرمة له عندهم ولا وقع له فى صدورهم وأنهم انما لم يقتلوه لاجل احترامهم رهطه (المسئلة الثانية) الرجم فى اللغة عبارة عن الرمى وذلك قد يكون بالحجارة عند قصد القتل ولما كان هذا الرجم سببا للقتل لاجرم سموا القتل رجما وقد يكون بالقول الذى هو القذف كقوله رجما بالغيب وقوله و يقذفون بالغيب من مكان بعيد وقد يكون بالشتم واللعن ومنه قوله الشيطان الرجيم وقد يكون بالطرد كقوله رجوما للشياطين اذا عرفت هذا فنى الآية وجهان (الاول) لرجمناك لقتلناك (الثانى) لشتمناك وطردناك (النوع الرابع) من الاشياء التى ذكروها قولهم وما أنت علينا بعزيز ومعناه انك لما لم تكن علينا عزيزا سهل علينا الاقدام على قتلك وايذائك واعلم أن كل هذه الوجوه التى ذكروها ليست دافعا لما قرره شعيب عليه السلام من الدلائل والبينات بل هى جارية مجرى مقابلة الدليل والحجة بالشتم والسفاهة * قوله تعالى (قال ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ان ربى بما تعملون محيط و ياقوم اعملوا على مكانتكم انى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا انى معكم رقيب) اعلم ان الكفار لما خوفوا شعيبا عليه السلام بالقتل والايذاء حكى الله تعالى عنه ماذكره فى هذا المقام وهو نوعان من الكلام (فالنوع الاول) قوله ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ان ربى بما تعملون محيط والمعنى ان القوم زعموا أنهم تركوا ايذاءه رعاية لجانب قومه فقال أنتم تزعمون أنكم تتركون قتلى اكراما لرهطى والله تعالى أولى أن يتبع أمره فكأنه يقول حفظكم اياى رعاية لامر الله تعالى أولى من حفظكم اياى رعاية لحق رهطى وأما قوله واتخذتموه وراءكم ظهريا فالمعنى أنكم نسيتموه وجعلتموه كالشئ المنبوذ وراء الظهر لايعبأ به قال صاحب الكشاف والظهرى منسوب الى الظهر والكسر من تغييرات النسب ونظيره قولهم فى النسبة الى الامس امسى بكسر الهمزة وقوله ان ربى بما تعملون محيط يعنى انه عالم باحوالكم فلا يخفى عليه شئ منها (والنوع الثانى) قوله و ياقوم اعملوا على مكانتكم انى عامل والمكانة الحالة يتمكن بها صاحبها من عمله والمعنى اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة وكل مافى وسعكم وطاقتكم من ايصال الشرور الى فانى أيضا عامل بقدر ما آتانى الله تعالى من

القدرة ثم قال سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) القائل أن يقول لم لم يقل فسوف تعلمون والجواب ادخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل واما بحذف الفاء فانه يجعله جوابا عن سؤال مقدر والتقدير انه لما قال ويا قوم اعملوا على مكانتكم انى عامل فكأنهم قالوا فماذا يكون بعد ذلك فقال سوف تعلمون فظهر أن حذف حرف الفاء ههنا أكمل في باب الفظاعة والتهويل ثم قال وارتقبوا انى معكم رقيب والمعنى فانتظروا العاقبة انى معكم رقيب أى منتظر والرقيب بمعنى الراقب من رقبه كالضريب والصريم بمعنى الضارب والصارم أو بمعنى المراقب كالعشير والنديم أو بمعنى المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع

● قوله تعالى (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) روى الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لم يعذب الله تعالى أمتين بعذاب واحد الا قوم شعيب وقوم صالح فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم وقوم شعيب أخذتهم من فوقهم وقوله ولما جاء أمرنا يحتمل أن يكون المراد منه ولما جاء وقت أمرنا ملكا من الملائكة بتلك الصيحة ويحتمل أن يكون المراد من الامر العقاب وعلى التقديرين فأخبر الله انه نجى شعيبا ومن معه من المؤمنين برحمة منه وفيه وجهان (الاول) أنه تعالى انما خلصه من ذلك العذاب لمحض رحمته تنبيها على ان كل ما يصل الى العبد فليس الا بفضل الله ورحمته (والثانى) أن يكون المراد من الرحمة الايمان والطاعة وسائر الاعمال الصالحة وهي أيضا ما حصلت الا بتوفيق الله تعالى ثم وصف كيفية ذلك العذاب فقال وأخذت الذين ظلموا الصيحة وانما ذكر الصيحة بالالف واللام اشارة الى المعهود السابق وهي صيحة جبريل عليه السلام فاصبحوا في ديارهم جاثمين والجاثم الملازم لمكانه الذى لا يتحول عنه يعني أن جبريل عليه السلام لما صاح بهم تلك الصيحة زهق روح كل واحد منهم بحيث يقع في مكانه ميتا كأن لم يغنوا فيها اى كأن لم يقيموا في درياهم أحياء متصرفين مترددين ثم قال تعالى الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود وقد تقدم تفسير هذه اللفظة وانما قاس حالهم على ثمود لما ذكرنا أنه تعالى عذبهم مثل عذاب ثمود * قوله تعالى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وملائه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود) واعلم ان هذه هى القصة السابعة من القصص التى ذكرها الله تعالى في هذه السورة وهي آخر القصص من هذه السورة أما قوله بآياتنا وسلطان مبين ففيه وجوه (الاول) أن المراد من الآيات التوراة مع ما فيها من الشرائع والاحكام ومن السلطان المبين المعجزات القاهرة الباهرة والتقدير ولقد أرسلنا موسى بشرائع وأحكام وتكاليف وأيدناه بمعجزات قاهرة وبينات باهرة (الثانى) ان الآيات

وصفه بضديهما كقول الخزنة ذق انك أنت العزيز الكريم ويجوز أن يكون تعليلا لما سبق من استبعاد ما ذكروه على معنى انك لانت الحليم الرشيد على زعمك وأما وصفه بهما على الحقيقة فيأباه مقام الاستهزاء اللهم الا أن يراد بالصلاة الدين كما قيل (قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة) أى حجة واضحة وبرهان نير عبر بها عما آتاه الله تعالى من النبوة والحكمة ردا على مقالتهم الشنعاء في جعلهم أمره ونهيه غير مستند الى سند (من ربي) ومالك أموري وايراد حرف الشرط مع جزمه عليه السلام بكونه على ما هو عليه من البينات والحجج لاعتبار حال المخاطبين ومراعاة حسن المحاورة معهم كما ذكرناه في نظائره (ورزقني منه) أى من لدنه (رزقا حسنا) هو النبوة والحكمة أيضا عبر عنهما بذلك تنبيها على أنهما مع كونهما بينة رزق حسن كيف لا وذلك مناط الحياة الابدية له ولامته وجواب الشرط محذوف يدل عليه فحوى الكلام أى أتقولون في شأني ما تقولون والمعنى انكم نظمتموني في سلك السفهاء والغواة وعددتم ما صدر عني من الاوامر والنواهي من قبيل ما لا يصح أن يتفوه به عاقل وجعلتموه من أحكام الوسوسة والجنون واستهزأتم بي وبأفعالي حتى قلتم ان ما أمرتكم به من التوحيد وترك عبادة الاصنام والاجتناب عن البخس والتطفيف ليس مما يأمر به آمر العقل ويقضي به قاضي الفطنة وانما يأمر به صلاتك التي هي من أحكام الوسوسة والجنون فأخبروني ان كنت من جهة ربي ومالك أموري ثابتا على النبوة والحكمة التي ليس وراءها غاية للكمال ولا مطمح لطامح ورزقني بذلك رزقا حسنا أتقولون في شأني وشأن أفعالي ما تقولون مما لا خير فيه ولا شر وراءه هذا هو الجواب الذى يستدعيه السباق والسياق ويساعده النظم الكريم وأما ما قيل من أن المحذوف أيصح لي أن لا آمركم بترك عبادة الاوثان والكف عن المعاصي أوهل يسع لي مع هذا الانعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية أن أخونه في وحيه وأخالفه في أمره

وتهيئة فبمعزل من ذلك وانما يناسب تقديره ان نحمل كلامهم على الحقيقة وأريد بالصلاة الدين على معنى أدينك يأمرك أن تكلفنا بترك عبادة آلهتنا القديمة وترك التصرف المطلق فى أموالنا وتخالفنا فى ذلك وتشق عصانا وهذا مما لا ينبغى أن يصدر منك فانك أنت المشهور بالحلم الفاضل والرشد الكامل فيما بيننا كما كان قول قوم صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا مسرودا على ذلك النمط فأجيبوا بما أجيبوا به ﴿ ١٢٨ ﴾ وعلى هذا الوجه يكون المراد بالرزق الحسن الحلال الذى آتاه الله تعالى والمعنى حينئذ أخبرونى ان كنت نبيا من عند الله تعالى ورزقنى مالا حلالا أستغنى به عن العالمين أيصح أن اخالف أمره وأوافقكم فيما تأتون وما تذرون (وما أريد) بنهيي اياكم عما أنهاكم عنه من البخس والتطفيف (ان أخالفكم الى ما أنهاكم عنه) أى أقصده بعدما وليتم عنه وأستبد به دونكم يقال خالفت زيدا الى كذا اذا قصدته وهو مول عنه وخالفته عن كذا اذا كان الامر على العكس (ان أريد) أى ما أريد بما أباشره من الامر والنهى (الا الاصلاح) الا أن أصلحكم بالنصيحة والموعظة (ما استطعت) أى مقدار ما استطعته من الاصلاح والتقييد به للاحتراز عن الاكتفاء بالاصلاح فى الجملة لا عن ارادة ما ليس فى وسعه منه (وما توفيقى) أى كونى موفقا لتحقيق ما أنتحيه من اصلاحكم (الا بالله) اى بتأييده ومعونته بل الاصلاح من حيث الخلق مستند اليه سبحانه وانما أنا من مباديه الظاهرة قاله عليه السلام تحقيقا للحق وازاحة لما عسى يوهمه اسناد الاستطاعة اليه باعتباره من استبداده بذلك (عليه توكلت) فى ذلك معرضا ﴿ وهم ﴾ عما عداه فانه القادر على كل مقدور وما عداه عاجز محض فى حد ذاته بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار بمعزل عن مرتبة الاستمداد به والاستظهار (واليه أنيب) أى أرجع فيما أنا بصدده ويجوز أن يكون المراد وما كونى موفقا لاصابة الحق والصواب فى كل ما آتي وأذر الا بهدايته ومعونته عليه توكلت وهو اشارة الى محض

هى المعجزات والبينات وهو كقوله ان عندكم من سلطان بهذا وقوله ما أنزل الله بها من سلطان وعلى هذا التقدير ففى الآية وجهان (الاول) أن هذه الايات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوته (الثانى) أن يراد بالسلطان المبين العصا لانه أشهرها وذلك لانه تعالى أعطى موسى تسع آيات بينات وهى العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص من الثمرات والانفس ومنهم من أبدل نقص الثمرات والانفس باظلال الجبل وفلق البحر واختلفوا فى أن الحجة لم سميت بالسلطان فقال بعض المحققين لان صاحب الحجة يقهر من لا حجة معه عند النظر كما يقهر السلطان غيره فلهذا توصف الحجة بانها سلطان وقال الزجاج السلطان هو الحجة والسلطان سمى سلطانا لانه حجة الله فى أرضه واشتقاقه من السليط والسليط ما يضاء به ومن هذا قيل للزيت السليط وفيه قول ثالث وهو أن السلطان مشتق من التسليط والعلماء سلاطين بسبب كمالهم فى القوة العلمية والملوك سلاطين بسبب ما معهم من القدرة والمكنة الا أن سلطنة العلماء أكمل وأقوى من سلطنة الملوك لان سلطنة العلماء لا تقبل النسخ والعزل وسلطنة الملوك تقبلهما ولان سلطنة الملوك تابعة لسلطنة العلماء وسلطنة العلماء من جنس سلطنة الانبياء وسلطنة الملوك من جنس سلطنة الفراعنة فان قيل اذا حملتم الآيات المذكورة فى قوله بآياتنا على المعجزات والسلطان أيضا على الدلائل والمبين ايضا معناه كونه سببا للظهور فما الفرق بين هذه المراتب الثلاثة قلنا الآيات اسم للقدر المشترك بين العلامات التى تفيد الظن وبين الدلائل التى تفيد اليقين وأما السلطان فهو اسم لما يفيد القطع واليقين الا أنه اسم للقدر المشترك بين الدلائل التى تؤكد بالحس وبين الدلائل التى لم تتأكد بالحس وأما الدليل القاطع الذى تأكد بالحس فهو السلطان المبين ولما كانت معجزات موسى عليه السلام هكذا لا جرم وصفها الله بأنها سلطان مبين ثم قال الى فرعون وملائه يعني وأرسلنا موسى بآياتنا بمثل هذه الآيات الى فرعون وملائه اى جماعته ثم قال فاتبعوا أمر فرعون ويحتمل ان يكون المراد أمره اياهم بالكفر بموسى ومعجزاته ويحتمل أن يكون المراد من الامر الطريق والشان ثم قال تعالى وما أمر فرعون برشيد أى بمرشد الى خير وقيل رشيد أى ذى رشد واعلم أن بعد طريق فرعون عن الرشد كان ظاهرا لانه كان دهريا نافيا للصانع والمعاد وكان يقول لا اله للعالم وانما يجب على أهل كل بلد أن يشتغلوا بطاعة سلطانهم وعبوديته رعاية لمصلحة العالم وأنكر أن يكون الرشد فى عبادة الله ومعرفته فلما كان هو نافيا لهذين الامرين كان خاليا عن الرشد بالكلية ثم انه تعالى ذكر صفته وصفة قومه فقال يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وفيه بحثان (البحث الاول) من حيث اللغة يقال قدم فلان فلانا بمعنى تقدمه ومنه قادمة الرجل كما يقال قدمه بمعنى تقدمه ومنه مقدمة الجيش (والبحث الثانى) من حيث المعنى وهو ان فرعون كان قدوة لقومه فى الضلال حال ما كانوا فى الدنيا وكذلك مقدمهم الى النار

التوحيد الثاني والفعلي واليه أنيب أي عليه أقبل بشراشر نفسي في مجامع أموري وإيثار صيغة الاستقبال على الماضي الأنسب للتقرر والتحقق كما في التوكل لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار ولا يخفى ما في جوابه عليه السلام من مراعاة لطف المراجعة ورفق الاستنزال والمحافظة على قواعد حسن المجاراة والمحاورة وتمهيد معاقد الحق بطلب التوفيق من جناب الله تعالى والاستعانة به في أموره وحسم ﴿ ١٢٩ ﴾ أطماع الكفار واظهار الفراغ عنهم وعدم المبالاة بمعاداتهم وأما تهديدهم بالرجوع الى الله تعالى للجزاء كما قيل فلا لان الانابة انما هي الرجوع الاختياري بالفعل الى الله تعالى لا الرجوع الاضطراري للجزاء أو ما يعمه (ويا قوم لا يجرمنكم) أي لا يكسبنكم من جرمته ذنبا مثل كسبته مالا (شقاق) معاداتي وأصلهما ان أحد المتعادين يكون في عدوة وشق والآخر في آخر (أن يصيبكم) مفعول ثان ليجرمنكم أي يكسبنكم معاداتكم لي أن يصيبكم (مثل ما أصاب قوم نوح) من الغرق (وقوم هود) من الريح (أو قوم صالح) من الصيحة والرجفة وقرأ ابن كثير بضم الياء من اجرمته ذنبا اذا جعلته جارماله أي كاسبا وهو منقول من جرم المتعدي الى مفعول واحد كما نقل أكسبه المال من كسب المال فكما لا فرق بين كسبته مالا وأكسبته اياه لا فرق بين جرمته ذنبا وأجرمته اياه في المعنى الا أن الاول أصح وأدور على ألسنة الفصحاء وقرأ أبو حيوة مثل ما أصاب بالفتح لاضافته الى غير تمكن كقوله * لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت * حمامة في غصون ذات ﴿ ١٧ ﴾ خا أوقال * وهذا وان كان بحسب الظاهر نهيا للشقاق عن كسب اصابة العذاب لكنه في الحقيقة نهي للكفرة عن مشاقته عليه السلام على ألطف أسلوب وأبدعه كما مر في سورة المائدة عند قوله تعالى ولا يجرمنكم شنآن قوم الآية (وما قوم لوط منكم ببعيد) زمانا ومكانا فان لم تعتبروا بمن قبلهم من الامم المعدودة فاعتبروا بهم

وهم يتبعونه أو يقال كما تقدم قومه في الدنيا فأدخلهم في البحر وأغرقهم فكذلك يتقدمهم يوم القيامة فيدخلهم النار ويحرقهم ويجوز أيضا أن يريد بقوله وما أمر فرعون برشيد أي وما أمره بصالح حميد العاقبة ويكون قوله يقدم قومه تفسيرا لذلك وايضاحا له أي كيف يكون أمره رشيدا مع ان عاقبته هكذا فان قيل لم لم يقل يقدم قومه فيوردهم النار بل قال يقدم قومه فأوردهم النار بلفظ الماضي قلنا لان الماضي قد وقع ودخل في الوجود فلا سبيل البتة الى دفعه فاذا عبر عن المستقبل بلفظ الماضي دل على غاية المبالغة ثم قال وبئس الورد المورود وفيه بحثان (البحث الاول) لفظ النار مؤنث فكان ينبغي أن يقال وبئست الورد المورود الا ان لفظ الورد مذكر فكان التذكير والتأنيث جائزين كما تقول نعم المنزل دارك ونعمت المنزل دارك فمن ذكر غلب المنزل ومن أنث بنى على تأنيث الدار هكذا قاله الواحدي (البحث الثاني) الورد قد يكون بمعنى الورود فيكون مصدرا وقد يكون بمعنى الوارد قال تعالى ونسوق المجرمين الى جهنم وردا وقد يكون بمعنى المورود عليه كالماء الذي يورد عليه قال صاحب الكشاف الورد المورود الذي حصل وروده فشبه الله تعالى فرعون بمن يتقدم الواردة الى الماء وشبه أتباعه بالواردين الى الماء ثم قال بئس الورد الذي يوردونه النار لان الورد انما يراد لتسكين العطش وتبريد الاكباد والنار ضده ثم قال وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة والمعنى انهم أتبعوا في هذه الدنيا لعنة وفي يوم القيامة أيضا ومعناه ان اللعن من الله ومن الملائكة والانبياء ملتصق بهم في الدنيا وفي الآخرة لا يزول عنهم ونظيره قوله في سورة القصص وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ثم قال بئس الرفد المرفود والرفد هو العطية وأصله الذي يعين على المطلوب سأل نافع بن الازرق ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله بئس الرفد المرفود قال هو اللعنة بعد اللعنة قال قتادة ترادفت عليهم لعنتان من الله تعالى لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة وكل شيء جعلته عونا لشيء فقد رفدته به * قوله تعالى (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب) اعلم أنه تعالى لما ذكر قصص الاولين قال ذلك من أنباء القرى نقصه عليك والفائدة في ذكرها أمور (أولها) ان الانتفاع بالدليل العقلي المحض انما يحصل للانسان الكامل وذلك انما يكون في غاية الندرة فاما اذا ذكرت الدلائل ثم أكدت بأقاصيص الاولين صار ذكر هذه الاقاصيص كالموصل لتلك الدلائل العقلية الى العقول (الوجه الثاني) انه تعالى خلط بهذه الاقاصيص أنواع الدلائل التي كان الانبياء عليهم السلام يتمسكون بها ويذكر مدافعات الكفار لتلك الدلائل وشبهاتهم في دفعها ثم يذكر عقيبهما أجوبة الانبياء عنها ثم يذكر عقيبها انهم لما أصروا واستكبروا وقعوا في عذاب الدنيا وبقي عليهم اللعن والعقاب في الدنيا وفي الآخرة فكان ذكر هذه القصص سببا لايصال الدلائل والجوابات

فكأنه انما غير أسلوب التحذير بهم ولم يصرح بما أصابهم بل اكتفى بذكر قربهم ايذانا بأن ذلك مغن عن ذكره لشهرة كونه منظوما فى سمط ما ذكر من دواهى الامم المرقومة أو ليسوا ببعيد منكم فى الكفر والمعاصى فلا يبعد أن يصيبكم مثل ما أصابهم وافراد البعيد مع تذكيره لان المراد وما اهلاكهم على نية المضاف أو وما هم بشئ بعيد لان المقصود افادة عدم بعدهم على الاطلاق لا من حيث خصوصية كونهم قوما أو ماهم فى زمان بعيد أو مكان بعيد ولا يبعد أن يكون ذلك لكونه على زنة المصادر كالنهيق والشهيق ولما أنذرهم عليه السلام بسوء عاقبة صنيعهم عقبه حضا فى ارعوائهم عما كانوا فيه يعمهون من طغيانهم بالحمل على الاستغفار والتوبة فقال (واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه) مر تفسير مثله فى أول السورة (ان ربى رحيم) عظيم الرحمة للتائبين (ودود) مبالغ فى فعل ما يفعل البليغ المودة بمن يوده من اللطف والاحسان وهذا تعليل للامر بالاستغفار والتوبة وحث عليهما (قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول) الفقه معرفة غرض المتكلم من كلامه أى ما نفهم مرادك وانما قالوه بعد ما سمعوا منه دلائل الحق المبين على أحسن وجه وأبلغه وضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل فلم يجدوا الى محاورته سبيلا سوى الصدود عن منهاج الحق والسلوك الى سبيل الشقاء كما هو ديدن المفحم المحجوج يقابل البينات بالسب والابراق والارعاد فجعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ وأنواع العلوم والمعارف من قبيل ما لا يفهم معناه ولا يدرك فحواه وأدمجوا فى ضمن ذلك أن فى تضاعيفه ما يستوجب أقصى ما يكون من المؤاخذة والعقاب ولعل ذلك ما فيه من التحذير من عواقب الامم السالفة ولذلك قالوا (وانا لنراك فينا) فيما بيننا (ضعيفا) لا قوة لك ولا قدرة على شئ من الضر والنفع والايقاع والدفع (ولولا رهطك) لولا مراعاة جانبهم لا لولاهم يمانعوننا ويدافعوننا (لرجمناك) فان ممانعة الرهط وهو اسم للثلاثة الى السبعة أو الى العشرة لهم وهم ألوف مؤلفة

عن الشبهات الى قلوب المنكرين وسببا لازالة القوة والغلظة عن قلوبهم فثبت ان احسن الطرق فى الدعوة الى الله تعالى ما ذكرناه (الفائدة الثالثة) انه عليه السلام كان يذكر هذه القصص من غير مطالعة كتب ولا تلمذ لاحد وذلك معجزة عظيمة تدل على النبوة كما قررناه (الفائدة الرابعة) ان الذين يسمعون هذه القصص يتقرر عندهم أن عاقبة الصديق والزنديق والموافق والمنافق الى ترك الدنيا والخروج عنها الا ان المؤمن يخرج من الدنيا مع الثناء الجميل فى الدنيا والثواب الجزيل فى الآخرة والكافر يخرج من الدنيا مع اللعن فى الدنيا والعقاب فى الآخرة فاذا تكررت هذه الاقاصيص على السمع فلا بد وأن يلين القلب وتخضع النفس وتزول العداوة ويحصل فى القلب خوف يحمله على النظر والاستدلال فهذا كلام جليل فى فوائد ذكر هذه القصص أما قوله ذلك من أنباء القرى ففيه ابحاث (البحث الاول) ان قوله ذلك اشارة الى الغائب والمراد منه ههنا الاشارة الى هذه القصص التى تقدمت وهى حاضرة الا ان الجواب عنه ما تقدم فى قوله ذلك الكتاب لا ريب فيه (الثانى) أن لفظ ذلك يشار به الى الواحد والاثنين والجماعة لقوله تعالى لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك وأيضا يحتمل ان يكون المراد ذلك الذى ذكرناه هو كذا وكذا (البحث الثالث) قال صاحب الكشاف ذلك مبتدأ من أنباء القرى خبر نقصه عليك خبر بعد خبر أى ذلك المذكور بعض أنباء القرى مقصوص عليك ثم قال منها قائم وحصيد والضمير فى قوله منها يعود الى القرى شبه ما بقى من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم على ساقه وما عفا منها وبطل بالحصيد والمعنى ان تلك القرى بعضها بقى منه شئ وبعضها هلك وما بقى منه أثر البتة ثم قال تعالى وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم وفيه وجوه (الاول) وما ظلمناهم بالعذاب والاهلاك ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية (الثانى) ان الذى نزل بالقوم ليس بظلم من الله بل هو عدل وحكمة لاجل ان القوم اولا ظلموا أنفسهم بسبب اقدامهم على الكفر والمعاصى فاستوجبوا لاجل تلك الاعمال من الله ذلك العذاب (الثالث) قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد وما نقصناهم من النعيم فى الدنيا والرزق ولكن نقصوا حظ أنفسهم حيث استخفوا بحقوق الله تعالى ثم قال فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شئ أى ما نفعتهم تلك الالهة فى شئ البتة ثم قال وما زادوهم غير تتبيب قال ابن عباس رضى الله عنهما غير تخسير يقال تب اذا خسر وتببه غيره اذا أوقعه فى الخسران والمعنى ان الكفار كانوا يعتقدون فى الاصنام أنها تعين على تحصيل المنافع ودفع المضار ثم انه تعالى أخبر انهم عند مساس الحاجة الى المعين ما وجدوا منها شيئا الاجلب نفع ولا دفع ضر ثم كما لم يجدوا ذلك فقد وجدوا ضده وهو ان ذلك الاعتقاد زال عنهم به منافع الدنيا والآخرة وجلب اليهم مضار الدنيا والآخرة فكان ذلك من أعظم موجبات الخسران * قوله تعالى (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد ان فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم

﴿ مشهود ﴾

مشهود وما نؤخره الا لاجل معدود) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ عاصم والجحدرى اذ أخذ القرى بألف واحدة وقرأ الباقون بألفين (المسئلة الثانية) اعلم انه تعالى لما أخبر الرسول عليه السلام فى كتابه بما فعل بأمم من تقدم من الانبياء لما خالفوا الرسل وردوا عليهم من عذاب الاستئصال وبين أنهم ظلموا أنفسهم فحل بهم العذاب فى الدنيا قال بعده وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة فبين ان عذابه ليس بمقتصر على من تقدم بل الحال فى أخذ كل الظالمين يكون كذلك وقوله وهى ظالمة الضمير فيه عائد الى القرى وهو فى الحقيقة عائد الى أهلها ونظيره قوله وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وقوله وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها واعلم أنه تعالى لما بين كيفية أخذ الامم المتقدمة ثم بين انه انما يأخذ جميع الظالمين على ذلك الوجه أتبعه بما يزيده تأكيدا وتقوية فقال ان أخذه أليم شديد فوصف ذلك العذاب بالايلام وبالشدة ولا منغصة فى الدنيا الا الالم ولا تشديد فى الدنيا وفى الآخرة وفى الوهم والعقل الا تشديد الالم واعلم ان هذه الآية تدل على أن من أقدم على ظلم فانه يجب عليه أن يتدارك ذلك بالتوبة والانابة لئلا يقع فى الاخذ الذى وصفه الله تعالى بانه أليم شديد ولا ينبغى أن يظن ان هذه الاحكام مختصة بأولئك المتقدمين لانه تعالى لما حكى أحوال المتقدمين قال وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة فبين ان كل من شارك أولئك المتقدمين فى فعل ما لا ينبغى فلابد وأن يشاركهم فى ذلك الاخذ الاليم الشديد ثم قال تعالى ان فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة قال القفال تقرير هذا الكلام أن يقال ان هؤلاء انما عذبوا فى الدنيا لاجل تكذيبهم الانبياء واشراكهم بالله فاذا عذبوا فى الدنيا على ذلك وهى دار العمل فلان يعذبوا عليه فى الآخرة التى هى دار الجزاء كان أولى واعلم أن كثيرا ممن تنبه لهذا البحث من المفسرين عولوا على هذا الوجه بل هو ضعيف وذلك لان على هذا الوجه الذى ذكره القفال يكون ظهور عذاب الاستئصال فى الدنيا دليلا على ان القول بالقيامة والبعث والنشر حق وصدق وظاهر الآية يقتضى ان العلم بان القيامة حق كالشرط فى حصول الاعتبار بظهور عذاب الاستئصال وهذا المعنى كالمضاد لما ذكره القفال لان القفال يجعل العلم بعذاب الاستئصال أصلا للعلم بان القيامة حق فبطل ما ذكره القفال والاصوب عندى أن يقال العلم بان القيامة حق موقوف على العلم بان المدبر لوجود هذه السموات والارضين فاعل مختار لا موجب بالذات وما لم يعرف الانسان أن اله العالم فاعل مختار وقادر على كل الممكنات وان جميع الحوادث الواقعة فى السموات والارضين لا تحصل الا بتكوينه وقضائه لا يمكنه أن يعتبر بعذاب الاستئصال وذلك لان الذين يزعمون ان المؤثر فى وجود هذا العالم موجب بالذات لا فاعل مختار يزعمون ان هذه الاحوال التى ظهرت فى أيام الانبياء مثل الغرق والحرق والخسف والمسخ والصيحة كلها انما حدثت بسبب قرانات الكواكب واتصال بعضها ببعض واذا كان الامر كذلك فحينئذ لا يكون

مما لا يكاد يتوهم وقد أيد ذلك بقوله عز وجل (وما أنت علينا بعزيز) مكرم محترم حتى نمتنع من رجمك وانما نكف عنه للمحافظة على حرمة رهطك الذين ثبتوا على ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا وايلاء الضمير حرف النفى وان لم يكن الخبر فعليا غير خال عن الدلالة على رجوع النفى الى الفاعل دون الفعل لا سيما مع قرينة قوله ولولا رهطك كأنه قيل وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الاعزة علينا وحيث كان غرضهم من عظيمتهم هذه عائدا الى نفى ما فيه عليه السلام من القوة والعزة الربانيتين حسبما يوجبه كونه على بينة من ربه مؤيدا من عنده ويقتضيه قضية طلب التوفيق منه والتوكل عليه والانابة اليه والى اسقاط ذلك كله عن درجة الاعتداد به والاعتبار (قال) عليه السلام فى جوابهم (يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله) فان الاستهانة بمن لا يتعزز الا به عز وجل استهانة بجنابه العزيز وانما أنكر عليهم أعزية رهطه منه تعالى مع أن ما أثبتوه انما هو مطلق عزة رهطه لا أعزيتهم منه عز وجل مع الاشتراك فى أصل العزة لتثنية التقريع وتكرير التوبيخ حيث أنكر عليهم أولا ترجيح جنبة الرهط على جنبة الله تعالى وثانيا بنفى العزة بالمرة والمعنى أرهطى أعز عليكم من الله فانه مما لا يكاد يصح والحال انكم لم تجعلوا له تعالى حظا من العزة اصلا (واتخذتموه) بسبب عدم اعتدادكم بمن لا يرد ولا يصدر الا بأمره (وراءكم ظهريا) أى شيئا منبوذا وراء الظهر منسيا لا يبالى به منسوب الى الظهر والكسر لتغيير النسب كالامسى فى النسبة الى الامس (ان ربى بما تعملون) من الاعمال السيئة التى من جملتها عدم مراعاتكم لجانبه (محيط) لا يخفى عليه منها خافية وان جعلتموه منسيا فيجازيكم عليها ويحتمل أن يكون الانكار للرد والتكذيب فانهم لما ادعوا انهم لا يكفون عن رجمه عليه السلام لقوته وعزته بل لمراعاة جانب رهطه رد عليهم ذلك بأنكم ما قدرتم الله حق قدره العزيز ولم تراعوا جنابه القوى فكيف تراعون جانب رهطى الاذلة (ويا قوم اعملوا) لما رأى عليه السلام اصرارهم على الكفر وأنهم لا يرعوون

تماهم غلية من المعاصى حتى اجترؤا على العظيمة التى هى الاستهانة به والعزيمة على رجمه لولا حرمة رهطه قال لهم على طريقة التهديد اعملوا (على مكانتكم) أى على غاية تمكنكم واستطاعتكم يقال مكن مكانة اذا تمكن أبلغ التمكن وانما قاله عليه السلام ردا لما ادعوا أنهم أقوياء قادرون على رجمه وأنه ضعيف فيما بينهم لا عزة له أو على ناحيتكم وجهتكم التى أنتم عليها من قولهم مكان ومكانة كمقام ومقامة والمعنى اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمشاقة لى وسائر ما أنتم عليه مما لا خير فيه وابذلوا جهدكم فى مضارتى وايقاع ما فى نيتكم واخراج ما فى أمنيتكم من القوة الى الفعل (انى عامل) على مكانتى حسبما يؤيدنى الله ويوفقنى بأنواع التأييد والتوفيق (سوف تعلمون) لما هددهم عليه السلام بقوله اعملوا على مكانتكم انى عامل كان مظنة أن يسأل منهم سائل فيقول فماذا يكون بعد ذلك فقيل سوف تعلمون (من يأتيه عذاب يخزيه) وصف العذاب بالاخزاء تعريضا بما أوعدوه عليه السلام به من الرجم فانه مع كونه عذابا فيه خزى ظاهر حيث لا يكون الا بجناية عظيمة توجبه (ومن هو كاذب) عطف على من يأتيه لا على أنه قسيمه بل حيث أوعدوه بالرجم وكذبوه قيل سوف تعلمون من المعذب ومن الكاذب وفيه تعريض بكذبهم فى ادعائهم القوة والقدرة على رجمه عليه السلام وفى نسبته الى الضعف والهوان وفى ادعائهم الابقاء عليه لرعاية جانب الرهط والاختلاف بين المعطوفين بالفعلية والاسمية لان كذب الكاذب ليس بمترقب كاتيان العذاب بل انما المترقب ظهور الكذب السابق المستمر ومن اما استفهامية ﴿ قيل ﴾ معلقة للعلم عن العمل كأنه قيل سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه وأينا كاذب واما موصولة أى سوف تعرفون الذى يأتيه عذاب والذى هو كاذب (وارتقبوا) وانتظروا مآل ما أقول (انى معكم رقيب) منتظر فعيل بمعنى الراقب كالصريم أو المراقب كالعشير أو المرتقب كالرفيع وفى زيادة معكم اظهار منه

حصولها دليلا على صدق الانبياء فأما الذى يؤمن بالقيامة فلا يتم ذلك الايمان الا اذا اعتقد ان اله العالم فاعل مختار وانه عالم بجميع الجزئيات واذا كان الامر كذلك لزم القطع بان حدوث هذه الحوادث الهائلة والوقائع العظيمة انما كان بسبب ان اله العالم خلقها وأوجدها وانها ليست بسبب طوالع الكواكب وقراناتها وحينئذ ينتفع بسماع هذه القصص ويستدل بها على صدق الانبياء فثبت بهذا صحة قوله ان فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ثم قال تعالى ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود واعلم انه تعالى لما ذكر الآخرة وصف ذلك اليوم بوصفين (أحدهما) انه يوم مجموع له الناس والمعنى ان خلق الاولين والآخرين كلهم يحشرون فى ذلك اليوم ويجمعون (والثانى) انه يوم مشهود قال ابن عباس رضى الله عنهما يشهده البر والفاجر وقال آخرون يشهده أهل السماء وأهل الارض والمراد من الشهود الحضور والمقصود من ذكره انه ربما وقع فى قلب انسان انهم لما جمعوا فى ذلك الوقت لم يعرف كل أحد الا واقعة نفسه فبين تعالى ان تلك الوقائع تصير معلومة للكل بسبب المحاسبة والمساءلة ثم قال تعالى وما نؤخره الا لأجل معدود والمعنى أن تأخير الآخرة وافناء الدنيا موقوف على أجل معدود وكل ما له عدد فهو متناه وكل ما كان متناهيا فانه لا بد وأن يفنى فيلزم أن يقال ان تأخير الآخرة سينتهى الى وقت لا بد وأن يقيم الله القيامة فيه وأن تخرب الدنيا فيه وكل ما هو آت قريب * قوله تعالى (يوم يأتى لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقى وسعيد فاما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة يأت بحذف الياء والباقون باثبات الياء قال صاحب الكشاف وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير فى لغة هذيل ونحوه قولهم لا أدر حكاه الخليل وسيبويه (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف فاعل يأتى هو الله تعالى كقوله هل ينظرون الا أن يأتيهم الله وقوله أو يأتى ربك ويعضده قراءة من قرأ وما يؤخره بالياء أقول لا يعجبنى هذا التأويل لان قوله هل ينظرون الا أن يأتيهم الله حكاه الله تعالى عن أقوام والظاهر أنهم هم اليهود وذلك ليس فيه حجة وكذا قوله أو يأتى ربك أما ههنا فهو صريح كلام الله تعالى واسناد فعل الاتيان اليه مشكل فان قالوا اذا قولك فى قوله تعالى وجاء ربك قلنا هناك تأويلات وأيضا فهو صريح فلا يمكن دفعه فوجب المصير الى التأويل أما ههنا فليس اللفظ صريحا فى اسناد الاتيان الى الله تعالى فوجب الامتناع منه بل الواجب أن يقال المراد منه يوم يأتى الشئ المهيب الهائل المستعظم فحذف الله تعالى ذكره بتعيينه ليكون أقوى فى التخويف (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف العامل فى انتصاب الظرف هو قوله لا تكلم او اضمار اذكر اما قوله لا تكلم نفس الا باذنه ففيه حذف والتقدير لا تكلم نفس فيه الا باذن الله تعالى فان

عليه السلام لكمال الوثوق بأمره (ولما جاء أمرنا) أى عذابنا كما ينبئ عنه قوله تعالى سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه او وقته فان الارتقاب مؤذن بذلك (نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا) وهى الايمان الذى وفقناهم له أو برحمة كائنة منا لهم وانما ذكر بالواو كما فى قصة عاد لما انه لم يسبقه فيها ذكر وعد يجرى مجرى السبب المقتضى لدخول الفاء فى معلوله كما فى قصتى صالح ولوط فانه قد سبق هنالك سابقة الوعد بقوله ذلك وعد غير مكذوب وقوله ان موعدهم الصبح (وأخذت الذين ظلموا) عدل اليه عن الضمير تسجيلا عليهم بالظلم واشعارا بأن ما أخذهم انما اخذهم بسبب ظلمهم الذى فصل فيما سبق فنونه (الصيحة) قيل صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا وفى سورة الاعراف فأخذتهم الرجفة وفى سورة العنكبوت فأخذتهم الرجفة أى الزلزلة ولعلها من روادف الصيحة المستتبعة لتموج الهواء المفضى اليها كما مر فيما قبل (فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) ميتين لازمين لاماكنهم لا براح لهم منها ولما لم يجعل متعلق العلم فى قوله تعالى سوف تعلمون من يأتيه عذاب الخ نفس مجئ العذاب بل من يجيئه ذلك جعل مجيئه بعد ذلك أمرا مسلم الوقوع غنيا عن الاخبار به حيث جعل شرطا وجعل تنجية شعيب عليه السلام واهلاك الكفرة جوابا له ومقصود الافادة وانما قدم تنجيته اهتماما بشأنها وايذانا بسبق الرحمة التى هى مقتضى الربوبية على الغضب الذى يظهر أثره بموجب جرائرهم وجرائمهم (كأن لم يغنوا) أى لم يقيموا (فيها) متصرفين فى أطرافها متقلبين فى أكنافها (ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) العدول عن الاضمار الى الاظهار ليكون ادل على طغيانهم الذى اداهم الى هذه المرتبة وليكون أنسب بمن شبه هلاكهم بهلاكهم أعنى ثمود وانما شبه هلاكهم بهلاكهم لانهما اهلكتا بنوع من العذاب وهو الصيحة غير أن هؤلاء صيح بهم من فوقهم وأولئك من تحتهم وقرئ بعدت بالضم على الاصل فان الكسر تغيير لتخصيص معنى البعد بما يكون سبب الهلاك والبعد مصدر لهما والبعد مصدر للمكسور (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا

قيل كيف الجمع بين هذه الآية وبين سائر الآيات التى توهم كونها مناقضة لهذه الآية منها قوله تعالى يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ومنها أنهم يكذبون ويحلفون بالله عليه وهو قولهم والله ربنا ما كنا مشركين ومنها قوله تعالى وقفوهم انهم مسؤلون ومنها قوله هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون والجواب من وجهين (الاول) أنه حيث ورد المنع من الكلام فهو محمول على ذكر الاعذار الكاذبة الباطلة وحيث ورد الاذن فى الكلام فهو محمول على الجوابات الحقية الصحيحة (الثانى) ان ذلك اليوم يوم طويل وله مواقف ففى بعضها يجادلون عن أنفسهم وفى بعضها يكفون عن الكلام وفى بعضها يؤذن لهم فيتكلمون وفى بعضها يختم على افواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم أما قوله فمنهم شقى وسعيد ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الضمير فى قوله فمنهم لاهل الموقف ولم يذكر لانه معلوم ولان قوله لا تكلم نفس الا باذنه يدل عليه لانه قدمر ذكر الناس فى قوله مجموع له الناس (المسئلة الثانية) قوله فمنهم شقى وسعيد يدل ظاهره على أن أهل الموقف لا يخرجون عن هذين القسمين فان قيل أليس فى الناس مجانين وأطفال وهم خارجون عن هذين القسمين قلنا المراد من يحشر ممن أطلق للحساب وهم لا يخرجون عن هذين القسمين فان قيل قد احتج القاضى بهذه الآية على فساد ما يقال ان أهل الاعراف لا فى الجنة ولا فى النار فما قولكم فيه قلنا ما سلم أن الاطفال والمجانين خارجون عن هذين القسمين لانهم لا يحاسبون فلم لا يجوز أيضا أن يقال ان أصحاب الاعراف خارجون عنه لانهم أيضا لا يحاسبون لان الله تعالى علم من حالهم ان ثوابهم يساوى عذابهم فلا فائدة فى حسابهم فان قيل القاضى استدل بهذه الآية أيضا على ان كل من حضر عرصة القيامة فانه لا بد وأن يكون ثوابه زائدا او يكون عقابه زائدا فأما من كان ثوابه مساويا لعقابه فانه وان كان جائزا فى العقل الا أن هذا النص دل على أنه غير موجود قلنا الكلام فيه ما سبق من ان السعيد هو الذى يكون من اهل الثواب والشقى هو الذى يكون من اهل العقاب وتخصيص هذين القسمين بالذكر لا يدل على نفى القسم الثالث والدليل على ذلك ان اكثر الايات مشتملة على ذكر المؤمن والكافر فقط وليس فيه ذكر ثالث لا يكون لا مؤمنا ولا كافرا مع ان القاضى اثبته فاذا لم يلزم من عدم ذكر ذلك الثالث عدمه فكذلك لا يلزم من ذكر هذا الثالث عدمه (المسئلة الثالثة) اعلم انه تعالى حكم الآن على بعض اهل القيامة بانه سعيد وعلى بعضهم بانه شقى ومن حكم الله عليه بحكم وعلم منه ذلك الامر امتنع كونه بخلافه والا لزم ان يصير خبر الله تعالى كذبا وعلمه جهلا وذلك محال فثبت ان السعيد لا ينقلب شقيا وان الشقى لا ينقلب سعيدا وتقرير هذا الدليل مر فى هذا الكتاب مرارا لا تحصى وروى عن عمر رضى الله عنه انه قال لما نزل قوله تعالى فمنهم شقى وسعيد قلت يارسول الله فعلى ماذا نعمل على شئ قد فرغ منه ام على شئ لم يفرغ منه فقال على شئ قد فرغ منه ياعمر وجفت به الاقلام وجرت به الاقدار ولكن كل ميسر لما خلق له وقالت المعتزلة نقل عن الحسن انه

هى الآيات التسع المفصلات التى هى العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الثمرات والانفس ومنهم من جعلهما آية واحدة وعد منها اظلال الجبل وليس كذلك فانه لقبول أحكام التوراة حين اباه بنو اسرائيل والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من مفعول أرسلنا أو نعتا لمصدره المؤكد أى أرسلناه حال كونه ملتبسا بآياتنا أو أرسلناه ارسالا ملتبسا بها (وسلطان مبين) هو المعجزات الباهرة منها أو هو العصا والافراد بالذكر لاظهار شرفها لكونها أبهرها أو المراد بالآيات ما عداها أو هما عبارتان عن شئ واحد أى أرسلناه بالجامع بين كونه آياتنا وبين كونه سلطانا له على نبوته واضحا فى نفسه أو موضحا اياها من ابان لازما ومتعديا أو هو الغلبة والاستيلاء كقوله تعالى ونجعل لكما سلطانا ويجوز أن يكون المراد ما بينه عليه السلام فى تضاعيف دعوته حين قال له فرعون من ربكما فما بال القرون الاولى من الحقائق الرائقة والدقائق اللائقة وجعله عبارة عن التوراة أو ادراجها فى جملة الآيات يرده قوله عز وجل (الى فرعون وملئه) فان نزولها انما كان بعد مهلك فرعون وقومه قاطبة ليعمل بها بنو اسرائيل فيما يأتون وما يذرون وأما فرعون وقومه فانما كانوا مأمورين بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظيمة الشنعاء التى كان يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية وبارسال بنى اسرائيل من الاسر والقسر وتخصيص ملئه بالذكر مع عموم رسالته عليه السلام لقومه كافة لاصالتهم فى الرأى وتدبير الامور واتباع غيرهم لهم فى الورود والصدور وانما لم يصرح بكفر فرعون بآيات الله ﴿ بعالم ﴾ تعالى وانهماكه فيما كان عليه من الضلال والاضلال بل اقتصر على ذكر شأن ملئه فقيل (فاتبعوا أمر فرعون) أى امره بالكفر بما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين للايذان بوضوح حاله فكان كفره وأمر ملئه بذلك أمر محقق الوجود غير محتاج الى الذكر صريحا وانما المحتاج الى ذلك شأن ملئه المترددين بين هاد الى الحق وداع الى الضلال فنعى عليهم سواء اختيارهم

قال فمنهم شقى بعمله وسعيد بعمله قلنا الدليل القاطع لا يدفع بهذه الروايات وأيضا فلا نزاع انه انما شقى بعمله وانما سعد بعمله ولكن لما كان ذلك العمل حاصلا بقضاء الله وقدره كان الدليل الذى ذكرناه باقيا واعلم انه تعالى لما قسم اهل القيامة الى هذين القسمين شرح حال كل واحد منهما فقال فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا فى الفرق بين الزفير والشهيق وجوها (الاول) قال الليث الزفير أن يملأ الرجل صدره حال كونه فى الغم الشديد من النفس ولم يخرجه والشهيق أن يخرج ذلك النفس وقال الفراء يقال للفرس انه عظيم الزفرة أى عظيم البطن واقول ان الانسان اذا عظم غمه انحصر روح قلبه فى داخل القلب فاذا انحصر الروح قويت الحرارة وعظمت وعند ذلك يحتاج الانسان الى النفس القوى لاجل أن يستدخل هواء كثيرا باردا حتى يقوى على ترويح تلك الحرارة فلهذا السبب يعظم فى ذلك الوقت استدخال الهواء فى داخل البدن وحينئذ يرتفع صدره وينتفخ جنباه ولما كانت الحرارة الغريزية والروح الحيوانى محصورا فى داخل القلب استولت البرودة على الاعضاء الخارجة فربما عجزت آلات النفس عن دفع ذلك الهواء الكثير المستنشق فيبقى ذلك الهواء الكثير منحصرا فى الصدر ويقرب من أن يختنق الانسان منه وحينئذ تجتهد الطبيعة فى اخراج ذلك الهواء فعلى قياس قول الاطباء الزفير هو استدخال الهواء الكثير لترويح الحرارة الحاصلة فى القلب بسبب انحصار الروح فيه والشهيق هو اخراج ذلك الهواء عند مجاهدة الطبيعة فى اخراجه وكل واحده من هاتين الحالتين تدل على كرب شديد وغم عظيم (الوجه الثانى) فى الفرق بين الزفير والشهيق قال بعضهم الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمار بالنهيق وأما الشهيق فهو بمنزلة آخر صوت الحمار (الوجه الثالث) قال الحسن قد ذكرنا أن الزفير عبارة عن الارتفاع فنقول الزفير لهيب جهنم يرفعهم بقوته حتى اذا وصلوا الى أعلى درجات جهنم وطمعوا فى أن يخرجوا منها ضربتهم الملائكة بمقامع من حديد ويردونهم الى الدرك الاسفل من جهنم وذلك قوله تعالى كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها فارتفاعهم فى النار هو الزفير وانحطاطهم مرة أخرى هو الشهيق (الوجه الرابع) قال أبو مسلم الزفير ما يجتمع فى الصدر من النفس عند البكاء الشديد فينقطع النفس والشهيق هو الصوت الذى يظهر عند اشتداد الكربة والحزن وربما تبعتهما الغشية وربما حصل عقيبه الموت (الوجه الخامس) قال أبو العالية الزفير فى الحلق والشهيق فى الصدر (الوجه السادس) قال قوم الزفير الصوت الشديد والشهيق الصوت الضعيف (الوجه السابع) قال ابن عباس رضى الله عنهما لهم فيها زفير وشهيق يريد ندامة ونفسا عاليا وبكاء لا ينقطع وحزنا لا يندفع (الوجه الثامن) الزفير مشعر بالقوة والشهيق بالضعف على ما قررناه بحسب اللغة اذا عرفت هذا فنقول لم يبعد أن يكون المراد من الزفير قوة ميلهم الى عالم الدنيا والى اللذات الجسدانية والمراد من الشهيق ضعفهم عن الاستسعاد

وأورد الفاء فى اتباعهم ايهاماً لترتب على أمر فرعون المبنى على كفره المسبوق بتبليغ الرسالة للاشعار بمفاجأتهم فى الاتباع ومسارعة فرعون الى الكفر وأمرهم به فكان ذلك كله لم يتراخ عن الارسال والتبليغ بل وقع جميع ذلك فى وقت واحد فوقع اثر ذلك اتباعهم ويجوز أن يراد بأمر فرعون شأنه المشهور وطريقته الزائغة فيكون معنى فاتبعوا فاستمروا على الاتباع والفاء مثل ما فى قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر فان الاتيان بالشئ ﴿١٣٥﴾ بعد ورود ما يوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث فتأمل وترك الاضمار لدفع توهم الرجوع الى موسى عليه السلام من أول الامر ولزيادة تقبيح حال المتبعين فان فرعون علم فى الفساد والافساد والضلال والاضلال فاتباعه لفرط الجهالة وعدم الاستبصار وكذا الحال فى قوله تعالى (وما أمر فرعون برشيد) الرشد ضد الغى وقد يراد به محمودية العاقبة فهو على الاول بمعنى المرشد أو ذى الرشد حقيقة لغوية والاسناد مجازى وعلى الثانى مجاز والاسناد حقيقى (يقدم قومه) جميعا من الاشراف وغيرهم (يوم القيامة) أى يتقدمهم من قدمه بمعنى تقدمه وهو استئناف لبيان حاله فى الآخرة أى كما كان قدوة لهم فى الضلال كذلك يتقدمهم الى النار وهم يتبعونه أو لتوضيح عدم صلاح مآل أمره وسوء عاقبته (فأوردهم النار) أى يوردهم وايثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع لامحالة شبه فرعون بالفارط الذى يتقدم الواردة الى الماء وأتباعه بالواردة والنار بالماء الذى يردونه ثم قيل (وبئس الورد المورود) اى بئس الورد الذى يردونه النار لان الورد انما يراد لتسكين العطش وتبريد الاكباد والنار على ضد ذلك (واتبعوا) أى الملأ الذين تبعوا أمر فرعون (فى هذه) أى فى الدنيا (لعنة) عظيمة حيث يلعنهم من بعدهم من الامم الى يوم القيامة (ويوم القيامة) أيضا حيث يلعنهم أهل الموقف قاطبة فهى تابعة لهم حيثما ساروا ودائرة معهم أينما داروا فى الموقف

بعالم الروحانيات والاستكمال بالانوار الالهية والمعارج القدسية ثم قال تعالى خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال قوم ان عذاب الكفار منقطع وله نهاية واحتجوا بالقرآن والمعقول أما القرآن فآيات منها هذه الآية والاستدلال بها من وجهين (الاول) انه تعالى قال ما دامت السموات والارض دل هذا النص على ان مدة عقابهم مساوية لمدة بقاء السموات والارض ثم توافقنا على ان مدة بقاء السموات والارض متناهية فلزم أن تكون مدة عقاب الكفار منقطعة (الثانى) ان قوله الا ما شاء ربك استثناء من مدة عقابهم وذلك يدل على زوال ذلك العذاب فى وقت هذا الاستثناء ومما تمسكوا به أيضا قوله تعالى فى سورة عم يتساءلون لابثين فيها أحقابا بين تعالى ان لبثهم فى ذلك العذاب لا يكون الا أحقابا معدودة وأما العقل فوجهان (الاول) ان معصية الكافر متناهية ومقابلة الجرم المتناهى بعقاب لا نهاية له ظلم وانه لا يجوز (الثانى) ان ذلك العقاب ضرر خال عن النفع فيكون قبيحا بيان خلوه عن النفع أن ذلك النفع لا يرجع الى الله تعالى لكونه متعاليا عن النفع والضرر ولا الى ذلك المعاقب لانه فى حقه ضرر محض ولا الى غيره لان أهل الجنة مشغولون بلذاتهم فلا فائدة لهم فى الالتذاذ بالعذاب الدائم فى حق غيرهم فثبت ان ذلك العذاب ضرر خال عن جميع جهات النفع فوجب أن لا يجوز وأما الجمهور الاعظم من الامة فقد اتفقوا على ان عذاب الكافر دائم وعند هذا احتاجوا الى الجواب عن التمسك بهذه الآية أما قوله خالدين فيها ما دامت السموات والارض فذكروا عنه جوابين (الاول) قالوا المراد سموات الآخرة وأرضها قالوا والدليل على ان فى الآخرة سماء وأرضا قوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وقوله وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وأيضا لابد لاهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم وذلك هو الارض والسموات ولقائل أن يقول التشبيه انما يحسن ويجوز اذا كان حال المشبه به معلوما مقررا فيشبه به غيره تأكيدا لثبوت الحكم فى المشبه ووجود السموات والارض فى الآخرة غير معلوم وبتقدير أن يكون وجوده معلوما الا أن بقاءها على وجه لا يفنى البتة غير معلوم فاذا كان أصل وجودهما مجهولا لا كثر الخلق ودوامهما أيضا مجهولا للا كثر كان تشبيه عقاب الاشقياء به فى الدوام كلاما عديم الفائدة أقصى ما فى الباب أن يقال لما ثبت بالقرآن وجود سموات وأرض فى الآخرة وثبت دوامهما وجب الاعتراف به وحينئذ يحسن التشبيه الا أنا نقول لما كان الطريق فى اثبات دوام سموات اهل الآخرة ودوام أرضهم هو السمع ثم السمع دل على دوام عقاب الكافر فحينئذ الدليل الذى دل على ثبوت الحكم فى الاصل حاصل بعينه فى الفرع وفى هذه الصورة أجمعوا على ان القياس ضائع والتشبيه باطل فكذا ههنا (والوجه الثانى) فى الجواب قالوا ان العرب يعبرون عن الدوام والابد بقولهم ما دامت السموات والارض ونظيره أيضا قولهم ما اختلف الليل والنهار وما طما البحر وما أقام

فلما اتبعوا فرعون اتبعتهم اللعنة فى الدارين جزاء وفاقا واكتفى ببيان حالهم الفظيع وشانهم الشنيع عن بيان حال فرعون اذ حين كان حالهم هكذا فما ظنك بحال من اغواهم وألقاهم فى هذا الضلال البعيد وحيث كان شأن الاتباع أن يكونوا أعوانا للمتبوع جعلت اللعنة وفدا لهم على طريقة التهكم فقيل (بئس الرفد المرفود) أى بئس العون المعان وقد فسر الرفد بالعطاء ولا يلائمه المقام وأصله مايضاف الى غيره ليعمد والمخصوص بالذم محذوف أى رفدهم وهى اللعنة فى الدارين وكونه مرفودا من حيث ان كل لعنة منها معينة وممدة لصاحبتها ومؤيدة لها (ذلك) اشارة الى ماقص من أنباء الامم وبعده باعتبار تقضيه فى الذكر والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ خبره (من انباء القرى) المهلكة بما جنته أيدى أهلها (نقصه عليك) خبرا بعد خبر أى ذلك النبأ بعض أنباء القرى مقصوص عليك (منها) أى من تلك القرى (قائم وحصيد) أى ومنها حصيد حذف لدلالة الاول عليه شبه مابقى منها بالزرع القائم على ساقه وماعفا وبطل بالحصيد والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب (وما ظلمناهم) بأن أهلكناهم (ولكن ظلموا أنفسهم) بأن جعلوها عرضة للهلاك باقتراف مايوجبه (فما اغنت عنهم) فما نفعتهم ولا دفعت بأس الله تعالى عنهم (آلهتهم التى يدعون) أى يعبدونها (من دون الله) أوثر صيغة المضارع حكاية للحال الماضية أو دلالة على استمرار عبادتهم لها (من شئ) فى موضع المصدر أى شيئا من الاغناء (لما جاء أمر ربك) أى حين مجئ عذابه وهو منصوب بأغنت وقرئ آلهتهم اللاتى يدعون . على البناء للمجهول (وما زادوهم غير تتبيب) أى اهلاك وتخسير فانهم انما اهلكوا وخسروا بسبب عبادتهم لها (وكذلك) أى ومثل ذلك الاخذ الذى مر بيانه وهو رفع على الابتداء وخبره قوله (أخذ ربك) وقرئ أخذ ربك فمحل الكاف النصب على انه مصدر مؤكد (اذا أخذ القرى) أى أهلها وانما اسند اليها للاشعار بسريان أثره اليها

الجيل وانه تعالى خاطب العرب على عرفهم فى كلامهم فلما ذكروا هذه الاشياء بناء على اعتقادهم انها باقية أبد الاباد علمنا ان هذه الالفاظ بحسب عرفهم تفيد الابد والدوام الخالى عن الانقطاع ولقائل أن يقول هل تسلمون ان قول القائل خالدين فيها مادامت السموات والارض يمنع من بقائها موجودة بعد فناء السموات أو تقولون انه لا يدل على هذا المعنى فان كان الاول فالاشكال لازم لان النص لما دل على أنه يجب أن تكون مدة كونهم فى النار مساوية لمدة بقاء السموات ويمنع من حصول بقائهم فى النار بعد فناء السموات ثم ثبت انه لابد من فناء السموات فعندها يلزمكم القول بانقطاع ذلك العقاب وأما ان قلتم هذا الكلام لا يمنع بقاء كونهم فى النار بعد فناء السموات والارض فلا حاجة بكم الى هذا الجواب البتة فثبت ان هذا الجواب على كلا التقديرين ضائع واعلم أن الجواب الحق عندى فى هذا الباب شئ آخر وهو أن المعهود من الآية انه متى كانت السموات والارض دائمتين كان كونهم فى النار باقيا فهذا يقتضى أن كلما حصل الشرط حصل المشروط ولا يقتضى انه اذا عدم الشرط يعدم المشروط الاترى أنا نقول ان كان هذا انسانا فهو حيوان فان قلنا لكنه انسان فانه ينتج انه حيوان أما اذا قلنا لكنه ليس بانسان لم ينتج أنه ليس بحيوان لانه ثبت فى علم المنطق أن استثناء نقيض المقدم لا ينتج شيئا فكذا ههنا اذا قلنا متى دامت السموات دام عقابهم فاذا قلنا لكن السموات دائمة لزم أن يكون عقابهم حاصلا أما اذا قلنا لكنه ما بقيت السموات لم يلزم عدم دوام عقابهم فان قالوا فاذا كان العقاب حاصلا سواء بقيت السموات أو لم تبق لم يبق لهذا التشبيه فائدة قلنا بل فيه أعظم الفوائد وهو أنه يدل على نفاذ ذلك العذاب دهرا داهرا وزمانا لا يحيط العقل بطوله وامتداده فاما انه هل يحصل له آخر ام لا فذلك يستفاد من دلائل أخر وهذا الجواب الذى قررته جواب حق ولكنه انما يفهمه انسان ألف شيئا من المعقولات (وأما الشبهة الثانية) وهى التمسك بقوله تعالى الا ما شاء ربك فقد ذكروا فيه أنواعا من الاجوبة (الوجه الاول) فى الجواب وهو الذى ذكره ابن قتيبة وابن الانبارى والفراء قالوا هذا استثناء استثناه الله تعالى ولا يفعله البتة كقولك والله لاضربنك الا أن أرى غير ذلك مع أن عزيمتك تكون على ضربه فكذا ههنا وطولوا فى تقرير هذا الجواب وفى ضرب الامثلة فيه وحاصله ما ذكرناه ولقائل أن يقول هذا ضعيف لانه اذا قال لاضربنك الا أن أرى غير ذلك معناه لاضربنك الا اذا رأيت أن الاولى ترك الضرب وهذا لا يدل البتة على ان هذه الرؤية قد حصلت أم لا بخلاف قوله خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ما شاء ربك فان معناه الحكم بخلودهم فيها الا المدة التى شاء ربك فههنا اللفظ يدل على أن هذه المشيئة قد حصلت جزما فكيف يحصل قياس هذا الكلام على ذلك الكلام (الوجه الثانى) فى الجواب أن يقال ان كلمة الا ههنا وردت بمعنى سوى والمعنى أنه تعالى لما قال خالدين فيها مادامت السموات والارض فهم منه أنهم يكونون فى النار فى جميع مدة بقاء السموات

﴿ والارض ﴾

حسبما ذكر وقرئ اذ اخذ (وهي ظالمة) حال من القرى وهي في الحقيقة لاهلها لكنها لما أقيمت مقامهم في الاخذ أجريت الحال عليها وفائدتها الاشعار بانهم انما أخذوا بظلمهم ليكون ذلك عبرة لكل ظالم (ان أخذه أليم شديد) وجيع صعب على الماخوذ لا يرجى منه الخلاص وفيه ما لا يخفى من التهديد والتحذير (ان في ذلك) أي في أخذه تعالى الامم المهلكة أو في قصصهم (لآية) لعبرة (لمن خاف عذاب الآخرة) فانه المعتبر به حيث يستدل بما حاق بهم من العذاب الشديد بسبب ما عملوا من السيآت على أحوال عذاب الآخرة وأما من انكر الآخرة وأحال فناء العالم وزعم أن ليس هو ولا شئ من أحواله مستندا الى الفاعل المختار وأن ما يقع فيه من الحوادث فانما يقع لاسباب تقتضيه من أوضاع فلكية تتفق في بعض الاوقات لا لما ذكر من المعاصي التي يقترفها الامم الهالكة فهو بمعزل من هذا الاعتبار تبا لهم ولما لهم من الافكار (ذلك) اشارة الى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة (يوم مجموع له الناس) أي يجمع له الناس للمحاسبة والجزاء والتعبير للدلالة على ثبات معنى الجمع وتحقق وقوعه لا محالة وعدم انفكاك الناس عنه فهو أبلغ من قوله تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع (وذلك) أي يوم القيامة مع ملاحظة عنوان جمع الناس له (يوم مشهود) أي مشهود فيه حيث يشهد فيه أهل السموات والارضين فاتسع فيه باجراء الظرف مجرى المفعول به كما في قوله ٭ في محفل من نواصي الناس مشهود ٭ أي كثير شاهدوه ولو جعل

والارض في الدنيا ثم قال سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود الدائم فذكر أولا في خلودهم ما ليس عند العرب أطول منه ثم زاد عليه الدوام الذي لا آخر له بقوله الا ما شاء ربك والمعنى الا ما شاء ربك من الزيادة التي لا آخر لها (الوجه الثالث) في الجواب وهو أن المراد من هذا الاستثناء زمان وقوفهم في الموقف فكأنه تعالى قال فأما الذين شقوا ففي النار الا وقت وقوفهم للمحاسبة فانهم في ذلك الوقت لا يكونون في النار وقال أبو بكر الاصم المراد الا ما شاء ربك وهو حال كونهم في القبر أو المراد الا ما شاء ربك حال عمرهم في الدنيا وهذه الاقوال الثلاثة متقاربة والمعنى خالدين فيها بمقدار مكثهم في الدنيا أو في البرزخ أو مقدار وقوفهم للحساب ثم يصيرون الى النار (الوجه الرابع) في الجواب قالوا الاستثناء يرجع الى قوله لهم فيها زفير وشهيق وتقريره أن نقول قوله لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها يفيد حصول الزفير والشهيق مع الخلود فاذا دخل الاستثناء عليه وجب أن يحصل وقت لا يحصل فيه هذا المجموع لكنه ثبت في المعقولات أنه كما ينتفي المجموع بانتفاء جميع أجزائه فكذلك ينتفي بانتفاء فرد واحد من أجزائه فاذا انتهوا آخر الامر الى ان يصيروا ساكنين هامدين خامدين فحينئذ لم يبق لهم زفير وشهيق فانتفى أحد أجزاء ذلك المجموع فحينئذ يصح ذلك الاستثناء من غير حاجة الى الحكم بانقطاع كونهم في النار (الوجه الخامس) في الجواب أن يحمل هذا الاستثناء على ان أهل العذاب لا يكونون أبدا في النار بل قد ينقلون الى البرد والزمهرير وسائر أنواع العذاب وذلك يكفي في صحة هذا الاستثناء (الوجه السادس) في الجواب قال قوم هذا الاستثناء يفيد اخراج أهل التوحيد من النار لان قوله فاما الذين شقوا ففي النار يفيد ان جملة الاشقياء محكوم عليهم بهذا الحكم ثم قوله الا ما شاء ربك يوجب أن لا يبقى ذلك الحكم على ذلك المجموع ويكفي في زوال حكم الخلود عن المجموع زواله عن بعضهم فوجب أن لا يبقى حكم الخلود لبعض الاشقياء ولما ثبت أن الخلود واجب للكفار وجب أن يقال الذين زال حكم الخلود عنهم هم الفساق من أهل الصلاة وهذا كلام قوي في هذا الباب فان قيل فهذا الوجه انما يتعين اذا فسدت سائر الوجوه التي ذكرتموها فما الدليل على فسادها وأيضا فمثل هذا الاستثناء مذكور في جانب السعداء فانه تعالى قال واما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ قلنا انا بهذا الوجه بينا ان هذه الآية لا تدل على انقطاع وعيد الكفار ثم اذا أردنا الاستدلال بهذه الآية على صحة قولنا في أنه تعالى يخرج الفساق من أهل الصلاة من النار قلنا أما حمل كلمة الا على سوى فهو عدول عن الظاهر وأما حمل الاستثناء على حال عمر الدنيا والبرزخ والموقف فبعيد أيضا لان الاستثناء وقع عن الخلود في النار ومن المعلوم أن الخلود في النار كيفية من كيفيات الحصول في النار فقبل الحصول في النار امتنع حصول الخلود في النار واذا لم يحصل الخلود لم يحصل المستثنى منه وامتنع حصول الاستثناء وأما قوله الاستثناء عائد الى الزفير

وقيل يوم يأتى الجزاء الواقع فيه وقيل أى الله عز وجل فان المقام مقام تفخيم شأن اليوم وقرئ باثبات الياء على الاصل (لاتكلم نفس) أى لاتتكلم بما ينفع وينجى من جواب أو شفاعة وهو العامل فى الظرف أو الانتهاء المحذوف فى قوله تعالى الالاجل معدود أى ينتهى الاجل يوم يأتى أو المضمر المعهود أعنى اذكر (الاباذنه) عز سلطانه فى التكلم كقوله تعالى لايتكلمون الامن أذن له الرحمن وهذا فى موطن من مواطن ذلك اليوم وقوله عز وجل هذا يوم لاينطقون ﴿١٣٨﴾ ولايؤذن لهم فيعتذرون فى موقف آخر من مواقفه كما أن قوله سبحانه يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها فى آخر منها أو المأذون فيه الجوابات الحقة والممنوع عنه الاعذار الباطلة نعم قد يؤذن فيها أيضا لاظهار بطلانها كما فى قول الكفرة والله ربنا ما كنا مشركين ونظائره (فمنهم شقى) وجبت له النار بموجب الوعيد (وسعيد) أى ومنهم سعيد حذف الخبر لدلالة الاول عليه وهو من وجبت له الجنة بمقتضى الوعد والضمير لاهل الموقف المدلول عليهم بقوله لاتكلم نفس أو للناس وتقديم الشقى على السعيد لان المقام مقام التحذير والانذار (فأما الذين شقوا) أى سبقت لهم الشقاوة (ففى النار) أى مستقرون فيها (لهم فيها زفير وشهيق) الزفير اخراج النفس والشهيق رده واستعمالهما فى اول النهيق وآخره قال الشماخ يصف حمار الوحش

* بعيد مدى التطريب اول صوته * زفير ويتلوه شهيق محشرج *

والمراد بهما وصف شدة كربهم وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة وانحصر فيه روحه أو تشبيه صراخهم بأصوات الحمير وقرئ شقوا بالضم والجملة مستأنفة كأن سائلا قال ماشأنهم فيها فقيل لهم فيها كذا وكذا أو منصوبة المحل على الحالية من النار أو من الضمير فى الجار والمجرور كقوله عز اسمه (خالدين فيها) خلا أنه ان أريد حدوث كونهم فى النار فالحال مقدرة (مادامت السموات

والشهيق فهذا ايضا ترك للظاهر فلم يبق للآية محمل صحيح الاهذا الذى ذكرناه وأما قوله المراد من الاستثناء نقله من النار الى الزمهرير فنقول لوكان الامر كذلك لوجب ان لايحصل العذاب بالزمهرير الابعد انقضاء مدة السموات والارض والاخبار الصحيحة دلت على ان النقل من النار الى الزمهرير وبالعكس يحصل فى كل يوم مرارا فبطل هذا الوجه وأما قوله ان مثل هذا الاستثناء حاصل فى جانب السعداء فنقول أجمعت الامة على أنه يمتنع أن يقال ان أحدا يدخل الجنة ثم يخرج منها الى النار فلاجل هذا الاجماع افتقرنا فيه الى حمل ذلك الاستثناء على أحد تلك التأويلات أما فى هذه الآية لم يحصل هذا الاجماع فوجب اجراؤها على ظاهرها فهذا تمام الكلام فى هذه الاية واعلم أنه تعالى لما ذكر هذا الاستثناء قال ان ربك فعال لما يريد وهذا يحسن انطباقه على هذه الآية اذا حملنا الاستثناء على اخراج الفساق من النار كأنه تعالى يقول أظهرت القهر والقدرة ثم أظهرت المغفرة والرحمة لانى فعال لما أريد وليس لاحد على حكم البتة ثم قال وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الاماشاء ربك وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم سعدوا بضم السين والباقون بفتحها وانما جاز ضم السين لانه على حذف الزيادة من أسعد ولان سعد لايتعدى وأسعد يتعدى وسعد وأسعد بمعنى ومنه المسعود من أسماء الرجال (المسئلة الثانية) الاستثناء فى باب السعداء يجب حمله على أحد الوجوه المذكورة فيما تقدم وههنا وجه آخر وهو انه ربما اتفق لبعضهم أن يرفع من الجنة الى العرش والى المنازل الرفيعة التى لايعلمها الاالله تعالى قال تعالى وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر وقوله عطاء غير مجذوذ فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) جذه يجذه جذا اذا قطعه وجذ الله دابرهم فقوله غير مجذوذ أى غير مقطوع ونظيره قوله تعالى فى صفة نعيم الجنة لامقطوعة ولاممنوعة (المسئلة الثانية) اعلم أنه تعالى لما صرح فى هذه الآية أنه ليس المراد من هذا الاستثناء كون هذه الحالة منقطعة فلما خص هذا الموضع بهذا البيان ولم يذكر ذلك فى جانب الاشقياء دل ذلك على أن المراد من ذلك الاستثناء هو الانقطاع فهذا تمام الكلام فى هذه الآية ❊ قوله تعالى (فلاتك فى مرية مما يعبد هولاء مايعبدون الاكما يعبد آباؤهم من قبل وانا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) اعلم أنه تعالى لما شرح أقاصيص عبدة الاوثان ثم أتبعه باحوال الاشقياء وأحوال السعداء شرح للرسول عليه الصلاة والسلام أحوال الكفار من قومه فقال فلاتك فى مرية والمعنى فلا تكن الاأنه حذف النون لكثرة الاستعمال ولان النون اذا وقع على طرف الكلام لم يبق عند التلفظ به الامجرد الغنة فلاجرم أسقطوه والمعنى فلاتك فى شك من حال مايعبدون فى أنها لاتضر ولاتنفع ثم قال مايعبدون الاكما يعبد آباؤهم من قبل والمراد انهم اشبهوا آباءهم فى لزوم الجهل والتقليد ثم قال وانا لموفوهم

﴿نصيبهم﴾

والارض) اى مدة دوامهما وهذا التوقيت عبارة عن التأبيد ونفى الانقطاع بناء على منهاج قول العرب مادام تعار وما أقام ثبير وما لاح كوكب وما اختلف الليل والنهار وما طما البحر وغير ذلك من كلمات التأبيد لا تعليق قرارهم فيها بدوام هذه السموات والارض فان النصوص القاطعة دالة على تأبيد قرارهم فيها وانقطاع دوامهما وان أريد التعليق فالمراد سموات الآخرة وأرضها كما يدل على ذلك النصوص كقوله تعالى ﴿١٣٩﴾ يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وقوله تعالى واورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وجزم كل أحد بان أهل الآخرة لا بد لهم من مظلة ومقلة دائمتين يكفى فى تعليق دوام قرارهم فيها بدوامهما ولا حاجة الى الوقوف على تفاصيل أحوالهما وكيفياتهما (الا ما شاء ربك) استثناء من الخلود على طريقة قوله تعالى لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى وقوله ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف وقوله تعالى حتى يلج الجمل فى سم الخياط غير أن استحالة الامور المذكورة معلومة بحكم العقل واستحالة تعلق المشيئة بعدم الخلود معلومة بحكم النقل يعنى انهم مستقرون فى النار فى جميع الازمنة الا فى زمان مشيئة الله تعالى لعدم قرارهم فيها واذ لا امكان لتلك المشيئة ولا لزمانها بحكم النصوص القاطعة الموجبة للخلود فلا امكان لانتهاء مدة قرارهم فيها ولدفع ما عسى يتوهم من كون استحالة تعلق مشيئة الله تعالى بعدم الخلود بطريق الوجوب على الله تعالى قال (ان ربك فعال لما يريد) يعنى انه فى تخليد الاشقياء فى النار بحيث يستحيل وقوع خلافه فعال بموجب ارادته قاض بمقتضى مشيئته الجارية على سنن حكمته الداعية الى ترتيب الاجزية على أفعال العباد والعدول من الاضمار الى الاظهار لتربية المهابة و زيادة التقرير وقيل هو استثناء من الخلود فى عذاب النار فانهم لا يخلدون فيه بل يعذبون بالزمهرير و بأنواع أخر من العذاب و بما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله تعالى عليهم وخسؤه لهم واهانته

نصيبهم غير منقوص فيحتمل أن يكون المراد انا موفوهم نصيبهم أى ما يخصهم من العذاب و يحتمل أن يكون المراد انهم وان كفروا وأعرضوا عن الحق فانا موفوهم نصيبهم من الرزق والخيرات الدنيوية و يحتمل أيضا ان يكون المراد انا موفوهم نصيبهم من ازالة العذر وازاحة العلل واظهار الدلائل وارسال الرسل وانزال الكتب و يحتمل أيضا أن يكون الكل مرادا * قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وانهم لفى شك منه مريب وان كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم انه بما يعملون خبير) اعلم انه تعالى لما بين فى الآية الاولى اصرار كفار مكة على انكار التوحيد بين أيضا اصرارهم على انكار نبوته عليه السلام وتكذيبهم بكتابه و بين تعالى ان هؤلاء الكفار كانوا على هذه السيرة الفاسدة مع كل الانبياء عليهم السلام وضرب لذلك مثلا وهو انه لما أنزل التوراة على موسى عليه السلام اختلفوا فيه فقبله بعضهم وأنكره آخرون وذلك يدل على أن عادة الخلق هكذا ثم قال تعالى ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وفيه وجوه (الاول) ان المراد ولولا ما تقدم من حكم الله تعالى بتأخير عذاب هذه الامة الى يوم القيامة لكان الذى يستحقه هؤلاء الكفار عند عظيم كفرهم انزال عذاب الاستئصال عليهم لكن المتقدم من قضائه أخر ذلك عنهم فى دنياهم (الثانى) لولا كلمة سبقت من ربك وهى ان الله تعالى انما يحكم بين المختلفين يوم القيامة والا لكان من الواجب تمييز المحق عن المبطل فى دار الدنيا (الثالث) ولولا كلمة سبقت من ربك وهى ان رحمته سبقت غضبه وان احسانه راجح على قهره والا لقضى بينهم ولما قرر تعالى هذا المعنى قال وانهم لفى شك منه مريب يعنى ان كفار قومك لفى شك من هذا القرآن مريب ثم قال تعالى وان كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المعنى ان من عجلت عقوبته ومن أخرت ومن صدق الرسل ومن كذب فحالهم سواء فى أنه تعالى يوفيهم جزاء أعمالهم فى الآخرة فجمعت الآية الوعد والوعيد فان توفية جزاء الطاعات وعد عظيم وتوفية جزاء المعاصى وعيد عظيم وقوله تعالى انه بما يعملون خبير توكيد للوعد والوعيد فانه لما كان عالما بجميع المعلومات كان عالما بمقادير الطاعات والمعاصى فكان عالما بالقدر اللائق بكل عمل من الجزاء فحينئذ لا يضيع شئ من الحقوق والاجزية وذلك نهاية البيان (المسئلة الثانية) قرأ أبو عمرو والكسائى وان مشددة النون لما خفيفة قال أبو على اللام فى لما هى التى تقتضيه ان وذلك لان حرف ان يقتضى ان يدخل على خبرها أو اسمها لام كقوله ان الله لغفور رحيم وقوله ان فى ذلك لآية واللام الثانية هى التى تجئ بعد القسم كقولك والله لتفعلن ولما اجتمع لامان دخلت ما لتفصل بينهما فكلمة ما على هذا التقدير زائدة وقال الفراء ما موصولة بمعنى من و بقية التقرير كما تقدم ومثله وان منكم لمن ليبطئن (والقراءة الثانية) فى هذه الآية قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر عن عاصم وان كلا لما مخففتان والسبب فيه انهم أعملوا أن مخففة كما تعمل مشددة لان كلمة أن تشبه

الفعل فكما يجوز اعمال الفعل تاما ومحذوفا فى قولك لم يكن زيد قائما ولم يك زيد قائما فكذلك ان وان (والقراءة الثالثة) قرأ حمزة وابن عامر وحفص وان كلا لما مشددتان قالوا وأحسن ما قيل فيه ان أصل لما لما بالتنوين كقوله أكلا لما والمعنى ان كلا ملومين أى مجموعين كأنه قيل وان كلا جميعا (المسئلة الثالثة) سمعت بعض الافاضل قال انه تعالى لما أخبر عن توفية الاجزية على المستحقين فى هذه الآية ذكر فيها سبعة أنواع من التوكيدات (أولها) كلمة ان وهى للتأكيد (وثانيها) كلمة كل وهى أيضا للتأكيد (وثالثها) اللام الداخلة على خبر ان وهى تفيد التأكيد أيضا (ورابعها) حرف ما اذا جعلناه على قول الفراء موصولا (وخامسها) القسم المضمر فان تقدير الكلام وان جميعهم والله ليوفينهم (وسادسها) اللام الثانية الداخلة على جواب القسم (وسابعها) النون المؤكدة فى قوله ليوفينهم فجميع هذه الالفاظ السبعة الدالة على التوكيد فى هذه الكلمة الواحدة تدل على أن امر الربوبية والعبودية لايتم الا بالبعث والقيامة وأمر الحشر والنشر ثم أردفه بقوله انه بما يعملون خبير وهو من أعظم المؤكدات * قوله تعالى (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا انه بما تعملون بصير ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنه تعالى لما أطنب فى شرح الوعد والوعيد قال لرسوله فاستقم كما أمرت وهذه الكلمة كلمة جامعة فى كل ما يتعلق بالعقائد والاعمال سواء كان مختصا به أو كان متعلقا بتبليغ الوحى وبيان الشرائع ولا شك أن البقاء على الاستقامة الحقيقية مشكل جدا وأنا أضرب لذلك مثالا يقرب صعوبة هذا المعنى الى العقل السليم وهو ان الخط المستقيم الذى يفصل بين الظل وبين الضوء جزء واحد لا يقبل القسمة فى العرض الا أن عين ذلك الخط مما لا يتميز فى الحس عن طرفيه فانه اذا قرب طرف الظل من طرف الضوء اشتبه البعض بالبعض فى الحس فلم يقع الحس على ادراك ذلك الخط بعينه بحيث يتميز عن كل ما سواه اذا عرفت هذا فى المثال فاعرف مثاله فى جميع ابواب العبودية (فأولها) معرفة الله تعالى وتحصيل هذه المعرفة على وجه يبقى العبد مصونا فى طرف الاثبات عن التشبيه وفى طرف النفى عن التعطيل فى غاية الصعوبة واعتبر سائر مقامات المعرفة من نفسك وأيضا فالقوة الغضبية والقوة الشهوانية حصل لكل واحدة منهما طرفا افراط وتفريط وهما مذمومان والفاصل هو المتوسط بينهما بحيث لا يميل الى أحد الجانبين والوقوف عليه صعب ثم العمل به أصعب فثبت أن معرفة الصراط المستقيم فى غاية الصعوبة وبتقدير معرفته فالبقاء عليه والعمل به أصعب ولما كان هذا المقام فى غاية الصعوبة لاجرم قال ابن عباس ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جميع القرآن آية أشد ولا أشق عليه من هذه الآية ولهذا قال عليه الصلاة والسلام شيبتنى هود وأخواتها وعن بعضهم قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت له روى عنك انك قلت

أيامهم وأنت تدرى أنا وان سلمنا أن المراد بالنار ليس مطلق دار العذاب المشتملة على أنواع العذاب بل نفس النار فما خلا عذاب الزمهرير من تلك الانواع مقارن لعذاب النار فلا مصداق فى ذلك للاستثناء ولك أن تقول انهم ليسوا بمخلدين فى العذاب الجسمانى الذى هو عذاب النار بل لهم من أفانين العذاب ما لا يعلمه الا الله سبحانه وهو العقوبات والآلام الروحانية التى لا يقف عليها فى هذه الحياة الدنيا المنغمسون فى أحكام الطبيعة المقصور ادراكهم على ما ألفوا من الاحوال الجسمانية وليس لهم استعداد لتلقى ما وراء ذلك من الاحوال الروحانية اذا ألقى اليهم ولذلك لم يتعرض لبيانه واكتفى بهذه المرتبة الاجمالية المنبئة عن التهويل وهذه العقوبات وان كانت تعتريهم وهم فى النار لكنهم ينسون بها عذاب النار ولا يحسون به وهذه المرتبة كافية فى تحقيق معنى الاستثناء هذا وقد قيل الا بمعنى سوى وهو أوفق بما ذكر وقيل ما بمعنى من على اراده معنى الوصفية فالمعنى ان الذين شقوا فى النار مقدرين الخلود فيها الا الذين شاء الله عدم خلودهم فيها وهم عصاة المؤمنين (وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض) الكلام فيه كالكلام فيما سبق خلا أنه لم يذكر ههنا أن لهم فيها بهجة وسرورا كما ذكر فى أهل النار من أن لهم فيها زفير وشهيق لان المقام مقام التحذير والانذار (الا ما شاء ربك) ان حمل على طريقة التعليق بالمحال فقوله سبحانه (عطاء غير مجذوذ) نصب على المصدرية من معنى الجملة لان قوله ففى الجنة خالدين فيها يقتضى اعطاء وانعاما فكأنه قيل يعطيهم عطاء ﴿ شيبتنى ﴾ وهو اما اسم مصدر هو الاعطاء أو مصدر بحذف الزوائد كقوله تعالى أنبتكم من الارض نباتا وان حمل على ما اعد الله لعباده الصالحين من النعيم الروحانى الذى عبر عنه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فهو نصب على الحالية من المفعول المقدر للمشيئة أو تمييز فان نسبة مشيئة الخروج الى الله تعالى يحتمل أن تكون على جهة عطاء مجذوذ وعلى جهة

شيبتنى هود وأخواتها فقال نعم فقلت وبأى آية فقال بقوله فاستقم كما أمرت (المسئلة الثانية) اعلم أن هذه الآية أصل عظيم فى الشريعة وذلك لان القرآن لما ورد بالامر باعمال الوضوء مرتبة فى اللفظ وجب اعتبار الترتيب فيها لقوله فاستقم كما أمرت ولما ورد الامر فى الزكاة بأداء الابل من الابل والبقر من البقر وجب اعتبارها وكذا القول فى كل ماورد أمر الله تعالى به وعندى أنه لايجوز تخصيص النص بالقياس لانه لما دل عموم النص على حكم وجب الحكم بمقتضاه لقوله فاستقم كما أمرت والعمل بالقياس انحراف عنه ثم قال ومن تاب معك وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الواحدى من فى محل الرفع من وجوه (الاول) أن يكون عطفا على الضمير المستتر فى قوله فاستقم وأغنى الوصل بالجار عن تأكيده بضمير المتصل فى صحة العطف أى فاستقم أنت وهم (والثانى) ان يكون عطفا على الضمير فى أمرت (والثالث) أن يكون ابتداء على تقدير ومن تاب معك فليستقم (المسئلة الثانية) ان الكافر والفاسق يجب عليهما الرجوع عن الكفر والفسق فى تلك الحالة لايصح اشتغالهما بالاستقامة واما التائب عن الكفر والفسق فانه يصح منه الاشتغال بالاستقامة على مناهج دين الله تعالى والبقاء على طريق عبودية الله تعالى ثم قال ولاتطغوا ومعنى الطغيان أن يجاوز المقدار قال ابن عباس يريد تواضعوا لله تعالى ولاتتكبروا على أحد وقيل ولاتطغوا فى القرآن فتحلوا حرامه وتحرموا حلاله وقيل لاتتجاوزوا ماأمرتم به وحدلكم وقيل ولاتعدلوا عن طريق شكره والتواضع له عند عظم نعمه عليكم والاولى دخول الكل فيه ثم قال ولاتركنوا الى الذين ظلموا والركون هو السكون الى الشئ والميل اليه بالمحبة ونقيضه النفور عنه وقرأ العامة بفتح التاء والكاف والماضى من هذا ركن كعلم وفيه لغة أخرى ركن يركن قال الازهرى وليست بفصيحة قال المحققون الركون المنهى عنه هو الرضا بما عليه الظلمة من الظلم وتحسين تلك الطريقة وتزيينها عندهم وعند غيرهم ومشاركتهم فى شئ من تلك الابواب فأما مداخلتهم لدفع ضرر أو اجتلاب منفعة عاجلة فغير داخل فى الركون ومعنى قوله فتمسكم النار أى أنكم ان ركنتم اليهم فهذه عاقبة الركون ثم قال ومالكم من دون الله من أولياء أى ليس لكم أولياء يخلصونكم من عذاب الله ثم قال ثم لاتنصرون والمراد لاتجدون من ينصركم من تلك الواقعة واعلم أن الله تعالى حكم بان من ركن الى الظلمة لابد وأن تمسه النار واذا كان كذلك فكيف يكون حال الظالم فى نفسه *قوله تعالى (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيآت ذلك ذكرى للذاكرين واصبر فان الله لايضيع أجر المحسنين) اعلم أنه تعالى لما أمره بالاستقامة أردفه بالامر بالصلاة وذلك يدل على أن أعظم العبادات بعد الايمان بالله هو الصلاة وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) رأيت فى بعض كتب القاضى أبى بكر الباقلانى ان الخوارج تمسكوا بهذه الآية فى اثبات أن الواجب ليس الا الفجر والعشاء من وجهين (الاول) انهما واقعان على طرفى

عطاء غير مجذوذ فهو رافع للابهام عن النسبة قال ابن زيد اخبرنا الله تعالى بالذى يشاء لاهل الجنة فقال عطاء غير مجذوذ ولم يخبرنا بالذى يشاء لاهل النار ويجوز أن يتعلق بكلا التعيين او بالاول دفعا لما يتوهم من ظاهر الاستثناء من انقطاعه (فلاتك فى مرية) أى فى شك والفاء لترتيب النهى على ماقص من القصص وبين فى تضاعيفها من العواقب الدنيوية والاخروية (مما يعبد هؤلاء) أى من جهة عبادة هؤلاء المشركين وسوء عاقبتها أو من حال ما يعبدونه من الاوثان من عدم نفعه لهم ولما كان مساق النظم الكريم قبيل الشروع فى القصص لبيان غاية سوء حال الكفرة وكمال حسن حال المؤمنين وقد ضرب لهم مثل فقيل مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون وقد قص عقيب ذلك من أنباء الامم السالفة مع رسلهم المبعوثة اليهم ما يتذكر به المتذكر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كونه فى شك من مصير أمر هؤلاء المشركين فى العاجل والاجل ثم علل ذلك بطريق الاستئناف فقيل (ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم) الذين قصت عليك قصصهم (من قبل) أى هم وآباؤهم سواء فى الشرك مايعبدون عباده الا كعبادتهم أو مايعبدون شيئا الا مثل ماعبدوه من الاوثان والعدول الى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها أو مثل ماكانوا يعبدونه فحذف كان لدلالة قوله من قبل عليه ولقد بلغك ما حل بآبائهم فسيلحقهم مثل ذلك فان تماثل الاسباب يقتضى تماثل المسببات (وانا لموفوهم) أى هؤلاء الكفرة (نصيبهم) أى حظهم المعين لهم حسب جرائمهم وجرائرهم من العذاب عاجلا وآجلا كما وفينا آباءهم انصباءهم المقدرة لهم أو من الرزق المقسوم لهم فيكون بيانا لوجه تأخر العذاب عنهم مع تحقق مايوجبه (غير منقوص) حال مؤكدة من النصيب كقوله تعالى ثم وليتم مدبرين وفائدته دفع توهم التجوز وجعلها مقيدة له لدفع احتمال كونه منقوصا فى حد نفسه

مبنى على الذهول عن كون العامل هو التوفية فتأمل (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى التوراة (فاختلف فيه) أى فى شأنه وكونه من عند الله تعالى فآمن به قوم وكفر به آخرون فلا تبال باختلاف قومك فيما آتيناك من القرآن وقولهم لولا أنزل عليه كنز أوجاء معه ملك وزعمهم انك افتريته (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهى كلمة القضاء بانظارهم الى يوم القيامة على حسب الحكمة الداعية الى ذلك (لقضى بينهم) أى لأوقع القضاء بين المختلفين من قومك بانزال العذاب الذى يستحقه المبطلون ليتميزوا به عن المحقين وقيل بين قوم موسى وليس بذاك (وانهم) أى وان كفار قومك أريد به بعض من رجع اليهم ضمير بينهم للامن من الالباس (لفى شك) عظيم (منه) أى من القرآن وان لم يجر له ذكر فان ذكر ايتاء كتاب موسى ووقوع الاختلاف فيه لاسيما بصدد التسلية ينادى به نداء غير خفى (مريب) موقع فى الريبة (وان كلا) التنوين عوض عن المضاف اليه أى وان كل المختلفين فيه المؤمنين منهم والكافرين وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالتخفيف مع الاعمال اعتبارا للاصل (لما ليوفينهم ربك أعمالهم) أى أجزية أعمالهم واللام الاولى موطئة للقسم والثانية جواب للقسم المحذوف ولما مركبة من من الجارة وما الموصولة أو الموصوفة وأصلها لمن ما فقلبت النون ميما للادغام فاجتمع ثلاث ميمات فحذفت اولاهن والمعنى لمن الذى أو لمن خلق أو لمن فريق والله ليوفينهم ربك وقرئ لما بالتخفيف على أن ما مزيدة للفصل بين اللامين والمعنى وان جميعهم والله ليوفينهم الآية وقرئ لما بالتنوين أى جميعا كقوله سبحانه أكلا لما وقرأ أبى وان كل لما ليوفينهم على أن ان نافية ولما بمعنى الا وقد قرئ به (انه بما يعملون) أى بما يعمله كل فرد من المختلفين من الخير والشر (خبير) بحيث لا يخفى عليه شئ من جلائله ودقائقه وهو تعليل لما سبق من توفية أجزية أعمالهم فان الاحاطة بتفاصيل أعمال الفريقين وما يستوجبه كل عمل بمقتضى الحكمة من الجزاء

النهار والله تعالى أوجب اقامة الصلاة طرفى النهار فوجب أن يكون هذا القدر كافيا فان قيل قوله وزلفا من الليل يوجب صلوات أخرى قلنا لانسلم فان طرفى النهار موصوفان بكونهما زلفا من الليل فان ما لا يكون نهارا يكون ليلا غاية ما فى الباب ان هذا يقتضى عطف الصفة على الموصوف الا أن ذلك كثير فى القرآن والشعر (الوجه الثانى) أنه تعالى قال ان الحسنات يذهبن السيآت وهذا يشعر بأن من صلى طرفى النهار كان اقامتهما كفارة لكل ذنب سواهما فبتقدير أن يقال ان سائر الصلوات واجبة الا ان اقامتهما يجب أن تكون كفارة لترك سائر الصلوات واعلم أن هذا القول باطل باجماع الامة فلا يلتفت اليه (المسئلة الثانية) كثرت المذاهب فى تفسير طرفى النهار والاقرب ان الصلاة التى تقام فى طرفى النهار هى الفجر والعصر وذلك لان أحد طرفى النهار طلوع الشمس والطرف الثانى منه غروب الشمس فالطرف الاول هو صلاة الفجر والطرف الثانى لا يجوز أن يكون صلاة المغرب لانها داخلة تحت قوله وزلفا من الليل فوجب حمل الطرف الثانى على صلاة العصر اذا عرفت هذا كانت الآية دليلا على قول أبى حنيفه رحمه الله فى أن التنوير بالفجر أفضل وفى أن تأخير العصر أفضل وذلك لان ظاهر هذه الآية يدل على وجوب اقامة الصلاة فى طرفى النهار وبينا أن طرفى النهار هما الزمان الاول لطلوع الشمس والزمان الثانى لغروبها وأجمعت الامة على أن اقامة الصلاة فى ذلك الوقت من غير ضرورة غير مشروعة فقد تعذر العمل بظاهر هذه الآية فوجب حمله على المجاز وهو أن يكون المراد أقم الصلاة فى الوقت الذى يقرب من طرفى النهار لان ما يقرب من الشئ يجوز أن يطلق عليه اسمه واذا كان كذلك فكل وقت كان أقرب الى طلوع الشمس والى غروبها كان أقرب الى ظاهر اللفظ واقامة صلاة الفجر عند التنوير أقرب الى وقت الطلوع من اقامتها عند التغليس وكذلك اقامة صلاة العصر عندما يصير ظل كل شئ مثليه أقرب الى وقت الغروب من اقامتها عند ما يصير ظل كل شئ مثله والمجاز كلما كان أقرب الى الحقيقة كان حمل اللفظ عليه اولى فثبت أن ظاهر هذه الآية يقوى قول أبى حنيفة فى هاتين المسئلتين وأما قوله وزلفا من الليل فهو يقتضى الامر باقامة الصلاة فى ثلاث زلف من الليل لان أقل الجمع ثلاثة وللمغرب والعشاء وقتان فيجب الحكم بوجوب الوتر حتى يحصل زلف ثلاثة يجب ايقاع الصلاة فيها واذا ثبت وجوب الوتر فى حق النبى صلى الله عليه وسلم وجب فى حق غيره لقوله تعالى واتبعوه ونظير هذه الآية بعينها قوله سبحانه وتعالى وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فالذى هو قبل طلوع الشمس هو صلاة الفجر والذى هو قبل غروبها هو صلاة العصر ثم قال تعالى ومن آناء الليل فسبح وهو نظير قوله وزلفا من الليل (المسئلة الثالثة) قال المفسرون نزلت هذه الآية فى رجل أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ما تقول فى رجل أصاب من امرأة محرمة كما يصيبه الرجل من امرأته غير الجماع فقال عليه الصلاة والسلام ليتوضأ وضوأ

﴿ حسنا ﴾

حسنا ثم ليقم وليصل فأنزل الله تعالى هذه الآية فقيل للنبي عليه الصلاة والسلام هذا له خاصة فقال بل هو للناس عامة وقوله وزلفا من الليل قال الليث زلفة من أول الليل طائفة والجمع الزلف قال الواحدى وأصل الكلمة من الزلفى والزلفى هى القربى يقال أزلفته فازدلف أى قربته فاقترب (المسئلة الرابعة) قال صاحب الكشاف قرئ زلفا بضمتين وزلفا باسكان اللام وزلفى بوزن قربى فالزلف جمع زلفة كظلم جمع ظلمة والزلف بالسكون نحو بسرة وبسر والزلف بضمتين نحو يسر فى يسر والزلفى بمعنى الزلفة كما ان القربى بمعنى القربة وهو ما يقرب من آخر النهار من الليل وقيل فى تفسير قوله وزلفا من الليل وقربا من الليل ثم قال ان الحسنات يذهبن السيئات وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى تفسير الحسنات قولان (الاول) قال ابن عباس المعنى ان الصلوات الخمس كفارات لسائر الذنوب بشرط الاجتناب عن الكبائر (والثانى) روى عن مجاهد أن الحسنات هى قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر (المسئلة الثانية) احتج من قال ان المعصية لا تضر مع الايمان بهذه الآية وذلك لان الايمان أشرف الحسنات وأجلها وأفضلها ودلت الآية على أن الحسنات يذهبن السيآت فالايمان الذى هو أعلى الحسنات درجة يذهب الكفر الذى هو أعلى درجة فى العصيان فلأن يقوى على المعصية التى هى أقل السيآت درجة كان أولى فان لم يفد ازالة العقاب بالكلية فلا أقل من أن يفيد ازالة العذاب الدائم المؤبد ثم قال تعالى ذلك ذكرى للذاكرين فقوله ذلك اشارة الى قوله فاستقم كما أمرت الى آخرها ذكرى للذاكرين عظة للمتعظين وارشاد للمسترشدين ثم قال واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين قيل على الصلاة وهو كقوله وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها* قوله تعالى (فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الارض الا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين) اعلم أنه تعالى لما بين ان الامم المتقدمين حل بهم عذاب الاستئصال بين أن السبب فيه أمران (السبب الاول) أنه ما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد فى الارض فقال تعالى فلولا كان من القرون والمعنى فهلا كان وحكى عن الخليل أنه قال كل ما كان فى القرآن من كلمة لولا فمعناه هلا الا التى فى الصافات قال صاحب الكشاف وما صحت هذه الرواية عنه بدليل قوله تعالى فى غير الصافات لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء ولولا رجال مؤمنون ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا وقوله أولو بقية فالمعنى أولو فضل وخير وسمى الفضل والجود بقية لان الرجل يستبقى مما يخرجه أجوده وأفضله فصار هذا اللفظ مثلا فى الجودة يقال فلان من بقية القوم أى من خيارهم ومنه قولهم فى الزوايا خبايا وفى الرجال بقايا ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية بمعنى التقوى أى فهلا كان منهم ذو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وقرئ أولو بقية بوزن لقية من بقاه يبقيه اذا راقبه وانتظره والبقية المرة من مصدره والمعنى فلولا كان منهم أولو

المخصوص توجب توفية كل ذى حق حقه ان خيرا فخير وان شرا فشر (فاستقم كما أمرت) لما بين فى تضاعيف القصص المحكية عن الامم الماضية سوء عاقبة الكفر وعصيان الرسل وأشير الى أن حال هؤلاء الكفرة فى الكفر والضلال واستحقاق العذاب مثل أولئك المعذبين وأن نصيبهم من العذاب واصل اليهم من غير نقص وأن تكذيبهم للقرآن مثل تكذيب قوم موسى عليه السلام للتوراة وانه لو لم تسبق كلمة القضاء بتأخير عقوبتهم العامة ومؤاخذتهم التامة الى يوم القيامة لفعل بهم ما فعل بآبائهم من قبل وأنهم يوفون نصيبهم غير منقوص وأن كل واحد من المؤمنين والكافرين يوفى جزاء عمله أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاستقامة كما أمر به فى العقائد والاعمال المشتركة بينه وبين سائر المؤمنين ولاسيما الاعمال الخاصة به عليه السلام من تبليغ الاحكام الشرعية والقيام بوظائف النبوة وتحمل أعباء الرسالة بحيث يدخل تحته ما أمر به فيما سبق من قوله تعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك الآية وبالجملة فهذا الامر منتظم لجميع محاسن الاحكام الاصلية والفرعية والكمالات النظرية والعملية والخروج عن عهدته فى غاية ما يكون من الصعوبة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شيبتنى سورة هود (ومن تاب معك) أى تاب من الشرك والكفر وشاركك فى الايمان وهو المعنى بالمعية وهو معطوف على المستكن فى قوله فاستقم وحسن من غير تأكيد لمكان الفصل القائم مقامه وفى الحقيقة هو من عطف الجملة على الجملة اذ المعنى وليستقم من تاب معك وقيل هو منصوب على أنه مفعول معه كما قاله أبو البقاء والمعنى استقم مصاحبا لمن تاب معك (ولا تطغوا) ولا تنحرفوا عما حد لكم بافراط أو تفريط فان كلا طرفى قصد الامور ذميم وانما سمى ذلك طغيانا وهو تجاوز الحد تغليظا أو تغليبا لحال سائر المؤمنين على حاله عليه السلام (انه بما تعملون بصير) فيجازيكم على ذلك وهو تعليل للامر والنهى وفى

الآية دلالة على وجوب اتباع النصوص عليه من غير انحراف بمجرد الرأى فانه طغيان وضلال وأما العمل بمقتضى الاجتهاد التابع لعلل النصوص فذلك من باب الاستقامة كما أمر على موجب النصوص الآمرة بالاجتهاد (ولا تركنوا) أى لا تميلوا أدنى ميل (الى الذين ظلموا) أى الى الذين وجد منهم الظلم فى الجملة ومدار النهى هو الظلم والجمع باعتبار جمعية المخاطبين وما قيل من أن ذلك للمبالغ[illegible]ى من حيث ان كونهم جماعة مظنة الرخصة فى مداهنتهم انما يتم أن لو كان المراد النهى عن الركون اليهم من حيث انهم جماعة وليس كذلك (فتمسكم) بسبب ذلك (النار) واذا كان حال الميل فى الجملة الى من وجد منه ظلم ما فى الافضاء الى مساس النار هكذا فاظنك بمن يميل الى الراسخين فى الظلم والعدوان ميلا عظيما ويتهالك على مصاحبتهم ومنادمتهم ويلقى شراشره على مؤانستهم ومعاشرتهم ويبتهج بالتزيى بزيهم ويمد عينيه الى زهرتهم الفانية ويغبطهم بما أوتوا من القطوف الدانية وهو فى الحقيقة من الحبة طفيف ومن جناح البعوض خفيف بمعزل عن أن تميل اليه القلوب ضعف الطالب والمطلوب والآية أبلغ ما يتصور فى النهى عن الظلم والتهديد عليه وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين للتثبيت على الاستقامة التى هى العدل فان الميل الى أحد طرفى الافراط والتفريط ظلم على نفسه أو على غيره وقرئ تركنوا على لغة تميم وتركنوا على صيغة البناء للمفعول من أركنه (وما لكم من دون الله من أولياء) أى من أنصار ينقذونكم من النار والجملة نصب على الحالية من قوله فتمسكم النار ونفى الاولياء ليس بطريق نفى أن يكون لكل واحد منهم ﴿ انكرهما ﴾ أولياء حتى يصدق أن يكون له ولى بل لمكان لكم بطريق انقسام الآحاد على الآحاد لكن لا على معنى نفى استقلال كل منهم بنصير بل على معنى نفى أن يكون لواحد منهم نصير بقرينة المقام (ثم لا تنصرون) من جهة الله سبحانه اذ قد سبق فى حكمه أن يعذبكم بركونكم اليهم

مراقبة وخشية من انتقام الله تعالى ثم قال الا قليلا ولا يمكن جعله استثناء متصلا لانه على هذا التقدير يكون ذلك ترغيبا لأولى البقية فى النهى عن الفساد الا القليل من الناجين منهم كما تقول هلا قرأ قومك القرآن الا الصلحاء منهم تريد استثناء الصلحاء من المرغبين فى قراءة القرآن واذا ثبت هذا قلنا انه استثناء منقطع والتقدير لكن قليلا ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهى (والسبب الثانى) لنزول عذاب الاستئصال قوله واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه والترفة النعمة وصبى مترف اذا كان منعم البدن والمترف الذى أبطرته النعمة وسعة المعيشة وأراد بالذين ظلموا تاركى النهى عن المنكرات أى لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الامر بالمعروف والنهى عن المنكر واتبعوا طلب الشهوات واللذات واشتغلوا بتحصيل الرياسات وقرأ أبو عمرو فى رواية الجعفى واتبع الذين ظلموا ما أترفوا أى واتبعوا جزاء ما أترفوا فيه ثم قال وكانوا مجرمين ومعناه ظاهر * قوله تعالى (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) اعلم أنه تعالى بين انه ما أهلك أهل القرى الا بظلم وفيه وجوه (الاول) ان المراد من الظلم ههنا الشرك قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم والمعنى انه تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين اذا كانوا مصلحين فى المعاملات فيما بينهم والحاصل أن عذاب الاستئصال لا ينزل لاجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر بل انما ينزل ذلك العذاب اذا أساؤا فى المعاملات وسعوا فى الايذاء والظلم ولهذا قال الفقهاء ان حقوق الله تعالى مبناها على المسامحة والمساهلة وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح ويقال فى الاثر الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم فمعنى الآية وما كان ربك ليهلك القرى بظلم أى لا يهلكهم بمجرد شركهم اذا كانوا مصلحين يعامل بعضهم بعضا على الصلاح والسداد وهذا تأويل أهل السنة لهذه الآية قالوا والدليل عليه ان قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب انما نزل عليهم عذاب الاستئصال لما حكى الله تعالى عنهم من ايذاء الناس وظلم الخلق (والوجه الثانى) فى التاويل وهو الذى تختاره المعتزلة هو انه تعالى لو أهلكهم حال كونهم مصلحين لما كان متعاليا عن الظلم فلا جرم لا يفعل ذلك بل انما يهلكهم لاجل سوء أفعالهم ثم قال تعالى ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة والمعتزلة يحملون هذه الآية على مشيئة الالجاء والاجبار وقد سبق الكلام عليه ثم قال ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك والمراد افتراق الناس فى الاديان والاخلاق والافعال واعلم انه لا سبيل الى استقصاء مذاهب العالم فى هذا الموضع ومن أراد ذلك فليطالع كتابنا الذى سميناه بالرياض المونقة الا انا نذكر ههنا تقسيما جامعا للمذاهب فنقول الناس فريقان منهم من أقر بالعلوم الحسية كعلمنا بان النار حارة والشمس مضيئة والعلوم البديهية كعلمنا بأن النفى والاثبات لا يجتمعان ومنهم من

ولا يبقى عليكم وثم للتراخى رتبة كونهم غير منصورين من جهة الله بعد ما أوعدهم بالعذاب وأوجبه عليهم ويجوز ان يكون منزلا منزلة الفاء بمعنى الاستبعاد فانه لما بين أن الله تعالى معذبهم وأن غيره لا ينقذهم أنتج انهم لا ينصرون أصلا (وأقم الصلوة طرفى النهار) اى غدوة وعشية وانتصابه على الظرفية لكونه مضافا الى الوقت (وزلفا من الليل) اى ساعات منه قريبة من النهار فانه من أزلفه اذا قربه جمع ﴿ ١٤٥ ﴾ زلفة عطف على طرفى النهار والمراد بصلاتهما صلاة الغداة والعصر وقيل الظهر موضع العصر لان ما بعد الزوال عشى وبصلاة الزلف المغرب والعشاء وقرئ زلفا بضمتين وضمة وسكون كبسر وبسر وزلفى بمعنى زلفة كقربى بمعنى قربة (ان الحسنات) التى من جملتها بل عمدتها ما أمرت به من الصلوات (يذهبن السيآت) التى قلما يخلو منها البشر أى يكفرنها وفى الحديث ان الصلاة الى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنب الكبائر وقيل نزلت فى أبى اليسر الانصارى اذ قبل امرأة ثم ندم فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بما فعل فقال عليه السلام أنتظر أمر ربى فلما صلى صلاة العصر نزلت قال عليه السلام نعم اذهب فانها كفارة لما عملت أو يمنعن من اقترافها كقوله تعالى ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (ذلك) اشارة الى قوله تعالى فاستقم فما بعده وقيل الى القرآن (ذكرى للذاكرين) اى عظة للمتعظين (واصبر) على مشاق ما أمرت به فى تضاعيف الاوامر السابقة وأما ما نهى عنه من الطغيان ﴿ ٤٩ ﴾ سنا والركون الى الذين ظلموا فليس فى الانتهاء عنه مشقة فلا وجه لتعميم الصبر له اللهم الا أن يراد به ما لا يمكن عادة خلو البشر عنه من أدنى ميل بحكم الطبيعة عن الاستقامة المأمور بها ومن يسير ميل بحكم البشرية الى من وجد منه ظلم ما فان فى الاحتراز عن أمثالهما من المشقة ما لا يخفى (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) اى يوفيهم أجور أعمالهم من غير بخس أصلا وانما عبر عن ذلك بنفى الاضاعة مع أن عدم اعطاء الاجر ليس باضاعة حقيقة كيف لا والاعمال غير

أنكرهما والمنكرون هم السوفسطائية والمقرون هم الجمهور الاعظم من أهل العالم وهم فريقان منهم من سلم انه يمكن تركيب تلك العلوم البديهية بحيث يستنتج منها نتائج علمية نظرية ومنهم من أنكره وهم الذين ينكرون أيضا النظر الى العلوم وهم قليلون والاولون هم الجمهور الاعظم من أهل العالم وهم فريقان منهم من لا يثبت لهذا العالم الجسمانى مبدأ أصلا وهم الاقلون ومنهم من يثبت له مبدأ وهؤلاء فريقان منهم من يقول ذلك المبدأ موجب بالذات وهم جمهور الفلاسفة فى هذا الزمان ومنهم من يقول انه فاعل مختار وهم أكثر أهل العالم ثم هؤلاء فريقان منهم من يقول انه ما أرسل رسولا الى العباد ومنهم من يقول انه أرسل الرسول فالاولون هم البراهمة والقسم الثانى أرباب الشرائع والاديان وهم المسلمون والنصارى واليهود والمجوس وفى كل واحد من هذه الطوائف اختلافات لا حد لها ولا حصر والعقول مضطربة والمطالب غامضة ومنازعات الوهم والخيال غير منقطعة ولما حسن من بقراط أن يقول فى صناعة الطب العمر قصير والصناعة طويلة والقضاء عسر والتجربة خطر فلأن يحسن ذكره فى هذه المطالب العالية والمباحث الغامضة كان ذلك أولى فان قيل انكم حملتم قوله تعالى ولا يزالون مختلفين على الاختلاف فى الاديان فما الدليل عليه ولم لا يجوز أن يحمل على الاختلاف فى الالوان والالسنة والارزاق والاعمال قلنا الدليل عليه ان ما قبل هذه الآية هو قوله ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة فيجب حمل هذا الاختلاف على ما يخرجهم من أن يكونوا أمة واحدة وما بعد هذه الآية هو قوله الا من رحم ربك فيجب حمل هذا الاختلاف على معنى يصح أن يستثنى منه قوله الا من رحم ربك وذلك ليس الا ما قلنا ثم قال تعالى الا من رحم ربك [illegible] بهذه الآية على أن الهداية والايمان لا تحصل الا بتخليق الله تعالى وذلك لان هذه الآية تدل على أن زوال الاختلاف فى الدين لا يحصل الا لمن خصه الله برحمته وتلك الرحمة ليست عبارة عن اعطاء القدرة والعقل وارسال الرسل وانزال الكتب وازاحة العذر فان كل ذلك حاصل فى حق الكفار فلم يبق الا أن يقال تلك الرحمة هو انه سبحانه خلق فيه تلك الهداية والمعرفة قال القاضى معناه الا من رحم ربك بأن يصير من أهل الجنة والثواب فيرحمه الله بالثواب ويحتمل الا من رحمه الله بألطافه فصار مؤمنا بألطافه وتسهيله وهذان الجوابان فى غاية الضعف (أما الاول) فلان قوله ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك يفيد ان ذلك الاختلاف انما زال بسبب هذه الرحمة فوجب أن تكون هذه الرحمة جارية مجرى السبب المتقدم على زوال هذا الاختلاف والثواب شئ متأخر عن زوال هذا الاختلاف فالاختلاف جار مجرى المسبب له ومجرى المعلول فحمل هذه الرحمة على الثواب بعيد (وأما الثانى) وهو حمل هذه الرحمة على الالطاف فنقول جميع الالطاف التى فعلها فى حق المؤمن فهى مفعولة أيضا فى حق الكافر وهذه الرحمة أمر اختص به المؤمن فوجب أن يكون شيئا زائدا على تلك

موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها البيان كال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدوره عنه سبحانه من القبائح وابراز الاثابة في معرض الامور الواجبة عليه وانما عدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود مع افادة فائدة عامة لكل من يتصف به وهو تعليل للامر بالصبر وفيه ايماء الى أن الصبر على ما ذكر من باب الاحسان (فلولا كان) فهلا كان (من القرون) الكائنة (من قبلكم) ﴿ ١٤٦ ﴾ على رأى من جوز حذف الموصول مع بعض صلته أو كائنة من قبلكم (أولو بقية) من الرأى والعقل أو أولو فضل وخير وسميا بها لان الرجل انما يستبقى مما يخرجه عادة أجوده وأفضله فصار مثلا فى الجودة و الفضل و يقال فلان من بقية القوم اى من خيارهم ومنه ما قيل فى الزوايا خبايا و فى الرجال بقايا و يجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية من التقوى أى فهلا كان منهم ذووا بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وعقابه و يؤيده أنه قرئ أولو بقية وهى المرة من مصدر بقاه يبقيه اذا راقبه وانتظره اى أولو مراقبة وخشية من عذاب الله تعالى كأنهم ينتظرون نزوله لاشفاقهم (ينهون عن الفساد فى الارض) الواقع منهم حسب ما حكى عنهم (الا قليلا ممن أنجينا منهم) استثناء منقطع اى لكن قليلا منهم أنجيناهم لكونهم على تلك الصفة على أن من للبيان لا للتبعيض لان جميع الناجين ناهون و لا صحة للاتصال على ظاهر الكلام لانه يكون تحضيضا لاولى البقية على النهى المذكور الا القليل من الناجين منهم كما اذا قلت هلا قرأ قومك القرآن الا الصلحاء منهم مريدا لاستثناء الصلحاء من المحضضين ﴿ من ﴾ على القراءة نعم يصح ذلك ان جعل استثناء من النفى اللازم للتحضيض فكأنه قيل ما كان من القرون أولو بقية الا قليلا منهم لكن الرفع هو الافصح حينئذ على البدلية (واتبع الذين ظلموا) بمباشرة الفساد وترك النهى عنه (ما أترفوا فيه) أى أنعموا من الشهوات واهتموا

الالطاف وأيضا فحصول تلك الالطاف هل يوجب رجحان وجود الايمان على عدمه أولا يوجبه فان لم يوجبه كان وجود تلك الالطاف وعدمها بالنسبة الى حصول هذا المقصود سيان فلم يك لطفا فيه وان أوجب الرجحان فقد بينا فى الكتب العقلية انه متى حصل الرجحان فقد وجب وحينئذ يكون حصول الايمان من الله ومما يدل على أن حصول الايمان لا يكون الا بخلق الله انه ما لم يتميز الايمان عن الكفر و العلم عن الجهل امتنع القصد الى تكوين الايمان والعلم وانما يحصل هذا الامتياز اذا علم كون أحد هذين الاعتقادين مطابقا للمعتقد وكون الآخر ليس كذلك وانما يصح حصول هذا العلم ان لو عرف ان ذلك المعتقد فى نفسه كيف يكون وهذا يوجب انه لا يصح من العبد القصد الى تكوين العلم بالشئ الا بعد ان كان عالما وذلك يقتضى تكوين الكائن وتحصيل الحاصل وهو محال فثبت ان زوال الاختلاف فى الدين وحصول العلم و الهداية لا يحصل الا بخلق الله تعالى وهو المطلوب ثم قال تعالى ولذلك خلقهم وفيه ثلاثة أقوال (القول الاول) قال ابن عباس وللرحمة خلقهم وهذا اختيار جمهور المعتزلة قالوا ولا يجوز أن يقال وللاختلاف خلقهم ويدل عليه وجوه (الاول) ان عود الضمير الى أقرب المذكورين أولى من عوده الى أبعدهما وأقرب المذكورين ههنا هو الرحمة والاختلاف أبعدهما (والثانى) انه تعالى لو خلقهم للاختلاف وأراد منهم ذلك الايمان لكان لا يجوز أن يعذبهم عليه اذ كانوا مطيعين له بذلك الاختلاف (الثالث) اذا فسرنا الآية بهذا المعنى كان مطابقا لقوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون فان قيل لو كان المراد وللرحمة خلقهم لقال ولتلك خلقهم ولم يقل ولذلك خلقهم قلنا ان تأنيث الرحمة ليس تأنيثا حقيقيا فكان محمولا على الفضل والغفران كقوله هذا رحمة من ربى وقوله ان رحمة الله قريب من المحسنين (والقول الثانى) ان المراد وللاختلاف خلقهم (والقول الثالث) وهو المختار انه خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف روى أبو صالح عن ابن عباس أنه قال خلق الله أهل الرحمة لئلا يختلفوا وأهل العذاب لان يختلفوا وخلق الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا والذى يدل على صحة هذا التأويل وجوه (الاول) الدلائل القاطعة الدالة على أن العلم والجهل لا يمكن حصولهما فى العبد الا بتخليق الله تعالى (الثانى) أن يقال انه تعالى لما حكم على البعض بكونهم مختلفين وعلى الآخرين بأنهم من أهل الرحمة وعلم ذلك امتنع انقلاب ذلك والا لزم انقلاب العلم جهلا وهو محال (الثالث) انه تعالى قال بعده وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وهذا تصريح بانه تعالى خلق أقواما للهداية والجنة و أقواما آخرين للضلالة والنار وذلك يقوى هذا التأويل ❁ قوله تعالى (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) اعلم أنه تعالى لما ذكر القصص الكثيرة فى هذه السورة ذكر فى هذه الآية نوعين

من الفائدة (أولهما) تثبيت الفؤاد على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الاذى وذلك لان الانسان اذا ابتلى بمحنة وبلية فاذا رأى له فيه مشاركا خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة اذا عمت خفت فاذا سمع الرسول هذه القصص وعلم ان حال جميع الانبياء صلوات الله عليهم مع اتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الاذى من قومه وأمكنه الصبر عليه (والفائدة الثانية) قوله وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين وفى قوله فى هذه وجوه (أحدها) فى هذه السورة (وثانيها) فى هذه الآية (وثالثها) فى هذه الدنيا وهذا بعيد غير لائق بهذا الموضع واعلم أنه لا يلزم من تخصيص هذه السورة بمجئ الحق فيها أن يكون حال سائر السور بخلاف ذلك لاحتمال أن يكون الحق المذكور فى هذه السورة أكمل حالا مما ذكر فى سائر السور ولو لم يكن فيها الا قوله فاستقم كما أمرت لكان الامر كما ذكرنا ثم انه تعالى بين انه جاء فى هذه السورة أمور ثلاثة الحق والموعظة والذكرى (أما الحق) فهو اشارة الى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة (وأما الذكرى) فهى اشارة الى الارشاد الى الاعمال الباقية الصالحة (وأما الموعظة) فهى اشارة الى التنفير عن الدنيا وتقبيح أحوالها فى الدار الآخرة والمذكرة لما هنالك من السعادة والشقاوة وذلك لان الروح انما جاء من ذلك العالم الا انه لاستغراقه فى محبة الجسد فى هذا العالم نسى أحوال ذلك العالم فالكلام الالهى يذكره أحوال ذلك العالم فلهذا السبب صح اطلاق لفظ الذكر عليه (ثم ههنا دقيقة أخرى عجيبة) وهى ان المعارف الالهية لابد لها من قابل ومن موجب وقابلها هو القلب والقلب ما لم يكن كامل الاستعداد لقبول تلك المعارف الالهية والتجليات القدسية لم يحصل الانتفاع بسماع الدلائل فلهذا السبب قدم الله تعالى ذكر اصلاح القلب وهو تثبيت الفؤاد ثم لما ذكر صلاح حال القابل أردفه بذكر الموجب وهو مجئ هذه السورة المشتملة على الحق والموعظة والذكرى وهذا الترتيب فى غاية الشرف والجلالة * قوله تعالى (وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم انا عاملون وانتظروا انا منتظرون ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون) اعلم أنه تعالى لما بلغ الغاية فى الاعذار والانذار والترغيب والترهيب أتبع ذلك بأن قال للرسول وقل للذين لا يؤمنون ولم تؤثر فيهم هذه البيانات البالغة اعملوا على مكانتكم انا عاملون وهذا عين ما حكاه الله تعالى عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه والمعنى افعلوا كل ما تقدرون عليه فى حقى من الشر فنحن أيضا عاملون وقوله اعملوا وان كانت صيغته صيغة الامر الا ان المراد منها التهديد كقوله تعالى لابليس واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وكقوله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وانتظروا ما يعدكم الشيطان من الخذلان فانا منتظرون ما وعدنا الرحمن من أنواع الغفران والاحسان قال ابن عباس رضى الله عنهما وانتظروا الهلاك فانا منتظرون لكم

بتحصيلها اما المباشرون فظاهر وأما المساهلون فلما لهم فى ذلك من نيل حظوظهم الفاسدة وقيل المراد بهم تاركو النهى وأنت خبير بأنه يلزم منه عدم دخول مباشرى الفساد فى الظلم والاجرام عبارة (وكانوا مجرمين) اى كافرين فهو بيان لسبب استئصال الامم المهلكة وهو فشو الظلم واتباع الهوى فيهم وشيوع ترك النهى عن المنكرات مع الكفر وقوله واتبع عطف على مضمر دل عليه الكلام اى لم ينهوا واتبع الخ فيكون العدول الى المظهر لادراج المباشرين معهم فى الحكم والتسجيل عليهم بالظلم وللاشعار بعلية ذلك لما حاق بهم من العذاب أو على استئناف يترتب على قوله الا قليلا اى الا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا من مباشرى الفساد وتاركى النهى عنه فيكون الاظهار مقتضى الظاهر وقوله وكانوا مجرمين عطف على أترفوا أى اتبعوا الاتراف وكونهم مجرمين لان تابع الشهوات مغمور بالآثام أو أريد بالاجرام اغفالهم للشكر أو على اتبع اى اتبعوا شهواتهم وكانوا بذلك الاتباع مجرمين ويجوز أن يكون اعتراضا وتسجيلا عليهم بأنهم قوم مجرمون وقرئ واتبع اى أتبعوا جزاء ما أترفوا فتكون الواو للحال ويجوز أن يفسر به المشهورة ويعضده تقدم الانجاء (وما كان ربك ليهلك القرى) اى ما صح وما استقام بل استحال فى الحكمة أن يهلك القرى التى أهلكها حسبما بلغك أنباؤها ويعلم من ذلك حال باقيها من القرى الظالمة واللام لتأكيد النفى وقوله (بظلم) اى ملتبسا به قيل هو حال من الفاعل اى ظالما لها والتنكير للتفخيم والايذان بأن اهلاك المصلحين ظلم عظيم والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك بالكلية بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى والا فلا ظلم فيما فعله الله تعالى بعباده كائنا ما كان لما تقرر من قاعدة أهل السنة وقدمر تفصيله فى سورة آل عمران عند قوله تعالى وان الله ليس بظلام للعبيد وقوله تعالى (وأهلها مصلحون) حال من المفعول والعامل عامله ولكن لا باعتبار تقيده بما وقع حالا من فاعله أعنى بظلم

العذاب ❋ ثم انه تعالى ذكر خاتمة شريفة عالية جامعة لكل المطالب الشريفة المقدسة فقال ولله غيب السموات والارض واعلم أن مجموع ما يحتاج الانسان الى معرفته أمور ثلاثة وهى الماضى والحاضر والمستقبل أما الماضى فهو أن يعرف الموجود الذى كان موجودا قبله وذلك الموجود المتقدم عليه هو الذى نقله من العدم الى الوجود وذلك هو الاله تعالى وتقدس واعلم أن حقيقة ذات الاله وكنه هويته غير معلومة للبشر البتة وانما المعلوم للبشر صفاته ثم ان صفاته قسمان صفات الجلال وصفات الاكرام أما صفات الجلال فهى سلوب كقولنا انه ليس بجوهر ولا جسم ولا كذا ولا كذا وهذه السلوب فى الحقيقة ليست صفات الكمال لان السلوب عدم والعدم المحض والنفى الصرف لا كمال فيه فقولنا لا تأخذه سنة ولا نوم انما أفاد الكمال لدلالته على العلم المحيط الدائم المبرا عن التغير ولولا ذلك كان عدم النوم ليس يدل على كمال أصلا ألا ترى ان الميت والجماد لا تأخذه سنة ولا نوم وقوله وهو يطعم ولا يطعم انما أفاد الجلال والكمال والكبرياء لان قوله ولا يطعم يفيد كونه واجب الوجود لذاته غنيا عن الطعام والشراب بل عن كل ما سواه فثبت ان صفات الكمال والعز والعلو هى الصفات الثبوتية وأشرف الصفات الثبوتية الدالة على الكمال والجلال صفتان العلم والقدرة فلهذا السبب وصف الله تعالى ذاته فى هذه الآية بهما فى معرض التعظيم والثناء والمدح أما صفة العلم فقوله ولله غيب السموات والارض والمراد ان علمه نافذ فى جميع الكليات والجزئيات والمعدومات والموجودات والحاضرات والغائبات وتمام البيان والشرح فى دلالة هذا اللفظ على نهاية الكمال ما ذكرناه فى تفسير قوله سبحانه وتعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو وأما صفة القدرة فقوله واليه يرجع الامر كله والمراد ان مرجع الكل اليه وانما يكون كذلك لو كان مصدر الكل ومبدأ الكل هو هو والذى يكون مبدأ لجميع الممكنات واليه يكون مرجع كل المحدثات والكائنات كان عظيم القدرة نافذ المشيئة قهارا للعدم بالوجود والتحصيل جبارا له بالقوة والفعل والتكميل فهذان الوصفان هما المذكوران فى شرح جلال المبدا ونعت كبريائه (والمرتبة الثانية) من المراتب التى يجب على الانسان كونه عالما بها أن يعرف ما هو مهم له فى زمان حياته فى الدنيا وما ذلك الا تكميل النفس بالمعارف الروحانية والجلايا القدسية وهذه المرتبة لها بداية ونهاية اما بدايتها فالاشتغال بالعبادات الجسدانية والروحانية أما العبادات الجسدانية فأفضل الحركات الصلاة وأكمل السكنات الصيام وأنفع البر الصدقة وأما العبادة الروحانية فهى الفكر والتأمل فى عجائب صنع الله تعالى فى ملكوت السموات والارض كما قال تعالى ويتفكرون فى خلق السموات والارض وأما نهاية هذه المرتبة فالانتهاء من الاسباب الى مسببها وقطع النظر عن كل الممكنات والمبدعات وتوجيه حدقة العقل الى نور عالم الجلال واستغراق الروح فى اضواء عالم الكبرياء ومن وصل الى

الدلالته على تقييد نفى الاهلاك بظلم بحال كون أهلها مصلحين ولا ريب فى فساده بل مطلقا عن ذلك وقيل المراد بالظلم الشرك والباء السببية اى لا يهلك القرى بسبب اشراك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون الى شركهم فسادا آخر وذلك لفرط رحمته ومسامحته فى حقوقه تعالى ومن ذلك قدم الفقهاء عند تزاحم الحقوق حقوق العباد الفقراء على حقوق الله [illegible] الغنى الحميد وقيل الملك يبقى مع الشرك ولا يبقى مع الظلم وأنت تدرى أن مقام ﴿ ١٤٨ ﴾ النهى عن المنكرات التى أقبحها الاشراك بالله لا يلائمه فان الشرك داخل فى الفساد فى الارض دخولا أوليا ولذلك كان ينهى كل من الرسل الذين قصت انباؤهم أمته أولا عن الاشراك ثم عن سائر المعاصى التى كانوا يتعاطونها فالوجه حمل الظلم على مطلق الفساد الشامل للشرك وغيره من أصناف المعاصى وحمل الاصلاح على اصلاحه والاقلاع عنه بكون بعضهم متصدين للنهى عنه وبعضهم متوجهين الى الاتعاظ غير مصرين على ما هم عليه من الشرك وغيره من أنواع الفساد (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) مجتمعة على الحق ودين الاسلام بحيث لا يكاد يختلف فيه أحد ولكن لم يشأ ذلك فلم يكونوا متفقين على الحق (ولا يزالون مختلفين) فى الحق اى مخالفين له كقوله تعالى وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم (الا من رحم ربك) الا قوما قد هداهم الله تعالى بفضله الى الحق فاتفقوا عليه ولم يختلفوا فيه اى لم يخالفوه وحمله على مطلق الاختلاف الشامل لما يصدر من الحق والمبطل يأباه الاستثناء المذكور (ولذلك) اى ولما ذكر من الاختلاف (خلقهم) اى ﴿ هذه ﴾ الذين بقوا بعد الثنيا وهم المختلفون فاللام للعاقبة أو للترحم فالضمير لمن واللام فى معناها أو لهما معا فالضمير للناس كافة واللام بمعنى مجازى عام لكلا المعنيين (وتمت كلمة ربك) اى وعيده أو قوله للملائكة (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) اى من عصاتهما

أجمعين أو منهما أجمعين لا من احدهما (وكلا) اى وكل نبأ فالتنوين عوض عن المضاف اليه (نقص عليك) نخبرك به وقوله تعالى (من أنباء الرسل) بيان لكلا وقوله تعالى (ماثبت به فؤادك) بدل منه والاظهر أن يكون المضاف اليه المحذوف فى كلا المفعول المطلق لنقص اى كل اقتصاص اى كل أسلوب من أساليبه نقص عليك من انباء الرسل وقوله تعالى مانثبت به فؤادك مفعول نقص وفائدته التنبيه على أن المقصود بالاقتصاص زيادة يقينه عليه السلام وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة واحتمال أذية الكفار بالوقوف على تفاصيل أحوال الامم السالفة فى تماديهم فى الضلال ومالقى الرسل من جهتهم من مكابدة المشاق (وجاءك فى هذه) السورة أو الانباء المقصوصة عليك (الحق) الذى لامحيد عنه (وموعظة وذكرى للمؤمنين) اى الجامع بين كونه حقا فى نفسه وكونه موعظة وذكرى للمؤمنين ولكون الوصف الاول حالا له فى نفسه حلى باللام دون ماهو وصف له بالقياس الى غيره وتقديم الظرف أعنى فى هذه على الفاعل لان المقصود بيان منافع السورة أو الانباء المقصوصة فيها واشتمالها على ماذكر من المنافع المفصلة لابيان كون ذلك فيها لا فى غيرها ولان عند تأخير ماحقه التقديم تبقى النفس مترقبة اليه فيتمكن فيها عند الورود فضل تمكن ولان فى المؤخر نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم (وقل للذين لايؤمنون) بهذا الحق ولايتعظون به ولايتذكرون (اعملوا على مكانتكم) على حالكم وجهتكم التى هى عدم الايمان (انا عاملون) على حالنا وهو الايمان به والاتعاظ والتذكر به (وانتظروا) بنا الدوائر (انا منتظرون) أن ينزل بكم نحو مانزل بأمثالكم من الكفرة (ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله) ليرجع لامحالة أمرك وأمرهم اليه وقرئ على البناء للفاعل من رجع رجوعا (فاعبده وتوكل عليه) فانه كافيك والفاء لترتيب الامر بالعباده والتوكل على كون مرجع الامور كلها الى

هذه الدرجة رأى كل ماسواه مهرولا تائها فى ساحة كبريائه هالكا فانيا فى فناء سناء أسمائه وحاصل الكلام ان أول درجات السير الى الله تعالى هو عبودية الله وآخرها التوكل على الله فلهذا السبب قال فاعبده وتوكل عليه (والمرتبة الثالثة) من المراتب المهمة لكل عامل معرفة المستقبل وهو انه يعرف كيف يصير حاله بعد انقضاء هذه الحياة الجسمانية وهل لاعماله أثر فى السعادة والشقاوة واليه الاشارة بقوله تعالى وما ربك بغافل عما تعملون والمقصود انه لايضيع طاعات المطيعين ولايهمل أحوال المتمردين الجاحدين وذلك بأن يحضروا فى موقف القيامة ويحاسبوا على النقير والقطمير ويعاتبوا فى الصغير والكبير ثم يحصل عاقبة الامر فريق فى الجنة وفريق فى السعير فظهر ان هذه الآية وافية بالارشاد الى جميع المطالب العلوية والمقاصد القدسية وانه ليس وراءها للعقول مرتقى ولا للخواطر منتهى والله الهادى للصواب تمت السورة بحمد الله وعونه وقد وجد بخط المصنف رضى الله عنه فى النسخة المنتقل منها تم تفسير هذه السورة قبل طلوع الصبح ليلة الاثنين من شهر رجب ختمه الله بالخير والبركة سنة احدى وستمائة وقد كان لى ولد صالح حسن السيرة فتوفى فى الغربة فى عنفوان شبابه وكان قلبى كالمحترق لذلك السبب فانا أنشد الله اخوانى فى الدين وشركائى فى طلب اليقين وكل من نظر فى هذا الكتاب وانتفع به أن يذكر ذلك الشاب بالرحمة والمغفرة وأن يذكر هذا المسكين بالدعاء وهو يقول ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم

❁ (سورة يوسف مائة واحدى عشرة آية مكية) ❁

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(الر تلك آيات الكتاب المبين انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) وقد ذكرنا فى أول سورة يونس تفسير الر تلك آيات الكتاب الحكيم فقوله تلك اشارة الى آيات هذه السورة أى تلك الآيات التى أنزلت اليك فى هذه السورة المسماة الر هى آيات الكتاب المبين وهو القرآن وانما وصف القرآن بكونه مبينا لوجوه (الاول) ان القرآن معجزة قاهرة وآية بينة لمحمد صلى الله عليه وسلم (والثانى) انه بين فيه الهدى والرشد والحلال والحرام ولما بينت هذه الاشياء فيه كان الكتاب مبينا لهذه الاشياء (الثالث) انه بينت فيه قصص الاولين وشرحت فيه أحوال المتقدمين ثم قال انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) روى ان علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين سلوا محمدا لم انتقل آل يعقوب من الشام الى مصر وعن كيفية قصة يوسف فأنزل الله تعالى هذه الآية وذكر فيها انه تعالى عبر عن هذه القصة بألفاظ عربية ليتمكنوا من فهمها ويقدروا على تحصيل المعرفة بها والتقدير انا أنزلنا هذا الكتاب الذى فيه قصة يوسف فى حال كونه قرآنا عربيا وسمى بعض القرآن قرآنا لان القرآن اسم جنس يقع على الكل

عمن يعقل كما قال فى صفة الاصنام وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون وكما فى قوله يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم (السؤال الثانى) قال انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ثم أعاد لفظ الرؤيا مرة ثانية وقال رأيتهم لى ساجدين فما الفائدة فى هذا التكرير (الجواب) قال القفال رحمه الله ذكر الرؤية الاولى لتدل على أنه شاهد الكواكب والشمس والقمر والثانية لتدل على مشاهدة كونها ساجدة له وقال بعضهم انه لما قال انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر فكأنه قيل له كيف رأيت فقال رأيتهم لى ساجدين وقال آخرون يجوز أن يكون أحدهما من الرؤية والآخر من الرؤيا وهذا القائل لم يبين ان أيهما يحمل على الرؤية وأيهما على الرؤيا فذكر قولا مجملا غير مبين (السؤال الثالث) لم أخر الشمس والقمر قلنا أخرهما لفضلهما على الكواكب لان التخصيص بالذكر يدل على مزيد الشرف كما فى قوله وملائكته ورسله وجبريل وميكال (السؤال الرابع) المراد بالسجود نفس السجود أو التواضع كما فى قوله

ترى الاكم فيه سجدا للحوافر *

قلنا كلاهما محتمل والاصل فى الكلام حمله على حقيقته ولا مانع أن يرى فى المنام أن الشمس والقمر والكواكب سجدت له (السؤال الخامس) متى رأى يوسف عليه السلام هذه الرؤيا قلنا لا شك أنه رآها حال الصغر فاما ذلك الزمان بعينه فلا يعلم الا بالاخبار قال وهب رأى يوسف عليه السلام وهو ابن سبع سنين أن احدى عشرة عصا طوالا كان مركوزة فى الارض كهيئة الدائرة واذا عصا صغيرة وثبت عليها حتى ابتلعتها فذكر ذلك لابيه فقال اياك أن تذكر هذا لاخوتك ثم رأى وهو ابن ثنتى عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على أبيه فقال لا تذكرها لهم فيكيدوا لك كيدا وقيل كان بين رؤيا يوسف ومصير اخوته اليه أربعون سنة وقيل ثمانون سنة واعلم أن الحكماء يقولون ان الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب والرؤيا الجيدة انما يظهر تعبيرها بعد حين قالوا والسبب فى ذلك أن رحمة الله تقتضى أن لا يحصل الاعلام بوصول الشر الا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم أقل وأما الاعلام بالخير فانه يحصل متقدما على ظهوره بزمان طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حصول ذلك الخير أكثر وأتم (السؤال السادس) قال بعضهم المراد من الشمس والقمر أبوه وخالته فما السبب فيه قلنا انما قالوا ذلك من حيث ورد فى الخبر أن والدته توفيت وما دخلت عليه حال ما كان بمصر قالوا ولو كان المراد من الشمس والقمر أباه وأمه لما ماتت لان رؤيا الانبياء عليهم السلام لابد وأن تكون وحيا وهذه الحجة غير قوية لان يوسف عليه السلام ما كان فى ذلك الوقت من الانبياء (السؤال السابع) وما تلك الكواكب قلنا روى صاحب الكشاف أن يهوديا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد أخبرنى عن النجوم التى رآهن يوسف فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل عليه السلام وأخبره بذلك فقال عليه الصلاة والسلام لليهودى ان أخبرتك هل تسلم

قطلو هو تعليل لكونه موحى والتعبير عن عدم العلم بالغفلة لاجلال شان النبي عليه السلام وان غفل عنه بعض الغافلين (اذ قال يوسف) نصب باضمار اذكر وشروع فى القصة انجاز اللوعد بأحسن الاقتصاص أو بدل من أحسن القصص على تقدير كونه مفعولا بدل اشتمال فان اقتصاص الوقت المشتمل على المقصوص من حيث اشتماله عليه اقتصاص للمقصوص ويوسف اسم عبرى لاعربى لخلوه عن سبب آخر غير التعريف وفتح السين وكسرها على بعض القراآت بناء على التلعب به لا على أنه مضارع بنى للمفعول أو الفاعل من آسف لشهادة المشهورة بعجمته (لابيه) يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام وقد روى عنه عليه السلام ان الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم (يا أبت) أصله يا أبى فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما فى الزيادة فلذلك قلبت هاء فى الوقف على قراءة ابن كثير وأبى عمرو ويعقوب وكسرها لانها عوض عن حرف يناسبها وفتحها ابن عامر فى كل القرآن لانها حركة أصلها أو لان الاصل يا أبتا فحذف الالف وبقى الفتحة وانما لم يجز يا أبتى لانه جمع بين العوض والمعوض وقرئ بالضم اجراء لها مجرى الالفاظ المؤنثة بالتاء من غير اعتبار التعويض وعدم تسكينها كأصلها لانها حرف صحيح منزل منزلة الاسم فيجب تحريكها ككاف الخطاب (انى رأيت) من الرؤيا لا من الرؤية لقوله لا تقصص رؤياك هذا تأويل رؤياى ولان الظاهر أن وقوع مثل هذه الامور البديعة فى عالم الشهادة لا يختص برؤية راء دون راء فيكون طامة كبرى لا يخفى على أحد من الناس ﴿ قال ﴾ (أحد عشر كوكبا والشمس والقمر) روى عن جابر رضى الله عنه أن يهوديا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أخبرنى يا محمد عن النجوم التى رآهن يوسف عليه السلام فسكت النبى عليه السلام فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك فقال عليه السلام اذا أخبرتك بذلك هل تسلم فقال نعم قال عليه السلام جريان والطارق

والنيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف عليه السلام والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له فقال اليهودي اى والله انها لاسماؤها وقيل الشمس والقمر أبواه وقيل أبوه وخالته والكواكب اخوته وانما أخر الشمس والقمر عن الكواكب لاظهار مزيتهما وشرفهما على سائر الطوالع بعطفهما عليها كما فى عطف جبريل وميكائيل على الملائكة عليهم السلام وقدجوز أن تكون الواو بمعنى مع أى رأيت الكواكب مع الشمس والقمر ولا يبعد أن يكون ذلك اشارة الى تأخر ملاقاته عليه السلام لهما عن ملاقاته لاخوته وعن وهب ان يوسف عليه السلام رأى وهو ابن سبع سنين أن احدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة فى الارض كهيئة الدارة واذا عصا صغيرة تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها فوصف ذلك لابيه فقال اياك أن تذكر هذا لاخوتك ثم رأى وهو ابن ثنتى عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على أبيه فقال لاتقصها عليهم فيبغوا لك الغوائل وقيل كان بين رؤيا يوسف ومصير اخوته اليه أربعون سنة وقيل ثمانون (رأيتهم لى ساجدين) استئناف ببيان حالهم التى رآهم عليها كأن سائلا سأل فقال كيف رأيتهم فأجاب بذلك وانما أجريت مجرى العقلاء فى الضمير لوصفها بوصف خا العقلاء أعنى السجود وتقديم الجار والمجرور لاظهار العناية والاهتمام بما هو الاهم مع ما فى ضمنه من رعاية الفاصلة (قال يا بنى) صغره للشفقة أولها ولصغر السن وهو أيضا استئناف مبنى على سؤال من قال فماذا قال يعقوب بعد سماع هذه الرؤيا العجيبة ولما عرف يعقوب عليه السلام من

قال نعم قال جريان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف والشمس والقمر نزلت من السماء وسجدت له فقال اليهودى اى والله انها لاسماؤها واعلم أن كثيرا من هذه الاسماء غير مذكور فى الكتب المصنفة فى صورة الكواكب والله أعلم بحقيقة الحال* قوله تعالى (قال يا بنى لاتقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا ان الشيطان للانسان عدو مبين وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على ابويك من قبل ابراهيم واسحق ان ربك عليم حكيم) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حفص يا بنى بفتح الياء والباقون بالكسر (المسئلة الثانية) ان يعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف وأخيه فحسده اخوته لهذا السبب وظهر ذلك المعنى ليعقوب عليه السلام بالامارات الكثيرة فلما ذكر يوسف عليه السلام هذه الرؤيا وكان تأويلها أن اخوته وأبويه يخضعون له فقال لاتخبرهم برؤياك فانهم يعرفون تأويلها فيكيدوا لك كيدا (المسئلة الثالثة) قال الواحدى الرؤيا مصدر كالبشرى والسقيا والبقيا والشورى الا أنه لما صار اسما لهذا المتخيل فى المنام جرى مجرى الاسماء قال صاحب الكشاف الرؤيا بمعنى الرؤية الا أنها مختصة بما كان منها فى المنام دون اليقظة فلا جرم فرق بينهما بحرفى التأنيث كما قيل القربة والقربى وقرئ رويك بقلب الهمزة واوا وسمع الكسائى يقرأ ريك وريك بالادغام وضم الراء وكسرها وهى ضعيفة ثم قال تعالى فيكيدوا لك كيدا وهو منصوب باضمار ان والمعنى ان قصصتها عليهم كادوك فان قيل فلم لم يقل فيكيدوك كما قال فكيدونى قلنا هذه اللام تأكيد للصلة كقوله للرؤيا تعبرون وكقولك نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك وقيل هى من صلة الكيد على معنى فيكيدوا كيدا لك قال أهل التحقيق وهذا يدل على أنه قد كان لهم علم بتعبير الرؤيا والا لم يعلموا من هذه الرؤيا ما يوجب حقدا وغضبا ثم قال ان الشيطان للانسان عدو مبين والسبب فى هذا الكلام انهم لو اقدموا على الكيد لكان ذلك مضافا الى الشيطان ونظيره قول موسى عليه السلام هذا من عمل الشيطان ثم ان يعقوب عليه السلام قصد بهذه النصيحة تعبير تلك الرؤيا وذكر أمورا (أولها) قوله وكذلك يجتبيك ربك يعنى وكما اجتباك بمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبر شان كذلك يجتبيك لامور عظام قال الزجاج الاجتباء مشتق من جبيت الشئ اذا خلصته لنفسك ومنه جبيت الماء فى الحوض واختلفوا فى المراد بهذا الاجتباء فقال الحسن يجتبيك ربك بالنبوة وقال آخرون المراد منه اعلاء الدرجة وتعظيم المرتبة فاما تعيين النبوة فلا دلالة فى اللفظ عليه (وثانيها) قوله ويعلمك من تأويل الاحاديث وفيه وجوه (الاول) المراد منه تعبير الرؤيا سماه تأويلا لانه يؤل أمره الى ما رآه فى المنام يعنى تأويل أحاديث الناس فيما يرونه فى منامهم قالوا انه عليه السلام كان فى علم التعبير غاية

هذه الرؤيا أن يوسف يبلغه الله تعالى مبلغا جليلا من الحكمة و يصطفيه للنبوة و ينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بآبائه الكرام خاف عليه حسد الاخوة و بغيهم فقال صيانة لهم من ذلك وله من معاناة المشاق ومقاساة الاحزان وان كان واثقا بأن الله تعالى سيحقق ذلك لامحالة وطمعا في حصوله بلا مشقة (لاتقصص رؤياك) هي ما في المنام كما أن الرؤية ما في اليقظة فرق بينهما بحرفي التأنيث كما في القربى والقربة وحقيقتها ارتسام الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة الى الحس المشترك والصادقة منها انما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ فتتصور بما فيها مما يليق من المعاني الحاصلة هناك ثم ان المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه فترسلها الى الحس المشترك فتصير مشاهدة ثم اذا كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت الا بالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير والا احتاجت اليه (على اخوتك فيكيدوا) نصب باضمار أن أي فيفعلوا (لك) أي لاجلك ولاهلاكك (كيدا) متينا راسخا لاتقدر على التفصي عنه أو خفيا عن فهمك لاتتصدى لمدافعته وهذا أوفق بمقام التحذير وان كان يعقوب عليه السلام يعلم أنهم ليسوا بقادرين على تحويل ما دلت الرؤيا على وقوعه وهذا الاسلوب آكد من أن يقال فيكيدوك كيدا اذ ليس فيه دلالة على كون نفس الفعل مقصود الايقاع وقد قيل ﴿ عليه ﴾ ايقاعه واللام لتضمينه معنى الاحتيال المتعدي باللام ليفيد معنى المضمن والمضمن فيه للتأكيد أي فيحتالوا لك ولاهلاكك حيلة وكيدا والمراد باخوته بنو علاته الذين يخشى غوائلهم ومكايدهم

(والثاني) تأويل الاحاديث في كتب الله تعالى والاخبار المروية عن الانبياء المتقدمين كما ان الواحد من علماء زماننا يشتغل بتفسير القرآن وتأويله وتأويل الاحاديث المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم (والثالث) الاحاديث جمع حديث والحديث هو الحادث وتأويلها مآلها ومآل الحوادث الى قدرة الله تعالى وتكوينه وحكمته والمراد من تأويل الاحاديث كيفية الاستدلال بأصناف المخلوقات الروحانية والجسمانية على قدرة الله تعالى وحكمته وجلالته (وثالثها) قوله ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب واعلم أن من فسر الاجتباء بالنبوة لايمكنه أن يفسر اتمام النعمة ههنا بالنبوة أيضا والا لزم التكرار بل يفسر اتمام النعمة ههنا بسعادات الدنيا وسعادات الآخرة أما سعادات الدنيا فالاكثار من الاولاد والخدم والاتباع والتوسع في المال والجاه والحشم واجلاله في قلوب الخلق وحسن الثناء والحمد وأما سعادات الآخرة فالعلوم الكثيرة والاخلاق الفاضلة والاستغراق في معرفة الله تعالى وأما من فسر الاجتباء بنيل الدرجات العالية فههنا يفسر اتمام النعمة بالنبوة ويتأكد هذا بامور (الاول) ان اتمام النعمة عبارة عما به تصير النعمة تامة كاملة خالية عن جهات النقصان وما ذاك في حق البشر الا بالنبوة فان جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة ناقص بالنسبة الى كمال النبوة فالكمال المطلق والتمام المطلق في حق البشر ليس الا النبوة (والثاني) قوله كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق ومعلوم أن النعمة التامة التي بها حصل امتياز ابراهيم واسحق عن سائر البشر ليس الا النبوة فوجب أن يكون المراد باتمام النعمة هو النبوة واعلم انا لما فسرنا هذه الآية بالنبوة لزم الحكم بأن أولاد يعقوب كلهم كانوا أنبياء وذلك لانه قال ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب وهذا يقتضي حصول تمام النعمة لآل يعقوب فلما كان المراد من اتمام النعمة هو النبوة لزم حصولها لآل يعقوب ترك العمل به في حق من عدا أبنائه فوجب أن يبقى معمولا به في حق أولاده وأيضا ان يوسف عليه السلام قال اني رأيت أحد عشر كوكبا وكان تأويله أحد عشر نفسا لهم فضل وكمال ويستضيء بعلمهم ودينهم أهل الارض لانه لاشيء أضوأ من الكواكب وبها يهتدي وذلك يقتضي أن يكون جملة أولاد يعقوب أنبياء ورسلا فان قيل كيف يجوز أن يكونوا أنبياء وقد أقدموا على ما أقدموا عليه في حق يوسف عليه السلام قلنا ذاك وقع قبل النبوة وعندنا العصمة انما تعتبر في وقت النبوة لا قبلها (القول الثاني) أن المراد من قوله ويتم نعمته عليك خلاصه من المحن ويكون وجه التشبيه في ذلك بابراهيم واسحق عليهما السلام هو انعام الله تعالى على ابراهيم بانجائه من النار وعلى ابنه اسحق بتخليصه من الذبح (والقول الثالث) أن اتمام النعمة هو وصل نعمة الله عليه في الدنيا بنعمة الآخرة بان جعلهم في الدنيا أنبياء وملوكا ونقلهم عنها الى الدرجات العلى في الجنة واعلم أن القول الصحيح هو الاول لان النعمة التامة في حق البشر ليست الا النبوة وكل ما سواها فهي ناقصة بالنسبة اليها ثم انه

بنو علاته الاحد عشر وهم يهوذا وروبيل وشمعون ولاوى وربالون ويشجر ودينة بنو يعقوب من ليا بنت خالته ودان ونفتالى وجاد وآشر بنوه من سريتين زلفة وبلهة وهؤلاء هم المشار اليهم بالكواكب الاحد عشر وأما بنيامين الذى هو شقيق يوسف عليه السلام وأمهما راحيل التى تزوجها يعقوب عليه السلام بعد وفاة أختها ليا أو فى حياتها اذ لم يكن جمع الاختين اذ ذاك محرما فليس بداخل تحت هذا النهى اذ لا يتوهم مضرته ولا يخشى معرته ولم يكن معدودا معهم فى الرؤيا اذ لم يكن معهم فى السجود ليوسف والمراد نهيه عن اقتصاص الرؤيا عليهم كلا أو بعضا (ان الشيطان للانسان عدو مبين) ظاهر العداوة فلا يألو جهدا فى اغواء اخوتك واضلالهم وحملهم على ما لا خير فيه وهو استئناف كأن يوسف عليه السلام قال كيف يصدر ذلك عن اخوتى الناشئين فى بيت النبوه فقيل ان الشيطان يحملهم على ذلك ولما نبهه عليهما السلام على أن لرؤياه شأنا عظيما يستتبع منافع وحذره اشاعتها المؤدية الى أن يحول اخوته بينها وبين ظهور آثارها وحصولها أو يوعروا سبيل وصولها شرع فى تعبيرها وتأويلها على وجه اجمالى فقال (وكذلك) أى ومثل ذلك الاجتباء البديع الذى شاهدت آثاره فى عالم المثال من سجود تلك الاجرام العلوية النيرة لك وبحسبه وعلى وفقه (يجتبيك ربك) يختارك لجناب كبريائه ويستنبوك افتعال من جباه اذا جمعه ويصطفيك على أشراف الخلائق وسراة الناس قاطبة ويبرز مصداق تلك الرؤيا فى عالم الشهادة حسب ما عاينته من غير قصور والمراد بالتشبيه بيان المضاهاة المتحققة بين الصور المرئية فى عالم المثال وبين ما وقعت هى صورا وأشباحا له من

عليه السلام لما وعده بهذه الدرجات الثلاثة ختم الكلام بقوله ان ربك عليم حكيم فقوله عليم اشارة الى قوله الله أعلم حيث يجعل رسالاته وقوله حكيم اشارة الى أن الله تعالى مقدس عن السفه والعبث لا يضع النبوة الا فى نفس قدسية وجوهرة مشرقة علوية فان قيل هذه البشارات التى ذكرها يعقوب عليه السلام هل كان قاطعا بصحتها أم لا فان كان قاطعا بصحتها فكيف حزن على يوسف عليه السلام وكيف جاز أن يشتبه عليه أن الذئب أكله وكيف خاف عليه من اخوته أن يهلكوه وكيف قال لاخوته وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون مع علمه بأن الله سبحانه سيجتبيه ويجعله رسولا فاما اذا قلنا انه عليه السلام ما كان عالما بصحة هذه الاحوال فكيف قطع بها وكيف حكم بوقوعها حكما جازما من غير تردد قلنا لا يبعد أن يكون قوله وكذلك يجتبيك ربك مشروطا بأن لا يكيدوه لان ذكر ذلك قد تقدم وأيضا فبتقدير أن يقال انه عليه السلام كان قاطعا بأن يوسف عليه السلام سيصل الى هذه المناصب الا أنه لا يمتنع أن يقع فى المضايق الشديدة ثم يتخلص منها ويصل الى تلك المناصب فكان خوفه لهذا السبب ويكون معنى قوله وأخاف أن يأكله الذئب الزجر عن التهاون فى حفظه وان كان يعلم أن الذئب لا يصل اليه * قوله تعالى (لقد كان فى يوسف واخوته آيات للسائلين اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة ان أبانا لفى ضلال مبين) فى هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) ذكر صاحب الكشاف أسماء اخوة يوسف يهوذا روبيل شمعون لاوى ربالون يشجر دينة دان نفتالى جاد آشر ثم قال السبعة الاولون من ليا بنت خالة يعقوب والاربعة الآخرون من سريتين زلفة وبلهة فلما توفيت ليا تزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف (المسئلة الثانية) قوله آيات للسائلين قرأ ابن كثير آية بغير ألف حمله على شأن يوسف والباقون آيات على الجمع لان أمور يوسف كانت كثيرة وكل واحد منها آية بنفسه (المسئلة الثالثة) ذكروا فى تفسير قوله تعالى آيات للسائلين وجوها (الاول) قال ابن عباس دخل حبر من اليهود على النبى صلى الله عليه وسلم فسمع منه قراءة يوسف فعاد الى اليهود فاعلمهم أنه سمعها منه كما هى فى التوراة فانطلق نفر منهم فسمعوا كما سمع فقالوا له من علمك هذه القصة فقال الله علمنى فنزل لقد كان فى يوسف واخوته آيات للسائلين وهذا الوجه عندى بعيد لان المفهوم من الآية ان فى واقعة يوسف آيات للسائلين وعلى هذا الوجه الذى نقلناه ما كانت الآيات فى قصة يوسف بل كانت الآيات فى اخبار محمد صلى الله عليه وسلم عنها من غير سبق تعلم ولا مطالعة وبين الكلامين فرق ظاهر (والثانى) ان أهل مكة أكثرهم كانوا أقارب الرسول عليه الصلاة والسلام وكانوا ينكرون نبوته ويظهرون العداوة الشديدة معه بسبب الحسد فذكر الله تعالى هذه القصة وبين أن اخوة يوسف بالغوا فى ايذائه لاجل الحسد وبالآخرة فان الله تعالى نصره وقواه وجعلهم تحت يده ورايته ومثل هذه الواقعة اذا سمعها العاقل كانت زاجرة له عن الاقدام على الحسد

هذه الرؤيا أن ترى تحسبها فى عالم الشهادة أى كما سخرت لك تلك الاجرام العظام يسخر لك وجوه الناس ونواصيهم الكرام فتطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة ومراده بيان اطاعة أبويه واخوته له لكنه انما لم يصرح به حذرا بأن أعته (ويعلمك) كلام مبتدأ غير داخل تحت التشبيه أراد به عليه السلام تأكيد مقالته وتحقيقها وتوطين نفس يوسف عليه السلام بما أخبر به على طريقة التعبير والتأويل ﴿ ١٠٦ ﴾ كأنه قال وهو يعلمك (من تأويل الاحاديث) أى ذلك الجنس من العلوم أو طرفا صالحا منه فتطلع على حقيقة ما أقول ولا يخفى ما فيه من تأكيد ما سبق والبعث على تلقى ما سيأتى بالقبول والمراد بتأويل الاحاديث تعبير الرؤيا اذ هى أحاديث الملك ان كانت صادقة أو أحاديث النفس أو الشيطان ان لم تكن كذلك والاحاديث اسم جمع للحديث كالاباطيل اسم جمع للباطل لا جمع أحدوثة وقيل كأنهم جمعوا حديثا على أحدثة ثم جمعوا الجمع على أحاديث كقطيع وأقطعة وأقاطيع وقيل هو تأويل غوامض كتب الله تعالى وسنن الانبياء عليهم السلام والاول هو الاظهر وتسمية التعبير تأويلا لانه جعل المرئى آئلا الى ما يذكره المعبر بصدد التعبير ورجعه اليه فكأنه عليه الصلاة والسلام أشار بذلك الى ما سيقع من يوسف عليه السلام من تعبيره لرؤيا صاحبى السجن ﴿ تقديم ﴾ ورؤيا الملك وكون ذلك ذريعة الى ما يبلغه الله تعالى اليه من الرياسة العظمى التى عبر عنها باتمام النعمة وانما عرف يعقوب عليه السلام ذلك منه من جهة الوحى أو أراد كون هذه الخصلة سببا لظهور أمره عليه السلام

(والثالث) أن يعقوب لما عبر رؤيا يوسف وقع ذلك التعبير ودخل فى الوجود بعد ثمانين سنة فكذلك ان الله تعالى لما وعد محمدا عليه الصلاة والسلام بالنصر والظفر على الاعداء فاذا تأخر ذلك الموعود مدة من الزمان لم يدل ذلك على كون محمد عليه الصلاة والسلام كاذبا فيه فذكر هذه القصة نافع من هذا الوجه (الرابع) ان اخوة يوسف بالغوا فى ابطال أمره ولكن الله تعالى لما وعده بالنصر والظفر كان الامر كما قدره الله تعالى لا كما سعى فيه الاعداء فكذلك واقعة محمد صلى الله عليه وسلم فان الله لما ضمن له اعلاء الدرجة لم يضره سعى الكفار فى ابطال أمره وأما قوله للسائلين فاعلم أن هذه القصة فيها آيات كثيرة لمن سأل عنها ولمن لم يسأل عنها وهو كقوله تعالى فى أربعة أيام سواء للسائلين ثم قال تعالى اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قوله ليوسف اللام لام الابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة أرادوا ان زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه وأخوه هو بنيامين وانما قالوا أخوه وهم جميعا اخوة لان أمهما كانت واحدة والعصبة والعصابة العشرة فصاعدا وقيل الى الاربعين سموا بذلك لانهم جماعة تعصب بهم الامور ونقل عن على رضى الله عنه انه قرأ ونحن عصبة بالنصب قيل معناه ونحن نجتمع عصبة (المسئلة الثانية) المراد منه بيان السبب الذى لاجله قصدوا ايذاء يوسف وذلك ان يعقوب كان يفضل يوسف وأخاه على سائر الاولاد فى الحب وانهم تأذوا منه لوجوه (الاول) انهم كانوا أكبر سنا منهما (وثانيها) انهم كانوا أكثر قوة وأكثر قياما بمصالح الاب منهما (وثالثها) انهم قالوا انا نحن القائمون بدفع المفاسد والآفات والمشتغلون بتحصيل المنافع والخيرات اذا ثبت ما ذكرناه من كونهم متقدمين على يوسف وأخيه فى هذه الفضائل ثم انه عليه السلام كان يفضل يوسف وأخاه عليهم لا جرم قالوا ان أبانا لفى ضلال مبين يعنى هذا حيف ظاهر وضلال بين وههنا سؤالات (الاول) ان من الامور المعلومة ان تفضيل بعض الاولاد على بعض يورث الحقد والحسد ويورث الآفات فلما كان يعقوب عليه السلام عالما بذلك فلم أقدم على هذا التفضيل وأيضا الاسن والاعلم والانفع أفضل فلم قلب هذه القضية (والجواب) انه عليه السلام ما فضلهما على سائر الاولاد الا فى المحبة والمحبة ليست فى وسع البشر فكان معذورا فيه ولا يلحقه بسبب ذلك لوم (السؤال الثانى) ان أولاد يعقوب عليه السلام ان كانوا قد آمنوا بكونه رسولا حقا من عند الله تعالى فكيف اعترضوا عليه وكيف زيفوا طريقته وطعنوا فى فعله وان كانوا مكذبين لنبوته فهذا يوجب كفرهم (والجواب) انهم كانوا مؤمنين بنبوة أبيهم مقرين بكونه رسولا حقا من عند الله تعالى الا انهم لعلهم جوزوا من الانبياء عليهم السلام أن يفعلوا أفعالا مخصوصة بمجرد الاجتهاد ثم ان اجتهادهم أدى الى تخطئة أبيهم فى ذلك الاجتهاد وذلك لانهم كانوا يقولون هما صبيان ما بلغا العقل الكامل ونحن متقدمون عليهما فى السن والعقل والكفاية والمنفعة وكثرة الخدمة والقيام بالمهمات واصراره على

تكون معرفته عليه السلام لذلك بطريق الفراسة والاستدلال من الشواهد والدلائل والامارات والمخيلهم فى الدنيا الله تعالى لمثل هذه الرؤيا لابد من توفيقه لتعبيرها وتأويل أمثالها وتمييز ماهو آفاقى منها مماهو أنفسى كيف وقد كان تدل على كمال تمكن نفسه عليه السلام فى عالم المثال وقوة تصرفاتها فيه فيكون اقبل لفيضان المعارف المتعلقة بته العالم وبما يحاكيه من الامور الواقعة بحسبها

فى عالم الشهادة وأقوى وقوفا على النسب الواقعة بين الصور المعاينة فى أحد ذينك العالمين وبين الكائنات الظاهرة على وفقها فى العالم الآخر وأن هذا الشأن البديع لابد أن يكون انموذجا لظهور أمر من اتصف به ومدار الجريان أحكامه فان لكل نبى من الانبياء عليهم الصلاة والسلام معجزة بها تظهر آثاره وتجرى أحكامه (ويتم نعمته عليك) بأن يضم الى النبوة المستفادة من الاجتباء الملك ويجعله تتمة لها وتوسيط ذكر التعليم المذكور بينهما لكونه من لوازم النبوة والاجتباء ولرعاية ترتيب الوجود الخارجى ولما أشرنا اليه من كون أثره وسيلة الى تمام النعمة ويجوز أن يعد نفس الرؤيا من نعم الله تعالى عليه فيكون جميع النعم الواصلة اليه بحسبها مصداقا لها تماما لتلك النعمة (وعلى آل يعقوب) وهم أهله من بنيه وغيرهم فان رؤية يوسف عليه السلام اخوته كواكب يهتدى بأنوارها من نعم الله تعالى عليهم لدلالتها على مصير أمرهم الى النبوة فيقع كل مايخرج من القوة الى الفعل من كمالاتهم بحسب ذلك تماما لتلك النعمة لامحالة وأما اذا أريد بتمام تلك النعمة الملك فكونه كذلك بالنسبة اليهم باعتبار أنهم

تقديم يوسف علينا يخالف هذا الدليل وأما يعقوب عليه السلام فلعله كان يقول زيادة المحبة ليست فى الوسع والطاقة فليس لله على فيه تكليف وأما تخصيصهما بمزيد البر فيحتمل انه كان لوجوه (أحدها) ان أمهما ماتت وهما صغار (وثانيها) لانه كان يرى فيه من آثار الرشد والنجابة مالم يجد فى سائر الاولاد (وثالثها) لعله عليه السلام وان كان صغيرا الا انه كان يخدم اباه بأنواع من الخدم أشرف وأعلى مما كان يصدر عن سائر الاولاد والحاصل ان هذه المسئلة كانت اجتهادية وكانت مخلوطة بميل النفس وموجبات الفطرة فلا يلزم من وقوع الاختلاف فيها طعن أحد الخصمين فى دين الآخر أوفى عرضه (السؤال الثالث) انهم نسبوا أباهم الى الضلال المبين وذلك مبالغة فى الذم والطعن ومن بالغ فى الطعن فى الرسول كفر لاسيما اذا كان الطاعن ولدا فان حق الابوة يوجب مزيد التعظيم (والجواب) المراد منه الضلال عن رعاية المصالح فى الدنيا لا البعد عن طريق الرشد والصواب (السؤال الرابع) ان قولهم ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا محض الحسد والحسد من أمهات الكبائر لاسيما وقد أقدموا على الكذب بسبب ذلك الحسد وعلى تضييع ذلك الاخ الصالح والقائه فى ذل العبودية وتبعيده عن الاب المشفق وألقوا أباهم فى الحزن الدائم والاسف العظيم وأقدموا على الكذب فما بقيت خصلة مذمومة ولا طريقة فى الشر والفساد الا وقد أتوابها وكل ذلك يقدح فى العصمة والنبوة (والجواب) الامر كما ذكرتم الا ان المعتبر عندنا عصمة الانبياء عليهم السلام فى وقت حصول النبوة وأما قبلها فذلك غير واجب والله أعلم * قوله تعالى (اقتلوا يوسف أواطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين) واعلم انه لما قوى الحسد وبلغ النهاية قالوا لابد من تبعيد يوسف عن أبيه وذلك لا يحصل الا بأحد طريقين القتل أو التغريب الى أرض يحصل اليأس من اجتماعه مع أبيه ولا وجه فى الشر يبلغه الحاسد أعظم من ذلك ثم ذكروا العلة فيه وهى قولهم يخل لكم وجه أبيكم والمعنى ان يوسف شغله عنا وصرف وجهه اليه فاذا فقده أقبل علينا بالميل والمحبة وتكونوا من بعده قوما صالحين وفيه وجوه (الاول) انهم علموا ان ذلك الذى عزموا عليه من الكبائر فقالوا اذا فعلنا ذلك تبنا الى الله ونصير من القوم الصالحين (والثانى) انه ليس المقصود ههنا صلاح الدين بل المعنى يصلح شأنكم عند أبيكم ويصير أبوكم محبا لكم مشتغلا بشأنكم (الثالث) المراد انكم بسبب هذه الوحشة صرتم مشوشين لاتتفرغون لاصلاح مهم فاذا زالت هذه الوحشة تفرغتم لاصلاح مهماتكم واختلفوا فى أن هذا القائل الذى أمر بالقتل من كان على قولين (أحدهما) ان بعض اخوته قال هذا (والثانى) انهم شاوروا أجنبيا فأشار عليهم بقتله ولم يقل ذلك أحد من اخوته فأما من قال بالاول فقد اختلفوا فقال وهب انه شمعون وقال مقاتل روبيل فان قيل كيف يليق هذا بهم وهم أنبياء قلنا من

هذه الرؤيا أن لا العز والجاه والمال (كما أتمها على أبويك) نصب على المصدرية أي ويتم نعمته عليك اتماما كاتمامه نعمته على أبويك وهي نعمة الرسالة والنبوة واتمامها على ابراهيم عليه السلام باتخاذه خليلا وانجائه من النار ومن ذبح الولد وعلى اسحق بانجائه من الذبح وفدائه بذبح عظيم وباخراج يعقوب والاسباط من صلبه وكل ذلك نعم جليلة وقعت تتمة لنعمة النبوة ولا يجب في تحقيق التشبيه كون ذلك في جانب المشبه به مثل ما وقع في جانب المشبه من كل وجه (من قبل) أي من قبل هذا الوقت أو من قبلك (ابراهيم واسحق) عطف بيان لابويك والتعبير عنهما بالاب مع كونهما أباجده وأباأبيه للاشعار بكمال ارتباطه بالانبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام وتذكير معنى الولد سر أبيه ليطمئن قلبه بما أخبر به في ضمن التعبير الاجمالي لرؤياه والاقتصار في المشبه به على ذكر اتمام النعمة من غير تعرض للاجتباء من باب الاكتفاء فان اتمام النعمة يقتضي سابقة النعمة المستدعية للاجتباء لا محالة (ان ربك) استئناف لتحقيق مضمون الجمل المذكورة أي يفعل ما ذكر لانه (عليم) بكل شيء فيعلم من يستحق الاجتباء وما يتفرع عليه من التعليم المذكور واتمام النعمة العامة على الوجه المذكور (حكيم) فاعل لكل شيء حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فيفعل ما يفعل ﴿ يعقوب ﴾ كما يفعل جريا على سنن علمه وحكمته والتعرض لعنوان الربوبية في الموضعين لتربية تحقق وقوع ما ذكر من الافاعيل هذا وقد قيل في تفسير الآية الكريمة أي وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا الدالة على شرف وعز وكمال نفس يجتبيك ربك

الناس من أجاب عنه بأنهم كانوا في هذا الوقت مراهقين وما كانوا بالغين وهذا ضعيف لانه يبعد من مثل نبي الله تعالى يعقوب عليه السلام أن يبعث جماعة من الصبيان من غير أن يكون معهم انسان عاقل يمنعهم عن القبائح وأيضا انهم قالوا وتكونوا من بعده قوما صالحين وهذا يدل على انهم قبل التوبة لا يكونون صالحين وذلك ينافي كونهم من الصبيان ومنهم من أجاب بأن هذا من باب الصغائر وهذا أيضا بعيد لان ايذاء الاب الذي هو نبي معصوم والكذب معه والسعي في اهلاك الاخ الصغير كل واحد من ذلك من أمهات الكبائر بل الجواب الصحيح أن يقال انهم ما كانوا أنبياء وان كانوا أنبياء الا ان هذه الواقعة انما أقدموا عليها قبل النبوة * ثم انه تعالى حكى ان قائلا قال لا تقتلوا يوسف قيل انه كان روبيل وكان ابن خالة يوسف وكان أحسنهم رأيا فيه فمنعهم عن القتل وقيل يهوذا وكان أقدمهم في الرأي والفضل والسن * ثم قال وألقوه في غيابة الجب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع في غيابات الجب على الجمع في الحرفين هذا والذي بعده والباقون غيابة على الواحد في الحرفين اما وجه الغيابات فهو ان للجب أقطارا ونواحي فيكون فيها غيابات ومن وحد قال المقصود موضع واحد من الجب يغيب فيه يوسف فالتوحيد أخص وأدل على المعنى المطلوب وقرأ الجحدري في غيبة الجب (المسئلة الثانية) قال اهل اللغة الغيابة كل ما غيب شيئا وستره فغيابة الجب غوره وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله والجب البئر التي ليست بمطوية سميت جبا لانها قطعت قطعا ولم يحصل فيها غير القطع من طي أو ما أشبهه وانما ذكرت الغيابة مع الجب دلالة على ان المشير أشار بطرحه في موضع مظلم من الجب لا يلحقه نظر الناظرين فأفاد ذكر الغيابة هذا المعنى اذ كان يحتمل أن يلقى في موضع من الجب لا يحول بينه وبين الناظرين (المسئلة الثالثة) الالف واللام في الجب تقتضي المعهود السابق واختلفوا في ذلك الجب فقال قتادة هو بئر بيت المقدس وقال وهب هو بأرض الاردن وقال مقاتل هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وانما عينوا ذلك الجب للعلة التي ذكروها وهي قولهم يلتقطه بعض السيارة وذلك لان تلك البئر كانت معروفة وكانوا يردون عليها كثيرا وكان يعلم انه اذا طرح فيها يكون الى السلامة أقرب لان السيارة اذا جاز واوردوها واذا وردوها شاهدوا ذلك الانسان فيها واذا شاهدوه أخرجوه وذهبوا به فكان القاؤه فيها أبعد عن الهلاك (المسئلة الرابعة) الالتقاط تناول الشيء من الطريق ومنه اللقطة واللقيط وقرأ الحسن تلتقطه بالتاء على المعنى لان بعض السيارة أيضا سيارة والسيارة الجماعة الذين يسيرون في الطريق للسفر قال ابن عباس يريد المارة وقوله ان كنتم فاعلين فيه اشارة الى ان الاولى أن لا تفعلوا شيئا من ذلك وأما ان كان ولا بد فاقتصروا على هذا القدر ونظيره قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به يعني الاولى أن لا تفعلوا ذلك * قوله تعالى (قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وانا له لحافظون) اعلم ان هذا الكلام يدل على ان

النبوة والملك اولامور عظام و يتم نعمته عليك بالنبوة أو بان يصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة حيث جعلهم فى الدنيا انبياء وملوكا ونقلهم عنها الى الدرجات العلا فى الجنة كما أتمها على أبويك بالرسالة فتأمل والله الهادى (لقد كان فى يوسف واخوته) أى فى قصتهم والمراد بهم ههنا اما جميعهم فان لبنيامين أيضا حصة من القصة أو بنو علاته المعدودون فيما سلف اذ عليهم يدور رحاها (آيات) علامات عظيمة الشأن دالة على قدرة الله تعالى القاهرة وحكمته الباهرة (للسائلين) لكل من سأل عن قصتهم وعرفها أو الطالبين للآيات المعتبرين بها فانهم الواقفون عليها والمنتفعون بها [illegible] من عداهم ممن اندرج تحت قوله تعالى وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون فالمراد بالقصة نفس المقصوص أو على نبوته عليه السلام لمن سأله من المشركين أو اليهود عن قصتهم فاخبرهم بذلك على ما هى عليه من غير سماع من أحد ولا ممارسة شئ من الكتب فالمراد بها اقتصاصها وجمع الآيات حينئذ للاشعار بأن اقتصاص كل طائفة من القصة آية بينة كافية فى الدلالة على نبوته عليه السلام على نحو ما ذكر فى قوله تعالى مقام ابراهيم على تقدير كونه عطف بيان لقوله تعالى آيات بينات لا لما قيل من انه لتعدد جهة الاعجاز لفظا ومعنى وقرأ ابن كثير آية وفى بعض المصاحف عبرة وقيل انما قص الله تعالى على النبى صلى الله عليه وسلم خبر يوسف و بغى اخوته عليه لما رأى من بغى قومه عليه ليتأسى به (اذ قالوا ليوسف وأخوه) أى شقيقه بنيامين وانما لم يذكر

يعقوب عليه السلام كان يخافهم على يوسف ولولا ذلك والا لما قالوا هذا القول واعلم انهم لما احكموا العزم ذكروا هذا الكلام وأظهروا عند أبيهم انهم فى غاية المحبة ليوسف وفى غاية الشفقة عليه وكانت عادتهم أن يغيبوا عنه مدة الى الرعى فسألوه أن يرسله معهم وقد كان عليه السلام يحب تطييب قلب يوسف فاغتر بقولهم وارسله معهم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف لا تأمنا قرئ باظهار النونين و بالادغام باشمام و بغير اشمام والمعنى لم تخافنا عليه ونحن نحبه ونريد الخير به (المسئلة الثانية) فى يرتع و يلعب خمس قراآت (الاولى) قرأ ابن كثير بالنون و بكسر عين نرتع من الارتعاء و يلعب بالياء والارتعاء افتعال من رعيت يقال رعت الماشية الكلأ ترعاه رعيا اذ أكلته وقوله نرتع الارتعاء للابل والمواشى وقد أضافوه الى أنفسهم لان المعنى نرتع ابلنا ثم نسبوه الى أنفسهم لانهم هم السبب فى ذلك الرعى والحاصل انهم أضافوا الارتعاء والقيام بحفظ المال الى أنفسهم لانهم بالغون كاملون وأضافوا اللعب الى يوسف لصغره (القراءة الثانية) قرأ نافع كلاهما بالياء وكسر العين من يرتع أضاف الارتعاء الى يوسف بمعنى انه يباشر رعى الابل ليتدرب بذلك فمرة يرتع ومرة يلعب كفعل الصبيان (القراءة الثالثة) قرأ أبو عمرو وابن عامر نرتع بالنون وجزم العين ومثله نلعب قال ابن الاعرابى الرتع الاكل بشره وقيل انه الخصب وقيل المراد من اللعب الاقدام على المباحات وهذا يوصف به الانسان وأما نلعب فروى انه قيل لابى عمرو كيف يقولون نلعب وهم انبياء فقال لم يكونوا يومئذ أنبياء وأيضا جاز أن يكون المراد من اللعب الاقدام على المباحات لاجل انشراح الصدر كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لجابر فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك وأيضا كان لعبهم الاستباق والغرض منه تعلم المحاربة والمقاتلة مع الكفار والدليل عليه قولهم انا ذهبنا نستبق وانما سموه لعبا لانه فى صورته (القراءة الرابعة) قرأ أهل الكوفة كليهما بالياء وسكون العين ومعناه اسناد الرتع واللعب الى يوسف عليه السلام (القراءة الخامسة) يرتع بالياء ونلعب بالنون وهذا بعيد لانهم انما سألوا ارسال يوسف معهم ليفرح هو باللعب لا ليفرحوا باللعب والله أعلم * قوله تعالى (قال انى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون) اعلم انهم لما طلبوا منه أن يرسل يوسف معهم اعتذر اليهم بشيئين (احدهما) ان ذهابهم به ومفارقتهم اياه مما يحزنه لانه كان لا يصبر عنه ساعة (والثانى) خوفه عليه من الذئب اذا غفلوا عنه برعيهم أو لعبهم لقلة اهتمامهم به قيل انه رأى فى النوم ان الذئب شد على يوسف فكان يحذره فمن هذا ذكر ذلك وكأنه لقنهم الحجة وفى أمثالهم البلاء موكل بالمنطق وقيل الذئاب كانت فى أراضيهم كثيرة وقرئ الذئب بالهمز على الاصل و بالتخفيف وقيل اشتقاقه من تذاءبت الريح اذا أتت من كل جهة فلما ذكر يعقوب عليه السلام هذا الكلام أجابوا بقولهم لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذ

بأسره تلويحا بان مدار المحبة أخوته ليوسف من الطرفين الاترى الى أنهم كيف اكتفوا بأخوتهم ليوسف من البين من غير تعرض له حيث قالوا اقتلوا يوسف (أحب الى أبينا منا) توحيد الخبر مع تعدد المبتدأ لان أفعل من كذا لايفرق فيه بين الواحد ومافوقه ولابين المذكر والمؤنث نعم اذا عرف وجب الفرق واذا أضيف جاز الامران وفائدة لام الابتداء في يوسف تحقيق مضمون الجملة وتأكيده ﴿ ١٦٠ ﴾ (ونحن عصبة) أي والحال أنا جماعة قادرون على الحل والعقد أحقاء بالمحبة والعصبة والعصابة العشرة من الرجال فصاعدا سموا بذلك لان الامور تعصب بهم (ان أبانا) في ترجيحهما علينا في المحبة مع فضلنا عليهما وكونهما بمعزل من كفاية الامور بالصغر والقلة (لفي ضلال) أي ذهاب عن طريق التعديل اللائق وتنزيل كل منا منزلته (مبين) ظاهر الحال روى أنه كان أحب اليه لما يرى فيه من مخايل الخير وكانت اخوته يحسدونه فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة بحيث لم يصبر عنه فتضاعف حسدهم حتى حملهم على مباشرة ماقص عنهم (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا) من جملة ماحكى بعد قوله اذ قالوا وقد قاله بعض منهم مخاطبا للباقين بقضية الصيغة فكأنهم رضوا بذلك كما يروى أن القائل شمعون أو دان والباقون كانوا راضين الا من قال لاتقتلوا الخ فجعلوا كأنهم القائلون وأدرجوا تحت القول المسند الى الجميع أو قاله كل واحد منهم مخاطبا ﴿ غالب ﴾ للبقية وهو أدخل في مسارعتهم الى ذلك القول وتنكير أرضا واخلاؤها من الوصف للابهام أي أرضا منكورة مجهولة بعيدة من العمران ولذلك نصبت نصب الظروف المبهمة (يخل) بالجزم جواب للامر

لخاسرون وفيه سؤالات (السؤال الاول) مافائدة اللام في قوله لئن أكله الذئب (والجواب) من وجهين (الاول) ان كلمة ان تفيد كون الشرط مستلزما للجزاء أي ان وقعت هذه الواقعة فنحن خاسرون فهذه اللام دخلت لتأكيد هذا الاستلزام (الثاني) قال صاحب الكشاف هذه اللام تدل على اضمار القسم تقديره والله لئن أكله الذئب لكنا خاسرين (السؤال الثاني) مافائدة الواو في قوله ونحن عصبة (الجواب) انها واو الحال حلفوا لئن حصل ماخافه من خطف الذئب أخاهم من بينهم وحالهم أنهم عشرة رجال بمثلهم تعصب الامور وتكفى الخطوب انهم اذا لقوم خاسرون (السؤال الثالث) ماالمراد من قولهم انا اذا لخاسرون (الجواب فيه وجوه الاول) خاسرون أي هالكون ضعفا وعجزا ونظيره قوله تعالى لئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون أي لعاجزون (الثاني) انهم يكونون مستحقين لان يدعى عليهم بالخسارة والدمار وان يقال خسرهم الله تعالى ودمرهم حين أكل الذئب أخاهم وهم حاضرون (الثالث) المعنى انا ان لم نقدر على حفظ أخينا فقد هلكت مواشينا وخسرناها (الرابع) انهم كانوا قد أتعبوا أنفسهم في خدمة أبيهم واجتهدوا في القيام بمهماته وانما تحملوا تلك المتاعب ليفوزوا منه بالدعاء والثناء فقالوا لو قصرنا في هذه الخدمة فقد أحبطنا كل تلك الاعمال وخسرنا كل ماصدر منا من أنواع الخدمة (السؤال الرابع) ان يعقوب عليه السلام اعتذر بعذرين فلم أجابوا عن أحدهما دون الآخر (والجواب) ان حقدهم وغيظهم كان بسبب العذر الاول وهو شدة حبه له فلما سمعوا ذكر ذلك المعنى تغافلوا عنه * قوله تعالى (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون) اعلم انه لابد من الاضمار في هذه الآية في موضعين (الاول) ان تقدير الآية قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون فأذن له وأرسله معهم ثم يتصل به قوله فلما ذهبوا به (والثاني) انه لابد لقوله فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب من جواب اذ جواب لما غير مذكور وتقديره فجعلوه فيها وحذف الجواب في القرآن كثير بشرط أن يكون المذكور دليلا عليه وههنا كذلك قال السدى ان يوسف عليه السلام لما برز مع اخوته أظهروا له العداوة الشديدة وجعل هذا الاخ يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه ولا يرى فيهم رحيما فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يقول يايعقوب لو تعلم مايصنع بابنك فقال يهوذا أليس قد أعطيتموني موثقا ان لاتقتلوه فانطلقوا به الى الجب يدلونه فيه وهو متعلق بشفير البئر فنزعوا قميصه وكان غرضهم أن يلطخوه بالدم ويعرضوه على يعقوب فقال لهم ردوا على قميصي لاتوارى به فقالوا ادع الشمس والقمر والاحد عشر كوكبا لتؤنسك ثم دلوه في البئر حتى اذا بلغ نصفها ألقوه ليموت وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم آوى الى صخرة فقام بها وهو يبكي فنادوه فظن انه رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فقام يهوذا فمنعهم وكان يهوذا يأتيه بالطعام وروى انه عليه السلام لما ألقي في الجب قال ياشاهدا غير

غائب ويا قريبا غير بعيد ويا غالبا غير مغلوب اجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا وروى ان ابراهيم عليه السلام لما ألقى فى النار جرد عن ثيابه فجاءه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وألبسه اياه فدفعه ابراهيم الى اسحق واسحاق الى يعقوب فجعله يعقوب فى تميمة وعلقها فى عنق يوسف عليه السلام فجاء جبريل عليه السلام فأخرجه وألبسه اياه ثم قال تعالى وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله وأوحينا اليه قولان (أحدهما) ان المراد منه الوحى والنبوة والرسالة وهذا قول طائفة عظيمة من المحققين ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فى أنه عليه السلام هل كان فى ذلك الوقت بالغا أو كان صبيا قال بعضهم انه كان فى ذلك الوقت بالغا وكان سنه سبع عشرة سنة وقال آخرون انه كان صغيرا الا ان الله تعالى أكمل عقله وجعله صالحا لقبول الوحى والنبوة كما فى حق عيسى عليه السلام (والقول الثانى) ان المراد من هذا الوحى الالهام كما فى قوله تعالى وأوحينا الى أم موسى وقوله وأوحى ربك الى النحل (والاول) أولى لان الظاهر من الوحى ذلك فان قيل كيف يجعله نبيا فى ذلك الوقت وليس هناك أحد يبلغه الرسالة قلنا لا يمتنع أن يشرفه بالوحى والتنزيل ويأمره بتبليغ الرسالة بعد أوقات ويكون فائدة تقديم الوحى تأنيسه وتسكين نفسه وازالة الغم والوحشة عن قلبه (المسئلة الثانية) فى قوله وهم لا يشعرون قولان (الاول) المراد ان الله تعالى اوحى الى يوسف انك لتخبرن اخوتك بصنيعهم بعد هذا اليوم وهم لا يشعرون فى ذلك الوقت بانك يوسف والمقصود تقوية قلبه بانه سيحصل له الخلاص عن هذه المحنة ويصير مستوليا عليهم ويصيرون تحت قهره وقدرته وروى انهم حين دخلوا عليه لطلب الحنطة وعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال انه ليخبرنى هذا الجام انه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف فطرحتموه فى البئر وقلتم لابيكم أكله الذئب (والثانى) ان المراد انا أوحينا الى يوسف عليه السلام فى البئر بانك تنبئ اخوتك بهذه الاعمال وهم ما كانوا يشعرون بنزول الوحى عليه والفائدة فى اخفاء نزول ذلك الوحى عنهم انهم لو عرفوه فربما ازداد حسدهم فكانوا يقصدون قتله (المسئلة الثالثة) اذا حملنا قوله وهم لا يشعرون على التفسير الاول كان هذا أمرا من الله تعالى نحو يوسف فى ان يستر نفسه عن أبيه وأن لا يخبره بأحوال نفسه فلهذا السبب كتم أخبار نفسه عن أبيه طول تلك المدة مع علمه بوجد أبيه به خوفا من مخالفة أمر الله تعالى وصبر على تجرع تلك المرارة فكان الله سبحانه وتعالى قد قضى على يعقوب عليه السلام أن يوصل اليه تلك الغموم الشديدة والهموم العظيمة ليكثر رجوعه الى الله تعالى وينقطع تعلق فكره عن الدنيا فيصل الى درجة عالية فى العبودية لا يمكن الوصول اليها الا بتحمل المحن الشديدة والله أعلم * قوله تعالى (وجاؤا أباهم عشاء يبكون قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين وجاؤا على

أى يخلص (لكم وجه أبيكم) فيقبل عليكم بكليته ولا يلتفت عنكم الى غيركم ولا يساهمكم فى محبته أحد فذكر الوجه لتصوير معنى اقباله عليهم (وتكونوا) بالجزم عطفا على يخل أو بالنصب على اضمار أن أو الواو بمعنى مع مثل قوله وتكتموا الحق وايثار الخطاب فى لكم وما بعده للمبالغة فى حملهم على القبول فان اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامه بتحصيل منافعه أتم وأكمل (من بعده) من بعد ﴿ ١٦١ ﴾ يوسف أى من بعد الفراغ من أمره أو قتله أو طرحه (قوما صالحين) تائبين الى الله تعالى عما جنيتم أو صالحين مع أبيكم باصلاح ما بينكم وبينه بعذر تمهدونه أو صالحين فى أمور دنياكم بانتظامها بعده بخلو وجه أبيكم (قال قائل منهم) هو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأيا وهو الذى قال فلن أبرح الارض الخ وقيل روبيل وهو استئناف مبنى على سؤال من سأل وقال أاتفقوا على ما عرض عليهم من خصلتى التضييع أم خالفهم فى ذلك أحد فقيل قال قائل منهم (لا تقتلوا يوسف) أظهره فى مقام الاضمار استجلابا لشفقتهم عليه او استعظاما لقتله وهو هو فانه يروى أنه قال لهم القتل عظيم ولم يصرح بنهيهم عن الخصلة الاخرى وأحاله على أولوية ما عرضه عليهم بقوله (وألقوه فى غيابة الجب) أى فى قعره وغوره سمى بها لغيبته عن عين الناظر والجب البئر التى لم تطو بعد لانها أرض جبت جبا ﴿ ٢١ ﴾ خا من غير أن يزاد على ذلك شئ وقرأ نافع فى غيابات الجب فى الموضعين كأن لتلك الجب غيابات أو أراد بالجب الجنس أى فى بعض غيابات الجب وقرئ غيابات وغيبة (يلتقطه) يأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف فان الالتقاط أخذ شئ مشرف على الضياع (بعض السيارة) أى بعض طائفة تسير فى الارض واللام فى السيارة

كما في الجب وما فيهما وفي البعض من الابهام لتحقيق ما يتوخاه من ترويج كلامه بموافقته لغرضهم الذي هو تنائي يوسف عنهم بحيث لا يدري أثره ولا يروى خبره وقرئ تلتقطه على التأنيث لان بعض السيارة سيارة كقوله * كما شرقت صدره القناة من الدم * ومنه قطعت بعض أصابعه (ان كنتم فاعلين) بمشورتي لم يبت القول عليهم بل انما عرض عليهم ذلك تأليفا لقلبهم وتوجيها لهم الى رأيه وحذرا من نسبتهم له الى التحكم والافتيات أو ان كنتم فاعلين ما أزمعتم عليه من ازالته من عند أبيه لا محالة ولما كان هذا مظنة لسؤال سائل يقول فما فعلوا بعد ذلك هل قبلوا ذلك منه أولا أجيب بطريق الاستئناف على وجه أدرج في تضاعيفه قبولهم له بما سيجيء من قوله وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب فقيل (قالوا يا أبانا) خاطبوه بذلك تحريكا لسلسلة النسب بينه وبينهم وتذكيرا لرابطة الاخوة بينهم وبين يوسف عليه الصلاة والسلام ليتسببوا بذلك الى استنزاله عليه السلام عن رأيه في حفظه منهم لما أحس منهم بأمارات الحسد والبغي فكأنهم قالوا (مالك) أي أي شيء لك (لا تأمنا) أي لا تجعلنا أمناء (على يوسف) مع أنك أبونا ونحن بنوك وهو أخونا (وانا له لناصحون) مريدون له الخير ومشفقون عليه ليس فينا ما يخل بالنصيحة والمقة قط والقراءة المشهورة بالادغام والاشمام وعن نافع رضي الله عنه ﴿ باجمال ﴾ ترك الاشمام ومن الشواذ ترك الادغام (أرسله معنا غدا) الى الصحراء (يرتع) أي يتسع في أكل الفواكه ونحوها فان الرتع هو الاتساع في الملاذ (ويلعب) بالاستباق والتناضل ونظائرهما مما يعد من باب التأهب للغزو وانما عبروا عن ذلك باللعب لكونه على هيئته تحقيقا لما راموه من استصحاب يوسف عليه السلام بتصويرهم له

قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ اعلم انهم لما طرحوا يوسف في الجب رجعوا الى أبيهم وقت العشاء باكين ورواه ابن جني عشا بضم العين والقصر وقال عشوا من البكاء فعند ذلك فزع يعقوب وقال هل أصابكم في غنمكم شيء قالوا لا قال فما فعل يوسف قالوا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب فبكى وصاح وقال أين القميص فطرحه على وجهه حتى تخضب وجهه من دم القميص وروى أن امرأة تحاكمت الى شريح فبكت فقال الشعبي يا أبا أمية ما تراها تبكي قال قد جاء اخوة يوسف يبكون وهم ظلمة كذبة لا ينبغي للانسان أن يقضي الا بالحق واختلفوا في معنى الاستباق قال الزجاج يسابق بعضهم بعضا في الرمي ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لا سبق الا في خف أو نصل أو حافر يعني بالنصل الرمي وأصل السبق في الرمي بالسهم هو أن يرمي اثنان ليتبين أيهما يكون أسبق سهما وأبعد غلوة ثم يوصف المتراميان بذلك فيقال استبقا وتسابقا اذا فعلا ذلك ليتبين أيهما أسبق سهما ويدل على صحة هذا التفسير ما روي أن في قراءة عبد الله انا ذهبنا ننتضل (والقول الثاني) في تفسير الاستباق ما قاله السدي ومقاتل نستبق نشتد ونعدو ليتبين أينا أسرع عدوا فان قيل كيف جاز أن يستبقوا وهم رجال بالغون وهذا من فعل الصبيان قلنا الاستباق منهم كان مثل الاستباق في الخيل وكانوا يجربون بذلك أنفسهم ويدربونها على العدو ولانه كالآلة لهم في محاربة العدو ومدافعة الذئب اذا اختلس الشاة وقوله فأكله الذئب قيل أكل الذئب يوسف وقيل عرضوا وأرادوا أكل الذئب المتاع والوجه هو الاول ثم قالوا وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ليس المعنى أن يعقوب عليه السلام لا يصدق من يعلم أنه صادق بل المعنى لو كنا عندك من أهل الثقة والصدق لاتهمتنا في يوسف لشدة محبتك اياه ولظننت أنا قد كذبنا والحاصل انا وان كنا صادقين لكنك لا تصدقنا لانك تتهمنا وقيل المعنى انا وان كنا صادقين فانك لا تصدقنا لانه لم تظهر عندك امارة تدل على صدقنا (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على ان الايمان في أصل اللغة عبارة عن التصديق لان المراد من قوله وما أنت بمؤمن لنا أي بمصدق واذا ثبت أن الامر كذلك في أصل اللغة وجب أن يبقى في عرف الشرع كذلك وقد سبق الاستقصاء فيه في أول سورة البقرة في تفسير قوله الذين يؤمنون بالغيب ثم قال تعالى وجاؤا على قميصه بدم كذب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انما جاؤا بهذا القميص الملطخ بالدم ليوهم كونهم صادقين في مقالتهم قيل ذبحوا جديا ولطخوا ذلك القميص بدمه قال القاضي ولعل غرضهم في نزع قميصه عند القائه في غيابة الجب أن يفعلوا هذا توكيدا لصدقهم لانه يبعد أن يفعلوا ذلك طمعا في نفس القميص ولا بد في المعصية من أن يقرن بها الخذلان فلو خرقوه مع لطخه بالدم لكان الايهام أقوى فلما شاهد يعقوب القميص صحيحا علم كذبهم (المسئلة الثانية) قوله وجاؤا على قميصه أي وجاؤا فوق قميصه بدم كما يقال جاؤا على جمالهم

بصورة مما يلائم حاله عليه السلام وقرئ نرتع ونلعب بالنون وقرأ ابن كثير نرتع من ارتعى ونافع بالكسر والياء فيه وفى يلعب وقرئ يرتع من أرتع ماشيته و يرتع بكسر العين و يلعب بالرفع على الابتداء (وانا له لحافظون) من أن يناله مكروه أكدوا مقالتهم بأصناف التأكيد من ايراد الجملة اسمية وتحليتها بان واللام واسناد الحفظ الى كلهم وتقديم له على الخبر احتيالا فى تحصيل مقصدهم (قال) استئناف مبنى على سؤال من يقول فماذا قال يعقوب عليه السلام فقيل قال (انى ليحزننى) اللام للابتداء كما فى قوله عز وجل ان ربك ليحكم بينهم (أن تذهبوا به) لشدة مفارقته على وقلة صبرى عنه (و) مع ذلك (أخاف أن يأكله الذئب) لان الارض كانت مذأبة والحزن ألم القلب بفوت المحبوب والخوف انزعاج النفس لنزول المكروه ولذلك أسند الاول الى الذهاب به المفوت لاستمرار مصاحبته ومواصلته ليوسف والثانى الى ما يتوقع نزوله من أكل الذئب وقيل رأى فى المنام أنه قد شد عليه عليه السلام ذئب وكان يحذره فقال ذلك وقد لقنهم العلة ان البلاء موكل بالمنطق وقرأ ابن كثير ونافع فى رواية البزى بالهمز على الاصل وأبو عمرو به وقفا وعاصم وابن عامر وحمزة درجا وقيل اشتقاقه من تذاءبت الريح اذا هاجت من كل جانب وقال الاصمعى الامر بالعكس وهو اظهر لفظا ومعنى (وأنتم عنه غافلون) لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم بحفظه (قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة) أى والحال أنا جماعة كثيرة جديرة بأن يعصب بنا الامور العظام وتكفى الخطوب بآرائنا وتدبيراتنا واللام الداخلة على الشرط موطئة للقسم وقوله (انا اذا لخاسرون) جواب مجزئ عن الجزاء أى لهالكون ضعفا وخورا وعجزا أو مستحقون للهلاك اذ لا غناء

باجماع (المسئلة الثالثة) قال أصحاب العربية وهم الفراء والمبرد والزجاج وابن الانبارى بدم كذب أى مكذوب فيه الا أنه وصف بالمصدر على تقدير دم ذى كذب ولكنه جعل نفسه كذبا للمبالغة قالوا والمفعول والفاعل يسميان بالمصدر كما يقال ماء سكب أى مسكوب ودرهم ضرب الامير وثوب نسج اليمن والفاعل كقوله ان أصبح ماؤكم غورا ورجل عدل وصوم ونساء نوح ولما سميا بالمصدر سمى المصدر أيضا بهما فقالوا للعقل المعقول وللجلد المجلود ومنه قوله تعالى بأيكم المفتون وقوله اذا مزقتم كل ممزق قال الشعبى قصة يوسف كلها فى قميصه وذلك لانهم لما القوه فى الجب نزعوا قميصه ولطخوه بالدم وعرضوه على أبيه ولما شهد الشاهد قال ان كان قميصه قد من قبل ولما أتى بقميصه الى يعقوب عليه السلام فالقى على وجهه ارتد بصيرا ثم ذكر تعالى أن اخوة يوسف لما ذكروا ذلك الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم قال يعقوب عليه السلام بل سولت لكم أنفسكم أمرا قال ابن عباس معناه بل زينت لكم أنفسكم أمرا والتسويل تقدير معنى فى النفس مع الطمع فى اتمامه قال الازهرى كأن التسويل تفعيل من سؤل الانسان وهو أمنيته التى يطلبها فتزين لطالبها الباطل وغيره وأصله مهموز غير ان العرب استثقلوا فيه الهمز وقال صاحب الكشاف سولت سهلت من السول وهو الاسترخاء اذا عرفت هذا فنقول قوله بل رد لقولهم أكله الذئب كأنه قال ليس كما تقولون بل سولت لكم أنفسكم فى شأنه أمرا أى زينت لكم أنفسكم أمرا غير ما تصفون واختلفوا فى السبب الذى به عرف كونهم كاذبين على وجوه (الاول) أنه عرف ذلك بسبب أنه كان يعرف الحسد الشديد فى قلوبهم (والثانى) أنه كان عالما بأنه حى لانه عليه الصلاة والسلام قال ليوسف وكذلك يجتبيك ربك وذلك دليل قاطع على انهم كاذبون فى ذلك (القول الثالث) قال سعيد بن جبير لما جاؤا على قميصه بدم كذب وما كان متخرقا قال كذبتم لو أكله الذئب لخرق قميصه وعن السدى انه قال ان يعقوب عليه السلام قال ان هذا الذئب كان رحيما فكيف أكل لحمه ولم يخرق قميصه وقيل انه عليه السلام لما قال ذلك قال بعضهم بل قتله اللصوص فقال كيف قتلوه وتركوا قميصه وهم الى قميصه أحوج منه الى قتله فلما اختلفت أقوالهم عرف بسبب ذلك كذبهم ثم قال يعقوب عليه السلام فصبر جميل وفيه مسائل (المسئلة الاولى) منهم من قال انه مرفوع بالابتداء وخبره محذوف والتقدير فصبر جميل أولى من الجزع ومنهم من اضمر المبتدأ قال الخليل الذى أفعله صبر جميل وقال قطرب معناه فصبرى صبر جميل وقال الفراء فهو صبر جميل (المسئلة الثانية) كان يعقوب عليه السلام قد سقط حاجباه وكان يرفعهما بخرقة فقيل له ما هذا فقال طول الزمان وكثرة الاحزان فأوحى الله تعالى اليه يا يعقوب أتشكونى فقال يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لى وروى عن عائشة رضى الله عنها فى قصة الافك انها قالت والله لئن حلفت لا تصدقونى وان اعتذرت لا تعذرونى فمثلى ومثلكم كمثل يعقوب وولده فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون

عندنا ولاجدوى فى حياتنا أومستحقون لأن يدعى علينا بالخسار والدمار و يقال خسرهم الله تعالى ودمرهم حيث أكل الذئب بعضهم وهم حضور وقيل ان لم نقدر على حفظه وهو أعز شئ عندنا فقد هلكت مواشينا اذن وخسرناها وانما اقتصروا على جواب خوف يعقوب عليه السلام من أكل الذئب لانه السبب القوى فى المنع دون الحزن لقصر مدته بناء على أنهم يأتون به عن قريب (فلما ذهبوا به وأجمعوا) أى أزمعوا (أن يجعلوه) مفعول لاجمعوا يقال أجمع الامر ومنه فأجمعوا أمركم ولايستعمل ذلك الافى الافعال التى قويت الدواعى الى فعلها (فى غيابة الجب) قيل هى بئر بأرض الاردن وقيل بين مصر ومدين وقيل على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام بكنعان التى هى من نواحى الاردن كما أن مدين كذلك وأما مايقال من أنها بئر بيت المقدس فيرده التعليل بالتقاط السيارة ومجيئهم أباهم عشاء ذلك اليوم فان بين منزل يعقوب عليه السلام وبين بيت المقدس مراحل وجواب لما محذوف ايذانا بظهوره واشعارا بأن تفصيله ممالايحويه فلك العباره ومجمله فعلوا به من الاذية مافعلوا يروى أنهم لما برزوا الى الصحراء أخذوا يؤذونه و يضربونه حتى كادوا يقتلونه فجعل يصيح ويستغيث فقال يهوذا أما عاهدتمونى أن لاتقتلوه فأتوا به الى البئر فتعلق بثيابهم فنزعوها من يديه فدلوه فيها فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه لما عزموا عليه من تلطيخه بالدم احتيالا لابيه فقال يااخوتاه ردوا على قميصى لأتوارى به فقالوا ادع الشمس والقمر والاحد عشر كوكبا تؤنسك فدلوه فيها فلما بلغ نصفها ألقوه ليموت وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم أوى الى صخرة فقام عليها وهو يبكى فنادوه

فأنزل الله عزوجل فى عذرها ما أنزل (المسئلة الثالثة) عن الحسن أنه سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن قوله فصبر جميل فقال صبر لاشكوى فيه فمن بث لم يصبر و يدل عليه من القرآن قوله تعالى انما أشكو بثى وحزنى الى الله وقال مجاهد فصبر جميل أى من غير جزع وقال الثورى من الصبر أن لاتحدث بوجعك ولا بمصيبتك ولاتزكى نفسك وههنا بحث وهو ان الصبر على قضاء الله تعالى واجب فأما الصبر على ظلم الظالمين ومكر الماكرين فغير واجب بل الواجب ازالته لاسيما فى الضرر العائد الى الغير وههنا ان اخوة يوسف لما ظهر كذبهم وخيانتهم فلم صبر يعقوب على ذلك ولم لم يبالغ فى التفتيش والبحث سعيا منه فى تخليص يوسف عليه السلام عن البلية والشدة ان كان فى الاحياء وفى اقامة القصاص ان صح أنهم قتلوه فثبت ان الصبر فى هذا المقام مذموم ومما يقوى هذا السؤال انه عليه الصلاة والسلام كان عالما بأنه حى سليم لانه قال له وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث والظاهر أنه انما قال هذا الكلام من الوحى واذا كان عالما بأنه حى سليم فكان من الواجب أن يسعى فى طلبه وأيضا ان يعقوب عليه السلام كان رجلا عظيم القدر فى نفسه وكان من بيت عظيم شريف وأهل العالم كانوا يعرفونه و يعتقدون فيه ويعظمونه فلو بالغ فى الطلب والتفحص لظهر ذلك واشتهر ولزال وجه التلبيس فما السبب فى أنه عليه السلام مع شدة رغبته فى حضور يوسف عليه السلام ونهاية حبه له لم يطلبه مع ان طلبه كان من الواجبات فثبت ان هذا الصبر فى هذا المقام مذموم عقلا وشرعا (والجواب) عنه أن نقول لاجواب عنه الا أن يقال انه سبحانه وتعالى منعه عن الطلب تشديدا للمحنة عليه وتغليظا للامر عليه وأيضا لعله عرف بقرائن الاحوال ان أولاده أقوياء وأنهم لايمكنونه من الطلب والتفحص وأنه لو بالغ فى البحث فربما أقدموا على ايذائه وقتله وأيضا لعله عليه السلام علم أن الله تعالى يصون يوسف عن البلاء والمحنة وان أمره سيعظم بالآخره ثم لم يرد هتك أستار سرائر أولاده وما رضى بالقائهم فى ألسنة الناس وذلك لان أحد الولدين اذا ظلم الآخر وقع الاب فى العذاب الشديد لانه ان لم ينتقم يحترق قلبه على الولد المظلوم وان انتقم فانه يحترق قلبه على الولد الذى ينتقم منه فلما وقع يعقوب عليه السلام فى هذه البلية رأى ان الاصوب الصبر والسكوت وتفويض الامر الى الله تعالى بالكلية (المسئلة الرابعة) قوله فصبر جميل يدل على أن الصبر على قسمين منه ما قد يكون جميلا وما قد يكون غير جميل فالصبر الجميل هو أن يعرف أن منزل ذلك البلاء هو الله تعالى ثم يعلم أن الله سبحانه مالك الملك ولا اعتراض على المالك فى أن يتصرف فى ملك نفسه فيصير استغراق قلبه فى هذا المقام مانعا له من اظهار الشكاية (والوجه الثانى) أنه يعلم ان منزل هذا البلاء حكيم لايجهل وعالم لايغفل عليم لاينسى رحيم لايطغى واذا كان كذلك فكان كل ما صدر عنه حكمة وصوابا فعند ذلك يسكت ولايعترض (والوجه الثالث) أنه ينكشف له أن هذا البلاء من الحق فاستغراقه فى شهود نور المبلى يمنعه من الاشتغال

﴿ بالشكاية ﴾

بالشكاية عن البلاء ولذلك قيل المحبة التامة لاتزداد بالوفاء ولاتنقص بالجفاء لانها لوازدادت بالوفاء لكان المحبوب هو النصيب والحظ وموصل النصيب لايكون محبوبا بالذات بل بالغرض فهذا هو الصبر الجميل أما اذا كان الصبر لا لاجل الرضا بقضاء الحق سبحانه بل كان لسائر الاغراض فذلك الصبر لايكون جميلا والضابط فى جميع الافعال والاقوال والاعتقادات ان كل ما كان لطلب عبودية الله تعالى كان حسنا والا فلا وههنا يظهر صدق ماروى فى الاثر استفت قلبك ولو أفتاك المفتون فليتأمل الرجل تأملا شافيا ان الذى أتى به هل الحامل والباعث عليه طلب العبودية أم لا فان أهل العلم لو أفتونا بالشئ مع أنه لايكون فى نفسه كذلك لم يظهر منه نفع البتة ولما ذكر يعقوب قوله فصبر جميل قال والله المستعان على ماتصفون والمعنى أن اقدامه على الصبر لايمكن الا بمعونة الله تعالى لان الدواعى النفسانية تدعوه الى اظهار الجزع وهى قوية والدواعى الروحانية تدعوه الى الصبر والرضا فكأنه وقعت المحاربة بين الصنفين فما لم تحصل اعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة فقوله فصبر جميل يجرى مجرى قوله اياك نعبد وقوله والله المستعان على ماتصفون يجرى مجرى قوله واياك نستعين * قوله تعالى (وجاءت سيارة فارسلوا واردهم فادلى دلوه قال يابشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين) اعلم أنه تعالى بين كيف سهل السبيل فى خلاص يوسف من تلك المحنة فقال وجاءت سيارة يعنى رفقة تسير للسفر قال ابن عباس جاءت سيارة أى قوم يسيرون من مدين الى مصر فاخطؤا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير طريق فهبطوا على أرض فيها جب يوسف عليه السلام وكان الجب فى قفرة بعيدة عن العمران لم يكن الا للرعاة وقيل كان ماؤه ملحا فعذب حين ألقى فيه يوسف عليه السلام فارسلوا رجلا يقال له مالك بن ذعر الخزاعى ليطلب لهم الماء والوارد الذى يرد الماء ليستقى للقوم فادلى دلوه ونقل الواحدى عن عامة أهل اللغة أنه يقال أدلى دلوه اذا أرسلها فى البئر ودلاها اذا نزعها من البئر يقال أدلى يدلى ادلاء اذا أرسل ودلا يدلو دلوا اذا جذب وأخرج والدلو معروف والجمع دلاء * قال يابشرى هذا غلام وههنا محذوف والتقدير فظهر يوسف قال المفسرون لما أدلى الوارد دلوه وكان يوسف فى ناحية من قعر البئر تعلق بالحبل فنظر الوارد اليه ورأى حسنه نادى فقال يا بشرى وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ عاصم وحمزة والكسائى بشرى بغير الالف و بسكون الياء والباقون يابشراى بالالف وفتح الياء على الاضافة (المسئلة الثانية) فى قوله يابشرى قولان (الاول) انها كلمة تذكر عند البشارة ونظيره قولهم ياعجبا من كذا وقوله ياأسفا على يوسف وعلى هذا القول ففى تفسير النداء وجهان (الاول) قال الزجاج معنى النداء فى هذه الاشياء التى لاتجيب تنبيه المخاطبين وتوكيد القصة فاذا قلت ياعجباه فكأنك قلت اعجبوا (الثانى) قال أبو على كأنه يقول ياأيتها البشرى هذا الوقت وقتك ولو كنت ممن يخاطب لخوطبت

واظن أنها رجة أدركتهم فاجابهم فرادوا أن يرضخوه فمنعهم يهوذا وكان يأتيه بالطعام كل يوم ويروى ان ابراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار وجرد عن ثيابه أتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فالبسه اياه فدفعه ابراهيم الى اسحق واسحق الى يعقوب فجعله يعقوب فى تميمة وعلقها فى عنق يوسف فجاءه جبريل عليه السلام فأخرجه من التميمة فالبسه اياه (وأوحينا اليه) عندذلك تبشيرا له بما يؤول اليه أمره وازالة لوحشته وايناساله وقيل كان ذلك قبل ادراكه كما أوحى الى يحيى وعيسى وقيل كان اذذاك مدركا قال الحسن رضى الله عنه كان له سبع عشرة سنة (لتنبئنهم بأمرهم هذا) أى لتتخلصن مما أنت فيه من سوء الحال وضيق المجال ولتحدثن اخوتك بما فعلوا بك (وهم لايشعرون) بأنك يوسف لتباين حاليك حالك هذا وحالك يومئذ لعلو شأنك وكبرياء سلطانك وبعد حالك عن أوهامهم وقيل لبعد العهد المبدل للهيآت المغير للاشكال والاول أدخل فى التسلية روى أنهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال انه ليخبرنى هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف وكان يدنيه دونكم وأنكم انطلقتم به وألقيتموه فى غيابة الجب وقلتم لابيكم أكله الذئب وبعتموه بثمن بخس و يجوز أن يتعلق وهم لايشعرون بالايحاء على معنى أنا آنسناه بالوحى وازلنا عن قلبه الوحشة التى اورثوه وهم لايشعرون بذلك ويحسبون انه مرهق ومستوحش لاانيس له وقرئ لننبئنهم بالنون على انه وعيد لهم فقوله تعالى وهم لايشعرون متعلق بأوحينا لاغير (وجاؤا أباهم عشاء) آخر النهار وقرئ عشيا وهو تصغير عشى وعشى بالضم والقصر جمع اعشى

اى عشوا من البكاء (يبكون) متباكين روى انه لما سمع يعقوب عليه السلام بكاهم فزع وقال مالكم يا بنى واين يوسف (قالوا يا ابانا انا ذهبنا نستبق) اى متسابقين فى العدو والرمى وقد يشترك الافتعال والتفاعل كالانتضال والتناضل ونظائرهما (وتركنا يوسف عند متاعنا) اى ما نتمتع به من الثياب والازواد وغيرهما (فاكله الذئب) عقيب ذلك من غير مضى زمان يعتاد فيه التفقد والتعهد وحيث لا يكاد يطرح المتاع عادة الا فى مقام يؤمن فيه الغوائل لم يبعد تركه عليه السلام عنده من باب الغفلة وترك الحفظ الملتزم لاسيما اذا لم يبرحوه ولم يغيبوا عنه فكأنهم قالوا انا لم نقصر فى محافظته ولم نغفل عن مراقبته بل تركناه فى مأمننا ومجمعنا بمرأى منا لان ميدان السباق لا يكون عادة الا بحيث يتراءى غايتاه وما فارقناه الا ساعة يسيرة بيننا وبينه مسافة قصيرة فكان ما كان (وما انت بمؤمن لنا) بمصدق لنا فى هذه المقالة الدالة على عدم تقصيرنا فى امره (ولو كنا) عندك وفى اعتقادك (صادقين) موصوفين بالصدق والثقة لشدة محبتك ليوسف فكيف وانت سىء الظن بنا غير واثق بقولنا وكلمة لو فى امثال هذه المواقع لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق من الحكم الموجب او المنفى على كل حال مفروض من الاحوال المقارنة له على الاجمال بادخالها على ابعدها منه واشدها منافاة له ليظهر بثبوته او انتفائه معه ثبوته او انتفاؤه مع غيره من الاحوال بطريق الاولوية لما ان الشىء متى تحقق مع المنافى القوى فلأن يتحقق مع غيره اولى ولذلك لا يذكر معه شىء من سائر الاحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الاحوال المغايرة لها عند تعددها وقد مر تفصيله

الآن ولامرت بالحضور واعلم أن سبب البشارة هو أنهم وجدوا غلاما فى غاية الحسن وقالوا نبيعه بثمن عظيم ويصير ذلك سببا لحصول الغنى (والقول الثانى) وهو الذى ذكره السدى ان الذى نادى صاحبه وكان اسمه بشرى فقال يا بشرى كما تقول يا زيد وعن الاعمش أنه قال دعا امرأة اسمها بشرى يا بشرى قال أبو على الفارسى ان جعلنا البشرى اسما للبشارة وهو الوجه جاز أن يكون فى محل الرفع كما قيل يا رجل لاختصاصه بالنداء وجاز أن يكون فى موضع النصب على تقدير أنه جعل ذلك النداء شائعا فى جنس البشرى ولم يخص كما تقول يا رجلا ويا حسرة على العباد* وأما قوله تعالى وأسروه بضاعة ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) الضمير فى وأسروه الى من يعود فيه قولان (الاول) انه عائد الى الوارد وأصحابه أخفوا من الرفقة أنهم وجدوه فى الجب وذلك لانهم قالوا ان قلنا للسيارة التقطناه شاركونا فيه وان قلنا اشتريناه سألونا الشركة فالاصوب أن نقول ان أهل الماء جعلوه بضاعة عندنا على أن نبيعه لهم بمصر (والثانى) نقل عن ابن عباس أنه قال وأسروه يعنى أخوة يوسف أسروا شأنه والمعنى انهم أخفوا كونه أخالهم بل قالوا انه عبدلنا أبق منا وتابعهم على ذلك يوسف لانهم توعدوه بالقتل بلسان العبرانية والاول أولى لان قوله وأسروه بضاعة يدل على ان المراد انهم أسروه حال ما حكموا بانه بضاعة وذلك انما يليق بالوارد لا باخوة يوسف (المسئلة الثانية) البضاعة القطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت اللحم اذا قطعته قال الزجاج وبضاعة منصوبة على الحال كأنه قال وأسروه حال ما جعلوه بضاعة* ثم قال تعالى والله عليم بما يعملون والمراد منه أن يوسف عليه السلام لما رأى الكواكب والشمس والقمر فى النوم سجدت له وذكر ذلك حسده اخوته عليه واحتالوا فى ابطال ذلك الامر عليه فأوقعوه فى البلاء الشديد حتى لا يتيسر له ذلك المقصود وأنه تعالى جعل وقوعه فى ذلك البلاء سببا الى وصوله الى مصر ثم تمادت وقائعه وتتابع الامر الى أن صار ملك مصر وحصل ذلك الذى رآه فى النوم فكان العمل الذى عمله الاعداء فى دفعه عن ذلك المطلوب صيره الله تعالى سببا لحصول ذلك المطلوب فلهذا المعنى قال والله عليم بما يعملون* ثم قال تعالى وشروه بثمن بخس دراهم معدودة اما قوله وشروه ففيه قولان (الاول) المراد من الشراء هو البيع وعلى هذا التقدير ففى ذلك البائع قولان (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما ان اخوة يوسف لما طرحوا يوسف فى الجب ورجعوا عادوا بعد ثلاث يتعرفون خبره فلما لم يروه فى الجب ورأوا آثار السيارة طلبوهم فلما رأوا يوسف قالوا هذا عبدنا أبق منا فقالوا لهم فبيعوه منا فباعوه منهم والمراد من قوله وشروه أى باعوه يقال شريت الشىء اذا بعته وانما وجب حمل هذا الشراء على البيع لان الضمير فى قوله وشروه وفى قوله وكانوا فيه من الزاهدين عائد الى شىء واحد لكن الضمير فى قوله وكانوا فيه من الزاهدين عائد الى الاخوة فكذا فى قوله وشروه يجب أن يكون عائدا الى الاخوة واذا كان كذلك فهم باعوه فوجب حمل هذا الشراء على البيع (والقول الثانى) أن بائع

يوسف هم الذين استخرجوه من البئر وقال محمد بن اسحق ربك أعلم أاخوته باعوه أم السيارة وههنا قول آخر وهو أنه يحتمل أن يقال المراد من الشراء نفس الشراء والمعنى أن القوم اشتروه وكانوا فيه من الزاهدين لانهم علموا بقرائن الحال أن اخوة يوسف كذابون فى قولهم انه عبد ناور بما عرفوا أيضا أنه ولد يعقوب فكرهوا شراءه خوفا من الله تعالى ومن ظهور تلك الواقعة الا أنهم مع ذلك اشتروه بالآخرة لانهم اشتروه بثمن قليل مع انهم أظهروا من أنفسهم كونهم فيه من الزاهدين وغرضهم أن يتوصلو بذلك الى تقليل الثمن ويحتمل أيضا ان يقال ان الاخوة لما قالوا انه عبدنا أبق صار المشترى عديم الرغبة فيه قال مجاهد وكانوا يقولون استوثقوا منه لئلا يأبق * ثم اعلم أنه تعالى وصف ذلك الثمن بصفات ثلاث (الصفة الاولى) كونه بخسا قال ابن عباس يريد حراما لان ثمن الحر حرام وقال كل بخس فى كتاب الله نقصان الا هذا فانه حرام قال الواحدى سموا الحرام بخسا لانه ناقص البركة وقال قتادة بخس ظلم والظلم نقصان يقال ظلمه أى نقصه وقال عكرمة والشعبى قليل وقيل ناقص عن القيمة نقصانا ظاهرا وقيل كانت الدراهم زيوفا ناقصة العيار قال الواحدى رحمه الله تعالى وعلى الاقوال كلها فالبخس مصدر وضع موضع الاسم والمعنى بثمن مبخوس (الصفة الثانية) قوله دراهم معدودة قيل تعد عدا ولا توزن لانهم كانوا لا يزنون الا اذا بلغ أوقية وهى الاربعون ويعدون مادونها فقيل للقليل معدود لان الكثيرة يمتنع من عدها لكثرتها وعن ابن عباس كانت عشرين درهما وعن السدى اثنين وعشرين درهما قالوا والاخوة كانوا أحد عشر فكل واحد منهم أخذ درهمين الا يهوذا لم يأخذ شيئا (الصفة الثالثة) قوله وكانوا فيه من الزاهدين ومعنى الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان فى كذا اذا لم يرغب فيه وأصله القلة يقال رجل زهيد اذا كان قليل الطمع وفيه وجوه (احدها) أن اخوة يوسف باعوه لانهم كانوا فيه من الزاهدين (والثانى) أن السيارة الذين باعوه كانوا فيه من الزاهدين لانهم التقطوه والملتقط للشئ متهاون به لا يبالى بأى شئ يبيعه او لانهم خافوا أن يظهر المستحق فينزعه من يدهم فلا جرم باعوه باوكس الاثمان (والثالث) ان الذين اشتروه كانوا فيه من الزاهدين وقد سبق توجيه هذه الاقوال فيما تقدم والضمير فى قوله فيه يحتمل أن يكون عائدا الى يوسف عليه السلام ويحتمل أن يكون عائدا الى الثمن البخس والله أعلم * قوله تعالى (وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته اكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكنا ليوسف فى الارض ولنعلمه من تأويل الاحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه ثبت فى الاخبار ان الذى اشتراه اما من الاخوة أو من الواردين على الماء ذهب به الى مصر وباعه هناك وقيل ان الذى اشتراه قطفير أو اطفير وهو العزيز الذى كان يلى خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق وقد آمن بيوسف ومات فى حياة يوسف عليه السلام فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه يوسف الى

فى سورة البقرة عند قوله تعالى أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون وفى سورة الاعراف عند قوله تعالى أولو كنا كارهين (وجاؤا على قميصه) محله النصب على الظرفية من قوله (بدم) أى جاؤا فوق قميصه بدم كما تقول جاء على جماله بأحماله أو على الحالية منه والخلاف فى تقدم الحال على المجرور فيما اذا لم يكن الحال ظرفا (كذب) مصدر وصف به الدم مبالغة أو مصدر بمعنى المفعول أى مكذوب فيه أو بمعنى ذى كذب اى ملابس لكذب وقرئ كذبا على أنه حال من الضمير أى جاؤا كاذبين أو مفعول له وقرأت عائشة رضى الله عنها بغير المعجمة أى كدر وقيل طرى قال ابن جنى أصله من الكذب وهو الفوق البياض الذى يخرج على اظفار الاحداث كأنه دم قد أثر فى قميصه روى أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها وزل عنهم أن يمزقوه فلما سمع يعقوب بخبر يوسف عليهما السلام صاح بأعلى صوته وقال أين القميص فأخذه وألقاه علا وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه وقيل كان فى قميص يوسف عليه السلام ثلاث آيات كان دليلا ليعقوب على كذبهم وألقاه على وجهه فارتد بصيرا ودليلا على براءة يوسف عليه السلام حين قد من دبر (قال) استئناف مبنى على سؤال فكأنه قيل ما قال يعقوب هل صدقهم فيما قالوا أم لا فقيل قال لم يكن ذلك (بل سولت لكم أنفسكم) أى زينت وسهلت قاله ابن عباس رضى الله عنهما والتسويل تقدير شئ فى النفس مع الطمع فى اتمامه قال الازهرى كأن التسويل تفعيل من سؤال الانسان وهو أمنيته التى يطلبها فتزين لطالبها الباطل وغيره وأصله مهموز

وقيل من الشول وهو الاسترخاء (أمرا) من الامور منكرا الا يوصف ولا يعرف (فصبر جميل) أى فأمرى صبر جميل أو فصبر جميل أجمل أو أمثل وفى الحديث الصبر الجميل الذى لا شكوى فيه أى الى الخلق والا فقد قال يعقوب عليه السلام انما أشكوا بثى وحزنى الى الله وقيل سقط حاجباه على عينيه فكان يرفعهما بعصابة فقيل له ما هذا قال طول الزمان و كثرة الاحزان فأوحى الله عز وجل اليه يا يعقوب أتشكونى قال يارب خطيئة فاغفرها لى وقرأ أبى فصبرا جميلا (والله المستعان) أى المطلوب منه العون وهو انشاء منه عليه السلام للاستعانة المستمرة (على ماتصفون) على اظهار حال ماتصفون و بيان كونه كذبا واظهار سلامته فانه علم فى الكذب قال سبحانه سبحان ربك رب العزة عما يصفون وهو الاليق بما سيجئ من قوله تعالى فصبر جميل عسى الله ان يأتينى بهم جميعا وتفسير المستعان عليه باحتمال مايصفون من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه يأباه تكذيبه عليه السلام لهم فى ذلك ولا تساعده الصيغة فانها قد غلبت فى وصف الشئ بما ليس فيه كما أشير اليه (وجاءت) شروع فى بيان ما جرى على يوسف فى الجب بعد الفراغ من ذكر ما وقع بين اخوته و بين أبيه والتعبير بالمجئ ليس بالنسبة الى مكانهم فان كنعان ليس بالجانب المصرى من مدين بل الى مكان يوسف وفى ايثاره على المرور أو الاتيان أو نحوهما ايماء الى كونه عليه السلام فى الكرامة والزلفى عند مليك مقتدر والظاهر أن الجب كان فى أمم المشاة فان المتبادر من اسناد المجئ الى السيارة مطلقا فى قوله عز وجل وجاءت (سيارة)

الاسلام فأبى واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة وأقام فى منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله الملك والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة وقيل كان الملك فى أيامه فرعون موسى عاش أربعمائة سنة بدليل قوله تعالى ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف وقيل اشتراه العزيز بعشرين دينارا وقيل ادخلوه السوق يعرضونه فترافعوا فى ثمنه حتى بلغ ثمنه ما يساويه فى الوزن من المسك والورق والحرير فابتاعه قطفير بذلك الثمن وقالوا اسم تلك المرأة زليخا وقيل راعيل * واعلم ان شيئا من هذه الروايات لم يدل عليه القرآن ولم يثبت أيضا فى خبر صحيح وتفسير كتاب الله تعالى لا يتوقف على شئ من هذه الروايات فالاليق بالعاقل أن يحترز من ذكرها (المسئلة الثانية) قوله اكرمى مثواه أى منزله ومقامه عندك من قولك ثويت بالمكان اذا أقمت به ومصدره الثواء والمعنى اجعلى منزله عندك كريما حسنا مرضيا بدليل قوله انه ربى أحسن مثواى وقال المحققون أمر العزيز امرأته باكرام مثواه دون اكرام نفسه يدل على انه كان ينظر اليه على سبيل الاجلال والتعظيم وهو كما يقال سلام الله على المجلس العالى ولما أمرها باكرام مثواه علل ذلك بان قال عسى ان ينفعنا أو نتخذه ولدا أى يقوم باصلاح مهماتنا أو نتخذه ولدا لانه كان لا يولد له ولد وكان حصورا * ثم قال تعالى وكذلك مكنا ليوسف فى الارض أى كما أنعمنا عليه بالسلامة من الجب مكناه بان عطفنا عليه قلب العزيز حتى توصل بذلك الى أن صار متمكنا من الامر والنهى فى أرض مصر واعلم ان الكمالات الحقيقية ليست الا القدرة والعلم وانه سبحانه لما حاول اعلاء شأن يوسف ذكره بهذين الوصفين اما تكميله فى صفة القدرة والمكنة فاليه الاشارة بقوله مكنا ليوسف فى الارض واما تكميله فى صفة العلم فاليه الاشارة بقوله ولنعلمه من تأويل الاحاديث وقد تقدم تفسير هذه الكلمة * واعلم انا ذكرنا انه عليه السلام لما ألقى فى الجب قال تعالى وأوحينا اليه لتنبئنهم بامرهم هذا وذلك يدل ظاهرا على انه تعالى أوحى اليه فى ذلك الوقت وعندنا الارهاص جائز فلا يبعد ان يقال ان ذلك الوحى اليه فى ذلك الوقت ما كان لاجل بعثته الى الخلق بل لاجل تقوية قلبه وازالة الحزن عن صدره ولاجل أن يستأنس بحضور جبريل عليه السلام ثم انه تعالى قال ههنا ولنعلمه من تأويل الاحاديث والمراد منه ارساله الى الخلق بتبليغ التكاليف ودعوة الخلق الى الدين الحق ويحتمل أيضا أن يقال ان ذلك الوحى الاول كان لاجل الرسالة والنبوة و يحمل قوله ولنعلمه من تأويل الاحاديث على انه تعالى أوحى اليه بزيادات ودرجات يصير بها كل يوم اعلى حالا مما كان قبله وقال ابن مسعود أشد الناس فراسة ثلاثة العزيز حين تفرس فى يوسف فقال لامرأته اكرمى مثواه عسى أن ينفعنا والمرأة لما رأت موسى فقالت يا أبت استأجره وأبو بكر حين استخلف عمر ثم قال تعالى * والله غالب على أمره وفيه وجهان (الاول) غالب على أمر نفسه لانه فعال لما يريد لا دافع لقضائه ولا مانع

عن حكمه فى أرضه وسمائه (والثانى) والله غالب على أمر يوسف يعنى ان انتظام أموره كان الهيا وما كان بسعيه واخوته ارادوا به كل سوء ومكر والله اراد به الخير فكان كما اراده الله تعالى ودبر ولكن أكثر الناس لا يعلمون ان الامر كله بيد الله واعلم ان من تأمل فى احوال الدنيا وعجائب احوالها عرف وتيقن ان الامر كله لله وان قضاء الله غالب ❊ قوله تعالى (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) وجه النظم أن يقال بين تعالى ان اخوته لما أساؤا اليه ثم انه صبر على تلك الشدائد والمحن مكنه الله تعالى فى الارض ثم لما بلغ أشده آتاه الله الحكم والعلم والمقصود بيان ان جميع ما فاز به من النعم كان كالجزاء على صبره على تلك المحن ومن الناس من قال ان النبوة جزاء على الاعمال الحسنة ومنهم من قال ان من اجتهد وصبر على بلاء الله تعالى وشكر نعماء الله تعالى وجد منصب الرسالة واحتجوا على صحة قولهم بانه تعالى لما ذكر صبر يوسف على تلك المحن ذكر انه أعطاه النبوة والرسالة ثم قال وكذلك نجزى المحسنين وهذا يدل على ان كل من أتى بالطاعات الحسنة التى أتى بها يوسف فان الله يعطيه تلك المناصب وهذا بعيد لاتفاق العلماء على ان النبوة غير مكتسبة واعلم ان من الناس من قال ان يوسف ما كان رسولا ولا نبيا البتة وانما كان عبدا أطاع الله تعالى فأحسن الله اليه وهذا القول باطل بالاجماع وقال الحسن انه كان نبيا من الوقت الذى قال الله تعالى فى حقه وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وما كان رسولا ثم انه صار رسولا من هذا الوقت أعنى قوله ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ومنهم من قال انه كان رسولا من الوقت الذى ألقى فى غيابة الجب (المسئلة الثانية) قال أبو عبيدة تقول العرب بلغ فلان أشده اذا انتهى منتهاه فى شبابه وقوته قبل أن يأخذ فى النقصان وهذا اللفظ يستعمل فى الواحد والجمع يقال بلغ أشده و بلغوا أشدهم وقد ذكرنا تفسير الاشد فى سورة الانعام عند قوله حتى يبلغ أشده وأما التفسير فروى ابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس ولما بلغ أشده قال ثلاثا وثلاثين سنة وأقول هذه الرواية شديدة الانطباق على القوانين الطبية وذلك لان الاطباء قالوا ان الانسان يحدث فى أول الامر ويتزايد كل يوم شيئا فشيئا الى أن ينتهى الى غاية الكمال ثم يأخذ فى التراجع والانتقاص الى أن لا يبقى منه شئ فكانت حالته شبيهة بحال القمر فانه يظهر هلالا ضعيفا ثم لا يزال يزداد الى ان يصير بدرا تاما ثم يتراجع الى أن ينتهى الى العدم والمحاق اذا عرفت هذا فنقول مدة دور القمر ثمانية وعشرون يوما وكسر فاذا جعلت هذه الدورة أربعة أقسام كان كل قسم منها سبعة ايام فلا جرم رتبوا أحوال الابدان على الاسابيع فالانسان اذا ولد كان ضعيف الخلقة نحيف التركيب الى أن يتم له سبع سنين ثم اذا دخل فى السبعة الثانية حصل فيه آثار الفهم والذكاء والقوة ثم لا يزال فى الترقى الى أن يتم له أربع عشرة سنة فاذا دخل فى السنة الخامسة عشرة دخل فى الاسبوع الثالث وهناك يكمل العقل و يبلغ الى حد التكليف

أى رفقة تسير من جهة مدين الى مصر وقوعها باعتبار سيرهم المعتاد وهو الذى يقتضيه قوله تعالى فيما سلف يلتقطه بعض السيارة وقد قيل انه كان فى قفرة بعيدة من العمران لم تكن الا للرعاة فأخطؤا الطريق فنزلوا قريبا منه وقيل كان ماؤه ملحا فعذب حين ألقى فيه عليه السلام (فارسلوا واردهم) الذى يرد الماء و يستقى لهم وكان ذلك مالك بن ذعر الخزاعى وانما لم يذكر منتهى الارسال كما لم يذكر منتهى المجىء أعنى الجب للايذان بأن ذلك معهود لا يضرب عنه الذكر صفحا (فأدلى دلوه) أى أرسلها الى الجب والحذف لما عرفته فتدلى بها يوسف فخرج (قال) استئناف مبنى على سؤال يقتضيه الحال (يابشرى هذا غلام) كأنه نادى البشرى وقال تعالى فهذا أوانك حيث فاز بنعمة باردة وأى نعمة مكان ما يوجد مباحا من الماء وقيل اسم صاحب له ناداه ليعينه على اخراجه وقرأ غير الكوفيين يابشراى وأمال فتحة الراء حمزة والكسائى وقرأ ورش بين اللفظين وقرئ يابشرى بالادغام وهى لغة و بشراى على قصد الوقف (وأسروه) أى أخفاه الوارد وأصحابه عن بقية الرفقة وقيل أخفوا أمره ووجدانهم له فى الجب وقالوا لهم دفعه الينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر وقيل الضمير لاخوة يوسف وذلك أن يهوذا كان يأتيه كل يوم بطعام فأتاه يومئذ فلم يجده فيها فأخبر اخوته فاتوا الرفقة وقالوا هذا غلامنا أبق منا فاشتروه منهم وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ولا يخفى ما فيه من البعد (بضاعة) نصب على الحالية أى أخفوه حال كونه بضاعة أى متاع التجارة فانها قطعة من المال بضعت عنه أى قطعت للتجارة (والله عليم بما يعملون) وعيد لهم على ما صنعوا من جعلهم مثل يوسف وهو عرضة للابتذال

بالبيع والشراء وما دبروا في ذلك من الحيل (وشروه) أي باعوه والضمير للوارد وأصحابه (بثمن بخس) زيف ناقص العيار (دراهم) بدل من ثمن أي لا دنانير (معدودة) أي غير موزونة فهو بيان لقلته ونقصانه مقدارا بعد بيان نقصانه في نفسه اذ المعتاد فيما لا يبلغ أربعين العدد دون الوزن فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها كانت عشرين درهما وعن السدي رضي الله عنه أنها كانت اثنين وعشرين درهما (وكانوا) أي البائعون ﴿ ١٧٠ ﴾ (فيه) في يوسف (من الزاهدين) من الذين لا يرغبون فيما بأيديهم فلذلك باعوه بما ذكر من الثمن البخس وسبب ذلك أنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به أو غير واثق بأمره يخاف أن يظهر له مستحق فينتزعه منه فيبيعه من أول مساوم بأوكس ثمن ويجوز أن يكون معنى شروه اشتروه من اخوته على ما حكي وهم غير راضين في شرائه خشية ذهاب مالهم لما ظن في أذانهم من الاباق والعدول من صيغة الافتعال المنبئة عن الاتخاذ لما مر من أن أخذهم انما كان بطريق البضاعة دون الاجتباء والاقتناء وفيه متعلق بالزاهدين ان جعل اللام للتعريف وبيان لما زهدوا فيه ان جعلت موصولة كأنه قيل في أي شيء زهدوا فقيل زهدوا فيه لان ما يتعلق بالصلة لا يتقدم على الموصول (وقال الذي اشتراه من مصر) وهو العزيز الذي كان على خزائنه واسمه قطفير أو اطفير وبيان كونه من مصر لتربية ما يتفرع عليه من الامور ومع الإشعار بكونه غير من اشتراه من الملتقطين بما ذكر من الثمن ﴿ لمان ﴾ البخس وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد العمليقي ومات في حياة يوسف عليه السلام بعد أن آمن به فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه الى الاسلام فأبى وقيل كان الملك في أيامه فرعون موسى عليه السلام عاش أربعمائة

وتحرك فيه الشهوة ثم لا يزال يرتقي على هذه الحالة الى أن يتم السنة الحادية والعشرين وهناك يتم الاسبوع الثالث ويدخل في السنة الثانية والعشرين وهذا الاسبوع آخر أسابيع النشو والنماء فاذا تمت السنة الثامنة والعشرون فقد تمت مدة النشو والنماء وينتقل الانسان منه الى زمان الوقوف وهو الزمان الذي يبلغ الانسان فيه أشده وبتمام هذا الاسبوع الخامس يحصل للانسان خمسة وثلاثون سنة ثم ان هذه المراتب مختلفة في الزيادة والنقصان فهذا الاسبوع الخامس الذي هو اسبوع الشدة والكمال يبتدأ من السنة التاسعة والعشرين الى الثالثة والثلاثين وقد يمتد الى الخامسة والثلاثين فهذا هو الطريق المعقول في هذا الباب والله أعلم بحقائق الاشياء (المسئلة الثالثة) في تفسير الحكم والعلم وفيه أقوال (الاول) ان الحكم والحكمة أصلهما حبس النفس عن هواها ومنعها مما يشينها فالمراد من الحكم الحكمة العملية والمراد من العلم الحكمة النظرية وانما قدم الحكمة العملية هنا على العلمية لان أصحاب الرياضات يشتغلون بالحكمة العملية ثم يترقون منها الى الحكمة النظرية وأما أصحاب الافكار العقلية والانظار الروحانية فانهم يصلون الى الحكمة النظرية أولا ثم ينزلون منها الى الحكمة العملية وطريقة يوسف عليه السلام هو الاول لانه صبر على البلاء والمحنة ففتح الله تعالى عليه أبواب المكاشفات فلهذا السبب قال آتيناه حكما وعلما (القول الثاني) الحكم هو النبوة لان النبي يكون حاكما على الخلق والعلم علم الدين (والقول الثالث) يحتمل أن يكون المراد من الحكم صيرورة نفسه المطمئنة حاكمة على نفسه الامارة بالسوء مستعلية عليها قاهرة لها ومتى صارت القوة الشهوانية والغضبية مقهورة ضعيفة فاضت الانوار القدسية والاضواء الالهية من عالم القدس على جوهر النفس وتحقيق القول في هذا الباب ان جوهر النفس الناطقة خلقت قابلة للمعارف الكلية والانوار العقلية الا أنه قد ثبت عندنا بحسب البراهين العقلية وبحسب المكاشفات العلوية ان جواهر الارواح البشرية مختلفة بالماهيات فمنها ذكية وبليدة ومنها حرة ونذلة ومنها شريفة وخسيسة ومنها عظيمة الميل الى عالم الروحانيات وعظيمة الرغبة في الجسمانيات فهذه الاقسام كثيرة وكل واحد من هذه المقامات قابل للاشد والاضعف والاكمل والانقص فاذا اتفق ان كان جوهر النفس الناطقة جوهرا مشرقا شريفا شديد الاستعداد لقبول الاضواء العقلية واللوائح الالهية فهذه النفس في حال الصغر لا يظهر منها هذه الاحوال لان النفس الناطقة انما تقوى على أفعالها بواسطة استعمال الآلات الجسدانية وهذه الآلات في حال الصغر تكون الرطوبات مستولية عليها فاذا كبر الانسان واستولت الحرارة الغريزية على البدن نضجت تلك الرطوبات وقلت واعتدلت فصارت تلك الآلات البدنية صالحة لان تستعملها النفس الانسانية واذا كانت النفس في أصل جوهرها شريفة فعند كمال الآلات البدنية تكمل معارفها وتقوى أنوارها ويعظم

سنة لقوله عز وجل ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف والآية من قبيل خطاب الاولاد بأحوال الآباء واختلف فى مقدار ما اشتراه به العزيز فقيل بعشرين دينارا وزوجى نعل وثوبين أبيضين وقيل أدخلوه فى السوق يعرضونه فترافعوا فى ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه مسكا ووزنه ورقا ووزنه حريرا فاشتراه قطفير بذلك المبلغ وكان سنه اذ ذاك سبع عشرة سنة وأقام فى منزله مع ما مر عليه من مدة لبثه فى السجن ثلاث عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة (لامرأته) راعيل أو زليخا وقيل اسمها هو الاول والثانى لقبها واللام متعلقة بقال لا باشتراه (أكرمى مثواه) اجعلى محل اقامته كريما مرضيا والمعنى أحسنى تعهده (عسى أن ينفعنا) فى ضياعنا وأموالنا ونستظهر به فى مصالحنا (أو نتخذه ولدا) أى نتبناه وكان ذلك لما تفرس فيه من مخايل الرشد والنجابة ولذلك قيل أفرس الناس ثلاثة عزيز مصر وابنة شعيب التى قالت يا أبت استأجره وأبو بكر حين استخلف عمر رضى الله عنهما (وكذلك) نصب على المصدرية وذلك اشارة الى ما يفهم من كلام العزيز وما فيه من معنى البعد لتفخيمه أى مثل ذلك التمكين البديع (مكنا ليوسف فى الارض) اى جعلناله فيها مكانا يقال مكنه فيه أى أثبته فيه ومكن له فيه أى جعل له فيه مكانا ولتقاربهما وتلازمهما يستعمل كل منهما فى محل الآخر قال عز وجل وكم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الارض ما لم نمكن لكم أى ما لم نمكنكم فيها أو مكنا لهم فى الارض الخ والمعنى كما جعلناله مثوى كريما فى منزل العزيز أو مكانا عليا فى قلبه حتى

لمعان الاضواء فيها فقوله ولما بلغ أشده اشارة الى اعتدال الآلات البدنية وقوله آتيناه حكما وعلما اشارة الى استكمال النفس فى قوتها العملية والنظرية والله أعلم

* قوله تعالى (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك قال معاذ الله انه ربى أحسن مثواى انه لا يفلح الظالمون) اعلم ان يوسف عليه السلام كان فى غاية الجمال والحسن فلما رأته المرأة طمعت فيه ويقال أيضا ان زوجها كان عاجزا يقال راود فلان جاريته عن نفسها وراودته هى عن نفسه اذا حاول كل واحد منهما الوطء والجماع وغلقت الابواب والسبب ان ذلك العمل لا يؤتى به الا فى المواضع المستورة لاسيما اذا كان حراما ومع قيام الخوف الشديد وقوله وغلقت الابواب أى أغلقتها قال الواحدى وأصل هذا من قولهم فى كل شئ نشبث فى شئ فلزمه قد غلق يقال غلق فى الباطل وغلق فى غضبه ومنه غلق الرهن ثم يعدى بالالف فيقال أغلق الباب اذا جعله بحيث يعسر فتحه قال المفسرون وانما جاء غلقت على التكثير لانها غلقت سبعة أبواب ثم دعته الى نفسها ثم قال تعالى وقالت هيت لك وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الواحدى هيت لك اسم للفعل نحو رويد اوصه ومه ومعناه هلم فى قول جميع أهل اللغة وقال الاخفش هيت لك مفتوحة الهاء والتاء ويجوز أيضا كسر التاء ورفعها قال الواحدى قال أبو الفضل المنذرى أفادنى ابن التبريزى عن أبى زيد قال هيت لك بالعبرانية هيالخ أى تعالى عربه القرآن وقال الفراء انها لغة لاهل حوران سقطت الى مكة فتكلموا بها قال ابن الانبارى وهذا وفاق بين لغة قريش وأهل حوران كما اتفقت لغة العرب والروم فى القسطاس ولغة العرب والفرس فى السجيل ولغة العرب والترك فى الغساق ولغة العرب والحبشة فى ناشئة الليل (المسئلة الثانية) قرأ نافع وابن عامر فى رواية ابن ذكوان هيت بكسر الهاء وفتح التاء وقرأ ابن كثير هيت لك مثل حيث وقرأ هشام بن عمار عن أبى عامر هئت لك بكسر الهاء وهمز الياء وضم التاء مثل جئت من تهيأت لك والباقون بفتح الهاء واسكان الياء وفتح التاء ثم انه تعالى قال ان المرأة لما ذكرت هذا الكلام قال يوسف عليه السلام معاذ الله انه ربى أحسن مثواى فقوله معاذ الله أى أعوذ بالله معاذا والضمير فى قوله انه للشان والحديث ربى أحسن مثواى أى ربى وسيدى ومالكى أحسن مثواى حين قال لها أكرمى مثواه فلا يليق بالعقل أن أجازيه على ذلك الاحسان بهذه الخيانة القبيحة انه لا يفلح الظالمون الذين يجازون الاحسان بالاساءة وقيل أراد الزناة لانهم ظالمون أنفسهم أولان عملهم يقتضى وضع الشئ فى غير موضعه وهنا سؤالات (السؤال الاول) ان يوسف عليه السلام كان حرا وما كان عبدا لاحد فقوله انه ربى يكون كذبا وذلك ذنب وكبيرة (والجواب) انه عليه السلام أجرى هذا الكلام بحسب الظاهر وعلى وفق ما كانوا يعتقدون فيه من كونه عبدا له وايضا انه رباه وأنعم عليه بالوجوه الكثيرة فعنى بكونه ربا له كونه مربيا له وهذا من باب المعاريض الحسنة فان أهل الظاهر يحملونه على

أمر امرأته دون سائر حواشيه باكرام مثواه جعلناله مكانة رفيعة فى أرض مصر ولعله عبارة عن جعله وجيها بين اهلها ومحببا فى قلوبهم كافة كما فى قلب العزيز لانه الذى يؤدى الى الغاية المذكورة فى قوله تعالى (ولنعلمه من تأويل الاحاديث) أى نوفقه لتعبير بعض المنامات التى عمدتها رؤيا الملك وصاحبي السجن لقوله تعالى ذلكما مما علمنى ربى سواء جعلناه معطوفا على غاية مقدرة ينساق اليها الكلام ويستدعيها النظام كأنه قيل ومثل ذلك التمكين مكنا ليوسف فى الارض وجعلنا قلب أهلها كافة محال محبته ليترتب عليه ما ترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز ولنعلمه بعض تأويل الاحاديث وهو تأويل الرؤيا المذكورة فيؤدى ذلك الى الرياسة العظمى ولعل ترك المعطوف عليه للاشعار بعدم كونه مرادا بالذات أو جعلناه علة لمعلل محذوف كأنه قيل ولهذه الحكمة البالغة فعلنا ذلك التمكين دون غيرها مما ليس له عاقبة حميدة هذا ولا يخفى عليك أن الذى عليه تدور هذه الامور انما هو التمكين فى جانب العزيز وأما التمكين فى جانب الناس كافة فتأديته الى ذلك انما هى باعتبار اشتماله على ذلك التمكين فاذن الحق ان يكون ذلك اشارة الى مصدر قوله تعالى مكنا ليوسف على أن يكون هو عبارة عن التمكين فى قلب العزيز أو فى منزله وكون ذلك تمكينا فى الارض بملابسة أنه عزيز فيها لا عن تمكين آخر يشبه به كما مر ﴿ وجلس ﴾ فى قوله تعالى وكذلك جعلنا كم أمة وسطا من أن ذلك اشارة الى مصدر الفعل المذكور بعده لا الى جعل اخر يقصد تشبيه هذا الجعل به فالكاف مقحم للدلالة على فخامة شان المشار اليه اقحاما لا يكاد يترك فى لغة العرب ولا فى غيرها ومن ذلك قولهم مثلك لا يبخل وهكذا ينبغي أن يحقق المقام وأما

كونه ربا له وهو كان يعنى به انه كان مربيا له ومنعما عليه (السؤال الثانى) هل يدل قول يوسف عليه السلام معاذ الله على صحة مذهبنا فى القضاء والقدر (والجواب) انه يدل عليه دلالة ظاهرة لان قوله عليه السلام أعوذ بالله معاذا طلب من الله أن يعيذه من ذلك العمل وتلك الاعاذة ليست عبارة عن اعطاء القدرة والعقل والآلة وازاحة الاعذار وازالة الموانع وفعل الالطاف لان كل ما كان فى مقدور الله تعالى من هذا الباب فقد فعله فيكون ذلك اما طلبا لتحصيل الحاصل أو طلبا لتحصيل الممتنع وانه محال فعلمنا ان تلك الاعاذة التى طلبها يوسف من الله تعالى لا معنى لها الا ان يخلق فيه داعية جازمة فى جانب الطاعة وأن يزيل عن قلبه داعية المعصية وذلك هو المطلوب والدليل على ان المراد ما ذكرناه ما نقل أن النبى صلى الله عليه وسلم لما وقع بصره على زينب قال يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك وكان المراد منه تقوية داعية الطاعة وازالة داعية المعصية فكذا ههنا وكذا قوله عليه السلام قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن فالمراد من الاصبعين داعية الفعل وداعية الترك وهاتان الداعيتان لا يحصلان الا بخلق الله تعالى والا لافتقرت الى داعية أخرى ولزم التسلسل فثبت ان قول يوسف عليه السلام معاذ الله من أدل الدلائل على قولنا والله أعلم (السؤال الثالث) ذكر يوسف عليه السلام فى الجواب عن كلامها ثلاثة أشياء (أحدها) قوله معاذ الله (والثانى) قوله تعالى عنه انه ربى أحسن مثواى (والثالث) قوله انه لا يفلح الظالمون فما وجه تعلق بعض هذا الجواب ببعض (والجواب) هذا الترتيب فى غاية الحسن وذلك لان الانقياد لامر الله تعالى وتكليفه أهم الاشياء لكثرة انعامه وألطافه فى حق العبد فقوله معاذ الله اشارة الى أن حق الله تعالى يمنع عن هذا العمل وأيضا حقوق الخلق واجبة الرعاية فلما كان هذا الرجل قد أنعم فى حقى يقبح مقابلة انعامه واحسانه بالاساءة وأيضا صون النفس عن الضرر واجب وهذه اللذة لذة قليلة ويتبعها خزى فى الدنيا وعذاب شديد فى الآخرة واللذة القليلة اذا لزمها ضرر شديد فالعقل يقتضى تركها والاحتراز عنها فقوله انه لا يفلح الظالمون اشارة اليه فثبت ان هذه الجوابات الثلاثة مرتبة على أحسن وجوه الترتيب ❊ قوله تعالى (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين) اعلم أن هذه الآية من المهمات التى يجب الاعتناء بالبحث عنها وفى هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى انه عليه السلام هل صدر عنه ذنب أم لا وفى هذه المسئلة قولان (الاول) ان يوسف عليه السلام هم بالفاحشة قال الواحدى فى كتاب البسيط قال المفسرون الموثوق بعلمهم المرجوع الى روايتهم هم يوسف أيضا بهذه المرأة هما صحيحا وجلس منها مجلس الرجل من المرأة فلما رأى البرهان من ربه زالت كل شهوة عنه قال جعفر الصادق رضى الله عنه باسناده عن على رضى الله تعالى انه قال طمعت فيه وطمع فيها فكان طمعه فيها انه هم أن يحل التكة وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال حل الهميان

التمكين بمعنى جعله ملكا يتصرف فى أرض مصر بالامر والنهى فهو من آثار ذلك التعليم ونتائجه المتفرعة عليه كما عرفته لامن مباديه المؤدية اليه فلا سبيل الى جعله غاية له ولم يعهد منه عليه السلام فى تضاعيف قضاياه العمل بموجب المنامات المنبهة على الحوادث قبل وقوعها عهدا مصححا لجعله غاية لولايته وماوقع من التدارك فى أمر السنين فانما هو عمل بموجب الرؤيا السابقة المعهودة اللهم الا أن يراد بتعليم تأويل الاحاديث ماسبق من تفهيم غوامض أسرار الكتب الالهية ودقائق سنن الانبياء عليهم السلام فيكون المعنى حينئذ مكنا له فى أرض مصر ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه معانى كتب الله تعالى وأحكامها ودقائق سنن الانبياء عليهم السلام فيقضى بها فيما بين أهلها والتعليم الاجمالى لتلك المعانى والاحكام وان كان غير متأخر عن تمكينه بذلك المعنى الا أن تعليم كل معنى شخصى يتفق فى ضمن الحوادث والارشاد الى الحق فى كل نازلة من النوازل متأخر عن ذلك صالح لأن يكون غاية له (والله غالب على أمره) لايستعصى عليه أمر ولايمانعه شئ بل انما أمره لشئ اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فيدخل فى ذلك شؤنه المتعلقة بيوسف دخولا أوليا أو متولى على أمر يوسف لايكله الى غيره وقد أريد به من الفتنة ماأريد مرة غب مرة فلم يكن الا ما أراد الله له من العاقبة الحميدة (ولكن أكثر الناس لايعلمون) أن الامر كذلك فيأتون و يذرون زعما منهم أن لهم من الامر شيئا وأنى لهم ذلك وان الامر كله لله عز وجل أو لايعلمون لطائف صنعه وخفايا فضله (ولما بلغ أشده) أى منتهى اشتداد جسمه وقوته وهو سن الوقوف مابين الثلاثين الى الاربعين وقيل سن الشباب ومبدأ بلوغ الحلم والاول هو الاظهر

وجلس منها مجلس الخائن وعنه أيضا انها استلقت له وجلس بين رجليها ينزع ثيابه ثم ان الواحدى طول فى كلمات عديمة الفائدة فى هذا الباب وماذكر آية يحتج بها ولا حديثا صحيحا يعول عليه فى تصحيح هذه المقالة وماأمعن النظر فى تلك الكلمات العارية عن الفائدة روى ان يوسف عليه السلام لما قال ذلك ليعلم انى لم أخنه بالغيب قال له جبريل عليه السلام ولاحين هممت يايوسف فقال يوسف عند ذلك وماأبرئ نفسى ثم قال والذين أثبتوا هذا العمل ليوسف كانوا أعرف بحقوق الانبياء عليهم السلام وارتفاع منازلهم عند الله تعالى من الذين نفوا الهم عنه فهذا خلاصة كلامه فى هذا الباب (والقول الثانى) ان يوسف عليه السلام كان بريئا عن العمل الباطل والهم المحرم وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين و به نقول وعنه نذب واعلم ان الدلائل الدالة على وجوب عصمة الانبياء عليهم السلام كثيرة ولقد استقصيناها فى سورة البقرة فى قصة آدم عليه السلام فلا نعيدها الا أنا نزيد ههنا وجوها (فالحجة الاولى) ان الزنا من منكرات الكبائر والخيانة فى معرض الامانة أيضا من منكرات الذنوب وأيضا مقابلة الاحسان العظيم بالاساءة الموجبة للفضيحة التامة والعار الشديد أيضا من منكرات الذنوب وأيضا الصبى اذا تربى فى حجر انسان و بقى مكفى المؤنة مصون العرض من أول صباه الى زمان شبابه وكمال قوته فاقدام هذا الصبى على ايصال أقبح أنواع الاساءة الى ذلك المنعم المعظم من منكرات الاعمال اذا ثبت هذا فنقول ان هذه المعصية التى نسبوها الى يوسف عليه السلام كانت موصوفة بجميع هذه الجهات الاربع ومثل هذه المعصية لو نسبت الى أفسق خلق الله تعالى وأبعدهم عن كل خير لاستنكف منه فكيف يجوز اسنادها الى الرسول عليه الصلاة والسلام المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة ثم انه تعالى قال فى غير هذه الواقعة كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء وذلك يدل على ان ماهية السوء والفحشاء مصروفة عنه ولاشك أن المعصية التى نسبوها اليه أعظم أنواع السوء وأفحش أقسام الفحشاء فكيف يليق برب العالمين أن يشهد فى عين هذه الواقعة بكونه بريئا من السوء مع انه كان قد أتى باعظم أنواع السوء والفحشاء وأيضا فالآية تدل على قولنا من وجه آخر وذلك لانا نقول هب أن هذه الآية لاتدل على نفى هذه المعصية عنه الا انه لاشك أنها تفيد المدح العظيم والثناء البالغ فلا يليق بحكمة الله تعالى أن يحكى عن انسان اقدامه على معصية عظيمة ثم انه يمدحه و يثنى عليه باعظم المدائح والاثنية عقيب ان حكى عنه ذلك الذنب العظيم فان مثاله ماإذا حكى السلطان عن بعض عبيده أقبح الذنوب وأفحش الاعمال ثم انه يذكره بالمدح العظيم والثناء البالغ عقيبه فان ذلك يستنكر جدا فكذا ههنا والله أعلم (الثالث) أن الانبياء عليهم السلام متى صدرت منهم زلة أو هفوة استعظموا ذلك واتبعوها باظهار الندامة والتوبة والتواضع ولو كان يوسف عليه السلام أقدم ههنا على هذه الكبيرة المنكرة لكان من المحال أن لايتبعها بالتوبة والاستغفار ولو أتى

قوله تعالى (آتيناه حكما) حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل أو حكما بين الناس وفقهـا اونبوة (وعلما) اى تفقهـا في الدين وتنكيرهما للتفخيم أي حكما وعلما لايكتنه كنههما ولايقادر قدرهما فهمـا ما آتاه الله تعالى عند تكامل قواه سواء كانا عبارة عن النبوة والحكم بين الناس اوغيرهما كيف لاوقد جعل ايتاؤهما جزاء لعمله عليه السلام حيث قيل (وكذلك) أي مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿ ١٧٤ ﴾ (نجزي المحسنين) أي كل من يحسن في عمله فيجب أن يكون ذلك بعد انقضاء أعماله الحسنة التي من جملتها معاناة الاحزان والشدائد وقد فسر العلم بعلم تاويل الاحاديث ولاصحة له الا أن يخص بعلم تاويل رؤيا الملك فان ذلك حيث كان عند تناهي أيام البلاء صح أن يعد ايتاؤه من جملة الجزاء وأما رؤيا صاحبي السجن فقد لبث عليه السلام بعد تعبيرها في السجن بضع سنين وفي تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين اشعار بعلية الاحسان له وتنبيه على أنه سبحانه انما آتاه ما آتاه لكونه محسنا في أعماله متقيا في عنفوان أمره هل جزاء الاحسان الا الاحسان (وراودته التي هو في بيتها) رجوع الى شرح ماجرى عليه في منزل العزيز بعد ماأمر امرأته باكرام مثواه وقوله تعالى وكذلك مكنا ليوسف الى هنا اعتراض جيء به أنموذجا للقصة ليعلم السامع من أول الامر أن مالقيه عليه السلام من الفتن التي ستحكى بتفاصيلها له غاية جميلة وعاقبة ﴿ يوسف ﴾ حميدة وأنه عليه السلام محسن في جميع أعماله لم يصدر عنه في حالتي السراء والضراء ما يخل بنزاهته ولايخفى أن مدار حسن التخلص الى هذا الاعتراض قبل تمام الآية الكريمة انما هو التمكين البالغ المفهوم من كلام العزيز فادراج الانجاء السابق تحت الاشارة بذلك في قوله تعالى وكذلك

بالتوبة لحكى الله تعالى عنه اتيانه بها كما في سائر المواضع وحيث لم يوجد شيء من ذلك علمنا أنه ماصدر عنه في هذه الواقعة ذنب ولامعصية (الرابع) ان كل من كان له تعلق بتلك الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام من المعصية واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة يوسف عليه السلام وتلك المرأة وزوجها والنسوة والشهود ورب العالمين شهد ببراءته عن الذنب وابليس أقر أيضا ببراءته عن المعصية واذا كان الامر كذلك فحينئذ لم يبق للمسلم توقف في هذا الباب أما بيان أن يوسف عليه السلام ادعى البراءة عن الذنب فهو قوله عليه السلام هي راودتني عن نفسي وقوله عليه السلام رب السجن أحب الي مما يدعونني اليه وأما بيان أن المرأة اعترفت بذلك فلانها قالت للنسوة ولقد راودته عن نفسه فاستعصم وأيضا قالت الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين وأما بيان أن زوج المرأة أقر بذلك فهو قوله انه من كيدكن ان كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك وأما الشهود فقوله تعالى وشهد شاهد من أهلها ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وأما شهادة الله تعالى بذلك فقوله كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين فقد شهد الله تعالى في هذه الآية على طهارته أربع مرات (أولها) قوله لنصرف عنه السوء واللام للتأكيد والمبالغة (والثاني) قوله والفحشاء أي كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء (والثالث) قوله انه من عبادنا مع انه تعالى قال وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما (والرابع) قوله المخلصين وفيه قراءتان تارة باسم الفاعل وأخرى باسم المفعول فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتيا بالطاعات والقربات مع صفة الاخلاص ووروده باسم المفعول يدل على ان الله تعالى استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته وعلى كلا الوجهين فانه من أدل الالفاظ على كونه منزها عما أضافوه اليه وأما بيان ان ابليس أقر بطهارته فلانه قال فبعزتك لاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين فاقر بانه لايمكنه اغواء المخلصين ويوسف من المخلصين لقوله تعالى انه من عبادنا المخلصين فكان هذا اقرارا من ابليس بانه ما أغواه وما أضله عن طريقة الهدى وعند هذا نقول هؤلاء الجهال الذين نسبوا الى يوسف عليه السلام هذه الفضيحة ان كانوا من اتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته وان كانوا من اتباع ابليس وجنوده فليقبلوا شهادة ابليس على طهارته ولعلهم يقولون كنا في أول الامر تلامذة ابليس الى أن تخرجنا عليه فزدنا عليه في السفاهة كما قال الخوارزمي

وكنت امرأ من جند ابليس فارتقى * بي الدهر حتى صار ابليس من جندي
فلو مات قبلي كنت أحسن بعده * طرائق فسق ليس يحسنها بعدي

فثبت بهذه الدلائل أن يوسف عليه السلام بريء عما يقول هؤلاء الجهال واذا عرفت هذا فنقول الكلام على ظاهر هذه الآية يقع في مقامين (المقام الاول) أن نقول لانسلم أن

يوسف عليه السلام هم بها والدليل عليه انه تعالى قال وهم بها لولا أن رأى برهان ربه وجواب لولا ههنا مقدم وهو كما يقال قد كنت من الهالكين لولا ان فلانا خلصك وطعن الزجاج في هذا الجواب من وجهين (الاول) أن تقديم جواب لولا شاذ وغير موجود فى الكلام الفصيح (الثانى) ان لولا يجاب جوابها باللام فلو كان الامر على ماذكرتم لقال ولقد همت ولهم بها لولا وذكر غير الزجاج سؤالا ثالثا وهو أنه لو لم يوجد الهم لما كان لقوله لولا ان رأى برهان ربه فائدة واعلم أن ماذكره الزجاج بعيد لانا نسلم أن تأخير جواب لولا حسن جائز الا أن جوازه لا يمنع من جواز تقديم هذا الجواب وكيف ونقل عن سيبويه أنه قال انهم يقدمون الاهم فالاهم والذى هم بشانه أعنى فكان الامر فى جواز التقديم والتأخير مربوطا بشدة الاهتمام وأما تعيين بعض الالفاظ بالمنع فذلك مما لا يليق بالحكمة وأيضا ذكر جواب لولا باللام جائز أما هذا لا يدل على أن ذكره بغير اللام لا يجوز ثم انا نذكر آية أخرى تدل على فساد قول الزجاج فى هذين السؤالين وهو قوله تعالى ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها (وأما السؤال الثالث) وهو انه لو لم يوجد الهم لم يبق لقوله لولا ان رأى برهان ربه فائدة فنقول بل فيه أعظم الفوائد وهو بيان ان ترك الهم بها ما كان لعدم رغبته فى النساء وعدم قدرته عليهن بل لاجل أن دلائل دين الله منعته عن ذلك العمل ثم نقول ان الذى يدل على أن جواب لولا ماذكرناه ان لولا تستدعى جوابا وهذا المذكور يصلح جوابا له فوجب الحكم بكونه جوابا له لا يقال انا نضمر له جوابا وترك الجواب كثير فى القرآن لانا نقول لا نزاع أنه كثير فى القرآن الا أن الاصل أن لا يكون محذوفا وأيضا فالجواب انما يحسن تركه وحذفه اذا حصل فى اللفظ ما يدل على تعينه وههنا بتقدير أن يكون الجواب محذوفا فليس فى اللفظ ما يدل على تعين ذلك الجواب فان ههنا أنواعا من الاضمارات يحسن اضمار كل واحد منها وليس اضمار بعضها أولى من اضمار الباقى فظهر الفرق والله أعلم (المقام الثانى) فى الكلام على هذه الآية أن نقول سلمنا أن الهم قد حصل الا أنا نقول ان قوله وهم بها لا يمكن حمله على ظاهره لان تعليق الهم بذات المرأة محال لان الهم من جنس القصد والقصد لا يتعلق بالذوات الباقية فثبت أنه لابد من اضمار فعل مخصوص يجعل متعلق ذلك الهم وذلك الفعل غير مذكور فهم زعموا أن ذلك المضمر هو ايقاع الفاحشة بها ونحن نضمر شيأ آخر يغاير ماذكروه وبيانه من وجوه (الاول) المراد انه عليه السلام هم بدفعها عن نفسه ومنعها عن ذلك القبيح لان الهم هو القصد فوجب ان يحمل فى حق كل أحد على القصد الذى يليق به فاللائق بالمرأة القصد الى تحصيل اللذة والتنعم والتمتع واللائق بالرسول المبعوث الى الخلق القصد الى زجر العاصى عن معصيته والى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر يقال هممت بفلان أى بضربه ودفعه فان قالوا فعلى هذا التقدير لا يبقى لقوله لولا أن رأى برهان ربه فائدة قلنا بل فيه أعظم الفوائد وبيانه من وجهين (الاول) انه تعالى أعلم يوسف عليه السلام أنه لو هم بدفعها

ممكنا كما فصله الجمهور نأه من التقريب فتأمل والمراودة المطالبة من راد يرود اذا جاء وذهب لطلب شئ ومنه الرائد لطالب الماء والكلا وهى مفاعلة من واحد نحو مطالبة الدائن ومماطلة المديون ومداواة الطبيب ونظائرها مما يكون من أحد الجانبين الفعل ومن الآخر سببه فان هذه الافعال وان كانت صادرة عن أحد الجانبين لكن لما كانت أسبابها صادرة عن الجانب الآخر جعلت كأنها صادرة عنهما وهذا باب لطيف المسلك مبنى على اعتبار دقيق تحقيقه أن سبب الشئ يقام مقامه ويطلق عليه اسمه كما فى قولهم كما تدين تدان أى كما تجزى تجزى فان فعل البادئ وان لم يكن جزاء لكنه لكونه سببا للجزاء أطلق عليه اسمه وكذلك ارادة القيام الى الصلاة وارادة قراءة القرآن حيث كانتا سببا للقيام والقراءة عبر عنهما بهما فقيل اذا قمتم الى الصلاة فاذا قرأت القرآن وهذه قاعدة مطردة مستمرة ولما كانت أسباب الافعال المذكورة فيما نحن فيه صادرة عن الجانب المقابل لجانب فاعلها فان مطالبة الدائن للمماطلة التى هى من جانب الغريم وهى منه للمطالبة التى هى من جانب الدائن وكذا مداواة الطبيب للمرض الذى هو من جانب المريض وكذلك مراودتها فيما نحن فيه لجمال يوسف عليه السلام نزل صدورها عن محالها بمنزلة صدور مسبباتها التى هى تلك الافعال فبنى الصيغة على ذلك وروعى جانب الحقيقة بان أسند الفعل الى الفاعل وأوقع على صاحب السبب فتأمل ويجوز أن يراد بصيغة المغالبة مجرد المبالغة وقيل الصيغة على بابها بمعنى أنها طلبت منه الفعل وهو منها الترك ويجوز ان يكون من الرويد وهو الرفق والتحمل وتعديتها بعن لتضمينها معنى المخادعة فالمعنى خادعته (عن نفسه) أي فعلت ما يفعل

المخادع لصاحبه عن شئ لا يريد اخراجه من يده وهو يحتال ان يأخذ منه وهى عبارة عن التمحل فى مواقعته اياها والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السر أو للاستهجان بذكره وايراد الموصول لتقرير المراودة فان كونه فى بيتها مما يدعو الى ذلك قيل لواحده ما حملك ما أنت عليه مما لا خير فيه قالت قرب الوساد وطول السواد ولاظهار كمال نزاهته عليه السلام فان عدم ميله اليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصائه عليها مع كونه تحت ملكتها ينادى بكونه عليه السلام فى أعلى معارج العفة والنزاهة (وغلقت الابواب) قيل كانت سبعة ولذلك جاء الفعل بصيغة التفعيل دون الافعال وقيل للمبالغة فى الايثاق والاحكام (وقالت هيت لك) قرئ بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وبنائه كبناء أين وعيط وهيت كجير وهيت كحيث اسم فعل معناه أقبل وبادر واللام للبيان أى لك أقول هذا كما فى هلم لك وقرئ هئت لك على صيغة انفعل بمعنى تهيأت يقال هاء يهئ كجاء يجئ اذا تهيأ وهيئت لك واللام صلة للفعل (قال معاذ الله) أى أعوذ بالله معاذا مما تدعيننى اليه وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه واشارة الى التعليل بأنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه وماذاك الا لانه عليه السلام قد شاهده بما أراه الله تعالى من البرهان النير على ما هو عليه فى حد ذاته من غاية القبح ونهاية السوء وقوله عزوجل (انه ربى أحسن مثواى) ﴿ المنكرات ﴾ تعليل للامتناع ببعض الاسباب الخارجية مما عسى يكون مؤثرا عندها وداعيا لها الى اعتباره التنبيه على سببه الذاتى الذى لا تكاد تقبله لما سولته لها نفسها والضمير للشأن ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره وفائدة تصدير الجملة به الايذان بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة

لقتلته أو لكانت تأمر الحاضرين بقتله فاعلمه الله تعالى ان الامتناع من ضربها أولى صونا للنفس عن الهلاك (والثانى) انه عليه السلام لو اشتغل بدفعها عن نفسه فربما تعلقت به فكان يتخرق ثوبه من قدام وكان فى علم الله تعالى أن الشاهد يشهد بأن ثوبه لو تخرق من قدام لكان يوسف هو الخائن ولو كان ثوبه ممزقا من خلف لكانت المرأة هى الخائنة فالله تعالى أعلمه بهذا المعنى فلا جرم لم يشتغل بدفعها عن نفسه بل ولى هاربا عنها حتى صارت شهادة الشاهد حجة له على براءته عن المعصية (الوجه الثانى) فى الجواب أن يفسر الهم بالشهوة وهذا مستعمل فى اللغة الشائعة يقول القائل فيما لا يشتهيه ما يهمنى هذا وفيما يشتهيه هذا أهم الاشياء الى فسمى الله تعالى شهوة يوسف عليه السلام هما فمعنى الآية ولقد اشتهته واشتهاها ولولا أن رأى برهان ربه لدخل ذلك العمل فى الوجود (الثالث) أن يفسر الهم بحديث النفس وذلك لان المرأة الفائقة فى الحسن والجمال اذا تزينت وتهيأت للرجل الشاب القوى فلابد وأن يقع هناك بين الحكمة والشهوة الطبيعية وبين النفس والعقل مجاذبات ومنازعات فتارة تقوى داعية الطبيعة والشهوة وتارة تقوى داعية العقل والحكمة فالهم عبارة عن جواذب الطبيعة ورؤية البرهان عبارة عن جواذب العبودية ومثال ذلك أن الرجل الصالح الصائم فى الصيف الصائف اذا رأى الجلاب المبرد بالثلج فان طبيعته تحمله على شربه الا أن دينه وهداه يمنعه منه فهذا لا يدل على حصول الذنب بل كلما كانت هذه الحالة أشد كانت القوة فى القيام بلوازم العبودية أكمل فقد ظهر بحمد الله تعالى صحة هذا القول الذى ذهبنا اليه ولم يبق فى يد الواحدى الا مجرد التصلف وتعديد أسماء المفسرين ولو كان قد ذكر فى تقرير ذلك القول شبهة لاجبنا عنها الا أنه ما زاد على الرواية عن بعض المفسرين واعلم أن بعض الحشوية روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما كذب ابراهيم عليه السلام الا ثلاث كذبات فقلت الاولى أن لا نقبل مثل هذه الاخبار فقال على طريق الاستنكار فان لم نقبله لزمنا تكذيب الرواة فقلت له يا مسكين ان قبلناه لزمنا الحكم بتكذيب ابراهيم عليه السلام وان رددناه لزمنا الحكم بتكذيب الرواة ولا شك أن صون ابراهيم عليه السلام عن الكذب أولى من صون طائفة من المجاهيل عن الكذب اذا عرفت هذا الاصل فنقول للواحدى ومن الذى يضمن لنا ان الذين نقلوا هذا القول عن هؤلاء المفسرين كانوا صادقين أم كاذبين والله أعلم (المسئلة الثانية) فى ان المراد بذلك البرهان ما هو أما المحققون المثبتون للعصمة فقد فسروا رؤية البرهان بوجوه (الاول) أنه حجة الله تعالى فى تحريم الزنا والعلم بما على الزانى من العقاب (والثانى) أن الله تعالى طهر نفوس الانبياء عليهم السلام عن الاخلاق الذميمة بل نقول انه تعالى طهر نفوس المتصلين به عنها كما قال انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا فالمراد برؤية البرهان هو حصول تلك الاخلاق وتذكير الاحوال الرادعة لهم عن الاقدام على

تقريره فى الذهن فان الضمير لا يفهم منه من أول الامر الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن فكأنه قيل ان الشان الخطير هذا وهو ربى اى سيدى العزيز أحسن مثواى أى أحسن تعهدى حيث أمرك باكرامى فكيف يمكن أن أسئ اليه بالخيانة فى حرمه وفيه ارشادلها الى رعاية حق العزيز بالطف وجه وقيل الضمير لله عزوجل وربى خبران ﴿ ١٧٧ ﴾ وأحسن مثواى خبر ثان أو هو الخبر والاول بدل من الضمير والمعنى ان الحال هكذا فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة وفيه تحذير لها من عقاب الله عزوجل وعلى التقديرين ففى الاقتصار على ذكر هذه الحالة من غير تعرض لاقتضائها الامتناع عما دعته اليه ايذان بأن هذه المرتبة من البيان كافية فى الدلالة على استحالته وكونه مما لا يدخل تحت الوقوع أصلا وقوله تعالى (انه لا يفلح الظالمون) تعليل للامتناع المذكور غب تعليل والفلاح الظفر وقيل البقاء فى الخير ومعنى أفلح دخل فيه كأصبح وأخواته والمراد بالظالمين كل من ظلم كائنا من كان فيدخل فى ذلك المجازون للاحسان بالاساءة والعصاة لامر الله تعالى دخولا أوليا وقيل الزناة لانهم ظالمون لانفسهم وللمزنى بأهله (ولقد همت به) بمخالطته اذ الهم لا يتعلق بالاعيان اى ﴿ ٢٣ ﴾ خا قصدتها وعزمت عليها عزما جازما لا يلويها عنه صارف بعدما باشرت مباديها وفعلت ما فعلت من المراودة وتغليق الابواب ودعوته عليه السلام الى نفسها بقولها هيت لك ولعلها تصدت هنالك لافعال أخر من بسط يدها اليه وقصد المعانقة وغير ذلك مما يضطره عليه السلام الى الهرب نحو الباب والتأكيد لدفع ما عسى يتوهم من

المنكرات (والثالث) أنه رأى مكتوبا فى سقف البيت ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا (والرابع) انه النبوة المنافية من ارتكاب الفواحش والدليل عليه أن الانبياء عليهم السلام بعثوا لمنع الخلق عن القبائح والفضائح فلو أنهم منعوا الناس عنها ثم أقدموا على أقبح أنواعها وأفحش أقسامها لدخلوا تحت قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون وأيضا ان الله تعالى عير اليهود بقوله أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وما يكون عيبا فى حق اليهود كيف ينسب الى الرسول المؤيد بالمعجزات * وأما الذين نسبوا المعصية الى يوسف عليه السلام فقد ذكروا فى تفسير ذلك البرهان أمورا (الاول) قالوا ان المرأة قامت الى صنم مكلل بالدر والياقوت فى زاوية البيت فسترته بثوب فقال يوسف لم فعلت ذلك قالت أستحى من الهى هذا أن يرانى على معصية فقال يوسف أتستحين من صنم لا يعقل ولا يسمع ولا أستحى من الهى القائم على كل نفس بما كسبت فوالله لا أفعل ذلك أبدا قالوا فهذا هو البرهان (الثانى) نقلوا عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه تمثل له يعقوب فرآه عاضا على أصابعه ويقول له أتعمل عمل الفجار وأنت مكتوب فى زمرة الانبياء فاستحى منه قال وهو قول عكرمة ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك ومقاتل وابن سيرين قال سعيد بن جبير تمثل له يعقوب فضرب فى صدره فخرجت شهوته من أنامله (والثالث) قالوا انه سمع فى الهواء قائلا يقول يا ابن يعقوب لا تكن كالطير يكون له ريش فاذا زنا ذهب ريشه (والرابع) نقلوا عن ابن عباس رضى الله عنهما أن يوسف عليه السلام لم ينزجر برؤية صورة يعقوب حتى ركضه جبريل عليه السلام فلم يبق فيه شئ من الشهوة الا خرج ولما نقل الواحدى هذه الروايات تصلف وقال هذا الذى ذكرناه قول أئمة التفسير الذين أخذوا التأويل عمن شاهد التنزيل فيقال له انك لا تأتينا البتة الا بهذه التصلفات التى لا فائدة فيها فأين هذا من الحجة والدليل وأيضا فان ترادف الدلائل على الشئ الواحد جائز وانه عليه الصلاة والسلام كان ممتنعا عن الزنا بحسب الدلائل الاصلية فلما انضاف اليها هذه الزواجر قوى الانزجار وكمل الاحتراز والعجب أنهم نقلوا ان جروا دخل حجرة النبى صلى الله عليه وسلم وبقى هناك بغير علمه قالوا فامتنع جبريل عليه السلام من الدخول عليه أربعين يوما وههنا زعموا أن يوسف عليه السلام حال اشتغاله بالفاحشة ذهب اليه جبريل عليه السلام والعجب أيضا أنهم زعموا أنه لم يمتنع عن ذلك العمل بسبب حضور جبريل عليه السلام ولو أن أفسق الخلق وأكفرهم كان مشتغلا بفاحشة فاذا دخل عليه رجل على زى الصالحين استحيا منه وفر وترك ذلك العمل وههنا انه رأى يعقوب عليه السلام عض على أنامله فلم يلتفت اليه ثم ان جبريل عليه السلام على جلالة قدره دخل عليه فلم يمتنع أيضا عن ذلك القبيح بسبب حضوره حتى احتاج جبريل عليه السلام الى أن يركضه على ظهره فنسأل الله أن يصوننا عن الغى

في الدين والخذلان في طلب اليقين فهذا هو الكلام الملخص في هذه المسئلة والله أعلم (المسئلة الثالثة) في الفرق بين السوء والفحشاء وفيه وجوه (الاول) ان السوء جناية اليد والفحشاء هو الزنا (الثاني) السوء مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بالشهوة والفحشاء هو الزنا * أما قوله انه من عبادنا المخلصين اي الذين أخلصوا دينهم لله تعالى ومن فتح اللام أراد الذين خلصهم الله من الاسواء ويحتمل أن يكون المراد أنه من ذرية ابراهيم عليه السلام الذين قال الله فيهم انا أخلصناهم بخالصة (المسئلة الرابعة) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو المخلصين بكسر اللام في جميع القرآن والباقون بفتح اللام * قوله تعالى (واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر والفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوأ الا أن يسجن أو عذاب أليم قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر قال انه من كيدكن ان كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين) اعلم أنه تعالى لما حكى عنها أنها همت أتبعه بكيفية طلبها وهرب به فقال واستبقا الباب والمراد أنه هرب منها وحاول الخروج من الباب وعدت المرأة خلفه لتجذبه الى نفسها والاستباق طلب السبق الى الشيء ومعناه تبادرا الى الباب يجتهد كل واحد منهما أن يسبق صاحبه فان سبق يوسف فتح الباب وخرج وان سبقت المرأة أمسكت الباب لئلا يخرج وقوله واستبقا الباب اى استبقا الى الباب كقوله واختار موسى قومه سبعين رجلا اى من قومه واعلم أن يوسف عليه السلام سبقها الى الباب وأراد الخروج والمرأة تعدو خلفه فلم تصل الا الى دبر القميص فقدته اى قطعته طولا وفي ذلك الوقت حضر زوجها وهو المراد من قوله والفيا سيدها لدى الباب اى صادفا بعلها تقول المرأة لبعلها سيدي وانما لم يقل سيدهما لان يوسف عليه السلام ما كان مملوكا لذلك الرجل في الحقيقة فعند ذلك خافت المرأة من التهمة فبادرت الى أن رمت يوسف بالفعل القبيح وقالت ما جزاء من أراد بأهلك سوا الا أن يسجن أو عذاب أليم والمعنى ظاهر * وفي الآية لطائف (احداها) ان ما يحتمل أن تكون نافية اى ليس جزاؤه الا السجن ويجوز أيضا أن تكون استفهامية يعني أي شيء جزاؤه الا أن يسجن كما تقول من في الدار الا زيد (وثانيها) أن حبها الشديد ليوسف حملها على رعاية دقيقتين في هذا الموضع وذلك لانها بدأت بذكر السجن وأخرت ذكر العذاب لان المحب لا يسعى في ايلام المحبوب وأيضا انها لم تذكر أن يوسف يجب أن يعامل بأحد هذين الامرين بل ذكرت ذلك ذكرا كليا صونا للمحبوب عن الذكر بالسوء والالم وأيضا قالت الا أن يسجن والمراد أن يسجن يوما أو أقل على سبيل التخفيف فأما الحبس الدائم فانه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال يجب أن يجعل من المسجونين ألا ترى أن فرعون هكذا قال حين تهدد موسى عليه السلام في قوله لئن اتخذت الها غيري لاجعلنك من ﴿ المسجونين ﴾

احتمال اقلاعها عما كانت عليه بما في مقالته عليه السلام من الزواجر (وهم بها) بمخالطتها اى مال اليها بمقتضى الطبيعة البشرية وشهوة الشباب وقرمه ميلا جبليا لا يكاد يدخل تحت التكليف لا انه قصدها قصدا اختياريا ألا يرى الى ما سبق من استعصامه المنبئ عن كمال كراهيته له ونفرته عنه وحكمه بعدم افلاح الظالمين وهل هو الا تسجيل باستحالة صدور الهم منه عليه السلام تسجيلا محكما وانما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه في صحبة همها في الذكر بطريق المشاكلة لا لشبهه به كما قيل ولقد أشير الى تباينهما حيث لم يلزا في قرن واحد من التعبير بأن قيل ولقد هما بالمخالطة أو هم كل منهما بالآخر وصدر الاول بما يقرر وجوده من التوكيد القسمي وعقب الثاني بما يعفو أثره من قوله عز وجل (لولا أن رأى برهان ربه) اى حجته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنا وسوء سبيله والمراد برؤيته لها كمال ايقانه بها ومشاهدته لها مشاهدة واصلة الى مرتبة عين اليقين الذي تتجلى هناك حقائق الاشياء بصورها الحقيقية وتنخلع عن صورها المستعارة التي بها تظهر في هذه النشأة على ما نطق به قوله عليه السلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنا بموجب ذلك البرهان النير على ما هو عليه في حد ذاته أقبح ما يكون وأوجب ما يجب أن يحذر منه ولذلك فعل ما فعل من الاستعصام والحكم بعدم افلاح من يرتكبه وجواب لولا محذوف يدل عليه الكلام اى لولا مشاهدته برهان ربه في شأن الزنا لجرى على موجب ميله الجبلي ولكنه حيث كان مشاهدا له من قبل استمر على ما هو عليه من قضية البرهان وفائدة هذه الشرطية بيان أن امتناعه

عليه السلام لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة بل لمحض العفة والنزاهة مع وفور الدواعى الداخلية وترتب المقدمات الخارجية الموجبة لظهور الاحكام الطبيعية هذا وقد نص أئمة الصناعة على أن لو لا فى أمثال هذه المواقع جار من حيث المعنى لا من حيث الصيغة مجرى التقييد للحكم المطلق كما فى مثل قوله تعالى ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها فلا يتحقق هناك هم أصلا وقد جوز أن يكون وهم بها جواب لولا جريا على قاعدة الكوفيين فى جواز التقديم فالهم حينئذ على معناه الحقيقى فالمعنى لولا أنه قد شاهد برهان ربه لهم بها كما همت به ولكن حيث انتفى عدم المشاهدة بدليل استعصامه وما يتفرع عليه انتفى الهم رأسا هذا وقد فسر همه عليه السلام بأنه عليه السلام حل الهميان وجلس مجلس الختان وبانه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها ورؤيته للبرهان بأنه سمع صوتا اياك واياها فلم يكترث ثم وثم الى أن تمثل له يعقوب عليه السلام عاضا على أنملته وقيل ضرب على صدره فخرجت شهوته من أنامله وقيل بدت كف فيما بينهما ليس فيها عضد ولا معصم مكتوب فيها وان عليكم لحافظين كراما كاتبين فلم ينصرف ثم رأى فيها ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا فلم ينته ثم رأى فيها واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله فلم ينجع فقال الله عز وجل لجبريل ادرك عبدى قبل أن يصيب الخطيئة فانحط جبريل عليه السلام وهو يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وانت مكتوب فى ديوان الانبياء وقيل رأى تمثال العزيز وقيل وقيل ان كل ذلك الاخرافات وأباطيل تمجها الآذان وتردها العقول والاذهان ويل لمن لاكها ولفقها أو سمعها وصدقها (كذلك) الكاف منصوب المحل

المسجونين (وثالثها) انها لما شاهدت من يوسف عليه السلام أنه استعصم منها مع انه كان فى عنفوان العمر وكمال القوة ونهاية الشهوة عظم اعتقادها فى طهارته ونزاهته فاستحيت أن تقول ان يوسف عليه السلام قصدنى بالسوء وما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب على سبيل التصريح بل اكتفت بهذا التعريض فانظر الى تلك المرأة ما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب وان هؤلاء الحشوية يرمونه بعد قريب من أربعة آلاف سنة بهذا الذنب القبيح (ورابعها) أن يوسف عليه السلام أراد أن يضربها ويدفعها عن نفسه وكان ذلك بالنسبة اليها جاريا مجرى السوء فقولها ما جزاء من أراد بأهلك سوأ جار مجرى التعريض فعلها بقلبها كانت تريد اقدامه على دفعها ومنعها وفى ظاهر الامر كانت توهم انه قصدنى بما لا ينبغى واعلم أن المرأة لما ذكرت هذا الكلام ولطخت عرض يوسف عليه السلام احتاج يوسف الى ازالة هذه التهمة فقال هى راودتنى عن نفسى وأن يوسف عليه السلام ما هتك سترها فى أول الامر الا أنه لما خاف على النفس وعلى العرض أظهر الامر * واعلم أن العلامات الكثيرة كانت دالة على أن يوسف عليه السلام هو الصادق (فالاول) أن يوسف عليه السلام فى ظاهر الامر كان عبدا لهم والعبد لا يمكنه أن يتسلط على مولاه الى هذا الحد (والثانى) انهم شاهدوا أن يوسف عليه السلام كان يعدو عدوا شديدا ليخرج والرجل الطالب للمرأة لا يخرج من الدار على هذا الوجه (والثالث) انهم رأوا أن المرأة زينت نفسها على أكمل الوجوه وأما يوسف عليه السلام فما كان عليه أثر من آثار تزيين النفس فكان الحاق هذه الفتنة بالمرأة أولى (الرابع) انهم كانوا قد شاهدوا أحوال يوسف عليه السلام فى المدة الطويلة فما رأوا عليه حالة تناسب اقدامه على مثل هذا الفعل المنكر وذلك أيضا مما يقوى الظن (الخامس) ان المرأة ما نسبته الى طلب الفاحشة على سبيل التصريح بل ذكرت كلاما مجملا مبهما وأما يوسف عليه السلام فانه صرح بالامر ولو أنه كان متهما لما قدر على التصريح باللفظ الصريح فان الخائن خائف (السادس) قيل ان زوج المرأة كان عاجزا وآثار طلب الشهوة فى حق المرأة كانت متكاملة فالحاق هذه الفتنة بها أولى فلما حصلت هذه الامارات الكثيرة الدالة على أن مبدأ هذه الفتنة كان من المرأة استحيا الزوج وتوقف وسكت لعلمه بأن يوسف صادق والمرأة كاذبة ثم انه تعالى أظهر ليوسف عليه السلام دليلا آخر يقوى تلك الدلائل المذكورة ويدل على أنه برئ عن الذنب وأن المرأة هى المذنبة وهو قوله وشهد شاهد من أهلها وفى هذا الشاهد ثلاثة أقوال (الاول) انه كان لها ابن عم وكان رجلا حكيما واتفق فى ذلك الوقت أنه كان مع الملك يريد أن يدخل عليها فقال قد سمعنا الجلبة من وراء الباب وشق القميص الا أنا لا ندرى أيكما قدام صاحبه فان كان شق القميص من قدامه فأنت صادقة والرجل كاذب وان كان من خلفه فالرجل صادق وأنت كاذبة فلما نظروا الى القميص ورأوا الشق من خلفه قال ابن عمها انه من

وذلك اشارة الى الاراءة المدلول عليها بقوله تعالى لولا أن رأى برهان ربه اى مثل ذلك التبصير والتعريف عرفناه برهاننا فيما قبل أو الى التثبيت اللازم له اى مثل ذلك التثبيت ثبتناه (لنصرف عنه السوء) على الاطلاق فيدخل فيه خيانة السيد دخولا أوليا (والفحشاء) والزنا لانه مفرط في القبح وفيه آية بينة وحجة قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه هم بالمعصية ولا توجه اليها قط والا لقيل لنصرفه عن السوء والفحشاء وانما توجه اليه ذلك من خارج فصرفه الله تعالى عنه بما فيه من موجبات العفة والعصمة فتأمل وقرئ ليصرف على اسناد الصرف الى ضمير الرب (انه من عبادنا المخلصين) تعليل لما سبق من مضمون الجملة بطريق التحقيق والمخلصون هم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته بأن عصمهم عما هو قادح فيها وقرئ على صيغة الفاعل وهم الذين أخلصوا دينهم لله سبحانه وعلى كلا المعنيين فهو منتظم في سلكهم داخل في زمرتهم من أول أمره بقضية الجملة الاسمية لا أن ذلك حدث له بعد أن لم يكن كذلك فانحسم مادة احتمال صدور الهم بالسوء منه عليه السلام بالكلية (واستبقا الباب) متصل بقوله ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه وقوله كذلك الى آخره اعتراض جيء به بين المعطوفين تقريرا لنزاهته عليه السلام كقوله تعالى وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض والمعنى لقد همت به وأبى هو واستبقا الباب ﴿ أنه ﴾ اى تسابقا الى الباب البراني الذى هو المخلص ولذلك وحد بعد الجمع فيما سلف وحذف حرف الجر وأوصل الفعل الى المجرور نحو واذا كالوهم أو ضمن الاستباق معنى الابتدار واسناد السبق فى ضمن الاستباق اليها مع أن مرادها مجرد منع يوسف وذا لا يوجب

كيدكن ان كيدكن عظيم اى من عملكن ثم قال ليوسف أعرض عن هذا واكتمه وقال لها استغفري لذنبك وهذا قول طائفة عظيمة من المفسرين (والثانى) وهو أيضا منقول عن ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن جبير والضحاك ان ذلك الشاهد كان صبيا أنطقه الله تعالى فى المهد فقال ابن عباس تكلم فى المهد أربعة صغار شاهد يوسف وابن ماشطة بنت فرعون وعيسى بن مريم وصاحب جريج الراهب قال الجبائى والقول الاول أولى لوجوه (الاول) انه تعالى لو أنطق الطفل بهذا الكلام لكان مجرد قوله انها كاذبة كافيا وبرهانا قاطعا لانه من البراهين القاطعة القاهرة والاستدلال بتمزيق القميص من قبل ومن دبر دليل ظنى ضعيف والعدول عن الحجة القاطعة حال حضورها وحصولها الى الدلالة الظنية لا يجوز (الثانى) انه تعالى قال وشهد شاهد من أهلها وانما قال من أهلها ليكون أولى بالقبول فى حق المرأة لان الظاهر من حال من يكون من أقرباء المرأة ومن أهلها أن لا يقصدها بالسوء والاضرار فالمقصود بذكر كون ذلك الرجل من أهلها تقوية قول ذلك الرجل وهذه الترجيحات انما يصار اليها عند كون الدلالة ظنية ولو كان هذا القول صادرا عن الصبي الذى فى المهد لكان قوله حجة قاطعة ولا يتفاوت الحال بين أن يكون من أهلها وبين أن لا يكون من أهلها وحينئذ لا يبقى لهذا القيد أثر (والثالث) ان لفظ الشاهد لا يقع فى العرف الا على من تقدمت له معرفة بالواقعة واحاطة بها (والقول الثالث) ان ذلك الشاهد هو القميص قال مجاهد الشاهد كون قميصه مشقوقا من دبر وهذا فى غاية الضعف لان القميص لا يوصف بهذا ولا ينسب الى الاهل واعلم أن القول الاول عليه أيضا اشكال وذلك لان العلامة المذكورة لا تدل قطعا على براءة يوسف عليه السلام عن المعصية لان من المحتمل أن الرجل قصد المرأة لطلب الزنا فالمرأة غضبت عليه فهرب الرجل فعدت المرأة خلف الرجل وجذبته لقصد أن تضربه ضربا وجيعا فعلى هذا الوجه يكون القميص متخرقا من دبر مع أن المرأة تكون بريئة عن الذنب والرجل يكون مذنبا (وجوابه) انا بينا أن علامات كذب المرأة كانت كثيرة بالغة مبلغ اليقين فضموا اليها هذه العلامة الاخرى لا لاجل أن يعولوا فى الحكم عليها بل لاجل أن يكون ذلك جاريا مجرى المقويات والمرجحات ثم انه تعالى أخبر وقال فلما رأى قميصه وذلك يحتمل السيد الذى هو زوجها ويحتمل الشاهد فلذلك اختلفوا فيه قال انه من كيدكن اى ان قولك ما جزاء من أراد بأهلك سوأ من كيدكن ان كيدكن عظيم فان قيل انه تعالى قال خلق الانسان ضعيفا فكيف وصف كيد المرأة بالعظم وأيضا فكيد الرجال قد يزيد على كيد النساء (والجواب) عن الاول ان خلقة الانسان بالنسبة الى خلقة الملائكة والسموات والكواكب خلقة ضعيفة وكيد النسوان بالنسبة الى كيد البشر عظيم ولا منافاة بين القولين وأيضا فالنساء لهن فى هذا الباب من المكر والحيل ما لا يكون للرجال ولان كيدهن فى هذا الباب يورث من العار ما لا يورثه كيد الرجال واعلم

أنه لما ظهر للقوم براءة يوسف عليه السلام عن ذلك الفعل المنكر حكى تعالى عنه أنه قال يوسف أعرض عن هذا فقيل ان هذا من قول العزيز وقيل انه من قول الشاهد ومعناه أعرض عن ذكر هذه الواقعة حتى لا ينتشر خبرها ولا يحصل العار العظيم بسببها وكان أمر يوسف بكتمان هذه الواقعة أمر المرأة بالاستغفار فقال واستغفري لذنبك وظاهر ذلك طلب المغفرة ويحتمل أن يكون المراد من الزوج ويكون معنى المغفرة العفو والصفح وعلى هذا التقدير فالاقرب ان قائل هذا القول هو الشاهد ويحتمل أن يكون المراد بالاستغفار من الله لان أولئك الاقوام كانوا يثبتون الصانع الا انهم مع ذلك كانوا يعبدون الاوثان بدليل أن يوسف عليه السلام قال أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار وعلى هذا التقدير فيجوز أن يكون القائل هو الزوج وقوله انك كنت من الخاطئين نسبة لها الى أنها كانت كثيرة الخطا فيما تقدم وهذا أحد ما يدل على أن الزوج عرف في أول الامر ان الذنب للمرأة لا ليوسف لانه كان يعرف منها اقدامها على ما لا ينبغي وقال أبو بكر الاصم ان ذلك الزوج كان قليل الغيرة فاكتفى منها بالاستغفار وقال صاحب الكشاف وانما قال من الخاطئين بلفظ التذكير تغليبا للذكور على الاناث ويحتمل أن يقال المراد انك من نسل الخاطئين فمن ذلك النسل سرى هذا العرق الخبيث فيك والله أعلم * قوله تعالى (وقال نسوة في المدينة امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا انا لنراها في ضلال مبين فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) لم لم يقل وقالت نسوة قلنا لوجهين (الاول) أن النسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقي فلذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث (الثاني) قال الواحدي تقديم الفعل يدعو الى اسقاط علامة التأنيث على قياس اسقاط علامة التثنية والجمع (المسئلة الثانية) قال الكلبي هن أربع امرأة ساقي العزيز وامرأة خبازه وامرأة صاحب سجنه وامرأة صاحب دوابه وزاد مقاتل وامرأة الحاجب والاشبه أن تلك الواقعة شاعت في البلد واشتهرت وتحدث بها النساء * وامرأة العزيز هي هذه المرأة الملومة تراود فتاها عن نفسه الفتى الحدث الشاب والفتاة الجارية الشابة * قد شغفها حبا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ان الشغاف فيه وجوه (الاول) ان الشغاف جلدة محيطة بالقلب يقال لها غلاف القلب يقال شغفت فلانا اذا أصبت شغافه كما تقول كبدته اذا أصبت كبده فقوله شغفها حبا اى دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب (والثاني) أن حبه أحاط بقلبها مثل احاطة الشغاف بالقلب ومعنى احاطة ذلك الحب بقلبها هو أن اشتغالها بحبه صار حجابا بينها وبين كل ما سوى هذه المحبة فلا تعقل سواه ولا يخطر ببالها الا اياه (والثالث) قال الزجاج الشغاف حبة القلب وسويداء القلب والمعنى أنه وصل حبه الى سويداء قلبها

الاتيان الى الباب لانها لما رأته يسرع الى الباب ليتخلص منها أسرعت هي أيضا لتسبقه اليه وتمنعه عن الفتح والخروج أو عبر عن اسراعها أثره بذلك مبالغة (وقدت قميصه من دبر) اجتذبته من ورائه فانشق طولا وهو القد كما أن الشق عرضا هو القط وقد قيل في وصف علي رضي الله عنه انه كان اذا اعتلى قد واذا اعترض قط واسناد القد اليها خاصة مع أن لقوة يوسف أيضا دخلا فيه اما لانها الجزء الاخير للعلة التامة واما للايذان بمبالغتها في منعه عن الخروج و بذل مجهودها في ذلك لفوت المحبوب أو لخوف الافتضاح (وألفيا سيدها) اى صادفا زوجها واذا لم يكن ملكه ليوسف عليه السلام صحيحا لم يقل سيدهما قيل ألفياه مقبلا وقيل كان جالسا مع ابن عم للمرأة (لدى الباب) اى البراني كما روى كعب رضي الله عنه أنه لما هرب يوسف عليه السلام جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الابواب (قالت) استئناف مبني على سؤال سائل يقول فماذا كان حين ألفيا العزيز عند الباب فقيل قالت (ما جزاء من أراد بأهلك سوأ) من الزنا ونحوه (الا ان يسجن أو عذاب أليم) ما نافية اى ليس جزاؤه الا السجن أو العذاب الاليم قيل المراد به الضرب بالسياط أو استفهامية أي أي شيء جزاؤه غير ذلك أو ذلك ولقد أتت في تلك الحالة التي تدهش فيها الفطن حيث شاهدها العزيز على تلك الهيئة المريبة بحيلة جمعت فيها غرضيها وهما تبرئة ساحتها مما يلوح من ظاهر الحال واستنزال يوسف عن رأيه في استعصائه عليها وعدم مواتاته على مرادها بالقاء الرعب في قلبه من مكرها طمعا في مواقعته لها كرها عند يأسها عن ذلك اختيارا كما قالت ولئن لم يفعل ما آمره

ليسجنن وليكونا من الصاغرين ثم انها جعلت صدور الارادة المذكورة عن يوسف عليه السلام أمرا محققا مفروغا عنه غنيا عن الاخبار بوقوعه وأن ماهى عليه من الافاعيل لاجل تحقيق جزائه فهى تريد ايقاعه حسبما يقتضيه قانون الايالة وفى ابهام المريد تهويل لشأن الجزاء المذكور بكونه قانونا مطردا فى حق كل أحد كائنا من كان وفى ذكر نفسها بعنوان أهلية العزيز اعظام للخطب واغراء له على تحقيق ماتوخاه بحكم الغضب والحمية (قال) استئناف وجواب عما يقال فماذا قال يوسف حينئذ وقيل قال (هى راودتنى عن نفسى) اى طالبتنى للمواتاة لا انى أردت بها سوأ كما قالت وانما قاله عليه السلام لتنزيه نفسه عما أسند اليه من الخيانة وعدم معرفة حق السيد ودفع ماعرضته له من الامرين الامرين وفى التعبير عنها بضمير الغيبة دون الخطاب أو اسم الاشارة مراعاة لحسن الادب مع الايماء الى الاعراض عنهما (وشهد شاهد من أهلها) قيل هو ابن عمها وقيل هو الذى كان جالسا مع زوجها لدى الباب وقيل كان حكيما يرجع اليه الملك ويستشيره وقد جوز أن يكون بعض أهلها قد بصر بها من حيث لا تشعر فأغضبه الله تعالى ليوسف عليه السلام بالشهادة له والقيام بالحق وانما ألقى الله سبحانه الشهادة الى من هو من أهلها ليكون أدل على نزاهته عليه السلام وأنفى للتهمة وقيل كان الشاهد ابن خال لها صبيا فى المهد أنطقه الله تعالى ببراءته وهو الاظهر فانه روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة بنت فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى عليه السلام رواه الحاكم عن أبى

وبالجملة فهذا كناية عن الحب الشديد والعشق العظيم (المسئلة الثانية) قرأ جماعة من الصحابة والتابعين شعفها بالعين قال ابن السكيت يقال شعفه الهوى اذا بلغ الى حد الاحتراق وشعف الهناء البعير اذا بلغ منه الالم الى حد الاحتراق وكشف أبو عبيدة عن هذا المعنى فقال الشعف بالعين احراق الحب القلب مع لذة يجدها كما ان البعير اذا هنئ بالقطران يبلغ منه مثل ذلك ثم يستروح اليه وقال ابن الانبارى الشعف رؤس الجبال ومعنى شعف بفلان اذا ارتفع حبه الى أعلى المواضع من قلبه (المسئلة الثالثة) قوله حبا نصب على التميز ثم قال انا لنراها فى ضلال مبين اى فى ضلال عن طريق الرشد بسبب حبها اياه كقوله ان أبانا لفى ضلال مبين ثم قال تعالى فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن وأعتدت لهن متكأ وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) المراد من قوله فلما سمعت بمكرهن أنها سمعت قولهن وانما سمى قولهن مكرا لوجوه (الاول) أن النسوة انما ذكرن ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام والنظر الى وجهه لانهن عرفن أنهن اذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عذرها عندهن (الثانى) أن امرأة العزيز أسرت اليهن حبها ليوسف وطلبت منهن كتمان هذا السر فلما أظهرن السر كان ذلك غدرا ومكرا (الثالث) أنهن وقعن فى غيبتها والغيبة انما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر (المسئلة الثانية) انها لما سمعت انهن يلمنها على تلك المحبة المفرطة أرادت ابداء عذرها فاتخذت مائدة ودعت جماعة من أكابرهن وأعتدت لهن متكأ وفى تفسيره وجوه (الاول) المتكأ النمرق الذى يتكأ عليه (الثانى) أن المتكأ هو الطعام قال العتبى والاصل فيه أن من دعوته ليطعم عندك فقد أعددت له وسادة فسمى الطعام متكأ على الاستعارة (والثالث) متكأ أترجا وهو قول وهب وأنكر أبو عبيد ذلك ولكنه محمول على أنها وضعت عندهن أنواع الفاكهة فى ذلك المجلس (والرابع) متكأ طعاما يحتاج الى أن يقطع بالسكين لان الطعام متى كان كذلك احتاج الانسان الى أن يتكأ عليه عند القطع ثم نقول حاصل ذلك انها دعت أولئك النسوة وأعتدت لكل واحدة منهن مجلسا معينا وآتت كل واحدة منهن سكينا اى لاجل أكل الفاكهة أو لاجل قطع اللحم ثم انها أمرت يوسف عليه السلام بأن يخرج اليهن ويعبر عليهن وانه عليه السلام ماقدر على مخالفتها خوفا منها فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وههنا مسائل (المسئلة الاولى) فى أكبرنه قولان (الاول) أعظمنه (والثانى) أكبرن بمعنى حضن قال الازهرى والهاء للسكت يقال أكبرت المرأة اذا حاضت وحقيقته دخلت فى الكبر لانها بالحيض تخرج من حد الصغر الى حد الكبر وفيه وجه آخر وهو ان المرأة اذا خافت وفزعت فربما أسقطت ولدها فحاضت فان صح تفسير الأكبار بالحيض فالسبب فيه ماذكرناه وقوله وقطعن أيديهن كناية عن دهشتهن وحيرتهن والسبب فى حسن هذه الكناية أنها لما دهشت فكانت تظن انها تقطع الفاكهة وكانت تقطع يد نفسها أو يقال انها لما دهشت صارت

هريرة رضى الله عنه وقال صحيح على شرط الشيخين وذكر كونه من اهلها للبيان الواقع اذ لا يختلف الحال فى هذه الصورة بين كون الشاهد من أهلها أو من غيرهم (ان كان قميصه قد من قبل) اى ان علم أنه قد من قبل من قبل ونظيره ان أحسنت الى فقد أحسنت اليك فيما قبل فان معناه ان تعتد باحسانك الى فاعتد باحسانى السابق اليك (فصدقت) بتقدير قد لانها تقرب الماضى الى الحال اى فقد صدقت وكذا الحال فى قوله فكذبت وهى وان لم تصرح بأنه عليه السلام أراد بها سوأ الآن كلامها حيث كان واضح الدلالة عليه أسند اليها الصدق والكذب بذلك الاعتبار فانهما كما يعرضان للكلام باعتبار منطوقه يعرضان له باعتبار ما يستلزمه وبذلك الاعتبار يعترضان للانشاآت (وهو من الكاذبين) وهذه الشرطية حيث لا ملازمة عقلية ولا عادية بين مقدمها وتاليها ليست من الشهادة فى شئ وانما ذكرت توسيعا للدائرة وارخاء للعنان الى جانب المرأة باجراء ما عسى يحتمله الحال فى الجملة بأن يقع القد من قبل بمدافعتها له عليه السلام عن نفسها عند ارادته المخالطة والتكشف مجرى الظاهر الغالب الوقوع تقريبا لما هو المقصود باقامة الشهادة أعنى مضمون الشرطية الثانية التى هى قوله عز وجل (وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) الى التسليم والقبول عند السامع لكونه أقرب الى الوقوع وأدل على المطلوب وان لم يكن بين طرفيها أيضا ملازمة وحكاية الشرطية بعد فعل الشهادة لكونها من قبيل الاقوال أو بتقدير القول اى شهد قائلا الخ وتسميتها شهادة مع أنه لا حكم فيها بالفعل بالصدق والكذب لتاديتها مؤداها بل لانها شهادة على الحقيقة وحكم

بحيث لا تميز نصابها من حديدها وكانت تأخذ الجانب الحاد من ذلك السكين بكفها فكان يحصل الجراحة فى كفها (المسئلة الثانية) اتفق الاكثرون على انهن انما أكبرنه بحسب الجمال الفائق والحسن الكامل قيل كان فضل يوسف على الناس فى الفضل والحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال مررت بيوسف عليه السلام ليلة عرج بى الى السماء فقلت لجبريل عليه السلام من هذا فقال هذا يوسف فقيل يارسول الله كيف رأيته قال كالقمر ليلة البدر وقيل كان يوسف اذا سار فى أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من السماء عليها وقيل كان يشبه آدم يوم خلقه ربه وهذا القول هو الذى اتفقوا عليه وعندى انه يحتمل وجها آخر وهو أنهن انما أكبرنه لانهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وآثار الخضوع والاحتشام وشاهدن منه مهابة النبوة وهيئة الملكية وهى عدم الالتفات الى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن وكان الجمال العظيم مقرونا بتلك الهيبة والهيئة فتعجبن من تلك الحالة فلا جرم أكبرنه وعظمنه ووقع الرعب والمهابة منه فى قلوبهن وعندى أن حمل الآية على هذا الوجه أولى فان قيل فاذا كان الامر كذلك فكيف ينطبق على هذا التأويل قولها فذلكن الذى لمتننى فيه وكيف تصير هذه الحالة عذرا لها فى قوة العشق وافراط المحبة قلنا قد تقرر ان الممنوع متبوع فكأنها قالت لهن مع هذا الخلق العجيب وهذه السيرة الملكية الطاهرة المطهرة فحسنه يوجب الحب الشديد وسيرته الملكية توجب اليأس عن الوصول اليه فلهذا السبب وقعت فى المحبة والحسرة والارق والقلق وهذا الوجه فى تأويل الآية أحسن والله أعلم (المسئلة الثالثة) قرأ أبو عمرو وقلن حاشا لله باثبات الالف بعد الشين وهى رواية الاصمعى عن نافع وهى الاصل لانها من المحاشاة وهى التنحية والتبعيد والباقون بحذف الالف للتخفيف وكثرة دورها على الالسن اتباعا للمصحف وحاشا كلمة تفيد معنى التنزيه والمعنى ههنا تنزيه الله تعالى من العجز حيث قدر على خلق جميل مثله وأما قوله حاش لله ما علمنا عليه من سوء فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله (المسئلة الرابعة) قوله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم فيه وجهان (الاول) وهو المشهور ان المقصود منه اثبات الحسن العظيم له قالوا لانه تعالى ركز فى الطباع أن لا حى أحسن من الملك كما ركز فيها أن لا حى أقبح من الشيطان ولذلك قال تعالى فى صفة جهنم طلعها كأنه رؤس الشياطين وذلك لما ذكرنا انه تقرر فى الطباع أن أقبح الاشياء هو الشيطان فكذا ههنا تقرر فى الطباع ان أحسن الاحياء هو الملك فلما أرادت النسوة المبالغة فى وصف يوسف عليه السلام بالحسن لا جرم شبهنه بالملك (والوجه الثانى) وهو الاقرب عندى ان المشهور عند الجمهور ان الملائكة مطهرون عن بواعث الشهوة وجواذب الغضب ونوازع الوهم والخيال فطعامهم توحيد الله تعالى وشرابهم الثناء على الله تعالى ثم ان النسوة لما رأين يوسف عليه السلام لم يلتفت اليهن البتة ورأين عليه

هيبة النبوة وهيبة الرسالة وسيما الطهارة قلن انما رأينا فيه أثرا من أثر الشهوة ولا شيئا من البشرية ولا صفة من الانسانية فهذا قد تطهر عن جميع الصفات المغروزة فى البشر وقد ترقى عن حد الانسانية ودخل فى الملكية فان قالوا فان كان المراد ما ذكرتم فكيف يمهد عذر تلك المرأة عند النسوه فالجواب قد سبق والله أعلم (المسئلة الخامسة) القائلون بأن الملك أفضل من البشر احتجوا بهذه الآية فقالوا لا شك أنهن انما ذكرن هذا الكلام فى معرض تعظيم يوسف عليه السلام فوجب أن يكون اخراجه من البشرية وادخاله فى الملكية سببا لتعظيم شأنه واعلاء مرتبته وانما يكون الامر كذلك لو كان الملك أعلى حالا من البشر ثم نقول لا يخلو اما أن يكون المقصود بيان كمال حاله فى الحسن الذى هو الخلق الظاهر أو كمال حاله فى الحسن الذى هو الخلق الباطن والاول باطل لوجهين (الاول) انهم وصفوه بكونه كريما وانما يكون كريما بسبب الاخلاق الباطنة لا بسبب الخلقة الظاهرة (والثانى) أنا نعلم بالضرورة ان وجه الانسان لا يشبه وجوه الملائكة البتة اما كونه بعيدا عن الشهوة والغضب معرضا عن اللذات الجسمانية متوجها الى عبودية الله تعالى مستغرق القلب والروح فيه فهو أمر مشترك فيه بين الانسان الكامل وبين الملائكة واذا ثبت هذا فنقول تشبيه الانسان بالملك فى الامر الذى حصلت المشابهة فيه على سبيل الحقيقة أولى من تشبيهه بالملك فيما لم تحصل المشابهة فيه البتة فثبت أن تشبيه يوسف عليه السلام بالملك فى هذه الآية انما وقع فى الخلق الباطن لا فى الصورة الظاهرة وثبت انه متى كان الامر كذلك وجب أن يكون الملك أعلى حالا من الانسان فى هذه الفضائل فثبت ان الملك أفضل من البشر والله أعلم (المسئلة السادسة) لغة أهل الحجاز اعمال ما عمل ليس وبها ورد قوله ما هذا بشرا ومنها قوله ما هن أمهاتهم ومن قرأ على لغة بنى تميم قرأ ما هذا بشر وهى قراءة ابن مسعود وقرئ ما هذا بشرا أى ما هو بعبد مملوك للبشر ان هذا الا ملك كريم ثم نقول ما هذا بشرا أى حاصل بشرا بمعنى هذا مشترى وتقول هذا لك بشرا أم بكرا والقراءة المعتبرة هى الاولى لموافقتها المصحف ولمقابلة البشر للملك * قوله تعالى (قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) اعلم ان النسوة لما قلن فى امرأة العزيز قد شغفها حبا انا لنراها فى ضلال مبين عظم ذلك عليها فجمعتهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن فعند ذلك ذكرت انهن باللوم أحق لانهن بنظرة واحدة لحقهن أعظم مما نالها مع انه طال مكثه عندها فان قيل فلم قالت فذلكن مع أن يوسف عليه السلام كان حاضرا (والجواب) عنه من وجوه (الاول) قال ابن الانبارى أشارت بصيغة ذلكن الى يوسف بعد انصرافه من المجلس (والثانى) وهو الذى ذكره صاحب الكشاف وهو أحسن ما قيل ان النسوة كن يقلن انها عشقت عبدها الكنعانى فلما رأينه ووقعن فى تلك الدهشة قالت هذا الذى رأيتموه هو ذلك العبد الكنعانى الذى لمتننى

بصدقه وكذبها أما على تقدير كون الشاهد هو الصبى فظاهر اذ هو اخبار بهما من قبل علام الغيوب والتصوير بصورة الشرطية للايذان بأن ذلك ظاهر من العلائم أيضا وأما على تقدير كونه غيره فلأن الظاهر أن صورة الحال معلومة له على ما هى عليه اما مشاهدة أو اخبارا فهو متيقن بعدم مقدم الشرطية الاولى وبوجود مقدم الشرطية الثانية ومن ضرورته الجزم بانتفاء تالى الاولى وبوقوع تالى الثانية فاذن هو اخبار بكذبها وصدقه عليه السلام لكنه ساق شهادته مساق الأمونا من الجرح والطعن حيث صورها بصورة الشرطية المترددة ظاهرا بين نفعها ونفعه وأما حقيقة فلا تردد فيها قطعا لان الشرطية الاولى تعليق لصدقها بما يستحيل وجوده من قد القميص من قبل فيكون محالا لا محالة ومن ضرورته تقرر كذبها والثانية تعليق لصدقه عليه السلام بأمر محقق الوجود وهو القد من دبر فيكون محققا البتة وهذا كما قيل فيمن قال لامرأة زوجنى نفسك فقالت لى زوج فكذبها فى ذلك فقالت ان لم يكن لى زوج فقد زوجتك نفسى فقبل الرجل فاذا لا زوج لها فهو نكاح اذ تعليق الشئ بأمر مقرر تنجيز له وقرئ من قبل ومن دبر بالضم لانهما قطعا عن الاضافة كقبل وبعد وبالفتح كأنهما جعلا علمين للجهتين فمنعا الصرف للتأنيث والعلمية وقرئ بسكون العين (فلما رأى قميصه قد من دبر) كأنه لم يكن رأى ﴿ فيه ﴾ ذلك بعد أو لم يتدبره فلما تنبه له وعلم حقيقة الحال (قال انه) أى الامر الذى وقع فيه التشاجر وهو عبارة عن ارادة السوء التى أسندت الى يوسف وتدبير عقوبته بقولها ما جزاء من أراد بأهلك سوأ الى آخره لكن لا من حيث

صدور تلك الارادة والاسناد عنها بل مع قطع النظر عن ذلك لئلا يخلو قوله تعالى (من كيدكن) أي من جنس حيلتكن ومكركن أيتها النساء لا من غيركن عن الافادة وتدبير العقوبة وان لم يمكن تجريده عن الاضافة اليها الا أنها لما صور به صورة الحق أفاد الحكم بكونه من كيدهن افادة ظاهرة فتأمل وتعميم الخطاب للتنبيه على أن ذلك خلق لهن عريق * ولا تحسبا هندا لها الغدر وحدها * سجية نفس كل غانية هند * ورجع الضمير الى قوله ما جزاء من أراد بأهلك سوأ فقط عدول عن البحث عن أصل ما وقع فيه النزاع من أن ارادة السوء ممن هي الى البحث عن شعبة من شعبه وجعله للسوء أو للامر المعبر به عن طمعها في يوسف عليه السلام يأباه الخبر فان الكيد يستدعي أن يعتبر مع ذلك هنات أخر من قبلها كما أشرنا اليه (ان كيدكن عظيم) فانه ألطف وأعلق بالقلب وأشد تأثيرا في النفس وعن بعض العلماء اني أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان فانه تعالى يقول ان كيد الشيطان كان ضعيفا وقال للنساء ان كيدكن عظيم ولان الشيطان يوسوس مسارقة وهن يواجهن به الرجال (يوسف) حذف منه حرف النداء لقربه وكمال تفطنه للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحله (أعرض عن هذا) أي عن هذا الامر وعن التحديث به واكتمه فقد ظهر صدقك ونزاهتك (واستغفري) أنت يا هذه (لذنبك) الذي صدر عنك وثبت عليك (انك كنت) بسبب ذلك (من الخاطئين) من جملة القوم المتعمدين للذنب أو من جنسهم يقال خطئ اذا اذنب عمدا وهو تعليل للامر بالاستغفار والتذكير لتغليب الذكور على الاناث وكان العزيز رجلا حليما فاكتفى بهذا القدر من مؤاخذتها وقيل كان قليل

فيه يعني انكن لم تتصورنه حق تصوره ولو حصلت في خيالكن صورته لتركتن هذه الملامة واعلم انها لما أظهرت عذرها عند النسوة في شدة محبتها له كشفت عن حقيقة الحال فقالت ولقد راودته عن نفسه فاستعصم واعلم ان هذا تصريح بأنه عليه السلام كان بريئا عن تلك التهمة وعن السدي أنه قال فاستعصم بعد حل السراويل وما الذي يحمله على الحاق هذه الزيادة الفاسدة الباطلة بنص الكتاب ثم قال ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين والمراد ان يوسف عليه السلام ان لم يوافقها على مرادها يوقع في السجن وفي الصغار ومعلوم ان التوعد بالصغار له تأثير عظيم في حق من كان رفيع النفس عظيم الخطر مثل يوسف عليه السلام وقوله وليكونا كان حمزة والكسائي يقفان على وليكونا بالالف وكذلك قوله لنسفعا والله أعلم * قوله تعالى (قال رب السجن أحب الى مما يدعونني اليه والا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم) واعلم ان المرأة لما قالت ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين وسائر النسوة سمعن هذا التهديد فالظاهر انهن اجتمعن على يوسف عليه السلام وقلن لا مصلحة لك في مخالفة أمرها والا وقعت في السجن وفي الصغار فعند ذلك اجتمع في حق يوسف عليه السلام أنواع من الوسوسة (أحدها) ان زليخا كانت في غاية الحسن (والثاني) انها كانت ذات مال وثروة وكانت على عزم ان تبذل الكل ليوسف بتقدير أن يساعدها على مطلوبها (والثالث) ان النسوة اجتمعن عليه وكل واحدة منهن كانت ترغبه وتخوفه بطريق آخر ومكر النساء في هذا الباب شديد (والرابع) انه عليه السلام كان خائفا من شرها واقدامها على قتله واهلاكه فاجتمع في حق يوسف جميع جهات الترغيب على موافقتها وجميع جهات التخويف على مخالفتها فخاف عليه السلام أن تؤثر هذه الاسباب القوية الكثيرة فيه واعلم أن القوة البشرية والطاقة الانسانية لا تفي بحصول هذه العصمة القوية فعند هذا التجأ الى الله تعالى وقال رب السجن أحب الى مما يدعونني اليه وقرئ السجن بالفتح على المصدر وفيه سؤالان (السؤال الاول) السجن في غاية المكروهية وما دعونه اليه في غاية المطلوبية فكيف قال المشقة أحب الى من اللذة (والجواب) ان تلك اللذة كانت تستعقب آلاما عظيمة وهي الذم في الدنيا والعقاب في الآخرة وذلك المكروه وهو اختيار السجن كان يستعقب سعادات عظيمة وهي المدح في الدنيا والثواب الدائم في الآخرة فلهذا السبب قال السجن أحب الى مما يدعونني اليه (السؤال الثاني) ان حبسهم له معصية كما ان الزنا معصية فكيف يجوز أن يحب السجن مع أنه معصية (والجواب) تقدير الكلام انه اذا كان لابد من التزام أحد الامرين أعني الزنا والسجن فهذا أولى لانه متى وجب التزام أحد شيئين كل واحد منهما شر فأخفهما أولاهما بالتحمل ثم قال والا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين أصب اليهن أمل اليهن يقال صبا الى اللهو يصبو صبوا اذا مال واحتج أصحابنا

الغيرة (وقال نسوة) أي جماعة من النساء وكن خمسا امرأة الساقي وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقي كتأنيث اللمة وهي اسم لجماعة النساء والشبة وهي اسم لجماعة الرجال ولذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث (في المدينة) ظرف لقال أي أشعن الامر في مصر أو صفة لنسوة (امرأة العزيز) أي الملك يريدن قطفير وإضافتهن لها اليه بذلك العنوان دون أن يصرحن باسمها واسمه ليست لقصد المبالغة في اشاعة الخبر بحكم أن النفوس الى سماع أخبار ذوي الاخطار أميل كما قيل اذ ليس مرادهن تفضيح العزيز بل هي لقصد الاشباع في لومها بقولهن (تراود فتاها) أي تطالبه بمواقعته اياها وتحتال في ذلك وتخادعه (عن نفسه) وقيل تطلب منه الفاحشة وايثارهن صيغة المضارع للدلالة على دوام المراودة والفتى من الناس الشاب واصله فتي لقولهم فتيان والفتوة شاذة وجمعه فتية وفتيان ويستعار للمملوك وهو المراد هاهنا وفي الحديث لا يقل احدكم عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي وتعبيرهن عن يوسف عليه السلام بذلك مضافا اليها لا الى العزيز الذي لا يستلزم الاضافة اليه الهوان بل ربما يشعر بنوع عزة لابانة ما بينهما من التباين البين الناشئ عن المالكية والمملوكية وكل ذلك لتربية ما مر من المبالغة والاشباع في اللوم فان من لا زوج لها من النساء او لها زوج دنيء قد تعذر ﴿ لم يعد ﴾ في مراودة الاحداث لا سيما اذا كان فيهم علو الجناب وأما التي لها زوج وأي زوج عزيز مصر فمراودتها لغيره لا سيما لعبدها الذي لا كفاءة بينها وبينه أصلا وتماديها في ذلك غاية الغي ونهاية الضلال (قد شغفها حبا) أي شق حبه شغاف قلبها وهو حجابه

بالآية على ان الانسان لا ينصرف عن المعصية الا اذا صرفه الله تعالى عنها قالوا لان هذه الآية تدل على انه تعالى ان لم يصرفه عن ذلك القبيح وقع فيه وتقريره ان القدرة والداعي الى الفعل والترك ان استويا امتنع الفعل لان الفعل رجحان لاحد الطرفين ومرجوحية للطرف الآخر وحصولهما حال استواء الطرفين جمع بين النقيضين وهو محال وان حصل الرجحان في أحد الطرفين فذلك الرجحان ليس من العبد والا لذهبت المراتب الى غير النهاية بل هو من الله تعالى فالصرف عبارة عن جعله مرجوحا لانه متى صار مرجوحا صار ممتنع الوقوع لان الوقوع رجحان فلو وقع حال المرجوحية لحصل الرجحان حال حصول المرجوحية وهو يقتضي حصول الجمع بين النقيضين وهو محال فثبت بهذا ان انصراف العبد عن القبيح ليس الا من الله تعالى وتوجهه الى الطاعة ليس الا من الله تعالى ويمكن تقرير هذا الكلام من وجه آخر وهو انه كان قد حصل في حق يوسف عليه السلام جميع الاسباب المرغبة في تلك المعصية وهو الانتفاع بالمال والجاه والتمتع بالمنكوح والمطعوم وحصل في الاعراض عنها جميع الاسباب المنفرة ومتى كان الامر كذلك فقد قويت الدواعي في الفعل وضعفت الدواعي في الترك فطلب من الله سبحانه وتعالى أن يحدث في قلبه أنواعا من الدواعي المعارضة النافية لدواعي المعصية اذ لو لم يحصل هذا المعارض لحصل المرجح للوقوع في المعصية خاليا عما يعارضه وذلك يوجب وقوع الفعل وهو المراد بقوله أصب اليهن وأكن من الجاهلين * قوله تعالى (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما اني أراني أعصر خمرا وقال الآخر اني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله انا نراك من المحسنين) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان زوج المرأة لما ظهر له براءة ساحة يوسف عليه السلام فلا جرم لم يتعرض له فاحتالت المرأة بعد ذلك بجميع الحيل حتى تحمل يوسف عليه السلام على موافقتها على مرادها فلم يلتفت يوسف اليها فلما أيست منه احتالت في طريق آخر وقالت لزوجها ان هذا العبد العبراني فضحني في الناس يقول لهم اني راودته عن نفسه وأنا لا أقدر على اظهار عذري فاما ان تأذن لي فأخرج واعتذر واما ان تحبسه كما حبستني فعند ذلك وقع في قلب العزيز ان الاصلح حبسه حتى يسقط عن ألسنة الناس ذكر هذا الحديث وحتى تقل الفضيحة فهذا هو المراد من قوله ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين لان البداء عبارة عن تغير الرأي عما كان عليه في الاول والمراد من الآيات براءته بقد القميص من دبر وخمش الوجه وإلزام الحكم اياها بقوله انه من كيدكن ان كيدكن عظيم وذكرنا انه ظهرت هناك أنواع أخر من الآيات بلغت مبلغ القطع ولكن القوم سكتوا عنها سعيا في اخفاء الفضيحة (المسئلة الثانية) قوله بدا لهم فعل وفاعله في هذا الموضع قوله ليسجننه وظاهر هذا الكلام يقتضي اسناد الفعل الى فعل آخر الا ان النحويين اتفقوا على ان اسناد الفعل الى الفعل لا يجوز فاذا قلت خرج ضرب

أوجلدة رقيقة يقال لها لسان القلب حتى وصل الى فؤادها وقرئ شعفها بالعين من شعف البعير اذا هناه فأحرقه بالقطران وعن الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما الشغف الحب القاتل والشعف حب دون ذلك وكان الشعبى يقول الشغف حب والشعف جنون والجملة خبر ثان أو حال من فاعل تراود أو من مفعوله وأياما كان فهو تكرير للوم وتأكيد للعذل ببيان اختلال أحوالها القلبية كأحوالها القالبية وجعلها تعليلا لدوام المراودة من حيث الانية مصير الى الاستدلال على الاجلى بالاخفى ومن حيث اللمية ميل الى تمهيد العذر من قبلها ولسن بذلك المقام وانتصاب حبا على التمييز لنقله عن الفاعلية اذ الاصل قد شغفها حبه كما أشير اليه (انا لنراها) أى نعلمها علما متاخما للمشاهدة والعيان فيما صنعت من المراودة والمحبة المفرطة مستقره (فى ضلال) عن طريق الرشد والصواب أو سنن العقل (مبين) واضح لا يخفى كونه ضلالا على أحد أو مظهر لامرها بين الناس فالجملة مقررة لمضمون الجملتين السابقتين المسوقتين للوم والتشنيع وتسجيل عليها بأنها فى أمرها على خطأ عظيم وانما لم يقلن انها لفى ضلال مبين اشعارا بان ذلك الحكم غير صادر عنهن مجازفة بل عن علم ورأى مع التلويح بأنهن متنزهات عن أمثال ماهى عليه (فلما سمعت بمكرهن) باغتيابهن وسوء قالتهن وقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعانى وهو مقتها وتسميته مكرا لكونه خفية منها كمكر الماكر وان كان ظاهرا لغيرها وقيل استكتمتهن سرها فأفشينه عليها وقيل انما قلن ذلك لتريهن يوسف عليه السلام (أرسلت اليهن) تدعوهن قيل دعت أربعين امرأة منهن الخمس المذكورات (وأعتدت) أى أحضرت وهيأت (لهن متكأ) أى ما يتكئن عليه

لم يفد البتة فعند هذا قالوا تقدير الكلام ثم بدا لهم سجنه الا انه أقيم هذا الفعل مقام ذلك الاسم وأقول الذوق يشهد بان جعل الفعل مخبرا عنه لا يجوز وليس لاحد أن يقول الفعل خبر فجعل الخبر مخبرا عنه لا يجوز لانا نقول الاسم قد يكون خبرا كقولك زيد قائم فقائم اسم وخبر فعلمنا ان كون الشئ خبرا لا ينافى كونه مخبرا عنه بل نقول فى هذا المقام شكوك (أحدها) انا اذا قلنا ضرب فعل فالمخبر عنه بانه فعل هو ضرب فالفعل صار مخبرا عنه فان قالوا المخبر عنه هو هذه الصيغة وهى اسم فنقول فعلى هذا التقدير يلزم أن يكون المخبر عنه بانه فعل اسم لا فعل وذلك كذب وباطل بل نقول المخبر عنه بانه فعل ان كان فعلا فقد ثبت ان الفعل يصح الاخبار عنه وان كان اسما كان معناه انا أخبرنا عن الاسم بانه فعل ومعلوم انه باطل وفى هذا الباب مباحث عميقة ذكرناها فى كتب المعقولات (المسئلة الثالثة) قال أهل اللغة الحين وقت من الزمان غير محدود يقع على القصير منه وعلى الطويل وقال ابن عباس يريد الى انقطاع المقالة وما شاع فى المدينة من الفاحشة ثم قيل الحين ههنا خمس سنين وقيل بل سبع سنين وقال مقاتل بن سليمان حبس يوسف اثنتى عشرة سنة والصحيح ان هذه المقادير غير معلومة وانما القدر المعلوم انه بقى محبوسا مدة طويلة لقوله تعالى وادكر بعد أمة أما قوله تعالى ودخل معه السجن فتيان فههنا محذوف والتقدير لما أرادوا حبسه حبسوه وحذف ذلك لدلالة قوله ودخل معه السجن فتيان عليه قيل هما غلامان كانا للملك الاكبر بمصر أحدهما صاحب طعامه والآخر صاحب شرابه رفع اليه ان صاحب طعامه يريد أن يسمه وظن ان الآخر يساعده عليه فأمر بحبسهما بقى فى الآية سؤالات (الاول) كيف عرفا انه عليه السلام عالم بالتعبير (والجواب) لعله عليه السلام سألهما عن حزنهما وغمهما فذكرا انا رأينا فى المنام هذه الرؤيا ويحتمل انهما رأياه وقد أظهر معرفته بامور منها تعبير الرؤيا فعندها ذكرا له ذلك (السؤال الثانى) كيف عرف انهما كانا عبدين للملك (الجواب) لقوله فيسقى ربه خمرا أى مولاه وقوله اذكرنى عند ربك (السؤال الثالث) كيف عرف ان أحدهما كان صاحب شراب الملك والآخر صاحب طعامه (والجواب) رؤيا كل واحد منهما تناسب حرفته لان أحدهما رأى انه يعصر الخمر والآخر كأنه يحمل فوق رأسه خبزا (السؤال الرابع) كيف وقعت رؤية المنام (والجواب) فيه قولان (الاول) ان يوسف عليه السلام لما دخل السجن قال لاهله انى أعبر الاحلام فقال أحد الفتيين هلم فلنختبر هذا العبد العبرانى برؤيا نخترعها له فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئا قال ابن مسعود ما كانا رأيا شيئا وانما تحالما ليختبرا علمه (والقول الثانى) قال مجاهد كانا قد رأيا حين دخلا السجن رؤيا فأتيا يوسف عليه السلام فسألاه عنها فقال الساقى أيها العالم انى رأيت كأنى فى بستان فاذا بأصل عنبة حسنة فيها ثلاثة أغصان عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها وكان كأس الملك بيدى فعصرتها فيه وسقيتها الملك فشربه فذلك قوله انى أرانى أعصر خمرا وقال صاحب الطعام انى رأيت كأن فوق رأسى ثلاث سلال فيها خبز وألوان الاطعمة

الغيرة (وقال نسوة) أى جزبت لهن مجلس طعام وشراب لانهم كانوا يتكؤن للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين
* السجن وامرأة الحاج أن يأكل متكأ وقيل متكأ طعاما من قولهم اتكأنا عند فلان أى طعمنا قال جميل فظللنا بنعمة
اسم الجماعة الرجاسر بنا الحلال من قلله وعن مجاهد متكأ طعاما يحز حزا كأن المعنى يعتمد بالسكين عند القطع لان القاطع
العرير) أى المطوع بالسكين وقرئ بغير همز وقرئ بالمد باشباع حركة الكاف كمنتزاح فى منتزح و ينباع

لقصدي وقرئ متكأ اذ هو الاترج وأنشدوا وأهدت متكة لبنى أبيها * تخب بها العثمثمة الوقاح أو ما يقطع من متك الشئ اذا بتكه ومتكأ من تكى اذا اتكى (وآتت كل واحدة منهن سكينا) لتستعمله فى قطع ما يعهد قطعه مما قدم بين أيديهن وقرب اليهن من اللحوم والفواكه ونحوها وهن متكئات وغرضها من ذلك ما سيقع من تقطيع أيديهن (وقالت) ليوسف وهن مشغولات بمعالجة السكاكين واعمالها فيما بأيديهن من الفواكه وأضرابها والعطف بالواو ربما يشير الى أن قولها (اخرج عليهن) أى ابرز لهن لم يكن عقيب ترتيب أمورهن ليتم غرضها من استغفالهن (فلما رأينه) عطف على مقدر يستدعيه الامر بالخروج وينسحب عليه الكلام أى فخرج عليهن فرأينه وانما حذف تحقيقا لمفاجأة رؤيتهن كأنها تفوت عند ذكر خروجه عليهن كما حذف لتحقيق السرعة ﴿ الكلام ﴾ فى قوله عز وجل فلما رآه مستقرا عنده بعد قوله أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك وفيه ايذان بسرعة امتثاله عليه السلام بأمرها فيما لا يشاهد مضرته من الافاعيل (أكبرنه) عظمنه وهبن حسنه الفائق وجماله الرائع الرا ٮ فان فضل جماله على جمال كل جميل

وكذا أشباع الطير تنهش منه فذلك قوله تعالى وقال الآخر انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه (السؤال الخامس) كيف عرف يوسف عليه السلام ان المراد من قوله انى أرانى أعص[illegible]را رؤيا المنام (الجواب) لوجوه (الاول) انه لولم يقصد النوم كان ذكر قوله أعصر [illegible]ن ذكر قوله أرانى (والثانى) دل عليه قوله نبئنا بتأويله (السؤال السادس) كيف يقال [illegible]عصر الخمر (الجواب) فيه ثلاثة أقوال (أحدها) أن يكون المعنى أعصر عنب خمر أى العنب الذى يكون عصيره خمرا فحذف المضاف (الثانى) ان العرب تسمى الشئ باسم ما يؤل اليه اذا انكشف المعنى ولم يلتبس يقولون فلان يطبخ دبسا وهو يطبخ عصيرا (والثالث) قال أبو صالح أهل عمان يسمون العنب بالخمر فوقعت هذه اللفظة الى أهل مكة فنطقوا بها قال الضحاك نزل القرآن بألسنة جميع العرب (السؤال السابع) مامعنى التأويل فى قوله نبئنا بتأويله (الجواب) تأويل الشئ ما يرجع اليه وهو الذى يؤل اليه آخر ذلك الامر (السؤال الثامن) ما المراد من قوله انا نراك من المحسنين (الجواب) من وجوه (الاول) معناه انا نراك تؤثر الاحسان وتأتى بمكارم الاخلاق وجميع الافعال الحميدة قيل انه كان يعود مرضاهم ويؤنس حزينهم فقالوا انك من المحسنين اى فى حق الشركاء والاصحاب وقيل انه كان شديد المواظبة على الطاعات من الصوم والصلاة فقالوا انك من المحسنين فى أمر الدين ومن كان كذلك فانه يوثق بما يقوله فى تعبير الرؤيا وفى سائر الامور وقيل المراد انا نراك من المحسنين فى علم التعبير وذلك لانه متى عبر لم يخط كما قال وعلمتنى من تأويل الاحاديث (السؤال التاسع) ما حقيقة علم التعبير (الجواب) القرآن والبرهان يدلان على صحته أما القرآن فهو هذه الآية وأما البرهان فهو انه قد ثبت انه سبحانه خلق جوهر النفس الناطقة بحيث يمكنها الصعود الى عالم الافلاك ومطالعة اللوح المحفوظ والمانع لها من ذلك اشتغالها بتدبير البدن وفى وقت النوم يقل هذا التشاغل فتقوى على هذه المطالعة فاذا وقعت الروح على حالة من الاحوال تركت آثارا مخصوصة مناسبة لذلك الادراك الروحانى الى عالم الخيال فالمعبر يستدل بتلك الآثار الخيالية على تلك الادراكات العقلية فهذا كلام مجمل وتفصيله مذكور فى الكتب العقلية والشريعة مؤكدة له روى عن النبى عليه السلام أنه قال الرؤيا ثلاثة رؤيا ما يحدث به الرجل نفسه ورؤيا تحدث من الشيطان ورؤيا التى هى الرؤيا الصادقة حقة وهذا تقسيم صحيح فى العلوم العقلية وقال عليه السلام رؤيا الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة * قوله عز وجل (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن المذكور فى هذه الآية ليس بجواب لما سألا عنه فلا بد ههنا من بيان الوجه الذى لاجله عدل عن ذكر الجواب الى هذا

كان كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب * وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر وقيل كان يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس على الماء وقيل معنى أكبرن حضن والهاء للسكت أو ضمير راجع الى يوسف عليه السلام بحذف اللام أى حضن له من شدة الشبق كما قال المتنبى * خف الله واستر ذا الجمال ببرقع * فان لحت ١٨٩ حاضت فى الخدور العواتق (وقطعن أيديهن) أى جرحنها بما فى أيديهن من السكاكين لفرط دهشتهن وخروج حركات جوارحهن عن منهاج الاختيار والاعتياد حتى لم يعلمن ما فعلن وفى التعبير عن الجرح بالقطع ما لا يخفى من الدلالة على كثرة جرحهن ومع ذلك لم يبالين بذلك ولم يشعرن به (وقلن حاش لله) تنزيها له سبحانه عن صفات النقص والعجز وتعجبا من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع واصله حاشا كما قرأه أبو عمرو فى الدرج فحذفت ألفه الاخيرة تخفيفا وهو حرف جر يفيد معنى التنزيه فى باب الاستثناء فلا يستثنى به الا ما يكون موجبا للتنزيه فوضع موضعه فمعنى حاشا الله تنزيه الله وبراءة الله وهى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه واللام لبيان المنزه والمبرأ كما فى سقيا لك والدليل على وضعه موضع المصدر قراءة أبى السمال حاشا بالتنوين وقراءة أبى عمرو بحذف الالف الاخيرة وقراءة الاعمش بحذف الاولى فان التصرف من خصائص الاسم فيدل على تنزيله منزلته وعدم التنوين لمراعاة أصله كما فى قولك جلست من عن يمينه وقوله عذت من عليه منقلب الالف الى الياء مع الضمير وقرئ حاش لله بسكون الشين اتباعا للفتحة الالف فى الاسقاط وحاش الاله وقيل حاشا فاعل من الحشا الذى هو الناحية وفاعله ضمير يوسف

الكلام والعلماء ذكروا فيه وجوها (الاول) انه لما كان جواب أحد السائلين أنه يصلب ولا شك انه متى سمع ذلك عظم حزنه وتشتد نفرته عن سماع هذا الكلام فرأى أن الصلاح أن يقدم قبل ذلك ما يؤثر معه بعلمه وكلامه حتى اذا جاء بها من بعد ذلك خرج جوابه عن أن يكون بسبب تهمة وعداوة (الثانى) لعله عليه السلام أراد أن يبين ان درجته فى العلم أعلى وأعظم مما اعتقدوا فيه وذلك لانهم طلبوا منه علم التعبير ولا شك أن هذا العلم مبنى على الظن والتخمين فبين لهما انه يمكنه الاخبار عن الغيوب على سبيل القطع واليقين مع عجز كل الخلق عنه واذا كان الامر كذلك فبأن يكون فائقا على كل الناس فى علم التعبير كان أولى فكان المقصود من ذكر تلك المقدمة تقرير كونه فائقا فى علم التعبير واصلا فيه الى ما لم يصل غيره (والثالث) قال السدى لا يأتيكما طعام ترزقانه فى النوم بين بذلك أن علمه بتأويل الرؤيا ليس بمقصور على شئ دون غيره ولذلك قال الا نبأتكما بتأويله (الرابع) لعله عليه السلام لما علم أنهما اعتقدا فيه وقبلا قوله فاورد عليهما ما دل على كونه رسولا من عند الله تعالى فان الاشتغال باصلاح مهمات الدين أولى من الاشتغال بمهمات الدنيا (والخامس) لعله عليه السلام لما علم أن ذلك الرجل سيصلب اجتهد فى أن يدخله فى الاسلام حتى لا يموت على الكفر ولا يستوجب العقاب الشديد وليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة (والسادس) قوله لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله محمول على اليقظة والمعنى أنه لا يأتيكما طعام ترزقانه الا أخبرتكما أى طعام هو وأى لون هو وكم هو وكيف يكون عاقبته أى اذا أكله الانسان فهو يفيد الصحة أو السقم وفيه وجه آخر قيل كان الملك اذا أراد قتل انسان صنع له طعاما مسموما فارسله اليه فقال يوسف لا يأتيكما طعام الا أخبرتكما ان فيه سما أم لا هذا هو المراد من قوله لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله وحاصله راجع الى أنه ادعى الاخبار عن الغيب وهو يجرى مجرى قول عيسى عليه السلام وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم فالوجوه الثلاثة الاول لتقرير كونه فائقا فى علم التعبير والوجوه الثلاثة الاخر لتقرير كونه نبيا صادقا من عند الله تعالى فان قيل كيف يجوز حمل الآية على ادعاء المعجزة مع انه لم يتقدم ادعاء النبوة قلنا انه وان لم يذكر ذلك لكن يعلم لانه لا بد وأن يقال انه كان قد ذكره وأيضا ففى قوله ذلكما مما علمنى ربى وفى قوله واتبعت ملة آبائى ما يدل على ذلك ثم قال تعالى ذلكما مما علمنى ربى أى لست أخبركما على جهة الكهانة والنجوم وانما أخبرتكما بوحى من الله وعلم حصل بتعليم الله ثم قال انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لقائل ان يقول فى قوله انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله توهم انه عليه السلام كان فى هذه الملة فنقول جوابه من وجوه (الاول) ان الترك عبارة عن عدم التعرض للشئ وليس من شرطه ان يكون قد كان خائضا فيه (والثانى) وهو الاصح أن يقال انه عليه السلام كان عبدا لهم بحسب زعمهم واعتقادهم الفاسد ولعله قبل ذلك كان لا يظهر التوحيد والايمان خوفا منهم على سبيل التقية ثم انه أظهره فى هذا الوقت

أى صارفى ناجية من أن يقارف ما رمته به فله أى لطاعته أو لمكانه او جانب المعصية لاجل الله (ماهذا بشرا) على اعمال ما بمعنى ليس وهى لغة اهل الحجاز لمشاركتهما فى نفى الحال وقرئ بشر على لغة تميم و بشرى أى بعبد مشترى لئيم نفين عنه البشرية لما شاهدن فيه من الجمال العبقرى الذى لم يعهد مثاله فى البشر وقصر على الملكية بقولهن (ان هذا الا ملك كريم) بناء على ما ركز فى العقول من أن لا حى أحسن من الملك كما ركب فيها أن لا أقبح من الشيطان ولذلك لا يزال يشبه بهما كل متناه فى الحسن والقبح وغرضهن وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال (قالت فذلكن) الفاء فصيحة والخطاب للنسوه والاشارة الى يوسف بالعنوان الذى وصفنه به الآن من الخروج فى الحسن والجمال عن المراتب البشرية والاقتصار على الملكية فاسم الاشارة مبتدأ والموصول خبره والمعنى ان كان الامر كما قلتن فذلكن الملك الكريم النائى عن المراتب البشرية هو (الذى لمتننى فيه) أى عيرتننى فى الافتتان به حيث ربأتن بمحلى بنسبتى الى العزيز ووضعتن قدره بكونه من المماليك أو بالعنوان الذى وصفتنه به فيما سبق بقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعانى فهو خبر لمبتدا محذوف أى فهو ذلك العبد الكنعانى الذى صورتن فى أنفسكن وقلتن فيه وفى ما قلتن فالآن قد علمتن من هو وما قولكن فينا وأما ما يقال تعنى انكن لم تصورنه بحق صورته ولو صورتنه بما عاينتن لعذرتننى فى الافتتان به فلا يلائم المقام فان مرادها بدعوتهن وتمهيد ما مهدته لهن تبكيتهن وتنديمهن على ما صدر عنهن من اللوم وقد فعلت ذلك بما لامزيد عليه وما ذكر من المقال فحق المعتذر قبل ظهور معذرته وقد قيل فى تعليل الملكية ان الجمع بين الجمال الرائق

فكان هذا جاريا مجرى ترك ملة أولئك الكفرة بحسب الظاهر (المسئلة الثانية) تكرير لفظهم فى قوله وهم بالآخرة هم كافرون لبيان اختصاصهم بالكفر ولعل انكارهم للمعاد كان اشد من انكارهم للمبدا فلاجل مبالغتهم فى انكار المعاد كرر هذا اللفظ للتأكيد واعلم ان قوله انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله اشارة الى علم المبدا وقوله وهم بالآخرة هم كافرون اشارة الى علم المعاد من تأمل فى القرآن المجيد وتفكر فى كيفية دعوة الانبياء عليهم السلام علم أن المقصود من ارسال الرسل وانزال الكتب صرف الخلق الى الاقرار بالتوحيد و بالمبدا والمعاد وان ما وراء ذلك عبث ثم قال تعالى واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق و يعقوب وفيه سؤالات (السؤال الاول) ما الفائدة فى ذكر هذا الكلام (الجواب) انه عليه السلام لما ادعى النبوة وتحدى بالمعجزة وهو علم الغيب قرن به كونه من أهل بيت النبوة وان أباه وجده وجد أبيه كانوا أنبياء الله ورسله فان الانسان متى ادعى حرفة أبيه وجده لم يستبعد ذلك منه وأيضا فكما أن درجة ابراهيم عليه السلام واسحق و يعقوب كان أمرا مشهورا فى الدنيا فاذا ظهر أنه ولدهم عظموه ونظروا اليه بعين الاجلال فكان انقيادهم له أتم وتأثر قلوبهم بكلامه أكمل (السؤال الثانى) لما كان نبيا فكيف قال انى اتبعت ملة آبائى والنبى لا بد وان يكون مختصا بشريعة نفسه قلنا لعل مراده التوحيد الذى لم يتغير وأيضا لعله كان رسولا من عند الله الا أنه كان على شريعة ابراهيم عليه السلام (السؤال الثالث) لم قال ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء وحال كل المكلفين كذلك (والجواب) ليس المراد بقوله ما كان لنا أنه حرم ذلك عليهم بل المراد انه تعالى طهر آباءه عن الكفر ونظيره قوله ما كان لله أن يتخذ من ولد (السؤال الرابع) ما الفائده فى قوله من شىء (الجواب) ان أصناف الشرك كثيرة فنهم من يعبد الاصنام ومنهم من يعبد النار ومنهم من يعبد الكواكب ومنهم من يعبد العقل والنفس والطبيعة فقوله ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء رد على كل هؤلاء الطوائف والفرق وارشاد الى الدين الحق وهو أنه لا موجد الا الله ولا خالق الا الله ولا رازق الا الله ثم قال ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس وفيه مسئلة وهى أنه قال ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ثم قال ذلك من فضل الله فقوله ذلك اشارة الى ما تقدم من عدم الاشراك فهذا يدل على ان عدم الاشراك وحصول الايمان من الله ثم بين أن الامر كذلك فى حقه بعينه وفى حق الناس ثم بين أن أكثر الناس لا يشكرون و يجب أن يكون المراد أنهم لا يشكرون الله على نعمة الايمان حكى أن واحدا من أهل السنة دخل على بشر بن المعتمر وقال هل تشكر الله على الايمان أم لا فان قلت لا فقد خالفت الاجماع وان شكرته فكيف تشكره على ما ليس فعلا له فقال له بشر انا نشكره على انه تعالى أعطانا القدره والعقل والآلة فيجب علينا أن نشكره على اعطاء القدره والآلة فاما أن نشكره على الايمان مع ان الايمان ليس فعلا له فذلك باطل وصعب الكلام على بشر فدخل عليهم ثمامة بن الاشرس وقال انا لا نشكر الله على الايمان بل الله يشكرنا

عليه كما قال فأولئك كان سعيهم مشكورا فقال بشر لما صعب الكلام سهل واعلم ان الذى الزمه ثمامة باطل بنص هذه الآية وذلك لانه تعالى بين ان عدم الاشراك من فضل الله ثم بين ان اكثر الناس لايشكرون هذه النعمة وانما ذكره على سبيل الذم فدل هذا على انه يجب على كل مؤمن ان يشكر الله تعالى على نعمة الايمان وحينئذ تقوى الحجة وتكمل الدلالة قال القاضى قوله ذلك ان جعلناه اشاره الى التمسك بالتوحيد فهو من فضل الله تعالى لانه انما حصل بألطافه وتسهيله ويحتمل ان يكون اشارة الى النبوة (والجواب) ان ذلك اشارة الى المذكور السابق وذاك هو ترك الاشراك فوجب أن يكون ترك الاشراك من فضل الله تعالى والقاضى يصرفه الى الالطاف والتسهيل فكان هذا تركا للظاهر وأما صرفه الى النبوة فبعيد لان اللفظ الدال على الاشارة يجب صرفه الى أقرب المذكورات وهو ههنا عدم الاشراك * قوله تعالى (ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ماتعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله ياصاحبى السجن يريد ياصاحبى فى السجن ويحتمل أيضا انه لما حصلت مرافقتهما فى السجن مدة قليلة أضيفا اليه واذا كانت المرافقة القليلة كافية فى كونه صاحبا فمن عرف الله وأحبه طول عمره أولى بان يبقى عليه اسم المؤمن العارف المحب (المسئلة الثانية) اعلم أنه عليه السلام لما ادعى النبوه فى الآية الاولى وكان اثبات النبوة مبنيا على اثبات الالهيات لاجرم شرع فى هذه الآية فى تقرير الالهيات ولما كان أكثر الخلق مقرين بوجود الاله العالم القادر وانما الشأن فى أنهم يتخذون أصناما على صورة الارواح الفلكية ويعبدونها ويتوقعون حصول النفع والضر منها لاجرم كان سعى أكثر الانبياء فى المنع من عبادة الاوثان فكان الامر على هذا القانون فى زمان يوسف عليه السلام فلهذا السبب شرع ههنا فى ذكر ما يدل على فساد القول بعبادة الاصنام وذكر أنواعا من الدلائل والحجج (الحجة الاولى) قوله أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار وتقرير هذه الحجة أن نقول انه تعالى بين أن كثرة الآلهة توجب الخلل والفساد فى هذا العالم وهو قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فكثرة الآلهة توجب الفساد والخلل وكون الاله واحدا يقتضى حصول النظام وحسن الترتيب فلما قرر هذا المعنى فى سائر الآيات قال ههنا أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار والمراد منه الاستفهام على سبيل الانكار (والحجة الثانية) ان هذه الاصنام معمولة لاعاملة ومقهورة لاقاهرة فان الانسان اذا أراد كسرها وابطالها قدر عليها فهى مقهورة لاتأثير لها ولايتوقع حصول منفعة ولامضرة من جهتها واله العالم فعال قهار قادر يقدر على ايصال الخيرات ودفع الشرور والآفات فكان المراد أن عبادة الآلهة المقهورة الذليلة خير أم عبادة الله الواحد القهار فقوله أأرباب اشاره الى الكثرة فجعل

والكمال الفائق والعصمة البالغة من الخواص الملكية وهو أيضا لايلائم قولها فذلكن الذى لمتننى فيه فان عنوان العصمة مماينا فى تمشية مرامها ثم بعد ما أقامت عليهن الحجة وأوضحت لديهن عذرها وقد أصابهن من قبله عليه السلام ما أصابها باحت لهن ببقية سرها فقالت (ولقد راودته عن نفسه) حسبما قلتن وسمعتن (فاستعصم) امتنع طالبا للعصمة وهو بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كأنه فى عصمة وهو يجتهد فى الاستزادة منها كما فى استمسك واستجمع الرأى وفيه برهان نير على انه لم يصدر عنه عليه السلام شئ مخل باستعصامه بقوله معاذ الله من الهم وغيره اعترفت لهن أولا بما كن يسمعنه من مراودتها اياه وأكدته اظهارا لابتهاجها بذلك ثم زادت على ذلك أنه أعرض عنها على أبلغ مايكون ولم يمل اليها قط ثم زادت عليه أيضا أنها مستمرة على ما كانت عليه غير مرغوبة عنه لا بلوم العواذل ولا باعراض الحبيب فقالت (ولئن لم يفعل ما آمره) أى آمر به فيما سيأتى كما لم يفعل فيما مضى فحذف الجار وأوصل الفعل الى الضمير كما فى أمرتك الخير فالضمير للموصول أو أمرى اياه أى موجب أمرى ومقتضاه فما مصدرية والضمير ليوسف وعبرت عن مراودتها بالامر اظهارا لجريان حكومتها عليه واقتضاء للامتثال بأمرها (ليسجنن) بالنون المثقلة آثرت بناء الفعل للمفعول جريا على رسم الملوك أو ايهاما لسرعة ترتب ذلك على عدم امتثاله لامرها كأنه لايدخل بينهما فصل فاعل (وليكونا) بالمخففة (من الصاغرين) أى الاذلاء فى السجن وقد قرئ الفعلان بالتثقيل ولكن المشهورة أولى لان النون كتبت فى المصحف ألفا على حكم الوقف واللام الداخلة على حرف الشرط

موطئة للقسم وجوابه ساد مسد الجوابين ولقد أتت بهذا الوعيد المنطوى على فنون التأكيد بمحضر منهن ليعلم يوسف عليه السلام انها ليست فى امرها على خفية ولا خيفة من أحد فتضيق عليه الحيل وتعيا به العلل وينصحن له ويرشدنه الى موافقتها ولما كان هذا الابراق والارعاد منها مظنة لسؤال سائل يقول فاصنع يوسف حينئذ قيل (قال) مناجيا له عز سلطانه (رب السجن) الذى أوعدتنى بالالقاء فيه وقرأ يعقوب بالفتح على المصدر (أحب الى) أى آثر عندى لانه مشقة قليلة نافدة اثرها راحات جليلة أبدية (مما يدعوننى اليه) من مواتاتها التى تؤدى الى الشقاء والعذاب الاليم وهذا الكلام منه عليه السلام مبنى على ما مر من انكشاف الحقائق لديه وبروز كل منها بصورتها اللائقة بها فصيغة التفضيل ليست على بابها اذ ليس له شائبة محبة لما دعته اليه وانما هو والسجن شران أهونهما وأقربهما الى الايثار السجن والتعبير عن الايثار بالمحبة لحسم مادة طمعها عن المساعدة خوفا من الحبس والاقتصار على ذكر السجن من حيث ان الصغار من فروعه ومستتبعاته واسناد الدعوة اليهن جميعا لان النسوة رغبنه فى مطاوعتها وخوفنه من مخالفتها وقيل دعونه الى أنفسهن وقيل انما ابتلى عليه السلام بالسجن لقوله هذا وكان الاولى به أن يسأل الله تعالى العافية ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسأل الصبر (والا تصرف) أى ان لم تصرف (عنى كيدهن) فى تحبيب ذلك الى وتحسينه لدى بان تثبتنى على ما أنا عليه من العصمة والعفة (أصب اليهن) أى أمل الى اجابتهن أو الى أنفسهن على قضية الطبيعة وحكم القوة الشهوية وهذا فزع منه عليه السلام الى ألطاف الله تعالى جريا

فى مقابلته كونه تعالى واحدا وقوله متفرقون اشارة الى كونها مختلفة فى الكبر والصغر واللون والشكل وكل ذلك انما حصل بسبب أن الناحت والصانع يجعله على تلك الصورة فقوله متفرقون اشارة الى كونها مقهورة عاجزة وجعل فى مقابلته كونه تعالى قهارا فبهذا الطريق الذى شرحناه اشتملت هذه الآية على هذين النوعين الظاهرين (والحجة الثالثة) ان كونه تعالى واحدا يوجب عبادته لانه لو كان له ثان لم نعلم من الذى خلقنا ورزقنا ودفع الشرور والآفات عنا فيقع الشك فى أنا نعبد هذا أم ذاك وفيه اشارة الى ما يدل على فساد القول بعبادة الاوثان وذلك لان بتقدير أن تحصل المساعدة على كونها نافعة ضارة الا أنها كثيرة فحينئذ لا نعلم أن نفعنا ودفع الضرر عنا حصل من هذا الصنم أو من ذلك الآخر او حصل بمشاركتهما ومعاونتهما وحينئذ يقع الشك فى أن المستحق للعبادة هو هذا أم ذاك اما اذا كان المعبود واحدا ارتفع هذا الشك وحصل اليقين فى أنه لا يستحق للعبادة الا هو ولا معبود للمخلوقات والكائنات الا هو فهذا أيضا وجه لطيف مستنبط من هذه الآية (الحجة الرابعة) ان بتقدير أن يساعد على أن هذه الاصنام تنفع وتضر على ما يقوله أصحاب الطلسمات الا أنه لا نزاع فى أنها تنفع فى أوقات مخصوصة وبحسب آثار مخصوصة والاله تعالى قادر على جميع المقدورات فهو قهار على الاطلاق نافذ المشيئة والقدرة فى كل الممكنات على الاطلاق فكان الاشتغال بعبادته أولى (الحجة الخامسة) وهى شريفة عالية وذلك لان شرط القهار أن لا يقهره أحد سواه وأن يكون هو قهارا لكل ما سواه وهذا يقتضى أن يكون الاله واجب الوجود لذاته اذ لو كان ممكنا لكان مقهورا لا قاهرا ويجب أن يكون واحدا اذ لو حصل فى الوجود واجبا لما كان قاهرا لكل ما سواه فالاله لا يكون قهارا الا اذا كان واجبا لذاته وكان واحدا واذا كان المعبود يجب أن يكون كذلك فهذا يقتضى أن يكون الاله شيئا غير الفلك وغير الكواكب وغير النور والظلمة وغير العقل والنفس فأما من تمسك بالكواكب فهى أرباب متفرقون وهى ليست موصوفة بانها قهارة وكذا القول فى الطبائع والارواح والعقول والنفوس فهذا الحرف الواحد كاف فى اثبات هذا التوحيد المطلق وانه مقام عال فهذا مجموع الدلائل المستنبطة من هذه الآية بقى فيها سؤالان (السؤال الاول) لم سماها أربابا وليست كذلك (والجواب) لاعتقادهم فيها أنها كذلك وأيضا الكلام خرج على سبيل الفرض والتقدير والمعنى انها ان كانت أربابا فهى خير ام الله الواحد القهار (السؤال الثانى) هل يجوز التفاضل بين الاصنام وبين الله تعالى حتى يقال انها خير أم الله الواحد القهار (الجواب) انه خرج على سبيل الفرض والمعنى لو سلمنا أنه حصل منها ما يوجب الخير فهى خير أم الله الواحد القهار ثم قال ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان وفيه سؤال وهو انه تعالى قال فيما قبل هذه الآية أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار وذلك يدل على وجود هذه المسميات ثم قال عقيب تلك الآية ما تعبدون من دونه الا أسماء

﴿ سميتموها ﴾

على سنن الانبياء والصالحين فى قصر نيل الخيرات والنجاة عن الشرور على جناب الله عز وجل وسلب القوى والقدر عن أنفسهم ومبالغة فى استدعاء لطفه فى صرف كيدهن باظهار أن لا طاقة له بالمدافعة كقول المستغيث أدركنى والا هلكت لأنه يطلب الاجبار والالجاء الى العصمة والعفة وفى نفسه داعية تدعوه الى هواهن والصبوة الميل الى الهوى ومنه الصبا لان النفوس ﴿ ١٩٣ ﴾ تصبو اليها لطيب نسيمها وروحها وقرئ أصب اليهن من الصبابة وهى رقة الشوق (وأكن من الجاهلين) الذين لا يعملون بما يعلمون لان من لا جدوى لعلمه فهو والجاهل سواء أو من السفهاء بارتكاب ما يدعوننى اليه من القبائح لان الحكيم لا يفعل القبيح (فاستجاب له ربه) دعاءه الذى تضمنه قوله والا تصرف عنى كيدهن الخ فان فيه استدعاء لصرف كيدهن على أبلغ وجه وألطفه كما مر وفى اسناد الاستجابة الى الرب مضافا اليه عليه السلام ما لا يخفى من اظهار اللطف (فصرف عنه كيدهن) حسب دعائه وثبته على العصمة والعفة (انه هو السميع) لدعاء المتضرعين اليه (العليم) بأحوالهم وما يصلحهم (ثم بدا لهم) أى ظهر للعزيز وأصحابه المتصدين للحل والعقد ريثما اكتفوا بأمر يوسف بالكتمان والاعراض عن ذلك (من بعد ﴿ ٢٥ ﴾ خا ما رأوا الآيات) الصارفة لهم عن ذلك البداء وهى الشواهد الدالة على براءته عليه السلام وفاعل بدا اما مصدره أو الرأى المفهوم من السياق أو المصدر المدلول عليه بقوله (ليسجننه) والمعنى بدا لهم بداء أو رأى أو سجنه المحتوم قائلين والله ليسجننه فالقسم المحذوف وجوابه معمول للقول المقدر حالا من ضميرهم وما كان ذلك البداء الا باستنزال المرأة لزوجها وفتلها منه فى الذروة والغارب

سميتموها وهذا يدل على ان المسمى غير حاصل وبينهما تناقض (الجواب) ان الذات موجودة حاصلة الا أن المسمى بالاله غير حاصل وبيانه من وجهين (الاول) أن ذوات الاصنام وان كانت موجودة الا أنها غير موصوفة بصفات الالهية واذا كان كذلك كان الشئ الذى هو مسمى بالاله فى الحقيقة غير موجود ولا حاصل (الثانى) يروى أن عبدة الاوثان مشبهة فاعتقدوا أن الاله هو النور الاعظم وأن الملائكة أنوار صغيرة ووضعوا على صورة تلك الانوار هذه الاوثان ومعبودهم فى الحقيقة هو تلك الانوار السماوية وهذا قول المشبهة فانهم تصوروا جسما كبيرا مستقرا على العرش ويعبدونه وهذا المتخيل غير موجود البتة فصح أنهم لا يعبدون الا مجرد الاسماء واعلم ان جماعة ممن يعبدون الاصنام قالوا نحن لا نقول ان هذه الاصنام آلهة للعالم بمعنى انها هى التى خلقت العالم الا أنا نطلق عليها اسم الاله ونعبدها ونعظمها لاعتقادنا ان الله أمرنا بذلك فاجاب الله تعالى عنه فقال أما تسميتها بالآلهة فما أمر الله تعالى بذلك وما أنزل فى حصول هذه التسمية حجة ولا برهانا ولا دليلا ولا سلطانا وليس لغير الله حكم واجب القبول ولا أمر واجب الالتزام بل الحكم والامر والتكليف ليس الا له ثم انه أمر أن لا تعبدوا الا اياه وذلك لان العبادة نهاية التعظيم والاجلال فلا تليق الا بمن حصل منه نهاية الانعام وهو الاله تعالى لان منه الخلق والاحياء والعقل والرزق والهداية ونعم الله كثيرة وجهات احسانه الى الخلق غير متناهية ثم انه تعالى لما بين هذه الاشياء قال ولكن أكثر الناس لا يعلمون وتفسيره ان أكثر الخلق يسندون حدوث الحوادث الارضية الى الاتصالات الفلكية والمناسبات الكوكبية لاجل أنه تقرر فى العقول أن الحادث لا بد له من سبب فاذا رأوا أن تغير أحوال هذا العالم فى الحر والبرد والفصول الاربعة انما يحصل عند تغير أحوال الشمس فى أرباع الفلك ربطوا الفصول الاربعة بحركة الشمس ثم لما شاهدوا ان احوال النبات والحيوان مختلفة بحسب اختلاف الفصول الاربعة ربطوا حدوث النبات وتغير أحوال الحيوان باختلاف الفصول الاربعة فبهذا الطريق غلب على طباع أكثر الخلق أن المدبر لحدوث الحوادث فى هذا العالم هو الشمس والقمر وسائر الكواكب ثم انه تعالى اذا وفق انسانا حتى ترقى من هذه الدرجة وعرف أنها فى ذواتها وصفاتها مفتقرة الى موجد ومبدع قاهر قادر عليم حكيم فذلك الشخص يكون فى غاية الندرة فلهذا قال ولكن أكثر الناس لا يعلمون * قوله عز وجل (يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الامر الذى فيه تستفتيان) اعلم أنه عليه السلام لما قرر أمر التوحيد والنبوة عاد الى الجواب عن السؤال الذى ذكراه والمعنى ظاهر وذلك لان الساقى لما قص رؤياه على يوسف وقد ذكرنا كيف قص عليه قال له يوسف ما أحسن ما رأيت أما حسن العنبة فهو حسن حالك وأما الاغصان الثلاثة فثلاثة أيام يوجه اليك الملك عند انقضائهن فيردك الى عملك فتصير كما كنت بل أحسن وقال للخباز لما قص عليه بئسما رأيت

موطئة للقسم وجوابه سادّ مسد مفعوله حيث شاعت قال السدى انها قالت للعزيز ان هذا العبد العبرانى قد فضحنى فى الناس يخبرهم عليه السلام انها لست فى نفسه فاما أن تأذن لى فأخرج فأعتذر الى الناس واما أن تحبسه فحبسه ولقد أرادت بذلك تحقيق الى موافقتها ولما كان ج به عريكته وتنقاد لها قرونته لما انصرمت حبال رجائها عن استتباعه بعرض الجمال والترغيب بنفسها مناجيا ر به عز سلطانه وقرئ لتسجننه على صيغة الخطاب بان خاطب بعضهم العزيز ومن يليه أو العزيز وحده (أحب الى) أى آثر وجه التعظيم لانه مشقة فى خاطب به العزيز ومن اثرها را، عنده من أصحاب الرأى (مما المبـاسر ين للسجن والحبس (حتى حين) الى حين انقطاع قالة الناس وهذا بادى الرأى عند العزيز وذويه وأما عندهـا فحتى يذلله السجن ويسخره لهـا و يحسب الناس أنه المجرم وقرئ عتى حين بلغة هذيل (ودخل معه) أى فى صحبته (السجن فتيان) من فتيان الملك ومماليكه أحدهما شرابيه والآخر خبازه روى أن جماعة من أهل مصر ضمنوا لهما مالا ليسما الملك فى طعامه وشرابه فأجاباهم الى ذلك ثم ان الساقى نكل عن ذلك ومضى عليه الخباز فسم الخبز فلما حضر الطعام قال الساقى لا تأكل أيها الملك فان الخبز مسموم وقال الخباز لا تشرب أيها الملك فان الشراب مسموم فقال الملك للساقى اشرب به فشرب به فلم يضره وقال للخباز كله فأبى فجرب بدابة فهلكت فأمر بحبسهما فاتفق أن أدخلاه معه وتأخير الفاعل ✻ فى ✻ عن المفعول لما مر غير مرة من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر ليتمكن عند النفس حين وروده عليها فضل تمكن ونظيره تقديم الظرف على المفعول الصريح فى قوله تعالى فأوجس فى نفسه خيفة وتأخير السجن عن الظرف لايهام العكس أن يكون الظرف خبرا مقدما على المبتدا

السلال الثلاث ثلاثة أيام يوجه اليك الملك عند انقضائهن فيصلبك وتأكل الطير من رأسك ثم نقل فى التفسير أنهما قالا ما رأينا شيئا فقال قضى الامر الذى فيه تستفتيان واختلف فيما لاجله قالا ما رأينا شيئا فقيل انهما وضعا هذا الكلام ليختبرا علمه بالتعبير مع أنهما ما رأيا شيئا وقيل انهما لما كرها ذلك الجواب قالا ما رأينا شيئا فان قيل هذا الجواب الذى ذكره يوسف عليه السلام ذكره بناء على الوحى من قبل الله تعالى أو بناء على علم التعبير والاول باطل لان ابن عباس رضى الله عنهما نقل انه انما ذكره على سبيل التعبير وايضا قال تعالى وقال للذى ظن انه ناج منهما ولو كان ذلك التعبير مبنيا على الوحى لكان الحاصل منه القطع واليقين لا الظن والتخمين (والثانى) ايضا باطل لان علم التعبير مبنى على الظن والحسبان والقضاء هو الالزام بالجزم والحكم البتة فكيف بنى الجزم والقطع على الظن والحسبان (الجواب) لا يبعد أن يقال انهما لما سألاه عن ذلك المنام صدقا فيه أو كذبا فان الله تعالى أوحى اليه ان عاقبة كل واحد منهما تكون على الوجه المخصوص فلما نزل الوحى بذلك الغيب عند ذلك السؤال وقع فى الظن انه ذكره على سبيل التعبير ولا يبعد أيضا أن يقال انه بنى ذلك الجواب على علم التعبير وقوله قضى الامر الذى فيه تستفتيان ما عنى به ان الذى ذكره واقع لا محالة بل عنى به انه حكمه فى تعبير ما سألاه عنه ذلك الذى ذكره ✻ قوله عز وجل (وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين) فيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى ان الموصوف بالظن هو يوسف عليه السلام أو الناجى فعلى الاول كان المعنى وقال الرجل الذى ظن يوسف عليه السلام كونه ناجيا وعلى هذا القول ففيه وجهان (الاول) أن نحمل هذا الظن على العلم واليقين وهذا اذا قلنا بأنه عليه السلام انما ذكر ذلك التعبير بناء على الوحى قال هذا القائل وورود لفظ الظن بمعنى اليقين كثير فى القرآن قال تعالى الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وقال انى ظننت أنى ملاق حسابيه (والثانى) ان نحمل هذا الظن على حقيقة الظن وهذا اذا قلنا انه عليه السلام ذكر ذلك التعبير لا بناء على الوحى بل على الاصول المذكورة فى ذلك العلم وهى لا تفيد الا الظن والحسبان (والقول الثانى) ان هذا الظن صفة الناجى فان الرجلين السائلين ما كانا مؤمنين بنبوة يوسف ورسالته ولكنهما كانا حسنى الاعتقاد فيه فكان قوله لا يفيد فى حقهما الا مجرد الظن (المسئلة الثانية) قال يوسف عليه السلام لذلك الرجل الذى حكم بأنه يخرج من الحبس ويرجع الى خدمة الملك اذكرنى عند ربك أى عند الملك والمعنى اذكر عنده أنه مظلوم من جهة اخوته لما أخرجوه وباعوه ثم انه مظلوم فى هذه الواقعة التى لاجلها حبس فهذا هو المراد من الذكر ثم قال تعالى فانساه الشيطان ذكر ربه وفيه قولان (الاول) انه راجع الى يوسف والمعنى أن الشيطان أنسى يوسف أن يذكر ربه وعلى هذا القول ففيه وجهان (احدهما) ان تمسكه بغير الله كان مستدركا عليه وتقريره من وجوه (الاول) أن مصلحته كانت فى أن لا يرجع

وتكون الجملة حالا من فاعل دخل فتأمل (قال أحدهما) استئناف مبنى على سؤال من يقول ما صنعا بعد ما دخلا معه السجن فاجيب بانه قال أحدهما وهو الشرابي (انى أرانى) أى رأيتني والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة الماضية (أعصر خمرا) أى عنبا سماه بما يؤل اليه لكونه المقصود من العصر وقيل الخمر بلغة عمان اسم للعنب وفى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه أعصر عنبا (وقال الآخر) وهو الخباز (انى أرانى أحمل فوق رأسي خبزا) تأخير المفعول عن الظرف لما مر آنفا وقوله (تأكل الطير منه) أى تنهس منه صفة للخبز أو استئناف مبنى على السؤال (نبئنا بتأويله) بتأويل ما ذكر من الرؤيين أو ما روئى باجراء الضمير مجرى ذلك بطريق الاستعارة فان اسم الاشارة يشار به الى متعدد كما فى قوله * فيها خطوط من سواد وبلق * كأنه فى الجلد توليع البهق * أى كأن ذلك والسر فى المصير الى اجراء الضمير مجرى اسم الاشارة مع أنه لا حاجة اليه بعد تأويل المرجع بما ذكر أو بما روئى أن الضمير انما يتعرض لنفس المرجع من حيث هو من غير تعرض لحال من أحواله فلا ينسى تأويله باحد الاعتبارين الا باجرائه مجرى اسم الاشارة الذى يدل على المشار اليه بالاعتبار الذى جرى عليه فى الكلام فتأمل هذا اذا قالاه معا أو قاله أحدهما من جهتهما معا وأما اذا قاله كل منهما اثر ما قص ما رآه فالخطاب المذكور ليس عبارتهما ولا عبارة أحدهما من جهتهما البتة بل عبارة كل منهم انبئني بتأويله مستفسرا لما رآه وصيغة المتكلم مع الغير واقعة فى الحكاية دون المحكى على طريقة قوله عز وجل يا أيها الرسل كلوا من الطيبات فانهم لم يخاطبوا بذلك دفعة بل خوطب كل منهم فى زمانه بصيغة

في تلك الواقعة الى أحد من المخلوقين وان لا يعرض حاجته على أحد سوى الله وان يقتدى بجده ابراهيم عليه السلام فانه حين وضع فى المنجنيق ليرمى الى النار جاءه جبريل عليه السلام وقال هل من حاجة فقال أما اليك فلا فلما رجع يوسف الى المخلوق لا جرم وصف الله ذلك بان الشيطان أنساه ذلك التفويض وذلك التوحيد ودعاه الى عرض الحاجة الى المخلوقين ثم لما وصفه بذلك ذكر انه بقى لذلك السبب فى السجن بضع سنين والمعنى أنه لما عدل عن الانقطاع الى ربه الى هذا المخلوق عوقب بأن لبث فى السجن بضع سنين وحاصل الامر ان رجوع يوسف الى المخلوق صار سببا لامرين (أحدهما) انه صار سببا لاستيلاء الشيطان عليه حتى أنساه ذكر ربه (الثانى) أنه صار سببا لبقاء المحنة عليه مدة طويلة (الوجه الثانى) أن يوسف عليه السلام قال فى ابطال عبادة الاوثان أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ثم انه ههنا أثبت ربا غيره حيث قال اذكرنى عند ربك ومعاذ الله أن يقال انه حكم عليه بكونه ربا بمعنى كونه الها بل حكم عليه بالربوبية كما يقال رب الدار ورب الثوب على أن اطلاق لفظ الرب عليه بحسب الظاهر يناقض نفى الارباب (الوجه الثالث) انه قال فى تلك الآية ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ وذلك نفى للشرك على الاطلاق وتفويض الامور بالكلية الى الله تعالى فههنا الرجوع الى غير الله تعالى كالمناقض لذلك التوحيد واعلم أن الاستعانة بالناس فى دفع الظلم جائزة فى الشريعة الا ان حسنات الابرار سيآت المقربين فهذا وان كان جائزا لعامة الخلق الا أن الاولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الاسباب بالكلية وأن لا يشتغلوا الا بمسبب الاسباب (الوجه الثانى) فى تأويل الآية أن يقال هب أنه تمسك بغير الله وطلب من ذلك الساقى أن يشرح حاله عند ذلك الملك الا أنه كان من الواجب عليه أن لا يخلى ذلك الكلام من ذكر الله مثل أن يقول ان شاء الله أو قدر الله فلما أخلاه عن هذا الذكر وقع هذا الاستدراك (القول الثانى) أن يقال ان قوله فأنساه الشيطان ذكر ربه راجع الى الناجى والمعنى ان الشيطان أنسى ذلك الفتى أن يذكر يوسف للملك حتى طال الامر فلبث فى السجن بضع سنين بهذا السبب ومن الناس من قال القول الاول أولى لما روى عنه عليه السلام قال رحم الله يوسف لو لم يقل اذكرنى عند ربك ما لبث فى السجن وعن قتادة ان يوسف عليه السلام عوقب بسبب رجوعه الى غير الله وعن ابراهيم التيمى انه لما انتهى الى باب السجن قال له صاحبه ما حاجتك قال أن تذكرنى عند رب سوى الرب الذى قال يوسف وعن مالك لما قال يوسف للساقى اذكرنى عند ربك قيل يا يوسف اتخذت من دونى وكيلا لاطيلن حبسك فبكى يوسف وقال طول البلاء أنسانى ذكر المولى فقلت هذه الكلمة فويل لاخوتى * قال مصنف الكتاب فخر الدين الرازى رحمه الله والذى جربته من أول عمرى الى آخره ان الانسان كلما تعول فى أمر من الامور على غير الله صار ذلك سببا الى البلاء والمحنة والشدة والرزية واذا عول العبد على الله ولم يرجع الى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه فهذه التجربة قد استمرت لى من

أول عمري الى هذا الوقت الذي بلغت فيه الى السابع والخمسين فعند هذا استقر قلبي على انه لا مصلحة للانسان في التعويل على شئ سوى فضل الله تعالى واحسانه ومن الناس من رجح القول الثاني لان صرف وسوسة الشيطان الى ذلك الرجل أولى من صرفها الى يوسف الصديق ولان الاستعانة بالعباد في التخلص من الظلم جائزة واعلم أن الحق هو القول الاول وما ذكره هذا القائل الثاني تمسك بظاهر الشريعة وما قرره القائل الاول تمسك بأسرار الحقيقة ومكارم الشريعة ومن كان له ذوق في مقام العبودية وشرب من مشرب التوحيد عرف ان الامر كما ذكرناه وأيضا ففي لفظ الآية ما يدل على ان هذا القول ضعيف لانه لو كان المراد ذلك لقال فأنساه الشيطان ذكره ربه (المسئلة الثالثة) الاستعانة بغير الله في دفع الظلم جائزة في الشريعة لا انكار عليه الا انه لما كان ذلك مستدركا من المحققين المتوغلين في بحار العبودية لا جرم صار يوسف عليه السلام مؤاخذا به وعند هذا نقول الذي يصير مؤاخذا بهذا القدر لان يصير مؤاخذا بالاقدام على طلب الزنا ومكافأة الاحسان بالاساءة كان أولى فلما رأينا الله تعالى آخذه بهذا القدر ولم يؤاخذه في تلك القضية البتة وما عابه بل ذكره بأعظم وجوه المدح والثناء علمنا أنه عليه السلام كان مبرأ مما نسبه الجهال والحشوية اليه (المسئلة الرابعة) الشيطان يمكنه القاء الوسوسة وأما النسيان فلا لانه عبارة عن ازالة العلم عن القلب والشيطان لا قدرة له عليه والا لكان قد أزال معرفة الله تعالى عن قلوب بني آدم (وجوابه) انه يمكنه من حيث انه بوسوسته يدعو الى سائر الاعمال واشتغال الانسان بسائر الاعمال يمنعه عن استحضار ذلك العلم وتلك المعرفة (المسئلة الخامسة) قوله فلبث في السجن بضع سنين فيه بحثان (الاول) بحسب اللغة قال الزجاج اشتقاقه من بضعت بمعنى قطعت ومعناه القطعة من العدد قال الفراء ولا يذكر البضع الا مع عشرة أو عشرين الى التسعين وذلك يقتضي أن يكون مخصوصا بما بين الثلاثة الى التسعة وقال هكذا رأيت العرب يقولون وما رأيتهم يقولون بضع ومائة وروى الشعبي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لاصحابه كم البضع قالوا الله ورسوله أعلم قال ما دون العشرة واتفق الاكثرون على أن المراد ههنا بضع سنين سبع سنين قالوا ان يوسف عليه السلام حين قال لذلك الرجل اذكرني عند ربك كان قد بقي في السجن خمس سنين ثم بقي بعد ذلك سبع سنين قال ابن عباس رضي الله عنهما لما تضرع يوسف عليه السلام الى ذلك الرجل كان قد اقترب وقت خروجه فلما ذكر ذلك لبث في السجن بعده سبع سنين وروى ان الحسن روى قوله صلوات الله عليه وسلامه رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها ما لبث في السجن هذه المدة الطويلة ثم بكى الحسن وقال نحن اذا نزل بنا أمر تضرعنا الى الناس * قوله تعالى (وقال الملك اني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي ان كنتم للرؤيا تعبرون قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين) اعلم أنه تعالى اذا أراد شيئا

مفردة خاصة به (انا نراك) تعليل لعرض رؤياهما عليه واستفسارهما منه عليه السلام (من المحسنين) من الذين يجيدون عبارة الرؤيا لما رأياه يقص عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤولها له تأويلا حسنا أو من العلماء لما سمعاه يذكر للناس ما يدل على علمه وفضله أو من المحسنين الى أهل السجن أي فأحسن الينا بكشف غمتنا ان كنت قادرا على ذلك روي أنه عليه السلام كان اذا مرض منهم رجل قام عليه واذا ضاق مكانه أوسع له واذا احتاج جمع له وعن قتادة رضي الله عنه كان في السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يقول أبشروا واصبروا تؤجروا فقالوا بارك الله عليك ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك لقد بورك لنا في جوارك فمن أنت يا فتى فقال أنا يوسف بن صفي الله يعقوب بن ذبيح الله اسحق بن خليل الله ابراهيم فقال له عامل السجن لو استطعت خليت سبيلك ولكني أحسن جوارك فكن في أي بيوت السجن شئت وعن الشعبي أنهما تحالما ليمتحناه فقال الشرابي أراني في بستان فاذا بأصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطعتها وعصرتها في كأس الملك وسقيته وقال الخباز اني أراني وفوق رأسي ثلاث سلال فيها أنواع الاطعمة واذا سباع الطير تنهش منها (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه) في مقامكما هذا حسب عادتكما المطردة (الا نبأتكما بتأويله) استثناء مفرغ من أعم الاحوال أي لا يأتيكما طعام في حال من الاحوال الا حال ﴿ هيأه ﴾ ما نبأتكما به بأن بينت لكما ماهيته وكيفيته وسائر أحواله (قبل أن يأتيكما) واطلاق التأويل عليه اما بطريق الاستعارة فان ذلك بالنسبة الى مطلق الطعام المبهم بمنزلة التأويل بالنظر الى ما رؤي في المنام وشبيه له واما بطريق المشاكلة حسبما وقع في عبارتهما

من قولهما نبئنا بتأويله ولا يبعدان يراد بالتاويل الشئ الآيل لا المآل فانه في الاصل جعل شئ آيلا الى شئ آخر فكما يجوز أن يراد به الثاني يجوز أن يراد به الاول فالمعنى الا أنبأتكما بما يؤل اليه من الكلام والخبر المطابق للواقع وكان عليه السلام يقول لهما اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت فيجد انه كذلك ومراده عليه السلام بذلك بيان كل ما يهمهما من الامور المترقبة قبل وقوعها وانما تخصيص الطعام بالذكر لكونه عريقا في ذلك بحسب الحال مع ما فيه من مراعاة حسن التخلص اليه مما استعبراه من الرؤيين المتعلقين بالشراب والطعام وقد جعل الضمير لما قصا من الرؤيين على معنى لا يأتيكما طعام ترزقانه حسب عادتكما الا أخبرتكما بتأويل ما قصصتما على قبل أن يأتيكما ذلك الطعام الموقت مرادا به الاخبار بالاستعجال في التنبئة وأنت خبير بأن النظم الكريم ظاهر في تعدد اتيان الطعام والاخبار بالتأويل وتجددهما وأن المقام مقام اظهار فضله في فنون العلوم بحيث يدخل في ذلك تأويل رؤياهما دخولا أوليا وانما لم يكتف عليه السلام بمجرد تأويل رؤياهما مع أن فيه دلالة على فضله لانهما لما نعتاه عليه السلام بالانتظام في سمط المحسنين وأنهما قد علما ذلك حيث قالا انا نراك من المحسنين توسم عليه السلام فيهما خيرا وتوجها الى قبول الحق فاراد أن يخرج آثر ذي أثير عما في عهدته من دعوة الخلق الى الحق فمهد قبل الخوض في ذلك مقدمة تزيدهما علما بعظم شانه وثقة بامره ووقوفا على علو طبقته في بدائع العلوم توسلا بذلك الى تحقيق ما يتوخاه وقد تخلص اليها من كلامهما فكأنه قال تاويل ما قصصتماه على في طرف

هيأ الله أسبابا ولما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر في النوم سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبعا أخر يابسات فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها فجمع الكهنة وذكرها لهم وهو المراد من قوله يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي فقال القوم هذه الرؤيا مختلطة فلا نقدر على تأويلها وتعبيرها فهذا ظاهر الكلام وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الليث العجف ذهاب السمن والفعل عجف يعجف والذكر أعجف والانثى عجفاء والجمع عجاف في الذكران والاناث وليس في كلام العرب أفعل وفعلاء جمعا على فعال غير أعجف وعجاف وهي شاذة حملوها على لفظ سمان فقالوا سمان وعجاف لانهما نقيضان ومن دأبهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض واللام في قوله للرؤيا تعبرون على قول البعض زائدة لتقدم المعمول على الفعل وقال صاحب الكشاف يجوز أن تكون الرؤيا خبر كان كما تقول كان فلان لهذا الامر اذا كان مستقلا به متمكنا منه وتعبرون خبرا آخر أو حالا ويقال عبرت الرؤيا أعبرها عبارة وعبرتها تعبيرا اذا فسرتها وحكى الازهري أن هذا مأخوذ من العبر وهو جانب النهر ومعنى عبرت النهر والطريق قطعته الى الجانب الآخر فقيل لعابر الرؤيا عابر لانه يتأمل جانبي الرؤيا فيتفكر في أطرافها وينتقل من أحد الطرفين الى الآخر والاضغاث جمع الضغث وهو الحزمة من أنواع النبت والحشيش بشرط أن يكون مما قام على ساق واستطال قال تعالى وخذ بيدك ضغثا اذا عرفت هذا فنقول الرؤيا ان كانت مخلوطة من أشياء غير متناسبة كانت شبيهة بالضغث (المسئلة الثانية) انه تعالى جعل هذه الرؤيا سببا لخلاص يوسف عليه السلام من السجن وذلك لان الملك لما رآه قلق واضطرب بسببه لانه شاهد ان الناقص الضعيف استولى على الكامل القوي فشهدت فطرته بأن هذا ليس بجيد وانه منذر بنوع من أنواع الشر الا انه ما عرف كيفية الحال فيه والشئ اذا صار معلوما من وجه وبقي مجهولا من وجه آخر عظم تشوف الناس الى تكميل تلك المعرفة وقويت الرغبة في اتمام الناقص لاسيما اذا كان الانسان عظيم الشان واسع المملكة وكان ذلك الشئ دالا على الشر من بعض الوجوه فبهذا الطريق قوى الله داعية ذلك الملك في تحصيل العلم بتعبير هذه الرؤيا ثم انه تعالى أعجز المعبرين الذين حضروا عند ذلك الملك عن جواب هذه المسئلة وعماه عليهم ليصير ذلك سببا لخلاص يوسف من تلك المحنة واعلم ان القوم ما نفوا عن أنفسهم كونهم عالمين بعلم التعبير بل قالوا ان علم التعبير على قسمين منه ما تكون الرؤيا فيه منتسقة منتظمة فيسهل الانتقال من الامور المتخيلة الى الحقائق العقلية الروحانية ومنه ما تكون فيه مختلطة مضطربة ولا يكون فيها ترتيب معلوم وهو المسمى بالاضغاث والقوم قالوا ان رؤيا الملك من قسم الاضغاث ثم أخبروا انهم غير عالمين بتعبير هذا القسم وكأنهم قالوا هذه الرؤيا مختلطة من أشياء كثيرة وما كان كذلك فنحن لا نهتدي اليها ولا يحيط عقلنا بها وفيه ايهام ان الكامل في هذا العلم والمتبحر

التمام حيث رأيتما مثاله فى المنام وانى أبين لكما كل جليل ودقيق من الامور المستقبلة وان لم يكن هناك مقدمة المنام حتى إن الطعام الموظف الذى يأتيكما كل يوم أبينه لكما قبل اتيانه ثم أخبرهما بان علمه ذلك ليس من قبيل علوم الكهنة والعرافين بل هو فضل الهى يؤتيه من يشاء ممن يصطفيه للنبوة فقال (ذلكما) أى ذلك التأويل والاخبار بالمغيبات ومعنى البعد فى ذلك للاشارة الى علو درجته و بعد منزلته (مما علمنى ربى) بالوحى والالهام أى بعض منه أو من ذلك الجنس الذى لا يحوم حول ادراكه العقول ولقد دلهما بذلك على أن له علوما جمة ما سمعاه قطعة من جملتها وشعبة من دوحتها ثم بين أن نيل تلك الكرامة بسبب اتباعه ملة آبائه الانبياء العظام وامتناعه عن الشرك فقال (انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله) وهو استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من قوله ذلكما مما علمنى ربى وتعليلا له لا للتعليم الواقع صلة للموصول لتأديته الى معنى انه مما علمنى ربى لهذا السبب دون غيره ولا لمضمون الجملة الخبرية لان ماذكر بصدد التعليل ليس بعلة لكون التأويل المذكور بعضا مما علمه ربه أو لكونه من جنسه بل لنفس تعليم ما علمه فكأنه قيل لماذا علمك ربك تلك العلوم البديعة فقيل لانى تركت ملة الكفرة أى دينهم الذى اجتمعوا عليه من الشرك وعبادة الاوثان والمراد بتركها الامتناع عنها رأسا كما يفصح عنه قوله ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ﴿ فلهذ ﴾ لا تركها بعد ملابستها وانما عبر عنه بذلك لكونه أدخل بحسب الظاهر فى اقتدائهما به عليه السلام والتعبير عن كفرهم بالله تعالى بسلب الايمان به للتنصيص على أن عبادتهم له تعالى مع عبادة الاوثان ليست بايمان به تعالى كما هو زعمهم الباطل على ما مر فى قوله تعالى انه عمل غير صالح

فيه قد يهتدى اليها فعند هذه المقالة تذكر ذلك الشرابى واقعة يوسف فانه كان يعتقد فيه كونه متبحرا فى هذا العلم * قوله تعالى (وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع الى الناس لعلهم يعلمون) اعلم ان الملك لما سأل الملأ عن الرؤيا واعترف الحاضرون بالعجز عن الجواب قال الشرابى ان فى الحبس رجلا فاضلا صالحا كثير العلم كثير الطاعة قصصت أنا والخباز عليه منامين فذكر تأويلهما فصدق فى الكل وما أخطأ فى حرف فان أذنت مضيت اليه وجئتك بالجواب فهذا هو قوله وقال الذى نجا منهما وأما قوله وادكر بعد أمة فنقول سيجئ ادكر فى تفسير قوله تعالى فهل من مدكر فى سورة القمر قال صاحب الكشاف وادكر بالدال هو الفصيح عن الحسن واذكر بالذال أى تذكر وأما الامة ففيه وجوه (الاول) بعد أمة أى بعد حين وذلك لان الحين انما يحصل عند اجتماع الايام الكثيرة كما أن الامة انما تحصل عند اجتماع الجمع العظيم فالحين كان أمة من الايام والساعات (والثانى) قرأ الاشهب العقيلى بعد امة بكسر الهمزة والامة النعمة قال عدى

ثم بعد الفلاح والملك والامة وارتهم هناك القبور

والمعنى بعد ما أنعم عليه بالنجاة (الثالث) قرئ بعد أمه أى بعد نسيان يقال أمه يأمه أمها اذا نسى والصحيح انها بفتح الميم وذكره ابو عبيدة بسكون الميم وحاصل الكلام أنه اما أن يكون المراد وادكر بعد مضى الاوقات الكثيرة من الوقت الذى أوصاه يوسف عليه السلام بذكره عند الملك او المراد وادكره بعد وجدان النعمة عند ذلك الملك او المراد وادكر بعد النسيان فان قيل قوله وادكر بعد أمة يدل على أن الناسى هو الشرابى وأنتم تقولون الناسى هو يوسف عليه السلام قلنا قال ابن الانبارى ادكر بمعنى ذكر وأخبر وهذا لا يدل على سبق النسيان فلعل الساقى انما لم يذكره للملك خوفا من أن يكون ذلك اذكارا لذنبه الذى من أجله حبسه فيزداد الشر ويحتمل أيضا أن يقال حصل النسيان ليوسف عليه السلام وحصل أيضا لذلك الشرابى وأما قوله فارسلون خطاب اما للملك والجمع أو للملك وحده على سبيل التعظيم أما قوله يوسف أيها الصديق ففيه محذوف والتقدير فارسل وأتاه وقال أيها الصديق والصديق هو البالغ فى الصدق وصفه بهذه الصفة لانه لم يجرب عليه كذبا وقيل لانه صدق فى تعبير رؤياه وهذا يدل على ان من اراد أن يتعلم من رجل شيئا فانه يجب عليه أن يعظمه وأن يخاطبه بالالفاظ المشعرة بالاجلال ثم انه أعاد السؤال بعين اللفظ الذى ذكره الملك ونعم ما فعل فان تعبير الرؤيا قد يختلف بسبب اختلاف اللفظ كما هو مذكور فى ذلك العلم اما قوله تعالى لعلى أرجع الى الناس لعلهم يعلمون فالمراد لعلى أرجع الى الناس بفتواك لعلهم يعلمون فضلك وعلمك وانما قال لعلى أرجع الى الناس بفتواك لانه رأى عجز سائر المعبرين عن جواب هذه المسئلة فخاف أن يعجز هو أيضا عنه

(وهم بالآخرة) وما فيها من الجزاء (هم كافرون) على الخصوص دون غيرهم لافراطهم فى الكفر (واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب) يعنى أنه انما حاز هذه الكمالات وفاز بتلك الكرامات بسبب أنه اتبع ملة آبائه الكرام ولم يتبع ملة قوم كفروا بالمبدا والمعاد وانما قاله عليه السلام ترغيبا لصاحبيه فى الايمان والتوحيد وتنفيرا لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال وقدم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه لان التخلية متقدمة على التحلية (ما كان) أى ما صح وما استقام فضلا عن الوقوع (لنا) معاشر الانبياء لقوة نفوسنا ووفور علومنا (أن نشرك بالله من شئ) أى شئ كان من ملك أو جنى أو انسى فضلا عن الجماد البحت (ذلك) أى التوحيد المدلول عليه بقوله ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ (من فضل الله علينا) أى ناشئ من تأييده لنا بالنبوة وترشيحه ايانا لقيادة الامة وهدايتهم الى الحق وذلك مع كونه من موجبات التوحيد ودواعيه نعمة جليلة وفضل عظيم علينا بالذات (وعلى الناس) كافة بواسطتنا وحيث عبر عن ذلك بذلك العنوان عبر عن التوحيد الذى يوجبه بالشكر فقيل (ولكن اكثر الناس لا يشكرون) أى لا يوحدون فان التوحيد مع كونه من آثار ما ذكر من التأييد شكر لله عز وجل على تلك النعمة وانما وضع الظاهر موضع الضمير الراجع الى الناس زيادة توضيح وبيان ولقطع توهم رجوعه الى المجموع الموهم لعدم اختصاص غير الشاكر بالناس وقيل ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث نصب لنا أدلة ننظر فيها ونستدل بها على الحق وقد نصب مثل تلك الادلة لسائر الناس أيضا ولكن أكثرهم لا ينظرون ولا يستدلون بها اتباعا لاهوائهم فيبقون كافرين غير شاكرين ولك أن تقول ذلك التوحيد من فضل الله

فلهذا السبب قال لعلى ارجع الى الناس * قوله عز وجل (قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله الا قليلا مما تأكلون ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) اعلم أنه عليه السلام ذكر تعبير تلك الرؤيا فقال تزرعون وهو خبر بمعنى الامر كقوله والمطلقات يتربصن والوالدات يرضعن وانما يخرج الخبر بمعنى الامر ويخرج الامر فى صورة الخبر للمبالغة فى الايجاب فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه والدليل على كونه فى معنى الامر قوله فذروه فى سنبله وقوله دأبا قال أهل اللغة الدأب استمرار الشئ على حالة واحدة وهو دائب بفعل كذا اذا استمر فى فعله وقد دأب يدأب دأبا ودأبا أى زراعة متوالية فى هذه السنين قال أبو على الفارسى الاكثرون فى دأب الاسكان ولعل الفتحة لغة فيكون كشمع وشمع ونهر ونهر قال الزجاج وانتصب دأبا على معنى تدأبون دأبا وقيل انه مصدر وضع فى موضع الحال وتقديره تزرعون دائبين فما حصدتم فذروه فى سنبله الا قليلا مما تأكلون كل ما أردتم أكله فدوسوه ودعوا الباقى فى سنبله حتى لا يفسد ولا يقع السوس فيه لان ابقاء الحبة فى سنبلها يوجب بقاءها على الصلاح ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد أى سبع سنين مجدبات والشداد الصعاب التى تشتد على الناس وقوله يأكلن ما قدمتم لهن هذا مجاز فان السنة لا تأكل فيجعل أكل أهل تلك السنين مسندا الى السنين وقوله الا قليلا مما تحصنون الاحصان الاحراز وهو ابقاء الشئ فى الحصن يقال أحصنه احصانا اذا جعله فى حرز والمراد الا قليلا مما تحرزون أى تدخرون وكلها ألفاظ ابن عباس رضى الله عنهما وقوله ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس قال المفسرون والسبعة المتقدمة سنو الخصب وكثرة النعم والسبعة الثانية سنو القحط والقلة وهى معلومة من الرؤيا واما حال هذه السنة فما حصل فى ذلك المنام شئ يدل عليه بل حصل ذلك من الوحى فكأنه عليه السلام ذكر أنه يحصل بعد السبعة المخصبة والسبعة المجدبة سنة مباركة كثيرة الخير والنعم وعن قتادة زاده الله علم سنة فان قيل لما كانت العجاف سبعا دل ذلك على أن السنين المجدبة لا تزيد على هذا العدد ومن المعلوم أن الحاصل بعد انقضاء القحط هو الخصب وكان هذا أيضا من مدلولات المنام فلم قلتم انه حصل بالوحى والالهام قلنا هب أن تبدل القحط بالخصب معلوم من المنام اما تفصيل الحال فيه وهو قوله فيه يغاث الناس وفيه يعصرون لا يعلم الا بالوحى قال ابن السكيت يقال غاث الله البلاد يغيثها غيثا اذا أنزل فيها الغيث وقد غيثت الارض تغاث وقوله يغاث الناس معناه يمطرون ويجوز أن يكون من قولهم أغاثه الله اذا أنقذه من كرب أو غم ومعناه ينقذ الناس فيه من كرب الجدب وقوله وفيه يعصرون أى يعصرون السمسم دهنا والعنب خمرا والزيتون زيتا وهذا يدل على ذهاب الجدب وحصول الخصب والخير وقيل يحلبون الضروع وقرئ يعصرون من عصره اذا نجاه وقيل معناه يمطرون من أعصرت السحابة اذا عصرت بالمطر ومنه قوله وأنزلنا

علينا حيث اعطانا عقولا ومشاعر نستعملها في دلائل التوحيد التي مهدها في الانفس والآفاق وقد أعطى سائر الناس أيضا مثلها ولكن أكثرهم لايشكرون أي لايصرفون تلك القوى والمشاعر الى ماخلقت هي له ولايستعملونها فيما ذكر من أدلة التوحيد الآفاقية والانفسية والعقلية والنقلية (ياصاحبي السجن) أي ياصاحبي في السجن كما تقول ياسارق الليلة ناداهما بعنوان الصحبة في مدار الاشجان ودار الاحزان التي تصفو فيها المودة وتخلص النصيحة ليقبلا عليه ويقبلا مقالته وقد ضرب لهما مثلا يتضح به الحق عندهما حق اتضاح فقال (أأرباب متفرقون) لاارتباط بينهم ولااتفاق يستعبد كما كل منهم حسبما أراد غير مراقب للآخرين مع عدم استقلاله (خير) لكما (ام الله) المعبود بالحق (الواحد) المتفرد بالالوهية (القهار) الغالب الذي لا يغالبه أحد وبعد مانبههما على فساد تعدد الارباب بين لهما سقوط آلهتهما عن درجة الاعتبار رأسا فضلا عن الالوهية فقال معمما للخطاب لهما ولمن على دينهما (ما تعبدون من دونه) أي من دون الله شيئا (الا أسماء) فارغة لا مطابق لها في الخارج لان ماليس فيه مصداق اطلاق الاسم عليه لا وجود له أصلا فكانت عبادتهم لتلك الاسماء فقط (سميتموها) جعلتموها أسماء وانما لم يذكر المسميات تربية لما تقتضيه المقام من اسقاطها عن مرتبة الوجود وايذانا بان تسميتهم في البطلان ﴿ وماحالهن ﴾ حيث كانت بلا مسمى كعبادتهم حيث كانت بلا معبود (أنتم وآباؤكم) بمحض جهلكم وضلالتكم (ما أنزل الله بها) أي بتلك التسمية المستتبعة للعبادة (من سلطان) من حجة تدل على صحتها (أن الحكم) في أمر العبادة المتفرعة على تلك التسمية (الا لله) عز سلطانه لانه المستحق

من المعصرات ماء ثجاجا ✽ قوله تعالى (وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسئله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ان ربي بكيدهن عليم قال ماخطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لايهدي كيد الخائنين) اعلم أنه لما رجع الشرابي الى الملك وعرض عليه التعبير الذي ذكره يوسف عليه السلام استحسنه الملك فقال ائتوني به وهذا يدل على فضيلة العلم فانه سبحانه جعل علمه سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية فكيف لايكون العلم سببا للخلاص من المحن الاخروية فعاد الشرابي الى يوسف عليه السلام وقال أجب الملك فأبى يوسف عليه السلام أن يخرج من السجن الا بعد أن ينكشف أمره وتزول التهمة بالكلية عنه وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى اشترطت أن يخرجوني ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال ارجع الى ربك ولو كنت مكانه ولبثت في السجن مالبث لا سرعت الاجابة وبادرتهم الى الباب ولما ابتغيت العذر انه كان حليما ذا أناة واعلم أن الذي فعله يوسف من الصبر والتوقف الى أن تفحص الملك عن حاله هو اللائق بالحزم والعقل وبيانه من وجوه (الاول) انه لو خرج في الحال فربما كان يبقى في قلب الملك من تلك التهمة أثرها فلما التمس من الملك أن يتفحص عن حال تلك الواقعة دل ذلك على براءته من تلك التهمة فبعد خروجه لا يقدر أحد أن يلطخه بتلك الرذيلة وأن يتوسل بها الى الطعن فيه (الثاني) ان الانسان الذي بقي في السجن اثنتي عشرة سنة اذا طلبه الملك وأمر باخراجه الظاهر أنه يبادر بالخروج فحيث لم يخرج عرف منه كونه في نهاية العقل والصبر والثبات وذلك يصير سببا لان يعتقد فيه بالبراءة عن جميع أنواع التهم ولأن يحكم بان كل ما قيل فيه كان كذبا وبهتانا (الثالث) ان التماسه من الملك أن يتفحص عن حاله من تلك النسوة يدل أيضا على شدة طهارته اذ لو كان ملوثا بوجه ما لكان خائفا أن يذكر ماسبق (الرابع) انه حين قال للشرابي اذكرني عند ربك فبقي بسبب هذه الكلمة في السجن بضع سنين وههنا طلبه الملك فلم يلتفت اليه ولم يقم لطلبه وزنا واشتغل باظهار براءته عن التهمة ولعله كان غرضه عليه السلام من ذلك أن لا يبقى في قلبه التفات الى رد الملك وقبوله وكان هذا العمل جاريا مجرى التلافي لما صدر منه من التوسل اليه في قوله اذكرني عند ربك ليظهر أيضا هذا المعنى لذلك الشرابي فانه هو الذي كان واسطة في الحالتين معا أما قوله فاسئله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ ابن كثير والكسائي فسله بغير همز والباقون فاسئله بالهمز وقرأ عاصم برواية أبي بكر عنه النسوة بضم النون والباقون بكسر النون وهما لغتان (المسئلة الثانية) اعلم أن هذه الآية فيها أنواع من اللطائف (أولها) ان معنى الآية فسل الملك بان يسأل ما شأن تلك النسوه

لها بالبنات انه هو الواجب بالذات الموجد للكل والمالك لامره (أمر) استئناف مبني على سؤال ناشئ من قوله ان الحكم الا لله فكأنه قيل فاذا حكم الله في هذا الشأن فقيل أمر على ألسنة الانبياء عليهم السلام (ألا تعبدوا) أي بأن لا تعبدوا (الا اياه) حسبما تقضي به قضية العقل أيضا (ذلك) أي تخصيصه تعالى بالعبادة (الدين القيم) الثابت المستقيم الذي تعاضدت عليه البراهين عقلا ونقلا (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ﴿ ٢٠١ ﴾ أن ذلك هو الدين القيم لجهلهم بتلك البراهين أو لا يعلمون شيئا أصلا فيعدون أسماء سموها من تلقاء أنفسهم معرضين عن البرهان العقلي والسلطان النقلي وبعد تحقيق الحق ودعوتهما اليه وبيانه لهما مقداره الرفيع ومرتبة علمه الواسع شرع في تفسير ما استفسراه ولكونه بحثا مغايرا لما سبق فصله عنه بتكرير الخطاب فقال (ياصاحبي السجن أما أحدكما) وهو الشرابي وانما لم يعينه ثقة بدلالة التعبير وتوسلا بذلك الى ابهام أمر صاحبه حذار مشافهته بما يسوءه (فيسقي ربه) أي سيده (خمرا) روى أنه عليه السلام قال له ما رأيت من الكرمة وحسنها الملك وحسن حالك عنده وأما القضبان الثلاثة فثلاثة أيام تمضي في السجن ثم تخرج وتعود الى ما كنت عليه وقرأ عكرمة فيسقى ربه على البناء للمفعول أي يسقى ما يروى به (وأما الآخر) وهو الخباز (فيصلب فتأكل الطير ﴿ ٣٦ ﴾ خا من رأسه) روى أنه عليه السلام قال له ما رأيت من السلال الثلاث ثلاثة أيام تمر ثم تخرج فتقتل (قضي) أي أتم وأحكم (الامر الذي فيه تستفتيان) وهو ما رأياه من الرؤيين قطعا الا ما آله الذي هو عبارة عن

وما حالهن ليعلم براءتي عن تلك التهمة الا انه اقتصر على ان يسأل الملك عن تلك الواقعة لئلا يشتمل اللفظ على ما يجري مجرى أمر الملك بعمل أو فعل (وثانيها) انه لم يذكر سيدته مع أنها هي التي سعت في القائه في السجن الطويل بل اقتصر على ذكر سائر النسوة (وثالثها) أن الظاهر ان أولئك النسوة نسبنه الى عمل قبيح وفعل شنيع عند الملك فاقتصر يوسف عليه السلام على مجرد قوله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن وما شكا منهن على سبيل التعيين والتفصيل ثم قال يوسف عليه السلام بعد ذلك ان ربي بكيدهن عليم وفي المراد من قوله ان ربي وجهان (الاول) انه هو الله تعالى لانه تعالى هو العالم بخفيات الامور (والثاني) أن المراد به الملك وجعله ربا لنفسه لكونه مربيا له وفيه اشارة الى كون ذلك الملك عالما بكيدهن ومكرهن واعلم أن كيدهن في حقه يحتمل وجوها (أحدها) ان كل واحدة منهن ربما طمعت فيه فلما لم تجد المطلوب أخذت تطعن فيه وتنسبه الى القبيح (وثانيها) لعل كل واحدة منهن بالغت في ترغيب يوسف في موافقة سيدته على مرادها ويوسف [illegible] الخيانة في حق السيد المنعم لا تجوز فأشار بقوله ان ربي بكيدهن [illegible] هن في الترغيب في تلك الخيانة (وثالثها) انه استخرج منهن وجوها من المكر والحيل في تقبيح صورة يوسف عليه السلام عند الملك فكان المراد من هذا اللفظ ذاك ثم انه تعالى حكى عن يوسف عليه السلام انه لما التمس ذلك أمر الملك باحضارهن وقال لهن ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه وفيه وجهان (الاول) ان قوله اذ راودتن يوسف عن نفسه وان كانت صيغة الجمع فالمراد منها الواحدة كقوله تعالى الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم (والثاني) أن المراد منه خطاب الجماعة ثم ههنا وجهان (الاول) ان كل واحدة منهن راودت يوسف عن نفسها (والثاني) ان كل واحدة منهن راودت يوسف لاجل امرأة العزيز فاللفظ محتمل لكل هذه الوجوه وعند هذا السؤال قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء وهذا كالتأكيد لما ذكرن في أول الامر في حقه وهو قولهن ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم واعلم أن امرأة العزيز كانت حاضرة وكانت تعلم أن هذه المناظرات والتفحصات انما وقعت بسببها ولاجلها فكشفت عن الغطاء وصرحت بالقول الحق وقالت الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هذه شهادة جازمة من تلك المرأة بأن يوسف صلوات الله عليه كان مبرأ عن كل الذنوب مطهرا عن جميع العيوب وههنا دقيقة وهي أن يوسف عليه السلام راعى جانب امرأة العزيز حيث قال ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن فذكرهن ولم يذكر تلك المرأة البتة فعرفت المرأة أنه انما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيما لجانبها واخفاء للامر عليها فأرادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن فلا جرم ازالت الغطاء والوطاء واعترفت بأن الذنب كله كان من جانبها وأن يوسف عليه السلام كان مبرأ عن الكل ورأيت في بعض

الكتب أن امرأة جاءت بزوجها الى القاضي وادعت عليه المهر فأمر القاضي بأن يكشف عن وجهها حتى تتمكن الشهود من اقامة الشهادة فقال الزوج لا حاجة الى ذلك فاني مقر بصدقها في دعواها فقالت المرأة لما أكرمني الى هذا الحد فاشهدوا أني أبرأت ذمته من كل حق لي عليه (المسئلة الثانية) قال أهل اللغة حصحص الحق معناه وضح وانكشف وتمكن في القلوب والنفوس من قولهم حصحص البعير في بروكه اذا تمكن واستقر في الارض قال الزجاج اشتقاقه في اللغة من الحصة أي بانت حصة الحق من حصة الباطل (المسئلة الثالثة) اختلفوا في أن قوله ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب كلام من وفيه أقوال (الاول) وهو قول الاكثرين انه قول يوسف عليه السلام قال الفراء ولا يبعد وصل كلام انسان بكلام انسان آخر اذا دلت القرينة عليه ومثاله قوله تعالى ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وهذا كلام بلقيس ثم انه تعالى قال وكذلك يفعلون وأيضا قوله تعالى ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه كلام الداعي ثم قال ان الله لا يخلف الميعاد ثم على هذا القول سؤالات (السؤال الاول) قوله ذلك اشارة الى الغائب والمراد ههنا الاشارة الى تلك الحادثة الحاضرة (والجواب) أجبنا عنه في قوله ذلك الكتاب وقيل ذلك اشارة الى ما فعله من رد الرسول كأنه يقول ذلك الذي فعلت من ردي الرسول انما كان ليعلم الملك أني لم أخنه بالغيب (السؤال الثاني) متى قال يوسف عليه السلام هذا القول (الجواب) روى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك قال ذلك ليعلم وانما ذكره على لفظ الغيبة تعظيما للملك عن الخطاب والاولى أنه عليه السلام انما قال ذلك عند عود الرسول اليه لان ذكر هذا الكلام في حضرة الملك سوء أدب (السؤال الثالث) هذه الخيانة وقعت في حق العزيز فكيف يقول ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب (والجواب) قيل المراد ليعلم الملك أني لم أخن العزيز بالغيبة وقيل انه اذا خان وزيره فقد خانه من بعض الوجوه وقيل ان الشرابي لما رجع الى يوسف عليه السلام وهو في السجن قال ذلك ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب ثم ختم الكلام بقوله وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ولعل المراد منه أني لو كنت خائنا لما خلصني الله تعالى من هذه الورطة وحيث خلصني منها ظهر أني كنت مبرأ عما نسبوني اليه (والقول الثاني) ان قوله ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب كلام امرأة العزيز والمعنى أني وان أحلت الذنب عليه عند حضوره لكني ما أحلت الذنب عليه عند غيبته أي لم أقل فيه وهو في السجن خلاف الحق ثم انها بالغت في تأكيد الحق بهذا القول وقالت وأن الله لا يهدي كيد الخائنين يعني أني لما أقدمت على الكيد والمكر لا جرم افتضحت وأنه لما كان بريئا عن الذنب لا جرم طهره الله تعالى عنه قال صاحب هذا القول والذي يدل على صحته أن يوسف عليه السلام ما كان حاضرا في ذلك المجلس حتى يقال لما ذكرت المرأة قولها الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ففي تلك الحالة يقول يوسف ذلك ليعلم أني لم أخنه

علينا حيث اعـ ما وهلاك الآخر كما يوهمه اسناد القضاء اليه اذ الاستفتاء انما يكون في الحادثة لا في حكمها يقال استفتى الفقيه
مثلها ولكم به أي طلب منه بيان حكمها ولا يقال استفتاه في حكمها وكذا الافتاء فانه يقال أفتى فلان في الواقعة الفلانية بكذا
التوحيد بهم الا أفتى في حكمها أو جوابها بكذا ومما هو علم في ذلك قوله تعالى يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي ومعنى استفتائهما فيه طلبهما
الج ويله بقولهما نبئنا بتأويله وانما عبر عن ذلك بالامر وعن طلب تأويله بالاستفتاء تهويلا لامره وتفخيما

لشأنه اذ الاستفتاء انما يكون في النوازل المشكلة الحكم المبهمة الجواب وايثار صيغة الاستقبال مع سبق استفتائهما في ذلك لما أنهما بصدده الى أن يقضي عليه السلام من الجواب وطره واسناد القضاء اليه مع انه من أحوال مآله لانه في الحقيقة عين ذلك الذي لا يقال في علم وأما توجيه بعد ما نبهه رؤياهما فوائد ما وجداه نبئنا بتأويله لا لان الامر ما اتهما به وسجنا لاجله من سم الملك فانهما لم يستفتيا فيه ولا فيما هو صورته بل فيما هو صورة لمآله وعاقبته فتأمل وانما أخبرهما عليه السلام بذلك تحقيقا لتعبيره وتأكيدا له وقيل لما عبر رؤياهما جحدا وقالا ما رأينا شيئا فأخبرهما ان ذلك كائن صدقتما أو كذبتما ولعل الجحود من الخباز اذ لا داعي الى جحود

الشرابي الا أن يكون ذلك لمراعاة جانبه (وقال) أي يوسف عليه السلام (للذي ظن أنه ناج) أوثر على ﴿ بالغيب ﴾
صيغة المضارع مبالغة في الدلالة على تحقق النجاة حسبما يفيده قوله تعالى قضي الامر الذي فيه تستفتيان وهو السر في
ايثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال للذي ظنه

بالغيب بل يحتاج فيه الى أن يرجع الرسول من ذلك المجلس الى السجن و يذكر له تلك الحكاية ثم ان يوسف يقول ابتداء ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ومثل هذا الوصل بين الكلامين الاجنبيين ماجاء البتة فى نثر ولا نظم فعلمنا ان هذا من تمام كلام المرأة (المسئلة الرابعة) هذه الآية دالة على طهارة يوسف عليه السلام من الذنب من وجوه كثيرة (الاول) ان الملك لما أرسل الى يوسف عليه السلام وطلبه فلو كان يوسف متهما بفعل قبيح وقد كان صدر منه ذنب وفحش لاستحال بحسب العرف والعادة أن يطلب من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة لانه لو كان قد أقدم على الذنب ثم انه يطلب من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة كان ذلك سعيا منه فى فضيحة نفسه وفى تجديد العيوب التى صارت مندرسة مخفية والعاقل لا يفعل ذلك وهب أنه وقع الشك لبعضهم فى عصمته أو فى نبوته الا انه لاشك انه كان عاقلا والعاقل يمتنع أن يسعى فى فضيحة نفسه وفى حمل الاعداء على أن يبالغوا فى اظهار عيوبه (والثانى) أن السوة شهدن فى المرة الاولى بطهارته ونزاهته حيث قلن حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم وفى المرة الثانية حيث قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء (والثالث) ان امرأة العزيز أقرت فى المرة الاولى بطهارته حيث قالت ولقد راودته عن نفسه فاستعصم وفى المرة الثانية فى هذه الآية وأعلم أن هذه الآية دالة على طهارته من وجوه (أولها) قول المرأة أنا راودته عن نفسه (وثانيها) قولها وانه لمن الصادقين وهو اشارة الى انه صادق فى قوله هى راودتنى عن نفسى (وثالثها) قول يوسف عليه السلام ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب والحشوية يذكرون انه لما قال يوسف هذا الكلام قال جبريل عليه السلام ولا حين هممت وهذا من رواياتهم الخبيثة وما صحت هذه الرواية فى كتاب معتمد بل هم يلحقونها بهذا الموضع سعيا منهم فى تحريف ظاهر القرآن (ورابعها) قوله وأن الله لا يهدى كيد الخائنين يعنى ان صاحب الخيانة لابد وأن يفتضح فلو كنت خائنا لوجب ان افتضح وحيث لم افتضح وخلصنى الله تعالى من هذه الورطة فكل ذلك يدل على انى ما كنت من الخائنين وههنا وجه آخر وهو أقوى من الكل وهو أن فى هذا الوقت تلك الواقعة صارت مندرسة وتلك المحنة صارت منتهية فاقدامه على قوله ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب مع انه خانه باعظم وجوه الخيانة اقدام على وقاحة عظيمة وعلى كذب عظيم من غير أن يتعلق به مصلحة بوجه ما والاقدام على مثل هذه الوقاحة من غير فائدة أصلا لا يليق باحد من العقلاء فكيف يليق اسناده الى سيد العقلاء وقدوة الاصفياء فثبت ان هذه الآية تدل دلالة قاطعة على براءته مما يقوله الجهال والحشوية

* قوله تعالى (وما أبرئ نفسى ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربى ان ربى غفور رحيم) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن تفسير هذه الآية يختلف بحسب اختلاف ما قبلها لانا ان قلنا ان قوله ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب كلام يوسف كان هذا أيضا من كلام يوسف وان قلنا ان ذلك من تمام كلام المرأة كان هذا أيضا كذلك ونحن نفسر هذه الآية

ناجيا (منهما) من صاحبيه وانما ذكر بوصف النجاة تمهيدا لمناط التوصية بالذكر عند الملك وعنوان التقرب المفهوم من التعبير المذكور وان كان أدخل فى ذلك وأدعى الى تحقيق ما وصاه به لكنه ليس بوصف فارق يدور عليه الامتياز بينه وبين صاحبه المذكور بوصف الهلاك والظان هو يوسف عليه السلام لا صاحبه لان التوصية المذكورة لا تدور على ظن الناجى بل على ظن يوسف وهو بمعنى اليقين كما فى قوله تعالى ظننت أنى ملاق حسابيه فالتعبير بالوحى كما ينبئ عنه قوله تعالى قضى الامر الخ وقيل هو بمعناه والتعبير بالاجتهاد والحكم بقضاء الامر أيضا اجتهادى (اذكرنى) بما أنا عليه من الحال والصفة (عند ربك) سيدك وصفنى له بصفتى التى شاهدتها (فأنساه الشيطان) أى أنسى الشرابى بوسوسته والقائه فى قلبه أشغالا تعوقه عن الذكر والا فالانساء فى الحقيقة لله عز وجل والفاء للسببية فان توصيته عليه السلام المتضمنة للاستعانة بغيره سبحانه كانت باعثة لما ذكر من الانساء (ذكر ربه) أى ذكر الشرابى له عليه السلام عند الملك والاضافة لادنى ملابسة أو ذكر اخبار ربه (فلبث) أى يوسف عليه السلام بسبب ذلك الانساء أو القول (فى السجن بضع سنين) البضع ما بين الثلاث الى التسع من البضع وهو القطع وأكثر الاقاويل انه لبث فيه سبع سنين وروى عن النبى عليه السلام رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اذكرنى عند ربك لما لبث فى السجن سبعا بعد الخمس والاستعانة بالعباد وان كانت مرخصة لكن اللائق بمناصب الانبياء عليهم السلام الاخذ بالعزائم (وقال الملك) أى الريان (انى أرى) أى رأيت وايثار

صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية (سبع بقرات سمان) جمع سمين وسمينة ككرام فى جمع كريم وكريمة يقال رجال كرام ونسوة كرام (يأكلهن) اى أكلهن والعدول الى المضارع لاستحضار الصورة تعجيبا والجملة حال من البقرات أو صفة لها (سبع عجاف) أى سبع بقرات عجاف وهى جمع عجفاء والقياس عجف لان فعلاء وأفعل لا يجمع على فعال ولكن عدل به عن القياس حملا لاحد النقيضين على الآخر وانما لم يقل سبع عجاف بالاضافة لان التمييز موضوع لبيان الجنس والصفة ليست بصالحة لذلك فلا يقال ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ وأما قولك ثلاثة فرسان وخمسة ركبان فلجريان الفارس والراكب مجرى الاسماء روى انه رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وخرج عقيبهن سبع بقرات عجاف فى غاية الهزال فابتلعت العجاف السمان (وسبع سنبلات خضر) قد انعقد حبها (وأخر يابسات) أى وسبعا أخر يابسات قد أدركت والتوت على الخضر حتى غلبتها على ماروى ولعل عدم التعرض لذكره للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات (يا أيها الملأ) خطاب للاشراف من العلماء والحكماء (أفتونى فى رؤياى) هذه أى عبروها وبينوا حكمها ومآ تؤول اليه من العاقبة والتعبير عن التعبير بالافتاء لتشريفهم وتفخيم أمر رؤياه (ان كنتم للرؤيا تعبرون) أى تعلمون عبارة جنس الرؤيا علما مستمرا ✻ الحكماء ✻ وهى الانتقال من الصور الخيالية المشاهدة فى المنام الى ماهى صور وأمثلة لها من الامور الآفاقية أو الانفسية الواقعة فى الخارج من العبور وهو المجاوزة تقول عبرت النهر اذا قطعته وجاوزته ونحوه اولتها أى ذكرت مآلها وعبرت

على كلا التقديرين اما اذا قلنا ان هذا من كلام يوسف عليه السلام فالحشوية تمسكوا به وقالوا انه عليه السلام لما قال ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب قال جبريل عليه السلام ولا حين هممت بفك سراويلك فعند ذلك قال يوسف وما أبرئ نفسى ان النفس لامارة بالسوء أى بالزنا الا ما رحم ربى أى عصم ربى ان ربى غفور للهم الذى هممت به رحيم أى لو فعلته لتاب على واعلم ان هذا الكلام ضعيف فانا بينا أن الآية المتقدمة برهان قاطع على براءته عن الذنب بقى أن يقال فما جوابكم عن هذه الآية فنقول فيه وجهان (الاول) انه عليه السلام لما قال ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب كان ذلك جاريا مجرى مدح النفس وتزكيتها وقال تعالى فلا تزكوا أنفسكم فاستدرك ذلك على نفسه بقوله وما أبرئ نفسى والمعنى وما أزكى نفسى ان النفس لامارة بالسوء ميالة الى القبائح راغبة فى المعصية (والوجه الثانى) فى الجواب ان الآية لا تدل البتة على شئ مما ذكروه وذلك لان يوسف عليه السلام لما قال انى لم أخنه بالغيب بين أن ترك الخيانة ما كان لعدم الرغبة ولعدم ميل النفس والطبيعة لان النفس أمارة بالسوء والطبيعة تواقة الى اللذات فبين بهذا الكلام ان الترك ما كان لعدم الرغبة بل لقيام الخوف من الله تعالى اما اذا قلنا ان هذا الكلام من بقية كلام المرأة ففيه وجهان (الاول) وما أبرئ نفسى عن مراودته ومقصودها تصديق يوسف عليه السلام فى قوله هى راودتنى عن نفسى (الثانى) انها لما قالت ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب قالت وما أبرئ نفسى عن الخيانة مطلقا فانى قد خنته حين قد أحلت الذنب عليه وقلت ما جزاء من أراد بأهلك سوأ الا أن يسجن أو عذاب أليم وأودعته السجن كأنها أرادت الاعتذار مما كان فان قيل جعل هذا الكلام كلاما ليوسف أولى أم جعله كلاما للمرأة قلنا جعله كلاما ليوسف مشكل لان قوله قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق كلام موصول بعضه ببعض الى آخره فالقول بأن بعضه كلام المرأة والبعض كلام يوسف مع تخلل الفواصل الكثيرة بين القولين وبين المجلسين بعيد وأيضا جعله كلاما للمرأة مشكل أيضا لان قوله وما أبرئ نفسى ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربى كلام لا يحسن صدوره الا ممن احترز عن المعاصى ثم يذكر هذا الكلام على سبيل كسر النفس وذلك لا يليق بالمرأة التى استفرغت جهدها فى المعصية (المسئلة الثانية) قالوا ما فى قوله الا ما رحم ربى بمعنى من والتقدير الا من رحم ربى وما ومن كل واحد منهما يقوم مقام الآخر كقوله تعالى فانكحوا ما طاب لكم من النساء وقال ومنهم من يمشى على أربع وقوله الا ما رحم ربى استثناء متصل أو منقطع فيه وجهان (الاول) أنه متصل وفى تقريره وجهان (الاول) أن يكون قوله الا ما رحم ربى أى الا البعض الذى رحمه ربى بالعصمة كالملائكة (الثانى) الا ما رحم ربى أى الا وقت رحمة ربى يعنى انها أمارة بالسوء فى كل وقت الا فى وقت العصمة (والقول الثانى) انه استثناء منقطع أى ولكن رحمة ربى هى التى تصرف الاساءة كقوله ولا هم ينصرون الا رحمة منا (المسئلة الثالثة) اختلف

الرؤيا عبارة أثبت من عبرتها تعبيرا والجمع بين الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار كما اشير اليه واللام للبيان أو لتقوية العامل المؤخر لرعاية الفواصل أو لتضمين تعبرون معنى فعل متعد باللام كأنه قيل ان كنتم تنتدبون لعبارتها ويجوز أن يكون للرؤيا خبر كان كما يقال فلان لهذا الامر اذا كان مستقلا به متمكنا منه وتعبرون خبر آخر (قالوا) استئناف مبني على السؤال كأنه قيل فماذا قال الملأ للملك فقيل قالوا هي (أضغاث أحلام) أي تخاليطها جمع ضغث وهو في الاصل ما جمع من أخلاط النبات وحزم ثم استعير لما تجمعه القوة المتخيلة من أحاديث النفس ووساوس الشيطان وتريها في المنام والاحلام جمع حلم وهي الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقة لها والاضافة بمعنى من أي هي أضغاث من أحلام أخرجوها من جنس الرؤيا التي لها عاقبة تؤول اليها ويعتنى بأمرها وجمعوها وهي رؤيا واحدة مبالغة في وصفها بالبطلان كما في قولهم فلان يركب الخيل ويلبس العمائم لمن لا يملك الا فرسا واحدا وعمامة فردة أو لتضمنها أشياء مختلفة من البقرات السبع السمان والسبع العجاف والسنابل السبع الخضر والاخر اليابسات فتأمل حسن موقع الاضغاث مع السنابل فلله در شأن التنزيل (وما نحن بتأويل الاحلام) أي المنامات الباطلة التي لا أصل لها (بعالمين) لا لان لها تأويلا ولكن لا نعلمه بل لانه لا تأويل لها وانما التأويل للمنامات الصادقة ويجوز أن يكون ذلك اعترافا منهم بقصور علمهم وأنهم ليسوا بنحارير في تأويل الاحلام مع أن لها تأويلا كما يشعر به عدولهم عما وقع في كلام الملك من العبارة المعربة عن مجرد الانتقال من البال

الحكماء في أن النفس الامارة بالسوء ما هي والمحققون قالوا ان النفس الانسانية شيء واحد ولها صفات كثيرة فاذا مالت الى العالم الالهي كانت نفسا مطمئنة واذا مالت الى الشهوة والغضب كانت أمارة بالسوء وكونها أمارة بالسوء يفيد المبالغة والسبب فيه ان النفس من أول حدوثها قد ألفت المحسوسات والتذت بها وعشقتها فأما شعورها بعالم المجردات وميلها اليه فذلك لا يحصل الا نادرا في حق الواحد فالواحد وذلك الواحد فانما يحصل له ذلك التجرد والانكشاف طول عمره في الاوقات النادرة فلما كان الغالب هو انجذابها الى العالم الجسداني وكان ميلها الى الصعود الى العالم الاعلى نادرا لا جرم حكم عليها بكونها أمارة بالسوء ومن الناس من زعم أن النفس المطمئنة هي النفس العقلية النطقية وأما النفس الشهوانية والغضبية فهما مغايرتان للنفس العقلية والكلام في تحقيق الحق في هذا الباب مذكور في المعقولات (المسئلة الرابعة) تمسك أصحابنا في أن الطاعة والايمان لا يحصلان الا من الله بقوله الا ما رحم ربي قالوا دلت الآية على ان انصراف النفس من الشر لا يكون الا برحمته ولفظ الآية مشعر بأنه متى حصلت تلك الرحمة حصل ذلك الانصراف فنقول لا يمكن تفسير هذه الرحمة باعطاء العقل والقدرة والالطاف كما قاله القاضي لان كل ذلك مشترك بين الكافر والمؤمن فوجب تفسيرها بشيء آخر وهو ترجيح داعية الطاعة على داعية المعصية وقد أثبتنا ذلك أيضا بالبرهان القاطع وحينئذ يحصل منه المطلوب * قوله تعالى (وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين قال اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا في هذا الملك فمنهم من قال هو العزيز ومنهم من قال بل هو الريان الذي هو الملك الاكبر وهذا هو الاظهر لوجهين (الاول) ان قول يوسف اجعلني على خزائن الارض يدل عليه (الثاني) ان قوله أستخلصه لنفسي يدل على انه قبل ذلك ما كان خالصا له وقد كان يوسف عليه السلام قبل ذلك خالصا للعزيز فدل هذا على ان هذا الملك هو الملك الاكبر (المسئلة الثانية) ذكروا أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام وهو في الحبس وقال قل اللهم اجعل لي من عندك فرجا ومخرجا وارزقني من حيث لا أحتسب فقبل الله دعاءه وأظهر هذا السبب في تخليصه من السجن وتقرير الكلام أن الملك عظم اعتقاده في يوسف لوجوه (أحدها) انه عظم اعتقاده في علمه وذلك لانه لما عجز القوم عن الجواب وقدر هو على الجواب الموافق الذي يشهد العقل بصحته مال الطبع اليه (وثانيا) انه عظم اعتقاده في صبره وثباته وذلك لانه بعد ان بقي في السجن بضع سنين لما أذن له في الخروج ما أسرع الى الخروج بل صبر وتوقف وطلب أولا ما يدل على براءة حاله عن جميع التهم (وثالثها) انه عظم اعتقاده في حسن أدبه وذلك لانه اقتصر على قوله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن وان كان غرضه ذكر امرأة العزيز فستر ذكرها وتعرض لامر سائر النسوة مع انه وصل اليه من جهتها أنواع عظيمة من البلاء وهذا من الادب

الى المدلول حيث لم يقولوا بتعبير الاخلام أو عبارتها الى التأويل المنبئ عن التصرف والتكلف فى ذلك لما بين الآيل و[illegible] البعد ويؤيده قوله عز وجل أنا أنبئكم بتأويله (وقال الذى نجا منهما) أى من صاحبى يوسف وهو الشرابى (وادكر) بغير المعجمة وهو الفصيح وعن الحسن بالمعجمة أى تذكر يوسف عليه السلام وشؤنه التى شاهدها ووصيته بتقريب رؤيا الملك واشكال تأويلها على الملا (بعد أمة) أى مدة طويلة وقرئ امة بالكسر وهى النعمة أى بعدما أنعم عليه بالنجاة وامه أى نسيان والجملة حال من الموصول أو من ضميره فى الصلة وقيل معطوفة على نجا وليس بذاك لان حق كل من الصفة والصلة أن تكون معلومة الانتساب الى الموصوف والموصول عند المخاطب كما عند المتكلم ولذلك قيل ان الصفات قبل العلم بها أخبار والاخبار بعد العلم بها صفات وأنت تدرى أن تذكره بعد أمة انما علم بهذه الجملة فلا مجال لنظمه مع نجاته المعلومة قبل فى سلك الصلة (أنا انبئكم بتأويله) أى أخبركم به بالتلقى عمن عنده علمه لا من تلقاء نفسى ولذلك لم يقل انا أفتيكم فيها وعقبه بقوله (فارسلون) أى الى يوسف وانما لم يذكره ثقة بما سبق من التذكر وما لحق من قوله (يوسف أيها الصديق) أى أرسل اليه فأتاه فقال يا يوسف ووصفه بالمبالغة فى الصدق حسبما شاهده وذاق أحواله وجربها لكونه ﴿ المعنى ﴾ بصدد اغتنام آثاره واقتباس أنواره فهو من باب براعة الاستهلال (أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) أى فى رؤيا ذلك وانما لم يصرح به لوضوح مرامه بقرينة ما سبق من معاملتهما ولدلالة مضمون الحادثة

العجيب (ورابعها) براءة حاله عن جميع أنواع التهم فان الخصم أقر له بالطهارة والنزاهة والبراءة عن الجرم (وخامسها) ان الشرابى وصف له جده فى الطاعات واجتهاده فى الاحسان الى الذين كانوا فى السجن (وسادسها) انه بقى فى السجن بضع سنين وهذه الامور كل واحد منها يوجب حسن الاعتقاد فى الانسان فكيف مجموعها فلهذا السبب حسن اعتقاد الملك فيه واذا أراد الله شيئا جمع أسبابه وقواها اذا عرفت هذا فنقول لما ظهر للملك هذه الاحوال من يوسف عليه السلام رغب أن يتخذه لنفسه فقال ائتونى به أستخلصه لنفسى روى أن الرسول قال ليوسف عليه السلام قم الى الملك متنظفا من درن السجن بالثياب النظيفة والهيئة الحسنة فكتب على باب السجن هذه منازل البلوى وقبور الاحياء وشماتة الاعداء وتجربة الاصدقاء ولما دخل عليه قال اللهم انى أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم دخل عليه وسلم ودعا له بالعبرانية والاستخلاص طلب خلوص الشئ من شوائب الاشتراك وهذا الملك طلب أن يكون يوسف له وحده وأنه لا يشاركه فيه غيره لان عادة الملوك أن ينفردوا بالاشياء النفيسة الرفيعة فلما علم الملك أنه وحيد زمانه وفريد أقرانه أراد أن ينفرد به روى أن الملك قال ليوسف عليه السلام ما من شئ الا وأحب أن تشركنى فيه الا فى اهلى وفى أن لا تأكل معى فقال يوسف عليه السلام اما ترى أن آكل معك وأنا يوسف بن يعقوب بن اسحق الذبيح ابن ابراهيم الخليل عليه السلام ثم قال فلما كلمه وفيه قولان (أحدهما) ان المراد فلما كلم الملك يوسف عليه السلام قالوا لان فى مجالس الملوك لا يحسن لاحد أن يبتدئ بالكلام وانما الذى يبتدئ به هو الملك (والثانى) ان المراد فلما كلم يوسف الملك قيل لما صار يوسف الى الملك وكان فى ذلك الوقت ابن ثلاثين سنة فلما رآه الملك حدثا شابا قال للشرابى هذا هو الذى علم تأويل رؤياى مع أن السحرة والكهنة ما علموها قال نعم فاقبل على يوسف وقال انى أحب أن أسمع تأويل الرؤيا منك شفاها فاجاب بذلك الجواب شفاها وشهد قلبه بصحته فعند ذلك قال له الملك انك اليوم لدينا مكين أمين يقال فلان مكين عند فلان بين المكانة أى المنزلة وهى حالة يتمكن بها صاحبها مما يريد وقوله أمين أى قد عرفنا أمانتك وبراءتك مما نسبت اليه واعلم ان قوله مكين أمين كلمة جامعة لكل ما يحتاج اليه من الفضائل والمناقب وذلك لانه لا بد فى كونه مكينا من القدرة والعلم أما القدرة فلان بها يحصل المكنة وأما العلم فلان كونه متمكنا من أفعال الخير لا يحصل الا به اذ لو لم يكن عالما بما ينبغى وبما لا ينبغى لا يمكنه تخصيص ما ينبغى بالفعل وتخصيص ما لا ينبغى بالترك فثبت أن كونه مكينا لا يحصل الا بالقدرة والعلم أما كونه أمينا فهو عبارة عن كونه حكيما لا يفعل الفعل لداعى الشهوة بل انما يفعله لداعى الحكمة فثبت ان كونه مكينا أمينا يدل على كونه قادرا وعلى كونه عالما بمواقع الخير والشر والصلاح والفساد وعلى كونه بحيث يفعل لداعى الحكمة لا لداعية الشهوة وكل من كان كذلك فانه لا يصدر عنه فعل الشر والسفه فلهذا

عليه حيث لا امكان لوقوعه فى عالم الشهادة أى بين لنا مآلها وحكمها وحيث عاين علو رتبته عليه السلام فى الفضل عبر عن ذلك بالافتاء ولم يقل كما قال هو وصاحبه أولا نبئنا بتأويله وفى قوله أفتنا مع أنه المستفتى وحده اشعار بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملابسة بأمور العامة وأنه فى ذلك معبر وسفير كما آذن بذلك حيث قال (لعلى أرجع الى الناس) أى الى الملك ومن عنده أو الى أهل البلدان كان السجن فى الخارج كما قيل [illegible]هم بذلك (لعلهم يعلمون) ذلك ويعملون بمقتضاه أو يعلمون فضلك ومكانك مع ما أنت فيه من الحال فتخلص منه وانما لم يبت القول فى ذلك مجاراة معه على نهج الادب واحترازا عن المجازفة اذ لم يكن على يقين من الرجوع فربما اخترم دونه

* لعل المنايا دون ما تعدانى *

ولا من علمهم بذلك فربما لم يعلموه (قال) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فاذا قال يوسف عليه السلام فى التأويل فقيل قال (تزرعون سبع سنين دأبا) قرئ بفتح الهمزة وسكونها وكلاهما مصدر دأب فى العمل اذا جد فيه وتعب وانتصابه على الحالية من فاعل تزرعون أى دائبين أو تدأبون دأبا على انه مصدر مؤكد لفعل هو الحال أول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب والعجاف واليابسات بسنين مجدبة فأخبرهم بأنهم يواظبون سبع سنين على الزراعة ويبالغون فيها اذ بذلك يتحقق الخصب الذى هو مصداق البقرات السمان وتأويلها ودلهم فى تضاعيف ذلك على أمر نافع لهم فقال (فما حصدتم) أى فى كل سنة (فذروه فى سنبله) ولا تذروه كيلا يأكله السوس كما هو شأن غلال مصر ونواحيها ولعله عليه السلام استدل على ذلك

المعنى لما حاولت المعتزلة اثبات انه تعالى لا يفعل القبيح قالوا انه تعالى لا يفعل القبيح لانه تعالى عالم بقبح القبيح عالم بكونه غنيا عنه وكل من كان كذلك لم يفعل القبيح قالوا وانما يكون غنيا عن القبيح اذا كان قادرا واذا كان منزها عن داعية السفه فثبت ان وصفه بكونه مكينا أمينا نهاية ما يمكن ذكره فى هذا الباب ثم حكى تعالى أن يوسف عليه السلام قال فى هذا المقام اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال المفسرون لما عبر يوسف عليه السلام رؤيا الملك بين يديه قال له الملك فما ترى أيها الصديق قال أرى أن تزرع فى هذه السنين المخصبة زرعا كثيرا وتبنى الخزائن وتجمع فيها الطعام فاذا جاءت السنون المجدبة بعنا الغلات فيحصل بهذا الطريق مال عظيم فقال الملك ومن لى بهذا الشغل فقال يوسف اجعلنى على خزائن الارض أى على خزائن أرض مصر وأدخل الالف واللام على الارض والمراد منه المعهود السابق روى ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية أنه قال رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اجعلنى على خزائن الارض لاستعمله من ساعته لكنه لما قال ذلك أخره عنه سنة وأقول هذا من العجائب لانه لما تأبى عن الخروج من السجن سهل الله عليه ذلك على أحسن الوجه ولما تسارع فى ذكر الالتماس أخر الله تعالى ذلك المطلوب عنه وهذا يدل على ان ترك التصرف والتفويض بالكلية الى الله تعالى أولى (المسئلة الثانية) للقائل ان يقول لم طلب يوسف الامارة والنبى عليه الصلاة والسلام قال لعبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الامارة وأيضا فكيف طلب الامارة من سلطان كافر وأيضا لم لم يصبر مدة ولم أظهر الرغبة فى طلب الامارة فى الحال وأيضا لم طلب أمر الخزائن فى أول الامر مع ان هذا يورث نوع تهمة وأيضا كيف جوز من نفسه مدح نفسه بقوله انى حفيظ عليم مع انه تعالى يقول فلا تزكوا أنفسكم وأيضا فما الفائدة فى قوله انى حفيظ عليم وأيضا لم ترك الاستثناء فى هذا فان الاحسن أن يقول انى حفيظ عليم ان شاء الله بدليل قوله تعالى ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله فهذه أسئلة سبعة لا بد من جوابها فنقول الاصل فى جواب هذه المسائل أن التصرف فى أمور الخلق كان واجبا عليه فجاز له أن يتوصل اليه بأى طريق كان انما قلنا ان ذلك التصرف كان واجبا عليه لوجوه (الاول) انه كان رسولا حقا من الله تعالى الى الخلق والرسول يجب عليه رعاية مصالح الامة بقدر الامكان (والثانى) وهو أنه عليه السلام علم بالوحى أنه سيحصل القحط والضيق الشديد الذى ربما أفضى الى هلاك الخلق العظيم فلعله تعالى أمره بان يدبر فى ذلك ويأتى بطريق لاجله يقل ضرر ذلك القحط فى حق الخلق (والثالث) أن السعى فى ايصال النفع الى المستحقين ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن فى العقول واذا ثبت هذا فنقول انه عليه السلام كان مكلفا برعاية مصالح الخلق من هذه الوجوه وما كان يمكنه رعايتها الا بهذا الطريق وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب فكان هذا الطريق واجبا عليه ولما كان واجبا سقطت الاسئلة

بالكلية وأما ترك الاستثناء فقال الواحدى كان ذلك من خطيئة أوجبت عقوبة وهى أنه تعالى أخر عنه حصول ذلك المقصود سنة وأقول لعل السبب فيه انه لو ذكر هذا الاستثناء لاعتقد فيه الملك انه انما ذكره لعلمه بأنه لاقدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغى فلاجل هذا المعنى ترك الاستثناء وأما قوله لم مدح نفسه فجوابه من وجوه (الاول) لانسلم انه مدح نفسه لكنه بين كونه موصوفا بها تين الصفتين النافعتين فى حصول هذا المطلوب وبين البابين فرق وكأنه قد غلب على ظنه أنه يحتاج الى ذكر هذا الوصف لان الملك وان علم كماله فى علوم الدين لكنه ماكان عالما بأنه يفى بهذا الامر ثم نقول هب انه مدح نفسه الا أن مدح النفس انما يكون مذموما اذا قصد الرجل به التطاول والتفاخر والتوصل الى غير ما يحل فأما على غير هذا الوجه فلا نسلم أنه محرم فقوله تعالى فلا تزكوا أنفسكم المراد منه تزكية النفس حال ما يعلم كونها غير متزكية والدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية هو أعلم بمن اتقى أما اذا كان الانسان عالما بأنه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه والله أعلم قوله ما الفائدة فى وصفه نفسه بأنه حفيظ عليم قلنا انه جار مجرى أن يقول حفيظ بجميع الوجوه التى منها يمكن تحصيل الدخل والمال عليم بالجهات التى تصلح لان يصرف المال اليها ويقال حفيظ بجميع مصالح الناس عليم بجهات حاجاتهم أو يقال حفيظ لوجوه أياديك وكرمك عليم بوجوب مقابلتها بالطاعة والخضوع وهذا باب واسع يمكن تكثيره لمن أراده ❁ قوله تعالى (وكذلك مكنا ليوسف فى الارض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولانضيع أجر المحسنين ولاجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) فيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن يوسف عليه السلام لما التمس من الملك أن يجعله على خزائن الارض لم يحك الله عن الملك انه قال قد فعلت بل الله سبحانه قال وكذلك مكنا ليوسف فى الارض فههنا المفسرون قالوا فى الكلام محذوف وتقديره قال الملك قد فعلت الا أن تمكين الله له فى الارض يدل على ان الملك قد أجابه الى ما سأل وأقول ما قالوه حسن الا ان ههنا ما هو أحسن منه وهو ان اجابة الملك له سبب فى عالم الظاهر وأما المؤثر الحقيقى فليس الا انه تعالى مكنه فى الارض وذلك لان ذلك الملك كان متمكنا من القبول ومن الرد فنسبة قدرته الى القبول والى الرد على التساوى ومادام يبقى هذا التساوى امتنع حصول القبول فلابد وأن يترجح القبول على الرد فى خاطر ذلك الملك وذلك الترجح لايكون الا بمرجح يخلقه الله تعالى واذا خلق الله تعالى ذلك المرجح حصل القبول لامحالة فالتمكين ليوسف فى الارض ليس الا من خلق الله تعالى فى قلب ذلك الملك بمجموع القدرة والداعية الجازمة اللتين عند حصولهما يجب الاثر فلهذا السبب ترك الله تعالى ذكر اجابة الملك واقتصر على ذكر التمكين الالهى لان المؤثر الحقيقى ليس الا هو (المسئلة الثانية) روى ان الملك توجه وأخرج خاتم الملك وجعله فى اصبعه وقلده بسيفه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت فقال يوسف عليه السلام أما السرير فأشد به ملكك وأما الخاتم

بالسنبلات الخضر وانما أمرهم بذلك اذ لم يكن معتادا فيما بينهم وحيث كانوا معتادين الزراعة لم يأمرهم بها وجعلها أمرا محقق الوقوع وتأويلا للرؤيا مصداقا لما فيها من البقرات السمان (الا قليلا مما تأكلون) فى تلك السنين وفيه ارشاد منه عليه السلام لهم الى التقليل فى الاكل والاقتصار على الاستثناء المأكول دون البذر لكون ذلك معلوما من قوله تزرعون سبع سنين وبعدما تمم ما أمرهم به شرع فى بيان بقية التأويل التى يظهر منها حكمة الامر المذكور فقال (ثم يأتى) وهو عطف على تزرعون فلا وجه لجعله بمعنى الامر حثا لهم على الجد والمبالغة فى الزراعة على انه يحصل بالاخبار بذلك أيضا (من بعد ذلك) أى من بعد السنين السبع المذكورات وانما لم يقل من بعدهن قصدا الى الاشارة الى وصفهن فان الضمير ساكت عن أوصاف المرجع بالكلية (سبع شداد) أى سبع سنين صعاب على الناس (يأكلن ما قدمتم لهن) من الحبوب المتروكة فى سنابلها وفيه تنبيه على أن أمره عليه السلام بذلك كان لوقت الضرورة واسناد الاكل اليهن مع أنه حال الناس فيهن مجازى كما فى نهاره صائم وفيه تلويح بأنه تأويل لاكل العجاف السمان واللام فى لهن ترشيح لذلك فكأن ما ادخر فى السنابل من الحبوب شىء قد هيئ وقدم لهن كالذى يقدم للنازل والا فهو فى الحقيقة مقدم للناس فيهن (الا قليلا مما تحصنون) تحرزون مبذور الزراعة (ثم يأتى من بعد ذلك) أى من بعد السنين الموصوفة بما ذكر من الشدة وأكل الغلال المدخرة (عام) لم يعبر عنه بالسنة تحاشيا عن المدلول الاصلى لها من عام القحط وتنبيها من أول الامر على اختلاف الحال بينه وبين السوابق (فيه يغاث الناس)

فأدبر به أمرك وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي وجلس على السرير ودانت له القوم وعزل الملك قطفير زوج المرأة الملعونة ومات بعد ذلك وزوجه الملك امرأته فلما دخل عليها قال أليس هذا خيرا مما طلبت فوجدها عذراء فولدت له ولدين افرايم وميشا وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء وأسلم على يده الملك وكثير من الناس وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام بالدراهم والدنانير في السنة الاولى ثم بالحلي والجواهر في السنة الثانية ثم بالدواب ثم بالضياع والعقار ثم برقابهم حتى استرقهم سنين فقالوا والله ما رأينا ملكا أعظم شأنا من هذا الملك حتى صار كل الخلق عبيدا له فلما سمع ذلك قال اني أشهد الله اني أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددت عليهم أملاكهم وكان لا يبيع لاحد ممن يطلب الطعام أكثر من حمل البعير لئلا يضيق الطعام على الباقين هكذا رواه صاحب الكشاف والله أعلم (المسئلة الثالثة) قوله وكذلك الكاف منصوبة بالتمكين وذلك اشارة الى ما تقدم يعني به ومثل ذلك الانعام الذي أنعمنا عليه في تقريبنا اياه من قلب الملك وانجائنا اياه من غم الحبس وقوله مكنا ليوسف في الارض أي أقدرناه على ما يريد برفع الموانع وقوله يتبوأ منها حيث يشاء يتبوأ في موضع نصب على الحال تقديره مكناه متبوأ وقرأ ابن كثير نشاء بالنون مضافا الى الله تعالى والباقون بالياء مضافا الى يوسف واعلم أن قوله يتبوأ منها حيث يشاء يدل على أنه صار في الملك بحيث لا يدافعه أحد ولا ينازعه منازع بل صار مستقلا بكل ما شاء وأراد ثم بين تعالى ما يؤكد ان ذلك من قبله فقال نصيب برحمتنا من نشاء واعلم أنه تعالى ذكر أولا ان ذلك التمكين كان من الله لا من أحد سواه وهو قوله وكذلك مكنا ليوسف في الارض ثم أكد ذلك ثانيا بقوله نصيب برحمتنا من نشاء وفيه فائدتان (الفائدة الاولى) ان هذا يدل على أن الكل من الله تعالى قال القاضي تلك المملكة لما لم تتم الا بامور فعلها الله تعالى صارت كأنها حصلت من قبله تعالى وجوابه انا ندعي أن نفس تلك المملكة انما حصلت من قبل الله تعالى لان لفظ القرآن يدل على قولنا والبرهان القاطع الذي ذكرناه يقوي قولنا فصرف هذا اللفظ الى المجاز لا سبيل اليه (الفائدة الثانية) انه أتاه ذلك الملك بمحض المشيئة الالهية والقدرة النافذة قال القاضي هذه الآية تدل على انه تعالى يجري أمر نعمه على ما تقتضيه الصلاح قلنا الآية تدل على ان الامور معلقة بالمشيئة الالهية والقدرة المحضة فأما رعاية قيد الصلاح فأمر اعتبرته أنت من نفسك مع أن اللفظ لا يدل عليه ثم قال تعالى ولا نضيع أجر المحسنين وذلك لان اضاعة الاجر اما أن يكون للعجز أو للجهل أو للبخل والكل ممتنع في حق الله تعالى فكانت الاضاعة ممتنعة واعلم أن هذا شهادة من الله تعالى على أن يوسف عليه السلام كان من المحسنين ولو صدق أقول بأنه جلس بين شعبها الاربع لامتنع أن يقال انه كان من المحسنين فههنا لزم اما تكذيب الله في حكمه على يوسف بانه كان من المحسنين وهو عين الكفر أو لزم تكذيب الحشوي فيما رواه وهو عين الايمان والحق

من الغيث أي يمطرون يقال غيثت البلاد اذا امطرت في وقت الحاجة أو من الغوث يقال أغاثنا الله تعالى اى أمدنا برفع المكاره حين أظلتنا (وفيه يعصرون) اى ما من شأنه أن يعصر من العنب والقصب والزيتون والسمسم ونحوها من الفواكه لكثرتها والتعرض لذكر العصر مع جواز الاكتفاء عنه بذكر الغيث المستلزم له عادة كما اكتفى به عن ذكر تصرفهم في الحبوب اما لان استلزام الغيث له ليس كاستلزامه الحبوب اذ المذكورات يتوقف صلاحها على مباد أخرى غير المطر واما المراعاة جانب المستفتى باعتبار حالته الخاصة به بشارة له وهي التي يدور عليها حسن موقع تغليبه على الناس في القراءة بالفوقانية وقيل معنى يعصرون يحلبون الضروع وتكرير فيه اما للاشعار باختلاف أوقات ما يقع فيه من الغيث والعصر زمانا وهو ظاهر وعنوانا فان الغيث والغوث من فضل الله تعالى والعصر من فعل الناس واما لان المقام مقام تعداد منافع ذلك العام ولاجله قدم في الموضعين على الفعلين فان المقصود الاصلي بيان انه يقع في ذلك العام هذا النفع وذاك النفع لا بيان أنهما يقعان في ذلك العام كما يفيده التأخير ويجوز أن يكون التقديم للقصر على معنى أن غيثهم وعصرهم في سائر السنين بمنزلة العدم بالنسبة الى عامهم ذلك وأن يكون ذلك في الاخير لمراعاة الفواصل وفي الاول لرعاية حاله وقرئ يعصرون على البناء للمفعول من عصره اذا أنجاه وهو المناسب للاغاثة ويجوز أن يكون المبني للفاعل ايضا منه كأنه قيل فيه يغاث الناس وفيه يغيثون اى يغيثهم الله ويغيث بعضهم بعضا وقيل معنى يعصرون يمطرون من أعصرت السحابة

اما بتضمين أعصرت معنى مطرت وتعديته واما بحذف الجار وايصال الفعل على أن الاصل أعصرت عليهم وأحكام هذا العام المبارك ليست مستنبطة من رؤيا الملك وانما تلقاها عليه السلام من جهة الوحى فبشرهم بها بعدما أول الرؤيا بما أول وأمرهم بالتدبير اللائق فى شأنه ابانة لعلو كعبه ورسوخ قدمه فى الفضل وأنه محيط بما لم يخطر ببال أحد فضلا عما يرى صورته فى المنام على نحو قوله لصاحبيه عند استفتائهما فى منامهما لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتاويله واتماما للنعمة عليهم حيث لم يشاركه عليه السلام فى العلم بوقوعها أحد ولو برؤية ما يدل عليها فى المنام (وقال الملك) بعدما جاءه السفير بالتعبير وسمع منه ما سمع من نقير وقطمير (ائتونى به) لما علم من علمه وفضله (فلما جاءه) اى يوسف (الرسول) واستدعاه الى الملك (قال ارجع الى ربك) اى سيدك (فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن) اى فتشه عن شأنهن وانما لم يقل فاسأله أن يفتش عن ذلك حثا للملك على الجد فى التفتيش ليتبين براءته ويتضح نزاهته اذ السؤال مما يهيج الانسان على الاهتمام فى البحث للتفصى عما توجه اليه وأما الطلب فمما قد يتسامح ويتساهل فيه ولا يبالى به وانما لم يتعرض لامرأة العزيز مع ما لقى منها ما لقى من مقاساة الاحزان ومعاناة الاشجان محافظة على مواجب الحقوق واحترازا عن مكرها حيث اعتقدها مقيمة فى عدوة العداوة وأما ﴿ وصعب ﴾ النسوة فقد كان يطمع فى صدعهن بالحق وشهادتهن باقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الايدى ولم يصرح بمراودتهن له وقولهن أطع مولاتك واكتفى بالايماء الى ذلك

ثم قال تعالى ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تفسير هذه الآية قولان (الاول) المراد منه أن يوسف عليه السلام وان كان قد وصل الى المنازل العالية والدرجات الرفيعة فى الدنيا الا أن الثواب الذى أعده الله له فى الآخرة خير وأفضل وأكمل ووجهات الترجيح قد ذكرناها فى هذا الكتاب مرارا وأطوارا وحاصل تلك الوجوه ان الخير المطلق هو الذى يكون نفعا خالصا دائما مقرونا بالتعظيم وكل هذه القيود الاربعة حاصلة فى خيرات الآخرة ومفقودة فى خيرات الدنيا (القول الثانى) ان لفظ الخير قد يستعمل لكون أحد الخيرين أفضل من الآخر كما يقال الجلاب خير من الماء وقد يستعمل لبيان كونه فى نفسه خيرا من غير أن يكون المراد منه بيان التفضيل كما يقال الثريد خير من الله يعنى الثريد خير من الخيرات حصل باحسان من الله اذا ثبت هذا فقوله ولأجر الآخرة خير ان حملناه على الوجه الاول لزم أن تكون ملاذ الدنيا موصوفة بالخيرية أيضا وأما ان حملناه على الوجه الثانى لزم أن لا يقال ان منافع الدنيا أيضا خيرات بل لعله يفيد أن خير الآخرة هو الخير وأما ما سواه فعبث (المسئلة الثانية) لاشك أن المراد من قوله ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون شرح حال يوسف عليه السلام فوجب أن يصدق فى حقه انه من الذين آمنوا وكانوا يتقون وهذا تنصيص من الله عز وجل على أنه كان فى الزمان السابق من المتقين وليس ههنا زمان سابق ليوسف عليه السلام يحتاج الى بيان انه كان فيه من المتقين الا ذلك الوقت الذى قال الله فيه ولقد همت به وهم بها فكان هذا شهادة من الله تعالى على أنه عليه السلام كان فى ذلك الوقت من المتقين وأيضا قوله ولا نضيع أجر المحسنين شهادة من الله تعالى على انه عليه السلام كان من المحسنين وقوله انه من عبادنا المخلصين شهادة من الله تعالى على انه من المخلصين فثبت ان الله تعالى شهد بأن يوسف عليه السلام كان من المتقين ومن المحسنين ومن المخلصين والجاهل الحشوى يقول انه كان من الاخسرين المذنبين ولاشك ان من لم يقل بقول الله سبحانه وتعالى مع هذه التأكيدات كان من الاخسرين (المسئلة الثالثة) قال القاضى قوله تعالى ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون يدل على بطلان قول المرجئة الذين يزعمون أن الثواب يحصل فى الآخرة لمن لم يتق الكبائر قلنا هذا ضعيف لانا ان حملنا لفظ خير على أفعل التفضيل لزم أن يكون الثواب الحاصل للمتقين أفضل ولا يلزم أن لا يحصل لغيرهم أصلا وان حملناه على أصل معنى الخيرية فهذا يدل على حصول هذا الخير للمتقين ولا يدل على ان غيرهم لا يحصل لهم هذا الخير * قوله تعالى (وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوف الكيل وأنا خير المنزلين فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون قالوا سنراود عنه أباه وانا لفاعلون) اعلم أنه لما عم القحط فى البلاد ووصل أيضا الى البلدة التى كان يسكنها يعقوب عليه السلام

وصعب الزمان عليهم فقال لبنيه ان بمصر رجلا صالحا يمير الناس فاذهبوا اليه بدراهمكم وخذوا الطعام فخرجوا اليه وهم عشرة ودخلوا على يوسف عليه السلام وصارت هذه الواقعة كالسبب فى اجتماع يوسف عليه السلام مع اخوته وظهور صدق ما أخبر الله تعالى عنه فى قوله ليوسف عليه السلام حال ما ألقوه فى الجب لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون وأخبر تعالى ان يوسف عرفهم وهم ما عرفوه البتة اما انه عرفهم فلانه تعالى كان قد أخبره فى قوله لتنبئنهم بأمرهم بأنهم يصلون اليه و يدخلون عليه وأيضا الرؤيا التى رآها كانت دليلا على انهم يصلون اليه فلهذا السبب كان يوسف عليه السلام مترصدا لذلك الامر وكان كل من وصل الى بابه من البلاد البعيدة يتفحص عنهم و يتعرف أحوالهم ليعرف ان هؤلاء الواصلين هل هم اخوته أم لا فلما وصل اخوة يوسف الى باب داره تفحص عن أحوالهم تفحصا ظهر له انهم اخوته واما انهم ما عرفوه فلوجوه (الاول) انه عليه السلام أمر حجابه بأن يوقفوهم من البعد وما كان يتكلم معهم الا بالواسطة ومتى كان الامر كذلك لاجرم انهم لم يعرفوه لاسيما مهابة الملك وشدة الحاجة يوجبان كثرة الخوف وكل ذلك مما يمنع من التأمل التام الذى عنده يحصل العرفان (والثانى) هو انهم حين ألقوه فى الجب كان صغيرا ثم انهم رأوه بعد وفور اللحية وتغير الزى والهيئة فانهم رأوه جالسا على سريره وعليه ثياب الحرير وفى عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج من ذهب والقوم أيضا نسوا واقعة يوسف عليه السلام لطول المدة فيقال ان من وقت ما ألقوه فى الجب الى هذا الوقت كان قد مضى أربعون سنة وكل واحد من هذه الاسباب يمنع من حصول المعرفة لاسيما عند اجتماعها (والثالث) ان حصول العرفان والتذكير بخلق الله تعالى فلعله تعالى ما خلق ذلك العرفان والتذكير فى قلوبهم تحقيقا لما أخبره عنه بقوله لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون وكان ذلك من معجزات يوسف عليه السلام ثم قال تعالى ولما جهزهم بجهازهم قال الليث جهزت القوم تجهيزا اذا تكلفت لهم جهازهم للسفر وكذلك جهاز العروس والميت وهو ما يحتاج اليه فى وجه قال وسمعت أهل البصرة يقولون الجهاز بالكسر قال الازهرى القراء كلهم على فتح الجيم والكسر لغة ليست بجيدة قال المفسرون حمل لكل رجل منهم بعيرا وأكرمهم أيضا بالنزول وأعطاهم ما احتاجوا اليه فى السفر فذلك قوله جهزهم بجهازهم ثم بين تعالى انه لما جهزهم بجهازهم قال لهم ائتونى بأخ لكم من أبيكم واعلم انه لابد من كلام سابق حتى يصير ذلك الكلام سببا لسؤال يوسف عن حال أخيهم وذكروا فيه وجوها (الاول) وهو أحسنها ان عادة يوسف عليه السلام مع الكل أن يعطيه حمل بعير لا ازيد عليه ولا أنقص واخوة يوسف الذين ذهبوا اليه كانوا عشرة فأعطاهم عشرة أحمال فقالوا ان لنا أبا شيخا كبيرا وأخا آخر بقى معه وذكروا ان أباهم لاجل سنه وشدة حزنه لم يحضر وان أخاهم بقى فى خدمة أبيه ولا بد لهما ايضا من شئ من الطعام فجهز لهما أيضا بعيرين آخرين من

بقوله (ان ربى بكيدهن عليم) مجاملة معهن واحترازا عن سوء قالتهن عند الملك وانتصابهن للخصومة مدافعة عن أنفسهن متى سمعن بنسبته لهن الى الفساد (قال) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فاذا كان بعد ذلك فقيل قال الملك اثر ما بلغه الرسول الخبر وأحضرهن (ماخطبكن) اى شانكن وهو الامر الذى يحق لعظمه أن يخاطب المرء فيه صاحبه (اذ راودتن يوسف) وخادعته (عن نفسه) ورغبته فى الطاعة مولاته هل وجدتن فيه شيئا من سوء وريبة (قلن حاش لله) تنزيها له وتعجبا من نزاهته وعفته (ماعلمنا عليه من سوء) بالغن فى نفى جنس السوء عنه بالتنكير وزيادة من (قالت امرأت العزيز) وكان حاضرة فى المجلس وقيل أقبلت النسوة عليها يقررنها وقيل خافت أن يشهدن عليها بما قالت لهن ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين فأقرت قائلة (الآن حصحص الحق) اى ثبت واستقر أو تبين وظهر بعد خفاء قاله الخليل وقيل هو مأخوذ من الحصة وهى القطعة من الجملة اى تبين حصة الحق من حصة الباطل كما تتبين حصص الاراضى وغيرها وقيل بان وظهر من حص شعره اذا استأصله بحيث ظهرت بشرة رأسه وقرئ على البناء للمفعول من حصحص البعير مباركه اى ألقاها فى الارض للاناخة قال ✽ فحصحص فى صم الصفا ثفناته ◎ وناء بسلمى نوأة ثم صمما ✽ والمعنى أقر الحق فى مقره ووضع فى موضعه ولم ترد بذلك مجرد ظهوره بشهادتهن من مطلق نزاهته عليه السلام فيما أحاط به علمهن من غير تعرض لنزاهته فى سائر المواطن خصوصا فيما وقع فيه

التشاجر بمحضر العزيز ولا بحث عن حال نفسها وما صنعت فى ذلك بل ارادت ظهور ماهو متحقق فى نفس الامر وثبوته من نزاهته عليه السلام فى محل النزاع وخيانتها فقالت (أنا راودته عن نفسه) لا أنه راودنى عن نفسى (وانه لمن الصادقين) اى فى قوله حين افتريت عليه هى راودتنى عن نفسى وأرادت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام لا زمان شهادتهن فتأمل أيها المنصف هل ترى فوق هذه المرتبة نزاهة حيث لم تمالك الخصماء من الشهادة بها والفضل ما شهدت به الخصماء وانما تصدى عليه السلام لتمهيد هذه المقدمة قبل الخروج [illegible] ظهر براءة ساحته مما قذفت به لاسيما عند العزيز قبل أن يحل ما عقده كما يعرب عنه قوله عليه السلام لما رجع اليه الرسول وأخبره بكلامهن (ذلك) اى ذلك التثبت المؤدى الى ظهور حقيقة الحال (ليعلم) اى العزيز (أنى لم أخنه) فى حرمته كما زعمه لا ليعلم مطلقا فان ذلك لا يستدعى تقديم التفتيش على الخروج من السجن بل قبل ماذكر من نقض ما أبرمه ولعله لمراعاة حقوق السيادة لان المباشرة للخروج من حبسه قبل ظهور بطلان ما جعله سببا له وان كان ذلك بأمر الملك مما يوهم الافتيات على رأيه وأما أن يكون ذلك لئلا يتمكن من تقبيح أمره عند الملك تمحلا لامضاء ما قضاه فلا يليق بشأنه عليه السلام فى الوثوق بأمره والتوكل على ربه جل جلاله (بالغيب) ﴿ لعلهم ﴾ اى بظهر الغيب وهو حال من الفاعل أو المفعول اى لم أخنه وأنا غائب عنه أو وهو غائب عنى أو ظرف اى بمكان الغيب وراء الاستار والابواب المغلقة وأيا ما كان فالمقصود بيان كمال نزاهته عن الخيانة وغاية اجتنابه عنها عند تعاضد أسبابها (وان الله) اى

الطعام فلما ذكروا ذلك قال يوسف فهذا يدل على أن حب أبيكم له أزيد من حبه لكم وهذا شيء عجيب لانكم مع جمالكم وعقلكم وأدبكم اذا كانت محبة أبيكم لذلك الاخ أكثر من محبته لكم دل هذا على ان ذلك أعجوبة فى العقل وفى الفضل والادب فجيئونى به حتى أراه فهذا السبب محتمل مناسب (والوجه الثانى) انهم لما دخلوا عليه عليه السلام وأعطاهم الطعام قال لهم من أنتم قالوا نحن قوم رعاة من أهل الشام أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لعلكم جئتم عيونا فقالوا معاذ الله نحن أخوة بنو أب واحد شيخ صديق نبى اسمه يعقوب قال كم أنتم قالوا كنا أثنى عشر فهلك منا واحد وبقى واحد مع الاب يتسلى به عن ذلك الذى هلك ونحن عشرة وقد جئناك قال فدعوا بعضكم عندى رهينة وائتونى بأخ لكم من أبيكم ليبلغ الى رسالة أبيكم فعند هذا أقرعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأيا فى يوسف فخلفوه عنده (والوجه الثالث) لعلهم لما ذكروا أباهم قال يوسف فلم تركتموه وحيدا فريدا قالوا ما تركناه وحيدا بل بقى عنده واحد فقال لهم لم استخلصه لنفسه ولم خصه بهذا المعنى لاجل نقص فى جسده فقالوا لا بل لاجل انه يحبه أكثر من محبته لسائر الاولاد فعند هذا قال يوسف لما ذكرتم ان أباكم رجل عالم حكيم بعيد عن المجازفة ثم انه خصه بمزيد المحبة وجب أن يكون زائدا عليكم فى الفضل وصفات الكمال مع انى أراكم فضلاء علماء حكماء فاشتاقت نفسى الى رؤية ذلك الاخ فائتونى به والسبب الثانى ذكره المفسرون والاول والثالث محتمل والله أعلم * ثم انه تعالى حكى عنه انه قال ألا ترون انى أوف الكيل اى أتمه ولا أبخسه وأزيدكم حمل بعير آخر لاجل أخيكم وأنا خير المنزلين اى خير المضيفين لانه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم وأقول هذا الكلام يضعف الوجه الثانى وهو الذى نقلناه عن المفسرين لان مدار ذلك الوجه على أنه اتهمهم ونسبهم الى انهم جواسيس ولو شافههم بذلك الكلام فلا يليق به أن يقول لهم ألا ترون أنى أوف الكيل وأنا خير المنزلين وأيضا يبعد من يوسف عليه السلام مع كونه صديقا أن يقول لهم أنتم جواسيس وعيون مع أنه يعرف براءتهم عن هذه التهمة لان البهتان لا يليق بحال الصديق ثم قال فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون واعلم أنه عليه السلام لما طلب منهم احضار ذلك الاخ جمع بين الترغيب والترهيب أما الترغيب فهو قوله ألا ترون انى أوف الكيل وأنا خير المنزلين وأما الترهيب فهو قوله فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون وذلك لانهم كانوا فى نهاية الحاجة الى تحصيل الطعام وما كان يمكنهم تحصيله الا من عنده فاذا منعهم من الحضور عنده كان ذلك نهاية الترهيب والتخويف ثم انهم لما سمعوا هذا الكلام من يوسف قالوا سنراود عنه أباه وانا لفاعلون اى سنجتهد ونحتال على أن ننزعه من يده وانا لفاعلون هذه المراودة والغرض من التكرير التأكيد ويحتمل أن يكون وانا لفاعلون أن نجيئك به ويحتمل وانا لفاعلون لكل ما فى وسعنا من هذا الباب * قوله تعالى (وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم

وليعلم أنه تعالى (لايهدى كيد الخائنين) أن لاينفذه ولايسدده بل يبطله و يزهقه أو لايهديهم فى كيدهم ايقاعا للفعل على الكيد مبالغة كما فى قوله تعالى يضاهئون قول الذين كفروا أى يضاهئونهم فى قولهم وفيه تعريض بامرأته فى خيانتها أمانته و به فى خيانه أمانة الله تعالى حين ساعدها على حبسه بعد ما رأوا آيات نزاهته عليه السلام و يجوز أن يكون ذلك لتأكيد أمانته وأنه لوكان خائنا لما هدى الله عزوجل أمره وأحسن عاقبته (وما أبرئ نفسى) اى لا أنزهها عن السوء قاله عليه السلام هضما للنفسة الكريمة البريئة عن كل سوء وربا بمكانها عن التزكية والاعجاب بحالها عند ظهور كمال نزاهتها على اسلوب قوله عليه السلام أنا سيد ولد آدم ولا فخر أو تحديثا بنعمة الله عزوجل عليه وابرازا لسره المكنون فى شأن أفعال العباد اى لا أنزهها عن السوء من حيث هى هى ولا أسند هذه الفضيلة اليها بمقتضى طبعها من غير توفيق من الله عزوعلا (ان النفس) البشرية التى من جملتها نفسى فى حد ذاتها (لأمارة بالسوء) مائلة الى الشهوات مستعملة للقوى والآلات فى تحصيلها بل انما ذلك بتوفيق الله تعالى وعصمته ورحمته كما يفيده قوله (الا ما رحم ربى) من النفوس التى يعصمها من الوقوع فى المهالك ومن جملتها نفسى أو هى أمارة بالسوء فى كل وقت الاوقت رحمة ربى وعصمته لها وقيل الاستثناء منقطع اى لكن رحمة ربى هى التى تصرف عنها السوء كما فى قوله تعالى ولاهم ينقذون الارحمة (ان ربى غفور رحيم) عظيم المغفرة لما يعترى النفوس بموجب طباعها ومبالغ فى الرحمة لها بعصمتها من الجريان بمقتضى ذلك واشار الاظهار فى مقام الاضمار

لعلهم يعرفونها اذا انقلبوا الى أهلهم لعلهم يرجعون فلما رجعوا الى أبيهم قالوا ياأبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وانا له لحافظون قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم لفتيانه بالالف والنون والباقون لفتيته بالتاء من غير ألف وهما لغتان كالصبيان والصبية والاخوان والاخوة قال أبو على الفارسى الفتية جمع فتى فى العدد القليل والفتيان للكثير فوجه البناء الذى للعدد القليل أن الذين يجعلون بضاعتهم فيه من رحالهم يكونون قليلين لان هذا من باب الاسرار فوجب صونه الاعن العدد القليل ووجه الجمع الكثير أنه قال اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم والرحال تفيد العدد الكثير فوجب أن يكون الذين يباشرون ذلك العمل كثيرين (المسئلة الثانية) اتفق الاكثرون على أن اخوة يوسف ما كانوا عالمين بجعل البضاعة فى رحالهم ومنهم من قال انهم كانوا عارفين به وهو ضعيف لان قوله لعلهم يعرفونها يبطل ذلك ثم اختلفوا فى السبب الذى لاجله أمر يوسف بوضع بضاعتهم فى رحالهم على وجوه (الاول) أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه علموا ان ذلك كان كرما من يوسف وسخاء محضا فيبعثهم ذلك على العود اليه والحرص على معاملته (الثانى) خاف أن لايكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى (الثالث) أراد به التوسعة على أبيه لان الزمان كان زمان القحط (الرابع) رأى ان أخذ ثمن الطعام من ابيه واخوته مع شدة حاجتهم الى الطعام لؤم (الخامس) قال الفراء انهم متى شاهدوا بضاعتهم فى رحالهم وقع فى قلوبهم انهم وضعوا تلك البضاعة فى رحالهم على سبيل السهو وهم أنبياء وأولاد الانبياء فرجعوا ليعرفوا السبب فيه أو رجعوا ليردوا المال الى مالكه (السادس) أراد أن يحسن اليهم على وجه لايلحقهم به عيب ولا منة (السابع) مقصوده أن يعرفوا انه لايطلب ذلك الاخ لاجل الايذاء والظلم ولا لطلب زيادة فى الثمن (الثامن) أراد أن يعرف أبوه انه أكرمهم وطلبه له لمزيد الاكرام فلا يثقل على أبيه ارسال أخيه (التاسع) أراد أن يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق فوضع تلك الدراهم فى رحالهم حتى تبقى مخفية الى أن يصلوا الى أبيهم (العاشر) أراد أن يقابل مبالغتهم فى الاساءة بمبالغته فى الاحسان اليهم ثم انه تعالى حكى عنهم انهم لما رجعوا الى أبيهم قالوا ياأبانا منع منا الكيل وفيه قولان (الاول) أنهم لما طلبوا الطعام لابيهم وللاخ الباقى عنده منعوا منه فقولهم منع منا الكيل اشارة اليه (والثانى) انه منع الكيل فى المستقبل وهو اشارة الى قول يوسف فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى والدليل على ان المراد ذلك قولهم فأرسل معنا أخانا نكتل قرأ حمزة والكسائى يكتل بالياء والباقون بالنون والقراءة الاولى تقوى القول الاول والقراءة الثانية تقوى القول الثانى ثم قالوا وانا له لحافظون ضمنوا كونهم حافظين له فلما قالوا

ثم التعرض لعنوان الربوبية لمزية مبادي المغفرة والرحمة وقيل الى هنا من كلام امرأة العزيز والمعنى ذلك الذي قلت ليعلم يوسف عليه السلام اني لم أخنه ولم أكذب عليه في حال الغيبة وجئت بما هو الحق الواقع وما أبرئ نفسي مع ذلك من الخيانة حيث قلت في حقه ما قلت وفعلت به ما فعلت ان كل نفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربي اي الا نفسا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف ان ربي غفور لمن استغفر لذنبه واعترف به رحيم له فعلى هذا يكون تأبيه عليه السلام في الخروج من السجن لعدم رضاه عليه السلام بملاقاة الملك وأمره بين بين فعل ما فعل حتى يتبين نزاهته وأنه انما سجن بظلم عظيم مع ماله من الفضل ونباهة الشان ليتلقاه الملك بما يليق به من الاعظام والاجلال وقد وقع (وقال الملك ائتوني به أستخلصه) أجعله خالصا (لنفسي) وخاصا بي (فلما كلمه) اي فأتوا به فحذف للايذان بسرعة الاتيان به فكأنه لم يكن بين الامر باحضاره والخطاب معه زمان أصلا والضمير المستكن في كلمه ليوسف والبارز للملك اي فلما كلمه يوسف اثر ما أتاه فاستنطقه وشاهد منه ما شاهد (قال انك اليوم لدينا مكين) ذو مكانة ومنزلة رفيعة (أمين) مؤتمن على كل شيء واليوم ليس بمعيار لمدة المكانة والامانة بل هو آن التكلم والمراد تحديد مبدئهما احترازا عن احتمال كونهما بعد حين روي أنه عليه السلام لما جاءه الرسول خرج من السجن ودعا لاهله واغتسل ولبس ثيابا جددا فلما دخل على الملك قال اللهم اني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره وشر غيره ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية فقال ما هذا اللسان قال لسان آبائي وكان الملك يعرف سبعين لسانا فكلمه بها فأجابه

ذلك قال يعقوب عليه السلام هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل والمعنى انكم ذكرتم قبل هذا الكلام في يوسف وضمنتم لي حفظه حيث قلتم وانا له لحافظون ثم ههنا ذكرتم هذا اللفظ بعينه فهل يكون ههنا أمان الا ما كان هناك يعني لما لم يحصل الامان هناك فكذلك لا يحصل ههنا ثم قال فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين قرأ حمزة والكسائي حافظا بالالف على التمييز والتفسير على تقدير هو خير لكم حافظا كقولهم هو خيرهم رجلا ولله دره فارسا وقيل على الحال والباقون حفظا بغير ألف على المصدر يعني خيركم حفظا يعني حفظ الله لبنيامين خير من حفظكم وقرأ الاعمش فالله خير حافظ وقرأ أبو هريرة رضي الله عنه خير الحافظين وهو أرحم الراحمين وقيل معناه وثقت بكم في حفظ يوسف عليه السلام فكان ما كان فالآن أتوكل على الله في حفظ بنيامين فان قيل لم بعثه معهم وقد شاهد ما شاهد قلنا الوجوه (أحدها) انهم كبروا ومالوا الى الخير والصلاح (وثانيها) انه كان يشاهد انه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد والحقد مثل ما كان بينهم وبين يوسف عليه السلام (وثالثها) ان ضرورة القحط أحوجته الى ذلك (ورابعها) لعله تعالى أوحى اليه وضمن حفظه وايصاله اليه فان قيل هل يدل قوله فالله خير حافظا على أنه أذن في ذهاب ابنه بنيامين في ذلك الوقت قلنا الاكثرون قالوا يدل عليه وقال آخرون لا يدل عليه وفيه وجهان (الاول) التقدير انه لو أذن في خروجه معهم لكان في حفظ الله لا في حفظهم (الثاني) أنه لما ذكر يوسف قال فالله خير حافظا أي ليوسف لانه كان يعلم أنه حي * قوله تعالى (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت الينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير) اعلم ان المتاع ما يصلح لان يستمتع به وهو عام في كل شيء ويجوز أن يراد به ههنا الطعام الذي حملوه ويجوز أن يراد به أوعية الطعام ثم قال وجدوا بضاعتهم ردت اليهم واختلف القراء في ردت فالاكثرون بضم الراء وقرأ علقمة بكسر الراء قال صاحب الكشاف كسرة الدال المدغمة نقلت الى الراء كما في قيل وبيع وحكى قطرب انهم قالوا في قولنا ضرب زيد ضرب زيد على نقل كسرة الراء فيمن سكنها الى الضاد وأما قوله ما نبغي ففي كلمة ما قولان (الاول) انها النفي وعلى هذا التقدير ففيه وجوه (الاول) انهم كانوا قد وصفوا يوسف بالكرم واللطف وقالوا انا قدمنا على رجل في غاية الكرم أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلا من آل يعقوب لما فعل ذلك فقولهم ما نبغي اي بهذا الوصف الذي ذكرناه كذبا ولا ذكر شيء لم يكن (الثاني) انه بلغ في الاكرام الى غاية ما وراءها شيء آخر فانه بعد أن بالغ في اكرامنا أمر ببضاعتنا فردت الينا (الثالث) المعنى انه رد بضاعتنا الينا فنحن لا نبغي منك عند رجوعنا اليه بضاعة أخرى فان هذه التي معنا كافية لنا (والقول الثاني) ان كلمة ما ههنا للاستفهام والمعنى لما رأوا انه رد اليهم بضاعتهم قالوا ما نبغي بعد هذا أي أعطانا الطعام ثم رد علينا ثمن الطعام على أحسن الوجوه فأي شيء

تحسينها فتعجب منه فقال أحب أن أسمع منك رؤياى فحكاها ونعت له البقرات والسنابل وأماكنها على ما رآها فأجلسه على السرير وفوض اليه أمره وقيل توفى قطفير فى تلك الليالى فنصبه منصبه وزوجه راعيل فوجدها عذراء وولدت له افرايم وميشا ولعل ذلك انما كان بعد تعيينه عليه السلام لما عين له من أمر الخزائن كما يعرب عنه قوله عزوجل (قال اجعلنى على خزائن الارض) اى أرض مصر اى ولنى أمرها من الايراد والصرف (انى حفيظ) لها ممن لا يستحقها (عليم) بوجوه التصرف فيها وفيه دليل على جواز طلب الولاية اذا كان الطالب ممن يقدر على اقامة العدل واجراء أحكام الشريعة وان كان من يد الجائر أو الكافر وعن مجاهد أنه أسلم الملك على يده عليه السلام ولعل ايثاره عليه السلام لتلك الولاية خاصة انما كان للقيام بما هو أهم أمور السلطنة اذ ذاك من تدبير أمر السنين حسبما فصل فى التأويل لكونه من فروع تلك الولاية لا لمجرد عموم الفائدة وجوم العائدة كما قيل وانما لم يذكر اجابة الملك الى ما سأله عليه السلام من جعله على خزائن الارض ايذانا بأن ذلك أمر لا مرد له غنى عن التصريح لا سيما بعد تقديم ما يندرج تحته من أحكام السلطنة بحذافيرها من قوله انك اليوم لدينا مكين أمين وللتنبيه على أن كل ذلك من الله عزوجل وانما الملك آلة فى ذلك قيل (وكذلك) اى مثل ذلك التمكين البليغ (مكنا ليوسف) اى جعلنا له مكانا (فى الارض) اى أرض مصر روى انها كانت أربعين فرسخا فى أربعين وفى التعبير عن الجعل المذكور بالتمكين فى الارض مسندا الى ضميره عز سلطانه من تشريفه عليه السلام والمبالغة فى كماله.

نبغى وراء ذلك واعلم أنا اذا حملنا ما على الاستفهام صار التقدير أى شئ نبغى فوق هذا الاكرام ان الرجل رد دراهمنا الينا فاذا ذهبنا اليه نمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير بسبب حضور أخينا قال الاصمعى يقال ماره يميره ميرا اذا أتاه بميرة أى بطعام ومنه يقال ما عنده خير ولا مير وقوله ونزداد كيل بعير معناه ان يوسف عليه السلام كان يكيل لكل رجل حمل بعير فاذا حضر أخوه فلا بد وأن يزداد ذلك الحمل وأما اذا حملنا كلمة ما على النفى كان المعنى لا نبغى شيئا آخر هذه بضاعتنا ردت الينا فهى كافية لثمن الطعام فى الذهاب الثانى ثم نفعل كذا وكذا وأما قوله ذلك كيل يسير ففيه وجوه (الاول) قال مقاتل ذلك كيل يسير على هذا الرجل المحسن لسخائه وحرصه على البذل وهو اختيار الزجاج (والثانى) ذلك كيل يسير أى قصير المدة ليس سبيل مثله أن تطول مدته بسبب الحبس والتأخير (والثالث) أن يكون المراد ذلك الذى يدفع الينا دون أخينا شئ يسير قليل فابعث أخانا معنا حتى نتبدل تلك القلة بالكثرة * قوله تعالى (قال لن أرسله معكم حتى تؤتونى موثقا من الله لتأتننى به الا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل) اعلم أن الموثق مصدر بمعنى الثقة ومعناه العهد الذى يوثق به فهو مصدر بمعنى المفعول يقول لن أرسله معكم حتى تعطونى عهدا موثوقا به وقوله من الله أى عهدا موثوقا به بسبب تأكده باشهاد الله وبسبب القسم بالله عليه وقوله لتأتننى به دخلت اللام ههنا لاجل أنا بينا ان المراد بالموثق من الله اليمين فتقديره حتى تحلفوا بالله لتأتننى به وقوله الا أن يحاط بكم فيه بحثان (الاول) قال صاحب الكشاف هذا الاستثناء متصل فقوله الا أن يحاط بكم مفعول له والكلام المثبت الذى هو قوله لتأتننى به فى تأويل النفى فكان المعنى لا تمتنعون من الاتيان به لعلة من العلل الا لعلة واحدة (البحث الثانى) قال الواحدى للمفسرين فيه قولان (أحدهما) ان قوله الا أن يحاط بكم معناه الهلاك قال مجاهد الا أن تموتوا كلكم فيكون ذلك عذرا عندى والعرب تقول أحيط بفلان اذا قرب هلاكه قال تعالى وأحيط بثمره أى أصابه ما أهلكه وقال تعالى وظنوا انهم أحيط بهم وأصله ان من أحاط به العدو وانسدت عليه مسالك النجاة دنا هلاكه فقيل لكل من هلك قد أحيط به (والقول الثانى) ما ذكره قتادة الا أن يحاط بكم الا أن تصيروا مغلوبين مقهورين فلا تقدرون على الرجوع ثم قال تعالى فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل يريد شهيد لان الشهيد وكيل بمعنى انه موكول اليه هذا العهد فان وفيتم به جازاكم بأحسن الجزاء وان غدرتم فيه كافأكم بأعظم العقوبات * قوله تعالى (وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شئ ان الحكم الا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) اعلم أن أبناء يعقوب لما عزموا على الخروج الى مصر وكانوا موصوفين بالكمال والجمال وأبناء رجل واحد قال لهم لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وفيه قولان (الاول) وهو قول

ولاية والاشارة الى حصول ذلك من أول الامر الا أنه حصل بعد السؤال مالايخفى (يتبوأ منها) ينزل من بلادها (حيث يشاء) و يتخذه مباءة وهو عبارة عن كمال قدرته على التصرف فيها ودخولها تحت ملكته وسلطانه فكانها منزله يتصرف فيها كما يتصرف الرجل فى منزله وقرأ ابن كثير بالنون روى أن الملك توجه وختمه بخاتمه وردأه بسيفه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت فقال عليه السلام أما السرير فاشد به ملكك وأما الخاتم فادبر به أمرك وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي فقال قد وضعته اجلالا لك واقرارا بفضلك فجلس على السرير ودانت له الملوك وفوض اليه الملك أمره وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء و باع من أهل مصر فى سنى القحط الطعام فى السنة الاولى بالدنانير والدراهم وفى الثانية بالحلى والجواهر وفى الثالثة بالدواب ثم بالضياع والعقار ثم برقابهم حتى استرقهم جميعا فقالوا مارأينا كاليوم ملكا أجل وأعظم منه ثم أعتقهم ورد اليهم أموالهم وكان لايبيع من احد من الممتارين أكثر من حمل بعير تقسيطا بين الناس (نصيب برحمتنا) بعطائنا فى الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم (من نشاء) بمقتضى الحكمة الداعية الى المشيئة (ولانضيع أجر المحسنين) بل نوفيه بكماله وفيه اشعار بان مدار المشيئة المذكورة احسان من نصيبه ﴿ لايبق ﴾ الرحمة المرقومة وانها أجره ولدفع توهم انحصار ثمرات الاحسان فيما ذكر من الاجر العاجل قيل على سبيل التوكيد (ولاجر الآخرة) اى أجرهم فى الآخرة فالاضافة للملابسة وهو النعيم المقيم الذى لانفاد له (خير) لهم اى للمحسنين المذكورين وانما وضع

جمهور المفسرين انه خاف من العين عليهم ولنا ههنا مقامان (المقام الاول) اثبات ان العين حق والذى يدل عليه وجوه (الاول) اطباق المتقدمين من المفسرين على أن المراد من هذه الآية ذلك (والثانى) ماروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعوذ الحسن والحسين فيقول أعيذ كما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة و يقول هكذا كان يعوذ ابراهيم اسمعيل واسحق صلوات الله عليهم (والثالث) ماروى عبادة بن الصامت قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول النهار فرأيته شديد الوجع ثم عدت اليه آخر النهار فرأيته معافى فقال ان جبريل عليه السلام أتانى فرقانى فقال بسم الله ارقيك من كل شئ يؤذيك ومن كل عين وحاسد الله يشفيك قال فأفقت (والرابع) روى أن بنى جعفر بن أبى طالب كانوا غلمانا بيضا فقالت أسماء يارسول الله ان العين اليهم سريعة أفأسترقى لهم من العين فقال لها نعم (والخامس) دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت أم سلمة وعندها صبى يشتكى فقالوا يارسول الله أصابته العين فقال أفلا تسترقون له من العين (والسادس) قوله عليه السلام العين حق ولو كان شئ يسبق القدر لسبقت العين القدر (والسابع) قالت عائشة رضى الله عنها كان يؤمر العائن أن يتوضأ ثم يغسل منه المعين الذى أصيب بالعين (المقام الثانى) فى الكشف عن ماهيته فنقول ان أبا على الجبائى أنكر هذا المعنى انكارا بليغا ولم يذكر فى انكاره شبهة فضلا عن حجة وأما الذين اعترفوا به وأقروا بوجوده فقد ذكروا فيه وجوها (الاول) قال الحافظ انه يمتد من العين أجزاء فتتصل بالشخص المستحسن فتؤثر فيه وتسرى فيه كتأثير اللسع والسم والنار وان كان مخالفا فى جهة التأثير لهذه الاشياء قال القاضى وهذا ضعيف لانه لو كان الامر كما قال لوجب أن يؤثر فى الشخص الذى لايستحسن كتأثيره فى المستحسن واعلم أن هذا الاعتراض ضعيف وذلك لانه اذا استحسن شيأ فقد يحب بقاءه كما اذا استحسن ولد نفسه و بستان نفسه وقد يكره بقاءه أيضا كما اذا أحس الحاسد بشئ حصل لعدوه فان كان الاول فانه يحصل له عند ذلك الاستحسان خوف شديد من زواله والخوف الشديد يوجب انحصار الروح فى داخل القلب فحينئذ يسخن القلب والروح جدا و يحصل فى الروح الباصرة كيفية قويه مسخنة وان كان الثانى فانه يحصل عند ذلك الاستحسان حسد شديد وحزن عظيم بسبب حصول تلك النعمة لعدوه والحزن ايضا يوجب انحصار الروح فى داخل القلب و يحصل فيه سخونة شديدة فثبت ان عند الاستحسان القوى تسخن الروح جدا فيسخن شعاع العين بخلاف ما اذا لم يستحسن فانه لاتحصل هذه السخونة فظهر الفرق بين الصورتين ولهذا السبب امر الرسول صلى الله عليه وسلم العائن بالوضوء ومن أصابته العين بالاغتسال (الوجه الثانى) قال أبو هاشم وأبو القاسم البلخى انه لايمتنع أن تكون العين حقا ويكون معناه ان صاحب العين اذا شاهد الشئ وأعجب به استحسانا كان المصلحة له فى تكليفه أن يغير الله ذلك الشخص وذلك الشئ حتى

موضعه الموصول بقيل (للذين آمنوا وكانوا يتقون) تنبيها على أن المراد بالاحسان انما هو الايمان والثبات على التقوى المستفاد من جمع صيغتى الماضى والمستقبل (وجاء اخوة يوسف) ممتارين لما أصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب أرض مصر وقد كان ارسلهم يعقوب عليه السلام جميعا غير بنيامين (فدخلوا عليه) أى على يوسف وهو فى مجلس ولايته (فعرفهم) لقوة فهمه وعدم مباينة أحوالهم ﴿ ٢١٧ ﴾ السابقة لحالهم يومئذ لمفارقته اياهم وهم رجال وتشابه هيآتهم وزيهم فى الحالين ولكون همته معقودة بهم وبمعرفة أحوالهم لاسيما فى زمن القحط وعن الحسن ماعرفهم حتى تعرفوا اليه (وهم له منكرون) أى والحال أنهم منكرون له لطول العهد وتباين مابين حاليه عليه السلام فى نفسه ومنزلته وزيه ولاعتقادهم انه هلك وحيث كان انكارهم له أمرا مستمرا فى حالتى المحضر والمغيب أخبر عنه بالجملة الاسمية بخلاف عرفانه عليه السلام اياهم (ولما جهزهم بجهازهم) أى أصلحهم بعدتهم من الزاد وما يحتاج اليه المسافر و أوقر ركائبهم بما جاؤا له من الميرة وقرئ بكسر الجيم (قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم) لم يقل بأخيكم مبالغة فى اظهار عدم معرفته لهم ولعله عليه السلام انما قاله لما قيل من أنهم سألوه عليه السلام حملا زائدا على ﴿ ٢٨ ﴾ ما المعتاد لبنيامين فأعطاهم ذلك وشرطهم أن يأتوا به لا لما قيل من انه لما رأوه وكلموه بالعبرية قال لهم من أنتم فانى أنكركم فقالوا له نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لهم لعلكم جئتم عيونا فقالوا معاذ الله نحن اخوة بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق نبى من الانبياء اسمه يعقوب قال كم أنتم قالوا كنا اثنى عشر فهلك منا واحد فقال كم أنتم ههنا

لايبقى قلب ذلك المكلف متعلقا به فهذا المعنى غير ممتنع ثم لايبعد أيضا انه لو ذكر ربه عند تلك الحالة وعدل عن الاعجاب وسأل ربه تبقية ذلك فعنده تتعين المصلحة ولما كانت هذه العادة مطردة لاجرم قيل العين حق (الوجه الثالث) وهو قول الحكماء قالوا هذا الكلام مبنى على مقدمة وهى انه ليس من شرط المؤثر أن يكون تأثيره بحسب هذه الكيفيات المحسوسة أعنى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة بل قد يكون التأثير نفسانيا محضا ولا يكون للقوى الجسمانية بها تعلق والذى يدل عليه ان اللوح الذى يكون قليل العرض اذا كان موضوعا على الارض قدر الانسان على المشى عليه ولو كان موضوعا فيما بين جدارين عاليين لعجز الانسان عن المشى عليه وماذاك الا لان خوفه من السقوط منه يوجب سقوطه فعلمنا ان التأثيرات النفسانية موجودة وأيضا ان الانسان اذا تصور كون فلان مؤذيا له حصل فى قلبه غضب ويسخن مزاجه جدا فبدأ تلك السخونة ليس الا ذلك التصور النفسانى ولان مبدأ الحركات البدنية ليس الا التصورات النفسانية فلما ثبت ان تصور النفس يوجب تغير بدنه الخاص لم يبعد أيضا أن يكون بعض النفوس بحيث تتعدى تأثيراتها الى سائر الابدان فثبت أنه لايمتنع فى العقل كون النفس مؤثرة فى سائر الابدان وأيضا جواهر النفوس مختلفة بالماهية فلا يمتنع أن يكون بعض النفوس بحيث يؤثر فى تغير بدن حيوان آخر بشرط أن يراه ويتعجب منه فثبت ان هذا المعنى أمر محتمل والتجارب من الزمن الاقدم ساعدت عليه والنفوس النبوية نطقت به فعنده لايبقى فى وقوعه شك واذا ثبت هذا ثبت ان الذى أطبق عليه المتقدمون من المفسرين فى تفسير هذه الآية باصابة العين كلام حق لايمكن رده (القول الثانى) وهو قول أبى على الجبائى ان أبناء يعقوب اشتهروا بمصر وتحدث الناس بهم وبحسنهم وكمالهم فقال لاتدخلوا تلك المدينة من باب واحد على ما أنتم عليه من العدد والهيئة فلم يأمن عليهم حسد الناس أو يقال لم يأمن عليهم أن يخافهم الملك الاعظم على ملكه فيحبسهم واعلم ان هذا الوجه محتمل لا انكار فيه الا أن القول الاول قد بينا انه لا امتناع فيه بحسب العقل والمفسرون اطبقوا عليه فوجب المصير اليه ونقل عن الحسن انه قال خاف عليهم العين فقال لاتدخلوا من باب واحد ثم رجع الى علمه وقال وما أغنى عنكم من الله من شئ وعرف ان العين ليست بشئ وكان قتادة يفسر الآية باصابة العين ويقول ليس فى قوله وما أغنى عنكم من الله من شئ ابطال له لان العين وان صح فالله قادر على دفع أثره (القول الثالث) انه عليه السلام كان عالما بان ملك مصر هو ولده يوسف الا ان الله تعالى ما أذن له فى اظهار ذلك فلما بعث أبناءه اليه قال لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وكان غرضه أن يصل بنيامين الى يوسف فى وقت الخلوة وهذا قول ابراهيم النخعى فاما قوله وما أغنى عنكم من الله من شئ فاعلم ان الانسان مأمور بان يراعى الاسباب المعتبرة فى

قالوا عشرة قال فاين الحادى عشر قالوا هو عند أبيه يتسلى به عن الهالك قال فمن يشهد لكم أنكم لستم عيونا وان ما تقولون حق قالوا نحن ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا قال فدعوا بعضكم عندى رهينة وائتونى بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم فاقترعوا فأصاب القرعة شمعون فخلفوه عنده اذ لا يساعده ورود الامر بالاتيان به عند التجهيز ولا الحث عليه بايفاء الكيل ولا الاحسان فى الانزال ولا الاقتصار على منع الكيل على تقدير عدم الاتيان به ولا جعل بضاعتهم فى رحالهم لاجل رجوعهم ولا عدتهم بالاتيان به بطريق المراودة ولا تعليلهم عند أبيهم ارسال أخيهم بمنع الكيل من غير ذكر الرسالة على أن استبقاء سمعون لو وقع لكان ذلك طامة ينسى عندها كل قيل وقال (ألا ترون انى أوف الكيل) أتمه لكم وايثار صيغة الاستقبال مع كون هذا الكلام بعد التجهيز للدلالة على ان ذلك عادة له مستمرة (وأنا خير المنزلين) جملة حالية أى ألا ترون أنى أوف الكيل لكم ايفاء مستمرا والحال انى فى غاية الاحسان فى انزالكم وضيافتكم وقد كان الامر كذلك وتخصيص الرؤية بالايفاء لوقوع الخطاب فى اثنائه وأما الاحسان فى الانزال فقد كان مستمرا فيما سبق ولحق ولذلك أخبر عنه بالجملة الاسمية ولم يقله عليه السلام بطريق الامتنان بل لحثهم على تحقيق ما أمرهم به والاقتصار فى الكيل على ذكر الايفاء لان معاملته عليه السلام معهم فى ذلك كمعاملته مع غيرهم فى مراعاة موجب العدل وأما الضيافة فليس للناس فيها حق فخصهم فى ذلك بما شاء (فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى) من بعد فضلا عن ايفائه (ولا تقربون) بدخول بلادى فضلا عن

هذا العالم ومأمور أيضا بأن يعتقد ويجزم بأنه لا يصل اليه الا ما قدره الله تعالى وان الحذر لا ينجى من القدر فان الانسان مأمور بان يحذر عن الاشياء المهلكة والاغذية الضارة ويسعى فى تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الامكان ثم انه مع ذلك ينبغى أن يكون جازما بأنه لا يصل اليه الا ما قدره الله ولا يحصل فى الوجود الا ما أراده الله فقوله عليه السلام لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة فهو اشارة الى رعاية الاسباب المعتبرة فى هذا العالم وقوله وما أغنى عنكم من الله من شئ اشارة الى عدم الالتفات الى الاسباب والى التوحيد المحض والبراءة عن كل شئ سوى الله تعالى وقول القائل كيف السبيل الى الجمع بين هذين القولين فهذا السؤال غير مختص به وذلك لانه لا نزاع فى انه لا بد من اقامة الطاعات والاحتراز عن المعاصى والسيآت مع انا نعتقد ان السعيد من سعد فى بطن أمه وان الشقى من شقى فى بطن أمه فكذا ههنا نأكل ونشرب ونحترز عن السموم وعن الدخول فى النار مع ان الموت والحياة لا يحصلان الا بتقدير الله تعالى فكذا ههنا فظهر ان هذا السؤال غير مختص بهذا المقام بل هو بحث عن سر مسئلة الجبر والقدر بل الحق ان العبد يجب عليه أن يسعى بأقصى الجهد والقدرة وبعد ذلك السعى البليغ والجد الجهيد فانه يعلم ان كل ما يدخل فى الوجود فلا بد وان يكون بقضاء الله تعالى ومشيئته وسابق حكمه وحكمته ثم انه تعالى أكد هذا المعنى فقال ان الحكم الا لله واعلم ان هذا من أدل الدلائل على صحة قولنا فى القضاء والقدر وذلك لان الحكم عبارة عن الالزام والمنع من النقيض وسميت حكمة الدابة بهذا الاسم لانها تمنع الدابة عن الحركات الفاسدة والحكم انما سمى حكما لانه يقتضى ترجيح أحد طرفى الممكن على الآخر بحيث يصير الطرف الآخر ممتنع الحصول فبين تعالى ان الحكم بهذا التفسير ليس الا لله سبحانه وتعالى وذلك يدل على ان جميع الممكنات مستندة الى قضائه وقدره ومشيئته وحكمه اما بغير واسطة واما بواسطة ثم قال عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ومعناه انه لما ثبت ان الكل من الله ثبت انه لا توكل الا على الله وان الرغبة ليست الا فى رجحان وجود الممكنات على عدمها وذلك الرجحان المانع من النقيض هو الحكم وثبت بالبرهان أنه لا حكم الا لله فلزم القطع بأن حصول كل الخيرات ودفع كل الآفات من الله وذلك يوجب أنه لا توكل الا على الله فهذا مقام شريف عال ونحن قد أشرنا الى ما هو البرهان الحق فيه والشيخ أبو حامد الغزالى رحمه الله أطنب فى تقرير هذا المعنى فى كتاب التوكل من كتاب احياء علوم الدين فمن أراد الاستقصاء فيه فليطالع ذلك الكتاب ✽ قوله تعالى (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شئ الا حاجة فى نفس يعقوب قضاها وانه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون) قال المفسرون لما قال يعقوب وما أغنى عنكم من الله من شئ صدقه الله فى ذلك فقال وما كان ذلك التفرق يغنى من الله من شئ وفيه بحثان (البحث الاول) قال ابن

﴿ عباس ﴾

الاحسان فى الانزال والضيافة وهو اما نهى أو نفى معطوف على محل الجزاء وفيه دليل على أنهم كانوا على نية الامتيار مرة بعد أخرى وأن ذلك كان معلوما له عليه السلام (قالوا سنراود عنه أباه) أى سنخادعه عنه ونحتال فى انتزاعه من يده ونجتهد فى ذلك وفيه تنبيه على عزة المطلب وصعوبة مناله (وانا لفاعلون) ذلك غير مفرطين فيه ولا متوانين أو لقادرون عليه لا نتعانى به (وقال) يوسف (لفتيانه) غلمانه الكيالين جمع فتى وقرئ لفتيته وهى جمع قلة له (اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم) فانه وكل بكل رحل رجلا يعبى فيه بضاعتهم التى شروا بها الطعام وكانت نعالا وأدما وانما فعله عليه السلام تفضلا عليهم وخوفا من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به مرة أخرى وكل ذلك لتحقيق ما يتوخاه من رجوعهم بأخيه كما يؤذن به قوله (لعلهم يعرفونها) أى يعرفون حق ردها والتكرم فى ذلك أو لكى يعرفوها وهو ظاهر التعلق بقوله (اذا انقلبوا الى أهلهم) فان معرفتهم لها مقيدة بالرجوع وتفريغ الاوعية قطعا وأما معرفة حق التكرم فى ردها فهى وان كانت فى ذاتها غير مقيدة بذلك لكن لما كان ابتداؤها حينئذ قيدت به (لعلهم يرجعون) حسبما أمرتهم به فان التفضل عليهم باعطاء البدلين ولاسيما عند اعواز البضاعة من اقوى الدواعى الى الرجوع وما قيل انما فعله عليه السلام لما لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه واخوته ثمنا فكلام حق فى نفسه ولكن يأباه التعليل المذكور وأما أن علية الجعل المذكور للرجوع من حيث ان ديانتهم تحملهم على رد البضاعة لانهم لا يستحلون امساكها فداره حسبانهم أنها بقيت فى رحالهم نسيانا وظاهر أن ذلك مما لا يخطر ببال أحد أصلا فان هيئة التعبية

عباس رضى الله عنهما ذلك التفرق ما كان يرد قضاء الله ولا أمرا قدره الله وقال الزجاج ان العين لو قدر أن تصيبهم لاصابتهم وهم متفرقون كما تصيبهم وهم مجتمعون وقال ابن الانبارى لو سبق فى علم الله أن العين تهلكهم عند الاجتماع لكان تفرقهم كاجتماعهم وهذه الكلمات متقاربة وحاصلها ان الحذر لا يدفع القدر (البحث الثانى) قوله من شئ يحتمل النصب بالمفعولية والرفع بالفاعلية (أما الاول) فهو كقوله ما رأيت من أحد والتقدير ما رأيت أحدا فكذا ههنا تقدير الآية ان تفرقهم ما كان يغنى من قضاء الله شيئا أى ذلك التفرق ما كان يخرج شيئا من تحت قضاء الله تعالى (وأما الثانى) فكقولك ما جاءنى من أحد وتقديره ما جاءنى أحد فكذا ههنا التقدير ما كان يغنى عنهم من الله شئ مع قضائه أما قوله الا حاجة فى نفس يعقوب قضاها فقال الزجاج انه استثناء منقطع والمعنى لكن حاجة فى نفس يعقوب قضاها يعنى ان الدخول على صفة التفرق قضاء حاجة فى نفس يعقوب قضاها ثم ذكروا فى تفسير تلك الحاجة وجوها (أحدها) خوفه عليهم من اصابة العين (وثانيها) خوفه عليهم من حسد أهل مصر (وثالثها) خوفه عليهم من أن يقصدهم ملك مصر بشر (ورابعها) خوفه عليهم من أن لا يرجعوا اليه وكل هذه الوجوه متقاربة وأما قوله وانه لذو علم لما علمناه فقال الواحدى يحتمل أن تكون ما مصدرية والهاء عائدة الى يعقوب والتقدير وانه لذو علم من أجل تعليمنا اياه ويمكن أن تكون ما بمعنى الذى والهاء عائدة اليها والتأويل وانه لذو علم للشئ الذى علمناه يعنى انا لما علمناه شيئا حصل له العلم بذلك الشئ وفى الآية قولان آخران (الاول) ان المراد بالعلم الحفظ أى انه لذو حفظ لما علمناه ومراقبة له (والثانى) لذو علم لفوائد ما علمناه وحسن آثاره وهو اشارة الى كونه عاملا بما علمه ثم قال ولكن أكثر الناس لا يعلمون وفيه وجهان (الاول) ولكن أكثر الناس لا يعلمون مثل ما علم يعقوب (والثانى) لا يعلمون ان يعقوب بهذه الصفة والعلم والمراد بأكثر الناس المشركون فانهم لا يعلمون بأن الله كيف أرشد أولياءه الى العلوم التى تنفعهم فى الدنيا والآخرة ❊ قوله تعالى (ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه قال انى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير انكم لسارقون قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم) اعلم انهم لما أتوه بأخيه بنيامين أكرمهم وأضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحده فبكى وقال لو كان أخى يوسف حيا لأجلسنى معه فقال يوسف بقى أخوكم وحيدا فأجلسه معه على مائدته ثم أمر أن ينزل منهم كل اثنين بيتا وقال هذا الاثنان لا ثانى له فاتركوه معى فآواه اليه ولما رأى يوسف تأسفه على أخ له هلك قال له أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال من يجد أخا مثلك ولكنك لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف عليه السلام وقام اليه وعانقه وقال انى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون اذا عرفت هذا

تنادي بأن ذلك بطريق التفضل ألا يرى أنهم كيف جزموا بذلك حين رأوها وجعلوا ذلك دليلا على التفضلات السابقة كما ستحيط به خبرا (فلما رجعوا الى أبيهم قالوا) قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع (يا أبانا منع منا الكيل) أى فيما بعد وفيه ما لا يخفى من الدلالة على كون الامتيار مرة بعد مرة معهودا فيما بينهم وبينه عليه السلام (فأرسل معنا أخانا) بنيامين الى مصر وفيه ايذان بأن مدار المنع عدم كونه معهم (نكتل) بسببه من الطعام ما نشاء وقرأ حمزة والكسائى بالياء على اسناده الى الاخ لكونه سببا للاكتيال أو يكتل لنفسه مع اكتيالنا (وانا له لحافظون) من أن يصيبه مكروه (قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على اخيه) يوسف (من قبل) وقد قلتم فى حقه أيضا ما قلتم ثم فعلتم به ما فعلتم فلا أثق بكم ولا بحفظكم وانما أفوض الامر الى الله (فالله خير حافظا) وقرئ حفظا وانتصابهما على التميز والحالية على القراءة الاولى توهم تقيد الخيرية بتلك الحالة (وهو أرحم الراحمين) فأرجو أن يرحمنى بحفظه ولا يجمع على مصيبتين وهذا كما ترى ميل منه عليه السلام الى الاذن والارسال لما رأى فيه من المصلحة (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم) أى تفضلا وقد علموا ذلك بما مر من دلالة الحال وقرئ بنقل حركة الدال المدغمة الى الراء كما قيل فى قيل وكيل (قالوا) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل ماذا قالوا حينئذ فقيل قالوا لابيهم ولعله كان حاضرا عند ﴿ عير ﴾ الفتح (يا أبانا ما نبغى) اذا فسر البغى بالطلب فما استفهامية منصوبة به فالمعنى ماذا نبتغى وراء ما وصفنا لك من احسان الملك الينا وكرمه الداعى الى امتثال أمره والمراجعة اليه فى الحوائج وقد كانوا أخبروه بذلك وقالوا له انا قدمنا على خير

فنقول قوله آوى اليه أخاه أي أنزله فى الموضع الذى كان يأوى اليه وقوله انى أنا أخوك فيه قولان قال وهب لم يرد أنه أخوه من النسب ولكن أراد به انى أقوم لك مقام أخيك فى الايناس لئلا تستوحش بالتفرد والصحيح ما عليه سائر المفسرين من أنه أراد تعريف النسب لان ذلك أقوى فى ازالة الوحشة وحصول الانس ولان الاصل فى الكلام الحقيقة فلا وجه لصرفه عنها الى المجاز من غير ضرورة وأما قوله فلا تبتئس فقال أهل اللغة تبتئس تفتعل من البؤس وهو الضرر والشدة والابتئاس اجتلاب الحزن والبؤس وقوله بما كانوا يعملون فيه وجوه (الاول) المراد بما كانوا يعملون من اقدامهم على حسدنا والحرص على انصراف وجه أبينا عنا (الثانى) أن يوسف عليه السلام ما بقى فى قلبه شئ من العداوة وصار صافيا مع اخوته فأراد أن يجعل قلب أخيه صافيا معهم أيضا فقال فلا تبتئس بما كانوا يعملون أى لا تلتفت الى ما صنعوه فيما تقدم ولا تلتفت الى أعمالهم المنكرة التى أقدموا عليها (الثالث) انهم انما فعلوا بيوسف ما فعلوه لانهم حسدوه على اقبال الاب عليه وتخصيصه بمزيد الاكرام فخاف بنيامين أن يحسدوه بسبب ان الملك خصه بمزيد الاكرام فأمنه منه وقال لا تلتفت الى ذلك فان الله قد جمع بينى و بينك (الرابع) روى الكلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان اخوة يوسف عليه السلام كانوا يعيرون يوسف وأخاه بسبب ان جدهما أبا أمهما كان يعبد الاصنام وان أم يوسف أمرت يوسف فسرق جونة كانت لابيها فيها أصنام رجاء أن يترك عبادتها اذا فقدها فقال له فلا تبتئس بما كانوا يعملون أى من التعيير لنا بما كان عليه جدنا والله أعلم ثم قال تعالى فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه وقد مضى الكلام فى الجهاز والرحل أما السقاية فقال صاحب الكشاف مشربة يسقى بها وهو الصواع قيل كان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعا يكال به وهو بعيد لان الاناء الذى يشرب الملك الكبير منه لا يصلح أن يجعل صاعا وقيل كانت الدواب تسقى بها ويكال بها أيضا وهذا أقرب ثم قال وقيل كانت من فضة مموهة بالذهب وقيل كانت من ذهب وقيل كانت مرصعة بالجواهر وهذا أيضا بعيد لان الآنية التى يسقى الدواب فيها لا تكون كذلك والاولى أن يقال كان ذلك الاناء شيئا له قيمة أما الى هذا الحد الذى ذكروه فلا ثم قال تعالى ثم أذن مؤذن أيتها العير انكم لسارقون يقال اذنه أى أعلمه وفى الفرق بين اذن و بين أذن وجهان قال ابن الانبارى أذن معناه أعلم اعلاما بعد اعلام لان فعل يوجب تكرير الفعل قال ويجوز أن يكون اعلاما واحدا من قبل ان العرب تجعل فعل بمعنى أفعل فى كثير من المواضع وقال سيبويه أذنت وأذنت معناه أعلمت لا فرق بينهما والتأذين معناه النداء والتصويت بالاعلام وأما قوله تعالى أيتها العير انكم لسارقون قال أبو الهيثم كل ما سير عليه من الابل والحمير والبغال فهو عير وقول من قال العير الابل خاصة باطل وقيل العير الابل التى عليها الاحمال لانها تعير أى تذهب وتجئ وقيل هى قافلة الحمير ثم كثر ذلك حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع

رجل أنزلنا وأكرمنا إكرامه لو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته وقوله تعالى (هذه بضاعتنا ردت الينا) جملة مستأنفة موضحة لما دلت عليه الانكار من بلوغ اللطف غايته كأنهم قالوا كيف لا وهذه بضاعتنا ردها الينا تفضلا من حيث لا ندري بعد ما من علينا من المنن العظام هل من مزيد على هذا فنطلبه ولم يريدوا به الاكتفاء بذلك مطلقا أو التقاعد عن طلب نظائره بل أرادوا الاكتفاء به في استيجاب الامتثال لأمره والالتجاء اليه في استجلاب المزيد كما أشرنا اليه وقوله تعالى ردت الينا حال من بضاعتنا والعامل معنى الاشارة وايثار صيغة البناء للمفعول للايذان بكمال الاحسان الناشئ عن كمال الاخفاء المفهوم من كمال غفلتهم عنه بحيث لم يشعروا به ولا بفاعله وقوله عز وجل (ونمير أهلنا) أي نجلب اليهم الطعام من عند الملك معطوف على مقدر ينسحب عليه رد البضاعة أي فنستظهر بها ونمير أهلنا (ونحفظ أخانا) من المكاره حسبما وعدنا فما يصيبه من مكروه (ونزداد) أي بواسطته ولذلك وسط الاخبار بحفظه بين الاصل والمزيد (كيل بعير) أي وسق بعير زائدا على أوساق أباعرنا على قضية التقسيط (ذلك) أي ما يحمله أباعرنا (كيل يسير) أي مكيل قليل لا يقوم بأودنا فهو استئناف وقع تعليلا لما سبق كأنه قيل أي حاجة الى الازدياد فقيل ما قيل أو ذلك الكيل الزائد شيء قليل لا يضايقنا فيه الملك أو سهل عليه لا يتعاظمه أو أي مطلب نطلب من مهماتنا والجملة الواقعة بعده توضيح وبيان لما يشعر به الانكار من كونهم فائزين ببعض المطالب أو متمكنين من تحصيله فكأنهم قالوا بضاعتنا حاضرة فنستظهر بها ونمير أهلنا ونحفظ أخانا فما يصيبه شيء من المكاره ونزداد بسببه غير ما نكتال له

عير وجمعها فعل كسقف وسقف اذا عرفت هذا فنقول أيتها العير المراد أصحاب العير كقوله يا خيل الله اركبي وقرأ ابن مسعود وجعل السقاية على حذف جواب لما كأنه قيل فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية في رحل أخيه أمهلهم حتى انطلقوا ثم أذن مؤذن أيتها العير انكم لسارقون فان قيل هل كان ذلك النداء بأمر يوسف أو ما كان بأمره فان كان بأمره فكيف يليق بالرسول الحق من عند الله أن يتهم أقواما وينسبهم الى السرقة كذبا وبهتانا وان كان الثاني وهو انه ما كان ذلك بأمره فهلا أنكره وهلا أظهر براءتهم عن تلك التهمة قلنا العلماء ذكروا في الجواب عنه وجوها (الاول) انه عليه السلام لما أظهر لاخيه أنه يوسف قال له اني أريد أن أحبسك ههنا ولا سبيل اليه الا بهذه الحيلة فان رضيت بها فالامر لك فرضي بأن يقال في حقه ذلك وعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام فيخرج عن كونه ذنبا (والثاني) ان المراد انكم لسارقون يوسف من أبيه الا أنهم لما أظهروا هذا الكلام والمعاريض لا تكون الا كذلك (والثالث) ان ذلك المؤذن ربما ذكر ذلك النداء على سبيل الاستفهام وعلى هذا التقدير يخرج عن أن يكون كذبا (الرابع) ليس في القرآن انهم نادوا بذلك النداء عن أمر يوسف عليه السلام والاقرب الى ظاهر الحال انهم فعلوا ذلك من أنفسهم لانهم لما طلبوا السقاية وما وجدوها وما كان هناك أحد الا هم غلب على ظنونهم انهم هم الذين أخذوها ثم ان اخوة يوسف قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي تفقدون من أفقدته اذا وجدته فقيدا قالوا نفقد صواع الملك قال صاحب الكشاف قرئ صواع وصاع وصوع وصوع بفتح الصاد وضمها والعين معجمة وغير معجمة قال بعضهم جمع صواع صيعان كغراب وغربان وجمع صاع أصواع كباب وأبواب وقال آخرون لا فرق بين الصاع والصواع والدليل عليه قراءة أبي هريرة قالوا نفقد صاع الملك وقال بعضهم الصواع اسم والسقاية وصف كقولهم كوز وسقاء فالكوز اسم والسقاء وصف ثم قال ولمن جاء به حمل بعير أي من الطعام وأنا به زعيم قال مجاهد الزعيم هو المؤذن الذي أذن وتفسير زعيم كفيل قال الكلبي الزعيم الكفيل بلسان أهل اليمن روى أبو عبيدة عن الكسائي زعمت به تزعم زعما وزعامة أي كفلت به وهذه الآية تدل على ان الكفالة كانت صحيحة في شرعهم وقد حكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله الزعيم غارم فان قيل هذه كفالة بشيء مجهول قلنا حمل بعير من الطعام كان معلوما عندهم فصحت الكفالة به الا أن هذه كفالة مال لرد سرقة وهو كفالة بما لم يجب لانه لا يحل للسارق أن يأخذ شيئا على رد السرقة ولعل مثل هذه الكفالة كانت تصح عندهم * قوله تعالى (قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الارض وما كنا سارقين قالوا فما جزاؤه ان كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين) قال البصريون الواو في والله بدل من الباء والتاء بدل من الواو فضعفت عن التصرف في سائر الاسماء وجعلت فيما هو أحق بالقسم وهو اسم الله

عز وجل قال المفسرون حلفوا على أمرين (أحدهما) على انهم ما جاؤا لأجل الفساد فى الارض لانه ظهر من أحوالهم امتناعهم من التصرف فى أموال الناس بالكلية لا بالاكل ولا بارسال الدواب فى مزارع الناس حتى روى انهم كانوا قد سدوا أفواه دوابهم لئلا تعبث فى زرع وكانوا مواظبين على أنواع الطاعات ومن كانت هذه صفته فالفساد فى الارض لا يليق به (والثانى) انهم ما كانوا سارقين وقد حصل لهم فيه شاهد قاطع وهو انهم لما وجد وابضاعتهم فى رحالهم حملوها من بلادهم الى مصر ولم يستحلوا أخذها والسارق لا يفعل ذلك البتة ثم لما بينوا براءتهم عن تلك التهمة قال أصحاب يوسف عليه السلام فما جزاؤه ان كنتم كاذبين فأجابوا وقالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه قال ابن عباس كانوا فى ذلك الزمان يستعبدون كل سارق بسرقته وكان استعباد السارق فى شرعهم يجرى مجرى وجوب القطع فى شرعنا والمعنى جزاء هذا الجرم من وجد المسروق فى رحله أى ذلك الشخص هو جزاء ذلك الجرم والمعنى ان استعباده هو جزاء ذلك الجرم قال الزجاج وفيه وجهان (أحدهما) أن يقال جزاؤه مبتدأ ومن وجد فى رحله خبره والمعنى جزاء السرقة هو الانسان الذى وجد فى رحله السرقة ويكون قوله فهو جزاؤه زيادة فى البيان كما تقول جزاء السارق القطع فهو جزاؤه (الثانى) أن يقال جزاؤه مبتدأ وقوله من وجد فى رحله فهو جزاؤه جملة وهى فى موضع خبر المبتدا والتقدير كأنه قيل جزاؤه من وجد فى رحله فهو هو الا أنه أقام المظهر مقام المضمر للتأكيد والمبالغة فى البيان وأنشد النحويون

لا أرى الموت يسبق الموت شئ ❊ نغص الموت الغنى والفقيرا

وأما قوله كذلك نجزى الظالمين أى مثل هذا الجزاء جزاء الظالمين يريد اذا سرق استرق ثم قيل هذا من بقية كلام اخوة يوسف وقيل انهم لما قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه فقال أصحاب يوسف كذلك نجزى الظالمين ❊ قوله تعالى (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك الا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم) اعلم ان اخوة يوسف لما أقروا بأن من وجد المسروق فى رحله فجزاؤه أن يسترق قال لهم المؤذن انه لا بد من تفتيش أمتعتكم فانصرف بهم الى يوسف فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه لازالة التهمة والاوعية جمع الوعاء وهو كل ما اذا وضع فيه شئ أحاط به ثم استخرجها من وعاء أخيه وقرأ الحسن وعاء أخيه بضم الواو وهى لغة وقرأ سعيد بن جبير اعاء أخيه فقلب الواو همزة فان قيل لم ذكر ضمير الصواع مرات ثم أنثه قلنا قالوا رجع ضمير المؤنث الى السقاية وضمير المذكر الى الصواع أو يقال الصواع يؤنث ويذكر فكان كل واحد منهما جائزا أو يقال لعل يوسف كان يسميه سقاية وعبيده صواعا فقد وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية وفيما يتصل بهم صواعا عن قتادة أنه قال كان لا ينظر فى وعاء الا استغفر الله تائبا مما قذفهم به

لا تفسنا كيل بعير فأى شئ نبتغى وراء هذه المباغى وقرئ ما تبغى على خطاب يعقوب عليه السلام اى أى شئ تبغى وراء هذه المباغى المشتملة على سلامة أخينا وسعة ذات أيدينا أو وراء ما فعل بنا الملك من الاحسان داعيا الى التوجه اليه والجملة الاستئنافية موضحة لذلك أو أى شئ تبغى شاهدا على صدقنا فيما وصفنا لك من احسانه والجملة المذكورة عبارة عن الشاهد المدلول عليه بفحوى الانكار واما نافية فالمعنى ما نبغى شيئا غير ما رأينا من احسان الملك فى وجوب المراجعة اليه أو ما نبغى غير هذه المباغى وقيل ما نطلب منك بضاعة أخرى والجملة المستأنفة تعليل له وأما اذا فسر البغى بمجاوزة الحد فما نافية فقط والمعنى ما نبغى فى القول وما نتزيد فيما وصفنا لك من احسان الملك الينا وكرمه الموجب لما ذكر والجملة المستأنفة لبيان ما ادعوا من عدم البغى وقوله ونمير أهلنا عطف على ما نبغى أى ما نبغى فيما ذكرنا من احسانه وتحصيل أمثاله من مير أهلنا وحفظ أخينا فان ذلك أهون شئ بواسطة احسانه وقد يجوز أن يكون كلاما مبتدأ أى جملة اعتراضية تذييلية على معنى وينبغى أن نمير أهلنا ونشد ذلك بقولك سعيت فى حاجة فلان ويجب أن أسعى وأنت خبير بأن شأن الجمل التذييلية أن يكون مؤكدة لمضمون الصدر ومقررة له كما فى المثال المذكور وقولك فلان ينطق بالحق فالحق ابلج وان قوله ونمير الخ وان ساعدنا فى حله على معنى ينبغى أن نمير أهلنا بمعزل من ذلك أو وما نبغى فى الرأى وما نعدل عن الصواب فيما نشير به عليك من ارسال أخينا معنا والجمل الى آخرها تفصيل وبيان لعدم بغيهم واصابة رأيهم أى بضاعتنا حاضرة نستظهر بها ونمير أهلنا ونصنع كيت وذيت ﴿ حتى ﴾

حتى انه لما لم يبق الا اخوه قال ما أرى هذا قد أخذ شيئا فقالوا لا نذهب حتى تتفحص عن حاله أيضا فلما نظروا فى متاعه استخرجوا الصواع من وعائه والقوم كانوا قد حكموا بأن من سرق يسترق فأخذوا برقبته وجروه الى دار يوسف ثم قال تعالى كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك وفيه بحثان (الاول) المعنى ومثل ذلك الكيد كدنا ليوسف وذلك اشارة الى الحكم باسترقاق السارق أى مثل هذا الحكم الذى ذكره اخوة يوسف حكمنا ليوسف (الثانى) لفظ الكيد مشعر بالحيلة والخديعة وذلك فى حق الله تعالى محال الا انا ذكرنا قانونا معتبرا فى هذا الباب وهو أن أمثال هذه الالفاظ تحمل على نهايات الاعراض لا على بدايات الاعراض وقررنا هذا الاصل فى تفسير قوله تعالى ان الله لا يستحيى فالكيد السعى فى الحيلة والخديعة ونهايته القاء الانسان من حيث لا يشعر فى أمر مكروه ولا سبيل له الى دفعه فالكيد فى حق الله تعالى محمول على هذا المعنى ثم اختلفوا فى المراد بالكيد ههنا فقال بعضهم المراد أن اخوة يوسف سعوا فى ابطال أمر يوسف والله تعالى نصره وقواه وأعلى أمره وقال آخرون المراد من هذا الكيد هو انه تعالى ألقى فى قلوب اخوته ان حكموا بأن جزاء السارق هو أن يسترق لا جرم لما ظهر الصواع فى رحله حكموا عليه بالاسترقاق وصار ذلك سببا لتمكن يوسف عليه السلام من امساك أخيه عند نفسه ثم قال تعالى ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك والمعنى انه كان حكم الملك فى السارق أن يضرب ويغرم ضعفى ما سرق فما كان يوسف قادرا على حبس أخيه عند نفسه بناء على دين الملك وحكمه الا انه تعالى كاد له ما جرى على لسان اخوته ان جزاء السارق هو الاسترقاق فقد بينا ان هذا الكلام توسل به الى أخذ أخيه وحبسه عند نفسه وهو معنى قوله الا أن يشاء الله ثم قال نرفع درجات من نشاء وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ حمزة وعاصم والكسائى درجات بالتنوين غير مضاف والباقون بالاضافة (المسئلة الثانية) المراد من قوله نرفع درجات من نشاء هو انه تعالى يريه وجوه الصواب فى بلوغ المراد ويخصه بانواع العلوم وأقسام الفضائل والمراد ههنا هو انه تعالى رفع درجات يوسف على اخوته فى كل شئ واعلم أن هذه الآية تدل على ان العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات لانه تعالى لما هدى يوسف الى هذه الحيلة والفكرة مدحه لاجل ذلك فقال نرفع درجات من نشاء وأيضا وصف ابراهيم عليه السلام بقوله نرفع درجات من نشاء عند ايراده ذكر دلائل التوحيد والبراءة عن الهية الشمس والقمر والكواكب ووصف ههنا يوسف أيضا بقوله نرفع درجات من نشاء لما هداه الى هذه الحيلة وكم بين المرتبتين من التفاوت ثم قال تعالى وفوق كل ذى علم عليم والمعنى ان اخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء فضلاء أن يوسف كان زائدا عليهم فى العلم واعلم أن المعتزلة احتجوا بهذه الآية على انه تعالى عالم بذاته لا بالعلم قالوا لو كان عالما بالعلم لكان ذا علم ولو كان كذلك لحصل فوقه عليم تمسكا بعموم هذه الاية وهذا باطل واعلم أن اصحابنا قالوا دلت سائر الآيات على اثبات العلم لله تعالى وهى قوله

فتأمل (قال لن أرسله معكم) بعد ما عاينت منكم ما عاينت (حتى تؤتون موثقا من الله) أى ما أتوثق به من جهة الله عز وجل وانما جعله موثقا منه تعالى لان تأكيد المعهود به مأذون فيه من جهته تعالى فهو اذن منه عز وجل (لتأتننى به) جواب القسم اذ المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتننى به (الا أن يحاط بكم) أى الا أن تغلبوا فلا تطيقوا به أو الا أن تهلكوا وأصله من احاطة العدو فان من أحاط به العدو فقد هلك غالبا وهو استثناء من أعم الاحوال أو أعم العلل على تأويل الكلام بالنفى الذى ينساق اليه أى لتأتننى به ولا تمتنعن منه فى حال من الاحوال أو لعلة من العلل الا حال الاحاطة بكم أو لعلة الاحاطة بكم ونظيره قولهم أقسمت عليك لما فعلت والا فعلت أى ما أريد منك الا فعلك وقد جوز الاول بلا تأويل أيضا أى لتأتننى به على كل حال الا حال الاحاطة بكم وأنت تدرى انه حيث لم يكن الاتيان به من الافعال الممتدة الشاملة للاحوال على سبيل المعية كما فى قولك لالزمنك الا أن تعطينى حقى ولم يكن مراده عليه السلام مقارنته على سبيل البدل لما عدا الحال المستثناة كما اذا قلت صل الا أن تكون محدثا بل مجرد تحققه ووقوعه من غير اخلال به كما فى قولك لاحجن العام الا أن أحصر فان مرادك انما هو الاخبار بعدم منعها سوى حال الاحصار عن الحج الا الاخبار بمقارنته لتلك الاحوال على سبيل البدل كما هو مرادك فى مثال الصلاة كان اعتبار الاحوال معه من حيث عدم منعها منه فآل المعنى الى التأويل المذكور (فلما آتوه موثقهم) عهدهم من الله حسبما أراد يعقوب عليه السلام (قال الله على ما نقول) أى على ما قلنا فى أثناء طلب الموثق واتيانه من الجانبين وايثار صيغة الاستقبال

لاستحضار صورته المؤدي الى تثبتهم ومحافظتهم على تذكره ومراقبته (وكيل) مطلع رقيب يريد بطرح ثقته بالله تعالى و[illegible] على مراعاة ميثاقهم (وقال) ناصحا لهم لما أزمع على ارسالهم جميعا (يابني لا تدخلوا) مصر (من باب نهاهم عن [illegible] حذارا من اصابة العين فانهم كانوا ذوي جمال وشارة حسنة وقد كانوا تجملوا في هذه الكرة في المره الاولى [illegible] وقد اشتهروا في مصر بالكرامة والزلفى لدى الملك بخلاف النوبة الاولى فكان لدنو كل ناظر وطموح كل طامح واصابة العين بتقدير العزيز الحكيم ليست مما ينكر وقد ورد عنه عليه السلام ان العين حق وعنه عليه السلام ان العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر وقد كان عليه السلام يعوذ الحسنين رضي الله عنهما بقوله أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة وكان عليه السلام يقول كان أبوكما يعوذ بها اسمعيل واسحق عليهم السلام رواه البخاري في صحيحه وقد شهدت بذلك التجارب ولما لم يكن عدم الدخول من باب واحد مستلزما للدخول من أبواب متفرقة وكان في دخولهم من بابين أو ثلاثة بعض ما في الدخول من باب واحد من نوع اجتماع مصحح لوقوع المحذور قال (وادخلوا من أبواب متفرقة) بيانا لما هو المراد بالنهي وانما لم يكتف بهذا الامر مع كونه مستلزما له اظهارا لكمال العناية وايذانا بأنه المراد ◆ وا بالامر المذكور لا لتحقيق لشيء آخر (وما أغني عنكم) أي لا أنفعكم ولا أدفع عنكم بتدبيري (من الله أي شيئا مما قضى عليكم فان الحذر لا يمنع القدر ولم يرد به عليه السلام الغاء الحذر بالمرة كيف لا وقد ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وقال خذوا حذركم بل أراد

الجملة
الشاهد
وجوب
ادفى

ان الله عنده علم الساعة وأنزله بعلمه ولا يحيطون بشيء من علمه وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه واذا وقع التعارض فنحن نحمل الآية التي تمسك الخصم بها على واقعة يوسف واخوته خاصة غاية ما في الباب أنه يوجب تخصيص العموم الا أنه لا بد من المصير اليه لان العالم مشتق من العلم والمشتق مركب والمشتق منه مفرد وحصول المركب بدون حصول المفرد محال في بديهة العقل فكان الترجيح من جانبنا * قوله تعالى (قالوا ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون) اعلم أنه لما خرج الصواع من رحل أخي يوسف نكس اخوته رؤسهم وقالوا هذه الواقعة عجيبة ان راحيل ولدت ولدين لصين ثم قالوا يا بني راحيل ما أكثر البلاء علينا منكم فقال بنيامين ما أكثر البلاء علينا منكم ذهبتم باخي وضيعتموه في المفازة ثم تقولون لي هذا الكلام قالوا له فكيف خرج الصواع من رحلك فقال وضعه في رحلي من وضع البضاعة في رحالكم واعلم أن ظاهر الآية يقتضي انهم قالوا للملك ان هذا الامر ليس بغريب منه فان أخاه الذي هلك كان أيضا سارقا وكان غرضهم من هذا الكلام انا لسنا على طريقته ولا على سيرته وهو وأخوه مختصان بهذه الطريقة لانهما من أم أخرى واختلفوا في السرقة التي نسبوها الى يوسف عليه السلام على أقوال (الاول) قال سعيد بن جبير كان جده أبو أمه كافرا يعبد الاوثان فامرته أمه بان يسرق تلك الاوثان ويكسرها فلعله يترك عبادة الاوثان ففعل ذلك فهذا هو السرقة (والثاني) أنه كان يسرق الطعام من مائدة أبيه ويدفعه الى الفقراء وقيل سرق عناقا من أبيه ودفعه الى مسكين وقيل دجاجة (والثالث) أن عمته كانت تحبه حبا شديدا فارادت أن تمسكه عند نفسها وكان قد بقي عندها منطقة لاسحق عليه السلام وكانوا يتبركون بها فشدتها على وسط يوسف ثم قالت بانه سرقها وكان من حكمهم بان من سرق يسترق فتوسلت بهذه الحيلة الى امساكه عند نفسها (والرابع) انهم كذبوا عليه وبهتوه وكانت قلوبهم مملوءة من الغضب على يوسف بعد تلك الوقائع وبعد انقضاء تلك المدة الطويلة وهذه الواقعة تدل على ان قلب الحاسد لا يطهر عن الغل البتة ثم قال تعالى فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم واختلفوا في أن الضمير في قوله فأسرها يوسف الى أي شيء يعود على قولين قال الزجاج فأسرها اضمار على شريطة التفسير تفسيره أنتم شر مكانا وانما أنث لان قوله أنتم شر مكانا جملة أو كلمة لانهم يسمون الطائفة من الكلام كلمة كأنه قال فأسر الجملة أو الكلمة التي هي قوله أنتم شر مكانا وفي قراءة ابن مسعود فأسره بالتذكير يريد القول أو الكلام وطعن أبو علي الفارسي في هذا الوجه فيما استدركه على الزجاج من وجهين (الاول) قال الاضمار على شريطة التفسير يكون على ضربين (أحدهما) أن يفسر بمفرد كقولنا نعم رجلا زيد ففي نعم ضمير فاعلها ورجلا تفسير لذلك الفاعل المضمر والآخر ان يفسر بجملة وأصل هذا يقع في الابتداء كقوله فا شاخصة أبصار الذين كفروا وقل هو الله أحد والمعنى القصة شاخصة أبصار الذين

بيان ان ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة بل هو تدبير في الجملة وانما التأثير وترتب المنفعة عليه من العزيز القدير وانما جاليس بمدافعة للقدر بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه اليه (ان الحكم) مطلقا (الا لله) لا يشاركه أحد ولا يمانعه شئ اذ المعنى لا على أحد سواه (توكلت) في كل ما آتي وأذر وفيه دلالة على أن ترتيب الاسباب غير مخل بالتوكل (وعليه) دون غيره (فليتوكل المتوكلون) جمع بين الحرفين ﴿ ٢٢٥ ﴾ في عطف الجملة على الجملة مع تقديم الصلة للاختصاص مفيدا بالواو عطف فعل غيره من تخصيص التوكل بالله عز وجل على فعل نفسه وبالفاء سببية فعله لكونه نبيا لفعل غيره من المقتدين به فيدخل فيهم بنوه دخولا أوليا وفيه ما لا يخفى من حسن هدايتهم وارشادهم الى التوكل فيما هم بصدده على الله عز وجل غير مغترين بما وصاهم به من التدبير (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) من الابواب المتفرقة من البلد قيل كانت له أربعة أبواب فدخلوا منها وانما اكتفى بذكره لاستلزامه الانتهاء عما نهوا عنه (ما كان) ذلك الدخول (يغني) فيما سيأتي عند وقوع ما وقع (عنهم) عن الداخلين لان المقصود به استدفاع الضرر عنهم والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل لتحقيق المقارنة الواجبة بين جواب لما ومدخوله فان عدم بمقارنته [illegible] يتحقق عند نزول المحذور لا وقت ﴿ ٢٩ ﴾ ذا الدخول وانما المتحقق حينئذ ما أفاده الجمع المذكور منعها من[illegible]ول المذكور مغنيا فيما سيأتي فتأمل (من الله) من جهته (من شئ) أي شيئا مما قضاه عليهم مع كونه (قال الله [illegible] الرأي حيث وصاهم به يعقوب عليه السلام وعملوا بموجبه واثقين بجدواه من فضل

حرم الله أحد ثم ان العوامل الداخلة على المبتدا والخبر تدخل عليه أيضا نحو ان قوله انه من يأت ربه مجرما فانها لا تعمى الابصار اذا عرفت هذا فنقول نفس المضمر على شريطة التفسير في كلا القسمين متصل بالجملة التي حصل منها الاضمار ولا يكون خارجا عن تلك الجملة ولا مباينا لها وههنا التفسير منفصل عن الجملة التي حصل منها الاضمار فوجب أن لا يحسن (والثاني) انه تعالى قال أنتم شر مكانا وذلك يدل على انه ذكر هذا الكلام ولو قلنا انه عليه السلام أضمر هذا الكلام لكان قوله انه قال ذلك كذبا واعلم أن هذا الطعن ضعيف لوجوه (أما الاول) فلأنه لا يلزم من حسن القسمين الاولين قبح قسم ثالث وأما الثاني فلأنا نحمل ذلك على انه عليه السلام قال ذلك على سبيل الخفية وبهذا التفسير يسقط هذا السؤال (والوجه الثاني) وهو ان الضمير في قوله فاسرها عائد الى الاجابة كأنهم قالوا ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل فاسر يوسف اجابتهم في نفسه في ذلك الوقت ولم يبدها لهم في تلك الحالة الى وقت ثان ويجوز أيضا أن يكون اضمارا للمقالة والمعنى أسر يوسف مقالتهم والمراد من المقالة متعلق تلك المقالة كما يراد بالخلق المخلوق وبالعلم المعلوم يعني أسر يوسف في نفسه كيفية تلك السرقة ولم يبين لهم انها كيف وقعت وأنه ليس فيها ما يوجب الذم والطعن روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال عوقب يو[illegible] ثلاث مرات لاجل همه بها عوقب بالحبس وبقوله اذكرني عند ربك عوقب بالحبس الطويل وبقوله انكم لسارقون عوقب بقولهم فقد سرق أخ له من قبل ثم حك[illegible] عن يوسف أنه قال أنتم شر مكانا أي أنتم شر منزلة عند الله تعالى لما أقدمتم عليه من سر[illegible]يكم وعقوق أبيكم فأخذتم أخاكم وطرحتموه في الجب ثم قلتم لابيكم ان الذئب أكله وأنتم كاذبون ثم بعتموه بعشرين درهما ثم بعد المدة الطويلة والزمان الممتد ما زال الحقد والغضب عن قلوبكم فرميتموه بالسرقة ثم قال تعالى والله أعلم بما تصفون يريد أن سرقة يوسف كانت برضا الله وبالجملة فهذه الوجوه المذكورة في سرقته لا يوجب شئ منها عود الذم واللوم اليه والمعنى والله أعلم بان هذا الذي وصفتموه به هل يوجب عود مذمة [illegible]م أم لا * قوله تعالى (قالوا يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه انا نراك من المحسنين قال معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده انا اذا لظالمون) اعلم أنه تعالى بين انهم بعد الذي ذكروه من قولهم ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل أحبوا موافقته والعدول الى طريقة الشفاعة فانهم وان كانوا قد اعترفوا أن حكم الله تعالى في السارق ان يستعبد الا أن العفو وأخذ الفداء كان أيضا جائزا فقالوا يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا أي في السن ويجوز أن يكون في القدر والدين وانما ذكروا ذلك لان كونه ابنا لرجل كبير القدر [illegible] العفو والصفح ثم قالوا فخذ أحدنا مكانه يحتمل أن يكون المراد على طريق قالو[illegible]تمل أن يكون المراد على طريق الرهن حتى نوصل الفداء اليك ثم قالوا وهذ[illegible]سنين وفيه وجوه (أحدها) انا نراك من المحسنين لو فعلت ذلك (وثانيها)

سببية الدخول المذكور لعدم الاغناء كما فى قوله تعالى فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا فان مجىء النذير هناك سبب لزيادة نفورهم بل لبيان عدم سببيته للاغناء مع كونها متوقعة فى بادى الرأى كما فى قولك حلف أن يعطينى حقى عند حلول الاجل فلما حل لم يعطنى شيئا فان المراد بيان عدم سببية حلول الاجل للاعطاء مع كونها مرجوة بموجب الحلف لا بيان سببيته لعدم الاعطاء فالمآل بيان عدم ترتب الغرض المقصود على التدبير المعهود مع كونه مرجو الوجود لا بيان ترتب عدمه عليه ويجوز أن يراد ذلك أيضا بناء على ما ذكره عليه السلام فى تضاعيف وصيته من أنه لا يغنى عنهم من الله شيئا فكأنه قيل ولما فعلوا ما وصاهم به لم يفد ذلك شيئا ووقع الامر حسبما قال عليه السلام فلقوا ما لقوا فيكون من باب وقوع المتوقع فتأمل (الا حاجة) استثناء منقطع أى ولكن حاجة وحزازة كائنة (فى نفس يعقوب قضاها) أى أظهرها ووصاهم بها دفعا للخاطرة غير معتقد أن للتدبير تأثيرا فى تغيير التقدير وقد جعل ضمير الفاعل فى قضاها للدخول على معنى ان ذلك الدخول قضى حاجة فى نفس يعقوب وهى ارادته أن يكون دخولهم من أبواب متفرقة فالمعنى ما كان ذلك الدخول يغنى عنهم من جهة الله تعالى شيئا ولكن قضى حاجة حاصلة فى نفس يعقوب بوقوعه حسب ارادته فالاستثناء منقطع أيضا وعلى التقديرين لم يكن للتدبير فائدة سوى ﴿ موضع ﴾ دفع الخاطرة وأما اصابة العين فانما لم تقع لكونها غير مقدرة عليهم لا لانها اندفعت بذلك مع كونها مقضية عليهم (وانه لذو علم) جليل (لما علمناه) لتعليمنا اياه بالوحى ونصب الادلة حيث لم يعتقد أن الحذر يدفع القدر وأن التدبير له حظ من التأثير

انا نراك من المحسنين الينا حيث أكرمتنا واعطيتنا البذل الكثير وحصلت لنا مطلوبنا على أحسن الوجوه ورددت الينا ثمن الطعام (وثالثها) نقل انه عليه السلام لما اشتد القحط على القوم ولم يجدوا شيئا يشترون به الطعام وكانوا يبيعون أنفسهم منه فصار ذلك سببا لصيرورة أكثر أهل مصر عبيدا له ثم انه أعتق الكل فلعلهم قالوا انا نراك من المحسنين الى عامة الناس بالاعتاق فكن محسنا أيضا الى هذا الانسان باعتاقه من هذه المحنة فقال يوسف معاذ الله أى أعوذ بالله معاذا أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده أى أعوذ بالله أن آخذ بريئا بمذنب قال الزجاج موضع أن نصب والمعنى أعوذ بالله من أخذ أحد بغيره فلما سقطت كلمة من انتصب الفعل عليه وقوله انا اذا لظالمون أى لقد تعديت وظلمت ان آذيت انسانا بجرم صدر عن غيره فان قيل هذه الواقعة من أولها الى آخرها تزوير وكذب فكيف يجوز من يوسف عليه السلام مع رسالته الاقدام على هذا التزوير والترويج وايذاء الناس من غير سبب لا سيما ويعلم أنه اذا حبس أخاه عند نفسه بهذه التهمة فانه يعظم حزن أبيه ويشتد غمه فكيف يليق بالرسول المعصوم المبالغة فى التزوير الى هذا الحد (والجواب) لعله تعالى أمره بذلك تشديد المحنة على يعقوب ونهاه عن العفو والصفح وأخذ البدل كما أمر تعالى صاحب موسى بقتل من لو بقى لطغى وكفر * قوله تعالى (فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا ان أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف فلن أبرح الارض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انهم لما قالوا فخذ أحدنا مكانه وهو نهاية ما [illegible] قال يوسف فى جوابه معاذ الله ان نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده فانقطع طمعهم من يوسف عليه السلام فى رده فعند هذا قال تعالى فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا وهو مبالغة فى يأسهم من رده وخلصوا نجيا أى تفردوا عن سائر الناس يتناجون ولا شبهة ان المراد يتشاورون ويجيلون الرأى فيما وقعوا فيه لانهم انما أخذوا بنيامين من أبيهم بعد المواثيق المؤكدة وبعد ان كانوا متهمين فى حق يوسف فلو لم يعيدوه الى أبيهم لحصلت محن كثيرة (أحدها) انه لو لم يعودوا الى أبيهم وكان شيخا كبيرا فبقاؤه وحده من غير أحد من أولاده محنة عظيمة (وثانيها) ان أهل بيتهم كانوا محتاجين الى الطعام أشد الحاجة (وثالثها) ان يعقوب عليه السلام ربما كان يظن ان أولاده هلكوا بالكلية وذلك غم شديد ولو عادوا الى أبيهم بدون بنيامين لعظم حياؤهم فان ظاهر الامر يوهم انهم خانوه فى هذا الابن كما انهم خانوه فى الابن الاول ولكان يوهم أيضا انهم ما أقاموا لتلك المواثيق المؤكدة وزنا ولا شك ان هذا الموضع موضع فكرة وحيرة وذلك يوجب التفاوض والتشاور وطلب الاصلح الاصوب فهذا هو المراد من قوله فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا (المسئلة الثانية) قال الواحدى روى عن ابن كثير استيأسوا وحتى اذا استيأس الرسل بغير همز وفى يئس لغتان يئس وييأس مثل حسب ويحسب ومن قال استأيس قلب العين الى

حتى يتبين الخلل في رأيه عند تخلف الاثر او حيث بت القول بأنه لايغني عنهم من الله شيئا فكان الحال كما قال وفي تأكيد الجملة بان واللام وتنكير العلم وتعليله بالتعليم المسند الى ذاته سبحانه من الدلالة على جلالة شأن يعقوب عليه السلام وعلو مرتبة علمه وفخامته مالايخفى (ولكن أكثر الناس لايعلمون) أسرار القدر و يزعمون انه يغني عنه الحذر وأما ما يقال من أن المعنى لايعلمون ايجاب الحذر مع انه لايغني شيئا من القدر فيأباه مقام بيان تخلف المطلوب عن المبادي

(ولما دخلوا على يوسف آوى اليه اخاه) بنيامين أي ضمه اليه في الطعام أو في المنزل أو فيهما روي أنهم لما دخلوا عليه قالوا له هذا أخونا قد جئناك به فقال لهم أحسنتم وستجدون ذلك عندي فأكرمهم ثم أضافهم وأجلسهم مثنى مثنى فبقي بنيامين وحيدا فبكى وقال لو كان أخي يوسف حيا لأجلسني معه فقال يوسف بقي أخوكم فريدا وأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله ثم أنزل كل اثنين منهم بيتا فقال هذا لاثاني معه فيكون معي فبات يوسف يضمه اليه ويشم رائحته حتى اصبح وسأله عن ولده فقال لي عشرة بنين اشتققت اسماءهم من اسم أخ لي هلك فقال له أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك فقال من يجد أخا مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وقام اليه وعانقه وتعرف اليه وعند ذلك (قال اني أنا أخوك) يوسف (فلا تبتئس) أي فلا تحزن (بما كانوا يعملون) بنا فيما مضى فان الله تعالى قد أحسن الينا وجمعنا بخير ولا تعلمهم بما أعلمتك قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وعن وهب انه لم يتعرف اليه بل قال له انا أخوك بدل اخيك المفقود ومعنى فلا تبتئس لا تحزن بما كنت تلقى منهم من الحسد والاذى فقد أمنتهم وروي انه قال له فأنا لا أفارقك قال قد علمت باغتمام

موضع الفاء فصار استفعل وأصله استيأس ثم خففت الهمزة قال صاحب الكشاف استيأسوا يئسوا وزيادة السين والتاء للمبالغة كما في قوله استعصم وقوله خلصوا قال الواحدي يقال خلص الشيء يخلص خلوصا اذا ذهب عنه الشائب من غيره ثم فيه وجهان (الاول) قال الزجاج خلصوا أي انفردوا وليس معهم أخوهم (والثاني) قال الباقون تميزوا عن الاجانب وهذا هو الاظهر وأما قوله نجيا فقال صاحب الكشاف النجي على معنيين يكون بمعنى المناجي كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر ومنه قوله تعالى وقربناه نجيا و بمعنى المصدر الذي هو التناجي كما قيل النجوى بمعنى المتناجين فعلى هذا معنى خلصوا نجيا اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لايخالطهم سواهم نجيا أي مناجيا روي نجوى أي فوجا نجيا أي مناجيا للمناجاة بعضهم بعضا وأحسن الوجوه أن يقال انهم تمحضوا تناجيا لان من كمل حصول أمر من الامور فيه وصف بأنه صار عين ذلك الشيء فلما أخذوا في التناجي على غاية الجد صاروا كأنهم في أنفسهم صاروا نفس التناجي حقيقة أما قوله تعالى قال كبيرهم فقيل المراد كبيرهم في السن وهو روبيل وقيل كبيرهم في العقل وهو يهودا وهو الذي نهاهم عن قتل يوسف ثم حكى تعالى عن هذا الكبير أنه قال ألم تعلموا ان أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل مافرطتم في يوسف وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال ابن عباس رضي الله عنهما لما قال يوسف عليه السلام معاذ الله ان نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده غضب يهودا وكان اذا غضب وصاح فلا تسمع صوته حامل الا وضعت ويقوم شعره على جسده فلا يسكن حتى يضع بعض آل يعقوب يده عليه فقال لبعض اخوته اكفوني أسواق أهل مصر وأنا أكفيكم الملك فقال يوسف عليه السلام لابن صغير له مسه فمسه فذهب غضبه وهم أن يصيح فركض يوسف عليه السلام رجله على الارض وأخذ بملابسه وجذبه فسقط فعنده قال يا أيها العزيز فلما أيسوا من قبول الشفاعة تذاكروا وقالوا ان أبانا قد أخذ علينا موثقا عظيما من الله وأيضا نحن متهمون بواقعة يوسف فكيف المخلص من هذه الورطة (المسئلة الثانية) لفظ ما في قوله مافرطتم فيها وجوه (الاول) أن يكون أصله من قبل هذا فرطتم في شأن يوسف عليه السلام ولم تحفظوا عهد أبيكم (الثاني) أن تكون مصدرية ومحله الرفع على الابتداء وخبره الظرف وهو من قبل ومعناه وقع من قبل تفريطكم في يوسف (الثالث) النصب عطفا على مفعول ألم تعلموا والتقدير ألم تعلموا أخذ أبيكم موثقكم وتفريطكم من قبل في يوسف (الرابع) أن تكون موصولة بمعنى ومن قبل هذا مافرطتموه أي قدمتموه في حق يوسف من الخيانة العظيمة ومحله الرفع والنصب على الوجهين المذكورين ثم قال فلن أبرح الارض أي فلن أفارق أرض مصر حتى يأذن لي أبي في الانصراف اليه أو يحكم الله لي بالخروج منها او بالانتصاف ممن أخذ اخي أو بخلاصه من يده بسبب من الاسباب وهو خير الحاكمين لانه لايحكم الا بالعدل والحق و بالجملة فالمراد ظهور عذر يزول معه حياؤه وخجله من ابيه

والدى بى فاذا حبستك يزداد غمه ولا سبيل الى ذلك الا أن انسبك الى ما لا يجمل قال لا أبالى فافعل ما بدا لك قال ادس صاعى فى رحلك ثم أنادى عليك بأنك سرقته ليتهيأ لى ردك بعد تسريحك معهم قال افعل (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية) أى المشربة قيل كانت مشربة جعلت صاعا يكال به وقيل كانت تسقى بها الدواب ويكال بها الحبوب وكانت من فضة وقيل من ذهب وقيل من فضة مموهة بالذهب كانت اناء مستطيلة تشبه المكوك الفارسى الذى يلتقى طرفاه يستعمله الاعاجم وقيل كانت مرصعة بالجواهر (فى رحل أخيه) بنيامين وقرئ وجعل على حذف جواب لما تقديره أمهلهم حتى انطلقوا (ثم أذن مؤذن) نادى مناد (أيتها العير) وهى الابل التى عليها الاحمال لانها تعير أى تذهب وتجئ وقيل هى قافلة الحمير ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع عير وأصلها فعل مثل سقف وسقف فعل به ما فعل ببيض وغيد والمراد أصحابها كما فى قوله عليه السلام يا خيل الله اركبى روى انهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا منزلا وقيل خرجوا من العمارة ثم أمر بهم فأدركوا ونودوا (انكم لسارقون) هذا الخطاب ان كان بأمر يوسف فلعله أريد بالسرقة أخذهم له من أبيه ودخول بنيامين فيه بطريق التغليب والا فهو من قبل المؤذن بناء على زعمه والاول هو الاظهر الاوفق للسياق وقرأ اليمانى سارقون (قالوا) أى الاخوة (وأقبلوا عليهم) جملة حالية من ضمير قالوا جئ بها للدلالة على انزعاجهم مما سمعوه لمباينته لحالهم (ماذا تفقدون) أى تعدمون تقول فقدت الشئ اذا عدمته بأن ضل عنك والمآل ماذا ضاع عنكم وصيغة المستقبل

أو غيره قاله انقطاعا الى الله تعالى فى اظهار عذره بوجه من الوجوه * قوله تعالى (ارجعوا الى أبيكم فقولوا يا أبانا ان ابنك سرق وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين واسئل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وانا لصادقون) واعلم انهم لما تفكروا فى الاصوب ماهو وظهر لهم ان الاصوب هو الرجوع وأن يذكروا لابيهم كيفية الواقعة على الوجه من غير تفاوت والظاهر ان هذا القول قاله ذلك الكبير الذى قال فلن أبرح الارض حتى يأذن لى أبى قيل انه روبيل وبقى هو فى مصر وبعث سائر اخوته الى الاب فان قيل كيف حكموا عليه بأنه سرق من غير بينة لاسيما وهو قد أجاب بالجواب الشافى فقال الذى جعل الصواع فى رحلى هو الذى جعل البضاعة فى رحلكم (والجواب) عنه من وجوه (الاول) انهم شاهدوا ان الصواع كان موضوعا فى موضع ما كان لا يدخله أحد الا هم فلما شاهدوا انهم أخرجوا الصواع من رحله غلب على ظنونهم انه هو الذى أخذ الصواع وأما قوله وضع الصواع فى رحلى من وضع البضاعة فى رحالكم فالفرق ظاهر لان هناك لما رجعوا بالبضاعة اليهم اعترفوا بانهم هم الذين وضعوها فى رحالهم وأما هذا الصواع فان أحدا لم يعترف بأنه هو الذى وضع الصواع فى رحله فظهر الفرق فلهذا السبب غلب على ظنونهم انه سرق فشهدوا بناء على هذا الظن ثم بينوا انهم غير قاطعين بهذا الامر بقولهم وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين (والوجه الثانى) فى الجواب ان تقدير الكلام ان ابنك سرق فى قول الملك وأصحابه ومثله كثير فى القرآن قال تعالى انك لانت الحليم الرشيد أى عند نفسك وقال تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم أى عند نفسك وأما عندنا فلا فكذا ههنا (الوجه الثالث) فى الجواب ان ابنك ظهر عليه ما يشبه السرقة ومثل هذا الشئ يسمى سرقة فان اطلاق اسم أحد الشبيهين على الشبيه الآخر جائز فى القرآن قال تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها (الوجه الرابع) ان القوم ما كانوا أنبياء فى ذلك الوقت فلا يبعد أن يقال انهم ذكروا هذا الكلام على سبيل المجازفة لاسيما وقد شاهدوا شيئا يوهم ذلك (الوجه الخامس) ان ابن عباس رضى الله عنهما كان يقرأ ان ابنك سرق بالتشديد أى نسب الى السرقة فهذه القراءة لا حاجة بها الى التأويل لان القوم نسبوه الى السرقة الا انا ذكرنا فى هذا الكتاب ان أمثال هذه القراآت لا تدفع السؤال لان الاشكال انما يدفع اذا قلنا القراءة الاولى باطلة والقراءة الحقة هى هذه القراءة أما اذا سلمنا ان القراءة الاولى حقة كان الاشكال باقيا سواء صحت هذه القراءة الثانية أو لم تصح فثبت انه لا بد من الرجوع الى أحد الوجوه المذكورة أما قوله وما شهدنا الا بما علمنا فمعناه ظاهر لانه يدل على ان الشهادة غير العلم بدليل قوله تعالى وما شهدنا الا بما علمنا وذلك يقتضى كون الشهادة مغايرة للعلم ولانه عليه السلام قال اذا علمت مثل الشمس فاشهد وذلك ايضا يقتضى ما ذكرناه وليست الشهادة أيضا عبارة عن قوله أشهد لان قوله أشهد اخبار عن الشهادة والاخبار عن الشهادة غير الشهادة اذا ثبت هذا فنقول الشهادة عبارة عن الحكم الذهنى بلالام

﴿ وهو ﴾

لاستحضار الصورة وقرئ تفقدون من أفقدته اذا وجدته فقيدا وعلى التقدير ين فالعدول عما يقتضيه الظاهر من قولهم ماذا سرق منكم لبيان كمال نزاهتهم باظهار أنه لم يسرق منهم شئ فضلا أن يكونوهم السارقين له وانما الممكن أن يضيع منهم شئ فيسألونهم انه ماذا وفيه ارشاد لهم الى مراعاة حسن الادب والاحتراز عن المجازفة ونسبة البرآء الى ما لاخير فيه لاسيما بطريق التوكيد فلذلك غيروا كلامهم حيث (قالوا) فى جوابهم (نفقد صواع الملك) ولم يقولوا سرقته أو سرق وقرئ صاع وصوع وصوع بفتح الصاد وضمها وباهمال العين واعجامها من الصياغة ثم قالوا تربية لما تلقوه من قبلهم وارادة الاعتقاد أنه انما بقى فى رحلهم اتفاقا (ولمن جاء به) من عند نفسه مظهرا له قبل التفتيش (حمل بعير) من الطعام جعلا له لا على نية تحقيق الوعد لجزمهم بامتناع وجود الشرط وعزمهم على ما لا يخفى من أخذ من وجد فى رحله (وأنا به زعيم) كفيل أؤديه اليه وهو قول المؤذن (قالوا تالله) الجمهور على أن التاء بدل من الواو ولذلك لا تدخل الا على الجلالة المعظمة أو الرب المضاف الى الكعبة أو الرحمن فى قول ضعيف ولو قلت تالرحيم لم يجز وقيل من الباء وقيل أصل بنفسها وأيا ما كان ففيه تعجب (لقد علمتم) علما جازما مطابقا للواقع (ما جئنا لنفسد فى الارض) أى لنسرق فانه من أعظم أنواع الافساد أو لنفسد فيها أى افساد كان مما عز أوهان فضلا عما نسبتمونا اليه من السرقة ونفى المجئ للافساد وان لم يكن مستلزما لما هو مقتضى المقام من نفى الافساد مطلقا لكنهم جعلوا المجئ الذى يترتب عليه ذلك ولو بطريق الاتفاق مجيئا لغرض الافساد مفعولا لاجله ادعاء اظهارا لكمال قبحه عندهم وتربية لاستحالة صدوره عنهم

وهو الذى يسميه المتكلمون بكلام النفس وأما قوله وما كنا للغيب حافظين ففيه وجوه (الاول) انا قدر أينا انهم أخرجوا الصواع من رحله واما حقيقة الحال فغير معلومة لنا فان الغيب لا يعلمه الا الله (والثانى) قال عكرمة معناه لعل الصواع دس فى متاعه بالليل فان الغيب اسم لليل على بعض اللغات (والثالث) قال مجاهد والحسن وقتادة ما كنا نعلم ان ابنك يسرق ولو علمنا ذلك ماذهبنا به الى الملك وما أعطيناك موثقا من الله فى رده اليك (والرابع) نقل ان يعقوب عليه السلام قال لهم فهب انه سرق ولكن كيف عرف الملك ان شرع بنى اسرائيل ان من سرق يسترق بل انتم ذكرتموه له لغرض لكم فقالوا عند هذا الكلام انا قد ذكرنا هذا الحكم قبل وقوعنا فى هذه الواقعة وما كنا نعلم ان هذه الواقعة نقع فيها فقوله وما كنا للغيب حافظين اشارة الى هذا المعنى فان قيل فهل يجوز من يعقوب عليه السلام أن يسعى فى اخفاء حكم الله تعالى على هذا القول قلنا لعله كان ذلك الحكم مخصوصا بما اذا كان المسروق منه مسلما فلهذا أنكر ذكر هذا الحكم عند الملك الذى ظنه كافرا ثم حكى الله تعالى عنهم انهم قالوا واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها واعلم انهم لما كانوا متهمين بسبب واقعة يوسف عليه السلام بالغوا فى ازالة التهمة عن أنفسهم فقالوا واسأل القرية التى كنا فيها والاكثرون اتفقوا على ان المراد من هذه القرية مصر وقال قوم بل المراد منه قرية على باب مصر جرى فيها حديث السرقة والتفتيش ثم فيه قولان (الاول) المراد واسأل أهل القرية الا انه حذف المضاف للايجاز والاختصار وهذا النوع من المجاز مشهور فى لغة العرب قال أبو على الفارسى ودافع جواز هذا فى اللغة كدافع الضروريات وجاحد المحسوسات (والثانى) قال أبو بكر بن الانبارى المعنى اسأل القرية والعير والجدار والحيطان فانها تجيبك وتذكر لك صحة ما ذكرناه لانك من اكابر أنبياء الله فلا يبعد ان ينطق الله هذه الجمادات معجزة لك حتى تخبر بصحة ما ذكرناه وفيه وجه ثالث وهو ان الشئ اذا ظهر ظهورا تاما كاملا فقد يقال فيه سل السماء والارض وجميع الاشياء عنه والمراد انه بلغ فى الظهور الى الغاية التى ما بقى للشك فيه مجال أما قوله والعير التى أقبلنا فيها فقال المفسرون كان قد صحبهم قوم من الكنعانيين فقالوا سلهم عن هذه الواقعة ثم انهم لما بالغوا فى التأكيد والتقرير قالوا وانا لصادقون يعنى سواء نسبتنا الى التهمة أو لم تنسبنا اليها فنحن صادقون وليس غرضهم ان يثبتوا صدق أنفسهم بأنفسهم لان هذا يجرى مجرى اثبات الشئ بنفسه بل الانسان اذا قدم ذكر الدليل القاطع على صحة الشئ فقد يقول بعده وأنا صادق فى ذلك يعنى فتأمل فيما ذكرته من الدلائل والبينات لتزول عنك الشبهة ✻ قوله تعالى (قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا انه هو العليم الحكيم) اعلم ان يعقوب عليه السلام لما سمع من أبنائه ذلك الكلام لم يصدقهم فيما ذكروا كما فى واقعة يوسف فقال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل فذكر هذا الكلام بعينه فى هذه الواقعة الا انه قال فى واقعة

كما قيل فى قوله تعالى ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد الدال بظاهره على نفى المبالغة فى الظلم دون نفى الظلم فى الجملة الذى هو مقتضى المقام من أن المعنى اذا عذبت من لا يستحق التعذيب كنت ظلاما مفرطا فى الظلم فكأنهم قالوا ان صدر عنا افساد كان مجيئنا لذلك مريدين به تقبيح حاله واظهار كمال نزاهتهم عنه يعنون انه قد شاع بينكم فى كرتى مجيئنا ما نحن عليه وقد كانوا على غاية ما يكون من الديانة والصيانة فيما يأتون و يذرون روى أنهم دخلوا مصر وأفواه رواحلهم مكعومة لئلا تتناول زرعا أو طعاما لاحد وكانوا مثابرين على فنون الطاعات وعلم بذلك أنه لا يصدر عنا افساد (وما كنا سارقين) أى ما كنا نوصف بالسرقة قط وانما حكموا بعلمهم ذلك لان العلم بأحوالهم الشاهدة يستلزم العلم بأحوالهم الغائبة وانما لم يكتفوا بنفى الامرين المذكورين بل استشهدوا بعلمهم بذلك الزاما للحجة عليهم وتحقيقا للتعجب المفهوم من تاء القسم (قالوا) أى أصحاب يوسف عليه السلام (فما جزاؤه) الضمير للصواع على حذف المضاف أى فما جزاء سرقته عندكم وفى شريعتكم (ان كنتم كاذبين) لا فى دعوى البراءة عن السرقة فانهم صادقون فيها بل فيما يستلزمه ذلك من نفى كون الصواع فيهم كما يؤذن به قوله عز وجل (قالوا جزاؤه من وجد) أى أخذ من وجد الصواع (فى رحله) ﴿ فقلت ﴾ حيث ذكر بعنوان الوجدان فى الرحل دون عنوان السرقة وان كان ذلك مستلزما لها فى اعتقادهم المبنى على قواعد العادة ولذلك أجابوا بما أجابوا فان الاخذ والاسترقاق سنة انما هو جزاء السارق دون من وجد فى يده مال غيره كيفما كان فتأمل واحمل كلام كل فريق على ما لا يزاحم رأيه فانه أقرب

يوسف عليه السلام والله المستعان على ما تصفون وقال ههنا عسى الله أن يأتينى بهم جميعا وفيه مسائل (المسألة الاولى) قال بعضهم ان قوله بل سولت لكم أنفسكم أمرا ليس المراد منه ههنا الكذب والاحتيال كما فى قوله فى واقعة يوسف عليه السلام حين قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا لكنه عنى سولت لكم أنفسكم اخراج بنيامين عنى والمصير به الى مصر طلبا للمنفعة فعاد من ذلك شر وضرر وألححتم على فى ارساله معكم ولم تعلموا ان قضاء الله انما جاء على خلاف تقديركم وقيل بل المعنى سولت لكم أنفسكم أمرا خيلت لكم أنفسكم انه سرق وما سرق (المسألة الثانية) قيل ان روبيل لما عزم على الاقامة بمصر أمره الملك أن يذهب مع اخوته فقال اتركونى والا صحت صيحة لا تبقى بمصر امرأة حامل الا وتضع حملها فقال يوسف دعوه ولما رجع القوم الى يعقوب عليه السلام وأخبروه بالواقعة بكى وقال يابنى لا تخرجوا من عندى مرة الا ونقص بعضكم ذهبتم مرة فنقص يوسف وفى الثانية نقص شمعون وفى هذه الثالثة نقص روبيل و بنيامين ثم بكى وقال عسى الله أن يأتينى بهم جميعا وانما حكم بهذا الحكم لوجوه (الاول) انه لما طال حزنه و بلاؤه ومحنته علم انه تعالى سيجعل له فرجا ومخرجا عن قريب فقال ذلك على سبيل حسن الظن برحمة الله (والثانى) لعله تعالى قد اخبره من بعد محنة يوسف انه حى أو ظهرت له علامات ذلك وانما قال عسى الله أن يأتينى بهم جميعا لانهم حين ذهبوا بيوسف كانوا اثنى عشر فضاع يوسف و بقى أحد عشر ولما ارسلهم الى مصر عادوا تسعة لان بنيامين حبسه يوسف واحتبس ذلك الكبير الذى قال فلن أبرح الارض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى فلما كان الغائبون ثلاثة لا جرم قال عسى الله أن يأتينى بهم جميعا ثم قال انه هو العليم الحكيم يعنى هو العالم بحقائق الامور الحكيم فيها على الوجه المطابق للفضل والاحسان والرحمة والمصلحة * قوله تعالى (وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين قال انما أشكو بثى وحزنى الى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) واعلم ان يعقوب عليه السلام لما سمع كلام أبنائه ضاق قلبه جدا وأعرض عنهم وفارقهم ثم بالآخرة طلبهم وعاد اليهم (أما المقام الاول) وهو أنه أعرض عنهم وفر منهم فهو قوله وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف واعلم انه لما ضاق صدره بسبب الكلام الذى سمعه من أبنائه فى حق بنيامين عظم أسفه على يوسف عليه السلام وقال يا أسفى على يوسف وانما عظم حزنه على مفارقة يوسف عند هذه الواقعة لوجوه (الاول) ان الحزن الجديد يقوى الحزن القديم الكامن والقدح اذا وقع على القدح كان أوجع وقال متمم بن نويرة

وقد لامنى عند القبور على البكا * رفيقى لتذراف الدموع السوافك
فقال أتبكى كل قبر رأيته * لقبر ثوى بين اللوى والدكادك

الى معنى الكيد وأبعد من الافتراء وقوله تعالى (فهو جزاؤه) تقرير لذلك الحكم اى فاخذه جزاؤه كقولك حق الضيف أن يكرم فهو حقه ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأ والجملة الشرطية كما هى خبره على اقامة الظاهر مقام المضمر والاصل جزاؤه من وجد فى رحله فهو هو على أن الاول لمن والثانى للظاهر الذى وضع موضعه (كذلك) أى مثل ذلك الجزاء الاوفى (نجزى الظالمين) بالسرقة تأكيد للحكم المذكور غب تأكيد وبيان لقبح السرقة ولقد فعلوا ذلك ثقة بكمال براءتهم عنها وهم عما فعل بهم غافلون (فبدأ) يوسف بعدما رجعوا اليه للتفتيش (بأوعيتهم) بأوعية الاخوة العشرة أى بتفتيشها (قبل) تفتيش (وعاء أخيه) بنيامين لنفى التهمة روى أنه لما بلغت النوبة الى وعائه قال ما أظن هذا أخذ شيئًا فقالوا والله لانتركه حتى تنظر فى رحله فانه أطيب لنفسك وأنفسنا (ثم استخرجها) أى السقاية أو الصواع فانه يذكر ويؤنث (من وعاء أخيه) لم يقل منه على رجع الضمير الى الوعاء أو من وعائه على رجعه الى أخيه قصدا الى زيادة كشف وبيان وقرئ بضم الواو وبقلبها همزة كما فى اشاح فى وشاح (كذلك) نصب على المصدرية والكاف مقحمة للدلالة على فخامة المشار اليه وكذا ما فى ذلك من معنى البعد أى مثل ذلك الكيد العجيب وهو عبارة عن ارشاد الاخوة الى الافتاء المذكور باجرائه على ألسنتهم وبحملهم عليه بواسطة المستفتين من حيث لم يحتسبوا فمعنى قوله عزوجل (كدنا ليوسف) صنعناله ودبرنا لاجل تحصيل غرضه من المقدمات التى رتبها من دس الصواع وما يتلوه فاللام ليست كما فى قوله فيكيدوا لك كيدا فانها داخلة على المتضرر على ما هو الاستعمال الشائع وقوله تعالى (ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) استئناف

فقلت له ان الاسى يبعث الاسى * فدعنى فهذا كله قبر مالك

وذلك لانه رأى قبرا فتجدد حزنه على أخيه مالك فلاموه عليه فأجاب بأن الاسى يبعث الاسى وقال آخر

فلم تنسنى أوفى المصيبات بعده * ولكن نكاء القرح بالقرح أوجع

(والوجه الثانى) ان بنيامين ويوسف كانا من أم واحدة وكانت المشابهة بينهما فى الصورة والصفة أكمل فكان يعقوب عليه السلام يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف عليه السلام فلما وقع ما وقع زال ما يوجب السلوة فعظم الالم والوجد (الوجه الثالث) ان المصيبة فى يوسف كانت أصل مصائبه التى عليها ترتب سائر المصائب والرزايا وكان الاسف عليه أسفا على الكل (الرابع) ان هذه المصائب الجديدة كانت أسبابها جارية مجرى الامور التى يمكن معرفتها والبحث عنها وأما واقعة يوسف فهو عليه السلام كان يعلم كذبهم فى السبب الذى ذكروه وأما السبب الحقيقى فما كان معلوما له وأيضا انه عليه السلام كان يعلم ان هؤلاء فى الحياة وأما يوسف فما كان يعلم انه حى أو ميت فلهذه الاسباب عظم وجده على مفارقته وقوى مصيبته على الجهل بحاله (المسئلة الثانية) من الجهال من عاب يعقوب عليه السلام على قوله يا أسفى على يوسف قال لان هذا اظهار للجزع وجار مجرى الشكاية من الله وانه لا يجوز والعلماء بينوا انه ليس الامر كما ظنه هذا الجاهل وتقريره انه عليه السلام لم يذكر هذه الكلمة ثم عظم بكاؤه وهو المراد من قوله وابيضت عيناه من الحزن ثم أمسك لسانه عن النياحة وذكر ما لا ينبغى وهو المراد من قوله فهو كظيم ثم انه ما أظهر الشكاية مع أحد من الخلق بدليل قوله انما أشكو بثى وحزنى الى الله وكل ذلك يدل على انه لما عظمت مصيبته وقويت محنته فانه صبر وتجرع الغصة وما أظهر الشكاية فلا جرم استوجب به المدح العظيم والثناء العظيم روى ان يوسف عليه السلام سأل جبريل هل لك علم بيعقوب قال نعم قال وكيف حزنه قال حزن سبعين ثكلى وهى التى لها ولد واحد ثم يموت قال فهل له فيه أجر قال نعم أجر مائة شهيد فان قيل روى عن محمد بن على الباقر قال مر بيعقوب شيخ كبير فقال له أنت ابراهيم فقال أنا ابن ابنه والهموم غيرتنى وذهبت بحسنى وقوتى فأوحى الله تعالى اليه حتى متى تشكونى الى عبادى وعزتى وجلالى لو لم تشكنى لابدلنك لحما خيرا من لحمك ودما خيرا من دمك فكان من بعد يقول انما أشكو بثى وحزنى الى الله وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال كان ليعقوب أخ مواخ فقال له ما الذى أذهب بصرك وقوس ظهرك فقال الذى أذهب بصرى البكاء على يوسف وقوس ظهرى الحزن على بنيامين فأوحى الله تعالى اليه أما تستحى تشكونى الى غيرى فقال انما أشكو بثى وحزنى الى الله فقال يارب أما ترحم الشيخ الكبير قوست ظهرى وأذهبت بصرى فاردد على ريحانتى يوسف وبنيامين فأتاه جبريل عليه السلام بالبشرى وقال لو كانا ميتين لنشرتهما لك فاصنع طعاما للمساكين فان أحب عبادى الى الانبياء والمساكين

وتعليل لذلك الكيد وصنعه لا تفسير و بيان له كما قيل كأنه قيل لماذا فعل ذلك فقيل لانه لم يكن ليأخذ اخاه بما فعله في دين الملك في أمر السارق أي في سلطانه قاله ابن عباس أو في حكمه وقضائه قاله قتادة الا به لان جزاء السارق في دينه انما كان ضربه وتغريمه ضعف ما أخذ دون الاسترقاق والاستعباد كما هو شريعة يعقوب عليه السلام فلم يكن يتمكن بما صنعه من أخذ أخيه بالسرقة التي نسبها اليه في حال من الاحوال (الا أن يشاء الله) أي الا حال مشيئته التي هي عبارة عن ارادته لذلك الكيد أو الا حال مشيئته [illegible] بذلك الوجه ويجوز أن يكون الكيد عبارة عنه وعن مباديه المؤدية اليه جميعا من ارشاد يوسف وقومه الى ما صدر عنهم من الافعال والاقوال حسبما شرح مرتبا لكن لا على أن يكون القصر المستفاد من تقديم المجرور مأخوذا بالنسبة الى غيره مطلقا على معنى مثل ذلك الكيد كدنا لا كيدا آخر اذ لا معنى لتعليله بعجز يوسف عن أخذ أخيه في دين الملك في شأن السارق قطعا اذ لا علاقة بين مطلق الكيد ودين الملك في أمر السارق أصلا بل بالنسبة الى بعضه على معنى مثل ذلك الكيد البالغ الى هذا الحد كدنا له ولم نكتف ببعض من ذلك لانه لم يكن ليأخذ أخاه في دين الملك به الا حال مشيئته لله بايجاد ما يجري مجرى الجزء الصوري من العلة التامة وهو ارشاد اخوته الى الافتاء المذكور وعلى هذا ينبغي أن يحمل القصر في تفسير من فسر قوله تعالى كذلك كدنا ليوسف بقوله علمناه اياه واوحينا به اليه أي مثل ذلك التعليم المستتبع لما شرح مرتبا علمناه دون بعض من ذلك فقط الخ وعلى كل حال فالاستثناء من أعم الاحوال كما أشير اليه ويجوز أن يكون من أعم العلل والاسباب أي لم يكن ليأخذ أخاه

وكان يعقوب عليه السلام اذا أراد الغداء نادى مناديه من اراد الغداء فليتغد مع يعقوب واذا كان صائما نادى مثله عند الافطار وروى انه كان يرفع حاجبيه بخرقة من الكبر فقال له رجل ما هذا الذي أراه بك قال طول الزمان وكثرة الاحزان فأوحى الله اليه أتشكوني يا يعقوب فقال يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي قلنا انا قد دللنا على انه لم يأت الا بالصبر والثبات وترك النياحة وروي ان ملك الموت دخل على يعقوب عليه السلام فقال له جئت لتقبضني قبل أن أرى حبيبي فقال لا ولكن جئت لاحزن لحزنك وأشجو لشجوك وأما البكاء فليس من المعاصي وروي ان النبي عليه الصلاة والسلام بكى على ولده ابراهيم عليه السلام وقال ان القلب ليحزن والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وانا عليك يا ابراهيم لمحزونون وأيضا فاستيلاء الحزن على الانسان ليس باختياره فلا يكون ذلك داخلا تحت التكليف وأما التأوه وارسال البكاء فقد يصير بحيث لا يقدر على دفعه وأما ما ورد في الروايات التي ذكرتم فالمعاتبة فيها انما كانت لاجل ان حسنات الابرار سيآت المقربين وايضا ففيه دقيقة أخرى وهي ان الانسان اذا كان في موضع التحير والتردد لا بد أن يرجع الى الله تعالى فيعقوب عليه السلام ما كان يعلم أن يوسف بقي حيا أم صار ميتا فكان متوقفا فيه و بسبب توقفه كان يكثر الرجوع الى الله تعالى و ينقطع قلبه عن الالتفات عن كل ما سوى الله تعالى الا في هذه الواقعة وكانت أحواله في هذه الواقعة مختلفة فربما صار في بعض الاوقات مستغرق الهم بذكر الله تعالى فانعن تذكر هذه الواقعة فكان ذكرها كلا سواها فلهذا السبب صارت هذه الواقعة بالنسبة اليه جارية مجرى الالقاء في النار للخليل عليه السلام ومجرى الذبح لابنه الذبيح فان قيل أليس ان الاولى عند نزول المصيبة الشديدة أن يقول انا لله وانا اليه راجعون حتى يستوجب الثواب العظيم المذكور في قوله أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون قلنا قال بعض المفسرين انه لم يعط الاسترجاع أمة الا هذه الامة فأكرمهم الله تعالى اذا اصابتهم مصيبة وهذا عندي ضعيف لان قوله انا لله اشارة الى انا مملوكون لله وهو الذي خلقنا وأوجدنا وقوله وانا اليه راجعون اشارة الى أنه لا بد من الحشر والقيامة ومن المحال أن يقال ان أمة من الامم لا يعرفون ذلك فمن عرف عند نزول بعض المصائب به أنه حصل في أول الامر بخلق الله تعالى وأنه لا بد في العاقبة من رجوعه الى الله تعالى فهناك تحصل السلوة التامة عند تلك المصيبة ومن المحال أن يكون المؤمن بالله غير عارف بذلك (المسئلة الثالثة) قوله يا أسفى على يوسف نداء الاسف وهو كقوله يا عجبا والتقدير كأنه ينادي الاسف و يقول هذا وقت حصولك وأوان مجيئك وقد قررنا هذا المعنى في مواضع كثيرة منها في تفسير قوله حاش لله والاسف الحزن على ما فات قال الليث اذا جاءك أمر فحزنت له ولم تطقه فانت أسيف أي حزين ومتأسف أيضا قال الزجاج الاصل يا أسفي الا أن ياء الاضافة يجوز ابدالها بالالف لخفة الالف والفتحة ثم قال تعالى وابيضت

﴿ عيناه ﴾

عيناه من الحزن وفيه وجوه (الاول) أنه لما قال يا أسفى على يوسف غلبه البكاء وعند غلبة البكاء يكثر الماء في العين فتصير العين كأنها ابيضت من بياض ذلك الماء وقوله وابيضت عيناه من الحزن كناية عن غلبة البكاء والدليل على صحة هذا القول أن تأثير الحزن في غلبة البكاء لا في حصول العمى فلو حملنا الابيضاض على غلبة البكاء كان هذا التعليل حسنا ولو حملناه على العمى لم يحسن هذا التعليل فكان ماذكرناه أولى وهذا التفسير مع الدليل رواه الواحدي في البسيط عن ابن عن عباس رضي الله عنهما (والقول الثاني) أن المراد هو العمى قال مقاتل لم يبصر بهما ست سنين حتى كشف الله تعالى عنه بقميص يوسف عليه السلام وهو قوله فالقوه على وجه أبي يأت بصيرا قيل ان جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام حينما كان في السجن فقال ان بصر أبيك ذهب من الحزن عليك فوضع يده على رأسه وقال ليت أمي لم تلدني ولم أك حزنا على أبي والقائلون بهذا التأويل قالوا الحزن الدائم يوجب البكاء الدائم وهو يوجب العمى فالحزن كان سببا للعمى بهذه الواسطة وانما كان البكاء الدائم يوجب العمى لانه يورث كدورة في سواد العين ومنهم من قال ما عمى لكنه صار بحيث يدرك ادراكا ضعيفا قيل ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف عليه السلام الى حين لقائه وتلك المدة ثمانون عاما وما كان على وجه الارض عبد أكرم على الله تعالى من يعقوب عليه السلام أما قوله تعالى من الحزن فاعلم أنه قرئ من الحزن برفع الحاء وسكون الزاى وقرأ الحسن بفتح الحاء والزاى قال الواحدي [illegible] في الحزن والحزن وقال قوم الحزن البكاء والحزن ضد الفرح وقال قوم هما لغتان يقال أصابه حزن شديد وحزن شديد وهو مذهب أكثر أهل اللغة وروى يونس عن أبي عمرو قال اذا كان في موضع النصب فتحوا الحاء والزاى كقوله ترى أعينهم تفيض من الدمع حزنا واذا كان في موضع الخفض أو الرفع ضموا الحاء كقوله من الحزن وقوله أشكو بثي وحزني الى الله قال هو في موضع رفع بالابتداء وأما قوله تعالى فهو كظيم فيجوز أن يكون بمعنى الكاظم وهو الممسك على حزنه فلا يظهره قال ابن قتيبة ويجوز أن يكون بمعنى المكظوم ومعناه المملوء من الحزن مع سد طريق نفسه المصدور من كظم السقاء اذا شده على ملئه ويجوز أيضا أن يكون بمعنى مملوء من الغيظ على أولاده واعلم أن أشرف أعضاء الانسان هذه الثلاثة فبين تعالى انها كانت غريقة في الغم فاللسان كان مشغولا بقوله يا أسفى والعين بالبكاء والبياض والقلب بالغم الشديد الذي يشبه الوعاء المملوء الذي شد ولا يمكن خروج الماء منه وهذا مبالغة في وصف ذلك الغم اما قوله تعالى قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن السكيت يقال ما زلت أفعله وما فتئت أفعله وما برحت أفعله ولا يتكلم بهن الامع الجحد قال ابن قتيبة يقال ما فتيت وما فتئت لغتان فتيا وفتوأ اذا نسيته وانقطعت عنه قال النحويون وحرف النفي ههنا مضمر على معنى قالوا ما تفتؤ أو لا

لله من العلل او بسبب من الاسباب الالهية مشيئته تعالى أو الا بسبب مشيئته تعالى وايا ما كان فهو متصل لان اخذ السارق اذا كان ممن يرى ذلك ويعتقده دينا لاسيما عند رضاه وافتائه به ليس مخالفا لدين الملك وقد قيل معنى الاستثناء الا أن يشاء الله أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك وأنت تدري أن المراد بدينه ما عليه حينئذ فتغييره مخل بالاتصال وارادة مطلق ما يتدين به أعم منه ومما يحدث تفضح ﴿ ٢٣٣ ﴾ الى كون الاستثناء من قبيل التعليق بالمحال اذ المقصود بيان عجز يوسف عليه السلام عن أخذ أخيه حينئذ ولم تتعلق المشيئة بالجعل المذكور اذ ذاك وارادة عجزه مطلقا تؤدي الى خلاف المراد فان استثناء حال المشيئة المذكورة من أحوال عجزه عليه السلام مما يشعر بعدم الحاجة الى الكيد المذكور فتدبر وقد جوز الانقطاع أي لكن أخذه بمشيئة الله تعالى واذنه في دين غير دين الملك (نرفع درجات) أي رتبا كثيرة عالية من العلم وانتصابها على المصدرية أو الظرفية أو على نزع الخافض أي الى درجات والمفعول قوله تعالى (من نشاء) أي نشاء رفعه حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة كما رفعنا يوسف وايثار صيغة الاستقبال للاشعار بأن ذلك سنة مستمرة غير مختصة بهذه المادة والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب (وفوق كل ﴿ ٣٠ ﴾ خا ذي علم) من أولئك المرفوعين (عليم) لا ينالون شأوه واعلم أنه ان جعل الكيد عبارة عن المعنيين الاولين فالمراد برفع يوسف عليه السلام ما اعتبر فيه بالشرطية أو الشطرية من ارشاده عليه السلام الى دس الصواع في رجل أخيه وما يتفرع عليه من المقدمات المرتبة لاستبقاء اخيه مما يتم من قبله

والمعنى إرشدنا اخوته الى الافتاء المذكور لانه لم يكن متمكنا من أخذ أخيه بدونه أوأرشدنا كلا منهم ومن يوسف وأصحابه الى ماصدر عنهم ولم نكتف بما تم من قبل يوسف فقط لانه لم يكن متمكنا من أخذ أخيه بذلك فقوله تعالى نرفع درجات الى قوله تعالى عليم توضيح لذلك على معنى أن الرفع المذكور لايوجب تمام مرامه اذليس ذلك بحيث لايعزب عن علمه شئ بل انما رفع كل من رفع حسب استعداده وفوق كل واحد منهم عليم لايقادر قدر علمه ولايكتنه كنهه يرفع كلا منهم الى مايليق به من معارج العلم ومدارجه وقد رفع يوسف الى مايليق به من الدرجات العالية وعلم أن ماحواه دائرة علمه لايفي بمرامه فارشد اخوته الى الافتاء المذكور فكان ما كان وكأنه عليه السلام لم يكن على يقين من صدور الافتاء المذكور عن اخوته وان كان على طمع منه فان ذلك الى الله عزوجل وجودا وعلما والتعرض لوصف العلم لتعيين جهة الفوقية وفى صيغة المبالغة مع التنكير والالتفات الى الغيبة من الدلالة على فخامة شانه عزوعلا وجلالة مقدار علمه المحيط مالايخفى وأما ان جعل عبارة عن التعليم المستتبع للافتاء المذكور فالرفع عبارة عن ذلك التعليم والافتاء وان لم يكن داخلا تحت قدرته عليه السلام لكنه كان داخلا تحت علمه بواسطة الوحى والتعليم و المعنى مثل ذلك التعليم البالغ الى هذا الحد علمناه ولم نقتصر على تعليم ماعدا الافتاء الذى سيصدر عن اخوته اذلم يكن متمكنا من أخذ أخيه الا بذلك فقوله نرفع درجات من نشاء توضيح لقوله كدنا وبيان لان ذلك من باب الرفع الى الدرجات العالية من العلم ومدح ليوسف برفعه اليها وقوله ﴿ الله ﴾

تفتؤ وجاز حذفه لانه لوأريد الاثبات لكان باللام والنون نحو والله لتفعلن فلما كان بغير اللام والنون عرف أن كلمة لامضمرة وأنشدوا قول امرئ القيس

* فقلت يمين الله أبرح قاعدا *

والمعنى لاأبرح قاعدا ومثله كثير وأما المفسرون فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة لاتزال تذكره وعن مجاهد لاتفتر من حبه كأنه جعل الفتور والفتوء أخوين (المسئلة الثانية) حكى الواحدى عن أهل المعانى ان أصل الحرض فساد الجسم والعقل للحزن والحب وقوله حرضت فلانا على فلان تأويله أفسدته وأحميته عليه وقال تعالى حرض المؤمنين على القتال اذا عرفت هذا فنقول وصف الرجل بانه حرض اما أن يكون لارادة أنه ذو حرض فحذف المضاف أو لارادة أنه لما تناهى فى الفساد والضعف فكأنه صار عين الحرض ونفس الفساد وأما الحرض بكسر الراء فهو الصفة وجاءت القراءة بهما معا اذا عرفت هذا فنقول للمفسرين فيه عبارات (أحدها) الحرض والحارض هو الفاسد فى جسمه وعقله (وثانيها) سأل نافع بن الازرق ابن عباس عن الحرض فقال الفاسد الدنف (وثالثها) أنه الذى يكون لاكالاحياء ولاكالاموات وذكر أبوروق أن أنس بن مالك قرأ حتى تكون حرضا بضم الحاء وتسكين الراء قال يعنى مثل عود الاشنان وقوله أوتكون من الهالكين أى من الاموات ومعنى الآية أنهم قالوا لابيهم انك لاتزال تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه حتى تصير بذلك الى مرض لاتنتفع بنفسك معه أوتموت من الغم كأنهم قالوا أنت الآن فى بلاء شديد ونخاف أن يحصل ماهو أزيد منه وأقوى وأرادوا بهذا القول منعه عن كثرة البكاء والاسف فان قيل لم حلفوا على ذلك مع انهم لم يعلموا ذلك قطعا قلنا انهم بنوا هذا الامر على الظاهر فان قيل القائلون بهذا الكلام وهو قوله تالله تفتؤ من هم قلنا الاظهر ان هؤلاء ليسوا هم الاخوة الذين قد تولى عنهم بل هم الجماعة الذين كانوا فى الدار من أولاد أولاده وخدمه ثم حكى الله تعالى عن يعقوب عليه السلام انه قال انما أشكو بثى وحزنى الى الله يعنى ان هذا الذى أذكره لاأذكره معكم وانما أذكره فى حضرة الله تعالى والانسان اذا بث شكواه الى الله تعالى كان فى زمرة المحققين كما قال عليه الصلاة والسلام أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفوك من عضبك وأعوذ بك منك والله هو الموفق والبث هو التفريق قال الله تعالى وبث فيهما من كل دابة فالحزن اذا ستره الانسان كان هما واذا ذكره لغيره كان بثا وقالوا البث أشد الحزن والحزن أشد الهم وذلك لانه متى أمكنه ان يمسك لسانه عن ذكره لم يكن ذلك الحزن مستوليا عليه وأما اذا عظم وعجز الانسان عن ضبطه وانطلق اللسان بذكره شاء أم أبى كان ذلك بثا وذلك يدل على أن الانسان صار عاجزا عنه وهو قد استولى على الانسان فقوله بثى وحزنى الى الله أى لاأذكر الحزن العظيم ولا الحزن القليل الامع الله وقرأ الحسن وحزنى بفتحتين وحزنى بضمتين قيل دخل على يعقوب رجل وقال يايعقوب ضعف جسمك ونحف بدنك ومابلغت سنا عاليا فقال الذى بى لكثرة غمومى فأوحى

الله اليه يا يعقوب أتشكونى الى خلقى فقال يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لى فغفرها له وكان بعد ذلك اذا سئل قال انما أشكو بثى وحزنى الى الله وروى أنه أوحى الله اليه انما وجدت عليكم لانكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه وان أحب خلقى الى الانبياء والمساكين فاصنع طعاما وادع اليه المساكين وقيل اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت ثم قال يعقوب عليه السلام وأعلم من الله مالا تعلمون أى أعلم من رحمته واحسانه مالا تعلمون وهو انه تعالى يأتينى بالفرج من حيث لا أحتسب فهو اشارة الى أنه كان يتوقع وصول يوسف اليه وذكروا لسبب هذا التوقع أمورا (أحدها) ان ملك الموت أتاه فقال له ياملك الموت هل قبضت روح ابنى يوسف قال لا يا نبى الله ثم أشار الى جانب مصر وقال اطلبه ههنا (وثانيها) انه علم أن رؤيا يوسف صادقة لان امارات الرشد والكمال كانت ظاهرة فى حق يوسف ورؤيا مثله عليه السلام لا تخطئ (وثالثها) لعله تعالى أوحى اليه أنه سيوصله اليه ولكنه تعالى ما عين الوقت فلهذا بقى فى القلق (ورابعها) قال السدى لما أخبره بنوه بسيرة الملك وكمال حاله فى أقواله وأفعاله طمع أن يكون هو يوسف وقال يبعد أن يظهر فى الكفار مثله (وخامسها) علم قطعا أن بنيامين لا يسرق وسمع أن الملك ما آذاه وما ضربه فغلب على ظنه أن ذلك الملك هو يوسف فهذا جملة الكلام فى المقام الاول (والمقام الثانى) أنه رجع الى أولاده وتكلم معهم على سبيل اللطف وهو قوله يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه واعلم أنه عليه السلام لما طمع فى وجدان يوسف بناء على الامارات المذكورة قال لبنيه تحسسوا من يوسف والتحسس طلب الشئ بالحاسة وهو شبيه بالسمع والبصر قال أبو بكر الانبارى يقال تحسست عن فلان ولا يقال من فلان وقيل ههنا من يوسف لانه أقام من مقام عن قال ويجوز أن يقال من للتبعيض والمعنى تحسسوا خبرا من أخبار يوسف واستعلموا بعض أخبار يوسف فذكرت كلمة من لما فيها من الدلالة على التبعيض وقرئ تجسسوا بالجيم كما قرئ بهما فى الحجرات ثم قال ولا تيئسوا من روح الله قال الاصمعى الروح ما يجده الانسان من نسيم الهواء فيسكن اليه وتركيب الراء والواو والحاء يفيد الحركة والاهتزاز فكلما يهتز الانسان له ويلتذ بوجوده فهو روح وقال ابن عباس لا تيئسوا من روح الله يريد من رحمة الله وعن قتادة من فضل الله وقال ابن زيد من فرج الله وهذه الالفاظ متقاربة وقرأ الحسن وقتادة من روح الله بالضم أى من رحمته ثم قال انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون قال ابن عباس رضى الله عنهما ان المؤمن من الله على خير يرجوه فى البلاء ويحمده فى الرخاء واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل الا اذا اعتقد الانسان أن الاله غير قادر على الكمال أو غير عالم بجميع المعلومات أو ليس بكريم بل هو بخيل وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر فاذا كان اليأس لا يحصل الا عند حصول أحد هذه الثلاثة وكل واحد منها كفر ثبت ان اليأس لا يحصل الا لمن كان كافرا والله أعلم وقد بقى من مباحث هذه الآية

وفوق كل ذى علم عليم تذييل لها أى نرفع درجات عالية من العلم من نشاء رفعه وفوق كل منهم عليم هو أعلى درجة قال ابن عباس رضى الله عنهما فوق كل عالم عالم الى أن ينتهى العلم الى الله تعالى والمعنى ان اخوة يوسف كانوا علماء الا أن يوسف عليه السلام أفضل منهم وقرئ درجات من نشاء بالاضافة والاول أنسب بالتذييل حيث نسب فيه الرفع الى من نسب اليه الفوقية لا الى درجته ويجوز أن يكون العليم فى هذا التفسير أيضا عبارة عن الله عز وجل أى وفوق كل من أولئك المرفوعين عليم يرفع كلا منهم الى درجته اللائقة به والله تعالى أعلم (قالوا ان يسرق) يعنون بنيامين (فقد سرق أخ له من قبل) يريدون به يوسف عليه السلام وما جرى عليه من جهة عمته على ما قيل من انها كانت تحضنه فلما شب أراد يعقوب عليه السلام انتزاعه منها وكانت لا تصبر عنه ساعة وكانت لها منطقة ورثتها من أبيها اسحق عليه السلام فاحتالت لاستبقاء يوسف عليه السلام فعمدت الى المنطقة فحزمتها عليه من تحت ثيابه ثم قالت فقدت منطقة اسحق عليه السلام فانظروا من أخذها فوجدوها محزومة على يوسف فقالت انه لى سلم أفعل به ما أشاء فخلاه يعقوب عليه السلام عندها حتى ماتت وقيل كان أخذ فى صباه صنما لابى أمه فكسره وألقاه فى الجيف وقيل دخل كنيسة فأخذ تمثالا صغيرا من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه (فأسرها يوسف) أى أكن الحزازة الحاصلة مما قالوا (فى نفسه) لا أنه أسرها لبعض أصحابه كما فى قوله تعالى وأسررت لهم اسرارا (ولم يبدها لهم) لا قولا ولا فعلا صفحا عنهم وحلما وهو تأكيد لما سبق (قال) أى فى نفسه وهو استئناف مبنى على سؤال نشأ من الاخبار بالاسرار المذكور كأنه قيل فماذا

قال فى نفسه فى تضاعيف ذلك الاسرار فقيل قال (أنتم شر مكانا) اى منزلة حيث سرقتم اخاكم من أبيكم ثم طفقتم تفترون على البرئ وقيل بدل من أسرها والضمير للمقالة المفسرة بقوله أنتم شر مكانا (والله أعلم بما تصفون) أى عالم علما بالغا الى أقصى المراتب بأن الامر ليس كما تصفون من صدور السرقة منا بل انما هو افتراء علينا فالصيغة لمجرد المبالغة لا لتفضيل علمه عز وجل على علمهم كيف لا وليس لهم بذلك من علم (قالوا) عندما شاهدوا مخايل أخذ بنيامين مستعطفين (يا أيها العزيز ان له أبا) لم يريدوا بذلك الاخبار بأن له أبا فان ذلك معلوم مما سبق وانما أرادوا الاخبار بان له أبا (شيخا كبيرا) فى السن لا يكاد يستطيع فراقه وهو علالة به يتعلل عن شقيقه الهالك (فخذ أحدنا مكانه) فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة (انا نراك من المحسنين) الينا فأتمم احسانك بهذه التتمة أو المتعودين بالاحسان فلا تغير عادتك (قال معاذ الله) أى نعوذ بالله معاذا من (أن نأخذ) فحذف الفعل وأقيم مقامه المصدر مضافا الى المفعول به بعد حذف الجار (الا من وجدنا متاعنا عنده) لان أخذنا له انما هو بقضية فتواكم فليس لنا الاخلال بموجبها وايثار صيغة التكلم مع الغير مع كون الخطاب من جانب اخوته على التوحيد من باب السلوك الى سنن الملوك أو للاشعار بأن الاخذ والاعطاء ليس مما يستبد به بل هو منوط بآراء أولى الحل والعقد وايثار من وجدنا متاعنا عنده دون من سرق متاعنا لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب فى الكلام مع تمام المرام فانهم لا يحملون وجدان الصواع فى الرحل على محمل غير السرقة (انا اذا) أى اذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده ولو برضاه (لظالمون)

سؤالات (السؤال الاول) ان بلوغ يعقوب فى حب يوسف الى هذا الحد العظيم لا يليق الا بمن كان غافلا عن الله فان من عرف الله أحبه ومن أحب الله لم يتفرغ قلبه لحب شئ سوى الله تعالى وأيضا القلب الواحد لا يتسع للحب المستغرق لشيئين فلما كان قلبه مستغرقا فى حب ولده امتنع أن يقال انه كان مستغرقا فى حب الله تعالى (والسؤال الثانى) ان عند استيلاء الحزن الشديد عليه كان من الواجب عليه أن يشتغل بذكر الله تعالى وبالتفويض اليه والتسليم لقضائه واما قوله يا أسفى على يوسف فذلك لا يليق بأهل الدين والعلم فضلا عن أكابر الانبياء (السؤال الثالث) لا شك أن يعقوب كان من أكابر الانبياء وكان أبوه وجده وعمه كلهم من أكابر الانبياء المشهورين فى جميع الدنيا ومن كان كذلك ثم وقعت له واقعة هائلة صعبة فى أعز أولاده عليه لم تبق تلك الواقعة خفية بل لا بد وأن تبلغ فى الشهرة الى حيث يعرفها كل أحد لا سيما وقد انقضت المدة الطويلة فيها وبقى يعقوب على حزنه الشديد وأسفه العظيم وكان يوسف فى مصر وكان يعقوب فى بعض بلاد الشام قريبا من مصر فمع قرب المسافة يمتنع بقاء مثل هذه الواقعة مخفية (السؤال الرابع) لم لم يبعث يوسف عليه السلام أحدا الى يعقوب ويعلمه أنه فى الحياة وفى السلامة ولا يقال انه كان يخاف اخوته لانه بعد ان صار ملكا قاهرا كان يمكنه ارسال الرسول اليه واخوته ما كانوا يقدرون على دفع الرسول (والسؤال الخامس) كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يضع الصاع فى وعاء أخيه ثم يستخرجه منه ويلصق به تهمة السرقة مع انه كان بريئا عنها (السؤال السادس) كيف رغب فى الصاق هذه التهمة به وفى حبسه عند نفسه مع انه كان يعلم أنه يزداد حزن أبيه ويقوى (والجواب عن الاول) ان مثل هذه المحنة الشديدة تزيل عن القلب كل ما سواه من الخواطر ثم ان صاحب هذه المحنة الشديدة يكون كثير الرجوع الى الله تعالى كثير الاشتغال بالدعاء والتضرع فيصير ذلك سببا لكمال الاستغراق (وعن الثانى) أن الدواعى الانسانية لا تزول فى الحياة العاجلة فتارة كان يقول يا أسفى على يوسف وتارة كان يقول فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون وأما بقية الاسئلة فالقاضى أجاب عنها بجواب كلى حسن فقال هذه الوقائع التى نقلت الينا اما أن يمكن تخريجها على الاحوال المعتادة أو لا يمكن فان كان الاول فلا اشكال وان الثانى فنقول كان ذلك الزمان زمان الانبياء عليهم السلام وخرق العادة فى هذا الزمان غير مستبعد فلم يمتنع أن يقال ان بلدة يعقوب عليه السلام مع انها كانت قريبة من بلدة يوسف عليه السلام ولكن لم يصل خبر أحدهما الى الآخر على سبيل نقض العادة * قوله تعالى (فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ان الله يجزى المتصدقين قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه اذ أنتم جاهلون قالوا أئنك لانت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين) اعلم أن المفسرين اتفقوا على ان ههنا محذوفا

﴿ والتقدير ﴾

والتقدير ان يعقوب لماقال لبنيه اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه قبلوا من أبيهم هذه الوصية فعادوا الى مصر ودخلوا على يوسف عليه السلام فقالوا له ياأيها العزيز فان قيل اذا كان يعقوب أمرهم أن يتحسسوا أمر يوسف وأخيه فلماذا عدلوا الى الشكوى وطلبوا ايفاء الكيل قلنا لان المتحسسين يتوسلون الى مطلوبهم بجميع الطرق والاعتراف بالعجز وضيق اليد ورقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة مما يرقق القلب فقالوا نجربه فى ذكر هذه الامور فان رق قلبه لنا ذكرنا له المقصود والاسكتنا فلهذا السبب قدموا ذكر هذه الواقعة وقالوا ياأيها العزيز والعزيز هو الملك القادر المنيع مسنا وأهلنا الضر وهو الفقر والحاجة وكثرة العيال وقلة الطعام وعنوا باهلهم من خلفهم وجئنا ببضاعة مزجاة وفيه أبحاث (البحث الاول) معنى الازجاء فى اللغة الدفع قليلا قليلا ومثله التزجية يقال الريح تزجى السحاب قال الله تعالى ألم تر أن الله يزجى سحابا وزجيت فلانا بالقول دافعته وفلان يزجى العيش أى يدفع الزمان بالحيلة (والبحث الثانى) انما وصفوا تلك البضاعة بانها مزجاة اما لنقصانها أو لرداءتها أو لهما جميعا والمفسرون ذكروا كل هذه الاقسام قال الحسن البضاعة المزجاة القليلة وقال آخرون انها كانت رديئة واختلفوا فى تلك الرداءة فقال ابن عباس رضى الله عنهما كانت دراهم رديئة لاتقبل فى ثمن الطعام وقيل خلق الغرارة والحبل وأمتعة رثة وقيل متاع الاعراب الصوف والسمن وقيل الحبة الخضراء وقيل الاقط وقيل النعال والادم وقيل سويق المقل وقيل صوف المعز وقيل ان دراهم مصر كانت تنقش فيها صورة يوسف والدراهم التى جاؤا بها ما كان فيها صورة يوسف فما كانت مقبولة عند الناس (البحث الثالث) فى بيان أنه لم سميت البضاعة القليلة الرديئة مزجاة وفيه وجوه (الاول) قال الزجاج هى من قولهم فلان يزجى العيش أى يدفع الزمان بالقليل والمعنى انا جئنا ببضاعة مزجاة ندافع بها الزمان وليست مما ينتفع به وعلى هذا الوجه فالتقدير ببضاعة مزجاة بها الايام (الثانى) قال أبو عبيد انما قيل للدراهم الرديئة مزجاة لانها مردودة مدفوعة غير مقبولة ممن ينفقها قال وهى من الازجاء والازجاء عند العرب السوق والدفع (الثالث) ببضاعة مزجاة أى مؤخرة مدفوعة عن الانفاق لاينفق مثلها الا من اضطر واحتاج اليها لفقد غيرها مما هو أجود منها (الرابع) قال الكلبى مزجاة لغة العجم وقيل هى من لغة القبط قال أبو بكر الانبارى لاينبغى أن يجعل لفظ عربى معروف الاشتقاق والتصريف منسوبا الى القبط (البحث الرابع) قرأ حمزة والكسائى مزجاة بالامالة لان أصله الياء والباقون بالنصب والتفخيم واعلم أن حاصل الكلام فى كون البضاعة مزجاة اما لقلتها أو لنقصانها أو لمجموعهما ولما وصفوا شدة حالهم ووصفوا بضاعتهم بانها مزجاة قالوا له فاوف لنا الكيل والمراد أن يساهلهم اما بان يقيم الناقص مقام الزائد أو يقيم الردىء مقام الجيد ثم قالوا وتصدق علينا والمراد المسامحة بما بين الثمنين وأن يسعر لهم بالردىء كما يسعر بالجيد واختلف الناس

فى منعه بكم وما التيا ذلك وهذا للبعق هو الذى أريد بالكلام فى أثناء الحوار وله معنى باطن هو أن الله عز وجل انما أمرنى بالوحى أن آخذ بنيامين لمصالح علمها الله فى ذلك فلو أخذت غيره كنت ظالما وعاملا بخلاف الوحى (فلما استيأسوا منه) أى يئسوا من يوسف واجابته لهم أشد يأس بدلالة صيغة الاستفعال وانما حصلت لهم هذه المرتبة من اليأس لما شاهدوه من عوذه بالله مما طلبوه الدال على كون ذلك عنده فى أقصى مراتب الكراهة وأنه مما يجب أن يحترز عنه و يعاذ منه بالله عز وجل ومن تسميته ظلما بقوله انا اذا لظالمون (خلصوا) اعتزلوا وانفردوا عن الناس (نجيا) أى ذوى نجوى على أن يكون بمعنى النجوى والتناجى أوفوجا نجيا على أن يكون بمعنى المناجى كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر ومنه قوله تعالى وقربناه نجيا وهو يجوز أن يقال هم نجى كما يقال هم صديق لانه بزنة المصادر من الزفير والزئير (قال كبيرهم) فى السن وهو روبيل أوفى العقل وهو يهوذا أورئيسهم وهو شمعون (الم تعلموا) كانهم أجمعوا عند التناجى على الانقلاب جملة ولم يرض به فقال منكرا عليهم ألم تعلموا (ان أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله) عهدا يوثق به وهو حلفهم بالله تعالى وكونه من الله لاذنه فيه وكون الحلف باسمه الكريم (ومن قبل) أى ومن قبل هذا (ما فرطتم فى يوسف) قصرتم فى شأنه ولم تحفظوا عهد أبيكم وقد قلتم وانا له لناصحون وانا له لحافظون وما مزيدة أومصدرية ومحل المصدر النصب عطفا على مفعول تعلموا أى ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقا وتفريطكم السابق فى شأن يوسف عليه السلام ولاضير فى الفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف وقد جوز

النصب عطفا على اسم أن والخبر في يوسف أو من قبل على معنى ألم تعلموا ان تفر بطكم السابق وقع في شان يوسف عليه السلام او ان تفر يطكم الكائن أو كلنا في شأن يوسف عليه السلام وقع من قبل وفيه أن مقتضى المقام انما هو الاخبار بوقوع ذلك التفريط لا بكون تفريطهم السابق واقعا في شان يوسف كما هو مفاد الاول ولا بكون تفريطهم الكائن في شأنه واقعا من قبل كما هو مفاد الثاني على أن الظرف المقطوع عن الاضافة لا يقع خبرا ولا صفة ولا صلة ولا حالا عند البعض كما تقرر في موضعه وقيل محله الرفع على الابتداء والخبر من قبل وفيه ما فيه وقيل ما موصولة أو موصوفة ومحلها النصب أو الرفع والحق هو النصب عطفا على مفعول تعلموا أي ما فرطتموه بمعنى قدمتموه في حقه من الخيانة وأما النصب عطفا على اسم ان أو الرفع على الابتداء فقد عرفت حاله (فلن أبرح الارض) متفرع على ما ذكره وذكرهم اياهم من ميثاق أبيه وقوله لتأتنني به الا ان يحاط بكم أي فلن أفارق أرض مصر جريا على قضية الميثاق (حتى يأذن لي ابي) في البراح بالانصراف اليه وكان أيمانهم كانت معقودة على عدم الرجوع بغير اذن يعقوب عليه السلام (أو يحكم الله لي) بالخروج منها على وجه لا يؤدي الى نقض الميثاق أو بخلاص أخي بسبب من الاسباب

روى انهم كلموا العزيز في اطلاقه فقال روبيل أيها الملك لتردن الينا أخانا ولاصيحن صيحة لا تبقى بمصر ﴿ عنهم ﴾ حامل الا القت ولدها ووقفت كل شعرة في جسده فخرجت من ثيابه وكان بنو يعقوب اذا غضبوا لا يطاقون خلا انه اذا مس من غضب واحد منهم سكن غضبه فقال يوسف لابنه قم الى جنبه فمسه فمسه فقال روبيل من هذا ان في هذا

في أنه هل كان ذلك طلبا منهم للصدقة فقال سفيان بن عيينة ان الصدقة كانت حلالا للانبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الآية وعلى هذا التقدير كأنهم طلبوا القدر الزائد على سبيل الصدقة وأنكر الباقون ذلك وقالوا حال الانبياء وحال أولاد الانبياء ينافي طلب الصدقة لانهم يأنفون من الخضوع للمخلوقين ويغلب عليهم الانقطاع الى الله تعالى والاستعانة به عمن سواه وروى عن الحسن ومجاهد أنهما كرها أن يقول الرجل في دعائه اللهم تصدق علي قالوا لان الله لا يتصدق انما يتصدق الذي يبتغي الثواب وانما يقول اللهم أعطني أو تفضل فعلي هذا التصدق هو اعطاء الصدقة والمتصدق المعطي وأجاز الليث أن يقال للسائل متصدق وأباه الاكثرون وروى أنهم لما قالوا مسنا وأهلنا الضر وتضرعوا اليه اغرورقت عيناه فعند ذلك قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه وقيل دفعوا اليه كتاب يعقوب فيه من يعقوب اسرائيل الله ابن اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله الى عزيز مصر اما بعد فانا أهل بيت موكل بنا البلاء اما جدي فشدت يداه ورجلاه ورمي به في النار ليحرق فنجاه الله وجعلها بردا وسلاما عليه واما أبي فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله واما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي الي فذهب به اخوته الى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخا بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناي من البكاء عليه ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به اليك ثم رجعوا وقالوا انه قد سرق وانك حبسته عندك وانا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا فان رددته علي والا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك فلما قرأ يوسف عليه السلام الكتاب لم يتمالك وعيل صبره وعرفهم أنه يوسف ثم حكى الله تعالى عن يوسف عليه السلام في هذا المقام أنه قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه قيل انه لما قرأ كتاب أبيه يعقوب ارتعدت مفاصله واقشعر جلده ولان قلبه وكثر بكاؤه وصرح بانه يوسف وقيل انه لما رأى اخوته تضرعوا اليه ووصفوا ما هم عليه من شدة الزمان وقلة الحيلة أدركته الرقة فصرح حينئذ بانه يوسف وقوله هل علمتم ما فعلتم بيوسف استفهام يفيد تعظيم الواقعة ومعناه ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه وهو كما يقال للمذنب هل تدري من عصيت وهل تعرف من خالفت واعلم أن هذه الآية تصديق لقوله تعالى وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون وأما قوله وأخيه فالمراد ما فعلوه به من تعريضه للغم بسبب افراده عن أخيه لابيه وأمه وأيضا كانوا يؤذونه ومن جملة أقسام ذلك الايذاء قالوا في حقه ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل وأما قوله اذ أنتم جاهلون فهو يجري مجرى العذر كأنه قال أنتم انما أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر حال ما كنتم في جهالة الصبا أو في جهالة الغرور يعني والآن لستم كذلك ونظيره ما يقال في تفسير قوله تعالى ما غرك بربك الكريم قيل انما ذكر تعالى هنا الوصف المعين ليكون ذلك جاريا مجرى الجواب وهو أن يقول العبد يارب غرني كرمك فكذا ههنا انما ذكر ذلك الكلام ازالة للخجالة

عنهم وتخفيفا للامر عليهم ثم ان اخوته قالوا أئنك لانت يوسف قال أنا يوسف قرأ ابن كثير انك على لفظ الخبر وقرأ نافع أينك لانت يوسف بفتح الالف غير ممدودة و بالياء وأبو عمرو آينك بمد الالف وهو رواية قالون عن نافع والباقون أئنك بهمزتين وكل ذلك على الاستفهام وقرأ أبي أو أنت يوسف فيحصل من هذه القرآت ان من القراء من قرأ با لاستفهام ومنهم من قرأ بالخبر أما الاولون فقالوا ان يوسف لما قال لهم هل علمتم وتبسم فابصروا ثناياه وكانت كاللؤلؤ المنظوم شبهوه بيوسف فقالوا له استفهاما أئنك لانت يوسف و يدل على صحة الاستفهام أنه قال أنا يوسف وانما أجابهم عما استفهموا عنه وأما من قرأ على الخبر فحجته ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن اخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه وكان في فرقه علامة وكان ليعقوب واسحق مثلها شبه الشامة فلما رفع التاج عرفوه بتلك العلامة فقالوا انك لانت يوسف ويجوز أن يكون ابن كثير اراد الاستفهام ثم حذف حرف الاستفهام وقوله قال أنا يوسف فيه بحثان (البحث الاول) اللام لام الابتداء وأنت مبتدأ و يوسف خبره والجملة خبران (البحث الثاني) انه انما صرح بالاسم تعظيما لما نزل به من ظلم اخوته وما عوضه الله من الظفر والنصر فكأنه قال أنا الذي ظلمتموني على أعظم الوجوه والله تعالى أوصلني الى أعظم المناصب انا ذلك العاجز الذي قصدتم قتله والقاءه في البئر ثم صرت كما ترون ولهذا قال وهذا أخي مع انهم كانوا يعرفونه لان مقصوده أن يقول وهذا أيضا كان مظلوما كما كنت ثم انه صار منعما عليه من قبل الله تعالى كما ترون وقوله قد من الله علينا قال ابن عباس رضي الله عنهما بكل عز في الدنيا والآخرة وقال اخرون بالجمع بيننا بعد التفرقة وقوله انه من يتق و يصبر معناه من يتق معاصي الله و يصبر على أذى الناس فان الله لا يضيع أجر المحسنين والمعنى انه من يتق و يصبر فان الله لا يضيع أجرهم فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اعلم أن يوسف عليه السلام وصف نفسه في هذا المقام الشريف بكونه متقيا ولو أنه أقدم على ما يقوله الحشوية في حق زليخا لكان هذا القول كذبا منه وذكر الكذب في مثل هذا المقام الذي يؤمن فيه الكافر ويتوب فيه العاصي لا يليق بالعقلاء (المسئلة الثانية) قال الواحد روى عن ابن كثير في طريق قنبل انه من يتقي باثبات الياء في الحالين ووجهه أن يجعل من بمنزلة الذي فلا يوجب الجزم و يجوز على هذا الوجه أن يكون قوله ويصبر في موضع الرفع الا أنه حذف الرفع طلبا للتخفيف كما يخفف في عضد وشمع والباقون بحذف الياء في الحالين * قوله تعالى (قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني باهلكم أجمعين) اعلم أن يوسف عليه السلام لما ذكر لاخوته ان الله تعالى من عليه وان من يتق المعاصي و يصبر على أذى الناس فانه لا يضيعه الله صدقوه فيه واعترفوا له بالفضل والمزية فقالوا تالله

البلد ليخبر الامر بعذر يعقوب (وهو خير الحاكمين) اذ لا يحكم الا بالحق والعدل (ارجعوا) انتم (الى أبيكم فقولوا يا ابانا ان ابنك سرق) على ظاهر الحال وقرئ سرق أي نسب الى السرقة (وما شهدنا) عليه (الا بما علمنا) وشاهدنا ان الصواع استخرجت من وعائه (وما كنا للغيب) اي باطن الحال (حافظين) فما ندري أن حقيقة الامر كما شاهدنا أم بخلافه أو وما كنا عالمين حين اعطيناك الموثق انه سيسرق أو انالا في هذا الامر او انك تصاب به كما أصبت بيوسف (واسأل القرية التي كنا فيها) اي مصر أو قرية بقربها لحقهم المنادي عندها أي أرسل الى اهلها واسألهم عن القصة معروفة فيما بينهم وكانوا قوما من كنعان من جيران يعقوب عليه السلام وقيل من صنعاء (وانا لصادقون) تأكيد في محل القسم (قال) أي يعقوب عليه السلام وهو استئناف مبني على سؤال نشا مما سبق فكأنه قيل فاذا كان عند قول المتوقف لاخوته ما قال فقيل قال يعقوب عند ما رجعوا اليه فقالوا له ما قالوا وانما حذف للايذان بأن مسارعتهم الى قبوله ورجوعهم به الى أبيهم أمر مسلم غني عن البيان وانما المحتاج اليه جواب أبيهم (بل سولت) أي زينت وسهلت وهو اضراب لا عن صريح كلامهم فانهم صادقون في ذلك بل عما يتضمنه من ادعاء البراءة عن التسبب فيما نزل به وأنه لم يصدر عنهم ما يؤدي الى ذلك من قول أو فعل كأنه قيل لم يكن الامر كذلك بل زينت (لكم أنفسكم أمرا) من الامور فاتيتموه يريد بذلك فتياهم بأخذ السارق بسرقته (فصبر جميل) أي فأمري صبر جميل أو فصبر جميل أجمل (عسى الله أن يأتيني بهم جميعا) يوسف وأخيه والمتوقف بمصر

(انه هو العليم) بحالي وحالهم (الحكيم) الذي لم يبتلني الا لحكمة بالغة (وتولى) أي أعرض (عنهم) كراهة لما سمع منهم (وقال يا أسفا على يوسف) الاسف أشد الحزن والحسرة اضافه الى نفسه والالف بدل من ياء الاضافة أي يا أسفي تعال فهذا أوانك وانما تأسف على يوسف مع أن الحادث مصيبة أخويه لان رزأه كان قاعدة الارزاء عنده وان تقادم عهده آخذا بمجامع قلبه لا ينساه ولانه كان واثقا بحياتهما عالما بمكانهما طامعا في ايابهما وأما يوسف فلم يكن في شأنه ما يحرك سلسلة رجائه سوى رحمة الله تعالى وفضله وفي الخبر لم تعط امة من الامم انا لله وانا اليه راجعون الا امة محمد عليه الصلاة والسلام الا يرى الى يعقوب حين اصابه ما اصابه لم يسترجع بل قال ما قال والتجانس بين لفظي الاسف ويوسف مما يزيد النظم الكريم بهجة كما في قوله عز وجل وهم ينهون عنه وينأون عنه وقوله اثاقلتم الى الارض ارضيتم وقوله ثم كلي من كل الثمرات وجئتك من سبإ بنبإ يقين ونظائرها (وابيضت عيناه من الحزن) الموجب للبكاء فان العبرة اذا كثرت محقت سواد العين وقلبته الى بياض كدر قيل قد عمي بصره وقيل كان يدرك ادراكا ضعيفا روى انه ما جفت عينا يعقوب من يوم فراق يوسف الى حين لقائه ثمانين عاما وما على وجه الارض اكرم على الله عز وجل من يعقوب عليه السلام وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سأل جبريل عليه السلام ما بلغ من وجد يعقوب عليه السلام على يوسف قال وجد سبعين ثكلى قال فما كان له من الاجر قال اجر مائة شهيد وما ساء ظنه بالله ساعة قط وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند النوائب فان الكف عن ذلك مما لا يدخل تحت التكليف فانه قل من يملك نفسه عند الشدائد

﴿ ملازمة ﴾

لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين قال الاصمعي يقال آثرك ايثارا أي فضلك الله وفلان آثر عند فلان اذا كان يؤثره بفضله وصلته والمعنى لقد فضلك الله علينا بالعلم والحلم والعقل والفضل والحسن والملك واحتج بعضهم بهذه الآية على ان اخوته ما كانوا أنبياء لان جميع المناصب التي تكون مغايرة لمنصب النبوة كالعدم بالنسبة اليه فلو شاركوه في منصب النبوة لما قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وبهذا التقدير يذهب سؤال من يقول لعل المراد كونه زائدا عليهم في الملك وأحوال الدنيا وان شاركوه في النبوة لانا بينا ان أحوال الدنيا لا يعبأ بها في جنب منصب النبوة وأما قوله وان كنا لخاطئين قيل الخاطئ هو الذي أتى بالخطيئة عمدا وفرق بين الخاطئ والمخطئ فلهذا الفرق يقال لمن يجتهد في الاحكام فلا يصيب انه مخطئ ولا يقال انه خاطئ وأكثر المفسرين على ان الذي اعتذروا منه هو اقدامهم على القائه في الجب وبيعه وتبعيده عن البيت والاب وقال أبو علي الجبائي انهم لم يعتذروا اليه من ذلك لان ذلك وقع منهم قبل البلوغ فلا يكون ذنبا فلا يعتذر منه وانما اعتذروا من حيث انهم أخطؤا بعد ذلك بان لم يظهروا لابيهم ما فعلوه ليعلم أنه حي وأن الذئب لم يأكله وهذا الكلام ضعيف من وجوه (الاول) انا بينا أنه لا يجوز أن يقال انهم أقدموا على تلك الاعمال في زمن الصبا لانه من البعيد في مثل يعقوب أن يبعث جمعا من الصبيان غير البالغين من غير أن يبعث معهم رجلا عاقلا يمنعهم عما لا ينبغي ويحملهم على ما ينبغي (والثاني) هب أن الامر على ما ذكره الجبائي الا أنا نقول غاية ما في الباب أنه لا يجب عليهم الاعتذار من ذلك الا انه يمكن أن يقال انه يحسن الاعتذار عنه والدليل عليه أن المذنب اذا تاب زال عقابه ثم قد يعيد التوبة والاعتذار مرة أخرى فعلمنا أن الانسان أيضا قد يتوب عند ما لا تكون التوبة واجبة عليه واعلم أنهم لما اعترفوا بفضله عليهم وبكونهم مجرمين خاطئين قال يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وفيه بحثان (البحث الاول) التثريب التوبيخ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام اذا زنت أمة أحدكم فليضربها الحد ولا يثرب بها أي ولا يعيرها بالزنا فقوله لا تثريب أي لا توبيخ ولا عيب وأصل التثريب من الثرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش ومعناه ازالة الثرب كما ان التجليد ازالة الجلد قال عطاء الخراساني طلب الحوائج الى الشباب أسهل منها الى الشيوخ الا ترى الى قول يوسف عليه السلام لاخوته لا تثريب عليكم وقول يعقوب سوف استغفر لكم ربي (البحث الثاني) ان قوله اليوم متعلق بماذا وفيه قولان (الاول) أنه متعلق بقوله لا تثريب اي لا أثربكم اليوم وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب فما ظنكم بسائر الايام وفيه احتمال آخر وهو اني حكمت في هذا اليوم بأن لا تثريب مطلقا لان قوله لا تثريب نفي للماهية ونفي الماهية يقتضي انتفاء جميع افراد الماهية فكان ذلك مفيدا للنفي المتناول لكل الاوقات والاحوال فتقدير الكلام اليوم حكمت بهذا الحكم العام المتناول لكل الاوقات والاحوال ثم انه لما بين لهم أنه أزال عنهم

ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده ابراهيم وقال القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وانا عليك يا ابراهيم لمحزونون وانما الذى لا يجوز ما يفعله الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الخدود والصدور وشق الجيوب وتمزيق الثياب وعن النبى عليه السلام انه بكى على ولد بعض بناته وهو يجود بنفسه فقيل يا رسول الله تبكى وقد نهيتنا عن البكاء فقال ما نهيتكم عن البكاء وانما نهيتكم عن صوتين أحمقين صوت عند الفرح وصوت عند الترح (فهو كظيم) مملوء من الغيظ على أولاده ممسك له فى قلبه لا يظهره فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله تعالى وهو مكظوم من كظم السقاء اذا شده على ملئه أو بمعنى فاعل كقوله والكاظمين الغيظ من كظم الغيظ اذا اجترعه وأصله كظم البعير جرته اذا ردها فى جوفه (قالوا تالله تفتؤ) اى لا تفتؤ ولا تزال (تذكر يوسف) تفجعا عليه فحذف حرف النفى كما فى قوله * فقلت يمين الله أبرح قاعدا * لعدم الالتباس بالاثبات فان القسم اذا لم يكن معه علامة الاثبات يكون على النفى البتة (حتى تكون حرضا) مريضا مشفيا على الهلاك وقيل الحرض من أذابه هم أو مرض وهو فى الاصل مصدر ولذلك لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع والنعت منه بالكسر كدنف وقد قرئ به وبضمتين كجنب وغرب (أو تكون من الهالكين) اى الميتين (قال انما أشكو بثى) البث أصعب الهم الذى لا يصبر عليه صاحبه فيبثه الى الناس اى ينشره فكأنهم قالوا له ما قالوا بطريق التسلية والاشكاء فقال لهم انى لا أشكو ما بى اليكم أو الى غيركم حتى تتصدوا لتسليتى وانما أشكو همى (وحزنى الى

ملامة الدنيا طلب من الله أن يزيل عنهم عقاب الآخرة فقال يغفر الله لكم والمراد منه الدعاء (والقول الثانى) ان قوله اليوم متعلق بقوله يغفر الله لكم كأنه لما نفى التثريب مطلقا بشرهم بأن الله غفر ذنبهم فى هذا اليوم وذلك لانهم لما انكسروا وخجلوا واعترفوا وتابوا فالله قبل توبتهم وغفر لهم ذنبهم فلذلك قال اليوم يغفر الله لكم روى أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخذ بعضادتى باب الكعبة يوم الفتح وقال لقريش ما ترونى فاعلا بكم فقالوا نظن خيرا أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت فقال أقول ما قال أخى يوسف لا تثريب عليكم اليوم وروى أن أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس اذا أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتل عليه قال لا تثريب عليكم اليوم ففعل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله لك ولمن علمك وروى أن اخوة يوسف لما عرفوه أرسلوا اليه انك تحضرنا على مائدتك بكرة وعشيا ونحن نستحى منك لما صدر منا من الاساءة اليك فقال يوسف عليه السلام ان أهل مصر وان ملكت فيهم فانهم ينظرون الى بالعين الاولى ويقولون سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما ما بلغ ولقد شرفت الآن باتيانكم وعظمت فى العيون لما جئتم وعلم الناس أنكم اخوتى وأنى من حفدة ابراهيم عليه السلام ثم قال يوسف عليه السلام اذهبوا بقميصى هذا فالقوه على وجه أبى يأت بصيرا قال المفسرون لما عرفهم يوسف سألهم عن أبيه فقالوا ذهبت عيناه فأعطاهم قميصه قال المحققون انما عرف ان القاء ذلك القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحى من الله تعالى ولولا الوحى لما عرف ذلك لان العقل لا يدل عليه ويمكن أن يقال لعل يوسف عليه السلام علم أن أباه ما صار أعمى الا أنه من كثرة البكاء وضيق القلب ضعف بصره فاذا ألقى عليه قميصه فلا بد أن ينشرح صدره وأن يحصل فى قلبه الفرح الشديد وذلك يقوى الروح ويزيل الضعف عن القوى فحينئذ يقوى بصره ويزول عنه ذلك النقصان فهذا القدر مما يمكن معرفته بالقلب فان القوانين الطبية تدل على صحة هذا المعنى وقوله يأت بصيرا أى يصير بصيرا ويشهد له فارتد بصيرا ويقال المراد يأت الى وهو بصير وانما أفرده بالذكر تعظيما له وقال فى الباقين وأتونى بأهلكم أجمعين قال الكلبى كان أهله نحوا من سبعين انسانا وقال مسروق دخل قوم يوسف عليه السلام مصر وهم ثلاثة وتسعون من بين رجل وامرأة وروى أن يهودا حامل الكتاب وقال أنا أحزنته بحمل القميص الملطخ بالدم اليه فافرحه كما أحزنته وقيل حمله وهو حاف وحاسر من مصر الى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخا * قوله تعالى (ولما فصلت العير قال أبوهم انى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون قالوا تالله انك لفى ضلالك القديم فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم انى أعلم من الله ما لا تعلمون قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم) يقال فصل فلان من عند فلان فصولا اذا خرج من عنده وفصل منى اليه كتابا اذا أنفذ به اليه وفصل يكون لازما ومتعديا واذا كان لازما فمصدره الفصول

الله) تعالى ملتجئا الى جنابه متضرعا لدى بابه فى دفعه وقرئ بفتحتين وضمتين (وأعلم من الله مالاتعلمون) من لطفه ورحمته فأرجوأن يرحمنى ويلطف بى ولا يخيب رجائى أو أعلم وحيا أو الهاما من جهته مالاتعلمون من حياة يوسف قيل رأى ملك الموت فى المنام فسأله عنه فقال هوحى وقيل علم من رؤيا يوسف عليه السلام انه يسجد له أبواه واخوته سجدا (يا بنى اذهبوا فتحسسوا) اى تعرفوا وهو تفعل من الحس وقرئ بالجيم من الجس وهو الطلب اى تطلبوا (من يوسف وأخيه) اى من خبرهما ولم يذكر الثالث لان غيبته اختيارية لايعسر ازالتها (ولا تيأسوا من روح الله) لاتقنطوا من فرجه وتنفيسه وقرئ بضم الراء اى من رحمته التى يحيى بها العباد وهذا ارشاد لهم الى بعض ماأبهم فى قوله وأعلم من الله مالاتعلمون ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيه بقوله (انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون) لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته فان العارف لايقنط فى حال من الاحوال (فلما دخلوا عليه) اى على يوسف بعدما رجعوا الى مصر بموجب أمر أبيهم وانما لم يذكر ذلك ايذانا بمسارعتهم الى ماأمروا به واشعارا بأن ذلك أمر محقق لايفتقر الى الذكر والبيان (قالوا ياأيها العزيز) اى الملك القادر الممتنع (مسنا وأهلنا الضر) الهزال من شدة الجوع (وجئنا ببضاعة مزجاة) مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة ﴿ يقولوها ﴾ عنها واحتقارا لها من أزجيته اذا دفعته وطردته والريح تزجى السحاب قيل كانت بضاعتهم من متاع الاعراب صوفا وسمنا وقيل الصنوبر وحبة الخضراء وقيل سويق المقل والاقط وقيل دراهم زيوفا لاتؤخذ الا بوضيعة وانما قدموا ذلك

وانما كان متعديا فمصدره الفصل قال المفسرون لما خرجت العير من مصر متوجهة الى كنعان قال يعقوب عليه السلام لمن حضر عنده من أهله وقرابته وولد ولده انى لاجد ريح يوسف لولا أن تفندون ولم يكن هذا القول مع أولاده لانهم كانوا غائبين بدليل انه عليه السلام قال لهم اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه واختلفوا فى قدر المسافة فقيل مسيرة ثمانية أيام وقيل عشرة أيام وقيل ثمانون فرسخا واختلفوا فى كيفية وصول تلك الرائحة اليه فقال مجاهد هبت ريح فصفقت القميص ففاحت روائح الجنة فى الدنيا واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة فعلم عليه السلام انه ليس فى الدنيا من ريح الجنة الا ما كان من ذلك القميص فمن ثم قال انى لاجد ريح يوسف وروى الواحدى باسناده عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أما قوله اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا فان نمروذ الجبار لما ألقى ابراهيم فى النار نزل عليه جبريل عليه السلام بقميص من الجنة وطنفسة من الجنة فألبسه القميص وأجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدثه فكسا ابراهيم عليه السلام ذلك القميص اسحق وكساه اسحق يعقوب وكساه يعقوب يوسف فجعله فى قصبة من فضة وعلقها فى عنقه فألقى فى الجب والقميص فى عنقه فذلك قوله اذهبوا بقميصى هذا والتحقيق أن يقال انه تعالى أوصل تلك الرائحة اليه على سبيل اظهار المعجزات لان وصول الرائحة اليه من هذه المسافة البعيدة أمر مناقض للعادة فيكون معجزة ولابد من كونها معجزة لاحدهما والاقرب انه ليعقوب عليه السلام حين أخبر عنه ونسبوه فى هذا الكلام الى مالاينبغى فظهر أن الامر كما ذكر فكان معجزة له قال أهل المعانى ان الله تعالى أوصل اليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضاء مدة المحنة ومجئ وقت الروح والفرح من المكان البعيد ومنع من وصول خبره اليه مع قرب احدى البلدتين من الاخرى فى مدة ثمانين سنة وذلك يدل على ان كل سهل فهو فى زمان المحنة صعب وكل صعب فهو فى زمان الاقبال سهل ومعنى لاجد ريح يوسف أشم وعبر عنه بالوجود لانه وجدان له بحاسة الشم وقوله لولا أن تفندون قال أبو بكر بن الانبارى أفند الرجل اذا خرف وتغير عقله وفند اذا جهل ونسب ذلك اليه وعن الاصمعى اذا كثر كلام الرجل من خرف فهو المفند قال صاحب الكشاف يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة لانها لم تكن فى شبيبتها ذات رأى حتى تفند فى كبرها فقوله لولا أن تفندون اى لولا أن تنسبونى الى الخرف ولما ذكر يعقوب ذلك قال الحاضرون عنده تالله انك لفى ضلالك القديم وفى الضلال ههنا وجوه (الاول) قال مقاتل يعنى بالضلال ههنا الشقاء يعنى شقاء الدنيا والمعنى انك لفى شقائك القديم بما تكابد من الاحزان على يوسف واحتج مقاتل بقوله انا اذن لفى ضلال وسعر يعنون لفى شقاء دنيانا وقال قتادة لفى ضلالك القديم اى لفى حبك القديم لاتنساه ولا تذهل عنه وهو كقولهم ان أبانا لفى ضلال مبين ثم قال قتادة قد قالوا كلمة غليظة ولم يكن يجوز أن

ليكون ذريعة الى اسعاف مرامهم يبعث الشفقة وهز العطف والرأفة وتحريك لمتسلسلة المرحمة ثم قالوا (فأوف لنا الكيل) اى أتممه لنا (وتصدق علينا) برد أخينا الينا قاله الضحاك وابن جريج وهو الانسب بحالهم نظرا الى أمر أبيهم أو بالايفاء أو بالمسامحة وقبول المزجاة أو بالزيادة على مايساويها تفضلا وانما سموه تصدقا تواضعا أو أرادوا التصدق فوق مايعطيهم بالثمن بناء على اختصاص حرمة الصدقة بنبينا عليه الصلاة والسلام وانما لم يبدؤا بما أمروا به استجلابا للرأفة والشفقة ليبعثوا بما قدموا من رقة الحال رقة القلب والحنو على أن ماساقوه كلام ذو وجهين فان قولهم وتصدق علينا (ان الله يجزى المتصدقين) يحتمل الحمل على المحملين فلعله عليه السلام حمله على المحمل الاول ولذلك (قال) مجيبا عما عرضوا به وضمنوه كلامهم من طلب رد أخيهم (هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه) وكان الظاهر أن يتعرض لما فعلوا بأخيه فقط وانما تعرض لما فعلوا بيوسف لاشتراكهما في وقوع الفعل عليهما فان المراد بذلك افرادهم له عن يوسف واذلاله بذلك حتى كان لايستطيع أن يكلمهم الا بعجز وذلة اى هل تبتم عن ذلك بعد علمكم بقبحه فهو سؤال عن الملزوم والمراد لازمه (اذ أنتم جاهلون) بقبحه فلذلك أقدمتم على ذلك أو جاهلون عاقبته وانما قاله نصحا لهم وتحريضا على التوبة وشفقة عليهم لما رأى عجزهم وتمسكنهم لامعاتبة وتثريبا ويجوز أن يكون هذا الكلام منه عليه السلام منقطعا عن كلامهم وتنبيها لهم على ماهو حقهم ووظيفتهم من الاعراض عن جميع المطالب والتمحض فى طلب بنيامين بل يجوز أن يقف عليه السلام بطريق الوحى أو الالهام

يقولوها لنبى الله وقال الحسن انما خاطبوه بذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات وقد كان يعقوب فى ولوعه بذكره ذاهبا عن الرشد والصواب وقوله فلما أن جاء البشير فى أن قولان (الاول) أنه لاموضع لها من الاعراب وقد تذكر تارة كما ههنا وقد تحذف كقوله فلما ذهب عن ابراهيم الروع والمذهبان جميعا موجودان فى اشعار العرب (والثانى) قال البصريون هى مع مافى موضع رفع بالفعل المضمر تقديره فلما ظهر أن جاء البشير أى ظهر مجئ البشير فاضمر الرافع قال جمهور المفسرين البشير هو يهودا قال أنا ذهبت القميص الملطخ بالدم وقلت ان يوسف أكله الذئب فاذهب اليوم بالقميص فافرحه [illegible] حزنته قوله ألقاه على وجهه اى طرح البشير القميص على وجه يعقوب أو يقال ألقاه يعقوب على وجه نفسه فارتد بصيرا أى رجع بصيرا ومعنى الارتداد انقلاب الشئ الى حالة قد كان عليها وقوله فارتد بصيرا أى صيره الله بصيرا كما يقال طالت النخلة والله تعالى أطالها واختلفوا فيه فقال بعضهم انه كان قد عمى بالكلية فالله تعالى جعله بصيرا فى هذا الوقت وقال آخرون بل كان قد ضعف بصره من كثرة البكاء وكثرة الاحزان فلما ألقوا القميص على وجهه و بشر بحياة يوسف عليه السلام عظم فرحه وانشرح صدره وزالت أحزانه فعند ذلك قوى بصره وزال النقصان عنه فعند هذا قال ألم أقل لكم انى أعلم من الله مالاتعلمون والمراد علمه بحياة يوسف من جهة الرؤيا لان هذا المعنى هو الذى له تعلق بما تقدم وهو اشارة الى ماتقدم من قوله انما أشكو بثى وحزنى الى الله وأعلم من الله مالاتعلمون روى أنه سال البشير وقال كيف يوسف قال هو ملك مصر قال ماأصنع بالملك على أى دين تركته قال على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة ثم ان أولاد يعقوب أخذوا يعتذرون اليه وقالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم وظاهر الكلام أنه لم يستغفر لهم فى الحال بل وعدهم بانه يستغفر لهم بعد ذلك واختلفوا فى سبب هذا المعنى على وجوه (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما والاكثرون أراد أن يستغفر لهم فى وقت السحر لان هذا الوقت أوفق الاوقات لرجاء الاجابة (الثانى) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية أخرى أخر الاستغفار الى ليلة الجمعة لانها أوفق الاوقات للاجابة (الثالث) أراد أن يعرف انهم هل تابوا فى الحقيقة أم لا وهل حصلت توبتهم مقرونة بالاخلاص التام أم لا (الرابع) استغفر لهم فى الحال وقوله سأستغفر لكم معناه انى أداوم على هذا الاستغفار فى الزمان المستقبل فقد روى انه كان يستغفر لهم فى كل ليلة جمعة فى نيف وعشرين سنة وقيل قام الى الصلاة فى وقت السحر فلما فرغ رفع يديه الى السماء وقال اللهم اغفر لى جزعى على يوسف وقلة صبرى عليه واغفر لاولادى مافعلوه فى حق يوسف عليه السلام فاوحى الله تعالى اليه قد غفرت لك ولهم أجمعين وروى أن أبناء يعقوب عليه السلام قالوا ليعقوب وقد غلبهم الخوف والبكاء مايغنى عنا ان لم يغفر لنا فاستقبل الشيخ القبلة قائما يدعو وقام

يوسف خلفه يؤمن وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى قل صبرهم فظنوا أنها الهلكة فنزل جبريل عليه السلام وقال ان الله تعالى أجاب دعوتك في ولدك وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة وقد اختلف الناس في نبوتهم وهو مشهور * قوله تعالى (فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي اذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي ان ربي لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم) اعلم أنه روى أن يوسف عليه السلام وجه الى أبيه جهازا ومائتي راحلة ليتجهز اليه بمن معه وخرج يوسف عليه السلام والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم تلقوا يعقوب عليه السلام وهو يمشي يتوكأ على يهودا فنظر الى الخيل والناس فقال يا يهودا هذا فرعون مصر قال لا هذا ولدك يوسف فذهب يوسف يبدأ بالسلام فمنع من ذلك فقال يعقوب عليه السلام السلام عليك وقيل ان يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى والمقاتلون منهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلا سوى الصبيان والشيوخ أما قوله آوى اليه أبويه ففيه بحثان (البحث الاول) في المراد بقوله أبويه قولان (الاول) المراد أبوه وأمه وعلى هذا القول فقيل ان أمه كانت باقية حية الى ذلك الوقت وقيل انها كانت قد ماتت الا أن الله تعالى أحياها وأنشرها من قبرها حتى سجدت له تحقيقا لرؤيا يوسف عليه السلام (والقول الثاني) أن المراد أبوه وخالته لان أمه ماتت في النفاس بأخيه بنيامين وقيل بنيامين بالعبرانية ابن الوجع ولما ماتت أمه تزوج أبوه بخالته فسماها الله تعالى باحد الابوين لان الرابة تدعى أما لقيامها مقام الام أو لان الخالة أم كما ان العم أب ومنه قوله تعالى واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق (البحث الثاني) آوى اليه أبويه ضمهما اليه واعتنقهما فان قيل ما معنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر قلنا كأنه حين استقبلهم نزل بهم في بيت هناك أو خيمة فدخلوا عليه وضم اليه أبويه وقال لهم ادخلوا مصر أما قوله ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين ففيه أبحاث (البحث الاول) قال السدى انه قال هذا القول قبل دخولهم مصر لانه كان قد استقبلهم وهذا هو الذي قررناه وعن ابن عباس رضي الله عنهما المراد بقوله ادخلوا مصر أي أقيموا بها آمنين سمى الاقامة دخولا لاقتران أحدهما بالآخر (البحث الثاني) الاستثناء وهو قول ان شاء الله فيه قولان (الاول) انه عائد الى الامن لا الى الدخول والمعنى ادخلوا مصر آمنين ان شاء الله ونظيره قوله تعالى لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين وقيل انه عائد الى الدخول على القول الذي ذكرناه انه قال لهم هذا الكلام قبل ان دخلوا مصر (البحث الثالث) معنى قوله آمنين يعني على أنفسكم وأموالكم وأهليكم لا تخافون أحدا وكانوا فيما سلف يخافون ملوك

على وصية أبيه وارساله اياهم للتجسس متفوه من أخيه فلما رآهم قد اشتغلوا عن ذلك قال ما قال وقيل اعطوه كتاب يعقوب عليه السلام وقد كتب فيه كتاب من يعقوب اسرائيل الله بن اسحق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله الى عزيز مصر أما بعد فانا أهل بيت موكل بنا البلاء أما جدي فشدت يداه ورجلاه فرمى به في النار فنجاه الله تعالى وجعلت النار له بردا وسلاما وأما أبي فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله تعالى وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي الي فذهب به اخوته الى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخا بالدم فقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناي من بكائي عليه ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا انه سرق وانك حبسته وانا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا فان رددته علي والا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام فلما قرأه لم يتمالك وعيل صبره فقال لهم ما قال وقيل لما قرأه بكى وكتب الجواب اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا (قالوا أئنك لانت يوسف) استفهام تقرير ولذلك أكدوه بان واللام قالوه استغرابا وتعجبا وقرئ انك بالايجاب قيل عرفوه برؤائه وشمائله حين كلمهم به وقيل تبسم فعرفوه بثناياه وقيل رفع التاج عن رأسه فرأوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء وكان لسارة ويعقوب مثلها وقرئ أئنك أو أنت يوسف على معنى أئنك يوسف وأنت يوسف فحذف الاول لدلالة الثاني عليه وفيه زيادة استغراب (قال أنا يوسف) جوابا عن مسئلتهم وقد زاد عليه قوله (وهذا أخي) اى من أبوي مبالغة في تعريف نفسه وتفخيما لشأن اخيه وتكملة لما أفاده قوله هل علمتم ما فعلتم

بيوسف وأخيه حشمتا بغيلته قوله (قدمن الله علينا) فكأنه قال هل علمتم مافعلتم بنا من التفريق والاذلال فانا يوسف وهذا أخى قدمن الله علينا بالخلاص عما ابتلينا به والاجتماع بعد الفرقة والعزة بعد الذلة والانس بعد الوحشة ولا يبعد أن يكون فيه اشارة الى الجواب عن طلبهم لرد بنيامين بأنه أخى لا أخوكم فلا وجه لطلبكم ثم علل ذلك بطريق الاستئناف التعليلى بقوله (انه من يتق) اى يفعل التقوى في جميع أحواله أو يتق نفسه عما يوجب سخط الله تعالى وعذابه (ويصبر) على المحن أو على مشقة الطاعات أو عن المعاصى التى تستلذها النفس (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) اى أجرهم وانما وضع المظهر موضع المضمر تنبيها على أن المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالاحسان (قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) اختارك وفضلك علينا بما ذكرت من النعوت الجليلة (وان كنا) وان الشأن كنا (لخاطئين) لمتعمدين للذنب اذ فعلنا بك ما فعلنا ولذلك أعزك وأذلنا وفيه اشعار بالتوبة والاستغفار ولذلك (قال لا تثريب) اى لا عتب ولا تأنيب (عليكم) وهو تفعيل من الثرب وهو الشحم الغاشى للكرش ومعناه ازالته كما أن التجليد ازالة الجلد والتقريع ازالة القرع لانه اذا ذهب كان ذلك غاية الهزال فضرب مثلا للتقريع الذى يذهب بماء الوجوه وقوله عز وعلا (اليوم) منصوب بالتثريب أو بالمقدر خبر اللاى لا أثريكم أو لا تثريب مستقر عليكم اليوم الذى هو مظنة له فاظنكم بسائر الايام أو بقوله (يغفر الله لكم) لانه حينئذ صفح عن جريمتهم وصفا عن جريرتهم بما فعلوا من التوبة (وهو أرحم الراحمين) يغفر الصغائر والكبائر

مصر وقيل آمنين من القحط والشدة والفاقة وقيل آمنين من أن يضرهم يوسف بالجرم السالف أما قوله ورفع أبويه على العرش قال أهل اللغة العرش السرير الرفيع قال تعالى ولها عرش عظيم والمراد بالعرش ههنا السرير الذى كان يجلس عليه يوسف وأما قوله وخروا له سجدا ففيه اشكال وذلك لان يعقوب عليه السلام كان أبا يوسف وحق الابوة عظيم قال تعالى وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا فقرن حق الوالدين بحق نفسه وأيضا انه كان شيخا والشاب يجب عليه تعظيم الشيخ (والثالث) انه كان من أكابر الانبياء ويوسف وان كان نبيا الا أن يعقوب كان أعلى حالا منه (والرابع) ان جد يعقوب واجتهاده فى تكثير الطاعات أكثر من جد يوسف ولما اجتمعت هذه الجهات الكثيرة فهذا يوجب أن يبالغ يوسف فى خدمة يعقوب فكيف استجاز يوسف أن يسجد له يعقوب هذا تقرير السؤال (والجواب) عنه من وجوه (الاول) وهو قول ابن عباس فى رواية عطاء ان المراد بهذه الآية انهم خروا له أى لاجل وجد انه سجدا لله تعالى وحاصل الكلام ان ذلك السجود كان سجودا للشكر فالمسجود له هو الله الا ان ذلك السجود انما كان لاجله والدليل على صحة هذا التأويل ان قوله ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا مشعر بأنهم صعدوا ذلك السرير ثم سجدوا له ولو انهم سجدوا ليوسف لسجدوا له قبل الصعود على السرير لان ذلك أدخل فى التواضع فان قالوا فهذا التأويل لا يطابق قوله يا أبت هذا تاويل رؤياى من قبل والمراد منه قوله انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين قلنا بل هذا مطابق ويكون المراد من قوله والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين لاجلى أى انها سجدت لله لطلب مصلحتى وللسعى فى اعلاء منصبى واذا كان هذا محتملا سقط السؤال وعندى ان هذا التأويل متعين لانه لا يستبعد من عقل يوسف ودينه أن يرضى بان يسجد له أبوه مع سابقته فى حقوق الولادة والشيخوخة والعلم والدين وكمال النبوة (والوجه الثانى) فى الجواب أن يقال انهم جعلوا يوسف كالقبلة وسجدوا لله شكرا لنعمة وجدانه وهذا التأويل حسن فانه يقال صليت للكعبة كما يقال صليت الى الكعبة قال حسان شعرا

ما كنت أعرف أن الامر منصرف * عن هاشم ثم منها عن أبى حسن
أليس أول من صلى لقبلتكم * وأعرف الناس بالقرآن والسنن

وهذا يدل على أنه يجوز أن يقال فلان صلى للقبلة وكذلك يجوز أن يقال سجد للقبلة وقوله وخروا له سجدا أى جعلوه كالقبلة ثم سجدوا لله شكر النعمة وجد انه (الوجه الثالث) فى الجواب قد يسمى التواضع سجودا كقوله * ترى الاكم فيها سجدا للحوافر * وكان المراد ههنا التواضع الا أن هذا مشكل لانه تعالى قال وخروا له سجدا والخرور الى السجدة مشعر بالاتيان بالسجدة على أكمل الوجوه وأجيب عنه بان الخرور قد يعنى به المرور فقط قال تعالى لم يخروا عليها صما وعميانا يعنى لم يمروا (الوجه الرابع) فى الجواب

و يتفضل على التائب بالقبول ومن كرمه عليه الصلاة والسلام أن اخوته أرسلوا اليه انك تدعونا الى طعامك بكرة وعشيا ونحن نستحيي منك بما فرط منا فيك فقال عليه الصلاة والسلام ان أهل مصر وان ملكت فيهم كانوا ينظرون الى بالعين الاولى و يقولون سبحانه من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما ما بلغ ولقد شرفت بكم الآن وعظمت فى العيون حيث علم الناس أنكم اخوتى وأنى من حفدة ابراهيم عليه الصلاة والسلام (اذهبوا بقميصى هذا) قيل هو الذى كان عليه حينئذ وقيل هو القميص المتوارث الذى كان فى التعويذ أمره جبريل بارساله اليه واوحى اليه أن فيه ريح الجنة لايقع على مبتلى الاعوفى (فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا) يكن بصيرا أو يأت الى بصيرا وينصره قوله (واتونى بأهلكم أجمعين) اى بأبى وغيره ممن ينتظمه لفظ الاهل جميعا من النساء والذرارى قيل انما حمل القميص يهوذا وقال أنا أحزنته بحمل القميص ملطخا بالدم اليه فأفرحه كما أحزنته وقيل حمله وهو حاف حاسر من مصر الى كنعان و بينهما مسيرة ثمانين فرسخا (ولما فصلت العير) خرجت من عريش مصر يقال فصل من البلد فصولا اذا انفصل منه وجاوز حيطانه وقرأ ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انفصل العير (قال أبوهم) يعقوب عليه الصلاة والسلام لمن عنده (انى لأجد ريح يوسف) أوجده الله سبحانه ما عبق بالقميص من ريح يوسف من ثمانين فرسخا حين أقبل به يهوذا (لولا أن تفندون) اى تنسبونى الى الفند وهو الخرف وانكار العقل وفساد الرأى من هرم يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة اذ لم تكن فى شبيتها ذات رأى

أن نقول الضمير فى قوله وخروا له غير عائد الى الابوين لامحالة والا لقال وخروا له ساجدين بل الضمير عائد الى اخوته والى سائر من كان يدخل عليه لاجل التهنئة والتقدير ورفع أبويه على العرش مبالغة فى تعظيمهما وأما الاخوة وسائر الداخلين فخروا له ساجدين فان قالوا فهذا لايلائم قوله ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قلنا ان تعبير الرؤيا لايجب أن يكون مطابقا للرؤيا بحسب الصورة والصفة من كل الوجوه فسجود الكواكب والشمس والقمر تعبير عن تعظيم الاكابر من الناس له ولاشك أن ذهاب يعقوب مع أولاده من كنعان الى مصر لاجله فى نهاية التعظيم له فكفى هذا القدر فى صحة الرؤيا فاما أن يكون التعبير مساويا لاصل الرؤيا فى الصفة والصورة فلم يوجبه أحد من العقلاء (الوجه الخامس) فى الجواب لعل الفعل الدال على التحية والاكرام فى ذلك الوقت هو السجود وكان مقصودهم من السجود تعظيمه وهذا فى غاية البعد لان المبالغة فى التعظيم كانت أليق بيوسف منها بيعقوب فلو كان الامر كما قلتم لكان من الواجب أن يسجد يوسف ليعقوب عليه السلام (والوجه السادس) فيه أن يقال لعل اخوته حملتهم الانفة والاستعلاء على أن لايسجدوا له على سبيل التواضع وعلم يعقوب عليه السلام انهم لو لم يفعلوا ذلك لصار ذلك سببا لثوران الفتن ولظهور الاحقاد القديمة بعد كمونها فهو عليه السلام مع جلالة قدره وعظم حقه بسبب الابوة والشيخوخة والتقدم فى الدين والنبوة والعلم فعل ذلك السجود حتى تصير مشاهدتهم لذلك سببا لزوال الانفة والنفرة عن قلوبهم ألا ترى أن السلطان الكبير اذا نصب محتسبا فاذا أراد ترتيبه مكنه فى اقامة الحسبة عليه ليصير ذلك سببا فى أن لايبقى فى قلب أحد منازعة ذلك المحتسب فى اقامة الحسبة فكذا ههنا (الوجه السابع) لعل الله تعالى أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفيت لايعرفها الا هو كما أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم لحكمة لايعرفها الا هو ويوسف ما كان راضيا بذلك فى قلبه الا انه لما علم ان الله أمره بذلك سكت ثم حكى تعالى أن يوسف لما رأى هذه الحالة قال ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وفيه بحثان (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما انه لما رأى سجود أبويه واخوته هاله ذلك واقشعر جلده منه وقال ليعقوب هذا تأويل رؤياى من قبل وأقول هذا يقوى الجواب السابع كأنه يقول ياأبت لايليق بمثلك على جلالتك فى العلم والدين والنبوة أن تسجد لولدك الا ان هذا أمر أمرت به وتكليف كلفت به فان رؤيا الانبياء حق كما ان رؤيا ابراهيم ذبح ولده صار سببا لوجوب ذلك الذبح عليه فى اليقظة فكذلك صارت هذه الرؤيا التى رآها يوسف وحكاها ليعقوب سببا لوجوب ذلك السجود فلهذا السبب حكى ابن عباس رضى الله عنهما أن يوسف عليه السلام لما رأى ذلك هاله واقشعر جلده ولكنه لم يقل شيئا وأقول لايبعد أن يكون ذلك من تمام تشديد الله تعالى على يعقوب كأنه قيل له انك كنت دائم الرغبة فى وصاله ودائم الحزن بسبب فراقه فاذا وجدته فاسجد له

فتفند فى كبرها وجواب لولا محذوف اى لصدقتمونى (قالوا) اى الحاضرون عنده (تالله انك لفى ضلالك القديم) لفى ذهابك عن الصواب قدما فى افراط محبتك ليوسف ولهجك بذكره ورجائك للقائه وكان عندهم أنه قد مات (فلما أن جاء البشير) وهو يهوذا (ألقاه) اى ألقى البشير القميص (على وجهه) اى وجه يعقوب أو ألقاه يعقوب على وجه نفسه (فارتد) عاد (بصيرا) لما انتعش فيه من القوة (قال ألم أقل لكم) يعنى قوله انى لاجد ريح يوسف فالخطاب لمن كان عنده بكنعان أو قوله ولا تيأسوا من روح الله فالخطاب لبنيه وهو الانسب بقوله (انى أعلم من الله مالا تعلمون) فان مدار النهى المذكور انما هو العلم الذى أوتى يعقوب من جهة الله سبحانه وعلى هذا يجوز أن يكون هذا مقول القول اى ألم أقل لكم حين أرسلتكم الى مصر وأمرتكم بالتحسس ونهيتكم عن اليأس من روح الله تعالى وأعلم من الله مالا تعلمون من حياة يوسف عليه الصلاة والسلام روى انه سأل البشير كيف يوسف فقال هو ملك مصر قال ما أصنع بالملك على أى دين تركته قال دين الاسلام قال الآن تمت النعمة (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين) ومن حق من اعترف بذنبه أن يصفح عنه ويستغفر له فكأنهم كانوا على ثقة من عفوه عليه الصلاة والسلام ولذلك اقتصروا على استدعاء الاستغفار وأدرجوا ذلك فى الاستغفار (قال سوف أستغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم) وهذا مشعر بعفوه قيل أخر الاستغفار الى وقت السحر وقيل الى ليلة الجمعة ليتحرى به وقت الاجابة وقيل أخره الى أن يستحل لهم من يوسف عليه الصلاة والسلام أو يعلم أنه قد عفا عنهم فان عفو المظلوم

فكان الامر بذلك السجود من تمام التشديد والله أعلم بحقائق الامور (البحث الثانى) اختلفوا فى مقدار المدة بين هذا الوقت وبين الرؤيا فقيل ثمانون سنة وقيل سبعون وقيل أربعون وهو قول الاكثرين ولذلك يقولون ان تأويل الرؤيا انما صحت بعد أربعين سنة وقيل ثمانى عشرة سنة وعن الحسن أنه ألقى فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وبقى فى العبودية والسجن ثمانين سنة ثم وصل الى أبيه وأقاربه وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة فكان عمره مائة وعشرين سنة والله أعلم بحقائق الامور ثم قال وقد أحسن بى أى الى يقال أحسن به واليه قال كثير

أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة * لدينا ولا مقلية ان تقلت

اذ أخرجنى من السجن ولم يذكر اخراجه من البئر لوجوه (الاول) انه قال لاخوته لا تثريب عليكم اليوم ولو ذكر واقعة البئر لكان ذلك تثريبا لهم فكان اهماله جاريا مجرى الكرم (الثانى) أنه لما خرج من البئر لم يصر ملكا بل صيروه عبدا اما لما خرج من السجن صيروه ملكا فكان هذا الاخراج أقرب من أن يكون انعاما كاملا (الثالث) انه لما أخرج من البئر وقع فى المضار الحاصلة بسبب تهمة المرأة فلما أخرج من السجن وصل الى أبيه واخوته وزالت التهمة فكان هذا أقرب الى المنفعة (الرابع) قال الواحدى النعمة فى اخراجه من السجن أعظم لان دخوله فى السجن كان بسبب ذنب هم به وهذا ينبغى أن يحمل على ميل الطبع ورغبة النفس وهذا وان كان فى محل العفو فى حق غيره الا انه ربما كان سببا للمؤاخذة فى حقه لان حسنات الابرار سيآت المقربين ثم قال وجاء بكم من البدو وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى الآية قولان (الاول) جاء بكم من البدو أى من البادية وقال الواحدى البدو بسيط من الارض يظهر فيه الشخص من بعيد وأصله من بدا يبدو بدوا ثم سمى المكان باسم المصدر فيقال بدو وحضر وكان يعقوب وولده بأرض كنعان أهل مواش وبرية (والقول الثانى) قال ابن عباس رضى الله عنهما كان يعقوب قد تحول الى بدا وسكنها ومنها قدم على يوسف وله بها مسجد تحت جبلها قال ابن الانبارى بدا اسم موضع معروف يقال هو بين شعب وبدا وهما موضعان ذكرهما جميعا كثير فقال

وأنت التى حببت شعبا الى بدا * الى وأوطانى بلاد سواهما

فالبدو على هذا القول معناه قصد هذا الموضع الذى يقال له بدا يقال بدا القوم يبدون بدوا اذا أتوا بدا كما يقال غار القوم غورا اذا أتوا الغور فكان معنى الآية وجاء بكم قصد بدا وعلى هذا القول كان يعقوب وولده حضريين لان البدو لم يرد به البادية ولكن عنى به قصد بدا الى ههنا كلام قاله الواحدى فى البسيط (المسئلة الثانية) تمسك أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد خلق الله تعالى لان خروج العبد من السجن اضافه الى نفسه بقوله اذ أخرجنى من السجن ومجيئهم من البدو أضافه الى نفسه سبحانه بقوله وجاء

بكم من البدو وهذا صريح فى أن فعل العبد بعينه فعل الله تعالى وحمل هذا على ان المراد ان ذلك انما حصل باقدار الله تعالى وتيسيره عدول عن الظاهر ثم قال من بعد أن نزغ الشيطان بينى و بين اخوتى وقال صاحب الكشاف نزغ أفسد بيننا وأغوى وأصله من نزغ الراكض الدابة وحملها على الجرى يقال نزغه ونسغه اذا نخسه واعلم أن الجبائى والكعبى والقاضى احتجوا بهذه الآية على بطلان الجبر قالوا لانه تعالى أخبر عن يوسف عليه السلام أنه أضاف الاحسان الى الله وأضاف النزغ الى الشيطان ولو كان ذلك أيضا من الرحمن لوجب أن لا ينسب الا اليه كما فى النعم (والجواب) ان اضافته هذا الفعل الى الشيطان مجاز لان عندكم الشيطان لا يمكن من الكلام الخفى وقد أخبر الله عنه فقال وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فثبت أن ظاهر القرآن يقتضى اضافة هذا الفعل الى الشيطان مع انه ليس كذلك وأيضا فان كان اقدام المرء على المعصية بسبب الشيطان فاقدام الشيطان على المعصية ان كان بسبب شيطان آخر لزم التسلسل وهو محال وان لم يكن بسبب شيطان آخر فليقل مثله فى حق الانسان فثبت ان اقدام المرء على الجهل والفسق ليس بسبب الشيطان وليس أيضا بسبب نفسه لان أحدا لا يميل طبعه الى اختيار الجهل والفسق الذى يوجب وقوعه فى ذم الدنيا وعقاب الآخرة ولما كان وقوعه فى الكفر والفسق لا بد له من موقع وقد بطل القسمان لم يبق الا أن يقال ذلك من الله تعالى ثم الذى يؤكد ذلك أن الآية المتقدمة على هذه الآية وهى قوله اذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو صريح فى أن الكل من الله تعالى ثم قال ان ربى لطيف لما يشاء والمعنى أن حصول الاجتماع بين يوسف و بين أبيه واخوته مع الالفة والمحبة وطيب العيش وفراغ البال كان فى غاية البعد عن العقول الا أنه تعالى لطيف فاذا أراد حصول شىء سهل أسبابه فحصل وان كان فى غاية البعد عن الحصول ثم قال انه هو العليم الحكيم أعنى ان كونه لطيفا فى أفعاله انما كان لاجل انه [illegible] الاعتبارات الممكنة التى لا نهاية لها فيكون عالما بالوجه الذى يسهل تحصيل [illegible] ذلك الصعب وحكيم اى محكم فى فعله حاكم فى قضائه حكيم فى أفعاله مبرأ عن العبث والباطل والله أعلم ✲ قوله تعالى (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) روى أن يوسف عليه السلام أخذ بيد يعقوب وطاف به فى خزائنه فادخله خزائن الذهب والفضة وخزائن الحلى وخزائن الثياب وخزائن السلاح فلما أدخله خزائن القراطيس قال يا بنى ما أغفلك عندك هذه القراطيس وما كتبت الى على ثمان مراحل قال نهانى جبريل عليه السلام عنه قال سله عن السبب قال أنت أبسط اليه فساله فقال جبريل عليه السلام أمرنى الله بذلك لقولك وأخاف أن يأكله الذئب فهلا خفتنى وروى أن يعقوب عليه السلام أقام معه أربعا وعشرين سنة ولما قربت وفاته أوصى اليه أن يدفنه

شرط المغفرة ويعضده أنه روى عنه انه استقبل القبلة قائما يدعو وقام يوسف خلفه يؤمن وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى بلغ جهدهم وظنوا انها الهلكة نزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال ان الله قد أجاب دعوتك فى ولدك وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة فان صح ثبتت نبوتهم وانما صدر عنهم انما صدر قبل الاستنباء وقيل المراد الاستمرار على الدعاء فقد روى أنه كان يستغفر كل ليلة جمعة فى نيف وعشرين سنة وقيل اقام الى الصلاة فى وقت السحر ف[illegible] رفع يديه فقال ال[illegible] اغفرلى جزعى على يوسف وقلة صبرى عنه واغفر لولدى ما أتوا الى أخيهم فاوحى الله اليه ان الله قد غفر لك ولهم أجمعين (فلما دخلوا على يوسف) روى أنه وجه يوسف الى ابيه جهازا ومائتى راحلة ليتجهز اليه بمن معه فاستقبله يوسف والملك فى أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم فتلقوا يعقوب عليه الصلاة والسلام وهو يمشى متوكئا على يهوذا فنظر الى الخيل والناس فقال يا يهوذا أهذا فرعون مصر قال لا بل ولدك فلما لقيه قال عليه الصلاة والسلام السلام عليك يا مذهب الاحزان وقيل قال له يوسف يا أبت بكيت على حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا فقال بلى ولكنى خشيت أن يسلب دينك فيحال بينى و بينك وقيل ان يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وكانوا حين خرجوا مع موسى ستمائة ألف وخمسمائة و بضعة وسبعين رجلا سوى الذرية والهرمى وكانت الذرية ألف ألف ومائتى ألف (آوى اليه أبويه) اى أباه وخالته وتنزيلها منزلة الام كتنزيل العم منزلة الاب

بالشام الى جنب أبيه اسحق فمضى بنفسه ودفنه ثم عاد الى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثا وعشرين سنة فعند ذلك تمنى ملك الآخرة فتمنى الموت وقيل ما تمناه نبي قبله ولا بعده فتوفاه الله طيبا طاهرا فتخاصم أهل مصر فى دفنه كل أحد يحب أن يدفن فى محلتهم حتى هموا بالقتال فرأوا أن الاصلح أن يعملوا له صندوقا من مرمر ويجعلوه فيه ويدفنوه فى النيل بمكان يمر الماء عليه ثم يصل الى مصر لتصل بركته الى كل أحد وولد له افرائيم وميشا وولد لافرائيم نون ولنون يوشع فتى موسى ثم دفن يوسف هناك الى أن بعث الله موسى فأخرج عظامه من مصر ودفنها عند قبر أبيه (المسئلة الثانية) من فى قوله من الملك ومن تأويل الاحاديث للتبعيض لانه لم يؤت الا بعض ملك الدنيا أو بعض ملك مصر وبعض التأويل قال الاصم انما قال من الملك لانه كان دون ملك فوقه واعلم أن مراتب الموجودات ثلاثة المؤثر الذى لا يتأثر وهو الاله تعالى وتقدس والمتأثر الذى لا يؤثر وهو عالم الاجسام فانها قابلة للتشكيل والتصوير والصفات المختلفة والاعراض المتضادة فلا يكون لها تأثير فى شئ أصلا وهذان القسمان متباعدان جدا ويتوسطهما قسم ثالث وهو الذى يؤثر ويتأثر وهو عالم الارواح فخاصية جوهر الارواح أنها تقبل الاثر والتصرف عن عالم نور جلال الله ثم انها اذا أقبلت على عالم الاجسام تصرفت فيه وأثرت فيه فتعلق الروح بعالم الاجسام بالتصرف والتدبير فيه وتعلقه بعالم الالهيات بالعلم والمعرفة وقوله قد آتيتنى من الملك اشارة الى تعلق النفس بعالم الاجسام وقوله وعلمتنى من تأويل الاحاديث اشارة الى تعلقها بحضرة جلال الله ولما كان لا نهاية لدرجات هذين النوعين فى الكمال والنقصان والقوة والضعف والجلاء والخفاء امتنع أن يحصل منهما للانسان الا مقدار متناه فكان الحاصل فى الحقيقة بعضا من أبعاض الملك وبعضا من ابعاض العلم فلهذا السبب ذكر فيه كلمة من لانها دالة على التبعيض ثم قال فاطر السموات والارض وفيه أبحاث (البحث الاول) فى تفسير لفظ الفاطر بحسب اللغة قال ابن عباس رضى الله عنهما ما كنت أدرى معنى الفاطر حتى احتكم الى اعرابيان فى بئر فقال أحدهما أنا فطرتها وأنا ابتدأت حفرها قال أهل اللغة أصل الفطر فى اللغة الشق يقال فطر ناب البعير اذا بدا وفطرت الشئ فانفطر أى شققته فانشق وتفطر الارض بالنبات والشجر بالورق اذا تصدعت هذا أصله فى اللغة ثم صار عبارة عن الايجاد لان ذلك الشئ حال عدمه كأنه فى ظلمة وخفاء فلما دخل فى الوجود صار كأنه انشق عن العدم وخرج ذلك الشئ منه (البحث الثانى) أن لفظ الفاطر قد يظن أنه عبارة عن تكوين الشئ عن العدم المحض بدليل الاشتقاق الذى ذكرناه الا أن الحق أنه لا يدل عليه ويدل عليه وجوه (أحدها) أنه قال الحمد لله فاطر السموات والارض ثم بين تعالى أنه انما خلقها من الدخان حيث قال ثم استوى الى السماء وهى دخان فدل على ان لفظ الفاطر لا يفيد انه أحدث ذلك الشئ من العدم المحض (وثانيها) انه تعالى قال فطرة

فى قوله عز وجل واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق أو لان يعقوب عليه الصلاة والسلام تزوجها بعد أمه وقال الحسن وابن اسحق كانت أمه فى الحياة فلا حاجة الى التأويل ومعنى آوى اليه ضمهما اليه واعتنقهما وكأنه عليه الصلاه والسلام ضرب فى الملتقى مضربا فنزل به فدخلوا عليه فآواهما اليه (وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين) من الشدائد والمكاره قاطبة والمشيئة متعلقة بالدخول على الامن (ورفع أبويه) عند نزولهم بمصر (على العرش) على السرير تكرمة لهما فوق ما فعله لاخوته (وخروا له) أى أبواه واخوته (سجدا) تحية له فانه كان السجود عندهم جاريا مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها من عادات الناس الفاشية فى التعظيم والتوقير وقيل ما كان ذلك الا انحناء دون تعفير الجباه ويأباه الخرور وقيل خروا لاجله سجدا لله شكرا ويرده قوله تعالى (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى) التى رأيتها وقصصتها عليك (من قبل) فى زمن الصبا (قد جعلها ربى حقا) صدقا واقعا بعينه والاعتذار بجعل يوسف بمنزلة القبلة وجعل اللام كما فى قوله *أليس أول من صلى لقبلتكم* تعسف لا يخفى وتأخيره عن الرفع على العرش ليس بنص فى ذلك لان الترتيب الذكرى لا يجب كونه على وفق الترتيب الوقوعى فلعل تأخيره عنه ليصل به ذكر كونه تعبيرا لرؤياه وما يتصل به من قوله

الله التي فطر الناس عليها مع انه تعالى انما خلق الناس من التراب قال تعالى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى (وثالثها) أن الشيء انما يكون حاصلا عند حصول مادته وصورته مثل الكوز فانه انما يكون موجودا اذا صارت المادة المخصوصة موصوفة بالصفة المخصوصة فعند عدم الصورة ما كان ذلك المجموع موجودا وبايجاد تلك الصورة صار موجدا لذلك الكوز فعلمنا ان كونه موجدا للكوز لا يقتضي كونه موجد المادة الكوز فثبت ان لفظ الفاطر لا يفيد كونه تعالى موجدا للاجزاء التي منها تركبت السموات والارض وانما صار الينا كونه تعالى موجدا لها بحسب الدلائل العقلية لا بحسب لفظ القرآن واعلم أن قوله فاطر السموات والارض يوهم أن تخليق السموات مقدم على تخليق الارض عند من يقول الواو تفيد الترتيب ثم العقل يؤكده أيضا وذلك لان تعين المحيط يوجب تعين المركز أما حصول المركز وتعينه فانه لا يوجب تعين المحيط لانه يمكن أن يحيط بالمركز الواحد محيطات لا نهاية لها اما لا يمكن أن يحصل للمحيط الواحد الا مركز واحد بعينه وأيضا اللفظ يفيدان السموات كثيرة والارض واحدة ووجه الحكمة فيه قد ذكرناه في قوله الحمد لله الذي خلق السموات والارض (البحث الثالث) قال الزجاج نصبه من وجهين (أحدهما) على الصفة لقوله رب وهو نداء مضاف في موضع النصب (والثاني) يجوز أن ينصب على نداء ثان ثم قال أنت وليي في الدنيا والآخرة والمعنى أنت الذي تتولى اصلاح جميع مهماتي في الدنيا والآخرة فوصل الملك الفاني بالملك الباقي وهذا يدل على ان الايمان والطاعة كله من الله تعالى اذ لو كان ذلك من العبد لكان المتولي لمصالحه هو هو وحينئذ يبطل عموم قوله أنت وليي في الدنيا والآخرة ثم قال توفني مسلما وألحقني بالصالحين وفيه مسائل (المسألة الاولى) اعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام حكى عن جبريل عليه السلام عن رب العزة أنه قال من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين فلهذا المعنى من أراد الدعاء فلا بد وأن يقدم عليه ذكر الثناء على الله فههنا يوسف عليه السلام لما أراد أن يذكر الدعاء قدم عليه الثناء وهو قوله رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض ثم ذكر عقيبه الدعاء وهو قوله توفني مسلما وألحقني بالصالحين ونظيره ما فعله الخليل صلوات الله عليه في قوله الذي خلقني فهو يهدين من ههنا الى قوله رب هب لي حكما ثناء على الله ثم قوله رب هب لي الى آخر الكلام دعاء فكذا ههنا (المسألة الثانية) اختلفوا في ان قوله توفني مسلما هل هو طلب منه للوفاة أم لا فقال قتادة سأل ربه اللحوق به ولم يتمن نبي قط الموت قبله وكثير من المفسرين على هذا القول وقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء يريد اذا توفيتني فتوفني على دين الاسلام فهذا طلب لان يجعل الله وفاته على الاسلام وليس فيه ما يدل على انه طلب الوفاة واعلم ان اللفظ صالح للامرين ولا يبعد في الرجل العاقل اذا كمل عقله أن يتمنى الموت ويعظم رغبته فيه لوجوه كثيرة منها ان كمال النفس الانسانية

ط المغفرة ويعد مشهورا استعمال الاحسان بالى وقد يستعمل بالباء أيضا كما في قوله عز اسمه وبالوالدين احسانا وقيل هذا عشرين سنة حسو الاحسان الخفي كما يؤذن به قوله تعالى ان ربي لطيف لما يشاء وفيه فائدة لا تخفى أي والدك وعقده الى غير هذا الاسم ان (اذ أخرجني من السجن) بعدما ابتليت به ولم يصرح بقصة الجب حذارا من تثريب اخوته لان الظاهر حضورهم لوقوع الكلام عقيب خرورهم سجدا واكتفاء بما يتضمنه قوله تعالى (وجاء بكم من البدو) أي البادية (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي) أي أفسد بيننا بالاغواء وأصله من نخس الرائض الدابة وحملها على الجري يقال نزغه ونسغه اذا نخسه ولقد بالغ عليه الصلاة والسلام في الاحسان حيث أسند ذلك الى الشيطان (ان ربي لطيف لما يشاء) أي لطيف التدبير لاجله رفيق حتى يجيء على وجه الحكمة والصواب ما من صعب الا وهو بالنسبة الى تدبيره سهل (انه هو العليم) بوجوه المصالح (الحكيم) الذي يفعل كل شيء على قضية الحكمة روى أن يوسف أخذ بيد يعقوب عليهما الصلاة والسلام فطاف به في خزائنه فأدخله في خزائن الورق والذهب وخزائن الحلي وخزائن الثياب وخزائن السلاح وغير ذلك فلما أدخله خزائن القراطيس قال يا بني ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت الى على ثماني مراحل قال أمرني جبريل قال أوما تسأله

الانسانية على مابيناه فى أن يكون عالما بالالهيات وفى أن يكون ملكا ومالكا متصرفا فى الجسمانيات وذكرنا ان مراتب التفاوت فى هذين النوعين غير متناهية والكمال المطلق فيهما ليس الا لله وكل مادون ذلك فهو ناقص والناقص اذا حصل له شعور بنقصانه وذاق لذة الكمال المطلق بقى فى القلق والم الطلب واذا كان الكمال المطلق ليس الا لله وماكان حصوله للانسان ممتنعا لزم أن يبقى الانسان أبدا فى قلق الطلب وألم التعب فاذا عرف الانسان هذه الحالة عرف أنه لاسبيل له الى دفع هذا التعب عن النفس الا بالموت فحينئذ يتمنى الموت (والسبب الثانى) لتمنى الموت ان الخطباء والبلغاء وان أطنبوا فى مذمة الدنيا الا ان حاصل كلامهم يرجع الى أمور ثلاثة (أحدها) ان هذه السعادات سريعة الزوال مشرفة على الفناء والالم الحاصل عند زوالها اشد من اللذة الحاصلة عند وجدانها (وثانيها) انها غير خالصة بل هى ممزوجة بالمنغصات والمكدرات (وثالثها) ان الاراذل من الخلق يشاركون الافاضل فيها بل ربما كان حصة الاراذل أعظم بكثير من حصة الافاضل فهذه الجهات الثلاثة منفرة عن هذه اللذات ولما عرف العاقل أنه لاسبيل الى تحصيل هذه اللذات الا مع هذه الجهات الثلاثة المنفرة لاجرم يتمنى الموت ليتخلص عن هذه الآفات (والسبب الثالث) وهو الاقوى عند المحققين رحمهم الله أجمعين ان هذه اللذات الجسمانيـة لاحقيقة لها وانما حاصلها دفع الآلام فلذة الاكل عبارة عن دفع ألم الجوع ولذة الوقاع عبارة عن دفع الالم الحاصل بسبب الدغدغة المتولدة من حصول المنى فى أوعية المنى ولذة الامارة والرياسة عبارة عن دفع الالم الحاصل بسبب شهوة الانتقام وطلب الرياسة واذا كان حاصل هذه اللذات ليس الا دفع الالم لاجرم صارت عند العقلاء حقيرة خسيسة نازلة ناقصة وحينئذ يتمنى الانسان الموت ليتخلص عن الاحتياج الى هذه الاحوال الخسيسة (والسبب الرابع) ان مداخل اللذات الدنيوية قليلة وهى ثلاثة أنواع لذة الاكل ولذة الوقاع ولذة الرياسة ولكل واحدة منها عيوب كثيرة أما لذة الاكل ففيها عيوب (أحدها) ان هذه اللذات ليست قوية فان الشعور بألم القولنج الشديد والعياذ بالله منه أشد من الشعور باللذة الحاصلة عند أكل الطعام (وثانيها) ان هـذه اللذة لايمكن بقاؤها فان الانسان اذا أكل شبع واذا شبع لم يبق شوقه للالتذاذ بالاكل فهذه اللذة ضعيفة ومع ضعفها غير باقية (وثالثها) انها فى نفسها خسيسة فان الاكل عبارة عن ترطيب ذلك الطعام بالبزاق المجتمع فى الفم ولاشك أنه شئ منفر مستقذر ثم لما يصل الى المعدة تظهر فيه الاستحالة الى الفساد والنتن والعفونة وذلك أيضا منفر (ورابعها) ان جميع الحيوانات الخسيسة مشاركة فيها فان الروث فى مذاق الجعل كاللوزنيج فى مذاق الانسان وكما ان الانسـان يكره تناول غذاء الجعل فكذلك الجعـل يكره تناول غـذاء الانسان وأما اللذة فمشتركة فيما بين الناس (وخامسها) ان الاكل انما يطيب عند اشتداد الجوع وتلك حاجة شديدة والحاجة نقص وافر (وسادسها) ان الاكل يستحقر عند

قال أنت ابسط اليد منى فسأله فقال جبريل الله تعالى أمرنى بذلك لقولك أخاف أن ياكله الذئب قال فهلا خفتنى وروى أن يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام معه أربعا وعشرين سنة ثم مات وأوصى أن يدفنه بالشام الى جنب أبيه اسحق فمضى بنفسه ودفنه ثمة ثم عاد الى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثا وعشرين سـنة فلما تم أمره وعلم أنه لايدوم له تاقت نفسه الى الملك الدائم الخالد فتمنى الموت فقال (رب قد آتيتنى من الملك) أى بعضا منه عظيما وهو ملك مصر (وعلمتنى من تأويل الاحاديث) أى بعضا من ذلك كذلك ان أريد بتعليم تأويل الاحاديث تفهيم غوامض أسرار الكتب الالهية ودقائق سنن الانبيـاء عليهم الصلاة والسلام فالترتيب ظاهر وأما ان أريد به تعليم تعبير الرؤيا كما هو الظاهر فلعل تقديم ايتاء الملك عليه فى الذكر لانه بمقام تعداد النعم الفائضة عليه من الله سبحانه والملك أعرق فى كونه نعمة من التعليم المذكور وان كان ذلك أيضا نعمة جليلة فى نفسه ولا يمكن تمشية هـذا الاعتذار فيما سبق لان التعليم هناك وارد على نهج العلة الغائية للتمكين فان حمل على معنى التمليك لزم تأخره عنه وأما الواقع ههنا فمجرد التأخير فى الذكر والعطف بحرف الواو ولايستدعى ذلك الترتيب فى الوجود (فاطر السموات والارض) مبدعهما وخالقهما نصب على أنه صفة للمنادى أو منادى آخر وصفه تعالى به بعد وصفه بالربوبية مبالغة فى ترتيب مبادى مايعقبه من قوله (أنت وليى) مالك أمورى

العقلاء قيل من كانت همته مايدخل فى بطنه فقيمته مايخرج من بطنه فهذا هو الاشارة المختصرة فى معايب الاكل وأمالذة النكاح فكل ماذكرناه فى الاكل حاصل ههنا مع أشياء أخرى وهى ان النكاح سبب لحصول الولد وحينئذ تكثر الاشخاص فتكثر الحاجة الى المال فيحتاج الانسان بسببها الى الاحتيال فى طلب المال بطرق لانهاية لها وربما صار هالكا بسبب طلب المال وأمالذة الرياسة فعيوبها كثيرة والذى نذكره ههنا سبب واحد وهو ان كل أحد يكره بالطبع أن يكون خادما مأمورا ويحب أن يكون مخدوما آمرا فاذا سعى الانسان فى أن يصير رئيسا آمرا كان ذلك دالا على مخالفة كل ماسواه فكأنه ينازع كل الخلق فى ذلك وهو يحاول تحصيل تلك الرياسة وجميع أهل الشرق والغرب يحاولون ابطاله ودفعه ولاشك ان كثرة الاسباب توجب قوة حصول الاثر واذا كان كذلك كان حصول هذه الرياسة كالمتعذر ولو حصل فانه يكون على شرف الزوال فى كل حين وأوان بكل سبب من الاسباب وكان صاحبها عند حصولها فى الخوف الشديد من الزوال وعند زوالها فى الاسف العظيم والحزن الشديد بسبب ذلك الزوال واعلم ان العاقل اذا تأمل هذه المعانى علم قطعا انه لاصلاح له فى طلب هذه اللذات والسعى فى هذه الخيرات البتة ثم ان النفس خلقت مجبولة على طلبها والعشق الشديد عليها والرغبة التامة فى الوصول اليها وحينئذ ينعقد ههنا قياس وهو ان الانسان مادام يكون فى هذه الحياة الجسمانية فانه يكون طالبا لهذه اللذات ومادام يطلبها كان فى عين الآفات وفى لجة الحسرات وهذا اللازم مكروه فالملزوم أيضا مكروه فحينئذ يتمنى زوال هذه الحياة الجسمانية والسبب فى الامور المرغبة فى الموت ان موجبات هذه اللذة الجسمانية متكررة ولايمكن الزيادة عليها والتكرير يوجب الملالة اما سعادات الآخرة فهى أنواع كثيرة غير متناهية (قال الامام فخر الدين الرازى رحمة الله عليه) وهو مصنف هذا الكتاب أنار الله برهانه انا صاحب هذه الحالة والمتوغل فيها ولو فتحت الباب وبالغت فى عيوب هذه اللذات الجسمانية فربما كتبت المجلدات وماوصلت الى القليل منها فلهذا السبب صرت مواظبا فى أكثر الاوقات على ذكر هذا الذى ذكره يوسف عليه السلام وهو قوله رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض أنت ولي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين (المسئلة الثالثة) تمسك أصحابنا فى بيان ان الايمان من الله تعالى بقوله توفنى مسلما وتقريره ان تحصيل الاسلام وابقاءه اذا كان من العبد كان طلبه من الله فاسدا وتقريره كأنه يقول افعل يامن لايفعل والمعتزلة أبدا يشنعون علينا ويقولون اذا كان الفعل من الله فكيف يجوز أن يقال للعبد افعل مع انك لست فاعلا له فنحن نقول ههنا أيضا اذا كان تحصيل الايمان وابقاؤه من العبد لا من الله تعالى فكيف يطلب ذلك من الله قال الجبائى والكعبى معناه اطلب اللطف لى فى الاقامة على الاسلام الى أن اموت عليه فهذا الجواب ضعيف لان السؤال وقع على

﴿ الاسلام ﴾

(فى الدنيا والآخرة) أو الذى يتولانى بالنعمة فيهما واذا قد أتممت على نعمة الدنيا (توفنى) اقبضنى (مسلما وألحقنى بالصالحين) من آبائى أو بعامة الصالحين فى الرتبة والكرامة فأتمم تلك النعمة بذلك قيل لما دعا توفاه الله عز وجل طيبا طاهرا فتخاصم أهل مصر فى دفنه وتشاحوا فى ذلك حتى هموا بالقتال فرأوا أن يصنعوا له تابوتا من مرمر فجعلوه فيه ودفنوه فى النيل ليمر عليه ثم يصل الى مصر ليكونوا شرعا واحدا فى التبرك به وولد له افرايم وميشا ولافرايم نون ولنون يوشع فتى موسى عليه الصلاة والسلام ولقد توارثت الفراعنة من العمالقة بعده مصر ولم يزل بنو اسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه الى أن بعث الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام (ذلك) اشارة الى ماسبق من نبأ يوسف ومافيه من معنى البعد لما مر مرارا من الدلالة على بعد منزلته او كونه بالانقضاء فى حكم البعيد والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ خبره (من أنباء الغيب) الذى لايحوم حوله أحد وقوله (نوحيه اليك) خبر بعد خبر أو حال من الضمير فى الخبر ويجوز أن يكون ذلك اسما موصولا ومن أنباء الغيب صلته ويكون الخبر نوحيه اليك (وماكنت لديهم) أى لدى اخوة يوسف عليه الصلاة والسلام (اذ أجمعوا أمرهم) وهو جعلهم اياه فى غيابة الجب (وهم يمكرون) به ويبغون له الغوائل حتى تقف على ظواهر أسرارهم

الاسلام فحمله على اللطف عدول عن الظاهر وأيضا كل ما فى المقدور من الالطاف فقد فعله فكان طلبه من الله محالا (المسئلة الرابعة) لقائل أن يقول الانبياء عليهم السلام يعلمون انهم يموتون لامحالة على الاسلام فكان هذا الدعاء حاصله طلب تحصيل الحاصل وانه لايجوز (والجواب) أحسن ما قيل فيه ان كمال حال المسلم أن يستسلم لحكم الله تعالى على وجه يستقر قلبه على ذلك الاستسلام ويرضى بقضاء الله وقدره ويكون مطمئن النفس منشرح الصدر منفسح القلب فى هذا الباب وهذه الحالة زائدة على الاسلام الذى هو ضد الكفر فالمطلوب ههنا هو الاسلام بهذا المعنى (المسئلة الخامسة) ان يوسف عليه السلام كان من اكابر الانبياء عليهم السلام والصلاح أول درجات المؤمنين فالواصل الى الغاية كيف يليق به أن يطلب البداية قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره من المفسرين يعنى بآبائه ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والمعنى ألحقنى بهم فى ثوابهم ومراتبهم ودرجاتهم وههنا مقام آخر من تفسير هذه الآية على لسان أصحاب المكاشفات وهو أن النفوس المفارقة اذا أشرقت بالانوار الالهية واللوامع القدسية فاذا كانت متناسبة متشاكلة انعكس النور الذى فى كل واحدة منها الى الاخرى بسبب تلك الملازمة والمجانسة فتعظم تلك الانوار وتقوى تلك الاضواء ومثال تلك الاحوال المرآة الصقيلة الصافية اذا وضعت وضعا متى أشرقت الشمس عليها انعكس الضوء من كل واحدة منها الى الاخرى فهناك يقوى الضوء ويكمل النور وينتهى فى الاشراق والبريق واللمعان الى حد لاتطيقه العيون والابصار الضعيفة فكذا ههنا * قوله تعالى (ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) اعلم ان قوله ذلك رفع بالابتداء وخبره من أنباء الغيب ونوحيه اليك خبر ثان وما كنت لديهم أى ما كنت عند اخوة يوسف اذ أجمعوا أمرهم أى عزموا على أمرهم وذكرنا الكلام فى هذا اللفظ عند قوله فاجمعوا أمركم وقوله وهم يمكرون أى بيوسف واعلم ان المقصد من هذا اخبار عن الغيب فيكون معجزا بيان انه اخبار عن الغيب ان محمدا صلى الله عليه وسلم ماطالع الكتب ولم يتلمذ لاحد وما كانت البلدة بلدة العلماء فاتيانه بهذه القصة الطويلة على وجه لم يقع فيه تحريف ولاغلط من غير مطالعة ولاتعلم ومن غير أن يقال انه كان حاضرا معهم لابد وأن يكون معجزا وكيف لايكون معجزا وقد سبق تقرير هذه المقدمة فى هذا الكتاب مرارا وقوله وما كنت لديهم أى وما كنت هناك ذكر على سبيل التهكم بهم لان كل أحد يعلم ان محمدا صلى الله عليه وسلم ما كان معهم * قوله تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وما تسألهم عليه من أجر ان هو الا ذكر للعالمين وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لايشعرون) اعلم ان وجه اتصال هذه الآية بما قبلها ان كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا هذه القصة

و بواطنها وتطلع على سرائرهم طرا وتحيط بما لديهم خبرا وليس المراد مجرد نفى حضوره عليه الصلاة والسلام فى مشهد اجماعهم ومكرهم فقط بل فى سائر المشاهد أيضا وانما تخصيصه بالذكر لكونه مطلع القصة وأخفى احوالها كما ينبئ عنه قوله وهم يمكرون والخطاب وان كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم لكن المراد الزام المكذبين والمعنى ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك اذ لا سبيل الى معرفتك اياه سوى ذلك اذ عدم سماعك ذلك من الغير وعدم مطالعتك للكتب أمر لايشك فيه المكذبون أيضا ولم تكن بين ظهرانيهم عند وقوع الامر حتى تعرفه كما هو فتبلغه اليهم وفيه تهكم بالكفار فكأنهم يشكون فى ذلك فيدفع شكهم وفيه أيضا ايذان بأن ما ذكر من النبأ هو الحق المطابق للواقع وما ينقله أهل الكتاب ليس على ما هو عليه يعنى أن مثل هذا التحقيق بلا وحى لا يتصور الا بالحضور والمشاهدة واذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحى ومثله قوله تعالى وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وقوله وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الامر (وما أكثر الناس) يريد به العموم أو أهل مكة (ولو حرصت) أى على ايمانهم وبالغت فى اظهار الآيات القاطعة الدالة على صدقك (بمؤمنين) لتصميمهم على الكفر واصرارهم على العناد روى ان اليهود وقريشا لما سألوا عن قصة يوسف وعدوا أن يسلموا فلما أخبرهم بها على موافقة التوراة فلم يسلموا حزن النبى

صلى الله عليه وسلم فقيل له ذلك (وما تسألهم عليه) أى على الانباء أو على القرآن (من اجر) من جعل كما تفعله جملة الاخبار (ان هو الا ذكر) عظة من الله تعالى (للعالمين) كافة لا أن ذلك مختص بهم (وكأين من آية) أى كأى عدد شئت من الآيات والعلامات الدالة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته وحكمته غير هذه الآية التى جئت بها (فى السموات والارض) أى كائنة فيهما من الاجرام الفلكية وما فيها من النجوم وتغير أحوالها ومن الجبال والبحار وسائر ما فى الارض من العجائب الفائتة للحصر (يمرون عليها) أى يشاهدونها ولا يعبؤن بها وقرئ برفع الارض على الابتداء ويمرون خبره وقرئ بنصبها على معنى ويطؤن الارض يمرون عليها وفى مصحف عبد الله والارض يمشون عليها والمراد ما يرون فيها من آثار الامم الهالكة وغير ذلك من الآيات والعبر (وهم عنها معرضون) غير ناظرين اليها ولا متفكرين فيها (وما يؤمن أكثرهم بالله) فى اقرارهم بوجوده وخالقيته (الا وهم مشركون) بعبادتهم لغيره أو باتخاذهم الاحبار والرهبان اربابا أو بقولهم باتخاذه تعالى ولدا سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا أو بالنور والظلمة وهى جملة حالية أى لا يؤمن أكثرهم الا فى حال شركهم قيل نزلت الآية فى أهل مكة وقيل فى المنافقين وقيل فى أهل الكتاب (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله) أى عقوبة

من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التعنت واعتقد رسول الله صلى الله عليه وسلم انه اذا ذكرها فربما آمنوا فلما ذكرها أصروا على كفرهم فنزلت هذه الآية وكأنه اشارة الى ما ذكره الله تعالى فى قوله انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء قال أبو بكر بن الانبارى جواب لو محذوف لان جواب لو لا يكون مقدما عليها فلا يجوز أن يقال قمت لو قمت وقال الفراء فى المصادر يقال حرص يحرص حرصا ولغة أخرى شاذة حرص يحرص حريصا ومعنى الحرص طلب الشئ بأقصى ما يمكن من الاجتهاد وقوله وما تسألهم عليه من أجر معناه ظاهر وقوله ان هو الا ذكر للعالمين أى هو تذكرة لهم فى دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد والقصص والتكاليف والعبادات ومعناه أن هذا القرآن يشتمل على هذه المنافع العظيمة ثم لا تطلب منهم مالا ولا جعلا فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم يتمردوا وقوله تعالى وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون يعنى انه لا عجب اذا لم يتأملوا فى الدلائل الدالة على نبوتك فان العالم مملوء من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ثم انهم يمرون عليها ولا يلتفتون اليها واعلم ان دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة لابد وأن تكون من أمور محسوسة وهى اما الاجرام الفلكية واما الاجرام العنصرية اما الاجرام الفلكية فهى قسمان اما الافلاك واما الكواكب اما الافلاك فقد يستدل بمقاديرها المعينة على وجود الصانع وقد يستدل بكون بعضها فوق البعض أو تحته وقد يستدل بأحوال حركاتها اما بسبب ان حركاتها مسبوقة بالعدم فلا بد من محرك قادر واما بسبب كيفية حركاتها فى سرعتها وبطئها واما بسبب اختلاف جهات تلك الحركات واما الاجرام الكوكبية فتارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها واحيازها وحركاتها وتارة بالوانها واضوائها وتارة بتأثيراتها فى حصول الاضواء والاظلال والظلمات والنور وأما الدلائل المأخوذة من الاجرام العنصرية فاما ان تكون مأخوذة من بسائط وهى عجائب البر والبحر واما من المواليد وهى أقسام (أحدها) الآثار العلوية كالرعد والبرق والسحاب والمطر والثلج والهواء وقوس قزح (وثانيها) المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكيفياتها (وثالثها) النبات وخاصية الخشب والورق والثمر واختصاص كل واحد منها بطبع خاص وطعم خاص وخاصية مخصوصة (ورابعها) اختلاف أحوال الحيوانات فى اشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقتها (وخامسها) تشريح أبدان الناس وتشريح القوى الانسانية وبيان المنفعة الحاصلة فيها فهذه مجامع الدلائل ومن هذا الباب أيضا قصص الاولين وحكايات الاقدمين وان الملوك الذين استولوا على الارض وخربوا البلاد وقهروا العباد ماتوا ولم يبق منهم فى الدنيا خبر ولا أثر ثم بقى الوزر والعقاب عليهم هذا ضبط أنواع هذه الدلائل والكتاب المحتوى على شرح هذه الدلائل هو شرح جملة العالم الاعلى والعالم الاسفل والعقل البشرى لا يفى بالاحاطة به فلهذا السبب ذكره الله تعالى على سبيل الابهام قال صاحب الكشاف قرئ

والارض بالرفع على انه مبتدا و يمرون عليها خبره وقرأ السدى والارض بالنصب على تقدير أن يفسر قوله يمرون عليها بقولنا يطوفونها وفى مصحف عبدالله والارض يمشون عليها برفع الارض اما قوله وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون فالمعنى انهم كانوا مقرين بوجود الاله بدليل قوله ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله الا انهم كانوا يثبتون له شريكا فى المعبودية وعن ابن عباس رضى الله عنهما هم الذين يشبهون الله بخلقها وعنه أيضا انه قال نزلت هذه الآية فى تلبية مشركى العرب لانهم كانوا يقولون لبيك لاشريك لك الاشريك هو لك تملكه وماملك وعنه أيضا ان اهل مكة قالوا الله ربنا وحده لاشريك له والملائكة بناته فلم يوحدوا بل أشركوا وقال عبدة الاصنام ربنا الله وحده والاصنام شفعاؤنا عنده وقالت اليهود ربنا الله وحده وعزير ابن الله وقالت النصارى ربنا الله وحده لاشريك له والمسيح ابن الله وقال عبدة الشمس والقمر ربنا الله وحده وهؤلاء أربابنا وقال المهاجرون والانصار ربنا الله وحده ولاشريك معه واحتجت الكرامية بهذه الآية على ان الايمان عبارة عن الاقرار باللسان فقط لانه تعالى حكم بكونهم مؤمنين مع انهم مشركون وذلك يدل على ان الايمان عبارة عن مجرد الاقرار باللسان وجوابه معلوم اما قوله أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أى عقوبة تغشاهم وتنبسط عليهم وتغمرهم أو تأتيهم الساعة بغتة أى فجأة و بغتة نصب على الحال يقال بغتهم الامر بغتا و بغتة اذا فاجأهم من حيث لم يتوقعوا وقوله وهم لايشعرون كالتأكيد لقوله بغتة ❊ قوله تعالى (قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين) قال المفسرون قل يا محمد لهم هذه الدعوة التى أدعو اليها والطريقة التى أنا عليها سبيلى وسنتى ومنهاجى وسمى الدين سبيلا لانه الطريق الذى يؤدى الى الثواب ومثله قوله تعالى ادع الى سبيل ربك واعلم ان السبيل فى أصل اللغة الطريق وشبهوا المعتقدات بها لما ان الانسان يمر عليها الى الجنة ادعو الى الله على بصيرة وحجة و برهان أنا ومن اتبعنى الى سيرتى وطريقتى وسيرة أتباعى الدعوة الى الله لان كل من ذكر الحجة وأجاب عن الشبهة فقد دعا بمقدار وسعه الى الله وهذا يدل على ان الدعاء الى الله تعالى انما يحسن و يجوز مع هذا الشرط وهو أن يكون على بصيرة مما يقول وعلى هدى و يقين فان لم يكن كذلك فهو محض الغرور وقال عليه الصلاة والسلام العلماء أمناء الرسل على عباد الله من حيث يحفظون لما يدعونهم اليه وقيل أيضا يجوز أن ينقطع الكلام عند قوله ادعو الى الله ثم ابتدأ وقال على بصيرة أنا ومن اتبعنى وقوله وسبحان الله عطف على قوله هذه سبيلى اى قل هذه سبيلى وقل سبحان الله تنزيها لله عما يشركون وما أنا من المشركين الذين اتخذوا مع الله ضدا وندا وكفوا وولدا وهذه الآية تدل على ان حرفة الكلام وعلم الاصول حرفة الانبياء عليهم السلام وان الله ما بعثهم الى الخلق الا لاجلها ❊ قوله تعالى (وما ارسلنا من قبلك الارجالا نوحى اليهم من أهل القرى أفلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار

تغشاهم وتشملهم (أو تأتيهم الساعة بغتة) فجاة من غير سابقة علامة (وهم لايشعرون) باتيانها غير مستعدين لها (قل هذه سبيلى) وهى الدعوة الى التوحيد والايمان بالاخلاص وفسرها بقوله (أدعو الى الله على بصيرة) بيان وحجة واضحة غير عمياء أوهى حال من الضمير فى سبيلى والعامل فيها معنى الاشارة (أنا) تأكيد للمستكن فى أدعو وعلى بصيرة لانه حال منه أومبتدأ خبره على بصيرة (ومن اتبعنى) عطف عليه (سبحان الله وما أنا من المشركين) مؤكد لما سبق من الدعوة الى الله (وما أرسلنا من قبلك الارجالا) رد لقولهم لوشاء الله لانزل ملائكة (نوحى اليهم) كما أوحينا اليك وقرئ بالياء (من أهل القرى) لانهم أعلم وأحلم وأهل البوادى فيهم الجهل والجفاء والقسوة (أفلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من المكذبين بالرسل والآيات فيحذروا تكذيبك (ولدار الآخرة) أى الساعة أو الحياة الآخرة (خير للذين اتقوا) الشرك والمعاصى (أفلا تعقلون) فتستعملوا عقولكم لتعرفوا خيرية دار الآخرة وقرئ بالياء على انه غير داخل تحت قل (حتى اذا استيأس الرسل) غاية لمحذوف دل عليه السياق أى لايغرنهم تماديهم فيما هم فيه من الدعة والرخاء فان من قبلهم قد أمهلوا حتى ايس الرسل عن النصر عليهم فى الدنيا أو عن ايمانهم لانهماكهم فى الكفر وتماديهم فى الطغيان

صلى الله عليه و
حلة الاخبار (وظنوا انهم قد كذبوا) كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بانهم ينصرون عليهم أو كذبهم رجاؤهم
ت بالصدق والكذب والمعنى ان مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر
من آية) أ
ـه تعالى قد تطاولت
شـ
ر تمادت حتى استشعروا
القنوط وتوهموا
أن لا نصر لهم فى الدنيا
(جاءهم نصرنا) فجأة
وعن ابن عباس رضى الله
تعالى عنهما وظنوا انهم
قد أخلفوا ما وعدهم الله
من النصر فان صح ذلك
عنه فلعله أراد بالظن
ما يخطر بالبال من شبه
الوسوسة وحديث النفس
وانما عبر عنه بالظن
تهويلا للخطب وأما الظن
الذى هو ترجح أحد
الجانبين على الآخر
فلا يتصور ذلك من آحاد
الامة فما ظنك بالانبياء
عليهم الصلاة والسلام
وهم هم ومنزلتهم فى معرفة
شؤن الله سبحانه منزلتهم
وقيل الضميران للرسل
اليهم وقيل الاول لهم
والثانى للرسل وقرئ
بالتشديد أى ظن الرسل
أن القوم كذبوهم
فيما وعدوهم وقرئ
بالتخفيف على بناء الفاعل
على أن الضمير للرسل
أى ظنوا أنهم كذبوا عند
قومهم فيما حدثوا به
لما تراخى عنهم ولم يروا له
أثرا أو على أن الاول لقومهم (فنجى من نشاء) هم الرسل والمؤمنون بهم وقرى فننجى على لفظ ﴿ من ﴾
المستقبل بالتخفيف والتشديد وقرئ فنجا (ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) اذا نزل بهم وفيه بيان لمن تعلق بهم
المشيئة (لقد كان فى قصصهم) أى قصص

الآخرة خير الذين اتقوا أفلا تعقلون) اعلم انه قرأ حفص عن عاصم نوحى بالنون والباقون بالياء أفلا يعقلون قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ورواية حفص عن عاصم تعقلون بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغائب واعلم ان من جملة شبه منكرى نبوته عليه الصلاة والسلام ان الله لو أراد ارسال رسول لبعث ملكا فقال تعالى وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم من أهل القرى فلما كان الكل هكذا فكيف تعجبوا فى حقك يا محمد والآية تدل على أن الله ما بعث رسولا الى الخلق من النسوان وأيضا لم يبعث رسولا من أهل البادية قال عليه الصلاة والسلام من بدا جفا ومن اتبع الصيد غفل ثم قال أفلم يسيروا فى الارض فينظروا الى مصارع الامم المكذبة وقوله ولدار الآخرة خير والمعنى دار الحالة الآخرة لان للناس حالتين حال الدنيا وحال الآخرة ومثله قوله صلاة الاولى أى صلاة الفريضة الاولى وأما بيان ان الآخرة خير من الاولى فقد ذكرنا دلائله مرارا

* قوله تعالى (حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) اعلم أنه قرأ عاصم وحمزة والكسائى كذبوا بالتخفيف وكسر الذال والباقون بالتشديد ومعنى التخفيف من وجهين (أحدهما) ان الظن واقع بالقوم أى حتى اذا استيأس الرسل من ايمان القوم فظن القوم ان الرسل كذبوا فيما وعدوا من النصر والظفر فان قيل لم يجر فيما سبق ذكر المرسل اليهم فكيف يحسن عود هذا الضمير اليهم قلنا ذكر الرسل يدل على المرسل اليهم وان شئت قلت ان ذكرهم جرى فى قوله أفلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم فيكون الضمير عائدا الى الذين من قبلهم من مكذبى الرسل والظن ههنا بمعنى التوهم والحسبان (والوجه الثانى) أن يكون المعنى ان الرسل ظنوا انهم قد كذبوا فيما وعدوا وهذا التأويل منقول عن ابن أبى مليكة عن ابن عباس رضى الله عنهما قالوا وانما كان الامر كذلك لاجل ضعف البشرية الا انه بعيد لان المؤمن لا يجوز أن يظن بالله الكذب بل يخرج بذلك عن الايمان فكيف يجوز مثله على الرسل وأما قراءة التشديد ففيها وجهان (الاول) أن الظن بمعنى اليقين أى وأيقنوا ان الامم كذبوهم تكذيبا لا يصدر منهم الايمان بعد ذلك فحينئذ دعوا عليهم فهنالك أنزل الله سبحانه عليهم عذاب الاستئصال وورود الظن بمعنى العلم كثير فى القرآن قال تعالى الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم أى يتيقنون ذلك (والثانى) أن يكون الظن بمعنى الحسبان والتقدير حتى اذا استيأس الرسل من ايمان قومهم فظن الرسل ان الذين آمنوا بهم كذبوهم وهذا التأويل منقول عن عائشة رضى الله عنها وهو احسن الوجوه المذكورة فى الآية روى ان ابن أبى مليكة نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال وظن الرسل أنهم كذبوا لانهم كانوا بشرا ألا ترى الى قوله حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله قال فذكرت ذلك لعائشة رضى الله عنها فأنكرته وقالت ما وعد الله محمدا صلى الله عليه وسلم شيئا الا وقد علم انه سيوفيه ولكن البلاء لم يزل بالانبياء حتى خافوا

من أن يكذبهم الذين كانوا قد آمنوا بهم وهذا الرد والتأويل فى غاية الحسن من عائشة وأما قوله جاءهم نصرنا أى لما بلغ الحال الى الحد المذكور جاءهم نصرنا فنجى من نشاء قرأ عاصم وابن عامر فنجى من نشاء بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء على مالم يسم فاعله واختاره أبو عبيدة لانه فى المصحف بنون واحدة وروى عن الكسائى ادغام احدى النونين فى الاخرى وقرأ بنون واحدة وتشديد الجيم وسكون الياء قال بعضهم هذا خطأ لان النون متحركة فلا تدغم فى الساكن ولا يجوز ادغام النون فى الجيم والباقون بنونين وتخفيف الجيم وسكون الياء على الاستقبال على معنى ونحن نفعل بهم ذلك واعلم ان هذا حكاية حال ألا ترى ان القصة فيما مضى وانما حكى فعل الحال كما ان قوله هذا من شيعته وهذا من عدوه اشارة الى الحاضر والقصة ماضية * قوله تعالى (لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) اعلم ان الاعتبار عبارة عن العبور من الطرف المعلوم الى الطرف المجهول والمراد منه التأمل والتفكر ووجه الاعتبار بقصصهم أمور (الاول) ان الذى قدر على اعزاز يوسف بعد القائه فى الجب واعلائه بعد حبسه فى السجن وتمليكه مصر بعد ان كانوا يظنون به انه عبد لهم وجمعه مع والديه واخوته على ما أحب بعد المدة الطويلة لقادر على اعزاز محمد صلى الله عليه وسلم واعلاء كلمته (الثانى) ان الاخبار عنه جار مجرى الاخبار عن الغيب فيكون معجزة دالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم (الثالث) أنه ذكر فى أول السورة نحن نقص عليك أحسن القصص ثم ذكر فى آخرها لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب تنبيها على ان حسن هذه القصة انما كان بسبب انه يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة والقدرة والمراد من قصصهم قصة يوسف عليه السلام واخوته وأبيه ومن الناس من قال المراد قصص الرسل لانه تقدم فى القرآن ذكر قصص سائر الرسل الا ان الاولى أن يكون المراد قصة يوسف عليه السلام فان قيل لم قال عبرة لاولى الالباب مع ان قوم محمد صلى الله عليه وسلم كانوا ذوى عقول وأحلام وقد كان الكثير منهم لم يعتبر بذلك قلنا ان جميعهم كانوا متمكنين من الاعتبار والمراد من وصف هذه القصة بكونها عبرة كونها بحيث يمكن أن يعتبر بها العاقل أو نقول المراد من أولى الالباب الذين اعتبروا وتفكروا وتأملوا فيها وانتفعوا بمعرفتها لان أولى الالباب لفظ يدل على المدح والثناء فلا يليق الا بما ذكرناه واعلم انه تعالى وصف هذه القصة بصفات (الصفة الاولى) كونها عبرة لاولى الالباب وقد سبق تقريره (الصفة الثانية) قوله ما كان حديثا يفترى وفيه قولان (الاول) ان المراد الذى جاء به وهو محمد صلى الله عليه وسلم لا يصح منه أن يفترى لانه لم يقرأ الكتب ولم يتلمذ لاحد ولم يخالط العلماء فمن المحال أن يفترى هذه القصة بحيث تكون مطابقة لما ورد فى التوراة من غير تفاوت (والثانى) ان المراد انه ليس بكذب فى نفسه لانه لا يصح الكذب منه ثم انه تعالى أكد كونه غير مفترى فقال ولكن تصديق الذى بين يديه وهو

الانبياء وأمهم و بنصره قراءة من قرأ بكسر القاف أو قصص يوسف واخوته (عبرة لاولى الالباب) لذوى العقول المبرأة عن شوائب أحكام الحس (ما كان) أى القرآن المدلول عليه بما سبق دلالة واضحة (حديثا يفترى ولكن) كان (تصديق الذى بين يديه) من الكتب السماوية وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى ولكن هو تصديق الذى بين يديه (وتفصيل كل شئ) مما يحتاج اليه فى الدين اذ ما من أمر دينى الا وهو يستند الى القرآن بالذات أو بوسط (وهدى) من الضلالة (ورحمة) ينال بها خير الدارين (لقوم يؤمنون) أى يصدقونه لانهم المنتفعون به وأما من عداهم فلا يهتدون بهداه ولا ينتفعون بجداوه * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم علموا أرقاءكم سورة يوسف فانه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلما

اشارة الى ان هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما فى التوراة وسائر الكتب الالهية ونصب تصديقا على تقدير ولكن كان تصديق الذى بين يديه كقوله تعالى ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله قاله الفراء والزجاج ثم قال ويجوز رفعه فى قياس النحو على معنى ولكن هو تصديق الذى بين يديه (والصفة الثالثة) قوله وتفصيل كل شئ وفيه قولان (الاول) المراد وتفصيل كل شئ من واقعة يوسف عليه السلام مع أبيه واخوته (والثانى) انه عائد الى كل القرآن كقوله ما فرطنا فى الكتاب من شئ فان جعل هذا الوصف وصفا لكل القرآن أليق من جعله وصفا لقصة يوسف وحدها ويكون المراد ما يتضمن من الحلال والحرام وسائر ما يتصل بالدين قال الواحدى على التفسيرين جميعا فهو من العام الذى أريد به الخاص كقوله ورحمتى وسعت كل شئ يريد كل شئ يجوز أن يدخل فيها وقوله وأوتيت من كل شئ (الصفة الرابعة والخامسة) كونها هدى فى الدنيا وسببا لحصول الرحمة فى القيامة لقوم يؤمنون خصهم بالذكر لانهم هم الذين انتفعوا به كما قررناه فى قوله هدى للمتقين والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب قال المصنف رحمه الله تعالى تم تفسير هذه السورة بحمد الله تعالى يوم الاربعا السابع من شعبان ختم بالخير والرضوان سنة احدى وستمائة وقد كنت ضيق الصدر جدا بسبب وفاة الولد الصالح محمد تغمده الله بالرحمة والغفران وخصه بدرجات الفضل والاحسان وذكرت هذه الابيات فى مرثيته على سبيل الايجاز

فلو كانت الاقدار منقادة لنا * فديناك من حماك بالروح والجسم
ولو كانت الاملاك تأخذ رشوة * خضعنا لها بالرق فى الحكم والاسم
ولكنه حكم اذا حان حينه * سرى من مقر العرش فى لجة اليم
سأبكى عليك العمر بالدم دائما * ولم أنحرف عن ذاك فى الكيف والكم
سلام على قبر فنت بتربه * وأتحفك الرحمن بالكرم الجم
وما صدنى عن جعل جفنى مدفنا * لجسمك الا انه أبدا يهمى
وأقسم ان مسوا رفاتى ورمتى * احسوا بنار الحزن فى مكمن العظم
حياتى وموتى واحد بعدكم * بل الموت أولى من مداومة الغم
رضيت بما أمضى الاله بحكمه * لعلمى بانى لا يجاوزنى حكمى

وأنا أوصى من طالع كتابى واستفاد ما فيه من الفوائد النفيسة العالية أن يخص ولدى ويخصنى بقراءة الفاتحة ويدعو لمن قد مات فى غربة بعيدا عن الاخوان والاب والام بالرحمة والمغفرة فانى كنت أيضا كثير الدعاء لمن فعل ذلك فى حقى وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا آمين والحمد لله رب العالمين

---

* (سورة الرعد أربعون وثلاث آيات مكية) *

سوى قوله تعالى ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة وقوله ومن عنده علم

---

* (سورة الرعد مدنية وقيل مكية الا قوله ويقول الذين كفروا الآية وآيها خمس وأربعون) (بسم الله الرحمن الرحيم) (المر) اسم للسورة ومحله اما الرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف أى هذه السورة مسماة بهذا الاسم وهو أظهر من الرفع على الابتداء اذ لم يسبق العلم بالتسمية كما مر مرارا وقوله تعالى (تلك) على الوجه الاول مبتدأ مستقل وعلى الوجه الثانى مبتدأ ثان أو بدل من الاول أشير به اليه ايذانا بفخامته وأما النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اقرأ أو اذكر فتلك مبتدأ كما اذا جعل المر مسرودا على نمط التعديد أو بمعنى أنا الله أعلم وأرى على ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما والخبر على التقادير قوله تعالى (آيات الكتاب) أى الكتاب العجيب الكامل الغنى عن الوصف به المعروف بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به فهو عبارة عن جميع القرآن أو عن الجميع المنزل حينئذ حسبما مر فى مطلع سورة يونس اذ هو المتبادر من مطلق الكتاب المستغنى عن النعت وبه يظهر ما أريد من وصف الآيات بوصف ما أضيفت اليه من نعوت الكمال بخلاف ما اذا جعل عبارة عن السورة فانها ليست بتلك المثابة من الشهرة فى الاتصاف بذلك المغنية عن التصريح بالوصف على انها عبارة عن جميع آياتها فلا بد من جعل تلك اشارة الى كل واحدة منها وفيه ما لا يخفى من التعسف الذى مر تفصيله فى سورة يونس (والذى

الكتاب قال الاصم هي مدنية بالاجماع سوى قوله تعالى ولو أن قرآنا سيرت به الجبال

* (بسم الله الرحمن الرحيم) المر تلك آيات الكتاب والذى أنزل اليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) اعلم انا قد تكلمنا فى هذه الالفاظ قال ابن عباس رضى الله عنهما معناه انا الله اعلم وقال فى رواية عطاء انا الله الملك الرحمن وقد أمالها أبو عمرو والكسائى وغيرهما وفخمها جماعة منهم عاصم وقوله تلك اشارة الى آيات السورة المسماة بالمر ثم قال انها آيات الكتاب وهذا الكتاب الذى أعطاه محمدا بأن ينزله عليه ويجعله باقيا على وجه الدهر وقوله والذى أنزل اليك من ربك مبتدأ وقوله الحق خبره ومن الناس من تمسك بهذه الآية فى نفى القياس فقال الحكم المستنبط بالقياس غير نازل من عند الله والا لكان من لم يحكم به كافرا لقوله تعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون وبالاجماع لا يكفر فثبت ان الحكم المثبت بالقياس غير نازل من عند الله واذا كان كذلك وجب ان لا يكون حقا لاجل ان قوله والذى أنزل اليك من ربك الحق يقتضى انه لا حق الا ما أنزله الله فكل ما لم ينزله الله وجب أن لا يكون حقا واذا لم يكن حقا وجب أن يكون باطلا لقوله تعالى فماذا بعد الحق الا الضلال ومثبتو القياس يجيبون عنه بأن الحكم المثبت بالقياس نازل أيضا من عند الله لانه لما أمر بالعمل بالقياس كان الحكم الذى دل عليه القياس نازلا من عند الله ولما ذكر تعالى ان المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق بين ان أكثر الناس لا يؤمنون به على سبيل الزجر والتهديد * قوله تعالى (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون) اعلم انه تعالى لما ذكر ان أكثر الناس لا يؤمنون ذكر عقيبه ما يدل على صحة التوحيد والمعاد وهو هذه الآية وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الله مبتدأ والذى رفع السموات خبره بدليل قوله وهو الذى مد الارض ويجوز أن يكون الذى رفع السموات صفة وقوله يدبر الامر يفصل الآيات خبرا بعد خبر وقال الواحدى العمد الاساطين وهو جمع عماد يقال عماد وعمد مثل اهاب وأهب وقال الفراء العمد والعمد جمع العمود مثل أديم وادم وادم وقضيم وقضم وقضم والعماد والعمود ما يعمد به الشئ ومنه يقال فلان عمد قومه اذا كانوا يعتمدونه فيما بينهم (المسئلة الثانية) اعلم انه تعالى استدل بأحوال السموات وبأحوال الشمس والقمر وبأحوال الارض وبأحوال النبات أما الاستدلال بأحوال السموات بغير عمد ترونها فالمعنى ان هذه الأجسام العظيمة بقيت واقفة فى الجو العالى ويستحيل أن يكون بقاؤها هنالك لاعيانها ولذواتها لوجهين الاول ان الاجسام متساوية فى تمام الماهية ولو وجب حصول جسم فى حيز معين لوجب حصول كل جسم فى ذلك الحيز والثانى ان الخلاء لا نهاية له والاحياز المفترضة فى ذلك الخلاء الصرف غير متناهية وهى بأسرها متساوية ولو وجب حصول جسم فى حيز معين لوجب حصوله فى

أنزل اليك من ربك) أى الكتاب المذكور بكماله لا هذه السورة وحدها (الحق) الثابت المطابق للواقع فى كل ما نطق به الحقيق بأن يخص به الحقية لعراقته فيها وليس فيه ما يدل على أن ما عداه ليس بحق أصلا على أن حقيته مستتبعة لحقية سائر الكتب السماوية لكونه مصدقا لما بين يديه ومهيمنا عليه وفى التعبير عنه بالموصول واسناد الانزال اليه بصيغة المبنى للمفعول والتعرض لوصف الربوبية مضافا الى ضميره عليه السلام من الدلالة على فخامة المنزل التابعة لجلالة شأن المنزل وتشريف المنزل اليه والايماء الى وجه بناء الخبر ما لا يخفى (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) بذلك الحق المبين لاخلالهم بالنظر والتأمل فيه فعدم ايمانهم متعلق بعنوان حقيته لانه المرجع للتصديق والتكذيب لا بعنوان كونه منزلا كما قيل ولانه وارد على طريقة الوصف دون الاخبار (الله الذى رفع السموات) أى خلقهن مرتفعات على طريقة قولهم سبحان من كبر الفيل وصغر البعوض لا أنه رفعها بعد أن لم تكن كذلك والجملة مبتدأ وخبر كقوله وهو الذى مد الارض (بغير عمد) أى بغير دعائم جمع عماد كاهاب واهب وهو ما يعمد به أى يسند يقال عمدت الحائط أى أدعمته وقرئ عمد على جمع عمود بمعنى عماد كرسل ورسول وايراد صيغة الجمع لجمع السموات لا لان المنفى عن كل واحدة منها عمد لا عماد (ترونها) استئناف استشهد به على ما ذكر من رفع

جميع الاحياز ضرورة ان الاحياز بأسرها متشابهة فثبت ان حصول الاجرام الفلكية فى احيازها وجهاتها ليس أمرا واجبا لذاته بل لا بد من مخصص ومرجح ولا يجوز أن يقال انها بقيت بسلسلة فوقها ولا عمد تحتها والا لعاد الكلام فى ذلك الحافظ ولزم المرور الى ما لا نهاية له وهو محال فثبت أن بقاء الاجرام الفلكية فى احيازها العالية لاجل ان مدبر العالم تعالى وتقدس أوقفها هناك فهذا برهان قاهر على وجود الاله القاهر القادر ويدل أيضا على ان الاله ليس بجسم ولا مختص بحيز لانه لو كان حاصلا فى حيز معين لامتنع أن يكون حصوله فى ذلك الحيز لذاته ولعينه لما بينا ان الاحياز بأسرها متساوية فيمتنع ان يكون حصوله فى حيز معين لذاته فلا بد وأن يكون بتخصيص مخصص وكل ما حصل بالفاعل المختار فهو محدث فاختصاصه بالحيز المعين محدث وذاته لا تنفك عن ذلك الاختصاص وما لا يخلو عن الحادث فهو حادث فثبت انه لو كان حاصلا فى الحيز المعين لكان حادثا وذلك محال فثبت انه تعالى متعال عن الحيز والجهة وأيضا كل ما سماك فهو سماء فلو كان تعالى موجودا فى جهة فوق جهة لكان من جملة السموات فدخل تحت قوله الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها فكل ما كان مختصا بجهة فوق جهة فهو محتاج الى حفظ الاله بحكم هذه الآية فوجب أن يكون الاله منزها عن جهة فوق أما قوله ترونها ففيه أقوال الاول أنه كلام مستأنف والمعنى رفع السموات بغير عمد ثم قال ترونها أى وأنتم ترونها أى مرفوعة بلا عماد الثانى قال الحسن فى تقرير الآية تقديم وتأخير تقديره رفع السموات ترونها بغير عمد واعلم انه اذا أمكن حمل الكلام على ظاهره كان المصير الى التقديم والتأخير غير جائز والثالث أن قوله ترونها صفة للعمد والمعنى بغير عمد مرئية أى للسموات عمد ولكنا لا نراها قالوا ولها عمد على جبل قاف وهو جبل من زبرجد محيط بالدنيا ولكنكم لا ترونها وهذا التأويل فى غاية السقوط لانه تعالى انما ذكر هذا الكلام ليكون حجة على وجود الاله القادر ولو كان المراد ما ذكروه لما ثبتت الحجة لانه يقال ان السموات لما كانت مستقرة على جبل قاف فأى دلالة لثبوتها على وجود الاله وعندى فيه وجه آخر أحسن من الكل وهو ان العماد ما يعتمد عليه وقد دللنا على ان هذه الاجسام انما بقيت واقفة فى الجو العالى بقدرة الله تعالى وحينئذ يكون عمدها هو قدرة الله تعالى فنتج ان يقال انه رفع السماء بغير عمد ترونها اى لها عمد فى الحقيقة الا أن تلك العمد هى قدرة الله تعالى وحفظه وتدبيره وابقاؤه اياها فى الجو العالى وأنهم لا يرون ذلك التدبير ولا يعرفون كيفية ذلك الامساك * وأما قوله ثم استوى على العرش فاعلم انه ليس المراد منه كونه مستقرا على العرش لان المقصود من هذه الآية ذكر ما يدل على وجود الصانع ويجب أن يكون ذلك الشئ مشاهدا معلوما وان أحدا لم ير انه تعالى استقر على العرش فكيف يمكن الاستدلال به عليه وأيضا بتقدير أن يشاهد كونه مستقرا على العرش الا أن ذلك لا يشعر بكمال حاله وغاية جلاله بل يدل على احتياجه الى المكان والحيز وأيضا فهذا

السموات بغير عمد وقيل صفة للعمد بمعنى أنها لا يعمدها الا ان لها عمدا غير مرئية هى قدرة الله تعالى (ثم استوى) أى استولى (على العرش) بالحفظ والتدبير أو استوى أمره وعن أصحابنا ان الاستواء على العرش صفة لله عز وجل بلا كيف وأيا ما كان فليس المراد به القصد الى ايجاد العرش وخلقه فلا حاجة الى جعل كلمة ثم للتراخى فى الرتبة (وسخر الشمس والقمر) ذللهما وجعلهما طائعين لما أريد منهما من الحركات وغيرها (كل) من الشمس والقمر (يجرى) حسبما أريد منهما (لأجل مسمى) لمدة معينة فيها تتم دورته كالسنة للشمس والشهر للقمر فان كلا منهما يجرى كل يوم على مدار معين من المدارات اليومية أو لمدة ينتهى فيها حركاتهما ويخرج جميع ما اريد منهما من القوة الى الفعل أو لغاية يتم عندها ذلك والجملة بيان لحكم تسخيرهما (يدبر) يصنع من الرفع والاستواء والتسخير أى يقضى ويقدر حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة (الامر) أمر الخلق كله وأمر ملكوته وربوبيته (يفصل الآيات) الدالة على كمال قدرته وبالغ حكمته أى يأتى بها مفصلة وهى ما ذكر من الافعال العجيبة وما يتلوها من الاوضاع الفلكية الحادثة شيئا فشيئا المستتبعة للآثار الغريبة فى السفليات على موجب التدبير والتقدير فالجملتان اما حالان من ضمير استوى وقوله وسخر الشمس والقمر من تتمة الاستواء واما مفسرتان له أو الاولى حال منه والثانية من الضمير فيها أو كلاهما من ضمائر

يدل على انه ما كان بهذه الحالة ثم صار بهذه الحالة وذلك يوجب التغير وأيضا الاستواء ضد الاعوجاج فظاهر الآية يدل على انه كان معوجا مضطربا ثم صار مستويا وكل ذلك على الله محال فثبت ان المراد استواؤه على عالم الاجسام بالقهر والقدرة والتدبير والحفظ يعنى ان من فوق العرش الى ما تحت الثرى فى حفظه وفى تدبيره وفى الاحتيـاج اليه * وأما الاستدلال بأحوال الشمس والقمر فهو قوله سبحانه وتعالى وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى واعلم ان هذا الكلام اشتمل على نوعين من الدلالة * الاول قوله وسخر الشمس والقمر وحاصله يرجع الى الاستدلال على وجود الصانع القادر القاهر بحركات هذه الاجرام وذلك لان الاجسام متماثلة فهذه الاجرام قابلة للحركة والسكون فاختصاصها بالحركة الدائمة دون السكون لابد له من مخصص وأيضا ان كل واحدة من تلك الحركات مختصة بكيفية معينة من البطء والسرعة فلابد أيضا من مخصص لاسيما عند من يقول الحركة البطيئة معناها حركات مخلوطة بسكنات وهذا يوجب الاعتراف بأنها تتحرك فى بعض الاحياز وتسكن فى البعض فحصول الحركة فى ذلك الحيز المعين والسكون فى الحيز الآخر لابد فيه أيضا من مرجح الوجه الثالث وهو ان تقدير تلك الحركات والسكنات بمقادير مخصوصة على وجه تحصل عوداتها وادوارها متساوية بحسب المدة عجيبة فلابد من مقدر والوجه الرابع أن بعض تلك الحركات مشرقية وبعضها مغربية وبعضها مائلة الى الشمال وبعضها مائلة الى الجنوب وهذا أيضا لا يتم الا بتدبير كامل وحكمة بالغة * النوع الثانى من الدلائل المذكورة فى هذه الآية قوله كل يجرى لاجل مسمى وفيه قولان الاول قال ابن عباس للشمس مائة وثمانون منزلا كل يوم لها منزل وذلك يتم فى ستة أشهر ثم انها تعود مرة أخرى الى واحد منها فى ستة أشهر أخرى وكذلك القمر له ثمانية وعشرون منزلا فالمراد بقوله كل يجرى لاجل مسمى هذا * وتحقيقه أنه تعالى قدر لكل واحد من هذه الكواكب سيرا خاصا الى جهة خاصة بمقدار خاص من السرعة والبطء ومتى كان الامر كذلك لزم أن يكون لها بحسب كل لحظة ولمحة حالة أخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك والقول الثانى أن المراد كونهما متحركين الى يوم القيامة وعند مجيء ذلك اليوم تنقطع هذه الحركات وتبطل تلك السيرات كما وصف الله تعالى ذلك فى قوله اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت واذا السماء انشقت واذا السماء انفطرت وجمع الشمس والقمر وهو كقوله سبحانه وتعالى ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم انه تعالى لما ذكر هذه الدلائل قال يدبر الامر واكثر المفسرين حمل هذا على تدبير نوع آخر من أحوال العالم والاولى حمله على الكل فهو يدبرهم بالايجاد والاعدام وبالاحياء والاماتة والاغناء والافقار ويدخل فيه انزال الوحى وبعثة الرسل وتكليف العباد وفيه دليل عجيب على كمال القدرة والرحمة وذلك لان هذا العالم المعلوم من أعلى العرش الى ما تحت الثرى أنواع وأجناس لا يحيط بها الا الله تعالى والدليل المذكور دل على ان اختصاص كل واحد منها

الافعال المذكورة وقوله كل يجرى لاجل مسمى من تتمة التسخير او خبران عن قوله الله خبر بعد خبر والموصول صفة للمبتدأ جيء به للدلالة على تحقيق الخبر وتعظيم شأنه كما فى قول الفرزدق * ان الذى سمك السماء بنى لنا * بيتا دعائمه أعز وأطول (لعلكم) عند مشاهدتكم لها وعثوركم على تفاصيلها (بلقاء ربكم) بملاقاته للجزاء (توقنون) فان من تدبرها حق التدبر أيقن أن من قدر على ابداع هذه الصنائع البديعة على كل شئ قدير وأن لهذه التدبيرات المتينة عواقب وغايات لابد من وصولها وقد بينت على ألسنة الانبياء عليهم السلام أن ذلك ابتلاء المكلفين ثم جزاؤهم حسب أعمالهم فاذن لابد من الايقان بالجزاء ولما قرر الشواهد العلوية أردفها بذكر الدلائل السفلية فقال (وهو الذى مد الارض) أى بسطها طولا وعرضا قال الاصم المد هو البسط الى ما لا يدرك منتهاه فقيه دلالة على بعد مداها وسعة أقطارها (وجعل فيها رواسى) أى جبالا ثوابت فى أحيازها من الرسو وهو ثبات الاجسام الثقيلة ولم يذكر المـوصوف لاغناء غلبة الوصف بها عن ذلك وانحصار مجيء فواعل جمعا لفاعل فى فوارس وهوالك ونواكس انما هو فى صفات العقلاء وأما فى غيرهم فلا يراعى ذلك أصلا كما فى قوله تعالى أياما معدودات وقوله الحج أشهر معلومات الى غير ذلك فلا حاجة الى أن يجعل مفردها صفة لجمع القلة أعنى أجبلا ويعتبر فى جمع

الكثرة أعنى جبالا انتظامها لما أنفسن بجموع القلة وتنزيل كل منهما منزلة مفردها لما قيل على أنه لا مجال لذلك فان بجمعية كل من صيغتى الجمعين انما هى باعتبار الافراد التى تحتها لا باعتبار ﴿٢٦٢﴾ انتظام جمع القلة للافراد وجمع الكثرة لمجموع القلة فكل منهما جمع جبل لا أن جبالا جمع أجبل كما أن طوائف جمع طائفة ولا الى أن يلتجأ الى جعل الوصف المذكور بالغلبة فى عداد الاسماء التى تجمع على فواعل كما ظن على انه لا وجه له لما أن الغلبة انما هى فى الجمع دون المفرد والتعبير عن الجبال بهذا العنوان لبيان تفرع قرار الارض على ثباتها (وأنهارا) مجارى واسعة والمراد ما يجرى فيها من المياه وفى نظمها مع الجبال فى معمولية فعل واحد اشارة الى أن الجبال منشأ للانهار وبيان لفائدة أخرى للجبال غير كونها حافظة للارض عن الاضطراب المخل بثبات الاقدام وتقلب الحيوان متعرضة على تمكنه وتقلبه وهى تعيشه بالماء والكلا (ومن كل الثمرات) متعلق بجعل فى قوله تعالى (جعل فيها زوجين اثنين) أى اثنينية حقيقية وهما الفردان اللذان كل منهما زوج الآخر وأكده بالزوجين لئلا يفهم أن المراد بذلك الشفعان اذ يطلق الزوج على المجموع ولكن اثنينية ذلك اثنينية اعتبارية أى جعل ﴿ اصفر ﴾ من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة فى الدنيا ضربين وصنفين امافى اللون كالابيض والاسود أوفى الطعم كالحلو والحامض أوفى القدر كالصغير والكبير أوفى الكيفية

بوضعه وموضعه وصفته وطبيعته وحليته ليس الا من الله تعالى ومن المعلوم أن كل من اشتغل بتدبير شىء فانه لا يمكنه تدبير شىء آخر الا الباري سبحانه وتعالى فانه لا يشغله شان عن شان أما العاقل فانه اذا تأمل فى هذه الآية علم انه تعالى يدبر عالم الاجسام وعالم الارواح ويدبر الكبير كما يدبر الصغير فلا يشغله شان عن شان ولا يمنعه تدبير عن تدبير وذلك يدل على انه تعالى فى ذاته وصفاته وعلمه وقدرته غير مشابه للمحدثات والممكنات ثم قال يفصل الآيات وفيه قولان الاول أنه تعالى بين الآيات الدالة على الهيئة وعلمه وحكمته والثانى ان الدلائل الدالة على وجود الصانع قسمان أحدهما الموجودات الباقية الدائمة كالافلاك والشمس والقمر والكواكب وهذا النوع من الدلائل هو الذى تقدم ذكره والثانى الموجودات الحادثة المتغيرة وهى الموت بعد الحياة والفقر بعد الغنى والهرم بعد الصحة وكون الاحمق فى أهنا العيش والعاقل الذكى فى أشد الاحوال فهذا النوع من الموجودات والاحوال دلالتها على وجود الصانع الحكيم ظاهرة * وقوله يفصل الآيات اشارة الى أنه يحدث بعضها عقيب بعض على سبيل التميز والتفصيل ثم قال لعلكم بلقاء ربكم توقنون واعلم أن الدلائل المذكورة كما تدل على وجود الصانع الحكيم فهى أيضا تدل على صحة القول بالحشر والنشر لان من قدر على خلق هذه الاشياء وتدبيرها على عظمتها وكثرتها فلأن يقدر على الحشر والنشر كان أولى يروى أن رجلا قال لعلى بن أبى طالب رضوان الله عليه انه تعالى كيف يحاسب الخلق دفعة واحدة فقال كما يرزقهم الآن دفعة واحدة وكما يسمع نداءهم و يجيب دعاءهم الآن دفعة واحدة وحاصل الكلام أنه تعالى كما قدر على ابقاء الاجرام الفلكية والنيرات الكوكبية فى الجو العالى وان كان الخلق عاجزين عنه وكما يمكنه أن يدبر من فوق العرش الى ما تحت الثرى بحيث لا يشغله شأن عن شأن فكذلك يحاسب الخلق بحيث لا يشغله شأن عن شأن ومن الاصحاب من تمسك بلفظ اللقاء على رؤية الله تعالى وقد مر تقريره فى هذا الكتاب مرارا وأطوارا

* قوله تعالى (وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) اعلم أنه تعالى لما قرر الدلائل السماوية أردفها بتقرير الدلائل الارضية فقال وهو الذى مد الارض واعلم أن الاستدلال بخلقه الارض وأحوالها من وجوه الاول أن الشىء اذا تزايد حجمه ومقداره صار كأن ذلك الحجم وذلك المقدار يمتد فقوله وهو الذى مد الارض اشارة الى أن الله سبحانه هو الذى جعل الارض مختصة بذلك المقدار المعين الحاصل له لا أزيد ولا أنقص والدليل عليه ان كون الارض أزيد مقدارا مما هو الآن وأنقص منه أمر جائز ممكن فى نفسه فاختصاصه بذلك المقدار المعين لا بد أن يكون بتخصيص وتقدير مقدر الثانى قال أبو بكر الاصم المد هو البسط الى ما لا يدرك منتهاه فقوله وهو الذى مد الارض يشعر بأنه تعالى جعل حجم الارض حجما عظيما لا يقع البصر على منتهاه لان الارض لو كانت

كالحار والبارد وما أشبه ذلك ويجوز أن يتعلق بجعل الاول ويكون الثاني استئنافا لبيان كيفية ذلك الجعل (يغشى الليل النهار) استعارة تبعية تمثيلية مبنية على تشبيه ازالة نور الجو بالظلمة بتغطية الاشياء الظاهرة بالاغطية أي يستر النهار بالليل والتركيب وان احتمل العكس أيضا بالحمل على تقديم المفعول الثاني على الاول فان ضوء النهار أيضا ساتر لظلمة الليل الا أن الانسب بالليل أن يكون هو الغاشي وعد هذا في تضاعيف الآيات السفلية وان كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهرا باعتبار أن ظهوره في الارض فان الليل انما هو ظلها وفيما فوق موقع ظلها لا ليل أصلا ولان الليل والنهار لهما تعلق بالثمرات من حيث العقد والانضاج على أنهما أيضا زوجان متقابلان مثلها وقرئ يغشي من التغشية (ان في ذلك) أي فيما ذكر من مد الارض وايتادها بالرواسي واجراء الانهار وخلق الثمرات واغشاء الليل النهار وفي الاشارة بذلك تنبيه على عظم شأن المشار اليه في بابه (لآيات) باهرة وهي آثار تلك الافاعيل البديعة جلت حكمة صانعها في على معناها فان تلك الآثار مستقرة في تلك الافاعيل متوطنة بها ويجوز أن يشار بذلك الى تلك الآثار المدلول عليها بتلك الافاعيل ففي تجريدية (لقوم يتفكرون) فان التفكر فيها يؤدي الى الحكم بأن تكوين كل من ذلك على هذا النمط الرائق والاسلوب اللائق لابد له من مكون قادر حكيم يفعل ما يشاء ويختار

أصغر حجما مما هي الآن عليه لما كمل الانتفاع به والثالث قال قوم كانت الارض مدورة فمدها ودحاها من مكة من تحت البيت فذهبت كذا وكذا وقال آخرون كانت مجتمعة عند البيت المقدس فقال لها اذهبي كذا وكذا اعلم أن هذا القول انما يتم اذا قلنا الارض مسطحة لا كرة وأصحاب هذا القول احتجوا عليه بقوله والارض بعد ذلك دحاها وهذا القول مشكل من وجهين الاول انه ثبت بالدلائل ان الارض كرة فكيف يمكن المكابرة فيه فان قالوا وقوله مد الارض ينافي كونها كرة فكيف يمكن مدها قلنا لا نسلم أن الارض جسم عظيم والكرة اذا كانت في غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح والتفاوت الحاصل بينه وبين السطح لا يحصل الا في علم الله ألا ترى أنه قال والجبال أوتادا فجعلها أوتادا مع أن العالم من الناس يستقرون عليها فكذلك ههنا والثاني ان هذه الآية انما ذكرت ليستدل بها على وجود الصانع والشرط فيه أن يكون ذلك أمرا مشاهدا معلوما حتى يصح الاستدلال به على وجود الصانع وكونها مجتمعة تحت البيت أمر غير مشاهد ولا محسوس فلا يمكن الاستدلال به على وجود الصانع فثبت ان التأويل الحق هو ما ذكرناه والنوع الثاني من الدلائل الاستدلال بأحوال الجبال واليه الاشارة بقوله وجعل فيها رواسي من فوقها ثابتة باقية في أحيازها غير منتقلة عن أماكنها يقال رسا هذا الوتد وأرسيته والمراد ما ذكرنا واعلم ان الاستدلال بوجود الجبال على وجود الصانع القادر الحكيم من وجوه الاول ان طبيعة الارض واحدة فحصول الجبل في بعض جوانبها دون البعض لابد وأن يكون بتخليق القادر الحكيم قالت الفلاسفة هذه الجبال انما تولدت لان البحار كانت في هذا الجانب من العالم فكانت تتولد في البحر طينا لزجا ثم يقوى تأثير الشمس فيها فينقلب حجرا كما يشاهد في كوز الفقاع ثم ان الماء كان يغور ويقل فيتحجر البقية فلهذا السبب تولدت هذه الجبال قالوا وانما كانت البحار حاصلة في هذا الجانب من العالم لان أوج الشمس وحضيضها متحركان ففي الدهر الاقدم كان حضيض الشمس في جانب الشمال والشمس متى كانت في حضيضها كانت أقرب الى الارض فكان التسخين أقوى وشدة السخونة توجب انجذاب الرطوبات فحين كان الحضيض في جانب الشمال كانت البحار في جانب الشمال والآن لما انتقل الاوج الى جانب الشمال والحضيض الى جانب الجنوب انتقلت البحار الى جانب الجنوب فبقيت هذه الجبال في جانب الشمال هذا حاصل كلام القوم في هذا الباب وهو ضعيف من وجوه الاول ان حصول الطين في البحر أمر عام ووقوع الشمس عليها أمر عام فلم حصل هذا الجبل في بعض الجوانب دون البعض والثاني وهو انا نشاهد في بعض الجبال كأن تلك الاحجار موضوعة سافا فسافا فكأن البناء لبنات كثيرة موضوع بعضها على بعض ويبعد حصول مثل هذا التركيب من السبب الذي ذكروه والثالث ان أوج الشمس الآن قريب من أول السرطان فعلى هذا من الوقت الذي انتقل أوج الشمس الى الجانب

الشمس الى مضى قريب من تسعة آلاف سنة وبهذا التقدير أن الجبال فى هذه المدة الطويلة كانت فى التفتت فوجب أن لا يبقى من الاحجار شئ لكن ليس الامر كذلك فعلمنا ان السبب الذى ذكروه ضعيف * والوجه الثانى من الاستدلال بأحوال الجبال على وجود الصانع ذى الجلال ما يحصل فيها من معادن الفلزات السبعة ومواضع الجواهر النفيسة وقد يحصل فيها معادن الزاجات والاملاح وقد يحصل فيها معادن النفط والقير والكبريت فكون الارض واحدة فى الطبيعة وكون الجبل واحدا فى الطبع وكون تأثير الشمس واحدا فى الكل يدل دليلا ظاهرا على ان الكل بتقدير قادر قاهر متعال عن مشابهة المحدثات والممكنات * والوجه الثالث من الاستدلال بأحوال الجبال أن بسببها تتولد الانهار على وجه الارض وذلك أن الحجر جسم صلب فاذا تصاعدت الابخرة من قعر الارض ووصلت الى الجبل احتبست هناك فلا تزال تتكامل فيحصل تحت الجبل مياه عظيمة ثم انها لكثرتها وقوتها تثقب وتخرج وتسيل على وجه الارض فمنفعة الجبال فى تولد الانهار هو من هذا الوجه ولهذا السبب ففى أكثر الامر أينما ذكر الله الجبال قرن بها ذكر الانهار مثل ما فى هذه الآية ومثل قوله وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا * والنوع الثالث من الدلائل المذكورة فى هذه الآية الاستدلال بعجائب خلقة النبات واليه الاشارة بقوله ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان الحبة اذا وضعت فى الارض وأثرت فيها نداوة الارض ربت وكبرت وبسبب ذلك ينشق أعلاها وأسفلها فيخرج من الشق الاعلى الشجرة الصاعدة فى الهواء ويخرج من الشق الاسفل العروق الغائصة فى أسفل الارض وهذا من العجائب لان طبيعة تلك الحبة واحدة وتأثير الطبائع والافلاك والكواكب فيها واحد ثم انه يخرج من الجانب الاعلى من تلك الحبة جرم صاعد الى الهواء ومن الجانب الاسفل منه جرم غائص فى الارض ومن المحال أن يتولد من الطبيعة الواحدة طبيعتان متضادتان فعلمنا ان ذلك انما كان بسبب تدبير المدبر الحكيم والمقدر القديم لا بسبب الطبع والخاصية ثم ان الشجرة النابتة من تلك الحبة بعضها يكون خشبا وبعضها يكون نورا وبعضها يكون ثمرة ثم ان تلك الثمرة أيضا يحصل فيها أجسام مختلفة الطبائع فالجوز له أربعة أنواع من القشور فالقشر الاعلى وتحته القشرة الخشبية وتحته القشرة المحيطة باللبة وتحت تلك القشرة قشرة أخرى فى غاية الرقة تمتاز عما فوقها حال كون الجوز رطبا وأيضا فقد يحصل فى الثمرة الواحدة الطباع المختلفة فالاترج قشره حار يابس ولحمه حار رطب وحماضه بارد يابس وبزره حار يابس ونوره حار يابس وكذلك العنب قشره وعجمه باردان يابسان ولحمه وماؤه حاران رطبان فتولد هذه الطبائع المختلفة من الحبة الواحدة مع تساوى تأثيرات الطبائع وتأثيرات الانجم والافلاك لابد وأن يكون لاجل تدبير الحكيم القادر القديم (المسئلة الثانية) المراد بزوجين اثنين صنفين اثنين والاختلاف اما من حيث الطعم كالحلو

◆ والحامض ◆

غاية لا معقب لحكمه وهو الحميد المجيد (وفى الارض قطع) جملة مستأنفة مشتملة على طائفة أخرى من الآيات أى بقاع كثيرة مختلفة فى الاوصاف فمن طيبة الى سبخة وكريمة الى زهيدة وصلبة الى رخوة الى غير ذلك (متجاورات) أى متلاصقات وفى بعض المصاحف قطعا متجاورات أى جعل فى الارض قطعا (وجنات من أعناب) أى بساتين كثيرة منها (وزرع) من كل نوع من أنواع الحبوب وافراده لمراعاة أصله ولعل تقديم ذكر الجنات عليه مع كونه عمود المعاش لظهور حالها فى اختلافها ومباينتها لسائرها ورسوخ ذلك فيها وتأخير قوله تعالى (ونخيل) لئلا يقع بينها وبين صفتها وهى قوله تعالى (صنوان وغير صنوان) فاصلة والصنوان جمع صنو كقنوان وقنو وهى النخلة التى لها رأسان وأصلهما واحد وقرئ بضم الصاد على لغة بنى تميم وقيس وقرئ جنات بالنصب عطفا على زوجين وبالجر على كل الثمرات فلعل عدم نظم قوله تعالى وفى الارض قطع متجاورات فى هذا السلك مع أن اختصاص كل من تلك القطع بما لها من الاحوال والصفات بمحض جعل الخالق الحكيم جلت قدرته حين مد الارض ودحاها للايماء الى كون تلك الاحوال صفات راسخة لتلك القطع وقرئ وزرع ونخيل بالجر عطفا على أعناب أو جنات (يسقى) أى ما ذكر من القطع والجنات والزرع والنخيل وقرئ بالتأنيث مراعاة للفظ والاول أوفق بمقام

والحامض أو الطبيعة كالحار والبارد أو اللون كالابيض والاسود فان قيل الزوجان لابد وأن يكونا اثنين فما الفائدة فى قوله زوجين اثنين قلنا قيل انه تعالى أول ما خلق العالم وخلق فيه الاشجار خلق من كل نوع من الانواع اثنين فقط فلو قال خلق زوجين لم يعلم ان المراد النوع أو الشخص أما لما قال اثنين علمنا ان الله تعالى أول ما خلق من كل زوجين اثنين لا أقل ولا أزيد والحاصل ان الناس فيهم الآن كثرة الا انهم لما ابتدؤا من زوجين اثنين بالشخص هما آدم وحواء فكذلك القول فى جميع الاشجار والزرع والله أعلم

* النوع الرابع من الدلائل المذكورة فى هذه الآية الاستدلال بأحوال الليل والنهار واليه الاشارة بقوله يغشى الليل النهار والمقصود ان الانعام لا يكمل الا بالليل والنهار وتعاقبهما كما قال فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ومنه قوله يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا وقد سبق الاستقصاء فى تقريره فيما سلف من هذا الكتاب قرأ حمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم يغشى بالتشديد وفتح الغين والباقون بالتخفيف ثم انه تعالى لما ذكر هذه الدلائل النيرة والقواطع القاهرة قال ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون واعلم أنه تعالى فى أكثر الامر حيث يذكر الدلائل الموجودة فى العالم السفلى يذكر عقيبها ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون أو ما يقرب منه بحسب المعنى والسبب فيه ان الفلاسفة يسندون حوادث العالم السفلى الى الاختلافات الواقعة فى الاشكال الكوكبية فما لم تقم الدلالة على دفع هذا السؤال لا يتم المقصود فلهذا المعنى قال ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون كأنه تعالى يقول مجال الفكر باق بعد ولا بد بعد هذا المقام من التفكر والتامل ليتم الاستدلال * واعلم أن الجواب عن هذا السؤال من وجهين الاول أن نقول هب انكم أسندتم حوادث العالم السفلى الى الاحوال الفلكية والاتصالات الكوكبية الا انا أقمنا الدليل القاطع على ان اختصاص كل واحد من الاجرام الفلكية وطبعه ووضعه وخاصيته لا بد وأن يكون بتخصيص المقدر القديم والمدبر الحكيم فقد سقط هذا السؤال وهذا الجواب قد قرره الله تعالى فى هذا المقام لانه تعالى ابتدأ بذكر الدلائل السماوية وقد بينا أنها كيف تدل على وجود الصانع ثم انه تعالى أتبعها بالدلائل الارضية فان قال قائل لم لا يجوز أن تكون هذه الحوادث الارضية لاجل الاحوال الفلكية كان جوابنا أن نقول فهب ان الامر كذلك الا انا دللنا فيما تقدم على افتقار الاجرام الفلكية الى الصانع الحكيم فحينئذ لا يكون هذا السؤال قادحا فى غرضنا والوجه الثانى من الجواب أن نقيم الدلالة على انه لا يجوز أن يكون حدوث الحوادث السفلية لاجل الاتصالات الفلكية وذلك هو المذكور فى الآية التى تأتى بعد هذه الآية ومن تأمل فى هذه اللطائف ووقف عليها علم ان هذا الكتاب اشتمل على علوم الاولين والآخرين

* قوله تعالى (وفى الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل ان فى ذلك لآيات لقوم

بيان اتحاد الكل فى حالة السقى (بماء واحد) لا اختلاف فى طبعه سواء كان السقى بماء الامطار أو بماء الانهار (ونفضل) أى مع تآخذ أسباب التشابه بمحض قدرتنا واختيارنا (بعضها على بعض) آخر منها (فى الاكل) فيما يحصل منها من الثمر والطعم وقرئ بالياء على بناء الفاعل ردا على يدبر ويفصل ويغشى وعلى بناء المفعول وفيه ما لا يخفى من الفخامة والدلالة على أن عدم احتمال استناد الفعل الى فاعل آخر مغن عن بناء الفعل للفاعل (ان فى ذلك) الذى فصل من أحوال القطع والجنات (لآيات) كثيرة عظيمة ظاهرة (لقوم يعقلون) يعملون على قضية عقولهم فان من عقل هذه الاحوال العجيبة لا يتلعثم فى الجزم بأن من قدر على ابداع هذه البدائع وخلق تلك الثمار المختلفة فى الاشكال والالوان والطعوم والروائح فى تلك القطع المتباينة المتجاورة وجعلها حدائق ذات بهجة قادر على اعادة ما أبداه بل هى أهون فى القياس وهذه الاحوال وان كانت هى الآيات أنفسها لا انها فيها الا أنه قد جردت عنها أمثالها مبالغة فى كونها آية ففى تجريدية مثلها فى قوله تعالى لهم فيها دار الخلد أو المشار اليه نا الاحوال الكلية والآيات أفرادها الحادثة شيئا فشيئا فى الازمنة وآحادها الواقعة فى الاقطار والامكنة المشاهدة لاهلها فهى على معناها وحيث كانت دلالة هذه الاحوال على مدلولاتها

يعقلون) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن المقصود من هذه الآية اقامة الدلالة على انه لا يجوز أن يكون حدوث الحوادث في هذا العالم لاجل الاتصالات الفلكية والحركات الكوكبية وتقريره من وجهين الاول انه حصل في الارض قطع مختلفة بالطبيعة والماهية وهي مع ذلك متجاورة فبعضها تكون سبخة وبعضها تكون رخوة وبعضها تكون صلبة وبعضها تكون منبتة وبعضها تكون حجرية أو رملية وبعضها يكون طينا لزجا ثم انها متجاورة وتأثير الشمس وسائر الكواكب في تلك القطع على السوية فدل هذا على أن اختلافها في صفاتها بتقدير العليم القدير والثاني ان القطعة الواحدة من الارض تسقى بماء واحد فيكون تأثير الشمس فيها متساويا ثم ان تلك الثمار تجيء مختلفة في الطعم واللون والطبيعة والخاصية حتى انك قد تأخذ عنقودا من العنب فيكون جميع حباته حلوة نضيجة الا حبة واحدة فانها بقيت حامضة يابسة ونحن نعلم بالضرورة ان نسبة الطباع والافلاك للكل على السوية بل نقول ههنا ما هو أعجب منه وهو أنه يوجد في بعض أنواع الورد ما يكون أحد وجهيه في غاية الحمرة والوجه الثاني في غاية السواد مع ان ذلك الورد يكون في غاية الرقة والنعومة فيستحيل أن يقال وصل تأثير الشمس الى أحد طرفيه دون الثاني وهذا يدل دلالة قطعية على ان الكل بتدبير الفاعل المختار لا بسبب الاتصالات الفلكية وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل فهذا تمام الكلام في تقرير هذه الحجة وتفسيرها وبيانها واعلم أن بذكر هذا الجواب قد تمت الحجة فان هذه الحوادث السفلية لا بد لها من مؤثر وبينا ان ذلك المؤثر ليس هو الكواكب والافلاك والطبائع فعند هذا يجب القطع بأنه لا بد من فاعل آخر سوى هذه الاشياء وعندها يتم الدليل ولا يبقى بعده للفكر مقام البتة فلهذا السبب قال ههنا ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون لانه لا دافع لهذه الحجة الا أن يقال ان هذه الحوادث السفلية حدثت لا لمؤثر البتة وذلك يقدح في كمال العقل لان العلم بافتقار الحادث الى المحدث لما كان علما ضروريا كان عدم حصول هذا العلم قادحا في كمال العقل فلهذا قال ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون وقال في الآية المتقدمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون فهذه اللطائف نفيسة من أسرار علم القرآن ونسأل الله العظيم أن يجعل الوقوف عليها سببا للفوز بالرحمة والغفران (المسئلة الثانية) قوله وفي الارض قطع متجاورات قال أبو بكر الاصم أرض قريبة من أرض اخرى واحدة طيبة وأخرى سبخة وأخرى حرة وأخرى رملة وأخرى تكون حصباء وأخرى تكون حمراء وأخرى تكون سوداء وبالجملة فاختلاف بقاع الارض في الارتفاع والانخفاض والطباع والخاصية أمر معلوم وفي بعض المصاحف قطعا متجاورات والتقدير وجعل فيها رواسي وجعل في الارض قطعا متجاورات وأما قوله وجنات من أعناب وزرع ونخيل فنقول الجنة البستان الذي يحصل فيه النخل والكرم والزرع وتحفه تلك الاشجار

هايرة لاتشتبه ق لونهم ايات بحسن التمعن والتأمل لم يتعرض لغير تفصيل بعضها على بعض في الاكل الظاهر لكل عاقل
كثيرة مختلفة في الخواص والكيفيات مما يتوقف العثور عليه على نوع تأمل وتفكر كأنه لا حاجة في ذلك

(متجا ر أيضا وفيه ـض بأن المشركين ير عاقلين (وان تعجب) يا محمد من شيء (فعجب) لا أعجب منه حقيق بأن يقصر عليه التعجب (قولهم) بعد مشاهدة ما عدد لك من الآيات الشاهدة بأنه تعالى على كل شيء قدير (أئذا كنا ترابا) على طريقة الاستفهام الانكاري المفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار وهو في محل الرفع على البدلية من قولهم على أنه بمعنى المقول أو في محل النصب على المفعولية منه على أنه مصدر فالعجب على الاول كلامهم وعلى الثاني تكلمهم بذلك والعامل في اذا ما دل عليه قوله (أئنا لفي خلق جديد) وهو نبعث أو نعاد وتقديم الظرف لتقوية الانكار بالبعث بتوجيهه اليه في حالة منافية له وتكرير الهمزة في قولهم أئنا لتأكيد الانكار وليس مدار انكارهم كونهم ثابتين في الخلق الجديد بالفعل عند كونهم ترابا بل كونهم بعرضية ذلك واستعدادهم له وفيه من الدلالة على عتوهم وتماديهم في النكير ما لا يخفى وقيل ﴿ والدليل ﴾
وان تعجب من قولهم في انكار البعث فعجب قولهم والمآل وان تعجب فقد تعجبت في موضع التعجب وقيل
وان تعجب من انكارهم البعث فعجب

والدليل عليه قوله تعالى جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان كلها بالرفع عطفا على قوله وجنات والباقون بالجر عطفا على الاعناب وقرأ حفص عن عاصم في رواية القواس صنوان بضم الصاد والباقون بكسر الصاد وهما لغتان والصنوان جمع صنو مثل قنوان وقنو ويجمع على اصناء مثل اسم وأسماء فاذا كثرت فهو الصنى والصنى بكسر الصاد وفتحها والصنو أن يكون الاصل واحدا وتنبت فيه النخلتان الثلاثة فأكثر فكل واحدة صنو وذكر ثعلب عن ابن الاعرابي الصنو المثل ومنه قوله صلى الله عليه وسلم ألا ان عم الرجل صنو أبيه اى مثله اذا عرفت هذا فنقول اذا فسرنا الصنو بالتفسير الاول كان المعنى ان النخيل منها ما ينبت من أصل واحد شجرتان وأكثر ومنها ما لا يكون كذلك واذا فسرناه بالتفسير الثاني كان المعنى ان أشجار النخيل قد تكون متماثلة متشابهة وقد لا تكون كذلك ثم قال تعالى تسقى بماء واحد قرأ عاصم وابن عامر يسقى بالياء على تقدير يسقى كله أو لتغليب المذكر على المؤنث والباقون بالتاء لقوله جنات قال أبو عمرو ومما يشهد للتأنيث قوله تعالى ونفضل بعضها على بعض في الاكل وقرأ حمزة والكسائي يفضل بالياء عطفا على قوله يدبر ويفصل ويغشي والباقون بالنون على تقدير ونحن نفضل وفي الاكل قولان حكاهما الواحدي حكى عن الزجاج ان الاكل الثمر الذي يؤكل وحكى عن غيره ان الاكل المهيأ للاكل وأقول هذا أولى لقوله تعالى في صفة الجنة أكلها دائم وهو عام في جميع المطعومات وابن كثير ونافع يقرآن الاكل ساكنة الكاف في جميع القرآن والباقون بضم الكاف وهما لغتان * قوله تعالى (وان تعجب فعجب قولهم أإذا كنا ترابا أإنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الاغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) فيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل القاهرة على ما يحتاج اليه في معرفة المبدأ ذكر بعده مسئلة المعاد فقال وان تعجب فعجب قولهم وفيه أقوال الاول قال ابن عباس رضي الله عنهما ان تعجب من تكذيبهم اياك بعد ما كانوا قد حكموا عليك انك من الصادقين فهذا عجب الثاني ان تعجب يا محمد من عبادتهم ما لا يملك لهم نفعا ولا ضرا بعد ما عرفوا الدلائل الدالة على التوحيد فهذا عجب والثالث تقدير الكلام ان تعجب يا محمد فقد عجبت في موضع العجب لانهم لما اعترفوا بأنه تعالى مدبر السموات والارض وخالق الخلائق أجمعين وأنه هو الذي رفع السموات بغير عمد وهو الذي سخر الشمس والقمر على وفق مصالح العباد وهو الذي أظهر في العالم أنواع العجائب والغرائب فمن كانت قدرته وافية بهذه الاشياء العظيمة كيف لا تكون وافية باعادة الانسان بعد موته لان القادر على الاقوى الاكمل لأن يكون قادرا على الاقل الاضعف أولى فهذا تقرير موضع التعجب انه تعالى لما حكى هذا الكلام حكم عليهم بثلاثة أشياء أولها قوله أولئك الذين كفروا

قولهم الدال عليه فتأمل وقد يجوز كون الخطاب لكل من يصلح له أي ان تعجب يا من ينظر في هذه الآيات من قدرة من هذه أفعاله فازدد تعجبا ممن ينكر مع هذه الدلائل قدرته تعالى على البعث وهو اهون من هذه والانسب بقوله ويستعجلونك بالسيئة هو الاول وقوله تعالى فعجب خبر قدم على المبتدأ للقصر والتسجيل من أول الامر بكون قولهم ذلك أمرا عجيبا ويجوز أن يكون مبتدأ لكونه موصوفا بالوصف المقدر كما أشير اليه فالمعنى وان تعجب فالعجب الذي لا عجب وراءه قولهم هذا فاعجب منه وعلى الاول وان تعجب فقولهم هذا عجب لا عجب فوقه (أولئك) مبتدأ والموصول خبره أي أولئك المنكرون لقدرته تعالى على البعث ريثما عاينوا ما فصل من الآيات الباهرة الملجئة لهم الى الايمان لو كانوا يبصرون (الذين كفروا بربهم) وتمادوا في ذلك فان انكارهم لقدرته عز وجل كفر به وأي كفر (وأولئك) مبتدأ خبره قوله (الاغلال في أعناقهم) أي مقيدون بقيود الضلال لا يرجى خلاصهم أو مغلولون يوم القيامة (وأولئك) الموصوفون بما ذكر ن الصفات (أصحاب النار هم فيها خالدون) لا ينفكون عنها وتوسيط ضمير الفصل ليس لتخصيص الخلود كرى البعث خاصة بل بالجميع المدلول عليه بقوله تعالى اولئك الذين كفروا بربهم (ويستعجلونك بالسيئة) بالعقوبة ى أنذروها وذلك حين سألوا رسول الله صلى الله عليه

بربهم وهذا يدل على ان كل من أنكر البعث والقيامة فهو كافر وانما لزم من انكار البعث الكفر بربهم من حيث ان انكار البعث لايتم الا بانكار القدرة والعلم والصدق أما انكار القدرة فكما اذا قيل ان اله العالم موجب بالذات لافاعل بالاختيار فلا يقدر على الاعادة أو قيل انه وان كان قادرا لكنه ليس تام القدرة فلا يمكنه ايجاد الحيوان الا بواسطة الابوين وتأثيرات الطبائع والافلاك وأما انكار العلم فكما اذا قيل انه تعالى غير عالم بالجزئيات فلا يمكنه تمييز هذا المطيع عن العاصى وأما أنكار الصدق فكما اذا قيل انه وان أخبر عنه لكنه لايفعل لان الكذب جائز عليه ولما كان كل هذه الاشياء كفرا ثبت ان انكار البعث كفر بالله * الصفة الثانية قوله وأولئك الاغلال فى أعناقهم وفيه قولان الاول قال أبو بكر الاصم المراد بالاغلال كفرهم وذلتهم وانقيادهم للاصنام ونظيره قوله تعالى انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا قال الشاعر * لهم عن الرشد أغلال واقياد * ويقال للرجل هذا غل فى عنقك للعمل الردىء معناه انه لازم لك وانك مجازى عليه بالعذاب قال القاضى هذا وان كان محتملا الا أن حمل الكلام على الحقيقة أولى وأقول يمكن نصرة قول الاصم بأن ظاهر الآية يقتضى حصول الاغلال فى أعناقهم فى الحال وذلك غير حاصل وأنتم تحملون اللفظ على أنه سيحصل هذا المعنى ونحن نحمله على انه حاصل فى الحال الا أن المراد بالاغلال ماذكرناه فكل واحد منا تارك للحقيقة من بعض الوجوه فلم كان قولكم أولى من قولنا والقول الثانى المراد انه تعالى يجعل الاغلال فى أعناقهم يوم القيامة والدليل عليه قوله تعالى اذ الاغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون والصفة الثالثة قوله تعالى وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون والمراد منه التهديد بالعذاب المخلد المؤبد واحتج أصحابنا رحمهم الله تعالى على أن العذاب المخلد ليس الا للكفار بهذه الآية فقالوا قوله هم فيها خالدون يفيد أنهم هم الموصوفون بالخلود لاغيرهم وذلك يدل على ان أهل الكبائر لايخلدون فى النار (المسئلة الثانية) قال المتكلمون العجب هو الذى لايعرف سببه وذلك فى حق الله تعالى محال فكان المراد وان تعجب فعجب عندك ولقائل أن يقول قرأ بعضهم فى الآية الاخرى باضافة العجب الى نفسه تعالى فحينئذ يجب تأويله وقد بينا ان أمثال هذه الالفاظ يجب تنزيهها عن مبادى الاعراض ويجب حملها على نهايات الاعراض فان الانسان اذا تعجب من الشئ أنكره فكان هذا محمولا على الانكار (المسئلة الثالثة) اختلف القراء فى قوله أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد وأمثاله اذا كان على صورة الاستفهام فى الاول والثانى فمنهم من يجمع بين الاستفهامين فى الحرفين وهم ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة ثم اختلف هؤلاء فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة الا أنه لايمد وابو عمرو يستفهم بهمزة مطولة يمد فيها وحمزة وعاصم بهمزتين فى كل القرآن ومنهم من لايجمع بين الاستفهامين ثم اختلفوا فنافع وابن عامر والكسائى يستفهم فى الاول ويقرأ على الخبر فى الثانى وابن عامر على

وطلبهم أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بانذاره (قبل الحسنة) اى العافية والاحسان اليهم بالامهال (وقد خلت من قبلهم المثلات) اى عقوبات أمثالهم من المكذبين فالهم لايعتبرون بها ولايحترزون حلول مثلها بهم والجملة حالية لبيان ركاكة رأيهم فى الاستعجال بطريق الاستهزاء اى يستعجلونك بها مستهزئين بانذارك منكرين لوقوع ما أنذرتهم اياه والحال انه قد مضت العقوبات النازلة على أمثالهم من المكذبين والمستهزئين والمثلة بوزن السمرة العقوبة سميت بها لما بينها وبين المعاقب عليه من المماثلة ومنه المثال للقصاص وقرئ المثلات بضمتين باتباع الفاء العين والمثلات بفتح الميم وسكون الثاء كما قال السمرة والمثلات بضم الميم وسكون الثاء تخفيف المثلات جمع مثلة كركبة وركبات (وان ربك لذو مغفرة) عظيمة (للناس على ظلمهم) أنفسهم بالذنوب والمعاصى ومحله النصب على الحالية أى ظالمين والعامل فيه المغفرة والمعنى ان ربك لغفور للناس لايعجل لهم العقوبة وان كانوا ظالمين بل يمهلهم بتأخيرها (وان ربك لشديد العقاب) يعاقب من يشاء منهم حين يشاء فتأخير ما استعجلوه ليس للاهمال وعنه عليه الصلاة والسلام ﴿ الخبر ﴾ لولا عفو الله وتجاوزه ماهنأ لاحد العيش ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد (ويقول الذين كفروا) وهم المستعجلون أيضا وانما عدل عن الاضمار الى الموصول ذما لهم ونعيا عليهم

الخبر فى الاول والاستفهام فى الثانى ثم اختلف هؤلاء من وجه آخر فنافع بهمزة غير مطولة وابن عامر والكسائى بهمزتين أما نافع فكذلك الا فى الصافات وكذلك ابن عامر الا فى الواقعة وكذلك الكسائى الا فى العنكبوت والصافات (المسئلة الرابعة) قال الزجاج العامل فى أئذا كنا ترابا محذوف تقديره أئذا كنا ترابا نبعث ودل ما بعده على المحذوف * قوله تعالى (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وان ربك لشديد العقاب) اعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يهددهم تارة بعذاب القيامة وتارة بعذاب الدنيا والقوم كلما هددهم بعذاب القيامة أنكروا القيامة والبعث والحشر والنشر وهو الذى تقدم ذكره فى الآية الاولى وكلما هددهم بعذاب الدنيا قالوا له فجئنا بهذا العذاب وطلبوا منه اظهاره وانزاله على سبيل الطعن فيه واظهار ان الذى يقوله كلام لا أصل له فلهذا السبب حكى الله عنهم انهم يستعجلون الرسول بالسيئة قبل الحسنة والمراد بالسيئة ههنا نزول العذاب عليهم كما قال الله تعالى عنهم فى قوله فأمطر علينا حجارة وفى قوله لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الى قوله او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا وانما قالوا ذلك طعنا منهم فيما ذكره الرسول وكان صلى الله عليه وسلم يعدهم على الايمان بالثواب فى الآخرة وبحصول النصر والظفر فى الدنيا فالقوم طلبوا منه نزول العذاب ولم يطلبوا منه حصول النصر والظفر فهذا هو المراد بقوله ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ومنهم من فسر الحسنة ههنا بالامهال والتأخير وانما سموا العذاب سيئة لانه يسوءهم ويؤذيهم * أما قوله وقد خلت من قبلهم المثلات فاعلم ان العرب يقولون العقوبة مثلة ومثلة مثل صدقة وصدقة فالاولى لغة الحجاز والثانية لغة تميم فمن قال مثلة فجمعه مثلات ومن قال مثلة فجمعه مثلات ومثلات باسكان الثاء هكذا حكاه الواحدى عن الفراء والزجاج وقال ابن الانبارى رحمه الله المثلة العقوبة المبينة فى المعاقب شيئا وهو تغيير تبقى الصورة معه قبيحة وهو من قولهم مثل فلان بفلان اذا قبح صورته اما بقطع أذنه أو أنفه أو سمل عينيه أو بقر بطنه فهذا هو الاصل ثم يقال للعار الباقى والخزى اللازم مثلة قال الواحدى وأصل هذا الحرف من المثل الذى هو الشبه ولما كان الاصل أن يكون العقاب مشابها للمعاقب ومماثلا له لاجرم سمى بهذا الاسم قال صاحب الكشاف قرئ المثلات بضمتين لاتباع الفاء العين والمثلات بفتح الميم وسكون الثاء كما يقال السمرة والمثلات بضم الميم وسكون الثاء تخفيف المثلات بضمتين والمثلات جمع مثلة كركبة وركبات اذا عرفت هذا فنقول معنى الآية ويستعجلونك بالعذاب الذى لم نعاجلهم به وقد علموا ما نزل من عقوباتنا بالامم الخالية فلم يعتبروا بها وكان ينبغى أن يردعهم خوف ذلك عن الكفر اعتبارا بحال من سلف * أما قوله وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم فاعلم ان أصحابنا تمسكوا بهذه الآية على أنه تعالى قد يعفو عن صاحب الكبيرة قبل التوبة ووجه الاستدلال به ان قوله

كفرهم بآيات الله تعالى التى تخر لها صم الجبال حيث لم يرفعوا لها رأسا ولم يعدوها من جنس الآيات وقالوا (لولا أنزل عليه آية من ربه) مثل آيات موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام عنادا ومكابرة والا ففى أدنى آية أنزلت عليه عليه الصلاة والسلام غنية وعبرة لأولى الالباب (انما أنت منذر) مرسل للانذار من سوء عاقبة ما يأتون ويذرون كدأب من قبلك من الرسل وليس عليك الا الاتيان بما يعلم به نبوتك وقد حصل ذلك بما لامزيد عليه ولا حاجة الى الزامهم والقامهم الحجر بالاتيان بما اقترحوا من الآيات (ولكل قوم هاد) معين لا بالذات بل بعنوان الهداية يعنى لكل قوم نبي مخصوص له هداية مخصوصة يقتضى اختصاص كل منهم بما يختص به حكم لا يعلمها الا الله أو لكل قوم هاد عظيم الشان قادر على ذلك هو الله سبحانه وما عليك الا انذارهم فلا يهمنك عنادهم وانكارهم للآيات المنزلة عليك وازدراؤهم بها ثم عقبه بما يدل على كمال علمه وقدرته وشمول قضائه وقدره المبنيين على الحكم والمصالح تنبيها على أن تخصيص كل قوم نبي وكل نبي بجنس معين من الآيات انما هو للحكم الداعية الى ذلك اظهارا لكمال قدرته على هدايتهم لكن لا يهدى الا من تعلق بهدايته مشيئته التابعة لحكم استأثر بعلمها فقال (الله يعلم ما تحمل كل أنثى) اى تحمله فما موصولة أريد بها ما فى بطنها من حين العلوق الى زمن الولادة لا بعد تكامل

انطلق فقط والعلم متعد الى واحد أو أى شئ تحمل وعلى أى حال هو من الاحوال المتواردة عليه طورا فطورا فهى استفهامية معلقة للعلم أو جعلها فهى مصدرية وماتغيض الارحام (وماتزداد) اى تنقص وتزداد فى الجثة كالخديج والتام وفى المدة كالمولود فى أقل مدة الحمل والمولود فى أكثرها وفيما بينهما قيل ان الضحاك ولد فى سنتين وهرم بن حيان فى أربع ومن ذلك سمى هرما وفى العدد كالواحد فما فوقه يروى أن شريكا كان رابع أربعة او يعلم نقصها وازديادها لما فيها فالفعلان متعديان كما فى قوله تعالى وغيض الماء وقوله تعالى وازدادوا تسعا وقوله ونزداد كيل بعير أو لازمان قد أسند الى الارحام مجازا وهما لما فيها (وكل شئ) من الاشياء (عنده بمقدار) بقدر لا يمكن تجاوزه عنه كقوله انا كل شئ خلقناه بقدر فان كل حادث من الاعيان والاعراض له فى كل مرتبة من مراتب التكوين ومباديها وقت معين وحال مخصوص لايكاد يجاوزه والمراد بالعندية الحضور العلمى بل العلم الحضورى فان تحقق الاشياء فى أنفسها فى أى مرتبة كانت من مراتب الوجود والاستعداد لذلك علم له بالنسبة الى الله عز وجل (عالم الغيب) اى الغائب عن الحس (والشهادة) اى الحاضر له عبر عنهما بهما مبالغة وقيل أريد بالغيب المعدوم وبالشهادة الموجود وهو خبر مبتدا محذوف أو خبر بعد خبر وقرئ بالنصب

لذو مغفرة للناس على ظلمهم اى حال اشتغالهم بالظلم كما انه يقال رأيت الامير على أكله أى حال اشتغاله بالاكل فهذا يقتضى كونه تعالى غافر الناس حال اشتغالهم بالظلم ومعلوم ان حال اشتغال الانسان بالظلم لايكون تائبا فدل هذا على انه تعالى قد يغفر الذنب قبل الاشتغال بالتوبة ثم نقول ترك العمل بهذا الدليل فى حق الكفر فوجب أن يبقى معمولا به فى حق أهل الكبيرة وهو المطلوب أو نقول انه تعالى لم يقتصر على قوله وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم بل ذكر معه قوله وان ربك لشديد العقاب فوجب أن يحمل الاول على أصحاب الكبائر وأن يحمل الثانى على أحوال الكفار فان قيل لم لايجوز أن يكون المراد لذو مغفرة لاهل الصغائر لاجل ان عقوبتهم مكفرة ثم نقول لم لايجوز أن يكون المراد ان ربك لذو مغفرة اذا تابوا وانه تعالى انما لايعجل العقاب امهالا لهم فى الاتيان بالتوبة فان تابوا فهو ذو مغفرة لهم ويكون من هذه المغفرة تأخير العقاب الى الآخرة بل نقول يجب حمل اللفظ عليه لان القوم لما طلبوا تعجيل العقاب فالجواب المذكور فيه يجب أن يكون محمولا على تأخير العقاب حتى ينطبق الجواب على السؤال ثم نقول لم لايجوز أن يكون المراد وان ربك لذو مغفرة انه تعالى انما لايعجل العقوبة امهالا لهم فى الاتيان بالتوبة فان تابوا فهو ذو مغفرة وان عظم ظلمهم ولم يتوبوا فهو شديد العقاب والجواب عن الاول أن تأخير العقاب لايسمى مغفرة والا لوجب أن يقال الكفار كلهم مغفور لهم لاجل ان الله تعالى أخر عقابهم الى الآخرة وعن الثانى انه تعالى تمدح بهذا والتمدح انما يحصل بالتفضل أما بأداء الواجب فلا تمدح فيه وعندكم يجب غفران الصغائر وعن الثالث انا بينا ان ظاهر الآية يقتضى حصول المغفرة حال الظلم وبينا ان حال حصول الظلم يمتنع حصول التوبة فسقطت هذه الاسئلة وصح ماذكرناه

* قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه انما أنت منذر ولكل قوم هاد) اعلم أنه تعالى حكى عن الكفار انهم طعنوا فى نبوته بسبب طعنهم فى الحشر والنشر أولا ثم طعنوا فى نبوته بسبب طعنهم فى صحة ما ينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال ثانيا ثم طعنوا فى نبوته بان طلبوا منه المعجزة والبينة ثالثا وهو المذكور فى هذه الآية واعلم ان السبب فيه انهم أنكروا كون القرآن من جنس المعجزات وقالوا هذا كتاب مثل سائر الكتب واتيان الانسان بتصنيف معين وكتاب معين لايكون معجزا البتة وانما المعجز مايكون مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام واعلم أن من الناس من زعم انه لم يظهر معجز فى صدق محمد عليه الصلاة والسلام سوى القرآن قالوا ان هذا الكلام انما يصح اذا طعنوا فى كون القرآن معجزا مع انه ماظهر عليه نوع آخر من المعجزات لان بتقدير أن يكون قد ظهر على يده نوع آخر من المعجزات لامتنع أن يقولوا لولا أنزل عليه آية من ربه فهذا يدل على انه عليه السلام ماكان له معجز سوى القرآن واعلم ان الجواب عنه من وجهين الاول لعل المراد منه طلب معجزات سوى المعجزات التى شاهدوها منه صلى الله

عليه وسلم كحنين الجذع ونبوع الماء من بين أصابعه واشباع الخلق الكثير من الطعام القليل فطلبوا منه معجزات قاهرة غير هذه الامور مثل فلق البحر وقلب العصا ثعبانا فان قيل فما السبب فى ان الله تعالى منعهم وما أعطاهم قلنا انه تعالى لما أظهر المعجزة الواحدة فقد تم الغرض فيكون طلب الباقى تحكما وظهور القرآن معجزة فما كان مع ذلك حاجة الى سائر المعجزات وأيضا فلعله تعالى علم انهم يصرون على العناد بعد ظهور تلك المعجزات الملتمسة وكانوا يصيرون حينئذ مستوجبين لعذاب الاستئصال فلهذا السبب ما أعطاهم الله تعالى مطلوبهم وقد بين الله تعالى ذلك بقوله ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون بين انه لم يعطهم مطلوبهم لعلمه تعالى انهم لا ينتفعون به وأيضا ففتح هذا الباب يفضى الى ما لا نهاية له وهو انه كلما أتى بمعجزة جاء واحد آخر فطلب منه معجزة أخرى وذلك يوجب سقوط دعوة الانبياء عليهم السلام وانه باطل الوجه الثانى فى الجواب لعل الكفار ذكروا هذا الكلام قبل مشاهدة سائر المعجزات * ثم انه تعالى لما حكى عن الكفار ذلك قال انما أنت منذر ولكل قوم هاد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اتفق القراء على التنوين فى قوله هاد وحذف الياء فى الوصل واختلفوا فى الوقف فقرأ ابن كثير بالوقف على الياء والباقون بغير الياء وهو رواية ابن فليح عن ابن كثير للتخفيف (المسئلة الثانية) فى تفسير هذه الآية وجوه الاول المراد ان الرسول عليه السلام منذر لقومه مبين لهم ولكل قوم من قبله هاد ومنذر وداع وانه تعالى سوى بين الكل فى اظهار المعجزة الا أنه كان لكل قوم طريق مخصوص لاجله استحق التخصيص بتلك المعجزة المخصوصة فلما كان الغالب فى زمان موسى عليه السلام هو السحر جعل معجزته ما هو أقرب الى طريقتهم ولما كان الغالب فى أيام عيسى عليه السلام الطب جعل معجزته ما كان من جنس تلك الطريقة وهو احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص ولما كان الغالب فى أيام الرسول صلى الله عليه وسلم الفصاحة والبلاغة جعل معجزته ما كان لائقا بذلك الزمان وهو فصاحة القرآن فلما كان العرب لم يؤمنوا بهذه المعجزة مع كونها أليق بطباعهم فبأن لا يؤمنوا عند اظهار سائر المعجزات أولى فهذا هو الذى قرره القاضى وهو الوجه الصحيح الذى يبقى الكلام معه منتظما والوجه الثانى وهو ان المعنى انهم لا يجحدون كون القرآن معجزا فلا يضيق قلبك بسببه انما أنت منذر فما عليك الا ان تنذر الى أن يحصل الايمان فى صدورهم ولست بقادر عليهم ولكل قوم هاد قادر على هدايتهم بالتخليق وهو الله سبحانه وتعالى فيكون المعنى ليس لك الا الانذار وأما الهداية فمن الله تعالى واعلم أن أهل الظاهر من المفسرين ذكروا ههنا أقوالا الاول المنذر والهادى شىء واحد والتقدير انما أنت منذر ولكل قوم منذر على حدة ومعجزة كل واحد منهم غير معجزة الآخر الثانى المنذر محمد صلى الله عليه وسلم والهادى هو الله تعالى روى ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن جبير ومجاهد والضحاك والثالث

على المدعى وهذا كالدليل على ما قبله من قوله تعالى الله يعلم الخ (الكبير) العظيم الشأن الذى كل شىء دونه (المتعال) المستعلى على كل شىء بقدرته أو المنزه عن نعوت المخلوقات وبعد ما بين سبحانه أنه عالم بجميع أحوال الانسان فى مراتب فطرته ومحيط بعالمى الغيب والشهادة بين أنه تعالى عالم بجميع ما يأتون وما يذرون من الافعال والاقوال وأنه لا فرق بالنسبة اليه بين السر والعلن فقال (سواء منكم من أسر القول) فى نفسه (ومن جهر به) أظهره لغيره (ومن هو مستخف) مبالغ فى الاختفاء كأنه مختف (بالليل) وطالب للزيادة (وسارب) بارز يراه كل أحد (بالنهار) من سرب سروبا أى برز وهو عطف على من هو مستخف أو على مستخف ومن عبارة عن الاثنين كما فى قوله * تعال فان عاهدتنى لا تخوننى نكن مثل من يا ذئب يصطحبان * كأنه قيل سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار والاستواء وان أسند الى من أسر ومن جهر والى المستخفى والسارب لكنه فى الحقيقة مسند الى ما أسره وما جهر به أو الى الفاعل من حيث هو فاعل كما فى الاخيرين وتقديم الاسرار والاستخفاء لا لاظهار كمال علمه تعالى فكأنه فى التعلق بالخفيات أقدم منه بالظواهر والا فنسبته الى الكل سواء لما عرفته آنفا (له) أى لكل من أسر أو جهر والمستخفى أو السارب (معقبات) ملائكة تعقب فى حفظه جمع معقبة من عقبه مبالغة عقبه اذا

المنذر النبي والهادي علي قال ابن عباس رضي الله عنهما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره فقال أنا المنذر ثم أومأ الى منكب علي رضي الله عنه وقال أنت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي ✽ قوله تعالى (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الارحام وما تزداد وكل شئ عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) في وجه النظم وجوه الاول انه تعالى لما حكى عنهم انهم طلبوا آيات أخرى غير ما أتى به الرسول صلى الله عليه وسلم بين انه تعالى عالم بجميع المعلومات فيعلم من حالهم انهم هل طلبوا الآية الاخرى للاسترشاد وطلب البيان أو لاجل التعنت والعناد وهل ينتفعون بظهور تلك الآيات أو يزداد اصرارهم واستكبارهم فلو علم تعالى انهم طلبوا ذلك لاجل الاسترشاد وطلب البيان ومزيد الفائدة لاظهره الله تعالى وما منعهم عنه لكنه تعالى لما علم انهم لم يقولوا ذلك الا لاجل محض العناد لاجرم انه تعالى منعهم عن ذلك وهو كقوله تعالى ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل انما الغيب لله فانتظروا وقوله قل انما الآيات عند الله والثاني ان وجه النظم انه تعالى لما قال وان تعجب فعجب قولهم في انكار البعث وذلك لانهم أنكروا البعث بسبب ان أجزاء أبدان الحيوانات عند تفرقها وتفتتها يختلط بعضها ببعض ولا يبقى الامتياز فبين تعالى انه انما لا يبقى الامتياز في حق من لا يكون عالما بجميع المعلومات أما في حق من كان عالما بجميع المعلومات فانه يبقى تلك الاجزاء بحيث يمتاز بعضها عن البعض ثم احتج على كونه تعالى عالما بجميع المعلومات بأنه يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الارحام الثالث ان هذا متصل بقوله ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة والمعنى انه تعالى عالم بجميع المعلومات فهو تعالى انما ينزل العذاب بحسب ما يعلم كونه فيه مصلحة والله أعلم (المسئلة الثانية) لفظ ما في قوله ما تحمل كل أنثى وما تغيض الارحام وما تزداد اما ان تكون موصولة واما أن تكون مصدرية فان كانت موصولة فالمعنى انه يعلم ما تحمله من الولد انه من أي الاقسام أهو ذكر أم أنثى وتام او ناقص وحسن او قبيح وطويل او قصير وغير ذلك من الاحوال الحاضرة والمترقبة فيه ثم قال وما تغيض الارحام والغيض هو النقصان سواء كان لازما او متعديا يقال غاض الماء وغضته أنا ومنه قوله تعالى وغيض الماء والمراد من الآية وما تغيضه الارحام الا انه حذف الضمير الراجع وقوله وما تزداد أي تأخذه زيادة تقول أخذت منه حقي وازددت منه كذا ومنه قوله تعالى وازدادوا تسعا ثم اختلفوا فيما تغيضه الرحم وتزداده على وجوه الاول عدد الولد فان الرحم قد يشتمل على واحد واثنين وعلى ثلاثة وأربعة يروى ان شريكا كان رابع أربعة في بطن أمه الثاني الولد قد يكون مخدجا وقد يكون تاما الثالث مدة ولادته قد تكون تسعة أشهر وأزيد عليها الى سنتين عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى والى

جاء على عقبه كأن بعضهم يعقب بعضا أو لانهم يعقبون أقواله وأفعاله فيكتبونه أو اعتقب فادغمت التاء في القاف والتاء للمبالغة أو المراد بالمعقبات الجماعات وقرئ معاقيب جمع معقب أو معقبة على تعويض الياء من احدى القافين (من بين يديه ومن خلفه) من جميع جوانبه أو من الاعمال ما قدم وأخر (يحفظونه من أمر الله) من بأسه حين أذنب بالاستمهال والاستغفار له أو يحفظونه من المضار أو يراقبون أحواله من أجل أمر الله تعالى وقد قرئ به وقيل من بمعنى الباء وقيل من أمر الله صفة ثانية لمعقبات وقيل المعقبات الحراس والجلاوزة حول السلطان يحفظونه في توهمه من قضاء الله تعالى (ان الله لا يغير ما بقوم) من النعمة والعافية (حتى يغيروا ما بانفسهم) من الاعمال الصالحة أو ملكاتها التي هي فطرة الله التي فطر الناس عليها الى أضدادها (واذا أراد الله بقوم سوأ) لسوء اختيارهم واستحقاقهم لذلك (فلا مرد له) فلا رد له والعامل في اذا ما دل عليه الجواب (وما لهم من دونه من وال) يلي أمرهم ويدفع عنهم السوء الذي أراده الله بهم بما قدمت أيديهم من تغيير ما بهم وفيه دلالة على أن تخلف مراده تعالى محال وايذان بأنهم بما باشروه من انكار البعث واستعجال السيئة واقتراح الآية قد غيروا ما بأنفسهم من الفطرة واستحقوا لذلك حلول غضب الله تعالى وعذابه (هو الذي يريكم البرق خوفا) من الصاعقة (وطمعا)

في المطر فوجه تقديم الخوف على الطمع ظاهر لما أن المخوف عليه النفس أو الرزق العتيد والمطموع فيه الرزق المترقب وقيل الخوف أيضا من المطر لكن الخائف منه غير الطامع فيه كالخراف والحراث ويأباه الترتيب اللهم الا أن يتكلف ما أشير اليه من أن المخوف عتيد والمطموع فيه مترقب وانتصابهما على المصدرية اى فتخافون خوفا وتطمعون طمعا أو على الحالية من البرق أو المخاطبين باضمار ذوى أو بجعل المصدر بمعنى المفعول أو الفاعل مبالغة أو على العلية بتقدير المضاف أى ارادة خوف وطمع أو بتأويل الاخافة والاطماع ليتحد فاعل العلة والفعل المعلل وأما جعل المعلل هى الرؤية التى تضمنها الاراءة على طريقة قول النابغة * وحلت بيوتى في يفاع ممنع * تخال به راعى الحمولة طائرا * حذارا على أن لا ينال معاونى * ولا نسوتى حتى يمتن حرائرا * أى احللت بيوتى حذارا فلا سبيل اليه لان ما وقع فى معرض العلة الغائية لاسيما الخوف لا يصلح علة لرؤيتهم (وينشئ السحاب) الغمام المنسحب فى الجو (الثقال) بالماء وهى جمع ثقيلة وصف بها السحاب لكونها اسم جنس فى معنى الجمع والواحدة سحابة يقال سحابة ثقيلة وسحاب ثقال كما يقال امرأة كريمة ونسوة كرام (ويسبح الرعد) أى سامعوه من العباد الراجين للمطر ملتبسين (بحمده) أى يضجون بسبحان الله والحمد لله واسناده الى الرعد لحمله

أربعة عند الشافعى والى خمس عند مالك وقيل ان الضحاك ولد لسنتين وهرم بن حيان بقى فى بطن امه أربع سنين ولذلك سمى هرما الرابع الدم فانه تارة يقل وتارة يكثر الخامس ما ينقص بالسقط من غير أن يتم وما يزداد بالتمام السادس ما ينقص بظهور دم الحيض وذلك لانه اذا سال الدم فى وقت الحمل ضعف الولد ونقص وبمقدار حصول ذلك النقصان يزداد أيام الحمل لتصير هذه الزيادة جابرة لذلك النقصان قال ابن عباس رضى الله عنهما كلما سال الحيض فى وقت الحمل يوما زاد فى مدة الحمل يوما ليحصل به الجبر ويعتدل الامر السابع ان دم الحيض فضلة تجتمع فى بطن المرأة فاذا امتلأت عروقها من تلك الفضلات فاضت وخرجت وسالت من دواخل تلك العروق ثم اذا سالت تلك المواد امتلأت تلك العروق مرة أخرى هذا كله اذا قلنا ان كلمة ما موصولة أما اذا قلنا انها مصدرية فالمعنى انه تعالى يعلم حمل كل أنثى ويعلم غيض الارحام وازديادها لا يخفى عليه شئ من ذلك ولا من أوقاته وأحواله وأما قوله تعالى وكل شئ عنده بمقدار فمعناه بقدر وحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه كقوله انا كل شئ خلقناه بقدر وقوله فى أول الفرقان وخلق كل شئ فقدره تقديرا واعلم ان قوله كل شئ عنده بمقدار يحتمل أن يكون المراد من العندية العلم ومعناه انه تعالى يعلم كمية كل شئ وكيفيته على الوجه المفصل المبين ومتى كان الامر كذلك امتنع وقوع التغيير فى تلك المعلومات ويحتمل أن يكون المراد من العندية انه تعالى خصص كل حادث بوقت معين وحالة معينة بمشيئته الازلية وارادته السرمدية وعند حكماء الاسلام انه تعالى وضع أشياء كلية وأودع فيها قوى وخواص وحركها بحيث يلزم من حركاتها المقدرة بالمقادير المخصوصة أحوال جزئية معينة ومناسبات مخصوصة مقدرة ويدخل فى هذه الآية أفعال العباد وأحوالهم وخواطرهم وهو من أدل الدلائل على بطلان قول المعتزلة ثم قال تعالى عالم الغيب والشهادة قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد علم ما غاب عن خلقه وما شهدوه قال الواحدى فعلى هذا الغيب مصدر يريد به الغائب والشهادة أراد بها الشاهد واختلفوا فى المراد بالغائب والشاهد قال بعضهم الغائب هو المعلوم والشاهد هو الموجود وقال آخرون الغائب ما غاب عن الحس والشاهد ما حضر وقال آخرون الغائب ما لا يعرفه الخلق والشاهد ما يعرفه الخلق ونقول المعلومات قسمان المعدومات والموجودات والمعدومات منها معدومات يمتنع وجودها ومنها معدومات لا يمتنع وجودها والموجودات أيضا قسمان موجودات يمتنع عدمها وموجودات لا يمتنع عدمها وكل واحد من هذه الاقسام الاربعة له أحكام وخواص والكل معلوم لله تعالى وحكى الشيخ الامام الوالد عن أبى القاسم الانصارى عن امام الحرمين رحمهم الله تعالى انه كان يقول لله تعالى معلومات لا نهاية لها وله فى كل واحد من تلك المعلومات معلومات أخرى لا نهاية لها لان الجوهر الفرد يعلم الله تعالى من حاله انه يمكن وقوعه فى أحياز لا نهاية لها على البدل وموصوفا بصفات لا نهاية لها على البدل وهو

لهم على ذلك أو يسبح الرعد نفسه على أن تسبيحه عبارة عن دلالته على وحدانيته تعالى وفضله المستوجب لحمده وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يقول سبحان ﴿ ٢٧٤ ﴾ من يسبح الرعد بحمده واذا اشتد يقول اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك وعن علي رضي الله عنه سبحان من سبحت له وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان اليهود سألت النبي عليه الصلاة والسلام عن الرعد فقال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب وعن الحسن خلق من خلق الله تعالى ليس بملك (والملائكة) أي يسبح الملائكة (من خيفته) من هيبته واجلاله جل جلاله وقيل الضمير للرعد (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) فيهلكه بذلك (وهم) أي الكفرة المخاطبون في قوله تعالى هو الذي يريكم البرق وقد التفت الى الغيبة ايذانا باسقاطهم عن درجة الخطاب واعراضا عنهم وتعديدا لجناياتهم لدى كل من يستحق الخطاب كأنه قيل هو الذي يفعل أمثال هذه الافاعيل العجيبة من اراءة البرق وانشاء السحاب الثقال وارسال الصواعق الدالة على كمال علمه وقدرته ويعقلها من يعقلها من المؤمنين ﴿ سواء ﴾ أو الرعد نفسه أو الملك الموكل به والملائكة ويعملون بموجب ذلك من التسبيح والحمد والخوف من هيبته تعالى وهم أي الكفرة الذين حكيت هناتهم مع ذلهم وهوانهم وحقارة شأنهم (يجادلون في الله)

تعالى عالم بكل الاحوال على التفصيل وكل هذه الاقسام داخل تحت قوله تعالى عالم الغيب والشهادة ثم انه تعالى ذكر عقيبه قوله الكبير وهو تعالى يمتنع أن يكون كبيرا بحسب الجثة والحجم والمقدار فوجب أن يكون كبيرا بحسب القدرة والمقادير الالهية ثم وصف تعالى نفسه بأنه المتعال وهو المنزه عن كل ما لا يجوز عليه وذلك يدل على كونه منزها في ذاته وصفاته وأفعاله فهذه الآية دالة على كونه تعالى موصوفا بالعلم الكامل والقدرة التامة ومنزها عن كل ما لا ينبغي وذلك يدل على كونه تعالى قادرا على البعث الذي انكروه وعلى الآيات التي اقترحوها وعلى العذاب الذي استعجلوه وانه انما يؤخر ذلك بحسب المشيئة الالهية عند قوم وبحسب المصلحة عند آخرين وقرأ ابن كثير المتعالي باثبات الياء في الوقف والوصل على الاصل والباقون بحذف الياء في الحالتين للتخفيف ثم انه تعالى أكد بيان كونه عالما بكل المعلومات فقال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لفظ سواء يطلب اثنين تقول سواء زيد وعمرو ثم فيه وجهان الاول أن سواء مصدر والمعنى ذو سواء كما تقول عدل زيد وعمرو أي ذوا عدل الثاني أن يكون سواء بمعنى مستو وعلى هذا انه لا تقدير فلا حاجة الى الاضمار الا أن سيبويه يستقبح أن يقول مستو زيد وعمرو لأن اسماء الفاعلين اذا كانت نكرات لا يبدأ بها ولقائل أن يقول بل هذا الوجه أولى لأن حمل الكلام عليه يغني عن التزام الاضمار الذي هو خلاف الاصل (المسئلة الثانية) في المستخفي والسارب قولان الاول يقال أخفيت الشيء اخفيه اخفاء فخفي واستخفى فلان من فلان أي توارى واستتر وقوله وسارب بالنهار قال الفراء والزجاج ظاهر بالنهار في سربه أي طريقه يقال خلاله سربه أي طريقه وقال الازهري تقول العرب سربت الابل تسرب سربا أي مضت في الارض ظاهرة حيث شاءت فاذا عرفت ذلك فمعنى الآية سواء كان الانسان مستخفيا في الظلمات أو كان ظاهرا في الطرقات فعلم الله تعالى محيط بالكل قال ابن عباس رضي الله عنهما سواء ما أضمرته القلوب وأظهرته الالسنة وقال مجاهد سواء من يقدم على القبائح في ظلمات الليالي ومن يأتي بها في النهار الظاهر على سبيل التوالي والقول الثاني نقله الواحدي عن الاخفش وقطرب انه قال المستخفي الظاهر والسارب المتواري ومنه يقال خفيت الشيء واخفيته أي اظهرته واختفيت الشيء استخرجته ويسمى النباش المستخفي والسارب المتواري ومنه يقال للداخل سربا وانسرب الوحش اذا دخل في السرب أي في كناسه قال الواحدي وهذا الوجه صحيح في اللغة الا أن الاختيار هو الوجه الاول لاطباق أكثر المفسرين عليه وأيضا فالليل يدل على الاستتار والنهار على الظهور والانتشار * قوله تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له وما لهم من دونه من وال) اعلم أن الضمير في له عائد الى من في قوله

سواء منكم من اسر القول ومن جهر به وقيل على اسم الله فى عالم الغيب والشهادة والمعنى لله معقبات واما المعقبات فيجوز أن يكون أصل هذه الكلمة معتقبات فأدغمت التاء فى القاف كقوله وجاء المعذرون من الاعراب والمراد المعتذرون ويجوز أن يكون من عقبه اذا جاء على عقبه فاسم المعقب من كل شئ ما خلفه يعقب ما قبله والمعنى فى كلا الوجهين واحد اذا عرفت هذا فنقول فى المراد بالمعقبات قولان الاول وهو المشهور الذى عليه الجمهور أن المراد منه الملائكة الحفظة وانما صح وصفهم بالمعقبات اما لاجل أن ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار وبالعكس واما لاجل انهم يتعقبون أعمال العباد ويتبعونها بالحفظ والكتب وكل من عمل عملا ثم عاد اليه فقد عقب فعلى هذا المراد من المعقبات ملائكة الليل وملائكة النهار روى عن عثمان رضى الله عنه انه قال يارسول الله اخبرنى عن العبد كم معه من ملك فقال عليه السلام ملك عن يمينك يكتب الحسنات وهو أمين على الذى على الشمال فاذا عملت حسنة كتبت عشرا واذا عملت سيئة قال الذى على الشمال لصاحب اليمين اكتب فيقول لا لعله يتوب فاذا قال ثلاثا قال نعم اكتب أراحنا الله منه فبئس القرين ما أقل مراقبته لله تعالى واستحياءه منا وملكان من بين يديك ومن [illegible] فهو قوله تعالى له معقبات من بين يديه ومن خلفه وملك قابض على ناصيتك فاذا [illegible] بك رفعك وان تجبرت قصمك وملكان على شفتك يحفظان عليك الصلاة على وملك على فيك لايدع ان تدخل الحية فى فيك وملكان على عينيك فهؤلاء عشرة املاك على كل آدمى تبدل ملائكة الليل بملائكة النهار فهم عشرون ملكا على كل آدمى وعنه صلى الله عليه وسلم يتعاقب فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر وهو المراد من قوله وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا قيل تصعد ملائكة الليل وهى عشرة وتنزل ملائكة النهار وقال ابن جريج هو مثل قوله تعالى عن اليمين وعن الشمال قعيد صاحب اليمين يكتب الحسنات والذى عن يساره يكتب السيآت وقال مجاهد ما من عبد الا وله ملك يحفظه من الجن والانس والهوام فى نومه ويقظته وفى الآية سؤالات (السؤال الاول) الملائكة ذكور فلم ذكر فى جمعها جمع الاناث وهو المعقبات والجواب فيه قولان الاول قال الفراء المعقبات ذكران جمع ملائكة معقبة ثم جمعت معقبة بمعقبات كما قيل ابناوات سعد ورجالات بكر جمع رجال والذى يدل على التذكير قوله يحفظونه والثانى وهو قول الاخفش انما أنثت لكثرة ذلك منها نحو نسابة وعلامة وهو ذكر (السؤال الثانى) ما المراد من كون أولئك المعقبات من بين يديه ومن خلفه والجواب أن المستخفى بالليل والسارب بالنهار قد أحاط به هؤلاء المعقبات فيعدون عليه أعماله وأقواله بتمامها ولا يشذ من تلك الاعمال والاقوال من حفظهم شئ أصلا وقال بعضهم بل المراد يحفظونه من جميع المهالك من بين يديه ومن خلفه لان السارب بالنهار اذا سعى فى مهماته فانما يحذر من بين

أى فى شأنه تعالى حيث يفعلون ما يفعلون من انكار البعث واستعجال العذاب استهزاء واقتراح الآيات فالواو لعطف الجملة على ما قبلها من قوله تعالى هو الذى يريكم البرق الخ أو على قوله الله يعلم ما تحمل الخ وأما العطف على قوله تعالى ويقول الذين كفروا كما قيل فلا مجال له لان قوله تعالى الله يعلم الخ استئناف لبيان بطلان قولهم ذلك ونظائره من استعجال العذاب وانكار البعث قاطع لعطف ما بعده على ما قبله وقيل للحال أى فيصيب بالصواعق من يشاء وهم فى الجدال وقد أريد به ما أصاب أربد بن ربيعة أخا لبيد فانه أقبل مع عامر بن الطفيل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبغيانه الغوائل فدخلا المسجد وهو عليه الصلاة والسلام جالس فى نفر من الاصحاب رضى الله عنهم فاستشرفوا لجمال عامر وكان من أجمل الناس وقد كان أوصى الى اربد انه اذا رأيتنى اكلم محمدا عليه الصلاة والسلام فدر من خلفه واضربه بالسيف فجعل يكلمه عليه الصلاة والسلام فدار أربد من خلفه عليه الصلاة والسلام فاخترط من سيفه شبرا فحبسه الله تعالى فلم يقدر على سله وجعل عامر يومئ اليه فرأى النبى عليه الصلاة والسلام الحال فقال اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله عز وجل على اربد صاعقة فى يوم صحو صائف فاحرقته وولى عامر هاربا فنزل فى بيت امرأة سلولية فلما أصبح ضم عليه سلاحه وتغير لونه وركب فرسه فجعل يركض فى الصحراء ويقول ابرز يا ملك الموت ويقول

يديه ومن خلفه (السؤال الثالث) ما المراد من قوله من أمر الله والجواب ذكر الفراء فيه قولين الاول انه على التقديم والتأخير والتقدير له معقبات من أمر الله يحفظونه والثانى ان فيه اضمارا أى ذلك الحفظ من أمر الله أى مما أمر الله به فحذف الاسم وأبقى خبره كما يكتب على الكيس ألفان والمراد الذى فيه ألفان والقول الثالث ذكره ابن الانبارى ان كلمة من معناها الباء والتقدير يحفظونه بأمر الله وباعانته والدليل على انه لا بد من المصير اليه أنه لا قدرة للملائكة ولا لاحد من الخلق على أن يحفظوا أحدا من أمر الله ومما قضاه عليه (السؤال الرابع) ما الفائدة فى جعل هؤلاء الملائكة موكلين علينا والجواب أن هذا الكلام غير مستبعد وذلك لان المنجمين اتفقوا على ان التدبير فى كل يوم لكوكب على حدة وكذا القول فى كل ليلة ولا شك ان تلك الكواكب لها أرواح عندهم فتلك التدبيرات المختلفة فى الحقيقة لتلك الارواح وكذا القول فى تدبير القمر والهيلاج والكدخدا على ما يقوله المنجمون وأما أصحاب الطلسمات فهذا الكلام مشهور فى ألسنتهم ولذلك تراهم يقولون أخبرنى الطباعى التام ومرادهم بالطباعى التام ان لكل انسان روحا فلكية يتولى اصلاح مهماته ودفع بلياته وآفاته واذا كان هذا متفقا عليه بين قدماء الفلاسفة وأصحاب الاحكام فكيف يستبعد مجيئه من الشرع وتمام التحقيق فيه ان الارواح البشرية مختلفة فى جواهرها وطبائعها فبعضها خيرة وبعضها شريرة وبعضها معزة وبعضها مذلة وبعضها قوية القهر والسلطان وبعضها ضعيفة سخيفة وكما أن الامر فى الارواح البشرية كذلك فكذا القول فى الارواح الفلكية ولا شك أن الارواح الفلكية فى كل باب وكل صفة اقوى من الارواح البشرية وكل طائفة من الارواح البشرية تكون متشاركة فى طبيعة خاصة وصفة مخصوصة لما انها تكون فى تربية روح من الارواح الفلكية مشاكلة لها فى الطبيعة والخاصية وتكون تلك الارواح البشرية كأنها أولاد لذلك الروح الفلكى ومتى كان الامر كذلك كان ذلك الروح الفلكى معينا لها على مهماتها ومرشدا لها الى مصالحها وعاصما لها عن صنوف الآفات فهذا كلام ذكره محققو الفلاسفة واذا كان الامر كذلك علمنا أن الذى وردت به الشريعة أمر مقبول عند الكل فكيف يمكن استنكاره من الشريعة * ثم فى اختصاص هؤلاء الملائكة وتسلطهم على بنى آدم فوائد كثيرة سوى التى مر ذكرها من قبل الاول أن الشياطين يدعون الى الشرور والمعاصى وهؤلاء الملائكة يدعون الى الخيرات والطاعات والثانى قال مجاهد ما من عبد الا ومعه ملك يحفظه من الجن والانس والهوام فى نومه ويقظته الثالث أنا نرى أن الانسان قد يقع فى قلبه داع قوى من غير سبب ثم يظهر بالآخرة ان وقوع تلك الداعية فى قلبه كان سببا من أسباب مصالحه وخيراته وقد ينكشف أيضا بالآخرة انه كان سببا لوقوعه فى آفة أو فى معصية فيظهر ان الداعى الى الامر الاول كان مريدا للخير والراحة والى الامر الثانى كان مريدا للفساد والمحنة والاول هو الملك

الشعر و يقول واللات لئن أصحر لى محمد وصاحبه يعنى ملك الموت لانفذتهما برمحى فارسل الله تعالى ملكا فلطمه بجناحه فأرداه فى التراب فخرجت على ركبته فى الوقت غدة عظيمة فعاد الى بيت السلولية وهو يقول غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية ثم دعا بفرسه فركبه فأجراه حتى مات على ظهره وقيل أريد به ماروى عن الحسن أنه كان رجل من طواغيت العرب فبعث النبى عليه الصلاة والسلام نفرا من أصحابه يدعونه الى الله عز وجل فقال لهم أخبرونى عما تدعوننى اليه ماهو ومم هو من ذهب أم من فضة أم من نحاس أم من حديد أم من در فاستعظموا مقالته فرجعوا الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا ما رأينا رجلا اكفر قلبا ولا اعتى على الله منه فقال عليه الصلاة والسلام ارجعوا اليه فرجعوا اليه فما زاد الا مقالته الاولى وأخبث فرجعوا اليه عليه الصلاة والسلام وأخبروه بما صنع فقال عليه الصلاة والسلام ارجعوا اليه فرجعوا اليه فبينماهم عنده ينازعونه اذا ارتفعت سحابة ورعدت وبرقت ورمت بصاعقة فاحترق الكافر فجاؤا يسعون ليخبروه عليه الصلاة والسلام بالخبر فاستقبلهم الاصحاب فقالوا احترق صاحبكم قالوا من اين علمتم قالوا أوحى الى النبى صلى الله عليه وسلم (وهو شديد المحال) أى والحال أنه شديد المماحلة والمكايدة والمماكرة لاعدائه من محله اذا كاده وعرضه للهلاك ومنه تمحل

الهادى والثانى هو الشيطان المغوى الرابع أن الانسان اذا علم أن الملائكة تحصى عليه أعماله كان الى الحذر من المعاصى أقرب لان من آمن يعتقد جلالة الملائكة وعلو مراتبهم فاذا حاول الاقدام على معصية واعتقد أنهم يشاهدونها زجره الحياء منهم عن الاقدام عليها كما يزجره عنها اذا حضره من يعظمه من البشر واذا علم أن الملائكة تحصى عليه تلك الاعمال كان ذلك أيضا رادعا له عنها واذا علم أن الملائكة يكتبونها كان الردع أكمل (السؤال الخامس) ما الفائدة فى كتبة أعمال العباد قلنا ههنا مقامات الاول ان تفسير الكتبة بالمعنى المشهور من الكتبة قال المتكلمون الفائدة فى تلك الصحف وزنها ليعرف رجحان احدى الكفتين على الاخرى فانه اذا رجحت كفة الطاعات ظهر للخلائق انه من أهل الجنة وان كان بالضد فبالضد قال القاضى هذا بعيد لان الادلة قد دلت على أن كل واحد قبل مماته عند المعاينة يعلم انه من السعداء أو من الاشقياء فلا يتوقف حصول تلك المعرفة على الميزان ثم أجاب القاضى عن هذا الكلام وقال لا يمتنع أيضا ما روينا لامر يرجع الى حصول سروره عند الخلق العظيم انه من أولياء الله فى الجنة وبالضد من ذلك فى أعداء الله والمقام الثانى وهو قول حكماء الاسلام أن الكتابة عبارة عن نقوش مخصوصة وضعت بالاصطلاح لتعريف المعانى المخصوصة فلو قدرنا كون تلك النقوش دالة على تلك المعانى لاعيانها وذواتها كانت تلك الكتبة أقوى وأكمل اذا ثبت هذا فنقول ان الانسان اذا أتى بعمل من الاعمال مرات وكرات كثيرة متوالية حصل فى نفسه بسبب تكررها ملكة قوية راسخة فان كانت تلك الملكة ملكة سارة بالاعمال النافعة فى السعادات الروحانية عظم ابتهاجه بها بعد الموت وان كانت تلك الملكة ملكة ضارة فى الاحوال الروحانية عظم تضرره بها بعد الموت اذا ثبت هذا فنقول ان التكرير الكثير لما كان سببا لحصول تلك الملكة الراسخة كان لكل واحد من الاعمال المتكررة أثر فى حصول تلك الملكة الراسخة وذلك الاثر وان كان غير محسوس الا أنه حاصل فى الحقيقة واذا عرفت هذا ظهر انه لا يحصل للانسان لمحة ولا حركة ولا سكون الا ويحصل منه فى جوهر نفسه أثر من آثار السعادة أو آثارها الشقاوة قل أو كثر فهذا هو المراد من كتبة الاعمال عند هؤلاء والله أعلم بحقائق الامور هذا كله اذا فسرنا قوله تعالى له معقبات من بين يديه ومن خلفه بالملائكة ❊ القول الثانى وهو أيضا منقول عن ابن عباس رضى الله عنهما واختاره أبو مسلم الاصفهانى المراد انه يستوى فى علم الله تعالى السر والجهر والمستخفى بظلمة الليل والسارب بالنهار المستظهر بالمعاونين والانصار وهم الملوك والامراء فمن لجأ الى الليل فلن يفوت الله أمره ومن سار نهارا بالمعقبات وهم الاحراس والاعوان الذين يحفظونه لم ينجه احراسه من الله تعالى والمعقب العون لانه اذا أبصر هذا ذاك فلا بد ان يبصر ذاك هذا فتصير بصيرة كل واحد منهم معاقبة لبصيرة الآخر فهذه المعقبات لا تخلص من قضاء الله ومن قدره وهم وان ظنوا أنهم يخلصون

اذا تكلف استعمال الحيل وقيل هو محال من المحل بمعنى القوة وقيل محول من الحول أو الحيلة أعل على غير قياس ويعضده أنه قرئ بفتح الميم على انه مفعل من حال يحول اذا احتال ويجوز أن يكون بمعنى الفقار فيكون مثلا فى القوة والقدرة كقولهم فساعد الله أشد وموساه أحد (له دعوة الحق) أى الدعوة الثابتة الواقعة فى محلها المجابة عند وقوعها والاضافة للايذان بملابستها الحق واختصاصها به وكونه بمعزل من شائبة البطلان والضياع والضلال كما يقال كلمة الحق وقيل لهدعوة الله سبحانه أى الدعوة اللائقة بحضرته كما فى قوله عليه الصلاة والسلام فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله والتعرض لوصف الحقية لتربية معنى الاستجابة والاولى هو الاول لقوله تعالى وما دعاء الكافرين الا فى ضلال وتعلق الجملتين بما قبلهما من حيث ان اهلاك أربد وعامر محال من الله تعالى واجابة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما ان كانت الآية نزلت فى شانهما أو من حيث انه وعيد للكفرة على مجادلة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلول محاله بهم وتحذير لهم باجابة دعوته عليهم (والذين يدعون) أى الاصنام الذين يدعوهم المشركون فحذف العائد (من دونه) من دون الله عز وجل (لا يستجيبون لهم بشئ) من طلباتهم (الا كباسط كفيه الى الماء) أى الا استجابة كائنة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه اليه من بعيد فالاستجابة مصدر من

يخذوهم من أمر الله ومن قضائه فانهم لا يقدرون على ذلك البتة والمقصود من هذا الكلام بعث السلاطين والامراء والكبراء على أن يطلبوا الخلاص من المكاره عن حفظ الله وعصمته ولا يعولوا فى دفعها على الاعوان والانصار ولذلك قال تعالى بعده واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له ومالهم من دونه من وال * أما قوله تعالى ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فكلام جميع المفسرين يدل على أن المراد لا يغير ماهم فيه من النعم بانزال الانتقام الا بأن يكون منهم المعاصى والفساد قال القاضى والظاهر لا يحتمل الا هذا المعنى لانه لاشئ مما يفعله تعالى سوى العقاب الا وقد يبتدئ به فى الدنيا من دون تغيير يصدر من العبد فيما تقدم لانه تعالى ابتدأ بالنعم دينا ودنيا ويفضل فى ذلك من شاء على من يشاء فالمراد مما ذكره الله تعالى التغيير بالهلاك والعقاب ثم اختلفوا فبعضهم قال هذا الكلام راجع الى قوله ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة فبين تعالى انه لا ينزل بهم عذاب الاستئصال الا والمعلوم منهم الاصرار على الكفر والمعصية حتى قالوا اذا كان المعلوم ان فيهم من يؤمن أو فى عقبه من يؤمن فانه تعالى لا ينزل عليهم عذاب الاستئصال وقال بعضهم بل الكلام يجرى على اطلاقه والمراد منه أن كل قوم بالغوا فى الفساد وغيروا طريقتهم فى اظهار عبودية الله تعالى فان الله يزيل عنهم النعم وينزل عليهم أنواعا من العذاب وقال بعضهم ان المؤمن الذى يكون مختلطا باولئك الاقوام فربما دخل فى ذلك العذاب روى عن أبى بكر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب واحتج أبو على الجبائى والقاضى بهذه الآية فى مسئلتين (المسئلة الاولى) انه تعالى لا يعاقب اطفال المشركين بذنوب آبائهم لانهم لم يغيروا ما بأنفسهم من نعمة فيغير الله حالهم من النعمة الى العذاب (المسئلة الثانية) قالوا الآية تدل على بطلان قول المجبرة انه تعالى يبتدئ العبد بالضلال والخذلان أول ما يبلغ وذلك أعظم من العقاب مع انه ما كان منه تغيير والجواب ان ظاهر هذه الآية يدل على ان فعل الله فى التغيير مؤخر عن فعل العبد الا ان قوله تعالى وما تشاؤن الا أن يشاء الله يدل على ان فعل العبد مؤخر عن فعل الله تعالى فوقع التعارض وأما قوله واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له فقد احتج أصحابنا به على ان العبد غير مستقل فى الفعل قالوا وذلك لانه اذا كفر العبد فلا شك انه تعالى يحكم بكونه مستحقا للذم فى الدنيا والعقاب فى الآخرة فلو كان العبد مستقلا بتحصيل الايمان لكان قادرا على رد ما أراده الله تعالى وحينئذ يبطل قوله واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له فثبت ان الآية السابقة وان اشعرت بمذهبهم الا أن هذه الآية من أقوى الدلائل على مذهبنا قال الضحاك عن ابن عباس لم تغن المعقبات شيئا وقال عطاء عنه لا راد لعذابى ولا ناقض لحكمى وما لهم من دونه من وال أى ليس لهم من دون الله من يتولاهم ويمنع قضاء الله عنهم والمعنى ما لهم وال يلى أمرهم ويمنع العذاب عنهم * قوله

المبنى للفاعل على ما يقتضيه الفعل الظاهر أعنى لا يستجيبون ويجوز أن يكون من المبنى للمفعول ويضاف الى الباسط بناء على استلزام المصدر من المبنى للفاعل للمصدر من المبنى للمفعول وجودا وعدما فكأنه قيل لا يستجيبون لهم بشئ فلا يستجاب لهم الا استجابة كائنة كاستجابة من بسط كفيه الى الماء كما فى قوله * وعض دهر يا ابن مروان لم تدع * من المال الا مسحت او مجلف * أى لم تدع فلم يبق الا مسحت او مجلف (ليبلغ) أى الماء بنفسه من غير أن يؤخذ بشئ من اناء ونحوه (فاه وما هو) أى الماء (ببالغه) ببالغ فيه أبدا لكونه جمادا لا يشعر بعطشه ولا ببسط يديه اليه فضلا عن الاستطاعة لما أراده من البلوغ الى فيه شبه حال المشركين فى عدم حصولهم فى دعاء آلهتهم على شئ أصلا وركاكة رأيهم فى ذلك بحال عطشان هائم لا يدرى ما يفعل قد بسط كفيه من بعيد الى الماء يبغى وصوله الى فيه من غير ملاحظة التشبيه فى جميع مفردات الاطراف فان الماء فى نفسه شئ نافع بخلاف آلهتهم والمراد نفى الاستجابة رأسا الا أنه قد أخرج الكلام مخرج التهكم بهم فقيل لا يستجيبون لهم شيئا من الاستجابة الا استجابة كائنة فى هذه الصورة التى ﴿ تعالى ﴾ ليست فيها شائبة الاستجابة قطعا فهو فى الحقيقة من باب التعليق بالمحال وقرئ تدعون بالتاء وكباسط بالتنوين (وما دعاء الكافرين الا فى ضلال)

أي ذهاب وضياع وخسار (ولله) وحده (يسجد) يخضع وينقاد لا لشيء غيره استقلالا ولا اشتراكا فالقصر ينتظم القلب والافراد (من في السموات والأرض) من الملائكة والثقلين (طوعا وكرها) أي طائعين وكارهين وانقياد طوع وكره أو حاله طوع وكره فان خضوع الكل لعظمة الله عز وجل وانقيادهم لاحداث ما أراده فيهم من أحكام التكوين والاعدام شاؤا أو أبوا وعدم مداخلة حكم غيره بل غير حكمه تعالى في تلك الشؤون مما لا يخفى على أحد (وظلالهم) أي وتنقاد له تعالى ظلال من له ظل منهم أعني الانس حيث تتصرف على مشيئته وتتأتى لارادته في الامتداد والتقلص والفيء هو الزوال (بالغدو والآصال) ظرف للسجود المقدر أو حال من الظلال وتخصيص الوقتين بالذكر مع أن انقيادها متحقق في جميع أوقات وجودها لظهور ذلك فيهما والغدو جمع غداة كقنى في جمع قناة والآصال جمع أصيل وقيل جمع أصل وهو جمع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب وقيل الغدو مصدر ويؤيده انه قرئ والايصال أي الدخول في الاصيل هذا وقد قيل ان المراد حقيقة السجود فان الكفرة حال الاضطرار وهو المعنى بقوله تعالى وكرها يخصون السجود به سبحانه قال تعالى فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ولا يبعد أن يخلق الله تعالى في الظلال أفهاما وعقولا بها تسجد لله سبحانه كما خلقها للجبال حتى اشتغلت بالتسبيح وظهر

تعالى (هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال) اعلم أنه تعالى لما خوف العباد بانزال ما لا مرد له أتبعه بذكر هذه الآيات وهي مشتملة على أمور ثلاثة وذلك لانها دلائل على قدرة الله تعالى وحكمته وانها تشبه النعم والاحسان من بعض الوجوه وتشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه واعلم انه تعالى ذكر ههنا أمورا أربعة الاول البرق وهو قوله تعالى يريكم البرق خوفا وطمعا وفيه مسائل (المسألة الاولى) قال صاحب الكشاف في انتصاب قوله خوفا وطمعا وجوه الاول لا يصح أن يكونا مفعولا لهما لانهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلل الا على تقدير حذف المضاف أي ارادة خوف وطمع أو على معنى اخافة واطماعا الثاني يجوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق كأنه في نفسه خوف وطمع والتقدير ذا خوف وذا طمع أو على معنى اخافا واطماعا الثالث أن يكونا حالا من المخاطبين أي خائفين وطامعين (المسألة الثانية) في كون البرق خوفا وطمعا وجوه الاول ان عند لمعان البرق يخاف وقوع الصواعق ويطمع في نزول الغيث قال المتنبي

فتى كالسحاب الجون يخشى ويرتجى * يرجى الحيا منها ويخشى الصواعق

الثاني انه يخاف المطر من له فيه ضرر كالمسافر وكمن في جرابه التمر والزبيب ويطمع فيه من له فيه نفع الثالث ان كل شيء يحصل في الدنيا فهو خير بالنسبة الى قوم وشر بالنسبة الى آخرين فكذلك المطر خير في حق من يحتاج اليه في أوانه وشر في حق من يضره ذلك اما بحسب المكان أو بحسب الزمان (المسألة الثالثة) اعلم ان حدوث البرق دليل عجيب على قدرة الله تعالى وبيانه ان السحاب لا شك انه جسم مركب من أجزاء رطبة مائية ومن أجزاء هوائية ونارية ولا شك ان الغالب عليه الاجزاء المائية والماء جسم بارد رطب والنار جسم حار يابس وظهور الضد من الضد التام على خلاف العقل فلا بد من صانع مختار يظهر الضد من الضد فان قيل لم لا يجوز ان يقال الريح احتقن في داخل جرم السحاب واستولى البرد على ظاهره فانجمد السطح الظاهر منه ثم ان ذلك الريح يمزقه تمزيقا عنيفا فيتولد من ذلك التمزيق الشديد حركة عنيفة والحركة العنيفة موجبة للسخونة وهي البرق والجواب ان كل ما ذكرتموه على خلاف المعقول وبيانه من وجوه الاول انه لو كان الامر كذلك لوجب أن يقال أينما يحصل البرق فلا بد وأن يحصل الرعد وهو الصوت الحادث من تمزيق السحاب ومعلوم انه ليس الامر كذلك فانه كثيرا ما يحدث البرق القوي من غير حدوث الرعد الثاني ان السخونة الحاصلة بسبب قوة الحركة مقابلة بالطبيعة المائية الموجبة للبرد وعند حصول هذا العارض القوي كيف تحدث النارية بل نقول النيران العظيمة تنطفئ بصب الماء عليها والسحاب كله ماء فكيف يمكن ان يحدث فيه شعلة ضعيفة نارية * الثالث من مذهبكم ان النار الصرفة لا لون

لها البتة فهب أنه حصلت النارية بسبب قوة المحاكة الحاصلة بأجزاء السحاب لكن من أين حدث ذلك اللون الاحمر فثبت ان السبب الذى ذكروه ضعيف وان حدوث النار بالحاصلة فى جرم السحاب مع كونه ماء خالصا لا يمكن الا بقدرة القادر الحكيم (النوع الثانى) من الدلائل المذكورة فى هذه الآية قوله تعالى وينشئ السحاب الثقال قال صاحب الكشاف السحاب اسم جنس والواحدة سحابة والثقال جمع ثقيلة لانك تقول سحابة ثقيلة وسحابة ثقال كما تقول امرأة كريمة ونساء كرام وهى الثقال بالماء واعلم ان هذا أيضا من دلائل القدرة والحكمة وذلك لان هذه الاجزاء المائية اما أن يقال انها حدثت فى جو الهواء أو يقال انها تصاعدت من وجه الارض فان كان الاول وجب أن يكون حدوثها باحداث محدث حكيم قادر وهو المطلوب وأن كان الثانى وهو أن يقال ان تلك الاجزاء تصاعدت من الارض فلما وصلت الى الطبقة الباردة من الهواء بردت فثقلت فرجعت الى الارض فنقول هذا باطل وذلك لان الامطار مختلفة فتارة تكون القطرات كبيرة وتارة تكون صغيرة وتارة تكون متقاربة وأخرى تكون متباعدة وتارة تدوم مدة نزول المطر زمانا طويلا وتارة قليلا فاختلاف الامطار فى هذه الصفات مع ان طبيعة الارض واحدة وطبيعة الشمس المسخنة للبخارات واحدة لابد وأن يكون بتخصيص الفاعل المختار وأيضا فالتجربة دلت على ان الدعاء والتضرع فى نزول الغيث أثر عظيما ولذلك كانت صلاة الاستسقاء مشروعة فعلمنا ان المؤثر فيه هو قدرة الفاعل لا الطبيعة والخاصية (النوع الثالث) من الدلائل المذكورة فى هذه الآية الرعد وهو قوله ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وفيه أقوال (الاول) ان الرعد اسم ملك من الملائكة وهذا الصوت المسموع هو صوت ذلك الملك بالتسبيح والتهليل عن ابن عباس رضى الله عنهما أن اليهود سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن الرعد ما هو فقال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله قالوا فما الصوت الذى نسمع قال زجره السحاب وعن الحسن انه خلق من خلق الله ليس بملك فعلى هذا القول الرعد هو الملك الموكل بالسحاب وصوته تسبيح لله تعالى وذلك الصوت أيضا يسمى بالرعد ويؤكد هذا ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما كان اذا سمع الرعد قال سبحان الذى سبحت له وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الله ينشئ السحاب الثقال فينطق أحسن النطق ويضحك أحسن الضحك فنطقه الرعد وضحكه البرق واعلم ان هذا القول غير مستبعد وذلك لان عند أهل السنة البنية ليست شرطا لحصول الحياة فلا يبعد من الله تعالى ان يخلق الحياة والعلم والقدرة والنطق فى اجزاء السحاب فيكون هذا الصوت المسموع فعلا له وكيف يستبعد ذلك ونحن نرى أن السمندل يتولد فى النار والضفادع تتولد فى الماء البارد والدودة العظيمة ربما تتولد فى الثلوج القديمة وأيضا فاذا لم يبعد تسبيح الجبال فى زمن داود عليه السلام ولا تسبيح الحصى فى زمان محمد صلى

فيها آثار التجلى كما قاله ابن الانبارى ويجوز أن يراد بسجودهما ما يشاهد فيهما من هيئة السجود تبعا لاصحابهما ولو أنت خبير بأن اختصاص سجود الكافر حالة الضرورة والشدة بالله سبحانه لا يجدى فان سجودهم لاصنامهم حالة الرخاء مخل بالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور فالوجه حمل السجود على الانقياد ولان تحقيق انقياد الكل فى الابداع والاعدام له تعالى ادخل فى التوبيخ اتخاذ أولياء من دونه من تحقيق سجودهم له تعالى وتخصيص انقياد العقلاء بالذكر مع كون غيرهم أيضا كذلك لانهم العمدة وانقيادهم دليل انقياد غيرهم على أنه بين ذلك بقوله عز وجل (قل من رب السموات والارض) فانه لتحقيق أن خالقهما ومتولى أمرهما مع ما فيهما على الاطلاق هو الله سبحانه وقوله تعالى (قل الله) أمر بالجواب من قبله عليه الصلاة والسلام اشعارا بأنه متعين للجوابية فهو والخصم فى تقريره سواء او امر بحكاية اعترافهم ايذانا بأنه أمر لابد لهم من ذلك كأنه قيل احك اعترافهم فبكتهم بما يلزمهم من الحجة وألقمهم الحجر أو أمر بتلقينهم ذلك ان تلعثموا فى الجواب حذرا من الالزام فانهم لا يتمالكون اذ ذاك ولا يقدرون على انكاره (قل) الزاما لهم ﴿ الله ﴾ وتبكيتا (أفاتخذتم) لانفسكم والهمزة لانكار الواقع كما فى قولك اضربت أباك لا لانكار الوقوع كما فى قولك أضربت أبى والفاء للعطف على مقدر بعد الهمزة اى أعلمتم ان ربهما هو الله الذى ينقاد لامره من فيهما كافة

الله عليه وسلم فكيف يستبعد تسبيح السحاب وعلى هذا القول فهذا الشئ المسمى بالرعد ملك أوليس بملك فيه قولان أحدهما انه ليس بملك لانه عطف عليه الملائكة فقال والملائكة من خيفته والمعطوف عليه مغاير للمعطوف والثانى وهو أنه لا يبعد أن يكون من جنس الملائكة وانما حسن افراده بالذكر على سبيل التشريف كما فى قوله وملائكته ورسله وجبريل وميكال وفى قوله واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح (القول الثانى) ان الرعد اسم لهذا الصوت المخصوص ومع ذلك فان الرعد يسبح الله سبحانه لان التسبيح والتقديس وما يجرى مجراهما ليس الا وجود لفظ يدل على حصول التنزيه والتقديس لله سبحانه وتعالى فلما كان حدوث هذا الصوت دليلا على وجود موجود متعال عن النقص والامكان كان ذلك فى الحقيقة تسبيحا وهو معنى قوله تعالى وان من شئ الا يسبح بحمده (القول الثالث) أن المراد من كون الرعد مسبحا أن من يسمع الرعد فانه يسبح الله تعالى فلهذا المعنى أضيف هذا التسبيح اليه (القول الرابع) من كلمات الصوفية الرعد صعقات الملائكة والبرق زفرات افئدتهم والمطر بكاؤهم فان قيل وما حقيقة الرعد قلنا استقصينا القول فيه فى سوره البقرة فى قوله فيه ظلمات ورعد وبرق أما قوله والملائكة من خيفته فاعلم ان من المفسرين من يقول عنى بهؤلاء الملائكة أعوان الرعد فانه سبحانه جعل له أعوانا ومعنى قوله والملائكة من خيفته أى وتسبح الملائكة من خيفة الله تعالى وخشيته قال ابن عباس رضى الله عنهما انهم خائفون من الله لا كخوف ابن آدم فان أحدهم لا يعرف من على يمينه ومن على يساره ولا يشغله عن عبادة الله طعام ولا شراب ولا شئ واعلم أن المحققين من الحكماء يذكرون أن هذه الآثار العلوية انما تتم بقوى روحانية فلكية فللسحاب روح معين من الارواح الفلكية يدبره وكذا القول فى الرياح وفى سائر الآثار العلوية وهذا عين ما نقلناه من ان الرعد اسم ملك من الملائكة يسبح الله فهذا الذى قاله المفسرون بهذه العبارة هو عين ما ذكره المحققون من الحكماء فكيف يليق بالعاقل الانكار (النوع الرابع) من الدلائل المذكورة فى هذه الآية قوله ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء واعلم أنا قد ذكرنا معنى الصواعق فى سورة البقرة قال المفسرون نزلت هذه الآية فى عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخى لبيد بن ربيعة أتيا النبى صلى الله عليه وسلم يخاصمانه ويجادلانه ويريدان الفتك به فقال أربد بن ربيعة أخو لبيد بن ربيعة أخبرنا عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد ثم انه لما رجع أربد أرسل الله عليه صاعقة فاحرقته ورمى عامرا بغدة كغدة البعير ومات فى بيت سلولية واعلم ان أمر الصاعقة عجيب جدا وذلك لانها نار تتولد من السحاب واذا نزلت من السحاب فربما غاصت فى البحر واحرقت الحيتان فى لجة البحر والحكماء بالغوا فى وصف قوتها ووجه الاستدلال أن النار حارة يابسة وطبيعتها ضد طبيعة السحاب فوجب أن تكون طبيعتها فى الحرارة واليبوسة أضعف من طبيعة النيران الحادثة عندنا على

فاتخذتم عقيبه (من دونه أولياء) عاجزين (لا يملكون لانفسهم نفعا) يستجلبونه (ولا ضرا) يدفعونه عن أنفسهم فضلا عن القدرة على جلب النفع لغيره ودفع الضرر عنه لا على أن يكون الانكار متوجها الى المعطوفين معا كما فى قوله تعالى أفلا تعقلون اذا قدر المعطوف عليه الا تسمعون بل الى ترتب الثانى على الاول مع وجوب أن يترتب عليه نقيضه كما اذا قدر أتسمعون والمعنى أبعد أن علمتم أن ربهما هو الله جل جلاله اتخذتم من دونه أولياء عجزة والحال أن قضية العلم بذلك انما هو الاقتصار على توليه فعكستم الامر كما فى قوله تعالى كان من الجن ففسق عن أمر ربه افتتخذونه وذريته أولياء من دونى ووصف الاولياء ههنا بعدم المالكية للنفع والضر فى ترشيح الانكار وتأكيد كتقييد الاتخاذ هنالك بالجملة الحالية أعنى قوله تعالى وهم لكم عدو فان كلا منهما مما ينفى الاتخاذ المذكور ويؤكد انكاره (قل) تصويرا لآرائهم الركيكة بصورة المحسوس (هل يستوى الاعمى) الذى هو المشرك الجاهل بالعبادة ومستحقها (والبصير) الذى هو الموحد العالم بذلك أو الاول عبارة عن المعبود الغافل والثانى اشارة الى المعبود العالم بكل شئ (أم هل تستوى الظلمات) التى هى عبارة عن الكفر والضلال (والنور) الذى هو عبارة عن التوحيد والايمان وقرئ بالياء ولما دل النظم الكريم على أن

العادة لكنه ليس الامر كذلك فانها أقوى نيران هذا العالم فثبت ان اختصاصها بمزيد تلك القوة لا بد وأن يكون بسبب تخصيص الفاعل المختار واعلم انه تعالى لما ذكر هذه الدلائل الاربعة قال وهم يجادلون في الله والمراد انه تعالى بين دلائل كمال علمه في قوله يعلم ما تحمل كل أنثى و بين دلائل كمال القدرة في هذه الآيات ثم قال وهم يجادلون في الله يعني هؤلاء الكفار مع ظهور هذه الدلائل يجادلون في الله وهو يحتمل وجوها أحدها أن يكون المراد الرد على الكافر الذي قال أخبرنا عن ربنا أمن نحاس أم من حديد وثانيها أن يكون المراد الرد على جدالهم في انكار البعث وابطال الحشر والنشر وثالثها أن يكون المراد الرد عليهم في طلب سائر المعجزات ورابعها أن يكون المراد الرد عليهم في استنزال عذاب الاستئصال وفي هذه الواو قولان الاول انها للحال والمعنى فيصيب بالصاعقة من يشاء في حال جداله في الله وذلك ان أربد لما جادل في الله أحرقته الصاعقة والثاني انها واو الاستئناف كأنه تعالى لما تمم ذكر هذه الدلائل قال بعد ذلك وهم يجادلون في الله ثم قال تعالى وهو شديد المحال وفي لفظ المحال أقوال قال ابن قتيبة الميم زائدة وهو من الحول ونحوه ميم مكان وقال الازهري هذا غلط فان الكلمة اذا كانت على مثال فعال أوله ميم مكسورة فهي أصلية نحو مهاد وملاك ومداس ومداد واختلفوا ثم أخذ على وجوه الاول قيل من قولهم محل فلان بفلان اذا سعى به الى السلطان وعرضه للهلاك وتمحل لكذا اذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه فكان المعنى أنه سبحانه شديد المكر لاعدائه يهلكهم بطريق لا يتوقعونه الثاني ان المحال عبارة عن الشدة ومنه تسمى السنة الصعبة سنة المحل وماحلت فلانا محالا أي قاومته أينا اشد قال أبو مسلم والمحال فعال من المحل وهو الشدة ولفظ فعال يقع على المجازاة والمقابلة فكأن المعنى انه تعالى شديد المغالبة وللمفسرين ههنا عبارات فقال مجاهد وقتادة شديد القوة وقال أبو عبيدة شديد العقوبة وقال الحسن شديد النقمة وقال ابن عباس شديد الحول الثالث قال ابن عرفة يقال ماحل عن أمره أي جادل فقوله شديد المحال أي شديد الجدال الرابع روي عن بعضهم شديد المحال أي شديد الحقد قالوا هذا لا يصح لان الحقد لا يمكن في حق الله تعالى الا أنا قد ذكرنا في هذا الكتاب ان أمثال هذه الالفاظ اذا وردت في حق الله تعالى فانها تحمل على نهايات الاعراض لا على مبادي الاعراض فالمراد بالحقد ههنا هو أنه تعالى يريد ايصال الشر اليه مع انه يخفي عنه تلك الارادة ❊ قوله تعالى (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا في ضلال) اعلم أن قوله له دعوة الحق أي لله دعوة الحق وفيه بحثان (البحث الاول) في أقوال المفسرين وهي أمور أحدها ما روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال دعوة الحق قول لا اله الا الله وثانيها قول الحسن ان الله هو الحق فدعاؤه هو الحق كأنه يومئ الى أن الانقطاع اليه في الدعاء هو الحق وثالثها ان عبادته هي

الكفرة فيما فعلوا من اتخاذ الاصنام أولياء من دون الله سبحانه في الضلال المحض والخطأ البحت بحيث لا يخفى بطلانه على أحد وأنهم في ذلك كالاعمى الذي لا يهتدي الى شئ أصلا وليس لهم في ذلك شبهة تصلح أن تكون منشأ لغلطهم وخطئهم فضلا عن الجهة أكد ذلك فقيل (أم جعلوا لله) أي بل أجعلوا له (شركاء خلقوا كخلقه) سبحانه والهمزة لانكار الوقوع لا لانكار الواقع مع وقوعه وقوله خلقوا كخلقه هو الذي يتوجه اليه الانكار وأما نفس الجعل فهو واقع لا يتعلق به الانكار بهذا المعنى والمعنى انهم لم يجعلوا لله تعالى شركاء خلقوا كخلقه (فتشابه الخلق عليهم) بسبب ذلك وقالوا هؤلاء خلقوا كخلقه تعالى فاستحقوا بذلك العبادة كما استحقها ليكون ذلك منشأ لخطئهم بل انما جعلوا له شركاء ما هو بمعزل من ذلك المرة وفيه ما لا يخفى من التعريض بركاكة رأيهم والتهكم بهم (قل) تحقيقا للحق وارشادا لهم اليه (الله خالق كل شئ) كائنة لا خالق سواه فيشاركه في استحقاق العبادة (وهو الواحد) المتوحد بالالوهية المتفرد بالربوبية (القهار) لكل ما سواه فكيف يتوهم أن يكون له شريك وبعد ما مثل المشرك والشرك بالاعمى والظلمات والموحد والتوحيد بالبصير والنور مثل الحق الذي هو القرآن ﴿ الحق ﴾ العظيم في فيضانه من جناب القدس على قلوب خالية عنه متفاوتة الاستعداد وفي جريانه عليها

الحق والصدق واعلم ان الحق هو الوجود والموجود قسمان قسم يقبل العدم وهو حق يمكن ان يصير باطلا وقسم لا يقبل العدم فلا يمكن أن يصير باطلا وذلك هو الحق الحقيق واذا كان واجب الوجود لذاته موجودا لا يقبل العدم كان أحق الموجودات بأن يكون حقا هو هو وكان أحق الاعتقادات واحق الاذكار بأن يكون حقا هو اعتقاد ثبوته وذكر وجوده فثبت بهذا أن وجوده هو الحق فى الموجودات واعتقاد وجوده هو الحق فى الاعتقادات وذكره بالثناء والالهية والكمال هو الحق فى الاذكار فلهذا قال له دعوة الحق (البحث الثانى) قال صاحب الكشاف دعوة الحق فيه وجهان أحدهما أن تضاف الدعوة الى الحق الذى هو نقيض الباطل كما تضاف اليه الكلمة فى قوله كلمة الحق والمقصود منه الدلالة على كون هذه الدعوة مختصة بكونها حقة وكونها خالية عن أمارات كونه باطلا وهذا من باب اضافة الشئ الى صفته والثانى أن تضاف الى الحق الذى هو الله سبحانه على معنى دعوة المدعو الحق الذى يسمع فيجيب وعن الحسن الحق هو الله وكل دعاء اليه فهو دعوة الحق ثم قال تعالى والذين يدعون من دونه يعنى الآلهة الذين يدعونهم الكفار من دون الله لا يستجيبون لهم بشئ مما يطلبونه الا استجابة كاستجابة باسط كفيه الى الماء والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته اليه ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه فكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع اجابتهم ولا يقدر على نفعهم وقيل شبهوا فى قلة فائدة دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشرب به فبسطهما ناشرا أصابعه ولم تصل كفاه الى ذلك الماء ولم يبلغ مطلوبه من شربه وقرئ تدعون بالتاء كباسط كفيه بالتنوين ثم قال وما دعاء الكافرين الا فى ضلال أى الا فى ضياع لا منفعة فيه لانهم ان دعوا الله لم يجبهم وان دعوا الآلهة لم تستطع اجابتهم ❊ قوله تعالى

(ولله يسجد من فى السموات والارض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال) اعلم ان فى المراد بهذا السجود قولين (الاول) ان المراد منه السجود بمعنى وضع الجبهة على الارض وعلى هذا الوجه ففيه وجهان أحدهما ان اللفظ وان كان عاما الا أن المراد به الخصوص وهم المؤمنون فبعض المؤمنين يسجدون لله طوعا بسهولة ونشاط ومن المسلمين من يسجد لله كرها لصعوبة ذلك عليه مع انه يحمل نفسه على أداء تلك الطاعة شاء أم أبى والثانى أن اللفظ عام والمراد منه أيضا العام وعلى هذا ففى الآية اشكال لانه ليس كل من فى السموت والارض يسجد لله بل الملائكة يسجدون لله والمؤمنون من الجن والانس يسجدون لله تعالى وأما الكافرون فلا يسجدون الجواب عنه من وجهين الاول ان المراد من قوله ولله يسجد من فى السموات والارض أى ويجب على كل من فى السموات والارض أن يسجد لله فعبر عن الوجوب بالوقوع والحصول والثانى وهو أن المراد من السجود التعظيم والاعتراف بالعبودية وكل من فى السموات ومن فى الارض يعترفون بعبودية الله تعالى على ما قال ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن

ملاحظة وحفظا وعلى الالسنة مذاكرة وتلاوة وفى ثباته فيهما مع كونه ممدا لحياتها الروحانية وما يتلوها من الملكات السنية والاعمال المرضية بالماء النازل من السماء السائل فى أودية يابسة لم تجر عادتها بذلك سيلانا مقدرا بمقدار اقتضته الحكمة فى احياء الارض وما عليها الباقى فيها حسبما يدور عليه منافع الناس وفى كونه حلية تتحلى به النفوس وتصل الى البهجة الابدية ومتاعا يتمتع به فى المعاش والمعاد بالذهب والفضة وسائر الفلزات التى يتخذ منها أنواع الآلات والادوات وتبقى منتفعا بها مدة طويلة ومثل الباطل الذى ابتلى به الكفرة لقصور نظرهم بما يظهر فيهما من غير مداخلة له فيهما واخلال بصفائهما من الزبد الرابى فوقهما المضمحل سريعا فقيل (أنزل من السماء) أى من جهتها (ماء) أى كثيرا أو نوعا منه وهو ماء المطر (فسالت) بذلك (أودية) واقعة فى مواقعه لا جميع الاودية اذ الامطار لا تستوعب الاقطار وهو جمع واد وهو مفرج بين جبال أو تلال أو آكام على الشذوذ كناد وأندية وناج وأنجية قالوا وجهه أن فاعلا يجئ بمعنى فعيل كناصر ونصير وشاهد وشهيد وعالم وعليم وحيث جمع فعيل على أفعلة كجريب وأجربة جمع فاعل أيضا على أفعلة فان أريد بها ما يسيل فيها مجازا فاسناد السيلان اليها حقيقى وان أريد معناها الحقيقى فالاسناد مجازى كما فى جرى النهر وايثار التمثيل بها على

الله (وأما القول الثانى فى تفسير الآية) فهو أن السجود عبارة عن الانقياد والخضوع وعدم الامتناع وكل من فى السموات والارض ساجد لله بهذا المعنى لان قدرته ومشيئته نافذة فى الكل وتحقيق القول فيه أن ماسواه ممكن لذاته والممكن لذاته هو الذى تكون ماهيته قابلة للعدم والوجود على السوية وكل من كان كذلك امتنع رجحان وجوده على عدمه أو بالعكس الا بتأثير موجد ومؤثر فيكون وجود كل ماسوى الحق سبحانه بايجاده وعدم كل ماسواه باعدامه فتأثيره نافذ فى جميع الممكنات فى طرفى الايجاد والاعدام وذلك هو السجود وهو التواضع والخضوع والانقياد ونظيره هذه الآية قوله بل له مافى السموات والارض كل له قانتون وقوله وله أسلم من فى السموات والارض وأما قوله تعالى طوعا وكرها فالمراد أن بعض الحوادث مما يميل الطبع الى حصوله كالحياة والغنى وبعضها مما ينفر الطبع عنه كالموت والفقر والعمى والحزن والزمانة وجميع أصناف المكروهات والكل حاصل بقضائه وقدره وتكوينه وايجاده ولا قدرة لاحد على الامتناع والمدافعة ثم قال تعالى وظلالهم بالغدو والآصال وفيه قولان الاول قال المفسرون كل شخص سواء كان مؤمنا أو كافرا فان ظله يسجد لله قال مجاهد ظل المؤمن يسجد لله طوعا وهو طائع وظل الكافر يسجد لله كرها وهو كاره وقال الزجاج جاء فى التفسير ان الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله وعند هذا قال ابن الانبارى لايبعد أن يخلق الله تعالى للظلال عقولا وافهاما تسجد بها وتخشع كما جعل الله للجبال افهاما حتى اشتغلت بتسبيح الله تعالى وحتى ظهر أثر التجلى فيها كما قال فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا والقول الثانى وهو أن المراد من سجود الظلال ميلانها من جانب الى جانب وطولها بسبب انحطاط الشمس وقصرها بسبب ارتفاع الشمس فهى منقادة مستسلمة فى طولها وقصرها وميلها من جانب الى جانب وانما خص الغدو والآصال بالذكر لان الظلال انما تعظم وتكثر فى هذين الوقتين * قوله تعالى (قل من رب السموات والارض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لايملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الاعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شئ وهو الواحد القهار) اعلم انه تعالى لما بين ان كل من فى السموات والارض ساجد لله بمعنى كونه خاضعا له عاد الى الرد على عبدة الاصنام فقال قل من رب السموات والأرض قل الله ولما كان هذا الجواب جوابا يقر به المسؤل ويعترف به ولا ينكره أمره صلى الله عليه وسلم أن يكون هو الذاكر لهذا الجواب تنبيها على انهم لاينكرونه البتة ولما بين أنه سبحانه هو الرب لكل الكائنات قال قل لهم فلم اتخذتم من دون الله أولياء وهى جمادات وهى لاتملك لانفسها نفعا ولا ضرا ولما كانت عاجزة عن تحصيل المنفعة لانفسها ودفع المضرة عن أنفسها فبأن تكون عاجزة عن تحصيل المنفعة لغيرها ودفع المضرة عن غيرها كان ذلك أولى فاذا لم تكن قادرة على ذلك كانت عبادتها

الثمرة بيا فعلوا من

الجريان لوضوح المماثلة بين شأنها وشان مامثل بها كما أشير اليه (بقدرها) اى سالت ملتبسة

أحدوا أنهم في

الذى عينه الله تعالى واقتضته حكمته فى نفع الناس ﴿ ٢٨٤ ﴾ أو بمقدارها المتفاوت قلة وكثرة بحسب

لفلطهم

رت محالها صغرا وكبرا الا بكونها مالئة لها منطبقة عليها بل بمجرد قلتها بصغرها المستلزم لقلة موارد الماء وكثرتها بكبرها المستدعى لكثرة الموارد فان مورد السيل الجارى فى الوادى الصغير أقل من مورد السيل الجارى فى الوادى الكبير هذا ان أريد بالاودية مايسيل فيها أما ان أريد بها معناها الحقيقى فالمعنى سالت مياهها بقدر تلك الاودية على نحو ما عرفته آنفا أو يراد بضميرها مياهها بطريق الاستخدام ويراد بقدرها ماذكر أولا من المعنيين (فاحتمل السيل) الجارى فى تلك الاودية أى حمل معه (زبدا) أى غثاء ورغوة وانما وصف ذلك بقوله تعالى (رابيا) أى عاليا منتفخا فوقه بيانا لما أريد بالاحتمال المحتمل لكون الحميل غير طاف كالاشجار الثقيلة وانما لم يدفع ذلك الاحتمال بأن يقال فاحتمل السيل فوقه للايذان بأن تلك الفوقية مقتضى شأن الزبد لا من جهة المحتمل تحقيقا للمماثلة بينه وبين مامثل به من الباطل الذى شأنه الظهور ﴿ محض ﴾ فى بادى الرأى من غير مداخلة فى الحق (ومما يوقدون عليه فى النار) أى يفعلون الايقاد عليه كائنا فى النار والضمير للناس أضمر مع عدم

محض العبث والسفه ولماذكر هذه الحجة الظاهرة بين أن الجاهل بمثل هذه الحجة يكون كالاعمى والعالم بها كالبصير والجهل بمثل هذه الحجة كالظلمات والعلم بها كالنور وكما أن كل أحد يعلم بالضرورة أن الاعمى لايساوى البصير والظلمة لاتساوى النور كذلك كل أحد يعلم بالضرورة أن الجاهل بهذه الحجه لايساوى العالم بها قرأ حمزة والكسائى وأبو بكر وعمرو عن عاصم يستوى الظلمات والنور بالياء لانها مقدمة على اسم الجمع والباقون بالتاء واختاره أبو عبيدة ثم أكد هذا البيان فقال أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم يعنى هذه الاشياء التى زعموا انها شركاء لله ليس لها خلق يشبه خلق الله حتى يقولوا انها تشارك الله فى الخالقية فوجب ان تشاركه فى الالهية بل هؤلاء المشركون يعلمون بالضرورة أن هذه الاصنام لم يصدر عنها فعل البتة ولا خلق ولا أثر واذا كان الامر كذلك كان حكمهم بكونها شركاء لله فى الالهية محض السفه والجهل وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان أصحابنا استدلوا بهذه الآية فى مسئلة خلق الافعال من وجوه الاول أن المعتزلة زعموا أن الحيوانات تخلق حركات وسكنات مثل الحركات والسكنات التى يخلقها الله تعالى وعلى هذا التقدير فقد جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ومعلوم أن الله تعالى انما ذكر هذه الآية فى معرض الذم والانكار فدلت هذه الآية على أن العبد لايخلق فعل نفسه قال القاضى نحن وان قلنا ان العبد يفعل ويحدث الا أنا لانطلق القول بانه يخلق ولو أطلقناه لم نقل انه يخلق كخلق الله لان أحدنا يفعل بقدرة الله وانما يفعل لجلب منفعة ودفع مضرة والله تعالى منزه عن ذلك كله فثبت أن بتقدير كون العبد خالقا الا انه لايكون خلقه كخلق الله تعالى وأيضا فهذا الالزام لازم للمجبرة لانهم يقولون عين ماهو خلق الله تعالى فهو كسب العبد وفعل له وهذا عين الشرك لان الاله والعبد فى خلق تلك الافعال بمنزلة الشريكين اللذين لامال لاحدهما الا وللآخر فيه حق وأيضا فهو تعالى انما ذكر هذا الكلام عيبا للكفار وذما لطريقتهم ولو كان فعل العبد خلقا لله تعالى لما بقى لهذا الذم فائدة لان للكفار ان يقولوا على هذا التقدير ان الله سبحانه وتعالى لما خلق هذا الكفر فينا فلم يذمنا عليه ولم ينسبنا الى الجهل والتقصير مع انه قد حصل فينا لابفعلنا ولاباختيارنا والجواب عن السؤال الاول ان لفظ الخلق اما أن يكون عبارة عن الاخراج من العدم الى الوجود أو يكون عبارة عن التقدير وعلى الوجهين فبتقدير أن يكون العبد محدثا فانه لابد وأن يكون حادثا أما قوله والعبد وان كان خالقا الا أنه ليس خلقه كخلق الله قلنا الخلق عبارة عن الايجاد والتكوين والاخراج من العدم الى الوجود ومعلوم أن الحركة الواقعة بقدرة العبد لما كانت مثلا للحركة الواقعة بقدرة الله تعالى كان أحد المخلوقين مثلا للمخلوق الثانى وحينئذ يصح أن يقال ان هذا الذى هو مخلوق العبد مثل لما هو مخلوق لله تعالى بل لاشك فى حصول المخالفة فى سائر الاعتبارات الا أن حصول المخالفة فى سائر الوجوه لايقدح فى حصول المماثلة

سبق الذكر لظهوره وقرئ بالخطاب (ابتغاء حلية أو متاع) أى لطلب اتخاذ حلية وهى مايتزين ويتجمل به كالحلى المتخذة من الذهب والفضة أو اتخاذ متاع وهو مايتمتع به من الاوانى والآلات المتخذة من الرصاص والحديد وغير ذلك من الفلزات (زبد) خبث (مثله) مثل ماذكر من زبد الماء فى كونه رابيا فوقه فقوله زبد مبتدأ خبره الظرف المقدم ومن ابتدائية دالة على مجرد كونه مبتدأ وناشئا منه لاتبعيضية معربة عن كونه بعضا منه كما قيل لاخلال ذلك بالتمثيل وفى التعبير عن ذلك بالموصول والتعرض لما فى حيز الصلة من ايقاد النار عليه جرى على سنن الكبرياء باظهار التهاون به كما فى قوله تعالى فأوقد لى ياهامان على الطين واشارة الى كيفية حصول الزبد منه بذوبانه وفى زيادة فى النار اشعار بالمبالغة فى الاعتمال للاذابة وحصول الزبد كما أشير اليه وعدم التعرض لاخراجه من الارض لعدم دخل ذلك العنوان فى التمثيل كما أن لعنوان انزال الماء من السماء دخلا فيه حسبما فصل فيما سلف بل له اخلال بذلك (كذلك) أى مثل ذلك الضرب البديع المشتمل على نكت رائقة (يضرب الله الحق والباطل) أى مثل الحق ومثل الباطل والحذف للانباء عن كمال التماثل بين الممثل والممثل به كان المثل المضروب عين الحق والباطل وبعد تحقيق التمثيل مع الايماء فى تضاعيف ذلك الى وجوه المماثلة على أبدع وجوه وأنقها حسبما أشير اليه فى مواقعها بين عاقبة كل من

الممثلين على وجه التمثيل مع التصريح ببعض ما به المماثلة من الذهاب والبقاء تتمة للغرض من التمثيل من الحث على اتباع الحق الثابت والردع عن الباطل الزائد فقل ﴿ ٢٨٦ ﴾ (فأما الزبد) من كل منهما (فيذهب جفاء) أى مرميا به وقرئ جفالا والمعنى واحد (وأما ما ينفع الناس) منهما كالماء الصافى والفلز الخالص (فيمكث فى الارض) أما الماء فيثبت بعضه فى منافعه ويسلك بعضه فى عروق الارض الى العيون والقنا والآبار وأما الفلز فيصاغ من بعضه أنواع الحلى ويتخذ من بعضه أصناف الآلات والادوات فينتفع بكل من ذلك أنواع الانتفاعات مدة طويلة فالمراد بالمكث فى الارض ما هو أعم من المكث فى نفسها ومن البقاء فى أيدى المتقلبين فيها وتغيير ترتيب اللف الواقع فى الفذلكة الموافق للترتيب الواقع فى التمثيل لمراعاة الملاءمة بين حالتى الذهاب والبقاء وبين ذكريهما فان المعتبر انما هو بقاء الباقى بعد ذهاب الذاهب لا قبله (كذلك يضرب الله) أى مثل ذلك الضرب العجيب يضرب الله (الامثال) فى كل باب اظهارا لكمال اللطف والعناية فى الارشاد والهداية وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله كذلك يضرب الله الحق والباطل اما باعتبار ابتناء هذا على التمثيل الاول أو بجعل ذلك اشارة اليهما جميعا وبعد ما بين شأن كل من الحق والباطل حالا ومآلا أكمل بيان شرع

من هذا الوجه وهذا القدر يكفى فى الاستدلال وأما قوله هذا الازم على المجبرة حيث قالوا ان فعل العبد مخلوق لله تعالى فنقول هذا غير لازم لان هذه الآية دالة على أنه لا يجوز أن يكون خلق العبد مثلا لخلق الله تعالى ونحن لا نثبت للعبد خلقا البتة فكيف يلزمنا ذلك وأما قوله لو كان فعل العبد خلقا لله تعالى لما حسن ذم الكفار على هذا المذهب قلنا حاصله يرجع الى انه لما حصل المدح والذم وجب أن يكون العبد مستقلا بالفعل وهو منقوض لانه تعالى ذم أبا لهب على كفره مع انه عالم منه انه يموت على الكفر وقد ذكرنا ان خلاف المعلوم محال الوقوع فهذا تقرير هذا الوجه فى هذه الآية وأما الوجه الثانى فى التمسك بهذه الآية قوله قل الله خالق كل شئ ولا شك ان فعل العبد شئ فوجب أن يكون خالقه هو الله وسؤالهم عليه ما تقدم والوجه الثالث فى التمسك بهذه الآية قوله وهو الواحد القهار وليس يقال فيه انه تعالى واحد فى أى المعانى ولما كان المذكور السابق هو الخالقية وجب أن يكون المراد هو الواحد فى الخالقية القهار لكل ما سواه وحينئذ يكون دليلا أيضا على صحة قولنا (المسئلة الثانية) زعم جهم ان الله تعالى لا يقع عليه اسم الشئ اعلم ان هذا النزاع ليس الا فى اللفظ وهو ان هذا الاسم هل يقع عليه أم لا وزعم انه لا يقع هذا الاسم على الله تعالى واحتج عليه بأنه لو كان شيئا لوجب كونه خالقا لنفسه لقوله تعالى الله خالق كل شئ ولما كان ذلك محالا وجب أن لا يقع عليه اسم الشئ ولا يقال هذا عام دخله التخصيص لان العام المخصوص انما يحسن اذا كان المخصوص أقل من الباقى وأخس منه كما اذا قال أكلت هذه الرمانة مع انه سقطت منها حبات ما أكلها وههنا ذات الله تعالى أعلى الموجودات وأشرفها فكيف يمكن ذكر اللفظ العام الذى يتناوله مع كون الحكم مخصوصا فى حقه والحجة الثانية تمسك بقوله تعالى ليس كمثله شئ والمعنى ليس مثل مثله شئ ومعلوم أن كل حقيقة فانها مثل مثل نفسها فالبارى تعالى مثل مثل نفسه مع انه تعالى نبه على ان مثل مثله ليس بشئ فهذا تنصيص على انه تعالى غير مسمى باسم الشئ والحجة الثالثة قوله تعالى ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها دلت هذه الآية على انه لا يجوز أن يدعى الله الا بالاسماء الحسنى ولفظ الشئ يتناول أخس الموجودات فلا يكون هذا اللفظ مشعرا بمعنى حسن فوجب أن لا يكون هذا اللفظ من الاسماء الحسنى فوجب أن لا يجوز دعاء الله تعالى بهذا اللفظ والاصحاب تمسكوا فى اطلاق هذا الاسم عليه تعالى بقوله قل أى شئ أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم وأجاب الخصم عنه بأن قوله قل أى شئ أكبر شهادة سؤال متروك الجواب وقوله قل الله شهيد بينى وبينكم كلام مبتدأ مستقل بنفسه لا تعلق له بما قبله (المسئلة الثالثة) تمسك المعتزلة بهذه الآية فى انه تعالى عالم لذاته لا بالعلم وقادر لذاته لا بالقدرة قالوا لانه لو حصل لله تعالى علم وقدرة وحياة لكانت هذه الصفات اما أن تحصل بخلق الله أو لا بخلقه والاول باطل والا لزم التسلسل والثانى باطل لان قوله الله خالق كل شئ يتناول الذات والصفات

﴿ حكمنا ﴾

حكمنا بدخول التخصيص فيه فى حق ذات الله تعالى فوجب أن يبقى فيما سوى الذات على الاصل وهو أن يكون تعالى خالقا لكل شئ سوى ذاته تعالى فلو كان لله علم وقدرة لوجب كونه تعالى خالقا لهما وهو محال وأيضا تمسكوا بهذه الآية فى خلق القرآن قالوا الآية دالة على أنه تعالى خالق لكل الاشياء والقرآن ليس هو الله تعالى فوجب أن يكون مخلوقا وأن يكون داخلا تحت هذا العموم والجواب اقصى ما فى الباب ان الصيغة عامة الا أنا نخصصها فى حق صفات الله تعالى بسبب الدلائل العقلية * قوله تعالى (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما توقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض كذلك يضرب الله الامثال للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى انما يتذكر أولوا الالباب) اعلم انه تعالى لما شبه المؤمن والكافر والايمان والكفر بالاعمى والبصير والظلمات والنور ضرب للايمان والكفر مثلا آخر فقال أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ومن حق الماء ان يستقر فى الاودية المنخفضة عن الجبال والتلال بمقدار سعة تلك الاودية وصغرها ومن حق الماء اذا زاد على قدر الاودية أن ينبسط على الارض ومن حق الزبد الذى يحتمله الماء فيطفو ويربو عليه أن يتبدد فى الاطراف ويبطل سواء كان ذلك الزبد ما يجرى مجرى الغليان من البياض أو ما يختلط بالماء من الاجسام الخفيفة ولما ذكر تعالى هذا الزبد الذى لا يظهر الا عند اشتداد جرى الماء ذكر الزبد الذى لا يظهر الا بالنار وذلك لان كل واحد من الاجساد السبعة اذا أذيب بالنار لابتغاء حلية أو متاع آخر من الامتعة التى يحتاج اليها فى مصالح البيت فانه ينفصل عنها نوع من الزبد والخبث ولا ينتفع به بل يضيع ويبطل ويبقى الخالص فالحاصل ان الوادى اذا جرى طفا عليه زبد وذلك الزبد يبطل ويبقى الماء والاجساد السبعة اذا أذيبت لاجل اتخاذ الحلى أو لاجل اتخاذ سائر الامتعة انفصل عنها خبث وزبد فيبطل ويبقى ذلك الجوهر المنتفع به فكذا ههنا أنزل من سماء الكبرياء والجلالة والاحسان ماء وهو القرآن والاودية قلوب العباد وشبه القلوب بالاودية لان القلوب تستقر فيها أنوار علوم القرآن كما ان الاودية تستقر فيها المياه النازلة من السماء وكما أن كل واحد فانما يحصل فيه من مياه الامطار ما يليق بسعته أو ضيقه فكذلك ههنا كل قلب انما يحصل فيه من أنوار علوم القرآن ما يليق بذلك القلب من طهارته وخبثه وقوة فهمه وقصور فهمه وكما أن الماء يعلوه زبد والاجساد السبعة المذابة يخالطها خبث ثم ان ذلك الزبد والخبث يذهب ويضيع ويبقى جوهر الماء وجوهر الاجساد السبعة كذا ههنا بيانات القرآن تختلط بها شكوك وشبهات ثم انها بالآخرة تزول وتضيع ويبقى

فى بيان حال أهل كل منهما الا تكميلا للدعوة وترهيبا فقيل (للذين استجابوا لربهم) اذ دعاهم الى الحق بفنون الدعوة التى من جملتها ضرب الامثال فانه ألطف ذريعة الى تفهيم القلوب الغبية وأقوى وسيلة الى تسخير النفوس الأبية كيف لا وهو تصوير للمعقول بصورة المحسوس وابراز لاوابد المعانى فى هيئة المأنوس فأى دعوة أولى منه بالاستجابة والقبول (الحسنى) أى المثوبة الحسنى وهى الجنة (والذين لم يستجيبوا له) وعاندوا الحق الجلى (لو أن لهم ما فى الارض) من أصناف الاموال (جميعا) بحيث لم يشذ منه شاذ فى أقطارها أو مجموعا غير متفرق بحسب الازمان (ومثله معه لافتدوا به) أى بما فى الارض ومثله معه جميعا ليتخلصوا عما بهم وفيه من تهويل ما يلقاهم ما لا يحيط به البيان فالموصول مبتدأ والشرطية كما هى خبره لكن لا على أنها وضعت موضع السوأى فوقعت فى مقابلة الحسنى الواقعة فى القرينة الاولى لمراعاة حسن المقابلة فصار كأنه قيل والذين لم يستجيبوا له السوأى كما توهم فان الشرطية وان دلت على كمال سوء حالهم لكنها بمعزل من القيام مقام لفظ السوأى مصحوبا باللام الداخلة على الموصول أو ضميره وعليه يدور حصول المرام وانما الواقع فى تلك المقابلة سوء الحساب فى قوله تعالى (أولئك لهم سوء الحساب) وحيث كان اسم الاشارة الواقع مبتدأ فى هذه الجملة عبارة عن الموصول

العلم والدين والحكمة والمكاشفة فى العاقبة فههنا هو تقرير هذا المثل ووجه انطباق المثل على الممثل به وأكثر المفسرين سكتوا عن بيان كيفية التمثيل والتشبيه (المسئلة الثانية) فى المباحث اللفظية التى فى هذه الآية فى لفظ الاودية أبحاث (البحث الاول) الاودية جمع واد وفى الوادى قولان الاول انه عبارة عن الفضاء المنخفض عن الجبال والتلال الذى يجرى فيه السيل هذا قول عامة أهل اللغة والقول الثانى قال السهروردى يسمى الماء واديا اذا سال قال ومنه سمى الودى وديا لخروجه وسيلانه وعلى هذا القول فالوادى اسم للماء السائل كالمسيل والاول هو القول المشهور الآن على هذا التقدير يكون قوله سالت أودية مجازا فكان التقدير سالت مياه الاودية الا انه حذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه (البحث الثانى) قال أبو على الفارسى رحمه الله الاودية جمع واد ولا نعلم فاعلا جمع على أفعلة قال ويشبه أن يكون ذلك لتعاقب فاعل وفعيل على الشئ الواحد كعالم وعليم وشاهد وشهيد وناصر ونصير ثم ان وزن فاعل يجمع على افعال كصاحب وأصحاب وطائر وأطيار ووزن فعيل يجمع على أفعلة كجريب وأجربة ثم لما حصلت المناسبة المذكورة بين فاعل وفعيل لا جرم يجمع الفاعل جمع الفعيل فيقال وادوأودية ويجمل الفعيل على جمع الفاعل فيقال يتيم وأيتام وشريف وأشراف هذا ما قاله أبو على الفارسى رحمه الله وقال غيره نظير واد وأودية ناد وأندية للمجالس (البحث الثالث) انما ذكر لفظ أودية على سبيل التنكير لان المطر لا يأتى الا على طريق المناوبة بين البقاع فتسيل بعض أودية الارض دون بعض * أما قوله تعالى بقدرها ففيه بحثان (الاول) قال الواحدى القدر والقدر مبلغ الشئ يقال كم قدر هذه الدراهم وكم قدرها ومقدارها أى كم تبلغ فى الوزن فما يكون مساويا لها فى الوزن فهو قدرها (البحث الثانى) سالت أودية بقدرها أى من الماء فان صغر الوادى قل الماء وان اتسع الوادى كثر الماء * أما قوله فاحتمل السيل زبدا رابيا ففيه بحثان (البحث الاول) قال الفراء يقال أزبد الوادى ازبادا والزبد الاسم وقوله رابيا قال الزجاج طافيا عاليا فوق الماء وقال غيره زائدا بسبب انتفاخه يقال ربا يربو اذا زاد * أما قوله تعالى ومما توقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله فاعلم انه تعالى لما ضرب المثل بالزبد الحاصل من الماء أتبعه بضرب المثل بالزبد الحاصل من النار وفيه مباحث (البحث الاول) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم يوقدون بالياء واختاره أبو عبيدة لقوله ينفع الناس وأيضا فليس ههنا مخاطب والباقون بالتاء على الخطاب وعلى هذا التقدير ففيه وجهان الاول انه خطاب للمذكورين فى قوله قل أفاتخذتم من دونه أولياء والثانى انه يجوز أن يكون خطابا عاما يراد به الكافة كأنه قال ومما توقدون عليه فى النار أيها الموقدون (البحث الثانى) الايقاد على الشئ على قسمين أحدهما أن لا يكون ذلك الشئ فى النار وهو كقوله تعالى فاوقد لى ياهامان على الطين والثانى أن يوقد على الشئ ويكون ذلك الشئ فى النار فان من أراد تذويب الاجساد

الواقع مبتدأ فى الجملة السابقة كان خبرها أعنى الجملة الظرفية خبرا عن الموصول فى الحقيقة ومبينا لابهام مضمون الشرطية الواقعة خبرا عنه أولا ولذلك ترك العطف فصار كأنه قيل والذين لم يستجيبوا له لهم سوء الحساب وذلك فى قوة أن يقال والذين لم يستجيبوا له سوء الحساب مع زيادة تأكيد فتم حسن المقابلة على أبلغ وجه وآكده ثم بين مؤدى ذلك فقيل (ومأواهم) أى مرجعهم (جهنم) وفيه نوع تأكيد لتفسير الحسنى بالجنة (وبئس المهاد) أى المستقر والمخصوص بالذم محذوف وقيل اللام فى قوله تعالى للذين استجابوا لربهم متعلقة بقوله يضرب الله الامثال أى الامثال السالفة وقوله الحسنى صفة للمصدر أى استجابوا الاستجابة الحسنى وقوله والذين لم يستجيبوا له معطوف على الموصول الاول وقوله لو أن لهم الخ كلام مستأنف مسوق لبيان ما أعد لغير المستجيبين من العذاب والمعنى كذلك يضرب الله الامثال للمؤمنين المستجيبين والكافرين المعاندين أى هما مثلا الفريقين وأنت خبير بأن عنوان الاستجابة وعدمها لا مناسبة بينه وبين ما يدور عليه أمر التمثيل وأن الاستعمال المستفيض دخول اللام على من يقصد تذكيره بالمثل نعم قد يستعمل فى هذا المعنى أيضا كما فى قوله سبحانه ضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ونظائره على أن بعض الامثال المضروبة لاسيما

السبعة جعلها فى النار فلهذا السبب قال ههنا ومما توقدون عليه فى النار (البحث الثالث) فى قوله ابتغاء حلية قال أهل المعانى الذى يوقد عليه لابتغاء الحلية الذهب والفضة والذى يوقد عليه لابتغاء الامتعة الحديد والنحاس والرصاص والاسرب يتخذ منها الاوانى والاشياء التى ينتفع بها والمتاع كل ما يتمتع به وقوله زبد مثله أى زبد مثل زبد الماء الذى يحمله السيل ثم قال تعالى كذلك يضرب الله الحق والباطل والمعنى كذلك يضرب الله الامثال للحق و الباطل ثم قال أما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس قال الفراء الجفاء الرمى والاطراح يقال جفا الوادى غثاءه يجفوه جفاء اذا رماه والجفاء اسم للمجتمع منه المنضم بعضه الى بعض وموضع جفاء نصب على الحال والمعنى ان الزبد قد يعلو على وجه الماء ويربو وينتفخ الا أنه بالآخرة يضمحل ويبقى الجوهر الصافى من الماء ومن الاجساد السبعة فكذلك الشبهات والخيالات قد تقوى وتعظم الا أنها بالآخرة تبطل وتضمحل وتزول و يبقى الحق ظاهرا لايشوبه شئ من الشبهات وفى قراءة رؤبة بن العجاج جفالا وعن أبى حاتم لايقرأ بقراءة رؤبة لانه كان يأكل الفار أما قوله تعالى للذين استجابوا لربهم الحسنى ففيه وجهان الاول انه تم الكلام عند قوله كذلك يضرب الله الامثال ثم استأنف الكلام بقوله للذين استجابوا لربهم الحسنى ومحله الرفع بالابتداء وللذين خبره وتقديره لهم الخصلة الحسنى والحالة الحسنى الثانى أنه متصل بماقبله والتقدير كأنه قال الذى يبقى هو مثل المستجيب والذى يذهب جفاء مثل من لايستجيب ثم بين الوجه فى كونه مثلا وهو انه لمن يستجيب الحسنى وهو الجنة ولمن لايستجيب أنواع الحسرة والعقوبة وفيه وجه آخر وهو أن يكون التقدير كذلك يضرب الله الامثال للذين استجابوا لربهم الاستجابة الحسنى فيكون الحسنى صفة لمصدر محذوف واعلم أنه تعالى ذكر ههنا أحوال السعداء وأحوال الاشقياء أما أحوال السعداء فهى قوله للذين استجابوا لربهم الحسنى والمعنى ان الذين أجابوه الى مادعاهم اليه من التوحيد والعدل والنبوة وبعث الرسل والتزام الشرائع الواردة على لسان رسوله فلهم الحسنى قال ابن عباس الجنة وقال أهل المعانى الحسنى هى المنفعة العظمى فى الحسن وهى المنفعة الخالصة عن شوائب المضرة الدائمة الخالية عن الانقطاع المقرونة بالتعظيم والاجلال ولم يذكر الزيادة ههنا لانه تعالى قد ذكرها فى سورة أخرى وهو قوله للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وأما أحوال الاشقياء فهى قوله والذين لم يستجيبوا له فلهم أنواع أربعة من العذاب والعقوبة (فالنوع الاول) قوله لو أن لهم مافى الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به والافتداء جعل أحد الشيئين بدلا من الآخر ومفعول لافتدوا به محذوف تقديره لافتدوا به أنفسهم أى جعلوه فداء أنفسهم من العذاب والكناية فى به عائدة الى ما فى قوله ما فى الارض واعلم أن هذا المعنى حق لان المحبوب بالذات لكل انسان هو ذاته وكل ماسواه فانما يحبه لكونه وسيلة الى مصالح ذاته فاذا كانت النفس فى الضرر و الالم

المثل الاخير الموصول بالكلام الذى حكى الفريقين بل مثل الحق والباطل ولامساغ لجعل الفريقين مضروبا لهم أيضا بأن يجعل فى حكم أن يقال كذلك يضرب الله الامثال ﴿ ٢٨٩ ﴾ للناس اذ الاوجه حينئذ لتنويعهم الى المستجيبين وغير المستجيبين فتامل (أفمن يعلم أن ما أنزل اليك من ربك) من القرآن الذى مثل بالماء المنزل من السماء والابريز الخالص فى المنفعة والجدوى (الحق) الذى لاحق وراءه أو الحق الذى أشير اليه بالامثال المضروبة فيستجيب له (كمن هو أعمى) عمى القلب لايشاهده وهو على علو ولايقدر قدره وهو فى أقصى مراتب العلو والعظم فيبقى حائرا فى ظلمات الجهل وغياهب الضلال أو لايتذكر بما ضرب من الامثال اى كمن لايعلم ذلك الا أنه أريد زيادة تقبيح حاله فعبر عنه بالاعمى وايراد الفاء بعد الهمزة لتوجيه الانكار الى ترتب توهم المماثلة على ظهور حال كل منهما بما ضرب من الامثال وبين المصير والمآل كأنه قيل أبعدما بين حال كل من الفريقين ومآلهما يتوهم المماثلة بينهما ثم استؤنف فقيل (انما يتذكر) بما ذكر من المذكرات فيقف على ما بينهما من التفاوت والتنائى ﴿ ٣٧ ﴾ خا (أولوا الالباب) أى العقول الخالصة المبرأة من مشايعة الالف ومعارضة الوهم (الذين يوفون بعهد الله) بما عقدوا على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته تعالى حين قالوا بلى أو ما عهد الله عليهم فى كتبه (ولا ينقضون

والمحب وكان مالكا لما يساوى عالم الاجساد والارواح فانه يرضى بأن يجعله فداء لنفسه لان المحبوب بالعرض لابد وأن يكون فداء لما يكون محبوبا بالذات (والنوع الثانى) من انواع العذاب الذى أعده الله لهم هو قوله أولئك لهم سوء الحساب قال الزجاج ذاك لان كفرهم أحبط أعمالهم وأقول ههنا حالتان فكل ما شغلك بالله وعبوديته ومحبته فهى الحالة السعيدة الشريفة العلوية القدسية وكل ما شغلك بغير الله فهى الحالة الضارة المؤذية الخسيسة ولاشك ان هاتين الحالتين يقبلان الاشد والاضعف والاقل والازيد ولاشك ان المواظبة على الاعمال المناسبة لهذه الاحوال توجب قوتها ورسوخها لما ثبت فى المعقولات ان كثرة الافعال توجب حصول الملكات الراسخة ولاشك انه لما كانت كثرة الافعال توجب حصول تلك الملكات الراسخة وكل واحدة من تلك الافعال حتى اللمحة واللحظة والخطور بالبال والالتفات الضعيف فانه يوجب أثرا ما فى حصول تلك الحالة فى النفس فهنا هو الحساب وعند التأمل فى هذه الفصول يتبين للانسان صدق قوله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره اذا ثبت هذا فالسعداء هم الذين استجابوا لربهم فى الاعراض عما سوى الله وفى الاقبال بالكلية على عبودية الله تعالى ولاجرم حصل لهم الحسنى ❊ وأما الاشقياء فهم الذين لم يستجيبوا لربهم فلهذا السبب وجب أن يحصل لهم سوء الحساب والمراد بسوء الحساب انهم أحبوا الدنيا وأعرضوا عن المولى فلما ماتوا بقوا محرومين عن معشوقهم الذى هو الدنيا وبقوا محرومين عن الفوز بخدمة حضرة المولى (والنوع الثالث) قوله تعالى ومأواهم جهنم وذلك لانهم كانوا غافلين عن الاستسعاد بخدمة حضرة المولى عاكفين على لذات الدنيا فاذا ماتوا فارقوا معشوقهم فيحترقون على مفارقتها وليس عندهم شئ آخر يجبر هذه المصيبة فلذلك قال مأواهم جهنم ثم انه تعالى وصف هذا المأوى فقال وبئس المهاد ولاشك ان الامر كذلك ❊ ثم قال تعالى أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى فهذا اشارة الى المثل المتقدم ذكره وهو ان العالم بالشئ كالبصير والجاهل به كالاعمى وليس أحدهما كالآخر لان الاعمى اذا أخذ يمشى من غير قائد فالظاهر انه يقع فى البئر وفى المهالك وربما أفسد ما كان على طريقه من الامتعة النافعة أما البصير فانه يكون آمنا من الهلاك والاهلاك ثم قال انما يتذكر أولوا الالباب والمراد انه لا ينتفع بهذه الامثلة الا أرباب الالباب الذين يطلبون من كل صورة معناها ويأخذون من كل قشرة لبابها ويعبرون بظاهر كل حديث الى سره ولبابه ❊ قوله عزوجل (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرؤن بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) اعلم أن هذه الاية هل هى متعلقة بما

الميثاق) ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه من الايمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله و بين العباد وهو تعميم بعد تخصيص وفيه تأكيد للاستمرار المفهوم من صيغة المستقبل (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) من الرحم وموالاة المؤمنين والايمان بجميع الانبياء المجمعين على الحق من غير تفريق بين أحد منهم ويندرج فيه مراعاة جميع حقوق الناس بل حقوق كل ما يتعلق بهم من الهر والدجاج (ويخشون ربهم) خشية جلال وهيبة ورهبة فلا يعصونه فيما أمر به (ويخافون سوء الحساب) فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا وفيه دلالة على كمال فظاعته حسبما ذكر فيما قبل (والذين صبروا) على كل ما تكرهه النفس من الافعال والتروك (ابتغاء وجه ربهم) طلبا لرضاه خاصة من غير أن ينظروا الى جانب الخلق رياء وسمعة ولا الى جانب النفس زينة وعجبا وحيث كان الصبر على الوجه المذكور ملاك الامر فى كل ما ذكر من الصلات السابقة واللاحقة أو رد على صيغة الماضى اعتناء بشأنه ودلالة على وجوب تحققه فان ذلك مما لا بد منه اما فى أنفس الصلات كما فيما عدا الاولى والرابعة والخامسة أو فى اظهار أحكامها كما فى الصلات ﴿ قبلها ﴾ الثلاث المذكورات فانها وان استغنت عن الصبر فى أنفسها حيث لا مشقة على النفس فى الاعتراف بالربوبية والخشية والخوف لكن اظهار أحكامها والجرى على موجبها

قبلها أم لا فيه قولان الاول انها متعلقة بما قبلها وعلى هذا التقدير ففيه وجهان الاول انه يجوز أن يكون قوله الذين يوفون بعهد الله صفة لاولى الالباب والثانى أن يكون ذلك صفة لقوله أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق والقول الثانى أن يكون قوله الذين يوفون بعهد الله مبتدأ وأولئك لهم عقبى الدار خبره كقوله والذين ينقضون عهد الله أولئك لهم اللعنة واعلم أن هذه الآية من أولها الى آخرها جملة واحدة شرط وجزاء وشرطها مشتمل على قيود وجزاؤها يشتمل أيضا على قيود * أما القيود المعتبرة فى الشرط فهى تسعة (القيد الاول) قوله الذين يوفون بعهد الله وفيه وجوه الاول قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد الذى عاهدهم عليه حين كانوا فى صلب آدم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى والثانى ان المراد بعهد الله كل أمر قام الدليل على صحته وهو من وجهين أحدهما الاشياء التى أقام الله عليها دلائل عقلية قاطعة لا تقبل النسخ والتغيير والآخر التى أقام الله عليها الدلائل السمعية وبين لهم تلك الاحكام والحاصل انه دخل تحت قوله يوفون بعهد الله كل ما قام الدليل عليه ويصح اطلاق لفظ العهد على الحجة بل الحق أنه لا عهد أوكد من الحجة والدلالة على ذلك ان من حلف على الشئ فانما يلزمه الوفاء به اذا ثبت بالدليل وجوبه لا بمجرد اليمين ولذلك ربما يلزمه أن يحنث نفسه اذا كان ذلك خيرا له فلا عهد أوكد من الزام الله تعالى اياه ذلك بدليل العقل أو بدليل السمع ولا يكون العبد موفيا للعهد الا بأن يأتى بكل تلك الاشياء كما أن الحالف على أشياء كثيرة لا يكون بارا فى يمينه الا اذا فعل الكل ويدخل فيه الاتيان بجميع المأمورات والانتهاء عن كل المنهيات ويدخل فيه الوفاء بالعقود فى المعاملات ويدخل فيه أداء الامانات وهذا القول هو المختار الصحيح فى تأويل الآية (القيد الثانى) قوله ولا ينقضون الميثاق وفيه أقوال الاول وهو قول الاكثرين ان هذا الكلام قريب من الوفاء بالعهد فان الوفاء بالعهد قريب من عدم نقض الميثاق والعهد وهذا مثل أن يقول انه لما وجب وجوده لزم أن يمتنع عدمه فهذان المفهومات متغايران الا أنهما متلازمان فكذلك الوفاء بالعهد يلزمه أن لا ينقض الميثاق واعلم أن الوفاء بالعهد من أجل مراتب السعادة قال عليه السلام لا ايمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له والآيات الواردة فى هذا الباب كثيرة فى القرآن والقول الثانى ان الميثاق ما وثقه المكلف على نفسه فالحاصل ان قوله الذين يوفون بعهد الله اشارة الى ما كلف الله العبد به ابتداء وقوله ولا ينقضون الميثاق اشارة الى ما التزمه العبد من أنواع الطاعات بحسب اختيار نفسه كالنذر بالطاعات والخيرات والقول الثالث ان المراد بالوفاء بالعهد عهد الربوبية والعبودية والمراد بالميثاق المواثيق المذكورة فى التوراة والانجيل وسائر الكتب الالهية على وجوب الايمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم عند ظهوره واعلم أن الوفاء بالعهد أمر مستحسن فى العقول والشرائع قال عليه السلام من عاهد الله فغدر كانت فيه خصلة من النفاق وعنه عليه السلام ثلاثة

خيرنال عن الاحتياج اليه (وأقاموا الصلوة) المفروضة (وأنفقوا مما رزقناهم) أى بعضه الذى يجب عليهم انفاقه (سرا) لمن لم يعرف بالمال أو لمن لا يتهم بترك الزكاة أو عند انفاقه واعطائه من تمنعه المروءة من أخذه ظاهرا (وعلانية) لمن لم يكن كذلك أو الاول فى التطوع والثانى فى الفرض (ويدرؤن بالحسنة السيئة) أى يجازون الاساءة بالاحسان أو يتبعون الحسنة السيئة فتمحوها عن ابن عباس رضى الله عنهما يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيئ غيرهم وعن الحسن اذا حرموا أعطوا واذا ظلموا عفوا واذا قطعوا وصلوا وعن ابن كيسان اذا أذنبوا تابوا وقيل اذا رأوا منكرا أمروا بتغييره وتقديم المجرور على المنصوب لاظهار كمال العناية بالحسنة (أولئك) المنعوتون بالنعوت الجليلة والملكات الجميلة وهو مبتدأ خبره الجملة الظرفية أعنى قوله تعالى (لهم عقبى الدار) أى عاقبة الدنيا وما ينبغى أن يكون مآل أمر أهلها وهى الجنة وقيل الجار والمجرور خبر لأولئك وعقبى الدار فاعل الاستقرار وأيا ما كان فليس فيه قصر حتى يرد أن بعض ما فى حيز الصلة ليس من العزائم التى يخل اخلالها بالوصول الى حسن العاقبة والجملة خبر للموصولات المتعاطفة أو استئناف لبيان ما استوجبوه بتلك الصفات ان جعلت الموصولات المتعاطفة صفات لأولى الالباب على طريقة المدح من غير أن يقصد

أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته رجل أعطى عهدا ثم غدر ورجل استأجر أجيرا استوفى عمله وظلمه أجره ورجل باع حرا فاسترق الحر وأكل ثمنه وقيل كان بين معاوية وملك الروم عهد فأراد أن يذهب اليهم وينقض العهد فاذا رجل على فرس يقول وفاء بالعهد لا غدر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كان بينه وبين قوم عهد فلا يتحللن اليهم عهده ولا يحلها حتى ينقضي الامد وينبذ اليهم على سواء قال من هذا قالوا عمرو بن عيينة فرجع معاوية (القيد الثالث) والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل وههنا سؤال وهو أن الوفاء بالعهد وترك نقض الميثاق اشتمل على وجوب الاتيان بجميع المأمورات والاحتراز عن كل المنهيات فما الفائدة في ذكر هذه القيود المذكورة بعدهما والجواب من وجهين الاول انه ذكر لئلا يظن ظان ان ذلك فيما بينه وبين الله تعالى فلاجرم أفرد ما بينه وبين العباد بالذكر والثاني انه تأكيد اذا عرفت هذا فنقول ذكروا في تفسيره وجوها الاول ان المراد منه صلة الرحم قال عليه السلام ثلاث يأتين يوم القيامة لها ذلق الرحم تقول أي رب قطعت والامانة تقول أي رب تركت والنعمة تقول أي رب كفرت والقول الثاني ان المراد صلة محمد صلى الله عليه وسلم وموازرته ونصرته في الجهاد والقول الثالث رعاية جميع الحقوق الواجبة للعباد فيدخل فيه صلة الرحم وصلة القرابة الثابتة بسبب اخوة الايمان كما قال انما المؤمنون اخوة ويدخل في هذه الصلة امدادهم بايصال الخيرات ودفع الآفات بقدر الامكان وعيادة المريض وشهود الجنائز وافشاء السلام على الناس والتبسم في وجوههم وكف الاذى عنهم ويدخل فيه كل حيوان حتى الهرة والدجاجة وعن الفضيل بن عياض رحمه الله ان جماعة دخلوا عليه بمكة فقال من أين أنتم قالوا من خراسان فقال اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم واعلموا أن العبد لو أحسن كل الاحسان وكان له دجاجة فأساء اليها لم يكن من المحسنين وأقول حاصل الكلام أن قوله الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق اشارة الى التعظيم لامر الله وقوله والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل اشارة الى الشفقة على خلق الله (القيد الرابع) قوله ويخشون ربهم والمعنى انه وان أتى بكل ما قدر عليه في تعظيم أمر الله وفي الشفقة على خلق الله الا أنه لابد وأن تكون الخشية من الله والخوف منه مستوليا على قلبه وهذه الخشية نوعان أحدهما أن يكون خائفا من أن يقع زيادة أو نقصان أو خلل في عباداته وطاعاته بحيث يوجب فساد العبادة أو يوجب نقصان ثوابها والثاني وهو خوف الجلال وذلك لان العبد اذا حضر عند السلطان المهيب القاهر فانه وان كان في عين طاعته الا أنه لا يزول عن قلبه مهابة الجلالة والرفعة والعظمة (القيد الخامس) قوله ويخافون سوء الحساب اعلم ان القيد الرابع اشارة الى الخشية من الله وهذا القيد الخامس اشارة الى الخوف والخشية وسوء الحساب وهذا يدل على ان المراد من الخشية من الله ما ذكرناه من خوف الجلال والمهابة والعظمة والالزم

أن يكون للصلات المذكورة مدخل في التذكر (جنات عدن) بدل من عقبى الدار أو مبتدأ خبره (يدخلونها) والعدن الاقامة ثم صار علما للجنة من الجنات أي جنات يقيمون فيها وقيل هو بطنان الجنة (ومن صلح من آبائهم) جمع أبوى كل واحد منهم فكأنه قيل من آبائهم وأمهاتهم (وأزواجهم وذرياتهم) وهو عطف على المرفوع في يدخلون وانما ساغ ذلك للفصل بالضمير الآخر أو مفعول معه والمعنى انه يلحق بهم من صلح من أهلهم وان لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعا لهم تعظيما لشأنهم وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة وأن الموصوف بتلك الصفات يقرن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة في دخول الجنة زيادة في انسهم وفي التقييد بالصلاح قطع للاطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الانساب (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) من أبواب المنازل أو من أبواب الفتوح والتحف قائلين (سلام عليكم) بشارة لهم بدوام السلامة (بما صبرتم) متعلق بعليكم أو بمحذوف أي هذه الكرامة العظمى بما صبرتم أي بسبب صبركم أو بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه والمعنى لئن تعبتم في الدنيا لقد استرحتم الساعة وتخصيص ﴿ التكرار ﴾ الصبر بالذكر من بين الصلات السابقة لما قدمناه من أن له دخلا في كل منها ومزية زائدة من حيث انه ملاك الامر في كل منها وأن شيئا منها لا يعتد به الا

التكرار (القيد السادس) قوله تعالى والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم فيدخل فيه الصبر على فعل العبادات والصبر على ثقل الامراض والمضار والغموم والاحزان والصبر على ترك المشتهيات وبالجملة الصبر على ترك المعاصى وعلى أداء الطاعات ثم ان الانسان قد يقدم على الصبر لوجوه أحدها أن يصبر ليقال ما أكمل صبره وأشد قوته على تحمل النوازل وثانيها أن يصبر لئلا يعاب بسبب الجزع وثالثها أن يصبر لئلا تحصل شماتة الاعداء ورابعها أن يصبر لعلمه بأن لا فائدة فى الجزع فالانسان اذا أتى بالصبر لأحد هذه الوجوه لم يكن ذلك داخلا فى كمال النفس وسعادة القلب أما اذا صبر على البلاء لعلمه بان ذلك البلاء قسمة حكم بها القسام العلام المنزه عن العيب والباطل والسفه بل لابد أن تكون تلك القسمة مشتملة على حكمة بالغة ومصلحة راجحة ورضى بذلك لانه تصرف المالك فى ملكه ولا اعتراض على المالك فى أن يتصرف فى ملكه أو يصبر لانه صار مستغرقا فى مشاهدة المبلى فكان استغراقه فى تجلى نور المبلى أذهله عن التألم بالبلاء وهذا أعلى مقامات الصديقين فهذه الوجوه الثلاثة هى التى يصدق عليها انه صبر ابتغاء وجه ربه ومعناه انه صبر لمجرد ثوابه وطلب رضا الله تعالى واعلم أن قوله ابتغاء وجه ربهم فيه دقيقة وهى أن العاشق اذا ضرب معشوقه فربما نظر العاشق لذلك الضارب وفرح به فقوله ابتغاء وجه ربهم محمول على هذا المجاز يعنى كما أن العاشق يرضى بذلك الضرب لالتذاذه بالنظر الى وجه معشوقه فكذلك العبد يصبر على البلاء والمحنة ويرضى به لاستغراقه فى معرفة نور الحق وهذه دقيقة لطيفة (القيد السابع) قوله وأقاموا الصلاة واعلم أن الصلاة والزكاة وان كانتا داخلتين فى الجملة الاولى الا أنه تعالى أفردها بالذكر تنبيها على كونها أشرف من سائر العبادات وقد سبق فى هذا الكتاب تفسير اقامة الصلاة ولا يمتنع ادخال النوافل فيه أيضا (القيد الثامن) قوله تعالى وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال الحسن المراد الزكاة المفروضة فان لم يتهم بترك أداء الزكاة فالاولى أداؤها سرا وان اتهم بترك الزكاة فالاولى أداؤها فى العلانية وقيل السر ما يؤديه بنفسه والعلانية ما يؤديه الى الامام وقال آخرون بل المراد الزكاة الواجبة والصدقة التى يؤتى بها على صفة التطوع فقوله سرا يرجع الى التطوع وقوله علانية يرجع الى الزكاة الواجبة (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة انه تعالى رغب فى الانفاق من كل ما كان رزقا وذلك يدل على انه لا رزق الا الحلال اذ لو كان الحرام رزقا لكان قد رغب تعالى فى انفاق الحرام وانه لا يجوز (القيد التاسع) قوله ويدرؤن بالحسنة السيئة وفيه وجهان الاول انهم اذا أتوا بمعصية درؤها ودفعوها بالتوبة كما روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل اذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها والثانى أن المراد انهم لا يقابلون الشر بالشر بل يقابلون الشر بالخير كما قال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما وعن ابن عمر رضى الله عنهما ليس الوصول من وصل ثم وصل تلك المجازاة

بأن يكون الا ابتغاء وجه الرب تعالى وتقدس (فنعم عقبى الدار) أى فنعم عقبى الدار الجنة وقرئ فنعم بفتح النون والاصل نعم فسكنت العين بنقل حركتها الى النون تارة و بدونه أخرى وعن النبى عليه الصلاة والسلام انه كان يأتى قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وكذا عن الخلفاء الاربعة رضوان الله عليهم أجمعين (والذين ينقضون عهد الله) أريد بهم من يقابل الاولين ويعاندهم فى الاتصاف بنقائض صفاتهم (من بعد ميثاقه) من بعد ما أوثقوه من الاعتراف والقبول (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) من الايمان بجميع الانبياء المجمعين على الحق حيث يؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعضهم ومن حقوق الارحام وموالاة المؤمنين وغير ذلك مما لا يراعون حقوقه من الامور المعدودة فيما سلف وانما لم يتعرض لنفى الخشية والخوف عنهم صريحا لدلالة النقض والقطع على ذلك وأما عدم التعرض لنفى الصبر المذكور فلانه انما اعتبر تحققه فى ضمن الحسنات المعدودة ليقع معتدا بهن فلا وجه لنفيه عمن يتعو بين الحسنات بعد المشرقين كما لا وجه لنفى الصلاة والزكاة عمن لا يحوم حول أصل الايمان بالله تعالى فضلا من فروع الشرائع وان أريد بالانفاق التطوع فنفيه مندرج تحت قطع ما أمر الله تعالى بوصله واما درء السيئة بالحسنة فانتفاؤه عنهم ظاهر مما سبق ولحق

لكنه من قطع ثم وصل وعطف على من لم يصله وليس الحليم من ظلم ثم حلم حتى اذا هيجه قوم اهتاج لكن الحليم من قدر ثم عفا وعن الحسن هم الذين اذا حرموا أعطوا واذا ظلموا عفوا ويروى أن شقيق بن ابراهيم البلخي دخل على عبدالله بن المبارك متنكرا فقال من أين أنت فقال من بلخ فقال وهل تعرف شقيقا قال نعم فقال وكيف طريقة أصحابه فقال اذا منعوا صبروا وان أعطوا شكروا فقال عبدالله طريقة كلابنا هكذا فقال وكيف ينبغي أن يكون فقال الكاملون هم الذين اذا منعوا شكروا واذا أعطوا آثروا واعلم أن جملة هذه القيود التسعة هي القيود المذكورة في الشرط أما القيود المذكورة في الجزاء فهي أربعة (القيد الاول) قوله أولئك لهم عقبى الدار أي عاقبة الدار وهي الجنة لانها هي التي أراد الله أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها قال الواحدي العقبى كالعاقبة ويجوز أن تكون مصدرا كالشورى والقربى والرجعى وقد يجيء مثل هذا أيضا على فعلى كالنجوى والدعوى وعلى فعلى كالذكرى والضيزى ويجوز أن يكون اسما وهو ههنا مصدر مضاف الى الفاعل والمعنى أولئك لهم ان تعقب أعمالهم الدار التي هي الجنة (القيد الثاني) قوله جنات عدن يدخلونها وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال الزجاج جنات عدن بدل من عقبى والكلام في جنات عدن ذكرناه مستقصى عند قوله تعالى ومساكن طيبة في جنات عدن وذكرنا هناك مذهب المفسرين ومذهب أهل اللغة (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير وأبو عمرو يدخلونها بضم الياء وفتح الخاء على ما لم يسم فاعله والباقون بفتح الياء وضم الخاء على اسناد الدخول اليهم (القيد الثالث) قوله ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن علية صلح بضم اللام قال صاحب الكشاف والفتح أفصح (المسئلة الثانية) قال الزجاج موضع من رفع لاجل العطف على الواو في قوله يدخلونها ويجوز أن يكون نصبا كما تقول قد دخلوا وزيدا أي مع زيد (المسئلة الثالثة) في قوله ومن صلح قولان الاول قال ابن عباس يريد من صدق بما صدقوا به وان لم يعمل مثل أعمالهم وقال الزجاج بين تعالى ان الانساب لا تنفع اذا لم يحصل معها أعمال صالحة بل الآباء والازواج والذريات لا يدخلون الجنة الا بالاعمال الصالحة قال الواحدي والصحيح ما قال ابن عباس لان الله تعالى جعل من ثواب المطيع سروره بحضور أهله معه في الجنة وذلك يدل على انهم يدخلونها كرامة للمطيع الآتي بالاعمال الصالحة ولو دخلوها بأعمالهم الصالحة لم يكن في ذلك كرامة للمطيع ولا فائدة في الوعد به اذ كل من كان مصلحا في عمله فهو يدخل الجنة واعلم أن هذه الحجة ضعيفة لان المقصود بشارة المطيع بكل ما يزيده سرورا وبهجة فاذا بشر الله المكلف بانه اذا دخل الجنة فانه يحضر معه آباؤه وأزواجه وأولاده فلا شك انه يعظم سرور المكلف بذلك وتقوى بهجته به ويقال ان من أعظم موجبات سرورهم أن يجتمعوا فيتذاكروا أحوالهم في الدنيا ثم يشكرون الله على الخلاص منها والفوز بالجنة ولذلك قال تعالى

فلأن من يجازى احسانه عز وجل بنقض العهد ومخالفة الامر ويباشر الفساد بدا حسبما يحكيه قوله عز وعلا (ويفسدون في الارض) أي بالظلم وتهييج الفتن كيف يتصور منه مجازاة الاساءة بالاحسان على أن ذلك يشعر بأن له دخلا في الافضاء الى العقوبة التي ينبئ عنها قوله تعالى (أولئك) الخ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح (لهم) بسبب ذلك (اللعنة) أي الابعاد من رحمة الله تعالى (ولهم) مع ذلك (سوء الدار) أي سوء عاقبة الدنيا أو عذاب جهنم فانها دارهم لان ترتيب الحكم على الموصول مشعر بعلية الصلة له ولا يخفى أنه لا دخل له في ذلك على أكثر التفاسير فان مجازاة السيئة بمثلها مأذون فيها ودفع الكلام السيئ بالحسن وكذا الاعطاء عند المنع والعفو عند الظلم والوصل عند القطع ليس مما يورث تركه تبعة وأما ما اعتبر اندراجه تحت الصلة الثانية من الاخلال ببعض الحقوق المندوبة فلا ضير في ذلك لان اعتباره من حيث انه من مستتبعات الاخلال بالعزائم بالكفر ببعض الانبياء وعقوق الوالدين وترك سائر الحقوق الواجبة وتكريرلهم للتأكيد والايذان باختلافهما واستقلال كل منهما في الثبوت (الله يبسط الرزق) ﴿ في صفة ﴾ أي يوسعه (لمن يشاء) من عباده (ويقدر) أي يضيقه على من يشاء حسبما تقتضيه الحكمة من غير أن يكون لاحد مدخل في ذلك ولا شعور بحكمته فربما

في صفة أهل الجنة أنهم يقولون يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين (المسئلة الرابعة) قوله وأزواجهم ليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة ولعل الأولى من مات عنها أو ماتت عنه وما روي عن سودة أنه لما هم الرسول صلى الله عليه وسلم بطلاقها قالت دعني يا رسول الله أحشر في زمرة نسائك كالدليل على ما ذكرناه (النوع الرابع) قوله والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن عباس لهم خيمة من درة مجوفة طولها فرسخ وعرضها فرسخ لها ألف باب مصاريعها من ذهب يدخلون عليهم الملائكة من كل باب يقولون لهم سلام عليكم بما صبرتم على أمر الله وقال أبو بكر الاصم من كل باب من أبواب البر كباب الصلاة وباب الزكاة وباب الصبر ويقولون ونعم أعقبكم الله بعد الدار الاولى واعلم أن دخول الملائكة ان حملناه على الوجه الاول فهو مرتبة عظيمة وذلك لان الله تعالى أخبر عن هؤلاء المطيعين أنهم يدخلون جنة الخلد ويجتمعون بآبائهم وأزواجهم وذرياتهم على أحسن وجه ثم ان الملائكة مع جلالة مراتبهم يدخلون عليهم لاجل التحية والاكرام عند الدخول عليهم يكرمونهم بالتحية والسلام ويبشرونهم بقولهم فنعم عقبى الدار ولا شك أن هذا غير ما يذكره المتكلمون من أن الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالاجلال والتعظيم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يأتي قبور الشهداء رأس كل حول فيقول السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار والخلفاء الاربعة هكذا كانوا يفعلون وأما أن حملناه على الوجه الثاني فتفسير الآية ان الملائكة طوائف منهم روحانيون ومنهم كروبيون فالعبد اذا راض نفسه بأنواع الرياضات كالصبر والشكر والمراقبة والمحاسبة ولكل مرتبة من هذه المراتب جوهر قدسي وروح علوي يختص بتلك الصفة مزيد اختصاص فعند الموت اذا أشرقت تلك الجواهر القدسية تجلت فيها من كل روح من الارواح السماوية ما يناسبها من الصفة المخصوصة بها فيفيض عليها من ملائكة الصبر كمالات مخصوصة نفسانية لا تظهر الا في مقام الصبر ومن ملائكة الشكر كمالات روحانية لا تتجلى الا من مقام الشكر وهكذا القول في جميع المراتب (المسئلة الثانية) تمسك بعضهم بهذه الآية على أن الملائكة أفضل من البشر فقال انه سبحانه ختم مراتب سعادات البشر بدخول الملائكة عليهم على سبيل التحية والاكرام والتعظيم فكانوا به أجل مرتبة من البشر ولو كانوا أقل مرتبة من البشر لما كان دخولهم عليهم لاجل السلام والتحية موجبا علو درجاتهم وشرف مراتبهم ألا ترى من عاد من سفره الى بيته فاذا قيل في معرض كمال مرتبته انه يزوره الامير والوزير والقاضي والمفتي فهذا يدل على ان درجة ذلك المزور أقل وأدنى من درجات الزائرين فكذلك ههنا (المسئلة الثالثة) قال الزجاج ههنا محذوف تقديره الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ويقولون سلام عليكم فأضمر القول ههنا لان في الكلام دليلا عليه وأما قوله بما صبرتم

بسطه للكافر إملاء واستدراجا وربما يضيقه على المؤمن زيادة [illegible] (وفرحوا) أي أهل مكة فرح شر وبطر لا فرح سرور بفضل الله تعالى (بالحيوة الدنيا) وما بسط لهم فيها من نعيمها (وما الحياة الدنيا) وما يتبعها من النعيم (في الآخرة) أي في جنب نعيم الآخرة (الا متاع) الا شيء نزر يتمتع به كعجالة الراكب وزاد الراعي والمعنى انهم رضوا بحظ الدنيا معرضين عن نعيم الآخرة والحال أن ما أشروا به في جنب ما أعرضوا عنه شيء قليل النفع سريع النفاد (ويقول الذين كفروا) أي أهل مكة ص وايثار هذه الطريقة على الاضمار مع ظهور ارادتهم عقيب ذكر فرحهم بالحياة الدنيا لذمهم والتسجيل عليهم بالكفر فيما حكى عنهم من قولهم (لولا أنزل عليه آية من ربه) فان ذلك في أقصى مراتب المكابرة والعناد كأن ما أنزل عليه عليه السلام من الآيات العظام الباهرة ليس بآية حتى اقترحوا ما لا تقتضيه الحكمة من الآيات المحسوسة التي لا يبقى لاحد بعد ذلك طاقة بعدم القبول ولذلك أمر في الجواب بقوله تعالى (قل ان الله يضل من يشاء) اضلاله مشيئة تابعة للحكمة الداعية اليها أي يخلق فيه الضلال لصرف اختياره الى تحصيله ويدعه منهمكا فيه لعلمه بأنه لا ينجع فيه اللطف ولا ينفعه الارشاد لمن كان على صفتكم في المكابرة والعناد وشدة الشكيمة والغلو في الفساد فلا سبيل له الى الاهتداء

فنعم عقبى الدار ففيه وجهان أحدهما انه متعلق بالسلام والمعنى انه انما حصلت لكم هذه السلامة بواسطة صبركم على الطاعات وترك المحرمات والثانى أنه متعلق بمحذوف والتقدير ان هذه الكرامات التى ترونها وهذه الخيرات التى تشاهدونها انما حصلت بواسطة ذلك الصبر * قوله تعالى (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الارض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) اعلم أنه تعالى لما ذكر صفات السعداء وذكر ما ترتب عليها من الاحوال الشريفة العالية أتبعها بذكر حال الاشقياء وذكر ما يترتب عليها من الاحوال المخزية المكروهة وأتبع الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب ليكون البيان كاملا فقال والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه وقد بينا أن عهد الله ما ألزم عباده بواسطة الدلائل العقلية والسمعية لانها أوكد من كل عهد وكل يمين اذ الايمان انما تفيد التوكيد بواسطة الدلائل على أنها توجب الوفاء بمقتضاها والمراد من نقض هذه العهود أن لا ينظر المرء فى الادلة أصلا فحينئذ لا يمكنه العمل بموجبها أو بأن ينظر فيها ويعلم صحتها ثم يعاند فلا يعمل بعلمه أو بأن ينظر فى الشبهة فيعتقد خلاف الحق والمراد من قوله من بعد ميثاقه أى من بعد أن وثق الله تلك الادلة وأحكمها لانه لا شئ أقوى مما دل الله على وجوبه فى أنه ينفع فعله ويضر تركه فان قيل اذا كان العهد لا يكون الا مع الميثاق فما فائدة اشتراطه تعالى بقوله من بعد ميثاقه قلنا لا يمتنع أن يكون المراد بالعهد هو ما كلف الله العبد به والمراد بالميثاق الادلة المؤكدة لانه تعالى قد يؤكد العهد بدلائل أخرى سواء كانت تلك المؤكدات دلائل عقلية أو سمعية ثم قال تعالى ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل وذلك فى مقابلة قوله والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل فجعل من صفات هؤلاء القطع بالضد من ذلك الوصل والمراد به قطع كل ما أوجب الله وصله ويدخل فيه وصل الرسول بالموالاة والمعاونة ووصل المؤمنين ووصل الارحام ووصل سائر من له حق ثم قال ويفسدون فى الارض وذلك الفساد هو الدعاء الى غير دين الله وقد يكون بالظلم فى النفوس والاموال وتخريب البلاد ثم انه تعالى بعد ذكر هذه الصفات قال أولئك لهم اللعنة واللعنة من الله الابعاد من خيرى الدنيا والآخرة الى ضدهما من عذاب ونقمة ولهم سوء الدار لان المراد جهنم وليس فيها الا ما يسوء الصائر اليها * قوله تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة الا متاع) اعلم أنه تعالى لما حكم على من نقض عهد الله فى قبول التوحيد والنبوة بأنهم ملعونون فى الدنيا ومعذبون فى الآخرة فكأنه قيل لو كانوا أعداء الله لما فتح الله عليهم أبواب النعم واللذات فى الدنيا فأجاب الله تعالى عنه بهذه الآية وهو أنه يبسط الرزق على البعض ويضيقه على البعض ولا تعلق له بالكفر والايمان فقد يوجد الكافر موسعا عليه دون المؤمن ويوجد المؤمن مضيقا عليه دون الكافر فالدنيا دار امتحان قال الواحدى معنى القدر فى اللغة قطع الشئ على مساواة

ولو جاءته كل اية (ويهدى اليه) اى الى [illegible] تعالى الخير هداية موصلة اليه [illegible] ذلك غير مختص بالمهتدين وفيه من تشريفهم مالا يوصف (من أناب) أقبل الى الحق وتخلق تضاعيف ما نزل من دلائله الواضحة وحقيقة الانابة الدخول فى نوبة الخير وايثار ايرادها فى الصلة على ايراد المشيئة كما فى الصلة الاولى للتنبيه على الداعى الى الهداية بل الى مشيئتها والاشعار بما دعا الى المشيئة الاولى من المكابرة وفيه حث للكفرة على الاقلاع عما هم عليه من العتو والعناد وايثار صيغة الماضى للايماء الى استدعاء الهداية لسابقة الانابة كما أن ايثار صيغة المضارع فى الصلة الاولى للدلالة على استمرار المشيئة حسب استمرار مكابرتهم (الذين آمنوا) بدل من من أناب فان اريد بالهداية الهداية المستمرة فالامر ظاهر لظهور كون الايمان مؤديا اليها وان أريد احداثها فالمراد بالذين آمنوا الذين صار أمرهم الى الايمان كما فى قوله تعالى هدى للمتقين أى الصائرين الى التقوى والا فالايمان لا يؤدى الى الهداية نفسها أو خبر مبتدأ محذوف أى والذين آمنوا أو منصوب على المدح (وتطمئن قلوبهم) أى تستقر وتسكن (بذكر الله) بكلامه المعجز ﴿ غيره ﴾ أى يوسع بب فيه كقوله تعالى وهذا ذكر مبارك أنزلناه وقوله انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ويعلمون أن الآية لا مدخل فى د فيقترحوها

غيره من غير زيادة ولا نقصان وقال المفسرون معنى يقدر ههنا يضيق ومثله قوله تعالى ومن قدر عليه رزقه أي ضيق ومعناه انه يعطيه بقدر كفايته لا يفضل عنه شئ وأما قوله وفرحوا بالحياة الدنيا فهو راجع الى من بسط الله له رزقه وبين تعالى ان ذلك لا يوجب الفرح لان الحياة العاجلة بالنسبة الى الآخرة كالحقير القليل بالنسبة الى ما لا نهاية له ❊ قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل ان الله يضل من يشاء ويهدي اليه من أناب الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) اعلم أن الكفار قالوا يا محمد ان كنت رسولا فأتنا بآية ومعجزة قاهرة ظاهرة مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام فأجاب عن هذا السؤال بقوله قل ان الله يضل من يشاء ويهدي اليه من أناب وبيان كيفية هذا الجواب من وجوه (أحدها) كأنه تعالى يقول ان الله أنزل عليه آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة ولكن الاضلال والهداية من الله فأضلكم عن تلك الآيات القاهرة الباهرة وهدى أقواما آخرين اليها حتى عرفوا بها صدق محمد صلى الله عليه وسلم في دعوى النبوة واذا كان كذلك فلا فائدة في تكثير الآيات والمعجزات (وثانيها) انه كلام يجري مجرى التعجب من قولهم وذلك لان الآيات الباهرة المتكاثرة التي ظهرت على رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت أكثر من ان تصير مشتبهة على العاقل فلما طلبوا بعدها آيات أخرى كان موضعا للتعجب والاستنكار فكأنه قيل لهم ما أعظم عنادكم ان الله يضل من يشاء من كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة على الكفر فلا سبيل الى اهتدائكم وان أنزل كل آية ويهدي من كان على خلاف صفتكم (وثالثها) انهم لما طلبوا سائر الآيات والمعجزات فكأنه قيل لهم لا فائدة في ظهور الآيات والمعجزات فان الاضلال والهداية من الله فلو حصلت الآيات الكثيرة ولم تحصل الهداية فانه لم يحصل الانتفاع بها ولو حصلت آية واحدة فقط وحصلت الهداية من الله فانه يحصل الانتفاع بها فلا تشتغلوا بطلب الآيات ولكن تضرعوا الى الله في طلب الهدايات (ورابعها) قال أبو علي الجبائي المعنى ان الله يضل من يشاء عن رحمته وثوابه عقوبة له على كفره فلستم ممن يجيبه الله تعالى الى ما يسأل لاستحقاقكم العذاب والاضلال عن الثواب ويهدي اليه من أناب أي يهدي الى جنته من تاب وآمن قال وهذا يبين ان الهدى هو الثواب من حيث انه عقبه بقوله من أناب أي تاب والهدى الذي يفعله بالمؤمن هو الثواب لانه يستحقه على ايمانه وذلك يدل على انه تعالى انما يضل عن الثواب بالعقاب لا عن الدين بالكفر على ما ذهب اليه مخالفنا هذا تمام كلام أبي علي وقوله أناب أي اقبل الى الحق وحقيقته دخل في نوبة الخير ❊ قوله تعالى (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) اعلم أن قوله الذين آمنوا بدل من قوله من أناب قال ابن عباس يريد اذا سمعوا القرآن خشعت قلوبهم واطمأنت فان قيل أليس انه

والعدول الى صيغة المضارع لافادة دوام الاطمئنان وتجدده حسب تجدد الآيات وتعددها (ألا بذكر الله) وحده (تطمئن القلوب) دون غيره من الامور التي تميل اليها النفوس من الدنياويات وهذا ظاهر وأما سائر المعجزات فالقصر من حيث انها ليست في افادة الطمأنينة بالنسبة الى من لم يشاهدها بمثابة القرآن المجيد فانه معجزة باقية الى يوم القيامة يشاهدها كل أحد وتطمئن به القلوب كافة وفيه اشعار بأن الكفرة ليست لهم قلوب وأفئدتهم هواء حيث لم يطمئنوا بذكر الله تعالى ولم يعدوه آية وهو أظهر الآيات وأبهرها وقيل تطمئن قلوبهم بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته كقوله تعالى ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله أو بذكر دلائله الدالة على وحدانيته أو بذكره جل وعلا أنسا به وتبتلا اليه فالمراد بالهداية دوامها واستمرارها (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) بدل من القلوب على حذف المضاف بدل الكل حسبما رمز اليه أي قلوب الذين آمنوا وفيه ايماء الى أن الانسان انما هو القلب أو مبتدأ خبره الجملة الدعائية على التأويل أعني قوله (طوبى لهم) أو خبر مبتدأ مضمر أو نصب على المدح فطوبى لهم حال عاملها الفعلان وطوبى مصدر من طاب كبشرى وزلفى والواو منقلبة من الياء كموقن وموسر وقرأ مكوزة الاعرابي طيبى لتسلم الياء والمعنى أصابوا خيرا ومحلها النصب كسلاما لك أو الرفع

تعالى قال فى سورة الانفال انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والوجل ضد الاطمئنان فكيف وصفهم ههنا بالاطمئنان والجواب من وجوه (الاول) انهم اذا ذكروا العقوبات ولم يأمنوا من ان يقدموا على المعاصى فهناك وصفهم بالوجل واذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة سكنت قلوبهم الى ذلك وأحد الامرين لا ينافى الآخر لان الوجل هو بذكر العقاب والطمأنينة بذكر الثواب ويوجد الوجل فى حال فكرهم فى المعاصى وتوجد الطمأنينة عند اشتغالهم بالطاعات (الثانى) ان المراد أن علمهم بكون القرآن معجزا يوجب حصول الطمأنينة لهم فى كون محمد صلى الله عليه وسلم نبيا حقا من عند الله أما شكهم فى أنهم أتوا بالطاعات على سبيل التمام والكمال فيوجب حصول الوجل فى قلوبهم (الثالث) انه حصلت فى قلوبهم الطمأنينة فى ان الله تعالى صادق فى وعده ووعيده وان محمدا صلى الله عليه وسلم صادق فى كل ما أخبر عنه الا انه حصل الوجل والخوف فى قلوبهم انهم هل أتوا بالطاعة الموجبة للثواب أم لا وهل احترزوا عن المعصية الموجبة للعقاب أم لا واعلم ان لنا فى قوله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ابحاثا دقيقة غامضة وهى من وجوه (الاول) ان الموجودات على ثلاثة اقسام مؤثر لا يتأثر ومتأثر لا يؤثر وموجود يؤثر فى شئ ويتأثر عن شئ فالمؤثر الذى لا يتأثر هو الله سبحانه وتعالى والمتأثر الذى لا يؤثر هو الجسم فانه ذات قابلة للصفات المختلفة والآثار المتنافية وليس له خاصية الا القبول فقط وأما الموجود الذى يؤثر تارة ويتأثر اخرى فهى الموجودات الروحانية وذلك لانها اذا توجهت الى الحضرة الالهية صارت قابلة للآثار الفائضة عن مشيئة الله تعالى وقدرته وتكوينه وايجاده واذا توجهت الى عالم الاجسام اشتاقت الى التصرف فيها لان عالم الارواح مدبر لعالم الاجسام واذا عرفت هذا فالقلب كلما توجه الى مطالعة عالم الاجسام حصل فيه الاضطراب والقلق والميل الشديد الى الاستيلاء عليها والتصرف فيها أما اذا توجه القلب الى مطالعة الحضرة الالهية حصل فيه أنوار الصمدية والاضواء الالهية فهنالك يكون ساكنا فلهذا السبب قال ألا بذكر الله تطمئن القلوب (الثانى) ان القلب كلما وصل الى شئ فانه يطلب الانتقال منه الى حالة أخرى أشرف منها لانه لا سعادة فى عالم الاجسام الا وفوقها مرتبة أخرى فى اللذة والغبطة أما اذا انتهى القلب والعقل الى الاستسعاد بالمعارف الالهية والاضواء الصمدية بقى واستقر فلم يقدر على الانتقال منه البتة لانه ليس هناك درجة أخرى فى السعادة أعلى منها واكمل فلهذا المعنى قال ألا بذكر الله تطمئن القلوب (والوجه الثالث) فى تفسير هذه الكلمة أن الاكسير اذا وقعت منه ذرة على الجسم النحاسى انقلب ذهبا باقيا على كر الدهور والازمان صابرا على الذوبان الحاصل بالنار فاكسير جلال الله تعالى اذا وقع فى القلب أولى أن يقلبه جوهرا باقيا صافيا نورانيا لا يقبل التغير والتبدل فلهذا قال ألا بذكر الله تطمئن القلوب ثم قال تعالى الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تفسير كلمة

﴿ طوبى ﴾

بالنصب والرفع واللام فى لهم للبيان مثلها فى سقيا لك (كذلك) مثل ذلك الارسال العظيم الشان المصحوب بهذه المعجزة الباهرة (أرسلناك فى أمة قد خلت) أى مضت (من قبلها أمم) كثيرة قد أرسل اليهم رسل (لتتلو) لتقرأ (عليهم الذى أوحينا اليك) من الكتاب العظيم الشأن وتهديهم الى الحق رحمة لهم وتقديم المجرور على المنصوب من قبيل الابهام ثم البيان كما فى قوله تعالى ووضعنا عنك وزرك وفيه ما لا يخفى من ترقب النفس الى ما سيرد وحسن قبولها له عند وروده عليها (وهم) أى والحال أنهم (يكفرون بالرحمن) بالبليغ الرحمة الذى وسعت كل شئ رحمته وأحاطت به نعمته والعدول الى المظهر المتعرض لوصف الرحمة من حيث ان الارسال ناشئ منها كما قال تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين فلم يقدروا قدره ولم يشكروا نعمه لا سيما ما أنعم به عليهم بارسال مثلك اليهم وانزال القرآن الذى هو مدار المنافع الدينية والدنيوية عليهم وقيل نزلت فى مشركى مكة حين أمروا بالسجود فقالوا وما الرحمن (قل هو) أى الرحمن الذى كفرتم به وأنكرتم معرفته (ربى) الرب فى الاصل بمعنى التربية وهى تبليغ الشئ الى كماله شيئا فشيئا ثم وصف به مبالغة كالصوم والعدل وقيل هو نعت أى خالق ومبلغى الى مراتب الكمال وايراده قبل قوله

طوبى ثلاثة أقوال الاول انها اسم شجرة فى الجنة روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال طوبى شجرة فى الجنة غرسها الله بيده تنبت الحلى والحلل وأن أغصانها لترى من وراء سور الجنة وحكى أبو بكر الاصم رضى الله عنه ان أصل هذه الشجرة فى دار النبى صلى الله عليه وسلم [illegible] كل مؤمن منها غصن والقول الثانى وهو قول أهل اللغة ان طوبى مصدر من [illegible] وزلفى ومعنى طوبى لك أصبت طيبا ثم اختلفوا على وجوه فقيل فرح [illegible] عن ابن عباس رضى الله عنهما وقيل نعم مالهم عن عكرمة وقيل غبطة لهم عن الضحاك وقيل حسنى لهم عن قتادة وقيل خير وكرامة عن أبى بكر الاصم وقيل العيش الطيب لهم عن الزجاج وأعلم ان المعانى متقاربة والتفاوت يقرب من أن يكون فى اللفظ والحاصل انه مبالغة فى نيل الطيبات و يدخل فيه جميع اللذات وتفسيره أن أطيب الاشياء فى كل الامور حاصل لهم والقول الثالث ان هذه اللفظة ليست عربية ثم اختلفوا فقال بعضهم طوبى اسم الجنة بالحبشية وقيل اسم الجنة بالهندية وقيل البستان بالهندية وهذا القول ضعيف لانه ليس فى القرآن الا العربى لا سيما واشتقاق هذا اللفظ من اللغة العربية ظاهر (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف الذين آمنوا مبتدأ وطوبى لهم خبره ومعنى طوبى لك أى أصبت طيبا ومحلها النصب أو الرفع كقولك طيبا لك وطيب لك وسلاما لك وسلام لك والقراءة فى قوله وحسن مآب بالرفع والنصب تدلك على محلها وقرأ مكوزة الاعرابى طيبى لهم أما قوله وحسن مآب فالمراد حسن المرجع والمقر وكل ذلك وعد من الله بأعظم النعيم ترغيبا فى طاعته وتحذيرا عن المعصية ✻ قوله تعالى (كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها امم لتتلو عليهم الذى أوحينا اليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب) اعلم ان الكاف فى كذلك للتشبيه فقيل وجه التشبيه أرسلناك كما أرسلنا الانبياء قبلك فى أمة قد خلت من قبلها أمم وهو قول ابن عباس والحسن وقتادة وقيل كما أرسلنا الى أمم وأعطيناهم كتبا تتلى عليهم كذلك أعطيناك هذا الكتاب وأنت تتلوه عليهم فلماذا اقترحوا غيره وقال صاحب الكشاف كذلك أرسلناك أى مثل ذلك الارسال ارسلناك يعنى أرسلناك ارسالا له شان وفضل على سائر الارسالات ثم فسر كيف أرسله فقال فى أمة قد خلت من قبلها أمم أى ارسلناك فى أمة قد تقدمتها امم فهى آخر الامم وأنت آخر الانبياء اما قوله لتتلو عليهم الذى أوحينا اليك فالمراد لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذى أوحينا اليك وهم يكفرون بالرحمن أى وحال هؤلاء أنهم يكفرون بالرحمن الذى رحمته وسعت كل شئ وما بهم من نعمة فمنه وكفروا بنعمته فى ارسال مثلك اليهم وانزال هذا القرآن المعجز عليهم قل هو ربى الواحد المتعالى عن الشركاء لا اله الا هو عليه توكلت فى نصرتى عليكم واليه متاب فيعيننى على مصابرتكم ومجاهدتكم قيل نزل قوله وهم يكفرون بالرحمن فى عبد الله بن أمية المخزومى وكان يقول أما الله فنعرفه وأما الرحمن فلا نعرفه الا صاحب اليمامة يعنون مسيلمة

(لا اله الا هو) أى لا مستحق للعبادة سواه تنبيه على أن استحقاق العبادة منوط بالربوبية وقيل ان أبا جهل سمع النبى عليه السلام يقول يا الله يا رحمن فرجع الى المشركين فقال ان محمدا يدعو الهين فنزلت ونزل قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن الآية (عليه توكلت) فى جميع أمورى لا سيما فى النصرة عليكم لا على أحد سواه (واليه) خاصة (متاب) أى توبتى كقوله تعالى واستغفر لذنبك أمر عليه السلام بذلك ابانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله تعالى وأنها صفة الانبياء وبعثا للكفرة على الرجوع عما هم عليه بأبلغ وجه وألطفه فانه عليه السلام حيث أمر بها وهو منزه عن شائبة اقتراف ما يوجبها من الذنب وان قل فتوبتهم وهم عاكفون على أنواع الكفر والمعاصى مما لا بد منه أصلا وقد فسر المتاب بمطلق الرجوع فقيل مرجعى ومرجعكم وزيد فيحكم بينى وبينكم وقد قيل فيثيبنى على مصابرتكم فتأمل (ولو أن قرآنا) أى قرآنا ما وهو اسم أن والخبر قوله تعالى (سيرت به الجبال) وجواب لو محذوف لانسياق الكلام اليه بحيث يتلقفه السامع من التالى والمقصود اما بيان عظم شأن القرآن العظيم وفساد رأى الكفرة حيث لم يقدروا قدره العلى ولم يعدوه من قبيل الآيات فاقترحوا غيره مما أوتى موسى وعيسى عليهما السلام واما بيان غلوهم فى المكابرة والعناد وتماديهم فى الضلال والفساد فالمعنى على الاول لو أن قرآنا سيرت به الجبال أى بانزاله أو بتلاوته عليها وزعزعت عن مقارها

كما فعل ذلك بالطور لموسى عليه الصلاة والسلام (أو قطعت به الارض) أى شققت وجعلت أنهارا وعيونا كما فعل بالحجر حين ضرب به عليه السلام بعصاه أو جعلت قطعا متصدعة (أو كلم به الموتى) أى بعد أن احيى بقراءته عليها كما أحييت لعيسى عليه السلام لكان ذلك هذا القرآن لكونه الغاية القصوى فى الانطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى وهيبته عز وجل كقوله تعالى لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله لا فى الاعجاز اذ لا مدخل له فى هذه الآثار ولا فى التذكير والانذار والتخويف لاختصاصها بالعقلاء مع انه لا علاقة لها بتكليم الموتى واعتبار فيض العقول اليها مخل بالمبالغة المقصودة وتقديم المجرور فى المواضع الثلاثة على المرفوع لما مر غير مرة من قصد الابهام ثم التفسير لزيادة التقرير لان بتقديم ما حقه التأخير تبقى النفس مستشرفة ومترقبة الى المؤخر أنه ماذا فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن وكلمة أو فى الموضعين لمنع الخلو لا لمنع الجمع واقتراحهم وان كان متعلقا بمجرد ظهور مثل هذه الافاعيل العجيبة على يده عليه السلام لا بظهورها بواسطة القرآن لكن ذلك حيث كان مبنيا على عدم اشتماله فى زعمهم على الخوارق نيط ظهورها به مبالغة فى بيان اشتماله عليها وأنه حقيق بأن يكون مصدرا لكل خارق وابانة لركاكة رأيهم فى شأنه الرفيع كأنه قيل لو ان ظهور أمثال ما اقترحوه من مقتضيات الحكمة لكان مظهرها هذا القرآن الذى

الكذاب فقال تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى وكقوله واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن وقيل انه عليه السلام حين صالح قريشا من الحديبية كتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله فقال المشركون ان كنت رسول الله وقد قاتلناك فقد ظلمنا ولكن اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله فكتب كذلك ولما كتب فى الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم قالوا أما الرحمن فلا نعرفه وكانوا يكتبون باسمك اللهم فقال عليه السلام اكتبوا كما تريدون واعلم أن قوله وهم يكفرون بالرحمن اذا حملناه على هاتين الروايتين كان معناه انهم كفروا باطلاق هذا الاسم على الله تعالى لا أنهم كفروا بالله تعالى وقال آخرون بل كفروا بالله اما جحدا له واما لاثباتهم الشركاء معه قال القاضى وهذا القول أليق بالظاهر لان قوله تعالى وهم يكفرون بالرحمن يقتضى انهم كفروا بالله وهو المفهوم من الرحمن وليس المفهوم منه الاسم كما لو قال قائل كفروا بمحمد وكذبوا به لكان المفهوم هو دون اسمه * قوله تعالى (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى بل لله الامر جميعا أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله ان الله لا يخلف الميعاد) اعلم انه روى ان أهل مكة قعدوا فى فناء مكة فأتاهم الرسول صلى الله عليه وسلم وعرض الاسلام عليهم فقال له عبد الله بن أمية المخزومى سير لنا جبال مكة حتى ينفسح المكان علينا واجعل لنا فيها أنهارا نزرع فيها أو أحى لنا بعض أمواتنا لنسألهم أحق ما تقول أو باطل فقد كان عيسى يحيى الموتى أو سخر لنا الريح حتى نركبها ونسير فى البلاد فقد كانت الريح مسخرة لسليمان فلست بأهون على ربك من سليمان فنزل قوله ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أى من أماكنها أو قطعت به الارض أى شققت فجعلت أنهارا وعيونا أو كلم به الموتى لكان هو هذا القرآن الذى أنزلناه عليك وحذف جواب لو لكونه معلوما وقال الزجاج المحذوف هو أنه لو أن قرآنا سيرت به الجبال وكذا وكذا لما آمنوا به كقوله ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى ثم قال تعالى بل لله الامر جميعا يعنى ان شاء فعل وان شاء لم يفعل وليس لاحد أن يتحكم عليه فى أفعاله وأحكامه ثم قال تعالى أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى قوله أفلم ييأس قولان أحدهما أفلم يعلموا وعلى هذا التقدير ففيه وجهان الاول ييأس يعلم فى لغة النخع وهذا قول أكثر المفسرين مثل مجاهد والحسن وقتادة واحتجوا عليه بقول الشاعر

ألم ييأس الاقوام أنى أنا ابنه * وان كنت عن أرض العشيرة نائيا

وأنشد أبو عبيدة

أقول لهم بالشعب اذ ييأسروننى * ألم تيأسوا أنى ابن فارس زهدم

أى ألم تعلموا وقال الكسائى ما وجدت العرب تقول يئست بمعنى علمت البتة والوجه

الثانى ماروى أن عليا وابن عباس كانا يقرآن أفلم يأس الذين آمنوا فقيل لابن عباس أفلم ييأس فقال أظن أن الكاتب كتبها وهو ناعس انه كان فى الخط يأس فزاد الكاتب سنة واحدة فصار ييأس فقرئ ييأس وهذا القول بعيد جدا لانه يقتضى كون القرآن محلا للتحريف والتصحيف وذلك يخرجه عن كونه حجة قال صاحب الكشاف ماهذا القول والله الا فرية بلا مرية والقول الثانى قال الزجاج المعنى أو يئس الذين آمنوا من ايمان هؤلاء لان الله لوشاء لهدى الناس جميعا وتقريره أن العلم بأن الشئ لايكون يوجب اليأس من كونه والملازمة توجب حسن المجاز فلهذا السبب حسن اطلاق لفظ اليأس لارادة العلم (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بقوله أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا وكلمة لو تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره والمعنى انه تعالى ماشاء هداية جميع الناس والمعتزلة تارة يحملون هذه المشيئة على مشيئة الالجاء وتارة يحملون الهداية على الهداية الى طريق الجنة وفيهم من يجرى الكلام على الظاهر ويقول انه تعالى ماشاء هداية جميع الناس لانه ماشاء هداية الاطفال والمجانين فلايكون شائيا الهداية جميع الناس والكلام فى هذه المسئلة قد سبق مرارا أما قوله تعالى ولايزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قوله الذين كفروا فيه قولان قيل أراد به جميع الكفار لان الوقائع الشديدة التى وقعت لبعض الكفار من القتل والسبى أوجب حصول الغم فى قلب الكل وقيل أراد بعض الكفار وهم جماعة معينون والالف واللام فى لفظ الكفار للمعهود السابق وهو ذلك الجمع المعين (المسئلة الثانية) فى الآية وجهان الاول ولايزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا من كفرهم وسوء أعمالهم قارعة داهية تفرعهم بما يحل الله بهم فى كل وقت من صنوف البلايا والمصائب فى نفوسهم وأولادهم وأموالهم أو تحل القارعة قريبا منهم فيفزعون ويضطربون ويتطاير اليهم شرارها ويتعدى اليهم شرورها حتى يأتى وعد الله وهو موتهم أو القيامة والقول الثانى ولايزال كفار مكة تصيبهم بما صنعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم من العداوة والتكذيب قارعة لان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لايزال يبعث السرايا فتغير حول مكة وتختطف منهم وتصيب من مواشيهم أو تحل أنت يامحمد قريبا من دارهم بجيشك كما حل بالحديبية حتى يأتى وعد الله وهو فتح مكة وكان الله قد وعده ذلك ثم قال ان الله لايخلف الميعاد والغرض منه تقوية قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وازالة الحزن عنه قال القاضى وهذا يدل على بطلان قول من يجوز الخلف على الله تعالى فى ميعاده وهذه الآية وان كانت واردة فى حق الكفار الا ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب اذ بعمومه يتناول كل وعيد ورد فى حق الفساق وجوابنا ان الخلف غير وتخصيص العموم غير ونحن لانقول بالخلف ولكنا نخصص عمومات الوعيد بالآيات الدالة على العفو قوله تعالى (ولقد

استهزئ برسل من قبلك فامليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب أفمن هو قائم

لم يعدوه آية وفيه من تفخيم شأنه العزيز ووصفهم بركاكة العقل مالايخفى (بل لله الامر جميعا) أى له الامر الذى عليه يدور فلك الاكوان وجودا وعدما يفعل مايشاء ويحكم مايريد لما يدعو اليه من الحكم البالغة وهو اضراب عما تضمنه الشرطية من معنى النفى لا بحسب منطوقه بل باعتبار موجبه ومؤداه أى لو أن قرآنا فعل به ما ذكر لكان ذلك هذا القرآن ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن لان الامر كله له وحده فالاضراب ليس بمتوجه الى كون الامر لله سبحانه بل الى مايؤدى اليه ذلك من كون الشأن على ماكان لما تقتضيه الحكمة من بناء التكليف على الاختيار (أفلم ييأس الذين آمنوا) أى أفلم يعلموا على لغة هوازن أو قوم من النخع أو على استعمال اليأس فى معنى العلم لتضمنه له ويؤيده قراءة على وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أفلم يتبين بطريق التفسير والفاء للعطف على مقدر أى أغفلوا عن كون الامر جميعا لله تعالى فلم يعلموا (أن لو يشاء الله) على حذف ضمير الشأن وتخفيف أن (لهدى الناس جميعا) باظهار أمثال تلك الآثار العظيمة فالانكار متوجه الى المعطوفين جميعا أو أعلموا كون الامر جميعا لله فلم يعلموا مايوجبه ذلك العلم مما ذكر فهو متوجه الى ترتب المعطوف على المعطوف عليه أى تخلف العلم الثانى عن العلم الاول وعلى التقديرين فالانكار انكار الوقوع كما فى قوله تعالى ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا لا انكار الواقع

على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركا قل سموهم ام تنبؤنه بما لا يعلم فى الارض أم بظاهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فماله من هادلهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق ومالهم من الله من واق) اعلم ان القوم لما طلبوا سائر المعجزات من الرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء والسخرية وكان ذلك يشق على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يتأذى من تلك الكلمات فالله تعالى أنزل هذه الآية تسلية له وتصبيرا له على سفاهة قومه فقال له ان أقوام سائر الانبياء استهزؤا بهم كما ان قومك يستهزئون بك فأمليت للذين كفروا أى أطلت لهم المدة بتأخير العقوبة ثم اخذتهم فكيف كان عقابى لهم واعلم أنى سأنتقم من هؤلاء الكفار كما انتقمت من اولئك المتقدمين والاملاء الامهال وان يتركوا مدة من الزمان فى خفض وأمن كالبهيمة يملى لها فى المرعى وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء ثم انه تعالى أورد على المشركين ما يجرى مجرى الحجاج وما يكون توبيخا لهم وتعجيبا من عقولهم فقال أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت والمعنى أنه تعالى قادر على كل الممكنات عالم بجميع المعلومات من الجزئيات والكليات واذا كان كذلك كان عالما بجميع أحوال النفوس وقادرا على تحصيل مطالبها من تحصيل المنافع ودفع المضار ومن ايصال الثواب اليها على كل الطاعات وايصال العقاب اليها على كل المعاصى وهذا هو المراد من قوله قائم على كل نفس بما كسبت وماذاك الا الحق سبحانه ونظيره قوله تعالى قائما بالقسط واعلم أنه لا بد لهذا الكلام من جواب واختلفوا فيه على وجوه (الاول) التقدير أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كمن ليس بهذه الصفة وهى الاصنام التى لا تنفع ولا تضر وهذا الجواب مضمر فى قوله تعالى وجعلوا لله شركاء والتقدير أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركائهم التى لا تضر ولا تنفع ونظيره قوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه وما جاء جوابه لانه مضمر فى قوله فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله فكذا ههنا قال صاحب الكشاف يجوز أن يقدر ما يقع خبر المبتدا ويعطف عليه قوله وجعلوا والتقدير أفمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه ولم يمجدوه وجعلوا له شركاء (والوجه الثانى) وهو الذى ذكره السيد صاحب حل العقد فقال نجعل الواو فى قوله وجعلوا واو الحال ونضمر للمبتدا خبرا يكون المبتدأ معه جملة مقررة لامكان ما يقارنها من الحال والتقدير أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت موجود والحال انهم جعلوا له شركاء ثم أقيم الظاهر وهو قوله لله مقام المضمر تقريرا للالهية وتصريحا بها وهذا كما تقول جواد يعطى الناس ويغنيهم موجود ويحرم مثلى واعلم انه تعالى لما قرر هذه الحجة زاد فى الحجاج فقال قل سموهم وانما يقال ذلك فى الامر المستحقر الذى بلغ فى الحقارة الى أن لا يذكر ولا يوضع له اسم فعند ذلك يقال سمه ان شئت يعنى انه اخس من ان يسمى ويذكر ولكنك ان شئت أن تضع له اسما فافعل فكأنه تعالى قال سموهم بالآلهة على سبيل

كما فى قولك ألم تخف الله حتى عصيته ثم ان مناط الانكار ليس عدم علمهم بمضمون الشرطية فقط بل مع عدم علمهم بعدم تحقق مقدمها كأنه قيل ألم يعلموا أن الله تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم وانه لم يشاها وذلك لانهم كانوا يودون أن يظهر ما اقترحوا من الآيات ليجتمعوا على الايمان وعلى الثانى لو أن قرآنا فصل به ما فصل من التعاجيب لما آمنوا به كقوله تعالى ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى الآية فالاضراب حينئذ متوجه الى ما سلف من اقتراحهم مع كونهم فى العناد على ما شرح أى فليس لهم ذلك بل لله الامر جميعا ان شاء أتى بما اقترحوا وان شاء لم يأت به حسبما تستدعيه داعية الحكمة من غير أن يكون لاحد عليه تحكم أو اقتراح واليأس بمعنى القنوط أى ألم يعلم الذين آمنوا حالهم هذه فلم يقنطوا من ايمانهم حتى احبوا ظهور مقترحاتهم فالانكار متوجه الى المعطوفين أو أعلموا ذلك فلم يقنطوا من ايمانهم فهو متوجه الى وقوع المعطوف بعد المعطوف عليه أى الى تخلف القنوط عن العلم المذكور والانكار على التقديرين انكار الواقع كما فى قوله تعالى أو لا تتقون ونظائره لا انكارا لوقوع فان عدم ﴿ التهديد ﴾ قنوطهم منه مما الامر دله وقوله تعالى أن لو يشاء الله الخ متعلق بمحذوف أى أفلم ييأسوا من ايمانهم علما منهم أو عالمين بانه لو يشاء الله لهدى الناس جميعا وانه لم يشأ ذلك أو بآمنوا أى أفلم يقنط الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا على معنى

التهديد والمعنى سواء سميتموهم بهذا الاسم أو لم تسموهم به فانها فى الحقارة بحيث لا تستحق أن يلتفت العاقل اليها ثم زاد فى الحجاج فقال أم تنبئونه بما لا يعلم فى الارض والمراد أتقدرون على أن تخبروه وتعلموه بأمر تعلمونه وهو لا يعلمه وانما خص الارض بنفى الشريك عنها وان لم يكن شريك البتة لانهم ادعوا أن له شركاء فى الارض لا فى غيرها أم بظاهر من القول يعنى تموهون باظهار قول لا حقيقة له وهو كقوله تعالى ذلك قولهم بأفواههم ثم انه تعالى بين بعد هذا الحجاج سوء طريقتهم فقال على وجه التحقير لما هم عليه بل زين للذين كفروا مكرهم قال الواحدى معنى بل ههنا كأنه يقول دع ذكر ما كنا فيه زين لهم مكرهم وذلك لانه تعالى لما ذكر الدلائل على فساد قولهم فكأنه يقول دع ذكر الدليل فانه لا فائدة فيه لانه زين لهم كفرهم ومكرهم فلا ينتفعون بذكر هذه الدلائل قال القاضى لا شبهة فى انه تعالى انما ذكر ذلك لاجل أن يذمهم به واذا كان كذلك امتنع أن يكون ذلك المزين هو الله بل لا بد وأن يكون اما شياطين الانس واما شياطين الجن واعلم أن هذا التأويل ضعيف لوجوه الاول أنه لو كان المزين أحد شياطين الجن أو الانس فالمزين فى قلب ذلك الشيطان ان كان شيطانا آخر لزم التسلسل وان كان هو الله فقد زال السؤال والثانى أن يقال القلوب لا يقدر عليها الا الله والثالث انا قد دللنا على أن ترجيح الداعى لا يحصل الا من الله تعالى وعند حصوله يجب الفعل أما قوله وصدوا عن السبيل فاعلم انه قرأ عاصم وحمزة والكسائى وصدوا بضم الصاد وفى حم المؤمن وصدوا عن السبيل على ما لم يسم فاعله يعنى ان الكفار صدهم غيرهم وعند اهل السنة ان الله صدهم وللمعتزلة فيه وجهان قيل الشيطان وقيل أنفسهم وبعضهم لبعض كما يقال فلان معجب وان لم يكن ثمة غيره وهو قول أبى مسلم والباقون وصدوا بفتح الصاد فى السورتين يعنى أن الكفار صدوا عن سبيل الله أى اعرضوا وقيل صرفوا غيرهم وهو لازم ومتعد وحجة القراءة الاولى مشاكلتها لما قبلها من بناء الفعل للمفعول وحجة القراءة الثانية قوله الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله * ثم قال ومن يضلل الله فما له من هاد اعلم ان اصحابنا تمسكوا بهذه الآية من وجوه (أولها) قوله بل زين للذين كفروا مكرهم وقد بينا بالدليل ان ذلك المزين هو الله (وثانيها) قوله وصدوا عن السبيل بضم الصاد وقد بينا ان ذلك الصاد هو الله (وثالثها) قوله ومن يضلل الله فما له من هاد وهو صريح فى المقصود وتصريح بأن ذلك المزين وذلك الصاد ليس الا الله (ورابعها) قوله تعالى لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق اخبر عنهم أنهم سيقعون فى عقاب الآخرة واخبار الله ممتنع التغير واذا امتنع وقوع التغير فى هذا الخبر امتنع صدور الايمان منه وكل هذه الوجوه قد لخصناها فى هذا الكتاب مرارا قال القاضى من يضلل الله أى عن ثواب الجنة لكفره وقوله فما له من هاد منبئ بذلك ان الثواب لا ينال الا بالطاعة خاصة فمن زاغ عنها لم يجد اليها سبيلا وقيل المراد بذلك من حكم بانه ضال وسماه ضالا وقيل المراد من يضله الله عن الايمان بان يجده كذلك ثم قال والوجه الاول اقوى واعلم ان

افلم ييأس من ايمانهم المؤمنون بمضمون الشرطية وبعدم تحقق مقدمها المنفهم من مكابرتهم حسبما يحكيه كلمة لو فالوصف المذكور من دواعى انكار يأسهم وقيل ان أباجهل وأضرابه قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان كنت نبيا فسير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا وتتخذ فيها البساتين والقطائع فقد سخرت لداود عليه السلام فلست بأهون على الله منه ان كنت نبيا كما زعمت أو سخر لنا به الريح كما سخرت لسليمان عليه السلام لنتجر عليها الى الشام فقد شق علينا قطع الشقة البعيدة أو ابعث لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا فنزلت فمعنى تقطيع الارض حينئذ قطعها بالسير ولا حاجة حينئذ الى الاعتذار فى اسناد الافاعيل المذكورة الى القرآن كما احتيج اليه فى الوجهين الاولين وعن الفراء أنه متعلق بما قبله من قوله وهم يكفرون بالرحمن وما بينهما اعتراض وهو بالحقيقة دال على الجواب والتقدير ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى لكفروا بالرحمن والتذكير فى كلم به الموتى لتغليب المذكر من الموتى على غيره (ولا يزال الذين كفروا) من أهل مكة (تصيبهم بما صنعوا) أى بسبب ما صنعوه من الكفر والتمادى فيه وعدم بيانه اما للقصد الى تهويله أو استهجانه وهو تصريح بما اشعر به بناء الحكم على الموصول من علية الصلة له مع ما فى صيغة الصنع من الايذان برسوخهم فى ذلك (قارعة) داهية تقرعهم وتقلقهم وهو ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب من القتل

والاسر والنهب والسلب وتقديم المجرور على الفاعل لما مر مرارا من ارادة التفسير اثر الابهام لزيادة التقرير والاحكام مع ما فيه من بيان أن مدار الاصابة من جهتهم آثر ذي اثير (أو تحل) تلك القارعة (قريبا) أي مكانا قريبا (من دارهم) فيفزعون منها ويتطاير اليهم شرارها شبهت القارعة بالعدو المتوجه اليهم فأسند اليها الاصابة تارة والحلول أخرى ففيه استعارة بالكناية وتخييل وترشيح (حتى يأتي وعد الله) أي موتهم او القيامة فان كلا منهما وعد محتوم لا مرد له وفيه دلالة على أن ما يصيبهم عند ذلك من العذاب في غاية الشدة وأن ما ذكر سابقة نفحة يسيرة بالنسبة اليه ثم حقق ذلك بقوله تعالى (ان الله لا يخلف الميعاد) أي الوعد كالميلاد والميثاق بمعنى الولادة والتوثقة لاستحالة ذلك على الله سبحانه وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أراد بالقارعة السرايا التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها وكانوا بين اغارة واختطاف وتخويف بالهجوم عليهم في ديارهم فالاصابة والحلول حينئذ من أحوالهم ويجوز على هذا أن يكون قوله تعالى أو تحل قريبا من دارهم خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم مرادا به حلوله الحديبية والمراد بوعد الله ما وعد به من فتح مكة (ولقد استهزئ برسل) كثيرة خلت (من قبلك فامليت للذين كفروا) أي تركتهم ملاوة من الزمان في أمن ودعة كما يملى للبهيمة في المرعى وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما لقي

﴿ انه ﴾

الوجه الاول ضعيف جدا لان الكلام انما وقع في شرح ايمانهم وكفرهم في الدنيا ولم يجر ذكر ذهابهم الى الجنة البتة فصرف الكلام عن المذكور الى غير المذكور بعيد وأيضا فهب أنا نساعد على ان الامر كما ذكروه الا انه تعالى لما اخبر أنهم لا يدخلون الجنة فقد حصل المقصود لان خلاف معلوم الله ومخبره محال ممتنع الوقوع واعلم انه تعالى لما اخبر عنهم بتلك الامور المذكورة بين انه جمع لهم بين عذاب الدنيا وبين عذاب الآخرة الذي هو أشق وانه لا دافع لهم عنه لا في الدنيا ولا في الآخرة أما عذاب الدنيا فبالقتل والقتال واللعن والذم والاهانة وهل يدخل المصائب والامراض في ذلك ام لا اختلفوا فيه قال بعضهم انها تدخل فيه وقال بعضهم انها لا تكون عقابا لان كل أحد نزلت به مصيبة فانه مأمور بالصبر عليها ولو كان عقابا لم يجب ذلك فالمراد على هذا القول من الآية القتل والسبي واغتنام الاموال واللعن وانما قال ولعذاب الآخرة أشق لانه ازيد ان شئت بسبب القوة والشدة وان شئت بسبب كثرة الانواع وان شئت بسبب انه لا يختلط بها شئ من موجبات الراحة وان شئت بسبب الدوام وعدم الانقطاع ثم بين بقوله وما لهم من الله من واق أي ان أحدا لا يقيهم ما نزل بهم من عذاب الله قال الواحدي أكثر القراء وقفوا على القاف من غير اثبات ياء في قوله واق وكذلك في قوله ومن يضلل الله فما له من هاد وكذلك في قوله وال وهو الوجه لانك تقول في الوصل هذا هاد ووال وواق فتحذف الياء لسكونها والتقائها مع التنوين فاذا وقفت انحذف التنوين في الوقف في الرفع والجر والياء كانت انحذفت في الوصل فيصادف الوقف الحركة التي هي كسرة في غير فاعل فتحذفها كما تحذف سائر الحركات التي تقف عليها فيصير هاد ووال وواق وكان ابن كثير يقف بالياء في هادي ووالي وواقي ووجهه ما حكى سيبويه أن بعض من يوثق به من العرب يقول هذا داعي فيقفون بالياء

* قوله تعالى (مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الانهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما ذكر عذاب الكفار في الدنيا والآخرة اتبعه بذكر ثواب المتقين وفي قوله مثل الجنة أقوال الاول قال سيبويه مثل الجنة مبتدأ وخبره محذوف والتقدير فيما قصصنا عليكم مثل الجنة والثاني قال الزجاج مثل الجنة جنة من صفتها كذا وكذا والثالث مثل الجنة مبتدأ وخبره تجري من تحتها الانهار كما تقول صفة زيد اسمر والرابع الخبر هو قوله أكلها دائم لانه الخارج عن العادة كأنه قال مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الانهار كما تعلمون من حال جنانكم الا أن هذه أكلها دائم (المسئلة الثانية) اعلم أنه تعالى وصف الجنة بصفات ثلاث أولها تجري من تحتها الانهار وثانيها ان اكلها دائم والمعنى ان جنات الدنيا لا يدوم ورقها وثمرها ومنافعها أما جنات الآخرة فثمارها دائمة غير منقطعة وثالثها ان ظلها دائم أيضا والمراد انه ليس هناك حر ولا برد ولا شمس ولا قمر ولا ظلمة ونظيره قوله تعالى لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ثم

من المشركين من التكذيب والاقتراح على طريقة الاستهزاء به و وتعديلهم والمعنى ان ذلك ليس مختصا بك بل هو أمر مطرد قد فعل ذلك برسل كثيرة كائنة من قبلك فأمهلت الذين فعلوه بهم والعدول فى الصلة الى وصف الكفر ليس لان المملى لهم غير المستهزئين بل لارادة الجمع بين الوصفين أى فأمليت للذين كفروا مع استهزائهم لا باستهزائهم فقط (ثم أخذتهم فكيف كان عقاب) أى عقابى ﴿ ٣٠٠ ﴾ اياهم وفيه من الدلالة على تناهى كيفيته فى الشدة والفظاعة مالا يخفى (أفمن هو قائم) أى رقيب مهيمن (على كل نفس) كائنة من كانت (بما كسبت) من خير أو شر لا يخفى عليه شئ من ذلك بل يجازى كلا بعمله وهو الله تعالى والخبر محذوف أى كمن ليس كذلك انكار لذلك وادخال الفاء لتوجيه الانكار الى توهم المماثلة غب ماعلم مما فعل تعالى بالمستهزئين من الاملاء المديد والاخذ الشديد ومن كون الامر كله لله تعالى وكون هداية الناس جميعا منوطة بمشيئته تعالى ومن تواتر القوارع على الكفرة الى أن يأتى وعد الله كأنه قيل أألامر كذلك فمن هذا شأنه كما ليس فى عداد الاشياء حتى تشركوه به فالانكار متوجه الى ترتب المعطوف أعنى توهم المماثلة على المعطوف عليه المقدر أعنى كون الامر كما ذكر كما فى قولك أتعلم الحق فلا تعمل به لا الى المعطوفين جميعا كما اذا قلت ألا تعلمه فلا تعمل به ﴿ ٣٩ ﴾ خا وقوله تعالى (وجعلوا لله شركاء) جملة مستقلة جئ بها للدلالة على الخبر أو حالية أى أفمن هذه صفاته كما ليس كذلك وقد جعلوا له شركاء لا شريكا واحدا أو معطوفة على الخبر ان قدر ما يصلح لذلك أى أفمن هذا شأنه لم يوحدوه وجعلوا له شركاء ووضع المظهر موضع المضمر للتنصيص على وحدانيته ذاتا واسما والتنبيه على اختصاصه

انه تعالى لما وصف الجنة بهذه الصفات الثلاثة بين ان ذلك عقبى الذين اتقوا يعنى عاقبة أهل التقوى هى الجنة وعاقبة الكافرين النار وحاصل الكلام من هذه الآية ان ثواب المتقين منافع خالصة عن الشوائب موصوفة بصفة الدوام واعلم ان قوله اكلها دائم فيه مسائل ثلاث (المسئلة الاولى) انه يدل على ان اكل الجنة لا تفنى كما يحكى عن جهم واتباعه (المسئلة الثانية) انه يدل على ان حركات أهل الجنة لا تنتهى الى سكون دائم كما يقوله أبو الهذيل وأتباعه (المسئلة الثالثة) قال القاضى هذه الآية تدل على ان الجنة لم تخلق بعد لانها لو كان مخلوقة لوجب أن تفنى وان ينقطع أكلها لقوله تعالى كل من عليها فان وكل شئ هالك الا وجهه لكن لا ينقطع اكلها لقوله تعالى اكلها دائم فوجب أن لا تكون الجنة مخلوقة ثم قال فلا ننكر أن يحصل الآن فى السموات جنات كثيرة يتمتع بها الملائكة ومن يعد حيا من الانبياء والشهداء وغيرهم على ما روى فى ذلك الا ان الذى نذهب اليه ان جنة الخلد خاصة انما تخلق بعد الاعادة والجواب أن دليلهم مركب من آيتين احداهما قوله كل شئ هالك الا وجهه والاخرى قوله اكلها دائم وظلها فاذا ادخلنا التخصيص فى أحد هذين العمومين سقط دليلهم فنحن نخصص أحد هذين العمومين بالدلائل الدالة على ان الجنة مخلوقة وهو قوله تعالى وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين • قوله تعالى (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك من الاحزاب من ينكر بعضه قل انما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به اليه ادعو واليه مآب) اعلم أن فى المراد بالكتاب قولين الاول انه القرآن والمراد ان أهل القرآن يفرحون بما أنزل على محمد من أنواع التوحيد والعدل والنبوة والبعث والاحكام والقصص ومن الاحزاب الجماعات من اليهود والنصارى وسائر الكفار من ينكر بعضه وهو قول الحسن وقتادة فان قيل الاحزاب ينكرون كل القرآن قلنا الاحزاب لا ينكرون كل ما فى القرآن لانه ورد فيه اثبات الله تعالى واثبات علمه وقدرته وحكمته وأقاصيص الانبياء والاحزاب ما كانوا ينكرون كل هذه الاشياء والقول الثانى ان المراد بالكتاب التوراة والانجيل وعلى هذا التقدير ففى الآية قولان الاول قال ابن عباس الذين آتيناهم الكتاب هم الذين آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأصحابهما ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بأرض الحبشة وفرحوا بالقرآن لانهم آمنوا به وصدقوه والاحزاب بقية أهل الكتاب وسائر المشركين قال القاضى وهذا الوجه أولى من الاول لانه لا شبهة فى ان من أوتى القرآن فانهم يفرحون بالقرآن أما اذا حملناه على هذا الوجه ظهرت الفائدة ويمكن أن يقال ان الذين أوتوا القرآن يزداد فرحهم به لما رأوا فيه من العلوم الكثيرة والفوائد العظيمة فلهذا السبب حكى الله تعالى فرحهم به والثانى والذين آتيناهم الكتاب اليهود أعطوا التوراة والنصارى أعطوا الانجيل يفرحون بما أنزل فى هذا القرآن لانه مصدق

باستحقاق العبادة مع ما فيه من البيان بعد الابهام بايراده موصولا للدلالة على التفخيم وقوله تعالى (قل سموهم) تبكيت لهم اثر تبكيت أى سموهم من هم وماذا أسماؤهم أوصفوهم وانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة و يستأهلون الشركة (أم تنبؤنه) أى بل أتنبؤن الله (بما لا يعلم فى الارض) أى بشركاء مستحقين للعبادة لا يعلمهم الله تعالى ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات والارض وقرئ بالتخفيف (أم بظاهر من القول) أى بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون له معنى و حقيقة كتسمية الزنجى كافورا كقوله تعالى ذلك قولهم بأفواههم وهاتيك الاساليب البديعة التى ورد عليها الآية الكريمة منادية على أنها خارجة عن قدرة البشر من كلام خلاق القوى والقدر فتبارك الله رب العالمين (بل زين للذين كفروا) وضع الموصول موضع المضمر ذما لهم وتسجيلا عليهم بالكفر (مكرهم) تمويههم الاباطيل أو كيدهم للاسلام بشركهم (وصدوا عن السبيل) أى سبيل الحق من صده صدا وقرئ بكسر الصاد على نقل حركة الدال اليها وقرئ بفتحها أى صدوا الناس أو من صد صدودا (ومن يضلل الله) أى يخلق فيه الضلال بسوء اختياره أو يخذله (فما له من هاد) يوفقه للهدى (لهم عذاب) شاق (فى الحياة الدنيا) بالقتل والاسر وسائر ما يصيبهم من المصائب فانها انما تصيبهم عقوبة على كفرهم (ولعذاب الآخرة أشق) من ذلك بالشدة والمدة (وما لهم من الله) من عذابه المذكور (من واق) من حافظ يعصمهم من ذلك فمن الاولى صلة للوقاية والثانية مزيدة للتأكيد (مثل الجنة) أى صفتها العجيبة الشان التى فى الغرابة كالمثل (التى وعد المتقون)

لما معهم ومن الاحزاب من سائر الكفار من ينكر بعضه وهو قول مجاهد قال القاضى وهذا لا يصح لان قوله يفرحون بما أنزل اليك يعم جميع ما أنزل اليه ومعلوم انهم لا يفرحون بكل ما أنزل اليه و يمكن أن يجاب فيقال ان قوله بما أنزل اليك لا يفيد العموم بدليل جواز ادخال لفظتى الكل والبعض عليه ولو كانت كلمة ما للعموم لكان ادخال لفظ الكل عليه تكريرا وادخال لفظ البعض عليه نقصا ثم انه تعالى لما بين هذا جمع كل ما يحتاج المرء اليه فى معرفة المبدا والمعاد فى ألفاظ قليلة منه فقال قل انما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به اليه ادعو واليه مآب وهذا الكلام جامع لكل ما ورد التكليف به وفيه فوائد (أولها) ان كلمة انما للحصر ومعناه انى ما أمرت الا بعبادة الله تعالى وذلك يدل على انه لا تكليف ولا أمر ولا نهى الا بذلك (وثانيها) ان العبادة غاية التعظيم وذلك يدل على أن المرء مكلف بذلك (وثالثها) ان عبادة الله تعالى لا تمكن الا بعد معرفته ولا سبيل الى معرفته الا بالدليل فهذا يدل على أن المرء مكلف بالنظر والاستدلال فى معرفة ذات الصانع وصفاته وما يجب و يجوز ويستحيل عليه (ورابعها) ان عبادة الله واجبة وهو يبطل قول نفاة التكليف و يبطل القول بالجبر المحض (وخامسها) قوله ولا أشرك به وهذا يدل على نفى الشركاء والانداد والاضداد بالكلية و يدخل فيه ابطال كل من أثبت معبودا سوى الله تعالى سواء قال ان ذلك المعبود هو الشمس أو القمر أو الكواكب أو الاصنام والاوثان والارواح العلوية أو يزدان وأهرمن على ما يقوله المجوس أو النور والظلمة على ما يقوله الثنوية (وسادسها) قوله اليه ادعو المراد منه انه كما وجب عليه الاتيان بهذه العبادة فكذلك يجب عليه الدعوة الى عبودية الله تعالى وهو اشارة الى نبوته (وسابعها) قوله واليه مآب وهو اشارة الى الحشر والنشر والبعث والقيامة فاذا تأمل الانسان فى هذه الالفاظ القليلة ووقف عليها عرف انها محتوية على جميع المطالب المعتبرة فى الدين * قوله تعالى (وكذلك أنزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا واق) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنه تعالى شبه انزاله حكما عربيا بما أنزل الى من تقدم من الانبياء أى كما أنزلنا الكتب على الانبياء بلسانهم كذلك أنزلنا عليك القرآن والكناية فى قوله أنزلناه تعود الى ما فى قوله يفرحون بما أنزل اليك يعنى القرآن (المسئلة الثانية) قوله أنزلناه حكما عربيا فيه وجوه الاول حكمة عربية مترجمة بلسان العرب الثانى القرآن مشتمل على جميع أقسام التكاليف فالحكم لا يمكن الا بالقرآن فلما كان القرآن سببا للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة الثالث انه تعالى حكم على جميع المكلفين بقبول القرآن والعمل به فلما حكم على الخلق بوجوب قبوله جعله حكما واعلم أن قوله حكما عربيا نصب على الحال والمعنى أنزلناه حال كونه حكما عربيا (المسئلة الثالثة) قالت المعتزلة الآية دالة على حدوث القرآن من وجوه الاول انه تعالى وصفه بكونه منزلا وذلك لا يليق الا بالمحدث

الثانى أنه وصفه بكونه عربيا والعربى هو الذى حصل بوضع العرب واصطلاحهم وماكان كذلك كان محدثا الثالث ان الآية دالة على انه انما كان حكما عربيا لان الله تعالى جعله كذلك ووصفه بهذه الصفة وكل ماكان كذلك فهو محدث والجواب ان كل هذه الوجوه دالة على ان المركب من الحروف والاصوات محدث ولا نزاع فيه والله أعلم (المسئلة الرابعة) روى ان المشركين كانوا يدعونه الى ملة آبائه فتوعده الله تعالى على متابعتهم فى تلك المذاهب مثل أن يصلى الى قبلتهم بعد ان حوله الله عنها قال ابن عباس الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته وقيل بل الغرض منه حث الرسول عليه السلام على القيام بحق الرسالة وتحذيره من خلافها و يتضمن ذلك أيضا تحذير جميع المكلفين لان من هو أرفع منزلة اذا حذر هذا التحذير فهم أحق بذلك وأولى * قوله تعالى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وماكان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله لكل أجل كتاب يمحو الله مايشاء و يثبت وعنده أم الكتاب) اعلم أن القوم كانوا يذكرون أنواعا من الشبهات فى ابطال نبوته (فالشبهة الاولى) قولهم مال هذا الرسول يأكل الطعام و يمشى فى الاسواق وهذه الشبهة انما ذكرها الله تعالى فى سورة أخرى (والشبهة الثانية) قولهم الرسول الذى يرسله الله الى الخلق لا بد وأن يكون من جنس الملائكة كما حكى الله عنهم فى قوله لوما تأتينا بالملائكة وقوله لولا أنزل عليه ملك فأجاب الله تعالى عنه ههنا بقوله ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية يعنى ان الانبياء الذين كانوا قبله كانوا من جنس البشر لا من جنس الملائكة فاذا جاز ذلك فى حقهم فلم لا يجوز أيضا مثله فى حقه (الشبهة الثالثة) عابوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكثرة الزوجات وقالوا لو كان رسولا من عند الله لما كان مشتغلا بأمر النساء بل كان معرضا عنهن مشتغلا بالنسك والزهد فأجاب الله تعالى عنه بقوله ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية و بالجملة فهذا الكلام يصلح أن يكون جوابا عن الشبهة المتقدمة و يصلح أن يكون جوابا عن هذه الشبهة فقد كان لسليمان عليه السلام ثلثمائة امرأة مهيرة وسبعمائة سرية ولداود مائة امرأة (والشبهة الرابعة) قالوا لو كان رسولا من عند الله لكان أى شئ طلبنا منه من المعجزات أتى به ولم يتوقف ولما لم يكن الامر كذلك علمنا انه ليس برسول فأجاب الله عنه بقوله وماكان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله وتقريره ان المعجزة الواحدة كافية فى ازالة العذر والعلة وفى اظهار الحجة والبينة فأما الزائد عليها فهو مفوض الى مشيئة الله تعالى ان شاء أظهرها وان شاء لم يظهرها ولا اعتراض لاحد عليه فى ذلك (الشبهة الخامسة) أنه عليه السلام كان يخوفهم بنزول العذاب وظهور النصرة له ولقومه ثم ان ذلك الموعود كان يتأخر فلما لم يشاهدوا تلك الامور احتجوا بها على الطعن فى نبوته وقالوا لو كان نبيا صادقا لما ظهر كذبه فأجاب الله عنه بقوله لكل أجل كتاب يعنى نزول العذاب على الكفار وظهور الفتح والنصرة للاولياء

من الكفر والمعاصى وهو مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه أى فيما قصصنا عليك مثل الجنة وقوله تعالى (تجرى من تحتها الانهار) تفسير لذلك المثل على انه حال من الضمير المحذوف من الصلة العائد الى الجنة أى وعدها وهو الخبر عند غيره كقولك شأن زيد يأتيه الناس و يعظمونه أو على حذف موصوف أى مثل الجنة جنة تجرى الخ (أكلها) ثمرها (دائم) لا ينقطع (وظلها) أيضا كذلك لا تنسخه الشمس كما تنسخ ظلال الدنيا (تلك) الجنة المنعوتة بما ذكر (عقبى الذين اتقوا) الكفر والمعاصى أى مآلهم ومنتهى أمرهم (وعقبى الكافرين النار) لا غير وفيه ما لا يخفى من اطماع المتقين واقناط الكافرين (والذين آتيناهم الكتاب) هم المسلمون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما ومن آمن من النصارى وهم ثمانون رجلا أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بالحبشة (يفرحون بما أنزل اليك) اذ هو الكتاب الموعود فى التوراة والانجيل (ومن الاحزاب) أى من أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة نحو كعب بن الاشرف والسيد والعاقب أسقفى نجران وأتباعهما (من ينكر بعضه) وهو الشرائع الحادثة انشاء أو نسخا لا ما يوافق ما حرفوه والا لنعى عليهم من أول الامر أن مدار ذلك انما هو جنايات أيديهم وأما ما يوافق كتبهم فلم ينكروه وان لم يفرحوا به وقيل يجوز أن يراد بالموصول الاول عامتهم فانهم أيضا يفرحون به لكونه مصداقا لكتبهم فى الجملة فحينئذ يكون قوله تعالى ومن الاحزاب الخ تتمة بمنزلة أن يقال ومنهم من ينكر بعضه (قل) الزاما لهم وردا لانكارهم (انما أمرت أن أعبد الله

ولاأشرك به) أى شيئا من الاشياء أو لاأفعل الاشراك به والمراد قصر الامر بالعبادة على الله تعالى لاقصر الامر مطلقا على عبادته تعالى خاصة أى قل لهم انما أمرت فيما أنزل الى بعبادة الله وتوحيده وظاهر أن لاسبيل لكم الى انكاره لاطباق جميع الانبياء والكتب على ذلك كقوله تعالى قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألانعبد الاالله ولانشرك به شيئا فمالكم تشركون به عزيزا والمسيح وقرئ ولاأشرك به بالرفع على الاستئناف أى وأنالاأشرك به (اليه) الى الله تعالى خاصة على النهج المذكور من التوحيد أوالى ماأمرت به من التوحيد (ادعو) الناس لاالى غيره أولاالى شئ آخر ممالم يطبق عليه الكتب الالهية والانبياء عليهم الصلاة والسلام فماوجه انكاركم (واليه) الى الله تعالى وحده (مآب) مرجعى للجزاء وحيث كانت هذه الحجة الباهرة لازمة لهم لايجدون عنها محيصا أمر عليه الصلاة والسلام بأن يخاطبهم بذلك الزاما وتبكيتا لهم ثم شرع فى رد انكارهم لفروع الشرائع الواردة ابتداء أو بدلا من الشرائع المنسوخة ببيان الحكمة فى ذلك فقيل (وكذلك أنزلناه) أى ماأنزل اليك وذلك اشارة الى مصدر أنزلناه أوأنزل اليك ومحله النصب على المصدرية أى مثل ذلك الانزال البديع المنتظم لاصول مجمع عليها وفروع متشعبة الى موافقة ومخالفة حسبما تقتضيه قضية الحكمة والمصلحة أنزلناه (حكما) حاكما يحكم فى القضايا والواقعات بالحق ﴿ مايشاء ﴾ أو يحكم به كذلك والتعرض لذلك العنوان مع أن بعضه ليس بحكم لتربية وجوب مراعاته وتحتم المحافظة عليه (عربيا) مترجما بلسان العرب والتعرض لذلك للاشارة الى أن ذلك احدى مواد المخالفة

قضى الله بحصولها فى أوقات معينة مخصوصة ولكل حادث وقت معين ولكل أجل كتاب فقبل حضور ذلك الوقت لايحدث ذلك الحادث فتأخر المواعيد لايدل على كونه كاذبا (الشبهة السادسة) قالوا لو كان فى دعوى الرسالة محقا لمانسخ الاحكام التى نص الله تعالى على ثبوتها فى الشرائع المتقدمة نحو التوراة والانجيل لكنه نسخها وحرفها نحو تحريف القبلة ونسخ أكثر أحكام التوراة والانجيل فوجب أن لايكون نبيا حقا فأجاب الله سبحانه وتعالى عنه بقوله يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ويمكن أيضا أن يكون قوله لكل أجل كتاب كالمقدمة لتقرير هذا الجواب وذلك لانانشاهد أنه تعالى يخلق حيوانا عجيب الخلقة بديع الفطرة من قطرة من النطفة ثم يبقيه مدة مخصوصة ثم يميته ويفرق اجزاءه وابعاضه فلما لم يمتنع أن يحيي أولا ثم يميت ثانيا فكيف يمتنع أن يشرع الحكم فى بعض الاوقات ثم ينسخه فى سائر الاوقات فكان المراد من قوله لكل أجل كتاب ماذكرناه ثم انه تعالى لما قرر تلك المقدمة قال يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب والمعنى أنه يوجد تارة ويعدم أخرى ويحيي تارة ويميت أخرى ويغنى تارة ويفقر أخرى فكذلك لايبعد أن يشرع الحكم تارة ثم ينسخه أخرى بحسب مااقتضته المشيئة الالهية عند أهل السنة أو بحسب مااقتضته رعاية المصالح عند المعتزلة فهذا تمام التحقيق فى تفسير هذه الآية ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى لكل أجل كتاب فيه أقوال الاول أن لكل شئ وقتا مقدرا فالآيات التى سألوها لها وقت معين حكم الله به وكتبه فى اللوح المحفوظ فلايتغير عن ذلك الحكم بسبب تحكماتهم الفاسدة ولو أن الله أعطاهم ماالتمسوا لكان فيه أعظم الفساد الثانى أن لكل حادث وقتا معينا قضى الله حصوله فيه كالحياة والموت والغنى والفقر والسعادة والشقاوة ولايتغير البتة عن ذلك الوقت والثالث أن هذا من المقلوب والمعنى أن لكل كتاب منزل من السماء أجلا ينزله فيه أى لكل كتاب وقت يعمل به فوقت العمل بالتوراة والانجيل قد انقضى ووقت العمل بالقرآن قد أتى وحضر والرابع لكل أجل معين كتاب عند الملائكة الحفظة فللانسان أحوال أولها نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم يصير شابا ثم شيخا وكذا القول فى جميع الاحوال من الايمان والكفر والسعادة والشقاوة والحسن والقبح الخامس كل وقت معين مشتمل على مصلحة خفية ومنفعة لايعلمها الاالله تعالى فاذا جاء ذلك الوقت حدث ذلك الحادث ولايجوز حدوثه فى غيره واعلم أن هذه الآية صريحة فى أن الكل بقضاء الله وبقدره وأن الامور مرهونة باوقاتها لان قوله لكل أجل كتاب معناه أن تحت كل أجل حادث معين ويستحيل أن يكون ذلك التعيين لاجل خاصية الوقت فان ذلك محال لان الاجزاء المعروضة فى الاوقات المتعاقبة متساوية فوجب أن يكون اختصاص كل وقت بالحادث الذى يحدث فيه بفعل الله تعالى واختياره وذلك يدل على ان الكل من الله تعالى وهو نظير قوله عليه السلام جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة (المسئلة الثانية) يمحو الله

الكتب السابقة مع أن ذلك مقتضى الحكمة اذ بذلك يسهل فهمه وادراك اعجازه والاقتصار على اشتمال الانزال على أصول الديانات المجمع عليها حسبما يفيده قوله تعالى قل انما أمرت أن أعبد الله الخ يأباه التعرض لاتباع أهوائهم وحديث المحو والاثبات وان لكل أجل كتاب فان المجمع عليه لايتصور فيه الاستتباع والاتباع (ولئن اتبعت أهواءهم) التى يدعونك اليها من تقرير الامور المخالفة لما أنزل اليك من الحق كالصلاة الى بيت المقدس بعد التحويل (بعد ماجاءك من العلم) العظيم الشأن الفائض من ذلك الحكم العربى أو العلم بمضمونه (مالك من الله) من جنابه العزيز والالتفات من التكلم الى الغيبة وايراد الاسم الجليل لتربية المهابة قال الازهرى لايكون الها حتى يكون معبودا او حتى يكون خالقا ورازقا ومدبرا (من ولى) يلى أمرك وينصرك على من يبغيك الغوائل (ولا واق) يقيك من مصارع السوء وحيث لم يستلزم نفى الناصر على العدو نفى الواقى من نكايته أدخل على المعطوف حرف النفى للتأكيد كقولك ما لى دينار ولا درهم أو مالك من بأس الله من ناصر وواق لاتباعك أهواءهم وأمثال هاتيك القوارع انما هى لقطع أطماع الكفرة وتهييج المؤمنين على الثبات فى الدين واللام فى لئن موطئة ومالك ساد مسد جوابى الشرط والقسم (ولقد أرسلنا رسلا) كثيرة كائنة (من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) نساء وأولادا كما جعلناها لك وهو رد لما كانوا يعيبونه صلى الله عليه وسلم بالزواج والولاد كما كانوا يقولون مال هذا الرسول يأكل الطعام الخ (وما كان لرسول) منهم أى ماصح وما استقام ولم يكن فى وسعه (ان يأتى بآية) مما اقترح عليه وحكم مما التمس منه (الا باذن الله) ومشيئته المبنية على

مايشاء ويثبت قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويثبت ساكنة الثاء خفيفة الباء من أثبت يثبت والباقون بفتح الثاء وتشديد الباء من التثبيت وحجة من خفف ان ضد المحو الاثبات لا التثبيت ولان التشديد للتكثير وليس القصد بالمحو التكثير فكذلك مايكون فى مقابلته ومن شدد احتج بقوله وأشد تثبيتا وقوله فثبتوا (المسئلة الثالثة) المحو ذهاب أثر الكتابة يقال محاه يمحوه محوا اذا أذهب أثره وقوله ويثبت قال النحويون أراد ويثبته الا انه استغنى بتعدية الفعل الاول عن تعدية الثانى وهو كقوله تعالى والحافظين فروجهم والحافظات (المسئلة الرابعة) فى هذه الآية قولان الاول انها عامة فى كل شئ كما يقتضيه ظاهر اللفظ قالوا ان الله يمحو من الرزق ويزيد فيه وكذا القول فى الاجل والسعادة والشقاوة والايمان والكفر وهو مذهب عمر وابن مسعود والقائلون بهذا القول كانوا يدعون ويتضرعون الى الله تعالى فى أن يجعلهم سعداء لا أشقياء وهذا التأويل رواه جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والقول الثانى ان هذه الآية خاصة فى بعض الاشياء دون البعض وعلى هذا التقدير ففى الآية وجوه (الاول) المراد من المحو والاثبات نسخ الحكم المتقدم واثبات حكم آخر بدلا عن الاول (الثانى) انه تعالى يمحو من ديوان الحفظة ماليس بحسنة ولا سيئة لانهم مأمورون بكتابة كل قول وفعل ويثبت غيره وطعن أبو بكر الاصم فيه فقال انه تعالى وصف الكتاب بقوله لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها وقال أيضا فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره أجاب القاضى عنه بأنه لايغادر صغيرة ولا كبيرة من الذنوب والمباح لا صغيرة ولا كبيرة وللاصم أن يجيب عن هذا الجواب فيقول انكم باصطلاحكم خصصتم الصغيرة بالذنب الصغير والكبيرة بالذنب الكبير وهذا مجرد اصطلاح المتكلمين اما فى أصل اللغة فالصغير والكبير يتناولان كل فعل وعرض لانه ان كان حقيرا فهو صغير وان كان غير ذلك فهو كبير وعلى هذا التقدير فقوله لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها يتناول المباحات أيضا (الثالث) انه تعالى أراد بالمحو أن من أذنب أثبت ذلك الذنب فى ديوانه فاذا تاب عنه محى من ديوانه (الرابع) يمحو الله مايشاء وهو من جاء أجله ويدع من لم يجئ أجله ويثبته (الخامس) أنه تعالى يثبت فى أول السنة حكم تلك السنة فاذا مضت السنة محيت وأثبت كتاب آخر للمستقبل (السادس) يمحو نور القمر ويثبت نور الشمس (السابع) يمحو الدنيا ويثبت الآخرة (الثامن) انه فى الارزاق والمحن والمصائب يثبتها فى الكتاب ثم يزيلها بالدعاء والصدقة وفيه حث على الانقطاع الى الله تعالى (التاسع) تغير أحوال العبد فما مضى منها فهو المحو وما حصل وحضر فهو الاثبات (العاشر) يزيل مايشاء ويثبت مايشاء من حكمه لايطلع على غيبه أحدا فهو المنفرد بالحكم كما شاء وهو المستقل بالايجاد والاعدام والاحياء والاماتة والاغناء والافقار بحيث لايطلع على تلك الغيوب احد من خلقه واعلم ان هذا الباب فيه مجال عظيم فان قال قائل ألستم تزعمون ان المقادير سابقة قد جف بها القلم

الحكم والمصالح التي نيط بها مور أمر الكائنات لا سيما مثل هذه الامور العظام والالتفات لما قدمناه ولتحقيق مضمون الجملة بالايماء الى العلة (لكل أجل) أي لكل مدة ووقت من المدد والاوقات (كتاب) حكم معين يكتب على العباد حسبما تقتضيه الحكمة فان الشرائع كلها لاصلاح أحوالهم في المبدا والمعاد ومن قضية ذلك انه يختلف حسب اختلاف أحوالهم المتغيرة حسب تغير الاوقات كاختلاف العلاج حسب اختلاف أحوال المرضى بحسب الاوقات (يمحو الله مايشاء) أي ينسخ مايشاء نسخه من الاحكام لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت (ويثبت) بدله ما فيه المصلحة أو يبقيه على حاله غير منسوخ أو يثبت ماشاء اثباته مطلقا أعم منهما ومن الانشاء ابتداء أو يمحو من ديوان الحفظة الذين ديدنهم كتب كل قول وعمل ما لا يتعلق به الجزاء ويثبت الباقي أو يمحو سيآت التائب ويثبت مكانها الحسنة أو يمحو قرنا ويثبت آخرين أو يمحو الفاسدات من العالم الجسماني ويثبت الكائنات أو يمحو الرزق ويزيد فيه أو يمحو الاجل أو السعادة والشقاوة وبه قال ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهم والقائلون به يتضرعون الى الله تعالى أن يجعلهم سعداء وهذا رواه جابر عن النبي عليه الصلاة والسلام والانسب تعميم كل من المحو والاثبات ليشتمل الكل ويدخل في ذلك مواد الانكار دخولا أوليا وقرئ بالتشديد (وعنده أم الكتاب) أي أصله وهو اللوح المحفوظ اذ ما ﴿ ونظيره ﴾ من شئ من الذاهب والثابت الا وهو مكتوب فيه كما هو (واما نرينك) أصله ان نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ومن ثمة ألحقت النون بالفعل (بعض الذي نعدهم) أي وعدناهم من انزال العذاب عليهم

وليس الامر بأنف فكيف يستقيم مع هذا المعنى المحو والاثبات قلنا ذلك المحو والاثبات أيضا مما جف به القلم فلا يمحو الا ما سبق في علمه وقضائه محوه (المسئلة الخامسة) قالت الرافضة البداء جائز على الله تعالى وهو أن يعتقد شيئا ثم يظهر له أن الامر بخلاف ما اعتقده وتمسكوا فيه بقوله يمحو الله مايشاء ويثبت واعلم ان هذا باطل لان علم الله من لوازم ذاته المخصوصة وما كان كذلك كان دخول التغير والتبدل فيه محالا (المسئلة السادسة) اما أم الكتاب فالمراد أصل الكتاب والعرب تسمى كل ما يجري مجرى الاصل للشئ أماله ومنه أم الرأس للدماغ وأم القرى لمكة وكل مدينة فهي أم لما حولها من القرى فكذلك أم الكتاب هو الذي يكون أصلا لجميع الكتب وفيه قولان (الاول) ان أم الكتاب هو اللوح المحفوظ وجميع حوادث العالم العلوي والعالم السفلي مثبت فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كان الله ولا شئ معه ثم خلق اللوح وأثبت فيه أحوال جميع الخلق الى قيام الساعة قال المتكلمون الحكمة فيه أن يظهر للملائكة كونه تعالى عالما بجميع المعلومات على سبيل التفصيل وعلى هذا التقدير فعند الله كتابان أحدهما الكتاب الذي يكتبه الملائكة على الخلق وذلك الكتاب محل المحو والاثبات والكتاب الثاني هو اللوح المحفوظ وهو الكتاب المشتمل على تعين جميع الاحوال العلوية والسفلية وهو الباقي روى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله سبحانه وتعالى في ثلاث ساعات بقين من الليل ينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء وللحكماء في تفسير هذين الكتابين كلمات عجيبة وأسرار غامضة (والقول الثاني) ان أم الكتاب هو علم الله تعالى فانه تعالى عالم بجميع المعلومات من الموجودات والمعدومات وان تغيرت الا ان علم الله تعالى بها باق منزه عن التغير فالمراد بأم الكتاب هو ذاك والله أعلم * قوله تعالى (واما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب) اعلم أن المعنى واما نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب أو نتوفينك قبل ذلك والمعنى سواء أريناك ذلك أو توفيناك قبل ظهوره فالواجب عليك تبليغ أحكام الله تعالى وأداء أمانته ورسالته وعلينا الحساب والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ كالسراح والاداء * قوله تعالى (أولم يروا أنا نأتي الارض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار) اعلم انه تعالى لما وعد رسوله بان يريه بعض ما وعدوه أو يتوفاه قبل ذلك بين في هذه الآية ان آثار حصول تلك المواعيد وعلاماتها قد ظهرت وقويت وقوله أولم يروا أنا نأتي الارض ننقصها من أطرافها فيه أقوال (الاول) المراد أنا نأتي أرض الكفرة ننقصها من أطرافها وذلك لان المسلمين يستولون على أطراف مكة ويأخذونها من الكفرة قهرا وجبرا فانتقاص أحوال الكفرة وازدياد قوة المسلمين من أقوى العلامات والامارات على أن الله تعالى ينجز وعده

والعدول الى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية أو نعدهم وعدا متجددا حسبما تقتضيه الحكمة من انذار غب انذار وفي ايراد البعض رمز الى اراءة بعض الموعود (أو نتوفينك) قبل ذلك (فانما عليك البلاغ) أي تبليغ أحكام الرسالة بتمامها لا تحقيق مضمون ما بلغته من الوعيد الذي هو من جملتها (وعلينا) لا عليك (الحساب) محاسبة أعمالهم السيئة والمؤاخذة بها أي كيفما دارت الحال أريناك بعض ما وعدناهم من العذاب الدنيوي أو لم نركه فعلينا ذلك وما عليك الا تبليغ الرسالة فلا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ونتم ما وعدناك من الظفر ولا يضجرك تأخره فان ذلك لما نعلم من المصالح الخفية ثم طيب نفسه عليه الصلاة والسلام بطلوع تباشيره فقال (أولم يروا) استفهام انكاري والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أأنكروا نزول ما وعدناهم أو أشكوا أو ألم ينظروا في ذلك ولم يروا (أنا نأتي الارض) أي أرض الكفر (ننقصها من أطرافها) بأن نفتحها على المسلمين شيئا فشيئا ونلحقها بدار الاسلام ونذهب منها أهلها بالقتل والاسر والاجلاء أليس هذا من ذلك ومثله قوله عز سلطانه أفلا يرون أنا نأتي الارض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون وقوله ننقصها حال من فاعل نأتي أو من مفعوله وقرئ ننقصها بالتشديد وفي لفظ الاتيان المؤذن بالاستواء المحتوم والاستيلاء العظيم من الفخامة ما لا يخفى كما في قوله عز وجل وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا (والله يحكم) ما يشاء كما يشاء وقد حكم للاسلام بالعزة والاقبال وعلى الكفر بالذلة والادبار حسبما يشاهد من المخايل والآثار وفي الالتفات من التكلم الى الغيبة و بناء الحكم.

ونظيره قوله تعالى أفلا يرون أنا نأتي الارض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون وقوله سنريهم آياتنا في الآفاق (والقول الثاني) وهو أيضا منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما ان قوله ننقصها من أطرافها المراد موت أشرافها وكبرائها وعلمائها وذهاب الصلحاء والاخيار وقال الواحدي وهذا القول وان احتمله اللفظ الا أن اللائق بهذا الموضع هو الوجه الاول ويمكن أن يقال هذا الوجه أيضا لا يليق بهذا الموضع وتقريره أن يقال أولم يروا ما يحدث في الدنيا من الاختلافات خراب بعد عمارة وموت بعد حياة وذل بعد عز ونقص بعد كمال واذا كانت هذه التغيرات مشاهدة محسوسة فما الذي يؤمنهم من أن يقلب الله الامر على هؤلاء الكفر فيجعلهم ذليلين بعد ان كانوا عزيزين ويجعلهم مقهورين بعد ان كانوا قاهرين وعلى هذا الوجه فيحسن اتصال هذا الكلام بما قبله وقيل ننقصها من أطرافها بموت أهلها وتخريب ديارهم وبلادهم فهؤلاء الكفرة كيف أمنوا من أن يحدث فيهم أمثال هذه الوقائع ثم قال تعالى مؤكدا لهذا المعنى والله يحكم لا معقب لحكمه معناه لا راد لحكمه والمعقب هو الذي يعقبه بالرد والابطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب لانه يعقب غريمه بالاقتضاء والطلب فان قيل ما محل قوله لا معقب لحكمه قلنا هو جملة محلها النصب على الحال كأنه قيل والله يحكم نافذا حكمه خاليا عن المدافع والمعارض والمنازع ثم قال وهو سريع الحساب قال ابن عباس يريد سريع الانتقام يعني ان حسابه للمجازاة بالخير والشر يكون سريعا قريبا لا يدفعه دافع أما قوله وقد مكر الذين من قبلهم يعني أن كفار الامم الماضية قد مكروا برسلهم وأنبيائهم مثل نمروذ مكر بابراهيم وفرعون مكر بموسى واليهود مكروا بعيسى ثم قال فلله المكر جميعا قال الواحدي معناه ان مكر جميع الماكرين له ومنه أي هو حاصل بتخليقه وارادته لانه ثبت ان الله تعالى هو الخالق لجميع أعمال العباد وأيضا فذلك المكر لا يضر الا باذن الله تعالى ولا يؤثر الا بتقديره وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وأمان له من مكرهم كأنه قيل له اذا كان حدوث المكر من الله وتأثيره في الممكور به أيضا من الله وجب أن لا يكون الخوف الا من الله تعالى وأن لا يكون الرجاء الا من الله تعالى وذهب بعض الناس الى ان المعنى فلله جزاء المكر وذلك لانهم لما مكروا بالمؤمنين بين الله تعالى انه يجازيهم على مكرهم قال الواحدي والاول أظهر القولين بدليل قوله يعلم ما تكسب كل نفس يريد أن أكساب العباد باسرها معلومة لله تعالى وخلاف المعلوم ممتنع الوقوع واذا كان كذلك فكل ما علم الله وقوعه فهو واجب الوقوع وكل ما علم عدمه كان ممتنع الوقوع واذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل والترك فكان الكل من الله تعالى قالت المعتزلة الآية الاولى ان دلت على قولكم فالآية الثانية وهي قوله يعلم ما تكسب كل نفس دلت على قولنا لان الكسب هو الفعل المشتمل على دفع مضرة أو جلب منفعة ولو كان حدوث الفعل بخلق الله تعالى لم يكن لقدرة العبد فيه أثر فوجب أن لا يكون للعبد كسب وجوابه ان مذهبنا ان مجموع

على الاسم الجليل من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالاشارة الى العلة ما لا يخفى وهي جملة اعتراضية جئ بها لتأكيد فحوى ما تقدمها وقوله تعالى (لا معقب لحكمه) اعتراض في اعتراض لبيان علو شان حكمه جل جلاله وقيل نصب على الحالية كأنه قيل والله يحكم نافذا حكمه كما تقول جاء زيد لا عمامة على رأسه أي حاسرا والمعقب من يكر على الشئ فيبطله وحقيقته من يعقبه ويقفيه بالرد والابطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب لانه يقفي غريمه بالاقتضاء والطلب (وهو سريع الحساب) فعما قليل يحاسبهم ويجازيهم في الآخرة بأفانين العذاب غب ما عذبهم بالقتل والاسر والاجلاء حسبما يرى وقال ابن عباس رضي الله عنهما سريع الانتقام (وقد مكر) الكفار (الذين) خلوا (من قبلهم) من قبل كفار مكة بأنبيائهم والمؤمنين كما مكر هؤلاء وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه لا عبرة بمكرهم ولا تأثير بل لا وجود له في الحقيقة ولم يصرح بذلك اكتفاء بدلالة القصر المستفاد من تعليله أعني قوله (فلله المكر) أي جنس المكر (جميعا) لا وجود لمكرهم أصلا اذ هو عبارة عن ايصال المكروه الى الغير من حيث لا يشعر به وحيث كان جميع ما يأتون وما يذرون بعلم الله تعالى وقدرته وانما لهم مجرد الكسب من غير فعل ولا تأثير حسبما يبينه قوله عز وجل (يعلم ما تكسب كل نفس) ومن قضيته ﴿ لاوالله ﴾ عصمة أوليائه وعقاب الماكرين بهم توفية لكل نفس جزاء ما تكسبه ظهر أن ليس لمكرهم بالنسبة الى من مكروا بهم عين ولا أثر وأن المكر كله لله تعالى حيث يؤاخذهم بما كسبوا من فنون المعاصي التي من جملتها مكرهم حيث

القدرة مع الداعي مستلزم للفعل وعلى هذا التقدير فالكسب حاصل للعبد ثم انه تعالى أكد ذلك التهديد فقال وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وسيعلم الكافر على لفظ المفرد والباقون على الجمع قال صاحب الكشاف قرئ الكفار والكافرون والذين كفروا والكفر أي أهله وقرأ جناح بن حبيش وسيعلم الكافر من أعلمه أي سيخبر (المسئلة الثانية) المراد بالكافر الجنس كقوله تعالى ان الانسان لفي خسر والمعنى انهم وان كانوا جهلوا العواقب فسيعلمون لمن العاقبة الحميدة وذلك كالزجر والتهديد والقول الثاني وهو قول عطاء يريد المستهزئين وهم خمسة والمقتسمين وهم ثمانية وعشرون والقول الثالث وهو قول ابن عباس يريد أبا جهل والقول الاول هو الصواب * قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) اعلم انه تعالى حكى عن القوم انهم أنكروا كونه رسولا من عند الله ثم انه تعالى احتج عليهم بأمرين الاول شهادة الله على نبوته والمراد من تلك الشهادة انه تعالى أظهر المعجزات الدالة على كونه صادقا في ادعاء الرسالة وهذا أعلى مراتب الشهادة لان الشهادة قول يفيد غلبة الظن بأن الامر كذلك أما المعجز فانه فعل مخصوص يوجب القطع بكونه رسولا من عند الله تعالى فكان اظهار المعجزة أعظم مراتب الشهادة والثاني قوله ومن عنده علم الكتاب وفيه قراءتان احداهما القراءة المشهورة ومن عنده يعني والذي عنده علم الكتاب والثانية ومن عنده علم الكتاب وكلمة من ههنا لابتداء الغاية أي ومن عند الله حصل علم الكتاب أما على القراءة الاولى ففي تفسير الآية وجوه (الاول) ان المراد شهادة أهل الكتاب من الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وهم عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الداري وروي عن سعيد بن جبير انه كان يبطل هذا الوجه ويقول السورة مكية فلا يجوز ان يراد به ابن سلام وأصحابه لانهم آمنوا في المدينة بعد الهجرة وأجيب عن هذا السؤال بأن قيل هذه السورة وان كانت مكية الا أن هذه الآية مدنية وأيضا فاثبات النبوة بقول الواحد والاثنين مع كونهما غير معصومين عن الكذب لا يجوز وهذا السؤال واقع (والقول الثاني) أراد بالكتاب القرآن أي ان الكتاب الذي جئتكم به معجز قاهر وبرهان باهر الا أنه لا يحصل العلم بكونه معجزا الا لمن علم ما في هذا الكتاب من الفصاحة والبلاغة واشتماله على الغيوب وعلى العلوم الكثيرة فمن عرف هذا الكتاب على هذا الوجه علم كونه معجزا فقوله ومن عنده علم الكتاب أي ومن عنده علم القرآن وهو قول الاصم (القول الثالث) ومن عنده علم الكتاب المراد به الذي حصل عنده علم التوراة والانجيل يعني ان كل من كان عالما بهذين الكتابين علم اشتمالهما على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم فاذا أنصف ذلك العالم ولم يكذب كان شاهدا على ان محمدا صلى الله عليه وسلم رسول حق من عند الله تعالى (القول الرابع) ومن عنده علم الكتاب هو الله تعالى وهو قول الحسن وسعيد بن جبير والزجاج قال الحسن

لاوالله مايعنى الاالله والمعنى كفى بالذى يستحق العبادة و بالذى لايعلم علم مافى اللوح الاهو شهيدا بينى و بينكم وقال الزجاج الاشبه ان الله تعالى لايستشهد على صحة حكمه بغيره وهذا القول مشكل لان عطف الصفة على الموصوف وان كان جائزا فى الجملة الا أنه خلاف الاصل لايقال شهد بهذا زيد والفقيه بل يقال شهد به زيد الفقيه وأما قوله ان الله تعالى لايستشهد بغيره على صدق حكمه فبعيد لانه لما جاز أن يقسم الله تعالى على صدق قوله بقوله والتين والزيتون فأى امتناع فيما ذكره الزجاج وأما القراءة الثانية وهى قوله ومن عنده علم الكتاب على من الجارة فالمعنى ومن لدنه علم الكتاب لان أحدا لايعلم الكتاب الامن فضله واحسانه وتعليمه ثم على هذه القراءة ففيه أيضا قراءتان ومن عنده علم الكتاب والمراد العلم الذى هو ضد الجهل أى هذا العلم انما حصل من عند الله والقراءة الثانية ومن عنده علم الكتاب بضم العين وبكسر اللام وفتح الميم على مالم يسم فاعله والمعنى انه تعالى لما أمر نبيه ان يحتج عليهم بشهادة الله تعالى على ماذكرناه وكان لامعنى لشهادة الله تعالى على نبوته الا اظهار القرآن على وفق دعواه ولايعلم كون القرآن معجزا الابعد الاحاطة بمافى القرآن واسراره بين تعالى ان هذا العلم لايحصل الامن عند الله والمعنى ان الوقوف على كون القرآن معجزا لايحصل الااذا شرف الله تعالى ذلك العبد بان يعلمه علم القرآن والله تعالى اعلم بالصواب * تم تفسير هذه السورة يوم الاحد الثامن عشر من شعبان سنة احدى وستمائة وأنا ألتمس من كل من نظر فى كتابى هذا وانتفع به ان يخص ولدى محمدا بالرحمة والغفران وان يذكرنى بالدعاء وأقول فى مرثية ذلك الولد شعرا

أرى معالم هذا العالم الفانى * ممزوجة بمخافات وأحزان
خيراته مثل أحلام مفزعة * وشره فى البرايا دائم دانى

(سورة ابراهيم عليه السلام خمسون وآيتان مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد) اعلم ان الكلام فى ان هذه السورة مكية أو مدنية طريقه الآحاد ومتى لم يكن فى السورة ما يتصل بالاحكام الشرعية فنزولها بمكة والمدينة سواء وانما يختلف الغرض فى ذلك اذا حصل فيه ناسخ ومنسوخ فيكون فيه فائدة عظيمة وقوله الر كتاب معناه ان السورة المسماة بالر كتاب أنزلناه اليك لغرض كذا وكذا فقوله الر مبتدأ وقوله كتاب خبره وقوله أنزلناه اليك صفة لذلك الخبر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) دلت هذه الآية على ان القرآن موصوف بكونه منزلا من عند الله تعالى قالت المعتزلة النازل والمنزل لايكون قديما وجوابنا ان الموصوف بالنازل والمنزل هو هذه الحروف وهى محدثة بلانزاع (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة اللام فى قوله لتخرج الناس لام الغرض والحكمة وهذا يدل على أنه تعالى

لايحتسبون أو لله المكر الذى باشروه جميعا لالهم على معنى أن ذلك ليس مكرا منهم بالانبياء بل هو بعينه مكر من الله تعالى بهم وهم لايشعرون من حيث لايحيق المكر السيئ الا بأهله (وسيعلم الكفار) حين يقضى بمقتضى علمه فيوفى كل نفس جزاء ماتكسبه (لمن عقبى الدار) أى العاقبة الحميدة من الفريقين وان جهلوا ذلك يومئذ وقيل السين لتأكيد وقوع ذلك وعلمهم به حينئذ وقرئ سيعلم الكافر على ارادة الجنس

والكافرون والكفر أى أهله والذين كفروا وسيعلم على صيغة المجهول من الاعلام أى سيخبر (ويقول الذين كفروا لست مرسلا) قيل قاله رؤساء اليهود وصيغة الاستقبال لاستحضار صورة كلمتهم الشنعاء تعجيبا منها أو للدلالة على تجدد ذلك واستمراره منهم (قل كفى بالله شهيدا بينى و بينكم) فانه قد أظهر على رسالتى من الحجج القاطعة والبينات الساطعة ما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر (ومن عنده علم الكتاب) أى علم القرآن وما عليه من النظم المعجز أو من هو من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا لانهم يشهدون بنعته عليه الصلاة والسلام فى كتبهم والآية مدنية بالاتفاق أو من عنده علم اللوح المحفوظ وهو الله سبحانه أى كفى به شاهدا بيننا بالذى يستحق العبادة فانه قد شحن كتابه بالدعوة الى عبادته وأيدنى بأنواع التأييد وبالذى يختص بعلم مافى اللوح من الاشياء الكائنة الثابتة التى من جملتها رسالتى وقرئ من عنده بالكسر وعلم الكتاب على الاول مرتفع بالظرف

المعتمد على الموصول أو مبتدأ خبره الظرف وهو متعين على الثانى ومن عنده علم الكتاب بالكسر وبناء المفعول ورفع الكتاب * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الرعد أعطى من الاجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون الى يوم القيامة و بعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله عز وجل والله أعلم بالصواب * سورة ابراهيم عليه السلام مكية * وهى احدى وخمسون آية (بسم الله الرحمن الرحيم) (الر) مر الكلام فيه

وفي محله غيرمرة وقوله تعالى (كتاب) خبرله على تقدير كون الر مبتدأ أولمبتدا مضمر على تقدير كونه خبر المبتدا المحذوف أومسرودا على نمط التعديد و يجوز أن يكون خبرا ثانيا لهذا المبتدا المحذوف وقوله تعالى (أنزلناه اليك) صفة له وقوله تعالى (لتخرج النــاس) متعلق بأنزلناه أى لتخرجهم كافة بما فى تضاعيفه من البينات الواضحة المفصحة عن كونه من عند الله عزوجل الكاشفة عن العقائد الحقة وقرئ ليخرج الناس (من الظلمات) أى ليخرج به الناس من عقائد الكفر والضلال التى كلها ظلمات محضة وجهالات صرفة (الى النور) الى الحق الذى هو نور بحت لكن لا كيفما كان فانك لا تهدى من أحببت بل (باذن ربهم) أى بتيسيره وتوفيقه وللانباء عن كون ذلك منوطا باقبالهم الى الحق كما يفصح عنه قوله تعالى و يهدى اليه من أناب استعيرله الاذن الذى هو عبارة عن تسهيل الحجاب لمن يقصد الورود وأضيف الى ضميرهم اسم الرب المفصح عن التربية التى هى عبارة عن تبليغ الشئ الى كماله المتوجه اليه وشمول الاذن بهذا المعنى للكل واتضح وعليه يدور كون الانزال لاخراجهم جميعا وعدم تحقق الاذن بالفعل فى بعضهم لعدم تحقق شرطه المستند الى سوء اختيارهم غير مخل بذلك والباء متعلقة بتخرج أو بمضمر وقع حالا من مفعوله أى ملتبسين باذن ربهم وبجعله حالا من فاعله يأباه اضافة الرب اليهم لا اليه وحيث كان الحق مع وضوحــه فى نفســه وايضاحه لغيره موصلا الى الله عزوجل استعيرله النور تارة والصراط أخرى فقيل (الى صراط العزيز الحميد) ﴿ عليه ﴾ على وجه الابدال بتكرير العامل كما فى قوله تعالى للذين استضعفوا لمن آمن منهم واخلال البدل والبيان بالاستعارة انما هو فى الحقيقة لا فى المجاز كما فى قوله سبحانه حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر وقيل هو استئناف مبنى على سؤال كأنه قيل الى

انما أنزل هذا الكتاب لهذا الغرض وذلك يدل على ان أفعال الله تعالى وأحكامه معللة برعاية المصالح أجاب أصحابنا عنه بأن من فعل فعلا لاجل شئ آخر فهذا انما يفعله لو كان عاجزا عن تحصيل هذا المقصود الا بهذه الواسطة وذلك فى حق الله تعالى محال واذا ثبت بالدليل انه يمتنع تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه بالعلل ثبت ان كل ظاهر أشعر به فانه مؤول محمول على معنى آخر (المسئلة الثالثة) انما شبه الكفر بالظلمات لانه نهاية ما يتحير الرجل فيه عن طريق الهداية وشبه الايمان بالنور لانه نهاية ما يتجلى به طريق هدايته (المسئلة الرابعة) قال القاضى هذه الآية فيها دلالة على ابطال القول بالجبر من جهات احدها انه تعالى لو كان يخلق الكفر فى الكافر فكيف يصح اخراجه منه بالكتاب وثانيها انه تعالى أضاف الاخراج من الظلمات الى النور الى الرسول صلى الله عليه وسلم فان كان خالق ذلك الكفر هو الله تعالى فكيف يصح من الرسول عليه الصلاة والسلام اخراجهم منه وكان للكافر أن يقول انك تقول ان الله خلق الكفر فينا فكيف يصح منك ان تخرجنا منه فان قال لهم أنا اخرجكم من الظلمات التى هى كفر مستقبل لا واقع فلهم أن يقولوا ان كان تعالى سيخلقه فينا لم يصح ذلك الاخراج وان لم يخلقه فنحن خارجون منه بلا اخراج وثالثها انه صلى الله عليه وسلم انما يخرجهم من الكفر بالكتاب بان يتلوه عليهم ليتدبروه و ينظروا فيه فيعلموا بالنظر والاستدلال كونه تعالى عالما قادرا حكيما ويعلموا بكون القرآن معجزة صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وحينئذ يقبلوا منه كل ما اداه اليهم من الشرائع وذلك لا يصح الا اذا كان الفعل لهم و يقع باختيارهم ويصح منهم ان يقدموا عليه و يتصرفوا فيه والجواب عن الكل أن نقول الفعل الصـادر من العبد اما ان يصدر عنــه حال استواء الداعى الى الفعل والترك أو حال رجحان أحد الطرفين على الآخر والاول باطل لان صدور الفعل رجحان لجانب الوجود على جانب العدم وحصول الرجحان حال حصول الاستواء محال والثانى عين قولنا لانه يمتنع صدور الفعل عنه الا بعد حصول الرجحان فان كان ذلك الرجحان منه عاد السؤال وان لم يكن منه بل من الله تعالى فحينئذ يكون المؤثر الاول هو الله تعالى وذلك هو المطلوب والله أعلم (المسئلة الخامسة) احتج أصحابنا على صحة قولهم فى ان فعل العبد مخلوق لله تعالى بقوله تعالى باذن ربهم فان معنى الآية أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكنه اخراج الناس من الظلمات الى النور الا باذن ربهم والمراد بهذا الاذن اما الامر واما العلم واما المشيئة والخلق وحمل الاذن على الامر محال لان الاخراج من الجهل الى العلم لا يتوقف على الامر فانه سواء حصل الامر أو لم يحصل فان الجهل متميز عن العلم والباطل متميز عن الحق وأيضا حمل الاذن على العلم محال لان العلم يتبع المعلوم على ما هو عليه فالعلم بالخروج من الظلمات الى النور تابع لذلك الخروج و يمتنع أن يقال ان حصول ذلك الخروج تابع للعلم بحصول ذلك الخروج ولما بطل هذان القسمان لم يبق الا أن يكون المراد من الاذن المشيئة والتخليق وذلك يدل على أن الرسول صلى الله

أي نور فقيل الى صراط العزيز الحميد واضافة الصراط اليه تعالى لانه مقصده أو المبين له وتخصيص الوصفين بالذكر للترغيب في سلوكه ببيان ما فيه من الامن والعاقبة الحميدة (الله) بالجر عطف بيان للعزيز الحميد لجريانه مجرى الاعلام الغالبة بالاختصاص بالمعبود بالحق كالنجم في الثريا وقرئ بالرفع على هو الله أي العزيز الحميد الذي أضيف اليه الصراط الله (الذي له) ملكا وملكا (ما في السموات وما الارض) أي ما وجد فيهما داخلا فيهما أو خارجا عنهما متمكنا فيهما كما مر في آية الكرسي ففيه على القراءتين بيان لكمال فخامة شأن الصراط واظهار لتحتم سلوكه على الناس قاطبة وتجويز الرفع على الابتداء بجعل الموصول خبرا مبناه الغفول عن هذه النكتة وقوله عز وجل (وويل للكافرين) وعيد لمن كفر بالكتاب ولم يخرج به من الظلمات الى النور بالويل وهو نقيض الوال وهو النجاة وأصله النصب كسائر المصادر ثم رفع رفعها للدلالة على الثبات كسلام عليك (من عذاب شديد) متعلق بويل على معنى يولولون ويضجون منه قائلين يا ويلاه كقوله تعالى دعوا هنالك ثبورا (الذين يستحبون الحيوة الدنيا) أي يؤثرونها استفعال من المحبة فان المؤثر للشئ على غيره كانه يطلب من نفسه أن يكون أحب اليها وأفضل عندها من غيره (على الآخرة) أي الحياة الآخرة الأبدية (ويصدون) الناس (عن سبيل الله) التي بين شأنها والاقتصار على الاضافة الى الاسم الجليل المنطوي على كل وصف جميل لزوم الاختصار وهو من صده صدا وقرئ يصدون من أصد المنقول من صد صدودا اذا نكب وهو غير فصيح كاوقف فان في صده ووقفه لمندوحة عن تكلف النقل (ويبغونها) أي يبغون لها بحذف الجار وأوصل الفعل الى الضمير

عليه وسلم لا يمكنه اخراج الناس من الظلمات الى النور الا بمشيئة الله وتخليقه فان قيل لم لا يجوز أن يكون المراد من الاذن الالطاف قلنا لفظ اللطف لفظ مجمل ونحن نفصل القول فيه فنقول المراد بالاذن اما أن يكون أمرا يقتضي ترجيح جانب الوجود على جانب العدم أو لا يقتضي ذلك فان كان الثاني لم يكن فيه أمر البتة فامتنع أن يقال انه مما حصل بسببه ولاجله فبقي الاول وهو أن المراد من الاذن معنى يقتضي ترجيح جانب الوجود على جانب العدم وقد دللنا في الكتب العقلية على انه متى حصل الرجحان فقد حصل الوجوب ولا معنى لذلك الا الداعية الموجبة وهو عين قولنا والله أعلم (المسئلة السادسة) القائلون بان معرفة الله تعالى لا يمكن تحصيلها الا من تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم والامام احتجوا عليه بهذه الآية وقالوا انه تعالى صرح في هذه الآية بأن الرسول هو الذي يخرجهم من ظلمات الكفر الى نور الايمان وذلك يدل على ان معرفة الله تعالى لا تحصل الا من طريق التعليم وجوابنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يكون كالمنبه وأما المعرفة فهي انما تحصل بالدليل والله أعلم (المسئلة السابعة) الآية دالة على ان طرق الكفر والبدعة كثيرة وان طريق الخير ليس الا الواحد لانه تعالى قال لتخرج الناس من الظلمات الى النور فعبر عن الجهل والكفر بالظلمات وهي صيغة جمع وعبر عن الايمان والهداية بالنور وهو لفظ مفرد وذلك يدل على ان طرق الجهل كثيرة وأما طريق العلم والايمان فليس الا الواحد (المسئلة الثامنة) في قوله تعالى الى صراط العزيز الحميد وجهان (الاول) انه بدل من قوله الى النور بتكرير العامل كقوله للذين استضعفوا لمن آمن منهم الثاني يجوز أن يكون على وجه الاستئناف كأنه قيل الى أي نور فقيل الى صراط العزيز الحميد (المسئلة التاسعة) قالت المعتزلة الفاعل انما يكون آتيا بالصواب والصلاح تاركا للقبيح والعبث اذا كان قادرا على كل المقدورات عالما بجميع المعلومات غنيا عن كل الحاجات فانه ان لم يكن قادرا على الكل فربما فعل القبيح بسبب العجز وان لم يكن عالما بكل المعلومات فربما فعل القبيح بسبب الجهل وان لم يكن غنيا عن كل الحاجات فربما فعل القبيح بسبب الحاجة أما اذا كان قادرا على الكل عالما بالكل غنيا عن الكل امتنع منه الاقدام على فعل القبيح فقوله العزيز اشارة الى كمال القدرة وقوله الحميد اشارة الى كونه مستحقا للحمد في كل أفعاله وذلك انما يحصل اذا كان عالما بالكل غنيا عن الكل فثبت بما ذكرنا ان صراط الله انما كان موصوفا بكونه شريفا رفيعا عاليا لكونه صراطا مستقيما للاله الموصوف بكونه عزيزا حميدا فلهذا المعنى وصف الله نفسه بهذين الوصفين في هذا المقام (المسئلة العاشرة) انما قدم ذكر العزيز على ذكر الحميد لان الصحيح ان أول العلم بالله العلم بكونه تعالى قادرا ثم بعد ذلك العلم بكونه عالما ثم بعد ذلك العلم بكونه غنيا عن الحاجات والعزيز هو القادر والحميد هو العالم الغني فلما كان العلم بكونه تعالى قادرا مقدما على العلم بكونه عالما بالكل غنيا عن الكل لا جرم قدم الله ذكر العزيز على ذكر الحميد والله أعلم * قوله تعالى (الله الذي له ما في السموات وما في الارض وويل للكافرين من عذاب شديد الذين يستحبون الحيوة الدنيا

نى يطلبون لها (عوجا) أى زيغا واعوجاجا وهى أبعد شئ من ذلك أى يقولون لمن يريدون صده وإضلاله انها سبيل ناكبة وزائغة غير مستقيمة ومحل موصول هذه الصلات الجر على أنه بدل من الكافرين أو صفة له فيعتبر كل وصف ن أوصافهم بازاء ما يناسبه من المعانى المعتبرة فى الصراط فالكفر المنبئ عن الستر بازاء كونه نورا واستحباب الحياة الدنيا الفانية المفصحة عن وخامة العاقبة بمقابلة كون سلوكه محمود العاقبة والصد عنه بازاء كونه مأمونا وفيمن الدلالة على تماديهم فى الغى ما لا يخفى أو النصب على الذم أو الرفع على الابتداء والخبر قوله تعالى (أولئك فى ضلال بعيد) وعلى الاول جملة مستأنفة وقعت معللة لما سبق من لحوق الويل بهم تأكيدا لما أشعر به بناء الحكم على الموصول أى أولئك الموصوفون بالقبائح المذكورة من استحباب الحياة الدنيا على الآخرة وصد الناس عن سبيل الله المستقيمة ووصفها بالاعوجاج وهى منه بمعزل فى ضلال عن طريق الحق بعيد بالغ فى ذلك غاية الغايات القاصية والبعد وان كان من أحوال الضال الا أنه قد وصف به وصفه مجازا للمبالغة كجد جده وداهية دهياء ويجوز أن يكون المعنى فى ضلال ذى بعد أو فيه بعد فان الضال قد يضل عن الطريق مكانا قريبا وقد يضل بعيدا وفى جعل الضلال محيطا بهم احاطة الظرف بما فيه ما لا يخفى من المبالغة (وما أرسلنا) أى فى الامم الخالية من قبلك كما سيذكر اجمالا (من رسول الا) ملتبسا ﴿ اذا ﴾ (بلسان قومه) متكلما بلغة من أرسل اليهم من الامم المتفقة على لغة سواء بعث فيهم أو لا وقرئ بلسن وهو لغة فيه كريش وريش وبلسن بضمتين وضمة وسكون كعمد وعمد (ليبين لهم) ما أمروا به فيتلقوه منه بيسر وسرعة ويعملوا بموجبه من غير حاجة الى الترجمة

على الاخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أولئك فى ضلال بعيد) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن عامر الله مرفوعا بالابتداء وخبره ما بعده وقيل التقدير هو الله والباقون بالجر عطفا على قوله العزيز الحميد (وههنا بحث) وهو أن جماعة من المحققين ذهبوا الى ان قولنا الله جار مجرى الاسم العلم لذات الله تعالى وذهب قوم آخرون الى انه لفظ مشتق والحق عندنا هو الاول * ويدل عليه وجوه (الاول) ان الاسم المشتق عبارة عن شئ ما حصل له المشتق منه فالاسود مفهومه شئ ما حصل له السواد والناطق مفهومه شئ ما حصل له النطق فلو كان قولنا الله اسما مشتقا من معنى لكان المفهوم منه انه شئ ما حصل له ذلك المشتق منه وهذا المفهوم كلى لا يمتنع من حيث هو هو عن وقوع الشركة فيه فلو كان قولنا الله لفظا مشتقا لكان مفهومه صالحا لوقوع الشركة فيه ولو كان الامر كذلك لما كان قولنا لا اله الا الله موجبا للتوحيد لان المستثنى هو قولنا الله وهو غير مانع من وقوع الشركة فيه ولما أجمعت الامة على ان قولنا لا اله الا الله يوجب التوحيد المحض علمنا أن قولنا الله جار مجرى الاسم العلم (الثانى) انه كلما أردنا أن نذكر سائر الصفات والاسماء ذكرنا أولا قولنا الله ثم وصفناه بسائر الصفات كقولنا هو الله الذى لا اله الا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس ولا يمكننا ان نعكس الامر فنقول الرحمن الرحيم الله فعلمنا أن الله هو اسم علم للذات المخصوصة وسائر الالفاظ دالة على الصفات والنعوت (الثالث) ان ما سوى قولنا الله كلها دالة اما على الصفات السلبية كقولنا القدوس السلام أو على الصفات الاضافية كقولنا الخالق الرازق أو على الصفات الحقيقية كقولنا العالم القادر أو على ما يتركب من هذه الثلاثة فلو لم يكن قولنا الله اسما للذات المخصوصة لكان جميع اسماء الله تعالى ألفاظا دالة على صفاته ولم يحصل فيها ما يدل على ذاته المخصوصة وذلك بعيد لانه يبعد أن لا يكون له من حيث انه هو اسم مخصوص (والرابع) قوله تعالى هل تعلم له سميا والمراد هل تعلم من اسمه الله غير الله وذلك يدل على ان قولنا الله اسم لذاته المخصوصة واذا ظهرت هذه المقدمة فالترتيب الحسن أن يذكر الاسم ثم تذكر عقيبه الصفات كقوله تعالى هو الله الخالق البارئ المصور فاما أن يعكس فيقال هو الخالق المصور البارئ الله فذلك غير جائز واذا ثبت هذا فنقول الذين قرؤا الله الذى له ما فى السموات بالرفع أرادوا أن يجعلوا قوله الله مبتدأ ويجعلوا ما بعده خبرا عنه وهذا هو الحق الصحيح فأما الذين قرؤا الله بالجر عطفا على العزيز الحميد فهو مشكل لما بينا أن الترتيب الحسن أن يقال الله الخالق واما ان يقال الخالق الله فهذا لا يحسن * وعند هذا اختلفوا فى الجواب على وجوه (الاول) قال أبو عمرو ابن العلاء القراءة بالخفض على التقديم والتأخير والتقدير صراط الله العزيز الحميد الذى له ما فى السموات (والثانى) انه لا يبعد أن يذكر الصفة أولا ثم يذكر الاسم ثم يذكر الصفة مرة أخرى كما يقال مررت بالامام الاجل محمد الفقيه وهو بعينه نظير قوله صراط العزيز الحميد الله الذى له ما فى السموات وتحقيق القول فيه انا بينا ان الصراط انما يكون ممدوحا محمودا

اذاكان صراطا للعالم القادر الغنى والله تعالى عبر عن هذه الامور الثلاثة بقوله العزيز الحميد ثم لماذكر هذا المعنى وقعت الشبهة فى ان ذلك العزيز من هو فعطف عليها قوله الله الذى له مافى السموات ومافى الارض ازالة لتلك الشبهة (الثالث) قال صاحب الكشاف الله عطف بيان للعزيز الحميد وتحقيق هذا القول ماقررناه فيما تقدم (الرابع) قدذكرنا فى أول هذا الكتاب ان قولنا الله فى أصل الوضع مشتق الا أنه بالعرف صارجاريا مجرى الاسم العلم فحيث يبدأ بذكره و يعطف عليه سائر الصفات فذلك لاجل أنه جعل اسم علم وأما فى هذه الآية حيث جعل وصفا للعزيز الحميد فذاك لاجل انه حمل على كونه لفظا مشتقا فلاجرم بقى صفة (الخامس) ان الكفار ربما وصفوا الوثن بكونه عزيزا حميدا فلما قال لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد بقى فى خاطر عبدة الاوثان انه ربما كان ذلك العزيز الحميد هو الوثن فأزال الله تعالى هذه الشبهة وقال الله الذى له مافى السموات ومافى الارض أى المراد من ذلك العزيز الحميد هو الله الذى له مافى السموات ومافى الارض (المسئلة الثانية) قوله الله الذى له مافى السموات ومافى الارض يدل على انه تعالى غير مختص بجهة العلو البتة وذلك لان كل ماسماك وعلاك فهو سماء فلو حصل ذات الله تعالى فى جهة فوق لكان حاصلا فى السماء وهذه الآية دالة على ان كل مافى السموات فهو ملكه فلزم كونه ملكا لنفسه وهو محال فدلت هذه الآية على انه منزه عن الحصول فى جهة فوق (المسئلة الثالثة) احتج أصحابنا بهذه الآية على انه تعالى خالق لاعمال العباد لانه قال له مافى السموات ومافى الارض وأعمال العباد حاصلة فى السموات والارض فوجب القول بأن أفعال العباد له بمعنى كونها مملوكة له والملك عبارة عن القدرة فوجب كونها مقدورة لله تعالى واذا ثبت انها مقدورة لله تعالى وجب وقوعها بقدرة الله تعالى والا لكان العبد قد منع الله تعالى من ايقاع مقدوره وذلك محال واعلم ان قوله تعالى له مافى السموات ومافى الارض يفيد الحصر والمعنى ان مافى السموات ومافى الارض له لالغيره وذلك يدل على انه لامالك الا الله ولا حاكم الا الله ثم انه تعالى لماذكر ذلك عطف على الكفار بالوعيد فقال وويل للكافرين من عذاب شديد والمعنى انهم لما تركوا عبادة الله تعالى الذى هو المالك للسموات والارض ولكل مافيهما الى عبادة مالا يملك ضرا ولا نفعا و يخلق ولا يخلق ولا ادراك لها ولا فعل فالويل ثم الويل لمن كان كذلك وانما خص هؤلاء بالويل لان المعنى يولولون من عذاب شديد و يضجون منه و يقولون ياويلاه ونظيره قوله تعالى دعوا هنالك ثبورا ثم بين تعالى صفة هؤلاء الكافرين الذين توعدهم بالويل الذى يفيد أعظم العذاب وذكر من صفاتهم ثلاثة أنواع (الاول) قوله الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان شئت جعلت الذين صفة الكافرين فى الآية المتقدمة وان شئت جعلته مبتدأ وجعلت الخبر قوله أولئك وان شئت نصبته على الذم (المسئلة الثانية) الاستحباب طلب محبة الشئ واقول ان الانسان قد يحب

ممن لم يؤمن به وحيث لم يمكن مراعاة هذه القاعدة فى شان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين لعموم بعثته الثقلين كافة على اختلاف لغاتهم وكان تعدد نظم الكتاب المنزل اليه حسب تعدد ألسنة الامم أدعى الى التنازع واختلاف الكلمة وتطرق أيدى التحريف مع أن استقلال بعض من ذلك بالاعجاز دون غيره مئنة لقدح القادحين واتفاق الجميع فيه أمر قريب من الالجاء وحصر البيان بالترجمة والتفسير اقتضت الحكمة اتحاد النظم النبى عن العزة وجلالة الشأن المستتبع لفوائد غنية عن البيان على أن الحاجة الى الترجمة تتضاعف عند التعدد اذلا بد لكل أمة من معرفة توافق الكل وتحاذيه حذو القذة بالقذة من غير مخالفة ولو فى خصلة فذة وانما يتم ذلك بمن يترجم عن الكل واحدا أو متعددا وفيه من التعذر مايتاخم الامتناع ثم لما كان اشرف الاقوام وأولاهم بدعوته عليه الصلاة والسلام قومه الذين بعث فيهم ولغتهم أفضل اللغات نزل الكتاب المتين بلسان عربى مبين وانتشرت أحكامه فيما بين الامم أجمعين وقيل الضمير فى قومه لمحمد صلى الله عليه وسلم فانه تعالى انزل الكتب كلها عربية ثم ترجمها جبريل عليه الصلاة والسلام أو كل من نزل عليه من الانبياء عليهم السلام بلغة من نزل عليهم و يرده قوله تعالى ليبين لهم فانه ضمير القوم وظاهر أن جميع الكتب لم ينزل لتبيين العرب وفى رجعه الى قوم كل نبى كأنه قيل وما أرسلنا من رسول الا بلسان قوم محمد عليه الصلاة والسلام ليبين الرسول لقومه الذين ارسل اليهم مالا يخفى من التكلف (فيضل الله من يشاء) اضلاله أى يخلق فيه الضلال لمباشرة أسبابه المؤدية اليه أو يخذله ولا يلطف به لما يعلم أنه لا ينجع فيه الالطاف (و يهدى) بالتوفيق ومنح الالطاف (من يشاء)

هدايته لما فيه من الانابة والاقبال الى الحق والالتفات باسناد الفعلين الى الاسم الجليل المنطوى على الصفات لتفخيم شانهما وترشيح مناط كل منهما والفاء فصيحة مثلها فى قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق كأنه قيل فبينوا لهم فاضل الله منهم من شاء اضلاله لما لا يليق الا به وهدى من شاء هدايته لاستحقاقه لها والحذف للايذان بأن مسارعة كل رسول الى ما أمر به وجريان كل من أهل الخذلان والهداية على سننه أمر محقق غنى عن الذكر والبيان والعدول الى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة أو للدلالة على التجدد والاستمرار حسب تجدد البيان من الرسل المتعاقبة عليهم السلام وتقديم الاضلال على الهداية اما لانه ابقاء ما كان على ما كان والهداية انشاء مالم يكن أو للمبالغة فى بيان أن لا تأثير للتبيين والتذكير من قبل الرسل وأن مدار الامر انما هو مشيئته تعالى بايهام أن ترتب الضلالة على ذلك اسرع من ترتب الاهتداء وهذا محقق لما سلف من تقييد الاخراج من الظلمات الى النور باذن الله تعالى (وهو العزيز) فلا يغالب فى مشيئته (الحكيم) الذى لا يفعل شيئا من الاضلال والهداية الا لحكمة بالغة وفيه أن ما فوض الى الرسل انما هو تبليغ الرسالة وتبيين طريق الحق وأما الهداية والارشاد اليه فذلك بيد الله سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد (ولقد ﴿ المراد ﴾ أرسلنا موسى) شروع فى تفصيل ما أجمل فى قوله عز وجل وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم الآية (بآياتنا) أى ملتبسا بها وهى معجزاته التى اظهرها لبنى اسرائيل (أن أخرج قومك) بمعنى أى أخرج لان الارسال فيه معنى القول أو بان أخرج كما فى قوله تعالى وأن أقم وجهك فان صيغ الافعال فى الدلالة على المصدر

الشئ ولكنه لا يجب كونه محبا لذلك الشئ مثل من يميل طبعه الى الفسق والفجور ولكنه يكره كونه محبا لهما أما اذا أحب الشئ وطلب كونه محبا له وأحب تلك المحبة فهذا هو نهاية المحبة فقوله الذين يستحبون الحياة الدنيا يدل على كونهم فى نهاية المحبة للحياة الدنيوية ولا يكون الانسان كذلك الا اذا كان غافلا عن الحياة الاخروية وعن معايب هذه الحياة العاجلة ومن كان كذلك كان فى نهاية الصفات المذمومة وذلك لان هذه الحياة موصوفة بأنواع كثيرة من العيوب فأحدها ان بسبب هذه الحياة انفتحت أبواب الآلام والاسقام والغموم والهموم والمخاوف والاحزان وثانيها ان هذه اللذات فى الحقيقة لا حاصل لها الا دفع الآلام بخلاف اللذات الروحانية فانها فى أنفسها لذات وسعادات وثالثها ان سعادات هذه الحياة منغصة بسبب الانقطاع والانقراض والانقضاء ورابعها أنها حقيرة قليلة وبالجملة فلا يحب هذه الحياة الا من كان غافلا عن معايبها وكان غافلا عن فضائل الحياة الروحانية الاخروية ولذلك قال تعالى والآخرة خير وأبقى فهذه الكلمة جامعة لكل ما ذكرناه (المسئلة الثالثة) انما قال يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة لان فيه اضمارا والتقدير يستحبون الحياة الدنيا ويؤثرونها على الآخرة فجمع تعالى بين هذين الوصفين ليبين بذلك ان الاستحباب للدنيا وحده لا يكون مذموما الا بعد أن يضاف اليه ايثارها على الآخرة فأما من أحبها ليصل بها الى منافع النفس والى خيرات الآخرة فان ذلك لا يكون مذموما حتى اذا آثرها على آخرته بأن اختار منها ما يضره فى آخرته فهذه المحبة هى المحبة المذمومة (النوع الثانى) من الصفات التى وصف الله الكفار بها قوله تعالى ويصدون عن سبيل الله واعلم ان من كان موصوفا باستحباب الدنيا فهو ضال ومن منع الغير من الوصول الى سبيل الله ودينه فهو مضل فالمرتبة الاولى اشارة الى كونهم ضالين وهذه المرتبة الثانية وهى كونهم صادين عن سبيل الله اشارة الى كونهم مضلين (والنوع الثالث) من تلك الصفات قوله ويبغونها عوجا واعلم ان الاضلال على مرتبتين المرتبة الاولى انه يسعى فى صد الغير ومنعه من الوصول الى المنهج القويم والصراط المستقيم والمرتبة الثانية أن يسعى فى القاء الشكوك والشبهات فى المذهب الحق ويحاول تقبيح صفته بكل ما يقدر عليه من الحيل وهذا هو النهاية فى الضلال والاضلال واليه الاشارة بقوله ويبغونها عوجا قال صاحب الكشاف الاصل فى الكلام أن يقال ويبغون لها عوجا فحذف الجار وأوصل الفعل ولما ذكر الله تعالى هذه المراتب الثلاثة لاحوال هؤلاء الكفار قال فى صفتهم أولئك فى ضلال بعيد وانما وصف هذا الضلال بالبعد لوجوه الاول انا بينا ان أقصى مراتب الضلال هو الذى وصفه الله تعالى فى هذه المرتبة فهذه المرتبة فى غاية البعد عن طريق الحق فان شرط الضدين أن يكونا فى غاية التباعد مثل السواد والبياض فكذا ههنا الضلال الذى يكون واقعا على هذا الوجه يكون فى غاية البعد عن الحق لا يعقل ضلال أقوى وأكمل من هذا الضلال (والوجه الثانى) أن يكون

وسواه وهو المدار فى صحة الوصل والمراد بذلك اخراج بنى اسرائيل بعد مهلك فرعون (من الظلمات) من الكفر الجهالات التى ادتهم الى أن يقولوا ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة (الى النور) الى الايمان بالله وتوحيده وسائر ماأمروا به (وذكرهم بايام الله) أى بنعمائه و بلائه كما ينبئ عنه قوله اذكروا نعمة الله عليكم لكن لا بما جرى عليهم فقط بل عليهم وعلى من قبلهم من الامم فى الايام ﴿ ٣١٩ ﴾ الخالية حسبما ينبئ عنه قوله تعالى ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم الآيات او بأيامه المنطوية على ذلك كما يلوح به قوله تعالى اذ أنجاكم والالتفات من التكلم الى الغيبة باضافة الايام الى الاسم الجليل للايذان بفخامة شأنها والاشعار بعدم اختصاص مافيها من المعاملة بالمخاطب وقومه كما توهمه الاضافة الى ضمير المتكلم أى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد وقيل أيام الله وقائعه التى وقعت على الامم قبلهم وأيام العرب وقائعها وحروبها وملاحمها أى أنذرهم وقائعه التى دهمت الامم الدارجة و يرده ماتصدى له عليه الصلاة والسلام بصدد الامتثال من التذكير بكل من السراء والضراء مما جرى عليهم وعلى غيرهم حسبما يتلى عليك (ان فى ذلك) أى فى التذكير بها أو فى مجموع تلك النعماء والبلاء او فى أيامها (لآيات) عظيمة او كثيرة دالة على وحدانية الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته فهى على الاول عبارة عن الايام سواء أريد بها أنفسها أو مافيها من النعماء والبلاء ومعنى ظرفية التذكير لها كونه مناطا لظهورها وعلى الثالث عن تلك النعماء والبلاء ومعنى الظرفية ظاهر وأما على الثانى وهو كونه اشارة الى مجموع النعماء فعن كل واحدة من تلك النعماء والبلاء والمشار اليه المجموع المشتمل عليها من حيث هو مجموع

المراد انه يبعد ردهم عن طريقة الضلال الى الهدى لانه قد تمكن ذلك فى نفوسهم (والوجه الثالث) أن يكون المراد من الضلال الهلاك والتقدير أولئك فى هلاك يطول عليهم فلا ينقطع وأراد بالبعد امتداده وزوال انقطاعه * قوله تعالى (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء و يهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما ذكر فى أول السورة كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور كان هذا انعاما على الرسول من حيث انه فوض اليه هذا المنصب العظيم وانعاما أيضا على الخلق من حيث انه أرسل اليهم من خلصهم من ظلمات الكفر وأرشدهم الى نور الايمان فذكر فى هذه الآية ما يجرى مجرى تكميل النعمة والاحسان فى الوجهين أما بالنسبة الى الرسول عليه الصلاة والسلام فلانه تعالى بين أن سائر الانبياء كانوا مبعوثين الى قومهم خاصة وأما أنت يا محمد فمبعوث الى عامة الخلق فكان هذا الانعام فى حقك أفضل وأكمل وأما بالنسبة الى عامة الخلق فهو انه تعالى ذكر انه ما بعث رسولا الى قوم الا بلسان أولئك القوم فانه متى كان الامر كذلك كان فهمهم لاسرار تلك الشريعة ووقوفهم على حقائقها أسهل وعن الغلط والخطأ أبعد فهذا هو وجه النظم (المسئلة الثانية) احتج بعض الناس بهذه الآية على ان اللغات اصطلاحية لا توقيفية قال لان التوقيف لا يحصل الا بارسال الرسل وقد دلت هذه الآية على ان ارسال جميع الرسل لا يكون الا بلغة قومهم وذلك يقتضى تقدم حصول اللغات على أرسال الرسل واذا كان كذلك امتنع حصول تلك اللغات بالتوقيف فوجب حصولها بالاصطلاح (المسئلة الثالثة) زعم طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية ان محمدا رسول الله لكن الى العرب لا الى سائر الطوائف وتمسكوا بهذه الآية من وجهين (الاول) ان القرآن لما كان نازلا بلغة العرب لم يعرف كونه معجزة بسبب ما فيه من الفصاحة الا العرب وحينئذ لا يكون القرآن حجة الا على العرب ومن لا يكون عربيا لم يكن القرآن حجة عليه (الثانى) قالوا ان قوله وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه المراد بذلك اللسان لسان العرب وذلك يقتضى أن يقال انه ليس له قوم سوى العرب وذلك يدل على انه مبعوث الى العرب فقط والجواب لم لا يجوز أن يكون المراد من قومه أهل بلده وليس المراد من قومه أهل دعوته والدليل على عموم الدعوة قوله تعالى قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا بل الى الثقلين لان التحدى كما وقع مع الانس فقد وقع مع الجن بدليل قوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (المسئلة الرابعة) تمسك أصحابنا بقوله تعالى فيضل الله من يشاء و يهدى من يشاء على ان الضلال والهداية من الله تعالى والآية صريحة فى هذا المعنى قال الاصحاب ومما يؤكد هذا المعنى ما روى ان أبا بكر وعمر أقبلا فى جماعة من الناس وقد ارتفعت أصواتهما فقال عليه السلام ما هذا فقال بعضهم يا رسول الله يقول أبو بكر الحسنات من الله والسيآت

أو كلمة فى تجريدية مثلها فى قوله تعالى لهم فيها دار الخلد (لكل صبار) على بلائه (شكور) لنعمائه وقيل لكل مؤمن والتعبير عنهم بذلك للاشعار بان الصبر والشكر عنوان المؤمن أى لكل من يليق بكمال الصبر والشكر أو الايمان و يصير أمره اليها لا لمن اتصف بها بالفعل لانه تعليل للامر بالتذكير المذكور السابق على التذكر المؤدى الى تلك المرتبة فان من تذكر ما فاض أو نزل عليه أو على قبله من النعماء والبلاء وتنبه لعاقبة الشكر والصبر أو الايمان لا يكاد يفارقهما وتخصيص الآيات بهم لانهم المنتفعون بها لا لانها خافية عن غيرهم فان التبيين حاصل بالنسبة الى الكل وتقديم الصبار على الشكور لتقدم متعلق الصبر أعنى البلاء على متعلق الشكر أعنى النعماء وكون الشكر عاقبة الصبر (واذ قال موسى لقومه) شروع فى بيان تصديه عليه الصلاة والسلام لما أمر به من التذكير للاخراج المذكور واذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام وتعليق الذكر بالوقت مع ان المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر سره غير مرة أى اذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام لقومه (اذكروا نعمة الله عليكم) بدأ عليه الصلاة والسلام بالترغيب لانه عند النفس أقبل وهى اليه أميل والظرف متعلق بنفس النعمة ان جعلت مصدرا أو بمحذوف وقع حالا منها ان جعلت اسما أى اذكروا انعامه عليكم أو اذكروا نعمته كائنة عليكم وكذلك كلمة اذ فى قوله تعالى (اذ أنجاكم من آل فرعون) أى اذكروا انعامه عليكم وقت انجائه اياكم من آل فرعون أو اذكروا نعمة الله مستقرة عليكم وقت انجائه اياكم منهم أو بدل اشتمال من نعمة الله مرادا بها الانعام أو العطية

من أنفسنا و يقول عمر كلاهما من الله وتبع بعضهم أبا بكر و بعضهم عمر فتعرف الرسول صلى الله عليه وسلم ما قاله أبو بكر وأعرض عنه حتى عرف ذلك فى وجهه ثم أقبل على عمر فتعرف ما قاله وعرف البشر فى وجهه ثم قال أقضى بينكما كما قضى به اسرافيل بين جبريل وميكائيل قال جبريل مثل مقالتك يا عمر وقال ميكائيل مثل مقالتك يا أبا بكر فقضاء اسرافيل ان القدر كله خيره وشره من الله تعالى وهذا قضائى بينكما قالت المعتزلة هذه الآية لا يمكن اجراؤها على ظاهرها و بيانه من وجوه (الاول) انه تعالى قال وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم والمعنى انا انما أرسلنا كل رسول بلسان قومه ليبين لهم تلك التكاليف بلسانهم فيكون ادراكهم لذلك البيان أسهل ووقوفهم على المقصود والغرض أكمل وهذا الكلام انما يصح لو كان مقصود الله تعالى من ارسال الرسل حصول الايمان للمكلفين فأما لو كان مقصوده الاضلال وخلق الكفر فيهم لم يكن ذلك الكلام ملائما لهذا المقصود (والثانى) انه عليه السلام اذا قال لهم ان الله يخلق الكفر والضلال فيكم فلهم أن يقولوا له فما الفائدة فى بيانك وما المقصود من ارسالك وهل يمكننا أن نزيل كفرا خلقه الله تعالى فينا عن أنفسنا وحينئذ تبطل دعوة النبوة وتفسد بعثة الرسل (الثالث) انه اذا كان الكفر حاصلا بتخليق الله تعالى ومشيئته وجب أن يكون الرضا به واجبا لان الرضا بقضاء الله تعالى واجب وذلك لا يقوله عاقل (والرابع) انا قد دللنا على ان مقدمة هذه الآية وهى قوله لتخرج الناس من الظلمات الى النور يدل على مذهب العدل وأيضا مؤخرة الآية يدل عليه وهو قوله وهو العزيز الحكيم فكيف يكون حكيما من كان خالقا للكفر والقبائح ومريدا لها فثبت بهذه الوجوه أنه لا يمكن حمل قوله فيضل الله من يشاء و يهدى من يشاء على انه تعالى يخلق الكفر فى العبد فوجب المصير الى التأويل وقد استقصينا ما فى هذه التأويلات فى سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى يضل به كثيرا و يهدى به كثيرا ولا بأس باعادة بعضها فالاول ان المراد بالاضلال هو الحكم بكونه كافرا ضالا كما يقال فلان يكفر فلانا و يضلله أى يحكم بكونه كافرا ضالا والثانى أن يكون الاضلال عبارة عن الذهاب بهم عن طريق الجنة الى النار والهداية عبارة عن ارشادهم الى طريق الجنة والثالث انه تعالى لما ترك الضال على اضلاله ولم يتعرض له صار كأنه أضله والمهتدى لما أعانه بالالطاف صار كأنه هو الذى هداه قال صاحب الكشاف المراد بالاضلال التخلية ومنع الالطاف و بالهداية التوفيق واللطف والجواب عن قولهم أولا ان قوله تعالى ليبين لهم لا يليق به أن يضلهم قلنا قال الفراء اذا ذكر فعل و بعده فعل آخر فان كان الفعل الثانى مشاكلا للاول نسقته عليه وان لم يكن مشاكلا له استأنفته ورفعته ونظيره قوله تعالى يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم و يأبى الله فقوله و يأبى الله فى موضع رفع لا يجوز الا ذلك لانه لا يحسن أن يقال يريدون أن يأبى الله فلما لم يمكن وضع الثانى موضع الاول بطل العطف ونظيره أيضا قوله لنبين لكم ونقر فى الارحام ومن ذلك قولهم أردت أن أزورك فيمنعنى المطر بالرفع غير منسوق على ما قبله لما ذكرناه ومثله قول الشاعر * يريد أن يعربه فيعجمه * اذا عرفت هذا

﴿ فنقول ﴾

(يسومونكم) يبغونكم من سامه خسفا اذا أولاه ظلما وأصل السوم الذهاب فى طلب الشئ (سوء العذاب) السوء مصدر ساء يسوء والمراد به جنس العذاب السيئ أو استعبادهم واستعمالهم فى الاعمال الشاقة والاستهانة بهم وغير ذلك مما لا يحصر ونصبه على أنه مفعول ليسومونكم (ويذبحون أبناءكم) المولودين وانما عطفه على يسومونكم اخراجا له عن مرتبة العذاب المعتاد وانما فعلوا ذلك لان فرعون رأى فى المنام أو قال له الكهنة انه سيولد منهم من يذهب بملكه فاجتهدوا فى ذلك فلم يغن عنهم من قضاء الله شيئا (ويستحيون نساءكم) أى يبقونهن فى الحياة مع الذل والصغار ولذلك عد من جملة البلاء والجمل أحوال من آل فرعون او من ضمير المخاطبين أو منهما جميعا لان فيها ضمير كل منهما (وفى ذلكم) أى فيما ذكر من أفعالهم الفظيعة (بلاء من ربكم) أى ابتلاء منه لا أن البلاء عين تلك الافعال اللهم الا أن تجعل فى تجريدية فنسبته الى الله تعالى اما من حيث الخلق أو الاقدار والتمكين (عظيم) لا يطاق ويجوز أن يكون المشار اليه الانجاء من ذلك والبلاء الابتلاء بالنعمة وهو الانسب كما يلوح به التعرض لوصف الربوبية وعلى الاول يكون ذلك باعتبار المآل الذى هو الانجاء أو باعتبار أن بلاء المؤمن تربية له (واذ تأذن ربكم) من جملة مقال موسى عليه الصلاة والسلام لقومه معطوف على نعمة الله أى اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم أى آذن ايذانا بليغا لا تبقى معه شائبة شبهة لما فى صيغة التفعل من معنى التكلف المحمول فى حقه سبحانه على غايته التى هى الكمال وقيل هو معطوف على قوله تعالى اذ أنجاكم أى اذكروا نعمته تعالى

فنقول ههنا قال تعالى ليبين لهم ثم قال فيضل الله من يشاء ذكر فيضل بالرفع فدل على انه مذكور على سبيل الاستئناف وانه غير معطوف على ما قبله وأقول تقرير هذا الكلام من حيث المعنى كأنه تعالى قال وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليكون بيانه لهم تلك الشرائع بلسانهم الذى ألفوه واعتادوه ثم قال ومع ان الامر كذلك فانه تعالى يضل من يشاء ويهدى من يشاء والغرض منه التنبيه على ان تقوية البيان لا توجب حصول الهداية فربما قوى البيان ولا تحصل الهداية وربما ضعف البيان وحصلت الهداية وانما كان الامر كذلك لاجل أن الهداية والضلال لا يحصلان الا من الله تعالى أما قوله ثانيا لو كان الضلال حاصلا بخلق الله تعالى لكان للكافر أن يقول له ما الفائدة فى بيانك ودعوتك فنقول يعارضه ان الخصم يسلم ان هذه الآيات اخبار عن كونه ضالا فيقول له الكافر لما أخبر الهك عن كونى كافرا فان آمنت صار الهك كاذبا فهل أقدر على جعل الهك كاذبا وهل أقدر على جعل علمه جهلا واذا لم أقدر عليه فكيف يأمرنى بهذا الايمان فثبت ان هذا السؤال الذى أورده الخصم علينا هو أيضا وارد عليه وأما قوله ثالثا يلزم أن يكون الرضا بالكفر واجبا لان الرضا بقضاء الله تعالى واجب وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب قلنا ويلزمك أيضا على مذهبك أنه يجب على العبد السعى فى تكذيب الله وفى تجهيله وهذا أشد استحالة مما ألزمته علينا لانه تعالى لما أخبر عن كفره وعلم كفره فازالة الكفر عنه يستلزم قلب علمه جهلا وخبره الصدق كذبا وأما قوله رابعا ان مقدمة الآية وهى قوله تعالى لتخرج الناس من الظلمات الى النور يدل على صحة الاعتزال فنقول قد ذكرنا ان قوله باذن ربهم يدل على صحة مذهب أهل السنة وأما قوله خامسا انه تعالى وصف نفسه فى آخر الآية بكونه حكيما وذلك ينافى كونه تعالى خالقا للكفر مريدا له فنقول وقد وصف نفسه بكونه عزيزا والعزيز هو الغالب القاهر فلو أراد الايمان من الكافر مع انه لا يحصل أو أراد عدم الكفر منهم وقد حصل لما بقى عزيزا غالبا فثبت ان الوجوه التى ذكروها ضعيفة وأما التأويلات الثلاثة التى ذكروها فقد مر ابطالها فى هذا الكتاب مرارا فلا فائدة فى الاعادة * قوله تعالى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمت الله عليكم اذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما بين انه انما أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم الى الناس ليخرجهم من الظلمات الى النور وذكر كمال انعامه عليه وعلى قومه فى ذلك الارسال وفى تلك البعثة أتبع ذلك بشرح بعثة سائر الانبياء الى أقوامهم وكيفية معاملة أقوامهم معهم تصبيرا للرسول عليه السلام على أذى قومه وارشادا له الى كيفية مكالمتهم ومعاملتهم فذكر تعالى على العادة المألوفة قصص بعض الانبياء عليهم السلام فبدأ بذكر

قصة موسى عليه السلام فقال ولقد أرسلنا موسى بآياتنا قال الاصم آيات موسى عليه السلام هي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وفلق البحر وانفجار العيون من الحجر واظلال الجبل وانزال المن والسلوى وقال الجبائى أرسل الله تعالى موسى عليه السلام الى قومه من بنى اسرائيل بآياته وهي دلالاته وكتبه المنزلة عليه وأمره أن يبين لهم الدين وقال أبو مسلم الاصفهانى انه تعالى قال فى صفة محمد صلى الله عليه وسلم كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور وقال فى حق موسى عليه السلام أن أخرج قومك من الظلمات الى النور والمقصود بيان ان المقصود من البعثة واحد فى حق جميع الانبياء عليهم السلام وهو أن يسعوا فى اخراج الخلق من ظلمات الضلالات الى أنوار الهدايات (المسئلة الثانية) قال الزجاج قوله أن أخرج قومك أى بأن أخرج قومك ثم قال أن ههنا تصلح أن تكون مفسرة بمعنى أى و يكون المعنى ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أى أخرج قومك كان المعنى قلنا له أخرج قومك ومثله قوله وانطلق الملأ منهم أن امشوا أى امشوا والتأويل قيل لهم امشوا وتصلح أيضا أن تكون المخففة التى هى للخبر والمعنى أرسلناه بأن يخرج قومه الا أن الجار حذف ووصلت ان بلفظ الامر ونظيره قولك كتبت اليه أن قم وأمرته ان قم ثم ان الزجاج حكى هذين القولين عن سيبويه أما قوله وذكرهم بأيام الله فاعلم انه تعالى أمر موسى عليه السلام فى هذا المقام بشيئين أحدهما أن يخرجهم من ظلمات الكفر والثانى أن يذكرهم بأيام الله وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال الواحدى أيام جمع يوم واليوم هو مقدار المدة من طلوع الشمس الى غروبها وكانت الايام فى الاصل أيوام فاجتمعت الياء والواو وسبقت احداهما بالسكون فأدغمت احداهما فى الاخرى وغلبت الياء (المسئلة الثانية) انه يعبر بالايام عن الوقائع العظيمة التى وقعت فيها يقال فلان عالم بأيام العرب ويريد وقائعها وفى المثل من ير يوما ير له معناه من رؤى فى يوم مسرورا بمصرع غيره يرى فى يوم آخر حزينا بمصرع نفسه وقال تعالى وتلك الايام نداولها بين الناس اذا عرفت هذا فالمعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد فالترغيب والوعد أن يذكرهم ما أنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل فى سائر ما سلف من الايام والترهيب والوعيد أن يذكرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسل ممن سلف من الامم فيما سلف من الايام مثل ما نزل بعاد وثمود وغيرهم من العذاب ليرغبوا فى الوعد فيصدقوا و يحذروا من الوعيد فيتركوا التكذيب واعلم ان أيام الله فى حق موسى عليه السلام منها ما كان أيام المحنة والبلاء وهى الايام التى كانت بنو اسرائيل فيها تحت قهر فرعون ومنها ما كان أيام الراحة والنعماء مثل انزال المن والسلوى وانفلاق البحر وتظليل الغمام ثم قال تعالى ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور والمعنى ان فى ذلك التذكير والتنبيه دلائل لمن كان صبارا شكورا لان الحال اما أن يكون حال محنة و بلية أو حال منحة وعطية فان كان الاول كان المؤمن صبارا وان كان الثانى كان شكورا وهذا

فى هذين الوقتين فان هذا التأذن أيضا نعمة من الله تعالى عليهم ينالون بها خيرى الدنيا والآخرة وفى قراءة ابن مسعود رضى الله تعالى عنه واذ قال ربكم ولقد ذكرهم عليه الصلاة والسلام أولا بنعمائه تعالى عليهم صريحا وضمنه تذكير ما أصابهم قبل ذلك من الضراء ثم أمرهم ثانيا بذكر ما جرى من الله سبحانه من الوعد بالزيادة على تقدير الشكر والوعيد بالعذاب على تقدير الكفر والمراد بتذكير الاوقات تذكير ما وقع فيها من الحوادث مفصلة اذ هى محيطة بذلك فاذا ذكرت ذكر ما فيها كأنه مشاهد معاين (لئن شكرتم) يا بنى اسرائيل ما خولتكم من نعمة الانجاء واهلاك العدو وغير ذلك من النعم والآلاء الفائتة للحصر وقابلتموه بالايمان والطاعة (لأزيدنكم) نعمة الى نعمة (ولئن كفرتم) ذلك وغمصتموه (ان عذابى لشديد) فعسى يصيبكم منه ما يصيبكم و من عادة الكرام التصريح بالوعد والتعريض بالوعيد فما ظنك بأكرم الاكرمين و يجوز أن يكون المذكور تعليلا للجواب المحذوف أى لأعذبنكم واللام فى الموضعين موطئة للقسم وكل من الجوابين ساد مسد جوابى الشرط والقسم والجملة اما مفعول لتأذن لانه ضرب من القول أو لقول مقدر بعده كأنه قيل واذ تأذن ربكم فقال الخ (وقال موسى ان تكفروا) نعمه تعالى ولم تشكروها (أنتم) يا بنى اسرائيل (ومن فى الارض) من الخلائق جميعا (فان الله لغنى) ﴿ تنبيه ﴾ عن شكركم وشكر غيركم (حميد) مستوجب للحمد بذاته لكثيرة ما يوجبه من أياديه وان لم يحمده أحد أو محمود يحمده الملائكة بل كل ذرة من ذرات العالم ناطقة بحمده والحمد حيث كان بمقابلة النعمة وغيرها من الفضائل

تنبيه على ان المؤمن يجب أن لا يخلو زمانه عن أحد هذين الامرين فان جرى الوقت على ما يلائم طبعه و يوافق ارادته كان مشغولا بالشكر وان جرى بما لا يلائم طبعه كان مشغولا بالصبر فان قيل ان ذلك التذكير آيات للكل فلما ذا خص الصبار الشكور بها قلنا فيه وجوه (الاول) انهم لما كانوا هم المنتفعون بتلك الآيات صارت كأنها ليست آيات الا لهم كما فى قوله هدى للمتقين وقوله انما أنت منذر من يخشاها (والثانى) لا يبعد أن يقال الانتفاع بهذا النوع من التذكير لا يمكن حصوله الا لمن كان صابرا أو شاكرا أما الذى لا يكون كذلك لم ينتفع بهذه الآيات واعلم انه تعالى لما ذكر انه أمر موسى عليه السلام بأن يذكرهم بأيام الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام انه ذكرهم بها فقال واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب فقوله اذ أنجاكم ظرف للنعمة بمعنى الانعام أى اذكروا انعام الله عليكم فى ذلك الوقت بقى فى الآية سؤالات (الاول) ذكر فى سورة البقرة يذبحون وفى سورة الاعراف يقتلون وههنا و يذبحون مع الواو فما الفرق والجواب قال تعالى فى سورة البقرة يذبحون بغير واو لانه تفسير لقوله سوء العذاب وفى التفسير لا يحسن ذكر الواو تقول أتانى القوم زيد وعمرو لانك أردت أن تفسر القوم بهما ومثله قوله تعالى ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب فالاثام لما صار مفسرا بمضاعفة العذاب لا جرم حذف عنه الواو وأما فى هذه السورة فقد أدخل الواو فيه لان المعنى انهم يعذبونهم بغير التذبيح و بالتذبيح أيضا فقوله و يذبحون نوع آخر من العذاب لا انه تفسير لما قبله (السؤال الثانى) كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم والجواب من وجهين أحدهما ان تمكين الله اياهم حتى فعلوا ما فعلوا كان بلاء من الله والثانى وهو ان ذلك اشارة الى الانجاء وهو بلاء عظيم والبلاء هو الابتلاء وذلك قد يكون بالنعمة تارة و بالمحنة أخرى قال تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة وهذا الوجه أولى لانه يوافق صدر الآية وهو قوله تعالى واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم (السؤال الثالث) هب ان تذبيح الابناء كان بلاء اما استحياء النساء كيف يكون بلاء الجواب كانوا يستخدمونهن بالاستحياء وفى الخلاص منه نعمة وأيضا ابقاؤهن منفردات عن الرجال فيه أعظم المضار

* قوله تعالى (واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد) اعلم ان قوله واذ تأذن ربكم من جملة ما قال موسى لقومه كأنه قيل واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم ومعنى تأذن اذن ربكم ونظير تأذن وآذن توعد وأوعد وتفضل وأفضل ولا بد فى تفعل من زيادة معنى ليس فى أفعل كأنه قيل واذ آذن ربكم ايذانا بليغا ينتفى عنده الشكوك وتنزاح الشبهة والمعنى واذ تأذن ربكم فقال لئن شكرتم فأجرى تأذن مجرى قال لانه ضرب من القول وفى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه واذ قال ربك لئن شكرتم واعلم ان المقصود من الآية بيان ان من اشتغل بشكر نعم الله زاده الله من نعمه

كان أدل على كماله سبحانه وهو تعليل لما حذف من جواب ان أى ان تكفروا لم يرجع و باله الا عليكم فان الله تعالى لغنى عن شكر الشاكرين ولعله عليه الصلاة والسلام انما قاله عندما عاين منهم دلائل العناد ومخايل الاصرار على الكفر والفساد وتبين أنه لا ينفعهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب أو قاله غب تذكيرهم بما ذكر من قول الله عز سلطانه تحقيقا لمضمونه وتحذيرا لهم من الكفران ثم شرع فى الترهيب بتذكير ما جرى على الامم الخالية فقال (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم) ليتدبروا ما أصاب كل واحد من حزبى المؤمن والكافر فيقلعوا عما هم عليه من الشر و ينيبوا الى الله تعالى وقيل هو ابتداء كلام من الله تعالى خطابا للكفرة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فيختص تذكير موسى عليه الصلاة والسلام بما اختص ببنى اسرائيل من السراء والضراء والايام بالايام الجارية عليهم فقط وفيه ما لا يخفى من البعد وأيضا لا يظهر حينئذ وجه تخصيص تذكير الكفرة الذين فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام بما أصاب أولئك المعدودين مع أن غيرهم أسوة لهم فى الخلو قبل هؤلاء (قوم نوح) بدل من الموصول أو عطف بيان (وعاد) معطوف على قوم نوح (وثمود والذين من بعدهم) أى من بعد هؤلاء المذكورين عطف عام على قوم نوح وما عطف عليه وقوله تعالى (لا يعلمهم الا الله) اعتراض أو الموصول مبتدأ ولا يعلمهم الى آخره خبره والجملة اعتراض والمعنى انهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم الا الله سبحانه وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بين عدنان واسمعيل ثلاثون أبا لا يعرفون وكان ابن مسعود رضى الله تعالى عنه اذا قرأ هذه الآية قال كذب النسابون يعنى أنهم

يدعون علم الانساب وقد نفى الله تعالى علمها عن العباد (جاءتهم رسلهم) استئناف لبيان نبئهم (بالبينات) بالمعجزات الظاهرة والبينات الباهرة فبين كل رسول لأمته طريق الحق وهداهم اليه ليخرجهم من الظلمات الى النور (فردوا أيديهم فى أفواههم) مشيرين بذلك الى ألسنتهم وما يصدر عنها من المقالة اعتناء منهم بشأنها وتنبيها للرسل على تلقيها والمحافظة عليها واقناطا لهم عن التصديق والايمان باعلام أن لا جواب لهم سواه (وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به) أى على زعمكم وهى البينات التى أظهروها حجة على صحة رسالتهم كقوله تعالى ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ومرادهم بالكفر بها الكفر بدلالتها على صحة رسالاتهم أو فعضوها غيظا وضجرا مما جاءت به الرسل كقوله تعالى عضوا عليكم الانامل من الغيظ أو وضعوها عليها تعجبا منه واستهزاء به كمن غلبه الضحك أو اسكاتا للانبياء عليهم السلام وأمرا لهم باطباق الافواه أو ردوها فى أفواه الانبياء عليهم الصلاة والسلام يمنعونهم من التكلم تحقيقا أو تمثيلا أو جعلوا أيدى الانبياء فى أفواههم تعجبا من عتوهم وعنادهم كما ينبئ عنه تعجبهم بقوله أفى الله شك الخ وقيل الايدى بمعنى الايادى عبر بها عن مواعظهم ونصائحهم وشرائعهم التى هى مدار النعم الدينية والدنيوية لانهم لما كذبوها فلم يقبلوها فكأنهم ردوها الى حيث جاءت منه (وانا لفى شك) عظيم (مما تدعوننا اليه) من الايمان بالله والتوحيد فلا ينافى شكهم فى ذلك كفرهم القطعى بما أرسل به الرسل من البينات فانهم كفروا بها قطعا حيث لم يعتدوا بها ولم يجعلوها من جنس المعجزات ولذلك قالوا فأتونا بسلطان مبين وقرئ تدعونا بالادغام (مريب) موقع فى الريبة من أرابه

ولابد ههنا من معرفة حقيقة الشكر ومن البحث عن تلك النعم الزائدة الحاصلة عند الاشتغال بالشكر أما الشكر فهو عبارة عن الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة وأما الزيادة فى النعم فهى أقسام منها النعم الروحانية ومنها النعم الجسمانية أما النعم الروحانية فهى ان الشاكر يكون أبدا فى مطالعة اقسام نعم الله تعالى وأنواع فضله وكرمه ومن كثر احسانه الى الرجل أحبه الرجل لا محالة فشغل النفس بمطالعة أنواع فضل الله واحسانه يوجب تأكد محبة العبد لله تعالى ومقام المحبة أعلى مقامات الصديقين ثم قد يترقى العبد من تلك الحالة الى أن يصير حبه للمنعم شاغلا له عن الالتفات الى النعمة ولا شك ان منبع السعادات وعنوان كل الخيرات محبة الله تعالى ومعرفته فثبت ان الاشتغال بالشكر يوجب مزيد النعم الروحانية وأما مزيد النعم الجسمانية فلان الاستقراء دل على ان كل من كان اشتغاله بشكر نعم الله أكثر كان وصول نعم الله اليه أكثر وبالجملة فالشكر انما حسن موقعه لانه اشتغال بمعرفة المعبود وكل مقام حرك العبد من عالم الغرور الى عالم القدس فهو المقام الشريف العالى الذى يوجب السعادة فى الدين والدنيا وأما قوله ولئن كفرتم ان عذابى لشديد فالمراد منه الكفران لا الكفر لان الكفر المذكور فى مقابلة الشكر ليس الا الكفران والسبب فيه ان كفران النعمة لا يحصل الا عند الجهل بكون تلك النعمة نعمة من الله والجاهل بها جاهل بالله والجهل بالله من اعظم أنواع العقاب والعذاب وأيضا فههنا دقيقة أخرى وهى ان ما سوى الواحد الاحد الحق ممكن لذاته وكل ممكن لذاته فوجوده انما يحصل بايجاد الواجب لذاته وعدمه انما يحصل باعدام الواجب لذاته واذا كان كذلك فكل ما سوى الحق فهو منقاد للحق مطواع له واذا كانت الممكنات بأسرها منقادة للحق سبحانه فكل قلب حضر فيه نور معرفة الحق وشرف جلاله انقاد لصاحب ذلك القلب ما سواه لان حضور ذلك النور فى قلبه يستخدم كل ما سواه بالطبع واذا خلا القلب عن ذلك النور ضعف وصار خسيسا فيستخدمه كل ما سواه ويستحقره كل ما يغايره فبهذا الطريق الذوقى يحصل العلم بأن الاشتغال بمعرفة الحق يوجب انفتاح أبواب الخيرات فى الدنيا والآخرة وأما الاعراض عن معرفة الحق بالاشتغال بمجرد الجسمانيات يوجب انفتاح أبواب الآفات والمخافات فى الدنيا والآخرة ✵ قوله تعالى (وقال موسى ان تكفروا أنتم ومن فى الارض جميعا فان الله لغنى حميد ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب) اعلم ان موسى عليه السلام لما بين ان الاشتغال بالشكر يوجب تزايد الخيرات فى الدنيا وفى الآخرة والاشتغال بكفران النعم يوجب العذاب الشديد وحصول الآفات فى الدنيا والآخرة بين بعده ان منافع الشكر ومضار الكفران لا تعود الا الى صاحب الشكر وصاحب

أو ذي ريبة من أراب الرجل وهي قلق النفس وعدم اطمئنانها بالشيء (قالت رسلهم) استئناف مبني على سؤال ينساق اليه المقال كأنه قيل فماذا قالت لهم رسلهم فأجيب بأنهم قالوا منكرين عليهم ومتعجبين من مقالتهم الحمقاء (أفي الله شك) بادخال الهمزة على الظرف للايذان بأن مدار الانكار ليس نفس الشك بل وقوعه فيما لا يكاد يتوهم فيه الشك أصلا متفادين عن تطبيق الجواب على كلام الكفرة بأن يقولوا أأنتم في شك مريب من الله تعالى مبالغة في تنزيه ساحة السبحان عن شائبة الشك وتسجيلا عليهم بسخافة العقول أي أفي شأنه سبحانه من وجوده ووحدته ووجوب الايمان به وحده شك ما وهو أظهر من كل ظاهر وأجلى من كل جلي حتى تكونوا من قبله في شك مريب وحيث كان مقصدهم الاقصى الدعوة الى الايمان والتوحيد وكان اظهار البينات وسيلة الى ذلك لم يتعرضوا للجواب عن قول الكفرة انا كفرنا بما أرسلتم به واقتصروا على بيان ما هو الغاية القصوى ثم عقبوا ذلك الانكار بما يوجبه من الشواهد الدالة على انتفاء المنكر فقالوا (فاطر السموات والارض) أي مبدعهما وما فيهما من المصنوعات على نظام أنيق شاهد بتحقق ما أنتم منه في شك وهو صفة للاسم الجليل أو بدل منه وشك مرتفع بالظرف لاعتماده على الاستفهام وجعله مبتدأ على أن الظرف خبره يفضي الى الفصل بين الموصوف والصفة بالاجنبي أعني المبتدأ والفاعل ليس باجنبي من رافعه وقد جوز ذلك أيضا (يدعوكم) الى الايمان بارساله ايانا لا أنا ندعوكم اليه من تلقاء انفسنا كما يوهمه قولكم مما تدعوننا اليه (ليغفر لكم) بسببه أو يدعوكم لاجل المغفرة كقولك دعوته ليأكل معي (من

الكفران أما المعبود والمشكور فانه متعال عن أن ينتفع بالشكر أو يستضر بالكفران فلاجرم قال تعالى وقال موسى ان تكفروا أنتم ومن في الارض جميعا فان الله لغني حميد والغرض منه بيان انه تعالى انما أمر بهذه الطاعات لمنافع عائدة الى العابد لا لمنافع عائدة الى المعبود والذي يدل على ان الامر كذلك ما ذكره الله في قوله ان الله لغني وتفسيره أنه واجب الوجود لذاته واجب الوجود بحسب جميع صفاته واعتباراته فانه لو لم يكن واجب الوجود لذاته لافتقر رجحان وجوده على عدمه الى مرجح فلم يكن غنيا وقد فرضناه غنيا هذا خلف فثبت ان كونه غنيا يوجب كونه واجب الوجود في ذاته واذا ثبت انه واجب الوجود لذاته كان أيضا واجب الوجود بحسب جميع كمالاته اذ لو لم تكن ذاته كافية في حصول ذلك الكمال لافتقر في حصول ذلك الكمال الى سبب منفصل فحينئذ لا يكون غنيا وقد فرضناه غنيا هذا خلف فثبت ان ذاته كافية في حصول جميع كمالاته واذا كان الامر كذلك كان حميدا لذاته لانه لا معنى للحميد الا الذي استحق الحمد فثبت بهذا التقرير الذي ذكرناه ان كونه غنيا حميدا يقتضي أن لا يزداد بشكر الشاكرين ولا ينتقص بكفران الكافرين فلهذا المعنى قال ان تكفروا أنتم ومن في الارض جميعا فان الله لغني حميد وهذه المعاني من لطائف الاسرار واعلم ان قولنا ان تكفروا أنتم ومن في الارض جميعا سواء حمل على الكفر الذي يقابل الايمان أو على الكفران الذي يقابل الشكر فالمعنى لا يتفاوت البتة فانه تعالى غني عن العالمين في كمالاته وفي جميع نعوت كبريائه وجلاله ثم انه تعالى قال ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود وذكر أبو مسلم الاصفهاني انه يحتمل أن يكون ذلك خطابا من موسى عليه السلام لقومه والمقصود منه انه عليه السلام كان يخوفهم بمثل هلاك من تقدم ويجوز أن يكون مخاطبة من الله تعالى على لسان موسى لقومه يذكرهم أمر القرون الاولى والمقصود انما هو حصول العبرة باحوال المتقدمين وهذا المقصود حاصل على التقديرين الا أن الاكثرين ذهبوا الى انه ابتداء مخاطبة لقوم الرسول صلى الله عليه وسلم واعلم انه تعالى ذكر أقواما ثلاثة وهم قوم نوح وعاد وثمود ثم قال تعالى والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله وذكر صاحب الكشاف فيه احتمالين الاول أن يكون قوله والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله جملة من مبتدا وخبر وقعت اعتراضا والثاني أن يكون قوله والذين من بعدهم معطوف على قوم نوح وعاد وثمود وقوله لا يعلمهم الا الله فيه قولان الاول أن يكون المراد لا يعلم كنه مقاديرهم الا الله لان المذكور في القرآن جملة فأما ذكر العدد والعمر والكيفية والكمية فغير حاصل والقول الثاني ان المراد ذكر أقوام ما بلغنا أخبارهم أصلا كذبوا رسلا لم نعرفهم أصلا ولا يعلمهم الا الله والقائلون بهذا القول الثاني طعنوا في قول من يصل الانساب الى آدم عليه السلام كان ابن مسعود اذا قرأ هذه الآية يقول كذب النسابون يعني انهم يدعون علم الانساب وقد نفى الله علمها عن العباد وعن ابن

ذنوبكم) أى بعضها وهو ماعدا المظالم مما بينهم و بينه تعالى فان الاسلام يجبه قيل هكذا وقع فى جميع القرآن فى وعد الكفرة دون وعد المؤمنين تفرقة بين الوعدين ولعل ذلك لما أن المغفرة حيث جاءت فى خطاب الكفرة مرتبة على محض الايمان وفى شأن المؤمنين مشفوعة بالطاعة والتجنب عن المعاصى ونحو ذلك فيتناول الخروج من المظالم وقيل المعنى ليغفر لكم بدلا من ذنوبكم (ويؤخركم الى أجل مسمى) الى وقت سماه الله تعالى وجعله منتهى أعماركم على تقدير الايمان (قالوا) استئناف كما سبق (ان أنتم) أى ما أنتم (الا بشر مثلنا) من غير فضل يؤهلكم لما تدعونه من النبوة (تريدون) صفة ثانية لبشر حملا على المعنى كقوله تعالى أبشر يهدوننا أو كلام مستأنف أى تريدون بما تتصدون له من الدعوة والارشاد (أن تصدونا) بتخصيص العبادة بالله سبحانه (عما كان يعبد آباؤنا) أى عن عبادة ما استمر آباؤنا على عبادته من غير شئ يوجبه والا (فأتونا) أى وان لم يكن الامر كما قلنا بل كنتم رسلا من جهة الله تعالى كما تدعونه فأتونا (بسلطان مبين) يدل على فضلكم واستحقاقكم لتلك الرتبة أو على صحة ما تدعونه من النبوة حتى نترك مالم نزل نعبده أبا عن جد ولقد كانوا آتوهم من الآيات الظاهرة والبينات الباهرة ما تخر له صم الجبال ولكنهم انما يقولون ما يقولون من العظائم مكابرة وعنادا وارادة لمن وراءهم ان ذلك ليس من جنس ﴿عليهم﴾ ما يطلق عليه السلطان المبين (قالت لهم رسلهم) مجاراة معهم فى أول مقالتهم وانما قيل لهم لاختصاص الكلام بهم حيث أريد الزامهم بخلاف ما سلف من انكار وقوع الشك فى الله سبحانه فان ذلك عام وان اختص بهم ما يعقبه (ان نحن الا بشر مثلكم) كما تقولون

عباس بين عدنان و بين اسمعيل ثلاثون أبا لايعرفون ونظير هذه الآية قوله تعالى وقرونا بين ذلك كثيرا وقوله منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان فى انتسابه لايجاوز معد بن عدنان بن ادد وقال تعلموا من أنسابكم ماتصلون به أرحامكم وتعلموا من النجوم ماتستدلون به على الطريق قال القاضى وعلى هذا الوجه لايمكن القطع على مقدار السنين من لدن آدم عليه السلام الى هذا الوقت لانه ان أمكن ذلك لم يبعد أيضا تحصيل العلم بالانساب الموصولة فان قيل أى القولين أولى قلنا القول الثانى عندى أقرب لان قوله تعالى لايعلمهم الا الله نفى العلم بهم وذلك يقتضى نفى العلم بذواتهم اذ لو كانت ذواتهم معلومة وكان المجهول هو مدد أعمارهم وكيفية صفاتهم لما صح نفى العلم بذواتهم ولما كان ظاهر الآية دليلا على نفى العلم بذواتهم لاجرم كان الاقرب هو القول الثانى ثم انه تعالى حكى عن هؤلاء الاقوام الذين تقدم ذكرهم انه لما جاءتهم رسلهم بالبينات والمعجزات أتوا بامور أولها قوله فردوا أيديهم فى أفواههم وفى معناه قولان الاول ان المراد باليد والفم الجارحتان المعلومتان والثانى ان المراد بهما شئ غير هاتين الجارحتين وانما ذكرهما مجازا وتوسعا أما من قال بالقول الاول ففيه ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون الضمير فى أيديهم وأفواههم عائدا الى الكفار وعلى هذا التقدير ففيه احتمالات الاول ان الكفار ردوا أيديهم فى أفواههم فعضوها من الغيظ والضجر من شدة نفرتهم عن رؤية الرسل واستماع كلامهم ونظيره قوله تعالى عضوا عليكم الانامل من الغيظ وهذا القول مروى عن ابن عباس وابن مسعود رحمهما الله تعالى وهو اختيار القاضى والثانى انهم لما سمعوا كلام الانبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك ردوا أيديهم فى أفواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك فوضع يده على فيه والثالث انهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك الى الانبياء أن كفوا عن هذا الكلام واسكتوا عن ذكر هذا الحديث وهذا مروى عن الكلبى والرابع انهم أشاروا بأيديهم الى ألسنتهم والى ماتكلموا به من قولهم انا كفرنا بما أرسلتم به أى هذا هو الجواب عندنا عما ذكرتموه وليس عندنا غيره اقناطا لهم من التصديق ألا ترى الى قوله فردوا أيديهم فى افواههم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به (الوجه الثانى) أن يكون الضميران راجعين الى الرسل عليهم السلام وفيه وجهان الاول ان الكفار اخذوا أيدى الرسل ووضعوها على أفواههم ليسكتوهم و يقطعوا كلامهم الثانى ان الرسل لما أيسوا منهم سكتوا ووضعوا أيدى أنفسهم على أفواه أنفسهم فان من ذكر كلاما عند قوم وأنكروه وخافهم فذلك المتكلم ربما وضع يد نفسه على فم نفسه وغرضه أن يعرفهم أنه لايعود الى ذلك الكلام البتة (الوجه الثالث) أن يكون الضمير فى أيديهم يرجع الى الكفار وفى الافواه الى الرسل وفيه وجهان الاول ان الكفار لما سمعوا وعظ الانبياء عليهم السلام ونصائحهم وكلامهم أشاروا بأيديهم الى أفواه الرسل تكذيبا لهم ورد

(ولكن الله يمن) بالنبوة (على من يشاء من عباده) يعنون أن ذلك عطية من الله تعالى يعطيها من يشاء من عباده بمحض الفضل والامتنان من غير داعية توجبه قالوه تواضعا وهضما للنفس أو ما نحن من الملائكة بل نحن بشر مثلكم فى الصورة أو فى الدخول تحت الجنس ولكن الله يمن بالفضائل والكمالات والاستعدادات على من يشاء المن بها وما يشاء ذلك الا لعلمه باستحقاقه لها وتلك الفضائل والكمالات والاستعدادات هى التى يدور عليها فلك الاصطفاء للنبوة (وما كان) وما صح وما استقام (لنا أن نأتيكم بسلطان) أى بحجة من الحجج فضلا عن السلطان المبين بشئ من الاشياء وسبب من الاسباب (الا باذن الله) فانه أمر يتعلق بمشيئته تعالى ان شاء كان والا فلا (وعلى الله) وحده دون ما عداه مطلقا (فليتوكل المؤمنون) أمر منهم للمؤمنين بالتوكل ومقصودهم حمل أنفسهم عليه آثر ذى أثير ألا يرى الى قوله عز وجل (وما لنا) أى أى عذر لنا (ان لا نتوكل على الله) أى فى ان لا نتوكل عليه والاظهار لاظهار النشاط بالتوكل عليه والاستلذاذ بذكر اسمه تعالى وتعليل التوكل (وقد هدانا) أى والحال أنه قد فعل بنا ما يوجبه ويستدعيه حيث هدانا (سبلنا) أى أرشد كلا منا سبيله ومنهاجه الذى شرع له وأوجب عليه سلوكه فى الدين وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب القلق والاضطراب القادح فى التوكل قالوا على سبيل التوكيد القسمى مظهرين لكمال العزيمة (ولنصبرن على ما آذيتمونا) بالعناد واقتراح الآيات وغير ذلك مما لا خير فيه (وعلى الله) خاصة (فليتوكل المتوكلون) أى فليثبت المتوكلون على ما أحدثوه من التوكل والمراد هو المراد مما سبق من ايجاب التوكل على أنفسهم والمراد بالمتوكلين المؤمنون

عليهم والثانى ان الكفار وضعوا أيديهم على أفواه الانبياء عليهم السلام منعا لهم من الكلام ومن بالغ فى منع غيره من الكلام فقد يفعل به ذلك أما على القول الثانى وهو أن ذكر اليد والفم توسع ومجاز ففيه وجوه الاول قال أبو مسلم الاصفهانى المراد باليد ما نطقت به الرسل من الحجج وذلك لان اسماع الحجة انعام عظيم والانعام يسمى يدا يقال لفلان عندى يد اذا أولاه معروفا وقد يذكر اليد والمراد منها صفقة البيع والعقد كقوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فالبينات التى كان الانبياء عليهم السلام يذكرونها ويقررونها نعم وأياد وأيضا العهود التى كانوا يأتون بها مع القوم أيادى وجمع اليد فى العدد القليل هو الايدى وفى العدد الكثير هو الايادى فثبت ان بيانات الانبياء عليهم السلام وعهودهم صح تسميتها بالايدى واذا كانت النصائح والعهود انما تظهر من الفم فاذا لم تقبل صارت مردودة الى حيث جاءت ونظيره قوله تعالى اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم فلما كان القبول تلقيا بالافواه عن الافواه كان الدفع ردا فى الافواه فهذا تمام كلام أبى مسلم فى تقرير هذا الوجه (الوجه الثانى) نقل محمد بن جرير عن بعضهم ان معنى قوله فردوا أيديهم فى أفواههم انهم سكتوا عن الجواب يقال للرجل اذا أمسك عن الجواب رد يده فى فيه وتقول العرب كلمت فلانا فى حاجة فرد يده فى فيه اذا سكت عنه فلم يجب ثم انه زيف هذا الوجه وقال انهم أجابوا بالتكذيب لانهم قالوا انا كفرنا بما أرسلتم به (الوجه الثالث) المراد من الايدى نعم الله تعالى على ظاهرهم وباطنهم ولما كذبوا الانبياء فقد عرضوا تلك النعم للازالة والابطال فقوله ردوا أيديهم فى أفواههم أى ردوا نعم الله تعالى عن أنفسهم بالكلمات التى صدرت عن أفواههم ولا يبعد حمل فى على معنى الباء لان حروف الجر لا يمتنع اقامة بعضها مقام بعض (النوع الثانى) من الاشياء التى حكاها الله تعالى عن الكفار قولهم انا كفرنا بما أرسلتم به والمعنى انا كفرنا بما زعمتم ان الله أرسلكم فيه لانهم ما أقروا بأنهم أرسلوا واعلم ان المرتبة الاولى هو انهم سكتوا عن قبول قول الانبياء عليهم السلام وحاولوا اسكات الانبياء عن تلك الدعوى وهذه المرتبة الثانية انهم صرحوا بكونهم كافرين بتلك البعثة (والنوع الثالث) قولهم وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب قال صاحب الكشاف وقرئ تدعونا بادغام النون مريب موقع فى الريبة أو ذى ريبة من أرابه والريبة قلق النفس وأن لا تطمئن الى الامر فان قيل لما ذكروا فى المرتبة الثانية انهم كافرون برسالتهم كيف ذكروا بعد ذلك كونهم شاكين مرتابين فى صحة قولهم قلنا كأنهم قالوا اما أن نكون كافرين برسالتكم أو ان لم ندع هذا الجزم واليقين فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين فى صحة نبوتكم وعلى التقديرين فلا سبيل الى الاعتراف بنبوتكم والله أعلم ❁ قوله تعالى (قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والارض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا

والتعبير عنهم بذلك لسبق ذكر اتصافهم به ويجوز أن يراد وعليه فليتوكل من يتوكل دون غيره (وقال الذين كفروا) لعل هؤلاء القائلين بعض المتمردين العاتين الغالين في الكفر من أولئك الامم الكافرة التي نقلت مقالاتهم الشنيعة دون جميعهم كقوم شعيب واضرابهم ولذلك لم يقل وقالوا (لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا) لم يقنعوا بعصيانهم الرسل ومعاندتهم الحق بعد ما رأوا البينات الفائتة للحصر حتى اجترءوا على مثل هاتيك العظيمة التي لا يكاد يحيط بها دائرة الامكان فحلفوا على أن يكون أحد الحالين والعود اما بمعنى مطلق الصيرورة او باعتبار تغليب المؤمنين على الرسل وقد مر في الاعراف وسيأتي في الكهف (فأوحى اليهم) أي الى الرسل (ربهم) مالك أمرهم عند تناهي كفر الكفرة وبلوغهم من العتو الى غاية لا مطمع بعدها في ايمانهم (لنهلكن الظالمين) على اضمار القول أو على اجراء الايحاء مجراه لكونه ضربا منه (ولنسكننكم الارض) أي أرضهم وديارهم عقوبة لهم بقولهم لنخرجنكم من أرضنا كقوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها (من بعدهم) أي من بعد اهلاكهم وقرئ ليهلكن وليسكننكم بالياء اعتبارا لاوحى كقولهم حلف زيد ليخرجن غدا (ذلك) اشارة الى الموحى به وهو اهلاك الظالمين واسكان المؤمنين ديارهم أي ذلك ﴿ ان ﴾ الامر محقق ثابت (لمن خاف مقامي) موقفي وهو الموقف الذي يقف فيه العباد يوم يقوم الناس لرب العالمين أو قيامي عليه وحفظي لاعماله وقيل لفظ المقام مقحم (وخاف وعيد) وعيدي بالعذاب أو عذابي

تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين) اعلم ان أولئك الكفار لما قالوا للرسل وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب قالت رسلهم وهل تشكون في الله وفي كونه فاطر السموات والارض وفاطر الانفس وأرواحنا وأرزاقنا وجميع مصالحنا وانا لا ندعوكم الا الى عبادة هذا الا له المنعم ولا نمنعكم الا عن عبادة غيره وهذه المعاني يشهد صريح العقل بصحتها فكيف قلتم وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب وهذا النظم في غاية الحسن وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله أفي الله شك استفهام على سبيل الانكار فلما ذكر هذا المعنى أردفه بالدلالة الدالة على وجود الصانع المختار وهو قوله فاطر السموات والارض وقد ذكرنا في هذا الكتاب ان وجود السموات والارض كيف يدل على احتياجه الى الصانع المختار الحكيم مرارا وأطوارا فلا نعيده ههنا (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف أدخلت همزة الانكار على الظرف لان الكلام ليس في الشك انما هو في ان وجود الله تعالى لا يحتمل الشك وأقول من الناس من ذهب الى أنه قبل الوقوف على الدلائل الدقيقة فالفطرة شاهدة بوجود الصانع المختار ويدل على ان الفطرة الاولية شاهدة بذلك وجوه (الاول) قال بعض العقلاء ان من لطم على وجه صبي لطمة فتلك اللطمة تدل على وجود الصانع المختار وعلى حصول التكليف وعلى وجوب دار الجزاء وعلى وجود النبي اما دلالتها على وجود الصانع المختار فلان الصبي العاقل اذا وقعت اللطمة على وجهه يصيح ويقول من الذي ضربني وما ذاك الا أن شهادة فطرته تدل على ان اللطمة لما حدثت بعد عدمها وجب أن يكون حدوثها لاجل فاعل فعلها ولاجل مختار أدخلها في الوجود فلما شهدت الفطرة الاصلية بافتقار ذلك الحادث مع قلته وحقارته الى الفاعل فبأن تشهد بافتقار جميع حوادث العالم الى الفاعل كان أولى وأما دلالتها على وجوب التكليف فلان ذلك الصبي ينادي ويصيح ويقول لم ضربني ذلك الضارب وهذا يدل على أن فطرته شهدت بان الافعال الانسانية داخلة تحت الامر والنهي ومندرجة تحت التكليف وان الانسان ما خلق حتى يفعل اى فعل شاء واشتهى وأما دلالتها على وجوب حصول دار الجزاء فهو أن ذلك الصبي يطلب الجزاء على تلك اللطمة وما دام يمكنه طلب ذلك الجزاء فانه لا يتركه فلما شهدت الفطرة الاصلية بوجوب الجزاء على ذلك العمل القليل فبأن تشهد على وجوب الجزاء على جميع الاعمال كان أولى وأما دلالتها على وجوب النبوة فلانهم يحتاجون الى انسان يبين لهم ان العقوبة الواجبة على ذلك القدر من الجناية كم هي ولا معنى للنبي الا الانسان الذي يقدر هذه الامور ويبين لهم هذه الاحكام فثبت ان فطرة العقل حاكمة بأن الانسان لا بد له من هذه الامور الاربعة (الوجه الثاني) في التنبيه على ان الاقرار بوجود الصانع بديهي هو ان الفطرة شاهدة بأن حدوث دار منقوشة بالنقوش العجيبة مبنية على التركيبات اللطيفة الموافقة للحكم والمصلحة يستحيل الا عند وجود نقاش عالم وبان حكيم ومعلوم

الموعود للكفار والمعنى ان ذلك حق للمتقين كقوله والعاقبة للمتقين (واستفتحوا) أى استنصروا الله على أعدائهم كقوله تعالى ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح أو استحكموا وسالوه القضاء بينهم من الفتاحة وهى الحكومة كقوله تعالى ربنا افتح بيننا و بين قومنا بالحق فالضمير للرسل وقيل للكفرة وقيل للفريقين فانهم سالوا أن ينصر المحق و يهلك المبطل وهو معطوف على أوحى اليهم وقرئ بلفظ الامر عطفا على لنهلكن الظالمين أى أوحى اليهم ربهم لنهلكن وقال لهم استفتحوا (وخاب) أى خسر وهلك (كل جبار عنيد) متصف بضد ما اتصف به المتقون أى فنصروا عند استفتاحهم وظفروا بما سألوا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد وهم قومهم المعاندون فالخيبة بمعنى مطلق الحرمان دون الحرمان عن المطلوب أو ذلك باعتبار أنهم كانوا يزعمون انهم على الحق أو استفتح الكفار على الرسل وخابوا ولم يفلحوا وانما قيل وخاب كل جبار عنيد ذما لهم وتسجيلا عليهم بالتجبر والعناد لا لأن بعضهم ليسوا كذلك وأنه لم يصبهم الخيبة أو استفتحوا جميعا فنصر الرسل وأنجز لهم الوعد وخاب كل عات متمرد فالخيبة بمعنى الحرمان غب الطلب وفى اسناد الخيبة الى كل منهم ما لا يخفى من المبالغة (من ورائه جهنم) أى بين يديه فانه مرصد لها واقف على شفيرها فى الدنيا مبعوث اليها فى الآخرة وقيل من وراء حياته وحقيقته ما توارى عنك (ويسقى) معطوف على مقدر جوابا عن سؤال سائل كأنه قيل فماذا يكون اذن فقيل يلقى فيها و يسقى (من ماء) مخصوص لا كالمياه المعهودة (صديد) وهو قيح أو دم مختلط بمدة يسيل من الجرح قال مجاهد وغيره هو ما يسيل من أجساد أهل النار وهو عطف بيان لما أبهم أولا ثم بين

أن آثار الحكمة فى العالم العلوى والسفلى أكثر من آثار الحكمة فى تلك الدار المختصرة فلما شهدت الفطرة الاصلية بافتقار النقش الى النقاش والبناء الى البانى فبأن تشهد بافتقار كل هذا العالم الى الفاعل المختار الحكيم كان أولى (الوجه الثالث) ان الانسان اذا وقع فى محنة شديدة و بلية قوية لا يبقى فى ظنه رجاء المعاونة من أحد فكأنه بأصل خلقته ومقتضى جبلته يتضرع الى من يخلصه منها و يخرجه عن علائقها وحبائلها وما ذاك الا شهادة الفطرة بالافتقار الى الصانع المدبر (الوجه الرابع) ان الموجود اما أن يكون غنيا عن المؤثر أو لا يكون فان كان غنيا عن المؤثر فهو الموجود الواجب لذاته فانه لا معنى للواجب لذاته الا الموجود الذى لا حاجة به الى غيره وان لم يكن غنيا عن المؤثر فهو محتاج والمحتاج لا بد له من المحتاج اليه وذلك هو الصانع المختار (الوجه الخامس) ان الاعتراف بوجود الاله المختار المكلف و بوجود المعاد أحوط فوجب المصير اليه فهذه مراتب أربعة أولها ان الاقرار بوجود الاله أحوط لانه لو لم يكن موجودا فلا ضرر فى الاقرار بوجوده وان كان موجودا ففى انكاره أعظم المضار وثانيها الاقرار بكونه فاعلا مختارا الا انه لو كان موجبا فلا ضرر فى الاقرار بكونه مختارا أما لو كان مختارا ففى انكار كونه مختارا أعظم المضار وثالثها الاقرار بأنه كلف عباده لانه لو لم يكلف أحدا من عبيده شيئا فلا ضرر فى اعتقاد انه كلف العباد أما انه لو كلف ففى انكار تلك التكاليف أعظم المضار و رابعها الاقرار بوجود المعاد فانه ان كان الحق انه لا معاد فلا ضرر فى الاقرار بوجوده لانه لا يفوت الا هذه اللذات الجسمانية وهى حقيرة ومنقوصة وان كان الحق هو وجوب المعاد ففى انكاره أعظم المضار فظهر أن الاقرار بهذه المقامات أحوط فوجب المصير اليه لان بديهة العقل حاكمة بأنه يجب دفع الضرر عن النفس بقدر الامكان (المسئلة الثالثة) لما أقام الدلالة على وجود الاله بدليل كونه فاطر السموات والارض وصفه بكمال الرحمة والكرم والجود وبين ذلك من وجهين (الاول) قوله يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم قال صاحب الكشاف لو قال قائل ما معنى التبعيض فى قوله من ذنوبكم ثم أجاب فقال ما جاء هكذا الا فى خطاب الكافرين كقوله أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم وقال فى خطاب المؤمنين هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم الى أن قال يغفر لكم ذنوبكم قال والاستقراء يدل على صحة ما ذكرناه ثم قال وكأن ذلك للتفرقة بين الخطابين ولئلا يسوى بين الفريقين فى المعاد وقيل انه أراد أنه يغفر لهم ما بينهم و بين الله تعالى بخلاف ما بينهم و بين العباد من المظالم * هذا كلام هذا الرجل وقال الواحدى فى البسيط قال أبو عبيدة من زائدة وأنكر سيبويه زيادتها فى الواجب واذا قلنا انها ليست زائدة فههنا وجهان أحدهما انه ذكر البعض ههنا وأريد به الجميع توسعا والثانى ان من ههنا للبدل والمعنى لتكون المغفرة بدلا من الذنوب فدخلت من لتضمن المغفرة معنى البدل من

بالصديد تهويلا لامره وتخصيصه بالذكر من بين عذابها يدل على أنه من أشد أنواعه (يتجرعه) قيل هو صفة لماء أو حال منه والاظهر أنه استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا يفعل به فقيل يتجرعه أى يتكلف جرعه مرة بعد أخرى لغلبة العطش واستيلاء الحرارة عليه (ولا يكاد يسيغه) أى لا يقارب أن يسيغه فضلا عن الاساغة بل يغص به فيشربه بعد اللتيا والتى جرعة غب جرعة فيطول عذابه تارة بالحرارة والعطش وأخرى بشربه على تلك الحال فان السوغ انحدار الشراب فى الحلق بسهولة وقبول نفس ونفيه لا يوجب نفى ماذكر جميعا وقيل لا يكاد يدخله فى جوفه وعبر عنه بالاساغة لما أنها المعهودة فى الاشربة وهو حال من فاعل يتجرعه أو من مفعوله أو منهما جميعا (ويأتيه الموت) أى أسبابه من الشدائد (من كل مكان) ويحيط به من جميع الجهات أو من كل مكان من جسده حتى من أصول شعره وابهام رجله (وما هو بميت) أى والحال أنه ليس بميت حقيقة كما هو الظاهر من مجىء أسبابه لاسيما من جميع الجهات حتى لا يتألم بما غشيه من أصناف الموبقات (ومن ورائه) من بين يديه (عذاب غليظ) يستقبل كل وقت عذابا أشد وأشق مما كان قبله ففيه دفع ما يتوهم من الخفة بحسب الاعتياد كما فى عذاب الدنيا وقيل هو الخلود فى النار وقيل هو حبس الانفاس وقيل المراد بالاستفتاح والخيبة استسقاء اهل مكة فى سنيهم التى أرسلها الله تعالى عليهم بدعونه عليه الصلاة والسلام وخيبتهم فى ذلك وقد وعدلهم بدل ذلك صديد أهل النار (مثل الذين كفروا بربهم) أى صفتهم وحالهم العجيبة الشأن التى هى كالمثل فى الغرابة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى

السيئة وقال القاضى ذكر الاصم ان كلمة من ههنا تفيد التبعيض والمعنى انكم اذا تبتم فانه يغفر لكم الذنوب التى هى من الكبائر فأما التى تكون من باب الصغائر فلا حاجة الى غفرانها لانها فى أنفسها مغفورة قال القاضى وقد أبعد فى هذا التأويل لان الكفار صغائرهم ككبائرهم فى أنها لا تغفر الا بالتوبة وانما تكون الصغيرة مغفورة من المؤمنين الموحدين من حيث يزيد ثوابهم على عقابها فأما من لا ثواب له أصلا فلا يكون شىء من ذنوبه صغيرا ولا يكون شىء منها مغفورا ثم قال وفيه وجه آخر وهو ان الكافر قد ينسى بعض ذنوبه فى حال توبته وانابته فلا يكون المغفور منها الا ما ذكره وتاب منه فهذا جملة أقوال الناس فى هذه الكلمة (المسئلة الرابعة) أقول هذه الآية تدل على انه تعالى قد يغفر الذنوب من غير توبة فى حق أهل الايمان والدليل عليه انه قال يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم وعد بغفران بعض الذنوب مطلقا من غير اشتراط التوبة فوجب أن يغفر بعض الذنوب مطلقا من غير التوبة وذلك البعض ليس هو الكفر لانعقاد الاجماع على انه تعالى لا يغفر الكفر الا بالتوبة عنه والدخول فى الايمان فوجب أن يكون البعض الذى يغفره من غير التوبة هو ما عدا الكفر من الذنوب فان قيل لم لا يجوز أن يقال كلمة من صلة على ما قاله أبو عبيدة أو نقول المراد من البعض ههنا هو الكل على ما قاله الواحدى أو نقول المراد منها ابدال السيئة بالحسنة على ما قاله الواحدى أيضا أو نقول المراد منه تمييز المؤمن عن الكافر فى الخطاب على ما قاله صاحب الكشاف أو نقول المراد منه تخصيص هذا الغفران بالكبائر على ما قاله الاصم أو نقول المراد منه الذنوب التى يذكرها الكافر عند الدخول فى الايمان على ما قاله القاضى فنقول هذه الوجوه بأسرها ضعيفة أما قوله انها صلة فمعناه الحكم على كلمة من كلام الله تعالى بأنها حشو ضائع فاسد والعاقل لا يجوز المصير اليه من غير ضرورة فأما قول الواحدى المراد من كلمة من ههنا هو الكل فهو عين ما قاله ابو عبيدة لان حاصله ان قوله يغفر لكم من ذنوبكم هو انه يغفر لكم ذنوبكم وهذا عين ما نقله عن أبى عبيدة وحكى عن سيبويه انكاره وأما قوله المراد منه ابدال السيئة بالحسنة فليس فى اللغة ان كلمة من تفيد الابدال وأما قول صاحب الكشاف المراد تمييز خطاب المؤمن عن خطاب الكافر بمزيد التشريف فهو من باب الطامات لان هذا التبعيض ان حصل فلا حاجة الى ذكر هذا الجواب وان لم يحصل كان هذا الجواب فاسدا وأما قول الاصم فقد سبق ابطاله وأما قول القاضى فجوابه ان الكافر اذا أسلم صارت ذنوبه بأسرها مغفورة لقوله عليه السلام التائب من الذنب كمن لا ذنب له فثبت ان جميع ما ذكروه من التأويلات تعسف ساقط بل المراد ما ذكرنا انه تعالى يغفر بعض ذنوبه من غير توبة وهو ما عدا الكفر وأما الكفر فهو أيضا من الذنوب وانه تعالى لا يغفره الا بالتوبة واذا ثبت أنه تعالى يغفر كبائر كافر من غير توبة بشرط أن يأتى بالايمان فبأن تحصل هذه الحالة للمؤمن كان أولى هذا ما خطر بالبال على سبيل الارتجال والله أعلم

(أعمالهم كرماد) كقولك صفقة زيد عرضه مهتوك وماله منهوب وهو استئناف مبني على سؤال من قال ما بال أعمالهم التي عملوها في وجوه البر من صلة الارحام واعتاق الرقاب وفداء الاسارى واغاثة الملهوفين وقرى الاضياف وغير ذلك مما هو من باب المكارم حتى آل أمرهم الى هذا المآل فأجيب بأن ذلك كرماد (اشتدت به الريح) حملته وأسرعت الذهاب به (في يوم عاصف) العصف اشتداد الريح وصف به زمانها مبالغة كقولك ليلة ساكرة وانما السكور لريحها شبهت صنائعهم المعدودة لابتنائها على غير أساس من معرفة الله تعالى والايمان به والتوجه بها اليه تعالى برماد طيرته الريح العاصفة أو استئناف مسوق لبيان أعمالهم للاصنام أو مبتدأ خبره محذوف كما هو رأي سيبويه أي فيما يتلى عليك مثلهم وقوله أعمالهم جملة مستأنفة مبنية على سؤال من يقول كيف مثلهم فقيل أعمالهم كيت وكيت سواء أريد بها صنائعهم أو أعمالهم لاصنامهم وقيل أعمالهم بدل من مثل الذين وقوله كرماد خبره (لا يقدرون) أي يوم القيامة (مما كسبوا) من تلك الاعمال (على شيء) ما أي لا يرون له أثرا من ثواب أو تخفيف عذاب كدأب الرماد المذكور وهو فذلكة التمثيل والاكتفاء ببيان عدم رؤية الاثر لاعمالهم للاصنام مع أن لها عقوبات هائلة للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم انها شفعاء لهم عند الله تعالى وفيه تهكم بهم (ذلك) أي ما دل عليه التمثيل دلالة واضحة من ضلالهم مع حسبانهم انهم على شيء (هو الضلال البعيد) عن طريق الحق والصواب أو عن نيل الثواب (ألم تر) خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته وقيل لكل أحد من الكفرة لقوله تعالى يذهبكم والرؤية رؤية القلب

بحقيقة الحال (النوع الثاني) مما وعد الله تعالى به في هذه الآية قوله ويؤخركم الى أجل مسمى وفيه وجهان (الاول) المعنى انكم ان آمنتم أخر الله موتكم الى أجل مسمى والا عاجلكم بعذاب الاستئصال (الثاني) قال ابن عباس المعنى يمتعكم في الدنيا بالطيبات واللذات الى الموت فان قيل أليس انه تعالى قال فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فكيف قال ههنا ويؤخركم الى أجل مسمى قلنا قد تكلمنا في هذه المسئلة في سورة الانعام في قوله ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم حكى تعالى ان الرسل لما ذكروا هذه الاشياء لاولئك الكفار قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين واعلم أن هذا الكلام مشتمل على ثلاثة انواع من الشبه (فالشبهة الاولى) ان الاشخاص الانسانية متساوية في تمام الماهية فيمتنع أن يبلغ التفاوت بين تلك الاشخاص الى هذا الحد وهو أن يكون الواحد منهم رسولا من عند الله مطلعا على الغيب مخالطا لزمرة الملائكة والباقون يكونون غافلين عن كل هذه الاحوال أيضا كانوا يقولون ان كنت قد فارقتنا في هذه الاحوال العالية الالهية الشريفة وجب أن تفارقنا في الاحوال الخسيسة وهي الحاجة الى الاكل والشرب والحدث والوقاع وهذه الشبهة هي المراد من قولهم ان أنتم الا بشر مثلنا (والشبهة الثانية) التمسك بطريقة التقليد وهي أنهم وجدوا آباءهم وعلماءهم وكبراءهم مطبقين متفقين على عبادة الاوثان قالوا ويبعد أن يقال ان أولئك القدماء على كثرتهم وقوة خواطرهم لم يعرفوا بطلان هذا الدين وان الرجل الواحد عرف فساده ووقف على بطلانه والعوام ربما زادوا في هذا الباب كلاما آخر وذلك ان الرجل العالم اذا بين ضعف كلام بعض المتقدمين قالوا له ان كلامك انما يظهر صحته لو كان المتقدمون حاضرين أما المناظرة مع الميت فسهلة فهذا كلام يذكره الحمقى والرعاع وأولئك الكفار أيضا ذكروه وهذه الشبهة هي المراد من قوله تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا (والشبهة الثالثة) أن قالوا المعجز لا يدل على الصدق أصلا وان كانوا سلموا على ان المعجز يدل على الصدق الا أن الذي جاء به أولئك الرسل طعنوا فيه وزعموا انها أمور معتادة وانها ليست من باب المعجزات الخارجة عن قدرة البشر والى هذا النوع من الشبهة الاشارة بقوله فأتوا بسلطان مبين فهذا تفسير هذه الآية بحسب الوسع والله أعلم ❊ قوله تعالى (قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) اعلم انه تعالى لما حكى عن الكفار شبهاتهم في الطعن في النبوة حكى عن الانبياء عليهم السلام جوابهم عنها (أما الشبهة الاولى) وهي قولهم ان أنتم الا بشر مثلنا فجوابه ان الانبياء سلموا ان الامر كذلك لكنهم بينوا ان التماثل في البشرية والانسانية لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة لان هذا المنصب

وقوله تعالى (ان الله خلق السموات والارض) ساد مسد مفعوليها أى ألم تعلم انه تعالى خلقهما (بالحق) ملتبسة بالحكمة والوجه الصحيح الذي يحق أن تخلق عليه وقرئ خالق السموات والارض (ان يشأ يذهبكم) يعدمكم بالمرة (ويات بخلق جديد) أى يخلق بدلكم خلقا آخر مستأنفا لاعلاقة بينكم وبينهم رتب قدرته تعالى على ذلك على قدرته تعالى على خلق السموات والارض على هذا النمط البديع ارشادا الى طريق الاستدلال فان من قدر على خلق مثل هاتيك الاجرام العظيمة كان على تبديل خلق آخر بهم أقدر ولذلك قال (وما ذلك) أى اذهابكم والاتيان بخلق جديد مكانكم (على الله بعزيز) بمتعذر أو متعسر فانه قادر لذاته على جميع الممكنات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور ومن هذا شأنه حقيق بأن يؤمن به ويرجى ثوابه ويخشى عقابه (وبرزوا لله جميعا) أى يبرزون يوم القيامة وايثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق وقوعه كما فى قوله سبحانه ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أو لانه لا مضى ولا استقبال بالنسبة اليه سبحانه والمراد بروزهم من قبورهم لأمر الله تعالى ومحاسبته أو لله على ظنهم فانهم كانوا يظنون عند ارتكابهم الفواحش سرا أنها تخفى على الله سبحانه فاذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم (فقال الضعفوء) الاتباع جمع ضعيف والمراد ضعف الرأى وانما كتب بالواو على لفظ من يفخم ﴿ بهذه ﴾ الالف قبل الهمزة (للذين استكبروا) رؤسائهم الذين استتبعوهم واستغووهم (انا كنا) فى الدنيا لكم تبعا فى تكذيب الرسل عليهم السلام والاعراض عن نصائحهم وهو جمع تابع كغيب فى جمع غائب أو مصدر نعت به

منصب يمن الله به على من يشاء من عباده فاذا كان الامر كذلك فقد سقطت هذه الشبهة واعلم ان هذا المقام فيه بحث شريف دقيق وهو أن جماعة من حكماء الاسلام قالوا ان الانسان ما لم يكن فى نفسه وبدنه مخصوصا بخواص شريفة علوية قدسية فانه يمتنع عقلا حصول صفة النبوة له وأما الظاهريون من أهل السنة والجماعة فقد زعموا ان حصول النبوة عطية من الله تعالى يهبها لكل من يشاء من عباده ولا يتوقف حصولها على امتياز ذلك الانسان عن سائر الناس بمزيد اشراق نفسانى وقوة قدسية وهؤلاء تمسكوا بهذه الآية فانه تعالى بين ان حصول النبوة ليس الا بمحض المنة من الله تعالى والعطية منه والكلام فى هذا الباب غامض غائص دقيق والاولون أجابوا عنه بأنهم لم يذكروا فضائلهم النفسانية والجسدانية تواضعا منهم واقتصروا على قولهم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده بالنبوة لانه قد علم انه تعالى لا يخصهم بتلك الكرامات الا وهم موصوفون بالفضائل التى لاجلها استوجبوا ذلك التخصيص كما قال تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالته (واما الشبهة الثانية) وهى قولهم اطباق السلف على ذلك الدين يدل على كونه حقا لانه يبعد أن يظهر للرجل الواحد ما لم يظهر للخلق العظيم فجوابه عين الجواب المذكور عن الشبهة الاولى لان التمييز بين الحق والباطل والصدق والكذب عطية من الله تعالى وفضل منه ولا يبعد أن يخص بعض عبيده بهذه العطية وأن يحرم الجمع العظيم منها (وأما الشبهة الثالثة) وهى قولهم انا لا نرضى بهذه المعجزات التى أتيتم بها وانما نريد معجزات قاهرة قوية فالجواب عنها قوله تعالى وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله وشرح هذا الجواب ان المعجزة التى جئنا بها وتمسكنا بها حجة قاطعة وبينة قاهرة ودليل تام فأما الاشياء التى طلبتموها فهى أمور زائدة والحكم فيها لله تعالى فان خلقها وأظهرها فله الفضل وان لم يخلقها فله العدل ولا يحكم عليه بعد ظهور قدر الكفاية ثم انه تعالى حكى عن الانبياء والرسل عليهم السلام انهم قالوا بعد ذلك وعلى الله فليتوكل المؤمنون والظاهر ان الانبياء لما أجابوا عن شبهاتهم بذلك الجواب فالقوم أخذوا فى السفاهة والتخويف والوعيد وعند هذا قالت الانبياء عليهم السلام لا نخاف من تخويفكم ولا نلتفت الى تهديدكم فان توكلنا على الله واعتمادنا على فضل الله ولعل الله سبحانه كان قد أوحى اليهم ان أولئك الكفرة لا يقدرون على ايصال الشر والآفة اليهم وان لم يكن حصل هذا الوحى فلا يبعد منهم ان لا يلتفتوا الى سفاهتهم لما أن أرواحهم كانت مشرقة بالمعارف الالهية مشرقة بأضواء عالم الغيب والروح متى كانت موصوفة بهذه الصفات فقلما يبالى بالاحوال الجسمانية وقلما يقيم لها وزنا فى حالتى السراء والضراء وطورى الشدة والرخاء فلهذا السبب توكلوا على الله وعولوا على فضل الله وقطعوا أطماعهم عما سوى الله والذى يدل على ان المراد ما ذكرناه قوله تعالى حكاية عنهم وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا يعنى انه تعالى لما خصنا

بهذه الدرجات الروحانية والمعارف الالهية الربانية فكيف يليق بنا أن لانتوكل على الله بل اللائق بنا أن لا نتوكل الا عليه ولانعول فى تحصيل المهمات الا عليه فان من فاز بشرف العبودية ووصل الى مقام الاخلاص والمكاشفة يقبح به أن يرجع فى أمر من الامور الى غير الحق سواء كان ملكا له أو ملكا أو روحا أو جسما وهذه الآية دالة على انه تعالى يعصم أولياءه المخلصين فى عبوديته من كيد أعدائهم ومكرهم ثم قالوا ولنصبرن على ما آذيتمونا فان الصبر مفتاح الفرج ومطلع الخيرات والحق لابد وأن يصير غالبا قاهرا والباطل لابد وأن يصير مغلوبا مقهورا ثم اعاد واقولهم وعلى الله فليتوكل المتوكلون والفائدة فيه أنهم أمروا أنفسهم بالتوكل على الله فى قوله ومالنا أن لانتوكل على الله ثم لما فرغوا من أنفسهم أمروا أتباعهم بذلك وقالوا وعلى الله فليتوكل المتوكلون وذلك يدل على أن الآمر بالخير لايؤثر قوله الا اذا أتى بذلك الخير أولا ورأيت فى كلام الشيخ أبى حامد الغزالى رحمه الله فصلا حسنا وحاصله ان الانسان اما أن يكون ناقصا أو كاملا أو خاليا عن الوصفين أما الناقص فاما أن يكون ناقصا فى ذاته ولكنه لايسعى فى تنقيص حال غيره وأما أن يكون ناقصا ويكون مع ذلك ساعيا فى تنقيص حال الغير فالاول هو الضال والثانى هو الضال المضل وأما الكامل فاما أن يكون كاملا ولايقدر على تكميل الغير وهم الاولياء واما أن يكون كاملا ويقدر على تكميل الناقصين وهم الانبياء ولذلك قال عليه السلام علماء أمتى كأنبياء بنى اسرائيل ولما كانت مراتب النقصان والكمال ومراتب الاكمال والاضلال غير متناهية بحسب الكمية والكيفية لاجرم كانت مراتب الولاية والحياة غير متناهية بحسب الكمال والنقصان فالولى هو الانسان الكامل الذى لايقوى على التكميل والنبى هو الانسان الكامل المكمل ثم قد تكون قوته الروحانية النفسانية وافية بتكميل انسانين ناقصين وقد تكون أقوى من ذلك فيفى بتكميل عشرة ومائة وقد تكون تلك القوة قاهرة قوية تؤثر تأثير الشمس فى العالم فيقلب أرواح أكثر أهل العالم من مقام الجهل الى مقام المعرفة ومن طلب الدنيا الى طلب الآخرة وذلك مثل روح محمد صلى الله عليه وسلم فان وقت ظهوره كان العالم مملوأ من اليهود وأكثرهم كانوا مشبهة ومن النصارى وهم حلولية ومن المجوس وقبح مذاهبهم ظاهر ومن عبدة الاوثان وسخف دينهم أظهر من أن يحتاج الى بيان فلما ظهرت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم سرت قوة روحه فى الارواح فقلب أكثر أهل العالم من الشرك الى التوحيد ومن التجسيم الى التنزيه ومن الاستغراق فى طلب الدنيا الى التوجه الى عالم الآخرة فمن هذا المقام ينكشف للانسان مقام النبوة والرسالة اذا عرفت هذا فنقول قوله ومالنا أن لانتوكل على الله اشارة الى ما كانت حاصلة لهم من كمالات نفوسهم وقولهم فى آخر الامر وعلى الله فليتوكل المتوكلون اشارة الى تأثير أرواحهم الكاملة فى تكميل الارواح الناقصة فهذه أسرار عالية مخزونة فى ألفاظ القرآن فمن نظر فى علم القرآن وكان غافلا عنها كان محروما من أسرار علوم القرآن والله

مبالغة أو على اضمار أى ذوى تبع (فهل أنتم مغنون) دافعون (عنا) والفاء للدلالة على سببية الاتباع للاغناء والمراد التوبيخ والعتاب والتقريع والتبكيت (من عذاب الله من شئ) من الاولى للبيان واقعة موقع الحال والثانية للتبعيض واقعة موقع المفعول أى بعض الشئ الذى هو عذاب الله تعالى ويجوز كونهما للتبعيض أى بعض شئ هو بعض عذاب الله والاعراب كما سبق ويجوز أن تكون الاولى مفعولا والثانية مصدرا أى فهل أنتم مغنون عنا بعض العذاب بعض الاغناء ويعضد الاول قوله تعالى فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار (قالوا) أى المستكبرون جوابا عن معاتبة الاتباع واعتذارا عما فعلوا بهم (لوهدانا الله) أى الايمان ووفقنا له (لهديناكم) ولكن ضللنا فأضللناكم أى اخترنا لكم ما اخترناه لانفسنا أو لوهدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم واغنينا عنكم كما عرضناكم له ولكن سد دوننا طريق الخلاص ولات حين مناص (سواء علينا أجزعنا) مما لقينا (أم صبرنا) على ذلك أى مستو علينا الجزع والصبر فى عدم الانجاء والهمزة وأم لتأكيد التسوية كما فى قوله تعالى سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم وانما أسندوهما ونسبوا استواءهما الى ضمير المتكلم المنتظم للمخاطبين أيضا مبالغة فى النهى عن التوبيخ باعلام أنهم شركاء لهم فيما ابتلوا به وتسلية لهم ويجوز ان يكون قوله سواء علينا الخ من كلام الفريقين على منوال قوله تعالى ذلك ليعلم أنى لم أخنه ويؤيده ماروى أنهم يقولون تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلاينفعهم فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون كذلك فلاينفعهم فعند ذلك يقولون ذلك ولما كان عتاب الاتباع من باب الجزع ذيلوا

أعلم وفى الآية وجه آخر وهوان قوله وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون المراد منه ان الذين يطلبون سائر المعجزات وجب عليهم أن يتوكلوا فى حصولها على الله تعالى لا عليها فان شاء أظهرها وان شاء لم يظهرها وأما قوله فى آخر الآية ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون المراد منه الامر بالتوكل على الله فى دفع شر الناس الكفار وسفاهتهم وعلى هذا التقدير فالتكرار غير حاصل لان قوله وعلى الله فليتوكل وارد فى موضعين مختلفين بحسب مقصودين متغايرين وقيل أيضا الاول ذكر لاستحداث التوكل والثانى للسعى فى ابقائه وادامته والله أعلم * قوله تعالى (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الارض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ) اعلم انه تعالى لما حكى عن الانبياء عليهم السلام انهم اكتفوا فى دفع شرور أعدائهم بالتوكل عليه والاعتماد على حفظه وحياطته حكى عن الكفار أنهم بالغوا فى السفاهة وقالوا لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا والمعنى ليكونن أحد الامرين لا محالة اما اخراجكم واما عودكم الى ملتنا والسبب فيه ان أهل الحق فى كل زمان يكونون قليلين وأهل الباطل يكونون كثيرين والظلمة والفسقة يكونون متعاونين متعاضدين فلهذه الاسباب قدروا على هذه السفاهة فان قيل هذا يوهم انهم كانوا على ملتهم فى أول الامر حتى يعودوا فيها قلنا الجواب من وجوه (الاول) ان أولئك الانبياء عليهم السلام انما نشؤا فى تلك البلاد وكانوا من تلك القبائل وفى أول الامر ما أظهروا المخالفة مع أولئك الكفار بل كانوا فى ظاهر الامر معهم من غير اظهار مخالفة فالقوم ظنوا لهذا السبب انهم كانوا فى أول الامر على دينهم فلهذا السبب قالوا أو لتعودن فى ملتنا (الوجه الثانى) ان هذا حكاية كلام الكفار ولا يجب فى كل ما قالوه أن يكونوا صادقين فيه فلعلهم توهموا ذلك مع انه ما كان الامر كما توهموه (والثالث) لعل الخطاب وان كان فى الظاهر مع الرسل الا أن المقصود بهذا الخطاب أتباعهم وأصحابهم ولا بأس أن يقال انهم كانوا قبل ذلك الوقت على دين أولئك الكفار (الرابع) قال صاحب الكشاف العود بمعنى الصيرورة كثير فى كلام العرب (الخامس) لعل أولئك الانبياء كانوا قبل ارسالهم على ملة من الملل ثم انه تعالى أوحى اليهم بنسخ تلك الملة وأمرهم بشريعة أخرى وبقى الاقوام على تلك الشريعة التى صارت منسوخة مصرين على سبيل الكفر وعلى هذا التقدير فلا يبعد أن يطلبوا من الانبياء أن يعودوا الى تلك الملة (السادس) لا يبعد أن يكون المعنى أو لتعودن فى ملتنا أى الى ما كنتم عليه قبل ادعاء الرسالة من السكوت عن ذكر معايبة ديننا وعدم التعرض له بالطعن والقدح وعلى جميع هذه الوجوه فالسؤال زائل والله أعلم واعلم ان الكفار لما

جوابهم بيان ان لاجدوى فى ذلك فقالوا (مالنا من محيص) من منجى ومهرب من العذاب من حاص الحمار اذا عدل بالفرار وهو اما اسم مكان كالمبيت والمصيف أو مصدر كالمغيب والمشيب وهى جملة مفسرة لاجمال ما فيها لاستواء فلا محل لها من الاعراب أو حال مؤكدة أو بدل منه (وقال الشيطان) الذى أضل كلا الفريقين واستتبعهما عند ما عتباه بما قاله الاتباع للمستكبرين (لما قضى الامر) أى أحكم وفرغ منه وهو الحساب ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار خطيبا فى محفل الاشقياء من الثقلين (ان الله وعدكم وعد الحق) أى وعدا من حقه ان ينجز فأنجزه أو وعدا أنجزه وهو الوعد بالبعث والجزاء (ووعدتكم) أى وعد الباطل وهو أن لا بعث ولا جزاء ولئن كان فالاصنام شفعاؤكم ولم يصرح ببطلانه لما دل عليه قوله (فأخلفتكم) أى موعدى على حذف المفعول الثانى أى نقضته جعل خلف وعده كالاخلاف منه كأنه كان قادرا على انجازه وأنى له ذلك (وما كان لى عليكم من سلطان) أى تسلط أو حجة تدل على صدق (الا أن دعوتكم) الا دعائى اياكم اليه وتسويله وهو وان لم يكن من باب السلطان لكنه أبرزه فى معرزه على طريقة تحية بينهم ضرب وجيع مبالغة فى نفى السلطان عن نفسه كأنه قال انما يكون لى عليكم سلطان اذا كان مجرد الدعاء من بابه ويجوز كون الاستثناء منقطعا ﴿ ذكروا ﴾ (فاستجبتم لى) فأسرعتم اجابتى (فلا تلومونى) بوعدى اياكم حيث لم يكن ذلك على طريقة القسر والالجاء كما يدل عليه الفاء وقرئ بالياء على وجه الالتفات كما فى قوله تعالى حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم (ولوموا أنفسكم) حيث استجبتم لى باختياركم حين دعوتكم بلا حجة ولا دليل

مجرد تزيين وتسويل ولم تستجيبوا بكم اذدعاكم دعوة الحق المقرونة بالبينات والحجج وليس مراده التنصل عن توجه اللائمة اليه بالمرة بل بيان أنهم أحق بها منه وليس فيه دلالة على استقلال العبد فى افعاله كما زعمت المعتزلة بل يكفى فى ذلك أن يكون لقدرته الكاسبة التى عليها يدور فلك التكليف مدخل فيه فانه سبحانه انما يخلق أفعاله حسبما يختاره وعليه تترتب السعادة والشقاوة وماقيل من أنه يستدعى أن يقال فلا تلومونى ولا أنفسكم فان الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه مبنى على عدم الفرق بين مذهب أهل الحق و بين مسلك الجبرية (ما أنا بمصرخكم) أى بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب (وما أنتم بمصرخى) مما أنا فيه وانما تعرض لذلك مع أنه لم يكن فى حيز الاحتمال مبالغة فى بيان عدم اصراخه اياهم وايذانا بانه أيضا مبتلى بمثل ما ابتلوا به ويحتاج الى الاصراخ فكيف من اصراخ الغير ولذلك آثر الجملة الاسمية فكأن مامضى كان جوابا منه عن توبيخهم وتقريعهم وهذا جواب عن استغاثتهم واستعانتهم به فى استدفاع مادهمهم من العذاب وقرئ بكسر الياء (انى كفرت) اليوم (بما أشركتمونى من قبل) أى باشراككم اياى يعنى تبرأت منه واستنكرته كقوله تعالى و يوم القيامة يكفرون بشرككم يعنى أن أشراككم لى بالله سبحانه هو الذى يطمعكم فى نصرتى لكم بان كان لكم على حق حيث جعلتمونى معبودا وكنت أود ذلك وأرغب فيه فاليوم كفرت بذلك ولم أحمده ولم أقبله منكم بل تبرأت منه ومنكم فلم يبق بينى و بينكم علاقة أو كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذى أشركتمونيه وهو الله تعالى كما فى قوله سبحان ما سخركن لنا فيكون تعليلا لعدم إصراخه فان الكافر

ذكروا هذا الكلام قال تعالى فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الارض من بعدهم قال صاحب الكشاف لنهلكن الظالمين حكاية تقتضى اضمار القول أو اجراء الايحاء مجرى القول لانه ضرب منه وقرأ أبو حيوة ليهلكن الظالمين وليسكننكم بالياء اعتبارا الأوحى فان هذا اللفظ لفظ الغيبة ونظيره قولك أقسم زيد ليخرجن ولاخرجن والمراد بالارض أرض الظالمين وديارهم ونظيره قوله وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها وأورثكم أرضهم وديارهم وعن النبى صلى الله عليه وسلم من آذى جاره أورثه الله داره واعلم ان هذه الآية تدل على ان من توكل على ربه فى دفع عدوه كفاه الله امر عدوه ثم قال تعالى ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد فقوله ذلك اشارة الى ان ماقضى الله تعالى به من اهلاك الظالمين واسكان المؤمنين ديارهم اثر ذلك الامر حق لمن خاف مقامى وفيه وجوه (الاول) المراد موقفى وهو موقف الحساب لان ذلك الموقف موقف الله تعالى الذى يقف فيه عباده يوم القيامة ونظيره قوله وأما من خاف مقام ربه وقوله ولمن خاف مقام ربه جنتان (الثانى) ان المقام مصدر كالقيامة يقال قام قياما ومقاما قال الفراء ذلك لمن خاف قيامى عليه ومراقبتى اياه كقوله أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت (الثالث) ذلك لمن خاف مقامى أى اقامتى على العدل والصواب فانه تعالى لا يقضى الا بالحق ولا يحكم الا بالعدل وهو تعالى مقيم على العدل لا يميل عنه ولا ينحرف البتة (الرابع ذلك لمن خاف مقامى) أى مقام العائذ عندى وهو من باب اضافة المصدر الى المفعول (الخامس) ذلك لمن خاف مقامى أى لمن خافنى وذكر المقام ههنا مثل ما يقال سلام الله على المجلس الفلانى العالى والمراد سلام الله على فلان فكذا ههنا ثم قال تعالى وخاف وعيد قال الواحدى الوعيد اسم من أوعد ايعادا وهو التهديد قال ابن عباس خاف ما أوعدت من العذاب واعلم انه تعالى ذكر أولا قوله ذلك لمن خاف مقامى ثم عطف عليه قوله وخاف وعيد فهذا يقتضى أن يكون الخوف من الله تعالى مغايرا للخوف من وعيد الله ونظيره ان حب الله تعالى مغاير لحب ثواب الله وهذا مقام شريف عال فى اسرار الحكمة والتصديق ثم قال تعالى واستفتحوا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) للاستفتاح ههنا معنيان أحدهما طلب الفتح بالنصرة فقوله استفتحوا أى واستنصروا الله على أعدائهم فهو كقوله ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح والثانى الفتح الحكم والقضاء فقول ربنا واستفتحوا أى واستحكموا الله وسألوه القضاء بينهم وهو مأخوذ من الفتاحة وهى الحكومة كقوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق اذا عرفت هذا فنقول كلا القولين ذكره المفسرون أما على القول الاول فالمستفتحون هم الرسل وذلك لانهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب لما أيسوا من ايمانهم قال نوح رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا وقال موسى ربنا اطمس الآية وقال لوط رب انصرنى على القوم المفسدين وأما على القول الثانى وهو طلب الحكومة والقضاء

فالاولى أن يكون المستفتحون هم الامم وذلك انهم قالوا اللهم ان كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا ومنه قول كفار قريش اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء وكقول آخرين ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف قوله واستفتحوا معطوف على قوله أوحى اليهم وقرئ واستفتحوا بلفظ الامر وعطفه على قوله لنهلكن أى أوحى اليهم ربهم وقال لهم لنهلكن وقال لهم استفتحوا ثم قال تعالى وخاب كل جبار عنيد وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ان قلنا المستفتحون هم الرسل كان المعنى ان الرسل استفتحوا فنصروا وظفروا بمقصودهم وفازوا وخاب كل جبار عنيد وهم قومهم وان قلنا المستفتحون هم الكفرة فكان المعنى ان الكفار استفتحوا على الرسل ظنا منهم انهم على الحق والرسل على الباطل وخاب كل جبار عنيد منهم وما أفلح بسبب استفتاحه على الرسل (المسئلة الثانية) الجبار ههنا المتكبر على طاعة الله تعالى وعبادته ومنه قوله تعالى ولم يكن جبارا عصيا قال أبو عبيدة عن الاحمر يقال فيه جبرية وجبروة وجبروت وجبورة وحكى الزجاج الجبرية والجبر بكسر الجيم والباء والتجبار والجبرياء قال الواحدى فهى ثمان لغات فى مصدر الجبار وفى الحديث ان امرأة حضرت النبى صلى الله عليه وسلم فأمرها بأمر فأبت عليه فقال دعوها فانها جبارة أى مستكبرة وأما العنيد فقد اختلف أهل اللغة فى اشتقاقه قال النضر بن شميل العنود الخلاف والتباعد والترك وقال غيره أصله من العند وهو الناحية يقال فلان يمشى عندا أى ناحية فهو عاند وعند أخذ فى ناحية معرضا وعاند فلان فلانا اذا جانبه وكان منه على ناحية اذا عرفت هذا فنقول كونه جبارا متكبرا اشارة الى الخلق النفسانى وكونه عنيدا اشارة الى الاثر الصادر عن ذلك الخلق وهو كونه مجانبا عن الحق منحرفا عنه ولا شك أن الانسان الذى يكون خلقه هو التجبر والتكبر وفعله هو العنود وهو الانحراف عن الحق والصدق كان خائبا عن كل الخيرات خاسرا عن جميع أقسام السعادات واعلم انه تعالى لما حكم عليه بالخيبة ووصفه بكونه جبارا عنيدا وصف كيفية عذابه بأمور الاول قوله من ورائه جهنم وفيه اشكال وهو أن المراد امامه جهنم فكيف أطلق لفظ الوراء على القدام والامام وأجابوا عنه من وجوه (الاول) أن لفظ وراء اسم لما يوارى عنك وقدام وخلف متوار عنك فصح اطلاق لفظ وراء على كل واحد منهما قال الشاعر

عسى الكرب الذى أمسيت فيه * يكون وراءه فرج قريب

ويقال أيضا الموت وراء كل أحد الثانى قال أبو عبيدة وابن السكيت الوراء من الاضداد يقع على الخلف والقدام والسبب فيه ان كل ما كان خلفا فانه يجوز أن ينقلب قداما وبالعكس فلا جرم جاز وقوع لفظ الوراء على القدام ومنه قوله تعالى وكان وراءهم ملك يأخذ أى أمامهم ويقال الموت من وراء الانسان (الثانى) قال ابن الانبارى وراء بمعنى بعد قال الشاعر * وليس وراء الله للمرء مذهب * أى وليس بعد الله مذهب اذا

ه بمعزل من الاغاثة والاعانة سواء كان ذلك بالمدافعة أو الشفاعة وأما جعله تعليلا لعدم اصراخهم اياه فلا وجه له
جوابهم محال له حتى يحتاج الى التعليل ولان تعليل عدم اصراخهم بكفره يوهم أنهم بسبيل من ذلك لولا المانع
بالفرار فلا جهته (ان الظالمين لهم عذاب أليم) تتمة كلامه أو ابتداء كلام من جهة الله عز وجل وفى حكاية أمثاله لطف
بسامعين وايقاظ لهم حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبروا عواقبهم (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها باذن ربهم) أى بأمره أو بتوفيقه وهدايته وفى التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم اظهار مزيد اللطف بهم والمدخلون هم الملائكة عليهم السلام وقرئ على صيغة التكلم فيكون قوله تعالى باذن ربهم متعلقا بقوله تعالى (تحيتهم فيها سلام) أى يحييهم الملائكة بالسلام باذن ربهم (ألم تر) الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وقد علق بما بعده من قوله تعالى (كيف ضرب الله مثلا) أى كيف اعتمده ووضعه فى موضعه اللائق به (كلمة طيبة) منصوب بمضمر أى جعل كلمة طيبة هى كلمة التوحيد أو كل كلمة حسنة كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة (كشجرة طيبة) أى حكم بأنها مثلها الا انه تعالى صيرها مثلها فى الخارج وهو تفسير لقوله ضرب الله مثلا كقولك شرف الامير زيدا كساه حلة وحمله على فرس ويجوز أن يكون كلمة بدلا من مثلا وكشجرة صفتها أو خبر مبتدا محذوف أى هى كشجرة وأن يكون أول مفعولى ضرب اجراء له مجرى جعل قد أخر عن ثانيهما أعنى مثلا لئلا يبعد عن صفته التى هى كشجرة وقد قرئت بالرفع على الابتداء (أصلها ثابت)

أي ضارب بعروقه في الارض وقرأ أنس بن مالك رضي الله عنه كشجرة طيبة ثابت أصلها وقراءة الجماعة أقوى سبكا وأنسب بقرينته أعني قوله تعالى (وفرعها) أي أعلاها (في السماء) في جهة العلو ويجوز أن يراد وفروعها على الاكتفاء بلفظ الجنس عن الجمع (تؤتي أكلها) تعطي ثمرها (كل حين) وقته الله تعالى لاثمارها (باذن ربها) بارادة خالقها والمراد بالشجرة المنعوتة اما النخلة كما روي مرفوعا أو شجرة في الجنة (ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون) لان في ضربها زيادة افهام وتذكير فانه تصوير للمعاني بصور المحسوسات (ومثل كلمة خبيثة) هي كلمة الكفر والدعاء اليه أو تكذيب الحق أو ما يعم الكل أو كل كلمة قبيحة (كشجرة خبيثة) أي كمثل شجرة خبيثة قيل هي كل شجرة لا يطيب ثمرها كالحنظل والكشوث ونحوهما وتغيير الاسلوب للايذان بأن ذلك غير مقصود الضرب والبيان وانما ذلك أمر ظاهر يعرفه كل أحد (اجتثت) استؤصلت وأخذت جثتها بالكلية (من فوق الارض) لكون عروقها قريبة منه (ما لها من قرار) استقرار عليها (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) الذي ثبت بالحجة عندهم وتمكن في قلوبهم وهو الكلمة الطيبة التي ذكرت صفتها العجيبة (في الحياة الدنيا) فلا يزالون عنه اذا افتتنوا في دينهم كزكريا ويحيى وجرجيس وشمسون والذين فتنهم أصحاب الاخدود (وفي الآخرة) فلا يتلعثمون اذا سئلوا عن معتقدهم في الموقف ولا تدهشهم أهوال القيامة أو عند سؤال القبر ❊ روى أنه عليه الصلاة والسلام ذكر قبض روح المؤمن فقال ثم يعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه

ثبت هذا فنقول انه تعالى حكم عليه بالخيبة في قوله وخاب كل جبار عنيد ثم قال من ورائه جهنم أي ومن بعد هذه الخيبة يدخل جهنم (النوع الثاني) مما ذكره الله تعالى من أحوال هذا الكافر قوله ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه وفيه سؤالات (السؤال الاول) علام عطف ويسقى الجواب على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ويسقى من ماء صديد (السؤال الثاني) عذاب أهل النار من وجوه كثيرة فلم خص هذه الحالة بالذكر الجواب يشبه أن تكون هذه الحالة أشد انواع العذاب فخصص بالذكر مع قوله ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت (السؤال الثالث) ما وجه قوله من ماء صديد الجواب انه عطف بيان والتقدير أنه لما قال ويسقى من ماء فكانه قيل وما ذلك الماء فقال صديد والصديد ما يسيل من جلود أهل النار وقيل التقدير ويسقى من ماء كالصديد وذلك بأن يخلق الله تعالى في جهنم ما يشبه الصديد في النتن والغلظ والقذارة وهو أيضا يكون في نفسه صديدا لان كراهته تصد عن تناوله وهو كقوله وسقوا ماء حميما فقطع امعاءهم وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب (السؤال الرابع) ما معنى يتجرعه ولا يكاد يسيغه الجواب التجرع تناول المشروب جرعة جرعة على الاستمرار ويقال ساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغا وأساغه اساغة واعلم أن يكاد فيه قولان (أحدهما) أن نفيه اثبات واثباته نفي فقوله ولا يكاد يسيغه أي ويسيغه بعد ابطاء لان العرب تقول ما كدت أقوم أي قمت بعد ابطاء قال تعالى فذبحوها وما كادوا يفعلون يعني فعلوا بعد ابطاء والدليل على حصول الاساغة قوله تعالى يصهر به ما في بطونهم والجلود ولا يحصل الصهر الا بعد الاساغة وأيضا فان قوله يتجرعه يدل على انهم أساغوا الشيء بعد الشيء فكيف يصح أن يقال بعده انه يسيغه البتة (والقول الثاني) ان كاد للمقاربة فقوله لا يكاد لنفي المقاربة يعني ولم يقارب أن يسيغه فكيف يحصل الاساغة كقوله تعالى لم يكد يراها أي لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها فان قيل فقد ذكرتم الدليل على حصول الاساغة فكيف الجمع بينه وبين هذا الوجه قلنا عنه جوابان أحدهما ان المعنى ولا يسيغ جميعه كأنه يجرع البعض وما ساغ الجميع ❊ الثاني أن الدليل الذي ذكرتم انما دل على وصول بعض ذلك الشراب الى جوف الكافر الا ان ذلك ليس باساغة لان الاساغة في اللغة اجراء الشراب في الحلق بقبول النفس واستطابة المشروب والكافر يتجرع ذلك الشراب على كراهية ولا يسيغه أي لا يستطيبه ولا يشربه شربا مرة واحدة وعلى هذين الوجهين يصح حمل لا يكاد على نفي المقاربة والله أعلم (النوع الثالث) مما ذكره الله تعالى في وعيد هذا الكافر قوله ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت والمعنى ان موجبات الموت أحاطت به من جميع الجهات ومع ذلك فانه لا يموت وقيل من كل جزء من أجزاء جسده (النوع الرابع) قوله ومن ورائه عذاب غليظ وفيه وجهان الاول ان المراد من العذاب الغليظ كونه دائما غير منقطع الثاني انه في كل وقت

فى قبره فيقولان من ربك ومادينك ومن نبيك فيقول ربى الله ودينى الاسلام ونبيى محمد عليه الصلاة والسلام فينادى مناد من السماء انه صدق عبدى فذلك قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت وهذا مثال ايتاء الشجرة المذكورة أكلها كل حين قال الثعلبى فى تفسيره أخبرنى أبو القاسم بن حبيب فى سنة ست وثمانين وثلثمائة قال سمعت أبا الطيب محمد بن على الخياط يقول سمعت سهل بن عمار العملى يقول رأيت يزيد ابن هرون فى منامى بعد موته فقلت مافعل الله بك قال أتانى فى قبرى ملكان فظان فقالا من ربك ومادينك ومن نبيك فأخذت بلحيتى البيضاء فقلت ألمثلى يقال هذا وقد علمت الناس جوابكما ثمانين سنة فذهبا (ويضل الله الظالمين) أى يخلق فيهم الضلال عن الحق الذى ثبت المؤمنين عليه حسب ارادتهم واختيارهم والمراد بهم الكفرة بدليل مايقابله ووصفهم بالظلم اما باعتبار وضعهم الشئ فى غير موضعه واما باعتبار ظلمهم لانفسهم حيث بدلوا فطرة الله التى فطر الناس عليها فلم يهتدوا الى القول الثابت أو كل من ظلم نفسه بالاقتصار على التقليد والاعراض عن البينات الواضحة فلا يتثبت فى مواقف الفتن ولا يهتدى الى الحق فالمراد بالذين امنوا حينئذ المخلصون فى الايمان الراسخون فى الايقان كما ينبئ عنه التثبيت لكنه يوهم كون كلمة التوحيد اذا كانت لاعن ايقان ﴿ وانما ﴾ داخلة تحت مالاقرار له من الشجرة المضروبة مثلا (ويفعل الله مايشاء) من تثبيت بعض واضلال آخرين حسبما توجبه مشيئته التابعة للحكم البالغة المقتضية لذلك وفى اظهار الاسم الجليل فى الموضعين من الفخامة وتربية المهابة مالايخفى مع مافيه من

يستقبله يتلقى عذابا أشد مما قبله قال المفضل هو قطع الانفاس وحبسها فى الاجساد والله أعلم * قوله تعالى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لايقدرون مما كسبوا على شئ ذلك هو الضلال البعيد ألم تر أن الله خلق السموات والارض بالحق ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز) اعلم أنه تعالى لما ذكر أنواع عذابهم فى الآية المتقدمة بين فى هذه الآية ان أعمالهم بأسرها تصير ضائعة باطلة لاينتفعون بشئ منها وعند هذا يظهر كمال خسرانهم لانهم لايجدون فى القيامة الا العقاب الشديد وكل ما عملوه فى الدنيا وجدوه ضائعا باطلا وذلك هو الخسران الشديد وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى ارتفاع قوله مثل الذين وجوه (الاول) قال سيبويه التقدير وفيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا أو مثل الذين كفروا فيما يتلى عليكم وقوله كرماد جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول كيف مثلهم فقيل أعمالهم كرماد (الثانى) قال الفراء التقدير مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد فحذف المضاف اعتمادا على ذكره بعد المضاف اليه وهو قوله أعمالهم ومثله قوله تعالى الذى أحسن كل شئ خلقه أى خلق كل شئ وكذا قوله ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة المعنى ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة (الثالث) أن يكون التقدير صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد كقولك صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول (الرابع) أن تكون أعمالهم بدلا من قوله مثل الذين كفروا والتقدير مثل أعمالهم وقوله كرماد هو الخبر (الخامس) أن يكون المثل صلة وتقديره الذين كفروا أعمالهم (المسئلة الثانية) اعلم أن وجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الاعمال هو أن الريح العاصف تطير الرماد وتفرق أجزاءه بحيث لايبقى لذلك الرماد أثر ولا خبر فكذا ههنا أن كفرهم أبطل أعمالهم وأحبطها بحيث لم يبق من تلك الاعمال معهم خبر ولا أثر ثم اختلفوا فى المراد بهذه الاعمال على وجوه (الاول) أن المراد منها ماعملوه من أعمال البر كالصدقة وصلة الرحم وبر الوالدين واطعام الجائع وذلك لانها تصير محبطة باطلة بسبب كفرهم بالله والوجه فى خسرانهم انهم صيروها محبطة باطلة بسبب كفرهم ولولا كفرهم لانتفعوا بها (والقول الثانى) أن المراد من تلك الاعمال عبادتهم للاصنام وما تكلفوه من كفرهم الذى ظنوه ايمانا وطريقا الى الخلاص والوجه فى خسرانهم انهم أتعبوا أبدانهم فيها الدهر الطويل لكى ينتفعوا بها فصارت وبالا عليهم (والقول الثالث) أن المراد من هذه الاعمال كلا القسمين لانهم اذا رأوا الاعمال التى كانت فى أنفسها خيرات قد بطلت والاعمال التى ظنوها خيرات وأفنوا فيها اعمارهم قد بطلت أيضا وصارت من أعظم الموجبات لعذابهم فلا شك انه تعظم حسرتهم وندامتهم فلذلك قال تعالى ذلك هو الضلال البعيد (المسئلة الثالثة) قرئ الرياح فى يوم عاصف جعل العصف لليوم وهو لما فيه وهو الريح أو الرياح كقولك يوم ماطر وليلة ساكرة

الايذان بالتفاوت فى مبدا التثبيت والاضلال فان مبدا صدور كل منهما عنه سبحانه وتعالى من صفاته العلا غير ما هو مبدأ صدور الآخر (ألم تر) تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد مما صنع الكفرة من الاباطيل التى لا تكاد تصدر عمن له أدنى ادراك أى ألم تنظر (الى الذين بدلوا نعمة الله) أى شكر نعمته تعالى بأن وضعوا موضعه (كفرا) عظيما وغمطالها أو بدلوا نفس النعمة كفرا فانهم لما كفروها سلبوها فصاروا مستبدلين بها كفرا كأهل مكة حيث خلقهم الله سبحانه وأسكنهم حرمه الآمن الذى يجبى اليه ثمرات كل شئ وجعلهم قوام بيته وشرفهم بمحمد عليه الصلاة والسلام فكفروا ذلك فقحطوا سبع سنين وقتلوا وأسروا يوم بدر فصاروا أذلاء مسلوبى النعمة باقين بالكفر بدلها وعن عمر وعلى رضى الله عنهما هم الافجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية أما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر وأما بنو أمية فمتعوا الى حين كأنهما يأولان ما سيتلى من قوله عز وجل قل تمتعوا الآية (وأحلوا) أى أنزلوا (قومهم) بارشادهم اياهم الى طريقة الشرك والضلال وعدم التعرض لحلولهم لدلالة الاحلال عليه اذ هو فرع الحلول كقوله تعالى يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار (دار البوار) دار الهلاك الذى لا هلاك وراءه (جهنم) عطف بيان لها وفى الابهام ثم البيان ما لا يخفى من التهويل (يصلونها) حال منها أو من قومهم أى داخلين فيها مقاسين لحرها أو استئناف لبيان كيفية الحلول أو مفسر لفعل يقدر ناصبا لجهنم فالمراد بالاحلال المذكور حينئذ تعريضهم للهلاك بالقتل والاسر لكن قوله تعالى قل تمتعوا فان مصيركم الى النار أنسب بالتفسير الاول

وانما السكور لريحها قال الفراء وان شئت قلت فى يوم ذى عصوف وان شئت قلت فى يوم عاصف الريح فحذف ذكر الريح لكونه مذكورا قبل ذلك وقرئ فى يوم عاصف بالاضافة (المسئلة الرابعة) قوله لا يقدرون مما كسبوا على شئ أى لا يقدرون مما كسبوا على شئ منتفع به لا فى الدنيا ولا فى الآخره وذلك لانه ضاع بالكلية وفسد وهذه الآية دالة على كون العبد مكتسبا لافعاله واعلم انه تعالى لما تمم هذا المثال قال ألم تر أن الله خلق السموات والارض بالحق وفيه مسائل (المسئلة الاولى) وجه النظم انه تعالى لما بين ان أعمالهم تصير باطلة ضائعة بين ان ذلك البطلان والاحباط انما جاء بسبب صدر منهم وهو كفرهم بالله واعراضهم عن العبودية فان الله تعالى لا يبطل أعمال المخلصين ابتداء وكيف يليق بحكمته أن يفعل ذلك وانه تعالى ما خلق كل هذا العالم الالداعية الحكمة والصواب (المسئلة الثانية) قرأ حمزة والكسائى خالق السموات والارض على اسم الفاعل على انه خبر أن والسموات والارض على الاضافة كقوله فاطر السموات والارض فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا والباقون خلق على فعل الماضى السموات والارض بالنصب لانه مفعول (المسئلة الثالثه) قوله بالحق نظيره قوله فى سورة يونس ما خلق الله ذلك الا بالحق ولقوله فى آل عمران ربنا ما خلقت هذا باطلا ولقوله فى ص وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا أما أهل السنه فيقولون الا بالحق وهو دلالتهما على وجود الصانع وعلمه وقدرته وأما المعتزلة فيقولون الا بالحق أى لم يخلق ذلك عبثا بل لغرض صحيح ثم قال تعالى ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد والمعنى ان من كان قادرا على خلق السموات والارض بالحق فبأن يقدر على افناء قوم واماتتهم وعلى ايجاد آخرين واحيائهم كان أولى لان القادر على الاصعب الاعظم بأن يكون قادرا على الاسهل الاضعف أولى قال ابن عباس هذا الخطاب مع كفار مكة يريد أميتكم يا معشر الكفار وأخلق قوما خيرا منكم وأطوع منكم ثم قال وما ذلك على الله بعزيز أى ممتنع لما ذكرنا أن القادر على افناء كل العالم وايجاده بأن يكون قادرا على افناء أشخاص مخصوصين وايجاد أمثالهم أولى وأحرى والله أعلم ❊ قوله تعالى (وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شئ قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) اعلم أنه تعالى لما ذكر أصناف عذاب هؤلاء الكفار ثم ذكر عقيبه أن أعمالهم تصير محبطة باطلة ذكر فى هذه الآية كيفية خجالتهم عند تمسك أتباعهم بهم وكيفية افتضاحهم عندهم وهذا اشارة الى العذاب الروحانى الحاصل بسبب الفضيحة والخجالة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) برز معناه فى اللغة ظهر بعد الخفاء ومنه يقال للمكان الواسع البراز لظهوره وقيل فى قوله وترى الارض بارزة أى ظاهرة لا يسترها شئ وامرأة برزة اذا كانت تظهر للناس ويقال برز فلان على أقرانه اذا فاقهم وسبقهم وأصله فى الخيل اذا سبق أحدها قيل برز عليها كأنه

(و بئس القرار) على حذف المخصوص بالذم أى بئس المقر جهنم او بئس القرار قرارهم فيها وفيه بيان أن حلولهم وصليهم على وجه الدوام والاستمرار (وجعلوا) عطف على أحلوا وما عطف عليه داخل معهما فى حيز الصلة وحكمها التعجب أى جعلوا فى اعتقادهم وحكمهم (لله) الفرد الصمد الذى ليس كمثله شئ وهو الواحد القهار (أندادا) اشباها فى التسمية أو فى العبادة (ليضلوا) قومهم الذين يشايعونهم حسبما ضلوا (عن سبيله) القويم الذى هو التوحيد و يوقعوهم فى ورطة الكفر والضلال ولعل تغيير الترتيب مع أن مقتضى ظاهر النظم أن يذكر كفرانهم نعمة الله تعالى ثم كفرهم بذاته تعالى باتخاذ الانداد ثم اضلالهم لقومهم المؤدى الى احلالهم دار البوار لتثنية التعجيب وتكريره والايذان بأن كل واحد من وضع الكفر موضع الشكر واحلال القوم دار البوار واتخاذ الانداد للاضلال أمر يقضى منه العجب ولو سيق النظم على نسق الوجود لربما فهم التعجيب من مجموع الهنات الثلاث كما فى قصة البقرة وقرئ ليضلوا بالفتح وأياما كان فليس ذلك غرضا حقيقيا لهم من اتخاذ الانداد لكن لما كان ذلك نتيجة له شبه بالغرض وأدخل عليه اللام بطريق الاستعارة التبعية (قل) تهديدا لاولئك الضالين المضلين ونعيا عليهم وايذانا بأنهم لشدة تأبيهم قبول الحق وفرط انهماكهم فى الباطل وعدم ارعوائهم عن ذلك بحال ﴿ الله ﴾ احقاء بأن يضرب عنهم صفحا و يعطف عنهم عنان العظة و يخلوا وشأنهم ولا ينهوا عنه بل يؤمروا بمباشرته مبالغة فى التخلية والخذلان ومسارعة الى بيان عاقبته الوخيمة و يقال لهم (تمتعوا) بما أنتم عليه من الشهوات التى من جملتها

خرج من غمارها فظهر اذا عرفت هذا فنقول ههنا أبحاث (البحث الاول) قوله و برزوا ورد بلفظ الماضى وان كان معناه الاستقبال لان كل ما أخبر الله تعالى عنه فهو صدق وحق فصار كأنه قد حصل ودخل فى الوجود ونظيره قوله ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة (البحث الثانى) قد ذكرنا ان البروز فى اللغة عبارة عن الظهور بعد الاستتار وهذا فى حق الله تعالى محال فلا بد فيه من التأويل وهو من وجوه (الاول) انهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش و يظنون ان ذلك خاف على الله تعالى فاذا كان يوم القيامة انكشفوا لله تعالى عند أنفسهم وعلموا أن الله لا يخفى عليه خافية (الثانى) انهم خرجوا من قبورهم فبرز والحساب الله وحكمه (الثالث) وهو تأويل الحكماء أن النفس اذا فارقت الجسد فكأنه زال الغطاء والوطاء و بقيت متجردة بذاتها عارية عن كل ما سواها وذلك هو البروز لله (البحث الثالث) قال أبو بكر الاصم قوله و برزوا لله هو المراد من قوله فى الآية السابقة ومن ورائه عذاب غليظ واعلم أن قوله و برزوا لله قريب من قوله يوم تبلى السرائر فماله من قوة ولا ناصر وذلك لان البواطن تظهر فى ذلك اليوم والاحوال الكامنة تنكشف فان كانوا من السعداء برزوا للحاكم الحكم بصفاتهم القدسية وأحوالهم العلوية ووجوههم المشرقة وأرواحهم الصافية المستنيرة فيتجلى لها نور الجلال و يعظم فيها اشراق عالم القدس فما أجل تلك الاحوال وان كانوا من الاشقياء برزوا لموقف العظمة ومنازل الكبرياء ذليلين مهينين خاضعين خاشعين واقعين فى خزى الخجالة ومذلة الفضيحة وموقف المهانة والفزع نعوذ بالله منها ثم حكى الله تعالى أن الضعفاء يقولون للرؤساء هل تقدرون على دفع عذاب الله عنا والمعنى انه انما اتبعناكم لهذا اليوم ثم ان الرؤساء يعترفون بالخزى والعجز والذل قالوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من عذاب الله من محيص ومن المعلوم ان اعتراف الرؤساء والسادة والمتبوعين بمثل هذا العجز والخزى والنكال يوجب الخجالة العظيمة والخزى الكامل التام فكان المقصود من ذكر هذه الآية استيلاء عذاب الفضيحة والخجالة والخزى عليهم مع ما تقدم ذكره من سائر وجوه أنواع العذاب والعقاب نعوذ بالله منها والله أعلم (المسئلة الثانية) كتبوا الضعفاء بواو قبل الهمزة فى بعض المصاحف والسبب فيه انه كتب على لفظ من يفخم الالف قبل الهمزة فيميلها الى الواو ونظيره علماء بنى اسرائيل (المسئلة الثالثة) الضعفاء الاتباع والعوام والذين استكبروا هم السادة والكبراء قال ابن عباس المراد أكابرهم الذين استكبروا عن عبادة الله تعالى انا كنا لكم تبعا أى فى الدنيا قال الفراء وأكثر أهل اللغة التبع جمع تابع مثل خادم وخدم و باقر و بقر وحارس وحرس وراصد ورصد قال الزجاج وجائز أن يكون مصدرا سمى به أى كنا ذوى تبع واعلم أن هذه التبعية يحتمل أن يقال المراد منها التبعية فى الكفر و يحتمل أن يكون المراد منها التبعية فى أحوال الدنيا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شئ أى هل يمكنكم دفع عذاب

الله عنا فان قيل فما الفرق بين من فى قوله من عذاب الله و بينه فى قوله من شئ قلنا كلاهما للتبعيض بمعنى هل أنتم مغنون عنا بعض شئ هو عذاب الله أى بعض عذاب الله وعند هذا حكى الله تعالى عن الذين استكبروا انهم قالوا لو هدانا الله لهديناكم وفيه وجوه (الاول) قال ابن عباس معناه لو أرشدنا الله لارشدناكم قال الواحدى معناه انهم انما دعوهم الى الضلال لان الله تعالى أضلهم ولم يهدهم فدعوا أتباعهم الى الضلال ولو هداهم لدعوهم الى الهدى قال صاحب الكشاف لعلهم قالوا ذلك مع انهم كذبوا فيه و يدل عليه قوله تعالى حكاية عن المنافقين يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم واعلم أن المعتزلة لا يجوزون صدور الكذب عن أهل القيامة فكان هذا القول منه مخالفا لاصول مشايخه فلا يقبل منه (الثانى) قال صاحب الكشاف يجوز أن يكون المعنى لو كنا من أهل اللطف فلطف بنا ربنا واهتدينا لهديناكم الى الايمان وذكر القاضى هذا الوجه وزيفه بان قال لا يجوز حمل هذا على اللطف لان ذلك قد فعله الله تعالى (والثالث) أن يكون المعنى لو خلصنا الله من العقاب وهدانا الى طريق الجنة لهديناكم والدليل على أن المراد من الهدى هذا الذى ذكرناه أن هذا هو الذى التمسوه وطلبوه فوجب أن يكون المراد من الهداية هذا المعنى ثم قال سواء علينا أجزعنا أم صبرنا أى مستو علينا الجزع والصبر والهمزة وأم للتسوية ونظيره اصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم ثم قالوا ما لنا من محيص أى منجى ومهرب والمحيص قد يكون مصدرا كالمغيب والمشيب ومكانا كالمبيت والمضيق و يقال حاص عنه وحاض بمعنى واحد والله أعلم ۞ قوله تعالى (وقال الشيطان لما قضى الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما انا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى انى كفرت بما أشركتمونى من قبل ان الظالمين لهم عذاب أليم) اعلم أنه تعالى لما ذكر المناظرة التى وقعت بين الرؤساء والاتباع من كفرة الانس أردفها بالمناظرة التى وقعت بين الشيطان و بين أتباعه من الانس فقال تعالى وقال الشيطان لما قضى الامر وفى المراد بقوله لما قضى الامر وجوه (الاول) قال المفسرون اذا استقر أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار أخذ أهل النار فى لوم ابليس وتقريعه فيقوم فى النار فيما بينهم خطيبا و يقول ما أخبر الله عنه بقوله وقال الشيطان لما قضى الامر (الثانى) ان المراد من قوله قضى الامر لما انقضت المحاسبة والقول الاول أولى لان آخر أمر أهل القيامة استقرار المطيعين فى الجنة واستقرار الكافرين فى النار ثم يدوم الامر بعد ذلك (والقول الثالث) وهو أن مذهبنا ان الفساق من أهل الصلاة يخرجون من النار و يدخلون الجنة فلا يبعد أن يكون المراد من قوله لما قضى الامر ذلك الوقت لان فى ذلك الوقت تنقطع الاحوال المعتبرة ولا يحصل بعده الا دوام ما حصل قبل ذلك وأما الشيطان فالمراد به ابليس لان لفظ الشيطان لفظ مفرد فيتناول الواحد وابليس

كفران النعم العظام واستتباع الناس فى عبادة الاصنام (فان مصيركم الى النار) ليس الا فلا بد لكم من تعاطى ما يوجب ذلك و يقتضيه من أحوالكم بل هى فى الحقيقة صورة لدخولها ومثال له حسبما يلوح به قوله سبحانه وأحلوا قومهم دار البوار الخ فهو تعليل للامر المأمور وفيه من التهديد الشديد والوعيد الاكيد ما لا يوصف أو قل لهم تصوير الحالهم وتعبيرا عما يلجئهم الى ذلك تمتعوا ايذانا بأنهم لفرط انغماسهم فى التمتع بما هم فيه من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم مأمورون بذلك من قبل آمر الشهوة مذعنون لحكمه منقادون لامره كدأب مأمور ساع فى خدمة آمر مطاع فليس قوله تعالى فان مصيركم الى النار حينئذ تعليلا للامر بل هو جواب شرط ينسحب عليه الكلام كأنه قيل هذه حالكم فان دمتم عليه فان مصيركم الى النار وفيه التهديد والوعيد لا فى الامر (قل لعبادى الذين آمنوا) خصهم بالاضافة اليه تنويها لهم وتنبيها على أنهم المقيمون لوظائف العبودية الموفون بحقوقها وترك العاطف بين الامرين للايذان بتباين حاليهما باعتبار المقول تهديدا وتشريفا والمقول ههنا محذوف دل عليه الجواب أى قل لهم أقيموا وأنفقوا (يقيموا الصلوة و ينفقوا مما رزقناهم) أى يداموا على ذلك وفيه ايذان بكمال مطاوعتهم الرسول صلى الله عليه وسلم وغاية مسارعتهم الى الامتثال بأوامره وقد جوزوا أن يكون المقول يقيموا و ينفقوا بحذف لام الامر عنهما وانما حسن ذلك دون الحذف فى قوله * محمد تفد نفسك كل نفس ۞ اذا ما خفت من أمر تبالا * لدلالة قل عليه وقيل هما جوابا أقيموا وأنفقوا قد أقيما مقامهما وليس

رأس الشياطين ورئيسهم فحمل اللفظ عليه أولى لاسيما وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جمع الله الخلق وقضى بينهم يقول الكافر قد وجد المسلمون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ما هو الا ابليس هو الذى أضلنا فيأتونه و يسألونه فعند ذلك يقول هذا القول أما قوله ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ففيه مباحث (الاول) المراد أن الله تعالى وعدكم وعد الحق وهو البعث والجزاء على الاعمال فوفى لكم بما وعدكم ووعدتكم خلاف ذلك فأخلفتكم وتقرير الكلام ان النفس تدعو الى هذه الاحوال الدنيوية ولا تتصور كيفية السعادات الاخروية والكمالات النفسانية والله يدعو اليها و يرغب فيها كما قال والآخرة خير وأبقى (البحث الثانى) قوله وعد الحق من باب اضافة الشئ الى نفسه كقوله حب الحصيد ومسجد الجامع على قول الكوفيين والمعنى وعدكم الوعد الحق وعلى مذهب البصريين يكون التقدير وعد اليوم الحق أو الامر الحق أو يكون التقدير وعدكم الحق ثم ذكر المصدر تأكيدا (البحث الثالث) فى الآية اضمار من وجهين (الاول) أن التقدير ان الله وعدكم وعد الحق فصدقكم ووعدتكم فأخلفتكم وحذف ذلك لدلالة تلك الحالة على صدق ذلك الوعد لانهم كانوا يشاهدونها وليس وراء العيان بيان ولانه ذكر فى وعد الشيطان الاخلاف فدل ذلك على الصدق فى وعد الله تعالى (الثانى) ان فى قوله ووعدتكم فأخلفتكم الوعد يقتضى مفعولا ثانيا وحذف ههنا للعلم به والتقدير ووعدتكم أن لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب أما قوله وما كان لى عليكم من سلطان أى قدرة ومكنة وتسلط وقهر فأقهركم على الكفر والمعاصى وألجئكم اليها الا أن دعوتكم أى الا دعائى اياكم الى الضلالة بوسوستى و تزيينى قال النحويون ليس الدعاء من جنس السلطان فقوله الا أن دعوتكم من جنس قولهم ما تحيتهم الا الضرب وقال الواحدى انه استثناء منقطع أى لكن دعوتكم وعندى انه يمكن أن يقال كلمة الا ههنا استثناء حقيقى لان قدرة الانسان على حمل الغير على عمل من الاعمال تارة يكون بالقهر والقسر وتارة يكون بتقوية الداعية فى قلبه بالقاء الوساوس اليه فهذا نوع من أنواع التسلط ثم ان ظاهر هذه الآية يدل على ان الشيطان لا قدرة له على تصريع الانسان وعلى تعويج أعضائه وجوارحه وعلى ازالة العقل عنه كما يقوله العوام والحشوية ثم قال فلا تلومونى ولوموا أنفسكم يعنى ما كان منى الا الدعاء والوسوسه وكنتم سمعتم دلائل الله وشاهدتم مجئ أنبياء الله تعالى فكان من الواجب عليكم أن لا تغتروا بقولى ولا تلتفتوا الى فلما رجحتم قولى على الدلائل الظاهرة كان اللوم عليكم لا على فى هذا الباب وفى الآية مسئلتان (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة هذه الآية تدل على أشياء (الاول) انه لو كان الكفر والمعصية من الله تعالى لوجب أن يقال فلا تلومونى ولا أنفسكم فان الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه (الثانى) ظاهر هذه الآية يدل على أن الشيطان لا قدرة له على تصريع الانسان وعلى تعويج أعضائه وعلى

بذلك (سرا وعلانية) منتصبان على المصدرية من الامر المقدر لا من جواب الامر المذكور أى انفقوا انفاق سر وعلانية والاحب فى الانفاق اخفاء المتطوع به واعلان الواجب والمراد حث المؤمنين على الشكر لنعم الله سبحانه بالعبادة البدنية والمالية وترك التمتع بمتاع الدنيا والركون اليها كما هو صنيع الكفرة (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه) فيبتاع المقصر ما يتلافى به تقصيره أو يفتدى به نفسه والمقصود نفى عقد المعاوضة بالمرة وتخصيص البيع بالذكر للايجاز مع المبالغة فى نفى العقد اذ انتفاء البيع يستلزم انتفاء الشراء على أبلغ وجه وانتفاؤه ربما يتصور مع تحقق الايجاب من قبل البائع (ولا خلال) ولا مخالة فيشفع له خليل أو يسامحه بمال يفتدى به نفسه او من قبل أن يأتى يوم لا أثر فيه لما لهجوا بتعاطيه من البيع والمخالة ولا انتفاع بذلك وانما الانتفاع والارتفاق فيه بالانفاق لوجه الله سبحانه والظاهر أن من متعلقة بأنفقوا وتذكير اتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه كما فى سورة البقرة من حيث ان كلا من فقدان الشفاعة وما يتدارك به التقصير معاوضة وتبرعا وانقطاع آثار البيع والخلال الواقعين فى الدنيا وعدم الانتفاع بهما من أقوى الدواعى الى الاتيان بما تبقى عوائده وتدوم فوائده من الانفاق فى سبيل الله عز وجل أو من حيث ان ادخار المال وترك انفاقه انما يقع غالبا للتجارات والمهاداة فحيث لا يمكن ذلك فى الآخرة فلا وجه لادخاره الى وقت ﴿ ازالة ﴾ الموت وتخصيص التأكيد بذلك لميل الطباع الى المال وكونها مجبولة على حبه والضنة به ولا يبعد أن يكون تأكيدا لمضمون الامر باقامة الصلاة أيضا من حيث ان تركها كثيرا ما يكون

العام وذلك

السموات) ومافيهما من الاجرام العلوية (والارض) ومافيهما من أنواع المخلوقات لما ذكر أحوال الكافرين لنعم الله تعالى وأمر المؤمنين باقامة مراسم الطاعة شكر النعمه ﴿ ٣٤٣ ﴾ شرع فى تفصيل مايستوجب على كافة الانام المثابرة على الشكر والطاعة من النعم العظام والمنن الجسام حثا للمؤمنين عليها وتقريعا للكفرة المخلين بها الواضعين موضعها الكفر والمعاصى وفى جعل مبتدا الاسم الجليل والخبر الاسم الموصول بتلك الافاعيل العظيمة من خلق هذه الاجرام العظام وانزال الامطار واخراج الثمرات وما يتلوها من الآثار العجيبة مالا يخفى من تربية المهابة والدلالة على قوة السلطان (وأنزل من السماء) أى السحاب فان كل ماعلاك سماء أو من الفلك فان المطر منه يبتدئ الى السحاب ومنه الى الارض على ما دلت عليه ظواهر النصوص أو من أسباب سماوية تثير الاجزاء الرطبة من أعماق الارض الى الجو فينعقد سحابا ماطرا وأيا ما كان فمن ابتدائية (ماء) أى نوعا منه هو المطر وتقديم المجرور على المنصوب اما باعتبار كونه مبدأ لنزوله أو تشريفه كما فى قولك أعطاه السلطان من خزانته مالا أولما مر مرارا من التشويق الى المؤخر (فأخرج به) بذلك الماء (من الثمرات) الفائتة للحصر اما لان صيغ الجموع يتعاور بعضها موضع بعض واما لانه أريد بمفردها جماعة الثمرة التى فى قولك أدركت ثمرة بستان فلان (رزقا لكم) تعيشون به وهو بمعنى

ازالة العقل عنه كما تقول الحشوية والعوام (الثالث) ان هذه الآية تدل على أن الانسان لايجوز ذمه ولومه وعقابه بسبب فعل الغير وعند هذا يظهر أنه لايجوز عقاب أولاد الكفار بسبب كفر آبائهم أجاب بعض الاصحاب عن هذه الوجوه بأن هذا قول الشيطان فلا يجوز التمسك به وأجاب الخصم عنه بأنه لو كان هذا القول منه باطلا لبين الله بطلانه وأظهر انكاره وأيضا فلا فائدة فى ذلك اليوم فى ذكر هذا الكلام الباطل والقول الفاسد ألا ترى ان قوله ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم كلام حق وقوله وماكان لى عليكم من سلطان قول حق بدليل قوله تعالى ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين (المسئلة الثانية) هذه الآية تدل على أن الشيطان الاصلى هو النفس وذلك لان الشيطان بين انه ما أتى الا بالوسوسة فلولا الميل الحاصل بسبب الشهوة والغضب والوهم والخيال لم يكن لوسوسته تأثير البتة فدل هذا على أن الشيطان الاصلى هو النفس فان قال قائل بينوا لنا حقيقة الوسوسة قلنا الفعل انما يصدر عن الانسان عند حصول أمور أربعة يترتب بعضها على البعض ترتبا لازما طبيعيا وبيانه أن أعضاء الانسان بحكم السلامة الاصلية والصلاحية الطبيعية صالحة للفعل والترك والاقدام والاحجام فما لم يحصل فى القلب ميل الى ترجيح الفعل على الترك أو بالعكس فانه يمتنع صدور الفعل وذلك الميل هو الارادة الجازمة والقصد الجازم ثم ان تلك الارادة الجازمة لا تحصل الا عند حصول علم أو اعتقاد أو ظن بأن ذلك الفعل سبب للنفع او سبب للضرر فان لم يحصل فيه هذا الاعتقاد لم يحصل الميل لا الى الفعل ولا الى الترك فالحاصل ان الانسان اذا أحس بشئ ترتب عليه شعوره بكونه ملائما له أو بكونه منافرا له أو بكونه غير ملائم ولا منافر فان حصل الشعور بكونه ملائما له ترتب عليه الميل الجازم الى الفعل وان حصل الشعور بكونه منافرا له ترتب عليه الميل الجازم الى الترك وان لم يحصل لا هذا ولا ذاك لم يحصل الميل لا الى ذلك الشئ ولا الى ضده بل بقى الانسان كما كان وعند حصول ذلك الميل الجازم تصير القدرة مع ذلك الميل موجبة للفعل اذا عرفت هذا فنقول صدور الفعل عن مجموع القدرة والداعى الحاصل أمر واجب فلا يكون للشيطان مدخل فيه وصدور الميل عن تصور كونه خيرا أو تصور كونه شرا أمر واجب فلا يكون للشيطان فيه مدخل وحصول تصور كونه خيرا أو تصور كونه شرا عن مطلق الشعور بذاته أمر لازم فلا مدخل للشيطان فيه فلم يبق للشيطان مدخل فى شئ من هذه المقامات الا فى أن يذكره شيئا بأن يلقى اليه حديثه مثل ان الانسان كان غافلا عن صورة امرأة فيلقى الشيطان حديثها فى خاطره فالشيطان لاقدرة له الا فى هذا المقام وهو عين ما حكى الله تعالى عنه انه قال وماكان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى يعنى ما كان منى الا مجرد هذه الدعوة فأما بقية المراتب فما صدرت منى وما كان لى فيها أثر البتة * بقى فى هذا المقام سؤالان (السؤال الاول)

معمولا ورزقا حالا منه او مصدرا من اخرج بمعنى رزق او للتبعيض بدليل قوله تعالى فاخرجنا به ثمرات كأنه قيل أنزل من السماء بعض الماء فأخرج به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم اذ لم ينزل من السماء كل الماء ولا أخرج بالمطر كل الثمار ولا جعل كل الرزق ثمرا وخروج الثمرات وان كان ◆ ◆ بمشيئته عز وجل وقدرته لكن جرت عادته تعالى بافاضة صورها وكيفياتها على المواد الممتزجة من الماء والتراب وأودع فى الماء قوة فاعلة وفى الارض قوة قابلة يتولد من اجتماعهما أنواع الثمار وهو قادر على ايجاد الاشياء بلا أسباب ومواد كما أبدع نفوس الاسباب كذلك لما أن له تعالى فى انشائها مدرجا من طور الى طور صنائع وحكما يجدد فيها لاولى الابصار عبرا وسكونا الى عظيم قدرته ليس ذلك فى ابداعها دفعة وقوله لكم صفة لقوله رزقا ان أريد به المرزوق ومفعول به ان أريد به المصدر كأنه قيل رزقا اياكم (وسخر لكم الفلك) بأن أقدركم على صنعتها واستعمالها بما ألهمكم كيفية ذلك (لتجرى فى البحر) جريا تابعا لارادتكم (بأمره) بمشيئته التى ينط بها كل شئ وتخصيصه بالذكر للتنصيص على أن ذلك ليس بمزاولة الاعمال واستعمال الآلات كما يترائى من ظاهر الحال (وسخر لكم الانهار) ان أريد بها المياه العظيمة الجارية فى الانهار العظام كما يومئ اليه ذكرها عند البحر فتسخيرها جعلها معدة لانتفاع الناس حيث يتخذون منها جداول يسقون بها زروعهم وجناتهم وما أشبه ذلك وان أريد بها نفس الانهار فتسخيرها تيسيرها لهم (وسخر لكم ◆ كان ◆

كيف يعقل تمكن الشيطان من النفوذ فى داخل أعضاء الانسان والقاء الوسوسة اليه والجواب للناس فى الملائكة والشياطين قولان (القول الاول) أن ماسوى الله بحسب القسمة العقلية على أقسام ثلاثة المتحيز والحال فى المتحيز والذى لا يكون متحيزا ولا حالا فيه وهذا القسم الثالث لم يقم الدليل البتة على فساد القول به بل الدلائل الكثيرة قامت على صحة القول به وهذا هو المسمى بالارواح فهذه الارواح ان كانت طاهرة مقدسة من عالم الروحانيات القدسية فهم الملائكة وان كانت خبيثة داعية الى الشرور وعالم الاجساد ومنازل الظلمات فهم الشياطين اذا عرفت هذا فنقول فعلى هذا التقدير الشيطان لا يكون جسما يحتاج الى الولوج فى داخل البدن بل هو جوهر روحانى خبيث الفعل مجبول على الشر والنفس الانسانية أيضا كذلك فلا يبعد على هذا التقدير فى أن يلقى شئ من تلك الارواح أنواعا من الوساوس والاباطيل الى جوهر النفس الانسانية وذكر بعض العلماء فى هذا الباب احتمالا ثانيا وهو ان النفوس الناطقة البشرية مختلفة بالنوع فهى طوائف وكل طائفة منها فى تدبير روح من الارواح السماوية بعينها فنوع من النفوس البشرية تكون حسنة الاخلاق كريمة الافعال موصوفة بالفرح والبشر وسهولة الامر وهى تكون منتسبة الى روح معين من الارواح السماوية وطائفة أخرى منها تكون موصوفة بالحدة والقوة والغلظة وعدم المبالاة بامر من الامور وهى تكون منتسبة الى روح آخر من الارواح السماوية وهذه الارواح البشرية كالاولاد لذلك الروح السماوى وكالنتائج الحاصلة وكالفروع المتفرعة عليها وذلك الروح السماوى هو الذى يتولى ارشادها الى مصالحها وهو الذى يخصها بالالهامات حالتى النوم واليقظة والقدماء كانوا يسمون ذلك الروح السماوى بالطباع التام ولا شك ان لذلك الروح السماوى الذى هو الاصل والينبوع شعبا كثيرة ونتائج كثيرة وهى بأسرها تكون من جنس روح هذا الانسان وهى لاجل مشاكلتها ومجانستها يعين بعضها بعضا على الاعمال اللائقة بها والافعال المناسبة لطبائعها ثم انها ان كانت خيرة طاهرة طيبة كانت ملائكة وكانت تلك الاعانة مسماة بالالهام وان كانت شريرة خبيثة قبيحة الاعمال كانت شياطين وكانت تلك الاعانة مسماة بالوسوسة وذكر بعض العلماء أيضا فيه احتمالا ثالثا وهو ان النفوس البشرية والارواح الانسانية اذا فارقت أبدانها قويت فى تلك الصفات التى اكتسبتها فى تلك الابدان وكملت فيها فاذا حدثت نفس أخرى مشاكلة لتلك النفس المفارقة فى بدن مشاكل لبدن تلك النفس المفارقة حدث بين تلك النفس المفارقة وبين هذا البدن نوع تعلق بسبب المشاكلة الحاصلة بين هذا البدن وبين ما كان بدنا لتلك النفس المفارقة فيصير لتلك النفس المفارقة تعلق شديد بهذا البدن وتصير تلك النفس المفارقة معاونة لهذه النفس المتعلقة بهذا البدن ومعاضدة لها على أفعالها وأحوالها بسبب هذه المشاكلة ثم ان كان هذا المعنى فى أبواب الخير والبركات كان ذلك الهاما وان

كان فى باب الشركان وسوسة فهذه وجوه محتملة تفريعا على القول باثبات جواهر قدسية مبرأة عن الجسمية والتحيز والقول بالارواح الطاهرة والخبيثة كلام مشهور عند قدماء الفلاسفة فليس لهم أن ينكروا اثباتها على صاحب شريعتنا محمد صلى الله عليه وسلم وأما القول الثانى وهو ان الملائكة والشياطين لابد وأن تكون أجساما فنقول ان على هذا التقدير يمتنع أن يقال انها أجسام كثيفة بل لابد من القول بأنها أجسام لطيفة والله سبحانه ركبها تركيبا عجيبا وهى أن تكون مع لطافتها لاتقبل التفرق والتمزق والفساد والبطلان ونفوذ الاجرام اللطيفة فى عمق الاجرام الكثيفة غير مستبعد ألاترى ان الروح الانسانية جسم لطيف ثم انه نفذ فى داخل عمق البدن فاذا عقل ذلك فكيف يستبعد نفوذ أنواع كثيرة من الاجسام اللطيفة فى داخل هذا البدن أليس ان جرم النار يسرى فى جرم الفحم وماء الورد يسرى فى ورق الورد ودهن السمسم يجرى فى جسم السمسم فكذا ههنا فظهر بما قررنا ان القول باثبات الجن والشياطين أمر لاتحيله العقول ولاتبطله الدلائل وان الاصرار على الانكار ليس الا من نتيجة الجهل وقلة الفطنة ولما ثبت ان القول بالشياطين ممكن فى الجملة فنقول الاحق والاولى أن يقال الملائكة على هذا القول مخلوقون من النور والشياطين مخلوقون من الدخان واللهب كما قال الله تعالى والجان خلقناه من قبل من نار السموم وهذا الكلام من المشهورات عند قدماء الفلاسفة فكيف يليق بالعاقل أن يستبعده من صاحب شريعتنا صلى الله عليه وسلم (السؤال الثانى) لم قال الشيطان فلاتلومونى ولوموا أنفسكم وهو أيضا ملوم بسبب اقدامه على تلك الوسوسة الباطلة والجواب أراد بذلك فلاتلومونى على ما فعلتم ولوموا أنفسكم عليه لانكم عدلتم عما توجبه هداية الله تعالى لكم ثم قال الله تعالى حكاية عن الشيطان انه قال ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال ابن عباس يريد بمغيثكم ولامنقذكم قال ابن الاعرابى الصارخ المستغيث والمصرخ المغيث يقال صرخ فلان اذا استغاث وقال واغوثاه وأصرخته أغثته (المسئلة الثانية) قرأ حمزة بمصرخى بكسر الياء قال الواحدى وهى قراءة الاعمش و يحيى بن وثاب قال الفراء ولعلها من وهم القراء فانه قل من سلم منهم عن الوهم ولعله ظن ان الباء فى قوله بمصرخى خافضة للجملة هذه الكلمة وهذا خطأ لان الياء من المتكلم خارجة من ذلك قال ومما نرى انهم وهموا فيه قوله نوله ما تولى ونصله جهنم بجزم الهاء ظنوا والله أعلم ان الجزم فى الهاء وهو خطأ لان الهاء فى موضع نصب وقد انجزم الفعل قبلها بسقوط الياء منه ومن النحويين من تكلف فى ذكر وجه لصحته الا أن الاكثرين قالوا انه لحن والله أعلم ثم قال تعالى حكاية عنه انى كفرت بما أشركتمونى من قبل وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما فى قوله انى كفرت بما أشركتمونى من قبل فيه قولان (الاول) انها مصدرية والمعنى كفرت باشراككم اياى مع الله تعالى فى الطاعة والمعنى

الشمس والقمر دائبين) يدابان فى سيرهما وانارتهما أصالة وخلافة واصلاحهما ما نيط بهما اصلاحه من المكونات (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان خلفة لمنامكم ومعاشكم ولعقد الثمار وانضاجها ذكر سبحانه وتعالى أنواع النعم الفائضة عليهم وأبرز كل واحدة منها فى جملة مستقلة تنويها بشأنها وتنبيها على رفعة مكانها وتنصيصا على كون كل منها نعمة جليلة مستوجبة للشكر وفى التعبير عن التصريف المتعلق بما ذكر من الفلك والانهار والشمس والقمر والليل والنهار بالتسخير من الاشعار بما فيها من صعوبة المأخذ وعزة المنال والدلالة على عظم السلطان وشدة المحال ما لا يخفى وتأخير تسخير الشمس والقمر عن تسخير ما تقدمه من الامور المعدودة مع ما بينه وبين خلق السموات من المناسبة الظاهرة لاستتباع ذكرها لذكر الارض المستدعى لذكر انزال الماء منها اليها الموجب لذكر اخراج الرزق الذى من جملته ما يحصل بواسطة الفلك والانهار أو للتفادى عن توهم كون الكل أعنى خلق السموات والارض وتسخير الشمس والقمر نعمة واحدة كما مر فى قصة البقرة (وآتاكم من كل ما سألتموه) أى أعطاكم بعض جميع ما سألتموه حسبما تقتضيه مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة كقوله سبحانه من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد أو آتاكم من كل ذلك ما احتجتم اليه ونيط به انتظام أحوالكم على الوجه المقدر فكأنكم سألتموه أو كل ما طلبتموه بلسان الاستعداد أو كل ما سألتموه على أن من للبيان وكلمة كل للتكثير كقولك فلان يعلم كل شئ وأتاه كل الناس وعليه قوله عز وجل فتحنا عليهم أبواب كل شئ وقيل الاصل وآتاكم من كل

انه جحد ما كان يعتقده أولئك الاتباع من كون ابليس شريكا لله تعالى فى تدبير هذا العالم وكفر به أو يكون المعنى انهم كانوا يطيعون الشيطان فى أعمال الشر كما كانوا قد يطيعون الله فى أعمال الخير وهذا هو المراد بالاشراك (والثانى) وهو قول الفراء ان المعنى ان ابليس قال انى كفرت بالله الذى أشركتمونى به من قبل كفركم والمعنى انه كان كفره قبل كفر أولئك الاتباع ويكون المراد بقوله ما فى هذا الموضع من والقول هو الاول لان الكلام انما ينتظم بالتفسير الاول ويمكن أن يقال أيضا الكلام منتظم على التفسير الثانى والتقدير كأنه يقول لا تأثير لوسوستى فى كفركم بدليل انى كفرت قبل ان وقعتم فى الكفر وما كان كفرى بسبب وسوسة أخرى والا لزم التسلسل فثبت بهذا ان سبب الوقوع فى الكفر شئ آخر سوى الوسوسة وعلى هذا التقدير ينتظم الكلام أما قوله ان الظالمين لهم عذاب أليم فالاظهر انه كلام الله عز وجل وأن كلام ابليس تم قبل هذا الكلام ولا يبعد أيضا أن يكون ذلك من بقية كلام ابليس قطعا لاطماع أولئك الكفار عن الاعانة والاغاثة والله أعلم

* قوله تعالى (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها باذن ربهم تحيتهم فيها سلام) وفيه مسئلتان المسئلة (الاولى) اعلم انه تعالى لما بالغ فى شرح أحوال الاشقياء من الوجوه الكثيرة شرح أحوال السعداء وقد عرفت ان الثواب يجب أن يكون منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم فالمنفعة الخالصة اليها الاشارة بقوله تعالى وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار وكونها دائمة أشير اليه بقوله خالدين فيها والتعظيم حصل من وجهين أحدهما ان تلك المنافع انما حصلت باذن الله تعالى وأمره والثانى قوله تحيتهم فيها سلام لان بعضهم يحيى بعضا بهذه الكلمة والملائكة يحيونهم بها كما قال والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم والرب الرحيم يحييهم أيضا بهذه الكلمة كما قال سلام قولا من رب رحيم واعلم السلام مشتق من السلامة والاظهر ان المراد انهم سلموا من آفات الدنيا وحسراتها أو فنون آلامها وأسقامها وأنواع غمومها وهمومها وما أصدق ما قالوا فان السلامة من محن عالم الاجسام الكائنة الفاسدة من أعظم النعم لاسيما اذا حصل بعد الخلاص منها الفوز بالبهجة الروحانية والسعادة الملكية (المسئلة الثانية) قرأ الحسن وأدخل الذين آمنوا على معنى وأدخلهم أنا وعلى هذه القراءة فقوله باذن ربهم متعلق بما بعده أى تحيتهم فيها سلام باذن ربهم يعنى ان الملائكة يحيونهم باذن ربهم * قوله تعالى (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار) اعلم انه تعالى لما شرح أحوال الاشقياء وأحوال السعداء ذكر مثالا يبين الحال فى حكم هذين القسمين وهو هذا المثل وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى ذكر شجرة موصوفة بصفات أربعة ثم شبه الكلمة الطيبة

ما سألتموه وما لم تسألوه فحذف الثانى لدلالة ما أبقى على ما ألقى وقرئ بتنوين كل على أن ما نافية ومحل ما سألتموه النصب على الحالية أى آتاكم من كل غير سائليه (وان تعدوا نعمة الله) التى أنعم بها عليكم (لا تحصوها) لا تطيقوا بحصرها ولو اجمالا فانها غير متناهية وأصل الاحصاء أن الحاسب اذا بلغ عقدا معينا من عقود الاعداد وضع حصاة ليحفظ بها ففيه ايذان بعدم بلوغ مرتبة معتد بها من مراتبها فضلا عن بلوغ غايتها كيف لا وما من فرد من أفراد الناس وان كان فى أقصى مراتب الفقر والافلاس ممنوا بأصناف العنايا مبتلى بأنواع الرزايا فهو بحيث لو تأملته ألفيته متقلبا فى نعم لا تحد ومنن لا تحصى ولا تعد كأنه قد أعطى كل ساعة وآن من النعماء ما حواه حيطة الامكان وان كنت فى ريب من ذلك فقدر أنه ملك ملك أقطار العالم ودانت له كافة الامم وأذعنت اطاعته السراة وخضعت لهيبته رقاب العتاة وفاز بكل مرام ونال كل منال وحاز جميع ما فى الدنيا من أصناف الاموال من غير نديزاحمه ولا شريك يساهمه بل قدر أن جميع ما فيها من حجر ومدر يواقيت غالية ونفائس درر ثم قدر أنه قد وقع من فقد مشروب أو مطعوم فى حالة بلغت نفسه الحلقوم فهل يشترى وهو فى تلك الحال بجميع ماله من الملك والمال لقمة تنجيه عن رواء أو شربة ترويه من ظماء أم يختار الهلاك فتذهب الاموال والاملاك بغير بدل يبقى عليه ولا نفع ﴿ بها ﴾ يعود اليه كلا بل يبذل لذلك كل ما تحويه اليدان كائنا ما كان وليس فى صفقته شائبة الخسران فاذن تلك اللقمة والشربة خير مما فى الدنيا بألف رتبة مع انهما فى طرف الثمام ينالهما متى شاء

بها (فالصفة الاولى) لتلك الشجرة كونها طيبة وذلك يحتمل أمورا أحدها كونها طيبة المنظر والصورة والشكل وثانيها كونها طيبة الرائحة وثالثها كونها طيبة الثمرة يعنى ان الفواكه المتولدة منها تكون لذيذة مستطابة ورابعها كونها طيبة بحسب المنفعة يعنى انها كما يستلذ بأكلها فكذلك يعظم الانتفاع بها ويجب حمل قوله شجرة طيبة على مجموع هذه الوجوه لان اجتماعها يحصل كمال الطيب (والصفة الثانية) قوله أصلها ثابت أى راسخ باق آمن من الانقلاع والانقطاع والزوال والفناء وذلك لان الشئ الطيب اذا كان فى معرض الانقراض والانقضاء فهو وان كان يحصل الفرح بسبب وجدانه الا أنه يعظم الحزن بسبب الخوف من زواله وانقضائه أما اذا علم من حاله انه باق دائم لا يزول ولا ينقضى فانه يعظم الفرح بوجدانه ويكمل السرور بسبب الفوز به (والصفة الثالثة) قوله وفرعها فى السماء وهذا الوصف يدل على كمال حال تلك الشجرة من وجهين الاول ان ارتفاع الاغصان وقوتها فى التصاعد يدل على ثبات الاصل ورسوخ العروق والثانى انها متى كانت متصاعدة مرتفعة كانت بعيدة عن عفونات الارض وقاذورات الابنية فكانت ثمراتها نقية طاهرة طيبة عن جميع الشوائب (والصفة الرابعة) قوله تؤتى أكلها كل حين باذن ربها والمراد ان الشجرة المذكورة كانت موصوفة بهذه الصفة وهى ان ثمراتها لابد أن تكون حاضرة دائمة فى كل الاوقات ولا تكون مثل الاشجار التى يكون ثمارها حاضرا فى بعض الاوقات دون بعض فهذا شرح هذه الشجرة التى ذكرها الله تعالى فى هذا الكتاب الكريم ومن المعلوم بالضرورة ان الرغبة فى تحصيل مثل هذه الشجرة يجب أن تكون عظيمة وأن العاقل متى أمكنه تحصيلها وتملكها فانه لا يجوز له أن يتغافل عنها وأن يتساهل فى الفوز بها اذا عرفت هذا فنقول معرفة الله تعالى والاستغراق فى محبته وفى خدمته وطاعته تشبه هذه الشجرة فى هذه الصفات الاربع أما الصفة الاولى وهى كونها طيبة فهى حاصلة بل نقول لا طيب ولا لذيذ فى الحقيقة الا هذه المعرفة وذلك لان اللذة الحاصلة بتناول الفاكهة المعينة انما حصلت لان ادراك تلك الفاكهة أمر ملائم لمزاج البدن فلاجل حصول تلك الملايمة والمناسبة حصلت تلك اللذة العظيمة وههنا الملائم لجوهر النفس النطقية والروح القدسية ليس الا معرفة الله تعالى ومحبته والاستغراق فى الابتهاج به فوجب أن تكون هذه المعرفة لذيذة جدا بل نقول اللذة الحاصلة من ادراك الفاكهة يجب أن تكون أقل حالا من اللذة الحاصلة بسبب اشراق جوهر النفس بمعرفة الله وبيان هذا التفاوت من وجوه (أحدها) ان المدركات المحسوسة انما تصير مدركة بسبب ان سطح الحاس يلاقى سطح المحسوس فقط فاما أن يقال ان جوهر المحسوس نفذ فى جوهر الحاس فليس الامر كذلك لان الاجسام يمتنع تداخلها أما ههنا فمعرفة الله تعالى وذلك النور وذلك الاشراق صار ساريا فى جوهر النفس متحدا به وكأن النفس عند حصول ذلك الاشراق تصير غير النفس التى كانت قبل حصول ذلك

من الليالى والايام أوقدر أنه قد احتبس عليه النفس فلا دخل منه ما خرج ولا خرج منه ما ولج والحين قد حان وأتاه الموت من كل مكان أما يعطى ذلك كله بمقابلة نفس واحد بل يعطيه وهو لرأبه حامد فاذن هو خير من أموال الدنيا بجملتها ومطالبها برمتها مع أنه قد أبيح له كل آن من آنات الليالى والايام حال اليقظة والمنام هذا من الظهور والجلاء بحيث لا يكاد يخفى على أحد من العقلاء وان رمت العثور على حقيقة الحق والوقوف على كل ما جل من السر ودق فاعلم ان الانسان بمقتضى حقيقته الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود وما يتبعه من الكمالات اللائقة والملكات الرائقة بحيث لو انقطع ما بينه وبين العناية الالهية من العلاقة لما استقر له القرار ولا اطمأنت به الدار الا فى مطمورة العدم والبوار ومهاوى الهلاك والدمار لكن يفيض عليه من الجناب الاقدس تعالى شأنه وتقدس فى كل زمان يمضى وكل آن يمر وينقضى من أنواع الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وسائر صفاته الروحانية والنفسانية والجسمانية ما لا يحيط به نطاق التعبير ولا يعلمه الا العليم الخبير وتوضيحه أنه كما لا يستحق الوجود ابتداء لا يستحقه بقاء وانما ذلك من جناب المبدى الاول عز وجل فكما لا يتصور وجوده ابتداء ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الاصلى لا يتصور بقاؤه على الوجود بعد تحققه بعلته ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الطارئ لان الاستمرار والدوام من خصائص الوجود الواجبى وأنت خبير بأن ما يتوقف عليه وجوده من الامور الوجودية التى هى علله وشرائطه وان وجب كونها متناهية لوجوب تناهى ما دخل تحت الوجود لكن الامور العدمية التى لها دخل فى وجوده ليست

كذلك اذلااستحالة فى أن يكون لشئ واحدموانع غيرمتناهية وانما الاستحالة فى دخولها تحت الوجود فارتفاع تلك الموانع التى لاتتناهى أعنى بقاءها على العدم مع امكان وجودها فى أنفسها فى كل آن من آنات وجوده نعم غيرمتناهية حقيقة لاادعاء وكذلك الحال فى وجودات علله وشرائطه القريبة والبعيدة ابتداء و بقاء وكذا فى كمالاته التابعة لوجوده فاتضح أنه يفيض عليه كل آن نعما لاتتناهى من وجوه شتى فسبحانك سبحانك ما أعظم سلطانك لاتلاحظك العيون
بأنظارها ولاتطالعك
العقول بأفكارها شأنك
لايضاهى واحسانك
لايتناهى ونحن فى
معرفتك حايرون وفى
اقامة مراسم شكرك
قاصرون نسألك الهداية
الى مناهج معرفتك
والتوفيق لاداء حقوق
٣ نعمتك لانحصى ثناء
عليك لااله الاأنت
نستغفرك ونتوب اليك
(ان الانسان لظلوم)
يظلم النعمة باغفال شكرها
أو بوضعه اياها فى غير
موضعها أو يظلم نفسه
بتعريضها للحرمان
(كفار) شديد
٢ الكفران وقيل ظلوم
فى الشدة يشكو ويجزع
كفار فى النعمة يجمع
ويمنع واللام فى الانسان
٤ للجنس ومصداق الحكم
بالظلم والكفران بعض
من وجدا فيه من
أفراده و يدخل فى ذلك
الذى بدلوا نعمة الله
كفرا الخ دخولا أوليا
(واذ قال ابراهيم)
٢ أى واذكر وقت قوله
عليه الصلاة والسلام والمقصود من تذكيره تذكير ما وقع فيه من مقالاته عليه السلام على نهج ❊ الابصار ❊
التفصيل والمراد به تأكيد ما سلف من تعجيبه عليه السلام ببيان فن آخر من جناياتهم حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم بعدما كفروا بالنعم العامة وعصوا أباهم ابراهيم عليه السلام حيث أسكنهم بمكة شرفها الله تعالى لاقامة الصلاة

الاشراق فهذا فرق عظيم بين البابين (والوجه الثانى) فى الفرق ان فى الالتذاذ بالفاكهة المدرك هو القوة الذائقة والمحسوس هو الطعم المخصوص وههنا المدرك هو جوهر النفس القدسية والمعلوم والمشعور به هو ذات الحق جل جلاله وصفات جلاله واكرامه فوجب ان تكون نسبة احدى اللذتين الى الاخرى كنسبة احد المدركين الى الآخر (الوجه الثالث) فى الفرق ان اللذات الحاصلة بتناول الفاكهة الطيبة كلما حصلت زالت فى الحال لانها كيفية سريعة الاستحالة شديدة التغير أما كمال الحق وجلاله فانه ممتنع التغير والتبدل واستعداد جوهر النفس لقبول تلك السعادة أيضا ممتنع التغير فظهر الفرق العظيم من هذا الوجه واعلم ان الفرق بين النوعين يقرب أن يكون من وجوه غيرمتناهية فليكتف بهذه الوجوه الثلاثة تنبيها للعقل السليم على سائرها وأما الصفة الثانية وهى كون هذه الشجرة ثابتة الاصل فهذه الصفة فى شجرة معرفة الله تعالى أقوى وأكمل وذلك لان عروق هذه الشجرة راسخة فى جوهر النفس القدسية وهذا الجوهر جوهر مجرد عن الكون والفساد بعيد عن التغير والفناء وأيضا مدد هذا الرسوخ انما هو من تجلى جلال الله تعالى وهذا التجلى من لوازم كونه سبحانه فى ذاته نور النور ومبدأ الظهور وذلك مما يمتنع عقلا زواله لانه سبحانه واجب الوجود لذاته وواجب الوجود فى جميع صفاته والتغير والفناء والتبدل والزوال والبخل والمنع محال فى حقه فثبت ان الشجرة الموصوفة بكونها ثابتة الاصل ليست الا هذه الشجرة (الصفة الثالثة) لهذه الشجرة كونها بحيث يكون فرعها فى السماء واعلم ان شجرة المعرفة لها أغصان صاعدة فى هواء العالم الالهى وأغصان صاعدة فى هواء العالم الجسمانى اما النوع الاول فهى أقسام كثيرة و يجمعها قوله عليه السلام التعظيم لامر الله و يدخل فيه التأمل فى دلائل معرفة الله تعالى فى عالم الارواح وفى عالم الاجسام وفى أحوال عالم الافلاك والكواكب وفى أحوال العالم السفلى و يدخل فيه محبة الله تعالى والشوق الى الله تعالى والمواظبة على ذكر الله تعالى والاعتماد بالكلية على الله تعالى والانقطاع بالكلية عما سوى الله تعالى والاستقصاء فى ذكر هذه الاقسام غير مطموع فيه لانها أحوال غيرمتناهية وأما النوع الثانى فهى أقسام كثيرة و يجمعها قوله عليه السلام والشفقة على خلق الله و يدخل فيه الرحمة والرافة والصفح والتجاوز عن الذنوب والسعى فى ايصال الخير اليهم ودفع الشر عنهم ومقابلة الاساءة بالاحسان وهذه الاقسام أيضا غيرمتناهية وهى فروع ثابتة من شجرة معرفة الله تعالى فان الانسان كلما كان أكثر توغلا فى معرفة الله تعالى كانت هذه الاحوال عنده أكمل وأقوى وأفضل (وأما الصفة الرابعة) فهى قوله تعالى تؤتى أكلها كل حين باذن ربها فهذه الشجرة أولى بهذه الصفة من الاشجار الجسمانية لان شجرة المعرفة موجبة لهذه الاحوال ومؤثرة فى حصولها والسبب لاينفك عن المسبب فأثر رسوخ شجرة المعرفة فى أرض القلب أن يكون نظره بالعبرة كما قال فاعتبروا ياأولى

والاجتناب عن عبادة الاصنام والشكر لنعم الله تعالى وسأله تعالى ان يجعله بلدا امنا و يرزقهم من الثمرات وتهوى قلوب الناس اليهم من كل أوب سحيق فاستجاب الله تعالى دعاءه وجعله حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شئ فكفروا بتلك النعم العظام واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار وجعلوا لله أندادا وفعلوا ما فعلوا (رب اجعل هذا البلد) يعنى مكة شرفها الله سبحانه (آمنا) أى ذا أمن أو آمنا اهله بحيث لا يخاف فيه على ما مر فى سورة البقرة والفرق بينه وبين ما فيها من قوله رب اجعل هذا بلدا آمنا ان المسؤل هناك البلدية والأمن معا وههنا الامن فقط حيث جعل هو المفعول الثانى للجعل وجعل البلد صفة للمفعول الاول فان حمل على تعدد السؤال فلعله عليه السلام سأل أولا كلا الامرين فاستجيب له فى أحدهما وتأخر الآخر الى وقته المقدر لما يقتضيه من الحكمة الداعية اليه ثم كرر السؤال كما هو المعتاد فى الدعاء والابتهال أو كان المسؤل أولا مجرد الامن المصحح للسكنى كما فى سائر البلاد وقد أجيب اليه وثانيا الأمن المعهود أو كان هو المسؤل فيهما وقد أجيب اليه أيضا لكن السؤال الثانى للاستدامة والاقتصار على ذلك لانه المقصود الاصلى أو لان المعتاد فى البلدية الاستمرار بعد التحقق بخلاف الأمن وان حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادر فالظاهر أن المسؤل كلا الامرين وقد حكى اولا واقتصر ههنا على حكاية سؤال الأمن لا لمجرد أن نعمة الامن أدخل فى استيجاب الشكر فذكره أنسب بمقام تقريع الكفرة على اغفاله كما قيل بل لان سؤال البلدية قد حكى بقوله تعالى فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم اذ المسؤل هو تهويها اليهم للمساكنة معهم لا للحج فقط وهو عين سؤال البلدية

الابصار وأن يكون سماعه بالحكمة كما قال الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ونطقه بالصدق والصواب كما قال كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم وقال عليه السلام قولوا الحق ولو على أنفسكم وهذا الانسان كلما كان رسوخ شجرة المعرفة فى أرض قلبه أقوى وأكمل كان ظهور هذه الآثار عنده أكثر وربما توغل فى هذا الباب فيصير بحيث كلما لاحظ شيئا لاحظ الحق فيه وربما عظم ترقيه فيه فيصير لا يرى شيئا الا وقد كان قد رأى الله تعالى قبله فهذا هو المراد من قوله سبحانه وتعالى تؤتى أكلها كل حين باذن ربها وأيضا فاذكرناه اشارة الى الالهامات النفسانية والملكات الروحانية التى تحصل فى جواهر الارواح ثم لا يزال يصعد منها فى كل حين ولحظة ولمحة كلام طيب وعمل صالح وخضوع وخشوع وبكاء وتذلل كثمرة هذه الشجرة وأما قوله باذن ربها ففيه دقيقة عجيبة وذلك لان عند حصول هذه الاحوال السنية والدرجات العالية قد يفرح الانسان بها من حيث هى هى وقد يترقى فلا يفرح بها من حيث هى هى وانما يفرح بها من حيث انها من المولى وعند ذلك فيكون فرحه فى الحقيقة بالمولى لا بهذه الاحوال ولذلك قال بعض المحققين من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثانى ومن آثار العرفان لا للعرفان بل للمعروف فهو خاض لجة الوصول فقد ظهر بهذا التقرير الذى شرحناه والبيان الذى فصلناه ان هذا المثال الذى ذكره الله تعالى فى هذا الكتاب مثال هاد الى عالم القدس وحضرة الجلال وسرادقات الكبرياء فنسأل الله تعالى مزيد الاهتداء والرحمة انه سميع مجيب وذكر بعضهم فى تقرير هذا المثال كلاما لا بأس به فقال انما مثل الله سبحانه وتعالى الايمان بالشجرة لان الشجرة لا تستحق أن تسمى شجرة الا بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل قائم وأغصان عالية كذلك الايمان لا يتم الا بثلاثة أشياء معرفة فى القلب وقول باللسان وعمل بالابدان والله أعلم (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف فى نصب قوله كلمة طيبة وجهان (الاول) انه منصوب بمضمر والتقدير جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة وهو تفسير لقوله ضرب الله مثلا (الثانى) قال ويجوز أن ينتصب مثلا وكلمة بضرب أى ضرب كلمة طيبة مثلها بمعنى جعلها مثلا وقوله كشجرة طيبة خبر مبتدا محذوف والتقدير هى كشجرة طيبة (الثالث) قال صاحب حل العقد أظن ان الاوجه أن يجعل قوله كلمة عطف بيان والكاف فى قوله كشجرة فى محل النصب بمعنى مثل شجرة طيبة (المسئلة الثالثة) قال ابن عباس الكلمة الطيبة هى قول لا اله الا الله والشجرة الطيبة هى النخلة فى قول الاكثرين وقال صاحب الكشاف انها كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة وشجرة التين والعنب والرمان وأراد بشجرة طيبة الثمرة الا أنه لم يذكرها لدلالة الكلام عليها أصلها أى أصل هذه الشجرة الطيبة ثابت وفرعها أى أعلاها فى السماء والمراد الهواء لان كل ما سماك وعلاك فهو سماء تؤتى أى هذه الشجرة أكلها أى ثمرها وما يؤكل منها كل حين واختلفوا فى تفسير هذا الحين فقال ابن عباس ستة أشهر لان بين حملها الى صرامها ستة أشهر جاء

فدحكى بعبارة أخرى وكان ذلك أول ماقدم عليه السلام مكة كما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي عنهما
أنه عليه الصلاة والسلام لما اسكن اسمعيل وهاجر هناك وعاد متوجها الى الشام تبعته هاجر وجعلت تقول الى
من تكلنا فى هذا البلقع وهو لا يرد عليها جوابا حتى قالت آلله أمرك بهذا فقال نعم قالت اذا لا يضيعنا فرضيت ومضى
حتى اذا استوى على ثنية كداء أقبل على الوادي فقال ربنا انى أسكنت الآية وانما فصل
ما بينهما بثنية للامتنان
۴ وايذانا بأن كلا منهما
نعمة جليلة مستتبعة
لشكر كثير كما فى قصة
البقرة (واجنبنى وبنى)
بعدنى واياهم (أن نعبد
الاصنام) واجعلنا منها
فى جانب بعيد أى ثبتنا
على ما كنا عليه من
التوحيد وملة الاسلام
والبعد عن عبادة الاصنام
وقرئ وأجنبنى من
الافعال وهما لغة اهل
نجد يقولون جنبنى
شره وأجنبنى شره وأما
أهل الحجاز فيقولون
۴ جنبنى شره وفيه دليل
على أن عصمة الانبياء
عليهم السلام بتوفيق
الله تعالى والظاهر أن
المراد بنيه أولاده الصلبية
فلا احتجاج به لابن
عيينة رضي الله عنه
على أن أحدا من أولاد
اسمعيل عليه السلام
لم يعبد الصنم وانما كان
لكل قوم حجر نصبوه
وقالوا هو حجر والبيت
حجر فكانوا يدورون به
ويسمونه الدوار فاستحب
أن يقال طاف بالبيت ولا يقال دار بالبيت وليت شعرى كيف ذهب عليه ما فى القرآن العظيم من قوارع ﴿ تعالى ﴾
تنعى على قريش عبادة الاصنام على ان فيما ذكره كرا على ما فر منه (رب انهن) أى الاصنام (أضللن كثيرا من الناس)
أى تسببن له كقوله تعالى وغرتهم الحياة الدنيا وهو تعليل لدعائه وانما صدره بالنداء اظهارا لاعتنائه به ورغبة
فى استجابته (فمن تبعنى) منهم فيما أدعو اليه من

رجل الى ابن عباس فقال نذرت ان لا أكلم أخى حتى حين فقال الحين ستة أشهر وتلا قوله تعالى تؤتى أكلها كل حين وقال مجاهد وابن زيد سنة لان الشجرة من العام الى العام تحمل الثمرة وقال سعيد بن المسيب شهران لان مدة اطعام النخلة شهران وقال الزجاج جميع من شاهدنا من أهل اللغة يذهبون الى أن الحين اسم كالوقت يصلح لجميع الازمان كلها طالت أم قصرت والمراد من قوله تؤتى أكلها كل حين انه ينتفع بها فى كل وقت وفى كل ساعة ليلا أو نهارا أو شتاء أو صيفا قالوا والسبب فيه ان النخلة اذا تركوا عليها الثمر من السنة الى السنة انتفعوا بها فى جميع أوقات السنة وأقول هؤلاء وان أصابوا فى البحث عن مفردات ألفاظ الآية الا انهم بعدوا عن ادراك المقصود لانه تعالى وصف هذه الشجرة بالصفات المذكورة ولا حاجة بنا الى ان تلك الشجرة هى النخلة أم غيرها فانا نعلم بالضرورة ان الشجرة الموصوفة بالصفات الاربع المذكورة شجرة شريفة ينبغى لكل عاقل أن يسعى فى تحصيلها وتملكها وادخارها لنفسه سواء كان لها وجود فى الدنيا أو لم يكن لان هذه الصفة أمر مطلوب التحصيل واختلافهم فى تفسير الحين أيضا من هذه الباب والله أعلم بالامور ثم قال ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون والمعنى ان فى ضرب الامثال زيادة افهام وتذكير وتصوير للمعانى وذلك الان المعانى العقلية المحضة لا يقبلها الحس والخيال والوهم فاذا ذكر ما يساويها من المحسوسات ترك الحس والخيال والوهم تلك المنازعة وانطبق المعقول على المحسوس وحصل به الفهم التام والوصول الى المطلوب وأما قوله تعالى ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار فاعلم ان الشجرة الخبيثة هى الجهل بالله فانه أول الآفات وعنوان المخافات ورأس الشقاوات ثم انه تعالى شبهها بشجرة موصوفة بصفات ثلاثة (أولها) انها تكون خبيثة فمنهم من قال انها الثوم لانه صلى الله عليه وسلم وصف الثوم بأنها شجرة خبيثة وقيل انها الكراث وقيل انها شجرة الحنظل لكثرة ما فيها من المضار وقيل انها شجرة الشوك واعلم ان هذا التفصيل لا حاجة اليه فان الشجرة قد تكون خبيثة بحسب الرائحة وقد تكون بحسب الطعم وقد تكون بحسب الصورة والمنظر وقد تكون بحسب اشتمالها على المضار الكثيرة والشجرة الجامعة لكل هذه الصفات وان لم تكن موجودة الا أنها لما كانت معلومة الصفة كان التشبيه بها نافعا فى المطلوب (والصفة الثانية) قوله اجتثت من فوق الارض وهذه الصفة فى مقابلة قوله أصلها ثابت ومعنى اجتثت استؤصلت وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة كلها وقوله من فوق الارض معناه ليس لها أصل ولا عرق فكذلك الشرك بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات ولا قوة (والصفة الثالثة) قوله ما لها من قرار وهذه الصفة كالمتممة للصفة الثانية والمعنى انه ليس لها استقرار يقال قر الشئ قرارا كقولك ثبت ثباتا شبه بها القول الذى لم يعضد بحجة فهو داحض غير ثابت واعلم ان هذا المثال فى صفة الكلمة الخبيثة فى غاية الكمال وذلك لانه

تعالى بين كونها موصوفة بالمضار الكثيرة وخالية عن كل المنافع أما كونها موصوفة بالمضار فاليه الاشارة بقوله خبيثة وأما كونها خالية عن كل المنافع فاليه الاشارة بقوله اجتثت من فوق الارض مالها من قرار والله اعلم * قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الاخرة و يضل الله الظالمين و يفعل الله مايشاء) اعلم انه تعالى لما بين ان صفة الكلمة الطيبة أن يكون أصلها ثابتا وصفة الكلمة الخبيثة أن لايكون لها أصل ثابت بل تكون منقطعة ولايكون لها قرار ذكر ان ذلك القول الثابت الصادر عنهم فى الحياة الدنيا يوجب ثبات كرامة الله لهم وثبات ثوابه عليهم والمقصود بيان ان الثبات فى المعرفة والطاعة يوجب اثبات فى الثواب والكرامة من الله تعالى فقوله يثبت الله أى على الثواب والكرامة وقوله بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة أى بالقول الثابت الذى كان يصدر عنهم حال ماكانوا فى الحياه الدنيا ثم قال و يضل الله الظالمين يعنى كما ان الكلمة الخبيثة ماكان لها أصل ثابت ولافرع باسق فكذلك أصحاب الكلمة الخبيثة وهم الظالمون يضلهم الله عن كراماته و يمنعهم عن الفوز بثوابه وفى الآية قول آخر وهو القول المشهور ان هذه الآية وردت فى سؤال الملكين فى القبر وتلقين الله المؤمن كلمة الحق فى القبر عند السؤال وتثبيته اياه على الحق وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال فى قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخره قال حين يقال له فى القبر من ربك ومادينك ومن نبيك فيقول ربى الله ودينى الاسلام ونبيى محمد صلى الله عليه وسلم والمراد من الباء فى قوله بالقول الثابت هو ان الله تعالى انما ثبتهم فى القبر بسبب مواظبتهم فى الحياة الدنيا على هذا القول ولهذا الكلام تقرير عقلى وهو انه كلما كانت المواظبة على الفعل أكثر كان رسوخ تلك الحالة فى العقل والقلب اقوى فكلما كانت مواظبة العبد على ذكر لا اله الا الله وعلى التأمل فى حقائقها ودقائقها أكمل وأتم كان رسوخ هذه المعرفة فى عقله وقلبه بعد الموت أقوى وأكمل قال ابن عباس من داوم على الشهادة فى الحياة الدنيا يثبته الله عليها فى قبره و يلقنه اياها وانما فسر الآخرة ههنا بالقبر لان الميت انقطع بالموت عن أحكام الدنيا ودخل فى أحكام الآخرة وقوله و يضل الله الظالمين يعنى ان الكفار اذا سئلوا فى قبورهم قالوا لاندرى وانما قال ذلك لان الله أضله وقوله و يفعل الله مايشاء يعنى ان شاء هدى وان شاء أضل ولا اعتراض عليه فى فعله البتة * قوله تعالى (ألم الى تر الذين بدلوا نعمت الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها و بئس القرار وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فان مصيركم الى النار) اعلم انه تعالى عاد الى وصف أحوال الكفار فى هذه الآية فقال ألم ترالى الذين بدلوا نعمت الله كفرا نزل فى أهل مكة حيث أسكنهم الله تعالى حرمه الآمن وجعل عيشهم فى السعة و بعث فيهم محمدا صلى الله عليه وسلم فلم يعرفوا قدر هذه النعمة ثم انه تعالى حكى عنهم أنواعا من الاعمال القبيحة (النوع الاول) قوله بدلوا نعمة الله كفرا وفيه

التوحيد وملة الاسلام (فانه منى) أى بعضى قاله عليه السلام مبالغة فى بيان اختصاصه به او متصل بى لاينفك عنى فى أمر الدين (ومن عصانى) أى لم يتبعنى والتعبير عنه بالعصيان للايذان بأنه عليه السلام مستمر على الدعوة وأن عدم اتباع من لم يتبعه انما هو لعصيانه لا لانه لم يبلغه الدعوة (فانك غفور رحيم) قادر على أن تغفر له وترحمه ابتداء أو بعد توبته وفيه أن كل ذنب فلله تعالى أن يغفره حتى الشرك خلا أن الوعيد قضى بالفرق بينه و بين غيره (ربنا) آثر عليه السلام ضمير الجماعة لا لما قيل من تقدم ذكر بنيه والا لراعاه فى قوله رب اجعل الخ بل لان الدعاء المصدر به وما أورده بصدد تمهيد مبادى اجابته من قوله اجابته من قوله (انى أسكنت) الآية متعلق بذريته فالتعرض لوصف ربوبيته تعالى لهم أدخل فى القبول واجابة المسؤل (من ذريتى) أى بعضهم أو ذرية من ذريتى فحذف المفعول وهو اسمعيل عليه السلام وما سيولد له فان اسكانه حيث كان على وجه الاطمئنان متضمن لاسكانهم روى أن هاجر أم اسمعيل عليه السلام كانت لسارة فوهبتها من ابراهيم عليه السلام فلما ولدت له اسمعيل عليه السلام غارت عليهما فناشدته أن يخرجهما من عندها فأخرجهما الى أرض مكة فأظهر الله تعالى عين زمزم (بواد غير ذى زرع) لايكون فيه زرع أصلا وهو وادى مكة شرفها الله تعالى (عند بيتك) ظرف لأسكنت كقولك صليت بمكة عند الركن لا انه صفة لوادى أو بدل منه اذ المقصود اظهار كون ذلك الاسكان مع فقدان مباديه بالمرة لمحض التقرب الى الله تعالى والالتجاء الى جواره الكريم كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الحرمة المؤذن بعزة الملتجأ وعصمته عن المكاره فى قوله تعالى (المحرم) حيث حرم التعرض له والتهاون به أولم

وجوه (الاول) يجوز أن يكون بدلوا شكر نعمة الله كفرا لانه لما وجب عليهم الشكر بسبب تلك النعم أتوا بالكفر فكأنهم غيروا الشكر الى الكفر و بدلوه تبديلا (والثانى) أنهم بدلوا نفس نعمة الله كفرا لانهم لما كفروا سلب الله تلك النعمة عنهم فبقى الكفر معهم بدلا من النعمة (الثالث) انه تعالى أنعم عليهم بالرسول والقرآن فاختاروا الكفر على الايمان (والنوع الثانى) ماحكى الله تعالى عنهم قوله وأحلوا قومهم دار البوار وهو الهلاك يقال رجل بائر وقوم بور ومنه قوله تعالى وكنتم قوما بورا وأراد بدار البوار جهنم بدليل انه فسرها بجهنم فقال جهنم يصلونها و بئس القرار أى المقر وهو مصدر سمى به (النوع الثالث) من أعمالهم القبيحة قوله وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى لما حكى عنهم انهم بدلوا نعمة الله كفرا ذكر انهم بعد أن كفروا بالله جعلوا له أندادا والمراد من هذا الجعل الحكم والاعتقاد والقول والمراد من الانداد الاشباه والشركاء وهذا الشريك يحتمل وجوها أحدها انهم جعلوا للاصنام حظا فيما أنعم الله به عليهم نحو قولهم هذا لله وهذا لشركائنا وثانيها انهم شركوا بين الاصنام و بين خالق العالم فى المعبودية وثالثها انهم كانوا يصرحون باثبات الشركاء لله وهو قولهم فى الحج لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير وابو عمرو ليضلوا بفتح الياء من ضل يضل والباقون بضم الياء من أضل غيره يضل (المسئلة الثالثة) اللام فى قوله ليضلوا عن سبيله لام العاقبة لان عبادة الاوثان سبب يؤدى الى الضلال و يحتمل أن تكون لام كى أى الذين اتخذوا الوثن كى يضلوا غيرهم هذا اذا قرئ بالضم فانه يحتمل الوجهين واذا قرئ بالنصب فلا يحتمل الالام العاقبة لانهم لم يريدوا ضلال أنفسهم وتحقيق القول فى لام العاقبة ان المقصود من الشئ لا يحصل الا فى آخر المراتب كما قيل أول الفكر آخر العمل وكل ماحصل فى العاقبة كان شبيها بالامر المقصود فى هذا المعنى والمشابهة أحد الامور المصححة لحسن المجاز فلهذا السبب حسن ذكر اللام فى العاقبة ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الانواع الثلاثة من الاعمال القبيحة قال قل تمتعوا فان مصيركم الى النار والمراد ان حال الكافر فى الدنيا كيف كانت فانها بالنسبة الى ماسيصل اليه من العقاب فى الآخرة تمتع ونعيم فهذا المعنى قال قل تمتعوا فان مصيركم الى النار وأيضا ان هذا الخطاب مع الذين حكى الله عنهم انهم بدلوا نعمة الله كفرا فأولئك كانوا فى الدنيا فى نعم كثيرة فلاجرم حسن قوله تعالى قل تمتعوا فان مصيركم الى النار وهذا الامر يسمى أمر التهديد ونظيره قوله تعالى اعملوا ماشئتم وكقوله قل تمتع بكفرك قليلا انك من أصحاب النار * قوله تعالى (قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة و ينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال) اعلم انه تعالى لما أمر الكافرين على سبيل التهديد والوعيد بالتمتع بنعيم الدنيا أمر المؤمنين فى هذه الآية بترك التمتع بالدنيا والمبالغة فى المجاهدة بالنفس والمال وفيه مسائل

﴿ المسئلة ﴾

يزل معظما متنافسا به الجبابرة فى كل عصر اومنع منه الطوفان فلم يستول عليه ولذلك سمى عتيقا وتسميته اذ ذاك بيتا ولم يكن له بناء وانما كان نشزا مثل الرابية تأتيه السيول فتأخذ ذات اليمين وذات الشمال ليست باعتبار ماسيؤل اليه الامر من بنائه عليه السلام فانه ينزع الى اعتبار عنوان الحرمة أيضا كذلك بل انما هى باعتبار ماكان من قبل فان تعدد بناء الكعبة المعظمة مما لا ريب فيه وانما الاختلاف فى كمية عدده وقد ذكرناها فى سورة البقرة بفضل الله تعالى (ربنا ليقيموا الصلاة) متوجهين اليه متبركين به وهو متعلق بأسكنت وتخصيصها بالذكر من بين سائر شعائر الدين لفضلها وتكرير النداء وتوسيطه لاظهار كمال العناية باقامة الصلاة والاهتمام بعرض أن الغرض من اسكانهم بذلك الوادى البلقع ذلك المقصد الاقصى والمطلب الاسنى وكل ذلك لتمهيد مبادى اجابة دعائه واعطاء مسؤله الذى لا يتسنى ذلك المرام الا به ولذلك أدخل عليه الفاء فقال (فاجعل أفئدة من الناس) أى أفئدة من أفئدتهم فمن للتبعيض ولذلك قيل لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليهم فارس والروم وأما ما زيد عليه من قولهم ولحجت اليهود والنصارى فغير مناسب للمقام اذ المسؤل توجيه القلوب اليهم للمساكنة معهم لا توجيهها الى البيت للحج والا لقيل تهوى اليه فانه عين الدعاء بالبلدية قد حكى بعبارة أخرى كامر أولابتداء الغاية كقولك القلب منى سقيم أى أفئدة ناس وقرئ آفدة على القلب كآدر فى أدؤر أوعلى أنه اسم فاعل من أفدت الرحلة أى عجلت أى جماعة من الناس وأفدة بطرح الهمزة من الافئدة أوعلى النعت من أفد (تهوى اليهم) تسرع اليهم شوقا وودادا وقرئ

(المسئلة الاولى) قرأحمزة والكسائى لعبادى بسكون الياء و الباقون بفتح الياء لالتقاء الساكنين فحرك الى النصب (المسئلة الثانية) فى قوله يقيموا وجهان الاول يجوز أن يكون جوابا الامر محذوف هو المقول تقديره قل لعبادى الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا يقيموا الصلاة و ينفقوا الثانى يجوز أن يكون هو أمرا مقولا محذوفا منه لام الامر أى ليقيموا كقولك قل لزيد ليضرب عمرا وانما جاز حذف اللام لان قوله قل عوض منه ولو قيل ابتداء يقيموا الصلاة لم يجز (المسئلة الثالثة) ان الانسان بعد الفراغ عن الايمان لاقدرة له على التصرف فى شئ الا فى نفسه أوفى ماله أما النفس فيجب شغلها بخدمة المعبود فى الصلاة وأما المال فيجب صرفه الى البذل فى طاعة الله تعالى فهذه الثلاثة هى الطاعات المعتبرة وهى الايمان والصلاة والزكاة وتمام مايجب أن يقال فى هذه الامور الثلاثة ذكرناه فى قوله تعالى الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة الآية تدل على أن الرزق لايكون حراما لان الآية دلت على ان الانفاق من الرزق ممدوح ولاشئ من الانفاق من الحرام بممدوح فينتج ان الرزق ليس بحرام وقد مر تقرير هذا الكلام مرارا (المسئلة الخامسة) فى انتصاب قوله سرا وعلانية وجوه أحدها أن يكون على الحال أى ذوى سر وعلانية بمعنى مسرين ومعلنين وثانيها على الظرف أى وقت سر وعلانية وثالثها على المصدر أى انفاق سر وانفاق علانية والمراد اخفاء التطوع واعلان الواجب واعلم انه تعالى لما أمر باقامة الصلاة وايتاء الزكاة قال من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولاخلال قال أبو عبيدة البيع ههنا الفداء والخلال المخالة وهو مصدر من خاللت خلالا ومخالة وهى المصادقة قال مقاتل انما هو يوم لابيع فيه ولاشراء ولامخالة ولاقرابة فكأنه تعالى يقول أنفقوا أموالكم فى الدنيا حتى تجدوا ثواب ذلك الانفاق فى مثل هذا اليوم الذى لاتحصل فيه مبايعة ولامخالة ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة البقرة لابيع فيه ولاخلة ولاشفاعة فان قيل كيف نفى المخالة فى هاتين الآيتين مع انه تعالى أثبتها فى قوله الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين قلنا الآية الدالة على نفى المخالة محمولة على نفى المخالة بسبب ميل الطبيعة ورغبة النفس والآية الدالة على ثبوت المخالة محمولة على حصول المخالة الحاصلة بسبب عبودية الله تعالى ومحبة الله تعالى والله أعلم * قوله تعالى (الله الذى خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الانهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ماسألتموه وان تعدوا نعمت الله لاتحصوها ان الانسان لظلوم كفار) اعلم انه لما أطال الكلام فى وصف أحوال السعداء وأحوال الاشقياء وكانت العمدة العظمى والمنزلة الكبرى فى حصول السعادات معرفة الله تعالى بذاته وبصفاته وفى حصول الشقاوة فقدان هذه المعرفة لاجرم ختم الله تعالى وصف أحوال السعداء

على البناء للمفعول من أهواء غيره وتهوى من باب علم أى تحب وتعديته بالى لتضمنه معنى الشوق والنزوع وأول آثار هذه الدعوة ماروى أنه مرت رفقة من جرهم تريد الشام فرأوا الطير تحوم على الجبل فقالوا ان هذا الطائر لعائف على الماء فأشرفوا فاذاهم بهاجر فقالوا لها ان شئت كنا معك وآنسناك والماء ماؤك فأذنت لهم وكانوا معها الى أن شب اسمعيل عليه السلام وماتت هاجر فتزوج ﴿ ٣٥٣ ﴾ اسمعيل منهم كما هو المشهور (وارزقهم) أى ذريتى الذين أسكنتهم هناك أو مع من ينحاز اليهم من الناس وانما لم يخص الدعاء بالمؤمنين منهم كما فى قوله وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر اكتفاء بذكر اقامة الصلاة (من الثمرات) من أنواعها بأن يجعل بقرب منه قرى يحصل فيها ذلك أو يجبى اليه من الاقطار الشاسعة وقد حصل كلاهما حتى انه يجتمع فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية فى يوم واحد *روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الطائف كانت من أرض فلسطين فلما دعا ابراهيم عليه السلام السلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى ووضعها حيث وضعها رزقا للحرم وعن الزهرى رضى الله عنه أنه تعالى نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة ابراهيم عليه السلام (لعلهم يشكرون) تلك ﴿ ٤٥ ﴾ خا النعمة باقامة الصلاة وأداء سائر مراسم العبودية وقيل اللام فى ليقيموا لام الامر والمراد أمرهم باقامة الصلاة والدعاء من الله تعالى بتوفيقهم لها ولايناسبه الفاء فى قوله تعالى فاجعل الخ وفى دعائه عليه السلام من مراعاة حسن الادب والمحافظة على قوانين الضراعة وعرض الحاجة واستنزال الرحمة واستجلاب الرأفة مالايخفى فانه عليه السلام بذكركون

الوادى غير ذى زرع بين كمال افتقارهم الى المسؤل و بذكر كون اسكانهم عند البيت المحرم أشار الى أن جوار الكريم يستوجب افاضة النعيم و بعرض كون ذلك الاسكان مع كمال اعواز مرافق المعاش لمحض اقامة الصلاة وأداء حقوق البيت مهد جميع مبادى اجابة السؤال ولذلك قرنت دعوته عليه السلام بحسن القبول (ربنا انك تعلم ماتخفى ومانعلن) من الحاجات وغيرها والمراد بماتخفى ما يقابل مانعلن سواء تعلق به الاخفاء أولا أى تعلم مانظهره ومالا نظهره فان علمه تعالى متعلق بما لايخطر بباله مما فيه من الاحوال الخفية فضلا عن اخفائه وتقديم ماتخفى على مانعلن لتحقيق المساواة بينهما فى تعلق العلم بهما على أبلغ وجه فكأن تعلقه بما يخفى أقدم منه بما يعلن أولان مرتبة السر و الخفاء متقدمة على مرتبة العلن اذ ما من شئ يعلن الا وهو قبل ذلك خفى فتعلق علمه سبحانه بحالته الاولى أقدم من تعلقه بحالته الثانية وقصده عليه السلام أن اظهار هذه الحاجات وماهو من مباديها وتتماتها ليس لكونها غير معلومة لك بل انما هو لاظهار العبودية والتخشع لعظمتك والتذلل لعزتك وعرض الافتقار الى ما عندك والاستعجال لنيل أياديك وتكرير النداء للمبالغة فى الضراعة والابتهال وضمير الجماعة لان المراد ليس مجرد علمه تعالى بسره وعلنه بل بجميع خفايا الملك والملكوت وقد حققه بقوله ﴿ المحسن ﴾ على وجه الاعتراض (ومايخفى على الله من شئ فى الارض ولا فى السماء) لما انه العالم بالذات فما من أمر يدخل تحت الوجود كائنا ما كان فى زمان من الازمان الا و جوده فى ذاته علم بالنسبة اليه سبحانه وانما قال ومايخفى على الله الخ دون أن يقول و يعلم ما فى

والاشقياء بالدلائل الدالة على وجود الصانع وكمال علمه وقدرته وذكر ههنا عشرة أنواع من الدلائل أولها خلق السموات وثانيها خلق الارض واليهما الاشارة بقوله تعالى الله الذى خلق السموات والارض وثالثها قوله وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ورابعها قوله وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وخامسها قوله وسخر لكم الانهار وسادسها وسابعها قوله وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وثامنها وتاسعها قوله وسخر لكم الليل والنهار وعاشرها قوله وآتاكم من كل ماسألتموه وهذه الدلائل العشرة قدمر ذكرها فى هذا الكتاب وتقريرها وتفسيرها مرارا وأطوارا ولا بأس بأن نذكر ههنا بعض الفوائد فاعلم ان قوله تعالى الله مبتدأ وقوله الذى خلق خبره ثم انه تعالى بدأ بذكر خلق السموات والارض وقد ذكرنا فى هذا الكتاب أن السماء والارض من كم وجه تدل على وجود الصانع الحكيم و انما بدأ بذكرهما ههنا لانهما هما الاصلان اللذان يتفرع عليهما سائر الادلة المذكورة بعد ذلك فانه قال بعده وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وفيه مباحث (الاول) لولا السماء لم يصح انزال الماء منها ولولا الارض لم يوجد مايستقر الماء فيه فظهر انه لابد من وجودهما حتى يحصل هذا المقصود وهذا المطلوب (البحث الثانى) قوله وأنزل من السماء ماء وفيه قولان (الاول) أن الماء نزل من السحاب وسمى السحاب سماء اشتقاقا من السمو وهو الارتفاع والثانى انه تعالى أنزله من نفس السماء وهذا بعيد لان الانسان ربما كان واقفا على قلة جبل عال ويرى الغيم أسفل منه فاذا نزل من ذلك الجبل يرى ذلك الغيم ماطرا عليهم واذا كان هذا أمرا مشاهدا بالبصر كان النزاع فيه باطلا (البحث الثالث) قال قوم انه تعالى أخرج هذه الثمرات بواسطة هذا الماء المنزل من السماء على سبيل العادة وذلك لان فى هذا المعنى مصلحة للمكلفين لانهم اذا علموا ان هذه المنافع القليلة يجب أن تتحمل فى تحصيلها المشاق والمتاعب فالمنافع العظيمة الدائمة فى الدار الآخرة أولى ان تتحمل المشاق فى طلبها واذا كان المرء يترك الراحة واللذة طلبا لهذه الخيرات الحقيرة فبأن يترك اللذات الدنيوية ليفوز بثواب الله تعالى و يتخلص عن عقابه أولى ولهذا السبب لما زال التكليف فى الآخرة أنال الله تعالى كل نفس مشتهاها من غير تعب ولا نصب هذا قول المتكلمين وقال قوم آخرون انه تعالى يحدث الثمار والزروع بواسطة هذا الماء النازل من السماء والمسئلة كلامية محضة وقد ذكرناها فى سورة البقرة (البحث الرابع) قال أبو مسلم لفظ الثمرات يقع فى الاغلب على مايحصل على الاشجار ويقع أيضا على الزروع والنبات كقوله تعالى كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده (البحث الخامس) قال تعالى فأخرج به من الثمرات رزقا لكم والمراد انه تعالى انما أخرج هذه الثمرات لاجل أن تكون رزقا لنا والمقصود انه تعالى قصد بتخليق هذه الثمرات ايصال الخير والمنفعة الى المكلفين لان الاحسان لايكون احسانا الا اذا قصد المحسن بفعله ايصال النفع إلى

السموات والارض تحقيقا لما عناه بقوله تعلم ما نخفى من ان علمه تعالى بذلك ليس على وجه يكون فيه شائبة خفاء بالنسبة الى علمه تعالى كما يكون ذلك بالنسبة الى علوم المخلوقات وكلمة فى متعلقة بمحذوف وقع صفة لشئ أى من شئ كائن فيهما أعم من أن يكون ذلك على وجه الاستقرار فيهما أو على وجه الجزئية منهما أو بيخفى وتقديم الارض على السماء مع توسيط لا بينهما باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة الى علومنا والالتفات من الخطاب الى اسم الذات المستجمعة للصفات لتربية المهابة والاشعار بعلة الحكم على نهج قوله تعالى ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير والايذان بعمومه لانه ليس بشأ يختص به أو بمن يتعلو بل شامل لجميع الاش فالمناسب ذكره تعا بعنوان مصحح لمبد الكل وقيل هـ من كلام الله عزوجل وارد بطريق الاعتراض لتصديقه عليه السلا كقوله سبحانه وكذلك يفعلون ومن للاستغراق على الوجهين (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر) أى مع كبرى ويأسى عن الولد قيد الهبة به استعظاما للنعمة واظهارا لشكرها (اسمعيل واسحق) روى انه ولد له اسمعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة أو مائة وسبع عشرة سنة (ان ربى) ومالك امرى (لسميع الدعاء) لمجيبه من قولهم سمع الملك كلامه اذا اعتد به وهى من ابنية المبالغة العاملة عمل الفعل أضيف الى مفعوله أو فاعله باسناد السماع الى دعاء الله تعالى مجازا وهو مع كونه من تتمة الحمد والشكر اذ هو وصف له تعالى بأن ذلك الجميل سنته المستمرة تعليل على طريقة التذييل للهبة المذكورة وفيه ايذان بتضاعف النعمة فيها حيث وقعت بعد الدعاء بقوله

المحسن اليه (البحث السادس) قال صاحب الكشاف قوله من الثمرات بيان للرزق أى أخرج به رزقا هو ثمرات ويجوز أن يكون من الثمرات مفعول أخرج ورزقا حال من المفعول أو نصبا على المصدر من أخرج لانه فى معنى رزق والتقدير ورزق من الثمرات رزقا لكم (فأما الحجة الرابعة) وهى قوله وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ونظيره قوله تعالى ومن آياته الجوار فى البحر كالاعلام ففيها مباحث (البحث الاول) ان الانتفاع بما ينبت من الارض انما يكمل بوجود الفلك الجارى فى البحر وذلك لانه تعالى خص كل طرف من أطراف الارض بنوع آخر من أنعمه حتى ان نعمة هذا الطرف اذا نقلت الى الجانب الآخر من الارض وبالعكس كثر الربح فى التجارات ثم ان هذا النقل لايمكن الا بسفن البر وهى الجمال أو بسفن البحر وهى الفلك المذكورة فى هذه الآية فان قيل مامعنى وسخر لكم الفلك مع أن تركيب السفينة من أعمال العباد قلنا أما على قولنا ان فعل العبد خلق الله تعالى فلا سؤال وأما على مذهب المعتزلة فقد أجاب القاضى عنه فقال لولا انه تعالى خلق الاشجار الصلبة التى منها يمكن تركيب السفن ولولا خلقه للحديد وسائر الآلات ولولا تعريفه العباد كيف يتخذوه ولولا انه تعالى خلق الماء على صفة السيلان التى باعتبارها يصح جرى السفينة ولولا خلقه تعالى الرياح وخلق الحركات القوية فيها ولولا انه وسع الانهار وجعل فيها من العمق مايجوز جرى السفن فيها لما وقع الانتفاع بالسفن فصار لاجل انه تعالى هو الخالق لهذه الاحوال وهو المدبر لهذه الامور والمسخر لها حسنت اضافة السفن اليه (البحث الثانى) انه تعالى اضاف ذلك التسخير الى أمره لان الملك العظيم قلما يوصف بأنه فعل وانما يقال فيه انه أمر بكذا تعظيما لشأنه ومنهم من حمله على ظاهر قوله انما أمرنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون وتحقيق هذا الوجه راجع الى ماذكرناه (البحث الثالث) الفلك من الجمادات فتسخيرها مجاز والمعنى أنه لما كان يجرى على وجه الماء كما يشتهيه الملاح صار كأنه حيوان مسخر له (الحجة الخامسة) قوله تعالى وسخر لكم الانهار واعلم ان ماء البحر قلما ينتفع به فى الزراعات لاجرم ذكر تعالى انعامه على الخلق بتفجير الانهار والعيون حتى ينبعث الماء منها الى مواضع الزرع والنبات وايضا ماء البحر لايصلح للشرب والصالح لهذا المهم هو مياه الانهار (الحجة السادسة والسابعة) قوله وسخر لكم الشمس والقمر دائبين واعلم ان الانتفاع بالشمس والقمر عظيم وقد ذكره الله تعالى فى آيات منها قوله وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ومنها قوله الشمس والقمر بحسبان ومنها قوله وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ومنها قوله هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقوله دائبين معنى الدؤب فى اللغة مرور الشئ فى العمل على عادة مطردة يقال دأب يدأب دأبا ودؤبا وقد ذكرنا هذا فى قوله قال تزرعون سبع سنين دأبا قال المفسرون قوله دائبين معناه يدأبان فى سيرهما وانارتهما وتأثيرهما فى ازالة الظلمة وفى اصلاح النبات والحيوان فان الشمس سلطان النهار والقمر

رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصالحين فاقترنت الهبة بقبول الدعوة وتوحيد ضمير المتكلم وان كان عقيب ذكر هبتهما لما أن نعمة الهبة فائضة عليه خاصة وهما من النعم لا من المنعم عليهم (رب اجعلنى مقيم الصلوة) مثابرا عليها معدلا لها وتوحيد ضمير المتكلم مع شمول دعوته لذريته أيضا حيث قال (ومن ذريتى) أى بعضهم من المذكورين ومن يسير سيرتهما من أولادهما للاشعار بأنه المقتدى فى ذلك وذريته أتباع له وأن ذكرهم بطريق الاستطراد لا كما فى قوله ربنا انى أسكنت الخ فان سكانه مع عدم تحققه بلا ملابسة لمن أسكنه انما هو مذكور بطريق التمهيد للدعاء الذى هو مخصوص بذريته وانما خص هذا الدعاء ببعض ذريته لعلمه من جهة الله تعالى أن بعضا منهم لا يكون مقيم الصلاة كقوله تعالى ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك (ربنا وتقبل دعاء) أى دعاى هذا المتعلق بجعلى وجعل بعض ذريتى مقيمى الصلاة ثابتين على ذلك مجتنبين عن عبادة الاصنام ولذلك جئ بضمير الجماعة (ربنا اغفرلى) أى ما فرط منى من ترك الاولى فى باب الدين وغير ذلك مما لا يسلم منه البشر (ولوالدى) وقرئ بالتوحيد ولابوى وهذا الاستغفار منه عليه السلام انما كان قبل تبين الامر له عليه السلام وقيل أراد بوالديه آدم وحواء وقيل بشرط ﴿ والكواكب ﴾ الاسلام ويرده قوله تعالى الا قول ابراهيم الآية وقد مر فى سورة التوبة نوع تحقيق للمقام وسيأتى تمامه فى سورة مريم بفضل الله تعالى (وللمؤمنين) كافة من ذريته وغيرهم وللايذان باشتراك الكل فى الدعاء بالمغفرة جيء بضمير الجماعة (يوم يقوم الحساب) أى يثبت ويتحقق محاسبة أعمال المكلفين على وجه

سلطان الليل ولولا الشمس لما حصلت الفصول الاربعة ولولاها لاختلت مصالح العالم بالكلية وقد ذكرنا منافع الشمس والقمر بالاستقصاء فى اول هذا الكتاب (الحجة الثامنة والتاسعة) قوله وسخر لكم الليل والنهار واعلم ان منافعهما مذكورة فى القرآن كقوله تعالى وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وقوله وهو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا قال المتكلمون تسخير الليل والنهار مجاز لانهما عرضان والاعراض لا تسخر (والحجة العاشرة) قوله وآتاكم من كل ما سألتموه ثم انه تعالى لما ذكر تلك النعمة العظيمة بين بعد ذلك انه لم يقتصر عليها بل أعطى عباده من المنافع والمرادات ما لا يأتى على بعضها التعديد والاحصاء فقال وآتاكم من كل ما سألتموه والمفعول محذوف تقديره من كل مسؤل شيئا وقرئ من كل بالتنوين وما سألتموه نفى ومحله نصب على الحال أى آتاكم من جميع ذلك غير سائليه ويجوز أن تكون ما موصولة والتقدير آتاكم من كل ذلك ما احتجتم اليه ولم تصلح احوالكم ومعايشكم الا به فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال ثم انه تعالى لما ذكر هذه النعم ختم الكلام بقوله وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها قال الواحدى النعمة ههنا اسم أقيم مقام المصدر يقال انعم الله عليه ينعم انعاما ونعمة أقيم الاسم مقام الانعام كقوله أنفقت عليه انفاقا ونفقة بمعنى واحد ولذلك لم يجمع لانه فى معنى المصدر ومعنى قوله لا تحصوها أى لا تقدرون على تعديد جميعها لكثرتها واعلم ان الانسان اذا أراد أن يعرف ان الوقوف على أقسام نعم الله ممتنع فعليه ان يتأمل فى شئ واحد ليعرف عجز نفسه عنه ونحن نذكر منه مثالين (المثال الاول) ان الاطباء ذكروا ان الاعصاب قسمان منها دماغية ومنها نخاعية أما الدماغية فانها سبعة ثم أتعبوا أنفسهم فى معرفة الحكم الناشئة من كل واحد من تلك الارواح السبعة ثم مما لا شك فيه ان كل واحد من الارواح السبعة تنقسم الى شعب كثيرة وكل واحد من تلك الشعب أيضا الى شعب دقيقة أدق من الشعر ولكل واحد منها ممر الى الاعضاء ولو أن شعبة واحدة اختلت اما بسبب الكمية أو بسبب الكيفية أو بسبب الوضع لاختلت مصالح البنية ثم ان تلك الشعب الدقيقة تكون كثيرة العدد جدا ولكل واحدة منها حكمة مخصوصة فاذا نظر الانسان فى هذا المعنى عرف ان الله تعالى بحسب كل شظية من تلك الشظايا العصبية على العبد نعمة عظيمة لو فاتت لعظم الضرر عليه وعرف قطعا انه لا سبيل له الى الوقوف عليها والاطلاع على أحوالها وعند هذا يقطع بصحة قوله تعالى وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها وكما اعتبرت هذا فى الشظايا العصبية فاعتبر مثله فى الشرايين والاوردة وفى كل واحد من الاعضاء البسيطة والمركبة بحسب الكمية والكيفية والوضع والفعل والانفعال حتى ترى أقسام هذا الباب بحرا لا ساحل له واذا اعتبرت هذا فى بدن الانسان الواحد فاعرف أقسام نعم الله تعالى فى نفسه وروحه فان عجائب عالم الارواح أكثر من عجائب عالم الاجساد ثم لما اعتبرت حالة الحيوان الواحد فعند ذلك اعتبر أحوال عالم الافلاك

العدل استعيرله من ثبوت القائم على الرجل بالاستقامة ومنه قامت الحرب على ساق والمراد انهو يه وقيل أسند اليه قيام
أهله مجازا أو حذف المضاف كما فى واسأل القرية واعلم أن ما حكى عنه عليه السلام من الادعية والاذكار وما يتعلق بها
ليس بصادر عنه على الترتيب المحكى ولا على وجه المعية بل صدر عنه فى أزمنة متفرقة حكى مرتبا للدلالة على سوء حال
الكفرة بعد ظهور أمره فى الملة وارشاد الناس اليها والتضرع الى الله تعالى لمصالحهم الدينية والدنياوية
(ولا تحسبن الله غافلا ٤
عما يعمل الظالمون)
خطاب لرسول الله
صلى الله عليه وسلم
والمراد تثبيته على ما كان
عليه من عدم حسبانه ٣
عز وجل كذلك نحو
قوله ولا تكونن من
المشركين ونظائره مع
ما فيه من الايذان بكونه •
واجب الاحتراز عنه
فى الغاية حتى نهى عنه
من لا يمكن تعاطيه أو نهيه
عليه السلام عن حسبانه
تعالى تاركا لعقابهم
على طريقة العفو
والتعبير عنه بذلك للمبالغة
فى النهى والايذان بان
ذلك الحسبان بمنزلة
حسبانه تعالى غافلا
عن اعمالهم اذ العلم
بذلك مستوجب لعقابهم
لا محالة فتركه لو كان
لكان للغفلة عما يوجبه
من أعمالهم الخبيثة
وفيه تسلية لرسول الله
صلى الله عليه وسلم
ووعد له أكيد ووعيد
للكفرة وسائر الظالمين
شديد أو لكل أحد ممن
يستعجل عذابهم أو يتوهم اهمالهم للجهل بصفاته تعالى والاغترار بامهاله وقيل معناه لا تحسبنه تعالى يعاملهم معاملة
الغافل عما عملوا بل معاملة من يحافظ على أعمالهم ويجازيهم بذلك نقيرا وقطميرا والمراد بالظالمين أهل مكة ممن عدت
مساويهم من تبديل نعمة الله تعالى كفرا واحلال قومهم دار البوار واتخاذ الانداد كما يؤذن به التعرض لحكمة التأخير النبى

والكواكب وطبقات العناصر وعجائب البر والبحر والنبات والحيوان وعند هذا تعرف ان عقول جميع الخلائق لو ركبت وجعلت عقلا واحدا ثم بذلك العقل يتأمل الانسان فى عجائب حكمة الله تعالى فى أقل الاشياء لما ادرك منها الا القليل فسبحانه تقدس عن أوهام المتوهمين (المثال الثانى) انك اذا أخذت اللقمة الواحدة لتضعها فى الفم فانظر الى ما قبلها والى ما بعدها أما الامور التى قبلها فاعرف ان تلك اللقمة من الخبز لا تتم ولا تكمل الا اذا كان هذا العالم بكليته قائما على الوجه الاصوب لان الحنطة لا بد منها وانها لا تنبت الا بمعونة الفصول الاربعة وتركيب الطبائع وظهور الرياح والامطار ولا يحصل شئ منها الا بعد دوران الافلاك واتصال بعض الكواكب ببعض على وجوه مخصوصة فى الحركات وفى كيفيتها فى الجهة والسرعة والبطء ثم بعد ان تكون الحنطة لا بد من آلات الطحن والخبز وهى لا تحصل الا عند تولد الحديد فى أرحام الجبال ثم ان الآلات الحديدية لا يمكن اصلاحها الا بآلات أخرى حديدية سابقة عليها ولا بد من انتهائها الى آلة حديدية هى أول هذه الآلات فتأمل انها كيف تكونت على الاشكال المخصوصة ثم اذا حصلت تلك الآلات فانظر انه لا بد من اجتماع العناصر الاربعة وهى الارض والماء والهواء والنار حتى يمكن طبخ الخبز من ذلك الدقيق فهذا هو النظر فيما تقدم على حصول هذه اللقمة وأما النظر فيما بعد حصولها فتأمل فى تركيب بدن الحيوان وهو انه تعالى كيف خلق هذه الابدان حتى يمكنها الانتفاع بتلك اللقمة وانه كيف يتضرر الحيوان بالاكل وفى أى الاعضاء تحدث تلك المضار ولا يمكنك أن تعرف القليل من هذه الاشياء الا بمعرفة علم التشريح وعلم الطب بالكلية فظهر بما ذكرنا ان الانتفاع باللقمة الواحدة لا يمكن معرفته الا بمعرفة جملة هذه الامور والعقول قاصرة عن ادراك ذرة من هذه المباحث فظهر بهذا البرهان القاهر صحة قوله تعالى وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها ثم انه تعالى قال ان الانسان لظلوم كفار قيل يظلم النعمة باغفال شكرها كفار شديد الكفران لها وقيل ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع كفار فى النعمة يجمع ويمنع والمراد من الانسان ههنا الجنس يعنى أن عادة هذا الجنس هو هذا الذى ذكرناه وههنا بحثان (البحث الاول) ان الانسان مجبول على النسيان وعلى الملالة فاذا وجد نعمة نسيها فى الحال وظلمها بترك شكرها وان لم ينسها فانه فى الحال يملها فيقع فى كفران النعمة وأيضا ان نعم الله كثيرة فمتى حاول التأمل فى بعضها غفل عن الباقى (البحث الثانى) انه تعالى قال فى هذا الموضع ان الانسان لظلوم كفار وقال فى سورة النحل ان الله لغفور رحيم ولما تأملت فيه لاحت لى فيه دقيقة كأنه يقول اذا حصلت النعم الكثيرة فأنت الذى أخذتها وأنا الذى أعطيتها فحصل لك عند أخذها وصفان وهما كونك ظلوما كفارا ولى وصفان عند اعطائها وهما كونى غفورا رحيما والمقصود كأنه يقول ان كنت ظلوما فأنا غفور وان كنت كفارا فأنا رحيم أعلم عجزك وقصورك فلا أقابل تقصيرك

عنه قوله تعالى قل تمتعوا الآية أوجنس الظالمين وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا (انما يؤخرهم) يمهلهم متمتعين بالحظوظ الدنياوية ولايعجل عقوبتهم حسبما يشاهد وهو استئناف وقع تعليلا للنهى السابق أى دم على ماكنت عليه من عدم حسبانه تعالى غافلا عن أعمالهم ولاتحزن بتأخير ماتستوجبه من العذاب الاليم اذ تأخيره للتشديد والتغليظ أولاتحسبنه تعالى تاركا لعقوبتهم لما ترى من تأخيرها انما ذلك لاجل هذا أولاتحسبنه تعالى يعاملهم معاملة الغافل ولايؤاخذهم بما عملوا لما ترى من التاخير انما هو لهذه الحكمة وقرئ بالنون وايقاع التأخير عليهم مع أن المؤخر انما هو عذابهم لتهويل الخطب وتفظيع الحال ببيان انهم متوجهون الى العذاب مرصدون لامر ما لا أنهم باقون باختيارهم وللدلالة على أن حقهم من العذاب هو الاستئصال بالمرة وأن لايبقى منهم فى الوجود عين ولا أثر وللايذان بأن المؤخر له من جملة العذاب وعنوانه ولو قيل انما يؤخر عذابهم الخ لما فهم ذلك (ليوم) هائل (تشخص فيه الابصار) ترتفع أبصار أهل الموقف فيدخل فى زمرتهم الكفرة المعهودون دخولا أوليا أى تبقى مفتوحة لاتتحرك أجفانهم من هول مايرونه واعتبار عدم قرارها فى أماكنها اما باعتبار الارتفاع الحسى فى جرم العين واما بجعل الصيغة من شخص من بلد الى بلد وسار فى ارتفاع (مهطعين) مسرعين الى الداعى مقبلين عليه بالخوف والذل والخشوع أومقبلين بأبصارهم عليه لايقلعون عنه ولايطرفون هيبة وخوفا وحيث كان ادامة النظر ههنا بالنظر الى الداعى قيل (مقنعى رؤسهم) أى رافعيها مع ادامة النظر من غير التفات الى

الا بالتوفير ولا أجازى جفاء الا بالوفاء ونسأل الله حسن العاقبة والرحمة * قوله تعالى (واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم) اعلم انه تعالى لما بين بالدلائل المتقدمة انه لامعبود الا الله سبحانه وانه لايجوز عبادة غيره تعالى البتة حكى عن ابراهيم عليه السلام مبالغته فى انكار عبادة الاوثان واعلم انه تعالى حكى عن ابراهيم عليه السلام انه طلب من الله أشياء (أحدها) قوله رب اجعل هذا البلد آمنا والمراد مكة آمنا ذا أمن فان قيل أى فرق بين قوله اجعل هذا بلدا آمنا وبين قوله اجعل هذا البلد آمنا قلنا سأل فى الاول أن يجعله من جملة البلاد التى يأمن أهلها فلا يخافون وفى الثانى أن يزيل عنها الصفة التى كانت حاصلة لها وهى الخوف ويحصل لها ضد تلك الصفة وهو الامن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا وقد تقدم تفسيره فى سورة البقرة (وثانيها) قوله واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ واجنبنى وفيه ثلاث لغات جنبه واجنبه وجنبه قال الفراء أهل الحجاز يقول جنبنى يجنبنى بالتخفيف وأهل نجد يقولون جنبنى شره وأجنبنى شره وأصله جعل الشئ عن غيره على جانب وناحية (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول الاشكال على هذه الآية من وجوه (أحدها) ان ابراهيم عليه السلام دعا ربه أن يجعل مكة آمنا وما قبل الله دعاءه لان جماعة خربوا الكعبة وأغاروا على مكة (وثانيها) ان الانبياء عليهم السلام لايعبدون الوثن البتة واذا كان كذلك فما الفائدة فى قوله اجنبنى عن عبادة الاصنام (وثالثها) انه طلب من الله تعالى أن لايجعل أبناءه من عبدة الاصنام والله تعالى لم يقبل دعاءه لان كفار قريش كانوا من أولاده مع انهم كانوا يعبدون الاصنام فان قالوا انهم ماكانوا أبناء ابراهيم وانما كانوا أبناء أبنائه والدعاء مخصوص بالابناء فنقول فاذا كان المراد من أولئك الابناء أبناءه من صلبه وهم ماكانوا الا اسمعيل واسحق وهما كانا من أكابر الانبياء وقد علم ان الانبياء لايعبدون الصنم فقد عاد السؤال فى انه ما الفائدة فى ذلك الدعاء والجواب عن السؤال الاول من وجهين (الاول) أنه نقل انه عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة ذكر هذا الدعاء والمراد منه جعل تلك البلدة آمنة من الخراب والثانى أن المراد جعل أهلها آمنين كقوله واسئل القرية أى أهل القرية وهذا الوجه عليه أكثر المفسرين وعلى هذا التقدير فالجواب من وجهين (أحدهما) ما اختصت به مكة من حصول مزيد فى الأمن وهو ان الخائف كان اذا التجأ الى مكة أمن وكان الناس مع شدة العداوة بينهم يتلاقون بمكة فلا يخاف بعضهم بعضا ومن ذلك أمن الوحش فانهم يقربون من الناس اذا كانوا بمكة ويكونون مستوحشين عن الناس خارج مكة فهذا النوع من الامن حاصل فى مكة فوجب حمل الدعاء عليه (والوجه الثانى) أن يكون المراد من قوله اجعل هذا البلد آمنا أى بالامر والحكم بجعله آمنا وذلك الامر والحكم

﴿ حاصل ﴾

شئ قال العشي وابن عرفة أو ناكسيها ويقال أقنع رأسه أي طاطأها ونكسها فهو من الاضداد وهما حالان مما دل عليه الابصار من أصحابها أو الثاني حال متداخلة من الضمير في الاول واضافته غير حقيقية فلا ينافي الحالية (لا يرتد اليهم طرفهم) أي لا يرجع اليهم تحريك أجفانهم حسبما كان يرجع اليهم كل لحظة بل تبقى أعينهم مفتوحة لا تطرف أو لا ترجع اليهم أجفانهم التي هي آلة الطرف فيكون اسناد الرجوع الى الطرف مجازيا أو هو نفس الجفن قال الفيروز ابادي الطرف العين لا يجمع لانه مصدر في الاصل أو اسم جامع للعين أو لا يرجع نظرهم الى أنفسهم فضلا عن أن يرجع الى شئ آخر فيبقون مبهوتين وهو أيضا حال أو بدل من مقنعي الخ أو استئناف والمعنى لا يزول ما اعتراهم من شخوص الابصار وتأخيره عما هو من تتمته الاهطاع والاقناع مع ما بينه وبين الشخوص المذكور من المناسبة لتربية هذا المعنى (وأفئدتهم هواء) خالية من العقل والفهم لفرط الحيرة والدهش كأنها نفس الهواء الخالي من كل شاغل ومنه قيل للجبان والاحمق قلبه هواء أي لا قوة ولا رأي فيه واعتبار خلوها عن كل خير لا يناسب المقام وهو اما حال عاملها لا يرتد مفيدة لكون شخوص أبصارهم وعدم ارتداد طرفهم بلا فهم ولا اختيار أو جملة مستقلة (وأنذر الناس) خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد اعلامه أن تأخيرهم لما ذا وأمر له بانذارهم وتخويفهم منه والمراد بالناس الكفار المعبر عنهم بالظالمين كما يقتضيه ظاهر اتيان العذاب والعدول اليه من الاضمار للاشعار بأن المراد بالانذار هو الزجر عما هم عليه من الظلم شفقة عليهم لا التخويف للازعاج والايذاء

حاصل لا محالة والجواب عن السؤال الثاني قال الزجاج معناه ثبتني على اجتناب عبادتها كما قال واجعلنا مسلمين لك أي ثبتنا على الاسلام ولقائل أن يقول السؤال باق لانه لما كان من المعلوم انه تعالى يثبت الانبياء عليهم السلام على الاجتناب من عبادة الاصنام فما الفائدة في هذا السؤال والصحيح عندي في الجواب وجهان (الاول) انه عليه السلام وان كان يعلم انه تعالى يعصمه من عبادة الاصنام الا أنه ذكر ذلك هضما للنفس واظهارا للحاجة والفاقة الى فضل الله في كل المطالب (والثاني) ان الصوفية يقولون ان الشرك نوعان شرك جلي وهو الذي يقول به المشركون وشرك خفي وهو تعليق القلب بالوسايط وبالاسباب الظاهرة والتوحيد المحض هو أن ينقطع نظره عن الوسايط ولا يرى متصرفا سوى الحق سبحانه وتعالى فيحتمل أن يكون قوله واجنبني وبني أن نعبد الاصنام المراد منه أنه يعصمه عن هذا الشرك الخفي والله أعلم بمراده والجواب عن السؤال الثالث من وجوه (الاول) قال صاحب الكشاف قوله وبني أراد بنيه من صلبه والفائدة في هذا الدعاء عين الفائدة التي ذكرناها في قوله واجنبني (والثاني) قال بعضهم أراد من أولاده وأولاد أولاده كل من كانوا موجودين حال الدعاء ولا شبهة ان دعوته مجابة فيهم (الثالث) قال مجاهد لم يعبد أحد من ولد ابراهيم عليه السلام صنما والصنم هو التمثال المصور وما ليس بمصور فهو وثن وكفار قريش ما عبدوا التمثال وانما كانوا يعبدون أحجارا مخصوصة وأشجارا مخصوصة وهذا الجواب ليس بقوي لانه عليه السلام لا يجوز أن يريد بهذا الدعاء الا عبادة غير الله تعالى والحجر كالصنم في ذلك (الرابع) ان هذا الدعاء مختص بالمؤمنين من أولاده والدليل عليه أنه قال في آخر الآية فمن تبعني فانه مني وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فانه ليس منه ونظيره قوله تعالى لنوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح (والخامس) لعله وان كان عمم في الدعاء الا ان الله تعالى أجاب دعاءه في حق البعض دون البعض وذلك لا يوجب تحقير الانبياء عليهم السلام ونظيره قوله تعالى في حق ابراهيم عليه السلام قال اني جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين (المسئلة الثالثة) احتج أصحابنا بقوله واجنبني وبني أن نعبد الاصنام على ان الكفر والايمان من الله تعالى وتقرير الدليل ان ابراهيم عليه السلام طلب من الله أن يجنبه ويجنب أولاده من الكفر فدل ذلك على ان التبعيد من الكفر والتقريب من الايمان ليس الا من الله تعالى وقول المعتزلة انه محمول على الالطاف فاسد لانه عدول عن الظاهر ولأنا قد ذكرنا وجوها كثيرة في افساد هذا التأويل ثم حكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام انه قال رب انهن أضللن كثيرا من الناس واتفق كل الفرق على ان قوله أضللن مجاز لانها جمادات والجماد لا يفعل شيئا البتة الا انه لما حصل الاضلال عند عبادتها أضيف اليها كما تقول فتنتهم الدنيا وغرتهم أي افتتنوا بها واغتروا بسببها ثم قال فمن تبعني فانه مني يعني من تبعني في ديني واعتقادي فانه مني أي جار مجرى بعضي لفرط اختصاصه بي وقربه

فالمناسب تقديم ذكرهم بعنوان الظلم أو الناس جميعا فان الانذار عام للفريقين كقوله تعالى انما تنذر من اتبع الذكر والاتيان يعمهما من حيث كونهما فى الموقف وان كان لحوقه بالكفار خاصة أى أنذرهم وخوفهم (يوم يأتيهم العذاب) المعهود وهو اليوم الذى وصف بما لا يوصف من الاوصاف الهائلة أعنى يوم القيامة وقيل هو يوم موتهم معذبين بالسكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى أو يوم هلاكهم بالعذاب العاجل و يأباه القصر السابق (فيقول الذين ظلموا) أى فيقولون والعدول عنه الى ماعليه النظم الكريم للتسجيل عليهم بالظلم وللاشعار بان مالقوه من الشدة انما هو لظلمهم وايثاره على صيغة الفاعل حسبما ذكر أولا للايذان بأن الظلم فى الجملة كاف فى الافضاء الى ماذكر من الاهوال من غير حاجة الى الاستمرار عليه كما ينبئ عنه صيغة الفاعل وعلى تقدير كون المراد بالناس من يعم المسلمين أيضا فالمعنى الذين ظلموا منهم وهم الكفار أو يقول كل من ظلم بالشرك والتكذيب من المنذرين وغيرهم من الامم الخالية فان اتيان العذاب يعمهم كما يشعر بذلك وعدهم باتباع الرسل (ربنا أخرنا) ردنا الى الدنيا وأمهلنا (الى أجل قريب) الى أمد وحد من الزمان قريب (نجب دعوتك) أى الدعوة اليك والى توحيدك أو دعوتك لنا على ألسنة الرسل ففيه ايماء الى أنهم صدقوهم فى أنهم مرسلون من عند الله تعالى (ونتبع الرسل) فيما جاؤنا به أى نتدارك مافرطنا ﴿ تحمل ﴾ فيه من اجابة الدعوة واتباع الرسل والجمع اما باعتبار اتفاق الجميع على التوحيد وكون عصيانهم للرسول صلى الله عليه وسلم عصيانا لهم جميعا واما باعتبار أن المحكى كلام ظالمى الامم جميعا والمقصود بيان وعد كل

منى ومن عصانى فى غير الدين فانك غفور رحيم واحتج أصحابنا بهذه الآية على ان ابراهيم عليه السلام ذكر هذا الكلام والغرض منه الشفاعة فى حق أصحاب الكبائر من أمته والدليل عليه أن قوله ومن عصانى فانك غفور رحيم صريح فى طلب المغفرة والرحمة لأولئك العصاة فنقول أولئك العصاة اما أن يكونوا من الكفار أو لا يكونوا كذلك والاول باطل من وجهين (الاول) انه عليه السلام بين فى مقدمة هذه الآية أنه متبرأ عن الكفار وهو قوله واجنبنى و بنى أن نعبد الاصنام وأيضا قوله فمن تبعنى فانه منى يدل بمفهومه على ان من لم يتبعه على دينه فانه ليس منه ولا يهتم باصلاح مهماته (والثانى) ان الامة مجمعة على ان الشفاعة فى اسقاط عقاب الكفر غير جائزة ولما بطل هذا ثبت ان قوله ومن عصانى فانك غفور رحيم شفاعة فى العصاة الذين لا يكونون من الكفار واذا ثبت هذا فنقول تلك المعصية اما ان تكون من الصغائر أو من الكبائر بعد التوبة أو من الكبائر قبل التوبة والاول والثانى باطلان لان قوله ومن عصانى اللفظ فيه مطلق فتخصيصه بالصغيرة عدول عن الظاهر وأيضا فالصغائر والكبائر بعد التوبة واجبة الغفران عند الخصوم فلا يمكن حمل اللفظ عليه فثبت ان هذه الآية شفاعة فى اسقاط العقاب عن أهل الكبائر قبل التوبة واذا ثبت حصول هذه الشفاعة فى حق ابراهيم عليه السلام ثبت حصولها فى حق محمد صلى الله عليه وسلم لوجوه الاول أنه لا قائل بالفرق والثانى وهو أن هذا المنصب أعلى المناصب فلو حصل لابراهيم عليه السلام مع انه غير حاصل لمحمد صلى الله عليه وسلم لكان ذلك نقصانا فى حق محمد عليه السلام والثالث أن محمدا صلى الله عليه وسلم مأمور بالاقتداء بابراهيم عليه السلام لقوله تعالى أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده وقوله ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا فهذا وجه قريب فى اثبات الشفاعة لمحمد صلى الله عليه وسلم وفى اسقاط العقاب عن أصحاب الكبائر والله أعلم اذا عرفت هذا فلنذكر أقوال المفسرين قال السدى معناه ومن عصانى ثم تاب وقيل ان هذا الدعاء انما كان قبل أن يعلم ان الله تعالى لا يغفر الشرك وقيل من عصانى باقامته على الكفر فانك غفور رحيم يعنى انك قادر على أن تغفر له وترحمه بأن تنقله عن الكفر الى الاسلام وقيل المراد من هذه المغفرة أن لا يعاجلهم بالعقاب بل يمهلهم حتى يتوبوا أو يكون المراد أن لا تعجل اخترامهم فتفوتهم التوبة واعلم ان هذه الوجوه ضعيفة أما الاول وهو حمل هذه الشفاعة على المعصية بشرط التوبة فقد أبطلناه وأما الثانى وهو قوله ان هذه الشفاعة انما كانت أن يعلم أن الله لا يغفر الشرك فنقول هذا أيضا بعيد لانا بينا ان مقدمة هذه الآية تدل على انه لا يجوز أن يكون مراد ابراهيم عليه السلام من هذا الدعاء هو الشفاعة فى اسقاط عقاب الكفر وأما الثالث وهو قوله المراد من كونه غفورا رحيما أن ينقله من الكفر الى الايمان فهو أيضا بعيد لان المغفرة والرحمة مشعرة باسقاط العقاب ولا اشعار فيهما بالنقل من صفة الكفر الى صفة الايمان والله أعلم وأما الرابع وهو أن

امة باتباع رسولها (أولم تكونوا أقسمتم من قبل) على اضمار القول معطوفا على فيقول اى فيقال لهم توبيخا وتبكيتا الم توخر وافى الدنيا ولم تكونوا أقسمتم اذ ذاك بألسنتكم بطرا وأشرا وجهلا وسفها (مالكم من زوال) مما أنتم عليه من التمتع بالحظوظ الدنيوية أو بألسنة الحال حيث بنيتم مشيدا وأملتم بعيدا ولم تحدثوا أنفسكم بالانتقال منها الى هذه الحالة وفيه اشعار بامتداد زمان التأخير وبعد مداه أو مالكم من زوال من هذه الدار الى دار أخرى للجزاء كقوله تعالى وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت وصيغة الخطاب فى جوب القسم لمراعاة حال الخطاب فى أقسمتم كما فى قوله حلف بالله ليخرجن وهو أدخل فى التوبيخ من ان يقال مالنا مراعاة لحال المقسم ذكر البيهقى عن محمد بن كعب القرظى ۴ أنه قال لاهل النار خمس دعوات يجيبهم الله تعالى فى أربع منها ۵ فاذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون ربنا أمتنا اثنتين • وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج من سبيل فيجيبهم الله تعالى ذلكم بأنه اذا دعى الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير ثم يقولون ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون فيجيبهم الله تعالى فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا الآية ثم يقولون ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل فيجيبهم الله تعالى أولم تكونوا أقسمتم الآية ثم يقولون ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل فيجيبهم الله تعالى أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين فيجيبهم الله تعالى اخسؤا فيها ولا تكلمون فلا يتكلمون بعدها

يحمل المغفرة والرحمة على ترك تعجيل العقاب أو ترك تعجيل الاماتة فنقول هذا باطل لان كفار زماننا هذا أكثر منهم ولم يعاجلهم الله تعالى بالعقاب ولا بالموت مع أن أهل الاسلام متفقون على انهم ليسوا مغفورين ولا مرحومين فبطل تفسير المغفرة والرحمة على ترك تعجيل العقاب بهذا الوجه وظهر بما ذكرنا صحة ما قررناه من الدليل والله أعلم ❋ قوله تعالى (ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شئ فى الارض ولا فى السماء الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق ان ربى لسميع الدعاء رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) اعلم انه سبحانه وتعالى حكى عن ابراهيم عليه السلام فى هذا الموضع انه طلب فى دعائه امورا سبعة (الاول) طلب من الله نعمة الامان وهو قوله رب اجعل هذا البلد آمنا والابتداء بطلب نعمة الامن فى هذا الدعاء يدل على أنه أعظم أنواع النعم والخيرات وانه لا يتم شئ من مصالح الدين والدنيا الا به وسئل بعض العلماء الأمن أفضل أم الصحة فقال الامن أفضل والدليل عليه ان شاة لو انكسرت رجلها فانها تصح بعد زمان ثم انها تقبل على الرعى والاكل ولو أنها ربطت فى موضع وربط بالقرب منها ذئب فانها تمسك عن العلف ولا تتناوله الى أن تموت وذلك يدل على ان الضرر الحاصل من الخوف أشد من الضرر الحاصل من ألم الجسد (والمطلوب الثانى) أن يرزقه الله التوحيد ويصونه عن الشرك وهو قوله واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام (والمطلوب الثالث) قوله ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم فقوله من ذريتى أى بعض ذريتى وهو اسمعيل ومن ولد منه بواد هو وادى مكة غير ذى زرع أى ليس فيه شئ من زرع كقوله قرآنا عربيا غير ذى عوج بمعنى لا يحصل فيه اعوجاج عند بيتك المحرم وذكروا فى تسميته بالمحرم وجوها (الاول) ان الله حرم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرما لمكانه (الثانى) انه كان لم يزل ممتنعا عزيزا يهابه كل جبار كالشئ المحرم الذى حقه أن يجتنب (الثالث) سمى محرما لانه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه (الرابع) انه حرم على الطوفان أى منع منه كما سمى عتيقا لانه أعتق منه فلم يستعل عليه (الخامس) أمر الصائرين اليه أن يحرموا على أنفسهم أشياء كانت تحل لهم من قبل (السادس) حرم موضع البيت حين خلق السموات والارض وحفه بسبعة من الملائكة وهو مثل البيت المعمور الذى بناه آدم فرفع الى السماء السابعة (السابع) حرم على عباده أن يقربوه بالدماء والاقذار وغيرها روى ان هاجر كانت أمة لسارة فوهبتها لابراهيم عليه السلام فولدت اسمعيل عليه السلام فقالت سارة كنت أرجو أن يهب الله لى ولدا من خليله فمنعنيه ورزقه خادمتى وقالت لابراهيم بعدهما منى فنقلهما الى مكة واسمعيل رضيع ثم رجع فقالت هاجر الى من تكلنا فقال الى الله ثم دعا الله تعالى بقوله ربنا

أبدا ان هو الا زفير وشهيق وعند ذلك انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح في وجه بعض واطبقت عليهم جهنم اللهم انا بك نعوذ وبكنفك نلوذ عز جارك وجل ثناؤك ولا اله غيرك (وسكنتم) من السكنى بمعنى التبوؤ والايطان وانما استعمل بكلمة في حيث قيل (في مساكن الذين ظلموا انفسهم) جريا على الاصل لانه منقول عن مطلق السكون الذي حقه التعدية بها أو من السكون واللبث أي قررتم في مساكنهم مطمئنين سائرين سيرتهم في الظلم بالكفر والمعاصي غير محدثين لانفسكم بما لقوا بسبب ما اجترحوا من الموبقات وفي ايقاع الظلم على أنفسهم بعد اطلاقه فيما سلف ايذان بأن غائلة الظلم آيلة الى صاحبه والمراد بهم اما جميع من تقدم من الامم المهلكة على تقدير اختصاص الاستمهال والخطاب السابق بالمنذرين وأما أوائلهم من قوم نوح وهود على تقدير عمومهما للكل وهذا الخطاب وما يتلوه باعتبار حال أواخرهم (وتبين لكم) بمشاهدة الآثار وتواتر الاخبار (كيف فعلنا بهم) من الاهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد وكيف منصوب بما بعده من الفعل وليس الجملة فاعلا لتبين كما قاله بعض الكوفيين ٤ بل فاعله ما دلت هي عليه دلالة واضحة أي فعلنا العجيب بهم وفيه من المبالغة ما ليس في أن يقال ما فعلنا بهم كما مر في قوله تعالى ليسجننه وقرئ ونبين (وضربنا لكم الامثال) أي بينا لكم في القرآن ﴿ اسمعيل ﴾ العظيم على تقدير اختصاص الخطاب بالمنذرين أو على ألسنة الانبياء عليهم السلام على تقدير عمومه لجميع الظالمين صفات ما فعلوا وما فعل بهم من الامور التي هي في الغرابة كالامثال المضروبة لكل ظالم لتعتبروا بها وتقيسوا أعمالكم على أعمالهم ومآلكم على مآلهم وتنتقلوا من حلول العذاب العاجل الى حلول العذاب

انى أسكنت من ذريتي بواد الى آخر الآية ثم انها عطشت وعطش الصبي فانتهت بالصبي الى موضع زمزم فضرب بقدمه ففارت عينا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله ام اسمعيل لولا انها عجلت لكانت زمزم عينا معينا ثم ان ابراهيم عليه السلام عاد بعد كبر اسمعيل واشتغل هو مع اسمعيل برفع قواعد البيت قال القاضي أكثر الامور المذكورة في هذه الحكاية بعيدة لانه لا يجوز لابراهيم عليه السلام أن ينقل ولده الى حيث لا طعام ولا ماء مع انه كان يمكنه ان ينقلهما الى بلدة اخرى من بلاد الشام لاجل قول سارة الا اذا قلنا ان الله اعلمه انه يحصل هناك ماء وطعام وأقول أما ظهور ماء زمزم فيحتمل أن يكون ارهاصا لاسمعيل عليه السلام لان ذلك عندنا جائز خلافا للمعتزلة وعند المعتزلة انه معجزة لابراهيم عليه السلام ثم قال ربنا ليقيموا الصلاة واللام متعلقة بأسكنت أي اسكنت قوما من ذريتي وهم اسمعيل وأولاده بهذا الوادي لا زرع فيه ليقيموا الصلاة ثم قال واجعل افئدة من الناس تهوي اليهم وفيه مباحث (البحث الاول) قال الاصمعي هوى يهوي هويا بالفتح اذا سقط من علو الى سفل وقيل تهوي اليهم تريدهم وقيل تسرع اليهم وقيل تنحط اليهم وتنحدر اليهم وتنزل يقال هوى الحجر من رأس الجبل يهوي اذا انحدر وانصب وهوى الرجل اذا انحدر من رأس الجبل (البحث الثاني) ان هذا الدعاء جامع للدين والدنيا أما الدين فلانه يدخل فيه ميل الناس الى الذهاب الى تلك البلدة بسبب النسك والطاعة لله تعالى وأما الدنيا فلانه يدخل فيه ميل الناس الى نقل المعاشات اليهم بسبب التجارات فلاجل هذا الميل يتسع عيشهم ويكثر طعامهم ولباسهم (البحث الثالث) كلمة من في قوله فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم تفيد التبعيض والمعنى فاجعل أفئدة بعض الناس مائلة اليهم قال مجاهد لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند وقال سعيد بن جبير لو قال أفئدة الناس لحجت اليهود والنصارى والمجوس ولكنه قال أفئدة من الناس فهم المسلمون ثم قال وارزقهم من الثمرات وفيه بحثان (البحث الاول) انه لم يقل وارزقهم الثمرات بل قال وارزقهم من الثمرات وذلك يدل على أن المطلوب بالدعاء اتصال بعض الثمرات اليهم (البحث الثاني) يحتمل أن يكون المراد بايصال الثمرات اليهم ايصالها اليهم على سبيل التجارات وانما يكون المراد عمارة القرى بالقرب منها لتحصيل تلك الثمار منها ثم قال لعلهم يشكرون وذلك يدل على ان المقصود للعاقل من منافع الدنيا أن يتفرغ لاداء العبادات واقامة الطاعات فان ابراهيم عليه السلام بين انه انما طلب تيسير المنافع على أولاده لاجل أن يتفرغوا لاقامة الصلوات وأداء الواجبات (المطلوب الرابع) قوله ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن واعلم انه عليه السلام لما طلب من الله تيسير المنافع لاولاده وتسهيلها عليهم ذكر انه لا يعلم عواقب الاحوال ونهايات الامور في المستقبل وانه تعالى هو العالم بها والمحيط بأسرارها فقال ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن والمعنى انك أعلم بأحوالنا ومصالحنا ومفاسدنا منا وقيل ما نخفي من الوجد بسبب حصول الفرقة بيني وبين

الآجل فترتدعوا عما كنتم فيه من الكفر والمعاصي أو بينا لكم انكم مثلهم في الكفر واستحقاق العذاب والجمل الثلاث في موقع الحال من ضمير أقسمتم أى أقسمتم بالخلود والحال أنكم سكنتم في مساكن المهلكين بظلمهم وتبين لكم فعلنا العجيب بهم ونبهناكم على جلية الحال بضرب الامثال وقوله عزوجل (وقد مكروا مكرهم) حال من الضمير الاول في فعلنا بهم أومن الثاني أومنهما جميعا وانما قدم عليه

قوله تعالى وضربنا لكم الامثال لشدة ارتباطه بماقبله أى فعلنا بهم مافعلنا والحال أنهم قد مكروا في ابطال الحق وتقرير الباطل مكرهم العظيم الذي استفرغوا في عمله المجهود وجاوزوا فيه كل حد معهود بحيث لايقدر عليه غيرهم فالمراد بيان تناهيهم في استحقاق مافعل بهم أوقد مكروا مكرهم المذكور في ترتيب مبادي البقاء ومدافعة أسباب الزوال فالمقصود اظهار عجزهم واضمحلال قدرتهم وحقارتها عند قدرة الله تعالى (وعند الله مكرهم) أى جزاء مكرهم الذي فعلوه على أن المكر مضاف الى فاعله أوأخذه تعالى بهم على أنه مضاف الى مفعوله وتسميته مكرا لكونه بمقابلة مكرهم وجودا وذكرا ولكونه في صورة المكر في الاتيان من حيث لايشعرون وعلى التقديرين فالمراد به ماأفاده قوله عزوجل كيف فعلنا بهم لأنه وعيد مستأنف والجملة حال من الضمير في مكروا أى مكروا مكرهم وعند الله جزاؤه أوماهو أعظم منه والمقصود بيان فساد رأيهم حيث باشروا فعلا مع تحقق مايوجب تركه (وان كان مكرهم) في العظم والشدة (لتزول منه الجبال) أى وان كان مكرهم في غاية المتانة والشدة وعبر عن ذلك بكونه مسوى ومعدا لازالة الجبال عن مقارها لكونه مثلا في ذلك والجملة المصدرة بان الوصلية معطوفة على

اسمعيل ومانعلن من البكاء وقيل مانخفي من الحزن المتمكن في القلب ومانعلن يريد ماجرى بينه و بين هاجر حيث قالت له عند الوداع الى من تكلنا فقال الى الله أكلكم قالت آلله أمرك بهذا قال نعم قالت اذن لانخشى ثم قال ومايخفى على الله من شئ في الارض ولا في السماء وفيه قولان (احدهما) انه كلام الله عزوجل تصديقا لابراهيم عليه السلام كقوله وكذلك يفعلون (والثاني) انه من كلام ابراهيم عليه السلام يعني ومايخفى على الذي هو عالم الغيب من شئ في كل مكان ولفظ من يفيد الاستغراق كأنه قيل ومايخفى عليه شئ ما ثم قال الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسمعيل واسحق وفيه مباحث (البحث الاول) اعلم ان القرآن يدل على انه تعالى انما أعطى ابراهيم عليه السلام هذين الولدين اعني اسمعيل واسحق على الكبر والشيخوخة فأما مقدار ذلك السن فغير معلوم من القرآن وانما يرجع فيه الى الروايات فقيل لما ولد اسمعيل كان سن ابراهيم تسعا وتسعين سنة ولما ولد اسحق كان سنه مائة واثنتى عشرة سنة وقيل ولد له اسمعيل لاربع وستين سنة وولد اسحق لتسعين سنة وعن سعيد بن جبير لم يولد لابراهيم الابعد مائة وسبع عشرة سنة وانما ذكر قوله على الكبر لان المنة بهبة الولد في هذا السن أعظم من حيث ان هذا الزمان زمان وقوع اليأس من الولادة والظفر بالحاجة في وقت اليأس من أعظم النعم ولان الولادة في تلك السن العالية كانت آية لابراهيم * فان قيل ان ابراهيم عليه السلام انما ذكر هذا الدعاء عندما اسكن اسمعيل وهاجر أمه في ذلك الوادي وفي ذلك الوقت ماولد له اسحق فكيف يمكنه أن يقول الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسمعيل واسحق * قلنا قال القاضي هذا الدليل يقتضي ان ابراهيم عليه السلام انما ذكر هذا الكلام في زمان آخر لاعقيب ماتقدم من الدعاء و يمكن أيضا أن يقال انه عليه السلام انما ذكر هذا الدعاء بعد كبر اسمعيل وظهور اسحق وان كان ظاهر الروايات بخلافه (البحث الثاني) على في قوله على الكبر بمعنى مع كقول الشاعر

اني على ما ترين من كبري * أعلم من حيث يؤكل الكتف

وهو في موضع الحال ومعناه وهب لي في حال الكبر (البحث الثالث) في المناسبة بين قوله ربنا انك تعلم مانخفي ومانعلن ومايخفى على الله من شئ في الارض ولا في السماء و بين قوله الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسمعيل واسحق وذلك هو كأنه كان في قلبه أن يطلب من الله اعانتهما واعانة ذريتهما بعد موته ولكنه لم يصرح بهذا المطلوب بل قال ربنا انك تعلم مانخفي ومانعلن أي انك تعلم مافي قلوبنا وضمائرنا ثم قال الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسمعيل واسحق وذلك يدل ظاهرا على انهما يبقيان بعد موته وانه مشغول القلب بسببهما فكان هذا دعاء لهما بالخير والمعونة بعد موته على سبيل الرمز والتعريض وذلك يدل على ان الاشتغال بالثناء عند الحاجة الى الدعاء أفضل من الدعاء قال عليه السلام حاكيا عن ربه أنه قال من شغله ذكري عن مسألتي اعطيته أفضل ما أعطي السائلين ثم قال ان ربي

لسميع الدعاء واعلم انه لما ذكر الدعاء على سبيل الرمز والتعريض لا على وجه الايضاح والتصريح قال ان ربى لسميع الدعاء أى هو عالم بالمقصود سواء صرحت به اولم أصرح وقوله سميع الدعاء من قولك سمع الملك كلام فلان اذا اعتد به وقبله ومنه سمع الله لمن حمده (المطلوب الخامس) قوله رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج أصحابنا بهذه الآية على ان أفعال العبد مخلوقة لله تعالى فقالوا ان قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام اجنبنى و بنى أن نعبد الاصنام يدل على ان ترك المنهيات لا يحصل الا من الله وقوله رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى يدل على ان فعل المأمورات لا يحصل الا من الله وذلك تصريح بان ابراهيم عليه السلام كان مصرا على ان الكل من الله (المسئلة الثانية) تقدير الآية رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى أى واجعل بعض ذريتى كذلك لان كلمة من قوله ومن ذريتى للتبعيض وانما ذكر هذا التبعيض لانه علم باعلام الله تعالى انه يكون فى ذريته جمع من الكفار وذلك قوله لا ينال عهدى الظالمين (المطلوب السادس) انه عليه السلام لما دعا الله فى المطالب المذكورة دعا الله تعالى فى أن يقبل دعاءه فقال ربنا وتقبل دعاء وقال ابن عباس يريد عبادتى بدليل قوله تعالى وأعتزلكم وما تدعون من دون الله (المطلوب السابع) قوله ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) لقائل أن يقول طلب المغفرة انما يكون بعد سابقة الذنب فهذا يدل على انه كان قد صدر الذنب عنه وانه كان قاطعا بأن الله يغفر له فكيف طلب تحصيل ما كان قاطعا بحصوله والجواب المقصود منه الالتجاء الى الله تعالى وقطع الطمع الا من فضله وكرمه ورحمته (المسئلة الثانية) ان قال قائل كيف جاز ان يستغفر لأبويه وكانا كافرين فالجواب عنه من وجوه (الاول) ان المنع منه لا يعلم الا بالتوقيف فلعله لم يجد منه منعا فظن كونه جائزا (الثانى) أراد بوالديه آدم وحواء (الثالث) كان ذلك بشرط الاسلام ولقائل أن يقول لو كان الامر كذلك لما كان ذلك الاستغفار باطلا ولو لم يكن باطلا لبطل قوله تعالى الا قول ابراهيم لأبيه لاستغفرن لك وقال بعضهم كانت أمه مؤمنة ولهذا السبب خص أباه بالذكر فى قوله تعالى فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه والله أعلم وفى قوله يوم يقوم الحساب قولان (الاول) يقوم أى يثبت وهو مستعار من قيام القائم على الرجل والدليل عليه قولهم قامت الحرب على ساقها ونظيره قوله ترجلت الشمس أى اشرقت وثبت ضوءها كأنها قامت على رجل (الثانى) أن يسند الى الحساب قيام أهله على سبيل المجاز مثل قوله واسأل القرية اى أهلها والله أعلم ❊ قوله تعالى (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار مهطعين مقنعى رؤسهم لا يرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء) اعلم انه لما بين دلائل التوحيد ثم حكى عن ابراهيم عليه السلام انه طلب من الله ان يصونه عن الشرك وطلب منه أن يوفقه للاعمال الصالحة وأن يخصه بالرحمة والمغفرة فى يوم القيامة ذكر بعد ذلك ما يدل على وجود

بجملة مقدرة والمعنى وعند الله جزاء مكرهم أو المكر الذى يحيق بهم ان لم يكن مكرهم لتزول منه الجبال وان كان الخ وقد حذف ذلك حذفا مطردا لدلالة المذكور عليه دلالة واضحة فان الشئ اذا تحقق عند وجود المانع القوى فلأن يتحقق عند عدمه أولى وعلى هذه النكتة يدور ما فى ان الوصلية من التأكيد المعنوى والجواب محذوف دل عليه ما سبق وهو قوله تعالى وعند الله مكرهم وقيل ان نافية واللام لتأكيدها كما فى قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وينصره قراءة ابن مسعود رضى الله عنه وما كان مكرهم فالجملة حينئذ حال من الضمير فى مكروا لا من قوله تعالى وعند الله مكرهم أى مكروا مكرهم والحال أن مكرهم لم يكن لتزول منه الجبال على أنها عبارة عن آيات الله تعالى وشرائعه ومعجزاته الظاهرة على أيدى الرسل السالفة عليهم السلام التى هى بمنزلة الجبال الراسيات فى الرسوخ وأما كونها عبارة عن أمر النبى صلى الله عليه وسلم وأمر القرآن العظيم كما قيل فلا مجال له اذ الماكرون هم المهلكون لا الساكنون فى مساكنهم من المخاطبين وان خص الخطاب بالمنذرين وقيل هى مخففة من ان والمعنى انه كان مكرهم ليزول منه ما هو كالجبال فى الثبات مما ذكر من الآيات والشرائع والمعجزات والجملة كما هى حال من ضمير مكروا أى مكروا مكرهم المعهود وان الشان كان مكرهم لازالة الآيات والشرائع ﴿ يوم ﴾ على معنى أنه لم يكن يصح ان يكون منهم مكر كذلك وكان شأن الآيات والشرائع مانعا من مباشرة المكر لازالته وقد قرأ الكسائى لتزول بفتح اللام على أنها الفارقة والمعنى تعظيم مكرهم فالجملة حال من قوله تعالى وعند الله مكرهم أى عنده تعالى جزاء مكرهم أو المكر بهم والحال أن مكرهم بحيث تزول منه الجبال

يوم القيامة وما يدل على صفة يوم القيامة أما الذى يدل على وجود القيامة فهو قوله ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون فالمقصود منه التنبيه على انه تعالى لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم لزم أن يكون اما غافلا عن ذلك الظالم أو عاجزا عن الانتقام أو كان راضيا بذلك الظلم ولما كانت الغفلة والعجز والرضا بالظلم محالا على الله امتنع أن لا ينتقم للمظلوم من الظالم فان قيل كيف يليق بالرسول صلى الله عليه وسلم أن يحسب الله موصوفا بالغفلة والجواب من وجوه (الاول) المراد به التثبيت على ما كان عليه من انه لا يحسب الله غافلا كقوله ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله الها آخر وكقوله يا ايها الذين آمنوا آمنوا (والثانى) ان المقصود منه بيان انه لو لم ينتقم لكان عدم الانتقام لاجل غفلته عن ذلك الظلم ولما كان امتناع هذه الغفلة معلوما لكل أحد لاجرم كان عدم الانتقام محالا (والثالث) ان المراد ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون ولكن معاملة الرقيب عليهم المحاسب على النقير والقطمير (والرابع) أن يكون هذا الكلام وان كان خطابا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الظاهر الا أنه يكون فى الحقيقة خطابا مع الامة وعن سفيان بن عيينة انه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم ثم بين تعالى انه انما يؤخر عقاب هؤلاء الظالمين ليوم موصوف بصفات (الصفة الاولى) انه تشخص فيه الابصار يقال شخص بصر الرجل اذا بقيت عينه مفتوحة لا يطرفها وشخوص البصر يدل على الحيرة والدهشة وسقوط القوة (والصفة الثانية) قوله مهطعين وفى تفسير الاهطاع أقوال أربعة (أحدها) قال أبو عبيدة هو الاسراع يقال اهطع البعير فى سيره واستهطع اذا أسرع وعلى هذا الوجه فالمعنى ان الغالب من حال من يبقى بصره شاخصا من شدة الخوف ان يبقى واقفا فبين الله تعالى ان حالهم بخلاف هذا المعتاد فانهم مع شخوص أبصارهم يكونون مهطعين أى مسرعين نحو ذلك البلاء (القول الثانى) فى الاهطاع قال أحمد بن يحيى المهطع الذى ينظر فى ذل وخشوع (والثالث) المهطع الساكت (والرابع) قال الليث يقال للرجل اذا قر وذل أهطع (الصفة الثالثة) قوله مقنعى رؤسهم والاقناع رفع الرأس والنظر فى ذل وخشوع فقوله مقنعى رؤسهم أى رافعى رؤسهم والمعنى ان المعتاد فيمن يشاهد البلاء انه يطرق رأسه عنه لكى لا يراه فبين تعالى ان حالهم بخلاف هذا المعتاد وانهم يرفعون رؤسهم (الصفة الرابعة) قوله لا يرتد اليهم طرفهم والمراد من هذه الصفة دوام ذلك الشخوص فقوله تشخص فيه الابصار لا يفيد كون هذا الشخوص دائما وقوله لا يرتد اليهم طرفهم يفيد دوام هذا الشخوص وذلك يدل على دوام تلك الحيرة والدهشة فى قلوبهم (الصفة الخامسة) قوله وافئدتهم هواء الهواء الخلاء الذى لم تشغله الاجرام ثم جعل وصفا فقيل قلب فلان هواء اذا كان خاليا لا قوة فيه والمراد بيان ان قلوب الكفار خالية يوم القيامة عن جميع الخواطر والافكار لعظم ما ينالهم من الحيرة ومن كل رجاء وأمل لما تحققوه من العقاب ومن كل سرور لكثرة ما فيه من الحزن اذا عرفت هذه الصفات الخمسة فقد اختلفوا

أى فى غاية الشدة وقرئ بالفتح والنصب على لغة من يفتح لام كى وقرئ وان كاد مكرهم هذا هو الذى يقتضيه النظم الكريم وينساق اليه الطبع السليم وقد قيل ان الضمير فى مكروا للمنذرين والمراد بمكرهم ما أفاده قوله عز وجل واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك الآية وغيره من أنواع مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ولعل الوجه حينئذ أن يكون قوله تعالى وقد مكروا الخ حالا من القول المقدر أى فيقال لهم ما يقال والحال أنهم مع ما فعلوا من الاقسام المذكور مع ما بينا فيه من السكون فى مساكن المهلكين وتبين أحوالهم وضرب الامثال قد مكروا مكرهم العظيم أى لم يكن الصادر عنهم مجرد الاقسام الذى ونحوا به بل اجترؤا على مثل هذه العظيمة وقوله تعالى وعند الله مكرهم حال من ضمير مكروا حسبما ذكرنا من قبل وقوله تعالى وان كان مكرهم لتزول منه الجبال مسوق لبيان عدم تفاوت الحال فى تحقيق الجزاء بين كون مكرهم قويا او ضعيفا كما مر هناك وعلى تقدير كون ان نافية فهو حال من ضمير مكروا والجبال عبارة عن امر النبى صلى الله عليه وسلم أى وقد مكروا والحال أن مكرهم ما كان لتزول منه هاتيك الشرائع والآيات التى هى فى القوة كالجبال وعلى تقدير كونها مخففة من الثقيلة واللام مكسورة يكون حالا منه أيضا على معنى أن ذلك المكر العظيم منهم كان لهذا الغرض على معنى أنه لم يكن يصح أن يكون منهم مكر كذلك لما أن شان الشرائع أعظم من أن يمكر بها ماكر وعلى تقدير فتح اللام فهو حال من قوله تعالى وعند الله مكرهم كما ذكرنا من قبل فليتأمل (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) لم يرد به والله سبحانه أعلم ما وعده بقوله تعالى انا لننصر رسلنا الآية وقوله كتب الله لأغلبن أنا ورسلى كما قيل

فانه لا اختصاص له بالتعذيب لاسيما الاخروى بل ما سلف آنفا من وعده بتعذيب الظالمين بقوله تعالى انما يؤخرهم الآية كما يفصح عنه الفاء الداخلة على النهى الذى أريد به تثبيته عليه الصلاة والسلام على ما كان عليه من الثقة بالله تعالى والتيقن بانجاز وعده المذكور المقرون بالامر بانذارهم يوم اتيان العذاب المتضمن لذكر تعذيب الامم السالفة بسبب كفرهم وعصيانهم رسلهم بعد ما وعدهم بذلك كما فصلت قصة كل منهم فى القرآن العظيم فكأنه قيل واذ قد وعدناك بعذاب الظالمين يوم القيامة وأخبرناك بما يلقونه من الشدائد وبما يسألونه من الرد الى الدنيا وبما أجبناهم به وقرعناهم بعدم تأملهم فى أحوال من سبقهم من الامم الذين أهلكناهم بظلمهم بعد ما وعدنا رسلهم باهلاكهم فدم على ما كنت عليه من اليقين بعدم اخلافنا رسلنا وعدنا (ان الله عزيز) غالب لا يماكر وقادر لا يقادر (ذو انتقام) لاوليائه من أعدائه والجملة تعليل للنهى المذكور وتذييل له وحيث كان الوعد عبارة عما ذكرنا من تعذيبهم خاصة لم يذيل بأن يقال ان الله لا يخلف الميعاد بل تعرض لوصف العزة والانتقام المشعرين بذلك والمراد بالانتقام ما أشير اليه بالفعل وعبر عنه بالمكر (يوم تبدل الارض غير الارض) ظرف لمضمر مستأنف ينسحب عليه النهى المذكور أى يجزيهم يوم الخ او معطوف عليه نحو وارتقب ﴿ كانوا ﴾ يوم تبدل الارض غير الارض أو لانتقام وهو يوم يأتيهم العذاب بعينه ولكن له أحوال جمة يذكر كل مرة بعنوان مخصوص والتقييد به مع عموم انتقامه للاوقات كلها للافصاح عما هو المقصود من تعذيب الكفرة المؤخرة الى ذلك اليوم بموجب الحكمة الداعية اليه وقيل بدل من يوم يأتيهم العذاب أو نصب باذكر

فى وقت حصولها فقيل انها عند المحاسبة بدليل انه تعالى انما ذكر هذه الصفات عقيب وصف ذلك اليوم بأنه يوم يقوم الحساب وقيل انها تحصل عندما يتميز فريق عن فريق والسعداء يذهبون الى الجنة والاشقياء الى النار وقيل بل يحصل عند اجابة الداعى والقيام من القبور والاول أولى للدليل الذى ذكرناه والله أعلم * قوله تعالى (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الامثال) اعلم ان قوله يوم يأتيهم العذاب فيه ابحاث (البحث الاول) قال صاحب الكشاف يوم يأتيهم العذاب مفعول ثان لقوله وأنذر وهو يوم القيامة (البحث الثانى) الالف واللام فى لفظ العذاب للمعهود السابق يعنى وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب الذى تقدم ذكره وهو شخوص أبصارهم وكونهم مهطعين مقنعى رؤسهم (البحث الثالث) الانذار هو التخويف بذكر المضار والمفسرون مجمعون على أن قوله يوم يأتيهم العذاب هو يوم القيامة وحمله أبو مسلم على انه حال المعاينة والظاهر يشهد بخلافه لانه تعالى وصف اليوم بأن عذابهم يأتى فيه وانهم يسألون الرجعة ويقال لهم أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم زوال ولا يليق ذلك الا بيوم القيامة وحجة أبى مسلم ان هذه الآية شبيهة بقوله تعالى وانفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق ثم حكى الله سبحانه ما يقول الكفار فى ذلك اليوم فقال فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل واختلفوا فى المراد بقوله أخرنا الى أجل قريب فقال بعضهم طلبوا الرجعة الى الدنيا ليتلافوا ما فرطوا فيه وقال بعضهم بل طلبوا الرجوع الى حال التكليف بدليل قولهم نجب دعوتك ونتبع الرسل وأما على قول أبى مسلم فتأويل هذه الآية ظاهر فقال تعالى مجيبا لهم أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ومعناه ما ذكره الله تعالى فى آية أخرى وهو قوله تعالى وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت الى غير ذلك مما كانوا يذكرونه من انكار المعاد فقرعهم الله تعالى بهذا القول لان التقريع بهذا الجنس أقوى ومعنى ما لكم من زوال لا شبهة فى انهم كانوا يقولون لا زوال لنا من هذه الحياة الى حياة اخرى ومن هذه الدار الى دار المجازاة لأنهم كانوا ينكرون أن يزولوا عن حياة الى موت أو عن شباب الى هرم أو عن فقر الى غنى ثم انه تعالى زادهم تقريعا آخر بقوله وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم يعنى سكنتم فى مساكن الذين كفروا قبلكم وهم قوم نوح وعاد وثمود وظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية لان من شاهد هذه الاحوال وجب عليه أن يعتبر فاذا لم يعتبر كان مستوجبا للذم والتقريع ثم قال وتبين لكم كيف فعلنا بهم وظهر لكم ان عاقبتهم عادت الى الوبال والخزى والنكال فان قيل ولماذا قيل وتبين لكم كيف فعلنا بهم ولم يكن القوم يقرون بأنه تعالى أهلكهم لاجل تكذيبهم قلنا انهم علموا أن أولئك المتقدمين

كانوا طالبين للدنيا ثم انهم فنوا وانقرضوا فعند هذا يعلمون انه لافائدة فى طلب الدنيا والواجب الجد والاجتهاد فى طلب الدين والواجب على من عرف هذا أن يكون خائفا وجلا فيكون ذلك زجرا له هذا اذا قرئ بالتاء اما اذا قرئ بالنون فلا شبهة فيه لان التقدير كأنه تعالى قال أولم نبين لكم كيف فعلنا بهم وليس كل ما بين لهم تبين وأما قوله وضربنا لكم الامثال فالمراد ما أورده الله فى القرآن مما يعلم به انه قادر على الاعادة كما قدر على الابتداء وقادر على التعذيب المؤجل كما يفعل الهلاك المعجل وذلك فى كتاب الله كثير والله أعلم

* قوله تعالى (وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) اعلم انه تعالى لما ذكر صفة عقابهم أتبعها بذكر كيفية مكرهم فقال وقد مكروا مكرهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى أن الضمير فى قوله وقد مكروا الى ماذا يعود على وجوه (الاول) أن يكون الضمير عائدا الى الذين سكنوا فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وهذا القول الصحيح لان الضمير يجب عوده الى أقرب المذكورات (والثانى) أن يكون المراد به قوم محمد صلى الله عليه وسلم والدليل عليه قوله وأنذر الناس يا محمد وقد مكر قومك مكرهم وذلك المكر هو الذى ذكره الله تعالى فى قوله واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك وقوله مكرهم أى مكرهم العظيم الذى استفرغوا فيه جهدهم (الثالث) ان المراد من هذا المكر ما نقل ان نمروذ حاول الصعود الى السماء فاتخذ لنفسه تابوتا وربط قوائمه الاربع بأربعة نسور وكان قد جوعها ورفع فوق الجوانب الاربعة من التابوت عصيا أربعا وعلق على كل واحدة منهن قطعة لحم ثم انه جلس مع صاحبه فى ذلك التابوت فلما ابصرت النسور تلك اللحوم تصاعدت فى جو الهواء ثلاثة أيام وغابت الدنيا عن عين نمروذ ورأى السماء بحالها فنكس تلك العصى التى علق عليها اللحم فسفلت النسور وهبطت الى الارض فهذا هو المراد من مكرهم قال القاضى وهذا بعيد جدا لان الخطر فيه عظيم ولا يكاد العاقل يقدم عليه وما جاء فيه خبر صحيح معتمد ولا حجة فى تأويل الآية البتة (المسئلة الثانية) قوله وعند الله مكرهم فيه وجهان (الاول) أن يكون المكر مضافا الى الفاعل كالاول والمعنى ومكتوب عند الله مكرهم فهو يجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه (والثانى) أن يكون المكر مضافا الى المفعول والمعنى وعند الله مكرهم الذى يمكره بهم وهو عذابهم الذى يستحقونه يأتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون أما قوله تعالى وان كان مكرهم لتزول منه الجبال فاعلم انه قرأ الكسائى وحده لتزول بفتح اللام الاولى ورفع اللام الاخرى منه والباقون بكسر الاولى ونصب الثانية أما القراءة الاولى فمعناها ان مكرهم كان معدا لأن تزول منه الجبال وليس المقصود من هذا الكلام الاخبار عن وقوعه بل التعظيم والتهويل وهو كقوله تكاد السموات يتفطرن منه وأما القراءة الثانية فالمعنى ان لفظة ان فى قوله وان كان مكرهم بمعنى ما واللام المكسورة بعدها يعنى بها الجحد ومن سبيلها نصب الفعل المستقبل والنحويون يسمونها لام الجحد ومثله قوله تعالى وما كان الله

أو باضمار لا يخلف وعده يوم تبدل الخ وفيه أيضا ما فى الوجه الثالث من الحاجة الاعتذار ولا يجوز أن ينتصب بقوله مخلف وعده لان ما قبل ان لا يعمل فيما بعده وقيل هو غير مانع لان قوله تعالى ان الله عزيز ذو انتقام جملة اعتراضية فلا يبالى بها فاصلا واعلم أن التبديل قد يكون فى الذات كما فى بدلت الدراهم دنانير وعليه قوله عز وجل بدلناهم جلودا غيرها وقد يكون فى الصفات كما فى قولك بدلت الحلقة خاتما اذا غيرت شكلها ومنه قوله تعالى يبدل الله سيئاتهم حسنات على بعض الاقوال والآية الكريمة ليست بنص فى أحد الوجهين فعن على رضى الله عنه تبدل أرضا من فضة وسموات من ذهب وعن ابن مسعود رضى الله عنه تبدل الارض بأرض كالفضة بيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم يعمل عليها خطيئة وعن ابن عباس رضى الله عنهما هى تلك الارض وانما تغير صفاتها وأنشد

وما الناس بالناس الذين عهدتهم * وما الدار بالدار التى كنت تعلم *

وتبدل السموات بانتشار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبوابا ويدل عليه ما روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال تبدل الارض غير الارض فتبسط وتمد مد الاديم العكاظى لا ترى فيها عوجا ولا أمتا (والسموات) أى وتبدل السموات غير السموات حسبما مر من التفصيل وتقديم تبديل الارض لقربها منا ولكون تبديلها أعظم أثرا بالنسبة الينا (وبرزوا) أى الخلائق أو الظالمون المدلول عليهم بمعونة السباق والمراد بروزهم من أجداثهم التى فى بطون الارض أو ظهورهم بأعمالهم التى كانوا يعملونها سرا ويزعمون انها لا تظهر أو يعملون عمل من يزعم ذلك ولعل اسناد البروز اليهم مع أنه لاعمالهم للايذان بتشكلهم بأشكال تناسبها

وهومعطوف على تبدل والعدول الى صيغة الماضي للدلالة على تحقق وقوعه أوحال من الارض بتقدير قدوالرابط بينها و بين صاحبها الواو (لله الواحد القهار) للحساب والجزاء والتعرض للوصفين لتهويل الخطب وتربية المهابة واظهار بطلان الشرك وتحقيق الانتقام في ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفاله وتحقيق اتيان العذاب الموعود على تقدير كونه بدلا من يوم يأتيهم العذاب فان الامر اذا كان الواحد غلاب لايعار وقادر لايضار ولايغار كان في غاية مايكون من الشدة والصعوبة (وترى المجرمين) عطف على برزوا والعدول الى صيغة المضارع لاستحضار الصورة أوللدلالة على الاستمرار وأما البروز فهو دفعى لااستمرار فيه وعلى تقدير حالية برزوا فهو معطوف على تبدل و يجوز عطفه على عامل الظرف المقدم على تقدير كونه ينجزه (يومئذ) يوم اذ برزوا لله عزوجل أو يوم اذ تبدل الارض أو يوم اذ ينجز وعده (مقرنين) قرن بعضهم مع بعض حسب اقترانهم في الجرائم والجرائر أوقرنوا مع الشياطين الذين أغووهم أوقرنوا مع مااقترفوا من العقائد الزائغة والملكات الردية والاعمال السيئة غب تصوركل منها وتشكلها بمايناسبها من الصورة الموحشة والاشكال الهائلة أوقرنت أيديهم وأرجلهم الى رقابهم وهو حال من المجرمين (في الاصفاد) في القيود أوالاغلال وهو امامتعلق بقوله تعالى مقرنين أوحال من ضميره أى مصفدين (سرابيلهم) أى قمصانهم (من قطران) جملة من مبتدا وخبر محلها النصب على الحالية من المجرمين أومن ضميرهم في مقرنين رابطتها الضمير فقط كما في كلمته فوه الى في أومستأنفة والقطران مايتحلب من الابهل فيطبخ فتهنأ به الابل الجربى فيحرق الجرب بمافيه من الحدة الشديدة وقدتصل حرارته

ليطلعكم على الغيب ما كان الله ليذر المؤمنين والجبال ههنا مثل لامر النبي صلى الله عليه وسلم ولامر دين الاسلام واعلامه ودلالته على معنى ان ثبوتها كثبوت الجبال الراسية لان الله تعالى وعد نبيه اظهار دينه على كل الاديان و يدل على صحة هذا المعنى قوله تعالى بعد هذه الآية فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله أى قد وعدك الظهور عليهم والغلبة لهم والمعنى وما كان مكرهم لتزول منه الجبال أى وكان مكرهم أوهن واضعف من أن تزول منه الجبال الراسيات التي هي دين محمد صلى الله عليه وسلم ودلائل شريعته وقرأ علي وعمرو أن كان مكرهم * قوله تعالى (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ان الله عزيز ذوانتقام) اعلم انه تعالى قال في الآية الاولى ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون وقال في هذه الآية فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله والمقصود منه التنبيه على انه تعالى اولم يقم القيامة ولم ينتقم للمظلومين من الظالمين لزم اما كونه غافلا واما كونه مخلفا في الوعد ولما تقرر في العقول السليمة ان كل ذلك محال كان القول بأنه لايقيم القيامة باطلا وقوله مخلف وعده رسله يعني قوله انا لننصر رسلنا وقوله كتب الله لأغلبن أنا ورسلي فان قيل هلا قيل مخلف رسله وعده ولم قدم المفعول الثاني على الاول قلنا ليعلم انه لايخلف الوعد أصلا لان الله لايخلف الميعاد ثم قال رسله ليدل به على انه تعالى لما لم يخلف وعده أحدا وليس من شأنه اخلاف المواعيد فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته وقرئ مخلف وعده رسله بجر الرسل ونصب الوعد والتقدير مخلف رسله وعده وهذه القراءة في الضعف كمن قرأ قتل أولادهم شركائهم ثم قال ان الله عزيز أى غالب لايماكر ذوانتقام لأوليائه * قوله تعالى (يوم تبدل الارض غير الارض والسموات و برزوا لله الواحد القهار وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الاصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزي الله كل نفس ما كسبت ان الله سريع الحساب هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو اله واحد وليذكر أولوا الالباب) اعلم ان الله تعالى لما قال عزيز ذوانتقام بين وقت انتقامه فقال يوم تبدل الارض غير الارض وعظم من حال ذلك اليوم لانه لا أمر اعظم في العقول والنفوس من تغيير السموات والارض وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) ذكر الزجاج في نصب يوم وجهين اما على الظرف لانتقام أو على البدل من قوله يوم يأتيهم العذاب (المسئلة الثانية) اعلم ان التبديل يحتمل وجهين أحدهما أن تكون الذات باقية وتبدل صفتها بصفة اخرى والثاني أن تفنى الذات الاولى وتحدث ذات اخرى والدليل على ان ذكر لفظ التبدل لارادة التغير في الصفة جائز أنه يقال بدلت الحلقة خاتما اذا اذبتها وسويتها خاتما فنقلتها من شكل الى شكل ومنه قوله تعالى فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات و يقال بدلت قميصي جبة أى نقلت العين من صفة الى صفة اخرى و يقال تبدل زيد اذا تغيرت أحواله وأما ذكر لفظ التبديل عند وقوع التبدل في الذوات فكقولك بدلت الدارهم دنانير ومنه قوله بدلناهم جلودا غيرها وقوله بدلناهم بجنتيهم جنتين اذا

عرفت ان اللفظ محتمل لكل واحد من هذين المفهومين فى الآية قولان (الاول) ان المراد تبديل الصفة لاتبديل الذات قال ابن عباس رضى الله عنهما هى تلك الارض الا أنها تغيرت فى صفاتها فتسير عن الارض جبالها وتفجر بحارها وتسوى فلا يرى فيها عوج ولا أمت وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى عليه وسلم انه قال يبدل الله الارض غير الارض فيبسطها ويمدها مد الاديم العكاظى فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا وقوله والسموات أى تبدل السموات غير السموات وهو كقوله عليه السلام لايقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد فى عهده والمعنى ولا ذو عهد فى عهده بكافر وتبديل السموات بانتثار كواكبها وانفطارها وتكوير شمسها وخسوف قمرها وكونها أبوابا وأنها تارة تكون كالمهل وتارة تكون كالدهان (والقول الثانى) ان المراد تبديل الذات قال ابن مسعود تبدل بأرض كالفضة البيضاء النقية لم يسفك عليها دم ولم تعمل عليها خطيئة فهذا شرح هذين القولين ومن الناس من رجح القول الاول قال لان قوله يوم تبدل الارض المراد هذه الارض والتبدل صفة مضافة اليها وعند حصول الصفة لابد وأن يكون الموصوف موجودا فلما كان الموصوف بالتبدل هو هذه الارض وجب كون هذه الارض باقية عند حصول ذلك التبدل ولا يمكن أن تكون هذه الارض باقية مع صفاتها عند حصول ذلك التبدل والا لامتنع حصول التبدل فوجب أن يكون الباقى هو الذات فثبت ان هذه الآية تقتضى كون الذات باقية والقائلون بهذا القول هم الذين يقولون ان عند قيام القيامة لايعدم الله الذوات والاجسام وانما يعدم صفاتها وأحوالها واعلم انه لايبعد أن يقال المراد من تبديل الارض والسموات هو انه تعالى يجعل الارض جهنم ويجعل السموات الجنة والدليل عليه قوله تعالى كلا ان كتاب الابرار لفى عليين وقوله كلا ان كتاب الفجار لفى سجين والله أعلم أما قوله تعالى وبرزوا لله الواحد القهار فنقول أما البروز لله فقد فسرناه فى قوله تعالى وبرزوا لله جميعا وانما ذكر الواحد القهار ههنا لان الملك اذا كان لمالك واحد غلاب لايغالب قهار لايقهر فلا مستغاث لاحد الى غيره فكان الامر فى غاية الصعوبة ونظيره قوله لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ولما وصف نفسه سبحانه بكونه قهارا بين عجزهم وذلتهم فقال وترى المجرمين يومئذ واعلم أنه تعالى ذكر من صفات عجزهم وذلتهم أمورا (فالصفة الاولى) كونهم مقرنين فى الاصفاد يقال قرنت الشئ بالشئ اذا شددته به ووصلته والقران اسم للحبل الذى يشد به شيا ٓن وجاء ههنا على التكثير لكثرة أولئك القوم والصفاد جمع صفد وهو القيد اذا عرفت هذا فنقول فى قوله مقرنين ثلاثة أوجه (أحدها) قال الكلبى مقرنين كل كافر مع شيطان فى غل وقال عطاء هو معنى قوله واذا النفوس زوجت أى قرنت فيقرن الله تعالى نفوس المؤمنين بالحور العين ونفوس الكافرين بقرنائهم من الشياطين واقول حظ البحث العقلى منه ان الانسان اذا فارق الدنيا فاما ان يكون قد راض نفسه وهذبها ودعاها الى معرفة الله تعالى وطاعته ومحبته

الى الجوف وهو أسود منتن يسرع فيه اشتعال النار يطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسراويل ليجتمع عليهم الالوان الاربعة من العذاب لذعه وحرقته واسراع النار فى جلودهم واللون الموحش والنتن على أن التفاوت بينه وبين ما نشاهده وبين النارين لايكاد يقادر قدره فكأن ما نشاهده منهما أسماء مسمياتها فى الآخرة فبكرمه العميم نعوذ وبكنفه الواسع نلوذ ويحتمل أن يكون ذلك تمثيلا لما يحيط بجوهر النفس من الملكات الردية والهنات الوحشية فتجلب اليها الآلام والغموم بل وأن يكون القطران المذكور هين مالابسوه فى هذه النشأة وجعلوه شعارا لهم من العقائد الباطلة والاعمال السيئة المستجلبة لفنون العذاب قد تجسدت فى النشاة الآخرة بتلك لصورة المستتبعة لاشتداد العذاب عصمنا الله سبحانه عن ذلك بمنه ولطفه وقرئ من قطر آن أى نحاس مذاب متناه حره (وتغشى وجوههم النار) أى تعلوها وتحيط بها النار التى تمس جسدهم المسربل بالقطران وتخصيص الوجوه بالحكم المذكور مع عمومه السائر أعضائهم لكونها أعز الاعضاء الظاهرة وأشرفها كقوله تعالى أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب الخ ولكونها مجمع المشاعر والحواس

أومافعل ذلك بل تركها متوغلة فى اللذات الجسدانية مقبلة على الاحوال الوهمية والخيالية فان كان الاول فتلك النفس تفارق مع تلك البهجة بالحضرة الالهية والسعادة بالعناية الصمدانية وان كان الثانى فتلك النفس تفارق مع الاسف والحزن والبلاء الشديد بسبب الميل الى عالم الجسم وهذا هو المراد بقوله واذا النفوس زوجت وشيطان النفس الكافرة هى الملكات الباطلة والحوادث الفاسدة وهو المراد من قول عطاء ان كل كافر مع شيطانه يكون مقرونا فى الاصفاد (والقول الثانى) فى تفسير قوله مقرنين فى الاصفاد وهو قرن بعض الكفار ببعض والمراد ان تلك النفوس الشقية والارواح المكدرة الظلمانية لكونها متجانسة متشاكلة ينضم بعضها الى بعض وتنادى ظلمة كل واحدة منها الى الاخرى فانحدار كل واحدة منها الى الاخرى فى تلك الظلمات والخسارات هى المراد بقوله مقرنين فى الاصفاد (والقول الثالث) قال زيد بن ارقم قرنت أيديهم وارجلهم الى رقابهم بالاغلال وحظ العقل من ذلك ان الملكات الحاصلة فى جوهر النفس انما تحصل بتكرير الافعال الصادرة من الجوارح والاعضاء فاذا كانت تلك الملكات ظلمانية كدرة صارت فى المثال كان أيديها وأرجلها قرنت وغلت فى رقابها وأما قوله فى الاصفاد ففيه وجهان أحدهما أن يكون ذلك متعلقا بمقرنين والمعنى يقرنون بالاصفاد والثانى أن لا يكون متعلقا به والمعنى انهم مقرنون مقيدون وحظ العقل معلوم مما سلفت الاشارة اليه (الصفة الثانية) قوله تعالى سرابيلهم من قطران السرابيل جمع سربال وهو القميص والقطران فيه ثلاث لغات قطران وقطران وقطران بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء وبفتح القاف وكسر الطاء وهو شئ يتحلب من شجر يسمى الابهل فيطبخ و يطلى به الابل الجرب فيحرق الجرب بحرارته وحدته وقد تصل حرارته الى داخل الجوف ومن شأنه أن يتسارع فيه اشتعال النار وهو أسود اللون منتن الريح فتطلى به جلود أهل النار حتى يصير ذلك الطلى كالسرابيل وهى القميص فيحصل بسببها أربعة أنواع من العذاب لدع القطران وحرقته واسراع النار فى جلودهم واللون الوحش ونتن الريح وأيضا التفاوت بين قطران القيامة وقطران الدنيا كالتفاوت بين النارين وأقول حظ العقل من هذا ان جوهر الروح جوهر مشرق لامع من عالم القدس وغيبة الجلال وهذا البدن جار مجرى السربال والقميص له وكل ما يحصل للنفس من الآلام والغموم فانما يحصل بسبب هذا البدن فلهذا البدن لذع وحرقة فى جوهر النفس لان الشهوة والحرص والغضب انما تسارع الى جوهر الروح بسببه وكونه للكثافة والكدورة والظلمة هو الذى يخفى لمعان الروح وضوءه وهو سبب لحصول النتن والعفونة فشبه هذا الجسد بسرابيل من القطران والقطر وقرأ بعضهم من قطران والقطر النحاس أو الصفر المذاب والآنى المتناهى حره قال ابو بكر بن الانبارى وتلك النار لا تبطل ذلك القطران ولا تفنيه كما لا تهلك النار أجسادهم والاغلال التى كانت عليهم (الصفة الثالثة) قوله تعالى

التى خلقت لادراك الحق وقد أعرضوا عنه ولم يستعملوها فى تدبره كما أن الفؤاد أشرف الاعضاء الباطنة ومحل المعرفة وقد ملؤها بالجهالات ولذلك قيل تطلع على الافئدة أو لخلوها عن القطران المغنى عن ذكر غشيان النار لها ولعل تخليتها عنه ليتعارفوا عند انكشاف اللهب أحيانا و يتضاعف عذابهم بالخزى على رؤس الاشهاد وقرئ تغشى أى تتغشى بحذف احدى التاءين والجملة نصب على الحالية لا على أن الواو حالية لانه مضارع مثبت بل على أنها معطوفة على الحال قاله أبو البقاء (ليجزى الله) متعلق بمضمر أى يفعل بهم ذلك ليجزى (كل نفس) مجرمة (ما كسبت) من أنواع الكفر والمعاصى جزاء موافقا لعملها وفيه ايذان بأن جزاءهم مناسب لاعمالهم أو بقوله برزوا على تقدير كونه معطوفا على تبدل والضمير للخلق وقوله وترى المجرمين الخ اعتراض بين المتعلق والمتعلق به أى برزوا للحساب ليجزى الله كل نفس مطيعة أو عاصية ما كسبت من خير أو شر وقد اكتفى بذكر عقاب العصاة تعويلا على شهادة الحال لاسيما مع ملاحظة سبق الرحمة الواسعة (ان الله سريع الحساب) اذ لا يشغله شان عن شأن فيتمه فى أعجل ما يكون من الزمان فيوفى الجزاء بحسبه أو سريع المجئ يأتى عن

قريب أوسريع الانتقام كماقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى وهو سريع الحساب (هذا) أى ماذكر من قوله سبحانه ولاتحسبن الله غافلا الى قوله سريع الحساب (بلاغ) كفاية فى العظة والتذكير من غير حاجة الى ماانطوى عليه السورة الكريمة أوكل القرآن المجيد من فنون العظات والقوارع (للناس) للكفار خاصة على تقدير اختصاص الانذار بهم فى قوله تعالى وأنذر الناس أو لهم وللمؤمنين كافة على تقدير شموله لهم أيضا وان كان ماشرح مختصا بالظالمين (ولينذروا به) عطف على مقدر واللام متعلقة بالبلاغ أى كفاية لهم فى أن ينصحوا وينذروا به أوهذا بلاغ لهم ليفهموه ولينذروا به على أن البلاغ بمعنى الابلاغ كمافى قوله تعالى ماعلى الرسول الا البلاغ أومتعلقة بمحذوف أى ولينذروا به انزل أوتلى وقرئ لينذروا به من نذر بالشئ اذاعلمه وحذره واستعد له (وليعلموا) بالتأمل فيما فيه من الدلائل الواضحة التى هى اهلاك الامم واسكان آخرين مساكنهم وغيرهما مماسبق ولحق (أنما هواله واحد) لاشريك له وتقديم الانذار لانه الداعى الى التأمل المؤدى الى ماهو غايةله من العلم المذكور والتذكر فى قوله تعالى (وليذكر أولو الالباب) أى ليتذكروا ماكانوا يعملونه

وتغشى وجوههم النار ونظيره قوله تعالى أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقوله يوم يسحبون فى النار على وجوههم واعلم ان موضع المعرفة والنكرة والعلم والجهل هو القلب وموضع الفكر والوهم والخيال هوالرأس وأثر هذه الاحوال انماظهر فى الوجه فلهذا السبب خص الله تعالى هذين العضوين بظهور آثار العقاب فيهما فقال فى القلب نارالله الموقدة التى تطلع على الافئدة وقال فى الوجه وتغشى وجوههم النار بمعنى تتغشى ولما ذكر تعالى هذه الصفات الثلاثة قال ليجزى الله كل نفس ماكسبت قال الواحدى المرادمنه أنفس الكفار لان ماسبق ذكره لايليق أن يكون جزاء لاهل الايمان وأقول يمكن اجراء اللفظ على عمومه لان لفظ الآية يدل على أنه تعالى يجزى كل شخص بما يليق بعمله وكسبه ولما كان كسب هؤلاء الكفار الكفر والمعصية كان جزاؤهم هو هذا العقاب المذكور ولما كان كسب المؤمنين الايمان والطاعة كان اللائق بهم هوالثواب وأيضا انه تعالى لماعاقب المجرمين بجرمهم فلأن يثيب المطيعين على طاعتهم كان أولى ثم قال تعالى ان الله سريع الحساب والمراد أنه تعالى لايظلمهم ولايزيد على عقابهم الذى يستحقونه وحظ العقل منه أن الاخلاق الظلمانية هى المبادى لحصول الآلام الروحانية وحصول تلك الاخلاق فى النفس على قدر صدور تلك الاعمال منهم فى الحياة الدنيا فان الملكات النفسانية انما تحصل فى جوهر النفس بسبب الافعال المتكررة وعلى هذا التقدير فتلك الآلام تتفاوت بحسب تلك الافعال فى كثرتها وقلتها وشدتها وضعفها وذلك يشبه الحساب ثم قال تعالى هذا بلاغ الناس أى هذا التذكير والموعظة بلاغ للناس أى كفاية فى الموعظة ثم اختلفوا فقيل ان قوله هذا اشارة الى كل القرآن وقيل بل اشارة الى كل هذه السورة وقيل بل اشارة الى المذكور من قوله ولاتحسبن الى قوله سريع الحساب وأماقوله ولينذروا به فهو معطوف على محذوف أى لينتصحوا ولينذروا به أى بهذا البلاغ ثم قال وليعلموا أنما هواله واحد وليذكر أولوا الالباب وفيه مسائل(المسئلة الاولى) قد ذكرنا فى هذا الكتاب مرارا ان النفس الانسانية لها شعبتان القوة النظرية وكمال حالها فى معرفة الموجودات بأقسامها واجناسها وأنواعها حتى تصير النفس كالمرآة التى يتجلى فيها اقدس الملكوت ويظهر فيها جلال اللاهوت ورئيس هذه المعارف والجلاء معرفة توحيد الله بحسب ذاته وصفاته وافعاله والشعبة الثانية القوة العملية وسعادتها فى آن تصير موصوفة بالاخلاق الفاضلة التى تصير مبادى لصدور الافعال الكاملة عنها ورئيس سعادات هذه القوة طاعة الله وخدمته اذاعرفت هذا فنقول قوله وليعلموا انما هواله واحد اشارة الى مايجرى مجرى الرئيس لكمال حال القوة النظرية وقوله وليذكر أولوا الالباب اشارة الى مايجرى مجرى الرئيس لكمال حال القوة العملية فان الفائدة فى هذا التذكر انما هو الاعراض عن الاعمال الباطلة والاقبال على الاعمال الصالحة وهذه الخاتمة كالدليل القاطع فى انه

لاسعادة للانسان الامن هاتين الجهتين (المسئلة الثانية) هذه الآيات مشعرة بأن التذكير بهذه المواعظ والنصائح يوجب الوقوف على التوحيد والاقبال على العمل الصالح والوجه فيه ان المرء اذا سمع هذه التخويفات والتحذيرات عظم خوفه واشتغل بالنظر والتأمل فوصل الى معرفة التوحيد والنبوة واشتغل بالاعمال الصالحة (المسئلة الثالثة) قال القاضى أول هذه السورة وآخرها يدل على ان العبد مستقل بفعله ان شاء اطاع وان شاء عصى أما أول السورة فهو قوله تعالى لتخرج الناس من الظلمات الى النور فانا قد ذكرنا هناك ان هذا يدل على ان المقصود من انزال الكتاب ارشاد الخلق كلهم الى الدين والتقوى ومنعهم عن الكفر والمعصية وأما آخر السورة فلان قوله وليتذكر أولوا الالباب يدل على أنه تعالى انما أنزل هذه السورة وانما ذكر هذه النصائح والمواعظ لاجل أن ينتفع الخلق بها فيصيروا مؤمنين مطيعين و يتركوا الكفر والمعصية فظهر ان أول هذه السورة وآخرها متطابقان فى افادة هذا المعنى واعلم ان الجواب المستقصى عنه مذكور فى أول السورة فلا فائدة فى الاعادة (المسئلة الرابعة) هذه الآية دالة على أنه لافضيلة للانسان ولامنقبة له الا بسبب عقله لانه تعالى بين أنه انما أنزل هذه الكتب وانما بعث الرسل لتذكير أولى الالباب فلولا الشرف العظيم والمرتبة العالية لأولى الالباب لما كان الامر كذلك قال المصنف رحمه الله تعالى ورضى عنه تم تفسير هذه السورة يوم الجمعة فى أواخر شعبان سنة احدى وستمائة ختم بالخير والغفران فى صحراء بغداد ونسأل الله الخلاص من الغموم والاحزان والفوز بدرجات الجنان والخلاص من دركات النيران انه الملك المنان الرحيم الديان بحمد الله وحسن توفيقه وصلاته وسلامه على خاتم النبيين محمد وآله وسلم

(سورة الحجر تسعون وتسع آيات مكية)

❁ (بسم الله الرحمن الرحيم) ❁

(الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ذرهم يأكلوا و يتمتعوا و يلههم الامل فسوف يعلمون) اعلم ان قوله تلك اشارة الى ما تضمنته السورة من الآيات والمراد بالكتاب والقرآن المبين الكتاب الذى وعد الله تعالى به محمدا صلى الله عليه وسلم وتنكير القرآن للتفخيم والمعنى تلك الآيات آيات ذلك الكتاب الكامل فى كونه كتابا وفى كونه قرآنا مفيد البيان أما قوله ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وعاصم ربما خفيفة الباء والباقون مشددة قال أبوحاتم أهل الحجاز يخففون ربما وقيس و بكر يثقلونها وأقول فى هذه اللفظة لغات وذلك لان الراء من رب وردت مضمومة ومفتوحة أما اذا كانت مضمومة فالباء قد وردت مشددة ومخففة وساكنة وعلى كل التقديرات تارة مع حرف ما وتارة بدونها وأيضا تارة مع التاء وتارة بدونها وأنشدوا

من قبل من التوحيد وغيره من شؤن الله عز وجل ومعاملته مع عباده فيرتدعوا عما يرديهم من الصفات التى يتصف بها الكفار و يتدرعوا بما يحظيهم من العقائد الحقة والاعمال الصالحة وفى تخصيص التذكر بأولى الالباب تلويح باختصاص العلم بالكفار ودلالة على أن المشار اليه بهذا ماذكرنا من القوارع المسوقة لشأنهم لا كل السورة المشتملة عليها وعلى ماسبق للمؤمنين أيضا فان فيه مايفيدهم فائدة جديدة وحيث كان مايفيده البلاغ من التوحيد وما يترتب عليه من الاحكام بالنسبة الى الكفرة أمرا حادثا و بالنسبة الى أولى الالباب الثبات على ذلك حسبما أشير اليه عبر عن الاول بالعلم وعن الثانى بالذكر وروعى ترتيب الوجود مع مافيه من الختم بالحسنى والله سبحانه أعلم ختم الله لنا بالسعادة والحسنى ورزقنا الفوز بمرضاته فى الأولى والعقبى آمين * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة ابراهيم أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من عبد الاصنام ومن لم يعبد والحمد لله وحده *(سورة الحجر مكية وهى تسع وتسعون آية)*(بسم الله الرحمن الرحيم) (الر) قدمر الكلام فيه وفى محله فى مطلع سورة الرعد وأخواتها (تلك) إشارة اليه أى ﴿أسمى﴾ تلك السورة العظيمة الشان (آيات الكتاب) الكامل المعهود الغنى عن الوصف به المشهور بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به

أسمى ما يدريك أن رب فتية * باكرت لذتهم بأ ذكر مسرع

ورب بتسكين الباء وأنشدوا بيت الهذلى

أزهيران يشب القذال فاننى * رب هيضل مرس كففت بهيضل

والهيضل جماعة متسلحة وأيضا هذه الكلمة قد تجىء حالتى تشديد الباء وتخفيفها مع حرف ما كقولك ربما وربما وتارة مع التاء وحرف ما كقولك ربتما وربتما هذا كله اذا كانت الراء من رب مضمومة وقد تكون مفتوحة فيقال رب وربما وربتما حكاه قطرب قال أبو على من الحروف ما دخل عليه حرف التأنيث نحو ثم وثمت ورب وربت ولا ولات فهذه اللغات بأسرها رواها الواحدى فى البسيط (المسئلة الثانية) رب حرف جر عند سيبويه ويلحقها ما على وجهين أحدهما أن تكون نكرة بمعنى شئ وذلك كقوله

رب ما تكره النفوس من الامر * له فرجة كحل العقال

فما فى هذا البيت اسم والدليل عليه عود الضمير اليه من الصفة فان المعنى رب شئ تكرهه النفوس واذا عاد الضمير اليه كان اسما ولم يكن حرفا كما ان قوله تعالى أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين لما عاد الضمير اليه علمنا بذلك انه اسم ومما يدل على ان ما قد يكون اسما اذا وقعت بعد رب وقوع من بعدها فى قول الشاعر

يا رب من يبغض أزوادنا * رحن على بغضائه واغتدين

فكما دخلت رب على كلمة من وكانت نكرة فكذلك تدخل على كلمة ما فهذا ضرب والضرب الآخر أن تدخل ما كافة كما فى هذه الآية والنحويون يسمون ما هذه الكافة يريدون انها بدخولها كفت الحرف عن العمل الذى كان له واذا حصل هذا الكف فحينئذ تتهيأ للدخول على ما لم تكن تدخل عليه ألا ترى ان رب انما تدخل على الاسم المفرد نحو رب رجل يقول ذاك ولا تدخل على الفعل فلما دخلت ما عليها هيأتها للدخول على الفعل كهذه الآية والله أعلم (المسئلة الثالثة) اتفقوا على ان رب موضوعة للتقليل وهى فى التقليل نظيرة كم فى التكثير فاذا قال الرجل ربما زارنا فلان دل ربما على تقليله الزيادة قال الزجاج ومن قال ان رب يعنى بها الكثرة فهو ضد ما يعرفه أهل اللغة وعلى هذا التقدير فههنا سؤال وهو ان تمنى الكافر الاسلام مقطوع به وكلمة رب تفيد الظن وأيضا ان ذلك التمنى يكثر ويتصل فلا يليق به لفظة ربما مع انها تفيد التقليل والجواب عنه من وجوه (الاول) ان من عادة العرب انهم اذا أرادوا التكثير ذكروا لفظا وضع للتقليل واذا أرادوا اليقين ذكروا لفظا وضع للشك والمقصود منه اظهار التوقع والاستغناء عن التصريح بالغرض فيقولون ربما ندمت على ما فعلت ولعلك تندم على فعلك وان كان العلم حاصلا بكثرة الندم ووجوده بغير شك ومنه قول القائل

* قد أترك القرن مصفرا أنامله *

(والوجه الثانى) فى الجواب ان هذا التقليل أبلغ فى التهديد ومعناه انه يكفيك قليل الندم فى كونه زاجرا لك عن هذا العمل فكيف كثيره

على الاطلاق أى بعض منه مترجم مستقل باسم خاص فهو عبارة عن جميع القرآن او عن الجميع المنزل اذ ذاك اذ هو المتسارع الى الفهم حينئذ عند الاطلاق وعليه يترتب فائدة وصف الآيات بنعت ما أضيفت اليه من نعوت الكمال لا على جعله عبارة عن السورة اذ هى فى الاتصاف بذلك ليست بتلك المرتبة من الشهرة حتى يستغنى عن التصريح بالوصف على أنها عبارة عن جميع اياتها فلا بد من جعل تلك اشارة الى كل واحدة منها وفيه من التكليف ما لا يخفى كما ذكر فى سورة الرعد (وقرآن) أى قرآن عظيم الشأن (مبين) مظهر لما فى تضاعيفه من الحكم والاحكام أو لسبيل الرشد والغى أو فارق بين الحق والباطل والحلال والحرام ولقد فخم شأنه العظيم مع ما جمع فيه من وصفى الكتابية والقرآنية على طريقتين احداهما اشتماله على صفات كمال جنس الكتب الالهية فكأنه كلها والثانية طريقة كونه ممتازا عن غيره نسيج وحده بديعا فى بابه خارجا عن دائرة البيان وأخرت الطريقة الثانية لما أن الاشارة الى امتيازه عن سائر الكتب بعد التنبيه على انطوائه على كمالات غيره من الكتب أدخل فى المدح كى لا يتوهم من أول الامر أن امتيازه عن غيره لاستقلاله بأوصاف خاصة به من غير اشتمال على نعوت كمال سائر الكتب الكريمة وهكذا الكلام فى فاتحة سورة النمل خلا أنه قدم فيها القرآن على الكتاب لما سيذكر هناك ولما بين كون السورة الكريمة

بمضامين الكتاب والقرآن لتوجيه المخاطبين الى حسن تلقي ما فيهما من الاحكام والقصص والمواعظ شرع في بيان ما تضمنه فقيل (ربما) بضم الراء وتخفيف الباء المفتوحة وقرئ بالتشديد وبفتح الراء مخففا وبزيادة الهاء مشددا وفيه ثماني لغات فتح الراء وضمها مشددا ومخففا وبزيادة التاء أيضا مشددا ومخففا ورب حرف جر لا يدخل الا على الاسم وما كافة مصححة لدخوله على الفعل وحقه الدخول على الماضي ودخوله على قوله تعالى (يود الذين كفروا) لما أن المترقب في اخباره تعالى كالماضي المقطوع في تحقق الوقوع فكأنه قيل ربما ود الذين كفروا والمراد كفرهم بالكتاب والقرآن وبكونه من عند الله تعالى (لو كانوا مسلمين) منقادين لحكمه ومذعنين لامره وفيه ايذان بأن كفرهم انما كان بالجحود بعد ما علموا كونه من عند الله تعالى وتلك الودادة يوم القيامة أو عند موتهم أو عند معاينة حالهم وحال المسلمين أو عند رؤيتهم خروج عصاة المسلمين من النار روى أبو موسى الاشعري رضي الله عنه أنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة واجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله تعالى من أهل القبلة قال لهم الكفار ألستم مسلمين قالوا ﴿ وجه ﴾ بلى قالوا فما أغنى عنكم اسلامكم وقد صرتم معنا الى النار قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيغضب الله سبحانه لهم بفضل رحمته فيأمر بكل من كان من أهل القبلة في النار فيخرجون

(والوجه الثالث) في الجواب انه يشغلهم العذاب عن تمني ذلك الا في القليل (المسئلة الرابعة) اتفقوا على ان كلمة رب مختصة بالدخول على الماضي كما يقال ربما قصدني عبد الله ولا يكاد يستعمل المستقبل بعدها وقال بعضهم ليس الامر كذلك والدليل عليه قول الشاعر ربما تكره النفوس من الامر وهذا الاستدلال ضعيف لانا بينا ان كلمة رب في هذا البيت داخلة على الاسم وكلامنا في انها اذا دخلت على الفعل وجب كون ذلك الفعل ماضيا فأين أحدهما من الآخر الا أني أقول قول هؤلاء الادباء لا يجوز دخول هذه الكلمة على الفعل المستقبل لا يمكن تصحيحه بالدليل العقلي وانما الرجوع فيه الى النقل والاستعمال ولو أنهم وجدوا بيتا مشتملا على هذا الاستعمال لقالوا انه جائز صحيح وكلام الله أقوى وأجل وأشرف فلم لم يتمسكوا بوروده في هذه الآية على جوازه وصحته ثم نقول ان الادباء أجابوا عن هذا السؤال من وجهين (الاول) قالوا ان المترقب في اخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه فكأنه قيل ربما ودوا (الثاني) ان كلمة ما في قوله ربما يود الذين كفروا اسم ويود صفة له والتقدير رب شيء يوده الذين كفروا قال الزجاج ومن زعم ان الآية على اضمار كان وتقديره ربما كان يود الذين كفروا فقد خرج بذلك عن قول سيبويه الا ترى ان كان لا تضمر عنده ولم يجز عبد الله المقبول وأنت تريد كان عبد الله المقبول (المسئلة الخامسة) في تفسير الآية وجوه على مذهب المفسرين فان كل أحد حمل قوله ربما يود الذين كفروا على محمل آخر والاصح ما قاله الزجاج فانه قال الكافر كلما رأى حالا من أحوال العذاب ورأى حالا من أحوال المسلم ود لو كان مسلما وهذا الوجه هو الاصح وأما المتقدمون فقد ذكروا وجوها قال الضحاك المراد منه ما يكون عند الموت فان الكافر اذا شاهد علامات العقاب ود لو كان مسلما وقيل ان هذه الحالة تحصل اذا سودت وجوههم وقيل بل عند دخولهم النار ونزول العذاب فانهم يقولون أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل وروى أبو موسى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا كان يوم القيامة واجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار لهم الستم مسلمين قالوا بلى قالوا فما اغنى عنكم اسلامكم وقد صرتم معنا في النار فيتفضل الله تعالى بفضل رحمته فيأمر باخراج كل من كان من أهل القبلة من النار فيخرجون منها فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية وعلى هذا القول أكثر المفسرين وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال ما يزال الله يرحم المؤمنين ويخرجهم من النار ويدخلهم الجنة بشفاعة الانبياء والملائكة حتى انه تعالى في آخر الامر يقول من كان من المسلمين فليدخل الجنة قال فهنالك يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين قال القاضي هذه الروايات مبنية على انه تعالى يخرج أصحاب الكبائر من النار وعلى ان شفاعة الرسول مقبولة في اسقاط العقاب وهذان الاصلان عنده مردودان فعند هذا حمل هذا الخبر على

وجه يطابق قوله و يوافق مذهبه وهوانه تعالى يؤخر ادخال طائفة من المؤمنين الجنة بحيث يغلب على ظن هؤلاء الكفرة انه تعالى لايدخلهم الجنة ثم انه تعالى يدخلهم الجنة فيزداد غم الكفر وحسرتهم وهنالك يودون لوكانوا مسلمين قال فبهذه الطريق تصحح هذه الاخبار والله أعلم فان قيل اذا كان أهل القيامة قد يتمنون أمثال هذه الاحوال وجب أن يتمنى المؤمن الذى يقل ثوابه درجة المؤمن الذى يكثر ثوابه والمتمنى لمالم يجده يكون فى الغصة وتألم القلب وهذا يقتضى أن يكون أكثر المؤمنين فى الغصة وتألم القلب قلنا أحوال أهل الآخرة لاتقاس بأحوال أهل الدنيا فالله سبحانه أرضى كل أحد بمافيه ونزع عن قلوبهم طلب الزيادات كما قال ونزعنا مافى صدورهم من غل والله أعلم * أماقوله تعالى ذرهم يأكلوا و يتمتعوا و يلههم الامل فسوف يعلمون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) المعنى دع الكفار يأخذوا حظوطهم من دنياهم فتلك أخلاقهم ولاخلاق لهم فى الآخرة وقوله و يلههم الامل يقال لهيت عن الشئ الهى لهيا و جاء فى الحديث ان ابن الزبير كان اذا سمع صوت الرعد لهى عن حديثه قال الكسائى والاصمعى كل شئ تركته فقد لهيت عنه وأنشد

صرمت حبالك فاله عنها زينب * ولقد أطلت عتابها لو تعتب

فقوله فاله عنها أى اتركها وأعرض عنها قال المفسرون شغلهم الامل عند الاخذ بحظهم عن الايمان والطاعة فسوف يعلمون (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على انه تعالى قد يصد عن الايمان و يفعل بالمكلف ما يكون له مفسدة فى الدين والدليل عليه انه تعالى قال لرسوله ذرهم يأكلوا و يتمتعوا و يلههم الامل فحكم بأن اقبالهم على التمتع واستغراقهم فى طول الامل يلهيهم عن الايمان والطاعة ثم انه تعالى أذن لهم فيها وذلك يدل على المقصود قالت المعتزلة ليس هذا اذنا وتجويزا بل هذا تهديد ووعيد قلنا ظاهر قوله ذرهم اذن أقصى مافى الباب انه تعالى نبه على ان اقبالهم على هذه الاعمال يضرهم فى دينهم وهذا عين ماذكرناه من انه تعالى أذن فى شئ مع انه نص على كون ذلك الشئ مفسدة لهم فى الدين (المسئلة الثالثة) دلت الآية على ان ايثار التلذذ والتنعم وما يؤدى اليه طول الامل ليس من أخلاق المؤمنين وعن بعضهم التمرغ فى الدنيا من أخلاق الهالكين والاخبار فى ذم الامل كثيرة فمنها ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يهرم ابن آدم و يشب فيه اثنان الحرص على المال وطول الامل وعنه صلى الله عليه وسلم انه نقط ثلاث نقط وقال هذا ابن آدم وهذا الامل وهذا الاجل ودون الامل تسع وتسعون منية فان أخذته احداهن والاالهرم من ورائه وعن على رضى الله عنه انه قال انما أخشى عليكم اثنين طول الامل واتباع الهوى فان طول الامل ينسى الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق والله أعلم * قوله تعالى (وما أهلكنا من قرية الاولها كتاب معلوم ما تسبق من أمة أجلها ومايستأخرون) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم

منها الحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وروى مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال لايزال الرب يرحم و يشفع اليه حتى يقول من كان من المسلمين فليدخل الجنة فعند ذلك يتمنون الاسلام والحق أن ذلك محمول على شدة ودادتهم وأما نفس الودادة فليست بمختصة بوقت دون وقت بل هى مقررة مستمرة فى كل ان يمر عليهم وأن المراد بيان ذلك على ماهو عليه من الكثرة وأنما جئ بصيغة التقليل جريا على سنن العرب فيما يقصدون به الافراد فيما يعكسون عنه تقول لبعض قواد العساكر كم عندك من الفرسان فيقول رب فارس عندى أولا تعدم عندى فارسا وعنده مقانب جمة من الكتائب وقصده فى ذلك التمادى فى تكثير فرسانه ولكنه يريد اظهار براءته من التزايد وابراز أنه ممن يقلل لعلو الهمة كثير ما عنده فضلا عن تكثير القليل وهذه طريقة انما تسلك اذا كان الامر من الوضوح بحيث لا يحوم حوله شائبة ريب فيصار اليه هضما للحق فدل النظم الكريم على ودادة الكافرين للاسلام فى كل آن من آنات اليوم الآخر وأن ذلك من الظهور بحيث لايشتبه على أحد ولو جئ بكلام يدل على ضده وعلى أن تلك الودادة مع كثرتها فى نفسها مما يستقل بالنسبة الى جناب الكبرياء وهذا هو الموافق لمقام بيان حقارة شأن الكفار وعدم الاعتداد بما هم فيه من الكفر والتكذيب كما ينطق به قوله تعالى ذرهم يأكلوا الآية

انه تعالى لما توعد من قبل من كذب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون اتبعه بما يؤكد الزجر وهو قوله تعالى وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم فى الهلاك والعذاب وانما يقع فيه التقديم والتأخير فالذين تقدموا كان وقت هلاكهم فى الكتاب معجلا والذين تأخروا كان وقت هلاكهم فى الكتاب مؤخرا وذلك نهاية فى الزجر والتحذير (المسئلة الثانية) قال قوم المراد بهذا الهلاك عذاب الاستئصال الذى كان الله ينزله بالمكذبين المعاندين كما بينه فى قوم نوح وقوم هود وغيرهم وقال آخرون المراد بهذا الهلاك الموت قال القاضى والاقرب ما تقدم لانه فى الزجر أبلغ فبين تعالى ان هذا الامهال لا ينبغى أن يغتر به العاقل لان العذاب مدخر فان لكل أمة وقتا معينا فى نزول العذاب لا يتقدم ولا يتاخر وقال قوم آخرون المراد بهذا الهلاك مجموع الامرين وهو نزول عذاب الاستئصال ونزول الموت لان كل واحد منهما يشارك الآخر فى كونه هلاكا فوجب حمل اللفظ على القدر المشترك الذى يدخل فيه القسمان معا (المسئلة الثالثة) قال الفراء لو لم تكن الواو مذكورة فى قوله ولها كتاب كان صوابا كما فى آية أخرى وهى قوله وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون وهو كما تقول ما رأيت أحدا الا وعليه ثياب وان شئت قلت الا عليه ثياب * أما قوله ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الواحدى من فى قوله من أمة زائدة مؤكدة كقولك ما جاءنى من أحد وقال آخرون انها ليست بزائدة لانها تفيد التبعيض أى هذا الحكم لم يحصل فى بعض من ابعاض هذه الحقيقة فيكون ذلك فى افادة عموم النفى آكد (المسئلة الثانية) قال صاحب النظم معنى سبق اذا كان واقعا على شخص كان معناه انه جاز وخلف كقولك سبق زيد عمرا أى جازه وخلفه وراءه ومعناه انه قصر عنه وما بلغه واذا كان واقعا على زمان كان بالعكس فى ذلك كقولك سبق فلان عام كذا معناه مضى قبل اتيانه ولم يبلغه فقوله ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون معناه انه لا يحصل ذلك الاجل قبل ذلك الوقت ولا بعده بل انما يحصل فى ذلك الوقت بعينه والسبب فيه ان اختصاص كل حادث بوقته المعين دون الوقت الذى قبله أو بعده ليس على سبيل الاتفاق الواقع لا عن مرجح ولا عن مخصص فان رجحان أحد طرفى الممكن على الآخر لا لمرجح محال وانما اختص حدوثه بذلك الوقت المعين لان اله العالم خصصه به بعينه واذا كان كذلك فقدرة الاله وارادته اقتضتا ذلك التخصيص وعلمه وحكمته تعلقا بذلك الاختصاص بعينه ولما كان تغير صفات الله تعالى أعنى القدرة والارادة والعلم والحكمة ممتنعا كان تغير ذلك الاختصاص ممتنعا اذا عرفت هذا فنقول هذا الدليل بعينه قائم فى افعال العباد أعنى ان الصادر من زيد هو الايمان والطاعة ومن عمرو هو الكفر والمعصية فوجب أن يمتنع دخول التغير فيهما فان قالوا هذا انما يلزم لو كان المقتضى لحدوث الكفر والايمان من زيد وعمرو هو قدرة الله تعالى ومشيئته أما اذا قلنا

أو ذهابا الى الاشعار بأن من شان العاقل اذا عن له أمر يكون مظنون الحمد أو قليلا ما يكون كذلك أن لا يفارقه ولا يفارق ضده فكيف اذا كان متيقن الحمد كما فى قولهم لعلك ستندم على ما فعلت وربما ندم الانسان على ما فعل فان المقصود ليس بيان كون الندم مرجو الوجود بلا تيقن به أو قليل الوقوع بل التنبيه على أن العاقل لا يباشر ما يرجى فيه الندم أو يقل وقوعه فيه فكيف بقطعى الوقوع وأنه يكفى قليل الندم فى كونه حاجزا عن ذلك الفعل فكيف كثيره والمقصود من سلوك هذه الطريقة اظهار الترفع والاستغناء عن التصريح بالغرض بناء على ادعاء ظهوره فالمعنى لو كانوا يودون الاسلام مرة واحدة لوجب عليهم أن لا يفارقوه فكيف وهم يودونه كل آن وهذا أوفق بمقام استنزالهم عما هم عليه من الكفر وهاتان الطريقتان متمايزتان ذاتا ومقاما فمن ظنهما واحدا فقد نأى عن توفية المقام حقه (ذرهم) دعهم عن النهى عما هم عليه بالتذكرة والنصيحة اذ لا سبيل الى ارعوائهم عن ذلك وبالغ فى تخليتهم وشأنهم بل مرهم بتعاطى ما يتعاطونه (يأكلوا ويتمتعوا) بدنياهم وفى تقديم الاكل ايذان بأن تمتعهم انما هو من قبيل تمتع البهائم بالمآكل والمشارب ﴿ المقتضى ﴾ والمراد دوامهم على ذلك لا احداثه فانهم كانوا كذلك أو تمتعهم بلا استماع ما ينغص عيشهم من القوارع والزواجر فان التمتع على ذلك الوجه

المقتضى لذلك هو قدرة زيد وعمرو ومشيئتهما ساقط؛ ذلك قلنا قدرة زيد وعمرو ومشيئتهما ان كانتا موجبتين لذلك الفعل المعين فخالق تلك القدرة والمشيئة الموجبتين لذلك الفعل هو الذى قدر ذلك الفعل بعينه فيعود الالزام وان لم تكونا موجبتين لذلك الفعل بل كانتا صالحتين له ولضده كان رجحان أحد الطرفين على الآخر لم يكن لمرجح فقد عاد الامر الى انه حصل ذلك الاختصاص لا لمخصص وهو باطل وان كان لمخصص فذلك المخصص ان كان هو العبد عاد البحث ولزم التسلسل وان كان هو الله تعالى فحينئذ يعود البحث الى أن فعل العبد انما تعين وتقدر بتخصيص الله تعالى وحينئذ يعود الالزام (المسئلة الثالثة) دلت الآية على ان كل من مات أو قتل فانما مات بأجله وان من قال يجوز أن يموت قبل أجله فخطئ فان قالوا هذا الاستدلال انما يتم اذا حملنا قوله وما أهلكنا على الموت أما اذا حملناه على عذاب الاستئصال فكيف يلزم قلنا قوله وما أهلكنا اما أن يدخل تحته الموت أولا يدخل فان دخل فالاستدلال ظاهر لازم وان لم يدخل فنقول انما لاجله وجب فى عذاب الاستئصال أن لا يتقدم ولا يتأخر عن وقته المعين قائم فى الموت فوجب أن يكون الحكم ههنا كذلك والله أعلم * قوله تعالى (وقالوا يا ايها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون لوما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين ما ننزل الملائكة الا بالحق وما كانوا اذا منظرين انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) اعلم انه تعالى لما بالغ فى تهديد الكفار ذكر بعده شبههم فى انكار نبوته (فالشبهة الاولى) انهم كانوا يحكمون عليه بالجنون وفيه احتمالان (الاول) انه عليه السلام كان يظهر عليه عند نزول الوحى حالة شبيهة بالغشى فظنوا انها جنون والدليل عليه قوله و يقولون انه لمجنون وما هو الا ذكر للعالمين وأيضا قوله أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة (والثانى) انهم كانوا يستبعدون كونه رسولا حقا من عند الله تعالى فالرجل اذا سمع كلاما مستبعدا من غيره فربما قال له هذا جنون وأنت مجنون لبعد ما يذكره من طريقة العقل وقوله انك لمجنون فى هذه الآية يحتمل الوجهين أما قوله يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون ففيه وجهان الاول انهم ذكروه على سبيل الاستهزاء كما قال فرعون ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون وكما قال قوم شعيب انك لأنت الحليم الرشيد وكما قال تعالى فبشرهم بعذاب أليم لان البشارة بالعذاب ممتنعة والثانى يا ايها الذى نزل عليه الذكر فى زعمه واعتقاده وعند أصحابه وأتباعه ثم حكى عنهم انهم قالوا فى تقرير شبههم لوما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين وفيه مسئلتان (الاولى) المراد لو كنت صادقا فى ادعاء النبوة لاتيتنا بالملائكة يشهدون عندنا بصدقك فيما تدعيه من الرسالة لان المرسل الحكيم اذا حاول تحصيل أمر وله طريق يفضى الى تحصيل ذلك المقصود قطعا وطريق آخر قد يفضى وقد لا يفضى و يكون فى محل الشكوك والشبهات فان كان ذلك الحكيم أراد تحصيل ذلك المقصود فانه يحاول تحصيله بالطريق الاول لا بالطريق الثانى وانزال الملائكة الذين يصدقونك ويقررون قولك طريق يفضى الى حصول هذا المقصود قطعا

أمر حادث يصلح أن يكون مترتبا على تخليتهم وشأنهم (ويلههم) ويشغلهم عن اتباعك أو عن التفكر فيما هم يصيرون اليه أو عن الايمان والطاعة فان الاكل والتمتع يفضيان الى ذلك (الامل) والتوقع لطول الاعمار و بلوغ الاوطار واستقامة الاحوال وأن لا يلقوا فى العاقبة والمآل الا خيرا فالافعال الثلاثة مجزومة على الجوابية للامر حسبما عرفت من تضمن الامر بالترك للامر بها على طريقة المجاز أو على أن يكون المراد بالافعال المرقومة مباشرتهم لها غافلين عن وخامة عاقبتها غير سامعين لسوء مغبتها أصلا ولا ريب فى ترتب ذلك على الامر بالترك فان النهى عما هم عليه من ارتكاب القبائح مما يشوش عليهم تمتعهم وينغص عليهم عيشهم فأمر عليه السلام بتركه ليتمرغوا فيما هم فيه من حظوظهم فيدهمهم ما يدهمهم وهم عنه غافلون (فسوف يعلمون) سوء صنيعهم أو وخامة عاقبته أو حقيقة الحال التى ألجأتهم الى التمنى المذكور وحيث لم يعلموا ذلك من جهتك وهو مع كونه وعيدا أيما وعيد وتهديدا غب تهديد تعليل للامر بالترك فان علمهم ذلك علة لترك النهى والنصيحة لهم وفيه الزام الحجة ومبالغة فى الانذار اذ لا يتحقق الامر بالضد الا بعد تكرر الانذار وتقرر الجحود والانكار وكذلك ما ترتب عليه من الاكل والتمتع والالهاء (وما أهلكنا) شروع فى بيان سر تأخير عذابهم الى يوم القيامة وعدم نظمهم فى سلك الامم الدارجة فى تعجيل العذاب أى ما أهلكنا (من قرية) من القرى بالخسف بها وبأهلها كما فعل ببعضها أو باخلائها عن أهلها غب اهلاكهم كما فعل بآخرين (الا ولها) فى ذلك الشأن (كتاب) أى أجل مقدر مكتوب فى اللوح

إلفواصل ولذلك حذف الجار والمجرور والجملة مبينة لماسبق والمعنى أن تأخير عذابهم الى يوم القيامة حسبما أشير اليه بيان ودادتهم للاسلام اذ ذاك و بالامر بتركهم وشأنهم الى أن يعلموا حقيقة الحال انما هو لتأخر أجلهم المقدر لما يقتضيه من الحكم البالغة ومن جملتها ماعلم الله تعالى من ايمان بعض من يخرج منهم الى يوم القيامة (وقالوا) شروع فى بيان كفرهم بمن أنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب وما يؤول اليه حالهم والقائلون مشركو مكة لغاية تماديهم فى العتو والغى (ياأيها الذى نزل عليه الذكر) خاطبوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسليما لذلك واعتقادا له بل استهزاء به عليه الصلاة والسلام واشعارا بعلة حكمهم الباطل فى قولهم (انك لمجنون) كدأب فرعون افقال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون يعنون يامن يدعى مثل هذا الامر البديع الخارق للعادات انك بسبب تلك الدعوى أو بشهادة مايعتريك عند ماتدعى أنه ينزل عليك لمجنون وتقديم الجار والمجرور على القائم مقام الفاعل لان انكارهم متوجه الى كون النازل ذكرا من الله تعالى لا الى كون المنزل عليه رسول الله بعد تسليم كون النازل منه تعالى كما فى قوله تعالى لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم فان الانكار هناك متوجه الى كون المنزل عليه رسول الله تعالى وايراد الفعل على صيغة المجهول لايهام أن ذلك ليس بفعل له ﴿ المجرمين ﴾ فاعل أو لتوجيه الانكار الى كون التنزيل عليه لا الى استناده الى الفاعل (لوما تأتينا) كلمة لو عند تركبها مع ماتفيد ماتفيده عند تركبها مع لا من معنى امتناع الشئ لوجود غيره ومعنى التحضيض خلا أنه عند ارادته لا يليها

والتحريف والتغيير اما فى الكثير منه أو فى القليل و بقاء هذا الكتاب مصونا عن جميع جهات التحريف مع أن دواعى الملحدة واليهود والنصارى متوفرة على ابطاله وافساده من أعظم المعجزات وأيضا أخبر الله تعالى عن بقائه محفوظا عن التغيير والتحريف وانقضى الآن قريبا من ستمائة سنة فكان هذا اخبارا عن الغيب فكان ذلك أيضا معجزا قاهرا (المسئلة الرابعة) احتج القاضى بقوله انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون على فساد قول بعض الامامية فى أن القرآن قد دخله التغيير والزيادة والنقصان قال لانه لو كان الامر كذلك لما بقى القرآن محفوظا وهذا الاستدلال ضعيف لانه يجرى مجرى اثبات الشئ بنفسه فالامامية الذين يقولون ان القرآن قد دخله التغيير والزيادة والنقصان لعلهم يقولون ان هذه الآية من جملة الزوائد التى ألحقت بالقرآن فثبت أن اثبات هذا المطلوب بهذه الآية يجرى مجرى اثبات الشئ بنفسه وانه باطل والله أعلم ✲ قوله تعالى (ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الاولين وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الاولين) اعلم أن القوم لما أساؤا فى الادب وخاطبوه بالسفاهة وقالوا انك لمجنون فالله تعالى ذكر أن عادة هؤلاء الجهال مع جميع الانبياء هكذا كانت ولك اسوة فى الصبر على سفاهتهم وجهالتهم بجميع الانبياء عليهم السلام فهذا هو الكلام فى نظم الآية وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى الآية محذوف والتقدير ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الا انه حذف ذكر الرسل لدلالة الارسال عليه وقوله فى شيع الاولين أى فى أمم الاولين واتباعهم قال الفراء الشيع الاتباع واحدهم شيعة وشيعة الرجل اتباعه والشيعة الامة سموا بذلك لان بعضهم شايع بعضا وشاكله وذكرنا الكلام فى هذا الحرف عند قوله أو يلبسكم شيعا قال الفراء وقوله فى شيع الاولين من اضافة الصفة الى الموصوف كقوله حق اليقين وقوله بجانب الغربى وقوله وذلك دين القيمة أما قوله وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن أى عادة هؤلاء الجهال مع جميع الانبياء والرسل ذلك الاستهزاء بهم كما فعلوا بك ذكر تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم واعلم أن السبب الذى يحمل هؤلاء الجهال على هذه العادة الخبيثة أمور (الاول) انهم يستثقلون التزام الطاعات والعبادات والاحتراز عن الطيبات واللذات (والثانى) ان الرسول يدعوهم الى ترك ماألفوه من أديانهم الخبيثة ومذاهبهم الباطلة وذلك شاق شديد على الطباع (والثالث) أن الرسول متبوع مخدوم والاقوام يجب عليهم طاعته وخدمته وذلك أيضا فى غاية المشقة (والرابع) أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد يكون فقيرا ولا يكون له أعوان وانصار ولا مال ولا جاه فالمتنعمون والرؤساء يثقل عليهم خدمة من يكون بهذه الصفة (والخامس) خذلان الله لهم والقاء دواعى الكفر والجهل فى قلوبهم وهذا هو السبب الاصلى فلهذه الاسباب وما يشبهها تقع الجهال والضلال مع أكابر الانبياء عليهم السلام فى هذه الاعمال القبيحة والافعال المنكرة أما قوله تعالى كذلك نسلكه فى قلوب

الافعل ظاهر أومضمر وعندارادة المعنى الاول لايليها الا اسم ظاهر اومقدر عندالبصريين والمرادههناهوالثانى أى هلا تأتينا (بالملائكة) يشهدون بصحة نبوتك ويعضدونك فى الانذار كقوله تعالى لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيرا أو يعاقبوننا على التكذيب كما تأتى الامم المكذبة لرسلهم (ان كنت من الصادقين) فى دعواك فان قدرة الله تعالى على ذلك ممالاريب فيه وكذا احتياجك اليه فى تمشية أمرك فانا لانصدقك بدون ذلك أوان كنت من جملة تلك الرسل الصادقين الذين عذبت أممهم المكذبة لهم (ماننزل الملائكة) بالنون على بناء الفعل لضمير الجلالة من التنزيل وقرئ من الانزال وقرئ تنزل مضارعا من التنزيل على صيغة البناء للمفعول ومن التنزل بحذف احدى التاءين وماضيا منه ومن التنزيل ومن الثلاثى وهو كلام مسوق الى النبى صلى الله عليه وسلم جوابا لهم عن مقالتهم المحكية وردا لاقتراحهم الباطل ولشدة استدعاء ذلك للجواب قدم رده على ماهوجواب عن أولها اعنى قوله انا نحن نزلنا الذكر الآية كما فعل فى قوله تعالى قال انما يأتيكم به الله فانه مع كونه جوابا عن قولهم فأتنا بما تعدنا قدم على قوله ولا ينفعكم نصحى الآية مع كونه جوابا عن أول كلامهم الذى هوقولهم يانوح قدجادلتنا لماذكر من شدة اقتضائه للجواب وليكون أحدالجوابين متصلا بالسؤال وفى العكس يلزم انفصال كل من الجوابين عن سؤاله والعدول عن تطبيقه لظاهر كلامهم بصدد الاقتراح وهوأن يقال ماتأتيهم بهم للايذان بأنهم قدأخطؤا فى التعبير حسبما أخطؤا فى الاقتراح وأن الملائكة لعلو رتبتهم أعلى من أن ينسب اليهم مطلق الاتيان الشامل للانتقال من أحد الامكنة

المجرمين ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) السلك ادخال الشئ فى الشئ كادخال الخيط فى المخيط والرمح فى المطعون وقيل فى قوله ماسلككم فى سقر أى أدخلكم فى جهنم وذكر أبوعبيدة وأبوعبيد سلكته وأسلكته بمعنى واحد (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على انه تعالى يخلق الباطل فى قلوب الكفار فقالوا قوله كذلك نسلكه أى كذلك نسلك الباطل والضلال فى قلوب المجرمين قالت المعتزلة لم يجر للضلال والكفر ذكر فيما قبل هذا اللفظ فلا يمكن أن يكون الضمير عائدا اليه لا يقال انه تعالى قال ومايأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن وقوله يستهزؤن يدل على الاستهزاء فالضمير فى قوله كذلك نسلكه عائد اليه والاستهزاء بالانبياء كفر وضلال فثبت صحة قولنا المراد من قوله كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين هوانه كذلك نسلك الكفر والضلال والاستهزاء بانبياء الله تعالى ورسله فى قلوب المجرمين لانا نقول ان كان الضمير فى قوله كذلك نسلكه عائدا الى الاستهزاء وجب ان يكون الضمير فى قوله لايؤمنون به عائدا أيضا الى الاستهزاء لانهما ضميران تعاقبا وتلاصقا فوجب عودهما الى شئ واحد فوجب أن لايكونوا مؤمنين بذلك الاستهزاء وذلك يوجب التناقض لان الكافر لابد وأن يكون مؤمنا بكفره والذى لايكون كذلك هو المسلم العالم ببطلان الكفر فلا يصدق به وأيضا فلو كان تعالى هو الذى يسلك الكفر فى قلب الكافر ويخلقه فيه فما أحد أولى بالعذر من هؤلاء الكفار ولكان على هذا التقدير يمتنع ان يذمهم فى الدنيا وان يعاقبهم فى الآخرة عليه فثبت انه لا يمكن حمل هذه الآية على هذا الوجه فنقول التأويل الصحيح ان الضمير فى قوله تعالى كذلك نسلكه عائد الى الذكر الذى هو القرآن فانه تعالى قال قبل هذه الآية انا نحن نزلنا الذكر وقال بعده كذلك نسلكه أى هكذا نسلك القرآن فى قلوب المجرمين والمراد من هذا السلك هوانه تعالى يسمعهم هذا القرآن ويخلق فى قلوبهم حفظ هذا القرآن ويخلق فيها العلم بمعانيه ويبين انهم لجهلهم واصرارهم لايؤمنون به مع هذه الاحوال عنادا وجهلا فكان هذا موجبا للحوق الذم الشديد بهم ويدل على صحة هذا التأويل وجهان (الاول) ان الضمير فى قوله لايؤمنون به عائد الى القرآن بالاجماع فوجب أن يكون الضمير فى قوله كذلك نسلكه عائدا اليه أيضا لانهما ضميران متعاقبان فيجب عودهما الى شئ واحد (والثانى) ان قوله كذلك معناه مثل ما عملنا كذا وكذا نعمل هذا السلك فيكون هذا تشبيها لهذا السلك بعمل آخر ذكره الله تعالى قبل هذه الآية من أعمال نفسه ولم يجر لعمل من أعمال الله ذكر فى سابقة هذه الآية الا قوله انا نحن نزلنا الذكر فوجب أن يكون هذا معطوفا عليه ومشبها به ومتى كان الامر كذلك كان الضمير فى قوله نسلكه عائدا الى الذكر وهذا تمام تقرير كلام القوم * والجواب لا يجوز أن يكون الضمير فى قوله نسلكه عائدا الى الذكر ويدل عليه وجوه (الاول) ان قوله كذلك نسلكه مذكور بحرف النون والمراد منه اظهار نهاية التعظيم والجلالة ومثل هذا التعظيم انما يحسن ذكره اذا فعل فعلا يظهر له أثر قوى كامل بحيث صار المنازع والمدافع

المتساو به الى الآخر منها بل من الاسفل الى الاعلى وان يكون مقصد حركاتهم أولئك الكفرة وان يدخلوا تحت ملكوت أحد من البشر وانما الذى يليق بشأنهم النزول من مقامهم العالى وكون ذلك بطريق التنزيل من جناب الرب الجليل (الا بالحق) أى ملتبسا بالوجه الذى يحق ملابسة التنزيل به مما تقتضيه الحكمة وتجرى به السنة الالهية كقوله سبحانه وماخلقنا السموات والارض ومابينهما الا بالحق ﴿ ٣٨٢ ﴾ والذى اقترحوه من التنزيل لاجل الشهادة لديهم وهم هم ومنزلتهم فى الحقارة والهوان منزلتهم مما لايكاد يدخل تحت الصحة والحكمة أصلا فان ذلك من باب التنزيل بالوحى الذى لايكاد يفتح على غير الانبياء الكرام من أفراد كل المؤمنين فكيف على أمثال أولئك الكفرة اللئام وانما الذى يدخل فى حقهم تحت الحكمة فى الجملة هو التنزيل للتعذيب والاستئصال كما فعل باضرابهم من الامم السالفة ولو فعل ذلك لاستؤصلوا بالمرة (وماكانوا اذا منظرين) جزاء الشرط مقدر وفيه ايذان بانتاج مقدماتهم لنقيض مطلوبهم كما فى قوله تعالى واذا لايلبثون خلافك الاقليلا قال صاحب النظم لفظة اذن مركبة من اذ وهو اسم بمعنى الحين تقول أتيتك اذ جئتنى أى حين جئتنى ثم ضم اليه أن فصار اذأن ثم استثقلوا الهمزة فحذفوها فمجئ لفظة أن دليل على اضمار فعل بعدها والتقدير ﴿ الكلام ﴾ وماكانوا اذأن كان ماطلبوه منظرين والمعنى لونزلناهم ماكانوا مؤخرين كدأب سائر الامم المكذبة المستهزئة ومع استحقاقهم لذلك قد جرى قلم القضاء بتأخير عذابهم الى يوم القيامة حسبما أجمل فى قوله تعالى ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل الخ وحال حائل الحكمة بينهم

لمغلوبا مقهورا فأما اذا فعل فعلا ولم يظهر له أثر البتة صار المنازع والمدافع غالبا قاهرا فان ذكر اللفظ المشعر بنهاية العظمة والجلالة يكون مستقبحا فى هذا المقام والامر ههنا كذلك لانه تعالى سلك اسماع القرآن وتحفيظه وتعليمه فى قلب الكافر لاجل أن يؤمن به ثم انه لم يلتفت اليه ولم يؤمن به فصار فعل الله تعالى كالهدر الضائع وصار الكافر والشيطان كالغالب الدافع واذا كان كذلك كان ذكر النون المشعر بالعظمة والجلالة فى قوله نسلكه غير لائق بهذا المقام فثبت بهذا الوجه ان التأويل الذى ذكروه فاسد (والوجه الثانى) انه لوكان المراد ماذكروه لوجب أن يقال كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين ولا يؤمنون به أى ومع هذا السعى العظيم فى تحصيل ايمانهم لايؤمنون أما لما لم يذكر الواو فعلمنا أن قوله لايؤمنون به كالتفسير والبيان لقوله نسلكه فى قلوب المجرمين وهذا انما يصح اذا كان المراد أنا نسلك الكفر والضلال فى قلوبهم (الوجه الثالث) ان قوله انا نحن نزلنا الذكر بعيد وقوله يستهزؤن قريب وعود الضمير الى أقرب المذكورات هو الواجب أما قوله لوكان الضمير فى قوله نسلكه عائدا الى الاستهزاء لكان فى قوله لايؤمنون به عائدا اليه وحينئذ يلزم التناقض قلنا الجواب عنه من وجوه (الاول) ان مقتضى الدليل عود الضمير الى أقرب المذكورات ولا مانع من اعتبار هذا الدليل فى الضمير الاول وحصل المانع من اعتباره فى الضمير الثانى فلاجرم قلنا الضمير الاول عائد الى الاستهزاء والضمير الثانى عائد الى الذكر وتفريق الضمائر المتعاقبة على الاشياء المختلفة ليس بقليل فى القران أليس أن الجبائى والكعبى والقاضى قالوا فى قوله تعالى هو الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن اليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون فقالوا هذه الضمائر من أول الآية الى قوله جعلا له شركاء عائدة الى آدم وحواء وأما فى قوله جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون عائدة الى غيرهما فهذا ما اتفقوا عليه فى تفاسيرهم واذا ثبت هذا ظهر أنه لايلزم من تعاقب الضمائر عودها الى شئ واحد بل الامر فيه موقوف على الدليل فكذا ههنا والله أعلم (والوجه الثانى) فى الجواب قال بعض الادباء من أصحابنا قوله لايؤمنون به تفسير للكناية فى قوله نسلكه والتقدير كذلك نسلك فى قلوب المجرمين أن لايؤمنوا به والمعنى نجعل فى قلوبهم أن لا يؤمنوا به (والوجه الثالث) وهو انا بينا بالبراهين العقلية القاهرة أن حصول الايمان والكفر يمتنع ان يكون بالعبد وذلك لان كل أحد انما يريد الايمان والصدق والعلم والحق وان أحدا لا يقصد تحصيل الكفر والجهل والكذب فلما كان كل أحد لايقصد الا الايمان والحق ثم انه لايحصل ذلك وانما يحصل الكفر والباطل علمنا أن حصول ذلك الكفر ليس منه فان قالوا انما حصل ذلك الكفر لانه ظن انه هو الايمان فنقول فعلى هذا التقدير انما رضى بتحصيل ذلك الجهل لاجل جهل آخر سابق عليه فينقل

الكلام الى ذلك الجهل السابق فان كان ذلك لاجل جهل آخر لزم التسلسل وهو محال والاوجب انتهاء كل الجهالات الى جهل أول سابق حصل فى قلبه لا بتحصيله بل بتخليق الله تعالى وذلك هو الذى قلناه ان المراد من قوله كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به والمعنى نجعل فى قلوبهم أن لا يؤمنوا به وهو انه تعالى يخلق الكفر والضلال فيها وأيضا قدماء المفسرين مثل ابن عباس وتلامذته أطبقوا على تفسير هذه الآية بأنه تعالى يخلق الكفر والضلال فيها والتأويل الذى ذكره المعتزلة تأويل مستحدث لم يقبل به أحد من المتقدمين فكان مردودا وروى القاضى عن عكرمة أن المراد كذلك نسلك القسوة فى قلوب المجرمين ثم قال القاضى ان القسوة لا تحصل الا من قبل الكافر بأن يستمر على كفره و يعاند فلا يصح اضافته الى الله تعالى فيقال للقاضى ان هذا يجرى مجرى المكابرة وذلك لان الكافر يجد من نفسه نفرة شديدة عن قبول قول الرسول ونبوة عظيمة عنه حتى انه كلما رآه تغير لونه واصفر وجهه وربما ارتعدت أعضاؤه ولا يقدر على الالتفات اليه والاصغاء لقوله لحصول هذه الاحوال فى قلبه أمر اضطرارى لا يمكنه دفعها عن نفسه فكيف يقال انها حصلت بفعله واختياره فان قالوا انه يمكنه ترك هذه الاحوال والرجوع الى الانقياد والقبول فنقول هذا مغالطة محضة لانك ان أردت انه مع حصول هذه النفرة الشديدة فى القلب والنبوة العظيمة فى النفس يمكنه أن يعود الى الانقياد والقبول والطاعة والرضا فهذا مكابرة وان أردت أن عند زوال هذه الاحوال النفسانية يمكنه العود الى القبول والتسليم فهذا حق الا انه لا يمكنه ازالة هذه الدواعى والصوارف عن القلب فانه ان كان الفاعل لها هو الانسان لافتقر فى تحصيل هذه الدواعى والصوارف الى دواعى سابقة عليها ولزم الذهاب الى ما لا نهاية له وذلك محال وان كان الفاعل لها هو الله تعالى فحينئذ يصح انه تعالى هو الذى يسلك هذه الدواعى والصوارف فى القلوب وذلك عين ما ذكرناه والله أعلم *

أما قوله تعالى وقد خلت سنة الاولين ففيه قولان (الاول) انه تهديد لكفار مكة يقول قد مضت سنة الله باهلاك من كذب الرسل فى القرون الماضية (الثانى) وهو قول الزجاج وقد مضت سنة الله فى الاولين بأن يسلك الكفر والضلال فى قلوبهم وهذا أليق بظاهر اللفظ

* قوله تعالى (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) اعلم ان هذا الكلام هو المذكور فى سورة الانعام فى قوله ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين والحاصل ان القوم لما طلبوا نزول ملائكة يصرحون بتصديق الرسول عليه السلام فى كونه رسولا من عند الله تعالى بين الله تعالى فى هذه الآية أن بتقدير أن يحصل هذا المعنى لقال الذين كفروا هذا من باب السحر وهؤلاء الذين يظن انا نراهم فنحن فى الحقيقة لا نراهم والحاصل انه لما علم الله تعالى أنه لا فائدة فى نزول الملائكة فلهذا السبب ما أنزلهم فان قيل كيف يجوز من الجماعة العظيمة ان يصيروا شاكين فى وجود ما يشاهدونه بالعين السليمة فى النهار

و بين استئصالهم لتعلق العلم والارادة بازديادهم عذابا و بايمان بعض ذراريهم وأما نظم ايمان بعضهم فى سمط الحكمة فيأباه مقام بيان تماديهم فى الكفر والفساد ولجاجهم فى المكابرة والعناد هذا هو الذى يستدعيه اعجازا لتنزيل الجليل وأما ما قيل فى تعليل عدم موافقة التنزيل الحكمة من أنهم حينئذ يكونون مصدقين عن اضطرار أو أنه لا حكمة فى أن تأتيكم بصور تشاهدونها فانه لا يزيدكم الا لبسا أو أن انزال الملائكة لا يكون الا بالحق وحصول الفائدة بانزالهم وقد علم الله تعالى من حال هؤلاء الكفار أنه لو أنزل اليهم الملائكة لبقوا مصرين على كفرهم فيصير انزالهم عبثا باطلا ولا يكون حقا فمع اخلال كل من ذلك بقطعية الباقى لا يلزم من فرض وقوع شئ من ذلك تعجيل العذاب الذى يفيده قوله تعالى وما كانوا اذا منظرين هذا على تقدير كون اقتراحهم لاتيان الملائكة لاجل الشهادة أما على تقدير كون ذلك لتعذيبهم فالمعنى انا ما ننزل الملائكة للتعذيب الا تنزيلا ملتبسا بالحق الذى تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة حتما بحيث لا محيد عنه ولو نزلناهم حسبما اقترحوا ما كان ذلك التنزيل ملتبسا بمقتضى الحكمة الموجبة لتأخير عذابهم الى يوم القيامة لا لرفقابهم بل تشديدا عليهم كما مر من قبل وحيث كان فى نسبة تنزيلهم للتعذيب الى عدم موافقة الحكمة نوع ايهام لعدم استحقاقهم التعذيب عدل عما يقتضيه الظاهر الى ما عليه النظم الكريم فكأنه قيل لو نزلناهم ما كانوا منظرين وذلك غير موافق للحكمة الموجبة لتأخير عذابهم لتشديد عقابهم وقيل المراد بالحق الوحى وقيل العذاب فتدبر (انا نحن نزلنا الذكر) رد لانكارهم التنزيل واستهزائهم برسول الله صلى الله عليه

وسلم بذلك وتسلية له اى نحن بعظم شاننا وعلو جنابنا نزلنا ذلك الذكر الذى أنكروه وأنكروا نزوله عليك ونسبوك بذلك الى الجنون وعموا منزله حيث بنوا الفعل للمفعول ايماء الى أنه أمر لا مصدر له وفعل لا فاعل له (وانا له لحافظون) من كل ما لا يليق به فيدخل فيه تكذيبهم له واستهزاؤهم به دخولا أوليا فيكون وعيدا للمستهزئين وأما الحفظ عن مجرد التحريف والزيادة والنقص وأمثالها فليس بمقتضى المقام فالوجه الحمل على الحفظ من جميع ما يقدح فيه من الطعن فيه والمجادلة فى حقيته ويجوز أن يراد حفظه بالاعجاز دليلا على التنزيل من عنده تعالى اذ لو كان من عند غير الله لتطرق عليه الزيادة والنقص والاختلاف وفى سبك الجملتين من الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة وعلى فخامة شأن التنزيل ما لا يخفى وفى ايراد الثانية بالجملة الاسمية دلالة على دوام الحفظ والله سبحانه أعلم وقيل الضمير المجرور للرسول صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى والله يعصمك من الناس وتأخير هذا الكلام وان كان جوابا عن أول كلامهم الباطل ردا له لما ذكر آنفا ولارتباطه بما يعقبه من قوله تعالى (ولقد أرسلنا) أى رسلا وانما لم يذكر لدلالة ما بعده عليه (من قبلك) متعلق بأرسلنا أو بمحذوف هو نعت للمفعول المحذوف أى رسلا كائنة من قبلك (فى شيع الاولين) أى فرقهم واحزابهم جمع شيعة وهى الفرقة المتفقة على طريقة ومذهب من شاعه اذا تبعه ﴿ بحيث ﴾ واضافته الى الاولين من اضافة الموصوف الى صفته عند الفراء ومن حذف الموصوف عند البصريين أى شيع الإمم الاولين

الواضح ولو جاز حصول الشك فى ذلك كانت السفسطة لازمة ولا يبقى حينئذ اعتماد على الحس والمشاهدة أجاب القاضى عنه بأنه تعالى ما وصفهم بالشك فيما يبصرون وانما وصفهم بأنهم يقولون هذا القول وقد يجوز أن يقدم الانسان على الكذب على سبيل العناد والمكابرة ثم سأل نفسه وقال أفيصح من الجمع العظيم أن يظهروا الشك فى المشاهدات وأجاب بأنه يصح ذلك اذا جمعهم عليه غرض صحيح معتبر من مواطأة على دفع حجة أو غلبة خصم وأيضا فهذه الحكاية انما وقعت عن قوم مخصوصين سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم انزال الملائكة وهذا السؤال ما كان الا من رؤساء القوم وكانوا قليلى العدد واقدام العدد القليل على ما يجرى مجرى المكابرة جائز (المسئلة الثانية) قوله تعالى فظلوا فيه يعرجون يقال ظل فلان نهاره يفعل كذا اذا فعله بالنهار ولا تقول العرب ظل يظل الا لكل عمل بالنهار كما لا يقولون بات يبيت الا بالليل والمصدر الظلول وقوله فيه يعرجون يقال عرج يعرج عروجا ومنه المعارج وهى المصاعد التى يصعد فيها وللمفسرين فى هذه الآية قولان (أحدهما) أن قوله فظلوا فيه يعرجون من صفة المشركين قال ابن عباس رضى الله عنهما لو ظل المشركون يصعدون فى تلك المعارج وينظرون الى ملكوت الله تعالى وقدرته وسلطانه والى عبادة الملائكة الذين هم من خشيته مشفقون لشكوا فى تلك الرؤية وبقوا مصرين على كفرهم وجهلهم كما جحدوا سائر المعجزات من انشقاق القمر وما خص به النبى صلى الله عليه وسلم من القرآن المعجز الذى لا يستطيع الجن والانس أن يأتوا بمثله (القول الثانى) ان هذا العروج للملائكة والمعنى انه تعالى لو جعل هؤلاء الكفار بحيث يروا أبوابا من السماء مفتوحة وتصعد منها الملائكة وتنزل لصرفوا ذلك عن وجهه ولقالوا ان السحرة سحرونا وجعلونا بحيث نشاهد هذه الاباطيل التى لا حقيقة لها وقوله لقالوا انما سكرت أبصارنا فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ ابن كثير سكرت بالتخفيف والباقون مشددة الكاف قال الواحدى سكرت غشيت وسدت بالسحر هذا قول أهل اللغة قالوا وأصله من السكر وهو سد الشق لئلا ينفجر الماء فكأن هذه الابصار منعت من النظر كما يمنع السكر الماء من الجرى والتشديد يوجب زيادة وتكثيرا وقال أبو عمرو بن العلاء هو مأخوذ من سكر الشراب يعنى ان الابصار حارت ووقع بها من فساد النظر مثل ما يقع بالرجل السكران من تغير العقل فاذا كان هذا معنى التخفيف فسكرت بالتشديد يراد به وقوع هذا الامر مرة بعد أخرى وقال أبو عبيدة سكرت أبصارنا أى غشيت أبصارنا فوجب سكونها وبطلانها وعلى هذا القول أصله من السكون يقال سكرت الريح سكرا اذا سكنت وسكر الحر يسكر وليلة ساكرة لا ريح فيها وقال أوس

جذلت على ليلة ساهره * فليست بطلق ولا ساكره

ويقال سكرت عينه سكرا اذا تحيرت وسكنت عن النظر وعلى هذا معنى سكرت أبصارنا أى سكنت عن النظر وهذا القول اختيار الزجاج وقال أبو على الفاسى سكرت صارت

ومعنى ارسالهم فيهم جعل كل منهم رسولا فيما بين طائفة منهم ليتابعوه فى كل ما يأتى ويذر من امور الدين (وما يأتيهم من رسول) المراد نفى اتيان كل رسول لشيعته الخاصة به لا نفى اتيان كل رسول لكل واحدة من تلك الشيع جميعا أو على سبيل البدل وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة على طريقة حكاية الحال الماضية فان ما لا تدخل فى الاغلب على مضارع الا وهو فى معنى الحال ولا على ماض الا وهو قريب من الحال أى ما أتى شيعة من تلك الشيع رسول خاص بها (الا كانوا به يستهزؤن) كما يفعله هؤلاء الكفرة والجملة فى محل النصب على أنها حال مقدرة من ضمير المفعول فى يأتيهم اذا كان المراد بالاتيان حدوثه أو فى محل الرفع على أنها صفة رسول فان محله الرفع على الفاعلية أى الا رسول كانوا به يستهزؤن وأما الجر على أنها صفة باعتبار لفظه فيفضى الى زيادة من الاستغراقية فى الاثبات ويجوز أن يكون منصوبا على الوصفية بأن يقدر الموصوف منصوبا على الاستثناء وان كان المختار الرفع على البدلية وهذا كما ترى تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن هذه عادة الجهال مع الانبياء عليهم السلام وحيث كان الرسول مصحوبا بكتاب من عند الله تعالى تضمن ذكر استهزائهم بالرسول استهزاءهم بالكتاب ولذلك قيل (كذلك) اشارة الى ما دل عليه الكلام السابق من القاء الوحى مقرونا بالاستهزاء أى مثل ذلك السلك الذى سلكناه فى قلوب أولئك المستهزئين برسلهم وبما جاؤا به من الكتاب (نسلكه) أى الذكر (فى قلوب المجرمين) أى أهل مكة أو جنس المجرمين فيدخلون فيه دخولا أوليا ومحله النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أو

بحيث لا ينفذ نورها ولا تدرك الاشياء على حقائقها وكان معنى السكر قطع الشئ عن سننه الجارى فمن ذلك تسكير الماء وهو رده عن سننه فى الجرية والسكر فى الشراب هو أن ينقطع عما كان عليه من المضاء فى حال الصحو فلا ينفذ رأيه على حد نفاذه فى الصحو فهذه أقوال أربعة فى تفسير سكرت وهى فى الحقيقة متقاربة والله أعلم (المسئلة الثانية) قال الجبائى من جوز قدرة السحرة على أن يأخذوا بأعين الناس حتى يروهم الشئ على خلاف ما هو عليه لم يصح ايمانه بالانبياء والرسل وذلك لانهم اذا جوزوا ذلك فلعل هذا الذى يرى أنه محمد بن عبد الله ليس هو ذلك الرجل وانما هو شيطان ولعل هذه المعجزات التى نشاهدها ليس لها حقائق بل هى تكون من باب الارادة الباطلة من ذلك الساحر واذا حصل هذا التجويز بطل الكل والله أعلم

❊ قوله تعالى (ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم الا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) اعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهة منكرى النبوة وكان قد ثبت أن القول بالنبوة مفرع على القول بالتوحيد أتبعه تعالى بدلائل التوحيد ولما كانت دلائل التوحيد منها سماوية ومنها أرضية بدأ منها بذكر الدلائل السماوية فقال ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين قال الليث البرج واحد من بروج الفلك والبروج جمع وهى اثنا عشر برجا ونظيره قوله تعالى تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وقال والسماء ذات البروج ووجه دلالتها على وجود الصانع المختار هو أن طبائع هذه البروج مختلفة على ما هو متفق عليه بين أرباب الاحكام واذا كان الامر كذلك فالفلك مركب من هذه الاجزاء المختلفة فى الماهية والابعاض المختلفة فى الحقيقة وكل مركب فلا بد له من مركب يركب تلك الاجزاء والابعاض بحسب الاختيار والحكمة فثبت أن كون السماء مركبة من البروج يدل على وجود الفاعل المختار وهو المطلوب وأما قوله وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم الا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين فقد استقصينا الكلام فيه فى سورة الملك فى تفسير قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين فلا نعيد ههنا الا القدر الذى لا بد منه قوله وزيناها أى بالشمس والقمر والنجوم للناظرين أى للمعتبرين بها والمستدلين بها على توحيد صانعها وقوله وحفظناها من كل شيطان رجيم فان قيل ما معنى وحفظناها من كل شيطان رجيم والشيطان لا قدرة له على هدم السماء فأى حاجة الى حفظ السماء منه قلنا لما منعه من القرب منها فقد حفظ السماء من مقاربة الشيطان فحفظ الله السماء منهم كما قد يحفظ منازلنا عن متجسس يخشى منه الفساد ثم نقول معنى الرجم فى اللغة الرمى بالحجارة ثم قيل للقتل رجم تشبيها له بالرجم بالحجارة والرجم أيضا السب والشتم لانه رمى بالقول القبيح ومنه قوله لأرجمنك أى لأسبنك والرجم اسم لكل ما يرمى به ومنه قوله وجعلناها رجوما للشياطين أى مرامى لهم والرجم القول بالظن ومنه قوله رجما بالغيب لانه يرميه بذلك

الطعن والرجم أيضا اللعن والطرد وقوله الشيطان الرجيم قد فسروه بكل هذه الوجوه قال ابن عباس رضى الله عنهما كانت الشياطين لا تحجب عن السموات فكانوا يدخلونها ويسمعون أخبار الغيوب من الملائكة فيلقونها الى الكهنة فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات فلما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها فكل واحد منهم اذا أراد استراق السمع رمى بشهاب وقوله الا من استرق السمع لا يمكن حمل لفظة الا ههنا على الاستثناء بدليل ان اقدامهم على استراق السمع لا يخرج السماء من أن تكون محفوظة منهم الا انهم ممنوعون من دخولها وانما يحاولون القرب منها فلا يصح أن يكون استثناء على التحقيق فوجب أن يكون معناه لكن من استرق السمع قال الزجاج موضع من نصب على هذا التقدير قال وجائز أن يكون فى موضع خفض والتقدير الا من قال ابن عباس فى قوله الا من استرق السمع يريد الخطفة اليسيرة وذلك لان المارد من الشياطين يعلو فيرمى بالشهاب فيحرقه ولا يقتله ومنهم من يخبله فيصير غولا يضل الناس فى البرارى وقوله فأتبعه ذكرنا معناه فى سورة الاعراف فى قصة بلعم بن باعورا فى قوله فأتبعه الشيطان معناه لحقه والشهاب شعلة نار ساطع ثم يسمى الكوكب شهابا والسنان شهابا لاجل أنهما لما فيهما من البريق يشبهان النار واعلم أن فى هذا الموضع أبحاثا دقيقة ذكرناها فى سورة الملك وفى سورة الجن ونذكر منها ههنا اشكالا واحدا وهو أن لقائل أن يقول اذا جوزتم فى الجملة أن يصعد الشيطان الى السموات ويختلط بالملائكة ويسمع أخبار الغيوب عنهم ثم انها تنزل وتلقى تلك الغيوب على الكهنة فعلى هذا التقدير وجب أن يخرج الاخبار عن المغيبات عن كونه معجزا لان كل غيب يخبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم قام فيه هذا الاحتمال وحينئذ يخرج عن كونه معجزا دليلا على الصدق لا يقال ان الله تعالى أخبر أنهم عجزوا عن ذلك بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم لانا نقول هذا العجز لا يمكن اثباته الا بعد القطع بكون محمد رسولا وكون القرآن حقا والقطع بهذا لا يمكن الا بواسطة المعجز وكون الاخبار عن الغيب معجزا لا يثبت الا بعد ابطال هذا الاحتمال وحينئذ يلزم الدور وهو باطل محال ويمكن أن يجاب عنه بأنا نثبت كون محمد صلى الله عليه وسلم رسولا بسائر المعجزات ثم بعد العلم بنبوته نقطع بان الله تعالى أعجز الشياطين عن تلقف الغيب بهذا الطريق وعند ذلك يصير الاخبار عن الغيوب معجزا وبهذا الطريق يندفع الدور والله أعلم

❊قوله تعالى (والارض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شئ موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين) اعلم أنه تعالى لما شرح الدلائل السماوية فى تقرير التوحيد أتبعها بذكر الدلائل الارضية وهى أنواع (النوع الاول) قوله تعالى والارض مددناها قال ابن عباس بسطناها على وجه الماء وفيه احتمال آخر وذلك لان الارض جسم والجسم هو الذى يكون ممتدا فى الجهات الثلاثة وهى الطول

حال منه أى نسلكه سلكا مثل ذلك السلك أو نسلك السلك حال كونه مثله أى مقرونا بالاستهزاء غير مقبول لما تقتضيه الحكمة فانهم من أهل الخذلان ليس لهم استحقاق لقبول الحق وصيغة المضارع لكون المشبه به مقدما فى الوجود وهو السلك الواقع فى الامم السالفة أو للدلالة على استحضار الصورة والسلك ادخال الشئ فى آخر يقال سلكت الخيط فى الابرة والرمح فى المطعون (لا يؤمنون به) أى بالذكر حال من ضمير نسلكه أى غير مؤمن به أو بيان للجملة السابقة فلا محل لها وقد جعل الضمير للاستهزاء فيتعين البيانية الا أن يجعل الضمير المجرور أيضا له على أن الباء للملابسة أى نسلك الاستهزاء فى قلوبهم حال كونهم غير مؤمنين بملابسته والحال اما مقدرة أو مقارنة للايذان بأن كفرهم مقارن للالقاء كما فى قوله تعالى فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به (وقد خلت سنة الاولين) أى قد مضت طريقتهم التى سنها الله تعالى فى اهلاكهم حين فعلوا ما فعلوا من التكذيب والاستهزاء وهو استئناف جئ به تكملة للتسلية وتصريحا بالوعيد والتهديد (ولو فتحنا عليهم) أى على هؤلاء المقترحين المعاندين (بابا من السماء) أى بابا ما لا بابا من أبوابها المعهودة كما قيل ويسرنا لهم الرقى والصعود اليه (فظلوا فيه) فى ذلك الباب (يعرجون) بآلة أو بغيرها ويرون ما فيها من العجائب عيانا كما يفيده الظلول أو نظل الملائكة الذين ﴿ والعرض ﴾ اقترحوا اتيانهم يعرجون فى ذلك الباب وهم يرونه عيانا مستوضحين طول نهارهم (لقالوا) لفرط عنادهم وغلوهم فى المكابرة وتفاديهم عن قبول الحق (انما سكرت أبصارنا) أى سدت من الاحساس من السكر كما يدل عليه القراءة بالتخفيف أو حيرت كما يعضده قراءة من

قرأ سكرت أى حارت (بل نحن قوم مسحورون) قد سحرنا محمد صلى الله عليه وسلم كما قالوه عند ظهور سائر الآيات الباهرة وفى كلمتى الحصر والاضراب دلالة على أنهم يبتون القول بذلك وأن ما يرونه لا حقيقة له وانما هو أمر خيل اليهم بالسحر وفى اسمية الجملة الثانية دلالة على دوام مضمونها وايرادها بعد تسكير الابصار لبيان انكارهم لغير ما يرونه فان عروج كل منهم الى السماء وان كان مرئيا لغيره فهو معلوم بطريق الوجدان مع قطع النظر عن الابصار فهم يدعون أن ذلك نوع آخر من السحر غير تسكير الابصار (ولقد جعلنا فى السماء بروجا) قصورا ينزلها السيارات وهى البروج الاثنا عشر المشهورة المختلفة الهيآت والخواص حسبما يدل عليه الرصد والتجربة مع ما اتفق عليه الجمهور من بساطة السماء والجعل ان جعل بمعنى الخلق والابداع وهو الظاهر فالجار متعلق به وان جعل بمعنى التصيير فهو مفعول ثان له متعلق بمحذوف أى جعلنا بروجا كائنة فى السماء (وزيناها) أى السماء بتلك البروج المختلفة الاشكال والكواكب سيارات كانت أو ثوابت (للناظرين) اليها فمعنى التزيين ظاهر أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين بذلك على قدرة مقدرها وحكمة ترتيبها مدبرها فتزيينها على نظام بديع مستتبع الآثار الحسنة (وحفظناها من كل شيطان رجيم) مرمى بالنجوم فلا يقدر أن يصعد اليها ويوسوس فى أهلها ويتصرف فيها ويقف على أحوالها (الا من استرق السمع) محله النصب على الاستثناء المتصل ان فسر الحفظ بمنع الشياطين عن التعرض لها على الاطلاق والوقوف على ما فيها فى الجملة أو المنقطع ان فسر ذلك بالمنع عن دخولها والتصرف فيها

والعرض والثخن واذا كان كذلك فتمدد جسم الارض فى هذه الجهات الثلاثة مختص بمقدار معين لما ثبت أن كل جسم فانه يجب أن يكون متناهيا واذا كان كذلك كان تمدد جسم الارض مختصا بمقدار معين مع أن الازدياد عليه معقول والانتقاص عنه أيضا معقول واذا كان كذلك كان اختصاص ذلك التمدد بذلك القدر المقدر مع جواز حصول الازيد والانقص اختصاصا بأمر جائز وذلك يجب أن يكون بتخصيص مخصص وتقدير مقدر وهو الله سبحانه وتعالى * فان قيل هل يدل قوله والارض مددناها على انها بسيطة * قلنا نعم لان الارض بتقدير كونها كرة فهى كرة فى غاية العظمة والكرة العظيمة يكون كل قطعة صغيرة منها اذا نظر اليها فانها ترى كالسطح المستوى واذا كان كذلك زال ما ذكروه من الاشكال والدليل عليه قوله تعالى والجبال أوتادا سماها أوتادا مع انه قد يحصل عليها سطوح عظيمة مستوية فكذا ههنا (النوع الثانى) من الدلائل المذكورة فى هذه الآية قوله تعالى وألقينا فيها رواسى وهى الجبال الثوابت واحدها راسى والجمع راسية وجمع الجمع رواسى وهو كقوله تعالى وألقى فى الارض رواسى أن تميد بكم وفى تفسيره وجهان (الاول) قال ابن عباس لما بسط الله تعالى الارض على الماء مالت بأهلها كالسفينة وأرساها الله تعالى بالجبال الثقال لكيلا تميل بأهلها فان قيل أتقولون انه تعالى خلق الارض بدون الجبال فمالت بأهلها فخلق فيها الجبال بعد ذلك أو تقولون ان الله خلق الارض والجبال معا قلنا كلا الوجهين محتمل (والوجه الثانى) فى تفسير قوله وألقينا فيها رواسى يجوز أن يكون المراد انه تعالى خلقها لتكون دلالة للناس على طرق الارض ونواحيها لانها كالاعلام فلا تميل الناس عن الجادة المستقيمة ولا يقعون فى الضلال وهذا الوجه ظاهر الاحتمال (النوع الثالث) من الدلائل المذكورة فى هذه الآية قوله تعالى وأنبتنا فيها من كل شئ موزون وفيه بحثان (الاول) أن الضمير فى قوله وأنبتنا فيها يحتمل أن يكون راجعا الى الارض وأن يكون راجعا الى الجبال الرواسى الا أن رجوعه الى الارض أولى لان أنواع النبات المنتفع بها انما تتولد فى الاراضى فأما الفواكه الجبلية فقليلة النفع ومنهم من قال رجوع ذلك الضمير الى الجبال أولى لان المعادن انما تتولد فى الجبال والاشياء الموزونة فى العرف والعادة هى المعادن لا النبات (البحث الثانى) اختلفوا فى المراد بالموزون وفيه وجوه (الاول) أن يكون المراد انه متقدر بقدر الحاجة قال القاضى وهذا الوجه أقرب لانه تعالى يعلم المقدار الذى يحتاج اليه الناس وينتفعون به فينبت تعالى فى الارض ذلك المقدار ولذلك اتبعه بقوله وجعلنا لكم فيها معايش لان ذلك الرزق الذى يظهر بالنبات يكون معيشة لهم من وجهين (الاول) بحسب الاكل والانتفاع بعينه (والثانى) أن ينتفع بالتجارة فيه والقائلون بهذا القول قالوا الوزن انما يراد لمعرفة المقدار فكان اطلاق لفظ الوزن لارادة معرفة المقدار من باب اطلاق اسم السبب على

المسبب قالوا و يتأكد ذلك أيضا بقوله تعالى وكل شئ عنده بمقدار وقوله وان من شئ الاعندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم (والوجه الثانى) فى تفسير هذا اللفظ ان هذا العالم عالم الاسباب والله تعالى انما يخلق المعادن والنبات والحيوان بواسطة تركيب طبائع هذا العالم فلا بدوأن يحصل من الارض قدر مخصوص ومن الماء والهواء كذلك ومن تأثير الشمس والكواكب فى الحر والبرد مقدار مخصوص ولو قدرنا حصول الزيادة على ذلك القدر المخصوص أو النقصان عنه لم تتولد المعادن والنبات والحيوان فالله سبحانه وتعالى قدرها على وجه مخصوص بقدرته وعلمه وحكمته فكأنه تعالى وزنها بميزان الحكمة حتى حصلت هذه الانواع (والوجه الثالث) فى تفسير هذا اللفظ ان أهل العرف يقولون فلان موزون الحركات أى حركاته حركات متناسبة حسنة مطابقة للحكمة وهذا الكلام كلام موزون إذا كان متناسبا حسنا بعيدا عن اللغو والسخف فكان المراد منه انه موزون بميزان الحكمة والعقل و بالجملة فقد جعلوا لفظ الموزون كناية عن الحسن والتناسب فقوله وأنبتنا فيها من كل شئ موزون أى متناسب محكوم عليه عند العقول السليمة بالحسن واللطافة ومطابقة المصلحة (الوجه الرابع) فى تفسير هذا اللفظ ان الشئ الذى ينبت من الارض نوعان المعادن والنبات أما المعادن فهى بأسرها موزونة وهى الاجساد السبعة والاحجار والاملاح والزاجات وغيرها وأما النبات فيرجع عاقبتها الى الوزن لان الحبوب توزن وكذلك الفواكه فى الاكثر والله أعلم وقوله تعالى وجعلنا لكم فيها معايش فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ذكرنا الكلام فى المعايش فى سورة الاعراف وقوله ومن لستم له برازقين فيه قولان (القول الاول) انه معطوف على محل لكم والتقدير وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين (والقول الثانى) انه عطف على قوله معايش والتقدير وجعلنا لكم معايش ومن لستم له برازقين وعلى هذا القول ففيه احتمالات ثلاثة (الاول) ان كلمة من مختصة بالعقلاء فوجب أن يكون المراد من قوله ومن لستم له برازقين العقلاء وهم العيال والمماليك والخدم والعبيد وتقرير الكلام ان الناس يظنون فى أكثر الامر أنهم الذين يرزقون العيال والخدم والعبيد وذلك خطأ فان الله هو الرزاق يرزق الخادم والمخدوم والمملوك والمالك فانه لولا انه تعالى خلق الاطعمة والاشربة وأعطى القوة الغاذية والهاضمة والا لم يحصل لاحد رزق (والاحتمال الثانى) وهو قول الكلبى قال المراد بقوله ومن لستم له برازقين الوحش والطير فان قيل كيف يصح هذا التأويل مع أن صيغة من مختصة بمن يعقل قلنا الجواب عنه من وجهين (الاول) أن صيغة من قد وردت فى غير العقلاء والدليل عليه قوله تعالى والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع (والثانى) انه تعالى أثبت لجميع الدواب رزقا على الله حيث قال وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها و يعلم مستقرها ومستودعها فكأنها عند الحاجة تطلب أرزاقها من

عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم كانوا لا يحجبون عن السموات فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات ولما ولد النبي صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها واستراق السمع اختلاسه سرا شبه به خطفتهم اليسيرة من قطان السموات بما بينهم من المناسبة فى الجوهر أو بالاستدلال من الاوضاع (فأتبعه) أى تبعه ولحقه (شهاب) لهب محرق وهو شعلة نار ساطعة وقد يطلق على الكواكب والسنان لما فيهما من البريق (مبين) ظاهر أمره للمبصرين قال معمر قلت لابن شهاب الزهرى أكان يرمى بالنجوم فى الجاهلية قال نعم وان النجم ينقض و يرمى به الشيطان فيقتله أو يخبله لئلا يعود الى استراق السمع ثم يعود الى مكانه قال أفرأيت قوله وانا كنا نقعد منها مقاعد الآية قال غلظت وشدد أمرها حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن قتيبة ان الرجم كان قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام ولكن لم يكن فى شدة الحراسة كما بعد مبعثه عليه الصلاة والسلام قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان الشياطين يركب بعضهم بعضا الى السماء الدنيا يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب فلا يخطئ أبدا فمنهم من يقتله ومنهم من يحرق وجهه وجنبه و يده حيث يشاء الله تعالى ومنهم من يخبله فيصير غولا فيضل الناس فى البوادى قال ﴿ خالقها ﴾ القرطبي اختلفوا فى أن الشهاب هل يقتل أم لا قال ابن عباس رضى الله عنهما يجرح و يحرق و يخبل ولا يقتل وقال الحسن وطائفة يقتل قال و الاول أصح (والارض مددناها) بسطناها وهو بالنصب على الحذف على شريطة التفسير ولم يقرأ بالرفع

رجحان النصب للعطف على الجملة الفعلية أعنى قوله تعالى ولقد جعلنا الخ وليوافق مابعده أعنى قوله تعالى (وألقينا فيها رواسى) أى جبالا ثوابت وقدمر بيانه فى أول الرعد (وأنبتنا فيها) أى فى الارض أوفيها وفى رواسيها (من كل شئ موزون) بميزان الحكمة ذاتا وصفة ومقدرا وقيل مايوزن من الذهب والفضة وغيرهما أومن كل شئ مستحسن مناسب أومايوزن ويقدر من أبواب النعمة (وجعلنا لكم فيها معايش) ماتعيشون به من المطاعم والملابس وغيرهما مما يتعلق به البقاء وهى بياء صريحة وقرئ بالهمزة تشبيها له بالشمائل (ومن لستم له برازقين) عطف على معايش أوعلى محل لكم كأنه قيل جعلنا لكم معايش وجعلنا لكم من لستم برازقيه من العيال والمماليك والخدم والدواب وماشبهها على طريقة التغليب وذكرهم بهذا العنوان لرد حسبانهم أنهم يكفون مؤناتهم ولتحقيق أن الله تعالى هو الذى يرزقهم واياهم أووجعلنا لكم فيها معايش ولمن لستم له برازقين (وان من شئ) ان للنفى ومن مزيدة للتأكيد وشئ فى محل الرفع على الابتداء أى مامن شئ من الاشياء الممكنة فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليا (الا عندنا خزائنه) الظرف خبر للمبتدا وخزائنه مرتفع به على أنه فاعله لاعتماده أوخبره والجملة خبر للمبتدا الاول والخزائن جمع الخزانة وهى مايحفظ فيه نفائس الاموال لاغير غلب فى العرف على ما للملوك والسلاطين من خزائن أرزاق الناس شبهت مقدوراته تعالى الفائتة للحصر المندرجة تحت قدرته الشاملة فى كونها مستورة عن علوم العالمين ومصونة عن وصول أيديهم مع كمال افتقارهم اليها ورغبتهم فيها وكونها مهيأة

خالقها فصارت شبيهة بمن يعقل من هذه الجهة فلم يبعد ذكرها بصيغة من يعقل ألا ترى أنه قال ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم فذكرها بصيغة جمع العقلاء وقال فى الاصنام فانهم عدولى وقال كل فى فلك يسبحون فكذا ههنا لايبعد اطلاق اللفظة المختصة بالعقلاء على الوحش والطير لكونها شبيهة بالعقلاء من هذه الجهة وسمعت فى بعض الحكايات انه قلت المياه فى الاودية والجبال واشتد الحر فى عام من الاعوام فحكى عن بعضهم انه رأى بعض الوحش رافعا رأسه الى السماء عند اشتداد عطشه قال فرأيت الغيوم قد أقبلت وأمطرت بحيث امتلأت الاودية منها (والاحتمال الثالث) انا نحمل قوله ومن لستم له برازقين على الاماء والعبيد وعلى الوحش والطير وانما أطلق عليها صيغة من تغليبا لجانب العقلاء على غيرهم (المسئلة الثانية) قوله ومن لستم له برازقين لايجوز أن يكون مجرورا عطفا على الضمير المجرور فى لكم لانه لايعطف على الضمير المجرور لايقال أخذت منك وزيد الا باعادة الخافض كقوله تعالى واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح واعلم أن هذا المعنى جائز على قراءة من قرأ تساءلون به والارحام بالخفض وقد ذكرنا هذه المسئلة هنالك والله أعلم * قوله تعالى (وان من شئ الا عندنا خزائنه وماننزله الا بقدر معلوم وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وماأنتم له بخازنين) اعلم أنه تعالى لما بين أنه أنبت فى الارض كل شئ موزون وجعل فيها معايش أتبعه بذكر ماهو كالسبب لذلك فقال وان من شئ الا عندنا خزائنه (وهذا هو النوع الرابع) من الدلائل المذكورة فى هذه السورة على تقرير التوحيد وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الواحدى رحمه الله الخزائن جمع الخزانة وهى اسم المكان الذى يخزن فيه الشئ أن يحفظ والخزانة أيضا عمل الخازن ويقال خزن الشئ يخزنه اذا أحرزه فى خزانة وعامة المفسرين على أن المراد بقوله وان من شئ الا عندنا خزائنه هو المطر وذلك لانه هو السبب للارزاق ولمعايش بنى آدم وغيرهم من الطيور والوحوش فلما ذكر تعالى انه يعطيهم المعايش بين أن خزائن المطر الذى هو سبب المعايش عنده أى فى أمره وحكمه وتدبيره وقوله وماننزله الا بقدر معلوم قال ابن عباس رحمهما الله يريد قدر الكفاية وقال الحكم مامن عام بأكثر مطرا من عام آخر ولكنه يمطر قوم ويحرم قوم آخرون وربما كان فى البحر يعنى ان الله تعالى ينزل المطر كل عام بقدر معلوم غير انه يصرفه الى من يشاء حيث شاء كما شاء ولقائل أن يقول لفظ الآية لايدل على هذا المعنى فان قوله تعالى وماننزله الا بقدر معلوم لايدل على أنه تعالى ينزله فى جميع الاعوام على قدر واحد واذا كان كذلك كان تفسير الآية بهذا المعنى تحكما من غير دليل وأقول أيضا تخصيص قوله تعالى وان من شئ الا عندنا خزائنه بالمطر تحكم محض لان قوله وان من شئ يتناول جميع الاشياء الا ماخصه الدليل وهو الموجود القديم الواجب لذاته وقوله الا عندنا خزائنه اشارة الى كون تلك الاشياء مقدورة له تعالى وحاصل الامر فيه أن

متأتية لايجاده وتكوينه بحيث متى تعلقت الارادة بوجودها وجدت بلا تأخر بنفائس الاموال المخزونة فى الخزائن السلطانية فذكر الخزائن على طريقة الاستعارة التخييلية (وما ننزله) أى ما نوجد وما نكون شيئا من تلك الاشياء ملتبسا بشئ من الاشياء (الا بقدر معلوم) أى الا ملتبسا بمقدار معين تقتضيه الحكمة وتستدعيه المشيئة التابعة لها لا بما تقتضيه القدرة فان ذلك غير متناه فان تخصيص كل شئ بصفة معينة وقدر معين ووقت محدود دون ما عدا ذلك مع استواء الكل فى الامكان واستحقاق تعلق القدرة به لا بد له من حكمة تقتضى اختصاص كل من ذلك بما اختص به وهذا البيان سر عدم تكوين الاشياء على وجه الكثرة حسبما هو فى خزائن القدرة وهو اما عطف على مقدر أى ننزله وما ننزله الخ أو حال مما سبق أى عندنا خزائن كل شئ والحال أنا ما ننزله الا بقدر معلوم فالاول لبيان سعة القدرة والثانى لبيان بالغ الحكمة وحيث كان انشاء ذلك بطريق التفضل من العالم العلوى الى العالم السفلى كما فى قوله تعالى وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج وكان ذلك بطريق التدريج عبر عنه بالتنزيل وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار (وأرسلنا الرياح) عطف على جعلنا لكم فيها معايش وما بينهما اعتراض لتحقيق ما سبق وترشيح ما لحق أى أرسلنا الرياح (لواقح) أى حوامل شبهت الريح التى تجئ بالخير من انشاء ﴿ الماء ﴾ سحاب ماطر بالحامل كما شبه بالعقيم ما لا يكون كذلك أو ملقحات بالشجر والسحاب ونظيره الطوائح بمعنى المطيحات فى قوله * ومختبط مما تطيح الطوائح * أى المهلكات وقرئ وأرسلنا

المراد أن جميع الممكنات مقدورة له ومملوكة يخرجها من العدم الى الوجود كيف شاء الا أنه تعالى وان كانت مقدوراته غير متناهية الا أن الذى يخرجه منها الى الوجود يجب أن يكون متناهيا لان دخول ما لا نهاية له فى الوجود محال فقوله وان من شئ الا عندنا خزائنه اشارة الى كون مقدوراته غير متناهية وقوله وما ننزله الا بقدر معلوم اشارة الى أن كل ما يدخل منها فى الوجود فهو متناه ومتى كان الخارج منها الى الوجود متناهيا كان لا محالة مختصا فى الحدوث بوقت مقدر مع جواز حصوله قبل ذلك الوقت أو بعده بدلا عنه وكان مختصا بحيز معين مع جواز حصوله فى سائر الاحياز بدلا عن ذلك الحيز وكان مختصا بصفات معينة مع انه كان يجوز فى العقل حصول سائر الصفات بدلا عن تلك الصفات واذا كان كذلك كان اختصاص تلك الاشياء المتناهية بذلك الوقت المعين والحيز المعين والصفات المعينة بدلا عن أضدادها لا بد وأن يكون بتخصيص مخصص وتقدير مقدر وهذا هو المراد من قوله وما ننزله الا بقدر معلوم والمعنى انه لولا القادر المختار الذى خصص تلك الاشياء بتلك الاحوال الجائزة لامتنع اختصاصها بتلك الصفات الجائزة والمراد من الانزال الاحداث والانشاء والابداع كقوله تعالى وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج وقوله وأنزلنا الحديد والله أعلم (المسئلة الثانية) تمسك بعض المعتزلة بهذه الآية فى اثبات أن المعدوم شئ قال لان قوله تعالى وان من شئ الا عندنا خزائنه يقتضى أن يكون لجميع الاشياء خزائن وأن تكون تلك الخزائن حاصلة عند الله تعالى ولا جائز أن يكون المراد من تلك الخزائن الموجودة عند الله تعالى هى تلك الموجودات من حيث انها موجوده لانا بينا أن المراد من قوله تعالى وما ننزله الا بقدر معلوم الاحداث والابداع والانشاء والتكوين وهذا يقتضى أن يكون حصول تلك الخزائن عند الله متقدما على حدوثها ودخولها فى الوجود واذا بطل هذا وجب أن يكون المراد أن تلك الذوات والحقائق والماهيات كانت متقررة عند الله تعالى بمعنى انها كانت ثابتة من حيث انها حقائق وماهيات ثم انه تعالى أنزل بعضها أى أخرج بعضها من العدم الى الوجود ولقائل أن يجيب عن ذلك بقوله لا شك ان لفظ الخزائن انما ورد ههنا على سبيل التمثيل والتخييل فلم لا يجوز أن يكون المراد منه مجرد كونه تعالى قادرا على ايجاد تلك الاشياء وتكوينها واخراجها من العدم الى الوجود وعلى هذا التقدير يسقط الاستدلال والمباحث الدقيقة باقية والله أعلم أما قوله تعالى وأرسلنا الرياح لواقح فاعلم أن هذا هو النوع الخامس من دلائل التوحيد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى وصف الرياح بأنها لواقح أقوال (الاول) قال ابن عباس الرياح لواقح للشجر وللسحاب وهو قول الحسن وقتادة والضحاك وأصل هذا من قولهم لقحت الناقة وألقحها الفحل اذا ألقى الماء فيها فحملت فكذلك الرياح جارية مجرى الفحل للسحاب قال ابن مسعود فى تفسير هذه الآية يبعث الله الرياح لتلقح السحاب فتحمل

الماء وتمجه فى السحاب ثم انه يعصر السحاب ويدره كما تدر اللقحة فهذا هو تفسير القاحها للسحاب وأما تفسير القاحها للشجر فما ذكروه فان قيل كيف قال لواقح وهى ملقحة والجواب ماذهب اليه أبو عبيدة ان لواقح ههنا بمعنى ملاقح جمع ملقحة وأنشد لسهيل يرثى أخاه

ليبك يزيد بائس ذو ضراعة * وأشعث مما طوحته الطوائح

أراد المطوحات وقرر ابن الانبارى ذلك فقال تقول العرب أبقل النبت فهو باقل يريدون فهو مبقل وهذا يدل على جواز ورود لاقح عبارة عن ملقح (والوجه الثانى) فى الجواب قال الزجاج يجوز أن يقال لها لواقح وان ألقحت غيرها لان معناها النسبة وهو كما يقال درهم وازن أى ذو وزن ورامح وسائف أى ذو رمح وذو سيف قال الواحدى هذا الجواب ليس بمغن لانه كان يجب أن يصح اللاقح بمعنى ذات اللقاح وهذا ليس بشئ لان اللاقح هو المنسوب الى اللقحة ومن أفاد غيره اللقحة فله نسبة الى اللقحة فصح هذا الجواب والله أعلم (والوجه الثالث) فى الجواب ان الريح فى نفسها لاقح وتقريره بطريقين (الاول) ان الريح حاملة للسحاب والدليل عليه قوله سبحانه وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى اذا أقلت سحابا ثقالا أى حملت فعلى هذا المعنى تكون الريح لاقحة بمعنى أنها حاملة تحمل السحاب والماء (والطريق الثانى) قال الزجاج يجوز أن يقال للريح لقحت اذا أتت بالخير كما قيل لها عقيم اذا لم تأت بالخير وهذا كما تقول العرب قد لقحت الحرب وقد نتجت ولدا أنكد يشبهون ما تشتمل عليه من ضرر وبالشر بما تحمله الناقة فكذا ههنا والله أعلم (المسئلة الثانية) الريح هواء متحرك وحركة الهواء بعد ان لم يكن متحركا لابد له من سبب وذلك السبب ليس نفس كونه هواء ولا شيئا من لوازم ذاته والا لدامت حركة الهواء بدوام ذاته وذلك محال فلم يبق الا أن يقال انه يتحرك بتحريك الفاعل المختار والاحوال التى تذكرها الفلاسفة فى سبب حركة الهواء عند حدوث الريح قد حكيناها فى هذا الكتاب مرارا فأبطلناها وبينا انه لا يمكن أن يكون شئ منها سببا لحدوث الرياح فبقى أن يكون محركها هو الله سبحانه وأما قوله وأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ففيه مباحث (الاول) ان ماء المطر هل ينزل من السماء أو ينزل من ماء السحاب وبتقدير أن يقال انه ينزل من السحاب كيف أطلق الله على السحاب لفظ السماء (وثانيها) انه ليس السبب فى حدوث المطر ما يذكره الفلاسفة بل السبب فيه أن الفاعل المختار ينزله من السحاب الى الارض لغرض الاحسان الى العباد كما قال ههنا فأسقيناكموه قال الازهرى تقول العرب لكل ما كان فى بطون الانعام ومن السماء أو نهر يجرى أسقيته أى جعلته شربا له وجعلت له منها مسقى فاذا كانت السقيا لسقيه قالوا اسقاه ولم يقولوا أسقاه والذى يؤكد هذا اختلاف القراء فى قوله نسقيكم مما فى بطونه فقرؤا باللغتين ولم يختلفوا فى قوله وسقاهم ربهم شرابا طهورا

الريح على ارادة الجنس (فأنزلنا من السماء) بعدما أنشأنا بتلك الرياح سحابا ماطرا (ماء فأسقيناكموه) أى جعلناه لكم سقيا وهو أبلغ من سقيناكموه لما فيه من الدلالة على جعل الماء معدا لهم ينتفعون به متى شاؤا (وما أنتم له بخازنين) نفى عنهم ما أثبته لجنابه بقوله وان من شئ الا عندنا خزائنه كأنه قيل نحن القادرون على ايجاده وخزنه فى السحاب وانزاله وما أنتم على ذلك بقادرين وقيل ما أنتم بخازنين له بعدما أنزلناه فى الغدران والآبار والعيون بل نحن نخزنه فيها لنجعلها سقيا لكم مع أن طبيعة الماء تقتضى الغور (وانا لنحن نحيى) بايجاد الحياة فى بعض الاجسام القابلة لها (ونميت) بازالتها عنها وقد يعمم الاحياء والاماتة لما يشمل الحيوان والنبات وتقديم الضمير للحصر وهو اما تأكيد للاول أو مبتدأ خبره الفعل والجملة خبر لانا ولا يجوز كونه ضمير الفصل لا لان اللام مانعة من ذلك كما قيل فان النحاة جوزوا دخول لام التأكيد على ضمير الفصل كما فى قوله تعالى ان هذا لهو القصص الحق بل لانه لم يقع بين اسمين (ونحن الوارثون) أى الباقون بعد فناء الخلق قاطبة المالكون للملك عند انقضاء زمان الملك المجازى الحاكمون فى الكل أولا وآخرا وليس لهم الا التصرف الصورى والملك المجازى وفيه تنبيه على أن المتأخر ليس بوارث للمتقدم كما يتراءى من ظاهر الحال (ولقد علمنا المستقدمين منكم) من تقدم منكم ولادة وموتا (ولقد علمنا المستأخرين) من تأخر ولادة وموتا أو من خرج من أصلاب الآباء ومن لم يخرج بعد أو من تقدم فى الاسلام والجهاد وسبق الى الطاعة ومن تأخر فى ذلك لا يخفى علينا شئ من أحوالكم وهو بيان

لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته فان ما يدل عليها دليل عليه وفى تكرير قوله تعالى ولقد علمنا ما لا يخفى من الدلالة على كمال التاكيد وقيل رغب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصف الاول فازدحموا عليه فنزلت وقيل ان امرأة حسناء كانت تصلى خلف رسول الله عليه الصلاة والسلام فتقدم بعض الناس لئلا يراها وتأخر آخرون ليروها فنزلت والاول هو المناسب لما سبق وما لحق من قوله تعالى (وان ربك هو يحشرهم) أى للجزاء وتوسيط ضمير العظمة للدلالة على أنه هو القادر على حشرهم والمتولى له لا غير لانهم كانوا يستبعدون ذلك ويستنكرونه ويقول من يحيى العظام وهى رميم أى هو يحشرهم لا غير وفى الالتفات والتعرض لعنوان الربوبية اشعار بعلة الحكم وفى الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام دلالة على اللطف به عليه الصلاة والسلام (انه حكيم) بالغ الحكمة متقن فى أفعاله فانها عبارة عن العلم بحقائق الاشياء على ما هى عليه والاتيان بالافعال على ما ينبغى (عليم) وسع علمه كل شئ ولعل تقديم صفة الحكمة للايذان باقتضائها للحشر والجزاء (ولقد خلقنا الانسان) أى هذا النوع بأن خلقنا أصله وأول فرد من أفراده خلقا بديعا منطويا على خلق سائر أفراده انطواء اجماليا كما مر تحقيقه فى سورة الانعام (من صلصال) من طين يابس غير مطبوخ يصلصل أى يصوت عند نقره قيل اذا توهمت فى صوته مدا فهو صليل وان توهمت فيه ترجيعا فهو صلصلة وقيل هو تضعيف صل اذا أنتن (من حمأ) من طين تغير واسود بطول مجاورة الماء وهو صفة لصلصال أى من صلصال كائن من حمأ

وفى قوله والذى هو يطعمنى ويسقين قال أبو على سقيته حتى روى وأسقيته نهرا أى جعلته شربا له وقوله فأسقيناكموه أى جعلناه سقيا لكم وربما قالوا فى أسقى سقى كقول لبيد يصف سحابا

أقول وصوبه منى بعيد * يحط السيب من قلل الجبال
سقى قومى بنى نجد وأسقى * نميرا والقبائل من هلال

فقوله سقى قومى ليس يريد به ما يروى عطاشهم ولكن يريد رزقهم سقيا لبلادهم يخصبون بها وبعيد أن يسأل لقومه ما يروى العطاش ولغيرهم ما يخصبون به وأما سقيا السقية فلا يقال فيها أسقاه وأما قول ذى الرمة

وأسقيه حتى كاد مما أبثه * تكلمنى أحجاره وملاعبه

فمعنى أسقيه أدعو له بالسقاء وأقول سقاه الله وقوله وما أنتم له بخازنين يعنى به ذلك الماء المنزل من السماء يعنى لستم له بحافظين * قوله تعالى (وانا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين وان ربك يحشرهم انه حكيم عليم) اعلم أن هذا هو (النوع السادس) من دلائل التوحيد وهو الاستدلال بحصول الاحياء والاماتة لهذه الحيوانات على وجود الاله القادر المختار أما قوله وانا لنحن نحيى ونميت ففيه قولان منهم من حمله على القدر المشترك بين احياء النبات والحيوان ومنهم من يقول وصف النبات بالاحياء مجاز فوجب تخصيصه باحياء الحيوان ولما ثبت بالدلائل العقلية انه لا قدرة على خلق الحياة الا للحق سبحانه كان حصول الحياة للحيوان دليلا قاطعا على وجود الاله الفاعل المختار وقوله وانا لنحن نحيى ونميت يفيد الحصر أى لا قدرة على الاحياء ولا على الاماتة الا لنا وقوله ونحن الوارثون معناه انه اذا مات جميع الخلائق فحينئذ يزول ملك كل أحد عند موته ويكون الله هو الباقى الحق المالك لكل المملوكات وحده فكان هذا شبيها بالارث فكان وارثا من هذا الوجه وأما قوله ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ففيه وجوه (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء المستقدمين يريد أهل طاعة الله تعالى والمستأخرين يريد المتخلفين عن طاعة الله (الثانى) أراد بالمستقدمين الصف الاول من أهل الصلاة والمستأخرين الصف الآخر روى انه صلى الله عليه وسلم رغب فى صف الاول فى الصلاة فازدحم الناس عليه فأنزل الله تعالى هذه الآية والمعنى انا نجزيهم على قدر نياتهم (الثالث) قال الضحاك ومقاتل يعنى فى صف القتال (الرابع) قال ابن عباس فى رواية أبى الجوزاء كانت امرأة حسناء تصلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قوم يتقدمون الى الصف الاول لئلا يروها وآخرون يتخلفون ويتاخرون ليروها واذا ركعوا جافوا أيديهم لينظروا من تحت اباطهم فأنزل الله تعالى هذه الآية (الخامس) قيل المستقدمون هم الاموات والمستأخرون هم الاحياء وقيل المستقدمون هم الامم

﴿ السالفة ﴾

السالفة والمستأخرون هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقال عكرمة المستقدمون من خلق والمستأخرون من لم يخلق واعلم انه تعالى لما قال وانا لنحن نحيي ونميت أتبعه بقوله ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين تنبيها على انه لا يخفى على الله شئ من أحوالهم فيدخل فيه علمه تعالى بتقدمهم وتأخرهم في الحدوث والوجود وبتقدمهم وتأخرهم في أنواع الطاعات والخيرات ولا ينبغي أن نخص الآية بحالة دون حالة وأما قوله وان ربك هو يحشرهم فالمراد منه التنبيه على ان الحشر والنشر والبعث والقيامة أمر واجب وقوله انه حكيم عليم معناه ان الحكمة تقتضي وجوب الحشر والنشر على ما قررناه بالدلائل الكثيرة في أول سورة يونس عليه السلام * قوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حما مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان هذا هو النوع السابع من دلائل التوحيد فانه تعالى لما استدل بتخليق الحيوانات على صحة التوحيد في الآية المتقدمة أردفه بالاستدلال بتخليق الانسان على هذا المطلوب (المسئلة الثانية) ثبت بالدلائل القاطعة انه يمتنع القول بوجود حوادث لا أول لها واذا ثبت هذا ظهر وجوب انتهاء الحوادث الى حادث أول هو أول الحوادث واذا كان كذلك فلا بد من انتهاء الناس الى انسان هو أول الناس واذا كان كذلك فذلك الانسان الاول غير مخلوق من الابوين فيكون مخلوقا لا محالة بقدرة الله تعالى فقوله ولقد خلقنا الانسان اشارة الى ذلك الانسان الاول والمفسرون أجمعوا على ان المراد منه هو آدم عليه السلام ونقل في كتب الشيعة عن محمد بن علي الباقر رضي الله عنه انه قال قد انقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر وأقول هذا لا يقدح في حدوث العالم بل الامر كيف كان فلا بد من الانتهاء الى انسان أول هو أول الناس واما أن ذلك الانسان هو أبونا آدم فلا طريق الى اثباته الا من جهة السمع واعلم أن الجسم محدث فوجب القطع بأن آدم عليه السلام وغيره من الاجسام يكون مخلوقا عن عدم محض وأيضا دل قوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب على ان آدم مخلوق من تراب ودلت آية أخرى على أنه مخلوق من الطين وهي قوله انى خالق بشرا من طين وجاء في هذه الآية ان آدم عليه السلام مخلوق من صلصال من حما مسنون والاقرب انه تعالى خلقه أولا من تراب ثم من طين ثم من حما مسنون ثم من صلصال كالفخار ولا شك أنه تعالى قادر على خلقه من أي جنس من الاجسام كان بل هو قادر على خلقه ابتداء وانما خلقه على هذا الوجه اما لمحض المشيئة أولما فيه من دلالة الملائكة ومصلحتهم ومصلحة الجن لان خلق الانسان من هذه الامور أعجب من خلق الشئ من شكله وجنسه (المسئلة الثالثة) في الصلصال قولان قيل الصلصال الطين اليابس الذي يصلصل وهو غير مطبوخ واذا طبخ فهو فخار قالوا اذا توهمت في صوته مدا فهو صليل واذا توهمت فيه ترجيعا فهو صلصلة قال المفسرون خلق الله تعالى آدم عليه السلام من طين فصور وتركه

(مسنون) أي مصور من سنة الوجه وهي صورته او مصبوب من سن الماء صبه أي مفرغ على هيئة الانسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذابة في القوالب وقيل منتن فهو صفة لحما وعلى الاولين حقه أن يكون صفة لصلصال وانما أخر عن حما تنبيها على أن ابتداء مسنونيته ليس في حال كونه صلصالا بل في حال كونه حما كأنه سبحانه أفرغ الحما فصور من ذلك تمثال انسان أجوف فيبس حتى اذا نقر صوت ثم غيره الى جوهر آخر فتبارك الله أحسن الخالقين (والجان) أبا الجن وقيل ابليس ويجوز أن يراد به الجنس كما هو الظاهر من الانسان لان تشعب الجنس لما كان من فرد واحد مخلوق من مادة واحدة كان الجنس باسره مخلوقا منها وقرئ بالهمزة وانتصابه بفعل يفسره (خلقناه) وهو أقوى من الرفع للعطف على الجملة الفعلية (من قبل) من قبل خلق الانسان ومن هذا يظهر جواز كون المراد بالمستقدمين أحد الثقلين وبالمستأخرين الآخر والخطاب بقوله منكم للكل (من نار السموم) من نار الحر الشديد النافذ في المسام ولا امتناع من خلق الحياة في الاجرام البسيطة كالامتناع من خلقها في الجواهر المجردة فضلا عن الاجساد المؤلفة التي غالب أجزائها الجزء الناري فانها أقبل لها من التي غالب أجزائها الجزء الارضي وقوله تعالى من نار باعتبار الغالب كقوله تعالى خلقكم من تراب وساق الآية الكريمة كما هو للدلالة على كمال قدرة الله تعالى وبيان بدء خلق الثقلين فهو للتنبيه على المقدمة الثانية التي يتوقف عليها امكان الحشر وهو قبول المواد للجمع والاحياء (واذ قال ربك) نصب باضمار اذكر وتذكير الوقت لما مر مرارا من

أنه أدخل في تذكير ما وقع فيه من الحوادث وفي التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن تبليغ الشيء الى كماله اللائق به شيئا فشيئا مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام اشعار بعلة الحكم وتشريف له عليه الصلاة والسلام أي اذكر وقت قوله تعالى (للملائكة اني خالق) فيما سيأتي وفيه ما ليس في صيغة المضارع من الدلالة على أنه تعالى فاعل له البتة من غير صارف يثنيه ولا عاطف يلويه (بشرا) أي انسانا قيل ليس هذا عين العبارة الجارية وقت الخطاب بل الظاهر أن يكون قد قيل لهم اني خالق خلقا من صفته كيت وكيت ولكن اقتصر عند الحكاية على الاسم وقيل جسما كثيفا يلاقي ويباشر وقيل خلقا بادي البشرة بلا صوف ولا شعر (من صلصال) متعلق بخالق أو بمحذوف وقع صفة لمفعوله أي بشرا كائنا من صلصال كائن (من حما مسنون) تقدم تفسيره ولا ينافي هذا ما في قوله تعالى في سورة ص من قوله بشرا من طين فان عدم التعرض عند الحكاية لوصف الطين من التغير والاسوداد ولما ورد عليه من آثار التكوين لا يستلزم عدم التعرض لذلك عند وقوع المحكي غايته أنه لم يتعرض له هناك اكتفاء بما شرح ههنا (فاذا سويته) أي صورته بالصورة الانسانية والخلقة البشرية أو سويت أجزاء بدنه بتعديل طبائعه (ونفخت فيه من روحي) النفخ اجراء الريح الى تجويف جسم صالح لامساكها والامتلاء بها وليس ثمة نفخ ولا منفوخ وانما هو تمثيل لافاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها أي فاذا أكملت استعداده وأفضت عليه ما يحيا به من الروح التي هي من أمري (فقعوا له) أمر من وقع يقع وفيه دليل على أن ليس المأمور به مجرد

في الشمس أربعين سنة فصار صلصالا كالخزف ولا يدري أحد ما يراد به ولم ير شيئا من الصور يشبهه الى أن نفخ فيه الروح وحقيقة الكلام انه تعالى خلق آدم من طين على صورة الانسان فجف فكانت الريح اذا مرت به سمع له صلصلة فلذلك سماه الله تعالى صلصالا (والقول الثاني) الصلصال هو المنتن من قولهم صل اللحم وأصل اذا أنتن وتغير وهذا القول عندي ضعيف لانه تعالى قال من صلصال من حما مسنون وكونه حما مسنونا يدل على النتن والتغير وظاهر الآية يدل على ان هذا الصلصال انما تولد من الحما المسنون فوجب أن يكون كونه صلصالا مغايرا لكونه حما مسنونا ولو كان كونه صلصالا عبارة عن النتن والتغير لم يبق بين كونه صلصالا وبين كونه حما مسنونا تفاوت وأما الحما فقال الليث الحمأة بوزن فعلة والجمع الحما وهو الطين الاسود المنتن وقال أبو عبيدة والاكثرون حمأة بوزن كمأة وقوله مسنون فيه أقوال (الاول) قال ابن السكيت سمعت ابا عمرو يقول في قوله مسنون أي متغير قال أبو الهيثم يقال سن الماء فهو مسنون أي تغير والدليل عليه قوله تعالى لم يتسنه أي لم يتغير (الثاني) المسنون المحكوك وهو مأخوذ من سننت الحجر على الحجر اذا حككته عليه والذي يخرج من بينهما يقال له السنين وسمي المسن مسنا لان الحديد يسن عليه (والثالث) قال الزجاج هذا اللفظ مأخوذ من أنه موضوع على سنن الطريق لانه متى كان كذلك فقد تغير (الرابع) قال أبو عبيدة المسنون المصبوب والسن الصب يقال سن الماء على وجهه سنا (الخامس) قال سيبويه المسنون المصور على صورة ومثال من سنة الوجه وهي صورته (السادس) روى عن ابن عباس انه قال المسنون الطين الرطب وهذا يعود الى قول أبي عبيدة لانه اذا كان رطبا يسيل وينبسط على الارض فيكون مسنونا بمعنى انه مصبوب أما قوله تعالى والجان خلقناه فاختلفوا في ان الجان من هو فقال عطاء عن ابن عباس يريد ابليس وهو قول الحسن ومقاتل وقتادة وقال ابن عباس في رواية أخرى الجان هو أبو الجن وهو قول الاكثرين وسمي جانا لتواريه عن الاعين كما سمي الجنين جنينا لهذا السبب والجنين متوار في بطن أمه ومعنى الجان في اللغة الساتر من قولك جن الشيء اذا ستره فالجان المذكور ههنا يحتمل انه سمي جانا لانه يستر نفسه عن أعين بني آدم أو يكون من باب الفاعل الذي يراد به المفعول كما يقال في لابن وتامر وماء دافق وعيشة راضية واختلفوا في الجن فقال بعضهم انهم جنس غير الشياطين والاصح ان الشياطين قسم من الجن فكل من كان منهم مؤمنا فانه لا يسمى بالشيطان وكل من كان منهم كافرا يسمى بهذا الاسم والدليل على صحة ذلك أن لفظ الجن مشتق من الاستتار فكل من كان كذلك كان من الجن وقوله تعالى خلقناه من قبل قال ابن عباس يريد من قبل خلق آدم وقوله من نار السموم معنى السموم في اللغة الريح الحارة تكون بالنهار وقد تكون بالليل وعلى هذا فالريح الحارة فيها نار ولها لفح وأوار على ما ورد في الخبر أنها لفح جهنم قيل سميت سموما لانها بلطفها تدخل في مسام البدن وهي الخروق

الخفية التى تكون فى جلد الانسان يبرز منها عرقه و بخار باطنه قال ابن مسعود هذه السموم جزء من سبعين جزأ من السموم التى خلق الله منها الجان وتلا هذه الآية فان قيل كيف يعقل خلق الجان من النار قلنا هذا على مذهبنا ظاهر لان البنية عندنا ليست شرطا لامكان حصول الحياة فالله تعالى قادر على خلق الحياة والعلم فى الجوهر الفرد فكذلك يكون قادرا على خلق الحياة والعقل فى الجسم الحار واستدل بعضهم على أن الكواكب يمتنع حصول الحياة فيها قال لان الشمس فى غاية الحرارة وماكان كذلك امتنع حصول الحياة فيه فننقضه عليه بقوله تعالى والجان خلقناه من قبل من نار السموم بل المعتمد فى نفى الحياة عن الكواكب الاجماع * قوله تعالى (واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حما مسنون فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين قال يا ابليس مالك الا تكون مع الساجدين قال لم أكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال من حما مسنون قال فاخرج منها فانك رجيم وان عليك اللعنة الى يوم الدين) اعلم انه تعالى لما ذكر حدوث الانسان الاول واستدل بذكره على وجود الاله القادر المختار ذكر بعده واقعته وهو انه تعالى أمر الملائكة بالسجود له فأطاعوه الا ابليس فانه أبى وتمرد وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ما تفسير كونه بشرا فالمراد منه كونه جسما كثيفا يباشر ويلاقى والملائكة والجن لا يباشرون للطف أجسامهم عن أجسام البشر والبشرة ظاهر الجلد من كل حيوان وأما كونه صلصالا من حما مسنون فقد تقدم ذكره وأما قوله فاذا سويته ففيه قولان (الاول) فاذا سويت شكله بالصورة الانسانية والخلقة البشرية (والثانى) فاذا سويت أجزاء بدنه باعتدال الطبائع وتناسب الامشاج كما قال تعالى انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج وأما قوله ونفخت فيه من روحى ففيه مباحث (الاول) ان النفخ اجراء الريح فى تجاويف جسم آخر وظاهر هذا اللفظ يشعر بأن الروح هى الريح والا لما صح وصفها بالنفخ الا ان البحث الكامل فى حقيقة الروح سيجئ فى قوله تعالى قل الروح من أمر ربى وانما أضاف الله سبحانه روح آدم الى نفسه تشريفا له وتكريما وقوله فقعوا له ساجدين فيه مباحث (أحدها) ان ذلك السجود كان لآدم فى الحقيقة أو كان آدم كالقبلة لذلك السجود وهذا البحث قد تقدم ذكره فى سورة البقرة (وثانيها) ان المأمورين بالسجود لآدم عليه السلام هم كل ملائكة السموات أو بعضهم أو ملائكة الارض من الناس من لا يجوز أن يقال ان أكابر الملائكة كانوا مأمورين بالسجود لآدم عليه السلام والدليل عليه قوله تعالى فى آخر سورة الاعراف فى صفة الملائكة ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته و يسبحونه وله يسجدون فقوله وله يسجدون يفيد الحصر وذلك يدل على انهم لا يسجدون الا لله تعالى وذلك ينافى كونهم ساجدين لآدم عليه السلام أو لاحد غير الله تعالى أقصى ما فى الباب أن يقال ان قوله

الاصنام كما قيل أى استطواله (ساجدين) تحية له وتعظيما أو اسجدوا لله تعالى على انه عليه الصلاة والسلام بمنزلة القبلة حيث ظهر فيه تعاجيب آثار قدرته تعالى وحكمته كقول حسان رضى الله تعالى عنه * أليس أول من صلى لقبلتكم * وأعلم الناس بالقرآن والسنن (فسجد الملائكة) أى فخلقه فسواه فنفخ فيه الروح فسجد الملائكة (كلهم) بحيث لم يشذ منهم أحد (أجمعون) بحيث لم يتأخر فى ذلك أحد منهم عن أحد ولا اختصاص لافادة هذا المعنى بالحالية بل يفيدا التأكيد أيضا فان الاشتقاق الواضح يرشد الى أن فيه معنى الجمع والمعية بحسب الوضع والاصل فى الخطاب التنزيلى على أكمل أحوال الشئ ولا ريب فى أن السجود معا أكمل أصناف السجود لكن شاع استعماله تأكيدا وأقيم مقام كل فى افادة معنى الاحاطة من غير نظر الى الكمال فاذا فهمت الاحاطة من لفظ آخر لم يكن بد من مراعاة الاصل صونا للكلام عن الالغاء وقيل أكد بتأكيدين مبالغة فى التعميم هذا وأما ان سجودهم هذا هل ترتب على ما حكى من الامر التعليقى كما تقتضيه هذه الآية الكريمة والتى فى سورة ص أو على الامر التنجيزى كما يستدعيه ما فى غيرهما فقد خرجنا بفضل الله عز وجل عن عهدة تحقيقه فى تفسير سورة البقرة (الا ابليس) استثناء متصل اما لانه كان جنيا مفردا مغمورا بألوف من الملائكة فعد منهم تغليبا واما لان من الملائكة جنسا يتوالدون وهو منهم وقوله (أبى أن يكون مع الساجدين) استئناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء فان مطلق عدم السجود قد يكون مع التردد وبه علم أنه مع الاباء والاستكبار أو منقطع فيتصل به ما بعده أى لكن ابليس أبى أن

يكون منهم وفيه دلالة على كمال ركاكة رأيه حيث أدرج فى معصية واحدة ثلاث معاص مخالفة الامر والاستكبار مع تحقير آدم عليه الصلاة والسلام ومفارقة الجماعة والاباء عن الانتظام فى سلك أولئك المقربين الكرام (قال) استئناف مبنى على سؤال من قال فماذا قال تعالى عند ذلك فقيل قال (يا ابليس مالك) أى أى سبب لك لاأى غرض لك كما قيل لقوله تعالى ما منعك (ألا تكون) فى أن لا تكون (مع الساجدين) لآدم مع أنهم هم ومنزلتهم فى الشرف منزلتهم وما كان التوبيخ عند وقوعه لمجرد تخلفه عنهم بل لكل من المعاصى الثلاث المذكورة قال تعالى فى سورة الاعراف قال ما منعك ألا تسجد اذ أمرتك و فى سورة ص قال يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى و لكن اقتصر عند الحكاية فى كل موطن على ما ذكر فيه اجتزاء بما ذكر فى موطن آخر واشعارا بأن كل واحدة من تلك المعاصى الثلاث كافية فى التوبيخ و اظهار بطلان ما ارتكبه وقد تركت حكاية التوبيخ رأسا فى سورة البقرة وسورة بنى اسرائيل وسورة الكهف وسورة طه (قال) أى ابليس وهو أيضا استئناف مبنى على السؤال الذى ينساق اليه الكلام (لم أكن لاسجد) اللام لتأكيد النفى أى ينافى حالى ولا يستقيم منى لانى مخلوق من أشرف العناصر وأعلاها أن أسجد (لبشر) أى جسم كثيف (خلقته من صلصال من حمأ مسنون) اقتصر ههنا على الاشارة الاجمالية الى ادعاء الخيرية وشرف المادة اكتفاء بما صرح به حين قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ولم يكتف اللعين بمجرد ذكر كونه عليه الصلاة والسلام من التراب الذى هو أخس العناصر وأسفلها

تعالى فقعوا له ساجدين يفيد العموم الا أن الخاص مقدم على العام (وثالثها) ان ظاهر الآية يدل على انه تعالى كما نفخ الروح فى آدم عليه السلام وجب على الملائكة أن يسجدوا له لان قوله فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين مذكور بفاء التعقيب وذلك يمنع من التراخى وقوله فسجد الملائكة كلهم أجمعون قال الخليل وسيبويه قوله كلهم أجمعون توكيد بعد توكيد وسئل المبرد عن هذه الآية فقال لو قال فسجد الملائكة احتمل أن يكون سجد بعضهم فلما قال كلهم زال هذا الاحتمال فظهر انهم بأسرهم سجدوا ثم بعد هذا بقى احتمال آخر وهو انهم سجدوا دفعة واحدة أو سجد كل واحد منهم فى وقت آخر فلما قال أجمعون ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة ولما حكى الزجاج هذا القول عن المبرد قال وقول الخليل وسيبويه أجود لان أجمعين معرفة فلا يكون حالا وقوله الا ابليس اجمعوا على ان ابليس كان مأمورا بالسجود لآدم واختلفوا فى انه هل كان من الملائكة أم لا وقد سبقت هذه المسئلة بالاستقصاء فى سورة البقرة وقوله أبى أن يكون مع الساجدين استئناف وتقديره ان قائلا قال هلا سجد فقيل أبى ذلك واستكبر عنه أما قوله قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين فاعلم انهم أجمعوا على ان المراد من قوله قال يا ابليس أى قال الله تعالى له يا ابليس وهذا يقتضى انه تعالى تكلم معه فعند هذا قال بعض المتكلمين انه تعالى أوصل هذا الخطاب الى ابليس على لسان بعض رسله الا ان هذا ضعيف لان ابليس قال فى الجواب لم أكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال فقوله خلقته خطاب الحضور لا خطاب الغيبة وظاهره يقتضى ان الله تعالى تكلم مع ابليس بغير واسطة وان ابليس تكلم مع الله تعالى بغير واسطة وكيف يعقل هذا مع أن مكالمة الله تعالى بغير واسطة من أعظم المناصب وأشرف المراتب فكيف يعقل حصوله لرأس الكفرة ورئيسهم ولعل الجواب عنه ان مكالمة الله تعالى انما تكون منصبا عاليا اذا كان على سبيل الاكرام والاعظام فأما اذا كان على سبيل الاهانة والاذلال فلا وقوله لم أكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ففيه بحثان (الاول) اللام فى قوله لاسجد لتأكيد النفى ومعناه لا يصح منى أن أسجد لبشر (البحث الثانى) معنى هذا الكلام أن كونه بشرا يشعر بكونه جسما كثيفا وهو كان روحانيا لطيفا فالتفرقة حاصلة بينهما فى الحال من هذا الوجه كأنه يقول البشر جسمانى كثيف له بشرة وأنا روحانى لطيف والجسمانى الكثيف أدون حالا من الروحانى اللطيف والادون كيف يكون مسجودا للاعلى وأيضا ان آدم مخلوق من صلصال تولد من حمأ مسنون فهذا الاصل فى غاية الدناءة وأصل ابليس هو النار وهى أشرف العناصر فكان أصل ابليس أشرف من أصل آدم فوجب أن يكون ابليس أشرف من آدم والاشرف يقبح أن يؤمر بالسجود للادون فالكلام الاول اشارة الى الفرق الحاصل بسبب البشرية والروحانية وهو فرق حاصل فى الحال والكلام الثانى اشارة الى الفرق الحاصل بحسب العنصر والاصل فهذا

بل تعرض لكونه بالتلويح له في أخس أحواله من كونه طينا متغيرا وقد اكتفى في سورة الاعراف وسورة ص بما حكى عنه من التصريح على حكاية تعرضه لخلقه عليه الصلاة والسلام من طين وكذا في سورة بني اسرائيل حيث قيل أأسجد لمن خلقت طينا وفي جوابه دليل على أن قوله تعالى مالك ابليس لم يكن استخبارا عن الغرض بل هو استفسار عن السبب وفي عدوله عن تطبيق جوابه على السؤال روم للتفصي عن المناقشة وأنى له ذلك كأنه قال لم أمتنع عن امتثال الامر ولا عن الانتظام في سلك الملائكة بل عما لا يليق بشأني من الخضوع للمفضول ولقد جرى خذله الله تعالى على سنن قياس عقيم وزل عنه أن ما يدور عليه فلك الفضل والكمال هو التحلي بالمعارف الربانية والتخلي عن الملكات الردية التي أقبحها التكبر والاستعصاء على أمر رب العالمين جل جلاله (قال فاخرج منها) أي من زمرة الملائكة المعززين لا من السماء فان وسوسته لآدم عليه الصلاة والسلام في الجنة انما كانت بعد هذا الطرد وقوله تعالى فاهبطوا منها ليس نصا في ذلك فان الخروج من بين الملأ الاعلى هبوط أي هبوط أو من الجنة على أن وسوسته كانت بطريق النداء من بابها كما روى عن الحسن البصري أو بطريق المشافهة بعد أن احتال في دخولها وتوسل اليه بالحية كما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ولا ينافي هذا طرده على رؤس الاشهاد لما تقتضيه من الحكم البالغة (فانك رجيم) مطرود من كل خير وكرامة فان من يطرد يرجم بالحجارة أو شيطان يرجم بالشهاب وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته فان من عارض النص بالقياس فهو رجيم ملعون (وان عليك اللعنة) الابعاد عن الرحمة وحيث

مجموع شبهة ابليس وقوله تعالى قال فاخرج منها فانك رجيم فهذا ليس جوابا عن تلك
٣ الشبهة على سبيل التصريح ولكنه جواب عنها على سبيل التنبيه وتقريره ان الذي قاله
٤ الله تعالى نص والذي قاله ابليس قياس ومن عارض النص بالقياس كان رجيما ملعونا
وتمام الكلام في هذا المعنى ذكرناه مستقصى في سورة الاعراف وقوله فاخرج منها قيل المراد من جنة عدن وقيل من السموات وقيل من زمرة الملائكة وتمام هذا الكلام مع تفسير الرجيم قد سبق ذكره في سورة الاعراف وقوله وان عليك اللعنة الى يوم الدين قال ابن عباس يريد يوم الجزاء حيث يجازي العباد بأعمالهم مثل قوله مالك يوم الدين فان قيل كلمة الى تفيد انتهاء الغاية فهذا يشعر بأن اللعن لا يحصل الا الى يوم القيامة وعند قيام القيامة يزول اللعن أجابوا عنه من وجوه (الاول) المراد منه التأبيد وذكر القيامة أبعد غاية يذكرها الناس في كلامهم كقولهم ما دامت السموات والارض في التأبيد (والثاني) انك مذموم مدعو عليك باللعنة في السموات والارض الى يوم الدين من غير أن يعذب فاذا جاء ذلك اليوم عذب عذابا ينسى اللعن معه فيصير اللعن حينئذ كالزائل بسبب أن شدة العذاب تذهل عنه * قوله تعالى (قال رب فانظرني الى يوم يبعثون قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الارض ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين قال هذا صراط علي مستقيم) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله فانظرني متعلق بما تقدم والتقدير اذا جعلتني رجيما ملعونا الى يوم الدين فانظرني فطلب الابقاء من الله تعالى عند اليأس من الآخرة الى وقت قيام القيامة لان قوله الى يوم يبعثون المراد منه يوم البعث والنشور وهو يوم القيامة وقوله قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم اعلم ان ابليس استنظر الى يوم البعث والقيامة وغرضه منه أن لا يموت لانه اذا كان لا يموت قبل يوم القيامة وظاهر ان بعد قيام القيامة لا يموت أحد فحينئذ يلزم منه أن لا يموت البتة ثم انه تعالى منعه عن هذا المطلوب وقال انك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم واختلفوا في المراد منه على وجوه (أحدها) ان المراد من يوم الوقت المعلوم وقت النفخة الاولى حين يموت كل الخلائق وانما سمي هذا الوقت بالوقت المعلوم لان من المعلوم انه يموت كل الخلائق فيه وقيل انما سماه الله تعالى بهذا الاسم لان العالم بذلك الوقت هو الله تعالى لا غير كما قال تعالى انما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها الا هو وقال ان الله عنده علم الساعة (وثانيها) ان المراد من يوم الوقت المعلوم هو الذي ذكره ابليس وهو قوله الى يوم يبعثون وانما سماه تعالى يوم الوقت المعلوم لان ابليس لما عينه وأشار اليه بعينه صار ذلك كالمعلوم فان قيل لما أجابه الله تعالى الى مطلوبه لزم أن لا يموت الى وقت قيام الساعة وبعد قيام القيامة لا يموت أيضا فيلزم أن يندفع عنه الموت بالكلية قلنا يحمل قوله الى يوم يبعثون الى ما يكون قريبا منه والوقت الذي يموت فيه كل المكلفين قريب من يوم البعث وعلى هذا الوجه فيرجع حاصل هذا الكلام الى

كأن ذلك من جهة الله سبحانه وان كان جاريا على ألسنة العباد قيل في سورة ص وان عليك لعنتي (الى يوم الدين) الى يوم الجزاء والعقوبة وفيه اشعار بتأخير عقابه وجزائه اليه وأن اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاء لفعله وانما يتحقق ذلك يومئذ وفيه من التهويل ما لا يوصف وجعل ذلك أقصى أمد اللعنة ليس لانها تنقطع هنالك بل لانه عند ذلك يعذب بما ينسى به اللعنة من أفانين العذاب فتصير هي كالزائل وقيل انما حدت به لانه أبعد غاية يضرب بها الناس كقوله تعالى خالدين فيها ما دامت السموات والارض وحيث أمكن كون تأخير العقوبة مع الموت كسائر من أخرت عقوباتهم الى الآخرة من الكفرة طلب اللعين تأخير موته كما حكى عنه بقوله تعالى (قال رب فانظرني) أي أمهلني وأخرني ولا تمتني والفاء متعلق بمحذوف ينسحب عليه الكلام أي اذا جعلتني رجيما فامهلني (الى يوم يبعثون) أي آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم وأراد بذلك أن يجد فسحة لاغوائهم ويأخذ منهم ثاره وينجو من الموت لاستحالته بعد يوم البعث (قال فانك من المنظرين) وورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ما سأله لآخرين على وجه يؤذن بكون السائل تبعا لهم في ذلك دليل على أنه اخبار بالانظار المقدر لهم أزلا لا انشاء لانظار خاص به وقع اجابة لدعائه أي انك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلا حسبما تقتضيه حكمة التكوين ﴿ الاغواء ﴾ فالفاء ليست لربط نفس الانظار بالاستنظار بل لربط الاخبار المذكور به كما في قوله * فان ترحم فانت لذا أهل * فانه لا امكان لجعل الفاء فيه لربط ما فيه تعالى من الاهلية القديمة للرحمة بوقوع الرحمة الحادثة بل هي لربط الاخبار بتلك الاهلية للرحمة

الوجه الاول (وثالثها) أن المراد بيوم الوقت المعلوم يوم لا يعلمه الا الله تعالى وليس المراد منه يوم القيامة فان قيل انه لا يجوز أن يعلم المكلف متى يموت لان فيه اغراء بالمعاصي وذلك لا يجوز على الله تعالى أجيب عنه بأن هذا الزام انما يتوجه اذا كان وقت قيام القيامة معلوما للمكلف فأما اذا علم أنه تعالى أمهله الى وقت قيام القيامة الا أنه تعالى ما أعلمه الوقت الذي تقوم القيامة فيه فلم يلزم منه الاغراء بالمعاصي وأجيب عن هذا الجواب بأنه وان لم يعلم الوقت الذي فيه تقوم القيامة على التعيين الا أنه علم في الجملة أن من وقت خلقة آدم عليه الصلاة والسلام الى وقت قيام القيامة مدة طويلة فكأنه قد علم أنه لا يموت في تلك المدة الطويلة أما قوله تعالى قال رب بما أغويتني لازينن لهم في الارض ولاغوينهم أجمعين ففيه بحثان (الاول) الباء في بما أغويتني للقسم وما مصدرية وجواب القسم لازينن والمعنى أقسم باغوائك اياي لازينن لهم ونظيره قوله تعالى فبعزتك لاغوينهم أجمعين الا أنه في ذلك الموضع أقسم بعزة الله وهي من صفات الذات وفي قوله بما أغويتني أقسم باغواء الله وهو من صفات الافعال والفقهاء قالوا القسم بصفات الذات صحيح أما بصفات الافعال فقد اختلفوا فيه ونقل الواحدي عن قوم آخرين أنهم قالوا الباء ههنا بمعنى السبب أي بسبب كوني غاويا لازينن كقول القائل أقسم فلان بمعصيته ليدخلن النار وبطاعته ليدخلن الجنة (البحث الثاني) اعلم أن أصحابنا قد احتجوا بهذه الآية على أنه تعالى قد يريد خلق الكفر في الكافر ويصده عن الدين ويغويه عن الحق من وجوه (الاول) أن ابليس استمهل وطلب البقاء الى قيام القيامة مع أنه صرح بأنه انما يطلب هذا الامهال والابقاء لاغواء بني آدم واضلالهم وأنه تعالى أمهله وأجابه الى هذا المطلوب ولو كان تعالى يراعي مصالح المكلفين في الدين لما أمهله هذا الزمان الطويل ولما مكنه من الاغواء والاضلال والوسوسة (الثاني) أن أكابر الانبياء والاولياء مجدون ومجتهدون في ارشاد الخلق الى الدين الحق وأن ابليس ورهطه وشيعته مجدون ومجتهدون في الضلال والاغواء فلو كان مراد الله تعالى هو الارشاد والهداية لكان من الواجب ابقاء المرشدين والمحقين واهلاك المضلين والمغوين وحيث فعل بالضد منه علمنا أنه أراد بهم الخذلان والكفر (الثالث) أنه تعالى لما أعلمه بأنه يموت على الكفر وأنه ملعون الى يوم الدين كان ذلك اغراء له بالكفر والقبيح لانه اذا أيس عن المغفرة والفوز بالجنة يجترئ حينئذ على أنواع المعاصي والكفر (الرابع) أنه لما سأل الله تعالى هذا العمر الطويل مع أنه تعالى علم منه أنه لا يستفيد من هذا العمر الطويل الا زيادة الكفر والمعصية وبسبب تلك الزيادة يزداد استحقاقه لانواع العذاب الشديد كان هذا الامهال سببا لمزيد عذابه وذلك يدل على أنه تعالى أراد به أن يزداد عذابه وعقابه (الخامس) أنه صرح بأن الله أغواه فقال رب بما أغويتني وذلك تصريح بأن الله تعالى أغواه لا يقال هذا كلام ابليس وهو ليس بحجة وأيضا فهو معارض بقول ابليس فبعزتك لاغوينهم أجمعين فأضاف

بوقوعها وان استنظاره كان طلبا لتأخير الموت اذ به يتحقق كونه من جملتهم لا لتأخير العقوبة كما قيل ونظمه في ذلك في سلك من أخرت عقوبتهم الى الآخرة في علم الله تعالى ممن سبق من الجن ولحق من الثقلين لا يلائم مقام الاستنظار مع الحياة ولأن ذلك التأخير معلوم من اضافة اليوم الى الدين مع اضافته في السؤال الى البعث كما عرفته وفي سورة الاعراف قال أنظرني الى يوم يبعثون قال انك ﴿ ٣٩٩ ﴾ من المنظرين بترك التوقيت والنداء والفاء في الاستنظار والانظار تعويلا على ما ذكر ههنا وفي سورة ص فان ايراد كلام واحد على أساليب متعددة غير عزيز في الكتاب العزيز وأما أن كل أسلوب من أساليب النظم الكريم لابد أن يكون له مقام يقتضيه مغاير لمقام غيره وأن ما حكي من اللعين انما صدر عنه مرة وكذا جوابه لم يقع الا دفعة فمقام المحاورة ان اقتضى أحد الاساليب المذكورة فهو المطابق لمقتضى الحال والبالغ الى طبقة الاعجاز وما عداه قاصر عن رتبة البلاغة فضلا عن الارتقاء الى معالم الاعجاز فقد مر تحقيقه بتوفيق الله تعالى في سورة الاعراف (الى يوم الوقت المعلوم) وهو وقت النفخة الاولى التي علم أنه يصعق عندها من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله تعالى ويجوز أن يكون المراد بالايام واحدا والاختلاف في العبارات لاختلاف الاعتبارات فالتعبير بيوم البعث لان غرض اللعين به يتحقق و بيوم الدين لما ذكر من الجزاء و بيوم الوقت المعلوم لما ذكر أو لاستئثاره تعالى بعلمه فلعل كلا من هلاك الخلق جميعا و بعثهم وجزائهم في يوم واحد يموت اللعين في أوله و يبعث في أواسطه و يعاقب في بقيته * يروى ان بين موته و بعثه أربعين سنة من سني الدنيا مقدار ما بين النفختين

الاغواء الى نفسه لانا نقول (أما الجواب عن الاول) فهو أنه لما ذكر هذا الكلام فان الله تعالى ما أنكره عليه وذلك يدل على أنه كان صادقا فيما قال (وأما الجواب عن الثاني) فهو انه قال في هذه الآية رب بما أغويتني لأزينن لهم فالمراد ههنا من قوله لأزينن لهم هو المراد من قوله في تلك الآية لأغوينهم أجمعين الا انه بين في هذه الآية انه انما أمكنه أن يزين لهم الاباطيل لاجل ان الله تعالى أغواه قبل ذلك وعلى هذا التقدير فقد زال التناقض ويتأكد هذا بما ذكره الله تعالى حكاية عن الشياطين في سورة القصص هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا (السؤال السادس) أنه قال رب بما أغويتني وهذا اعتراف بان الله تعالى أغواه فنقول اما أن يقال انه كان قد عرف بان الله تعالى أغواه أو ما عرف ذلك فان كان قد عرف بان الله تعالى أغواه امتنع كونه غاويا لانه انما يعرف أن الله تعالى أغواه اذا عرف أن الذي هو عليه جهل و باطل ومن عرف ذلك امتنع بقاؤه على الجهل والضلالة وأما ان قلنا بانه ما عرف أن الله أغواه فكيف أمكنه أن يقول رب بما أغويتني فهذا مجموع السؤالات الواردة في هذه الآية (أما الاشكال الاول) فللمعتزلة فيه طريقان (الاول) وهو طريق الجبائي أنه تعالى انما أمهل ابليس تلك المدة الطويلة لانه تعالى علم انه لا يتفاوت أحوال الناس بسبب وسوسته فبتقدير ان لا يوجد ابليس ولا وسوسته فان ذلك الكافر والعاصي كان يأتي بذلك الكفر والمعصية فلما كان الامر كذلك لا جرم أمهله هذه المدة (الطريق الثاني) وهو طريق أبي هاشم أنه لا يبعد أن يقال انه تعالى علم أن أقواما يقعون بسبب وسوسته في الكفر والمعصية الا ان وسوسته ما كانت موجبة لذلك الكفر والمعصية بل الكافر والعاصي بسبب اختياره اختار ذلك الكفر وتلك المعصية أقصى ما في الباب أن يقال الاحتراز عن القبائح حال عدم الوسوسة أسهل منه حال وجودها الا ان على هذا التقدير تصير وسوسته سببا لزيادة المشقة في أداء الطاعات وذلك لا يمنع الحكيم من فعله كما ان انزال المشاق وانزال المتشابهات صار سببا لمزيد الشبهات ومع ذلك فلم يمتنع فعله فكذا ههنا وهذان الطريقان هما بعينهما الجواب عن السؤال الثاني (وأما السؤال الثالث) وهو ان اعلامه بانه يموت على الكفر يحمله على الجرأة على المعاصي والاكثار منها فجوابه ان هذا انما يلزم اذا كان علم ابليس بموته على الكفر يحمله على الزيادة في المعاصي أما اذا علم الله تعالى من حاله ان ذلك لا يوجب التفاوت البتة فالسؤال زائل وهذا بعينه هو الجواب عن السؤال الرابع (وأما السؤال الخامس) وهو ان ابليس صرح بأن الله تعالى أغواه وأضله عن الدين فقد أجابوا عنه بانه ليس المراد ذلك بل فيه وجوه أخرى (أحدها) المراد بما خيبتني من رحمتك لأخيبنهم بالدعاء الى معصيتك (وثانيها) المراد كما أضللتني عن طريق الجنة أضلهم أنا أيضا عنه بالدعاء الى المعصية (وثالثها) أن يكون المراد بالاغواء الاول الخيبة وبالثاني الاضلال (ورابعها) ان المراد باغواء الله تعالى اياه هو أنه أمره بالسجود

لآدم فاقتضى ذلك الحال فيه يعني انه حصل ذلك الفعل عقيبه باختيار ابليس فأما أن يقال ان ذلك الامر صار موجبا لذاته لحصول ذلك الفعل فمعلوم أنه ليس الامر كذلك فهذا جملة كلام القوم في هذا الباب وكله ضعيف اما قوله انه لا يتفاوت الحال بسبب وسوسة ابليس فنقول هذا باطل ويدل عليه القرآن والبرهان أما القرآن فقوله تعالى فأزلهما الشيطان فأضاف تلك الزلة الى الشيطان وقال فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى فأضاف الاخراج اليه وقال موسى عليه السلام هذا من عمل الشيطان وكل ذلك يدل على أن لعمل الشيطان في تلك الافعال أثرا وأما البرهان فلأن بداية العقول شاهدة بأنه ليس حال من ابتلى بمجالسة شخص يرغبه أبدا في القبائح وينفره عن الخيرات مثل شخص كان حاله بالضد منه والعلم بهذا التفاوت ضروري وأما قوله ان وجوده يصير سببا لزيادة المشقة في الطاعة فنقول تأثير زيادة المشقة انما هو في كثرة الثواب على أحد التقديرين وفي الالقاء في العذاب الشديد على التقدير الثاني وهو التقدير الاكثر الاغلب وكل من راعى المصالح فان رعاية هذا التقدير الثاني أولى عنده من رعاية التقدير الاول لان دفع الضرر العظيم أولى من السعي في طلب النفع الزائد الذي لا حاجة الى حصوله أصلا ولما اندفع هذان الجوابان عن هذا السؤال قويت سائر الوجوه المذكورة وأما قوله المراد من قوله رب بما أغويتني الخيبة عن الرحمة أو الاضلال عن طريق الجنة فنقول كل هذا بعيد لانه هو الذي خيب نفسه عن الرحمة وهو الذي أضل نفسه عن طريق الجنة لانه لما أقدم على الكفر باختياره فقد خيب نفسه عن الرحمة وأضل نفسه عن طريق الجنة فكيف يحسن اضافته الى الله تعالى فثبت ان الاشكالات لازمة وان أجوبتهم ضعيفة والله أعلم * أما قوله الا عبادك منهم المخلصين ففيه مسائل (الاولى) اعلم ان ابليس استثنى المخلصين لانه علم أن كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه وذكرت في مجلس التذكير ان الذي حمل ابليس على ذكر هذا الاستثناء أن لا يصير كاذبا في دعواه فلما احترز ابليس عن الكذب علمنا ان الكذب في غاية الخساسة (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو المخلصين بكسر اللام في كل القرآن والباقون بفتح اللام وجه القراءة الاولى انهم الذين أخلصوا دينهم وعبادتهم عن كل شائب يناقض الايمان والتوحيد ومن فتح اللام فمعناه الذين أخلصهم الله بالهداية والايمان والتوفيق والعصمة وهذه القراءة تدل على ان الاخلاص والايمان ليس الا من الله تعالى (المسئلة الثالثة) الاخلاص جعل الشئ خالصا عن شائبة الغير فنقول كل من أتى بعمل فاما أن يكون قد أتى به لله فقط أو لغير الله فقط أو لمجموع الامرين وعلى هذا التقدير الثالث فاما أن يكون طلب رضوان الله راجحا أو مرجوحا أو معادلا والتقدير الرابع أن يأتي به لا لغرض أصلا وهذا محال لان الفعل بدون الداعية محال (أما الاول) فهو الاخلاص في حق الله تعالى لان الحامل له على

ونقل عن الاحنف بن قيس رحمه الله تعالى أنه قال قدمت المدينة أريد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فاذا أنا بحلقة عظيمة وكعب الاحبار فيها يحدث الناس وهو يقول لما حضر آدم عليه الصلاة والسلام الوفاة قال يارب سيشمت بي عدوي ابليس اذا رآني ميتا وهو منظر الى يوم القيامة فاجيب ان يا آدم انك سترد الى الجنة ويؤخر اللعين الى النظرة ليذوق ألم الموت بعدد الاولين والآخرين ثم قال لملك الموت صف كيف تذيقه الموت فلما وصفه قال يارب حسبي فضج الناس وقالوا يا أبا اسحق كيف ذلك فأبى فالحوا فقال يقول الله سبحانه لملك الموت عقيب النفخة الاولى قد جعلت فيك قوة أهل السموات السبع وأهل الارضين السبع واني ألبستك اليوم أثواب السخط والغضب كلها فانزل بغضبي وسطوتي على رجيمي ابليس فأذقه الموت واحمل عليه فيه مرارة الاولين والآخرين من الثقلين أضعافا مضاعفة وليكن معك من الزبانية سبعون ألفا قد امتلؤا غيظا وغضبا وليكن مع كل منهم سلسلة من سلاسل جهنم وغل من أغلالها وانزع روحه المنتن بسبعين ألف كلاب من كلاليبها وناد مالكا ليفتح أبواب النيران فينزل ملك الموت بصورة ۴ لو نظر اليها أهل السموات والارضين لماتوا بغتة من هولها فينتهي الى ابليس فيقول قف لي يا خبيث لاذيقنك الموت كم من عمر أدركت وقرون أضللت وهذا هو الوقت المعلوم قال فيهرب اللعين الى المشرق فاذا هو بملك الموت بين عينيه فيهرب الى المغرب فاذا هو به بين عينيه فيغوص البحار فتنز منه البحار فلا تقبله فلا يزال يهرب في الارض ولا محيص له ولا ملاذ ثم يقوم في وسط الدنيا عند قبر آدم ويتمرغ في التراب من المشرق

الى المغرب ومن المغرب الى المشرق حتى اذا كان فى الموضع الذى أهبط فيه آدم عليه الصلاة والسلام وقد نصبت له الزبانية الكلاليب وصارت الارض كالجمرة احتوشته الزبانية وطعنوه بالكلاليب ويبقى فى النزع والعذاب الى حيث يشاء الله تعالى ويقال لآدم وحوا اطلعا اليوم الى عدو كما كيف يذوق الموت فيطلعان فينظران الى ما هو فيه من شدة العذاب فيقولان ربنا أتممت علينا نعمتك (قال رب بما أغويتنى) الباء للقسم وما مصدرية ﴿ ٤٠١ ﴾ والجواب (لازينن لهم) أى اقسم باغوائك اياى لازينن لهم المعاصى (فى الارض) أى فى الدنيا التى هى دار الغرور كقوله تعالى اخلد الى الارض واقسامه بعزة الله المفسرة بسلطانه وقهره لاينافى اقسامه بهذا فانه فرع من فروعها وأثر من آثارها فلعله أقسم بهما جميعا فحكى تارة قسمه بهذا وأخرى بذاك أو للسببية وقوله لازينن جواب قسم محذوف والمعنى بسبب تسببك لاغوائى أقسم لافعلن بهم مثل ما فعلت بى من التسبيب لاغوائهم بتزيين المعاصى وتسويل الاباطيل والمعتزلة أولوا الاغواء بالنسبة الى الغى أو التسبب له بأمره اياه بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام واعتذروا عن امهال الله تعالى وتسليطه له على اغواء بنى آدم بأنه تعالى قد علم منه وممن تبعه أنهم يموتون على الكفر ويصيرون الى النار أمهل أم لم يمهل وأن فى امهاله تعريضا لمن خالفه لاستحقاق مزيد الثواب (ولاغوينهم أجمعين) لاحملنهم على الغواية (الا عبادك منهم المخلصين) الذين أخلصتهم لطاعتك وطهرتهم من الشوائب فلا يعمل فيهم ﴿ ٥١ ﴾ خا كيدى وقرئ بكسر اللام أى الذين أخلصوا نفوسهم لله تعالى (قال هذا صراط) أى حق (على) أن أراعيه (مستقيم) لاعوج فيه والاشارة الى ما تضمنه الاستثناء وهو تخلص المخلصين من اغوائه أو الاخلاص على معنى أنه طريق يؤدى الى الوصول الى من غير اعوجاج وضلال والاظهر أن ذلك للموقع فى عبارة ابليس حيث قال لاقعدن لهم صراطك

ذلك الفعل طلب رضوان الله وما جعل هذه الداعية مشوبة بداعية أخرى بل بقيت خالصة عن شوائب الغير فهذا هو الاخلاص (وأما الثانى) وهو الاخلاص فى حق غير الله فظاهر أن هذا لا يكون اخلاصا فى حق الله تعالى (وأما الثالث) هو أن يشتمل على الجهتين الا أن جانب الله يكون راجحا فهذا يرجى أن يكون من المخلصين لان المثل يقابله المثل فيبقى القدر الزائد خالصا عن الشوب (وأما الرابع والخامس) فظاهر أنه ليس من المخلصين فى حق الله تعالى والحاصل ان القسم الاول اخلاص فى حق الله تعالى قطعا والقسم الثانى يرجى من فضل الله أن يجعله من قسم الاخلاص وأما سائر الاقسام فهو خارج عن الاخلاص قطعا والله أعلم * اما قوله تعالى قال هذا صراط على مستقيم ففيه وجوه (الاول) ان ابليس لما قال الا عبادك منهم المخلصين فلفظ المخلص يدل على الاخلاص فقوله هذا عائد الى الاخلاص والمعنى ان الاخلاص طريق على والى أى أنه يؤدى الى كرامتى وثوابى وقال الحسن معناه هذا صراط الى مستقيم وقال آخرون هذا صراط من مر عليه فكأنه مر على وعلى رضوانى وكرامتى وهو كما يقال طريقك على (الثانى) ان الاخلاص طريق العبودية فقوله هذا صراط على مستقيم أى هذا الطريق فى العبودية طريق على مستقيم (الثالث) قال بعضهم لما ذكر ابليس أنه يغوى بنى آدم الا من عصمه الله بتوفيقه تضمن هذا الكلام تفويض الامور الى الله تعالى والى ارادته فقال تعالى هذا صراط على أى تفويض الامور الى ارادتى ومشيئتى طريق على مستقيم (الرابع) معناه هذا صراط على تقريره وتأكيده وهو مستقيم حق وصدق وقرأ يعقوب صراط على بالرفع والتنوين على أنه صفة لقوله صراط أى هو على بمعنى أنه رفيع مستقيم لا عوج فيه قال الواحدى معناه أن طريق التفويض الى الله تعالى والايمان بقضاء الله طريق رفيع مستقيم * قوله تعالى (ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين وان جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) اعلم ان ابليس لما قال لازينن لهم فى الارض ولاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين أوهم هذا الكلام ان له سلطانا على عباد الله الذين يكونون من المخلصين فبين تعالى فى هذه الآية أنه ليس له سلطان على أحد من عبيد الله سواء كانوا مخلصين أو لم يكونوا مخلصين بل من اتبع منهم ابليس باختياره صار متبعا له ولكن حصول تلك المتابعة أيضا ليس لاجل ان ابليس يقهره على تلك المتابعة أو يجبره عليها والحاصل فى هذا القول ان ابليس أوهم أن له على بعض عباد الله سلطانا فبين تعالى كذبه فيه وذكر انه ليس له على أحد منهم سلطان ولا قدرة أصلا ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عن ابليس أنه قال وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى وقال تعالى فى آية أخرى انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون قال الجبائى هذه الآية تدل على بطلان قول من زعم أن الشيطان والجن يمكنهم صرع

الناس وازالة عقولهم كما يقوله العامة وربما نسبوا ذلك الى السحرة قال وذلك خلاف ما نص الله تعالى عليه وفى الآية قول آخر وهو أن ابليس لما قال الا عبادك منهم المخلصين فذكر أنه لا يقدر على اغواء المخلصين صدقه الله فى هذا الاستثناء فقال ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين فلهذا قال الكلبى العباد المذكورون فى هذه الآية هم الذين استثناهم ابليس واعلم أن على القول الاول يمكن أن يكون قوله الا من اتبعك استثناء لان المعنى ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين فان لك عليهم سلطانا بسبب كونهم منقادين لك فى الامر والنهى وأما على القول الثانى فيمتنع أن يكون استثناء بل تكون لفظة الا بمعنى لكن وقوله ان جهنم لموعدهم أجمعين قال ابن عباس يريد ابليس وأشياعه ومن اتبعه من الغاوين * ثم قال تعالى لها سبعة أبواب وفيه قولان (الاول) انها سبع طبقات بعضها فوق البعض وتسمى تلك الطبقات بالدركات ويدل على كونها كذلك قوله تعالى ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار (والقول الثانى) ان قرار جهنم مقسوم سبعة أقسام ولكل قسم باب معين وعن ابن جريج أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية قال الضحاك الطبقة الاولى فيها أهل التوحيد يعذبون على قدر أعمالهم ثم يخرجون (والثانية) لليهود (والثالثة) للنصارى (والرابعة) للصابئين (والخامسة) للمجوس (والسادسة) للمشركين (والسابعة) للمنافقين وقوله لكل باب منهم جزء مقسوم فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ عاصم فى رواية أبى بكر جزء مقسوم والباقون جزء بتخفيف الزاى وقرأ الزهرى جز بالتشديد كأنه حذف الهمزة وألقى حركتها على الزاى كقولك خب فى خبء ثم وقف عليه بالتشديد (المسئلة الثانية) الجزء بعض الشئ والجمع الاجزاء وجزأته جعلته أجزاء والمعنى انه تعالى يجزئ أتباع ابليس اجزاء بمعنى انه يجعلهم اقساما وفرقا ويدخل فى كل قسم من أقسام جهنم طائفة من هؤلاء الطوائف والسبب فيه أن مراتب الكفر مختلفة بالغلظ والخفة فلا جرم صارت مراتب العذاب والعقاب مختلفة بالغلظ والخفة والله أعلم

* قوله تعالى (ان المتقين فى جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين) اعلم انه تعالى لما شرح أحوال أهل العقاب اتبعه بصفة أهل الثواب وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله ان المتقين قولان (الاول) قال الجبائى وجمهور المعتزلة القائلون بالوعيد المراد بالمتقين هم الذين اتقوا جميع المعاصى قالوا لانه اسم مدح فلا يتناول الا من يكون كذلك (والقول الثانى) وهو قول جمهور الصحابة والتابعين وهو المنقول عن ابن عباس ان المراد الذين اتقوا الشرك بالله تعالى والكفر به وأقول هذا القول هو الحق الصحيح والذى يدل عليه هو ان المتقى هو الآتى بالتقوى مرة واحدة كما ان الضارب هو الآتى بالضرب مرة واحدة والقاتل هو الآتى بالقتل مرة واحدة فكما أنه ليس من شرط صدق

المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم الآية وقرئ على من علو الشرف (ان عبادى) وهم المشار اليهم بالمخلصين (ليس لك عليهم سلطان) تسلط وتصرف بالاغواء (الا من اتبعك من الغاوين) وفيه مع كونه تحقيقا لما قاله اللعين تفخيم لشأن المخلصين وبيان لمنزلتهم ولانقطاع مخالب الاغواء عنهم وأن اغواءه للغاوين ليس بطريق السلطان بل بطريق اتباعهم له بسوء اختيارهم (وان جهنم لموعدهم) أى موعد المتبعين أو الغاوين والاول أنسب وأدخل فى الزجر عن اتباعه وفيه دلالة على أن جهنم مكان الوعد وأن الموعود مما لا يوصف فى الفظاعة (أجمعين) تأكيد للضمير أو حال والعامل فيها الموعد ان جعل مصدرا على تقدير المضاف أو معنى الاضافة ان جعل اسم مكان (لها سبعة أبواب) يدخلونها لكثرتهم أو سبع طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم فى الغواية والمتابعة وهى جهنم ثم اطى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية (لكل باب منهم) من الاتباع أو الغواة (جزء مقسوم) حزب معين مفرز من غيره حسبما يقتضيه استعداده وأعلاها للموحدين والثانية لليهود والثالثة للنصارى والرابعة للصابئين والخامسة للمجوس والسادسة للمشركين والسابعة للمنافقين وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان جهنم لمن ادعى الربوبية ولظى لعبدة النار والحطمة لعبدة الاصنام وسقر لليهود والسعير للنصارى والجحيم للصابئين والهاوية للموحدين ولعل حصرها فى السبع لانحصار المهلكات فى المحسوسات بالحواس الخمس ومقتضيات القوة الشهوية والغضبية وقرئ بضم الزاى وبحذف الهمزة والقاء ﴿ الوصف ﴾ حركتها الى ما قبلها مع تشديدها فى الوقف والوصل ومنهم حال من جزء أو من ضميره فى الظرف لا فى مقسوم لان الصفة لا تعمل فيما تقدم موصوفها (ان المتقين) من اتباعه فى الكفر والفواحش فان غيرها مكفر (فى جنات وعيون) أى مستقرون فيها خالدين لكل واحد منهم جنة وعين أو لكل منهم عدة منهما كقوله تعالى ولمن

خاف مقام ربه جنتان وقرئ بكسر العين حيث وقع في القرآن العظيم (ادخلوها) على ارادة القول أمرا من الله تعالى لهم بالدخول وقرئ أدخلوها أمرا منه تعالى للملائكة بادخالهم وقرأ الحسن أدخلوها مبنيا للمفعول على صيغة الماضي من الادخال (بسلام) ملتبسين بسلام اى سالمين أو مسلما عليكم (آمنين) من الآفات والزوال (ونزعنا ما في صدورهم من غل) اى حقد كان في الدنيا وعن على رضي الله تعالى عنه أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين (اخوانا) حال من الضمير في قوله تعالى في جنات أو من فاعل ادخلوها أو من الضمير في آمنين أو الضمير المضاف اليه والعامل فيه معنى الاضافة وكذلك قوله تعالى (على سرر متقابلين) ويجوز كونهما صفتين لاخوانا أو حالين من ضميره لانه بمعنى متصافين وكون الثاني حالا من المستكن في الاول وعن مجاهد تدور بهم الاسرة حيثما داروا فهم متقابلون في جميع أحوالهم (لا يمسهم فيها نصب) اى تعب بأن لا يكون لهم فيها ما يوجبه من الكد في تحصيل ما لا بد لهم منه لحصول كل ما يريدونه من غير مزاولة عمل أصلا أو بأن لا يعتريهم ذلك وان باشروا الحركات العنيفة لكمال قوتهم وهو استئناف أو حال بعد حال أو حال من الضمير في متقابلين (وما هم منها بمخرجين) أبد الآباد لان تمام النعمة بالخلود (نبئ عبادي) وهم الذين عبر عنهم بالمتقين (أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم) فذلكة لما سلف من الوعد والوعيد وتقرير له وفي ذكر المغفرة اشعار بأن ليس المراد بالمتقين من يتقي جميع الذنوب كبيرها وصغيرها وفي وصف ذاته تعالى بها وبالرحمة على وجه القصر دون التعذيب ايذان بأنهما مما يقتضيهما الذات وأن العذاب انما يتحقق بما يوجبه من خارج (ونبئهم) عطف على نبئ عبادي والمقصود اعتبارهم بما جرى على ابراهيم عليه الصلاة والسلام مع أهله من البشرى في تضاعيف الخوف وبما حل بقوم لوط من العذاب ونجاته عليه الصلاة والسلام مع أهله

الوصف بكونه ضاربا وقاتلا كونه آتيا بجميع أنواع الضرب والقتل فكذلك ليس من شرط صدق الوصف بكونه متقيا كونه آتيا بجميع أنواع التقوى والذي يقوي هذا الكلام ان الآتي بفرد واحد من افراد التقوى يكون آتيا بالتقوى لان كل فرد من أفراد الماهية فانه يجب كونه مشتملا على تلك الماهية فالآتي بالتقوى يجب ان يكون متقيا فثبت ان الآتي بفرد واحد من أفراد التقوى يصدق عليه كونه متقيا ولهذا التحقيق اتفق المفسرون على ان ظاهر الامر لا يفيد التكرار اذا ثبت هذا فنقول ظاهر قوله ان المتقين في جنات وعيون يقتضي حصول الجنات والعيون لكل من اتقى عن شئ واحد الا ان الامة مجمعة على ان التقوى عن الكفر شرط في حصول هذا الحكم وأيضا فان هذه الآية وردت عقيب قول ابليس الا عبادك منهم المخلصين وعقيب قول الله تعالى ان عبادي ليس لك عليهم سلطان فلاجل هذه الدلائل اعتبرنا الايمان في هذا الحكم فوجب أن لا يزاد فيه قيد آخر لان تخصيص العام لما كان بخلاف الظاهر فكلما كان التخصيص أقل كان أوفق لمقتضى الاصل والظاهر فثبت ان قوله ان المتقين في جنات وعيون يتناول جميع القائلين بلا اله الا الله محمد رسول الله قولا واعتقادا سواء كانوا من أهل الطاعة أو من أهل المعصية وهذا تقرير بين وكلام ظاهر (المسئلة الثانية) قوله تعالى في جنات وعيون أما الجنات فأربعة لقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان ثم قال ومن دونهما جنتان فيكون المجموع أربعة وقوله ولمن خاف مقام ربه جنتان يؤكد ما قلناه لان من آمن بالله لا ينفك قلبه عن الخوف من الله تعالى وقوله ولمن خاف يكفي في صدقه حصول هذا الخوف مرة واحدة وأما العيون فيحتمل أن يكون المراد منها ما ذكر الله تعالى في قوله مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ويحتمل أن يكون المراد من هذه العيون ينابيع مغايرة لتلك الانهار فان قيل أتقولون ان كل واحد من المتقين يختص بعيون أو تجري تلك العيون من بعض الى بعض قيل لا يمتنع كل واحد من الوجهين فيجوز أن يختص كل أحد بعين وينتفع به كل من في خدمته من الحور والولدان ويكون ذلك على قدر حاجتهم وعلى حسب شهواتهم ويحتمل أن يكون يجري من بعضهم الى بعض، لانهم مطهرون عن الحقد والحسد وقوله ادخلوها بسلام آمنين يحتمل أن القائل لقوله أدخلوها هو الله تعالى وان يكون ذلك القائل بعض ملائكته وفيه سؤال لانه تعالى حكم قبل هذه الآية بانها في جنات وعيون واذا كانوا فيها فكيف يمكن أن يقال لهم ادخلوها والجواب عنه من وجهين (الاول) لعل المراد به قيل لهم قبل دخولهم فيها أدخلوها بسلام (الثاني) لعل المراد لما ملكوا جنات كثيرة فكلما أرادوا أن ينتقلوا من جنة الى أخرى قيل لهم ادخلوها وقوله ادخلوها بسلام آمنين المراد ادخلوا الجنة مع السلامة من كل الآفات في الحال ومع القطع ببقاء هذه السلامة والامن من زوالها

التابعين له فى ضمن الخوف وتنبيهم بحلول انتقامه تعالى من المجرمين وعلمهم بان عذاب الله هو العذاب الاليم (عن ضيف ابراهيم) عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنهم جبريل عليه الصلاة والسلام وملكان معه وقال محمد بن كعب وسبعة معه وقيل جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم الصلاة والسلام وقال الضحاك كانوا تسعة وعن السدى كانوا أحد عشر على صور الغلمان الوضاء وجوههم وعن مقاتل أنهم كانوا أثنى عشر ملكا وانما لم يتعرض لعنوان رسالتهم لانهم لم يكونوا مرسلين الى ابراهيم عليه الصلاة والسلام بل الى قوم لوط حسبما يأتى ذكره (اذ دخلوا عليه) نصب بفعل مضمر معطوف على نبئ اى واذكر وقت دخولهم عليه أو خبر مقدر مضاف الى ضيف اى خبر ضيف ابراهيم حين دخولهم عليه أو بنفس ضيف على أنه مصدر فى الاصل (فقالوا) عند ذلك (سلاما) اى نسلم سلاما أو سلمنا أو سلمت سلاما (قال انا منكم وجلون) اى خائفون فان الوجل اضطراب النفس لتوقع مكروه قاله عليه الصلاة والسلام حين امتنعوا من أكل ما قربه اليهم من العجل الحنيذ لما أن المعتاد عندهم أنه اذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجئ بخير لا عند ابتداء دخولهم لقوله تعالى فلما رأى أيديهم لا تصل له نكرهم وأوجس منهم خيفة فلا مجال لكون خوفه عليه الصلاة والسلام بسبب دخولهم بغير اذن ولا بغير وقت اذ لو كان كذلك لاجابوا حينئذ بما أجابوا به ولم يتصد عليه الصلاة والسلام لتقريبا طعام اليهم وانما لم يذكر ههنا اكتفاء بما بين فى غير هذا الموضع ألا يرى الى أنه لم يذكر ﴿ وزعنا ﴾ ههنا رده عليه الصلاة والسلام لسلامهم (قالوا لا توجل) لا تخف وقرئ لا تاجل ولا توجل من أوجله أى أخافه ولا تواجل من واجله بمعنى أوجله (انا نبشرك) استئناف لتعليل النهى عن الوجل فان المبشر به لا يكاد يحوم حول ساحته خوف ولا حزن كيف لا وهو بشارة ببقائه و بقاء أهله فى عافية وسلامة زمانا طويلا (بغلام) هو اسحق عليه

ثم قال تعالى ونزعنا ما فى صدورهم من غل والغل الحقد الكامن فى القلب وهو مأخوذ من قولهم أغل فى جوفه وتغلغل أى ان كان لاحدهم فى الدنيا غل على آخر نزع الله ذلك من قلوبهم وطيب نفوسهم وعن على رضى الله عنه أنه قال أرجو أن أكون انا وعثمان وطلحة والزبير منهم وحكى عن الحرث بن الاعور انه كان جالسا عند على رضى الله عنه اذ دخل زكريا بن طلحة فقال له على مرحبا بك يا ابن أخى أما والله انى لارجو لأن أكون أنا وأبوك ممن قال الله تعالى فى حقهم ونزعنا ما فى صدورهم من غل فقال الحرث كلا بل الله أعدل من ان يجعلك وطلحة فى مكان واحد قال رضى الله عنه فلمن هذه الآية لا امالك يا أعور وروى ان المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص لبعضهم من بعض ثم يؤمر بهم الى الجنة وقد نقى الله قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد وقوله اخوانا نصب على الحال وليس المراد الاخوة فى النسب بل المراد الاخوة فى المودة والمخالصة كما قال الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وقوله على سرر متقابلين السرير معروف والجمع اسرة وسرر قال أبو عبيدة يقال سرر وسرر بفتح الراء وكذا كل فعيل من المضاعف فان جمعه فعل وفعل نحو سرر وسرر وجدد وجدد قال المفضل بعض تميم وكلب يفتحون لانهم يستثقلون ضمتين متواليتين فى حرفين من جنس واحد وقال بعض أهل المعانى السرير مجلس رفيع مهيأ للسرور وهو مأخوذ منه لانه مجلس سرور قال الليث وسرير العيش مستقره الذى اطمأن اليه فى حال سروره وفرحه قال ابن عباس يريد على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت والسرير مثل ما بين صنعاء الى الجابية وقوله متقابلين التقابل التواجه وهو نقيض التدابر ولا شك ان المواجهة أشرف الاحوال وقوله لا يمسهم فيها نصب النصب الاعياء والتعب أى لا ينالهم فيها تعب وما هم منها بمخرجين والمراد به كونه خلودا بلا زوال وبقاء بلا فناء وكمالا بلا نقصان وفوزا بلا حرمان واعلم ان للثواب أربع شرائط وهى أن تكون منافع مقرونة بالتعظيم خالصة عن الشوائب دائمة (أما القيد الاول) وهو كونها منفعة فاليه الاشارة بقوله ان المتقين فى جنات وعيون (وأما القيد الثانى) وهو كونها مقرونة بالتعظيم فاليه الاشارة بقوله ادخلوها بسلام آمنين لان الله سبحانه اذا قال لعبيده هذا الكلام أشعر ذلك بنهاية التعظيم وغاية الاجلال (وأما القيد الثالث) وهو كون تلك المنافع خالصة عن شوائب الضرر فاعلم ان المضار اما ان تكون روحانية واما ان تكون جسمانية أما المضار الروحانية فهى الحقد والحسد والغل والغضب وأما المضار الجسمانية فكالاعياء والتعب فقوله ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين اشارة الى نفى المضار الروحانية وقوله لا يمسهم فيها نصب اشارة الى نفى المضار الجسمانية (وأما القيد الرابع) وهو كون تلك المنافع دائمة آمنة من الزوال فاليه الاشارة بقوله وما هم منها بمخرجين فهذا ترتيب حسن معقول بناء على القيود الاربعة المعتبرة فى ماهية الثواب ولحكماء الاسلام فى هذه الآية مقال فانهم قالوا المراد من قوله

الصلاة والسلام لقوله تعالى فبشرناها باسحق ولم يتعرض ههنا البشارة يعقوب عليه الصلاة والسلام أكتفاء بماذكر في سورة هود (عليم) اذا بلغ وفي موضع آخر بغلام حليم (قال أبشرتموني) بذلك (على أن مسني الكبر) وأثر في تعجب عليه الصلاة والسلام من بشارتهم بالولد في حالة مباينة للولادة وزاد في ذلك فقال (فبم تبشرون) أي بأي أعجوية تبشرونني فان البشارة بما لا يتصور وقوعه عادة بشارة بغير شئ أو بأي طريقة تبشرونني وقرئ بتشديد النون المكسورة على ادغام نون الجمع في نون الوقاية (قالوا بشرناك بالحق) أي بما يكون لامحالة أو باليقين الذي لالبس فيه أو بطريقة هي حق وهو أمر الله تعالى وقوله (فلا تكن من القانطين) من الآيسين من ذلك فان الله قادر على أن يخلق بشرا بغير أبوين فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر وقرئ من القنطين وكان مقصده عليه الصلاة والسلام استعظام نعمته تعالى عليه في ضمن التعجب العادي المبني على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده لا استبعاد ذلك بالنسبة الى قدرته سبحانه كما ينبئ عنه قول الملائكة فلا تكن من القانطين دون أن يقولوا من الممترين أو نحوه (قال ومن يقنط) استفهام انكاري أي لا يقنط (من رحمة ربه الا الضالون) المخطئون طريق المعرفة والصواب فلا يعرفون سعة رحمته وكمال علمه وقدرته كما قال يعقوب عليه الصلاة والسلام لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ومراده نفي القنوط عن نفسه على أبلغ وجه اي ليس بي قنوط من رحمته تعالى وانما الذي أقول لبيان منافاة حالي لفيضان تلك النعمة الجليلة علي وفي التعرض لوصف الربوبية والرحمة مالا يخفى من الجزالة وقرئ بضم النون و بكسرها من قنط بالفتح ولم تكن هذه المفاوضة من الملائكة مع ابراهيم عليه الصلاة والسلام خاصة بل مع سارة أيضا حسبما شرح في سورة هود ولم يذكر ذلك ههنا اكتفاء بماذكر هناك كما أنه لم يذكر هنه هناك اكتفاء بماذكر ههنا (قال) أي ابراهيم عليه الصلاة والسلام وتوسيطه بين قوله السابق و بين قوله

وتزعنا مافي صدورهم من غل اشارة الى ان الارواح القدسية النطقية نقية مطهرة عن علائق القوى الشهوانية والغضبية مبرأة عن حوادث الوهم والخيال وقوله اخوانا على سرر متقابلين معناه ان تلك النفوس لما صارت صافية عن كدورات عالم الاجسام ونوازع الخيال والاوهام ووقع عليها أنوار عالم الكبرياء والجلال فأشرقت بتلك الانوار الالهية وتلألأت بتلك الاضواء الصمدية فكل نور فاض على واحد منها انعكس منه على الآخر مثل المرايا المتقابلة المتحاذية فلكونها بهذه الصفة وقع التعبير عنها بقوله اخوانا على سرر متقابلين والله أعلم * قوله تعالى (نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الاليم) في الآية مسئلتان (المسئلة الاولى) اثبتت الهمزة الساكنة في نبئ صورة وما أثبتت في قوله دفء وجزء لان ماقبلها ساكن فهي تحذف كثيرا وتلقى حركتها على الساكن قبلها فنبي في الخط على تحقيق الهمزة وليس قبل همزة نبئ ساكن فاجروها على قياس الاصل (المسئلة الثانية) اعلم ان عباد الله قسمان منهم من يكون متقيا ومنهم من لا يكون كذلك فلما ذكر الله تعالى أحوال المتقين في الآية المتقدمة ذكر أحوال غير المتقين في هذه الآية فقال نبئ عبادي واعلم أنه ثبت في أصول الفقه ان ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بكون ذلك الوصف علة لذلك الحكم فههنا وصفهم بكونهم عبادا له ثم أثبت عقيب ذكر هذا الوصف الحكم بكونه غفورا رحيما فهذا يدل على ان كل من اعترف بالعبودية ظهر في حقه كون الله غفورا رحيما ومن أنكر ذلك كان مستوجبا للعقاب الاليم * وفي الآية لطائف (احداها) أنه أضاف العباد الى نفسه بقوله عبادي وهذا تشريف عظيم ألا ترى أنه لما أراد أن يشرف محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج لم يزد على قوله سبحان الذي أسرى بعبده (وثانيها) أنه لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة * أولها قوله اني * وثانيها قوله أنا * وثالثها ادخال حرف الالف واللام على قوله الغفور الرحيم ولما ذكر العذاب لم يقل اني أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال وأن عذابي هو العذاب الاليم (وثالثها) أنه أمر رسوله ان يبلغ اليهم هذا المعنى فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة (ورابعها) أنه لما قال نبئ عبادي كان معناه نبئ كل من كان معترفا بعبوديتي وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع فكذلك يدخل فيه المؤمن العاصي وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى وعن قتادة قال بلغنا عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لو يعلم العبد قدر عفو الله تعالى ماتورع من حرام ولو علم قدر عقابه لبخع نفسه أي قتلها وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه مر بنفر من أصحابه وهم يضحكون فقال أتضحكون والنار بين أيديكم فنزل قوله نبئ عبادي اني أنا الغفور الرحيم والله أعلم * قوله تعالى (ونبئهم عن ضيف ابراهيم اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال انا منكم وجلون قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون قالوا بشرناك بالحق فلا تكن

(فما خطبكم) اى أمركم وشأنكم الخطير الذى لاجله ارسلتم سوى البشارة (ايها المرسلون) صرح فى أن بينهما مقالة مطوية لهم أشير به الى مكانها كما فى قوله تعالى قال أأسجد لمن خلقت طينا قال أرأيتك هذا الذى كرمت على الآية فان قوله الاخير ليس موصولا بقوله الاول بل هو مبنى على قوله تعالى فاخرج منها فانك رجيم فان توسيط قال بين قوليه للايذان بعدم اتصال الثانى بالاول وعدم ابتنائه عليه بل على غيره ثم خطابه لهم عليهم الصلاة والسلام بعنوان الرسالة بعدما كان خطابه السابق مجردا عن ذلك مع تصديره بالفاء دليل على أن مقالتهم المطوية كانت متضمنة ابيان أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة بل لهم شأن آخر لاجله أرسلوا فكأنه قال عليه الصلاة والسلام ان لم يكن شأنكم مجرد البشارة فاذا هو فلا حاجة الى الالتجاء الى أن علمه عليه الصلاة والسلام بأن كل المقصود ليس البشارة بسبب أنهم كانوا ذوى عدد والبشارة لا تحتاج الى عدد ولذلك اكتفى بالواحد فى زكريا عليه الصلاة والسلام ومريم ولا الى أنهم بشروه فى تضاعيف الحال لازالة الوجل ولو كانت تمام المقصود لابتدؤا بها فتأمل (قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين) هم قوم لوط لكن وصفوا بالاجرام وجيء بهم بطريق التنكير ذما لهم واستهانة بهم (الا آل لوط) استثناء متصل من الضمير فى مجرمين أى الى قوم أجرموا جميعا الا آل لوط فالقوم والارسال شاملان للمجرمين وغيرهم والمعنى انا أرسلنا الى قوم أجرم كلهم الا آل لوط لنهلك الاولين وننجى الآخرين ويدل عليه قوله تعالى (انا لمنجوهم) أى لوطا وآله (أجمعين) أى مما يصيب القوم فانه استئناف للاخبار بنجاتهم لعدم اجرامهم اولبيان مافهم من الاستثناء من مطلق عدم شمول العذاب لهم فان ذلك قد يكون بكون حالهم بين بين أو لتعليله ﴿ قيل ﴾ فان من تعلق بهم التنجية بمنجى من شمول العذاب أو منقطع من قوم وقوله تعالى انا لمنجوهم متصل بآل لوط جار مجرى خبر لكن وعلى هذا فقوله تعالى (الا امرأته) استثناء من آل لوط أو من

من القانطين قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنه تعالى لما بالغ فى تقرير أمر النبوة ثم أردفه بذكر دلائل التوحيد ثم ذكر عقيبه أحوال القيامة وصفة الاشقياء والسعداء أتبعه بذكر قصص الانبياء عليهم السلام ليكون سماعها مرغبا فى الطاعة الموجبة للفوز بدرجات الانبياء ومحذرا عن المعصية لاستحقاق دركات الاشقياء فبدأ أولا بقصة ابراهيم عليه السلام والضمير فى قوله ونبئهم راجع الى قوله عبادى والتقدير ونبئ عبادى عن ضيف ابراهيم يقال أنبأت القوم انباء ونبأتهم تنبئة اذا أخبرتهم وذكر تعالى فى الآية ان ضيف ابراهيم عليه السلام بشروه بالولد بعد الكبر وبانجاء المؤمنين من قوم لوط من العذاب وأخبروه أيضا بانه تعالى سيعذب الكفار من قوم لوط بعذاب الاستئصال وكل ذلك يقوى ماذكره من أنه غفور رحيم للمؤمنين وان عذابه عذاب أليم فى حق الكفار (المسئلة الثانية) الضيف فى الاصل مصدر ضاف يضيف اذا أتى انسانا لطلب القرى ثم سمى به ولذلك وحد فى اللفظ وهم جماعة فان قيل كيف سماهم ضيفا مع امتناعهم عن الاكل قلنا لما ظن ابراهيم انهم انما دخلوا عليه لطلب الضيافة جاز تسميتهم بذلك وقيل أيضا ان من يدخل دار الانسان ويلتجئ اليه يسمى ضيفا وان لم يأكل وقوله تعالى اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما أى نسلم عليك سلاما أو سلمت سلاما فقال ابراهيم انا منكم وجلون أى خائفون وكان خوفه لامتناعهم من الاكل وقيل لانهم دخلوا عليه بغير اذن وبغير وقت وقرأ الحسن لا توجل بضم التاء من أوجله يوجله اذا أخافه وقرئ لا تاجل ولا تواجل من واجله بمعنى أوجله وهذه القصة قد مر ذكرها بالاستقصاء فى سورة هود ❊ وقوله قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم فيه ابحاث (الاول) قرأ حمزة انا نبشرك بفتح النون وتخفيف الباء والباقون نبشرك بالتشديد (البحث الثانى) قوله انا نبشرك استئناف فى معنى التعليل للنهى عن الوجل والمعنى انك بمثابة الآمن المبشر فلا توجل (البحث الثالث) قوله انا نبشرك بغلام عليم بشروه بأمرين (أحدهما) ان الولد ذكر (والآخر) أنه يصير عليما واختلفوا فى تفسير العليم فقيل بشروه بنبوته بعده وقيل بشروه بأنه عليم بالدين ثم حكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام أنه قال أبشرتمونى على ان مسنى الكبر فبم تبشرون فمعنى على ههنا الحال أى حالة الكبر وقوله فبم تبشرون فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) لفظة ما ههنا استفهام بمعنى التعجب كأنه قال بأى أعجوبة تبشرونى فان قيل فى الآية اشكالان (الاول) أنه كيف استبعد قدرة الله تعالى على خلق الولد منه فى زمان الكبر وانكار قدرة الله تعالى فى هذا الموضع كفر (الثانى) كيف قال فبم تبشرون مع انهم قد بينوا ما بشروه به وما فائدة هذا الاستفهام قال القاضى أحسن ماقيل فى الجواب عن ذلك أنه أراد أن يعرف أنه تعالى يعطيه الولد مع أنه يبقيه على صفة الشيخوخة أو يقلبه شابا ثم يعطيه الولد والسبب فى هذا الاستفهام ان العادة جارية بانه لا يحصل الولد حال الشيخوخة التامة وانما يحصل فى حال الشباب فان

ضميرهم وعلى الاول من الضمير خاصة لاختلاف الحكمين اللهم الاأن يجعل انا لمنجوهم اعتراضا وقرئ بالتخفيف (قدرنا انها لمن الغابرين) الباقين مع الكفرة لتهلك معهم وقرئ قدرنا بالتخفيف وانما علق فعل التقدير مع اختصاص ذلك بأفعال القلوب لتضمنه معنى العلم ويجوز حمله على معنى قلنا لانه بمعنى القضاء قول وأصله جعل الشئ على مقدار غيره واسنادهم له الى أنفسهم وهو فعل الله سبحانه لما لهم من الزلفى والاختصاص (فلما جاء آل لوط المرسلون) شروع فى بيان كيفية اهلاك المجرمين وتنجية آل لوط حسبما أجمل فى الاستثناء ثم فصل فى التعليل نوع تفصيل ووضع المظهر موضع المضمر للايذان بأن مجيئهم لتحقيق ما ارسلوا به من الاهلاك والتنجية وليس المراد به ابتداء مجيئهم بل مطلق كينونتهم عند آل لوط فان ما حكى عنه عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى (قال انكم قوم منكرون) انما قاله عليه الصلاة والسلام بعد اللتيا والتى حين ضاقت عليه الحيل وعيت به العلل لما لم يشاهد من المرسلين عند مقاساته الشدائد ومعاناته المكايد من قومه الذين يريدون بهم ما يريدون ما هو المعهود والمعتاد من الاعانة والامداد فيما يأتى ويذر عند تجشمه فى تخليصهم انكار الخذلانهم له وترك نصرته فى مثل تلك المضايقة المعترية له بسببهم حيث لم يكونوا مباشرين معه لاسباب المدافعة والممانعة حتى ألجأته الى أن قال لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد حسبما فصل فى سورة هود لا أنه قاله عند ابتداء ورودهم له خوفا أن يطرقوه بشر كما قيل كيف لا وهم بجوابهم المحكى بقوله تعالى (قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) اى بالعذاب الذى كنت تتوعدهم به فيمترون فيه ويكذبونك قد قشروا العصا وبينوا له عليه الصلاة والسلام جلية الامر فأنى يمكن أن يعتريه بعد ذلك المساءة وضيق الذرع وليست كلمة بل اضرابا عن موجب الخوف المذكور على معنى ما جئناك بما تنكرنا لاجله بل بما يسرك وتقر به عينيك بل هى اضراب عما فهمه عليه الصلاة والسلام من ترك

قيل فاذا كان معنى الكلام ماذكرتم فلم قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين قلنا انهم بينوا ان الله تعالى بشره بالولد مع ابقائه على صفة الشيخوخة وقولهم فلا تكن من القانطين لا يدل على أنه كان كذلك بدليل أنه صرح فى جوابهم بما يدل على انه ليس كذلك فقال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون وفيه جواب آخر وهو أن الانسان اذا كان عظيم الرغبة فى شئ وفاته الوقت الذى يغلب على ظنه حصول ذلك المراد فيه فاذا بشر بعد ذلك بحصوله عظم فرحه وسروره ويصير ذلك الفرح القوى كالمدهش له والمزيل لقوة فهمه وذكائه فيتكلم بكلمات مضطربة من ذلك الفرح فى ذلك الوقت وقيل أيضا انه يستطيب تلك البشارة فربما يعيد السؤال ليسمع تلك البشارة مرة أخرى ومرتين وأكثر طلبا للالتذاذ بسماع تلك البشارة وطلبا لزيادة الطمأنينة والوثوق مثل قوله ولكن ليطمئن قلبى وقيل أيضا استفهم أبأمر الله تبشرون أم من عند أنفسكم واجتهادكم (المسئلة الثانية) قرأ نافع تبشرون بكسر النون خفيفة فى كل القرآن وقرأ ابن كثير بكسر النون وتشديدها والباقون بفتح النون خفيفة اما الكسر والتشديد فتقديره تبشروننى أدغمت نون الجمع فى نون الاضافة وأما الكسر والتخفيف فعلى حذف نون الجمع استثقالا لاجتماع المثلين وطلبا للتخفيف قال أبو حاتم حذف نافع الياء مع النون قال واسقاط الحرفين لا يجوز وأجيب عنه بانه أسقط حرفا واحدا وهى النون التى هى علامة للرفع وعلى أن حذف الحرفين جائز قال تعالى فى موضع ولا تك وفى موضع ولا تكن فأما فتح النون فعلى غير الاضافة والنون علامة الرفع وهى مفتوحة أبدا وقوله بشرناك بالحق قال ابن عباس يريد بما قضاه الله تعالى والمعنى ان الله تعالى قضى أن يخرج من صلب ابراهيم اسحق عليه السلام ويخرج من صلب اسحق مثل ما أخرج من صلب آدم فانه تعالى بشر بانه يخرج من صلب اسحق أكثر الانبياء فقوله بالحق اشارة الى هذا المعنى وقوله فلا تكن من القانطين نهى لابراهيم عليه السلام عن القنوط وقد ذكرنا كثيرا ان نهى الانسان عن الشئ لا يدل على كون المنهى فاعلا للمنهى عنه كما فى قوله ولا تطع الكافرين والمنافقين ثم حكى تعالى عن ابراهيم عليه السلام أنه قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) هذا الكلام حق لان القنوط من رحمة الله تعالى لا يحصل الا عند الجهل بامور (أحدها) أن يجهل كونه تعالى قادرا عليه (وثانيها) أن يجهل كونه تعالى عالما باحتياج ذلك العبد اليه (وثالثها) أن يجهل كونه تعالى منزها عن البخل والحاجة والجهل فكل هذه الامور سبب للضلال فلهذا المعنى قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون (المسئلة الثانية) قرأ أبو عمرو والكسائى يقنط بكسر النون ولا تقنطوا كذلك والباقون بفتح النون وهما لغتان قنط يقنط نحو ضرب يضرب وقنط يقنط نحو علم يعلم وحكى أبو عبيدة قنط يقنط بضم النون قال أبو على الفارسى قنط يقنط بفتح النون فى الماضى وكسرها فى المستقبل من أعلى اللغات يدل

التصرف له والمعنى ماخدلناك وماخلينا بينك وبينهم بل جئناك بمايدمرهم من العذاب الذى كانوا يكذبونك حين كنت تتوعدهم به ولعل تقديم هذه المقاولة على ماجرى بينه و بين اهل المدينة من المجادلة للمسارعة الى ذكر بشارة لوط عليه الصلاة والسلام باهلاك قومه وتنجية آله عقيب ذكر بشارة ابراهيم عليه الصلاة والسلام بهما وحيث كان ذلك مستدعيا لبيان كيفية النجاة وترتيب مباديها أشير الى ذلك اجمالا ثم ذكر مافعل القوم ومافعل بهم ولم يبال بتغيير الترتيب الوقوعى ثقة بمراعاته فى مواقع أخر ونسبة المجئ بالعذاب اليه عليه الصلاة والسلام مع أنه نازل بالقوم بطريق تفويض أمره اليه لابطريق نزوله عليه كأنهم جاؤه به وفوضوا أمره اليه ليرسله عليهم حسبما كان يتوعدهم به (وأتيناك بالحق) اى باليقين الذى لامجال فيه للامتراء والشك وهو عذابهم عبر عنه بذلك تنصيصا على نفى الامتراء عنه أو المراد بالحق الاخبار بمجئ العذاب المذكور وقوله تعالى (وانا الصادقون) تأكيد له اى أتيناك فيما قلنا بالخبر الحق اى المطابق للواقع وانا الصادقون فى ذلك الخبر أو فى كل كلام فيكون كالدليل على صدقهم فيه وعلى الاول تأكيد اثر تأكيد وقوله تعالى (فأسر بأهلك) شروع فى ترتيب مبادى النجاة أى اذهب بهم فى الليل وقرئ بالوصل وكلاهما من السرى وهو السير فى الليل وقرئ فسر من السير (بقطع من الليل) بطائفة منه أو من آخره قال * افتحى الباب وانظرى فى النجوم * كم علينا من قطع ليل بهيم * وقيل هو بعد مامضى منه شئ صالح (واتبع أدبارهم) وكن على اثرهم تذودهم وتسرع بهم وتطلع على أحوالهم ولعل ايثار الاتباع على السوق مع أنه المقصود بالامر للمبالغة فى ذلك اذ السوق ربما يكون بالتقدم على بعض مع التأخر عن بعض ويلزمه عادة الغفلة عن حال المتأخر والالتفات المنهى عنه بقوله تعالى (ولا يلتفت منكم) أى منك ومنهم (أحد) فيرى

على ذلك اجتماعهم فى قوله من بعد ماقنطوا وحكاية أبى عبيدة تدل أيضا على أن قنط بفتح النون أكثر لان المضارع من فعل يجئ على يفعل و يفعل مثل فسق يفسق و يفسق ولا يجئ مضارع فعل على يفعل والله أعلم * قوله تعالى (قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين الا آل لوط انا لمنجوهم أجمعين الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله فما خطبكم سؤال عما لاجله أرسلهم الله تعالى والخطب والشان والامر سواء الا ان لفظ الخطب أدل على عظم الحال فان قيل ان الملائكة لما بشروه بالولد الذكر العليم فكيف قال لهم بعد ذلك فما خطبكم أيها المرسلون قلنا فيه وجوه (الاول) قال الاصم معناه ما الامر الذى توجهتم له سوى البشرى (الثانى) قال القاضى انه علم أنه لو كان كمال المقصود ايصال البشارة لكان الواحد من الملائكة كافيا فلما رأى جمعا من الملائكة علم ان لهم غرضا آخر سوى ايصال البشارة فلا جرم قال فما خطبكم أيها المرسلون (الثالث) يمكن أن يقال انهم انما قالوا انا نبشرك بغلام عليم فى معرض ازالة الخوف والوجل ألا ترى ان ابراهيم عليه الصلاة والسلام لما خاف قالوا له لا توجل انا نبشرك بغلام عليم ولو كان تمام المقصود من المجئ هو ذكر تلك البشارة لكانوا فى أول مادخلوا عليه ذكروا تلك البشارة فلما لم يكن الامر كذلك علم ابراهيم عليه الصلاة والسلام بهذا الطريق انه ما كان مجيئهم لمجرد هذه البشارة بل كان لغرض آخر فلا جرم سألهم عن ذلك الغرض فقال فما خطبكم أيها المرسلون ثم حكى تعالى عن الملائكة انهم قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين وانما اقتصروا على هذا القدر لعلم ابراهيم عليه السلام بان الملائكة اذا أرسلوا الى المجرمين كان ذلك لاهلاكهم واستئصالهم وأيضا فقولهم الا آل لوط انا لمنجوهم أجمعين يدل على أن المراد بذلك الارسال اهلاك القوم أما قوله تعالى الا آل لوط فالمراد من آل لوط أتباعه الذين كانوا على دينه فان قيل قوله الا آل لوط هل هو استثناء منقطع أو متصل قلنا قال صاحب الكشاف ان كان هذا الاستثناء استثناء من قوم كان منقطعا لان القوم موصوفون بكونهم مجرمين وآل لوط ماكانوا مجرمين فاختلف الجنسان فوجب أن يكون الاستثناء منقطعا وان كان استثناء من الضمير فى مجرمين كان متصلا كأنه قيل الى قوم قد أجرموا كلهم الا آل لوط وحدهم كما قال فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ثم قال صاحب الكشاف و يختلف المعنى بحسب اختلاف هذين الوجهين وذلك لان آل لوط يخرجون فى المنقطع من حكم الارسال لان على هذا التقدير الملائكة أرسلوا الى القوم المجرمين خاصة وما أرسلوا الى آل لوط أصلا وأما فى المتصل فالملائكة أرسلوا اليهم جميعا ليهلكوا هؤلاء و ينجوا هؤلاء وأما قوله انا لمنجوهم أجمعين فاعلم انه قرأ حمزة والكسائى لمنجوهم خفيفة والباقون مشددة وهما لغتان أما قوله تعالى الا امرأته قال صاحب الكشاف هذا استثناء من الضمير المجرور فى قوله لمنجوهم وليس ذلك من باب الاستثناء من الاستثناء لان

﴿ الاستثناء ﴾

ماوراءه من الهول فلايطيقه أو يصيبه ماأصابهم أوولاينصرف منكم احد ولايتخلف لغرض فيصيبه العذاب وقيل نهوا عن ذلك ليوطنوا أنفسهم على المهاجرة أوهونهى عن ربط القلب بماخلفوه أوهوالاسراع فى السير فان الملتفت قلما يخلو عن أدنى وقفة وعدم ذكر استثناء المرأة من الاسراء والالتفات لايستدعى عدم وقوعه فان ذلك لماعرفت مرارا للاكتفاء بماذكر فى مواضع أخر (وامضوا حيث تؤمرون) ﴿ ٤٠٩ ﴾ الى حيث أمركم الله تعالى بالمضى اليه وهو الشام أومصر و حذف الصلتين على الاتساع المشهور وايثار المضى الى ماذكر على الوصول اليه واللحوق به للايذان بأهمية النجاة ولمراعاة المناسبة بينه و بين ماسلف من الغابرين (وقضينا) أى أوحينا (اليه) مقضيا ولذلك عدى بالى (ذلك الامر) مبهم يفسره (أن دابر هولاء مقطوع) على أنه بدل منه وايثار اسم الاشارة على الضمير للدلالة على اتصافهم بصفاتهم القبيحة التى هى مدار ثبوت الحكم أى دابر هؤلاء المجرمين وايراد صيغة المفعول بدل صيغة المضارع لكونها أدخل فى الدلالة على الوقوع وفى لفظ القضاء والتعبير عن العذاب بالامر والاشاره اليه بذلك وتأخيره عن الجار والمجرور وابهامه أولاثم تفسيره ثانيا من الدلالة على فخامة الامر و فظاعته مالا يخفى وقرئ بالكسر على الاستئناف والمعنى أنهم يستأصلون عن آخرهم حتى لايبقى منهم أحد (مصبحين) داخلين فى الصبح وهو حال من هؤلاء أومن الضمير فى مقطوع وجمعه للحمل على المعنى فان دابر ﴿ ٥٢ ﴾ خا هولاء بمعنى مدبرى هؤلاء (وجاء أهل المدينة) شروع فى حكاية ماصدر عن القوم عند وقوفهم على مكان الاضياف من الفعل والقول وماترتب عليه بعد ماأشير الى ذلك اجمالا حسبمابنه عليه أى جاء أهل سدوم منزل لوط عليه الصلاة والسلام (يستبشرون) أى مستبشرين باضيافه عليه الصلاة والسلام طمعا فيهم (قال ان هؤلاء ضيفى) الضيف حيث كان مصدرا فى الاصل أطلق على الواحد

الاستثناء من الاستثناء انما يكون فيما اتحد الحكم فيه كما لو قيل أهلكناهم الا آل لوط الاامرأته وكما لوقال المطلق لامرأته أنت طالق ثلاثا الااثنتين الاواحدة وكما اذا قال المقر لفلان على عشرة دراهم الاثلاثة الادرهما فأما فى هذه الآية فقد اختلف الحكمان لان قوله الاآل لوط متعلق بقوله أرسلنا أو بقوله مجرمين وقوله الاامرأته قد تعلق بقوله منجوهم فكيف يكون هذا استثناء من استثناء واما قوله قدرنا انها لمن الغابرين ففيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن معنى التقدير فى اللغة جعل الشئ على مقدار غيره يقال قدر هذا الشئ بهذا أى اجعله على مقداره وقدر الله تعالى الاقوات أى جعلها على مقدار الكفاية ثم يفسر التقدير بالقضاء فيقال قضى الله عليه كذا وقدره عليه أى جعله على مقدار مايكفى فى الخير والشر وقيل فى معنى قدرنا كتبنا وقال الزجاج دبرنا وقيل قضينا والكل متقارب (المسئلة الثانية) قرأ أبو بكر عن عاصم قدرنا بتخفيف الدال ههنا وفى النمل وقرأ الباقون فيهما بالتشديد قال الواحدى يقال قدرت الشئ وقدرته ومنه قراءة ابن كثير نحن قدرنا بينكم الموت خفيفا و قراءة الكسائى والذى قدر فهدى ثم قال والمشددة فى هذا المعنى أكثر استعمالا لقوله تعالى وقدر فيها أقواتها وقوله وخلق كل شئ فقدره تقديرا (المسئلة الثالثة) لقائل أن يقول لم أسند الملائكة فعل التقدير الى أنفسهم مع أنه لله تعالى ولم لم يقولوا قدر الله تعالى والجواب انما ذكروا هذه العبارة لما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى كما يقول خاصة الملك دبرنا كذا وأمرنا بكذا والمدبر والآمر هو الملك لاهم وانما يريدون بذكر هذا الكلام اظهار مالهم من الاختصاص بذلك الملك فكذا ههنا والله أعلم (المسئلة الرابعة) قوله انها لمن الغابرين فى موضع مفعول التقدير قضينا أنها تتخلف وتبقى مع من يبقى حتى تهلك كما يهلكون ولاتكون ممن يبقى مع لوط فتصل الى النجاة والله أعلم * قوله تعالى (فلما جاء آل لوط المرسلون قال انكم قوم منكرون قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وأتيناك بالحق وانا لصادقون) اعلم ان الملائكة لما بشروا ابراهيم بالولد واخبروه بأنهم مرسلون لعذاب قوم مجرمين ذهبوا بعد ذلك الى لوط والى آله وأن لوطا وقومه ماعرفوا أنهم ملائكة الله فلهذا قال لهم انكم قوم منكرون وفى تأويله وجوه (الاول) انه انما وصفهم بأنهم منكرون لانه عليه الصلاة والسلام ماعرفهم فلما هجموا عليه استنكر منهم ذلك وخاف أنهم دخلوا عليه لاجل شر يوصلونه اليه فقال هذه الكلمة (والثانى) أنهم كانوا شبابا مردا حسان الوجوه فخاف أن يهجم قومه عليه بسبب طلبهم فقال هذه الكلمة (والثالث) أن النكرة ضد المعرفة فقوله انكم قوم منكرون أى لاأعرفكم ولاأعرف أنكم من أى الاقوام ولاى غرض دخلتم على فعند هذه الكلمة قالت الملائكة بل جئناك بما كانوا فيه يمترون أى بالعذاب الذى كانوا يشكون فى نزوله ثم أكدوا ماذكروه بقولهم وأتيناك بالحق قال الكلبى بالعذاب وقيل باليقين والامر الثابت الذى لاشك فيه وهو عذاب

والتعدد والمذكر والمؤنث واطلاقه على الملائكة بحسب اعتقاده عليه الصلاة والسلام لكونهم فى زى الضيف والتأكيد ليس لانكارهم بذلك بل لتحقيق اتصافهم به واظهار اعتنائه بشأنهم وتشمره لمراعاة حقوقهم وحمايتهم من السوء ولذلك قال (فلا تفضحون) أى عندهم بأن تتعرضوا لهم بسوء فيعلموا أنه ليس لى عندكم قدر وحرمة أو لا تفضحون بفضيحة ضيفى فان من أسىء الى ضيفه فقد أسىء اليه يقال ﴿٤١٠﴾ فضحه فضحا وفضيحة اذا أظهر من أمره ما يلزمه العار (واتقوا الله) فى مباشرتكم لما يسوءنى (ولا تخزون) أى لا تذلونى ولا تهينونى بالتعرض لمن أجرتهم بمثل تلك الفعلة الخبيثة وحيث كان التعرض لهم بعد أن نهاهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك بقوله فلا تفضحون أكثر تأثيرا فى جانبه عليه الصلاة والسلام وأجلب للعار اليه اذ التعرض للجار قبل شعور المجير بذلك ربما يتسامح فيه وأما بعد الشعور به والمناصبة لحمايته والذب عنه فذاك أعظم العار عبر عليه الصلاة والسلام عما يعتريه من جهتهم بعد النهى المذكور بسبب لجاجهم ومجاهرتهم بمخالفته بالخزى وأمرهم بتقوى الله تعالى فى ذلك وانما لم يصرح بالنهى عن نفس تلك الفاحشة لانه كان يعرف أنه لا يفيدهم ذلك وقيل المراد تقوى الله تعالى فى ركوب الفاحشة ولا يساعده توسيطه بين النهيين عن أمرين متعلقين بنفسه عليه الصلاة والسلام وكذلك قوله تعالى (قالوا أولم ننهك عن العالمين) أى عن التعرض لهم بمنعهم عنا وضيافتهم والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر أى ألم نتقدم اليك ولم ننهك عن ذلك فانهم ﴿ قصدناه ﴾ كانوا يتعرضون لكل أحد من الغرباء بالسوء وكان عليه الصلاة والسلام ينهاهم عن ذلك بقدر وسعه وكانوا قد نهوه عليه الصلاة والسلام عن أن يجير أحدا فكأنهم قالوا ما ذكرت من الفضيحة والخزى انما جاءك من قبلك لا من قبلنا اذ لولا تعرضك لما تصديك له لما اعتراك تلك الحالة ولما رآهم لا يقلعون عما هم عليه (قال هؤلاء بناتى) يعنى نساء القوم فان نبى كل

اولئك الاقوام ثم أكد هذا التأكيد بقولهم وانا لصادقون * قوله تعالى (فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع ادبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون وقضينا اليه ذلك الامر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) قرئ فاسر بقطع الهمزة ووصلها من أسرى وسرى وروى صاحب الكشاف عن صاحب الاقليد فسر من السير والقطع آخر الليل قال الشاعر

افتحى الباب وانظرى فى النجوم * كم علينا من قطع ليل بهيم

وقوله واتبع أدبارهم معناه اتبع آثار بناتك وأهلك وقوله ولا يلتفت منكم أحد الفائدة فيه أشياء (أحدها) لئلا يتخلف منكم أحد فيناله العذاب (وثانيها) لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم من البلاء (وثالثها) معناه الاسراع وترك الاهتمام لما خلف وراءه كما تقول امض لشأنك ولا تعرج على شئ (ورابعها) لو بقى منه متاع فى ذلك الموضع فلا يرجعن بسببه البتة وقوله وامضوا حيث تؤمرون قال ابن عباس يعنى الشأم قال المفضل حيث يقول لكم جبريل وذلك لان جبريل عليه السلام أمرهم أن يمضوا الى قرية معينة أهلها ما عملوا مثل عمل قوم لوط وقوله وقضينا اليه عدى قضينا بالى لانه ضمن معنى أوحينا كأنه قيل وأوحيناه اليه مقضيا مبتوتا ونظيره قوله تعالى وقضينا الى بنى اسرائيل وقوله ثم اقضوا الى ثم انه فسر بعد ذلك القضاء المبتوت بقوله أن دابر هؤلاء مقطوع وفى ابهامه أولا وتفسيره ثانيا تفخيم للامر وتعظيم له وقرأ الاعمش ان بالكسر على الاستئناف كأن قائلا قال أخبرنا عن ذلك الامر فقال ان دابر هؤلاء وفى قراءة ابن مسعود وقلنا ان دابر هؤلاء ودابرهم آخرهم يعنى يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد وقوله مصبحين أى حال ظهور الصبح * قوله تعالى (وجاء أهل المدينة يستبشرون قال ان هؤلاء ضيفى فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون قالوا أولم ننهك عن العالمين قال هؤلاء بناتى ان كنتم فاعلين لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وامطرنا عليهم حجارة من سجيل ان فى ذلك لآيات للمتوسمين وانها لبسبيل مقيم ان فى ذلك لآية للمؤمنين) اعلم أن المراد بأهل المدينة قوم لوط وليس فى الآية دليل على المكان الذى جاؤه الا أن القصة تدل على أنهم جاؤا دار لوط قيل ان الملائكة لما كانوا فى غاية الحسن اشتهر خبرهم حتى وصل الى قوم لوط وقيل امرأة لوط أخبرتهم بذلك وبالجملة فالقوم قالوا نزل بلوط ثلاثة من المرد ما رأينا قط أصبح وجها ولا أحسن شكلا منهم فذهبوا الى دار لوط طلبا منهم لاولئك المرد والاستبشار اظهار السرور فقال لهم لوط لما قصدوا أضيافه كلامين (الاول) قال ان هؤلاء ضيفى فلا تفضحون يقال فضحه يفضحه فضحا وفضيحة اذا أظهر من أمره ما يلزمه به العار والمعنى ان الضيف يجب اكرامه فاذا قصدتموهم بالسوء كان ذلك اهانة بى ثم أكد ذلك بقوله واتقوا الله ولا تخزون فأجابوه بقولهم أولم ننهك عن العالمين والمعنى ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا فى أحد من الناس اذا

أمة بمنزلة أبيهم أو بناته حقيقة أى فتزوجوهن وقد كانوا من قبل يطلبونهن ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لعدم مشروعية المناكحة بين المسلمات والكفار وقد فصل ذلك فى سورة هود (ان كنتم فاعلين) أى قضاء الوطر أو ما أقول لكم (لعمرك) قسم من الله تعالى بحياة النبى عليه الصلاة والسلام أو من الملائكة بحياة لوط عليه الصلاة والسلام والتقرير لعمرك قسمى وهى لغة فى العمر يختص به القسم ايثارا للخفة لكثرة دورانه على الالسنة (انهم لفى سكرتهم) غوايتهم أو شدة غلمتهم التى ازالت عقولهم وتمييزهم بين الخطا والصواب (يعمهون) يتحيرون و يتمادون فكيف يسمعون النصح وقيل الضمير لقريش والجملة اعتراض (فأخذتهم الصيحة) أى الصيحة العظيمة الهائلة وقيل صيحة جبريل عليه الصلاة والسلام (مشرقين) داخلين فى وقت شروق الشمس (فجعلنا عاليها) عالى المدينة أو عالى قراهم وهو المفعول الاول لجعلنا وقوله تعالى (سافلهـا) مفعول ثان له وهو أدخل فى الهول والفظاعة من العكس كما مر (وأمطرنا عليهم) فى تضاعيف ذلك قبل تمام الانقلاب (حجارة) كائنة (من سجيل) من طين متحجر أو طين عليه كتاب وقد فصل ذلك فى سورة هود (ان فى ذلك) أى فيما ذكر من القصة (لآيات) لعلامات يستدل بها على حقيقة الحق (للمتوسمين) أى المتفكرين المتفرسين الذين يتثبتون فى نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشىء بسمته (وانها) أى المدينة أو القرى (لبسبيل مقيم) أى طريق ثابت يسلكه الناس و يرون آثارها (ان فى ذلك) فيما ذكر من المدينة أو القرى أو فى كونها بمرأى من الناس يشاهدونها فى ذهابهم وايابهم (لآية) عظيمة (للمؤمنين) بالله ورسوله فانهم الذين يعرفون أن ما حاق بهم من العذاب الذى ترك ديارهم بلاقع انما حاق بهم لسوء صنيعهم وأما غيرهم فيحملون ذلك على الاتفاق أو الاوضاع الفلكية وافراد الآية بعد جمعها فيما سبق لما أن المشاهد ههنا بقية الآثار لا كل القصة كما فيما سلف (وان كان) ان مخففة من ان وضمير الشأن

قصدناه بالفاحشة (والكلام الثانى) مما قاله لوط قوله هؤلاء بناتى ان كنتم فاعلين قيل المراد بناته من صلبه وقيل المراد نساء قومه لان رسول الامة يكون كالاب لهم وهو كقوله تعالى النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وفى قراءة أبى وهو أب لهم والكلام فى هذه المباحث قدم بالاستقصاء فى سورة هود عليه السلام اما قوله لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) العمر والعمر واحد وسمى الرجل عمرا تفاؤلا أن يبقى ومنه قول ابن أحمر * ذهب الشباب وأخلق العمر * وعمر الرجل يعمر عمرا وعمرا فاذا أقسموا به قالوا لعمرك وعمرك فتحوا العين لا غير قال الزجاج لان الفتح أخف عليهم وهم يكثرون القسم بلعمرى ولعمرك فالتزموا الاخف (المسئلة الثانية) فى قوله لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون قولان (الاول) أن المراد ان الملائكة قالت للوط عليه السلام لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون أى فى غوايتهم يعمهون أى يتحيرون فكيف يقبلون قولك و يلتفتون الى نصيحتك (والثانى) ان الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه تعالى أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد وذلك يدل على أنه أكرم الخلق على الله تعالى قال النحويون ارتفع قوله لعمرك بالابتداء والخبر محذوف والمعنى لعمرك قسمى وحذف الخبر لان فى الكلام دليلا عليه و باب القسم يحذف منه الفعل نحو بالله لافعلن والمعنى أحلف بالله فيحذف لعلم المخاطب بأنك حالف ثم قال تعالى فأخذتهم الصيحة أى صيحة جبريل عليه السلام قال أهل المعانى ليس فى الآية دلالة على أن تلك الصيحة صيحة جبريل عليه السلام فان ثبت ذلك بدليل قوى قيل به والا فليس فى الآية دلالة الا على أنه جاءتهم صيحة عظيمة مهلكة وقوله مشرقين يقال شرق الشارق يشرق شروقا لكل ما طلع من جانب الشرق ومنه قولهم ما ذر شارق أى طلع طالع فقوله مشرقين أى داخلين فى الشروق يقال أشرق الرجل اذا دخل فى الشروق وهو بزوغ الشمس واعلم أن الآية تدل على انه تعالى عذبهم بثلاثة أنواع من العذاب (أحدها) الصيحة الهائلة المنكرة (وثانيها) أنه جعل عاليها سافلها (وثالثها) أنه أمطر عليهم حجارة من سجيل وكل هذه الاحوال قدم تفسيرها فى سورة هود ثم قال تعالى ان فى ذلك لآيات للمتوسمين يقال توسمت فى فلان خيرا أى رأيت فيه أثرا منه وتفرسته فيه واختلفت عبارات المفسرين فى تفسير المتوسمين قيل المتفرسين وقيل الناظرين وقيل المتفكرين وقيل المعتبرين وقيل المتبصرين قال الزجاج حقيقة المتوسمين فى اللغة المتثبتون فى نظرهم حتى يعرفوا سمة الشىء وصفته وعلامته والمتوسم الناظر فى السمة الدالة تقول توسمت فى فلان كذا أى عرفت وسم ذلك وسمته فيه ثم قال وانها لبسبيل مقيم الضمير فى قوله وانها عائد الى مدينة قوم لوط وقد سبق ذكرها فى قوله وجاء أهل المدينة وقوله لبسبيل مقيم أى هذه القرى وما ظهر فيها من آثار قهر الله وغضبه لبسبيل مقيم ثابت لم يندرس ولم يخف والذين يمرون من الحجاز الى الشام يشاهدونها ثم قال ان فى ذلك لآية للمؤمنين أى

الذى هو اسمها محذوف واللام هى الفارقة أى وان الشان كان (أصحاب الايكة) وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام والايكة والليكة الشجرة الملتفة المتكاثفة وكان عامة شجرهم المقل وكانوا يسكنونها فبعثه الله تعالى اليهم (لظالمين) متجاوزين عن الحد (فانتقمنا منهم) بالعذاب روى ان الله تعالى سلط عليهم الحر سبعة أيام ثم بعث سحابة فالتجؤا اليها يلتمسون الروح فبعث الله تعالى عليهم منها نارا فأحرقتهم فهو عذاب يوم الظلة (وانهما) ﴿٤١٢﴾ يعنى سدوم والايكة وقيل الايكة ومدين فانه عليه الصلاة والسلام كان مبعوثا اليهما فذكر أحدهما منبه على الآخر (لبامام مبين) لبطريق واضح والامام اسم ما يؤتم به سمى به الطريق ومطمر البناء واللوح الذى يكتب فيه لانها مما يؤتم به (ولقد كذب أصحاب الحجر) يعنى ثمود (المرسلين) أى صالحا فان من كذب واحدا من الانبياء عليهم السلام فقد كذب الجميع لاتفاقهم على التوحيد والاصول التى لا تختلف باختلاف الامم والاعصار وقيل المراد صالح ومن معه من المؤمنين كما قيل الخبيبون لخبيب بن عبد الله بن الزبير وأصحابه والحجر واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه (وآتيناهم آياتنا) وهى الآيات المنزلة على نبيهم أو المعجزات من الناقة وسقيها وشربها ودرها أو الادلة المنصوبة لهم (فكانوا عنها معرضين) اعراضا كليا بل كانوا معارضين لها حيث فعلوا بالناقة ما فعلوا (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين) من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الاعداء او ثاقتها أو من العذاب لحسبانهم أن ذلك يحميهم منه * عن جابر رضى الله تعالى عنه أنه قال مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم الا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء ثم زجر رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته فاسرع حتى خلفها (فأخذتهم الصيحة مصبحين) وهكذا وقع فى سورة هود قيل صاح بهم جبريل عليه الصلاة والسلام وقيل أتتهم من السماء صيحة فيها صوت

كل من آمن بالله وصدق الانبياء والرسل عرف أن ذلك انما كان لاجل أن الله تعالى انتقم لانبيائه من أولئك الجهال أما الذين لا يؤمنون بالله فانهم يحملونه على حوادث العالم ووقائعه وعلى حصول القرانات الكوكبية والاتصالات الفلكية والله أعلم * قوله تعالى (وان كان أصحاب الايكة لظالمين فانتقمنا منهم وانهما لبامام مبين) اعلم أن هذه هى القصة الثالثة من القصص المذكورة فى هذه السورة (فأولها) قصة آدم وابليس (وثانيها) قصة ابراهيم ولوط (وثالثها) هذه القصة وأصحاب الايكة هم قوم شعيب عليه السلام كانوا أصحاب غياض فكذبوا شعيبا فأهلكهم الله تعالى بعذاب يوم الظلة وقد ذكر الله تعالى قصتهم فى سورة الشعراء والايكة الشجر الملتف يقال أيكة وايك كشجرة وشجر قال ابن عباس الايك هو شجر المقل وقال الكلبى الايكة الغيضة وقال الزجاج هؤلاء أهل موضع كان ذا شجر قال الواحدى ومعنى ان واللام للتوكيد وان ههنا هى المخففة من الثقيلة وقوله فانتقمنا منهم قال المفسرون اشتد الحر فيهم أياما ثم اضطرم عليهم المكان نارا فهلكوا عن آخرهم وقوله وانهما فيه قولان (الاول) المراد قرى قوم لوط عليه السلام والايكة (والقول الثانى) الضمير للايكة ومدين لان شعيبا عليه السلام كان مبعوثا اليهما فلما ذكر الايكة دل بذكرها على مدين فجاء بضميرهما وقوله لبامام مبين أى بطريق واضح والامام اسم ما يؤتم به قال الفراء والزجاج انما جعل الطريق اماما لانه يؤم ويتبع قال ابن قتيبة لان المسافر يأتم به حتى يصير الى الموضع الذى يريده وقوله مبين يحتمل انه مبين فى نفسه ويحتمل أنه مبين لغيره لان الطريق يهدى الى المقصد * قوله تعالى (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين فأخذتهم الصيحة مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) هذا هو القصة الرابعة وهى قصة صالح قال المفسرون الحجر اسم واد كان يسكنه ثمود وقوله المرسلين المراد منه صالح وحده ولعل القوم كانوا براهمة منكرين لكل الرسل وقوله وآتيناهم آياتنا يريد الناقة وكان فى الناقة آيات كثيرة كخروجها من الصخرة وعظم خلقها وظهور نتاجها عند خروجها وكثرة لبنها وأضاف الآيات اليهم وان كانت الناقة آية لصالح لانها آيات رسولهم وقوله فكانوا عنها معرضين يدل على أن النظر والاستدلال واجب وان التقليد مذموم وقوله وكانوا ينحتون من الجبال قد ذكرنا كيفية ذلك النحت فى سورة الاعراف وقوله آمنين يريد من عذاب الله وقال الفراء آمنين أن يقع سقفهم عليهم وقوله فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون أى ما دفع عنهم الضر والبلاء ما كانوا يعملون من نحت تلك الجبال ومن جمع تلك الاموال والله أعلم * قوله تعالى (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق وان الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل ان ربك هو الخلاق العليم) اعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أهلك الكفار فكأنه قيل الاهلاك والتعذيب كيف يليق بالرحيم الكريم فأجاب عنه بأنى انما خلقت الخلق ليكونوا مشتغلين

﴿وبالعبادة﴾

كل صاعقة وصوت كل شئ فى الارض فتقطعت قلوبهم فى صدورهم وفى سورة الاعراف فأخذتهم الرجفة أى الزلزلة ولعلها من روادف الصيحة المستتبعة لتموج الهواء تموجا شديدا يفضى اليها كما مر فى سورة هود (فما أغنى عنهم) ولم يدفع عنهم ما نزل بهم (ما كانوا يكسبون) من بناء البيوت الوثيقة والاموال الوافرة والعدد المتكاثرة وفيه تهكم بهم والفاء لترتيب عدم الاغناء الخاص بوقت نزول العذاب حسبما كانوا يرجونه لاعدم الاغناء المطلق فانه أمر مستمر (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق) أى الا خلقا ملتبسا بالحق والحكمة والمصلحة بحيث لا يلائم استمرار الفساد واستقرار الشرور ولذلك اقتضت الحكمة اهلاك أمثال هؤلاء دفعا لفسادهم وارشادا لمن بقى الى الصلاح أو الا بسبب العدل والانصاف يوم الجزاء على الاعمال كما ينبئ عنه قوله تعالى (وان الساعة لآتية) فينتقم الله تعالى لك فيها ممن كذبك (فاصفح) أى أعرض عنهم (الصفح الجميل) اعراضا جميلا وتحمل أذيتهم ولا تعجل بالانتقام منهم وعاملهم معاملة الصفوح الحليم وقيل هى منسوخة بآية السيف (ان ربك) الذى يبلغك الى غاية الكمال (هو الخلاق) لك ولهم ولسائر الموجودات على الاطلاق (العليم) بأحوالك وأحوالهم بتفاصيلها فلا يخفى عليه شئ مما جرى بينك وبينهم فهو حقيق بأن تكل جميع الامور اليه ليحكم بينكم أو هو الذى خلقكم وعلم تفاصيل أحوالكم وقد علم أن الصفح اليوم اصلح الى أن يكون السيف أصلح فهو تعليل للامر بالصفح على التقديرين وفى مصحف عثمان وأبى رضى الله تعالى عنهما هو الخالق وهو صالح للقليل والكثير والخلاق مختص بالكثير (ولقد آتيناك سبعا) سبع آيات وهى الفاتحة وعليه عمر وعلى وابن مسعود وأبو هريرة رضى الله تعالى عنهم والحسن وأبو العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة رحمهم الله تعالى وقيل سبع سور وهى الطوال التى سابعتها الانفال والتوبة فانهما فى حكم سورة واحدة ولذلك لم يفصل بينهما بالتسمية وقيل يونس

بالعبادة والطاعة فاذا تركوها وأعرضوا عنها وجب فى الحكمة اهلاكهم وتطهير وجه الارض منهم وهذا النظم حسن الا أنه انما يستقيم على قول المعتزلة قال الجبائى دلت الآية على أنه تعالى ما خلق السموات والارض وما بينهما الا حقا وبكون الحق لا يكون الباطل لان كل ما فعل باطلا وأريد بفعله كون الباطل لا يكون حقا ولا يكون مخلوقا بالحق وفيه بطلان مذهب الجبرية الذين يزعمون أن أكثر ما خلقه الله تعالى بين السموات والارض من الكفر والمعاصى باطل واعلم ان أصحابنا قالوا هذه الآية تدل على أنه سبحانه هو الخالق لجميع أعمال العباد لانها تدل على أنه سبحانه هو الخالق للسموات والارض ولكل ما بينهما ولا شك أن افعال العباد بينهما فوجب أن يكون خالقها هو الله سبحانه وفى الآية وجه آخر فى النظم وهو أن المقصود من ذكر هذه القصص تصبير الله تعالى محمدا عليه الصلاة والسلام على سفاهة قومه فانه اذا سمع أن الامم السالفة كانوا يعاملون انبياء الله تعالى بمثل هذه المعاملات الفاسدة سهل تحمل تلك السفاهات على محمد صلى الله عليه وسلم ثم انه تعالى لما بين انه أنزل العذاب على الامم السالفة فعند هذا قال لمحمد صلى الله عليه وسلم وان الساعة لآتية وان الله لينتقم لك فيها من أعدائك ويجازيك واياهم على حسناتك وسيآتهم فانه ما خلق السموات والارض وما بينهما الا بالحق والعدل والانصاف فكيف يليق بحكمته اهمال أمرك ثم انه تعالى لما صبره على أذى قومه رغبه بعد ذلك فى الصفح عن سيآتهم فقال فاصفح الصفح الجميل أى فأعرض عنهم واحتمل ما تلقى منهم اعراضا جميلا بحلم واغضاء وقيل هو منسوخ بآية السيف وهو بعيد لان المقصود من ذلك أن يظهر الخلق الحسن والعفو والصفح فكيف يصير منسوخا ثم قال ان ربك هو الخلاق العليم ومعناه انه خلق الخلق مع اختلاف طبائعهم وتفاوت أحوالهم مع علمه بكونهم كذلك واذا كان كذلك فانما خلقهم مع هذا التفاوت ومع العلم بذلك التفاوت أما على قول أهل السنة فلمحض المشيئة والارادة وأما على قول المعتزلة فلاجل المصلحة والحكمة والله أعلم * قوله تعالى (ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين) اعلم انه تعالى لما صبره على أذى قومه وأمره بأن يصفح الصفح الجميل اتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التى خص الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم بها لان الانسان اذا تذكر كثرة نعم الله عليه سهل عليه الصفح والتجاوز وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان قوله آتيناك سبعا يحتمل أن يكون سبعا من الآيات وأن يكون سبعا من السور وأن يكون سبعا من الفوائد وليس فى اللفظ ما يدل على التعيين وأما المثانى فهو صيغة جمع واحده مثناة والمثناة كل شئ يثنى أى يجعل اثنين من قولك ثنيت الشئ اذا عطفته أو ضممت اليه آخر ومنه يقال لركبتى الدابة ومرفقيها مثانى لانها تثنى بالفخذ والعضد ومثانى الوادى معاطفه اذا عرفت هذا فنقول سبعا من المثانى

أو الحواميم السبع وقيل الصحائف السبع وهي الاسباع (من المثاني) بيان للسبع من التثنية وهي التكرير فان كان المراد الفاتحة وهو الظاهر فتسميتها مثاني لتكرر قراءتها في الصلاة وأما تكرر قراءتها في غير الصلاة كما قيل فليس بحيث يكون مدار التسمية ولأنها تثنى بما يقرأ بعدها في الصلاة وأما تكرر نزولها فلا يكون وجها للتسمية لانها كانت مسماة بهذا الاسم قبل نزولها الثاني اذ السورة مكية بالاتفاق وان كان المراد غيرها من السور فوجه كونها من المثاني أن كلا من ذلك تكرر قراءته وألفاظه أو قصصه ومواعظه أو من الثناء لاشتماله على ما هو ثناء على الله واحدتها مثناة أو مثنية صفة الآية وأما الصحائف وهي الاسباع فلما وقع فيهما من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ولما فيهما من الثناء على الله تعالى كأنها تثنى عليه سبحانه بأفعاله وصفاته الحسنى ويجوز أن يراد بالمثاني القرآن لما ذكر أو لأنه مثنى عليه بالاعجاز أو كتب الله تعالى كلها فمن للتبعيض وعلى الاول للبيان (والقرآن العظيم) ان أريد بالسبع الآيات أو السور فمن عطف الكل على البعض أو العام على الخاص وان أريد به الاسباع أو كل القرآن فهو عطف أحد الوصفين على الآخر كما في قوله * الى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتائب في المزدحم * أي ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثاني والقرآن العظيم (لا تمدن عينيك) لا تطمح ببصرك طموح راغب ولا تدم نظرك (الى ما متعنا به) من زخارف الدنيا وزينتها ومحاسنها وزهرتها (أزواجا منهم) أصنافا من الكفرة فان ما في الدنيا من أصناف الاموال والذخائر بالنسبة الى ما أوتيته مستحقر لا يعبأ به أصلا وفي حديث أبي بكر رضي الله تعالى عنه من أوتي القرآن فرأى أن أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد صغر عظيما وعظم صغيرا وروي أنه وافت من بصرى وأذرعات سبع قوافل ليهوديي قريظة والنضير فيها أنواع البز والطيب والجواهر وسائر الامتعة فقال المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها

مفهومه سبعة أشياء من جنس الاشياء التي تثنى ولا شك أن هذا القدر مجمل ولا سبيل الى تعيينه الا بدليل منفصل والناس فيه أقوال (الاول وهو قول أكثر المفسرين) انه فاتحة الكتاب وهو قول عمر وعلي وابن مسعود وأبي هريرة والحسن وأبي العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ الفاتحة وقال هي السبع المثاني رواه أبو هريرة والسبب في وقوع هذا الاسم على الفاتحة أنها سبع آيات وأما السبب في تسميتها بالمثاني فوجوه (الاول) انها تثنى في كل صلاة بمعنى انها تقرأ في كل ركعة (والثاني) قال الزجاج سميت مثاني لانها يثنى بعدها ما يقرأ معها (الثالث) سميت آيات الفاتحة مثاني لانها قسمت قسمين اثنين والدليل عليه ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين والحديث مشهور (الرابع) سميت مثاني لانها قسمان ثناء ودعاء وأيضا النصف الاول منها حق الربوبية وهو الثناء والنصف الثاني حق العبودية وهو الدعاء (الخامس) سميت الفاتحة بالمثاني لانها نزلت مرتين مرة بمكة في أوائل ما نزل من القرآن ومرة بالمدينة (السادس) سميت بالمثاني لان كلماتها مثناة مثل الرحمن الرحيم اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم وفي قراءة عمر غير المغضوب عليهم وغير الضالين (السابع) قال الزجاج سميت الفاتحة بالمثاني لاشتمالها على الثناء على الله تعالى وهو حمد الله وتوحيده وملكه واعلم انا اذا حملنا قوله سبعا من المثاني على سورة الفاتحة فههنا أحكام (الاول) نقل القاضي عن أبي بكر الاصم أنه قال كان ابن مسعود لا يكتب في مصحفه فاتحة الكتاب رأى أنها ليست من القرآن وأقول لعل حجته فيه أن السبع المثاني لما ثبت أنه هو الفاتحة ثم انه تعالى عطف السبع المثاني على القرآن والمعطوف مغاير للمعطوف عليه وجب أن يكون السبع المثاني غير القرآن الا أن هذا يشكل بقوله تعالى واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وكذلك قوله وملائكته وجبريل وميكال وللخصم أن يجيب بأنه لا يبعد أن يذكر الكل ثم يعطف عليه ذكر بعض أجزائه وأقسامه لكونه أشرف الاقسام أما اذا ذكر شيء ثم عطف عليه شيء آخر كان المذكور أولا مغايرا للمذكور ثانيا وههنا ذكر السبع المثاني ثم عطف عليه القرآن العظيم فوجب حصول المغايرة والجواب الصحيح أن بعض الشيء مغاير لمجموعه فلم لا يكفي هذا القدر من المغايرة في حسن العطف والله اعلم (الحكم الثاني) انه لما كان المراد بقوله سبعا من المثاني هو الفاتحة دل على ان هذه السورة أفضل سور القرآن من وجهين (أحدهما) أن افرادها بالذكر مع كونها جزأ من أجزاء القرآن لا بد وأن يكون لاختصاصها بمزيد الشرف والفضيلة (والثاني) أنه تعالى لما أنزلها مرتين دل ذلك على زيادة فضلها وشرفها واذا ثبت هذا فنقول لما رأينا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم واظب على قراءتها في جميع الصلوات طول عمره وما أقام سورة أخرى مقامها في شيء من الصلوات دل ذلك على

انه يجب على المكلف أن يقرأها في صلاته وأن لا يقيم سائر آيات القرآن مقامها وأن يحترز عن هذا الإبدال فان فيه خطرا عظيما والله أعلم (القول الثاني) في تفسير قوله سبعا من المثاني انها السبع الطوال وهذا قول ابن عمر وسعيد بن جبير في بعض الروايات ومجاهد وهي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف والانفال والتوبة معا قالوا وسميت هذه السور مثاني لان الفرائض والحدود والامثال والعبر ثنيت فيها وأنكر الربيع هذا القول وقال هذه الآية مكية وأكثر هذه السور السبعة مدنية وما نزل شئ منها في مكة فكيف يمكن حمل هذه الآية عليها وأجاب قوم عن هذا الاشكال بأن الله تعالى أنزل القرآن كله الى السماء الدنيا ثم أنزله على نبيه منها نجوما فلما أنزله الى السماء الدنيا وحكم بانزاله عليه فهو من جملة ما آتاه وان لم ينزل عليه بعد ولقائل أن يقول انه تعالى قال ولقد آتيناك سبعا من المثاني وهذا الكلام انما يصدق اذا وصل ذلك الشئ الى محمد صلى الله عليه وسلم فاما الذي أنزله الى السماء الدنيا وهو لم يصل بعد الى محمد عليه السلام فهذا الكلام لا يصدق فيه وأما قوله بأنه لما حكم الله تعالى بانزاله على محمد صلى الله عليه وسلم كان ذلك جاريا مجرى ما نزل عليه فهذا أيضا ضعيف لان اقامة ما لم ينزل عليه مقام النازل عليه مخالف للظاهر (والقول الثالث) في تفسير السبع المثاني انها هي السور التي هي دون الطوال والمئين وفوق المفصل واختار هذا القول قوم واحتجوا عليه بما روى ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني المئين مكان الانجيل وأعطاني المثاني مكان الزبور وفضلني ربي بالمفصل قال الواحدي والقول في تسمية هذه السور مثاني كالقول في تسمية الطوال مثاني وأقول ان صح هذا التفسير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا غبار عليه وان لم يصح فهذا القول مشكل لانا بينا أن المسمى بالسبع المثاني يجب أن يكون أفضل من سائر السور وأجمعوا على أن هذه السور التي سموها بالمثاني ليست أفضل من غيرها فيمتنع حمل السبع المثاني على تلك السور (والقول الرابع) ان السبع المثاني هو القرآن كله وهو منقول عن ابن عباس في بعض الروايات وقول طاوس قالوا ودليل هذا القول قوله تعالى كتابا متشابها مثاني فوصف كل القرآن بكونه مثاني ثم اختلف القائلون بهذا القول في أنه ما المراد بالسبع وما المراد بالمثاني أما السبع فذكروا فيه وجوها (أحدها) ان القرآن سبعة أسباع (وثانيها) أن القرآن مشتمل على سبعة أنواع من العلوم التوحيد والنبوة والمعاد والقضاء والقدر وأحوال العالم والقصص والتكاليف (وثالثها) أنه مشتمل على الامر والنهي والخبر والاستخبار والنداء والقسم والامثال وأما وصف كل القرآن بالمثاني فلانه كرر فيه دلائل التوحيد والنبوة والتكاليف وهذا القول ضعيف أيضا لانه لو كان المراد بالسبع المثاني القرآن لكان قوله والقرآن العظيم عطفا للشئ على نفسه وذلك غير جائز وأجيب عنه بأنه انما حسن ادخال حرف العطف فيه لاختلاف

وأنفقناها في سبيل الله فقيل لهم قد أعطيتم سبع آيات وهي خير من هذه القوافل السبع (ولا تحزن عليهم) حيث لم يؤمنوا ولم ينتظموا في سلك أتباعك ليتقوى بهم ضعفاء المسلمين وقيل أو انهم المتمتعون به ويأباه كلمة على فان تمتعهم به لا يكون مدار الحزن عليهم (واخفض جناحك للمؤمنين) أي تواضع لهم وارفق بهم وألن جانبك لهم وطب نفسا من ايمان الاغنياء (وقل اني أنا النذير المبين) أي المنذر المظهر لنزول عذاب الله وحلوله (كما أنزلنا على المقتسمين) قيل انه متعلق بقوله تعالى ولقد آتيناك الخ أي أنزلنا عليك كما أنزلنا على أهل الكتاب (الذين جعلوا القرآن عضين) أي قسموه الى حق وباطل حيث قالوا عنادا وعدوانا بعضه حق موافق للتوراة والانجيل وبعضه باطل مخالف لهما أو اقتسموه لانفسهم استهزاء حيث كان يقول بعضهم سورة البقرة لي وبعضهم سورة آل عمران لي وهكذا أو قسموا ما قرؤا من كتبهم وحرفوه فاقروا ببعضه وكذبوا ببعضه وحمل توسط قوله تعالى لا تمدن عينيك على امداد ما هو المراد بالكلام من التسلية وعضب ذلك بأنه جل المقام عن التشبيه ولقد أوتي عليه الصلاة والسلام ما لم يؤت أحد قبله ولا بعده مثله وقيل انه متعلق بقوله اني أنا النذير المبين فانه في قوة الامر بالانذار كأنه قيل أنذر قريشا مثل ما أنزلنا على المقتسمين يعني اليهود وهو ما جرى على بني قريظة والنضير بأن جعل المتوقع كالواقع وقد وقع كذلك وأنت خبير بأن ما يشبه به العذاب المنذر لا بد أن يكون محقق الوقوع معلوم الحال عند المنذرين اذ به تحقق فائدة التشبيه وهي تأكيد الانذار وتشديده وعذاب بني قريظة والنضير مع عدم وقوعه اذ ذاك لم يسبق به وعد ووعيد فهم منه في غفلة محضة وشك مريب وتنزيل المتوقع منزلة الواقع له موقع جليل من الاعجاز لكن اذا صادف مقاما يقتضيه كما في قوله تعالى انا فتحنا لك فتحا مبينا ونظائره على أن تخصيص الاقتسام باليهود بمجرد اختصاص العذاب المذكور بهم مع شركتهم للنصارى في الاقتسام المتفرع على المواقعة

اللفظين كقول الشاعر

الى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة فى المزدحم

واعلم أن هذا وان كان جائز الاجل وروده فى هذا البيت الا أنهم أجمعوا على أن الاصل خلافه (والقول الخامس) يجوز أن يكون المراد بالسبع الفاتحة لانها سبع آيات و يكون المراد بالمثانى كل القرآن و يكون التقدير ولقد آتيناك سبع آيات هى الفاتحة وهى من جملة المثانى الذى هو القرآن وهذا القول عين الاول والتفاوت ليس الا بقليل والله أعلم (المسئلة الثانية) لفظة من فى قوله سبعا من المثانى قال الزجاج فيها وجهان (أحدهما) أن تكون للتبعيض من القرآن أى ولقد آتيناك سبع آيات من جملة الآيات التى يثنى بها على الله تعالى وآتيناك القرآن العظيم قال و يجوز أن تكون من صلة والمعنى آتيناك سبعا هى المثانى كما قال فاجتنبوا الرجس من الاوثان المعنى اجتنبوا الاوثان لا أن بعضها رجس والله أعلم أما قوله تعالى لا تمدن عينيك الى متعنا به أزواجا منهم فاعلم انه تعالى لما عرف رسوله عظم نعمه عليه فيما يتعلق بالدين وهو أنه آتاه سبعا من المثانى والقرآن العظيم نهاه عن الرغبة فى الدنيا فحظر عليه أن يمد عينيه اليها رغبة فيها وفى مد العين أقوال (الاول) كأنه قيل له انك أوتيت القرآن العظيم فلا تشغل سرك وخاطرك بالالتفات الى الدنيا ومنه الحديث ليس منا من لم يتغن بالقرآن وقال أبو بكر من أوتى القرآن فرأى ان أحدا أوتى من الدنيا أفضل مما أوتى فقد صغر عظيما وعظم صغيرا وقيل وافت من بعض البلاد سبع قوافل ليهود بنى قريظة والنضير فيها أنواع البز والطيب والجواهر وسائر الامتعة فقال المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها ولانفقناها فى سبيل الله تعالى فقال الله تعالى لهم لقد أعطيتكم سبع آيات هى خير من هذه القوافل السبع (القول الثانى) قال ابن عباس لاتمدن عينيك أى لاتتمن ما فضلنا به أحدا من متاع الدنيا وقرر الواحدى هذا المعنى فقال انما يكون مادا عينيه الى الشئ اذا أدام النظر نحوه وادامة النظر الى الشئ تدل على استحسانه وتمنيه وكان صلى الله عليه وسلم لاينظر الى ما يستحسن من متاع الدنيا وروى أنه نظر الى نعم بنى مصطلق وقد عبست فى أبوالها وأبعارها فتقنع فى ثوبه وقرأ هذه الآية وقوله عبست فى أبوالها وأبعارها هو أن تجف أبوالها وأبعارها على أفخاذها اذا تركت من العمل أيام الربيع فتكثر شحومها ولحومها وهى أحسن ما تكون (والقول الثالث) قال بعضهم ولا تمدن عينيك أى لا تحسدن أحدا على ما أوتى من الدنيا قال القاضى هذا بعيد لان الحسد من كل أحد قبيح لانه ارادة لزوال نعم الغير عنه وذلك يجرى مجرى الاعتراض على الله تعالى والاستقباح لحكمه وقضائه وذلك من كل أحد قبيح فكيف يحسن تخصيص الرسول صلى الله عليه وسلم به وأما قوله تعالى أزواجا منهم قال ابن قتيبة أى أصنافا من الكفار والزوج فى اللغة الصنف ثم قال ولا تحزن عليهم ان لم يؤمنوا

والمخالفة وفى الاقتسام بمعنى التحريف الشامل للكتابين بل تخصيص العذاب المذكور بهم مع كونه من نتائج الاقتسام تخصيص من غير مخصص وقد جعل الموصول مفعولا أول لانذر أى أنذر المعضين الذين يجزؤن القرآن الى سحر وشعر وأساطير مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم فقعد كل منهم فى مدخل لينفروا الناس عن الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعضهم لاتغتروا بالخارج منا فانه ساحر ويقول الآخر شاعر والآخر كذاب فأهلكهم الله تعالى يوم بدر وقبله بآفات وفيه مع ما فيه من الاشتراك السابق فى عدم كون العذاب الذى شبه به العذاب المنذر واقعا ولا معلوما للمنذرين ولا موعود الوقوع أنه لا داعى الى تخصيص وصف التعضية بهم واخراج المقتسمين من بينهم مع كونهم اسوة لهم فى ذلك فان وصفهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما وصفوا من السحر والشعر والكذب متفرع على وصفهم للقرآن بذلك وهل هو الا نفس التعضية ولا الى اخراجهم من حكم الانذار على أن ما نزل بهم من العذاب لم يكن من الشدة بحيث يشبه به عذاب غيرهم ولا مخصوصا بهم بل عاما لكلا الفريقين وغيرهم مع أن بعض المنذرين كالوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والاسود بن المطلب قد هلكوا قبل مهلك أكثر المقتسمين يوم بدر ولا الى تقديم المفعول الثانى على الاول كما ترى وقيل انه وصف لمفعول النذير أقيم مقامه والمقتسمون هم القاعدون فى مداخل مكة كما حرر وفيه مع ما مر أن قوله تعالى كما أنزلنا صريح فى أنه من قول الله تعالى لا من قول الرسول ﴿ فيقوى ﴾ عليه الصلاة والسلام والاعتذار بأن ذلك من باب ما يقوله بعض خواص الملك أمرنا بكذا وان كان الآمر هو الملك حسبما سلف فى قوله تعالى قدرنا انها لمن الغابرين تعسف لايخفى وأن اعمال الوصف الموصوف مما لايجوزه البصريون فلابد من الهرب الى مسلك الكوفيين أو المصير الى جعله مفعولا غير صريح أى أنا النذير المبين بعذاب مثل

عذاب المقتسمين وقيل المراد بالمقتسمين الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا صالحا عليه الصلاة والسلام فأهلكهم الله تعالى وأنت تدرى أن عذابهم حيث كان متحققا ومعلوما للمنذرين حسبما نطق به القرآن العظيم صالح لأن يقع مشبها به العذاب المنذر لكن الموصول المذكور عقيبه حيث لم يمكن كونه صفة للمقتسمين حينئذ فسواء جعلناه مفعولا أول للنذير أو لما دل هو عليه من أنذر لا يكون للتعرض لعنوان التعضية فى حيز الصلة ولا لعنوان الاقتسام بالمعنى المزبور فى حيز المفعول الثانى فائدة لما ان ذلك انما يكون للاشعار بعلية الصلة والصفة للحكم الثابت للموصول والموصوف فلا يكون هناك وجه شبه يدور عليه تشبيه عذابهم بعذابهم خاصة لعدم اشتراكهم فى السبب فان المعضين بمعزل من التقاسم على التبييت الذى هو السبب لهلاك أولئك كما أن أولئك بمعزل من التعضية التى هى السبب لهلاك هؤلاء ولا علاقة بين السببين مفهوما ولا وجودا تصحح وقوع أحدهما فى جانب والآخر فى جانب واتفاق الفريقين على مطلق الاتفاق على الشر المفهوم من الاتفاق على الشر المخصوص الذى هو التبييت المدلول عليه بالتقاسم غير مفيد اذ لا دلالة لعنوان التعضية على ذلك وانما يدل عليه اقتسام المداخل وجعل الموصول مبتدأ على أن خبره الجملة القسمية لا يليق بجزالة التنزيل وجلالة شأنه الجليل اذا عرفت هذا فاعلم أن الاقرب من الاقوال المذكورة أنه متعلق بالاول وأن المراد بالمقتسمين أهل الكتابين وأن الموصول مع صلته صفة مبينة لكيفية اقتسامهم ومحل الكاف النصب على المصدرية وحديث

فيقوى بمكانهم الاسلام وينتعش بهم المؤمنون والحاصل أن قوله ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم نهى له عن الالتفات الى أموالهم وقوله ولا تحزن عليهم نهى له عن الالتفات اليهم وان يحصل لهم فى قلبه قدر ووزن ثم قال واخفض جناحك للمؤمنين الخفض معناه فى اللغة نقيض الرفع ومنه قوله تعالى فى صفة القيامة خافضة رافعة أى انها تخفض أهل المعاصى وترفع أهل الطاعات فالخفض معناه الوضع وجناح الانسان يده قال الليث يدا الانسان جناحاه ومنه قوله واضمم اليك جناحك من الرهب وخفض الجناح كناية عن اللين والرفق والتواضع والمقصود أنه تعالى لما نهاه عن الالتفات الى أولئك الاغنياء من الكفار أمره بالتواضع لفقراء المسلمين ونظيره قوله تعالى أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين وقال فى صفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشداء على الكفار رحماء بينهم ✽ قوله تعالى (وقل انى أنا النذير المبين كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين) اعلم أنه تعالى لما أمر رسوله بالزهد فى الدنيا وخفض الجناح للمؤمنين أمره بأن يقول للقوم انى أنا النذير المبين فيدخل تحت كونه نذيرا كونه مبلغا لجميع التكاليف لان كل ما كان واجبا ترتب على تركه عقاب وكل ما كان حراما ترتب على فعله عقاب فكان الاخبار بحصول هذا العقاب داخلا تحت لفظ النذير ويدخل تحته أيضا كونه شارحا لمراتب الثواب والعقاب والجنة والنار ثم أردفه بكونه مبينا ومعناه كونه آتيا فى كل ذلك بالبيانات الشافية والبينات الوافية ثم قال بعده كما أنزلنا على المقتسمين وفيه بحثان (البحث الاول) اختلفوا فى أن المقتسمين من هم وفيه أقوال (الاول) قال ابن عباس هم الذين اقتسموا طرق مكة يصدون الناس عن الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ويقرب عددهم من أربعين وقال مقاتل بن سليمان كانوا ستة عشر رجلا بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فاقتسموا عقبات مكة وطرقها يقولون لمن يسلكها لا تغتر وا بالخارج منا والمدعى للنبوة فانه مجنون وكانوا ينفرون الناس عنه بأنه ساحر أو كاهن أو شاعر فأنزل الله تعالى بهم خزيا فماتوا شر ميتة والمعنى أنذرتكم مثل ما نزل بالمقتسمين (والقول الثانى) وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما فى بعض الروايات ان المقتسمين هم اليهود والنصارى واختلفوا فى أن الله تعالى لم سماهم مقتسمين فقيل لانهم جعلوا القرآن عضين آمنوا بما وافق التوراة وكفروا بالباقى وقال عكرمة لانهم اقتسموا القرآن استهزاء به فقال بعضهم سورة كذا لى وقال بعضهم سورة كذا لى وقال مقاتل بن حبان اقتسموا القرآن فقال بعضهم سحر وقال بعضهم شعر وقال بعضهم كذب وقال بعضهم أساطير الاولين (والقول الثالث) فى تفسير المقتسمين قال ابن زيد هم قوم صالح تقاسموا لنبيتنه وأهله فرمتهم الملائكة بالحجارة حتى قتلوهم فعلى هذا الاقتسام من القسم لا من القسمة وهو اختيار ابن قتيبة (البحث الثانى) أن قوله كما انزلنا على المقتسمين يقتضى تشبيه شئ بذلك فما ذلك الشئ والجواب عنه من وجهين

جلا لة المقام عن التشبيه من لوائح النظر الجليل والمعنى لقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم ايتاء مماثلا لانزال الكتابين على أهلهما وعدم التعرض لذكر ما أنزل عليهم من الكتابين لان الغرض بيان المماثلة بين الايتاءين لا بين متعلقيهما والعدول عن تطبيق ما فى جانب المشبه به على ما فى جانب المشبه بان يقال كما آتينا المقتسمين حسبما وقع فى قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب الخ للتنبيه على ما بين الايتاءين من التنائى فان الاول على وجه التكرمة والامتنان وشتان بينه وبين الثانى ولا يقدح ذلك فى وقوعه مشبها به فان ذلك انما هو لمسلميته عندهم وتقدم وجوده على المشبه زمانا لا لمزية تعود الى ذاته كما فى الصلاة الخليلية فان التشبيه فيها ليس لكون رحمة الله تعالى الفائضة على ابراهيم عليه الصلاة والسلام وآله اتم وأكمل مما فاض على النبى عليه الصلاة والسلام وانما ذلك للتقدم فى الوجود والتنصيص عليه فى القرآن العظيم فليس فى التشبيه شائبة اشعار بأفضلية المشبه به من المشبه فضلا عن ايهام أفضلية ما تعلق به الاول عما تعلق به الثانى وانما ذكروا بعنوان الاقتسام انكار الاتصافهم به مع تحقق ما ينفيه من الانزال المذكور وايذانا بأنه كان من حقهم أن يؤمنوا بكله حسب ايمانهم بما أنزل عليهم بحكم الاشتراك فى العلة والاتحاد فى الحقيقة التى هى مطلق الوحى وتوسيط قوله تعالى لاتمدن الخ لكمال اتصاله بما هو المقصود من بيان حال ما أوتى النبى عليه الصلاة والسلام ولقد بين أولا علو شأنه ورفعة مكانه بحيث يستوجب اغتباطه عليه الصلاة والسلام بمكانه واستغناءه به عما سواه ثم نهى عن الالتفات الى زهرة

(الاول) التقدير ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم كما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون الذين جعلوا القرآن عضين حيث قالوا بعنادهم وجهلهم بعضه حق موافق للتوراة والانجيل وبعضه باطل مخالف لهما فاقتسموه الى حق وباطل فان قيل فعلى هذا القول كيف توسط بين المشبه والمشبه به قوله لاتمدن عينيك الى آخره قلنا لما كان ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن تكذيبهم وعداوتهم اعترض بما هو مدار لمعنى التسلية من النهى عن الالتفات الى دنياهم والتأسف على كفرهم (والوجه الثانى) أن يتعلق هذا الكلام بقوله وقل انى أنا النذير المبين واعلم أن هذا الوجه لا يتم الا بأحد أمرين اما التزام اضمار أو التزام حذف أما الاضمار فهو أن يكون التقدير انى أنا النذير المبين عذابا كما أنزلناه على المقتسمين وعلى هذا الوجه المفعول محذوف وهو المشبه ودل عليه المشبه به وهذا كما تقول رأيت كالقمر فى الحسن أى رأيت انسانا كالقمر فى الحسن وأما الحذف فهو أن يقال الكاف زائدة محذوفة والتقدير انى أنا النذير المبين ما أنزلناه على المقتسمين وزيادة الكاف له نظير وهو قوله تعالى ليس كمثله شئ والتقدير ليس مثله شئ وقال بعضهم لا حاجة الى الاضمار والحذف والتقدير انى أنا نذير أى أنذر قريشا مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين وقوله الذين جعلوا القرآن عضين فيه بحثان (البحث الاول) فى هذا اللفظ قولان الاول انه صفة للمقتسمين والثانى انه مبتدأ وخبره هو قوله لنسألنهم وهو قول ابن زيد (البحث الثانى) ذكر أهل اللغة فى واحد عضين قولين (الاول) أن واحدها عضة مثل عزة وبرة وثبة وأصلها عضوة من عضيت الشئ اذا فرقته وكل قطعة عضة وهى مما نقص منها واو هى لام الفعل والتعضية التجزئة والتفريق يقال عضيت الجزور والشاة تعضية اذا جعلتها أعضاء وقسمتها وفى الحديث لا تعضية فى ميراث الا فيما احتمل القسمة أى لا تجزئة فيما لا يحتمل القسمة كالجوهرة والسيف فقوله جعلوا القرآن عضين يريد جزؤه أجزاء فقالوا سحر وشعر وأساطير الاولين ومفترى (والقول الثانى) ان واحدها عضة وأصلها عضهة فاستثقلوا الجمع بين هاءين فقالوا عضة كما قالوا شفة والاصل شفهة بدليل قولهم شافهت مشافهة وسنة وأصلها سنهة فى بعض الاقوال وهو مأخوذ من العضه بمعنى الكذب ومنه الحديث اياكم والعضه وقال ابن السكيت العضه بأن يعضه الانسان ويقول فيه ما ليس فيه وهذا قول الخليل فيما روى الليث عنه فعلى هذا القول معنى قوله تعالى جعلوا القرآن عضين أى جعلوه مفترى وجمعت العضة جمع ما يعقل لما لحقها من الحذف فجعل الجمع بالواو والنون عوضا مما لحقها من الحذف * قوله تعالى (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين انا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله فوربك لنسألنهم أجمعين يحتمل أن يكون راجعا الى المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين لان عود

الدنيا وعبر عن ايتائها لاهلها بالتمتيع المنبئ عن وشك زوالها عنهم ثم عن الحزن بعدم ايمان المنهمكين فيها وأمر بمراعاة المؤمنين والاكتفاء بهم عن غيرهم وباظهار قيامه بمواجب الرسالة ومراسم النذارة حسبما فصل فى تضاعيف ما أوتى من القرآن العظيم ثم رجع الى كيفية ايتائه على وجه أدمج فيه ما يزيح شبه المنكرين ويستنزلهم عن العناد من بيان مشاركته لما لاريب لهم فى كونه وحيا صادقا فتأمل والله عنده علم الكتاب هذا وقد قيل المعنى قل انى أنا النذير المبين كما قد أنزلنا فى الكتب انك ستأتى نذيرا على أن المقتسمين أهل الكتاب انتهى يريد أن ما فى كما موصولة والمراد بالمشابهة المستفادة من الكاف الموافقة وهى مع ما فى حيزها فى محل النصب على الحالية من مفعول قل أى قل هذا القول حال كونه كما أنزلنا على أهل الكتابين أى موافقا لذلك فالانسب حينئذ حمل الاقتسام على التحريف ليكون وصفهم بذلك تعريضا بما فعلوا من تحريفهم وكتمانهم لنعت النبى صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى عضين جمع عضة وهى الفرقة أصلها عضوة فعلة من عضى الشاة تعضية اذا جعلها أعضاء وانما جمعت جمع السلامة جبرا للمحذوف كسنين وعزين والتعبير عن تجزئة القرآن بالتعضية التى هى تفريق الاعضاء من ذى الروح المستلزم لازالة حياته وابطال اسمه دون مطلق التجزئة والتفريق اللذين ربما يوجدان فيما لا يضره التبعيض من المثليات للتنصيص على كمال قبح ما فعلوه بالقرآن العظيم وقيل هى فعلة من عضهته اذا بهته وعن عكرمة العضه السحر بلسان قريش فنقصانها على الاول واو وعلى الثانى هاء (فوربك لنسألنهم أجمعين) أى لنسألن يوم القيامة

الضمير الى الاقرب أولى ويكون التقدير انه تعالى أقسم بنفسه أن يسأل هؤلاء المقتسمين عما كانوا يقولونه من اقتسام القرآن وعن سائر المعاصى ويحتمل أن يكون راجعا الى جميع المكلفين لان ذكرهم قد تقدم فى قوله وقل انى أنا النذير المبين أى لجميع الخلق وقد تقدم ذكر المؤمنين وذكر الكافرين فيعود قوله فوربك لنسألنهم أجمعين على الكل ولا معنى لقول من يقول ان السؤال انما يكون عن الكفر أو عن الايمان بل السؤال واقع عنهما وعن جميع الاعمال لان اللفظ عام فيتناول الكل فان قيل كيف الجمع بين قوله لنسألنهم أجمعين وبين قوله فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان أجابوا عنه من وجوه (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما لا يسئلون سؤال الاستفهام لانه تعالى عالم بكل أعمالهم وانما يسئلون سؤال التقريع يقال لهم لم فعلتم كذا ولقائل أن يقول هذا الجواب ضعيف لانه لو كان المراد من قوله فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان سؤال الاستفهام لما كان فى تخصيص هذا النفى بقوله يومئذ فائدة لان مثل هذا السؤال على الله تعالى محال فى كل الاوقات (والوجه الثانى) فى الجواب أن يصرف النفى الى بعض الاوقات والاثبات الى وقت آخر لان يوم القيامة يوم طويل ولقائل أن يقول قوله فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان هذا تصريح بأنه لا يحصل السؤال فى ذلك اليوم فلو حصل السؤال فى جزء من أجزاء ذلك اليوم لحصل التناقض (والوجه الثالث) أن نقول قوله فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان يفيد عموم النفى وقوله فوربك لنسألنهم أجمعين عائد الى المقتسمين وهذا خاص ولاشك أن الخاص مقدم على العام أما قوله فاصدع بما تؤمر فاعلم أن معنى الصدع فى اللغة الشق والفصل وأنشد ابن السكيت لجرير

هذا الخليفة فارضوا ما قضى لكم * بالحق يصدع ما فى قوله حيف

فقال يصدع يفصل وتصدع القوم اذا تفرقوا ومنه قوله تعالى يومئذ يصدعون قال الفراء يتفرقون والصدع فى الزجاجة الابانة أقول ولعل ألم الرأس انما سمى صداعا لان قحف الرأس عند ذلك الالم كأنه ينشق قال الازهرى وسمى الصبح صديعا كما يسمى فلقا وقد انصدع وانفلق الفجر وانفطر الصبح اذا عرفت هذا فقوله فاصدع بما تؤمر أى فرق بين الحق والباطل وقال الزجاج فاصدع أظهر ما تؤمر به يقال صدع بالحجة اذا تكلم بها جهارا كقولك صرح بها وهذا فى الحقيقة يرجع أيضا الى الشق والتفريق أما قوله بما تؤمر ففيه قولان (الاول) أن يكون ما بمعنى الذى أى بما تؤمر به من الشرائع فحذف الجار كقوله * أمرتك الخير فافعل ما أمرت به (الثانى) أن تكون ما مصدرية أى فاصدع بأمرك وشأنك قالوا ومازال النبى صلى الله عليه وسلم مستخفيا حتى نزلت هذه الآية ثم قال تعالى وأعرض عن المشركين أى لا تبال بهم ولا تلتفت الى لومهم اياك على اظهار الدعوة قال بعضهم هذا منسوخ بآية القتال وهو ضعيف لان معنى هذا الاعراض ترك المبالاة بهم فلا يكون منسوخا ثم قال انا كفيناك المستهزئين قيل كانوا خمسة نفر من المشركين

أصناف الكفرة من المقتسمين وغيرهم سؤال توبيخ وتقريع (عما كانوا يعملون) في الدنيا من قول وفعل وترك فيدخل فيه ما ذكر من الاقتسام والتعضية دخولا أوليا ولنجزينهم بذلك جزاء موفورا وفيه من التشديد وتأكيد الوعيد ما لا يخفى والفاء لترتيب الوعيد على أعمالهم التي ذكر بعضها وفي التعرض لوصف الربوبية مضافا اليه عليه الصلاة والسلام اظهارا للطف به عليه الصلاة والسلام (فاصدع بما تؤمر) فاجهر به من صدع بالحجة اذا تكلم بها جهارا أو افرق بين الحق والباطل وأصله الابانة والتميز وما مصدرية أو موصولة والعائد محذوف أي ما تؤمر به من الشرائع المودعة في تضاعيف ما أوتيته من المثاني السبع والقرآن العظيم (وأعرض عن المشركين) أي لا تلتفت الى ما يقولون ولا تبال بهم ولا تتصد للانتقام منهم (انا كفيناك المستهزئين) بقمعهم وتدميرهم قيل كانوا خمسة من أشراف قريش الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والحرث بن قيس بن الطلاطلة والاسود بن عبد يغوث والاسود بن المطلب يبالغون في ايذاء النبي صلى الله عليه وسلم والاستهزاء به فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال قد أمرت أن أكفيكهم فأوما الى ساق الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظما لأخذه فأصاب عرقا في عقبه فقطعه فمات وأوما الى أخمص العاص فدخلت فيه شوكة فقال لدغت لدغت وانتفخت ﴿ واعلم ﴾ رجله حتى صارت كالرحا فمات وأشار الى عيني الاسود بن المطلب فعمي والى أنف الحرث فامتخط قيحا فمات والى الاسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات (الذين

الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وعدي بن قيس والاسود بن المطلب والاسود بن عبد يغوث قال جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أكفيكهم فأومأ الى عقب الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظما لأخذه فأصاب عرقا في عقبه فقطعه فمات وأومأ الى أخمص العاص بن وائل فدخلت فيها شوكة فقال لدغت لدغت وانتفخت رجله حتى صارت كالرحا ومات وأشار الى عيني الاسود بن المطلب فعمي وأشار الى أنف عدي بن قيس فامتخط قيحا فمات وأشار الى الاسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات واعلم ان المفسرين قد اختلفوا في عدد هؤلاء المستهزئين وفي أسمائهم وفي كيفية طريق استهزائهم ولا حاجة الى شيء منها والقدر المعلوم انهم طبقة لهم قوة وشوكة ورياسة لان أمثالهم هم الذين يقدرون على اظهار مثل هذه السفاهة مع مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم في علو قدره وعظم منصبه ودل القرآن على ان الله تعالى أفناهم وأبادهم وأزال كيدهم والله أعلم ※ قوله تعالى (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) اعلم أنه تعالى لما ذكر أن قومه يسفهون عليه ولا سيما أولئك المقتسمون وأولئك المستهزؤن قال له ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون لان الجبلة البشرية والمزاج الانساني يقتضي ذلك فعند هذا قال له فسبح بحمد ربك فامره بأربعة أشياء بالتسبيح والتحميد والسجود والعبادة واختلف الناس في أنه كيف صار الاقبال على هذه الطاعات سببا لزوال ضيق القلب والحزن فقال العارفون المحققون اذا اشتغل الانسان بهذه الانواع من العبادات انكشفت له أضواء عالم الربوبية ومتى حصل ذلك الانكشاف صارت الدنيا بالكلية حقيرة واذا صارت حقيرة خف على القلب فقدانها ووجدانها فلا يستوحش من فقدانها ولا يستريح بوجدانها وعند ذلك يزول الحزن والغم وقالت المعتزلة من اعتقد تنزيه الله تعالى عن القبائح سهل عليه تحمل المشاق فانه يعلم أنه عدل منزه عن انزال المشاق به من غير غرض ولا فائدة فحينئذ يطيب قلبه وقال أهل السنة اذا نزل بالعبد بعض المكاره فزع الى الطاعات كأنه يقول يجب على عبادتك سواء أعطيتني الخيرات أو ألقيتني في المكروهات وقوله واعبد ربك حتى يأتيك اليقين قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد الموت وسمى الموت باليقين لانه أمر متيقن فان قيل فأي فائدة لهذا التوقيت مع أن كل أحد يعلم انه اذا مات سقطت عنه العبادات قلنا المراد منه واعبد ربك في زمان حياتك ولا تخل لحظة من لحظات الحياة عن هذه العبادة والله أعلم تم تفسير هذه السورة والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد وآله وسلم

※ (سورة النحل مكية غير ثلاث آيات في آخرها وحكى الاصم عن بعضهم ان كلها مدنية وقال آخرون من أولها الى قوله كن فيكون مدني وما سواه مكي وعن قتادة بالعكس

يجعلون مع الله الهاً آخر) وصفهم بذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهوينا للخطب عليه باعلام انهم لم يقتصروا على الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام بل اجترؤا على العظيمة التى هى الاشراك بالله سبحانه (فسوف يعلمون) عاقبة ما ياتون ويذرون (ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون) من كلمات الشرك والطعن فى القرآن والاستهزاء به وبك وتحلية الجملة بالتأكيد لافادة تحقيق ما تتضمنه من التسلية وصيغة الاستقبال لافادة استمرار العلم حسب استمرار متعلقه باستمرار ما يوجبه من أقوال الكفرة (فسبح بحمد ربك) فافزع الى الله تعالى فيما نابك من ضيق الصدر والحرج بالتسبيح والتقديس ملتبسا بحمده وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى من اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والاشعار بعلة الحكم أعنى الامر بالتسبيح والحمد (وكن من الساجدين) أى المصلين يكفك ويكشف الغم عنك أو فنزهه عما يقولون ملتبسا بحمده على أن هداك للحق المبين وعنه عليه الصلاة والسلام أنه كان اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة (واعبد ربك) دم على ما أنت عليه من عبادته تعالى وايثار الاظهار بالعنوان السالف آنفا لتأكيد ما سبق من اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والاشعار بعلة الامر بالعباد (حتى يأتيك اليقين) أى الموت فانه متيقن اللحوق بكل حى مخلوق واسناد الاتيان اليه للايذان بأنه متوجه الى الحى طالب للوصول اليه والمعنى دم على العبادة مادمت حيا من غير اخلال لحظة

* عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحجر كان له من الاجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والانصار والمستهزئين بمحمد صلى الله عليه وسلم

واعلم ان هذه السورة تسمى سورة النعم وهى مائة وعشرون وثمان آيات مكية) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا اله الا أنا فاتقون) فيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن معرفة تفسير هذه الآية مرتبة على سؤالات ثلاثة (فالسؤال الاول) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم بعذاب الدنيا تارة وهو القتل والاستيلاء عليهم كما حصل فى يوم بدر وتارة بعذاب يوم القيامة وهو الذى يحصل عند قيام الساعة ثم ان القوم لما لم يشاهدوا شيئا من ذلك احتجوا بذلك على تكذيبه وطلبوا منه الاتيان بذلك العذاب وقالوا له ائتنا به وروى أنه لما نزل قوله تعالى اقتربت الساعة وانشق القمر قال الكفار فيما بينهم ان هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن فلما تأخرت قالوا ما نرى شيئا مما تخوفنا به فنزل قوله اقترب للناس حسابهم فأشفقوا وانتظروا يومها فلما امتدت الايام قالوا يا محمد ما نرى شيئا مما تخوفنا به فنزل قوله أتى أمر الله فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤسهم فنزل قوله فلا تستعجلوه والحاصل انه عليه السلام لما أكثر من تهديدهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ولم يروا شيئا نسبوه الى الكذب فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله أتى أمر الله فلا تستعجلوه وفى تقرير هذا الجواب وجهان (الاول) انه وان لم يأت ذلك العذاب الا أنه كان واجب الوقوع والشئ اذا كان بهذه الحالة والصفة فانه يقال فى الكلام المعتاد انه قد أتى ووقع اجراء لما يجب وقوعه بعد ذلك مجرى الواقع يقال لمن طلب الاغاثة وقرب حصولها قد جاءك الغوث فلا تجزع (والوجه الثانى) وهو أن يقال ان أمر الله بذلك وحكمه به قد أتى وحصل ووقع فأما المحكوم به فانما لم يقع لانه تعالى حكم بوقوعه فى وقت معين فقبل مجئ ذلك الوقت لا يخرج الى الوجود والحاصل كأنه قيل أمر الله وحكمه بنزول العذاب قد حصل ووجد من الازل الى الابد فصح قولنا أتى أمر الله الا أن المحكوم به والمأمور به انما لم يحصل لانه تعالى خصص حصوله بوقت معين فلا تستعجلوه ولا تطلبوا حصوله قبل حضور ذلك الوقت (السؤال الثانى) قالت الكفار هب انا سلمنا لك يا محمد صحة ما تقوله من أنه تعالى حكم بانزال العذاب علينا اما فى الدنيا واما فى الآخرة الا أنا نعبد هذه الاصنام فانها شفعاؤنا عند الله فهى تشفع لنا عنده فنتخلص من هذا العذاب المحكوم به بسبب شفاعة هذه الاصنام فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله سبحانه وتعالى عما يشركون فنزه نفسه عن شركة الشركاء والاضداد والانداد وأن يكون لاحد من الارواح والاجسام أن يشفع عنده الا باذنه وما فى قوله عما يشركون يجوز أن تكون مصدرية والتقدير سبحانه وتعالى عن اشراكهم ويجوز أن تكون بمعنى الذى أى سبحانه وتعالى عن هذه الاصنام التى جعلوها شركاء الله لانها جمادات خسيسة فأى مناسبة بينها وبين

أدون الموجودات فضلا عن أن يحكم بكونها شركاء لمدبر الارض والسموات (السؤال الثالث) هب انه تعالى قضى على بعض عبيده بالسراء وعلى آخرين بالضراء ولكن كيف يمكنك أن تعرف هذه الاسرار التي لا يعلمها الا الله وكيف صرت بحيث تعرف أسرار الله وأحكامه في ملكه وملكوته فأجاب الله تعالى عنه بقوله ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا اله الا أنا فاتقون وتقرير هذا الجواب انه تعالى ينزل الملائكة على من يشاء من عبيده ويأمر ذلك العبد بأن يبلغ الى سائر الخلق ان اله العالم واحد كلفهم بمعرفة التوحيد والعبادة وبين أنهم ان فعلوا ذلك فازوا بخيرى الدنيا والآخرة وان تمردوا وقعوا في شر الدنيا والآخرة فبهذا الطريق صار مخصوصا بهذه المعارف من دون سائر الخلق وظهر بهذا الترتيب الذي لخصناه أن هذه الآيات منتظمة على أحسن الوجوه والله أعلم وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي ينزل بالياء وكسر الزاي وتشديدها والملائكة بالنصب وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ينزل بضم الياء وكسر الزاي وتخفيفها والاول من التفعيل والثاني من الافعال وهما لغتان (المسئلة الثانية) روى عن عطاء عن ابن عباس قال يريد بالملائكة جبريل وحده قال الواحدي وتسمية الواحد باسم الجمع اذا كان ذلك الواحد رئيسا مقدما جائز كقوله تعالى انا أرسلنا نوحا الى قومه وانا أنزلناه وانا نحن نزلنا الذكر وفي حق الناس كقوله الذين قال لهم الناس وفيه قول آخر سيأتي شرحه بعد ذلك وقوله بالروح من أمره فيه قولان (الاول) أن المراد من الروح الوحي وهو كلام الله ونظيره قوله تعالى وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا وقوله يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده قال أهل التحقيق الجسد موات كثيف مظلم فاذا اتصل به الروح صار حيا لطيفا نورانيا فظهرت آثار النور في الحواس الخمس ثم الروح أيضا ظلمانية جاهلة فاذا اتصل العقل بها صارت مشرقة نورانية كما قال تعالى والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة ثم العقل أيضا ليس بكامل النورانية والصفاء والاشراق حتى يستكمل بمعرفة ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ومعرفة أحوال عالم الارواح والاجساد وعالم الدنيا والآخرة ثم ان هذه المعارف الشريفة الالهية لا تكمل ولا تصفو الا بنور الوحي والقرآن اذا عرفت هذا فنقول القرآن والوحي به تكمل المعارف الالهية والمكاشفات الربانية وهذه المعارف بها يشرق العقل ويصفو ويكمل والعقل به يكمل جوهر الروح والروح به يكمل حال الجسد وعند هذا يظهر أن الروح الاصلي الحقيقي هو الوحي والقرآن لان به يحصل الخلاص من رقدة الجهالة ونوم الغفلة وبه يحصل الانتقال من حضيض البهيمية الى أوج الملكية فظهر أن اطلاق لفظ الروح على الوحي في غاية المناسبة والمشاكلة ومما يقوي ذلك انه تعالى أطلق لفظ الروح على جبريل عليه السلام في قوله نزل به الروح الامين على قلبك وعلى عيسى عليه السلام

(سورة النحل مائة وثمان وعشرون آية) * (بسم الله الرحمن الرحيم) * (اتى أمر الله) أي الساعة أو ما يعمها وغيرها من العذاب الموعود للكفرة عبر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل وللايذان بأن تحققه في نفسه واتيانه منوط بحكمه النافذ وقضائه الغالب واتيانه عبارة عن دنوه واقترابه على طريقة نظم المتوقع في سلك الواقع أو عن اتيان مباديه القريبة على نهج اسناد حال الاسباب الى المسببات وأيا ما كان ففيه تنبيه على كمال قربه من الوقوع واتصاله وتكميل لحسن موقع التفريع في قوله عز وجل (فلا تستعجلوه) فان النهي عن استعجال الشيء وان صح تفريعه على قرب وقوعه أو على وقوع أسبابه القريبة لكنه ليس بمثابة تفريعه على وقوعه اذ بالوقوع يستحيل الاستعجال رأسا لا بما ذكر من قرب وقوعه ووقوع مباديه والخطاب للكفرة خاصة كما تدل عليه القراءة على صيغة نهي الغائب واستعجالهم وان كان بطريق الاستهزاء لكنه حمل على الحقيقة ونهوا عنه بضرب من التهكم لا مع المؤمنين سواء أريد بأمر الله ما ذكر أو العذاب الموعود للكفرة خاصة أما الاول فلأنه لا يتصور من المؤمنين استعجال الساعة أو ما يعمها وغيرها من العذاب حتى يعمهم النهي عنه وأما الثاني فلان استعجالهم له بطريق الحقيقة واستعجال الكفرة بطريق الاستهزاء كما عرفته فلا ينتظمهما صيغة واحدة والالتجاء ﴿ في قوله ﴾ الى ارادة معنى مجازي يعمهما معا من غير أن يكون هناك رعاية نكتة سرية تعسف لا يليق بشأن التنزيل الجليل وما روي من انه لما نزلت اقتربت

فى قوله روح الله وانما حسن هذا الاطلاق لانه حصل بسبب وجودهما حياة القلب وهى الهداية والمعارف فلما حسن اطلاق اسم الروح عليهما لهذا المعنى فلان يحسن اطلاق لفظ الروح على الوحى والتنزيل كان ذلك أولى (والقول الثانى) فى هذه الآية وهو قول أبى عبيدة ان الروح ههنا جبريل عليه السلام والباء فى قوله بالروح بمعنى مع كقولهم خرج فلان بثيابه أى مع ثيابه وركب الامير بسلاحه أى مع سلاحه فيكون المعنى ينزل الملائكة مع الروح وهو جبريل والاول أقرب وتقرير هذا الوجه أنه سبحانه وتعالى ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم جبريل وحده بل فى أكثر الاحوال كان ينزل مع جبريل أفواجا من الملائكة ألا ترى ان فى يوم بدر وفى كثير من الغزوات كان ينزل مع جبريل عليه السلام أقوام من الملائكة وكان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم تارة ملك الجبال وتارة ملك البحار وتارة رضوان وتارة غيرهم وقوله من أمره يعنى ان ذلك التنزيل والنزول لا يكون الا بامر الله تعالى ونظير قوله تعالى وما نتنزل الا بامر ربك وقوله لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون وقوله وهم من خشيته مشفقون وقوله يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون وقوله لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون فكل هذه الآيات دالة على أنهم لا يقدمون على عمل من الاعمال الا بأمر الله تعالى واذنه وقوله على من يشاء من عباده يريد الانبياء الذين خصهم الله تعالى برسالته وقوله أن أنذروا قال الزجاج أن بدل من الروح والمعنى ينزل الملائكة بأن أنذروا أى أعلموا الخلائق أنه لا اله الا أنا والانذار هو الاعلام مع التخويف (المسئلة الثالثة) فى الآية فوائد الفائدة الاولى أن وصول الوحى من الله تعالى الى الانبياء لا يكون الا بواسطة الملائكة ومما يقوى ذلك أنه تعالى قال فى آخر سورة البقرة والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله فبدأ بذكر الله سبحانه ثم أتبعه بذكر الملائكة لانهم هم الذين يتلقون الوحى من الله ابتداء من غير واسطة وذلك الوحى هو الكتب ثم ان الملائكة يوصلون ذلك الوحى الى الانبياء فلا جرم كان الترتيب الصحيح هو الابتداء بذكر الله تعالى ثم بذكر الملائكة ثم بذكر الكتب وفى الدرجة الرابعة بذكر الرسل اذا عرفت هذا فنقول اذا أوحى الله تعالى الى الملك فعلم ذلك الملك بأن ذلك الوحى وحى الله علم ضرورى أو استدلالى وبتقدير أن يكون استدلاليا فكيف الطريق اليه وأيضا الملك اذا بلغ ذلك الوحى الى الرسول فعلم الرسول بكونه ملكا صادقا لا شيطانا رجيما ضرورى أو استدلالى فان كان استدلاليا فكيف الطريق اليه فهذه مقامات ضيقة وتمام العلم بها لا يحصل الا بالبحث عن حقيقة الملك وكيفية وحى الله اليه وكيفية تبليغ الملك ذلك الوحى الى الرسول فاما اذا أجرينا هذه الامور على الكلمات المألوفة صعب المرام وزال النظام ذلك لان آيات القرآن ناطقة بأن هذا الوحى والتنزيل انما حصل من الملائكة أو نقول هب ان آيات القرآن لم تدل على ذلك الا أن احتمال كون الامر كذلك قائم فى بديهة العقل

الساعة قال الكفار فيما بينهم أن هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن فلما تأخرت قالوا ما نرى شيئا فنزلت اقترب للناس حسابهم فأشفقوا وانتظروا قربها فلما امتدت الايام قالوا يا محمد ما نرى شيئا مما تخوفنا به فنزلت أتى امر الله فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع الناس رؤسهم فلما نزل فلا تستعجلوه اطمأنوا فليس فيه دلالة على عموم الخطاب كما قيل لا لما توهم من أن التصدير بالفاء يأباه فانه بمعزل عن آبائه حسبما تحققته بل لان مناط اطمئنانهم انما هو وقوفهم على أن المراد بالاتيان هو الاتيان الادعائى لا الحقيقى الموجب لاستحالة الاستعجال المستلزمة لامتناع النهى عنه لما أن النهى عن الشئ يقتضى امكانه فى الجملة ومدار ذلك الوقوف انما هو النهى عن الاستعجال المستلزم لامكانه المقتضى لعدم الوقوع المستعجل بعد ولا يختلف ذلك باختلاف المستعجل كائنا من كان بل فيه دلالة واضحة على عدم العموم لان المراد بامر الله انما هو الساعة وقد عرفت استحالة صدور استعجالها عن المؤمنين نعم يجوز تخصيص الخطاب بهم على تقدير كون أمر الله عبارة عن العذاب الموعد للكفرة خاصة لكن الذى يقضى به الاعجاز التنزيلى انه خاص بالكفرة كما ستقف عليه ولما كان استعجالهم ذلك من نتائج اشراكهم المستتبع لنسبة الله عزوجل الى ما لا يليق به من العجز والاحتياج الى الغير واعتقاد أن أحدا يعجزه عن انجاز وعده وامضاء وعيده وقد قالوا فى تضاعيفه ان صح مجئ العذاب فالاصنام تخلصنا عنه

بشفاعتها ردّ ذلك فقيل بطريق الاستئناف (سبحانه وتعالى عما يشركون) أى تنزه وتقدس بذاته وجل عن اشراكهم المؤدى الى صدور أمثال هذه الاباطيل عنهم أو عن ان يكون له شريك فيدفع ما أراد بهم بوجه من الوجوه وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد اشراكهم واستمراره والالتفات الى الغيبة للايذان باقتضاء ذكر قبائحهم للاعراض عنهم وطرحهم عن رتبة الخطاب وحكاية شنائعهم لغيرهم وعلى تقدير تخصيص الخطاب بالمؤمنين تفوت هذه النكتة كما يفوت ارتباط المنهى عنه بالمتنزه عنه وقرئ على صيغة الخطاب (ينزل الملائكة) بيان لتحتم التوحيد حسبما نبه عليه تنبيها اجماليا ببيان تقدس جناب الكبرياء وتعاليه عن أن يحوم حوله شائبة أن يشاركه شئ فى شئ وايذان بانه دين أجمع عليه جمهور الانبياء عليهم الصلاة والسلام وأمروا بدعوة الناس اليه مع الاشارة الى سر البعثة والتشريع وكيفية القاء الوحى والتنبيه على طريق علم الرسول عليه الصلاة والسلام باتيان ما أوعدهم به وباقترابه ازاحة لاستبعادهم اختصاصه عليه الصلاة والسلام بذلك واظهار البطلان رأيهم فى الاستعجال والتكذيب وايثار صيغة الاستقبال للاشعار بأن ذلك عادة مستمرة له سبحانه والمراد بالملائكة اما جبريل عليه السلام قال الواحدى يسمى الواحد بالجمع اذا كان رئيسا أو هو ومن معه من حفظة الوحى بأمر الله تعالى وقرئ ﴿ ق ﴾ ينزل من الانزال وتنزل بحذف احدى التاءين وعلى صيغة المبنى للمفعول من التنزيل (بالروح) أى بالوحى الذى من جملته

واذا عرفت هذا فنقول لا نعلم كون جبريل عليه السلام صادقا معصوما عن الكذب والتلبيس الا بالدلائل السمعية وصحة الدلائل السمعية موقوفة على أن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق وصدقه يتوقف على ان هذا القرآن معجز من قبل الله تعالى لا من قبل شيطان خبيث والعلم بذلك يتوقف على العلم بأن جبريل صادق محق مبرأ عن التلبيس وعن أفعال الشيطان وحينئذ يلزم الدور فهذا مقام صعب أما اذا عرفنا حقيقة النبوة وعرفنا حقيقة الوحى زالت هذه الشبهة بالكلية والله أعلم (المسئلة الرابعة) هذه الآية تدل على أن الروح المشار اليها بقوله ينزل الملائكة بالروح من أمره ليس الا لمجرد قوله لا اله الا أنا فاتقون وهذا كلام حق لأن مراتب السعادات البشرية أربعة أولها النفسانية وثانيها البدنية وفى المرتبة الثالثة الصفات البدنية التى لا تكون من اللوازم وفى المرتبة الرابعة الامور المنفصلة عن البدن (أما المرتبة الاولى) وهى الكمالات النفسانية فاعلم ان النفس لها قوتان احداهما استعدادها لقبول صور الموجودات من عالم الغيب وهذه القوة هى القوة المسماة بالقوة النظرية وسعادة هذه القوة فى حصول المعارف وأشرف المعارف وأجلها معرفة انه لا اله الا هو واليه الاشارة بقوله أن أنذروا أنه لا اله الا أنا والقوة الثانية للنفس استعدادها للتصرف فى أجسام هذا العالم وهذه القوة هى القوة المسماة بالقوة العملية وسعادة هذه القوة فى الاتيان بالاعمال الصالحة وأشرف الاعمال الصالحة هو عبودية الله تعالى واليه الاشارة بقوله فاتقون ولما كانت القوة النظرية أشرف من القوة العملية لا جرم قدم الله تعالى كمالات القوة النظرية وهى قوله لا اله الا أنا على كمالات القوة العملية وهى قوله فاتقون (وأما المرتبة الثانية) وهى السعادات البدنية فهى أيضا قسمان الصحة الجسدانية وكمالات القوى الحيوانية أعنى القوى السبع عشرة البدنية (وأما المرتبة الثالثة)) وهى السعادات المتعلقة بالصفات العرضية البدنية فهى أيضا قسمان سعادة الاصول والفروع أعنى كمال حال الآباء وكمال حال الاولاد (وأما المرتبة الرابعة) وهى أخس المراتب فهى السعادات الحاصلة بسبب الامور المنفصلة وهى المال والجاه فثبت ان أشرف مراتب السعادات هى الاحوال النفسانية وهى محصورة فى كمالات القوة النظرية والعملية فلهذا السبب ذكر الله ههنا أعلى حال هاتين القوتين فقال أن أنذروا أنه لا اله الا أنا فاتقون ❋ قوله تعالى (خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركون) اعلم أنه تعالى لما بين فيما سبق ان معرفة الحق لذاته وهى المراد من قوله أنه لا اله الا أنا ومعرفة الخير لاجل العمل به وهى المراد من قوله فاتقون روح الارواح ومطلع السعادات ومنبع الخيرات والكرامات اتبعه بذكر الدلائل على وجود الصانع الا له تعالى وكمال قدرته وحكمته واعلم انا بينا ان دلائل الالهيات اما التمسك بطريقة الامكان فى الذوات أو فى الصفات أو التمسك بطريقة الحدوث فى الذوات أو فى الصفات أو بمجموع الامكان والحدوث

في الذوات أو الصفات فهذه طرق ستة والطريق المذكور في كتب الله تعالى المنزلة هو التمسك بطريقة حدوث الصفات وتغيرات الاحوال ثم هذا الطريق يقع على وجهين (أحدهما) أن يتمسك بالاظهر فالاظهر مترقيا الى الاخفى فالاخفى وهذا الطريق هو المذكور في أول سورة البقرة فانه تعالى قال اعبدوا ربكم الذي خلقكم فجعل تعالى تغير أحوال نفس كل واحد دليلا على احتياجه الى الخالق ثم ذكر عقيبه الاستدلال بأحوال الآباء والامهات واليه الاشارة بقوله والذين من قبلكم ثم ذكر عقيبه الاستدلال بأحوال الارض وهي قوله الذي جعل لكم الارض فراشا لان الارض أقرب الينا من السماء ثم ذكر في المرتبة الرابعة قوله والسماء بناء ثم ذكر في المرتبة الخامسة الاحوال المتولدة من تركيب السماء بالارض فقال وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم (الثاني من الدلائل القرآنية) أن يحتج الله تعالى بالاشرف فالاشرف نازلا الى الادون فالادون وهذا الطريق هو المذكور في هذه السورة وذلك لانه تعالى ابتدأ في الاحتجاج على وجود الاله المختار بذكر الاجرام العالية الفلكية ثم ثنى بذكر الاستدلال بأحوال الانسان ثم ثلث بذكر الاستدلال بأحوال الحيوان ثم ربع بذكر الاستدلال بأحوال النبات ثم خمس بذكر الاستدلال بأحوال العناصر الاربعة وهذا الترتيب في غاية الحسن اذا عرفت هذه المقدمة فنقول (النوع الاول) من الدلائل المذكورة على وجود الاله الحكيم الاستدلال بأحوال السموات والارض فقال خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركون وقد ذكرنا في تفسير قوله تعالى الحمد لله الذي خلق السموات والارض ان لفظ الخلق من كم وجه يدل على الاحتياج الى الخالق الحكيم ولا بأس بأن نعيد تلك الوجوه ههنا فنقول الخلق عبارة عن التقدير بمقدار مخصوص وهذا المعنى حاصل في السموات من وجوه (الاول) ان كل جسم متناه فجسم السماء متناه وكل ما كان متناهيا في الحجم والقدر كان اختصاصه بذلك القدر المعين دون الازيد والانقص أمرا جائزا وكل جائز فلا بد له من مقدر ومخصص وكل ما كان مفتقرا الى الغير فهو محدث (الثاني) وهو ان الحركة الازلية ممتنعة لان الحركة تقتضي المسبوقية بالغير والازل ينافيه فالجمع بين الحركة والازل محال اذا ثبت هذا فنقول اما أن يقال ان الاجرام والاجسام كانت معدومة في الازل ثم حدثت أو يقال انها وان كانت موجودة في الازل الا انها كانت ساكنة ثم تحركت وعلى التقديرين فلحركتها أول فحدوث الحركة من ذلك المبدا دون ما قبله أو ما بعده خلق وتقدير فوجب افتقاره الى مقدر وخالق ومخصص له (الثالث) ان جسم الفلك مركب من اجزاء بعضها حصلت في عمق جرم الفلك وبعضها في سطحه والذي حصل في العمق كان يعقل حصوله في السطح وبالعكس واذا ثبت هذا كان اختصاص كل جزء بموضعه المعين أمرا جائزا فيفتقر الى المخصص والمقدر وبقية الوجوه مذكورة في أول سورة الانعام واعلم انه سبحانه لما احتج بالخلق والتقدير على حدوث

القرآن على نهج استعارة فانه يحيي القلوب الميتة بالجهل أو يقوم في الدين مقام الروح في الجسد والباء متعلقة بالفعل أو بما هو حال من مفعوله أي ملتبسين بالروح (من أمره) بيان للروح الذي أريد به الوحي فانه أمر بالخير أو حال منه اي حال كونه ناشئا ومبتدأ منه أو صفة له على رأي من جوز حذف الموصول مع بعض صلته اي بالروح الكائن من أمره الناشئ منه أو متعلق بينزل ومن للسببية كالباء مثل ما في قوله تعالى مما خطيآتهم اي ينزلهم بأمره (على من يشاء من عباده) أن ينزلهم به عليهم لاختصاصهم بصفات تؤهلهم لذلك (أن أنذروا) بدل من الروح اي ينزلهم ملتبسين بأن أنذروا أي بهذا القول والمخاطبون به الانبياء الذين نزلت الملائكة عليهم والآمر هو الله سبحانه والملائكة نقلة للامر كما يشعر به الباء في المبدل منه وأن اما مخففة من أن وضمير الشأن الذي هو اسمها محذوف أي ينزلهم ملتبسين بأن الشان أقول لكم أنذروا أو مفسرة على أن تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول كأنه قيل يقول بواسطة الملائكة لمن يشاء من عباده أنذروا فلا محل لها من الاعراب أو مصدرية لجواز كون صلتها انشائية كما في قوله تعالى وأن أقم وجهك حسبما ذكر في أوائل سورة هود فمحلها الجر على البدلية أيضا والانذار الاعلام خلا انه مختص باعلام المحذور من نذر بالشئ اذا علمه فحذره

السموات والارض قال بعده تعالى عما يشركون والمراد أن القائلين بقدم السموات والارض كانهم أثبتوا لله شريكا فى كونه قديما أزليا فنزه نفسه عن ذلك و بين أنه لاقديم الا هو و بهذا البيان ظهر أن الفائدة المطلوبة من قوله سبحانه وتعالى عما يشركون فى أول السورة غير الفائدة المطلوبة من ذكر هذه الكلمة ههنا لان المطلوب هناك ابطال قول من يقول ان الاصنام تشفع للكفار فى دفع العقاب عنهم والمقصود ههنا ابطال قول من يقول الاجسام قديمة والسموات والارض أزلية فنزه الله سبحانه نفسه عن أن يشاركه غيره فى الازلية والقدم والله أعلم ❊ قوله تعالى (خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين) اعلم ان أشرف الاجسام بعد الافلاك والكواكب هو الانسان فلما ذكر الله تعالى الاستدلال على وجود الاله الحكيم بأجرام الافلاك اتبعه بذكر الاستدلال على هذا المطلوب بالانسان واعلم أن الانسان مركب من بدن ونفس فقوله تعالى خلق الانسان من نطفة اشاره الى الاستدلال ببدنه على و جود الصانع الحكيم وقوله فاذا هو خصيم مبين اشارة الى الاستدلال بأحوال نفسه على وجود الصانع الحكيم أما الطريق الاول فتقريره أن نقول لاشك أن النطفة جسم متشابه الاجزاء بحسب الحس والمشاهدة الا أن من الاطباء من يقول انه مختلف الاجزاء فى الحقيقة وذلك لانه انما يتولد من فضلة الهضم الرابع فان الغذاء يحصل له فى المعدة هضم أول وفى الكبد هضم ثان وفى العروق هضم ثالث وعند وصوله الى جواهر الاعضاء هضم رابع ففى هذا الوقت وصل بعض اجزاء الغذاء الى العظم وظهر فيه اثر من الطبيعة العظمية وكذا القول فى اللحم والعصب والعروق وغيرها ثم عند استيلاء الحرارة على البدن عند هيجان الشهوة يحصل ذوبان من جملة الاعضاء وذلك هو النطفة وعلى هذا التقدير تكون النطفة جسما مختلف الاجزاء والطبائع اذا عرفت هذا فنقول النطفة فى نفسها اما أن تكون جسما متشابه الاجزاء فى الطبيعة والماهية أو مختلف الاجزاء فيها فان كان الحق هو الاول لم يجز أن يكون المقتضى لتولد البدن منها هو الطبيعة الحاصلة فى جوهر النطفة ودم الطمث لان الطبيعة تأثيرها بالذات والايجاب لا بالتدبير والاختيار والقوة الطبيعية اذا عملت فى مادة متشابهة الاجزاء وجب أن يكون فعلها هو الكرة وعلى هذا الحرف عولوا فى قولهم البسائط يجب أن تكون اشكالها الطبيعية فى الكرة فلو كان المقتضى لتولد الحيوان من النطفة هو الطبيعة لوجب أن يكون شكلها الكره وحيث لم يكن الامر كذلك علمنا أن المقتضى لحدوث الابدان الحيوانية ليس هو الطبيعة بل فاعل مختار هو يخلق بالحكمة والتدبير والاختيار وأما القسم الثانى وهو أن يقال النطفة جسم مركب من أجزاء مختلفة فى الطبيعة والماهية فنقول بتقدير أن يكون الامر كذلك فانه يجب أن يكون تولد البدن منها بتدبير فاعل مختار حكيم و بيانه من وجوه (الاول) ان النطفة رطوبة سريعة الاستحالة واذا كان كذلك كانت الاجزاء الموجودة فيها لا تحفظ الوضع

وأنذره بالامر انذارا أى أعلمه وحذره وخوفه فى ابلاغه كذا فى القاموس اى أعلموا الناس (أنه لا اله الا أنا) فالضمير للشأن ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن التصريح به وفائدة تصدير الجملة به الايذان من أول الامر بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريره فى الذهن فان الضمير لا يفهم منه ابتداء الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن لديه عند وروده فضل تمكن كأنه قيل أنذروا أن الشأن الخطير هذا وانباء مضمونه عن المحذور ليس لذاته بل من حيث اتصاف المنذرين بما يضاده من الاشراك وذلك كاف فى كون اعلامه انذارا وقوله سبحانه (فاتقون) خطاب للمستعجلين على طريقة الالتفات والفاء فصيحة اى اذا كان الامر كما ذكر من جريان عادته تعالى بتنزيل الملائكة على الانبياء عليهم السلام وأمرهم بأن ينذروا الناس أنه لا شريك له فى الالوهية فاتقون فى الاخلال بمضمونه ومباشرة ما ينافيه من الاشراك وفروعه التى من جملتها الاستعجال والاستهزاء وبعد تمهيد الدليل السمعى للتوحيد شرع فى تحرير الادلة العقلية فقيل (خلق السموات والارض بالحق) اى أوجدهما على ما هما عليه من الوجه الفائق والنمط اللائق (تعالى) ﴿ والسبة ﴾ وتقدس بذاته لا سيما بأفعاله التى من جملتها ابداع هذين المخلوقين (عما يشركون) عن اشراكهم المعهود أو عن شركة ما يشركونه به من

الباطل الذى لايبديء ولايعيد بعد ما نبه على صنعه الكلى المنطوى على تفاصيل مخلوقاته شرع فى تعداد ما فيه من خلائقه فبدأ بفعله المتعلق بالانفس فقال (خلق الانسان) اى هذا النوع غير الفرد الاول منه (من نطفة) جماد لا حس له ولا حراك سيال لا يحفظ شكلا ولا وضعا (فاذا هو) بعد الخلق (خصيم) منطيق مجادل عن نفسه مكافح الخصوم (مبين) لحجته لقن بها وهذا أنسب بمقام الامتنان باعطاء القدرة على الاسدلال بذلك على قدرته تعالى ووحدته أو مخاصم لخالقه منكر له قائل من يحيي العظام وهى رميم وهذا أنسب بمقام تعداد هنات الكفرة روى أن أبى بن خلف الجمحى أتى النبى عليه السلام بعظم رميم فقال يا محمد أترى الله تعالى يحيى هذا بعد ما قد رم فنزلت (والانعام) وهى الازواج الثمانية من الابل والبقر والضأن والمعز وانتصابها بمضمر يفسره قوله تعالى (خلقها) أو بالعطف على الانسان وما بعده بيان ما خلق لاجله والذى بعده تفصيل لذلك وقوله تعالى (لكم) اما متعلق بخلقها وقوله (فيها) خبر مقدم وقوله (دفء) مبتدأ وهو ما يدفأ به فيقى من البرد والجملة حال من المفعول أو الظرف الاول خبر للمبتدا المذكور وفيها حال من دفء اذ لو تأخر لكان صفة (ومنافع) هى درها وركوبها وحملها والحراثة بها وغير ذلك وانما عبر عنها بها ليتناول الكل مع أنه الانسب بمقام الامتنان بالنعم وتقديم الدفء على المنافع

والنسبة فالجزء الذى هو مادة الدماغ يمكن حصوله فى الاسفل والجزء الذى هو مادة القلب قد يحصل فى الفوق واذا كان الامر كذلك وجب أن لا تكون أعضاء الحيوان على هذا الترتيب المعين أمرا دائما ولا أكثريا وحيث كان الامر كذلك علمنا ان حدوث هذه الاعضاء على هذا الترتيب الخاص ليس الا بتدبير الفاعل المختار الحكيم (والوجه الثانى) ان النطفة بتقدير انها جسم مركب من اجزاء مختلفة الطبائع الا أنه يجب أن ينتهى تحليل تركيبها الى أجزاء يكون كل واحد منها فى نفسه جسما بسيطا واذا كان الامر كذلك فلو كان المدبر لها قوة طبيعية لكان كل واحد من تلك البسائط يجب أن يكون شكله هو الكره فكان يلزم أن يكون الحيوان على شكل كرات مضمومة بعضها الى بعض وحيث لم يكن الامر كذلك علمنا أن مدبر أبدان الحيوانات ليس هى الطبائع ولا تأثيرات الانجم والافلاك لان تلك التأثيرات متشابهة فعلمنا ان مدبر أبدان الحيوانات فاعل مختار حكيم وهو المطلوب هذا هو الاستدلال بأبدان الحيوانات على وجود الاله المختار وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى خلق الانسان من نطفة وأما الاستدلال على وجود الصانع المختار الحكيم بأحوال النفس الانسانية فهو المراد من قوله فاذا هو خصيم مبين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى بيان وجه الاستدلال وتقريره ان النفوس الانسانية فى أول الفطرة أقل فهما وذكاء وفطنة من نفوس سائر الحيوانات ألا ترى أن ولد الدجاجة كما يخرج من قشر البيضة يميز بين العدو والصديق فيهرب من الهرة ويلتجيء الى الام ويميز بين الغذاء الذى يوافقه والغذاء الذى لا يوافقه وأما ولد الانسان فانه حال انفصاله عن بطن الام لا يميز البتة بين العدو والصديق ولا بين الضار والنافع فظهر ان الانسان فى أول الحدوث أنقص حالا وأقل فطنة من سائر الحيوانات ثم ان الانسان بعد كبره يقوى عقله ويعظم فهمه ويصير بحيث يقوى على مساحة السموات والارض ويقوى على معرفة ذات الله وصفاته وعلى معرفة أصناف المخلوقات من الارواح والاجسام والفلكيات والعنصريات ويقوى على ايراد الشبهات القوية فى دين الله تعالى والخصومات الشديدة فى كل المطالب فانتقال نفس الانسان من تلك البلادة المفرطة الى هذه الكياسة المفرطة لابد وأن يكون بتدبير اله مختار حكيم ينقل الارواح من نقصانها الى كمالاتها ومن جهالاتها الى معارفها بحسب الحكمة والاختيار فهذا هو المراد من قوله سبحانه وتعالى خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين واذا عرفت هذه الدقيقة أمكنك التنبيه لوجوه كثيرة (المسئلة الثانية) انه تعالى انما خلق الانسان من النطفة بواسطة تغيرات كثيرة مذكورة فى القرآن العزيز منها قوله تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين الاية الا انه تعالى اختصر ههنا لاجل ان ذلك الاستقصاء مذكور فى سائر الآيات وقوله فاذا هو خصيم مبين فيه بحثان (الاول) قال الواحدى الخصيم بمعنى المخاصم قال أهل اللغة خصيمك الذى يخاصمك وفعيل بمعنى مفاعل معروف كالنسيب

رعاية اسلوب الترقى الى الاعلى (ومنها تأكلون) أى تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم وغير ذلك وتغيير النظم للايماء الى أنها الاتبق عند الاكل كما فى السابق واللاحق فان الدفء والمنافع والجمال يحصل منها وهى باقية على حالها ولذلك جعلت محال لها بخلاف الاكل وتقديم الظرف للايذان بأن الاكل منها هو المعتاد المعتمد فى المعاش وأن الاكل مما عداها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر من قبيل التفكه مع أن فيه مراعاة للفواصل ويحتمل أن يكون معنى الاكل منها أكل ما يحصل بسببها فان الحبوب والثمار المأكولة تكتسب باكراء الابل وبأثمان نتاجها وألبانها وجلودها (ولكم فيها) مع ما فصل من أنواع المنافع الضرورية جمال اى زينة فى أعين الناس ووجاهة عندهم (حين تريحون) تردونها من مراعيها الى مراحها بالعشى (وحين تسرحون) تخرجونها بالغداة من حظائرها الى مسارحها فالمفعول محذوف من كلا الفعلين لرعاية الفواصل وتعيين الوقتين لان ما يدور عليه أمر الجمال من تزين الافنية والاكناف بها وبتجاوب ثغائها ورغائها انما هو عند ورودها وصدورها فى ذينك الوقتين وأما عند كونها ﴿ الأكسية ﴾ فى المراعى فينقطع اضافتها الحسية الى أربابها وعند كونها فى الحظائر لا يراها راء ولا ينظر اليها ناظر وتقديم الاراحة على السرح لتقدم الورود على الصدور ولكونها أظهر

بمعنى المناسب والعشير بمعنى المعاشر والأكيل والشريب ويجوز أن يكون خصيم فاعلا من خصم يخصم بمعنى اختصم ومنه قراءة حمزة تأخذهم وهم يخصمون (البحث الثانى) لقوله فاذا هو خصيم مبين وجهان (أحدهما) فاذا هو منطيق مجادل عن نفسه منازع الخصوم بعد ان كان نطفة قذرة وجمادا لا حس له ولا حركة والمقصود منه ان الانتقال من تلك الحالة الخسيسة الى هذه الحالة العالية الشريفة لا يحصل الا بتدبير مدبر حكيم عليم (والثانى) فاذا هو خصيم لربه منكر على خالقه قائل من يحيى العظام وهى رميم والغرض منه وصف الانسان بالافراط فى الوقاحة والجهل والتمادى فى كفران النعمة والوجه الاول أوفق لان هذه الآيات مذكورة لتقرير وجه الاستدلال على وجود الصانع الحكيم لا لتقرير وقاحة الناس وتماديهم فى الكفر والكفران ❋ قوله تعالى (والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرؤف رحيم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن أشرف الاجسام الموجودة فى العالم السفلى بعد الانسان سائر الحيوانات لاختصاصها بالقوى الشريفة وهى الحواس الظاهرة والباطنة والشهوة والغضب ثم هذه الحيوانات قسمان منها ما ينتفع الانسان بها ومنها ما لا يكون كذلك والقسم الاول أشرف من الثانى لانه لما كان الانسان أشرف الحيوانات وجب فى كل حيوان يكون انتفاع الانسان به أكمل وأكثر أن يكون أكمل وأشرف من غيره ثم نقول والحيوان الذى ينتفع الانسان به اما أن ينتفع به فى ضروريات معيشته مثل الاكل واللبس أو لا يكون كذلك وانما ينتفع به فى أمور غير ضرورية مثل الزينة وغيرها والقسم الاول أشرف من الثانى وهذا القسم هو الانعام فلهذا السبب بدأ الله بذكره فى هذه الآية فقال والانعام خلقها لكم واعلم أن الانعام عبارة عن الازواج الثمانية وهى الضأن والمعز والابل والبقر وقد يقال أيضا الانعام ثلاثة الابل والبقر والغنم قال صاحب الكشاف وأكثر ما يقع هذا اللفظ على الابل وقوله والانعام منصوبة وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر كقوله تعالى والقمر قدرناه منازل ويجوز أن يعطف على الانسان أى خلق الانسان والانعام قال الواحدى تم الكلام عند قوله والانعام خلقها ثم ابتدأ وقال لكم فيها دفء ويجوز أيضا أن يكون تمام الكلام عند قوله لكم ثم ابتدأ وقال فيها دفء قال صاحب النظم احسن الوجهين أن يكون الوقف عند قوله خلقها والدليل عليه انه عطف عليه قوله ولكم فيها جمال والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال (المسئلة الثانية) انه تعالى لما ذكر انه خلق الانعام للمكلفين اتبعه بتعديد تلك المنافع واعلم أن منافع النعم منها ضرورية ومنها غير ضرورية والله تعالى بدأ بذكر المنافع الضرورية فالمنفعة الاولى قوله لكم فيها دفء وقد ذكر هذا المعنى فى آية أخرى فقال ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها والدفء عند أهل اللغة ما يستدفأ به من

الاكسية قال الاصمعى و يكون الدفء السخونة يقال اقعد فى دفء هـذا الحائط أى فى كنه وقرئ دف بطرح الهمزة والقاء حركتها على الفاء والمنفعة الثانية قوله ومنافع قالوا المراد نسلها ودرها وانما عبر الله تعالى عن نسلها ودرها بلفظ المنفعة وهو اللفظ الدال على الوصف الاعم لان النسل والدر قد ينتفع به فى الاكل وقد ينتفع به فى البيع بالنقود وقد ينتفع به بأن يبدل بالثياب وسائر الضروريات فعبر عن جملة هـذه الاقسام بلفظ المنافع ليتناول الكل والمنفعة الثالثة قوله ومنها تأكلون فان قيل قوله ومنهـا تأكلون يفيد الحصر وليس الامر كذلك فانه قد يؤكل من غـيرها وأيضا منفعة الاكل مقدمة على منفعة اللبس فلم أخر منفعته فى الذكر قلنا الجواب عن الاول ان الاكل منها هو الاصل الذى يعتمده الناس فى معايشهم وأما الاكل من غيرها كالدجاج والبط وصيد البر والبحر فيشبه غير المعتاد وكالجارى مجرى التفكه ويحتمل أيضـا ان غالب أطعمتكم منها لانكم تحرثون بالبقر والحب والثمار التى تأكلونها منها وأيضا تكتسبون باكراء الابل وتنتفعون بألبانها ونتاجها وجلودها وتشترون بها جميع أطعمتكم والجواب عن السؤال الثانى ان الملبوس أكثر بقاء من المطعوم فلهذا قدمه عليه فى الذكر (واعلم) ان هذه المنافع الثلاثة هى المنافع الضرورية الحاصلة من الانعام وأما المنافع الحاصلة من الانعام التى هى ليست بضرورية فأمور (المنفعة الاولى) قوله تعالى ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون الاراحة رد الابل بالعشى الى مراحها حيث تأوى اليـه ليلا ويقال سرح القوم ابلهم سرحا اذا أخرجوها بالغداة الى المرعى قال اهل اللغة هذه الاراحة أكثر ماتكون أيام الربيع اذا سقط الغيث وكثر الكلاء وخرجت العرب للنجعة وأحسن مايكون النعم فى ذلك الوقت واعلم ان وجه التجمل بها ان الراعى اذا روحها بالعشى وسرحها بالغداة تزينت عند تلك الاراحة والتسريح الافنية وتجاوب فيهـا الثغاء والرغاء وفرحت أربابها وعظم وقعهم عند الناس بسبب كونهم مالكين لها فان قيل لم قدمت الاراحة على التسريح قلنا لان الجمال فى الاراحة أكثر لانها تقبل ملأى البطون حافلة الضروع ثم اجتمعت فى الحظائر حاضرة لاهلها بخلاف التسريح فانها عند خروجها الى المرعى تخرج جائعة عادمة اللبن ثم تأخذ فى التفرق والانتشار فظهر ان الجمال فى الاراحة أكثر منه فى التسريح (والمنفعة الثانية) قوله وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرؤف رحيم وفيه مسئلتان (الاولى) الاثقال جمع ثقل وهو متاع المسافر لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس قال ابن عباس يريد من مكة الى المدينة أو الى اليمن أو الى الشام أو الى مصر قال الواحدى هذا قوله والمراد كل بلد لو تكلفتم بلوغه على غير ابل لشق عليكم وخص ابن عباس هذه البلاد لان متاجر أهل مكة كانت الى هـذه البلاد وقرئ بشق الانفس بكسر الشين وفتحها وأكثر القراء على كسر الشين والشق المشقة والشق نصف الشئ وحمل اللفظ ههنا على كلا المعنيين جائز فان

منه فى استتباع ماذكر من الجمال وأتم فى استجلاب الانس والبهجة اذ فيها حضور بعد غيبة واقبال بعد ادبار على أحسن مايكون ملأى البطون مرتفعة الضلوع حافلة الضروع وقرئ حينا تريحون وحينا تسرحون على أن كلا الفعلين وصف لحينا بمعنى تريحون فيه وتسرحون فيه (وتحمل أثقالكم) جمع ثقل وهو متاع المسافر وقيل أثقالكم أجرامكم (الى بلد) قال ابن عباس رضى الله عنهما أريد به اليمن ومصر والشام ولعله نظر الى انها متاجر أهل مكة وقال عكرمة أريد به مكة ولعله نظر ان أثقالهم واحمالهم عند القفول من متاجرهم أكثر وحاجتهم الى الحمولة أمس والظاهر انه عام لكل بلد سحيق (لم تكونوا بالغيه) واصلين اليه بأنفسكم مجردين عن الاثقال لولا الابل (الا بشق الانفس) فضلا عن استصحابها معكم وقرئ بفتح الشين وهما لغتان بمعنى الكلفة والمشقة وقيل المفتوح مصدر من شق الامر عليه شقا وحقيقته راجعة الى الشق الذى هو الصدع والمكسور النصف كأنه يذهب نصف القوة لما يناله من الجهد فالاضافة الى الانفس مجازية أو على تقدير مضاف اى الا بشق قوى الانفس وهو استثناء مفرغ من أعم الاشياء اى لم تكونوا بالغيه بشئ من الاشياء الا بشق الانفس ولعل تغيير النظم الكريم السابق الدال على كون الانعام مدارا للنعم السابقة الى الجملة الفعلية المفيدة لمجرد الحدوث للاشعار بأن هذه النعمة

حملناه على المشقة كان المعنى لم تكونوا بالغيه الا بالمشقة وان حملناه على نصف الشئ كان المعنى لم تكونوا بالغيه الا عند ذهاب النصف من قوتكم أو من بدنكم و يرجع عند التحقيق الى المشقة ومن الناس من قال المراد من قوله والانعام خلقها الابل فقط بدليل انه وصفها فى آخر الآية بقوله وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه وهذا الوصف لا يليق الا بالابل قلنا المقصود من هذه الآيات تعديد منافع الانعام فبعض تلك المنافع حاصلة فى الكل وبعضها مختص بالبعض والدليل عليه ان قوله ولكم فيها جمال حاصل فى البقر والغنم مثل حصوله فى الابل والله أعلم (المسئلة الثانية) احتج منكروا كرامات الاولياء بهذه الآية فقالوا هذه الآية تدل على ان الانسان لا يمكنه الانتقال من بلد الى بلد الا بشق الانفس وحمل الاثقال على الجمال ومثبتوا الكرامات يقولون ان الاولياء قد ينتقلون من بلد الى بلد آخر بعيد فى ليلة واحدة من غير تعب وتحمل مشقة فكان ذلك على خلاف هذه الآية فيكون باطلا ولما بطل القول بالكرامات فى هذه الصورة بطل القول بها فى سائر الصور لانه لا قائل بالفرق وجوابه أنا نخصص عموم هذه الآية بالادلة الدالة على وقوع الكرامات والله أعلم * قوله (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون) اعلم أنه تعالى لما ذكر منافع الحيوانات التى ينتفع الانسان بها فى المنافع الضرورية والحاجات الاصلية ذكر بعده منافع الحيوانات التى ينتفع بها الانسان فى المنافع التى ليست بضرورية فقال والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله والخيل والبغال والحمير عطف على الانعام أى وخلق الانعام لكذا وكذا وخلق هذه الاشياء للركوب وقوله وزينة أى وخلقها زينة ونظيره قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا المعنى وحفظناها حفظا قال الزجاج نصب قوله وزينة على أنه مفعول له والمعنى وخلقها للزينة (المسئلة الثانية) احتج القائلون بتحريم لحوم الخيل بهذه الآية فقالوا منفعة الاكل أعظم من منفعة الركوب فلو كان أكل لحم الخيل جائزا لكان هذا المعنى أولى بالذكر وحيث لم يذكره الله تعالى علمنا أنه يحرم أكله ويمكن أيضا أن يقوى هذا الاستدلال من وجه آخر فيقال انه تعالى قال فى صفة الانعام ومنها تأكلون وهذه الكلمة تفيد الحصر فيقتضى أن لا يجوز الاكل من غير الانعام فوجب أن يحرم أكل لحم الخيل بمقتضى هذا الحصر ثم انه تعالى بعد هذا الكلام ذكر الخيل والبغال والحمير وذكر انها مخلوقة للركوب فهذا يقتضى ان منفعة الاكل مخصوصة بالانعام وغير حاصلة فى هذه الاشياء ويمكن الاستدلال بهذه الآية من وجه ثالث وهو ان قوله لتركبوها يقتضى ان تمام المقصود من خلق هذه الاشياء الثلاثة هو الركوب والزينة ولو حل أكلها لما كان تمام المقصود من خلقها هو الركوب بل كان حل أكلها أيضا مقصودا وحينئذ يخرج جواز ركوبها عن أن يكون تمام المقصود بل يصير بعض المقصود وأجاب الواحدى بجواب فى غاية الحسن فقال لو دلت هذه الآية على

ليست فى العموم بحسب المنشا و بحسب المتعلق وفى الشمول للاوقات والاطراد فى الاحيان المعهودة بمثابة النعم السالفة فانها بحسب المنشا وخاصة بالابل و بحسب المتعلق بالضاربين فى الارض المتقلبين فيها للتجارة وغيرها فى أحايين غير مطردة وأما سائر النعم المعدودة فموجودة فى جميع أصناف الانعام وعامة لكافة المخاطبين دائما أو فى عامة الاوقات (ان ربكم لرؤف رحيم) ولذلك أسبغ عليكم هذه النعم الجليلة و يسر لكم الامور الشاقة (والخيل) هو اسم جنس للفرس لا واحد له من لفظه كالابل وهو عطف على الانعام اى خلق الخيل (والبغال والحمير لتركبوها) تعليل بمعظم منافعها والا فالانتفاع بها بالحمل أيضا مما لا ريب فى تحققه (وزينة) عطف على محل لتركبوها وتجريده عن اللام لكونه فعلا لفاعل الفعل المعلل دون الاول وتأخيره لكون الركوب أهم منه أو مصدر لفعل محذوف اى وتتزينوا بها زينة وقرئ بغير واو اى خلقها زينة لتركبوها و يجوز أن يكون مصدرا واقعا موقع الحال من فاعل تركبوها أو مفعوله اى متزينين بها أو متزينا بها (و يخلق مالا تعلمون) اى يخلق فى الدنيا غير ما عدد من أصناف النعم فيكم ولكم مالا تعلمون كنهه وكيفية خلقه فالعدول الى صيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار والتجدد أو لاستحضار الصورة أو يخلق لكم فى الجنة غير ما ذكر من النعم الدنيوية مالا تعلمون أى ما ليس

تحريم أكل هذه الحيوانات لكان تحريم أكلها معلوما فى مكة لاجل أن هذه السورة مكية ولو كان الامر كذلك لكان قول عامة المفسرين والمحدثين ان لحوم الحمر الاهلية حرمت عام خيبر باطلا لان التحريم لما كان حاصلا قبل هذا اليوم لم يبق لتخصيص هذا التحريم بهذه الشبهة فائدة وهذا جواب حسن متين (المسئلة الثالثة) القائلون بأن أفعال الله تعالى معللة بالصالح والحكم احتجوا بظاهر هذه الآية فانه يقتضى ان هذه الحيوانات مخلوقة لاجل المنفعة الفلانية ونظيره قوله كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور وقوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون والكلام فيه معلوم (المسئلة الرابعة) لقائل أن يقول لما كان معنى الآية انه تعالى خلق الخيل والبغال والحمير لتركبوها وليجعلها زينة لكم فلم ترك هذه العبارة وجوابه انه تعالى لو ذكر هذا الكلام بهذه العبارة لصار المعنى ان التزين بها أحد الامور المعتبرة فى المقصود وذلك غير جائز لان التزين بالشئ يورث العجب والتيه والتكبر وهذه أخلاق مذمومة والله تعالى نهى عنها وزجر عنها فكيف يقول انى خلقت هذه الحيوانات لتحصيل هذه المعانى بل قال خلقها لتركبوها فتدفعوا عن أنفسكم بواسطتها ضرر الاعياء والمشقة وأما التزين بها فهو حاصل فى نفس الامر ولكنه غير مقصود بالذات فهذا هو الفائدة فى اختيار هذه العبارة واعلم أنه تعالى لما ذكر أولا أحوال الحيوانات التى ينتفع الانسان بها انتفاعا ضروريا وثانيا أحوال الحيوانات التى ينتفع الانسان بها انتفاعا غير ضرورى بقى القسم الثالث من الحيوانات وهى الاشياء التى لا ينتفع الانسان بها فى الغالب فذكرها على سبيل الاجمال فقال و يخلق ما لا تعلمون وذلك لان أنواعها وأصنافها وأقسامها كثيرة خارجة عن الحد والاحصاء ولو خاض الانسان فى شرح عجائب أحوالها لكان المذكور بعد كتبة المجلدات الكثيرة كالقطره فى البحر فكان أحسن الاحوال ذكرها على سبيل الاجمال كما ذكر الله تعالى فى هذه الآية وروى عطاء ومقاتل والضحاك عن ابن عباس أنه قال ان على يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والارضين السبع والبحار السبعة يدخل فيها جبريل عليه السلام كل سحر ويغتسل فيزداد نورا الى نوره وجمالا الى جماله ثم ينتفض فيخلق الله من كل نقطة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك يدخل منهم كل يوم سبعون ألفا البيت المعمور وفى الكعبة أيضا سبعون ألفا ثم لا يعودون اليه الى أن تقوم الساعة ❊ قوله تعالى (وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين) اعلم أنه تعالى لما شرح دلائل التوحيد قال وعلى الله قصد السبيل أى انما ذكرت هذه الدلائل وشرحتها ازاحة للعذر وازالة للعلة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الواحدى القصد استقامة الطريق يقال طريق قصد وقاصد اذا أداك الى مطلوبك اذا عرفت هذا ففى الآية حذف والتقدير وعلى الله بيان قصد السبيل ثم قال ومنها جائر أى عادل مائل ومعنى الجور فى اللغة الميل عن الحق

من شأنكم أن تعلموه وهو ما أشير اليه بقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر و يجوز أن يكون هذا اخبارا بأنه سبحانه يخلق من الخلائق ما لا علم لنا به دلالة على قدرته الباهرة الموجبة للتوحيد كنعمته الباطنة والظاهرة عن ابن عباس رضى الله عنهما ان عن يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والارضين السبع والبحار السبعة يدخل فيه جبريل عليه السلام كل سحر فيغتسل فيزداد نورا الى نور وجمالا الى جمال وعظما الى عظم ثم ينتفض فيخلق الله تعالى من كل قطرة تقع من ريشه كذا وكذا الف ملك فيدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك البيت المعمور وسبعون ألف ملك الكعبة لا يعودون اليه الى يوم القيامة (وعلى الله قصد السبيل) القصد مصدر بمعنى الفاعل يقال سبيل قصد وقاصد اى مستقيم على طريقة الاستعارة أو على نهج اسناد حال سالكه اليه كانه يقصد الوجه الذى يؤمه السالك لا يعدل عنه اى حق عليه سبحانه وتعالى بموجب رحمته ووعده المحتوم بيان الطريق المستقيم الموصل لمن يسلكه الى الحق الذى هو التوحيد بنصب الادلة وارسال الرسل وانزال الكتب لدعوة الناس اليه أو مصدر بمعنى الاقامة والتعديل قاله ابو البقاء اى عليه عز وجل تقويمها وتعديلها اى جعلها بحيث يصل سالكها الى الحق لكن

والكناية فى قوله ومنها جائر تعود على السبيل وهى مؤنثة فى لغة الحجاز يعنى ومن السبيل ماهو جائر غير قاصد للحق هو أنواع الكفر والضلال والله أعلم (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة دلت الآية على أنه يجب على الله تعالى الارشاد والهداية الى الدين وازاحة العلل والاعذار لانه تعالى قال وعلى الله قصد السبيل وكلمة على للوجوب قال تعالى ولله على الناس حج البيت ودلت الآية أيضا على انه تعالى لايضل أحدا ولايغويه ولايصده عنه وذلك لانه تعالى لو كان فاعلا للضلال لقال وعلى الله قصد السبيل وعليه جائرها أو قال وعليه الجائر فلما لم يقل كذلك بل قال فى قصد السبيل انه عليه ولم يقل فى جور السبيل انه عليه بل قال ومنها جائر دل على انه تعالى لايضل عن الدين أحدا أجاب أصحابنا أن المراد على الله بحسب الفضل والكرم أن يبين الدين الحق والمذهب الصحيح فاما أن يبين كيفية الاغواء والاضلال فذلك غير واجب فهذا هو المراد والله أعلم (المسئلة الثالثة) قوله ولو شاء لهداكم أجمعين يدل على انه تعالى ماشاء هداية الكفار وما أراد منهم الايمان لان كلمة لو تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره فقوله ولو شاء لهداكم معناه لو شاء هدايتكم لهداكم وذلك يفيد انه تعالى ماشاء هدايتهم فلاجرم ماهداهم وذلك يدل على المقصود وأجاب الاصم عنه بأن المراد لو شاء أن يلجئكم الى الايمان لهداكم وهذا يدل على ان مشيئة الالجاء لم تحصل وأجاب الجبائى بان المعنى ولو شاء لهداكم الى الجنة والى نيل الثواب لكنه لايفعل ذلك الا بمن يستحقه ولم يرد به الهدى الى الايمان لانه مقدور جميع المكلفين وأجاب بعضهم فقال المراد ولو شاء لهداكم الى الجنة ابتداء على سبيل التفضل الا أنه تعالى عرفكم للمنزلة العظيمة بما نصب من الادلة وبين فمن تمسك بها فاز بتلك المنازل ومن عدل عنها فاتته وصار الى العذاب والله أعلم واعلم ان هذه الكلمات قد ذكرناها مرارا وأطوارا مع الجواب فلا فائدة فى الاعادة * قوله تعالى (هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) اعلم ان أشرف أجسام العالم السفلى بعد الحيوان النبات فلما قرر الله تعالى الاستدلال على وجود الصانع الحكيم بعجائب أحوال الحيوانات أتبعه فى هذه الآية بذكر الاستدلال على وجود الصانع الحكيم بعجائب أحوال النبات واعلم ان الماء المنزل من السماء هو المطر وأما ان المطر نازل من السحاب أو من السماء فقد ذكرناه فى هذا الكتاب مرارا والحاصل ان ماء المطر قسمان أحدهما هو الذى جعله الله تعالى شرابا لنا ولكل حى وهو المراد بقوله لكم منه شراب وقد بين الله تعالى فى آية أخرى ان هذه النعمة جليلة فقال وجعلنا من الماء كل شئ حى فان قيل أفتقولون ان شرب الخلق ليس الا من المطر أو تقولون قد يكون منه وقد يكون من غيره وهو الماء الموجود فى قعر الارض أجاب القاضى بأنه تعالى بين ان المطر شرابنا ولم ينف أن نشرب من غيره ولقائل أن يقول ظاهر الآية يدل على الحصر لان قوله لكم منه

لابعد ماكانت فى نفسها منحرفة عنه بل ابداعها ابتداء كذلك على نهج قوله سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل وحقيقته راجعة الى ماذكر من نصب الادلة وقد فصل ذلك حيث أبدع هذه البدائع التى كل واحد منها لاحب يهتدى بمناره وعلم يستضاء بناره وأرسل رسلا مبشرين ومنذرين وأنزل عليهم كتبا من جملتها هذا الوحى الناطق بحقيقة الحق الفاحص عن كل ماجل من الاسرار ودق الهادى الى سبيل الاستدلال بتلك الادلة المفضية الى معالم الهدى المنجية عن فيافى الضلالة ومهاوى الردى الا يرى كيف بين أولا تنزه جناب الكبرياء وتعاليه بحسب الذات عن أن يحوم شائبة توهم الاشراك ثم أوضح سر القاء الوحى على الانبياء عليهم الصلاة والسلام وكيفية أمرهم بانذار الناس ودعوتهم الى التوحيد ونهيهم عن الاشراك ثم كر على بيان تعاليه عن ذلك بحسب الافعال مرشدا الى طريقة الاستدلال فبدأ بفعله المتعلق بمحيط العالم الجسمانى ومركزه بقوله تعالى خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركون ثم فصل أفعاله المتعلقة بما بينهما فبدأ بفعله المتعلق بأنفس المخاطبين ثم ذكر مايتعلق بما لابد لهم منه فى معايشهم ثم بين قدرته ﴿ شراب ﴾ على خلق مالا يحيط به علم البشر بقوله ويخلق مالا تعلمون وكل ذلك كما ترى بيان للسبيل التوحيد غب بيان وتعديل له أيما تعديل فالمراد بالسبيل على الاول الجنس بدليل اضافة

شراب يفيد الحصر لان معناه منه لا من غيره اذا ثبت هذا فنقول لا يمتنع أن يكون الماء العذب تحت الارض من جملة ماء المطر يسكن هناك والدليل عليه قوله تعالى فى سورة المؤمنين وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الارض ولا يمتنع أيضا فى غير العذب وهو البحر أن يكون من جملة ماء المطر والقسم الثانى من المياه النازلة من السماء ما يجعله الله سببا لتكوين النبات واليه الاشارة بقوله ومنه شجر فيه تسيمون الى آخر الآية وفيه مباحث (البحث الاول) ظاهر هذه الآية يقتضى ان اسامة الشجر ممكنة وهذا انما يصح لو كان المراد من الشجر الكلا والعشب وههنا قولان (الاول) قال الزجاج كل ما نبت على الارض فهو شجر وأنشد

يطعمها اللحم اذا عز الشجر * يعنى أنهم يسقون الخيل اللبن اذا أجدبت الارض وقال ابن قتيبة فى هذه الآية المراد من الشجر الكلا وفى حديث عكرمة لا تأكلوا ثمن الشجر فانه سحت يعنى الكلا ولقائل أن يقول انه تعالى قال والنجم والشجر يسجدان والمراد من النجم ما ينجم من الارض مما ليس له ساق ومن الشجر ما له ساق هكذا قال المفسرون وبالجملة فلما عطف الشجر على النجم دل على التغاير بينهما ويمكن أن يجاب عنه بأن عطف الجنس على النوع وبالضد مشهور وأيضا فلفظ الشجر مشعر بالاختلاط يقال تشاجر القوم اذا اختلط أصوات بعضهم بالبعض وتشاجرت الرماح اذا اختلطت وقال تعالى حتى يحكموك فيما شجر بينهم ومعنى الاختلاط حاصل فى العشب والكلا فوجب جواز اطلاق لفظ الشجر عليه (القول الثانى) ان الابل تقدر على رعى ورق الاشجار الكبار وعلى هذا التقدير فلا حاجة الى ما ذكرناه فى القول الاول (البحث الثانى) قوله فيه تسيمون أى فى الشجر ترعون مواشيكم يقال أسمت الماشية اذا خليتها ترعى وسامت هى تسوم سوما اذا رعت حيث شاءت فهى سوام وسائمة قال الزجاج أخذ ذلك من السومة وهى العلامة وتأويلها انها تؤثر فى الارض برعيها علامات وقال غيره لانها تعلم للارسال فى المرعى وتمام الكلام فى هذا اللفظ قد ذكرناه فى سورة آل عمران فى قوله تعالى والخيل المسومة أما قوله تعالى ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ففيه مباحث (البحث الاول) هو ان النبات الذى ينبته الله من ماء السماء قسمان أحدهما معد لرعى الانعام واسامة الحيوانات وهو المراد من قوله فيه تسيمون والثانى ما كان مخلوقا لاكل الانسان وهو المراد من قوله ينبت لكم به الزرع والزيتون فان قيل انه تعالى بدأ فى هذه الآية بذكر ما يكون مرعى للحيوانات وأتبعه بذكر ما يكون غذاء للانسان وفى آية أخرى عكس هذا الترتيب فبدأ بذكر مأكول الانسان ثم بما يرعاه سائر الحيوانات فقال كلوا وارعوا أنعامكم فما الفائدة فيه قلنا أما الترتيب المذكور فى هذه الآية فينبه على مكارم الاخلاق وهو أن يكون اهتمام الانسان بمن يكون تحت يده أكمل من اهتمامه بحال نفسه وأما الترتيب المذكور فى الآية الاخرى فالمقصود منه ما هو المذكور فى قوله عليه

القصد اليه وقوله تعالى (ومنها) فى محل الرفع على الابتداء اما باعتبار مضمونه واما بتقدير الموصوف كما فى قوله تعالى ومنا دون ذلك وقد مر فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر الخ أى بعض السبيل أو بعض من السبيل فانها تؤنث وتذكر (جائر) أى مائل عن الحق منحرف عنه لا يوصل سالكه اليه وهو طرق الضلال التى لا يكاد يحصى عددها المندرج كلها تحت الجائر وعلى الثانى نفس السبيل المستقيم والضمير فى منها راجع اليها بتقدير المضاف أى ومن جنسها لما عرفت من أن تعديل السبيل وتقويمها ابداعه ابتداء على وجه الاستقامة والعدالة لا تقويمه بعد انحرافه وأياما كان فليس فى النظم الكريم تغيير الاسلوب رعاية لامر مطلوب كما قيل فان ذلك انما يكون فيما اقتضى الظاهر سبكا معينا ولكن يعدل عن ذلك لنكتة أهم منه كما فى قوله سبحانه الذى يطعمنى ويسقين واذا مرضت فهو يشفين فان مقتضى الظاهر أن يقال والذى يسقمنى ويشفين ولكن غير الى ما عليه النظم الكريم تماديا عن اسناد ما تكرهه النفس اليه سبحانه وليس فما المراد ببيان قصد السبيل مجرد اعلام أنه مستقيم حتى يصح اسناد أنه جائر اليه تعالى فيحتاج الى الاعتذار عن عدم ذلك على انه لو أريد ذلك لم يوجد لتغيير الاسلوب نكتة وقد بين ذلك فى مواضع غير معدودة بل المراد ما مر من نصب الادلة لهداية الناس اليه ولا امكان لاسناد مثله

السلام ابدأ بنفسك ثم بمن تعول (البحث الثانى) قرأعاصم فى رواية أبى بكر ننبت بالنون على التفخيم والباقون بالياء قال الواحدى والياء أشبه بما تقدم (البحث الثالث) اعلم ان الانسان خلق محتاجا الى الغذاء والغذاء اما ان يكون من الحيوان أو من النبات والغذاء الحيوانى أشرف من الغذاء النباتى لان تولد أعضاء الانسان عند أكل أعضاء الحيوان أسهل من تولدها عند أكل النبات لان المشابهة هناك أكمل وأتم والغذاء الحيوانى انما يحصل من اسامة الحيوانات والسعى فى تنميتها بواسطة الرعى وهذا هو الذى ذكره الله تعالى فى الاسامة وأما الغذاء النباتى فقسمان حبوب وفواكه أما الحبوب فاليها الاشارة بلفظ الزرع وأما الفواكه فأشرفها الزيتون والنخيل والاعناب أما الزيتون فلانه فاكهة من وجه وادام من وجه آخر لكثرة ما فيه من الدهن ومنافع الادهان كثيرة فى الاكل والطلى واشتعال السرج وأما امتياز النخيل والاعناب من سائر الفواكه فظاهر معلوم وكما انه تعالى لما ذكر الحيوانات التى ينتفع الناس بها على التفصيل ثم قال فى صفة البقية و يخلق ما لا تعلمون فكذلك ههنا لما ذكر الانواع المنتفع بها من النبات قال فى صفة البقية ومن كل الثمرات تنبيها على ان تفصيل القول فى أجناسها وأنواعها وصفاتها ومنافعها لا يمكن ذكره فى مجلدات فالاولى الاقتصار فيه على الكلام المجمل ثم قال ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون وههنا بحثان (الاول) فى شرح كون هذه الاشياء آيات دالة على وجود الله تعالى فنقول ان الحبة الواحدة تقع فى الطين فاذا مضت على هذه الحالة مقادير معينة من الوقت نفذت فى داخل تلك الحبة أجزاء من رطوبة الارض ونداوتها فتنتفخ الحبة فينشق أعلاها وأسفلها فيخرج من أعلى تلك الحبة شجرة صاعدة من داخل الارض الى الهواء ومن أسفلها شجرة أخرى غائصة فى قعر الارض وهذه الغائصة هى المسماة بعروق الشجرة ثم ان تلك الشجرة لا تزال تزداد وتنمو وتقوى وثم يخرج منها الاوراق والازهار والاكمام والثمار ثم ان تلك الثمرة تشتمل على أجسام مختلفة الطبائع مثل العنب فان قشره وعجمه باردان يابسان كثيفان ولحمه وماؤه حاران رطبان لطيفان اذا عرفت هذا فنقول نسبة الطبائع السفلية الى هذا الجسم متشابهة و نسبة التأثيرات الفلكية والتحريكات الكوكبية الى الكل متشابهة ومع تشابه نسب هذه الاشياء ترى هذه الاجسام مختلفة فى الطبع والطعم واللون والرائحة والصفة فدل صريح العقل على ان ذلك ليس الا لاجل فاعل قادر حكيم رحيم فهذا تقرير هذه الدلالة (البحث الثانى) انه تعالى ختم هذه الآية بقوله لقوم يتفكرون والسبب فيه انه تعالى ذكر أنه أنزل من السماء ماء فأنبت به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ولقائل أن يقول لا نسلم انه تعالى هو الذى أنبتها ولم لا يجوز أن يقال ان هذه الاشياء انما حدثت وتولدت بسبب تعاقب الفصول الاربعة وتأثيرات الشمس والقمر والكواكب واذا عرفت هذا السؤال فالم يقم الدليل على فساد هذا الاحتمال لا يكون هذا الدليل تاما وافيا بافادة هذا المطلوب بل

اليه تعالى بالنسبة الى الطريق الجائر بأن يقال وجائرها حتى ينصرف ذلك الاسناد منه تعالى الى غيره لنكتة تستدعيه ولا يتوهمه متوهم حتى يقتضى الحال دفع ذلك بأن يقال ولا جائرها ثم بغير سبك النظم عن ذلك لداعية أقوى منه بل الجملة الظرفية اعتراضية جىء بها لبيان الحاجة الى البيان والتعديل واظهار جلالة قدر النعمة فى ذلك والمعنى على الله تعالى بيان الطريق المستقيم الموصل الى الحق وتعديله بما ذكر من نصب الادلة ليسلكه الناس باختيارهم و يصلوا الى المقصد وهذا هو الهداية المفسرة بالدلالة على ما يوصل الى المطلوب لا الهداية المستلزمة للاهتداء البتة فان ذلك مما ليس بحق على الله تعالى لا بحسب ذاته ولا بحسب رحمته بل هو مخل بحكمته حيث يستدعى تسوية المحسن والمسىء والمطيع والعاصى بحسب الاستعداد واليه أشير بقوله تعالى (ولو شاء لهداكم أجمعين) أى لو شاء أن يهديكم الى ماذكر من التوحيد هداية موصلة اليه البتة مستلزمة لاهتدائكم أجمعين لفعل ذلك ولكن لم يشأ لان مشيئته تابعة للحكمة الداعية اليها ولا حكمة فى تلك المشيئة لما أن الذى عليه يدور فلك التكليف واليه ينسحب الثواب والعقاب انما هو الاختيار الجزئى الذى عليه يترتب الاعمال التى بها نيط الجزاء هذا هو الذى يقتضيه المقام و يستدعيه حسن الانتظام وقد فسر كون قصد السبيل عليه تعالى بانتهائه

﴿ يكون ﴾

يكون مقام الفكر والتأمل باقيا فلهذا السبب ختم هذه الآية بقوله لقوم يتفكرون

* قوله تعالى (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون وماذرأ لكم فى الارض مختلفا ألوانه ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان الله تعالى أجاب فى هذه الآية عن السؤال الذى ذكرناه من وجهين (الاول) أن نقول هب ان حدوث الحوادث فى هذا العالم السفلى مستندة الى الاتصالات الفلكية والتشكلات الكوكبية الا أنه لابد لحركاتها واتصالاتها من أسباب وأسباب تلك الحركات اما ذواتها واما أمور مغايرة لها والاول باطل لوجهين (الاول) ان الاجسام متماثلة فلو كان جسم علة لصفة لكان كل جسم واجب الاتصاف بتلك الصفة وهو محال (والثانى) ان ذات الجسم لو كانت علة لحصول هذا الجزء من الحركة لوجب دوام هذا الجزء من الحركة بدوام تلك الذات ولو كان كذلك لوجب بقاء الجسم على حالة واحدة من غير تغير أصلا وذلك يوجب كونه ساكنا ويمنع من كونه متحركا فثبت ان القول بأن الجسم متحرك لذاته يوجب كونه ساكنا لذاته وما أفضى ثبوته الى عدمه كان باطلا فثبت ان الجسم يمتنع أن يكون متحركا لكونه جسما فبقى أن يكون متحركا لغيره وذلك الغير اما أن يكون ساريا فيه أو مباينا عنه والاول باطل لان البحث المذكور عائد فى ان ذلك الجسم بعينه لم اختص بتلك القوة بعينها دون سائر الاجسام فثبت ان محرك أجسام الافلاك والكواكب أمور مباينة عنها وذلك المباين ان كان جسما أو جسمانيا عاد التقسيم الاول فيه وان لم يكن جسما ولا جسمانيا فاما ان يكون موجبا بالذات أو فاعلا مختارا والاول باطل لان نسبة ذلك الموجب بالذات الى جميع الاجسام على السوية فلم يكن بعض الاجسام بقبول بعض الآثار المعينة أولى من بعض ولما بطل هذا ثبت ان محرك الافلاك والكواكب هو الفاعل المختار القادر المنزه عن كونه جسما وجسمانيا وذلك هو الله تعالى فالحاصل انا ولو حكمنا باسناد حوادث العالم السفلى الى الحركات الفلكية والكوكبية فهذه الحركات الكوكبية والفلكية لا يمكن اسنادها الى أفلاك أخرى والا لزم التسلسل وهو محال فوجب أن يكون خالق هذه الحركات ومدبرها هو الله تعالى واذا كانت الحوادث السفلية مستندة الى الحركات الفلكية وثبت ان الحركات الفلكية حادثة بتخليق الله تعالى وتقديره وتكوينه فكان هذا اعترافا بأن الكل من الله تعالى وباحداثه وتخليقه وهذا هو المراد من قوله وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر يعنى ان كانت تلك الحوادث السفلية لاجل تعاقب الليل والنهار وحركات الشمس والقمر فهذه الاشياء لابد وأن يكون حدوثها بتخليق الله تعالى وتسخيره قطعا للتسلسل ولما تم هذا الدليل فى هذا المقام لاجرم ختم هذه الآية بقوله ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون يعنى ان كل من كان عاقلا علم ان القول بالتسلسل باطل ولابد من الانتهاء فى آخر الامر الى الفاعل المختار القدير فهذا تقرير أحد الجوابين والجواب الثانى

اليه على نهج الاستقامة وايثار حرف الاستعلاء على أداة الانتهاء لتأكيد الاستقامة على وجه تمثيلى من غير ان يكون هناك استعلاء لشئ عليه سبحانه وتعالى عنه علوا كبيرا كما فى قوله تعالى هذا صراط على مستقيم فالقصد مصدر بمعنى الفاعل والمراد بالسبيل الجنس كما مر وقوله تعالى ومنها جائر معطوف على الجملة الاولى والمعنى ان قصد السبيل واصل اليه تعالى بالاستقامة وبعضها منحرف عنه ولو شاء لهداكم جميعا الى الاول وأنت خبير بأن هذا حق فى نفسه ولكنه بمعزل عن نكتة موجبة لتوسيطه بين ماسبق من أدلة التوحيد وبين مالحق ولما بين الطريق السمعى للتوحيد على وجه اجمالى وفصل بعض أدلته المتعلقة باحوال الحيوانات وعقب ذلك ببيان السر الداعى اليه بعثا للمخاطبين على التأمل فيما سبق وحثا على حسن التلقى لما لحق أتبع ذلك ذكر مايدل عليه من أحوال النبات فقيل (هو الذى أنزل) بقدرته القاهرة (من السماء) أى من السحاب أو من جانب السماء (ماء) أى نوعا منه وهو المطر وتأخيره عن المجرور لما مر مرارا من أن المقصود هو الاخبار بأنه أنزل من السماء شيئا هو الماء لا أنه أنزله من السماء والسر فيه ما سلف من أن عند تأخير ما حقه التقديم يبقى الذهن مترقبا له مشتاقا اليه فيتمكن لديه عند وروده عليه فضل تمكن (لكم منه شراب) أى ماتشربونه وهو اما مرتفع بالظرف الاول أو مبتدأ وهو خبره والجملة صفة

عن ذلك السؤال أن نقول نحن نقيم الدلالة على انه لايجوز أن يكون حدوث النبات والحيوان لاجل تأثير الطباع والافلاك والانجم وذلك لان تأثير الطبائع والافلاك والانجم والشمس والقمر بالنسبة الى الكل واحد ثم نرى انه اذا تولد العنب كان قشره على طبع وعجمه على طبع ولحمه على طبع ثالث وماؤه على طبع رابع بل نقول انا نرى فى الورد مايكون أحد وجهى الورقة الواحدة منه فى غاية الصفرة والوجه الثانى من تلك الورقة فى غاية الحمرة وتلك الورقة تكون فى غاية الرقة واللطافة ونعلم بالضرورة ان نسبة الانجم والافلاك الى وجهى تلك الورقة الرقيقة نسبة واحدة والطبيعة الواحدة فى المادة الواحدة لاتفعل الافعلا واحدا ألاترى انهم قالوا شكل البسيط هو الكرة لان تأثير الطبيعة الواحدة فى المادة الواحدة يجب أن يكون متشابها والشكل الذى يتشابه جميع جوانبه هو الكرة وأيضا اذا وضعنا الشمع فاذا استضاء خمسة أذرع من ذلك الشمع من أحد الجوانب وجب أن يحصل مثل هذا الاثر فى جميع الجوانب لان الطبيعة المؤثرة يجب أن تتشابه نسبتها الى كل الجوانب اذا ثبت هذا فنقول ظهر ان نسبة الشمس والقمر والانجم والافلاك والطبائع الى وجهى تلك الورقة اللطيفة الرقيقة نسبة واحدة وثبت ان الطبيعة المؤثرة متى كانت نسبتها واحدة كان الاثر متشابها وثبت ان الاثر غير متشابه لان أحد جانبى تلك الورقة فى غاية الصفرة والجانب الثانى فى غاية الحمرة فهذا يفيد القطع بأن المؤثر فى حصول هذه الصفات والالوان والاحوال ليس هو الطبيعة بل المؤثر فيها هو الفاعل المختار الحكيم وهو الله سبحانه وتعالى وهذا هو المراد من قوله وماذرأ لكم فى الارض مختلفا ألوانه واعلم انه لما كان مدار هذه الحجة على ان المؤثر الموجب بالذات و بالطبيعة يجب أن يكون نسبته الى الكل نسبة واحدة فلما دل الحس فى هذه الاجسام النباتية على اختلاف صفاتها وتنافر أحوالها ظهر ان المؤثر فيها ليس واجبا بالذات بل فاعلا مختارا فهذا تمام تقدير هذه الدلائل وثبت ان ختم الآية الاولى بقوله لقوم يتفكرون والآية الثانية بقوله لقوم يعقلون والآية الثالثة بقوله لقوم يذكرون هو الذى نبه على هذه الفوائد النفيسة والدلائل الظاهرة والحمد لله على ألطافه فى الدين والدنيا (المسئلة الثانية) قرأ ابن عامر والشمس والقمر والنجوم كلها بالرفع على الابتداء والخبر هو قوله مسخرات وقرأ حفص عن عاصم والنجوم بالرفع على أن يكون قوله والنجوم ابتداء وانما حملها على هذا لئلا يتكرر لفظ التسخير اذ العرب لاتقول سخرت هذا الشئ مسخرا فجوابه ان المعنى انه تعالى سخر لنا هذه الاشياء حال كونها مسخرة تحت قدرته وارادته وهذا هو الكلام الصحيح والتقدير انه تعالى سخر للناس هذه الاشياء وجعلها موافقة لمصالحهم حال كونها مسخرة تحت قدرة الله تعالى وأمره واذنه وعلى هذا التقدير فالتكرير الخالى عن الفائدة غير لازم والله أعلم بقى فى الآية سؤالات (الاول) التسخير عبارة عن القهر والقسر ولا يليق ذلك الا بمن هو قادر يجوز أن يقهر فكيف يصح ذلك فى الليل والنهار وفى

لماء والظرف الثانى نصب على الحالية من شراب ومن تبعيضية وليس فى تقديمه ايهام حصر المشروب فيه حتى يفتقر الى الاعتذار بانه لابأس به لان مياه العيون والابار منه لقوله تعالى ﴿ فسلكه ينابيع فى الارض ﴾ وقوله تعالى فأسكناه فى الارض وقيل الظرف الاول متعلق بأنزل والثانى خبر لشراب والجملة صفة لماء وأنت خبير بأن مافيه من توسيط المنصوب بين المجرورين وتوسيط الثانى منهما بين الماء وصفته مما لايليق بجزالة نظم التنزيل الجليل (ومنه شجر) من ابتدائية أى ومنه يحصل شجر ترعاه المواشى والمراد به ماينبت من الارض سواء كان له ساق أولا أو تبعيضية مجازا لانه لما كان سقيه من الماء جعل كأنه منه كقوله * أسنمة الآبال فى ربابه * يعنى به المطر الذى ينبت به الكلاء الذى تأكله الابل فتسمن أسنمتها وفى حديث عكرمة لاتأكلوا ثمن الشجر فانه سحت يعنى الكلأ (فيه تسيمون) ترعون من سامت الماشية وأسامها صاحبها وأصلها السومة وهى العلامة لانها تؤثر بالرعى علامات فى الارض (ينبت) أى الله عز وجل وقرئ بالنون (لكم به) بما أنزل من السماء (الزرع والزيتون والنخيل والاعناب) بيان النعم الفائضة عليهم من الارض بطريق الاستئناف وايثار صيغة الاستقبال للدلالة ﴿ الجمادات ﴾ على التجدد والاستمرار وأنها سنته الجارية على مر الدهور أو لاستحضار صورة الانبات وتقديم الظرفين على المفعول

الجمادات والشمس والقمر والجواب من وجهين الاول انه تعالى لما دبر هذه الاشياء على طريقة واحدة مطابقة لمصالح العباد صارت شبيهة بالعبد المنقاد المطواع فلهذا المعنى أطلق على هذا النوع من التدبير لفظ التسخير وعن الوجه الثانى فى الجواب وهو لا يستقيم الا على مذهب أصحاب علم الهيئة وذلك لانهم يقولون الحركة الطبيعية للشمس والقمر هى الحركة من المغرب الى المشرق والله تعالى يحرك هذه الكواكب بواسطة حركة الفلك الاعظم من المشرق الى المغرب فكانت هذه الحركة قسرية فلهذا السبب ورد فيها لفظ التسخير (السؤال الثانى) اذا كان لا يحصل النهار والليل وجود الا بسبب حركات الشمس كان ذكر النهار والليل مغنيا عن ذكر الشمس والجواب ان حدوث النهار والليل ليس بسبب حركة الشمس بل حدوثهما بسبب حركة الفلك الاعظم الذى دللنا على ان حركته ليست الا بتحريك الله سبحانه وأما حركة الشمس فانها علة لحدوث السنة لا لحدوث اليوم (السؤال الثالث) ما معنى قوله مسخرات بأمره والمؤثر فى التسخير هو القدرة لا الامر والجواب ان هذه الآية مبنية على ان الافلاك والكواكب جمادات أم لا وأكثر المسلمين على انها جمادات فلا جرم حملوا الامر فى هذه الآية على الخلق والتقدير ولفظ الامر بمعنى الشان والفعل كثير قال تعالى انما أمرنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون ومن الناس من يقول انها ليست جمادات فههنا يحمل الامر على الاذن والتكليف والله أعلم * قوله تعالى (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) اعلم انه تعالى لما احتج على اثبات الاله فى المرتبة الاولى بأجرام السموات وفى المرتبة الثانية ببدن الانسان ونفسه وفى المرتبة الثالثة بعجائب خلقة الحيوانات وفى المرتبة الرابعة بعجائب طبائع النبات ذكر فى المرتبة الخامسة الاستدلال على وجود الصانع بعجائب أحوال العناصر فبدأ منها بالاستدلال بعنصر الماء واعلم ان علماء الهيئة قالوا ثلاثة أرباع كرة الارض غائصة فى الماء وذلك هو البحر المحيط وهو كلية عنصر الماء وحصل فى هذا الربع المسكون سبعة من البحار كما قال والبحر يمده من بعده سبعة أبحر والبحر الذى سخره الله تعالى للناس هو هذه البحار ومعنى تسخير الله تعالى اياها للخلق جعلها بحيث يتمكن الناس من الانتفاع بها اما بالركوب أو بالغوص واعلم ان منافع البحار كثيرة والله تعالى ذكر منها فى هذه الآية ثلاثة أنواع (المنفعة الاولى) قوله تعالى لتأكلوا منه لحما طريا وفيه مسائل (الاولى) قال ابن الاعرابى لحم طرى غير مهموز وقد طرو يطرو طراوة وقال الفراء طرا يطرا طراء ممدودا وطراوة كما يقال شقى يشقى شقاء وشقاوة واعلم ان فى ذكر الطرى مزيد فائدة وذلك لانه لو كان السمك كله مالحا لما عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطرى فانه لما خرج من البحر الملح الزعاق الحيوان الذى لحمه فى غاية العذوبة علم انه انما حدث لا بحسب الطبيعة بل بقدرة الله وحكمته حيث أظهر الضد من الضد

الصريح للمنزل تفاسح ملق تقديم أولهما من الاهتمام به لادخال المسرة ابتداء وتقديم الزرع على ماعداه لانه اصل الاغذية وعمود المعاش وتقديم الزيتون لما فيه من الشرف من حيث انه ادام من وجه وفاكهة من وجه وتقديم النخيل على الاعناب لظهور أصالتها وبقائها وجمع الاعناب للاشارة الى ما فيها من الاشتمال على الاصناف المختلفة وتخصيص الانواع المعدودة بالذكر مع اندراجها تحت قوله تعالى (ومن كل الثمرات) للاشعار بفضلها وتقديم الشجر عليها مع كونه غذاء للانعام لحصوله بغير صنع من البشر أو للارشاد الى مكارم الاخلاق فان مقتضاها أن يكون اهتمام الانسان بأمر ما تحت يده أكمل من اهتمامه بأمر نفسه او لان أكثر المخاطبين من أصحاب المواشى ليس لهم زرع ولا ثمر وقيل المراد تقديم ما يسام لا تقديم غذائه فانه غذاء حيوانى للانسان وهو أشرف الاغذية وقرئ ينبت من الثلاثى مسندا الى الزرع وما عطف عليه (ان فى ذلك) أى فى أنزال الماء وانبات ما فصل (لآية) عظيمة دالة على تفرده تعالى بالالوهية لاشتمالها على كمال العلم والقدرة والحكمة (لقوم يتفكرون) فان من تفكر فى أن الحبة أو النواة تقع فى الارض وتصل اليها نداوة تنفذ فيها فينشق أسفلها فيخرج منه عروق تنبسط فى أعماق الارض وينشق أعلاها وان كانت منتكسة فى الوقوع ويخرج منه ساق فينمو ويخرج منه الاوراق والازهار والحبوب والثمار المشتملة

(المسئلة الثانية) قال ابو حنيفة رحمه الله لو حلف لا يأكل اللحم فأكل لحم السمك لا يحنث قالوا لان لحم السمك ليس بلحم وقال آخرون انه يحنث لانه تعالى نص على كونه لحما فى هذه الآية وليس فوق بيان الله بيان * روى ان أبا حنيفة رحمه الله لما قال بهذا القول وسمعه سفيان الثورى فأنكر عليه ذلك واحتج عليه بهذه الآية بعث اليه رجلا وسأله عن رجل حلف لا يصلى على البساط فصلى على الارض هل يحنث أم لا قال سفيان لا يحنث فقال السائل أليس ان الله تعالى قال والله جعل لكم الارض بساطا قال فعرف سفيان أن ذلك كان بتلقين أبى حنيفة ولقائل أن يقول هذا الكلام ليس بقوى لان أقصى ما فى الباب انا تركنا العمل بظاهر القرآن فى لفظ البساط للدليل الذى قام عليه فكيف يلزمنا ترك العمل بظاهر القرآن فى آية أخرى والفرق بين الصورتين من وجهين (الاول) انه لما حلف لا يصلى على البساط فلو أدخلنا الارض تحت لفظ البساط لزمنا أن نمنعه من الصلاة لانه ان صلى على الارض المفروشة بالبساط لزمه الحنث لا محالة ولو صلى على الارض التى لا تكون مفروشة لزمه الحنث أيضا على تقدير أن يدخل الارض تحت لفظ البساط فهذا يقتضى منعه من الصلاة وذلك مما لا سبيل اليه بخلاف ما اذا أدخلنا لحم السمك تحت لفظ اللحم لانه ليس فى منعه من أكل اللحم على الاطلاق محذور فظهر الفرق (الثانى) انا نعلم بالضرورة من عرف أهل اللغة أن وقوع اسم البساط على الارض الخالصة مجاز اما وقوع اسم اللحم على لحم السمك فلم يعرف انه مجاز فظهر الفرق والله أعلم وحجة أبى حنيفة رحمه الله أن مبنى الايمان على العادة وعادة الناس اذا ذكر اللحم على الاطلاق أن لا يفهم منه لحم السمك بدليل انه اذا قال الرجل لغلامه اشتر بهذه الدراهم لحما فجاء بالسمك كان حقيقا بالانكار والجواب انا رأيناكم فى كتاب الايمان تارة تعتبرون اللفظ وتارة تعتبرون العرف وما رأيناكم ذكرتم ضابطا بين القسمين والدليل عليه انه اذا قال لغلامه اشتر بهذه الدراهم لحما فجاء بلحم العصفور كان حقيقا بالانكار عليه مع انكم تقولون انه يحنث بأكل لحم العصفور فثبت ان العرف مضطرب والرجوع الى نص القرآن متعين والله أعلم (المنفعة الثانية) من منافع البحر قوله تعالى وتستخرجوا منه حلية تلبسونها والمراد بالحلية اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان والمراد بلبسهم لبس نسائهم لانهن من جملتهم ولان اقدامهن على التزين بها انما يكون من أجلهم فكأنها زينتهم ولباسهم ورأيت بعض أصحابنا تمسكوا فى مسئلة انه لا يجب الزكاة فى الحلى المباح بحديث عروة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا زكاة فى الحلى فقلت هذا الحديث ضعيف الرواية وبتقدير الصحة فيمكن أن يقال فيه لفظ الحلى لفظ مفرد محلى بالالف واللام وقد بينا فى أصول الفقه ان هذا اللفظ يجب حمله على المعهود السابق والحلى الذى هو المعهود السابق هو الذى ذكره الله تعالى فى كتابه فى هذه الآية وهو قوله وتستخرجون منه حلية تلبسونها فصار بتقدير صحة ذلك الخبر لا زكاة فى اللآلى وحينئذ يسقط الاستدلال به والله ﴿ اعلم ﴾

على أجسام مختلفة الاشكال والالوان والخواص والطبائع وعلى نواة قابلة لتوليد الامثال على النمط المحرر لا الى نهاية مع اتحاد المواد واستواء نسبة الطبائع السفلية والتأثيرات العلوية بالنسبة الى الكل علم أن من هذه أفعاله وآثاره لا يمكن أن يشبهه شئ فى شئ من صفات الكمال فضلا عن أن يشاركه أخس الاشياء فى أخص صفاته التى هى الالوهية واستحقاق العبادة تعالى عن ذلك علوا كبيرا وحيث افتقر سلوك هذه الطريقة الى ترتيب المقدمات الفكرية قطع الآية الكريمة بالتفكر (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان خلفة لمنامكم ومعاشكم ولعقد الثمار وانضاجها (والشمس والقمر) يدأبان فى سيرهما وانارتهما أصالة وخلافة واصلاحهما لما نيط بهما صلاحه من المكونات التى من جملتها ما فصل وأجمل كل ذلك لمصالحكم ومنافعكم وليس المراد بتسخيرها لهم تمكينهم من تصرفها كيف شاؤا كما فى قوله تعالى سبحان الذى سخر لنا هذا ونظائره بل هو تصريفه تعالى لها حسبما يترتب عليه منافعهم ومصالحهم كأن ذلك تسخير لهم وتصرف من قبلهم حسب ارادتهم وفى التعبير عن ذلك التصرف بالتسخير ايماء الى ما فى المسخرات من صعوبة المأخذ بالنسبة الى المخاطبين وايثار صيغة الماضى للدلالة على أن ذلك أمر واحد مستمر وان تجددت آثاره (والنجوم مسخرات بأمره) مبتدأ وخبر أى سائر النجوم فى حركاتها وأوضاعها

من التثليث والتربيع ونحوهما مسخرات لله تعالى أو لما خلقن له بارادته ومشيئته وحيث لم يكن عود منافع النجوم اليهم فى الظهور بمثابة ما قبلها من الملوين والقمرين لم ينسب تسخيرها اليهم بأداة الاختصاص بل ذكر على وجه يفيد كونها تحت ملكوته تعالى من غير دلالة على شئ آخر ولذلك عدل عن الجملة الفعلية الدالة على الحدوث الى الاسمية المفيدة للدوام والاستمرار وقرئ برفع الشمس والقمر أيضا وقرئ بنصب النجوم على انه مفعول أول الفعل مقدر ينبئ عنه الفعل المذكور ومسخرات مفعول ثان له أى وجعل النجوم مسخرات بامره أو على انه معطوف على المنصوبات المتقدمة ومسخرات حال من الكل والعامل ما فى سخر من معنى نفع أى نفعكم بها حال كونها مسخرات لله الذى خلقها ودبرها كيف شاء أو لما خلقن له بايجاده وتقديره أو لحكمة أو مصدر ميمى جمع لاختلاف الانواع أى أنواعا من التسخير وما قيل من أن فيه ايذانا بالجواب عما عسى يقال ان المؤثر فى تكوين النبات حركات الكواكب واوضاعها بأن ذلك ان سلم فلا ريب فى انها أيضا أمور ممكنة الذات والصفات واقعة على بعض الوجوه الممكنة فلا بد لها من موجد مخصص مختار واجب الوجود دفعا للدور والتسلسل فبناء حسبان ما ذكر أدلة على وجود الصانع تعالى وقدرته واختياره وأنت تدرى أن ليس الامر كذلك فانه ليس مما ينازع فيه الخصم ولا يتلعثم فى قبوله قال تعالى ولئن سألتهم من

أعلم (المنفعة الثالثة) قوله تعالى وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله قال أهل اللغة مخر السفينة شقها الماء بصدرها وعن الفراء أنه صوت جرى الفلك بالرياح اذا عرفت هذا فقول ابن عباس مواخر أى جوارى انما حسن التفسير به لانها لا تشق الماء الا اذا كانت جارية وقوله تعالى ولتبتغوا من فضله يعنى لتركبوه للتجارة فتطلبوا الربح من فضل الله واذا وجدتم فضل الله تعالى واحسانه فلعلكم تقدمون على شكره والله أعلم * قوله تعالى (وألقى فى الارض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون) اعلم ان المقصود من هذه الآية ذكر بعض النعم التى خلقها الله تعالى فى الارض (فالنعمة الاولى) قوله وألقى فى الارض رواسى أن تميد بكم وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قوله أن تميد بكم يعنى لئلا تميد بكم على قول الكوفيين وكراهة أن تميد بكم على قول البصريين وذكرنا هذا عند قوله تعالى يبين الله لكم أن تضلوا والميد الحركة والاضطراب يمينا وشمالا يقال ماد يميد ميدا (المسئلة الثانية) المشهور عن الجمهور فى تفسير هذه الآية ان قالوا ان السفينة اذ ألقيت على وجه الماء فانها تميد من جانب الى جانب وتضطرب فاذا وضعت الاجرام الثقيلة فى تلك السفينة استقرت على وجه الماء فاستوت قالوا فكذلك لما خلق الله تعالى الارض على وجه الماء اضطربت ومادت فخلق الله تعالى عليها هذه الجبال الثقال فاستقرت على وجه الماء بسبب ثقل هذه الجبال ولقائل أن يقول هذا يشكل من وجوه (الاول) ان هذا التعليل اما أن يذكر مع تسليم كون الارض والماء ثقيلة بالطبع أو مع المنع من هذا الاصل ومع القول بأن حركات هذه الاجسام بطباعها أو ليست بطباعها بل هى واقعة بتخليق الفاعل المختار أما على التقدير الاول فهذا التعليل مشكل لان على هذا الاصل لا شك ان الارض أثقل من الماء والاثقل من الماء يغوص فى الماء ولا يبقى طافيا عليه واذا لم يبق طافيا عليه امتنع أن يقال انها تميد وتميل وتضطرب وهذا بخلاف السفينة لانها متخذة من الخشب وفى داخل الخشب تجويفات مملوءة من الهواء فلهذا السبب تبقى الخشبة طافية على الماء فحينئذ تضطرب وتميد وتميل على وجه الماء فاذا أرسيت بالاجسام الثقيلة استقرت وسكنت فظهر الفرق وأما على التقدير الثانى وهو أن يقال ليس للارض ولا للماء طبائع توجب الثقل والرسوب والارض انما تنزل لان الله تعالى أجرى عادته بجعلها كذلك وانما صار الماء محيطا بالارض لمجرد اجراء العادة وليس ههنا طبيعة للارض ولا للماء توجب حالة مخصوصة فنقول فعلى هذا التقدير علة سكون الارض هى ان الله تعالى يخلق فيها السكون وعلة كونها مائدة مضطربة هى ان الله تعالى يخلق فيها الحركة وعلى هذا التقدير فانه يفسد القول بأن الارض كانت مائدة مائلة فخلق الله الجبال وأرساها عليها لتبقى ساكنة لان هذا انما يصح اذا كانت طبيعة الارض توجب الميدان وطبيعة الجبال توجب الارساء والثبات ونحن انما نتكلم الآن على تقدير نفى الطبائع الموجبة لهذه الاحوال فثبت ان هذا التعليل

خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فانى يؤفكون وقال تعالى ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فاحيى به الارض من بعد موتها ليقولن الله الآية وانما ذلك أدلة التوحيد من حيث ان من هذا شأنه لا يتوهم أن يشاركه شئ فى شئ فضلا عن أن يشاركه الجماد فى الالوهية (ان فى ذلك) اى فيما ذكر من التسخير المتعلق بما ذكر مجملا ومفصلا (لآيات) باهرة متكاثرة (لقوم يعقلون) وحيث كانت هذه الآثار العلوية متعددة ودلالة ما فيها من عظيم القدرة والعلم والحكمة على الوحدانية أظهر جمع الآيات وعلقت بمجرد العقل من غير حاجة الى التأمل والتفكر ويجوز أن يكون المراد لقوم يعقلون ذلك فالمشار اليه حينئذ تعاجيب الدقائق المودعة فى العلويات المدلول عليها بالتسخير التى لا يتصدى لمعرفتها الا المهرة من أساطين علماء الحكمة ولا ريب فى أن احتياجها الى التفكر أكثر (وما ذرأ) عطف على قوله تعالى والنجوم رفعا ونصبا على انه مفعول لجعل اى وما خلق (لكم فى الارض) من حيوان ونبات حال كونه (مختلفا ألوانه) أى أصنافه فان اختلافها غالبا يكون باختلاف الالوان مسخر لله تعالى أو لما خلق لهم من الخواص والاحوال والكيفيات أو جعل ذلك مختلف الالوان أى الاصناف لتتمتعوا من ذلك بأى صنف شئتم وقد عطف على ما قبله من المنصوبات وعقب بأن ذكر الخلق لهم

مشكل على كل التقديرات (السؤال الثانى) هو أن ارساء الارض بالجبال انما يعقل لاجل ان تبقى الارض على وجه الماء من غير أن تميد وتميل من جانب الى جانب وهذا انما يعقل اذا كان الماء الذى استقرت الارض على وجهه واقفا فنقول فالمقتضى لسكون ذلك الماء ووقوفه فى حيزه المخصوص فان قلت المقتضى لسكونه فى ذلك الحيز المخصوص هو أن طبيعته المخصوصة توجب وقوفه فى ذلك الحيز المعين فلم لا تقول مثله فى الارض وهو أن الطبيعة المخصوصة التى للارض توجب وقوفها فى ذلك الحيز المعين وذلك يفسد القول بأن الارض انما وقفت بسبب أن الله تعالى أرساها بالجبال فان قلت المقتضى لسكون الماء فى حيزه المعين هو أن الله تعالى سكن الماء بقدرته فى ذلك الحيز المخصوص فلم لا تقول مثله فى سكون الارض وحينئذ يفسد هذا التعليل أيضا (السؤال الثالث) ان مجموع الارض جسم عظيم فبتقدير أن تميد كليته وتضطرب على وجه البحر المحيط لم تظهر تلك الحالة للناس فان قيل أليس ان الارض تحركها البخارات المحتقنة فى داخلها عند الزلازل وتظهر تلك الحركات للناس فلم تنكرون على من يقول انه لولا الجبال لتحركت الارض الا انه تعالى لما أرساها بالجبال الثقال لم تقو الرياح على تحريكها قلنا تلك البخارات انما احتقنت فى داخل قطعة صغيرة من الارض فلما حصلت الحركة فى تلك القطعة الصغيرة ظهرت تلك الحركة قال القائلون بهذا القول ان ظهور الحركة فى تلك القطعة المعينة من الارض يجرى مجرى اختلاج يحصل فى عضو معين من بدن الانسان أما لو تحركت كلية الارض لم تظهر تلك الحركة ألا ترى ان الساكن فى السفينة لا يحس بحركة كلية السفينة وان كانت واقعة على أسرع الوجوه وأقواها فكذا ههنا فهذا ما فى هذا الموضع من المباحث الدقيقة العميقة والذى عندى فى هذا الموضع المشكل أن يقال ثبت بالدلائل اليقينية ان الارض كرة وثبت ان هذه الجبال على سطح هذه الكرة جارية مجرى خشونات تحصل على وجه هذه الكرة اذا ثبت هذا فنقول لو فرضنا ان هذه الخشونات ما كانت حاصلة بل كانت الارض كرة حقيقية خالية عن الخشونات والتضريسات لصارت بحيث تتحرك بالاستدارة بادنى سبب لان الجرم البسيط المستدير اما أن يجب كونه متحركا بالاستدارة على نفسه وان لم يجب ذلك عقلا الا أنه بأدنى سبب يتحرك على هذا الوجه أما لما حصل على ظاهر سطح كرة الارض هذه الجبال وكانت كالخشونات الواقعة على وجه الكرة فكل واحد من هذه الجبال انما يتوجه بطبعه نحو مركز العالم وتوجه ذلك الجبل نحو مركز العالم بثقله العظيم وقوته الشديدة يكون جاريا مجرى الوتد الذى يمنع كرة الارض من الاستدارة فكان تخليق هذه الجبال على وجه الارض كالاوتاد المغروزة فى الكرة المانعة لها عن الحركة المستديرة فكانت مانعة للارض من الميد والميل والاضطراب بمعنى أنها منعت الارض من الحركة المستديرة فهذا ما وصل اليه بحثى فى هذا الباب والله أعلم بمراده (النعمة الثانية) من النعم التى أظهرها الله تعالى على وجه

الارض هي انه تعالى أجرى الانهار على وجه الارض واعلم انه حصل ههنا بحثان (البحث الاول) ان قوله وأنهارا معطوف على قوله وألقى في الارض رواسي والتقدير وألقى رواسي وانهارا وخلق الانهار لا يبعد ان يسمى بالالقاء فيقال ألقى الله في الارض أنهارا كما قال وألقى فيها رواسي والالقاء معناه الجعل الا ترى انه تعالى قال في آية أخرى وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها والالقاء يقارب الانزال لان الالقاء يدل على طرح الشيء من الاعلى الى الاسفل الا أن المراد من هذا الالقاء الجعل والخلق قال تعالى وألقيت عليك محبة مني (البحث الثاني) أنه ثبت في العلوم العقلية ان أكثر الانهار انما تتفجر منابعها في الجبال فلهذا السبب لما ذكر الله تعالى الجبال اتبع ذكرها بتفجير العيون والانهار (النعمة الثالثة) قوله تعالى وسبلا لعلكم تهتدون وهي أيضا معطوفة على قوله وألقى في الارض رواسي والتقدير وألقى في الارض سبلا ومعناه أنه تعالى أظهرها وبينها لاجل ان تهتدوا بها في أسفاركم ونظيره قوله تعالى في آية أخرى وسلك لكم فيها سبلا وقوله لعلكم تهتدون أي لكي تهتدوا واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه اظهر في الارض سبلا معينة ذكر أنه أظهر فيها علامات مخصوصة حتى يتمكن المكلف من الاستدلال بها فيصل بواسطتها الى مقصوده فقال وعلامات وهي أيضا معطوفة على قوله في الارض رواسي والتقدير وألقى في الارض رواسي وألقى فيها أنهارا وسبلا وألقى فيها علامات والمراد بالعلامات معالم الطرق وهي الاشياء التي بها يهتدي وهذه العلامات هي الجبال والرياح ورأيت جماعة يشمون التراب وبواسطة ذلك الشم يتعرفون الطرق قال الاخفش تم الكلام عند قوله وعلامات وقوله وبالنجم هم يهتدون كلام منفصل عن الاول والمراد بالنجم الجنس كقولك كثر الدرهم في أيدي الناس وعن السدي هو الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدي وقرأ الحسن وبالنجم بضمتين وبضمة فسكون وهو جمع نجم كرهن ورهن والسكون تخفيف وقيل حذف الواو من النجوم تخفيفا فان قيل قوله أن تميد بكم خطاب الحاضرين وقوله وبالنجم هم يهتدون خطاب للغائبين فما السبب فيه قلنا ان قريشا كانت تكثر أسفارها لطلب المال ومن كثرت أسفاره كان علمه بالمنافع الحاصلة من الاهتداء بالنجوم أكثر وأتم فقوله وبالنجم هم يهتدون اشارة الى قريش للسبب الذي ذكرناه والله أعلم واختلف المفسرون فمنهم من قال قوله وبالنجم هم يهتدون مختص بالبحر لانه تعالى لما ذكر صفة البحر وما فيه من المنافع بين ان من يسيرون فيه يهتدون بالنجم ومنهم من قال بل هو مطلق يدخل فيه السير في البر والبحر وهذا القول أولى لانه أعم في كونه نعمة ولان الاهتداء بالنجم قد يحصل في الوقتين معا ومن الفقهاء من يجعل ذلك دليلا على ان المسافر اذا عميت عليه القبلة فانه يجب عليه أن يستدل بالنجوم وبالعلامات التي في الارض وهي الجبال والرياح وذلك صحيح لانه كما يمكن الاهتداء بهذه العلامات في معرفة الطرق والمسالك فكذلك يمكن الاستدلال بها في معرفة طلب القبلة واعلم ان اشتباه القبلة اما أن يكون بعلامات لائحة أو لا يكون فان

مغن عن ذكر التسخير واعتذر بان الاول لا يستلزم الثاني لزوما عقليا لجواز كون ما خلق لهم عزيز المرام صعب المنال وقيل هو منصوب بفعل مقدر أي خلق وأنبت على أن قوله مختلفا ألوانه حال من مفعوله (ان في ذلك) الذي ذكر من التسخيرات ونحوها (لآية) بينة الدلالة على أن من هذا شأنه واحد لا ند له ولا ضد (لقوم يذكرون) فان ذلك غير محتاج الا الى تذكر ما عسى يغفل عنه من العلوم الضرورية وأما ما يقال من أن اختلافها في الطباع والهيآت والمناظر ليس الا بصنع صانع حكيم فدار وما أوحنا به من حسبان ما ذكر دليلا على اثبات الصانع تعالى وقد عرفت حقيقة الحال فان المراد ما يدل على اتصافه سبحانه بما ذكر من صفات الكمال ليس بطريق الاستدلال عليه بل من حيث ان ذلك من المقدمات المسلمة يجيء به للاستدلال به على ما يقتضيه ضرورة من وحدانيته تعالى واستحالة ان يشاركه شيء في الالوهية (وهو الذي سخر البحر) شروع في تعداد النعم المتعلقة بالبحر اثر تفصيل النعم المتعلقة بالبر حيوانا ونباتا أي جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به بالركوب والغوص والاصطياد (لتأكلوا منه لحما طريا) فما هو السمك والتعبير عنه باللحم مع كونه حيوانا للتلويح بانحصار الانتفاع به في الاكل ووصفه بالطراوة للاشعار بلطافته والتنبيه على وجوب المسارعة الى أكله كيلا يتسارع

كانت لائحة وجب أن يجب الاجتهاد ويتوجه الى حيث غلب على الظن انه هو القبلة فان تبين الخطأ وجب الاعادة لانه كان مقصرا فيما وجب عليه وان لم تظهر العلامات فههنا طريقان (أحدهما) ان يكون مخيرا فى الصلاة الى أى جهة شاء لان الجهات لما تساوت وامتنع الترجيح لم يبق الا التخيير (والطريق الثانى) ان يصلى الى جميع الجهات فحينئذ يعلم بيقين انه خرج عن العهدة وهذا كما يقوله الفقهاء فيمن نسى صلاة لا يعرفها بعينها ان الواجب عليه فى القضاء أن يأتى بالصلوات الخمس ليكون على يقين من قضاء ما لزمه ومنهم من يقول الواجب منها واحدة فقط وهذا غلط لانه لما لزمه ان يفعل الكل كان الكل واجبا وان كان سبب وجوب كل هذه الصلوات فوت الصلاة الواحدة والله أعلم

* قوله تعالى (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم والله يعلم ما تسرون وما تعلنون والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما ذكر الدلائل الدالة على وجود الاله القادر الحكيم على الترتيب الاحسن والنظم الاكمل وكانت تلك الدلائل كما انها كانت دلائل فكذلك أيضا كانت شرحا وتفصيلا لانواع نعم الله تعالى وأقسام احسانه أتبعه بذكر ابطال عبادة غير الله تعالى والمقصود أنه لما دلت هذه الدلائل الباهرة والبينات الزاهرة القاهرة على وجود القادر حكيم وثبت أنه هو الولى لجميع هذه النعم والمعطى لكل هذه الخيرات فكيف يحسن فى العقول الاشتغال بعبادة موجود سواه لاسيما اذا كان ذلك الموجود جمادا لا يفهم ولا يقدر فلهذا الوجه قال بعد تلك الآيات أفمن يخلق كمن لا يخلق افلا تذكرون والمعنى أفمن يخلق هذه الاشياء التى ذكرناها كمن لا يخلق بل لا يقدر البتة على شئ افلا تذكرون فان هذا القدر لا يحتاج الى تدبر وتفكر ونظر ويكفى فيه ان تتنبهوا على ما فى عقولكم من ان العبادة لا تليق الا بالمنعم الاعظم وأنتم ترون فى الشاهد انسانا عاقلا فاهما ينعم بالنعمة العظيمة ومع ذلك فتعلمون انه يقبح عبادته فهذه الاصنام جمادات محضة وليس لها فهم ولا قدرة ولا اختيار فكيف تقدمون على عبادتها وكيف تجوزون الاشتغال بخدمتها وطاعتها (المسئلة الثانية) المراد بقوله من لا يخلق الاصنام وانها جمادات فلا يليق بها لفظة من لانها لأولى العلم وأجيب عنه من وجوه (الاول) ان الكفار لما سموها آلهة وعبدوها لا جرم اجريت مجرى أولى العلم ألا ترى الى قوله على اثره والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون (والوجه الثانى) فى الجواب أن السبب فيه المشاكلة بينه وبين من يخلق (والثالث) أن يكون المعنى أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولى العلم فكيف من لا علم عنده كقوله ألهم أرجل يمشون بها يعنى ان الآلهة التى تدعونها حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب لان هؤلاء أحياء وهم أموات فكيف يصح منهم عبادتها وليس المراد أنه لو صحت لهم هذه الاعضاء لصح أن يعبدوا فان قيل

الى الفساد كما ينبئ عنه جعل البحر مبدأ أكله وللايذان بكمال قدرته تعالى فى خلقه عذبا طريا فى ماء زعاق ومن اطلاق اللحم عليه ذهب مالك والثورى أن من حلف لا يأكل اللحم حنث بأكله والجواب أن مبنى الايمان العرف ولا ريب فى انه لا يفهم من اللحم عند الاطلاق ولذلك لو أمر خادمه بشراء اللحم فجاء بالسمك لم يكن ممتثلا بالامر ألا يرى الى أن الله تعالى سمى الكافر دابة حيث قال ان شر الدواب عند الله الذين كفروا ولا يحنث بركوبه من حلف لا يركب دابة (وتستخرجوا منه حلية) كاللؤلؤ والمرجان (تلبسونها) عبر فى مقام الامتنان عن لبس نسائهم بلبسهم لكونهن منهم أو لكون لبسهن لاجلهم (وترى الفلك) السفن (مواخر فيه) جوارى فيه مقبلة ومدبرة ومعترضة بريح واحدة تشقه بحيزومها من المخر وهو شق الماء وقيل هو صوت جرى الفلك (ولتبتغوا) عطف على تستخرجوا وما عطف هو عليه وما بينهما اعتراض لتمهيد مبادى الابتغاء ودفع توهم كونه باستخراج الحلية أو على علة محذوفة أى لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا ذكره ابن الانبارى أو متعلقة بفعل محذوف أى وفعل ذلك لتبتغوا (من فضله) من سعة رزقه بركوبها للتجارة (ولعلكم تشكرون) أى تعرفون حقوق نعمه الجليلة فتقومون بأدائها بالطاعة والتوحيد ولعل تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر ﴿ قوله ﴾ من حيث ان فيها قطعا للمسافة طويلة مع أحمال ثقيلة فى مدة قليلة من غير مزاولة اسباب السفر بل من غير حركة اصلا مع انها فى تضاعيف المهالك وعدم توسط الفوز بالمطلوب بين الابتغاء والشكر

قوله أفمن يخلق كمن لا يخلق المقصود منه الزام عبدة الاوثان حيث جعلوا غير الخالق مثل الخالق فى التسمية بالاله وفى الاشتغال بعبادتها فكان حق الالزام أن يقال أفمن لا يخلق كمن يخلق والجواب المراد منه أن من يخلق هذه الاشياء العظيمة و يعطى هذه المنافع الجليلة كيف يسوى بينه و بين هذه الجمادات الخسيسة فى التسمية باسم الاله وفى الاشتغال بعبادتها والاقدام على غاية تعظيمها فوقع التعبير عن هذا المعنى بقوله أفمن يخلق كمن لا يخلق (المسئلة الثالثة) احتج بعض أصحابنا بهذه الآية على ان العبد غير خالق لافعال نفسه فقال انه تعالى ميز نفسه عن سائر الاشياء التى كانوا يعبدونها بصفة الخالقية لان قوله افمن يخلق كمن لا يخلق الغرض منه بيان كونه ممتازا عن الانداد بصفة الخالقية وانه انما استحق الالهية والمعبودية بسبب كونه خالقا فهذا يقتضى ان العبد لو كان خالقا لبعض الاشياء لوجب كونه الها معبودا ولما كان ذلك باطلا علمنا ان العبد لا يقدر على الخلق والايجاد قالت المعتزلة الجواب عنه من وجوه (الاول) ان المراد أفمن يخلق ما تقدم ذكره من السموات والارض والانسان والحيوان والنبات والبحار والنجوم والجبال كمن لا يقدر على خلق شىء اصلا فهذا يقتضى ان من كان خالقا لهذه الاشياء فانه يكون الها ولم يلزم منه ان من يقدر على افعال نفسه ان يكون الها (والثانى) ان معنى الآية ان من كان خالقا كان أفضل ممن لا يكون خالقا فوجب امتناع التسوية بينهما فى الالهية والمعبودية وهذا القدر لا يدل على ان كل من كان خالقا فانه يجب ان يكون الها والدليل عليه قوله تعالى ألهم أرجل يمشون بها ومعناه ان الذى حصل له رجل يمشى بها يكون أفضل من الذى حصل له رجل لا يقدر أن يمشى بها وهذا يوجب ان يكون الانسان أفضل من الصنم والافضل لا يليق به عبادة الاخس فهذا هو المقصود من هذه الآية ثم انها لا تدل على ان من حصل له رجل يمشى بها ان يكون الها فكذلك ههنا المقصود من هذه الآية بيان ان الخالق أفضل من غير الخالق فيمتنع التسوية بينهما فى الالهية والمعبودية ولا يلزم منه ان بمجرد حصول صفة الخالقية يكون الها (والوجه الثالث) فى الجواب ان كثيرا من المعتزلة لا يطلقون لفظ الخالق على العبد قال الكعبى فى تفسيره انا لا نقول انا نخلق أفعالنا قال ومن أطلق ذلك فقد أخطأ الا فى مواضع ذكرها الله تعالى كقوله واذ تخلق من الطين كهيئة الطير وقوله فتبارك الله أحسن الخالقين واعلم ان أصحاب أبى هاشم يطلقون لفظ الخالق على العبد حتى ان أبا عبد الله البصرى بالغ وقال اطلاق لفظ الخالق على العبد حقيقة وعلى الله مجاز لان الخلق عبارة عن التقدير وذلك عبارة عن الظن والحسبان وهو فى حق العبد حاصل وفى حق الله تعالى محال واعلم ان هذه الاجوبة قوية والاستدلال بهذه الآية على صحة مذهبنا ليس بقوى والله أعلم اما قوله تعالى وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما بين بالآيات المتقدمة ان الاشتغال بعبادة غير الله باطل وخطأ بين بهذه الآية ان العبد لا يمكنه الاتيان بعبادة الله تعالى وشكر نعمه والقيام

الايذان باستغنائه عن التصريح به و بحصولهما معا (وألقى فى الارض رواسى) اى جبالا ثوابت وقد مر تحقيقه فى أول سورة الرعد (أن تميد بكم) كراهة أن تميل بكم وتضطرب أو لئلا تميد بكم فان الارض قبل أن تخلق فيها الجبال كانت كرة خفيفة بسيطة الطبع وكان من حقها أن تتحرك بالاستدارة كالافلاك أو تتحرك بأدنى سبب محرك فلما خلقت الجبال تفاوتت جوانبها وتوجهت الجبال بثقلها نحو المركز فصارت كالاوتاد وقيل لما خلق الله تعالى الارض جعلت تمور فقالت الملائكة ما هى بمقر احد على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال (وأنهارا) أى وجعل فيه أنهارا لان فى ألقى معنى الجعل (وسبلا لعلكم تهتدون) بها الى مقاصدكم (وعلامات) معالم يستدل بها السابلة بالنهار من جبل ومنهل وريح وقد نقل أن جماعة يشمون التراب ويتعرفون به الطرقات (وبالنجم هم يهتدون) بالليل فى البرارى والبحار حيث لا علامة غيره والمراد بالنجم الجنس وقيل هو الثريا والفرقدان وبنات النعش والجدى وقرئ بضمتين وبضمة وسكون وهو جمع كرهن ورهن وقيل الاول بطريق حذف الواو من النجوم للتخفيف ولعل الضمير لقريش فانهم كانوا كثيرى التردد للتجارة مشهورين بالاهتداء بالنجوم فى أسفارهم وصرف النظم عن سنن الخطاب وتقديم النجم واقحام الضمير للتخصيص كأنه قيل وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون فالاعتبار بذلك والشكر عليه ألزم لهم وأوجب عليهم

(افمن يخلق) هذه المصنوعات العظيمة ويفعل هاتيك الافاعيل البديعة أو يخلق كل شيء (كمن لا يخلق) شيئا أصلا وهو تبكيت للكفرة وابطال لاشراكهم وعبادتهم للاصنام بانكار ما يستلزمه ذلك من المشابهة بينها وبينه سبحانه وتعالى بعد تعداد ما يقتضي ذلك اقتضاء ظاهرا وتعقيب الهمزة بالفاء لتوجيه الانكار الى ترتب توهم المشابهة المذكورة على ما فصل من الامور العظيمة الظاهرة الاختصاص به تعالى المعلومة كذلك فيما بينهم حسبما يؤذن به ما تلوناه من قوله تعالى ولئن سألتهم الآيتين والاقتصار على ذكر الخلق من بينها لكونه اعظمها وأظهرها واستتباعه اياها أو لكون كل منها خلقا مخصوصا أي أبعد ظهور اختصاصه تعالى ببدئية هذه الشؤون الواضحة الدلالة على وحدانيته تعالى وتفرده بالالوهية واستبداده باستحقاق العبادة يتصور المشابهة بينه وبين ما هو بمعزل من ذلك بالمرة كما هو قضية اشراككم ومدارها وان كان على تشبيه غير الخالق بالخالق لكن التشبيه حيث كان نسبة تقوم بالمنتسبين اختير ما عليه النظم الكريم مراعاة لحق سبق الملكة على العدم وتفاديا عن توسيط عدمها بينها وبين جزئياتها المفصلة قبلها وبعدها على كمال قبح ما فعلوه من حيث ان ذلك ليس مجرد رفع الاصنام عن محلها بل هو حط لمنزلة الربوبية الى مرتبة الجمادات ولا ريب في انه أقبح من الاول والمراد بمن لا يخلق كل ما هذا شأنه كائنا ما كان والتعبير عنه

بحقوق كرمه على سبيل الكمال والتمام بل العبد وان أتعب نفسه في القيام بالطاعات والعبادات وبالغ في شكر نعمة الله تعالى فانه يكون مقصرا وذلك لان الاشتغال بشكر النعم مشروط بعلمه بتلك النعم على سبيل التفصيل والتحصيل فان ما لا يكون متصورا ولا مفهوما ولا معلوما امتنع الاشتغال بشكره الا ان العلم بنعم الله تعالى على التفصيل غير حاصل للعبد لان نعم الله تعالى كثيرة واقسامها وشعبها واسعة عظيمة وعقول الخلق قاصرة عن الاحاطة بمباديها فضلا عن غاياتها فثبت انها غير معلومة على سبيل التفصيل وما كان كذلك امتنع الاشتغال بشكره على الوجه الذي يكون ذلك الشكر لائقا بتلك النعم فهذا هو المفهوم من قوله وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها يعني انكم لا تعرفونها على سبيل التمام والكمال واذا لم تعرفوها امتنع منكم القيام بشكرها على سبيل التمام والكمال وذلك يدل على ان شكر الخلق قاصر عن نعم الحق وعلى ان طاعات الخلق قاصرة عن ربوبية الحق وعلى ان معارف الخلق قاصرة عن كنه جلال الحق ومما يدل قطعا على أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة اقسام نعم الله تعالى ان كل جزء من اجزاء البدن الانساني لو ظهر فيه أدنى خلل لتنغص العيش على الانسان ولتمنى ان ينفق كل الدنيا حتى يزول عنه ذلك الخلل ثم انه تعالى يدبر أحوال بدن الانسان على الوجه الاكمل الاصلح مع ان الانسان لا علم له بوجود ذلك الجزء ولا بكيفية مصالحه ولا بدفع مفاسده فليكن هذا المثال حاضرا في ذهنك ثم تأمل في جميع ما خلق الله في هذا العالم من المعادن والنبات والحيوان وجعلها مهيأة لانتفاعك بها حتى تعلم ان عقول الخلق تفنى في معرفة حكمة الرحمن في خلق الانسان فضلا عن سائر وجوه الفضل والاحسان فان قيل فلما قررتم ان الاشتغال بالشكر موقوف على حصول العلم باقسام النعم ودللتم على ان حصول العلم باقسام النعم محال أو غير واقع فكيف أمر الله الخلق بالقيام بشكر النعم قلنا الطريق اليه أن يشكر الله تعالى على جميع نعمه مفصلها ومجملها فهذا هو الطريق الذي به يمكن الخروج عن عهدة الشكر والله أعلم (المسئلة الثانية) قال بعضهم انه ليس لله على الكافر نعمة وقال الاكثرون لله على الكافر والمؤمن نعم كثيرة والدليل عليه ان الانعام بخلق السموات والارض والانعام بخلق الانسان من النطفة والانعام بخلق الانعام وبخلق الخيل والبغال والحمير وبخلق اصناف النعم من الزرع والزيتون والنخيل والاعناب وبتسخير البحر ليأكل الانسان منه لحما طريا ويستخرج منه حلية يلبسها كل ذلك مشترك فيه بين المؤمن والكافر ثم أكد تعالى ذلك بقوله تعالى وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها وذلك يدل على ان كل هذه الاشياء نعم من الله تعالى في حق الكل وهذا يدل على ان نعم الله واصلة الى الكفار والله أعلم أما قوله ان الله لغفور رحيم اعلم انه تعالى قال في سورة ابراهيم وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار وقال ههنا ان الله لغفور رحيم والمعنى انه لما بين ان الانسان لا يمكنه القيام باداء الشكر على سبيل التفصيل قال ان الله لغفور رحيم أي غفور

للتقصير الصادر عنكم فى القيام بشكر نعمه رحيم بكم حيث لم يقطع نعمه عنكم بسبب تقصيركم أما قوله والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ففيه وجهان (الاول) ان الكفار كانوا مع اشتغالهم بعبادة غير الله تعالى يسرون ضروبا من الكفر فى مكايد الرسول عليه السلام فجعل هذا زجرا لهم عنها (والثانى) انه تعالى زيف فى الآية الاولى عبادة الاصنام بسبب انه لا قدرة لها على الخلق والانعام وزيف فى هذه الآية أيضا عبادتها بسبب ان الاله يجب أن يكون عالما بالسر والعلانية وهذه الاصنام جمادات لا معرفة لها بشئ أصلا فكيف تحسن عبادتها أما قوله والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون فاعلم انه تعالى وصف هذه الاصنام بصفات كثيرة (فالصفة الاولى) انهم لا يخلقون شيئا وهم يخلقون قرأ حفص عن عاصم يسرون و يعلنون و يدعون كلها بالياء على الحكاية عن الغائب وقرأ أبو بكر عن عاصم يدعون بالياء خاصة على المغايبة وتسرون وتعلنون بالتاء على الخطاب والباقون كلها بالتاء على الخطاب عطفا على ما قبله فان قيل أليس ان قوله فى أول الآية أفمن يخلق كمن لا يخلق يدل على ان هذه الاصنام لا تخلق شيئا وقوله ههنا لا يخلقون شيئا يدل على نفس هذا المعنى فكان هذا محض التكرير وجوابه ان المذكور فى أول الآية انهم لا يخلقون شيئا والمذكور ههنا أنهم لا يخلقون شيئا وانهم مخلوقون لغيرهم فكان هذا زيادة فى المعنى وكأنه تعالى بدأ بشرح نقصهم فى ذواتهم وصفاتهم فبين أولا انها لا تخلق شيئا ثم بين ثانيا انها كما لا تخلق غيرها فهى مخلوقة لغيرها (والصفة الثانية) قوله أموات غير أحياء والمعنى انها لو كانت آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات أى غير جائز عليها الموت كالحى الذى لا يموت سبحانه وتعالى وأمر هذه الاصنام على العكس من ذلك فان قيل لما قال أموات علم أنها غير أحياء فما الفائدة فى قوله غير أحياء والجواب من وجهين (الاول) ان الاله هو الحى الذى لا يحصل عقيب حياته موت وهذه الاصنام أموات لا يحصل عقيب موتها الحياة (والثانى) ان هذا الكلام مع الكفار الذين يعبدون الاوثان وهم فى نهاية الجهالة والضلالة ومن تكلم مع الجاهل الغر الغبى فقد يحسن ان يعبر عن المعنى الواحد بالعبارات الكثيرة وغرضه منه الاعلام بكون ذلك المخاطب فى غاية الغباوة وأنه انما يعيد تلك الكلمات لكون ذلك السامع فى نهاية الجهالة وانه لا يفهم المعنى المقصود بالعبارة الواحدة (الصفة الثالثة) قوله وما يشعرون أيان يبعثون والضمير فى قوله وما يشعرون عائد الى الاصنام وفى الضمير فى قوله يبعثون قولان (احدهما) انه عائد الى العابدين للاصنام يعنى ان الاصنام لا يشعرون متى تبعث عبدتهم وفيه تهكم بالمشركين وان آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم (والثانى) انه عائد الى الاصنام يعنى ان هذه الاصنام لا تعرف متى يبعثها الله تعالى قال ابن عباس ان الله يبعث الاصنام ولها أرواح ومعها شياطينها فيؤمر بها الى النار فان قيل الاصنام جمادات والجمادات لا توصف بانها أموات ولا توصف بانهم لا يشعرون كذا وكذا والجواب عنه من وجوه

بما يختص بالعقلاء للمشاكلة او العقلاء خاصة ويعرف منه حال غيرهم بدلالة النص فان من يخلق حيث لم يكن كمن لا يخلق وهو من جملة العقلاء فما ظنك بالجماد وأياما كان فدخول الاصنام فى حكم عدم المماثلة والمشابهة اما بطريق الاندراج تحت الموصول العام واما بطريق الافهام بدلالة النص على الطريقة البرهانية لا بأنها هى المرادة بالموصول خاصة (أفلا تذكرون) أى ألا تلاحظون فلا تذكرون ذلك فانه لوضوحه بحيث لا يفتقر الى شئ سوى التذكر (وان تعدوا نعمة الله) تذكير اجمالى لنعمه تعالى بعد تعداد طائفة منها وكان الظاهر ايراده عقيبها تكملة لها على طريقة قوله تعالى ويخلق ما لا تعلمون ولعل فصل ما بينهما بقوله تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون للمبادرة الى الزام الحجة والقاء الحجر اثر تفصيل ما فصل من الافاعيل التى هى ادلة الوحدانية مع ما فيه من سر ستقف عليه ودلالتها عليها وان لم تكن مقصورة على حيثية الخلق ضرورة ظهور دلالتها عليها من حيثية الانعام ايضا لكنها حيث كانت من مستتبعات الحيثية الاولى استغنى عن التصريح بها ثم بين حالها بطريق الاجمال أى ان تعدوا نعمه الفائضة عليكم مما ذكر وما لم يذكر حسبما يعرب عنه قوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا (لا تحصوها) اى لا تطيقوا حصرها وضبط عددها ولو اجمالا فضلا عن القيام بشكرها وقد خرجنا عن عهدة تحقيقه فى سورة ابراهيم بفضل الله

سبحانه (ان الله لغفور) حيث يستر ما فرط منكم من كفرانها والاخلال بالقيام بحقوقها ولايعاجلكم بالعقوبة على ذلك (رحيم) حيث يفيضها عليكم مع استحقاقكم القطع والحرمان بما تأتون ﴿٤٤٦﴾ وتذرون من أصناف الكفر التى من جملتها عدم الفرق بين الخالق وغيره وكل من ذلك نعمة وأى نعمة فالجملة تعليل للحكم بعدم الاحصاء وتقديم وصف المغفرة على نعت الرحمة لتقدم التخلية على التحلية (والله يعلم ماتسرون) تضمرونه من العقائد والاعمال (وما تعلنون) أى تظهرونه منهما وحذف العائد لمراعاة الفواصل أى يستوى بالنسبة الى علمه المحيط سركم وعلنكم وفيه من الوعيد والدلالة على اختصاصه سبحانه بنعوت الالهية مالايخفى وتقديم السر على العلن لما ذكرناه فى سورة البقرة وسورة هود من تحقيق المساواة بين علميه المتعلقين بهما على ابلغ وجه كان علمه تعالى بالسر اقدم منه بالعلن أولان كل شئ يعلن فهو قبل ذلك مضمر فى القلب فتعلق علمه تعالى بحالته الاولى اقدم من تعلقه بحالته الثانية (والذين يدعون) شروع فى تحقيق كون الاصنام بمعزل من استحقاق العبادة وتوضيحه بحيث لايبقى فيه شائبة ريب بتعديد أوصافها واحوالها المنافية لذلك منافاة ظاهرة وتلك ﴿ الذى ﴾ الاحوال وان كانت غنية عن البيان لكنها شرحت للتنبيه على كمال حماقة عبدتها وأنهم لايعرفون ذلك الابالتصريح أى والآلهة الذين يعبدهم الكفار (من دون الله) سبحانه وقرئ على صيغة المبنى

(الاول) ان الجماد قد يوصف بكونه ميتا قال تعالى يخرج الحى من الميت (الثانى) ان القوم لما وصفوا تلك الاصنام بالالهية والمعبودية قيل لهم ليس الامر كذلك بل هى اموات ولايعرفون شيئا فنزلت هذه العبارات على وفق معتقدهم (والثالث) أن يكون المراد بقوله والذين يدعون من دون الله الملائكة وكان ناس من الكفار يعبدونهم فقال الله انهم اموات لابدلهم من الموت غير أحياء أى غير باقية حياتهم ومايشعرون ايان يبعثون أى لاعلم لهم بوقت بعثهم والله أعلم * قوله تعالى (الهكم اله واحد فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون لاجرم أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون انه لايحب المستكبرين) اعلم انه تعالى لما زيف فيما تقدم طريقة عبدة الاوثان والاصنام وبين فساد مذهبهم بالدلائل القاهرة قال الهكم اله واحد ثم ذكر تعالى مالاجله أصر الكفار على القول بالشرك وانكار التوحيد فقال فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون والمعنى ان الذين يؤمنون بالآخرة يرغبون فى الفوز بالثواب الدائم ويخافون الوقوع فى العقاب الدائم اذا سمعوا الدلائل والترغيب والترهيب خافوا العقاب فتأملوا وتفكروا فيما يسمعونه فلاجرم ينتفعون بسماع الدلائل ويرجعون من الباطل الى الحق أما الذين لايؤمنون بالآخرة وينكرونها فانهم لايرغبون فى حصول الثواب ولايرهبون من الوقوع فى العقاب فيبقون منكرين لكل كلام يخالف قولهم ويستكبرون عن الرجوع الى قول غيرهم فلاجرم يبقون مصرين على ما كانوا عليه من الجهل والضلال ثم قال تعالى لاجرم أن الله يعلم مايسرون ومايعلنون والمعنى انه تعالى يعلم ان اصرارهم على هذه المذاهب الفاسدة ليس لاجل شبهة تصوروها أواشكال تخيلوه بل ذلك لاجل التقليد والنفرة عن الرجوع الى الحق والشغف بنصرة مذاهب الاسلاف والتكبر والنخوة فلهذا قال انه لايحب المستكبرين وهذا الوعيد يتناول كل المتكبرين * قوله تعالى (واذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الاولين ليحملوا اوزارهم كاملة يوم القيامة ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم ألاساء مايزرون) اعلم انه تعالى لما بالغ فى تقرير دلائل التوحيد واورد الدلائل القاهرة فى أبطال مذاهب عبدة الاصنام ذكر بعد ذلك شبهات منكرى النبوة مع الجواب عنها (فالشبهة الاولى) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما احتج على صحة نبوة نفسه بكون القرآن معجزة طعنوا فى القرآن وقالوا انه اساطير الاولين وليس هو من جنس المعجزات وفى الاية مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى ان ذلك السائل من كان قيل هو من كلام بعضهم لبعض وقيل هو قول المسلمين لهم وقيل هو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم (المسئلة الثانية) لقائل ان يقول كيف يكون تنزيل ربهم اساطير الاولين وجوابه من وجوه (الاول) انه مذكور على سبيل السخرية كقوله تعالى عنهم ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون وقوله ياأيها

الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون وقولهم ياأيها الساحر ادع لنا ربك (الثانى) أن يكون التقدير هذا الذى تذكرون انه منزل من ربكم هو أساطير الاولين (الثالث) يحتمل أن يكون المراد أن هذا القرآن بتقدير أن يكون مما أنزله الله لكنه اساطير الاولين ليس فيه شئ من العلوم والفصاحة والدقائق والحقائق واعلم انه تعالى لما حكى شبههم قال ليحملوا اوزارهم كاملة يوم القيامة اللام فى ليحملوا لام العاقبة وذلك لانهم لم يصفوا القرآن بكونه اساطير الاولين لاجل أن يحملوا الاوزار ولكن لما كانت عاقبتهم ذلك حسن ذكر هذه اللام كقوله فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وقوله كاملة معناه انه تعالى لا يخفف من عقابهم شيأ بل يوصل ذلك العقاب بكليته اليهم وأقول هذا يدل على أنه تعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين اذ لو كان هذا المعنى حاصلا فى حق الكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل معنى وقوله ومن أوزار الذين يضلونهم معناه ويحصل للرؤساء مثل أوزار الاتباع والسبب فيه ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ايما داع دعا الى الهدى فاتبع كان له مثل أجر من اتبعه لا ينقص من أجورهم شئ وايما داع دعا الى ضلالة فاتبع كان عليه مثل وزر من اتبعه لا ينقص من آثامهم شئ واعلم أنه ليس المراد منه أنه تعالى يوصل العقاب الذى يستحقه الاتباع الى الرؤساء وذلك لان هذا لا يليق بعدل الله تعالى والدليل عليه قوله تعالى وأن ليس للانسان الا ماسعى وقوله ولا تزر وازرة وزر أخرى بل المعنى ان الرئيس اذا وضع سنة قبيحة عظم عقابه حتى ان ذلك العقاب يكون مساويا لكل مايستحقه كل واحد من الاتباع قال الواحدى ولفظة من فى قوله ومن أوزار الذين يضلونهم ليست للتبعيض لانها لو كانت للتبعيض لخف عن الاتباع بعض أوزارهم وذلك غير جائز لقوله عليه السلام من غير أن ينقص من أوزارهم شئ ولكنها للجنس أى ليحملوا من جنس أوزار الاتباع وقوله بغير علم يعنى ان هؤلاء الرؤساء انما يقدمون على هذا الاضلال جهلا منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد على ذلك الاضلال ثم انه تعالى ختم الكلام بقوله ألا ساء مايزرون والمقصود المبالغة فى الزجر فان قيل انه تعالى لما حكى عن القوم هذه الشبهة لم يجب عنها بل اقتصر على محض الوعيد فالسبب فيه قلنا السبب فيه أنه تعالى بين كون القرآن معجزا بطريقين (الاول) أنه صلى الله عليه وسلم تحداهم بكل القرآن وتارة بعشر سورة وتارة بسورة واحدة وتارة بحديث واحد وعجزوا عن المعارضة وذلك يدل على كونه معجزا (الثانى) انه تعالى حكى هذه الشبهة بعينها فى آية أخرى وهو قوله اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا وابطلها بقوله قل انزله الذى يعلم السر فى السموات والارض ومعناه أن القرآن مشتمل على الاخبار عن الغيوب وذلك لا يتأتى الا ممن يكون عالما باسرار السموات والارض فلما ثبت كون القرآن معجزا بهذين الطريقين وتكرر شرح هذين الطريقين مرارا كثيرة لاجرم اقتصر فى هذه الآية على مجرد الوعيد ولم يذكر مايجرى مجرى الجواب عن هذه الشبهة والله أعلم * قوله تعالى (قد مكر الذين

المفعول وخلى الخطاب (لا يخلقون شيأ) من الاشياء اصلا أى ليس من شأنهم ذلك ولما لم يكن بين نفى الخالقية وبين المخلوقية تلازم بحسب المفهوم وان تلازما فى الصدق أثبت لهم ذلك صريحا فقيل (وهم يخلقون) أى شأنهم ومقتضى ذاتهم المخلوقية لانها ذوات ممكنة مفتقرة فى ماهياتها ووجوداتها الى الموجد وبناء الفعل للمفعول لتحقيق التضاد والمقابلة بين ماأثبت لهم وبين مانفى عنهم من وصفى المخلوقية والخالقية وللايذان بعدم الافتقار الى بيان الفاعل لظهور اختصاص الفعل بفاعله جل جلاله ويجوز أن يجعل الخلق الثانى عبارة عن النحت والتصوير رعاية للمشاكلة بينه وبين الاول ومبالغة فى كونهم مصنوعين لعبدتهم وأعجز عنهم وايذانا بكمال ركاكة عقولهم حيث أشركوا بخالقهم مخلوقهم وأما جعل الاول أيضا عبارة عن ذلك كما فعل فلا وجه له اذ القدرة على مثل ذلك الخلق ليست مما يدور عليه استحقاق العبادة أصلا ولما أن اثبات المخلوقية لهم غير مستدع لنفى الحياة عنهما لما أن بعض المخلوقين أحياء صرح بذلك فقيل (اموات) وهو خبر ثان للموصول لا للضمير كما قيل أو خبر مبتدأ محذوف وحيث كان بعض الاموات مما يعتريه الحياة سابقا أو لاحقا كاجساد الحيوان والنطف التى ينشئها الله تعالى حيوانا احترز عن ذلك فقيل (غير أحياء) أى لا يعتريها الحياة أصلا فهى أموات على الاطلاق وأما قوله تعالى (ومايشعرون أيان

من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم قال الذين أوتوا العلم ان الخزي اليوم والسوء على الكافرين الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى انفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون) اعلم ان المقصود من هذه الآية المبالغة فى وصف وعيد أولئك الكفار وفى المراد بالذين من قبلهم قولان (الاول) وهو قول الاكثر من المفسرين ان المراد منه نمروذ بن كنعان بنى صرحا عظيما ببابل طول خمسة آلاف ذراع وقيل فرسخان ورام منه الصعود الى السماء ليقاتل أهلها فالمراد بالمكر ههنا بناء الصرح لمقاتلة أهل السماء (والقول الثانى) وهو الاصح أن هذا عام فى جميع المبطلين الذين يحاولون الحاق الضرر والمكر بالمحقين أما قوله تعالى فأتى الله بنيانهم من القواعد ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ان الاتيان والحركة على الله محال فالمراد أنهم لما كفروا أتاهم الله بزلازل قلع بها بنيانهم من القواعد والاساس (المسئلة الثانية) فى قوله فأتى الله بنيانهم من القواعد قولان (الاول) أن هذا محض التمثيل والمعنى أنهم رتبوا منصوبات ليمكروا بها أنبياء الله تعالى فجعل الله تعالى حالهم فى تلك المنصوبات مثل حال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالاساطين فانهدم ذلك البناء وضعفت تلك الاساطين فسقط السقف عليهم ونظيره قولهم من حفر بئرا لأخيه أوقعه الله فيه (والقول الثانى) أن المراد منه ما دل عليه الظاهر وهو أنه تعالى أسقط عليهم السقف وأماتهم تحته والاول أقرب الى المعنى أما قوله تعالى فخر عليهم السقف من فوقهم ففيه سؤال وهو ان السقف لا يخر الا من فوقهم فما معنى هذا الكلام وجوابه من وجهين (الاول) أن يكون المقصود التأكيد (والثانى) ربما خر السقف ولا يكون تحته أحد فلما قال فخر عليهم السقف من فوقهم دل هذا الكلام على أنهم كانوا تحته وحينئذ يفيد هذا الكلام ان الابنية قد تهدمت وهم ماتوا تحتها وقوله وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ان حملنا هذا الكلام على محض التمثيل فالامر ظاهر والمعنى انهم اعتمدوا على منصوباتهم ثم تولد البلاء منها بأعيانها وان حملناه على الظاهر فالمعنى أنه نزل ذلك السقف عليهم بغتة لانه اذا كان كذلك كان أعظم فى الزجر لمن سلك مثل سبيلهم ثم بين تعالى أن عذابهم لا يكون مقصورا على هذا القدر بل الله تعالى يخزيهم يوم القيامة والخزي هو العذاب مع الهوان وفسر تعالى ذلك الهوان بأنه تعالى يقول لهم أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم وفيه ابحاث (الاول) قال الزجاج قوله أين شركائى معناه أين شركائى فى زعمكم واعتقادكم ونظيره قوله أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون وقال ايضا وقال شركاؤهم ما كنتم ايانا تعبدون وانما حسنت هذه الاضافة لانه يكفى فى حسن الاضافة ادنى سبب وهذا كما يقال لمن يحمل خشبة خذ طرفك وآخذ طرفى فأضيف الطرف اليه (البحث الثانى) قوله تشاقون فيهم أى تعادون وتخاصمون المؤمنين فى شأنهم وقيل المشاقة عبارة عن كون

يبعثون) أي ما يشعر أولئك الآلهة أيان يبعث عبدتهم فعلى طريقة التهكم بهم لان شعور الجماد بالامور الظاهرة بديهي الاستحالة عند كل أحد فكيف بما لا يعلمه الا العليم الخبير وفيه ايذان بأن البعث من لوازم التكليف وأن معرفة وقته مما لا بد منه فى الالوهية (الهكم اله واحد) لا يشاركه شيء فى شيء وهو تصريح بالمدعى وتمحيض للنتيجة عقب اقامة الحجة (فالذين لا يؤمنون بالآخرة) واحوالها التى من جملتها ما ذكر من البعث وما يعقبه من الجزاء المستلزم لعقوبتهم وذلتهم (قلوبهم منكرة) للوحدانية جاحدة لها أو للآيات الدالة عليها (وهم مستكبرون) عن الاعتراف بها أو عن الآيات الدالة عليها والفاء للايذان بأن اصرارهم على الانكار واستمرارهم على الاستكبار وقع موقع النتيجة للدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة والمعنى انه قد ثبت بما قرر من الحجج والبينات اختصاص الالهية به سبحانه فكان من نتيجة ذلك اصرارهم على ما ذكر من الانكار والاستكبار وبناء الحكم المذكور على الموصول للاشعار بكونه معللا بما فى حيز الصلة فان الكفر بالآخرة وبما فيها من البعث والجزاء المتنوع الى الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية يؤدى الى قصر النظر على العاجل والاعراض عن الدلائل السمعية والعقلية الموجب لانكارها وانكار مؤداها والاستكبار عن اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام وتصديقه وأما الايمان بها وبما فيها

أحد الخصمين فى شق وكون الآخر فى الشق الآخر (البحث الثالث) قرأ نافع تشاقون بكسر النون على الاضافة والباقون بفتح النون على الجمع ثم قال تعالى قال الذين أوتوا العلم ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين وفيه بحثان (الاول) قال الذين أوتوا العلم قال ابن عباس يريد الملائكة وقال آخرون هم المؤمنون يقولون حين يرون خزى الكفار يوم القيامة ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين والفائدة فيه أن الكفار كانوا ينكرون على المؤمنين فى الدنيا فاذا ذكر المؤمن هذا الكلام يوم القيامة فى معرض اهانة الكافر كان وقع هذا الكلام على الكافر وتأثيره فى ايذائه أكمل وحصول الشماتة به أقوى (البحث الثانى) المرجئة احتجوا بهذه الآية على أن العذاب مختص بالكافر قالوا لان قوله تعالى ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين يدل على أن ماهية الخزى والسوء فى يوم القيامة مختصة بالكافر وذلك ينفى حصول هذه الماهية فى حق غيرهم وتأكد هذا بقول موسى عليه السلام انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى ثم انه تعالى وصف عذاب هؤلاء الكفار من وجه آخر فقال الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قرأ حمزة يتوفاهم الملائكة بالياء لان الملائكة ذكور والباقون بالتاء للفظ ثم قال فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء وفيه قولان (الاول) أنه تعالى حكى عنهم القاء السلم عند القرب من الموت قال ابن عباس أسلموا وأقروا لله بالعبودية عند الموت وقوله ما كنا نعمل من سوء اى قالوا ما كنا نعمل من سوء والمراد من هذا السوء الشرك فقالت الملائكة ردا عليهم وتكذيبا بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون من التكذيب والشرك ومعنى بلى رد لقولهم ما كنا نعمل من سوء وفيه قولان (الاول) انه تعالى حكى عنهم القاء السلم عند القرب من الموت (والقول الثانى) انه تم الكلام عند قوله ظالمى أنفسهم ثم عاد الكلام الى حكاية كلام المشركين يوم القيامة والمعنى انهم يوم القيامة ألقوا السلم وقالوا ما كنا نعمل فى الدنيا من سوء ثم ههنا اختلفوا فالذين جوزوا الكذب على أهل القيامة قالوا هذا القول منهم على سبيل الكذب وانما أقدموا على هذا الكذب لغاية الخوف و الذين قالوا ان الكذب لايجوز عليهم قالوا معنى الآية ما كنا نعمل من سوء عند أنفسنا أو فى اعتقادنا وأما بيان أن الكذب على أهل القيامة هل يجوز أم لا فقد ذكرناه فى سورة الانعام فى تفسير قوله تعالى ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين واعلم انه تعالى لما حكى عنهم انهم قالوا ما كنا نعمل من سوء قال بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون ولايبعد أن يكون قائل هذا القول هو الله تعالى أو بعض الملائكة ردا عليهم وتكذيبا لهم ومعنى بلى الرد لقولهم ما كنا نعمل من سوء وقوله ان الله عليم بما كنتم تعملون يعنى انه عالم بما كنتم عليه فى الدنيا فلا ينفعكم هذا الكذب فانه يجازيكم على الكفر الذى علمه منكم ثم صرح بذكر العقاب فقال (فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها) وهذا يدل على تفاوت منازلهم فى العقاب فيكون عقاب بعضهم أعظم من عقاب بعض وانما صرح تعالى بذكر الخلود

فيدعو لامحالة الى التأمل فى الآيات والدلائل رغبة ورهبة فيورث ذلك يقينا بالوحدانية وخضوعا لامر الله تعالى (لاجرم) أى حقا وقد مر تحقيقه فى سورة هود (ان الله يعلم مايسرون) من قلوبهم (ومايعلنون) من استكبارهم وقولهم للقرآن اساطير الاولين وغير ذلك من قبائحهم فيجازيهم بذلك (انه لايحب المستكبرين) تعليل لما تضمنه الكلام من الوعيد أى لايحب المستكبرين عن التوحيد أو عن الآيات الدالة عليها أو لايحب جنس المستكبرين فكيف بمن استكبر عما ذكر (واذا قيل لهم) أى لاولئك المنكرين المستكبرين وهو بيان لاضلالهم غب بيان ضلالهم (ماذا انزل ربكم) القائل الوافدون عليهم والمسلمون أو بعض منهم على طريق التهكم وماذا منصوب بما بعده أو مرفوع أى أى شئ انزل أو ما الذى انزله (قالوا أساطير الاولين) أى ما تدعون نزوله او المنزل بطريق السخرية أحاديث الاولين وأباطيلهم وليس من الانزال فى شئ قيل هؤلاء القائلون هم المقتسمون الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند سؤال وفود الحاج عما نزل عليه عليه السلام (ليحملوا) متعلق بقالوا أى قالوا ما قالوا ليحملوا (أوزارهم) الخاصة بهم وهى أوزار ضلالهم (كاملة) لم يكفر منها شئ بنكبة أصابتهم فى الدنيا كما يكفر بها أوزار المؤمنين (يوم القيامة) ظرف ليحملوا

ليكون الغم والحزن أعظم ثم قال (فلبئس مثوى المتكبرين) عن قبول التوحيد وسائر ما أتت به الانبياء وتفسير التكبر قد مر فى هذا الكتاب غير مرة والله أعلم * قوله تعالى (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الانهار لهم فيها ما يشاؤن كذلك يجزى الله المتقين الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) اعلم أنه تعالى لما بين أحوال الاقوام الذين اذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الاولين وذكر انهم يحملون أوزارهم ومن أوزار أتباعهم وذكر أن الملائكة تتوفاهم ظالمى أنفسهم وذكر انهم فى الآخرة يلقون السلم وذكر انه تعالى يقول لهم ادخلوا أبواب جهنم أتبعه بذكر وصف المؤمنين الذين اذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا وذكر ما أعده لهم فى الدنيا والآخرة من منازل الخيرات ودرجات السعادات ليكون وعد هؤلاء مذكورا مع وعيد أولئك وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال القاضى يدخل تحت التقوى ان يكون تاركا لكل المحرمات فاعلا لكل الواجبات ومن جمع بين هذين الامرين فهو مؤمن كامل الايمان وقال أصحابنا يريد الذين اتقوا الشرك وأيقنوا أنه لا اله الا الله محمد رسول الله وأقول هذا أولى مما قاله القاضى لانا بينا أنه يكفى فى صدق قوله فلان قاتل أو ضارب كونه آتيا بقتل واحد وضرب واحد ولا يتوقف صدق هذا الكلام على كونه آتيا بجميع أنواع القتل وجميع أنواع الضرب فعلى هذا قوله وقيل للذين اتقوا يتناول كل من أتى بنوع واحد من أنواع التقوى الا انا أجمعنا على أنه لا بد من التقوى عن الكفر والشرك فوجب أن لا يزيد على هذا القيد لانه لما كان تقييد المطلق خلاف الاصل كان تقييد المقيد أكثر مخالفة للاصل وأيضا فلانه تعالى انما ذكر هؤلاء فى مقابلة أولئك الذين كفروا وأشركوا فوجب أن يكون المراد من اتقى عن ذلك الكفر والشرك والله أعلم (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول انه قال فى الآية الاولى قالوا أساطير الاولين وفى هذه الآية قالوا خيرا فلم رفع الاول ونصب هذا أجاب صاحب الكشاف عنه بأن قال المقصود منه الفصل بين جواب المقر وجواب الجاحد يعنى ان هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفا مفعولا للانزال فقالوا خيرا أى انزل خيرا وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا هو أساطير الاولين وليس من الانزال فى شئ (المسئلة الثالثة) قال المفسرون هذا كان فى أيام الموسم يأتى الرجل مكة فيسأل المشركين عن محمد وأمره فيقولون انه ساحر وكاهن وكذاب فيأتى المؤمنين ويسألهم عن محمد وما أنزل الله عليه فيقولون خيرا والمعنى أنزل خيرا ويحتمل أن يكون المراد الذى قالوه من الجواب موصوف بأنه خير وقولهم خير جامع لكونه حقا وصوابا ولكونهم معترفين بصحته ولزومه فهو بالضد من قول الذين لا يؤمنون بالآخرة ان ذلك أساطير الاولين على وجه التكذيب (المسئلة الرابعة) قوله الذين

(ومن أوزار الذين يضلونهم) وبعض أوزار من ضل باضلالهم وهو وزر الاضلال لانهما شريكان هذا يضله وهذا يطاوعه فيتحاملان الوزر واللام للتعليل فى نفس الامر من غير أن يكون غرضا وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرار الاضلال أو باعتبار حال قولهم لا حال الحمل (بغير علم) حال من الفاعل أى يضلونهم غير عالمين بان ما يدعون اليه طريق الضلال وأما حمله على معنى غير عالمين بأنهم يحملون يوم القيامة أوزار الضلال والاضلال على أن يكون العامل فى الحال قالوا وتأييده بما سيأتى من قوله تعالى وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون من حيث ان حمل ما ذكر من أوزار الضلال والاضلال من قبيل اتيان العذاب من حيث لا يشعرون فيرده أن الحمل المذكور انما هو يوم القيامة والعذاب المذكور انما هو العذاب الدنيوى كما ستقف عليه أو حال من المفعول أى يضلون من لا يعلم انهم ضلال وفائدة التقييد بها الاشعار بأن مكرهم لا يروج عند ذى لب وانما يتبعهم الاغبياء والجهلة والتنبيه على أن جهلهم ذلك لا يكون عذرا اذ كان يجب عليهم أن يبحثوا ويميزوا بين المحق الحقيق بالاتباع وبين المبطل (ألا ساء ما يزرون) أى بئس شيئا يزرونه ما ذكر (قد مكر الذين من قبلهم) وعيد لهم برجوع غائلة مكرهم الى أنفسهم كدأب من قبلهم من الامم الخالية الذين أصابهم ما أصابهم من

﴿ أحسنوا ﴾

أحسنوا ومابعده بدل من قوله خيرا وهو حكاية لقول الذين اتقوا أى قالوا هذا القول ويجوز أيضا أن يكون قوله للذين أحسنوا اخبارا عن الله والتقدير ان المتقين لما قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا ثم انه تعالى أكد قولهم وقال للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة وفى المراد بقوله للذين أحسنوا قولان أما الذين يقولون ان أهل لا اله الا الله يخرجون من النار فانهم يحملونه على قول لا اله الا الله مع الاعتقاد الحق وأما المعتزلة الذين يقولون ان فساق أهل الصلاة لايخرجون من النار يحملون قوله أحسنوا على من اتى بالايمان وجميع الواجبات واحترز عن كل المحرمات وأما قوله فى هذه الدنيا ففيه قولان (أحدهما) انه متعلق بقوله أحسنوا والتقدير للذين اتقوا بعمل الحسنة فى الدنيا فلهم فى الآخرة حسنة وتلك الحسنة هى الثواب العظيم وقيل تلك الحسنة هو ان ثوابها يضاعف بعشر مرات و بسبعمائة والى ما لانهاية له (والقول الثانى) ان قوله فى هذه الدنيا متعلق بقوله حسنة والتقدير للذين أحسنوا أن تحصل لهم الحسنة فى الدنيا وهذا القول أولى لانه قال بعده ولدار الاخرة خير وعلى هذا التقدير ففى تفسير هذه الحسنة الحاصلة فى الدنيا وجوه (الاول) يحتمل أن يكون المراد مايستحقونه من المدح والتعظيم والثناء والرفعة وجميع ذلك جزاء على ماعملوه (والثانى) يحتمل ان يكون المراد به الظفر على أعداء الدين بالحجة و بالغلبة لهم و باستغنام أموالهم وفتح بلادهم كما جرى ببدر وعند فتح مكة وقد أجلوهم عنها وأخرجوهم الى الهجرة واخلاء الوطن ومفارقة الاهل والولد وكل ذلك مما يعظم موقعه (والثالث) يحتمل أن يكون المراد أنهم لما أحسنوا بمعنى انهم أتوا بالطاعات فتح الله عليهم أبواب المكاشفات والمشاهدات والالطاف كقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى وأما قوله ولدار الآخرة خير فقد بينا فى سورة الانعام فى قوله وللدار الآخرة خير للذين يتقون بالدلائل القطعية العقلية حصول هذا الخير ثم قال ولنعم دار المتقين أى لنعم دار المتقين دار الآخرة فحذفت لسبق ذكرها هذا اذا لم تجعل هذه الآية متصلة بما بعدها فان وصلتها بمابعدها قلت ولنعم دار المتقين جنات عدن فترفع جنات على انها اسم لنعم كما تقول نعم الدار دار ينزلها زيد أما قوله جنات عدن ففيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنها ان كانت موصولة بماقبلها فقد ذكرنا وجه ارتفاعها وأما ان كانت مقطوعة فقال الزجاج جنات عدن مرفوعة باضمار هى كأنك لما قلت ولنعم دار المتقين قيل أى دار هى هذه الممدوحة فقلت هى جنات عدن وان شئت قلت جنات عدن رفع بالابتداء و يدخلونها خبره وان شئت قلت نعم دار المتقين خبره والتقدير جنات عدن نعم دار المتقين (المسئلة الثانية) قوله جنات يدل على القصور والبساتين وقوله عدن يدل على الدوام وقوله تجرى من تحتها الانهار يدل على انه حصل هناك أبنية يرتفعون عليها وتكون الانهار جارية من تحتهم ثم انه تعالى قال لهم فيها مايشاؤن وفيه بحثان (الاول) ان هذه الكلمة تدل على حصول كل الخيرات والسعادات وهذا

العذاب العاجل اى فدسوا منه صوبات ليمكروا بها رسل الله تعالى (فأتى الله) اى أمره وحكمه (بنيانهم) وقرئ بيتهم و بيوتهم (من القواعد)وهى الاساطين التى تعمده أو أساسه فضعضعت أركانه (فخر عليهم السقف من فوقهم) اى سقط عليهم سقف بنيانهم اذلا يتصور له القيام بعد تهدم القواعد شبهت حال أولئك الماكرين فى تسو يتهم المكايد والمنصوبات التى أرادوا بها الايقاع برسل الله سبحانه وفى ابطاله تعالى تلك الحيل والمكايد وجعله اياها أسبابا لهلاكهم بحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالاساطين فأتى ذلك من قبل أساطينه بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف فهلكوا وقرئ فخر عليهم السقف بضمتين (وأتاهم العذاب) اى الهلاك والدمار (من حيث لايشعرون) باتيانه منه بل يتوقعون اتيان مقابله مما يريدون و يشتهون والمعنى ان هؤلاء الماكرين القائلين للقرآن العظيم أساطير الاولين سيأتيهم من العذاب مثل ماأتاهم وهم لايحتسبون والمراد به العذاب العاجل لقوله سبحانه (ثم يوم القيامة يخزيهم) فانه عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام اى هذا الذى فهم من التمثيل من عذاب هؤلاء أو ماهو أعم منه ومما ذكر من عذاب أولئك جزاؤهم فى الدنيا و يوم القيامة يخزيهم اى يذلهم بعذاب الخزى على رؤس الاشهاد وأصل الخزى ذل يستحيا منه وثم للايذان الى مابين الجزاءين من التفاوت مع مايدل عليه من التراخى

الزمانى وتغيير السبك بتقديم الظرف ليس لقصر الخزى على يوم القيامة كما هو المتبادر من تقديم الظرف على الفعل بل لان الاخبار بجزائهم فى الدنيا مؤذن بأن لهم جزاء أخرويا فتبقى النفس مترقبة الى وروده سائلة عنه بأنه ماذا ثم تيقنها بأنه فى الآخرة فسيق الكلام على وجه يؤذن بأن المقصود بالذكر اخزاؤهم لا كونه يوم القيامة والضمير اما للمفترين فى حق القرآن الكريم أو لهم ولمن مثلوا بهم من الماكرين كما أشير اليه وتخصيصه بهم يأباه السباق والسياق كما ستقف عليه (ويقول) لهم تفضيحا وتوبيخا فهو بيان للاخزاء (أين شركائى) أضافهم اليه سبحانه حكاية لاضافتهم الكاذبة ففيه توبيخ اثر توبيخ مع الاستهزاء بهم (الذين كنتم تشاقون فيهم) اى تخاصمون الانبياء والمؤمنين فى شأنهم بأنهم شركاء حقا حين بينوا لكم بطلانها والمراد بالاستفهام استحضارها للشفاعة أو المدافعة على طريقة الاستهزاء والتبكيت والاستفسار عن مكانهم لا يوجب غيبتهم حقيقة حتى يعتذر بأنه يجوز أن يحال بينهم وبين عبدتهم حينئذ ليتفقدوها فى ساعة علقوا بها الرجاء فيها أو بأنهم لما لم ينفعوهم فكأنهم غيب بل يكفى فى ذلك عدم حضورهم بالعنوان الذى كانوا يزعمون أنهم متصفون به من عنوان الالهية فليس هناك شركاء ولا أماكنها على أن قوله ليتفقدوها ليس بسديد فانه قد تبين عندهم الامر

أبلغ من قوله فيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين لان هذين القسمين داخلان فى قوله لهم فيها ما يشاؤن مع أقسام أخرى (الثانى) قوله لهم فيها ما يشاؤن يعنى هذه الحالة لا تحصل الا فى الجنة لان قوله لهم فيها ما يشاؤن يفيد الحصر وذلك يدل على أن الانسان لا يجد كل ما يريده فى الدنيا ثم قال تعالى كذلك يجزى الله المتقين اى هكذا يكون جزاء التقوى ثم انه تعالى عاد الى وصف المتقين فقال الذين تتوفاهم الملائكة طيبين وهذا مذكور فى مقابلة قوله الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم وقوله الذين تتوفاهم الملائكة صفة للمتقين فى قوله كذلك يجزى الله المتقين وقوله طيبين كلمة مختصرة جامعة للمعانى الكثيرة وذلك لانه يدخل فيه اتيانهم بكل ما أمروا به واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه ويدخل فيه كونهم موصوفين بالاخلاق الفاضلة مبرئين عن الاخلاق المذمومة ويدخل فيه كونهم مبرئين عن العلائق الجسمانية متوجهين الى حضرة القدس والطهارة ويدخل فيه أنه طاب لهم قبض الارواح وانها لم تقبض الا مع البشارة بالجنة حتى صاروا كأنهم مشاهدون لها ومن هذا حاله لا يتألم بالموت وأكثر المفسرين على ان هذا التوفى هو قبض الارواح وان كان الحسن يقول انه وفاة الحشر ثم بين تعالى أنه يقال لهم عند هذه الحالة ادخلوا الجنة فاحتج الحسن بهذا على أن المراد بذلك التوفى وفاة الحشر لانه لا يقال عند قبض الارواح فى الدنيا ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ومن ذهب الى القول الاول وهم الاكثرون يقولون ان الملائكة لما بشروهم بالجنة صارت الجنة كأنها دارهم وكأنهم فيها فيكون المراد بقولهم ادخلوا الجنة اى هى خاصة لكم كأنكم فيها

* قوله تعالى (هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون فأصابهم سيآت ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) اعلم أن هذا هو الشبهة الثانية لمنكرى النبوة فانهم طلبوا من النبى صلى الله عليه وسلم أن ينزل الله تعالى ملكا من السماء يشهد على صدقه فى ادعاء النبوة فقال تعالى هل ينظرون فى التصديق بنبوتك الا أن تأتيهم الملائكة شاهدين بذلك ويحتمل أن يقال ان القوم لما طعنوا فى القرآن بأن قالوا انه أساطير الاولين وذكر الله تعالى أنواع التهديد والوعيد لهم ثم اتبعه بذكر الوعد لمن وصف القرآن بكونه خيرا وصدقا وصوابا عاد الى بيان أن أولئك الكفار لا ينزجرون عن الكفر بسبب البيانات التى ذكرناها بل كانو لا ينزجرون عن تلك الاقوال الباطلة الا اذا جاءتهم الملائكة بالتهديد وأتاهم أمر ربك وهو عذاب الاستئصال واعلم أن على كلا التقديرين فقد قال تعالى كذلك فعل الذين من قبلهم اى كلام هؤلاء وأفعالهم يشبه كلام الكفار المتقدمين وأفعالهم ثم قال وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون والتقدير كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم الهلاك المعجل وما ظلمهم الله بذلك فانه أنزل بهم ما استحقوه بكفرهم ولكنهم ظلموا أنفسهم بأن كفروا وكذبوا الرسل فاستوجبوا ما نزل بهم ثم قال فأصابهم سيآت ما عملوا والمراد أصابهم

عقاب سيآت ما عملوا وحاق بهم اى نزل بهم على وجه أحاط بجوانبهم ما كانوا به يستهزؤن اى عقاب استهزائهم * قوله تعالى (وقال الذين أشركوا لوشاء الله ماعبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شئ كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ان تحرص على هداهم فان الله لايهدى من يضل ومالهم من ناصرين) اعلم أن هذا هو الشبهة الثالثة لمنكرى النبوة وتقريرها انهم تمسكوا بصحة القول بالجبر على الطعن فى النبوة فقالوا لوشاء الله الايمان لحصل الايمان سواء جئت أولم تجئ ولوشاء الله الكفر فانه يحصل الكفر سواء جئت أولم تجئ واذا كان الامر كذلك فالكل من الله تعالى ولا فائدة فى مجيئك وارسالك فكان القول بالنبوة باطلا وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن هذه الشبهة هى عين ماحكاه الله تعالى عنهم فى سورة الانعام فى قوله سيقول الذين أشركوا لوشاء الله ماأشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ كذلك كذب الذين من قبلهم واستدلال المعتزلة به مثل استدلالهم بتلك الآية والكلام فيه استدلالا واعتراضا عين ماتقدم هناك فلا فائدة فى الاعادة ولا بأس بأن نذكر منه القليل فنقول الجواب عن هذه الشبهة هى انهم قالوا لما كان الكل من الله تعالى كان بعثة الانبياء عبثا فنقول هذا اعتراض على الله تعالى فان قولهم اذا لم يكن فى بعثة الرسول مزيد فائدة فى حصول الايمان ودفع الكفر كانت بعثة الانبياء غير جائزة من الله تعالى فهذا القول جار مجرى طلب العلة فى أحكام الله تعالى وفى أفعاله وذلك باطل بل لله تعالى أن يحكم فى ملكه وملكوته مايشاء ويفعل مايريد ولا يجوز أن يقال له لم فعلت هذا ولم لم تفعل ذلك والدليل على أن الانكار انما توجه الى هذا المعنى انه تعالى صرح فى آخر هذه الآية بهذا المعنى فقال ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فبين تعالى أن سنته فى عبيده ارسال الرسل اليهم وأمرهم بعبادة الله ونهيهم عن عبادة الطاغوت ثم قال فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة والمعنى انه تعالى وان أمر الكل بالايمان ونهى الكل عن الكفر الا أنه تعالى هدى البعض وأضل البعض فهذه سنة قديمة لله تعالى مع العباد وهى أنه يأمر الكل بالايمان وينهاهم عن الكفر ثم يخلق الايمان فى البعض والكفر فى البعض ولما كانت سنة الله تعالى فى هذا المعنى سنة قديمة فى حق كل الانبياء وكل الامم والملل وانما يحسن منه تعالى ذلك بحكم كونه الهامنزها عن اعتراضات المعترضين ومطالبات المنازعين كان ايراد هذا السؤال من هؤلاء الكفار موجبا للجهل والضلال والبعد عن الله فثبت ان الله تعالى انما حكم على هؤلاء باستحقاق الخزى واللعن لا لانهم كذبوا فى قولهم لوشاء الله ماعبدنا من دونه من شئ بل لانهم اعتقدوا ان كون الامر كذلك يمنع من جواز بعثة الانبياء والرسل وهذا باطل فلاجرم استحقوا

حينئذ فرجعوا عن ذلك الزعم الباطل فكيف يتصور منهم التصدى وقرئ بكسر النون أى تشاقوننى على ان مشاقة الانبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين لاسيما فى شأن متعلق به سبحانه مشاقته عز وجل (قال الذين أوتوا العلم) من أهل الموقف وهم الانبياء والمؤمنون الذين أوتوا علما بدلائل التوحيد وكانوا يدعونهم فى الدنيا الى التوحيد فيجادلونهم ويتكبرون عليهم اى يقولون توبيخا لهم واظهارا للشماتة بهم وتقريرا لما كانوا يعظونهم وتحقيقا لما أوعدوهم به وايثار صيغة الماضى للدلالة على تحققه وتحتم وقوعه حسبما هو المعتاد فى اخباره سبحانه وتعالى كقوله ونادى أصحاب الجنة ونادى أصحاب الاعراف (ان الخزى) الفضيحة والذل والهوان (اليوم) منصوب بالخزى على رأى من يرى اعمال المصدر المصدر باللام أو بالاستقرار فى الظرف وفيه فصل بين العامل والمعمول بالمعطوف الا أنه مغتفر فى الظرف وايراده للاشعار بأنهم كانوا قبل ذلك فى عزة وشقاق (والسوء) العذاب (على الكافرين) بالله تعالى وبآياته ورسله (الذين تتوفاهم الملائكة) بتأنيث الفعل وقرئ بتذكيره وبادغام التاء فى التاء والعدول الى صيغة المضارع لاستحضار صورة توفيهم اياهم لما فيها من الهول والموصول فى محل الجر على أنه نعت للكافرين أو بدل منه أو فى محل النصب أو الرفع على الذم وفائدته تخصيص الخزى والسوء بمن استمر كفره الى حين

على هذا الاعتقاد من يد الذم واللعن فهذا هو الجواب الصحيح الذى يعول عليه فى هذا الباب وأما من تقدمنا من المتكلمين والمفسرين فقد ذكروا فيه وجها آخر فقالوا ان المشركين ذكروا هذا الكلام على جهة الاستهزاء كما قال قوم شعيب عليه السلام له انك لانت الحليم الرشيد ولو قالوا ذلك معتقدين لكانوا مؤمنين والله أعلم (المسئلة الثانية) اعلم أنه تعالى لما حكى هذه الشبهة قال كذلك فعل الذين من قبلهم أى هؤلاء الكفار ابدا كانوا متمسكين بهذه الشبهة ثم قال فهل على الرسل الا البلاغ المبين أما المعتزلة فقالوا معناه ان الله تعالى مامنع أحدا من الايمان وما أوقعه فى الكفر والرسل ليس عليهم الا التبليغ فلما بلغوا التكاليف وثبت أنه تعالى مامنع أحدا عن الحق كانت هذه الشبهة ساقطة أما أصحابنا فقالوا معناه انه تعالى أمر الرسل بالتبليغ فهذا التبليغ واجب عليهم فأما ان الايمان هل يحصل أم لا يحصل فذلك لا تعلق للرسول به ولكنه تعالى يهدى من يشاء باحسانه و يضل من يشاء بخذلانه (المسئلة الثالثة) احتج أصحابنا فى بيان ان الهدى والضلال من الله بقوله ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت وهذا يدل على انه تعالى كان أبدا فى جميع الملل والامم آمرا بالايمان وناهيا عن الكفر ثم قال فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة يعنى فمنهم من هداه الله الى الايمان والصدق والحق ومنهم من أضله عن الحق وأعماه عن الصدق وأوقعه فى الكفر والضلال وهذا يدل على ان أمر الله تعالى لا يوافق ارادته بل قد يأمر بالشئ ولا يريده وينهى عن الشئ ويريده كما هو مذهبنا والحاصل ان المعتزلة يقولون الامر والارادة متطابقان أما العلم والارادة فقد يختلفان ولفظ هذه الآية صريح فى قولنا وهو ان الامر بالايمان عام فى حق الكل أما ارادة الايمان فخاصة بالبعض دون البعض أجاب الجبائى بأن المراد فمنهم من هدى الله لنيل ثوابه وجنته ومنهم من حقت عليه الضلالة اى العقاب قال وفى قوله حقت عليه دلالة على انها العذاب دون كلمة الكفر لان الكفر والمعصية لا يجوز وصفهما بأنه حق وأيضا قال تعالى بعده فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين وهذه العاقبة هى آثار الهلاك لمن تقدم من الامم الذين استأصلهم الله تعالى بالعذاب وذلك يدل على أن المراد بالضلال المذكور هو عذاب الاستئصال وأجاب الكعبى عنه بأن قال قوله فمنهم من هدى الله أى من اهتدى فكان فى حكم الله مهتديا ومنهم من حقت عليه الضلالة يريد من ظهرت ضلالته كما يقال للظالم حق ظلمك وتبين ويجوز أن يكون المراد حق عليهم من الله أن يضلهم اذا ضلوا كقوله ويضل الله الظالمين واعلم انا بينا فى آيات كثيرة بالدلائل العقلية القاطعة ان الهدى والاضلال لا يكونان الا من الله تعالى فلا فائدة فى الاعادة وهذه الوجوه المتعسفة والتأويلات المستكرهة قد بينا ضعفها وسقوطها مرارا فلا حاجة الى الاعادة والله أعلم (المسئلة الرابعة) فى الطاغوت قولان (أحدهما) ان المراد به اجتنبوا عبادة ما تعبدون من دون الله فسمى الكل طاغوتا

﴿ ولايمتنع ﴾

الموآخذون من امن منهم ولو فى آخر عمره اى على الكافرين المستمرين على الكفر الى أن يتوفاهم الملائكة (ظالمى أنفسهم) أى حال كونهم مستمرين على الكفر فانه ظلم منهم لانفسهم وأى ظلم حيث عرضوها للعذاب المخلد وبدلوا فطرة الله تبديلا (فألقوا السلم) أى فيلقون والعدول الى صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع وهو عطف على قوله تعالى ويقول أين شركائى وما بينهما جملة اعتراضية جئ بها تحقيقا لما حاق بهم من الخزى على رؤس الاشهاد أى فيسالمون ويتركون المشاقة وينزلون عما كانوا عليه فى الدنيا من الكبر وشدة الشكيمة قائلين (ما كنا نعمل) فى الدنيا (من سوء) أى من شرك قالوه منكرين لصدوره عنهم كقولهم والله ربنا ما كنا مشركين وانما عبروا عنه بالسوء اعترافا بكونه سيئا لا انكارا لكونه كذلك مع الاعتراف بصدوره عنهم ويجوز أن يكون تفسيرا للسلم على أن يكون المراد به الكلام الدال عليه وعلى التقديرين فهو جواب عن قوله سبحانه أين شركائى كما فى سورة الانعام لا عن قول أولى العلم ادعاء لعدم استحقاقهم لما دهمهم من الخزى والسوء (بلى) رد عليهم من قبل أولى العلم واثبات لما نفوه أى بلى كنتم تعملون ما تعملون (ان الله عليم بما كنتم تعملون) فهو يجازيكم عليه وهذا أوانه (فادخلوا أبواب جهنم) أى كل صنف بابه المعد له وقيل أبوابها أصناف عذابها

ولا يمتنع أن يكون المراد اجتنبوا طاعة الشيطان فى دعائه لكم (المسئلة الخامسة) قوله تعالى ومنهم من حقت عليه الضلالة يدل على مذهبنا لانه تعالى لما أخبر عنه أنه حقت عليه الضلالة امتنع أن لا يصدر منه الضلالة والا لانقلب خبر الله الصدق كذبا وذلك محال ومستلزم المحال محال فكان عدم الضلالة منهم محالا ووجود الضلالة منهم واجبا عقلا فهذه الآية دالة على صحة مذهبنا من هذه الوجوه الكثيرة والله أعلم ونظائر هذه الآية كثيرة منها قوله فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة وقوله ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون وقوله لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ثم قال تعالى فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين والمعنى سيروا فى الارض معتبرين لتعرفوا ان العذاب نازل بكم كما نزل بهم ثم أكد أن من حقت عليه الضلالة فانه لا يهتدى فقال ان تحرص على هداهم أى ان تطلب بجهدك ذلك فان الله لا يهدى من يضل وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ عاصم وحمزة والكسائى يهدى بفتح الياء وكسر الدال والباقون لا يهدى بضم الياء وفتح الدال أما القراءة الاولى ففيها وجهان (الاول) فان الله لا يرشد أحدا أضله وبهذا فسره ابن عباس رضى الله عنهما (والثانى) أن يهدى بمعنى يهتدى قال الفراء العرب تقول قد هدى الرجل يريدون قد اهتدى والمعنى أن الله اذا أضل أحدا لم يصر ذلك مهتديا وأما القراءة المشهورة فالوجه فيها ان الله لا يهدى من يضل أى من يضله فالراجع الى الموصول الذى هو من محذوف مقدر وهذا كقوله من يضلل الله فلا هادى له وكقوله فمن يهديه من بعد الله اى من بعد اضلال الله اياه ثم قال تعالى وما لهم من ناصرين اى وليس لهم أحد ينصرهم اى يعينهم على مطلوبهم فى الدنيا والآخرة وأقول أول هذه الآيات موهم لمذهب المعتزلة وآخرها مشتمل على الوجوه الكثيرة الدالة على قولنا وأكثر الآيات كذلك مشتملة على الوجهين والله أعلم ❊ قوله تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين انما قولنا لشىء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون) وفيه مسئلتان (الاولى) اعلم أن هذا هو الشبهة الرابعة لمنكرى النبوة فقالوا القول بالبعث والحشر والنشر باطل فكان القول بالنبوة باطلا (أما المقام الاول) فتقريره ان الانسان ليس الا هذه البنية المخصوصة فاذا مات وتفرقت أجزاؤه وبطل ذلك المزاج والاعتدال امتنع عوده بعينه لان الشىء اذا عدم فقد فنى ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه فالذى يعود يجب أن يكون شيئا مغايرا للاول فلا يكون عينه (وأما المقام الثانى) وهو أنه لما بطل القول بالبعث بطل القول بالنبوة وتقريره من وجهين (الاول) أن محمدا كان داعيا الى تقرير القول بالمعاد فاذا بطل ذلك ثبت أنه كان داعيا الى القول الباطل ومن كان كذلك لم يكن رسولا صادقا (الثانى) أنه يقرر نبوة نفسه ووجوب طاعته بناء على الترغيب فى الثواب

فالدخول عبارة عن الملابسة والمقاساة (خالدين فيها) ان أريد بها الدخول حدوثه فالحال مقدرة وان أريد به مطلق الكون فيها فهى مقارنة (فلبئس مثوى المتكبرين) عن التوحيد كما قال تعالى قلوبهم منكرة وهم مستكبرون وذكرهم بعنوان التكبر للاشعار بعليته لثوائهم فيها والمخصوص بالذم محذوف أى جهنم وتأويل قولهم ما كنا نعمل من سوء بأنا ما كنا عاملين ذلك فى اعتقادنا روما للمحافظة على أن لا كذب ثمة يرده الرد المذكور وما فى سورة الانعام من قوله تعالى انظر كيف كذبوا على أنفسهم (وقيل للذين اتقوا) اى المؤمنين وصفوا بالتقوى اشعارا بأن ماصدر عنهم من الجواب ناشئ عن التقوى (ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) سلكوا فى الجواب مسلك السؤال من غير تلعثم ولا تغيير فى الصورة والمعنى أى أنزل خيرا فانه جواب مطابق للسؤال سبكا وللواقع فى نفس الامر مضمونا وأما الكفرة فانهم خذلهم الله تعالى كما غيروا الجواب عن نهج الحق الواقع الذى ليس له من دافع غيروا صورته وعدلوا بها عن سنن السؤال حيث رفعوا الاساطير روما لما مر من انكار النزول روى أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبى عليه السلام فاذا جاء الوافد كفه المقتسمون وأمروه بالانصراف وقالوا ان لم تلقه كان خيرا لك فيقول انا شر وافد ان رجعت الى قومى دون أن أستطلع امر محمد وأراه فيلقى أصحاب النبى صلى

الله عليه وسلم ورضي عنهم فيخبرونه بحقيقة الحال فهم الذين قالوا خيرا (الذين أحسنوا) أى أعمالهم أو فعلوا الاحسان (فى هذه) الدار (الدنيا حسنة) اى مثوبة حسنة مكافأة فيها (ولدار الآخرة) اى مثوبتهم فيها فيها (خير) مما أوتوا فى الدنيا من المثوبة أو خير على الاطلاق فيجوز اسناد الخيرية الى نفس دار الآخرة (ولنعم دار المتقين) اى دار الآخرة حذف لدلالة ما سبق عليه وهذا كلام مبتدأ مدح الله تعالى به المتقين وعد جوابهم المحكى من جملة احسانهم ووعدهم بذلك ثوابى الدنيا والآخرة فلا محل له من الاعراب أو بدل من خيرا أو تفسير له أى أنزل خيرا وهو هذا الكلام الجامع قالوه ترغيبا للسائل (جنات عدن) خبر مبتدا محذوف أو مبتدأ خبره محذوف أى لهم جنات ويجوز أن يكون هو المخصوص بالمدح (يدخلونها) صفة لجنات على تقدير تنكير عدن وكذلك (تجرى من تحتها الانهار) أو كلاهما حال على تقدير علميته (لهم فيها) فى تلك الجنات (ما يشاؤن) الظرف الاول خبر لما والثانى حال منه والعامل ما فى الاول أو متعلق به أى حاصل لهم فيها ما يشاؤن من أنواع المشتهيات وتقديمه للاحتراز عن توهم تعلقه بالمشيئة أو لما مر مرارا من أن تأخير ما حقه التقديم يوجب ترقب النفس اليه فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن (كذلك) مثل ذلك الجزاء الاوفى (يجزى الله المتقين) اللام

والترهيب عن العقاب واذا بطل ذلك بطلت نبوته اذا عرفت هذا فنقول قوله وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت معناه أنهم كانوا يدعون العلم الضرورى بأن الشئ اذا فنى وصار عدما محضا ونفيا صرفا فانه بعد هذا العدم الصرف لا يعود بعينه بل العائد يكون شيئا آخر غيره وهذا القسم واليمين اشارة الى أنهم كانوا يدعون العلم الضرورى بأن عوده بعينه بعد عدمه محال فى بديهة العقل وأقسموا بالله جهد أيمانهم على أنهم يجدون من قلوبهم وعقولهم هذا العلم الضرورى وأما بيان أنه لما بطل القول بالبعث بطل القول بالنبوة فلم يذكروه على سبيل التصريح لانه كلام جلى متبادر الى العقول فتركوه لهذا العذر ثم انه تعالى بين ان القول بالبعث ممكن ويدل عليه وجهان (الاول) أنه وعد حق على الله تعالى فوجب تحقيقه ثم بين السبب الذى لاجله كان وعدا حقا على الله تعالى وهو التمييز بين المطيع وبين العاصى وبين المحق والمبطل وبين الظالم والمظلوم وهو قوله ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين وهذه الطريقة قد بالغنا فى شرحها وتقريرها فى سورة يونس (والوجه الثانى) فى بيان امكان الحشر والنشر ان كونه تعالى موجدا للاشياء ومكونا لها لا يتوقف على سبق مادة ولا مدة ولا آلة وهو تعالى انما يكونها بمحض قدرته ومشيئته وليس لقدرته دافع ولا لمشيئته مانع فعبر تعالى عن هذا النفاذ الخالى عن المعارض بقوله انما قولنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون واذا كان كذلك فكما أنه تعالى قدر على الايجاد فى الابتداء وجب أن يكون قادرا عليه فى الاعادة فثبت بهذين الدليلين القاطعين ان القول بالحشر والنشر والبعث والقيامة حق وصدق والقوم انما طعنوا فى صحة النبوة بناء على الطعن فى هذا الاصل فلما بطل هذا الطعن بطل أيضا طعنهم فى النبوة والله أعلم (المسئلة الثانية) قوله وأقسموا بالله جهد أيمانهم حكاية عن الذين أشركوا وقوله بلى اثبات لما بعد النفى أى بلى يبعثهم وقوله وعدا عليه حقا مصدر مؤكد أى وعد بالبعث وعدا حقا لا خلف فيه لان قوله يبعثهم دل على قوله وعد بالبعث وقوله ليبين لهم الذى يختلفون فيه من أمور البعث أى بلى يبعثهم ليبين لهم وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين فيما أقسموا فيه ثم قال تعالى انما قولنا لشئ اذا أردناه أن نقول كن فيكون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لقائل أن يقول قوله كن ان كان خطابا مع المعدوم فهو محال وان كان خطابا مع الموجود كان هذا أمرا بتحصيل الحاصل وهو محال والجواب ان هذا تمثيل لنفى الكلام والمعاياة وخطاب مع الخلق بما يعقلون وليس خطابا للمعدوم لان ما أراده الله تعالى فهو كائن على كل حال وعلى ما أراده من الاسراع ولو أراد خلق الدنيا والآخرة فيهما من السموات والارض فى قدر لمح البصر لقدر على ذلك ولكن العباد خوطبوا بذلك على قدر عقولهم (المسئلة الثانية) قوله تعالى قولنا مبتدأ وأن نقول خبره وكن فيكون من كان التامة التى بمعنى الحدوث والوجود أى اذا أردنا حدوث شئ فليس الا أن نقول له

﴿ احدث ﴾

للجنس أى كل من يتق من الشرك والمعاصى و يدخل فيه المتقون المذكورون دخولاً أوليا و يكون فيه بعث لغيرهم على التقوى أو للعهد فيكون فيه تحسير للكفرة (الذين تتوفاهم الملائكة) نعت للمتقين وقوله تعالى (طيبين) اى طاهرين عن دنس الظلم لأنفسهم حال من الضمير وفائدته الايذان بان ملاك الامر فى التقوى هو الطهارة عما ذكر الى وقت توفيهم ففيه حث للمؤمنين على الاستمرار على ذلك ولغيرهم على تحصيله وقيل فرحين طيبى النفوس ببشارة الملائكة اياهم بالجنة أو طيبين بقبض أرواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية الى جناب القدس (يقولون) حال من الملائكة أى قائلين لهم (سلام عليكم) قال القرظى رحمه الله اذا استدعيت نفس المؤمن جاءه ملك الموت عليه السلام فقال السلام عليك ياولى الله الله تعالى يقرأ عليك السلام وبشره بالجنة (ادخلوا الجنة) اللام للعهد أى جنات عدن الخ ولذلك جردت عن النعت والمراد دخولهم لها فى وقته فان ذلك بشارة عظيمة وان تراخى المبشر به لادخول القبر الذى هو روضة من رياضها اذ ليس فى البشارة به خا مافى البشارة بدخول نفس الجنة (بما كنتم تعملون) بسبب ثباتكم على التقوى والطاعة أو بالذى كنتم تعملونه من ذلك وقيل المراد بالتوفى التوفى للحشر لان الامر بالدخول حينئذ يتحقق (هل ينظرون) اى ماينتظر كفار مكة المار ذكرهم (الاان تأتيهم الملائكة) لقبض ارواحهم

احدث فحدث عقيب ذلك من غير توقف (المسئلة الثالثة) قرأ ابن عامر والكسائى فيكون بنصب النون والباقون بالرفع قال الفراء القراءة بالرفع وجهها أن يجعل قوله أن نقول له كلاما تاما ثم يخبر عنه بأنه سيكون كما يقال ان زيدا يكفيه ان أمر فيفعل فترفع قولك فيفعل على أن تجعله كلاما مبتدأ وأما القراءة بالنصب فوجهه أن تجعله عطفا على أن نقول والمعنى أن نقول كن فيكون هذا قول جميع النحويين قال الزجاج و يجوز أن يكون نصبا على جواب كن قال أبو على لفظة كن وان كانت على لفظة الامر فليس القصد به ههنا الامر انما هو والله أعلم الاخبار عن كون الشئ وحدوثه واذا كان الامر كذلك فحينئذ يبطل قولهم انه نصب على جواب كن والله أعلم (المسئلة الرابعة) احتج بعض أصحابنا بهذه الآية على قدم القرآن فقالوا قوله تعالى انما قولنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون يدل على انه تعالى اذا أراد احداث شئ قال له كن فيكون فلو كان قوله كن حادثا لافتقر احداثه الى أن يقول له كن وذلك يوجب التسلسل وهو محال فثبت ان كلام الله قديم واعلم ان هذا الدليل عندى ليس فى غاية القوة و بيانه من وجوه (الاول) ان كلمة اذا لاتفيد التكرار والدليل عليه ان الرجل اذا قال لامرأته اذا دخلت الدار فانت طالق فدخلت الدار مرة طلقت طلقة واحدة فلو دخلت ثانيا لم تطلق طلقة ثانية فعلمنا ان كلمة اذا لاتفيد التكرار واذا كان كذلك ثبت أنه لايلزم فى كل مايحدثه الله تعالى أن يقول له كن فلم يلزم التسلسل (والثانى) ان هذا الدليل ان صح لزم القول بقدم لفظة كن وهذا معلوم البطلان بالضرورة لان لفظة كن مركبة من الكاف والنون وعند حضور الكاف لم تكن النون حاضرة وعند مجئ النون تولى الكاف وذلك يدل على ان كلمة كن يمتنع كونها قديمة وانما الذى يدعى أصحابنا كونه قديما صفة مغايرة للفظة كن فالذى تدل عليه الآية لايقول به أصحابنا والذى يقولون به لاتدل عليه الآية فسقط التمسك به (والثالث) ان الرجل اذا قال ان فلانا لايقدم على قول ولا على فعل الا و يستعين فيه بالله تعالى فان عاقلا لايقول ان استعانته بالله فعل من أفعاله فيلزم أن يكون كل استعانة مسبوقة باستعانة أخرى الى غير النهاية لان هذا الكلام بحسب العرف باطل فكذلك ماقالوه (الوجه الرابع) ان هذه الاية مشعرة بحدوث الكلام من وجوه (الاول) ان قوله تعالى انما قولنا لشئ اذا اردناه يقتضى كون القول واقعا بالارادة وما كان كذلك فهو محدث (والثانى) انه علق القول بكلمة اذا ولاشك ان لفظة اذا تدخل للاستقبال (والثالث) ان قوله أن نقول له لاخلاف ان ذلك ينبئ عن الاستقبال (والرابع) ان قوله كن فيكون يدل على ان حدوث الكون حاصل عقيب قوله كن فتكون كلمة كن متقدمة على حدوث الكون بزمان واحد والمتقدم على المحدث بزمان واحد يجب أن يكون محدثا (والوجه الخامس) انه معارض بقوله تعالى وكان امر الله مفعولا وكان أمر الله قدرا مقدورا الله نزل أحسن الحديث فليأتوا

بالعذاب جعلوا منتظرين لذلك وشتان بينهم وبين انتظاره لا لانه يلحقهم البتة لحوق الأمر المنتظر بل لمباشرتهم لاسبابه الموجبة له المؤدية اليه فكأنهم يقصدون اتيانه ويترصدون لوروده وقرئ بتذكير الفعل (أو يأتي أمر ربك) التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام اشعار بأن اتيانه لطف به عليه الصلاة والسلام وان كان عذابا عليهم والمراد بالامر العذاب الدنيوى لا القيامة لكن لا لان انتظارها يجامع انتظار اتيان الملائكة فلا يلائمه العطف بأو ولانها ليست نصا فى العناد اذ يجوز أن يعتبر منع الخلو ويراد بايرادها كفاية كل واحد من الامرين فى عذابهم بل لان قوله تعالى فيما سيأتى ولكن كانوا أنفسهم يظلمون فأصابهم الآية صريح فى ان المراد به ما اصابهم من العذاب الدنيوى (كذلك) أى مثل فعل هؤلاء من الشرك والظلم والتكذيب والاستهزاء (فعل الذين خلوا (من قبلهم) من الامم (وما ظلمهم الله) بما سيحل من عذابهم (ولكن كانوا) بما كانوا مستمرين عليه من القبائح الموجبة لذلك (أنفسهم يظلمون) كان الظاهر أن يقال ولكن كانوا هم الظالمين كما فى سورة الزخرف لكنه أوثر ما عليه النظم الكريم لافادة ان غائلة ﴿ لزادوا ﴾ ظلمهم آيلة اليهم وعاقبته مقصورة عليهم مع استلزام اقتصار ظلم كل أحد على نفسه من حيث الوقوع اقتصاره عليه من حيث الصدور وقدمر تحقيقه فى سورة يونس

بحديث مثله ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة فان قيل فهب ان هذه الآية لا تدل على قدم الكلام ولكنكم ذكرتم انها تدل على حدوث الكلام فما الجواب عنه قلنا نصرف هذه الدلائل الى الكلام المسموع الذى هو مركب من الحروف والاصوات ونحن نقول بكونه محدثا مخلوقا والله أعلم * قوله تعالى (والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) اعلم انه تعالى لما حكى عن الكفار أنهم اقسموا بالله جهد أيمانهم على انكار البعث والقيامة دل ذلك على انهم تمادوا فى الغى والجهل والضلال وفى مثل هذه الحالة لا يبعد اقدامهم على ايذاء المسلمين وضربهم وانزال العقوبات بهم وحينئذ يلزم على المؤمنين أن يهاجروا عن تلك الديار والمساكن فذكر تعالى فى هذه الآية حكم تلك الهجرة وبين ما لهؤلاء المهاجرين من الحسنات فى الدنيا والاجر فى الآخرة من حيث هاجروا وصبروا وتوكلوا على الله وذلك ترغيب لغيرهم فى طاعة الله تعالى قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت هذه الآية فى ستة من الصحابة صهيب وبلال وعمار وخباب وعابس وجبير موليين لقريش فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الاسلام أما صهيب فقال لهم أنا رجل كبير ان كنت لكم لم أنفعكم وان كنت عليكم لم أضركم فافتدى منهم بماله فلما رآه أبو بكر قال ربح البيع يا صهيب وقال عمر نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه وهو ثناء عظيم يريد لو لم يخلق الله النار لأطاعه فكيف ظنك به وقد خلقها وأما سائرهم فقد قالوا بعض ما أراد أهل مكة من كلمة الكفر والرجوع عن الاسلام فتركوا عذابهم ثم هاجروا فنزلت هذه الآية وبين الله تعالى بهذه الآية عظم محل الهجرة ومحل المهاجرين فالوجه فيه ظاهر لان بسبب هجرتهم ظهرت قوة الاسلام كما أن بنصرة الانصار قويت شوكتهم ودل تعالى بقوله والذين هاجروا فى الله ان الهجرة اذا لم تكن لله لم يكن لها موقع وكانت بمنزلة الانتقال من بلد الى بلد وقوله من بعد ما ظلموا معناه انهم كانوا مظلومين فى أيدى الكفار لانهم كانوا يعذبونهم ثم قال لنبوئنهم فى الدنيا حسنة وفيه وجوه (الاول) ان قوله حسنة صفة للمصدر من قوله لنبوئنهم فى الدنيا والتقدير لنبوئنهم تبوئة حسنة وفى قراءة على رضى الله عنه لنبوئنهم ابواءة حسنة (الثانى) لننزلنهم فى الدنيا منزلة حسنة وهى الغلبة على أهل مكة الذين ظلموهم وعلى العرب قاطبة وعلى أهل المشرق والمغرب وعن عمر انه كان اذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله فى الدنيا وما ذخر لك فى الاخرة أكبر (والقول الثالث) لنبوئنهم مباءة حسنة وهى المدينة حيث آواهم أهلها ونصروهم وهذا قول الحسن والشعبى وقتادة والتقدير لنبوئنهم فى الدنيا دارا حسنة أو بلدة حسنة يعنى المدينة ثم قال تعالى ولأجر الآخرة أكبر وأعظم وأشرف لو كانوا يعلمون والضمير الى من يعود فيه قولان (الاول) أنه عائد الى الكفار أى لو علموا ان الله تعالى يجمع لهؤلاء المستضعفين فى أيديهم الدنيا والآخرة لرغبوا فى دينهم (والثانى) أنه راجع الى المهاجرين أى لو كانوا يعلمون ذلك

لزادوا فى اجتهادهم وصبرهم ثم قال الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون وفى محل الذين وجوه (الاول) انه بدل من قوله والذين هاجروا (والثانى) أن يكون التقدير هم الذين صبروا (والثالث) أن يكون التقدير أعنى الذين صبروا وكلا الوجهين مدح والمعنى انهم صبروا على العذاب وعلى مفارقة الوطن الذى هو حرم الله وعلى المجاهدة و بذل الاموال والانفس فى سبيل الله وبالجملة فقد ذكر فيه الصبر والتوكل أما الصبر فللسعى فى قهر النفس وأما التوكل فللانقطاع بالكلية من الخلق والتوجه بالكلية الى الحق (فالاول) هو مبدأ السلوك الى الله تعالى (والثانى) آخر هذا الطريق ونهايته والله أعلم ۞ قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا يوحى اليهم فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الارض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف فان ربكم لرؤف رحيم) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان هذا هو الشبهة الخامسة لمنكرى النبوة كانوا يقولون الله أعلى واجل من أن يكون رسوله واحدا من البشر بل لو أراد بعثة رسول الينا لكان يبعث ملكا وقد ذكرنا تقرير هذه الشبهة فى سورة الانعام فلا نعيده ههنا ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عنهم وقالوا لولا أنزل عليه ملك وقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقالوا ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم وقال أكان للناس عجبا ان أوحينا الى رجل منهم وقالوا لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيرا فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله وما أرسلنا من قبلك الا رجالا يوحى اليهم والمعنى ان عادة الله تعالى من أول زمان الخلق والتكليف أنه لم يبعث رسولا الا من البشر فهذه العادة مستمرة لله سبحانه وتعالى وطعن هؤلاء الجهال بهذا السؤال الركيك أيضا طعن قديم فلا يلتفت اليه (المسئلة الثانية) دلت الآية على انه تعالى ما أرسل أحدا من النساء ودلت ايضا على انه ما أرسل ملكا الا ان ظاهر قوله جاعل الملائكة رسلا يدل على ان الملائكة رسل الله الى سائر الملائكة فكان ظاهر هذه الآية دليلا على انه ما أرسل رسولا من الملائكة الى الناس قال القاضى وزعم أبو على الجبائى انه لم يبعث الى الانبياء عليهم السلام الا من هو بصورة الرجال من الملائكة ثم قال القاضى لعله أراد ان الملك الذى يرسل الى الانبياء عليهم السلام بحضرة أممهم لانه اذا كان كذلك فلا بد من أن يكون أيضا بصورة الرجال كما روى ان جبريل عليه السلام حضر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صورة دحية الكلبى وفى صورة سراقة وانما قلنا ذلك لان المعلوم من حال الملائكة ان عند ابلاغ الرسالة من الله تعالى الى الرسول قد يبقون على صورتهم الاصلية الملكية وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام على صورته التى هو

(فأصابهم) عطف على قوله تعالى فعل الذين من قبلهم وما بينهما اعتراض لبيان أن فعلهم ذلك ظلم لانفسهم (سيئات ما عملوا) أى أجزية أعمالهم السيئة على طريقة تسمية المسبب باسم سببه ايذانا بفظاعته لا على حذف المضاف فانه يوهم ان لهم اعمالا غير سيئاتهم (وحاق بهم) اى أحاط بهم من الحيق الذى هو احاطة الشر وهو أبلغ من الاصابة وأفظع (ما كانوا به يستهزؤن) من العذاب (وقال الذين أشركوا) أى أهل مكة وهو بيان لفن آخر من كفرهم والعدول عن الاضمار الى الموصول لتقريعهم بما فى حيز الصلة وذمهم بذلك من اول الامر (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ) أى لو شاء عدم عبادتنا الشئ غيره كما تقول لما عبدنا ذلك (نحن ولا آباؤنا) الذين نقتدى بهم فى ديننا (ولا حرمنا من دونه من شئ) من السوائب والبحائر وغيرها وانما قالوا ذلك تكذيبا للرسول عليه الصلاة والسلام وطعنا فى الرسالة رأسا متمسكين بأن ما شاء الله تعالى يجب وما لم يشأ يمتنع فلو أنه شاء أن نوحده ولا نشرك به شيئا ولا نحرم مما حرمنا شيئا كما يقوله الرسل وينقلونه من جهة الله عز وجل لكان الامر كما شاء من التوحيد ونفى الاشراك وما يتبعهما وحيث لم يكن كذلك ثبت انه لم يشأ شيئا من ذلك وانما يقوله الرسل من تلقاء أنفسهم فاجيب عنه بقوله عز وجل (كذلك) أى مثل ذلك الفعل الشنيع (فعل الذين من قبلهم) من الامم أى أشركوا بالله وحرموا حله وردوا رسله وجادلوهم بالباطل حين نهوهم على الخطايا

وهدوهم الى الحق (فهل على الرسل) الذين يبلغون رسالات الله وعزائم أمره ونهيه (الا البلاغ المبين) أى ليست وظيفتهم الا تبليغ الرسالة تبليغا واضحا أو موضحا وابانة طريق الحق واظهار احكام الوحى التى من جملتها تحتم تعلق مشيئة الله تعالى باهتداء من صرف قدرته واختياره الى تحصيل الحق لقوله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وأما الجاؤهم الى ذلك وتنفيذ قولهم عليهم شاؤا أو أبوا كما هو مقتضى استدلالهم فليس ذلك من وظيفتهم ولا من الحكمة التى عليها يدور أمر التكليف فى شئ حتى يستدل بعدم ظهور آثاره على عدم حقيقة الرسل أو على عدم تعلق مشيئته تعالى بذلك فان ما يترتب عليه الثواب والعقاب من أفعال العباد لا بد فى تعلق مشيئته تعالى بوقوعه من مباشرتهم الاختيار يه له وصرف اختيارهم الجزئى الى تحصيله والا لكان الثواب والعقاب اضطرار يين فالفاء للتعليل كانه قيل كذلك فعل اسلافهم وذلك باطل فان الرسل ليس شأنهم الا تبليغ أوامر الله تعالى ونواهيه لا تحقيق مضمونهما واجراء موجبهما على الناس قسرا والجاء وايراد كلمة على للايذان بانهم فى ذلك مأمورون أو بان ما يبلغونه حق للناس عليهم ﴿ يدعى ﴾ ايفاؤه وبهذا ظهر أن حمل قولهم لو شاء الله الخ على الاستهزاء لا يلائم الجواب والله تعالى أعلم بالصواب (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا) تحقيق لكيفية تعلق مشيئته تعالى بافعال العباد بعد بيان ان الالجاء ليس من وظائف

عليها مرتين وعليه تأولوا قوله تعالى ولقد رآه نزلة أخرى ولما ذكر الله تعالى هذا الكلام اتبعه بقوله فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى المراد بأهل الذكر وجوه (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنه يريد أهل التوراة والذكر هو التوراة والدليل عليه قوله تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر يعنى التوراة (الثانى) قال الزجاج فاسألوا أهل الكتب الذين يعرفون معانى كتب الله تعالى فانهم يعرفون ان الانبياء كلهم بشر (والثالث) أهل الذكر أهل العلم باخبار الماضين اذ العالم بالشئ يكون ذاكرا له (والرابع) قال الزجاج معناه سلوا كل من يذكر بعلم وتحقيق وأقول الظاهر ان هذه الشبهة وهى قولهم الله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحدا من البشر انما تمسك بها كفار مكة ثم انهم كانوا مقرين بان اليهود والنصارى أصحاب العلوم والكتب فأمرهم الله بان يرجعوا فى هذه المسئلة الى اليهود والنصارى ليبينوا لهم ضعف هذه الشبهة وسقوطها فان اليهودى والنصرانى لا بد لهما من تزييف هذه الشبهة وبيان سقوطها (المسئلة الثانيه) اختلف الناس فى انه هل يجوز للمجتهد تقليد المجتهد منهم من حكم بالجواز واحتج بهذه الآية فقال لما لم يكن احد المجتهدين عالما وجب عليه الرجوع الى المجتهد الآخر الذى يكون عالما لقوله تعالى فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون فان لم يجب فلا أقل من الجواز (المسئلة الثالثة) احتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا المكلف اذا نزلت به واقعة فان كان عالما بحكمها لم يجز له القياس وان لم يكن عالما بحكمها وجب عليه سؤال من كان عالما بها لظاهر هذه الآية ولو كان القياس حجة لما وجب عليه سؤال العالم لاجل انه يمكنه استنباط ذلك الحكم بواسطة القياس فثبت أن تجويز العمل بالقياس يوجب ترك العمل بظاهر هذه الآية فوجب أن لا يجوز والله أعلم وجوابه انه ثبت جواز العمل بالقياس باجماع الصحابة والاجماع أقوى من هذا الدليل والله أعلم ثم قال تعالى بالبينات والزبر وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ذكروا فى الجالب لهذه الباء وجوها (الاول) ان التقدير وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر الا رجالا يوحى اليهم وأنكر الفراء ذلك وقال ان صلة ما قبل الا لا تتأخر الى ما بعد الا والدليل عليه ان المستثنى عنه هو مجموع ما قبل الا مع صلته فما لم يصر هذا المجموع مذكورا بتمامه امتنع ادخال الاستثناء عليه (الثانى) ان التقدير وما أرسلنا من قبلك الا رجالا يوحى اليهم بالبينات والزبر وعلى هذا التقدير فقوله بالبينات والزبر متعلق بالمستثنى (الثالث) ان الجالب لهذه الباء محذوف والتقدير ارسلناهم بالبينات وهذا قول الفراء قال ونظيره ما مر الا اخوك بزيد ما مر الا اخوك ثم يقول مر بزيد (الرابع) أن يقال الذكر بمعنى العلم والتقدير فاسألوا أهل الذكر بالبينات والزبر ان كنتم لا تعلمون (الخامس) أن يكون التقدير ان كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر فاسألوا أهل الذكر (المسئلة الثانية) قوله تعالى بالبينات والزبر لفظة جامعة لكل ما تكامل به الرسالة لان مدار أمرها على المعجزات الدالة على صدق من

الرسالة ولا من باب المشيئة المتعلقة بما يدور عليه الثواب والعقاب من الافعال الاختيارية لهم أى بعثنا فى كل أمة من الامم الخالية رسولا خاصا بهم (أن عبدوا الله) ﴿ ٤٦١ ﴾ يجوز أن تكون أن مفسرة لما فى البعث من معنى القول وان تكون مصدرية أى بعثنا بان اعبدوا الله وحده (واجتنبوا الطاغوت) هو الشيطان وكل ما يدعو الى الضلالة (فمنهم) أى من تلك الامم والفاء فصيحة أى فبلغوا ما بعثوا به من الامر بعبادة الله وحده واجتناب الطاغوت فتفرقوا فمنهم (من هدى الله) الى الحق الذى هو عبادته واجتناب الطاغوت بعد صرف قدرتهم واختيارهم الجزئى الى تحصيله (ومنهم من حقت عليه الضلالة) أى وجبت وثبتت الى حين الموت لعناده واصراره عليها وعدم صرف قدرته الى تحصيل الحق وتغيير الاسلوب للاشعار بان ذلك لسوء اختيارهم كقوله تعالى واذا مرضت فهو يشفين فلم يكن كل من مشيئة الهداية وعدمها الاحسبما حصل منهم من التوجه الى الحق وعدمه الابطريق القسر والالجاء حتى يستدل بعدمهما على عدم تعلق مشيئته تعالى بعبادتهم له تعالى وحده (فسيروا) يامعشر قريش (فى الارض فانظروا) فى اكنافها (كيف كان عاقبة المكذبين) من عاد وثمود ومن سار سيرتهم ممن حقت عليه الضلالة لعلكم تعتبرون حين تشاهدون فى منازلهم وديارهم آثار الهلاك والعذاب وترتيب الامر بالسير على مجرد الاخبار بثبوت الضلالة

يدعى الرسالة وهى البينات وعلى التكاليف التى يبلغها الرسول من الله تعالى الى العباد وهى الزبر ثم قال تعالى وانزلنا اليك الذكر لتبين الناس ما نزل اليهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ظاهر هذا الكلام يقتضى ان هذا الذكر مفتقر الى بيان رسول الله والمفتقر الى البيان مجمل فظاهر هذا النص يقتضى ان القرآن كله مجمل فلهذا المعنى قال بعضهم متى وقع التعارض بين القرآن و بين الخبر وجب تقديم الخبر لان القرآن مجمل والدليل عليه هذه الآية والخبر مبين له بدلالة هذه الآية والمبين مقدم على المجمل والجواب ان القرآن منه محكم ومنه متشابه والمحكم يجب كونه مبينا فثبت ان القرآن ليس كله مجملا بل فيه ما يكون مجملا فقوله لتبين للناس ما نزل اليهم محمول على المجملات (المسئلة الثانية) ظاهر هذه الآية يقتضى أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم هو المبين لكل ما أنزله الله تعالى على المكلفين فعند هذا قال نفاة القياس لو كان القياس حجة لما وجب على الرسول بيان كل ما انزله الله تعالى على المكلفين من الاحكام لاحتمال أن يبين المكلف ذلك الحكم بطريقة القياس ولما دلت هذه الآية على أن المبين لكل التكاليف والاحكام هو الرسول صلى الله عليه وسلم علمنا ان القياس ليس بحجة وأجيب عنه بانه صلى الله عليه وسلم لما بين ان القياس حجة فمن رجع فى تبيين الاحكام والتكاليف الى القياس كان ذلك فى الحقيقة رجوعا الى بيان الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال تعالى أفأمن الذين مكروا السيئات المكر فى اللغة عبارة عن السعى بالفساد على سبيل الاخفاء ولا بد ههنا من اضمار والتقدير المكرات السيآت والمراد اهل مكة ومن حول المدينة قال الكلبى المراد بهذا المكر اشتغالهم بعبادة غير الله تعالى والاقرب ان المراد سعيهم فى ايذاء الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه على سبيل الخفية ثم انه تعالى ذكر فى تهديدهم أمورا أربعة (الاول) ان يخسف الله بهم الارض كما خسف بقارون (والثانى) ان يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون والمراد ان يأتيهم العذاب من السماء من حيث يفجؤهم فيهلكهم بغتة كما فعل بقوم لوط (والثالث) ان يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين وفى تفسير هذا التقلب وجوه (الاول) انه يأخذهم بالعقوبة فى أسفارهم فانه تعالى قادر على اهلاكهم فى السفر كما أنه قادر على اهلاكهم فى الحضر وهم لا يعجزون الله بسبب ضربهم فى البلاد البعيدة بل يدركهم الله حيث كانوا وحمل لفظ التقلب على هذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد (وثانيهما) تفسير هذا اللفظ بانه يأخذهم بالليل والنهار فى أحوال اقبالهم وادبارهم وذهابهم ومجيئهم وحقيقته فى حال تصرفهم فى الامور التى يتصرف فيها أمثالهم (وثالثها) أن يكون المعنى أو يأخذهم فى حال ما ينقلبون فى قضايا أفكارهم فيحول الله بينهم و بين اتمام تلك الحيل قسرا كما قال ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون وحمل لفظ التقلب على هذا المعنى مأخوذ من قوله وقلبوا لك الامور فانهم اذا قلبوها فقد تقلبوا فيها (والنوع الرابع)من الاشياء التى ذكرها الله تعالى فى هذه الآية

على سبيل التهديد قوله تعالى أو يأخذهم على تخوف وفي تفسير التخوف قولان (الاول) التخوف تفعل من الخوف يقال خفت الشيء وتخوفته والمعنى انه تعالى لا يأخذهم بالعذاب اولا بل يخيفهم اولا ثم يعذبهم بعده وتلك الاخافة هو أنه تعالى يهلك فرقة فتخاف التي تليها فيكون هذا أخذا ورد عليهم بعد أن يمر بهم قبل ذلك زمانا طويلا في الخوف والوحشة (والقول الثاني) ان التخوف هو التنقص قال ابن الاعرابي يقال تخوفت الشيء وتخيفته اذا تنقصته وعن عمر انه قال على المنبر ما تقولون في هذه الآية فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال هذه لغتنا التخوف التنقص فقال عمر هل تعرف العرب ذلك في اشعارها قال نعم قال شاعرنا وأنشد

تخوف الرجل منها تامكا قردا * كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر أيها الناس عليكم بديوانكم لا تضلوا قالوا وما ديواننا قال شعر الجاهلية فيه تفسير كتابكم اذا عرفت هذا فنقول هذا التنقص يحتمل أن يكون المراد منه ما يقع في اطراف بلادهم كما قال تعالى أولا يرون انا نأتي الارض ننقصها من أطرافها والمعنى انه تعالى لا يعاجلهم بالعذاب ولكن ينقص من اطراف بلادهم الى القرى التي تجاورهم حتى يخلص الامر اليهم فحينئذ يهلكهم ويحتمل أن يكون المراد انه ينقص أموالهم وأنفسهم قليلا قليلا حتى يأتي الفناء على الكل فهذا تفسير هذه الامور الاربعة والحاصل انه تعالى خوفهم بخسف يحصل في الارض أو بعذاب ينزل من السماء او بآفات تحدث دفعة واحدة حال ما لا يكونون عالمين بعلاماتها ودلائلها او بآفات تحدث قليلا قليلا الى أن يأتي الهلاك على آخرهم ثم ختم الآية بقوله فان ربكم لرؤف رحيم والمعنى انه يمهل في أكثر الامر لانه رؤف رحيم فلا يعاجل بالعذاب * قوله تعالى (أولم يروا الى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون ولله يسجد ما في السموات وما في الارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما خوف المشركين بالانواع الاربعة المذكورة من العذاب اردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته في تدبير أحوال العالم العلوي والسفلي وتدبير أحوال الارواح والاجسام ليظهر لهم ان مع كمال هذه القدرة القاهرة والقوة الغير المتناهية لا يعجز عن ايصال العذاب اليهم على أحد تلك الاقسام الاربعة (المسئلة الثانية) قرأ حمزة والكسائي أولم تروا بالتاء على الخطاب وكذلك في سورة العنكبوت أولم تروا أن الله يبدأ الخلق ثم يعيده بالتاء على الخطاب والباقون بالياء فيهما كناية عن الذين مكروا السيآت وايضا ان ما قبله غيبة وهو قوله ان يخسف الله بهم الارض أو يأتيهم العذاب أو يأخذهم فكذا قوله أولم يروا وقرأ أبو عمرو وحده تتفيؤ بالتاء والباقون بالياء وكلاهما جائز لتقدم الفعل على الجمع (المسئلة الثالثة) قوله أولم يروا الى ما خلق الله لما كانت الرؤية ههنا بمعنى النظر وصلت بالى لان المراد به الاعتبار

عليهم من غير اخبار بحلول العذاب للايذان بانه غني عن البيان وان ليس الخبر كالعيان وترتيب النظر على السير لما أنه بعده وأن ملاك الامر في تلك العاقبة هو التكذيب والتطليب انه لو شاء الله ﴿٤٦٣﴾ ما عبدنا من دونه من شيء (ان تحرص) خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقرئ بفتح الراء وهي لغة (على هداهم) أي ان تطلب هدايتهم بجهدك (فان الله لا يهدي من يضل) أي فاعلم أنه تعالى لا يخلق الهداية جبرا وقسرا فيمن يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره والمراد به قريش وانما وضع الموصول موضع الضمير للتنصيص على انهم ممن حقت عليه الضلالة وللاشعار بعلة الحكم ويجوز أن يكون المذكور علة للجزاء المحذوف أي ان تحرص على هداهم فلست بقادر على ذلك لان الله لا يهدي من يضله وهؤلاء من جملتهم وقرئ لا يهدى على بناء المفعول أي لا يقدر أحد على هداية من يضله الله تعالى وقرئ لا يهدي بفتح الهاء وادغام تاء يهتدي في الدال ويجوز أن يكون يهدي بمعنى يهتدي وقرئ يضل بفتح الياء وقرئ لا هادي لمن يضل ولمن أضل (وما لهم من ناصرين) ينصرونهم في الهداية أو يدفعون العذاب عنهم وصيغة الجمع في الناصرين باعتبار ﴿ والاعتبار ﴾ الجمعية في الضمير فان مقابلة الجمع بالجمع تقتضي انقسام الآحاد الى الآحاد لا لان المراد نفي طائفة من الناصرين من كل منهم (وأقسموا بالله) شروع في بيان فن آخر من اباطيلهم وهو انكارهم البعث (جهد أيمانهم) مصدر في موقع

الجبال أي جاهدين في أيمانهم (لا يبعث الله من يموت) ولقد رد الله تعالى عليهم أبلغ رد بقوله الحق (بلى) أي بلى يبعثهم (وعدا) مصدر مؤكد لما دل عليه بلى فان ذلك موعد من الله سبحانه أو لمحذوف أي وعد بذلك وعدا (عليه) صفة لوعدا أي وعدا ثابتا عليه انجازه لامتناع الخلف في وعده أو لان البعث من مقتضيات الحكمة (حقا) صفة أخرى له أو نصب على المصدرية أي حق حقا (ولكن اكثر الناس) لجهلهم بشؤن الله عز شأنه من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال وبما يجوز عليه وما لا يجوز وعدم وقوفهم على سر التكوين والغاية القصوى منه وعلى ان البعث مما يقتضيه الحكمة التى جرت عادته سبحانه بمراعاتها (لا يعلمون) أنه يبعثهم فيبتون القول بعدمه أو أنه وعد عليه حق فيكذبونه قائلين لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الا اساطير الاولين (ليبين لهم) غاية لما دل عليه بلى من البعث والضمير لمن يموت اذ التبيين يعم المؤمنين أيضا فانهم وان كانوا عالمين بذلك لكنه عند معاينة حقيقة الحال يتضح الامر فيصل علمهم الى مرتبة عين اليقين أي يبعثهم ليبين لهم بذلك وبما يحصل لهم من مشاهدة الاحوال كما هي ومعاينتها بصورها الحقيقية الشأن (الذى يختلفون فيه) من الحق المنتظم لجميع ما خالفوه مما جاء به الشرع المبين ويدخل فيه البعث دخولا اوليا (وليعلم الذين كفروا) بالله سبحانه بالاشراك وانكار البعث وتكذيب وعده الحق (انهم كانوا كاذبين) في كل ما

والاعتبار لا يكون بنفس الرؤية حتى يكون معها نظر الى الشئ وتامل لاحواله وقوله الى ما خلق الله من شئ قال أهل المعانى اراد من شئ له ظل من جبل وشجر وبناء وجسم قائم ولفظ الآية يشعر بهذا القيد لان قوله من شئ يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل يدل على ان ذلك الشئ كثيف يقع له ظل على الارض وقوله يتفيؤ ظلاله اخبار عن قوله شئ وليس بوصف له ويتفيأ يتفعل من الفئ يقال فاء الظل يفئ فيئا اذا رجع وعاد بعد ما نسخه ضياء الشمس وأصل الفئ الرجوع ومنه فئ المولى وذكرنا ذلك فى قوله تعالى فان فاؤا فان الله غفور رحيم وكذلك فئ المسلمين لما يعود على المسلمين من مال من خالف دينهم ومنه قوله تعالى ما افاء الله على رسوله منهم واصل هذا كله من الرجوع اذا عرفت هذا فنقول اذا عدى فاء فانه يعدى اما بزيادة الهمزة أو بتضعيف العين أما التعدية بزيادة الهمزة فكقوله ما افاء الله وأما بتضعيف العين فكقوله فيأ الله الظل ففيأ وتفيأ مطاوع فيأ قال الازهرى تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار فالتفيؤ لا يكون الا بالعشى بعد ما انصرفت عنه الشمس والظل ما يكون بالغداة وهو ما لم تنله الشمس كما قال الشاعر

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه * ولا الفئ من برد الشى تذوق

قال ثعلب اخبرت عن أبى عبيدة ان رؤبة قال كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فئ وما لم يكن عليه الشمس فهو ظل ومنهم من أنكر ذلك فان ابا زيد أنشد للنابغة الجعدى

فسلام الاله يغدو عليهم * وفيوء الفروس ذات الظلال

فهذا الشعر قد أوقع فيه لفظ الفئ على ما لم تنسخه الشمس لان ما فى الجنة من الظل ما حصل بعد أن كان زائلا بسبب نور الشمس وتقول العرب فى جمع فئ أفياء وهى للعدد القليل وفيوء للكثير كالنفوس والعيون وقوله ظلاله أضاف الظلال الى مفرد ومعناه الاضافة الى ذوى الظلال وانما حسن هذا لان الذى عاد اليه الضمير وان كان واحدا فى اللفظ وهو قوله الى ما خلق الله الا أنه كثير فى المعنى ونظيره قوله تعالى لتستووا على ظهوره فاضاف الظهور وهو جمع الى ضمير مفرد لانه يعود الى واحد أريد به الكثرة وهو قوله ما تركبون هذا كله كلام الواحدى وهو بحث حسن أما قوله عن اليمين والشمائل ففيه بحثان (الاول) فى المراد باليمين والشمائل قولان (الاول) ان يمين الفلك هو المشرق وشماله هو المغرب والسبب فى تخصيص هذين الاسمين بهذين الجانبين ان أقوى جانبي الانسان يمينه ومنه تظهر الحركة القوية فلما كانت الحركة الفلكية اليومية آخذة من المشرق الى المغرب لاجرم كان المشرق يمين الفلك والمغرب شماله اذا عرفت هذا فنقول ان الشمس عند طلوعها الى وقت انتهائها الى وسط الفلك تقع الاظلال الى الجانب الغربى فاذا انحدرت الشمس من وسط الفلك الى الجانب الغربى وقع الاظلال فى الجانب الشرقى فهذا هو المراد من تفيؤ الظلال من اليمين الى الشمال وبالعكس وعلى هذا التقدير فالاظلال

في أول النهار تبتدئ من يمين الفلك على الربع الغربي من الارض ومن وقت انحدار الشمس من وسط الفلك تبتدئ الاظلال من شمال الفلك واقعة على الربع الشرقي من الارض (القول الثاني) ان البلدة التي يكون عرضها أقل من مقدار الميل فان في الصيف تحصل الشمس على يسارها وحينئذ يقع الاظلال على يمينهم فهذا هو المراد من انتقال الاظلال عن الايمان الى الشمائل وبالعكس هذا ما حصلته في هذا الباب وكلام المفسرين فيه غير ملخص (البحث الثاني) لقائل أن يقول ما السبب في ان ذكر اليمين بلفظ الواحد والشمائل بصيغة الجمع وأجيب عنه باشياء (أحدها) انه وحد اليمين والمراد الجمع ولكنه اقتصر في اللفظ على الواحد كقوله تعالى ويولون الدبر (وثانيها) قال الفراء كأنه اذا وحد ذهب الى واحدة من ذوات الاظلال واذا جمع ذهب الى كلها وذلك لان قوله ماخلق الله من شئ لفظه واحد ومعناه الجمع على ما بيناه فيحتمل كلا الامرين (وثالثها) ان العرب اذا ذكرت صيغتي جمع عبرت عن احداهما بلفظ الواحد كقوله تعالى وجعل الظلمات والنور وقوله ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم (ورابعها) انا اذا فسرنا اليمين بالمشرق كانت النقطة التي هي مشرق الشمس واحدة بعينها فكانت اليمين واحدة وأما الشمائل فهي عبارة عن الانحرافات الواقعة في تلك الاظلال بعد وقوعها على الارض وهي كثيرة فلذلك عبر الله تعالى عنها بصيغة الجمع والله أعلم (المسألة الرابعة) أما قوله سجدا لله ففيه احتمالات (الاول) أن يكون المراد من السجود الاستسلام والانقياد يقال سجد البعير اذا طأطأ رأسه ليركب وسجدت النخلة اذا مالت لكثرة الحمل ويقال اسجد لقرد السوء في زمانه أي اخضع له قال الشاعر * ترى الاكم فيها سجدا للحوافر * أي متواضعة اذا عرفت هذا فنقول انه تعالى دبر النيرات الفلكية والاشخاص الكوكبية بحيث يقع اضواؤها على هذا العالم السفلي على وجوه مخصوصة ثم انا نشاهد ان تلك الاضواء وتلك الاظلال لا تقع في هذا العالم الا على وفق تدبير الله تعالى وتقديره فنشاهد ان الشمس اذا طلعت وقعت للاجسام الكثيفة اظلال ممتدة في الجانب الغربي من الارض ثم كلما ازدادت الشمس طلوعا وارتفاعا ازدادت تلك الاظلال تقلصا وانتقاصا الى الجانب الشرقي الى ان تصل الشمس الى وسط الفلك فاذا انحدرت الى الجانب الغربي ابتدأت الاظلال بالوقوع في الجانب الشرقي وكلما ازدادت الشمس انحدارا ازدادت الاظلال تمددا وتزايدا في الجانب الشرقي وكما انا نشاهد هذه الحالة في اليوم الواحد فكذلك نشاهد أحوال الاظلال مختلفة في التيامن والتياسر في طول السنة بسبب اختلاف احوال الشمس في الحركة من الجنوب الى الشمال وبالعكس فلما شاهدنا أحوال هذه الاظلال مختلفة بسبب الاختلافات اليومية الواقعة في شرق الارض وغربها وبحسب الاختلافات الواقعة في طول السنة في يمين الفلك ويساره ورأينا انها واقعة على وجه مخصوص وترتيب معين علمنا انها منقادة لقدرة الله خاضعة لتقديره وتدبيره فكانت السجدة عبارة عن هذه

يقولون لاسيما في قولهم لا يبعث الله من يموت والتعبير عن الحق بالموصول للدلالة على فخامته وللاشعار بعلية ماذكر في حيز الصلة للتبيين وما عطف عليه وجعلهما غاية للبعث المشار اليه باعتبار وروده في معرض الرد على المخالفين وابطال مقالة المعاندين المستدعي للتعرض لما يردعهم عن المخالفة ويلجئهم الى الاذعان للحق فان الكفرة اذا علموا أن تحقيق البعث اذا كان لتبيين انه حق وليعلموا انهم كاذبون في انكاره كان ذلك أزجر لهم عن انكاره وأدعى الى الاعتراف به ضرورة انه يدل على صدق العزيمة على تحقيقه كما تقول لمن ينكر أنك تصلي لاصلين رغما لانفك واظهارا لكذبك ولان تكرر الغايات أدل على وقوع الفعل المغيا بها والا فالغاية الاصلية للبعث باعتبار ذاته انما هو الجزاء الذي هو الغاية القصوى للخلق المغيا بمعرفته عز وجل وعبادته وانما لم يذكر ذلك لتكرر ذكره في مواضع اخر وشهرته وانما لم يدرج علم الكفار بكذبهم تحت التبيين بان يقال وان الذين كفروا كانوا كاذبين بل جئ بصيغة العلم لان ذلك ليس مما تعلق به التبيين الذي هو عبارة عن اظهار ما كان مبهما قبل ذلك بان يخبر به فيختلف فيه كالبعث الذي نطق به القرآن فاختلف فيه المختلفون وأما كذب الكافرين فليس من هذا القبيل فانما يتعلق به علم ضروري حاصل لهم من قبل أنفسهم وقد مر تحقيقه في سورة التوبة عند قوله تعالى حتى يتبين لك الذين صدقوا وانما خص الاسناد بهم حيث لم يقل

﴿ الحالة ﴾

الحالة فان قيل لم لايجوز أن يقال اختلاف حال هذه الاظلال معلل باختلاف سير النير الاعظم الذى هو الشمس لا لاجل تقدير الله تعالى وتدبيره قلنا قد دللنا على ان الجسم لايكون متحركا لذاته اذ لو كانت ذاته علة لهذا الجزء المخصوص من الحركة لبقى هذا الجزء من الحركة لبقاء ذاته ولو بقى ذلك الجزء من الحركة لامتنع حصول الجزء الآخر من الحركة ولو كان الامر كذلك لكان هذا سكونا لا حركة فالقول بان الجسم متحرك لذاته يوجب القول بكونه ساكنا لذاته وانه محال وما أفضى ثبوته الى نفيه كان باطلا فعلمنا ان الجسم يمتنع كونه متحركا لذاته وأيضا فقد دللنا على ان الاجسام متماثلة فى تمام الماهية فاختصاص جرم الشمس بالقوة المعينة و الخاصية المعينة لابد وأن يكون بتدبير الخالق المختار الحكيم اذا ثبت هذا فنقول هب ان اختلاف أحوال الاظلال انما كان لاجل حركات الشمس الا انا لما دللنا على ان محرك الشمس بالحركة الخاصة ليس الا الله سبحانه كان هذا دليلا على ان اختلاف أحوال الاظلال لم يقع الا بتدبير الله تعالى وتخليقه فثبت ان المراد بهذا السجود الانقياد والتواضع ونظيره قوله والنجم والشجر يسجدان وقوله وظلالهم بالغدو والآصال قدم بيانه وشرحه (والقول الثانى) فى تفسير هذا السجود ان هذه الاظلال واقعة على الارض ملتصقة بها على هيئة الساجد قال أبو العلاء المعرى فى صفة واد

بحرف يطيل الجح فيه سجوده * وللارض زى الراهب المتعبد

فلما كانت الاظلال تشبه تشكلها شكل الساجدين أطلق الله عليها هذا اللفظ وكان الحسن يقول أما ظلك فيسجد لربك وأما أنت فلا تسجد له بئسما صنعت وقال مجاهد ظل الكافر يصلى وهو لا يصلى وقيل ظل كل شئ يسجد لله سواء كان ذلك ساجدا أم لا واعلم ان الوجه الاول أقرب الى الحقائق العقلية والثانى أقرب الى الشبهات الظاهرة (المسئلة الخامسة) قوله سجدا حال من الظلال وقوله وهم داخرون أى صاغرون يقال دخر يدخر دخورا أى صغر يصغر صغارا وهو الذى يفعل ما تأمره شاء أم أبى وذلك لان هذه الاشياء منقادة لقدرة الله تعالى وتدبيره وقوله وهم داخرون حال أيضا من الظلال فان قيل الظلال ليست من العقلاء فكيف جاز جمعها بالواو والنون قلنا لانه تعالى لما وصفهم بالطاعة والدخور أشبهوا العقلاء أما قوله تعالى ولله يسجد ما فى السموات وما فى الارض من دابة و الملائكة ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قد ذكرنا ان السجود على نوعين سجود هو عبادة كسجود المسلمين لله تعالى وسجود هو عبارة عن الانقياد لله تعالى والخضوع ويرجع حاصل هذا السجود الى انها فى نفسها ممكنة الوجود والعدم قابلة لهما وانه لا يترجح أحد الطرفين على الآخر الا لمرجح اذا عرفت هذا فنقول من الناس من قال المراد بالسجود المذكور فى هذه الآية السجود بالمعنى الثانى وهو التواضع والانقياد والدليل عليه ان اللائق بالدابة ليس الا هذا السجود ومنهم من قال

وليعلموا ان الكافرين الآية لان علم المؤمنين بذلك حاصل قبل ذلك أيضا (انما قولنا) استئناف لبيان كيفية التكوين على الاطلاق ابداء واعادة بعد التنبيه على انية البعث ومنه يظهر كيفيته فا كافة وقولنا مبتدأ وقوله (لشئ) أى أى شئ كان مما عز وهان متعلق به على ان اللام للتبليغ كهى فى قولك قلت له قم فقام وجعلها الزجاج سببية أى لاجل شئ وليس بواضح والتعبير عنه بذلك باعتبار وجوده عند تعلق مشيئته تعالى به لا لانه كان شيئا قبل ذلك (اذا أردناه) ظرف لقولنا أى وقت ارادتنا لوجوده (أن نقول له كن) خبر للمبتدا (فيكون) اما عطف على مقدر يفصح عنه الفاء وينسحب عليه الكلام أى فنقول ذلك فيكون كقوله تعالى اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون واما جواب لشرط محذوف أى فاذا قلنا ذلك فهو يكون وليس هناك قول ولا مقول له ولا أمر ولا مأمور حتى يقال انه يلزم منه أحد المحالين اما خطاب المعدوم أو تحصيل الحاصل أو يقال انما يستدعيه انحصار قوله تعالى كن وليس يلزم منه انحصار أسباب التكوين فيه كما يفيده خا قوله تعالى انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فان المراد بالامر هو الشان الشامل للقول والفعل ومن ضرورة انحصاره فى كلمة كن انحصار أسبابه على الاطلاق فيه بل انما هو تمثيل لسهولة تأتى المقدورات حسب تعلق مشيئته تعالى بها

المراد بالسجود ههنا هو المعنى الاول لان اللائق بالملائكة هو السجود بهذا المعنى لان السجود بالمعنى الثانى حاصل فى كل الحيوانات والنباتات والجمادات ومنهم من قال السجود لفظ مشترك بين المعنيين وحمل اللفظ المشترك لافادة مجموع معنييه جائز فحمل لفظ السجود فى هذه الآية على الامرين معا أما فى حق الدابة فبمعنى التواضع وأما فى حق الملائكة فبمعنى سجود المسلمين لله تعالى وهذا القول ضعيف لانه ثبت ان استعمال اللفظ المشترك لافادة جميع مفهوماته معا غير جائز (المسئلة الثانية) قوله من دابة قال الاخفش يريد من الدواب وأخبر بالواحد كما تقول ما أتانى من رجل مثله وما أتانى من الرجال مثله وقال ابن عباس يريد كل ما دب على الارض (المسئلة الثالثة) لقائل أن يقول ما الوجه فى تخصيص الدواب والملائكة بالذكر فنقول فيه وجوه (الاول) انه تعالى بين فى آية الظلال ان الجمادات بأسرها منقادة لله تعالى و بين بهذه الآية أن الحيوانات بأسرها منقادة لله تعالى لان أخسها الدواب وأشرفها الملائكة فلما بين فى اخسها وفى أشرفها كونها منقادة لله تعالى كان ذلك دليلا على انها بأسرها منقادة خاضعة لله تعالى (والوجه الثانى) قال حكماء الاسلام الدابة اشتقاقها من الدبيب والدبيب عبارة عن الحركة الجسمانية فالدابة اسم لكل حيوان جسمانى يتحرك ويدب فلما بين الله تعالى الملائكة عن الدابة علمنا أنها ليست مما يدب بل هى أرواح محضة مجردة و يمكن الجواب عنه بأن الجناح للطيران مغاير للدبيب بدليل قوله تعالى وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه والله أعلم أما قوله تعالى وهم لايستكبرون يخافون ربهم من فوقهم و يفعلون مايؤمرون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) المقصود من هذه الآية شرح صفات الملائكة وهى دلالة قاهرة قاطعة على عصمة الملائكة عن جميع الذنوب لان قوله وهم لايستكبرون يدل على أنهم منقادون لصانعهم وخالقهم وانهم ما خالفوه فى أمر من الامور ونظيره قوله تعالى وما نتنزل الا بأمر ربك وقوله لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون وأما قوله و يفعلون مايؤمرون فهذا أيضا يدل على انهم فعلوا كل ما كانوا مأمورين به وذلك يدل على عصمتهم عن كل الذنوب فان قالوا هب ان هذه الآية تدل على انهم فعلوا كل ما أمروا به فلم قلتم انها تدل على انهم تركوا كل ما نهوا عنه قلنا لان كل من نهى عن شئ فقد أمر بتركه وحينئذ يدخل فى اللفظ واذا ثبت بهذه الآية كون الملائكة معصومين من كل الذنوب وثبت ان ابليس ما كان معصوما من الذنوب بل كان كافرا لزم القطع بأن ابليس ما كان من الملائكة (والوجه الثانى) فى بيان هذا المقصود انه تعالى قال فى صفة الملائكة وهم لايستكبرون ثم قال لابليس أستكبرت أم كنت من العالين وقال أيضا له اخرج منها فما يكون لك ان تتكبر فيها فثبت ان الملائكة لايستكبرون وثبت ان ابليس تكبر واستكبر فوجب أن لايكون من الملائكة وأيضا لما ثبت بهذه الآية وجوب عصمة الملائكة ثبت ان القصة الخبيثة التى يذكرونها فى حق

وتصوير لسرعة حدوثها بما هو علم فى ذلك من طاعة المامور المطيع لامر الآمر المطاع فالمعنى انما ايجادنا لشئ عند تعلق مشيئتنا به أن نوجده فى أسرع مايكون ولما عبر عنه بالامر الذى هو قول مخصوص وجب أن يعبر عن مطلق الايجاد بالقول المطلق فتامل وفى الآية الكريمة من الفخامة والجزالة ما يحار فيه العقول والالباب وقرئ بنصب يكون عطفا على نقول أو تشبيها له بجواب الامر (والذين هاجروا فى الله) أى فى شأن الله تعالى ورضاه وفى حقه ولوجهه (من بعد ما ظلموا) ولعلهم الذين ظلمهم أهل مكة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرجوهم من ديارهم فهاجروا الى الحبشة ثم بوأهم الله تعالى المدينة حسبما وعد بقوله سبحانه (لنبوئنهم فى الدنيا حسنة) أى مباءة حسنة أو تبوئة حسنة كما قال قتادة وهو الانسب بما هو المشهور من كون السورة غير ثلاث آيات من آخرها مكية وأما مانقل عن ابن عباس رضى الله عنهما من انها نزلت فى صهيب وبلال وعمار وخباب وعابس وجبير وأبى جندل بن سهيل أخذهم المشركون فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الاسلام فأما صهيب فقال لهم أنا رجل كبير ان كنت معكم لم أنفعكم وان كنت عليكم لم أضركم فافتدى منهم بماله وهاجر فلما رآه أبو بكر رضى الله عنه قال ربح البيع يا صهيب وقال عمر رضى الله عنه نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه

هاروت وماروت كلام باطل فان الله تعالى وهو أصدق القائلين لما شهد في هذه الآية على عصمة الملائكة وبراءتهم عن كل ذنب وجب القطع بان تلك القصة كاذبة باطلة والله أعلم واحتج الطاعنون في عصمة الملائكة بهذه الآية فقالوا انه تعالى وصفهم بالخوف ولولا انهم يجوزون على أنفسهم الاقدام على الكبائر والذنوب والا لم يحصل الخوف والجواب من وجهين (الاول) انه تعالى حذرهم من العقاب فقال ومن يقل منهم اني اله من دونه فذلك نجزيه جهنم وهم لهذا الخوف يتركون الذنب (والثاني) وهو الاصح ان ذلك الخوف خوف الاجلال هكذا نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما والدليل على صحته قوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وهذا يدل على انه كلما كانت معرفة الله تعالى أتم كان الخوف منه أعظم وهذا الخوف لا يكون الا خوف الاجلال والكبرياء والله أعلم (المسئلة الثانية) قالت المشبهة قوله تعالى يخافون ربهم من فوقهم هذا يدل على ان الاله تعالى فوقهم بالذات واعلم انا بالغنا في الجواب عن هذه الشبهة في تفسير قوله تعالى القاهر فوق عباده والذي نزيده ههنا ان قوله يخافون ربهم من فوقهم معناه يخافون ربهم من ان ينزل عليهم العذاب من فوقهم واذا كان اللفظ محتملا لهذا المعنى سقط قولهم وأيضا يجب حمل هذه الفوقية على الفوقية بالقدرة والقهر كقوله وانا فوقهم قاهرون والذي يقوى هذا الوجه انه تعالى لما قال يخافون ربهم من فوقهم وجب أن يكون المقتضى لهذا الخوف هو كون ربهم فوقهم لما ثبت في أصول الفقه ان الحكم المرتب على الوصف يشعر بكون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف اذا ثبت هذا فنقول هذا التعليل انما يصح لو كان المراد بالفوقية الفوقية بالقهر والقدرة لانها هي الموجبة للخوف أما الفوقية بالجهة والمكان فهي لا توجب الخوف بدليل ان حارس البيت فوق الملك بالمكان والجهة مع انه أخس عبيده فسقطت هذه الشبهة (المسئلة الثالثة) دلت هذه الآية على ان الملائكة مكلفون من قبل الله تعالى وان الامر والنهي متوجه عليهم كسائر المكلفين ومتى كانوا كذلك وجب أن يكونوا قادرين على الخير والشر (المسئلة الرابعة) تمسك قوم بهذه الآية في بيان ان الملك أفضل من البشر من وجوه (الاول) انه تعالى قال ولله يسجد ما في السموات وما في الارض من دابة والملائكة وذكرنا ان تخصيص هذين النوعين بالذكر انما يحسن اذا كان أحد الطرفين أخس المراتب وكان الطرف الثاني أشرفها حتى يكون ذكر هذين الطرفين منبها على الباقي واذا كان كذلك وجب أن يكون الملائكة أشرف خلق الله تعالى (الثاني) ان قوله تعالى وهم لا يستكبرون يدل على انه ليس في قلوبهم تكبر وترفع وقوله ويفعلون ما يؤمرون يدل على ان أعمالهم خالية عن الذنب والمعصية فمجموع هذين الكلامين يدل على أن بواطنهم وظواهرهم مبرأة عن الاخلاق الفاسدة والافعال الباطلة وأما البشر فليسوا كذلك ويدل عليه القرآن والخبر أما القرآن فقوله تعالى قتل الانسان ما أكفره وهذا الحكم عام في الانسان وأقل

فاما يناسب ما حكي عن الاصم من كون كل السورة مدنية وما نقل عن قتادة من كون هذه الآية الى آخر السورة مدنية فيحمل ما نقلناه عنه من نزول الآية في أصحاب الهجرتين على أن يكون نزولها بالمدينة بين الهجرتين وأما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من جملتهم فلا يساعده نظم التنزيل ولا شأنه الجليل وقرئ لنثوينهم ومعناه اثواءة حسنة أو لننزلنهم في الدنيا منزلة حسنة وهي الغلبة على من ظلمهم من أهل مكة وعلى العرب قاطبة وأهل الشرق والغرب كافة (ولاجر الاخرة) أي أجر أعمالهم المذكورة في الآخرة (أكبر) مما يعجل لهم في الدنيا وعن عمر رضي الله عنه انه كان اذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال له خذ بارك الله تعالى لك فيه هذا ما وعدك الله تعالى في الدنيا وما ادخر في الآخرة أفضل (لو كانوا يعلمون) الضمير للكفار أي لو علموا أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم في الدين وقيل للمهاجرين اي لو علموا ذلك لزادوا في الاجتهاد أو لما تألموا لما أصابهم من المهاجرة وشدائدها (الذين صبروا) على الشدائد من أذية الكفار ومفارقة الاهل والوطن وغير ذلك ومحله النصب أو الرفع على المدح (وعلى ربهم) خاصة (يتوكلون) منقطعين اليه تعالى معرضين عما سواه مفوضين اليه الامر كله والجملة اما معطوفة على الصلة وتقديم الجار والمجرور للدلالة على قصر التوكل على الله تعالى وصيغة الاستقبال للدلالة على

مراتبه أن تكون طبيعة الانسان مقتضية لهذه الاحوال الذميمة وأما الخبر فقوله عليه السلام مامنا الا وقد عصى أو هم بالمعصية غير يحيى بن ذكريا ومن المعلوم بالضرورة ان المبرأ عن المعصية والهم بها أفضل ممن عصى أو هم بها (الوجه الثالث) انه لاشك ان الله تعالى خلق الملائكة قبل البشر بادوار متطاولة وازمان ممتدة ثم انه وصفهم بالطاعة والخضوع والخشوع طول هذه المدة وطول العمر مع الطاعة يوجب مزيد الفضيلة لوجهين (الاول) قوله عليه السلام الشيخ فى قومه كالنبي فى أمته فضل الشيخ على الشاب وماذاك الا لانه لما كان عمره أطول فالظاهر ان طاعته أكثر فكان أفضل (والثانى) أنه صلى الله عليه وسلم قال من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة فلما كان شروع الملائكة فى الطاعات قبل شروع البشر فيها لزم أن يقال انهم هم الذين سنوا هذه السنة الحسنة وهى طاعة الخالق القديم الرحيم والبشر انما جاؤا بعدهم واستنوا بسنتهم فوجب بمقتضى هذا الخبر ان كل ما حصل للبشر من الثواب فقد حصل مثله للملائكة ولهم ثواب القدر الزائد من الطاعة فوجب كونهم أفضل من غيرهم (الوجه الرابع) فى دلالة الآية على هذا المعنى قوله يخافون ربهم من فوقهم وقد بينا بالدليل ان هذه الفوقية عبارة عن الفوقية بالرتبة والشرف والقدرة والقوة فظاهر الآية يدل على انه لاشئ فوقهم فى الشرف والرتبة الا الله تعالى وذلك يدل على كونهم أفضل المخلوقات والله أعلم

* قوله تعالى (وقال الله لاتتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد فاياى فارهبون وله ما فى السموات والارض وله الدين واصبا أفغير الله تتقون وما بكم من نعمة فمن الله ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون) اعلم انه تعالى لما بين فى الآية الاولى ان كل ماسوى الله سواء كان من عالم الارواح أو من عالم الاجسام فهو منقاد خاضع لجلال الله تعالى وكبريائه اتبعه فى هذه الآية بالنهى عن الشرك وبالامر بأن كل ماسواه فهو ملكه وملكه وانه غنى عن الكل فقال لاتتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) لقائل أن يقول ان الالهين لابد وان يكونا اثنين فما الفائدة فى قوله الهين اثنين وجوابه من وجوه (أحدها) قال صاحب النظم فيه تقديم وتأخير والتقدير لاتتخذوا اثنين الهين (وثانيها) وهو الاقرب عندى ان الشئ اذا كان مستنكرا مستقبحا فمن أراد المبالغة فى التنفير عنه عبر عنه بعبارات كثيرة ليصير توالى تلك العبارات سببا لوقوف العقل على مافيه من القبح اذا عرفت هذا فالقول بوجود الالهين قول مستقبح فى العقول ولهذا المعنى فان أحدا من العقلاء لم يقل بوجود الهين متساويين فى الوجوب والقدم وصفات الكمال فقوله لاتتخذوا الهين اثنين المقصود من تكريره تأكيد التنفير عنه وتكميل وقوف العقل على مافيه من القبح (وثالثها) ان قوله الهين لفظ واحد يدل على أمرين ثبوت الاله وثبوت التعدد فاذا قيل لاتتخذوا الهين لم يعرف من هذا اللفظ ان

تدوام التوكل أو حال من ضمير صبروا (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم) وقرئ بالياء مبنيا للمفعول وهو رد لقريش حين قالوا الله أجل من أن يكون له رسول من البشر كما هو مبنى قولهم لو شاء الله ما عبدنا الخ أي جرت السنة الالهية حسبما اقتضته الحكمة بأن لا يبعث للدعوة العامة الا بشرا يوحي اليهم بواسطة الملك أوامره ونواهيه ليبلغوها الناس ولما كان المقصود من الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تنبيه الكفار على مضمونه صرف الخطاب اليهم فقيل (فاسئلوا أهل الذكر) أي أهل الكتاب أو علماء الاخبار أو كل من يذكر بعلم وتحقيق ليعلموكم ذلك (ان كنتم لاتعلمون) حذف جوابه لدلالة ماقبله عليه وفيه دلالة على أنه لم يرسل للدعوة العامة ملكا وقوله تعالى جاعل الملائكة رسلا معناه رسلا الى الملائكة أو الى الرسل ولا امرأة ولا صبيا ولا ينافيه نبوة عيسى عليه الصلاة والسلام وهو فى المهد لانها أعم من الرسالة واشارة الى وجوب المراجعة الى العلماء فيما لا يعلم (بالبينات والزبر) بالمعجزات والكتب والباء متعلقة بمقدر وقع جوابا عن سؤال من قال بم ارسلوا فقيل ارسلوا بالبينات والزبر أو بما ارسلنا داخلا تحت الاستثناء مع رجالا عند من يجوزه أي ما أرسلنا الا رجالا بالبينات كقولك ماضربت الا زيدا بالسوط او على نية التقديم قبل اداة الاستثناء أي ما أرسلنا من قبلك بالبينات

﴿ النهى ﴾

وأن بالا رجالا عند من يجوز تأخر صلة ما قبل الا الى ما بعده أو بما وقع صفة للمستثنى أى الا رجالا ملتبسين بالبينات أو بنوحى على المفعولية أو الحالية من القائم مقام فاعل يوحى وهو اليهم على ان قوله تعالى فاسألوا اعتراض أو بقوله لاتعلمون على ان الشرط للتبكيت كقول الاجير ان كنت عملت لك فأعطنى حق (وأنزلنا اليك الذكر) أى القرآن وانما سمى به لانه تذكير وتنبيه للغافلين (لتبين للناس) كافة ويدخل فيهم أهل مكة دخولا أوليا (مانزل اليهم) فى ذلك الذكر من الاحكام والشرائع وغير ذلك من أحوال القرون المهلكة بأفانين العذاب حسب أعمالهم الموجبة لذلك على وجه التفصيل بيانا شافيا كما ينبئ عنه صيغة التفعيل فى الفعلين لاسيما بعد ورود الثانى أولا على صيغة الافعال ولما ان التبيين أعم من التصريح بالمقصود ومن الارشاد الى مايدل عليه دخل تحته القياس على الاطلاق سواء كان فى الاحكام الشرعية أوغيرها ولعل قوله عز وجل (ولعلهم يتفكرون) اشارة الى ذلك أى ارادة ان يتأملوا فيتنبهوا للحقائق ومافيه من العبر و يحترزوا عما يؤدى الى مثل ما أصاب الاولين من العذاب (أفأمن الذين مكروا السيآت) هم أهل مكة الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وراموا صد أصحابه عن الايمان عليهم الرضوان لا الذين احتالوا لهلاك الانبياء كما قيل ولا من يعم الفريقين لما ان المراد تحذير هؤلاء عن اصابة مثل ما أصاب

النهى وقع عن اثبات الاله أوعن اثبات التعدد أوعن مجموعهما فلما قال لاتتخذوا الهين اثنين ثبت ان قوله لاتتخذوا الهين نهى عن اثبات التعدد فقط (ورابعها) ان الاثنينية منافية للالهية وتقريره من وجوه (الاول) انالوفرضنا موجودين يكون كل واحد منهما واجبا لذاته لكانا مشتركين فى الوجوب الذاتى ومتباينين بالتعين ومابه المشاركة غيرمابه المباينة فكل واحد منهما مركب من جزأين وكل مركب فهوممكن فثبت ان القول بان واجب الوجود أكثر من واحد ينفى القول بكونهما واجبى الوجود (الثانى) انالوفرضنا الهين وحاول أحدهما تحريك جسم والآخر تسكينه امتنع كون أحدهما أولى بالفعل من الثانى لان الحركة الواحدة والسكون الواحد لايقبل القسمة أصلا ولاالتفاوت أصلا واذا كان كذلك امتنع أن تكون القدرة على أحدهما أكمل من القدرة على الثانى واذاثبت هذا امتنع كون احدى القدرتين أولى بالتأثير من الثانية واذاثبت هذا فاماأن يحصل مرادكل واحدمنهما وهو محال أولايحصل مرادكل واحدمنهماوهومحال أولايحصل مرادواحدمنهما البتة فحينئذ يكون كل واحدمنهماعاجزا والعاجز لايكون الهافثبت أن كونهمااثنين ينفى كون كل واحدمنهما الها (الثالث) انالوفرضنا الهين اثنين لكان اماأن يقدر احدهما على ان يستر ملكه عن الآخر أولايقدر فان قدر فذاك الاله والآخر ضعيف وان لم يقدر فهو ضعيف (والرابع) وهو ان أحدهما اماأن يقوى على مخالفة الآخر أولايقوى عليه فان لم يقوعليه فهوضعيف وان قوى عليه فذاك الآخران لم يقوعلى الدفع فهو ضعيف وان قوى عليه فالاول المغلوب ضعيف فثبت ان الاثنينية والالهية متضادتان فقوله لاتتخذوا الهين اثنين المقصود منه التنبيه على حصول المنافاة والمضادة بين الالهية و بين الاثنينية والله أعلم واعلم انه تعالى لماذكرهذا الكلام قال انما هواله واحدوالمعنى انه لمادلت الدلائل السابقة على انه لابد للعالم من الاله وثبت ان القول بوجود الالهين محال ثبت انه لااله الاالواحد الاحد الحق الصمد ثم قال بعده فاياى فارهبون وهذا رجوع من الغيبة الى الحضور والتقدير انه لماثبت ان الاله واحد وثبت ان المتكلم بهذا الكلام اله فحينئذ ثبت انه لااله للعالم الاالمتكلم بهذا الكلام فحينئذ يحسن منه أن يعدل من الغيبة الى الحضور و يقول فاياى فارهبون وفيه دقيقة أخرى وهى أن قوله فاياى فارهبون يفيد الحصر وهو ان لايرهب الخلق الامنه وان لايرغبوا الا فى فضله واحسانه وذلك لان الموجود اماقديم واما محدث أما القديم الذى هو الاله فهو واحد وأماماسواه فمحدث وانما حدث بتخليق ذلك القديم و بايجاده واذا كان كذلك فلارغبة الااليه ولارهبة الامنه فبفضله تندفع الحاجات و بتكوينه و بتخليقه تنقطع الضرورات ثم قال بعده وله مافى السموات والارض وهذا حق لانه لماكان الاله واحدا والواجب لذاته واحدا كان كل ماسواه حاصلا بتخليقه وتكوينه وايجاده فثبت بهذا البرهان صحة

أولئك من فنون العذاب المذكورة والسيآت نعت لمصدر محذوف أى مكروا المكرات السيآت التى قصت عنهم أو مفعول به للفعل المذكور على تضمينه معنى العمل أى عملوا السيآت فقوله تعالى (أن يخسف الله بهم الارض) مفعول لأمن أو السيآت صفة لما هو المفعول أى أفأمن الماكرون العقوبات السيئة وقوله أن يخسف الخ بدل من ذلك وعلى كل حال فالفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم أى أنزلنا اليك الذكر لتبين لهم مضمونه الذى من جملته أنباء الامم المهلكة بفنون العذاب ويتفكروا فى ذلك ألم يتفكروا فأمن الذين مكروا السيآت أن يخسف الله بهم الاض كما فعل بقارون على توجيه الانكار الى المعطوفين معا أو أتفكروا فأمنوا على توجيهه الى المعطوف على ان الامن بعد التفكر مما لا يكاد يفعله أحد وقيل هو عطف على مقدر ينبئ عنه الصلة أى أمكروا فأمن الذين مكروا الخ (أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون) باتيانه أى فى حالة غفلتهم أو من مأمنهم أو من حيث يرجون اتيان ما يشتهون كما حكى فيما سلف مما نزل بالماكرين (أو يأخذهم فى تقلبهم) أى فى حالة تقلبهم فى مسايرهم ومتاجرهم (فما هم بمعجزين) بممتنعين أو فائتين بالهرب والفرار على ما يوهمه حال التقلب والسير والفاء اما لتعليل الاخذ أو لترتيب عدم الاعجاز عليه دلالة على شدته

قوله وله ما فى السموات والارض واحتج أصحابنا بهذه الآية على ان أفعال العباد مخلوقة لله تعالى لان أفعال العباد من جملة ما فى السموات والارض فوجب أن تكون أفعال العباد لله تعالى وليس المراد من كونها لله تعالى انها مفعولة لاجله ولغرض طاعته لان فيها المباحات والمحظورات التى يؤتى بها لغرض الشهوة واللذة لا لغرض الطاعة فوجب ان يكون المراد من قولنا انها لله انها واقعة بتكوينه وتخليقه وهو المطلوب ثم قال بعده وله الدين واصبا الدين ههنا الطاعة والواصب الدائم يقال وصب الشئ يصب وصوبا اذا دام قال تعالى ولهم عذاب واصب ويقال واظب على الشئ وواصب عليه اذا داوم ومفازة واصبة أى بعيدة لا غاية لها ويقال للعليل واصب لكون ذلك المرض لازما له قال ابن قتيبة ليس من أحد يدان له ويطاع الا انقطع ذلك بسبب فى حال الحياة أو بالموت الا الحق سبحانه فان طاعته واجبة ابدا واعلم ان قوله واصبا حال والعامل فيه ما فى الظرف من معنى الفعل وأقول الدين قد يعنى به الانقياد يقال يا من دانت له الرقاب أى انقادت فقوله وله الدين واصبا أى انقياد كل ما سواه له لازم أبدا لان انقياد غيره له معلل بان غيره ممكن لذاته والممكن لذاته يلزمه أن يكون محتاجا الى السبب فى طرفى الوجود والعدم والماهيات يلزمها الامكان لزوما ذاتيا والامكان يلزمه الاحتياج الى المؤثر لزوما ذاتيا ينتج ان الماهيات يلزمها الاحتياج الى المؤثر لزوما ذاتيا فهذه الماهيات موصوفة بالانقياد لله تعالى اتصافا دائما واجبا لازما ممتنع التغير وأقول فى الآية دقيقة أخرى وهى ان العقلاء اتفقوا على أن الممكن حال حدوثه محتاج الى السبب المرجح واختلفوا فى الممكن حال بقائه هل هو محتاج الى السبب قال المحققون انه محتاج لان علة الحاجة هى الامكان والامكان من لوازم الماهية فيكون حاصلا للماهية حال حدوثها وحال بقائها فتكون علة الحاجة حال حدوث الممكن وحال بقائه فوجب أن تكون الحاجة حاصلة حال حدوثها وحال بقائها اذا عرفت هذا فقوله وله ما فى السموات والارض معناه ان كل ما سوى الحق فانه محتاج فى انقلابه من العدم الى الوجود أو من الوجود الى العدم الى مرجح ومخصص وقوله وله الدين واصبا معناه ان هذا الانقياد وهذا الاحتياج حاصل دائما أبدا وهو اشارة الى ما ذكرناه من ان الممكن حال بقائه لا يستغنى عن المرجح والمخصص وهذه دقائق من أسرار العلوم الالهية مودعة فى هذه الالفاظ الفائضة من عالم الوحى والنبوة ثم قال تعالى أفغير الله تتقون والمعنى انكم بعدما عرفتم ان اله العالم واحد وعرفتم ان كل ما سواه محتاج اليه فى وقت حدوثه ومحتاج اليه أيضا فى وقت دوامه وبقائه فبعد العلم بهذه الاصول كيف يعقل أن يكون للانسان رغبة فى غير الله تعالى أو رهبة عن غير الله تعالى فلهذا المعنى قال على سبيل التعجب أفغير الله تتقون ثم قال وما بكم من نعمة فمن الله وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انه لما بين بالآية الاولى ان الواجب على العاقل أن لا يتقى غير الله بين فى هذه الآية انه يجب عليه أن لا يشكر أحدا

﴿ الا الله ﴾

وفظاعته حسبما قال عليه السلام ان الله ليملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته وايراد الجملة الاسمية للدلالة على دوام النفى لا لنفى الدوام (أو يأخذهم على تخوف) أى مخافة وحذر من الهلاك والعذاب بأن يهلك قوما قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم العذاب وهم متخوفون وحيث كانت حالتا التقلب والتخوف مظنة للهرب عبر عن اصابة العذاب فيهما بالاخذ وعن اصابته حالة الغفلة المنبئة عن السكون بالاتيان وقيل التخوف التنقص قال قائلهم * تخوف الرجل منها تامكا قردا * كما تخوف عود النبعة السفن * أى يأخذهم على أن ينقصهم شيئا بعد شئ فى أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا والمراد بذكر الاحوال الثلاث بيان قدرة الله سبحانه على هلاكهم بأى وجه كان لا الحصر فيها (ان ربكم لرؤف رحيم) [illegible] لا يعاجلكم بالعقوبة [illegible] يحلم عنكم مع استحقاقكم لها (أولم يروا) استفهام انكارى وقرئ على صيغة الخطاب والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألم ينظروا ولم يروا متوجهين (الى ما خلق الله من شئ) أى من كل شئ (يتفيأ ظلاله) أى يرجع شيئا فشيئا حسبما يقتضيه ارادة الخالق تعالى فان التفيؤ مطاوع الافاءة وقرئ بتأنيث الفعل (عن اليمين والشمائل) أى ألم يروا الاشياء التى لها ظلال متفيئة عن ايمانها وشمائلها أى عن جانبي كل واحد منها استعير لهما ذلك من يمين الانسان وشماله (سجدا لله) حال من ظلال كقوله تعالى

الا الله تعالى لان الشكر انما يلزم على النعمة وكل نعمة حصلت للانسان فهى من الله تعالى لقوله وما بكم من نعمة فمن الله فثبت بهذا ان العاقل يجب عليه أن لا يخاف وان لا يتقى أحدا الا الله وأن لا يشكر أحدا الا الله تعالى (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على ان الايمان حصل بخلق الله تعالى قالوا الايمان نعمة وكل نعمة فهى من الله تعالى لقوله وما بكم من نعمة فمن الله ينتج ان الايمان من الله وانما قلنا ان الايمان نعمة لان المسلمين مطبقون على قولهم الحمد لله على نعمة الايمان وأيضا فالنعمة عبارة عن كل ما يكون منتفعا به وأعظم الاشياء فى النفع هو الايمان فثبت ان الايمان نعمة واذا ثبت هذا فنقول وكل نعمة فهى من الله تعالى لقوله وما بكم من نعمة فمن الله وهذه اللفظة تفيد العموم وأيضا مما يدل على ان كل نعمة فهى من الله لا أن كل ما كان موجودا فهو اما واجب لذاته واما ممكن لذاته والواجب لذاته ليس الا الله تعالى والممكن لذاته لا يوجد الا لمرجح وذلك المرجح ان كان واجبا لذاته كان حصول ذلك الممكن بايجاد الله تعالى وان كان ممكنا لذاته عاد التقسيم الاول فيه ولا يذهب الى التسلسل بل ينتهى الى ايجاد الواجب لذاته فثبت بهذا البيان ان كل نعمة فهى من الله تعالى (المسئلة الثالثة) النعم اما دينية واما دنيوية أما النعم الدينية فهى اما معرفة الحق لذاته واما معرفة الخير لاجل العمل به وأما النعم الدنيوية فهى اما نفسانية واما بدنية واما خارجية وكل واحد من هذه الثلاثة جنس تحته أنواع خارجة عن الحصر والتحديد كما قال وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها والاشارة الى تفصيل تلك الانواع قد ذكرناها مرارا فلا نعيدها (المسئلة الرابعة) انما دخلت الفاء فى قوله فمن الله لان الباء فى قوله بكم متصلة بفعل مضمر والمعنى ما يكن بكم أو ما حل بكم من نعمة فمن الله ثم قال تعالى ثم اذا مسكم الضر قال ابن عباس يريد الاسقام والامراض والحاجة فاليه تجأرون أى ترفعون أصواتكم بالاستغاثة وتتضرعون اليه بالدعاء يقال جأر يجأر جؤارا وهو الصوت الشديد كصوت البقرة وقال الاعشى يصف راهبا

يراوح من صلوات المليك * طورا سجودا وطورا جؤارا

والمعنى انه تعالى بين ان جميع النعم من الله تعالى ثم اذا اتفق لاحد مضرة توجب زوال شئ من تلك النعم فالى الله يجأر أى لا يستغيث أحدا الا الله تعالى لعلمه بانه لا مفزع للخلق الا هو فكأنه تعالى قال لهم فأين أنتم عن هذه الطريقة فى حال الرخاء والسلامة ثم قال بعده ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون فبين تعالى ان عند كشف الضر وسلامة الاحوال يفترون ففريق منهم يبقى على مثل ما كان عليه عند الضر فى أن لا يفزع الا الى الله تعالى وفريق منهم عند ذلك يتغيرون فيشركون بالله غيره وهذا جهل وضلال لانه لما شهدت فطرته الاصلية وخلقته الغريزية عند نزول البلاء والضراء والآفات والمخافات أن لا مفزع الا الى الواحد ولا مستغاث الا الواحد فعند

زوال البلاء والضراء وجب أن يبقى على ذلك الاعتقاد فأما انه عند نزول البلاء يقر بانه لا مستغاث الا الله تعالى وعند زوال البلاء يثبت الاضداد والشركاء فهذا جهل عظيم وضلال كامل ونظير هذه الآية قوله تعالى فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون ثم قال تعالى ليكفروا بما آتيناهم وفى هذه اللام وجهان (الاول) انها لام كى والمعنى انهم أشركوا بالله غيره فى كشف ذلك الضر عنهم وغرضهم من ذلك الاشراك أن ينكروا كون ذلك الانعام من الله تعالى ألا ترى ان العليل اذا اشتد وجعه تضرع الى الله تعالى فى ازالة ذلك الوجع فاذا زال أحال زواله على الدواء الفلانى والعلاج الفلانى وهذا أكثر أحوال الخلق وقال مصنف هذا الكتاب محمد بن عمر الرازى رحمه الله فى اليوم الذى كنت أكتب هذه الاوراق وهو اليوم الاول من محرم سنة اثنتين وستمائة حصلت زلزلة شديدة وهدة عظيمة وقت الصبح ورأيت الناس يصيحون بالدعاء والتضرع فلما سكنت وطاب الهواء وحسن أنواع الوقت نسوا فى الحال تلك الزلزلة وعادوا الى ما كانوا عليه من تلك السفاهة والجهالة وكان هذه الحالة التى شرحها الله تعالى فى هذه الآية تجرى مجرى الصفة اللازمة لجوهر نفس الانسان (والقول الثانى) ان هذه اللام لام العاقبة كقوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا يعنى أن عاقبة تلك التضرعات ما كانت الا هذا الكفر واعلم أن المراد بقوله بما آتيناهم فيه قولان (الاول) أنه عبارة عن كشف الضر وازالة المكروه (والثانى) قال بعضهم المراد به القرآن وما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من النبوة والشرائع واعلم انه تعالى توعدهم بعد ذلك فقال فتمتعوا وهذا لفظ أمر والمراد منه التهديد كقوله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وقوله قل آمنوا به اولا تؤمنوا ثم قال تعالى فسوف تعلمون اى عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب والله أعلم

❁ قوله تعالى (ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الاعلى وهو العزيز الحكيم)

اعلم انه تعالى لما بين بالدلائل القاهرة فساد أقوال أهل الشرك والتشبيه شرح فى هذه الآية تفاصيل أقوالهم وبين فسادها وسخافتها (فالنوع الاول) من كلماتهم الفاسدة انهم يجعلون لما لا يعلمون نصيبا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) الضمير فى قوله لما لا يعلمون الى ماذا يعود فيه قولان (الاول) أنه عائد الى المشركين المذكورين فى قوله اذا فريق منكم بربهم يشركون والمعنى ان المشركين لا يعلمون (والثانى) أنه عائد الى الاصنام أى لا يعلم الاصنام ما يفعل عبادها قال بعضهم الاول أولى لوجوه (أحدها) أن نفى العلم عن الحى حقيقة وعن الجماد مجاز (وثانيها) ان الضمير فى قوله ويجعلون عائد الى المشركين فكذلك فى قوله لما لا يعلمون يجب أن يكون عائدا اليهم (وثالثها) أن قوله لما لا يعلمون جم

وظلالهم بالغدو والآصال والمراد بسجودها تصرفها على مشيئة الله سبحانه وتأتيها للارادته تعالى فى الامتداد والتقلص وغيرهما غير ممتنعة عليه فيما سخرها له وقوله تعالى (وهم داخرون) أى صاغرون منقادون حال من الضمير فى ظلاله والجمع باعتبار المعنى وايراد الصيغة الخاصة بالعقلاء لما أن الدخور من خصائصهم والمعنى ترجع الظلال من جانب الى جانب بارتفاع الشمس وانحدارها أو باختلاف مشارقها ومغاربها فانها كل يوم من أيام السنة تتحرك على مدار معين من المدارات اليومية بتقدير العزيز العليم منقادة لما قدر لها من التفيؤ أو واقعة على الارض ملتصقة بها على هيئة الساجد والحال أن أصحابها من الاجرام داخرة منقادة لحكمه تعالى ووصفها بالدخور مغن عن وصف ظلالها به أو كلاهما حال من الضمير المشار اليه والمعنى ترجع ظلال تلك الاجرام حال كونها منقادة لله تعالى داخرة فوصفها بهما مغن عن وصف ظلالها بهما ولعل المراد بالموصول الجمادات من الجبال والاشجار والاحجار التى لا يظهر لظلالها أثر سوى التفيؤ بما ذكر من ارتفاع الشمس وانحدارها أو اختلاف مشارقها ومغاربها وأما الحيوان فظله يتحرك بتحركه وقيل المراد ❁ بالواو ❁ باليمين والشمائل يمين الفلك وهو جانبه الشرقى لان الكواكب منه تظهر آخذة فى الارتفاع والسطوع وشماله وهو جانبه

بالواو والنون وهو بالعقلاء أليق منه بالاصنام التى هى جمادات ومنهم من قال بل القول الثانى أولى لوجوه (الاول) انا اذا قلنا انه عائد الى المشركين افتقرنا الى اضمار فان التقدير ويجعلون لما لا يعلمون الها أو لما لا يعلمون كونه نافعا ضارا واذا قلنا انه عائد الى الاصنام لم نفتقر الى الاضمار لان التقدير ويجعلون لما لا علم لها ولا فهم (والثانى) انه لو كان العلم مضافا الى المشركين لفسد المعنى لان من المحال أن يجعلوا نصيبا من رزقهم لما لا يعلمونه فهذا ما قيل فى ترجيح أحد هذين القولين على الآخر واعلم انا اذا قلنا بالقول الاول افتقرنا فيه الى الاضمار وذلك يحتمل وجوها (أحدها) ويجعلون لما لا يعلمون له حقا ولا يعلمون فى طاعته نفعا ولا فى الاعراض عنه ضررا قال مجاهد يعلمون ان الله خلقهم ويضرهم وينفعهم ثم يجعلون لما لا يعلمون انه ينفعهم ويضرهم نصيبا (وثانيها) ويجعلون لما لا يعلمون الهيتها (وثالثها) ويجعلون لما لا يعلمون السبب فى صيرورتها معبودة (ورابعها) المراد استحقار الاصنام حتى كأنها لقلتها لا تعلم (المسئلة الثانية) فى تفسير ذلك النصيب احتمالات (الاول) المراد منه انهم جعلوا لله نصيبا من الحرث والانعام يتقربون الى الله تعالى به ونصيبا الى الاصنام يتقربون به اليها وقد شرحنا ذلك فى آخر سورة الانعام (والثانى) ان المراد من هذا النصيب البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وهو قول الحسن (والثالث) ربما اعتقدوا فى بعض الاشياء انه انما حصل باعانة بعض تلك الاصنام كما ان المنجمين يوزعون موجودات هذا العالم على الكواكب السبعة فيقولون لزحل كذا من المعادن والنبات والحيوانات وللمشترى أشياء أخرى فكذا ههنا واعلم انه تعالى لما حكى عن المشركين هذا المذهب قال تالله لتسألن وهذا فى هؤلاء الاقوام خاصة بمنزلة قوله فوربك لنسئلنهم اجمعين عما كانوا يعملون وعلى التقديرين فأقسم الله تعالى بنفسه أنه يسألهم وهذا تهديد منه شديد لان المراد أنه يسألهم سؤال توبيخ وتهديد وفى وقت هذا السؤال احتمالان (الاول) انه يقع ذلك السؤال عند القرب من الموت ومعاينة ملائكة العذاب وقيل عند عذاب القبر (والثانى) انه يقع ذلك فى الآخرة وهذا أولى لانه تعالى قد أخبر بما يجرى هناك من ضروب التوبيخ عند المسئلة فهو الى الوعيد أقرب (النوع الثانى من كلماتهم الفاسدة) انهم يجعلون لله البنات ونظيره قوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا كانت خزاعة وكنانة تقول الملائكة بنات الله أقول أظن أن العرب انما أطلقوا لفظ البنات لان الملائكة لما كانوا مستترين عن العيون أشبهوا النساء فى الاستتار فاطلقوا عليهم لفظ البنات وأيضا قرص الشمس يجرى مجرى المستتر عن العيون بسبب ضوئه الباهر ونوره القاهر فأطلقوا عليه لفظ التأنيث فهذا ما يغلب على الظن فى سبب اقدامهم على هذا القول الفاسد والمذهب الباطل ولما حكى الله تعالى عنهم هذا القول قال سبحانه وفيه وجوه (الاول) أن يكون المراد تنزيه ذاته عن نسبة الولد اليه (والثانى) تعجب الخلق من هذا الجهل القبيح وهو وصف الملائكة بالانوثة ثم نسبتها

الغربى المقابل له فان الظلال فى أول النهار تبتدئ من الشرق واقعة على الربع الغربى من الارض وعند الزوال تبتدئ من الغرب واقعة على الربع الشرقى منها وبعد ما بين سجود الظلال وأصحابها من الاجرام السفلية الثابتة فى احيازها ودخورها له سبحانه وتعالى شرع فى بيان سجود المخلوقات المتحركة بالارادة سواء كانت لها ظلال أو لا فقيل (ولله يسجد) أى له تعالى وحده يخضع وينقاد لا لشئ غيره استقلالا أو اشتراكا فالقصر ينتظم القلب والافراد الا أن الانسب بحال المخاطبين قصر الافراد كما يؤذن به قوله تعالى وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين (ما فى السموات) قاطبة (وما فى الارض) كائنا ما كان (من دابة) بيان لما فى الارض وتقديمه لقلته ولئلا يقع بين المبين والمبين فصل والافراد مع ان المراد الجمع لافادة وضوح شمول السجود لكل فرد من الدواب قال الاخفش هو كقولك ما أتانى من رجل مثله وما أتانى من الرجال مثله (والملائكة) عطف على ما فى السموات عطف جبريل على الملائكة تعظيما واجلالا أو على أن يراد بما فى السموات الخلق الذى يقال له الروح أو يراد به ملائكة السموات وبقوله والملائكة ملائكة الارض من الحفظة وغيرهم (وهم) أى الملائكة مع علو شأنهم (لا يستكبرون) عن عبادته عز وجل والسجود له وتقديم الضمير ليس للقصر والجملة اما حال من

بالولدية الى الله تعالى (والثالث) قيل فى التفسير معناه معاذ الله وذلك مقارب للوجه الاول ثم قال تعالى ولهم مايشتهون أجاز الفراء فى ما وجهين (الاول) أن يكون فى محل النصب على معنى ويجعلون لانفسهم مايشتهون (والثانى) أن يكون رفعا على الابتداء كأنه تم الكلام عند قوله سبحانه ثم ابتدأ فقال ولهم مايشتهون يعنى البنين وهو كقوله أم له البنات ولكم البنون ثم اختار الوجه الثانى وقال لو كان نصبا لقال ولانفسهم مايشتهون لانك تقول جعلت لنفسك كذا وكذا ولا تقول جعلت لك وأبى الزجاج اجازة الوجه الاول وقال ما فى موضع رفع لاغير والتقدير ولهم الشئ الذى يشتهونه ولا يجوز النصب لان العرب تقول جعل لنفسه مايشتهى ولا تقول جعل له مايشتهى وهو يعنى نفسه ثم انه تعالى ذكر ان الواحد من هؤلاء المشركين لا يرضى بالولد البنت لنفسه فالا يرتضيه لنفسه كيف ينسبه لله تعالى فقال واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) التبشير فى عرف اللغة مختص بالخبر الذى يفيد السرور الا أنه بحسب أصل اللغة عبارة عن الخبر الذى يؤثر فى تغير بشرة الوجه ومعلوم ان السرور كما يوجب تغير البشرة فكذلك الحزن يوجبه فوجب أن يكون لفظة التبشير حقيقة فى القسمين ويتأكد هذا بقوله فبشرهم بعذاب أليم ومنهم من قال المراد بالتبشير ههنا الاخبار والقول الاول أدخل فى التحقيق أما قوله ظل وجهه مسودا فالمعنى انه يصير متغيرا تغير مغتم ويقال لمن لقى مكروها قد اسود وجهه غما وحزنا وأقول انما جعل اسوداد الوجه كناية عن الغم وذلك لان الانسان اذا قوى فرحه انشرح صدره وانبسط روح قلبه من داخل القلب ووصل الى الاطراف ولاسيما الى الوجه لما بينهما من التعلق الشديد واذا وصل الروح الى ظاهر الوجه أشرق الوجه وتلألأ واستنار وأما اذا قوى غم الانسان احتقن الروح فى باطن القلب ولم يبق منه أثر قوى فى ظاهر الوجه فلاجرم يربد الوجه ويصفر ويسود ويظهر فيه أثر الارضية والكثافة فثبت ان من لوازم الفرح استنارة الوجه واشراقه ومن لوازم الغم كمودة الوجه وغبرته وسواده فلهذا السبب جعل بياض الوجه واشراقه كناية عن الفرح وغبرته وكمودته وسواده كناية عن الغم والحزن والكراهية ولهذا المعنى قال ظل وجهه مسودا وهو كظيم أى ممتلئ غما وحزنا ثم قال تعالى يتوارى من القوم من سوء أى يختفى ويتغيب من سوء مابشر به قال المفسرون كان الرجل فى الجاهلية اذا ظهر آثار الطلق بامرأته توارى واختفى عن القوم الى أن يعلم مايولد له فان كان ذكرا ابتهج به وان كان أنثى حزن ولم يظهر للناس أياما يدبر فيها انه ماذا يصنع بها وهو قوله أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب والمعنى أيحبسه والامساك ههنا بمعنى الحبس كقوله أمسك عليك زوجك وانما قال أيمسكه ذكره بضمير المذكر لان هذا الضمير عائد على ما فى قوله مابشر به والهون الهوان قال النضر ابن شميل يقال انه أهون عليه هونا وهوانا وأهنته هونا وهوانا وذكرنا هذا فى سورة

ضمير الفاعل فى يسجد مسندا الى الملائكة أو استئناف أخبر عنهم بذلك (يخافون ربهم) أى مالك أمرهم وفيه تربية للمهابة وإشعار بعلة الحكم (من فوقهم) أى يخافونه جل وعلا خوف هيبة واجلال وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى وهو القاهر فوق عباده أو يخافون أن يرسل عليهم عذابا من فوقهم والجملة حال من الضمير فى لايستكبرون أو بيان له وتقرير لان من يخاف الله سبحانه لايستكبر عن عبادته (ويفعلون مايؤمرون) أى مايؤمرون به من الطاعات والتدبيرات وايراد الفعل مبنيا للمفعول جرى على سنن الجلالة وايذان بعدم الحاجة الى التصريح بالفاعل لاستحالة استناده الى غيره سبحانه وفيه ان الملائكة مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء وبعد مابين أن جميع الموجودات يخصون الخضوع والانقياد الطبيعى وما يجرى مجراه من عبادة الملائكة حيث لايتصور منهم عدم الانقياد أصلا لله عز وجل أردف ذلك بحكاية نهيه سبحانه وتعالى للمكلفين عن الاشراك فقيل (وقال الله) عطفا على قوله ولله يسجد واظهار الفاعل وتخصيص لفظة الجلالة بالذكر للايذان بأنه متعين الالوهية وانما المنهى عنه هو الاشراك به لا أن المنهى عنه مطلق اتخاذ الهين بحيث يتحقق الانتهاء عنه برفض أيهما كان أى قال تعالى لجميع المكلفين (لاتتخذوا الهين اثنين) وانما ذكر العدد مع أن صيغة التثنية مغنية

﴿ الانعام ﴾

الانعام عند قوله عذاب الهون وفى ان هذا الهون صفة من قولان (الاول) انه صفة المولودة ومعناه أنه يمسكها على هون منه لها (والثانى) قال عطاء عن ابن عباس انه صفة للاب ومعناه انه يمسكها مع الرضا بهوان نفسه وعلى رغم أنفه ثم قال أم يدسه فى التراب والدس اخفاء الشئ فى الشئ يروى ان العرب كانوا يحفرون حفيرة و يجعلونها فيها حتى تموت وروى عن قيس بن عاصم أنه قال يارسول الله انى وار يت ثمانى بنات فى الجاهلية فقال عليه السلام اعتق عن كل واحدة منهن رقبة فقال يانبى الله انى ذوابل فقال اهد عن كل واحدة منهن هديا وروى أن رجلا قال يارسول الله ما أجد حلاوة الاسلام منذ أسلمت فقد كانت لى فى الجاهلية ابنة فأمرت امرأتى ان تزينها فاخرجتها الى فانتهيت بها الى واد بعيد القعر فألقيتها فيه فقالت ياأبة قتلتنى فكلما ذكرت قولها لم ينفعنى شئ فقال عليه السلام ماكان فى الجاهلية فقد هدمه الاسلام وما فى الاسلام يهدمه الاستغفار واعلم انهم كانوا مختلفين فى قتل البنات فمنهم من يحفر الحفيرة و يدفنها فيها الى أن تموت ومنهم من يرميها من شاهق جبل ومنهم من يغرقها ومنهم من يذبحها وهم كانوا يفعلون ذلك تارة للغيرة والحمية وتارة خوفا من الفقر والفاقة ولزوم النفقة ثم انه تعالى قال ألاساء ما يحكمون وذلك لانهم بلغوا فى الاستنكاف من البنت الى أعظم الغايات (فأولها) انه يسود وجهه (وثانيها) انه يختفى عن القوم من شدة نفرته عن البنت (وثالثها) ان الولد محبوب بحسب الطبيعة ثم انه بسبب شدة نفرته عنها يقدم على قتلها وذلك يدل على أن النفرة عن البنت والاستنكاف عنها قد بلغ مبلغا لا يزاد عليه اذا ثبت هذا فالشئ الذى بلغ الاستنكاف منه الى هذا الحد العظيم كيف يليق بالعاقل أن ينسبه لاله العالم المقدس العالى عن مشابهة جميع المخلوقات ونظير هذه الآية قوله تعالى ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى (المسئلة الثانية) قال القاضى هذه الآية تدل على بطلان الجبر لانهم يضيفون الى الله تعالى من الظلم والفواحش ما اذا أضيف الى أحدهم أجهد نفسه فى البراءة منه والتباعد عنه فحكمهم فى ذلك مشابه لحكم هؤلاء المشركين ثم قال بل أعظم لان اضافة البنات اليه اضافة قبح واحد وذلك أسهل من أضافة كل القبائح والفواحش الى الله تعالى فيقال للقاضى انه لما ثبت بالدليل استحالة الصاحبة والولد على الله تعالى أردفه الله تعالى بذكر هذا الوجه الاقناعى والا فليس كل ما قبح منا فى العرف قبح من الله تعالى ألا ترى لو أن رجلا زين اماءه وعبيده و بالغ فى تحسين صورهن ثم بالغ فى تقوية الشهوة فيهم وفيهن ثم جمع بين الكل وأزال الحائل والمانع فان هذا بالاتفاق حسن من الله تعالى وقبيح من كل الخلق فعلمنا ان التعويل على هذه الوجوه المبنية على العرف انما يحسن اذا كانت مسبوقة بالدلائل القطعية اليقينية وقد ثبت بالبراهين القطعية امتناع الولد على الله فلا جرم حسنت تقويتها بهذه الوجوه الاقناعية أما أفعال العباد فقد ثبت بالدلائل اليقينية القاطعة ان خالقها هو الله تعالى فكيف يمكن الحاق

من ذلك دلالة على ان مساق النهى هى الاثنينية وانها منافية للالوهية كما ان وصف الاله بالوحدة فى قوله تعالى (انما هو الاله واحد) للدلالة على أن المقصود اثبات الوحدانية وأنها من لوازم الالهية وأما الالهية فأمر مسلم الثبوت له سبحانه واليه أشير حيث أسند اليه القول وفيه التفات من التكلم الى الغيبة على رأى من اكتفى فى تحقق الالتفات بكون الاسلوب الملتفت عنه حق الكلام ولم يشترط سبق الذكر على ذلك الوجه (فاياى فارهبون) التفات من الغيبة الى التكلم لتربية المهابة والقاء الرهبة فى القلوب ولذلك قدم المفعول وكرر الفعل أى أن كنتم راهبين شيئا فاياى ارهبوا فارهبون لاغير فانى ذلك الواحد الذى يسجد له ما فى السموات والارض (وله ما فى السموات والارض) خلقا وملكا تقرير لعلة انقياد ما فيهما له سبحانه خاصة وتحقيق لتخصيص الرهبة به تعالى وتقديم الظرف لتقوية ما فى اللام من معنى الاختصاص وكذا فى قوله تعالى (وله الدين) أى الطاعة والانقياد (واصبا) أى واجبا ثابتا لا زوال له لما تقرر أنه الاله وحده الحقيق بأن يرهب وقيل واصبا من الوصف أى وله الدين ذا كلفة وقيل الدين الجزاء أى وله الجزاء الدائم بحيث لا ينقطع ثوابه لمن آمن وعقابه لمن كفر (أفغير الله تتقون) الهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه السياق أى أعقيب تقرر الشؤن المذكورة من تخصيص جميع الموجودات

أحد البابين بالآخر لولا شدة التعصب والله أعلم ثم قال تعالى للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الاعلى والمثل السوء عبارة عن الصفة السوء وهى احتياجهم الى الولد وكراهتهم الاناث خوف الفقر والعار ولله المثل الاعلى أى الصفة العالية المقدسة وهى كونه تعالى منزها عن الولد فان قيل كيف جاء ولله المثل الاعلى مع قوله فلا تضربوا لله الامثال قلنا المثل الذى يذكره الله حق وصدق والذى يذكره غيره فهو الباطل والله أعلم

* قوله تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب ان لهم الحسنى لا جرم ان لهم النار وانهم مفرطون تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان اعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) اعلم انه تعالى لما حكى عن القوم عظيم كفرهم وقبيح قولهم بين انه يمهل هؤلاء الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة اظهارا للفضل والرحمة والكرم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) احتج الطاعنون فى عصمة الانبياء علهم السلام بقوله تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة من وجهين (الاول) انه قال ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم فأضاف الظلم الى كل الناس ولا شك أن الظلم من المعاصى فهذا يقتضى كون كل انسان آتيا بالذنب والمعصية والانبياء عليهم السلام من الناس فوجب كونهم آتين بالذنب والمعصية (والثانى) أنه تعالى قال ما ترك على ظهرها من دابة وهذا يقتضى ان كل من كان على ظهر الارض فهو آت بالظلم والذنب حتى يلزم من افناء كل من كان ظالما افناء كل الناس أما اذا قلنا الانبياء عليم السلام لم يصدر عنهم ظلم فلا يجب افناؤهم وحينئذ لا يلزم من افناء كل الظالمين افناء كل الناس وأن لا يبقى على ظهر الارض دابة ولما لزم علمنا ان كل البشر ظالمون سواء كانوا من الانبياء أو لم يكونوا كذلك والجواب ثبت بالدليل أن كل الناس ليسوا ظالمين لانه تعالى قال ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات أى فمن العباد من هو ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق ولو كان المقتصد والسابق ظالما لفسد ذلك التقسيم فعلمنا ان المقتصدين والسابقين ليسوا ظالمين فثبت بهذا الدليل أنه لا يجوز أن يقال كل الخلق ظالمون واذا ثبت هذا فنقول الناس المذكورون فى قوله ولو يؤاخذ الله الناس اما كل العصاة المستحقين للعقاب أو الذين تقدم ذكرهم من المشركين ومن الذين أثبتوا لله البنات وعلى هذا التقدير فيسقط الاستدلال والله أعلم (المسئلة الثانية) من الناس من احتج بهذه الآية على ان الاصل فى المضار الحرمة فقال لو كان الضرر مشروعا لكان اما أن يكون مشروعا على وجه يكون جزاء على جرم صادر منهم أو لا على هذا الوجه والقسمان باطلان فوجب أن لا يكون مشروعا أصلا أما بيان فساد القسم الاول فلقوله تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم

للسجود به تعالى وكون ذلك كله له ونهيه عن اتخاذ الانداد وكون الدين له واصبا المستدعى ذلك لتخصيص التقوى به سبحانه غير الله الذى شأنه ما ذكر تتقون فتطيعون (وما بكم) ﴿ ٤٧٦ ﴾ أى أى شئ يلابسكم ويصاحبكم (من نعمة) أية نعمة كانت (فمن الله) فهى من الله فما شرطية أو موصولة متضمنة لمعنى الشرط باعتبار الاخبار دون الحصول فان ملابسة النعمة بهم سبب للاخبار بأنها منه تعالى لا لكونها منه تعالى (ثم اذا مسكم الضر) مساسا يسيرا (فاليه تجأرون) تتضرعون فى كشفه لا الى غيره والجؤار رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة قال الاعشى يراوح من صلوات المليك * طورا سجودا وطورا جؤارا * وقرئ تجرون بطرح الهمزة والقاء حركتها الى ما قبلها وفى ذكر المساس المنبئ عن أدنى اصابة وايراده بالجملة الفعلية المعربة عن الحدوث مع ثم الدالة على وقوعه بعد برهة من الدهر وتحلية الضر بلام الجنس المفيدة لمساس أدنى ما ينطلق عليه اسم الجنس مع ايراد النعمة بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والتعبير عن ملابستها للمخاطبين بباء المصاحبة وايراد ما المعربة عن العموم ما لا يخفى من الجزالة والفخامة ولعل ايراد اذا دون ان للتوسل به الى تحقق وقوع الجواب (ثم اذا كشف الضر عنكم) وقرئ كاشف الضر وكلمة ثم ليست للدلالة على تمادى زمان مساس الضر ووقوع الكشف بعد برهة مديدة بل

﴿ ماترك ﴾

للدلالة على تراخي رتبتها عما يترتب عليه من مفاجأة الاشراك المدلول عليها بقوله سبحانه (اذا فريق منكم بربهم يشركون) فان ترتبها على ذلك في أبعد غاية من الضلال ﴿٤٧٧﴾ ثم ان وجه الخطاب الى الناس جميعا فمن للتبعيض والفريق فريق الكفرة وان وجه الى الكفرة فمن للبيان كأنه قيل اذا فريق كافر وهم أنتم ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر وازدجر كقوله تعالى فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد فمن تبعيضية أيضا والتعرض لوصف الربوبية للايذان بكمال قبح ما ارتكبوه من الاشراك والكفران (ليكفروا بما آتيناهم) من نعمة الكشف عنهم كأنهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة وانكار كونها من الله عز وجل (فتمتعوا) أمر تهديد والالتفات الى الخطاب للايذان بتناهي السخط وقرئ بالياء مبنيا للمفعول عطفا على ليكفروا على أن يكون كفران النعمة والتمتع غرضا لهم من الاشراك ويجوز أن يكون اللام لام الامر الوارد للتهديد (فسوف تعلمون) عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب وفيه وعيد أكيد منبئ عن أخذ شديد حيث لم يذكر المفعول اشعارا بانه مما لا يوصف (ويجعلون) لعله عطف على ما سبق بحسب المعنى تعدادا لجناياتهم أي يفعلون ما يفعلون من الجؤار الى الله تعالى عند مساس الضر ومن الاشراك به عند كشفه ويجعلون (لما لا يعلمون) أي لما لا يعلمون حقيقته وقدرها الخسيس من الجمادات التي يتخذونها شركاء لله سبحانه جهالة

ما ترك على ظهرها من دابة والاستدلال به من وجهين (الاول) ان كلمة لو وضعت لانتفاء الشيء لانتفاء غيره فقوله ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة يقتضي انه تعالى ما آخذهم بظلمهم وأنه ترك على ظهرها من دابة (والثاني) انه لما دلت الآية على ان لازمة أخذ الله الناس بظلمهم هو أن لا يترك على ظهرها دابة ثم انا نشاهد انه تعالى ترك على ظهرها دواب كثيرين فوجب القطع بانه تعالى لا يؤاخذ الناس بظلمهم فثبت بهذا أنه لا يجوز أن تكون المضار مشروعة على وجه تقع أجزية عن الجرائم (وأما القسم الثاني) وهو أن يكون مشروعا ابتداء لا على وجه يقع أجزية عن جرم سابق فهذا باطل بالاجماع فثبت ان مقتضى هذه الآية تحريم المضار مطلقا ويتأكد هذا أيضا بآيات أخرى كقوله تعالى ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها وكقوله وما جعل عليكم في الدين من حرج وكقوله يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وكقوله عليه السلام لا ضرر ولا ضرار في الاسلام وكقوله ملعون من ضر مسلما فثبت بمجموع هذه الآيات والاخبار أن الاصل في المضار الحرمة فنقول اذا وقعت حادثة مشتملة على الضرر من كل الوجوه فان وجدنا نصا خاصا يدل على كونه مشروعا قضينا به تقديما للخاص على العام والا قضينا عليه بالحرمة بناء على هذا الاصل الذي قررناه ومنهم من قال هذه القاعدة تدل على ان كل ما يريده الانسان وجب أن يكون مشروعا في حقه لان المنع منه ضرر والضرر غير مشروع بمقتضى هذا الاصل وكل ما يكرهه الانسان وجب أن يحرم لان وجوده ضرر والضرر غير مشروع فثبت ان هذا الاصل يتناول جميع الوقائع الممكنة الى يوم القيامة ثم نقول القياس الذي يتمسك به في اثبات الاحكام اما أن يكون على وفق هذه القاعدة أو على خلافها والاول باطل لان هذا الاصل يغني عنه والثاني باطل لان النص راجح على القياس والله أعلم (المسئلة الثالثة) قالت المعتزلة هذه الآية دالة على ان الظلم والمعاصي ليست فعلا لله تعالى بل تكون افعالا للعباد لانه تعالى أضاف ظلم العباد اليهم وما أضافه الى نفسه فقال ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم وايضا فلو كان خلقا لله تعالى لكانت مؤاخذتهم بها ظلما من الله تعالى ولما منع الله تعالى العباد من الظلم في هذه الآية فبأن يكون منزها عن الظلم كان أولى قالوا ويدل أيضا على ان أعمالهم مؤثرة في وجوب الثواب والعقاب ان قوله بظلمهم الباء فيه تدل على العلية كما في قوله ذلك بأنهم شاقوا الله واعلم ان الكلام في هذه المسائل قد ذكرناه مرارا فلا نعيده والله اعلم (المسئلة الرابعة) ظاهر الآية يدل على ان اقدام الناس على الظلم يوجب اهلاك جميع الدواب وذلك غير جائز لان الدابة لم يصدر عنها ذنب فكيف يجوز اهلاكها بسبب ظلم الناس والجواب عنه من وجهين (الاول) انا لا نسلم ان قوله ما ترك على ظهرها من دابة يتناول جميع الدواب وأجاب أبو علي الجبائي عنه بأن المراد لو يؤاخذهم الله بما كسبوا من كفر ومعصية لعجل هلاكهم وحينئذ لا يبقى لهم نسل ثم من المعلوم أنه لا أحد الا وفي أحد آبائه من يستحق

العذاب واذا اهلكوا فقد بطل نسلهم فكان يلزمه أن لا يبقى فى العالم أحد من الناس واذا بطلوا وجب أن لا يبقى أحد من الدواب أيضا لان الدواب مخلوقة لمنافع العباد ومصالحهم فهذا وجه لطيف حسن (والوجه الثانى) ان الهلاك اذا ورد على الظلمة ورد أيضا على سائر الناس والدواب فكان ذلك الهلاك فى حق الظلمة عذابا وفى حق غيرهم امتحانا وقد وقعت هذه الواقعة فى زمان نوح عليه السلام (والوجه الثالث) انه تعالى لو آخذهم لانقطع القطر وفى انقطاعه انقطاع النبت فكان لا تبقى على ظهرها دابة وعن أبى هريرة رضى الله عنه انه سمع رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه فقال لا والله بل ان الحبارى فى وكرها لتموت بظلم الظالم وعن ابن مسعود رضى الله عنه كاد الجعل يهلك فى جحره بذنب ابن آدم فهذه الوجوه الثلاثة من الجواب مفرعة على تسليم أن لفظة الدابة يتناول جميع الدواب (والجواب الثانى) ان المراد من قوله ما ترك على ظهرها من دابة أى ما ترك على ظهرها من كافر فالمراد بالدابة الكافر والدليل عليه قوله تعالى أولئك كالانعام بل هم أضل والله أعلم (المسئلة الخامسة) الكناية فى قوله عليها عائدة الى الارض ولم يسبق لها ذكر الا أن ذكر الدابة يدل على الارض فان الدابة انما تدب عليها وكثيرا ما يكنى عن الارض وان لم يتقدم ذكرها لانهم يقولون ما عليها مثل فلان وما عليها أكرم من فلان يعنون على الارض ثم قال تعالى ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى ليتوالدوا وفى تفسير هذا الاجل قولان (الاول) وهو قول عطاء عن ابن عباس انه يريد أجل القيامة (والقول الثانى) ان المراد منتهى العمر وجه القول الاول أن معظم العذاب يوافيهم يوم القيامة ووجه القول الثانى ان المشركين يؤاخذون بالعقوبة اذا انقضت أعمارهم وخرجوا من الدنيا (النوع الثالث) من الاقاويل الفاسدة التى كان يذكرها الكفار وحكاها الله تعالى عنهم قوله ويجعلون لله ما يكرهون واعلم ان المراد من قوله ويجعلون أى البنات التى يكرهونها لانفسهم ومعنى قوله يجعلون يصفون الله بذلك ويحكمون به له كقوله جعلت زيدا على الناس أى حكمت بهذا الحكم وذكرنا معنى الجعل عند قوله ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ثم قال تعالى وتصف ألسنتهم الكذب ان لهم الحسنى قال الفراء والزجاج موضع أن نصب لان قوله أن لهم الحسنى بدل من الكذب وتقدير الكلام وتصف ألسنتهم أن لهم الحسنى وفى تفسير الحسنى ههنا قولان (الاول) المراد منه البنون يعنى انهم قالوا لله البنات ولنا البنون (والثانى) انهم مع قولهم باثبات البنات لله تعالى يصفون أنفسهم بانهم فازوا برضوان الله تعالى بسبب هذا القول وأنهم على الدين الحق والمذهب الحسن (الثالث) انهم حكموا لانفسهم بالجنة والثواب من الله تعالى فان قيل كيف يحكمون بذلك وهم كانوا منكرين للقيامة قلنا كلهم ما كانوا منكرين للقيامة فقد قيل انه كان فى العرب جمع يقرون بالبعث والقيامة ولذلك فانهم كانوا يربطون البعير النفيس على قبر الميت ويتركونه الى أن يموت ويقولون ان ذلك الميت اذا حشر فانه يحشر معه مركوبه

﴿ وأيضا ﴾

وسفاهة ويزعمون انها تنفعهم وتشفع لهم على أن ما موصولة والعائد اليها محذوف أو لما لا علم له أصلا وليس من شأنه ذلك فما موصولة أيضا والعائد اليها ما فى الفعل من الضمير المستكن وصيغة جمع العقلاء لكون ما عبارة عن آلهتهم التى وصفوها بصفات العقلاء أو مصدرية واللام للتعليل أى لعدم علمهم والمجعول له محذوف للعلم بمكانه (نصيبا مما رزقناهم) من الزرع والانعام وغيرهما تقربا اليها (تالله لتسألن) سؤال توبيخ وتقريع (عما كنتم تفترون) فى الدنيا بأنها آلهة حقيقة بأن يتقرب اليها وفى تصدير الجملة بالقسم وصرف الكلام من الغيبة الى الخطاب المنبئ عن كمال الغضب من شدة الوعيد ما لا يخفى (ويجعلون لله البنات) هم خزاعة وكنانة الذين يقولون الملائكة بنات الله (سبحانه) تنزيه وتقديس له عز وجل عن مضمون قولهم ذلك أو تعجيب من جراءتهم على التفوه بمثل تلك العظيمة (ولهم ما يشتهون) من البنين وما مرفوعة المحل على أنه مبتدأ والظرف المقدم خبره والجملة حالية وسبحانه اعتراض فى حاق موقعه وجعلها منصوبة بالعطف على البنات أى يجعلون لانفسهم ما يشتهونه من البنين يؤدى الى جعل الجعل بمعنيى الزعم والاختيار (واذا بشر أحدهم بالانثى) أى أخبر بولادتها (ظل وجهه) أى صار أو دام النهار كله (مسودا) من الكآبة والحياء

من الناس واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتشويش (وهو كظيم) ممتلئ حنقا وغيظا (يتوارى) أى يستخفى (من القوم من سوء مابشر به) من أجل سوئه والتعبير عنها بالاسقاطها عن درجة العقلاء (ايمسكه) أى متردداً فى أمره محدثا نفسه فى شأنه أيمسكه (على هون) ذل وقرئ هوان (أم يدسه) يخفيه (فى التراب) بالوأد والتذكير باعتبار لفظ ما وقرئ بالتأنيث (ألا ساء ما يحكمون) حيث يجعلون ما هذا شأنه عندهم من الهون والحقارة لله المتعالى عن الصاحبة والوالد والحال انهم يتحاشون عنه ويختارون لانفسهم البنين فدار الخطا جعلهم ذلك لله سبحانه مع ابائهم اياه لا جعلهم البنين لانفسهم ولا عدم جعلهم له سبحانه ويجوز ان يكون مداره التعكيس لقوله تعالى تلك اذا قسمة ضيزى (للذين لايؤمنون بالآخرة) ممن ذكرت قبائحهم (مثل السوء) صفة السوء التى هى كالمثل فى القبح وهى الحاجة الى الولد ليقوم مقامهم عند موتهم وايثار الذكور للاستظهار بهم ووأد البنات لدفع العار وخشية الاملاق المنادى كل ذلك بالعجز والقصور والشح البالغ ووضع الموصول موضع الضمير للاشعار بأن مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة (ولله) سبحانه وتعالى (المثل الاعلى) أى الصفة العجيبة الشأن التى هى مثل فى العلو مطلقا وهو الوجوب الذاتى والغنى المطلق والجود الواسع والنزاهة عن صفات المخلوقين ويدخل فيه علوه تعالى عما قالوه علوا

وأيضا فبتقدير أنهم كانوا منكرين للقيامة فلعلهم قالوا ان كان محمد صادقا فى قوله بالبعث والنشور فانه يحصل لنا الجنة والثواب بسبب هذا الدين الحق الذى نحن عليه ومن الناس من قال الاولى أن يحمل الحسنى على هذا الوجه بدليل انه تعالى قال بعده لاجرم أن لهم النار فرد قولهم عليهم واثبت لهم النار فدل هذا على انهم حكموا لانفسهم بالجنة قال الزجاج لا رد لقولهم والمعنى ليس الامر كما وصفوا جرم فعلهم أى كسب ذلك القول لهم النار فعلى هذا لفظ أن فى محل النصب بوقوع الكسب عليه وقال قطرب أن فى موضع رفع والمعنى وجب أن لهم النار وكيف كان الاعراب فالمعنى هو انه يحق لهم النار ويجب ويثبت وقوله وانهم مفرطون قرأ نافع وقتيبة عن الكسائى مفرطون بكسر الراء والباقون مفرطون بفتح الراء أما قراءة نافع فقال الفراء المعنى أنهم كانوا مفرطين على أنفسهم فى الذنوب وقيل أفرطوا فى الافتراء على الله تعالى وقال أبو على الفارسى كأنه من أفرط أى صار ذا فرط مثل أجرب أى صار ذا جرب والمعنى أنهم ذوو فرط الى النار كأنهم قد أرسلوا من يهيئ لهم مواضع فيها وأما قراءة قوله مفرطون بفتح الراء ففيه قولان (الاول) المعنى انهم متروكون فى النار قال الكسائى يقال ما أفرطت من القوم أحدا أى ما تركت وقال الفراء تقول العرب أفرطت منهم ناسا أى خلفتهم وأنسيتهم (والقول الثانى) مفرطون أى معجلون قال الواحدى رحمه الله وهو الاختيار ووجهه ما قال أبو زيد وغيره فرط الرجل أصحابه يفرطهم فرطا وفروطا اذا تقدمهم الى الماء ليصلح الدلاء والارسان وأفرط القوم الفارط وفرطوه اذا قدموه فمعنى قوله مفرطون على هذا التقدير كأنهم قدموا الى النار فهم فيها فرط للذين يدخلون بعدهم ثم بين تعالى ان مثل هذا الصنع الذى يصدر من مشركى قريش قد صدر من سائر الامم السابقين فى حق الانبياء المتقدمين عليهم السلام فقال تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم وهذا يجرى مجرى التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم فيما كان يناله من الغم بسبب جهالات القوم قالت المعتزلة الآية تدل على فساد قول المجبرة من وجوه (الاول) انه اذا كان خالق أعمالهم هو الله تعالى فلا فائدة فى التزيين (والثانى) ان ذلك التزيين لما كان بخلق الله تعالى لم يجز ذم الشيطان بسببه (والثالث) ان التزيين هو الذى يدعو الانسان الى الفعل واذا كان حصول الفعل فيه بخلق الله تعالى كان ضروريا فلم يكن التزيين داعيا (والرابع) ان على قولهم الخالق لذلك العمل أجدر أن يكون وليا لهم من الداعى اليه (والخامس) أنه تعالى أضاف التزيين الى الشيطان ولو كان ذلك المزين هو الله تعالى لكانت اضافته الى الشيطان كذبا وجوابه ان كان مزين القبائح فى أعين الكفار هو الشيطان فمزين تلك الوساوس فى عين الشيطان ان كان شيطانا آخر لزم التسلسل وان كان هو الله تعالى فهو المطلوب ثم قال تعالى فهو وليهم اليوم وفيه احتمالان (الاول) ان المراد منه كفار مكة وبقوله فهو وليهم اليوم أى الشيطان ويتولى

اغواءهم وصرفهم عنك كما فعل بكفار الامم قبلك فيكون على هذا التقدير رجع عن أخبار الامم الماضية الى الاخبار عن كفار مكة (الثانى) انه أراد باليوم يوم القيامة يقول فهو ولى أولئك الذين كفروا زين لهم أعمالهم يوالقيامة وأطلق اسم اليوم على يوم القيامة لشهرة ذلك اليوم والمقصود من قوله فهو وليهم اليوم هو انه لاولى لهم ذلك اليوم ولاناصر وذلك لانهم اذا عاينوا العذاب وقد نزل بالشيطان كنزوله بهم ورأوا انه لامخلص له منه كما لامخلص لهم منه جاز أن يوبخوا بان يقال لهم هذا وليكم اليوم على وجه السخرية ثم ذكر تعالى أن مع هذا الوعيد الشديد قد أقام الله الحجة وأزاح العلة فقال وما أنزلنا عليك الكتاب الالتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المعنى انا ما أنزلنا عليك القرآن الالتبين لهم بواسطة بيانات هذا القرآن الاشياء التى اختلفوا فيها والمختلفون هم أهل الملل والاهواء وما اختلفوا فيه هو الدين مثل التوحيد والشرك والجبر والقدر واثبات المعاد ونفيه ومثل الاحكام مثل أنهم حرموا أشياء تحل كالبحيرة والسائبة وغيرهما وحللوا أشياء تحرم كالميتة (المسئلة الثانية) اللام فى قوله لتبين تدل على ان أفعال الله تعالى معللة بالاغراض ونظيره آيات كثيرة منها قوله كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس وقوله وما خلقت الجن والانس الاليعبدون وجوابه أنه لما ثبت بالعقل امتناع التعليل وجب صرفه الى التأويل (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قوله هدى ورحمة معطوفان على محل قوله لتبين الا أنهما انتصبا على أنه مفعول لهما لانهما فعلا الذى أنزل الكتاب ودخلت اللام فى قوله لتبين لانه فعل المخاطب لافعل المنزل وانما ينتصب مفعولا له ما كان فعلا لذلك الفاعل (المسئلة الرابعة) قال الكلبى وصف القرآن بكونه هدى ورحمة لقوم يؤمنون لاينفى كونه كذلك فى حق الكل كما أن قوله تعالى فى أول سورة البقرة هدى للمتقين لاينفى كونه هدى لكل الناس كما ذكره فى قوله هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان وانما خص المؤمنين بالذكر من حيث انهم قبلوه فانتفعوا به كما فى قوله انما أنت منذر من يخشاها لانه انما انتفع بانذاره هذا القوم فقط والله أعلم * قوله تعالى (والله أنزل من السماء ماء فأحيى به الارض بعد موتها ان فى ذلك لآية لقوم يسمعون وان لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ان فى ذلك لآية لقوم يعقلون) اعلم انا قد ذكرنا ان المقصود الاعظم من هذا القرآن العظيم تقرير أصول أربعة الالهيات والنبوات والمعاد واثبات القضاء والقدر والمقصود الاعظم من هذه الاصول الاربعة تقرير الالهيات فلهذا السبب كلما امتد الكلام فى فصل من الفصول فى وعيد الكفار عاد الى تقرير الالهيات وقد ذكرنا فى أول هذه السورة أنه تعالى لما أراد ذكر دلائل الالهيات ابتدأ بالاجرام الفلكية وثنى بالانسان وثلث بالحيوان وربع بالنبات وخمس بذكر أحوال البحر والارض فههنا فى هذه

كثيرا (وهو العزيز) المتفرد بكمال القدرة لاسيما على مؤاخذتهم بذنوبهم (الحكيم) الذى يفعل كل ما يفعل بمقتضى الحكمة البالغة وهذا أيضا من جملة صفاته العجيبة تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس) الكفار (بظلمهم) بكفرهم ومعاصيهم التى من جملتها ما عدد من قبائحهم وهذا تصريح بما أفاده قوله تعالى وهو العزيز الحكيم وايذان بأن ما أتوه من القبائح قد تناهى الى أمد لاغاية وراءه (ما ترك عليها) على الارض المدلول عليها بالناس وبقوله تعالى (من دابة) أى ما ترك عليها شيئا من دابة قط بل أهلكها بالمرة بشؤم ظلم الظالمين كقوله تعالى واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة وعن أبى هريرة رضى الله عنه انه سمع رجلا يقول ان الظالم لايضر الانفسه فقال بلى والله حتى ان الحبارى لتموت فى وكرها بظلم الظالم وعن ابن مسعود رضى الله عنه كاد الجعل يهلك فى جحره بذنب ابن آدم أو من دابة ظالمة وقيل لو أهلك الآباء لم يكن الابناء فيلزم أن لايكون فى الارض دابة لما أنها مخلوقة لمنافع البشر لقوله سبحانه هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا (ولكن) لايؤاخذهم بذلك بل (يؤخرهم الى أجل مسمى) لاعمارهم أو لعذابهم كى يتوالدوا ﴿ الآية ﴾ أو يكثر عذابهم (فاذا جاء أجلهم) المسمى (لايستأخرون) عن ذلك الاجل أى لايتأخرون وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم عنه مع طلبهم له (ساعة) فذة وهى مثل فى قلة المدة

الآية لما عاد الى تقرير دلائل الالهيات بدأ أولا بذكر الفلكيات فقال والله أنزل من السماء ماء فأحيي به الارض بعد موتها والمعنى انه تعالى خلق السماء على وجه ينزل منه الماء ويصير ذلك الماء سببا لحياة الارض والمراد بحياة الارض نبات الزرع والشجر والنور والثمر بعد أن كان لا يثمر وينفع بعد ان كان لا ينفع وتقرير هذه الدلائل قد ذكرناه مرارا كثيرة ثم قال ان فى ذلك لآية لقوم يسمعون سماع انصاف وتدبر لان من لم يسمع بقلبه فكانه اصم لم يسمع (والنوع الثانى) من الدلائل المذكورة فى هذه الآيات الاستدلال بعجائب أحوال الحيوانات وهو قوله وان لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه قد ذكرنا معنى العبرة فى قوله لعبرة لاولى الابصار وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم وحمزة والكسائى نسقيكم بضم النون والباقون بالفتح أما من فتح النون فحجته ظاهرة تقول سقيته حتى روى أسقيه قال تعالى وسقاهم ربهم شرابا طهورا وقال والذى هو يطعمنى ويسقين وقال وسقوا ماء حميما ومن ضم النون فهو من قولك أسقاه اذا جعل له شرابا كقوله وأسقيناكم ماء فراتا وقوله فأسقيناكموه والمعنى ههنا انا جعلناه فى كثرته وادامته كالسقيا واختار أبو عبيد الضم قال لانه شرب دائم وأكثر ما يقال فى هذا المقام أسقيت (المسئلة الثانية) قوله مما فى بطونه الضمير عائد الى الانعام فكان الواجب أن يقال مما فى بطونها وذكر النحويون فيه وجوها (الاول) ان لفظ الانعام لفظ مفرد وضع لافادة جمع كالرهط والقوم والبقر والنعم فهو بحسب اللفظ لفظ مفرد فيكون ضميره ضمير الواحد وهو التذكير وبحسب المعنى جمع فيكون ضميره ضمير الجمع وهو التأنيث فلهذا السبب قال ههنا فى بطونه وقال فى سورة المؤمنين فى بطونها (الثانى) قوله فى بطونه أى فى بطون ما ذكرنا وهذا جواب الكسائى قال المبرد هذا شائع فى القرآن قال تعالى فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى يعنى هذا الشئ الطالع ربى وقال ان هذه تذكرة فمن شاء ذكره أى ذكر هذا الشئ واعلم ان هذا انما يجوز فيما يكون تأنيثه غير حقيقى أما الذى يكون تأنيثه حقيقيا فلا يجوز فانه لا يجوز فى مستقيم الكلام أن يقال جاريتك ذهب ولا غلامك ذهبت على تقدير أن نحمله على النسمة (الثالث) ان فيه اضمارا والتقدير نسقيكم مما فى بطونه اللبن اذ ليس كلها ذات لبن (المسئلة الثالثة) الفرث سرجين الكرش روى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أنه قال اذا استقر العلف فى الكرش صار أسفله فرثا وأعلاه دما وأوسطه لبنا فيجرى الدم فى العروق واللبن فى الضرع ويبقى الفرث كما هو فذاك هو قوله تعالى من بين فرث ودم لبنا خالصا لا يشوبه الدم ولا الفرث ولقائل أن يقول الدم واللبن لا يتولدان البتة فى الكرش والدليل عليه الحس فان هذه الحيوانات تذبح ذبحا متواليا وما رأى أحد فى كرشها لا دما ولا لبنا ولو كان تولد الدم واللبن فى الكرش لوجب أن يشاهد ذلك فى بعض الاحوال والشئ الذى دلت المشاهدة على فساده لم يجز المصير اليه بل الحق ان الحيوان اذا تناول

(ولا يستقدمون) اى لا يتقدمون وانما تعرض لذكره مع أنه لا يتصور الاستقدام عند مجئ الاجل مبالغة فى بيان عدم الاستئخار بنظمه فى سلك ما يمتنع كما فى قوله تعالى وليست التوبة للذين يعملون السيآت حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار فان من مات كافرا مع أنه لا توبة له رأسا قد نظم فى سمط من لم تقبل توبته للايذان بأنهما سيان فى ذلك وقد مر فى تفسير سورة يونس (ويجعلون لله) أى يثبتون له سبحانه وينسبون اليه فى زعمهم (ما يكرهون) لانفسهم مما ذكر وهو تكرير لما سبق تثنية للتقريع وتوطئة لقوله تعالى (وتصف ألسنتهم الكذب) اى يجعلون له تعالى ما يجعلون ومع ذلك تصف ألسنتهم الكذب وهو (أن لهم الحسنى) العاقبة الحسنى عند الله تعالى كقوله ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى وقرئ الكذب وهو جمع الكذوب على أنه صفة الالسنة (لا جرم) رد لكلامهم ذلك واثبات لنقيضه أى حقا (أن لهم) مكان ما أملوا من الحسنى (النار) التى ليس وراء عذابها عذاب وهى علم فى السوأى (وأنهم مفرطون) أى مقدمون اليها من أفرطته اى قدمته فى طلب الماء وقيل منسيون من أفرطت فلانا خلفى اذا خلفته ونسيته وقرئ بالتشديد وفتح الراء من فرطته فى طلب الماء وبكسر الراء المشددة من التفريط فى الطاعات

وبكسر المخففة من الافراط فى المعاصى فلا يكونان حينئذ من أحوالهم الاخروية كما عطف عليه (تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يناله من جهالات الكفرة ووعيد لهم على ذلك أى أرسلنا اليهم رسلا فدعوهم الى الحق فلم يجيبوا الى ذلك (فزين لهم الشيطان أعمالهم) القبيحة فعكفوا عليها مصرين (فهو وليهم) اى قرينهم وبئس القرين (اليوم) اى يوم زين لهم الشيطان أعمالهم فيه على طريق حكاية الحال الماضية أو فى الدنيا أو يوم القيامة على طريق حكاية الحال الآتية وهى حال كونهم معذبين فى النار والولى بمعنى الناصر اى فهو ناصرهم اليوم لا ناصر لهم غيره مبالغة فى نفى الناصر عنهم ويجوز أن يكون الضمير عائدا الى مشركى قريش والمعنى زين للامم السالفة أعمالهم فهو ولى هؤلاء لانهم منهم وأن يكون على حذف المضاف أى ولى أمثالهم (ولهم) فى الآخرة (عذاب اليم) هو عذاب النار (وما أنزلنا عليك الكتاب) أى القرآن (الالتبين) استثناء مفرغ من أعم العلل اى ما أنزلناه عليك لعلة من العلل الالتبين (لهم) اى الناس (الذى اختلفوا فيه)من التوحيد والقدر وأحكام الافعال ﴿ واسرار ﴾ وأحوال المعاد (وهدى ورحمة)معطوفان على محل لتبين أى وللهداية والرحمة (لقوم يؤمنون)وانما انتصبا لكونهما اثرى فاعل الفعل

الغذاء وصل ذلك العلف الى معدته ان كان انسانا والى كرشه ان كان من الانعام وغيرها فاذا طبخ وحصل الهضم الاول فيه فما كان منه صافيا انجذب الى الكبد وما كان كثيفا نزل الى الامعاء ثم ذلك الذى يحصل منه فى الكبد ينطبخ فيها ويصير دما وذلك هو الهضم الثانى ويكون ذلك الدم مخلوطا بالصفراء والسوداء وزيادة المائية أما الصفراء فتذهب الى المرارة والسوداء الى الطحال والماء الى الكلية ومنها الى المثانة وأما ذلك الدم فانه يدخل فى الاوردة وهى العروق النابتة من الكبد وهناك يحصل الهضم الثالث وبين الكبد وبين الضرع عروق كثيرة فينصب الدم فى تلك العروق الى الضرع والضرع لحم غددى رخو أبيض فيقلب الله تعالى الدم عند انصبابه الى ذلك اللحم الغددى الرخو الابيض من صورة الدم الى صورة اللبن فهذا هو القول الصحيح فى كيفية تولد اللبن فان قيل فهذه المعانى حاصلة فى الحيوان الذكر فلم لم يحصل منه اللبن قلنا الحكمة الالهية اقتضت تدبير كل شئ على الوجه اللائق به الموافق لمصلحته فمزاج الذكر من كل حيوان يجب أن يكون حارا يابسا ومزاج الانثى يجب أن يكون باردا رطبا والحكمة فيه ان الولد انما يتكون فى داخل بدن الانثى فوجب أن تكون الانثى مختصة بمزيد الرطوبات لوجهين (الاول) ان الولد انما يتولد من الرطوبات فوجب أن يحصل فى بدن الانثى رطوبات كثيرة لتصير مادة لتولد الولد (والثانى) ان الولد اذا كبر وجب أن يكون بدن الام قابلا للتمدد حتى يتسع لذلك الولد فاذا كانت الرطوبات غالبة على بدن الام كان بدنها قابلا للتمدد فيتسع للولد فثبت بما ذكرنا انه تعالى خص بدن الانثى من كل حيوان بمزيد الرطوبات لهذه الحكمة ثم ان الرطوبات التى كانت تصير مادة لازدياد بدن الجنين حين كان فى رحم الام فعند انفصال الجنين تنصب الى الثدى والضرع ليصير مادة لغذاء ذلك الطفل الصغير اذا عرفت هذا فاعلم ان السبب الذى لاجله يتولد اللبن من الدم فى حق الانثى غير حاصل فى حق الذكر فظهر الفرق اذا عرفت هذا التصوير فنقول المفسرون قالوا المراد من قوله من بين فرث ودم هو ان هذه الثلاثة تتولد فى موضع واحد فالفرث يكون فى أسفل الكرش والدم يكون فى أعلاه واللبن يكون فى الوسط وقد دللنا على أن هذا القول على خلاف الحس والتجربة ولان الدم لو كان يتولد فى أعلى المعدة والكرش كان يجب اذا قاء أن يقئ الدم وذلك باطل قطعا وأما نحن فنقول المراد من الآية هو ان اللبن انما يتولد من بعض اجزاء الدم والدم انما يتولد من الاجزاء اللطيفة التى فى الفرث وهو الاشياء المأكولة الحاصلة فى الكرش وهذا اللبن متولد من الاجزاء التى كانت حاصلة فيما بين الفرث أولا ثم كانت حاصلة فيما بين الدم ثانيا فصفاه الله تعالى عن تلك الاجزاء الكثيفة الغليظة وخلق فيها الصفات التى باعتبارها صارت لبنا موافقا لبدن الطفل فهذا ما حصلناه فى هذا المقام والله أعلم (المسئلة الرابعة) اعلم ان حدوث اللبن فى الثدى واتصافه بالصفات التى باعتبارها يكون موافقا لتغذية الصبى مشتمل على حكم عجيبة

المعلل بخلاف التبيين حيث لم ينتصب لفقد ان شرطه ولعل تقديمه عليهما لتقدمه فى الوجود وتخصيص كونهما هدى ورحمة بالمؤمنين لانهم المغتنمون آثاره (والله أنزل من السماء) من السحاب أو من جانب السماء حسبما مر وهذا تكرير لما سبق تأكيدا لمضمونه وتوطئة لما يعقبه من أدلة التوحيد (ماء) نوعا خاصا من الماء هو المطر وتقديم المجرور على المنصوب لما مر مرارا من التشويق الى المؤخر (فاحيي به الارض) بما أنبت به فيها من انواع النباتات (بعد موتها) أى بعد يبسها وما يفيده الفاء من التعقيب العادى لا ينافيه ما بين المعطوفين من المهلة (ان فى ذلك) أى فى انزال الماء من السماء واحياء الارض الميتة به (لآية) وأية آية دالة على وحدته سبحانه وعلمه وقدرته وحكمته (لقوم يسمعون) هذا التذكير ونظائره سماع تفكر وتدبر فكأن من ليس كذلك أصم (وان لكم فى الانعام لعبرة) عظيمة وأى عبرة تحار فى دركها العقول وتهيم فى فهمها ألباب الفحول (نسقيكم) استئناف لبيان ما أبهم أولا من العبرة (مما فى بطونه) أى بطون الانعام والتذكير هنا لمراعاة جانب اللفظ فانه اسم جمع ولذلك عده سيبويه فى المفردات المبنية على أفعال كاكياش وأخلاق كما أن تأنيثه فى سورة المؤمنين لرعاية جانب المعنى ومن جعله جمع نعم جعل الضمير للبعض فان اللبن لجميعها أوله على المعنى فان المراد به الجنس وقرئ

وأسرار بديعة يشهد صريح العقل بأنها لا تحصل الا بتدبير الفاعل الحكيم والمدبر الرحيم وبيانه من وجوه (الاول) أنه تعالى خلق فى أسفل المعدة منفذا يخرج منه ثفل الغذاء فاذا تناول الانسان غذاء أو شربة رقيقة انطبق ذلك المنفذ انطباقا كليا لا يخرج منه شئ من ذلك المأكول والمشروب الى أن يكمل انهضامه فى المعدة وينجذب ما صفا منه الى الكبد ويبقى الثفل هناك فحينئذ ينفتح ذلك المنفذ وينزل منه ذلك الثفل وهذا من العجائب التى لا يمكن حصولها الا بتدبير الفاعل الحكيم لانه متى كانت الحاجة الى بقاء الغذاء فى المعدة حاصلة انطبق ذلك المنفذ واذا حصلت الحاجة الى خروج ذلك الجسم عن المعدة انفتح فحصول الانطباق تارة والانفتاح أخرى بحسب الحاجة وتقدير المنفعة مما لا يتأتى الا بتقدير الفاعل الحكيم (الثانى) انه تعالى أودع فى الكبد قوة تجذب الاجزاء اللطيفة الحاصلة فى ذلك المأكول أو المشروب ولا تجذب الاجزاء الكثيفة وخلق فى الامعاء قوة تجذب تلك الاجزاء الكثيفة التى هى الثفل ولا تجذب الاجزاء اللطيفة البتة ولو كان الامر بالعكس لاختلفت مصلحة البدن ولفسد نظام هذا التركيب (الثالث) انه تعالى أودع فى الكبد قوة هاضمة طابخة حتى ان تلك الاجزاء اللطيفة تنطبخ فى الكبد وتنقلب دما ثم انه تعالى أودع فى المرارة قوة جاذبة للصفراء وفى الطحال قوة جاذبة للسوداء وفى الكلية قوة جاذبة لزيادة المائية حتى يبقى الدم الصافى الموافق لتغذية البدن وتخصيص كل واحد من هذه الاعضاء بتلك القوة والخاصية لا يمكن الا بتقدير الحكيم العليم (الرابع) ان فى الوقت الذى يكون الجنين فى رحم الام ينصب من ذلك الدم نصيب وافر اليه حتى يصير مادة لنمو أعضاء ذلك الولد وازدياده فاذا انفصل ذلك الجنين عن الرحم ينصب ذلك النصيب الى جانب الثدى ليتولد منه اللبن الذى يكون غذاء له فاذا كبر الولد لم ينصب ذلك النصيب لا الى الرحم ولا الى الثدى بل ينصب على مجموع بدن المتغذى فانصباب ذلك الدم فى كل وقت الى عضو آخر انصبابا موافقا للمصلحة والحكمة لا يتأتى الا بتدبير الفاعل المختار الحكيم (والخامس) ان عند تولد اللبن فى الضرع أحدث تعالى فى حلمة الثدى ثقوبا صغيرة ومساما ضيقة وجعلها بحيث اذا اتصل المص أو الحلب بتلك الحلمة انفصل اللبن عنها فى تلك المسام الضيقة ولما كانت تلك المسام ضيقة جدا فحينئذ لا يخرج منها الا ما كان فى غاية الصفاء واللطافة وأما الاجزاء الكثيفة فانه لا يمكنها الخروج من تلك المنافذ الضيقة فتبقى فى الداخل والحكمة فى احداث تلك الثقوب الصغيرة والمنافذ الضيقة فى رأس حلمة الثدى أن يكون ذلك كالمصفاة فكل ما كان لطيفا خرج وكل ما كان كثيفا احتبس فى الداخل ولم يخرج فبهذا الطريق يصير ذلك اللبن خالصا موافقا لبدن الصبى سائغا للشاربين (السادس) انه تعالى ألهم ذلك الصبى الى المص فان الام كلما ألقمت حلمة الثدى فى فم الصبى فذلك الصبى فى الحال يأخذ فى المص فلولا ان الفاعل المختار الرحيم ألهم ذلك الطفل الصغير ذلك

العمل المخصوص والالم يحصل الانتفاع بتخليق ذلك اللبن فى الثدى (السابع) انا بينا انه تعالى انما خلق اللبن من فضلة الدم وانما خلق الدم من الغذاء الذى يتناوله الحيوان فالشاة لما تناولت العشب والماء فالله تعالى خلق الدم من لطيف تلك الاجزاء ثم خلق اللبن من بعض أجزاء ذلك الدم ثم ان اللبن حصلت فيه أجزاء ثلاثة على طبائع متضادة فما فيه من الدهن يكون حارا رطبا وما فيه من المائية يكون باردا رطبا وما فيه من الجبنية يكون باردا يابسا وهذه الطبائع ما كانت حاصلة فى ذلك العشب الذى تناولته الشاة فظهر بهذا ان هذه الاجسام لا تزال تنقلب من صفة الى صفة ومن حالة الى حالة مع انه لايناسب بعضها بعضا ولايشاكل بعضها بعضا وعند ذلك يظهر أن هذه الاحوال انما تحدث بتدبير فاعل حكيم رحيم يدبر أحوال هذا العالم على وفق مصالح العباد فسبحان من تشهد جميع ذرات العالم الاعلى والاسفل بكمال قدرته ونهاية حكمته ورحمته له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين أما قوله سائغا للشاربين فمعناه جاريا فى حلوقهم لذيذا هنيئا يقال ساغ الشراب فى الحلق وأساغه صاحبه ومنه قوله ولايكاد يسيغه (المسئلة الخامسة) قال أهل التحقيق اعتبار حدوث اللبن كما يدل على وجود الصانع المختار سبحانه فكذلك يدل على امكان الحشر والنشر وذلك لان هذا العشب الذى يأكله الحيوان انما يتولد من الماء والارض فخالق العالم دبر تدبيرا فقلب ذلك الطين نباتا وعشبا ثم اذا أكله الحيوان دبر تدبيرا اخر فقلب ذلك العشب دما ثم دبر تدبيرا آخر فقلب ذلك الدم لبنا ثم دبر تدبيرا آخر فحدث من ذلك اللبن الدهن والجبن فهذا يدل على انه تعالى قادر على أن يقلب هذه الاجسام من صفة الى صفة ومن حالة الى حالة فاذا كان كذلك لم يمتنع أيضا أن يكون قادرا على أن يقلب أجزاء أبدان الاموات الى صفة الحياة والعقل كما كانت قبل ذلك فهذا الاعتبار يدل من هذا الوجه على أن البعث والقيامة أمر ممكن غير ممتنع والله أعلم

ثم قال تعالى ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا اعلم أنه تعالى لما ذكر بعض منافع الحيوانات فى الآية المتقدمة ذكر فى هذه الآية بعض منافع النبات وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فان قيل بم تعلق قوله ومن ثمرات النخيل والاعناب قلنا بمحذوف تقديره ونسقيكم من ثمرات النخيل والاعناب أى من عصيرها وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه وقوله تتخذون منه سكرا بيان وكشف عن كنه الاسقاء (المسئلة الثانية) قال الواحدى الاعناب عطف على الثمرات لا على النخيل لانه يصير التقدير ومن ثمرات الاعناب والعنب نفسه ثمرة وليست له ثمرة أخرى (المسئلة الثالثة) فى تفسير السكر وجوه (الاول) السكر الخمر سميت بالمصدر من سكر سكرا وسكرا نحو رشد رشدا ورشدا وأما الرزق الحسن فسائر ما يتخذ من النخيل والاعناب كالرب والخل والدبس والتمر والزبيب فان قيل الخمر محرمة فكيف ذكرها الله فى معرض الانعام اجابوا عنه من وجوه (الاول) ان هذه السورة مكية وتحريم الخمر نزل فى سورة المائدة فكان نزول هذه الآية

بفتح بالنون ههنا وفى سورة المؤمنين (من بين فرث ودم لبنا) الفرث فضالة ما يبقى من العلف فى الكرش المنهضمة بعض الانهضام وكثيف ما يبقى فى المعى وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان البهيمة اذا اعتلفت وانطبخ العلف فى كرشها كان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما ولعل المراد به ان اوسطه يكون مادة اللبن وأعلاه مادة الدم الذى يغذو البدن لان عدم تكونهما فى الكرش مما لاريب فيه بل الكبد تجذب صفاوة الطعام المنهضم فى الكرش ويبقى ثفله وهو الفرث ثم يمسكها ريثما يهضمها فيحدث أخلاطا أربعة معها مائية فتميز القوة المميزة تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من المرتين الصفراء والسوداء وتدفعها الى الكلية والمرارة والطحال ثم توزع الباقى على الاعضاء بحسبها فتجرى على كل حقه على ما يليق به بتقدير العزيز العليم ثم ان كان الحيوان أنثى زاد أخلاطها على قدر غذائها لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها فيندفع الزائد أولا لاجل الجنين الى الرحم فاذا انفصل انصب ذلك الزائد أو بعضه الى الضروع فيبيض لمجاورته لحومها الغدوية البيض ويلذ طعمه فيصير لبنا ومن تدبر فى بدائع صنع الله تعالى فيما ذكر من الاخلاط والالبان واعداد مقارها ﴿ فى ﴾ ومجاريها والاسباب المولدة لها وتسخير القوى المتصرفة فيها كل وقت على ما يليق به اضطر الى الاعتراف بكمال علمه

فى الوقت الذى كانت الخمر فيه غير محرمة (الثانى) انه لا حاجة الى التزام هذا النسخ وذلك لانه تعالى ذكر مافى هذه الاشياء من المنافع وخاطب المشركين بها والخمر من أشربتهم فهى منفعة فى حقهم ثم انه تعالى نبه فى هذه الآية أيضا على تحريمها وذلك لانه ميز بينها وبين الرزق الحسن فى الذكر فوجب أن لا يكون السكر رزقا حسنا ولا شك أنه حسن بحسب الشهوة فوجب أن يقال الرجوع عن كونه حسنا بحسب الشريعة وهذا انما يكون كذلك اذا كانت محرمة (القول الثانى) ان السكر هو النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر اذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد وهو حلال عند أبى حنيفة رحمه الله الى حد السكر ويحتج بأن هذه الآية تدل على أن السكر حلال لانه تعالى ذكره فى معرض الانعام والمنة ودل الحديث على أن الخمر حرام قال عليه السلام الخمر حرام لعينها وهذا يقتضى أن يكون السكر شيئا غير الخمر وكل من أثبت هذه المغايرة قال انه النبيذ المطبوخ (والقول الثالث) ان السكر هو الطعام قاله أبو عبيدة واحتج عليه بقول الشاعر * جعلت أعراض الكرام سكرا * أى جعلت ذمهم طعاما لك قال الزجاج هذا بالخمر أشبه منه بالطعام والمعنى انك جعلت تتخمر باعراض الكرام والمعنى انه جعل شغفه بغيبة الناس وتمزيق أعراضهم جاريا مجرى شرب الخمر واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الوجوه التى هى دلائل من وجه وتعديد للنعم العظيمة من وجه آخر قال ان فى ذلك لآية لقوم يعقلون والمعنى ان من كان عاقلا علم بالضرورة ان هذه الاحوال لا يقدر عليها الا الله سبحانه وتعالى فيحتج بحصولها على وجود الاله القادر الحكيم والله اعلم * قوله تعالى (وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) اعلم أنه تعالى لما بين ان اخراج الالبان من النعم واخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والاعناب دلائل قاهرة وبينات باهرة على ان لهذا العالم الها قادرا مختارا حكيما فكذلك اخراج العسل من النحل دليل قاطع وبرهان ساطع على اثبات هذا المقصود وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله وأوحى ربك الى النحل يقال وحى وأوحى وهو الالهام والمراد من الالهام انه تعالى قرر فى أنفسها هذه الاعمال العجيبة التى تعجز عنها العقلاء من البشر وبيانه من وجوه (الاول) انها تبنى البيوت المسدسة من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها والعقلاء من البشر لا يمكنهم بناء مثل تلك البيوت الا بآلات وأدوات مثل المسطر والفرجار (والثانى) انه ثبت فى الهندسة ان تلك البيوت لو كانت مشكلة باشكال سوى المسدسات فانه يبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة أما اذا كانت تلك البيوت مسدسة فانه لا يبقى فيما بينها فرج ضائعة فاهداء ذلك الحيوان الضعيف الى هذه الحكمة الخفية

وقدرته وحكمته وتناهى رأفته فمن الاولى تبعيضية لما أن اللبن بعض ما فى بطونه لانه مخلوق من بعض أجزاء الدم المتولد من الاجزاء اللطيفة التى فى الفرث حسبما فصل والثانية ابتدائية كقوله سقيت من الحوض لان بين الفرث والدم مبدأ الاسقاء وهى متعلقة بنسقيكم وتقديمه على المفعول لما مر مرارا من أن تقديم ما حقه التأخير يبعث النفس شوقا الى المؤخر موجب الفضل تمكنه عند وروده عليها لاسيما اذا كان المقدم متضمنا لوصف مناف لوصف المؤخر كالذى نحن فيه فان بين وصفى المقدم والمؤخر تنافيا وتنائيا بحيث لا يتراءى ناراهما فان ذلك مما يزيد الشوق والاستشراف الى المؤخر كما فى قوله تعالى الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا أو حال من لبنا قدم عليه لتنكيره والتنبيه على انه موضع العبرة (خالصا) عن شائبة ما فى الدم والفرث من الاوصاف ببرزخ من القدرة القاهرة الحاجزة عن بغى أحدهما عليه مع كونهما مكتنفين له (سائغا للشاربين) سهل المرور فى حلقهم قيل لم يغص أحد باللبن وقرئ سيغا بالتشديد وبالتخفيف مثل هين وهين (ومن ثمرات النخيل والاعناب) متعلق بما يدل عليه الاسقاء من مطلق الاطعام المنتظم لاعطاء المطعوم والمشروب فان اللبن مطعوم كما انه مشروب أى ونطعمكم من ثمرات النخيل ومن الاعناب أى من عصيرهما وقوله تعالى (تتخذون منه سكرا) استئناف لبيان كنهه

والدقيقة اللطيفة من الاعاجيب (والثالث) ان النحل يحصل فيما بينها واحد يكون كالرئيس للبقية وذلك الواحد يكون أعظم جثة من الباقى و يكون نافذا لحكم على تلك البقية وهم يخدمونه و يحملونه عند الطيران وذلك أيضا من الاعاجيب (والرابع) انها اذا نفرت من وكرها ذهبت مع الجمعية الى موضع آخر فاذا أرادوا عودها الى وكرها ضربوا الطنبور والملاهى وآلات الموسيقا و بواسطة تلك الالحان يقدرون على ردها الى وكرها وهذا أيضا حالة عجيبة فلما امتاز هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والكياسة وكان حصول هذه الانواع من الكياسة ليس الا على سبيل الالهام وهى حالة شبيهة بالوحى لاجرم قال تعالى فى حقها وأوحى ربك الى النحل واعلم ان الوحى قد ورد فى حق الانبياء لقوله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا وفى حق الاولياء أيضا قال تعالى واذ أوحيت الى الحواريين و بمعنى الالهام فى حق البشر قال تعالى وأوحينا الى أم موسى وفى حق سائر الحيوانات كما فى قوله وأوحى ربك الى النحل ولكل واحد من هذه الاقسام معنى خاص والله أعلم (المسئلة الثانية) قال الزجاج يجوز أن يقال سمى هذا الحيوان نحلا لان الله تعالى نحل الناس العسل الذى يخرج من بطونها وقال غيره النحل يذكر و يؤنث وهى مؤنثة فى لغة الحجاز ولذلك أنثها الله تعالى وكذلك كل جمع ليس بينه و بين واحده الا الهاء ثم قال تعالى أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف أن اتخذى هى أن المفسرة لان الايحاء فيه معنى القول وقرئ بيوتا بكسر الباء ومن الشجر و مما يعرشون أى يبنون و يسقفون وفيه لغتان قرئ بهما ضم الراء وكسرها مثل يعكفون و يعكفون واعلم أن النحل نوعان (أحدهما) مايسكن فى الجبال و الغياض ولا يتعهدها أحد من الناس (والنوع الثانى) التى تسكن بيوت الناس وتكون فى تعهدات الناس فالاول هو المراد بقوله أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر والثانى هو المراد بقوله ومما يعرشون وهو خلايا النحل فان قيل مامعنى من فى قوله أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون وهلا قيل فى الجبال وفى الشجر قلنا أريد به معنى البعضية وأن لاتبنى بيوتها فى كل جبل وشجر بل فى مساكن توافق مصالحها وتليق بها (المسئلة الثانية) ظاهر قوله تعالى أن اتخذى من الجبال بيوتا أمر وقد اختلفوا فيه فمن الناس من يقول لا يبعد أن يكون لهذه الحيوانات عقول ولا يبعد أن يتوجه عليها من الله تعالى أمر ونهى وقال آخرون ليس الامر كذلك بل المراد منه انه تعالى خلق فيها غرائز وطبائع توجب هذه الاحوال والكلام المستقصى فى هذه المسئلة مذكور فى تفسير قوله تعالى ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم ثم قال تعالى ثم كلى من كل الثمرات لفظة من ههنا للتبعيض أو لابتداء الغاية ورأيت فى كتب الطب أنه تعالى دبر هذا العالم على وجه وهو انه يحدث فى الهواء طل لطيف فى الليالى و يقع ذلك الطل

الاطعام وكشفه أو بقوله تتخذون منه وتكرير الظرف للتأكيد أو خبر لمبتدا محذوف صفته تتخذون أى ومن ثمرات النخيل والاعناب ثمر تتخذون منه وحذف الموصوف اذا كان فى الكلام كلمة من سائغ نحو قوله تعالى ومامنا الا له مقام معلوم وتذكير الضمير على الوجهين الاولين لانه للمضاف المحذوف أعنى العصير أو لان المراد هو الجنس والسكر مصدر سمى به الخمر وقيل هو النبيذ وقيل هو الطعم (ورزقا حسنا) كالتمر والدبس والزبيب والخل والآية ان كانت سابقة النزول على تحريم الخمر فدالة على كراهتها والا فجامعة بين العتاب والمنة (ان فى ذلك لآية) باهرة (لقوم يعقلون) يستعملون عقولهم فى الآيات بالنظر والتأمل (وأوحى ربك الى النحل) أى ألهمها وقذف فى قلوبها وعلمها بوجه لايعلمه الا العليم الخبير وقرئ بفتحتين (أن اتخذى) أى بأن اتخذى على أن مصدرية ويجوز أن تكون مفسرة لما فى الايحاء من معنى القول وتأنيث الضمير مع أن النحل مذكر للحمل على المعنى أو لانه جمع نحلة والتأنيث لغة أهل الحجاز (من الجبال بيوتا) أى أوكارا مع مافيها من الخلايا وقرئ بيوتا بكسر الباء (ومن الشجر ﴿ على ﴾ ومما يعرشون)أى يعرشه الناس أى يرفعه من كرم أو سقف وقيل المراد به مايرفعه الناس و يبنونه للنحل والمعنى اتخذى لنفسك بيوتا من الجبال والشجر اذا لم يكن لك أرباب والا فاتخذى مايعرشونه

لك وايراد حرف التبعيض لما انها لا تبنى فى كل جبل وكل شجر وكل عرش ولا فى كل مكان منها (ثم كلى من كل الثمرات) من كل ثمرة تشتهينها حلوها ومرها (فاسلكى) ما أكلت منها (سبل ربك) أى مسالكه التى برأها بحيث يحيل فيها بقدرته القاهرة النور المر عسلا من أجوافك أو فاسلكى الطرق التى ألهمك فى عمل العسل أو فاسلكى راجعة الى بيوتك سبل ربك لا تتوعر عليك ولا تلتبس (ذللا) جمع ذلول وهو حال من السبل أى مذللة غير متوعرة ذللها الله سبحانه وسهلها لك أو من الضمير فى اسلكى أى اسلكى منقادة لما أمرت به (يخرج من بطونها) استئناف عدل به عن خطاب النحل لبيان ما يظهر منها من تعاجيب صنع الله تعالى التى هى موضع العبرة بعدما أمرت بما أمرت (شراب) أى عسل لانه مشروب واحتج به وبقوله تعالى كلى من زعم أن النحل تأكل الازهار والاوراق العطرة فتستحيل فى بطنها عسلا ثم تقئ ادخارا للشتاء ومن زعم انها تلتقط بأفوهها أجزاء قليلة حلوة صغيرة متفرقة على الازهار والاوراق وتضعها فى بيوتها فاذا اجتمع فيها شئ كثير يكون عسلا فسر البطون بالافواه (مختلف ألوانه) أبيض وأسود وأصفر وأحمر حسب اختلاف سن النحل أو الفصل أو الذى أخذت منه العسل (فيه شفاء للناس) اما بنفسه كما فى الامراض البلغمية أو مع غيره كما فى سائر الامراض اذ قلما يكون

على أوراق الاشجار فقد تكون تلك الاجزاء الطلية لطيفة صغيرة متفرقة على الاوراق والازهار وقد تكون كثيرة بحيث يجتمع منها أجزاء محسوسة (أما القسم الثانى) فهو مثل الترنجبين فانه طل ينزل من الهواء ويجتمع على أطراف الطرفاء فى بعض البلدان وذلك محسوس (وأما القسم الاول) فهو الذى ألهم الله تعالى هذا النحل حتى انها تلتقط تلك الذرات من الازهار وأوراق الاشجار بأفواهها وتأكلها وتغتذى بها فاذا شبعت التقطت بأفواهها مرة أخرى شيئا من تلك الاجزاء وذهبت بها الى بيوتها ووضعتها هناك لانها تحاول أن تدخر لنفسها غذاءها فاذا اجتمع فى بيوتها من تلك الاجزاء الطلية شئ كثير فذاك هو العسل ومن الناس من يقول ان النحل تأكل من الازهار الطيبة والاوراق العطرة أشياء ثم انه تعالى يقلب تلك الاجسام فى داخل بدنها عسلا ثم انها تقئ مرة أخرى فذاك هو العسل والقول الاول أقرب الى العقل وأشد مناسبة الى الاستقراء فان طبيعة الترنجبين قريبة من العسل فى الطعم والشكل ولا شك انه طل يحدث فى الهواء ويقع على أطراف الاشجار والازهار فكذا ههنا وأيضا فنحن نشاهد ان هذا النحل انما يتغذى بالعسل ولذلك فانا اذا استخرجنا العسل من بيوت النحل نترك لها بقية من ذلك لاجل أن تغتذى بها فعلمنا انها انما تغتذى بالعسل وانها انما تقع على الاشجار والازهار لانها تغتذى بتلك الاجزاء الطلية العسلية الواقعة من الهواء عليها اذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى ثم كلى من كل الثمرات كلمة من ههنا تكون لابتداء الغاية ولا تكون للتبعيض على هذا القول ثم قال تعالى فاسلكى سبل ربك والمعنى ثم كلى كل ثمرة تشتهينها فاذا أكلتها فاسلكى سبل ربك فى الطرق التى ألهمك وأفهمك فى عمل العسل أو يكون المراد فاسلكى فى طلب تلك الثمرات سبل ربك أما قوله ذللا فيه قولان (الاول) انه حال من السبل لان الله تعالى ذللها لها ووطأها وسهلها كقوله هو الذى جعل لكم الارض ذلولا (الثانى) انه حال من الضمير فى فاسلكى أى وأنت أيها النحل ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة ثم قال تعالى يخرج من بطونها وفيه بحثان (الاول) ان هذا رجوع من الخطاب الى الغيبة والسبب فيه ان المقصود من ذكر هذه الاحوال أن يحتج الانسان المكلف به على قدرة الله تعالى وحكمته وحسن تدبيره لاحوال العالم العلوى والسفلى فكأنه تعالى لما خاطب النحل بما سبق ذكره خاطب الانسان وقال انا ألهمنا هذا النحل لهذه العجائب لاجل أن يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه (البحث الثانى) انه قد ذكرنا ان من الناس من يقول العسل عبارة عن أجزاء طلية يحدث فى الهواء وتقع على أطراف الاشجار وعلى الاوراق والازهار فيلقطها الزنبور بفمه فاذا ذهبنا الى هذا الوجه كان المراد من قوله يخرج من بطونها أى من أفواهها وكل تجويف فى داخل البدن فانه يسمى بطنا ألا ترى انهم يقولون بطون الدماغ وعنوا أنها تجاويف الدماغ وكذا ههنا يخرج من بطونها أى من أفواهها وأما على قول أهل الظاهر

وهو أن النحلة تأكل الاوراق والثمرات ثم تقئ فذلك هو العسل فالكلام ظاهر ثم قال شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس اعلم انه تعالى وصف العسل بهذه الصفات الثلاثة (فالصفة الاولى) كونه شرابا والامر كذلك لانه تارة يشرب وحده وتارة يتخذ منه الاشربة (والصفة الثانية) قوله مختلف ألوانه والمعنى ان منه أحمر وأبيض وأصفر ونظيره قوله تعالى ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود والمقصود منه ابطال القول بالطبع لان هذا الجسم مع كونه متساوى الطبيعة لما حدث على ألوان مختلفة دل ذلك على أن حدوث تلك الالوان بتدبير الفاعل المختار لا لاجل ايجاب الطبيعة (والصفة الثالثة) قوله فيه شفاء للناس وفيه قولان (الاول) وهو الصحيح انه صفة للعسل فان قالوا كيف يكون شفاء للناس وهو يضر بالصفراء ويهيج المرار قلنا انه تعالى لم يقل انه شفاء لكل الناس ولكل داء وفى كل حال بل لما كان شفاء للبعض ومن بعض الادواء صلح بأن يوصف بأنه فيه شفاء والذى يدل على انه شفاء فى الجملة أنه قل معجون من المعاجين الا وتمامه وكماله انما يحصل بالعجن بالعسل وأيضا فالاشربة المتخذة منه فى الامراض البلغمية عظيمة النفع (والقول الثانى) وهو قول مجاهد ان المراد ان القرآن شفاء للناس وعلى هذا التقدير فقصة تولد العسل من النحل تمت عند قوله يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ثم ابتدأ وقال فيه شفاء للناس أى فى هذا القرآن حصل ما هو شفاء للناس من الكفر والبدعة مثل هذا الذى فى قصة النحل وعن ابن مسعود ان العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما فى الصدور واعلم أن هذا القول ضعيف ويدل عليه وجهان (الاول) ان الضمير فى قوله فيه شفاء للناس يجب عوده الى أقرب المذكورات وما ذاك الا قوله شراب مختلف ألوانه واما الحكم بعود هذا الضمير الى القرآن مع أنه غير مذكور فيما سبق فهو غير مناسب (والثانى) ما روى أبو سعيد الخدرى أنه جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وقال ان أخى يشتكى بطنه فقال اسقه عسلا فذهب ثم رجع فقال قد سقيته فلم يغن عنه شيئا فقال عليه الصلاة والسلام اذهب واسقه عسلا فذهب فسقاه فكأنما نشط من عقال فقال صدق الله وكذب بطن أخيك وحملوا قوله صدق الله وكذب بطن أخيك على قوله فيه شفاء للناس وذلك انما يصح لو كان هذا صفة للعسل فان قال قائل ما المراد بقوله عليه السلام صدق الله وكذب بطن أخيك قلنا لعله عليه السلام علم بنور الوحى أن ذلك العسل سيظهر نفعه بعد ذلك فلما لم يظهر نفعه فى الحال مع أنه عليه السلام كان عالما بأنه سيظهر نفعه بعد ذلك كان هذا جاريا مجرى الكذب فلهذا السبب أطلق عليه هذا اللفظ ثم انه تعالى ختم الآية بقوله ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون واعلم أن تقرير هذه الآية من وجوه (الاول) اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والمعارف الغامضة مثل بناء البيوت المسدسة وسائر الاحوال التى ذكرناها (والثانى) اهتداؤها الى جميع تلك الاجزاء العسلية من أطراف الاشجار

﴿ والاوراق ﴾

معجون لا يكون فيه عسل مع أن التنكير فيه مشعر بالتبعيض ويجوز كونه للتفخيم وعن قتادة ان رجلا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان أخى يشتكى بطنه فقال عليه الصلاة والسلام اسقه العسل فذهب ثم رجع فقال قد سقيته فما نفع فقال اذهب فاسقه عسلا فقد صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فبرئ كأنما أنشط من عقال وقيل الضمير للقرآن أو لما بين الله تعالى من أحوال النحل وعن ابن مسعود رضى الله عنه العسل شفاء لكل داء والقرآن شفاء لما فى الصدور فعليكم بالشفاءين العسل والقرآن (ان فى ذلك) الذى ذكر من أعاجيب آثار قدرة الله تعالى (لآية) عظيمة (لقوم يتفكرون) فان من تفكر فى اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والافعال العجيبة المشتملة على حسن الصنعة وصحة القسمة التى لا يقدر عليها حذاق المهندسين الا بآلات رقيقة وأدوات أنيقة وأنظار دقيقة جزم قطعا بأن له خالقا قادرا حكيما يلهمها ذلك ويهديها اليه جل جلاله (والله خلقكم) لما ذكر سبحانه من عجائب أحوال ما ذكر من الماء والنبات والانعام والنحل أشار الى بعض عجائب أحوال البشر من أول عمره الى آخره وتطوراته فيما بين ذلك وقد ضبطوا مراتب العمر فى أربع الاولى سن النشوء والنماء والثانية سن الوقوف وهى سن الشباب والثالثة سن الانحطاط القليل

وهى سن الكهولة والرابعة سن الانحطاط الكبير وهى سن الشيخوخة (ثم يتوفاكم) حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على حكم بالغة بآجال مختلفة أطفالا وشبابا وشيوخا (ومنكم من يرد) قبل توفيه أى يعاد (الى أرذل العمر) أى أخسه وأحقره وهو خمس وسبعون سنة على ماروى عن على رضى الله عنه وتسعون سنة على مانقل عن قتادة رضى الله عنه وقيل خمس وتسعون وايثار الرد على الوصول والبلوغ ونحوهما للايذان بان بلوغه والوصول اليه رجوع فى الحقيقة الى الضعف بعد القوة كقوله تعالى ومن نعمره ننكسه فى الخلق ولا عمر أسوأ حالا من عمر الهرم الذى يشبه الطفل فى نقصان العقل والقوة (لكيلا يعلم بعد علم) كثير (شيئا) من العلم أو من المعلومات أو لكيلا يعلم شيئا بعد علم بذلك الشئ وقيل لئلا يعقل بعد عقله الاول شيئا (ان الله عليم) بمقادير أعماركم (قدير) على كل شئ يميت الشاب النشيط ويبقى الهرم الفانى وفيه تنبيه على أن تفاوت الآجال ليس الا بتقدير قادر حكيم ركب أبنيتهم وعدل أمزجتهم على قدر معلوم ولو كان ذلك مقتضى الطبائع لما بلغ التفاوت هذا المبلغ (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق) أى جعلكم متفاوتين فيه فأعطاكم منه أفضل مما أعطى مماليككم (فما الذين فضلوا) فيه على غيرهم (برادى رزقهم) الذى رزقهم اياه (على ماملكت أيمانهم) على مماليكهم الذين هم شركاؤهم فى المخلوقية والمرزوقية (فهم)

والاوراق (والثالث) خلق الله تعالى تلك الاجزاء النافعة فى جو الهواء ثم القاؤها على أطراف الاشجار والاوراق ثم الهام النحل الى جمعها بعد تفريقها وكل ذلك أمور عجيبة دالة على أن اله العالم بنى ترتيبه على رعاية الحكمة والمصلحة والله أعلم * قوله تعالى (والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا ان الله عليم قدير) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) لما ذكر تعالى بعض عجائب أحوال الحيوانات ذكر بعده بعض عجائب أحوال الناس فمنها ماهو مذكور فى هذه الآية وهو اشارة الى مراتب عمر الانسان والعقلاء ضبطوها فى أربع مراتب أولها سن النشو والنماء وثانيها سن الوقوف وهو سن الشباب وثالثها سن الانحطاط القليل وهو سن الكهولة ورابعها سن الانحطاط الكبير وهو سن الشيخوخة فاحتج تعالى بانتقال الحيوان من بعض هذه المراتب الى بعض على ان ذلك الناقل هو الله تعالى والاطباء الطبائعيون قالوا المقتضى لهذا الانتقال هو طبيعة الانسان وأنا أحكى كلامهم على الوجه الملخص وأبين ضعفه وفساده وحينئذ يبقى ان ذلك الناقل هو الله سبحانه وعند ذلك يصح بالدليل العقلى ماذكر الله تعالى فى هذه الآية قال الطبائعيون ان بدن الانسان مخلوق من المنى ومن دم الطمث والمنى والدم جوهران حاران رطبان والحرارة اذا عملت فى الجسم الرطب قللت رطوبته وافادته نوع يبس وهذا مشاهد معلوم قالوا فلا يزال مافى هذين الجوهرين من قوة الحرارة يقلل مافيه من الرطوبة حتى تتصلب الاعضاء ويظهر فيه الانعقاد ويحدث العظم والغضروف والعصب والوتر والرباط وسائر الاعضاء فاذا تم تكون البدن وكمل فعند ذلك ينفصل الجنين من رحم الام ومع ذلك فالرطوبات زائدة والدليل عليه انك ترى أعضاء الطفل بعد انفصاله من الام لينة لطيفة وعظامه لينة قريبة الطبع من الغضاريف ثم ان ما فى البدن من الحرارة يعمل فى تلك الرطوبات ويقللها قالوا ويحصل للبدن ثلاثة احوال (الحالة الاولى) أن تكون رطوبة البدن زائدة على حرارته وحينئذ تكون الاعضاء قابلة للتمدد والازدياد والنماء وذلك هو سن النشو والنماء ونهايته الى ثلاثين سنة أو خمس وثلاثين سنة (الحالة الثانية) ان تصير رطوبات البدن أقل ما كانت فتكون وافية بحفظ الحرارة الغريزية الاصلية الا انها لا تكون زائدة على هذا القدر وهذا هو سن الوقوف وسن الشباب وغايته خمس سنين وعند تمامه يتم الاربعون (والحالة الثالثة) أن تقل الرطوبات وتصير بحيث لا تكون وافية بحفظ الحرارة الغريزية وعند ذلك يظهر النقصان ثم هذا النقصان قد يكون خفيا وهو سن الكهولة وتمامه الى ستين سنة وقد يكون ظاهرا وهو سن الشيخوخة وتمامه الى مائة وعشرين سنة فهذا هو الذى حصله الاطباء فى هذا الباب وعندى ان هذا التعليل ضعيف ويدل على ضعفه وجوه (الاول) انا نقول ان فى أول ما كان المنى منيا وكان الدم دما كانت الرطوبات غالبة وكانت الحرارة الغريزية مغمورة وكانت ضعيفة بهذا السبب

ثم انها مع ضعفها قويت على تحليل أكثر تلك الرطوبات وابانتها من حد الدموية والمنوية الى ان صارت عظما وغضروفا وعصبا ورباطا وعندما تولدت الاعضاء وكمل البدن قلت الرطوبات فوجب أن تكون للحرارة الغريزية قوة أزيد مما كانت قبل ذلك فوجب أن يكون تحليل الرطوبات بعد تولد البدن وكماله أزيد من تحللها قبل تولد البدن ومعلوم أنه ليس الامر كذلك لان قبل تولد البدن انتقل جسم المنى والدم الى ان صار عظما وعصبا وأما بعد تولد البدن فلم يحصل مثل هذا الانتقال ولا عشر عشره فلو كان تولد هذه الاعضاء بسبب تأثير الحرارة فى الرطوبة لوجب أن يكون تحلل الرطوبات بعد كمال البدن أكثر من تحللها قبل تكون البدن ولما لم يكن الامر كذلك علمنا ان تولد البدن انما كان بتدبير قادر حكيم يدبر أبدان الحيوانات على وفق مصالحها وأنه ما كان تولد البدن لاجل ما قالوه من تأثير الحرارة فى الرطوبة (والوجه الثانى) فى ابطال هذا الكلام أن نقول ان الحرارة الغريزية الحاصلة فى بدن الانسان الكامل اما أن تكون هى عين ما كان حاصلا فى جوهر النطفة أو صارت أزيد مما كانت والاول باطل لان الحار الغريزى الحاصل فى جوهر النطفة كان بمقدار جرم النطفة ولا شك ان جرم النطفة كان قليلا صغيرا فهذا البدن بعد كبره لو لم يحصل فيه من الحرارة الغريزية الا ذلك القدر كان فى غاية القلة ولم يظهر منه فى هذا البدن أثر أصلا وأما الثانى ففيه تسليم ان الحرارة الغريزية تتزايد بحسب تزايد الجثة والبدن واذا تزايدت الحرارة الغريزية ساعة فساعة وثبت ان تزايدها يوجب تزايد القوة والصحة ساعة فساعة فوجب ان يبقى البدن الحيوانى أبدا فى التزايد والتكامل وحيث لم يكن الامر كذلك علمنا ان ازدياد حال البدن الحيوانى وانتقاصه ليس بحسب الطبيعة بل بسبب تدبير الفاعل المختار (والوجه الثالث) وهو الذى أوردناه على الاطباء فى كتابنا الكبير فى الطب فقلنا هب ان الرطوبة الغريزية صارت معادلة للحرارة الغريزية فلم قلتم ان الحرارة الغريزية يجب أن تصير أقل مما كانت وأن ينتقل الانسان من سن الشباب الى سن النقصان قالوا السبب فيه أنه اذا حصل هذا الاستواء فالحرارة الغريزية بعد ذلك تؤثر فى تجفيف الرطوبة الغريزية فتقل الرطوبات الغريزية حتى صارت بحيث لا تفى بحفظ الحرارة الغريزية واذا حصلت هذه الحالة ضعفت الحرارة الغريزية أيضا لان الرطوبة الغريزية كالغذاء للحرارة الغريزية فاذا قل الغذاء ضعف المغتذى فالحاصل ان الحرارة الغريزية توجب قلة الرطوبة الغريزية وقلتها توجب ضعف الحرارة الغريزية ويلزم من ضعف احداهما ضعف الاخرى الى أن تنتهى الى حيث لا يبقى من الرطوبة الغريزية شئ وحينئذ تنطفئ الحرارة الغريزية ويحصل الموت هذا منتهى ما قالوه فى هذا الباب وهو ضعيف لانا نقول ان الحرارة الغريزية اذا أثرت فى تجفيف الرطوبة الغريزية وقلتها فلم لا يجوز أن يقال ان القوة الغاذية تورد بدلها فعند هذا قالوا القوة الغاذية انما تقوى على ايراد بدلها لو كانت الحرارة الغريزية قوية فاما عند ضعفها فلا فنقول فههنا لزم الدور لان الرطوبة الغريزية انما تقل

أى الملاك والمماليك (فيه) أى فى الرزق (سواء) أى لا يردونه عليهم بحيث يساوونهم فى التصرف و يشاركونهم فى التدبير والفاء للدلالة على ترتب التساوى على الرد أى لا يردونه عليهم ردا مستتبعا للتساوى وانما يردون عليهم منه شيئا يسيرا فحيث لا يرضون بمساواة مماليكهم لانفسهم وهم أمثالهم فى البشرية والمخلوقية لله عز سلطانه فى شئ لا يختص بهم بل يعمهم واياهم من الرزق الذى هم أسوة لهم فى استحقاقه فما بالهم يشركون بالله سبحانه وتعالى فيما لا يليق الا به من الالوهية والمعبودية الخاصة بذاته تعالى لذاته بعض مخلوقاته الذى هو بمعزل من درجة الاعتبار وهذا كما ترى مثل ضرب لكمال قباحة ما فعله المشركون تقريعا عليهم كقوله تعالى هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء الآية (أفبنعمة الله يجحدون) حيث يفعلون ما يفعلون من الاشراك فان ذلك يقتضى أن يضيفوا نعم الله سبحانه الفائضة عليهم الى شركائهم ويجحدوا كونها من عند الله تعالى أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج البالغة بعد ما أنعم الله بها عليهم والباء لتضمين الجحود معنى الكفر نحو وجحدوا بها والفاء للعطف على مقدر وهى داخلة فى المعنى على الفعل أى أيشركون ﴿وتنقص﴾ به فيجحدون نعمته وقرئ تجحدون على الخطاب أو ليس الموالى برادى رزقهم على مماليكهم بل انا الذى أرزقهم واياهم فلا يحسبوا أنهم يعطونهم شيئا وانما

وتنقص اولم تكن القوة الغاذية وافية بايراد بدلها وانما تعجز القوة الغاذية عن هذا الايراد اذا كانت الحرارة الغريزية ضعيفة وانما تكون الحرارة الغريزية ضعيفة أن لو قلت الرطوبة الغريزية وانما تحصل هذه القلة اذا عجزت الغاذية عن ايراد البدل فثبت ان على القول الذى قالوه يلزم الدور وانه باطل فثبت ان تعليل انتقال الانسان من سن الى سن بما ذكروه من اعتبار الطبائع يوجب عليهم هذه المحالات المذكورة فكان القول به باطلا ولما بطل هذا القول وجب القطع باسناد هذه الاحوال الى الاله القادر المختار الحكيم الرحيم الذى يدبر أبدان الحيوانات على الوجه الموافق لمصالحها وذلك هو المطلوب وقد كنت أقرأ يوما من الايام سورة والمرسلات فلما وصلت الى قوله تعالى ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه فى قرار مكين الى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون ويل يومئذ للمكذبين فقلت لاشك ان المراد بهؤلاء المكذبين هم الذين نسبوا تكون الابدان الحيوانية الى الطبائع وتأثير الحرارة فى الرطوبة وأنا أومن من صميم قلبى يارب العزة بأن هذه التدبيرات ليست من الطبائع بل من خالق العالم الذى هو أحكم الحاكمين وأكرم الاكرمين اذا عرفت هذا فقد صح بالدليل العقلى صدق قوله والله خلقكم لانه ثبت أن خالق أبدان الناس وسائر الحيوانات ليس هو الطبائع بل هو الله سبحانه وتعالى وقوله ثم يتوفاكم قد بينا ان السبب الذى ذكروه فى صيرورة الموت فاسد باطل وأنه يلزم عليه القول بالدور ولما بطل ذلك ثبت أن الحياة والموت انما حصلا بتخليق الله وبتقديره وقوله ومنكم من يرد الى أرذل العمر قد بينا بالدليل ان الطبائع لا يجوز أن تكون علة لانتقال الانسان من الكمال الى النقصان ومن القوة الى الضعف فلزم القطع بان انتقال الانسان من الشباب الى الشيخوخة ومن الصحة الى الهرم ومن العقل الكامل الى ان صار خرفا غافلا ليس بمقتضى الطبيعة بل بفعل الفاعل المختار واذا ثبت ما ذكرنا ظهر ان الذى دل عليه لفظ القران قد ثبت صحته بقاطع القرآن ثم قال تعالى ان الله عليم قدير وهذا كالاصل الذى عليه تفريع كل ما ذكرناه وذلك لان الطبيعة جاهلة لاتميز بين وقت المصلحة ووقت المفسدة فهذه الانفعالات فى هذا الانسان لايمكن اسنادها اليها أما اله العالم ومدبره وخالقه فهو الكامل فى العلم الكامل فى القدرة فلاجل كمال علمه يعلم مقادير المصالح والمفاسد ولاجل كمال قدرته يقدر على تحصيل المصالح ودفع المفاسد فلاجرم أمكن اسناد تخليق الحيوانات الى اله العالم فلا يمكن اسناده الى الطبائع والله أعلم (المسئلة الثانية) فى تفسير الفاظ الآية قال المفسرون والله خلقكم ولم تكونوا شيئا ثم يتوفاكم عند انقضاء آجالكم ومنكم من يرد الى أرذل العمر وهو اردؤه واضعفه يقال رذل الشئ يرذل رذالة وأرذله غيره ومنه قوله الا الذين هم أراذلنا ومنه قوله واتبعك الارذلون وقوله ومنكم من يرد الى أرذل العمر هل يتناول المسلم أو هو مختص بالكافر فيه قولان (الاول) أنه يتناوله قيل أنه العمر الطويل وعلى هذا الوجه نقل عن على رضى الله عنه أنه قال أرذل العمر خمس وسبعون سنة

هو رزق أجريته على أيديهم فهم جميعا فى ذلك سواء لامزية لهم على مماليكهم ألا يفهمون ذلك فيجحدون نعمة الله فهو ردّ على زعم المفضلين أو على فعلهم المؤذن بذلك أو ما المفضلون برادى بعض فضلهم على مماليكهم فيتساووا فى ذلك جميعا مع أن التفضيل ليس الا ليبلوهم أيشكرون أم يكفرون ألا يعرفون ذلك فيجحدون نعمة الله تعالى كأنه قيل فلم يردوه عليهم والجملة الاسمية للدلالة على استمرارهم على عدم الرد يحكى عن أبى ذر رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انما هم اخوانكم فاكسوهم مما تلبسون وأطعموهم مما تطعمون فما رؤى عبده بعد ذلك الا ورداؤه رداؤه وازاره ازاره من غير تفاوت (والله جعل لكم من أنفسكم) أى من جنسكم (أزواجا) لتأنسوا بها وتقيموا بذلك جميع مصالحكم ويكون أولادكم أمثالكم وقيل هو خلق حواء من ضلع آدم عليه الصلاة والسلام (وجعل لكم من أزواجكم) وضع الظاهر موضع المضمر للايذان بان المراد جعل لكل منكم من زوجه لا من زوج غيره (بنين) وبأن نتيجة الازواج هو التوالد (وحفدة) جمع حافد وهو الذى يسرع فى الخدمة والطاعة ومنه قول القانت واليك نسعى ونحفد أى جعل لكم خدما يسرعون فى خدمتكم وطاعتكم فقيل المراد بهم أولاد الاولاد وقيل البنات عبر عنهن بذلك ايذانا بوجه المنة فانهن يخدمن البيوت أتم

وقال قتادة تسعون سنة وقال السدى انه الخرف ❁ والقول الاول أولى لان الخرف معناه زوال العقل فقوله ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا يدل على انه تعالى انما رده الى أرذل العمر لاجل أن يزيل عقله فلو كان المراد من أرذل العمر هو زوال العقل لصار الشئ عين الغاية المطلوبة منه وانه باطل والقول الثانى ان هذا ليس فى المسلين والمسلم لا يزداد بسبب طول العمر الا كرامة على الله تعالى ولا يجوز أن يقال فى حقه انه يرد الى أرذل العمر والدليل عليه قوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فبين تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ماردوا الى أسفل سافلين وقال عكرمة من قرأ القرآن لم يرد الى ارذل العمر وقوله ان الله عليم قال ابن عباس يريد بما صنع أولياؤه وأعداؤه قدير على ما يريد (المسئلة الثالثة) هذه الآية كما تدل على وجود الاله العالم الفاعل المختار فهى أيضا تدل على صحة البعث والقيامة وذلك لان الانسان كان عدما محضا فاوجده الله ثم أعدمه مرة ثانية فدل هذا على انه لما كان معدوما فى المرة الاولى وكان عوده الى العدم فى المرة الثانية جائزا فكذلك لما صار موجودا ثم عدم وجب أن يكون عوده الى الوجود فى المرة الثانية جائزا وأيضا كان ميتا حين كان نطفة ثم صار حيا ثم مات فلما كان الموت الاول جائزا كان عود الموت جائزا فكذلك لما كانت الحياة الاولى جائزة وجب أن يكون عود الحياة جائزا فى المرة الثانية وأيضا الانسان فى أول طفوليته جاهل لا يعرف شيئا ثم صار عالما عاقلا فاهما فلما بلغ أرذل العمر عاد الى ماكان عليه فى زمان الطفولية وهو عدم العقل والفهم فعدم العقل والفهم فى المرة الاولى عاد بعينه فى آخر العمر فكذلك العقل الذى حصل ثم زال وجب أن يكون جائز العود فى المرة الثانية واذا ثبتت هذه الجملة ثبت أن الذى مات وعدم فانه يجوز عود وجوده وعود حياته وعود عقله مرة أخرى ومتى كان الامر كذلك ثبت أن القول بالبعث والحشر والنشر حق والله أعلم ✽ قوله تعالى (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فالذين فضلوا برادى رزقهم على ماملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون) اعلم ان هذا اعتبار حال أخرى من أحوال الانسان وذلك انا نرى أكيس الناس واكثرهم عقلا وفهما يفنى عمره فى طلب القدر القليل من الدنيا ولا يتيسر له ذلك ونرى أجهل الخلق وأقلهم عقلا وفهما تنفتح عليه ابواب الدنيا وكل شئ خطر بباله ودار فى خياله فانه يحصل له فى الحال ولو كان السبب جهد الانسان وعقله لوجب أن يكون الاعقل أفضل فى هذه الاحوال فلما رأينا ان الاعقل أقل نصيبا وان الاجهل الاخس أوفر نصيبا علمنا ان ذلك بسبب قسمة القسام كما قال تعالى أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا وقال الشافعى رحمه الله تعالى

ومن الدليل على القضاء وكونه ❁ بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق

واعلم ان هذا التفاوت غير مختص بالمال بل هو حاصل فى الذكاء والبلادة والحسن والقبح والعقل والحمق والصحة والسقم والاسم الحسن والاسم القبيح وهذا بحر لاساحل له وقد

خدمة وقيل أولاد المرأة من الزوج الاول وقيل البنون والعطف لاختلاف الوصفين وقيل الاختان على البنات وتأخير المنصوب فى الموضعين عن المجرور لما مر من التشويق وتقديم المجرور باللام على المجرور بمن للايذان من أول الامر بعود منفعة الجعل اليهم امدادا للتشويق وتقوية له أى جعل لمصالحكم مما يناسبكم أزواجا وجعل لمنفعتكم من جهة مناسبة لكم بنين وحفدة (ورزقكم من الطيبات) من اللذائذ أو من الحلالات ومن للتبعيض اذ المرزوق فى الدنيا أنموذج لما فى الآخرة (أفبالباطل يؤمنون) وهو أن الاصنام تنفعهم وأن البحائر ونحوها حرام والفاء فى المعنى داخلة على الفعل وهى للعطف على مقدر أى أيكفرون بالله الذى شأنه هذا فيؤمنون بالباطل أو أبعد تحقق ماذكر من نعم الله تعالى بالباطل يؤمنون دون الله سبحانه (وبنعمت الله) تعالى الفائضة عليهم مما ذكر وممالا يحيط به دائرة البيان (هم يكفرون) حيث يضيفونها الى الاصنام وتقديم الصلة على الفعل للاهتمام أو لايهام الاختصاص مبالغة أو لرعاية الفواصل والالتفات الى الغيبة للايذان باستيجاب حالهم للاعراض عنهم وصرف الخطاب الى غيرهم ﴿ كنت ﴾ من السامعين تعجيبا لهم مما فعلوه (ويعبدون من دون الله) لعله عطف على يكفرون داخل تحت الانكار التوبيخى أى أيكفرون بنعمة الله ويعبدون من دونه (مالايملك لهم رزقا من السموات

كنت مصاحبا لبعض الملوك فى بعض الاسفار وكان ذلك الملك كثير المال والجاه وكانت الجنائب الكثيرة تقاد بين يديه وما كان يمكنه ركوب واحد منها ولو بما حضرت الاطعمة الشهية والفواكه العطرة عنده وما كان يمكنه تناول شىء منها وكان الواحد منا صحيح المزاج قوى البنية كامل القوة وما كان يجد مل‌ء بطنه طعاما فذلك الملك وان كان يفضل على هذا الفقير فى المال الا أن هذا الفقير كان يفضل على ذلك الملك فى الصحة والقوة وهذا باب واسع اذا اعتبره الانسان عظم تعجبه منه أما قوله فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ماملكت أيمانهم ففيه قولان (الاول) ان المراد من هذا الكلام تقرير ماسبق فى الآية المتقدمة من أن السعادة والنحوسة لايحصلان الا من الله تعالى والمعنى أن الموالى والمماليك أنا رازقهم جميعا فهم فى رزقى سواء فلا يحسبن الموالى أنهم يردون على مماليكهم من عندهم شيئا من الرزق وانما ذلك رزقى أجريته اليهم على أيديهم وحاصل القول فيه أن المقصود منه بيان أن الرازق هو الله تعالى وأن المالك لايرزق العبد بل الرازق للعبد والمولى هو الله تعالى وتحقيق القول أنه ربما كان العبد أكمل عقلا وأقوى جسما وأكثر وقوفا على المصالح والمفاسد من المولى وذلك يدل على أن ذلة ذلك العبد وعزة ذلك المولى من الله تعالى كما قال تعز من تشاء وتذل من تشاء (والقول الثانى) أن المراد من هذه الآية الرد على من أثبت شريكا لله تعالى ثم على هذا القول ففيه وجهان (الاول) أن يكون هذا ردا على عبدة الاوثان والاصنام كأنه قيل انه تعالى فضل الملوك على مماليكهم فجعل المملوك لايقدر على ملك مع مولاه فلما لم تجعلوا عبيدكم معكم سواء فى الملك فكيف تجعلون هذه الجمادات معى سواء فى المعبودية (والثانى) قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت هذه الآية فى نصارى نجران حين قالوا ان عيسى بن مريم ابن الله فالمعنى انكم لاتشركون عبيدكم فيما ملكتم فتكونون سواء فكيف جعلتم عبدى ولدا لى وشريكا فى الالهية ثم قال تعالى فهم فيه سواء معنى الفاء فى قوله فهم حتى والمعنى فما الذين فضلوا بجاعلى رزقهم لعبيدهم حتى تكون عبيدهم فيه معهم سواء فى الملك ثم قال أفبنعمة الله يجحدون وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ عاصم فى رواية أبى بكر تجحدون بالتاء على الخطاب لقوله خلقكم وفضل بعضكم والباقون بالياء لقوله فهم فيه سواء واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم لقرب الخبر عنه وايضا فظاهر الخطاب أن يكون مع المسلمين والمسلمون لايخاطبون بجحد نعمة الله تعالى (المسئلة الثانية) لاشبهة فى أن المراد من قوله أفبنعمة الله يجحدون الانكار على المشركين الذين أورد الله تعالى هذه الحجة عليهم فان قيل كيف يصيرون جاحدين بنعمة الله عليهم بسبب عبادة الاصنام قلنا فيه وجهان (الاول) انه لما كان المعطى لكل الخيرات هو الله تعالى فمن أثبت لله شريكا فقد اضاف اليه بعض تلك الخيرات فكان جاحدا لكونها من عند الله تعالى وأيضا فان أهل الطبائع وأهل النجوم يضيفون أكثر هذه النعم الى الطبائع والى النجوم وذلك يوجب كونهم جاحدين لكونها من الله تعالى (والوجه الثانى) قال الزجاج المراد أنه

والارض شيئا) ان جعل الرزق مصدرا فشيئا نصب على المفعولية منه أى مالايقدر على أن يرزقهم شيئا لامن السموات مطرا ولا من الارض نباتا وان جعل اسما للمرزوق فنصب على البدلية منه بمعنى قليلا ومن السموات والارض صفة لرزقا أى كائنا منهما ويجوز كونه تأكيدا للايملك أى لايملك رزقا ماشيئا من الملك (ولايستطيعون) أن يملكوه اذ لا استطاعة لهم رأسا لانها موات لاحراك بها فالضمير للآلهة ويجوز أن يكون للكفرة على معنى أنهم مع كونهم أحياء متصرفين فى الامور لايستطيعون من ذلك شيئا فكيف بالجماد الذى لاحس به (فلا تضربوا لله الامثال) التفات الى الخطاب للايذان بالاهتمام بشأن النهى أى لاتشركوا به شيئا والتعبير عن ذلك بضرب المثل للقصد الى النهى عن الاشراك به تعالى فى شأن من الشؤن فان ضرب المثل مبناه تشبيه حالة بحالة وقصة بقصة أى لاتشبهوا بشأنه تعالى شأنا من الشؤن واللام مثلها فى قوله تعالى ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون لامثلها فى قوله تعالى واضرب لهم مثلا أصحاب القرية ونظائره والفاء للدلالة على ترتب النهى على ماعدد من النعم الفائضة عليهم من جهته سبحانه وكون مايشركون به تعالى بمعزل من أن يملك لهم من أقطار السموات والارض شيئا من رزق ما فضلا عما فصل من نعمة الخلق والتفضيل فى الرزق ونعمة الازواج والاولاد (ان الله يعلم) تعليل

فالنهي المذكور ووعيد على المنهي عنه أي انه تعالى يعلم كنه ما تأتون وما تذرون وأنه في غاية العظم والقبح (وأنتم لا تعلمون) ذلك والا لما فعلتموه أو انه تعالى يعلم كنه الاشياء وأنتم ﴿ ٤٩٤ ﴾ لا تعلمونه فدعوا رأيكم وقفوا مواقف الامتثال لما ورد عليكم من الامر والنهي ويجوز أن يراد فلا تضربوا لله الامثال ان الله يعلم كيف تضرب الامثال وأنتم لا تعلمون ذلك فتقعون فيما تقعون فيه من مهاوي الردى والضلال ثم علمهم كيفية ضرب الامثال في هذا الباب فقال (ضرب الله مثلا) أي ذكر وأورد شيئا يستدل به على تباين الحال بين جنابه عز وجل وبين ما أشركوا به وعلى تباعدهما بحيث ينادي بفساد ما ارتكبوه نداء جليا (عبدا مملوكا لا يقدر على شيء) بدل من مثلا وتفسير له والمثل في الحقيقة حالته العارضة له من المملوكية والعجز التام وبحسبها ضرب نفسه مثلا ووصف العبد بالمملوكية للتمييز عن الحر لاشتراكهما في كونهما عبد الله سبحانه وقد أدمج فيه أن الكل عبيد له تعالى وبعدم القدرة للتمييز عن المكاتب والمأذون اللذين لهما تصرف في الجملة وفي ابهام المثل أولا ثم بيانه بما ذكر ما لا يخفى من الفخامة والجزالة (ومن رزقناه) من موصوفة معطوفة على عبدا أي ﴿أزواجكم﴾ رزقناه بطريق الملك والالتفات الى التكلم للاشعار باختلاف حالي ضرب المثل والرزق (منا) من جنابنا الكبير المتعالي (رزقا حسنا)

تعالى لما قرر هذه الدلائل وبينها وأظهرها بحيث يفهمها كل عاقل كان ذلك انعاما عظيما منه على الخلق فعند هذا قال أفبنعمة الله في تقرير هذه البيانات وايضاح هذه البينات يجحدون (المسئلة الثانية) الباء في قوله أفبنعمة الله يجوز أن تكون زائدة لان الجحود لا يعدى بالباء كما تقول خذ الخطام وبالخطام وتعلقت زيدا وبزيد ويجوز أن يراد بالجحود الكفر فعدي بالباء لكونه بمعنى الكفر والله أعلم * قوله تعالى (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمت الله هم يكفرون) اعلم ان هذا نوع آخر من أحوال الناس ذكره الله تعالى ليستدل به على وجود الاله المختار الحكيم وليكون ذلك تنبيها على انعام الله تعالى على عبيده بمثل هذه النعم فقوله جعل لكم من انفسكم ازواجا قال بعضهم المراد انه تعالى خلق حواء من ضلع آدم وهذا ضعيف لان قوله جعل لكم من أنفسكم ازواجا خطاب مع الكل فتخصيصه بآدم وحواء خلاف الدليل بل هذا الحكم عام في جميع الذكور والاناث والمعنى أنه تعالى خلق النساء ليتزوج بهن الذكور ومعنى من أنفسكم مثل قوله فاقتلوا أنفسكم وقوله فسلموا على انفسكم أي بعضكم على بعض ونظير هذه الآية قوله تعالى ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا قال الاطباء وأهل الطبيعة التفاوت بين الذكر والانثى انما كان لاجل ان كل من كان أسخن مزاجا فهو الذكر وكل من كان أكثر بردا ورطوبة فهو المرأة ثم قالوا المني اذا انصب الى الخصية اليمنى من الذكر ثم انصب منه الى الجانب الايمن من الرحم كان الولد ذكرا تاما في الذكورة وان انصب الى الخصية اليسرى من الرجل ثم انصب منها الى الجانب الايسر من الرحم كان الولد أنثى تاما في الانوثة وان انصب الى الخصية اليمنى ثم انصب منها الى الجانب الايسر من الرحم كان الولد ذكرا في طبيعة الاناث وان انصب الى الخصية اليسرى من الرجل ثم انصب منها الى الجانب الايمن من الرحم كان هذا الولد أنثى في طبيعة الذكور واعلم ان حاصل هذا الكلام أن الذكورة علتها الحرارة واليبوسة والانوثة علتها البرودة والرطوبة وهذه العلة في غاية الضعف فقد رأينا في النساء من كان مزاجه في غاية السخونة وفي الرجال من كان مزاجه في غاية البرودة ولو كان الموجب للذكورة والانوثة ذلك لامتنع ذلك فثبت أن خالق الذكر والانثى هو الاله القديم الحكيم وظهر بالدليل الذي ذكرنا صحة قوله تعالى والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ثم قال تعالى وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة قال الواحدي أصل الحفدة من الحفد وهو الخفة في الخدمة والعمل يقال حفد يحفد حفدا وحفودا وحفدانا اذا أسرع ومنه في دعاء القنوت واليك نسعى ونحفد والحفدة جمع الحافد والحافد كل من يخف في خدمتك ويسرع في العمل بطاعتك يقال في جمعه الحفد بغير هاء كما يقال الرصد ومعنى الحفدة في اللغة الاعوان والخدام ثم يجب أن يكون المراد من الحفدة في هذه الآية الاعوان الذين حصلوا للرجل من قبل المرأة لانه تعالى قال وجعل لكم من

أزواجكم بنين وحفدة فالاعوان الذين لايكونون من قبل المرأة لايدخلون تحت هذه الآية اذاعرفت هذافنقول قيل هم الاختان وقيل هم الاصهار وقيل ولدالولد والاولى دخول الكل فيه لما بينا ان اللفظ محتمل للكل بحسب المعنى المشترك الذى ذكرناه ثم قال تعالى ورزقكم من الطيبات لماذكر تعالى انعامه على عبيده بالمنكوح ومافيه من المنافع والمصالح ذكر انعامه عليهم بالمطعومات الطيبة سواء كانت من النبات وهى الثمار والحبوب والاشربة أوكانت من الحيوان ثم قال أفبالباطل يؤمنون قال ابن عباس رضى الله عنهما يعنى بالاصنام وقال مقاتل يعنى بالشيطان وقال عطاء يصدقون ان لى شريكا وصاحبة وولدا وبنعمة الله هم يكفرون أى بأن يضيفوها الى غيرالله ويتركوا اضافتها الى الله تعالى وفى الآية قول آخر وهو أنه تعالى لماقال ورزقكم من الطيبات قال بعده أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون والمراد منه انهم يحرمون على أنفسهم طيبات أحلها الله لهم مثل البحيرة والسائبة والوصيلة ويبيحون لانفسهم محرمات حرمها الله عليهم وهى الميتة والدم ولحم الخنزير وماذبح على النصب يعنى لم يحكمون بتلك الاحكام الباطلة وبانعام الله فى تحليل الطيبات وتحريم الخبيثات يجحدون ويكفرون والله أعلم

* قوله تعالى (ويعبدون من دون الله مالايملك لهم رزقا من السموات والارض شيئا ولايستطيعون فلاتضربوا لله الامثال ان الله يعلم وأنتم لاتعلمون) اعلم انه تعالى لما شرح أنواعا كثيرة فى دلائل التوحيد وتلك الانواع كما انها دلائل على صحة التوحيد فكذلك بدأ بذكر أقسام النعم الجليلة الشريفة ثم اتبعها فى هذه الآية بالرد على عبدة الاصنام فقال ويعبدون من دون الله مالايملك لهم رزقا من السموات والارض شيئا ولايستطيعون أما الرزق الذى يأتى من جانب السماء فيعنى به الغيث الذى يأتى من جهة السماء وأما الذى يأتى من جانب الارض فهو النبات والثمار التى تخرج منها وقوله من السموات والارض من صفة النكرة التى هى قوله رزقا كأنه قيل لايملك لهم رزقا من الغيث والنبات وقوله شيئا قال الاخفش جعل قوله شيئا بدلا من قوله رزقا والمعنى لايملكون رزقا لاقليلا ولاكثيرا ثم قال ولايستطيعون والفائدة فى هذه اللفظة ان من لايملك شيئا قد يكون موصوفا باستطاعة أن يتملكه بطريق من الطرق فبين تعالى ان هذه الاصنام لاتملك وليس لها أيضا استطاعة تحصيل الملك فان قيل انه تعالى قال ويعبدون من دون الله مالايملك فعبر عن الاصنام بصيغة ما وهى لغير أولى العلم ثم قال ولايستطيعون والجمع بالواو والنون مختص باولى العلم فكيف الجمع بين الامرين والجواب أنه عبر عنها بلفظ ما اعتبارا لما هو الحقيقة فى نفس الامر وذكر الجمع بالواو والنون اعتبارا لما يعتقدون فيها انها آلهة ثم قال تعالى فلاتضربوا لله الامثال وفيه وجوه (الاول) قال المفسرون يعنى لاتشبهوه بخلقه (الثانى) قال الزجاج أى لاتجعلوا لله مثلا لانه واحد لامثل له (الثالث) أقول يحتمل أن يكون المراد أن عبدة الاوثان كانوا يقولون ان اله العالم أجل وأعظم من أن يعبده الواحد

حلالا طيبا أومستحسنا عندالناس مرضيا (فهو ينفق منه) تفضلا واحسانا والفاء لترتيب الانفاق على الرزق كأنه قيل ومن رزقناه منا رزقا حسنا فأنفق وايثار ماعليه النظم الكريم من الجملة الاسمية الفعلية الخبر للدلالة على ثبات الانفاق واستمراره التجددى (سرا وجهرا) أى حال السر والجهر أوانفاق سر وانفاق جهر والمراد بيان عموم انفاقه للاوقات وشمول انعامه لمن يجتنب عن قبوله جهرا والاشارة الى أصناف نعم الله تعالى الباطنة والظاهرة وتقديم السر على الجهر للايذان بفضله عليه والعدول عن تطبيق القرينتين بأن يقال وحرا مالكا للاموال مع كونه أدل على تباين الحال بينه وبين قسيمه لتوخى تحقيق الحق بأن الاحرار أيضا تحت ربقة عبوديته سبحانه وتعالى وأن مالكيتهم لما يملكونه ليست الا بأن يرزقهم الله تعالى اياه من غير أن يكون لهم مدخل فى ذلك مع محاولة المبالغة فى الدلالة على ماقصد بالمثل من تباين الحال بين الممثلين فان العبد المملوك حيث لم يكن مثل العبد المالك فما ظنك بالجماد ومالك الملك خلاق العالمين (هل يستوون) جمع الضمير للايذان بأن المراد بماذكر من اتصف بالاوصاف المذكورة من الجنسين المذكورين لافردان معينان منهما أى هل يستوى العبيد والاحرار الموصوفون بماذكر من الصفات مع أن الفريقين سيان فى البشرية والمخلوقية لله سبحانه وأن ماينفقه الاحرار ليس مما لهم دخل فى ايجاده ولافى تملكه بل هو مما أعطاه الله تعالى

ايلهم فحيث لم يستو الفريقان فاظنكم برب العالمين حيث تشركون به ما لا ذليل أذل منه وهو الاصنام (الحمد لله) أى كله له لانه مولى جميع النعم لا يستحقه أحد غيره وان ظهرت على أيدى بعض الوسايط فضلا عن استحقاق العبادة وفيه ارشاد الى ماهو الحق من أن ما يظهر على يد من ينفق مما ذكر راجع الى الله سبحانه كما لوح به قوله تعالى رزقناه (بل أكثرهم لا يعلمون) ماذكر فيضيفون نعمه تعالى الى غيره ويعبدونه لاجلها ونفى العلم عن أكثرهم للاشعار بأن بعضهم يعلمون ذلك وانما لا يعملون بموجبه عنادا كقوله تعالى يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون (وضرب الله مثلا) أى مثلا آخر يدل على مادل عليه المثل السابق على وجه أوضح وأظهر وبعد ما ابهم ذلك لتنتظر النفس الى وروده وتترقبه حتى تمكن لديها عند وروده بين فقيل (رجلين أحدهما أبكم) وهو من ولد أخرس (لا يقدر على شئ) من الاشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره بحدس أو فراسة لقلة فهمه وسوء ادراكه (وهو كل) ثقل وعيال (على مولاه) على من يعوله ويلى أمره وهذا بيان لعدم قدرته على اقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شئ مطلقا وقوله تعالى (أينما يوجهه) أى حيث يرسله مولاه فى أمر بيان لعدم قدرته على اقامة مصالح مولاه ولو كانت مصلحة يسيرة وقرئ على البناء للمفعول وعلى صيغة

منا بل نحن نعبد الكواكب أو نعبد هذه الاصنام ثم ان الكواكب والاصنام عبيد الاله الاكبر الاعظم والدليل عليه العرف فان أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك وأولئك الاكابر يخدمون الملك فكذا ههنا فعند هذا قال الله تعالى انهم اتركوا عبادة هذه الاصنام والكواكب ولا تضربوا لله الامثال التى ذكرتموها وكونوا مخلصين فى عبادة الاله الحكيم القدير ثم قال ان الله يعلم وأنتم لا تعلمون وفيه وجهان (الاول) ان الله تعالى يعلم ما عليكم من العقاب العظيم بسبب عبادة هذه الاصنام وأنتم لا تعلمون ذلك ولو علمتموه لتركتم عبادتها (الثانى) ان الله تعالى لما نهاكم عن عبادة هذه الاصنام فاتركوا عبادتها واتركوا دليلكم الذى عولتم عليه وهو قولكم الاشتغال بعبادة عبيد الملك أدخل فى التعظيم من الاشتغال بعبادة نفس الملك لان هذا قياس والقياس يجب تركه عند ورود النص فلهذا قال ان الله يعلم وأنتم لا تعلمون * ثم قال تعالى (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شئ ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) اعلم انه تعالى أكد ابطال مذهب عبدة الاصنام بهذا المثال وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تفسير هذا المثل قولان (الاول) أن المراد انا لو فرضنا عبدا مملوكا لا يقدر على شئ وفرضنا حرا كريما غنيا كثير الانفاق سرا وجهرا فصريح العقل يشهد بأنه لا تجوز التسوية بينهما فى التعظيم والاجلال فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما فى الخلقة والصورة والبشرية فكيف يجوز للعاقل أن يسوى بين الله القادر على الرزق والافضال وبين الاصنام التى لا تملك ولا تقدر البتة (والقول الثانى) ان المراد بالعبد المملوك الذى لا يقدر على شئ هو الكافر فانه من حيث انه بقى محروما عن عبودية الله تعالى وعن طاعته صار كالعبد الذليل الفقير العاجز والمراد بقوله ومن رزقناه منا رزقا حسنا هو المؤمن فانه مشتغل بالتعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله فبين تعالى أنهما لا يستويان فى المرتبة والشرف والقرب من رضوان الله تعالى واعلم ان القول الاول أقرب لان ما قبل هذه الآية وما بعدها انما ورد فى اثبات التوحيد وفى الرد على القائلين بالشرك فحمل هذه الآية على هذا المعنى أولى (المسئلة الثانية) اختلفوا فى المراد بقوله عبدا مملوكا لا يقدر على شئ فقيل المراد به الصنم لانه عبد بدليل قوله ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا وأما أنه مملوك ولا يقدر على شئ فظاهر والمراد بقوله ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا عابد الصنم لان الله تعالى رزقه المال وهو ينفق من ذلك المال على نفسه وعلى أتباعه سرا وجهرا اذا ثبت هذا فنقول هما لا يستويان فى بديهة العقل بل صريح العقل يشهد بان ذلك القادر أكمل حالا وأفضل مرتبة من ذلك العاجز فههنا صريح العقل يشهد بأن عابد الصنم أفضل من ذلك الصنم فكيف يجوز الحكم بكونه مساويا لرب العالمين فى العبودية (والقول الثانى) أن المراد بقوله عبدا مملوكا عبد معين وقيل هو عبد لعثمان بن عفان وحملوا قوله

ومن رزقناه منا رزقا حسنا على عثمان خاصة (والقول الثالث) انه عام فى كل عبد بهذه الصفة وفى كل حر بهذه الصفة وهذا القول هو الاظهر لانه هو الموافق لما أراده الله تعالى فى هذه الآية والله أعلم (المسئلة الثالثة) احتج الفقهاء بهذه الآية على أن العبد لا يملك شيئا فان قالوا ظاهر الآية يدل على أن عبدا من العبيد لا يقدر على شئ فلم قلتم ان كل عبد كذلك فنقول الذى يدل عليه وجهان (الاول) انه ثبت فى أصول الفقه أن الحكم المذكور عقيب الوصف المناسب يدل على كون ذلك الوصف علة لذلك الحكم وكونه عبدا وصف مشعر بالذل والمقهورية وقوله لا يقدر على شئ حكم مذكور عقيبه فهذا يقتضى أن العلة لعدم القدرة على شئ هو كونه عبدا وبهذا الطريق يثبت العموم (الثانى) انه تعالى قال بعده ومن رزقناه منا رزقا حسنا فميز هذا القسم الثانى عن القسم الاول وهو العبد بهذه الصفة وهو أنه رزقه رزقا فوجب أن لا يحصل هذا الوصف للعبد حتى يحصل الامتياز بين القسم الثانى وبين القسم الاول ولو ملك العبد لكان الله قد آتاه رزقا حسنا لان الملك الحلال رزق حسن سواء كان قليلا أو كثيرا فثبت بهذين الوجهين ان ظاهر الآية يقتضى ان العبد لا يقدر على شئ ولا يملك شيئا ثم اختلفوا فروى عن ابن عباس وغيره التشدد فى ذلك حتى قال لا يملك الطلاق أيضا وأكثر الفقهاء قالوا يملك الطلاق انما لا يملك المال ولا ماله تعلق بالمال واختلفوا فى أن المالك اذا ملكه شيئا فهل يملكه أم لا وظاهر الآية ينفيه بقى فى الآية سؤالات (الاول) لم قال مملوكا لا يقدر على شئ وكل عبد فهو مملوك وغير قادر على التصرف قلنا أما ذكر المملوك فليحصل الامتياز بينه وبين الحر لان الحر قد يقال انه عبد الله وأما قوله لا يقدر على شئ فقد يحصل الامتياز بينه وبين المكاتب وبين العبد المأذون لانهما يقدران على التصرف (السؤال الثانى) من فى قوله ومن رزقناه ما هى قلنا الظاهر أنها موصوفة كأنه قيل وحرا رزقناه ليطابق عبدا ولا يمتنع أن تكون موصولة (السؤال الثالث) لم قال يستوون على الجمع قلنا معناه هل يستوى الاحرار والعبيد ثم قال الحمد لله وفيه وجوه (الاول) قال ابن عباس الحمد لله على ما فعل بأوليائه وأنعم عليهم بالتوحيد (والثانى) المعنى ان كل الحمد لله وليس شئ من الحمد للاصنام لانها لا نعمة لها على أحد وقوله بل أكثرهم لا يعلمون يعنى انهم لا يعلمون ان كل الحمد لله وليس شئ منه للاصنام (الثالث) قال القاضى فى التفسير قال للرسول عليه الصلاة والسلام قل الحمد لله ويحتمل أن يكون خطابا لمن رزقه الله رزقا حسنا أن يقول الحمد لله على ان ميزه فى هذه القدرة عن ذلك العبد الضعيف (الرابع) يحتمل أن يكون المراد انه تعالى لما ذكر هذا المثل وكان هذا مثلا مطابقا للغرض كاشفا عن المقصود قال بعده الحمد لله يعنى الحمد لله على قوة هذه الحجة وظهور هذه البينة ثم قال بل أكثرهم لا يعلمون يعنى انها مع غاية ظهورها ونهاية وضوحها لا يعلمها ولا يفهمها هؤلاء الضلال والله أعلم *قوله تعالى (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شئ وهو كل

الماضى من الوجه (لا يأت بخير) بنجح وكفاية مهم البتة (هل يستوى هو) مع ما فيه من الاوصاف المذكورة (ومن يأمر بالعدل) أى من هو منطيق فهم ذو رأى وكفاية ورشد ينفع الناس بحثهم على العدل الجامع لمجامع الفضائل (وهو) فى نفسه مع ما ذكر من نفعه العام للخاص والعام (على صراط مستقيم) ومقابلة الصفات المذكورة بهذين الوصفين لانهما فى حاق ما يقابلها فان محصل الصفات المذكورة عدم استحقاق المأمورية وملخص هذين استحقاق كمال الآمرية المستتبع لحيازة المحاسن بأجمعها وتغيير الاسلوب حيث لم يقل والآخر آمر بالعدل الآية لمراعاة الملاءمة بينه وبين ما هو المقصود من بيان التباين بين القرينين واعلم أن كلا من الفعلين ليس المراد بهما حكاية الضرب الماضى بل المراد انشاؤه بما ذكر عقيبه ولا يبعد أن يقال ان الله تعالى ضرب مثلا بخلق الفريقين على ما هما عليه فكان خلقهما كذلك للاستدلال بعدم تساويهما على امتناع التساوى بينه سبحانه وبين ما يشركون فيكون كل من الفعلين حكاية للضرب الماضى

(ولله) تعالى خاصة ﴿ ٦٣ ﴾ خا لا لاحد غيره استقلالا ولا اشتراكا (غيب السموات والارض) اى الامور الغائبة عن علوم المخلوقين قاطبة بحيث لا سبيل لهم اليها لا مشاهدة ولا استدلالا ومعنى الاضافة اليهما التعلق بهما اما باعتبار الوقوع

على مولاه أينما يوجهه لايأت بخيرهل يستوى هوومن يأمر بالعدل وهوعلى صراط مستقيم) اعلم أنه تعالى أبطل قول عبدة الاوثان والاصنام بهذا المثل الثانى وتقريره انه كما تقرر فى أوائل العقول أن الابكم العاجز لايكون مساويا فى الفضل والشرف للناطق القادر الكامل مع استوائهما فى البشرية فلان يحكم بأن الجماد لايكون مساويا لرب العالمين فى المعبودية كان أولى ثم نقول فى الآية مسئلتان (المسئلة الاولى) انه تعالى وصف الرجل الاول بصفات (الصفة الاولى) الابكم وفى تفسيره أقوال نقلها الواحدى (الاول) قال أبوزيد رجل أبكم وهو العيى المفحم وقدبكم بكما وبكامة وقال أيضا الابكم الاقطع اللسان وهو الذى لايحسن الكلام (الثانى) روى ثعلب عن ابن الاعرابى الابكم الذى لايعقل (الثالث) قال الزجاج الابكم المطبق الذى لايسمع ولايبصر (الصفة الثانية) قوله لايقدر على شئ وهو اشارة الى العجز التام والنقصان الكامل (والصفة الثالثة) قوله كل على مولاه أى هذا الابكم العاجز كل على مولاه قال أهل المعانى أصله من الغلظ الذى هو نقيض الحدة يقال كل السكين اذا غلظت شفرته فلم يقطع وكل لسانه اذا غلظ فلم يقدر على الكلام وكل فلان عن الامر اذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه فقوله كل على مولاه أى غليظ وثقيل على مولاه (الصفة الرابعة) قوله أينما يوجهه لايأت بخير أى أينما يرسله ومعنى التوجيه أن ترسل صاحبك فى وجه معين من الطريق يقال وجهته الى موضع كذا فتوجه اليه وقوله لايأت بخير معناه لانه عاجز لايحسن ولايفهم ثم قال تعالى هل يستوى هو أى هذا الموصوف بهذه الصفات الاربع ومن يأمر بالعدل واعلم أن الآمر بالعدل يجب أن يكون موصوفا بالنطق والالم يكن آمرا و يجب أن يكون قادر الان الامر مشعر بعلو المرتبة وذلك لايحصل الامع كونه قادرا ويجب أن يكون عالما حتى يمكنه التميز بين العدل وبين الجور فثبت ان وصفه بأنه يأمر بالعدل يتضمن وصفه بكونه قادرا عالما وكونه آمرا يناقض كون الاول أبكم وكونه قادرا يناقض وصف الاول بأنه لايقدر على شئ و بأنه كل على مولاه وكونه عالما يناقض وصف الاول بأنه لايأت بخير ثم قال وهو على صراط مستقيم معناه كونه عادلا مبرأ عن الجور والعبث اذا ثبت هذا فنقول ظاهر فى بديهة العقل ان الاول والثانى لايستويان فكذا ههنا والله أعلم (المسئلة الثانية) فى المراد بهذا المثل أقوال كما فى المثل المتقدم (فالاول) قال مجاهد كل هذا مثل الهالخلق ومايدعى من دونه من الباطل وأما الابكم فمثل الصنم لانه لاينطق البتة وكذلك لايقدر على شئ وأيضا كل على عابديه لانه لاينفق عليهم وهم ينفقون عليه وأيضا الى أى مهم توجه الصنم لم يأت بخير وأما الذى يأمر بالعدل فهو الله سبحانه (والقول الثانى) ان المراد من هذا الابكم هو عبد لعثمان بن عفان كان ذلك العبد يكره الاسلام وماكان فيه خير ومولاه وهو عثمان بن عفان كان يأمر بالعدل وكان على الدين القويم والصراط المستقيم (والقول الثالث) أن المقصود منه كل عبد موصوف بهذه الصفات المذمومة وكل حر

فيهما حالا أوماً لا واما باعتبار الغيبة عن اهلهما والمراد بيان الاختصاص به تعالى من حيث المعلومية حسبما ينبئ عنه عنوان الغيبة لامن حيث المخلوقية والمملوكية وان كان الامر كذلك فى نفس الامر وفيه اشعار بأن علمه سبحانه حضورى فان تحقق الغيوب فى أنفسها علم بالنسبة اليه تعالى ولذلك لم يقل ولله علم غيب السموات والارض (وما أمر الساعة) التى هى أعظم ماوقع فيه المماراة من الغيوب المتعلقة بهما من حيث غيبتها عن اهلهما أوظهور آثارها فيهما عند وقوعها فان وقت وقوعها بعينه من الغيوب المختصة به سبحانه وان كان آتيتها من الغيوب التى نصبت عليها الادلة اى ماشأنها فى سرعة المجئ (الا كلمح البصر) اى كرجع الطرف من أعلى الحدقة الى أسفلها (أوهو) اى بل أمرها فيما ذكر (أقرب) من ذلك وأسرع زمانا بأن يقع فى بعض من زمانه فان ذلك وان قصر عن حركة آنية لها هوية اتصالية منطبقة على زمان له هوية كذلك قابل للانقسام الى أبعاض هى أزمنة أيضا بل فى آن غير منقسم من ذلك الزمان وهو آن ابتداء تلك الحركة أوما أمرها الا كالشئ الذى يستقرب و يقال هو كلمح البصر أوهو أقرب وأياما كان فهو تمثيل لسرعة مجيئها حسبما عبر عنها فى فاتحة السورة الشريفة بالاتيان (ان الله على كل شئ قدير) ومن جملة الاشياء أن يجئ بها أسرع مايكون

﴿ موصوف ﴾

موصوف بتلك الصفات الجيدة وهذا القول أولى من القول الاول لان وصفه تعالى اياهما بكونهما رجلين يمنع من حمل ذلك على الوثن وكذلك بالبكم وبالكل وبالتوجه فى جهات المنافع وكذلك وصف الآخر بأنه على صراط مستقيم يمنع من حمله على الله تعالى وأيضا فالمقصود تشبيه صورة بصورة فى أمر من الامور وذلك التشبيه لا يتم الا عند كون احدى الصورتين مغايرة للاخرى (وأما القول الثانى) فضعيف أيضا لان المقصود ابانة التفرقة بين رجلين موصوفين بالصفات المذكورة وذلك غير مختص بشخص معين بل أينما حصل التفاوت فى الصفات المذكورة حصل المقصود والله أعلم ✵ قوله تعالى (ولله غيب السموات والارض وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب ان الله على كل شئ قدير والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون ألم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن الا الله ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) اعلم انه تعالى لما ذكر فى الآية الاولى مثل الكفار بالابكم العاجز ومثل نفسه بالذى يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ومعلوم انه يمتنع أن يكون آمرا بالعدل وأن يكون على صراط مستقيم الا اذا كان كاملا فى العلم والقدرة ذكر فى هذه الآية بيان كونه كاملا فى العلم والقدرة أما بيان كمال العلم فهو قوله ولله غيب السموات والارض والمعنى علم الله غيب السموات والارض وأيضا فقوله ولله غيب السموات والارض يفيد الحصر معناه ان العلم بهذه الغيوب ليس الا لله وأما بيان كمال القدرة فقوله وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب والساعة هى الوقت الذى تقوم فيه القيامة سميت ساعة لانها تفجأ الانسان فى ساعة فيموت الخلق بصيحة واحدة وقوله الا كلمح البصر اللمح النظر بسرعة يقال لمحه ببصره لمحا ولمحانا والمعنى وما أمر قيام القيامة فى السرعة الا كطرف العين والمراد منه تقرير كمال القدرة وقوله أو هو أقرب معناه ان لمح البصر عبارة عن انتقال الجسم المسمى بالطرف من أعلى الحدقة الى أسفلها ولا شك ان الحدقة مؤلفة من أجزاء لا تتجزأ فلمح البصر عبارة عن المرور على جملة تلك الاجزاء التى منها تألف سطح الحدقة ولا شك ان تلك الاجزاء كثيرة والزمان الذى يحصل فيه لمح البصر مركب من آنات متعاقبة والله تعالى قادر على اقامة القيامة فى آن واحد من تلك الآنات فلهذا قال أو هو أقرب الا انه لما كان أسرع الاحوال والحوادث فى عقولنا وافكارنا هو لمح البصر لا جرم ذكره ثم قال أو هو أقرب تنبيها على ما ذكرناه ولا شبهة فى أنه ليس المراد طريقة الشك بل المراد بل هو أقرب وقال الزجاج المراد به الابهام عن المخاطبين أنه تعالى يأتى بالساعة اما بقدر لمح البصر أو بما هو أسرع قال القاضى هذا لا يصح لان اقامة الساعة ليست حال تكليف حتى يقال انه تعالى يأتى بها فى زمان بل الواجب أن يخلقها دفعة واحدة فى وقت واحد ويفارق ما ذكرناه فى ابتداء خلق السموات والارض لان تلك الحال حال تكليف فلم يمتنع أن يخلقهما

فهو قادر على ذلك أو وما أمر اقامة الساعة التى كنهها وكيفيتها من الغيوب الخاصة به سبحانه وهى اماتة الاحياء واحياء الاموات من الاولين والاخرين وتبديل صور الاكوان أجمعين وقد أنكرها المنكرون وجعلوها من قبيل ما لا يدخل تحت الامكان فى سرعة الوقوع وسهولة التأتى الا كلمح البصر أو هو أقرب على ما مر من الوجهين ان الله على كل شئ قدير فهو قادر على ذلك لا محالة وقيل غيب السموات والارض عبارة عن يوم القيامة بعينه لما أن علمه بخصوصه غائب عن أهلهما فوضع الساعة موضع الضمير لتقوية مضمون الجملة (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم) عطف على قوله تعالى والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا منتظم معه فى سلك أدلة التوحيد من قوله تعالى والله أنزل من السماء ماء وقوله تعالى والله خلقكم وقوله تعالى والله فضل بعضكم على بعض والامهات بضم الهمزة وقرئ بكسرها أيضا جمع الام زيدت الهاء فيه كما زيدت فى اهراق من أراق وشذت زيادتها فى الواحدة قال ✵ امهتى خندف والياس أبى ✵ (لا تعلمون شيئا) فى موقع الحال اى غير عالمين شيئا أصلا (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة) عطف على أخرجكم وليس فيه دلالة على تأخر الجعل المذكور عن الاخراج لما أن مدلول الواو هو الجمع مطلقا لا الترتيب على أن أثر ذلك الجعل لا يظهر قبل الاخراج أى جعل لكم هذه الاشياء

الات تحصلون بها العلم والمعرفة بأن تحسوا بمشاعركم جزئيات الاشياء وتدركوها بافئدتكم وتتنبهوا لما بينهما من المشاركات والمباينات بتكرر الاحساس فيحصل لكم علوم بديهية تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلوم الكسبية والافئدة جمع فؤاد وهو وسط القلب وهو من القلب كالقلب من الصدر وهو من جموع القلة التى جرت مجرى جموع الكثرة وتقديم المجرور على المنصوبات لما مر من الايذان من أول الامر بكون المجعول نافعا لهم وتشويق الى المؤخر ليتمكن عند وروده عليها فضل تمكن (لعلكم تشكرون) كى تعرفوا ما أنعم به عليكم طورا غب طور فتشكروه وتقديم السمع على البصر لما انه طريق تلقى الوحى أولا ادراكه أقدم من ادراك البصر وافراده باعتبار كونه مصدرا فى الاصل (ألم يروا) وقرئ بالتاء (الى الطير) جمع طائر أى ألم ينظروا اليها (مسخرات) مذللات للطيران بما خلق لها من الاجنحة والاسباب المساعدة له وفيه مبالغة من حيث ان معنى التسخير جعل الشىء منقادا لآخر يتصرف فيه كيف يشاء كتسخير البحر والفلك والدواب للانسان والواقع ههنا تسخير الهواء للطير لتطير فيه كيف تشاء فكان مقتضى طبيعة الطير ﴿ فان ﴾ السقوط فسخرها الله تعالى للطيران وفيه تنبيه على أن الطيران ليس بمقتضى طبع الطير بل ذلك بتسخير الله تعالى (فى جو السماء) أى فى الهواء المتباعد من الارض

كذلك لما فيه من مصلحة الملائكة واعلم أن هذا الاعتراض انما يستقيم على مذهب القاضى أما على قولنا فى أنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فليس له قوة والله اعلم ثم انه تعالى عاد الى الدلائل الدالة على وجود الصانع المختار فقال والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرا حمزة والكسائى امهاتكم بكسر الهمزة والباقون بضمها (المسئلة الثانية) أمهاتكم أصله أماتكم الا انه زيد الهاء فيه كما زيد فى اراق فقيل اهراق وشذت زيادتها فى الواحدة فى قوله

أمهتى خندف والياس أبى

(المسئلة الثالثة) الانسان خلق فى مبدا الفطرة خاليا عن معرفة الاشياء ثم قال وجعل لكم السمع والابصار والافئدة والمعنى ان النفس الانسانية لما كانت فى اول الخلقة خالية عن المعارف والعلوم بالله فالله تعالى أعطاه هذه الحواس ليستفيد بها المعارف والعلوم وتمام الكلام فى هذا الباب يستدعى مزيد تقرير فنقول التصورات والتصديقات اما أن تكون كسبية واما أن تكون بديهية والكسبيات انما يمكن تحصيلها بواسطة تركيبات البديهيات فلابد من سبق هذه العلوم البديهية وحينئذ لسائل أن يسأل فيقول هذه العلوم البديهية اما أن يقال انها كانت حاصلة منذ خلقنا أو ما كانت حاصلة (والاول) باطل لانا بالضرورة نعلم انا حين كنا جنينا فى رحم الام ما كنا نعرف ان النفى والاثبات لايجتمعان وما كنا نعرف أن الكل أعظم من الجزء (وأما القسم الثانى) فانه يقتضى ان هذه العلوم البديهية حصلت فى نفوسنا بعد انها ما كانت حاصلة فحينئذ لايمكن حصولها الا بكسب وطلب وكل ما كان كسبيا فهو مسبوق بعلوم أخرى فهذه العلوم البديهية تصير كسبية ويجب أن تكون مسبوقة بعلوم أخرى الى غير نهاية وكل ذلك محال وهذا سؤال قوى مشكل وجوابه أن نقول الحق ان هذه العلوم البديهية ما كانت حاصلة فى نفوسنا ثم انها حدثت وحصلت أما قوله فيلزم أن تكون كسبية قلنا هذه المقدمة ممنوعة بل نقول انها انما حدثت فى نفوسنا بعد عدمها بواسطة اعانة الحواس التى هى السمع والبصر وتقريره ان النفس كانت فى مبدا الخلقة خالية عن جميع العلوم الا انه تعالى خلق السمع والبصر فاذا أبصر الطفل شيئا مرة بعد أخرى ارتسم فى خياله ماهية ذلك المبصر وكذلك اذا سمع شيئا مرة بعد أخرى ارتسم فى سمعه وخياله ماهية ذلك المسموع وكذا القول فى سائر الحواس فيصير حصول الحواس سببا لحضور ماهيات المحسوسات فى النفس والعقل ثم ان تلك الماهيات على قسمين أحد القسمين ما يكون نفس حضوره موجبا تاما فى جزم الذهن باسناد بعضها الى بعض بالنفى أو الاثبات مثل أنه اذا حضر فى الذهن ان الواحد ما هو وان نصف الاثنين ما هو كان حضور هذين التصورين فى الذهن علة تامة فى جزم الذهن بأن الواحد محكوم عليه بأنه نصف الاثنين وهذا القسم هو عين العلوم البديهية (القسم الثانى) ما لا يكون كذلك وهو العلوم النظرية مثل أنه اذا حضر فى الذهن ان الجسم ما هو وان المحدث ما هو

فان مجرد هذين التصورين فى الذهن لا يكفى فى جزم الذهن بأن الجسم محدث بل لا بد فيه من دليل منفصل وعلوم سابقة والحاصل ان العلوم الكسبية انما يمكن اكتسابها بواسطة العلوم البديهية وحدوث هذه العلوم البديهية انما كان عند حدوث تصور موضوعاتها وتصور محمولاتها وحدوث هذه التصورات انما كان بسبب اعانة هذه الحواس على جزئياتها فظهر ان السبب الاول لحدوث هذه المعارف فى النفوس والعقول هو أنه تعالى أعطى هذه الحواس فلهذا السبب قال تعالى والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة ليصير حصول هذه الحواس سببا لانتقال نفوسكم من الجهل الى العلم بالطريق الذى ذكرناه وهذه ابحاث شريفة عقلية محضة مدرجة فى هذه الآيات وقال المفسرون وجعل لكم السمع لتسمعوا مواعظ الله والابصار لتبصروا دلائل الله والافئدة لتعقلوا عظمة الله والافئدة جمع فؤاد نحو أغربة وغراب قال الزجاج ولم يجمع فؤاد على أكثر العدد وما قيل فيه فئدان كما قيل غراب وغربان وأقول لعل الفؤاد انما جمع على بناء جمع القلة تنبيها على أن السمع والبصر كثيران وأن الفؤاد قليل لان الفؤاد انما خلق للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية وأكثر الخلق ليسوا كذلك بل يكونون مشغولين بالافعال البهيمية والصفات السبعية فكأن فؤادهم ليس بفؤاد فلهذا السبب ذكر فى جمعه صيغة جمع القلة فان قيل قوله تعالى وجعل لكم السمع والابصار عطف على قوله أخرجكم وهذا يقتضى أن يكون جعل السمع والبصر متأخرا عن الاخراج عن البطن ومعلوم أنه ليس كذلك والجواب ان حرف الواو لا يوجب الترتيب وأيضا اذا حملنا السمع على الاستماع والابصار على الرؤية زال السؤال والله أعلم أما قوله ألم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن الا الله ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى ألم تروا بالتاء والباقون بالياء على الحكاية لمن تقدم ذكره من الكفار (المسئلة الثانية) هذا دليل آخر على كمال قدرة الله تعالى وحكمته فانه لولا انه تعالى خلق الطير خلقة معها يمكنه الطيران وخلق الجو خلقة معها يمكن الطيران فيه لما أمكن ذلك فانه تعالى أعطى الطير جناحا يبسطه مرة و يكسره أخرى مثل ما يعمله السابح فى الماء وخلق الهواء خلقة لطيفة رقيقة يسهل بسببها خرقه والنفاذ فيه ولولا ذلك لما كان الطيران ممكنا وأما قوله تعالى ما يمسكهن الا الله فالمعنى ان جسد الطير جسم ثقيل والجسم الثقيل يمتنع بقاؤه فى الجو معلقا من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه فوجب أن يكون الممسك له فى ذلك الجو هو الله تعالى ثم من الظاهر ان بقاءه فى الجو معلقا فعله وحاصل باختياره فثبت ان خالق فعل العبد هو الله تعالى قال القاضى انما أضاف الله تعالى هذا الامساك الى نفسه لانه تعالى هو الذى أعطى الآلات التى لاجلها يمكن الطير من تلك الافعال فلما كان تعالى هو المسبب لذلك لا جرم صحت هذه الاضافة الى الله تعالى والجواب ان هذا ترك للظاهر بغير دليل وانه

والسكاك واللوح أبعد منه واضافته الى السماء لما أنه فى جانبها من الناظر ولاظهار كمال القدرة (ما يمسكهن) فى الجوحين قبض أجنحتهن و بسطها ووقوفهن (الا الله) عزوجل بقدرته الواسعة فان ثقل جسدها ورقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها ولا علاقة من فوقها و لا دعامة من تحتها وهو اما حال من الضمير المستتر فى مسخرات أو من الطير واما مستأنف (ان فى ذلك) الذى ذكر من تسخير الطير للطيران بأن خلقها خلقة تمكن بها منه بأن جعل لها أجنحة خفيفة واذنابا كذلك وجعل أجسادها من الخفة بحيث اذا بسطت أجنحتها وأذنابها لا يطيق ثقلها تخرق ما تحتها من الهواء الرقيق القوام وتخرق ما بين يديها من الهواء لانها لا تلاقيه بحجم كبير (لآيات) ظاهرة (لقوم يؤمنون) أى من شأنهم أن يؤمنون وانما خص ذلك بهم لانهم المنتفعون به (والله جعل لكم) معطوف على ما مر وتقديم لكم على ما يأتى من المجرور والمنصوب لما مر من الايذان من أول الامر بأنه لمصلحتهم ومنفعتهم لتشويق النفس الى وروده وقوله تعالى (من بيوتكم) أى من بيوتكم المعهودة التى تبنونها من الحجر والمدر تبيين لذلك المجهول المبهم فى الجملة وتأكيد لما سبق من التشويق (سكنا) فعل بمعنى مفعول أى موضعا تسكنون فيه وقت اقامتكم أو تسكنون اليه من غير أن ينتقل من مكانه أى جعل بعض بيوتكم بحيث

لا يجوز لا سيما والدلائل العقلية دلت على ان أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ثم قال تعالى في آخر الآية ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون وخص هذه الآيات بالمؤمنين لانهم هم المنتفعون بها وان كانت هذه الآيات آيات لكل العقلاء والله أعلم * قوله تعالى (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين) اعلم أن هذا نوع آخر من دلائل التوحيد وأقسام النعم والفضل والسكن المسكن أنشد الفراء

جاء الشتاء ولما أتخذ سكنا * ياويح كفي من حفر القراميص

والسكن ما سكنت اليه وما سكنت فيه قال صاحب الكشاف السكن فعل بمعنى مفعول وهو ما يسكن اليه وينقطع اليه من بيت أو الف واعلم أن البيوت التي يسكن الانسان فيها على قسمين أحدهما البيوت المتخذة من الخشب والطين والآلات التي بها يمكن تسقيف البيوت واليها الاشارة بقوله والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وهذا القسم من البيوت لا يمكن نقله بل الانسان ينتقل اليه (والقسم الثاني) القباب والخيام والفساطيط واليها الاشارة بقوله وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم وهذا القسم من البيوت يمكن نقله وتحويله من مكان الى مكان واعلم أن المراد الانطاع وقد تعمل العرب البيوت من الادم وهي جلود الانعام أي يخف عليكم حملها في أسفاركم قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو يوم ظعنكم بفتح العين والباقون ساكنة العين قال الواحدي وهما لغتان كالشعر والشعر والنهر والنهر واعلم ان الظعن سير البادية لنجعة او حضور ماء أو طلب مربع وقد يقال لكل شاخص لسفر ظاعن وهو ضد الخافض وقوله ويوم اقامتكم بمعنى لا يثقل عليكم في الحالين وقوله ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها قال المفسرون وأهل اللغة الاصواف للضأن والاوبار للابل والاشعار للمعز وقوله أثاثا الاثاث أنواع متاع البيت من الفرش والاكسية قال الفراء ولا واحد له كما أن المتاع لا واحد له قال ولو جمعت فقلت آثثة في القليل وأثث في الكثير لم يبعد وقال أبو زيد واحدها أثاثة قال ابن عباس في قوله أثاثا يريد طنافس وبسطا وثيابا وكسوة قال الخليل وأصله من قولهم أث النبات والشعر اذا كثر وقوله متاعا أي ما يتمتعون به وقوله الى حين يريد الى حين البلى وقيل الى حين الموت وقيل الى حين بعد الحين وقيل الى يوم القيامة فان قيل عطف المتاع على الاثاث والعطف يقتضي المغايرة وما الفرق بين الاثاث والمتاع قلنا الاقرب ان الاثاث ما يكتسى به المرء ويستعمله في الغطاء والوطاء والمتاع ما يفرش في المنازل ويزين به * قوله تعالى (والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون) اعلم أن الانسان اما أن يكون مقيما

تسكنون اليه وتطمئنون به (وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا) اى بيوتا أخر مغايرة لبيوتكم المعهودة هي الخيام والقباب والاخبية والفساطيط (تستخفونها) تجدونها خفيفة سهلة المأخذ (يوم ظعنكم) وقت ترحالكم في النقض والحمل والنقل وقرئ بفتح العين (ويوم اقامتكم) وقت نزولكم في الضرب والبناء (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها) عطف على قوله تعالى من جلود والضمائر للانعام على وجه التنويع أي وجعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الابل وأشعار المعز (أثاثا) أي متاع البيت وأصله الكثرة والاجتماع ومنه شعر أثيث (ومتاعا) اى شيئا يتمتع به بفنون التمتع (الى حين) الى أن تقضوا منه أوطاركم أو الى أن يبلى ويفنى فانه في معرض البلا والفناء وقيل الى أن تموتوا والكلام في ترتيب المفاعيل مثل ما مر من قبل (والله جعل لكم مما خلق) من غير صنع من قبلكم (ظلالا) أشياء تستظلون بها من الحر كالغمام والشجر والجبل وغيرها امتن سبحانه بذلك لما أن تلك الديار غالبة الحرارة (وجعل لكم من الجبال أكنانا) مواضع تستكنون فيها من الكهوف والغيران والسروب والكلام في الترتيب الواقع ﴿ أو ﴾ بين المفاعيل كالذي مر غير مرة (وجعل لكم سرابيل) جمع سربال وهو كل ما يلبس أي جعل لكم ثيابا من القطن والكتان والصوف وغيرها (تقيكم الحر) خصه بالذكر

اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر أو لان وقايته هي الاهم عندهم لما مر آنفا (وسرابيل) من الدروع والجواشن (تقيكم بأسكم) أى البأس الذى يصل الى بعضكم من بعض فى الحرب من الضرب والطعن ولقد من الله سبحانه علينا حيث ذكر جميع نعمه الفائضة على جميع الطوائف فبدأ بما يخص المقيمين حيث قال والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ثم بما يخص المسافرين ممن لهم قدرة على الخيام وأضرابها حيث قال وجعل لكم من جلود الانعام الخ ثم بما يعم من لا يقدر على ذلك ولا يأويه الا الظلال حيث قال وجعل لكم مما خلق ظلالا الخ ثم بما لا بد منه لاحد حيث قال وجعل لكم سرابيل الخ ثم بما لا غنى عنه فى الحروب حيث قال وسرابيل تقيكم بأسكم ثم قال (كذلك) أى مثل ذلك الاتمام البالغ (يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) أى ارادة أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النعم الظاهرة والباطنة والانفسية والآفاقية فتعرفوا حق منعمها فتؤمنوا به وحده وتذروا ما كنتم به تشركون وتنقادوا الأمره وافراد النعمة اما لان المراد بها المصدر أو الاظهار ان ذلك بالنسبة الى جانب الكبرياء شئ قليل وقرئ تسلمون أى تسلمون من العذاب أو من الشرك وقيل من الجراح بلبس الدروع (فان تولوا) فعل ماض على طريقة الالتفات وصرف الخطاب عنهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلية له أي فان

أو مسافر والمسافر اما أن يكون غنيا يمكنه استصحاب الخيام والفساطيط أو لا يمكنه ذلك فهذه أقسام ثلاثة (أما القسم الاول) فاليه الاشارة بقوله والله جعل لكم من بيوتكم سكنا (وأما القسم الثانى) فاليه الاشارة بقوله وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا (وأما القسم الثالث) فاليه الاشارة بقوله والله جعل لكم مما خلق ظلالا وذلك لان المسافر اذا لم يكن له خيمة يستظل بها فانه لا بد وأن يستظل بشئ آخر كالجدران والاشجار وقد يستظل بالغمام كما قال وظللنا عليكم الغمام ثم قال وجعل لكم من الجبال أكنانا واحدا لا كنان كن على قياس احمال وحمل ولكن المراد كل شئ وقى شيئا ويقال استكن وأكن اذا صار فى كن واعلم أن بلاد العرب شديدة الحر وحاجتهم الى الظل ودفع الحر شديدة فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه المعانى فى معرض النعمة العظيمة وأيضا البلاد المعتدلة والاوقات المعتدلة نادرة جدا والغالب اما غلبة الحر أو غلبة البرد وعلى كل التقديرات فلا بد للانسان من مسكن يأوى اليه فكان الانعام بتحصيله عظيما ولما ذكر تعالى أمر المسكن ذكر بعده أمر الملبوس فقال وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم السرابيل القمص واحدها سربال قال الزجاج كل مالبسته فهو سربال من قيص أو درع أو جوشن أو غيره والذى يدل على صحة هذا القول أنه جعل السرابيل على قسمين أحدهما ما يكون واقيا من الحر والبرد (والثانى) ما يتقى به عن البأس والحروب وذلك هو الجوشن وغيره وذلك يدل على أن كل واحد من القسمين من السرابيل فان قيل لم ذكر الحر ولم يذكر البرد أجابوا عنه من وجوه (الاول) قال عطاء الخراسانى المخاطبون بهذا الكلام هم العرب وبلادهم حارة فكانت حاجتهم الى ما يدفع الحر فوق حاجتهم الى ما يدفع البرد كما قال ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها وسائر أنواع الثياب أشرف الا انه تعالى ذكر ذلك النوع لانه كان الفتهم بها أشد واعتيادهم للبسها أكثر ولذلك قال وننزل من السماء من جبال فيها من برد لمعرفتهم بذلك وما أنزل من الثلج أعظم ولكنهم كانوا لا يعرفونه (والوجه الثانى) فى الجواب قال المبرد ان ذكر أحد الضدين تنبيه على الآخر قلت ثبت فى العلوم العقلية ان العلم بأحد الضدين يستلزم العلم بالضد الآخر فان الانسان متى خطر بباله الحر خطر بباله أيضا البرد وكذا القول فى النور والظلمة والسواد والبياض فلما كان الشعور بأحدهما مستتبعا للشعور بالآخر كان ذكر أحدهما مغنيا عن ذكر الآخر (والوجه الثالث) قال الزجاج ما وقى من الحر وقى من البرد فكان ذكر أحدهما مغنيا عن ذكر الآخر فان قيل هذا بالضد أولى لان دفع الحر يكفى فيه السرابيل التى هى القمص من دون تكلف زيادة وأما البرد فانه لا يندفع الا بتكلف زائد قلنا القميص الواحد لما كان دافعا للحركات كان الاستكثار من القميص دافعا للبرد فصح ما ذكرناه وقوله وسرابيل تقيكم بأسكم يعنى دروع الحديد ومعنى البأس الشدة ويريد ههنا شدة الطعن والضرب والرمى واعلم أنه تعالى لما عدد أقسام نعمة الدنيا قال كذلك يتم نعمته عليكم

أى مثل ما خلق هذه الاشياء لكم وأنعم بها عليكم فانه يتم نعمة الدنيا والدين عليكم لعلكم تسلمون قال ابن عباس لعلكم يا أهل مكة تخلصون لله الربوبية وتعلمون أنه لا يقدر على هذه الانعامات أحد سواه ونقل عن ابن عباس أنه قرأ لعلكم تسلمون بفتح التاء والمعنى انا أعطيناكم هذه السرابيلات لتسلموا عن بأس الحرب وقيل أعطيتكم هذه النعم لتتفكروا فيها فتؤمنوا فتسلموا من عذاب الله ثم قال تعالى فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين أى فان تولوا يا محمد وأعرضوا وآثروا لذات الدنيا ومتابعة الآباء والمعاداة فى الكفر فعلى أنفسهم جنوا ذلك وليس عليك الا ما فعلت من التبليغ التام ثم انه تعالى ذمهم بأنهم يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وذلك نهاية فى كفران النعمة فان قيل ما معنى ثم قلنا الدلالة على أن انكارهم أمر يستبعد بعد حصول المعرفة لان حق من عرف النعمة أن يعترف لا ان ينكر وفى المراد بهذه النعمة وجوه (الاول) قال القاضى المراد بها جميع ما ذكره الله تعالى فى الآيات المتقدمة من جميع أنواع النعم ومعنى انهم أنكروه هو أنهم ما أفردوه تعالى بالشكر والعبادة بل شكروا على تلك النعم غير الله ولانهم قالوا انما حصلت هذه النعم بشفاعة هذه الاصنام (والثانى) ان المراد أنهم عرفوا أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حق ثم ينكرونها ونبوته نعمة عظيمة كما قال تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين (الثالث) يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها أى لا يستعملونها فى طلب رضوان الله تعالى ثم قال تعالى وأكثرهم الكافرون فان قيل ما معنى قوله وأكثرهم الكافرون مع أنه كان كلهم كافرين قلنا الجواب من وجوه (الاول) انما قال وأكثرهم لانه كان فيهم من لم تقم عليه الحجة ممن لم يبلغ حد التكليف أو كان ناقص العقل معتوها فأراد بالاكثر البالغين الاصحاء (الثانى) أن يكون المراد بالكافر الجاحد المعاند وحينئذ نقول انما قال وأكثرهم لانه كان فيهم من لم يكن معاندا بل كان جاهلا بصدق الرسول عليه الصلاة والسلام وما ظهر له كونه نبيا حقا من عند الله (الثالث) انه ذكر الاكثر والمراد الجميع لان أكثر الشئ يقوم مقام الكل فذكر الاكثر كذكر الجميع وهذا كقوله الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون والله أعلم * قوله تعالى (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون واذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون) اعلم أنه تعالى لما بين من حال القوم أنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها وذكر أيضا من حالهم ان أكثرهم الكافرون أتبعه بالوعيد فذكر حال يوم القيامة فقال ويوم نبعث من كل أمة شهيدا وذلك يدل على ان أولئك الشهداء يشهدون عليهم بذلك الانكار وبذلك الكفر والمراد بهؤلاء الشهداء الانبياء كما قال تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا وقوله ثم لا يؤذن للذين كفروا فيه وجوه (أحدها) لا يؤذن لهم فى الاعتذار لقوله ولا يؤذن لهم فيعتذرون (وثانيها) لا يؤذن لهم فى كثرة الكلام (وثالثها) لا يؤذن لهم فى الرجوع الى دار الدنيا والى

أعرضوا عن الاسلام ولم يقبلوا منك ما ألقى اليهم من البينات والعبر والعظات (فانما عليك البلاغ المبين) أى فلا قصور من جهتك لان وظيفتك هى البلاغ الموضح أو الواضح وقد فعلته بما لا مزيد عليه فهو من باب وضع السبب موضع المسبب (يعرفون نعمت الله) استئناف لبيان أن توليهم واعراضهم عن الاسلام ليس لعدم معرفتهم بما عدد من نعم الله تعالى أصلا فانهم يعرفونها و يعترفون انها من الله تعالى (ثم ينكرونها) بأفعالهم حيث يعبدون غير منعمها أو بقولهم انها بشفاعة آلهتنا أو بسبب كذا وقيل نعمة الله تعالى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم عرفوها بالمعجزات كما يعرفون أبناءهم ثم أنكروها عنادا ومعنى ثم لاستبعاد الانكار بعد المعرفة لان حق من عرف النعمة الاعتراف بها لا الانكار واسناد المعرفة والانكار المتفرع عليها الى ضمير المشركين على الاطلاق من باب اسناد حال البعض الى الكل كقولهم بنو فلان قتلوا فلانا وانما القاتل واحد منهم فان بعضهم ليسوا كذلك لقوله سبحانه (وأكثرهم الكافرون) أى المنكرون بقلوبهم غير المعترفين بما ذكر والحكم عليهم بمطلق الكفر المؤذن بالكمال من حيث الكمية لا ينافى كمال الفرقة الاولى من حيث الكيفية هذا وقد قيل ذكر الاكثر اما لان بعضهم لم يعرفوا لنقصان العقل أو التفريط فى النظر أو لم يقم عليه الحجة لانه لم يبلغ حد التكليف فتدبر

التكليف (ورابعها) لا يؤذن لهم في حال شهادة الشهود بل يسكت اهل الجمع كلهم ليشهد الشهود (وخامسها) لا يؤذن لهم في كثرة الكلام ليظهر لهم كونهم آيسين من رحمة الله تعالى ثم قال ولاهم يستعتبون الاستعتاب طلب العتاب والرجل انما يطلب العتاب من خصمه اذا كان على جزم أنه اذا عاتبه رجع الى الرضا فاذا لم يطلب العتاب منه دل على أنه راسخ في غضبه وسطوته ثم انه تعالى أكد هذا الوعيد فقال واذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم والمعنى ان هؤلاء المشركين اذا رأوا العذاب ووصلوا اليه فعند ذلك لا يخفف عنهم العذاب ولاهم أيضا ينظرون أي لا يؤخرون ولا يمهلون لان التوبة هناك غير موجودة وتحقيقه ما يقوله المتكلمون من ان العذاب يجب أن يكون خالصا عن شوائب النفع وهو المراد من قوله لا يخفف عنهم العذاب ويجب أن يكون العذاب دائما وهو المراد من قوله ولاهم ينظرون * قوله تعالى (واذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا اليهم القول انكم لكاذبون وألقوا الى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون) اعلم ان هذا أيضا من بقية وعيد المشركين وفي الشركاء قولان (الاول) أنه تعالى يبعث الاصنام التي كان يعبدها المشركون والمقصود من اعادتها ان المشركين يشاهدونها في غاية الذلة والحقارة وأيضا انها تكذب المشركين وكل ذلك مما يوجب زيادة الغم والحسرة في قلوبهم وانما وصفهم الله بكونهم شركاء لوجهين (الاول) ان الكفار كانوا يسمونها بانها شركاء الله (والثاني) ان الكفار جعلوا لهم نصيبا من أموالهم (والقول الثاني) ان المراد بالشركاء الشياطين الذين دعوا الكفار الى الكفر وهو قول الحسن وانما ذهب الى هذا القول لانه تعالى حكى عن أولئك الشركاء أنهم ألقوا الى الذين أشركوا انهم لكاذبون والاصنام جمادات فلا يصح منهم هذا القول فوجب أن يكون المراد من الشركاء الشياطين حتى يصح منهم هذا القول وهذا بعيد لانه تعالى قادر على خلق الحياة في تلك الاصنام وعلى خلق العقل والنطق فيها وحينئذ يصح منها هذا القول ثم حكى تعالى عن المشركين أنهم اذا رأوا تلك الشركاء قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فان قيل فما فائدتهم في هذا القول قلنا فيه وجهان (الاول) قال أبو مسلم الاصفهاني مقصود المشركين احالة هذا الذنب على هذه الاصنام وظنوا ان ذلك ينجيهم من عذاب الله تعالى أو ينقص من عذابهم فعند هذا تكذبهم تلك الاصنام قال القاضي هذا بعيد لان الكفار يعلمون علما ضروريا في الآخرة ان العذاب سينزل بهم وأنه لا نصرة ولا فدية ولا شفاعة (والقول الثاني) ان المشركين يقولون هذا الكلام تعجبا من حضور تلك الاصنام مع أنه لا ذنب لها واعترافا بأنهم كانوا مخطئين في عبادتها ثم حكى تعالى ان الاصنام يكذبونهم فقال فألقوا اليهم القول انكم لكاذبون والمعنى انه تعالى يخلق الحياة والعقل والنطق في تلك الاصنام حتى تقول هذا القول وقوله انكم لكاذبون بدل من القول والتقدير فألقوا اليهم انكم لكاذبون فان

(ويوم نبعث من كل امة شهيدا) يشهد لهم بالايمان والطاعة وعليهم بالكفر والعصيان وهو نبيها (ثم لا يؤذن للذين كفروا) في الاعتذار اذ لا عذر لهم وثم للدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المنبئ عن الاقناط الكلي وهو عندما يقال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون أشد من ابتلائهم بشهادة الانبياء عليهم السلام عليهم وأطم (ولاهم يستعتبون) يسترضون أي لا يقال لهم أرضوا ربكم اذ الآخرة دار الجزاء لا دار العمل وانتصاب الظرف بمحذوف تقديره اذكر أو خوفهم يوم نبعث الخ أو يوم نبعث يحيق بهم ما يحيق مما لا يوصف وكذا قوله تعالى (واذا رأى الذين ظلموا العذاب) الذي يستوجبونه بظلمهم وهو عذاب جهنم (فلا يخفف عنهم) ذلك (ولاهم ينظرون) أي يمهلون كقوله تعالى بل تأتيهم بغتة فتبهتهم (واذا رأى الذين أشركوا شركاءهم) الذين كانوا يدعونهم في الدنيا وهم الاوثان أو الشياطين الذين شاركوهم في الكفر بالحمل عليه وقارنوهم في الغي والضلال (قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك) أي نعبدهم أو نطيعهم ولعلهم قالوا ذلك طمعا في توزيع العذاب بينهم كما ينبئ عنه قوله سبحانه (فألقوا) أي شركاؤهم (اليهم القول انكم لكاذبون) فان تكذيبهم اياهم فيما قالوا ليس الا للمدافعة والتخلص عن غائلة مضمونه وانما كذبوهم وقد كانوا يعبدونهم ويطيعونهم لان الاوثان ما كانوا راضين بعبادتهم لهم

قيل ان المشركين ماقالوا الا أنهم لما أشاروا الى الاصنام قالوا ان هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك وقد كانوا صادقين فى كل ذلك فكيف قالت الاصنام انكم لكاذبون قلنا فيه وجوه والاصح أن يقال المراد من قولهم هؤلاء شركاؤنا هو ان هؤلاء الذين كنا نقول انهم شركاء الله فى المعبودية فالاصنام كذبوهم فى اثبات هذه الشركة وقيل المراد انكم لكاذبون فى قولكم انا نستحق العبادة ويدل عليه قوله تعالى كلا سيكفرون بعبادتهم ثم قال تعالى وألقوا الى الله يومئذ السلم قال الكلبى استسلم العابد والمعبود وأقروا لله بالربوبية وبالبراءة عن الشركاء والانداد وضل عنهم ما كانوا يفترون وفيه وجهان وقيل ذهب عنهم مازين لهم الشيطان من ان لله شريكا وصاحبة وولدا وقيل بطل ما كانوا يأملون من ان آلهتهم تشفع لهم عند الله تعالى ✲ قوله تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون) اعلم انه تعالى لما ذكر وعيد الذين كفروا أتبعه بوعيد من ضم الى كفره صد الغير عن سبيل الله وفى تفسير قوله وصدوا عن سبيل الله وجهان قيل معناه الصد عن المسجد الحرام والاصح انه يتناول جملة الايمان بالله والرسول وبالشرائع لان اللفظ عام فلا معنى للتخصيص وقوله زدناهم عذابا فوق العذاب فالمعنى انهم زادوا على كفرهم صد غيرهم عن الايمان فهم فى الحقيقة ازدادوا كفرا على كفر فلا جرم يزيدهم الله تعالى عذابا على عذاب وأيضا أتباعهم انما اقتدوا بهم فى الكفر فوجب أن يحصل لهم مثل عقاب أتباعهم لقوله تعالى وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ولقوله عليه السلام من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة ومن المفسرين من ذكر تفصيل تلك الزيادة فقال ابن عباس المراد بتلك الزيادة خمسة أنهار من نار تسيل من تحت العرش يعذبون بها ثلاثة بالليل واثنان بالنهار وقال بعضهم زدناهم عذابا بحيات وعقارب كأمثال البخت فيستغيثون بالهرب منها الى النار ومنهم من ذكر لكل عقرب ثلثمائة فقرة فى كل فقرة ثلثمائة قلة من سم وقيل عقارب لها أنياب كالنخل الطوال ثم قال تعالى بما كانوا يفسدون أى هذه الزيادة من العذاب انما حصلت معللة بذلك الصد وهذا يدل على ان من دعا غيره الى الكفر والضلال فقد عظم عذابه فكذلك اذا دعا الى الدين واليقين فقد عظم قدره عند الله تعالى والله أعلم ✲ قوله تعالى (ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) اعلم ان هذا نوع آخر من التهديدات المانعة للمكلفين عن المعاصى واعلم ان الامة عبارة عن القرن والجماعة اذا ثبت هذا فنقول فى الآية قولان (الاول) ان المراد ان كل نبى شاهد على أمته (والثانى) ان كل جمع وقرن يحصل فى الدنيا فلا بد وأن يحصل فيهم واحد يكون شهيدا عليهم أما الشهيد على الذين كانوا فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الرسول بدليل قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم

فكأن عبادتهم لم تكن عبادة لهم كما قالت الملائكة عليهم السلام بل كانوا يعبدون الجن يعنون أن الجن هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لا نحن أو كذبوهم فى تسميتهم شركاء وآلهة تنزيها لله سبحانه عن الشريك والشياطين وان كانوا راضين بعبادتهم لهم لكنهم لم يكونوا حاملين لهم على وجه القسر والالجاء كما قال ابليس وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فكأنهم قالوا ما عبدتمونا حقيقة بل انما عبدتم أهواءكم (وألقوا) أى الذين أشركوا (الى الله يومئذ السلم) الاستسلام والانقياد لحكمه العزيز الغالب بعد الاستكبار عنه فى الدنيا (وضل عنهم) أى ضاع وبطل (ما كانوا يفترون) من ان لله سبحانه شركاء وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم وذلك حين كذبوهم وتبرؤا منهم (الذين كفروا) فى أنفسهم (وصدوا) غيرهم (عن سبيل الله) بالمنع عن الاسلام والحمل على الكفر (زدناهم عذابا فوق العذاب) الذى كانوا يستحقونه بكفرهم قيل فى زيادة عذابهم حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال تلسع احداهن فيجد صاحبها حمتها أربعين خريفا وقيل يخرجون من النار الى الزمهرير فيبادرون من شدة البرد الى النار (بما كانوا يفسدون) ﴿ شهيدا ﴾ متعلق بقوله زدناهم أى زدنا عذابهم بسبب استمرارهم على الافساد وهو الصد المذكور (ويوم نبعث) تكرير لما سبق تثنية للتهديد (فى كل أمة شهيدا عليهم) أى نبيا

شهيدا وثبت أيضا أنه لابد فى كل زمان بعد زمان الرسول من الشهيد فحصل من هذا ان عصرا من الاعصار لايخلوا من شهيد على الناس وذلك الشهيد لا بد وان يكون غير جائز الخطا والا افتقر الى شهيد آخر ويمتد ذلك الى غير النهاية وذلك باطل فثبت أنه لابد فى كل عصر من أقوام تقوم الحجة بقولهم وذلك يقتضى أن يكون اجماع الامة حجة قال أبو بكر الاصم المراد بذلك الشهيد هو انه تعالى ينطق عشرة من أعضاء الانسان حتى انها تشهد عليه وهى الاذنان والعينان والرجلان واليدان والجلد واللسان قال والدليل عليه انه قال فى صفة الشهيد انه من أنفسهم وهذه الاعضاء لاشك انها من أنفسهم أجاب القاضى عنه من وجوه (الاول) انه تعالى قال شهيدا عليهم أى على الامة فيجب أن يكون غيرهم (الثانى) انه قال من كل أمة فوجب أن يكون ذلك الشهيد من الامة وآحاد الاعضاء لايصح وصفها بأنها من الامة وأما حمل هؤلاء الشهداء على الانبياء فبعيد وذلك لان كونهم أنبياء مبعوثين الى الخلق أمر معلوم بالضرورة فلا فائدة فى حمل هذه الآية عليه ثم قال تعالى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) وجه تعلق هذا الكلام بما قبله انه تعالى لما قال وجئنا بك شهيدا على هؤلاء بين انه أزاح علتهم فيما كلفوا فلا حجة لهم ولا معذرة (المسئلة الثانية) من الناس من قال القرآن تبيان لكل شئ وذلك لان العلوم اما دينية أو غير دينية أما العلوم التى ليست دينية فلا تعلق لها بهذه الآية لان من المعلوم بالضرورة ان الله تعالى انما مدح القرآن بكونه مشتملا على علوم الدين فاما ما لايكون من علوم الدين فلا التفات اليه وأما علوم الدين فاما الاصول واما الفروع أما علم الاصول فهو بتمامه موجود فى القرآن وأما علم الفروع فالاصل براءة الذمة الا ما ورد على سبيل التفصيل فى هذا الكتاب وذلك يدل على انه لا تكليف من الله تعالى الا ما ورد فى هذا القرآن واذا كان كذلك كان القول بالقياس باطلا وكان القرآن وافيا ببيان كل الاحكام وأما الفقهاء فانهم قالوا القرآن انما كان تبيانا لكل شئ لانه يدل على ان الاجماع وخبر الواحد والقياس حجة فاذا ثبت حكم من الاحكام بأحد هذه الاصول كان ذلك الحكم ثابتا بالقرآن وهذه المسئلة قد سبق ذكرها بالاستقصاء فى سورة الاعراف والله أعلم (المسئلة الثالثة) روى الواحدى باسناده عن الزجاج انه قال تبيانا فى معنى اسم البيان ومثل التبيان التلقاء وروى ثعلب عن الكوفيين والمبرد عن البصريين انهم قالوا لم يأت من المصادر على تفعال الا حرفان تبيانا وتلقاء واذا تركت هذين اللفظين استوى لك القياس فقلت فى كل مصدر تفعال بفتح التاء مثل تسيار وتذكار وتكرار وقلت فى كل اسم تفعال بكسر التاء مثل تقصار وتمثال * قوله تعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) واعلم انه تعالى لما استقصى فى شرح الوعد والوعيد والترغيب والترهيب أتبعه بقوله ان الله يأمر بالعدل والاحسان فجمع فى هذه الآية ما يتصل بالتكليف فرضا ونفلا وما يتصل بالاخلاق

(من أنفسهم) من جنسهم قطعا لمعذرتهم وفى قوله تعالى عليهم اشعار بان شهادة أنبيائهم على الامم تكون بمحضر منهم (وجئنا بك) ايثار لفظ المجئ على البعث لكمال العناية بشأنه عليه السلام وصيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع (شهيدا على هؤلاء) الامم وشهدائهم كقوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا وقيل على أمتك والعامل فى الظرف محذوف كما مر والمراد به يوم القيامة (ونزلنا عليك الكتاب) الكامل فى الكتابية الحقيق بأن يخص باسم الجنس وهو اما استئناف أو حال بتقدير قد (تبيانا) بيانا بليغا (لكل شئ) يتعلق بأمور الدين ومن جملة ذلك أحوال الامم مع أنبيائهم عليهم السلام فيكون كالدليل على كونه عليه السلام شهيدا عليهم وكذا من جملة ما أخبر به هذه الآية الكريمة من بعث الشهداء وبعثه عليه السلام شهيدا عليهم عليهم الصلاة والسلام والتبيان كالتلقاء فى كسر أوله وكونه تبيانا لكل شئ من أمور الدين باعتبار ان فيه نصا على بعضها واحالة لبعضها على السنة حيث أمر باتباع النبى عليه السلام وطاعته وقيل فيه وما ينطق عن الهوى وحثا على الاجماع وقد رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته باتباع أصحابه حيث قال أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤا طرق الاجتهاد فكانت السنة والاجماع والقياس مستندة الى تبيان الكتاب ولم يضر ما فى البعض من

الخفاء في كونه تبيانا فان المبالغة باعتبار الكمية دون الكيفية كما قيل في قوله تعالى وما أنا بظلام للعبيد انه من قولك فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده ومنه قوله سبحانه وما للظالمين من أنصار (وهدى ورحمة) للعالمين فان حرمان الكفرة من مغانم آثاره من تفريطهم لا من جهة الكتاب (وبشرى للمسلمين) خاصة أو يكون كل ذلك خاصا بهم لانهم المنتفعون بذلك (ان الله يأمر) أي فيما نزله تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين وايثار صيغة الاستقبال فيه وفيما بعده لافادة التجدد والاستمرار (بالعدل) بمراعاة التوسط بين طرفي الافراط والتفريط وهو رأس الفضائل كلها يندرج تحته فضيلة القوة العقلية الملكية من الحكمة المتوسطة بين الجربزة والبلادة وفضيلة القوة الشهوية البهيمية من العفة المتوسطة بين الخلاعة والخمود وفضيلة القوة الغضبية السبعية من الشجاعة المتوسطة بين التهور والجبن فمن الحكم الاعتقادية التوحيد المتسط بين التعطيل والتشريك نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أن العدل هو التوحيد والقول بالكسب المتوسط بين الجبر والقدر ومن الحكم العملية التعبد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب ومن الحكم الخلقية الجود المتوسط بين البخل والتبذير (والاحسان) أي الاتيان بما أمر به على الوجه اللائق وهو اما بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل

والآداب عموما وخصوصا وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) في بيان فضائل هذه الآية روى عن ابن عباس ان عثمان بن مظعون الجمحي قال ما أسلمت أو لا الاحياء من محمد عليه السلام ولم يتقرر الاسلام في قلبي فحضرته ذات يوم فبينما هو يحدثني اذ رأيت بصره شخص الى السماء ثم خفضه عن يمينه ثم عاد لمثل ذلك فسألته فقال بينما أنا أحدثك اذا بجبريل نزل عن يميني فقال يا محمد ان الله يأمر بالعدل والاحسان العدل شهادة أن لا اله الا الله والاحسان القيام بالفرائض وايتاء ذي القربى أي صلة ذي القرابة وينهى عن الفحشاء الزنا والمنكر ما لا يعرف في شريعة ولا سنة والبغي الاستطالة قال عثمان فوقع الايمان في قلبي فأتيت أبا طالب فأخبرته فقال يا معشر قريش اتبعوا ابن أخي ترشدوا ولئن كان صادقا أو كاذبا فانه ما يأمركم الا بمكارم الاخلاق فلما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم من عمه اللين قال يا عماه أتأمر الناس أن يتبعوني وتدع نفسك وجهد عليه فأبى أن يسلم فنزل قوله انك لا تهدي من أحببت وعن ابن مسعود رضي الله عنه ان أجمع آية في القرآن لخير وشر هذه الآية وعن قتادة ليس من خلق حسن كان في الجاهلية يعمل ويستحب الا أمر الله تعالى به في هذه الآية وليس من خلق سيء الا نهى الله تعالى عنه في هذه الآية وروى القاضي في تفسيره عن ابن ماجه عن علي رضي الله عنه انه قال أمر الله تعالى نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب فخرج وأنا معه وأبو بكر فوقفنا على مجلس عليهم الوقار فقال أبو بكر ممن القوم فقالوا من شيبان بن ثعلبة فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الشهادتين والى ان ينصروه فان قريشا كذبوه فقال مقرون بن عمرو والام تدعونا أخا قريش فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ان الله يأمر بالعدل والاحسان الآية فقال مقرون بن عمرو دعوت والله الى مكارم الاخلاق ومحاسن الاعمال ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك وعن عكرمة ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية على الوليد فاستعاده ثم قال ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وعن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله كتب الاحسان على كل شيء فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته والله أعلم (المسئلة الثانية) في تفسير هذه الآية أكثر الناس في تفسير هذه الآية قال ابن عباس في بعض الروايات العدل شهادة أن لا اله الا الله والاحسان أداء الفرائض وقال في رواية أخرى العدل خلع الانداد والاحسان أن تعبد الله كأنك تراه وأن تحب للناس ما تحب لنفسك فان كان مؤمنا أحببت ان يزداد ايمانا وان كان كافرا أحببت أن يصير أخاك في الاسلام وقال في رواية ثالثة العدل هو التوحيد والاحسان الاخلاص فيه وقال آخرون يعني بالعدل في الافعال والاحسان في الاقوال فلا تفعل الا ما هو عدل ولا تقل الا ما هو احسان وقوله وايتاء ذي القربى يريد صلة الرحم بالمال فان لم يكن فبالدعاء روى أبو سلمة عن ابيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم ان أهل البيت ليكونون فجارا فتنمى أموالهم ويكثر

﴿ عددهم ﴾

أو بحسب الكيفية كما يشير اليه قوله صلى الله عليه وسلم الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك (وايتاء ذى القربى) أى اعطاء الاقارب ما يحتاجون اليه وهو تخصيص اثر تعميم اهتماما بشانه (وينهى عن الفحشاء) الافراط فى مشايعة القوة الشهوية كالزنا مثلا (والمنكر) ما ينكر شرعا أو عقلا من الافراط فى اظهار آثار القوة الغضبية (والبغى) الاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبر عليهم وهو من آثار القوة الوهمية الشيطانية التى هى حاصلة من رذيلتى القوتين المذكورتين الشهوية والغضبية وليس فى البشر شر الا وهو مندرج فى هذه الاقسام صادر عنه بواسطة هذه القوى الثلاث ولذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه هى أجمع آية فى القرآن للخير والشر ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة لكفت فى كونه تبيانا لكل شئ وهدى (يعظكم) بما يأمر وينهى وهو اما استئناف واما حال من الضميرين فى الفعلين (لعلكم تذكرون) طلبا لان تتعظوا بذلك (وأوفوا بعهد الله) هو البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فانها مبايعة لله سبحانه لقوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله (اذا عاهدتم) أى حافظوا على حدود ما عاهدتم الله عليه وبايعتم به رسوله صلى الله عليه وسلم (ولا تنقضوا الايمان) التى تحلفون بها عند المعاهدة (بعد توكيدها) حسبما هو المعهود فى أثناء العهود لا على أن يكون النهى مقيدا بالتوكيد

عددهم اذا وصلوا أرحامهم وقوله وينهى عن الفحشاء قيل الزنا وقيل البخل وقيل كل الذنوب سواء كانت صغيرة أو كبيرة وسواء كانت فى القول أو فى الفعل وأما المنكر فقيل انه الكفر بالله تعالى وقيل المنكر ما لا يعرف فى شريعة ولا سنة وأما البغى فقيل الكبر والظلم وقيل أن تبغى على أخيك واعلم ان فى المأمورات كثرة وفى المنهيات أيضا كثرة وانما حسن تفسير لفظ معين لشئ معين اذا حصل بين ذلك اللفظ وبين ذلك المعنى مناسبة أما اذا لم تحصل هذه الحالة كان ذلك التفسير فاسدا فاذا فسرنا العدل بشئ والاحسان بشئ آخر وجب أن نبين أن لفظ العدل يناسب ذلك المعنى ولفظ الاحسان يناسب هذا المعنى فاذا لم نبين هذا المعنى كان ذلك مجرد التحكم ولم يكن جعل بعض تلك المعانى تفسير البعض تلك الالفاظ أولى من العكس فثبت ان هذه الوجوه التى ذكرناها ليست قوية فى تفسير هذه الآية وأقول ظاهر هذه الآية يدل على انه تعالى أمر بثلاثة أشياء وهى العدل والاحسان وايتاء ذى القربى ونهى عن ثلاثة أشياء وهى الفحشاء والمنكر والبغى فوجب أن يكون العدل والاحسان وايتاء ذى القربى ثلاثة أشياء متغايرة ووجب أن تكون الفحشاء والمنكر والبغى ثلاثة أشياء متغايرة لان العطف يوجب المغايرة فنقول أما العدل فهو عبارة عن الامر المتوسط بين طرفى الافراط والتفريط وذلك أمر واجب الرعاية فى جميع الاشياء ولابد من تفصيل القول فيه فنقول الاحوال التى وقع التكليف بها اما الاعتقادات واما اعمال الجوارح أما الاعتقادات فالعدل فى كلها واجب الرعاية (فأحدها) قال ابن عباس ان المراد بالعدل هو قول لا اله الا الله وتحقيق القول فيه ان نفى الاله تعطيل محض واثبات أكثر من اله واحد تشريك وتشبيه وهما مذمومان والعدل هو اثبات الاله الواحد وهو قول لا اله الا الله (وثانيها) ان القول بان الاله ليس بموجود ولا شئ تعطيل محض والقول بأنه جسم وجوهر ومركب من الاعضاء ومختص بالمكان تشبيه محض والعدل اثبات اله موجود محقق بشرط أن يكون منزها عن الجسمية والجوهرية والاعضاء والاجزاء والمكان (وثالثها) ان القول بان الاله غير موصوف بالصفات من العلم والقدرة تعطيل محض والقول بأن صفاته حادثة متغيرة تشبيه محض والعدل هو اثبات ان الاله عالم قادر حى مع الاعتراف بأن صفاته ليست حادثة ولا متغيرة (ورابعها) ان القول بأن العبد ليس له قدرة ولا اختيار جبر محض والقول بان العبد مستقل بأفعاله قدر محض وهما مذمومان والعدل أن يقال ان العبد يفعل الفعل لكن بواسطة قدرة وداعية يخلقهما الله تعالى فيه (وخامسها) القول بأن الله تعالى لا يؤاخذ عبده على شئ من الذنوب مساهلة عظيمة والقول بأنه تعالى يخلد فى النار عبده العارف بالمعصية الواحدة تشديد عظيم والعدل انه يخرج من النار كل من قال واعتقد انه لا اله الا الله فهذه أمثلة ذكرناها فى رعاية معنى العدل فى الاعتقادات وأما رعاية العدل فيما يتعلق بأفعال الجوارح فنذكر ستة أمثلة منها (أحدها) ان قوما من نفاة التكاليف

مخصابه (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) شاهدا رقيبا فان الكفيل مراع لحال المكفول به محافظ عليه (ان الله يعلم ما تفعلون) من نقض الايمان والعهود فيجازيكم على ذلك (ولا تكونوا) ﴿٥١٠﴾ فيما تصنعون من النقض (كالتى نقضت غزلها) أى ما غزلته مصدر بمعنى المفعول (من بعد قوة) متعلق بنقضت أى كالمرأة التى نقضت غزلها من بعد ابرامه واحكامه (أنكاثا) طاقات نكث فتلها جمع نكث وانتصابه على الحالية من غزلها أو على أنه مفعول ثان لنقضت فانه بمعنى صيرت والمراد تقبيح حال النقض بتشبيه الناقض بمثل هذه الخرقاء المعتوهة قيل هى ريطة بنت سعد بن تيم وكانت خرقاء اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل أصبع وفلكة عظيمة على قدرها فكانت تغزل هى وجواريها من الغداة الى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) حال من الضمير فى لا تكونوا أو فى الجار والمجرور الواقع موقع الخبر أى مشابهين لامرأة شأنها هذا حال كونكم متخذين أيمانكم مفسدة ودخلا بينكم واصل الدخل ما يدخل الشئ ولم يكن منه (أن تكون أمة) أى بان تكون جماعة ﴿ ولو ﴾ (هى أربى) أى أزيد عددا وأوفر مالا (من أمة) من جماعة أخرى أى لا تغدروا بقوم لكثرتكم وقلتهم أو لكثرة منابذتهم وقوتهم كقريش فانهم كانوا اذا رأوا شوكة فى أعادى خلفائهم نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم (انما يبلوكم الله به)

يقولون لا يجب على العبد الاشتغال بشئ من الطاعات ولا يجب عليه الاحتراز عن شئ من المعاصى وليس لله عليه تكليف أصلا وقال قوم من الهند ومن المانوية انه يجب على الانسان أن يجتنب عن كل الطيبات وأن يبالغ فى تعذيب نفسه وأن يحترز عن كل ما يميل الطبع اليه حتى ان المانوية يخصون أنفسهم و يحترزون عن التزوج و يحترزون عن أكل الطعام الطيب والهند يحرقون أنفسهم و يرمون أنفسهم من شاهق الجبل فهذان الطريقان مذمومان والوسط المعتدل هو هذا الشرع الذى جاء نا به محمد صلى الله عليه وسلم (وثانيها) ان التشديد فى دين موسى عليه السلام غالب جدا والتساهل فى دين عيسى عليه السلام غالب جدا والوسط العدل شريعة محمد صلى الله عليه وسلم قيل كان شرع موسى عليه السلام فى القتل العمد استيفاء القصاص لا محالة وفى شرع عيسى عليه السلام العفو أما فى شرعنا فان شاء استوفى القصاص على سبيل المماثلة وان شاء استوفى الدية وان شاء عفا وأيضا شرع موسى يقتضى الاحتراز العظيم عن المرأة حال حيضها وشرع عيسى يقتضى حل وطء الحائض والعدل ما حكم به شرعنا وهو انه يحرم وطؤها احترازا عن التلطخ بتلك الدماء الخبيثة أما لا يجب اخراجها عن الدار (وثالثها) انه تعالى قال وكذلك جعلناكم أمة وسطا يعنى متباعدين عن طرفى الافراط والتفريط فى كل الامور وقال والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وقال ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط ولما بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العبادات قال تعالى طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ولما أخذ قوم فى المساهلة قال أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا والمراد من الكل رعاية العدل والوسط (ورابعها) ان شريعتنا أمرت بالختان والحكمة فيه ان رأس ذلك العضو جسم شديد الحس ولاجله عظم الالتذاذ عند الوقاع فلو بقيت تلك الجلدة على ذلك العضو بقى ذلك العضو على كمال القوة وشدة الاحساس فيعظم الالتذاذ أما اذا قطعت تلك الجلدة بقى ذلك العضو عاريا فيلاقى الثياب وسائر الاجسام فيتصلب و يضعف حسه و يقل شعوره فيقل الالتذاذ بالوقاع فتقل الرغبة فيه فكأن الشريعة انما أمرت بالختان سعيا فى تقليل تلك اللذة حتى يصير ميل الانسان الى قضاء شهوة الجماع الى حد الاعتدال وأن لا تصير الرغبة فيه غالبة على الطبع فالاخصاء وقطع الآلات على ما تذهب اليه المانوية مذموم لانه افراط وابقاء تلك الجلدة مبالغة فى تقوية تلك اللذة والعدل الوسط هو الاتيان بالختان فظهر بهذه الامثلة ان العدل واجب الرعاية فى جميع الاحوال ومن الكلمات المشهورة قولهم و بالعدل قامت السموات والارض ومعناه ان مقادير العناصر لو لم تكن متعادلة متكافئة بل كان بعضها أزيد بحسب الكمية و بحسب الكيفية من الآخر لاستولى الغالب على المغلوب ووهى المغلوب وتنقلب الطبائع كلها الى طبيعة الجرم الغالب ولو كان بعد الشمس من الارض أقل مما هو الآن لعظمت السخونة فى هذا العالم واحترق كل ما فى هذا العالم

ولو كان بعدها أزيد مما هو الآن لاستولى البرد والجمود على هذا العالم وكذا القول في مقادير حركات الكواكب ومراتب سرعتها وبطئها فان الواحد منها لو كان أزيد مما هو الآن أو كان أنقص مما هو الآن لاختلت مصالح هذا العالم فظهر بهذا السبب الذي ذكرناه صدق قولهم وبالعدل قامت السموات والارض فهذه اشارة مختصرة الى شرح حقيقة العدل وأما الاحسان فاعلم ان الزيادة على العدل قد تكون احسانا وقد تكون اساءة مثاله ان العدل في الطاعات هو أداء الواجبات اما الزيادة على الواجبات فهي أيضا طاعات وذلك من باب الاحسان وبالجملة فالمبالغة في أداء الطاعات بحسب الكمية وبحسب الكيفية هو الاحسان والدليل عليه ان جبريل لما سال النبي صلى الله عليه وسلم عن الاحسان قال الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك فان قالوا لم سمي هذا المعنى بالاحسان قلنا كأنه بالمبالغة في الطاعة يحسن الى نفسه ويوصل الخير والفعل الحسن الى نفسه والحاصل ان العدل عبارة عن القدر الواجب من الخيرات والاحسان عبارة عن الزيادة في تلك الطاعات بحسب الكمية وبحسب الكيفية وبحسب الدواعي والصوارف وبحسب الاستغراق في شهود مقامات العبودية والربوبية فهذا هو الاحسان واعلم ان الاحسان بالتفسير الذي ذكرناه دخل فيه التعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله ومن الظاهر ان الشفقة على خلق الله أقسام كثيرة وأشرفها وأجلها صلة الرحم لاجرم انه سبحانه أفرده بالذكر فقال وايتاء ذي القربى فهذا تفصيل القول في هذه الثلاثة التي أمر الله تعالى بها وأما الثلاثة التي نهى الله عنها وهي الفحشاء والمنكر والبغي فنقول انه تعالى أودع في النفس البشرية قوى أربعة وهي الشهوانية البهيمية والغضبية السبعية والوهمية الشيطانية والعقلية الملكية وهذه القوة الرابعة أعني العقلية الملكية لا يحتاج الانسان الى تأديبها وتهذيبها لانها من جواهر الملائكة ومن نتائج الارواح القدسية العلوية انما المحتاج الى التأديب والتهذيب تلك القوى الثلاثة الاول اما القوة الشهوانية فهي انما ترغب في تحصيل اللذات الشهوانية وهذا النوع مخصوص باسم الفحش ألا ترى انه تعالى سمى الزنا فاحشة فقال انه كان فاحشة وساء سبيلا فقوله تعالى وينهى عن الفحشاء المراد منه المنع من تحصيل اللذات الشهوانية الخارجة عن اذن الشريعة وأما القوة الغضبية السبعية فهي أبدا تسعى في ايصال الشر والبلاء والايذاء الى سائر الناس ولاشك ان الناس ينكرون تلك الحالة فالمنكر عبارة عن الافراط الحاصل في آثار القوة الغضبية وأما القوة الوهمية الشيطانية فهي أبدا تسعى في الاستعلاء على الناس والترفع واظهار الرياسة والتقدم وذلك هو المراد من البغي فانه لامعنى للبغي الا التطاول على الناس والترفع عليهم فظهر بما ذكرنا ان هذه الالفاظ الثلاثة منطبقة على أحوال هذه القوى الثلاثة ومن العجائب في هذا الباب ان العقلاء قالوا أخس هذه القوى الثلاثة هي الشهوانية وأوسطها الغضبية وأعلاها الوهمية والله

أي بأن تكون أمة أربى من امة أي يعاملكم بذلك معاملة من يختبركم لينظر أتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله و بيعة رسوله عليه السلام أم تغترون بكثرة قريش وشوكتهم وقلة المؤمنين وضعفهم بحسب ظاهر الحال (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) حين جازاكم بأعمالكم ثوابا وعقابا (ولو شاء الله) مشيئة قسر والجاء (لجعلكم أمة واحدة) متفقة على الاسلام (ولكن) لا يشاء ذلك لكونه مزاحما لقضية الحكمة بل (يضل من يشاء) اضلاله أي يخلق فيه الضلال حسبما يصرف اختياره الجزئي اليه (ويهدي من يشاء) هدايته حسبما يصرف اختياره الى تحصيلها (ولتسألن) جميعا يوم القيامة (عما كنتم تعملون) في الدنيا وهذا اشارة الى ما لوح به من الكسب الذي عليه يدور أمر الهداية والضلال (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم) تصريح بالنهي عنه بعد التضمين تأكيدا ومبالغة في بيان قبح المنهي عنه وتمهيدا لقوله سبحانه (فتزل قدم) عن محجة الحق (بعد ثبوتها) عليها ورسوخها فيها بالايمان وافراد القدم وتنكيرها للايذان بأن زلل قدم واحدة أي قدم كانت عزت أو هانت محذور عظيم فكيف بأقدام كثيرة (وتذوقوا السوء) أي العذاب الدنيوي (بما صددتم) بصدودكم أو بصدكم غيركم (عن سبيل الله) الذي ينتظم الوفاء بالعهود والايمان فان من نقض البيعة وارتد جعل ذلك سنة لغيره (ولكم) في الآخرة (عذاب عظيم

ولأتشتروا بعهداقة) اى لاتأخذوا بمقابلة عهده تعالى و بيعة رسوله عليه السلام أوآياته الناطقة بايجاب المحافظة على العهود والايمان (ثمناقليلا) أى لاتستبدلوابها عرضا يسيرا وهوماكانت قريش يعدون ضعفة المسلمين و يشترطون لهم على الارتداد من حطام الدنيا (ان ماعنداالله) عزّوجل من النصروالتغنيم والثواب الاخروى (هوخيرلكم) ممايعدونكم (ان كنتم تعلمون) أى ان كنتم من أهل العلم والتميز وهوتعليل للنهى على طريقة التحقيق كما ان قوله تعالى (ماعندكم) تعليل للخيرية بطريق الاستئناف أى ماتتمتعون به من نعيم الدنيا وان جل بل الدنيا ومافيها جميعا (ينفد) وان جم عدده و ينقضى وان طال أمده (وماعندالله) من خزائن رحمته الدنيوية والاخروية (باق) لانفاد له اما الاخروية فظاهرة وأما الدنيوية فحيث كانت موصولة بالاخروية ومستتبعة لها فقدا انتظمت في سمط الباقيات الصالحات وفى ايثار الاسم على صيغة المضارع من الدلالة على الدوام مالايخفى وقوله تعالى (ولنجزين) بنون العظمة على طريقة الالتفات تكرير للوعد المستفاد من قوله تعالى ان ماعندالله هوخيرلكم على نهج التوكيد القسمى مبالغة فى الحمل على الثبات فى الدين والالتفات عمايقتضيه ظاهر الحال من ان يقال ولنجزينكم أجركم بأحسن ﴿ والله ﴾

تعالى راعى هذا الترتيب فبدأ بالفحشاء التى هى نتيجة القوة الشهوانية ثم بالمنكر الذى هو نتيجة القوة الغضبية ثم بالبغى الذى هو نتيجة القوة الوهمية فهذا ماوصل اليه عقلى وخاطرى فى تفسير هذه الالفاظ فان يك صوابا فمن الرحمن وان يك خطأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله عنه بريئان والحمدلله على ماخصنا بهذا النوع من الفضل والاحسان انه الملك الديان ثم قال تعالى يعظكم لعلكم تذكرون والمراد بقوله تعالى يعظكم أمره تعالى بتلك الثلاثة ونهيه عن هذه الثلاثة لعلكم تذكرون وفيه مسئلتان (الاولى) انه تعالى لما قال فى الآية الأولى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ اردفه بهذه الآية مشتملة على الامر بهذه الثلاثة والنهى عن هذه الثلاثة كان ذلك تنبيها على أن المراد بكون القرآن تبيانا لكل شئ هو هذه التكاليف الستة وهى فى الحقيقة كذلك لان جوهر النفس من زمرة الملائكة ومن نتائج الارواح العالية القدسية الا أنه دخل فى هذا العالم خاليا عاريا عن التعلقات فتلك الثلاثة التى أمر الله بها هى التى ترقيها بالمعارف الالهية والاعمال الصالحة وتلك المعارف والاعمال هى التى ترقيها الى عالم الغيب وسرادقات القدس ومجاورة الملائكة المقربين فى جوار رب العالمين وتلك الثلاثة التى نهى الله عنها هى التى تصدها عن تلك السعادات وتمنعها عن الفوز بتلك الخيرات فلما أمر الله تعالى بتلك الثلاثة ونهى عن هذه الثلاثة فقد نبه على كل مايحتاج اليه المسافرون من عالم الدنيا الى مبدا عرصة القيامة (المسئلة الثانية) قال الكعبى الآية تدل على انه تعالى لايخلق الجور والفحشاء وذلك من وجوه (الاول) انه تعالى كيف ينهاهم عمايخترعه فيهم وكيف ينهى عمايريد تحصيله فيهم ولو كان الامر كما قالوا لكان كأنه تعالى قال ان الله يأمركم أن تفعلوا خلاف ماخلقه فيكم و ينهاكم عن أفعال خلقها فيكم ومعلوم ان ذلك باطل فى بديهة العقل (والثانى) انه تعالى لما أمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى فلو انه تعالى أمر بتلك الثلاثة ثم انه مافعلها لدخل تحت قوله أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وتحت قوله لم تقولون مالاتفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالاتفعلون (الثالث) ان قوله لعلكم تذكرون ليس المراد منه الترجى والتمنى فان ذلك محال على الله تعالى فوجب أن يكون معناه انه تعالى يعظكم لارادة أن تتذكروا طاعته وذلك يدل على انه تعالى يريد الايمان من الكل (الرابع) انه تعالى لو صرح وقال ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ولكنه يمنع منه و يصد عنه ولا يمكن العبد منه ثم قال و ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ولكنه يوجد كل هذه الثلاثة فى العبد شاء أم أبى وأراده منه ومنعه من تركه ومن الاحتراز عنه لحكم كل أحد عليه بالركاكة وفساد النظم والتركيب وذلك يدل على كونه سبحانه متعاليا عن فعل القبائح واعلم ان هذا النوع من الاستدلال كثير وقد مر الجواب عنه والمعتمد فى دفع هذه المشاغبات التعويل على سؤال الداعى وسؤال العلم

والله أعلم (المسئلة الثالثة) اتفق المتكلمون من أهل السنة ومن المعتزلة على أن تذكر الاشياء من فعل الله لا من فعل العبد والدليل عليه هو أن التذكر عبارة عن طلب المتذكر فحال الطلب اما أن يكون له به شعور أو لا يكون له به شعور فان كان له شعور فذلك الذكر حاصل والحاصل لا يطلب تحصيله وان لم يكن له به شعور فكيف يطلبه بعينه لان توجيه الطلب اليه بعينه حال ما لا يكون هو بعينه متصورا محال اذا ثبت هذا فنقول قوله لعلكم تذكرون معناه ان المقصود من هذا الوعظ أن يقدموا على تحصيل ذلك التذكر فاذا لم يكن التذكر فعلا له فكيف طلب منه تحصيله وهذا هو الذى يحتج به أصحابنا على ان قوله تعالى لعلكم تذكرون لا يدل على انه تعالى يريد منه ذلك والله أعلم ❊ قوله تعالى (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ماتفعلون ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم ان تكون أمة هى أربى من أمة انما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) اعلم انه تعالى لما جمع كل المامورات والمنهيات فى الآية الاولى على سبيل الاجمال ذكر فى هذه الآية بعض تلك الاقسام فبدأ تعالى بالامر بالوفاء بالعهد وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا فى تفسير قوله بعهد الله وجوها (الاول) قال صاحب الكشاف عهد الله هى البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام لقوله ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم أى ولا تنقضوا ايمان البيعة بعد توكيدها أى بعد توثيقها باسم الله (الثانى) ان المراد منه كل عهد يلتزمه الانسان باختياره قال ابن عباس والوعد من العهد وقال ميمون بن مهران من عاهدته وف بعهده مسلما كان أو كافرا فانما العهد لله تعالى (الثالث) قال الاصم المراد منه الجهاد وما فرض الله فى الاموال من حق (الرابع) عهد الله هو اليمين بالله وقال هذا القائل انما يجب الوفاء باليمين اذا لم يكون الصلاح فى خلافه لانه عليه السلام قال من حلف على يمين ورأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير ثم ليكفر (الخامس) قال القاضى العهد يتناول كل أمر يجب الوفاء بمقتضاه ومعلوم ان أدلة العقل والسمع أوكد فى لزوم الوفاء بما يدلان على وجوبه من اليمين ولذلك لا يصح فى هذين الدليلين التغير والاختلاف ويصح ذلك فى اليمين ور بما ندب فيه خلاف الوفاء ولقائل أن يقول انه تعالى قال وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم فهذا يجب أن يكون مختصا بالعهود التى يلتزمها الانسان باختيار نفسه لان قوله اذا عاهدتم يدل على هذا المعنى وحينئذ لا يبقى المعنى الذى ذكره القاضى معتبرا ولانه تعالى قال فى آخر الآية وقد جعلتم الله عليكم كفيلا وهذا يدل على أن الآية واردة فيمن آمن بالله والرسول وأيضا يجب أن لا يحمل هذا العهد على اليمين لانا لو حملناه عليه لكان قوله بعد ذلك ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها تكرارا لان الوفاء بالعهد والمنع من النقض متغايران لان الامر بالفعل يستلزم النهى عن الترك الا اذا قيل ان الوفاء بالعهد عام

ما كنتم تعملون للتوسل الى التعرض لاعمالهم والاشعار بعليتها للجزاء أى والله لنجزين (الذين صبروا) على أذية المشركين ومشاق الاسلام التى من جملتها الوفاء بالعهود والفقر وقرئ بالياء من غير التفات (أجرهم) مفعول ثان لنجزين أى لنعطينهم أجرهم الخاص بهم بمقابلة صبرهم على ما منوا به من الامور المذكورة (بأحسن ما كانوا يعملون) أى لنجزينهم بما كانوا يعملونه من الصبر المذكور وانما أضيف اليه الاحسن للاشعار بكمال حسنه كما فى قوله سبحانه وحسن ثواب الآخرة لا لافادة قصر الجزاء على الاحسن منه دون الحسن فان ذلك مما لا يخطر ببال أحد لا سيما بعد قوله تعالى أجرهم أو لنجزينهم بحسب أحسن أفراد أعمالهم على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الادنى من أعمالهم المذكورة ما نعطيه بمقابلة الفرد الاعلى منها من الاجر الجزيل لا انا نعطى الاجر بحسب افرادها المتفاوتة فى مراتب الحسن بأن نجزى الحسن منها بالاجر الحسن والاحسن بالاحسن وفيه ما لا يخفى من العدة الجميلة باغتفار ما عسى يعتريهم فى تضاعيف الصبر من بعض جزع ونظمه فى سلك الصبر الجميل أو لنجزينهم بجزاء أحسن من أعمالهم واما التفسير بما ترجح فعله من أعمالهم كالواجبات والمندوبات أو بما ترجح تركه أيضا كالمحرمات والمكروهات دلالة على أن ذلك هو المدار للجزاء دون

فدخل تحته اليمين ثم انه تعالى خص اليمين بالذكر تنبيها على انه أولى أنواع العهد بوجوب الرعاية وعند هذا نقول الاولى أن يحمل هذا العهد على ما يلتزمه الانسان باختياره ويدخل فيه المبايعة على الايمان بالله وبرسوله ويدخل فيه عهد الجهاد وعهد الوفاء بالملتزمات من المنذورات والاشياء التى أكدها بالحلف واليمين وفى قوله ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها مباحث (الاول) قال الزجاج يقال وكدت وأكدت لغتان جيدتان والاصل الواو والهمزة بدل منها (البحث الثانى) قال أصحاب أبى حنيفة رحمه الله يمين اللغو هى يمين الغموس والدليل عليه انه تعالى قال ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها فنهى فى هذه الآية عن نقض الايمان فوجب أن يكون كل يمين قابلا للبر والحنث ويمين الغموس غير قابلة للبر والحنث فوجب أن لا تكون من الايمان واحتج الواحدى بهذه الآية على ان يمين اللغو هى قول العرب لا والله وبلى والله قال انما قال تعالى بعد توكيدها للفرق بين الايمان المؤكدة بالعزم وبالعقد وبين لغو اليمين (البحث الثالث) قوله ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها عام دخله التخصيص لانا بينا ان الخبر دل على انه متى كان الصلاح فى نقض الايمان جاز نقضها ثم قال وقد جعلتم الله عليكم كفيلا هذه واو الحال أى لا تنقضوها وقد جعلتم الله كفيلا عليكم بالوفاء وذلك ان من حلف بالله تعالى فكأنه قد جعل الله كفيلا بالوفاء بسبب ذلك الحلف ثم قال ان الله يعلم ما تفعلون وفيه ترغيب وترهيب والمراد فيجازيكم على ما تفعلون ان خيرا فخير وان شرا فشر ثم انه تعالى أكد وجوب الوفاء وتحريم النقض وقال ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى المشبه به قولان (الاول) انها امرأة من قريش يقال لها رايطة وقيل ريطة وقيل تلقب جعراء وكانت حمقاء تغزل الغزل هى وجواريها فاذا غزلت وأبرمت أمرتهن فنقضن ما غزلن (والقول الثانى) ان المراد بالمثل الوصف دون التعيين لان القصد بالامثال صرف المكلف عنه اذا كان قبيحا والدعاء اليه اذا كان حسنا وذلك يتم به من دون التعيين (المسئلة الثانية) قوله من بعد قوة أى من بعد قوة الغزل بابرامها وفتلها (المسئلة الثالثة) قوله انكاثا قال الازهرى واحدها نكث وهو الغزل من الصوف والشعر يبرم وينسج فاذا أحكمت النسيجة قطعتها ونكثت خيوطها المبرمة ونفشت تلك الخيوط وخلطت بالصوف ثم غزلت ثانية والنكث المصدر ومنه يقال نكث فلان عهده اذا نقضه بعد احكامه كما ينكث خيط الصوف بعد ابرامه (المسئلة الرابعة) فى انتصاب قوله انكاثا وجوه (الاول) قال الزجاج انكاثا منصوب لانه بمعنى المصدر لان معنى نكثت نقضت ومعنى نقضت نكثت وهذا غلط منه لان الانكاث جمع نكث وهو اسم لا مصدر فكيف يكون قوله انكاثا بمعنى المصدر (الثانى) قال الواحدى انكاثا مفعول ثان كما تقول كسره أقطاعا وفرقه أجزاء على معنى جعله اقطاعا وأجزاء فكذا ههنا قوله نقضت غزلها انكاثا أى جعلت غزلها انكاثا (الثالث) ان قوله انكاثا

ما يستوى فعله وتركه كالاباحات فلا يساعده مقام الحث على الثبات على ما هم عليه من الاعمال الحسنة المخصوصة والترغيب فى تحصيل ثمراتها بل التعرض لاخراج بعض أعمالهم عن مدارية الجزاء من قبيل تحجير الرحمة الواسعة فى مقام توسيعها (من عمل صالحا) أى عملا صالحا أى عمل كان وهذا شروع فى تحريض كافة المؤمنين على كل عمل صالح غب ترغيب طائفة منهم فى الثبات على ما هم عليه من عمل صالح مخصوص دفعا لتوهم اختصاص الاجر الموفور بهم وبعملهم المذكور وقوله تعالى (من ذكر أو أنثى) مبالغة فى بيان شموله للكل (وهو مؤمن قيده به اذ لا اعتداد باعمال الكفرة فى استحقاق الثواب أو تخفيف العذاب لقوله تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وايثار ايراده بالجملة الاسمية الحالية على نظمه فى سلك الصلة لافادة وجوب دوامه ومقارنته للعمل الصالح (فلنحيينه حياة طيبة) فى الدنيا يعيش عيشا طيبا أما ان كان موسرا فظاهر وأما ان كان معسرا فيطيب عيشه بالقناعة والرضا بالقسمة وتوقع الاجر العظيم كالصائم يطيب نهاره بملاحظة نعيم ليله بخلاف الفاجر فانه ان كان معسرا فظاهر وان كان موسرا فلا يدعه الحرص وخوف الفوات أن يتهنأ بعيشه (ولنجزينهم) فى الآخرة (أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) حسبما نفعل بالصابرين فليس فيه شائبة تكرار والجمع فى الضمائر العائدة

﴿ حال ﴾

حال مؤكدة (المسئلة الخامسة) قال ابن قتيبة هذه الآية متصلة بما قبلها والتقدير وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها فانكم ان فعلتم ذلك كنتم مثل المرأة التي غزلت غزلا وأحكمته فلما استحكم نقضته فجعلته انكاثا ثم قال تعالى تتخذون أيمانكم دخلا بينكم قال الواحدي الدخل والدغل الغش والخيانة قال الزجاج كل ما دخله عيب قيل هو مدخول وفيه دخل وقال غيره الدخل ما أدخل في الشيء على فساد ثم قال ان تكون أمة هي أربى من أمة أربى أي أكثر من ربا الشيء يربو اذا زاد وهذه الزيادة قد تكون في العدد وفي القوة وفي الشرف قال مجاهد كانوا يحالفون الحلفاء ثم يجدون من كان أعز منهم وأشرف فينقضون حلف الاولين ويحالفون هؤلاء الذين هم أعز فنهاهم الله تعالى عن ذلك وقوله ان تكون معناه انكم تتخذون ايمانكم دخلا بينكم بسبب أن تكون أمة أربى من أمة في العدد والقوة والشرف فقوله تتخذون ايمانكم دخلا بينكم استفهام على سبيل الانكار والمعنى أتتخذون ايمانكم دخلا بينكم بسبب ان أمة أزيد في القوة والكثرة من أمة أخرى ثم قال تعالى انما يبلوكم الله به أي بما يأمركم وينهاكم وقد تقدم ذكر الامر والنهي وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون فيتميز المحق من المبطل بما يظهر من درجات الثواب والعقاب والله أعلم * قوله تعالى (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسئلن عما كنتم تعملون) اعلم انه تعالى لما كلف القوم بالوفاء بالعهد وتحريم نقضه أتبعه ببيان انه تعالى قادر على أن يجمعهم على هذا الوفاء وعلى سائر أبواب الايمان ولكنه سبحانه بحكم الالهية يضل من يشاء ويهدي من يشاء أما المعتزلة فانهم حملوا ذلك على الالجاء أي لو أراد أن يلجئهم الى الايمان أو الى الكفر لقدر عليه الا أن ذلك يبطل التكليف فلا جرم ما ألجأهم اليه وفوض الامر الى اختيارهم في هذه التكاليف وأما قول أصحابنا فيه فهو ظاهر وهذه المناظرة قد تكررت مرارا كثيرة وروى الواحدي ان عزيرا قال يارب خلقت الخلق فتضل من تشاء وتهدي من تشاء فقال يا عزير أعرض عن هذا فأعاده ثانيا فقال أعرض عن هذا فأعاده ثالثا فقال أعرض عن هذا والا محوت اسمك من النبوة قالت المعتزلة ومما يدل على ان المراد من هذه المشيئة مشيئة الالجاء انه تعالى قال بعده ولتسئلن عما كنتم تعملون فلو كانت أعمال العباد بخلق الله تعالى لكان سؤالهم عنها عبثا والجواب عنه قد سبق مرارا والله أعلم * قوله تعالى (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ان ما عند الله هو خير لكم ان كنتم تعلمون ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) اعلم انه تعالى لما حذر في الآية الاولى عن نقض العهود والايمان على

الى الموصول لمراعاة جانب المعنى كما ان الافراد فيما سلف لرعاية جانب اللفظ وايثار ذلك على العكس لما أن وقوع الجزاء بطريق الاجتماع المناسب للجمعية ووقوع ما في حيز الصلة وما يترتب عليه بطريق الافتراق والتعاقب الملائم للافراد واذ قد انتهى الامر الى أن مدار الجزاء المذكور هو صلاح العمل وحسنه رتب عليه بالفاء الارشاد الى ما به يحسن العمل الصالح ويخلص عن شوب الفساد فقيل (فاذا قرأت القرآن) أي اذا أردت قراءته عبر بها عن ارادتها على طريقة اطلاق اسم المسبب على السبب ايذانا بان المراد هي الارادة المتصلة بالقراءة (فاستعذ بالله) فاسأله عز جاره أن يعيذك (من الشيطان الرجيم) من وساوسه وخطراته كي لا يوسوسك عند القراءة فان له همة بذلك قال تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته الآية وتوجيه الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخصيص قراءة القرآن من بين الاعمال الصالحة بالاستعاذة عند ارادتها التنبيه على انها لغيره عليه الصلاة والسلام وفي سائر الاعمال الصالحة أهم فانه عليه السلام حيث أمر بها عند قراءة القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فما ظنكم بمن عداه عليه السلام فيما عدا القراءة من الاعمال والامر للندب وهذا مذهب الجمهور وعند عطاء للوجوب وقد أخذ بظاهر النظم الكريم فاستعاذ عقيب

الاطلاق حذر فى هذه الآية فقال ولاتتخذوا أيمانكم دخلا بينكم وليس المراد منه التحذير عن نقض مطلق الايمان والالزم التكرير الخالى عن الفائدة فى موضع واحد بل المراد نهى أولئك الاقوام المخاطبين بهذا الخطاب عن نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها فلهذا المعنى قال المفسرون المراد من هذه الآية نهى الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نقض عهده لان هذا الوعيد وهو قوله فتزل قدم بعد ثبوتها لا يليق بنقض عهد قبله وانما يليق بنقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الايمان به وسرائعه وقوله فتزل قدم بعد ثبوتها مثل يذكر لكل من وقع فى بلاء بعد عافية ومحنة بعد نعمة فان من نقض عهد الاسلام فقد سقط عن الدرجات العالية ووقع فى مثل هذه الضلالة ويدل على هذا قوله تعالى وتذوقوا السوء أى العذاب بما صددتم أى يصدكم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم أى ذلك السوء الذى تذوقونه سوء عظيم وعقاب شديد ثم أكد هذا التحذير فقال ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا يريد عرض الدنيا وان كان كثيرا الاان ماعند الله هو خير لكم ان كنتم تعلمون يعنى انكم وان وجدتم على نقض عهد الاسلام خيرا من خيرات الدنيا فلا تلتفتوا ليه لان الذى أعده الله تعالى على البقاء على الاسلام خير وأفضل وأكمل مما تجدونه فى الدنيا على نقض عهد الاسلام ان كنتم تعلمون التفاوت بين خيرات الدنيا وبين خيرات الآخره ثم ذكر الدليل القاطع على ان ماعند الله خير مما يجدونه من طيبات الدنيا فقال ماعندكم ينفد وماعند الله باق وفيه بحثان (الاول) الحسن شاهد بأن خيرات الدنيا منقطعة والعقل دل على ان خيرات الآخره باقية والباقى خير من المنقطع والدليل عليه ان هذا المنقطع اما أن يقال انه كان خيرا عاليا شريفا أو كان خيرا دنيا خسيسا فان قلنا انه كان خيرا عاليا سريفا فالعلم بأنه سينقطع يجعله منغصا حال حصوله وأما حال حصول ذلك الانقطاع فانها تعظم الحسرة والحزن وكون تلك النعمة العالية السريفة كذلك ينغص فيها ويقلل مرتبتها وتفتر الرغبة فيها وأما ان قلنا ان تلك النعمة المنقطعة كانت من الخيرات الخسيسة فهمنا من الظاهر ان ذلك الخير الدائم وجب أن يكون أفضل من ذلك الخير المنقطع فثبت بهذا ان قوله تعالى ماعندكم ينفد وماعند الله باق برهان قاطع على ان خيرات الآخرة افضل من خيرات الدنيا (البحث الثانى) ان قوله وماعند الله باق يدل على ان نعيم أهل الجنة باق لا ينقطع وقال جهم بن صفوان انه منقطع والآية حجة عليه واعلم ان المؤمن اذا آمن بالله فقد التزم شرائع الاسلام والايمان وحينئذ يجب عليه أمران (احدهما) أن يصبر على ذلك الالتزام وأن لا يرجع عنه وأن لا ينقضه بعد ثبوته (والثانى) أن يأتى بكل ماهو من شرائع الاسلام ولوازمه اذا عرفت هذا فنقول انه تعالى رغب المؤمنين فى القسم الاول وهو الصبر على ما التزموه فقال وليجزين الذين صبروا أى على ما التزموه من شرائع الاسلام أحسن ما كانوا يعملون أى يجزيهم على أحسن أعمالهم وذلك لان المؤمن قد يأتى

القراءة أبو هريرة رضى الله عنه ومالك وابن سيرين وداود وحمزة من القراء وعن ابن مسعود رضى الله عنه قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم فقال عليه السلام قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ (انه) الضمير للشأن أو للشيطان (ليس له سلطان) تسلط وولاية (على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) أى اليه يفوضون أمورهم وبه يعوذون فى كل ما يأتون وما يذرون فان وسوسته لا تؤثر فيهم ودعوته غير مستجابة عندهم وايثار صيغة الماضى فى الصلة الاولى للدلالة على التحقق كما أن اختيار صيغة الاستقبال فى الثانية لافادة الاستمرار التجددى وفى التعرض لوصف الربوبية عدة كريمة باعاذة المتوكلين والجملة تعليل للامر بالاستعاذة أو لجوابه المنوى أى يعذك أو نحوه (انما سلطانه) أى تسلطه وولايته بدعوته المستتبعة للاستجابة لا سلطانه بالقسر والالجاء فانه منتف عن الفريقين لقوله سبحانه حكاية عنه وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى وقد أفصح عنه قوله تعالى (على الذين يتولونه) أى يتخذونه وليا ويستجيبون دعوته ويطيعونه فان المقسور بمعزل من ذلك (والذين هم به) سبحانه وتعالى (مشركون) أو بسبب الشيطان مشركون اذ هو الذي حملهم

بالمباحات وبالمندوبات وبالواجبات ولاشك انه على فعل المندوبات والواجبات يثاب لا على فعل المباحات فلهذا قال وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون ثم انه تعالى رغب المؤمنين في القسم الثاني وهو الاتيان بكل ماكان من شرائع الاسلام فقال من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون وفي الآية سؤالات (السؤال الاول) لفظة من في قوله من عمل صالحا تفيد العموم فما الفائدة في ذكر الذكر والانثى والجواب ان هذه الآية للوعد بالخيرات والمبالغة في تقرير الوعد من أعظم دلائل الكرم والرحمة اثباتا للتأكيد وازالة لوهم التخصيص (السؤال الثاني) هل تدل هذه الآية على ان الايمان مغاير للعمل الصالح والجواب نعم لانه تعالى جعل الايمان شرطا في كون العمل الصالح موجبا للثواب وشرط الشئ مغاير لذلك الشئ (السؤال الثالث) ظاهر الآية يقتضي ان العمل الصالح انما يفيد الاثر بشرط الايمان فظاهر قوله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره يدل على ان العمل الصالح يفيد الاثر سواء كان مع الايمان أو كان مع عدمه والجواب ان افادة العمل الصالح للحياة الطيبة مشروط بالايمان أما افادته لاثر غير هذه الحياة الطيبة وهو تخفيف العقاب فانه لايتوقف على الايمان (السؤال الرابع) هذه الحياة الطيبة تحصل في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة والجواب فيه ثلاثة أقوال (الاول) قال القاضي الاقرب انها تحصل في الدنيا بدليل انه تعالى أعقبه بقوله ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون ولاشبهة في ان المراد منه مايكون في الآخرة ولقائل أن يقول لايبعد أن يكون المراد من الحياة الطيبة مايحصل في الآخرة ثم انه مع ذلك وعدهم الله على انه انما يجزيهم على ماهو أحسن أعمالهم فهذا لا امتناع فيه فان قيل بتقدير أن تكون هذه الحياة الطيبة انما تحصل في الدنيا فما هي والجواب ذكروا فيه وجوها قيل هو الرزق الحلال الطيب وقيل عبادة الله مع أكل الحلال وقيل القناعة وقيل رزق يوم بيوم كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه قنعني بما رزقتني وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يدعو اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا قال الواحدي وقول من يقول انه القناعة حسن مختار لانه لايطيب عيش أحد في الدنيا الا عيش القانع وأما الحريص فانه يكون أبدا في الكد والعناء * واعلم ان عيش المؤمن في الدنيا أطيب من عيش الكافر لوجوه (الاول) انه لما عرف ان رزقه انما حصل بتدبير الله تعالى وعرف أنه تعالى محسن كريم لايفعل الا الصواب كان راضيا بكل ماقضاه وقدره وعلم ان مصلحته في ذلك أما الجاهل فلا يعرف هذه الاصول فكان أبدا في الحزن والشقاء (وثانيها) ان المؤمن أبدا يستحضر في عقله أنواع المصائب والمحن ويقدر وقوعها وعلى تقدير وقوعها يرضى بها لان الرضاء بقضاء الله تعالى واجب فعند وقوعها لايستعظمها بخلاف الجاهل فانه يكون غافلا عن تلك المعارف فعند وقوع المصائب يعظم تأثيرها في قلبه (وثالثها) ان قلب المؤمن منشرح

على الاشراك بالله سبحانه وقصر سلطانه عليهم غب نفيه عن المؤمنين المتوكلين دليل على أن لاواسطة في الخارج بين التوكل على الله تعالى وبين تولي الشيطان وان كان بينهما واسطة في المفهوم وأن من لم يتوكل عليه تعالى ينتظم في سلك من يتولى الشيطان من حيث لايحتسب اذ به يتم التعليل ففيه مبالغة في الحمل على التوكل والتحذير عن مقابله وايثار الجملة الفعلية الاستقبالية في الصلة الاولى لما مر من افادة الاستمرار التجددي كما أن اختيار الجملة الاسمية في الثانية للدلالة على الثبات وتكرير الموصول للاحتراز عن توهم كون الصلة الثانية حالية مفيدة لعدم دخول غير المشركين من أولياء الشيطان تحت سلطانه وتقديم الاولى على الثانية التي هي بمقابلة الصلة الاولى فيما سلف لرعاية المقارنة بينها وبين مايقابلها من التوكل على الله تعالى ولو روعي الترتيب السابق لانفصل كل من القرينتين عما يقابلها (واذا بدلنا آية مكان آية) أي اذا أنزلنا آية من القرآن مكان آية منه وجعلناها بدلا منها بأن نسخناها بها (والله أعلم بما ينزل) أولا وآخرا وبأن كلا من ذلك ما نزلت حيثما نزلت الا حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فان كل وقت له مقتض غير مقتضى الآخر فكم من مصلحة في وقت تنقلب في وقت آخر مفسدة وبالعكس لانقلاب الامور الداعية الى ذلك وما الشرائع الا مصالح للعباد في المعاش والمعاد تدور حسبما تدور المصالح والحكمة

اما معترضة لتوبيخ الكفرة والتنبيه على فساد رأيهم وفى الالتفات الى الغيبة مع اسناد الخبر الى الاسم الجليل المستجمع الصفات ما لا يخفى من تربية المهابة وتحقيق معنى الاعتراض أو حالية وقرئ بالتخفيف من الانزال (قالوا) أى الكفرة الجاهلون بحكمة النسخ (انما أنت مفتر) أى متقول على الله تعالى تأمر بشئ ثم يبدو لك فتنهى عنه وحكاية هذا القول عنهم ههنا للايذان بأن ذلك كفرة ناشئة من نزغات الشيطان وأنه وليهم (بل أكثرهم لا يعلمون) أى لا يعلمون شيئا أصلا أو لا يعلمون أن فى النسخ حكما بالغة واسناد هذا الحكم الى الاكثر لما أن منهم من يعلم ذلك وانما ينكره عنادا (قل نزله) أى القرآن المدلول عليه بالآية (روح القدس) يعنى جبريل عليه السلام أى الروح المطهر من الأدناس البشرية واضافة الروح الى القدس وهو الطهر كاضافة حاتم الى الجود حيث قيل حاتم الجود للمبالغة فى ذلك الوصف كأنه طبع منه وفى صيغة التفعيل فى الموضعين اشعار بأن التدريج فى الانزال مما تقتضيه الحكم البالغة (من ربك) فى اضافة الرب الى ضميره صلى الله عليه وسلم من الدلالة على تحقيق افاضة آثار الربوبية عليه صلى الله عليه وسلم ما ليس فى اضافته الى ياء المتكلم المبنية على التلقين المحض (بالحق) أى ملتبسا بالحق الثابت الموافق للحكمة المقتضية له بحيث لا يفارقها انشاء ونسخا وفيه دلالة على أن النسخ حق

بنور معرفة الله تعالى والقلب اذا كان مملوأ من هذه المعارف لم يتسع للاحزان الواقعة بسبب أحوال الدنيا أما قلب الجاهل فانه خال عن معرفة الله تعالى فلا جرم يصير مملوأ من الاحزان الواقعة بسبب مصائب الدنيا (ورابعها) ان المؤمن عارف بأن خيرات الحياة الجسمانية خسيسة فلا يعظم فرحه بوجدانها وغمه بفقدانها أما الجاهل فانه لا يعرف سعادة أخرى تغايرها فلا جرم يعظم فرحه بوجدانها وغمه بفقدانها (وخامسها) ان المؤمن يعلم ان خيرات الدنيا واجبة التغير سريعة التقلب فلولا تغيرها وانقلابها لم تصل من غيره اليه واعلم ان ما كان واجب التغير فانه عند وصوله اليه لا تنقلب حقيقته ولا تتبدل ماهيته فعند وصوله اليه يكون أيضا واجب التغير فعند ذلك لا يطمع العاقل قلبه عليه ولا يقيم له فى قلبه وزنا بخلاف الجاهل فانه يكون غافلا عن هذه المعارف فيطبع قلبه عليها ويعانقها معانقة العاشق لمعشوقه فعند فوته وزواله يحترق قلبه ويعظم البلاء عنده فهذه وجوه كافية فى بيان ان عيش المؤمن العارف أطيب من عيش الكافر هذا كله اذا فسرنا الحياة الطيبة بأنها فى الدنيا (والقول الثانى) وهو قول السدى ان هذه الحياة الطيبة انما تحصل فى القبر (والقول الثالث) وهو قول الحسن وسعيد بن جبير ان هذه الحياة الطيبة لا تحصل الا فى الآخرة والدليل عليه قوله تعالى يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه فبين ان هذا الكدح باق الى أن يصل الى ربه وذلك ما قلناه وأما بيان ان الحياة الطيبة فى الجنة فلانها حياة بلا موت وغنى بلا فقر وصحة بلا مرض وملك بلا زوال وسعادة بلا شقاء فثبت ان الحياة الطيبة ليست الا تلك الحياة ثم انه تعالى ختم الآية بقوله ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون وقد سبق تفسيره والله أعلم

* قوله تعالى (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون)

اعلم انه تعالى لما قال قبل هذه الآية ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون أرشد الى العمل الذى به تخلص أعماله عن الوساوس فقال فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) الشيطان ساع فى القاء الوسوسة فى القلب حتى فى حق الانبياء بدليل قوله تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته والاستعاذة بالله مانعة للشيطان من القاء الوسوسة بدليل قوله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون فلهذا السبب أمر الله تعالى رسوله بالاستعاذة عند القراءة حتى تبقى تلك القراءة مصونة عن الوسوسة (المسئلة الثانية) قوله فاذا قرأت القرآن خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم الا أن المراد به الكل لان الرسول لما كان محتاجا الى الاستعاذة عند القراءة فغير الرسول أولى بها (المسئلة الثالثة) الفاء فى قوله فاستعذ بالله للتعقيب فظاهر هذه الآية يدل على ان الاستعاذة بعد قراءة القرآن واليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين قال الواحدى

وهو قول أبي هريرة ومالك وداود قالوا والفائدة فيه انه اذا قرأ القرآن استحق به ثوابا عظيما فان لم يأت بالاستعاذة وقعت الوسوسة فى قلبه وتلك الوسوسة تحبط ثواب القراءة أما اذا استعاذ بعد القراءة اندفعت الوساوس وبقى الثواب مصونا عن الاحباط أما الاكثرون من علماء الصحابة والتابعين فقد اتفقوا على ان الاستعاذة مقدمة على القراءة وقالوا معنى الآية اذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ وليس معناه استعذ بعد القراءة ومثله اذا أكلت فقل بسم الله واذا سافرت فتأهب ونظيره قوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا أى اذا أردتم القيام الى الصلاة فاغسلوا وأيضا لما ثبت ان الشيطان ألقى الوسوسة فى أثناء قراءة الرسول بدليل قوله تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ومن الظاهر انه تعالى انما أمر الرسول بالاستعاذة عند القراءة لدفع تلك الوساوس فهذا المقصود انما يحصل عند تقديم الاستعاذة (المسئلة الرابعة) مذهب عطاء انه تجب الاستعاذة عند قراءة القرآن سواء كانت القراءة فى الصلاة أو غيرها وسائر الفقهاء اتفقوا على انه ليس كذلك لانه لاخلاف بينهم انه ان لم يتعوذ قبل القراءة فى الصلاة فصلاته ماضية وكذلك حال القراءة فى غير الصلاة لكن حال القراءة فى الصلاة آكد (المسئلة الخامسة) المراد بالشيطان فى هذه الآية قيل ابليس والاقرب انه للجنس لان لجميع المردة من الشياطين حظا فى الوسوسة واعلم انه تعالى لما أمر رسوله بالاستعاذه من الشيطان وكان ذلك يوهم ان الشيطان قدرة على التصرف فى أبدان الناس فأزال الله تعالى هذا الوهم وبين انه لاقدرة له البتة الا على الوسوسة فقال انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ويظهر من هذا ان الاستعاذة انما تفيد اذا حضر فى قلب الانسان كونه ضعيفا وانه لايمكنه التحفظ عن وسوسة الشيطان الا بعصمة الله تعالى ولهذا المعنى قال المحققون لا حول عن معصية الله تعالى ألا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله الا بتوفيق الله تعالى والتفويض الحاصل على هذا الوجه هو المراد من قوله وعلى ربهم يتوكلون ثم قال انما سلطانه على الذين يتولونه قال ابن عباس يطيعونه يقال توليته أى أطعته وتوليت عنه أى أعرضت عنه والذين هم به مشركون الضمير فى قوله به الى ماذا يعود فيه قولان (الاول) انه راجع الى ربهم (والثانى) انه راجع الى الشيطان والمعنى بسببه وهذا كما تقول للرجل اذا تكلم بكلمة مؤدية الى الكفر كفرت بهذه الكلمة أى من أجلها فكذلك قوله والذين هم به مشركون أى من أجله ومن أجل حمله اياهم على الشرك بالله صاروا مشركين * قوله تعالى (واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم لايعلمون قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنو وهدى و بشرى للمسلين) اعلم انه تعالى شرع من هذا الموضع فى حكاية شبهات منكرى نبوة محمد صلى الله عليه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن عباس رضى الله عنهما كان اذا نزلت آية فيها شدة ثم نزلت آية ألين منها تقول كفار قريش

(ليثبت الذين آمنوا) على الايمان بانه كلامه تعالى فانهم اذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية المصالح اللائقة بالحال رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم وقرئ ليثبت من الافعال (وهدى و بشرى للمسلين) المنقادين لحكمه تعالى وهما معطوفان على محل ليثبت أى تثبيتا وهداية و بشارة وفيه تعريض بحصول أضداد الامور المذكورة لمن سواهم من الكفار (ولقد نعلم أنهم يقولون) غير ما نقل عنهم من المقالة الشنعاء (انما يعلمه) أى القرآن (بشر) على طريق البت مع ظهور انه نزله الروح القدس عليه الصلاة والسلام وتحلية الجملة بفنون التأكيد لتحقيق ما تضمنه من الوعيد وصيغة الاستقبال لافادة استمرار العلم بحسب الاستمرار التجددى فى متعلقه فانهم مستمرون على تفوه تلك العظيمة يعنون به جبرا الرومى غلام عامر بن الحضرمى وقيل جبرا و يسارا كانا يصنعان السيف بمكة و يقرآن التوراة والانجيل وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يمر عليهما و يسمع ما يقرآنه وقيل عايشا غلام حويطب بن عبد العزى قد أسلم وكان صاحب كتب وقيل سلمان الفارسى وانما لم يصرح باسم من زعموا أنه يعلمه مع كونه أدخل فى ظهور كذبهم للايذان بأن مدار خطاهم ليس نسبته عليه السلام الى التعلم من شخص معين بل من البشر كائنا من كان مع كونه عليه السلام معدنا لعلوم الاولين والآخرين (لسان الذى

والله ما محمد الا يسخر بأصحابه اليوم يأمر بأمر وغدا ينهى عنه وانه لا يقول هذه الاشياء الا من عند نفسه فأنزل الله تعالى قوله واذا بدلنا آية مكان آية ومعنى التبديل رفع الشئ مع وضع غيره مكانه وتبديل الآية رفعها بآية أخرى غيرها وهو نسخها بآية سواها وقوله والله اعلم بما ينزل اعتراض دخل فى الكلام والمعنى والله أعلم بما ينزل من الناسخ والمنسوخ والتغليظ والتخفيف أى هو أعلم بجميع ذلك فى مصالح العباد وهذا توبيخ للكفار على قوله انما أنت مفتر أى اذا كان هو أعلم بما ينزل فما بالهم ينسبون محمدا صلى الله عليه وسلم الى الافتراء لاجل التبديل والنسخ وقوله بل أكثرهم لا يعلمون أى لا يعلمون حقيقة القرآن وفائدة النسخ والتبديل وأن ذلك لمصالح العباد كما ان الطبيب يأمر المريض بشربة ثم بعد مدة ينهاه عنها ويأمره بضد تلك الشربة وقوله قل نزله روح القدس من ربك تفسير روح القدس مر ذكره فى سورة البقره وقال صاحب الكشاف روح القدس جبريل عليه السلام أضيف الى القدس وهو الطهر كما يقال حاتم الجود وزيد الخير والمراد الروح المقدس وحاتم الجواد وزيد الخير والمقدس المطهر من المآثم ومن فى قوله من ربك صلة للقرآن أى ان جبريل نزل القرآن من ربك ليثبت الذين آمنوا أى ليبلوهم بالنسخ حتى اذا قالوا فيه هو الحق من ربنا حكم لهم بثبات القدم فى الدين وصحة اليقين بأن الله حكيم فلا يفعل الا ما هو حكمة وصواب وهدى وبشرى مفعول لهما معطوف على محل ليثبت والتقدير تثبيتا لهم وارشادا وبشارة وفيه تعريض بحصول اضداد هذه الصفات لغيرهم (المسئلة الثانية) قد ذكرنا ان مذهب أبى مسلم الاصفهانى ان النسخ غير واقع فى هذه الشريعة فقال المراد ههنا اذا بدلنا آية مكان آية فى الكتب المتقدمة مثل انه حول القبلة من بيت المقدس الى الكعبة قال المشركون انت مفتر فى هذه التبديل وأما سائر المفسرين فقالوا النسخ واقع فى هذه الشريعة والكلام فيه على الاستقصاء مذكور فى سائر السور (المسئلة الثالثة) قال الشافعى رحمه الله القرآن لا ينسخ بالسنة واحتج على صحته بقوله تعالى واذا بدلنا آية مكان آية وهذا يقتضى ان الآية لا تصير منسوخة الا بآية أخرى وهذا ضعيف لان هذه تدل على أنه تعالى يبدل آية بآية أخرى ولا دلالة فيها على انه تعالى لا يبدل آية الا بآية وأيضا فجبريل عليه السلام قد ينزل بالسنة كما ينزل بالآية وأيضا فالسنة قد تكون مثبتة للآية وأيضا فهذا حكاية كلام الكفار فكيف يصح التعلق به والله أعلم ✽ قوله تعالى (ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ان الذين لا يؤمنون بآية الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون) اعلم ان المراد من هذه الآية حكاية شبهة أخرى من شبهات منكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك لانهم كانوا يقولون ان محمدا انما يذكر هذه القصص وهذه الكلمات لانه يستفيدها من انسان آخر ويتعلمها منه واختلفوا فى

يلحدون اليه أعجمى) الالحاد الامالة من ألحد القبر اذا أمال حفره عن الاستقامة فحفر فى شق منه ثم استعير لكل امالة عن الاستقامة فقالوا ألحد فلان فى قوله وألحد فى دينه أى لغة الرجل الذى يميلون اليه القول عن الاستقامة أعجمية غير بينة وقرئ بفتح الياء والحاء وبتعريف اللسان (وهذا) أى القرآن الكريم (لسان عربى مبين) ذو بيان وفصاحة والجملتان مستأنفتان لابطال طعنهم وتقريره أن القرآن معجز بنظمه كما أنه معجز بمعناه فان زعمتم أن بشرا يعلمه معناه فكيف يعلمه هذا النظم الذى أعجز جميع أهل الدنيا والتشبث فى أثناء الطعن بأذيال أمثال هذه الخرافات الركيكة دليل على كمال عجزهم (ان الذين لا يؤمنون بآيات الله) أى لا يصدقون أنها من عند الله بل يقولون فيها ما يقولون يسمونها تارة افتراء وأخرى أساطير معلمة من البشر (لا يهديهم الله) الى الحق أو الى سبيل النجاة هداية موصلة الى المطلوب لما علم أنهم لا يستحقون ذلك لسوء حالهم (ولهم) فى الآخرة (عذاب أليم) وهذا تهديد لهم ووعيد على ما هم عليه من الكفر بآيات الله تعالى ونسبة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الافتراء والتعلم من البشر بعد اماطة شبهتهم ورد طعنهم وقوله تعالى (انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) رد لقولهم انما أنت مفتر وقلب للامر عليهم ببيان أنهم هم المفترون بعد رده بتحقيق

﴿ هذا ﴾

أنه منزل من عند الله بواسطة روح القدس وانما وسط بينهما قوله تعالى ولقد نعلم الآية لما لا يخفى من شدة اتصاله بالرد الاول والمعنى والله تعالى أعلم أن المفترى هو الذى يكذب بآيات الله و يقول انه افتراء ومعلم من البشر أى تكذيبها على الوجه المذكور هو الافتراء على الحقيقة لان حقيقته الكذب والحكم بأن ماهو كلامه تعالى ليس بكلامه تعالى فى كونه كذبا وافتراء كالحكم بأن ماليس بكلامه تعالى كلامه تعالى ﴿ ٥٢١ ﴾ والتصريح بالكذب للمبالغة فى بيان قبحه وصيغة المضارع لرعاية المطابقة بينه وبين ماهو عبارة عنه أعنى قوله لا يؤمنون وقيل المعنى انما يفترى الكذب ويليق ذلك بمن لا يؤمن بآيات الله لانه لا يترقب عقابا عليه ليرتدع عنه وأما من يؤمن بها ويخاف مانطقت به من العقاب فلا يمكن أن يصدر عنه افتراء البتة (وأولئك) الموصوفون بما ذكر من عدم الايمان بآيات الله (هم الكاذبون) على الحقيقة أو الكاملون فى الكذب اذ لا كذب أعظم من تكذيب آياته تعالى والطعن فيها بأمثال هاتيك الاباطيل والسر فى ذلك أن الكذب الساذج الذى هو عبارة عن الاخبار بعدم وقوع ما هو واقع فى نفس الامر بخلق الله تعالى او بوقوع مالم يقع كذلك مدافعة لله تعالى فى فعله فقط والتكذيب مدافعة له سبحانه فى فعله وقوله المنبئ عنه معا أو الذين عادتهم الكذب لا يزعهم عنه ﴿ ٦٦ ﴾ وازع من دين أو مروءة وقيل الكاذبون فى قولهم انما أنت مفتر (من كفر بالله) أى تلفظ بكلمة الكفر (من بعد ايمانه) به تعالى وهو ابتداء كلام لبيان حال من كفر بآيات الله بعدما آمن بها بعد بيان حال من لم يؤمن بها رأسا ومن موصولة ومحلها الرفع على

هذا البشر الذى نسب المشركون النبى صلى الله عليه وسلم الى التعلم منه قيل هو عبد لبنى عامر بن لؤى يقال له يعيش وكان يقرأ الكتب وقيل عداس غلام عتبة بن ربيعة وقيل عبد لبنى الحضرمى صاحب كتب وكان اسمه جبرا وكانت قريش تقول عبد بنى الحضرمى يعلم خديجة وخديجة تعلم محمدا وقيل كان بمكة نصرانى أعجمى اللسان اسمه بلعام و يقال له أبو ميسرة يتكلم بالرومية وقيل سلمان الفارسى و بالجملة فلا فائدة فى تعديد هذه الاسماء والحاصل ان القوم اتهموه بأنه يتعلم هذه الكلمات من غيره ثم انه يظهرها من نفسه ويزعم أنه انما عرفها بالوحى وهو كاذب فيه ثم انه تعالى أجاب عنه بأن قال لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ومعنى الالحاد فى اللغة الميل يقال لحد وألحد اذا مال عن القصد ومنه يقال للعادل عن الحق ملحد وقرأ حمزة والكسائى يلحدون بفتح الياء والحاء والباقون بضم الياء وكسر الحاء قال الواحدى والاولى ضم الياء لانه لغة القرآن والدليل عليه قوله ومن يرد فيه بالحاد بظلم والالحاد قد يكون بمعنى الامالة ومنه يقال ألحدت له لحدا اذا حفرته فى جانب القبر مائلا عن الاستواء وقبر ملحد وملحود ومنه الملحد لانه أمال مذهبه عن الاديان كلها لم يمله عن دين الى دين آخر وفسر الالحاد فى هذه الآية بالقولين قال الفراء يميلون من الميل وقال الزجاج يميلون من الامالة أى لسان الذى يميلون القول اليه أعجمى وأما قوله أعجمى فقال أبو الفتح الموصلى تركيب ع ج م وضع فى كلام العرب للابهام والاخفاء وضد البيان والايضاح ومنه قولهم رجل أعجم وامرأة عجماء اذا كانا لا يفصحان وعجم الذنب سمى بذلك لاستتاره واختفائه والعجماء البهيمة لانها لا توضح مافى نفسها وسموا صلاتى الظهر والعصر عجماوين لان القراءة حاصلة فيهما بالسر لا بالجهر وأما قولهم أعجمت الكتاب فمعناه أزلت عجمته وأفعلت قد يأتى والمراد منه السلب كقولهم أشكيت فلانا اذا أزلت مايشكوه فهذا هو الاصل فى هذه الكلمة ثم ان العرب تسمى كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بلسانهم أعجم وأعجميا قال الفراء وأحمد بن يحيى الاعجم الذى فى لسانه عجمة وان كان من العرب والاعجمى والعجمى الذى أصله من العجم قال أبو على الفارسى الاعجم الذى لا يفصح سواء كان من العرب أو من العجم الا ترى انهم قالوا زياد الاعجم لانه كانت فى لسانه عجمة مع انه كان عربيا وأما معنى العربى واشتقاقه فقد ذكرناه عند قوله الاعراب أشد كفرا ونفاقا وقال الفراء والزجاج فى هذه الآية يقال عرب لسانه عرابة وعروبة هذا تفسير ألفاظ الآية وأما تقرير وجه الجواب فاعلم انه انما يظهر اذا قلنا القرآن انما كان معجزا لما فيه من الفصاحة العائدة الى اللفظ وكأنه قيل هب انه يتعلم المعانى من ذلك الاعجمى الا أن القرآن انما كان معجزا لما فى ألفاظه من الفصاحة فبتقدير أن تكونوا صادقين فى ان محمدا صلى الله عليه وسلم يتعلم تلك المعانى من ذلك الرجل الا أنه لا يقدح ذلك فى المقصود اذ القرآن انما كان معجزا لفصاحته وماذكرتموه لا يقدح فى ذلك المقصود

للابتداء والخبر محذوف لدلالة الخبر الآتي عليه أو هو خبر لهما معا أو النصب على الذم (الا من أكره) على ذلك بلفظ يخلف على نفسه أو على عضو من أعضائه وهو استثناء متصل من حكم الغضب والعذاب أو الذم لان الكفر لغة يتم بالقول كما أشير اليه وقوله تعالى (وقلبه مطمئن بالايمان) حال من المستثنى والعامل هو الكفر الواقع بالاكراه لا نفس الاكراه لان مقارنة اطمئنان القلب بالايمان للاكراه لاتجدى نفعا وانما المجدى مقارنته للكفر الواقع به أي الا من كفر باكراه أو الا من أكره فكفر والحال أن قلبه مطمئن بالايمان لم تتغير عقيدته وانما لم يصرح به ايماء الى أنه ليس بكفر حقيقة وفيه دليل على أن الايمان هو التصديق بالقلب (ولكن من) لم يكن كذلك بل (شرح بالكفر صدرا) أي اعتقده وطاب به نفسا (فعليهم غضب) عظيم لايكتنه كنهه (من الله) اظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتقوية تعظيم العذاب (ولهم عذاب عظيم) اذ لاجرم أعظم من جرمهم والجمع في الضميرين المجرورين لمراعاة جانب المعنى كما أن الافراد في المستكن في الصلة لرعاية جانب اللفظ روى أن قريشا أكرهوا عمارا وأبويه ياسرا وسمية على الارتداد فأباه أبواه فربطوا سمية بين بعيرين ووجئت بحربة في قبلها وقالوا انما أسلمت من اجل الرجال فقتلوها وقتلوا ياسرا وهما أول قتيلين في الاسلام وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوا عليه فقيل يارسول الله ان عمارا كفر فقال ﴿قوله﴾ رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا ان عمارا ملئ ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فجعل رسول الله صلى

ولما ذكر الله تعالى هذا الجواب أردفه بالتهديد والوعيد فقال ان الذين لايؤمنون بآيات الله لايهديهم الله أما تفسير أصحابنا لهذه الآية فظاهر وقال القاضي أقوى ما قيل في ذلك انه لايهديهم الى طريق الجنة ولذلك قال بعده ولهم عذاب أليم والمراد انهم لما تركوا الايمان بالله لايهديهم الله الى الجنة بل يسوقهم الى النار ثم انه تعالى بين كونهم كاذبين في ذلك القول فقال انما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون وفيه مسائل (الاولى) المقصود منه انه تعالى بين في الآية السابقة ان الذي قالوه بتقدير أن يصح لم يقدح في المقصود ثم انه تعالى بين في هذه الآية أن الذي قالوه لم يصح وهم كذبوا فيه والدليل على كونهم كاذبين في ذلك القول وجوه (الاول) انهم لايؤمنون بآيات الله وهم كافرون ومتى كان الامر كذلك كانوا أعداء للرسول صلى الله عليه وسلم وكلام العدا ضرب من الهذيان ولا شهادة لمتهم (والثاني) ان أمر التعلم لايتأتى في جلسة واحدة ولايتم في الخفية بل التعلم انما يتم اذا اختلف المتعلم الى المعلم أزمنة متطاولة ومددا متباعدة ولو كان الامر كذلك لاشتهر فيما بين الخلق ان محمدا عليه السلام يتعلم العلوم من فلان وفلان (الثالث) ان العلوم الموجودة في القرآن كثيرة وتعلمها لايتأتى اذا كان المعلم في غاية الفضل والتحقيق فلو حصل فيهم انسان بلغ في التعليم والتحقيق الى هذا الحد لكان مشارا اليه بالاصابع في التحقيق والتدقيق في الدنيا فكيف يمكن تحصيل هذه العلوم العالية والمباحث النفيسة من عند فلان وفلان واعلم ان الطعن في نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمثال هذه الكلمات الركيكة يدل على ان الحجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كانت ظاهرة باهرة فان الخصوم كانوا عاجزين عن الطعن فيها ولاجل غاية عجزهم عدلوا الى هذه الكلمات الركيكة (المسئلة الثانية) في هذه الآية دلالة قوية على ان الكذب من أكبر الكبائر وأفحش الفواحش والدليل عليه ان كلمة انما للحصر والمعنى ان الكذب والفرية لايقدم عليهما الا من كان غير مؤمن بآيات الله تعالى والا من كان كافرا وهذا تهديد في النهاية فان قيل قوله لايؤمنون بآيات الله فعل وقوله وأولئك هم الكاذبون اسم وعطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية قبيح فما السبب في حصوله ههنا قلنا الفعل قد يكون لازما وقد يكون مفارقا والدليل عليه قوله تعالى ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ذكره بلفظ الفعل تنبيها على ان ذلك السجن لايدوم وقال فرعون لموسى عليه السلام لئن اتخذت الها غيري لاجعلنك من المسجونين ذكره بصيغة الاسم تنبيها على الدوام وقال أصحابنا انه تعالى قال وعصى آدم ربه فغوى ولايجوز أن يقال ان آدم عاص وغاو لان صيغة الفعل لاتفيد الدوام وصيغة الاسم تفيده اذا عرفت هذه المقدمة فنقول قوله انما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله ذكر ذلك تنبيها على ان من أقدم على الكذب فكأنه دخل في الكفر ثم قال وأولئك هم الكاذبون تنبيها على أن صفة الكذب فيهم ثابتة راسخة دائمة وهذا كما تقول كذبت وأنت كاذب فيكون

قولك وأنت كاذب زيادة فى الوصف بالكذب ومعناه ان عادتك أن تكون كاذبا (المسئلة الثالثة) ظاهر الآية يدل على ان الكاذب المفترى الذى لا يؤمن بآيات الله والامر كذلك لانه لا معنى للكفر الا انكار الالهية ونبوة الانبياء وهذا الانكار مشتمل على الكذب والافتراء وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم قيل له هل يكذب المؤمن قال لا ثم قرأ هذه الآية والله أعلم * قوله تعالى (من كفر بالله من بعد ايمانه الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ذلك بانهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكافرين أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون) اعلم انه تعالى لما عظم تهديد الكافرين ذكر فى هذه الآية تفصيلا فى بيان من يكفر بلسانه لا بقلبه ومن يكفر بلسانه وقلبه معا وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله من كفر بالله من بعد ايمانه مبتدأ خبره غير مذكور فلهذا السبب اختلف المفسرون وذكروا فيه وجوها (الاول) ان يكون قوله من كفر بدلا من قوله الذين لا يؤمنون بآيات الله والتقدير انما يفترى من كفر بالله من بعد ايمانه واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء وعلى هذا التقدير فقوله وأولئك هم الكاذبون اعتراض وقع بين البدل والمبدل منه (والثانى) يجوز أيضا أن يكون بدلا من الخبر الذى هو الكاذبون والتقدير وأولئك هم من كفر بالله من بعد ايمانه (والثالث) يجوز أن ينتصب على الذم والتقدير وأولئك هم الكاذبون أعنى من كفر بالله من بعد ايمانه وهو أحسن الوجوه عندى وأبعدها عن التعسف (والرابع) أن يكون قوله من كفر بالله من بعد ايمانه شرطا مبتدأ ويحذف جوابه لان جواب الشرط المذكور بعده يدل على جوابه كأنه قيل من كفر بالله من بعد ايمانه فعليهم غضب من الله الا من أكره ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله (المسئلة الثانية) أجمعوا على انه لا يجب عليه التكلم بالكفر يدل عليه وجوه أحدها انا روينا ان بلالا صبر على ذلك العذاب وكان يقول أحد أحد روى ان ناسا من أهل مكة فتنوا فارتدوا عن الاسلام بعد دخولهم فيه وكان فيهم من أكره فأجرى كلمة الكفر على لسانه مع أنه كان بقلبه مصرا على الايمان منهم عمار وأبواه ياسر وسمية وصهيب وبلال وخباب وسالم عذبوا فأما سمية فقيل ربطت بين بعيرين ووخزت فى قبلها بحربة وقالوا انك أسلمت من أجل الرجال وقتلت وقتل ياسر وهما أول قتيلين قتلا فى الاسلام وأما عمار فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها فقيل يا رسول الله ان عمارا كفر فقال كلا ان عمارا ملئ ايمانا من فرقه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه ويقول مالك ان عادوا لك فعد لهم بما قلت ومنهم جبر مولى الحضرمى أكرهه سيده فكفر ثم أسلم مولاه وأسلم وحسن اسلامهما وهاجرا (المسئلة الثالثة) قوله الا من أكره ليس

الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال مالك ان عادوا لك فعد لهم بما قلت وهو دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر عند الاكراه الملجئ وان كان الافضل ان يتجنب عنه اعزازا للدين كما فعله أبواه وروى أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين فقال لاحدهما ما تقول فى محمد قال رسول الله قال فما تقول فى قال فأنت أيضا فخلاه وقال للآخر ما تقول فى محمد قال رسول الله قال فما تقول فى قال انا أصم فأعاد ثلاثا فأعاد جوابه فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أما الاول فقد أخذ برخصة الله وأما الثانى فقد صدع بالحق (ذلك) اشارة الكفر بعد الايمان أو الى الوعيد المذكور (بأنهم) بسبب انهم (استحبوا الحياة الدنيا) آثروها (على الآخرة وان الله لا يهدى) الى الايمان والى ما يوجب الثبات عليه هداية قسر والجاء (القوم الكافرين) فى علمه المحيط فلا يعصمهم من الزيغ وما يؤدى اليه من الغضب والعذاب العظيم ولولا أحد الامرين اما ايثار الحياة الدنيا على الآخرة واما عدم هداية الله سبحانه للكافرين هداية قسر بأن آثروا الآخرة على الدنيا أو بأن هداهم الله تعالى هداية قسر لما كان ذلك لكن الثانى مخالف للحكمة والاول مما لا يدخل تحت الوقوع واليه أشير بقوله تعالى (أولئك) أى أولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح (الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم) فأبت عن ادراك الحق والتأمل فيه (وأولئك هم الغافلون) أى الكاملون فى الغفلة اذ لا غفلة أعظم من الغفلة عن تدبر العواقب (لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون) اذ ضيعوا أعمارهم وصرفوها الى ما لا يفضى الا الى العذاب المخلد (ثم ان ربك للذين هاجروا) الى دار الاسلام وهم

عمار واصحابه رضى الله عنهم أى لهم بالولاية والنصر لا عليهم كما يوجبه ظاهر أعمالهم السابقة فالجار والمجرور خبر لان و يجوز ان يكون خبرها محذوفا لدلالة الخبر الآتى عليه و يجوز أن يكون ذلك خبرا لها وتكون ان الثانية تأكيدا للاولى ثم للدلالة على تباعد رتبة حالهم هذه عن رتبة حالهم التى يفيدها الاستثناء من مجرد الخروج عن حكم الغضب و العذاب بطريق الاشارة لا عن رتبة حال الكفرة (من بعد ما فتنوا) ﴿ ٥٢٤ ﴾ اى عذبوا على الارتداد وتلفظوا بما يرضيهم مع اطمئنان قلوبهم بالايمان وقرئ على بناء الفاعل أى عذبوا المؤمنين كالحضرمى أكره مولاه جبرا حتى ارتد ثم أسلما وهاجرا (ثم جاهدوا) فى سبيل الله (وصبروا) على مشاق الجهاد (ان ربك من بعدها) من بعد المهاجرة والجهاد والصبر فهو تصريح بما أشعر به بناء الحكم على الموصول من علية الصلة له أو من بعد الفتنة المذكورة فهو لبيان عدم اخلال ذلك بالحكم (لغفور) لما فعلوا من قبل (رحيم) ينعم عليهم مجازاة على ما صنعوا من بعد وفى التعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين ايماء الى علة الحكم وفى اضافة الرب الى ضميره عليه السلام مع ظهور الاثر فى الطائفة المذكورة اظهار لكمال اللطف به عليه السلام واشعار بأن افاضة آثار الربوبية عليهم من المغفرة والرحمة بواسطته عليه السلام ولكونهم أتباعا له (يوم تأتى كل نفس) منصوب برحيم ﴿ حال ﴾ وما يترتب عليه أو باذكر وهو يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين (تجادل عن نفسها) عن ذاتها تسعى فى خلاصها بالاعتذار لا يهمها شأن غيرها فتقول نفسى نفسى (وتوفى كل نفس) أى تعطى وافيا كاملا (ما عملت) أى جزاء ما عملت بطريق اطلاق اسم السبب

باستثناء لان المكره ليس بكافر فلا يصح استثناؤه من الكافر لكن المكره لما ظهر منه بعد الايمان ما مثله يظهر من الكافر طوعا صح هذا الاستثناء لهذه المشاكلة (المسئلة الرابعة) يجب ههنا بيان الاكراه الذى عنده يجوز التلفظ بكلمة الكفر وهو أن يعذبه بعذاب لا طاقة له به مثل التخويف بالقتل ومثل الضرب الشديد والايلامات القوية قال مجاهد أول من أظهر الاسلام سبعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وخباب وصهيب و بلال وعمار وسمية أما الرسول عليه الصلاة والسلام فمنعه أبو طالب وأما أبو بكر فمنعه قومه وأخذ الآخرون والبسوا دروع الحديد ثم أجلسوا فى الشمس فبلغ منهم الجهد بحر الحديد والشمس وأتاهم أبو جهل يشتمهم و يوبخهم و يشتم سمية ثم طعن الحربة فى فرجها وقال الآخرون ما نالوا منهم غير بلال فانهم جعلوا يعذبونه فيقول أحد أحد حتى ملوا فكتفوه وجعلوا فى عنقه حبلا من ليف ودفعوه الى صبيانهم يلعبون به حتى ملوه فتركوه قال عمار كلنا تكلم بالذى أرادوا غير بلال فهانت عليه نفسه فتركوه وقال خباب لقد أوقدوا لى نارا ما أطفأها الا ودك ظهرى (المسئلة الخامسة) أجمعوا على انه عند ذكر كلمة الكفر يجب عليه أن يبرئ قلبه من الرضا به وأن يقتصر على التعريضات مثل أن يقول ان محمدا كذاب و يعنى عند الكفار أو يعنى به محمدا آخر أو يذكره على نية الاستفهام بمعنى الانكار وههنا بحثان (الاول) انه اذا أعجله من أكرهه عن احضار هذه النية أو لانه لما عظم خوفه زال عن قلبه ذكر هذه النية كان ملوما وعفو الله متوقع (البحث الثانى) لو ضيق المكره الامر عليه وشرح له كل أقسام التعريضات وطلب منه أن يصرح بأنه ما أراد شيئا منها وما أراد الا ذلك المعنى فههنا يتعين اما التزام الكذب واما تعريض النفس للقتل فمن الناس من قال يباح له الكذب هنا ومنهم من يقول ليس له ذلك وهو الذى اختاره القاضى قال لان الكذب انما يقبح لكونه كذبا فوجب أن يقبح على كل حال ولو جاز أن يخرج عن القبح لرعاية بعض المصالح لم يمتنع أن يفعل الله الكذب لرعاية بعض المصالح وحينئذ لا يبقى وثوق بوعد الله تعالى ولا بوعيده لاحتمال انه فعل ذلك الكذب لرعاية بعض المصالح التى لا يعرفها الا الله تعالى (المسئلة السادسة) أجمعوا على انه لا يجب عليه التكلم بكلمة الكفر و يدل عليه وجوه (أحدها) انا روينا ان بلالا صبر على ذلك العذاب وكان يقول أحد أحد ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم بئس ما صنعت بل عظمه عليه فدل ذلك على انه لا يجب التكلم بكلمة الكفر (وثانيها) ما روى أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين فقال لاحدهما ما تقول فى محمد فقال رسول الله فقال ما تقول فى قال أنت أيضا فخلاه وقال للآخر ما تقول فى محمد قال رسول الله قال ما تقول فى قال انا أصم فأعاد عليه ثلاثا فأعاد جوابه فقتله فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أما الاول فقد أخذ برخصة الله وأما الثانى فقد صدع بالحق فهنيئا له وجه الاستدلال بهذا الخبر من وجهين (الاول) انه سمى التلفظ بكلمة الكفر رخصة (والثانى) انه عظم

على السبب اشعارا بكمال الاتصال بين الاجزية والاعمال وايثار الاظهار على الاضمار لزيادة التقرير وللايذان باختلاف وقتى المجادلة والتوفية وان كانتا فى يوم واحد (وهم لايظلمون) لاينقصون اجورهم أو لايعاقبون بغير موجب ولايزاد فى عقابهم على ذنوبهم (وضرب الله مثلا قرية) قيل ضرب المثل صنعه واعماله وقدمر تحقيقه فى سورة البقرة ولا يتعدى الا الى مفعول واحد وانما عدى الى الاثنين لتضمينه معنى الجعل وتأخير قريةً مع كونها مفعولا أول لئلا يحول المفعول الثانى بينها وبين صفتها وما يترتب عليها اذ التأخير عن الكل مخل بتجاذب أطراف النظم وتجاوبها ولان تأخير ماحقه التقديم مما يورث النفس ترقبا لوروده وتشوقا اليه لاسيما اذا كان فى المقدم مايدعو اليه فان المثل مما يدعو الى المحافظة على تفاصيل أحوال ماهو مثل فيتمكن المؤخر عند وروده لديها فضل تمكن والقرية اما محققة فى الغابرين واما مقدرة أى جعلها مثلا لاهل مكة خاصة أو لكل قوم أنعم الله تعالى عليهم فأبطرتهم النعمة ففعلوا ما فعلوا فبدل الله تعالى بنعمتهم نقمة ودخل فيهم أهل مكة دخولا أوليا (كانت آمنة) ذات أمن من كل مخوف (مطمئنة) لايزعج اهلها مزعج (يأتيها رزقها) أقوات أهلها صفة ثانية لقرية وتغيير سبكها عن الصفة الاولى لما أن اتيان رزقها متجدد وكونها آمنة مطمئنة ثابت مستمر (رغدا) واسعا (من كل مكان) من نواحيها (فكفرت) أى كفر اهلها (بانعم الله) أى بنعمه جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع أوجمع نعم كبؤس وأبؤس والمراد بهما نعمة الرزق والأمن المستمر وايثار جمع القلة للايذان بأن كفران نعمة قليلة حيث أوجب هذا العذاب فما ظنك

حال من أمسك عنه حتى قتل (وثالثها) ان بذل النفس فى تقرير الحق أشق فوجب أن يكون أكثر ثوابا لقوله عليه السلام أفضل العبادات أحمزها أى أشقها (ورابعها) ان الذى أمسك عن كلمة الكفر طهر قلبه ولسانه عن الكفر أما الذى تلفظ بها فهب ان قلبه طاهر عنه الا أن لسانه فى الظاهر قد تلطخ بتلك الكلمة الخبيثة فوجب أن يكون حال الاول أفضل والله أعلم (المسئلة السابعة) اعلم ان للاكراه مراتب (أحدها) أن يجب الفعل المكره عليه مثل ما اذا أكرهه على شرب الخمر وأكل الخنزير وأكل الميتة فاذا أكرهه عليه بالسيف فههنا يجب الاكل وذلك لان صون الروح عن الفوات واجب ولا سبيل اليه فى هذه الصورة الا بهذا الاكل وليس فى هذا الاكل ضرر على حيوان ولا فيه اهانة لحق الله تعالى فوجب أن يجب لقوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة (المرتبة الثانية) أن يصير ذلك الفعل مباحا ولا يصير واجبا ومثاله ما اذا أكرهه على التلفظ بكلمة الكفر فههنا يباح له ولكنه لا يجب كما قررناه (المرتبة الثالثة) أن لا يجب ولا يباح بل يحرم وهذا مثل ما اذا أكرهه انسان على قتل انسان آخر أو على قطع عضو من أعضائه فههنا يبقى الفعل على الحرمة الاصلية وهل يسقط القصاص عن المكره أم لا قال الشافعى رحمه الله فى أحد قوليه يجب القصاص ويدل عليه وجهان (الاول) انه قتله عمدا عدوانا فيجب عليه القصاص لقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى (والثانى) أجمعنا على أن المكره اذا قصد قتله فانه يحل له أن يدفعه عن نفسه ولو بالقتل فلما كان توهم اقدامه على القتل يوجب اهدار دمه فلأن يكون عند صدور القتل منه حقيقة يصير دمه مهدرا كان أولى والله أعلم (المسئلة الثامنة) من الافعال ما يقبل الاكراه عليه كالقتل والتكلم بكلمة الكفر ومنه ما لا يقبل الاكراه عليه قيل وهو الزنا لان الاكراه يوجب الخوف الشديد وذلك يمنع من انتشار الآلة فحيث دخل الزنا فى الوجود علم انه وقع بالاختيار لا على سبيل الاكراه (المسئلة التاسعة) قال الشافعى رحمه الله طلاق المكره لا يقع وقال أبو حنيفة رحمه الله يقع وحجة الشافعى رحمه الله قوله لا اكراه فى الدين ولا يمكن أن يكون المراد نفى ذاته لان ذاته موجودة فوجب حمله على نفى آثاره والمعنى انه لا أثر له ولا عبرة به وأيضا قوله عليه السلام رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه وأيضا قوله عليه السلام لا طلاق فى اغلاق أى اكراه فان قالوا طلقها فدخل تحت قوله فان طلقها فلا تحل له فالجواب لما تعارضت الدلائل وجب أن يبقى ما كان على ما هو قولنا والله اعلم (المسئلة العاشرة) قوله وقلبه مطمئن بالايمان يدل على ان محل الايمان هو القلب والذى محله القلب اما الاعتقاد واما كلام النفس فوجب أن يكون الايمان عبارة اما عن المعرفة واما عن التصديق بكلام النفس والله أعلم ثم قال تعالى ولكن من شرح بالكفر صدرا أى فتحه ووسعه لقبول الكفر وانتصب صدرا على انه مفعول لشرح والتقدير ولكن من شرح بالكفر صدره وحذف

يكفران نعم كثيرة (فأذاقها الله) أى أذاق أهلها (لباس الجوع والخوف) شبه أثر الجوع والخوف وضررهما المحيط بهم باللباس الغاشى للابس فاستعيرله اسمه وأوقع عليه الاذاقة المستعارة لمطلق الايصال المنبئة عن شدة الاصابة بما فيها من اجتماع ادراكى اللامسة والذائقة على نهج التجريد فانها لشيوع استعمالها فى ذلك وكثرة جريانها على الالسنة جرت مجرى الحقيقة كقول كثير * غمر الرداء اذا تبسم ضاحكا * غلقت لضحكته رقاب المال * فان الغمر مع كونه فى الحقيقة من احوال الماء الكثير لما كان كثير الاستعمال فى المعروف المشبه بالماء الكثير جرى مجرى الحقيقة فصارت اضافته الى الرداء المستعار للمعروف تجريدا أوشبه أثرهما وضررهما من حيث الاحاطة بهم والكراهة لديهم تارة باللباس الغاشى للابس المناسب للخوف بجامع الاحاطة واللزوم تشبيه معقول بمحسوس فاستعيرله اسمه استعارة تصريحية وأخرى بطعم المر البشع اللائم للجوع الناشئ من فقد الرزق بجامع الكراهة فأومئ اليه بأن أوقع عليه الاذاقة المستعارة لايصال الضار المنبئة عن شدة الاصابة بما فيها من اجتماع ادراكى اللامسة والذائقة وتقديم الجوع الناشئ مما ذكر من فقدان الرزق على الخوف المترتب على زوال الامن المقدم فيما تقدم على اتيان الرزق لكونه أنسب بالاذاقة ﴿ نفس ﴾ أو لمراعاة المقارنة بينها وبين اتيان الرزق وقد قرئ بتقديم الخوف وبنصبه أيضا عطفا على المضاف أو اقامة له مقام مضاف محذوف وأصله ولباس الخوف (بما كانوا يصنعون) فيما قبل أو على وجه الاستمرار وهو الكفران المذكور أسند ذلك الى أهل

الضمير لانه لايشكل بصدر غيره اذ البشر لايقدر على شرح صدر غيره فهو نكرة يراد بها المعرفة ثم قال فعليهم غضب من الله والمعنى انه تعالى حكم عليهم بالعذاب ثم وصف ذلك العذاب فقال ولهم عذاب عظيم ثم قال تعالى ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة أى رجحوا الدنيا على الآخرة والمعنى ان ذلك الارتداد وذلك الاقدام على الكفر لاجل انه تعالى ما هداهم الى الايمان وما عصمهم عن الكفر قال القاضى المراد ان الله لايهديهم الى الجنة فيقال له هذا ضعيف لان قوله وأن الله لايهدى القوم الكافرين معطوف على قوله ذلك بانهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فوجب أن يكون قوله وان الله لايهدى القوم الكافرين علة وسببا موجبا لاقدامهم على ذلك الارتداد وعدم الهداية يوم القيامة الى الجنة ليس سببا لذلك الارتداد ولا علة له بل مسببا عنه ومعلولا له فبطل هذا التأويل ثم اكد بيان انه تعالى صرفهم عن الايمان فقال أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم قال القاضى الطبع ليس يمنع من الايمان ويدل عليه وجوه (الاول) انه تعالى ذكر ذلك فى معرض الذم لهم ولو كانوا عاجزين عن الايمان به لما استحقوا الذم بتركه (والثانى) انه تعالى أشرك بين السمع والبصر وبين القلب فى هذا الطبع ومعلوم من حال السمع والبصر أن مع فقدهما قد يصح أن يكون مؤمنا فضلا عن طبع يلحقهما فى القلب (والثالث) وصفهم بالغفلة ومن منع من الشئ لايوصف بأنه غافل عنه فثبت ان المراد بهذا الطبع السمة والعلامة التى يخلقها فى القلب وقد ذكرنا فى سورة البقرة معنى الطبع والختم وأقول هذه الكلمات مع التقريرات الكثيرة ومع الجوابات القوية مذكورة فى أول سورة البقرة وفى سائر الآيات فلا فائدة فى الاعادة ثم قال تعالى وأولئك هم الغافلون قال ابن عباس أى عما يراد بهم فى الآخرة ثم قال لاجرم انهم فى الآخرة هم الخاسرون واعلم ان الموجب لهذا الخسران هو أن الله تعالى وصفهم فى الآيات المتقدمة بصفات ستة (الصفة الاولى) انهم استوجبوا غضب الله (والصفة الثانية) انهم استحقوا العذاب الاليم (الصفة الثالثة) انهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة (والصفة الرابعة) انه تعالى حرمهم من الهداية (والصفة الخامسة) انه تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم (والصفة السادسة) انه جعلهم من الغافلين عما يراد بهم من العذاب الشديد يوم القيامة فلاجرم لايسعون فى دفعها فثبت انه حصل فى حقهم هذه الصفات الستة التى كل واحد منها من أعظم الاحوال المانعة عن الفوز بالخيرات والسعادات ومعلوم انه تعالى انما أدخل الانسان الدنيا ليكون كالتاجر الذى يشترى بطاعاته سعادات الآخرة فاذا حصلت هذه الموانع العظيمة عظم خسرانه فلهذا السبب قال لاجرم انهم فى الآخرة هم الخاسرون أى هم الخاسرون لاغيرهم والمقصود التنبيه على عظم خسرانهم والله أعلم * قوله تعالى (ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم يوم تأتى كل

القرية تحقيقا للامر بعد اسناد الكفران اليها وايقاع الاذاقة عليها ارادة للمبالغة وفى صيغة الصنعة ايذان بان كفران النعمة صار صنعة راسخة لهم وسنة مسلوكة (ولقد جاءهم) من تتمة المثل جىء بها لبيان أن مافعلوه من كفران النعم لم يكن مزاحمة منهم لقضية العقل فقط بل كان ذلك معارضة لحجة الله على الخلق أيضا أى ولقد جاء أهل تلك القرية (رسول منهم) أى من جنسهم يعرفونه باصله ونسبه فاخبرهم بوجوب الشكر على النعمة وأنذرهم سوء عاقبة ما يأتون وما يذرون (فكذبوه) فى رسالته أو فيما أخبرهم به مما ذكر فالفاء فصيحة وعدم ذكره للايذان بمفاجأتهم بالتكذيب من غير تلعثم (فأخذهم العذاب) المستأصل لشأفتهم غب ماذاقوا نبذة من ذلك (وهم ظالمون) أى حال التباسهم بما هم عليه من الظلم الذى هو كفران نعم الله تعالى وتكذيب رسوله غير مقلعين عنه بما ذاقوا من مقدماته الزاجرة عنه وفيه دلالة على تماديهم فى الكفر والعناد وتجاوزهم فى ذلك كل حد معتاد وترتيب العذاب على تكذيب الرسول جرى على سنة الله تعالى حسبما يرشد اليه قوله سبحانه وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وبه يتم التمثيل فان حال أهل مكة سواء ضرب المثل لهم خاصة أو لمن سار سيرتهم كافة محاذية لحال أهل تلك القرية حذو القذة بالقذة من غير تفاوت بينهما ولو فى خصلة فذة كيف لا وقد كانوا فى حرم آمن ويتخطف الناس من حولهم وما يمر ببالهم طيف من الخوف وكانت تجبى اليه ثمرات كل شئ ولقد جاءهم رسول منهم وأى رسول يحار فى ادراك سمو رتبته العقول صلى الله عليه وسلم ما اختلف الدبور والقبول فكفروا بأنعم الله وكذبوا رسوله عليه السلام فأذاقهم الله لباس الجوع

نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى لما ذكر فى الآية المتقدمة حال من كفر بالله من بعد ايمانه وحال من أكره على الكفر فذكر بسبب الخوف كلمة الكفر وحال من لم يذكرها ذكر بعده حال من هاجر من بعد ما فتن فقال ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا (المسئلة الثانية) قرأ ابن عامر فتنوا بفتح الفاء على أسناد الفعل الى الفاعل والباقون بضم الفاء على فعل مالم يسم فاعله أما وجه القراءة الاولى فأمور (الاول) أن يكون المراد أن اكابر المشركين وهم الذين آذوا فقراء المسلمين لو تابوا وهاجروا وصبروا فان الله يقبل توبتهم (والثانى) ان فتن وأفتن بمعنى واحد كما يقال مان وأمان بمعنى واحد (والثالث) ان أولئك الضعفاء لما ذكروا كلمة الكفر على سبيل التقية فكأنهم فتنوا أنفسهم وانما جعل ذلك فتنة لان الرخصة فى اظهار كلمة الكفر ما نزلت فى ذلك الوقت وأما وجه القراءة بفعل مالم يسم فاعله فظاهر لان أولئك المفتونين هم المستضعفون الذين حملهم أقوياء المشركين على الردة والرجوع عن الايمان فبين تعالى انهم اذا هاجروا وجاهدوا وصبروا فان الله تعالى يغفر لهم تكلمهم بكلمة الكفر (المسئلة الثالثة) قوله من بعد ما فتنوا يحتمل أن يكون المراد بالفتنة هو أنهم عذبوا ويحتمل أن يكون المراد هو انهم خوفوا بالتعذيب ويحتمل أن يكون المراد ان أولئك المسلمين ارتدوا قال الحسن هؤلاء الذين هاجروا من المؤمنين كانوا بمكة فعرضت لهم فتنة فارتدوا وشكوا فى الرسول صلى الله عليه وسلم ثم انهم أسلموا وهاجروا فنزلت هذه الآية فيهم وقيل نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سرح ارتد فلما كان يوم الفتح أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتله فاستجار له عثمان فأجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انه أسلم وحسن اسلامه وهذه الرواية انما تصح لو جعلنا هذه السورة مدنية أو جعلنا هذه الآية منها مدنية ويحتمل أن يكون المراد ان أولئك الضعفاء المعذبين تكلموا بكلمة الكفر على سبيل التقية فقوله من بعد ما فتنوا يحتمل كل واحد من هذه الوجوه الاربعة وليس فى اللفظ ما يدل على التعيين اذا عرفت هذا فنقول ان كانت هذه الآية نازلة فيمن أظهر الكفر فالمراد ان ذلك مما لا اثم له فيه وأن حاله اذا هاجر وجاهد وصبر كحال من لم يكره وان كانت واردة فيمن ارتد فالمراد ان التوبة والقيام بما يجب عليه يزيل ذلك العقاب ويحصل له الغفران والرحمة فالهاء فى قوله من بعدها تعود الى الاعمال المذكورة فيما قبل وهى الهجرة والجهاد والصبر أما قوله يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ففيه ابحاث (الاول) قال الزجاج يوم منصوب على وجهين (أحدهما) أن يكون المعنى ان ربك من بعدها لغفور رحيم يوم تأتى يعنى انه تعالى يعطى الرحمة والغفران فى ذلك اليوم الذى يعظم احتياج الانسان فيه الى الرحمة والغفران (والثانى) أن يكون التقدير وذكرهم أو اذكر يوم كذا وكذا لان معنى القرآن العظة والانذار والتذكير (البحث الثانى) لقائل أن يقول النفس لا تكون لها نفس أخرى فما معنى قوله كل نفس تجادل

والخوف حيث أصابهم بدعائه عليه السلام بقوله اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف ما أصابهم من جدب شديد وأزمة حصت كل شيء حتى اضطرتهم الى أكل الجيف والكلاب الميتة والعظام المحرقة والعلهز وهو الوبر المعالج بالدم وقد ضاقت عليهم الارض بما رحبت من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا يغيرون على مواشيهم وعيرهم وقوافلهم ثم أخذهم يوم بدر ما أخذهم من العذاب هذا هو الذي يقتضيه المقام ويستدعيه حسن النظام وأما ما أجمع عليه أكثر أهل التفسير من أن الضمير في قوله تعالى ولقد جاءهم لاهل مكة قد ذكر حالهم صريحا بعد ما ذكر مثلهم وأن المراد بالرسول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالعذاب ما أصابهم من الجدب ووقعة بدر فبمعزل من التحقيق كيف لا وقوله سبحانه (فكلوا مما رزقكم الله) مفرع على نتيجة التمثيل وصد لهم عما يؤدي الى مثل عاقبته والمعنى واذ قد استبان لكم حال من كفر بأنعم الله وكذب رسوله وما حل بهم بسبب ذلك من اللتيا والتي أولا وآخرا فانتهوا عما أنتم عليه من كفران النعم وتكذيب الرسول عليه السلام كيلا يحل بكم مثل ما حل بهم واعرفوا حق نعم الله تعالى وأطيعوا رسوله عليه السلام في أمره ونهيه وكلوا من رزق الله حال كونه (حلالا طيبا) وذروا ما تفترون من تحريم البحائر ونحوها (واشكروا نعمة الله) واعرفوا حقها ولا تقابلوها بالكفران والفاء في المعنى داخلة على الامر بالشكر وانما أدخلت على الامر بالاكل لكون الاكل ذريعة الى الشكر فكأنه قيل فاشكروا نعمة الله في أكلها حلالا طيبا وقد أدمج فيه النهي عن زعم الحرمة ولا ريب

عن نفسها والجواب النفس قد يراد به بدن الحي وقد يراد به ذات الشيء وحقيقته فالنفس الاولى هي الجثة والبدن والثانية عينها وذاتها فكأنه قيل يوم يأتي كل انسان يجادل عن ذاته ولا يهمه شأن غيره قال تعالى لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه وعن بعضهم تزفر جهنم زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل الا جثا على ركبتيه يقول يا رب نفسي نفسي حتى ان ابراهيم الخليل عليه السلام يفعل ذلك ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها كقولهم هؤلاء اضلونا السبيلا وقولهم والله ربنا ما كنا مشركين ثم قال تعالى وتوفى كل نفس ما عملت فيه محذوف والمعنى توفى كل نفس جزاء ما عملت من غير بخس ولا نقصان وقوله وهم لا يظلمون قال الواحدي معناه لا ينقصون قال القاضي هذه الآية من أقوى ما يدل على ما ذهب اليه في الوعيد لانها تدل على انه تعالى يوصل الى كل أحد حقه من غير نقصان ولو انه تعالى أزال عقاب المذنب بسبب الشفاعة لم يصح ذلك والجواب لا نزاع ان ظواهر العمومات يدل على قولكم الا أن مذهبنا ان التمسك بظواهر العمومات لا يفيد القطع وأيضا فظواهر الوعيد معارضة بظواهر الوعد ثم بينا في سورة البقرة في تفسير قوله بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ان جانب الوعد راجح على جانب الوعيد من وجوه كثيرة والله أعلم * قوله تعالى (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما هدد الكفار بالوعيد الشديد في الآخرة هددهم أيضا بآفات الدنيا وهو الوقوع في الجوع والخوف كما ذكره في هذه الآية (المسئلة الثانية) المثل قد يضرب بشيء موصوف بصفة معينة سواء كان ذلك الشيء موجودا أو لم يكن وقد يضرب بشيء موجود معين فهذه القرية التي ضرب الله بها هذا المثل يحتمل أن تكون شيئا مفروضا ويحتمل أن تكون قرية معينة وعلى التقدير الثاني فتلك القرية يحتمل أن تكون مكة أو غيرها والاكثرون من المفسرين على انها مكة والاقرب انها غير مكة لانها ضربت مثلا لمكة ومثل مكة يكون غير مكة (المسئلة الثالثة) ذكر الله تعالى لهذه القرية صفات (الصفة الاولى) كونها آمنة أي ذات أمن لا يغار عليهم كما قال أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم والامر في مكة كان كذلك لان العرب كان يغير بعضهم على بعض أما أهل مكة فانهم كانوا أهل حرم الله والعرب كانوا يحترمونهم ويخصونهم بالتعظيم والتكريم واعلم انه يجوز وصف القرية بالامن وان كان ذلك لاهلها لاجل انها مكان الامن وظرف له والظروف من الازمنة والامكنة توصف بما حلها كما يقال طيب وحار وبارد (والصفة الثانية) قوله مطمئنة قال الواحدي معناه انها قارة ساكنة فأهلها لا يحتاجون الى الانتقال عنها لخوف أو ضيق أقول ان كان المراد من كونها مطمئنة انهم لا يحتاجون الى الانتقال عنها بسبب الخوف فهذا هو معنى كونها آمنة وان كان المراد انهم لا يحتاجون الى

فى أن هذا انما يتصور حين كان العذاب المستأصل متوقعا بعد وقد تمهدت مباديه وبعد ما وقع ما وقع فمن ذا الذى يحذرون ومن ذا الذى يؤمر بالاكل والشكر وحل قوله تعالى فأخذهم العذاب وهم ظالمين على الاخبار بذلك قبل الوقوع يأباه التصدى لاستصلاحهم بالامر والنهى وتوجيه خطاب الامر بالأكل الى المؤمنين مع أن ما يتلوه من خطاب النهى متوجه الى الكفار كما فعله الواحدى ﴿ ٥٢٩ ﴾ حيث قال فكلوا أنتم يا معشر المؤمنين مما رزقكم الله من الغنائم مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل (ان كنتم اياه تعبدون) اى تطيعون أو ان صح زعمكم انكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادته تعالى (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به) تعليل لحل ما أمرهم بأكله مما رزقهم اى انما حرم هذه الاشياء دون ما تزعمون حرمته من البحائر والسوائب ونحوها (فمن اضطر) بما اعتراه من الضرورة فتناول شيئا من ذلك (غير باغ) اى على مضطر آخر (ولا عاد) اى متجاوز قدر الضرورة (فان ربك غفور رحيم) اى لا يؤاخذه بذلك فأقيم سببه مقامه وفى التعرض لوصف الربوبية ايماء الى علة الحكم وفى الاضافة الى ضميره عليه السلام اظهار لكمال اللطف به عليه السلام وتصدير الجملة بانما لحصر المحرمات فى الاجناس الاربعة الا ما ضم اليه كالسباع ﴿ ٦٧ ﴾ خا والحمر الاهلية ثم أكد ذلك بالنهى عن التحريم والتحليل بأهوائهم فقال (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم) اللام صلة مثلها فى قوله تعالى ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات أى لا تقولوا فى شأن ما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة فى قولكم ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا

الانتقال عنها بسبب الضيق فهذا هو معنى قوله يأتيها رزقها رغدا من كل مكان وعلى كلا التقديرين فانه يلزم التكرار والجواب ان العقلاء قالوا

ثلاثة ليس لها نهاية ❊ الامن والصحة والكفاية

فقوله آمنة اشارة الى الامن وقوله مطمئنة اشارة الى الصحة لان هواء ذلك البلد لما كان ملائما لامزجتهم اطمأنوا اليه واستقروا فيه وقوله يأتيها رزقها رغدا من كل مكان اشارة الى الكفاية قال المفسرون وقوله من كل مكان السبب فيه اجابة دعوة ابراهيم عليه السلام وهو قوله فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات ثم انه تعالى لما وصف القرية بهذه الصفات الثلاثة قال فكفرت بأنعم الله الانعم جمع نعمة مثل أشد وشدة أقول ههنا سؤال وهو ان الانعم جمع قلة فكان المعنى أن أهل تلك القرية كفرت بأنواع قليلة من النعم فعذبها الله وكان اللائق أن يقال انهم كفروا بنعم عظيمة لله فاستوجبوا العذاب فما السبب فى ذكر جمع القلة والجواب المقصود التنبيه بالادنى على الاعلى يعنى ان كفران النعم القليلة لما أوجب العذاب فكفران النعم الكثيرة أولى بايجاب العذاب وهذا مثل أهل مكة لانهم كانوا فى الامن والطمأنينة والخصب ثم أنعم الله عليهم بالنعمة العظيمة وهو محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به وبالغوا فى ايذائه فلاجرم سلط الله عليهم البلاء قال المفسرون عذبهم الله بالجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام والعلهز والقد أما الخوف فهو ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يبعث اليهم السرايا فيغيرون عليهم ونقل ان ابن الراوندى قال لابن الاعرابى الاديب هل يذاق اللباس قال ابن الاعرابى لا باس ولا لباس يا أيها النسناس هب انك تشك ان محمدا ما كان نبيا أما كان عربيا وكان مقصود ابن الراوندى الطعن فى هذه الآية وهو ان اللباس لا يذاق بل يلبس فكان الواجب أن يقال فكساهم الله لباس الجوع أو يقال فأذاقهم الله طعم الجوع وأقول جوابه من وجوه (الاول) ان الاحوال التى حصلت لهم عند الجوع نوعان (أحدهما) أن المذوق هو الطعام فلما فقدوا الطعام صاروا كأنهم يذوقون الجوع (والثانى) ان ذلك الجوع كان شديدا كاملا فصار كأنه أحاطبهم من كل الجهات فاشبه اللباس فالحاصل انه حصل فى ذلك الجوع حالة تشبه المذوق وحالة تشبه الملبوس فاعتبر الله تعالى كلا الاعتبارين فقال فأذاقها الله لباس الجوع والخوف (الوجه الثانى) ان التقدير ان الله عرفها لباس الجوع والخوف الا أنه تعالى عبر عن التعريف بلفظ الاذاقة وأصل الذوق بالفم ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف وهو الاختبار تقول ناظر فلانا وذق ما عنده قال الشاعر

ومن يذق الدنيا فانى طعمتها ❊ وسيق الينا عذبها وعذابها

ولباس الجوع والخوف هو ما ظهر عليهم من الضمور وشحوب اللون ونهكة البدن وتغير الحال وكسوف البال فكما تقول تعرفت سوء اثر الخوف والجوع على فلان كذلك

يجوز أن تقول ذقت لباس الجوع والخوف على فلان (والوجه الثالث) أن يحمل لفظ اللبس على المماسة فصار التقدير فأذاقها الله مساس الجوع والخوف ثم قال تعالى بما كانوا يصنعون قال ابن عباس يريد بفعلهم بالنبي صلى الله عليه وسلم حين كذبوه وأخرجوه من مكة وهموا بقتله قال الفراء ولم يقل بما صنعت ومثله في القرآن كثير ومنه قوله تعالى فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون ولم يقل قائلة وتحقيق الكلام انه تعالى وصف القرية بانها مطمئنة يأتيها رزقها رغدا فكفرت بأنعم الله فكل هذه الصفات وان أجريت بحسب اللفظ على القرية الا أن المراد في الحقيقة أهلها فلا جرم قال في آخر الآية بما كانوا يصنعون والله أعلم * قوله تعالى (ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمت الله ان كنتم اياه تعبدون) اعلم أنه تعالى لما ذكر المثل ذكر الممثل فقال ولقد جاءهم يعني أهل مكة رسول منهم يعني من أنفسهم يعرفونه بأصله ونسبه فكذبوه فأخذهم العذاب قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني الجوع الذي كان بمكة وقيل القتل يوم بدر وأقول قول ابن عباس أولى لانه تعالى قال بعده فكلوا مما رزقكم الله ان كنتم اياه تعبدون يعني ان ذلك الجوع انما كان بسبب كفركم فاتركوا الكفر حتى تأكلوا فلهذا السبب قال فكلوا مما رزقكم الله قال ابن عباس رحمهما الله فكلوا يا معشر المسلمين مما رزقكم الله يريد من الغنائم وقال الكلبي ان رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جهدوا وقالوا عاديت الرجال فما بال النسوان والصبيان وكانت الميرة قد قطعت عنهم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن في حمل الطعام اليهم فحمل اليهم الطعام فقال الله تعالى فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا والقول ما قال ابن عباس رضي الله عنهما ويدل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل الآية يعني انكم لما آمنتم وتركتم الكفر فكلوا الحلال الطيب وهو الغنيمة واتركوا الخبائث وهي الميتة والدم * قوله تعالى (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم) اعلم ان هذه الآية الى آخرها مذكورة في سوره البقرة مفسرة هنالك ولا فائدة في الاعادة وأقول انه تعالى حصر المحرمات في هذه الاشياء الاربعة في هذه السورة لان لفظة انما تفيد الحصر وحصرها أيضا في هذه الاربعة في سورة الانعام في قوله تعالى قل لا أجد فيما أوحي الي محرما على طاعم وهاتان السورتان مكيتان وحصرها أيضا في هذه الاربعة في سورة البقرة لان هذه الآية بهذه اللفظة وردت في سورة البقرة وحصرها أيضا في سورة المائدة فانه تعالى قال في أول هذه السورة أحلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم فأباح الكل الا ما يتلى عليهم وأجمعوا على أن المراد بقوله عليكم هو قوله تعالى في تلك السورة حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فذكر تلك الاربعة المذكورة في تلك السورة الثلاثة ثم قال والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع

وتحرم على أزواجنا من غير ترتب ذلك الوصف على ملاحظة وفكر فضلا عن استناده الى الوحي أو قياس مبني عليه (الكذب) منتصب بلا تقولوا وقوله تعالى (هذا حلال وهذا حرام) بدل منه ويجوز أن يتعلق بتصف على ارادة القول أي لا تقولوا لما تصف ألسنتكم فتقول هذا حلال وهذا حرام وأن يكون القول المقدر حالا من السنتهم أي قائلة هذا حلال الخ ويجوز أن ينتصب الكذب بتصف ويتعلق هذا حلال الخ بلا تقولوا واللام للتعليل وما مصدرية أي لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب أي لا تحلوا ولا تحرموا لمجرد وصف ألسنتكم الكذب وتصويرها له بصورة مستحسنة وتزيينها له في المسامع كأن ألسنتهم لكونها منشأ الكذب ومنبعا للزور شخص عالم بكنهه ومحيط بحقيقته يصفه للناس ويعرفه أوضح وصف وأبين تعريف على طريقة الاستعارة بالكناية كما يقال وجهه يصف الجمال وعينه تصف السحر وقرئ بالجر صفة لما مع مدخولها كأنه قيل لوصفها الكذب بمعنى الكاذب كقوله تعالى بدم كذب والمراد بالوصف وصفها البهائم بالحل والحرمة وقرئ الكذب جمع كذوب بالرفع صفة للالسنة وبالنصب على الشتم أو بمعنى الكلم الكواذب أو هو جمع الكذاب من قولهم كذب كذابا ذكره ابن جني (لتفتروا على الله الكذب) فان مدار الحل والحرمة ليس الأمر الله تعالى ﴿ الا ﴾ فالحكم بالحل والحرمة اسناد للتحليل والتحريم الى الله سبحانه من غير أن يكون ذلك منه واللام لام العاقبة (ان الذين يفترون على الله الكذب) في أمر من الامور (لا يفلحون) لا يفوزون بمطالبهم التي ارتكبوا الافتراء للفوز بها (متاع قليل)

خبر مبتدا محذوف · أي منفعتهم

الا ماذكيتم وهذه الاشياء داخلة فى الميتة ثم قال وماذبح على النصب وهو أحد الاقسام الداخلة تحت قوله وما أهل به لغير الله فثبت ان هذه السور الاربعة دالة على حصر المحرمات فى هذه الاربع سورتان مكيتان وسورتان مدنيتان فان سورة البقرة مدنية وسورة المائدة من آخر ما أنزل الله تعالى بالمدينة فمن أنكر حصر التحريم فى هذه الاربع الا ما خصه الاجماع والدلائل القاطعة كان فى محل أن يخشى عليه لان هذه السورة دلت على أن حصر المحرمات فى هذه الاربع كان شرعا ثابتا فى أول أمر مكة وآخرها واول المدينة وآخرها وانه تعالى أعاد هذا البيان فى هذه السور الاربع قطعا للاعذار وازالة للشبهة والله أعلم * قوله تعالى (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنه تعالى لما حصر المحرمات فى تلك الاربع بالغ فى تأكيد ذلك الحصر وزيف طريقة الكفار فى الزيادة على هذه الاربع تارة وفى النقصان عنها أخرى فانهم كانوا يحرمون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وكانوا يقولون ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا فقد زادوا فى المحرمات وزادوا أيضا فى المحللات وذلك لانهم حللوا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله تعالى فالله تعالى بين ان المحرمات هى هذه الاربعة وبين ان الاشياء التى يقولون ان هذا حلال وهذا حرام كذب وافتراء على الله ثم ذكر الوعيد الشديد على هذا الكذب وأقول انه تعالى لما بين هذا الحصر فى هذه السور الاربع ثم ذكر فى هذه الآية ان الزيادة عليها والنقصان عنها كذب وافتراء على الله تعالى وموجب للوعيد الشديد علمنا انه لا مزيد على هذا الحصر والله أعلم (المسئلة الثانية) فى انتصاب الكذب فى قوله لما تصف ألسنتكم الكذب وجهان (الاول) قال الكسائى والزجاج ما مصدرية والتقدير ولا تقولوا لاجل وصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام نظيره أن يقال لا تقولوا لكذا كذا وكذا فان قالوا حمل الآية عليه يؤدى الى التكرار لان قوله تعالى لتفتروا على الله الكذب عين ذلك والجواب ان قوله لما تصف ألسنتكم الكذب ليس فيه بيان كذب على الله تعالى فأعاد قوله لتفتروا على الله الكذب ليحصل فيه هذا البيان الزائد ونظائره فى القرآن كثيرة وهو انه تعالى يذكر كلاما ثم يعيده بعينه مع فائدة زائدة (الثانى) أن تكون ما موصولة والتقدير ولا تقولوا للذى تصف ألسنتكم الكذب فيه هذا حلال وهذا حرام وحذف لفظ فيه لكونه معلوما (المسئلة الثالثة) قوله تعالى تصف ألسنتكم الكذب من فصيح الكلام وبليغه كأن ماهية الكذب وحقيقته مجهولة وكلامهم الكذب يكشف حقيقة الكذب ويوضح ماهيته وهذا مبالغة فى وصف كلامهم بكونه كذبا ونظيره قول أبى العلاء المعرى

سرى برق المعرة بعد وهن * فبات برامة يصف الكلالا

فيما هم عليه من افعال الجاهلية منفعة قليلة (ولهم) فى الآخرة (عذاب أليم) لا يكتنه كنهه (وعلى الذين هادوا) خاصة دون غيرهم من الاولين والآخرين (حرمنا ما قصصنا عليك) أى بقوله تعالى حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الآية (من قبل) متعلق بقصصنا أو بحرمنا وهو تحقيق لما سلف من حصر المحرمات فيما فصل بابطال ما يخالفه من فرية اليهود وتكذيبهم فى ذلك فانهم كانوا يقولون لسنا أول من حرمت عليه وانما كانت محرمة على نوح وابراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الامر الينا (وما ظلمناهم) بذلك التحريم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) حيث فعلوا ما عوقبوا به عليه حسبما نعى عليهم قوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم الآية ولقد ألقمهم الحجر قوله تعالى كل الطعام كان حلا ابنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين روى أنه عليه الصلاة والسلام لما قال لهم ذلك بهتوا ولم يجسروا أن يخرجوا التوراة كيف وقد بين فيها أن تحريم ما حرم عليهم من الطيبات لظلمهم وبغيهم عقوبة وتشديدا أوضح بيان وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم فى التحريم (ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة) اى بسبب جهالة أو ملتبسين بها ليعم الجهل بالله وبعقابه وعدم التدبر فى العواقب لغلبة الشهوة والسوء يعم الافتراء على الله تعالى وغيره (ثم تابوا من بعد ذلك) اى من بعد ما عملوا ما عملوا والتصريح به مع دلالة ثم عليه للتأكيد والمبالغة (وأصلحوا) اى أصلحوا أعمالهم أو دخلوا فى الصلاح (ان ربك من بعدها) من بعد

التوبة (لغفور) لذلك السوء (رحيم) يثيب على طاعته تركا وفعلا وتكرير قوله تعالى ان ربك لتأكيد الوعد واظهار كمال العناية بانجازه والتعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام مع ظهور الاثر فى التائبين للايماء الى أن افاضة آثار الربوبية من المغفرة والرحمة عليهم بتوسطه عليه السلام وكونهم من أتباعه كما أشير اليه فيما مر (ان ابراهيم كان أمة) على حياله لحيازته من الفضائل البشرية ما لا تكاد توجد الا متفرقة فى أمة جمة حسبما قيل ❊ ليس على الله بمستنكر ❊ أن يجمع العالم فى واحد ❊ وهو رئيس أهل التوحيد وقدوة أصحاب التحقيق جادل أهل الشرك وألقمهم الحجر ببينات باهرة لا تبقى ولا تذر وأبطل مذاهبهم الزائغة بالبراهين القاطعة والحجج الدامغة أو لانه عليه السلام كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار وقيل هى فعلة بمعنى مفعول كالرحلة والنخبة من أمه اذا قصده أو اقتدى به فان الناس كانوا يقصدونه ويقتدون بسيرته لقوله تعالى انى جاعلك للناس اماما وايراد ذكره عليه السلام عقيب تزييف مذاهب المشركين من الشرك والطعن فى النبوة وتحريم ما أحله الله تعالى للايذان بأن حقية دين الاسلام وبطلان الشرك وفروعه أمر ثابت لا ريب فيه (قانتا لله) مطيعا له قائما بأمره (حنيفا) مائلا عن كل دين باطل الى الدين الحق غير زائل عنه بحال (ولم يك من المشركين) فى أمر من امور دينهم أصلا وفرعا صرح بذلك مع ظهوره لا ردا على كفار قريش فقط فى قولهم نحن على ملة أبينا ابراهيم بل عليهم وعلى اليهود المشركين بقولهم عزير ابن الله فى افترائهم وادعائهم أنه عليه الصلاة والسلام كان

والمعنى ان سرى ذلك البرق يصف الكلال فكذا ههنا والله أعلم ثم قال تعالى لتفتروا على الله الكذب المعنى انهم كانوا ينسبون ذلك التحريم والتحليل الى الله تعالى ويقولون انه أمرنا بذلك وأظن ان هذا اللام ليس لام الغرض لان ذلك الافتراء ما كان غرضا لهم بل كان لام العاقبة كقوله تعالى ليكون لهم عدوا وحزنا قال الواحدى وقوله لتفتروا على الله الكذب بدل من قوله لما تصف ألسنتكم الكذب لان وصفهم الكذب هو افتراء على الله تعالى ففسر وصفهم الكذب بالافتراء على الله تعالى ثم أوعد المفترين وقال ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ثم بين ان ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عنهم عن قريب فقال متاع قليل قال الزجاج المعنى متاعهم متاع قليل وقال ابن عباس بل متاع كل الدنيا متاع قليل ثم يردون الى عذاب أليم وهو قوله ولهم عذاب أليم ❊ قوله تعالى (وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) اعلم أنه تعالى لما بين ما يحل وما يحرم لاهل الاسلام أتبعه ببيان ما خص اليهود به من المحرمات فقال وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وهو الذى سبق ذكره فى سورة الانعام ثم قال تعالى وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون وتفسيره هو المذكور فى قوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ❊ قوله تعالى (ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم) اعلم أن المقصود بيان ان الافتراء على الله ومخالفة أمر الله لا يمنعهم من التوبة وحصول المغفرة والرحمة ولفظ السوء يتناول كل ما لا ينبغى وهو الكفر والمعاصى وكل من عمل السوء فانما يفعله بالجهالة أما الكفر فلان أحدا لا يرضى به مع العلم بكونه كفرا فانه ما لم يعتقد كون ذلك المذهب حقا وصدقا فانه لا يختاره ولا يرتضيه وأما المعصية فالم تصر الشهوة غالبة للعقل والعلم لم تصدر عنه تلك المعصية فثبت ان كل من عمل السوء فانما يقدم عليه بسبب الجهالة فقال تعالى انا قد بالغنا فى تهديد أولئك الكفار الذين يحللون ويحرمون بمقتضى الشهوة والفرية على الله تعالى ثم انا بعد ذلك نقول ان ربك فى حق الذين عملوا السوء بسبب الجهالة ثم تابوا من بعد ذلك أى من بعد تلك السيئة وقيل من بعد تلك الجهالة ثم انهم بعد التوبة عن تلك السيآت أصلحوا أى آمنوا وأطاعوا الله ثم أعاد قوله ان ربك من بعدها على سبيل التأكيد ثم قال لغفور رحيم والمعنى انه لغفور رحيم لذلك السوء الذى صدر عنهم بسبب الجهالة وحاصل الكلام ان الانسان وان كان قد أقدم على الكفر والمعاصى دهرا دهيرا وأمدا مديدا فاذا تاب عنه وآمن وأتى بالاعمال الصالحة فان الله غفور رحيم يقبل توبته ويخلصه من العذاب ❊ قوله تعالى (ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لانعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وانه فى الآخرة لمن الصالحين

على ماهم عليه كقوله سبحانه ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين اذ به ينتظم أمر ايراد التحريم والسبت سابقا ولاحقا (شاكرا لأنعمه) صفة ثالثة لامة وانما أوثر صيغة جمع القلة للايذان بانه عليه السلام كان لا يخل بشكر النعمة القليلة فكيف بالكثيرة وللتصريح بكونه عليه السلام على خلاف ماهم عليه من الكفران بأنعم الله تعالى حسبما بين ذلك بضرب المثل (اجتباه) للنبوة (وهداه الى صراط مستقيم) موصل اليه سبحانه وهو ملة الاسلام وليست نتيجة هذه الهداية مجرد اهتدائه عليه السلام بل مع ارشاد الخلق أيضا بمعونة قرينة الاجتباء (وآتيناه في الدنيا حسنة) حالة حسنة من الذكر الجميل والثناء فيما بين الناس قاطبة حتى انه ليس من أهل دين الاوهم يتولونه وقيل هي الخلة والنبوة وقيل قول المصلي منا كما صليت على ابراهيم والالتفات الى التكلم لاظهار كمال الاعتناء بشانه وتفخيم مكانه عليه الصلاة والسلام (وانه في الآخرة لمن الصالحين) أصحاب الدرجات العالية في الجنة حسبما ساله بقوله وألحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدق في الآخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم (ثم أوحينا اليك) مع علو طبقتك وسمو رتبتك (أن اتبع ملة ابراهيم) الملة اسم لما شرعه الله تعالى لعباده على لسان الانبياء عليهم السلام من أمللت الكتاب اذا أمليته وهو الدين بعينه لكن باعتبار الطاعة له وتحقيقه أن الوضع الالهي مهما نسب الى من يؤديه عن الله تعالى يسمى ملة ومهما نسب الى من يقيمه ويعمل به يسمى دينا قال الراغب الفرق بينهما أن الملة لا تضاف الا الى النبي عليه السلام ولا تكاد توجد مضافة الى الله سبحانه

ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) اعلم أنه تعالى لما زيف في هذه السورة مذاهب المشركين في أشياء منها قولهم باثبات الشركاء والانداد لله تعالى ومنها طعنهم في نبوة الانبياء والرسل عليهم السلام وقولهم لو أرسل الله رسولا لكان ذلك الرسول من الملائكة ومنها قولهم بتحليل أشياء حرمها الله وتحريم أشياء أباحها الله تعالى فلما بالغ في ابطال مذاهبهم في هذه الاقوال وكان ابراهيم عليه السلام رئيس الموحدين وقدوة الاصوليين وهو الذي دعا الناس الى التوحيد وابطال الشرك والى الشرائع والمشركون كانوا مفتخرين به معترفين بحسن طريقته مقرين بوجوب الاقتداء به لاجرم ذكره الله تعالى في آخر هذه السورة وحكى عنه طريقته في التوحيد ليصير ذلك حاملا لهؤلاء المشركين على الاقرار بالتوحيد والرجوع عن الشرك واعلم أنه تعالى وصف ابراهيم عليه السلام بصفات (الصفة الاولى) انه كان أمة وفي تفسيره وجوه (الاول) انه كان وحده أمة من الامم لكماله في صفات الخير كقوله

ليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم في واحد

(الثاني) قال مجاهد كان مؤمنا وحده والناس كلهم كانوا كفارا فلهذا المعنى كان وحده أمة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في زيد بن عمرو بن نفيل يبعثه الله أمة وحده (الثالث) أن يكون أمة فعلة بمعنى مفعول كالرحلة والبغية فالامة هو الذي يؤتم به ودليله قوله اني جاعلك للناس اماما (الرابع) انه عليه السلام هو السبب الذي لاجله جعلت أمته ممتازين عمن سواهم بالتوحيد والدين الحق ولما جرى مجرى السبب لحصول تلك الامة سماه الله تعالى بالامة اطلاقا لاسم المسبب على السبب وعن شهر بن حوشب لم تبق أرض الا وفيها أربعة عشر يدفع الله بهم عن أهل الارض الا زمن ابراهيم عليه السلام فانه كان وحده (الصفة الثانية) كونه قانتا لله والقانت هو القائم بما أمره الله تعالى به قال ابن عباس رضي الله عنهما معناه كونه مطيعا لله (الصفة الثالثة) كونه حنيفا والحنيف المائل الى ملة الاسلام ميلا لا يزول عنه قال ابن عباس رضي الله عنهما انه أول من اختتن وأقام مناسك الحج وضحى وهذه صفة الحنيفية (الصفة الرابعة) قوله ولم يك من المشركين معناه انه كان من الموحدين في الصغر والكبر والذي يقرر كونه كذلك ان اكثر همته عليه السلام كان في تقرير علم الاصول فذكر دليل اثبات الصانع مع ملك زمانه وهو قوله ربي الذي يحيي ويميت ثم أبطل عبادة الاصنام والكواكب بقوله لا أحب الآفلين ثم كسر تلك الاصنام حتى آل الامر الى أن ألقوه في النار ثم طلب من الله أن يريه كيفية احياء الموتى ليحصل له مزيد الطمانينة ومن وقف على علم القرآن علم أن ابراهيم عليه السلام كان غارقا في بحر التوحيد (الصفة الخامسة) قوله شاكرا لأنعمه روى أنه عليه السلام كان لا يتغدى الا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفا فأخر غداءه فاذا هو بقوم من الملائكة في صورة البشر فدعاهم الى الطعام فاظهروا أن بهم

ولا الى آحاد الامة ولا تستعمل الا فى جملة الشرائع دون آحادها والمراد بملته عليه السلام الاسلام الذى عبر عنه آنفا بالصراط المستقيم (حنيفا) حال من المضاف اليه لما أن المضاف لشدة اتصاله به عليه السلام جرى منه مجرى البعض فعد بذلك من قبيل رأيت وجه هند قائمة والمأمور به الاتباع فى الاصول دون الشرائع المتبدلة بتبدل الاعصار وما فى ثم من التراخى فى الرتبة للايذان بأن هذه النعمة من أجل النعم الفائضة عليه عليه السلام (وماكان من المشركين) تكرير لما سبق لزيادة تأكيد وتقرير لنزاهته عليه السلام عما هم عليه من عقد وعمل وقوله تعالى (انما جعل السبت) اى فرض تعظيمه والتخلى فيه للعبادة وترك الصيد فيه تحقيق لذلك النفى الكلى وتوضيح له بابطال ماعسى يتوهم كونه قادحا فى كليته حسبما سلف فى قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا الخ فان اليهود كانوا يدعون أن السبت من شعائر الاسلام وأن ابراهيم عليه السلام كان محافظا عليه أى ليس السبت من شرائع ابراهيم وشعائر ملته التى أمرت باتباعها حتى يكون بينه عليه الصلاة والسلام وبين بعض المشركين علاقة فى الجملة وانما شرع ذلك لبنى اسرائيل بعد مدة طويلة وايراد الفعل مبنيا للمفعول جرى على سنن الكبرياء وايذان بعدم الحاجة الى التصريح بالفاعل لاستحالة الاسناد الى الغير وقد قرئ على البناء للفاعل وانما عبر عن ذلك بالجعل موصولا بكلمة على وعنهم بالاسم الموصول باختلافهم فقيل انما جعل السبت (على الذين اختلفوا فيه) للايذان بتضمنه للتشديد والابتلاء المؤدى الى العذاب و بكونه معللا باختلافهم فى شأنه قبل الوقوع

علة الجذام فقال الآن يجب على مؤاكلكم فلولا عزتكم على الله تعالى لما ابتلاكم بهذا البلاء * فان قيل لفظ الأنعم جمع قلة ونعم الله تعالى على ابراهيم عليه السلام كانت كثيرة فلم قال شاكرا لأنعمه * قلنا المراد انه كان شاكرا لجميع نعم الله ان كانت قليلة فكيف الكثيرة (الصفة السادسة) قوله اجتباه أى اصطفاه للنبوة والاجتباء هو أن تأخذ الشئ بالكلية وهو افتعال من جبيت وأصله جمع الماء فى الحوض والجابية هى الحوض (الصفة السابعة) قوله وهداه الى صراط مستقيم اى فى الدعوة الى الله والترغيب فى الدين الحق والتنفير عن الدين الباطل نظيره قوله تعالى وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه (الصفة الثامنة) قوله وآتيناه فى الدنيا حسنة قال قتادة ان الله حببه الى كل الخلق فكل أهل الاديان يقرون به أما المسلمون واليهود والنصارى فظاهر وأما كفار قريش وسائر العرب فلا فخر لهم الا به وتحقيق الكلام ان الله أجاب دعاءه فى قوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين وقال آخرون هو قول المصلى منا كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وقيل الصدق والوفاء والعبادة (الصفة التاسعة) قوله وانه فى الآخرة لمن الصالحين فان قيل لم قال وانه فى الآخرة لمن الصالحين ولم يقل وانه فى الآخرة فى أعلى مقامات الصالحين قلنا لانه تعالى حكى عنه أنه قال رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين فقال ههنا وانه فى الآخرة لمن الصالحين تنبيها على أنه تعالى أجاب دعاءه ثم ان كونه من الصالحين لاينفى أن يكون فى أعلى مقامات الصالحين فان الله تعالى بين ذلك فى آية أخرى وهى قوله وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء واعلم أنه تعالى لما وصف ابراهيم عليه السلام بهذه الصفات العالية الشريفة قال ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وفيه مباحث (البحث الاول) قال قوم ان النبى صلى الله عليه وسلم كان على شريعة ابراهيم عليه السلام وليس له شرع هو به منفرد بل المقصود من بعثته عليه السلام احياء شرع ابراهيم عليه السلام وعول فى اثبات مذهبه على هذه الآية وهذا القول ضعيف لانه تعالى وصف ابراهيم عليه السلام فى هذه الآية بأنه ماكان من المشركين فلما قال واتبع ملة ابراهيم كان المراد ذلك فان قيل النبى صلى الله عليه وسلم انما نفى الشرك وأثبت التوحيد بناء على الدلائل القطعية واذا كان كذلك لم يكن متابعا له فيمتنع حمل قوله أن اتبع على هذا المعنى فوجب حمله على الشرائع التى يصح حصول المتابعة فيها قلنا يحتمل أن يكون المراد الامر بمتابعته فى كيفية الدعوة الى التوحيد وهو أن يدعو اليه بطريق الرفق والسهولة وايراد الدلائل مرة بعد أخرى بأنواع كثيرة على ما هو الطريقة المألوفة فى القرآن (البحث الثانى) قال صاحب الكشاف لفظة ثم فى قوله ثم أوحينا اليك تدل على تعظيم منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجلال محله والايذان بأن أشرف ما أوتى خليل الله من الكرامة وأجل ما أوتى من النعمة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ملته من قبل ان هذه اللفظة دلت على تباعد هذا النعت فى المرتبة عن سائر المدائح

ايثارالهم على ما أمر الله تعالى به واختيار العكس لكن لا باعتبار شمول العلية لطرفى الاختلاف وعموم الغائلة للفريقين بل باعتبار حال منشأ الاختلاف من الطرف المخالف للحق وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام أمر اليهود أن يجعلوا فى الاسبوع يوما واحدا للعبادة وأن يكون ذلك يوم الجمعة فأبوا عليه وقالوا نريد اليوم الذى فرغ الله تعالى فيه من خلق السموات والارض وهو السبت الاشرذمة منهم قد رضوا بالجمعة فأذن الله تعالى لهم فى السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه فأطاع أمر الله تعالى الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله سبحانه قردة دون أولئك المطيعين (وان ربك ليحكم بينهم) اى بين الفريقين المختلفين فيه (يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) اى يفصل ما بينهما من الخصومة والاختلاف فيجازى كل فريق بما يستحقه من الثواب والعقاب وفيه ايماء الى أن ما وقع فى الدنيا من مسخ أحد الفريقين وانجاء الآخر بالنسبة الى ما سيقع فى الآخرة شئ لا يعتد به هذا هو الذى يستدعيه الاعجاز التنزيلى وقيل المعنى انما جعل وبال السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه اى أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه أخرى وكان حتما عليهم أن يتفقوا على تحريمه حسبما أمر الله سبحانه به وفسر الحكم بينهم بالمجازاة باختلاف أفعالهم بالاحلال تارة والتحريم أخرى ووجه ايراده ههنا بأنه أريد به انذار المشركين من سخط الله تعالى على العصاة والمخالفين لاوامره كضرب المثل بالقرية التى كفرت بأنعم الله تعالى ولا ريب فى أن كلمة بينهم تحكم بأن المراد بالحكم هو فصل ما بين الفريقين من الاختلاف وأن توسيط حديث المسخ للانذار المذكور

التى مدحه الله بها * قوله تعالى (انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) اعلم أنه تعالى لما أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بمتابعة ابراهيم عليه السلام وكان محمد عليه السلام اختار يوم الجمعة فهذه المتابعة انما تحصل اذا قلنا ان ابراهيم عليه السلام كان قد اختار فى شرعه يوم الجمعة وعند هذا لسائل أن يقول فلم اختار اليهود يوم السبت فأجاب الله تعالى عنه بقوله انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وفى الآية قولان (الاول) روى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال أمرهم موسى بالجمعة وقال تفرغوا لله فى كل سبعة أيام يوما واحدا وهو يوم الجمعة لا تعملوا فيه شيئا من أعمالكم فأبوا أن يقبلوا ذلك وقالوا لا نريد الا اليوم الذى فرغ فيه من الخلق وهو يوم السبت فجعل الله تعالى السبت لهم وشدد عليهم فيه ثم جاءهم عيسى عليه السلام أيضا بالجمعة فقالت النصارى لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا واتخذوا الاحد وروى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله كتب يوم الجمعة على من كان قبلنا فاختلفوا فيه وهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد اذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى على الذين اختلفوا فيه أى على نبيهم موسى حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت فاختلافهم فى السبت كان اختلافا على نبيهم فى ذلك اليوم أى لاجله وليس معنى قوله اختلفوا فيه أن اليهود اختلفوا فيه فمنهم من قال بالسبت ومنهم من لم يقل به لان اليهود اتفقوا على ذلك فلا يمكن تفسير قوله اختلفوا فيه بهذا بل الصحيح ما قدمناه فان قال قائل هل فى العقل وجه يدل على أن يوم الجمعة أفضل من يوم السبت وذلك لان أهل الملل اتفقوا على أنه تعالى خلق العالم فى ستة أيام وبدأ تعالى بالخلق والتكوين من يوم الاحد وتم فى يوم الجمعة فكان يوم السبت يوم الفراغ فقالت اليهود نحن نوافق ربنا فى ترك الاعمال فعينوا السبت لهذا المعنى وقالت النصارى مبدأ الخلق والتكوين هو يوم الاحد فنجعل هذا اليوم عيدا لنا فهذان الوجهان معقولان فما الوجه فى جعل اليوم الجمعة عيدا قلنا يوم الجمعة هو يوم الكمال والتمام وحصول التمام والكمال يوجب الفرح الكامل والسرور العظيم فجعل يوم الجمعة يوم العيد أولى من هذا الوجه والله أعلم (القول الثانى) فى اختلافهم فى السبت أنهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه تارة وكان الواجب عليهم أن يتفقوا فى تحريمه على كلمة واحدة ثم قال تعالى وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون والمعنى انه تعالى سيحكم يوم القيامة للمحقين بالثواب وللمبطلين بالعقاب

* قوله تعالى (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) اعلم أنه تعالى لما أمر محمدا صلى الله عليه وسلم باتباع ابراهيم عليه السلام بين الشئ الذى أمره بمتابعته فيه فقال ادع الى سبيل ربك بالحكمة واعلم أنه تعالى أمر رسوله أن يدعو الناس بأحد هذه الطرق الثلاثة وهى

بين حكاية امر النبى صلى الله عليه وسلم باتباع ملة ابراهيم عليه الصلاة والسلام و بين أمره صلى الله عليه وسلم بالدعوة اليها من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه فتأمل (ادع) اى من بعث اليهم من الامة قاطبة فحذف المفعول للتعميم أو افعل الدعوة كما فى قولهم يعطى و يمنع أى يفعل الاعطاء والمنع فحذفه للقصد الى ايجاد نفس الفعل اشعارا بأن عموم الدعوة غنى عن البيان وانما المقصود الامر بايجادها على وجه مخصوص (الى سبيل ربك) الى الاسلام الذى عبر عنه تارة بالصراط المستقيم وأخرى بملة ابراهيم عليه السلام وفى التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية وتبليغ الشئ الى كماله اللائق شيئا فشيئا مع اضافة الرب الى ضمير النبى عليه الصلاة والسلام فى مقام الامر بدعوة الامة على الوجه الحكيم وتكميلهم باحكام الشريعة الشريفة من الدلالة على اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والايماء الى وجه بناء الحكم ما لا يخفى (بالحكمة) اى بالمقالة المحكمة الصحيحة وهو الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة (والموعظة الحسنة) اى الخطابيات المقنعة والعبر النافعة على وجه لايخفى عليهم أنك تناصحهم وتقصد ما ينفعهم فالاولى لدعوة خواص الامة الطالبين للحقائق والثانية لدعوة عوامهم ويجوز أن يكون المراد بهما القرآن المجيد فانه جامع لكلا الوصفين (وجادلهم) اى ناظر معانديهم (بالتى هى أحسن) ﴿ بالحكمة ﴾ بالطريقة التى هى أحسن طرق المناظرة والمجادلة من الرفق واللين واختيار الوجه الايسر واستعمال المقدمات المشهورة تسكينا لشغبهم واطفاء للهبهم كما فعله الخليل عليه السلام (ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله) الذى أمرك بدعوة

الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالطريق الاحسن وقد ذكر الله تعالى هذا الجدل فى آية أخرى فقال ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن ولما ذكر الله تعالى هذه الطرق الثلاثة وعطف بعضها على بعض وجب أن تكون طرقا متغايرة متباينة وما رأيت للمفسرين فيه كلاما ملخصا مضبوطا واعلم أن الدعوة الى المذهب والمقالة لابد وأن تكون مبنية على حجة و بينة والمقصود من ذكر الحجة اما تقرير ذلك المذهب وذلك الاعتقاد فى قلوب المستمعين واما أن يكون المقصود الزام الخصم وافحامه أما القسم الاول فينقسم أيضا الى قسمين لأن تلك الحجة اما أن تكون حجة حقيقية يقينية قطعية مبرأة عن احتمال النقيض واما أن لا تكون كذلك بل تكون حجة تفيد الظن الظاهر والاقناع الكامل فظهر بهذا التقسيم انحصار الحجج فى هذه الاقسام الثلاثة (أولها) الحجة القطعية المفيدة للعقائد اليقينية وذلك هو المسمى بالحكمة وهذه أشرف الدرجات وأعلى المقامات وهى التى قال الله فى صفتها ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا (وثانيها) الامارات الظنية والدلائل الاقناعية وهى الموعظة الحسنة (وثالثها) الدلائل التى يكون المقصود من ذكرها الزام الخصوم وافحامهم وذلك هو الجدل ثم هذا الجدل على قسمين (أحدهما) أن يكون دليلا مركبا من مقدمات مسلمة فى المشهور عند الجمهور أو مقدمات مسلمة عند ذلك القائل وهذا الجدل هو الجدل الواقع على الوجه الاحسن (والقسم الثانى) أن يكون ذلك الدليل مركبا من مقدمات باطلة فاسدة الا أن قائلها يحاول ترويجها على المستمعين بالسفاهة والشغب والحيل الباطلة والطرق الفاسدة وهذا القسم لا يليق بأهل الفضل انما اللائق بهم هو القسم الاول وذلك هو المراد بقوله تعالى وجادلهم بالتى هى أحسن فثبت بما ذكرنا انحصار الدلائل والحجج فى هذه الاقسام الثلاثة المذكورة فى هذه الآية اذا عرفت هذا فنقول أهل العلم ثلاث طوائف الكاملون الطالبون للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية والمكالمة مع هؤلاء لا تمكن الا بالدلائل القطعية اليقينية وهى الحكمة والقسم الثانى الذين تغلب على طباعهم المشاغبة والمخاصمة لا طلب المعرفة الحقيقية والعلوم اليقينية والمكالمة اللائقة بهؤلاء المجادلة التى تفيد الافحام والالزام وهذان القسمان هما الطرفان فالاول هو طرف الكمال والثانى طرف النقصان وأما القسم الثالث فهو الواسطة وهم الذين ما بلغوا فى الكمال الى حد الحكماء المحققين وفى النقصان والرذالة الى حد المشاغبين المخاصمين بل هم أقوام بقوا على الفطرة الاصلية والسلامة الخلقية وما بلغوا الى درجة الاستعداد لفهم الدلائل اليقينية والمعارف الحكمية والمكالمة مع هؤلاء لا تمكن الا بالموعظة الحسنة وأدناها المجادلة وأعلى مراتب الخلائق الحكماء المحققون وأوسطهم عامة الخلق وهم أرباب السلامة وفيهم الكثرة والغلبة وأدنى المراتب الذين جبلوا على طبيعة المنازعة والمخاصمة فقوله تعالى ادع الى سبيل ربك

الخلق اليه وأعرض عن قبول الحق بعدما عاين ما عاين من الحكم والمواعظ والعبر (وهو أعلم بالمهتدين) اليه بذلك وهذا تعليل لما ذكر من الامرين والمعنى والله تعالى أعلم اسلك فى الدعوة والمناظرة الطريقة المذكورة فانه تعالى هو أعلم بحال من لا يرعوى عن الضلال بموجب استعداده المكتسب و بحال من يصير أمره الى الاهتداء لما فيه من خير جبلى فما شرعه لك فى الدعوة هو الذى تقتضيه الحكمة فانه كاف فى هداية المهتدين وازالة عذر الضالين أو ما عليك الا ما ذكر من الدعوة والمجادلة بالاحسن وأما حصول الهداية أو الضلال والمجازاة عليهما فالى الله سبحانه اذ هو أعلم بمن يبقى على الضلال وبمن يهتدى اليه فيجازى كلا منهما بما يستحقه وتقديم الضالين لما أن مساق الكلام لهم وايراد الضلال بصيغة الفعل الدال على الحدوث لما أنه تغيير لفطرة الله التى فطر الناس عليها واعراض عن الدعوة وذلك أمر عارض بخلاف الاهتداء الذى هو عبارة عن الثبات على الفطرة والجريان على موجب الدعوة ولذلك جىء به على صيغة الاسم المنبىء عن الثبات وتكرير هو أعلم للتأكيد والاشعار بتباين حال المعلومين وما لهما من العقاب والثواب وبعد ما أمره عليه الصلاة والسلام فيما يختص به من شأن الدعوة بما أمره به من الوجه اللائق عقبه بخطاب شامل له ولمن شايعه فيما يعم الكل فقال (وان عاقبتم) أى ان أردتم المعاقبة على طريقة قول الطبيب للمحتمى ان أكلت فكل قليلا (فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) اى بمثل ما فعل بكم وقد عبر عنه بالعقاب على طريقة اطلاق اسم المسبب على السبب نحو كما تدين تدان أو على نهج المشاكلة والمقصود ايجاب مراعاة العدل مع من يناصبهم

بالحكمة معناه ادع الاقوياء الكاملين الى الدين الحق بالحكمة وهى البراهين القطعية اليقينية وعوام الخلق بالموعظة الحسنة وهى الدلائل اليقينية الاقناعية الظنية وتكلم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الاحسن الاكمل * ومن لطائف هذه الآية أنه قال ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة فقصر الدعوة على ذكر هذين القسمين لان الدعوة ان كانت بالدلائل القطعية فهى الحكمة وان كانت بالدلائل الظنية فهى الموعظة الحسنة أما الجدل فليس من باب الدعوة بل المقصود منه غرض آخر مغاير للدعوة وهو الالزام والافحام فلهذا السبب لم يقل ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل الاحسن بل قطع الجدل عن باب الدعوة تنبيها على أنه لا يحصل الدعوة وانما الغرض منه شىء آخر والله أعلم واعلم أن هذه المباحث تدل على انه تعالى أدرج فى هذه الآية هذه الاسرار العالية الشريفة مع أن أكثر الخلق كانوا غافلين عنها فظهر ان هذا الكتاب الكريم لا يهتدى الى ما فيه من الاسرار الا من كان من خواص أولى الابصار ثم قال تعالى ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين والمعنى انك مكلف بالدعوة الى الله تعالى بهذه الطرق الثلاثة فاما حصول الهداية فلا يتعلق بك فهو تعالى أعلم بالضالين وأعلم بالمهتدين والذى عندى فى هذا الباب ان جواهر النفوس البشرية مختلفة بالماهية فبعضها نفوس مشرقة صافية قليلة التعلق بالجسمانيات كثيرة الانجذاب الى عالم الروحانيات و بعضها مظلمة كدرة قوية التعلق بالجسمانيات عديمة الالتفات الى الروحانيات ولما كانت هذه الاستعدادات من لوازم جواهرها لا جرم يمتنع انقلابها وزوالها فلهذا قال تعالى اشتغل أنت بالدعوة ولا تطمع فى حصول الهداية للكل فانه تعالى هو العالم بضلال النفوس الضالة الجاهلة و باشراق النفوس المشرقة الصافية فلكل نفس فطرة مخصوصة وماهية مخصوصة كما قال فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله والله أعلم * قوله تعالى (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الواحدى هذه الآية فيها ثلاثة أقوال (أحدها) وهو الذى عليه العامة ان النبى صلى الله عليه وسلم لما رأى حمزة وقد مثلوا به قال والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك فنزل جبريل عليه السلام بخواتيم سورة النحل فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمسك عما أراد وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء وأبى بن كعب والشعبى وعلى هذا قالوا ان سورة النحل كلها مكية الا هذه الآيات الثلاث (والقول الثانى) ان هذا كان قبل الامر بالسيف والجهاد حين كان المسلمون قد أمروا بالقتال مع من يقاتلهم ولا يبدؤا بالقتال وهو قوله تعالى وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين وفى هذه الآية أمر الله بأن يعاقبوا بمثل ما يصيبهم

من غير تجاوز خير مآل الجدال الى القتال وأدى النزاع الى القراع فان الدعوة المأمور بها لا تكاد تنفك عن ذلك كيف لا وهي موجبة لصرف الوجوه عن القبل المعبودة وادخال الاعناق فى قلادة غير معهودة، قاضية عليهم بفساد ما يأتون وما يذرون من بطلان دين استمرت عليهم آباؤهم الاولون وقد ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وسدت عليهم طرق المحاجة والمناظرة وأرتجت دونهم أبواب المباحثة والمحاورة وقيل انه عليه الصلاة والسلام لما رأى حمزة رضى الله عنه يوم أحد قد مثل به قال لئن أظفرنى الله بهم لامثلن بسبعين مكانك فنزلت فكفر عن يمينه وكف عما اراده وقرئ وان عقبتم فعقبوا أى وان قفيتم بالانتصار فقفوا بمثل ما فعل بكم غير متجاوزين عنه والامر وان دل على اباحة المماثلة فى المثلة من غير تجاوز لكن فى تقييده بقوله وان عاقبتم حث على العفو تعريضا وقد صرح به على الوجه الآكد فقيل (ولئن صبرتم) اى عن المعاقبة بالمثل (لهو) اى لصبركم ذلك (خير) لكم من الانتصار بالمعاقبة وانما قيل (للصابرين) مدحا لهم وثناء عليهم بالصبر أو وصفا لهم بصفة تحصل لهم عند ترك المعاقبة ويجوز عود الضمير الى مطلق الصبر المدلول عليه بالفعل فيدخل فيه صبرهم كدخول أنفسهم فى جنس الصابرين دخولا أوليا ثم أمر عليه الصلاة والسلام صريحا بما ندب اليه غيره تعريضا من الصبر لانه أولى الناس بعزائم الامور لزيادة علمه بشؤنه سبحانه ووفور وثوقه به فقيل (واصبر) اى على ما أصابك من جهتهم من فنون الآلام والاذية وعاينت من اعراضهم عن الحق بالكلية (وما صبرك الا بالله) استثناء مفرغ من أعم الاشياء أى

من العقوبة ولا يزيدوا (والقول الثالث) ان المقصود من هذه الآية نهى المظلوم عن استيفاء الزيادة من الظالم وهذا قول مجاهد والنخعى وابن سيرين قال ابن سيرين ان أخذ منك رجل شيئا فخذ منه مثله وأقول ان حمل هذه الآية على قصة لا تعلق لها بما قبلها يوجب حصول سوء الترتيب فى كلام الله تعالى وذلك يطرق الطعن اليه وهو فى غاية البعد بل الاصوب عندى أن يقال المراد أنه تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم أن يدعو الخلق الى الدين الحق بأحد الطرق الثلاثة وهى الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالطريق الاحسن ثم ان تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم وبالاعراض عنه والحكم عليه بالكفر والضلالة وذلك مما يشوش القلوب ويوحش الصدور ويحمل أكثر المستمعين على قصد ذلك الداعى بالقتل تارة وبالضرب ثانيا وبالشتم ثالثا ثم ان ذلك المحق اذا شاهد تلك السفاهات وسمع تلك المشاغبات لا بد وأن يحمله طبعه على تأديب أولئك السفهاء تارة بالقتل وتارة بالضرب فعند هذا أمر المحقين فى هذا المقام برعاية العدل والانصاف وترك الزيادة فهذا هو الوجه الصحيح الذى يجب حمل الآية عليه فان قيل فهل تقدحون فيما روى أنه عليه السلام ترك العزم على المثلة وكفر عن يمينه بسبب هذه الآية قلنا لا حاجة الى القدح فى تلك الرواية لانا نقول تلك الواقعة داخلة فى عموم هذه الآية فيمكن التمسك فى تلك الواقعة بعموم هذه الآية انما الذى ينازع فيه انه لا يجوز قصر هذه الآية على هذه الواقعة لان ذلك يوجب سوء الترتيب فى كلام الله تعالى (المسئلة الثانية) اعلم أنه تعالى أمر برعاية العدل والانصاف فى هذه الآية ورتب ذلك على أربع مراتب (المرتبة الاولى) قوله وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به يعنى ان رغبتم فى استيفاء القصاص فاقنعوا بالمثل ولا تزيدوا عليه فان استيفاء الزيادة ظلم والظلم ممنوع منه فى عدل الله ورحمته وفى قوله وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به دليل على ان الاولى له أن لا يفعل كما انك اذا قلت للمريض ان كنت تأكل الفاكهة فكل التفاح كان معناه ان الاولى بك أن لا تأكله فذكر تعالى بطريق الرمز والتعريض على ان الاولى تركه (والمرتبة الثانية) الانتقال من التعريض الى التصريح وهو قوله ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وهذا تصريح بأن الاولى ترك ذلك الانتقام لان الرحمة أفضل من القسوة والانفاع أفضل من الايلام (المرتبة الثالثة) وهو ورود الامر بالجزم بالترك وهو قوله واصبر لانه فى المرتبة الثانية ذكر ان الترك خير وأولى وفى هذه المرتبة الثالثة صرح بالامر بالصبر ولما كان الصبر فى هذا المقام شاقا شديدا ذكر بعده ما يفيد سهولته فقال وما صبرك الا بالله أى بتوفيقه ومعونته وهذا هو السبب الكلى الاصلى المفيد فى حصول الصبر وفى حصول جميع أنواع الطاعات ولما ذكر هذا السبب الكلى الاصلى ذكر بعده ما هو السبب الجزئى القريب فقال ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون وذلك لان اقدام الانسان على الانتقام وعلى ايصال الضرر بالغير لا يكون الا عند هيجان الغضب

وماصبرك ملابسا ومصحوبا بشئ من الاشياء الا بالله اى بذكره والاستغراق فى مراقبة شؤنه والتبتل اليه بمجامع الهمة وفيه من تسليته عليه الصلاة والسلام وتهوين مشاق الصبر عليه وتشريفه مالامزيد عليه أو الا بمشيئته المبنية على حكم بالغة مستتبعة لعواقب حميدة فالتسلية من حيث اشتماله على غايات جميلة وقيل الا بتوفيقه ومعونته فهى من حيث تسهيله وتيسيره فقط (ولا تحزن عليهم) أى على الكافرين بوقوع اليأس من ايمانهم بك ومتابعتهم لك نحو فلا تأس على القوم الكافرين وقيل على المؤمنين ومافعل بهم والاول هو الانسب بجزالة النظم الكريم (ولاتك فى ضيق) بالفتح وقرئ بالكسر وهما لغتان كالقول والقيل أى لاتكن فى ضيق صدر وحرج ويجوز أن يكون الاول تخفيف ضيق كهين من هين اى فى امر ضيق (مما يمكرون) اى من مكرهم بك فيما يستقبل فالاول نهى عن التألم بمطلوب من قبلهم فات والثانى عن التألم بمحذور من جهتهم آت والنهى عنهما مع أن انتفاءهما من لوازم الصبر المأمور به لاسيما على الوجه الاول لزيادة التأكيد واظهار كمال العناية بشأن التسلية والافهل يخطر ببال من توجه الى الله سبحانه بشراشر نفسه متنزها عن كل ماسواه من الشواغل شئ من مطلوب فينهى عن الحزن بفواته أو محذور فيكف عن الخوف من وقوعه (ان الله مع الذين اتقوا) تعليل لماسبق من الامر والنهى والمراد بالمعية الولاية الدائمة التى لاتحوم حول صاحبها شائبة شئ من الجزع والحزن وضيق الصدر ومايشعر به دخول كلمة مع من متبوعية المتقين انما هى من حيث انهم المباشرون للتقوى وكذا الحال فى قوله سبحانه ان الله مع

وشدة الغضب لاتحصل الالاحد أمرين أحدهما فوات نفع كان حاصلا فى الماضى واليه الاشارة بقوله ولاتحزن عليهم قيل معناه ولاتحزن على قتلى أحد ومعناه ولاتحزن بسبب فوت أولئك الاصدقاء ويرجع حاصله الى فوت النفع والسبب الثانى لشدة الغضب توقع ضرر فى المستقبل واليه الاشارة بقوله ولاتك فى ضيق مما يمكرون ومن وقف على هذه اللطائف عرف أنه لايمكن كلام أدخل فى الحسن والضبط من هذا الكلام بقى فى لفظ الآية مباحث (البحث الاول) قرأ ابن كثير ولاتك فى ضيق بكسر الضاد وفى النمل مثله والباقون بفتح الضاد فى الحرفين أما الوجه فى القراءة المشهورة فأمور قال أبو عبيدة الضيق بالكسر فى قلة المعاش والمساكن وماكان فى القلب فانه الضيق وقال أبو عمرو الضيق بالكسر الشدة والضيق بفتح الضاد الغم وقال القتبى ضيق تخفيف ضيق مثل هين وهين ولين ولين وبهذا الطريق قلنا انه تصح قراءة ابن كثير (البحث الثانى) قرئ ولاتكن فى ضيق (البحث الثالث) هذا من كلام المقلوب لان الضيق صفة والصفة تكون حاصلة فى الموصوف ولايكون الموصوف حاصلا فى الصفة فكان المعنى فلايكن الضيق فيك الا أن الفائدة فى قوله ولاتك فى ضيق هو أن الضيق اذا عظم وقوى صار كالشئ المحيط بالانسان من كل الجوانب وصار كالقميص المحيط به فكانت الفائدة فى ذكر هذا اللفظ هذا المعنى والله أعلم (المرتبة الرابعة) قوله ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وهذا يجرى مجرى التهديد لان فى المرتبة الاولى رغب فى ترك الانتقام على سبيل الرمز وفى المرتبة الثانية عدل عن الرمز الى التصريح وهو قوله ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وفى المرتبة الثالثة امرنا بالصبر على سبيل الجزم وفى هذه المرتبة الرابعة كأنه ذكر الوعيد فى فعل الانتقام فقال ان الله مع الذين اتقوا عن استيفاء الزيادة والذين هم محسنون فى ترك أصل الانتقام فان أردت أن أكون معك فكن من المتقين ومن المحسنين ومن وقف على هذا الترتيب عرف أن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر يجب أن يكون على سبيل الرفق واللطف مرتبة فمرتبة ولما قال الله لرسوله ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ذكر هذه المراتب الاربعة تنبيها على أن الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة يجب أن تكون واقعة على هذا الوجه وعند الوقوف على هذه اللطائف يعلم العاقل أن هذا الكتاب الكريم بحر لاساحل له (المسئلة الثالثة) قوله ان الله مع الذين اتقوا معيته بالرحمة والفضل والرتبة وقوله الذين اتقوا اشارة الى التعظيم لامر الله تعالى وقوله والذين هم محسنون اشارة الى الشفقة على خلق الله وذلك يدل على أن كمال السعادة للانسان فى هذين الامرين أعنى التعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله وعبر عنه بعض المشايخ فقال كمال الطريق صدق مع الحق وخلق مع الخلق وقال الحكماء كمال الانسان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به وعن هرم بن حيان انه قيل له عند القرب من الوفاة أوص فقال انما الوصية من المال ولامال لى ولكنى أوصيكم بخواتيم

الصابرين ونظائرهما كافة والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منه الجامعة لما تحتهامن مرتبة التوقى عن الشرك ومرتبة التجنب عن كل مايؤثم من فعل وترك أعنى التنزه عن كل مايشغل سره عن الحق والتبتل اليه بشراشر نفسه وهو التقوى الحقيقى المورث لولايته تعالى المقرونة ببشارة قوله سبحانه ألا ان أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون والمعنى ان الله ولى الذين تبتلوا اليه بالكلية وتنزهوا عن كل مايشغل سرهم عنه فلم يخطر ببالهم شئ من مطلوب أو محذور فضلا عن الحزن بفواته أو الخوف من وقوعه وهو المعنى بما به الصبر المأمور به حسبما أشير اليه وبه يحصل التقريب ويتم التعليل كما فى قوله تعالى فاصبر ان العاقبة للمتقين على أحد التفسيرين كما حقق فى مقامه والا فمجرد التوقى عن المعاصى لايكون مدار الشئ من العزائم المرخص فى تركها فكيف بالصبر المشار اليه ورديفه وانما مداره المعنى المذكور فكأنه قيل ان الله مع الذين صبروا وانما أوثر ماعليه النظم الكريم مبالغة فى الحث على الصبر بالتنبيه على أنه من خصائص أجل النعوت الجليلة وروادفه كما أن قوله تعالى (والذين هم محسنون) للاشعار بأنه من باب الاحسان الذى يتنافس فيه المتنافسون على مافصل ذلك حيث قيل واصبر فان الله لايضيع أجر المحسنين وقد نبه على أن كلا من الصبر والتقوى من قبيل الاحسان فى قوله تعالى ﴿ فانزل ﴾ انه من يتق ويصبر فان الله لايضيع أجر المحسنين وحقيقة الاحسان الاتيان بالاعمال على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسره عليه الصلاة والسلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن

سورة النحل (المسئلة الرابعة) قال بعضهم ان قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين منسوخ بآية السيف وهذا فى غاية البعد لان المقصود من هذه الآية تعليم حسن الادب فى كيفية الدعوة الى الله تعالى وترك التعدى وطلب الزيادة ولا تعلق لهذه الاشياء بآية السيف وأكثر المفسرين مشغوفون بتكثير القول بالنسخ ولا أرى فيه فائدة والله أعلم بالصواب قال المصنف رحمه الله تم تفسير هذه السورة ليلة الثلاثا بعد العشاء الآخرة بزمان معتدل وقال رحمه الله الحق عزيز والطريق بعيد والمركب ضعيف والقرب بعد والوصل هجر والحقائق مصونة والمعانى فى غيب الغيب محصونة والاسرار فيما وراء العز مخزونة وبيد الخلق القيل والقال والكمال ليس الالله ذى الاكرام والجلال والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد النبى الامى وآله وصحبه وسلم

---

* (سورة بنى اسرأيل عددها مائة آية وعشر آيات عن ابن عباس أنها مكية غير قوله وان كادوا ليستفزونك من الارض الى قوله واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا فانها مدنيات نزلت حين جاء وفد ثقيف) *

---

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال النحويون سبحان اسم علم للتسبيح يقال سبحت الله تسبيحا وسبحانا فالتسبيح هو المصدر وسبحان اسم علم للتسبيح كقولك كفرت اليمين تكفيرا وكفرانا وتفسيره تنزيه الله تعالى من كل سوء قال صاحب النظم السبح فى اللغة التباعد يدل عليه قوله تعالى ان لك فى النهار سبحا أى تباعدا فمعنى سبح الله تعالى اى بعده ونزهه عما لاينبغى وتمام المباحث العقلية فى لفظ التسبيح فقد ذكرناها فى أول سورة الحديد وقد جاء فى لفظ التسبيح معان أخرى (أحدها) ان التسبيح يذكر بمعنى الصلاة ومنه قوله تعالى فلولا أنه كان من المسبحين أى من المصلين والسبحة الصلاة النافلة وانما قيل للمصلى مسبح لانه معظم لله بالصلاة ومنزه له عما لاينبغى (وثانيها) ورد التسبيح بمعنى الاستثناء فى قوله تعالى قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون أى تستثنون وتأويله أيضا يعود الى تعظيم الله تعالى فى الاستثناء بمشيئته (وثالثها) جاء فى الحديث لأحرقت سبحات وجهه ما أدركت من شئ قيل معناه نور وجهه وقيل سبحات وجهه نور وجهه الذى اذا رآه الرائى قال سبحان الله وقوله أسرى قال أهل اللغة أسرى وسرى لغتان وقوله بعبده أجمع المفسرون على ان المراد محمد عليه الصلاة والسلام وسمعت الشيخ الامام الوالد عمر بن الحسين رحمه الله قال سمعت الشيخ الامام أبا القاسم سليمان الانصارى قال لما وصل محمد صلوات الله عليه الى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة فى المعارج أوحى الله تعالى اليه يا محمد بم أشرفك قال يارب بأن تنسبنى الى نفسك بالعبودية

فأنزل الله فيه سبحان الذى أسرى بعبده وقوله ليلا نصب على الظرف فان قيل الاسراء لايكون الا بالليل فما معنى ذكر الليل قلنا أراد بقوله ليلا بلفظ التنكير تقليل مدة الاسراء وأنه أسرى به فى بعض الليل من مكة الى الشأم مسيرة أربعين ليلة وذلك أن التنكير فيه قد دل على معنى البعضية واختلفوا فى ذلك الليل قال مقاتل كان ذلك الليل قبل الهجرة بسنة ونقل صاحب الكشاف عن أنس والحسين أنه كان ذلك قبل البعثة وقوله من المسجد الحرام اختلفوا فى المكان الذى أسرى به منه فقيل هو المسجد الحرام بعينه وهو الذى يدل عليه ظاهر لفظ القرآن وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال بينا أنا فى المسجد الحرام فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان اذ أتانى جبريل بالبراق وقيل أسرى به من دار أم هانئ بنت أبى طالب والمراد على هذا القول بالمسجد الحرام الحرم لاحاطته بالمسجد والتباسه به وعن ابن عباس الحرم كله مسجد وهذا قول الاكثرين وقوله الى المسجد الاقصى اتفقوا على أن المراد منه بيت المقدس وسمى بالاقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام وقوله الذى باركنا حوله قيل بالثمار والازهار وقيل بسبب أنه مقر الانبياء ومهبط الملائكة واعلم أن كلمة الى لانتهاء الغاية فمدلول قوله الى المسجد الاقصى أنه وصل الى حد ذلك المسجد فأما انه دخل ذلك المسجد أم لا فليس فى اللفظ دلالة عليه وقوله لنريه من آياتنا يعنى ما رأى فى تلك الليلة من العجائب والآيات التى تدل على قدرة الله تعالى فان قالوا قوله لنريه من آياتنا يدل على أنه تعالى ما أراه الا بعض الآيات لان كلمة من تفيد التبعيض وقال فى حق ابراهيم وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض فيلزم أن يكون معراج ابراهيم عليه السلام أفضل من معراج محمد صلى الله عليه وسلم قلنا الذى رآه ابراهيم ملكوت السموات والارض والذى رآه محمد صلى الله عليه وسلم بعض آيات الله تعالى ولا شك ان آيات الله أفضل ثم قال انه هو السميع البصير أى ان الذى أسرى بعبده هو السميع لاقوال محمد البصير بأفعاله العالم بكونها مهذبة خالصة عن شوائب الرياء مقرونة بالصدق والصفاء ولهذا السبب خصه الله تعالى بهذه الكرامات وقيل المراد سميع لما يقولون للرسول فى هذا الامر بصير بما يعملون فى هذه الواقعة (المسئلة الثانية) اختلف فى كيفية ذلك الاسراء فالاكثرون من طوائف المسلمين اتفقوا على انه أسرى بجسد رسول الله صلى الله عليه وسلم والاقلون قالوا انه ما أسرى الا بروحه حكى عن محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره عن حذيفة أنه قال ذلك رؤيا وانه ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما أسرى بروحه وحكى هذا القول أيضا عن عائشة رضى الله عنها وعن معاوية رضى الله عنه واعلم أن الكلام فى هذا الباب يقع فى مقامين (أحدهما) فى اثبات الجواز العقلى والثانى فى الوقوع (أما المقام الاول) وهو اثبات الجواز العقلى فنقول الحركة الواقعة فى السرعة الى هذا الحد ممكنة فى نفسها والله تعالى قادر على جميع الممكنات وذلك يدل على أن حصول الحركة فى هذا

ثراه فانه بر التى وتكرير الموصول للايذان بكفاية كل من الصلتين فى ولايته سبحانه من غير ان تكون احداهما تتمة للاخرى وايراد الاولى فعلية للدلالة على الحدوث كما أن ايراد الثانية اسمية لافادة كون مضمونها شيمة راسخة لهم وتقديم التقوى على الاحسان لما ان التخلية متقدمة على التحلية والمراد بالموصولين اما جنس المتقين والمحسنين وهو عليه الصلاة والسلام داخل فى زمرتهم دخولا أوليا واما هو عليه الصلاة والسلام ومن شايعه عبر عنهم بذلك مدحا لهم وثناء عليهم بالنعتين الجميلين وفيه رمز الى أن صنيعه عليه الصلاة والسلام مستتبع لاقتداء الامة به كقول من قال لابن عباس رضى الله عنهما عند التعزية

اصبر نكن بك صابرين فانما ✽ صبر الرعية عند صبر الراس

✽ عن هرم بن حيان أنه قيل له حين الاحتضار أوص قال انما الوصية من المال وأوصيكم بخواتيم سورة النحل ✽ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله تعالى بما أنعم عليه فى دار الدنيا وان مات فى يوم تلاها أو ليلته كان له من الاجر كالذى مات وأحسن الوصية والحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسوله وآله أجمعين

✽ (سورة بنى اسرائيل مائة واحدى عشرة آية مكية الا الآيات فى آخرها) ✽

✽ (بسم الله الرحمن الرحيم) ✽ (سبحان الذى أسرى بعبده) سبحان علم للتسبيح كعثمان للرجل وحيث كان المسمى معنى لا عينا وجنسا لا شخصا لم تكن اضافته من قبيل ما فى زيد المعارك أو حاتم طيئ وانتصابه بفعل متروك الاظهار تقديره أسبح الله سبحان الخ وفيه ما لا يخفى من الدلالة على التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من السبح الذى هو الذهاب والابعاد فى الارض ومنه فرس

سبوح أى واسع الجرى ومن جهة النقل الى التفعيل ومن جهة العدول من المصدر الى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما وهو علم يشير الى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة قيامه مقام المصدر مع الفعل وقيل هو مصدر كغفران بمعنى التنزه ففيه مبالغة من حيث اضافة التنزه الى ذاته المقدسة ومناسبة تامة بين المحذوف وبين ما عطف عليه فى قوله تعالى سبحانه وتعالى كأنه قيل تنزه بذاته وتعالى والاسراء السير بالليل خاصة كالسرى وقوله تعالى (ليلا) لافادة قلة زمان الاسراء لما فيه من التنكير الدال على البعضية من حيث الاجزاء دلالته على البعضية من حيث الافراد فان قولك سرت ليلا كما يفيد بعضية زمان سيرك من الليالى يفيد بعضيته من فرد واحد منها بخلاف ما اذا قلت سرت الليل فانه يفيد استيعاب السير له جميعا فيكون معيارا للسير لا ظرفا له ويؤيده قراءة من الليل أى بعضه وايثار لفظ العبد للايذان بتمحضه عليه الصلاة والسلام فى عبادته سبحانه وبلوغه فى ذلك غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية حسبما يلوح به مبدأ الاسراء ومنتهاه واضافة التنزيه أو التنزه الى الموصول المذكور للاشعار بعلية ما فى حيز الصلة للمضاف فان ذلك من أدلة كمال قدرته وبالغ حكمته ونهاية تنزهه عن صفات المخلوقين (من المسجد الحرام) اختلف فى مبدا الاسراء فقيل ﴿رضى﴾ هو المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر فانه روى عنه عليه الصلاة السلام أنه قال بينا أنا فى المسجد الحرام فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان اذ أتانى جبريل عليه الصلاة والسلام بالبراق وقيل هو دار أم هانئ بنت أبى طالب والمراد بالمسجد الحرام الحرم لاحاطته بالمسجد والتباسه به

الحد من السرعة غير ممتنع فنفتقر ههنا الى بيان مقدمتين (المقدمة الاولى) فى اثبات ان الحركة الواقعة الى هذا الحد ممكنة فى نفسها ويدل عليه وجوه (الاول) ان الفلك الاعظم يتحرك من أول الليل الى آخره ما يقرب من نصف الدور وقد ثبت فى الهندسة أن نسبة القطر الواحد الى الدور نسبة الواحد الى ثلاثة وسبع فيلزم أن تكون نسبة نصف القطر الى نصف الدور نسبة الواحد الى ثلاثة وسبع وبتقدير أن يقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتفع من مكة الى ما فوق الفلك الاعظم فهو لم يتحرك الا بمقدار نصف القطر فلما حصل فى ذلك القدر من الزمان حركة نصف الدور فكان حصول الحركة بمقدار نصف القطر أولى بالامكان فهذا برهان قاطع على أن الارتقاء من مكة الى ما فوق العرش فى مقدار ثلث من الليل أمر ممكن فى نفسه واذا كان كذلك كان حصوله فى كل الليل أولى بالامكان والله أعلم (الوجه الثانى) وهو أنه ثبت فى الهندسة ان قرص الشمس يساوى كرة الارض مائة وستين وكذا مرة ثم انا نشاهد أن طلوع القرص يحصل فى زمان لطيف سريع وذلك يدل على أن بلوغ الحركة فى السرعة الى الحد المذكور أمر ممكن فى نفسه (الوجه الثالث) أنه كما يستبعد فى العقل صعود الجسم الكثيف من مركز العالم الى ما فوق العرش فكذلك يستبعد نزول الجسم اللطيف الروحانى من فوق العرش الى مركز العالم فان كان القول بمعراج محمد صلى الله عليه وسلم فى الليلة الواحدة ممتنعا فى العقول كان القول بنزول جبريل عليه الصلاة والسلام من العرش الى مكة فى اللحظة الواحدة ممتنعا ولو حكمنا بهذا الامتناع كان ذلك طعنا فى نبوة جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام والقول بثبوت المعراج فرع على تسليم جواز أصل النبوة فثبت ان القائلين بامتناع حصول حركة سريعة الى هذا الحد يلزمهم القول بامتناع نزول جبريل عليه الصلاة والسلام فى اللحظة من العرش الى مكة ولما كان ذلك باطلا كان ما ذكروه أيضا باطلا فان قالوا نحن لا نقول ان جبريل عليه الصلاة والسلام جسم ينتقل من مكان الى مكان وانما نقول المراد من نزول جبريل عليه السلام هو زوال الحجب الجسمانية عن روح محمد صلى الله عليه وسلم حتى يظهر فى روحه من المكاشفات والمشاهدات بعض ما كان حاضرا متجليا فى ذات جبريل عليه الصلاة والسلام قلنا تفسير الوحى بهذا الوجه هو قول الحكماء فاما جمهور المسلمين فهم مقرون بأن جبريل عليه الصلاة والسلام جسم وان نزوله عبارة عن انتقاله من عالم الافلاك الى مكة واذا كان كذلك كان الالزام المذكور قويا روى أنه عليه الصلاة والسلام لما ذكر قصة المعراج كذبه الكل وذهبوا الى أبى بكر وقالوا له ان صاحبك يقول كذا وكذا فقال أبو بكر ان كان قد قال ذلك فهو صادق ثم جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الرسول له تلك التفاصيل فكلما ذكر شيئا قال أبو بكر صدقت فلما تم الكلام قال أبو بكر أشهد انك رسول الله حقا فقال له الرسول وأنا أشهد انك الصديق حقا وحاصل الكلام ان أبا بكر

رضى الله عنه كأنه قال لما سلمت رسالته فقد صدقته فيما هو أعظم من هذا فكيف أكذبه في هذا (الوجه الرابع) ان أكثر أرباب الملل والنحل يسلمون وجود ابليس و يسلمون انه هو الذى يتولى القاء الوسوسة فى قلوب بنى آدم و يسلمون انه يمكنه الانتقال من المشرق الى المغرب لاجل القاء الوساوس فى قلوب بنى آدم فلما سلموا جواز مثل هذه الحركة السريعة فى حق ابليس فلأن يسلموا جواز مثلها فى حق أكابر الانبياء كان أولى وهذا الالزام قوى على من يسلم ان ابليس جسم ينتقل من مكان الى مكان أما الذين يقولون انه من الارواح الخبيثة الشريرة وانه ليس بجسم ولا جسمانى فهذا الالزام غير وارد عليهم الا أن أكثر أرباب الملل والنحل يوافقون على أنه جسم لطيف متنقل فان قالوا هب ان الملائكة والشياطين يصح فى حقهم حصول مثل هذه الحركة السريعة لانهم أجسام لطيفة ولا يمتنع حصول مثل هذه الحركة السريعة فى ذواتها أما الانسان فانه جسم كثيف فكيف يعقل حصول مثل هذه الحركة السريعة فيه قلنا نحن انما استدللنا بأحوال الملائكة والشياطين على ان حصول حركة منتهية فى السرعة الى هذا الحد ممكن فى نفس الامر وأما بيان ان هذه الحركة لما كانت ممكنة الوجود فى نفسها كانت أيضا ممكنة الحصول فى جسم البدن الانسانى فذاك مقام آخر سيأتى تقريره ان شاء الله تعالى (الوجه الخامس) انه جاء فى القرآن ان الرياح كانت تسير بسليمان عليه الصلاة والسلام الى المواضع البعيدة فى الاوقات القليلة قال تعالى فى صفة مسير سليمان عليه الصلاة والسلام غدوها شهر ورواحها شهر بل نقول الحس يدل على أن الرياح تنتقل عند شدة هبوبها من مكان الى مكان فى غاية البعد فى اللحظة الواحدة وذلك أيضا يدل على أن مثل هذه الحركة السريعة فى نفسها ممكنة (الوجه السادس) ان القرآن يدل على ان الذى عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن الى أقصى الشام فى مقدار لمح البصر بدليل قوله تعالى قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك واذا كان ممكنا فى حق بعض الناس علمنا أنه فى نفسه ممكن الوجود (الوجه السابع) ان من الناس من يقول الحيوان انما يبصر المبصرات لاجل ان الشعاع يخرج من عينيه و يتصل بالمبصر ثم انا اذا فتحنا العين ونظرنا الى زحل رأيناه فعلى قول هؤلاء انتقل شعاع العين من أبصارنا الى زحل فى تلك اللحظة اللطيفة وذلك يدل على أن الحركة الواقعة على هذا الحد من السرعة من الممكنات لا من الممتنعات فثبت بهذه الوجوه ان حصول الحركة المنتهية فى السرعة الى هذا الحد أمر ممكن الوجود فى نفسه (المقدمة الثانية) فى بيان ان هذه الحركة لما كانت ممكنة الوجود فى نفسها وجب أن لا يكون حصولها فى جسد محمد صلى الله عليه وسلم ممتنعا والذى يدل عليه انا بينا بالدلائل القطعية ان الاجسام متماثلة فى تمام ماهياتها فلما صح حصول مثل هذه الحركة فى حق بعض الاجسام وجب امكان حصولها فى سائر الاجسام وذلك يوجب القطع بأن حصول مثل هذه الحركة فى جسد محمد صلى الله

أو لان الحرم كله مسجد فانه روى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه عليه الصلاة والسلام كان نائما فى بيت ام هانئ بعد صلاة العشاء فكان ما كان فقصه عليها فلما قام ليخرج الى المسجد تشبثت بثوبه عليه الصلاة والسلام لتمنعه خشية أن يكذبه القوم قال عليه الصلاة والسلام وان كذبونى فلما خرج جلس اليه أبو جهل فأخبره صلى الله عليه وسلم بحديث الاسراء فقال أبو جهل يا معشر كعب بن لؤى بن غالب هلم فحدثهم فمن مصفق وواضع يده على رأسه تعجبا وانكارا وارتد ناس ممن كان آمن به وسعى رجال الى أبى بكر فقال ان كان قال ذلك لقد صدق قالوا أتصدقه على ذلك قال انى أصدقه على أبعد من ذلك فسمى الصديق وكان فيهم من يعرف بيت المقدس فاستنعتوه المسجد فجلى له بيت المقدس فطفق ينظر اليه و ينعته لهم فقالوا أما النعت فقد أصاب فقالوا أخبرنا عن عيرنا فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها وقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية فقال قائل منهم هذه والله الشمس قد اشرقت فقال آخر هذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل اورق كما قال محمد ثم لم يؤمنوا قاتلهم الله أنى يؤفكون * واختلف فى وقته أيضا فقيل كان قبل الهجرة بسنة وعن أنس والحسن أنه كان قبل البعثة واختلف أيضا أنه فى اليقظة أو فى المنام فعن الحسن أنه كان فى المنام وأكثر الاقاويل بخلافه والحق أنه كان فى المنام قبل البعثة وفى اليقظة بعدها واختلف أيضا أنه كان جسمانيا او روحانيا فعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن عرج بروحه وعن معاوية أنه قال انما عرج بروحه

والحق انه كان

جسمانيا على ماينبئ عنه التصدير بالتنزيه وما فى ضمنه من التعجب فان الروحانى ليس فى الاستبعاد والاستنكار وخرق العادة بهذه المثابة ولذلك تعجبت منه قريش وأحالوه ولا استحالة فيه فانه قد ثبت فى الهندسة أن قطر الشمس ضعف قطر الارض مائة ونيفا وستين مرة ثم ان طرفها الاسفل يصل الى موضع طرفها الاعلى بحركة الفلك الاعظم مع معاوقة حركة فلكها الها فى أقل من ثانية وقد تقرر أن الاجسام متساوية فى قبول الاعراض التى من جملتها الحركة وأن الله سبحانه قادر على كل ما يحيط به خيطة الامكان فيقدر على أن يخلق مثل تلك الحركة بل أسرع منها فى جسد النبى صلى الله عليه وسلم أو فيما يحمله ولولم يكن مستبعدا لم يكن معجزة (الى المسجد الاقصى) اى بيت المقدس سمى به اذ لم يكن حينئذ وراءه مسجد وفى ذلك من تربية معنى التنزيه والتعجب مالا يخفى (الذى باركنا حوله) ببركات الدين والدنيا لانه مهبط الوحى ومتعبد الانبياء عليهم الصلاة والسلام (لنريه) غاية للاسراء (من آياتنا) العظيمة التى من جملتها ذهابه فى برهة من الليل مسيرة شهر ولا يقدح فى ذلك كونه قبل الوصول الى المقصد ومشاهدة بيت المقدس وتمثل الانبياء له ووقوفه على مقاماتهم العلية عليهم الصلاة والسلام والالتفات الى التكلم لتعظيم تلك البركات والآيات وقرئ ليريه بالياء (انه هو السميع) لاقواله عليه الصلاة والسلام بلا أذن ﴿ أن ﴾ (البصير) بأفعاله بلا ابصر حسبما يؤذن به القصر فيكرمه ويقربه بحسب ذلك وفيه ايماء الى أن اسراء المذكور ليس الا لتكرمته عليه الصلاة والسلام ورفع منزلته والا فالاحاطة بأقواله وأفعاله حاصلة من غير حاجة الى التقريب والالتفات

عليه وسلم أمر ممكن الوجود فى نفسه واذا ثبت هذا فنقول ثبت بالدليل أن خالق العالم قادر على كل الممكنات وثبت ان حصول الحركة البالغة فى السرعة الى هذا الحد فى جسد محمد صلى الله عليه وسلم ممكن فوجب كونه تعالى قادرا عليه وحينئذ يلزم من مجموع هذه المقدمات ان القول بثبوت هذا المعراج أمر ممكن الوجود فى نفسه أقصى ما فى الباب أنه يبقى التعجب الا ان هذا التعجب غير مخصوص بهذا المقام بل هو حاصل فى جميع المعجزات فانقلاب العصا ثعبانا تبلع سبعين ألف حبل من الحبال والعصى ثم تعود فى الحال عصا صغيرة كما كانت أمر عجيب وخروج الناقة العظيمة من الجبل الاصم واظلال الجبل العظيم فى الهواء عجيب وكذا القول فى جميع المعجزات فان كان مجرد التعجب يوجب الانكار والدفع لزم الجزم بفساد القول باثبات المعجزات واثبات المعجزات فرع على تسليم أصل النبوة وان كان مجرد التعجب لا يوجب الانكار والابطال فكذا ههنا فهذا تمام القول فى بيان ان القول بالمعراج ممكن غير ممتنع والله أعلم (المقام الثانى) فى البحث عن وقوع المعراج قال أهل التحقيق الذى يدل على انه تعالى أسرى بروح محمد صلى الله عليه وسلم وجسده من مكة الى المسجد الاقصى القرآن والخبر أما القرآن فهو هذه الآية وتقرير الدليل ان العبد اسم لمجموع الجسد والروح فوجب أن يكون الاسراء حاصلا لمجموع الجسد والروح واعلم أن هذا الاستدلال موقوف على أن الانسان هو الروح وحده أو الجسد وحده أو مجموع الجسد والروح أما القائلون بأن الانسان هو الروح وحده فقد احتجوا عليه بوجوه (أحدها) ان الانسان شئ واحد باق من أول عمره الى آخره والأجزاء البدنية فى التبدل والتغير والانتقال والباقى غير متبدل فالانسان مغاير لهذا البدن (وثانيها) ان الانسان قد يكون عارفا بذاته المخصوصة حال ما يكون غافلا عن جميع أجزائه البدنية والمعلوم مغاير للمغفول عنه فالانسان مغاير لهذا البدن (وثالثها) ان الانسان يقول بمقتضى فطرته السليمة يدى ورجلى ودماغى وقلبى وكذا القول فى سائر الاعضاء فيضيف كلها الى ذاته المخصوصة والمضاف غير المضاف اليه فذاته المخصوصة وجب أن تكون مغايرة لكل هذه الاعضاء فان قالوا أليس أنه يضيف ذاته الى نفسه فيقول ذاتى ونفسى فيلزمكم أن تكون نفسه مغايرة لذاته وهذا محال قلنا نحن لا نتمسك بمجرد اللفظ حتى يلزمنا ما ذكرتموه بل انما نتمسك بمحض العقل فان صريح العقل يدل على أن الانسان موجود واحد وذلك الشئ الواحد يأخذ بآلة اليد ويبصر بآلة العين ويسمع بآلة الاذن فالانسان شئ واحد وهذه الاعضاء آلات له فى هذه الافعال وذلك يدل على أن الانسان شئ مغاير لهذه الاعضاء والآلات فثبت بهذه الوجوه ان الانسان شئ مغاير لهذه البنية ولهذا الجسد اذا ثبت هذا فنقول سبحان الذى أسرى بعبده المراد من العبد جوهر الروح وعلى هذا التقدير فلم يبق فى الآية دلالة على حصول الاسراء بالجسد فان قالوا فالاسراء بالروح ليس بأمر مخالف للعادة فلا يليق به

أن يقال سبحان الذى أسرى بعبده قلنا هذا أيضا بعيد لانه لا يبعد أن يقال انه حصل لروحه من أنواع المكاشفات والمشاهدات مالم يحصل لغيره البتة فلاجرم كان هذا الكلام لائقا به فهذا تقرير وجه السؤال على الاستدلال بهذه الآية فى اثبات المعراج بالروح والجسد معا والجواب أن لفظ العبد لا يتناول الا مجموع الروح والجسد والدليل عليه قوله تعالى أرأيت الذى ينهى عبدا اذا صلى ولاشك أن المراد من العبد ههنا مجموع الروح والجسد وقال أيضا فى سورة الجن وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا والمراد مجموع الروح والجسد فكذا ههنا وأما الخبر فهو الحديث المروى فى الصحاح وهو مشهور وهو يدل على الذهاب من مكة الى بيت المقدس ثم منه الى السموات واحتج المنكرون له بوجوه (أحدها) بالوجوه العقلية وهى ثلاثة أولها ان الحركة البالغة فى السرعة الى هذا الحد غير معقولة (وثانيها) ان صعود الجرم الثقيل الى السموات غير معقول (وثالثها) ان صعوده الى السموات يوجب انخراق الافلاك وذلك محال (والشبهة الثانية) ان هذا المعنى لو صح لكان أعظم من سائر المعجزات وكان يجب أن يظهر ذلك عند اجتماع الناس حتى يستدلوا به على صدقه فى ادعاء النبوة فاما أن يحصل ذلك فى وقت لا يراه أحد ولا يشاهده أحد فانه يكون ذلك عبثا وذلك لا يليق بالحكيم (والشبهة الثالثة) تمسكوا بقوله وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس وما تلك الرؤيا الا حديث المعراج وانما كان فتنة للناس لان كثيرا ممن آمن به لما سمع هذا الكلام كذبه وكفر به فكان حديث المعراج سببا لفتنة الناس فثبت ان ذلك رؤيا رآه فى المنام (الشبهة الرابعة) ان حديث المعراج اشتمل على أشياء بعيدة منها ماروى من شق بطنه وتطهيره بماء زمزم وهو بعيد لان الذى يمكن غسله بالماء هو النجاسات العينية ولا تاثير لذلك فى تطهير القلب عن العقائد الباطلة والاخلاق المذمومة ومنها ماروى من ركوب البراق وهو بعيد لانه تعالى لما سيره من هذا العالم الى عالم الافلاك فأى حاجة الى البراق ومنها ماروى أنه تعالى أوجب خمسين صلاة ثم ان محمدا صلى الله عليه وسلم لم يزل يتردد بين الله تعالى وبين موسى الى ان عاد الخمسون الى خمس بسبب شفقة موسى عليه الصلاة والسلام قال القاضى وهذا يقتضى نسخ الحكم قبل حضوره وانه يوجب البداء وذلك على الله تعالى محال فثبت ان ذلك الحديث مشتمل على مالا يجوز قبوله فكان مردودا والجواب عن الوجوه العقلية قد سبق فلا نعيدها (والجواب عن الشبهة الثانية) ماذكره الله تعالى وهو قوله لنريه من آياتنا وهذا كلام مجمل وفى تفصيله وشرحه وجوه (الاول) ان خيرات الجنة عظيمة وأهوال النار شديدة فلو أنه عليه الصلاة والسلام ماشاهدهما فى الدنيا ثم شاهدهما فى ابتداء يوم القيامة فربما رغب فى خيرات الجنة أو خاف من أهوال النار أما لما شاهدهما فى الدنيا فى ليلة المعراج فحينئذ لا يعظم وقعهما فى قلبه يوم القيامة فلا يبقى مشغول القلب بهما وحينئذ يتفرغ للشفاعة (الثانى) لا يمتنع أن تكون مشاهدته ليلة المعراج للانبياء والملائكة صارت

لى الغيبة لتربية المهابة (وآتينا موسى الكتاب) أى التوراة وفيه ايماء الى دعوته عليه الصلاة والسلام الى الطور وما وقع فيه من المناجاة جمعا بين الامرين المتحدين فى المعنى ولم يذكر ههنا العروج بالنبى عليه السلام الى السماء وما كان فيه مما لا يكتنه كنهه حسبما نطقت به سورة النجم تقريبا للاسراء الى قبول السامعين أى آتيناه التوراة بعد ما أسرينا به الى الطور (وجعلناه) أى ذلك الكتاب (هدى لبنى اسرائيل) يهتدون بما فى مطاويه (أن لا تتخذوا) أى لا تتخذوا نحو كتبت اليه أن افعل كذا وقرئ بالياء على أن ان مصدرية والمعنى آتينا موسى الكتاب لهداية بنى اسرائيل لئلا يتخذوا (من دونى وكيلا) أى ربا تكلون اليه أموركم والافراد لما أن فعيلا مفرد فى اللفظ جمع فى المعنى (ذرية من حملنا مع نوح) نصب على الاختصاص أو النداء على قراءة النهى والمراد تأكيد الحمل على التوحيد بتذكير انعامه تعالى عليهم فى ضمن انجاء آبائهم من الغرق فى سفينة نوح عليه السلام أو على أنه أحد مفعولى لا يتخذوا على قراءة النفى ومن دونى حال من وكيلا فيكون كقوله تعالى ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ

محذوف او بدل من واو لاتتخذوا بابدال الظاهر من ضمير المخاطب كما هو مذهب بعض البغاددة وقرئ ذرية بكسر الذال (انه) أى ان نوحا عليه الصلاة والسلام (كان عبدا شكورا) كثير الشكر فى مجامع حالاته وفيه ايذان بأن انجاء من معه كان ببركة شكره عليه الصلاة والسلام وحث للذرية على الاقتداء به وزجر لهم عن الشرك الذى هو أعظم مراتب الكفران وقيل الضمير لموسى عليه السلام (وقضينا) أى أتممنا وأحكمنا منزلين (الى بنى اسرائيل) أو موحين اليهم (فى الكتاب) أى فى التوراة فان الانزال والوحى الى موسى عليه السلام انزال ووحى اليهم (لتفسدن فى الارض) جواب قسم محذوف ويجوز اجراء القضاء المحتوم مجرى القسم كأنه قيل وأقسمنا لتفسدن (مرتين) مصدر والعامل فيه من غير جنسه أولاهما مخالفة حكم التوراة وقتل شعياء عليه الصلاة والسلام وحبس ارمياء حين أنذرهم سخط الله تعالى والثانية قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليه الصلاة والسلام (ولتعلن علوا كبيرا) لتستكبرن عن طاعة الله سبحانه أو لتغلبن الناس بالظلم والعدوان وتفرطن فى ذلك افراطا مجاوزا للحدود (فاذا جاء ﴿ قوله ❋ وعد أولاهما) أى أولى كرتى

سببا لتكامل مصلحته أو مصلحتهم (الثالث) أنه لا يبعد انه اذا صعد الفلك وشاهد أحوال السموات والكرسى والعرش صارت مشاهدة أحوال هذا العالم وأهواله حقيرة فى عينه فيحصل له زيادة قوة فى القلب باعتبارها يكون فى شروعه فى الدعوة الى الله تعالى أكمل وقلة التفاته الى أعداء الله تعالى أقوى يبين ذلك أن من عاين قدرة الله تعالى فى هذا الباب لا يكون حاله فى قوة النفس وثبات القلب على احتمال المكاره فى الجهاد وغيره الا اضعاف ما يكون عليه حال من لم يعاين واعلم ان قوله لنريه من آياتنا كالدلالة على ان فائدة ذلك الاسراء مختصة به وعائدة اليه على سبيل التعيين (والجواب عن الشبهة الثالثة) انا عند الانتهاء الى تفسير تلك الآية فى هذه السورة نبين ان تلك الرؤيا رؤيا عيان لا رؤيا منام (والجواب عن الشبهة الرابعة) لا اعتراض على الله تعالى فى أفعاله فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد والله أعلم (المسئلة الرابعة) أما العروج الى السموات والى ما فوق العرش فهذه الآية لا تدل عليه ومنهم من استدل عليه بأول سورة والنجم ومنهم من استدل عليه بقوله تعالى لتركبن طبقا عن طبق وتفسيرهما مذكور فى موضعه وأما دلالة الحديث فكما سلف والله أعلم ❋ قوله تعالى (وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى اسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا ذرية من حملنا مع نوح انه كان عبدا شكورا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان الكلام فى الآية التى قبل هذه الآية وفيها انتقل من الغيبة الى الخطاب ومن الخطاب الى الغيبة لان قوله سبحان الذى أسرى فيه ذكر الله على سبيل الغيبة وقوله باركنا حوله لنريه من آياتنا فيه ثلاثة ألفاظ دالة على الحضور وقوله انه هو السميع البصير يدل على الغيبة وقوله وآتينا موسى الكتاب الخ يدل على الحضور وانتقال الكلام من الغيبة الى الحضور وبالعكس يسمى صنعة الالتفات (المسئلة الثانية) ذكر الله تعالى فى الآية الاولى اكرامه محمدا صلى الله عليه وسلم بأن أسرى به وذكر فى هذه الآية أنه أكرم موسى عليه الصلاة والسلام قبله بالكتاب الذى آتاه فقال وآتينا موسى الكتاب يعنى التوراة وجعلناه هدى أى يخرجهم بواسطة ذلك الكتاب من ظلمات الجهل والكفر الى نور العلم والدين الحق وقوله ألا تتخذوا من دونى وكيلا وفيه ابحاث (البحث الاول) قرأ أبو عمرو ألا يتخذوا بالياء خبرا عن بنى اسرائيل والباقون بالتاء على الخطاب أى قلنا لهم لا تتخذوا (البحث الثانى) قال أبو على الفارسى ان قوله ألا تتخذوا فيه ثلاثة أوجه (أحدها) أن تكون أن ناصبة للفعل فيكون المعنى وجعلناه هدى لئلا تتخذوا (وثانيها) أن تكون أن بمعنى أى التى للتفسير وانصرف الكلام من الغيبة الى الخطاب فى قراءة العامة كما انصرف منها الى الخطاب والامر فى قوله وانطلق الملأ منهم أن امشوا فكذلك انصرف من الغيبة الى النهى فى قوله ألا تتخذوا (وثالثها) أن تكون أن زائدة ويجعل تتخذوا على القول المضمر والتقدير وجعلناه هدى لبنى اسرائيل فقلنا لا تتخذوا من دونى وكيلا (البحث الثالث)

قوله وكيلا أي ربا تكلون أموركم اليه أقول حاصل الكلام فى الآية أنه تعالى ذكر تشريف محمد صلى الله عليه وسلم بالاسراء ثم ذكر عقيبه تشريف موسى عليه الصلاة والسلام بانزال التوراة عليه ثم وصف التوراة بكونها هدى ثم بين ان التوراة انما كان هدى لاشتماله على النهى عن اتخاذ غير الله وكيلا وذلك هو التوحيد فرجع حاصل الكلام بعد رعاية هذه المراتب أنه لا معراج أعلى ولا درجة أشرف ولا منقبة أعظم من أن يصير المرء غرقا فى بحر التوحيد وأن لا يعول فى أمر من الامور الا على الله فان نطق نطق بذكر الله وان تفكر تفكر فى دلائل تنزيه الله تعالى وان طلب طلب من الله فيكون كله لله وبالله ثم قال ذرية من حملنا مع نوح وفى نصب ذرية وجهان (الاول) أن يكون نصبا على النداء يعنى ياذرية من حملنا مع نوح وهذا قول مجاهد لانه قال هذا نداء قال الواحدى وانما يصح هذا على قراءة من قرأ بالياء كأنه قيل لهم لا تتخذوا من دونى وكيلا ياذرية من حملنا مع نوح فى السفينة قال قتادة الناس كلهم ذرية نوح لانه كان معه فى السفينة ثلاثة بنين سام وحام ويافث فالناس كلهم من ذرية أولئك فكان قوله ياذرية من حملنا مع نوح قائما مقام قوله يا أيها الناس (الوجه الثانى) فى نصب قوله ذرية ان الاتخاذ فعل يتعدى الى مفعولين كقوله واتخذ الله ابراهيم خليلا والتقدير لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دونى وكيلا ثم انه تعالى أثنى على نوح فقال انه كان عبدا شكورا أى كان كثير الشكر روى أنه عليه الصلاة والسلام كان اذا أكل قال الحمد لله الذى أطعمنى ولو شاء أجاعنى واذا شرب قال الحمد لله الذى أسقانى ولو شاء أظمأنى واذا اكتسى قال الحمد لله الذى كسانى ولو شاء أعرانى واذا احتذى قال الحمد لله الذى حذانى ولو شاء أحفانى واذا قضى حاجته قال الحمد لله الذى أخرج عنى أذاه فى عافية ولو شاء حبسه وروى أنه كان اذا أراد الافطار عرض طعامه على من آمن به فان وجده محتاجا آثره به فان قيل قوله انه كان عبدا شكورا ما وجه ملاءمته لما قبله قلنا التقدير كأنه قال لا تتخذوا من دونى وكيلا ولا تشركوا بى لان نوحا عليه الصلاة والسلام كان عبدا شكورا وانما يكون العبد شكورا لو كان موحدا لا يرى حصول شئ من النعم الا من فضل الله وأنتم ذرية قومه فاقتدوا بنوح عليه السلام كما أن آباءكم اقتدوا به والله أعلم * قوله تعالى (وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الارض مرتين ولتعلن علوا كبيرا فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا) اعلم انه تعالى لما ذكر انعامه على بنى اسرائيل بانزال التوراة عليهم وبانه جعل التوراة هدى لهم بين انهم ما اهتدوا بهداه بل وقعوا فى الفساد فقال وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الارض مرتين وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) القضاء فى اللغة عبارة عن قطع الاشياء عن احكام ومنه قوله فقضاهن سبع سموات وقول الشاعر

الافساد أي حان وقت حلول العقاب الموعود (بعثنا عليكم) لمؤاخذتكم بجناياتكم (عبادا لنا) وقرئ عبيدا لنا (أولى بأس شديد) ذوى قوة و بطش فى الحروب هم سنجاريب من أهل نينوى وجنوده وقيل بختنصر عامل لهراسب وقيل جالوت (فجاسوا) أى ترددوا لطلبكم بالفساد وقرئ بالحاء والمعنى واحد وقرئ وجوسوا (خلال الديار) فى اوساطها للقتل والغارة وقرئ خلل الديار فقتلوا علماءهم وكبارهم وأحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفا وذلك من قبيل تولية بعض الظالمين بعضا مما جرت به السنة الالهية (وكان) ذلك (وعدا مفعولا) لا محالة بحيث لا صارف عنه ولا مبدل (ثم رددنا لكم الكرة) أى الدولة والغلبة (عليهم) على الذين فعلوا بكم ما فعلوا بعد مائة سنة حين تبتم ورجعتم عما كنتم عليه من الافساد والعلو قيل هى قتل بختنصر واستنقاذ بنى اسرائيل أسارا هم وأموالهم ورجوع الملك اليهم وذلك أنه لما ورث بهمن ابن اسفنديار الملك من جده كشتاسف بن لهراسب ألقى الله تعالى فى قلبه الشفقة عليهم فرد اساراهم الى الشام وملك عليهم دانيال عليه السلام فاستولوا على من كان فيها من أتباع بختنصر

* وعليهما مسرودتان قضاهما * داود فقوله وقضينا أي أعلمناهم وأخبرناهم بذلك وأوحينا اليهم وافظ الى صلة للايحاء لان معنى قضينا أوحينا اليهم كذا وقوله لتفسدن يريد المعاصي وخلاف أحكام التوراة وقوله في الارض يعني أرض مصر وقوله ولتعلن علوا كبيرا يعني أنه يكون استعلاؤكم على الناس بغير الحق استعلاء عظيما لانه يقال لكل متجبر قد علا وتعظم ثم قال فاذا جاء وعد أولاهما يعني أولى المرتين بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد والمعنى انه اذا جاء وعد الفساد في المرة الاولى أرسلنا عليكم قوما أولي بأس شديد ونجدة وشدة والبأس القتال ومنه قوله تعالى وحين البأس ومعنى بعثنا عليكم أرسلنا عليكم وخلينا بينكم وبينهم خاذلين اياكم واختلفوا في ان هؤلاء العباد من هم قيل ان بني اسرائيل تعظموا وتكبروا واستحلوا المحارم وقتلوا الانبياء وسفكوا الدماء وذلك أول الفسادين فسلط الله عليهم بختنصر فقتل منهم أربعين ألفا ممن يقرأ التوراة وذهب بالبقية الى أرض نفسه فبقوا هناك في الذل الى ان قيض الله ملكا آخر غزا اهل بابل واتفق أن تزوج بامرأة من بني اسرائيل فطلبت تلك المرأة من ذلك الملك أن يرد بني اسرائيل الى بيت المقدس ففعل وبعد مدة قامت فيهم الانبياء ورجعوا الى أحسن ماكانوا فهو قوله ثم رددنا لكم الكرة عليهم (والقول الثاني) ان المراد من قوله بعثنا عليكم عبادا لنا ان الله تعالى سلط عليهم جالوت حتى أهلكهم وأبادهم وقوله ثم رددنا لكم الكرة هو أنه تعالى قوى طالوت حتى حارب جالوت ونصر داود حتى قتل جالوت فذاك هو عود الكرة (والقول الثالث) ان قوله بعثنا عليكم عبادا لنا هو انه تعالى ألقى الرعب من بني اسرائيل في قلوب المجوس فلما كثرت المعاصي فيهم أزال ذلك الرعب عن قلوب المجوس فقصدوهم وبالغوا في قتلهم وافنائهم واهلاكهم واعلم أنه لا يتعلق كثير غرض في معرفة أولئك الاقوام بأعيانهم بل المقصود هو أنهم لما أكثروا من المعاصي سلط عليهم أقواما قتلوهم وأفنوهم ثم قال تعالى فجاسوا خلال الديار قال الليث الجوس والجوسان التردد خلال الديار والبيوت في الفساد والخلال هو الانفراج بين الشيئين والديار ديار بيت المقدس واختلفت عبارات المفسرين في تفسير جاسوا فعن ابن عباس فتشوا وقال أبو عبيدة طلبوا من فيها وقال ابن قتيبة عاثوا وأفسدوا وقال الزجاج طافوا خلال الديار هل بقي أحد لم يقتلوه وقال الواحدي الجوس هو التردد والطلب وذلك محتمل لكل ماقالوه ثم قال تعالى وكان وعدا مفعولا أي كان قضاء الله بذلك قضاء جزما حتما لا يقبل النقض والنسخ ثم قال تعالى ثم رددنا لكم الكرة أي أهلكنا أعداءكم ورددنا الدولة والقوة عليكم وجعلناكم أكثر نفيرا النفير العدد من الرجال وأصله من نفر مع الرجل من عشيرته وقومه والنفير والنافر واحد كالقدير والقادر وذكرنا معنى نفر عند قوله فلولا نفر من كل فرقة وقوله انفروا خفافا (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم في مسئلة القضاء والقدر من وجوه (الاول) انه تعالى قال وقضينا الى بني اسرائيل

وقيل هي قتل داود عليه السلام لجالوت (وأمددناكم بأموال) كثيرة بعدما نهبت أموالكم (وبنين) بعدما سبيت أولادكم (وجعلناكم أكثر نفيرا) مما كنتم من قبل أو من عدوكم والنفير ﴿ ٥٤٨ ﴾ من ينفر مع الرجل من قومه وقيل جمع نفر وهم القوم المجتمعون للذهاب الى العدو كالعبيد والمعنى (ان أحسنتم) أعمالكم سواء كانت لازمة لانفسكم أو متعدية الى الغير أي عملتموها على الوجه اللائق ولا يتصور ذلك الا بعد أن تكون الاعمال حسنة في أنفسها أو ان فعلتم الاحسان (أحسنتم لانفسكم) لان ثوابها لها (وان أسأتم) أعمالكم بأن عملتموها لا على الوجه اللائق ويلزمه السوء الذاتي أو فعلتم الاساءة (فلها) اذ عليها وبالها وعن علي كرم الله وجهه ما أحسنت الى احد ولا أسأت اليه وتلاها (فاذا جاء وعد الآخرة) حان وقت ما وعد من عقوبة المرة الآخرة (ليسوءوا وجوهكم) متعلق بفعل حذف لدلالة ما سبق عليه أي بعثناهم ليسوءوا ومعنى ليسوءوا وجوهكم ليجعلوا آثار المساءة والكآبة بادية في وجوهكم كقوله تعالى سيئت وجوه الذين كفروا وقرئ ليسوء على أن الضمير لله تعالى أو للوعد أو للبعث ولنسوء بنون العظمة وفي قراءة

فى الكتاب لتفسدن فى الارض مرتين ولتعلن علوا كبيرا وهذا القضاء أقل احتمالاته الحكم الجزم والخبر الحتم فثبت انه تعالى أخبر عنهم انهم سيقدمون على الفساد والمعاصى خبرا جزما حتما لا يقبل النسخ لان القضاء معناه الحكم الجزم على ما شرحناه ثم انه تعالى أكد ذلك القضاء مزيد تأكيد فقال وكان وعدا مفعولا اذا ثبت هذا فنقول عدم وقوع ذلك الفساد عنهم يستلزم انقلاب خبر الله تعالى الصدق كذبا وانقلاب حكمه الجازم باطلا وانقلاب علمه الحق جهلا وكل ذلك محال فكان عدم اقدامهم على ذلك الفساد محالا فكان اقدامهم عليه واجبا ضروريا لا يقبل النسخ والرفع مع انهم كلفوا بتركه ولعنوا على فعله وذلك يدل على قولنا ان الله قد يأمر بشئ و يصد عنه وقد ينهى عن شئ و يقضى بتحصيله فهذا أحد وجوه الاستدلال بهذه الآية (الوجه الثانى) فى الاستدلال بهذه الآية قوله تعالى بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد والمراد أولئك الذين تسلطوا على بنى اسرائيل بالقتل والنهب والاسر فبين تعالى أنه هو الذى بعثهم على بنى اسرائيل ولا شك ان قتل بنى اسرائيل ونهب أموالهم واسر أولادهم كان مشتملا على الظلم الكثير والمعاصى العظيمة ثم انه تعالى أضاف كل ذلك الى نفسه بقوله ثم بعثنا عليكم وذلك يدل على أن الخير والشر والطاعة والمعصية من الله تعالى أجاب الجبائى عنه من وجهين (الاول) المراد من بعثنا عليكم هو انه تعالى أمر أولئك الاقوام بغزو بنى اسرائيل لما ظهر فيهم من الفساد فاضيف ذلك الفعل الى الله تعالى من حيث الامر (والثانى) أن يكون المراد خلينا بينهم و بين بنى اسرائيل وما ألقينا الخوف من بنى اسرائيل فى قلوبهم وحاصل الكلام ان المراد من هذا البعث التخلية وعدم المنع واعلم ان الجواب الاول ضعيف لان الذين قصدوا تخريب بيت المقدس واحراق التوراة وقتل حفاظ التوراة لا يجوز أن يقال انهم فعلوا ذلك بأمر الله تعالى والجواب الثانى أيضا ضعيف لان البعث على الفعل عبارة عن التقوية عليه والقاء الدواعى القوية فى القلب وأما التخلية فعبارة عن عدم المنع والاول فعل والثانى ترك فتفسير البعث بالتخلية تفسير لاحد الضدين بالآخر وأنه لا يجوز فثبت صحة ما ذكرناه والله أعلم ✻ قوله تعالى (ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها فاذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) وفيه مسائل (المسئلة اولى) اعلم انه تعالى حكى عنهم انهم لما عصوا سلط عليهم أقواما قصدوهم بالقتل والنهب والسبى ولما تابوا أزال عنهم تلك المحنة وأعاد عليهم الدولة فعند ذلك ظهر انهم ان أطاعوا فقد أحسنوا الى أنفسهم وان أصروا على المعصية فقد أساؤا الى أنفسهم وقد تقرر فى العقول ان الاحسان الى النفس حسن مطلوب وان الاساءة اليها قبيحة فلهذا المعنى قال تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها (المسئلة الثانية) قال الواحدى لا بد ههنا من اضمار

على رضى الله عنه لتسوأن على أنه جواب اذا وقرئ لنسوأن بالنون الخفيفة وليسوأن واللام فى قوله عز وجل (وليدخلوا المسجد) عطف على ليسوؤا متعلق بما تعلق هو به (كما دخلوه أول مرة) أى فى أول مرة (وليتبروا) أى يهلكوا (ما علوا) ما غلبوه واستولوا عليه اومدة علوهم (تتبيرا) فظيعا لا يوصف بأن سلط الله عز سلطانه عليهم الفرس فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه جودرز وقيل جردوس وقيل دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم فوجد فيه دما يغلى فسألهم عنه فقالوا دم قربان لم يقبل منا فقال لم تصدقونى فقتل على ذلك ألوفا فلم يهدأ الدم ثم قال ان لم تصدقونى ما تركت منكم أحدا فقالوا انه دم يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام فقال لمثل هذا ينتقم منكم ربكم ثم قال يا يحيى قد علم ربى وربك ما أصاب قومك من أجلك فاهدأ باذن الله تعالى قبل أن لا أبقى منهم أحدا فهدأ (عسى ربكم أن يرحمكم) بعد المرة الآخرة ان تبتم توبة أخرى وانزجرتم عما كنتم عليه من المعاصى (وان عدتم) الى ما كنتم فيه من الفساد مرة أخرى (عدنا) الى عقوبتكم ولقد عادوا فاعاد الله سبحانه عليهم النقمة بأن سلط عليهم الاكاسرة ففعلوا بهم

ما فعلوا من ضرب الاتاوة ونحو ذلك وعن الحسن عادوا فبعث الله تعالى محمدا عليه الصلاة والسلام فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون وعن قتادة مثله (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) أي محبسا لا يستطيعون الخروج منها أبد الآبدين وقيل بساطا كما يبسط الحصير وانما عدل عن أن يقال وجعلنا جهنم لكم تسجيلا على كفرهم بالعود وذما لهم بذلك واشعارا بعلة الحكم (ان هذا القرآن) الذي آتيناكه (يهدي) أي الناس كافة لا فرقة مخصوصة منهم كدأب الكتاب الذي آتيناه موسى (للتي) للطريقة التي (هي أقوم) أي أقوم الطرائق وأسدها أعني ملة الاسلام والتوحيد وترك ذكرها ليس لقصد التعميم لها وللحالة والخصلة ونحوها مما يعبر به عن المقصد المذكور بل للايذان بالغنى عن التصريح بها لغاية ظهورها لاسيما بعد ذكر الهداية التي هي من روادفها والمراد بهدايته لها كونه بحيث يهتدي اليها من يتمسك به لا تحصيل الاهتداء بالفعل فانه مخصوص بالمؤمنين حينئذ (ويبشر المؤمنين) بما في تضاعيفه من الاحكام والشرائع وقرئ بالتخفيف (الذين يعملون الصالحات) التي شرحت فيه (أن لهم) أي بأن لهم بمقابلة تلك الاعمال (أجرا

والتقدير وقلنا ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم والمعنى ان أحسنتم بفعل الطاعات فقد أحسنتم الى أنفسكم من حيث ان ببركة تلك الطاعات يفتح الله عليكم أبواب الخيرات والبركات وان أسأتم بفعل المحرمات اسأتم الى أنفسكم من حيث ان بشؤم تلك المعاصي يفتح الله عليكم أبواب العقوبات (المسئلة الثالثة) قال النحويون انما قال وان اسأتم فلها للتقابل والمعنى فاليها أو فعليها مع ان حروف الاضافة يقوم بعضها مقام بعض كقوله تعالى يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها أي اليها (المسئلة الرابعة) قال أهل الاشارات هذه الآية تدل على ان رحمة الله تعالى غالبة على غضبه بدليل أنه لما حكى عنهم الاحسان أعاده مرتين فقال ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم ولما حكى عنهم الاساءة اقتصر على ذكرها مرة واحدة فقال وان أسأتم فلها ولولا أن جانب الرحمة غالب والا لما كان كذلك ثم قال تعالى فاذا جاء وعد الآخرة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال المفسرون معناه وعد المرة الاخيرة وهذه المرة الاخيرة هي اقدامهم على قتل زكريا و يحيى عليهما الصلاة والسلام قال الواحدي فبعث الله تعالى عليهم بختنصر البابلي المجوسي أبغض خلقه اليه فسبى بني اسرائيل وقتل وخرب بيت المقدس أقول التواريخ تشهد بأن بختنصر كان قبل وقت عيسى عليه الصلاة والسلام و يحيى وزكريا عليهما الصلاة والسلام بسنين متطاولة ومعلوم ان الملك الذي انتقم من اليهود بسبب هؤلاء ملك من الروم يقال له قسطنطين الملك والله أعلم بأحوالهم ولا يتعلق غرض من أغراض تفسير القرآن بمعرفة أعيان هؤلاء الاقوام (المسئلة الثانية) جواب قوله فاذا جاء محذوف تقديره فاذا جاء وعد الآخرة بعثناهم ليسوؤا وجوهكم وانما حسن هذا الحذف لدلالة ما تقدم عليه من قوله بعثنا عليكم عبادا لنا ثم قال ليسوؤا وجوهكم وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) يقال ساءه يسوءه أي أحزنه وانما عزا الاساءة الى الوجوه لان آثار الاعراض النفسانية الحاصلة في القلب انما تظهر على الوجه فان حصل الفرح في القلب ظهرت النضرة والاشراق والاسفار في الوجه وان حصل الحزن والخوف في القلب ظهر الكلوح والغبرة والسواد في الوجه فلهذا السبب عزيت الاساءة الى الوجوه في هذه الآية ونظير هذا المعنى كثير في القرآن (المسئلة الثانية) قرأ العامة ليسوؤا على صيغة المغايبة قال الواحدي وهي موافقة للمعنى وللفظ أما المعنى فهو ان المبعوثين هم الذين يسوؤنهم في الحقيقة لانهم هم الذين يقتلون و يأسرون وأما اللفظ فلانه يوافق قوله وليدخلوا المسجد وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وحمزة ليسوء على اسناد الفعل الى الواحد وذلك الواحد يحتمل ان يكون أحد أشياء ثلاثة اما اسم الله سبحانه لان الذي تقدم هو قوله ثم رددنا وأمددنا وكل ذلك ضمير عائد الى الله تعالى واما أن يكون ذلك الواحد هو البعث ودل عليه قوله بعثنا والفعل المتقدم يدل على المصدر كقوله تعالى ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم وقال الزجاج ليسوء الوعد وجوهكم وقرأ الكسائي بالنون وهذا على اسناد

الفعل الى الله تعالى كقوله بعثنا عليكم وأمددنا ثم قال تعالى وليتبروا ما علوا تتبيرا يقال تبر الشئ تبرا اذا هلك وتبره أهلكه قال الزجاج كل شئ جعلته مكسرا ومفتتا فقد تبرته ومنه قيل تبر الزجاج وتبر الذهب لمكسره ومنه قوله تعالى ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون وقوله ولا تزد الظالمين الا تبارا وقوله ما علوا يحتمل ما غلبوا عليه وظفروا به ويحتمل ويتبروا ما داموا غالبين أى مادام سلطانهم جاريا على بنى اسرائيل وقوله تتبيرا ذكر للمصدر على معنى تحقيق الخبر وازالة الشك فى صدقه كقوله وكلم الله موسى تكليما أى حقا والمعنى وليدمروا ويخربوا ما غلبوا عليه ثم قال تعالى عسى ربكم أن يرحمكم والمعنى لعل ربكم أن يرحمكم ويعفو عنكم بعد انتقامه منكم يا بنى اسرائيل ثم قال وان عدتم عدنا يعنى ان بعثنا عليكم من بعثنا ففعلوا بكم ما فعلوا عقوبة لكم وعظة لتنتفعوا به وتنزجروا به عن ارتكاب المعاصى ثم رحمكم فأزال هذا العذاب عنكم فان عدتم مرة أخرى الى المعصية عدنا الى صب البلاء عليكم فى الدنيا مرة أخرى قال القفال وانما حملنا هذه الآية على عذاب الدنيا لقوله تعالى فى سورة الاعراف خبر عن بنى اسرائيل واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ثم قال وان عدتم عدنا أى وانهم قد عادوا الى فعل ما لا ينبغى وهو التكذيب لمحمد صلى الله عليه وسلم وكتمان ما ورد فى التوراة والانجيل فعاد الله عليهم بالتعذيب على أيدى العرب فجرى على بنى النضير وقريظة وبنى قينقاع ويهود خيبر ما جرى من القتل والجلاء ثم الباقون منهم مقهورون بالجزية لا ملك لهم ولا سلطان ثم قال تعالى وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا والحصير فعيل فيحتمل أن يكون بمعنى الفاعل أى وجعلنا جهنم حاصرة لهم ويحتمل أن يكون بمعنى مفعول أى جعلناها موضعا محصورا لهم والمعنى أن عذاب الدنيا وان كان شديدا قويا الا أنه قد يتفلت بعض الناس عنه والذى يقع فى ذلك العذاب يتخلص عنه اما بالموت واما بطريق آخر وأما عذاب الآخرة فانه يكون حاصرا للانسان محيطا به لا رجاء فى الخلاص عنه فهؤلاء الاقوام لهم من عذاب الدنيا ما وصفناه ويكون لهم بعد ذلك من عذاب الآخرة ما يكون محيطا بهم من جميع الجهات ولا يتخلصون منه أبدا

﴿ قوله تعالى (ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا كبيرا وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما) اعلم انه تعالى لما شرح ما فعله فى حق عباده المخلصين وهو الاسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم وايتاء الكتاب لموسى عليه الصلاة والسلام وما فعله فى حق العصاة والمتمردين وهو تسليط أنواع البلاء عليهم كان ذلك تنبيها على ان طاعة الله توجب كل خير وكرامة ومعصيته توجب كل بلية وغرامة لاجرم أثنى على القرآن فقال ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم واعلم ان قوله تعالى دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا يدل على كون هذا الدين مستقيما وقوله فى هذه الآية للتى هى أقوم يدل على ان هذا الدين أقوم من سائر الاديان

كبيرا) بحسب الذات وبحسب التضعيف عشر مرات فصاعدا (وان الذين لا يؤمنون بالآخرة) وأحكامها المشروحة فيه من البعث والحساب والجزاء وتخصيصها بالذكر من بين سائر ما كفروا به لكونها معظم ما أمروا بالايمان به ولمراعاة التناسب بين أعمالهم وجزائها الذى انبأ عنه قوله عز وجل (اعتدنا لهم عذابا أليما) وهو عذاب جهنم أى اعتدنا لهم فيما كفروا به وأنكروا وجوده من الآخرة عذابا أليما وهو أبلغ فى الزجر لما أن اتيان العذاب من حيث لا يحتسب أفظع وأفجع والجملة معطوفة على جملة يبشر باضمار يخبر أو على قوله تعالى أن لهم داخلة معه تحت التبشير المراد به مجازا مطلق الاخبار المنتظم للاخبار بالخبر السار وبالنبأ الضار حقيقة فيكون ذلك بيانا لهداية القرآن بالترغيب والترهيب ويجوز كون التبشير بمعناه والمراد تبشير المؤمنين ببشارتين ثوابهم وعقاب اعدائهم وقوله تعالى (ويدع الانسان بالشر) بيان لحال المهدى اثر بيان حال الهادى واظهار لما بينهما من التباين والمراد بالانسان الجنس أسند اليه حال بعض أفراده أو حكى عنه حاله فى بعض أحيانه فالمعنى على الاول ان القرآن يدعو الانسان الى الخير الذى لا أخير

وأقول قولنا هذا الشئ أقوم من ذاك انما يصح فى شيئين يشتركان فى معنى الاستقامة ثم كان حصول معنى الاستقامة فى احدى الصورتين أكثر وأكمل من حصوله فى الصورة الثانية وهذا محال لان المراد من كونه مستقيما كونه حقا وصدقا ودخول التفاوت فى كون الشئ حقا وصدقا محال فكان وصفه بأنه أقوم مجازا الا ان لفظ الافعل قد جاء بمعنى الفاعل كقولنا الله أكبر أى الله كبير وقولنا الاشج والناقص أعدلا بنى مروان أى عادلا بنى مروان أو نحمل هذا اللفظ على الظاهر المتعارف والله أعلم (البحث الثانى) قوله للتى هى أقوم نعت لموصوف محذوف والتقدير يهدى للملة أو الشريعة أو الطريقة التى هى أقوم الملل والشرائع والطرق ومثل هذه الكناية كثيرة الاستعمال فى القرآن كقوله ادفع بالتى هى أحسن أى بالخصلة التى هى أحسن أما قوله ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا فاعلم انه تعالى وصف القرآن بثلاثة أنواع من الصفات أولها أنه يهدى للتى هى أقوم وقدمر تفسيره (والصفة الثانية) أنه يبشر الذين يعملون الصالحات بالاجر الكبير وذلك لان الصفة الاولى لما دلت على كون القرآن هاديا الى الاعتقاد الاصوب والعمل الاصلح وجب أن يظهر لهذا الصواب والصلاح أثر وذلك هو الاجر الكبير لان الطريق الاقوم لابد وان يفيد الربح الاكبر والنفع الاعظم (والصفة الثالثة) قوله وان الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذابا أليما وذلك لان الاعتقاد الاصوب والعمل الاصلح كما يوجب لفاعله النفع الاكمل الاعظم فكذلك تركه يوجب لتاركه الضرر الاعظم الاكمل واعلم أن قوله وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة عطف على قوله ان لهم أجرا كبيرا والمعنى انه تعالى بشر المؤمنين بنوعين من البشارة بثوابهم وبعقاب أعدائهم ونظيره قوله بشرت زيدا أنه سيعطى وبأن عدوه سيمنع فان قيل كيف يليق لفظ البشارة بالعذاب قلنا مذكور على سبيل التهكم أو يقال انه من باب اطلاق اسم الضدين على الآخر كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها فان قيل هذه الآية واردة فى شرح أحوال اليهود وهم ما كانوا ينكرون الايمان بالآخرة فكيف يليق بهذا الموضع قوله وان الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذابا أليما قلنا عنه جوابان (أحدهما) ان أكثر اليهود ينكرون الثواب والعقاب الجسمانيين (والثانى) أن بعضهم قال لن تمسنا النار الا أياما معدودات فهم فى هذا القول صاروا كالمنكرين للآخرة والله أعلم * قوله تعالى (ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا) وفى الآية مباحث (البحث الاول) اعلم ان وجه النظم هو أن الانسان بعد أن أنزل الله عليه القرآن وخصه بهذه النعمة العظيمة والكرامة الكاملة قد يعدل عن التمسك بشرائعه والرجوع الى بياناته ويقدم على ما لا فائدة فيه فقال ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير (البحث الثانى) اختلفوا فى المراد من دعاء الانسان بالشر على أقوال (الاول) المراد منه النضر بن الحرث حيث قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأجاب الله

فوقه من الاجر الكبير ويحذره من الشر الذى لاشر وراءه من العذاب الاليم وهو أى بعض منه وهو الكافر يدعو لنفسه بما هو الشر من العذاب المذكور اما بلسانه حقيقة كدأب من قال منهم اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ومن قال فائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين الى غير ذلك مما حكى عنهم واما بأعمالهم السيئة المفضية اليه الموجبة له مجازا كما هو ديدن كلهم (دعاءه بالخير) أى مثل دعائه بالخير المذكور فرضا لا تحقيقا فانه بمعزل من الدعاء به وفيه رمز الى أنه اللائق بحاله (وكان الانسان) أى من أسند اليه الدعاء المذكور من أفراده (عجولا) يسارع الى طلب ما يخطر بباله متعاميا عن ضرره أو مبالغا فى العجلة يستعجل العذاب وهو آتيه لا محالة ففيه نوع تهكم به وعلى تقدير حمل الدعاء على أعمالهم تحمل العجولية على اللج والتمادى فى استيجاب العذاب بتلك الاعمال وعلى الثانى ان القرآن يدعو الانسان الى ما هو خير وهو فى بعض أحيانه كما عند الغضب يدعه ويدعو الله تعالى لنفسه وأهله وماله بما هو شر وكان الانسان بحسب جبلته عجولا ضجرا لا يتأنى الى أن يزول عنه ﴿ دعاءه ﴾ ما يعتريه روى أنه عليه الصلاة

دعاءه وضربت رقبته فكان بعضهم يقول ائتنا بعذاب الله وآخرون يقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين وانما فعلوا ذلك للجهل واعتقاد ان محمدا كاذب فيما يقول (والقول الثانى) المراد انه فى وقت الضجر يلعن نفسه وأهله وولده وماله ولو استجيب له فى الشر كما يستجاب له فى الخير لهلك وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم دفع الى سودة بنت زمعة أسيرا فاقبل يئن بالليل فقالت له مالك تئن فشكى ألم القد فارخت له من كتافه فلما نامت أخرج يده وهرب فلما أصبح النبى عليه الصلاة والسلام دعا به فاعلم بشأنه فقال عليه الصلاة والسلام اللهم اقطع يدها فرفعت سودة يدها تتوقع أن يقطع الله يدها فقال النبى صلى الله عليه وسلم انى سألت الله أن يجعل دعائى على من لا يستحق عذابا من أهلى رحمة لانى بشر أغضب كما تغضبون فلترد سودة يدها (والقول الثالث) أقول يحتمل أن يكون المراد ان الانسان قد يبالغ فى الدعاء طلبا للشئ يعتقد ان خيره فيه مع ان ذلك الشئ يكون منبع شره وضرره وهو يبالغ فى طلبه لجهله بحال ذلك الشئ وانما يقدم على مثل هذا العمل لكونه عجولا مغترا بظواهر الامور غير متفحص عن حقائقها وأسرارها (البحث الرابع) القياس اثبات الواو فى قوله ويدع الا انه حذف فى المصحف من الكتابة لانه لا يظهر فى اللفظ أما لم تحذف فى المعنى لانها فى موضع الرفع ونظيره سندع الزبانية وسوف يؤت الله المؤمنين ويوم يناد المناد فما تغن النذر ولو كان بالواو والياء لكان صوابا هذا كلام الفراء وأقول ان هذا يدل على انه سبحانه قد عصم هذا القرآن المجيد عن التحريف والتغيير فان اثبات الياء والواو فى أكثر ألفاظ القرآن وعدم اثباتهما فى هذه المواضع المعدودة يدل على ان هذا القرآن نقل كما سمع وان أحدا لم يتصرف فيه بمقدار فهمه وقوة عقله ثم قال تعالى وكان الانسان عجولا وفى هذا الانسان قولان (الاول) آدم عليه السلام وذلك لانه لما انتهت الروح الى سرته نظر الى جسده فأعجبه فذهب لينهض فلم يقدر فهو قوله وكان الانسان عجولا (والقول الثانى) انه محمول على الجنس لان أحدا من الناس لا يعرى عن عجلة ولو تركها لكان تركها أصلح له فى الدين والدنيا وأقول بتقدير أن يكون المراد هو القول الاول كان المقصود عائدا الى القول الثانى لانا اذا حملنا الانسان على آدم عليه الصلاة والسلام كان المعنى ان آدم الذى كان أصل البشر لما كان موصوفا بهذه العجلة وجب أن تكون هذه صفة لازمة للكل فكان المقصود عائدا الى القول الثانى والله أعلم ❊ قوله تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شئ فصلناه تفصيلا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى تقرير النظم وجوه (الاول) انه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة ما أوصل الى الخلق من نعم الدين وهو القرآن أتبعه ببيان ما أوصل اليهم من نعم الدنيا فقال وجعلنا الليل والنهار آيتين وكما ان القرآن ممتزج من المحكم والمتشابه فكذلك الدهر مركب من النهار والليل فالمحكم كالنهار والمتشابه كالليل وكما

والسلام دفع الى سودة أسيرا فأرخت كتافه رحمة لانينه بالليل من ألم القد فهرب فلما أخبر به النبى عليه الصلاة والسلام قال اللهم اقطع يديها فرفعت سودة يديها تتوقع الاجابة فقال عليه السلام انى سألت الله تعالى أن يجعل دعائى على من لا يستحق من أهلى عذابا رحمة أو يدعو بما هو شر وهو يحسبه خيرا (وكان الانسان عجولا) غير متبصر لا يتدبر فى أموره حق التدبر ليتحقق ما هو خير حقيق بالدعاء به وما هو شر جدير بالاستعاذة منه (وجعلنا الليل والنهار آيتين) شروع فى بيان بعض وجوه ما ذكر من الهداية بالارشاد الى مسلك الاستدلال بالآيات والدلائل الآفاقية التى كل واحدة منها برهان نير لا ريب فيه ومنهاج بين لا يضل من ينتحيه فان الجعل المذكور وما عطف عليه من محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة وان كانت من الهدايات التكوينية لكن الاخبار بذلك من الهدايات القرآنية المنبهة على تلك الهدايات وتقديم الليل لمراعاة الترتيب الوجودى اذ منه ينسلخ النهار وفيه تظهر غرر الشهور ولو أن الليلة أضيفت الى ما قبلها من النهار لكانت من شهر وصاحبها من شهر آخر ولترتيب غاية آية النهار عليها بلا واسطة أى جعلنا الملوين بهما آ

ان المقصود من التكليف لايتم الا بذكر المحكم والمتشابه فكذلك الوقت والزمان لايكمل الانتفاع به الا بالنهار والليل (والوجه الثانى) فى تقرير النظم أنه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم وذلك الاقوم ليس الا ذكر الدلائل الدالة على التوحيد والنبوة لاجرم أردفه بذكر دلائل التوحيد وهو عجائب العالم العلوى والسفلى (الوجه الثالث) انه لما وصف الانسان بكونه عجولا أى منتقلا من صفة الى صفة ومن حالة الى حالة بين ان كل أحوال هذا العالم كذلك وهو الانتقال من النور الى الظلمة و بالضد وانتقال نور القمر من الزيادة الى النقصان و بالضد والله أعلم (المسئلة الثانية) فى قوله وجعلنا الليل والنهار آيتين قولان (الاول) أن يكون المراد من الآيتين نفس الليل والنهار والمعنى انه تعالى جعلهما دليلين للخلق على مصالح الدين والدنيا أما فى الدين فلان كل واحد منهما مضاد للآخر مغاير له مع كونهما متعاقبين على الدوام من أقوى الدلائل على أنهما غير موجودين لذاتهما بل لابد لهما من فاعل يدبرهما و يقدرهما بالمقادير المخصوصة وأما فى الدنيا فلان مصالح الدنيا لاتتم الا بالليل والنهار فلولا الليل لما حصل السكون والراحة ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف فى وجوه المعاش ثم قال تعالى فمحونا آية الليل وعلى هذا القول تكون الاضافة فى آية الليل والنهار للتبيين والتقدير فمحونا الآية التى هى الليل و جعلنا الآية التى هى نفس النهار مبصرة ونظيره قولنا نفس الشئ وذاته فكذلك آية الليل هى نفس الليل و يقال أيضا دخلت بلاد خراسان أى دخلت البلاد التى هى خراسان فكذلك ههنا (القول الثانى) أن يكون المراد وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر فمحونا آية الليل وهى القمر وفى تفسير محو القمر قولان (الاول) المراد منه مايظهر فى القمر من الزيادة والنقصان فى النور فيبدو فى أول الامر فى صورة الهلال ثم لايزال يتزايد نوره حتى يصير بدرا كاملا ثم يأخذ فى الانتقاص قليلا قليلا وذلك هو المحو الى أن يعود الى المحاق (والقول الثانى) المراد من محو القمر الكلف الذى يظهر فى وجهه يروى ان الشمس والقمر كانا سواء فى النور والضوء فارسل الله جبريل عليه الصلاة والسلام فامر جناحه على وجه القمر فطمس عنه الضوء ومعنى المحو فى اللغة اذهاب الاثر تقول محوته أمحوه وانمحى وامتحى اذا ذهب أثره وأقول حمل المحو فى هذه الآية على الوجه الاول أولى وذلك لان اللام فى قوله لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب متعلق بما هو مذكور قبل وهو محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة ومحو آية الليل انما يؤثر فى ابتغاء فضل الله اذا حملنا المحو على زيادة نور القمر ونقصانه لان سبب حصول هذه الحالة يختلف بأحوال نور القمر وأهل التجارب بينوا ان اختلاف أحوال القمر فى مقادير النور له أثر عظيم فى أحوال هذا العالم ومصالحه مثل أحوال البحار فى المد والجزر ومثل أحوال التجربات على ماتذكره الاطباء فى كتبهم وأيضا بسبب زيادة نور القمر ونقصانه يحصل الشهور و بسبب معاودة الشهور يحصل

وتعاقبهما واختلافهما فى الطول والقصر على وتيرة عجيبة يحار فى فهمها العقول آيتين تدلان على أن لهما صانعا حكيما قادرا عليما وتهديان الى ماهدى اليه القرآن الكريم من ملة الاسلام والتوحيد (فمحونا آية الليل) الاضافة اما بيانية كما فى اضافة العدد الى المعدود أى محونا الآية التى هى الليل وفائدتها تحقيق مضمون الجملة السابقة ومحوها جعلها ممحوة الضوء مطموسته لكن لابعد أن لم يكن كذلك بل ابداعها على ذلك كما فى قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل أى أنشأهما كذلك والفاء تفسيرية لان المحو المذكور وما عطف عليه ليسا مما يحصل عقيب جعل الجديدين آيتين بل هما من جملة ذلك الجعل ومتمماته (وجعلنا آية النهار) أى الآية التى هى النهار على نحو مامر (مبصرة) أى مضيئة يبصر فيها الاشياء وصفا لها بحال أهلها أو مبصرة للناس من أبصره فبصره واما حقيقية وآية الليل والنهار نيراهما ومحو القمر اما خلقه مطموس النور فى نفسه فالفاء كما ذكروا اما نقص ما استفاده من الشمس شيئا فشيئا الى المحاق على ماهو معنى المحو والفاء للتعقيب وجعل الشمس مبصرة ابداعها مضيئة بالذات ذات اشعة تظهر بها الاشيا المظلمة (لتبتغوا)

السنون العربيــة المبنية على رؤية الاهلة كما قال ولتعلموا عدد السنين والحساب فثبت ان حمل المحو على ماذكرناه أولى وأقول أيضا لو حملنا المحو على الكلف الحاصل فى وجه القمر فهو أيضا برهان عظيم قاهر على صحة قول المسلمين فى المبدا والمعاد اما دلالته على صحة قولهم فى المبدا فلان جرم القمر جرم بسـيط عند الفلاسفة فوجب أن يكون متشابه الصفات فحصول الاحوال المختلفة الحاصلة بسبب المحو يدل على أنه ليس بسبب الطبيعة بل لاجل ان الفاعل المختار خصص بعض أجزائه بالنور القوى و بعض أجزائه بالنور الضعيف وذلك يدل على ان مدبر العالم فاعل مختار لاموجب بالذات واحسن ماذكره الفلاسـفة فى الاعتذار عنه انه ارتكز فى وجه القمر أجسام قليلة الضوء مثل ارتكاز الكواكب فى أجرام الافلاك فلما كانت تلك الاجرام أقل ضوأ من جرم القمر لاجرم شوهدت تلك الاجرام فى وجه القمر كالكلف فى وجه الانسان وهذا لايفيد مقصود الخصم لان جرم القمر لما كان متشابه الاجزاء فلم ارتكزت تلك الاجرام الظلمانية فى بعض اجزاء القمر دون سائر الاجزاء و بمثل هذا الطريق يتمسك فى أحوال الكواكب وذلك لان الفلك جرم بسيط متشابه الاجزاء فلم يكن حصول جرم الكواكب فى بعض جوانبه أولى من حصوله فى سائر الجوانب وذلك يدل على ان اختصاص ذلك الكواكب بذلك الموضع المعين من الفلك لاجل تخصيص الفاعل المختار وكل هذه الدلائل انما يراد من تقريرهـا وايرادها التنبيه على ان المؤثر فى العالم فاعل بالاختيار لاموجب بالذات والله أعلم اما قوله وجعلنا آية النهار مبصرة ففيه وجهان (الاول) ان معنى كونها مبصرة أى مضيئة وذلك لان الاضاءة سبب لحصول الابصار فاطلق اسم الابصار على الاضاءة اطلاقا لاسم المسبب على السبب (والثانى) قال أبو عبيدة يقال قد أبصر النهار اذا صار الناس يبصرون فيه كقوله رجل مخبث اذا كان أصحـابه خبثاء ورجل مضعف اذا كانت ذراريه ضعافا فكذا قوله والنهار مبصرا أى أهله بصراء واعلم انه تعالى ذكر فى آيات كثيرة منافع الليل والنهار قال وجعلنا الليــل لباسا وجعلنا النهار معاشا وقال أيضا جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ثم قال تعالى ولتبتغوا فضلا من ربكم أى لتبصروا كيف تتصرفون فى أعمالكم ولتعلموا عدد السنين والحسـاب واعلم ان الحساب مبنى على أربع مراتب الساعات والايام والشهور والسـنون فالعدد للسنين والحساب لما دون السنين وهى الشهور والايام والساعات و بعد هذه المراتب الاربع لايحصل الا التكرار كما انهم رتبوا العدد على أربع مراتب الآحاد والعشرات والمئات والالوف وليس بعدها الا التكرار والله أعلم ثم قال وكل شئ فصلناه تفصيلا والمعنى انه تعالى لما ذكر أحوال آيتى الليل والنهار وهما من وجه دليلان قاطعان على التوحيد ومن وجه آخر نعمتان عظيمتان من الله تعالى على اهل الدنيا فلما شرح الله تعالى حالهما وفصل ما فيهما من وجوه الدلالة على الخالق ومن وجوه النعم العظيمة على الخلق كان ذلك

متعلق بقوله تعالى وجعلنا آية النهار كما أشير اليه أى وجعلناها مضيئة لتطلبوا لانفسكم فى بياض النهار (فضلا من ربكم) أى رزقا اذ لايتسنى ذلك فى الليل ﴿ ٥٥٥ ﴾ وفى التعبير عن الرزق بالفضل وعن التكسب بالابتغاء والتعرض لصفة الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال شيئا فشيئا دلالة على أن ليس للعبد فى تحصيل الرزق تأثير سوى الطلب وانما الاعطاء الى الله سبحـانه لابطريق الوجوب عليه بل تفضلا بحكم الربوبية (ولتعلموا) متعلق بكلا الفعلـين أعنى محو آية الليل وجعل آية النهـار مبصر لاباحدهما فقط اذ يكون ذلك بانفراد مدارا للعلم المذكور أى لتعلموا بتفـاوت الجديدين أو نيريهما ذاتا من حيث الاظلام و الاضاءة مع تعاقبهما أو حركاتهما وأوضاعهما وسائر أحوالهما (عدد السنين) التى يتعلق بها غرض علمى لاقامة مصالحكم الدينيـة والدنيوية (والحساب) أى الحساب المتعلق بما فى ضمنهـا من الاوقات أى الاشهر والليالى والايام وغـير ذلك مما نيط به شئ من المصـالح المذكورة ونفس السنة من حيث تحققهـا مما ينتظمه الحساب وانما الذى تعلق به العد طائفة منها وتعلقه فى ضمن ذلك بكل واحدة للناس من الحيثية المذكورة أعنى حيثية تحققها وتحصلها من عدة أشهر قد تحصل

تفصيلا نافعا وبيانا كاملا فلاجرم قال وكل شئ فصلناه تفصيلا أي كل شئ بكم اليه حاجة في مصالح دينكم ودنياكم فقد فصلناه وشرحناه وهو كقوله تعالى ما فرطنا في الكتاب من شئ وقوله ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وقوله تدمر كل شئ بأمر ربها وانما ذكر المصدر وهو قوله تفصيلا لاجل تأكيد الكلام وتقريره كأنه قال وفصلناه حقا وفصلناه على الوجه الذي لامزيد عليه والله أعلم ❊ قوله تعالى (وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) اعلم ان في الآية مسائل (المسئلة الاولى) في كيفية النظم وجوه (الاول) انه تعالى لما قال وكل شئ فصلناه تفصيلا كان معناه أن كل ما يحتاج اليه من دلائل التوحيد والنبوة والمعاد فقد صار مذكورا وكل ما يحتاج اليه من شرح أحوال الوعد والوعيد والترغيب والترهيب فقد صار مذكورا واذا كان الامر كذلك فقد أزيحت الاعذار وأزيلت العلل فلاجرم كل من ورد عرصة القيامة فقد ألزمناه طائره في عنقه ونقول له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا (الوجه الثاني) انه تعالى لما بين انه أوصل الى الخلق أصناف الاشياء النافعة لهم في الدين والدنيا مثل آيتي الليل والنهار وغيرهما كان منعما عليهم باعظم وجوه النعم وذلك يقتضي وجوب اشتغالهم بخدمته وطاعته فلاجرم كل من ورد عرصة القيامة فانه يكون مسؤلا عن أعماله وأقواله (الوجه الثالث) في تقرير النظم انه تعالى لما بين انه ما خلق الخلق الا ليشتغلوا بعبادته كما قال وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون فلما شرح أحوال الشمس والقمر والليل والنهار كان المعنى انى انما خلقت هذه الاشياء لتنتفعوا بها فتصيروا متمكنين من الاشتغال بطاعتي وخدمتي واذا كان كذلك فكل من ورد عرصة القيامة سألته انه هل أتى بتلك الخدمة والطاعة أو تمرد وعصى وبغى فهذا هو الوجه في تقرير النظم (المسئلة الثانية) في تفسير لفظ الطائر قولان (الاول) ان العرب اذا اراد والاقدام على عمل من الاعمال وأرادوا أن يعرفوا ان ذلك العمل يسوقهم الى خير أو الى شر اعتبروا أحوال الطير وهو انه يطير بنفسه أو يحتاج الى ازعاجه واذا طار فهل يطير متيامنا أو متياسرا أو صاعدا الى الجو الى غير ذلك من الاحوال التي كانوا يعتبرونها ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر والسعادة والنحوسة فلما كثر ذلك منهم سمي الخير والشر بالطائر تسمية للشئ باسم لازمه ونظيره قوله تعالى في سورة يس قالوا انا تطيرنا بكم الى قوله قالوا طائركم معكم فقوله وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه أي كل انسان ألزمناه عمله في عنقه وتدل على صحة هذا الوجه قراءة الحسن ومجاهد ألزمناه طيره في عنقه (القول الثاني) قال أبو عبيدة الطائر عند العرب الحظ وهو الذي تسميه الفرس البخت وعلى هذا يجوز أن يكون معنى الطائر ما طار له من خير وشر والتحقيق في هذا الباب أنه تعالى خلق الخلق وخص كل واحد منهم بمقدار مخصوص من العقل والعلم والعمر والرزق والسعادة والشقاوة والانسان لايمكنه

كل واحد منهما من عدة أيام قد حصل كل منها ببطائفة من الساعات مثلا فان ذلك وظيفة الحساب بل من حيث انها فرد من تلك الطائفة المعدودة بعدها أي بفنيها من غير أن يعتبر في ذلك تحصل شئ معين وتحقيقه ما مر في سورة يونس من أن الحساب احصاء ماله كمية منفصلة بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص وحكم مستقل كما أشير اليه آنفا والعد احصاؤه بمجرد تكرير أمثاله من غير أن يتحصل منه شئ كذلك ولما أن السنين لم يعتبر فيها حد معين له اسم خاص وحكم مستقل أضيف اليها العدد وعلق الحساب بما عداها مما اعتبر فيه تحصل مراتب معينة لها أسام خاصة وأحكام مستقلة وتحصل مراتب الاعداد من العشرات والمئات والالوف اعتباري لايجدي في تحصل المعدودات وتقديم العدد على الحساب مع أن الترتيب بين متعلقيهما وجودا وعلما على العكس للتنبيه من اول الامر على أن متعلق الحساب ما في تضاعيف السنين من الاوقات أو لان العلم المتعلق بعدد السنين علم اجمالي بما تعلق به الحساب تفصيلا أو لان العدد من حيث انه لم يعتبر فيه تحصل ﴿ ان ﴾ شئ آخر منه حسبما ذكرنا نزل من الحساب المعتبر فيه ذلك منزلة البسيط من

ان يتجاوز ذلك القدر وان ينحرف عنه بل لا بد وان يصل الى ذلك القدر بحسب الكمية والكيفية فتلك الاشياء المقدرة كأنها تطير اليه وتصير اليه فبهذا المعنى لا يبعد ان يعبر عن تلك الاحوال المقدرة بلفظ الطائر فقوله وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه كناية عن ان كل ما قدره الله تعالى ومضى في علمه حصوله فهو لازم له واصل اليه غير منحرف عنه واعلم ان هذا من أدل الدلائل على ان كل ما قدره الله تعالى للانسان وحكم عليه به في سابق علمه فهو واجب الوقوع ممتنع العدم وتقريره من وجهين (الاول) ان تقدير الآية وكل انسان ألزمناه عمله في عنقه فبين تعالى ان ذلك العمل لازم له وما كان لازما للشيء كان ممتنع الزوال عنه واجب الحصول له وهو المقصود (والوجه الثاني) انه تعالى أضاف ذلك الالزام الى نفسه لان قوله ألزمناه تصريح بان ذلك الالزام انما صدر منه ونظيره قوله تعالى وألزمهم كلمة التقوى وهذه الآية دالة على انه لا يظهر في الابد الا ما حكم الله به في الازل واليه الاشارة بقوله عليه الصلاة والسلام جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة والله أعلم

(المسئلة الثالثة) قوله في عنقه كناية عن اللزوم كما يقال جعلت هذا في عنقك أي قلدتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به ويقال قلدتك كذا وطوقتك كذا أي صرفته اليك وألزمته اياك ومنه قلده السلطان كذا أي صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق ومنه يقال فلان يقلد فلانا أي جعل ذلك الاعتقاد كالقلادة المربوطة على عنقه قال أهل المعاني وانما خص العنق من بين سائر الاعضاء بهذا المعنى لان الذي يكون عليه اما أن يكون خيرا يزينه أو شرا يشينه وما يزين يكون كالطوق والحلي والذي يشين فهو كالغل فههنا عمله ان كان من الخيرات كان زينة له وان كان من المعاصي كان كالغل على رقبته ثم قال تعالى ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا قال الحسن يا ابن آدم بسطنا لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وشمالك فاما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيآتك حتى اذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك في قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة قوله ونخرج له أي من قبره يجوز أن يكون معناه نخرج له ذلك لانه لم ير كتابه في الدنيا فاذا بعث أظهر له ذلك وأخرج من الستر وقرأ يعقوب ويخرج له يوم القيامة كتابا أي يخرج له الطائر أي عمله كتابا منشورا كقوله تعالى وإذا الصحف نشرت وقرأ ابن عامر يلقاه من قولهم لقيت فلانا الشيء أي استقبلته به قال تعالى ولقاهم نضرة وسرورا وهو منقول بالتشديد من لقيت الشيء ولقانيه زيد ثم قال تعالى اقرأ كتابك والتقدير يقال له وهذا القائل هو الله تعالى على ألسنة الملائكة اقرأ كتابك قال الحسن يقرؤه أميا كان أو غير أمي وقال بكر بن عبد الله يؤتى بالمؤمن يوم القيامة بصحيفته وهو يقرؤها وحسناته في ظهرها يغبطه الناس عليها وسيآته في جوف صحيفته وهو يقرؤها حتى اذا ظن انها قد أوبقته قال الله تعالى اذهب فقد غفرتها لك فيما بيني وبينك فيعظم سروره ويصير من الذين قال في حقهم وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة

المركب أولان العلم المتعلق بالاول أقصى المراتب فكان جديرا بالتقديم في مقام الامتنان والله سبحانه أعلم (وكل شيء) تفتقرون اليه في المعاش والمعاد سوى ما ذكر من جعل الليل والنهار آيتين وما يتبعه من المنافع الدينية والدنيوية وهو منصوب بفعل يفسره قوله تعالى (فصلناه تفصيلا) أي بيناه في القرآن الكريم بيانا بليغا لا التباس معه كقوله تعالى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء فظهر كونه هاديا للتي هي أقوم ظهورا بينا (وكل انسان) مكلف (ألزمناه طائره) أي عمله الصادر عنه باختياره حسبما قدر له كأنه طار اليه من عش الغيب ووكر القدر أو ما وقع له في القسمة الازلية الواقعة حسب استحقاقه في العلم الازلي من قولهم طار له سهم كذا (في عنقه) تصوير لشدة اللزوم وكمال الارتباط أي ألزمناه عمله بحيث لا يفارقه أبدا بل يلزمه لزوم القلادة أو الغل للعنق لا ينفك عنه بحال وقرئ بسكون النون (ونخرج له) بنون العظمة وقد قرئ بالياء مبنيا للفاعل على أن الضمير لله عز وجل وللمفعول والضمير للطائر كما في قراءة يخرج من الخروج (يوم القيامة) والبعث للحساب (كتابا) مسطورا فيه ما ذكر من عمله نقيرا وقطميرا وهو مفعول لنخرج على القراءتين

مستبشرة ثم يقول هاؤم اقرؤا كتابيه واما قوله كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا أى محاسبا قال الحسن عدل والله فى حقك من جعلك حسيب نفسك قال السدى يقول الكافر يومئذ انك قضيت انك لست بظلام للعبيد فاجعلنى أحاسب نفسى فيقال له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا والله أعلم (المسئلة الرابعة) قال حكماء الاسلام هذه الآية فى غاية الشرف وفيها أسرار عجيبة فى ابحاث (فالبحث الاول) انه تعالى جعل فعل العبد كالطير الذى يطير اليه وذلك لانه تعالى قدر لكل أحد فى الازل مقدارا من الخير والشر فذلك الحكم الذى سبق فى علمه الازلى وحكمه الازلى لا بدوان يصل اليه فذلك الحكم كأنه طائر يطير اليه من الازل الى ذلك الوقت فاذا حضر ذلك الوقت وصل اليه ذلك الطائر وصولا لا خلاص له البتة ولا انحراف عنه البتة واذا علم الانسان فى كل قول وفعل ولمحة وفكرة انه كان ذلك بمنزلة طائر طيره الله اليه على منهج معين وطريق معين وانه لا بدوان يصل اليه ذلك الطائر فعند ذلك عرف ان الكفاية الابدية لا تتم الا بالعناية الازلية (والبحث الثانى) ان هذه التقديرات انما تقدرت بالزام الله تعالى وذلك باعتبار انه تعالى جعل لكل حادث حادثا متقدما عليه لحصول الحادث المتأخر فلما كان وضع هذه السلسلة من الله لاجرم كان الكل من الله وعند هذا يتخيل الانسان طيورا لا نهاية لها ولا غاية لاعدادها فانه تعالى طيرها من وكر الازل وظلمات عالم الغيب وانها صارت وطارت طيرانا لا بداية له ولا غاية له وكان كل واحد منها متوجها الى ذلك الانسان المعين فى الوقت المعين بالصفة المعينة وهذا هو المراد من قوله ألزمناه طائره فى عنقه (البحث الثالث) ان التجربة تدل على ان تكرار الاعمال الاختيارية تفيد حدوث الملكة النفسانية الراسخة فى جوهر النفس ألا ترى ان من واظب على تكرار قراءة درس واحد صار ذلك الدرس محفوظا ومن واظب على عمل واحد مدة مديدة صار ذلك العمل ملكة له اذا عرفت هذا فنقول لما كان التكرار الكثير يوجب حصول الملكة الراسخة وجب أن يحصل لكل واحد من تلك الاعمال أثرما فى جوهر النفس فانا لما رأينا ان عند توالى القطرات الكثيرة من الماء على الحجر حصلت الثقبة فى الحجر علمنا ان لكل واحد من تلك القطرات أثراما فى حصول ذلك الثقب وان كان ضعيفا قليلا وان كانت الكتابة أيضا فى عرف الناس عبارة عن نقوش مخصوصة اصطلح الناس على جعلها معرفات لالفاظ مخصوصة فعلى هذا دلالة تلك النقوش على تلك المعانى المخصوصة دلالة كائنة جوهرية واجبة الثبوت ممتنعة الزوال كان الكتاب المشتمل على تلك النقوش أولى باسم الكتاب من الصحيفة المشتملة على النقوش الدالة بالوضع والاصطلاح واذا عرفت هاتين المقدمتين فنقول ان كل عمل يصدر من الانسان كثيرا كان أو قليلا قويا كان أو ضعيفا فانه يحصل منه لا محالة فى جوهر النفس الانسانية أثر مخصوص فان كان ذلك الاثر أثر الجذب جوهر الروح من الخلق الى حضرة الحق كان ذلك من موجبات السعادات والكرامات

الاولين أو حال من المفعول المحذوف الراجع الى الطائر وعلى الاخريين حال من المستتر فى الفعل من ضمير الطائر (يلقاه) أى يلقى الانسان أو يلقاه الانسان (منشورا) وهما صفتان للكتاب أو الاول صفة والثانى حال منها وقرئ يلقاه من لقيته كذا أى يلقى الانسان اياه قال الحسن بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك فاما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيآتك حتى اذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك فى قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة (اقرأ كتابك) أى قائلين لك ذلك عن قتادة يقرأ ذلك اليوم من لم يكن فى الدنيا قارئا وقيل المراد بالكتاب نفسه المنتقشة بآثار أعماله فان كل عمل يصدر من الانسان خيرا أو شرا يحدث منه فى جوهر روحه أمر مخصوص الا أنه يخفى مادام الروح متعلقا بالبدن مشتغلا بواردات الحواس والقوى فاذا انقطعت علاقته عن البدن قامت قيامته لان النفس كانت ساكنة مستقرة فى الجسد وعند ذلك قامت وتوجهت نحو الصعود الى العالم العلوى فيزول الغطاء وتنكشف الاحوال ويظهر على لوح النفس نقش كل شئ ﴿ وان ﴾
عمله فى مدة عمره وهذا معنى الكتابة والقراءة (كفى

وان كان ذلك الاثر أثر الجذب الروح من حضرة الحق الى الاشتغال بالخلق كان ذلك من موجبات الشقاوة والخذلان لان تلك الآثار تخفى مادام الروح متعلقا بالبدن لان اشتغال الروح بتدبير البدن يمنع من انكشاف هذه الاحوال وتجليها وظهورها فاذا انقطع تعلق الروح عن تدبير البدن فهناك تحصل القيامة لقوله عليه الصلاة والسلام من مات فقد قامت قيامته ومعنى كون هذه الحالة قيامة ان النفس الناطقة كأنها كانت ساكنة مستقرة فى هذا الجسد السفلى فاذا انقطع ذلك التعلق قامت النفس وتوجهت نحو الصعود الى العالم العلوى فهذا هو المراد من كون هذه الحالة قيامة ثم عند حصول القيامة بهذا المعنى زال الغطاء وانكشف الوطاء وقيل له فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد وقوله ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا معناه ونخرج له عند حصول هذه القيامة من عمق البدن المظلم كتابا مشتملا على جميع تلك الآثار الحاصلة بسبب الاحوال الدنيوية ويكون هذا الكتاب فى هذا الوقت منشورا لان الروح حين كانت فى البدن كانت هذه الاحوال فيه مخفية فكانت كالمطوية أما بعد انقطاع التعلق الجسدانى ظهرت هذه الاحوال وجلت وانكشفت فصارت كأنها مكشوفة منشورة بعد ان كانت مطوية وظاهرة بعد ان كانت مخفية وعند ذلك تشاهد القوة العقلية جميع تلك الآثار مكتوبة بالكتابة الذاتية فى جوهر الروح فيقال له فى تلك الحالة اقرأ كتابك ثم يقال له كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا فان تلك الآثار ان كانت من موجبات السعادة حصلت السعادة لامحالة وان كانت من موجبات الشقاوة حصلت الشقاوة لامحالة فهذا تفسير هذه الآية بحسب الاحوال الروحانية واعلم ان الحق ان الاحوال الظاهرة التى وردت فيها الروايات حق وصدق لامرية فيها واحتمال الآية لهذه المعانى الروحانية ظاهر أيضا والمنهج القويم والصراط المستقيم هو الاقرار بالكل والله أعلم بحقائق الامور

*قوله تعالى (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولاتزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى لما قال فى الآية الاولى وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ومعناه ان كل أحد مختص بعمل نفسه عبر عن هذا المعنى بعبارة أخرى أقرب الى الافهام وأبعد عن الغلط فقال من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها يعنى ان ثواب العمل الصالح مختص بفاعله ولايتعدى منه الى غيره ويتأكد هذا بقوله وأن ليس للانسان الاماسعى وأن سعيه سوف يرى قال الكعبى الآية دالة على ان العبد متمكن من الخير والشر وانه غير مجبور على عمل بعينه أصلا لان قوله من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها انما يليق بالقادر على الفعل المتمكن منه كيف شاء وأراد اما المجبور على أحد الطرفين الممنوع من الطرف الثانى فهذا لايليق به (المسئلة الثانية) انه تعالى أعاد تقرير ان كل أحد مختص بأثر عمل نفسه بقوله ولاتزر وازرة وزر أخرى قال الزجاج

بنفسك اليوم عليك حسيبا) اى كفى نفسك والباء زائدة واليوم ظرف لكفى وحسيبا تمييز وعلى صلته لانه بمعنى الحاسب كالصريم بمعنى الصارم من حسب عليه كذا أو بمعنى الكافى ووضع موضع الشهيد لانه يكفى المدعى ما أهمه وتذكيره لان ماذكر من الحساب والكفاية مما يتولاه الرجال أولانه مبنى على تأويل النفس بالشخص على أنها عبارة عن نفس المذكر كقول جبلة بن حريث

* يانفس انك باللذات مسرور * فاذكر فهل ينفعنك اليوم تذكير

(من اهتدى فانما يهتدى لنفسه) فذلكة لما تقدم من بيان كون القرآن هاديا لاقوم الطرائق ولزوم الاعمال لاصحابها أى من اهتدى بهدايته وعمل بما فى تضاعيفه من الاحكام وانتهى عما نهاه عنه فانما تعود منفعة اهتدائه الى نفسه لاتتخطاه الى غيره ممن لم يهتد (ومن ضل) عن الطريقة التى يهديه اليها (فانما يضل عليها) أى فانما وبال ضلاله عليها لاعلى من عداه ممن لم يباشره حتى يمكن مفارقة العمل صاحبه (ولاتزر وازرة وزر أخرى) تأكيد للجملة الثانية أى لاتحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن وزرها ويختل مابين العامل وعمله من التلازم بل انما تحمل كل منها وزرها وهذا

يقال وزر يزر فهو وازر ووزر وزرا وزرة ومعناه اثم يأثم اثما قال وفى تاويل الآية وجهان (الاول) ان المذنب لايؤاخذ بذنب غيره وأيضا غيره لايؤاخذ بذنبه بل كل أحد مختص بذنب نفسه (والثانى) انه لاينبغى ان يعمل الانسان بالاثم لان غيره عمله كما قال الكفار انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون واعلم ان الناس تمسكوا بهذه الآية فى اثبات أحكام كثيرة (الحكم الاول) قال الجبائى فى الآية دلالة على انه تعالى لايعذب الاطفال بكفر آبائهم والالكان الطفل مؤاخذا بذنب أبيه وذلك على خلاف ظاهر هذه الآية (الحكم الثانى) روى ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الميت ليعذب ببكاء أهله فعائشة طعنت فى صحة هذا الخبر واحتجت على صحة ذلك الطعن بقوله تعالى ولاتزر وازرة وزر أخرى فان تعذيب الميت بسبب بكاء أهله أخذ للانسان بجرم غيره وذلك خلاف هذه الآية (الحكم الثالث) قال القاضى دلت هذه الآية على ان الوزر والاثم ليس من فعل الله تعالى و بيانه من وجوه (أحدها) انه لو كان كذلك لامتنع ان يؤاخذ العبد به كما لايؤاخذه بوزر غيره (وثانيها) انه كان يجب ارتفاع الوزر أصلا لان الوازر انما يصح أن يوصف بذلك اذا كان مختارا يمكنه التحرز ولهذا المعنى لايوصف الصبى بهذا (الحكم الرابع) ان جماعة من قدماء الفقهاء امتنعوا من ضرب الدية على العاقلة وقالوا لان ذلك يقتضى مؤاخذة الانسان بسبب فعل الغير وذلك على مضادة هذه الآية وأجيب عنه بان المخطئ ليس بمؤاخذ على ذلك الفعل فكيف يصير غيره مؤاخذا بسبب ذلك الفعل بل ذلك تكليف واقع على سبيل الابتداء من الله تعالى (المسئلة الثالثة) قال أصحابنا وجوب شكر المنعم لايثبت بالعقل بل بالسمع والدليل عليه قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وجه الاستدلال ان الوجوب لاتتقرر ماهيته الا بترتيب العقاب على الترك ولاعقاب قبل الشرع بحكم هذه الآية فوجب أن لايتحقق الوجوب قبل الشرع ثم أكدوا هذه الآية بقوله تعالى رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل و بقوله ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ولقائل أن يقول هذا الاستدلال ضعيف و بيانه من وجهين (الاول) أن نقول لو لم يثبت الوجوب العقلى لم يثبت الوجوب الشرعى البتة وهذا باطل فذاك باطل بيان الملازمة من وجوه (أحدها) انه اذا جاء المشرع وادعى كونه نبيا من عند الله تعالى وأظهر المعجزة فهل يجب على المستمع استماع قوله والتامل فى معجزاته أو لايجب فان لم يجب فقد بطل القول بالنبوة وان وجب فاما أن يجب بالعقل أو بالشرع فان وجب بالعقل فقد ثبت الوجوب العقلى وان وجب بالشرع فهو باطل لان ذلك الشرع اما أن يكون هو ذلك المدعى أو غيره والاول باطل لانه يرجع حاصل الكلام الى ان ذلك الرجل يقول الدليل على انه يجب قبول قولى انى أقول انه يجب قبول قولى وهذا اثبات للشئ بنفسه وان كان ذلك الشارع غيره كان

وأما مايدل عليه قوله تعالى من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وقوله تعالى ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم من حمل الغير وزر الغير وانتفاعه بحسنته وتضرره بسيئته فهو فى الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه وتضرر بسيئته فان جزاء الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العامل لازم له وانما الذى يصل الى من يشفع جزاء شفاعته لاجزاء أصل الحسنة والسيئة وكذلك جزاء الضلال مقصور على الضالين وما يحمله المضلون انما هو جزاء الاضلال لاجزاء الضلال وانما خص التأكيد بالجملة الثانية قطعا للاطماع الفارغة حيث كانوا يزعمون أنهم ان لم يكونوا على الحق فالتبعة على أسلافهم الذين قلدوهم (وما كنا معذبين) بيان للعناية الربانية اثر بيان اختصاص آثار الهداية والضلال باصحابها وعدم حرمان المهتدى من ثمرات هدايته وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها أى وما صح وما استقام منا بل استحال فى سنتنا المبنية على الحكم البالغة أو ما كان فى حكمنا الماضى

﴿ الكلام ﴾

وقضائنا السابق أن نعذب أحدا من أهل الضلال والاوزار اكتفاء بقضية العقل (حتى نبعث) اليهم (رسولا) يهديهم الى الحق ويردعهم عن الضلال ﴿ ٥٦١ ﴾ ويقيم الحجج ويمهد الشرائع حسبما فى تضاعيف الكتاب المنزل عليه والمراد بالعذاب المنفى اما عذاب الاستئصال كما قاله الشيخ أبو منصور الماتريدى رحمه الله وهو المناسب لما بعده او الجنس الشامل للدنيوى والاخروى وهو من أفراده وأياما كان فالبعث غاية لعدم صحة وقوعه فى وقته المقدر له لا لعدم وقوعه مطلقا كيف لا والاخروى لا يمكن وقوعه عقيب البعث والدنيوى أيضا لا يحصل الا بعد تحقق ما يوجبه من الفسق والعصيان ألا يرى الى قوم نوح كيف تأخر عنهم ما حل بهم زهاء ألف سنة وقوله تعالى (واذا أردنا أن نهلك قرية) بيان لكيفية وقوع التعذيب بعد البعثة التى جعلت غاية لعدم صحته وليس المراد بالارادة تحققها بالفعل اذ لا يتخلف عنها المراد ولا الارادة الازلية المتعلقة بوقوع المراد فى وقته المقدر له اذ لا يقارنه الجزاء الآتى بل دنو وقتها كما فى قوله تعالى أتى أمر الله أى واذا دنا وقت تعلق ارادتنا باهلاك قرية ﴿ ٧١ ﴾ خا بان نعذب أهلها بما ذكرنا من عذاب الاستئصال الذى بينا أنه لا يصح ما قبل البعثة أو بنوع

الكلام فيه كما فى الاول ولزم اما الدور أو التسلسل وهما محالان (وثانيها) ان الشرع اذا جاء واوجب بعض الافعال وحرم بعضها فلا معنى للايجاب والتحريم الا أن يقول لو تركت كذا وفعلت كذا لعاقبتك فنقول اما أن يجب عليه الاحتراز عن العقاب أو لا يجب فلو لم يجب عليه الاحتراز عن العقاب لم يتقرر معنى الوجوب البتة وهذا باطل فذاك باطل وان وجب عليه الاحتراز عن العقاب فاما ان يجب بالعقل او بالسمع فان وجب بالعقل فهو المقصود وان وجب بالسمع لم يتقرر معنى هذا الوجوب الا بسبب ترتيب العقاب عليه وحينئذ يعود التقسيم الاول ويلزم التسلسل وهو محال (وثالثها) ان مذهب أهل السنة أنه يجوز من الله تعالى أن يعفو عن العقاب على ترك الواجب واذا كان كذلك كانت ماهية الوجوب حاصلة مع عدم العقاب فلم يبق الا أن يقال ان ماهية الواجب انما تتقرر بسبب حصول الخوف من العقاب وهذا الخوف حاصل بمحض العقل فثبت ان ماهية الوجوب انما تحصل بسبب هذا الخوف وثبت ان هذا الخوف حاصل بمجرد العقل فلزم ان يقال الوجوب حاصل بمحض العقل فان قالوا ماهية الوجوب انما تتقرر بسبب حصول الخوف من الذم قلنا انه تعالى اذا عفا فقد سقط الذم فعلى هذا ماهية الوجوب انما تتقرر بسبب حصول الخوف من الذم وذلك حاصل بمحض العقل فثبت بهذه الوجوه ان الوجوب العقلى لا يمكن دفعه واذا ثبت هذا فنقول فى الآية قولان (الاول) ان نجرى الآية على ظاهرها ونقول العقل هو رسول الله الى الخلق بل هو الرسول الذى لولاه لما تقررت رسالة أحد من الانبياء فالعقل هو الرسول الاصلى فكان معنى الآية وما كنا معذبين حتى نبعث رسول العقل (والثانى) ان نخصص عموم الآية فنقول المراد وما كنا معذبين فى الاعمال التى لا سبيل الى معرفة وجوبها الا بالشرع الا بعد مجىء الشرع وتخصيص العموم وان كان عدولا عن الظاهر الا انه يجب المصير اليه عند قيام الدلائل وقد بينا قيام الدلائل الثلاثة على انا لو نفينا الوجوب العقلى لزمنا نفى الوجوب الشرعى والله أعلم واعلم ان الذى نرتضيه ونذهب اليه ان مجرد العقل سبب فى أن يجب علينا فعل ما ينتفع به وترك ما يتضرر به أما مجرد العقل لا يدل على انه يجب على الله تعالى شىء وذلك لانا مجبولون على طلب النفع والاحتراز عن الضرر فلا جرم كان العقل وحده كافيا فى الوجوب فى حقنا والله تعالى منزه عن طلب النفع والهرب من الضرر فامتنع أن يحكم العقل عليه بوجوب فعل أو ترك فعل والله أعلم * قوله تعالى (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله أمرنا مترفيها فى تفسير هذا الامر قولان (الاول) أن المراد منه الامر بالفعل ثم ان لفظ الآية لا يدل على انه تعالى بماذا يأمرهم فقال الاكثرون معناه انه تعالى يأمرهم بالطاعات والخيرات ثم انهم يخالفون ذلك الامر ويفسقون وقال صاحب الكشاف ظاهر اللفظ يدل على انه تعالى يأمرهم بالفسق فيفسقون الا ان هذا

ما قرنا شأنه ممن مطلق العذاب أعنى عذاب الاستئصال لما لهم من الظلم والمعاصى دنوا تقتضيه الحكمة من غير أن يكون له حد معين (أمرنا) بواسطة الرسول المبعوث الى أهلها (مترفيها) منعميها وجباريها وملوكها خصهم بالذكر مع توجه الامر الى الكل لانهم الاصول فى الخطاب والباقى أتباع لهم ولان توجه الامر اليهم آكد وعدم التعرض للمأمور به اما لظهور أن المراد به الحق والخير لان الله لا يأمر بالفحشاء لاسيما بعد ذكر هداية القرآن لما يهدى اليه واما لان المراد وجهنا الامر كما يقال فلان يعطى ويمنع (ففسقوا فيها) أى خرجوا عن الطاعة وتمردوا (فحق عليها القول) أى ثبت وتحقق موجبه بحلول العذاب اثر ما ظهر منهم من الفسق والطغيان (فدمرناها) بتدمير أهلها (تدميرا) لا يكتنه كنهه ولا يوصف هذا هو المناسب لما سبق وقيل الامر مجاز عن الحمل على الفسق والتسبب له بأن صب عليه ما أبطرهم وأفضى بهم الى الفسوق وقيل هو بمعنى التكثير يقال أمرت الشئ فأمر أى كثرته فكثر وفى الحديث خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة أى كثيرة النتاج ويعضده قراءة آمرنا وأمرنا من الافعال ﴿ على ﴾ والتفعيل وقد جعلتا من الامارة أى جعلناهم امراء وكل ذلك لا يساعده مقام

مجاز ومعناه أنه فتح عليهم أبواب الخيرات والراحات فعند ذلك تمردوا وطغوا وبغوا قال والدليل على أن ظاهر اللفظ يقتضى ماذكرناه ان المأمور به انما حذف لان قوله ففسقوا يدل عليه يقال أمرته فقام وأمرته فقرأ لا يفهم منه الا أن المأمور به قيام أو قراءة فكذا ههنا لما قال أمرنا مترفيها ففسقوا فيها وجب أن يكون المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا لا يقال يشكل هذا بقولهم أمرته فعصانى أو فخالفنى فان هذا لا يفهم منه انى أمرته بالمعصية والمخالفة لانا نقول ان المعصية منافية للامر ومناقضة له فكذلك أمرته ففسق يدل على أن المأمور به شئ غير الفسق لان الفسق عبارة عن الاتيان بضد المأمور به فكونه فسقا ينافى كونه مأمورا به كما أن كونها معصية ينافى كونها مأمورا بها فوجب أن يدل هذا اللفظ على أن المأمور به ليس بفسق وهذا الكلام فى غاية الظهور فلا ادرى لم أصر صاحب الكشاف على قوله مع ظهور فساده فثبت ان الحق ماذكره الكل وهو أن المعنى أمرناهم بالاعمال الصالحة وهى الايمان والطاعة والقوم خالفوا ذلك الامر عنادا وأقدموا على الفسق (القول الثانى) فى تفسير قوله أمرنا مترفيها أى أكثرنا فساقها قال الواحدى العرب تقول أمر القوم اذا كثروا وأمرهم الله اذا كثرهم وآمرهم أيضا بالمد روى الجرمى عن ابى زيد أمر الله القوم وآمرهم أى كثرهم واحتج أبو عبيدة على صحة هذه اللغة بقوله صلى الله عليه وسلم خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة والمعنى مهرة قد كثر نسلها يقولون امر الله المهرة أى كثر ولدها ومن الناس من انكر أن يكون أمر بمعنى كثر وقالوا أمر القوم اذا كثروا وآمرهم الله بالمد أى كثرهم وحملوا قوله عليه الصلاة والسلام مهرة مأمورة على ان المراد كونها مأمورة بتكثير النسل على سبيل الاستعارة وأما المترف فمعناه فى اللغة المتنعم الذى قد أبطرته النعمة وسعة العيش ففسقوا فيها أى خرجوا عما أمرهم الله فحق عليها القول يريد استوجبت العذاب وهذا كالتفسير لقوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وقوله وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى امها رسولا وقوله ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون فلما حكم تعالى فى هذه الآيات انه تعالى لا يهلك قرية حتى يخالفوا أمر الله فلا جرم ذكر ههنا انه يأمرهم فاذا خالفوا الامر فعند ذلك استوجبوا الاهلاك المعبر عنه بقوله فحق عليها القول وقوله فدمرناها تدميرا أى أهلكناها اهلاك الاستئصال والدمار هلاك على سبيل الاستئصال (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة مذهبهم من وجوه (الاول) ان ظاهر الآية يدل على أنه تعالى أراد ايصال الضرر اليهم ابتداء ثم توسل الى اهلاكهم بهذا الطريق (الثانى) ان ظاهر الآية يدل على انه تعالى انما خص المترفين بذلك الامر لعلمه بأنهم يفسقون وذلك يدل على انه تعالى أراد منهم الفسق (والثالث) انه تعالى قال فحق عليها القول بالتعذيب والكفر ومتى حق عليها القول بذلك امتنع صدور الايمان منهم لان ذلك يستلزم انقلاب خبر الله تعالى الصدق كذبا وذلك محال والمفضى الى المحال محال قال الكعبى ان سائر الآيات دلت

على انه تعالى لا يبتدئ بالتعذيب والاهلاك لقوله ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وقوله ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وقوله وما كنا مهلكي القرى الا وأهلها ظالمون فكل هذه الآيات تدل على انه تعالى لا يبتدئ بالاضرار وأيضا ما قبل هذه الآية يدل على هذا المعنى وهو قوله من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ومن المحال أن يقع بين آيات القرآن تناقض فثبت ان الآيات التي تلوناها محكمة وكذا الآية التي نحن في تفسيرها فيجب حمل هذه الآية على تلك الآيات هذا ما قاله الكعبي واعلم ان أحسن الناس كلاما في تأويل هذه الآية على وجه يوافق قول المعتزلة القفال فانه ذكر فيه وجهين (الاول) قال انه أخبر أنه لا يعذب أحدا بما يعلمه منه ما لم يعمل به أي لا يجعل علمه حجة على من علم انه ان أمره عصاه بل يأمره فاذا ظهر عصيانه للناس فحينئذ يعاقبه فقوله واذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها معناه واذا أردنا امضاء ما سبق من القضاء باهلاك قوم أمرنا المتنعمين المتعززين الظانين ان أموالهم وأولادهم وأنصارهم ترد عنهم بأسنا بالايمان بي والعمل بشرائع ديني على ما بلغهم عني رسولي ففسقوا فحينئذ يحق عليهم القضاء السابق باهلاكهم لظهور معاصيهم فحينئذ دمرناها والحاصل ان المعنى واذا أردنا أن نهلك قرية بسبب علمنا بأنهم لا يقدمون الا على المعصية لم نكتف في تحقيق ذلك الاهلاك بمجرد ذلك العلم بل أمرنا مترفيها ففسقوا فاذا ظهر منهم ذلك الفسق فحينئذ نوقع عليهم العذاب الموعود به (والوجه الثاني) في التأويل ان نقول واذا أردنا أن نهلك قرية بسبب ظهور المعاصي من اهلها لم نعاجلهم بالعذاب في أول ظهور المعاصي منهم بل أمرنا مترفيها بالرجوع عن تلك المعاصي وانما خص المترفين بذلك الامر لان المترف هو المتنعم ومن كثرت نعم الله عليه كان قيامه بالشكر أوجب فاذا أمرهم بالتوبة والرجوع مرة بعد أخرى مع انه تعالى لا يقطع عنهم تلك النعم بل يزيدها حالا بعد حال فحينئذ يظهر عنادهم وتمردهم وبعدهم عن الرجوع عن الباطل الى الحق فحينئذ يصب الله البلاء عليهم صبا ثم قال القفال وهذان التأويلان راجعان الى ان الله تعالى أخبر عباده انه لا يعاجل بالعقوبة أمة ظالمة حتى يعذر اليهم غاية الاعذار الذي يقع منه اليأس من ايمانهم كما قال في قوم نوح ولا يلدوا الا فاجرا كفارا وقال انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن وقال في غيرهم فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل فاخبر تعالى أولا انه لا يظهر العذاب الا بعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام ثم أخبر ثانيا في هذه الآية انه اذا بعث الرسول ايضا فكذبوا لم يعاجلهم بالعذاب بل يتابع عليهم النصائح والمواعظ فان بقوا مصرين على الذنوب فهناك ينزل عليهم عذاب الاستئصال وهذا التأويل الذي ذكره القفال في تطبيق الآية على قول المعتزلة لم يتيسر لاحد من شيوخ المعتزلة مثله وأجاب الجبائي بان قال ليس المراد من الآية انه تعالى يريد اهلاكهم قبل أن يعصوا ويستحقوا وذلك لانه ظلم وهو على الله محال بل المراد من الارادة قرب تلك الحالة

الزجر عن الضلال والحث على الاهتداء فان مؤدى ذلك أن طغيانهم منوط بارادة الله سبحانه وانعامه عليهم بنعم وافرة أبطرتهم وحملتهم على الفسق حملا حقيقا أن يعبر عنه بالامر به (وكم أهلكنا) أي وكثيرا ما أهلكنا (من القرون) بيان لكم وتمييز له والقرن مدة من الزمان يخترم فيها القوم وهي عشرون أو ثلاثون أو أربعون أو ثمانون أو مائة وقد أيد ذلك بأنه عليه الصلاة والسلام دعا لرجل فقال عش قرنا فعاش مائة سنة أو مائة وعشرون (من بعد نوح) من بعد زمنه عليه الصلاة والسلام كعاد وثمود ومن بعدهم ممن قصت أحوالهم في القرآن العظيم ومن لم تقص وعدم نظم قومه عليه الصلاة والسلام في تلك القرون المهلكة لظهور أمرهم على أن ذكره عليه الصلاة والسلام رمز الى ذكرهم (وكفى بربك) أي كفى ربك (بذنوب عباده خبيرا بصيرا) يحيط بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها وتقديم الخبير لتقدم متعلقه من الاعتقادات والنيات التي هي مبادي الاعمال الظاهرة أو لعمومه حيث يتعلق بغير المبصرات أيضا وفيه اشارة الى أن البعث والامر وما يتلوهما من فسقهم ليس لتحصيل العلم بما صدر عنهم من الذنوب فان ذلك حاصل قبل ذلك وانما هو لقطع الاعذار والزام الحجة من كل وجه (من

فكان التقدير واذا قرب وقت اهلاك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها وهو كقول القائل اذا أراد المريض أن يموت ازدادت أمراضه شدة واذا أراد التاجر أن يفتقر أتاه الخسران من كل جهة وليس المراد ان المريض يريد أن يموت والتاجر يريد أن يفتقر وانما يعنون انه سيصير كذلك فكذا ههنا واعلم ان جميع الوجوه الثلاثة التي ذكرناها في التمسك بهذه الآية لاشك ان كلها عدول عن ظاهر اللفظ وأما الوجه الثاني والثالث فقد بقي سليما عن الطعن والله اعلم (المسئلة الثالثة) المشهور عند القراء السبعة أمرنا مترفيها بالتخفيف غير ممدودة الالف وروى برواية غير مشهورة عن نافع وابن عباس آمرنا بالمد وعن ابي عمرو أمّرنا بالتشديد بالمد على التكثير يقال أمر القوم بكسر الميم اذا كثروا وآمرهم الله بالمد أي كثرهم الله والتشديد على التسليط أي سلطنا مترفيها ومعناه التخلية وزوال المنع بالقهر والله أعلم أما قوله تعالى وكم اهلكنا من القرون من بعد نوح فاعلم ان المراد أن الطريق الذي ذكرناه هو عادتنا مع الذين يفسقون ويتمردون فيما تقدم من القرون الذين كانوا بعد نوح وهم عاد وثمود وغيرهم ثم انه تعالى خاطب رسوله بما يكون خطابا لغيره وردعا وزجرا للكل فقال وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا وفيه بحثان (الاول) انه تعالى عالم بجميع المعلومات راء لجميع المرئيات فلا يخفى عليه شيء من أحوال الخلق وثبت انه قادر على كل الممكنات فكان قادرا على ايصال الجزاء الى كل احد بقدر استحقاقه وايضا انه منزه عن العبث والظلم ومجموع هذه الصفات الثلاث أعني العلم التام والقدرة الكاملة والبراءة عن الظلم بشارة عظيمة لاهل الطاعة وخوف عظيم لاهل الكفر والمعصية (البحث الثاني) قال الفراء لو ألغيت الباء من قولك بربك جاز وانما يجوز دخول الباء في المرفوع اذا كان يمدح به صاحبه أو يذم كقولك كفاك به وأكرم به رجلا وطاب بطعامك طعاما وجاد بثوبك ثوبا اما اذا لم يكن مدحا أو ذما لم يجز دخولها فلا يجوز ان يقال قام بأخيك وانت تريد قام اخوك والله أعلم

* قوله تعالى (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وماكان عطاء ربك محظورا انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال القفال رحمه الله هذه الآية داخلة في معنى قوله وكل انسان الزمناه طائره في عنقه ومعناه ان الكمال في الدنيا قسمان فمنهم من يريد بالذي يعمله الدنيا ومنافعها والرياسة فيها فهذا يأنف من الانقياد للانبياء عليهم الصلاة والسلام والدخول في طاعتهم والاجابة لدعوتهم اشفاقا من زوال الرياسة عنه فهذا قد جعل طائر نفسه شؤما لانه في قبضة الله تعالى فيؤتيه الله في الدنيا منها قدر الاكما يشاء ذلك الانسان بل كما يشاء الله الا ان عاقبته جهنم يدخلها فيصلاها بحرها مذموما ملوما مدحورا منفيا مطرودا من رحمة الله وفي لفظ هذه الآية فوائد (الفائدة الاولى) ان العقاب عبارة عن مضرة مقرونة بالاهانة والذم بشرط

كان يريد) باعماله التي يعملها سواء كان ترتب المراد عليها بطريق الجزاء كأعمال البر أو بطريق ترتب المعلولات على العلل كالاسباب أو باعمال الآخرة فالمراد بالمريد على الاول الكفرة وأكثر الفسقة وعلى الثاني أهل الرياء والنفاق والمهاجر للدنيا والمجاهد لمحض الغنيمة (العاجلة) فقط من غير أن يريد معها الآخرة كما ينبئ عنه الاستمرار المستفاد من زيادة كان ههنا مع الاقتصار على مطلق الارادة في قسيمه والمراد بالعاجلة الدار الدنيا وبارادتها ارادة مافيها من فنون مطالبها كقوله تعالى ومن كان يريد حرث الدنيا ويجوز أن يراد الحياة العاجلة كقوله عز وجل من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها لكن الاول انسب بقوله (عجلنا له فيها) أي في تلك العاجلة فان الحيوة واستمرارها من جملة ما عجل له فالانسب بذلك كلمة من كما في قوله تعالى ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها (مانشاء) أي مانشاء تعجيله له من نعيمها لاكل مايريد (لمن نريد) تعجيل مانشاء له وهو بدل من الضمير في له باعادة الجار بدل البعض فانه راجع الى الموصول المنبئ عن الكثرة وقرئ لمن يشاء على أن الضمير لله سبحانه وقيل هو لمن فيكون مخصوصا بمن أراد به ذلك وهو واحد من الدهماء وتقييد المعجل والمعجل له بماذكر من المشيئة والارادة لما

﴿ وان ﴾

أن تكون دائمة وخالية عن شوب المنفعة فقوله ثم جعلنا له جهنم يصلاها اشارة الى المضرة العظيمة وقوله مذموما اشارة الى الاهانة والذم وقوله مدحورا اشارة الى البعد والطرد من رحمة الله وهى تفيد كون تلك المضرة خالية عن شوب النفع والرحمة وتفيد كونها دائمة وخالية عن التبدل بالراحة والخلاص (الفائدة الثانية) ان من الجهال من اذا ساعدته الدنيا اغتر بها وظن أن ذلك لاجل كرامته على الله تعالى وانه تعالى بين ان مساعدة الدنيا لا ينبغى أن يستدل بها على رضا الله تعالى لان الدنيا قد تحصل مع ان عاقبتها هى المصير الى عذاب الله واهانته فهذا الانسان اعماله تشبه طائر السوء فى لزومها له وكونها سائقة له الى اشد العذاب (الفائدة الثالثة) قوله تعالى لمن نريد يدل على انه لا يحصل الفوز بالدنيا لكل أحد بل كثير من الكفار والضلال يعرضون عن الدين فى طلب الدنيا ثم يبقون محرومين عن الدنيا وعن الدين وهذا أيضا فيه زجر عظيم لهؤلاء الكفار الضلال الذين يتركون الدين لطلب الدنيا فانه ربما فاتتهم الدنيا فهم الاخسرون اعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا (واما القسم الثانى) وهو قوله تعالى ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فشرط تعالى فيه شروطا ثلاثة (أحدها) ان يريد بعمله الآخرة أى ثواب الآخرة فانه ان لم يحصل هذه الارادة وهذه النية لم ينتفع بذلك العمل لقوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى ولقوله عليه الصلاة والسلام انما الاعمال بالنيات ولان المقصود من الاعمال استنارة القلب بمعرفة الله تعالى ومحبته وهذا لا يحصل الا ان نوى بعمله عبودية الله تعالى وطلب طاعته (والشرط الثانى) قوله وسعى لها سعيها وذلك هو أن يكون العمل الذى يتوصل به الى الفوز بثواب الآخرة من الاعمال التى بها ينال ثواب الآخرة ولا يكون كذلك الا اذا كان من باب القرب والطاعات وكثير من الناس يتقربون الى الله تعالى باعمال باطلة فان الكفار يتقربون الى الله تعالى بعبادة الاوثان ولهم فيه تأويلان (أحدهما) يقولون اله العالم أجل وأعظم من أن يقدر الواحد منا على اظهار عبوديته وخدمته فليس لنا هذا القدر والدرجة ولكن غاية قدرنا أن نشتغل بعبودية بعض المقربين من عباد الله تعالى مثل أن نشتغل بعبادة كوكب أو عبادة ملك من الملائكة ثم ان الملك والكوكب يشتغلون بعبادة الله تعالى فهؤلاء يتقربون الى الله تعالى بهذا الطريق الا انه لما كان فاسدا فى نفسه لا جرم لم يحصل الانتفاع به (والتأويل الثانى لهم) انهم قالوا نحن اتخذنا هذه التماثيل على صور الانبياء والاولياء ومرادنا من عبادتها ان تصير أولئك الانبياء والاولياء شفعاء لنا عند الله تعالى وهذا الطريق أيضا فاسد وأيضا نقل عن الهند انهم يتقربون الى الله تعالى بقتل أنفسهم تارة وباحراق أنفسهم أخرى ويبالغون فى تعظيم الله تعالى الا أنه لما كان الطريق فاسدا لا جرم لم ينتفع به وكذلك القول فى جميع فرق المبطلين الذين يتقربون الى الله تعالى بمذاهبهم الباطلة وأقوالهم الفاسدة وأعمالهم المنحرفة عن قانون الصدق والصواب

أن الحكمة التى عليها يدور فلك التكوين لا تقتضى وصول كل طالب الى مرامه ولا استيفاء كل واصل لما يطلبه بتمامه وأما ما يتراءى من قوله تعالى من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون من نيل كل مؤمل لجميع آماله ووصول كل عامل الى نتيجة أعماله فقد أشير الى تحقيق القول فيه فى سورة هود بفضل الله تعالى (ثم جعلنا له) مكان ما عجلنا له (جهنم) وما فيها من أصناف العذاب (يصلاها) يدخلها وهو حال من الضمير المجرور أو من جهنم أو استئناف (مذموما مدحورا) مطرودا من رحمة الله تعالى وقيل الآية فى المنافقين كانوا يراؤن المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم الا مساهمتهم فى الغنائم ونحوها ويأباه ما قال ان السورة مكية سوى آيات معينة (ومن أراد) بأعماله (الآخرة) الدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم (وسعى لها سعيها) أى السعى اللائق بها وهو الاتيان بما أمر والانتهاء عما نهى لا التقرب بما يخترعون بآرائهم وفائدة اللام اعتبار النية والاخلاص (وهو مؤمن) ايمانا صحيحا لا يخالطه شىء قادح فيه وايراد الايمان بالجملة الحالية للدلالة على اشتراط مقارنته لما ذكر فى حد الصلة (فأولئك) اشارة الى الموصول بعنوان اتصافه بها

(والشرط الثالث) قوله تعالى وهو مؤمن وهذا الشرط معتبر لان الشرط فى كون أعمال البر موجبة للثواب تقدم الايمان فاذا لم يوجد الشرط لم يحصل المشروط ثم انه تعالى أخبر ان عند حصول هذه الشرائط يصير السعى مشكورا والعمل مبرورا واعلم ان الشكر عبارة عن مجموع أمور ثلاثة اعتقاد كونه محسنا فى تلك الاعمال والثناء عليه بالقول والاتيان بافعال تدل على كونه معظما عند ذلك الشاكر والله تعالى يعامل المطيعين بهذه الامور الثلاثة فانه تعالى عالم بكونهم محسنين فى تلك الاعمال وانه تعالى يثنى عليهم بكلامه وانه تعالى يعاملهم بمعاملات دالة على كونهم معظمين عند الله تعالى واذا كان مجموع هذه الثلاثة حاصلا كانوا مشكورين على طاعاتهم من قبل الله تعالى ورأيت فى كتب المعتزلة ان جعفر بن حرب حضر عنده واحد من أهل السنة وقال الدليل على أن الايمان حصل بخلق الله تعالى انا نشكر الله على الايمان ولو لم يكن الايمان حاصلا بايجاده لامتنع ان نشكره عليه لان مدح الانسان وشكره على ما ليس من عمله قبيح قال الله تعالى ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فعجز الحاضرون عن الجواب فدخل ثمامة بن الاشرس وقال انما نمدح الله تعالى ونشكره على ما أعطانا من القدرة والعقل وانزال الكتب وايضاح الدلائل والله تعالى يشكرنا على فعل الايمان قال تعالى فاولئك كان سعيهم مشكورا قال فضحك جعفر بن حرب وقال صعب المسئلة فسهلت واعلم ان قولنا مجموع القدرة مع الداعى يوجب الفعل كلام واضح لانه تعالى هو الذى أعطى الموجب التام لحصول الايمان فكان هو المستحق للشكر ولما حصل الايمان للعبد وكان الايمان موجبا للسعادة التامة صار العبد أيضا مشكورا ولا منافاة بين الامرين (المسئلة الثانية) اعلم أن كل من اتى بفعل فاما أن يقصد بذلك الفعل تحصيل خيرات الدنيا أو تحصيل خيرات الآخرة أو يقصد به مجموعهما أو لم يقصد به واحدا منهما هذا هو التقسيم الصحيح اما ان قصد به تحصيل الدنيا فقط أو تحصيل الآخرة فقط فالله تعالى ذكر حكم هذين القسمين فى هذه الآية (أما القسم الثالث) فهو ينقسم الى ثلاثة أقسام لانه اما أن يكون طلب الآخرة راجحا أو مرجوحا او يكون الطلبان متعادلين ❊ أما القسم الاول وهو أن يكون طلب الآخرة راجحا فهل يكون هذا العمل مقبولا عند الله تعالى فيه بحث يحتمل أن يقال انه غير مقبول لما روى ان النبى صلى الله عليه وسلم حكى عن رب العزة انه قال أنا اغنى الاغنياء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشريكه وأيضا فطلب رضوان الله اما أن يقال انه كان سببا مستقلا بكونه باعثا على ذلك الفعل أو داعيا اليه واما أن يقال ما كان كذلك فان كان الاول امتنع أن يكون لغيره مدخل فى ذلك البعث والدعاء لان الحكم اذا حصل مسندا الى سبب تام كامل امتنع أن يكون لغيره مدخل فيه وان كان الثانى فحينئذ يكون الحامل على ذلك الفعل والداعى اليه ذلك المجموع وذلك المجموع ليس هو طلب رضوان الله تعالى لان المجموع الحاصل من الشئ ومن غيره يجب كونه مغاير الكل واحد من جزأيه فهذا

فى حيز الصلة وما فى ذلك من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم و بعد منزلتهم والجملة لمراعاة جانب المعنى ايماء الى أن الاثابة المفهومة من الخبر تقع على وجه الاجتماع أى أولئك الجامعون لما مر من الخصال الحميدة أعنى ارادة الآخرة والسعى الجميل لها والايمان (كان سعيهم مشكورا) مقبولا عند الله تعالى أحسن القبول مثابا عليه وفى تعليق المشكورية بالسعى دون قرينيه اشعار بأنه العمدة فيها (كلا) التنوين عوض من المضاف اليه أى كل واحد من الفريقين لا الفريق الاخير المريد للخير الحقيق بالاسعاف فقط (نمد) أى نزيده مرة بعد مرة بحيث يكون الآنف مددا للسالف وما به الامداد ما عجل لاحدهما من العطايا العاجلة وما أعد للآخر من العطايا الآجلة المشار اليها بمشكورية السعى وانما لم يصرح به تعويلا على ما سبق تصريحا وتلويحا واتكالا على ما لحق عبارة واشارة كما ستقف عليه وقوله تعالى (هؤلاء) بدل من كلا (وهؤلاء) عطف عليه أى نمد هؤلاء المعجل لهم وهؤلاء المشكور سعيهم فان الاشارة متعرضة لذات المشار اليه بما له من العنوان لا للذات فقط كالاضمار ففيه تذكير لما به الامداد وتعيين للمضاف اليه المحذوف دفعا لتوهم كونه افراد الفريق الاخير ﴿ القسم ﴾

القسم المتحق بالقسم الذى كان الداعى اليه مغايرا لطلب رضوان الله تعالى فوجب أن يكون مقبولا ويمكن أن يقال لما كان طلب الآخرة راجحا على طلب الدنيا تعارض المثل بالمثل فيبقى القدر الزائد داعية خالصة لطلب الآخرة فوجب كونه مقبولا واما اذا كان طلب الدنيا وطلب الآخرة متعادلين او كان طلب الدنيا راجحا فهذا قد اتفقوا على انه غير مقبول الا انه على كل حال خير مما اذا كان طلب الدنيا خاليا بالكلية عن طلب الآخرة (وأما القسم الرابع) وهو أن يقال انه أقدم على ذلك الفعل من غير داع فهذا بناء على ان صدور الفعل من القادر هل يتوقف على حصول الداعى أم لا فالذين يقولون انه متوقف قالوا هذا القسم ممتنع الحصول والذين قالوا انه لا يتوقف قالوا هذا الفعل لا أثر له فى الباطن وهو محرم فى الظاهر لانه عبث والله أعلم ثم قال تعالى كلا أى كل واحد من الفريقين والتنوين عوض من المضاف اليه نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك أى انه تعالى يمد الفريقين بالاموال ويوسع عليهما فى الرزق مثل الاموال والاولاد وغيرهما من اسباب العز والزينة فى الدنيا لان عطاءنا ليس يضيق عن أحد مؤمنا كان أو كافرا لان الكل مخلوقون فى دار العمل فوجب ازاحة العذر وازالة العلة عن الكل وايصال متاع الدنيا الى الكل على القدر الذى يقتضيه الصلاح فبين تعالى ان عطاءه ليس بمحظور أى غير ممنوع حظره يحظره وكل من حال بينك وبين شئ فقد حظره عليك ثم قال تعالى انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وفيه قولان (الاول) المعنى انظر الى عطائنا المباح الى الفريقين فى الدنيا كيف فضلنا بعضهم على بعض فأوصلناه الى مؤمن وقبضناه عن مؤمن آخر وأوصلناه الى كافر وقبضناه عن كافر آخر وقد بين تعالى وجه الحكمة فى هذا التفاوت فقال نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا وقال فى آخر سورة الانعام ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ثم قال وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا والمعنى ان تفاضل الخلق فى درجات منافع الدنيا محسوس فتفاضلهم فى درجات منافع الآخرة أكبر وأعظم فان نسبة التفاصل فى درجات الآخرة الى التفاضل فى درجات الدنيا كنسبة الآخرة الى الدنيا فاذا كان الانسان تشتد رغبته فى طلب فضيلة الدنيا فبان تقوى رغبته فى طلب فضيلة الآخرة أولى (القول الثانى) ان المراد ان الآخرة اعظم وأشرف من الدنيا والمعنى ان المؤمنين يدخلون الجنة والكافرين يدخلون النار فيظهر فضل المؤمنين على الكافرين ونظيره قوله تعالى أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا

* قوله تعالى (لا تجعل مع الله الها آخر فتقعد مذموما مخذولا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى بيان وجه النظم فنقول انه تعالى لما بين ان الناس فريقان منهم من يريد بعمله الدنيا فقط وهم أهل العقاب والعذاب ومنهم من يريد به طاعة الله وهم أهل الثواب ثم شرط ذلك بشرائط ثلاثة (أولها) ارادة الآخرة (وثانيها) أن يعمل عملا ويسعى

وتأكيد للقصر المستفاد من تقديم المفعول وقوله تعالى (من عطاء ربك) أى من معطاه الواسع الذى لا تناهى له متعلق بنمد ومغن عن ذكر ما به الامداد ومنبه على ان الامداد المذكور ليس بطريق الاستيجاب بالسعى والعمل بل بمحض التفضل (وما كان عطاء ربك) أى دنيويا كان أو أخرويا وانما اظهر لاظهار مزيد الاعتناء بشأنه واشعارا بعليته للحكم (محظورا) ممنوعا ممن يريده بل هو فائض على من قدر له بموجب المشيئة المبنية على الحكمة وان وجد منه ما يقتضى الحظر كالكافر وهو فى معنى التعليل لشمول الامداد للفريقين والتعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين للاشعار بمبدأيتها لما ذكر من الامداد وعدم الحظر (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض) كيف فى محل النصب بفضلنا على الحالية والمراد توضيح ما مر من الامداد وعدم محظورية العطاء بالتنبيه على استحضار مراتب أحد العطاءين والاستدلال بها على مراتب الآخر أى انظر بنظر الاعتبار كيف فضلنا بعضهم على بعض فيما أمددناهم به من العطايا العاجلة فمن وضيع ورفيع وظالع وضليع ومالك ومملوك وموسر وصعلوك تعرف بذلك مراتب العطايا الآجلة ودرجات تفاضل أهلها على طريقة الاستشهاد بحال الادنى على حال

الاعلى كما أفصح عنه قوله تعالى (وللآخرة أكبر) أي هي بما فيها أكبر من الدنيا وقرئ أكثر (درجات وأكبر تفضيلا) لان التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها اه البقاعي لا يقادر قدرها ولا يكتنه كنهها كيف لا وقد عبر عنه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر هذا ويجوز أن يراد بما به الامداد العطايا العاجلة فقط ويحمل القصر المذكور على دفع توهم اختصاصها بالفريق الاول فان تخصيص ارادتهم لها ووصولهم اليها بالذكر من غير تعرض لبيان النسبة بينها وبين الفريق الثاني ارادة ووصولا مما يوهم اختصاصها بالاولين فالمعنى كل واحد من الفريقين نمد بالعطايا العاجلة لا من ذكرنا ارادته لها فقط من الفريق الاول من عطاء ربك الواسع وما كان عطاؤه الدنيوي محظورا من أحد ممن يريده وممن يريد غيره انظر كيف فضلنا في ذلك العطاء بعض كل من الفريقين على بعض آخر منهما وللآخرة الآية واعتبار عدم المحظورية بالنسبة الى الفريق الاول تحقيقا لشمول الامداد له كما فعله الجمهور حيث قالوا لا يمنعه من عاص لعصيانه يقتضي كون القصر لدفع توهم اختصاص الامداد الدنيوي بالفريق الثاني مع أنه لم يسبق في الكلام ما يوهم ثبوته له فضلا عن ايهام اختصاصه (لا تجعل مع الله الها آخر)

سعيا موافقا لطلب الآخرة (وثالثها) أن يكون مؤمنا لاجرم فصل في هذه الآية تلك المجملات فبدأ أولا بشرح حقيقة الايمان وأشرف اجزاء الايمان هو التوحيد ونفى الشركاء والاضداد فقال لا تجعل مع الله الها آخر ثم ذكر عقيبه سائر الاعمال التي يكون المقدم عليها والمشتغل بها ساعيا سعيا يليق بطلب الآخرة وصار من الذين سعد طائرهم وحسن بختهم وكملت أحوالهم (المسئلة الثانية) قال المفسرون هذا في الظاهر خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولكن في المعنى عام لجميع المكلفين كقوله يا أيها النبي اذا طلقتم النساء ويحتمل أيضا أن يكون الخطاب للانسان كأنه قيل أيها الانسان لا تجعل مع الله الها آخر وهذا الاحتمال عندي أولى لانه تعالى عطف عليه قوله وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه الى قوله اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما وهذا لا يليق بالنبي عليه السلام لان أبويه ما بلغا الكبر عنده فعلمنا ان المخاطب بهذا هو نوع الانسان (المسئلة الثالثة) معنى الآية ان من اشرك بالله كان مذموما مخذولا والذي يدل على أن الامر كذلك وجوه * الاول ان المشرك كاذب والكاذب يستوجب الذم والخذلان * الثاني انه لما ثبت بالدليل انه لا اله ولا مدبر ولا مقدر الا الواحد الاحد فعلى هذا التقدير تكون جميع النعم حاصلة من الله تعالى فمن اشرك بالله فقد اضاف بعض تلك النعم الى غير الله تعالى مع ان الحق ان كلها من الله فحينئذ يستحق الذم لان الخالق تعالى استحق الشكر باعطاء تلك النعم فلما جحد كونها من الله فقد قابل احسان الله تعالى بالاساءة والجحود والكفران فاستوجب الذم وانما قلنا انه يستحق الخذلان لانه لما أثبت شريكا لله تعالى استحق ان يفوض أمره الى ذلك الشريك فلما كان ذلك الشريك معدوما بقي بلا ناصر ولا حافظ ولا معين وذلك عين الخذلان * الثالث ان الكمال في الوحدة والنقصان في الكثرة فمن أثبت الشريك فقد وقع في جانب النقصان واستوجب الذم والخذلان واعلم انه لما دل لفظ الآية على ان المشرك مذموم مخذول وجب بحكم الآية أن يكون الموحد ممدوحا منصورا والله اعلم (المسئلة الرابعة) القعود المذكور في قوله فتقعد مذموما مخذولا فيه وجوه (الاول) ان معناه المكث أي فتمكث في الناس مذموما مخذولا وهذه اللفظة مستعملة في لسان العرب والفرس في هذا المعنى فاذا سأل الرجل غيره ما يصنع فلان في تلك البلدة فيقول المجيب هو قاعد بأسوأ حال معناه المكث سواء كان قائما أو جالسا (الثاني) ان من شأن المذموم المخذول ان يقعد نادما متفكرا على ما فرط منه (الثالث) ان المتمكن من تحصيل الخيرات يسعى في تحصيلها والسعي انما يتأتى بالقيام وأما العاجز عن تحصيلها فانه لا يسعى بل يبقى جالسا قاعدا عن الطلب فلما كان القيام على الرجل أحد الامور التي بها يتم الفوز بالخيرات وكان القعود والجلوس علامة على عدم تلك المكنة والقدرة لاجرم جعل القيام كناية عن القدرة على تحصيل الخيرات والقعود كناية عن العجز والضعف (المسئلة الخامسة) قال الواحدي قوله فتقعد انتصب لانه وقع بعد الفاء جوابا للنهي وانتصابه باضمار أن كقولك لا تنقطع

الرعاية والاحسان واحدهما فاعل للفعل وتأخيره عن الظرف والمفعول لئلا يطول الكلام به وبما عطف عليه وقرئ يبلغان فأحدهما بدل من ضمير التثنية وكلاهما عطف عليه ولا سبيل الى جعل كلاهما تأكيدا للضمير وتوحيد ضمير الخطاب فى عندك وفيما بعده مع أن ما سبق على الجمع للاحتراز عن التباس المراد فان المقصود نهى كل أحد عن تأفيف والديه ونهرهما ولو قوبل الجمع بالجمع أو بالتثنية لم يحصل هذا المرام (فلا تقل لهما) أى لواحد منهما حالتى الانفراد والاجتماع (أف) وهو صوت ينبئ عن تضجر أو اسم فعل هو أتضجر وقرئ بالكسر بلا تنوين وبالفتح والضم منونا وغير منون أى لا تتضجر بما تستقذر منهما وتستثقل من مؤنهما وبهذا النهى يفهم النهى عن سائر ما يؤذيهما بدلالة النص وقد خص بالذكر بعضه اظهارا للاعتناء بشأنه فقيل (ولا تنهرهما) أى لا تزجرهما عما لا يعجبك باغلاظ قيل النهى والنهر والنهم أخوات (وقل لهما) بدل التأفيف والنهر (قولا كريما) ذا كرم أو هو وصف له بوصف صاحبه أى قولا صادرا عن كرم ولطف وهو القول الجميل الذى يقتضيه حسن الادب ويستدعيه النزول على المروءة مثل أن يقول

وهو المراد من قوله عليه السلام التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله وأحق الخلق بصرف الشفقة اليه هو الابوان لكثرة انعامهما على الانسان فقوله وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه اشارة الى التعظيم لامر الله وقوله وبالوالدين احسانا اشارة الى الشفقة على خلق الله (الوجه الثالث) ان الاشتغال بشكر المنعم واجب ثم المنعم الحقيقى هو الخالق سبحانه وتعالى وقد يكون أحد من المخلوقين منعما عليك وشكره أيضا واجب لقوله عليه السلام من لم يشكر الناس لم يشكر الله وليس لاحد من الخلائق نعمة على الانسان مثل ما للوالدين وتقريره من وجوه (أحدها) ان الولد قطعة من الوالدين قال عليه السلام فاطمة بضعة منى (وثانيها) ان شفقة الابوين على الولد عظيمة وجدهما فى ايصال الخير الى الولد كالامر الطبيعى واحترازهما عن ايصال الضرر اليه كالامر الطبيعى ومتى كانت الدواعى الى ايصال الخير متوفرة والصوارف عنه زائلة لاجرم كثر ايصال الخير فوجب أن تكون نعم الوالدين على الولد كثيرة أكثر من كل نعمة تصل من انسان الى انسان (وثالثها) ان الانسان حال ما يكون فى غاية الضعف ونهاية العجز يكون فى انعام الابوين فاصناف نعمهما فى ذلك الوقت واصلة اليه وأصناف رحمة ذلك الولد واصلة الى الوالدين فى ذلك الوقت ومن المعلوم ان الانعام اذا كان واقعا على هذا الوجه كان موقعه عظيما (ورابعها) ان ايصال الخير الى الغير قد يكون لداعية ايصال الخير اليه وقد يمتزج بهذا الغرض سائر الاغراض وايصال الخير الى الولد ليس لهذا الغرض فقط فكان الانعام فيه أتم وأكمل فثبت انه ليس لاحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل ما للوالدين على الولد فبدأ الله تعالى بشكر نعمة الخالق وهو قوله وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه ثم اردفه بشكر نعمة الوالدين وهو قوله وبالوالدين احسانا والسبب فيه ما بينا ان أعظم النعم بعد انعام الاله الخالق نعمة الوالدين فان قيل الوالدان انما طلبا تحصيل اللذة لنفسهما فلزم منه دخول الولد فى الوجود وحصوله فى عالم الآفات والمخافات فأى انعام للابوين على الولد حتى ان واحدا من المتسمين بالحكمة كان يضرب أباه ويقول هو الذى أدخلنى فى عالم الكون والفساد وعرضنى للموت والفقر والعمى والزمانة وقيل لابى العلاء المعرى ماذا نكتب على قبرك قال اكتبوا عليه

هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد

وقال فى ترك التزوج والولد

وتركت أولادى وهم فى نعمة * العدم التى سبقت نعيم العاجل
ولو انهم ولدوا لعانوا شدة * ترمى بهم فى موبقات الآجل

وقيل للاسكندر أستاذك أعظم منة عليك أم والدك فقال الاستاذ أعظم منة لانه تحمل أنواع الشدائد والمحن عند تعليمى أوقعنى فى نور العلم وأما الوالد فانه طلب تحصيل لذة الوقاع لنفسه وأخرجنى الى آفات عالم الكون والفساد ومن الكلمات المشهورة المأثورة

خيرا لآباء من عملك والجواب هب انهما فى أول الامر طلبا اللذة الوقاع الا أن الاهتمام بايصال الخيرات وفى دفع الآفات من أول دخوله فى الوجود الى وقت بلوغه الكبر أليس انه أعظم من جميع مايتخيل من جهات الخيرات والمبرات فسقطت هذه الشبهات والله أعلم (المسئلة الثانية) قوله وبالوالدين احسانا قال أهل اللغة تقدير الآية وقضى ربك ألا تعبدوا الا الله وان تحسنوا أو يقال وقضى ألا تعبدوا الا اياه وأحسنوا بالوالدين احسانا قال صاحب الكشاف ولا يجوز ان تتعلق الباء فى وبالوالدين بالاحسان لان المصدر لاتتقدم عليه صلته ثم لم يذكر دليلا على ان المصدر لا يجوز ان تتقدم عليه صلته وقال الواحدى فى البسيط الباء فى وبالوالدين من صلة الاحسان وقدمت عليه كما تقول بزيد فامرر وهذا المثال الذى ذكره الواحدى غير مطابق لان المطلوب تقديم صلة المصدر عليه والمثال المذكور ليس كذلك (المسئلة الثالثة) قال القفال لفظ الاحسان قد يوصل بحرف الباء تارة وبحرف الى أخرى وكذلك الاساءة يقال أحسنت به واليه وأسأت به واليه قال الله تعالى وقد أحسن بى وقال القائل

أسيئى بنا أو أحسنى لاملومة ❊ لدينا ولامقلية ان تقلت

وأقول لفظ الآية مشتمل على قيود كثيرة كل واحد منها يوجب المبالغة فى الاحسان الى الوالدين (أحدها) انه تعالى قال فى الآية المتقدمة ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ثم انه تعالى أردفه بهذه الآية المشتملة على الاعمال التى بواسطتها يحصل الفوز بسعادة الآخرة فذكر من جملتها البر بالوالدين وذلك يدل على ان هذه الطاعة من اصول الطاعات التى تفيد سعادة الآخرة (وثانيها) انه تعالى بدأ بذكر الامر بالتوحيد وثنى بطاعة الله تعالى وثلث بالبر بالوالدين وهذه درجة عالية ومبالغة عظيمة فى تعظيم هذه الطاعة (وثالثها) انه تعالى لم يقل واحسانا بالوالدين بل قال وبالوالدين احسانا فتقديم ذكرهما يدل على شدة الاهتمام (ورابعها) انه قال احسانا بلفظ التنكير والتنكير يدل على التعظيم والمعنى وقضى ربك ان تحسنوا الى الوالدين احسانا عظيما كاملا وذلك لانه لما كان احسانهما اليك قد بلغ الغاية العظيمة وجب أن يكون احسانك اليهما كذلك ثم على جميع التقديرات فلا تحصل المكافأة لان انعامهما عليك كان على سبيل الابتداء وفى الامثال المشهورة ان البادى بالبر لا يكافأ ثم قال تعالى اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لفظ اما لفظة مركبة من لفظتين ان وما أما كلمة ان فهى للشرط وأما كلمة ما فهى أيضا للشرط كقوله تعالى ما ننسخ من آية فلما جمع بين هاتين الكلمتين أفاد التأكيد فى معنى الاشتراط الا أن علامة الجزم لم تظهر مع نون التأكيد لان الفعل يبنى مع نون التأكيد وأقول لقائل أن يقول ان نون التأكيد انما يليق بالموضع الذى يكون اللائق به تأكيد ذلك الحكم المذكور وتقريره واثباته على أقوى الوجوه الا ان هذا المعنى لا يليق بهذا الموضع لان

ياأباه ويا أماه كدأب ابراهيم عليه السلام اذ قال لابيه ياأبت مع مابه من الكفر ولا يدعوهما بأسمائهما فانه من الجفاء وسوء الادب ودأبن الدعار وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال أن لاتقوم الى خدمتهما عن كسل وقيل أن لاترفع صوتك عليهما ولا تنظر اليهما شزرا ولا يريا منك مخالفة فى ظاهر ولا باطن وأن تترحم عليهما ماعاشا وتدعو لهما اذا ماتا وتقوم بخدمة أوداثهما من بعدهما فعن النبى عليه الصلاة والسلام ان من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه (واخفض لهما جناح الذل) عبارة عن الانة الجانب والتواضع والتذلل لهما فان اعزازهما لايكون الا بذلك فكأنه قيل واخفض لهما جناحك الذليل أو جعل لذله جناح كما جعل لبيد فى قوله ❊ وغداة ريح قد كشفت وقرة ❊ اذ أصبحت بيد الشمال زمامها ❊ للقرة زماما وللشمال يدا تشبيها له بطائر يخفض جناحه لافراخه تربية لها وشفقة عليها وأما جعل خفض الجناح عبارة عن ترك الطيران كما فعله القفال فلا يناسب المقام (من الرحمة) من فرط رحمتك وعطفك عليهما ورقتك لهما لافتقارهما اليوم الى من كان أفقر خلق الله تعالى

قول القائل الشيء اما كذا واما كذا فالمطلوب منه ترديد الحكم بين ذينك الشيئين المذكورين وهذا الموضع لا يليق به التقرير والتأكيد فكيف يليق الجمع بين كلمة اما وبين نون التأكيد وجوابه ان المراد ان هذا الحكم المتقرر المتأكد اما ان يقع واما ان لا يقع والله أعلم (المسئلة الثانية) قرأ الأكثرون اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما وعلى هذا التقدير فقوله يبلغن فعل وفاعله هو قوله أحدهما وقوله أو كلاهما عطف عليه كقولك ضرب زيداً وعمرو ولو اسند قوله يبلغن الى قوله كلاهما جاز لتقدم الفعل تقول قال رجال وقال رجلان وقالت الرجال وقرأ حمزة والكسائي يبلغان وعلى هذه القراءة فقوله أحدهما بدل من ألف الضمير الراجع الى الوالدين وكلاهما عطف على أحدهما فاعلا أو بدلا فان قيل لو قيل اما يبلغان كلاهما كان كلاهما توكيدا لا بدلا فلم زعمتم انه بدل قلنا لانه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيدا للاثنين فانتظم في حكمه فوجب أن يكون مثله في كونه بدلا فان قيل لم لا يجوز أن يقال قوله أحدهما بدل وقوله أو كلاهما توكيد ويكون ذلك عطفا للتوكيد على البدل قلنا العطف يقتضي المشاركة فجعل أحدهما بدلا والآخر توكيدا خلاف الاصل والله اعلم (المسئلة الثالثة) قال أبو الهيثم الرازي وأبو الفتح الموصلي وأبو علي الجرجاني ان كلا اسم مفرد يفيد معنى التثنية ووزنه فعل ولامه معتل بمنزلة لام حجى ورضى وهي كلمة وضعت على هذه الخلقة يؤكد بها الاثنان خاصة ولا تكون الا مضافة والدليل عليه انها لو كانت تثنية لوجب أن يقال في النصب والخفض مررت بكلي الرجلين بكسر الياء كما تقول بين يدي الرجل ومن ثلثي الليل ويا صاحبي السجن وطرفي النهار ولما لم يكن الامر كذلك علمنا انها ليست تثنية بل هي لفظة مفردة وضعت للدلالة على التثنية كما ان لفظة كل اسم واحد موضوع للجماعة فاذن أخبرت عن لفظه كما تخبر عن الواحد كقوله تعالى وكلهم آتيه يوم القيامه فردا وكذلك اذا أخبرت عن كلا أخبرت عن واحد فقلت كلا اخوتك كان قائما قال الله تعالى كلتا الجنتين آتت اكلها ولم يقل آتتا والله أعلم (المسئلة الرابعة) قوله يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما معناه انهما يبلغان الى حالة الضعف والعجز فيصيران عندك في آخر العمر كما كنت عندهما في أول العمر واعلم انه تعالى لما ذكر هذه الجملة فعند هذا الذكر كلف الانسان في حق الوالدين بخمسة أشياء (النوع الاول) قوله تعالى فلا تقل لهما أف وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الزجاج فيه سبع لغات كسر الفاء وضمها وفتحها وكل هذه الثلاثة بتنوين وبغير تنوين فهذه ستة واللغة السابعة أفي بالياء قال الاخفش كأنه أضاف هذا القول الى نفسه فقال قولي هذا وذكر ابن الانباري من لغات هذه اللفظة ثلاثة زائدة على ما ذكره الزجاج اف بكسر الالف وفتح الفاء وافه بضم الالف وادخال الهاء وأف بضم الالف وتسكين الفاء (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير وابن عامر بفتح الفاء من غير تنوين ونافع وحفص بكسر الفاء والتنوين والباقون بكسر الفاء من غير تنوين وكلها لغات وعلى هذا الخلاف

الرعاية والاحـ ـب برحمتك الفانية بل ادع الله لهما برحمته الواسعة الباقية (وقل رب ارحمهما) برحمتك الدنيوية يبلغان فا به التي من جملتها الهداية الى الاسلام فلا ينافي ذلك كفرهما (كما ربياني) الكاف في محل ونوحـ ب على انه نعت لمصدر محذوف اي رحمة مثل تربيتهما لي أو مثل رحمتهما لي على أن التربية رحمة ويجوز أن يكون لهما الرحمة والتربية معا وقد ذكر احدهما في أحد الجانبين والآخر في الآخر كما يلوح به التعرض لعنوان الربوبية في مطلع الدعاء كأنه قيل رب ارحمهما وربهما كما رحماني وربياني (صغيرا) ويجوز أن تكون الكاف للتعليل أي لاجل تربيتهما لي كقوله تعالى واذكروه كما هداكم ولقد بالغ عز وجل في التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفع الاحسان اليهما بتوحيده سبحانه ونظمهما في سلك القضاء بهما معا ثم ضيق الامر في باب مراعاتهما حتى لم يرخص في ادنى كلمة تنفلت من المتضجر مع ماله من موجبات الضجر ما لا يكاد يدخل تحت الحصر وختمها بان جعل رحمته التي وسعت كل شيء مشبهة بتربيتهما وعن النبي عليه الصلاة والسلام ﴿ في رضى الله في رضى الوالدين وسخطه في سخطهما

فى سورة الانبياء أف لكم وفى الاحقاف أف لكما وأقول البحث المشكل ههنا انا لما نقلنا عشرة أنواع من اللغات فى هذه اللفظة فما السبب فى انهم تركوا أكثر تلك اللغات فى قراءة هذه اللفظة واقتصروا على وجوه قليلة منها (المسئلة الثالثة) ذكروا فى تفسير هذه اللفظة وجوها (الاول) قال الفراء تقول العرب جعل فلان يتأفف من ريح وجدها معناه يقول أف أف (الثانى) قال الاصمعى الاف وسخ الاذن والتف وسخ الظفر يقال ذلك عند استقذار الشئ ثم كثر حتى استعملوه عند كل ما يتاذون به (الثالث) قال بعضهم أف معناه قلة وهو مأخوذ من الافيف وهو الشئ القليل وتف اتباع له كقولهم شيطان ليطان خبيث نبيث (الرابع) روى ثعلب عن ابن الاعرابى الاف الضجر (الخامس) قال القتبى أصل هذه الكلمة انه اذا سقط عليك تراب أو رماد نفخت فيه لتزيله والصوت الحاصل عند تلك النفخة هو قولك أف ثم انهم توسعوا فذكروا هذه اللفظة عند كل مكروه يصل اليهم (السادس) قال الزجاج أف معناه النتن وهذا قول مجاهد لانه قال معنى قوله ولا تقل لهما أف أى لا تتقذرهما كما انهما لم يتقذراك حين كنت تخرأ وتبول وفى رواية أخرى عن مجاهد انه اذا وجدت منهما رائحة تؤذيك فلا تقل لهما أف (المسئلة الرابعة) قول القائل لا تقل لفلان أف مثل يضرب للمنع من كل مكروه وأذية وان خف وقل واختلف الاصوليون فى أن دلالة هذا اللفظ على المنع من سائر أنواع الايذاء دلالة لفظية أو دلالة مفهومة بمقتضى القياس قال بعضهم انها دلالة لفظية لان أهل العرف اذا قالوا لا تقل لفلان أف عنوا به انه لا يتعرض له بنوع من أنواع الايذاء والايحاش وجرى هذا مجرى قولهم فلان لا يملك نقيرا ولا قطميرا فى انه بحسب العرف يدل على انه لا يملك شيئا والقول الثانى ان هذا اللفظ انما يدل على المنع من سائر أنواع الايذاء بحسب القياس الجلى وتقريره ان الشرع اذا نص على حكم صورة وسكت عن حكم صورة أخرى فاذا أردنا الحاق الصورة المسكوت عن حكمها بالصورة المذكور حكمها فهذا على ثلاثة أقسام (أحدها) أن يكون ثبوت ذلك الحكم فى محل السكوت أولى من ثبوته فى محل الذكر مثل هذه الصورة فان اللفظ انما دل على المنع من التأفيف والضرب أولى بالمنع من التأفيف (وثانيها) أن يكون الحكم فى محل السكوت مساويا للحكم فى محل الذكر وهذا هو الذى يسميه الاصوليون القياس فى معنى الاصل وضربوا لهذا مثلا وهو قوله عليه السلام من اعتق نصيبا له من عبد قوم عليه الباقى فان الحكم فى الامة والعبد متساويان (وثالثها) أن يكون الحكم فى محل السكوت أخفى من الحكم فى محل الذكر وهو أكثر القياسات اذا عرفت هذا فنقول المنع من التأفيف انما يدل على المنع من الضرب بواسطة القياس الجلى الذى يكون من باب الاستدلال بالادنى على الاعلى والدليل عليه ان التأفيف غير الضرب فالمنع من التأفيف لا يكون منعا من الضرب وأيضا المنع من التأفيف لا يستلزم المنع من الضرب عقلا لان الملك الكبير اذا أخذ ملكا عظيما كان عدوا له فقد يقول للجلاد اياك

وروى يفعل البار ما يشاء أن يفعل فلن يدخل النار ويفعل العاق ما يشاء أن يفعل فلن يدخل الجنة وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان أبوى بلغا من الكبر أنى ألى منهما ما وليا منى فى الصغر فهل قضيتهما حقهما قال لا فانهما كان يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما وروى ان شيخا أتى النبى عليه الصلاة والسلام فقال ان ابنى هذا له مال كثير وانه لا ينفق على من ماله فنزل جبريل عليه السلام وقال ان هذا الشيخ قد أنشأ فى ابنه ابياتا ما قرع سمع بمثلها فاستنشدها فأنشدها الشيخ فقال

غذوتك مولودا ومنتك يافعا * تعل بما أجنى عليك وتنهل
اذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت * لسقمك الا باكيا أتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى * طرقت به دونى وعينى تهمل
فلما بلغت السن والغاية التى * اليها مدى ما كنت فيك أومل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة * كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك اذ لم ترع حق أبوتى * فعلت كما الجار المجاور يفعل

فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أنت ومالك لابيك (ربكم أعلم بما فى نفوسكم) من البر والعقوق (ان تكونوا صالحين) قاصدين للصلاح والبر دون

وان تستخف به أو تشافهه بكلمة موحشة لكن اضرب رقبته واذا كان هذا معقولا فى الجملة علمنا ان المنع من التأفيف مغاير للمنع من الضرب وغير مستلزم أيضا للمنع من الضرب عقلا فى الجملة الا انا علمنا فى هذه الصورة أن المقصود من هذا الكلام المبالغة فى تعظيم الوالدين بدليل قوله وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة فكانت دلالة المنع من التأفيف على المنع من الضرب من باب القياس بالادنى على الاعلى والله أعلم (النوع الثانى) من الاشياء التى كلف الله تعالى العباد بها فى حق الابوين قوله ولا تنهرهما يقال نهره وانتهره اذا استقبله بكلام يزجره قال تعالى وأما السائل فلا تنهر فان قيل المنع من التأفيف يدل على المنع من الانتهار بطريق الاولى فلما قدم المنع من التأفيف كان ذكر المنع من الانتهار بعده عبثا أما لو فرضنا انه قدم المنع من الانتهار ثم اتبعه بالمنع من التأفيف كان مفيدا حسنا لانه يلزم من المنع من الانتهار المنع من التأفيف فما السبب فى رعاية هذا الترتيب قلنا المراد من قوله فلا تقل لهما أف المنع من اظهار الضجر بالقليل أو الكثير والمراد من قوله ولا تنهرهما المنع من اظهار المخالفة فى القول على سبيل الرد عليه والتكذيب له (النوع الثالث) قوله تعالى وقل لهما قولا كريما واعلم انه تعالى لما منع الانسان بالآية المتقدمة عن ذكر القول المؤذى الموحش والنهى عن القول المؤذى لا يكون أمرا بالقول الطيب لاجرم أردفه بان امره بالقول الحسن والكلام الطيب فقال وقل لهما قولا كريما والمراد منه ان يخاطبه بالكلام المقرون بامارات التعظيم والاحترام قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو أن يقول له يا أبتاه يا اماه وسئل سعيد بن المسيب عن القول الكريم فقال هو قول العبد المذنب للسيد الفظ وعن عطاء أن يقال هو ان تتكلم معه بشرط أن لا ترفع عليهما صوتك ولا تشد اليهما نظرك وذلك لان هذين الفعلين ينافيان القول الكريم فان قيل ان ابراهيم عليه السلام كان أعظم الناس حلما وكرما وأدبا فكيف قال لابيه يا آزر على قراءة من قرأ واذ قال ابراهيم لابيه آزر بالضم انى أراك وقومك فى ضلال مبين فخاطبه بالاسم وهو ايذاء ثم نسبه ونسب قومه الى الضلال وهو أعظم أنواع الايذاء قلنا ان قوله تعالى وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا يدل على ان حق الله تعالى مقدم على حق الابوين فاقدام ابراهيم عليه السلام على ذلك الايذاء انما كان تقديما لحق الله تعالى على حق الابوين (النوع الرابع) قوله واخفض لهما جناح الذل من الرحمة والمقصود منه المبالغة فى التواضع وذكر القفال رحمه الله فى تقريره وجهين (الاول) ان الطائر اذا أراد ضم فرخه اليه للتربية خفض له جناحه ولهذا السبب صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية فكأنه قال للولد اكفل والديك بان تضمهما الى نفسك كما فعلا ذلك بك حال صغرك (والثانى) ان الطائر اذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحيه واذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع خفض جناحيه فصار خفض الجناح كناية عن فعل التواضع من هذا

العقوق والفساد (فانه) تعالى (كان للاوابين) أى الرجاعين اليه تعالى عما فرط منهم مما لا يكاد يخلو عنه البشر (غفورا) لما وقع منهم من نوع تقصير أو أذية فعلية أو قولية وفيه مالا يخفى من التشديد فى الامر بمراعاة حقوقهما ويجوز أن يكون عاما لكل تائب ويدخل فيه الجانى على أبويه دخولا أوليا (وآت ذا القربى) أى ذا القرابة (حقه) توصية بالاقارب اثر التوصية ببر الوالدين ولعل المراد بهم المحارم وبحقهم النفقة كما ينبئ عنه قوله تعالى (والمسكين وابن السبيل) فان المأمور به فى حقهما المواساة المالية لا محالة أى وآتهما حقهما مما كان مفترضا بمكة بمنزلة الزكاة وكذا النهى عن التبذير وعن الافراط فى القبض والبسط فان الكل من التصرفات المالية (ولا تبذر تبذيرا) نهى عن صرف المال الى من سواهم ممن لا يستحقه فان التبذير تفريق فى غير موضعه مأخوذ من تفريق حبات والقائها كيف ما كان من غير تعهد لمواقعه لا عن الاكثار فى صرفه اليهم والا لناسبه الاسراف الذى هو تجاوز الحد فى صرفه وقد نهى عنه بقوله تعالى ولا تبسطها وكلاهما مذموم (ان المبذرين كانوا اخوان ﴿ الوجه ﴾ الشياطين) تعليل للنهى عن التبذير ببيان انه يجعل صاحبه ملزوذا فى قرن الشياطين

الوجه فان قيل كيف أضاف الجناح الى الذل والذل لا جناح له قلنا فيه وجهان (الاول) انه أضيف الجناح الى الذل كما يقال حاتم الجود فكما ان المراد هناك حاتم الجواد فكذلك ههنا المراد واخفض لهما جناحك الذليل أى المذلول (والثانى) ان مدار الاستعارة على الخيالات فههنا تخيل الذل جناحا واثبت لذلك الجناح ضعفا تكميلا لامر هذه الاستعارة كما قال لبيد * اذ أصبحت بيد الشمال زمامها * فأثبت للشمال يدا ووضع زمامها فى يد الشمال وكذا ههنا وقوله من الرحمة معناه ليكن خفض جناحك لهما بسبب فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما بسبب كبرهما وضعفهما (والنوع الخامس) قوله وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا وفيه مباحث (البحث الاول) قال القفال رحمه الله تعالى انه لم يقتصر فى تعليم البر بالوالدين على تعليم الاقوال بل أضاف اليه تعليم الافعال وهو ان يدعو لهما بالرحمة فيقول رب ارحمهما ولفظ الرحمة جامع لكل الخيرات فى الدين والدنيا ثم يقول كما ربيانى صغيرا يعنى رب افعل بهما هذا النوع من الاحسان كما أحسنا الى فى تربيتهما اياى والتربية هى التنمية وهى من قولهم ربا الشى اذا انتفخ ومنه قوله تعالى فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت (البحث الثانى) اختلف المفسرون فى هذه الآية على ثلاثة أقوال (الاول) انها منسوخة بقوله تعالى ما كان للنبى والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين فلا ينبغى للمسلم ان يستغفر لوالديه اذا كانا مشركين ولا يقول رب ارحمهما (والقول الثانى) ان هذه الآية غير منسوخة ولكنها مخصوصة فى حق المشركين وهذا أولى من القول الاول لان التخصيص أولى من النسخ (والقول الثالث) انه لا نسخ ولا تخصيص لان الوالدين اذا كانا كافرين فله ان يدعو لهما بالهداية والارشاد وان يطلب الرحمة لهما بعد حصول الايمان (البحث الثالث) ظاهر الامر للوجوب فقوله وقل رب ارحمهما أمر وظاهر الامر لا يفيد التكرار فيكفى فى العمل بمقتضى هذه الآية ذكر هذا القول مرة واحدة سئل سفيان كم يدعو الانسان لوالديه أفى اليوم مرة أوفى الشهر أوفى السنة فقال نرجو ان يجزئه اذا دعا لهما فى أواخر التشهدات كما أن الله تعالى قال يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه فكانوا يرون ان التشهد يجزى عن الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وكما أن الله تعالى قال واذكروا الله فى ايام معدودات فهم يكررون فى أدبار الصلوات ثم قال تعالى ربكم أعلم بما فى نفوسكم ان تكونوا صالحين والمعنى انا قد أمرناكم فى هذه الآية باخلاص العبادة لله تعالى وبالاحسان بالوالدين ولا يخفى على الله ما تضمرونه فى أنفسكم من الاخلاص فى الطاعة وعدم الاخلاص فيها فاعلموا أن الله تعالى مطلع على ما فى نفوسكم بل هو اعلم بتلك الاحوال منكم بها لان علوم البشر قد يختلط بها السهو والنسيان وعدم الاحاطة بالكل فأما علم الله فمنزه عن كل هذه الاحوال واذا كان الامر كذلك كان عالما بكل ما فى قلوبكم والمقصود منه التحذير عن ترك الاخلاص ثم قال تعالى ان تكونوا صالحين أى ان كنتم برآء عن جهات الفساد فى أحوال قلوبكم كنتم أوابين أى رجاعين الى

والمراد بالاخوة المماثلة التامة فى كل ما الاخير فيه من صفات السوء التى من جملتها التبذير أى كانوا بما فعلوا من التبذير أمثال الشياطين أو الصداقة والملازمة أى كانوا أصدقاءهم وأتباعهم فيما ذكر من التبذير والصرف فى المعاصى فانهم كانوا ينحرون الابل ويتياسرون عليها ويبذرون أموالهم فى السمعة وسائر ما الاخير فيه من المناهى والملاهى أو المقارنة أى قرناءهم فى النار على سبيل الوعيد (وكان الشيطان لربه كفورا) من تتمة التعليل أى مبالغا فى كفران نعمته تعالى لان شأنه أن يصرف جميع ما أعطاه الله تعالى من القوى والقدر الى غير ما خلقت هى له من أنواع المعاصى والافساد فى الارض واضلال الناس وحملهم على الكفر بالله وكفران نعمه الفائضة عليهم وصرفها الى غير ما أمر الله تعالى به وتخصيص هذا الوصف بالذكر من بين سائر أوصافه القبيحة للايذان بأن التبذير الذى هو عبارة عن صرف نعم الله تعالى الى غير مصرفها من باب الكفران المقابل للشكر الذى هو عبارة عن صرفها الى ما خلقت هى له والتعرض لوصف الربوبية للاشعار بكمال عتوه فان كفران نعمة الرب مع كون الربوبية من أقوى الدواعى الى شكرها غاية الكفران ونهاية الضلال

الله منقطعين اليه فى كل الاعمال وسنة الله وحكمه فى الاوابين انه غفور لهم يكفر عنهم سيآتهم والاواب هو الذى من عادته وديدنه الرجوع الى الله تعالى والالتجاء الى فضله ولا يلتجى الى شفاعة شفيع كما يفعله المشركون الذين يعبدون من دون الله جمادا يزعمون أنه يشفع لهم ولفظ الاواب على وزن فعال وهو يفيد المداومة والكثرة كقولهم قتال وضراب والمقصود من هذه الآية ان الآية الاولى لما دلت على وجوب تعظيم الوالدين من كل الوجوه ثم ان الولد قد يظهر منه نادرة مخلة بتعظيمهما فقال ربكم أعلم بما فى نفوسكم يعنى انه تعالى عالم بأحوال قلوبكم فان كانت تلك الهفوة ليست لاجل العقوق بل ظهرت بمقتضى الجبلة البشرية كانت فى محل الغفران والله أعلم ❊ قوله تعالى (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا) اعلم ان هذا هو النوع الرابع من أعمال الخير والطاعة المذكورة فى هذه الآيات وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله وآت خطاب مع من فيه قولان (الاول) انه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم فأمره الله ان يؤتى أقاربه الحقوق التى وجبت لهم فى الفىء والغنيمة وأوجب عليه أيضا اخراج حق المساكين وأبناء السبيل أيضا من هذين المالين (والقول الثانى) انه خطاب للكل والدليل عليه انه معطوف على قوله وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه والمعنى انك بعد فراغك من بر الوالدين يجب أن تشتغل ببر سائر الاقارب الاقرب فالاقرب ثم باصلاح أحوال المساكين وأبناء السبيل واعلم ان قوله تعالى وآت ذا القربى حقه مجمل وليس فيه بيان ان ذلك الحق ما هو وعند الشافعى رحمه الله انه لا يجب الانفاق الا على الولد والوالدين وقال قوم يجب الانفاق على المحارم بقدر الحاجة واتفقوا على ان من لم يكن من المحارم كأبناء العم فلا حق لهم الا الموادة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة فى السراء والضراء أما المسكين وابن السبيل فقد تقدم وصفهما فى سورة التوبة فى تفسير آية الزكاة و يجب أن يدفع الى المسكين ما بقى قوته وقوت عياله وان يدفع الى ابن السبيل ما يكفيه من زاده وراحلته الى أن يبلغ مقصده ثم قال تعالى ولا تبذر تبذيرا والتبذير فى اللغة افساد المال وانفاقه فى السرف قال عثمان بن الاسود كنت أطوف فى المساجد مع مجاهد حول الكعبة فرفع رأسه الى أبى قبيس وقال لو أن رجلا أنفق مثل هذا فى طاعة الله لم يكن من المسرفين ولو أنفق درهما واحدا فى معصية الله كان من المسرفين وأنفق بعضهم نفقة فى خير فأكثر فقيل له لا خير فى السرف فقال لا سرف فى الخير وعن عبد الله بن عمر قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسعد وهو يتوضأ فقال ما هذا السرف يا سعد فقال أوفى الوضوء سرف قال نعم وان كنت على نهر جار ثم نبه تعالى على قبح التبذير باضافته اياه الى أفعال الشياطين فقال ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين والمراد من هذه الاخوة التشبه بهم فى هذا الفعل القبيح وذلك لان العرب يسمون الملازم

والطغيان (واما تعرضن عنهم) أى ان اعتراك أمر اضطرك الى أن تعرض عن أولئك المستحقين (ابتغاء رحمة من ربك) أى لفقد رزق من ربك اقامة للمسبب مقام السبب فان الفقد سبب للابتغاء (ترجوها) من الله تعالى لتعطيهم وكان عليه السلام اذا سئل شيئا وليس عنده اعرض عن السائل و سكت حياء فأمر بتعهدهم بالقول الجميل لئلا تعتريهم الوحشة بسكونه عليه السلام فقيل (فقل لهم قولا ميسورا) سهلا لينا و عدهم وعدا جميلا من يسر الامر نحو سعد وقل لهم رزقنا الله واياكم من فضله على انه دعاء لهم بيسر عليهم فقرهم (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط) تمثيلان لمنع الشحيح واسراف المبذر زجرا لهما عنهما وحملا على ما بينهما من الاقتصاد ✻ كلا طرفى قصد الامور ذميم ✻ وحيث كان قبح الشح مقارنا له معلوما من أول الامر روعى ذلك فى التصوير بأقبح الصور ولما كان غائلة الاسراف فى آخره بين قبحه فى أثره فقيل (فتقعد ملوما) أى فتصير ملوما عند الله تعالى وعند الناس وعند نفسك اذا احتجت وندمت على ما فعلت (محسورا) نادما أو منقطعا بك ❊ للشئ ❊ لا شئ عندك من حسره السفر اذا بلغ منه وما قيل من أنه روى عن جابر

للشيء أخاله فيقولون فلان أخو الكرم والجود وأخو السفر اذا كان مواظبا على هذه الاعمال وقيل قوله اخوان الشياطين أي قرناءهم في الدنيا والآخرة كما قال ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وقال تعالى احشروا الذين ظلموا وأزواجهم أي قرناءهم من الشياطين ثم انه تعالى بين صفة الشيطان فقال وكان الشيطان لربه كفورا ومعنى كون الشيطان كفورا لربه هو انه يستعمل بدنه في المعاصي والافساد في الارض والاضلال للناس وكذلك كل من رزقه الله تعالى مالا أو جاها فصرفه الى غير مرضاة الله تعالى كان كفورا لنعمة الله تعالى والمقصود ان المبذرين اخوان الشياطين بمعنى كونهم موافقين للشياطين في الصفة والفعل ثم الشيطان كفور لربه فيلزم كون المبذر أيضا كفورا لربه وقال بعض العلماء خرجت هذه الآية على وفق عادة العرب وذلك لانهم كانوا يجمعون الاموال بالنهب والغارة ثم كانوا ينفقونها في طلب الخيلاء والتفاخر وكان المشركون من قريش وغيرهم ينفقون أموالهم ليصدوا الناس عن الاسلام وتوهين أهله واعانة أعدائه فنزلت هذه الآية تنبيها على قبح أعمالهم في هذا الباب ثم قال تعالى واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها والمعنى انك ان أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياء من التصريح بالرد بسبب الفقر والقلة فقل لهم قولا ميسورا أي سهلا لينا وقوله ابتغاء رحمة من ربك ترجوها كناية عن الفقر لان فاقد المال يطلب رحمة الله واحسانه فلما كان فقد المال سببا لهذا الطلب ولهذا الابتغاء أطلق اسم السبب على المسبب فسمى الفقر بابتغاء رحمة الله تعالى والمعنى ان عند حصول الفقر والقلة لاتترك تعهدهم بالقول الجميل والكلام الحسن بل تعدهم بالوعد الجميل وتذكر لهم العذر وهو حصول القلة وعدم المال او تقول لهم الله يسهل وفي تفسير القول الميسور وجوه (الاول) القول الميسور هو الرد بالطريق الاحسن (والثاني) القول الميسور اللين السهل قال الكسائي يسرت أيسر له القول أي لينته له (والثالث) قال بعضهم القول الميسور مثل قوله قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى قالوا والميسور هو المعروف لان القول المتعارف لايحوج الى تكلف والله أعلم* قوله تعالى (ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان بعباده خبيرا بصيرا) اعلم انه تعالى لما أمر بالانفاق في الآية المتقدمة علمه في هذه الآية أدب الانفاق واعلم انه تعالى شرح وصف عباده المؤمنين في الانفاق في سورة الفرقان فقال والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما فههنا أمر رسوله بمثل ذلك الوصف فقال ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك أي لاتمسك عن الانفاق بحيث تضيق على نفسك وأهلك في وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات والمعنى لاتجعل يدك في انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط ولاتبسطها كل البسط أي ولاتتوسع في الانفاق توسعا مفرطا بحيث لايبقى في يدك شيء

رضي الله عنه انه قال بينا رسول الله صلى الله عليه سلم قاعد اذ اتاه صبي فقال ان أمي تستكسيك درعا فقال عليه السلام من ساعة الى ساعة فعد الينا فذهب الى أمه ﴿ ٥٦٧ ﴾ فقالت له قل ان أمي تستكسيك الدرع الذي عليك فدخل صلى الله عليه وسلم داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عريانا وأذن بلال وانتظروا فلم يخرج للصلاة فنزلت فيأباه أن السورة مكية خلا آيات في آخرها وكذا ماقيل انه عليه السلام أعطى الاقرع بن حابس مائة من الابل وكذا عيينة بن حصن الفزاري فجاء عباس بن مرداس فأنشأ يقول* أتجعل نهبي ونهب العبيد * بين عيينة والاقرع * وما كان حصن ولاحابس* يفوقان مرداس في مجمع* وماكنت دون امرئ منهما* ومن تضع اليوم لايرفع* فقال عليه السلام ياأبابكر اقطع لسانه عني أعطه مائة من الابل وكانوا جميعا من المؤلفة القلوب فنزلت (ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) تعليل للامر أي يوسعه على بعض و يضيقه على آخرين حسبما تتعلق به مشيئته التابعة للحكمة فليس مايرهقك من الاضافة التي تحوجك الى الاعراض ﴿ ٧٣ ﴾ خا عن السائلين أو نفاد ما في يدك اذا بسطتها كل البسط الا لمصلحتك (انه كان بعباده خبيرا بصيرا) تعليل لما سبق أي يعلم

سرهم وعلنهم فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم ويجوز أن يراد ان البسط والقبض من أمر الله العالم بالسرائر والظواهر الذى بيده خزائن السموات والارض وأما العباد فعليهم أن يقتصدوا وأن يراد أنه تعالى يبسط تارة ويقبض أخرى فاستنوا بسنته فلا تقبضوا كل القبض ولا تبسطوا كل البسط وأن يراد أنه تعالى يبسط ويقدر حسب مشيئته فلا تبسطوا على من قدر عليه رزقه وأن يكون تمهيدا لقوله (ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق) أى مخافة فقر وقرئ بكسر الخاء كانوا يئدون بناتهم مخافة الفقر فنهوا عن ذلك (نحن نرزقهم واياكم) لا أنتم فلا تخافوا الفاقة بناء على علمكم بعجزكم عن تحصيل رزقهم وهو ضمان لرزقهم وتعليل للنهى المذكور بابطال موجبه فى زعمهم وتقديم ضمير الاولاد على المخاطبين على عكس ما وقع فى سورة الانعام للاشعار باصالتهم فى افاضة الرزق أو لان الباعث على القتل هناك الاملاق الناجز ولذلك قيل من املاق وههنا الاملاق المتوقع ولذلك قيل خشية املاق فكأنه قيل نرزقهم من غير أن ينتقص من رزقكم شئ فيعتريكم ما تخشونه واياكم أيضا رزقا الى رزقكم (ان قتلهم كان خطأ كبيرا) تعليل آخر ببيان أن المنهى عنه فى نفسه منكر عظيم

وحاصل الكلام ان الحكماء ذكروا فى كتب الاخلاق ان لكل خلق طرفى افراط وتفريط وهما مذمومان فالبخل افراط فى الامساك والتبذير افراط فى الانفاق وهما مذمومان والخلق الفاضل هو العدل والوسط كما قال تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا ثم قال تعالى فتقعد ملوما محسورا أما تفسير تقعد فقد سبق فى الآية المتقدمة وأما كونه ملوما فلانه يلوم نفسه وأصحابه أيضا يلومونه على تضييع المال بالكلية وابقاء الاهل والولد فى الضر والمحنة وأما كونه محسورا فقال الفراء تقول العرب للبعير هو محسور اذا انقطع سيره وحسرت الدابة اذا سيرتها حتى ينقطع سيرها ومنه قوله تعالى ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير وجمع الحسير حسرى مثل قتلى وصرعى وقال القفال المقصود تشبيه حال من أنفق كل ماله ونفقاته بمن انقطع فى سفره بسبب انقطاع مطيته لان ذلك المقدار من المال كأنه مطية يحمل الانسان ويبلغه الى آخر الشهر أو السنة كما أن ذلك البعير يحمله ويبلغه الى آخر المنزل فاذا انقطع ذلك البعير بقى فى وسط الطريق عاجزا متحيرا فكذ اذا أنفق الانسان مقدار ما يحتاج اليه فى مدة شهر بقى فى وسط ذلك الشهر عاجزا ومن فعل هذا لحقه اللوم من أهله والمحتاجين الى انفاقه عليهم بسبب سوء تدبيرهم الحزم فى مهمات معاشه ثم قال تعالى ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وهذ ين عرف رسوله صلى الله عليه وسلم كونه ربا والرب هو الذى يربى المربوب ويقوم لك مهماته ودفع حاجاته على مقدار الصلاح والصواب فيوسع الرزق على البعض ويضي على البعض والقدر فى اللغة التضييق ومنه قوله تعالى ومن قدر عليه رزقه وقوله تعا وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه أى ضيق وانما وسع على البعض لان ذلك هو الصلاح لهم قال تعالى ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض ولكن ينزل بقدر ما يشاء ثم قال تعالى انه كان بعباده خبيرا بصيرا يعنى أنه تعالى عالم بان مصلحة كل انسان فى أن لا يعطيه الا ذلك القدر فالتفاوت فى ارزاق العباد ليس لاجل البخل بل لاجل رعاية المصالح * قوله تعالى (ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطأ كبيرا) هذا هو النوع الخامس من الطاعات المذكورة فى هذه الآيات وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى تقرير النظم وجوه (الاول) انه تعالى لما بين فى الآية الاولى انه هو المتكفل بارزاق العباد حيث قال ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أتبعه بقوله ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم (الثانى) انه تعالى لما علم كيفية البر بالوالدين فى الآية المتقدمة علم فى هذه الآية كيفية البر بالاولاد ولهذا قال بعضهم ان الذين يسمون بالابرار انما سموا بذلك لانهم بروا الآباء والابناء وانما وجب بر الآباء مكافأة على ما صدر منهما من أنواع البر بالاولاد وانما وجب البر بالاولاد لانهم فى غاية الضعف ولا كافل لهم غير الوالدين (الوجه الثالث) ان امتناع الاولاد من البر بالآباء يوجب خراب العالم لان الآباء اذا علموا ذلك قلت رغبتهم فى تربية الاولاد فيلزم خراب العالم من الوجه الذى قررناه فثبت ان عمارة

والخطء الذنب والاثم يقال خطئ خطا كأثم اثما وقرئ بالفتح والسكون و بفتحتين بمعناه كالحذر والحذر وقيل بمعنى ضد الصواب و بكسر الخاء والمد و بفتحها ممدودا و بفتحها وحذف الهمزة و بكسرها كذلك

العالم انما تحصل اذا حصلت المبرة بين الآباء والاولاد من الجانبين (الوجه الرابع) ان قتل الاولاد ان كان لخوف الفقر فهو سوء ظن بالله وان كان لاجل الغيرة على البنات فهو سعى فى تخريب العالم فالاول ضد التعظيم لامر الله تعالى والثانى ضد الشفقة على خلق الله تعالى وكلاهما مذموم والله أعلم (الوجه الخامس) ان قرابة الاولاد قرابة الجزئية والبعضية وهى من أعظم الموجبات للمحبة فلو لم تحصل المحبة دل ذلك على غلظ شديد فى الروح وقسوة فى القلب وذلك من أعظم الاخلاق الذميمة فرغب الله فى الاحسان الى الاولاد ازالة لهذه الخصلة الذميمة (المسئلة الثانية) العرب كانوا يقتلون البنات لعجز البنات عن الكسب وقدرة البنين عليه بسبب اقدامهم على النهب والغارة وأيضا كانوا يخافون ان فقرها ينفر كفأها عن الرغبة فيها فيحتاجون الى انكاحها من غير الاكفاء وفى ذلك عار شديد فقال تعالى ولا تقتلوا أولادكم وهذا اللفظ عام للذكور والاناث والمعنى ان الموجب للرحمة والشفقة هو كونه ولدا وهذا المعنى وصف مشترك بين الذكور وبين الاناث وأما ما يخاف من الفقر فى البنات فقد يخاف مثله فى الذكور فى حال الصغر وقد يخاف أيضا فى العاجزين من البنين ثم قال تعالى نحن نرزقهم واياكم يعنى الارزاق بيد الله تعالى فكما انه تعالى فتح أبواب الرزق على الرجال فكذلك يفتح أبواب الرزق على النساء

عرضنا سئلة الثالثة) الجمهور قرؤا ان قتلهم كان خطأ كبيرا أى اثما كبيرا يقال خطئ يخطأ والقلة فقلة مثل اثم يأثم اثما قال تعالى انا كنا خاطئين أى آثمين وقرأ ابن عامر خطأ بالفتح يقال وانقر لطأ يخطئ اخطاء وخطأ اذا اتى بما لا ينبغى من غير قصد و يكون الخطأ اسما للمصدر والمعنى على هذه القراءة ان قتلهم ليس بصواب قال القفال رحمه الله وقرأ ابن كثير خطاء بكسر الخاء ممدودة ولعلهما لغتان مثل دفع ودفاع ولبس ولباس * قوله تعالى (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا) اعلم أنه تعالى لما أمر بالاشياء الخمسة التى تقدم ذكرها وحاصلها يرجع الى شيئين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله أتبعها بذكر النهى عن أشياء (أولها) انه تعالى نهى عن الزنا فقال ولا تقربوا الزنا قال القفال اذا قيل للانسان لا تقربوا هذا فهذا آكد من أن يقول له لا تفعله ثم انه تعالى علل هذا النهى بكونه فاحشة وساء سبيلا واعلم أن الناس قد اختلفوا فى أنه تعالى اذا أمر بشئ أو نهى عن شئ فهل يصح أن يقال انه تعالى انما أمر بذلك الشئ أو نهى عنه لوجه عائد اليه أم لا فقال القائلون بتحسين العقل وتقبيحه الامر كذلك وقال المنكرون لتحسين العقل وتقبيحه ليس الامر كذلك احتج القائلون بتحسين العقل وتقبيحه على صحة قولهم بهذه الآية قالوا انه تعالى نهى عن الزنا وعلل ذلك النهى بكونه فاحشة فيمتنع أن يكون كونه فاحشة عبارة عن كونه منهيا عنه والا لزم تعليل الشئ بنفسه وهو محال فوجب أن يقال كونه فاحشة وصف حاصل له باعتبار كونه زنا وذلك يدل على أن الاشياء تحسن وتقبح لوجوه عائدة اليها فى أنفسها و يدل أيضا على أن نهى الله تعالى عنها معلل بوقوعها فى أنفسها على تلك الوجوه

(ولا تقربوا الزنا) بمباشرة مباديه القريبة أو البعيدة فضلا عن مباشرته وانما نهى عن قربانه على خلاف ما سبق ولحق من القتل للمبالغة فى النهى عن نفسه ولان قربانه داع الى مباشرته وتوسيط النهى عنه بين النهى عن قتل الاولاد والنهى عن قتل النفس المحرمة على الاطلاق باعتبار أنه قتل للاولاد لما انه تضييع للانساب فان من لم يثبت نسبه ميت حكما (انه كان فاحشة) فعلة ظاهرة القبح متجاوزة عن الحد (وساء سبيلا) أى بئس طريقا طريقه فانه غصب الابضاع المؤدى الى اختلال أمر الانساب وهيجان الفتن كيف لا وقد قال النبى عليه السلام اذا زنى العبد خرج منه الايمان فكان على رأسه كالظلة فاذا انقطع رجع اليه وقال عليه السلام لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن وعن حذيفة رضى الله عنه انه قال عليه السلام اياكم والزنا فان فيه ست خصال ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة فأما التى فى الدنيا فذهاب البهاء ودوام الفقر وقصر العمر وأما التى فى الآخرة فسخط

الله تعالى وسوء الحساب والخلود فى النار (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله) قتلها بأن عصمها بالاسلام أو بالعهد (الا بالحق) الا باحدى ثلاث كفر بعد ايمان وزنا بعد احصان وقتل نفس معصومة عمدا فاستثناء مفرغ أى لاتقتلوها بسبب من الاسباب الا بسبب الحق أو ملتبسين أو ملتبسة بشئ من الاشياء و يجوز أن يكون نعتا لمصدر محذوف أى لاتقتلوها قتلا ما الا قتلا ملتبسا بالحق (ومن قتل مظلوما) بغير حق يوجب قتله أو يبيحه للقاتل حتى انه لايعتبر اباحته لغير القاتل فان من عليه القصاص اذا قتله غير من له القصاص يقتص له ولا يفيده قول الولى انا أمرته بذلك مالم يكن الامر ظاهرا (فقد جعلنا لوليه) لمن يلى أمره من الوارث أو السلطان عند عدم الوارث (سلطانا) تسلطا واستيلاء على القاتل يؤاخذه بالقصاص أو بالدية حسبما تقتضيه جنايته أو حجة غالبة (فلا يسرف) وقرئ لاتسرف (فى القتل) أى لا يسرف الولى فى أمر القتل بأن يتجاوز الحد المشروع بأن يزيد عليه المثلة أو بأن يقتل غير القاتل من أقاربه أو بأن يقتل الاثنين مكان الواحد كما يفعله أهل الجاهلية أو بأن يقتل القاتل فى مادة الدية وقرئ بصيغة النفى مبالغة فى افادة معنى النهى (انه كان منصورا) تعليل للنهى

وهذا الاستدلال قريب والاولى أن يقال ان كون الشئ فى نفسه مصلحة أو مفسدة أمر ثابت لذاته لا بالشرع فان تناول الغذاء الموافق مصلحة والضرب المؤلم مفسدة وكونه كذلك أمر ثابت بالعقل لا بالشرع واذا ثبت هذا فنقول تكاليف الله تعالى واقعة على وفق مصالح العالم فى المعاش والمعاد فهذا هو الكلام الظاهرى وفيه مشكلات هائلة ومباحث عميقة نسأل الله التوفيق لبلوغ الغاية فيها اذا عرفت هذا فنقول الزنا اشتمل على أنواع من المفاسد (أولها) اختلاط الانساب واشتباهها فلا يعرف الانسان ان الولد الذى أتت به الزانية أهو منه أو من غيره فلا يقوم بتربيته ولا يستمر فى تعهده وذلك يوجب ضياع الاولاد وذلك يوجب انقطاع النسل وخراب العالم (وثانيها) انه اذا لم يوجد سبب شرعى لاجله يكون هذا الرجل أولى بهذه المرأة من غيره لم يبق فى حصول ذلك الاختصاص الا التواثب والتقاتل وذلك يفضى الى فتح باب الهرج والمرج والمقاتلة وكم سمعنا وقوع القتل الذريع بسبب اقدام المرأة الواحدة على الزنا (وثالثها) ان المرأة اذا باشرت الزنا وتمرنت عليه يستقذرها كل طبع سليم وكل خاطر مستقيم وحينئذ لاتحصل الالفة والمحبة ولا يتم السكن والازدواج ولذلك فان المرأة اذا اشتهرت بالزنا تنفر عن مقارنتها طباع أكثر الخلق (ورابعها) انه اذا انفتح باب الزنا فحينئذ لايبقى لرجل اختصاص بامرأة وكل رجل يمكنه التواثب على كل امرأة شاءت وارادت وحينئذ لايبقى بين نوع الانسان وبين سائر البهائم فرق فى هذا الباب (وخامسها) انه ليس المقصود من المرأة مجرد قضاء الشهوة بل ان تصير شريكة للرجل فى ترتيب المنزل واعداد مهماته من المطعوم والمشروب والملبوس وأن تكون ربة البيت وحافظة للباب وان تكون قائمة بأمور الاولاد والعبيد وهذه المهمات لاتتم الا اذا كانت مقصورة الهمة على هذا الرجل الواحد منقطعة الطمع عن سائر الرجال وذلك لايحصل الا بتحريم الزنا وسد هذا الباب بالكلية (وسادسها) ان الوطء يوجب الذل الشديد والدليل عليه ان أعظم أنواع الشتم عند الناس ذكر ألفاظ الوقاع ولولا ان الوطء يوجب الذل والا لما كان الامر كذلك وأيضا فان جميع العقلاء لايقدمون على الوطء الا فى المواضع المستورة وفى الاوقات التى لايطلع عليهم أحد وان جميع العقلاء يستنكفون عن ذكر أزواج بناتهم وأخواتهم وأمهاتهم لما يقدمون على وطئهن ولولا أن الوطء ذل والا لما كان كذلك واذا ثبت هذا فنقول لما كان الوطء ذلا كان السعى فى تقليله موافقا للعقول فاقتصار المرأة الواحدة على الرجل الواحد سعى فى تقليل ذلك العمل وأيضا مافيه من الذل يصير مجبورا بالمنافع الحاصلة فى النكاح أما الزنا فانه فتح باب لذلك العمل القبيح ولم يصر مجبورا بشئ من المنافع فوجب بقاؤه على أصل المنع والحجر فثبت بما ذكرنا ان العقول السليمة تقضى على الزنا بالقبح واذا ثبت هذا فنقول انه تعالى وصف الزنا بصفات ثلاثة كونه فاحشة ومقتا فى آية أخرى وساء سبيلا أما كونه فاحشة فهو اشارة الى اشتماله على فساد الانساب الموجبة لخراب العالم والى اشتماله على التقاتل

﴿ والتواثب ﴾

والتوائب على الفروج وهو أيضا يوجب خراب العالم وأما المقت فقد ذكرنا ان الزانية تصير ممقوتة مكروهة وذلك يوجب عدم حصول السكن والازدواج وان لا يعتمد الانسان عليها فى شئ من مهماته ومصالحه وأما انه ساء سبيلا فهو ماذكرنا انه لا يبقى فرق بين الانسان وبين البهائم فى عدم اختصاص الذكران بالاناث وأيضا يبقى ذل هذا العمل وعيبه وعاره على المرأة من غير أن يصير مجبورا بشئ من المنافع فقد ذكرنا فى قبح الزناستة أوجه والله تعالى ذكر ألفاظا ثلاثة فحملنا كل واحد من هذه الالفاظ الثلاثة على وجهين من تلك الوجوه الستة والله أعلم بمراده ❊ ثم قال تعالى (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا) هذا هو النوع الثانى مما نهى الله عنه فى هذه الآية وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لقائل أن يقول ان أكبر الكبائر بعد الكفر بالله القتل فما السبب فى أن الله تعالى بدأ أولا بذكر النهى عن الزنا وثانيا بذكر النهى عن القتل وجوابه انا بينا ان فتح باب الزنا يمنع من دخول الانسان فى الوجود والقتل عبارة عن ابطال الانسان بعد دخوله فى الوجود ودخوله فى الوجود مقدم على ابطاله واعدامه بعد وجوده فلهذا السبب ذكر الله تعالى الزنا أولا ثم ذكر القتل ثانيا (المسئلة الثانية) اعلم ان الاصل فى القتل هو الحرمة المغلظة والحل انما يثبت بسبب عارضى فلما كان الامر كذلك لا جرم نهى الله عن القتل مطلقا بناء على حكم الاصل ثم استثنى عنه الحالة التى يحصل فيها حل القتل وهو عند حصول الاسباب العرضية فقال الا بالحق فنفتقر ههنا الى بيان أن الاصل فى القتل التحريم والذى يدل عليه وجوه (الاول) ان القتل ضرر والاصل فى المضار الحرمة لقوله ما جعل عليكم فى الدين من حرج ولا يريد بكم العسر ولا ضرر ولا ضرار (الثانى) قوله عليه السلام الآدمى بنيان الرب ملعون من هدم بنيان الرب (الثالث) ان الآدمى خلق للاشتغال بالعبادة لقوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ولقوله عليه السلام حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا والاشتغال بالعبادة لا يتم الا عند عدم القتل (الرابع) ان القتل افساد فوجب ان يحرم لقوله تعالى ولا تفسدوا (الخامس) انه اذا تعارض دليل تحريم القتل ودليل اباحته فقد أجمعوا على ان جانب الحرمة راجح ولولا أن مقتضى الاصل هو التحريم والا لكان ذلك ترجيحا لا لمرجح وهو محال (السادس) انا اذا لم نعرف فى الانسان صفة من الصفات الا مجرد كونه انسانا عاقلا حكمنا فيه بتحريم قتله وما لم نعرف شيئا زائدا على كونه انسانا لم نحكم فيه بحل دمه ولولا أن أصل الانسانية يقتضى حرمة القتل والا لما كان كذلك فثبت بهذه الوجوه ان الاصل فى القتل هو التحريم وان حله لا يثبت الا باسباب عرضية واذا ثبت هذا فنقول انه تعالى حكم بان الاصل فى القتل هو التحريم فقال ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق فقوله ولا تقتلوا نهى وتحريم وقوله حرم الله اعادة لذكر التحريم على سبيل التأكيد ثم استثنى عنه الاسباب العرضية الاتفاقية فقال الا بالحق

والضمير للولى على معنى انه تعالى نصره بأن أوجب له القصاص أو الدية وأمر الحكام بمعونته فى استيفاء حقه فلا يبغ ماوراء حقه ولا يستزد عليه ولا يخرج من دائرة أمر الناصر أو المقتول ظلما على معنى انه تعالى نصره بما ذكر فلا يسرف وليه فى شأنه أو للذى يقتله الولى ظلما واسرافا ووجه التعليل ظاهر وعن مجاهد أن الضمير فى لا يسرف للقاتل الاول ويعضده قراءة فلا تسرفوا والضميران فى التعليل عائدان الى الولى أو المقتول فالمراد بالاسراف حينئذ اسراف القاتل على نفسه بتعريضها للهلاك العاجل والآجل لا الاسراف وتجاوز الحد فى القتل أى لا يسرف على نفسه فى شأن القتل كما فى قوله تعالى قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم (ولا تقربوا مال اليتيم) نهى عن قربانه لما ذكر من المبالغة فى النهى عن التعرض له ومن افضاء ذلك اليه والتوسل الى الاستثناء بقوله تعالى (الا بالتى هى أحسن) أى الا بالخصلة والطريقة التى هى أحسن الخصال والطرائق وهى حفظه واستثماره (حتى يبلغ أشده) غاية لجواز التصرف على الوجه الاحسن المدلول عليه بالاستثناء لا للوجه المذكور فقط (وأوفوا بالعهد) سواء جرى بينكم وبين ربكم أو بينكم وبين غيركم من الناس والايفاء بالعهد

والوفاء به هو القيام بمقتضاه والمحافظة عليه ولا يكاد يستعمل الا بالباء فرقا بينه وبين الايفاء الحسى كايفاء الكيل والوزن (ان العهد) أظهر فى مقام الاضمار اظهار الكمال العناية بشأنه أولان المراد مطلق العهد المنتظم للعهد المعهود (كان مسئولا) أى مسؤلا [illegible] على حذف الجار وجعل الضمير بعد انقلابه مرفوعا مستكنا فى اسم المفعول كقوله تعالى وذلك يوم مشهود أى مشهود فيه ونظيره ما فى قوله تعالى تلك آيات الكتاب الحكيم على أن أصله الحكيم قائله فحذف المضاف وجعل الضمير مستكنا فى الحكيم بعد انقلابه مرفوعا ويجوز أن يكون تخييلا كأنه يقال للعهد لم نكثت وهلا وفى بك تبكيتا للناكث كما يقال للموؤدة بأى ذنب قتلت (وأوفوا الكيل) أى أتموه ولا تخسروه (اذا كلتم) أى وقت كيلكم للمشترين وتقييد الامر بذلك لما أن التطفيف هناك يكون وأما وقت الاكتيال على الناس فلا حاجة الى الامر بالتعديل قال تعالى اذا اكتالوا على الناس يستوفون الاية (وزنوا بالقسطاس) وهو القرسطون وقيل كل ميزان صغيرا كان أو كبيرا رومى معرب ولا يقدح ذلك فى عربية القرآن لانتظام المعربات فى سلك الكلم العربية وقرئ بضم القاف (المستقيم) أى العدل السوى

ثم ههنا طريقان (الاول) ان مجرد قوله الا بالحق مجمل لانه ليس فيه بيان ان ذلك الحق ما هو وكيف هو ثم انه تعالى قال ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا أى فى استيفاء القصاص من القاتل وهذا الكلام يصلح جعله بيانا لذلك المجمل وتقريره كأنه تعالى قال ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق وذلك الحق هو أن من قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فى استيفاء القصاص واذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من الحق هذه الصورة فقط فصار تقدير الآية ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا عند القصاص وعلى هذا التقدير فتكون الآية نصا صريحا فى تحريم القتل الا بهذا السبب الواحد فوجب أن يبقى على الحرمة فيما سوى هذه الصورة الواحدة (والطريق الثانى) أن نقول دلت السنة على ان ذلك الحق هو أحد امور ثلاثة وهو قوله عليه السلام لا يحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث كفر بعد ايمان وزنا بعد احصان وقتل نفس بغير حق واعلم ان هذا الخبر من باب الآحاد فان قلنا ان قوله ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا تفسير لقوله الا بالحق كانت الآية صريحة فى انه لا يحل القتل الا بهذا السبب الواحد فحينئذ يصير هذا الخبر مخصصا لهذه الآية ويصير ذلك فرعا لقولنا انه يجوز تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد وأما ان قلنا ان قوله ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ليس تفسيرا لقوله الا بالحق فحينئذ يصير هذا الخبر مفسرا للحق المذكور فى الآية وعلى هذا التقدير لا يصير هذا فرعا على مسئلة جواز تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد فلتكن هذه الدقيقة معلومة والله أعلم (المسئلة الثالثة) ظاهر هذه الآية أنه لا سبب لحل القتل الا قتل المظلوم وظاهر الخبر يقتضى ضم شيئين آخرين اليه وهو الكفر بعد الايمان والزنا بعد الاحصان ودلت آية أخرى على حصول سبب رابع وهو قوله تعالى انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا ودلت آية أخرى على حصول سبب خامس وهو الكفر قال تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وقال واقتلوهم حيث وجدتموهم والفقهاء تكلموا واختلفوا فى أشياء أخرى فمنها ان تارك الصلاة هل يقتل أم لا فعند الشافعى رحمه الله يقتل وعند أبى حنيفة رحمه الله لا يقتل (وثانيها) ان فعل اللواط هل يوجب القتل فعند الشافعى يوجب وعند أبى حنيفة لا يوجب (وثالثها) ان الساحر اذا قال قتلت بسحرى فلانا فعند الشافعى يوجب القتل وعند أبى حنيفة لا يوجب (ورابعها) ان القتل بالمثقل هل يوجب القصاص فعند الشافعى يوجب وعند أبى حنيفة لا يوجب (وخامسها) ان الامتناع من أداء الزكاة هل يوجب القتل أم لا اختلفوا فيه فى زمان أبى بكر (وسادسها) ان اتيان البهيمة هل يوجب القتل فعند أكثر الفقهاء لا يوجب وعند قوم يوجب حجة القائلين بانه لا يجوز القتل فى هذه الصور هو أن الآية صريحة فى منع القتل على الاطلاق الا لسبب واحد وهو قتل المظلوم ففيما عدا هذا السبب الواحد وجب البقاء على اصل الحرمة ثم قالوا وهذا النص قد تأكد بالدلائل الكثيرة

الموجبة لحرمة الدم على الاطلاق فترك العمل بهذه الدلائل لايكون الالمعارض وذلك المعارض اما أن يكون نصامتواترا أونصامن باب الاحاد أو يكون قياسا أما النص المتواتر فمفقود والا لما بقى الخلاف وأما النص من باب الآحاد فهو مرجوح بالنسبة الى هذه النصوص المتواترة الكثيرة وأما القياس فلا يعارض النص فثبت بمقتضى هذا الاصل القوى القاهر ان الاصل فى الدماء الحرمة الا فى الصور المعدودة والله أعلم (المسئلة الرابعة) قوله تعالى ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فيه بحثان (الاول) ان هذه الآية تدل على انه اثبت لولى الدم سلطانا فاما بيان ان هذه السلطنة تحصل فيما ذا فليس فى قوله فقد جعلنا لوليه سلطانا دلالة عليه ثم ههنا طريقان (الاول) انه تعالى لما قال بعده فلا يسرف فى القتل عرف ان تلك السلطنة انما حصلت فى استيفاء القتل وهذا ضعيف لاحتمال أن يكون المراد ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلاينبغى ان يسرف الظالم فى ذلك القتل لان ذلك المقتول منصور بواسطة اثبات هذه السلطنة لوليه (والثانى) ان تلك السلطنة مجملة ثم صارت مفسرة بالآية والخبر أما الآية فقوله تعالى فى سورة البقرة يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الى قوله فمن عفى له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف واداء اليه باحسان وقد بينا فى تفسير هذه الآية أنها تدل على ان الواجب هو كون المكلف مخيرا بين القصاص و بين الدية وأما الخبر فهو قوله عليه السلام يوم الفتح من قتل قتيلا فأهله بين خيرتين ان أحبوا قتلوا وان أحبوا أخذوا الدية وعلى هذا الطريق فقوله فلا يسرف فى القتل معناه انه لما حصلت سلطنة استيفاء القصاص ان شاء وسلطنة استيفاء الدية ان شاء قال بعده فلا يسرف فى القتل معناه ان الاولى أن لا يقدم على استيفاء القتل وان يكتفى بأخذ الدية أو يميل الى العفو و بالجملة فلفظة فى محمولة على الباء والمعنى فلا يصير مسرفا بسبب اقدامه على القتل و يصير معناه الترغيب فى العفو والاكتفاء بالدية كما قال وأن تعفوا أقرب للتقوى (البحث الثانى) ان فى قوله ومن قتل مظلوما ذكر كونه مظلوما بصيغة التنكير وصيغة التنكير على ما عرف تدل على الكمال فالانسان المقتول مالم يكن كاملا فى وصف المظلومية لم يدخل تحت هذا النص قال الشافعى رحمه الله فقد دللنا على ان المسلم اذا قتل الذمى لم يدخل تحت هذه الآية بدليل ان الذمى مشرك والمشرك يحل دمه انما قلنا انه مشرك لقوله تعالى ان الله لايغفر أن يشرك به و يغفر مادون ذلك لمن يشاء حكم بان ما سوى الشرك مغفور فى حق البعض فلو كان كفر اليهودى والنصرانى شيئا مغايرا للشرك لوجب أن يصير مغفورا فى حق بعض الناس بمقتضى هذه الآية فلما لم يصر مغفورا فى حق أحد دل على ان كفرهم شرك ولانه تعالى قال لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة فهذا التثليث الذى قال به هؤلاء اما أن يكون تثليثا فى الصفات وهو باطل لان ذلك هو الحق وهو مذهب أهل السنة والجماعة فلا يمكن جعله تثليثا للكفر وأما أن يكون تثليثا فى الذوات وذلك هو الحق ولاشك أن

ولعل الاكتفاء باستقامته عن الامر بايفاء الوزن لما أن عند استقامته لايتصور الجور غالبا بخلاف الكيل فانه كثيرا مايقع التطفيف مع استقامة الآلة كما أن الاكتفاء بايفاء الكيل عن الامر بتعديله لما أن ايفاءه لايتصور بدون تعديل المكيال وقد أمر بتقويمه أيضا فى قوله تعالى أوفوا الكيل والميزان بالقسط (ذلك) أى ايفاء الكيل والوزن بالميزان السوى (خير) فى الدنيا اذ هو أمانة توجب الرغبة فى معاملته والذكر الجميل بين الناس (وأحسن تأويلا) عاقبة تفعيل من آل اذا رجع والمراد ما يؤل اليه (ولا تقف) ولا تتبع من قفا أثره اذا تبعه وقرئ ولا تقف من قاف أثره أى قفاه ومنه القافة فى جمع القائف (ماليس لك به علم) أى لا تكن فى اتباع مالا علم لك به من قول أو فعل كمن يتبع مسلكا لايدرى انه يوصله الى مقصده واحتج به من منع اتباع الظن وجوابه ان المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند قطعيا كان أو ظنيا واستعماله بهذا المعنى مما لاينكر شيوعه وقيل انه مخصوص بالعقائد وقيل بالرمى وشهادة الزور و يؤيده قوله عليه الصلاة والسلام من قفا مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله تعالى فى ردغة الخبال حتى يأتى بالمخرج ومنه قول الكميت

القاتل به مشرك فثبت أن الذمى مشرك وانما قلنا ان المشرك يجب قتله لقوله تعالى اقتلوا المشركين ومقتضى هذا الدليل اباحة دم الذمى فان لم تثبت الاباحة فلا أقل من حصول شبهة الاباحة واذا ثبت هذا فنقول ثبت انه ليس كاملا فى المظلومية فلم يندرج تحت قوله تعالى ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا وأما الحر اذا قتل عبدا فهو داخل تحت هذه الآية الا انا بينا ان قوله كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد يدل على المنع من قتل الحر بالعبد من وجوه كثيرة وتلك الآية أخص من قوله ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا والخاص مقدم على العام فثبت ان هذه الآية لا يجوز التمسك بها فى مسئلة ان موجب العمد هو القصاص ولا فى مسئلة انه يجب قتل المسلم بالذمى ولا فى مسئلة انه يجب قتل الحر بالعبد والله أعلم أما قوله تعالى فلا يسرف فى القتل ففيه مباحث (البحث الاول) فيه وجوه (الاول) المراد هو أن يقتل القاتل وغير القاتل وذلك لان الواحد منهم اذا قتل واحدا من قبيلة شريفة فأولياء ذلك المقتول كانوا يقتلون خلقا من القبيلة الدنيئة فنهى الله تعالى عنه وأمر بالاقتصار على قتل القاتل وحده (الثانى) هو ان لا يرضى بقتل القاتل فان أهل الجاهلية كانوا يقصدون أشراف قبيلة القاتل ثم كانوا يقتلون منهم قوما معينين ويتركون القاتل (والثالث) هو أن لا يكتفى بقتل القاتل بل يمثل به ويقطع اعضاءه قال القفال ولا يبعد حمله على الكل لان جملة هذه المعانى مشتركة فى كونها اسرافا (البحث الثانى) قرأ الاكثرون فلا يسرف بالياء وفيه وجهان (الاول) التقدير فلا ينبغى ان يسرف الولى فى القتل (الثانى) ان الضمير للقاتل الظالم ابتداء أى فلا ينبغى أن يسرف ذلك الظالم واسرافه عبارة عن [illegible] على ذلك القتل الظلم وقرأ حمزة والكسائى فلا تسرف بالتاء على الخطاب وهذه [illegible] تحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون الخطاب للمبتدئ القاتل ظلما كأنه قيل له لا تسرف أيها الانسان وذلك الاسراف هو اقدامه على ذلك القتل الذى هو ظلم محض والمعنى لا تفعل فانك ان قتلته مظلوما استوفى القصاص منك (والآخر) أن يكون الخطاب للولى فيكون التقدير لا تسرف فى القتل أيها الولى أي اكتف باستيفاء القصاص ولا تطلب الزيادة وأما قوله انه كان منصورا ففيه ثلاثة أوجه (الاول) كأنه قيل للظالم المبتدئ بذلك القتل على سبيل الظلم لا تفعل ذلك فان ذلك المقتول يكون منصورا فى الدنيا والآخرة أما نصرته فى الدنيا فبقتل قاتله وأما فى الآخرة فبكثرة الثواب له وكثرة العقاب لقاتله (والقول الثانى) ان هذا الولى يكون منصورا فى قتل ذلك القاتل الظالم فليكتف بهذا القدر فانه يكون منصورا فيه ولا ينبغى أن يطمع فى الزيادة منه لان من يكون منصورا من عند الله يحرم عليه طلب الزيادة (والقول الثالث) ان هذا القاتل الظالم ينبغى أن يكتفى باستيفاء القصاص وان لا يطلب الزيادة واعلم ان على القول الاول والثانى ظهر ان المقتول وولى دمه يكونان منصورين من عند الله تعالى وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال قلت

ب* ولا اقفوا الحواص ان ترمينا* (ان السمع والبصر والفؤاد) وقرئ بفتح الفاء والواو المقلوبة من
والوفاء به هو القيام لفاء (كل أولئك) أي كل واحد من تلك الاعضاء فأجريت مجرى العقلاء لما كانت مسؤلة عن
(ان العهد) [illegible] شاهدة على العهد [illegible] أنها هذا وان اولاء [illegible] وان غلب فى العقلاء لكنه من حيث انه اسم جمع لذا الذى يعم القبيلين جاء لغيرهم أيضا قال

* ذم المنازل بعد منزلة اللوى * والعيش بعد أولئك الايام *

(كان عنه مسؤلا) أي كان كل من تلك الاعضاء مسؤلا عن نفسه على أن اسم كان ضمير يرجع الى كل وكذا الضمير المجرور وقد جوز أن يكون الاسم ضمير القافى بطريق الالتفات اذ الظاهر أن يقال كنت عنه مسؤلا وقيل الجار والمجرور فى محل الرفع قد أسند اليه مسؤلا معللا بأن الجار والمجرور لا يلتبس بالمبتدا وهو السبب فى منع تقديم الفاعل وما يقوم مقامه ولكن النحاس حكى الاجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل اذا كان جارا ومجرورا ويجوز أن يكون من باب الحذف على شريطة التفسير وحذف الجار من المفسر وبعود الضمير مستكنا كما ذكرنا فى قوله تعالى يوم مشهود وجوز أن يكون مسؤلا مسندا الى المصدر المدلول

لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه وايم الله ليظهرن عليكم ابن ابى سفيان لان الله تعالى يقول ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا وقال الحسن والله مانصر معاوية على على رضى الله عنه الا بقول الله تعالى ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا والله أعلم

* قوله تعالى (ولاتقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده) اعلم ان هذا هو النوع الثالث من الاشياء التى نهى الله عنها فى هذه الآيات واعلم انا ذكرنا ان الزنا يوجب اختلاط الانساب وذلك يوجب منع الاهتمام بتربية الاولاد وذلك يوجب انقطاع النسل وذلك يوجب المنع من دخول الناس فى الوجود وأما القتل فهو عبارة عن اعدام الناس بعد دخولهم فى الوجود فثبت ان النهى عن الزنا والنهى عن القتل يرجع حاصله الى النهى عن اتلاف النفوس فلما ذكر الله تعالى ذلك اتبعه بالنهى عن اتلاف الاموال لان أعز الاشياء بعد النفوس الاموال وأحق الناس بالنهى عن اتلاف أموالهم هو اليتيم لانه لصغره وضعفه وكمال عجزه يعظم ضرره باتلاف ماله فلهذا السبب خصهم الله تعالى بالنهى عن اتلاف أموالهم فقال ولاتقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن ونظيره قوله تعالى ولاتأكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف وفى تفسير قوله الا بالتى هى أحسن وجهان (الاول) الا بالتصرف الذى ينميه و يكثره (الثانى) المراد هو أن تأكل معه اذا احتجت اليه و روى مجاهد عن ابن عباس قال اذا احتاج أكل بالمعروف فاذا أيسر قضاه فان لم يوسر فلا شىء عليه واعلم ان الولى انما تبقى ولايته على اليتيم الى أن يبلغ أشده وهو بلوغ النكاح كما بينه الله تعالى فى آية أخرى وهى قوله وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم والمراد بالاشد بلوغه الى حيث يمكنه بسبب عقله و رشده القيام بمصالح ماله وعند ذلك تزول ولاية غيره عنه وذلك حد البلوغ فأما اذا بلغ غير كامل العقل لم تزل الولاية عنه والله أعلم و بلوغ العقل هو أن يكمل عقله وقواه الحسية والحركية والله أعلم

* قوله تعالى (وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤلا وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا) اعلم انه تعالى أمر بخمسة أشياء أولا ثم اتبعه بالنهى عن ثلاثة أشياء وهو النهى عن الزنا وعن القتل الا بالحق وعن قربان مال اليتيم الا بالتى هى أحسن ثم اتبعه بهذه الاوامر الثلاثة فالاول قوله وأوفوا بالعهد واعلم ان كل عقد تقدم لاجل توثيق الامر وتوكيده فهو عهد فقوله وأوفوا بالعهد نظير لقوله تعالى ياأيها الذين آمنوا اوفوا بالعقود فدخل فى قوله أوفوا بالعقود كل عقد من العقود كعقد البيع والشركة وعقد اليمين والنذر وعقد الصلح وعقد النكاح وحاصل القول فيه ان مقتضى هذه الآية ان كل عقد وعهد جرى بين انسانين فانه يجب عليهما الوفاء بمقتضى ذلك العقد والعهد الا اذا دل دليل منفصل على انه لايجب الوفاء به فمقتضاه الحكم بصحة كل بيع وقع التراضى به و بصحة كل شركة وقع التراضى بها

عليه بالفعل ولن يكون فاعله المصدر وهو السؤال وعنه فى محل النصب وسأل ابن جنى أبا على عن قولهم فيك يرغب وقال لا يرتفع بما بعده فأين المرفوع فقال المصدر أى فيك يرغب الرغبة بمعنى تفعل الرغبة كما فى قولهم يعطى ويمنع أى يفعل الاعطاء والمنع وجوز أن يكون اسم كان أو فاعله ضمير كل بحذف المضاف أى كان صاحبه عنه مسؤلا أو مسؤلا صاحبه (ولا تمش فى الارض) التقييد لزيادة التقرير والاشعار بأن المشى عليها لا يليق بالمرح (مرحا) تكبرا و بطرا واختيالا وهو مصدر وقع موقع الحال أى ذا مرح أو تمرح مرحا أو لاجل المرح وقرئ بالكسر (انك لن تخرق الارض) تعليل للنهى وفيه تهكم بالمختال وايذا بأن ذلك مفاخرة مع الارض وتكبر عليها ال لن تخرق الارض بدوسك وشدة وطأتك وقرئ بضم الراء (ولن تبلغ الجبال) التى هى بعض أجزاء الارض (طولا) حتى يمكن لك أن تتكبر عليها اذ التكبر انما يكون بكثرة القوة وعظم الجثة وكلاهما مفقود وفيه تعريض بما عليه المختال من رفع رأسه ومشي على صدو رقدميه (كل ذلك) اشارة الى ماعلم فى تضاعيف ذكـ الاوامر والنواهى خا من الخصال الخمس والعشرين (كا

ويؤكد هذا النص بسائر الآيات الدالة على الوفاء بالعهود والعقود كقوله والموفون بعهدهم اذا عاهدوا وقوله والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون وقوله وأحل الله البيع وقوله ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم وقوله واشهدوا اذا تبايعتم وقوله عليه السلام لا يحل مال امرئ مسلم الا عن طيبة من نفسه وقوله اذا اختلف الجنسان فبيعوا كيف شئتم يدا بيد وقوله من اشترى شيئا لم يره فهو بالخيار اذا رآه فجميع هذه الآيات والاخبار دالة على ان الاصل فى البيوعات والعهود والعقود الصحة ووجوب الالتزام اذا ثبت هذا فنقول ان وجدنا نصا أخص من هذه النصوص يدل على البطلان والفساد قضينا به تقديما للخاص على العام والا قضينا بالصحة فى الكل وأما تخصيص النص بالقياس فقد أبطلناه وبهذا الطريق تصير أبواب المعاملات على طولها واطنابها مضبوطة معلومة بهذه الآية الواحدة ويكون المكلف آمن القلب مطمئن النفس فى العمل لانه لما دلت هذه النصوص على صحتها فليس بعد بيان الله بيان وتصير الشريعة مضبوطة معلومة ثم قال تعالى ان العهد كان مسؤلا وفيه وجوه (أحدها) أن يراد صاحب العهد كان مسؤلا فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه كقوله واسأل القرية (وثانيها) ان العهد كان مسؤلا أى مطلوبا يطلب من المعاهد ان لا يضيعه ويفى به (وثالثها) أن يكون هذا تخييلا كأنه يقال للعهد لم نكثت وهلا وفى بك تبكيتا للناكث كما يقال للموؤدة بأى ذنب قتلت وكقوله أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين الآية فالمخاطبة لعيسى عليه السلام والانكار على غيره (النوع الثانى) من الاوامر المذكورة فى هذه الآية قوله وأوفوا الكيل اذا كلتم والمقصود منه اتمام الكيل وذكر الوعيد الشديد فى نقصانه فى قوله ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون (النوع الثالث) من الاوامر المذكورة فى هذه الآية قوله وزنوا بالقسطاس المستقيم فالآية المتقدمة فى اتمام الكيل وهذه الآية فى اتمام الوزن ونظيره قوله تعالى وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان وقوله ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا فى الارض مفسدين واعلم أن التفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل والوزن قليل والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم فوجب على العاقل الاحتراز منه وانما عظم الوعيد فيه لان جميع الناس محتاجون الى المعاوضات والبيع والشراء وقد يكون الانسان غافلا لا يهتدى الى حفظ ماله فالشارع بالغ فى المنع من التطفيف والنقصان سعيا فى ابقاء الاموال على الملاك ومنعا من تلطيخ النفس بسرقة ذلك المقدار الحقير والقسطاس فى معنى الميزان الا انه فى العرف أكبر منه ولهذا اشتهر فى ألسنة العامة انه القبان وقيل انه بلسان الروم أو السريانى والاصح انه لغة العرب وهو مأخوذ من القسط وهو الذى يحصل فيه الاستقامة والاعتدال وبالجملة فمعناه المعتدل الذى لا يميل الى أحد الجانبين وأجمعوا على جواز اللغتين فيه ضم القاف وكسرها فالكسر قراءة

سيئه) الذى نهى عنه وهى اثنتا عشرة خصلة (عند ربك مكروها) مبغضا غير مرضى أو غير مراد بالارادة الاولية لا غير مراد مطلقا لقيام الادلة القاطعة على أن جميع الاشياء واقعة بارادته سبحانه وهو تتمة لتعليل الامور المنهى عنها جميعا ووصف ذلك بمطلق الكراهة مع أن البعض من الكبائر للايذان بأن مجرد الكراهة عنده تعالى كافية فى وجوب الانتهاء عن ذلك وتوجيه الاشارة الى الكل ثم تعيين البعض دون توجيهها اليه ابتداء لما أن البعض المذكور ليس بمذكور جملة بل على وجه الاختلاط وفيه اشعار بكون ما عداه مرضيا عنده تعالى وانما لم يصرح بذلك ايذانا بالغنى عنه وقيل الاضافة بيانية كما فى آية الليل وآية النهار وقرئ سيئة على انه خبر كان وذلك اشارة الى ما نهى عنه من الامور المذكورة ومكروها بدل من سيئة أو صفة لها محمولة على المعنى فانه بمعنى سيأ وقد قرئ به أو مجرى على موصوف مذكر أى أمرا مكروها أو مجرى مجرى الاسماء زال عنه معنى الوصفية ويجوز كونه حالا من المستكن فى كان أو فى الظرف على انه صفة سيئة وقرئ سيأته وقرئ شأنه (ذلك) أى الذى تقدم من التكاليف المفصلة (مما أوحى اليك ربك) أى بعض منه

حمزة والكسائى وحفص عن عاصم والباقون بالضم ثم قال تعالى ذلك خير أى الايفاء بالتمام والكمال خير من التطفيف القليل من حيث ان الانسان يتخلص بواسطته عن الذكر القبيح فى الدنيا والعقاب الشديد فى الآخرة وأحسن تأويلا والتأويل مايؤول اليه الامر كما قال فى موضع آخر خير مردا خير عقبى خير أملا وانما حكم الله تعالى بأن عاقبة هذا الامر أحسن العواقب لانه فى الدنيا اذا اشتهر بالاحتراز عن التطفيف عول الناس عليه ومالت القلوب اليه وحصل له الاستغناء فى الزمان القليل وكم قد رأينا من الفقراء لما اشتهروا عند الناس بالامانة والاحتراز عن الخيانة أقبلت القلوب عليهم وحصلت الاموال الكثيرة لهم فى المدة القليلة وأما فى الآخرة فالفوز بالثواب العظيم والخلاص من العقاب الاليم

* قوله تعالى (ولا تقف ماليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما شرح الاوامر الثلاثة عاد بعده الى ذكر النواهى فنهى عن ثلاثة أشياء أولها قوله ولا تقف ماليس لك به علم قوله تقف مأخوذ من قولهم قفوت أثر فلان اقفو قفوا وقفوا اذا اتبعت أثره وسميت قافية الشعر قافية لانها تقفو البيت وسميت القبيلة المشهورة بالقافة لانهم يتبعون آثار اقدام الناس و يستدلون بها على أحوال الانسان وقال تعالى ثم قفينا على آثارهم برسلنا وسمى القفا قفا لانه مؤخر بدن الانسان كأنه شئ يتبعه و يقفوه فقوله ولا تقف أى ولا تتبع ولا تقتف مالا علم لك به من قول أو فعل وحاصله يرجع الى النهى عن الحكم بما لا يكون معلوما وهذه قضية كلية يندرج تحتها أنواع كثيرة وكل واحد من المفسرين حمله على واحد من تلك الانواع وفيه وجوه (الاول) المراد نهى المشركين عن المذاهب التى كانوا يعتقدونها فى الالهيات والنبوات بسبب تقليد اسلافهم لانه تعالى نسبهم فى تلك العقائد الى اتباع الهوى فقال ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس وقال انكارهم البعث بل ادارك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمون وحكى عنهم انهم قالوا ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين وقال ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله وقال ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام الآية وقال هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن (والقول الثانى) نقل عن محمد بن الحنفية ان المراد منه شهادة الزور وقال ابن عباس لا تشهد الا بما رأته عيناك وسمعته اذناك ووعاه قلبك (والقول الثالث) المراد منه النهى عن القذف ورمى المحصنين والمحصنات بالاكاذيب وكانت عادة العرب جارية بذلك يذكرونها فى الهجاء و يبالغون فيه (والقول الرابع) المراد منه النهى عن الكذب قال قتادة لا تقل سمعت ولم تسمع ورأيت ولم تره علمت ولم تعلم (والقول الخامس) ان القفو هو البهت وأصله من القفا كأنه قول يقال خلفه وهو فى معنى الغيبة وهو ذكر الرجل فى غيبته بما يسوءه وفى بعض الاخبار من

اومن جنسه (من الحكمة) التى هى علم الشرائع أو معرف الحق لذاته والعمل به أو من الاحكام المحكمة التى لا يتطرق اليها النسخ والفساد وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان هذه الآيات الثمانى عشرة كانت فى ألواح موسى عليه السلام أولها لا تجعل مع الله الها آخر قال تعالى وكتبنا له فى الالواح من كل شئ موعظة وهى عشر آيات فى التوراة ومن اما متعلقة بأوحى على انها تبعيضية أو ابتدائية واما بمحذوف وقع حالا من الموصول أو من ضميره المحذوف فى الصلة أى كائنا من الحكمة واما بدل من الموصول باعادة الجار (ولا تجعل مع الله الها آخر) الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والمراد غيره ممن يتصور منه صدور المنهى عنه وقد كرر للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الامر ومنتهاه وأنه رأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم ينفعه علومه وحكمه وان بذ فيها أساطين الحكماء وحك بيافوخه عنان السماء وقد رتب عليه ما هو عائدة الاشراك أولا حيث قيل فتقعد مذموما مخذولا ورتب عليه ههنا نتيجته فى العقبى فقيل (فتلقى فى جهنم ملوما) من جهة نفسك ومن جهة غيرك (مدحورا) مبعدا من رحمة الله تعالى وفى ايراد الالقاء مبنيا للمفعول جرى على سنن الكبرياء

مسلما بما ليس فيه حبسه الله في ردغة الخبال واعلم ان اللفظ عام يتناول الكل فلا معنى للتقليد والله أعلم (المسئلة الثانية) احتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا القياس لا يفيد الا الظن والظن مغاير للعلم فالحكم في دين الله بالقيـاس حكم بغير المعلوم فوجب أن لا يجوز لقوله تعالى ولا تقف ما ليس لك به علم أجيب عنه من وجوه (الاول) ان الحكم في الدين بمجرد الظن جائز باجماع الامة في صور كثيرة (أحدها) ان العمل بالفتوى عمل بالظن وهو جائز (وثانيها) العمل بالشهادة عمل بالظن وانه جائز (وثالثها) الاجتهاد في طلب القبلة لا يفيد الا الظن وانه جائز (ورابعها) قيم المتلفات وأروش الجنايات لا سبيل اليها الا بالظن وانه جائز (وخامسها) الفصد والحجامة وسائر المعالجات بناء على الظن وانه جائز (وسادسها) كون هذه الذبيحة ذبيحة للمسلم مظنون لا معلوم و بناء الحكم عليه جائز (وسابعها) قال تعالى وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها وحصول ذلك الشقاق مظنون لا معلوم (وثامنها) الحكم على الشخص المعين بكونه مؤمنا مظنون ثم نبني على هذا الظن أحكاما كثيرة مثل حصول التوارث ومثل الدفن في مقابر المسلمين وغيرهما (وتاسعها) جميع الاعمال المعتبرة في الدنيا من الاسفار وطلب الارباح والمعاملات الى الآجال المخصوصة والاعتماد على صداقة الاصدقاء وعداوة الاعداء كلها مظنونة و بناء الامر على تلك الظنون جائز (وعاشرها) قال عليه السلام نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر وذلك تصريح بأن الظن معتبر في هذه الانواع العشرة فبطل قول من يقول انه لا يجوز بناء الامر على الظن (والجواب الثاني) ان الظن قد يسمى بالعلم والدليل عليه قوله تعالى اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بايمانهن فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار ومن المعلوم انه انما يمكن العلم بايمانهن بناء على اقرارهن وذلك لا يفيـد الا الظن فههنا الله تعالى سمى الظن علما (والجواب الثالث) ان الدليل القاطع لما دل على وجوب العمل بالقياس وكان ذلك الدليل دليـلا على انه متى حصل ظن ان حكم الله في هذه الصورة يساوي حكمه في محل النص فأنتم مكلفون بالعمل على وفق ذلك الظن فههنا الظن وقع في طريق الحكم فأما ذلك الحكم فهو معلوم متيقن أجاب نفاة القياس عن السؤال الاول فقالوا قوله تعالى ولا تقف ما ليس لك به علم عام دخله التخصيص في الصور العشرة المذكورة فيبقى هذا العموم فيما وراء هذه الصور حجة ثم نقول الفرق بين هذه الصور العشر و بين محل النزاع ان هذه الصور العشر مشتركة في ان تلك الاحكام أحكام مختصة بأشخاص معينين في أوقات معينة فان الواقعة التي يرجع فيها الانسان المعين الى المفتي المعين واقعة متعلقة بذلك الشخص المعين وكذلك القول في الشهادة وفي طلب القبـلة وفي سـائر الصور والتنصيص على وقائع الاشخـاص المعين في الاوقات المعينة يجري مجرى التنصيص على ما لا نهاية له وذلك متعذر فلهذه الضرورة اكتفينا بالظن أما الاحكام المثبتة بالاقيسة

والايذاء بالشرك وجعل له من قبيل خشبة يأخذها آخذ بكفه فيطرحها في التنور (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا) خطاب للقائلين بأن الملائكة بنات الله سبحانه والاصفاء بالشئ جعله خالصا والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر يفسره المذكور أي أفضلكم على جنابه فخصكم بأفضل الاولاد على وجه الخلوص وآثر لذاته أخسها وأدناها كما في قوله سبحانه ألكم الذكر وله الانثى وقوله تعالى أم له البنات ولكم البنون وقد قصد ههنا بالتعرض لعنوان الربوبية تشديد النكير وتأكيده وأشير بذكر الملائكة عليهم السلام وايراد الاناث مكان البنات الى كفرة لهم أخرى وهي وصفهم لهم عليهم السلام بالانوثة التي هي أخس صفات الحيوان كقوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا (انكم لتقولون) بمقتضى مذهبكم الباطل الذي هو اضافة الولد اليه سبحانه (قولا عظيما) لا يقادر قدره في استتباع الاثم وخرقه لقضايا العقول بحيث لا يجترئ عليه أحد حيث يجعلونه تعالى من قبيل الاجسام المتجانسة السريعة الزوال وليس كمثله شئ وهو الواحد القهار الباقي بذاته ثم تضيفون اليه ما تكرهون من

﴿ فهى ﴾

أخس الاولاد وتفضلون عليه أنفسكم بالبنين ثم تصفون الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق بالانوثة التى هى أخس أوصاف الحيوان فيالها من ضلة ما أقبحها وكفرة ما أشنعها وأفظعها (ولقد صرفنا) هذا المعنى وكررناه (فى هذا القرآن) على وجوه من التصريف فى مواضع منه وانما ترك الضمير تعويلا على الظهور وقرئ بالتخفيف (ليذكروا) ما فيه ويقفوا على بطلان ما يقولونه والالتفات الى الغيبة للايذان باقتضاء الحال أن يعرض عنهم ويحكى للسامعين هناتهم وقرئ بالتخفيف من الذكر بمعنى التذكر ويجوز أن يراد بهذا القرآن ما نطق ببطلان مقالاتهم المذكورة من الآيات الكريمة الواردة على أساليب مختلفة ومعنى التصريف فيه جعله مكانا له أى أوقعنا فيه التصريف كقوله * يجرح فى عراقيبها نصلى * وقد جوز أن يراد به ابطال اضافتهم اليه تعالى البنات وأنت تعلم أن ابطالها من آثار القرآن ونتائجه (وما يزيدهم) أى والحال انه ما يزيدهم ذلك التصريف البالغ (الا نفورا) عن الحق واعراضا عنه فضلا عن التذكر المؤدى الى معرفة بطلان ما هم عليه من القبائح (قل) فى اظهار بطلان ذلك من جهة أخرى (لو كان معه) تعالى

فهى أحكام كلية معتبرة فى وقائع كلية وهى مضبوطة قليلة والتنصيص عليها ممكن ولذلك فان الفقهاء الذين استخرجوا تلك الاحكام بطريق القياس ضبطوها وذكروها فى كتبهم اذا عرفت هذا فنقول التنصيص على الاحكام فى الصور العشر التى ذكرتموها غير ممكن فلا جرم اكتفى الشارع فيها بالظن أما المسائل المثبتة بالطرق القياسية التنصيص عليها ممكن فلم يجز الاكتفاء فيها بالظن فظهر الفرق (وأما الجواب الثانى) وهو قولهم الظن قد يسمى علما فنقول هذا باطل فانه يصح أن يقال هذا مظنون وغير معلوم وهذا معلوم وغير مظنون وذلك يدل على حصول المغايرة ثم الذى يدل عليه قوله تعالى قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن نفى العلم واثبات الظن وذلك يدل على حصول المغايرة وأما قوله تعالى فان علمتموهن مؤمنات فالمؤمن هو المقر وذلك الاقرار هو العلم (وأما الجواب الثالث) فهو أيضا ضعيف لان ذلك الكلام انما يتم لو ثبت ان القياس حجة بدليل قاطع وذلك باطل لان تلك الحجة اما أن تكون عقلية أو نقلية والاول باطل لان القياس الذى يفيد الظن لا يجب عقلا أن يكون حجة والدليل عليه أنه لا نزاع أنه يصح من الشرع أن يقول نهيتكم عن الرجوع الى القياس ولو كان كونه حجة أمرا عقليا لامتنع ذلك والثانى أيضا باطل لان الدليل النقلى فى كون القياس حجة انما يكون قطعيا لو كان منقولا نقلا متواترا وكانت دلالته على ثبوت هذا المطلوب دلالة قطعية غير محتملة النقيض ولو حصل مثل هذا الدليل لوصل الى الكل ولعرفه الكل ولارتفع الخلاف وحيث لم يكن كذلك علمنا انه لم يحصل فى هذه المسئلة دليل سمعى قاطع فثبت انه لم يوجد فى اثبات كون القياس حجة دليل قاطع البتة فبطل قولكم كون الحكم المثبت بالقياس حجة معلوم لا مظنون فهذا تمام الكلام فى تقرير هذا الدليل وأحسن ما يمكن أن يقال فى الجواب عنه ان التمسك بهذه الآية التى عولتم عليها تمسك بعام مخصوص والتمسك بالعام المخصوص لا يفيد الا الظن فلو دلت هذه الآية على ان التمسك بالظن غير جائز لدلت على ان التمسك بهذه الآية غير جائز فالقول بكون هذه الآية حجة يفضى ثبوته الى نفيه فكان متناقضا فسقط الاستدلال به والله أعلم وللمجيب أن يجيب فيقول نعلم بالتواتر الظاهر من دين محمد صلى الله عليه وسلم ان التمسك بآيات القرآن حجة فى الشريعة ويمكن أن يجاب عن هذا الجواب بأن كون العام المخصوص حجة غير معلوم بالتواتر والله أعلم (المسئلة الثالثة) قوله ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا فيه بحثان (الاول) ان العلوم اما مستفادة من الحواس أو من العقول أما القسم الاول فاليه الاشارة بذكر السمع والبصر فان الانسان اذا سمع شيئا ورآه فانه يرويه ويخبر عنه وأما القسم الثانى فهو العلوم المستفادة من العقل وهى قسمان البديهية والكسبية والى العلوم العقلية الاشارة بذكر الفؤاد (البحث الثانى) ظاهر الآية يدل على ان هذه الجوارح مسؤلة وفيه وجوه (الاول) ان المراد ان صاحب السمع والبصر والفؤاد هو المسؤل لان السؤال لا يصح الا ممن كان

عاقلا وهذه الجوارح ليست كذلك بل العاقل الفاهم هو الانسان فهو كقوله تعالى واسأل القرية والمراد أهلها يقال له لم سمعت ما لا يحل لك سماعه ولم نظرت الى ما لا يحل لك النظر اليه ولم عزمت على ما لا يحل لك العزم عليه (والوجه الثانى) ان تقرير الآية ان أولئك الاقوام كلهم مسئولون عن السمع والبصر والفؤاد فيقال لهم استعملتم السمع فيماذا أفى الطاعة أوفى المعصية وكذلك القول فى بقية الاعضاء وذلك لان هذه الحواس آلات النفس والنفس كالامير لها والمستعمل لها فى مصالحها فان استعملتها النفس فى الخيرات استوجبت الثواب وان استعملتها فى المعاصى استحقت العقاب (والوجه الثالث) انه ثبت بالقرآن انه تعالى يخلق الحياة فى الاعضاء ثم انها تشهد على الانسان والدليل عليه قوله تعالى يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ولذلك لا يبعد أن يخلق الحياة والعقل والنطق فى هذه الاعضاء ثم انه تعالى يوجه السؤال عليها * قوله تعالى (ولا تمش فى الارض مرحا انك ان تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها) اعلم ان هذا هو النوع الثانى من الاشياء التى نهى الله عنها فى هذه الآيات وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المرح شدة الفرح يقال مرح يمرح مرحا فهو مرح والمراد من الآية النهى عن ان يمشى الانسان مشيا يدل على الكبرياء والعظمة قال الزجاج لا تمش فى الارض مختالا فخورا ونظيره قوله تعالى فى سورة الفرقان وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا وقال فى سورة لقمان واقصد فى مشيك واغضض من صوتك وقال ايضا فيها ولا تمش فى الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور (المسئلة الثانية) قال الاخفش ولو قرئ مرحا بالكسر كان أحسن فى القراءة قال الزجاج مرحا مصدر ومرحا اسم الفاعل وكلاهما جائز الا أن المصدر أحسن ههنا وأوكد تقول جاء زيد ركضا وراكضا فركضا أوكد لانه يدل على توكيد الفعل ثم انه تعالى أكد النهى عن الخيلاء والتكبر فقال انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا والمراد من الخرق ههنا نقب الارض ثم ذكروا فيه وجوها (الاول) ان المشى انما يتم بالارتفاع والانخفاض فكأنه قيل انك حال الانخفاض لا تقدر على خرق الارض ونقبها وحال الارتفاع لا تقدر على ان تصل الى رؤس الجبال والمراد التنبيه على كونه ضعيفا عاجزا فلا يليق به التكبر (الثانى) المراد منه ان تحتك الارض التى لا تقدر على خرقها وفوقك الجبال التى لا تقدر على الوصول اليها فانت محاط بك من فوقك وتحتك بنوعين من الجماد وأنت أضعف منهما بكثير والضعيف المحصور لا يليق به التكبر وكأنه قيل له تواضع ولا تتكبر فانك خلق ضعيف من خلق الله المحصور بين حجارة وتراب فلا تفعل فعل المقتدر القوى ثم قال تعالى كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الاكثرون قرؤا سيئه بضم الهاء والهمزة وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو سيئة منصوبة أما وجه قراءة الاكثرين فظاهر من وجهين (الاول) قال الحسن

[illegible] الشرك وجعل له مون قاطبة وقرئ بالتاء خطابا لهم من قبل النبى عليه الصلاة والسلام والكاف فى محل من[illegible]ة آ ماثا) لمصدر محذوف أى كونا مشابها لما يقولون والمراد بالمشابهة الموافقة والمطابقة والهمزة للانكار ولكن العطف على مقدر وجزاء المذكور لابتغوا (الى ذى العرش) أى الى من له الملك والربوبية على الاطلاق (سبيلا) بالمبالغة والممانعة كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض على طريقة قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وقيل بالتقرب اليه تعالى كقوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة والاول هو الاظهر الانسب لقوله (سبحانه) فانه صريح فى أن المراد بيان انه يلزم مما يقولونه محذور عظيم من حيث لا يحتسبون وأما ابتغاء السبيل اليه تعالى بالتقرب فليس مما يختص بهذا التقرير ولا هو مما يلزمهم من حيث لا يشعرون بل هو أمر يعتقدونه رأسا أى تنزه بذاته تنزها حقيقا به (وتعالى) متباعدا (عما يقولون) من العظيمة التى هى ان يكون معه آلهة وأن يكون له بنات (علوا) تعاليا كقوله تعالى والله أنبتكم من الارض نباتا (كبيرا) لا غاية وراءه كيف لا وانه سبحانه ﴿ انه ﴾ فى أقصى غايات الوجود وهو

انه تعالى ذكر قبل هذا أشياء أمر ببعضها ونهى عن بعضها فلو حكم على الكل بكونه سيئة لزم كون المأمور به سيئة وذلك لا يجوز اما اذا قرأناه بالاضافة كان المعنى ان ما كان من تلك الاشياء المذكورة سيئة فهو مكروه عند الله واستقام الكلام (والوجه الثانى) انا لو حكمنا على كل ما تقدم ذكره بكونه سيئة اوجب أن يقال انها مكروهة وليس الامر كذلك لانه تعالى قال مكروها اما اذا قرأناه بصيغة الاضافة كان المعنى ان سيئ تلك الاقسام يكون مكروها وحينئذ يستقيم الكلام أما قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو فيها وجوه (الاول) ان الكلام تم عند قوله ذلك خير وأحسن تأويلا ثم ابتدأ وقال ولا تقف ما ليس لك به علم ولا تمش فى الارض مرحا ثم قال كل ذلك كان سيئة والمراد هذه الاشياء الاخيرة التى نهى الله عنها (والثانى) ان المراد بقوله كل ذلك أى كل ما نهى الله عنه فيما تقدم وأما قوله مكروها فذكروا فى تصحيحه على هذه القراءة وجوها (الاول) التقدير كل ذلك كان سيئة وكان مكروها (الثانى) قال صاحب الكشاف السيئة فى حكم الاسماء بمنزلة الذنب والاثم زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيثه ولا فرق بين من قرأ سيئة ومن قرأ سيئه ألا ترى انك تقول الزنا سيئة كما تقول السرقة سيئة فلا تفرق بين اسنادها الى مذكر ومؤنث (الثالث) فيه تقديم وتأخير والتقدير كل ذلك كان مكروها وسيئة عند ربك (الرابع) انه محمول على المعنى لان السيئة هى الذنب وهو مذكر (المسئلة الثانية) قال القاضى دلت هذه الآية على ان هذه الاعمال مكروهة عند الله تعالى والمكروه لا يكون مرادا له فهذه الاعمال غير مرادة لله تعالى فبطل قول من يقول كل ما دخل فى الوجود فهو مراد لله تعالى واذا ثبت انها ليست بارادة الله تعالى وجب أن لا تكون مخلوقة له لانها لو كانت مخلوقة لله تعالى لكانت مرادة له لا يقال المراد من كونها مكروهة ان الله تعالى نهى عنها وأيضا معنى كونها مكروهة ان الله تعالى كره وقوعها وعلى هذا التقدير فهذا لا يمنع ان الله تعالى أراد وجودها لان الجواب عن الاول انه عدول عن الظاهر وأيضا فكونها سيئة عند ربك يدل على كونها منهيا عنها فلو حملنا المكروه على النهى لزم التكرار والجواب عن الثانى انه تعالى انما ذكر هذه الآية فى معرض الزجر عن هذه الافعال ولا يليق بهذا الموضع أن يقال انه تعالى يكره وقوعها هذا تمام هذا الاستدلال والجواب ان المراد من المكروه المنهى عنه ولا بأس بالتكرير لاجل التأكيد والله أعلم (المسئلة الثالثة) قال القاضى دلت هذه الآية على انه تعالى كما انه موصوف بكونه مريدا فكذلك أيضا موصوف بكونه كارها وقال أصحابنا الكراهية فى حقه تعالى محمولة اما على النهى أو على ارادة العدم والله أعلم * قوله تعالى (ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا انكم لتقولون قولا عظيما) اعلم انه تعالى جمع فى هذه الآية خمسة وعشرين نوعا من

الوجوب الذاتى عما يقولونه من أن له تعالى شركاء وأولادا فى أبعد مراتب العدم اعنى الامتناع لا لانه تعالى فى أعلى مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجود لذاته واتخاذ الولد من أدنى مراتبه فانه من خواص ما يمتنع بقاؤه كما قيل فان ما يقولونه ليس مجرد اتخاذ الولد بل اتخاذه تعالى له وأن يكون معه آلهة ولا ريب فى أن ذلك ليس بداخل فى حد الامكان فضلا عن دخوله تحت الوجود وكونه من أدنى مراتب الوجود انما هو بالنسبة الى من شأنه ذلك (تسبح) بالفوقانية وقرئ بالتحتانية وقرئ (سبحت له السموات السبع والارض ومن فيهن) من الملائكة والثقلين على ان المراد بالتسبيح معنى منتظم لما ينطق به لسان المقال ولسان الحال بطريق عموم المجاز (وان من شئ) من الاشياء حيوانا كان أو نباتا أو جمادا (الا يسبح) ملتبسا (بحمده) أى ينزهه تعالى بلسان الحال عما لا يليق بذاته الاقدس من لوازم الامكان ولواحق الحدوث اذ ما من موجود الا وهو بامكانه وحدوثه يدل دلالة واضحة على أن له صانعا عليما قادرا حكيما واجبا لذاته قطعا للسلسلة (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) أيها المشركون لاخلالكم بالنظر الصحيح الذى به يفهم ذلك وقرئ لا يفقهون على

التكاليف فأولها قوله ولا تجعل مع الله الها آخر وقوله وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه مشتمل على تكليفين الامر بعبادة الله تعالى والنهي عن عبادة غير الله فكان المجموع ثلاثة وقوله وبالوالدين احسانا هو الرابع ثم ذكر في شرح ذلك الاحسان خمسة أخرى وهي قوله فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما فيكون المجموع تسعة ثم قال وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل وهو ثلاثة فيكون المجموع اثنى عشر ثم قال ولا تبذر تبذيرا فيصير ثلاثة عشر ثم قال واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا وهو الرابع عشر ثم قال ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك الى آخر الآية وهو الخامس عشر ثم قال ولا تقتلوا أولادكم وهو السادس عشر ثم قال ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق وهو السابع عشر ثم [illegible] ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا وهو الثامن عشر ثم قال فلا يسرف في القتل وهو التاسع عشر ثم قال وأوفوا بالعهد وهو العشرون ثم قال وأوفوا الكيل اذا كلتم وهو الحادي والعشرون ثم قال وزنوا بالقسطاس المستقيم وهو الثاني والعشرون ثم قال ولا تقف ما ليس لك به علم وهو الثالث والعشرون ثم قال ولا تمش في الارض مرحا وهو الرابع والعشرون ثم قال ولا تجعل مع الله الها آخر وهو الخامس والعشرون فهذه خمسة وعشرون نوعا من التكاليف بعضها أوامر وبعضها نواه جمعها الله تعالى في هذه الآيات وجعل فاتحتها قوله ولا تجعل مع الله الها آخر فتقعد مذموما مخذولا وخاتمتها قوله ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا اذا عرفت هذا فنقول ههنا فوائد (الفائدة الاولى) قوله ذلك اشارة الى كل ما تقدم ذكره من التكاليف وسماها حكمة وانما سماها بهذا الاسم لوجوه (أحدها) ان حاصلها يرجع الى الامر بالتوحيد وأنواع الطاعات والخيرات والاعراض عن الدنيا والاقبال على الآخرة والعقول تدل على صحتها فالآتي بمثل هذه الشريعة لا يكون داعيا الى دين الشيطان بل الفطرة الاصلية تشهد بأنه يكون داعيا الى دين الرحمن وتمام تقرير هذا ما ذكره في سورة الشعراء في قوله هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم (وثانيها) ان الاحكام المذكورة في هذه الآيات شرائع واجبة الرعاية في جميع الاديان والملل ولا تقبل النسخ والابطال فكانت محكمة وحكمة من هذا الاعتبار (وثالثها) ان الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته والخير لاجل العمل به فالامر بالتوحيد عبارة عن القسم الاول وسائر التكاليف عبارة عن تعليم الخيرات حتى يواظب الانسان عليها ولا ينحرف عنها فثبت ان هذه الاشياء المذكورة في هذه الآيات عين الحكمة وعن ابن عباس ان هذه الايات كانت في ألواح موسى عليه الصلاة والسلام (أولها) لا تجعل مع الله الها آخر قال تعالى وكتبنا له في الالواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء (والفائدة الثانية) من فوائد هذه الآية انه تعالى بدأ في هذه التكاليف بالامر بالتوحيد والنهي

صيغة المبني للمفعول من باب التفعيل (انه كان حليما) ولذلك لم يعاجلكم بالعقوبة مع ما أنتم عليه من موجباتها من الاعراض عن التدبر في الدلائل الواضحة الدالة على التوحيد والانهماك في الكفر والاشراك (غفورا) لمن تاب منكم (واذا قرأت القرآن) الناطق بالتسبيح والتنزيه ودعوتهم الى العمل بما فيه من التوحيد ورفض الشرك وغير ذلك من الشرائع (جعلنا) بقدرتنا ومشيئتنا المبنية على دواعي الحكم الخفية (بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة) أوثر الموصول على الضمير ذما لهم بما في حيز الصلة وانما خص بالذكر كفرهم بالآخرة من بين سائر ما كفروا به من التوحيد ونحوه دلالة على انها معظم ما أمروا بالايمان به في القرآن وتمهيدا لما سينقل من انكار البعث واستعجاله ونحو ذلك (حجابا) يحجبهم من أن يدركوك على ما انت عليه من النبوة ويفهموا قدرك الجليل ولذلك اجترؤا على تفوه العظيمة التي هي قولهم ان تتبعون الا رجلا مسحورا وحمل الحجاب على ما روى عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه من انه لما نزلت سورة تبت أقبلت العوراء ام جميل امرأة أبي لهب ﴿ عن ﴾
وفي يدها فهر والنبي عليه الصلاة والسلام قاعد في المسجد ومعه أبو بكر

عن الشرك وختمها بعين هذا المعنى والمقصود منه التنبيه على أن أول كل عمل وقول وفكر وذكر يجب أن يكون ذكر التوحيد وآخره يجب أن يكون ذكر التوحيد تنبيها على ان المقصود من جميع التكاليف هو معرفة التوحيد والاستغراق فيه فهذا التكرير حسن موقعه لهذه الفائدة العظيمة ثم انه تعالى ذكر فى الآية الاولى أن الشرك يوجب أن يكون صاحبه مذموما مخذولا وذكر فى الآية الاخيرة ان الشرك يوجب أن يلقى صاحبه فى جهنم ملوما مدحورا فاللوم والخذلان يحصل فى الدنيا والقاؤه فى جهنم يحصل يوم القيامة ويجب علينا أن نذكر الفرق بين المذموم المخذول وبين الملوم المدحور فنقول أما الفرق بين المذموم وبين الملوم فهو أن كونه مذموما معناه أن يذكر له ان الفعل الذى أقدم عليه قبيح ومنكر فهذا معنى كونه مذموما واذا ذكر له ذلك فبعد ذلك يقال له لم فعلت مثل [illegible] الفعل وما الذى حملك عليه وما استفدت من هذا العمل الا الحاق الضرر بنفسك وهذا هو اللوم فثبت ان أول الامر هو أن يصير مذموما وآخره أن يصير ملوما وأما الفرق بين المخذول وبين المدحور فهو أن المخذول عبارة عن الضعيف يقال تخاذلت أعضاؤه أى ضعفت وأما المدحور فهو المطرود والطرد عبارة عن الاستخفاف والاهانة قال تعالى ويخلد فيه مهانا فكونه مخذولا عبارة عن ترك اعانته وتفويضه الى نفسه وكونه مدحورا عبارة عن اهانته والاستخفاف به فثبت أن أول الامر أن يصير مخذولا وآخره أن يصير مدحورا والله أعلم بمراده وأما قوله أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا فاعلم انه تعالى لما نبه على فساد طريقة من أثبت لله شريكا ونظيرا نبه على طريقة من أثبت له الولد وعلى كمال جهل هذه الفرقة وهى انهم اعتقدوا ان الولد قسمان أشرف القسمين البنون وأخسهما البنات ثم انهم أثبتوا البنين لانفسهم مع علمهم بنهاية عجزهم [illegible] أثبتوا البنات لله مع علمهم بأن الله تعالى هو الموصوف بالكمال الذى لا نهاية له وا[illegible] غاية له وذلك يدل على نهاية جهل القائل بهذا القول ونظيره قوله تعالى أم له البنات [illegible]م البنون وقوله ألكم الذكر وله الانثى وقوله أفأصفاكم يقال أصفاه بالشئ اذا آثره به ويقال للضياع التى يستخصها السلطان بخاصية الصوافى قال أبو عبيدة فى قوله أفأصفاكم أفخصكم وقال المفضل أخلصكم قال النحويون هذه الهمزة همزة تدل على الانكار على صيغة السؤال عن مذهب ظاهر الفساد لا جواب لصاحبه الا بما فيه أعظم الفضيحة ثم قال تعالى انكم لتقولون قولا عظيما وبيان هذا التعظيم من وجهين (الاول) ان اثبات الولد يقتضى كونه تعالى مركبا من الاجزاء والابعاض وذلك يقدح فى كونه قديما واجب الوجود لذاته وذلك عظيم من القول ومنكر من الكلام (والثانى) ان بتقدير ثبوت الولد فقد جعلتم أشرف القسمين لانفسكم وأخس القسمين لله وهذا أيضا جهل عظيم

* قوله تعالى (ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم الا نفورا قل لو كان معه آلهة كما تقولون اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا سبحانه وتعالى

رضى الله عنه فلما رآها قال يارسول الله لقد أقبلت هذه وأخاف أن تراك قال عليه الصلاة والسلام انها لن ترانى وقرأ قرآنا فوقفت على أبى بكر رضى الله عنه ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يقبله الذوق السليم ولا يساعده النظم الكريم (مستورا) ذا ستر كما فى قولهم سيل مفعم أو مستورا عن الحس بمعنى غير حسى أو مستورا فى نفسه بحجاب آخر أو مستورا كونه حجابا حيث لا يدرون انهم لا يدرون (وجعلنا على قلوبهم أكنة) أغطية كثيرة جمع كنان (أن يفقهوه) مفعول لاجله أى كراهة أن يفقهوه أو مفعول لما دل عليه الكلام اى منعناهم أن يقفوا على كنهه ويعرفوا أنه من عند الله تعالى (وفى اذانهم وقرا) صمما وثقلا مانعا من سماعه اللائق به وهذه تمثيلات معربة عن كمال جهلهم بشؤن النبى عليه الصلاة والسلام وفرط نبو قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومج أسماعهم له جئ بها بيانا لعدم فقههم لتسبيح لسان المقال اثر بيان عدم فقههم لتسبيح لسان الحال وايذانا بأن هذا التسبيح من الظهور بحيث لا يتصور عدم فهمه الا لمانع قوى يعترى المشاعر فيبطلها وتنبيها على أن حالهم هذا أقبح من حالهم السابق لا حكاية لما قالوا قلوبنا فى أكنة

عما يقولون علوا كبيرا تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وان من شئ الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا) اعلم أن التصريف فى اللغة عبارة عن صرف الشئ من جهة الى جهة نحو تصريف الرياح وتصريف الامور هذا هو الاصل فى اللغة ثم جعل لفظ التصريف كناية عن التبيين لان من حاول بيان شئ فانه يصرف كلامه من نوع الى نوع آخر ومن مثال الى مثال آخر ليكمل الايضاح ويقوى البيان فقوله ولقد صرفنا أى بينا ومفعول التصريف محذوف وفيه وجوه (أحدها) ولقد صرفنا فى هذا القرآن ضروبا من كل مثل (وثانيها) أن تكون لفظة فى زائدة كقوله وأصلح لى فى ذريتى أى أصلح لى ذريتى أما قوله ليذكروا ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ الجمهور ليذكروا بفتح الذال والكاف وتشديدهما والمعنى ليتذكروا فأدغمت التاء فى الذال لقرب مخرجيهما وقرأ حمزة والكسائى ليذكروا ساكنة الذال مضمومة الكاف وفى سورة الفرقان مثله من الذكر قال الواحدى والتذكر ههنا أشبه من الذكر لان المراد منه التدبر والتفكر وليس المراد منه الذكر الذى يحصل بعد النسيان ثم قال وأما قراءة حمزة والكسائى ففيها وجهان (الاول) ان الذكر قد جاء بمعنى التأمل والتدبر كقوله تعالى خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه والمعنى وافهموا ما فيه (والثانى) أن يكون المعنى صرفنا هذه الدلائل فى هذا القرآن ليذكروه بألسنتهم فان الذكر باللسان قد يؤدى الى تأثر القلب بمعناه (المسئلة الثانية) قال الجبائى قوله ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا يدل على انه تعالى انما أنزل هذا القرآن وانما أكثر فيه من ذكر الدلائل لانه تعالى أراد منهم فهمها والايمان بها وهذا يدل على انه تعالى يفعل أفعاله لاغراض حكمية ويدل على انه تعالى أراد الايمان من الكل سواء آمنوا أو كفروا والله أعلم ثم قال تعالى وما يزيدهم الا نفورا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال الاصم شبههم بالدواب النافرة أى ما ازدادوا من الحق الا بعدا وهو كقوله فزادتهم رجسا (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى ما أراد الايمان من الكفار وقالوا انه تعالى عالم بأن تصريف القرآن لا يزيدهم الا نفورا فلو أراد الايمان منهم لما أنزل عليهم ما يزيدهم نفرة ونبوة عنه لان الحكيم اذا أراد تحصيل أمر من الامور وعلم ان الفعل الفلانى يصير سببا لمزيد النفرة والنبوة عنه فانه عندما يحاول تحصيل ذلك المقصود يحترز عما يوجب مزيد النفرة والنبوة فلما أخبر تعالى ان هذا التصريف يزيدهم نفورا علمنا انه ما أراد الايمان منهم والله أعلم أما قوله تعالى قل لو كان معه آلهة كما تقولون اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى تفسيره وجهان (الاول) ان المراد من قوله اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا هو انا لو فرضنا وجود آلهة مع الله تعالى لغلب بعضهم بعضا وحاصله يرجع الى دليل التمانع وقد شرحناه فى سورة الانبياء فى تفسير قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فلا فائدة فى الاعادة (والوجه الثانى) ان الكفار كانوا يقولون ما نعبدهم

صيغة المبنى للمفعول اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا و بينك حجاب كيف لا وقصدهم بذلك انما هو الاخبار بما اعتقدوه من الامر حقية القرآن والنبى عليه الصلاة والسلام جهلا وكفرا من اتصافهما بأوصاف مانعة من التصديق والايمان ككون القرآن سحرا وشعرا وأساطير وقس عليه حال النبى عليه الصلاة والسلام لا الاخبار بأن هناك أمرا وراء ما أدركوه قد حال بينهم و بين ادراكه حائل من قبلهم ولا ريب فى أن ذلك المعنى مما لا يكاد يلائم المقام (واذا ذكرت ربك فى القرآن وحده) واحدا غير مشفوع به آلهتهم وهو مصدر وقع موقع الحال أصله يحد وحده (ولوا على أدبارهم) اى هربوا ونفروا (نفورا) أو ولوا نافرين (نحن أعلم بما يستمعون به) ملتبسين به من اللغو والاستخفاف والهزء بك وبالقرآن يروى انه كان يقوم عن يمينه عليه الصلاة والسلام رجلان من بنى عبد الدار وعن يساره رجلان فيصفقون و يصفرون ويخلطون عليه بالاشعار (اذ يستمعون اليك) ظرف لاعلم وفائدته تأكيد الوعيد بالاخبار بأنه كما يقع الاستماع المزبور منهم يتعلق به العلم لا أن العلم يستفاد هناك من أحد وكذا قوله تعالى (واذهم نجوى) لكن لا من حيث تعلقه بما به الاستماع بل بما به التناجى

﴿ الا ﴾

الا ليقربونا الى الله زلفى فقال الله لو كانت هذه الاصنام كما تقولون من انها تقربكم الى الله زلفى لطلبت لانفسها أيضا قربة الى الله تعالى وسيلا اليه ولطلبت لانفسها المراتب العالية والدرجات الشريفة من الاحوال الرفيعة فلما لم تقدر أن تتخذ لانفسها سبيلا الى الله فكيف يعقل أن تقربكم الى الله (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير كما يقولون وعما يقولون ويسبح بالياء فى هذه الثلاثة والمعنى كما يقول المشركون من اثبات الآلهة من دونه فهو مثل قوله قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون وقرأ حمزة والكسائى كلها بالتاء وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم فى الاول بالتاء على الخطاب وفى الثانى والثالث بالياء على الحكاية وقرأ حفص عن عاصم الاولين بالياء والاخير بالتاء وقرأ أبو عمرو الاول والاخير بالتاء والاوسط بالياء ثم قال تعالى سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) لما أقام الدليل القاطع على كونه منزها عن الشركاء وعلى أن القول باثبات الآلهة قول باطل أردفه بما يدل على تنزيهه عن هذا القول الباطل فقال سبحانه وقد ذكرنا ان التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا يليق به ثم قال وتعالى والمراد من هذا التعالى الارتفاع وهو العلو وظاهر ان المراد من هذا التعالى ليس هو التعالى فى المكان والجهة لان التعالى عن الشريك والنظير والنقائص والآفات لا يمكن تفسيره بالتعالى بالمكان والجهة فعلمنا ان لفظ التعالى فى حق الله تعالى غير مفسر بالعلو بحسب المكان والجهة (المسئلة الثانية) جعل العلو مصدر التعالى فقال تعالى علوا كبيرا وكان يجب أن يقال تعالى تعاليا كبيرا الا أن نظيره قوله تعالى والله أنبتكم من الارض نباتا فان قيل ما الفائدة فى وصف ذلك العلو بالكبير قلنا لان المنافاة بين ذاته وصفاته سبحانه وبين ثبوت الصاحبة والولد والشركاء والاضداد والانداد منافاة بلغت فى القوة والكمال الى حيث لا تعقل الزيادة عليها لان المنافاة بين الواجب لذاته والممكن لذاته وبين القديم والمحدث وبين الغنى والمحتاج منافاة لا تعقل الزيادة عليها فلهذا السبب وصف الله تعالى ذلك العلو بالكبير ثم قال تعالى تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اعلم أن الحى المكلف يسبح لله بوجهين (الاول) بالقول كقوله باللسان سبحان الله (والثانى) بدلالة أحواله على توحيد الله تعالى وتقديسه وعزته فأما الذى لا يكون مكلفا مثل البهائم ومن لا يكون حيا مثل الجمادات فهى انما تسبح لله تعالى بالطريق الثانى لان التسبيح بالطريق الاول لا يحصل الا مع الفهم والعلم والادراك والنطق وكل ذلك فى الجماد محال فلم يبق حصول التسبيح فى حقه الا بالطريق الثانى واعلم انا جوزنا فى الجماد أن يكون عالما متكلما لعجزنا عن الاستدلال بكونه تعالى عالما قادرا على كونه حيا وحينئذ يفسد علينا باب العلم بكونه حيا وذلك كفر فانه يقال اذا جاز فى الجمادات أن تكون عالمة بذات الله تعالى وصفاته وتسبحه مع انها ليست بأحياء فحينئذ لا يلزم من كون الشئ عالما قادرا متكلما كونه حيا فلم يلزم

المدلول عليه بسياق النظم والمعنى نحن أعلم بالذى يستمعون ملتبسين به مما لا خير فيه من الامور المذكورة وبالذى يتناجون به فيما بينهم أو الاول ظرف ليستمعون والثانى ليتناجون والمعنى نحن أعلم بما به الاستماع وقت استماعهم من غير تأخير وبما به التناجى وقت تناجيهم ونجوى مرفوع على الخبر بتقدير المضاف أى ذوو نجوى أو هو جمع نجى كقتلى جمع قتيل أى متناجون (اذ يقول الظالمون) بدل من اذهم وفيه دليل على أن ما يتناجون به غير ما يستمعون به وانما وضع الظالمون موضع المضمر اشعارا بأنهم فى ذلك ظالمون مجاوزون للحد أى يقول كل منهم للآخرين عند تناجيهم (ان تتبعون) ما تتبعون ان وجد منكم الاتباع فرضا أو ما تتبعون باللغو والهزء (الا رجلا مسحورا) أى سحر فجن أو رجلا ذا سحر أى رئة يتنفس أى بشرا مثلكم (انظر كيف ضربوا لك الامثال) أى مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون (فضلوا) فى جميع ذلك عن منهاج المحاجة (فلا يستطيعون سبيلا) الى طعن يمكن أن يقبله أحد فيتهافتون ويخبطون ويأتون بما لا يرتاب فى بطلانه أحد أو الى سبيل الحق والرشاد وفيه من الوعيد وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم

من كونه تعالى عالما قادرا كونه حيا وذلك جهل وكفر لان من المعلوم بالضرورة ان من ليس بحى لم يكن عالما قادرا متكلما هذا هو القول الذى أطبق العلماء المحققون عليه ومن الناس من قال ان الجمادات وأنواع النبات والحيوان كلها تسبح الله تعالى واحتجوا على صحة قولهم بأن قالوا دل هذا النص على كونها مسبحة لله تعالى ولا يمكن تفسير هذا التسبيح بكونها دلائل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته لانه تعالى قال ولكن لا تفقهون تسبيحهم فهذا يقتضى ان تسبيح هذه الاشياء غير معلوم لنا ودلالتها على وجود قدرة الله وحكمته معلوم والمعلوم مغاير لما هو غير معلوم فدل على أنها تسبح الله تعالى وان تسبيحها غير معلوم لنا فوجب أن يكون التسبيح المذكور فى هذه الآية مغايرا لكونها دالة على وجود قدرة الله تعالى وحكمته والجواب عنه من وجوه (الاول) انك اذا أخذت تفاحة واحدة فتلك التفاحة مركبة من عدد كثير من الاجزاء التى لا تتجزأ وكل واحد من تلك الاجزاء دليل تام مستقل على وجود الاله ولكل واحد من تلك الاجزاء التى لا تتجزأ صفات مخصوصة من الطبع والطعم واللون والرائحة والحيز والجهة واختصاص ذلك الجوهر الفرد بتلك الصفة المعينة من الجائزات فلا يحصل ذلك الاختصاص الا بتخصيص مخصص قادر حكيم اذا عرفت هذا فقد ظهر أن كل واحد من أجزاء تلك التفاحة دليل تام على وجود الاله وكل صفة من الصفات القائمة بذلك الجزء الواحد فهو أيضا دليل تام على وجود الاله تعالى ثم عدد تلك الاجزاء غير معلوم وأحوال تلك الصفات غير معلومة فلهذا المعنى قال تعالى ولكن لا تفقهون تسبيحهم (والوجه الثانى) هو أن الكفار وان كانوا يقرون بألسنتهم باثبات اله العالم الا انهم ما كانوا يتفكرون فى أنواع الدلائل ولهذا المعنى قال تعالى وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون فكان المراد من قوله ولكن لا تفقهون تسبيحهم هذا المعنى (والوجه الثالث) ان القوم وان كانوا مقرين بألسنتهم باثبات اله العالم الا انهم ما كانوا عالمين بكمال قدرته ولذلك فانهم استبعدوا كونه تعالى قادرا على الحشر والنشر فكان المراد ذلك وأيضا فانه تعالى قال لمحمد صلى الله عليه وسلم قل لو كان معه آلهة كما تقولون اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا فهم ما كانوا عالمين بهذا الدليل فلما ذكر هذا الدليل قال تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن فتسبيح السموات والارض ومن فيهن يشهد بصحة هذا الدليل وقوته وأنتم لا تفقهون هذا الدليل ولا تعرفونه بل نقول ان القوم كانوا غافلين عن أكثر دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد فكان المراد من قوله ولكن لا تفقهون تسبيحهم ذلك ومما يدل على ان الامر كما ذكرناه قوله انه كان حليما غفورا فذكر الحليم والغفور ههنا يدل على أن كونهم بحيث لا يفقهون ذلك التسبيح جرم عظيم صدر عنهم وهذا انما يكون جرما اذا كان المراد من ذلك التسبيح كونها دالة على كمال قدرة الله تعالى وحكمته ثم انهم لغفلتهم وجهلهم ما عرفوا وجه دلالة تلك الدلائل أما لو حملنا هذا التسبيح

مالا يخفى (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا) استفهام انكارى مفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار للبعث بعد ما آل الحال الى هذا المآل لما بين غضاضة الحى ويبوسة الرميم من التنافى كأن استحالة الامر من الظهور بحيث لا يقدر المخاطب على التكلم به والرفات ما بولغ فى دقه وتفتيته وقال الفراء هو التراب وهو قول مجاهد وقيل هو الحطام واذا متمحضة للظرفية وهو الاظهر والعامل فيها ما دل عليه قوله تعالى (أئنا لمبعوثون) لا نفسه لان ما بعد ان والهمزة واللام لا يعمل فيما قبلها وهو نبعث أو نعاد وهو المرجع للانكار وتقييده بالوقت المذكور ليس لتخصيصه به فانهم منكرون للاحياء بعد الموت وان كان البدن على حاله بل لتقوية الانكار للبعث بتوجيهه اليه فى حالة منافية له وتكرير الهمزة فى قولهم أئنا لتأكيد النكير وتحلية الجملة بان واللام لتأكيد الانكار لا لانكار التأكيد كما عسى يتوهم من ظاهر النظم فان تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما فى مثل قوله تعالى أفلا تعقلون ونظائره على رأى الجمهور فان المعنى عندهم تعقيب الانكار لا انكار التعقيب كما هو المشهور وليس مدار انكارهم كونهم ثابتين فى المبعوثية بالفعل فى حال كونهم

﴿ على ﴾

على أن هذه الجمادات تسبح الله بأقوالها وألفاظها لم يكن عدم الفقه لتلك التسبيحات جرما ولا ذنبا واذا لم يكن ذلك جرما ولا ذنبا لم يكن قوله انه كان حليما غفورا لائقا بهذا الموضع فهذا وجه قوى فى نصرة القول الذى اخترناه واعلم أن القائلين بأن هذه الجمادات والحيوانات تسبح الله بألفاظها أضافوا الى كل حيوان نوعا آخر من التسبيح وقالوا انها اذا ذبحت لم تسبح مع انهم يقولون ان الجمادات تسبح الله فاذا كان كونه جمادا لا يمنع من كونه مسبحا فكيف صار ذبح الحيوان مانعا له من التسبيح وقالوا أيضا ان غصن الشجرة اذا كسر لم يسبح واذا كان كونه جمادا لم يمنع من كونه مسبحا فكسره كيف يمنع من ذلك فعلم ان هذه الكلمات ضعيفة والله أعلم (المسئلة الثانية) قوله تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن تصريح باضافة التسبيح الى السموات والارض والى المكلفين الحاصلين فيهن وقد دللنا على ان التسبيح المضاف الى الجمادات ليس الا بمعنى الدلالة على تنزيه الله تعالى واطلاق لفظ التسبيح على هذا المعنى مجاز وأما التسبيح الصادر عن المكلفين وهو قولهم سبحان الله فهذا حقيقة فيلزم أن يكون قوله تسبح لفظا واحدا قد استعمل فى الحقيقة والمجاز معا وانه باطل على ما ثبت دليله فى أصول الفقه فالاولى أن يحمل هذا التسبيح على الوجه المجازى فى حق الجمادات لا فى حق العقلاء لئلا يلزم ذلك المحذور والله أعلم * قوله تعالى (واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا وجعلنا على قلوبهم أكنة ان يفقهوه وفى آذانهم وقرا واذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا نحن أعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى اذ يقول الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) اعلم أنه تعالى لما تكلم فى الآية المتقدمة فى المسائل الالهية تكلم فى هذه الآية فيما يتعلق بتقرير النبوة وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله واذا قرأت القرآن قولان (الاول) ان هذه الآية نزلت فى قوم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قرأ القرآن على الناس روى أنه عليه الصلاة والسلام كان كلما قرأ القرآن قام عن يمينه رجلان وعن يساره آخران من ولد قصى يصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالاشعار وعن أسماء أنه صلى الله عليه وسلم كان جالسا ومعه أبو بكر اذ أقبلت امرأة أبى لهب ومعها فهر تريد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى تقول *مذمما أبينا*ودينه قلينا* وامره عصينا فقال أبو بكر يا رسول الله معها فهر أخشاها عليك فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فجاءت فما رأت رسول الله عليه الصلاة والسلام وقالت ان قريشا قد علمت انى ابنة سيدها وان صاحبك هجانى فقال أبو بكر لا ورب هذا البيت ما هجاك وروى ابن عباس أن أبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبى صلى الله عليه وسلم ويستمعون الى حديثه فقال النضر يوما ما أدرى ما يقول محمد غير أنى أرى شفتيه تتحرك بشئ وقال أبو سفيان انى لأرى

عظاما ورفاتا كما يتراءى من ظاهر الجملة الاسمية بل كونهم بعرضية ذلك واستعدادهم له ومن جحده الى انكار البعث بعد تلك الحالة وفيه من الدلالة على غلوهم فى الكفر وتماديهم فى الضلال ما لا مزيد عليه (خلقا جديدا) نصب على المصدر من غير لفظه أو الحالية على أن الخلق بمعنى المخلوق (قل) جوابا لهم وتقريبا لما استبعدوه (كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا) آخر (مما يكبر فى صدوركم) اى يعظم عندكم عن قبول الحياة لكمال المباينة والمنافاة بينها وبينه فانكم مبعوثون ومعادون لا محالة (فسيقولون من يعيدنا) مع ما بيننا وبين الاعادة من مثل هذه المباعدة والمباينة (قل) لهم تحقيقا للحق وازاحة للاستبعاد وارشادا لهم الى طريقة الاستدلال (الذى) اى يعيدكم القادر العظيم الذى (فطركم) اخترعكم (أول مرة) من غير مثال يحتذيه ولا أسلوب ينتحيه وكنتم ترابا ما شم رائحة الحياة أليس الذى يقدر على ذلك بقادر على أن يعيد العظام البالية الى حالتها المعهودة بلى انه على كل شئ قدير (فسينغضون اليك رؤسهم) اى سيحركونها نحوك تعجبا وانكارا (ويقولون) استهزاء (متى هو) اى ما ذكرته من الاعادة (قل) لهم (عسى أن يكون) ذلك (قريبا)

بعض ما يقوله حقا وقال أبو جهل هو مجنون وقال أبو لهب هو كاهن وقال حويطب [illegible] عبد العزى هو شاعر فنزلت هذه الآية وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد تلاوة القرآن قرأ قبلها ثلاث آيات وهى قوله فى سورة الكهف انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وفى النحل أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وفى حم الجاثية أفرأيت من اتخذ الهه هواه الى آخر الآية فكان الله تعالى يحجبه ببركات هذه الآيات عن عيون المشركين وهو المراد من قوله تعالى جعلنا بينك و بين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا وفيه سؤال وهو أنه كان يجب أن يقال حجابا ساترا والجواب عنه من وجوه (الاول) ان ذلك الحجاب حجاب يخلقه الله تعالى فى عيونهم بحيث يمنعهم ذلك الحجاب عن رؤية النبى صلى الله عليه وسلم وذلك الحجاب شئ لا يراه أحد فكان مستورا من هذا الوجه احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم فى أنه يجوز أن تكون الحاسة سليمة ويكون المرئى حاضرا مع انه لا يراه ذلك الانسان لاجل ان الله تعالى خلق فى عينيه ما [illegible] رؤيته بهذه الآية قالوا ان النبى صلى الله عليه وسلم كان حاضرا وكانت حواس [illegible] سليمة ثم انهم ما كانوا يرونه وأخبر الله تعالى ان ذلك انما كان لاجل انه جعل بينه وبينهم حجابا مستورا والحجاب المستور لا معنى له الا المعنى الذى خلقه الله تعالى فى عيونهم وكان ذلك المعنى مانعا لهم من أن يروه و يبصروه (والوجه الثانى) فى الجواب أنه كما يجوز أن يقال لابن وتامر بمعنى ذو لبن وذو تمر فكذلك لا يبعد أن يقال مستورا معناه ذو ستر والدليل عليه قولهم مرطوب أى ذو رطوبة ولا يقال رطبته و يقال مكان مهول أى فيه هول ولا يقال هلت المكان بمعنى جعلت فيه الهول و يقال جارية مغنوجة ذات غنج ولا يقال غنجتها (والوجه الثالث) فى الجواب قال الاخفش المستور ههنا بمعنى الساتر فان الفاعل قد يجئ بلفظ المفعول كما يقال انك لمشؤم علينا وميمون وانما هو شائم و يامن لانه من قولهم شأمهم و يمنهم هذا قول الاخفش وتابعه عليه قوم الا ان كثيرا منهم طعن فى هذا القول والحق هو الجواب الاول (والقول الثانى) ان معنى الحجاب الطبع الذى على قلوبهم والطبع والمنع الذى منعهم عن أن يدركوا لطائف القرآن ومحاسنه وفوائده فالمراد من الحجاب المستور ذلك الطبع الذى خلقه الله فى قلوبهم ثم قال تعالى وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وهذه الآية مذكورة بعينها فى سورة الانعام وذكرنا استدلال أصحابنا بها وذكرنا سؤالات المعتزلة ولا بأس باعادة بعضها قال الاصحاب دلت هذه الآية على انه تعالى جعل قلوبهم فى الأكنة والأكنة جمع كنان وهو ما ستر الشئ مثل كنان النبل وقوله أن يفقهوه أى لئلا يفقهوه وجعل فى آذانهم وقرا ومعلوم انهم كانوا عقلاء سامعين فاهمين فعلمنا ان المراد منعهم عن الايمان ومنعهم عن سماع القرآن بحيث لا يقفون على أسراره ولا يفهمون دقائقه وحقائقه قالت المعتزلة ليس المراد من الآية ما ذكرتم بل المراد منه وجوه أخرى (الاول) قال الجبائى كانوا يطلبون موضعه

نصب على انه خبر ليكون أو ظرف على أن كان تامة اى أن يقع فى زمان قريب ويحتمل أن مع ما فى حيزها اما نصب على انه خبر لعسى وهى ناقصة واسمها ضمير عائد الى ما عاد اليه هو أى عسى البعث أن يكون قريبا أو عسى البعث يقع فى زمان قريب أو رفع على انه فاعل لعسى وهى تامة أى عسى كونه قريبا أو وقوعه فى زمان قريب (يوم يدعوكم) منصوب بفعل مضمر اى اذكروا أو على انه بدل من قريبا على انه ظرف أو يكون تامة بالاتفاق أو ناقصة عند من يجوز اعمال الناقصة فى الظروف أو بضمير المصدر المستكن فى عسى أو يكون أعنى البعث عند من يجوز اعمال ضمير المصدر كما فى قول زهير * وما الحرب الا ما علمتم وذقتم * وما هو عنها بالحديث المرجم * فهو ضمير المصدر وقد تعلق به ما بعده من الجار (فتستجيبون) اى يوم يبعثكم فتبعثون وقد استعير لهما الدعاء والاجابة ايذانا بكمال سهولة التأتى وبأن المقصود منهما الاحضار للمحاسبة والجواب (بحمده) حال من ضمير تستجيبون أى منقادين له حامدين لما فعل ﴿ ق ﴾ بكم غير مستعصين أو حامدين له تعالى على كمال قدرته عند مشاهدة آثارها ومعاينة أحكامها (وتظنون) عطف على

فى الليالى لينتهوا اليه و يؤذنه ويستدلون على مبيته باستماع قراءته فأمنه الله تعالى من شرهم وذكر له أنه جعل بينه و بينهم حجابا لايمكنهم الوصول اليه معه و بين أنه جعل فى قلوبهم ما يشغلهم عن فهم القرآن وفى آذانهم ما يمنع من سماع صوته و يجوز أن يكون ذلك مرضا شاغلا يمنعهم عن المصير اليه والتفرغ له لا انه حصل هناك كن للقلب ووقر فى الاذن (والثانى) قال الكعبى ان القوم لشدة امتناعهم عن قبول دلائل محمد صلى الله عليه وسلم صاروا كأنه حصل بينهم و بين تلك الدلائل حجاب مانع وساتر وانما نسب الله تعالى ذلك الحجاب الى نفسه لانه لما خلاهم مع أنفسهم وما منعهم عن تلك الاعراض صارت تلك التخلية كأنها هى السبب لوقوعهم فى تلك الحالة وهذا مثل ان السيد اذا لم يراقب أحوال عبده فاذا ساءت سيرته فالسيد يقول أنا الذى ألقيتك فى هذه الحالة بسبب انى خليتك مع رأيك وما راقبت أحوالك (الثالث) قال القفال انه تعالى لما خذلهم بمعنى أنه لم يفعل الالطاف الداعية لهم الى الايمان صح أن يقال انه فعل الحجاب الساتر واعلم أن هذه الوجوه مع كلمات أخرى ذكرناها فى سورة الانعام وأجبنا عنها فلا فائدة فى الاعادة ثم قال تعالى واذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا واعلم أن المراد أن القوم كانوا عند استماع القرآن على حالتين لانهم اذا سمعوا من القرآن ما ليس فيه ذكر الله تعالى بقوا مبهوتين متحيرين لا يفهمون منه شيئا واذا سمعوا آية فيها ذكر الله تعالى وذم الشرك بالله ولوا نفورا وتركوا ذلك المجلس وذكر الزجاج فى قوله ولوا على أدبارهم نفورا وجهين (الاول) المصدر والمعنى ولوا نافرين نفورا (والثانى) أن يكون نفورا جمع نافر مثل شهود وشاهد وركوع وراكع وسجود وساجد وقعود وقاعد ثم قال تعالى نحن أعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك أى نحن أعلم بالوجه الذى يستمعون به وهو الهزؤ والتكذيب و به فى موضع الحال كما تقول مستمعين بالهزؤ واذ يستمعون نصب بأعلم أى أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون واذهم نجوى أى و بما يتناجون به اذهم ذو نجوى اذ يقول الظالمون بدل من قوله واذهم نجوى ان تتبعون الا رجلا مسحورا وفيه مباحث (الاول) قال المفسرون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا أن يتخذ طعاما و يدعو اليه أشراف قريش من المشركين ففعل على رضى الله عنه ذلك ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم الى التوحيد وقال قولوا لا اله الا الله حتى تطيعكم العرب وتدين لكم العجم فأبوا عليه ذلك وكانوا عند استماعهم من النبى صلى الله عليه وسلم القرآن والدعوة الى الله تعالى يقولون بينهم متناجين هو ساحر وهو مسحور وما أشبه ذلك من القول فأخبر الله تعالى نبيه بأنهم يقولون ان تتبعون الا رجلا مسحورا فان قيل انهم لم يتبعوا رسول الله فكيف يصح ان يقولوا ان تتبعون الا رجلا مسحورا قلنا معناه انكم ان اتبعتموه فقد اتبعتم رجلا مسحورا والمسحور الذى قد سحر فاختلط عليه عقله وزال عن حد الاستواء هذا هو القول الصحيح وقال بعضهم المسحور هو

تستجيبون أى تظنون عندما ترون ما ترون من الامور الهائلة (ان لبثتم) اى ما لبثتم فى القبور (الا قليلا) كالذى مر على قرية أو ما لبثتم فى الدنيا (وقل لعبادى) اى المؤمنين (يقولوا) عند محاورتهم مع المشركين (التى) اى الكلمة التى (هى أحسن) ولا يخاشنوهم كقوله تعالى ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى احسن (ان الشيطان ينزغ بينهم) اى يفسد و يهيج الشر والمراء و يغرى بعضهم على بعض لتقع بينهم المشاقة والمشارة والمعارة والمضارة فلعل ذلك يؤدى الى تأكد العناد وتمادى الفساد فهو تعليل للامر السابق وقرئ بكسر الزاء (ان الشيطان كان) قدما (للانسان عدوا مبينا) ظاهر العداوة وهو تعليل لما سبق من أن الشيطان ينزغ بينهم (ربكم أعلم بكم ان يشأ يرحمكم) بالتوفيق للايمان (أو ان يشأ يعذبكم) بالاماتة على الكفر وهذا تفسير التى هى أحسن وما بينهما اعتراض أى قولوا لهم هذه الكلمة وما يشاكلها ولا تصرحوا بأنهم من أهل النار فانه مما يهيجهم على الشر مع أن العاقبة مما لا يعلمه الا الله سبحانه فعسى يهديهم الى الايمان (وما أرسلناك عليهم وكيلا) موكولا اليك أمورهم تقسرهم على الايمان وانما أرسلناك بشيرا ونذيرا فدارهم ومر أصحابك

الذي أفسد يقال طعام مسحور اذا أفسد عمله وأرض مسحورة أصابها من المطر أكثر مما ينبغي فأفسدها وقال أبو عبيدة يريد بشرا ذا سحر أي ذا رئة قال ابن قتيبة ولا أدري ما الذي حمله على هذا التفسير المستكره مع ان السلف فسروه بالوجوه الواضحة وقال مجاهد مسحورا أي مخدوعا لان السحر حيلة وخديعة وذلك لان المشركين كانوا يقولون ان محمدا يتعلم من بعض الناس هذه الكلمات وأولئك الناس يخدعونه بهذه الكلمات وهذه الحكايات فلذلك قالوا انه مسحور أي مخدوع وأيضا كانوا يقولون ان الشيطان يتخيل له فيظن أنه ملك فقالوا انه مخدوع من قبل الشيطان ثم قال انظر كيف ضربوا لك الامثال أي كل أحد شبهك بشيء آخر فقالوا انه كاهن وساحر وشاعر ومعلم ومجنون فضلوا عن الحق والطريق المستقيم فلا يستطيعون سبيلا الى الهدى والحق * قوله تعالى (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون اليك رؤسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الا قليلا) اعلم أنه تعالى لما تكلم أولا في الالهيات ثم أتبعه بذكر شبهاتهم في النبوات ذكر في هذه الآية شبهات القوم في انكار المعاد والبعث والقيامة وقد ذكرنا كثيرا أن مدار القرآن على المسائل الاربعة وهي الالهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر وأيضا ان القوم وصفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكونه مسحورا فاسد العقل فذكروا من جملة ما يدل على فساد عقله أنه يدعي ان الانسان بعدما يصير عظاما ورفاتا فانه يعود حيا عاقلا كما كان فذكروا هذا الكلام رواية عنه لتقرير كونه مختل العقل قال الواحدي رحمه الله الرفت كسر الشيء بيدك تقول رفته ارفته بالكسر كما يرفت المدر والعظم البالي والرفات الاجزاء المتفتتة من كل شيء يكسر ويقال رفت عظام الجزور رفتا اذا كسرها ويقال للتبن الرفت لانه دقاق الزرع قال الاخفش رفت رفتا فهو مرفوت نحو حطم حطما فهو محطوم والرفات والحطام الاسم كالجذاذ والرضاض والفتات فهذا ما يتعلق باللغة أما تقرير شبهة القوم فهي ان الانسان اذا مات جفت أعضاؤه وتناثرت وتفرقت في حوالي العالم فاختلط بتلك الاجزاء سائر أجزاء العالم أما الاجزاء المائية في البدن فتختلط بمياه العالم وأما الاجزاء الترابية فتختلط بتراب العالم وأما الاجزاء الهوائية فتختلط بهواء العالم وأما الاجزاء النارية فتختلط بنار العالم واذا صار الامر كذلك فكيف يعقل اجتماعها بأعيانها مرة أخرى وكيف يعقل عود الحياة اليها بأعيانها مرة أخرى فهذا هو تقرير الشبهة والجواب عنها ان هذا الاشكال لا يتم الا بالقدح في كمال علم الله وفي كمال قدرته أما اذا سلمنا كونه تعالى عالما بجميع الجزئيات فحينئذ هذه الاجزاء وان اختلطت بأجزاء العالم الا انها متمايزة في علم الله تعالى ولما سلمنا كونه تعالى قادرا على كل الممكنات كان قادرا على اعادة التأليف والتركيب والحياة والعقل الى تلك

﴿ الاجزاء ﴾

بالمداراة والاحتمال وترك المحاقة والمشاقة وذلك قبل نزول آية السيف وقيل نزلت في عمر رضي الله عنه شتمه رجل كافر بالعفو وقيل أفرط أذية المشركين بالمؤمنين فشكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وقيل الكلمة التي هي أحسن أن يقولوا يهديكم الله يرحمكم الله (وربك أعلم بمن في السموات والارض) وتفاصيل أحوالهم الظاهرة والكامنة التي بها يستأهلون الاصطفاء والاجتباء فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء ممن يستحقه وهو رد عليهم اذ قالوا بعيد أن يكون يتيم أبي طالب نبيا وأن يكون العراة الجوع أصحابه دون أن يكون ذلك من الاكابر والصناديد وذكر من في السموات لابطال قولهم لولا أنزل علينا الملائكة وذكر من في الارض لرد قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) بالفضائل النفسانية والتنزه عن العلائق الجسمانية لا بكثرة الاموال والاتباع (وآتينا داود زبورا) بيان لحيثية تفضيله عليه الصلاة والسلام فان ذلك ايتاء الزبور لا ايتاء الملك والسلطنة وفيه ايذان بتفضيل النبي عليه الصلاة والسلام فان نعوته الجليلة وكونه خاتم النبيين مسطورة في الزبور وأن المراد بعباد الله

الاجزاء باعيانها فثبت انا متى سلمنا كمال علم الله وكمال قدرته زالت هذه الشبهة بالكلية أما قوله تعالى قل كونوا حجارة أو حديدا فالمعنى ان القوم استبعدوا أن يردهم الى حال الحياة بعد أن صاروا عظاما ورفاتا وهي وان كانت صفة منافية لقبول الحياة بحسب الظاهر لكن قدروا انتهاء هذه الاجسام بعد الموت الى صفة أخرى أشد منافاة لقبول الحياة من كونها عظاما ورفاتا مثل أن تصير حجارة أو حديدا فان المنافاة بين الحجرية والحديدية وبين قبول الحياة أشد من المنافاة بين العظمية وبين قبول الحياة وذلك ان العظم قد كان جزأ من بدن الحي أما الحجارة والحديد فما كانا البتة موصوفين بالحياة فبتقدير أن تصير أبدان الناس موصوفة بصفة الحجرية والحديدية بعد الموت فان الله تعالى يعيد الحياة اليها ويجعلها حيا عاقلا كما كان والدليل على صحة ذلك ان تلك الاجسام قابلة للحياة والعقل اذ لو لم يكن هذا القبول حاصلا لما حصل العقل والحياة لها في أول الامر والله العالم عالم بجميع الجزئيات فلا تشتبه عليه أجزاء بدن زيد المطيع بأجزاء بدن عمرو العاصي وقادر على كل الممكنات واذا ثبت ان عود الحياة الى تلك الاجزاء ممكن في نفسه وثبت ان الاله العالم عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات كان عود الحياة الى تلك الاجزاء ممكنا قطعا سواء صارت عظاما ورفاتا أو صارت شيأ أبعد من العظم في قبول الحياة وهي أن تصير حجارة أو حديدا فهذا تقرير هذا الكلام بالدليل العقلي القاطع وقوله كونوا حجارة أو حديدا ليس المراد منه الامر بل المراد انكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله تعالى عن الاعادة وذلك كقول القائل للرجل أتطمع في وأنا فلان فيقول كن من شئت كن ابن الخليفة فسأطلب منك حقي فان قيل ما المراد بقوله أو خلقا مما يكبر في صدوركم قلنا المراد أن كون الحجر والحديد قابلا للحياة أمر مستبعد فقيل لهم فافرضوا شيأ آخر أبعد عن قبول الحياة من الحجر والحديد بحيث يستبعد عقلكم كونه قابلا للحياة وعلى هذا الوجه فلا حاجة الى أن يتعين ذلك الشئ لان المراد أن أبدان الناس وان انتهت بعد موتها الى أي صفة فرضت وأي حالة قدرت وان كانت في غاية البعد عن قبول الحياة فان الله تعالى قادر على اعادة الحياة اليها واذا كان المراد من الآية هذا المعنى فلا حاجة الى تعيين ذلك الشئ وقال ابن عباس المراد منه الموت يعني لو صارت أبدانكم نفس الموت فان الله تعالى يعيد الحياة اليها واعلم ان هذا الكلام انما يحسن ذكره على سبيل المبالغة مثل أن يقال لو كنت عين الحياة فالله يميتك ولو كنت عين الغنى فان الله يفقرك فهذا قد ذكر على سبيل المبالغة اما في نفس الامر فهذا محال لان أبدان الناس أجسام والموت عرض والجسم لا ينقلب عرضا ثم بتقدير أن ينقلب عرضا فالموت لا يقبل الحياة لان أحد الضدين يمتنع اتصافه بالضد الآخر وقال مجاهد يعني السماء والارض ثم قال فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة والمعنى انه لما قال لهم كونوا حجارة أو حديدا أو شيأ أبعد في قبول الحياة من هذين الشيئين فان اعادة الحياة اليه ممكنة فعند ذلك قالوا من هذا

الصالحين في قوله تعالى ان الارض يرثها عبادى الصالحون هو النبي عليه الصلاة والسلام وأمته وتعريف الزبور تارة وتنكيره أخرى اما لانه في الاصل فعول بمعنى المفعول كالحلوب او مصدر بمعناه كالقبول واما لان المراد آتينا داود زبورا من الزبر أو بعضا من الزبور فيه ذكره عليه الصلاة والسلام وقرئ بضم الزاي على انه جمع زبر بمعنى مزبور (قل ادعوا الذين زعمتم) انها آلهة (من دونه) تعالى من الملائكة والمسيح وعزير (فلا يملكون) فلا يستطيعون (كشف الضر عنكم) بالمرة كالمرض والفقر والقحط ونحو ذلك (ولا تحويلا) أي ولا تحويله الى غيركم (أولئك الذين يدعون) أي أولئك الآلهة الذين يدعوهم المشركون من المذكورين (يبتغون) يطلبون لانفسهم (الى ربهم) ومالك أمورهم (الوسيلة) القربة بالطاعة والعبادة (ايهم أقرب) بدل من فاعل يبتغون وأي موصولة أي يبتغي من هو أقرب اليه تعالى الوسيلة فكيف بمن دونه أو ضمن الابتغاء معنى الحرص فكأنه قيل يحرصون أيهم يكون أقرب اليه تعالى بالطاعة والعبادة (ويرجون رحمته) بها (ويخافون عذابه) بتركها كدأب سائر العباد فأين هم من كشف الضر فضلا عن

الذى يقدر على اعادة الحياة اليه قال تعالى قل يا محمد الذى فطركم أول مرة يعنى ان القول بصحة الاعادة فرع على تسليم ان خالق الحيوانات هو الله تعالى فاذا ثبت ذلك فنقول ان تلك الاجسام قابلة للحياة والعقل واله العالم قادر لذاته عالم لذاته فلا يبطل علمه وقدرته البتة فالقادر على الابتداء يجب أن يبقى قادرا على الاعادة وهذا كلام تام و برهان قوى ثم قال تعالى فسينغضون اليك ر ؤسهم قال الفراء يقال انغض فلان رأسه ينغضه انغاضا اذا حركه الى فوق والى أسفل وسمى الظليم نغضا لانه يحرك رأسه وقال أبو الهيثم يقال للرجل اذا أخبر بشئ فحرك رأسه انكارا له قد أنغض رأسه فقوله فسينغضون اليك رؤسهم يعنى يحركونها على سبيل التكذيب والاستبعاد ثم قال تعالى و يقولون متى هو واعلم ان هذا السؤال فاسد لانهم حكموا بامتناع الحشر والنشر بناء على الشبهة التى حكيناها ثم ان الله تعالى بين بالبرهان الباهر كونه ممكنا فى نفسه فقولهم متى هو كلام لا تعلق له بالبحث الاول فانه لما ثبت بالدليل العقلى كونه ممكن الوجود فى نفسه وجب الاعتراف بامكانه فاما انه متى يوجد فذاك لا يمكن اثباته من طريق العقل بل انما يمكن اثباته بالدلائل السمعية فان أخبر الله تعالى عن ذلك الوقت المعين عرف والا فلا سبيل الى معرفته واعلم انه تعالى بين فى القرآن أنه لا يطلع أحدا من الخلق على وقته المعين فقال ان الله عنده علم الساعة وقال انما علمها عند ربى وقال ان الساعة آتية أكاد أخفيها فلا جرم قال تعالى قل عسى أن يكون قريبا قال المفسرون عسى من الله واجب معناه أنه قريب فان قالوا كيف يكون قريبا وقد انقرض ستمائة سنة ولم يظهر قلنا اذا كان ما مضى أكثر مما بقى كان الباقى قريبا قليلا ثم قال تعالى يوم يدعوكم وفيه قولان (الاول) انه خطاب مع الكفار بدليل ان ما قبل هذه الآية كله خطاب مع الكفار ثم نقول انتصب يوما على البدل من قوله قريبا والمعنى عسى أن يكون البعث يوم يدعوكم أى بالنداء الذى يسمعكم وهو النفخة الاخيرة كما قال يوم يناد المناد من مكان قريب يقال ان اسرافيل ينادى أيتها الاجساد البالية والعظام النخرة والاجزاء المتفرقة عودى كما كنت بقدرة الله تعالى وباذنه وتكوينه وقال تعالى يوم يدعو الداع الى شئ نكر وقوله فتستجيبون بحمده أى تجيبون والاستجابة موافقة الداعى فيما دعا اليه وهى الاجابة الا ان الاستجابة تقتضى طلب الموافقة فهى أوكد من الاجابة وقوله بحمده قال سعيد بن جبير يخرجون من قبورهم و ينفضون التراب عن رؤسهم و يقولون سبحانك و بحمدك فهو قوله فتستجيبون بحمده وقال قتادة بمعرفته وطاعته وتوجيه هذا القول انهم لما أجابوا بالتسبيح والتحميد كان ذلك معرفة منهم وطاعة ولكنهم لا ينفعهم ذلك فى ذلك اليوم فلهذا قال المفسرون حمدوا حين لا ينفعهم الحمد وقال أهل المعانى تستجيبون بحمده أى تستجيبون حامدين كما يقال جاء بغضبه أى جاء غضبان وركب الامير بسيفه أى وسيفه معه وقال صاحب الكشاف بحمده حال منهم أى حامدين وهذا مبالغة فى انقيادهم للبعث كقولك لمن

الالهية (ان عذاب ربك كان محذورا) حقيقا بان يحذره كل أحد حتى الملائكة والرسل عليهم الصلاة والسلام وهو تعليل لقوله تعالى ويخافون عذابه وتخصيصه بالتعليل لما أن المقام مقام التحذير من العذاب وأن بينهم وبين العذاب بونا بعيدا (وان من قرية) بيان لتحتم حلول عذابه تعالى بمن لا يحذره اثر بيان أنه حقيق بالحذر وأن أساطين الخلق من الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام على حذر من ذلك وكلمة ان نافية ومن استغراقية والمراد بالقرية القرية الكافرة أى ما من قرية من قرى الكفار (الا نحن مهلكوها) أى مخربوها البتة بالخسف بها أو باهلاك أهلها بالمرة لما ارتكبوا من عظائم الموبقات المستوجبة لذلك وفى صيغة الفاعل وان كانت بمعنى المستقبل ما ليس فيه من الدلالة على التحقق والتقرر وانما قيل (قبل يوم القيامة) لان الاهلاك يومئذ غير مختص بالقرى الكافرة ولا هو بطريق العقوبة وانما هو لانقضاء عمر الدنيا (أو معذبوها) أى معذبو أهلها على الاسناد المجازى (عذابا شديدا) لا بالقتل والسبى ونحوهما من البلايا الدنيوية فقط بل ﴿ تأمره ﴾ بما لا يكتنه كنهه من فنون العقوبات الاخروية أيضا حسبما ينفصح عنه اطلاق التعذيب عما قيد به الاهلاك من

تأمره بعمل يشق عليه ستأتى به وأنت حامد شاكر أى ستنتهى الى حالة تحمد الله وتشكره على ان اكتفى منك بذلك العمل وهذا يذكر فى معرض التهديد ثم قال وتظنون ان لبثتم الا قليلا قال ابن عباس يريد بين النفختين الاولى والثانية فانه يزال عنهم العذاب فى ذلك الوقت والدليل عليه قوله فى سورة يس من بعثنا من مرقدنا فظنهم بأن هذا لبث قليل عائد الى لبثهم فيما بين النفختين وقال الحسن معناه تقريب وقت البعث فكأنك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل فهذا يرجع الى استقلال مدة اللبث فى الدنيا وقيل المراد استقلال لبثهم فى عرصة القيامة لانه لما كانت عاقبة أمرهم الدخول فى النار استقصروا مدة لبثهم فى برزخ القيامة (القول الثانى) ان الكلام مع الكفار تم عند قوله عسى أن يكون قريبا واما قوله يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده فهو خطاب مع المؤمنين لا مع الكافرين لان هذا الكلام هو اللائق بالمؤمنين لانهم يستجيبون لله بحمده ويحمدونه على احسانه اليهم والقول الاول هو المشهور والثانى ظاهر الاحتمال * قوله تعالى (وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ان الشيطان ينزغ بينهم ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا ربكم أعلم بكم ان يشأ يرحمكم أو ان يشأ يعذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلا وربك أعلم بمن فى السموات والارض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا) اعلم ان قوله قل لعبادى فيه قولان (الاول) ان المراد به المؤمنون وذلك لان لفظ العباد فى أكثر آيات القرآن مختص بالمؤمنين قال تعالى فبشر عبادى الذين يستمعون القول وقال فادخلى فى عبادى وقال عينا يشرب بها عباد الله اذا عرفت هذا فنقول انه تعالى لما ذكر الحجة اليقينية فى ابطال الشرك وهو قوله لو كان معه آلهة كما تقولون اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا وذكر الحجة اليقينية فى صحة المعاد وهو قوله قل الذى فطركم أول مرة قال فى هذه الآية وقل يا محمد لعبادى اذا أردتم ايراد الحجة على المخالفين فاذكروا تلك الدلائل بالطريق الاحسن وهو أن لا يكون ذكر الحجة مخلوطا بالشتم والسب ونظير هذه الآية قوله ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وقوله ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن وذلك لان ذكر الحجة لو اختلط به شئ من السب والشتم لقابلوكم بمثله كما قال ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ويزداد الغضب وتتكامل النفرة ويمتنع حصول المقصود اما اذا وقع الاقتصار على ذكر الحجة بالطريق الاحسن الخالى عن الشتم والايذاء أثر فى القلب تأثيرا شديدا فهذا هو المراد من قوله وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ثم انه تعالى نبه على وجه المنفعة فى هذا الطريق فقال ان الشيطان ينزغ بينهم جامعا للفريقين أى متى صارت الحجة مرة ممزوجة بالبذاءة صارت سببا لثوران الفتنة ثم قال ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا والمعنى ان العداوة الحاصلة بين الشيطان وبين الانسان عداوة قديمة قال تعالى حكاية عنه ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم وقال كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر

قبلية يوم القيامة كيف لا وكثير من القرى العاتية العاصية قد أخرت عقوباتها الى يوم القيامة (كان ذلك) الذى ذكر من الاهلاك والتعذيب (فى الكتاب) أى اللوح المحفوظ (مسطورا) مكتوبا لم يغادر منه شئ الا بين فيه بكيفياته وأسبابه الموجبة له ووقته المضروب له هذا وقد قيل الهلاك للقرى الصالحة والعذاب للطالحة وعن مقاتل وجدت فى كتاب الضحاك بن مزاحم فى تفسيرها أما مكة فيخربها الحبشة وتهلك المدينة بالجوع والبصرة بالغرق والكوفة بالترك والجبال بالصواعق والرواجف وأما خراسان فهلاكها ضروب ثم ذكرها بلدا بلدا وقال الحافظ أبو عمرو الدوانى فى كتاب الفتن انه روى عن وهب بن منبه ان الجزيرة آمنة فى الخراب حتى تخرب أرمينية وأرمينية آمنة حتى تخرب مصر ومصر آمنة حتى تخرب الكوفة ولا تكون الملحمة الكبرى حتى تخرب الكوفة فاذا كانت الملحمة الكبرى فتحت قسطنطينية على يدى رجل من بنى هاشم وخراب الاندلس من قبل الزنج وخراب افريقية من قبل الاندلس وخراب مصر من انقطاع النيل واختلاف الجيوش فيها وخراب العراق من الجوع وخراب

قال انى برئ منك انى أخاف الله رب العالمين وقال واذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لاغالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم الى قوله انى برئ منكم ثم قال تعالى ربكم اعلم بكم ان يشأ يرحمكم أوان يشأ يعذبكم واعلم انا انما نتكلم الآن على تقدير أن قوله تعالى قل لعبادى المراد به المؤمنون وعلى هذا التقدير فقوله ربكم أعلم بكم خطاب مع المؤمنين والمعنى ان يشأ يرحمكم والمراد بتلك الرحمة الانجاء من كفار مكة واذاهم أوان يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم ثم قال وما أرسلناك يامحمد عليهم وكيلا أى حافظا وكفيلا فاشتغل أنت بالدعوة ولاشئ عليك من كفرهم فان شاء الله هدايتهم هداهم والافلا (القول الثانى) ان المراد من قوله وقل لعبادى الكفار وذلك لان المقصود من هذه الآيات الدعوة فلا يبعد فى مثل هذا الموضع ان يخاطبوا بالخطاب الحسن ليصير ذلك سببا لجذب قلوبهم وميل طباعهم الى قبول الدين الحق فكأنه تعالى قال يامحمد قل لعبادى الذين أقروا بكونهم عبادا لى يقولوا التى هى أحسن وذلك لانا قبل النظر فى الدلائل والبينات نعلم بالضرورة ان وصف الله تعالى بالتوحيد والبراءة عن الشركاء والاضداد أحسن من اثبات الشركاء والاضداد ووصفه بالقدرة على الحشر والنشر بعد الموت أحسن من وصفه بالعجز عن ذلك وعرفهم أنه لاينبغى لهم أن يصروا على تلك المذاهب الباطلة تعصبا للاسلاف لان الحامل على مثل هذا التعصب هو الشيطان والشيطان عدو فلا ينبغى أن يلتفت الى قوله ثم قال لهم ربكم أعلم بكم ان يشأ يرحمكم بأن يوفقكم للايمان والهداية والمعرفة وان يشأ يعذبكم على الكفر فيعذبكم الا أن تلك المشيئة غائبة عنكم فاجتهدوا أنتم فى طلب الدين الحق ولاتصروا على الباطل والجهل لئلا تصيروا محرومين عن السعادات الابدية والخيرات السرمدية ثم قال لمحمد صلى الله عليه وسلم وما أرسلناك عليهم وكيلا أى لاتشدد الامر عليهم ولاتغلظ لهم فى القول والمقصود من كل هذه الكلمات اظهار اللين والرفق لهم عند الدعوة فان ذلك هو الذى يؤثر فى القلب ويفيد حصول المقصود ثم قال وربك أعلم بمن فى السموات والارض والمعنى انه لما قال قبل ذلك ربكم أعلم بكم قال بعده وربك أعلم بمن فى السموات والارض بمعنى أن علمه غير مقصور عليكم ولا على أحوالكم بل علمه متعلق بجميع الموجودات والمعدومات ومتعلق بجميع ذوات الارضين والسموات فيعلم حال كل واحد ويعلم مايليق به من المصالح والمفاسد فلهذا السبب فضل بعض النبيين على بعض وآتى موسى التوراة وداود الزبور وعيسى الانجيل فلم يبعد أيضا أن يؤتى محمدا القرآن ولم يبعد أن يفضله على جميع الخلق فان قيل ما السبب فى تخصيص داود عليه الصلاة والسلام فى هذا المقام بالذكر قلنا فيه وجوه (الاول) أنه تعالى ذكر أنه فضل بعض النبيين على بعض ثم قال وآتينا داود زبورا يعنى أن داود كان ملكا عظيما ثم انه تعالى لم يذكر ما آتاه من الملك وذكر ما آتاه من الكتاب تنبيها على ان التفضيل الذى ذكره قبل ذلك المراد منه التفضيل بالعلم والدين

الكوفة من قبل عدو من ورائهم يحصرهم حتى لايستطيعون أن يشربوا من الفرات قطرة وخراب البصرة من قبل الغرق وخراب الايلة من قبل عدو يحصرهم برا و بحرا وخراب الرى من الديلم وخراب خراسان من قبل التبت وخراب التبت من قبل الصين وخراب الهند واليمن من قبل الجراد والسلطان وخراب مكة من الحبشة وخراب المدينة من قبل الجوع وعن أبى هريرة رضى الله عنه ان النبى عليه الصلاة والسلام قال آخر قرية من قرى الاسلام خرابا المدينة وقد أخرجه العمرى من هذا الوجه وأنت خبير بأن تعميم القرية لايساعده السباق ولا السياق (ومامنعنا أن نرسل بالآيات) أى الآيات التى اقترحتها قريش من احياء الموتى وقلب الصفا ذهبا ونحو ذلك (الا أن كذب بها الاولون) استثناء مفرغ من أعم الاشياء أى ومامنعنا ارسالها شئ من الاشياء الا تكذيب الاولين بها حين جاءتهم باقتراحهم وعدم ارساله تعالى بها وان كان بمشيئته المبنية على الحكم البالغة لامانع من ذلك من التكذيب أوغيره لاستحالة العجز عليه تعالى لكن تكذيبهم المذكور بواسطة استتباعه لاستئصالهم بحكم السنة الالهية واستلزامه لتكذيب الآخرين بحكم

لابطال (والوجه الثاني) ان السبب في تخصيصه بالذكر انه تعالى كتب في الزبور ان محمدا خاتم النبيين وان أمته خير الامم قال تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون وهم محمد وأمته فان قيل هلا عرف كما في قوله ولقد كتبنا في الزبور قلنا التنكير ههنا يدل على تعظيم حاله لان الزبور عبارة عن المزبور فكان معناه الكتاب فكان معنى التنكير أنه كامل في كونه كتابا (الوجه الثالث) ان السبب فيه ان كفار قريش ما كانوا أهل نظر وجدل بل كانوا يرجعون الى اليهود في استخراج الشبهات واليهود كانوا يقولون انه لانبي بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة فنقض الله تعالى عليهم كلامهم بانزال الزبور على داود وقرأ حمزة زبورا بضم الزاي وذكرنا وجه ذلك في آخر سورة النساء * قوله تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا) اعلم ان المقصود من هذه الآية الرد على المشركين وقد ذكرنا ان المشركين كانوا يقولون ليس لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله تعالى فنحن نعبد بعض المقربين من عباد الله وهم الملائكة ثم انهم اتخذوا لذلك الملك الذي عبدوه تمثالا وصورة واشتغلوا بعبادته على هذا التأويل والله تعالى احتج على بطلان قولهم في هذه الآية فقال قل ادعوا الذين زعمتم من دونه وليس المراد الاصنام لانه تعالى قال في صفتهم أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة وابتغاء الوسيلة الى الله تعالى لا يليق بالاصنام البتة اذا ثبت هذا فنقول ان قوما عبدوا الملائكة فنزلت هذه الآية فيهم وقيل انها نزلت في الذين عبدوا المسيح وعزيرا وقيل ان قوما عبدوا نفرا من الجن فأسلم النفر من الجن وبقي أولئك الناس متمسكين بعبادتهم فنزلت هذه الآية قال ابن عباس كل موضع في كتاب الله تعالى ورد فيه لفظ زعم فهو كذب ثم انه تعالى احتج على فساد مذهب هؤلاء ان الاله المعبود هو الذي يقدر على ازالة الضرر وايصال المنفعة وهذه الاشياء التي يعبدونها وهي الملائكة والجن والمسيح وعزير لا يقدرون على كشف الضرر ولا على تحصيل النفع فوجب القطع بانها ليست آلهة ولقائل ان يقول هذا الدليل انما يتم اذا دللتم على ان الملائكة لا قدرة لها على كشف الضر ولا على تحصيل النفع فما الدليل على ان الامر كذلك حتى يتم دليلكم فان قلتم لانا نرى ان أولئك الكفار كانوا يتضرعون اليها فلا تحصل الاجابة قلنا معارضة لذلك قد نرى أيضا أن المسلمين يتضرعون الى الله تعالى فلا تحصل الاجابة والمسلمون يقولون ان القدر الحاصل من كشف الضر وتحصيل النفع انما يحصل من الله تعالى لا من الملائكة وأولئك الكفار يقولون انه يحصل من الملائكة لا من الله تعالى وعلى هذا التقدير فالدليل غير تام والجواب ان الدليل تام كامل وذلك لان الكفار كانوا مقرين بان الملائكة عباد الله وخالق الملائكة وخالق العالم لا بد وأن يكون أقدر من الملائكة وأقوى منهم وأكمل حالا منهم واذا ثبت

الاشتراك في العتو والعناد وافضائه الى أن يحل بهم مثل ما حل بهم بحكم الشركة في الجريرة لما كان منافيا لارسال ما اقترحوه من الآيات لتعين التكذيب المستدعي للاستئصال المخالف لما جرى به قلم القضاء من تأخير عقوبات هذه الامة الى الآخرة لحكم باهرة من جملتها ما يتوهم من ايمان بعض أعقابهم عبر عن تلك المنافاة بالمنع على نهج الاستعارة ايذانا بتعاضد مبادي الارسال لا كما زعموا من عدم ارادته تعالى لتأييده عليه الصلاة والسلام بالمعجزات وهو السر في ايثار الارسال على الايتاء لما فيه من الاشعار بتداعي الآيات الى النزول لولا أن تمسكها يد التقدير واسناد هذا المنع الى تكذيب الاولين لا الى علمه تعالى بما سيكون من الآخرين كما في قوله تعالى ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون لاقامة الحجة عليهم بابراز الانموذج وللايذان بأن مدار عدم الاجابة الى ايتاء مقترحهم ليس الا صنيعهم (وآتينا ثمود الناقة) عطف على ما ينفصح عنه النظم الكريم كأنه قيل وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون حيث آتيناهم ما اقترحوا من الآيات الباهرة فكذبوها وآتينا باقتراحهم ثمود الناقة (مبصرة) على صيغة الفاعل أي بينة ذات أبصار

هنا فنقول كمال قدرة الله تعالى معلوم متفق عليه وكمال قدرة الملائكة غير معلوم ولا متفق عليه بل المتفق عليه ان قدرتهم بالنسبة الى قدرة الله تعالى قليلة حقيرة واذا كان كذلك وجب أن يكون الاشتغال بعبادة الله تعالى أولى من الاشتغال بعبادة الملائكة لان كون الله مستحقا للعبادة معلوم وكون الملائكة كذلك مجهول والاخذ بالمعلوم أولى وأما أصحابنا المتكلمون من أهل السنة والجماعة فلهم فى هذا الباب طريقة أخرى وهو أنهم يقيمون الحجة العقلية على أنه لا موجد الا الله تعالى ولا مخرج لشئ من العدم الى الوجود الا الله تعالى واذا ثبت هذا ثبت أنه لا ضار ولا نافع الا الله تعالى فوجب القطع بأنه لا معبود الا الله تعالى وهذه الطريقة لا تتم للمعتزلة لانهم لما جوزوا كون العبد موجدا لافعاله امتنع عليهم الاستدلال على أن الملائكة لا قدرة لها على الاحياء والاماتة وخلق الجسم واذا عجزوا عن ذلك لم يتم لهم هذا الدليل فهذا هو ذكر الدليل القاطع على صحة قوله لا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا والتحويل عبارة عن النقل من حال الى حال ومكان الى مكان يقال حوله فتحول ثم قال تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة وفيه قولان (الاول) قال الفراء قوله يدعون فعل الآدميين العابدين وقوله يبتغون فعل المعبودين ومعناه ان أولئك المعبودين يبتغون الى ربهم الوسيلة فانه لا نزاع أن الملائكة يرجعون الى الله فى طلب المنافع ودفع المضار ويرجون رحمته ويخافون عذابه واذا كان كذلك كانوا موصوفين بالعجز والحاجة والله تعالى أغنى الاغنياء فكان الاشتغال بعبادته أولى فان قالوا لا نسلم ان الملائكة محتاجون الى رحمة الله وخائفون من عذابه فنقول هؤلاء الملائكة اما ان يقال انها واجبة الوجود لذواتها أو يقال ممكنة الوجود لذواتها * والاول باطل لان جميع الكفار كانوا معترفين بأن الملائكة عباد الله ومحتاجون اليه * وأما الثانى فهو يوجب القول بكون الملائكة محتاجين فى ذواتها وفى كمالاتها الى الله تعالى فكان الاشتغال بعبادة الله أولى من الاشتغال بعبادة الملائكة (والقول الثانى) أن قوله أولئك الذين يدعون هم الانبياء الذين ذكرهم الله تعالى بقوله ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وتعلق هذا الكلام بما سبق هو أن الذين عظمت منزلتهم وهم الانبياء لا يعبدون الا الله تعالى ولا يبتغون الوسيلة الا اليه فانتم بالاقتداء بهم احق فلا تعبدوا غير الله تعالى واحتج القائلون بهذا القول على صحته بان قالوا الملائكة لا يعصون الله فلا يخافون عذابه فثبت ان هذا غير لائق بالملائكة وانما هو لائق بالانبياء قلنا الملائكة يخافون عذاب الله لو أقدموا على الذنب والدليل عليه قوله تعالى ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم اما قوله ان عذاب ربك كان محذورا فالمراد أن من حقه ان يحذر فان لم يحذره بعض الناس لجهله فهو لا يخرج من كونه بحيث يجب الحذر عنه * قوله تعالى (وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك فى الكتاب مسطورا) اعلم انه تعالى لما قال ان عذاب

أو بصائر يدركها الناس أو أسند اليها حال من يشاهدها مجازا أو جاءتهم ذوي بصائر من أبصره جعله بصيرا وقرئ على صيغة المفعول وبفتح الميم والصاد وهي نصب على الحالية وقرئ بالرفع على انها خبر مبتدا محذوف (فظلموا بها) فكفروا بها ظالمين أى لم يكتفوا بمجرد الكفر بها بل فعلوا بها مافعلوا من العقر أو ظلموا أنفسهم وعرضوها للهلاك بسبب عقرها ولعل تخصيصها بالذكر لما أن ثمود عرب مثلهم وأن لهم من العلم بحالهم مالا مزيد عليه حيث يشاهدون آثار هلاكهم ورودا وصدورا أو لانها من جهة انها حيوان أخرج من الحجر أوضح دليل على تحقق مضمون قوله تعالى قل كونوا حجارة أو حديدا (وما نرسل بالآيات) المقترحة (الا تخويفا) لمن أرسلت هى عليهم مما يعقبها من العذاب المستأصل كالطليعة له وحيث لم يخافوا ذلك فعل بهم مافعل فلا محل للجملة حينئذ من الاعراب ويجوز أن تكون حالا من ضمير ظلموا أى فظلموا بها ولم يخافوا عاقبته والحال أن ما نرسل بالآيات التى هى من جملتها الا تخويفا من العذاب ﴿ ربك ﴾ الذى يعقبها فنزل بهم ما نزل (واذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس) أى علما كما نقله الامام الثعلبي عن

ربك كان محذورا بين ان كل قرية مع أهلها فلابد وان يرجع حالها الى أحد أمرين اما الاهلاك واما التعذيب قال مقاتل اما الصالحة فبالموت واما الطالحة فبالعذاب وقيل المراد من قوله وان من قرية قرى الكفار ولابد وأن تكون عاقبتها أحد أمرين اما الاستئصال بالكلية وهو المراد من الاهلاك أو بعذاب شديد دون ذلك من قتل كبرائهم وتسليط المسلمين عليهم بالسبي واغتنام الاموال وأخذ الجزية ثم بين تعالى ان هذا الحكم حكم مجزوم به واقع فقال كان ذلك في الكتاب مسطورا ومعناه ظاهر ✻ قوله تعالى (ومامنعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ومانرسل بالآيات الا تخويفا واذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس وماجعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن ونخوفهم فما يزيدهم الا طغيانا كبيرا) اعلم انه تعالى لما ذكر الدليل على فساد قول المشركين وأتبعه بالوعيد أتبعه بذكر مسئلة النبوة وذلك لان كفار قريش اقترحوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم اظهار معجزات عظيمة قاهرة كما حكى الله عنهم أنهم قالوا لولا يأتينا بآية كما أرسل الاولون وقال آخرون المراد ماطلبوه بقولهم لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا وعن سعيد بن جبير ان القوم قالوا انك تزعم أنه كان قبلك أنبياء فمنهم من سخرت له الريح ومنهم من كان يحيي الموتى فأتنا بشئ من هذه المعجزات فاجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله ومامنعنا أن نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون وفى تفسير هذا الجواب وجوه (الاول) المعنى انه تعالى لو أظهر تلك المعجزات القاهرة ثم لم يؤمنوا بها بل بقوا مصرين على كفرهم فحينئذ يصيرون مستحقين لعذاب الاستئصال لكن انزال عذاب الاستئصال على هذه الامة غير جائز لان الله تعالى اعلم ان فيهم من سيؤمن أو يؤمن أولادهم فلهذا السبب ماأجابهم الله تعالى الى مطلوبهم وماأظهر تلك المعجزات القاهرة روى ابن عباس أن أهل مكة سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا وان يزيل لهم الجبال حتى يزرعوا تلك الاراضى فطلب الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك من الله تعالى فقال الله تعالى ان شئت فعلت ذلك لكن بشرط انهم ان كفروا أهلكتهم فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لاأريد ذلك بل تتأنى بهم فنزلت هذه الآية (الوجه الثانى) فى تفسير هذا الجواب انا لانظهر هذه المعجزات لان آباءكم الذين رأوها لم يؤمنوا بها وأنتم مقلدون لهم فلو رأيتموها أنتم لم تؤمنوا بها أيضا (الوجه الثالث) ان الاولين شاهدوا هذه المعجزات وكذبوا بها فعلم الله منكم أيضا انكم لو شاهدتموها لكذبتم فكان اظهارها عبثا والعبث لايفعله الحكيم ثم قال تعالى وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وفيه ابحاث (الاول) المعنى ان الآية التى التمسوها هى مثل آية ثمود وقد آتيناها ثمود واضحة بينة ثم كفروا بها فاستحقوا عذاب الاستئصال فكيف يتمناها هؤلاء على سبيل الاقتراح والتحكم على الله تعالى (البحث الثانى) قوله تعالى مبصرة وفيه وجهان (الاول) قال الفراء مبصرة أى

ابن عباس رضى الله عنهما فلا يخفى عليه شئ من أفعالهم الماضية والمستقبلة من الكفر والتكذيب وفى قوله تعالى (وماجعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس) الى آخر الآية تنبيه على تحققها بالاستدلال عليها بما صدر عنهم عند مجئ بعض الآيات لاشتراك الكل فى كونها أمورا خارقة للعادات منزلة من جانب الله سبحانه لتصديق النبى عليه الصلاة والسلام فتكذيبهم لبعضها مستلزم لتكذيب الباقى كما أن تكذيب الآخرين بغير المقترحة يدل على تكذيبهم بالآيات المقترحة والمراد بالرؤيا ماعاينه عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج من عجائب الارض والسماء حسبما ذكر فى فاتحة السورة الكريمة والتعبير عن ذلك بالرؤيا اما لانه لافرق بينها وبين الرؤية أو لانها وقعت بالليل أو لان الكفرة قالوا لعلها رؤيا أى وما جعلنا الرؤيا التى أريناكها عيانا مع كونها آية عظيمة وأية آية حقيقة بأن لايتلعثم فى تصديقها أحد ممن له أدنى بصيرة الا فتنة افتتن بها الناس حتى ارتد بعضهم (والشجرة الملعونة فى القرآن) عطف على الرؤيا والمراد بلعنها فيه لعن طاعمها على الاسناد المجازى أو ابعادها عن الرحمة فانها تنبت فى أصل الجحيم فى أبعد

مضيئة قال تعالى والنهار مبصرا أى مضيئا (الثانى) مبصرة أى ذات ابصار أى فيها ابصار لمن تأملها يبصر بها رشده و يستدل بها على صدق ذلك الرسول (البحث الثالث) قوله فظلموا بها أى ظلموا أنفسهم بتكذيبهم بها وقال ابن قتيبة ظلموا بها أى جحدوا بأنها من الله تعالى ثم قال تعالى وما نرسل بالآيات الا تخويفا قيل لا آية الا وتتضمن التخويف بها عند التكذيب اما من العذاب المعجل أو من عذاب الآخرة فان قيل المقصود الأعظم من اظهار الآيات أن يستدل بها على صدق المدعى فكيف حصر المقصود من اظهارها فى التخويف قلنا المقصود ان مدعى النبوة اذا أظهر الآية فاذا سمع الخلق أنه أظهر آية فهم لا يعلمون ان تلك الآية معجزة أو مخوفة الا انهم يجوزون كونها معجزة و بتقدير أن تكون معجزة فلو لم يتفكروا فيها ولم يستدلوا بها على الصدق لاستحقوا العقاب الشديد فهذا هو الخوف الذى يحملهم على التفكر والتأمل فى تلك المعجزات فالمراد من قوله وما نرسل بالآيات الا تخويفا هذا الذى ذكرناه والله أعلم واعلم ان القوم لما طالبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمعجزات القاهرة وأجاب الله تعالى بان اظهارها ليس بمصلحة صار ذلك سببا لجرأة أولئك الكفار بالطعن فيه وان يقولوا له لو كنت رسولا حقا من عند الله تعالى لاتيت بهذه المعجزات التى اقترحناها منك كما أتى بها موسى وغيره من الانبياء فعند هذا قوى الله قلبه و بين له انه تعالى ينصره و يؤيده فقال واذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس وفيه قولان (الاول) المعنى ان حكمته وقدرته محيطة بالناس فهم فى قبضته وقدرته ومتى كان الامر كذلك فهم لا يقدرون على أمر من الامور الا بقضائه وقدره والمقصود كأنه تعالى يقول له ننصرك ونقويك حتى تبلغ رسالتنا وتظهر ديننا قال الحسن حال بينهم و بين ان يقتلوه كما قال تعالى والله يعصمك من الناس (والقول الثانى) ان المراد بالناس أهل مكة واحاطة الله بهم هو أنه تعالى يفتحها للمؤمنين فكان المعنى واذ بشرناك بان الله أحاط باهل مكة بمعنى انه يغلبهم و يقهرهم و يظهر دولتك عليهم ونظيره قوله تعالى سيهزم الجمع و يولون الدبر وقال قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى قوله أحاط بالناس لما كان كل ما يخبر الله عن وقوعه فهو واجب الوقوع فكان من هذا الاعتبار كالواقع فلا جرم قال أحاط بالناس وروى أنه لما تزاحف الفريقان يوم بدر ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى العريش مع أبى بكر كان يدعو و يقول اللهم انى أسألك عهدك ووعدك لى ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس و يقول سيهزم الجمع و يولون الدبر ثم قال تعالى وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس وفى هذه الرؤيا أقوال (الاول) ان الله أرى محمدا فى المنام مصارع كفار قريش فحين ورد ماء بدر قال والله كأنى أنظر الى مصارع القوم ثم أخذ يقول هذا مصرع فلان هذا مصرع فلان فلما سمعت قريش ذلك جعلوا رؤياه سخرية وكانوا يستعجلون بما وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم (والقول الثانى) ان المراد رؤياه التى رآها أنه يدخل مكة وأخبر بذلك أصحابه فلما منع عن البيت الحرام عام الحديبية

امكان من الرحمة أي وما جعلناها الا فتنة لهم حيث أنكروا ذلك وقالوا ان محمدا يزعم أن الجحيم يحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر ولقد ضلوا فى ذلك ضلالا بعيدا حيث كابروا قضية عقولهم فانهم يرون النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد المحماة فلا تضرها ويشاهدون المناديل المتخذة من وبر السمندل تلقى فى النار فلا تؤثر فيها ويرون أن فى كل شجر نارا وقرئ بالرفع على حذف الخبر كأنه قيل والشجرة الملعونة فى القرآن كذلك (ونخوفهم) بذلك وبنظائرها من الآيات فان الكل للتخويف وايثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار (فما يزيدهم) التخويف (الا طغيانا كبيرا) متجاوزا عن الحد فلو أنا أرسلنا بما يقترحونه من الآيات لفعلوا بها ما فعلوا بنظائرها وفعل بهم ما فعل بأشياعهم وقد قضينا بتأخير العقوبة العامة لهذه الامة الى الطامة الكبرى هذا هو الذى يستدعيه النظم الكريم وقد حمل أكثر المفسرين الاحاطة على الاحاطة بالقدرة تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عما يعتريه من عدم الاجابة الى انزال الآيات التى اقترحوها لان انزالها ليس بمصلحة من نوع حزن من طعن الكفرة حيث كانوا يقولون لو كنت رسولا

﴿ كان ﴾

كان ذلك فتنة لبعض القوم وقال عمر لابى بكر أليس قد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم انا ندخل البيت ونطوف به فقال أبو بكر انه لم يخبرنا انا نفعل ذلك فى هذه السنة فسنفعل ذلك فى سنة أخرى فلما جاء العام المقبل دخلها وأنزل الله تعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق اعترضوا على هذين القولين فقالوا هذه السورة مكية وهاتان الواقعتان مدنيتان وهذا السؤال ضعيف لان هاتين الواقعتين مدنيتان أما رؤيتهما فى المنام فلا يبعد حصولها فى مكة (والقول الثالث) قال سعيد بن المسيب رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى أمية ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك وهذا قول ابن عباس فى رواية عطاء والاشكال المذكور عائد فيه لان هذه الآية مكية وما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة منبر ويمكن أن يجاب عنه بأنه لا يبعد أن يرى بمكة أن له بالمدينة منبرا يتداوله بنو أمية (و قول الرابع) وهو الاصح وهو قول أكثر المفسرين ان المراد بها ما أراه الله تعالى ليلة الاسراء واختلفوا فى معنى هذه الرؤيا فقال الأكثرون فرق بين الرؤية والرؤيا فى اللغة يقال رأيت بعينى رؤية ورؤيا وقال الاقلون هذا يدل على أن قصة الاسراء انما حصلت فى المنام وهذا القول ضعيف باطل على ما قررناه فى أول هذه السورة وقوله الا فتنة للناس معناه انه عليه الصلاة والسلام لما ذكر لهم قصة الاسراء كذبوه وكفر به كثير ممن كان آمن به وازداد المخلصون ايمانا فلهذا السبب كان امتحانا ثم قال تعالى والشجرة الملعونة فى القرآن وهذا على التقديم والتأخير والتقدير وما جعلنا الرؤيا التى أريناك والشجرة الملعونة فى القرآن الا فتنة للناس وقيل المعنى والشجرة الملعونة فى القرآن كذلك واختلفوا فى هذه الشجرة فالاكثرون قالوا انها شجرة الزقوم المذكورة فى القرآن فى قوله ان شجرة الزقوم طعام الاثيم وكانت هذه الفتنة فى ذكر هذه الشجرة من وجهين (الاول) ان أبا جهل قال زعم صاحبكم بأن نار جهنم تحرق الحجر حيث قال وقودها الناس والحجارة ثم يقول بأن فى النار شجرا والنار تأكل الشجر فكيف تولد فيها الشجر (والثانى) قال ابن الزبعرى ما نعلم الزقوم الا التمر والزبد فتزقموا منه فأنزل الله تعالى حين عجبوا أن يكون فى النار شجر انا جعلناها فتنة للظالمين الآيات فان قيل ليس فى القرآن لعن هذه الشجرة قلنا فيه وجوه (الاول) المراد لعن الكفار الذين يأكلونها (الثانى) العرب تقول لكل طعام مكروه ضار انه ملعون (والثالث) ان اللعن فى أصل اللغة هو التبعيد فلما كانت هذه الشجرة الملعونة فى القرآن مبعدة عن جميع صفات الخير سميت ملعونة (القول الثانى) قال ابن عباس رضى الله عنهما الشجرة بنو أمية يعنى الحكم بن أبى العاص قال ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ان ولد مروان يتداولون منبره فقص رؤياه على أبى بكر وعمر وقد خلا فى بيته معهما فلما تفرقوا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم يخبر برؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتد ذلك عليه واتهم عمر فى افشاء سره ثم ظهر ان الحكم كان يتسمع اليهم فنفاه رسول الله صلى الله

حقا لاتيت بهذه المعجزات كما أتى بها موسى وغيره من الانبياء عليهم الصلاة والسلام فكأنه قيل اذكر وقت قولنا لك ان ربك الاطيف بك قد أحاط بالناس فهم فى قبضة قدرته لا يقدرون على الخروج من مشيئته فهو يحفظك منهم فلا تهتم بهم وامض لما أمرتك به من تبليغ الرسالة ألا يرى أن الرؤيا التى أريناك من قبل جعلناها فتنة للناس مورثة للشبهة مع أنها ما أورثت ضعفا لامرك وفتورا فى حالك وقد فسر الاحاطة باهلاك قريش يوم بدر وانما عبر عنه بالماضى مع كونه منتظرا حسبما ينبئ عنه قوله تعالى سيهزم الجمع ويولون الدبر وقوله تعالى قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وغير ذلك جريا على عادته سبحانه فى أخباره وأولت الرؤيا بما رآه عليه الصلاة والسلام فى المنام من مصارعهم لما روى انه عليه الصلاة والسلام لما ورد ماء بدر قال والله لكأنى أنظر الى مصارع القوم وهو يومئ الى الارض هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان فتسامعت به قريش فاستسخروا منه وبما رآه عليه الصلاة والسلام انه سيدخل مكة وأخبر به أصحابه فتوجه اليها فصده المشركون عام الحديبية واعترض عن كون ما ذكر مدنيا بأنه يجوز أن يكون

عليه وسلم قال الواحدى هذه القصة كانت بالمدينة والسورة مكية فيبعد هذا التفسير الا أن يقال هذه الآية مدنية ولم يقل به أحد ومما يؤكد هذا التأويل قول عائشة لمروان لعن الله أباك وأنت فى صلبه فأنت بعض من لعنه الله (والقول الثالث) ان الشجرة الملعونة فى القرآن هى اليهود لقوله تعالى لعن الذين كفروا فان قال قائل ان القوم لما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم الاتيان بالمعجزات القاهرة فأجاب أنه لا مصلحة فى اظهارها لانها لو ظهرت ولم تؤمنوا انزل الله عليكم عذاب الاستئصال وذلك غير جائز وأى تعلق لهذا الكلام بذكر الرؤيا التى صارت فتنة للناس وبذكر الشجرة التى صارت فتنة للناس قلنا التقدير كأنه قيل انهم لما طلبوا هذه المعجزات ثم انك لم تظهرها صار عدم ظهورها شبهة لهم فى انك لست بصادق فى دعوى النبوة الا أن وقوع هذه الشبهة لا يوهن أمرك ولا يصير سببا لضعف حالك ألا ترى ان ذكر تلك الرؤيا صار سببا لوقوع الشبهة العظيمة فى القلوب ثم ان قوة تلك الشبهات ما أوجبت ضعفا فى أمرك ولا فتورا فى اجتماع المحقين عليك فكذلك هذه الشبهة الحاصلة بسبب عدم ظهور هذه المعجزات لا توجب فتورا فى حالك ولا ضعفا فى أمرك والله أعلم ثم قال تعالى ونخوفهم فما يزيدهم الا طغيانا كبيرا والمقصود منه ذكر سبب آخر فى أنه تعالى ما أظهر المعجزات التى اقترحوها وذلك لان هؤلاء خوفوا بمخاوف الدنيا والآخرة وبشجرة الزقوم فما زادهم هذا التخويف الا طغيانا كبيرا وذلك يدل على قسوة قلوبهم وتماديهم فى الغى والطغيان واذا كان الامر كذلك فبتقدير أن يظهر الله لهم تلك المعجزات التى اقترحوها لم ينتفعوا بها ولا يزدادون الا تماديا فى الجهل والعناد واذا كان كذلك وجب فى الحكمة أن لا يظهر الله لهم ما اقترحوه من الآيات والمعجزات والله أعلم * قوله تعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس قال أأسجد لمن خلقت طينا قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته الا قليلا قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا) فيه مسائل (المسئلة الاولى) فى كيفية النظم وجوه (الاول) اعلم أنه تعالى لما ذكر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى محنة عظيمة من قومه وأهل زمانه بين أن حال جميع الانبياء مع أهل زمانهم كذلك ألا ترى ان أول الانبياء هو آدم ثم انه كان فى محنة شديدة من ابليس (الثانى) ان القوم انما نازعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاندوه واقترحوا عليه الاقتراحات الباطلة لامرين الكبر والحسد أما الكبر فلان تكبرهم كان يمنعهم من الانقياد وأما الحسد فلانهم كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من النبوة والدرجة العالية فبين تعالى أن هذا الكبر والحسد هما اللذان حملا ابليس على الخروج من الايمان والدخول فى الكفر فهذه بلية قديمة ومحنة عظيمة للخلق (والثالث) انه تعالى لما وصفهم بقوله فما يزيدهم الا طغيانا كبيرا بين ما هو السبب لحصول هذا الطغيان وهو قول ابليس لاحتنكن ذريته الا قليلا فلاجل هذا المقصود ذكر الله تعالى قصة ابليس

الوحى باهلاكهم وكذا الرؤيا واقعا بمكة وذكر الرؤيا وتعيين المصارع واقعين بعد الهجرة وأنت خبير بأنه يلزم منه أن يكون افتتان الناس بذلك واقعا بعد الهجرة وأن يكون ازديادهم طغيانا متوقعا غير واقع عند نزول الآية وقد قيل الرؤيا ما رآه عليه الصلاة والسلام فى وقعة بدر من مضمون قوله تعالى اذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولا ريب فى أن تلك الرؤيا مع وقوعها فى المدينة ما جعلت فتنة للناس (واذ قلنا للملائكة) تذكير لما جرى منه تعالى من الامر ومن الملائكة من الامتثال والطاعة من غير تردد وتحقيق لمضمون ما سبق من قوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا ويعلم من حال الملائكة حال غيرهم من عيسى وعزير عليهما السلام فى الطاعة وابتغاء الوسيلة ورجاء الرحمة ومخافة العذاب ومن حال ابليس حال من يعاند الحق ويخالف الامر أى واذكر وقت قولنا لهم (اسجدوا لآدم) تحية ﴿ وآدم ﴾ وتكريما لما له من الفضائل المستوجبة لذلك (فسجدوا) له من غير تلعثم امتثالا للامر وأداء لحقه عليه الصلاة والسلام (الا ابليس) وكان داخلا

وآدم فهذا هو الكلام فى كيفية النظم (المسئلة الثانية) اعلم أن هذه القصة قد ذكرها الله تعالى فى سور سبعة وهى البقرة والاعراف والحجر وهذه السورة والكهف وطه وص والكلام المستقصى فيها قد تقدم فى البقرة والاعراف والحجر فلا فائدة فى الاعادة ولا بأس بتعديد بعض المسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى أن المأمورين بالسجود لآدم أهم جميع الملائكة أم ملائكة الارض على التخصيص فظاهر لفظ الملائكة يفيد العموم الا أن قوله تعالى فى آخر سورة الاعراف فى صفة ملائكة السموات وله يسجدون يوجب خروج ملائكة السموات عن هذا العموم (المسئلة الثانية) ان المراد من هذه السجدة وضع الجبهة على الارض أو التحية وعلى التقدير الاول فآدم كان هو المسجود له أو يقال كان المسجود له هو الله تعالى وآدم كان قبلة للسجود (المسئلة الثالثة) ان ابليس هل هو من الملائكة أم لا وان لم يكن من الملائكة فامر الملائكة بالسجود كيف يتناوله (المسئلة الرابعة) هل كان ابليس كافرا من أول الامر أو يقال انما كفر فى ذلك الوقت (المسئلة الخامسة) الملائكة سجدوا لآدم من أول ما كملت حياته أو بعد ذلك (المسئلة السادسة) شبهة ابليس فى الامتناع من السجود أهو قوله أأسجد لمن خلقت طينا أو غيره (المسئلة السابعة) دلت هذه الآيات على أن ابليس كان عارفا بربه الا أنه وقع فى الكفر بسبب الكبر والحسد ومنهم من أنكر وقال ما عرف الله البتة (المسئلة الثامنة) ما سبب حكمة امهال ابليس وتسليطه على الخلق بالوسوسة ❁ ولنرجع الى التفسير فنقول انه تعالى حكى فى هذه الآية عن ابليس نوعا واحدا من العمل ونوعين من القول أما العمل فهو أنه لم يسجد لآدم وهو المراد من قوله فسجدوا الا ابليس وأما النوعان من القول فأولهما قوله أأسجد لمن خلقت طينا وهذا استفهام بمعنى الانكار معناه ان أصلى أشرف من أصله فوجب أن أكون أنا أشرف منه والاشرف يقبح فى العقول أمره بخدمة الادنى (والنوع الثانى) من كلامه قوله أرأيتك هذا الذى كرمت على قال الزجاج قوله أرأيتك معناه أخبرنى وقد استقصينا فى تفسير هذه الكلمة فى سورة الانعام وقوله هذا الذى كرمت على فيه وجوه (الاول) معناه أخبرنى عن هذا الذى فضلته على لم فضلته على وأنا خير منه ثم اختصر الكلام لكونه مفهوما (الثانى) يمكن أن يقال هذا مبتدأ محذوف عنه حرف الاستفهام والذى مع صلته خبر تقديره اخبرنى أهذا الذى كرمته على وذلك على وجه الاستصغار والاستحقار وانما حذف حرف الاستفهام لان حصوله فى قوله أرأيتك أغنى عن تكراره (والوجه الثالث) أن يكون هذا مفعول أرأيت لان الكاف جاءت لمجرد الخطاب ولا محل لها كأنه قال على وجه التعجب والانكار أبصرت أو علمت هذا الذى كرمت على بمعنى لو أبصرته أو علمته لكان يجب أن لا تكرمه على هذا هو حقيقة هذه الكلمة ثم قال تعالى حكاية عنه لئن أخرتن الى يوم القيامة لاحتنكن ذريته الا قليلا وفيه مباحث (الاول) قرأ ابن كثير لئن أخرتنى الى يوم القيامة

فى زمن ثم مندرجا تحت الامر بالسجود (قال) أى عندما وبخ بقوله عز سلطانه يا ابليس مالك أن لا تكون مع الساجدين وقوله ما منعك أن لا تسجد اذ أمرتك وقوله ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى كما أشير اليه فى سورة الحجر (أأسجد) وأنا مخلوق من العنصر العالى (لمن خلقت طينا) نصب على نزع الخافض أى من طين أو حال من الراجع الى الموصول أى خلقته وهو طين أو من نفس الموصول أى أأسجد له وأصله طين والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بالموصول لتعليل انكاره بما فى حيز الصلة (قال) اى ابليس لكن لا عقيب كلامه المحكى بل بعد الانظار المترتب على استنظاره المتفرع على الامر بخروجه من بين الملا الاعلى باللعن المؤبد وانما لم يصرح بذلك اكتفاء بما ذكر فى مواضع أخر فان توسيط قال بين كلامى اللعين للايذان بعدم اتصال الثانى بالاول وعدم ابتنائه عليه بل على غيره كما فى قوله تعالى قال فما خطبكم بعد قوله تعالى قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون (أرأيتك هذا الذى كرمت على) الكاف لتأكيد الخطاب لا محل لها من الاعراب وهذا مفعول أول والموصول صفته والثانى محذوف لدلالة الصلة عليه أى أخبرنى عن هذا الذى كرمته على بأن

باثبات الياء فى الوصل والوقف وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائى بالحذف ونافع وأبو عمرو باثباته فى الوصل دون الوقف (البحث الثانى) فى الاحتناك قولان (أحدهما) انه عبارة عن الاخذ بالكلية يقال احتنك فلان ماعند فلان من مال اذا استقصاه وأخذه بالكلية واحتنك الجراد الزرع اذا أكله بالكلية (والثانى) انه من قول العرب حنك الدابة يحنكها اذا جعل فى حنكها الاسفل حبلا يقودها به قال أبو مسلم الاحتناك افتعال من الحنك كأنه يملكهم كما يملك الفارس فرسه بلجامه فعلى القول الاول معنى الآية لاستأصلنهم بالاغواء وعلى القول الثانى لاقودنهم الى المعاصى كما تقاد الدابة بحبلها (البحث الثالث) قوله الا قليلا هم الذين ذكرهم الله تعالى فى قوله ان عبادى ليس لك عليهم سلطان فان قيل كيف ظن ابليس هذا الظن الصادق بذرية آدم قلنا فيه وجوه (الاول) أنه سمع الملائكه يقولون أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فعرف هذه الاحوال (الثانى) انه وسوس الى آدم فلم يجد له عزما فقال الظاهر ان أولاده يكونون مثله فى ضعف العزم (الثالث) أنه عرف أنه مركب من قوة بهيمية شهوانية وقوة سبعية غضبية وقوة وهمية شيطانية وقوة عقلية ملكية وعرف ان القوى الثلاثة أعنى الشهوانية والغضبية والوهمية تكون هى المستولية فى أول الخلقة ثم ان القوة العقلية انما تكمل فى آخر الامر ومتى كان الامر كذلك كان ماذكره ابليس لازما واعلم أنه تعالى لما حكى عن ابليس ذلك حكى عن نفسه أنه تعالى قال له اذهب وهذا ليس من الذهاب الذى هو نقيض المجئ وانما معناه امض لشانك الذى اخترته والمقصود التخلية وتفويض الامر اليه ثم قال فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ونظيره قول موسى عليه الصلاة والسلام فاذهب فان لك فى الحياة أن تقول لامساس فان قيل أليس الاولى أن يقال فان جهنم جزاؤهم جزاء موفورا ليكون هذا الضمير راجعا الى قوله فمن تبعك قلنا فيه وجوه (الاول) التقدير فان جهنم جزاؤهم وجزاؤكم ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل جزاؤكم (والثانى) يجوز أن يكون هذا الخطاب مع الغائبين على طريقة الالتفات (والثالث) أنه صلى الله عليه وسلم قال من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة فكل معصية توجد فيحصل لابليس مثل وزر ذلك العامل فلما كان ابليس هو الاصل فى كل المعاصى صار المخاطب بالوعيد هو ابليس ثم قال جزاء موفورا وهذه اللفظة قد تجئ متعديا ولازما أما المتعدى فيقال وفرته أفره وفرا وفرة فهو موفور موفر قال زهير

ومن يجعل المعروف من دون عرضه * يفره ومن لايتق الشتم يشتم

واللازم كقولك وفر المال يفر وفورا فهو وافر فعلى التقدير الاول يكون المعنى جزاء موفورا موفرا وعلى الثانى يكون المعنى جزاء موفورا وافرا وانتصب قوله جزاء على المصدر * قوله تعالى (واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك

أمرتنى بالسجود له لم كرمته على وقيل هذا مبتدأ حذف عنه حرف الاستفهام والموصول مع صلته خبره ومقصوده الاستصغار والاستحقار أى أخبرنى أهذا من كرمته على وقيل معنى أرأيتك أتأملت كان المتكلم ينبه المخاطب على استحضار ما يخاطبه به عقيبه (لئن أخرتن) حيا (الى يوم القيامة) كلام مبتدأ واللام موطئة للقسم وجوابه قوله (لاحتنكن ذريته) اى لاستأصلنهم من قولهم احتنك الجراد الارض اذا جرد ما عليها أكلا أو لاقودنهم حيث ماشئت ولاستولين عليهم استيلاء قويا من قولهم حنكت الدابة واحتنكتها اذا جعلت فى حنكها الاسفل حبلا تقودها به وهذا كقوله لازينن لهم فى الارض ولاغوينهم أجمعين وانما علم تسنى ذلك المطلب له تلقيا من جهة الملائكة عليهم الصلاة والسلام او استنباطا من قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء أو توسما من خلقه (الا قليلا) منهم وهم المخلصون الذين عصمهم الله تعالى (قال اذهب) اى امض لشأنك الذى اخترته وهو طرد له وتخلية بينه وبين ﴿ وشاركهم ﴾
ماسولت له نفسه (فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم) اى جزاؤك وجزاؤهم فغلب المخاطب على الغائب رعاية

وشاركهم فى الاموال والاولاد وعدهم ومايعدهم الشيطان الاغرورا ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا) اعلم أن ابليس لما طلب من الله الامهال الى يوم القيامة لاجل أن يحتنك ذرية آدم فالله تعالى ذكر أشياء (أولها) قوله اذهب ومعناه أمهلتك هذه المدة (وثانيها) قوله تعالى واستفزز من استطعت منهم بصوتك يقال أفزه الخوف واستفزه أى أزعجه وأستخفه وصوته دعاؤه الى معصية الله تعالى وقيل أراد بصوتك الغناء واللهو واللعب ومعنى صيغة الامر ههنا التهديد كما يقال اجهد جهدك فسترى ماينزل بك (وثالثها) وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وفى قوله وأجلب وجوه (الاول) قال الفراء انه من الجلبة وهى الصياح وربما قالوا الجلب كما قالوا الغلبة والغلب والشفقة والشفق وقال الليث وأبو عبيدة أجلبوا وجلبوا من الصياح (الثانى) قال الزجاج فى فعل وأفعل أجلب على العدو اجلابا اذا جمع عليه الخيول (الثالث) قال ابن السكيت يقال هم يجلبون عليه بمعنى انهم يعينون عليه (والرابع) روى ثعلب عن ابن الاعرابى أجلب الرجل على الرجل اذا توعده الشر وجمع عليه الجمع فقوله وأجلب عليهم معناه على قول الفراء صح عليهم بخيلك ورجلك وعلى قول الزجاج اجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكايدك وتكون البــاء فى قوله بخيلك زائدة على هذا القول وعلى قول ابن السكيت معناه أعن عليهم بخيلك ورجلك ومفعول الاجلاب على هذا القول محذوف كأنه يستعين على اغوائهم بخيله ورجــله وهذا أيضا يقرب من قول ابن الاعرابى واختلفوا فى تفسير الخيل والرجل فروى أبو الضحى عن ابن عباس أنه قال كل راكب أو راجل فى معصية الله تعالى فهو من خيل ابليس وجنوده ويدخل فيه كل راكب وماش فى معصية الله تعالى فعلى هذا التقدير خيله ورجله كل من شاركه فى الدعاء الى المعصية (والقول الثانى) يحتمل أن يكون لابليس جند من الشياطين بعضهم راكب وبعضهم راجل (والقول الثالث) ان المراد منه ضرب المثل كما تقول للرجل المجد فى الامر جئتنا بخيلك ورجلك وهذا الوجه أقرب والخيل تقع على الفرسان قال عليه الصلاة والسلام ياخيل الله اركبى وقد تقع على الافراس خاصة والمراد ههنا الاول والرجل جمع راجل كما قالوا تاجر وتجر وصاحب وصحب وراكب وركب وروى حفص عن عاصم ورجلك بكسر الجيم وغيره بالضم قال أبو زيد يقال رجل ورجل بمعنى واحد ومثله حدث وحدث وندس وندس قال ابن الانبارى أخبرنا ثعلب عن الفراء قال يقال رجل ورجل ورجلان بمعنى واحد (والنوع الرابع) من الاشياء التى ذكرها الله تعالى لابليس قوله وشاركهم فى الاموال والاولاد نقول أما المشاركة فى الاموال فهى عبارة عن كل تصرف قبيح فى المال سواء كان ذلك القبيح بسبب أخذه من غير حقه أو وضعه فى غير حقه ويدخل فيه الربا والغصب والسرقة والمعاملات الفاسدة وهكذا قاله القاضى وهو ضبط حسن وأما المفسرون فقد ذكروا وجوها قال قتادة المشاركة فى الاموال هى ان جعلوا بحيرة وسائبة

لحق المتبوعية (جزاء موفورا) اى جزاء مكملا من قولهم فر لصاحبك عرضه فرة اى وفر وهو نصب على انه مصدر مؤكد لما فى قوله فان جهنم جزاؤكم من معنى تجازون أو للفعل المقدر أو حال موطئة لقوله موفورا (واستفزز) اى استخف (من استطعت منهم) أن تستفزه (بصوتك) بدعائك الى الفساد (وأجلب عليهم) اى صح عليهم من الجلبة وهى الصياح (بخيلك ورجلك) اى بأعوانك وأنصارك من راكب وراجل من أهل العبث والفساد قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وقتادة ان له خيلا ورجلا من الجن والانس فما كان من راكب يقاتل فى معصية الله تعالى فهو من خيل ابليس وما كان من راجل يقاتل فى معصية الله تعالى فهو من رجل ابليس والخيل الخيالة ومنه قوله عليه الصلاة والسلام ياخيل الله اركبى والرجل اسم جمع للراجل كالصحب والركب وقرئ بكسر الجيم وهى قراءة حفص على انه فعل بمعنى فاعل كتعب وتاعب وبمعنى مثل حدث وحدث وندس وندس ونظائرهما اى جمعك الراجل ليطابق الخيل وقرئ رجالك ورجالك ويجوز أن يكون استفزازه بصوته واجلابه بخيله ورجله تمثيلا لتسلطه على من يغويه فكأنه مغوار أوقع على قوم

وقال عكرمة هي عبارة عن تبتيكهم آذان الانعام وقيل هي ان جعلوا من أموالهم شيئا لغير الله تعالى كما قال تعالى فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا والاصوب ماقاله القاضي وأما المشاركة في الاولاد فذكروا فيه وجوها (أحدها) انها الدعاء الى الزنا وزيف الأصم ذلك بأن قال انه لاذم على الولد ويمكن أن يجاب عنه بأن المراد وشاركهم في طريق تحصيل الولد وذلك بالدعاء الى الزنا (وثانيها) أن يسموا أولادهم بعبد اللات وعبد العزى (وثالثها) أن يرغبوا أولادهم في الاديان الباطلة كاليهودية والنصرانية وغيرهما (ورابعها) اقدامهم على قتل الاولاد ووأدهم (وخامسها) ترغيبهم في حفظ الاشعار المشتملة على الفحش وترغيبهم في القتل والقتال والحرف الخبيثة الخسيسة والضابط أن يقال ان كل تصرف من المرء في ولده على وجه يؤدي ذلك الى ارتكاب منكر أو قبيح فهو داخل فيه (والنوع الخامس) من الاشياء التي ذكرها الله تعالى لابليس في هذه الآية قوله وعدهم واعلم انه لما كان مقصود الشيطان الترغيب في الاعتقاد الباطل والعمل الباطل والتنفير عن الاعتقاد الحق والعمل الحق ومعلوم ان الترغيب في الشيء لايمكن الا بأن يقرر عنده أنه لاضرر البتة في فعله ومع ذلك فانه يفيد المنافع العظيمة والتنفير عن الشيء لايمكن الا بأن يقرر عنده أنه لافائدة في فعله ومع ذلك فيفيد المضار العظيمة اذا ثبت هذا فنقول ان الشيطان اذا دعا الى المعصية فلابد وأن يقرر أولا أنه لامضرة في فعله البتة وذلك انما يمكن اذا قال لامعاد ولاجنة ولانار ولاحياة بعد هذه الحياة فبهذا الطريق يقرر عنده أنه لامضرة البتة في فعل هذه المعاصي واذا فرغ عن هذا المقام قرر عنده ان هذا الفعل يفيد أنواعا من اللذة والسرور ولاحياة للانسان في هذه الدنيا الا به فتفويتها غبن وخسران كما قال الشاعر

خذوا بنصيب من سرور ولذة * فكل وان طال المدى يتصرم

فهذا هو طريق الدعوة الى المعصية وأما طريق التنفير عن الطاعة فهو أن يقرر أولا عنده أنه لافائدة فيه وتقريره من وجهين (الاول) أن يقول لاجنة ولانار ولاثواب ولاعقاب (والثاني) ان هذه العبادات لافائدة فيها للعابد والمعبود فكانت عبثا محضا فبهذين الطريقين يقرر الشيطان عند الانسان أنه لافائدة فيها واذا فرغ عن هذا المقام قال انها توجب التعب والمحنة وذلك أعظم المضار فهذه مجامع تلبيس الشيطان فقوله وعدهم يتناول كل هذه الاقسام قال المفسرون قوله وعدهم أي بأنه لاجنة ولانار وقال آخرون وعدهم بتسويف التوبة وقال آخرون وعدهم بالاماني الباطلة مثل قوله لآدم مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقال آخرون وعدهم بشفاعة الاصنام عند الله تعالى وبالانساب الشريفة وايثار العاجل على الآجل وبالجملة فهذه الاقسام كثيرة وكلها داخلة في الضبط الذي ذكرناه وان أردت الاستقصاء في هذا الباب فطالع كتاب ذم الغرور من كتب احياء علوم الدين للشيخ الغزالي

فصوت بهم صوتا يزعجهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم (وشاركهم في الاموال) بحملهم على كسبها وجمعها من الحرام والتصرف فيها على مالاينبغي (والاولاد) بالحث على التوصل اليهم بالاسباب المحرمة والاشراك كتسميتهم بعبد العزى والتضليل بالحمل على الاديان الزائغة والحرف الذميمة والافعال القبيحة (وعدهم) المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة والاتكال على كرامة الآباء وتأخير التوبة بتطويل الامل (ومايعدهم الشيطان الا غرورا) اعتراض لبيان شأن مواعيده والالتفات الى الغيبة لتقوية معنى الاعتراض مع مافيه من صرف الكلام عن خطابه وبيان شأنه للناس ومن الاشعار بعلية شيطنته للغرور وهو تزيين الخطا بما يوهم انه صواب (ان عبادي) الاضافة للتشريف وهم المخلصون وفيه أن من تبعه ليس منهم وأن الاضافة لثبوت الحكم في قوله تعالى (ليس لك عليهم سلطان) أي تسلط وقدرة على اغوائهم كقوله تعالى انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (وكفى بربك وكيلا) لهم يتوكلون عليه ويستمدون به في الخلاص عن اغوائك والتعرض لوصف

﴿ حتى ﴾

حتى يحيط عقلك بمجامع تلبيس ابليس واعلم أن الله تعالى لما قال وعدهم اردفه بما يكون زاجرا عن قبول وعده فقال وما يعدهم الشيطان الا غرورا والسبب فيه أنه انما يدعو الى أحد أمور ثلاثة قضاء الشهوة وامضاء الغضب وطلب الرياسة وعلو الدرجة ولا يدعو البتة الى معرفة الله تعالى ولا الى خدمته وتلك الاشياء الثلاثة معنوية من وجوه كثيرة (أحدها) انها في الحقيقة ليست لذات بل هي خلاص من الآلام (وثانيها) وان كانت لذات لكنها لذات خسيسة مشترك فيها بين الكلاب والديدان والخنافس وغيرها (وثالثها) انها سريعة الذهاب والانقضاء والانقراض (ورابعها) انها لاتحصل الا بمتاعب كثيرة ومشاق عظيمة (وخامسها) ان لذات البطن والفرج لاتتم الا بمزاولة رطوبات عفنة مستقذرة (وسادسها) انها غير باقية بل يتبعها الموت والهرم والفقر والحسرة على الفوت والخوف من الموت فلما كانت هذه المطالب وان كانت لذيذة بحسب الظاهر الا أنها ممزوجة بهذه الآفات العظيمة والمخافات الجسيمة كان الترغيب فيها تغريرا ولهذا المعنى قال تعالى وما يعدهم الشيطان الا غرورا واعلم أنه تعالى لما قال لما فعل ما تقدر عليه فقال تعالى ان عبادي ليس لك عليهم سلطان وفيه قولان (الاول) ان المراد كل عباد الله من المكلفين وهذا قول أبي علي الجبائي قال والدليل عليه انه تعالى استثنى منه في آيات كثيرة من يتبعه بقوله الا من اتبعك ثم استدل بهذا على أنه لاسبيل لابليس وجنوده على تصريع الناس وتخبيط عقولهم وأنه لا قدرة له الا على قدر الوسوسة وأكد ذلك بقوله تعالى وما كان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم وأيضا فلو قدر على هذه الاعمال لكان يجب أن يتخبط أهل الفضل وأهل العلم دون سائر الناس ليكون ضرره أعظم ثم قال وانما يزول عقله لا من جهة الشيطان لكن لغلبة الاخلاط الفاسدة ولا يمتنع أن يكون أحد أسباب ذلك المرض اعتقاد أن الشيطان يقدم عليه فيغلب الخوف عليه فيحدث ذلك المرض (والقول الثاني) ان المراد بقوله ان عبادي أهل الفضل والعلم والايمان لما بينا فيما تقدم ان لفظ العباد في القرآن مخصوص بأهل الايمان والدليل عليه أنه قال في آية أخرى انما سلطانه على الذين يتولونه ثم قال وكفى بربك وكيلا وفيه بحثان (الاول) انه تعالى لما مكن ابليس من أن يأتي بأقصى ما يقدر عليه في باب الوسوسة وكان ذلك سببا لحصول الخوف الشديد في قلب الانسان قال وكفى بربك وكيلا ومعناه ان الشيطان وان كان قادرا فالله تعالى أقدر منه وأرحم بعباده من الكل فهو تعالى يدفع عنه كيد الشيطان ويعصمه من اضلاله وأغوائه (البحث الثاني) هذه الآية تدل على أن المعصوم من عصمه الله تعالى وان الانسان لايمكنه أن يحترز بنفسه عن مواقع الضلالة لانه لو كان الاقدام على الحق والاحجام عن الباطل انما يحصل للانسان من نفسه لوجب أن يقال وكفى الانسان نفسه في الاحتراز عن الشيطان فلما لم يقل ذلك بل قال وكفى بربك علمنا ان الكل من الله ولهذا قال المحققون

الربوبية المنبئة عن المالكية المطلقة والتصرف الكلي مع الاضافة الى ضمير ابليس للاشعار بكيفية كفايته تعالى لهم أعني سلب قدرته على اغوائهم (ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر) مبتدأ وخبر والازجاء السوق حالا بعد حال أي هو القادر الحكيم الذي يسوق لمنافعكم الفلك ويجريها في البحر (لتبتغوا من فضله) من رزقه الذي هو فضل من قبله أو من الربح الذي هو معطيه ومن مزيدة أو تبعيضية وهذا تذكير لبعض النعم التي هي دلائل التوحيد وتمهيد لذكر توحيدهم عند مساس الضر تكملة لما مر من قوله تعالى فلا يملكون الآية (انه كان بكم) أزلا وأبدا (رحيما) حيث هيأ لكم ما تحتاجون اليه وسهل عليكم مايعسر من مباديه وهذا تذييل فيه تعليل لما سبق من الازجاء لابتغاء الفضل وصيغة الرحيم للدلالة على أن المراد بالرحمة الرحمة الدنيوية والنعمة العاجلة المنقسمة الى الجليلة والحقيرة (واذا مسكم الضر في البحر) خوف الغرق فيه (ضل من تدعون) أي ذهب عن خواطركم ما كنتم تدعون من دون الله من الملائكة أو المسيح أو غيرهم (الا اياه) وحده من غير أن يخطر ببالكم أحد منهم وتدعوه لكشفه استقلالا أو اشتراكا

لاحول عن معصية الله الا بعصمة الله ولاقوة على طاعة الله الا بتوفيق الله بقى فى الآية سؤالان (السؤال الاول) ان ابليس هل كان عالما بأن الذى تكلم معه بقوله واستفزز من استطعت منهم هو اله العالم أو لم يعلم ذلك فان علم ذلك ثم انه تعالى قال فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا فكيف لم يصر هذا الوعيد الشديد مانعا له من المعصية مع أنه سمعه من الله تعالى من غير واسطة وان لم يعلم ان هذا القائل هو اله العالم فكيف قال أرأيتك هذا الذى كرمت على والجواب لعله كان شاكا فى الكل أو كان يقول فى كل قسم ما يخطر بباله على سبيل الظن (والسؤال الثانى) ما الحكمة فى أنه تعالى أنظره الى يوم القيامة ومكنه من الوسوسة والحكيم اذا أراد أمرا وعلم أن شيئا من الاشياء يمنع من حصوله فانه لا يسعى فى تحصيل ذلك المانع والجواب اما مذهبنا فظاهر فى هذا الباب وأما المعتزلة فلهم قولان قال الجبائى علم الله تعالى ان الذين كفروا عند وسوسة ابليس يكفرون بتقدير أن لا يوجد ابليس واذا كان كذلك لم يكن فى وجوده مزيد مفسدة وقال أبو هاشم لا يبعد أن يحصل من وجوده مزيد مفسدة الا أنه تعالى أبقاه تشديدا للتكليف على الخلق ليستحقوا بسبب ذلك التشديد مزيد الثواب وهذان الوجهان قد ذكرناهما فى سورة الاعراف والحجر وبالغنا فى الكشف عنهما والله أعلم * قوله تعالى (ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله انه كان بكم رحيما واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا أفأمنتم أن نخسف بكم جانب البر أو نرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا أم أمنتم أن نعيدكم فيه تارة أخرى فنرسل عليكم قاصفا من الريح فنغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) اعلم أنه تعالى عاد الى ذكر الدلائل الدالة على قدرته وحكمته ورحمته وقد ذكرنا ان المقصود الاعظم فى هذا الكتاب الكريم تقرير دلائل التوحيد فاذا امتد الكلام فى فصل من الفصول عاد الكلام بعده الى ذكر دلائل التوحيد والمذكور ههنا الوجوه المستنبطة من الانعامات فى أحوال ركوب البحر (فالنوع الاول) كيفية حركة الفلك على وجه البحر وهو قوله ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر والازجاء سوق الشئ حالا بعد حال وقد ذكرنا ذلك فى تفسير قوله ببضاعة مزجاة والمعنى ربكم الذى يسير الفلك على وجه البحر لتبتغوا من فضله فى طلب التجارة انه كان بكم رحيما والخطاب فى قوله ربكم وفى قوله انه كان بكم عام فى حق الكل والمراد من الرحمة منافع الدنيا ومصالحها (والنوع الثانى) قوله واذا مسكم الضر فى البحر والمراد من الضر الخوف الشديد كخوف الغرق ضل من تدعون الا اياه والمراد ان الانسان فى تلك الحالة لا يتضرع الى الصنم والشمس والقمر والملك والفلك وانما يتضرع الى الله تعالى فلما نجاكم من الغرق والبحر وأخرجكم الى البر أعرضتم عن الايمان والاخلاص وكان الانسان كفورا لنعم الله بسبب ان عند الشدة يتمسك بفضله ورحمته وعند الرخاء والراحة يعرض عنه ويتمسك بغيره (والنوع الثالث)

أوضل كل من تدعونه عن اغاثتكم وانقاذكم ولم يقدر على ذلك الا الله على الاستثناء المنقطع (فلما نجاكم) من الغرق وأوصلكم (الى البر أعرضتم) عن التوحيد أو اتسعتم فى كفران النعمة (وكان الانسان كفورا) تعليل لما سبق من الاعراض (أفأمنتم) الهمزة للانكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم فأمنتم (أن يخسف بكم جانب البر) الذى هو مأمنكم أى يقلبه ملتبسا بكم أو بسبب كونكم فيه وفى زيادة الجانب تنبيه على تساوى الجوانب والجهات بالنسبة على قدرته سبحانه وتعالى وقهره وسلطانه وقرئ بنون العظمة (أو يرسل عليكم) من فوقكم وقرئ بالنون (حاصبا) ريحا ترمى بالحصباء (ثم لا تجدوا لكم وكيلا) يحفظكم من ذلك أو يصرفه عنكم فانه لاراد لامره الغالب (أم أمنتم أن يعيدكم فيه) فى البحر أوثرت كلمة فى على كلمة الى المنبئة عن مجرد الانتهاء للدلالة على استقرارهم فيه (تارة أخرى) اسناد الاعادة اليه تعالى مع أن العود اليه باختيارهم باعتبار خلق الداعى الملجئة لهم الى ذلك وفيه ايماء الى كمال شدة * قوله * هول ما لاقوه فى التارة الاولى بحيث لولا الاعادة لما عادوا (فيرسل عليكم) وأنتم فى البحر

قوله أفأمنتم أن نخسف بكم جانب البر قال الليث الخسف والخسوف هو دخول الشيء في الشيء يقال عين خاسفة وهي التي غابت حدقتها في الرأس وعين من الماء خاسفة أي غائرة الماء وخسفت الشمس أي احتجبت وكأنها وقعت تحت حجاب أو دخلت في جحر فقوله أن نخسف بكم جانب البر أي نغيبكم في جانب البر وهو الارض وانما قال جانب البر لانه ذكر البحر في الآية الاولى فهو جانب والبر جانب فاخبر الله تعالى أنه كما قدر على أن يغيبهم في الماء فهو قادر أيضا على أن يغيبهم في الارض فالغرق تغييب تحت الماء كما ان الخسف تغييب تحت التراب وتقرير الكلام انه تعالى ذكر في الآية الاولى انهم كانوا خائفين من هول البحر فلما نجاهم منه آمنوا فقال هب أنكم نجوتم من هول البحر فكيف أمنتم من هول البر فانه تعالى قادر على ان يسلط عليكم آفات البر من جانب التحت أو من جانب الفوق أما من جانب التحت فبالخسف وأما من جانب الفوق فبامطار الحجارة عليهم وهو المراد من قوله أو نرسل عليكم حاصبا فكما لا يتضرعون الا الى الله تعالى عند ركوب البحر فكذلك يجب أن لا يتضرعوا الا اليه في كل الاحوال ومعنى الحصب في اللغة الرمي يقال حصبت أحصب حصبا اذا رميت والحصب المرمي ومنه قوله تعالى حصب جهنم أي يلقون فيها ومعنى قوله حاصبا أي عذابا يحصبهم أي يرميهم بحجارة ويقال للريح التي تحمل التراب والحصباء حاصب والسحاب الذي يرمي بالثلج والبرد يسمى حاصبا لانه يرمي بهما رميا وقال الزجاج الحاصب التراب الذي فيه حصباء والحاصب على هذا ذو الحصباء مثل اللابن والتامر وقوله ثم لا تجدوا لكم وكيلا يعني لا تجدوا ناصرا ينصركم ويصونكم من عذاب الله ثم قال أم أمنتم ان نعيدكم فيه أي في البحر تارة أخرى وقوله فنرسل عليكم قاصفا من الريح القاصف الكاسر يقال قصف الشيء يقصفه قصفا اذا كسره بشدة والقاصف من الريح التي تكسر الشجر وأراد ههنا ريحا شديدة تقصف الفلك وتغرقهم وقوله فنغرقكم بما كفرتم أي بسبب كفركم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا قال الزجاج أي لا تجدوا من يتبعنا بانكار ما نزل بكم بان يصرفه عنكم وتبيع بمعنى تابع واعلم ان هذه الآية مشتملة على ألفاظ خمسة وهي قوله أن نخسف أو نرسل أو نعيدكم فنرسل فنغرقكم قرأ ابن كثير وأبو عمرو وجميع هذه الخمسة بالنون والباقون بالياء فمن قرأ بالياء فلان ماقبله على الواحد الغائب وهو قوله الا اياه فلما نجاكم ومن قرأ بالنون فلان هذا البحر من الكلام قد ينقطع بعضه من بعض وهو سهل لان المعنى واحد ألا ترى أنه قد جاء وجعلناه هدى لبني اسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا فانتقل من الجمع الى الافراد وكذلك ههنا يجوز أن ينتقل من الغيبة الى الخطاب والمعنى واحد والكل جائز والله أعلم

* قوله تعالى (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) اعلم ان المقصود من هذه الآية ذكر نعمة أخرى جليلة رفيعة من نعم الله تعالى على الانسان وهي الاشياء التي بها فضل الانسان على غيره

وقرئ بالنون (قاصفا من الريح) وهي التي لا تمر بشيء الا كسرته وجعلته كالرميم أو التي لها قصيف وهو الصوت الشديد كأنها تتقصف أي تتكسر (فيغرقكم) بعد كسر فلككم كما ينبئ عنه عنوان القصف وقرئ بالنون وبالتاء على الاسناد الى ضمير الريح (بما كفرتم) بسبب اشراككم أو كفرانكم لنعمة الانجاء (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) أي ثائرا يطالبنا بما فعلنا انتصارا منا ودركا للثأر من جهتنا كقوله سبحانه ولا يخاف عقباها (ولقد كرمنا بني آدم) قاطبة تكريما شاملا لبرهم وفاجرهم أي كرمناهم بالصورة والقامة المعتدلة والتسلط على ما في الارض والتمتع به والتمكن من الصناعات وغير ذلك مما لا يكاد يحيط به نطاق العبارة ومن جملته ماذكره ابن عباس رضي الله عنهما من ان كل حيوان يتناول طعامه بفيه الا الانسان فانه يرفعه اليه بيده وما قيل من شركة القرد له في ذلك مبني على عدم الفرق بين اليد والرجل فانه متناول له برجله التي يطأ بها القاذورات لا بيده (وحملناهم في البر والبحر) على الدواب والسفن من حملته اذا جعلت له ما يركبه وليس من المخلوقات شيء كذلك وقيل حملناهم فيهما حيث لم نخسف بهم الارض ولم نغرقهم بالماء وأنت خبير بان

وقد ذكر الله تعالى فى هذه الآية أربعة أنواع (النوع الاول) قوله ولقد كرمنا بنى آدم واعلم ان الانسان جوهر مركب من النفس والبدن فالنفس الانسانية أشرف النفوس الموجودة فى العالم السفلى و بدنه أشرف الاجسام الموجودة فى العالم السفلى وتقرير هذه الفضيلة فى النفس الانسانية هى أن النفس الانسانية قواها الاصلية ثلاث وهى الاغتذاء والنمو والتوليد والنفس الحيوانية لها قوتان الحساسة سواء كانت ظاهرة أو باطنة والحركة بالاختيار فهذه القوى الخمسة اعنى الاغتذاء والنمو والتوليد والحس والحركة حاصلة للنفس الانسانية ثم ان النفس الانسانية مختصة بقوة اخرى وهى القوة العاقلة المدركة لحقائق الاشياء كما هى وهى التى يتجلى فيها نور معرفة الله تعالى و يشرق فيها ضوء كبريائه وهو الذى يطلع على اسرار عالمى الخلق والامر و يحيط بأقسام مخلوقات الله من الارواح والاجسام كما هى وهذه القوة من تلقيح الجواهر القدسية والارواح المجردة الالهية فهذه القوة لا نسبة لها فى الشرف والفضل الى تلك القوى الخمسة النباتية والحيوانية واذا كان الامر كذلك ظهر ان النفس الانسانية أشرف النفوس الموجودة فى هذا العالم وان أردت ان تعرف فضائل القوة العقلية ونقصانات القوى الجسمية فتأمل ما كتبناه فى هذا الكتاب فى تفسير قوله تعالى الله نور السموات والارض فانا ذكرنا هناك عشرين وجها فى بيان ان القوة العقلية أجل وأعلى من القوة الجسمية فلا فائدة فى الاعادة وأما بيان ان البدن الانسانى أشرف أجسام هذا العالم فالمفسرون انما ذكروا فى تفسير قوله تعالى ولقد كرمنا بنى آدم هذا النوع من الفضائل وذكروا أشياء (أحدها) روى ميمون بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله ولقد كرمنا بنى آدم قال كل شئ يأكل بفيه الا ابن آدم فانه يأكل بيديه وقيل ان الرشيد أحضرت عنده أطعمة فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف فقال له جاء فى التفسير عن جدك فى قوله تعالى ولقد كرمنا بنى آدم جعلنا لهم أصابع يأكلون بها فرد الملاعق وأكل بأصابعه (وثانيها) قال الضحاك بالنطق والتمييز وتحقيق الكلام ان من عرف شيئا فاما ان يعجز عن تعريف غيره كونه عارفا بذلك الشئ أو يقدر على هذا التعريف (أما القسم الاول) فهو حال جملة الحيوانات سوى الانسان فانه اذا حصل فى باطنها ألم أو لذة فانها تعجز عن تعريف غيرها تلك الاحوال تعريفا تاما وافيا (وأما القسم الثانى) فهو الانسان فانه يمكنه تعريف غيره كل ما عرفه ووقف عليه وأحاط به فكونه قادرا على هذا النوع من التعريف هو المراد بكونه ناطقا وبهذا البيان ظهر أن الانسان الاخرس داخل فى هذا الوصف لانه وان عجز عن تعريف غيره ما فى قلبه بطريق اللسان فانه يمكنه ذلك بطريق الاشارة و بطريق الكتابة وغيرهما ولا يدخل فيه الببغاء لانه وان قدر على تعريفات قليلة فلا قدرة له على تعريف جميع الاحوال على سبيل الكمال والتمام (وثالثها) قال عطاء بامتداد القامة واعلم ان هذا الكلام غير تام لان الاشجار أطول من قامة الانسان بل

الاول هو الانسب بالتكريم اذ جميع الحيوانات كذلك (ورزقناهم من الطيبات) أى فنون النعم وضروب المستلذات مما يحصل بصنعهم و بغير صنعهم (وفضلناهم) فى العلوم والادراكات بما ركبنا فيهم من القوى المدركة التى بها يميز الحق من الباطل والحسن من القبيح (على كثير ممن خلقنا) وهم من عدا الملائكة عليهم الصلاة والسلام (تفضيلا) عظيما فحق عليهم أن يشكروا هذه النعم ولا يكفروها و يستعملوا قواهم فى تحصيل العقائد الحقة و يرفضوا ما هم عليه من الشرك الذى لا يقبله أحد ممن له أدنى تمييز فضلا عن فضل على من عدا الملأ الاعلى الذين هم العقول المحضة وانما استثنى جنس الملائكة من هذا التفضيل لان علومهم دائمة عارية عن الخطا والخلل وليس فيه دلالة على أفضليتهم بالمعنى المتنازع فيه فان المراد ههنا بيان التفضيل فى أمر مشترك بين جميع أفراد البشر صالحها وطالحها ولا يمكن أن يكون ذلك هو الفضل فى عظم الدرجة وزيادة القربة عند الله سبحانه ان قيل أى حاجة الى تعيين ما فيه التفضيل بعد بيان ما هو المراد بالمفضلين فان استثناء الملائكة عليهم الصلاة والسلام من تفضيل جميع افراد البشر عليهم لا يستلزم استثناءهم من تفضيل بعض أفراده عليهم قلنا

ينبغي أن يشترط فيه شرط وهو طول القامة مع استكمال القوة العقلية والقوى الحسية والحركية (ورابعها) قال بيان بحسن الصورة والدليل عليه قوله تعالى وصوركم فأحسن صوركم لما ذكر الله تعالى خلقة الانسان قال فتبارك الله أحسن الخالقين وقال صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة وان شئت فتأمل عضوا واحدا من أعضاء الانسان وهو العين فخلق الحدقة سوداء ثم أحاط بذلك السواد بياض العين ثم أحاط بذلك البياض سواد الاشفار ثم أحاط بذلك السواد بياض الاجفان ثم خلق فوق بياض الجفن سواد الحاجبين ثم خلق فوق ذلك السواد بياض الجبهة ثم خلق فوق بياض الجبهة سواد الشعر وليكن هذا المثال الواحد أنموذجا لك في هذا الباب (وخامسها) قال بعضهم من كرامات الآدمي أن آتاه الله الخط وتحقيق الكلام في هذا الباب ان العلم الذي يقدر الانسان على استنباطه يكون قليلا أما اذا استنبط الانسان علما وأودعه في الكتاب وجاء الانسان الثاني واستعان بذلك الكتاب وضم اليه من عند نفسه أشياء أخرى ثم لا يزالون يتعاقبون ويضم كل متأخر مباحث كثيرة الى علم المتقدمين كثرت العلوم وقويت الفضائل والمعارف وانتهت المباحث العقلية والمطالب الشرعية الى أقصى الغايات وأكمل النهايات ومعلوم ان هذا الباب لا يتأتى الا بواسطة الخط والكتبة ولهذه الفضيلة الكاملة قال تعالى اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم (وسادسها) ان أجسام هذا العالم اما بسائط واما مركبات أما البسائط فهي الارض والماء والهواء والنار والانسان ينتفع بكل هذه الاربع أما الارض فهي لنا كالام الحاضنة قال تعالى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى وقد سماها الله تعالى بأسماء بالنسبة الينا وهي الفراش والمهد والمهاد وأما الماء فانتفاعنا به في الشرب والزراعة والحراثة ظاهر وأيضا سخر البحر لتأكل منه لحما طريا ونستخرج منه حلية نلبسها ونرى الفلك مواخر فيه وأما الهواء فهو مادة حياتنا ولولا هبوب الرياح لاستولى النتن على هذه المعمورة وأما النار فبها طبخ الاغذية والاشربة ونضجها وهي قائمة مقام الشمس والقمر في الليالي المظلمة وهي الدافعة لضرر البرد كما قال الشاعر

ومن يرد في الشتاء فاكهة ❊ فان نار الشتاء فاكهته

وأما المركبات فهي اما الآثار العلوية واما المعادن والنبات واما الحيوان والانسان كالمستولي على هذه الاقسام والمنتفع بها والمستسخر لكل أقسامها فهذا العالم باسره جار مجرى قرية معمورة أو خان معد وجميع منافعها ومصالحها مصروفة الى الانسان والانسان فيه كالرئيس المخدوم والملك المطاع وسائر الحيوانات بالنسبة اليه كالعبيد وكل ذلك يدل على كونه مخصوصا من عند الله بمزيد التكريم والتفضيل والله أعلم (وسابعها) ان المخلوقات تنقسم الى أربعة أقسام الى ما حصلت له القوة العقلية الحكمية ولم تحصل له القوة الشهوانية الطبيعية وهم الملائكة والى ما يكون بالعكس

لابد من تعيينه البتة اذ ليس من الافراد الفاجرة للبشر أحد يفضل على أحد من المخلوقات فيما هو المتنازع فيه أصلا بل هم أدنى من كل دنى حسبما ينبئ عنه قوله تعالى أولئك كالانعام بل هم أضل وقوله تعالى ان شر الدواب عند الله الذين كفروا (يوم ندعوا) نصب على المفعولية باضمار اذكر أو ظرف لما دل عليه قوله تعالى ولا يظلمون وقرئ بالياء على البناء للفاعل وللمفعول ويدعو بقلب الالف واوا على لغة من يقول في أفعى أفعو وقد جوز كون الواو علامة الجمع كما في قوله تعالى وأسروا النجوى أو ضميره وكل بدلا منه والنون محذوفة لقلة المبالاة بها فانها ليست الا علامة الرفع وقد يكتفى بتقديره كما في يدعى (كل اناس) من بني آدم الذين فعلنا بهم في الدنيا ما فعلنا من التكريم والتفضيل وهذا شروع في بيان تفاوت أحوالهم في الآخرة بحسب أحوالهم وأعمالهم في الدنيا (بامامهم) اي بمن ائتموا به من نبي أو مقدم في الدين أو كتاب أو دين وقيل بكتاب أعمالهم التي قدموها فيقال يا أصحاب كتاب الخير يا أصحاب كتاب الشر أو يا أهل دين كذا يا أهل كتاب كذا وقيل الامام جمع أم كخف وخفاف والحكمة في دعوتهم بأمهاتهم اجلال عيسى عليه السلام

وهم البهائم والى ماخلا عن القسمين وهو النبات والجمادات والى ماحصل النوعان فيه وهو الانسان ولاشك أن الانسان لكونه مستجمعا للقوة العقلية القدسية المحضة وللقوى الشهوانية البهيمية والغضبية والسبعية يكون أفضل من البهيمية ومن السبعية ولاشك أيضا أنه أفضل من الاجسام الخالية عن القوتين مثل النبات والمعادن والجمادات واذا ثبت ذلك ظهر ان الله تعالى فضل الانسان على أكثر أقسام المخلوقات بقي ههنا بحث في ان الملك أفضل أم البشر والمعنى ان الجوهر البسيط الموصوف بالقوة العقلية القدسية المحضة أفضل أم البشر المستجمع لهاتين القوتين وذلك بحث آخر (وثامنها) الموجود اما أن يكون أزليا وأبديا معا وهو الله سبحانه وتعالى واما أن يكون لا أزليا ولا أبديا وهو عالم الدنيا مع كل مافيه من المعادن والنبات والحيوان وهذا أخس الاقسام واما أن يكون أزليا لا أبديا وهو الممتنع الوجود لان ما ثبت قدمه امتنع عدمه واما أن لا يكون أزليا ولكنه يكون أبديا وهو الانسان والملك ولاشك ان هذا القسم أشرف من القسم الثاني والثالث وذلك يقتضي كون الانسان أشرف من أكثر مخلوقات الله تعالى (وتاسعها) العالم العلوي أشرف من العالم السفلي وروح الانسان من جنس الارواح العلوية والجواهر القدسية فليس في موجودات العالم السفلي شئ حصل فيه شئ من العالم العلوي الا الانسان فوجب كون الانسان أشرف موجودات العالم السفلي (وعاشرها) أشرف الموجودات هو الله تعالى واذا كان كذلك فكل موجود كان قربه من الله تعالى أتم وجب أن يكون أشرف لكن أقرب موجودات هذا العالم من الله هو الانسان بسبب أن قلبه مستنير بمعرفة الله تعالى ولسانه مشرف بذكر الله وجوارحه وأعضاؤه مكرمة بطاعة الله فوجب الجزم بان أشرف موجودات هذا العالم السفلي هو الانسان ولما ثبت ان الانسان موجود ممكن لذاته والممكن لذاته لا يوجد الا بايجاد الواجب لذاته ثبت ان كل ماحصل للانسان من المراتب العالية والصفات الشريفة فهي انما حصلت باحسان الله تعالى وانعامه فلهذا المعنى قال تعالى ولقد كرمنا بني آدم ومن تمام كرامته على الله تعالى انه تعالى لما خلقه في أول الامر وصف نفسه بأنه أكرم فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم ووصف نفسه بالتكريم عند تربيته للانسان فقال ولقد كرمنا بني آدم ووصف نفسه بالكرم في آخر أحوال الانسان فقال يا أيها الانسان ماغرك بربك الكريم وهذا يدل على انه لانهاية لكرم الله تعالى ولفضله واحسانه مع الانسان والله أعلم (والوجه الحادي عشر) قال بعضهم هذا التكريم معناه انه تعالى خلق آدم بيده وخلق غيره بطريق كن فيكون ومن كان مخلوقا بيد الله كانت العناية به أتم وأكمل وكان أكرم وأكمل ولما جعلنا من أولاده وجب كون بني آدم أكرم وأكمل والله أعلم (النوع الثاني) من المدائح المذكورة في هذه الآية قوله وحملناهم في البر والبحر قال ابن عباس في البر على الخيل والبغال والحمير

وتشريف الحسنين رضي الله عنهما والستر على أولاد الزنا (فمن أوتي) يومئذ من أولئك المدعوين (كتابه) صحيفة أعماله (بيمينه) ابانة لخطر الكتاب المؤتى وتشريفا لصاحبه وتبشيرا له من أول الامر بما في مطاويه (فأولئك) اشارة الى من باعتبار معناه ايذانا بأنهم حزب مجتمعون على شان جليل أو اشعارا بأن قراءتهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد كما في حال الايتاء وما فيه من الدلالة على البعد للاشعار برفعة درجاتهم أي أولئك المختصون بتلك الكرامة التي يشعر بها الايتاء المزبور (يقرؤن كتابهم) الذي أوتوه على وجه المبين تبجحا بما سطر فيه من الحسنات المستتبعة لفنون الكرامات (ولا يظلمون) أي لا ينقصون من اجور أعمالهم المرتسمة في كتبهم بل يؤتونها مضاعفة (فتيلا) أي قدر فتيل وهو القشرة التي في شق النواة أو أدنى شئ فان الفتيل مثل في القلة والحقارة (ومن كان) من المدعوين المذكورين (في هذه) الدنيا التي فعل بهم فيها مافعل من فنون التكريم والتفضيل (أعمى) فاقد البصيرة لا يهتدي الى رشده ولا يعرف ﴿ والابل ﴾ ما أوليناه من نعمة التكرمة والتفضيل فضلا عن شكرها والقيام بحقوقها ولا يستعمل

والابل وفى البحر على السفن وهذا أيضا من مؤكدات التكريم المذكور أولا لانه تعالى سخر هذه الدواب له حتى يركبها ويحمل عليها ويغزو ويقاتل ويذب عن نفسه وكذلك تسخير الله تعالى المياه والسفن وغيرها ليركبها وينقل عليها ويتكسب بها مما يختص به ابن آدم كل ذلك مما يدل على ان الانسان فى هذا العالم كالرئيس المتبوع والملك المطاع وكل ماسواه فهو رعيته وتبع له (النوع الثالث) من المدائح قوله ورزقناهم من الطيبات وذلك لان الاغذية اما حيوانية واما نباتية وكلا القسمين انما يغتذى الانسان منه بألطف انواعها واشرف اقسامها بعد التنقية التامة والطبخ الكامل والنضج البالغ وذلك مما لايحصل الا للانسان (النوع الرابع) قوله وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا وههنا بحثان (البحث الاول) انه قال فى أول الآية ولقد كرمنا بنى آدم وقال فى آخرها وفضلناهم ولابد من الفرق بين هذا التكريم والتفضيل والالزم التكرار والاقرب أن يقال انه تعالى فضل الانسان على سائر الحيوانات بأمور خلقية طبيعية ذاتية مثل العقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المديدة ثم انه تعالى عرضه بواسطة ذلك العقل والفهم لاكتساب العقائد الحقة والاخلاق الفاضلة فالاول هو التكريم والثانى هو التفضيل (البحث الثانى) انه تعالى لم يقل وفضلناهم على الكل بل قال وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا فهذا يدل على انه حصل فى مخلوقات الله تعالى شئ لايكون الانسان مفضلا عليه وكل من أثبت هذا القسم قال انه هو الملائكة فلزم القول بان الانسان ليس أفضل من الملائكة بل الملك أفضل من الانسان وهذا القول مذهب ابن عباس واختيار الزجاج على مارواه الواحدى فى البسيط واعلم ان هذا الكلام مشتمل على بحثين (أحدهما) ان الانبياء عليهم السلام افضل أم الملائكة وقد سبق ذكر هذه المسئلة بالاستقصاء فى سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم (والبحث الثانى) ان عوام الملائكة وعوام المؤمنين أيهما أفضل منهم من قال بتفضيل المؤمنين على الملائكة واحتجوا عليه بما روى عن زيد بن اسلم انه قال قالت الملائكة ربنا انك أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويتنعمون ولم تعطنا ذلك فاعطناه فى الآخرة فقال وعزتى وجلالى لااجعل ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان وقال أبو هريرة رضى الله عنه المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده هكذا اورده الواحدى فى البسيط وأما القائلون بان الملك أفضل من البشر على الاطلاق فقد عولوا على هذه الآية وهو فى الحقيقية تمسك بدليل الخطاب لان تقرير الدليل أن يقال ان تخصيص الكثير بالذكر يدل على ان الحال فى القليل بالضد وذلك تمسك بدليل الخطاب والله أعلم * قوله تعالى (يوم ندعوا كل اناس بامامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فاولئك يقرؤن كتابهم ولايظلمون فتيلا ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) اعلم انه تعالى لما ذكر أنواع كرامات الانسان فى الدنيا ذكر احوال درجاته فى الآخرة فى هذه الآية وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ يدعو

ما أودعناه فيه من العقول والقوى فيما خلقن له من العلوم والمعارف الحقة (فهو فى الآخرة) التى عبر عنها يوم ندعو (أعمى) كذلك أى لايهتدى الى ماينجيه ولا يظفر بما يجديه لان العمى الاول موجب الثانى وقد جوز كون الثانى بمعنى التفضيل على أن عماه فى الآخرة أشد من عماه فى الدنيا ولذلك قرأ أبو عمرو الاول ممالا والثانى مفخما (وأضل سبيلا) أى من الاعمى لزوال الاستعداد الممكن وتعطل الآلات بالكلية وهذا بعينه هو الذى أوتى كتابه بشماله بدلالة حال ماسبق من الفريق المقابل له ولعل العدول عن ذكره بذلك العنوان مع انه الذى يستدعيه حسن المقابلة حسبما هو الواقع فى سورة الحاقة وسورة الانشقاق للايذان بالعلة الموجبة له كما فى قوله تعالى وأما ان كان من المكذبين الضالين بعد قوله تعالى فأما ان كان من أصحاب اليمين وللرمز الى علة حال الفريق الاول وقد ذكر فى أحد الجانبين المسبب وفى الآخر السبب ودل بالمذكور فى كل منهما على المتروك فى الآخر تعويلا على شهادة العقل كما فى قوله عز وعلا وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله (وان كادوا ليفتنونك) نزلت فى ثقيف اذ قالوا للنبى صلى الله عليه

بالياء والنون ويدعى كل أناس على البناء للمفعول وقرأ الحسن يدعو كل اناس قال الفراء واهل العربية لايعرفون وجها لهذه القراءة المنقولة عن الحسن ولعله قرأ يدعى بفتحة ممزوجة بالضم فظن الراوى انه قرأ يدعو (المسألة الثانية) قوله يوم ندعو نصب باضمار اذكر ولايجوز أن يقال العامل فيه قوله وفضلناهم لانه فعل ماض ويمكن ان يجاب عنه فيقال المراد ونفضلهم بما نعطيهم من الكرامة والثواب (المسألة الثالثة) قوله بامامهم الامام فى اللغة كل من ائتم به قوم كانوا على هدى أوضلالة فالنبى امام أمته والخليفة امام رعيته والقرآن امام المسلمين وامام القوم هوالذى يقتدون به فى الصلاة وذكروا فى تفسير الامام ههنا أقوالا (الاول) امامهم نبيهم روى ذلك مرفوعا عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ويكون المعنى انه ينادى يوم القيامة ياامة ابراهيم ياأمة موسى ياأمة عيسى ياأمة محمد فيقوم اهل الحق الذين اتبعوا الانبياء فيأخذون كتبهم بايمانهم ثم ينادى يااتباع فرعون يااتباع نمروذ يااتباع فلان وفلان من رؤساء الضلال وأكابر الكفر وعلى هذا القول فالباء فى قوله بامامهم فيه وجهان (الاول) أن يكون التقدير يدعو كل اناس بامامهم تبعا وشيعة لامامهم كما تقول أدعوك باسمك (والثانى) ان يتعلق بمحذوف وذلك المحذوف فى موضع الحال كانه قيل يدعو كل اناس مختلطين بامامهم أى يدعون وامامهم فيهم نحو ركب بجنوده (والقول الثانى) وهو قول الضحاك وابن زيد بامامهم أى بكتابهم الذى انزل عليهم وعلى هذا التقدير ينادى فى القيامة ياأهل القرآن ياأهل التوراة ياأهل الانجيل (والقول الثالث) قال الحسن بكتابهم الذى فيه اعمالهم وهو قول الربيع وأبى العالية والدليل على ان هذا الكتاب يسمى اماما قوله تعالى وكل شئ احصيناه فى امام مبين فسمى الله تعالى هذا الكتاب اماما وتقدير الباء على هذا القول بمعنى مع أى ندعو كل اناس ومعهم كتابهم كقولك ادفعه اليه برمته أى ومعه رمته (القول الرابع) قال صاحب الكشاف ومن بدع التفاسير ان الامام جمع أم وان الناس يدعون يوم القيامة بامهاتهم وان الحكمة فى الدعاء بالامهات دون الآباء رعاية حق عيسى واظهار شرف الحسن والحسين وأن لايفتضح اولاد الزنا ثم قال صاحب الكشاف وليت شعرى ايهما ابدع أصحة لفظه ام بيان حكمته (والقول الخامس) اقول فى اللفظ احتمال آخر وهو ان انواع الاخلاق الفاضلة والفاسدة كثيرة والمستولى على كل انسان نوع من تلك الاخلاق فمنهم من يكون الغالب عليه الغضب ومنهم من يكون الغالب عليه شهوة النقود أوشهوة الضياع ومنهم من يكون الغالب عليه الحقد والحسد وفى جانب الاخلاق الفاضلة منهم من يكون الغالب عليه العفة اوالشجاعة اوالكرم اوطلب العلم والزهد اذا عرفت هذا فنقول الداعى الى الافعال الظاهرة من تلك الاخلاق الباطنة فذاك الخلق الباطن كالامام له والملك المطاع والرئيس المتبوع فيوم القيامة انما يظهر الثواب والعقاب بناء على الافعال الناشئة

وسلم لاندخل فى امرك حتى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب لا نحشر ولا نعشر ولا نجبي فى صلاتنا وكل ربا لنا فهولنا وكل ربا علينا فهو موضوع عنا وأن تمتعنا باللات سنة وأن تحرم وادينا وج كما حرمت مكة فاذا قالت العرب لم فعلت فقل ان الله أمرنى بذلك وقيل فى قريش حيث قالوا اجعل لنا آية عذاب آية رحمة وآية رحمة آية عذاب أوقالوا لانمكنك من استلام الحجر حتى تلم بآلهتنا فان مخففة من المشددة وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف واللام هى الفارقة بينها وبين النافية أى ان الشأن قاربوا أن يفتنوك أى يخدعوك فاتنين (عن الذى أوحينا اليك) من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا (لتفترى علينا غيره) لتتقول علينا غيرالذى أوحينا اليك مما اقترحته ثقيف اوقريش حسبما نقل (واذن لاتخذوك خليلا) أى لو اتبعت أهواءهم لكنت لهم وليا ولخرجت من ولايتى (ولولا ان ثبتناك) على ما أنت عليه من الحق بعصمتنا لك (لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا) من الركون الذى هو أدنى ميل أى لولا تثبيتنا لك لقاربت أن تميل اليهم شيئا يسيرا من الميل اليسير ﴿ من ﴾ اقوه خدعهم وشدة احتيالهم لكن أدركتك العصمة فمنعتك من أن تقرب من أدنى مراتب الركون اليهم فضلا

من تلك الاخلاق فهذا هو المراد من قوله يوم ندعو كل اناس بامامهم فهذا الاحتمال يخطر بالبال والله أعلم بمراده ثم قال تعالى فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلا قال صاحب الكشاف انما قال أولئك لان من أوتى فى معنى الجمع والفتيل القشرة التى فى شق النواة وسمى بهذا الاسم لانه اذا اراد الانسان استخراجه انفتل وهذا يضرب مثلا للشئ الحقير التافه ومثله القطمير والنقير فى ضرب المثل به والمعنى لا ينقصون من الثواب بمقدار فتيل ونظيره قوله ولا يظلمون شيئا فلا يخاف ظلما ولا هضما وروى مجاهد عن ابن عباس انه قال الفتيل هو الوسخ الذى يظهر بفتل الانسان ابهامه بسبابته وهو فعيل من الفتل بمعنى مفتول فان قيل لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم مع ان اصحاب الشمال يقرؤنه أيضا قلنا الفرق ان أصحاب الشمال اذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملا على المهلكات العظيمة والقبائح الكاملة والمخازى الشديدة فيستولى الخوف والدهشة على قلوبهم ويثقل لسانهم فيعجزوا عن القراءة وأما اصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك لاجرم انهم يقرؤن كتابهم على أحسن الوجوه وأبينها ثم لا يكتفون بقراءتهم وحدهم بل يقول القارئ لاهل المحشر هاؤم اقرؤا كتابيه فظهر الفرق والله اعلم ثم قال تعالى ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا وفيه مسئلتان (الاولى) قرأ أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ونصر عن الكسائى ومن كان فى هذه أعمى بالامالة والكسر فهو فى الآخرة أعمى بالفتح وقرأ بالفتح والتفخيم فيهما ابن كثير ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم فى رواية بالامالة فيهما قال أبو على الفارسى الوجه فى تصحيح قراءة أبى عمرو أن المراد بالاعمى فى الكلمة الاولى كونه فى نفسه أعمى وبهذا التقدير تكون هذه الكلمة تامة فتقبل الامالة واما فى الكلمة الثانية فالمراد من الاعمى افعل التفضيل فكانت بمعنى افعل من وبهذا التقدير لا تكون لفظة أعمى تامة فلم تقبل الامالة والحاصل ان ادخال الامالة فى الاولى دل على انه ليس المراد أفعل التفضيل وتركها فى الثانية يدل على المراد منها افعل التفضيل والله اعلم (المسئلة الثانية) لاشك انه ليس المراد من قوله تعالى ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى عمى البصر بل المراد منه عمى القلب أما قوله فهو فى الاخرة أعمى ففيه قولان (الاول) ان المراد منه ايضا عمى القلب وعلى هذا التقدير ففيه وجوه (الاول) قال عكرمة جاء نفر من أهل اليمن الى ابن عباس فسأله رجل عن هذه الآية فقال اقرأ ما قبلها فقرأ ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر الى قوله تفضيلا قال ابن عباس من كان أعمى فى هذه النعم التى قد رأى وعاين فهو فى امر الآخرة التى لم ير ولم يعاين اعمى واضل سبيلا وعلى هذا الوجه فقوله فى هذه اشارة الى النعم المذكورة فى الآيات المتقدمة (وثانيها) روى أبو روق عن الضحاك عن ابن عباس قال من كان فى الدنيا أعمى عما يرى من قدرتى فى خلق السموات والارض والبحار والجبال والناس والدواب فهو عن أمر الآخرة أعمى واضل سبيلا

من نفس الركون وهنا اصعب يعنى أنه عليه الصلاة والسلام ما هم باجابتهم مع قوة الداعى اليها، ودليل على أن العصمة بتوفيق الله تعالى وعنايته (اذا) لو قاربت أن تركن اليهم ادنى ركنة (لاذقناك ضعف الحيوة وضعف الممات) أى عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ضعف ما يعذب به فى الدارين بمثل هذا الفعل غيرك لان خطأ الخطير خطير وكان أصل الكلام عذابا ضعفا فى الحياة وعذابا ضعفا فى الممات بمعنى مضاعفا ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ثم أضيفت اضافة موصوفها وقيل الضعف من أسماء العذاب وقيل المراد بضعف الحياة عذاب الآخرة وبضعف الممات عذاب القبر (ثم لا تجد لك علينا نصيرا) يدفع عنك العذاب (وان كادوا) الكلام فيه كما فى الاول أى كاد أهل مكة (ليستفزونك) أى ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم (من الارض) أى الارض التى أنت فيها وهى أرض مكة (ليخرجوك منها واذا لا يلبثون) بالرفع عطفا على خبر كاد وقرئ لا يلبثوا بالنصب باعمال اذن على أن الجملة معطوفة على جملة وان كادوا ليستفزونك (خلافك) أى بعدك قال * خلت الديار خلافهم فكأنما * بسط الشواطب بينهن حصيرا * أى واوخرجت لا يبقون بعد

وابعد عن تحصيل العلم به وعلى هذا الوجه فقوله فمن كان فى هذه اشارة الى الدنيا وعلى هذين القولين فالمراد من كان فى الدنيا اعمى القلب عن معرفة هذه النعم والدلائل فبأن يكون فى الآخرة اعمى القلب عن معرفة احوال الآخرة اولى فالعمى فى المرتين حصل فى الدنيا (وثالثها) قال الحسن من كان فى الدنيا ضالا كافرا فهو فى الآخرة اعمى وأضل سبيلا لانه فى الدنيا تقبل توبته وفى الآخرة لاتقبل توبته وفى الدنيا يهتدى الى التخلص عن أبواب الآفات وفى الآخرة لايهتدى الى ذلك البتة (ورابعها) انه لايمكن حمل العمى الثانى على الجهل بالله لان اهل الآخرة يعرفون الله بالضرورة فكان المراد منه العمى عن طريق الجنة أى ومن كان فى هذه الدنيا أعمى عن معرفة الله فهو فى الآخرة أعمى عن طريق الجنة (وخامسها) ان الذين حصل لهم عمى القلب فى الدنيا انما حصلت هذه الحالة لهم لشدة حرصهم على تحصيل الدنيا وابتهاجهم بلذاتها وطيباتها فهذه الرغبة تزداد فى الآخرة وتعظم هناك حسرتهم على فوات الدنيا وليس معهم شئ من أنوار معرفة الله تعالى فيبقون فى ظلمة شديدة وحسرة عظيمة فذاك هو المراد من العمى (القول الثانى) ان يحمل العمى الثانى على عمى العين والبصر فمن كان فى هذه الدنيا اعمى القلب حشر يوم القيامة أعمى العين والبصر كما قال ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وقال ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما وهذا العمى زيادة فى عقوبتهم والله أعلم

* قوله تعالى (وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا اذا لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيرا) اعلم انه تعالى لما عدد فى الآيات المتقدمة اقسام نعمه على خلقه واتبعها بذكر درجات الخلق فى الآخرة وشرح احوال السعداء اردفه بما يجرى مجرى تحذير السعداء من الاغترار بوساوس أرباب الضلال والانخداع بكلامهم المشتمل على المكر والتلبيس فقال وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن عباس فى رواية عطاء نزلت هذه الآية فى وفد ثقيف أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه شططا وقالوا امتعنا باللات سنة وحرم وادينا كما حرمت مكة شجرها وطيرها ووحشها فابى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبهم فكرروا ذلك الالتماس وقالوا انا نحب ان تعرف العرب فضلنا عليهم فان كرهت ما نقول وخشيت ان تقول العرب أعطيتهم مالم تعطنا فقل الله أمرنى بذلك فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم وداخلهم الطمع فصاح عليهم عمر وقال أما ترون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمسك عن الكلام كراهية لما تذكرونه فأنزل الله هذه الآية وروى صاحب الكشاف أنهم جاؤا بكتابهم فكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله الى ثقيف لايعشرون ولايحشرون فقالوا ولايجبون فسكت

خروجك وقرئ خلفك (الاقليلا) الازمانا قليلا وقد كان كذلك فانهم أهلكوا ببدر بعد هجرته عليه الصلاة والسلام وقيل نزلت الآية فى اليهود حيث حسدوا مقام النبى عليه الصلاة والسلام بالمدينة فقالوا الشام مقام الانبياء عليهم السلام فان كنت نبيا فالحق بها حتى نؤمن بك فوقع ذلك فى قلبه عليه الصلاة والسلام فخرج مرحلة فنزلت فرجع ثم قتل منهم بنو قريظة وأجلى بنو النضير بقليل (سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) نصب على المصدرية أى سن الله تعالى سنة وهى أن يهلك كل أمة أخرجت رسولهم من بين أظهرهم فالسنة لله تعالى واضافتها الى الرسل لانها سنت لاجلهم على ماينطق به قوله عز وجل (ولاتجد لسنتنا تحويلا) أى تغييرا (أقم الصلاة لدلوك الشمس) لزوالها كما ينبئ عنه قوله عليه الصلاة والسلام أتانى جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت فصلى بى الظهر واشتقاقه من الدلك لان من نظر اليها حينئذ يدلك عينه وقيل لغروبها من دلكت الشمس أى غربت وقيل أصل الدلوك الميل ﴿ رسول ﴾ فينتظم كلا المعنيين واللام للتأقيت مثلها فى قولك لثلاث خلون (الى غسق الليل) الى اجتماع ظلمته وهو وقت صلاة العشاء وليس المراد اقامتها فيما بين الوقتين على وجه

ويكون لله ثم قالوا للكاتب اكتب ولا تجبون والكاتب ينظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام عمر بن الخطاب وسل سيفه وقال أسعرتم قلب نبينا يا معشر ثقيف أسعر الله قلوبكم نارا فقالوا لسنا نكلمك انما نكلم [illegible] هذه القصة انما وقعت [illegible] وروى أن قريشا قالوا له اجعل آية رحمة آية عذاب وآية عذاب آية رحمة حتى نؤمن بك فنزلت هذه الآية وقال الحسن ان الكفار أخذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة بمكة قبل الهجرة فقالوا كف يا محمد عن ذم آلهتنا وشتمها فلو كان ذلك حقا كان فلان وفلان بهذا الامر أحق منك فوقع في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكف عن شتم آلهتهم وعلى هذا القول فهي مكية وعن سعيد بن جبير أنه عليه السلام كان يستلم الحجر فتمنعه قريش ويقولون لا ندعك حتى تلم بآلهتنا فوقع في نفسه ان يفعل ذلك مع كراهية فنزلت هذه الآية (وإن كادوا ليفتنونك) قال الزجاج معنى الكلام كادوا يفتنونك ودخلت ان واللام للتوكيد وهي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية والمعنى ان الشأن قاربوا ان يفتنوك أي يخدعوك فاتنين لك وأصل الفتنة الاختبار يقال فتن الصائغ الذهب اذا ادخله النار لتظهر جودته من رديئه ثم استعملوه في كل من ازال الشيء عن حده وجهته فقالوا فتنه وقوله وان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا اليك أي [illegible] يصرفونك عن الذي أوحينا اليك يعني القرآن والمعنى عن حكمه وذلك لأن في اعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن وقوله لتفتري علينا غيره أي غير ما أوحينا اليك وهو قولهم قل الله أمرني بذلك واذا لاتخذوك خليلا أي لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك خليلا وأظهروا للناس أنك موافق لهم على كفرهم وراض بشركهم (ولولا أن ثبتناك) أي على الحق بعصمتنا إياك لقد كدت تركن اليهم أي تميل اليهم شيئا قليلا [illegible] قليلا قال ابن عباس يريد حيث سكت عن جوابهم قال قتادة لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم لا تكلني الى نفسي طرفة عين ثم توعده في ذلك أشد التوعد فقال اذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات أي ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات يعني عذاب الدنيا وعذاب الآخرة والضعف عبارة عن أن يضم الى الشيء مثله كأن الرجل اذا قال لوكيله أعط فلانا شيئا فأعطاه درهما فقال أضعفه كان المعنى ضم الى ذلك الدرهم مثله اذا عرفت هذا فنقول انما حسن اضمار العذاب في قوله ضعف الحياة وضعف الممات لما تقدم في القرآن من وصف العذاب بالضعف في قوله ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار وقال لكل ضعف ولكن لا تعلمون وحاصل الكلام أنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك وعقدت على الركون اليه همتك لاستحققت بذلك تضعيف العذاب عليك في الدنيا والآخرة ولصار عذابك مثلي عذاب المشرك في الدنيا ومثلي عذابه في الآخرة والسبب في تضعيف

[illegible] جبريل عليه السلام كما أن اعداد ركعات كل صلاة موكولة الى بيانه عليه السلام ولعل الاكتفاء ببيان المبدأ والمنتهى في أوقات الصلوات من غير فصل بينها لما أن الانسان فيما بين هذه الاوقات على اليقظة فبعضها متصل ببعض بخلاف أول وقت العشاء والفجر فانه باشتغاله فيما بينهما بالنوم ينقطع أحدهما عن الآخر ولذلك فصل وقت الفجر عن سائر الاوقات وقيل المراد بالصلاة صلاة المغرب والتحديد المذكور بيان لمبدئه ومنتهاه واستدل به على امتداد وقته الى غروب الشفق وقوله تعالى (وقرآن الفجر) أي صلاة الفجر نصب عطفا على مفعول أقم أو على الاغراء قاله الزجاج وانما سميت قرآنا لانه ركنها كما تسمى ركوعا وسجودا واستدل به على الركنية ولكن لا دلالة له على ذلك لجواز كون مدار التجوز كون القراءة مندوبة فيها نعم لو فسر بالقراءة في صلاة الفجر لدل الامر باقامته على الوجوب فيها نصا وفيما عداها دلالة ويجوز أن يكونا

هذا العذاب ان أقسام نعم الله تعالى فى حق الانبياء عليهم السلام أكثر فكانت ذنوبهم أعظم فكانت العقوبة المستحقة عليها أكثر ونظيره قوله تعالى يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين فان قيل قال عليه السلام من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة فوجب هذا الحديث انه عليه السلام لو رضى بما قالوه لكان وزره مثل وزر كل أحد من أولئك الكفار وعلى هذا التقدير يكون عقابه زائدا على الضعف قلنا اثبات الضعف لا يدل على نفى الزائد عليه الا بالبناء على دليل الخطاب وهو حجة ضعيفة ثم قال تعالى ثم لا تجد لك علينا نصيرا يعنى اذا أذقناك العذاب المضاعف لم تجد أحدا يخلصك من عذابنا وعقابنا والله أعلم (المسئلة الثالثة) احتج الطاعنون فى عصمة الانبياء عليهم السلام بهذه الآية فقالوا هذه الآية تدل على صدور الذنب العظيم عنهم من وجوه (الاول) ان الاية دلت على انه عليه السلام قرب من أن يفترى على الله والفرية على الله من أعظم الذنوب (والثانى) انها تدل على انه لولا ان الله تعالى ثبته وعصمه لقرب من أن يركن الى دينهم ويميل الى منهجهم (والثالث) انه لولا سبق جرم وجناية والا فلا حاجة الى ذكر هذا الوعيد الشديد والجواب عن الاول ان كاد معناه المقاربة فكان معنى الآية انه قرب وقوعه فى الفتنة وهذا القدر لا يدل على الوقوع فى تلك الفتنة فانا اذا قلنا كاد الامير ان يضرب فلانا لا يفهم منه انه ضربه والجواب عن الثانى ان كلمة لولا تفيد انتفاء الشئ لثبوت غيره تقول لولا على لهلك عمر معناه ان وجود على منع من حصول الهلاك لعمر فكذلك ههنا قوله ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم معناه انه حصل تثبيت الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم فكان حصول ذلك التثبيت مانعا من حصول ذلك الركون والجواب عن الثالث ان ذلك التهديد على المعصية لا يدل على الاقدام عليها والدليل عليه آيات منها قوله ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ومنها قوله لئن أشركت ليحبطن عملك ومنها قوله ولا تطع الكافرين والمنافقين والله أعلم (المسئلة الرابعة) احتج أصحابنا على صحة قولهم بانه لا عصمة عن المعاصى الا بتوفيق الله تعالى بقوله ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا قالوا انه تعالى بين انه لولا تثبيت الله تعالى له لمال الى طريقة الكفار ولا شك ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان أقوى من غيره فى قوة الدين وصفاء اليقين فلما بين الله تعالى ان بقاءه معصوما عن الكفر والضلال لم يحصل الا باعانة الله تعالى واغاثته كان حصول هذا المعنى فى حق غيره اولى قالت المعتزلة المراد بهذا التثبيت الالطاف الصارفة له عن ذلك وهى ما خطر بباله من ذكر وعده ووعيده ومن ذكر ان كونه نبيا من عند الله تعالى يمنع من ذلك والجواب لا شك ان هذا التثبيت عبارة عن فعل فعله الله يمنع الرسول من الوقوع فى ذلك العمل المحذور فنقول لو لم يوجد المقتضى للاقدام على ذلك العمل المحذور فى حق الرسول لما كان الى ايجاد هذا المانع حاجة وحيث وقعت الحاجة.

سلام ادثاء لى تطويل القراءة فى صلاة الفجر (ان قران الفجر) أظهر فى مقام الاضمار لابانة لمزيد الاهتمام به فى الودا) يشهده يل وملائكة ر أو شواهد القدرة لام تبدل الضياء بالظلمة من ا والانتباه بالنوم الذى هو أخو الموت أو يشهده كثير من المصلين أو من حقه أن يشهده الجم الغفير فالآية على تفسير الدلوك بالزوال جامعة للصلوات الخمس وعلى تفسيره بالغروب لما عدا الظهر والعصر (ومن الليل) قيل هو نصب على الاغراء أى الزم بعض الليل وقيل لا يكون المغرى به حرفا ولا يجدى نفعا كون معناها التبعيض فان واو مع ليست اسما بالاجماع وان كانت بمعنى الاسم الصريح بل هو منصوب على الظرفية بمضمر أى قم بعض الليل (فتهجد به) أى أزل وألق الهجود أى النوم فان صيغة التفعل تجئ للازالة كالتحرج والتحنث والتأثم ونظائرها والضمير المجرور للقرآن من حيث هو لا بقيد اضافته الى الفجر أو للبعض المفهوم من قوله تعالى ومن الليل

الى تحصيل هذا المانع علما ان المقتضى قد حصل فى حق الرسول صلى الله عليه وسلم وانه هذا المانع الذى فعله الله تعالى منع ذلك المقتضى من العمل وهذا لا يتم الا اذا قلنا ان القدرة مع الداعى توجب الفعل فاذا حصلت داعية أخرى معارضة للداعية الاولى اختل المؤثر فامتنع الفعل ونحن لا نريد بالاثبات هذا المعنى والله أعلم (المسئلة الخامسة) قال القفال رحمه الله قد ذكرنا فى سبب نزول هذه الآية الوجوه المذكورة ويمكن أيضا تأويلها من غير تقييد بسبب يضاف نزولها فيه لان من المعلوم ان المشركين كانوا يسعون فى ابطال أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأقصى ما يقدرون عليه فتارة كانوا يقولون ان عبدت آلهتنا عبدنا الهك فأنزل الله تعالى قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون وقوله ودوا لو تدهن فيدهنون وعرضوا عليه الاموال الكثيرة والنسوان الجميلة ليترك ادعاء النبوة فأنزل الله تعالى قوله ولا تمدن عينيك ودعوه الى طرد المؤمنين عن نفسه فأنزل الله تعالى قوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم فيجوز أن تكون هذه الآيات نزلت فى هذا الباب وذلك انهم قصدوا أن يفتنوه عن دينه وأن يزيلوه عن منهجه فبين تعالى انه يثبته على الدين القويم والمنهج المستقيم وعلى هذا الطريق فلا حاجة فى تفسير هذه الآيات الى شئ من تلك الروايات والله أعلم * قوله تعالى (وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها واذا لا يلبثون خلفك الا قليلا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا) فى هذه الآية قولان (الاول) قال قتادة هم أهل مكة هموا باخراج النبى صلى الله عليه وسلم من مكة ولو فعلوا ذلك ما أمهلوا ولكن الله منعهم من اخراجه حتى أمره الله بالخروج ثم انه قل لبثهم بعد خروج النبى صلى الله عليه وسلم من مكة حتى بعث الله عليهم القتل يوم بدر وهذا قول مجاهد (والقول الثانى) قال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر الى المدينة حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم فقالوا يا أبا القاسم ان الانبياء انما بعثوا بالشام وهى بلاد مقدسة وكانت مسكن ابراهيم فلو خرجت الى الشام آمنا بك واتبعناك وقد علمنا انه لا يمنعك من الخروج الا خوف الروم فان كنت رسول الله فالله مانعك منهم فعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أميال من المدينة فيل بذى الحليفة حتى يجتمع اليه أصحابه ويراه الناس عازما على الخروج الى الشام لحرصه على دخول الناس فى دين الله فنزلت هذه الآية فرجع فالقول الاول اختيار الزجاج وهو الوجه لان السورة مكية فان صح القول الثانى كانت الآية مدنية والارض فى قوله ليستفزونك من الارض على القول الاول مكة وعلى القول الثانى المدينة وكثر فى التنزيل ذكر الارض والمراد منها مكان مخصوص كقوله أو ينفوا من الارض يعنى من مواضعهم وقوله فلن أبرح الارض يعنى الارض التى كان قصدها لطلب الميرة فان قيل قال الله تعالى وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك يعنى مكة والمراد أهلها فذكر أنهم أخرجوه وقال فى هذه الآية وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها فكيف

أى تهجد فى ذلك البعض على أن الباء بمعنى فى وقيل منصوب بتهجدا أى تهجد بالقرآن بعض الليل على طريقة واياى فارهبون (نافلة لك) فريضة زائدة على الصلوات الخمس المفروضة خاصة بك دون الامة ولعله هو الوجه فى تأخير ذكرها عن ذكر صلاة الفجر مع تقدم وقتها على وقتها أو تطوعا لكن لا لكونها زيادة على الفرائض بل لكونها زيادة له صلى الله عليه وسلم فى الدرجات على ما قال مجاهد والسدى فانه عليه السلام مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيكون تطوعه زيادة فى درجاته بخلاف من عداه من الامة فان تطوعهم لتكفير ذنوبهم وتدارك الخلل الواقع فى فرائضهم وانتصابها اما على المصدرية بتقدير تنفل أو بجعل تهجد بمعناه أو بجعل نافلة بمعنى تهجدا فان ذلك عبادة زائدة واما على الحالية من الضمير الراجع الى القرآن أى حال كونها صلاة نافلة واما على المفعولية لتهجد اذا جعل بمعنى صل وجعل الضمير المجرور للبعض أى فصل فى ذلك البعض نافلة لك (عسى ان يبعثك ربك) الذى

الجمع بينهما على قول من قال الارض فى هذه الآية مكة قلنا انهم هموا باخراجه وهو عليه السلام ما خرج بسبب اخراجهم وانما خرج بأمر الله تعالى فزال التناقض ثم قال تعالى واذا لايلبثون خلفك الا قليلا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعن عاصم خلفك بفتح الخاء وسكون اللام والباقون خلافك زعم الاخفش ان خلافك فى معنى خلفك وروى ذلك يونس عن عيسى وهذا كقوله بمقعدهم خلاف رسول الله وقال الشاعر

عفت الديار خلافهم فكأنما ✻ بسط الشواطب بينهن حصيرا

قال صاحب الكشاف قرئ لايلبثون وفى قراءة أبى لايلبثوا على اعمال اذن فان قيل ما وجه القراءتين قلنا أما السابقة فقد عطف فيها الفعل على الفعل وهو مرفوع لوقوعه خبر كادو الفعل فى خبر كادواقع موقع الاسم وأما قراءة أبى ففيها الجملة برأسها التى هى قوله اذا لايلبثون عطف على جملة قوله وان كادوا ليستفزونك ثم قال تعالى سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا يعنى ان كل قوم أخرجوا نبيهم من ظهرانيهم فسنة الله أن يهلكهم فقوله سنة نصب على المصدر المؤكد أى سننا ذلك سنة فيمن قد أرسلنا قبلك ثم قال ولا تجد لسنتنا تحويلا والمعنى ان ما أجرى الله تعالى به العادة لم يتهيأ لاحد أن يقلب تلك العادة وتمام الكلام فى هذا الباب ان اختصاص كل حادث بوقته المعين وصفته المعينة ليس أمرا ثابتا له لذاته والالزم أن يدوم أبدا على تلك الحالة وأن لايتميز الشئ عما يماثله فى تلك الصفات بل انما يحصل ذلك الاختصاص بتخصيص المخصص وذلك التخصيص هو انه تعالى يريد تحصيله فى ذلك الوقت ثم تتعلق قدرته بتحصيله فى ذلك الوقت ثم يتعلق علمه بحصوله فى ذلك الوقت ثم نقول هذه الصفات الثلاثة التى هى المؤثرة فى حصول ذلك الاختصاص ان كانت حادثة افتقر حدوثها الى تخصيص آخر ولزم التسلسل وهو محال وان كانت قديمة فالقديم يمتنع تغيره لان ما ثبت قدمه امتنع عدمه ولما كان التغير على تلك الصفات المؤثرة فى ذلك الاختصاص ممتنعا كان التغير فى تلك الاشياء المقدرة ممتنعا فثبت بهذا البرهان صحة قوله تعالى ولا تجد لسنتنا تحويلا ✻ قوله تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا وقل رب ادخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى النظم وجوه (الاول) انه تعالى لما قرر أمر الالهيات والمعاد والنبوات أردفها بذكر الامر بالطاعات وأشرف الطاعات بعد الايمان الصلاة فلهذا السبب أمر بها (الثانى) انه تعالى لما قال وان كادوا ليستفزونك من الارض أمره تعالى بالاقبال على عبادته لكى ينصره عليهم فكأنه قيل له لاتبال بسعيهم فى اخراجك من بلدتك ولا تلتفت اليهم واشتغل بعبادة الله تعالى وداوم على أداء الصلوات فانه تعالى يدفع مكرهم

يبلغك الى كمالك اللائق بك من بعد الموت الاكبر كما تبعث من النوم الذى هو الموت الاصغر بالصلاة والعبادة (مقاما) نصب على الظرفية على اضمار فيقيمك أو تضمين البعث معنى الاقامة اذ لابد من أن يكون العامل فى مثل هذا الظرف فعلا فيه معنى الاستقرار ويجوز أن يكون حالا بتقدير مضاف أى يبعثك ذا مقام (محمودا) عندك وعند جميع الناس وفيه تهوين لمشقة قيام الليل وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المقام المحمود هو المقام الذى أشفع فيه لامتى وعن ابن عباس رضى الله عنهما مقاما يحمدك فيه الاولون والآخرون وتشرف فيه على جميع الخلائق تسأل فتعطى وتشفع فتشفع ليس أحد الا تحت لوائك وعن حذيفة رضى الله عنه يجمع الناس فى صعيد واحد فلا تتكلم فيه نفس فأول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول لبيك وسعديك والشر ليس اليك والمهدى من هديت وعبدك بين يديك وبك واليك لاملجأ ولامنجا

وشرهم عنك ويجعل يدك فوق أيديهم ودينك غالبا على أديانهم ونظيره قوله فى سورة طه فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى وقال ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين (والوجه الثالث) فى تقرير النظم ان اليهود لما قالوا له اذهب الى الشام فانه مسكن الانبياء عزم صلى الله عليه وسلم على الذهاب اليه فكأنه قيل له المعبود واحد فى كل البلاد وما النصرة والدولة الا بتأييده ونصرته فداوم على الصلوات وارجع الى مقرك ومسكنك واذا دخلته ورجعت اليه فقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لى فى هذا البلد سلطانا نصيرا فى تقرير دينك واظهار شرعك والله أعلم (المسئلة الثانية) اختلف أهل اللغة والمفسرون فى معنى دلوك الشمس على قولين (أحدهما) ان دلوكها غروبها وهذا القول مروى عن جماعة من الصحابة فنقل الواحدى فى البسيط عن على رضى الله عنه انه قال دلوك الشمس غروبها وروى زر بن حبيش ان عبد الله بن مسعود قال دلوك الشمس غروبها وروى سعيد بن جبير هذا القول عن ابن عباس وهذا القول اختيار الفراء وابن قتيبة من المتأخرين (والقول الثانى) ان دلوك الشمس هو زوالها عن كبد السماء وهو اختيار الاكثرين من الصحابة والتابعين واحتج القائلون بهذا القول على صحته بوجوه (الحجة الاولى) روى الواحدى فى البسيط عن جابر انه قال طعم عندى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثم خرجوا حين زالت الشمس فقال النبى صلى الله عليه وسلم هذا حين دلكت الشمس (الحجة الثانية) روى صاحب الكشاف عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال أتانى جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت الشمس فصلى بى الظهر (الحجة الثالثة) قال أهل اللغة معنى الدلوك فى كلام العرب الزوال ولذلك قيل للشمس اذا زالت نصف النهار دالكة وقيل لها اذا أفلت دالكة لانها فى الحالتين زائلة هكذا قاله الازهرى وقال القفال أصل الدلوك الميل يقال مالت الشمس للزوال ويقال مالت للغروب اذا عرفت هذا فنقول وجب أن يكون المراد من الدلوك ههنا الزوال عن كبد السماء وذلك لانه تعالى علق اقامة الصلاة بالدلوك والدلوك عبارة عن الميل والزوال فوجب أن يقال انه أول ما حصل الميل والزوال تعلق به هذا الحكم فلما حصل هذا المعنى حال ميلها من كبد السماء وجب أن يتعلق به وجوب الصلاة وذلك يدل على ان المراد من الدلوك فى هذه الآية ميلها عن كبد السماء وهذه حجة قوية فى هذا الباب استنبطتها بناء على ما اتفق عليه أهل اللغة ان الدلوك عبارة عن الميل والزوال والله أعلم (الحجة الرابعة) قال الازهرى الاولى حمل الدلوك على الزوال فى نصف النهار والمعنى أقم الصلاة أى أدمها من وقت زوال الشمس الى غسق الليل وعلى هذا التقدير فيدخل فيه الظهر والعصر والمغرب والعشاء ثم قال وقرآن الفجر فاذا حملنا الدلوك على الزوال

منك الا اليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت (وقل رب أدخلني) أى القبر (مدخل صدق) أى ادخالا مرضيا (وأخرجنى) أى منه عند البعث (مخرج صدق) أى اخراجا مرضيا ملقى بالكرامة فهو تلقين للدعاء بما وعده من البعث المقرون بالاقامة المعهودة التى لا كرامة فوقها وقيل المراد ادخال المدينة والاخراج من مكة وتغيير ترتيب الوجود لكون الادخال هو المقصود وقيل ادخاله عليه السلام مكة ظاهرا عليها واخراجه منها آمنا من المشركين وقيل ادخاله الغار واخراجه منه سالما وقيل ادخاله فيما حمله من أعباء الرسالة واخراجه منه مؤديا حقه وقيل ادخاله فى كل ما يلابسه من مكان أو أمر واخراجه منه وقرئ مدخل ومخرج بالفتح على معنى ادخلنى فأدخل دخولا وأخرجنى فأخرج خروجا كقوله * وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع * من المال الا مسحت أو مجلف * أى لم تدع فلم يبق (واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا) حجة تنصرنى على من يخالفنى أو ملكا وعزا

دخلت الصلوات الخمس فى هذه الآية وان حملناه على الغروب لم يدخل فيه الاثلاث صلوات وهى المغرب والعشاء والفجر وحمل كلام الله تعالى على مايكون أكثر فائدة أولى فوجب أن يكون المراد من الدلوك الزوال واحتج الفراء على قوله الدلوك هو الغروب بقول الشاعر

هذا مقام قدمى رباح * وقفت حتى دلكت براح

وبراح اسم الشمس أى حتى غابت واحتج ابن قتيبة بقول ذى الرمة

مصابيح ليست باللواتى يقودها * نجوم ولا افلا كهن الدوالك

واعلم ان هذا الاستدلال ضعيف لان عندنا الدلوك عبارة عن الميل والتغير وهذا المعنى حاصل فى الغروب فكان الغروب نوعا من أنواع الدلوك فكان وقوع لفظ الدلوك على الغروب لا ينافى وقوعه على الزوال كما ان وقوع لفظ الحيوان على الانسان لا ينافى وقوعه على الفرس ومنهم من احتج أيضا على صحة هذا القول بأن الدلوك اشتقاقه من الدلك لان الانسان يدلك عينيه عند النظر اليها وهذا انما يصح فى الوقت الذى يمكن النظر اليها ومعلوم انها عند كونها فى وسط السماء لا يمكن النظر اليها أما عند قربها من الغروب يمكن النظر اليها عندما ينظر الانسان اليها فى ذلك الوقت يدلك عينيه فثبت ان لفظ الدلوك مختص بالغروب والجواب ان الحاجة الى ذلك التبيين عند كونها فى وسط السماء أتم فهذا الذى ذكرته بأن يدل على ان الدلوك عبارة عن الزوال من وسط السماء أولى والله أعلم (المسئلة الثالثة) قال الواحدى اللام فى قوله لدلوك الشمس لام الاجل والسبب وذلك لان الصلاة انما تجب بزوال الشمس فيجب على المصلى اقامتها الاجل دلوك الشمس (المسئلة الرابعة) قوله الى غسق الليل غسق الليل سواده وظلمته قال الكسائى غسق الليل غسوقا والغسق الاسم بفتح السين وقال النضر بن شميل غسق الليل دخول أوله وأتيته حين غسق الليل أى حين يختلط و يسد المناظر وأصل هذا الحرف من السيلان يقال غسقت العين تغسق وهو هملان العين بالماء والغاسق السائل ومن هذا يقال لما يسيل من أهل النار الغساق فمعنى غسق الليل أى انصب بظلامه وذلك ان الظلمة كأنها تنصب على العالم وأما قول المفسرين قال ابن جريج قلت لعطاء ما غسق الليل قال أوله حين يدخل وسأل نافع بن الازرق ابن عباس ما الغسق قال دخول الليل بظلمته وقال الازهرى غسق الليل عند غيبوبة الشفق عند تراكم الظلمة واشتدادها يقال غسقت العين اذا امتلأت دمعا وغسقت الجراحة اذا امتلأت دما قال لانا لو حملنا الغسق على هذا المعنى دخلت الصلوات الاربع فيه وهى الظهر والعصر والمغرب والعشاء ولو حملنا الغسق على ظهور أول الظلمة لم يدخل فيه الا الظهر والعصر والمغرب فوجب أن يكون الاول أولى واعلم انه يتفرع على هذين القولين بحث شريف فان فسرنا الغسق بظهور أول الظلمة كان الغسق عبارة عن أول المغرب وعلى هذا التقدير يكون المذكور فى الآية ثلاثة أوقات وقت

ناصر اللاسلام مظهر اله على الكفر فأجيبت دعوته عليه السلام بقوله عز وعلا والله يعصمك من الناس الان حزب الله هم الغالبون ليظهره على الدين كله ليستخلفنهم فى الارض (وقل جاء الحق) أى الاسلام والوحى الثابت الراسخ (وزهق الباطل) أى ذهب وهلك الشرك والكفر وتسويلات الشيطان من زهق روحه اذا خرج (ان الباطل) كائنا ما كان (كان زهوقا) أى شأنه أن يكون مضمحلا غير ثابت وهو عدة كريمة باجابة الدعاء بالسلطان النصير الذى لقنه عن ابن مسعود رضى الله عنه انه عليه السلام دخل مكة يوم الفتح وحول البيت ثلثمائة وستون صنما فجعل ينكت بمخصرة كانت بيده فى عين واحد واحد و يقول جاء الحق وزهق الباطل فينكب لوجهه حتى ألقى جميعها وبقى صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من صفر فقال يا على ارم به فصعد فرمى به فكسره (وننزل من القرآن) وقرئ ننزل من الانزال (ماهو

الزوال و وقت أول المغرب و وقت الفجر وهذا يقتضى أن يكون الزوال وقتا للظهر والعصر فيكون هذا الوقت مشتركا بين هاتين الصلاتين وأن يكون أول المغرب وقتا للمغرب والعشاء فيكون هذا الوقت مشتركا أيضا بين هاتين الصلاتين فهذا يقتضى جواز الجمع بين الظهر والعصر و بين المغرب والعشاء مطلقا الا أنه دل الدليل على ان الجمع فى الحضر من غير عذر لا يجوز فوجب أن يكون الجمع جائزا بعذر السفر وعذر المطر وغيره أما ان فسرنا الغسق بالظلمة المتراكمة فنقول الظلمة المتراكمة انما تحصل عند غيبوبة الشفق الابيض وكلمة الى لانتهاء الغاية والحكم الممدود الى غاية يكون مشروعا قبل حصول تلك الغاية فوجب جواز اقامة الصلوات كلها قبل غيبوبة الشفق الابيض وهذا انما يصح اذا قلنا انها تجب عند غيبوبة الشفق الاحمر والله أعلم (المسئلة الخامسة) قوله وقرآن الفجر أجمعوا على ان المراد منه صلاة الصبح وانتصابه بالعطف على الصلاة فى قوله أقم الصلاة والتقدير أقم الصلاة وأقم قرآن الفجر وفيه فوائد (الاولى) ان هذه الآية تدل على ان الصلاة لا تتم الا بالقراءة (الفائدة الثانية) انه تعالى أضاف القرآن الى الفجر والتقدير أقم قرآن الفجر فوجب أن تتعلق القراءة بحصول الفجر وفى أول طلوع الصبح قد حصل الفجر لان الفجر سمى فجرا لانفجار ظلمة الليل عن نور الصباح وظاهر الامر للوجوب فمقتضى هذا اللفظ وجوب اقامة صلاة الفجر من أول طلوعه الا انا أجمعنا على ان هذا الوجوب غير حاصل فوجب ان يبقى الندب لان الوجوب عبارة عن رجحان مانع من الترك فاذا منع مانع من تحقق الوجوب وجب أن يرتفع المنع من الترك وان يبقى أصل الرجحان حتى تنقل مخالفة الدليل فثبت أن هذه الآية تقتضى ان اقامة الفجر فى أول الوقت أفضل وهذا يدل على صحة مذهب الشافعى فى ان التغليس أفضل من التنوير والله أعلم (الفائدة الثالثة) ان الفقهاء بينوا ان السنة أن تكون القراءة فى هذه الصلاة أطول من القراءة فى سائر الصلوات فالمقصود من قوله وقرآن الفجر الحث على ان تطويل القراءة فى هذه الصلاة مطلوب لان التخصيص بالذكر يدل على كونه أكمل من غيره (الفائدة الرابعة) انه وصف قرآن الفجر بكونه مشهودا قال الجمهور معناه ان ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون فى صلاة الصبح خلف الامام تنزل ملائكة النهار عليهم وهم فى صلاة الغداة وقبل ان تعرج ملائكة الليل فاذا فرغ الامام من صلاته عرجت ملائكة الليل فمكثت ملائكة النهار ثم ان ملائكة الليل اذا صعدت قالت يارب انا تركنا عبادك يصلون لك وتقول ملائكة النهار ربنا أتينا عبادك وهم يصلون فيقول الله تعالى للملائكة اشهدوا انى قد غفرت لهم وأقول هذا أيضا دليل قوى فى ان التغليس أفضل من التنوير لان الانسان اذا شرع فيها من أول الصبح ففى ذلك الوقت الظلمة باقية فتكون ملائكة الليل حاضرين ثم اذا امتدت الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت ملائكة النهار فبهذا الطريق تحضر فى هذه الصلاة ملائكة الليل وملائكة النهار أما اذا ابتدأ بهذه

شفاء) لما فى الصدور من أدواء الريب واسقام الاوهام (ورحمة للمؤمنين) به العاملين بما فى تضاعيفه أى ما هو فى تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافى للمرضى ومن بيانية قدمت على المبين اعتناء فان كل القرآن كذلك وعن النبى عليه السلام من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله أو تبعيضية لكن لا بمعنى أن بعضه ليس كذلك بل بمعنى انا ننزل منه فى كل نوبة ما تستدعى الحكمة نزوله حينئذ فيقع ذلك ممن نزل عليهم بسبب موافقته لاحوالهم الداعية الى نزوله موقع الدواء الشافى المصادف لا بأنه من المرضى المحتاجين اليه بحسب الحال من غير تقديم ولا تأخير فكل بعض منه متصف بالشفاء لكن لا فى كل حين بل عند تنزيله وتحقيق التبعيض باعتبار الشفاء الجسمانى كما فى الفاتحة وآيات الشفاء لا يساعده قوله سبحانه (ولا يزيد الظالمين الا خسارا) أى لا يزيد القرآن كله أو كل بعض منه الكافرين

الصلاة في وقت التنوير فهناك مابقيت الظلمة فلم يبق في ذلك الوقت أحد من خلائكة الليل فلا يحصل المعنى المذكور فثبت ان قوله تعالى انه كان مشهودا دليل قوي على ان التغليس أفضل وعندي في تفسير قوله تعالى انه كان مشهودا احتمال آخر وذلك لانه كلما كانت الحوادث الحادثة أعظم وأكمل كان الاستدلال بها على كمال قدرة الله تعالى أكمل فالانسان اذا شرع في أداء صلاة الصبح من أول هذا الوقت كانت الظلمة القوية باقية في العالم فاذا امتد في القراءة ففي أثناء هذا الوقت ينقلب العالم من الظلمة الى الضوء والظلمة مناسبة للموت والعدم والضوء مناسب للحياة والوجود وعلى هذا التقدير فالانسان لما قام من منامه فكأنه انتقل من الموت الى الحياة ومن العدم الى الوجود ثم انه مع ذلك يشاهد في أثناء صلاته انقلاب كلية هذا العالم من الظلمة الى الضوء ومن الموت الى الحياة ومن السكون الى الحركة ومن العدم الى الوجود وهذه الحالة عجيبة تشهد العقول والارواح بأنه لا يقدر على هذا التقليب والتحويل والتبديل الا الخالق المدبر بالحكم البالغة والقوة الغير المتناهية وحينئذ يستنير العقل بنور هذه المعرفة وينفتح على ال والروح أبواب المكاشفات الروحانية الالهية فتصير الصلاة التي هي عبارة عن أ الجوارح مشهودا عليها بهذه المكاشفات الالهية المقدسة ولذلك فكل من له ذوق سلي وطبع مستقيم اذا قام من منامه وأدى صلاة الصبح في أول الوقت واعتبر اختلاف أحوال العالم من الظلمة الحاصلة الى النور ومن السكون الى الحركة فانه يجد في قلبه روحا وراحة ومزيدا في نور المعرفة وقوة اليقين فهذا هو المراد من قوله ان قرآن الفجر كان مشهودا وظهر ان هذا الاعتبار لا يحصل الا عند أداء صلاة الفجر على سبيل التغليس فهذا ماخطر بالبال والله أعلم بمراده وفي الآية احتمال ثالث وهو أن يكون المراد من قوله ان قرآن الفجر كان مشهودا الترغيب في أن تؤدى هذه الصلاة بالجماعة ويكون المعنى كونها مشهودا بالجماعة الكثيرة ومزيد التحقيق فيه أنا بينا ان تأثير هذه الصلاة في تصفية القلب وفي تنويره أكثر من تأثير سائر الصلوات فاذا حضر جم من المسلمين في المسجد لاداء هذه العبادة استنار قلب كل واحد منهم ثم بسبب ذلك الاجتماع كأنه ينعكس نور معرفة الله تعالى ونور طاعته في ذلك الوقت من قلب كل واحد الى قلب الآخر فتصير أرواحهم كالمرايا المشرقة المتقابلة اذا وقعت عليها أنوار الشمس فانه ينعكس النور من كل واحدة من تلك المرايا الى الاخرى فكذا في هذه الصورة ولهذا السبب فان كل من له ذوق سليم وأدى هذه الصلاة في هذا الوقت بالجماعة وجد من قلبه فسحة ونورا وراحة

(الفائدة الخامسة) قوله وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا يحتمل أن يكون السبب في كونه مشهودا هو ان الانسان لما نام طول الليل فصار كالغافل في هذه المدة عن مراقبة أحوال الدنيا فزالت صورة الحوادث الجسمانية عن لوح خياله وفكره وعقله وصارت هذه الالواح كألواح سطرت فيها نقوش فاسدة ثم غسلت وأزيلت تلك النقوش عنها ففي أول

لمكذبين الواضعين للاشياء في غير مواضعها مع كونه في نفسه شفاء من الاسقام الا خسارا أي هلاكا بكفرهم وتكذيبهم لا نقصانا كما قيل فان ما بهم من داء الكفر والضلال حقيق بان يعبر عنه بالهلاك لا بالنقصان المنبئ عن حصول بعض مبادي الاسقام فيهم وزيادتهم في مراتب الهلاك من حيث انهم كلما جددوا الكفر والتكذيب بالآيات النازلة تدريجا ازدادوا بذلك هلاكا وفيه ايماء الى أن ما بالمؤمنين من الشبه والشكوك المعترية لهم في أثناء الاهتداء والاسترشاد بمنزلة الامراض وما بالكفرة من الجهل والعناد بمنزلة الموت والهلاك واسناد الزيادة المذكورة الى القرآن مع انهم هم المزدادون في ذلك بسوء صنعهم باعتبار كونه سببا لذلك وفيه تعجيب من أمره حيث يكون مدارا للشفاء والهلاك (واذا أنعمنا على الانسان) بالصحة والنعمة (أعرض) عن ذكرنا فضلا عن القيام بموجب الشكر

وقت القيام من المنام صارت ألواح عقله وفكره وخياله مطهرة عن النقوش الفاسدة الباطلة فاذا شرع الانسان فى ذلك الوقت الى عبادة الله تعالى وقراءة الكلمات الدالة على تنزيهه والاقدام على الافعال الدالة على تعظيم الله تعالى انتقش فى لوح عقله وفكره وخياله هذه النقوش الطاهرة المقدسة ثم ان حصول هذه النقوش يمنع من استحكام النقوش الفاسدة وهى النقوش المتولدة من الميل الى الدنيا وشهواتها فبهذا الطريق يترسخ الميل الى معرفة الله تعالى ومحبته وطاعته ويضعف الميل الى الدنيا وشهواتها اذا عرفت هذا فنقول هذه الحكمة انما تحصل اذا شرع الانسان فى الصلاة من أول قيامه من النوم عند التغليس وذلك يدل على المقصود واعلم ان أكثر الخلق وقعوا فى أمراض القلوب وهى حب الدنيا والحرص والحسد والتفاخر والتكاثر وهذه الدنيا مثل دار المرضى اذا كانت مملوءة من المرضى والانبياء كالاطباء الحاذقين والمريض ربما قد قوى مرضه فلا يعود الى الصحة الا بمعالجات قوية وربما كان المريض جاهلا فلا ينقاد للطبيب ويخالفه فى أكثر الامر الا أن الطبيب اذا كان مشفقا حاذقا فانه يسعى فى ازالة ذلك المرض بكل طريق يقدر عليه فان لم يقدر على ازالته فانه يسعى فى تقليله وتخفيفه اذا عرفت هذا فنقول مرض حب الدنيا مستول على الخلق ولا علاج له الا بدعوة الى معرفة الله تعالى وخدمته وطاعته وهذا علاج شاق على النفوس وقل من يقبله وينقاد له لا جرم الانبياء اجتهدوا فى تقليل هذا المرض وحمل الخلق على الشروع فى الطاعة والعبودية من أول وقت القيام من النوم مما ينفع فى ازالة هذا المرض من الوجه الذى قررناه فوجب أن يكون مشروعا والله أعلم باسرار كلامه أما قوله تعالى ومن الليل فتهجد به نافلة لك فاعلم انه تعالى لما أمر بالصلوات الخمس على سبيل الرمز والاشارة أردفه بالحث على صلاة الليل وفيه مباحث (الاول) التهجد عبارة عن صلاة الليل فقوله فتهجد به أى بالقرآن كما قال قم الليل الا قليلا الى قوله ورتل القرآن ترتيلا (البحث الثانى) قال الواحدى الهجود فى اللغة النوم وهو معروف كثير فى الشعر يقال أهجدته وهجدته أى أنمته ومنه قول لبيد

هجدنا فقد طال السرى

كأنه قال نومنا فان السرى قد طال علينا حتى غلبنا النوم وروى أبو عبيد عن أبى عبيدة الهاجد النائم والهاجد المصلى بالليل وروى ثعلب عن ابن الاعرابى مثل هذا القول كأنه قال هجد الرجل اذا صلى من الليل وهجد اذا نام بالليل فعند هؤلاء هذا اللفظ من الاضداد وأما الازهرى فانه توسط فى تفسير هذا اللفظ وقال المعروف فى كلام العرب ان الهاجد هو النائم ثم رأينا أن فى الشرع يقال لمن قام من النوم الى الصلاة انه متهجد فوجب ان يحمل هذا على انه سمى متهجدا لالقائه الهجود عن نفسه كما قيل للعابد متحنث لالقائه الحنث عن نفسه وهو الاثم ويقال فلان رجل متحرج ومتأثم ومتحوب أى يلقى الحرج والاثم والحوب عن نفسه وأقول فيه احتمال آخر وهو ان الانسان انما يترك لذة النوم ويتحمل مشقة القيام الى الصلاة يطيب رقاده وهجوده

(ونأى) تباعد عن طاعتنا (بجانبه) النأى بالجانب أن يلوى عن الشئ عطفه ويوليه عرض وجهه فهو تأكيد للاعراض أو عبارة عن الاستكبار لانه من ديدن المستكبرين (واذا مسه الشر) من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل وفى اسناد المساس الى الشر بعد اسناد الانعام الى ضمير الجلالة ايذان بان الخير مراد بالذات والشر ليس كذلك (كان يؤسا) شديد اليأس من روحنا وهذا وصف للجنس باعتبار بعض أفراده ممن هو على هذه الصفة ولا ينافيه قوله تعالى واذا مسه الشر فذو دعاء عريض ونحوه فان ذلك شأن بعض آخرين منهم وقيل أريد به الوليد بن المغيرة وقرئ ناء على القلب كما يقال راء فى رأى وناء على انه بمعنى نهض (قل كل) أى كل أحد منكم وممن هو على خلافكم (يعمل) على شاكلته

عندالموت فلماكان غرضه من ترك هذا الهجود ان يصل الى الهجود اللذيذ عند الموت كان هذا القيام طلبا للذلك الهجود فسمى تهجدا لهذا السبب (وفيه وجه ثالث) وهو ماروى ان الحجاج بن عمرو المازنى قال أيحسب أحدكم اذا قام من الليل فصلى حتى يصبح انه قد تهجد انما التهجد الصلاة بعد الرقاد ثم صلاة أخرى بعد رقدة ثم صلاة أخرى بعد رقدة هكذا كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا عرفت هذا فنقول كلما صلى الانسان طلب هجودا ورقادا فلا يبعد أنه سمى تهجدا لهذا السبب (البحث الثالث) قوله من فى قوله ومن الليل لا بد له من متعلق والفاء فى قوله فتهجد لا بد له من معطوف عليه والتقدير قم من الليل أى فى بعض الليل فتهجد به وقوله به أى بالقرآن والمراد منه الصلاة المشتملة على القرآن (البحث الرابع) معنى النافلة فى اللغة ماكان زيادة على الاصل ذكرناه فى قوله تعالى يسئلونك عن الانفال ومعناها أيضا فى هذه الآية الزيادة وفى تفسير كونها زيادة قولان مبنيان على ان صلاة الليل هل كانت واجبة على النبى صلى الله عليه وسلم أم لا فن الناس من قال انها كانت واجبة عليه ثم نسخت فصارت نافلة أى تطوعا وزيادة على الفرائض وذكر مجاهد والسدى فى تفسير كونها نافلة وجها حسنا قالا انه تعالى غفر للنبى صلى الله عليه وسلم ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكل طاعة يأتى بها سوى المكتوبة فانه لا يكون تأثيرها فى كفارة الذنوب البتة بل يكون تأثيرها فى زيادة الدرجات وكثرة الثواب وكان المقصود من تلك العبادة زيادة الثواب فلهذا سميت نافلة بخلا[illegible]مة فان لهم ذنوبا محتاجة الى الكفارات فهذه الطاعة محتاجون اليها لتكفير الذنوب والسيآت فثبت أن هذه الطاعات انما تكون زوائد ونوافل فى حق النبى صلى الله عليه وسلم لا فى حق غيره فلهذا السبب قال نافلة لك يعنى انها زوائد ونوافل فى حقك لا فى حق غيرك وتقريره ماذكرناه وأما الذين قالوا ان صلاة الليل كانت واجبة على النبى صلى الله عليه وسلم قالوا معنى كونها نافلة له على التخصيص أنها فريضة عليك زائدة على الصلوات الخمس خصصت بها من بين أمتك ويمكن نصرة هذا القول بأن قوله فتهجد أمر وصيغة الامر للوجوب فوجب كون هذا التهجد واجبا فلو حملنا قوله نافلة لك على عدم الوجوب لزم التعارض وهو خلاف الاصل فوجب أن يكون معنى كونها نافلة له ماذكرناه من كون وجوبها زائدا على وجوب الصلوات الخمس والله أعلم (البحث الخامس) قوله اقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر وان كان ظاهر الامر فيه مختصا بالرسول صلى الله عليه وسلم الا أنه فى المعنى عام فى حق الامة والدليل عليه انه قال ومن الليل فتهجد به نافلة لك فبين ان الامر بالتهجد مخصوص بالرسول وهذا يدل على ان الامر بالصلوات الخمس غير مخصوص بالرسول عليه السلام والا لم يكن لتقييد الامر بالتهجد بهذا القيد فائدة أصلا والله أعلم ثم قال تعالى عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا اتفق المفسرون على ان كلمة عسى من الله واجب قال أهل المعانى لان لفظة عسى تفيد

شاكلته) طريقته التى تشاكل حاله فى الهدى والضلالة أو جوهر روحه وأحواله التابعة لمزاج بدنه (فربكم) الذى برأكم على هذه الطبائع المتخالفة (أعلم بمن هو أهدى سبيلا) أى أسد طريقا وأبين منهاجا وقد فسرت الشاكلة بالطبيعة والعادة والدين (ويسألونك عن الروح) الظاهر ان السؤال كان عن حقيقة الروح الذى هو مدبر البدن الانسانى ومبدأ حياته روى أن اليهود قالوا لقريش سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح فان أجاب عنها جميعا أو سكت فليس بنبى وان أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبى فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم فى التوراة (قل الروح) اظهر فى مقام الاضمار اظهارا لكمال الاعتناء بشأنه (من أمر ربى) كلمة من بيانية والامر بمعنى الشان والاضافة للاختصاص

العلى

الاطماع ومن أطمع انسانا فى شئ ثم حرمه كان عارا والله تعالى أكرم من أن يطمع أحدا فى شئ ثم لا يعطيه ذلك وقوله مقاما محمودا فيه بحثان (البحث الاول) فى انتصاب قوله محمودا وجهان (الاول) أن يكون انتصابه على الحال من قوله يبعثك أى يبعثك محمودا (والثانى) أن يكون نعتا للمقام وهو ظاهر (البحث الثانى) فى تفسير المقام المحمود أقوال (الاول) انه الشفاعة قال الواحدى أجمع المفسرون على انه مقام الشفاعة كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية هو المقام الذى أشفع فيه لامتى وأقول اللفظ مشعر به وذلك لان الانسان انما يصير محمودا اذا حمده حامد والحمد انما يكون على الانعام فهذا المقام المحمود يجب أن يكون مقاما أنعم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه على قوم فحمدوه على ذلك الانعام وذلك الانعام لا يجوز أن يكون هو تبليغ الدين وتعليم الشرع لان ذلك كان حاصلا فى الحال وقوله عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا تطميع وتطميع الانسان فى الشئ الذى حصل له وعنده فى الحال محال فوجب أن يكون ذلك الانعام الذى لاجله يصير محمودا انما سيصل منه بعد ذلك الى الناس وما ذاك الا شفاعته عند الله فدل هذا على ان لفظ الآية وهو قوله عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا يدل على هذا المعنى وأيضا التنكير فى قوله مقاما محمودا يدل على انه يحصل للنبى عليه السلام فى ذلك المقام حمد بالغ عظيم كامل ومن المعلوم ان حمد الانسان على سعيه فى التخليص عن العقاب أعظم من حمده فى السعى فى زيادة من الثواب لا حاجة به اليها لان احتياج الانسان الى دفع الآلام العظيمة عن النفس فوق احتياجه الى تحصيل المنافع الزائدة التى لا حاجة به الى تحصيلها واذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من قوله عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا هو الشفاعة فى اسقاط العقاب على ما هو مذهب أهل السنة ولما ثبت ان لفظ الآية مشعر بهذا المعنى اشعارا قويا ثم وردت الاخبار الصحيحة فى تقرير هذا المعنى وجب حمل اللفظ عليه ومما يؤكد هذا الوجه الدعاء المشهور وابعثه المقام المحمود الذى وعدته يغبطه به الاولون والآخرون واتفق الناس على ان المراد منه الشفاعة (والقول الثانى) قال حذيفة يجمع الناس فى صعيد فلا تتكلم نفس فأول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول لبيك وسعديك والشر ليس اليك والمهدى من هديت وعبدك بين يديك وبك واليك لا ملجأ ولا منجا منك الا اليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت فهذا هو المراد من قوله عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا وأقول القول الاول أولى لان سعيه فى الشفاعة يفيده اقدام الناس على حمده فيصير محمودا وأما ذكر هذا الدعاء فلا يفيد الا الثواب أما الحمد فلا فان قالوا لم لا يجوز أن يقال انه تعالى يحمده على هذا القول قلنا لان الحمد فى اللغة مختص بالثناء المذكور فى مقابلة الانعام فقط فان ورد لفظ الحمد فى غير هذا المعنى فعلى سبيل المجاز (القول الثالث) المراد مقام تحمد عاقبته وهذا أيضا ضعيف للوجه الذى ذكرناه فى القول الثانى (القول الرابع) قال الواحدى روى عن ابن مسعود انه

لا الايجادى لاشتراك الكل فيه وفيهما من تشريف المضاف ما لا يخفى كما فى الاضافة الثانية من تشريف المضاف اليه أى هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الاسرار الخفية التى لا يكاد يحوم حولها عقول البشر (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) لا يمكن تعلقه بأمثال ذلك روى انه صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب قال عليه الصلاة والسلام بل نحن وأنتم فقالوا ما أعجب شأنك ساعة تقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وساعة تقول هذا فنزلت ولو أن ما فى الارض من شجرة أقلام الآية وانما قالوا ذلك لركاكة عقولهم فان الحكمة الانسانية أن يعلم من الخير ما تسعه الطاقة البشرية بل ما نيط به المعاش والمعاد وذلك بالاضافة الى ما لا نهاية له من معلوماته سبحانه قليل ينال به خير كثير فى نفسه أو بالنسبة الى

قال يقعد الله محمدا على العرش وعن مجاهد انه قال يجلسه معه على العرش ثم قال الواحدى وهذا قول رذل موحش فظيع ونص الكتاب ينادى بفساد هذا التفسير ويدل عليه وجوه (الاول) ان البعث ضد الاجلاس يقال بعثت النازل والقاعد فانبعث ويقال بعث الله الميت أى أقامه من قبره فتفسير البعث بالاجلاس تفسير للضد بالضد وهو فاسد (والثانى) انه تعالى قال مقاما محمودا ولم يقل مقعدا والمقام موضع القيام لا موضع القعود (والثالث) لو كان تعالى جالسا على العرش بحيث يجلس عنده محمد عليه الصلاة والسلام لكان محدودا متناهيا ومن كان كذلك فهو محدث (والرابع) يقال ان جلوسه مع الله على العرش ليس فيه كثير اعزاز لان هؤلاء الجهال والحمقى يقولون فى كل أهل الجنة انهم يزورون الله تعالى وانهم يجلسون معه وانه تعالى يسألهم عن أحوالهم التى كانوا فيها فى الدنيا واذا كانت هذه الحالة حاصلة عندهم لكل المؤمنين لم يكن لتخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بها مزيد شرف ورتبة (والخامس) انه اذا قيل السلطان بعث فلانا فهم منه انه أرسله الى قوم لاصلاح مهماتهم ولا يفهم منه انه أجلسه مع نفسه فثبت ان هذا القول كلام رذل سقط لا يميل اليه الا انسان قليل العقل عديم الدين والله أعلم ثم قال تعالى وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق وفيه مباحث (البحث الاول) انا ذكرنا فى تفسير قوله وان كادوا ليستفزونك من الارض قولين أحدهما ان المراد منه سعى كفار مكة فى اخراجه منها والثانى المراد منه ان اليهود قالوا له الاولى لك ان تخرج من المدينة الى الشام ثم انه تعالى قال له أقم الصلاة واشتغل بعبادة الله تعالى ولا تلتفت الى هؤلاء الجهال فانه تعالى ناصرك ومعينك ثم عاد بعد هذا الكلام الى شرح تلك الواقعة فان فسرنا تلك الآية أن المراد منها أن كفار مكة أرادوا اخراجه من مكة كان معنى هذه الآية انه تعالى أمره بالهجرة الى المدينة وقال له وقل رب أدخلنى مدخل صدق وهو المدينة وأخرجنى مخرج صدق وهو مكة وهذا قول الحسن وقتادة وان فسرنا تلك الآية بان المراد منها ان اليهود حملوه على الخروج من المدينة والذهاب الى الشام فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ثم أمره الله تعالى بان يرجع اليها كان المراد انه عليه الصلاة والسلام عند العود الى المدينة قال رب أدخلنى مدخل صدق وهو المدينة واخرجنى مخرج صدق يعنى أخرجنى منها الى مكة مخرج صدق أى افتحها لى والقول الثانى فى تفسير هذه الآية وهو أكمل مما سبق ان المراد وقل رب أدخلنى فى الصلاة وأخرجنى منها مع الصدق والاخلاص وحضور ذكرك والقيام بلوازم شكرك (والقول الثانى) وهو أكمل مما سبق أن المراد وقل رب أدخلنى فى القيام بمهمات اداء دينك وشريعتك وأخرجنى منها بعد الفراغ منها اخراجا لا يبقى على منها تبعة وبقية (والقول الرابع) وهو أعلى مما سبق وقل رب أدخلنى فى بحار دلائل توحيدك وتنزيهك وقدسك ثم أخرجنى من الاشتغال بالدليل الى ضياء معرفة المدلول ومن التأمل

الانسان أو هو من الابداعيات الكائنة بمحض الامر التكوينى من غير تحصل من مادة وتولد من أصل كأعضاء الجسد حتى يمكن تعريفه ببعض مباديه وما له انه من عالم الامر لا من عالم الخلق وليس هذا من قبيل قوله سبحانه انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون فان ذلك عبارة عن سرعة التكوين سواء كان الكائن من عالم الامر أو من عالم الخلق وفيه تنبيه على انه مما لا يحيط بكنهه دائرة ادراك البشر وانما الممكن هذا القدر الاجمالى المندرج تحت ما استثنى بقوله تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلا أى الا علما قليلا تستفيدونه من طرق الحواس فان تعقل المعارف النظرية انما هو من احساس الجزئيات ولذلك قيل من فقد حسا فقد فقد علما ولعل أكثر الاشياء لا يدركه الحس ولا شيأ من أحواله التى يدور عليها معرفة ذاته وأما حمل ما ذكر على السؤال عن قدمه

فى آثار حدوث المحدثات الى الاستغراق فى معرفة الاحد الفرد المنزه عن التكثيرات والتغيرات (والقول الخامس) أدخلنى فى كل ماتدخلنى فيه مع الصدق فى عبوديتك والاستغراق بمعرفتك وأخرجنى عن كل ماتخرجنى عنه مع الصدق فى العبودية والمعرفة والمحبة والمقصود منه أن يكون صدق العبودية حاصلا فى كل دخول وخروج وحركة وسكون (والقول السادس) أدخلنى القبر مدخل صدق وأخرجنى منه مخرج صدق (البحث الثانى) مدخل بضم الميم مصدر كالادخال يقال أدخلته مدخلا كما قال وقل رب أنزلنى منزلا مباركا ومعنى اضافة المدخل والمخرج الى الصدق مدحهما كأنه سأل الله تعالى ادخالا حسنا واخراجا حسنا لايرى فيهما مايكره ثم قال تعالى واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا أى حجة بينة ظاهرة تنصرنى بها على جميع من خالفنى وبالجملة فقد سأل الله تعالى ان يرزقه التقوية على من خالفه بالحجة وبالقهر والقدرة وقد أجاب الله تعالى دعاءه وأعلمه بانه يعصمه من الناس فقال والله يعصمك من الناس وقال ألا ان حزب الله هم الغالبون وقال ليظهره على الدين كله ولما سأل الله النصرة بين الله له انه أجاب دعاءه فقال وقل جاء الحق وهو دينه وشرعه وزهق الباطل وهو كل ماسواه من الاديان والشرائع وزهق بطل واضمحل وأصله من زهقت نفسه تزهق اى هلكت وعن ابن مسعود انه دخل مكة يوم الفتح وحول البيت ثلثمائة وستون صنما فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل فجعل الصنم ينكب على وجهه وقوله ان الباطل كان زهوقا يعنى ان الباطل وان اتفقت له دولة وصولة الا أنها لاتبقى بل تزول على أسرع الوجوه والله أعلم

* قوله تعالى (ونتزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الاخسارا واذا أنعمنا على الانسان اعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر كان يؤسا قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) اعلم انه تعالى لما اطنب فى شرح الالهيات والنبوات والحشر والمعاد والبعث واثبات القضاء والقدر ثم اتبعه بالامر بالصلاة ونبه على مافيها من الاسرار وانما ذكر كل ذلك فى القرآن اتبعه ببيان كون القرآن شفاء ورحمة فقال ونتزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة ولفظ من ههنا ليست للتبعيض بل هى للجنس كقوله فاجتنبوا الرجس من الاوثان والمعنى ونتزل من هذا الجنس الذى هو قرآن ماهو شفاء فجميع القرآن شفاء للمؤمنين واعلم ان القرآن شفاء من الامراض الروحانية وشفاء ايضا من الامراض الجسمانية أما كونه شفاء من الامراض الروحانية فظاهر وذلك لان الامراض الروحانية نوعان الاعتقادات الباطلة والاخلاق المذمومة أما الاعتقادات الباطلة فأشدها فسادا الاعتقادات الفاسدة فى الالهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر والقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق فى هذه المطالب وابطال المذاهب الباطلة فيها ولما كان أقوى الامراض الروحانية هو الخطأ فى هذه المطالب والقرآن مشتمل على الدلائل الكاشفة عما فى هذه المذاهب الباطلة من العيوب الباطنة

وحدوثه وجعل الجواب اخبارا بحدوثه أى كائن بتكوينه حادث باحداثه بالامر التكوينى ثم عدم ملاءمته لحال السائلين لايساعده التعرض لبيان قلة علمهم فان ماسألوا عنه ممابقى به علمهم حينئذ وقد أخبر عنه وقيل المراد بالروح خلق عظيم روحانى أعظم من الملك وقيل جبريل عليه السلام وقيل القرآن ومعنى من أمر ربى من وحيه وكلامه لامن كلام البشر (ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا اليك) من القرآن الذى هو شفاء ورحمة للمؤمنين ومنبع للعلوم التى أوتيتموها وثبتناك عليه حين كادوا يفتنونك عنه ولولاه لكدت تركن اليهم شيئا قليلا وانما عبر عنه بالموصول تفخيما لشأنه ووصفاله بما فى حيز الصلة ابتداء واعلاما بحاله من أول الامر

لاجرم كان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض الروحانى وأما الاخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريف ما فيها من المفاسد والارشاد الى الاخلاق الفاضلة الكاملة والاعمال المحمودة فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض فثبت ان القرآن شفاء من جميع الامراض الروحانية وأما كونه شفاء من الامراض الجسمانية فلان التبرك بقراءته يدفع كثيرا من الامراض ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلسمات بان لقراءة الرقى المجهولة والعزائم التى لايفهم منها شئ آثارا عظيمة فى تحصيل المنافع ودفع المفاسد فلان تكون قراءة هذا القرآن العظيم المشتمل على ذكر جلال الله وكبريائه وتعظيم الملائكة المقربين وتحقير المردة والشياطين سببا لحصول النفع فى الدين والدنيا كان أولى ويتأكد ماذكرنا بماروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من لم يستشف بالقرآن فلاشفاه الله تعالى وأما كونه رحمة للمؤمنين فاعلم انا بينا ان الارواح البشرية مريضة بسبب العقائد الباطلة والاخلاق الفاسدة والقرآن قسمان بعضهما مايفيد الخلاص عن شبهات الضالين وتمويهات المبطلين وهو الشفاء وبعضهما مايفيد تعليم كيفية اكتساب العلوم العالية والاخلاق الفاضلة التى بها يصل الانسان الى جوار رب العالمين والاختلاط بزمرة الملائكة المقربين وهو الرحمة ولما كان ازالة المرض مقدمة على السعى فى تكميل موجبات الصحة لاجرم بدأ الله تعالى فى هذه الآية بذكر الشفاء ثم أتبعه بذكر الرحمة واعلم انه تعالى لمابين كون القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين بين كونه سببا للخسار والضلال فى حق الظالمين والمراد به المشركون وانما كان كذلك لان سماع القرآن يزيدهم غيظا وغضبا وحقدا وحسدا وهذه الاخلاق الذميمة تدعوهم الى الاعمال الباطلة وتزيد فى تقوية تلك الاخلاق الفاسدة فى جواهر نفوسهم ثم لايزال الخلق الخبيث النفسانى يحمل على الاعمال الفاسدة والاتيان بتلك الاعمال يقوى تلك الاخلاق فبهذا الطريق يصير القرآن سببا لتزايد هؤلاء المشركين الضالين فى درجات الخزى والضلال والفساد والنكال ثم انه تعالى ذكر السبب الاصلى فى وقوع هؤلاء الجاهلين الضالين فى أودية الضلال ومقامات الخزى والنكال وهو حب الدنيا والرغبة فى المال والجاه واعتقادهم ان ذلك انما يحصل بسبب جدهم واجتهادهم فقال واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه وفيه مباحث الاول قال ابن عباس رضى الله عنهما أن الانسان ههنا هو الوليد بن المغيرة وهذا بعيد بل المراد ان نوع الانسان من شأنه انه اذا فاز بمقصوده ووصل الى مطلوبه اغتر وصار غافلا عن عبودية الله تعالى متمردا عن طاعة الله كما قال ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى (البحث الثانى) قوله أعرض أى ولى ظهره أى عرضه الى ناحية ونأى بجانبه أى تباعد ومعنى النأى فى اللغة البعد والاعراض عن الشئ أن يوليه عرض وجهه والنأى بالجانب أى يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره وأراد الاستكبار لان ذلك عادة المتكبرين وفى قوله نأى قراآت احداها نأى وهى قراءة العامة

وبأنه ليس من قبيل كلام المخلوق واللام موطئة للقسم ولنذهبن جوابه النائب مناب جزاء الشرط وبذلك حسن حذف مفعول المشيئة والمراد من الذهاب به المحو من المصاحف والصدور وهو أبلغ من الاذهاب عن ابن مسعود رضى الله عنه ان أول ماتفقدون من دينكم الامانة واخر ماتفقدون الصلاة وليصلين قوم ولادين لهم وان هذا القرآن تصبحون يوما ومافيكم منه شئ فقال رجل كيف ذلك وقد أثبتناه فى قلوبنا وأثبتناه فى مصاحفنا نعلمه أبناءنا ويعلمه أبناؤنا ابناءهم فقال يسرى عليه ليلا فيصبح الناس منه فقراء ترفع المصاحف وينزع مافى القلوب (ثم لاتجد لك به) أى بالقرآن (علينا وكيلا) من يتوكل علينا استرداده مسطورا محفوظا

بفتح النون والهمزة وفى حم السجدة مثله وهى اللغة الغالبة والنأى البعد يقال نأى أى بعد وثانيها قراءة ابن عامر ناء وله وجهان تقديم اللام على العين كقولهم راء فى رأى ويجوز أن يكون من ناء بمعنى نهض (وثالثها) قراءة حمزة والكسائى بامالة الفتحتين وذلك لانهم أمالوا الهمزة من نأى ثم كسروا النون اتباعا للكسرة مثل رأى (ورابعها) قرأ أبو عمرو وعاصم فى رواية أبى بكر ونصير عن الكسائى وحمزة نأى بفتح النون وكسر الهمزة على الاصل فى فتح النون وامالة الهمزة ثم قال تعالى واذا مسه الشر كان يؤسا أى اذا مسه فقر أو مرض أو نازلة من النوازل كان يؤسا شديد اليأس من رحمة الله ولا ييئس من روح الله الا القوم الكافرون والحاصل انه ان فاز بالنعمة والدولة اغتر بها فنسى ذكر الله وان بقى فى الحرمان عن الدنيا استولى عليه الاسف والحزن ولم يتفرغ لذكر الله تعالى فهذا المسكين محروم أبدا عن ذكر الله ونظيره قوله تعالى فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمنى الى قوله ربى أهاننى وكذلك قوله ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا ثم قال تعالى قل كل يعمل على شاكلته قال الزجاج الشاكلة الطريقة والمذهب والدليل عليه انه يقال هذا طريق ذو شواكل أى يتشعب منه طرق كثيرة ثم الذى يقوى عندى ان المراد من الآية ذلك قوله تعالى فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا وفيه وجه آخر وهو ان المراد ان كل أحد يفعل على وفق ما شاكل جوهر نفسه ومقتضى روحه فان كانت نفسه نفسا مشرقة خيرة طاهرة علوية صدرت عنه أفعال فاضلة كريمة وان كانت نفسه نفسا كدرة نذلة خبيثة مضلة ظلمانية صدرت عنه أفعال خسيسة فاسدة وأقول العقلاء اختلفوا فى أن النفوس الناطقة البشرية هل هى مختلفة بالماهية أم لا منهم من قال انها مختلفة بالماهية وان اختلاف أفعالها وأحوالها لاجل اختلاف جواهرها وماهياتها ومنهم من قال انها متساوية فى الماهية واختلاف أفعالها لاجل اختلاف أمزجتها والمختار عندى هو القسم الاول والقرآن مشعر بذلك وذلك لانه تعالى بين فى الآية المتقدمة ان القرآن بالنسبة الى البعض يفيد الشفاء والرحمة وبالنسبة الى أقوام آخرين يفيد الخسار والخزى ثم أتبعه بقوله قل كل يعمل على شاكلته ومعناه ان اللائق بتلك النفوس الطاهرة ان يظهر فيها من القرآن آثار الذكاء والكمال وبتلك النفوس الكدرة أن يظهر فيها من القرآن آثار الخزى والضلال كما أن الشمس تعقد الملح وتلين الدهن وتبيض ثوب القصار وتسود وجهه وهذا الكلام انما يتم المقصود منه اذا كانت الارواح والنفوس مختلفة بماهياتها فبعضها مشرقة صافية يظهر فيها من القرآن نور على نور وبعضها كدرة ظلمانية يظهر فيها من القرآن ضلال على ضلال ونكال على نكال * قوله تعالى (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا) اعلم انه تعالى لما ختم الآية المتقدمة بقوله قل كل يعمل على شاكلته وذكرنا ان المراد منه مشاكلة الارواح

(الا رحمة من ربك) فانها ان نالتك لعلها تسترده عليك ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا بمعنى ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب فيكون امتنانا بابقائه بعد المنة بتنزيله وترغيبا فى المحافظة على أداء حقوقه وتحذيرا من أن لا يقدر قدره الجليل ويفرط فى القيام بشكره وهو أجل النعم وأعظمها (ان فضله كان عليك كبيرا) كارسالك وانزال الكتاب عليك وابقائه فى حفظك وغير ذلك (قل) للذين لا يعرفون جلالة قدر التنزيل ولا يفهمون فخامة شانه الجليل بل يزعمون أنه من كلام البشر (لئن اجتمعت الانس والجن) أى اتفقوا (على أن يأتوا بمثل هذا القرآن) المنعوت بما لا تدركه العقول من النعوت الجليلة فى البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى وتخصيص الثقلين بالذكر

للافعال الصادرة عنها وجب البحث ههنا عن ماهية الروح وحقيقته فلذلك سألوا عن الروح وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) للمفسرين في الروح المذكورة في هذه الآية أقوال أظهرها ان المراد منه الروح الذي هو سبب الحياة روى ان اليهود قالوا لقريش اسألوا محمدا عن ثلاث فان أخبركم باثنين وأمسك عن الثالثة فهو نبي اسألوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الثلاثة فقال عليه السلام غدا أخبركم ولم يقل ان شاء الله فانقطع عنه الوحي أربعين يوما ثم نزل الوحي بعده ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله ثم فسر لهم قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين وأبهم قصة الروح ونزل فيه قوله تعالى ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وبين ان عقول الخلق قاصرة عن معرفة حقيقة الروح فقال وما أوتيتم من العلم الا قليلا ومن الناس من طعن في هذه الرواية من وجوه (أولها) ان الروح ليس أعظم شأنا ولا أعلى مكانا من الله تعالى فاذا كانت معرفة الله تعالى ممكنة بل حاصلة فأي مانع يمنع من معرفة الروح (وثانيها) ان اليهود قالوا ان أجاب عن قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين ولم يجب عن الروح فهو نبي وهذا كلام بعيد عن العقل لان أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين ليست الا حكاية من الحكايات وذكر الحكاية يمتنع أن يكون دليلا على النبوة وأيضا فالحكاية التي يذكرها اما أن تعتبر قبل العلم بنبوته أو بعد العلم بنبوته فان كان قبل العلم بنبوته كذبوه فيها وان كان بعد العلم بنبوته فحينئذ صارت نبوته معلومة قبل ذلك فلا فائدة في ذكر هذه الحكاية وأما عدم الجواب عن حقيقة الروح فهذا يبعد جعله دليلا على صحة النبوة (وثالثها) ان مسئلة الروح يعرفها أصاغر الفلاسفة وأراذل المتكلمين فلو قال الرسول صلى الله عليه وسلم اني لا أعرفها لاورث ذلك ما يوجب التحقير والتنفير فان الجهل بمثل هذه المسئلة يفيد تحقير أي انسان كان فكيف الرسول الذي هو أعلم العلماء وأفضل الفضلاء (ورابعها) أنه تعالى قال في حقه الرحمن علم القرآن وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما وقال وقل رب زدني علما وقال في صفة القرآن ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين وكان عليه السلام يقول أرنا الاشياء كما هي فمن كان هذا حاله وصفته كيف يليق به أن يقول انا لا أعرف هذه المسئلة مع انها من المسائل المشهورة المذكورة بين جمهور الخلق بل المختار عندنا انهم سألوه عن الروح وانه صلى الله عليه وسلم أجاب عنه على أحسن الوجوه وتقريره ان المذكور في الآية أنهم سألوه عن الروح والسؤال عن الروح يقع على وجوه كثيرة (أحدها) أن يقال ماهية الروح أهو متحيز او حال في المتحيز أو موجود غير متحيز ولا حال في المتحيز (وثانيها) أن يقال الروح قديمة أو حادثة (وثالثها) أن يقال الارواح هل تبقى بعد موت الاجسام أو تفنى (ورابعها) أن يقال ما حقيقة سعادة الارواح وشقاوتها وبالجملة فالمباحث المتعلقة بالروح كثيرة وقوله يسألونك عن الروح

لان المنكر لكونه من عند الله تعالى منهما لا من غيرهما لا لان غيرهما قادر على المعارضة (لا يأتون بمثله) أوثر الاظهار على ايراد الضمير الراجع الى المثل المذكور احترازا عن أن يتوهم أن له مثلا معينا وايذانا بأن المراد نفي الاتيان بمثل ما أي لا يأتون بكلام مماثل له فيما ذكر من الصفات البديعة وفيهم العرب العاربة أرباب البراعة والبيان وهو جواب للقسم الذي ينبئ عنه اللام الموطئة وساد مسد جزاء الشرط ولولاها لكان جوابا له بغير جزم لكون الشرط ماضيا كما في قول زهير *

وان أتاه خليل يوم مسئلة * يقول لا غائب مالي ولا حرم *

وحيث كان المراد بالاجتماع على الاتيان بمثل القرآن مطلق الاتفاق على ذلك سواء كان التصدي للمعارضة من كل واحد

ليس فيه ما يدل على أنهم عن هذه المسائل سالوا أو عن غيرها الا أنه تعالى ذكر له فى الجواب عن هذا السؤال قوله قل الروح من أمر ربى وهذا الجواب لايليق الا بمسئلتين من المسائل التى ذكرناها احداهما السؤال عن ماهية الروح والثانية عن قدمها وحدوثها (أما البحث الاول) فهم قالوا ما حقيقة الروح وماهيته أهو عبارة عن أجسام موجودة فى داخل هذا البدن متولدة من امتزاج الطبائع والاخلاط أو هو عبارة عن نفس هذا المزاج والتركيب أو هو عبارة عن عرض آخر قائم بهذه الاجسام أو هو عبارة عن موجود يغاير هذه الاجسام والاعراض فأجاب الله عنه بأنه موجود مغاير لهذه الاجسام ولهذه الاعراض وذلك لان هذه الاجسام أشياء تحدث من امتزاج الاخلاط والعناصر وأما الروح فانه ليس كذلك بل هو جوهر بسيط مجرد لايحدث الا بمحدث قوله كن فيكون فقالوا لم كان شيئا مغايرا لهذه الاجسام ولهذه الاعراض فأجاب الله عنه بأنه موجود يحدث بأمر الله وتكوينه وتأثيره فى افادة الحياة لهذا الجسد ولايلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة نفيه فان أكثر حقائق الاشياء وماهياتها مجهولة فانا نعلم ان السكنجبين له خاصية تقتضى قطع الصفراء فأما اذا أردنا أن نعرف ماهية تلك الخاصية وحقيقتها المخصوصة فذاك غير معلوم فثبت أن أكثر الماهيات والحقائق مجهولة ولم يلزم من كونها مجهولة نفيها فكذلك ههنا وهذا هو المراد من قوله وما أوتيتم من العلم الا قليلا (وأما البحث الثانى) فهو ان لفظ الامر قد جاء بمعنى الفعل قال تعالى وما أمر فرعون برشيد وقال فلما جاء أمرنا أى فعلنا فقوله قل الروح من أمر ربى أى من فعل ربى وهذا الجواب يدل على أنهم سألوه ان الروح قديمة أو حادثة فقال بل هى حادثة وانما حصلت بفعل الله وتكوينه وايجاده ثم احتج على حدوث الروح بقوله وما أوتيتم من العلم الا قليلا يعنى أن الارواح فى مبدا الفطرة تكون خالية عن العلوم والمعارف ثم يحصل فيها العلوم والمعارف فهى لاتزال تكون فى التغير من حال الى حال وفى التبديل من نقصان الى كمال والتغير والتبديل من أمارات الحدوث فقوله قل الروح من أمر ربى يدل على انهم سألوه أن الروح هل هى حادثة فأجاب بانها حادثة واقعة بتخليق الله وتكوينه وهو المراد من قوله قل الروح من أمر ربى ثم استدل على حدوث الارواح بتغيرها من حال الى حال وهو المراد من قوله وما أوتيتم من العلم الا قليلا فهذا ما نقوله فى هذا الباب والله أعلم (المسئلة الثانية) فى ذكر سائر الاقوال المقولة فى نفس الروح المذكورة فى هذه الآية اعلم أن الناس ذكروا أقوالا أخرى سوى ما تقدم ذكره (فالقول الاول) ان المراد من هذا الروح هو القرآن قالوا وذلك لان الله تعالى سمى القرآن فى كثير من الآيات روحا واللائق بالروح المسؤل عنه فى هذا الموضع ليس الا القرآن فلابد من تقرير مقامين (المقام الاول) تسمية الله القرآن بالروح يدل عليه قوله تعالى وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا وقوله ينزل الملائكة بالروح من أمره وأيضا السبب فى تسمية القرآن بالروح أن بالقرآن

منهم أعلى الانفراد أو من المجموع بأن يتألبوا على تلفيق كلام واحد بتلاحق الافكار وتعاضد الانظار وقيل (ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) اى فى تحقيق ما يتوخونه من الاتيان بمثله وهو عطف على مقدر أى لايأتون بمثله لو لم يكن بعضهم ظهيرا لبعض ولو كان الخ وقد حذف المعطوف عليه حذفا مطردا لدلالة المعطوف عليه دلالة واضحة فان الاتيان بمثله حيث انتفى عند التظاهر فلأن ينتفى عند عدمه أولى وعلى هذه النكتة يدور ما فى ان ولو الوصليتين من التأكيد كما مر غير مرة ومحله النصب على الحالية حسبما عطف عليه أى لايأتون بمثله على كل حال مفروض ولو فى هذه الحال المنافية لعدم

تحصل حياة الارواح والعقول لان به تحصل معرفة الله تعالى ومعرفة ملائكته ومعرفة كتبه ورسله والارواح انما تحيا بهذه المعارف وتمام تقريرهذا الموضع ذكرناه فى تفسير قوله ينزل الملائكة بالروح من أمره (وأما بيان المقام الثانى) وهوان الروح اللائق بهذا الموضع هو القرآن لانه تقدمه قوله وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين والذى تأخرعنه قوله ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا اليك الى قوله قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيرا فلما كان ماقبل هذه الآية فى وصف القرآن ومابعدها كذلك وجب أيضا أن يكون المراد من هذا الروح القرآن حتى تكون آيات القرآن كلها متناسبة متناسقة وذلك لان القوم استعظموا أمر القرآن فسألوا انه من جنس الشعر أومن جنس الكهانة فأجابهم الله تعالى بأنه ليس من جنس كلام البشر وانما هو كلام ظهر بأمر الله ووحيه وتنزيله فقال قل الروح من أمر ربى اى القرآن انما ظهر بأمر ربى وليس من جنس كلام البشر (القول الثانى) ان الروح المسؤل عنه فى هذه الآية ملك من ملائكة السموات وهو أعظمهم قدرا وقوة وهو المراد من قوله تعالى يوم يقوم الروح والملائكة صفا ونقلوا عن على بن أبى طالب رضى الله عنه انه قال هو ملك له سبعون ألف وجه لكل وجه سبعون ألف لسان لكل لسان سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها ويخلق الله من كل تسبيحة ملكا يطير مع الملائكة الى يوم القيامة قالوا ولم يخلق الله تعالى خلقا أعظم من الروح غير العرش ولوشاء أن يبتلع السموات السبع والارضين السبع ومن فيهن بلقمة واحدة لفعل ولقائل أن يقول هذا القول ضعيف وبيانه من وجوه (الاول) أن هذا التفصيل لما عرفه على فالنبى أولى أن يكون قدعرفه فلم لم يخبرهم به وأيضا ان عليا ماكان ينزل عليه الوحى فهذا التفصيل ماعرفه الا من النبى صلى الله عليه وسلم فلم ذكر النبى صلى الله عليه وسلم ذلك الشرح والبيان لعلى ولم يذكره لغيره (الثانى) أن ذلك الملك ان كان حيوانا واحدا وعاقلا واحدا لم يكن فى تكثير تلك اللغات فائدة وان كان المتكلم بكل واحدة من تلك اللغات حيوانا آخر لم يكن ذلك ملكا واحدا بل يكون ذلك مجموع ملائكة (والثالث) ان هذا شئ مجهول الوجود فكيف يسئل عنه أما الروح الذى هو سبب الحياة فهو شئ تتوفر دواعى العقلاء على معرفته فصرف هذا السؤال اليه أولى (والقول الثالث) وهو قول الحسن وقتادة ان هذا الروح جبريل والدليل عليه انه تعالى سمى جبريل بالروح فى قوله نزل به الروح الامين على قلبك وفى قوله فأرسلنا اليها روحنا ويؤكد هذا انه تعالى قال قل الروح من أمر ربى وقال جبريل وما نتنزل الا بأمر ربك فسألوا الرسول كيف جبريل فى نفسه وكيف قيامه بتبليغ الوحى اليه (والقول الرابع) قال مجاهد الروح خلق ليسوا من الملائكة على صورة بنى آدم يأكلون ولهم أيد وأرجل ورؤس وقال أبو صالح يشبهون الناس وليسوا بالناس ولم أجد فى القرآن ولا فى الاخبار

الاتيان به فضلا عن غيرها وفيه حسم لاطماعهم الفارغة فى روم تبديل بعض آياته ببعض ولا مساغ لكون الآية تقريرا لما قبلهما من قوله تعالى ثم لاتجد لك به علينا وكيلا كما قيل لكن لا لما قيل من أن الاتيان بمثله أصعب من استرداد عينه ونفى الشئ انما يقرر نفى مادونه لا نفى مافوقه فان أصعبية الاسترداد بغير أمره تعالى من الاتيان بمثله مما لاشبهة فيه بل لان الجملة القسمية ليست مسوقة الى النبى صلى الله عليه وسلم بل الى المكابرين من قبله عليه السلام (ولقد صرفنا) كررنا ورددنا على أنحاء مختلفة توجب زيادة تقرير وبيان ووكادة رسوخ واطمئنان (للناس فى هذا القرآن) المنعوت بما ذكر من النعوت الفاضلة (من كل مثل)

الصحيحة شيئا يمكن التمسك به فى اثبات هذا القول وأيضا فهذا شئ مجهول فيبعد صرف هذا السؤال اليه فحاصل ماذكرناه فى تفسير الروح المذكورة فى هذه الآية هذه الاقوال الخمسة والله أعلم بالصواب (المسئلة الثالثة) فى شرح مذاهب الناس فى حقيقة الانسان اعلم أن العلم الضرورى حاصل بأن ههنا شيئا اليه يشير الانسان بقوله انا واذا قال الانسان علمت وفهمت وأبصرت وسمعت وذقت وشممت ولمست وغضبت فالمشار اليه لكل أحد بقوله انا اما أن يكون جسما أو عرضا أو مجموع الجسم والعرض أو شيئا مغايرا للجسم والعرض أو ما تركب من الجسم والعرض أو من ذلك الشئ الثالث فهذا ضبط معقول (أما القسم الاول) وهو أن يقال ان الانسان جسم فذلك الجسم اما أن يكون هو هذه البنية أو جسما داخلا فى هذه البنية أو جسما خارجا عنها أما القائلون بأن الانسان عبارة عن هذه البنية المحسوسة وعن هذا الجسم المحسوس فهم جمهور المتكلمين وهؤلاء يقولون الانسان لا يحتاج تعريفه الى ذكر حد أو رسم بل الواجب أن يقال الانسان هو الجسم المبنى بهذه البنية المحسوسة واعلم أن هذا القول عندنا باطل وتقريره انهم قالوا الانسان هو هذا الجسم المحسوس فاذا أبطلنا كون الانسان عبارة عن هذا الجسم وأبطلنا كون الانسان محسوسا فقد بطل كلامهم بالكلية والذى يدل على انه لا يمكن أن يكون الانسان عبارة عن هذا الجسم وجوه (الحجة الاولى) ان العلم البديهى حاصل بأن أجزاء هذه الجثة متبدلة بالزيادة والنقصان تارة بحسب النمو والذبول وتارة بحسب السمن والهزال والعلم الضرورى حاصل بأن المتبدل المتغير مغاير للثابت الباقى ويحصل من مجموع هذه المقدمات الثلاثة العلم القطعى بأن الانسان ليس عبارة عن مجموع هذه الجثة (الحجة الثانية) ان الانسان حال ما يكون مشتغل الفكر متوجه الهمة نحو أمر معين مخصوص فانه فى تلك الحالة يكون غافلا عن جميع أجزاء بدنه وعن اعضائه وابعاضه مجموعها ومفصلها وهو فى تلك الحالة غير غافل عن نفسه المعينة بدليل انه فى تلك الحالة قد يكون غضبت واشتهيت وسمعت كلامك وأبصرت وجهك وتاء الضمير كناية عن نفسه فهو فى تلك الحالة عالم بنفسه المخصوصة وغافل عن جملة بدنه وعن كل واحد من أعضائه وابعاضه والمعلوم غير ما هو غير معلوم فالانسان يجب أن يكون مغايرا لجملة هذا البدن ولكل واحد من اعضائه وابعاضه (الحجة الثالثة) ان كل أحد يحكم عقله باضافة كل واحد من هذه الاعضاء الى نفسه فيقول رأسى وعينى ويدى ورجلى ولسانى وقلبى والمضاف غير المضاف اليه فوجب أن يكون الشئ الذى هو الانسان مغايرا لجملة هذا البدن ولكل واحد من هذه الاعضاء فان قالوا قد يقول نفسى وذاتى فيضيف النفس والذات الى نفسه فيلزم أن يكون الشئ وذاته مغايرة لنفسه وهو محال قلنا قد يراد به هذا البدن المخصوص وقد يراد بنفس الشئ وذاته الحقيقة المخصوصة التى يشير اليها كل أحد بقوله انا فاذا قال نفسى وذاتى فان كان المراد البدن فعندنا أنه مغاير لجوهر الانسان

من كل معنى بديع هو فى الحسن والقرابة واستجلاب النفس كالمثل ليتلقوه بالقبول (فأبى أكثر الناس) أوثر الاظهار على الاضمار تأكيدا وتوضيحا (الا كفورا) اى الا جحودا وانما صح الاستثناء من الموجب مع أنه لا يصح ضربت الا زيد الانه متأول بالنفى كأنه قيل ما قبل أكثرهم الا كفورا وفيه من المبالغة ما ليس فى أبوا الايمان لان فيه دلالة على أنهم لم يرضوا بخصلة سوى الكفور من الايمان والتوقف فى الامر ونحو ذلك وأنهم بالغوا فى عدم الرضا حتى بلغوا مرتبة الاباء (وقالوا) عند ظهور عجزهم ووضوح مغلوبيتهم بالاعجاز التنزيلى وغيره من المعجزات الباهرة متعللين بما لا يمكن فى العادة وجوده

أما اذا أريد بالنفس والذات الحقيقة المخصوصة المشار اليها بقوله انا فلا نسلم ان الانسان يمكنه أن يضيف ذلك الشيء الى نفسه بقوله انسانى وذلك لانه عين ذاته فكيف يضيفه مرة اخرى الى ذاته (الحجة الرابعة) ان كل دليل يدل على ان الانسان يمتنع أن يكون جسما فهو أيضا يدل على انه يمتنع أن يكون عبارة عن هذا الجسم وسيأتى تقرير تلك الدلائل (الحجة الخامسة) ان الانسان قد يكون حيا حال ما يكون البدن ميتا فوجب كون الانسان مغاير لهذا البدن والدليل على صحة ما ذكرناه قوله تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فهذا النص صريح فى ان أولئك المقتولين أحياء والحس يدل على ان هذا الجسد ميت (الحجة السادسة) ان قوله تعالى النار يعرضون عليها غدوا وعشيا وقوله أغرقوا فأدخلوا نارا يدل على ان الانسان يحيا بعد الموت وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام أنبياء الله لا يموتون ولكن ينقلون من دار الى دار وكذلك قوله عليه السلام القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام من مات فقد قامت قيامته كل هذه النصوص تدل على ان الانسان يبقى بعد موت الجسد وبديهة العقل والفطرة شاهدان بأن هذا الجسد ميت ولو جوزنا كونه حيا جاز مثله فى جميع الجمادات وذلك عين السفسطة واذا ثبت ان الانسان حى وكان الجسد ميتا لزم أن الانسان شيء غير هذا الجسد (الحجة السابعة) قوله عليه السلام فى خطبة طويلة له حتى اذا حمل الميت على نعشه رفرف روحه فوق النعش ويقول يا أهلى ويا ولدى لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بى جمعت المال من حله وغير حله فالغنى لغيرى والتبعة على فاحذروا مثل ما حل بى وجه الاستدلال أن النبى صلى الله عليه وسلم صرح بأن حال ما يكون الجسد محمولا على النعش بقى هناك شيء ينادى ويقول يا أهلى ويا ولدى جمعت المال من حله وغير حله ومعلوم ان الذى كان الاهل أهلا له وكان جامعا للمال من الحرام والحلال والذى بقى فى رقبته الوبال ليس الا ذلك الانسان فهذا تصريح بأن فى الوقت الذى كان الجسد ميتا محمولا كان ذلك الانسان حيا باقيا فاهما وذلك تصريح بأن الانسان شيء مغاير لهذا الجسد ولهذا الهيكل (الحجة الثامنة) قوله تعالى يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية والخطاب بقوله ارجعى انما هو متوجه عليها حال الموت فدل هذا على ان الشيء الذى يرجع الى الله بعد موت الجسد يكون حيا راضيا عن الله ويكون راضيا عنه الله والذى يكون راضيا ليس الا الانسان فهذا يدل على ان الانسان بقى حيا بعد موت الجسد والحى غير الميت فالانسان مغاير لهذا الجسد (الحجة التاسعة) قوله تعالى حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردوا الى الله مولاهم الحق أثبت كونهم مردودين الى الله الذى هو مولاهم حال كون الجسد ميتا فوجب أن يكون ذلك المردود الى الله مغايرا لذلك الجسد الميت (الحجة العاشرة) نرى جميع فرق الدنيا من الهند والروم والعرب والعجم وجميع

ولا تقتضى الحكمة وقوعه من الامور كما هو ديدن المبهوت المحجوج (لن نؤمن لك حتى تفجر) وقرئ بالتشديد (لنا من الارض) أرض مكة (ينبوعا) عينا لا ينضب ماؤها يفعول من نبع الماء كيعبوب من عب الماء اذا زخر (أو تكون لك جنة) اى بستان تستر أشجاره ما تحتها من العرصة (من نخيل وعنب فتفجر الانهار) اى تجريها بقوة (خلالها تفجيرا) كثيرا والمراد اما اجراء الانهار خلالها عند سقيها أو ادامة اجرائها كما ينبئ عنه الفاء لا ابتداؤه (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) جمع كسفة كقطعة وقطع لفظا ومعنى وقرئ بالسكون كسدرة وسدر وهى حال من السماء والكاف فى كما فى محل النصب على أنه صفة مصدر

أرباب الملل والنحل من اليهود والنصارى والمجوس والمسلمين وسائر فرق العالم وطوائفهم يتصدقون عن موتاهم ويدعون لهم بالخير ويذهبون الى زياراتهم ولولا أنهم بعد موت الجسد بقوا أحياء لكان التصدق عنهم عبثا والدعاء لهم عبثا ولكان الذهاب الى زياراتهم عبثا فالاطباق على هذه الصدقة وعلى هذا الدعاء وعلى هذه الزيارة يدل على ان فطرتهم الاصلية السليمة شاهدة بأن الانسان شئ غير هذا الجسد وأن ذلك الشئ لا يموت بل يموت هذا الجسد (الحجة الحادية عشرة) ان كثيرا من الناس يرى أباه أو ابنه بعد موته فى المنام ويقول له اذهب الى الموضع الفلانى فان فيه ذهبا دفنته لك وقد يراه فيوصيه بقضاء دين عنه ثم عند اليقظة اذا فتش كان كما رآه فى النوم من غير تفاوت ولولا أن الانسان يبقى بعد الموت لما كان كذلك ولما دل هذا الدليل على أن الانسان يبقى بعد الموت ودل الحس على أن الجسد ميت كان الانسان مغايرا لهذا الجسد الميت (الحجة الثانية عشرة) ان الانسان اذا ضاع عضو من أعضائه مثل أن تقطع يداه أو رجلاه أو تقلع عيناه أو تقطع أذناه الى غيرها من الاعضاء فان ذلك الانسان يجد من قلبه وعقله انه هو عين ذلك الانسان ولم يقع فى عين ذلك الانسان تفاوت حتى انه يقول انا ذلك الانسان الذى كنت موجودا قبل ذلك الا انه يقول انهم قطعوا يدى ورجلى وذلك برهان يقينى على أن ذلك الانسان شئ مغاير لهذه الاعضاء والابعاض وذلك يبطل قول من يقول الانسان عبارة عن هذه البنية المخصوصة (الحجة الثالثة عشرة) ان القرآن والاحاديث يدلان على ان جماعة من اليهود قد مسخهم الله وجعلهم فى صورة القردة والخنازير فنقول ذلك الانسان هل بقى حال ذلك المسخ أو لم يبق فان لم يبق كان هذا اماتة لذلك الانسان وخلقا لذلك الخنزير وليس هذا من المسخ فى شئ وان قلنا ان ذلك الانسان بقى حال حصول ذلك المسخ فنقول على ذلك التقدير ذلك الانسان باق وتلك البنية وذلك الهيكل غير باق فوجب أن يكون ذلك الانسان شيئا مغايرا لتلك البنية (الحجة الرابعة عشرة) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى جبريل عليه الصلاة والسلام فى صورة دحية الكلبى وكان يرى ابليس فى صورة الشيخ النجدى فههنا بنية الانسان وهيكله وشكله حاصل مع ان حقيقة الانسان غير حاصلة وهذا يدل على أن الانسان ليس عبارة عن هذه البنية وهذا الهيكل والفرق بين هذه الحجة والتى قبلها انه حصلت صورة هذه البنية مع عدم هذه البنية وهذا الهيكل (الحجة الخامسة عشرة) ان الزانى يزنى بفرجه فيضرب على ظهره فوجب أن يكون الانسان شيئا آخر سوى الفرج وسوى الظهر ويقال ان ذلك الشئ يستعمل الفرج فى عمل والظهر فى عمل آخر فيكون المتلذذ والمتألم هو ذلك الشئ الا أنه تحصل تلك اللذة بواسطة ذلك العضو ويتألم بواسطة الضرب على هذا العضو (الحجة السادسة عشرة) انى اذا تكلمت مع زيد وقلت له افعل كذا أو لا تفعل كذا فالمخاطب بهذا الخطاب والمأمور والمنهى ليس هو جبهة زيد ولا حدقته ولا أنفه ولا فمه

محذوف أى اسقاطا مماثلا لما زعمت يعنون بذلك قوله تعالى أو تسقط عليهم كسفا من السماء (أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) اى مقابلا كالعشير والمعاشر أو كفيلا يشهد بصحة ما تدعيه وهو حال من الجلالة وحال الملائكة محذوفة لدلالتها عليها أى والملائكة قبلاء كما حذف الخبر فى قوله *فانى وقيار بها لغريب* أو جماعة فيكون حالا من الملائكة (أو يكون لك بيت من زخرف) من ذهب وقد قرئ به وأصله الزينة (أو ترقى فى السماء) اى فى معارجها فحذف المضاف يقال رقى فى السلم وفى الدرجة (ولن نؤمن لرقيك) اى لاجل رقيك فيها وحده أو لن نصدق رقيك فيها (حتى تنزل منها (علينا كتابا) فيه تصديقك (نقرؤه) نحن

ولاشيئا من أعضائه بعينه فوجب أن يكون المأمور والمنهي والمخاطب شيئا مغايرا لهذه الاعضاء وذلك يدل على ان ذلك المأمور والمنهي غير هذا الجسد فان قالوا لم لايجوز أن يقال المأمور والمنهي جملة هذا البدن لاشئ من أعضائه وابعاضه قلنا توجه التكليف على الجملة انما يصح لو كانت الجملة فاهمة عالمة فنقول لو كانت الجملة فاهمة عالمة فاما أن يقوم بمجموع البدن علم واحد أو يقوم بكل واحد من أجزاء البدن علم على حدة والاول يقتضي قيام العرض بالمحال الكثيرة وهو محال والثاني يقتضي أن يكون كل واحد من أجزاء البدن عالما فاهما مدركا على سبيل الاستقلال وقد بينا ان العلم الضروري حاصل بأن الجزء المعين من البدن ليس عالما فاهما مدركا بالاستقلال فسقط هذا السؤال (الحجة السابعة عشرة) ان الانسان يجب أن يكون عالما والعلم لايحصل الا في القلب فيلزم أن يكون الانسان عبارة عن الشئ الموجود في القلب واذا ثبت هذا بطل القول بأن الانسان عبارة عن هذا الهيكل وهذه الجثة انما قلنا ان الانسان يجب أن يكون عالما لانه فاعل مختار والفاعل المختار هو الذي يفعل بواسطة القصد والاختيار وهما مشروطان بالعلم لان ما لايكون مقصودا امتنع القصد الى تكوينه فثبت ان الانسان يجب أن يكون عالما بالاشياء وانما قلنا ان العلم لايوجد الا في القلب للبرهان والقرآن أما البرهان فلانا نجد العلم الضروري بأنا نجد علومنا من ناحية القلب وأما القرآن فآيات نحو قوله تعالى لهم قلوب لايفقهون بها وقوله كتب في قلوبهم الايمان وقوله نزل به الروح الامين على قلبك واذا ثبت ان الانسان يجب أن يكون عالما وثبت ان العلم ليس الا في القلب ثبت ان الانسان شئ في القلب أو شئ له تعلق بالقلب وعلى التقديرين فانه يبطل قول من يقول الانسان هو هذا الجسد وهذا الهيكل وأما البحث الثاني وهو بيان ان الانسان غير محسوس وهو ان حقيقة الانسان شئ مغاير للسطح واللون وكل ما هو مرئي فهو اما السطح واما اللون وهما مقدمتان قطعيتان وينتج هذا القياس ان حقيقة الانسان غير مرئية ولامحسوسة وهذا برهان يقيني (المسئلة الرابعة) في شرح مذاهب القائلين بأن الانسان جسم موجود في داخل البدن اعلم أن الاجسام الموجودة في هذا العالم السفلي اما أن تكون أحد العناصر الاربعة أو مايكون متولدا من امتزاجها ويمتنع أن يحصل في البدن الانساني جسم عنصري خالص بل لابد وأن يكون الحاصل جسما متولدا من امتزاجات هذه الاربعة فنقول أما الجسم الذي تغلب عليه الارضية فهو الاعضاء الصلبة الكثيفة كالعظم والغضروف والعصب والوتر والرباط والشحم واللحم والجلد ولم يقل أحد من العقلاء الذين قالوا الانسان شئ مغاير لهذا الجسد بأنه عبارة عن عضو معين من هذه الاعضاء وذلك لان هذه الاعضاء كثيفة ثقيلة ظلمانية فلاجرم لم يقل أحد من العقلاء بأن الانسان عبارة عن احد هذه الاعضاء وأما الجسم الذي تغلب عليه المائية فهو الاخلاط الاربعة ولم يقل أحد في شئ منها انه الانسان الا في الدم فان منهم من قال انه هو الروح

من غير أن يتلقى من قبلك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال عبدالله ابن أبي أمية لن نؤمن لك حتى تتخذ الى السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بصك منشور معه أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول وما كانوا يقصدون بهاتيك الاقتراحات الباطلة الا العناد واللجاج ولو أنهم أوتوا أضعاف ما اقترحوا من الآيات مازادهم ذلك الا مكابرة والا فقد كان يكفيهم بعض ما شاهدوا من المعجزات التي تخر لها صم الجبال (قل) تعجبا من شدة شكيمتهم وتنزيها لساحة السبحات عما لايكاد يليق بها من مثل هذه الاقتراحات الشنيعة التي تكاد السموات يتفطرن منها أو عن طلبك ذلك وتنبيها على بطلان

﴿ بدليل ﴾

بدليل انه اذا خرج لزم الموت أما الجسم الذى تغلب عليه الهوائية والنارية فهو الارواح وهى نوعان (أحدهما) أجسام هوائية مخلوطة بالحرارة الغريزية متولدة اما فى القلب أو فى الدماغ وقالوا انها هى الروح وانها هى الانسان ثم اختلفوا فمنهم من يقول الانسان هو الروح الذى فى القلب ومنهم من يقول انه جزء لايتجزأ فى الدماغ ومنهم من يقول الروح عبارة عن أجزاء نارية مختلطة بهذه الارواح القلبية والدماغية وتلك الاجزاء النارية وهى المسماة بالحرارة الغريزية هى الانسان ومن الناس من يقول الروح عبارة عن أجسام نورانية سماوية لطيفة الجوهر على طبيعة ضوء الشمس وهى لاتقبل التحلل والتبدل ولا التفرق ولا التمزق فاذا تكون البدن وتم استعداده وهو المراد بقوله فاذا سويته نفذت تلك الاجسام الشريفة السماوية الالهية فى داخل أعضاء البدن نفاذ النار فى الفحم ونفاذ دهن السمسم فى السمسم ونفاذ ماء الورد فى جسم الورد ونفاذ تلك الاجسام السماوية فى جوهر البدن هو المراد بقوله ونفخت فيه من روحى ثم ان البدن مادام يبقى سليما قابلا لنفاذ تلك الاجسام الشريفة بقى حيا فاذا تولدت فى البدن أخلاط غليظة منعت تلك الاخلاط الغليظة من سريان تلك الاجسام الشريفة فيها فانفصلت عن هذا البدن فحينئذ يعرض الموت فهذا مذهب قوى شريف يجب التأمل فيه فانه شديد المطابقة لما ورد فى الكتب الالهية من أحوال الحياة والموت فهذا تفصيل مذاهب القائلين بأن الانسان جسم موجود فى داخل البدن وأما أن الانسان جسم موجود خارج البدن فلا أعرف أحدا ذهب الى هذا القول (أما القسم الثانى) وهو أن يقال الانسان عرض حال فى البدن فهذا لايقول به عاقل لان من المعلوم بالضرورة ان الانسان جوهر لانه موصوف بالعلم والقدرة والتدبير والتصرف ومن كان كذلك كان جوهرا والجوهر لايكون عرضا بل الذى يمكن أن يقول به كل عاقل هو ان الانسان يشترط أن يكون موصوفا بأعراض مخصوصة وعلى هذا التقدير فللناس فيه أقوال (القول الاول) ان العناصر الاربعة اذا امتزجت وانكسرت سورة كل واحد منها بسورة الآخر حصلت كيفية معتدلة هى المزاج ومراتب هذا المزاج غير متناهية فبعضها هى الانسانية وبعضها هى الفرسية فالانسانية عبارة عن أجسام موصوفة متولدة عن امتزاجات أجزاء العناصر بمقدار مخصوص هذا قول جمهور الاطباء ومنكرى بقاء النفس وقول أبى الحسين البصرى من المعتزلة (والقول الثانى) ان الانسان عبارة عن أجسام مخصوصة بشرط كونها موصوفة بصفة الحياة والعلم والقدرة والحياة عرض قائم بالجسم وهؤلاء أنكروا الروح والنفس وقالوا ليس ههنا الا أجسام مؤتلفة موصوفة بهذه الاعراض المخصوصة وهى الحياة والعلم والقدرة وهذا مذهب أكثر شيوخ المعتزلة (والقول الثالث) أن الانسان عبارة عن أجسام موصوفة بالحياة والعلم والقدرة والانسان انما يمتاز عن سائر الحيوانات بشكل جسده وهيئة أعضائه وأجزائه الا أن

ماقالوا (سبحان ربى) وقرئ قال سبحان ربى (هل كنت الابشرا) لا ملكا حتى يتصور منى الرقى فى السماء ونحوه (رسولا) مأمورا من قبل ربى بتبليغ الرسالة من غير أن يكون لى خيرة فى الامر كسائر الرسل وكانوا لايأتون قومهم الابما يظهره الله على أيديهم حسبما يلائم حال قومهم ولم يكن امر الآيات اليهم ولا لهم أن يتحكموا على الله سبحانه بشئ منها وقوله بشرا خبر لكنت ورسولا صفته (ومامنع الناس) اى الذين حكيت أباطيلهم (أن يؤمنوا) مفعول ثان لمنع وقوله (اذ جاءهم الهدى) أى الوحى ظرف لمنع أو يؤمنوا أى ومامنعهم وقت مجئ الوحى المقرون

هذا مشكل فان الملائكة قد يتشبهون بصور الناس فههنا صورة الانسان حاصلة مع عدم الانسانية وفى صورة المسخ معنى الانسانية حاصل مع ان هذه الصورة غير حاصلة فقد بطل اعتبار هذا الشكل فى حصول معنى الانسانية طردا وعكسا (أما القسم الثالث) وهو أن يقال الانسان موجود ليس بجسم ولا جسمانية فهو قول أكثر الالهيين من الفلاسفة القائلين ببقاء النفس المثبتين للنفس معادا روحانيا وثوابا وعقابا وحسابا روحانيا وذهب اليه جماعة عظيمة من علماء المسلمين مثل الشيخ أبى القاسم الراغب الاصفهانى والشيخ أبى حامد الغزالى رحمهما الله ومن قدماء المعتزلة معمر بن عباد السلمى ومن الشيعة الملقب عندهم بالشيخ المفيد ومن الكرامية جماعة واعلم أن القائلين باثبات النفس فريقان (الاول) وهم المحققون منهم من قال الانسان عبارة عن هذا الجوهر المخصوص وهذا البدن وعلى هذا التقدير فالانسان غير موجود فى داخل العالم ولا فى خارجه وغير متصل فى داخل العالم ولا فى خارجه وغير متصل بالعالم ولا منفصل عنه ولكنه متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف كما أن اله العالم لا تعلق له بالعالم الا على سبيل التصرف والتدبير (والفريق الثانى) الذين قالوا النفس اذا تعلقت بالبدن اتحدت بالبدن فصارت النفس عين البدن والبدن عين النفس ومجموعهما عند الاتحاد هو الانسان فاذا جاء وقت الموت بطل هذا الاتحاد وبقيت النفس وفسد البدن فهذه جملة مذاهب الناس فى الانسان وكان ثابت بن قرة يثبت النفس ويقول انها متعلقة بأجسام سماوية نورانية لطيفة غير قابلة للكون والفساد والتفرق والتمزق وان تلك الاجسام تكون سارية فى البدن وما دام يبقى ذلك السريان بقيت النفس مدبرة للبدن فاذا انفصلت تلك الاجسام اللطيفة عن جوهر البدن انقطع تعلق النفس عن البدن (المسئلة الخامسة) فى دلائل مثبتى النفس من ناحية العقل احتج القوم بوجوه كثيرة بعضها قوى وبعضها ضعيف والوجوه القوية بعضها قطعية وبعضها اقناعية فلنذكر الوجوه القطعية (الحجة الاولى) لاشك ان الانسان جوهر فاما أن يكون جوهرا متحيزا أو غير متحيز والاول باطل فتعين الثانى والذى يدل على أنه يمتنع أن يكون جوهرا متحيزا أنه لو كان كذلك لكان كونه متحيزا غير تلك الذات ولو كان كذلك لكان كل ما علم الانسان ذاته المخصوصة وجب أن يعلم كونه متحيزا بمقدار مخصوص وليس الامر كذلك فوجب أن لا يكون الانسان جوهرا متحيزا فنفتقر فى تقرير هذا الدليل الى مقدمات ثلاثة (المقدمة الاولى) لو كان الانسان جوهرا متحيزا لكان كونه متحيزا عين ذاته المخصوصة والدليل عليه أنه لو كان تحيزه صفة قائمة لكان ذلك المحل من حيث هو مع قطع النظر عن هذه الصفة اما أن يكون متحيزا أو لا يكون والقسمان باطلان فبطل القول بكون التحيز صفة قائمة بالمحل انما قلنا انه يمتنع أن يكون محل التحيز لانه يلزم كون الشئ الواحد متحيزا مرتين ولانه يلزم اجتماع المثلين ولانه ليس جعل أحدهما ذاتا والآخر صفة أولى من

بالمعجزات المستدعية للايمان أن يؤمنوا بالقرآن وبنبوتك أو ما منعهم أن يؤمنوا بذلك وقت مجئ ما ذكر (الا أن قالوا) فى محل الرفع على أنه فاعل منع أى الا قولهم (أبعث الله بشرا رسولا) منكرين أن يكون رسول الله تعالى من جنس البشر وليس المراد أن هذا القول صدر عن بعضهم فمنع بعضا آخر منهم بل المانع هو الاعتقاد الشامل للكل المستتبع لهذا القول منهم وانما عبر عنه بالقول ايذانا بأنه مجرد قول يقولونه بأفواههم من غير أن يكون له مفهوم ومصداق وحصر

العكس ولان التحيز الثانى ان كان عين الذات فهو المقصود وان كان صفة لزم التسلسل وهو محال وانما قلنا انه يمتنع أن يكون محل التحيز غير متحيز لان حقيقة التحيز هو الذهاب فى الجهات والامتداد فيها والشئ الذى لايكون متحيزا لم يكن له اختصاص بالجهات وحصوله فيها ليس بمتحيز محال فثبت بهذا أنه لو كان الانسان جوهرا متحيزا لكان تحيزه غير ذاته المخصوصة (المقدمة الثانية) لو كان تحيز ذاته المخصوصة عين ذاته المخصوصة لكان متى عرف ذاته المخصوصة فقد عرف كونها متحيزة والدليل عليه أنه لو صارت ذاته المخصوصة معلومة وصار تحيزه مجهولا لزم اجتماع النفى والاثبات فى الشئ الواحد وهو محال (المقدمة الثالثة) انا قد نعرف ذاتنا حال كوننا جاهلين بالتحيز والامتداد فى الجهات الثلاثة وذلك ظاهر عند الاختبار والامتحان فان الانسان حال كونه مشتغلا بشئ من المهمات مثل أن يقول لعبده لم فعلت كذا ولم خالفت أمرى وانى أبالغ فى تأديبك وضربك فعند ما يقول لم خالفت أمرى يكون عالما بذاته المخصوصة اذ لو لم يعلم ذاته المخصوصة لامتنع أن يعلم ان ذلك الانسان خالفه ولامتنع أن يخبر عن نفسه بانه على عزم ان يؤدبه ويضربه ففى هذه الحالة يعلم ذاته المخصوصة مع انه فى تلك الحالة لا يخطر بباله حقيقة التحيز والامتداد فى الجهات والحصول فى الحيز فثبت بما ذكرنا أنه لو كان ذات الانسان جوهرا متحيزا لكان تحيزه عين ذاته المخصوصة ولو كان كذلك لكان كل ما علم ذاته المخصوصة فقد علم التحيز وثبت أنه ليس كذلك فيلزم أن يقال ذات الانسان ليس جوهرا متحيزا وذلك هو المطلوب فان قالوا هذا معارض بانه لو كان ذات الانسان جوهرا مجردا لكان كل من عرف ذات نفسه عرف كونه جوهرا مجردا وليس الامر كذلك قلنا الفرق ظاهر لان كونه مجردا معناه أنه ليس بمتحيز ولا حال فى المتحيز وهذا السلب ليس عين تلك الذات المخصوصة لان السلب ليس عين الثبوت واذا كان كذلك لم يبعد أن تكون تلك الذات المخصوصة معلومة وان لا يكون ذلك السلب معلوما بخلاف كونه متحيزا فانا قد دللنا على أن تقدير كون الانسان جوهرا متحيزا يكون تحيزه عين ذاته المخصوصة وعلى هذا التقدير يمتنع أن تكون ذاته معلومة ويكون تحيزه مجهولا فظهر الفرق (الحجة الثانية) النفس واحدة ومتى كانت واحدة وجب أن تكون مغايرة لهذا البدن ولكل واحد من أجزائه فهذه الحجة مبنية على مقدمات (المقدمة الاولى) هى قولنا النفس واحدة ولنا ههنا مقامان تارة ندعى العلم البديهى فيه وأخرى نقيم البرهان على صحته (أما المقام الاول) وهو ادعاء البديهية فنقول المراد من النفس هو الشئ الذى يشير اليه كل أحد بقوله انا وكل أحد يعلم بالضرورة أنه اذا أشار الى ذاته المخصوصة بقوله أنا كان ذلك المشار اليه واحدا غير متعدد فان قيل لم لا يجوز أن يكون المشار اليه لكل أحد بقوله انا وان كان واحدا الا أن ذلك الواحد يكون مركبا من أشياء كثيرة قلنا انه لا حاجة لنا فى هذا المقام الى دفع هذا السؤال بل نقول المشار اليه بقول انا معلوم بالضرورة أنه شئ

المانع من الايمان فيما ذكر مع أن لهم موانع شتى لما انه معظمها أولانه هو المانع بحسب الحال أعنى عند سماع الجواب بقوله تعالى هل كنت الا بشرا رسولا اذ هو الذى يتشبثون به حينئذ من غير أن يخطر ببالهم شبهة أخرى من شبههم الواهية وفيه ايذان بكمال عنادهم حيث يشير الى أن الجواب المذكور مع كونه حاسما لمواد شبههم ملجئا الى الايمان يعكسون الامر و يجعلونه مانعا منه (قل) لهم أولا من قبلنا تبيينا للحكمة وتحقيقا للحق المزيح للريب (لو كان) أى لو وجد واستقر (فى الارض) بدل البشر (ملائكة يمشون مطمئنين)

واحد فاما أن ذلك الواحد هل هو واحد مركب من أشياء كثيرة أو هو واحد فى نفسه واحد فى حقيقته فهذا الاحاجة اليه فى هذا المقام (أما المقام الثانى) وهو مقام الاستدلال فالذى يدل على وحدة النفس وجوه (الحجة الاولى) ان الغضب حالة نفسانية تحدث عند ارادة دفع المنافر والشهوة حالة نفسانية تحدث عند طلب الملايم مشروطا بالشعور بكون الشئ ملايما ومنافرا فالقوة الغضبية التى هى قوة دافعة للمنافر ان لم يكن لها شعور بكونه منافرا امتنع انبعاثها الدفع ذلك المنافر على سبيل القصد والاختيار لان القصد الى الجذب تارة والى الدفع أخرى مشروط بالشعور بالشئ فالشئ المحكوم عليه بكونه دافعا للمنافر على سبيل الاختيار لابد وأن يكون له شعور بكونه منافرا فالذى يغضب لابد وأن يكون هو بعينه مدركا فثبت بهذا البرهان اليقينى مباينة حاصلة فى ذوات متباينة (الحجة الثانية) انا اذا فرضنا جوهرين مستقلين يكون كل واحد منهما مستقلا بفعله الخاص امتنع أن يصير اشتغال أحدهما بفعله الخاص مانعا للآخر من اشتغاله بفعله الخاص به واذا ثبت هذا فنقول لو كان محل الادراك والفكر جوهرا ومحل الغضب جوهرا آخر ومحل الشهوة جوهرا ثالثا وجب أن لا يكون اشتغال القوة الغضبية بفعلها مانعا للقوة الشهوانية من الاشتغال بفعلها ولا بالعكس لكن الثانى باطل فان اشتغال الانسان بالشهوة وانصبابه اليها يمنعه من الاشتغال بالغضب وانصبابه اليه وبالعكس فعلمنا ان هذه الامور الثلاثة ليست مبادى مستقلة بل هى صفات مختلفة بجوهر واحد فلا جرم كان اشتغال ذلك الجوهر باحد هذه الافعال عائقا له عن الاشتغال بالفعل الآخر (الحجة الثالثة) انا اذا أدركنا اشياء فقد يكون الادراك سببا لحصول الشهوة وقد يصير سببا لحصول الغضب فلو كان الجوهر المدرك مغايرا للذى يغضب والذى يشتهى فحين أدرك الجوهر المدرك لم يحصل عند الجوهر المشتهى من ذلك الادراك اثر ولا خبر فوجب أن لا يترتب على ذلك الادراك لا حصول الشهوة ولا حصول الغضب وحيث حصل هذا الترتيب والاستلزام علمنا ان صاحب الادراك بعينه هو صاحب الشهوة بعينها وصاحب الغضب بعينه (الحجة الرابعة) ان حقيقة الحيوان أنه جسم ذو نفس حساسة متحركة بالارادة فالنفس لا يمكنها أن تتحرك بالارادة الا عند حصول الداعى ولا معنى للداعى الا الشعور بخير يرغب فى جذبه أو بشر يرغب فى دفعه وهذا يقتضى أن يكون المتحرك بالارادة هو بعينه مدركا للخير والشر والملذ والمؤذى والنافع والضار فثبت بما ذكرنا ان النفس الانسانية شئ واحد وثبت ان ذلك الشئ هو المبصر والسامع والشام والذائق واللامس والمتخيل والمتفكر والمتذكر والمشتهى والغاضب وهو الموصوف بجميع الادراكات لكل المدركات وهو الموصوف بجميع الافعال الاختيارية والحركات الارادية (وأما المقدمة الثانية) فى بيان انه لما كانت النفس شيئا واحدا وجب أن لا تكون النفس فى هذا البدن ولا شيئا من أجزائه فنقول أما بيان انه متى كان الامر

فارين فيهما من غير أن يعرجوا فى السماء ويعلموا ما يجب أن يعلم (لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) يهديهم الى الحق و يرشدهم الى الخير لتمكنهم من الاجتماع والتلقى منه وأما عامة البشر فهم بمعزل من استحقاق المفاوضة الملكية كيف لا وهى منوطة بالتناسب والتجانس فبعث الملك اليهم مزاحم للحكمة التى عليها مبنى التكوين والتشريع وانما يبعث الملك من بينهم الى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحانى والجسمانى ليتلقوا من جانب و يلقوا الى جانب وقوله تعالى

كذلك امتنع كون النفس عبارة عن جملة هذا البدن وكذا القوة السامعة وكذا سائر القوى كالتخيل والتذكر والتفكر والعلم بان هذه القوى غير سارية في جملة أجزاء البدن علم بديهي بل هو من أقوى العلوم البديهية وأما بيان أنه يمتنع أن تكون النفس جزأ من أجزاء هذا البدن فانا نعلم بالضرورة أنه ليس في البدن جزء واحد هو بعينه موصوف بالابصار والسماع والفكر والذكر بل الذي يتبادر الى الخاطر ان الابصار مخصوص بالعين لا بسائر الاعضاء والسماع مخصوص بالاذن لا بسائر الاعضاء والصوت مخصوص بالحلق لا بسائر الاعضاء وكذلك القول في سائر الادراكات وسائر الافعال فاما ان يقال انه حصل في البدن جزء واحد موصوف بكل هذه الادراكات و بكل هذه الافعال فالعلم الضروري حاصل بانه ليس الامر كذلك فثبت بما ذكرنا ان النفس الانسانية شيء واحد موصوف بجملة هذه الادراكات و بجملة هذه الافعال وثبت بالبديهة ان جملة البدن ليست كذلك وثبت أيضا ان شيئا من أجزاء البدن ليس كذلك فحينئذ يحصل اليقين بان النفس شيء مغاير لهذا البدن ولكل واحد من أجزائه وهو المطلوب ولنقرر هذا البرهان بعبارة أخرى فنقول انا نعلم بالضرورة انا اذا أبصرنا شيئا عرفناه واذا عرفناه أشتهيناه واذا اشتهيناه حركنا أبداننا الى القرب منه فوجب القطع بان الذي أبصر هو الذي عرف وان الذي عرف هو الذي اشتهى وان الذي اشتهى هو الذي حرك الى القرب منه فيلزم القطع بان المبصر لذلك الشيء والعارف به والمشتهي والمحرك الى القرب منه شيء واحد اذ لو كان المبصر شيئا والعارف شيئا ثانيا والمشتهي شيئا ثالثا والمحرك شيئا رابعا لكان الذي أبصر لم يعرف والذي عرف لم يشته والذي اشتهى لم يتحرك ومن المعلوم ان كون الشيء مبصرا لشيء لا يقتضي صيرورة شيء آخر عالما بذلك الشيء وكذلك القول في سائر المراتب وأيضا فانا نعلم بالضرورة ان الرائي للمرئيات لما رآها فقد عرفها ولما عرفها فقد اشتهاها ولما اشتهاها طلبها وحرك الاعضاء الى القرب منها ونعلم أيضا بالضرورة ان الموصوف بهذه الرؤية و بهذا العلم و بهذه الشهوة و بهذا التحرك هو لا غيره وأيضا العقلاء قالوا الحيوان لا بد أن يكون حساسا متحركا بالارادة فانه ان لم يحس بشيء لم يشعر بكونه ملايما أو بكونه منافرا واذا لم يشعر بذلك امتنع كونه مريدا للجذب أو الدفع فثبت ان الشيء الذي يكون متحركا بالارادة فانه بعينه يجب أن يكون حساسا فثبت ان المدرك لجميع المدركات يدرك بجميع أصناف الادراكات وان المباشر لجميع التحريكات الاختيارية شيء واحد وأيضا فلانا اذا تكلمنا بكلام نقصد تفهيم الغير معاني تلك الكلمات ثم لما عقلناها أردنا تعريف غيرنا تلك المعاني ولما حصلت هذه الارادة في قلوبنا حاولنا ادخال تلك الحروف والاصوات في الوجود لنتوسل بها الى تعريف غيرنا تلك المعاني اذا ثبت هذا فنقول ان كان محل العلم والارادة ومحل تلك الحروف والاصوات جسما واحدا لزم أن يقال ان محل العلوم والارادات هو الحنجرة

ملكا يحتمل أن يكون حالا من رسولا وان يكون موصوفا به وكذلك بشرا في قوله تعالى أبعث الله بشرا رسولا والاول أولى (قل) لهم ثانيا من جهتك بعد ما قلت لهم من قبلنا ما قلت و بينت لهم ما تقتضيه الحكمة في البعثة ولم يرفعوا اليه رأسا (كفى بالله) وحده (شهيدا) على اني أديت ما علي من مواجب الرسالة أكمل أداء وأنكم فعلتم ما فعلتم من التكذيب والعناد وتوجيه الشهادة الى كونه عليه السلام رسولا باظهار المعجزة على وفق دعواه كما اختير لا يساعده قوله تعالى (بيني و بينكم) وما بعده من التعليل وانما لم يقل بيننا تحقيقا

واللهاة واللسان ومعلوم أنه ليس كذلك وان قلنا محل العلوم والارادات هو القلب لزم أيضا ان يكون محل الصوت هو القلب وذلك أيضا باطل بالضرورة وان قلنا محل الكلام هو الحنجرة واللهاة واللسان ومحل العلوم والارادات هو القلب ومحل القدرة هو الاعصاب والاوتار والعضلات كنا قد وزعنا هذه الامور على هذه الاعضاء المختلفة لكنا أبطلنا ذلك وبينا ان المدرك لجميع المدركات والمحرك لجميع الاعضاء بكل أنواع التحريكات يجب أن يكون شيئا واحدا فلم يبق الا أن يقال فى الادراك والقدرة على التحريك شىء سوى هذا البدن وسوى أجزاء هذا البدن وان هذه الاعضاء جارية مجرى الآلات والادوات فكما ان الانسان يفعل أفعالا مختلفة بواسطة آلات مختلفة فكذلك النفس تبصر بالعين وتسمع بالاذن وتتفكر بالدماغ وتعقل بالقلب فهذه الاعضاء آلات النفس وأدوات لها والنفس جوهر مغاير لها مفارق عنها بالذات متعلق بها تعلق التصرف والتدبير وهذا البرهان برهان شريف يقينى فى ثبوت هذا المطلوب والله أعلم (المقدمة الثالثة) لو كان الانسان عبارة عن هذا الجسد لكان اما أن يقوم بكل واحد من الاجزاء حياة وعلم وقدرة على حدة واما أن يقوم بمجموع الاجزاء حياة وعلم وقدرة والقسمان باطلان فبطل القول بكون الانسان عبارة عن هذا الجسد أما ابطلان القسم الاول فلانه يقتضى كون كل واحد من اجزاء الجسد حيا عالما قادرا على سبيل الاستقلال فوجب أن لا يكون الانسان الواحد حيوانا واحدا بل أحياء عالمين قادرين وحينئذ لا يبقى فرق بين الانسان الواحد وبين أشخاص كثيرين من الناس ربط بعضهم بالبعض بالسلسل لكنا نعلم بالضرورة فساد هذا الكلام لانى أجد ذاتى ذاتا واحدة لا حيوانات كثيرين وأيضا فبتقدير أن يكون كل واحد من أجزاء هذا الجسد حيوانا واحدا على حدة فحينئذ لا يكون لكل واحد منهما خبر عن حال صاحبه فلا يمتنع ان يريد هذا أن يتحرك الى هذا الجانب ويريد الجزء الآخر أن يتحرك الى الجانب الآخر فحينئذ يقع التدافع بين أجزاء بدن الانسان الواحد كما يقع بين شخصين وفساد ذلك معلوم بالبديهة وأما ابطلان القسم الثانى فلانه يقتضى قيام الصفة الواحدة بالمحال الكثيرة وذلك معلوم البطلان بالضرورة ولانه لو جاز حلول الصفة الواحدة فى المحال الكثيرة لم يبعد أيضا حصول الجسم الواحد فى الاحياز الكثيرة ولان بتقدير ان تحصل الصفة الواحدة فى المحال المتعددة فحينئذ يكون كل واحد من تلك الاجزاء حيا عاقلا عالما فيتجرد الامر الى كون هذه الجثة الواحدة اناسا كثيرين ولما ظهر فساد القسمين ثبت ان الانسان ليس هو هذه الجثة فان قالوا لم لا يجوز أن تقوم الحياة الواحدة بالجزء الواحد ثم ان تلك الحياة تقتضى صيرورة جملة الاجزاء أحياء قلنا هذا باطل لانه لا معنى للحياة الا الحيية ولا معنى للعلم الا العالمية وبتقدير ان نساعد على ان الحياة معنى يوجب الحيية والعلم معنى يوجب العالمية الا انا نقول ان حصل فى مجموع جثة مجموع حياة واحدة

للمفارقة وابانة للمباينة وشهيدا اما حال أو تمييز (انه كان بعباده) من الرسل والمرسل اليهم (خبيرا بصيرا) محيطا بظواهر أحوالهم وبواطنها فيجازيهم على ذلك وهو تعليل للكفاية وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديد للكفار (ومن يهد الله) كلام مبتدأ يفصل ما أشار اليه الكلام السابق من مجازاة العباد اشارة اجمالية أى من يهده الله الى الحق بما جاء من قبله من الهدى (فهو المهتد) اليه والى ما يؤدى اليه من الثواب أو المهتد الى كل مطلوب (ومن يضلل) أى يخلق فيه الضلال بسوء اختياره

﴿ وعالمية ﴾

وعالمة واحدة فقد حصلت الصفة الواحدة فى المحال الكثيرة وهو محال وان حصل فى كل جزء وجثة حياة على حدة وعالمة على حدة عاد ماذكرنا من كون الانسان الواحد اناسا كثيرين وهو محال (المقدمة الرابعة) انا لما تأملنا فى أحوال النفس رأينا أحوالها بالضد من أحوال الجسم وذلك يدل على ان النفس ليست جسما وتقريرهذه المنافاة من وجوه (الاول) ان كل جسم حصلت فيه صورة فانه لا يقبل صورة أخرى من جنس الصورة الاولى الا بعد زوال الصورة الاولى زوالا تاما مثاله ان الشمع اذا حصل فيه شكل التثليث امتنع أن يحصل فيه شكل التربيع والتدوير الا بعد زوال الشكل الاول عنه ثم انا وجدنا الحال فى تصور النفس بصور المعقولات بالضد من ذلك فان النفس التى لم تقبل صورة عقلية البتة يبعد قبولها الشئ من الصور العقلية فاذا قبلت صورة واحدة صار قبولها للصورة الثانية أسهل ثم ان النفس لا تزال تقبل صورة بعد صورة من غير أن تضعف البتة بل كلما كان قبولها للصور أكثر صار قبولها للصور الآتية بعد ذلك أسهل وأسرع ولهذا السبب يزداد الانسان فهما وادراكا كلما ازداد تخرجا وارتباطا فى العلوم فثبت أن قبول النفس الصور العقلية على خلاف قبول الجسم للصور وذلك يوهم أن النفس ليست بجسم (والثانى) أن المواظبة على الافكار الدقيقة لها أثر فى النفس وأثر فى البدن أما أثرها فى النفس فهو تأثيرها فى اخراج النفس من القوة الى الفعل فى التعقلات والادراكات وكلما كانت الافكار أكثر كان حصول هذه الاحوال أكمل وذلك غاية كمالها ونهاية شرفها وجلالتها وأما أثرها فى البدن فهو انها توجب استيلاء اليبس على البدن واستيلاء الذبول عليه وهذه الحالة لو استمرت لانتقلت الى الماخوليا وسوق الموت فثبت بما ذكرنا أن هذه الافكار توجب حياة النفس وشرفها وتوجب نقصان البدن وموته فلو كانت النفس هى البدن لصار الشئ الواحد سببا لكماله ونقصانه معا ولحياته وموته معا وانه محال (والثالث) انا اذا شاهدنا انه ربما كان بدن الانسان ضعيفا نحيفا فاذا لاح له نور من الانوار القدسية وتجلى له سر من أسرار عالم الغيب حصل لذلك الانسان جراءة عظيمة وسلطنة قوية ولم يعبأ بحضور اكابر السلاطين ولم يقم لهم وزنا ولولا أن النفس شئ سوى البدن لما كان الامر كذلك (الرابع) أن أصحاب الرياضات والمجاهدات كلما أمعنوا فى قهر القوى البدنية وتجويع الجسد قويت قواهم الروحانية وأشرقت أسرارهم بالمعارف الالهية وكلما أمعن الانسان فى الاكل والشرب وقضاء الشهوة الجسدانية صار كالبهيمة وبقى محروما عن آثار النطق والعقل والفهم والمعرفة ولولا أن النفس غير البدن لما كان الامر كذلك (الخامس) انا نرى ان النفس تفعل أفاعيلها بآلات بدنية فانها تبصر بالعين وتسمع بالاذن وتأخذ باليد وتمشى بالرجل أما اذا آل الامر الى العقل والادراك فانها مستقلة بذاتها فى هذا الفعل من غير اعانة شئ من الآلات ولذلك فان الانسان لا يمكنه ان يبصر شيئا اذا غمض عينيه وأن لا يسمع

كهؤلاء المعاندين (فلن تجد لهم) أوثر ضمير الجماعة اعتبار المعنى من غيهما أوثر فى مقابله الافراد نظرا الى لفظها تلويحا بوحدة طريق الحق وقلة سالكيه وتعدد سبل الضلال وكثرة الضلال (أولياء من دونه) من دون الله تعالى أى انصارا يهدونهم الى طريق الحق أو الى طريق يوصلهم الى مطالبهم الدنيوية والاخروية أو الى طريق النجاة من العذاب الذى يستدعيه ضلالهم على معنى لن تجد لاحد منهم وليا على ما تقتضيه قضية مقابلة الجمع بالجمع من انقسام الآحاد الى الآحاد (ونحشرهم) التفات من الغيبة الى التكلم ايذانا بكمال

صوتاافاسد أذنيه امالايمكنه البتة أن يزيل عن قلبه العلم بماكان عالمابه فعلنا ان النفس غنيـــة بذاتها فى العلوم والمعارف عن شئ من الآلات البدنية فهذه الوجوه الخمسة أمارات قوية فى أن النفس ليست بجسم وفى المسئلة الاولى كثير من دلائل المتقدمين ذكرناها فى كتبنا الحكمية فلافائدة فى الاعادة (المسئلة السادسة) فى اثبات أن النفس ليست بجسم من الدلائل السمعيـــة (الحجـــة الاولى) قوله تعـــالى ولاتكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ومعلوم أن أحدا من العقلاء لاينسى هـــذا الهيكل المشاهد فدل ذلك على أن النفس التى ينساها الانسان عند فرط الجهل شئ آخر غير هذا البدن (الحجة الثانية) قوله تعالى أخرجوا أنفسكم وهذا صريح أن النفس غير البدن وقد استقصينا فى تفسير هذه فليرجع اليه (الحجة الثالثة) أنه تعالى ذكر مراتب الخلقة الجسمانية فقال ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين الى قوله فكسونا العظام لحما ولاشك ان جميع هذه المراتب اختلافات واقعة فى الاحوال الجسمانية ثم انه تعالى لما أراد أن يذكر نفخ الروح قال ثم أنشأناه خلقا آخر وهذا تصريح بأن مايتعلق بالروح جنس مغاير لماسبق ذكره من التغيرات الواقعـــة فى الاحوال الجسمانية وذلك يدل على أن الروح شئ مغاير للبدن فان قالوا هذه الآية حجة عليكم لانه تعالى قال ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين وكلمة من للتبعيض وهذا يدل على أن الانسان بعض من ابعاض الطين قلنا كلمة من أصلها الابتداء الغاية كقولك خرجت من البصرة الى الكوفة فقوله تعالى ولقـــد خلقنا الانسان من سلالة من طين يقتضى أن يكون ابتداء تخليق الانسان حاصلا من هذه السلالة ونحن نقول بموجبه لانه تعالى يسوى المزاج أولا ثم ينفخ فيه الروح فيكون ابتداء تخليقه من السلالة (الحجـــة الرابعة) قوله فاذا سويته ونفخت فيه من روحى ميز تعالى بين البشرية وبين نفخ الروح فالتسوية عبارة عن تخليق الابعاض والاعضاء وتعديل المزاج والاشباح فلما ميز نفخ الروح عن تسوية الاعضاء ثم أضاف الروح الى نفسه بقوله من روحى دل ذلك على ان جوهر الروح معنى مغاير لجوهر الجسد (الحجة الخامسة) قوله تعالى ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها وهـــذه الآية صريحة فى وجود شئ موصوف بالادراك والتحريك معا لان الالهام عبارة عن الادراك وأما الفجور والتقوى فهو فعل وهـــذه الآية صريحة فى ان الانسان شئ واحد وهو موصوف بالادراك والتحريك وموصوف أيضا بفعل الفجور تارة وفعل التقوى تارة أخرى ومعلوم ان جملة البدن غير موصوف بهذين الوصفين فلابد من اثبات جوهر آخر يكون موصوفا بكل هذه الامور (الحجة السادسة) قوله تعالى انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا فهذا تصريح بأن الانسان شئ واحد وذلك الشئ هو المبتلى بالتكاليف الالهية والامور الربانية وهو الموصوف بالسمع والبصر ومجموع البدن ليس كذلك وليس عضو من أعضاء

الاعتناء بأمر الحشر (يوم القيـــامة عـــلى وجوههم) حال من الضمير المنصوب أى كائنين عليها سحبا كقوله تعـــالى يوم يسحبون فى النار على وجوههم أومشيا فقد روى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يمشون على وجوههم قال ان الذى أمشاهم على أقدامهـــم قادر على أن يمشيهم على وجوههم (عميا) حال من الضمير المجرور فى الحال السابقة (وبكما وصمـــا) لايبصرون مايقر أعينهم ولاينطقون مايقبل منهم ولا يسمعـــون مايلذ مسامعهم لماقد كانوا فى الدنيا لايستبصرون بالآيات والعبر ولاينطقون بالحق ولا يستمعـــونه ويجوز أن يحشروا

البدن كذلك فالنفس شئ مغاير لجملة البدن ومغاير اجزاء البدن وهو موصوف بكل هذه الصفات واعلم أن الاحاديث الواردة فى صفة الارواح قبل تعلقها بالاجساد و بعد انفصالها من الاجساد كثيرة وكل ذلك يدل على ان النفس شئ غير هذا الجسد والتعجب ممن يقرأ هذه الآيات الكثيرة و يروى هذه الاخبار الكثيرة ثم يقول توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان يعرف الروح وهذا من العجائب والله اعلم (المسئلة السابعة) فى دلالة الآية التى نحن فى تفسيرها على صحة ماذكرناه أن الروح لو كانت جسما منتقلا من حالة الى حالة ومن صفة الى صفة لكان مساويا للبدن فى كونه متولدا من أجسام اتصفت بصفات مخصوصة بعد ان كانت موصوفة بصفات اخرى فاذا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح وجب أن يبين أنه جسم كان كذا ثم صار كذا حتى صار روحا مثل ماذكر فى كيفية تولد البدن أنه كان نطفة ثم علقة ثم مضغة فلما لم يقل ذلك بل قال انه من أمر ربى بمعنى أنه لا يحدث ولا يدخل فى الوجود الا لاجل أن الله تعالى قال له كن فيكون دل ذلك على أنه جوهر ليس من جنس الاجسام بل هو جوهر قدسى مجرد واعلم أن أكثر العارفين المكاشفين من أصحاب الرياضات وأرباب المكاشفات والمشاهدات مصرون على هذا القول جازمون بهذا المذهب قال الواسطى خلق الله الارواح من بين الجمال والبهاء فلولا أنه سترها لسجد لها كل كافر واما بيان أن تعلقه الاول بالقلب ثم بواسطته يصل تأثيره الى جملة الاعضاء فقد شرحناه فى تفسير قوله تعالى نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين واحتج المنكرون بوجوه (الاول) لو كانت مساوية لذات الله فى كونه ليس بجسم ولا عرض لكانت مساوية له فى تمام الماهية وذلك محال (الثانى) قوله تعالى قتل الانسان ما أكفره من أى شئ خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم اذا شاء أنشره وهذا تصريح بأن الانسان شئ مخلوق من النطفة وأنه يموت و يدخل القبر ثم انه تعالى يخرجه من القبر ولو لم يكن الانسان عبارة عن هذه الجثة والا لم تكن الاحوال المذكورة فى هذه الآية صحيحة (الثالث) قوله ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله الى قوله يرزقون فرحين وهذا يدل على ان الروح جسم لان الارزاق والفرح من صفات الاجسام (الجواب عن الاول) ان المساواة فى أنه ليس بمتحيز ولا حال فى المتحيز مساواة فى صفة سلبية والمساواة فى الصفة السلبية لا توجب المماثلة واعلم ان جماعة من الجهال يظنون أنه لما كان الروح موجودا ليس بمتحيز ولا حال فى المتحيز وجب أن يكون مثلا للاله أو جزأ للاله وذلك جهل فاحش وغلط قبيح وتحقيقه ماذكرناه من أن المساواة فى السلوب لو أوجبت المماثلة لوجب القول باستواء كل المختلفات وان كل ماهيتين مختلفتين فلا بد أن يشتركا فى سلب كل ماعداهما عنهما فلتكن هذه الدقيقة معلومة فانها مغلطة عظيمة للجهال (والجواب عن الثانى) أنه لما كان الانسان فى العرف والظاهر عبارة عن هذه الجثة اطلق عليه اسم الانسان فى العرف

بعد الحساب من الموقف الى النار موفى القوى والحواس وان يحشروا كذلك ثم يعاد اليهم قواهم وحواسهم فان ادراكاتهم بهذه المشاعر فى بعض المواطن مما لا ريب فيه (مأواهم جهنم) اما حال أو استئناف وكذا قوله تعالى (كلما خبت زدناهم سعيرا) أى كلما سكن لهبها بأن أكلت جلودهم و لحومهم ولم يبق فيهم ما يتعلق به النار وتحرقه زدناهم توقدا بأن بدلناهم جلودا غيرها فعادت ملتهبة ومستعرة ولعل ذلك عقوبة لهم على انكارهم الاعادة بعد الفناء بتكريرها مرة بعد أخرى ليروها عيانا حيث لم يعلموها برهانا كما يفصح عنه

(والجواب عن الثالث) أن الرزق المذكور في الآية محمول على ما يقوى حالهم و يكمل كمالهم وهو معرفة الله ومحبته بل نقول هذا من أدل الدلائل على صحة قولنا لان أبدانهم قد بليت تحت التراب والله تعالى يقول ان أرواحهم تأوى الى قناديل معلقة تحت العرش وهذا يدل على أن الروح غير البدن وليكن هذا آخر كلامنا في هذا الباب ولنرجع الى علم التفسير * ثم قال تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلا وعلى قولنا قد ذكرنا فيه احتمالين أما المفسرون فقالوا ان النبي صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا فقال عليه الصلاة والسلام بل نحن وأنتم لم نؤت من العلم الا قليلا فقالوا ما أعجب شأنك يا محمد ساعة تقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وساعة تقول هذا فنزل قوله ولو ان ما في الارض من شجرة أقلام الى آخره وما ذكروه ليس بلازم لان الشئ قد يكون قليلا بالنسبة الى شئ كثيرا بالنسبة الى شئ آخر فالعلوم الحاصلة عند الناس قليلة جدا بالنسبة الى علم الله و بالنسبة الى حقائق الاشياء ولكنها كثيرة بالنسبة الى الشهوات الجسمانية واللذات الجسدانية * قوله تعالى (ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا اليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا الا رحمة من ربك ان فضله كان عليك كبيرا) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الاولى انه ما آتاهم من العلم الا قليلا بين في هذه الآية أنه لو شاء أن يأخذ منهم ذلك القليل أيضا لقدر عليه وذلك بان يمحو حفظه من القلوب وكتابته من الكتب وهذا وان كان أمرا مخالفا للعادة الا أنه تعالى قادر عليه (المسئلة الثانية) احتج الكعبى بهذه الآية على أن القرآن مخلوق فقال والذى يقدر على ازالته والذهاب به يستحيل أن يكون قديما بل يجب أن يكون محدثا وهذا الاستدلال بعيد لان المراد بهذا الاذهاب ازالة العلم به عن القلوب وازالة النقوش الدالة عليه من المصحف وذلك لا يوجب كون ذلك المعلوم المدلول محدثا وقوله ثم لا تجد لك به علينا وكيلا أى لا تجد من تتوكل عليه في رد شئ منه ثم قال الا رحمة من ربك أى الا أن يرحمك ربك فيرده عليك أو يكون على الاستثناء المنقطع بمعنى ولكن رحمة ربك تركته غير مذهوب به وهذا امتنان من الله ببقاء القرآن على انه تعالى من على جميع العلماء بنوعين من المنة (أحدهما) تسهيل ذلك العلم عليه (الثانى) ابقاء حفظه عليه وقوله ان فضله كان عليك كبيرا فيه قولان (الاول) المراد ان فضله كان عليك كبيرا بسبب ابقاء العلم والقرآن عليك (الثانى) المراد ان فضله كان عليك كبيرا بسبب أنه جعلك سيد ولد آدم وختم بك النبيين وأعطاك المقام المحمود فلما كان كذلك لا جرم أنعم عليك أيضا بابقاء العلم والقرآن عليك * قوله تعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انا في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله بالغنا في بيان اعجاز القرآن

قوله تعالى (ذلك) أى ذلك العذاب (جزاؤهم بأنهم) أي بسبب أنهم (كفروا بآياتنا) العقلية والنقلية الدالة على صحة الاعادة دلالة واضحة فذلك مبتدأ وجزاؤهم خبره ويجوز أن يكون مبتدأ ثانيا وبأنهم خبره والجملة م خبرا لذلك وأن يكون جزاؤهم بدلا من ذلك أو بيانا له والخبر هو الظرف (وقالوا) منكرين أشد الانكار (أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) اما مصدر مؤكد من غير لفظه أى لمبعوثون بعثا جديدا واما حال أى مخلوقين مستأنفين (أولم يروا) أى ألم يتفكروا ولم يعلموا

وللناس فيه قولان منهم من قال القرآن معجز فى نفسه ومنهم من قال انه ليس فى نفسه معجزا الا أنه تعالى لما صرف دواعيهم عن الاتيان بمعارضته مع ان تلك الدواعى كانت قوية كانت هذه الصرفة معجزة والمختار عندنا فى هذا الباب أن نقول القرآن فى نفسه اما أن يكون معجزا أو لا يكون فان كان معجزا فقد حصل المطلوب وان لم يكن معجزا بل كانوا قادرين على الاتيان بمعارضته وكانت الدواعى متوفرة على الاتيان بهذه المعارضة وما كان لهم عنها صارف ومانع وعلى هذا التقدير كان الاتيان بمعارضته واجبا لازما فعدم الاتيان بهذه المعارضة مع التقديرات المذكورة يكون نقضا للعادة فيكون معجزا فهذا هو الطريق الذى نختاره فى هذا الباب (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول هب أنه قد ظهر عجز الانسان عن معارضته فكيف عرفتم عجز الجن عن معارضته وأيضا فلم لا يجوز أن يقال ان هذا الكلام نظم الجن ألقوه على محمد صلى الله عليه وسلم وخصوه به على سبيل السعى فى اضلال الخلق فعلى هذا انما تعرفون صدق محمد صلى الله عليه وسلم اذا عرفتم ان محمدا صادق فى قوله انه ليس من كلام الجن بل هو من كلام الله تعالى فحينئذ يلزم الدور وليس لاحد أن يقول كيف يعقل أن يكون هذا من قول الجن لانا نقول ان هذه الآية دلت على وقوع التحدى مع الجن وانما يحسن هذا التحدى لو كانوا فصحاء بلغاء ومتى كان الامر كذلك كان الاحتمال المذكور قائما أجاب العلماء عن الاول بان عجز البشر عن معارضته يكفى فى اثبات كونه معجزا وعن الثانى ان ذلك لو وقع لوجب فى حكمة الله أن يظهر ذلك التلبيس وحيث لم يظهر ذلك دل على عدمه وعلى انه تعالى قد أجاب عن هذا السؤال بالاجوبة الشافية الكافية فى آخر سورة الشعراء فى قوله هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم وقد شرحنا كيفية هذه الاجوبة هناك فلا فائدة فى الاعادة (المسئلة الثالثة) قالت المعتزلة الآية دالة على ان القرآن مخلوق لان التحدى بالقديم محال وهذه المسئلة قد ذكرناها أيضا بالاستقصاء فى سورة البقرة فلا فائدة فى الاعادة ❊ ثم قال تعالى (ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) وهذا الكلام يحتمل وجوها (أحدها) انه وقع التحدى بكل القرآن كما فى هذه الآية ووقع التحدى أيضا بعشر سور منه كما فى قوله تعالى فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ووقع التحدى بالسورة الواحدة كما فى قوله تعالى فأتوا بسورة من مثله ووقع التحدى بكلام من سورة واحدة كما فى قوله فليأتوا بحديث مثله فقوله ولقد صرفنا للناس فى هـذا القرآن من كل مثل يحتمل أن يكون المراد منه التحدى كما شرحناه ثم انهم مع ظهور عجزهم فى جميع هذه المراتب بقوا مصرين على كفرهم (وثانيها) أن يكون المراد من قوله ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل انا أخبرناهم بان الذين بقوا مصرين على الكفر مثل قوم نوح وعاد وثمود كيف ابتلاهم بانواع البلاء وشرحنا هذه الطريقة مرارا وأطوارا ثم ان هؤلاء الاقوام يعنى أهل مكة لم ينتفعوا بهذا البيان بل بقوا مصرين على الكفر

(أن الله الذى خلق السموات والارض) من غير مادة مع عظمهم (قادر على أن يخلق مثلهم) فى الصغر على أن المثل مقحم والمراد بالخلق الاعادة كما عبر عنها بذلك حيث قيل خلقا جديدا (وجعل لهم أجلا لا ريب فيه) عطف على أولم يروا فانه فى قوة قد رأوا والمعنى قد علموا أن من قدر على خلق السمـوات والارض فهو قادر على خلق أمثـالهم من الانس وجعل لهم ولبعثهم أجلا محققا لا ريب فيه هو يوم القيامة (فأبى الظالمون) وضع موضع الضمير تسجيلا عليهم بالظلم وتجاوز الحد بالمرة (الا كفورا) أى جحودا (قل لو أنتم

(وثالثها) أن يكون المراد انه تعالى ذكر دلائل التوحيد ونفى الشركاء والاضداد فى هذا القرآن مرارا كثيرة وذكر شبهات منكرى النبوة والمعاد مرارا وأطوارا وأجاب عنها ثم أردفها بذكر الدلائل القاطعة على صحة النبوة والمعاد ثم ان هؤلاء الكفار لم ينتفعوا بسماعها بل بقوا مصرين على الشرك وانكار النبوة * ثم قال تعالى (فابى أكثر الناس الا كفورا) يريد أكثر أهل مكة الا كفورا أى جحودا للحق وذلك انهم أنكروا ما لا حاجة الى اظهاره فان قيل كيف جاز فابى أكثر الناس الا كفورا ولا يجوز أن يقال ضربت الا زيدا قلنا لفظ أبى يفيد النفى كأنه قيل فلم يرضوا الا كفورا * قوله تعالى (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا) اعلم انه تعالى لما بين بالدليل كون القرآن معجزا وظهر هذا المعجز على وفق دعوى محمد صلى الله عليه وسلم فحينئذ تم الدليل على كونه نبيا صادقا لانا نقول ان محمدا ادعى النبوة وظهر المعجز على وفق دعواه وكل من كان كذلك فهو نبى صادق فهذا يدل على ان محمدا صلى الله عليه وسلم صادق وليس من شرط كونه نبيا صادقا تواتر المعجزات الكثيرة وتواليها لانا لو فتحنا هذا الباب لزم أن لا ينتهى الامر فيه الى مقطع وكلما أتى الرسول بمعجز اقترحوا عليه معجزا آخر ولا ينتهى الامر فيه الى حد ينقطع عنده عناد المعاندين وتغلب الجاهلين لانه تعالى حكى عن الكفار أنهم بعد أن ظهر كون القرآن معجزا التمسوا من الرسول صلى الله عليه وسلم ستة أنواع من المعجزات القاهرة كما حكى عن ابن عباس ان رؤساء أهل مكة أرسلوا الى الرسول صلى الله عليه وسلم وهم جلوس عند الكعبة فأتاهم فقالوا يا محمد ان أرض مكة ضيقة فسير جبالها لننتفع فيها وفجر لنا فيها ينبوعا أى نهرا وعيونا نزرع فيها فقال لا أقدر عليه فقال قائل منهم أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا فقال لا أقدر عليه فقيل أو يكون لك بيت من زخرف أى من ذهب فيغنيك عنا فقال لا أقدر عليه فقيل له أما تستطيع ان تأتى قومك بما يسألونك فقال لا أستطيع قالوا فاذا كنت لا تستطيع الخير فاستطع الشر فأسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أى قطعا بالعذاب وقوله كما زعمت اشارة الى قوله اذا السماء انشقت اذا السماء انفطرت فقال عبد الله بن أمية المخزومى وأمه عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا والذى يحلف به لا أومن بك حتى تشد سلما فتصعد فيه ونحن ننظر اليك فتأتى باربعة من الملائكة يشهدون لك بالرسالة ثم بعد ذلك لا أدرى أنؤمن بك أم لا فهذا شرح هذه القصة كما رواها ابن عباس (المسئلة الثانية) اعلم انهم اقترحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنواعا من المعجزات (أولها) قولهم حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا قرأ عاصم وحمزة والكسائى تفجر بفتح التاء وسكون الفاء وضم الجيم مخففة واختاره أبو حاتم

تملكون خزائن رحمة ربى) خزائن رزقه التى افاضها على كافة الموجودات وأنتم مرتفع بفعل يفسره المذكور كقول حاتم لو ذات سوار لطمتنى وفائدة ذلك المبالغة والدلالة على الاختصاص (اذن لأمسكتم) لبخلتم (خشية الانفاق) مخافة النفاد بالانفاق اذ ليس فى الدنيا أحد الا وهو يختار النفع لنفسه ولو آثر غيره بشئ فانما يؤثره لعوض يفوقه فاذن هو بخيل بالاضافة الى جود الله سبحانه (وكان الانسان قتورا) مبالغا فى البخل لان مبنى أمره على الحاجة والضنة بما يحتاج اليه وملاحظة العوض بما يبذله (ولقد آتينا موسى

قال لان الينبوع واحد والباقون بالتشديد واختاره أبو عبيدة ولم يختلفوا فى الثانية مشددة لاجل الانهار لانها جمع يقال فجرت الماء فجرا وفجرته تفجيرا فمن ثقل أراد به كثرة الانفجار من الينبوع وهو وان كان واحدا فلكثرة الانفجار فيه يحسن أن يثقل كما تقول ضرب زيد اذا كثر الضرب منه فيكثر فعله وان كان الفاعل واحدا ومن خفف فلأن الينبوع واحد وقوله ينبوعا يعنى عينا ينبع الماء منه تقول نبع الماء ينبع نبعا ونبوعا ونبعا ذكره الفراء قال القوم ازل عنا جبال مكة وفجرلنا الينبوع ليسهل علينا أمر الزراعة والحراثة (وثانيها) قولهم أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا والتقدير كأنهم قالوا هب انك لا تفجر هذه الانهار لاجلنا ففجرها من أجلك (وثالثها) قولهم أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن عامر كسفا بفتح السين ههنا وفى سائر القرآن بسكونها وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم ههنا وفى الروم بفتح السين وفى باقى القرآن بسكونها وقرأ حفص فى سائر القرآن بالفتح الا فى الروم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائى فى الروم بفتح السين وفى سائر القرآن بسكون السين قال الواحدى رحمه الله كسفا فيه وجهان من القراءة سكون السين وفتحها قال أبو زيد يقال كسفت الثوب أكسفه كسفا اذا قطعته قطعا وقال الليث الكسف قطع العرقوب والكسفة القطعة وقال الفراء سمعت اعرابيا يقول لبزاز أعطنى كسفة يريد قطعة فمن قرأ بسكون السين احتمل قوله وجوها (أحدها) قال الفراء أن يكون جمع كسفة مثل دمنة ودمن وسدرة وسدر (وثانيها) قال أبو على اذا كان المصدر الكسف فالكسف الشئ المقطوع كما تقول فى الطحن والطبخ والسقى ويؤكد هذا قوله وان يروا كسفا من السماء ساقطا (وثالثها) قال الزجاج من قرأ كسفا كأنه قال أو يسقطها طبقا علينا واشتقاقه من كسفت الشئ اذا غطيته وأما فتح السين فهو جمع كسفة مثل قطعة وقطع وسدرة وسدر وهو نصب على الحال فى القراءتين جميعا كأنه قيل أو تسقط السماء علينا مقطعة (المسئلة الثانية) قوله كما زعمت فيه وجوه (الاول) قال عكرمة كما زعمت يا محمد انك نبى فأسقط السماء علينا (والثانى) قال آخرون كما زعمت ان ربك ان شاء فعل (الثالث) يمكن أن يكون المراد ما ذكره الله تعالى فى هذه السورة فى قوله أفأمنتم أن نخسف بكم جانب البر أو نرسل عليكم حاصبا فقيل اجعل السماء قطعا متفرقة كالحاصب وأسقطها علينا (ورابعها) قولهم أو تأتى بالله والملائكة قبيلا وفى لفظ القبيل وجوه (الاول) القبيل بمعنى المقابل كالعشير بمعنى المعاشر وهذا القول منهم يدل على جهلهم حيث لم يعلموا أنه لا يجوز عليه المقابلة ويقرب منه قوله وحشرنا عليهم كل شئ قبلا (والقول الثانى) ما قاله ابن عباس يريد فوجا بعد فوج قال الليث وكل جند من الجن والانس قبيل وذكرنا ذلك فى قوله انه يراكم هو وقبيله (القول الثالث) ان قوله قبيلا معناه ههنا ضامنا وكفيلا قال الزجاج يقال قبلت به أقبل

تسع آيات بينات) واضحات الدلالة على نبوته وصحة ما جاء به من عند الله وهى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والطوفان والسنون ونقص الثمرات وقيل انفجار الماء من الحجر ونتق الطور على بنى اسرائيل وانفلاق البحر بدل الثلاث الاخيرة ويأباه أن هذه الثلاث لم تكن منزلة اذ ذاك وأن الاولين لا تعلق لهما بفرعون وانما أوتيهما بنو اسرائيل وعن صفوان بن عسال ان يهوديا سأل النبى عليه الصلاة والسلام عنها فقال أن لا تشركوا به شيئا ولا تسرفوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التى

كقولك كفلت به أكفل وعلى هذا القول فهو واحد أريد به الجمع كقوله تعالى وحسن أولئك رفيقا (والقول الرابع) قال أبو على معناه المعاينة والدليل عليه قوله تعالى لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا (وخامسها) قولهم أو يكون لك بيت من زخرف قال مجاهد كنا لا ندرى ما الزخرف حتى رأيت فى قراءة عبد الله أو يكون لك بيت من ذهب قال الزجاج الزخرف الزينة يدل عليه قوله تعالى حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت أى أخذت كمال زينتها ولا شئ فى تحسين البيت وتزيينه كالذهب (وسادسها) قولهم أو ترقى فى السماء قال الفراء يقال رقيت وأنا أرقى رقيا ورقيا وأنشد

أنت الذى كلفتنى رقى الدرج * على الكلال والمشيب والعرج

وقوله فى السماء أى فى معارج السماء فحذف المضاف يقال رقى السلم ورقى الدرجة ثم قالوا ولن نؤمن لرقيك أى لن نؤمن لاجل رقيك حتى تنزل علينا كتابا من السماء فيه تصديقك قال عبد الله بن أمية لن نؤمن حتى تضع على السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ثم تأتى معك بصك منشور معه أربعة من الملائكة يشهدون لك ان الامر كما تقول ولما حكى الله تعالى عن الكفار اقتراح هذه المعجزات قال لمحمد صلى الله عليه وسلم قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا وفيه مباحث (البحث الاول) انه تعالى حكى من قول الكفار قولهم لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الى قوله قل سبحان ربى وكل ذلك كلام القوم وانا لا نجد بين تلك الكلمات وبين سائر آيات القرآن تفاوتا فى النظم فصح بهذا صحة ما قاله الكفار لو نشاء لقلنا مثل هذا (والجواب) ان هذا القرآن قليل لا يظهر فيه التفاوت بين مراتب الفصاحة والبلاغة فزال هذا السؤال (البحث الثانى) هذه الآيات من أدل الدلائل على ان المجئ والذهاب على الله محال لان كلمة سبحان للتنزيه عما لا ينبغى وقوله سبحان ربى تنزيه لله تعالى عن شئ لا يليق به أو نسب اليه مما تقدم ذكره وليس فيما تقدم ذكره شئ لا يليق بالله الا قولهم أو تأتى بالله فدل هذا على ان قوله سبحان ربى تنزيه لله عن الاتيان والمجئ وذلك يدل على فساد قول المشبهة فى ان الله تعالى يجئ ويذهب فان قالوا لم لا يجوز أن يكون المراد تنزيه الله تعالى عن أن يتحكم عليه المتحكمون فى اقتراح الاشياء قلنا القوم لم يتحكموا على الله وانما قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم ان كنت نبيا صادقا فاطلب من الله ان يشرفك بهذه المعجزات فالقوم تحكموا على الرسول وما تحكموا على الله فلا يليق حمل قوله سبحان ربى على هذا المعنى فوجب حمله على قولهم أو تأتى بالله (البحث الثالث) تقرير هذا الجواب أن يقال اما أن يكون مرادكم من هذا الاقتراح أنكم طلبتم الاتيان من عند نفسى بهذه الاشياء أو طلبتم منى ان أطلب من الله تعالى اظهارها على يدى لتدل على كونى رسولا حقا من عند الله والاول باطل لانى بشر والبشر لا قدرة له على هذه الاشياء والثانى أيضا باطل لانى قد أتيتكم بمعجزة واحدة وهى القرآن والدلالة على كونها معجزة فطلب هذه المعجزات طلب لما لا حاجة اليه ولا ضرورة

حرم الله الا بالحق ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تمشوا ببرئ الى ذى سلطان ليقتله ولا تقذفوا محصنة ولا تفروا من الزحف وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا فى السبت فقبل اليهودى يده ورجله عليه السلام ولا يساعده أيضا ما ذكر ولعل جوابه عليه السلام بذلك لما أنه المهم للسائل وقبوله لما أنه كان فى التوراة مسطورا وقد علم انه ما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم الا من جهة الوحى (فاسأل بنى اسرائيل) وقرئ فسل أى فقلنا له سلهم من فرعون وقل له أرسل معى بنى اسرائيل أو سلهم عن ايمانهم أو عن حال دينهم أو سلهم أن

فكان طلبها يجرى مجرى التعنت والتحكم وأنا عبد مأمور ليس لى ان أتحكم على الله فسقط هذا السؤال فثبت ان قوله قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا جواب كاف فى هذا الباب وحاصل الكلام أنه سبحانه بين بقوله سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا كونهم على الضلال فى الالهيات وفى النبوات اما فى الالهيات فيدل على ضلالهم قوله سبحان ربى أى سبحانه عن أن يكون له اتيان ومجىء وذهاب واما فى النبوات فيدل على ضلالهم قوله هل كنت الا بشرا رسولا وتقريره ماذكرناه ❊ قوله تعالى (وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا قل لو كان فى الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم انه كان بعباده خبيرا بصيرا) اعلم انه تعالى لما حكى شبهة القوم فى اقتراح المعجزات الزائدة وأجاب عنها حكى عنهم شبهة أخرى وهى ان القوم استبعدوا أن يبعث الله الى الخلق رسولا من البشر بل اعتقدوا ان الله تعالى لو أرسل رسولا الى الخلق لوجب أن يكون ذلك الرسول من الملائكة فاجاب الله تعالى عن هذه الشبهة من وجوه (الاول) قوله وما منع الناس أن يومنوا اذ جاءهم الهدى وتقرير هذا الجواب أن بتقدير أن يبعث الله ملكا رسولا الى الخلق فالخلق انما يؤمنون بكونه رسولا من عند الله لاجل قيام المعجز الدال على صدقه وذلك المعجز هو الذى يهديهم الى معرفة ذلك الملك فى ادعاء رسالة الله تعالى فالمراد من قوله تعالى اذ جاءهم الهدى هو المعجز فقط فهذا المعجز سواء ظهر على يد الملك أو على يد البشر وجب الاقرار برسالته فثبت أن يكون قولهم بان الرسول لا بد وأن يكون من الملائكة تحكما فاسدا وتعنتا باطلا (الوجه الثانى) من الاجوبة التى ذكرها الله فى هذه الآية عن هذه الشبهة هو ان أهل الارض لو كانوا ملائكة لوجب أن يكون رسولهم من الملائكة لان الجنس الى الجنس أميل اما لو كان أهل الارض من البشر لوجب أن يكون رسولهم من البشر وهو المراد من قوله لو كان فى الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا (الوجه الثالث) من الاجوبة المذكورة فى هذه الآية قوله قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم وتقريره ان الله تعالى لما أظهر المعجزة على وفق دعواى كان ذلك شهادة من الله تعالى على كونى صادقا ومن شهد الله على صدقه فهو صادق فبعد ذلك قول القائل بان الرسول يجب ان يكون ملكا لا انسانا تحكم فاسد لا يلتفت اليه ولما ذكر الله تعالى هذه الاجوبة الثلاثة أردفها بما يجرى مجرى التهديد والوعيد فقال انه كان بعباده خبيرا بصيرا يعنى يعلم ظواهرهم وبواطنهم ويعلم من قلوبهم أنهم لا يذكرون هذه الشبهات الا لمحض الحسد وحب الرياسة والاستنكاف من الانقياد للحق ❊ قوله تعالى (ومن يهدى الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا) اعلم انه تعالى

بما عضدوك ويؤيده قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم على صيغة الماضى وقيل خطاب للنبى عليه الصلاة والسلام أى فاسألهم عن تلك الآيات لتزداد يقينا وطمأنينة أو ليظهر صدقك (اذ جاءهم) متعلق بقلنا وبسأل على القراءة المذكورة وبآتينا أو بمضمر هو يخبروك أو اذكر على تقدير كون الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام (فقال له فرعون) الفاء فصيحة أى فأظهر عند فرعون ما آتيناه من الآيات البينات وبلغه ما أرسل به فقال له فرعون (انى لاظنك ياموسى مسحورا) سحرت فتخبط عقلك (قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء)

لما أجاب عن شبهات القوم فى انكار النبوة وأردفها بالوعيد الاجمالى وهو قوله انه كان بعباده خبيرا بصيرا ذكر بعده الوعيد الشديد على سبيل التفصيل اما قوله من يهدى الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه فالمقصود تسلية الرسول وهو ان الذين سبق لهم حكم الله بالايمان والهداية وجب أن يصيروا مؤمنين ومن سبق لهم حكم الله بالضلال والجهل استحال ان ينقلبوا عن ذلك الضلال واستحال أن يوجد من يصرفهم عن ذلك الضلال واحتج أصحابنا بهذه الآية على صحة مذهبهم فى الهدى والضلال والمعتزلة حملوا هذا الاضلال تارة على الاضلال عن طريق الجنة وتارة على منع الالطاف وتارة على التخلية وعدم التعرض له بالمنع وهذه المباحث قد ذكرناها مرارا فلا فائدة فى الاعادة اما قوله تعالى ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما فان قيل كيف يمكنهم المشى على وجوههم قلنا الجواب من وجهين (الاول) انهم يسحبون على وجوههم قال تعالى يوم يسحبون فى النار على وجوههم (الثانى) روى أبو هريرة قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم قال ان الذى يمشيهم على اقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم قال حكماء الاسلام الكفار أرواحهم شديدة التعلق بالدنيا ولذاتها وليس لها تعلق بعالم الابرار وحضرة الاله سبحانه وتعالى فلما كانت وجوه قلوبهم وأرواحهم متوجهة الى الدنيا لاجرم كان حشرهم على وجوههم واما قوله عميا وبكما وصما فاعلم ان واحدا قال لابن عباس رضى الله عنه أليس انه تعالى يقول ورأى المجرمون النار وقال سمعوا لها تغيظا وزفيرا وقال دعوا هنالك ثبورا وقال يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وقال حكاية عن الكفار والله ربنا ما كنا مشركين فثبت بهذه الآيات انهم يرون ويسمعون ويتكلمون فكيف قال ههنا عميا وبكما وصما أجاب ابن عباس وتلامذته عنه من وجوه (الاول) قال ابن عباس عميا لا يرون شيئا يسرهم صما لا يسمعون شيئا يسرهم بكما لا ينطقون بحجة (الثانى) قال فى رواية عطاء عميا عن النظر الى ما جعله الله لاوليائه بكما عن مخاطبة الله ومخاطبة الملائكة المقربين صما عن ثناء الله تعالى على أوليائه (الثالث) قال مقاتل انه حين يقال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون يصيرون عميا بكما صما اما قبل ذلك فهم يرون ويسمعون وينطقون (الرابع) انهم يكونون رائين سامعين ناطقين فى الموقف ولولا ذلك لما قدروا على ان يطالعوا كتبهم ولا ان يسمعوا الزام حجة الله عليهم الا انهم اذا أخذوا يذهبون من الموقف الى النار جعلهم الله عميا وبكما وصما (والجواب) ان الآيات السابقة تدل على انهم فى النار يبصرون ويسمعون ويصيحون اما قوله تعالى مأواهم جهنم فظاهر واما قوله كلما خبت زدناهم سعيرا ففيه مباحث (البحث الاول) قال الواحدى الخبو سكون النار يقال خبت النار تخبو اذا سكن لهبها ومعنى خبت سكنت وطفئت يقال فى مصدره الخبو وأخبأها المخبئ اخباء اى أخمدها ثم قال زدناهم سعيرا قال ابن قتيبة زدناهم سعيرا أى تلهبا (البحث الثانى) القائل

يعنى الآيات التى أظهرها (الا رب السموات والارض) خالقهما ومدبرهما والتعرض لربوبيته تعالى لهما للايذان بأنه لا يقدر على ايتاء مثل هاتيك الآيات العظام الا خالقهما ومدبرهما (بصائر) حال من الآيات أى بينات مكشوفات تبصرك صدق ولكنك تعاند وتكابر نحو وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ومن ضرورة ذلك العلم العلم بأنه عليه الصلاة والسلام على كمال رصانة العقل فضلا عن توهم المسحورية وقرئ علمت على صيغة التكلم أى لقد علمت يقينا أن هذه الآيات الباهرة أنزلها الله عز سلطانه

أن يقول انه تعالى لا يخفف عنهم العذاب وقوله كلما خبت يدل على ان العذاب يخف في ذلك الوقت قلنا كلما خبت يقتضي سكون لهب النار اما لا يدل هذا على أنه يخف العذاب في ذلك الوقت (البحث الثالث) قوله كلما خبت زدناهم سعيرا ظاهره يقتضي وجوب أن تكون الحالة الثانية أزيد من الحالة الاولى واذا كان كذلك كانت الحالة الاولى بالنسبة الى الحالة الثانية تخفيفا (والجواب) الزيادة حصلت في الحالة الاولى أخف من حصولها في الحالة الثانية فكان العذاب شديدا ويحتمل أن يقال لما عظم العذاب صار التفاوت الحاصل في أوقاته غير مشعور به نعوذ بالله منه ولما ذكر تعالى أنواع هذا الوعيد قال ذلك جزاؤهم بانهم كفروا والباء في قوله بانهم كفروا باء السببية وهو حجة لمن يقول العمل علة الجزاء والله أعلم ❁ قوله تعالى (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والارض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم اجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون الا كفورا) اعلم انه تعالى لما أجاب عن شبهات منكري النبوة عاد الى حكاية شبهة منكري الحشر والنشر ليجيب عنها وتلك الشبهة هي ان الانسان بعد أن يصير رفاتا ورميما يبعد أن يعود هو بعينه وأجاب الله تعالى عنه بان من قدر على خلق السموات والارض لم يبعد أن يقدر على اعادتهم باعيانهم وفي قوله قادر على أن يخلق مثلهم قولان (الاول) المعنى قادر على ان يخلقهم ثانيا فعبر عن خلقهم ثانيا بلفظ المثل كما يقول المتكلمون ان الاعادة مثل الابتداء (القول الثاني) المراد قادر على أن يخلق عبيدا آخرين يوحدونه ويقرون بكمال حكمته وقدرته ويتركون ذكر هذه الشبهات الفاسدة وعلى هذا التفسير فهو كقوله تعالى ويأت بخلق جديد وقوله ويستبدل قوما غيركم قال الواحدي والقول هو الاول لانه أشبه بما قبله ولما بين الله تعالى بالدليل المذكور ان البعث والقيامة أمر ممكن الوجود في نفسه أردفه بان لوقوعه ودخوله في الوجود وقتا معلوما عند الله وهو قوله وجعل لهم أجلا لا ريب فيه ثم قال تعالى فأبى الظالمون الا كفورا أي بعد هذه الدلائل الظاهرة أبوا الا الكفر والنفور والجحود ❁ قوله تعالى (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي اذا لامسكتم خشية الانفاق وكان الانسان قتورا) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) ان الكفار لما قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا طلبوا اجراء الانهار والعيون في بلدتهم لتكثر أموالهم وتتسع عليهم معيشتهم فبين الله تعالى لهم انهم لو ملكوا خزائن رحمة الله لبقوا على بخلهم وشحهم ولما أقدموا على ايصال النفع الى أحد وعلى هذا التقدير فلا فائدة في اسعافهم بهذا المطلوب الذي التمسوه فهذا هو الكلام في وجه النظم والله أعلم (المسئلة الثانية) قوله لو أنتم فيه بحث يتعلق بالنحو وبحث آخر يتعلق بعلم البيان (اما البحث النحوي) فهو ان كلمة لو من شأنها أن تختص بالفعل لان كلمة لو تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره والاسم يدل على الذوات والفعل هو الذي يدل على الآثار والاحوال والمنتفي هو الاحوال والآثار لا الذوات

فكيف يتوهم أن يحوم حولي سحر (واني لاظنك يا فرعون مثبورا) مصروفا عن الخير مطبوعا على الشر من قولهم ماثبرك عن هذا أي ما صرفك أو هالكا ولقد قارع عليه السلام ظنه بظنه وشتان بينهما كيف لا وظن فرعون افك مبين وظنه عليه الصلاة والسلام يتاخم اليقين (فأراد) أي فرعون (أن يستفزهم) أي يستخفهم ويزعجهم (من الارض) أرض مصر أو من الارض مطلقا بالقتل كقولهم سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم (فاغرقناه ومن معه جميعا) فعكسنا عليه مكره واستفززناه وقومه بالاغراق (وقلنا من

فثبت ان كلمة لو مختصة بالافعال وأنشدوا قول المتلمس

ولوغير أخوالى أرادوانقيصتى * نصبت لهم فوق العرانين مأتما

والمعنى لوأراد غيرأخوالى (واما البحث) المتعلق بعلم البيان فهو ان التقديم بالذكر يدل على التخصيص فقوله أنتم تملكون دلالة على انهم هم المختصون بهذه الحالة الخسيسة والشح الكامل (المسئلة الثالثة) خزائن فضل الله ورحمته غير متناهية فكان المعنى انكم لوملكتم من الخير والنعم خزائن لانهاية لها لبقيتم على الشح وهذا مبالغة عظيمة فى وصفهم بهذا الشئ ثم قال تعالى وكان الانسان قتورا أى بخيلا يقال قتر يقتر قترا وأقتر اقتارا وقتر تقتيرا اذا قصر فى الانفاق فان قيل فقد دخل فى الانسان الجواد الكريم فالجواب من وجوه (الاول) ان الاصل فى الانسان البخل لانه خلق محتاجا والمحتاج لابد أن يحب ما به يدفع الحاجة وأن يمسكه لنفسه الا انه قد يجود به لاسباب من خارج فثبت ان الاصل فى الانسان البخل (الثانى) ان الانسان انما يبذل لطلب الثناء والحمد وللخروج عن عهدة الواجب فهو فى الحقيقة ما أنفق الا ليأخذ العوض فهو فى الحقيقة بخيل (الثالث) ان المراد بهذا الانسان المعهود السابق وهم الذين قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا * قوله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسئل بنى اسرائيل اذ جاءهم فقال له فرعون انى لاظنك ياموسى مسحورا قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الارب السموات والارض بصائر وانى لاظنك يافرعون مثبورا فاراد ان يستفزهم من الارض فاغرقناه ومن معه جميعا وقلنا من بعده لبنى اسرائيل اسكنوا الارض فاذا جاء وعد الآخرة جئنابكم لفيفا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان المقصود من هذا الكلام أيضا الجواب عن قولهم لن نؤمن لك حتى تأتينا بهذه المعجزات القاهرة فقال تعالى انا آتينا موسى معجزات مساوية لهذه الاشياء التى طلبتموها بل أقوى منها وأعظم فلوحصل فى علمنا ان جعلها فى زمانكم مصلحة لفعلناها كما فعلنا فى حق موسى فدل هذا على انا انما لم نفعلها فى زمانكم لعلمنا أنه لامصلحة فى فعلها (المسئلة الثانية) اعلم انه تعالى ذكر فى القرآن أشياء كثيرة من معجزات موسى عليه الصلاة والسلام (أحدها) ان الله تعالى أزال العقدة من لسانه قيل فى التفسير ذهبت العجمة وصار فصيحا (وثانيها) انقلاب العصاحية (وثالثها) تلقف الحية حبالهم وعصيهم مع كثرتها (ورابعها) اليد البيضاء وخمسة أخروهى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم (والعاشر) شق البحر وهوقوله واذفرقنابكم البحر (والحادى عشر) الحجر وهوقوله أن اضرب بعصاك الحجر (والثانى عشر) اظلال الجبل وهوقوله تعالى واذنتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة (والثالث عشر) انزال المن والسلوى عليه وعلى قومه (والرابع عشر والخامس عشر) قوله تعالى ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات (والسادس عشر) الطمس على أموالهم من النحل والدقيق والاطعمة

بعده) من بعد اغراقهم (لبنى اسرائيل اسكنوا الارض) التى أراد أن يستفزكم منها (فاذا جاء وعد الآخرة) الكثرة الآخرة او الحياة أو الساعة أو الدار الآخرة أى قيام القيامة (جئنا بكم لفيفا) مختلطين اياكم واياهم ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم واللفيف الجماعات من قبائل شتى (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) أى وما أنزلنا القرآن الا ملتبسا بالحق المقتضى لانزاله وما نزل الا ملتبسا بالحق الذى اشتمل عليه أوما أنزلناه من السماء الا محفوظا وما نزل على الرسول الا محفوظا من تخليط الشياطين ولعل المراد بيان عدم اعتراء البطلان له أول الامر وآخره

والدراهم والدنانير روى ان عمر بن عبد العزيز سأل محمد بن كعب عن قوله تسع آيات بينات فذكر محمد بن كعب في جملة التسع حل عقدة اللسان والطمس فقال عمر بن عبد العزيز هكذا يجب أن يكون الفقيه ثم قال يا غلام أخرج ذلك الجراب فاخرجه فنفضه فاذا فيه بيض مكسور نصفين وجوز مكسور وفول وحمص وعدس كلها حجارة اذا عرفت هذا فنقول انه تعالى ذكر في القرآن معجزات كثيرة لموسى عليه الصلاة والسلام وقال في هذه الآية ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات وتخصيص التسعة بالذكر لا يقدح فيه ثبوت الزائد عليه لانا بينا في أصول الفقه أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد بل نقول انما تمسك في هذه المسألة بهذه الآية ثم نقول أما هذه التسعة فقد اتفقوا على سبعة منها وهي العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم بقي الاثنان ولكل واحد من المفسرين قول آخر فيهما ولما لم يكن تلك الاقوال مستندة الى حجة ظاهرة ولا الى خبر صحيح لا جرم تركت تلك الاقوال ووقع في تفسير قوله تعالى تسع آيات بينات أقوال أجودها ما روى صفوان بن عسال أنه قال ان يهوديا قال لصاحبه اذهب بنا الى هذا النبي نسأله عن تسع آيات فذهبا الى النبي صلى الله عليه وسلم وسألاه عنها فقال هن أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرفوا ولا تزنوا ولا تقتلوا ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا المحصنة ولا تولوا الفرار يوم الزحف وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا في السبت فقام اليهوديان فقبلا يديه ورجليه وقالا نشهد انك نبي ولولا نخاف القتل والاتباع (المسألة الثالثة) قوله فاسأل بني اسرائيل اذ جاءهم فيه مباحث (البحث الاول) فيه وجوه (الوجه الاول) انه اعتراض دخل في الكلام والتقدير ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات اذ جاء بني اسرائيل فاسألهم وعلى هذا التقدير فليس المطلوب من سؤال بني اسرائيل أن يستفيد هذا العلم منهم بل المقصود أن يظهر لعامة اليهود وعلمائهم صدق ما ذكره الرسول فيكون هذا السؤال سؤال استشهاد (والوجه الثاني) أن يكون قوله فاسأل بني اسرائيل أي سلهم من فرعون وقل له أرسل معي بني اسرائيل (والوجه الثالث) سل بني اسرائيل أي سلهم أن يعاضدوك والتمس منهم الايمان الصادق وعلى هذا التأويل فالتقدير فقلنا له سلهم أن يعاضدوك وتكون قلوبهم وأيديهم معك (البحث الثاني) أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يسأل بني اسرائيل يعني الذين كانوا موجودين في زمان النبي صلى الله عليه وسلم والذين جاءهم موسى عليه الصلاة والسلام هم الذين كانوا في زمانه لا الذين كانوا في زمان محمد صلى الله عليه وسلم لما كانوا أولاد أولئك الذين كانوا في زمان موسى حسنت هذه الكناية ثم أخبر تعالى انه قال فرعون لموسى اني لاظنك يا موسى مسحورا وفي لفظ المسحور وجوه (الاول) قال الفراء انه بمعنى الساحر كالمشؤم والميمون وذكرناه في قوله حجابا مستورا (الثاني) أنه مفعول من السحر أي ان الناس سحروك وخبلوك فتقول هذه الكلمات لهذا السبب (الثالث) قال محمد

(وما أرسلناك الا مبشرا) للمطيع بالثواب (ونذيرا) للعاصي من العقاب وهو تحقيق لحقية بعثته عليه الصلاة والسلام اثر تحقيق حقية انزال القرآن (وقرآنا) منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى (فرقناه) وقرئ بالتشديد دلالة على كثرة نجومه (لتقرأه على الناس على مكث) على مهل وتثبت فانه أيسر للحفظ وأعون على الفهم وقرئ بالفتح وهو لغة فيه (ونزلناه تنزيلا) حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ويقع من الحوادث والواقعات (قل) للذين كفروا (آمنوا به أو لا تؤمنوا) فان ايمانكم به لا يزيده كمالا وامتناعكم لا يورثه نقصا (ان الذين أوتوا العلم من قبله) أي العلماء الذين قرؤوا الكتب السالفة من قبل تنزيله وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوة وتمكنوا من التمييز بين الحق

ابن جرير الطبرى معناه أعطيت علم السحر فهذه العجائب التى تأتى بها من ذلك السحر ثم أجابه موسى عليه الصلاة والسلام بقوله لقد علمت ما أنزل هؤلاء الارب السموات والارض وفيه مباحث (البحث الاول) قرأ الكسائى علمت بضم التاء أى علمت انها من عند الله فان علمت وأقررت والا هلكت والباقون بالفتح وضم التاء قراءة على وفتحها قراءة ابن عباس وكان على رضى الله عنه يقول والله ماعلم عدو الله ولكن موسى هو الذى علم فبلغ ذلك ابن عباس رضى الله عنهما فاحتج بقوله تعالى وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم على ان فرعون وقومه كانوا قد عرفوا صحة أمر موسى عليه السلام قال الزجاج الاجود فى القراءة الفتح لان علم فرعون بانها آيات نازلة من عند الله أوكد فى الحجة فاحتجاج موسى عليه الصلاة والسلام على فرعون بعلم فرعون أوكد من الاحتجاج بعلم نفسه وأجاب الناصرون لقراءة على رضى الله عنه عن دليل ابن عباس فقالوا قوله وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم يدل على انهم استيقنوا شيئا ما فاما انهم استيقنوا كون هذه الآيات نازلة من عند الله فليس فى الآية مايدل عليه وأجابوا عن الوجه الثانى بان فرعون قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون قال موسى لقد علمت فكأنه نفى ذلك وقال لقد علمت صحة ما أتيت به علما صحيحا علم العقلاء واعلم ان هذه الآيات من عند الله ولا تشك فى ذلك بسبب سفاهتك (البحث الثانى) التقدير ما أنزل هؤلاء الآيات ونظيره قوله

والعيش بعد أولئك الاقوام * وقوله بصائر أى حججا بينة كأنها بصائر العقول وتحقيق الكلام ان المعجزة فعل خارق للعادة فعله فاعله لغرض تصديق المدعى ومعجزات موسى عليه الصلاة والسلام كانت موصوفة بهذين الوصفين لانها كانت أفعالا خارقة للعادة وصرائح العقول تشهد بان قلب العصا حية معجزة عظيمة لا يقدر عليه الا الله ثم ان تلك الحية تلقفت حبال السحرة وعصيهم على كثرتها ثم عادت عصا كما كانت فاصناف تلك الافعال لا يقدر عليها أحد الا الله وكذا القول فى فرق البحر واظلال الجبل فثبت ان تلك الاشياء ما أنزلها الارب السموات (الصفة الثانية) انه تعالى انما خلقها لتدل على صدق موسى فى دعوة النبوة وهذا هو المراد من قوله ما أنزل هؤلاء الارب السموات والارض حال كونها بصائر أى دالة على صدق موسى فى دعواه وهذه الدقائق لا يمكن فهمها من القرآن الا بعد اتقان علم الاصول وأقول يبعد أن يصير غير علم الاصول العقلى ماهرا فى تفسير كلام الله ثم حكى تعالى ان موسى قال لفرعون وانى لاظنك يافرعون مثبورا واعلم ان فرعون قال لموسى وانى لاظنك ياموسى مسحورا فعارضه موسى وقال له وانى لاظنك يافرعون مثبورا قال الفراء المثبور الملعون المحبوس عن الخير والعرب تقول ماثبرك عن هذا أى مامنعك منه وماصرفك وقال أبو زيد يقال ثبرت فلانا عن الشئ أثبره أى رددته عنه وقال مجاهد وقتادة هالكا وقال الزجاج يقال ثبر الرجل فهو مثبور اذا هلك والثبور الهلاك ومن معروف الكلام فلان يدعو بالويل والثبور عند مصيبة تناله وقال تعالى دعوا هنالك

و الباطل والمحق والمبطل ورأوا فيها نعتك ونعت ما أنزل اليك (اذا يتلى) أى القرآن (عليهم يخرون للاذقان) أى يسقطون على وجوههم (سجدا) تعظيما لامر الله تعالى أوشكر الانجاز ما وعد به فى تلك الكتب من بعثك وتخصيص الاذقان بالذكر للدلالة على كمال الذلل اذ حينئذ يتحقق الخرور عليها وايثار اللام للدلالة على اختصاص الخرور بها كما فى قوله * فخر صريعا لليدين وللفم * وهو تعليل لما نفهم من قوله تعالى آمنوا به أو لا تؤمنوا من عدم المبالاة بذلك أى ان لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسن ايمان من هو خير منكم ويجوز أن يكون تعليلا لقل على سبيل التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل تسل بايمان العلماء عن ايمان الجهلة ولا تكترث

ثبورا لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا واعلم ان فرعون لما وصف موسى بكونه مسحورا أجابه موسى بانك مثبور يعنى هذه الآيات ظاهرة وهذه المعجزات قاهرة ولا يرتاب العاقل فى أنها من عند الله وفى أنه تعالى انما أظهرها لاجل تصديقى وأنت تنكرها فلا يحملك على هذا الانكار الا الحسد والعناد والغى والجهل وحب الدنيا ومن كان كذلك كانت عاقبته الدمار والثبور ثم قال تعالى فأراد أن يستفزهم من الارض يعنى أراد فرعون أن يخرجهم يعنى موسى وقومه بنى اسرائيل ومعنى تفسير الاستفزاز تقدم فى هذه السورة من الارض يعنى أرض مصر قال الزجاج لا يبعد أن يكون المراد من استفزازهم اخراجهم منها بالقتل أو بالتنحية ثم قال فاغرقناه ومن معه جميعا المعنى ما ذكره الله تعالى فى قوله ولا يحيق المكر السيئ الا باهله آراد فرعون أن يخرج موسى من أرض مصر لتخلص له تلك البلاد والله تعالى أهلك فرعون وجعل ملك مصر خالصة لموسى ولقومه وقال لبنى اسرائيل اسكنوا هذه الارض خالصة لكم خالية من عدوكم قال تعالى فاذا جاء وعد الآخرة يريد القيامة جئنا بكم لفيفا من ههنا وههنا واللفيف الجمع العظيم من اخلاط شتى من الشريف والدنىء والمطيع والعاصى والقوى والضعيف وكل شئ خلطته بشئ آخر فقد لففته ومنه قيل لففت الجيوش اذا ضربت بعضها ببعض وقوله التفت الزحوف ومنه التفت الساق بالساق والمعنى جئنا بكم من قبوركم الى المحشر اخلاطا يعنى جميع الخلق المسلم والكافر والبر والفاجر ❊ قوله تعالى (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا قل آمنوا به أولا تؤمنوا ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) اعلم انه تعالى لما بين ان القرآن معجز قاهر دال على الصدق فى قوله قل لئن اجتمعت الانس والجن ثم حكى عن الكفار انهم لم يكتفوا بهذا المعجز بل طلبوا سائر المعجزات ثم أجاب الله بانه لا حاجة الى اظهار سائر المعجزات وبين ذلك بوجوه كثيرة منها ان قوم موسى عليه الصلاة والسلام آتاهم الله تسع آيات بينات فلما جحدوا بها أهلكهم الله فكذا ههنا ثم أنه تعالى لو آتى قوم محمد تلك المعجزات التى اقترحوها ثم كفروا بها وجب انزال عذاب الاستئصال بهم وذلك غير جائز فى الحكمة لعلمه تعالى أن منهم من يؤمن والذى لا يؤمن فسيظهر من نسله من يصير مؤمنا ولما تم هذا الجواب عاد الى تعظيم حال القرآن وجلالة درجته فقال وبالحق أنزلناه وبالحق نزل والمعنى انه ما أردنا بانزاله الا تقرير الحق والصدق وكما أردنا هذا المعنى فكذلك وقع هذا المعنى وحصل وفى هذه الآية فوائد (الفائدة الاولى) ان الحق هو الثابت الذى لا يزول كما ان الباطل هو الزائل الذاهب وهذا الكتاب الكريم مشتمل على أشياء لا تزول وذلك لانه مشتمل على دلائل التوحيد وصفات الجلال والاكرام وعلى تعظيم الملائكة وتقرير نبوة الانبياء واثبات الحشر والنشر

بايمانهم واعراضهم (ويقولون) فى سجودهم (سبحان ربنا) عما يفعل الكفرة من التكذيب أو عن خلف وعده (ان كان وعد ربنا لمفعولا) ان مخففة من المثقلة واللام فارقة أى ان الشأن هذا (ويخرون للاذقان يبكون) كرر الخرور للاذقان لاختلاف السبب فان الاول لتعظيم أمر الله تعالى او الشكر لانجاز الوعد والثانى لما أثر فيهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله (ويزيدهم) أى القرآن بسماعهم (خشوعا) كما يزيدهم علما ويقينا بالله تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) نزل حين سمع المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا الله يا رحمن فقالوا انه ينهانا عن عبادة الهين وهو يدعو الها آخر وقالت اليهود انك لتقل ذكر

والقيامة وكل ذلك مما لا يقبل الزوال ومشتمل أيضا على شريعة باقية لا يتطرق اليها النسخ والنقض والتحريف وأيضا فهذا الكتاب كتاب تكفل الله بحفظه عن تحريف الزائغين وتبديل الجاهلين كما قال انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون فكان هذا الكتاب حقا من كل الوجوه (الفائدة الثانية) ان قوله وبالحق أنزلناه يفيد الحصر ومعناه أنه ما أنزله لمقصود آخر سوى اظهار الحق وقالت المعتزلة وهذا يدل على انه ما قصد بانزاله اضلال احد من الخلق ولا اغواؤه ولا منعه عن دين الله (الفائدة الثالثة) قوله وبالحق أنزلناه وبالحق نزل يدل على ان الانزال غير النزول فوجب أن يكون الخلق غير المخلوق وان يكون التكوين غير المكون على ما ذهب اليه قوم (الفائدة الرابعة) قال أبو على الفارسي الباء في قوله وبالحق أنزلناه بمعنى مع كما تقول نزل بعدته وخرج بسلاحه والمعنى انزلنا القرآن مع الحق وقوله وبالحق نزل فيه احتمالان (أحدهما) أن يكون التقدير نزل بالحق كما تقول نزلت بزيد وعلى هذا التقدير الحق محمد صلى الله عليه وسلم لان القرآن نزل به أى عليه (الثانى) أن تكون بمعنى مع كما قلنا فى قوله وبالحق أنزلناه ثم قال تعالى وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا والمقصود أن هؤلاء الجهال الذين يقترحون عليك هذه المعجزات ويتمردون عن قبول دينك لا شئ عليك من كفرهم فانى ما أرسلتك الا مبشرا للمطيعين ونذيرا للجاحدين فان قبلوا الدين الحق انتفعوا به والا فليس عليك من كفرهم شئ ثم قال وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث وفيه مباحث (البحث الاول) ان القوم قالوا هب ان هذا القرآن معجز الا انه بتقدير أن يكون الامر كذلك فكان من الواجب أن ينزله الله عليك دفعة واحدة ليظهر فيه وجه الاعجاز فجعلوا اتيان الرسول بهذا القرآن متفرقا شبهة فى أنه يتفكر فى فصل فصل ويقرأه على الناس فأجاب الله عنه بانه انما فرقه ليكون حفظه أسهل ولتكون الاحاطة والوقوف على دقائقه وحقائقه أسهل (البحث الثانى) قال سعيد بن جبير نزل القرآن كله ليلة القدر من السماء العليا الى السماء السفلى ثم فصل فى السنين التى نزل فيها قال قتادة كان بين أوله وآخره عشرون سنة والمعنى قطعناه آية آية وسورة سورة ولم ننزله جملة لتقرأه على الناس على مكث بالفتح والضم على مهل وتؤدة اى لا على فورة قال الفراء يقال مكث ومكث بمكث والفتح قراءة عاصم فى قوله فمكث غير بعيد (البحث الثالث) الاختيار عند الأئمة فرقناه بالتخفيف وفسره أبو عمرو بيناه قال أبو عبيد التخفيف أعجب الى لان تفسيره بيناه ومن قرأ بالتشديد لم يكن له معنى الا انه أنزل متفرقا فالفرق يتضمن التبيين ويؤكده ما روى ثعلب عن ابن الاعرابى انه قال فرقت أفرق بين الكلام وفرقت بين الاجسام ويدل عليه أيضا قوله صلى الله عليه وسلم البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ولم يقل يفترقا والتفرق مطاوع التفريق والافتراق مطاوع الفرق ثم قال ونزلناه تنزيلا أى على الحد المذكور والصفة المذكورة ثم قال قل آمنوا به أولا تؤمنوا يخاطب الذين اقترحوا تلك المعجزات العظيمة على وجه التهديد والانكار أى أنه تعالى أوضح البينات والدلائل وأزاح الاعذار

الرحمن وقد أكثره الله تعالى فى التوراة والمراد على الاول هو التسوية بين اللفظين بأنهما عبارتان عن ذات واحدة وان اختلف الاعتبار والتوحيد انما هو للذات الذى هو المعبود وعلى الثانى انهما سيان فى حسن الاطلاق والافضاء الى المقصود وهو أوفق لقوله تعالى (أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى) والدعاء بمعنى التسمية وهو يتعدى الى مفعولين حذف أولهما استغناء عنه وأو للتخيير والتنوين فى أيا عوض عن المضاف اليه وما مزيدة لتأكيد ما فى أى من الابهام والضمير فى له للمسمى لان التسمية له لا الاسم وكان أصل الكلام أياما تدعوا فهو حسن فوضع موضعه فله الاسماء الحسنى للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه اذ حسن

فاختاروا ما تريدون ثم قال تعالى ان الذين أوتوا العلم من قبله أى من قبل نزول القرآن قال مجاهد هم ناس من أهل الكتاب حين سمعوا ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم خروا سجدا منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام ثم قال يخرون للاذقان سجدا وفيه أقوال (القول الاول) قال الزجاج الذقن مجتمع اللحيين وكما يبتدئ الانسان بالخرور الى السجود فاقرب الاشياء من الجبهة الى الارض الذقن (والقول الثانى) ان الاذقان كناية عن اللحى والانسان اذا بالغ عند السجود فى الخضوع والخشوع ربما مسح لحيته على التراب فان اللحية يبالغ فى تنظيفها فاذا عفرها الانسان بالتراب فقد أتى بغاية التعظيم (والقول الثالث) ان الانسان اذا استولى عليه خوف الله تعالى فربما سقط على الارض فى معرض السجود كالمغشى عليه ومتى كان الامر كذلك كان خروره على الذقن فى موضع السجود فقوله يخرون للاذقان كناية عن غاية ولهه وخوفه وخشيته ثم بقى فى الآية سؤالان (السؤال الاول) لم قال يخرون للاذقان سجدا ولم يقل يسجدون والجواب المقصود من ذكر هذا اللفظ مسارعتهم الى ذلك حتى انهم يسقطون (السؤال الثانى) لم قال يخرون للاذقان ولم يقل على الاذقان والجواب العرب تقول اذا خر الرجل فوقع على وجهه خر للذقن والله أعلم ثم قال تعالى ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا المعنى انهم يقولون فى سجودهم سبحان ربنا أى ينزهونه ويعظمونه ان كان وعد ربنا لمفعولا أى بانزال القرآن وبعث محمد وهذا يدل على ان هؤلاء كانوا من أهل الكتاب لان الوعد ببعثة محمد سبق فى كتابهم فهم كانوا ينتظرون انجاز ذلك الوعد ثم قال ويخرون للاذقان يبكون والفائدة فى هذا التكرير اختلاف الحالين وهما خرورهم للسجود وفى حال كونهم باكين عند استماع القرآن ويدل عليه قوله ويزيدهم خشوعا ويجوز أن يكون تكرار القول دلالة على تكرار الفعل منهم وقوله يبكون معناه الحال ويزيدهم خشوعا أى تواضعا واعلم ان المقصود من هذه الآية تقرير تحقيرهم والازدراء بشأنهم وعدم الاكتراث بهم وبايمانهم وامتناعهم منه وانهم وان لم يؤمنوا به فقد آمن به من هو خير منهم

* قوله تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا) قال صاحب الكشاف المراد بهما الاسم لا المسمى والواو للتخيير بمعنى ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أى سموا بهذا الاسم أو بهذا أواذكروا اما هذا واما هذا والتنوين فى أيا عوض عن المضاف اليه وما صلة للابهام المؤكد لما فى أى والتقدير أى هذين الاسمين سميتم وذكرتم فله الاسماء الحسنى والضمير فى قوله فله ليس براجع الى أحد الاسمين المذكورين ولكن الى مسماهما وهو ذاته عز وعلا والمعنى أياما تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله فله الاسماء الحسنى لانه اذا حسنت أسماؤه فقد حسن هذان الاسمان لانهما منهما ومعنى حسن أسماء الله كونها مفيدة لمعانى

جميع أسمائه يستدعى حسن ذينك الاسمين وكونها حسنى لدلالتها على صفات الكمال من الجلال والجمال والاكرام (ولا تجهر بصلاتك) أى بقراءة صلاتك بحيث تسمع المشركين فان ذلك يحملهم على السب واللغو فيها (ولا تخافت بها) أى بقراءتها بحيث لا تسمع من خلفك من المؤمنين (وابتغ) بين ذلك أى بين الجهر والمخافتة على الوجه المذكور (سبيلا) أمرا وسطا قصدا فان خير الامور أوساطها والتعبير عن ذلك بالسبيل باعتبار أنه أمر يتوجه اليه المتوجهون ويؤمه المقتدون ويوصلهم الى المطلوب وروى أن أبابكر رضى الله تعالى عنه كان يخفت ويقول

التحميد والتقديس وقدسبق الاستقصاء فى هذا الباب فى آخر سورة الاعراف فى تفسير قوله ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها واحتج الجبائى بهذه الآية فقال لوكان تعالى هو الخالق للظلم والجور لصح ان يقال ياظالم وحينئذ يبطل ماثبت فى هذه الآية من كون أسمائه بأسرها حسنة (والجواب) انالانسلم انه لوكان خالقا لافعال العباد لصح وصفه بانه ظالم وجائر كما انه لايلزم من كونه خالقا للحركة والسكون والسواد والبياض ان يقال يامتحرك وياساكن وياأسود وياأبيض فان قالوا فيلزم جواز ان يقال ياخالق الظلم والجور قلنا فيلزمكم ان تقولوا ياخالق العذرات والديدان والخنافس وكما انكم تقولون ان ذلك حق فى نفس الامر ولكن الادب ان يقال ياخالق السموات والارض فكذا قولنا ههنا ثم قال تعالى ولاتجهر بصلاتك ولاتخافت بها وفيه مباحث (البحث الاول) قوله ولاتجهر بصلاتك فيه أقوال (الاول) روى سعيد بن جبير عن ابن عباس فى هذه الآية قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع صوته بالقراءة فاذا سمعه المشركون سبوه وسبوا من جاء به فاوحى الله تعالى اليه ولاتجهر بصلاتك فيسمع المشركون فيسبوا الله عدوا بغير علم ولاتخافت بها فلاتسمع أصحابك وابتغ بين ذلك سبيلا (القول الثانى) روى ان النبى صلى الله عليه وسلم طاف بالليل على دور الصحابة وكان أبو بكر يخفى صوته بالقراءة فى صلاته وكان عمر يرفع صوته فلما جاء النهار وجاء أبو بكر وعمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى بكر لم تخفى صوتك فقال أناجى ربى وقدعلم حاجتى وقال لعمر لم ترفع صوتك فقال أزجر الشيطان وأوقظ الوسنان فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أبابكر أن يرفع صوته قليلا وعمر أن يخفض صوته قليلا (القول الثالث) معناه ولاتجهر بصلاتك كلها ولاتخافت بها كلها وابتغ بين ذلك سبيلا بان تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار (والقول الرابع) ان المراد بالصلاة الدعاء وهذا قول عائشة رضى الله عنها وأبى هريرة ومجاهد قالت عائشة رضى الله عنها هى فى الدعاء وروى هذا مرفوعا ان النبى صلى الله عليه وسلم قال فى هذه الآية انما ذلك فى الدعاء والمسئلة لاترفع صوتك فتذكر ذنوبك فيسمع ذلك فتعير بها فالجهر بالدعاء منهى عنه والمبالغة فى الاسرار غير جائزة والمستحب من ذلك التوسط وهو ان يسمع نفسه كما روى عن ابن مسعود انه قال لم يخافت من أسمع اذنيه (والقول الخامس) قال الحسن لاترائى بعلانيتها ولاتسئ بسريتها (البحث الثانى) الصلاة عبارة عن مجموع الافعال والاذكار والجهر والمخافتة من عوارض الصوت فالمراد ههنا من الصلوات بعض أجزاء ماهية الصلاة وهو الاذكار والقرآن وهو من باب اطلاق اسم الكل لارادة الجزء (البحث الثالث) يقال خفت صوته يخفت خفتا وخفوتا اذا ضعف وسكن وصوت خفيت أى خفيض ومنه يقال للرجل اذا مات قد خفت أى انقطع كلامه وخفت الزرع اذا ذبل وخفت الرجل يخافت بقرآءته اذا لم يبين قراءته برفع الصوت وقد تخافت القوم اذا تساروا بينهم وأقول ثبت فى كتب الاخلاق ان كلا طرفى الامور ذميم والعدل هو رعاية الوسط ولهذا المعنى مدح الله

أناجى ربى وقدعلم حاجتى وعمر رضى الله عنه كان يجهر بها ويقول أطرد الشيطان واوقظ الوسنان فلما نزلت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبابكر أن يرفع قليلا وعمر أن يخفض قليلا وقيل المعنى لاتجهر بصلاتك كلها ولاتخافت بها بأسرها وابتغ بين ذلك سبيلا بالمخافتة نهارا والجهر ليلا وقيل بصلاتك بدعائك وذهب قوم الى أنها منسوخة بقوله تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا) كما يزعم اليهود والنصارى وبنو مليح حيث قالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا (ولم يكن له شريك فى الملك) أى الالوهية

هذه الامة بقوله وكذلك جعلناكم أمة وسطا وقال فى مدح المؤمنين والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وأمر الله رسوله فقال ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فكذا ههنا نهى عن الطرفين وهو الجهر والمخافتة وأمر بالتوسط بينهما فقال وابتغ بين ذلك سبيلا ومنهم من قال الآية منسوخة بقوله ادعوا ربكم تضرعا وخفية وهو بعيد واعلم انه تعالى لما أمر أن لا يذكر ولا ينادى الا باسمائه الحسنى علمه كيفية التحميد فقال وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا فذكر ههنا من صفات التنزيه والجلال وهى السلوب ثلاثة أنواع من الصفات (النوع الاول) من الصفات أنه لم يتخذ ولدا والسبب فيه وجوه (الاول) ان الولد هو الشئ المتولد من جزء من أجزاء شئ آخر فكل من له ولد فهو مركب من الاجزاء والمركب محدث والمحدث محتاج لا يقدر على كمال الانعام فلا يستحق كمال الحمد (الثانى) ان كل من له ولد فانه يمسك جميع النعم لولده فاذا لم يكن له ولد أفاض كل تلك النعم على عبيده (الثالث) ان الولد هو الذى يقوم مقام الوالد بعد انقضائه وفنائه فلو كان له ولد لكان منقضيا ومن كان كذلك لم يقدر على كمال الانعام فى كل الاوقات فوجب أن لا يستحق الحمد على الاطلاق (والنوع الثانى) من الصفات السلبية قوله ولم يكن له شريك فى الملك والسبب فى اعتبار هذه الصفة انه لو كان له شريك فحينئذ لا يعرف كونه مستحقا للحمد والشكر (والنوع الثالث) قوله ولم يكن له ولى من الذل والسبب فى اعتبار هذه الصفة أنه لو جاز عليه ولى من الذل لم يجب شكره لتجويز أن غيره حمله على ذلك الانعام أو منعه منه أما اذا كان منزها عن الولد وعن الشريك وكان منزها عن أن يكون له ولى يلى أمره كان مستوجبا لاعظم أنواع الحمد ومستحقا لاجل أقسام الشكر ثم قال تعالى وكبره تكبيرا ومعناه ان التحميد يجب أن يكون مقرونا بالتكبير ويحتمل أنواعا من المعانى (أولها) تكبيره فى ذاته وهو أن يعتقد أنه واجب الوجود لذاته وانه غنى عن كل ما سواه (وثانيها) تكبيره فى صفاته وذلك من ثلاثة أوجه (أولها) أن يعتقد ان كل ما كان صفة له فهو من صفات الجلال والعز والعظمة والكمال وهو منزه عن كل صفات النقائص (وثالثها) ان يعتقد أن كل واحد من تلك الصفات متعلق بما لا نهاية له من المعلومات وقدرته متعلقة بما لا نهاية له من المقدورات والممكنات (ورابعها) أن يعتقد انه كما تقدست ذاته عن الحدوث وتنزهت عن التغير والزوال والتحول والانتقال فكذلك صفاته أزلية قديمة سرمدية منزهة عن التغير والزوال والتحول والانتقال (النوع الثالث) من تكبير الله تكبيره فى أفعاله وعند هذا تختلف أهل الجبر والقدر فقال أهل السنة انا نحمد الله ونكبره ونعظمه عن أن يجرى فى سلطانه شئ لا على وفق حكمه وارادته فالكل واقع بقضاء الله وقدره ومشيئته وارادته وقالت المعتزلة انا نكبر الله ونعظمه عن أن يكون فاعلا لهذه القبائح والفواحش بل نعتقد ان حكمته تقتضى التنزيه والتقديس عنها وعن ارادتها وسمعت ان الاستاذ أبا اسحق

كما يقوله الثنوية القائلون بتعدد الآلهة (ولم يكن له ولى من الذل) ناصر ومانع منه لاعتزازه به أو لم يوال أحدا من اجل مذلة ليدفعها به وفى التعرض فى أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة ايذان بأن المستحق للحمد من هذه نعوته دون غيره اذ بذلك يتم الكمال والقدرة التامة على الايجاد وما يتفرع عليه من افاضة أنواع النعم وما عداه ناقص مملوك نعمة او منعم عليه ولذلك عطف عليه قوله تعالى (وكبره تكبيرا) وفيه تنبيه على أن العبد وان بالغ فى التنزيه والتمجيد واجتهد فى الطاعة والتحميد ينبغى أن يعترف بالقصور فى ذلك روى أنه صلى الله عليه وسلم

الاسفراينى كان جالسا فى دار الصاحب بن عباد فدخل القاضى عبد الجبار بن أحمد الهمدانى فلما رآه قال سبحان من تنزه عن الفحشاء فقال الاستاذ أبو اسحق سبحان من لا يجرى فى ملكه الا ما يشاء (النوع الرابع) تكبير الله فى أحكامه وهو أن يعتقد أنه ملك مطاع وله الامر والنهى والرفع والخفض وانه لا اعتراض لاحد عليه فى شئ أحكامه يعز من يشاء و يذل من يشاء (النوع الخامس) تكبير الله فى أسمائه وهو ان لا يذكر الا بأسمائه الحسنى ولا يوصف الا بصفاته المقدسة العالية المنزهة (النوع السادس) من التكبير هو ان الانسان بعد ان يبلغ فى التكبير والتعظيم والتنزيه والتقديس مقدار عقله وفهمه وخاطره يعترف ان عقله وفهمه لا يفى بمعرفة جلال الله ولسانه لا يفى بشكره وجوارحه وأعضاؤه لا تفى بخدمته فكبر الله عن أن يكون تكبيره وافيا بكنه مجده وعزته وهذا أقصى ما يقدر عليه العبد الضعيف من التكبير والتعظيم ونسأل الله تعالى الرحمة قبل الموت وعند الموت و بعد الموت انه الكريم الرحيم و بالله العصمة والتوفيق وحسبنا الله ونعم الوكيل قال المصنف رحمه الله تعالى تم تفسير هذه السورة يوم الثلاثاء بين الظهر والعصر يوم العشرين من شهر المحرم فى بلدة غزنين سنة احدى وستمائة والحمد لله والصلاة على نبيه محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

❁(سورة الكهف مائة واحدى عشرة آية مكية قال ابن عباس انها مكية غير آيتين منها فيهما ذكر عيينة بن حصن الفزارى وعن قتادة انها مكية وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الا أدلكم على سورة شيعها سبعون ألف ملك حين نزلت هى سورة الكهف ❁

❁(بسم الله الرحمن الرحيم)❁

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه و يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا) فى الآ[illegible] مسائل (المسئلة الاولى) أما الكلام فى حقائق قولنا الحمد لله فقد سبق والذى أقوله ههنا ان التسبيح أينما جاء فانما جاء مقدما على التحميد ألا ترى انه يقال سبحان الله والحمد لله اذا عرفت هذا فنقول انه جل جلاله ذكر التسبيح عندما اخبر أنه أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال سبحان الذى اسرى بعبده ليلا وذكر التحميد عند ما ذكر انه أنزل الكتاب على محمد صلى الله عليه وسلم فقال الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب وفيه فوائد (الفائدة الاولى) ان التسبيح أول الامر لانه عبارة عن تنزيه الله عما لا ينبغى وهو اشارة الى كونه كاملا فى ذاته والتحميد عبارة عن كونه مكملا لغيره ولا شك ان أول الامر هو كونه كاملا فى ذاته ونهاية الامر كونه مكملا لغيره فلا جرم وقع الابتداء فى الذكر بقولنا سبحان الله ثم ذكر بعده الحمد لله تنبيها على أن مقام التسبيح مبدأ ومقام التحميد نهاية اذا عرفت هذا فنقول ذكر عند الاسراء لفظ التسبيح وعند انزال الكتاب لفظ التحميد وهذا تنبيه على ان الاسراء به أول درجات كماله وانزال الكتاب غاية

كان اذا افصح الغلام من بنى عبد المطلب علمه هذه الآية الكريمة وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة بنى أسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار فى الجنة والقنطار ألف اوقية ومائتا أوقية والحمد لله سبحانه وله الكبرياء والعظمة والجبروت

*(سورة الكهف مكية وقيل الا قوله تعالى واصبر نفسك الآية وهى مائة واحدى عشرة آية بسم)❁

(بسم الله الرحمن الرحيم) (الحمد لله الذى أنزل على عبده) محمد صلى الله عليه وسلم (الكتاب) أى الكتاب الكامل الغنى عن الوصف

درجات كماله والامر فى الحقيقة كذلك لان الاسراء به الى المعراج يقتضى حصول الكمال له وانزال الكتاب عليه يقتضى كونه مكملا للارواح البشرية وناقلا لها من حضيض البهيمية الى أعلى درجات الملكية ولاشك ان هذا الثانى أكمل وهذا تنبيه على ان أعلى مقامات العباد مقام أن يصير عالما فى ذاته معلما لغيره ولهذا روى فى الخبر أنه عليه الصلاة والسلام قال من تعلم وعلم فذاك يدعى عظيما فى السموات (الفائدة الثانية) ان الاسراء عبارة عن رفع ذاته من تحت الى فوق وانزال الكتاب عليه عبارة عن انزال نور الوحى عليه من فوق الى تحت ولاشك ان هذا الثانى أكمل (الفائدة الثالثة) ان منافع الاسراء به كانت مقصورة عليه ألا ترى انه تعالى قال هنالك لنريه من آياتنا ومنافع انزال الكتاب عليه متعدية ألا ترى انه قال لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين والفوائد المتعدية أفضل من القاصرة (المسئلة الثانية) المشبهة استدلوا بلفظ الاسراء فى السورة المتقدمة وبلفظ الانزال فى هذه السورة على انه تعالى مختص بجهة فوق (والجواب) عنه مذكور بالتمام فى سورة الاعراف فى تفسير قوله تعالى ثم استوى على العرش (المسئلة الثالثة) انزال الكتاب نعمة عليه ونعمة علينا أما كونه نعمة عليه فلانه تعالى أطلعه بواسطة هذا الكتاب الكريم على أسرار علوم التوحيد والتنزيه وصفات الجلال والاكرام وأسرار أحوال الملائكة والانبياء وأحوال القضاء والقدر وتعلق أحوال العالم السفلى بأحوال العالم العلوى وتعلق أحوال عالم الآخرة بعالم الدنيا وكيفية نزول القضاء من عالم الغيب وكيفية ارتباط عالم الجسمانيات بعالم الروحانيات وتصيير النفس كالمرآة التى يتجلى فيها عالم الملكوت وينكشف فيها قدس اللاهوت فلاشك ان ذلك من أعظم النعم وأما كون هذا الكتاب نعمة علينا فلانه مشتمل على التكاليف والاحكام والوعد والوعيد والثواب والعقاب وبالجملة فهو كتاب كامل فى أقصى الدرجات فكل واحد ينتفع به بمقدار طاقته وفهمه فلما كان كذلك وجب على الرسول وعلى جميع أمته أن يحمدوا الله عليه فعلمهم الله تعالى كيفية ذلك التحميد فقال الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ثم انه تعالى وصف الكتاب بوصفين فقال ولم يجعل له عوجا قيما وفيه أبحاث (البحث الاول) انا قد ذكرنا ان الشئ يجب أن يكون كاملا فى ذاته ثم يكون مكملا لغيره ويجب أن يكون تاما فى ذاته ثم يكون فوق التمام بأن يفيض عليه كمال الغير اذا عرفت هذا فنقول فى قوله ولم يجعل له عوجا اشارة الى كونه كاملا فى ذاته وقوله قيما اشارة الى كونه مكملا لغيره لان القيم عبارة عن القائم بمصالح الغير ونظيره قوله فى أول سورة البقرة فى صفة الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين فقوله لا ريب فيه اشارة الى كونه فى نفسه بالغا فى الصحة وعدم الاخلال الى حيث يجب على العاقل أن لا يرتاب فيه وقوله هدى للمتقين اشارة الى كونه سببا لهداية الخلق واكمال حالهم فقوله ولم يجعل له عوجا قائم مقام قوله لا ريب فيه وقوله قيما قائم مقام قوله هدى للمتقين وهذه أسرار

بالكمال المعروف بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به وهو عبارة عن جميع القرآن أو عن جميع المنزل حينئذ كما مر مرارا وفى وصفه تعالى بالموصول اشعار بعلية ما فى حيز الصلة لاستحقاق الحمد وايذان بعظم شان التنزيل الجليل كيف لا وعليه يدور فلك مصلحة الدارين وفى التعبير عن الرسول عليه الصلاة والسلام بالعبد مضافا الى ضمير الجلالة تنبيه على بلوغه عليه الصلاة والسلام الى أعلى معارج العبادة وتشريف له أى تشريف واشعار بأن شان الرسول أن يكون عبدا للمرسل لا كما زعمت النصارى فى حق عيسى عليه السلام وتأخير المفعول الصريح عن الجار والمجرور مع أن حقه التقديم عليه ليتصل به قوله تعالى (ولم يجعل له عوجا) أى شيئا من العوج بنوع اختلال فى النظم وتناف فى المعنى أو انحراف عن الدعوة الى الحق وهو فى المعانى كالعوج فى الاعيان وأما قوله تعالى لا ترى فيها عوجا ولا أمتا مع كون الجبال من الاعيان فللدلالة على انتفاء ما لا يدرك من العوج بحاسة البصر بل انما يوقف عليه بالبصيرة بواسطة استعمال المقاييس الهندسية ولما كان ذلك مما لا يشعر به بالمشاعر الظاهرة عد من قبيل ما فى المعانى وقيل الفتح فى اعوجاج المنتصب كالعود والحائط والكسر فى اعوجاج غيره عينا كان أو معنى (قيما) بالمصالح الدينية والدنيوية خا للعباد على ما ينبئ عنه ما بعده من الانذار والتبشير فيكون وصفا له بالتكميل بعد وصفه بالكمال أو على ما قبله من الكتب السماوية شاهدا بصحتها ومهيمنا عليها أو متناهيا فى الاستقامة فيكون تأكيدا لما دل عليه نفى العوج مع افادة كون ذلك من صفاته الذاتية اللازمة له

بـ سي حسه الصحيحه لانه نفى عنه العوج مع كونه من شانه وانتصابه على تقدير كون الجملة المتقدمة معطوفة على الصلة بمضمر ينبئ عنه نفى العوج تقديره جعله قيما وأما على تقدير كونها حالية فهو على الحالية من الكتاب اذ لافصل حينئذ بين أبعاض المعطوف عليه بالمعطوف وقرئ قيما (لينذر) متعلق بأنزل والفاعل ضمير الجلالة كما فى الفعلين المعطوفين عليه والاطلاق عن ذكر المفعول الاول للايذان بأن ماسيق له الكلام هو المفعول الثانى وأن الاول ظاهر لا حاجة الى ذكره أى أنزل الكتاب لينذر بما فيه الذين كفروا به (بأسا) اى عذابا (شديدا من لدنه) اى صادرا من عنده نازلا من قبله بمقابلة كفرهم وتكذيبهم وقرئ من لدنه بسكون الدال مع اشمام الضمة وكسر النون لالتقاء الساكنين وكسر الهاء للاتباع (ويبشر) بالتشديد وقرئ بالتخفيف (المؤمنين) أى المصدقين به (الذين يعملون الصالحات) الاعمال الصالحة التى بينت فى تضاعيفه وايثار صيغة الاستقبال فى الصلة للاشعار بتجدد الاعمال الصالحة واستمرارها واجراء الموصول على موصوفه المذكور لما أن مدار قبول الاعمال هو الايمان (ان لهم) أى بأن لهم بمقابلة ايمانهم وأعمالهم المذكورة (أجرا حسنا) هو الجنة ومافيها من المثوبات الحسنى (ماكثين) حال من الضمير المجرور فى لهم (فيه) اى فى ذلك الاجر ﴿ من ﴾ (أبدا) من غير انتهاء أى خالدين فيه وهو نصب على الظرفية لماكثين وتقديم الانذار على التبشير لاظهار كمال العناية بزجر الكفار عماهم عليه مع مراعاة تقديم التخلية على التحلية وتكرير الانذار بقوله تعالى (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) متعلقا بفرقة خاصة ممن عمه الانذار

لطيفة (البحث الثانى) قال أهل اللغة العوج فى المعانى كالعوج فى الاعيان والمراد منه وجوه (أحدها) نفى التناقض عن آياته كما قال ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (وثانيها) ان كل ماذكر الله من التوحيد والنبوة والاحكام والتكاليف فهو حق وصدق ولاخلل فى شئ منها البتة (وثالثها) ان الانسان كأنه خرج من عالم الغيب متوجها الى عالم الآخرة والى حضرة جلال الله وهذه الدنيا كأنها رباط بنى على طريق عالم القيامة حتى ان المسافر اذا نزل فيه اشتغل بالمهمات التى يجب رعايتها فى هذا السفر ثم يرتحل منه متوجها الى عالم الآخرة فكل ما دعاه من الدنيا الى الآخرة ومن الجسمانيات الى الروحانيات ومن الخلق الى الحق ومن اللذات الشهوانية الجسدانية الى الاستنارة بالانوار الصمدانية فثبت انه مبرأ عن العوج والانحراف والباطل فلهذا قال تعالى ولم يجعل له عوجا (الصفة الثانية) للكتاب وهى قوله قيما قال ابن عباس يريد مستقيما وهذا عندى مشكل لانه لامعنى لنفى الاعوجاج الاحصول الاستقامة فتفسير القيم بالمستقيم يوجب التكرار وانه باطل بل الحق ماذكرناه وان المراد من كونه قيما انه سبب لهداية الخلق وأنه يجرى مجرى من يكون قيما للاطفال فالارواح البشرية كالاطفال والقرآن كالقيم الشفيق القائم بمصالحهم (البحث الثالث) قال الواحدى جميع أهل اللغة والتفسير قالوا هذا من التقديم والتأخير والتقدير أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا وأقول قد بينا مايدل على فساد هذا الكلام لانا بينا ان قوله ولم يجعل له عوجا يدل على كونه كاملا فى ذاته وقوله قيما يدل على كونه مكملا لغيره وكونه كاملا فى ذاته متقدم بالطبع على كونه مكملا لغيره فثبت بالبرهان العقلى ان الترتيب الصحيح هو الذى ذكره الله تعالى وهو قوله ولم يجعل له عوجا قيما فظهر أن ماذكروه من التقديم والتاخير فاسد يمتنع العقل من الذهاب اليه (البحث الرابع) اختلف النحويون فى انتصاب قوله قيما وذكروا فيه وجوها (الاول) قال صاحب الكشاف لايجوز جعله حالا من الكتاب لان قوله ولم يجعل له عوجا معطوف على قوله أنزل فهو داخل فى حيز الصلة فجعله حالا من الكتاب يوجب الفصل بين الحال وذى الحال ببعض الصلة وانه لايجوز قال ولما بطل هذا وجب أن ينتصب بمضمر والتقدير ولم يجعل له عوجا وجعله قيما (الوجه الثانى) قال الاصفهانى الذى نرى فيه أن يقال قوله ولم يجعل له عوجا حال وقوله قيما حال أخرى وهما حالان متواليان والتقدير أنزل على عبده الكتاب غير مجعول له عوجا قيما (الوجه الثالث) قال السيد صاحب حل العقد يمكن أن يكون قوله قيما بدلا من قوله ولم يجعل له عوجا لان معنى لم يجعل له عوجا انه جعله مستقيما فكأنه قيل أنزل على عبده الكتاب وجعله قيما (الوجه الرابع) أن يكون حالا من الضمير فى قوله ولم يجعل له عوجا أى حال كونه قائما بمصالح العباد وأحكام الدين واعلم انه تعالى لماذكر انه أنزل على عبده هذه الكتاب الموصوف بهذه الصفات المذكورة أردفه ببيان مالاجله أنزله فقال لينذر بأسا شديدا

السابق من مستحق البأس الشديد للايذان بكمال فظاعة حالهم لغاية شناعة كفرهم وضلالهم أى وينذر من بين سائر الكفرة هؤلاء المتفوهين بمثل هاتيك العظيمة خاصة وهم كفار العرب الذين يقولون الملائكة بنات الله تعالى واليهود القائلون عزير ابن الله والنصارى القائلون المسيح ابن الله وترك اجراء الموصول على الموصوف كما فعل فى قوله تعالى ويبشر المؤمنين للايذان بكفاية ما فى حيز الصلة فى الكفر على أقبح الوجوه وايثار صيغة الماضى فى الصلة للدلالة على تحقق صدور تلك الكلمة القبيحة عنهم فيما سبق وجعل المفعول المحذوف فيما سلف عبارة عن هذه الطائفة يؤدى الى خروج سائر أصناف الكفرة عن الانذار والوعيد وتعميم الانذار هنالك للمؤمنين أيضا بحمله على معنى مجرد الاخبار بالخبر الضار من غير اعتبار حلول المنذر به على المنذر كما فى قوله تعالى أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا يفضى الى خلو النظم الكريم عن الدلالة على حلول البأس الشديد على من عدا هذه الفرقة ويجوز أن يكون الفاعل فى الافعال الثلاثة ضمير الكتاب أو ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام (ما لهم به) أى باتخاذه سبحانه وتعالى ولدا (من علم) مرفوع على الابتداء أو الفاعلية لاعتماد الظرف ومن مزيدة لتأكيد النفى والجملة حالية أو مستأنفة لبيان حالهم فى مقالهم أى ما لهم بذلك شئ من علم أصلا لا لاخلالهم بطريقة مع تحقق المعلوم أو امكانه بل لاستحالته فى نفسه (ولا لآبائهم) الذين قلدوهم فتاهوا جميعا فى تيه الجهالة والضلالة أو ما لهم علم بما قالوه أهو صواب أم خطأ بل انما قالوه رمبا عن عمى وجهالة من غير فكر وروية كما فى قوله تعالى وخرقوا له بنين وبنات بغير علم أو بحقيقة ما قالوه وبعظم

من لدنه وأنذر متعد الى مفعولين كقوله انا أنذرناكم عذابا قريبا الا أنه اقتصر ههنا على أحدهما وأصله لينذر الذين كفروا بأسا شديدا كما قال فى ضده ويبشر المؤمنين والبأس ماخوذ من قوله تعالى بعذاب بئيس وقد بؤس العذاب وبؤس الرجل بأسا وبآسة وقوله من لدنه أى صادرا من عنده قال الزجاج وفى لدن لغات يقال لدن ولدى ولد والمعنى واحد قال وهى لا تتمكن تمكن عند لانك تقول هذا القول صواب عندى ولا تقول صواب لدنى وتقول عندى مال عظيم والمال غائب عنك ولدنى لما يليك لا غير وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر بسكون الدال مع اشمام الضم وكسر النون والهاء وهى لغة بنى كلاب ثم قال تعالى ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا حسنا واعلم أن المقصود من ارسال الرسل انذار المذنبين وبشارة المطيعين ولما كان دفع الضرر أهم عند العقول من ايصال النفع لا جرم قدم الانذار على التبشير فى اللفظ قال صاحب الكشاف وقرئ ويبشر بالتخفيف والتثقيل وقوله ماكثين فيه أبدا يعنى خالدين وهو حال للمؤمنين من قوله ان لهم أجرا قال القاضى الآية دالة على صحة قولنا فى مسائل (أحدها) ان القرآن مخلوق وبيانه من وجوه (الاول) انه تعالى وصفه بالانزال والنزول وذلك من صفات المحدثات فان القديم لا يجوز عليه التغير (الثانى) وصفه بكونه كتابا والكتب هو الجمع وهو سمى كتابا لكونه مجموعا من الحروف والكلمات وما صح فيه التركيب والتأليف فهو محدث (الثالث) انه تعالى أثبت الحمد لنفسه على انزال الكتاب والحمد انما يستحق على النعمة والنعمة محدثة مخلوقة (الرابع) انه وصف الكتاب بانه غير معوج وبأنه مستقيم والقديم لا يمكن وصفه بذلك فثبت انه محدث مخلوق (وثانيها) مسئلة خلق الاعمال فان هذه الآيات تدل على قولنا فى هذه المسئلة من وجوه (الاول) نفس الامر بالحمد لانه لو لم يكن للعبد فعل لم ينتفع بالكتاب اذ الانتفاع به انما يحصل اذا قدر على أن يفعل ما دل الكتاب على أنه يجب فعله ويترك ما دل الكتاب على أنه يجب تركه وهو انما يفعل ذلك لو كان مستقلا بنفسه أما اذا لم يكن مستقلا بنفسه لم يكن لعوج الكتاب أثر فى اعوجاج فعله ولم يكن لكون الكتاب قيما أثر فى استقامة فعله أما اذا كان العبد قادرا على الفعل مختارا فيه بقى لعوج الكتاب واستقامته أثر فى فعله (والثانى) انه تعالى لو كان أنزل بعض الكتاب ليكون سببا لكفر البعض وأنزل الباقى ليؤمن البعض الآخر فمن أين ان الكتاب قيم لا عوج فيه لانه لو كان فيه عوج لما زاد على ذلك (والثالث) قوله لينذر وفيه دلالة على انه تعالى أراد منه صلى الله عليه وسلم انذار الكل وتبشير الكل وبتقدير أن يكون خالق الكفر والايمان هو الله تعالى لم يبق للانذار والتبشير معنى لانه تعالى اذا خلق الايمان فيه حصل شاء أو لم يشأ واذا خلق الكفر فيه حصل شاء أو لم يشأ فبقى الانذار والتبشير على الكفر والايمان جاريا مجرى الانذار والتبشير على كونه طويلا قصيرا وأسود وأبيض مما لا قدرة له عليه (والرابع) وصفه المؤمنين بأنهم يعملون

الصالحات فان كان ما وقع خلق الله تعالى فلا عمل لهم البتة (الخامسة) ايجابه لهم الاجر الحسن على ما عملوا فان كان الله تعالى يخلق ذلك فيهم فلا ايجاب ولا استحقاق (المسئلة الثالثة) قال قوله لينذر يدل على انه تعالى انما يفعل أفعاله لاغراض صحيحة وذلك يبطل قول من يقول ان فعله غير معلل بالغرض واعلم أن هذه الكلمات قد تكررت فى هذا الكتاب فلا فائدة فى الاعادة * قوله تعالى (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن قوله تعالى وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا معطوف على قوله لينذر بأسا شديدا من لدنه والمعطوف يجب كونه مغايرا للمعطوف عليه فالاول عام فى حق كل من استحق العذاب والثانى خاص بمن أثبت لله ولدا وعادة القرآن جارية بأنه اذا ذكر قضية كلية عطف عليها بعض جزئياتها تنبيها على كونه أعظم جزئيات ذلك الكلى كقوله تعالى وملائكته وجبريل وميكال فكذا ههنا العطف يدل على ان أقبح أنواع الكفر والمعصية اثبات الولد لله تعالى (المسئلة الثانية) الذين أثبتوا الولد لله تعالى ثلاث طوائف (أحدها) كفار العرب الذين قالوا الملائكة بنات الله (وثانيها) النصارى حيث قالوا المسيح ابن الله (وثالثها) اليهود الذين قالوا عزير ابن الله والكلام فى ان اثبات الولد لله كفر عظيم ويلزم منه محالات عظيمة قد ذكرناه فى سورة الانعام فى تفسير قوله تعالى وخرقوا له بنين وبنات بغير علم وتمامه مذكور فى سورة مريم ثم انه تعالى أنكر على القائلين باثبات الولد لله تعالى من وجهين (الاول) قوله ما لهم به من علم ولا لآبائهم فان قيل اتخاذ الله ولدا محال فى نفسه فكيف قيل ما لهم به من علم قلنا انتفاء العلم بالشئ قد يكون للجهل بالطريق الموصل اليه وقد يكون لانه فى نفسه محال لا يمكن تعلق العلم به ونظيره قوله ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به واعلم أن نفاة القياس تمسكوا بهذه الآية فقالوا هذه الآية تدل على ان القول فى الدين بغير علم باطل والقول بالقياس الظنى قول فى الدين بغير علم فيكون باطلا وتمام تقريره مذكور فى قوله ولا تقف ما ليس لك به علم وقوله ولا لآبائهم أى ولا أحد من أسلافهم وهذا مبالغة فى كون تلك المقالة باطلة فاسدة (النوع الثانى) مما ذكره الله فى ابطاله قوله كبرت كلمة تخرج من أفواههم وفيه مباحث (البحث الاول) قرئ كبرت كلمة بالنصب على التمييز وبالرفع على الفاعلية قال الواحدى ومعنى التمييز انك اذا قلت كبرت المقالة أو الكلمة جاز أن يتوهم انها كبرت كذبا أو جهلا أو افتراء فلما قلت كلمة ميزتها من محتملاتها فانتصبت على التمييز والتقدير كبرت الكلمة كلمة فيحصل فيه الاضمار أما من رفع فلم يضمر شيئا كما تقول عظم فلان فلذلك قال النحويون والنصب أقوى وأبلغ وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أكبرها كلمة (البحث الثانى) قوله كبرت اى كبرت الكلمة والمراد من هذه الكلمة ما حكاه الله تعالى عنهم فى قوله قالوا اتخذ الله ولدا

رتبته فى الشناعة كما فى قوله تعالى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا ادا تكاد السموات يتفطرن منه الآيات وهو الانسب بقوله تعالى (كبرت كلمة) أى عظمت مقالتهم هذه الكفر والافتراء لما فيها من نسبته سبحانه الى ما لا يكاد يليق بجناب كبريائه والفاعل فى كبرت اما ضمير المقالة المدلول عليها بقالوا وكلمة نصب على التمييز أو ضمير مبهم مفسر بما بعده من النكرة المنصوبة تمييزا كبئس رجلا والمخصوص بالذم محذوف تقديره كبرت هى كلمة خارجة من أفواههم وقرئ كبرت باسكان الباء مع اشمام الضم وقرئ كلمة بالرفع (تخرج من أفواههم) صفة للكلمة مفيدة لاستعظام اجترائهم على التفوه بها واسناد الخروج اليها مع أن الخارج هو الهواء المتكيف بكيفية الصوت الملابسة بها (ان يقولون) ما يقولون فى ذلك الشان (الا كذبا) اى الا قولا كذبا لا يكاد يدخل تحت امكان الصدق أصلا والضميران لهم ولآبائهم مثل حاله عليه الصلاة والسلام فى شدة الوجد على اعراض القوم وتوليهم عن الايمان بالقرآن وكمال التحسر عليهم بحال من يتوقع منه اهلاك نفسه اثر فوت ما يحبه عند مفارقة أحبته تأسفا على مفارقتهم وتلهفا على مهاجرتهم فقيل على طريقة التمثيل حملا له عليه الصلاة والسلام على الحذر والاشفاق من ذلك (فلعلك باخع) أى مهلك (نفسك على آثارهم) عما وجدوا على فراقهم وقرئ بالاضافة (ان لم يؤمنوا بهذا الحديث) اى القرآن الذى عبر عنه فى صدر السورة بالكتاب وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه وقرئ بأن المفتوحة أى لان لم يؤمنوا فاعمال باخع بحمله على حكاية حال

﴿فصارت﴾

فصارت مضمرة فى كبرت وسميت كلمة كما يسمون القصيدة كلمة (البحث الثالث) احتج النظام فى اثبات قوله ان الكلام جسم بهذه الآية قال انه تعالى وصف الكلمة بانها تخرج من أفواههم والخروج عبارة عن الحركة والحركة لا تصح الا على الاجسام والجواب ان الحروف والاصوات انما تحدث بسبب خروج النفس عن الحلق فلما كان خروج النفس سببا لحدوث الكلمة أطلق لفظ الخروج على الكلمة (البحث الرابع) قوله تخرج من أفواههم يدل على ان هذا الكلام مستكره جدا عند العقل كأنه يقول هذا الذى يقولونه لا يحكم به عقلهم وفكرهم البتة لكونه فى غاية الفساد والبطلان فكأنه شئ يجرى به لسانهم على سبيل التقليد لانهم مع انها قولهم عقولهم وفكرهم تأباها وتنفر عنها ثم قال تعالى ان يقولون الا كذبا ومعناه ظاهر واعلم أن الناس قد اختلفوا فى حقيقة الكذب فعندنا انه الخبر الذى لا يطابق المخبر عنه سواء اعتقد المخبر أنه مطابق أم لا ومن الناس من قال شرط كونه كذبا أن لا يطابق المخبر عنه مع علم قائله بأنه غير مطابق وهذا القيد عندنا باطل والدليل عليه هذه الآية فانه تعالى وصف قولهم باثبات الولد لله بكونه كذبا مع ان الكثير منهم يقول ذلك ولا يعلم كونه باطلا فعلمنا ان كل خبر لا يطابق المخبر عنه فهو كذب سواء علم القائل بكونه مطابقا أو لم يعلم ثم قال تعالى فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا وفيه مباحث (البحث الاول) المقصود منه أن يقال للرسول لا يعظم حزنك وأسفك بسبب كفرهم فانا بعثناك منذرا ومبشرا فأما تحصيل الايمان فى قلوبهم فلا قدرة لك عليه والغرض تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عنه (البحث الثانى) قال الليث بخع الرجل نفسه اذا قتلها غيظا من شدة وجده بالشئ وقال الاخفش والفراء أصل البخع الجهد يقال بخعت لك نفسى أى جهدتها وفى حديث عائشة رضى الله عنها انها ذكرت عمر فقالت بخع الارض أى جهدها حتى أخذ ما فيها من أموال الملوك وقال الكسائى بخعت الارض بالزراعة اذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة وبخع الرجل نفسه اذا نهكها وعلى هذا معنى باخع نفسك أى ناهكها وجاهدها حتى تهلكها ولكن أهل التأويل كلهم قالوا قاتل نفسك ومهلكها والاصل ما ذكرناه هكذا قال الواحدى (البحث الثالث) قوله على آثارهم أى من بعدهم يقال مات فلان على اثر فلان أى بعده وأصل هذا ان الانسان اذا مات بقيت علاماته وآثاره بعد موته مدة ثم انها تنمحى وتبطل بالكلية فاذا كان موته قريبا من موت الاول كان موته حاصلا حال بقاء آثار الاول فصح أن يقال مات فلان على اثر فلان (البحث الرابع) قوله ان لم يؤمنوا بهذا الحديث المراد بالحديث القرآن قال القاضى وهذا يقتضى وصف القرآن بانه حديث وذلك يدل على فساد قول من يقول انه قديم وجوابه انه محمول على الالفاظ وهى حادثة (البحث الخامس) قوله أسفا الاسف المبالغة فى الحزن وذكرنا الكلام فيه عند قوله غضبان أسفا فى سورة الاعراف وعند قوله يا أسفا على

ماضية لاستحضار الصورة كما فى قوله عز وجل باسط ذراعيه (أسفا) مفعول له لباخع أى لفرط الحزن والغضب أو حال مما فيه من الضمير أو متأسفا عليهم ويجوز حمل النظم الكريم على الاستعارة التبعية بجعل التشبيه بين أجزاء الطرفين لا بين الهيئتين المنتزعتين منهما كما فى التمثيل وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى ختم الله على قلوبهم (انا جعلنا ما على الارض) استئناف وتعليل لما فى لعل من معنى الاشفاق اى انا جعلنا ما عليها من عدا من وجه اليه التكليف من الزخارف حيوانا كان أو نباتا أو معدنا كقوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا (زينة) مفعول ثان للجعل ان حمل على معنى التصيير أو حال ان حمل على معنى الابداع واللام فى (لها) اما متعلقة بزينة أو بمحذوف هو صفة لها أى كائنة لها أى ليتمتع بها الناظرون من المكلفين وينتفعوا بها نظرا واستدلالا فان الحيات والعقارب من حيث تذكيرهما العذاب الآخرة من قبيل المنافع بل كل حادث داخل تحت الزينة من حيث دلالته على وجود الصانع ووحدته فان الازواج والاولاد أيضا من زينة الحياة الدنيا بل أعظمها ولا يمنع ذلك كونهم من جملة المكلفين فانهم من جهة انتسابهم الى أصحابهم داخلون تحت الزينة ومن جهة كونهم مكلفين داخلون تحت الابتلاء (لنبلوهم) متعلق بجعلنا أى جعلنا ما جعلنا لنعاملهم معاملة من يختبرهم (أيهم أحسن عملا) فنجازيهم بالثواب والعقاب حسبما تبين المحسن من المسئ وامتازت طبقات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز مراتب علومهم المرتبة على أنظارهم وتفاوت درجات أعمالهم المتفرعة على ذلك كما قررناه فى مطلع سورة هود وأى اما استفهامية مرفوعة

رتبته في الشأنين خبرها والجملة في محل النصب معلقة لفعل البلوى لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالسؤال والنظر الانسب بتى مجراه بطريق التمثيل أو الاستعارة التبعية واما موصولة بمعنى الذى وأحسن خبر مبتدا مضمر والجملة صلة لها بجنام حيز النصب بدل من مفعول لنبلوهم والتقدير لنبلو الذى هو أحسن عملا فحينئذ يحتمل أن تكون الضمة في أيهم للبناء كما قوله عز وجل ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا على أحد الاقوال لتحقق شرط البناء الذى هو الاضافة لفظا وحذف صدر الصلة وأن تكون للاعراب لان ماذكر شرط لجواز البناء لا لوجوبه وحسن العمل الزهد فيها وعدم الاغترار بها والقناعة باليسير منها وصرفها على ما ينبغي والتأمل في شأنها وجعلها ذريعة الى معرفة خالقها والتمتع بها حسبما أذن له الشرع وأداء حقوقها والشكر لها لا اتخاذها وسيلة الى الشهوات والاغراض الفاسدة كما يفعله الكفرة وأصحاب الاهواء وايراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح أيضا لا الى الحسن والاحسن فقط للاشعار بأن الغاية الاصلية للجعل المذكور انما هو ظهور كمال احسان المحسنين على ما حقق في تفسير قوله تعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا (وانا الجاعلون) فيما سيأتى عند تناهى عمر الدنيا (ماعليها) من المخلوقات قاطبة بافنائها بالكلية وانما أظهر في مقام الاضمار لزيادة التقرير أو لادراج المكلفين فيه (صعيدا) مفعول ثان للجعل والصعيد التراب أو وجه الارض قال أبو عبيدة هو المستوى من الارض وقال الزجاج هو الطريق الذى لا نبات فيه (جرزا) ترابا لا نبات فيه

يوسف وفى انتصابه وجوه (الاول) انه نصب على المصدر ودل ماقبله من الكلام على انه يأسف (الثانى) يجوز أن يكون مفعولا له أى للاسف كقولك جئتك ابتغاء الخير (والثالث) قال الزجاج أسفا منصوب لانه مصدر في موضع الحال (البحث السادس) الفاء في قوله فلعلك جواب الشرط وهو قوله ان لم يؤمنوا قدم عليه ومعناه التأخير

* قوله تعالى (انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا وانا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال القاضى وجه النظم كأنه تعالى يقول يا محمد انى خلقت الارض وزينتها وأخرجت منها أنواع المنافع والمصالح والمقصود من خلقها بما فيها من المنافع ابتلاء الخلق بهذه التكاليف ثم انهم يكفرون ويتمردون ومع ذلك فلا أقطع عنهم مواد هذه النعم فأنت أيضا يا محمد ينبغى أن لا تنتهى في الحزن بسبب كفرهم الى أن تترك الاشتغال بدعوتهم الى الدين الحق (المسئلة الثانية) اختلفوا في تفسير هذه الزينة فقال بعضهم النبات والشجر وضم بعضهم اليه الذهب والفضة والمعادن وضم بعضهم اليه سائر الحيوانات وقال بعضهم بل المراد الناس فهم زينة الارض وبالجملة فليس بالارض الا المواليد الثلاثة وهى المعادن والنبات والحيوان وأشرف أنواع الحيوان الانسان وقال القاضى الاولى انه لا يدخل في هذه الزينة المكلف لانه تعالى قال انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم فمن يبلوه يجب أن لا يدخل في ذلك فأما سائر النبات والحيوان فانهم يدخلون فيه كدخول سائر ما ينتفع به وقوله زينة لها أى للارض ولا يمتنع أن يكون ما يحسن به الارض زينة للارض كما جعل الله السماء مزينة بزينة الكواكب أما قوله لنبلوهم أيهم أحسن عملا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ذهب هشام بن الحكم الى أنه تعالى لا يعلم الحوادث الا عند دخولها في الوجود فعلى هذا الابتلاء والامتحان على الله جائز واحتج عليه بأنه تعالى لو كان عالما بالجزئيات قبل وقوعها لكان كل ما علم وقوعه واجب الوقوع وكل ما علم عدمه ممتنع الوقوع والا لزم انقلاب علمه جهلا وذلك محال والمفضى الى المحال محال ولو كان ذلك واجبا فالذى علم وقوعه يجب كونه فاعلا له ولا قدرة له على الترك والذى علم عدمه يكون ممتنع الوقوع ولا قدرة له على الفعل وعلى هذا يلزم أن لا يكون الله قادرا على شىء أصلا بل يكون موجبا بالذات وأيضا فيلزم أن لا يكون للعبد قدرة لا على الفعل ولا على الترك لان ما علم الله وقوعه امتنع من العبد تركه وما علم الله عدمه امتنع منه فعله فالقول بكونه تعالى عالما بالاشياء قبل وقوعها يقدح في الربوبية وفى العبودية وذلك باطل فثبت أنه تعالى انما يعلم الاشياء عند وقوعها وعلى هذا التقدير فالابتلاء والامتحان والاختبار جائز عليه وعند هذا قال يجرى قوله تعالى لنبلوهم أيهم أحسن عملا على ظاهره وأما جمهور علماء الاسلام فقد استبعدوا هذا القول وقالوا انه تعالى من الازل الى الابد عالم بجميع الجزئيات فالابتلاء والامتحان محالان عليه وانما وردت هذه الالفاظ فالمراد انه تعالى

يعاملهم معاملة لو صدرت تلك المعاملة عن غيره لكان ذلك على سبيل الابتلاء والامتحان وقد ذكرنا هذه المسئلة مرارا كثيرة (المسئلة الثانية) قال القاضي معنى قوله لنبلوهم أيهم أحسن عملا هو انه يبلوهم ليبصر هم أيهم أطوع لله وأشد استمرارا على خدمته لان من هذا حاله هو الذي يفوز بالجنة فبين تعالى انه كلف لاجل ذلك لا لاجل أن يعصى فدل ذلك على بطلان قول من يقول خلق بعضهم للنار (المسئلة الثالثة) اللام فى قوله لنبلوهم تدل ظاهرا على ان أفعال الله معللة بالاغراض عند المعتزلة وأصحابنا قالوا هذا محال لان التعليل بالغرض انما يصح فى حق من لا يمكنه تحصيل ذلك الغرض الا بتلك الواسطة وهذا يقتضى العجز الا بتلك الواسطة وهذا يقتضى العجز وهو على الله محال (المسئلة الرابعة) قال الزجاج أيهم رفع بالابتداء الا أن لفظه لفظ الاستفهام والمعنى لنختبر ونمتحن هذا أحسن عملا أم ذاك ثم قال تعالى وانا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا والمعنى انه تعالى بين انه انما زين الارض لاجل الامتحان والابتلاء لا لاجل أن يبقى الانسان فيها متنعما أبدا لانه زهد فيها بقوله وانا لجاعلون ما عليها الآية ونظيره قوله كل من عليها فان وقوله فيذرها قاعا الآية وقوله واذا الارض مدت الآية والمعنى انه لابد من المجازاة بعد فناء ما على الارض وتخصيص الابطال والاهلاك بما على الارض يوهم بقاء الارض الا أن سائر الآيات دلت على ان الارض أيضا لا تبقى وهو قوله يوم تبدل الارض غير الارض قال أبو عبيدة الصعيد المستوى من الارض وقال الزجاج هو الطريق الذى لا نبات فيه وقد ذكرنا تفسير الصعيد فى آية التيمم وأما الجرز فقال الفراء الجرز الارض التى لا نبات عليها يقال جرزت الارض فهى مجروزة وجرزها الجراد والشاة والابل اذا أكلت ما عليها وامرأة جروز اذا كانت أكولا وسيف جراز اذا كان مستأصلا ونظيره قوله تعالى نسوق الماء الى الارض الجرز * قوله تعالى (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا اذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن القوم تعجبوا من قصة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول على سبيل الامتحان فقال تعالى ام حسبت انهم كانو عجبا من آياتنا فقط فلا تحسبن ذلك فان آياتنا كلها عجب فان من كان قادرا على تخليق السموات والارض ثم زين الارض بأنواع المعادن والنبات والحيوان ثم يجعلها بعد ذلك صعيدا جرزا خالية عن الكل كيف يستبعدون من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة مدة ثلثمائة سنة وأكثر فى النوم هذا هو الوجه فى تقرير النظم والله أعلم (المسئلة الثانية) قد ذكرنا سبب نزول قصة أصحاب الكهف عند قوله و يسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وذكر محمد بن اسحق سبب نزول هذه القصة مشروحا فقال كان النضر بن الحرث من شياطين قريش وكان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم و ينصب له

بعد ما كان يتعجب من بهجته النظار وتتشرف بمشاهدته الابصار يقال أرض جرز لا نبات فيها وسنة جرز لا مطر فيها قال الفراء جرزت الارض فهى مجروزة أى ذهب نباتها بقحط أو جراد و يقال جرزها الجراد والشاة والابل اذا أكلت ما عليها وهذه الجملة لتكميل ما فى السابقة من التعليل والمعنى لا تحزن بما عاينت من القوم من تكذيب ما أنزلنا عليك من الكتاب فانا قد جعلنا ما على الارض من فنون الاشياء زينة لها لنختبر أعمالهم فنجازيهم بحسبها وانا لمفنون جميع ذلك عن قريب و مجازون لهم بحسب أعمالهم (أم حسبت) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد انكار حسبان أمته وأم منقطعة مقدرة ببل التى هى للانتقال من حديث الى حديث لا للابطال و بهمزة الاستفهام عند الجمهور و ببل وحدها عند غيرهم أى بل أحسبت (أن أصحاب الهكف والرقيم كانوا) فى بقائهم على الحياة مدة طويلة من الدهر (من آياتنا) من بين آياتنا التى من جملتها ما ذكرناه من جعل ما على الارض زينة لها للحكمة المشار اليها ثم جعل ذلك كله صعيدا جرزا كأن لم تغن بالامس (عجبا) أى آية ذات عجب وضعا له موضع المضاف أو وصفا لذلك بالمصدر مبالغة وهو خبر لكانوا ومن آياتنا حال منه والمعنى ان قصتهم وان كانت خارقة للعادات ليست بعجيبة بالنسبة الى سائر الآيات التى من جملتها ما ذكر من تعاجيب خلق الله تعالى بل هى عندها كالنزر الحقير والكهف الغار الواسع فى الجبل والرقيم كلبهم قال أمية بن أبى الصلت * وليس بها الا الرقيم مجاورا * وصيدهم والقوم فى الكهف همد * وقيل هو لوح رصاصى أو حجرى رقمت فيه أسماؤهم وجعل على باب الكهف وقيل هو الوادى

الذي فيه الكهف فهو من رقة الوادي أي جانبه وقيل الجبل قريتهم وقيل مكانهم بين غضبان وايله دون فلسطين وقيل أصحاب الرقيم آخرون وكانوا ثلاثة انطبق عليهم الغار فنجوا بذكر كل منهم أحسن عمله على ما فصل في الصحيحين (اذ اوى) ظرف لعجبا الحسبت أو مفعول لاذكر أي حين التجأ (الفتية) أي أصحاب الكهف أوثر الاظهار على الاضمار لتحقيق ما كانوا عليه في انفسهم من حال الفتوة فانهم كانوا فتية من أشراف الروم ارادهم دقيانوس على الشرك فهربوا منه بدينهم ولان صاحبية الكهف من فروع التجائهم الى الكهف فلا يناسب اعتبارها معهم قبل بيانه (الى الكهف) بجبلهم للجلوس واتخذوه ماوى (فقالوا ربنا آتنا من لدنك) من خزائن رحمتك الخاصة المكنونة عن عيون أهل العادات فمن ابتدائية متعلقة بآتنا أو بمحذوف وقع حالا من مفعوله الثاني قدمت عليه لكونه نكرة ولو تاخرت لكانت صفة له أي آتنا كائنة من لدنك (رحمة) خاصة تستوجب المغفرة والرزق والامن من الاعداء (وهيئ لنا من أمرنا) الذي نحن عليه من مهاجرة الكفار والمثابرة على طاعتك وأصل التهيئة احداث هيئة الشيء أي أصلح ورتب وأتمم لنا من أمرنا (رشدا) اصابة للطريق الموصل الى المطلوب واهتداء اليه وكلا الجارين متعلق بهيئ لاختلافهما في المعنى وتقديم المجرورين على المفعول الصريح لاظهار الاعتناء بهما ﴿ ربنا ﴾ وابراز الرغبة في المؤخر بتقديم أحواله فان تأخير ما حقه التقديم عما هو من أحواله المرغبة فيه كما يورث شوق السامع الى وروده ينبئ عن كمال رغبة المتكلم فيه واعتنائه بحصوله لا محالة وكذا الكلام

العداوة وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها احاديث رستم واسفنديار وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جلس مجلسا ذكر فيه الله وحدث قومه ما أصاب من كان قبلهم من الامم وكان النضر يخلفه في مجلسه اذا قام فقال أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه فهلموا فأنا أحدثكم باحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ثم ان قريشا بعثوه وبعثوا معه عتبة بن أبي معيط الى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما سلوهم عن محمد وصفته وأخبروهم بقوله فانهم أهل الكتاب الاول وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الانبياء فخرجا حتى قدما الى المدينة فسالوا أحبار اليهود عن أحوال محمد فقال أحبار اليهود سلوه عن ثلاث عن فتية ذهبوا في الدهر الاول ما كان من أمرهم فان حديثهم عجب وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الارض ومغاربها ما كان نبأه وسلوه عن الروح وما هو فان أخبركم فهو نبي والا فهو متقول فلما قدم النضر وصاحبه مكة قالا قد جئنا كم بفصل ما بيننا وبين محمد وأخبروا بما قاله اليهود فجاؤا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوه فقال رسول الله صلى الله عليه أخبركم بما سألتم عنه غدا ولم يستثن فانصرفوا عنه ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون خمس عشرة ليلة حتى أرجف أهل مكة به وقالوا وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة ليلة فشق عليه ذلك ثم جاءه جبريل من عند الله بسورة أصحاب الكهف وفيها معاتبة الله اياه على حزنه عليهم وفيها خبر اولئك الفتية وخبر الرجل الطواف (المسئلة الثالثة) الكهف الغار الواسع في الجبل فاذا صغر فهو الغار وفي الرقيم أقوال (الاول) روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال كل القرآن أعلمه الا أربعة غسلين وحنانا والاواه والرقيم (الثاني) روى عكرمة عن ابن عباس أنه سئل عن الرقيم فقال زعم كعب انها القرية التي خرجوا منها وهو قول السدي (الثالث) قال سعيد بن جبير ومجاهد الرقيم لوح من حجارة وقيل من رصاص كتب فيه أسماؤهم وقصتهم وشد ذلك اللوح على باب الكهف وهذا قول جميع أهل المعاني والعربية قالوا الرقيم الكتاب والاصل فيه المرقوم ثم نقل الى فعيل والرقم الكتابة ومنه قوله تعالى كتاب مرقوم أي مكتوب قال الفراء الرقيم لوح كان فيه أسماؤهم وصفاتهم ونظن انه انما سمي رقيما لان أسماءهم كانت مرقومة فيه وقيل الناس رقوا حديثهم نقرا في جانب الجبل وقوله كانوا من آياتنا عجبا المراد أحسبت ان واقعتهم كانت عجيبة في أحوال مخلوقاتنا فلا تحسب ذلك فان تلك الواقعة ليست عجيبة في جانب مخلوقاتنا والعجب ههنا مصدر سمي المفعول به والتقدير كانوا معجوبا منهم فسموا بالمصدر والمفعول به من هذا يستعمل باسم المصدر ثم قال تعالى اذ أوى الفتية الى الكهف لا يجوز أن يكون اذ ههنا متعلقا بما قبله على تقدير أم حسبت اذ أوى الفتية لانه كان بين النبي وبينهم مدة طويلة فلم يتعلق الحسبان بذلك الوقت الذي أووا فيه الى الكهف بل يتعلق بمحذوف والتقدير اذكر اذ أوى ومعنى أوى الفتية في الكهف صاروا اليه وجعلوه مأواهم قال فقالوا

في تقديم قوله تعالى من لدنك على تقدير تعلقه بآتنا وتقديم لنا على من أمرنا الايذان من اول الامر بكون المسؤل مرغوبا فيه لديهم أو اجعل أمرنا رشدا كله على أن من تجريدية مثلها في قولك رأيت منك أسدا (فضربنا على آذانهم) أي أنمناهم على طريقة التمثيل المبني على تشبيه الانامة الثقيلة المانعة عن وصول الاصوات الى الآذان بضرب الحجاب عليها وتخصيص الاذان بالذكر مع اشتراك سائر المشاعر لها في الحجب عن الشعور عند النوم لما أنها المحتاج الى الحجب عادة اذ هي الطريقة للتيقظ غالبا لاسيما عند انفراد النائم واعتزاله عن الخلق وقيل الضرب على الآذان كناية عن الانامة الثقيلة وحمله على تعطيلها كما في قولهم ضرب الامير على يد الرعية أي منعهم من التصرف مع عدم ملاءمته لما سيأتي من البعث لا يدل على النوم مع انه المراد قطعا والفاء في فضربنا كما في قوله عز وجل فاستجبنا له بعد قوله تعالى اذ نادى فان الضرب المذكور وما ترتب عليه من التقليب ذات اليمين وذات الشمال والبعث وغير ذلك ايتاء رحمة لدنية خافية عن أبصار المتمسكين بالاسباب العادية استجابة لدعوتهم (في الكهف) ظرف مكان لضربنا (سنين) ظرف زمان له باعتبار بقائه لا ابتدائه (عددا) أي ذوات عدد أو تعد عددا على انه مصدر أو معدودة على أنه بمعنى المفعول ووصف السنين بذلك اما للتكثير وهو الانسب باظهار كمال القدرة أو للتقليل وهو الاليق بمقام انكار كون القصة عجبا من بين سائر الآيات العجيبة فان مدة لبثهم كبعض يوم عنده عز وجل (ثم بعثناهم) أي أيقظناهم من تلك النومة الثقيلة الشبيهة بالموت (لنعلم) بنون العظمة وقرئ بالياء مبنيا للفاعل بطريق الالتفات وأياما كان فهو

ربنا آتنا من لدنك رحمة أي رحمة من خزائن رحمتك وجلائل فضلك واحسانك وهي الهداية بالمعرفة والصبر والرزق والامن من الاعداء وقوله من لدنك يدل على عظمة تلك الرحمة وهي التي تكون لائقة بفضل الله تعالى وواسع جوده وهيئ لنا أي أصلح من قولك هيأت الامر فتهيأ من أمرنا رشدا الرشد والرشد والرشاد نقيض الضلال وفي تفسيره لفظه وجهان (الاول) التقدير وهيئ لنا أمرا ذا رشد حتى نكون بسببه راشدين مهتدين (الثاني) اجعل أمرنا رشدا كله كقولك رأيت منك رشدا ثم قال تعالى فضربنا على آذانهم قال المفسرون معناه أنمناهم وتقدير الكلام انه تعالى ضرب على آذانهم حجابا يمنع من أن تصل الى أسماعهم الاصوات الموقظة والتقدير ضربنا عليهم حجابا الا أنه حذف المفعول الذي هو الحجاب كما يقال بنى على امرأته يريدون بنى عليها القبة ثم انه تعالى بين انه انما ضرب على آذانهم في الكهف وهو ظرف المكان وقوله سنين عددا ظرف الزمان وفي قوله عددا بحثان (الاول) قال الزجاج ذكر العدد ههنا يفيد كثرة السنين وكذلك كل شيء مما يعد اذا ذكر فيه العدد ووصف به أريد كثرته لانه اذا قل فهم مقداره بدون التعديد أما اذا كثر فهناك يحتاج الى التعديد فاذا قلت أقمت أياما عددا أردت به الكثرة (البحث الثاني) في انتصاب قوله عددا وجهان (أحدهما) نعت لسنين المعنى سنين ذات العدد أي معدودة هذا قول الفراء وقول الزجاج وعلى هذا يجوز في الآية ضربان من التقدير (أحدهما) حذف المضاف (والثاني) تسمية المفعول باسم المصدر قال الزجاج ويجوز أن ينتصب على المصدر المعنى تعد عددا ثم قال تعالى ثم بعثناهم يريد من بعد نومهم يعني أيقظناهم بعد نومهم وقوله لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا فيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله ثم بعثناهم لنعلم اللام لام الغرض فيدل على ان أفعال الله معللة بالاغراض وقد سبق الكلام فيه (المسئلة الثانية) ظاهر اللفظ يقتضي انه تعالى انما بعثهم ليحصل له هذا العلم وعند هذا يرجع الى أنه تعالى هل يعلم الحوادث قبل وقوعها أم لا فقال هشام لا يعلمها الا عند حدوثها واحتج بهذه الآية والكلام فيه قد سبق ونظائر هذه الآية كثيرة في القرآن منها ما سبق في هذه السورة ومنها قوله في سورة البقرة الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وفي آل عمران ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم وقوله انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم وقوله ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم (المسئلة الثالثة) أي رفع بالابتداء وأحصى خبره وهذه الجملة بمجموعها متعلق العلم فلهذا السبب لم يظهر عمل قوله لنعلم في لفظة أي بل بقيت على ارتفاعها ونظيره قوله اذهب فاعلم أيهم قام وقال تعالى سلهم أيهم بذلك زعيم وقوله ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا وقرئ ليعلم على فعل ما لم يسم فاعله وفي هذه القراءة فائدتان (احداهما) ان على هذا التقدير لا يلزم اثبات العلم المتجدد لله بل المقصود انا بعثناهم ليحصل هذا العلم لبعض الخلق (والثانية) ان على هذا التقدير يجب ظهور النصب في لفظة أي لكن لقائل أن يقول الاشكال بعد باق لان ارتفاع

غاية للبعث لكن لا بجعل العلم مجازا من الاظهار والتمييز أو بحمله على ما يصح وقوعه غاية للبعث الحادث من العلم الحالى الذى يتعلق به الجزاء كما فى قوله تعالى الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وقوله تعالى وليعلم الله الذين آمنوا ونظائرهما التى يتحقق فيها العلم بتحقق متعلقه قطعا فان تحويل القبلة قد ترتب عليه تحزب الناس الى متبع ومنقلب وكذا مداولة الايام بين الناس ترتب عليه تحزبهم الى الثابت على الإيمان والمتزلزل فيه وتعلق بكل من الفريقين العلم الحالى والاظهار والتمييز واما بعث هؤلاء فلم يترتب عليه تفرقهم الى المحصى وغيره حتى يتعلق بهما العلم او الاظهار والتمييز وينتظم شئ من ذلك فى سلك الغاية وانما الذى ترتب عليه تفرقهم الى مقدر تقديرا غير مصيب ومفوض الى العلم الربانى وليس شئ منهما من الاحصاء فى شئ بل يحمل النظم الكريم على التمثيل المبنى على جعل العلم عبارة عن الاختبار مجازا بطريق اطلاق اسم المسبب على السبب وليس من ضرورة الاختبار صدور الفعل المختبر به عن المختبر قطعا بل قد يكون لاظهار عجزه عنه على سنن التكاليف التعجيزية كقوله تعالى فأت بها من المغرب وهو المراد ههنا فالمعنى بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم (أى الحزبين) أى الفريقين المختلفين فى مدة لبثهم بالتقدير والتفويض كما سيأتى (أحصى) أى ضبط (لما لبثوا) أى للبثهم (أمدا) أى غاية فيظهر لهم عجزهم ويفوضوا ﴿ يدعى ﴾ ذلك الى العليم الخبير ويتعرفوا حالهم وما صنع الله تعالى بهم من حفظ أبدانهم وأديانهم فيزدادوا يقينا بكمال قدرته وعلمه ويستبصروا به امر البعث ويكون ذلك لطفا لمؤمنى زمانهم وآية بينة لكفارهم وقد اقتصر ههنا من تلك الغايات الجليلة على

لفظة أى بالابتداء لا باسناد يعلم اليه وللمجيب أن يجيب فيقول انه لا يمتنع اجتماع عاملين على معمول واحد لان العوامل النحوية علامات ومعرفات ولا يمتنع اجتماع المعرفات الكثيرة على الشئ الواحد والله أعلم (المسئلة الرابعة) اختلفوا فى الحزبين فقال عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكا بعد ملك فالملوك حزب واصحاب الكهف حزب (والقول الثانى) قال مجاهد الحزبان من هذه الفتية لان أصحاب الكهف لما انتبهوا اختلفوا فى انهم كم ناموا والدليل عليه قوله تعالى قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فالحزبان هما هذان وكان الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم هم الذين علموا ان لبثهم قد تطاول (القول الثالث) قال الفراء ان طائفتين من المسلمين فى زمان أصحاب الكهف اختلفوا فى مدة لبثهم (المسئلة الخامسة) قال أبو على الفارسى قوله أحصى ليس من باب أفعل التفضيل لان هذا البناء من غير الثلاثى المجرد ليس بقياس فأما قولهم ما أعطاه للدرهم وما أولاه للمعروف وأعدى من الجرب وأفلس من ابن المدلق فمن الشواذ والشاذ لا يقاس عليه بل الصواب ان أحصى فعل ماض وهو خبر المبتدا والمبتدا والخبر مفعول نعلم وأمدا مفعول به لاحصى وما فى قوله تعالى لما لبثوا مصدرية والتقدير أحصى أمدا للبثهم وحاصل الكلام لنعلم أى الحزبين أحصى أمد ذلك اللبث ونظيره قوله أحصاه الله وقوله وأحصى كل شئ عددا (المسئلة السادسة) احتج أصحابنا الصوفية بهذه الآية على صحة القول بالكرامات وهو استدلال ظاهر ونذكر هذه المسئلة ههنا على سبيل الاستقصاء فنقول قبل الخوض فى الدليل على جواز الكرامات نفتقر الى تقديم مقدمتين (المقدمة الاولى) فى بيان ان الولى ما هو فنقول هنا وجهان (الاول) أن يكون فعيلا مبالغة من الفاعل كالعليم والقدير فيكون معناه من توالت طاعاته من غير تخلل معصية (الثانى) أن يكون فعيلا بمعنى مفعول كقتيل وجريح بمعنى مقتول ومجروح وهو الذى يتولى الحق سبحانه حفظه وحراسته على التوالى عن كل انواع المعاصى ويديم توفيقه على الطاعات واعلم أن هذا الاسم مأخوذ من قوله تعالى الله ولى الذين آمنوا وقوله وهو يتولى الصالحين وقوله تعالى أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين وقوله ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم وقوله انما وليكم الله ورسوله وأقول الولى هو القريب فى اللغة فاذا كان العبد قريبا من حضرة الله بسبب كثرة طاعاته وكثرة اخلاصه وكان الرب قريبا منه برحمته وفضله واحسانه فهناك حصلت الولاية (المقدمة الثانية) اذا ظهر فعل خارق للعادة على الانسان فذاك اما أن يكون مقرونا بالدعوى أو لا مع الدعوى والقسم الاول وهو أن يكون مع الدعوى فتلك الدعوى اما أن تكون دعوى الالهية أو دعوى النبوة أو دعوى الولاية أو دعوى السحر وطاعة الشياطين فهذه أربعة أقسام (القسم الاول) ادعاء الالهية وجوز أصحابنا ظهور خوارق العادات على يده من غير معارضة كما نقل ان فرعون كان

ذكر مبدئها الصادر عنه عز وجل وفيما سيأتي على ما صدر عنهم من التساءل المؤدى اليها وهذا اولى من تصوير التمثيل بان يقال بعثناهم بعث من يريد أن يعلم الخ حسبما وقع فى تفسير قوله تعالى وليعلم الله الذين آمنوا على أحد الوجوه حيث حمل على معنى فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الايمان من غير الثابت اذ بما يتوهم منه استلزام الارادة لتحقق المراد فيعود المحذور فيصار الى جعل ارادة العلم عبارة عن الاختبار فاختير واختير هذا وقد قرئ ليعلم مبنيا للمفعول ومبنيا للفاعل من الاعلام على أن المفعول الاول محذوف والجملة المصدرة بأى فى موقع المفعول الثانى فقط ان جعل العلم عرفانيا وفى موقع المفعولين ان جعل يقينيا أى ليعلم الله الناس أى الحزبين أحصى الخ وروى عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما ان أحد الحزبين الفتية والآخر الملوك الذين تداولوا المدينة ملكا بعد ملك وقيل كلاهما من غيرهم والاول هو الاظهر فان اللام للعهد ولا عهد لغيرهم والامد بمعنى المدى كالغاية فى قولهم ابتداء الغاية وانتهاء الغاية وهو مفعول لأحصى والجار والمجرور حال منه قدمت عليه لكونه نكرة وليس معنى احصاء تلك المدة ضبطها من حيث كميتها المتصلة الذاتية فانه لا يسمى احصاء بل ضبطها من حيث كميتها المنفصلة العارضة لها باعتبار قسمتها الى السنين وبلوغها من تلك الجنبة الى مراتب الاعداد على ما يرشدك اليه كون تلك المدة عبارة عما سبق من السنين ويجوز أن يراد بالامد معناه الوضعى بتقدير المضاف أى لزمان لبثهم وبدونه أيضا فان اللبث عبارة عن الكون المستمر المنطبق على الزمان المذكور فباعتبار الامتداد العارض له بسببه يكون له أمد لا محالة لكن ليس المراد به ما يقع غاية

يدعى الالهية وكانت تظهر خوارق العادات على يده وكما نقل ذلك أيضا فى حق الدجال قال أصحابنا وانما جاز ذلك لان شكله وخلقته تدل على كذبه فظهور الخوارق على يده لا يفضى الى التلبيس (والقسم الثانى) وهو ادعاء النبوة فهذا القسم على قسمين لانه اما أن يكون ذلك المدعى صادقا أو كاذبا فان كان صادقا وجب ظهور الخوارق على يده وهذا متفق عليه بين كل من أقر بصحة نبوة الانبياء وان كان كاذبا لم يجز ظهور الخوارق على يده وبتقدير ان تظهر وجب حصول المعارضة (وأما القسم الثالث) وهو ادعاء الولاية والقائلون بكرامات الاولياء اختلفوا فى انه هل يجوز أن يدعى الكرامات ثم انها تحصل على وفق دعواه أم لا (وأما القسم الرابع) وهو ادعاء السحر وطاعة الشيطان فعند أصحابنا يجوز ظهور خوارق العادات على يده وعند المعتزلة لا يجوز (وأما القسم الثانى) وهو أن تظهر خوارق العادات عن يد انسان من غير شئ من الدعاوى فذلك الانسان اما أن يكون صالحا مرضيا عند الله واما أن يكون خبيثا مذنبا والاول هو القول بكرامات الاولياء وقد اتفق أصحابنا على جوازه وأنكرها المعتزلة الا أبا الحسين البصرى وصاحبه محمود الخوارزمى (وأما القسم الثالث) وهو أن تظهر خوارق العادات على بعض من كان مردودا عن طاعة الله تعالى فهذا هو المسمى بالاستدراج فهذا تفصيل الكلام فى هاتين المقدمتين اذا عرفت ذلك فنقول الذى يدل على جواز كرامات الاولياء القرآن والاخبار والآثار والمعقول أما القرآن فالمعتمد فيه عندنا آيات (الحجة الاولى) قصة مريم عليها السلام وقد شرحناها فى سورة آل عمران فلا نعيدها (الحجة الثانية) قصة أصحاب الكهف وبقاؤهم فى النوم أحياء سالمين عن الآفات مدة ثلثمائة سنة وتسع سنين وانه تعالى كان يعصمهم من حر الشمس كما قال وتحسبهم أيقاظا وهم رقود الى قوله وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ومن الناس من تمسك فى هذه المسئلة بقوله تعالى قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك وقد بينا أن ذلك الذى كان عنده علم من الكتاب هو سليمان فسقط هذا الاستدلال أجاب القاضى عنه بأن قال لا بد من أن يكون فيهم أو فى ذلك الزمان نبى يصير ذلك علما له لما فيه من نقض العادة كسائر المعجزات قلنا انه يستحيل أن تكون هذه الواقعة معجزة لاحد من الانبياء لان اقدامهم على النوم أمر غير خارق للعادة حتى يجعل ذلك معجزة لان الناس لا يصدقونه فى هذه الواقعة لانهم لا يعرفون كونهم صادقين فى هذه الدعوى الا اذا بقوا طول هذه المدة وعرفوا أن هؤلاء الذين جاؤا فى هذا الوقت هم الذين ناموا قبل ذلك بثلثمائة سنين وتسع سنين وكل هذه الشرائط لم توجد فامتنع جعل هذه الواقعة معجزة لاحد من الانبياء فلم يبق الا أن تجعل كرامة للاولياء واحسانا اليهم أما الاخبار فكثيرة (الخبر الاول) ما أخرج فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لم يتكلم فى المهد الا ثلاثة عيسى بن مريم عليه السلام وصبى فى زمن جريج الناسك وصبى آخر أما عيسى فقد

غاية البعث لكن لا بحي المستمر باعتبار كميته المتصلة العارضة له بسبب انطباقه على الزمان الممتد بالذات وهو ان و تعلق به الجزاء كلهم فان معرفته من تلك الحيثية لا تخفى على أحد ولا تسمى احصاء كما مر بل باعتبار كميته المنفصلة تحقق فيه بسبب عروضها الزمانه المنطبق هو عليه باعتبار انقسامه الى السنين ووصوله الى مرتبة معينة من مراتب الناس تحقق في الصورة الاولى والفرق بين الاعتبارين ان ماتعلق به الاحصاء في الصورة السابقة والمدة المنقسمة الى السنين فهو مجموع ثلثمائة وتسع سنين وفي الصورة الاخيرة منتهى تلك المده المنقسمة اليها أعني السنة التاسعة بعد الثلثمائة وتعلق الاحصاء بالامد بالمعنى الاول ظاهر وأما تعلقه به بالمعنى الثاني فباعتبار انتظامه لما تحته من مراتب العدد واشتماله عليها هذا على تقدير كون ما في قوله تعالى لما لبثوا مصدرية و يجوز أن تكون موصولة حذف عائدها من الصلة أي للذي لبثوا فيه من الزمان الذي عبر عنه فيما قبل بسنين عددا فالامد بمعناه الوضعي على ما تحققته وقيل اللام مزيدة والموصول مفعول وأمدا نصب على التميز وأما ما قيل من أن أحصى اسم تفضيل لانه الموافق للواقع في سائر الآيات الكريمة نحو أيهم أحسن عملا أيهم أقرب لكم نفعا الى غير ذلك مما لا يحصى ولان كونه فعلا ماضيا يشعر بان غاية البعث هو العلم بالاحصاء المتقدم على البعث لا بالاحصاء المتأخر عنه وليس كذلك وادعاء أن مجئ أفعل ﴿ فيه ﴾ التفضيل من المزيد شاذ غير مسلم مدفوع بأنه شاذ بين نص قياس مطلقا وعند ابن عصفور في ما ليس همزته للنقل ولا ريب في أن ما نحن فيه من ذلك القبيل وامتناع عمله لما هو في غير التميز من المعمولات وأما أن التميز

عرفتم وأما جريج فكان رجلا عابدا ببني اسرائيل وكانت له أم فكان يوما يصلي اذ اشتاقت اليه أمه فقالت يا جريج فقال يا رب الصلاة خير أم رؤيتها ثم صلى فدعته ثانيا فقال مثل ذلك حتى قال ثلاث مرات وكان يصلي ويدعها فاشتد ذلك على أمه قالت اللهم لا تمته حتى تريه المومسات وكانت زانية هناك فقالت لهم أنا أفتن جريجا حتى يزني فأتته فلم تقدر على شئ وكان هناك راع يأوي بالليل الى أصل صومعته فلما أعياها راودت الراعي على نفسها فأتاها فولدت ثم قالت ولدي هذا من جريج فأتاه بنو اسرائيل وكسروا صومعته وشتموه فصلى ودعا ثم نخس الغلام قال أبو هريرة كأني انظر الى النبي صلى الله عليه وسلم حين قال بيده يا غلام من أبوك فقال الراعي فندم القوم على ما كان منهم واعتذروا اليه وقالوا نبني صومعتك من ذهب أو فضة فأبى عليهم وبناها كما كانت وأما الصبي الآخر فان امرأة كان معها صبي لها ترضعه اذ مر بها شاب جميل ذو شارة حسنة فقالت اللهم اجعل ابني مثل هذا فقال الصبي اللهم لا تجعلني مثله ثم مرت بها امرأة ذكروا أنها سرقت وزنت وعوقبت فقالت اللهم لا تجعل ابني مثل هذه فقال الصبي اللهم اجعلني مثلها فقالت له أمه في ذلك فقال ان الشاب كان جبارا من الجبابرة فكرهت أن أكون مثله وان هذه قيل انها زنت ولم تزن وقيل انها سرقت ولم تسرق وهي تقول حسبي الله (الخبر الثاني) وهو خبر الغار وهو مشهور في الصحاح عن الزهري عن سالم عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم فأواهم المبيت الى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل وسدت عليهم باب الغار فقالوا والله لا ينجيكم من هذه الصخرة الا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم فقال رجل منهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما فناما في ظل شجرة يوما فلم أبرح عنهما وحلبت لهما غبوقهما فجئتهما به فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أغبق قبلهما فقمت والقدح في يدي انتظر استيقاظهما حتى طهر الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم ان كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت انفراجا لا يستطيعون الخروج منه ثم قال الآخر كانت لي ابنة عم وكانت أحب الناس الي فراودتها عن نفسها فامتنعت حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني وأعطيتها مالا عظيما على أن تخلي بيني وبين نفسها فلما قدرت عليها قالت لا يجوز لك أن تفك الخاتم الا بحقه فتحرجت من ذلك العمل وتركتها وتركت المال معها اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير انهم لا يستطيعون الخروج منها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال الثالث اللهم اني استأجرت اجراء فأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجرته حتى كثرت منه الاموال فجاءني بعد حين وقال يا عبد الله أد الي أجرتي فقلت له كل ما ترى من أجرتك من الابل والغنم والرقيق فقال يا عبد الله أتستهزئ بي فقلت اني لا أستهزئ بك فأخذ ذلك كله اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن

يجب كونه فاعلا فى المعنى فلمانع أن يمنعه بصحة أن يقال أيهم احفظ لهذا الشعر وزنا أو تقطيعا او يقال ان العامل فى أمدا فعل محذوف يدل عليه المذكور أى يحصى لما لبثوا أمدا كما فى قوله * وأضرب منا بالسيوف القوانسا * وحديث الوقوع فى المحذور بلا فائدة مدفوع بما أشير اليه من فائدة الموافقة للنظائر مع ما فيه من الاعتساف والخلل بمعزل من السداد لان مؤداه أن يكون المقصود بالاختبار اظهار أفضل الحزبين وتميزه عن الأدنى مع تحقق أصل الاحصاء فيهما ومن البين ان لا تحقق له أصلا وأن المقصود بالاختبار اظهار عجز الكل عنه رأسا فهو فعل ماض قطعا وتوهم ايذانه بان غاية البعث هو العلم بالاحصاء المتقدم عليه مردود بأن صيغة الماضى باعتبار حال الحكاية والله تعالى أعلم (نحن نقص عليك) شروع فى تفصيل ما أجمل فيما سلف من قوله تعالى اذ أوى الفتية الخ أى نحن نخبرك بتفاصيل أخبارهم وقد مر بيان اشتقاقه فى مطلع سورة يوسف عليه السلام (نبأهم) النبأ الخبر الذى له شأن وخطر (بالحق) اما صفة لمصدر محذوف أو حال من ضمير نقص أو من نبأهم أو صفة له على رأى من يرى حذف الموصول مع بعض صلته أى نقص قصصا ملتبسا بالحق او نقصه ملتبسين به أو نقص نبأهم ملتبسا به أو نبأهم الملتبس به ونبأهم حسبما ذكره محمد بن اسحق بن يسار انه قد مرج أهل الانجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم فعبدوا الاصنام وذبحوا للطواغيت وكان ممن بالغ فى ذلك وعتا عتوا كبيرا دقيانوس فانه غلا فيه غلوا شديدا فجاس خلال الديار والبلاد بالعيث والفساد وقتل من خالفه من المتمسكين بدين المسيح عليه السلام وكان يتتبع الناس فيخيرهم بين القتل وعبادة الاوثان فمن رغب فى الحياة الدنيا الدنية يصنع

فيه فانفرجت الصخرة عن الغار فخرجوا يمشون وهذا حديث حسن صحيح متفق عليه (الخبر الثالث) قوله صلى الله عليه وسلم رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره ولم يفرق بين شئ وشئ فيما يقسم به على الله (الخبر الرابع) روى سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم بينا رجل يسوق بقرة قد حمل عليها فالتفتت اليه البقرة فقالت انى لم أخلق لهذا وانما خلقت للحرث فقال الناس سبحان الله بقرة تتكلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما (الخبر الخامس) عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل يسمع رعدا أو صوتا فى السحاب أن اسق حديقة فلان قال فغدوت الى تلك الحديقة فاذا رجل قائم فيها فقلت له ما اسمك قال فلان بن فلان بن فلان قلت فما تصنع بحديقتك هذه اذا صرمتها قال ولم تسأل عن ذلك قلت لانى سمعت صوتا فى السحاب أن اسق حديقة فلان قال أما اذ قلت فانى أجعلها اثلاثا فأجعل لنفسى وأهلى ثلثا وأجعل للمساكين وابن السبيل ثلثا وأنفق عليها ثلثا (أما الآثار) فلنبدأ بما نقل انه ظهر عن الخلفاء الراشدين من الكرامات ثم بما ظهر عن سائر الصحابة أما أبو بكر رضى الله عنه فمن كراماته انه لما حملت جنازته الى باب قبر النبى صلى الله عليه وسلم ونودى السلام عليك يارسول الله هذا أبو بكر بالباب فاذا الباب قد انفتح واذا بهاتف يهتف من القبر أدخلوا الحبيب الى الحبيب وأما عمر رضى الله عنه فقد ظهرت أنواع كثيرة من كراماته واحدها ما روى انه بعث جيشا وأمر عليهم رجلا يدعى سارية بن الحصين فبينا عمر يوم الجمعة يخطب جعل يصيح فى خطبته وهو على المنبر يا سارية الجبل الجبل قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه فكتبت تاريخ تلك الكلمة فقدم رسول مقدم الجيش فقال يا أمير المؤمنين غزونا يوم الجمعة فى وقت الخطبة فهزمونا فاذا بانسان يصيح يا سارية الجبل الجبل فاسندنا ظهورنا الى الجبل فهزم الله الكفار وظفرنا بالغنائم العظيمة ببركة ذلك الصوت قلت سمعت بعض المذكرين قال كان ذلك معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه قال لابى بكر وعمر أنتما منى بمنزلة السمع والبصر فلما كان عمر بمنزلة البصر لمحمد صلى الله عليه وسلم لا جرم قدر على أن يرى من ذلك البعد العظيم (الثانى) روى ان نيل مصر كان فى الجاهلية يقف فى كل سنة مرة واحدة وكان لا يجرى حتى يلقى فيه جارية واحدة حسناء فلما جاء الاسلام كتب عمرو بن العاص بهذه الواقعة الى عمر فكتب عمر على خزفة أيها النيل ان كنت تجرى بأمر الله فاجر وان كنت تجرى بأمرك فلا حاجة بنا اليك وألقيت تلك الخزفة فى النيل فجرى ولم يقف بعد ذلك (الثالث) وقعت الزلزلة فى المدينة فضرب عمر الدرة على الارض وقال اسكنى باذن الله فسكنت وما حدثت الزلزلة بالمدينة بعد ذلك (الرابع) وقعت النار فى بعض دور المدينة فكتب عمر على خزفة يا نار اسكنى باذن الله فألقوها فى النار فانطفأت فى الحال (الخامس) روى ان رسول ملك الروم جاء الى عمر فطلب داره

مايصنع ومن أثر عليها الحياة الابدية قتله وقطع ارابه وعلقها فى سورة المدينة وأبوابها فلما رأى الفتية ذلك وكانوا اعظماء اهل مدينتهم وقيل كانوا من خواص الملك قاموا فتضرعوا الى الله عز وجل واشتغلوا بالصلاة والدعاء فبينماهم كذلك اذ دخل عليهم أعوان الجبار فأحضروهم بين يديه فقال لهم ماقال وخيرهم بين القتل و بين عبادة الاوثان فقالوا ان لنا الها ملأ السموات والارض عظمته وجبروته لن ندعو من دونه أحدا ولن نقر لما تدعونا اليه أبدا فاقض ما أنت قاض فأمر بنزع ماعليهم من الثياب الفاخرة وأخرجهم من عنده وخرج هو الى مدينة نينوى لبعض شأنه وأمهلهم الى رجوعه ليتاملوا فى أمرهم فان تبعوه والا فعل بهم مافعل بسائر المسلمين فأزمعت الفتية على الفرار بالدين والالتجاء الى الكهف الحصين فأخذ كل منهم من بيت أبيه شيئا فتصدقوا ببعضه وتزودوا بالباقى فأووا الى الكهف فجعلوا يصلون فيه آناء الليل وأطراف النهار ويبتهلون الى الله سبحانه بالانين والجؤار وفوضوا أمر نفقتهم الى يمليخا فكان اذا أصبح يضع عنه ثيابه الحسان ويلبس لباس المساكين ويدخل المدينة ويشترى مايهمهم ويتجسس مافيها من الاخبار ويعود الى أصحابه فلبثوا على ذلك الى أن قدم الجبار المدينة فطلبهم وأحضر آباءهم فاعتذروا بانهم عصوهم ونهبوا أموالهم وبذروها فى الاسواق وفروا الى الجبل فلما رأى ﴿ بالعسكر ﴾ يمليخا ما رأى من الشر رجع الى أصحابه وهو يبكى ومعه قليل من الزاد فأخبرهم بما شاهده من الهول ففزعوا الى الله عز وجل وخروا له سجدا ثم رفعوا رؤسهم وجلسوا يتحدثون فى أمرهم فبينماهم كذلك اذ ضرب الله تعالى على آذانهم فناموا ونفقتهم عند رؤسهم

فظن ان دارمثل قصور الملوك فقالوا ليس له ذلك وانما هو فى الصحراء يضرب اللبن فلما ذهب الى الصحراء رأى عمر رضى الله عنه وضع درته تحت رأسه ونام على التراب فعجب الرسول من ذلك وقال ان أهل الشرق والغرب يخافون من هذا الانسان وهو على هذه الصفة ثم قال فى نفسه انى وجدته خاليا فاقتله وأخلص الناس منه فلما رفع السيف أخرج الله من الارض أسدين فقصداه فخاف وألقى السيف من يده وانتبه عمر ولم ير شيئا فسأله عن الحال فذكر له الواقعة وأسلم وأقول هذه الوقائع رويت بالآحاد وههنا ماهو معلوم بالتواتر وهو انه مع بعده عن زينة الدنيا واحترازه عن التكلفات والتهويلات ساس الشرق والغرب وقلب الممالك والدول ولو نظرت فى كتب التواريخ علمت انه لم يتفق لاحد من أول عهد آدم الى الآن ماتيسر له فانه مع غاية بعده عن التكلفات كيف قدر على تلك السياسات ولاشك ان هذا من أعظم الكرامات وأما عثمان رضى الله عنه فروى أنس قال سرت فى الطريق فرفعت عينى الى امرأة ثم دخلت على عثمان فقال مالى أراكم تدخلون على وآثار الزنا ظاهرة عليكم فقلت أجاء الوحى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا ولكن فراسة صادقة (الثانى) انه لما طعن بالسيف فأول قطرة من دمه سقطت وقعت على المصحف على قوله تعالى فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم (الثالث) ان جهجاها الغفارى انتزع العصا من يد عثمان وكسرها على ركبته فوقعت الاكلة فى ركبته وأما على كرم الله وجهه فيروى ان واحدا من محبيه سرق وكان عبدا أسود فأتى به الى على فقال له أسرقت قال نعم فقطع يده فانصرف من عند على عليه السلام فلقيه سلمان الفارسى وابن الكرا فقال ابن الكرا من قطع يدك فقال أمير المؤمنين ويعسوب المسلمين وختن الرسول وزوج البتول فقال قطع يدك وتمدحه فقال ولم لا أمدحه وقد قطع يدى بحق وخلصنى من النار فسمع سلمان ذلك فأخبر به عليا فدعا الاسود ووضع يده على ساعده وغطاه بمنديل ودعا بدعوات فسمعنا صوتا من السماء ارفع الرداء عن اليد فرفعناه فاذا اليد قد برأت باذن الله تعالى وجميل صنعه أما سائر الصحابة فأحوالهم فى هذا الباب كثيرة فنذكر منها شيئا قليلا (الاول) روى محمد بن المنكدر عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ركبت البحر فانكسرت سفينتى التى كنت فيها فركبت لوحا من ألواحها فطرحنى اللوح فى خيسة فيها أسد فخرج الاسد الى يريدنى فقلت ياأبا الحرث أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقدم ودلنى على الطريق ثم همهم فظننت انه يودعنى ورجع (الثانى) روى ثابت عن أنس ان أسيد بن حضير ورجلا آخر من الانصار تحدثا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حاجة لهما حتى ذهب من الليل زمان ثم خرجا من عنده وكانت الليلة شديدة الظلمة وفى يد كل واحد منهما عصا فأضاءت عصا أحدهما لهما حتى مشيا فى ضوئها فلما انفرق بينهما الطريق أضاءت للآخر عصاه فمشى فى ضوئها حتى بلغ منزله (الثالث) قالوا لخالد بن الوليد ان فى عسكرك من يشرب الخمر فركب فرسه ليلة فطاف

فخرج دقيانوس فى طلبهم بخيله ورجله فوجدوهم قد دخلوا الكهف فامر باخراجهم فلم يطق أحد أن يدخله فلما ضاق بهم ذرعا قال قائل منهم أليس لو كنت قدرت عليهم قتلتهم قال بلى قال فابن عليهم باب الكهف ودعهم يموتوا جوعا وعطشا وليكن كهفهم قبرا لهم ففعل ثم كان من شأنهم ما قص الله عزوجل عنهم ﴿ انهم فتية) استئناف تحقيق مبنى على تقدير السؤال من قبل المخاطب ﴿ ٦٨٧ ﴾ والفتية جمع قلة للفتى كاصبية للصبى (آمنوا بربهم) اوثر الالتفات للاشعار بعلية وصف الربوبية لايمانهم ولمراعاة ما صدر عنهم من المقالة حسبما سيحكى عنهم (وزدناهم هدى) بأن ثبتناهم على ما كانوا عليه من الدين واظهرنا لهم مكنونات محاسنه وفيه التفات من الغيبة الى ما عليه سبك النظم سباقا وسياقا من التكلم (وربطنا على قلوبهم) أى قويناها حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الاهل والاوطان والنعيم والاخوان واجترؤا على الصدع بالحق من غير خوف وحذار والرد على دقيانوس الجبار (اذ قاموا) منصوب بربطنا والمراد بقيامهم انتصابهم لاظهار شعار الدين قال مجاهد خرجوا من المدينة فاجتمعوا على غير ميعاد فقال أكبرهم انى لاجد فى نفسى شيأ أن ربى رب السموات والارض فقالوا نحن أيضا كذلك فقاموا جميعا (فقالوا ربنا رب السموات والارض) ضمنوا دعواهم ما يحقق فحواها ويقضى بمقتضاها فان ربوبيته عزوجل لهما تقتضى ربوبيته لما فيهما أى اقتضاء وقيل المراد قيامهم بين يدى الجبار من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الاصنام فحينئذ يكون ما سيأتى من قوله تعالى هؤلاء الخ منقطعا عما قبله صادرا عنهم بعد خروجهم من عنده (لن ندعو) لن نعبد أبدا (من دونه الها) معبودا آخر لا استقلالا ولا اشتراكا والعدول عن

بالعسكر فلقى رجلا على فرس ومعه زق خمر فقال ما هذا قال خل فقال خالد اللهم اجعله خلا فذهب الرجل الى أصحابه فقال أتيتكم بخمر ما شربت العرب مثلها فلما فتحوا فاذا هو خل فقالوا والله ما جئتنا الا بخل فقال هذا والله دعاء خالد بن الوليد (الرابع) الواقعة المشهورة وهى ان خالد بن الوليد اكل كفا من السم على اسم الله وما ضره (الخامس) روى ان ابن عمر كان فى بعض أسفاره فلقى جماعة وقفوا على الطريق من خوف السبع فطرد السبع من طريقهم ثم قال انما يسلط على ابن آدم ما يخافه ولو أنه لم يخف غير الله لما سلط عليه شئ (السادس) روى ان النبى صلى الله عليه وسلم بعث العلاء بن الحضرمى فى غزاة فحال بينهم وبين المطلوب قطعة من البحر فدعا باسم الله الاعظم ومشوا على الماء وفى كتب الصوفية من هذا الباب روايات متجاوزة عن الحد والحصر فمن أرادها طالعها وأما الدلائل العقلية القطعية على جواز الكرامات فمن وجوه (الحجة الاولى) ان العبد ولى الله قال الله تعالى ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون والرب ولى العبد قال تعالى الله ولى الذين آمنوا وقال وهو يتولى الصالحين وقال انما وليكم الله ورسوله وقال أنت مولانا وقال ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا فثبت ان الرب ولى العبد وان العبد ولى الرب وأيضا الرب حبيب العبد والعبد حبيب الرب قال تعالى يحبهم ويحبونه وقال والذين آمنوا أشد حبا لله وقال ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين واذا ثبت هذا فنقول العبد اذا بلغ فى الطاعة الى حيث يفعل كل ما أمره الله وكل ما فيه رضاه وترك كل ما نهى الله وزجر عنه فكيف يبعد أن يفعل الرب الرحيم الكريم مرة واحدة ما يريده العبد بل هو أولى لان العبد مع لؤمه وعجزه لما فعل كل ما يريده الله ويأمره به فلان يفعل الرب الرحيم مرة واحدة ما أراده العبد كان أولى ولهذا قال تعالى أوفوا بعهدى أوف بعهدكم (الحجة الثانية) لو امتنع اظهار الكرامة لكان ذلك اما لاجل ان الله ليس أهلا لان يفعل مثل هذا الفعل أو لاجل ان المؤمن ليس اهلا لان يعطيه الله هذه العطية (والاول) قدح فى قدرة الله وهو كفر (والثانى) باطل فان معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه ومحبة الله وطاعاته والمواظبة على ذكر تقديسه وتمجيده وتهليله أشرف من اعطاء رغيف واحد فى مفازة أو تسخير حية أو أسد فلما أعطى المعرفة والمحبة والذكر والشكر من غير سؤال فلان يعطيه رغيفا فى مفازة فأى بعد فيه (الحجة الثالثة) قال النبى صلى الله عليه وسلم حكاية عن رب العزة ما تقرب عبد الى بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ولسانا وقلبا ويدا ورجلا بى يسمع وبى يبصر وبى ينطق وبى يمشى وهذا الخبر يدل على انه لم يبق فى سمعهم نصيب لغير الله ولا فى بصرهم ولا فى سائر أعضائهم اذ لو بقى هناك نصيب لغير الله لما قال أنا سمعه وبصره اذا ثبت هذا فنقول لا شك ان هذا المقام أشرف من تسخير الحية والسبع واعطاء الرغيف وعنقود من العنب أو شربة من الماء فلما

أن يقال ربالتصيص على رد المخالفين حيث كانوا يسمون أصنامهم الهة وللاشعار بان مدار العبادة وصف الالوهية وللايذان بان ربوبيته تعالى بطريق الالوهية لا بطريق المالكية المجازية (لقد قلنا اذا شططا) أى قولا ذا شطط أى تجاوز عن الحد أو قولا هو عين الشطط على انه وصف بالمصدر مبالغة ثم اقتصر على الوصف مبالغة على مبالغة وحيث كانت العبادة مستلزمة للقول لما أنها لا تعرى عن الاعتراف بالوهية المعبود ﴿٦٨٨﴾ والتضرع اليه قيل لقد قلنا واذا جوالا وحزاء اى اود عونا من دونه الها والله لقد قلنا قولا خارجا عن حد العقول مفرطا فى الظلم (هؤلاء) هو مبتدأ وفى اسم الاشارة تحقير لهم (قومنا) عطف بيان له (اتخذوا من دونه آلهة) خبره وفيه معنى الانكار (لولا يأتون) تحضيض فيه معنى الانكار والتعجيز أى هلا يأتون (عليهم) على ألوهيتهم او على صحة اتخاذهم لها آلهة (بسلطان بين) بحجة ظاهرة الدلالة على مدعاهم وهو تبكيت لهم والقام حجر (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بنسبة الشرك اليه تعالى عن ذلك علوا كبيرا والمعنى انه أظلم من كل ظالم وان كان سبك النظم على انكار الاظلمية من غير تعرض لانكار المساواة كما مر تحقيقه فى سورة هود (واذ اعتزلتموهم) أى فارقتموهم فى الاعتقاد وأردتم الاعتزال الجسمانى (وما يعبدون الا الله) عطف على الضمير المنصوب وما موصولة أو مصدرية أى ✤ فى ✤ اذ اعتزلتموهم ومعبوديهم الا الله أو وعبادتهم الا عبادة الله وعلى التقديرين فالاستثناء متصل على تقدير كونهم مشركين كاهل مكة ومنقطع على تقدير تمحضهم فى عبادة الاوثان ويجوز كون ما نافية على انه اخبار من الله تعالى عن الفتية بالتوحيد معترض بين اذ وجوابه (فأووا) أى التجؤا

أوصل الله برحمته عبده الى هذه الدرجات العالية فأى بعد فى أن يعطيه رغيفا واحدا أو شربة ماء فى مفازة (الحجة الرابعة) قال عليه السلام حاكيا عن رب العزة من آذى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة فجعل ايذاء الولى قائما مقام ايذائه وهذا قريب من قوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله وقال وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا وقال ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة فجعل بيعة محمد صلى الله عليه وسلم بيعة مع الله ورضاء محمد صلى الله عليه وسلم رضا الله وايذاء محمد صلى الله عليه وسلم ايذاء الله فلا جرم كانت درجة محمد صلى الله عليه وسلم أعلى الدرجات الى أبلغ الغايات فكذا ههنا لما قال من آذى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة دل ذلك على انه تعالى جعل أيذاء الولى قائما مقام ايذاء نفسه ويتأكد هذا بالخبر المشهور انه تعالى يقول يوم القيامة مرضت فلم تعدنى استسقيتك فما سقيتنى استطعمتك فما أطعمتنى فيقول يارب كيف افعل هذا وانت رب العالمين فيقول ان عبدى فلانا مرض فلم تعده أما علمت انك لو عدته لوجدت ذلك عندى وكذا فى السقى والاطعام فدلت هذه الاخبار على ان أولياء الله يبلغون الى هذه الدرجات فأى بعد فى أن يعطيه الله كسرة خبز أو شربة ماء أو يسخر له كلبا أو وردا (الحجة الخامسة) انا نشاهد فى العرف ان من خصه الملك بالخدمة الخاصة واذن له فى الدخول عليه فى مجلس الانس فقد يخصه أيضا بأن يقدره على ما لا يقدر عليه غيره بل العقل السليم يشهد بأنه متى حصل ذلك القرب فانه يتبعه هذه المناصب فجعل القرب أصلا والمنصب تبعا وأعظم الملوك هو رب العالمين فاذا شرف عبدا بأنه أوصله الى عتبات خدمته ودرجات كرامته وأوقفه على أسرار معرفته ورفع حجب البعد بينه وبين نفسه وأجلسه على بساط قربه فأى بعد فى أن يظهر بعض تلك الكرامات فى هذا العالم مع ان كل هذا العالم بالنسبة الى ذرة من تلك السعادات الروحانية والمعارف الربانية كالعدم المحض (الحجة السادسة) لا شك ان المتولى للافعال هو الروح لا البدن ولا شك ان معرفة الله تعالى للروح كالروح للبدن على ما قررناه فى تفسير قوله تعالى ينزل الملائكة بالروح من أمره وقال عليه السلام ابيت عند ربى يطعمنى ويسقينى ولهذا المعنى نرى ان كل من كان أكثر علما بأحوال عالم الغيب كان أقوى قلبا وأقل ضعفا ولهذا قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية ولكن بقوة ربانية وذلك لان عليا كرم الله وجهه فى ذلك الوقت انقطع نظره عن عالم الاجساد وأشرقت الملائكة بأنوار عالم الكبرياء فتقوى روحه وتشبه بجواهر الارواح الملكية وتلألأت فيه أضواء عالم القدس والعظمة فلا جرم حصل له من القدرة ما قدر بها على ما لم يقدر عليه غيره وكذلك العبد اذا واظب على الطاعات بلغ الى المقام الذى يقول الله كنت له سمعا وبصرا فاذا صار نور جلال الله سمعا له سمع القريب والبعيد واذا صار ذلك النور بصرا له رأى القريب والبعيد واذا صار ذلك النور يدا له قدر على التصرف

(الى الكهف) قال الفراء هو جواب اذ كما تقول اذ فعلت فافعل كذا وقيل هو دليل على جوابه أى اذ اعتزلتموهم اعتزالا اعتقاديا فاعتزلوهم اعتزالا جسمانيا واذا أردتم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء الى الكهف (ينشر لكم) يبسط لكم ويوسع عليكم (ربكم) مالك أمركم (من رحمته) فى الدارين (ويهيء لكم) يسهل لكم (من أمركم) الذى أنتم بصدده من الفرار بالدين (مرفقا) ما ترتفقون وتنتفعون به وقرىء بفتح الميم وكسر الفاء مصدرا كالمرجع وتقديم لكم فى الموضعين لما مر مرارا من الايذان من أول الامر بكون المؤخر من منافعهم والتشويق الى وروده (وترى الشمس) بيان لحالهم بعدما أووا الى الكهف ولم يصرح به ايذانا بعدم الحاجة اليه لظهور جريانهم على موجب الامر به لكونه صادرا عن رأى صائب وتعويلا على ما سلف من قوله سبحانه اذ أوى الفتية الى الكهف وما لحق من اضافة الكهف اليهم وكونهم فى فجوة منه والخطاب للرسول عليه الصلاه والسلام أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب وليس المراد به الاخبار بوقوع الرؤية تحقيقا بل الانباء بكون الكهف بحيث لو رأيته ترى الشمس (اذا طلعت تزاور) أى تتزاور وتتنحى بحذف احدى التاءين وقرىء بادغام التاء فى الزاى وتزور كتحمر وتزوار كتحمار وتزوئر وكلها من الزور وهو الميل (عن كهفهم) الذى أووا اليه فالاضافة لادنى ملابسة (ذات اليمين) أى جهة ذات يمين الكهف عند توجه الداخل الى قعره أى جانبه الذى يلى المغرب فلا يقع عليهم شعاعها فيؤذيهم (واذا غربت) أى تراها عند غروبها (تقرضهم) أى تقطعهم من القطيعة والصرم ولا تقربهم (ذات الشمال)

فى الصعب والسهل والبعيد والقريب (الحجة السابعة) وهى مبنية على القوانين العقلية الحكمية وهى انا قد بينا أن جوهر الروح ليس من جنس الاجسام الكائنة الفاسدة المتعرضة للتفرق والتمزق بل هو من جنس جواهر الملائكة وسكان عالم السموات ونوع المقدسين المطهرين الا أنه لما تعلق بهذا البدن واستغرق فى تدبيره صار فى ذلك الاستغراق الى حيث نسى الوطن الاول والمسكن المتقدم وصار بالكلية متشبها بهذا الجسم الفاسد فضعفت قوته وذهبت مكنته ولم يقدر على شئ من الافعال أما اذا استأنست بمعرفة الله ومحبته وقل انغماسها فى تدبير هذا البدن وأشرقت عليها أنوار الارواح السماوية العرشية المقدسة وفاضت عليها من تلك الانوار قويت على التصرف فى أجسام هذا العالم مثل قوة الارواح الفلكية على هذه الاعمال وذلك هو الكرامات وفيه دقيقة أخرى هى أن مذهبنا ان الارواح البشرية مختلفة بالماهية ففيها القوية والضعيفة وفيها النورانية والكدرة وفيها الحرة والنذلة والارواح الفلكية أيضا كذلك ألا ترى الى جبريل كيف قال الله فى وصفه انه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين وقال فى قوم آخرين من الملائكة وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا فكذا ههنا فاذا اتفق فى نفس من النفوس كونها قوية القوة القدسية العنصرية مشرقة الجوهر علوية الطبيعة ثم انضاف اليها أنواع الرياضات التى تزيل عن وجهها غبرة عالم الكون والفساد أشرقت وتلألأت وقويت على التصرف فى هيولى عالم الكون والفساد باعانة نور معرفة الحضرة الصمدية وتقوية أضواء حضرة الجلال والعزة ولنقبض ههنا عنان البيان فان وراءها أسرارا دقيقة وأحوالا عميقة من لم يصل اليها لم يصدق بها ونسأل الله الاعانة على ادراك الخيرات واحتج المنكرون للكرامات بوجوه (الشبهة الاولى) وهى التى عليها يعولون وبها يصولون ان ظهور الخارق للعادة جعله الله دليلا على النبوة فلو حصل لغير نبى لبطلت هذه الدلالة لان حصول الدليل مع عدم المدلول يقدح فى كونه دليلا وذلك باطل (والشبهة الثانية) تمسكوا بقوله عليه السلام حكاية عن الله سبحانه لن يتقرب المتقربون الى بمثل أداء ما افترضت عليهم قالوا هذا يدل على ان التقرب الى الله بأداء الفرائض أعظم من التقرب اليه بأداء النوافل ثم ان المتقرب اليه بأداء الفرائض لا يحصل له شئ من الكرامات فالمتقرب اليه بأداء النوافل أولى أن لا يحصل له ذلك (الشبهة الثالثة) تمسكوا بقوله تعالى وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس والقول بان الولى ينتقل من بلد الى بلد بعيد لا على الوجه طعن فى هذه الآية وايضا ان محمدا صلى الله عليه وسلم لم يصل من مكة الى المدينة الا فى أيام كثيرة مع التعب الشديد فكيف يعقل أن يقال ان الولى ينتقل من بلد نفسه الى الحج فى يوم واحد (الشبهة الرابعة) قالوا هذا الولى الذى تظهر عليه الكرامات اذا ادعى على انسان درهما فهل نطالبه بالبينة أم لا فان طالبناه بالبينة كان عبثا لان ظهور

أى جهة ذات شمال الكهف أى جانبه الذى يلى المشرق وكان ذلك بتصريف الله سبحانه على منهاج خرق العادة كرامة لهم وقوله تعالى (وهم فى فجوة منه) جملة حالية مبينة لكون ذلك أمرا بديعا أى تراها تميل عنهم يمينا وولاذ شمالا ولا تحوم حولهم مع انهم فى متسع من الكهف معرض لاصابتها لولا أن صرفتها عنهم يد التقدير (ذلك) أى ما صنع الله بهم من تزاور الشمس وقرضها حالتى الطلوع والغروب مع كونهم فى موقع شعاعها (من آيات الله) الافعال العجيبة الدالة على كمال علمه وقدرته وحقية التوحيد وكرامة أهله عنده سبحانه وتعالى وهذا قبل أن سد دقيانوس باب الكهف وقيل كان باب الكهف سماليا مستقبل بنات نعش وأقرب المشارق والمغارب الى محاذاته رأس مشرق السرطان ومغربه والشمس اذا كان مدارها مداره تطلع مائلة عنه مقابلة لجانبه الأيمن وهو الذى يلى المغرب وتغرب محاذية لجانبه الأيسر فيقع شعاعها على جنبيه وتحلل عفونته وتعدل هواءه ولا يقع عليهم فيؤذى أجسادهم ويبلى ثيابهم ولعل ميل الباب الى جانب الغرب كان أكثر ولذلك أوقع التزاور على كهفهم والقرض على أنفسهم فذلك حينئذ اشارة الى ايوائهم الى كهف هذا شأنه وأما جعله اشارة الى حفظ الله سبحانه اياهم فى ذلك الكهف تلك المدة الطويلة أو الى اطلاعه سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم على أخبارهم فلا يساعده ايراده فى تضاعيف القصة ◆ المطيعين ◆ (من يهد الله) الى الحق بالتوفيق له (فهو المهتد) الذى أصاب الفلاح والمراد اما الثناء عليهم والشهادة لهم باصابة المطلوب والاخبار بتحقيق ما أملوه من نشر الرحمة وتهيئة المرافق

الكرامات عليه يدل على انه لا يكذب ومع قيام الدليل القاطع كيف يطلب الدليل الظنى وان لم نطالبه بها فقد تركنا قوله عليه السلام البينة على المدعى فهذا يدل على ان القول بالكرامة باطل (الشبهة الخامسة) اذا جاز ظهور الكرامة على بعض الاولياء جاز ظهورها على الباقين فاذا كثرت الكرامات حتى خرقت العادة جرت وفق العادة وذلك يقدح فى المعجزة والكرامة (والجواب) عن الشبهة الاولى ان الناس اختلفوا فى أنه هل يجوز للولى دعوى الولاية فقال قوم من المحققين ان ذلك لا يجوز فعلى هذا القول يكون الفرق بين المعجزات والكرامات ان المعجزة تكون مسبوقة بدعوى النبوة والكرامة لا تكون مسبوقة بدعوى الولاية والسبب فى هذا الفرق ان الانبياء عليهم السلام انما بعثوا الى الخلق ليصيروا دعاة للخلق من الكفر الى الايمان ومن المعصية الى الطاعة فلو لم تظهر دعوى النبوة لم يؤمنوا به واذا لم يؤمنوا به بقوا على الكفر واذا ادعوا النبوة وأظهروا المعجزة آمن القوم بهم فاقدام الانبياء على دعوى النبوة ليس الغرض منه تعظيم النفس بل المقصود منه اظهار الشفقة على الخلق حتى ينتقلوا من الكفر الى الايمان اما ثبوت الولاية للولى فليس الجهل بها كفرا ولا معرفتها ايمانا فكان دعوى الولاية طلبا لشهوة النفس فعلمنا ان النبى يجب عليه اظهار دعوى النبوة والولى لا يجوز له دعوى الولاية فظهر الفرق أما الذين قالوا يجوز للولى دعوى الولاية فقد ذكروا الفرق بين المعجزة والكرامة من وجوه (الاول) ان ظهور الفعل الخارق للعادة يدل على كون ذلك الانسان مبرأ عن المعصية ثم ان اقترن هذا الفعل بادعاء النبوة دل على كونه صادقا فى دعوى النبوة وان اقترن بادعاء الولاية دل على كونه صادقا فى دعوى الولاية وبهذا الطريق لا يكون ظهور الكرامة على الاولياء طعنا فى معجزات الانبياء عليهم السلام (الثانى) ان النبى صلى الله عليه وسلم يدعى المعجزة ويقطع بها والولى اذا ادعى الكرامة لا يقطع بها لان المعجزة يجب ظهورها أما الكرامة لا يجب ظهورها (الثالث) انه يجب نفى المعارضة عن المعجزة ولا يجب نفيها عن الكرامة (الرابع) انا لا نجوز ظهور الكرامة على الولى عند ادعاء الولاية الا اذا أقر عند تلك الدعوى بكونه على دين ذلك النبى ومتى كان الامر كذلك صارت تلك الكرامة معجزة لذلك النبى ومؤكدة لرسالته وبهذا التقدير لا يكون ظهور الكرامة طاعنا فى نبوة النبى بل يصير مقويا لها (والجواب) عن الشبهة الثانية ان التقرب بالفرائض وحدها أكمل من التقرب بالنوافل أما الولى فانما يكون وليا اذا كان آتيا بالفرائض والنوافل ولا شك انه يكون حاله أتم من حال من اقتصر على الفرائض فظهر الفرق والجواب عن الشبهة الثالثة ان قوله تعالى وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس محمول على المعهود المتعارف وكرامات الاولياء أحوال نادرة فتصير كالمستثناة عن ذلك العموم وهذا هو الجواب عن الشبهة الرابعة وهى التمسك بقوله عليه السلام البينة على المدعى (والجواب) عن الشبهة الخامسة ان

أو التنبيه عليها ان أمثال هذه الآية كثيرة ولكن المنتفع بها من وفقه الله تعالى للاستبصار بها (ومن يضلل) أى يخلق فيه الضلال لصرف اختياره اليه (فلن تجد له) أبدا وان بالغت فى التتبع والاستقصاء (وليا) ناصرا (مرشدا) يهديه الى ماذكر من الفلاح لاستحالة وجوده فى نفسه لا لأنك لاتجده مع وجوده أو امكانه (وتحسبهم) بفتح السين وقرئ بكسرها أيضا والخطاب فيه كما سبق (أيقاظا) جمع يقظ بكسر القاف وفتحها وهو اليقظان ومدار الحسبان انفتاح عيونهم على هيئة الناظر وقيل كثرة تقلبهم ولا يلائمه قوله تعالى ونقلبهم (وهم رقود) أى نيام وهو تقرير لما لم يذكر فيما سلف اعتمادا على ذكره السابق من الضرب على آذانهم (ونقلبهم) فى رقدتهم (ذات اليمين) نصب على الظرفية أى جهة تلى أيمانهم (وذات الشمال) أى جهة تلى شمائلهم كى لا تأكل الارض ما يليها من أبدانهم قال ابن عباس رضى الله عنهما لو لم يقلبوا لأكلتهم الارض قيل لهم تقلبتان فى السنة وقيل تقليبة واحدة يوم عاشوراء وقيل فى كل تسع سنين وقرئ يقلبهم على الاسناد الى ضمير الجلالة وتقلبهم على المصدر منصوبا بمضمر ينبئ عنه وتحسبهم أى وترى تقلبهم (وكلبهم) قيل هو كلب مروا به فتبعهم فطردوه مرارا فلم يرجع فانطقه الله تعالى فقال لاتخشوا جانبى فانى أحب أحباء الله تعالى فناموا حتى أحرسكم وقيل هو كلب راع قد تبعهم على دينهم ويؤيده قراءة كالبهم اذ الظاهر لحوقه بهم وقيل هو كلب صيد أحدهم أو زرعه أو غنمه واختلف فى لونه فقيل كان انمر وقيل أصفر وقيل أصهب وقيل غير ذلك وقيل كان اسمه قطمير وقيل ريان وقيل تتوه وقيل قطمور وقيل ثور قال خالد بن معدان ليس فى الجنة من الدواب الا كلب

المطيعين فيهم قلة كما قال تعالى وقليل من عبادى الشكور وكما قال ابليس ولا تجد أكثرهم شاكرين واذا حصلت القلة فيهم لم يكن ما يظهر عليهم من الكرامات فى الاوقات النادرة قادحا فى كونها على خلاف العادة (المسئلة السابعة) فى الفرق بين الكرامات والاستدراج اعلم ان من أراد شيئا فأعطاه الله مراده لم يدل ذلك على كون ذلك العبد وجيها عند الله تعالى سواء كانت العطية على وفق العادة أو لم تكن على وفق العادة بل قد يكون ذلك اكراما للعبد وقد يكون استدراجا له ولهذا الاستدراج أسماء كثيرة فى القرآن (أحدها) الاستدراج قال الله تعالى سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ومعنى الاستدراج أن يعطيه الله كل ما يريده فى الدنيا ليزداد غيه وضلاله وجهله وعناده فيزداد كل يوم بعدا من الله وتحقيقه انه ثبت فى العلوم العقلية ان تكرر الافعال سبب لحصول الملكة الراسخة فاذا مال قلب العبد الى الدنيا ثم أعطاه الله مراده فحينئذ يصل الطالب الى المطلوب وذلك يوجب حصول اللذة وحصول اللذة يزيد فى الميل وحصول الميل يوجب مزيد السعى ولا يزال يتأدى كل واحد منهما الى الآخر وتتقوى كل واحدة من هاتين الحالتين درجة فدرجة ومعلوم ان الاشتغال بهذه اللذات العاجلة مانع عن مقامات المكاشفات ودرجات المعارف فلا جرم يزداد بعده عن الله درجة فدرجة الى أن يتكامل فهذا هو الاستدراج (وثانيها) المكر قال تعالى فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين وقال ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون (وثالثها) الكيد قال تعالى يخادعون الله وهو خادعهم وقال يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون الا أنفسهم (ورابعها) الاملاء قال تعالى ولا يحسبن الذين كفروا انما نملى لهم خير لانفسهم انما نملى لهم ليزدادوا اثما (وخامسها) الاهلاك قال تعالى حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم وقال فرعون واستكبر هو وجنوده فى الارض بغير الحق وظنوا أنهم الينا لا يرجعون فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فظهر بهذه الآيات ان الايصال الى المرادات لا يدل على كمال الدرجات والفوز بالخيرات بقى علينا أن نذكر الفرق بين الكرامات وبين الاستدراجات * فنقول ان صاحب الكرامة لا يستأنس بتلك الكرامة بل عند ظهور الكرامة يصير خوفه من الله تعالى أشد وحذره من قهر الله أقوى فانه يخاف أن يكون ذلك من باب الاستدراج وأما صاحب الاستدراج فانه يستأنس بذلك الذى يظهر عليه ويظن انه انما وجد تلك الكرامة لانه كان مستحقا لها وحينئذ يستحقر غيره ويتكبر عليه ويحصل له أمن من مكر الله وعقابه ولا يخاف سوء العاقبة فاذا ظهر شئ من هذه الاحوال على صاحب الكرامة دل ذلك على انها كانت استدراجا لا كرامة فلهذا المعنى قال المحققون أكثر ما اتفق من الانقطاع عن حضرة الله انما وقع فى مقام الكرامات فلا جرم ترى المحققين يخافون من الكرامات كما يخافون من انواع البلاء والذى يدل على ان الاستئناس

بالكرامة قاطع عن الطريق وجوه (الحجة الاولى) ان هذا الغرور انما يحصل اذا اعتقد الرجل انه مستحق لهذه الكرامة لان بتقدير أن لايكون مستحقا لها امتنع حصول الفرح بها بل يجب أن يكون فرحه بكرم المولى وفضله أكبر من فرحه بنفسه فثبت ان الفرح بالكرامة أكثر من فرحه بنفسه وثبت ان الفرح بالكرامة لا يحصل الا اذا اعتقد انه أهل ومستحق لها وهذا عين الجهل لان الملائكة قالوا لا علم لنا الا ما علمتنا وقال تعالى وما قدروا الله حق قدره وأيضا فقد ثبت بالبرهان اليقيني انه لاحق لاحد من الخلق على الحق فكيف يحصل ظن الاستحقاق (الحجة الثانية) ان الكرامات أشياء مغايرة للحق سبحانه فالفرح بالكرامة فرح بغير الحق والفرح بغير الحق حجاب عن الحق والمحجوب عن الحق كيف يليق به الفرح والسرور (الحجة الثالثة) ان من اعتقد فى نفسه انه صار مستحقا للكرامة بسبب عمله حصل لعمله وقع عظيم فى قلبه ومن كان لعمله وقع عنده كان جاهلا ولو عرف ربه لعلم ان كل طاعات الخلق فى جنب جلال الله تقصير وكل شكرهم فى جنب آلائه ونعمائه قصور وكل معارفهم وعلومهم فهى فى مقابلة عزته حيرة وجهل * رأيت فى بعض الكتب انه قرأ المقرى فى مجلس الأستاذ أبى على الدقاق قوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فقال علامة أن الحق رفع عملك أن لا يبقى عندك فان بقى عملك فى نظرك فهو مدفوع وان لم يبق معك فهو مرفوع مقبول (الحجة الرابعة) ان صاحب الكرامة انما وجد الكرامة لاظهار الذل والتواضع فى حضرة الله فاذا ترفع وتجبر وتكبر بسبب تلك الكرامات فقد بطل ما به وصل الى الكرامات فهذا طريق ثبوته يؤديه الى عدمه فكان مردودا ولهذا المعنى لما ذكر النبى صلى الله عليه وسلم مناقب نفسه وفضائلها كان يقول فى آخر كل واحد منها ولا فخر يعنى لا أفتخر بهذه الكرامات وانما افتخر بالمكرم والمعطى (الحجة الخامسة) ان ظاهر الكرامات فى حق ابليس وفى حق بلعام كان عظيما ثم قيل لابليس وكان من الكافرين وقيل لبلعام فمثله كمثل الكلب وقيل لعلماء بنى اسرائيل مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا وقيل أيضا فى حقهم وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم فبين ان وقوعهم فى الظلمات والضلالات كان بسبب فرحهم بما أوتوا من العلم والزهد (الحجة السادسة) ان الكرامة غير المكرم وكل ما هو غير المكرم فهو ذليل وكل من تعزز بالذليل فهو ذليل ولهذا المعنى قال الخليل صلوات الله عليه أما اليك فلا فالاستغناء بالفقير فقر والتقوى بالعاجز عجز والاستكمال بالناقص نقصان والفرح بالمحدث بله والاقبال بالكلية على الحق خلاص فثبت ان الفقير اذا ابتهج بالكرامة سقط عن درجته أما اذا كان لا يشاهد فى الكرامات الا المكرم ولا فى الاعزاز الا المعز ولا فى الخلق الا الخالق فهناك يحق الوصول (الحجة السابعة) ان الافتخار بالنفس وبصفاتها من صفات ابليس وفرعون قال ابليس أنا خير منه وقال فرعون أليس لى ملك مصر وكل من

أصحاب الكهف وخار بابهم وقيل لم يكن ذلك من جنس الكلاب بل كان أسدا (باسط ذراعيه) حكاية حال ماضية ولذلك أعمل اسم الفاعل وعند الكسائى وهشام وأبى جعفر من البصريين يجوز أعماله مطلقا والذراع من المرفق الى رأس الاصبع الوسطى (بالوصيد) أى بموضع الباب من الكهف (لو اطلعت عليهم) أى لو عاينتهم وشاهدتهم وأصل الاطلاع الاشراف على الشئ بالمعاينة والمشاهدة وقرئ بضم الواو (لوليت منهم فرارا) هربا مما شاهدت منهم وهو اما نصب على المصدرية من معنى ما قبله اذ التولية والفرار من واد واحد واما على الحالية بجعل المصدر بمعنى الفاعل أى فارا أو بجعل الفاعل مصدرا مبالغة كما فى قولها * فانما هى اقبال وادبار * واما على انه مفعول له (ولملئت منهم رعبا) وقرئ بضم العين أى خوفا يملأ الصدر رعبه وهو اما مفعول ثان أو تمييز وذلك لما ألبسهم الله عز وجل من الهيبة والهيبة كانت أعينهم مفتحة كالمستيقظ الذى يريد أن يتكلم وقيل لطول أظفارهم وشعورهم ولا يساعده قولهم لبثنا يوما أو بعض يوم وقوله ولا يشعرن بكم أحدا فان الظاهر من ذلك عدم اختلاف أحوالهم فى أنفسهم وقيل لعظم أجرامهم ولعل تأخير هذا عن ذكر التولية للايذان باستقلال كل منهما فى الترتب على الاطلاع اذ لو روعى ترتيب الوجود لتبادر الى الفهم ترتب المجموع من حيث هو هو عليه والاشعار ﴿ ادعى ﴾ بعدم زوال الرعب بالفرار كما هو المعتاد وعن معاوية لما غزا الروم مر بالكهف فقال لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا اليهم فقال له ابن عباس رضى الله عنهما ليس لك ذلك قد منع الله تعالى من هو خير منك حيث قال

لو اطلعت عليهم الآية. قال معاوية لا انتهي حتى اعلم علمهم فبعث ناسا وقال لهم اذهبوا فانظروا ففعلوا فلما دخلوا الكهف بعث الله تعالى ريحا فأحرقتهم وقرئ بتشديد اللام على التكثير وبابدال الهمزة ياء مع التخفيف والتشديد (وكذلك بعثناهم) أي كما أنمناهم وحفظنا أجسادهم من البلى والتحلل آية دالة على كمال قدرتنا بعثناهم من النوم (ليتساءلوا بينهم) أي ليسأل بعضهم بعضا فيترتب عليه ما فصل من الحكم البالغة وجعله غاية للبعث المعلل فيما سبق بالاختيار من حيث انه من أحكامه المترتبة عليه والاقتصار على ذكره لاستتباعه لسائر آثاره (قال) استئناف لبيان تساءلهم (قائل منهم) هو رئيسهم واسمه مكسلينا (كم لبثتم) فى منامكم لعله قاله لما رأى من مخالفة حالهم لما هو المعتاد فى الجملة (قالوا) أى بعضهم (لبثنا يوما أو بعض يوم) قيل انما قالوه لما أنهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم آخر النهار فقالوا لبثنا يوما فلما رأوا أن الشمس لم تغرب بعد قالوا أو بعض يوم وكان ذلك بناء على الظن الغالب فلم يعزوا الى الكذب (قالوا) أى بعض آخر منهم بما سنح لهم من الادلة أو بالهام من الله سبحانه (ربكم أعلم بما لبثتم) أى أنتم لا تعلمون مدة لبثكم وانما يعلمها الله سبحانه وهذا رد منهم على الاولين بأجمل مايكون من مراعاة حسن الادب وبه يتحقق التحزب الى الحزبين المعهودين فيما سبق وقد قيل القائلون جميعهم ولكن فى حالتين ولا يساعده النظم الكريم فان الاستئناف فى الحكاية والخطاب فى المحكى يقضى بان الكلام جار على منهاج المحاورة والمجاوبة والا لقيل ثم قالوا ربنا أعلم بما لبثنا (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة) قالوه

ادعى الالهية أو النبوة بالكذب فليس له غرض الا تزيين النفس وتقوية الحرص والعجب ولهذا قال عليه السلام ثلاث مهلكات وختمها بقوله واعجاب المرء بنفسه (الحجة الثامنة) انه تعالى قال فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين فلما أعطاه الله العطية الكبرى أمره بالاشتغال بخدمة المعطى لا بالفرح بالعطية (الحجة التاسعة) ان النبي صلى الله عليه وسلم لما خيره الله بين أن يكون ملكا نبيا وبين أن يكون عبدا نبيا ترك الملك ولا شك ان وجدان الملك الذى يعم المشرق والمغرب من الكرامات بل من المعجزات ثم انه صلى الله عليه وسلم ترك ذلك الملك واختار العبودية لانه اذا كان عبدا كان افتخاره بمولاه واذا كان ملكا كان افتخاره بعبيده. فلما اختار العبودية لا جرم جعل السنة التى فى التحيات التى رواها ابن مسعود وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وقيل فى المعراج سبحان الذى أسرى بعبده. (الحجة العاشرة) ان محب المولى غير ومحب ما للمولى غير فمن أحب المولى لم يفرح بغير المولى ولم يستأنس بغير المولى فالاستئناس بغير المولى والفرح بغيره يدل على انه ما كان محبا للمولى بل كان محبا لنصيب نفسه ونصيب النفس انما يطلب للنفس فهذا الشخص ما أحب الا نفسه وما كان المولى محبوبا له بل جعل المولى وسيلة الى تحصيل ذلك المطلوب والصنم الاكبر هو النفس كما قال تعالى أفرأيت من اتخذ الهه هواه فهذا الانسان عابد للصنم الاكبر حتى ان المحققين قالوا لا مضرة فى عبادة شئ من الاصنام مثل المضرة الحاصلة فى عبادة النفس ولا خوف من عبادة الاصنام كالخوف من الفرح بالكرامات (الحجة الحادية عشرة) قوله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه وهذا يدل على أن من لم يتق الله ولم يتوكل عليه لم يحصل له شئ من هذه الافعال والاحوال (المسئلة الثامنة) فى ان الولى هل يعرف كونه وليا قال الاستاذ أبو بكر بن فورك لا يجوز وقال الاستاذ أبو على الدقاق وتلميذه أبو القاسم القشيرى يجوز وحجة المانعين وجوه (الحجة الاولى) لو عرف الرجل كونه وليا لحصل له الامن بدليل قوله تعالى ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون لكن حصول الامن غير جائز ويدل عليه وجوه (أحدها) قوله تعالى فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون واليأس أيضا غير جائز لقوله تعالى انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ولقوله تعالى ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون والمعنى فيه ان الامن لا يحصل الا عند اعتقاد العجز واليأس لا يحصل الا عند اعتقاد البخل واعتقاد العجز والبخل فى حق الله كفر فلا جرم كان حصول الامن والقنوط كفرا (الثانى) ان الطاعات وان كثرت الا أن قهر الحق أعظم ومع كون القهر غالبا لا يحصل الامن (الثالث) ان الامن يقتضى زوال العبودية وترك الخدمة والعبودية يوجب العداوة والامن يقتضى ترك الخوف (الرابع) انه تعالى وصف المخلصين بقوله ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين قيل رغبا فى ثوابنا ورهبا من عقابنا

اعراضا عن التعمق فى الهنيء واما لا على ما يهمهم بحسب الحال كما ينبئ عنه الغاء والورق الفضة مضروبة او غير مضروبة ووصفها باسم الاشارة يشعر بان القائل ناولها بعض أصحابه ليشترى بها قوت يومهم ذلك وقرئ بسكون الراء وبادغام القاف فى الكاف وبكسر الواو بسكون الراء مع الادغام وحملهم لها دليل على أن التزود لا ينافى التوكل على الله تعالى (فلينظر أيها) أى أهلها (أزكى) أحل وأطيب أو أكثر وأرخص (طعاما فليأتكم برزق منه) أي من ذلك الازكى طعاما (وليتلطف) وليتكلف اللطف فى المعاملة كى لا يغبن أو فى الاستخفاء لئلا يعرف (ولا يشعرن بكم أحدا) من أهل المدينة فانه يستدعى شيوع أخباركم أى لا يفعلن ما يؤدى الى ذلك فالنهى على الاول تأسيس وعلى الثانى تأكيد للامر بالتلطف (انهم) تعليل لما سبق من الامر والنهى أى ليبالغ فى التلطف وعدم الاشعار لانهم (ان يظهروا عليكم) أى يطلعوا عليكم أو يظفروا بكم والضمير للاهل المقدر فى أيها (يرجوكم) ان ثبتم على ما أنتم عليه (او يعيدوكم فى ملتهم) أى يصيروكم اليها ويدخلوكم فيها كرها من العود بمعنى الصيرورة كقوله تعالى أو لتعودن فى ملتنا وقيل كانوا أولا على دينهم وايثار كلمة فى على كلمة الى للدلالة على الاستقرار الذى هو أشد شئ عندهم كراهة وتقديم احتمال الرجم على احتمال الاعادة لان الظاهر من حالهم هو ﴿ انهم ﴾ الثبات على الدين المؤدى اليه وضمير الخطاب فى المواضع الاربعة للمبالغة فى حمل المبعوث على الاستخفاء وحث الباقين على الاهتمام بالتوصية فان امحاض النصح أدخل فى القبول واهتمام الانسان بشان نفسه أكثر وأوفر

وقيل رغبا فى فضلنا ورهبا من عدلنا وقيل رغبا فى وصالنا ورهبا من فراقنا والاحسن أن يقال رغبا فينا ورهبا منا (الحجة الثانية) على ان الولى لا يعرف كونه وليا ان الولى انما يصير وليا لاجل ان الحق يحبه لا لاجل انه يحب الحق وكذلك القول فى العدو ثم ان محبة الحق وعداوته سران لا يطلع عليهما أحد فطاعات العباد ومعاصيهم لا تؤثر فى محبة الحق وعداوته لان الطاعات والمعاصى محدثة وصفات الحق قديمة غير متناهية والمحدث المتناهى لا يصير غالبا للقديم غير المتناهى وعلى هذا التقدير فربما كان العبد فى الحال فى عين المعصية الا أن نصيبه من الازل عين المحبة وربما كان العبد فى الحال فى عين الطاعة ولكن نصيبه من الازل عين العداوة وتمام التحقيق ان محبته وعداوته صفة وصفة الحق غير معللة ومن كانت محبته لا لعلة فانه يمتنع أن يصير عدوا بعلة المعصية ومن كانت عداوته لا لعلة يمتنع أن يصير محبا لعلة الطاعة ولما كانت محبة الحق وعداوته سرين لا يطلع عليهما لا جرم قال عيسى عليه السلام تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك انك أنت علام الغيوب (الحجة الثالثة) على ان الولى لا يعرف كونه وليا ان الحكم بكونه وليا وبكونه من أهل الثواب والجنة يتوقف على الخاتمة والدليل عليه قوله تعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ولم يقل من عمل حسنة فله عشر أمثالها وهذا يدل على ان استحقاق الثواب مستفاد من الخاتمة لا من أول العمل والذى يؤكد ذلك أنه لو مضى عمره فى الكفر ثم أسلم فى آخر الامر كان من أهل الثواب وبالضد وهذا يدل على ان العبرة بالخاتمة لا بأول العمل ولهذا قال تعالى قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف فثبت ان العبرة فى الولاية والعدواة وكونه من أهل الثواب أو من أهل العقاب بالخاتمة فظهر ان الخاتمة غير معلومة لاحد فوجب القطع بأن الولى لا يعلم كونه وليا أما الذين قالوا ان الولى قد يعرف كونه وليا فقد احتجوا على صحة قولهم بأن الولاية لها ركنان (أحدهما) كونه فى الظاهر منقادا للشريعة (الثانى) كونه فى الباطن مستغرقا فى نور الحقيقة فاذا حصل الامران وعرف الانسان حصولهما عرف لا محالة كونه وليا أما الانقياد فى الظاهر للشريعة فظاهر وأما استغراق الباطن فى نور الحقيقة فهو أن يكون فرحه بطاعة الله واستئناسه بذكر الله وأن لا يكون له استقرار مع شئ سوى الله (والجواب) ان تداخل الاغلاط فى هذا الباب كثيرة غامضة والقضاء عسر والتجربة خطر والجزم غرور ودون الوصول الى عالم الربوبية أستار تارة من النيران وأخرى من الانوار والله العالم بحقائق الاسرار ولنرجع الى التفسير * قوله تعالى (نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا) اعلم انه تعالى ذكر من قبل جملة من واقعتهم ثم قال نحن نقص عليك نبأهم بالحق أى على وجه الصدق

(ولن تفلحوا اذا) أي ان دخلتم فيها ولو بالكره والالجاء لن تفوزوا بخير (أبدا) لا في الدنيا ولا في الآخرة وفيه من التشديد في التحذير ما لا يخفي (وكذلك) أي وكما أنمناهم وبعثناهم لما مر من ازديادهم في مراتب اليقين (أعثرنا) أي أطلعنا الناس (عليهم ليعلموا) أي الذين أعثرناهم عليهم بما عاينوا من أحوالهم العجيبة (أن وعد الله) أي وعده بالبعث أو موعوده الذي هو البعث أو أن كل وعده أو كل موعوده فيدخل فيه وعده بالبعث أو البعث الموعود دخولا أوليا (حق) صادق لا خلف فيه أو ثابت لا مرد له لان نومهم وانتباههم كحال من يموت ثم يبعث (وأن الساعة) اى القيامة التي هي عبارة عن وقت بعث الخلائق جميعا للحساب والجزاء (لا ريب فيها) لا شك في قيامها فان من شاهد أنه جل وعلا توفى نفوسهم وأمسكها ثلثمائة سنة وأكثر حافظا أبدانها من التحلل والتفتت ثم أرسلها اليها لا يبقى له شائبة شك في أن وعده تعالى حق وانه يبعث من في القبور فيرد اليهم أرواحهم فيحاسبهم ويجزيهم بحسب أعمالهم (اذ يتنازعون) ظرف لقوله أعثرنا قدم عليه الغاية اظهارا لكمال العناية بذكرها لا لقوله ليعلموا كما قيل لدلالته على أن التنازع يحدث بعد الاعثار وليس كذلك أي أعثرناهم عليهم حين يتنازعون (بينهم أمرهم) ليرتفع الخلاف ويتبين الحق قيل المتنازع فيه أمر دينهم حيث كانوا مختلفين في البعث فمن مقر له وجاحد به وقائل يقول ببعث الارواح دون الاجساد وآخر يقول ببعثهما معا قيل كان ملك المدينة حينئذ رجلا صالحا مؤمنا وقد اختلف أهل مملكته في البعث حسبما فصل فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحا وجلس على رماد وسال

انهم فتية آمنوا بربهم كانوا جماعة من الشبان آمنوا بالله ثم قال تعالى في صفاتهم وربطنا على قلوبهم أي ألهمناها الصبر وثبتناها اذ قاموا وفي هذا القيام أقوال (الاول) قال مجاهد كانوا عظماء مدينتهم فخرجوا فاجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد فقال رجل منهم أكبر القوم انى لاجد في نفسي شيئا ما أظن ان أحدا يجده قالوا ما تجد قال أجد في نفسي ان ربي رب السموات والارض (القول الثاني) انهم قاموا بين يدي ملكهم دقيانوس الجبار وقالوا ربنا رب السموات والارض وذلك لانه كان يدعو الناس الى عبادة الطواغيت فثبت الله هؤلاء الفتية وعصمهم حتى عصوا ذلك الجبار وأقروا بربوبية الله وصرحوا بالبراءة عن الشركاء والانداد (والقول الثالث) وهو قول عطاء ومقاتل انهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم وهذا بعيد لان الله استأنف قصتهم بقوله نحن نقص عليك وقوله لقد قلنا اذا شططا معنى الشطط في اللغة مجاوزة الحد قال الفراء يقال قد أشط في السوم اذا جاوز الحد ولم يسمع الا أشط يشط اشطاطا وشططا وحكى الزجاج وغيره شط الرجل وأشط اذا جاوز الحد ومنه قوله ولا تشطط وأصل هذا من قولهم شطت الدار اذا بعدت فالشطط البعد عن الحق وهو ههنا منصوب على المصدر والمعنى لقد قلنا اذا قولا شططا أما قوله هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة هذا من قول أصحاب الكهف ويعنون الذين كانوا في زمان دقيانوس عبدوا الاصنام لولا يأتون هلا يأتون عليهم بسلطان بين بحجة بينة ومعنى عليهم أي على عبادة الآلهة ومعنى الكلام ان عدم البينة بعدم الدلائل على ذلك لا يدل على عدم المدلول ومن الناس من يحتج بعدم الدليل على عدم المدلول ويستدل على صحة هذه الطريقة بهذه الآية فقال انه تعالى استدل على عدم الشركاء والاضداد بعدم الدليل عليها فثبت ان الاستدلال بعدم الدليل على عدم المدلول طريقة قوية ثم قال فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا يعني ان الحكم بثبوت الشئ مع عدم الدليل عليه ظلم وافتراء على الله وكذب عليه وهذا من أعظم الدلائل على فساد القول بالتقليد * قوله تعالى (واذ اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهدي الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) اعلم ان المراد انه قال بعضهم لبعض واذ اعتزلتموهم واعتزلتم الشئ الذي يعبدونه الا الله فانكم لم تعتزلوا عبادة الله فأووا الى الكهف قال الفراء هو جواب اذ كما تقول اذ فعلت كذا فافعل كذا ومعناه اذهبوا اليه واجعلوه مأواكم ينشر لكم ربكم من رحمته أي يبسطها عليكم ويهيئ لكم من أمركم مرفقا قرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية مرفقا بفتح الميم وكسر الفاء والباقون مرفقا بكسر الميم وفتح الفاء قال الفراء وهما لغتان واشتقاقهما من الارتفاق وكان الكسائي ينكر في مرفق الانسان الذي في اليد

الا كسر الميم وفتح الفاء والفراء يجيزه في الأمر وفي اليد وقيل هما لغتان الا أن الفتح أقيس والكسر أكثر وقيل المرفق ما ارتفقت به والمرفق بالفتح المرافق ثم قال تعالى وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وفيه مباحث (البحث الاول) قرأ ابن عامر تزور ساكنة الزاى المعجمة مشددة الراء مثل تحمر وقرأ عاصم وحمزة والكسائى تزاور بالالف والتخفيف والباقون تزاور بالتشديد والالف والكل بمعنى والتزاور هو الميل والانحراف ومنه زاره اذا مال اليه والزور الميل عن الصدق وأما التشديد فأصله تتزاور فسكنت التاء الثانية وادغمت في الزاى وأما التخفيف فهو تفاعل من الزور وأما تزور فهو من الازورار (البحث الثانى) قوله وترى الشمس أى أنت أيها المخاطب ترى الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم وليس المراد ان من خوطب بهذا يرى هذا المعنى ولكن العادة في المخاطبة تكون على هذا النحو ومعناه أنك لو رأيته رأيته على هذه الصورة (البحث الثالث) قوله ذات اليمين أى جهة اليمين وأصله ان ذات صفة أقيمت مقام الموصوف لانها تأنيث ذو في قولهم رجل ذو مال وامرأة ذات مال والتقدير كأنه قيل تزاور عن كهفهم جهة ذات اليمين وأما قوله واذا غربت تقرضهم ذات الشمال ففيه بحثان (البحث الاول) قال الكسائى قرضت المكان أى عدلت عنه وقال أبو عبيد القرض في أشياء منها القطع وكذلك السير في البلاد أى اذا قطعها تقول لصاحبك هل وردت مكان كذا فيقول المجيب انما قرضته فقوله تقرضهم ذات الشمال أى تعدل عن سمت رؤسهم الى جهة الشمال (البحث الثانى) للمفسرين ههنا قولان (القول الاول) ان باب ذلك الكهف كان مفتوحا الى جانب الشمال فاذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف واذا غربت كانت على شماله فضوء الشمس [illegible] يصل الى داخل الكهف وكان الهواء الطيب والنسيم الموافق يصل اليه والمقصود [illegible] تعالى صان أصحاب الكهف من أن يقع عليهم ضوء الشمس والا لفسدت أجسامهم فهى مصونة عن العفونة والفساد (والقول الثانى) انه ليس المراد ذلك وانما المراد ان الشمس اذا طلعت منع الله ضوء الشمس من الوقوع وكذا القول حال غروبها وكان ذلك فعلا خارقا للعادة وكرامة عظيمة خص الله بها أصحاب الكهف وهذا قول الزجاج واحتج على صحته بقوله ذلك من آيات الله قال ولو كان الامر كما ذكره أصحاب القول الاول لكان ذلك أمرا معتادا مألوفا فلم يكن ذلك من آيات الله وأما اذا حملنا الآية على هذا الوجه الثانى كان ذلك كرامة عجيبة فكانت من آيات الله واعلم انه تعالى أخبر بعد ذلك انهم كانوا في متسع من الكهف ينالهم فيه برد الريح ونسيم الهواء قال وهم في فجوة منه أى من الكهف والفجوة متسع في مكان قال أبو عبيدة وجمعها فجوات ومنه الحديث فاذا وجد فجوة نص ثم قال تعالى ذلك من آيات الله وفيه قولان الذين قالوا انه يمنع وصول ضوء الشمس بقدرته قالوا المراد من قوله ذلك أى ذلك التزاور والميل والذين لم يقولوا به قالوا

اعراضا عن التصوّ

مضر ويدوم وصولحق فالقى الله عز وجل في نفس رجل من رعيانهم فهدم ما سد به دقيانوس باب الكهف ليتخذه حظيرة وبادغام القاف لبعثهم الله تعالى فجرى بينهم من التقاول ما جرى روى أن المبعوث لما دخل المدينة أخرج الدرهم ليشترى تعالى (فلطعام وكان على ضرب دقيانوس فاتهموه بأنه وجد كنزا فذهبوا به الى الملك فقص عليه القصة فقال بعضهم ان من آبائنا أخبرونا بان فتية فروا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاء فانطلق الملك وأهل المدينة من مسلم وكافر وابصروهم وكلموهم ثم قالت الفتية للملك نستودعك الله ونعيذك به من شر الانس والجن ثم رجعوا الى مضاجعهم فماتوا فالقى الملك عليهم ثيابه وجعل لكل منهم تابوتا من ذهب فرآهم في المنام كارهين للذهب فجعلها من الساج وبنى على باب الكهف مسجدا وقيل لما انتهوا الى الكهف قال لهم الفتى مكانكم حتى أدخل أولا لئلا يفزعوا فدخل فعمى عليهم المدخل فبنوا ثمة مسجدا وقيل المتنازع فيه أمر الفتية قبل بعثهم أى أعثرنا عليهم حين يتذاكرون بينهم أمرهم وما جرى بينهم وبين دقيانوس من الاحوال والاهوال ويتلقون ذلك من الاساطير وأفواه الرجال وعلى التقديرين فالفاء في قوله عز وجل (فقالوا) فصيحة أى اعثرناهم عليهم فرأوا ما رأوا فماتوا فقالوا أى قال بعضهم (ابنوا عليهم) أى على باب كهفهم (بنيانا) لئلا يتطرق اليهم الناس ضنا بتربيتهم ومحافظة عليها وقوله تعالى (ربهم أعلم بهم) من كلام ﴿ المراد ﴾ المتنازعين كأنهم لما رأوا عدم اهتدائهم الى حقيقة حالهم من حيث النسب ومن حيث العدد ومن حيث اللبث في الكهف قالوا ذلك تفويضا للامر الى علام الغيوب

المراد بقوله ذلك أى ذلك الحفظ الذى حفظهم الله فى ذلك الغار تلك المدة الطويلة من آيات الله الدالة على عجائب قدرته و بدائع حكمته ثم بين تعالى أنه كما أن بقاءهم هذه المدة الطويلة مصونا عن الموت والهلاك من تدبيراته ولطفه وكرمه فكذلك رجوعهم أولا عن الكفر ورغبتهم فى الايمان كان باعانة الله ولطفه فقال من يهدى الله فهو المهتدى مثل أصحاب الكهف ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا كدقيانوس الكافر وأصحابه ومناظرات أهل الجبر والقدر فى هذه الآية معلومة * قوله تعالى (وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا) اعلم ان معنى قوله وتحسبهم على ما ذكرناه فى قوله وترى الشمس أى لو رأيتهم لحسبتهم أيقاظا وهو جمع يقظ و يقظان قاله الاخفش وأبو عبيدة والزجاج وانشدوا لرؤبة * ووجدوا اخوانهم أيقاظا * ومثله قوله نجد ونجدان وانجاد وهم رقود أى نائمون وهو مصدر سمى المفعول به كما قال قوم ركوع وقعود وسجود يوصف الجمع بالمصدر ومن قال انه جمع راقد فقد أبعد لانه لم يجمع فاعل على فعول قال الواحدى وانما يحسبون أيقاظا لان أعينهم مفتحة وهم نيام وقال الزجاج لكثرة تقلبهم يظن انهم أيقاظ والدليل عليه قوله تعالى ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال واختلفوا فى مقدار مدة التقليب فعن أبى هريرة رضى الله عنه انهم فى كل عام تقليبتين وعن مجاهد يمكثون على ايمانهم تسع سنين ثم يقلبون على شمائلهم فيمكثون رقودا تسع سنين وقيل لهم تقليبة واحدة فى يوم عاشوراء وأقول هذه التقديرات لا سبيل للعقل اليها ولفظ القرآن لا يدل عليه وما جاء فيه خبر صحيح فكيف يعرف وقال ابن عباس رضى الله عنهما فائدة تقليبهم لئلا تأكل الارض لحومهم ولا تبليهم وأقول هذا عجيب لانه تعالى لما قدر على أن يمسك حياتهم مدة ثلثمائة سنة وأكثر فلم يقدر على حفظ أجسادهم أيضا من غير تقليب وقوله ذات منصوبة على الظرف لان المعنى نقلبهم فى ناحية اليمين أو على ناحية اليمين كما قلنا فى قوله تزاور عن كهفهم ذات اليمين وقوله وكلبهم باسط ذراعيه قال ابن عباس وأكثر المفسرين قالوا انهم هربوا ليلا من ملكهم فمروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم ومعه كلبه وقال كعب مروا بكلب فنبح عليهم فطردوه فعاد ففعلوا مرارا فقال لهم الكلب ما تريدون منى لا تخشوا جانبى أنا أحب أحباء الله فناموا حتى أحرسكم وقال عبيد ابن عمير كان ذلك كلب صيدهم ومعنى باسط ذراعيه أى يلقيهما على الارض مبسوطتين غير مقبوضتين ومنه الحديث فى الصلاة انه نهى عن افتراش السبع وقال لا تفترش ذراعيك افتراش السبع قوله بالوصيد يعنى فناء الكهف قال الزجاج الوصيد فناء البيت وفناء الدار وجمعه وصائد ووصد وقال يونس والاخفش والفراء الوصيد والاصيد لغتان مثل الوكاف والاكاف وقال السدى الوصيد الباب والكهف لا يكون له باب ولا عتبة وانما أراد ان الكلب منه بموضع العتبة من البيت ثم قال لو اطلعت عليهم أى أشرفت

أو من كلام الله تعالى رد القول الخائضين فى حديثهم من أولئك المتنازعين وقيل أمرهم وتدبيرهم عند وفاتهم أو شأنهم فى الموت والنوم حيث اختلفوا فى أنهم ماتوا أو ناموا كما فى أول مرة فاذ حينئذ متعلق بقوله تعالى (قال الذين غلبوا على أمرهم) وهم الملك والمسلمون (لنتخذن عليهم مسجدا) وقوله تعالى فقالوا معطوف على يتنازعون وايثار صيغة الماضى للدلالة على أن هذا القول ليس مما يستمر و يتجدد كالتنازع وقيل متعلق باذكر مضمرا وأما تعلقه بأعثرنا فيأباه أن اعثارهم ليس فى زمان تنازعهم فيما ذكر بل قبله وجعل وقت التنازع ممتدا يقع فى بعضه الاعثار وفى بعضه التنازع تعسف لا يخفى مع انه لا مخصص لاضافته الى التنازع وهو مؤخر فى الوقوع (سيقولون الضمير فى الافعال الثلاثة للخائضين فى قصتهم فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام من أهل الكتاب والمسلمين لكن لا على وجه اسناد كل منها الى كلهم بل الى بعضهم (ثلاثة رابعهم كلبهم) أى هم ثلاثة أشخاص رابعهم أى جاعلهم أربعة بانضمامه اليهم كلبهم قيل قاله اليهود وقيل قاله السيد من نصارى نجران وكان يعقوبيا وقرئ ثلاث بادغام الثاء فى التاء (و يقولون خمسة سادسهم كلبهم) قيل قاله النصارى أو العاقب منهم وكان نسطوريا (رجما بالغيب) رميا بالخبر الخفى الذى لا مطلع عليه أو ظنا بالغيب من قولهم رجم بالظن اذا ظن وانتصابه على الحالية من الضمير فى الفعلين جميعا أى راجمين أو على المصدرية منهما فان الرجم والقول واحد أو من محذوف مستأنف واقع موقع الحال من ضمير الفعلين معا أى يرجمون رجما وعدم ايراد السين للاكتفاء بعطفه على ما فيه ذلك

(ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) هو ما يقوله المسلمون بطريق التلقي من هذا الوحي وما فيه مما يرشدهم الى ذلك من عدم نظمه في سلك الرجم بالغيب وتغيير سبكه بزيادة الواو المفيدة لزيادة وكادة النسبة فيما بين طرفيها الا بوحي آخر كما قيل (قل) تحقيقا للحق وردا على الاولين (ربي أعلم) أي أقوى علما (بعدتهم) بعددهم (ما يعلمهم) أي ما يعلم عدتهم أو ما يعلمهم فضلا عن العلم بعدتهم (الا قليل) من الناس قد وفقهم الله تعالى للاستشهاد بتلك الشواهد قال ابن عباس رضي الله عنهما حين وقعت الواو انقطعت العدة وعليه مدار قوله رضي الله عنه أنا من ذلك القليل ولو كان في ذلك وحي آخر لما خفي عليه ولما احتاج الى الاستشهاد بالواو ولكان المسلمون اسوة له في العلم بذلك وعن علي كرم الله وجهه أنهم سبعة نفر أسماؤهم يمليخا ومكشلينيا ومشلينيا هؤلاء أصحاب يمين الملك وكان عن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش وكان يستشير هؤلاء الستة في أمره والسابع الراعي الذي وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس واسمه كفشيططيوش (فلا تمار) الفاء لتفريع النهي على ما قبله أي اذا قد عرفت جهل أصحاب القولين الاولين فلا تجادلهم (فيهم) في شأن الفتية (الا مراء ظاهرا) قدر ما تعرض له الوحي من وصفهم بالرجم بالغيب وعدم العلم على الوجه الاجمالي وتفويض العلم الى الله سبحانه من غير تصريح بجهلهم وتفضيحهم فانه مما يخل بمكارم الاخلاق (ولا تستفت فيهم) في شأنهم (منهم) من الخائضين (أحدا) فان فيما قص عليك لمندوحة عن ذلك مع انه لا علم لهم بذلك وقال عطاء الا قليل من أهل الكتاب فالضمائر الثلاثة في الافعال الثلاثة لهم وما ذكر من الشواهد ﴿ في ﴾

عليهم يقال اطلعت عليهم أي أشرفت عليهم ويقال اطلعت فلانا على الشيء فاطلع وقوله لوليت منهم فرارا قال الزجاج قوله فرارا منصوب على المصدر لان معنى وليت منهم فررت ولملئت منهم رعبا أي فزعا وخوفا قيل في التفسير طالت شعورهم وأظفارهم وبقيت أعينهم مفتوحة وهم نيام فلهذا السبب لو رآهم الرائي لهرب منهم مرعوبا وقيل انه تعالى جعلهم بحيث كل من رآهم فزع فزعا شديدا فاما تفصيل سبب الرعب فالله أعلم به وهذا هو الاصح وقوله ولملئت منهم رعبا قرأ نافع وابن كثير لملئت بتشديد اللام والهمزة والباقون بتخفيف اللام وروى عن ابن كثير بالتخفيف والمعنى واحد الا أن في التشديد مبالغة قال الاخفش الخفيفة أجود في كلام العرب يقال ملأتني رعبا ولا يكادون يعرفون ملأتني ويدل على هذا أكثر استعمالهم كقوله ❊ فيملأ بيتنا أقطا وسمنا ❊ وقول الآخر

ومن مالئ عينيه من شيء غيره ❊ اذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

وقال الآخر ❊ لا تملأ الدلو وعرق فيها ❊ وقال الآخر ❊ امتلا الحوض وقال قطني ❊ وقد جاء التثقيل أيضا وأنشدوا للمخبل السعدي

واذ فتك النعمان بالناس محرما ❊ فملئ من عوف بن كعب سلاسله

وقرأ ابن عامر والكسائي رعبا بضم العين في جميع القرآن والباقون بالاسكان ❊ قوله تعالى (وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا اذا أبدا) اعلم ان التقدير وكما زدناهم هدى وربطنا على قلوبهم فضربنا على آذانهم وأنمناهم وأبقيناهم أحياء لا يأكلون ولا يشربون ونقلبهم فكذلك بعثناهم أي أحييناهم من تلك النومة التي تشبه الموت ليتساءلوا بينهم تساءل تنازع واختلاف في مدة لبثهم فان قيل هل يجوز أن يكون الغرض من بعثهم أن يتساءلوا ويتنازعوا قلنا لا يبعد ذلك لانهم اذا تساءلوا انكشف لهم من قدرة الله تعالى أمور عجيبة وأحوال غريبة وذلك الانكشاف أمر مطلوب لذاته ثم قال تعالى قال قائل منهم كم لبثتم أي كم مقدار لبثنا في هذا الكهف قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قال المفسرون انهم دخلوا الكهف غدوة وبعثهم الله في آخر النهار فلذلك قالوا لبثنا يوما فلما رأوا الشمس باقية قالوا أو بعض يوم ثم قال تعالى قالوا ربكم أعلم بما لبثتم قال ابن عباس هو رئيسهم يمليخا رد علم ذلك الى الله تعالى لانه لما نظر الى اشعارهم وأظفارهم وبشره وجوههم رأى فيها آثار التغير الشديد فعلم أن مثل ذلك التغير لا يحصل الا في الايام الطويلة ثم قال فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم بورقكم ساكنة الراء مفتوحة الواو ومنهم من قرأ مكسورة الواو ساكنة الراء وقرأ ابن كثير بورقكم بكسر الراء وادغام القاف في الكاف وعن ابن محيصن انه كسر الواو وأسكن الراء وأدغم القاف

لارشاد المؤمنين الى صحة القول الثالث وفيه محيص عما فى الاول من التكلف فى جعل أحد الاقوال المحكية المنظومة فى سمط واحد ناشئا عن الحكاية مع كون الاخيرين بخلافه ووضوح فى سبب حذف المفعول فى لاتمار والمعنى حينئذ واذ قد وقفت على أن كلهم ليسوا على خطا فى ذلك فلا تجادلهم الاجدالا ظاهرا انطق به الوحى المبين من غير تجهيل لجميعهم فان فيهم مصيبا وانقل والنهى عن الاستفتاء لدفع ماعسى يتوهم من احتمال جوازه أو احتمال وقوعه بناء على اصابة بعضهم فالمعنى لاتراجع اليهم فى شأن الفتية ولا تصدق القول الثالث من حيث صدوره عنهم بل من حيث التلقى من الوحى (ولا تقولن لشئ) أى لاجل شئ تعزم عليه (انى فاعل ذلك) الشئ (غدا) أى فيما يستقبل من الزمان مطلقا فيدخل فيه الغد دخولا أوليا فانه نزل حين قالت اليهود لقريش سلوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وذى القرنين فسالوه عليه الصلاه والسلام فقال ائتونى غدا أخبركم ولم يستثن فأبطأ عليه الوحى حتى شق عليه وكذبته قريش وما قيل من أن المدلول بالعبارة هو الغد وما بعد ذلك مفهوم بطريق دلالة النص يرد أن ما بعده ليس بمعناه فى مناط النهى فان وسعة المجال دليل القدرة فليتأمل (الا أن يشاء الله) استثناء مفرغ من النهى أى لاتقولن ذلك فى حال من الاحوال الاحال ملابسته بمشيئته تعالى على الوجه المعتاد وهو أن يقال ان شاء الله أو فى وقت من الاوقات الاوقت ان يشاء الله أن تقوله لامطلقا بل مشيئة اذن فان النسيان أيضا بمشيئته تعالى ولامساغ لتعليقه بفاعل لعدم سداد استثناء اقتران المشيئة بالفعل ومنافاة استثناء اعتراضها النهى وقيل الاستثناء جار مجرى التأبيد كأنه قيل لاتقولنه أبدا

فى الكاف وهذا غير جائز لالتقاء الساكنين على هذه والورق اسم للفضة سواء كانت مضروبة أم لا ويدل عليه ماروى انه عرفجة اتخذ أنفا من ورق وفيه لغات ورق وورق وورق مثل كبد وكبد وكبد ذكره الفراء والزجاج قال الفراء وكسر الواو أردؤها ويقال أيضا للورق الرقة قال الازهرى أصله ورق مثل صلة وعدة قال المفسرون كانت معهم دراهم عليها صورة الملك الذى كان فى زمانهم يعنى بالمدينة التى يقال لها اليوم طرسوس وهذه الآية تدل على ان السعى فى امساك الزاد أمر مهم مشروع وانه لايبطل التوكل وقوله فلينظر أيها أزكى طعاما قال ابن عباس يريد ما حل من الذبائح لان عامة أهل بلدهم كانوا مجوسا وفيهم قوم يخفون ايمانهم وقال مجاهد كان ملكهم ظالما فقوله أزكى طعاما يريدون أيها أبعد عن الغصب وقيل أيها أطيب وألذ وقيل أيها أرخص قال الزجاج قوله أيها رفع بالابتداء وأزكى خبره وطعاما نصب على التمييز وقوله وليتلطف أى يكون ذلك فى سر وكتمان يعنى دخول المدينة وشراء الطعام ولا يشعرن بكم أحدا أى لايخبرن بمكانكم أحدا من أهل المدينة انهم ان يظهروا عليكم أى يطلعوا ويشرفوا على مكانكم أو على أنفسكم من قولهم ظهرت على فلان اذا علوته وظهرت على السطح اذا صرت فوقه ومنه قوله تعالى فأصبحوا ظاهرين أى عالين وكذلك قوله ليظهره على الدين كله أى ليعليه وقوله يرجموكم يقتلوكم والرجم بمعنى القتل كثير فى التنزيل كقوله ولولا رهطك لرجمناك وقوله أن ترجمون وأصله الرمى قال الزجاج أى يقتلوكم بالرجم والرجم أخبث أنواع القتل وقوله أو يعيدوكم فى ملتهم أى يردوكم الى دينهم ولن تفلحوا اذا أبدا أى ان رجعتم الى دينهم لن تسعدوا فى الدنيا ولا فى الآخرة قال الزجاج قوله اذا أبدا يدل على الشرط أى ولن تفلحوا ان رجعتم الى ملتهم أبدا قال القاضى ماعلى المؤمن الفار بدينه أعظم من هذين فأحدهما فيه هلاك النفس وهو الرجم الذى هو أخبث أنواع القتل والآخر هلاك الدين بأن يردوا الى الكفر فان قيل أليس انهم لو أكرهوا على الكفر حتى انهم أظهروا الكفر لم يكن عليهم مضرة فكيف قالوا ولن تفلحوا اذا أبدا قلنا يحتمل أن يكون المراد انهم لو ردوا هؤلاء المسلمين الى الكفر على سبيل الاكراه بقوا مظهرين لذلك الكفر مدة فانه يميل قلبهم الى ذلك الكفر ويصيروا كافرين فى الحقيقة فهذا الاحتمال قائم فكان خوفهم منه والله أعلم * قوله تعالى (وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وان الساعة لاريب فيها اذ يتنازعون بينهم امرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم مايعلمهم الاقليل فلا تمار فيهم الامراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا) اعلم ان المعنى كما زدناهم هدى وربطنا على قلوبهم وأنمناهم وقلبناهم وبعثناهم لما فيها من الحكم الظاهرة فكذلك أعثرنا عليهم أى أطلعنا غيرهم على أحوالهم يقال عثرت على كذا أى

كقوله تعالى وماكان لنا ان نعود فيها الأ أن يشاء الله (واذكر ربك) بقولك ان شاء الله متدار كاله (اذا نسيت) اذا فرط منك نسيان ثم ذكرته وعن ابن عباس رضى الله عنهما ولو بعد سنة مالم يحنث ولذلك جوز تأخير الاستثناء وعامة الفقهاء على خلافه اذ لو صح ذلك لما تقرر اقرار ولا طلاق ولا عتاق ولم يعلم صدق ولا كذب قال القرطبي هذا فى تدارك التبرك والتخلص عن الاثم وأما الاستثناء المغير للحكم فلا يكون الا متصلا ويجوز أن يكون المعنى واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار اذا نسيت الاستثناء مبالغة فى الحث عليه أو اذكر ربك وعقابه اذا تركت بعض ما أمرك به ليبعثك ذلك على التدارك أو اذكره اذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسى وقد حمل على اداء الصلاة المنسية عند ذكرها (وقل عسى أن يهدينى ربى) أى يوفقنى (لأقرب من هذا) أى لشئ أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف من الآيات والدلائل الدالة على نبوتى (رشدا) أى ارشادا للناس ودلالة على ذلك وقد فعل عز وجل ذلك حيث آتاه من البينات ماهو أعظم من ذلك وابين كقصص الانبياء المتباعد أيامهم والحوادث النازلة فى الاعصار المستقبلة الى قيام الساعة أو لأقرب رشدا وأدنى خيرا من المنسى (ولبثوا فى كهفهم) أحياء مضروبا على آذانهم (ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا) وهى جملة مستأنفة مبينة لما أجمل فيما سلف وأشير الى عزة مناله وقيل انه حكاية كلام أهل الكتاب فانهم اختلفوا فى مدة لبثهم كما اختلفوا فى عدتهم فقال بعضهم هكذا و بعضهم ثلثمائة وروى عن على رضى الله عنه انه قال عند أهل الكتاب انهم لبثوا ثلثمائة سنة شمسية والله تعالى ذكر السنة القمرية والتفاوت بينهما فى كل

﴿ ثم ﴾

علمته وقالوا ان أصل هذا ان من كان غافلا عن شئ فعثر به نظر اليه فعرفه فكان العثار سببا لحصول العلم والتبين فاطلق اسم السبب على المسبب واختلفوا فى السبب الذى لاجله عرف الناس واقعة أصحاب الكهف على وجهين (الاول) انه طالت شعورهم وأظفارهم طولا مخالفا للعادة وظهرت فى بشرة وجوههم آثار عجيبة تدل على ان مدتهم قد طالت طولا خارجا عن العادة (والثانى) ان ذلك الرجل لما ذهب الى السوق ليشترى الطعام وأخرج الدراهم لثمن الطعام قال صاحب الطعام هذه النقود غير موجودة فى هذا اليوم وانها كانت موجودة قبل هذا الوقت بمدة طويلة ودهر داهر فلعلك وجدت كنزا واختلف الناس فيه وحملوا ذلك الرجل الى ملك البلد فقال الملك من أين وجدت هذه الدراهم فقال بعت بها أمس شيئا من التمر وخرجنا فرارا من الملك دقيانوس فعرف ذلك الملك انه ما وجد كنزا وان الله بعثه بعد موته ثم قال تعالى ليعلموا أن وعد الله حق يعنى أنا انما أطلعنا القوم على أحوالهم ليعلم القوم ان وعد الله حق بالبعث والحشر والنشر روى ان ملك ذلك الوقت كان ممن ينكر البعث الا أنه كان مع كفره منصفا فجعل الله أمر الفتية دليلا للملك وقيل بل اختلفت الامة فى ذلك الزمان فقال بعضهم الجسد والروح يبعثان جميعا وقال آخرون الروح تبعث وأما الجسد فتأكله الارض ثم ان ذلك الملك كان يتضرع الى الله ان يظهر له آية يستدل بها على ماهو الحق فى هذه المسئلة فأطلعه الله تعالى على أمر أصحاب أهل الكهف فاستدل ذلك الملك بواقعتهم على صحة البعث للاجساد لان انتباههم بعد ذلك النوم الطويل يشبه من يموت ثم يبعث فقوله اذ يتنازعون بينهم متعلق باعثرنا أى أعثرناهم عليهم حين يتنازعون بينهم واختلفوا فى المراد بهذا التنازع فقيل كانوا يتنازعون فى صحة البعث فالقائلون به استدلوا بهذه الواقعة على صحته وقالوا كما قدر الله على حفظ أجسادهم مدة ثلثمائة سنة وتسع سنين فكذلك يقدر على حشر الاجساد بعد موتها وقيل ان الملك وقومه لما رأوا أصحاب الكهف ووقفوا على أحوالهم عاد القوم الى كهفهم فأماتهم الله فعند هذا اختلف الناس فقال قوم انهم نيام كالكرة الاولى وقال آخرون بل الآن ماتوا (والقول الثالث) ان بعضهم قال الاولى ان يسد باب الكهف لئلا يدخل عليهم أحد ولا يقف على أحوالهم انسان وقال آخرون بل الاولى أن يبنى على باب الكهف مسجد وهذا القول يدل على ان أولئك الاقوام كانوا عارفين بالله معترفين بالعبادة والصلاة (والقول الرابع) ان الكفار قالوا انهم كانوا على ديننا فنتخذ عليهم بنيانا والمسلمون قالوا كانوا على ديننا فنتخذ عليهم مسجدا (والقول الخامس) انهم تنازعوا فى قدر مكثهم (والسادس) انهم تنازعوا فى عددهم وأسمائهم ثم قال تعالى ربهم أعلم بهم وهذا فيه وجهان (أحدهما) انه من كلام المتنازعين كأنهم لما تذاكروا أمرهم وتناقلوا الكلام فى أسمائهم وأحوالهم ومدة لبثهم فلما لم يهتدوا الى حقيقة ذلك قالوا ربهم أعلم بهم (الثانى) ان هذا من كلام الله تعالى ذكره رد الخائضين فى حديثهم من أولئك المتنازعين

مائة سنة ثلاث سنين فيكون ثلثمائة وتسع سنين وسنين عطف بيان لثلثمائة وقيل بدل وقرئ على الاضافة ووضعا للجمع موضع المفرد ومما يحسنه ههنا أن علامة الجمع فيه جبر لما حذف فى الواحد وان الاصل فى العدد اضافته الى الجمع (قل الله أعلم بما لبثوا) أى بالزمان الذى لبثوا فيه (له غيب السموات والارض) أى ما غاب فيهما وخفى من أحوال أهلهما واللام للاختصاص العلمى دون التكوينى فانه غير مختص بالغيب (أبصر به وأسمع) دل بصيغة التعجب على أن شأن علمه سبحانه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه ادراك المدركين لا يحجبه شئ ولا يحول دونه حائل ولا يتفاوت بالنسبة اليه اللطيف والكثيف والصغير والكبير والخفى والجلى والهاء ضمير الجلالة ومحله الرفع على الفاعلية والباء مزيدة عند سيبويه وكان أصله أبصر أى صار ذا بصر ثم نقل الى صيغة الامر للانشاء فبرز الضمير لعدم لياقة الصيغة له أو لزيادة الباء كما فى كفى به والنصب على المفعولية عند الاخفش والفاعل ضمير المأمور وهو كل أحد والباء مزيدة ان كانت الهمزة للتعدية ومعدية ان كانت للصيرورة ولعل تقديم أمر ابصاره تعالى لما أن الذى نحن بصدده من قبيل المبصرات (ما لهم) لاهل السموات والارض (من دونه) تعالى (من ولى) يتولى أمورهم وينصرهم استقلالا (ولا يشرك فى حكمه) فى قضائه أو فى علم الغيب (أحدا) منهم ولا يجعل له فيه مدخلا وهو كما ترى أبلغ فى نفى الشريك من أن يقال من ولى ولا شريك وقرئ على صيغة نهى الحاضر على أن الخطاب لكل احد ولما دل انتظام القرآن الكريم لقصة أصحاب الكهف من حيث انها بالنسبة الى النبى صلى الله عليه وسلم من المغيبات على انه وحى معجز أمره عليه

ثم قال تعالى قال الذين غلبوا على أمرهم قيل المراد به الملك المسلم وقيل أولياء أصحاب الكهف وقيل رؤساء البلد لنتخذن عليهم مسجدا نعبد الله فيه ونستبقى آثار أصحاب الكهف بسبب ذلك المسجد ثم قال تعالى سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم الضمير فى قوله سيقولون عائد الى المتنازعين روى ان السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبى صلى الله عليه وسلم فجرى ذكر أصحاب الكهف فقال السيد وكان يعقوبيا كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم وقال العاقب وكان نسطوريا كانوا خمسة سادسهم كلبهم وقال المسلمون كانوا سبعة وثامنهم كلبهم قال أكثر المفسرين هذا الاخير هو الحق ويدل عليه وجوه (الاول) ان الواو فى قوله وثامنهم هى الواو التى تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالا عن المعرفة فى نحو قولك جاءنى رجل ومعه آخر ومررت بزيد وفى يده سيف ومنه قوله تعالى وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم وفائدتها توكيد ثبوت الصفة للموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر فكانت هذه الواو دالة على صدق الذين قالوا انهم كانوا سبعة وثامنهم كلبهم وأنهم قالوا قولا متقررا متحققا عن ثبات وعلم وطمأنينة نفس (الوجه الثانى) قالوا انه تعالى خص هذا الموضع بهذا الحرف الزائد وهو الواو فوجب أن تحصل به فائدة زائدة صونا للفظ عن التعطيل وكل من أثبت هذه الفائدة الزائدة قال المراد منها تخصيص هذا القول بالاثبات والتصحيح (الوجه الثالث) انه تعالى أتبع القولين الاولين بقوله رجما بالغيب وتخصيص الشئ بالوصف يدل على ان الحال فى الباقى بخلافه فوجب أن يكون المخصوص بالظن الباطل هو القولان الاولان وأن يكون القول الثالث مخالفا لهما فى كونهما رجما بالظن (والوجه الرابع) انه تعالى لما حكى قولهم ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قال بعده قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل فاتباع القولين الاولين بكونهما رجما بالغيب واتباع هذا القول الثالث بقوله قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل يدل على ان هذا القول ممتاز عن القولين الاولين بمزيد القوة والصحة (والوجه الخامس) انه تعالى قال ما يعلمهم الا قليل وهذا يقتضى انه حصل العلم بعدتهم لذلك القليل وكل من قال من المسلمين قولا فى هذا الباب قالوا انهم كانوا سبعة وثامنهم كلبهم فوجب أن يكون المراد من ذلك القليل هؤلاء الذين قالوا هذا القول ۞ كان على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول كانوا سبعة وأسماؤهم هذا يمليخا مكسلمينا مسلثينا وهؤلاء الثلاثة كانوا أصحاب يمين الملك وكان عن يساره مرنوس ودبرنوس وسلدنوس وكان الملك يستشير هؤلاء الستة فى مهماته والسابع هو الراعى الذى وافقهم لما هربوا من ملكهم واسم كلبهم قطمير وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول أنا من أولئك العدد القليل وكان يقول انهم سبعة وثامنهم كلبهم (الوجه السادس) انه تعالى لما قال ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قال قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل والظاهر أنه تعالى لما حكى الاقوال فقد حكى كل ما قيل من الحق والباطل لانه

السلام بالمداومة على دراسته فقال (واتل ما اوحى اليك من كتاب ربك) ولا تسمع لقولهم ائت بقرآن غير هذا او بدله (لا مبدل لكلماته) لا قادر على تبديله وتغييره غيره (ولن تجد) أبد الدهر وان بالغت في الطلب (من دونه ملتحدا) ملجأ تعدل اليه عند المام ملمة (واصبر نفسك) احبسها وثبتها مصاحبة (مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) أى دائبين على الدعاء في جميع الاوقات وقيل في طرفي النهار وقرئ بالغدوة على أن ادخال اللام عليها وهي علم في الاغلب على تأويل التنكير والمراد بهم فقراء المؤمنين مثل صهيب وعمار وخباب ونحوهم رضى الله عنهم وقيل أصحاب الصفة وكانوا نحو سبعمائة رجل قيل انه قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله صلى الله وسلم نح هؤلاء الموالى الذين كأن ريحهم ريح الضأن حتى نجالسك كما قال قوم نوح عليه السلام أنؤمن لك واتبعك الارذلون فنزلت والتعبير عنهم بالموصول لتعليل الامر بما في حيز الصلة من الخصلة الداعية الى ادامة الصحبة (يريدون) بدعائهم ذلك (وجهه) حال من المستكن في يدعون أى مريدين رضاه تعالى وطاعته (ولا تعد عيناك عنهم) أى لا تجاوزهم نظرك الى غيرهم من عداه أى جاوزه واستعماله بعن لتضمينه معنى النبوأ ولا تصرف عيناك النظر عنهم الى غيرهم من عدوته عن الامر أى صرفته عنه على ان المفعول محذوف لظهوره وقرئ ولا تعد عينيك ولا تعد عينيك من الاعداء والتعدية والمراد نهيه عليه السلام عن الازدراء بهم لرثاثة زيهم طموحا الى زى الاغنياء (تريد زينة الحياة الدنيا) أى تطلب مجالسة الاشراف والاغنياء وأصحاب الدنيا وهى حال من

يبعد انه تعالى ذكر الاقوال الباطلة ولم يذكر ما هو الحق فثبت ان جملة الاقوال الحقة والباطلة ليست الا هذه الثلاثة ثم خص الاولين بانهما رجم بالغيب فوجب ان يكون الحق هو هذا الثالث (الوجه السابع) انه تعالى قال لرسوله فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا فمنعه الله تعالى عن المناظرة معهم وعن استفتائهم في هذا الباب وهذا انما يكون لو علمه حكم هذه الواقعة وأيضا انه تعالى قال ما يعلمهم الا قليل و يبعد أن يحصل العلم بذلك لغير النبي ولا يحصل للنبي فعلمنا ان العلم بهذه الواقعة حصل للنبي عليه السلام والظاهر انه لم يحصل ذلك العلم الا بهذا الوحي لان الاصل فيما سواه العدم وأن يكون الامر كذلك فكان الحق هو قوله و يقولون سبعة وثامنهم كلبهم واعلم ان هذه الوجوه وان كان بعضها أضعف من بعض الا أنه لما تقوى بعضها ببعض حصل فيه كمال وتمام والله أعلم بقي في الآية مباحث (البحث الاول) في الآية حذف والتقدير سيقولون هم ثلاثة فحذف المبتدا لدلالة الكلام عليه (البحث الثاني) خص القول الاول بسين الاستقبال وهو قوله سيقولون والسبب فيه ان حرف العطف يوجب دخول القولين الآخرين فيه (البحث الثالث) الرجم هو الرمى والغيب ما غاب عن الانسان فقوله رجما بالغيب معناه ان يرمى ما غاب عنه ولا يعرفه بالحقيقة يقال فلان يرمى بالكلام رميا أي يتكلم من غير تدبر (البحث الرابع) ذكروا في فائدة الواو في قوله وثامنهم كلبهم وجوها (الاول) ما ذكرنا انه يدل على ان هذا القول أولى من سائر الاقوال (وثانيها) ان السبعة عند العرب أصل في المبالغة في العدد قال تعالى ان تستغفر لهم سبعين مرة واذا كان كذلك فاذا وصلوا الى الثمانية ذكروا لفظا يدل على الاستئناف فقالوا وثمانية فجاء هذا الكلام على هذا القانون قالوا و يدل عليه نظيره في ثلاث آيات وهي قوله والناهون عن المنكر لان هذا هو العدد الثامن من الاعداد المتقدمة وقوله حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها لان أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة وقوله ثيبات وأبكارا لان قوله وأبكارا هو العدد الثامن مما تقدم والناس يسمون هذه الواو واو الثمانية ومعناه ما ذكرناه قال القفال وهذا ليس بشئ والدليل عليه قوله تعالى هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ولم يذكر الواو في النعت الثامن ثم قال تعالى قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل وهذا هو الحق لان العلم بتفاصيل كائنات العالم والحوادث التي حدثت في الماضي والمستقبل لا تحصل الا عند الله تعالى والا عند من أخبره الله عنها وقال ابن عباس أنا من أولئك القليل قال القاضي ان كان قد عرفه ببيان الرسول صع وان كان قد تعلق فيه بحرف الواو فضعيف و يمكن أن يقال الوجوه السبعة المذكورة وان كانت لا تفيد الجزم الا أنها تفيد الظن واعلم انه تعالى لما ذكر هذه القصة أتبعه بأن نهى رسوله عن شيئين عن المراء والاستفتاء أما النهى عن المراء فقوله فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا والمراد من المراء الظاهر أن لا يكذبهم في تعيين ذلك العدد بل يقول هذا التعيين لا دليل

الكاف على الوجه الاول من القراءة المشهورة ومن الفاعل على الوجه الثانى منها وضمير تريد للعينين واسناد الارادة اليه مجاز وتوحيده للتلازم كما فى قوله * لمن زحلوفة زل * بها العينان تنهل * ومن المستكن فى الفعل على القراءتين الاخيرتين (ولا تطع) فى تنحية الفقراء عن مجالسك (من أغفلنا قلبه) أى جعلناه غافلا لبطلان استعداده للذكر بالمرة أو وجدناه غافلا كقولك اجبنته وأبخلته اذا وجدته كذلك أو هو من أغفل ابله أى لم نسمه بالذكر (عن ذكرنا) كأولئك الذين يدعونك الى طرد الفقراء عن مجلسك فانهم غافلون عن ذكرنا على خلاف ما عليه المؤمنون من الدعاء فى مجامع الاوقات وفيه تنبيه على أن الباعث له على ذلك الدعاء غفلة قلبه عن جناب الله سبحانه وجهته وانهماكه فى الحسيات حتى خفى عليه أن الشرف بحلية النفس لا بزينة الجسد وقرئ أغفلنا قلبه على اسناد الفعل الى القلب أى حسبنا غافلين عن ذكرنا اياه بالمؤاخذة من غفلته اذا وجدته غافلا (واتبع هواه وكان أمره فرطا) ضياعا وهلاكا أو متقدما للحق والصواب نابذا له وراء ظهره من قولهم فرس فرط أى متقدم للخيل أو هو بمعنى الافراط والتفريط فان الغفلة عن ذكره سبحانه تؤدى الى اتباع الهوى المؤدى الى التجاوز والتباعد عن الحق والصواب والتعبير عنهم بالموصول للايذان بعلية ما فى حيز الصلة للنهى عن الاطاعة (وقل) لأولئك الغافلين المتبعين هواهم (الحق من ربكم) أى ما أوحى الى الحق لاغير كائنا من ربكم أو الحق المعهود من جهة ربكم لا من جهتى حتى يتصور فيه التبديل أو يمكن التردد فى اتباعه وقوله تعالى (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) اما من تمام القول المامور به والفاء لترتيب ما بعدها

عليه فوجب التوقف وترك القطع ونظيره قوله تعالى ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن وأما النهى عن الاستفتاء فقوله ولا تستفت فيهم منهم احدا وذلك لانه لما ثبت انه ليس عندهم علم فى هذا الباب وجب المنع من استفتائهم واعلم ان نفاة القياس تمسكوا بهذه الآية قالوا لان قوله رجما بالغيب وضع الرجم فيه موضع الظن فكأنه قيل ظنا بالغيب لانهم أكثروا أن يقولوا رجم بالظن مكان قولهم ظن حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين ألا ترى الى قوله * وما هو عنها بالحديث المرجم * أى المظنون هكذا قاله صاحب الكشاف وذلك يدل على أن القول بالظن مذموم عند الله ثم انه تعالى لما ذم هذه الطريقة رتب عليه المنع من استفتاء هؤلاء الظانين فدل ذلك على ان الفتوى بالمظنون غير جائز عند الله وجواب مثبتى القياس عنه قد ذكرناه مرارا * قوله تعالى (ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والارض أبصر به وأسمع مالهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا) اعلم أن فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال المفسرون ان القوم لما سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن المسائل الثلاثة قال عليه السلام أجيبكم عنها غدا ولم يقل ان شاء الله فاحتبس الوحى خمسة عشر يوما وفى رواية أخرى أربعين يوما ثم نزلت هذه الآية اعترض القاضى على هذا الكلام من وجهين (الاول) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عالما بانه اذا أخبر عن انه سيفعل الفعل الفلانى غدا فربما جاءته الوفاة قبل الغد وربما عاقه عائق آخر عن الاقدام على ذلك الفعل غدا واذا كان كل هذه الامور محتملا فلو لم يقل ان شاء الله ربما خرج الكلام مخالفا لما عليه الوجود وذلك يوجب التنفير عنه وعن كلامه عليه السلام أما اذا قال ان شاء الله كان محترزا عن هذا المحذور واذا كان كذلك كان من البعيد أن يعد بشئ ولم يقل فيه ان شاء الله (الثانى) ان هذه الآية مشتملة على فوائد كثيرة وأحكام جمة فيبعد قصرها على هذا السبب ويمكن أن يجاب عن الاول انه لا نزاع ان الاولى أن يقول ان شاء الله الا أنه ربما اتفق له انه نسى هذا الكلام لسبب من الاسباب فكان ذلك من باب ترك الاولى والافضل وأن يجاب عن الثانى ان اشتماله على الفوائد الكثيرة لا يمنع من أن يكون سبب نزوله واحدا منها (المسئلة الثانية) قوله الا أن يشاء الله ليس فيه بيان انه شاء الله ماذا وفيه قولان (الاول) التقدير ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله أن يأذن لك فى ذلك القول والمعنى انه ليس لك أن تخبر عن نفسك انك تفعل الفعل الفلانى الا اذا أذن الله لك فى ذلك الاخبار (القول الثانى) أن يكون التقدير ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن تقول ان شاء الله والسبب فى انه لا بد من ذكر هذا القول هو ان الانسان اذا قال أفعل الفعل الفلانى غدا لم يبعد أن يموت قبل مجئ الغد ولم يبعد أيضا لو بقى حيا أن يعوقه عن ذلك الفعل شئ من العوائق فاذا كان لم يقل ان شاء

على ماقبلها بطريق التهديد لا التفريع عليه كما في قوله تعالى هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب وقوله تعالى الحق من ربك فلا تكونن من الممترين أي عقيب تحقق أن ما أوحى الى حق لاريب فيه وأن ذلك الحق من جهة ربكم فمن شاء أن يؤمن به فليؤمن كسائر المؤمنين ولا يتعلل بما لا يكاد يصلح للتعلل ومن شاء أن يكفر به فليفعل وفيه من التهديد واظهار الاستغناء عن متابعتهم وعدم المبالاة بهم وبايمانهم وجودا وعدما ما لا يخفى واما تهديد من جهة الله تعالى والفاء لترتيب مابعدها من التهديد على الامر لا على مضمون المأمور به والمعنى قل لهم ذلك وبعد ذلك من شاء أن يؤمن به أو أن يصدقك فيه فليؤمن ومن شاء أن يكفر به أو يكذبك فيه فليفعل فقوله تعالى (انا أعتدنا) وعيد شديد وتأكيد للتهديد وتعليل لما يفيده من الزجر عن الكفر أو لما يفهم من ظاهر التخيير من عدم المبالاة بكفرهم وقلة الاهتمام بزجرهم عنه فان اعداد جزائه من دواعي الاملاء والامهال وعلى الوجه الاول هو تعليل للامر بما ذكر من التخيير التهديدي أي قل لهم ذلك انا اعتدنا (للظالمين) أي هيأنا للكافرين بالحق بعد ماجاء من الله سبحانه والتعبير عنهم بالظالمين للتنبيه على أن مشيئة الكفر واختياره تجاوز عن الحد ووضع للشيء في غير موضعه (نارا) عظيمة عجيبة (أحاط بهم) أي يحيط بهم وايثار صيغة الماضي للدلالة على ﴿ولا تقولن﴾ التحقق (سرادقها) أي فسطاطها شبه به ما يحيط بهم من النار وقيل السرادق الحجرة التي تكون حول الفسطاط وقيل سرادقها دخانها وقيل حائط من نار (وان يستغيثوا) من العطش (يغاثوا بماء كالمهل) كالحديد المذاب وقيل كدردي الزيت

الله صار كاذبا في ذلك الوعد والكذب منفر وذلك لا يليق بالانبياء عليهم السلام فلهذا السبب أوجب عليه أن يقول ان شاء الله حتى ان بتقدير أن يتعذر عليه الوفاء بذلك الموعود لم يصر كاذبا فلم يحصل التنفير (المسئلة الثالثة) اعلم ان مذهب المعتزلة ان الله تعالى يريد الايمان والطاعة من العبد والعبد يريد الكفر والمعصية لنفسه فيقع مراد العبد ولا يقع مراد الله فتكون ارادة العبد غالبة وارادة الله تعالى مغلوبة وأما عندنا فكل ما أراد الله تعالى فهو واقع فهو تعالى يريد الكفر من الكافر ويريد الايمان من المؤمن وعلى هذا التقرير فارادة الله تعالى غالبة وارادة العبد مغلوبة اذا عرفت هذا فنقول اذا قال العبد لافعلن كذا غدا الا أن يشاء الله والله انما يدفع عنه الكذب اذا كانت ارادة الله غالبة على ارادة العبد فان على هذا القول يكون التقدير ان العبد قال أنا أفعل الفعل الفلاني الا اذا كانت ارادة الله بخلافه فأنا على هذا التقدير لا أفعل لان ارادة الله غالبة على ارادتي فعند قيام المانع الغالب لا أقوى على الفعل اما بتقدير أن تكون ارادة الله تعالى مغلوبة فانها لا تصلح عذرا في هذا الباب لان المغلوب لا يمنع الغالب اذا ثبت هذا فنقول أجمعت الامة على انه اذا قال والله لافعلن كذا ثم قال ان شاء الله دافعا للحنث فلا يكون دافعا للحنث الا اذا كانت ارادة الله غالبة فلما حصل دفع الحنث بالاجماع وجب القطع بكون ارادة الله تعالى غالبة وانه لا يحصل في الوجود الا ما أراده الله وأصحابنا أكدوا هذا الكلام في صورة معينة وهو أن الرجل اذا كان له على انسان دين وكان ذلك المديون قادرا على أداء الدين فقال والله لاقضين هذا الدين غدا ثم قال ان شاء الله فاذا جاء الغد ولم يقض هذا الدين لم يحنث وعلى قول المعتزلة انه تعالى يريد منه قضاء الدين وعلى هذا التقدير فقوله ان شاء الله تعلق لذلك الحكم على شرط واقع فوجب أن يحنث ولما أجمعوا على انه لا يحنث علمنا ان ذلك انما كان لان الله تعالى ما شاء ذلك الفعل مع ان ذلك الفعل قد أمر الله به ورغب فيه وزجر عن الاخلال به وثبت انه تعالى قد ينهى عن الشيء ويريده وقد يأمر بالشيء ولا يريده وهو المطلوب فان قيل [illegible] الامر كما ذكرتم الا أن كثيرا من الفقهاء قالوا اذا قال الرجل لامرأته أنت طالق [illegible] لم يقع الطلاق فما السبب فيه قلنا السبب هو انه لما علق وقوع الطلاق على [illegible] لم يقع الا اذا عرفنا وقوع الطلاق ولا نعرف وقوع الطلاق الا اذا عرفنا أولا [illegible] لكن مشيئة الله تعالى غيب فلا سبيل الى العلم بحصولها الا اذا علمنا ان متعلق المشيئة قد وقع وحصل وهو الطلاق فعلى هذا الطريق لا نعرف حصول المشيئة الا اذا عرفنا وقوع الطلاق ولا نعرف وقوع الطلاق الا اذا عرفنا وقوع المشيئة فيتوقف العلم بكل واحد منهما على العلم بالآخر وهو دور والدور باطل فلهذا السبب قالوا الطلاق غير واقع (المسئلة الرابعة) احتج القائلون بأن المعدوم شيء بقوله ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله قالوا الشيء الذي سيفعله الفاعل غدا سماه الله تعالى في الحال بأنه شيء لقوله

وهو على طريقة قوله فاعتبوا بالصيلم (يشوى الوجوه) اذا قدم ليشرب انشوى الوجه لحرارته عن النبى عليه الصلاة والسلام هو كعكر الزيت فاذا قرب اليه سقطت فروة وجهه (بئس الشراب) ذلك (وساءت) النار (مرتفقا) متكأ وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد وأنى ذلك فى النار وانما هو بمقابلة قوله تعالى حسنت مرتفقا (ان الذين آمنوا) فى محل التعليل للحث على الايمان المنفهم من التخيير كانه قيل ﴿ ٧٠٥ ﴾ وللذين آمنوا ولعل تغيير سبكه للايذان بكمال تنافى مآلى الفريقين أى ان الذين آمنوا بالحق الذى أوحى اليك (وعملوا الصالحات) حسبما بين فى تضاعيفه (انا لا نضيع أجر من أحسن عملا) خبر ان الاولى هى الثانية مع ما فى حيزها والراجع محذوف أى من أحسن منهم عملا او مستغنى عنه كما فى قولك نعم الرجل زيد أو واقع موقعه الظاهر فان من أحسن عملا فى الحقيقة هو الذى آمن وعمل الصالحات (أولئك) المنعوتون بالنعوت الجليلة (لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الانهار) استئناف لبيان الاجر أو هو الخبر وما بينهما اعتراض او هو خبر بعد خبر (يحلون فيها من اساور من ذهب) من الاولى ابتدائية والثانية بيانية صفة لأساور والتنكير للتفخيم وهو جمع اسورة أو اسوار جمع سوار (ويلبسون ثيابا خضرا) خصت الخضرة بثيابهم لانها ﴿ ٨٩ ﴾ خا أحسن الالوان وأكثرها طراوة (من سندس واستبرق) أى مما رق من الديباج وما غلظ جمع بين النوعين للدلالة على أن فيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين (متكئين فيها على الارائك) على السرر على ما هو شأن المتنعمين (نعم الثواب) ذلك (وحسنت) أى الارائك

ولاتقولن لشئ ومعلوم ان الشئ الذى سيفعله الفاعل غدا فهو معدوم فى الحال فوجب تسمية المعدوم بأنه شئ والجواب ان هذا الاستدلال لايفيد الا أن المعدوم مسمى بكونه شيئا وعندنا ان السبب فيه ان الذى سيصير شيئا يجوز تسميته بكونه شيئا فى الحال كما أنه قال أتى أمر الله والمراد سيأتى أمر الله أما قوله واذكر ربك اذا نسيت ففيه وجهان (الاول) أنه كلام متعلق بما قبله والتقدير انه اذا نسى أن يقول ان شاء الله فليذكره اذا تذكره وعند هذا اختلفوا فقال ابن عباس رضى الله عنهما لو لم يحصل التذكر الا بعد مدة طويلة ثم ذكر ان شاء الله كفى فى دفع الحنث وعن سعيد بن جبير بعد سنة أو شهر أو أسبوع أو يوم وعن طاوس أنه يقدر على الاستثناء فى مجلسه وعن عطاء يستثنى على مقدار حلب الناقة الغزيرة وعند عامة الفقهاء انه لا أثر له فى الاحكام ما لم يكن موصولا واحتج ابن عباس بقوله واذكر ربك اذا نسيت لان الظاهر أن المراد من قوله واذكر ربك اذا نسيت هو الذى تقدم ذكره فى قوله الا أن يشاء الله وقوله واذكر ربك غير مختص بوقت معين بل هو يتناول كل الاوقات فوجب أن يجب عليه هذا الذكر فى أى وقت حصل هذا التذكر وكل من قال وجب هذا الذكر قال انه انما وجب لدفع الحنث وذلك يفيد المطلوب واعلم ان استدلال ابن عباس رضى الله عنهما ظاهر فى ان الاستثناء لا يجب أن يكون متصلا أما الفقهاء فقالوا انا لو جوزنا ذلك لزم أن لا يستقر شئ من العقود والايمان يحكى أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة رحمه الله خالف ابن عباس فى الاستثناء المنفصل فاستحضره لينكر عليه فقال أبو حنيفة رحمه الله هذا يرجع عليك فانك تأخذ البيعة بالايمان أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك فاستحسن المنصور كلامه ورضى به واعلم ان حاصل هذا الكلام يرجع الى تخصيص النص بالقياس وفيه ما فيه وأيضا فلو قال ان شاء الله على سبيل الخفية بلسانه بحيث لا يسمعه أحد فهو معتبر ودافع للحنث بالاجماع مع ان المحذور الذى ذكرتم حاصل فيه فثبت ان الذى عولوا عليه ليس بقوى والاولى أن يحتج فى وجوب كون الاستثناء متصلا بأن الآيات الكثيرة دلت على وجوب الوفاء بالعقد والعهد قال تعالى أوفوا بالعقود وقال وأوفوا بالعهد فالآتى بالعهد يجب عليه الوفاء بمقتضاه لاجل هذه الآيات خالفنا هذا الدليل فيما اذا كان متصلا لان الاستثناء مع المستثنى منه كالكلام الواحد بدليل ان لفظ الاستثناء وحده لا يفيد شيئا فهو جار مجرى نصف اللفظ الواحد فجملة الكلام كالكلمة الواحدة المفيدة وعلى هذا التقدير فعند ذكر الاستثناء عرفنا انه لم يلزم شئ بخلاف ما اذا كان الاستثناء متصلا فانه حصل الالتزام التام بالكلام فوجب عليه الوفاء بذلك الملتزم والقول الثانى ان قوله واذكر ربك اذا نسيت لا تعلق له بما قبله بل هو كلام مستأنف وعلى هذا القول ففيه وجوه (أحدها) واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار اذا نسيت كلمة الاستثناء والمراد منه الترغيب فى الاهتمام بذكر هذه الكلمة (وثانيها) واذكر ربك اذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسى (وثالثها) حمله بعضهم

(مرتفقا) أى متكأ (واضرب لهم) أى للفريقين الكافر والمؤمن (مثلا رجلين) مفعولان لاضرب اولهما ثانيهما لانه المحتاج الى التفصيل والبيان أى اضرب للكافرين والمؤمنين لا من حيث أحوالهما المستفادة مما ذكر آنفا من أن للاولين فى الآخرة كذا وللآخرين كذا بل من حيث عصيان الاولين مع تقلبهم فى نعم الله تعالى وطاعة الآخرين مع مكابدتهم مشاق الفقر مثلا حال رجلين مقدرين أو محققين هما اخوان من بنى اسرائيل أو شريكان كافر اسمه قطروس ومؤمن اسمه يهوذا اقتسما ثمانية آلاف دينار فاشترى الكافر بنصيبه ضياعا وعقارا وصرف المؤمن نصيبه الى وجوه المبار فآل أمرهما الى ما حكاه الله تعالى وقيل هما اخوان من بنى مخزوم كافر هو الاسود بن عبد الاسد ومسلم هو أبو سلمه عبد الله ابى عبد الاسد زوج أم سلمة رضى الله عنها أولا (جعلنا لاحدهما) وهو الكافر (جنتين) بستانين (من أعناب) من كروم متنوعة والجملة بتمامها بيان للتمثيل أو صفة لرجلين (وحففناهما بنخل) أى جعلنا النخل محيطة بهما مؤزرا بها كرومهما يقال حفه القوم اذا أطافوا به وحففته بهم جعلتهم حافين حوله فيزيده الباء مفعولا آخر كقولك غشيته به (وجعلنا بينهما) وسطهما (زرعا) ليكون كل منهما جامعا للاقوات والفواكه متواصل العمارة على الهيئة الرائقة والوضع الانيق (كلتا الجنتين آتت أكلها) ثمرها ﴿ الانتباه ﴾ و بلغت مبلغا صالحا للاكل وقرئ بسكون الكاف وقرئ كل الجنتين آتى أكله (ولم تظلم منه) لم تنقص من أكلها (شيئا) كما يعهد ذلك فى سائر البساتين فان الثمار غالبا تكثر فى عام وتقل فى آخر وكذا بعض الاشجار يأتى بالثمر فى

على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها وهذا القول بما فيه من الوجوه الثلاثة بعيد لان تعلق هذا الكلام بما قبله يفيد اتمام الكلام فى هذه القضية وجعله كلاما مستأنفا يوجب صيرورة الكلام مبتدأ منقطعا وذلك لا يجوز ثم قال تعالى وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا وفيه وجوه (الاول) ان ترك قوله ان شاء الله ليس بحسن وذكره أحسن من تركه وقوله لاقرب من هذا رشدا المراد منه ذكر هذه الجملة (الثانى) اذا وعدهم بشئ وقال معه ان شاء الله فيقول عسى أن يهدينى ربى لشئ أحسن وأكمل مما وعدتكم به (والثالث) أن قوله لأقرب من هذا رشدا اشارة الى نبا أصحاب الكهف ومعناه لعل الله يؤتينى من البينات والدلائل على صحة انى نبى من عند الله صادق القول فى ادعاء النبوه ماهو أعظم فى الدلالة وأقرب رشدا من نبا أصحاب الكهف وقد فعل الله ذلك حيث آتاه من قصص الانبياء والاخبار بالغيوب ماهو أعظم من ذلك وأما قوله تعالى ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والارض أبصر به واسمع مالهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا فاعلم أن هذه الآية آخر الآيات المذكورة فى قصة أصحاب الكهف وفى قوله ولبثوا فى كهفهم قولان (الاول) ان هذا حكاية كلام القوم والدليل عليه أنه تعالى قال سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم وكذا الى أن قال ولبثوا فى كهفهم أى أن أولئك الاقوام قالوا ذلك ويؤكده أنه تعالى قال بعده قل الله أعلم بما لبثوا وهذا يشبه الرد على الكلام المذكور قبله ويؤكده أيضا ماروى فى مصحف عبد الله وقالوا ولبثوا فى كهفهم (والقول الثانى) أن قوله ولبثوا فى كهفهم هو كلام الله تعالى فانه أخبر عن كمية تلك المدة وأما قوله سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم فهو كلام قد تقدم وقد تخلل بينه وبين هذه الآية ما يوجب انقطاع أحدهما عن الآخر وهو قوله فلا تمار فيهم الامراء ظاهرا وقوله قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والارض لا يوجب أن ما قبله حكاية وذلك لانه تعالى أراد قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والارض فارجعوا الى خبر الله دون ما يقوله اهل الكتاب (المسئله الثانيه) قرأ حمزة والكسائى ثلثمائة سنين بغير تنوين والباقون بالتنوين وذلك لان قوله سنين عطف بيان لقوله ثلثمائة لانه لما قال ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة لم يعرف أنها ايام أم شهور أم سنون فلما قال سنين صار هذا بيانا لقوله ثلثمائة فكان هذا عطف بيان له وقيل هو على التقديم والتأخير أى لبثوا سنين ثلثمائة واما وجه قراءة حمزة فهو أن الواجب فى الاضافة ثلثمائة سنة الا أنه يجوز وضع الجمع موضع الواحد فى التمييز كقوله بالاخسرين أعمالا (المسئلة الثالثة) قوله وازدادوا تسعا المعنى وازدادوا تسع سنين فان قالوا لم لم يقل ثلثمائة وتسع سنين وما الفائدة فى قوله وازداد وا تسعا قلنا قال بعضهم كانت المدة ثلثمائة سنة من السنين الشمسية وثلثمائة وتسع سنين من القمرية وهذا مشكل لانه لا يصح بالحساب هذا القول ويمكن أن يقال لعلهم لما استكملوا ثلثمائة سنة أقرب أمرهم من

الانتباه ثم اتفق ما أوجب بقاءهم فى النوم بعد ذلك تسع سنين ثم قال قل الله أعلم بما لبثوا ومعناه أنه تعالى أعلم بمقدار هذه المدة من الناس الذين اختلفوا فيه وانما كان أولى بأن يكون عالما به لانه موجد للسموات والارض ومدبر للعالم واذا كان كذلك كان عالما بغيب السموات والارض فيكون عالما بهذه الواقعة لامحالة ثم قال تعالى أبصر به وأسمع وهذه كلمة تذكر فى التعجب والمعنى ما أبصره وما أسمعه وقد بالغنا فى تفسير كلمة التعجب فى سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى فما أصبرهم على النار ثم قال تعالى مالهم من دونه من ولى وفيه وجوه (الاول) ما لاصحاب الكهف من دون الله من ولى فانه هو الذى يتولى حفظهم فى ذلك النوم الطويل (الثانى) ليس لهؤلاء المختلفين فى مدة لبث أهل الكهف ولى من دون الله يتولى أمرهم ويقيم لهم تدبيرا نفسهم فاذا كانوا محتاجين الى تدبير الله وحفظه فكيف يعلمون هذه الواقعة من غير اعلامه (الثالث) ان بعض القوم لما ذكروا فى هذا الباب أقوالا على خلاف قول الله فقد استوجبوا العقاب فبين الله أنه ليس لهم من دونه ولى يمنع الله من انزال العقاب عليهم ثم قال ولا يشرك فى حكمه أحدا والمعنى أنه تعالى لما حكم أن لبثهم هو هذا المقدار فليس لاحد أن يقول قولا بخلافه والاصل ان الاثنين اذا كانا شريكين فان الاعتراض من كل واحد منهما على صاحبه يكثر ويصير ذاك مانعا لكل واحد منهما من امضاء الامر على وفق ما يريده وحاصله يرجع الى قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فالله تعالى نفى ذلك عن نفسه بقوله تعالى ولا يشرك فى حكمه أحدا وقرأ ابن عامر ولا تشرك بالتاء والجزم على النهى والخطاب عطفا على قوله ولا تقولن لشئ أو على قوله واذكر ربك اذا نسيت والمعنى ولا تسأل أحدا عما أخبرك الله به من عدة أصحاب الكهف واقتصر على حكمه وبيانه ولا تشرك أحدا فى طلب معرفة تلك الواقعة وقرأ الباقون بالياء والرفع على الخبر والمعنى أنه تعالى لا يفعل ذلك (المسئلة الرابعة) اختلف الناس فى زمان أصحاب الكهف وفى مكانهم أما الزمان الذى حصلوا فيه فقيل انهم كانوا قبل موسى عليه السلام وان موسى ذكرهم فى التوراة ولهذا السبب فان اليهود سألوا عنهم وقيل انهم دخلوا الكهف قبل المسيح وأخبر المسيح بخبرهم ثم بعثوا فى الوقت الذى بين عيسى عليه السلام وبين محمد صلى الله عليه وسلم وقيل انهم دخلوا الكهف بعد المسيح وحكى القفال هذا القول عن محمد بن اسحق وقال قوم انهم لم يموتوا ولا يموتون الى يوم القيامة وأما مكان هذا الكهف فحكى القفال عن محمد بن موسى الخوارزمى المنجم أن الواثق أنفذه ليعرف حال أصحاب الكهف الى الروم قال فوجه ملك الروم معى أقواما الى الموضع الذى يقال انهم فيه قال وان الرجل الموكل بذلك الموضع فزعنى من الدخول عليهم قال فدخلت ورأيت الشعور على صدورهم قال وعرفت أنه تمويه واحتيال وأن الناس كانوا قد عالجوا تلك الجثث بالادوية المجففة لأبدان الموتى لتصونها عن البلى مثل التلطيخ بالصبر وغيره ثم قال القفال والذى عندنا لا يعرف أن

بعض الاعوام دون بعض (وفجرنا خلالهما) فيما بين كل من الجنتين (نهرا) على حدة ليدوم شربهما ويزيد بهاؤهما وقرئ بالتخفيف ولعل تأخير ذكر تفجير النهر عن ذكر ايتاء الاكل مع أن الترتيب الخارجى على العكس للايذان باستقلال كل من ايتاء الاكل وتفجير النهر فى تكميل محاسن الجنتين كما فى قصة البقرة ونحوها ولو عكس لانفهم أن المجموع خصلة واحدة بعضها مترتب على بعض فان ايتاء الاكل متفرع على السقى عادة وفيه ايماء الى أن ايتاء الاكل لا يتوقف على السقى كقوله تعالى يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار (وكان له) لصاحب الجنتين (ثمر) أنواع من المال غير الجنتين من ثمر ماله اذا كثره قال ابن عباس رضى الله عنهما هو جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك وقال مجاهد هو الذهب والفضة خاصة (فقال لصاحبه) المؤمن (وهو) أى القائل (يحاوره) أى صاحبه المؤمن وان جاز العكس أى يراجعه فى الكلام من حار اذا رجع (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) حشما وأعوانا أو أولادا ذكورا لانهم الذين ينفرون معه (ودخل جنته) التى شرحت أحوالها وعددها وصفاتها وهيآتها وتوحيدها اما لعدم تعلق الغرض بتعددها واما لاتصال احداهما بالاخرى واما لان الدخول يكون فى واحدة فواحدة (وهو ظالم لنفسه) ضار لها بعجبه وكفره (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من ذكر دخول جنته حال ظلمه لنفسه كأنه قيل فماذا قال اذ ذاك فقيل قال (ما أظن أن تبيد هذه) الجنة أى تفنى (أبدا) لطول أمله وتمادى غفلته واغتراره بمهلته ولعله انما قاله بمقابلة موعظة صاحبه وتذكيره بفناء جنتيه ونهيه عن الاغترار بهما وأمره بتحصيل الباقيات الصالحات (وما أظن

الساعة قائمة) كائنة فيما سيأتى (ولئن رددت) بالبعث عند قيامها كما تقول (الى ربى لاجدن) يومئذ (خيرا منها) أى من هذه الجنة وقرئ منهما أى من الجنتين (منقلبا) مرجعا وعاقبة ومدار هذا الطمع واليمين الفاجر لاعتقاده انه تعالى انما أولاه ما أولاه فى الدنيا لاستحقاقه الذاتى وكرامته عليه سبحانه ولم يدر أن ذلك استدراج (قال له صاحبه) استئناف كما سبق (وهو يحاوره) جملة حالية كما مر فائدتها التنبيه من أول الامر على أن ما يتلوه كلام معتنى بشأنه مسوق للمحاورة (أكفرت) حيث قلت ما أظن الساعة قائمة (بالذى خلقك) أى فى ضمن خلق أصلك (من تراب) فان خلق آدم عليه السلام منه متضمن لخلقه منه لما أن خلق كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه عليه السلام اذ لم تكن فطرته البشرية مقصورة على نفسه بل كانت انموذجا منطويا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه السلام من التراب خلقا للكل منه وقيل خلقك منه لانه أصل مادتك اذ به يحصل الغذاء الذى منه تحصل النطفة فتدبر (ثم من نطفة) هى مادتك القريبة فالمخلوق واحد والمبدأ متعدد (ثم سواك رجلا) أى عدلك وكملك انسانا ذكرا او صيرك رجلا والتعبير عنه تعالى بالموصول للاشعار بعلية ما فى حيز الصلة لانكار الكفر والتلويح بدليل البعث الذى نطق به قوله عز من قائل يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث ﴿ واتل ﴾ فانا خلقناكم من تراب الخ (لكنا هو الله ربى) أصله لكن انا وقد قرئ كذلك فحذفت الهمزة فتلاقت النونان فكان الادغام وهو ضمير الشأن وهو مبتدأ خبره الله ربى وتلك الجملة

ذلك الموضع هو موضع أصحاب الكهف أو موضع آخر والذى أخبر الله عنه وجب القطع به ولا عبرة بقول أهل الروم ان ذلك الموضع هو موضع أصحاب الكهف وذكر فى الكشاف عن معاوية انه غزا الروم فمر بالكهف فقال لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا اليهم فقال ابن عباس رضى الله عنهما ليس لك ذلك قد منع الله من هو خير منك فقال لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا فقال لابن عباس لا انتهى حتى أعلم حالهم فبعث أناسا فقال لهم اذهبوا فانظروا فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأحرقتهم وأقول العلم بذلك الزمان وبذلك المكان ليس للعقل فيه مجال وانما يستفاد ذلك من نص وذلك مفقود فثبت أنه لا سبيل اليه (المسئلة الخامسة) اعلم ان مدار القول باثبات البعث والقيامة على أصول ثلاثة (أحدها) انه تعالى قادر على كل الممكنات والثانى انه تعالى عالم بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات (وثالثها) ان كل ما كان ممكن الحصول فى بعض الاوقات كان ممكن الحصول فى سائر الاوقات فاذا ثبتت هذه الاصول الثلاثة ثبت القول بامكان البعث والقيامة فكذلك ههنا ثبت انه تعالى عالم قادر على الكل وثبت ان بقاء الانسان حيا فى النوم مدة يوم ممكن فكذلك بقاؤه مدة ثلثمائة سنة يجب أن يكون ممكنا بمعنى أن اله العالم يحفظه ويصونه عن الآفة وأما الفلاسفة فانهم يقولون أيضا لا يبعد وقوع أشكال فلكية غريبة توجب فى هيولى عالم الكون والفساد حصول أحوال غريبة نادرة وأقول هذه السور الثلاثة المتعاقبة اشتمل كل واحد منها على حصول حالة عجيبة نادرة فى هذا العالم فسورة بنى اسرائيل اشتملت على الاسراء بجسد محمد صلى الله عليه وسلم من مكة الى الشام وهو حالة عجيبة وهذه السورة اشتملت على بقاء القوم فى النوم مدة ثلثمائة سنة وأزيد وهو أيضا حالة عجيبة وسورة مريم اشتملت على حدوث الولد لا من الاب وهو أيضا حالة عجيبة والمعتمد فى بيان امكان كل هذه العجائب والغرائب المذكورة فى هذه السور الثلاثة المتوالية هو الطريقة التى ذكرناها ومما يدل على أن هذا المعنى من الممكنات أن أبا على بن سينا ذكر فى باب الزمان من كتاب الشفاء أن ارسطاطاليس الحكيم ذكر أنه عرض لقوم من المتألهين حالة شبيهة بحالة أصحاب الكهف ثم قال أبو على ويدل التاريخ على انهم كانوا قبل أصحاب الكهف * قوله تعالى (واتل ما أوحى اليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا) اعلم ان من هذه الآية الى قصة موسى والخضر كلام واحد فى قصة واحدة وذلك أن أكابر كفار قريش اجتمعوا وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان أردت أن نؤمن بك فاطرد من عندك هؤلاء الفقراء الذين آمنوا بك والله تعالى نهاه عن ذلك ومنعه عنه وأطنب فى جملة هذه الآيات فى بيان أن الذى اقترحوه والتمسوه مطلوب فاسد واقتراح باطل ثم انه تعالى جعل الاصل فى هذا الباب شيئا واحدا وهو أن يواظب على تلاوة الكتاب الذى أوحاه الله اليه وعلى العمل به وأن لا يلتفت الى اقتراح المقترحين وتعنت المتعنتين فقال

خبرانا والعائد منها اليه الضمير وقرئ باثبات ألف انافى الوصل والوقف جميعا وفى الوقف خاصة وقرئ لكنه بالهاء ولكن بطرح انا ولكن انا لا الها لاهو ربى ومدار الاستدراك قوله تعالى أكفرت كانه قال أنت كافر لكنى مؤمن موحد (ولا اشرك بربى أحد) فيه ايذان بأن كفره كان بطريق الاشراك (ولولا اذ دخلت جنتك قلت) أى هلا قلت عندما دخلتها وتقديم الظرف على المحضض عليه للايذان ﴿٧٠٩﴾ بتحتم القول فى آن الدخول من غير ريث لا للقصر (ماشاء الله) أى الامر ماشاء الله أو ماشاء الله كائن على أن ما موصولة مرفوعة المحل أو أى شئ شاء الله كان على انها شرطية منصوبة والجواب محذوف والمراد تحضيضه على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله تعالى ان شاء أبقاها وان شاء أفناها (لاقوة الا بالله) أى هلا قلت ذلك اعترافا بعجزك وبأن ما تيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها انما هو بمعونته تعالى واقداره عن النبى صلى الله عليه وسلم من رأى شيئا فأعجبه فقال ماشاء الله لاقوة الا بالله لم يضره (ان ترن أنا أقل منك مالا وولدا) أنا اما مؤكد للياء المتكلم أو ضمير فصل بين مفعولى الرؤية ان جعلت علمية وأقل ثانيهما وحال ان جعلت بصرية فيكون انا حينئذ تأكيدا لاغير لان شرط كونه ضمير فصل توسطه بين المبتدا والخبر أو ما أصله المبتدأ والخبر وقرئ أقل بالرفع خبر الانا والجملة مفعول ثان للرؤية أو حال وفى قوله تعالى وولدا نصرة لمن فسر النفر بالولد (فعسى ربى أن يؤتينى خيرا من جنتك) هو جواب الشرط والمعنى ان ترن أفقر منك فانا أتوقع من صنع الله سبحانه أن يقلب مابى وما بك من الفقر والغنى فيرزقنى لايمانى جنة خيرا من جنتك ويسلبك لكفرك نعمته ويخرب جنتك

واتل ما اوحى اليك من كتاب ربك وفى الآية مسئلة وهى أن قوله اتل يتناول القراءة ويتناول الاتباع أيضا فيكون المعنى الزم قراءة الكتاب الذى أوحى اليك والزم العمل به ثم قال لامبدل لكلماته أى يمتنع تطرق التغير والتبديل اليه وهذه الآية يمكن التمسك بها فى اثبات ان تخصيص النص بالقياس غير جائز لان قوله اتل ما أوحى اليك من كتاب ربك معناه الزم العمل بمقتضى هذا الكتاب وذلك يقتضى وجوب العمل بمقتضى ظاهره فان قيل فيجب أن لا يتطرق النسخ اليه قلنا هذا هو مذهب أبى مسلم الاصفهانى فليس يبعد وأيضا فالنسخ فى الحقيقة ليس بتبديل لان المنسوخ ثابت فى وقته الى وقت طريان الناسخ فالناسخ كالغاية فكيف يكون تبديلا أما قوله ولن تجد من دونه ملتحدا اتفقوا على أن الملتحد هو الملجأ قال أهل اللغة هو من لحد وألحد اذا مال ومنه قوله تعالى لسان الذى يلحدون اليه والملحد المائل عن الدين والمعنى ولن تجد من دونه ملجأ فى البيان والرشاد ❊ قوله تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) اعلم أن أكابر قريش اجتمعوا وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان أردت أن نؤمن بك فاطرد هؤلاء الفقراء من عندك فاذا حضرنا لم يحضروا وتعين لهم وقتا يجتمعون فيه عندك فأنزل الله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم الآية فبين فيها انه لا يجوز طردهم بل تجالسهم وتوافقهم وتعظم شأنهم ولا تلتفت الى أقوال أولئك الكفار ولا تقيم لهم فى نظرك وزنا سواء غابوا أو حضروا وهذه القصة منقطعة عما قبلها وكلام مبتدأ مستقل ونظير هذه الآية قد سبق فى سورة الانعام وهو قوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداوة والعشى ففى تلك الآية نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طردهم وفى هذه الآية أمره بمجالستهم والمصابرة معهم فقوله واصبر نفسك أصل الصبر الحبس ومنه نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المصبورة وهى البهيمة تحبس فترمى أما قوله مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ ابن عامر بالغدوة بضم الغين والباقون بالغداة وكلاهما لغة (المسئلة الثانية) فى قوله بالغداة والعشى وجوه (الاول) المراد كونهم مواظبين على هذا العمل فى كل الاوقات كقول القائل ليس لفلان عمل بالغداة والعشى الا شتم الناس (الثانى) ان المراد صلاة الفجر والعصر (الثالث) المراد أن الغداوة هى الوقت الذى ينتقل الانسان فيه من النوم الى اليقظة وهذا الانتقال شبيه بالانتقال من الموت الى الحياة والعشى هو الوقت الذى ينتقل الانسان فيه من اليقظة الى النوم ومن الحياة الى الموت والانسان العاقل يكون فى هذين الوقتين كثير الذكر لله عظيم الشكر لآلاء الله ونعمائه ثم قال ولا تعد عيناك عنهم يقال عداه اذا جاوزه ومنه قولهم عدا طوره وجاء القوم عدا زيد وانما عدى بلفظة عن لانها تفيد المباعدة فكأنه تعالى نهى عن تلك المباعدة وقرئ ولا تعد عينيك ولا تعد عينيك من أعداه وعداه

(ويرسل عليها حسبانا) هو مصدر بمعنى الحساب كالبطلان والغفران أى مقدارا قدرة الله تعالى وحسبه وهو الحكم بتخريبها وقيل عذاب حسبان وهو حساب ما كسبت يداه وقيل مرامى جمع حسبانة وهى الصواعق ومساعدة النظم الكريم فيما سياتى للاولين أكثر (من السماء فتصبح صعيدا زلقا) مصدر أريد به المفعول مبالغة أى أرضا ملساء يزلق عليها لاستئصال ما عليها من البناء والشجر والنبات ﴿ ٧١٠ ﴾ (أو يصبح) عطف على قوله تعالى فتصبح وعلى الوجه الثالث على يرسل (ماؤها غورا) أى غائرا فى الارض أطلق عليه المصدر مبالغة (فلن تستطيع) أبدا (له) أى للماء الغائر (طلبا) فضلا عن وجدانه ورده (وأحيط بثمره) أهلك أمواله المعهودة من جنتيه وما فيهما واصله من احاطة العدو وهو عطف على مقدر كانه قيل فوقع بعض ما توقع من المحذور وأهلك أمواله وانما حذف لدلالة السباق والسياق عليه كما فى المعطوف عليه بالفاء الفصيحة (فاصبح يقلب كفيه) ظهرا لبطن وهو كناية عن الندم كانه قيل فاصبح يندم (على ما أنفق فيها) أى فى عمارتها من المال ولعل تخصيص الندم به دون ما هلك الآن من الجنة لما أنه انما يكون على الافعال الاختيارية ولان ما أنفق فى عمارتها كان مما يمكن صيانته عن طوارق الحدثان وقد صرفه الى مصالحها رجاء أن يتمتع بها أكثر مما يتمتع به وكان يرى انه لاتنالها أيدى الردى ولذلك قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا فلما ظهر له انها مما يعتريه الهلاك ندم على ما صنع بناء على الزعم الفاسد من انفاق ما يمكن ادخاره فى مثل هذا الشئ السريع الزوال (وهى) أى الجنة

﴿ ايجاد ﴾

نقلا بالهمزة وتثقيل الحشو ومنه قوله * فعد عما ترى اذ لا ارتجاع له * والمقصود من الآية انه تعالى نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يزدرى فقراء المؤمنين وان تنبو عيناه عنهم لاجل رغبته فى مجالسة الاغنياء وحسن صورتهم وقوله تريد زينة الحياة الدنيا نصب فى موضع الحال يعنى انك ان فعلت ذلك لم يكن اقدامك عليه الا لرغبتك فى زينة الحياة الدنيا ولما بالغ فى أمره بمجالسة الفقراء من المسلمين بالغ فى النهى عن الالتفات الى اقوال الاغنياء والمتكبرين فقال ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج أصحابنا بهذه الآية على انه تعالى هو الذى يخلق الجهل والغفلة فى قلوب الجهال لان قوله أغفلنا يدل على هذا المعنى قالت المعتزلة المراد بقوله تعالى أغفلنا قلبه عن ذكرنا انا وجدنا قلبه غافلا وليس المراد خلق الغفلة فيه والدليل عليه ماروى عن عمرو بن معد يكرب الزبيدى انه قال لبنى سليم قاتلناكم فما أجبناكم وسألناكم فما ابخلناكم وهجوناكم فما افحمناكم أى ما وجدناكم جبناء ولا بخلاء ولا مفحمين ثم نقول حمل اللفظ على هذا المعنى أولى ويدل عليه وجوه (الاول) انه لو كان كذلك لما استحقوا الذم (الثانى) انه تعالى قال بعد هذه الآية فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ولو كان تعالى خلق الغفلة فى قلبه لما صح ذلك (الثالث) لو كان المراد هو أنه تعالى جعل قلبه غافلا لوجب أن يقال ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه لان على هذا التقدير يكون ذلك من أفعال المطاوعة وهى انما تعطف بالفاء لا بالواو يقال كسرته فانكسر ودفعته فاندفع ولا يقال وانكسر واندفع (الرابع) قوله تعالى واتبع هواه ولو كان تعالى أغفل فى الحقيقة قلبه لم يجز أن يضاف ذلك الى اتباعه هواه والجواب قوله المراد من قوله أغفلنا أى وجدناه غافلا وليس المراد تحصيل الغفلة فيه قلنا الجواب عنه من وجهين (الاول) أن الاشتراك خلاف الاصل فوجب أن يعتقد أن وزن الافعال حقيقة فى أحدهما مجاز فى الآخر وجعله حقيقة فى التكوين مجازا فى الوجدان أولى من العكس وبيانه من وجوه (أحدها) ان مجئ بناء الافعال بمعنى التكوين أكثر من مجيئه بمعنى الوجدان والكثرة دليل الرجحان (وثانيها) ان مبادرة الفهم من هذا البناء الى التكوين اكثر من مبادرته الى الوجدان ومبادرة الفهم دليل الرجحان (وثالثها) انا ان جعلناه حقيقة فى التكوين امكن جعله مجازا فى الوجدان لان العلم بالشئ تابع لحصول المعلوم فيجعل اللفظ حقيقة فى المتبوع ومجازا فى التبع موافق للمعقول أما لو جعلناه حقيقة فى الوجدان مجازا فى الايجاد لزم جعله حقيقة فى التبع مجازا فى الاصل وانه عكس المعقول فثبت أن الاصل جعل هذا البناء حقيقة فى الايجاد لا فى الوجدان (الوجه الثانى) فى الجواب عن السؤال انا نسلم كون اللفظ مشتركا بالنسبة الى الايجاد والى الوجدان الا أنا نقول يجب حمل قوله اغفلنا على ايجاد الغفلة وذلك لان الدليل العقلى دل على أنه يمتنع كون العبد موجد الغفلة فى نفسه والدليل عليه انه اذا حاول ايجاد الغفلة فاما أن يحاول

من الاعناب المحفوفة بنخل (خاوية) ساقطة (على عروشها) أى دعائمها المصنوعة للكروم لسقوطها قبل سقوطها وتخصيص حالها بالذكر دون النخل والزرع اما لانها العمدة وهما من متماتها واما لان ذكر هلاكها مغن عن ذكر هلاك الباقى لانها حيث هلكت وهى مشيدة بعروشها فهلاك ماعداها بالطريق الاولى واما لان الانفاق فى عمارتها اكثر وقيل أرسل الله تعالى عليها نارا فاحرقتها وغار ماؤها (و يقول) عطف على يقلب اوحال من ضميره أى وهو يقول (ياليتنى لم أشرك بربى أحدا) كانه تذكر موعظة أخيه وعلم أنه انما أتى من قبل شركه فتمنى او لم يكن مشركا فلم يصبه ما أصابه قيل ويحتمل أن يكون ذلك توبة من الشرك وندما على مافرط منه (ولم تكن له) وقرئ بالياء التحتانية (فئة ينصرونه) يقدرون على نصره بدفع الاهلاك او على رد المهلك او الاتيان بمثله وجمع الضمير باعتبار المعنى كما فى قوله عزوعلا يرونهم مثليهم (من دون الله) فانه القادر على ذلك وحده (وما كان) فى نفسه (منتصرا) ممتنعا بقوته عن انتقامه سبحانه (هنالك) فى ذلك المقام وفى تلك الحال (الولاية لله الحق) أى النصرة له وحده لايقدر عليها أحد فهو تقرير لماقبله أو ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة كما نصر بما فعل بالكافر أخاه المؤمن ويعضده قوله تعالى (هو خير ثوابا وخير عقبا) أى لاوليائه وقرئ الولاية بكسر الواو ومعناها الملك والسلطان أى هنالك السلطان له عز وجل لايغلب ولايمتنع منه أولايعبد غيره كقوله تعالى واذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين

ايجاد مطلق الغفلة أو يحاول ايجاد الغفلة عن شئ معين والاول باطل والا لم يكن بان تحصل له الغفلة عن هذا الشئ أولى بان تحصل له الغفلة عن شئ آخر لان الطبيعة المشترك فيها بين الانواع الكثيرة تكون نسبتها الى كل تلك الانواع على السوية أما الثانى فهو أيضا باطل لان الغفلة عن كذا عبارة عن غفلة لاتمتاز عن سائر أقسام الغفلات الا بكونها منتسبة الى ذلك الشئ المعين بعينه فعلى هذا لايمكنه أن يقصد الى ايجاد الغفلة عن كذا الا اذا تصور أن تلك الغفلة غفلة عن كذا ولايمكنه ان يتصور كون تلك الغفلة غفلة عن كذا الا اذا تصور كذا لان العلم بنسبة أمر الى أمر آخر مشروط بتصور كل واحد من المنتسبين فثبت انه لايمكنه القصد الى ايجاد الغفلة عن كذا الا مع الشعور بكذا لكن الغفلة عن كذا ضد الشعور بكذا فثبت ان العبد لايمكنه ايجاد هذه الغفلة الا عند اجتماع الضدين وذلك محال والموقوف على المحال محال فثبت ان العبد غير قادر على ايجاد الغفلة فوجب أن يكون خالق الغفلات وموجدها فى العباد هو الله وهذه نكتة قاطعة فى اثبات هذا المطلوب وعند هذا يظهر ان المراد بقوله تعالى ولاتطع من أغفلنا قلبه هو ايجاد الغفلة لاوجدانها أما حديث المدح والذم فقد عارضناه مرارا وأطوارا بالعلم والداعى أما قوله تعالى بعد هذه الآية فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر فالبحث عنه سيأتى ان شاء الله تعالى أما قوله ولاتطع من أغفلنا قلبه لو كان المراد ايجاد الغفلة لوجب ذكر الفاء لاذكر الواو فنقول هذا انما يلزم لو كان خلق الغفلة فى القلب من لوازمه حصول اتباع الهوى كما ان الكسر من لوازمه حصول الانكسار وليس الامر كذلك لانه لايلزم من حصول الغفلة عن الله حصول متابعة الهوى لاحتمال أن يصير غافلا عن ذكر الله ومع ذلك فلا يتبع الهوى بل يبقى متوقفا لابثا فى مقام الحيرة والدهشة والخوف من الكل فسقط هذا السؤال وذكر القفال فى تأويل الآية على مذهب المعتزلة وجوها اخرى (فأحدها) انه تعالى لما صب عليهم الدنيا صبا وادى ذلك الى رسوخ الغفلة فى قلوبهم صح على هذا التأويل انه تعالى حصل الغفلة فى قلوبهم كما فى قوله تعالى فلم يزدهم دعائى الافرارا (والوجه الثانى) أن معنى قوله أغفلنا أى تركناه غافلا فلم نسمه بسمة أهل الطهارة والتقوى وهو من قولهم بعير غفل أى لاسمة عليه (وثالثها) ان المراد من قوله أغفلنا قلبه أى خلاه مع الشيطان ولم يمنع الشيطان منه فيقال فى الوجه الاول ان فتح باب لذات الدنيا عليه هل يؤثر فى حصول الغفلة فى قلبه أولا يؤثر فان أثر كان أثر ايصال اللذات اليه سببا لحصول الغفلة فى قلبه وذلك عين القول بانه تعالى فعل مايوجب حصول الغفلة فى قلبه وان كان لاتأثير له فى حصول هذه الغفلة بطل اسناده اليه وقد يقال فى الوجه الثانى ان قوله أغفلنا قلبه بمنزلة قوله سودنا قلبه وبيضنا وجهه ولايفيد الا ماذكرناه ويقال فى الوجه الثالث ان كان لتلك التخلية أثر فى حصول تلك الغفلة فقد صح قولنا والا بطل استناد تلك الغفلة الى الله تعالى (المسئلة الثانية) قوله تعالى ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه يدل على أن شر أحوال الانسان أن يكون

قلبه خاليا عن ذكر الحق ويكون مملوأ من الهوى الداعي الى الاشتغال بالخلق وتحقيق القول ان ذكر الله نور وذكر غيره ظلمة لان الوجود طبيعة النور والعدم منبع الظلمة والحق تعالى واجب الوجوب لذاته فكان النور الحق هو الله وماسوى الله فهو ممكن الوجود لذاته والامكان طبيعة عدمية فكان منبع الظلمة فالقلب اذا أشرق فيه ذكر الله فقد حصل فيه النور والضوء والاشراق واذا توجه القلب الى الخلق فقد حصل فيه الظلم والظلمة بل الظلمات فلهذا السبب اذا أعرض القلب عن الحق وأقبل على الخلق فهو الظلمة الخالصة التامة فالاعراض عن الحق هو المراد بقوله أغفلنا قلبه عن ذكرنا والاقبال على الخلق هو المراد بقوله واتبع هواه (المسئلة الثالثة) قيل فرطا أي مجاوزا للحد من قولهم فرس فرط اذا كان متقدما للخيل قال الليث الفرط الامر الذي يفرط فيه يقال كل أمر فلان فرط وأنشد شعرا

لقد كلفتني شططا * وأمرا خائبا فرطا

أي مضيعا فقوله وكان أمره فرطا معناه ان الامر الذي يلزمه الحفظ له والاهتمام به وهو أمر دينه يكون مخصوصا بايقاع التفريط والتقصير فيه وهذه الحالة صفة من لا ينظر لدينه وانما عمله لدنياه فبين تعالى من حال الغافلين عن ذكر الله التابعين لهواهم انهم مقصرون في مهماتهم معرضون عما وجب عليهم من التدبر في الآيات والتحفظ بمهمات الدنيا والآخرة والحاصل انه تعالى وصف أولئك الفقراء بالمواظبة على ذكر الله والاعراض عن غير ذكر الله فقال مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ووصف هؤلاء الاغنياء بالاعراض عن ذكر الله تعالى والاقبال على غير الله وهو قوله أغفلنا قلبه واتبع هواه ثم أمر رسوله بمجالسة أولئك والمباعدة عن هولاء روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال كنت جالسا في عصابة من ضعفاء المهاجرين وان بعضهم ليستتر ببعض من العري وقارئ يقرأ من القرآن فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماذا كنتم تصنعون قلنا يارسول الله كان واحد يقرأ من كتاب الله ونحن نسمع فقال عليه السلام الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت الى أن أصبر نفسي معهم ثم جلس وسطنا وقال ابشروا يا صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل الاغنياء بمقدار خمسين ألف سنة * قوله تعالى (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر انا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) في تقرير النظم وجوه (الاول) انه تعالى لما أمر رسوله بأن لا يلتفت الى أولئك الاغنياء الذين قالوا ان طردت الفقراء آمنا بك قال بعده وقل الحق من ربكم أي قل لهؤلاء ان هذا الدين الحق انما أتى من عند الله فان قبلتموه عاد النفع اليكم وان لم تقبلوه عاد الضرر اليكم ولا تعلق لذلك بالفقر والغنى والقبح والحسن والخمول والشهرة (الوجه الثاني) في تقرير النظم يمكن أن يكون المراد ان الحق ما جاء من عند الله والحق الذي جاءني من عنده أن

فيكون تنبيها على أن قوله ياليتني لم أشرك الخ كان عن اضطرار وجزع مما دهاهما على اسلوب قوله تعالى الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين وقيل هنالك اشارة الى الاخرة كقوله تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وقرئ برفع الحق على انه صفة للولاية وبنصبه على انه مصدر مؤكد وقرئ عقبا بضم القاف وعقبى كرجعى والكل بمعنى العاقبة (واضرب لهم مثل الحيوة الدنيا) أي واذكر لهم مايشبهها في زهرتها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يطمئنوا بها ولا يعكفوا عليها ولا يضربوا عن الآخرة صفحا بالمرة أو بين لهم صفتها العجيبة التي هي في الغرابة كالمثل (كماء) استئناف لبيان المثل أي هي كماء (أنزلناه من السماء) ويجوز كونه مفعولا ثانيا لاضرب على انه بمعنى صير (فاختلط به) اشتبك بسببه (نبات الارض) فالتف وخالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه أو نجع الماء في النبات حتى روى ورف فمقتضى الظاهر حينئذ فاختلط بنبات الارض وايثار ما عليه النظم الكريم عليه للمبالغة في الكثرة فان كلا من المختلطين موصوف بصفة صاحبه (فاصبح) ذلك النبات الملتف اثر بهجتها ورفيفها (هشيما) مهشوما مكسورا (تذروه الرياح) تفرقه وقرئ تذريه من أذراه وتذروه الريح وليس المشبه به نفس الماء بل هو الهيئة المنتزعة من الجملة وهي حال النبات المنبت بالماء يكون أخضر وارفا ثم هشيما تطيره الرياح كأن لم يغن بالامس ﴿ أصبح ﴾
(وكان الله على كل شئ) من الاشياء التي من جملتها الانشاء والافناء (مقتدرا) قادرا على الكمال

(المال والبنون زينة الحيوة الدنيا) بيان لشأن ما كانوا يفتخرون به من محسنات الحياة الدنيا كما قال الاخ الكافر أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا اثر بيان شان نفسها بما مر من المثل وتقديم المال على البنين مع كونهم أعز منه كما فى الآية المحكية آنفا وقوله تعالى وأمددناكم بأموال وبنين وغير ذلك من الآيات الكريمة لعراقته فيما نيط به من الزينة والامداد وغير ذلك وعمومه بالنسبة الى الافراد والاوقات فانه زينة ﴿ ٧١٣ ﴾ وممد لكل أحد من الآباء والبنين فى كل وقت وحين وأما البنون فزينتهم وامدادهم انما يكون بالنسبة الى من بلغ مبلغ الابوة ولان المال مناط لبقاء النفس والبنين لبقاء النوع ولان الحاجة اليه أمس من الحاجة اليهم ولانه أقدم منهم فى الوجود ولانه زينة بدونهم من غير عكس فان من له بنون بلا مال فهو فى ضيق حال ونكال وافراد الزينة مع انها مسندة الى الاثنين لما أنها مصدر فى الاصل أطلق على المفعول مبالغة كأنهما نفس الزينة والمعنى أن ما يفتخرون به من المال والبنين شئ يتزين به فى الحياة الدنيا وقد علم شأنها فى سرعة الزوال وقرب الاضمحلال فكيف بما هو من أوصافها التى شأنها أن تزول قبل زوالها (والباقيات الصالحات) هى أعمال الخير وقيل هى الصلوات الخمس وقيل سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ﴿ ٩٠ ﴾ خا وقيل كل ما أريد به وجه الله تعالى وعلى كل تقدير يدخل فيها أعمال فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه دخولا أوليا أما صلاحها فظاهر وأما بقاؤها فبقاء عوائدها عند فناء كل ما تطمح اليه النفس من حظوظ الدنيا (خير) أى مما نعت شأنه من المال والبنين واخراج بقاء تلك الاعمال وصلاحها مخرج الصفات المفروغ عنها

أصبر نفسى مع هؤلاء الفقراء ولا اطردهم ولا ألتفت الى الرؤساء وأهل الدنيا (والوجه الثالث) فى تقرير النظم أن يكون المراد هو ان الحق الذى جاء من عند الله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وان الله تعالى لم يأذن فى طرد من آمن وعمل صالحا لاجل أن يدخل فى الايمان جمع من الكفار فان قيل أليس أن العقل يقتضى ترجيح الاهم على المهم فطرد أولئك الفقراء لا يوجب الا سقوط حرمتهم وهذا ضرر قليل اما عدم طردهم فانه يوجب بقاء الكفار على الكفر وهذا ضرر عظيم قلنا اما عدم طردهم فانه يوجب بقاء الكفار على الكفر فسلم الا أن من ترك الايمان لاجل الحذر من مجالسة الفقراء فايمانه ليس بايمان بل هو نفاق قبيح فوجب على العاقل أن لا يلتفت الى ايمان من هذا حاله وصفته (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة قوله تعالى فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر صريح فى ان الامر فى الايمان والكفر والطاعة والمعصية مفوض الى العبد واختياره فمن أنكر ذلك فقد خالف صريح القرآن ولقد سألنى بعضهم عن هذه الآية فقلت هذه الآية من أقوى الدلائل على صحة قولنا وذلك لان الآية صريحة فى أن حصول الايمان وحصول الكفر موقوف على حصول مشيئة الايمان وحصول مشيئة الكفر وصريح العقل أيضا يدل له فان الفعل الاختيارى يمتنع حصوله بدون القصد اليه وبدون الاختيار له اذا عرفت هذا فنقول حصول ذلك القصد والاختيار ان كان بقصد آخر يتقدمه واختيار آخر يتقدمه لزم أن يكون كل قصد واختيار مسبوقا بقصد آخر الى غير النهاية وهو محال فوجب انتهاء تلك القصود وتلك الاختيارات الى قصد واختيار يخلقه الله تعالى فى العبد على سبيل الضرورة عند حصول ذلك القصد الضرورى والاختيار الضرورى يوجب الفعل فالانسان شاء أولم يشأ ان لم تحصل فى قلبه تلك المشيئة الجازمة الخالية عن المعارض لم يترتب الفعل واذا حصلت تلك المشيئة الجازمة شاء أولم يشأ يجب ترتب الفعل عليه فلا حصول المشيئة مترتب على حصول الفعل ولا حصول الفعل مترتب على المشيئة فالانسان مضطر فى صورة مختار ولقد قرر الشيخ أبو حامد الغزالى رحمه الله هذا المعنى فى باب التوكل من كتاب احياء علوم الدين فقال فان قلت انى أجد فى نفسى وجدانا ضروريا انى ان شئت الفعل قدرت على الفعل وان شئت الترك قدرت على الترك فالفعل والترك بى لا بغيرى وأجاب عنه وقال هب أنك تجد من نفسك هذا المعنى ولكن هل تجد من نفسك انك ان شئت مشيئة الفعل حصلت تلك المشيئة وان لم تشأ تلك المشيئة لم تحصل بل العقل يشهد بانه يشاء الفعل لا بسبق مشيئة أخرى على تلك المشيئة واذا شاء الفعل وجب حصول الفعل من غير مكنة واختيار فى هذا المقام فحصول المشيئة فى القلب أمر لازم وترتب الفعل على حصول المشيئة أيضا أمر لازم وهذا يدل على ان الكل من الله تعالى (المسئلة الثالثة) قوله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر فيه فوائد (الفائدة الاولى) الآية تدل على ان صدور الفعل عن الفاعل بدون القصد والداعى محال (الفائدة الثانية) ان

مع أن حقهما أن يكونا مقصودى الافادة لاسيما فى مقابلة اثبات الفناء لما يقابلها من المال والبنين على طريقة قوله تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق للايذان بان بقاءها أمر محقق لاحاجة الى بيانه بل لفظ الباقيات اسم لها لا وصف ولذلك لم يذكر الموصوف وانما الذى يحتاج الى التعرض له خيريتها (عند ربك) أى فى الآخرة وهو بيان لما يظهر فيه آثار خيريتها بمنزلة اضافة الزينة الى الحياة الدنيا لا لافضليتها فيها من المال والبنين مع مشاركة الكل فى الاصل اذ لا مشاركة لهما فى الخيرية فى الآخرة (ثوابا) عائدة تعود الى صاحبها (وخير أملا) حيث ينال بها صاحبها فى الآخرة كل ما كان يؤمله فى الدنيا وأما ما مر من المال والبنين فليس لصاحبه أمل ينساله وتكرير خير للاشعار باختلاف حيثيتى الخيرية والمبالغة فيها (ويوم نسير الجبال) منصوب بمضمر أى اذكر حين نقلعها من أماكنها ونسيرها فى الجو على هيآتها كما ينبئ عنه قوله تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب أو نسير أجزاءها بعد أن نجعلها هباء منبثا والمراد بتذكيره تحذير المشركين مما فيه من الدواهى وقيل هو معطوف على ما قبله من قوله تعالى عند ربك أى الباقيات الصالحات خير عند الله ويوم القيامة وقرئ تسير على صيغة البناء للمفعول من التفعيل جريا على سنن الكبرياء وايذانا بالاستغناء عن الاسناد الى الفاعل ﴿ للاستراحة ﴾ لتعينه وقرئ نسير (وترى الارض) أى جميع جوانبها والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل احد ممن يتأتى منه الرؤية وقرئ ترى على صيغة البناء للمفعول (بارزة) أما بروز ما تحت الجبال فظاهر وأما ما عداه فكانت الجبال تحول بينه وبين الناظر قبل ذلك فالآن أضحى قاعا صفصفا لا ترى فيها

صيغة الامر لا لمعنى الطلب فى كتاب الله كثيرة ثم نقل عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال هذه الصيغة تهديد ووعيد وليست بتخيير (الفائدة الثالثة) انها تدل على انه تعالى لا ينتفع بايمان المؤمنين ولا يستضر بكفر الكافرين بل نفع الايمان يعود عليهم وضرر الكفر يعود عليهم كما قال تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها واعلم انه تعالى لما وصف الكفر والايمان والباطل والحق أتبعه بذكر الوعيد على الكفر والاعمال الباطلة وبذكر الوعد على الايمان والعمل الصالح أما الوعيد فقوله تعالى انا أعتدنا للظالمين نارا يقول اعتدنا لمن ظلم نفسه ووضع العبادة فى غير موضعها والانفة فى غير محلها فضد ما استحسن بهواه وانف عن قبول الحق لاجل أن الذين قبلوه فقراء ومساكين فهذا كله ظلم ووضع للشئ فى غير موضعه فأخبر تعالى انه أعد لهؤلاء الاقوام نارا وهى الجحيم ثم وصف تعالى تلك النار بصفتين (الصفة الاولى) قوله أحاط بهم سرادقها والسرادق هو الحجزة التى تكون حول الفسطاط فأثبت للنار شيئا شبيها بذلك يحيط بهم من جميع الجهات والمراد انه لا مخلص لهم منها ولا فرجة يتفرجون بالنظر الى ما وراءها من غير النار بل هى محيطة بهم من كل الجوانب وقال بعضهم المراد من هذا السرادق الدخان الذى وصفه الله فى قوله انطلقوا الى ظل ذى ثلاث شعب وقالوا هذه الاحاطة بهم انما تكون قبل دخولهم النار فيغشاهم هذا الدخان ويحيط بهم كالسرادق حول الفسطاط (والصفة الثانية) لهذه النار قوله وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل قيل فى حديث مرفوع انه دردى الزيت وعن ابن مسعود رضى الله عنه انه دخل بيت المال وأخرج نفاثة كانت فيه وأوقد عليها النار حتى تلألأت ثم قال هذا هو المهل قال أبو عبيدة والاخفش كل شئ أذبته من ذهب أو نحاس أو فضة فهو المهل وقيل انه الصديد والقيح وقيل انه ضرب من القطران ثم يحتمل أن تكون هذه الاستغاثة لانهم اذا طلبوا ماء للشرب فيعطون هذا المهل قال تعالى تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية ويحتمل أن يستغيثوا من حر جهنم فيطلبوا ماء يصبونه على أنفسهم للتبريد فيعطون هذا الماء قال تعالى حكاية عنهم أن أفيضوا علينا من الماء وقال فى آية أخرى سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار فاذا استغاثوا من حر جهنم صب عليهم القطران الذى يعم كل أبدانهم كالقميص وقوله تعالى يغاثوا بماء كالمهل وارد على سبيل الاستهزاء كقوله * تحية بينهم ضرب وجيع * ثم قال تعالى بئس الشراب أى ان الماء الذى هو كالمهل بئس الشراب لان المقصود بشرب الشراب تسكين الحرارة وهذا يبلغ فى احتراق الاجسام مبلغا عظيما قال تعالى وساءت مرتفقا قال القائلون ساءت النار منزلا ومجتمعا للرفقة لان أهل النار يجتمعون رفقاء كأهل الجنة قال تعالى فى صفة أهل الجنة وحسن أولئك رفيقا وأما رفقاء النار فهم الكفار والشياطين والمعنى بئس الرفقاء هؤلاء وبئس موضع الترافق النار كما أنه نعم الرفقاء أهل الجنة ونعم موضع الرفقاء الجنة وقال آخرون مرتفقا أى متكأ وسمى المرفق مرفقا لانه يتكأ عليه فالاتكاء انما يكون

عوجا ولا امتا (وحشرناهم) جمعناهم الى الموقف من كل اوب وايثار صيغة الماضي بعد نسير وترى للدلالة على تحقق الحشر المتفرع على البعث الذي ينكره المنكرون وعليه يدور أمر الجزاء وكذا الكلام فيما عطف عليه منفيا وموجبا وقيل هو للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليعاينوا تلك الاهوال كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك (فلم نغادر) أي لم نترك (منهم أحدا) يقال غادره وأغدره اذا تركه ومنه الغدر الذي هو ترك الوفاء والغدير الذي هو ماء يتركه السيل في الارض الغائرة وقرئ بالياء وبالفوقانية على اسناد الفعل الى ضمير الارض كما في قوله تعالى وألقت ما فيها وتخلت (وعرضوا على ربك) شبهت حالهم بحال جند عرضوا على السلطان ليأمر فيهم بما يأمر وفي الالتفات الى الغيبة وبناء الفعل للمفعول مع التعرض لعنوان الربوبية والاضافة الى ضميره عليه السلام من تربية المهابة والجري على سنن الكبرياء واظهار اللطف به عليه السلام ما لا يخفى (صفا) أي غير متفرقين ولا مختلطين فلا تعرض فيه لوحدة الصف وتعدده وقد ورد في الحديث الصحيح يجمع الله الاولين والآخرين في صعيد واحد صفوفا (لقد جئتمونا) على اضمار القول على وجه يكون حالا من ضمير عرضوا أي مقولا لهم أو وقلنا لهم وأما كونه عاملا في يوم نسير كما قيل فبعيد من جزالة التنزيل الجليل كيف لا ويلزم منه أن هذا القول هو المقصود بالاصالة دون سائر القوارع مع انه خاص التعلق بما قبله من العرض والحشر دون تسيير الجبال وبروز الارض (كما خلقناكم) نعت لمصدر مقدر أي مجيئا كائنا كمجيئكم عند خلقنا لكم (اول مرة) أو حال من ضمير جئتمونا أي كائنين كما خلقناكم اول مرة حفاة عراة عرلا أو ما معكم شئ مما تفخرون به من

للاستراحة والمرتفق موضع الاستراحة والله أعلم * قوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لانضيع أجر من أحسن عملا أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الانهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الارائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا) اعلم انه تعالى لما ذكر وعيد المبطلين أردفه بوعد المحقين وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يدل على أن العمل الصالح مغاير للايمان لان العطف يوجب المغايرة (المسئلة الثانية) قوله انا لانضيع أجر من أحسن عملا ظاهره يقتضي انه يستوجب المؤمن بحسن عمله على الله أجرا وعند أصحابنا ذلك الاستيجاب حصل بحكم الوعد وعند المعتزلة لذات الفعل وهو باطل لان نعم الله كثيرة وهي موجبة للشكر والعبودية فلا يصير الشكر والعبودية موجبين لثواب آخر لان أداء الواجب لا يوجب شيأ آخر (المسئلة الثالثة) نظير قوله ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات الخ قول الشاعر

ان الخليفة ان الله سربله * سربال ملك به ترجى الخواتيم

كرر ان تأكيدا للاعمال والجزاء عليها (المسئلة الرابعة) أولئك خبر ان وانا لانضيع اعتراض ولك أن تجعل انا لانضيع وأولئك خبرين معا ولك أن تجعل أولئك كلاما مستأنفا بيانا للاجر المبهم واعلم انه تعالى لما أثبت الاجر المبهم أردفه بالتفصيل من وجوه (اولها) صفة مكانهم وهو قوله أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الانهار والعدن في اللغة عبارة عن الاقامة فيجوز أن يكون المعنى أولئك لهم جنات اقامة كما يقال هذه دار اقامة ويجوز أن يكون العدن اسما لموضع معين من الجنة وهو وسطها وأشرف أماكنها وقد استقصينا فيه فيما تقدم وقوله جنات لفظ جمع فيمكن أن يكون المراد ما قاله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان ويمكن أن يكون المراد ان نصيب كل واحد من المكلفين جنة على حدة وذكر ان من صفات تلك الجنات ان الانهار تجري من تحتها وذلك لان أفضل المساكن في الدنيا البساتين التي تجري فيها الانهار (وثانيها) ان لباس اهل الدنيا اما لباس التحلي واما لباس التستر أما لباس التحلي فقال تعالى في صفته يحلون فيها من أساور من ذهب والمعنى انه يحليهم الله تعالى ذلك أو تحليهم الملائكة وقال بعضهم على كل واحد منهم ثلاثة أسورة سوار من ذهب لاجل هذه الآية وسوار من فضة لقوله تعالى وحلوا أساور من فضة وسوار من لؤلؤ لقوله تعالى ولؤلؤ ولباسهم فيها حرير وأما لباس التستر فقوله ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق والمراد من سندس الآخرة واستبرق الاخرة والاول هو الديباج الرقيق وهو الخز والثاني هو الديباج الصفيق وقيل أصله فارسي معرب وهو استبره أي غليظ فان قيل ما السبب في انه تعالى قال في الحلي يحلون على فعل ما لم يسم فاعله وقال في السندس والاستبرق ويلبسون فاضاف اللبس اليهم قلنا يحتمل أن يكون اللبس اشارة الى ما استوجبوه بعملهم وأن يكون الحلي اشارة الى

الاموال والانصار كقوله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم (بل زعمتم ان لن نجعل لكم موعدا) اضراب وانتقال من كلام الى كلام كلاهما التوبيخ والتقريع أى زعمتم فى الدنيا انه لن نجعل لكم أبدا وقتا تنجز فيه ما وعدناه من البعث وما يتبعه وأن مخففة من المثقلة فصل بحرف النفى بينها و بين خبرها لكونه جمله فعلية متصرفة غير دعاء والظرف اما مفعول ثان للجعل وهو بمعنى التصيير والاول هو موعدا أو حال من موعدا وهو بمعنى الخلق والابداع (ووضع الكتاب) عطف على عرضوا داخل تحت الامور الهائلة التى أريد تذكيرها بتذكير وقتها اورد فيه ما أورد فى أمثاله من صيغة الماضى دلالة على التقرر أيضا أى وضع صحائف الاعمال وايثار الافراد للاكتفاء بالجنس والمراد بوضعها اما وضعها فى أيدى أصحابها يمينا وشمالا واما فى الميزان (فترى المجرمين) قاطبة فيدخل فيهم الكفرة المنكرون للبعث دخولا اوليا (مشفقين) خائفين (مما فيه) من الجرائم والذنوب (ويقولون) عند وقوفهم على ما فى تضاعيفه نقيرا وقطميرا (ياويلتنا) منادين لهلكتهم التى هلكوها من بين الهلكات مستدعين لها ليهلكوا ولا يروا هول مالاقوه أى يا ويلتنا احضرى فهذا أوان حضورك (مال هذا الكتاب) أى أى شئ له وقوله تعالى (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها) أى حواها وضبطها جملة حالية محققة ﴿ الملائكة ﴾ لما فى الجملة الاستفهامية من التعجب أو استئنافية مبنية على سؤال نشأ من التعجب كأنه قيل ما شأنه حتى يتعجب منه فقيل لا يغادر سيئة صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها (ووجدوا ما عملوا) فى الدنيا من السيئات او جزاء ما عملوا (حاضرا) مسطورا عتيدا (ولا يظلم ربك احدا)

ما تفضل الله عليهم ابتداء من زوائد الكرم (وثالثها) كيفية جلوسهم فقال فى صفتها متكئين فيها على الارائك قالوا الارائك جمع أريكة وهى سرير فى حجلة أما السرير وحده فلا يسمى أريكة ولما وصف الله تعالى هذه الاقسام قال نعم الثواب وحسنت مرتفقا والمراد أن يكون هذا فى مقابلة ما تقدم ذكره من قوله وساءت مرتفقا * قوله تعالى (واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربى لاجدن خيرا منها منقلبا قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله ان ترن أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا) اعلم ان المقصود من هذا ان الكفار افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين فبين الله تعالى ان ذلك مما لا يوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنيا والغنى فقيرا أما الذى يجب حصول المفاخرة به فطاعة الله وعبادته وهى حاصلة لفقراء المؤمنين و بين ذلك بضرب هذا المثل المذكور فى الآية فقال واضرب لهم مثلا رجلين أى مثل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين كانا أخوين فى بنى اسرائيل أحدهما كافر اسمه براطوس والآخر مؤمن اسمه يهوذا وقيل هما المذكوران فى سورة الصافات فى قوله تعالى قال قائل منهم انى كان لى قرين ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فأخذ كل واحد منهما النصف فاشترى الكافر أرضا فقال المؤمن اللهم انى أشترى منك أرضا فى الجنة بألف فتصدق به ثم بنى أخوه دارا بألف فقال المؤمن اللهم انى أشترى منك دارا فى الجنة بألف فتصدق به ثم تزوج أخوه امرأة بألف فقال المؤمن اللهم انى جعلت ألفا صداقا للحور العين ثم اشترى اخوه خدما وضياعا بألف فقال المؤمن اللهم انى اشتريت منك الولدان بألف فتصدق به ثم أصابه حاجة فجلس لاخيه على طريقه فمر به فى حشمه فتعرض له فطرده ووبخه على التصدق بماله وقوله تعالى جعلنا لاحدهما جنتين فاعلم ان الله تعالى وصف تلك الجنة بصفات (الصفة الاولى) كونها جنة وسمى البستان جنة لاستتار ما يستتر فيها بظل الاشجار واصل الكلمة من الستر والتغطية (والصفة الثانية) قوله وحففناهما بنخل اى وجعلنا النخل محيطا بالجنتين نظيره قوله تعالى وترى

فيكتب ما لم يعمل من السيآت او يزيد فى عقابه المستحق فيكون اظهار العدلة القلم الازلى (واذ قلنا للملائكة) اى اذكر وقت قولنا لهم (اسجدوا لآدم) سجود تحية وتكريم وقد مر تفصيله (فسجدوا) جميعا امتثالا بالامر (الا ابليس) فانه لم يسجد بل أبى واستكبر وقوله تعالى (كان من الجن) كلام مستأنف سيق مساق التعليل لما يفيده استثناء اللعين من الساجدين كأنه قيل ما له لم يسجد فقيل كان أصله جنيا (ففسق عن أمر ربه) أى خرج عن طاعته كما ينبئ عنه الفاء أو صار فاسقا كافرا بسبب أمر الله تعالى اذ لولاه لما أبى والتعرض لوصف الربوبية المنافية للفسق لبيان كمال قبح ما فعله والمراد بتذكير قصته تشديد النكير على المتكبرين المفتخرين بانسابهم وأموالهم المستنكفين عن الانتظام فى سلك فقراء المؤمنين ببيان أن ذلك من صنيع ابليس وأنهم فى ذلك تابعون لتسويله كما ينبئ عنه قوله تعالى (افتتخذونه) الخ فان الهمزة للانكار والتعجيب والفاء للتعقيب أى أعقيب علمكم بصدور تلك القبائح منه تتخذونه (وذريته) أى أولاده وأتباعه جعلوا ذريته مجازا قال قتادة يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وقيل يدخل ذنبه فى دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين (أولياء من دونى) فتستبدلونهم بى فتطيعونهم بدل طاعتى (وهم) أى والحال أن ابليس وذريته (لكم عدو) أى أعداء كما فى قوله تعالى فانهم عدو لى الا رب العالمين وقوله تعالى هم العدو وانما فعل به ذلك تشبيها له بالمصادر نحو القبول والولوع وتقييد الاتخاذ بالجملة الحالية لتأكيد الانكار وتشديده فان مضمونها مانع من وقوع الاتخاذ ومناف له قطعا (بئس للظالمين) أى الواضعين الشئ فى غير موضعه (بدلا) من الله سبحانه ابليس وذريته وفى الالتفات

الملائكة حافين من حول العرش اى واقفين حول العرش محيطين به والحفاف جانب الشئ والاحفة جمع فمعنى قول القائل حف به القوم أى صاروا فى أحفته وهى جوانبه قال الشاعر

له لحظات فى حفا فى سريره * اذا كرها فيها عقاب ونائل

قال صاحب الكشاف حفوه اذا اطافوا به وحففته بهم أى جعلتهم حافين حوله وهو متعد الى مفعول واحد فتزيده الباء مفعولا ثانيا كقوله غشيته وغشيته به قال وهذه الصفة مما يؤثرها الدهاقين فى كرومهم وهى أن يجعلوها محفوفة بالاشجار المثمرة وهو أيضا حسن فى المنظر (الصفة الثالثة) وجعلنا بينهما زرعا والمقصود منه أمور (أحدها) أن تكون تلك الارض جامعة للاقوات والفواكه (وثانيها) أن تكون تلك الارض متسعة الاطراف متباعدة الاكناف ومع ذلك فانها لم يتوسطها ما يقطع بعضها عن بعض (وثالثها) ان مثل هذه الارض تأتى فى كل وقت بمنفعة أخرى وهى ثمرة أخرى فكانت منافعها دارة متواصلة (الصفة الرابعة) قوله تعالى كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيا كلا اسم مفرد معرفة يؤكد به مذكران معرفتان وكلتا اسم مفرد يؤكد به مؤنثان معرفتان واذا أضيفا الى المظهر كانا بالالف فى الاحوال الثلاثة كقولك جاءنى كلا أخويك ورأيت كلا أخويك ومررت بكلا أخويك وجاءنى كلتا اختيك ورأيت كلتا اختيك ومررت بكلتا اختيك واذا أضيفا الى المضمر كانا فى الرفع بالالف وفى الجر والنصب بالياء وبعضهم يقول مع المضمر بالالف فى الاحوال الثلاثة أيضا وقوله آتت اكلها حمل على اللفظ لان كلتا لفظه لفظ مفرد ولو قيل اتتا على المعنى لجاز وقوله ولم تظلم منه شيا اى لم تنقص والظلم النقصان يقول الرجل ظلمنى حقى اى نقصنى (الصفة الخامسة) قوله تعالى وفجرنا خلالهما نهرا أى كان النهر يجرى فى داخل تلك الجنتين وفى قراءة يعقوب وفجرنا مخففة وفى قراءة الباقين وفجرنا مشددة والتخفيف هو الاصل لانه نهر واحد والتشديد على المبالغة لان النهر يمتد فيكون كانهار وخلالهما اى وسطهما و بينهما ومنه قوله تعالى ولأوضعوا خلالكم ومنه يقال خللت القوم اى دخلت بين القوم (الصفة السادسة) قوله تعالى وكان له ثمر قرأ عاصم بفتح الثاء والميم فى الموضعين وهو جمع ثمار او ثمرة وقرأ ابو عمرو بضم الثاء وسكون الميم فى الحرفين والباقون بضم الثاء والميم فى الحرفين ذكر اهل اللغة انه بالضم انواع الاموال من الذهب والفضة وغيرهما و بالفتح حمل الشجرة قال قطرب كان أبو عمرو بن العلاء يقول الثمر المال والولد وانشد للحرث بن كلدة

ولقد رأيت معاشرا * قد ثمروا مالا وولدا

وقال النابغة

مهلا فداء لك الاقوام كلهم * ما ثمروه من مال ومن ولد

وقوله وكان له ثمر اى انواع من المال من ثمر ماله اذا كثر وعن مجاهد الذهب والفضة

الى الغيبة مع وضع الظالمين موضع الضمير من الايذان بكمال السخط والاشارة الى ان مافعلوه ظلم قبيح مالايخفى (ما أشهدتهم) استئناف مسوق لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور فى أنفسهم بعد بيان الصوارف عن ذلك من خباثة المحتد والفسق والعداوة أى ما أحضرت ابليس وذريته (خلق السموات والارض) حيث خلقتهما قبل خلقهم (ولا خلق أنفسهم) أى ولا اشهدت بعضهم خلق بعض كقوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم هذا ما أجمع عليه الجمهور حذارا من تفكيك الضميرين ومحافظة على ظاهر لفظ الانفس ولك أن ترجع الضمير الى الظالمين وتلتزم التفكيك بناء على عود المعنى اليه فان نفى اشهاد الشياطين خلق الذين يتولونهم هو الذى يدر عليه انكار اتخاذهم أولياء بناء على أن أدنى ما يصحح التولى حضور الولى خلق المتولى وحيث لا حضور لا مصحح للتولى قطعا وأما نفى اشهاد بعض الشياطين خلق بعض منهم فليس من مدارية الانكار المذكور فى شئ على أن اشهاد بعضهم خلق بعض ان كان مصححا لتولى الشاهد بناء على دلالته على كماله باعتبار أن له مدخلا فى خلق المشهود فى الجملة فهو مخل بتولى المشهود بناء على قصوره عمن شهد خلقه فلا يكون نفى الاشهاد المذكور متمحضا فى نفى الكمال المصحح للتولى عن الكل وهو المناط للانكار المذكور (وما كنت متخذ المضلين) أى متخذهم وانما وضع موضعه المظهر ذما لهم وتسجيلا عليهم بالاضلال وتأكيدا لما سبق من انكار اتخاذهم أولياء (عضدا) أعوانا فى شأن الخلق أو فى شأن من شؤنى حتى يتوهم شركتهم فى التولى بناء على الشركة فى بعض أحكام الربوبية وفيه تهكم بهم وايذان بكمال ركاكة عقولهم

اى كان مع الجنتين اشياء من النقود ولما ذكر الله تعالى هذه الصفات قال بعده فقال له صاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا والمعنى ان المسلم كان يحاوره بالوعظ والدعاء الى الايمان بالله وبالبعث والمحاورة مراجعة الكلام من قولهم حاور اذا رجع قال تعالى انه ظن أن لن يحور بلى فذكر تعالى أن عند هذه المحاورة قال الكافر أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا والنفر عشيرة الرجل وأصحابه الذين يقومون بالذب عنه وينفرون معه وحاصل الكلام ان الكافر ترفع على المؤمن بجاهه وماله ثم انه أراد أن يظهر لذلك المسلم كثرة ماله فأخبر الله تعالى عن هذه الحالة فقال ودخل جنته وأراه اياها على الحالة الموجبة للبهجة والسرور وأخبره بصنوف ما يملكه من المال فان قيل لم أفرد الجنة بعد التثنية قلنا المراد انه ليس له جنة ولا نصيب فى الجنة التى وعد المتقون المؤمنون وهذا الذى ملكه فى الدنيا هو جنته لا غير ولم يقصد الجنتين ولا واحدا منهما ثم قال تعالى وهو ظالم لنفسه وهو اعتراض وقع فى أثناء الكلام والمراد التنبيه على انه لما اعتز بتلك النعم وتوسل بها الى الكفران والجحود لقدرته على البعث كان واضعا تلك النعم فى غير موضعها ثم حكى تعالى عن الكافر انه قال وما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة فجمع بين هذين فالاول قطعه بأن تلك الاشياء لا تهلك ولا تبيد أبدا مع انها متغيرة متبدلة فان قيل هب انه شك فى القيامة فكيف قال ما أظن ان تبيد هذه ابدا مع ان الحس يدل على ان احوال الدنيا بأسرها ذاهبة باطلة غير باقية قلنا المراد انها لا تبيد مدة حياته ووجوده ثم قال ولئن رددت الى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا أى مرجعا وعاقبة وانتصابه على التمييز ونظيره قوله تعالى ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى وقوله لأوتين مالا وولدا والسبب فى وقوع هذه الشبهة انه تعالى لما اعطاه المال فى الدنيا ظن انه انما اعطاه ذلك لكونه مستحقا له والاستحقاق باق بعد الموت فوجب حصول العطاء والمقدمة الاولى كاذبة فان فتح باب الدنيا على الانسان يكون فى اكثر الامر للاستدراج والتملية قرأ نافع وابن كثير خيرا منهما والمقصود عود الكناية الى الجنتين والباقون منها والمقصود عود الكناية الى الجنة التى دخلها ثم ذكر تعالى جواب المؤمن فقال جل جلاله قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا وفيه بحثان (البحث الاول) ان الانسان الاول قال وما أظن الساعة قائمة وهذا الثانى كفره حيث قال أكفرت بالذى خلقك من تراب وهذا يدل على ان الشاك فى حصول البعث كافر (البحث الثانى) هذا الاستدلال يحتمل وجهين (الاول) يرجع الى الطريقة المذكورة فى القرآن وهو انه تعالى لما قدر على الابتداء وجب ان يقدر على الاعادة فقوله خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا اشارة الى خلق الانسان فى الابتداء (الوجه الثانى) انه لما خلقك هكذا فلم يخلقك عبثا وانما خلقك للعبودية واذا خلقك لهذا المعنى وجب ان يحصل للمطيع ثواب وللمذنب عقاب وتقريره ما ذكرناه فى سورة يس ويدل على هذا

﴿ الوجه ﴾

الوجه قوله ثم سواك رجلا اى هيأك هيئة تعقل وتصلح للتكليف فهل يجوز فى العقل مع هذه الحالة اهماله أمرك ثم قال المؤمن لكنا هو الله ربى وفيه بحثان (البحث الاول) قال أهل اللغة لكنا أصله لكن انا فحذفت الهمزة والقيت حركتها على نون لكن فاجتمعت النونان فادغمت نون لكن فى النون التى بعدها ومثله * وتقلينني لكن اياك لا اقلى * أى لكن انا لا أقليك وهو فى قوله هو الله ربى ضمير الشان وقوله الله ربى جملة من المبتدا والخبر واقعة فى معرض الخبر لقوله هو فان قيل قوله لكنا استدراك لماذا قلنا لقوله اكفرت كأنه قال لاخيه أكفرت بالله لكنى مؤمن موحد كما تقول زيد غائب لكن عمرو حاضر (والبحث الثانى) قرأ ابن عامر ويعقوب الحضرمى ونافع فى رواية لكنا هو الله ربى فى الوصل بالالف وفى قراءة الباقين لكن هو الله ربى بغير ألف والمعنى واحد ثم قال المؤمن ولا أشرك بربى أحدا ذكر القفال فيه وجوها (أحدها) انى لا أرى الفقر والغنى الامنه فاحمده اذا أعطى واصبر اذا ابتلى ولا اتكبر عندما ينعم على ولا أرى كثرة المال والاعوان من نفسى وذلك لان الكافر لما اعتز بكثرة المال والجاه فكأنه قد أثبت لله شريكا فى اعطاء العز والغنى (وثانيها) لعل ذلك الكافر مع كونه منكر البعث كان عابد صنم فبين هذا المؤمن فساد قوله باثبات الشركاء (وثالثها) ان هذا الكافر لما عجز الله عن البعث والحشر فقد جعله مساويا للخلق فى هذا العجز واذا أثبت المساواة فقد أثبت الشريك ثم قال المؤمن للكافر ولولا اذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة الا بالله فأمره أن يقول هذين الكلامين الاول قوله ماشاء الله وفيه وجهان (الاول) ان تكون ما شرطية ويكون الجزاء محذوفا والتقدير أى شئ شاء الله كان (والثانى) أن تكون ما موصولة مرفوعة المحل على انها خبر مبتدا محذوف وتقديره الامر ماشاء الله واحتج أصحابنا بهذا على ان كل ما أراده الله وقع وكل مالم يرده لم يقع وهذا يدل على انه ما أراد الله الايمان من الكافر وهو صريح فى ابطال قول المعتزلة أجاب الكعبى عنه بان تاويل قولهم ماشاء مما تولى فعله لا مما هو فعل العباد كما قالوا الامرد لامرد الله لم يرد ما امر به العباد ثم قال لا يمتنع ان يحصل فى سلطانه مالا يريده كما تحصل فيه ما نهى عنه واعلم ان الذى ذكر الكعبى ليس جوابا عن الاستدلال بل هو التزام المخالفة لظاهر النص وقياس الارادة على الامر باطل لان هذا النص دال على انه لا يوجد الا ما اراده الله وليس فى النصوص ما يدل على انه لا يدخل فى الوجود الا ما أمر به فظهر الفرق واجاب القفال عنه بان قال هلا اذا دخلت بستانك قلت ماشاء الله كقول الانسان هذه الاشياء الموجودة فى هذا البستان ماشاء الله ومثله قوله سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم وهم ثلاثة وقوله وقولوا حطة اى قولوا هذه حطة واذا كان كذلك كان المراد من هذا الشئ الموجود فى البستان شئ شاء الله تكوينه وعلى هذا التقدير لم يلزم ان يقال كل ماشاء الله وقع لان هذا الحكم غير عام فى الكل بل مختص بالاشياء المشاهدة فى البستان وهذا التأويل الذى ذكره القفال احسن بكثير مما ذكره

ومخافة ارائهم حيث لا يفهمون هذا الامر الجلى الذى لا يكاد يشتبه على البله والصبيان فيحتاجون الى التصريح به وايثار نفى الاشهاد على نفى شهودهم ونفى اتخاذهم اعوانا على نفى كونهم كذلك للاشعار بانهم مقهورون تحت قدرته تعالى تابعون لمشيئته وارادته فيهم وانهم بمعزل من استحقاق الشهود والمعونة من تلقاء انفسهم من غير احضار وا تخاذ وانما قصارى ما يتوهم فى شانهم ان يبلغوا ذلك المبلغ بامر الله عز وجل ولم يكد ذلك يكون وقيل الضمير للمشركين والمعنى ما اشهدتهم خلق ذلك وما اطلعتهم على اسرار التكوين وما خصصتهم بفضائل لا يحويها غيرهم حتى يكونوا قدوة للناس فيؤمنوا بايمانهم كما يزعمون فلا يلتفت الى قولهم طمعا فى نصرتهم للدين فانه لا ينبغى لى أن اعتضد بالمضلين ويعضده القراءة بفتح التاء خطابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى ما صح لك الاعتضاد بهم ووصفهم بالاضلال لتعليل نفى الاتخاذ وقرئ متخذ المضلين على الاصل وقرئ عضدا بضم العين وسكون الضاد وبفتح وسكون بالتخفيف وبضمتين بالاتباع وبفتحتين على انه جمع عاضد كرصد وراصد (ويوم يقول) أى الله عز وجل للكافرين توبيخا وتعجيزا وقرئ بنون العظمة (نادوا شركائى الذين زعمتم) انهم شفعاؤكم ليشفعوا لكم والمراد بهم كل ما عبد من دونه تعالى وقيل ابليس وذريته (فدعوهم) أى نادوهم للاغاثة وفيه بيان لكمال اعتنائهم باغاثتهم على طريقة الشفاعة اذ معلوم أن لا طريق الى المدافعة (فلم يستجيبوا لهم) فلم يغيثوهم اذ لا امكان لذلك وفى ايراده مع ظهوره تهكم بهم وايذان بأنهم فى الحماقة بحيث لا يفهمونه الا بالتصريح به (وجعلنا بينهم) بين الداعين والمدعوين (موبقا)

اسم مكان او مصدر من وبق وبوقا كوثب وثوبا ووبق يوبق وبقا كفرح فرحا اذا هلك اي مهلكا يشتركون فيه وهو النار او عداوة هي في الشدة نفس الهلاك كقول عمر رضي الله عنه لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا وقيل البين الوصل أي وجعلنا تواصلهم في الدنيا هلاكا في الآخرة ويجوز أن يكون المراد بالشركاء الملائكة وعزيرا وعيسى عليهم السلام ومريم وبالموبق البرزخ البعيد أي جعلنا بينهم أمدا بعيدا يهلك فيه الاشواط لفرط بعده لانهم في قعر جهنم وهم في أعلى الجنان (ورأى المجرمون النار) وضع المظهر مقام المضمر تصريحا باجرامهم وذما لهم بذلك (فظنوا) أي فايقنوا (أنهم مواقعوها) مخالطوها واقعون فيها أو ظنوا اذ رأوها من مكان بعيد أنهم مواقعوها الساعة (ولم يجدوا عنها مصرفا) انصرافا أو معدلا ينصرفون اليه (ولقد صرفنا) أي كررنا وأوردنا على وجوه كثيرة من النظم (في هذا القرآن للناس) لمصلحتهم ومنفعتهم (من كل مثل) من جملته ما مر من مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا أو من كل نوع من أنواع المعاني البديعة الداعية الى الايمان التي هي في الغرابة والحسن واستجلاب النفس كالمثل ليتلقوه بالقبول فلم يفعلوا (وكان الانسان) بحسب جبلته (أكثر شيء جدلا) أي أكثر الاشياء التي يتأتى منها الجدل وهو ههنا شدة الخصومة بالباطل والمماراة من الجدل الذي هو الفتل والمجادلة الملاواة لان كلا من المجادلين يلتوي على صاحبه وانتصابه على التمييز والمعنى ان جدله أكثر من جدل كل مجادل (وما منع الناس) أي أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم (أن يؤمنوا) من أن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا ما هم فيه من الاشراك (اذ جاءهم الهدى) أي القرآن العظيم

الجبائي والكعبي واقول انه على جوابه لا يدفع الاشكال عن المعتزلة لان عمارة تلك البستان ربما حصلت بالغصوب والظلم الشديد فلا يصح ايضا على قول المعتزلة ان يقال هذا واقع بمشيئة الله اللهم الا أن نقول المراد ان هذه الثمار حصلت بمشيئة الله تعالى الا أن هذا تخصيص لظاهر النص من غير دليل (والكلام الثاني) الذي أمر المؤمن الكافر بأن يقوله هو قوله لا قوة الا بالله أي لا قوة لاحد على أمر من الامور الا باعانة الله واقداره والمقصود انه قال المؤمن للكافر هلا قلت عند دخول جنتك الامر ما شاء الله والكائن ما قدره الله اعترافا بانها وكل خير فيها بمشيئة الله وفضله فان أمرها بيده ان شاء تركها وان شاء خربها وهلا قلت لا قوة الا بالله اقرارا بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها فهو بمعونة الله وتأييده لا يقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده الا بالله ثم ان المؤمن لما علم الكافر الايمان أجابه عن افتخاره بالمال والنفر فقال ان ترن أنا أقل منك مالا وولدا من قرأ اقل بالنصب فقد جعل أنا فصلا وأقل مفعولا ثانيا ومن قرأ اقل بالرفع جعل قوله أنا مبتدأ وقوله اقل خبر والجملة مفعولا ثانيا لترني واعلم ان ذكر الولد ههنا يدل على ان المراد بالنفر المذكور في قوله وأعز نفرا الاعوان والاولاد كأنه يقول له ان كنت تراني أقل مالا وولدا وأنصارا في الدنيا الفانية فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك اما في الدنيا واما في الآخرة ويرسل على جنتك حسبانا من السماء أي عذابا وتخريبا والحسبان مصدر كالغفران والبطلان بمعنى الحساب أي مقدارا قدره الله وحسبه وهو الحكم بتخريبها قال الزجاج عذاب حسبان وذلك الحسبان حسبان ما كسبت يداك وقيل حسبانا أي مرامي الواحد منها حسبانة وهي الصواعق فتصبح صعيدا زلقا أي فتصبح جنتك أرضا ملساء لا نبات فيها والصعيد وجه الارض زلقا أي تصير بحيث تزلق الرجل عليها زلقا ثم قال أو يصبح ماؤها غورا أي يغوص ويسفل في الارض فلن تستطيع له طلبا أي فيصير بحيث لا تقدر على رده الى موضعه قال أهل اللغة في قوله ماؤها غورا أي غائرا وهو نعت على لفظ المصدر كما يقال فلان زور وصوم للواحد والجمع والمذكر والمؤنث ويقال نساء نوح أي نوائح ثم أخبر الله تعالى انه حقق ما قدره هذا المؤمن فقال وأحيط بثمره وهو عبارة عن اهلاكه بالكلية وأصله من احاطة العدو لانه اذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه ثم استعمل في كل اهلاك ومنه قوله الا أن يحاط بكم ومثله قولهم أتى عليه اذا أهلكه من أتى عليهم العدو اذا جاءهم مستعليا عليهم ثم قال تعالى فأصبح يقلب كفيه وهو كناية عن الندم والحسرة فان من عظمت حسرته يصفق احدى يديه على الاخرى وقد يمسح احداهما على الاخرى وانما يفعل هذا ندامة على ما أنفق في الجنة التي وعظه أخوه فيها وعذله وهي خاوية على عروشها أي ساقطة على عروشها فيمكن أن يكون المراد بالعروش عروش الكرم فهذه العروش سقطت ثم سقطت الجدران عليها ويمكن أن يراد من العروش السقوف وهي سقطت على الجدران وحاصل الكلام ان هذه اللفظة كناية عن

الهادي الى الايمان بما فيه من فنون المعاني الموجبة له (ويستغفروا ربهم) عما فرط منهم من أنواع الذنوب التي من جملتها مجادلتهم للحق بالباطل (الا أن تأتيهم سنة الاولين) أي الا طلب اتيان سنتهم أو الا انتظار اتيانها أو الا تقديره فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه وسنتهم الاستئصال (أو يأتيهم العذاب) أي عذاب الآخرة (قبلا) أي أنواعا جمع قبيل أو عيانا كما في قراءة قبلا بكسر القاف وفتح الباء وقرئ بفتحتين أي مستقبلا يقال لقيته قبلا وقبلا وقبلا وانتصابه على الحالية من الضمير أو العذاب والمعنى ان ما تضمنه القرآن الكريم من الامور المستوجبة للايمان بحيث لو لم يكن مثل هذه الحكمة القوية لما امتنع الناس من الايمان وان كانوا مجبولين على الجدل المفرط (وما نرسل المرسلين) الى الامم (الا) حال كونهم (مبشرين) للمؤمنين بالثواب (ومنذرين) للكفرة والعصاة بالعقاب (ويجادل الذين كفروا بالباطل) باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات والسؤال عن قصة أصحاب الكهف ونحوها تعنتا (ليدحضوا به) أي بالجدال (الحق) أي ليزيلوه عن مقره ويبطلوه من ادحاض القدم وهو ازلاقها وهو قولهم للرسل عليهم الصلاة والسلام ما أنتم الا بشر مثلنا ولو شاء الله لأنزل ملائكة ونحوهما (واتخذوا آياتي) التي تخر لها صم الجبال (وما أنذروا) أي أنذروه من القوارع الناعية عليهم العقاب والعذاب أو انذارهم (هزوا) استهزاء وقرئ بسكون الزاي وهو ما يستهزأ به (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه) وهو القرآن العظيم (فأعرض عنها) ولم يتدبرها ولم يتذكر بها وهذا السبك وان كان مدلوله

بطلانها وهلاكها ثم قال تعالى ويقول يا ليتني لم أشرك بربي احدا والمعنى ان المؤمن لما قال لكنا هو الله ربي ولا اشرك بربي احدا فهذا الكافر تذكر كلامه وقال يا ليتني لم اشرك بربي احدا فان قيل هذا الكلام يوهم انه انما هلكت جنته بشؤم شركه وليس الامر كذلك لان أنواع البلاء أكثرها انما يقع للمؤمنين قال تعالى ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون وقال النبي صلى الله عليه وسلم خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل وأيضا فلما قال يا ليتني لم أشرك بربي أحدا فقد ندم على الشرك ورغب في التوحيد فوجب أن يصير مؤمنا فلم قال بعده ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا والجواب عن السؤال الاول انه لما عظمت حسرته لاجل أنه أنفق عمره في تحصيل الدنيا وكان معرضا في كل عمره عن طلب الدين فلما ضاعت الدنيا بالكلية بقي الحرمان عن الدنيا والدين عليه فلهذا السبب عظمت حسرته والجواب عن السؤال الثاني انه انما ندم على الشرك لاعتقاده انه لو كان موحدا غير مشرك لبقيت عليه جنته فهو انما رغب في التوحيد والرد عن الشرك لاجل طلب الدنيا فلهذا السبب ما صار توحيده مقبولا عند الله ثم قال تعالى ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وفيه بحثان (البحث الاول) قرأ حمزة والكسائي ولم يكن له فئة بالياء لان قوله فئة جمع فاذا تقدم على الكناية جاز التذكير ولانه رعاية للمعنى والباقون بالتاء المنقوطة باثنتين من فوق لان الكناية عائدة الى اللفظة وهي الفئة (البحث الثاني) المراد من قوله ينصرونه من دون الله هو انه ما حصلت له فئة يقدرون على نصرته من دون الله أي هو الله تعالى وحده القادر على نصرته ولا يقدر أحد غيره أن ينصره ثم قال تعالى هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلف القراء في ثلاث مواضع من هذه الآية (أولها) في لفظ الولاية ففي قراءة حمزة والكسائي بكسر الواو وفي قراءة الباقين بالفتح وحكي عن أبي عمرو بن العلاء انه قال كسر الواو لحن قال صاحب الكشاف الولاية بالفتح النصرة والتولي وبالكسر السلطان والملك (وثانيها) قرأ أبو عمرو والكسائي قوله الحق بالرفع والتقدير هنالك الولاية الحق لله وقرأ الباقون بالجر صفة لله (وثالثها) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع والكسائي وابن عامر عقبا بضم القاف وقرأ عاصم وحمزة عقبا بسكون القاف (المسئلة الثانية) هنالك الولاية لله فيه وجوه (الاول) انه تعالى لما ذكر من قصة الرجلين ما ذكر علمنا ان النصرة والعاقبة المحمودة كانت للمؤمن على الكافر وعرفنا ان الامر هكذا يكون في حق كل مؤمن وكافر فقال هنالك الولاية لله الحق أي في مثل ذلك الوقت وفي مثل ذلك المقام تكون الولاية لله يوالي أولياءه فيغلبهم على أعدائه ويفوض أمر الكفار اليهم فقوله هنالك اشارة الى الموضع والوقت الذي يريد الله اظهار كرامة أوليائه واذلال أعدائه (والوجه الثاني) في التأويل أن يكون المعنى في مثل تلك الحالة

الوضعى نفى الاظلمية من غير تعرض لنفى المساواة فى الظلم الا ان مفهومه العرفى انه أظلم من كل ظالم و بناء الاظلمية على ما فى حيز الصلة من الاعراض عن القرآن للاشعار بأن ظلم من يجادل فيه و يتخذه هزوا خارج عن الحد (ونسى ماقدمت يداه) أى عمله من الكفر والمعاصى التى من جملتها ماذكر من المجادلة بالباطل والاستهزاء بالحق ولم يتفكر فى عاقبتها (انا جعلنا على قلوبهم اكنة) أغطية كثيرة جمع كنان وهو تعليل لاعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم (أن يفقهوه) مفعول لما دل عليه الكلام أى منعناهم أن يقفوا على كنهه أو مفعول له أى كراهة أن يفقهوه (وفى آذانهم) اى جعلنا فيها (وقرا) ثقلا يمنعهم من استماعه (وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا أبدا) اى فلن يكون منهم اهتداء البتة مدة التكليف واذن جزاء للشرط وجواب عن سؤال النبى عليه الصلاة والسلام المدلول عليه بكمال عنايته باسلامهم كأنه قال عليه الصلاة والسلام مالى لا أدعوهم فقيل ان تدعهم الخ وجمع الضمير الراجع الى الموصول فى هذه المواضع الخمسة باعتبار معناه كما أن افراده فى المواطن الخمسة المتقدمة باعتبار لفظه (وربك) مبتدأ وقوله تعالى (الغفور) خبره وقوله تعالى (ذوالرحمة) اى الموصوف بها خبر بعد خبر وايراد المغفرة على صيغة المبالغة دون الرحمة للتنبيه على كثرة الذنوب ولان المغفرة ترك الاضرار وهو سبحانه قادر على ترك ما لا يتناهى من العذاب وأما الرحمة فهى فعل وايجاد ولا يدخل تحت الوجود الا ما يتناهى وتقديم الوصف الاول لان التخلية قبل التحلية اولانه أهم بحسب الحال اذ المقام مقام بيان

الشديدة يتولى الله و يلتجىء اليه كل محتاج مضطر يعنى ان قوله ياليتنى لم أشرك بربى أحدا كلمة الجىء اليها ذلك الكافر فقالها جزعا مما ساقه اليه شؤم كفره ولولا ذلك لم يقلها (والوجه الثالث) المعنى هنالك الولاية لله ينصر بها أولياءه المؤمنين على الكفرة و ينتقم لهم و يشفى صدورهم من أعدائهم يعنى انه تعالى نصر بما فعل بالكافر أخاه المؤمن وصدق قوله فى قوله فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك و يرسل عليها حسبانا من السماء ويعضده قوله هو خير ثوابا وخير عقبا أى لاوليائه (والوجه الرابع) ان قوله هنالك اشارة الى الدار الآخرة أى فى تلك الدار الآخرة الولاية لله كقوله لمن الملك اليوم لله ثم قال تعالى هو خير ثوابا أى فى الآخرة لمن آمن به والتجأ اليه وخير عقبا أى هو خير عاقبة لمن رجاه وعمل لوجهه وقد ذكرنا انه قرىء عقبا بضم القاف وسكونها وعقبى على فعلى وكلها بمعنى العاقبة * قوله تعالى (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فاصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا) اعلم أن المقصود اضرب مثلا آخر يدل على حقارة الدنيا وقلة بقائها والكلام متصل بما تقدم من قصة المشركين المتكبرين على فقراء المؤمنين فقال واضرب لهم أى لهؤلاء الذين افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين مثل الحياة الدنيا ثم ذكر المثل فقال كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض وحينئذ يربو ذلك النبات و يهتز و يحسن منظره كما قال تعالى فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ثم اذا انقطع ذلك مدة جف ذلك النبات وصار هشيما وهو النبت المتكسر المتفتت ومنه قوله هشمت أنفه وهشمت الثريد وأنشد

عمرو الذى هشم الثريد لاهله ❁ ورجال مكة مسنتون عجاف

واذا صار النبات كذلك طيرته الرياح وذهبت تلك الاجزاء الى سائر الجو[illegible] كان الله على كل شىء مقتدرا بتكوينه أولا وتنميته وسطا وابطاله آخرا وأحوال الدني[illegible]ا كذلك تظهر أولا فى غاية الحسن والنضارة ثم تتزايد قليلا قليلا ثم تأخذ فى الانحطاط الى ان تنتهى الى الهلاك والفناء ومثل هذا الشىء ليس للعاقل أن يبتهج به والباء فى قوله فاختلط به نبات الارض فيه وجوه (الاول) التقدير فاختلط بعض أنواع النبات بسائر الانواع بسبب هذا الماء وذلك لان عند نزول المطر يقوى النبات و يختلط بعضه بالبعض و يشتبك بعضه بالبعض و يصير فى المنظر فى غاية الحسن والزينة (والثانى) فاختلط ذلك الماء بالنبات واختلط ذلك النبات بالماء حتى روى ورف رفيفا وكان حق اللفظ على هذا التفسير فاختلط بنبات الارض ووجه صحته ان كل مختلطين موصوف كل واحد منهما بصفة صاحبه * قوله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) لما بين تعالى ان الدنيا سريعة الانقراض والانقضاء مشرفة على الزوال والبوار والفناء بين تعالى ان المال والبنين زينة الحياة الدنيا والمقصود ادخال هذا الجزء تحت ذلك الكل و سنعقد منه قياس الانتاج وهو ان المال والبنون زينة

تأخير العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها كما يعرب عنه قوله عزوجل (لو يؤاخذهم) اى لو يريد مؤاخذتهم (بما كسبوا) من المعاصى التى من جملتها ماحكى عنهم من مجادلتهم بالباطل واعراضهم عن آيات ربهم وعدم المبالاة بما اجترحوا من الموبقات (لعجل لهم العذاب) لاستيجاب أعمالهم لذلك وايثار المؤاخذة المنبئة عن شدة الاخذ بسرعة على التعذيب والعقوبة ونحوهما للايذان بأن النفى المستفاد من مقدم الشرطية متعلق بوصف السرعة كما ينبئ عنه تاليها وايثار صيغة الاستقبال وان كان المعنى على المضى لافادة أن انتفاء تعجيل العذاب لهم بسبب استمرار عدم ارادة المؤاخذة فان المضارع الواقع موقع الماضى يفيد استمرار انتفاء الفعل فيما مضى كما حقق فى موضعه (بل لهم موعد) اسم زمان هو يوم بدر أو يوم القيامة والجملة معطوفة على مقدر كأنه قيل لكنهم ليسوا بمؤاخذين بغتة (ان يجدوا) البتة (من دونه موئلا) منجى أو ملجأ يقال وأل أى نجا ووأل اليه اى لجأ اليه (وتلك القرى) اى قرى عاد وثمود وأضرابها وهى مبتدأ على تقدير المضاف أى وأهل تلك القرى خبره قوله تعالى (أهلكناهم) أو مفعول مضمر مفسر به (لما ظلموا) اى وقت ظلمهم كما فعلت قريش بما حكى عنهم من القبائح وترك المفعول اما لتعميم الظلم أو لتنزيله منزلة اللازم أى لما فعلوا الظلم ولما اما حرف كما قال ابن عصفور واما ظرف استعمل للتعليل وليس المراد به الوقت المعين الذى عملوا فيه الظلم بل زمان ممتد من ابتداء الظلم الى آخره (وجعلنا لمهلكهم) اى عينا لهلاكهم (موعدا) اى وقتا معينا لامحيد لهم عن ذلك وهذا استشهاد على مافعل بقريش من تعيين الموعد ليتنبهوا لذلك ولا يغتروا

الحياة الدنيا وكل ماكان من زينة الدنيا فهو سريع الانقضاء والانقراض ينتج انتاجا بديهيا ان المال والبنين سريعة الانقضاء والانقراض ومن المقتضى البديهى ان ماكان كذلك فانه يقبح بالعاقل أن يفتخر به أو يفرح بسببه أو يقيم له فى نظره وزنا فهذا برهان باهر على فساد قول أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الاموال والاولاد ثم ذكر مايدل على رجحان أولئك الفقراء على أولئك الكفار من الاغنياء فقال والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا وتقرير هذا الدليل [illegible]رات الدنيا منقرضة منقضية وخيرات الآخرة دائمة باقية والدائم الباقى خير من [illegible]ض المنقضى وهذا معلوم بالضرورة لاسيما اذا ثبت ان خيرات الدنيا خسيسة حقيرة وان خيرات الآخرة عالية رفيعة لان خيرات الدنيا حسية وخيرات الآخرة عقلية والعقلية أشرف من الحسية بكثير بالدلائل المذكورة فى تفسير قوله تعالى الله نور السموات والارض فى بيان ان الادراكات العقلية أفضل من الحسية واذا كان كذلك كان مجموع السعادات العقلية والحسية هى السعادات الاخروية فوجب أن تكون أفضل من السعادات الحسية الدنيوية والله أعلم والمفسرون ذكروا فى الباقيات الصالحات أقوالا قيل انها قولنا سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وللشيخ الغزالى رحمه الله فى تفسير هذه الكلمات وجه لطيف فقال روى ان من قال سبحان الله حصل له من الثواب عشر مرات فاذا قال والحمد لله صارت عشرين فاذا قال ولا اله الا الله صارت ثلاثين فاذا قال والله أكبر صارت أربعين قال وتحقيق القول فيه ان أعظم مراتب الثواب هو الاستغراق فى معرفة الله وفى محبته فاذا قال سبحان الله فقد عرف كونه سبحانه منزها عن كل مالاينبغى فحصول هذا العرفان سعادة عظيمة وبهجة كاملة فاذا قال مع ذلك والحمد لله فقد أقر بأن الحق سبحانه مع كونه منزها عن كل مالاينبغى فهو المبدأ لافادة كل ماينبغى ولافاضة كل خير وكمال فقد تضاعف درجات المعرفة فلاجرم قلنا تضاعف الثواب فاذا قال مع ذلك ولا اله الا الله فقد أقر بأن الذى تنزه عن كل مالاينبغى فهو المبدأ لكل ماينبغى وليس فى الوجود موجود هكذا الا الواحد فقد صارت مراتب المعرفة ثلاثة فلاجرم صارت درجات الثواب ثلاثة فاذا قال والله أكبر معناه انه أكبر وأعظم من أن يصل العقل الى كنه كبريائه وجلاله فقد صارت مراتب المعرفة أربعة لاجرم صارت درجات الثواب أربعة (والقول الثانى) ان الباقيات الصالحات هى الصلوات الخمس (والقول الثالث) انها الطيب من القول كما قال تعالى وهدوا الى الطيب من القول (والقول الرابع) ان كل عمل وقول دعاك الى الاشتغال بمعرفة الله وبمحبته وخدمته فهو الباقيات الصالحات وكل عمل وقول دعاك الى الاشتغال باحوال الخلق فهو خارج عن ذلك وذلك ان كل ماسوى الحق سبحانه فهو فان لذاته هالك لذاته فكان الاشتغال به والالتفات اليه عملا باطلا وسعيا ضائعا أما الحق لذاته فهو الباقى لايقبل الزوال لاجرم

بتأخر العذاب وقرئ بضم الميم وفتح اللام أى اهلاكهم و بفتحهما (واذقال موسى) نصب باضمار وصل اى اذكر وقت قوله عليه السلام (لفتاه) وهو يوشع بن نون ابن افرايم بن يوسف عليه السلام سمى فتاه اذكان يخدمه و يتبعه وقيل كان يتعلم منه و يسمى التلميذ فتى وان كان شيخا ولعل المراد بتذكيره عقيب بيان أن لكل أمة موعدا تذكير مافى القصة من موعد الملاقاة مع مافيها من سائر المنافع الجليلة (لاأبرح) من برح الناقص كزال يزال أى لاأزال أسير فحذف الخبر اعتمادا على قرينة الحال اذا كان ذلك عند التوجه الى السفر واتكالا على مايعقبه من قوله (حتى أبلغ) فان ذلك غاية تستدعى ذا غاية يؤدى اليها و يجوز أن يكون أصل الكلام لايبرح مسيرى حاصلا حتى أبلغ فيحذف المضاف و يقام المضاف اليه مقامه فينقلب الضمير البارز المجرور المحل مرفوعا مستكنا والفعل من صيغة الغيبة الى التكلم و يجوز أن يكون من برح التام كزال يزول أى لاأفارق ماأنا بصدده حتى أبلغ (مجمع البحرين) هو ملتقى بحر فارس والروم مما يلى المشرق وقيل طنجة وقيل هما الكر والرس بارمينية وقيل افريقية وقرئ بكسر الميم كمسرق (أو أمضى حقبا) أسير زمانا طويلا أتيقن معه فوات المطلب والحقب الدهر أو ثمانون سنة وكان منشأ هذه العزيمة أن موسى عليه السلام لما ظهر على مصر مع بنى اسرائيل واستقروا بها بعد هلاك القبط أمره الله عزوجل أن يذكر قومه النعمة فقام فيهم خطيبا بخطبة بديعة رقت بها القلوب وذرفت العيون فقالوا له من أعلم الناس قال أنا فعتب الله تعالى عليه اذ لم يرد العلم اليه عزوجل فأوحى اليه بل أعلم

كان الاشتغال بمعرفة الله و محبته وطاعته هو الذى يبقى بقاء لايزول ولايفنى ثم قال تعالى خير عند ربك ثوابا وخير أملا أى كل عمل أريد به وجه الله فلا شك ان ما يتعلق به من الثواب وما يتعلق به من الامل يكون خيرا وأفضل لان صاحب تلك الاعمال يؤمل فى الدنيا ثواب الله ونصيبه فى الآخرة * قوله تعالى (و يوم نسير الجبال وترى الارض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه و يقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولايظلم ربك أحدا) اعلم أنه تعالى لما بين خساسة الدنيا وشرف القيامة أردفه بأحوال القيامة فقال و يوم نسير الجبال والمقصود منه الرد على المشركين الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الاموال والاعوان واختلفوا فى الناصب لقوله و يوم نسير الجبال على وجوه (أحدها) أنه يكون التقدير واذكر لهم يوم نسير الجبال عطفا على قوله واضرب لهم مثل الحياة الدنيا (الثانى) انه يكون التقدير و يوم نسير الجبال حصل كذا وكذا يقال لهم لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة لان القول مضمر فى هذا الموضع فكان المعنى انه يقال لهم هذا فى هذا الموضع (الثالث) أن يكون التقدير خير أملا فى يوم نسير الجبال والاول أظهر اذا عرفت هذا فنقول انه ذكر فى الآية من أحوال القيامة أنواعا (النوع الاول) قوله و يوم نسير الجبال وفيه بحثان (البحث الاول) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر تسير على فعل مالم يسم فاعله الجبال بالرفع باسناد تسير اليه اعتبارا بقوله تعالى واذا الجبال سيرت والباقون نسير باسناد فعل التسيير الى نفسه الجبال بالنصب لكونه مفعول نسير والمعنى نحن نفعل بها ذلك اعتبارا بقوله وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا والمعنى واحد لانها اذا سيرت فسيرها ليس الا الله سبحانه ونقل صاحب الكشاف قراءة أخرى وهى تسير الجبال باسناد تسير الى الجبال (البحث الثانى) قوله و يوم نسير الجبال ليس فى لفظ الآية مايدل على انها الى أين تسير فيحتمل أن يقال انه تعالى يسيرها الى الموضع الذى يريده ولم يبين ذلك الموضع لخلقه والحق ان المراد انه تعالى يسيرها الى العدم لقوله تعالى و يسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا ولقوله و بست الجبال بسا فكانت هباء منبثا (والنوع الثانى) من أحوال القيامة قوله تعالى وترى الارض بارزة وفى تفسيره وجوه (أحدها) انه لم يبق على وجهها شئ من العمارات ولا شئ من الجبال ولا شئ من الاشجار فبقيت بارزة ظاهرة ليس عليها مايسترها وهو المراد من قوله لاترى فيها عوجا ولا أمتا (وثانيها) ان المراد من كونها بارزة انها أبرزت مافى بطنها وقذفت الموتى المقبورين فيها فهى بارزة الجوف والبطن فحذف ذكر الجوف ودليله قوله تعالى وألقت مافيها وتخلت وقوله وأخرجت الارض أثقالها وقوله و برزوا لله جميعا (وثالثها) ان وجوه الارض كانت مستورة بالجبال والبحار

فلما أفنى الله تعالى الجبال والبحار فقد برزت وجوه تلك البقاع بعد أن كانت مستورة (والنوع الثالث) من أحوال القيامة قوله وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا والمعنى جمعناهم للحساب فلم نغادر منهم أحدا أى لم نترك من الاولين والآخرين أحدا الا وجمعناهم لذلك اليوم ونظيره قوله تعالى قل ان الاولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم ومعنى لم نغادر لم نترك يقال غادره وأغدره اذا تركه ومنه الغدر ترك الوفاء ومنه الغدير لانه ما تركته السيول ومنه سميت ضفيرة المرأة بالغديرة لانها تجعلها خلفها ولما ذكر الله تعالى حشر الخلق ذكر كيفية عرضهم فقال وعرضوا على ربك صفا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى تفسير الصف وجوه (أحدها) انه تعرض الخلق كلهم على الله صفا واحدا ظاهرين بحيث لا يحجب بعضهم بعضا قال القفال ويشبه أن يكون الصف راجعا الى الظهور والبروز ومنه اشتق الصفصف للصحراء (وثانيها) لا يبعد أن يكون الخلق صفوفا يقف بعضهم وراء بعض مثل الصفوف المحيطة بالكعبة التى يكون بعضها خلف بعض وعلى هذا التقدير فالمراد من قوله صفا صفوفا كقوله يخرجكم طفلا أى أطفالا (وثالثها) صفا أى قياما كما قال تعالى فاذكروا اسم الله عليها صواف قالوا قياما (المسئلة الثانية) قالت المشبهة قوله تعالى وجاء ربك والملك صفا صفا يدل على انه تعالى يحضر فى ذلك المكان وتعرض عليه أهل القيامة صفا وكذلك قوله تعالى لقد جئتمونا يدل على انه تعالى يحضر فى ذلك المكان وأجيب عنه بأنه تعالى جعل وقوفهم فى الموضع الذى يسألهم فيه عن أعمالهم ويحاسبهم عليها عرضا عليه لا على انه تعالى يحضر فى مكان وعرضوا عليه ليراهم بعد أن لم يكن يراهم ثم قال تعالى لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة وليس المراد حصول المساواة من كل الوجوه لانهم خلقوا صغارا ولا عقل لهم ولا تكليف عليهم بل المراد انه قال للمشركين المنكرين للبعث المفتخرين فى الدنيا على فقراء المؤمنين بالاموال والانصار لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة عراة حفاة بغير أموال ولا أعوان ونظيره قوله تعالى لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وقال تعالى أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا الى قوله ويأتينا فردا ثم قال تعالى بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا أى كنتم مع التعزز على المؤمنين بالاموال والانصار وتنكرون البعث والقيامة فالآن قد تركتم الاموال والانصار فى الدنيا وشاهدتم ان البعث والقيامة حق ثم قال تعالى ووضع الكتاب والمراد انه يوضع فى هذا اليوم كتاب كل انسان فى يده اما فى اليمين أو فى الشمال والمراد الجنس وهو صحف الاعمال وترى المجرمين مشفقين مما فيه أى خائفين مما فى الكتاب من أعمالهم الخبيثة وخائفين من ظهور ذلك لاهل الموقف فيفتضحون وبالجملة يحصل لهم خوف العقاب من الحق وخوف الفضيحة عند الخلق ويقولون ياويلتنا ينادون هلكتهم التى هلكوها خاصة من بين الهلكات مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها وهى عبارة عن

منك عبدى عند مجمع البحرين وهو الخضر عليه السلام وكان فى أيام افريدون قبل موسى عليه السلام وكان على مقدمة ذى القرنين الاكبر وبقى الى أيام موسى وقيل ان موسى عليه السلام سأل ربه أى عبادك أحب اليك قال الذى يذكرنى ولا ينسانى قال فأى عبادك أقضى قال الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى قال فأى عبادك أعلم قال الذى يبتغى علم الناس الى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى فقال ان كان فى عبادك من هو أعلم منى فدلنى عليه قال أعلم منك الخضر قال أين أطلبه قال على ساحل البحر عند الصخرة قال يارب كيف لى به قال تأخذ حوتا فى مكتل فحيثما فقدته فهو هناك فأخذ حوتا فجعله فى مكتل فقال لفتاه اذا فقدت الحوت فأخبرنى فذهبا يمشيان (فلما بلغا) الفاء فصيحة كما أشير اليه (مجمع بينهما) اى مجمع البحرين وبينهما ظرف أضيف اليه اتساعا أو بمعنى الوصل (نسيا حوتهما) الذى جعل فقدانه أمارة وجدان المطلوب أى نسيا تفقد أمره وما يكون منه وقيل نسى يوشع أن يقدمه وموسى عليه السلام أن يأمره فيه بشئ روى أنهما لما بلغا مجمع البحرين وفيه الصخرة وعين الحياة التى لا يصيب ماؤها ميتا الا حيى وضعا رؤسهما على الصخرة فناما فلما أصاب الحوت برد الماء وروحه عاش وقد كانا أكلا منه وكان ذلك بعد ما استيقظ يوشع عليه السلام وقيل توضأ عليه السلام من تلك العين فانتضح الماء على الحوت فعاش فوقع فى الماء (فاتخذ سبيله فى البحر سربا) مسلكا كالسرب وهو النفق قيل أمسك الله عز وجل جرية الماء على الحوت فصار كالطاق عليه معجزة لموسى أو للخضر عليهما السلام وانتصاب سربا على أنه مفعول ثان

لاتخذ وفي البحر حال منه أو من السبيل ويجوز أن يتعلق باتخذ (فلما جاوزا) أي مجمع البحرين الذي جعل موعدا للملاقات قيل أدلجا وسارا الليلة والغد الى الظهر وألقي على موسى عليه السلام الجوع فعند ذلك (قال لفتاه آتنا غداءنا) اي ما نتغدى به وهو الحوت كما ينبئ عنه الجواب (لقد لقينا من سفرنا هذا) اشارة الى ما سارا بعد مجاوزة الموعد (نصبا) تعبا واعياء قيل لم ينصب ولم يجع قبل ذلك والجملة في محل التعليل للأمر بايتاء الغداء اما باعتبار أن النصب انما يعتري بسبب الضعف الناشئ عن الجوع واما باعتبار ما في أثناء التغدي من استراحة ما (قال) أي فتاه عليه السلام (أرأيت اذ أوينا الى الصخرة) اي التجأنا اليها وأقمنا عندها وذكر الاواء اليها مع أن المذكور فيما سبق مرتين بلوغ مجمع البحرين لزيادة تعيين محل الحادثة فان المجمع محل متسع لا يمكن تحقيق المراد المذكور بنسبة الحادثة اليه ولتمهيد العذر فان الاواء اليها والنوم عندها مما يؤدي الى النسيان عادة والرؤية مستعارة للمعرفة التامة والمشاهدة الكاملة ومراده بالاستفهام تعجيب موسى عليه السلام مما اعتراه هناك من النسيان مع كون ما شاهده من العظائم التي لا تكاد تنسى وقد جعل فقدانه علامة لوجدان المطلوب وهذا أسلوب معتاد فيما بين الناس يقول أحدهم لصاحبه اذا نابه خطب أرأيت ما نابني يريد بذلك تهويله وتعجيب صاحبه منه وأنه مما لا يعهد وقوعه لا استخباره عن ذلك كما قيل والمفعول محذوف اعتمادا على ما يدل عليه من قوله عز وجل (فاني نسيت الحوت) وفيه تأكيد للتعجيب وتربية لاستعظام المنسي وايقاع النسيان على اسم الحوت دون ضمير الغداء

الاحاطة بمعنى لا يترك شيئا من المعاصي سواء كانت صغيرة أو كبيرة الا وهي مذكورة في هذا الكتاب ونظيره قوله تعالى وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون وقوله انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون وادخال تاء التأنيث في الصغيرة والكبيرة على تقدير ان المراد الفعلة الصغيرة والكبيرة الا أحصاها الا ضبطها وحصرها قال بعض العلماء ضجوا من الصغائر قبل الكبائر لان تلك الصغائر هي التي جرتهم الى الكبائر فاحترزوا من الصغائر جدا ووجدوا ما عملوا حاضرا في الصحف عتيدا أو جزاء ما عملوا ولا يظلم ربك أحدا معناه انه لا يكتب عليه ما لم يفعل ولا يزيد في عقابه المستحق ولا يعذب أحدا بجرم غيره بقي في الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الجبائي هذه الآية تدل على فساد قول المجبرة في مسائل (أحدها) انه لو عذب عباده من غير فعل صدر منهم لكان ظالما (وثانيها) انه لا يعذب الاطفال بغير ذنب (وثالثها) بطلان قولهم أن لله يفعل ما يشاء ويعذب من غير جرم لان الخلق خلقه اذ لو كان كذلك لما كان لنفي الظلم عنه معنى لان بتقدير انه اذا فعل أي شئ أراد لم يكن ظلما منه لم يكن لقوله انه لا يظلم فائدة فيقال له (أما الجواب) عن الاولين فهو المعارضة بالعلم والداعي وأما الجواب عن هذا الثالث فهو انه تعالى قال ما كان لله أن يتخذ من ولد ولم يدل هذا على أن اتخاذ الولد صحيح عليه فكذا ههنا (المسئلة الثانية) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يحاسب الناس في القيامة على ثلاثة * يوسف * وأيوب * وسليمان * فيدعو بالمملوك ويقول له ما شغلك عني فيقول جعلتني عبد اللآدمي فلم تفرغني فيدعو يوسف عليه السلام ويقول كان هذا عبدا مثلك فلم يمنعه ذلك عن عبادتي فيؤمر به الى النار ثم يدعو بالمبتلى فاذا قال شغلتني بالبلاء دعا بأيوب عليه السلام فيقول قد ابتليت هذا بأشد من بلائك فلم يمنعه ذلك عن عبادتي فيؤمر به الى النار ثم يؤتى بالملك في الدنيا مع ما آتاه الله من الغنى والسعة فيقول ماذا عملت فيما آتيتك فيقول شغلني الملك عن ذلك فيدعى بسليمان عليه السلام فيقول هذا عبدي سليمان آتيته أكثر ما آتيتك فلم يشغله ذلك عن عبادتي اذهب فلا عذر لك ويؤمر به الى النار وعن معاذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لن يزول قدم العبد يوم القيامة حتى يسئل عن أربع عن جسده فيم أبلاه وعن عمره فيم أفناه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه كيف عمل به (المسئلة الثالثة) دلت الآية على اثبات صغائر وكبائر في الذنوب وهذا متفق عليه بين المسلمين الا انهم اختلفوا في تفسيره فقالت المعتزلة الكبيرة ما يزيد عقابه على ثواب فاعله والصغيرة ما ينقص عقابه عن ثواب فاعله واعلم أن هذا الحد انما يصح لو ثبت ان الفعل يوجب ثوابا وعقابا وذلك عندنا باطل لوجوه كثيرة ذكرناها في سورة البقرة في ابطال القول بالاحباط والتكفير بل الحق عندنا ان الطاعات محصورة في نوعين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله فكل ما كان أقوى في كونه جهلا بالله كان أعظم في كونه كبيرة وكل ما كان أقوى في كونه اضرارا بالغير كان اكثر في كونه

﴿ ذنبا ﴾

مع أنه المأمور بآتيانه للتنبيه من أول الامر على أنه ليس من قبيل نسيان المسافر زاده فى المنزل وان ما شاهده ليس من قبيل الاحوال المتعلقة بالغداء من حيث هو غداء وطعام بل من حيث هو حوت كسائر الحيتان مع زيادة أى نسيت أن أذكر لك أمره وما شاهدت منه من الامور العجيبة (وما أنسانيه الا الشيطان) بوسوسته الشاغلة عن ذلك وقوله تعالى (أن أذكره) بدل اشتمال من الضمير أى ما أنسانى أن أذكره لك وفى تعليق الانساء بضمير الحوت أولا وبذكره له ثانيا على طريق الابدال المنبئ عن تنحية المبدل منه اشارة الى أن متعلق النسيان أيضا ليس نفس الحوت بل ذكر أمره وقرئ أن أذكره وايثار أن أذكره على المصدر للمبالغة فان مدلوله نفس الحدث عند وقوعه والحال وان كانت غريبة لا يعهد نسيانها لكنه لما تعود بمشاهدة أمثالها عند موسى عليه السلام وألفها قل اهتمامه بالمحافظة عليها (واتخذ سبيله فى البحر عجبا) بيان لطرف من أمر الحوت منبئ عن طرف آخر منه وما بينهما اعتراض قدم عليه للاعتناء بالاعتذار كأنه قيل حيى واضطرب ووقع فى البحر واتخذ سبيله فيه سبيلا عجبا فعجبا ثانى مفعولى اتخذ والظرف حال من أولهما أو ثانيهما أو هو المفعول الثانى وعجبا صفة مصدر محذوف أى اتخاذا عجبا وهو كون مسلكه كالطاق والسرب أو مصدر فعل محذوف أى أتعجب منه عجبا وقد قيل انه من كلام موسى عليه الصلاة والسلام وليس بذاك (قال) أى موسى عليه الصلاة والسلام (ذلك) الذى ذكرت من أمر الحوت (ما كنا نبغ) وقرئ باثبات الياء والضمير العائد الى الموصول محذوف أصله نبغيه أى نطلبه لكونه أمارة للفوز بالمرام (فارتدا) أى رجعا (على آثارهما) طريقهما الذى جاآ منه (قصصا)

ذنبا ومعصية فهذا هو الضبط * قوله تعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن المقصود من ذكر الآيات المتقدمة الرد على القوم الذين افتخروا بأموالهم وأعوانهم على فقراء المسلمين وهذه الآية المقصود من ذكرها عين هذا المعنى وذلك لان ابليس انما تكبر على آدم لانه افتخر بأصله ونسبه وقال خلقتنى من نار وخلقته من طين فأنا أشرف منه فى الاصل والنسب فكيف أسجد وكيف أتواضع له وهؤلاء المشركون عاملوا فقراء المسلمين بعين هذه المعاملة فقالوا كيف نجلس مع هؤلاء الفقراء مع انا من أنساب شريفة وهم من أنساب نازلة ونحن أغنياء وهم فقراء فالله تعالى ذكر هذه القصة ههنا تنبيها على أن هذه الطريقة هى بعينها طريقة ابليس ثم انه تعالى حذر عنها وعن الاقتداء بها فى قوله أفتتخذونه وذريته أولياء فهذا هو وجه النظم وهو حسن معتبر وذكر القاضى وجها آخر فقال انه تعالى لما ذكر من قبل أمر القيامة وما يجرى عند الحشر ووضع الكتاب وكان تعالى يريد أن يذكر ههنا انه ينادى المشركين ويقول لهم أين شركائى الذين زعمتم وكان قد علم تعالى ان ابليس هو الذى يحمل الانسان على اثبات هؤلاء الشركاء لا جرم قدم قصته فى هذه الآية اتماما لذلك الغرض ثم قال القاضى وهذه القصة وان كان تعالى قد كررها فى سور كثيرة الا ان فى كل موضع منها فائدة مجددة (المسئلة الثانية) انه تعالى بين فى هذه الآية ان ابليس كان من الجن وللناس فى هذه المسئلة ثلاثة أقوال (الاول) انه من الملائكة وكونه من الملائكة لا ينافى كونه من الجن ولهم فيه وجوه (الاول) ان قبيلة من الملائكة يسمونه بذلك لقوله تعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا وجعلوا لله شركاء الجن (والثانى) ان الجن سموا جنا للاستتار والملائكة كذلك فهم داخلون فى الجن (الثالث) انه كان خازن الجنة ونسب الى الجنة كقولهم كوفى وبصرى وعن سعيد بن جبير انه كان من الجنانين الذين يعملون فى الجنان حى من الملائكة يصوغون حلية أهل الجنة مذ خلقوا رواه القاضى فى تفسيره عن هشام عن سعيد بن جبير (والقول الثانى) انه من الجن الذين هم الشياطين والذين خلقوا من نار وهو أبوهم (والقول الثالث) قول من قال كان من الملائكة فمسخ وغير وهذه المسئلة قد أحكمناها فى سورة البقرة وأصل ما يدل على أنه ليس من الملائكة أنه تعالى أثبت له ذرية ونسلا فى هذه الآية وهو قوله أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى والملائكة ليس لهم ذرية ولا نسل فوجب أن لا يكون ابليس من الملائكة بقى أن يقال ان الله تعالى أمر الملائكة بالسجود فلو لم يكن ابليس من الملائكة فكيف تناوله ذلك

نقصان فقصصا اى يتبعان آثارهما اتباعا أو مقتصين حتى أتيا الصخرة (فوجدا عبدا من عبدنا) التنكير للتفخيم والاضافة للتشريف والجمهور على أنه الخضر واسمه بليا بن ملكان وقيل اليسع وقيل الياس عليهم الصلاة والسلام (آتيناه رحمة من عندنا) هي الوحي والنبوة كما يشعر به تنكير الرحمة واختصاصها بجناب الكبرياء (وعلمناه من لدنا علما) خاصا لا يكتنه كنهه ولا يقادر قدره وهو علم الغيوب (قال له موسى) استئناف مبني على سؤال نشأ من السباق كأنه قيل فاذا جرى بينهما من الكلام فقيل قال له موسى (هل أتبعك على أن تعلمن) استئذانا منه في اتباعه له على وجه التعلم (مما علمت رشدا) اى علما ذا رشد أرشد به في ديني والرشد اصابة الخير وقرئ بفتحتين وهو مفعول تعلمن ومفعول علمت محذوف وكلاهما منقول من علم المتعدى الى مفعول واحد ويجوز كونه علة لاتبعك أو مصدرا باضمار فعله ولا ينافي نبوته وكونه صاحب شريعة أن يتعلم من نبي آخر ما لا تعلق له بأحكام شريعته من أسرار العلوم الخفية ولقد راعى في سوق الكلام غاية التواضع معه عليهما السلام (قال) اى الخضر (انك لن تستطيع معي صبرا) نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد كأنه مما لا يصح ولا يستقيم وعلله بقوله (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) ايذانا بأنه يتولى أمورا خفية المدار منكرة الظواهر والرجل الصالح لاسيما صاحب الشريعة لا يتمالك أن يشمئز عند مشاهدتها وفي صحيح البخاري قال الخضر ياموسى انى على علم من علم الله تعالى علمنيه لا تعلمه وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه وخبرا تمييز أي لم يحط به خبرك (قال) موسى عليه الصلاة والسلام (ستجدني

الامر وأيضا ولم يكن من الملائكة فكيف يصح استثناؤه منهم وقد أجبنا عن كل ذلك بالاستقصاء ثم قال تعالى ففسق عن أمر ربه وفي ظاهره اشكال لان الفاسق لا يفسق عن أمر ربه فلهذا السبب ذكروا فيه وجوها (الاول) قال الفراء ففسق عن أمر ربه أي خرج عن طاعته والعرب تقول فسقت الرطبة من قشرها أي خرجت وسميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها من البابين وقال رؤبة

يهوين في نجد وغور غائرا * فواسقا عن قصدها جوائرا

(الثاني) حكى الزجاج عن الخليل وسيبويه انه قال لما أمر فعصى كان سبب فسقه هو ذلك الامر والمعنى انه لولا ذلك الامر السابق لما حصل الفسق فلاجل هذا المعنى حسن أن يقال فسق عن أمر ربه (الثالث) قال قطرب فسق عن أمر ربه رده كقوله واسئل القرية واسئل العير قال تعالى أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المقصود من هذا الكلام ان ابليس تكبر على آدم وترفع عليه لما ادعى ان اصله أشرف من أصل آدم فوجب أن يكون هو أشرف من آدم فكأنه تعالى قال لاولئك الكافرين الذين افتخروا على فقراء المسلمين بشرف نسبهم وعلو منصبهم انكم في هذا القول اقتديتم بابليس في تكبره على آدم فلما علمتم ان ابليس عدو لكم فكيف تقتدون به في هذه الطريقة المذمومة هذا هو تقرير الكلام فان قيل ان هذا الكلام لا يتم الا باثبات مقدمات (فأولها) اثبات ابليس (وثانيها) اثبات ذرية ابليس (وثالثها) اثبات عداوة بين ابليس وذريته وبين أولاد آدم (ورابعها) ان هذا القول الذي قاله أولئك الكفار اقتدوا فيه بابليس وكل هذه المقدمات الاربعة لا سبيل الى اثباتها الا بقول النبي صلى الله عليه وسلم فالجاهل بصدق النبي جاهل بها اذا عرفت هذا فنقول المخاطبون بهذه الآيات هل عرفوا كون محمد نبيا صادقا أو ما عرفوا ذلك فان عرفوا كونه نبيا صادقا قبلوا قوله في كل ما يقوله فكلما نهاهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم عن قول انتهوا عنه وحينئذ فلا حاجة الى قصة ابليس وان لم يعرفوا كونه نبيا جهلوا كل هذه المقدمات الاربعة ولم يعرفوا صحتها فحينئذ لا يكون في ايرادها عليهم فائدة والجواب ان المشركين كانوا قد سمعوا قصة ابليس وآدم من أهل الكتاب واعتقدوا صحتها وعلموا ان ابليس انما تكبر على آدم بسبب نسبه فاذا أوردنا عليهم هذه القصة كان ذلك زاجرا لهم عما أظهروه مع فقراء المسلمين من التكبر والترفع (المسئلة الثانية) قال الجبائي في هذه الآية دلالة على أنه تعالى لا يريد الكفر ولا يخلقه في العبد اذ لو أراده وخلقه فيه ثم عاقبه عليه لكان ضرر ابليس أقل من ضرر الله عليهم فكيف يوبخهم بقوله بئس للظالمين بدلا تعالى الله عنه علوا كبيرا بل على هذا المذهب لا ضرر البتة من ابليس بل الضرر كله من الله والجواب المعارضة بالداعي والعلم (المسئلة الثالثة) انما قال للكفار المفتخرين بأنسابهم وأموالهم على فقراء المسلمين أفتتخذون ابليس وذريته أولياء من دون الله لان

الداعي لهم الى ترك دين محمد صلى الله عليه وسلم هو النخوة واظهار العجب فههنا يدل على ان كل من أقدم على عمل أو قول بناء على هذا الداعي فهو متبع لابليس حتى ان من كان غرضه في اظهار العلم والمناظرة التفاخر والتكبر والترفع فهو مقتد بابليس وهو مقام صعب غرق فيه أكثر الخلق فنسأل الله الخلاص منه ثم قال تعالى بئس للظالمين بدلا أي بئس البدل من الله ابليس لمن استبدله به فأطاعه بدل طاعته ثم قال ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اختلفوا في أن الضمير في قوله ما أشهدتهم الى من يعود فيه وجوه (أحدها) وهو الذي ذهب اليه الاكثرون ان المعنى ما أشهدت الذين اتخذتموهم أولياء خلق السموات والارض ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله اقتلوا أنفسكم يعني ما أشهدتهم لاعتضد بهم والدليل عليه قوله وما كنت متخذ المضلين عضدا أي وما كنت متخذهم فوضع الظاهر موضع المضمر بيانا لاضلالهم وقوله عضدا أي أعوانا (وثانيها) وهو أقرب عندي ان الضمير عائد الى الكفار الذين قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم ان لم تطرد من مجلسك هؤلاء الفقراء لم نؤمن بك فكأنه تعالى قال ان هؤلاء الذين أتوا بهذا الاقتراح الفاسد والتعنت الباطل ما كانوا شركائي في تدبير العالم بدليل قوله تعالى ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم ولا اعتضدت بهم في تدبير الدنيا والآخرة بل هم قوم كسائر الخلق فلم أقدموا على هذا الاقتراح الفاسد ونظيره ان من اقترح عليك اقتراحات عظيمة فانك تقول له لست بسلطان البلد ولا وزير المملكة حتى نقبل منك هذه الاقتراحات الهائلة فلم تقدم عليها والذي يؤكد هذا ان الضمير يجب عوده الى أقرب المذكورات وفي هذه الآية المذكورة الاقرب هو ذكر أولئك الكفار وهو قوله تعالى بئس للظالمين بدلا والمراد بالظالمين أولئك الكفار (وثالثها) أن يكون المراد من قوله ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم كون هؤلاء الكفار جاهلين بما جرى به القلم في الازل من أحوال السعادة والشقاوة فكأنه قيل لهم السعيد من حكم الله بسعادته في الازل والشقي من حكم الله بشقاوته في الازل وأنتم غافلون عن أحوال الازل كأنه تعالى قال ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم واذا جهلتم هذه الحالة فكيف يمكنكم أن تحكموا لانفسكم بالرفعة والعلو والكمال ولغيركم بالدناءة والذل بل ربما صار الامر في الدنيا والآخرة على العكس مما حكمتم به (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف قرئ وما كنت بالفتح والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى وما صح لك الاعتضاد بهم وما ينبغي لك أن تعتز بهم وقرأ علي رضوان الله عليه متخذا المضلين بالتنوين على الاصل وقرأ الحسن عضدا بسكون الضاد ونقل ضمتها الى العين وقرئ عضدا بالفتح وسكون الضاد وعضدا بضمتين وعضدا بفتحتين جمع عاضد كخادم وخدم وراصد ورصد من عضده اذا قواه وأعانه واعلم انه تعالى لما قرر أن القول الذي قالوه في الافتخار على الفقراء اقتداء بابليس عاد

ان شاء الله صابرا) معك غير معترض عليك وتوسيط الاستثناء بين مفعولي الوجدان لكمال الاعتناء بالتيمن ولئلا يتوهم تعلقه بالصبر (ولا أعصي لك أمرا) عطف على صابرا أي ستجدني صابرا وغير عاص وفي وعد هذا الوجدان من المبالغة ما ليس في الوعد بنفس الصبر وترك العصيان أو على ستجدني فلا محل له من الاعراب والاول هو الاولى لما عرفته ولظهور تعلقه بالاستثناء حينئذ وفيه دليل على أن أفعال العباد بمشيئة الله سبحانه وتعالى (قال فان اتبعتني) أذن له في الاتباع بعد اللتيا والتي والفاء لتفريع الشرطية على ما مر من التزام موسى عليه الصلاة والسلام للصبر والطاعة (فلا تسألني عن شيء) تشاهده من أفعالي أي لا تفاتحني بالسؤال عن حكمته فضلا عن المناقشة والاعتراض (حتى أحدث لك منه ذكرا) اى حتى أبتدئ ببيانه وفيه ايذان بأن كل ما صدر عنه فله حكمة وغاية حميدة البتة وهذا من أدب المتعلم مع العالم والتابع مع المتبوع وقرئ فلا تسألني بالنون المثقلة (فانطلقا) اى موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام على الساحل يطلبان السفينة وأما يوشع فقد صرفه موسى عليه الصلاة والسلام الى بني اسرائيل قيل انهما مرا بسفينة فكلما أهلها فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول (حتى اذا ركبا في السفينة) استعمال الركوب في أمثال هذه المواقع بكلمة في مع تجريده عنها في مثل قوله عز وجل لتركبوها وزينة على ما يقتضيه تعديته بنفسه لما أشير اليه في قوله تعالى وقال اركبوا فيها لا لما قيل من أن في ركوبها معنى الدخول (خرقها) قيل خرقها بعدما لججوا حيث أخذ فأسا فقلع من ألواحها لوحين مما يلي الماء فعند ذلك

(قال) موسى عليه السلام (أخرقتها لتغرق أهلها) من الاغراق وقرئ بالتشديد من التغريق وليغرق أهلها من الثلاثي (لقد جئت) أتيت وفعلت (شيئا امرا) أي عظيما هائلا من أمر الامر اذا عظم قيل الاصل امر افخفف (قال) أي الخضر عليه السلام (ألم أقل انك ان تستطيع معي صبرا) تذكير لما قاله مناسبة له ولقوله من قبل وتحقيق لمضمونه متضمن للانكار على عدم الوفاء بوعده (قال لا تؤاخذني بما نسيت) بنسياني أو بالذي ﴿٧٣٠﴾ نسيته أو بشيء نسيته وهو وصيته بأن لا يسأله من حكمة ما صدر عنه من الافعال الخفية الاسباب قبل بيانه أراد أنه نسي وصيته ولا مؤاخذة على الناسي كما ورد في صحيح البخاري من أن الاول كان من موسى نسيا أو اخرج الكلام في معرض النهي عن المؤاخذة بالنسيان يوهمه انه قد نسي ليبسط عذره في الانكار وهو من معاريض الكلام التي يتقي بها الكذب مع التوصل الى الغرض أو أراد بالنسيان الترك أي لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مره (ولا ترهقني) أي لا تغشني ولا تحملني (من أمري) وهو اتباعه اياه (عسرا) أي لا تعسر على متابعتك ويسرها على بالاغضاء وترك المناقشة وقرئ عسرا بضمتين (فانطلقا) الفاء فصيحة أي فقبل عذره فخرجا من السفينة فانطلقا (حتى اذا لقيا غلاما فقتله) قيل كان الغلام يلعب مع الغلمان فقتل عنقه وقيل ضرب برأسه الحائط وقيل أضجعه فذبحه بالسكين (قال) أي موسى عليه الصلاة والسلام (أقتلت نفسا ﴿ بكثرة ﴾ زكية) طاهرة من الذنوب وقرئ زاكية (بغير نفس) أي بغير قتل نفس محرمة وتخصيص نفي هذا المبيح بالذكر من بين سائر المبيحات من الكفر بعد الايمان والزنا بعد الاحصان لانه الاقرب الى الوقوع

بعده الى التهويل باحوال يوم القيامة فقال ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم وفيه أبحاث (البحث الاول) قرأ حمزة نقول بالنون عطفا على قوله واذ قلنا للملائكة اسجدوا [illegible] وأولياء من دوني وما أشهدتهم خلق السموات والارض وما كنت متخذ المضلين عضدا والباقون قرؤا بالياء (البحث الثاني) واذكر يوم نقول عطفا على قوله واذ قلنا للملائكة اسجدوا (البحث الثالث) المعنى واذكر لهم يا محمد أحوالهم وأحوال آلهتهم يوم القيامة اذ يقول الله لهم نادوا شركائي أي ادعوا من زعمتم انهم شركائي حتى أهلتموهم للعبادة ادعوهم يشفعوا لكم وينصروكم والمراد بالشركاء الجن فدعوهم ولم يذكر تعالى في هذه الآية انهم كيف دعوا الشركاء الا انه تعالى بين ذلك في آية أخرى وهو انهم قالوا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا ثم قال تعالى فلم يستجيبوا لهم أي لم يجيبوهم الى ما دعوهم اليه ولم يدفعوا عنهم ضررا وما أوصلوا اليهم نفعا ثم قال تعالى وجعلنا بينهم موبقا وفيه وجوه (الاول) قال صاحب الكشاف الموبق المهلك من وبق يبق وبوقا ووبقا اذا هلك وأوبقه غيره فيجوز أن يكون مصدرا كالمورد والموعد وتقرير هذا الوجه أن يقال ان هؤلاء المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة كالملائكة وعيسى دعوا هؤلاء فلم يستجيبوا لهم ثم حيل بينهم فأدخل الله تعالى هؤلاء المشركين جهنم وأدخل عيسى الجنة وصار الملائكة الى حيث أراد الله من دار الكرامة وحصل بين أولئك الكفار وبين الملائكة وعيسى عليه السلام هذا الموبق وهو ذلك الوادي في جهنم (الوجه الثاني) قال الحسن موبقا أي عداوة والمعنى عدواة هي في شدتها هلاك ومنه قوله لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا (الوجه الثالث) قال الفراء البين المواصلة أي جعلنا مواصلتهم في الدنيا هلاكا في يوم القيامة (الوجه الرابع) الموبق البرزخ البعيد أي جعلنا بين هؤلاء الكفار وبين الملائكة وعيسى برزخا بعيدا يهلك فيه السارى لفرط بعده لانهم في قعر جهنم وهم في أعلى الجنان ثم قال تعالى ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها وفي هذا الظن قولان (الاول) ان الظن ههنا بمعنى العلم واليقين (والثاني) وهو الاقرب. ان المعنى ان هؤلاء الكفار يرون النار من مكان بعيد فيظنون أنهم مواقعوها في تلك الساعة من غير تأخير ومهلة لشدة ما يسمعون من تغيظها وزفيرها كما قال اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وقوله مواقعوها أي مخالطوها فان مخالطة الشيء لغيره اذا كانت قوية تامة يقال لها مواقعة ثم قال تعالى ولم يجدوا عنها مصرفا أي لم يجدوا عن النار معدلا الى غيرها لان الملائكة تسوقهم اليها * قوله تعالى (ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان أكثر شيء جدلا وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم الا أن تأتيهم سنة الاولين أو يأتيهم العذاب قبلا وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا) اعلم ان أولئك الكفرة لما افتخروا على فقراء المسلمين

نظرا الى حال الغلام ولعل تغيير النظم الكريم بجعل ماصدر عن الخضر عليه الصلاة والسلام ههنا من جملة الشرط وابراز ماصدر عن موسى عليه الصلاة والسلام فى معرض الجزاء المقصود افادته مع أن الحقيق بذلك انما هو ماصدر عن الخضر عليه الصلاة والسلام من الخوارق البديعة لاستشراف النفس الى ورود خبرها لقلة وقوعها فى نفس الامر وندرة وصول خبرها الى الاذهان ولذلك روعيت تلك النكتة فى الشرطية الاولى لما ان صدور الخوارق منه عليه الصلاة والسلام خرج بوقوعه مرة مخرج العادة فانصرفت النفس عن ترقبه الى ترقب أحوال موسى عليه الصلاة والسلام هل يحافظ على مراعاة شرطه بموجب وعده الاكيد عند مشاهدة خارق آخر أو يسارع الى المناقشة كما مر فى المرة الاولى فكان المقصود افادة ما صدر عنه عليه الصلاة والسلام فصل مافصل ولله در شأن التنزيل وأما ماقيل من أن القتل أقبح والاعتراض عليه أدخل فكان جديرا بأن يجعل عمدة فى الكلام فليس من دفع الشبهة فى شئ بل هو مؤيد لها فان كون القتل أقبح من مبادى قلة صدوره عن المؤمن العاقل وندرة وصول خبره الى الاسماع وذلك مما يستدعى جعله مقصودا بالذات وكون الاعتراض عليه ادخل من موجبات كثرة صدوره عن كل عاقل وذلك مما لا يقتضى جعله كذلك (لقد جئت شيأ نكرا) قيل معناه انكر من الاول اذ لا يمكن تداركه كما يمكن تدارك الاول بالسد ونحوه وقيل الامر أعظم من النكر لان قتل نفس واحدة أهون من اغراق أهل السفينة (قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا) زيد لك لزيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية وقلة التثبت والصبر لما تكرر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يرعو بالتذكير حتى زاد

بكثرة أموالهم واتباعهم و بين تعالى بالوجوه الكثيرة ان قولهم فاسد وشبهتهم باطلة وذكر فيه المثلين المتقدمين قال بعده ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وهو اشارة الى ماسبق والتصريف يقتضى التكرير والامر كذلك لانه تعالى أجاب عن شبهتهم التى ذكروها من وجوه كثيرة ومع تلك الجوابات الشافية والامثلة المطابقة فهؤلاء الكفار لا يتركون المجادلة الباطلة فقال وكان الانسان أكثر شئ جدلا أى أكثر الاشياء التى يتأتى منها الجدل وانتصاب قوله جدلا على التمييز قال بعض المحققين والآية دالة على ان الانبياء عليهم السلام جادلوهم فى الدين حتى صاروا هم مجادلين لان المجادلة لا تحصل الا من الطرفين وذلك يدل على ان القول بالتقليد باطل ثم قال وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم وفيه بحثان (البحث الاول) قالت المعتزلة الآية دالة على انه لم يوجد مايمنع من الاقدام على الايمان وذلك يدل على فساد قول من يقول انه حصل المانع قال أصحابنا العلم بانه لا يؤمن مضاد لوجود الايمان فاذا كان ذلك العلم قائما كان المانع قائما وأيضا حصول الداعى الى الكفر قائم والا لما وجب لان الفعل الاختيارى بدون الداعى محال ووجود الداعى الى الكفر مانع من حصول الايمان واذا ثبت هذا ظهر ان المراد مقدار الموانع المحسوسة (البحث الثانى) المعنى انه لما جاءهم الهدى وهو الدليل الدال على صحة الاسلام وثبت انه لامانع لهم من الايمان ولا من الاستغفار والتوبة والتخلية حاصلة والاعذار زائلة فلم يقدموا على الايمان ثم قال تعالى الا أن تأتيهم سنة الاولين وهو عذاب الاستئصال أو يأتيهم العذاب قبلا قرأ حمزة وعاصم والكسائى قبلا بضم القاف والباء جميعا وهو جمع قبيل بمعنى ضروب من العذاب تتواصل مع كونهم أحياء وقيل مقابلة وعيانا والباقون قبلا بكسر القاف وفتح الباء أى عيانا أيضا وروى صاحب الكشاف قبلا بفتحتين أى مستقبلا والمعنى انهم لا يقدمون على الايمان الا عند نزول عذاب الاستئصال فيهلكوا أو أن يتواصل أنواع العذاب والبلاء حال بقائهم فى الحياة الدنيا واعلم انهم لا يقدمون على الايمان الا على هذين الشرطين لان العاقل لا يرضى بحصول هذين الامرين الا ان حالهم شبيه بحال من وقف العمل على هذين الشرطين ثم بين تعالى انه انما أرسل الرسل مبشرين بالثواب على الطاعة ومنذرين بالعقاب على المعصية لكى يؤمنوا طوعا و بين مع هذه الاحوال أنه يوجد من الكفار المجادلة بالباطل لغرض دحض الحق وهذا يدل على ان الانبياء كانوا يجادلونهم لما بينا ان المجادلة انما تحصل من الجانبين و بين تعالى أيضا انهم اتخذوا آيات الله وهى القرآن وانذارات الانبياء هزوا وكل ذلك يدل على استيلاء الجهل والقسوة قال النحويون مافى قوله وما أنذروا يجوز ان تكون موصولة ويكون العائد من الصلة محذوفا ويجوز أن تكون مصدرية بمعنى انذارهم ❊ قوله تعالى (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ماقدمت يداه انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وان

تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا أبدا وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) اعلم انه تعالى حكى عن الكفار جدالهم بالباطل ووصفهم بعده بالصفات الموجبة للخزى والخذلان (الصفة الأولى) قوله ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه أي لاظلم اعظم من كفر من ترد عليه الآيات والبينات فيعرض عنها وينسى ماقدمت يداه أى مع اعراضه عن التأمل فى الدلائل والبينات يتناسى ماقدمت يداه من الاعمال المنكرة والمذاهب الباطلة والمراد من النسيان التشاغل والتغافل عن كفره المتقدم (الصفة الثانية) انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا أبدا وقدمر تفسير هذه الآية على الاستقصاء فى سورة الانعام والعجب أن قوله ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ماقدمت يداه متمسك القدرية وقوله انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه الى آخر الآية متمسك الجبرية وقلما تجد فى القرآن آية لاحد هذين الفريقين الا ومعها آية للفريق الآخر والتجربة تكشف عن صدق قولنا وماذاك الا امتحان شديد من الله تعالى ألقاه على عباده ليتميز العلماء الراسخون من المقلدين ثم قال تعالى وربك الغفور ذو الرحمة الغفور البليغ المغفرة وهو اشارة الى دفع المضار ذو الرحمة الموصوف بالرحمة وانما ذكر لفظ المبالغة فى المغفرة لا فى الرحمة لان المغفرة ترك الاضرار وهو تعالى قد ترك مضار لانهاية لها مع كونه قادرا عليها أما فعل الرحمة فهو متناه لان ترك ما لانهاية له ممكن اما فعل ما لانهاية له محال ويمكن أن يقال المراد انه يغفر كثيرا لانه ذو الرحمة ولا حاجة به اليها فيرحم بها من المحتاجين كثيرا ثم استشهد بترك مؤاخذة أهل مكة عاجلا من غير امهال مع افراطهم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال بل لهم موعد وهو اما يوم القيامة واما فى الدنيا وهو يوم بدر وسائر أيام الفتح لن يجدوا من دونه موئلا منجا ولا ملجأ يقال وأل اذا نجا ووأل اليه اذا لجأ اليه ثم قال تعالى وتلك القرى يريد قرى الاولين من ثمود وقوم لوط وغيرهم أشار اليها ليعتبروا وتلك مبتدأ والقرى صفة لان أسماء الاشارة توصف باصناف الاجناس وأهلكناهم خبر والمعنى وتلك أصحاب القرى أهلكناهم لما ظلموا مثل ظلم أهل مكة وجعلنا لمهلكهم موعدا أى وضربنا لاهلاكهم وقتا معلوما لا يتأخرون عنه كما ضربنا لاهل مكة يوم بدر والمهلك الاهلاك او وقته وقرئ لمهلكهم بفتح الميم واللام مفتوحة أو مكسورة أى لهلاكهم أو وقت هلاكهم والموعد وقت أو مصدر والمراد أنا عجلنا هلاكهم ومع ذلك لم ندع ان نضرب له وقتا ليكونوا الى التوبة أقرب * قوله تعالى (واذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا قال ذلك ما كنا نبغى فارتدا على

فى التكبير فى المرة الثانية (قال) أى موسى عليه الصلاة والسلام (ان سألتك عن شئ بعدها) أى بعد هذه المرة (فلا تصاحبنى) وقرئ من الافعال أى لا تجعلنى صاحبك (قد بلغت من لدنى عذرا) أى قد أعذرت ووجدت من قبلى عذرا حيث خالفتك ثلاث مرات * عن النبي صلى الله عليه وسلم رحم الله أخى موسى استحيا فقال ذلك لو لبث مع صاحبه لابصر أعجب الاعاجيب وقرئ لدنى بتخفيف النون وقرئ بسكون الدال كعضد فى عضد (فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية) هى انطاكية وقيل أبلة وهى أبعد أرض الله من السماء وقيل هى برقة وقيل بلدة بأندلس * عن النبى صلى الله عليه وسلم كانوا أهل قرية لئاما وقيل شر القرى التى لا يضاف فيها الضيف ولا يعرف لابن السبيل حقه وقوله تعالى (استطعما أهلها) فى محل الجر على انه صفة لقرية ولعل العدول عن استطعماهم على أن يكون صفة للاهل لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعهم فان الاباء من الضيافة وهم أهلها قاطنون بها أقبح وأشنع روى انهما طافا فى القرية فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافاهم (فأبوا أن يضيفوهما) بالتشديد وقرئ بالتخفيف من الاضافة يقال ضافه اذا كان له ضيفا وأضافه وضيفه أنزله وجعله ضيفا له وحقيقة ضاف مال اليه من ضاف السهم عن الغرض ونظيره زاره من الازورار (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض) أى يدانى أن يسقط فاستعيرت الارادة للمشارفة للدلالة على المبالغة فى ذلك والانقضاض الاسراع فى السقوط وهو انفعال من القض يقال قضضته فانقض ومنه انقضاض الطير والكوكب لسقوطه بسرعة وقيل هو افعلال من النقض كاحمر من الحمرة وقرئ أن ينقض من النقض وأن ينقاض

من انقاضت السن اذا انشقت طولا (فأقامه) قيل مسحه بيده فقام وقيل نقضه و بناه وقيل اقامه بعمود عمده به قيل كان سمكه مائة ذراع (قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا) تحريضا له على أخذ الجعل لينتعشا به أو تعريضا بأنه فضول لما فى لوم من اللوم كأنه لما رأى الحرمان ومساس الحاجة واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك الصبر واتخذ افتعل من تخذ بمعنى خذ كاتبع من تبع وليس من الاخذ عند البصريين وقرئ لتخذت أي لأخذت وقرئ بإدغام الذال فى التاء (قال) أى الخضر عليه الصلاة والسلام (هذا فراق بينى و بينك) على اضافة المصدر الى الظرف اتساعا وقد قرئ على الاصل والمشار اليه اما نفس الفراق كما فى هذا أخوك أو الوقت الحاضر أى هذا الوقت وقت فراق بينى و بينك أو السؤال الثالث اى هذا سبب ذلك الفراق حسبما هو الموعود (سأنبئك) السين للتأكيد لعدم تراخى التنبئة (بتأويل مالم تستطع عليه صبرا) التأويل رجع الشئ الى مآله والمراد به ههنا المآل والعاقبة اذ هو المنبأ به دون التأويل وهو خلاص السفينة من اليد العادية وخلاص ابوى الغلام من شره مع الفوز بالبدل الاحسن واستخراج اليتيمين للكنز وفى جعل صلة الموصول عدم استطاعة موسى عليه الصلاة والسلام للصبر دون أن يقال بتأويل مافعلت أو بتأويل مارأيت ونحوهما نوع تعريض به عليه الصلاة والسلام وعتاب (اما السفينة) التى خرقتها (فكانت لمساكين) الضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظلمة وقيل كانت لعشرة اخوة خمسة منهم زمنى وخمسة (يعملون فى البحر) واسناد العمل الى الكل حينئذ انما هو بطريق التغليب أو لان عمل الوكلاء بمنزلة عمل الموكلين (فأردت أن أعيبها)

آثارهما قصصا) اعلم ان هذا ابتداء قصة ثالثة ذكرها الله تعالى فى هذه السورة وهى ان موسى عليه السلام ذهب الى الخضر عليهما السلام ليتعلم منه العلم وهذا وان كان كلاما مستقلا فى نفسه الا انه يعين على ما هو المقصود فى القصتين السابقتين أما نفع هذه القصة فى الرد على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الاموال والانصار فهو أن موسى عليه السلام مع كثرة علمه وعمله وعلو منصبه واستجماع موجبات الشرف التام فى حقه ذهب الى الخضر لطلب العلم وتواضع له وذلك يدل على ان التواضع خير من التكبر وأما نفع هذه القصة فى قصة أصحاب الكهف فهو أن اليهود قالوا للكفار مكة ان أخبركم محمد عن هذه القصة فهو نبى والا فلا وهذا ليس بشئ لانه لا يلزم من كونه نبيا من عند الله تعالى أن يكون عالما بجميع القصص والوقائع كما ان كون موسى عليه السلام نبيا صادقا من عند الله لم يمنع من أمر الله اياه بان يذهب الى الخضر ليتعلم منه فظهر بما ذكرنا ان هذه القصة قصة مستقلة بنفسها ومع ذلك فهى نافعة فى تقرير المقصود فى القصتين المتقدمتين (المسئلة الثانية) أكثر العلماء على ان موسى المذكور فى هذه الآية هو موسى بن عمران صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التوراة وعن سعيد بن جبير انه قال لابن عباس ان نوفا ابن امرأة كعب يزعم ان الخضر ليس صاحب موسى بن عمران وانما هو صاحب موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب وقيل هو كان نبيا قبل موسى بن عمران فقال ابن عباس كذب عدو الله واعلم انه كان ليوسف عليه السلام ولدان افرائيم وميشا فولد افرائيم نون وولد نون يوشع بن نون وهو صاحب موسى وولى عهده بعد وفاته وأما ولد ميشا قيل انه جاءته النبوة قبل موسى بن عمران و يزعم أهل التوراة انه هو الذى طلب هذا العلم ليتعلم والخضر هو الذى خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار وموسى بن ميشا معه هذا هو قول جمهور اليهود واحتج القفال على صحة قولنا ان موسى هذا هو صاحب التوراة قال ان الله تعالى ما ذكر موسى فى كتابه الا وأراد به صاحب التوراة فاطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف اليه ولو كان المراد شخصا آخر مسمى بموسى غيره لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز وازالة الشبهة كما انه لما كان المشهور فى العرف من أبى حنيفة رحمه الله هو الرجل المعين فلو ذكرنا هذا الاسم واردنا به رجلا سواه لقيدناه مثل أن تقول لقال أبو حنيفة الدينورى * وحجة الذين قالوا موسى هذا غير صاحب التورات أنه تعالى بعد ان أنزل التوراة عليه وكلمه بلا واسطة وحج خصمه بالمعجزات القاهرة العظيمة التى لم يتفق مثلها لاكثر أكابر الانبياء يبعد أن يبعثه بعد ذلك لتعلم الاستفادة وأجيب عنه بأنه لا يبعد ان العالم الكامل فى أكثر العلوم يجهل بعض الاشياء فيحتاج فى تعلمها الى من دونه وهذا أمر متعارف معلوم (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى فتى موسى فالاكثرون على انه يوشع بن نون وروى القفال عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبى هريرة عن ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم يقول فتاه يوشع بن نون والقول

الثانى ان فتى موسى أخو يوشع وكان مصاحبا لموسى عليه السلام فى هذا السفر (والقول الثالث) روى عمرو بن عبيد عن الحسن فى قوله واذ قال موسى لفتاه لا أبرح قال يعنى عبده قال القفال واللغة تحتمل ذلك روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا يقولن احدكم عبدى وأمتى وليقل فتاى وفتاتى وهذا يدل على انهم كانوا يسمون العبد فتى والامة فتاة (المسئلة الرابعة) قيل ان موسى عليه السلام لما أعطى الالواح وكلمه الله تعالى قال من الذى أفضل منى وأعلم قيل عبد لله يسكن جزائر البحر وهو الخضر وفى رواية أخرى ان موسى عليه السلام لما أوتى من العلم ما أوتى ظن أنه لا أحد مثله فأتاه جبريل عليه السلام وهو بساحل البحر قال ياموسى انظر الى هذا الطير الصغير يهوى الى البحر يضرب بمنقاره فيه ثم يرتفع فانت فيما أوتيت من العلم دون قدر ما يحمل هذا الطير بمنقاره من البحر قال الاصوليون هذه الرواية ضعيفة لان الانبياء يجب أن يعلموا أن معلومات الله لانهاية لها وأن يعلموا أن معلومات الخلق يجب كونها متناهية وكل قدر متناه فان الزائد عليه ممكن فلا مرتبة من مراتب العلم الا وفوقها مرتبة ولهذا قال تعالى وفوق كل ذى علم عليم واذا كانت هذه المقدمات معلومة فمن المستبعد جدا أن يقطع العاقل بانه لا أحد أعلم منى لاسيما موسى عليه السلام مع علمه الوافر بحقائق الاشياء وشدة براءته عن الاخلاق الذميمة كالعجب والتيه والصلف (والرواية الثالثة) قيل ان موسى عليه السلام سأل ربه أى عبادك أحب اليك قال الذى يذكرنى ولا ينسانى قال فاى عبادك اقضى قال الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى قال فأى عبادك أعلم قال الذى يبتغى علم الناس الى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى فقال موسى عليه السلام ان كان فى عبادك من هو أعلم منى فادللنى عليه فقال أعلم منك الخضر قال فأين أطلبه قال على الساحل عند الصخرة قال يارب كيف لى به قال تأخذ حوتا فى مكتل فحيث فقدته فهو هناك فقال لفتاه اذا فقدت الحوت فاخبرنى فذهبا يمشيان ورقد موسى واضطرب الحوت وطفر الى البحر فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت فاخبره فتاه بوقوعه فى البحر فرجع من ذلك الموضع الى الموضع الذى طفر الحوت فيه الى البحر فاذا رجل مسجى بثوبه فسلم عليه موسى عليه السلام فقال وأنى بارضك السلام فعرفه نفسه فقال ياموسى أنا على علم علمنى الله لاتعلمه أنت وأنت على علم علمك الله لا أعلمه أنا فلما ركبا السفينة جاء عصفور فوقع على حرفها فنقر فى الماء فقال الخضر ماينقص علمى وعلمك من علم الله مقدار ما أخذ هذا العصفور من البحر أقول نسبة ذلك القدر القليل الذى أخذه ذلك العصفور من ذلك الماء الى كلية ماء البحر نسبة متناه الى متناه ونسبة معلوم جميع المخلوقات الى معلومات الله تعالى نسبة متناه الى غير متناه فاين احدى النسبتين من الاخرى والله العالم بحقائق الامور ونرجع الى التفسير أما قوله تعالى لا أبرح قال الزجاج قوله لا أبرح ليس معناه لا أزول لانه لو كان كذلك لم يقطع أرضا أقول يمكن أن يجاب عنه بان الزوال

اى اجعلها ذات عيب (وكان وراءهم ملك) أى امامهم وقد قرئ به أو خلفهم وكان رجوعهم عليه لامحالة واسمه جلندى بن كركر وقيل منولة بن جلندى الازدى (يأخذ كل سفينة) أى صالحة وقد قرئ كذلك (غصبا) من أصحابها وانتصابه على أنه مصدر مبين لنوع الاخذ ولعل تفريع ارادة تعييب السفينة على مسكنة أصحابها قبل بيان خوف الغصب مع أن مدارها كلا الامرين للاعتناء بشأنها اذ هى المحتاجة الى التأويل والايذان بان الاقوى فى المدارية هو الامر الاول ولذلك لا يبالى بتخليص سفن سائر الناس مع تحقق خوف الغصب فى حقهم أيضا ولان فى التأخير فصلا بين السفينة وضميرها مع توهم رجوعه الى الاقرب (وأما الغلام) الذى قتله (فكان أبواه مؤمنين) لم يصرح بكفرانه أو بكفره اشعارا بعدم الحاجة الى الذكر لظهوره (فخشينا أن يرهقهما) فخفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين (طغيانا) عليهما (وكفرا) لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه ويلحق بهما شره وبلاءه أو يقرن بايمانهما طغيانه وكفره فيجتمع فى بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر أو يعديهما بدائه ويضلهما بضلاله فيرتدا بسببه وانما خشى الخضر عليه الصلاة والسلام منه ذلك لان الله سبحانه أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمره. وقرئ فخاف ربك أى كره سبحانه كراهة من خاف سوء عاقبة الامر فغيره ويجوز أن تكون ﴿ عن ﴾ القراءة المشهورة على الحكاية بمعنى فكرهنا كقوله تعالى لأهب لك (فاردنا ان يبدلهما ربهما خيرا) منه بأن يرزقهما بدله ولدا خيرا (منه) وفى التعرض لعنوان الربوبية والاضافة اليهما مالا يخفى من الدلالة على ارادة وصول الخير اليهما (زكوة) طهارة من الذنوب.

والاخلاق الرديئة (وأقرب رحما) اى رحمة وعطفا قيل ولدت لهما جارية تزوجها نبي فولدت نبيا هدى الله تعالى على يديه أمة من الامم وقيل ولدت سبعين نبيا وقيل ابدلهما ابنا مؤمنا مثلهما وقرئ يبدلهما بالتشديد وقرئ رحما بضم الحاء أيضا وانتصابه على التمييز مثل زكوة (وأما الجدار) المعهود (فكان لغلامين يتيمين في المدينة) هي القرية المذكورة فيما سبق ولعل التعبير عنها بالمدينة لاظهار نوع اعتداد بها باعتداد ما فيها من اليتيمين وأبيهما الصالح قيل اسماهما اصرم وصريم واسم المقتول جيسور (وكان تحته كنز لهما) من فضة وذهب كما روى مرفوعا والذم على كنزهما في قوله عز وجل والذين يكنزون الذهب والفضة لمن لا يؤدى زكاتهما وسائر حقوقهما وقيل كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها باهلها كيف يطمئن اليها لا اله الا الله محمد رسول الله وقيل صحف فيها علم (وكان أبوهما صالحا) تنبيه على أن سعيه في ذلك كان لصلاحه قيل كان بينهما وبين الاب الذى حفظا فيه سبعة آباء (فاراد ربك) أى مالكك ومدبر امورك ففي اضافة الرب الى ضمير موسى عليه الصلاة والسلام دون ضميرهما تنبيه له عليه الصلاة والسلام على تحتم كمال الانقياد والاستسلام لارادته سبحانه ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبها من الامور المذكورة (أن يبلغا أشدهما) أى حلمهما وكمال رأيهما (ويستخرجا كنزهما) من تحت الجدار ولولا أنى أقمته لانقض وخرج الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته وضاع بالكلية

عن الشيء عبارة عن تركه والاعراض عنه يقال زال فلان عن طريقته في الجود أي تركها فقوله لا أبرح بمعنى لا أزول عن السير والذهاب بمعنى لا أترك هذا العمل وهذا الفعل وأقول المشهور عند الجمهور ان قوله لا أبرح معناه لا أزول والعرب تقول لا أبرح ولا أزال ولا أنفك ولا أفتأ بمعنى واحد قال القفال وقالوا أصل قولهم لا أبرح من البراح كما أن أصل لا أزال من الزوال يقال زال يزال ويزول كما يقال دام يدام ويدوم ومات يمات ويموت الا ان المستعمل في هذه اللفظة يزال فقوله لا أبرح أى أقيم لان البراح هو العدم فقوله لا أبرح يكون عدما للعدم فيكون ثبوتا فقوله لا أزال ولا أبرح يفيد الدوام والثبات على العمل فان قيل اذا كان قوله لا أبرح بمعنى لا أزال فلا بد من الخبر قلنا حذف الخبر لان الحال والكلام يدلان عليه أما الحال فلانها كانت حال سفر وأما الكلام فلان قوله حتى أبلغ مجمع البحرين غاية مضروبة تستدعي شيئا هي غاية له فيكون المعنى لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين ويحتمل أن يكون المعنى لا أبرح مما أنا عليه يعني ألزم المسير والطلب ولا أتركه ولا أفارقه حتى أبلغ كما تقول لا أبرح المكان وأما مجمع البحرين فهو المكان الذى وعد فيه موسى بلقاء الخضر عليهما السلام وهو ملتقى بحرى فارس والروم مما يلي المشرق وقيل غيره وليس في اللفظ ما يدل على تعيين هذين البحرين فان صح بالخبر الصحيح شيء فذاك والا فالاولى السكوت عنه ومن الناس من قال البحران موسى والخضر لانهما كانا بحرى العلم وقرئ مجمع بكسر الميم ثم قال أو أمضي حقبا أى أسير زمانا طويلا وقيل الحقب ثمانون سنة وقد تكلمنا في هذا اللفظ في قوله تعالى لابثين فيها أحقابا وحاصل الكلام ان الله عز وجل كان أعلم موسى حال هذا العالم وما أعلمه موضعه بعينه فقال موسى عليه السلام لا ازال أمضي حتى يجتمع البحران فيصيرا بحرا واحدا أو امضي دهرا طويلا حتى أجد هذا العالم وهذا اخبار من موسى بانه وطن نفسه على تحمل التعب الشديد والعناء العظيم في السفر لاجل طلب العلم وذلك تنبيه على ان المتعلم لو سافر من المشرق الى المغرب لطلب مسئلة واحدة لحق له ذلك ثم قال تعالى فلما بلغا مجمع بينهما والمعنى فانطلقا الى ان بلغا مجمع بينهما والضمير في قوله بينهما الى ماذا يعود فيه قولان (الاول) مجمع بينهما أى مجمع البحرين وهو كأنه اشارة الى قول موسى لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أى تحقق ما قاله (والقول الثاني) ان المعنى فلما بلغ الموضع الذى يجتمع موسى وصاحبه الذى كان يقصده لان ذلك الموضع الذى وقع فيه نسيان الحوت هو الموضع الذى كان يسكنه الخضر أو يسكن بقربه ولاجل هذا المعنى لما رجع موسى وفتاه بعد أن ذكرا الحوت صارا اليه وهو معنى حسن والمفسرون على القول الاول ثم قال تعالى نسيا حوتهما وفيه مباحث (البحث الاول) الروايات تدل على انه تعالى بين لموسى عليه السلام ان هذا العالم موضعه مجمع البحرين الا أنه تعالى جعل انقلاب الحوت حيا علامة على مسكنه المعين كمن يطلب انسانا فيقال له ان موضعه محلة كذا من الرى فاذا

اى اجتهاداتهم

رحمة من ربك) مصدر في موقع الحال أي مرحومين منه عز وجل او مفعول له أو مصدر مؤكد لاراد فان ارادة الخير رحمة
وانتصابه على [illegible] بمضمر أي فعلت مافعلت من الامور التي شاهدتها رحمة من ربك ويعضده اضافة الرب الى ضمير
مع اومدا
ـه دون ضميرهما فيكون قوله عز وعلا (وما فعلته عن أمري) أي عن رأيي واجتهادي تأكيدا لذلك (ذلك)
هم
اشارة الى العواقب المنظومة في سلك البيان وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتها في الفخامة

انتهيت الى المحلة فسل فلانا عن داره وأين ماذهب بك فاتبعه فانك تصل اليه فكذا ههنا قيل له ان موضعه مجمع البحرين فاذا وصلت اليه رأيت الحوت انقلب حيا وطفر الى البحر فيحتمل أنه قيل له فهنالك موضعه ويحتمل انه قيل له فاذهب على موافقة ذهاب ذلك الحوت فانك تجده اذا عرفت هذا فنقول ان موسى وفتاه لما بلغا مجمع بينهما طفرت السمكة الى البحر وسارت وفي كيفية طفرها روايات أيضا قيل ان الفتى كان يغسل السمكة لانها كانت مملحة فطفرت وسارت وقيل ان يوشع توضأ في ذلك المكان فانتضح الماء على الحوت المالح فعاش ووثب في الماء وقيل انفجر هناك عين من الجنة ووصلت قطرات من تلك العين الى السمكة فحييت وطفرت الى البحر فهذا هو الكلام في صفة الحوت (البحث الثاني) المراد من قوله نسيا حوتهما انهما نسيا كيفية الاستدلال بهذه الحالة المخصوصة على الوصول الى المطلوب فان قيل انقلاب السمكة المالحة حية حالة عجيبة فلما جعل الله حصول هذه الحالة العجيبة دليلا على الوصول الى المطلوب فكيف يعقل حصول النسيان في هذا المعنى أجاب العلماء عنه بأن يوشع كان قد شاهد المعجزات القاهرة من موسى عليه السلام كثيرا فلم يبق لهذه المعجزة عنده وقع عظيم فجاز حصول النسيان وعندي فيه جواب آخر وهو ان موسى عليه السلام لما استعظم علم نفسه أزال الله عن قلب صاحبه هذا العلم الضروري تنبيها لموسى عليه السلام على ان العلم لا يحصل الا بتعليم الله وحفظه على القلب والخاطر * أما قوله فاتخذ سبيله في البحر سربا ففيه وجوه (الاول) أن يكون التقدير سرب في البحر سربا الا انه أقيم قوله فاتخذ مقام قوله سرب والسرب هو الذهاب ومنه قوله وسارب بالنهار (الثاني) ان الله تعالى أمسك اجراء الماء على البحر وجعله كالطاق والكوة حتى سرى الحوت فيه فلما جاوزا أي موسى وفتاه الموعد المعين وهو الوصول الى الصخرة بسبب النسيان المذكور وذهبا كثيرا وتعبا وجاعا قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال الفتى أرأيت اذ أوينا الى الصخرة الهمزة في أرأيت همزة الاستفهام ورأيت على معناه الاصلي وقد جاء هذا الكلام على ما هو المتعارف بن الناس فانه اذا حدث لاحدهم أمر عجيب قال لصاحبه أرأيت ما حدث لي كذلك ههنا كأنه قال أرأيت ما وقع لي منه اذ أوينا الى الصخرة فحذف مفعول أرأيت لان قوله فاني نسيت الحوت يدل عليه ثم قال وما أنسانيه الا الشيطان أن اذكره وفيه مباحث (البحث الاول) انه اعتراض وقع بين المعطوف والمعطوف عليه والتقدير فاني نسيت الحوت واتخذ سبيله في البحر عجبا والسبب في وقوع هذا الاعتراض ما يجري مجرى العذر والعلة لوقوع ذلك النسيان (البحث الثاني) قال الكعبي وما أنسانيه الا الشيطان ان اذكره يدل على انه تعالى ما خلق ذلك النسيان وما أراده والا كانت اضافته الى الله تعالى أوجب من اضافته الى الشيطان لانه تعالى اذا خلقه فيه لم يكن لسعي الشيطان في وجوده ولا في عدمه أثر قال القاضي والمراد بالنسيان أن يشتغل قلب الانسان بوساوسه التي هي من فعله دون النسيان الذي يضاد

(تأويل ما لم تسطع) أي لم تستطع فحذف التاء للتخفيف (عليه صبرا) من الامور التي رأيته أي مآله وعاقبته فيكون انجاز التنبئة الموعودة أو الى البيان نفسه فيكون التأويل بمعناه وعلى كل حال فهو فذلكة لما تقدم وفي جعل الصلة عين ما مر تكرير للتذكير وتشديد للعتاب (تنبيه) * اختلفوا في حياة الخضر عليه الصلاة والسلام فقيل انه حي وسببه انه كان على مقدمة ذي القرنين فلما دخل الظلمات أصاب الخضر عين الحياة فنزل واغتسل منها وشرب من مائها وأخطأ ذو القرنين الطريق فعاد قالوا والياس أيضا في الحياة يلتقيان كل سنة بالموسم وقيل انه ميت لما روى أن النبي عليه الصلاة والسلام صلى العشاء ذات ليلة ثم قال أرأيتكم ليلتكم هذه فان رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الارض أحد ولو كان الخضر حينئذ حيا لما عاش بعد مائة عام روى ﴿ والذكر ﴾ أن موسى عليه الصلاة والسلام لما أراد أن يفارقه قال له أوصني قال لا تطلب العلم لتحدث به واطلبه لتعمل به (ويسألونك عن ذي القرنين) هم اليهود سألوه على وجه الامتحان أو سأله قريش بتلقينهم وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرارهم على ذلك الى ورود الجواب

الذكر لأن ذلك لا يصح أن يكون إلا من قبل الله تعالى (البحث الثالث) قوله أن أذكره بدل من الهاء في أنسانيه أي وما أنساني ذكره إلا الشيطان ثم قال واتخذ سبيله في البحر عجباً وفيه وجوه (الأول) أن قوله عجباً صفة لمصدر محذوف كأنه قيل واتخذ سبيله في البحر اتخاذاً عجباً ووجه كونه عجباً انقلابه من المكتل وصيرورته حياً وإلقاء نفسه في البحر على غفلة منهما (والثاني) أن يكون المراد منه ما ذكرنا أنه تعالى جعل الماء عليه كالطاق وكالسرب (الثالث) قيل إنه تم الكلام عند قوله واتخذ سبيله في البحر ثم قال بعده عجباً والمقصود منه تعجبه من تلك العجيبة التي رآها ومن نسيانه لها وقيل إن قوله عجباً حكاية لتعجب موسى وهو ليس بقوله ثم قال تعالى قال ذلك ما كنا نبغ أي قال موسى ذلك الذي كنا نطلبه لأنه أمارة الظفر بالمطلوب وهو لقاء الخضر وقوله نبغ أصله نبغي فحذفت الياء للتخفيف لدلالة الكسرة عليه وكان القياس أن لا يحذف لأنهم إنما يحذفونها في الأسماء وهذا فعل إلا أنه قد يجوز على ضعف القياس حذفها لأنها تحذف مع الساكن الذي يكون بعدها كقولك ما نبغي اليوم فلما حذفت مع الساكن حذفت أيضاً مع غير الساكن ثم قال فارتدا على آثارهما أي رجعا وقوله قصصاً فيه وجهان (أحدهما) أنه مصدر في موضع الحال أي رجعا على آثارهما مقتصين آثارهما (والثاني) أن يكون مصدراً لقوله فارتدا على آثارهما لأن معناه فاقتصا على آثارهما وحاصل الكلام أنهما لما عرفا أنهما تجاوزا عن الموضع الذي يسكن فيه ذلك العالم رجعا وعادا إليه والله أعلم * قوله تعالى (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً قال إنك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً) في الآية مسائل (المسألة الأولى) قوله فوجدا عبداً من عبادنا فيه بحثان (البحث الأول) قال الأكثرون إن ذلك العبد كان نبياً واحتجوا عليه بوجوه (الأول) أنه تعالى قال آتيناه رحمة من عندنا والرحمة هي النبوة بدليل قوله تعالى أهم يقسمون رحمة ربك وقال وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك والمراد من هذه الرحمة النبوة ولقائل أن يقول نسلم أن النبوة رحمة أما لا يلزم أن يكون كل رحمة نبوة (الحجة الثانية) قوله تعالى وعلمناه من لدنا علماً وهذا يقتضي أنه تعالى علمه لا بواسطة تعليم معلم ولا إرشاد مرشد وكل من علمه الله لا بواسطة البشر وجب أن يكون نبياً يعلم الأمور بالوحي من الله وهذا الاستدلال ضعيف لأن العلوم الضرورية تحصل ابتداء من عند الله وذلك لا يدل على النبوة (الحجة الثالثة) أن موسى عليه السلام قال هل أتبعك على أن تعلمن والنبي لا يتبع غير النبي في التعليم وهذا أيضاً ضعيف لأن النبي لا يتبع غير النبي في العلوم التي باعتبارها صار نبياً أما في غير تلك العلوم فلا (الحجة الرابعة) أن ذلك العبد أظهر الترفع على موسى حيث قال له وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً

وهو ذو القرنين الأكبر واسمه الإسكندر بن فيلفوس اليوناني وقال ابن إسحق اسمه مرزبان بن مردويه من ولد يافث بن نوح عليه الصلاة والسلام وكان أسود وقيل اسمه عبد الله بن الضحاك وقيل مصعب بن عبد الله بن قنان بن منصور بن عبد الله بن الأزد بن عون بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان وقال السهيلي قيل إن اسمه مرزبان بن مدركة ذكره ابن هشام وهو أول التبابعة وقيل إنه أفريدون بن النعمان الذي قتل الضحاك وذكر أبو ريحان البيروني في كتابه المسمى بالآثار الباقية عن القرون الخالية أن ذا القرنين هو أبو كرب شمر بن عبير بن أفريقس الحميري وأن ملكه بلغ مشارق الأرض ومغاربها وهو الذي افتخر به الشاعر اليمني حيث قال قد كان ذو القرنين جدي مسلماً ملكاً علا في الأرض غير مفند بلغ المشارق والمغارب يبتغي أسباب أمر من حكيم مرشد وجعل هذا القول أولى لأن الأذواء كانوا من اليمن كذي المنار وذي نواس وذي النون وذي رعين وذي يزن وذي جدن قال الإمام الرازي والأول هو الأظهر لأن من بلغ ملكه من السعة والقوة إلى الغاية التي نطق بها التنزيل إنما هو الإسكندر اليوناني كما تشهد به كتب التواريخ روي أنه لما مات أبوه جمع ملك الروم بعد أن كان طوائف ثم قصد ملوك العرب وقهرهم ثم أمعن حتى انتهى إلى البحر الأخضر ثم عاد إلى مصر فبنى الإسكندرية

وأما موسى فانه اظهر التواضع له حيث قال لا أعصى لك أمرا وكل ذلك يدل على ان ذلك العالم كان فوق موسى ومن لا يكون نبيا لا يكون فوق النبي وهذا أيضا ضعيف لانه يجوز أن يكون غير النبي فوق النبي في علوم لا تتوقف نبوته عليها فلم قلتم ان ذلك لا يجوز فان قالوا لانه يوجب التنفير قلنا فارسال موسى الى التعلم منه بعد انزل الله عليه التوراة وتكليمه بغير واسطة يوجب التنفير فان قالوا ان هذا لا يوجب التنفير فكذا القول فيما ذكروه (الحجة الخامسة) احتج الاصم على نبوته بقوله في أثناء القصة وما فعلته عن أمري ومعناه فعلته بوحي الله وهو يدل على النبوة وهذا أيضا دليل ضعيف وضعفه ظاهر (الحجة السادسة) ماروى ان موسى عليه السلام لما وصل اليه قال السلام عليك فقال وعليك السلام يا نبي بني اسرائيل فقال موسى عليه السلام من عرفك هذا قال الذي بعثك الى قالوا وهذا يدل على انه انما عرف ذلك بالوحي والوحي لا يكون الا مع النبوة ولقائل أن يقول لم لا يجوز أن يكون ذلك من باب الكرامات والالهامات (البحث الثاني) قال الاكثرون ان ذلك العبد هو الخضر وقالوا انما سمي بالخضر لانه كان لا يقف موقفا الا اخضر ذلك الموضع قال الجبائي قد ظهرت الرواية ان الخضر انما بعث بعد موسى عليه السلام من بني اسرائيل فان صح ذلك لم يجز ان يكون هذا العبد هو الخضر وأيضا فبتقدير أن يكون هذا العبد هو الخضر وقد ثبت انه يجب أن يكون نبيا فهذا يقتضي أن يكون الخضر أعلى شأنا من موسى صاحب التوراة لانا قد بينا ان الالفاظ المذكورة في هذه الآيات تدل على ان ذلك كان يترفع على موسى وكان موسى يظهر التواضع له الا أن كون الخضر أعلى شأنا من موسى غير جائز لان الخضر اما أن يقال انه كان من بني اسرائيل أو ما كان من بني اسرائيل فان قلنا انه كان من بني اسرائيل كان من أمة موسى لقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام انه قال لفرعون أرسل معنا بني اسرائيل والامة لا تكون اعلى حالا من النبي وان قلنا انه ما كان من بني اسرائيل لم يجز أن يكون أفضل من موسى لقوله تعالى لبني اسرائيل واني فضلتكم على العالمين وهذه الكلمات تقوي قول من يقول ان موسى هذا غير موسى صاحب التوراة (المسئلة الثانية) قوله وعلمناه من لدنا علما يفيد ان تلك العلوم حصلت عنده من عند الله من غير واسطة والصوفية سموا العلوم الحاصلة بطريق المكاشفات العلوم اللدنية وللشيخ أبي حامد الغزالي رسالة في اثبات العلوم اللدنية وأقول تحقيق الكلام في هذا الباب ان نقول اذا أدركنا أمرا من الامور وتصورنا حقيقة من الحقائق فاما ان نحكم عليه بحكم وهو التصديق أو لا نحكم وهو التصور وكل واحد من هذين القسمين فاما أن يكون نظريا حاصلا من غير كسب وطلب واما أن يكون كسبيا أما العلوم النظرية فهي تحصل في النفس والعقل من غير كسب وطلب مثل تصورنا الالم واللذة والوجود العدم ومثل تصديقنا بان النفي والاثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان وان الواحد نصف الاثنين وأما العلوم الكسبية فهي التي لا تكون

﴿ حاصلة ﴾

وسماها باسمه ثم دخل الشام وقصد بني اسرائيل وورد بيت المقدس وذبح في مذبحه ثم انعطف الى ارمينية وباب ابواب ودان له العراقيون والقبط والبربر ثم توجه نحو دارا ابن دارا وهزمه مرارا الى أن قتله صاحب حرسه واستولى على ممالك الفرس وقصد الهند وفتحه وبنى مدينة سرنديب وغيرها من المدن العظام ثم قصد الصين وغزا الامم البعيدة ورجع الى خراسان وبنى بها مدائن كثيرة ورجع الى العراق ومرض بشهرزور ومات انتهى كلام الامام وروى أن أهل النجوم قالوا له انك لا تموت الا على أرض من حديد وتحت سماء من خشب وكان يدفن كنز كل بلدة فيها ويكتب ذلك بصفته وموضعه فبلغ بابل فرعف وسقط عن دابته فبسطت له دروع فنام عليها فآذته الشمس فاظلوه بترس فنظر فقال هذه أرض من حديد وسماء من خشب فأيقن بالموت فمات وهو ابن ألف وستمائة سنة وقيل ثلاثة آلاف سنة قال ابن كثير وهذا غريب واغرب منه ما قاله ابن عساكر من انه بلغني انه عاش ستا وثلاثين سنة او ثنتين وثلاثين سنة وانه كان بعد داود وسليمان عليهما السلام فان ذلك لا ينطبق الا على ذي القرنين الثاني كما سنذكره قلت وكذا ما ذكره الامام من قصد بني اسرائيل وورود بيت المقدس والذبح في مذبحه فانه مما لا يكاد يتأتى نسبته الى الاول واختلف في نبوته بعد الاتفاق على اسلامه وولايته فقيل كان نبيا لقوله تعالى انا مكنا له في الارض وظاهر أنه متناول للتمكين في الدين

حاصلة فى جوهر النفس ابتداء بل لابد من طريق يتوصل الى اكتساب تلك العلوم وهذا الطريق على قسمين (أحدهما) ان يتكلف الانسان تركب تلك العلوم البديهية النظرية حتى يتوصل بتركبها الى استعلام المجهولات وهذا الطريق هو المسمى بالنظر والتفكر والتدبر والتأمل والتروى والاستدلال وهذا النوع من تحصيل العلوم هو الطريق الذى لا يتم الا بالجهد والطلب (والنوع الثانى) ان يسعى الانسان بواسطة الرياضات والمجاهدات فى أن تصير القوى الحسية والخيالية ضعيفة فاذا ضعفت قويت القوة العقلية واشرقت الانوار الالهية فى جوهر العقل وحصلت المعارف وكملت العلوم من غير واسطة سعى وطلب فى التفكر والتأمل وهذا هو المسمى بالعلوم اللدنية اذا عرفت هذا فنقول جواهر النفس الناطقة مختلفة بالماهية فقد تكون النفس نفسا مشرقة نورانية الهية علوية قليلة التعلق بالجواذب البدنية والنوازع الجسمانية فلاجرم كانت ابدا شديدة الاستعداد لقبول الجلايا القدسية والانوار الالهية فلاجرم فاضت عليها من عالم الغيب تلك الانوار على سبيل الكمال والتمام وهذا هو المراد بالعلم اللدنى وهو المراد من قوله آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما وأما النفس التى ما بلغت فى صفاء الجوهر واشراق العنصر فهى النفس الناقصة البليدة التى لا يمكنها تحصيل المعارف والعلوم الا بتوسط بشرى يحتال فى تعليمه وتعلمه والقسم الاول بالنسبة الى القسم الثانى كالشمس بالنسبة الى الاضواء الجزئية وكالبحر بالنسبة الى الجداول الجزئية وكالروح الاعظم بالنسبة الى الارواح الجزئية فهذا تنبيه قليل على هذا المأخذ ووراءه اسرار لا يمكن ذكرها فى هذا الكتاب ثم قال تعالى قال له موسى هل اتبعك على ان تعلمنى مما علمت رشدا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ أبو عمرو و يعقوب رشدا بفتح الراء والشين وعن ابن عباس رضى الله عنهما بضم الراء والشين والباقون بضم الراء وتسكين الشين قال القفال وهى لغات فى معنى واحد يقال رشد ورشد مثل نكر ونكر كما يقال سقم وسقم وشغل وشغل و بخل وبخل وعدم وعدم وقوله رشدا أى علما ذا رشد قال القفال قوله رشدا يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون الرشد راجعا الى الخضر أى مما علمك الله وارشدك به (والثانى) ان يرجع ذلك الى موسى و يكون المعنى على أن تعلمنى وترشدنى مما علمت (المسئلة الثانية) اعلم أن هذه الآيات تدل على أن موسى عليه السلام راعى أنواعا كثيرة من الادب واللطف عندما أراد يتعلم من الخضر (فاحدها) انه جعل نفسه تبعا له لانه قال هل اتبعك (وثانيها) انه استأذن فى اثبات هذا التبعية فانه قال هل تأذن لى أن اجعل نفسى تبعا لك وهذا مبالغة عظيمة فى التواضع (وثالثها) انه قال على أن تعلمنى وهذا اقرار له على نفسه بالجهل وعلى استاذه بالعلم (ورابعها) انه قال مما علمت وصيغة من للتبعيض فطلب منه تعليم بعض ما علمه الله وهذا أيضا مشعر بالتواضع كانه يقول له لا أطلب منك أن تجعلنى مساويا فى العلم لك بل أطلب منك ان تعطينى جزأ من اجزاء

وكذا بالنبوة ولقوله تعالى وآتيناه من كل شىء سببا ومن جملة الاشياء النبوة ولقوله تعالى قلنا ياذا القرنين ونحو ذلك وقيل كان ملكا لما روى أن عمر رضى الله عنه سمع رجلا يقول لآخر ياذا القرنين فقال اللهم اغفر أما رضيتم أن تسموا باسماء الانبياء حتى تسميتم باسماء الملائكة قال ابن كثير والصحيح انه ما كان نبيا ولا ملكا وانما كان ملكا صالحا عادلا ملك الاقاليم وقهر أهلها من الملوك وغيرهم ودانت له البلاد وانه كان داعيا الى الله تعالى سائرا فى الخلق بالمعدلة التامة والسلطان المؤيد المنصور وكان الخضر على مقدمة جيشه بمنزلة المستشار الذى هو من الملك بمنزلة الوزير وقد ذكر الازرقى وغيره انه أسلم على يدى ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فطاف معه بالكعبة هو واسمعيل عليهم السلام و روى أنه حج ماشيا فلما سمع ابراهيم عليه الصلاة والسلام بقدومه تلقاه ودعا له وأوصاه بوصايا و يقال انه أتى بفرس ليركب فقال لا أركب فى بلد فيه الخليل فعند ذلك سخر له السحاب وطوى له الاسباب و بشره ابراهيم عليه الصلاة والسلام بذلك فكانت السحاب تحمله وعساكره وجميع آلاتهم اذا أرادوا غزوة قوم وقال أبو الطفيل سئل عنه على كرم الله وجهه أكان نبيا أم ملكا فقال لم يكن نبيا ولا ملكا لكن كان عبدا أحب الله فأحبه وناصح الله فناصحه سخر له السحاب ومد له الاسباب واختلف فى وجه تسميته بذى القرنين فقيل لانه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها وقيل لانه ملك

علمك كما طلب الفقير من الغنى أن يدفع اليه جزأ من اجزاء ماله (وخامسها) ان قوله مما علمت اعتراف بأن الله علمه ذلك العلم (وسادسها) ان قوله رشدا طلب منه الارشاد والهداية والارشاد هو الامر الذى لو لم يحصل لحصلت الغواية والضلال (وسابعها) ان قوله تعلمنى مما علمت معناه انه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله به وفيه اشعار بأنه يكون انعامك على عند هذا التعليم شبيها بانعام الله تعالى عليك فى هذا التعليم ولهذا المعنى قيل أنا عبد من تعلمت منه حرفا (وثامنها) ان المتابعة عبارة عن الاتيان بمثل فعل الغير لاجل كونه فعلا لذلك الغير فانا اذا قلنا لا اله الا الله فاليهود الذين كانوا قبلنا كانوا يذكرون هذه الكلمة فلا يجب كوننا متبعين لهم فى ذكر هذه الكلمة لانا لا نقول هذه الكلمة لاجل انهم قالوها بل انما نقولها لقيام الدليل على انه يجب ذكرها أما اذا أتينا بهذه الصلوات الخمس على موافقة فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فانما أتينا بها لاجل انه عليه السلام أتى بها لاجرم كنا متابعين فى فعل هذه الصلوات لرسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ثبت هذا فنقول قوله هل أتبعك يدل على انه يأتى بمثل افعال ذلك الاستاذ لمجرد كون ذلك الاستاذ آتيا بها وهذا يدل على ان المتعلم يجب عليه فى أول الامر التسليم وترك المنازعة والاعتراض (وتاسعها) ان قوله أتبعك يدل على طلب متابعته مطلقا فى جميع الامور غير مقيد بشئ دون شئ (وعاشرها) انه ثبت بالاخبار ان الخضر عرف أولا انه نبى بنى اسرائيل وانه هو موسى صاحب التوراة وهو الرجل الذى كلمه الله عز وجل من غير واسطة وخصه بالمعجزات القاهرة الباهرة ثم انه عليه السلام مع هذه المناصب الرفيعة والدرجات العالية الشريفة أتى بهذه الانواع الكثيرة من التواضع وذلك يدل على كونه عليه السلام آتيا فى طلب العلم باعظم أنواع المبالغة وهذا هو اللائق به لان كل من كانت احاطته بالعلوم أكثر كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر فكان طلبه لها أشد وكان تعظيمه لارباب العلم أكمل وأشد (والحادى عشر) انه قال هل أتبعك على ان تعلمنى فأثبت كونه تبعا له أولا ثم طلب ثانيا أن يعلمه وهذا منه ابتداء بالخدمة ثم فى المرتبة الثانية طلب منه التعليم (والثانى عشر) انه قال هل أتبعك على ان تعلمنى فلم يطلب على تلك المتابعة على التعليم شيئا كأنه قال لا اطلب منك على هذه المتابعة المال والجاه ولا غرض لى الا طلب العلم ثم انه تعالى حكى عن الخضر أنه قال انك لن تستطيع معى صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان المتعلم على قسمين متعلم ليس عنده شئ من العلم ولم يمارس القيل والقال ولم يتعود التقرير والاعتراض ومتعلم حصل العلوم الكثيرة ومارس الاستدلال والاعتراض ثم انه يريد ان يخالط انسانا أكمل منه ليبلغ درجة التمام والكمال والتعلم فى هذا القسم الثانى شاق شديد وذلك لانه اذا رأى شيئا أو سمع كلاما فربما كان ذلك بحسب الظاهر منكرا الا انه كان فى الحقيقة حقا صوابا فهذا المتعلم لاجل أنه ألف القيل والقال وتعود الكلام والجدال

الروم وفارس وقيل الروم والترك وقيل لانه كان فى رأسه أو فى تاجه ما يشبه القرنين وقيل لانه كان له ذؤابتان وقيل لانه كانت صفحتا رأسه من النحاس وقيل لانه دعا الناس الى الله عز وجل فضرب بقرنه الايمن فمات ثم بعثه الله تعالى فضرب بقرنه الايسر فمات ثم بعثه الله تعالى وقيل لانه رأى فى منامه أنه صعد الفلك فأخذ بقرنى الشمس وقيل لانه انقرض فى عهده قرنان وقيل لانه سخر له النور والظلمة فاذا سرى يهديه النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه وقيل لقب به لشجاعته هذا وأما ذو القرنين الثانى فقد قال بن كثير انه الاسكندر بن فيلبس بن مصريم بن هرمس بن ميطون بن رومى بن ليطى بن يونان بن يافث بن نونه بن شرخون بن رومية بن تونط بن نوفيل بن رومى بن الاصفر بن العيزن العيص بن اسحق بن ابراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام كذا نسبه ابن عساكر المقدونى اليونانى المصرى بانى الاسكندرية الذى يؤرخ بايامه الروم وكان متأخرا عن الاول بدهر طويل اكثر من ألفى سنة كان هذا قبل المسيح عليه السلام بنحو من ثلثمائة سنة وكان وزيره ارسطاطاليس الفيلسوف وهو الذى قتل دارا بن دارا وأذل ملوك الفرس ووطئ أرضهم ثم قال ابن كثير وانما بينا هذا لان كثيرا من الناس يعتقد أنهما واحد وان المذكور فى القرآن العظيم هو هذا المتأخر فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير كيف لا والاول كان عبدا صالحا مؤمنا

﴿ يغتر ﴾

وملكا عادلا ووزيره الخضر عليه الصلاة والسلام وقد قيل انه كان نبيا واما الثانى فقد كان كافرا ووزيره ارسطاطاليس الفيلسوف وقد كان ما بينهما من الزمان أكثر من ألفى سنة فأين هذا من ذاك انتهى قلت المقدونى نسبة الى بلدة من بلاد الروم غربى دار السلطنة السنية قسطنطينية المحمية لا زالت مشحونة بالشعائر الدينية بينهما من المسافة مسيرة خمسة عشر يوما أو نحو ذلك عند مدينة سيروز اسمها بلغة اليونانيين مقدونيا كانت سرير ملك هذا الاسكندر وهى اليوم بلقع لا يقيم بها احد ولكن فيها اعلام تحكى كمال عظمها فى عهد عمرانها ونهاية شوكة واليها وسلطانها ولقد مررت بها عند القفول من بعض المغازى السلطانية فعاينت فيها من تعاجيب الآثار ما فيه عبرة لاولى الابصار (قل) لهم فى الجواب (سأتلو عليكم) أى سأذكر لكم (منه) أى من ذى القرنين (ذكرا) أى نبأ مذكورا وحيث كان ذلك بطريق الوحى المتلو حكاية عن جهة الله عز وجل قيل سأتلو أو سأتلو فى شأنه من جهته تعالى ذكرا أى قرآنا والسين للتأكيد والدلالة على التحقق المناسب لمقام تأييده عليه الصلاة والسلام وتصديقه بانجاز وعده أى لا أترك التلاوة البتة كما فى قول من قال * سأشكر عمرا ان تراخت منيتى * أيادى لم تمنن وان هى جلت * لا للدلالة على أن التلاوة ستقع فيما يستقبل كما قيل لان هذه الآية ما نزلت بانفرادها قبل الوحى بتمام القصة بل موصولة بما بعدها ردا لما سألوه عليه الصلاة والسلام عنه وعن الروح وعن أصحاب الكهف فقال لهم عليه الصلاة والسلام ائتونى غدا أخبركم فأبطأ عليه الوحى خمسة عشر يوما أو أربعين كما ذكر فيما سلف وقوله عز وجل (انا مكناله فى الارض) شروع فى تلاوة الذكر المعهود حسبما هو المعهود التمكين

يغتر بظاهره ولاجل عدم كماله لا يقف على سره وحقيقته وحينئذ يقدم على النزاع والاعتراض والمجادلة وذلك مما يثقل سماعه على الاستاذ الكامل المتبحر فاذا اتفق مثل هذه الواقعة مرتين أو ثلاثة حصلت النفرة التامة والكراهة الشديدة وهذا هو الذى اشار اليه الخضر بقوله انك لن تستطيع معى صبرا اشارة الى أنه ألف الكلام وتعود الاثبات والابطال والاستدلال والاعتراض وقوله وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا اشارة الى كونه غير عالم بحقائق الاشياء كما هى وقد ذكرنا انه متى حصل الامران صعب السكوت وعسر التعليم وانتهى الامر بالآخرة الى النفرة والكراهية وحصول التقاطع والتنافر (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بقوله انك لن تستطيع معى صبرا على ان الاستطاعة لا تحصل قبل الفعل قالوا لو كانت الاستطاعة على الفعل حاصلة قبل حصول الفعل لكانت الاستطاعة على الصبر حاصلة لموسى عليه السلام قبل حصول الصبر فيلزم أن يصير قوله انك لن تستطيع معى صبرا كذبا ولما بطل ذلك علمنا أن الاستطاعة لا توجد قبل الفعل اجاب الجبائى عنه ان المراد من هذا القول انه يثقل عليه الصبر لا أنه لا يستطيعه يقال فى العرف ان فلانا لا يستطيع ان يرى فلانا وان يجالسه اذا كان يثقل عليه ذلك ونظيره قوله تعالى ما كانوا يستطيعون السمع أى كان يشق عليهم الاستماع فيقال له هذا عدول عن الظاهر من غير دليل وانه لا يجوز وأقول مما يؤكد هذا الاستدلال ان الذى ذكره الاصحاب قوله تعالى وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا استبعد حصول الصبر على ما لم يقف الانسان على حقيقته ولو كانت الاستطاعة قبل الفعل لكانت القدرة على العلم حاصلة قبل حصول ذلك العلم ولو كان كذلك لما كان حصول الصبر عند عدم ذلك العلم مستبعدا لان القادر على الفعل لا يبعد منه اقدامه على ذلك الفعل ولما حكم الله باستبعاده علمنا أن الاستطاعة لا تحصل قبل الفعل ثم حكى الله تعالى عن موسى انه قال ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج الطاعنون فى عصمة الانبياء بهذه الآية فقالوا ان الخضر قال لموسى انك لن تستطيع معى صبرا وقال موسى ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا وكل واحد من هذين القولين يكذب الآخر فيلزم الحاق الكذب بأحدهما وعلى التقديرين فيلزم صدور الكذب عن الانبياء عليهم السلام والجواب أن يحمل قوله انك لن تستطيع معى صبرا على الاكثر الاغلب وعلى هذا التقدير فلا يلزم ما ذكره (المسئلة الثانية) لفظة ان كان كذا تفيد الشك فقوله ستجدنى ان شاء الله صابرا معناه ستجدنى صابرا ان شاء الله كونى صابرا وهذا يقتضى وقوع الشك فى ان الله هل يريد كونه صابرا أم لا ولا شك ان الصبر فى مقام التوقف واجب فهذا يقتضى ان الله تعالى قد لا يريد من العبد ما أوجبه عليه وهذا يدل على صحة قولنا أن الله تعالى قد يأمر بالشئ مع أنه لا يريده قالت المعتزلة هذه الكلمة انما تذكر رعاية للادب فيما يريد الانسان أن يفعله فى المستقبل فيقال لهم هذا الادب ان

فيهما اقتدار وتمهيدا لاسباب يقال مكنه ومكن له ومعنى الاول جعله قادرا وقويا ومعنى الثاني جعل له قدرة وقوة ولتلازمهما في الوجود وتقاربهما في المعنى يستعمل كل منهما في محل الآخر كما في قوله عز وعلا مكناهم في الارض مالم نمكن لكم أي جعلناهم قادرين من حيث القوى والاسباب والآلات على أنواع التصرفات فيها مالم نجعله لكم من القوة والسعة في المال والاستظهار بالعدد والاسباب فكأنه قيل مالم نمكنكم فيها أي مالم نجعلكم قادرين على ذلك فيها أو مكنا لهم في الارض مالم نمكن لكم وهكذا اذا كان التمكين مأخوذا من المكان بناء على توهم ميمه اصلية كما اشير اليه في سورة يوسف عليه الصلاة والسلام والمعنى انا جعلنا له مكنة وقدرة على التصرف في الارض من حيث التدبير والرأي والاسباب حيث سخر له السحاب ومد له في الاسباب وبسط له النور وكان الليل والنهار عليه سواء وسهل عليه السير في الارض وذللت له طرقها (وآتيناه من كل شئ) أراده من مهمات ملكه ومقاصده المتعلقة بسلطانه (سببا) أي طريقا يوصله اليه وهو كل ما يتوصل به الى المقصود من علم أو قدرة أ(وآلة فاتبع) بالقطع أي فأراد بلوغ المغرب فأتبع (سببا) يوصله اليه ولعل قصد بلوغ المغرب ابتداء لمراعاة الحركة الشمسية وقرئ فاتبع من الافتعال والفرق أن الاول فيه معنى الادراك والاسراع دون الثاني (حتى اذا بلغ مغرب الشمس) أي منتهى الارض من ﴿ عظم ﴾ جهة المغرب بحيث لا يتمكن أحد من مجاوزته ووقف على حافة البحر المحيط الغربي الذي يقال له اوقيانوس الذي فيه الجزائر المسماة بالخالدات التي هي مبدأ الاطوال على أحد القولين (وجدها) أي الشمس (تغرب في عين حمئة) أي ذات حمأة وهي الطين الاسود من حمئت البئر اذا كثرت

صح معناه فقد ثبت المطلوب وان فسد فأي أدب في ذكر هذا الكلام الباطل (المسئلة الثالثة) قوله تعالى ولا أعصي لك أمرا يدل على ان ظاهر الامر يفيد الوجوب لان تارك المأمور به عاص بدلالة هذه الآية والعاصي يستحق العقاب لقوله تعالى ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم وهذا يدل على أن ظاهر الامر يفيد الوجوب (المسئلة الرابعة) قول الخضر لموسى عليه السلام وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا نسبة الى قلة العلم والخبر وقول موسى له ستجدني ان شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا تواضع شديد واظهار للتحمل التام والتواضع الشديد وكل ذلك يدل على ان الواجب على المتعلم اظهار التواضع بأقصى الغايات وأما المعلم فان رأى ان في التغليظ على المتعلم ما يفيده نفعا وارشادا الى الخير فالواجب عليه ذكره فان السكوت عنه يوقع المتعلم في الغرور والنخوة وذلك يمنعه من التعلم ثم قال فان اتبعتني فلا تسألني عن شئ حتى أحدث لك منه ذكرا أي لا تستخبرني عما تراه مني مما لا تعلم وجهه حتى أكون انا المبتدئ لتعليمك اياه واخبارك به وفي قراءة ابن عامر فلا تسألن محركة اللام مشددة النون بغير ياء وروى عنه لا تسألني مثقلة مع الياء وهي قراءة نافع وفي قراءة الباقين لا تسألن خفيفة والمعنى واحد * قوله تعالى (فانطلقا حتى اذا ركبا في السفينة خرقها قال اخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا امرا قال ألم أقل انك لن تستطيع معي صبرا قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا) اعلم ان موسى وذلك العالم لما تشارطا على الشرط المذكور وسارا فانتهيا الى موضع احتاجا فيه الى ركوب السفينة فركباها وأقدم ذلك العالم على خرق السفينة وأقول لعله أقدم على خرق جدار السفينة لتصير السفينة بسبب ذلك الخرق معيبة ظاهرة العيب فلا يتسارع الغرق الى أهلها فعند ذلك قال موسى له اخرقتها لتغرق أهلها وفيه بحثان (البحث الاول) قرأ حمزة والكسائي ليغرق أهلها بفتح الياء على اسناد الغرق الى الاهل والباقون لتغرق أهلها على الخطاب والتقدير لتغرق أنت أهل هذه السفينة (البحث الثاني) ان موسى عليه السلام لما شاهد ذلك الامر المنكر بحسب الظاهر نسي الشرط المتقدم فلهذا المعنى قال ما قال واحتج الطاعنون في عصمة الانبياء عليهم السلام بهذه الآية من وجهين (الاول) انه ثبت بالدليل ان ذلك العالم كان من الانبياء ثم قال موسى عليه السلام اخرقتها لتغرق أهلها فان صدق موسى في هذا القول دل ذلك على صدور الذنب العظيم عن ذلك النبي وان كذب دل على صدور الكذب عن موسى عليه السلام (الثاني) انه التزم ان لا يعترض على ذلك العالم وجرت العهود المؤكدة لذلك ثم انه خالف تلك العهود وذلك ذنب (والجواب عن الاول) انه لما شاهد موسى عليه السلام منه الامر الخارج عن العادة قال هذا الكلام لا لأجل انه اعتقد فيه انه فعل قبيحا بل لانه أحب ان يقف على وجهه وسببه وقد يقال في الشئ العجيب الذي لا يعرف سببه انه امر يقال أمر الامر اذا

عظيم وقال الشاعر * داهية دهياء (وعن الثانى) انه فعل بناء على النسيان ثم انه تعالى حكى عن ذلك العالم أنه لما خالف الشرط لم يزد على أن قال ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا فعندهذا اعتذر موسى عليه السلام بقوله لا تؤاخذنى بما نسيت اراد انه نسى وصيته ولا مؤاخذة على الناسى بشئ ولا ترهقنى من أمرى عسرا يقال رهقه اذا غشيه وأرهقه اياه أى ولا تغشنى من أمرى عسرا وهو اتباعه اياه يعنى ولا تعسر على متابعتك ويسرها على بالاغضاء وترك المناقشة وقرئ عسرا بضمتين * قوله تعالى (فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله قال اقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا قال ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا) اعلم ان لفظ الغلام قد يتناول الشاب البالغ بدليل انه يقال رأى الشيخ خير من مشهد الغلام جعل الشيخ نقيضا للغلام وذلك يدل على أن الغلام هو الشاب واصله من الاغتلام وهو شدة الشبق وذلك انما يكون فى الشباب وأما تناول هذا اللفظ للصبى الصغير فظاهر وليس فى القرآن كيف لقياه هل كان يلعب مع جمع من الغلمان الصبيان أو كان منفردا وهل كان مسلما أو كان كافرا وهل كان منعزلا وهل كان بالغا أو كان صغيرا وكان اسم الغلام بالصغير أليق وان احتمل الكبير الا أن قوله بغير نفس أليق بالبالغ منه بالصبى لان الصبى لا يقتل وان قتل وأيضا فهل قتله بأن حز رأسه أو بان ضرب رأسه بالجدار أو بطريق آخر فليس فى لفظ القرآن ما يدل على شى من هذه الاقسام فعند هذا قال موسى عليه السلام أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا وفيه مباحث (البحث الاول) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو زاكية بالالف والباقون زكيه بغير ألف قال الكسائى الزاكية والزكية لغتان ومعناهما الطاهرة وقال أبو عمرو الزاكية التى لم تذنب والزكية التى اذنبت ثم تابت (البحث الثانى) ظاهر الآية يدل على أن موسى عليه السلام استبعد أن يقتل النفس الا لاجل القصاص بالنفس وليس الامر كذلك لانه قد يحل دمه بسبب من الاسباب وجوابه ان السبب الاقوى هو ذاك (البحث الثالث) النكر أعظم من الامر فى القبح وهذا اشارة الى ان قتل الغلام اقبح من خرق السفينة لان ذلك ما كان اتلافا للنفس لانه كان يمكن ان لا يحصل الغرق فأما ههنا حصل الاتلاف قطعا فكان أنكر وقيل ان قوله لقد جئت شيئا امرا أى عجبا والنكر أعظم من العجب وقيل النكر ما انكرته العقول ونفرت عنه النفوس فهو أبلغ فى تقبيح الشئ من الامر ومنهم من قال الامر أعظم قال لان خرق السفينة يؤدى الى اتلاف نفوس كثيرة وهذا القتل ليس الا اتلاف شخص واحد وأيضا الامر هو الداهية العظيمة فهو أبلغ من النكر وانه تعالى حكى عن ذلك العالم أنه ما زاد على ان ذكره ما عاهده عليه فقال ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا وهذا عين ما ذكره فى المسئلة الاولى الا أنه زاد ههنا لفظة لك لان هذه اللفظة تؤكد

خمأتها وقرئ حامية أى حارة روى أن معاوية رضى الله عنه قرأ حامية وعنده ابن عباس رضى الله عنهما فقال حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمرو بن العاص كيف تقرأ قال كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه الى كعب الاحبار كيف تجد الشمس تغرب قال فى ماء وطين وروى فى ثأط فوافق قول ابن عباس رضى الله عنهما وليس بينهما منافاة قطعية لجواز كون العين جامعة بين الوصفين وكون الياء فى الثانية منقلبة عن الهمزة لانكسار ما قبلها وأما رجوع معاوية الى قول ابن عباس رضى الله عنهم بما سمعه من كعب مع أن قراءته أيضا مسموعة قطعا فلكون قراءة ابن عباس رضى الله عنهما قطعية فى مدلولها وقراءته محتملة ولعله لما بلغ ساحل المحيط رآها كذلك اذ ليس فى مطمح بصره غير الماء كما يلوح به قوله تعالى وجدها تغرب (ووجد عندها) عند تلك العين (قوما) قيل كان لباسهم جلود الوحوش وطعامهم ما لفظه البحر وكانوا كفارا فخيره الله جل ذكره بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوهم الى الايمان وذلك قوله تعالى (قلنا ياذا القرنين اما أن تعذب) بالقتل من أول الامر (واما أن تتخذ فيهم حسنا) أى امرا ذا حسن على حذف المضاف أو على طريقة اطلاق المصدر على موصوفه مبالغة وذلك بالدعوة الى الاسلام والارشاد الى الشرائع ومحل أن مع صلته اما الرفع على الابتداء أو الخبرية وأما النصب على المفعولية أى اما تعذيبك واقع أو اما امرك تعذيبك أو اما تفعل تعذيبك وهكذا الحال فى الاتخاذ ومن لم يقل بنبوته قال كان ذلك الخطاب بواسطة نبى فى ذلك العصر أو كان ذلك الهاما لا وحيا بعد أن كان ذلك التخيير موافقا لشريعة ذلك النبى (قال) أى ذو القرنين لذلك النبى أو لمن عنده من خواصه بعدما تلقى امره تعالى مختارا للشق الاخير (أما من ظلم) أى نفسه ولم يقبل دعوتى

وأصر على ما كان عليه من الظلم العظيم الذى هو الشرك (فسوف نعذبه) بالقتل وعن قتادة انه كان يطبخ من كفر فى القدور ومن امن أعطاه وكساه (ثم يرد الى ربه) فى الآخرة (فيعذبه) فيها (عذابا نكرا) أى منكرا فظيعا وهو عذاب النار وفيه دلالة ظاهرة على ان الخطاب لم يكن بطريق الوحى اليه وأن مقاولته كانت مع النبى أو مع من عنده من أهل مشورته (وأما من آمن) بموجب دعوتى (وعمل) عملا (صالحا) حسبما يقتضيه الايمان (فله) فى الدارين (جزاء الحسنى) أى فله المثوبة الحسنى أو الفعلة الحسنى أو الجنة جزاء على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة قدم على المبتدا اعتناء به أو منصوب بمضمر أى نجزى بها جزاء والجملة حالية او معترضة بين المبتدا والخبر المتقدم عليه أو حال أى مجزيا بها أو تمييز وقرئ منصوبا غير منون على أنه سقط تنوينه لالتقاء الساكنين أو مرفوعا منونا على انه المبتدأ والحسنى بدله والخبر الجار والمجرور وقيل خير بين القتل والاسر والجواب من باب الاسلوب الحكيم لان الظاهر التخيير بينهما وهم كفار فقال اما الكافر فيراعى فى حقه قوة الاسلام وأما المؤمن فلا يتعرض له الا بما يجب ويجوز أن تكون اما واما للتوزيع دون التخيير أى وليكن شأنك اما التعذيب واما الاحسان فالاول لمن بقى على حاله والثانى لمن تاب (وسنقول له من أمرنا) أى مما نأمر به (يسرا) أى سهلا متيسرا غير شاق وتقديره ذا يسر أو أطلق عليه المصدر مبالغة وقرئ بضمتين ❊يصح❊ (ثم أتبع سببا) أى طريقا راجعا من مغرب الشمس موصلا الى مشرقها (حتى اذا بلغ مطلع الشمس) يعنى الموضع الذى تطلع عليه الشمس أولا من معمورة الارض وقرئ بفتح اللام على تقدير مضاف أى مكان طلوع الشمس فانه مصدر قيل لغه فى اثنتى عشرة سنة وقيل فى أقل من ذلك بناء على ما ذكر من أنه سخر له السحاب وطوى له الاسباب

التوبيخ فعند هذا قال موسى ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى مع العلم بشدة حرصه على مصاحبته وهذا كلام نادم شديد الندامة ثم قال قد بلغت من لدنى عذرا والمراد منه انه يمدحه بهذه الطريقة من حيث احتمله مرتين أولا وثانيا مع قرب المدة وبقى مما يتعلق بالقراءة فى هذه الآية ثلاثة مواضع (الاول) قرأ نافع برواية ورش وقالون وابن عامر وأبو بكر عن عاصم نكرا بضم الكاف فى جميع القرآن والباقون ساكنة الكاف حيث كان وهما لغتان (الثانى) الكل قرؤا لا تصاحبنى بالالف الا يعقوب فانه قرأ لا تصحبنى من صحب والمعنى واحد (الثالث) فى لدنى قراآت (الاولى) قراءة نافع وأبى بكر فى بعض الروايات عن عاصم من لدنى بتخفيف النون وضم الدال (الثانية) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم لدنى مشددة النون وضم الدال (الثالثة) قرأ أبو بكر عن عاصم بالاشمام وغير اشباع (الرابعة) لدنى بضم اللام وسكون الدال فى بعض الروايات عن عاصم وهذه القراآت كلها لغات فى هذه اللفظة قوله تعالى (فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد ان ينقض فاقامه قال لو شئت لاتخذت عليه اجرا قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) اعلم ان تلك القرية هى انطاكية وقيل هى الايلة وههنا سؤالات (الاول) ان الاستطعام ليس من عادة الكرام فكيف اقدم عليه موسى وذلك العالم لان موسى كان من عادته عرض الحاجة وطلب الطعام ألا ترى انه تعالى حكى عنه أنه قال فى قصة موسى عند ورود ماء مدين رب انى لما أنزلت الى من خير فقير (الجواب) ان اقدام الجائع على الاستطعام أمر مباح فى كل الشرائع بل ربما وجب ذلك عند خوف الضرر الشديد (السؤال الثانى) لم قال حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها وكان من الواجب أن يقال استطعما منهم والجواب ان التكرير قد يكون للتأكيد كقول الشاعر

ايت الغراب غداة ينعب دائما ❊ كان الغراب مقطع الاوداج

(السؤال الثالث) ان الضيافة من المندوبات فتركها ترك للمندوب وذلك أمر غير منكر فكيف يجوز من موسى عليه السلام مع علو منصبه انه غضب عليهم الغضب الشديد الذى لاجله ترك العهد الذى التزمه مع ذلك العالم فى قوله ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى وأيضا مثل هذا الغضب لاجل ترك الاكل فى ليلة واحدة لا يليق بادون الناس فضلا عن كليم الله (الجواب) أما قوله الضيافة من المندوبات قلنا قد تكون من المندوبات وقد تكون من الواجبات بان كان الضيف قد بلغ فى الجوع الى حيث لو لم يأكل لهلك واذا كان التقدير ما ذكرناه لم يكن الغضب الشديد لاجل ترك الاكل يوما فان قالوا ما بلغ فى الجوع الى حد الهلاك بدليل أنه قال لو شئت لاتخذت عليه اجرا وكان يطلب على اصلاح ذلك الجدار أجرة ولو كان قد بلغ فى الجوع الى حد الهلاك لما قدر على ذلك العمل فكيف

[illegible] النهار خرجوا الى معايشهم

[illegible] الا انه ما بلغ حد الهلاك ثم قال

تعالى فأبوا أن يضيفوهما وفيه مباحث (البحث الاول) يضيفوهما يقال ضافه اذا كان له ضيفا وحقيقته مال اليه من ضاف السهم عن الغرض ونظيره زاره من الازورار واضافه وضيفه أنزله وجعله ضيفه وعن النبي صلى الله عليه وسلم كانوا أهل قرية لئاما (البحث الثاني) رأيت في كتب الحكايات ان أهل تلك القرية لما سمعوا نزول هذه الآية استحيوا وجاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمل من الذهب وقالوا يا رسول الله نشتري بهذا الذهب أن تجعل الباء تاء حتى تصير القراءة هكذا فأتوا أن يضيفوهما أي أتوا لأن [illegible] ان أهل تلك القرية أتوا اليهما لأجل الضيافة وقالوا غرضنا منه أن ندفع عنا هذا اللؤم فامتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان تغيير هذه النقطة يوجب دخول الكذب في كلام الله وذلك يوجب القدح في الالهية فعلمنا ان تغيير النقطة الواحدة من القرآن يوجب بطلان الربوبية والعبودية ثم قال تعالى فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه أي فرأيا في القرية حائطا مائلا فان قيل كيف يجوز وصف الجدار بالارادة مع ان الارادة من صفات الاحياء قلنا هذا اللفظ ورد على سبيل الاستعارة وله نظائر في الشعر قال

يريد الرمح صدر أبي براء * ويرغب عن دماء بني عقيل

وأنشد الفراء

ان دهرا يلف شملي بجمل * لزمان يهم بالاحسان

وقال الراعي

في مهمه قلقت به هاماتها * قلق الفؤوس اذا أردن نصولا

ونظيره من القرآن قوله تعالى ولما سكت عن موسى الغضب وقوله أن نقول له كن فيكون وقوله قالتا أتينا طائعين وقوله أن ينقض يقال انقض اذا أسرع سقوطه من انقضاض الطائر وهو انفعل مطاوع قضضته وقيل انقض افعل من النقض كاحمر من الحمرة وقرئ أن ينقض من النقض وأن ينقاض من انقاضت السن اذا انشقت طولا وأما قوله فأقامه قيل نقضه ثم بناه وقيل أقامه بيده وقيل مسحه بيده فقام واستوى وكان ذلك من معجزاته ولقائل أن يقول ان تلك الحالة كانت حالة اضطرار وافتقار الى الطعام فلأجل [illegible] موسى [illegible] فلا جرم [illegible] لو شئت لاتخذت عليه أجرا أي [illegible] أجرة [illegible] الى تحصيل المطعوم [illegible] علينا [illegible] هذا الكلام [illegible] (السؤال الاول) قوله هذا فراق

[illegible]

ومن بعضهم خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء فقال بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم فاذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس الاخرى ومعي صاحب يعرف لسانهم فقالوا له جئتنا تنظر كيف تطلع الشمس قال فبينما نحن كذلك اذ سمعنا كهيئة الصلصلة فغشي علي ثم أفقت وهم يمسحونني بالدهن فلما طلعت الشمس على الماء اذا هي فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلونا سربا لهم فلما ارتفع النهار خرجوا الى البحر يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج لهم ومن مجاهد من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الارض (كذلك) أي أمرهما كما وصفناه لك في رفعة المحل وبسطة الملك أو أمره فيهم كأمره في أهل المغرب من التخيير والاختيار ويجوز أن يكون صفة مصدر [illegible]

[illegible]

من الثياب والأكنان والجبال وغير ذلك [illegible]

سؤال الآخر يحصل الفراق حيث قال ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني فلما ذكر هذا السؤال فارقه ذلك العالم وقال هذا فراق بيني وبينك أي هذا الفراق الموعود (الثاني) أن يكون قوله هذا اشارة الى السؤال الثالث أي هذا الاعتراض هو سبب الفراق (السؤال الثاني) ما معنى قوله هذا فراق بيني وبينك (الجواب) معناه هذا فراق حصل بيني وبينك فأضيف المصدر الى الظرف حكى القفال عن بعض أهل العربية ان البين هو الوصل لقوله لقد تقطع بينكم فكان المعنى هذا فراق بيننا أي اتصالنا كقول القائل أخزى الله الكاذب مني ومنك أي أحدنا هكذا قاله الزجاج ثم قال العالم لموسى عليه السلام سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا أي سأخبرك بحكمة هذه المسائل الثلاثة وأصل التأويل راجع الى قولهم آل الامر الى كذا أي صار اليه فاذا قيل ما تأويله فالمعنى ما مصيره * قوله تعالى (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان هذه المسائل الثلاثة مشتركة في شيء واحد وهو ان أحكام الانبياء صلوات الله عليهم مبنية على الظواهر كما قال عليه السلام نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر وهذا العالم ما كانت أحكامه مبنية على ظواهر الامور بل كانت مبنية على الاسباب الحقيقية الواقعة في نفس الامر وذلك لان الظاهر انه يحرم التصرف في أموال الناس وفي أرواحهم في المسئلة الاولى وفي الثانية من غير سبب ظاهر يبيح ذلك التصرف لان تخريق السفينة تنقيص لملك الانسان من غير سبب ظاهر وقتل الغلام تفويت لنفس معصومة من غير سبب ظاهر والاقدام على اقامة ذلك الجدار المائل في المسئلة الثالثة تحمل التعب والمشقة من غير سبب ظاهر وفي هذه المسائل الثلاثة ليس حكم ذلك العالم فيها مبنيا عن الاسباب الظاهرة المعلومة بل كان ذلك الحكم مبنيا على أسباب معتبرة في نفس الامر وهذا يدل على ان ذلك العالم كان قد آتاه الله قوة عقلية قدر بها ان يشرف على بواطن الامور ويطلع بها على حقائق الاشياء فكانت مرتبة موسى عليه السلام في معرفة الشرائع والاحكام بناء الامر على الظواهر وهذا العالم كانت مرتبته الوقوف على بواطن الاشياء وحقائق الامور والاطلاع على أسرارها الكامنة فبهذا الطريق ظهر ان مرتبته في العلم كانت فوق مرتبة موسى عليه السلام اذا عرفت هذا فنقول المسائل الثلاثة مبنية على حرف واحد وهو ان عند تعارض الضررين يجب تحمل الادنى لدفع الاعلى فهذا هو الاصل المعتبر في المسائل الثلاثة (أما المسئلة الاولى) فلان

الظلم الـ توجه الاول وأما على الوجوه الباقية فالمراد بالحسنى ما يتناول ما جرى عليه وما قصد رغبة وما لا [illegible] أي طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب آخذا من الجنوب الى الشمال (حتى [illegible] سدين) [illegible] ين الذين [illegible] ما وهو منقطع أرض الترك مما يلي المشرق لا جبلا أرمينية وأذربيجان كما توهم وقرئ بالضم قيل ما كان من خلق الله تعالى فهو مضموم وما كان من عمل الخلق فهو مفتوح وانتصاب بين على المفعولية لانه مبلوغ وهو من الظروف التي تستعمل أسماء أيضا كما ارتفع في قوله تعالى لقد تقطع بينكم وانجر في قوله تعالى هذا فراق بيني وبينك (وجد من دونهما) أي من ورائهما مجاوزا عنهما (قوما) أي أمة من الناس (لا يكادون يفقهون قولا) لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم وقرئ من باب الافعال أي لا يفهمون السامع كلامهم واختلفوا في أنهم من أي الاقوام فقال الضحاك هم جيل من الترك وقال السدي الترك سرية من يأجوج ومأجوج خرجت فضرب ذو القرنين السد فبقيت خارجة فجميع الترك منهم وعن قتادة أنهم اثنان وعشرون قبيلة سد ذو القرنين على احدى وعشرين قبيلة منهم وبقيت واحدة فسموا الترك ﴿ذلك﴾ لانهم تركوا خارجين قال أهل التاريخ أولاد نوح عليه السلام ثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب والعجم

ذلك العالم علم انه لو لم يعب تلك السفينة بالتخريق لغصبها ذلك الملك وفاتت منافعها عن ملاكها بالكلية فوقع التعارض بين أن يخرقها ويعيبها فتبقى مع ذلك على ملاكها أو بين أن لا يخرقها فيغصبها الملك فتفوت منافعها بالكلية على ملاكها ولا شك ان الضرر الاول أقل فوجب تحمله لدفع الضرر الثانى الذى هو أعظمهما (وأما المسئلة الثانية) فكذلك لان بقاء ذلك الغلام حيا كان مفسدة للوالدين فى دينهم وفى دنياهم ولعله علم بالوحى ان المضار الناشئة من قتل ذلك الغلام أقل من المضار الناشئة بسبب حصول تلك المفاسد للابوين فلهذا السبب أقدم على قتله (والمسئلة الثالثة) أيضا كذلك لان المشقة الحاصلة بسبب الاقدام على اقامة ذلك الجدار ضررها أقل من سقوطه لأنه لو سقط لضاع مال تلك الايتام وفيه ضرر شديد فالحاصل ان ذلك العالم كان مخصوصا بالوقوف على بواطن الاشياء وبالاطلاع على حقائقها كما هى عليها فى أنفسها وكان مخصوصا ببناء الاحكام الحقيقية على تلك الاحوال الباطنة وأما موسى عليه السلام فما كان كذلك بل كانت أحكامه مبنية على ظواهر الامور فلا جرم ظهر التفاوت بينهما فى العلم فان قال قائل فحاصل الكلام انه تعالى أطلعه على بواطن الاشياء وحقائقها فى نفسها وهذا النوع من العلم لا يمكن تعلمه وموسى عليه السلام انما ذهب اليه ليتعلم منه العلم فكان من الواجب على ذلك العالم أن يظهر له علما يمكن له تعلمه وهذه المسائل الثلاثة علوم لا يمكن تعلمها فما الفائدة فى ذكرها واظهارها والجواب ان العلم بظواهر الاشياء يمكن تحصيله بناء على معرفة الشرائع الظاهرة وأما العلم ببواطن الاشياء فانما يمكن تحصيله بناء على تصفية الباطن وتجريد النفس وتطهير القلب عن العلائق الجسدانية ولهذا المعنى قال تعالى فى [illegible] العالم وعلمناه من لدنا علما ثم ان موسى عليه السلام لما كملت مرتبته فى علم الشريعة بعثه الله الى هذا العالم ليعلم موسى عليه السلام ان كمال الدرجة فى أن ينتقل الانسان من علوم الشريعة المبنية على الظواهر الى علوم الباطن المبنية على الاشراف على البواطن والتطلع على حقائق الامور (المسئلة الثانية) اعلم ان ذلك العالم أجاب عن المسئلة الاولى بقوله أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا وفيه فوائد (الفائدة الاولى) ان تلك السفينة كانت لاقوام محتاجين متعيشين بها فى البحر والله تعالى سماهم مساكين واعلم ان الشافعى رحمه الله احتج بهذه الآية على أن حال الفقير فى الضر والحاجة أشد من حال المسكين لانه تعالى سماهم مساكين مع انهم كانوا يملكون تلك السفينة (الفائدة الثانية) ان مراد ذلك العالم من هذا الكلام انه ما كان مقصودى من تخريق تلك السفينة تغريق أهلها بل مقصودى ان ذلك الملك الظالم كان يغصب السفن الخالية عن العيوب فجعلت هذه السفينة معيبة لئلا يغصبها ذلك الظالم فان ضرر هذا التخريق أسهل من الضرر الحاصل من ذلك الغصب فان قيل وهل يجوز للاجنبى أن يتصرف فى ملك الغير

والروم وسام أبو الحبشة والزنج والنوبة ويافث أبو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج (قالوا) أى بواسطة مترجمهم أو بالذات على أن يكون فهم ذى القرنين كلامهم وإفهام كلامه اياهم من جملة ما آتاه الله تعالى من الاسباب (ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج) قد ذكرنا أنهما من أولاد يافث بن نوح عليه السلام وقيل يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل واختلف فى صفاتهم فقيل فى غاية صغر الجثة وقصر القامة لا يزيد قدهم على شبر واحد وقيل فى نهاية عظم الجسم وطول القامة تبلغ قدودهم نحو مائة وعشرين ذراعا وفيهم من عرضه كذلك وقيل لهم مخالب وأضراس كالسباع وهما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف وقيل عربيان من أج الظليم اذا أسرع وأصلهما الهمز كما قرأ عاصم وقد قرئ بغير همز ومنع صرفهما للتعريف والتأنيث (مفسدون فى الارض) أى فى أرضنا بالقتل والتخريب واتلاف الزرع قيل كانوا يخرجون ايام الربيع فلا يتركون أخضر الا أكلوه ولا يابسا الا احتملوه وقيل كانوا يأكلون الناس أيضا (فهل نجعل لك خرجا) أى جعلا من أموالنا والفاء لتفريع العرض على افسادهم فى الارض وقرئ خراجا وكلاهما واحد كالنول والنوال وقيل الخراج ما على الارض والذمة والخرج المصدر وقيل الخرج ما كان على كل رأس والخراج ما كان على البلد وقيل الخرج ما تبرعت به

لمثل هذا الغرض قلنا هذا مما يختلف أحواله بحسب اختلاف الشرائع فلعل هذا المعنى كان جائزا فى تلك الشريعة وأما فى شريعتنا فمثل هذا الحكم غير بعيد فانا اذا علمنا ان الذين يقطعون الطريق و يأخذون جميع ملك الانسان فان دفعنا الى قاطع الطريق بعض ذلك المال سلم الباقى فحينئذ يحسن منا أن ندفع بعض مال ذلك الانسان الى قاطع الطريق ليسلم الباقى وكان هذا منا يعد احسانا الى ذلك المالك (الفائدة الثالثة) ان ذلك التخريق وجب أن يكون واقعا على وجه لا تبطل به تلك السفينة بالكلية اذ لو كان كذلك لم يكن الضرر الحاصل من غصبها أبلغ من الضرر الحاصل من تخريقها وحينئذ لم يكن تخريقها جائزا (الفائدة الرابعة) لفظ الوراء فى قوله وكان وراءهم فيه قولان (الاول) ان المراد منه وكان امامهم ملك يأخذ هكذا قاله الفراء ونظيره قوله تعالى من ورائهم جهنم أى امامهم وكذلك قوله تعالى و يذرون وراءهم يوما ثقيلا وتحقيقه ان كل ما غاب عنك فقد توارى عنك وأنت متوار عنه فكل ما غاب عنك فهو وراءك وامام الشئ وقدامه اذا كان غائبا عنه متواريا عنه فلم يبعد اطلاق لفظ وراء عليه (والقول الثانى) يحتمل أن يكون الملك كان من وراء الموضع الذى يركب منه صاحبه وكان مرجع السفينة عليه (وأما المسئلة الثانية) وهى قتل الغلام فقد أجاب العالم عنها بقوله وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين قيل ان ذلك الغلام كان بالغا وكان يقطع الطريق و يقدم على الافعال المنكرة وكان أبواه يحتاجان الى دفع شر الناس عنه والتعصب له وتكذيب من يرميه بشئ من المنكرات وكان يصير ذلك سببا لوقوعهما فى الفسق ور بما أدى ذلك الفسق الى الكفر وقيل انه كان صبيا الا أن الله تعالى علم منه انه لو صار بالغا حصلت منه هذه المفاسد وقوله فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا الخشية بمعنى الخوف وغلبة الظن والله تعالى قد أباح له قتل من غلب على ظنه تولد مثل هذا الفساد منه وقوله أن يرهقهما طغيانا فيه قولان (الاول) أن يكون المراد ان ذلك الغلام يحمل أبويه على الطغيان والكفر كقوله ولا ترهقنى من أمرى عسرا أى لا تحملنى على عسر وضيق وذلك لان أبويه لاجل حب ذلك الولد يحتاجان الى الذب عنه ور بما احتاجا الى موافقته فى تلك الافعال المنكرة (والثانى) أن يكون المعنى ان ذلك الولد كان يعاشرهما معاشرة الطغاة الكفار فان قيل هل يجوز الاقدام على قتل الانسان لمثل هذا الظن قلنا اذا تأكد ذلك الظن بوحى الله جاز ثم قال تعالى فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة أى أردنا أن يرزقهما الله تعالى ولدا خيرا من هذا الغلام زكاة أى دينا وصلاحا وقيل ان ذكر الزكاة ههنا على مقابلة قول موسى عليه السلام اقتلت نفسا زاكية بغير نفس فقال العالم أردنا أن يرزق الله هذين الابوين خيرا بدلا عن ابنهما هذا ولدا يكون خيرا منه كما ذكرته من الزكاة و يكون المراد من الزكاة الطهارة فكان موسى عليه السلام قال أقتلت نفسا طاهرة لانها ما وصلت الى حد البلوغ فكانت زاكية طاهرة عن المعاصى فقال العالم ان تلك النفس

والخراج ما لزمك أداؤه (على أن تجعل بيننا و بينهم سدا) وقرئ بالضم (قال ما مكنى) بالادغام وقرئ بالفك أى ما مكننى (فيه ربى) وجعلنى فيه مكينا قادرا من الملك والمال وسائر الاسباب (خير) أى مما تريدون أن تبذلوه الى من الخرج فلا حاجة بى اليه (فأعينونى بقوة) أى بفعلة وصناع يحسنون البناء والعمل و بآلات لابد منها فى البناء والفاء لتفريع الامر بالاعانة على خيرية ما مكننى الله تعالى فيه من مالهم أو على عدم قبول خرجهم (أجعل) جواب الامر (بينكم و بينهم) تقديم اضافة الظرف الى ضمير المخاطبين على اضافته الى ضمير يأجوج ومأجوج لاظهار كمال العناية بمصالحهم كما راعوه فى قولهم بيننا و بينهم (ردما) أى حاجزا حصينا و برزخا متينا وهو أكبر من السد وأوثق يقال ثوب مردم أى فيه رقاع فوق رقاع وهذا اسعاف بمرامهم فوق ما يرجونه (آتونى زبر الحديد) جمع زبرة كغرف فى غرفة وهى القطعة الكبيرة وهذا لا ينافى رد خراجهم لان المأمور به الايتاء بالثمن أو المناولة كما ينبئ عنه القراءة بوصل الهمزة اى جيئونى بزبر الحديد على حذف الباء كما فى أمرتك الخير ولان ايتاء الآلة من قبيل الاعانة بالقوة دون الخراج على العمل ﴿ وانه ﴾ ولعل تخصيص الامر بالايتاء بها دون سائر الآلات من الصخور والحطب ونحوهما لما أن الحاجة اليها أمس اذ هى الركن فى السد

وان كانت زاكية طاهرة فى الحال الا انه تعالى علم منهما انهما اذا بلغت اقدمت على الطغيان والكفر فأردنا أن يجعل لهما ولدا أعظم زكاة وطهارة منه وهو الذى يعلم الله منه انه عند البلوغ لا يقدم على شئ من هذه المحظورات ومن قال ان ذلك الغلام كان بالغا قال المراد من صفة نفسه بكونها زاكية انه لم يظهر عليه ما يوجب قتله ثم قال وأقرب رحما أى يكون هذا البدل أقرب عطفا ورحمة بأبويه بأن يكون أبر بهما وأشفق عليهما والرحم الرحمة والعطف روى انه ولدت لهما جارية تزوجها نبى فولدت نبيا هدى الله على يديه أمة عظيمة بقى من مباحث هذه الآية موضعان فى القراءة (الاول) قرأ نافع وأبو عمرو يبدلهما بفتح الباء وتشديد الدال وكذلك فى التحريم أن يبدله أزواجا وفى القلم عسى ربنا أن يبدلنا والباقون ساكنة الباء خفيفة الدال وهما لغتان أبدل يبدل و بدل يبدل (الثانى) قراءة ابن عامر فى احدى الروايتين عن أبى عمرو رحما بضم الحاء والباقون بسكونها وهما لغتان مثل نكر ونكر وشغل وشغل (وأما المسئلة الثالثة) وهى اقامة الجدار فقد أجاب العالم عنها بان الداعى له اليها انه كان تحت ذلك الجدار كنز وكان ذلك ليتيمين فى تلك المدينة وكان أبوهما صالحا ولما كان ذلك الجدار مشرفا على السقوط ولو سقط لضاع ذلك الكنز فأراد الله ابقاء ذلك الكنز على ذينك اليتيمين رعاية لحقهما ورعاية لحق صلاح أبيهما وأمرنى باقامة ذلك الجدار رعاية لهذه المصالح وفى الآية فوائد (الفائدة الاولى) انه تعالى سمى ذلك الموضع قرية حيث قال اذا أتيا أهل قرية وسماه أيضا مدينة حيث قال وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة (الفائدة الثانية) اختلفوا فى هذا الكنز فقيل انه كان مالا وهذا هو الصحيح لوجهين (الاول) ان المفهوم من لفظ الكنز هو المال (والثانى) ان قوله ويستخرجا كنزهما يدل على ان ذلك الكنز هو المال وقيل انه كان علما بدليل أنه قال وكان أبوهما صالحا والرجل الصالح يكون كنزه العلم لا المال اذ كنز المال لا يليق بالصلاح بدليل قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم وقيل كان لوحا من ذهب مكتوب فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن اليها لا اله الا الله محمد رسول الله (الفائدة الثالثة) قوله وكان أبوهما صالحا يدل على أن صلاح الآباء يفيد العناية بأحوال الابناء وعن جعفر بن محمد كان بين الغلامين وبين الاب الصالح سبعة آباء وعن الحسن بن على انه قال لبعض الخوارج فى كلام جرى بينهما بم حفظ الله مال الغلامين قال بصلاح أبيهما قال فأبى وجدى خير منه قال قد أنبأنا الله انكم قوم خصمون وذكروا أيضا ان ذلك الاب الصالح كان الناس يضعون الودائع اليه فيردها اليهم بالسلامة فان قيل اليتيمان هل عرف أحدهما حصول الكنز تحت ذلك الجدار أو ما عرف أحدهما فان كان

ووجودها أعز وقيل حفر للاساس حتى بلغ الماء وجعل الاساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم حتى سد ما بين الجبلين الى أعلاهما وكان مائة فرسخ وذلك قوله عز قائلا (حتى اذا ساوى بين الصدفين) أى آتوه اياها فأخذ يبنى شيئا فشيئا حتى اذا جعل ما بين ناحيتى الجبلين من البنيان مساويا لهما فى السمك على النهج المحكى قيل كان ارتفاعه مائتى ذراع وعرضه خمسين ذراعا وقرئ سوى من التسوية وسووى على البناء للمجهول (قال) للعملة (انفخوا) أى بالكيران فى الحديد المبنى ففعلوا (حتى اذا جعله) اى المنفوخ فيه (نارا) أى كالنار فى الحرارة والهيئة واسناد الجعل المذكور الى ذى القرنين مع انه فعل العملة للتنبيه على انه العمدة فى ذلك وهم بمنزلة الآلة (قال) للذين يتولون أمر النحاس من الاذابة ونحوها (آتونى أفرغ عليه قطرا) أى آتونى قطرا أى نحاسا مذابا أفرغ عليه قطرا فحذف الاول لدلالة الثانى عليه وقرئ بالوصل أى جيئونى كأنه يستدعيهم للاعانة باليد عند الافراغ واسناد الافراغ الى نفسه للسر الذى وقفت عليه آنفا وكذا الكلام فى قوله تعالى ساوى وقوله تعالى أجعل (فما اسطاعوا) بحذف تاء الافتعال تخفيفا وحذرا عن تلاقى المتقاربين وقرئ بالادغام وفيه جمع بين الساكنين على غير حده وقرئ بقلب السين صادا

الاول امتنع أن يتركوا سقوط ذلك الجدار وان كان الثانى فكيف يمكنهم بعد البلوغ استخراج ذلك الكنز والانتفاع به (الجواب) لعل اليتيمين كانا جاهلين به الا أن وصيهما كان عالما به ثم ذلك الوصى غاب وأشرف ذلك الجدار فى غيبته على السقوط ولما قرر العالم هذه الجوابات قال رحمة من ربك يعنى انما فعلت هذه الفعال لغرض أن تظهر رحمة الله تعالى لانها بأسرها ترجع الى حرف واحد وهو تحمل الضرر الادنى لدفع الضرر الأعلى كما قررناه ثم قال وما فعلته عن أمرى يعنى ما فعلت ما رأيت من هذه الاحوال عن أمرى واجتهادى ورأيى وانما فعلته بامر الله ووحيه لان الاقدام على تنقيص أموال الناس واراقة دمائهم لايجوز الا بالوحى والنص القاطع بقى فى الآية سؤال وهو انه قال فأردت أن أعيبها وقال فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وقال فأراد ربك أن يبلغا أشدهما كيف اختلفت الاضافة فى هذه الارادات الثلاث وهى كلها فى قصة واحدة وفعل واحد (والجواب) انه لما ذكر العيب أضافه الى ارادة نفسه فقال أردت أن أعيبها ولما ذكر القتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيها على انه من العظماء فى علوم الحكمة فلم يقدم على هذا القتل الا لحكمة عالية ولما ذكر رعاية مصالح اليتيمين لاجل صلاح أبيهما أضافه الى الله تعالى لان المتكفل بمصالح الابناء لرعاية حق الآباء ليس الا الله سبحانه وتعالى * قوله تعالى (ويسئلونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا انا مكناله فى الارض وآتيناه من كل شىء سببا فاتبع سببا) اعلم ان هذا هو القصة الرابعة من القصص المذكورة فى هذه السورة وفيها مسائل (المسئلة الاولى) قد ذكرنا فى أول هذه السورة ان اليهود أمروا المشركين أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة أصحاب الكهف وعن قصة ذى القرنين وعن الروح فالمراد من قوله ويسئلونك عن ذى القرنين هو ذلك السؤال (المسئلة الثانية) اختلف الناس فى ان ذا القرنين من هو وذكروا فيه أقوالا (الاول) انه هو الاسكندر بن فيلقوس اليونانى قالوا والدليل عليه ان القرآن دل على ان الرجل المسمى بذى القرنين بلغ ملكه الى أقصى المغرب بدليل قوله حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة وأيضا بلغ ملكه أقصى المشرق بدليل قوله حتى اذا بلغ مطلع الشمس وأيضا بلغ ملكه أقصى الشمال بدليل ان يأجوج ومأجوج قوم من الترك يسكنون فى أقصى الشمال وبدليل ان السد المذكور فى القرآن يقال فى كتب التواريخ انه مبنى فى أقصى الشمال فهذا الانسان المسمى بذى القرنين فى القرآن قد دل القرآن على ان ملكه بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال وهذا هو تمام القدر المعمور من الارض ومثل هذا الملك البسيط لاشك انه على خلاف العادات وما كان كذلك وجب أن يبقى ذكره مخلدا على وجه الدهر وأن لايبقى مخفيا مستترا والملك الذى اشتهر فى كتب التواريخ انه بلغ ملكه الى هذا الحد ليس الا الاسكندر وذلك لانه لما مات أبوه جمع ملوك الروم بعد ان كانوا طوائف ثم جمع

والفاء فصيحة أى فعلوا ما أمروا به من ايتاء القطر أو الاتيان فأفرغه عليه فاختلط والتصق بعضه ببعض فصار جبلا صلدا فجاء يأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه وينقبوه فما اسطاعوا (أن يظهروه) أى يعلوه ويرقوا فيه لارتفاعه وملاسته (وما استطاعوا له نقبا) لصلابته وثخانته وهذه معجزة عظيمة لان تلك الزبر الكثيرة اذا أثرت فيها حرارة النار لا يقدر الحيوان على أن يحوم حولها فضلا عن النفخ فيها الى أن تكون كالنار أو عن افراغ القطر عليها فكأنه سبحانه وتعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك المباشرين للاعمال فكان ما كان والله على كل شىء قدير وقيل بناه من الصخور مرتبطا بعضها ببعض بكلاليب من حديد ونحاس مذاب فى تجاويفها بحيث لم يبق هناك فرجة أصلا (قال) أى ذو القرنين لمن عنده من أهل تلك الديار وغيرهم (هذا) اشارة الى السد وقيل الى تمكينه من بنائه والفضل للمتقدم أى هذا الذى ظهر على يدى وحصل بمباشرتى من السد الذى شأنه ما ذكر من المتانة وصعوبة المنال (رحمة) أى أثر رحمة عظيمة عبر عنه بها مبالغة (من ربى) على كافة العباد لاسيما على مجاوريه وفيه ايذان بانه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادة بل هو احسان الهى محض وان ظهر بمباشرتى والتعرض لوصف الربوبية لتربية معنى الرحمة (فاذا جاء

وعد ربى) مصدر بمعنى المفعول وهو يوم القيامة لاخروج يأجوج ومأجوج كما قيل اذلا يساعده النظم الكريم والمراد بمجيئه ماينتظم مجيئه ومجئ مباديه من خروجهم ﴿ ٧٥١ ﴾ وخروج الدجال ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام ونحو ذلك لادنو وقوعه فقط كما قيل فان بعض الامور التى ستحكى يقع بعد مجيئه حتما (جعله) أى السد المشار اليه مع متانته ورصانته وفيه من الجزالة ماليس فى توجيه الاشارة السابقة الى التمكين المذكور (دكاء) أى أرضا مستوية وقرئ دكا أى مدكوكا مسوى بالارض وكل ماانبسط بعدار تفاع فقد اندك ومنه الجمل الادك أى المنبسط السنام وهذا الجعل وقت مجئ الوعد بمجئ بعد مباديه وفيه بيان لعظم قدرته عزوجل بعد بيان سعة رحمته (وكان وعد ربى) أى وعده المعهود أو كل ماوعد به فيدخل فيه ذلك دخولا أوليا (حقا) ثابتا لامحالة واقعا البتة وهذه الجملة تذييل من ذى القرنين لما ذكره من الجملة الشرطية ومقرر مؤكد لمضمونها وهو آخر ماحكى من قصته وقوله عزوجل (وتركنا بعضهم) كلام مسوق من جنابه تعالى معطوف على قوله تعالى جعله دكا ومحقق لمضمونه أى جعلنا بعض الخلائق (يومئذ) أى يوم اذ جاء الوعد بمجئ بعض مباديه (يموج فى بعض) آخر منهم يضطربون اضطراب أمواج البحر ويختلط انسهم وجنهم حيارى من شدة الهول ولعل ذلك قبل النفخة الاولى أو تركنا بعض

ملوك المغرب وقهرهم وأمعن حتى انتهى الى البحر الاخضر ثم عاد الى مصر فبنى الاسكندرية وسماها باسم نفسه ثم دخل الشام وقصد بنى اسرائيل وورد بيت المقدس وذبح فى مذبحه ثم انعطف الى أرمينية وباب الابواب ودانت له العراقيون والقبط والبربر ثم توجه نحو دارا بن دارا وهزمه مرات الى أن قتله صاحب حرسه فاستولى الاسكندر على ممالك الفرس ثم قصد الهند والصين وغزا الامم البعيدة ورجع الى خراسان وبنى المدن الكثيرة ورجع الى العراق ومرض بشهر زور ومات بها فلما ثبت بالقرآن ان ذا القرنين كان رجلا ملك الارض بالكلية أو مايقرب منها وثبت بعلم التواريخ ان الذى هذا شأنه ماكان الا الاسكندر وجب القطع بأن المراد بذى القرنين هو الاسكندر بن فيلقوس اليونانى ثم ذكروا فى سبب تسميته بهذا الاسم وجوها (الاول) انه لقب بهذا اللقب لاجل بلوغه قرنى الشمس أى مطلعها ومغربها كما لقب ازدشير بن بهمن بطويل اليدين لنفوذ أمره حيث أراد (والثانى) ان الفرس قالوا ان دارا الاكبر كان قد تزوج بابنة فيلقوس فلما قرب منها وجد منها رائحة منكرة فردها على أبيها فيلقوس وكانت قد حملت منه بالاسكندر فولدت الاسكندر بعد عودها الى أبيها فبقى الاسكندر عند فيلقوس وأظهر فيلقوس انه ابنه وهو فى الحقيقة ابن دارا الاكبر قالوا والدليل عليه ان الاسكندر لما أدرك دارا بن دارا وبه رمق وضع رأسه فى حجره وقال لدارا يا أخى أخبرنى عمن فعل هذا لانتقم لك منه فهذا ماقاله الفرس قالوا وعلى هذا التقدير فالاسكندر أبوه دارا الاكبر وأمه بنت فيلقوس فهو انما تولد من أصلين مختلفين الفرس والروم وهذا الذى قاله الفرس انما ذكروه لانهم أرادوا أن يجعلوه من نسل ملوك العجم حتى لايكون ملك مثله من نسب غير نسب ملوك العجم وهو فى الحقيقة كذب وانما قال الاسكندر لدارا يا أخى على سبيل التواضع وأكرم دارا بذلك الخطاب (والقول الثانى) قال أبو الريحان الهروى المنجم فى كتابه الذى سماه بالآثار الباقية عن القرون الخالية قيل ان ذا القرنين هو أبو كرب شمس بن عبير بن افريقش الحميرى فانه بلغ ملكه مشارق الارض ومغاربها وهو الذى افتخر به أحد الشعراء من حمير حيث قال

قد كان ذو القرنين قبلى مسلما ❊ ملكا علا فى الارض غير مفند
بلغ المشارق والمغارب يبتغى ❊ أسباب ملك من كريم سيد

ثم قال أبو الريحان ويشبه أن يكون هذا القول أقرب لان الاذواء كانوا من اليمن وهم الذين لاتخلو أساميهم من ذى كذا كذى النادوذى نواس وذى النون وغير ذلك (والقول الثالث) انه كان عبدا صالحا ملكه الله الارض وأعطاه العلم والحكمة وألبسه الهيبة وان كنا لانعرف انه من هو ثم ذكروا فى تسميته بذى القرنين وجوها (الاول) سأل ابن الكوا عليا رضى الله عنه عن ذى القرنين وقال أملك هو أم نبى فقال لاملك ولانبى كان عبدا صالحا ضرب على قرنه الايمن فى طاعة الله فمات ثم بعثه الله فضرب على

يأجوج ومأجوج يموج في بعض أي حين يخرجون من السد مزدحمين في البلاد روي انهم يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس ثم يبعث الله عز وجل نغفا في أقفائهم فيدخل آذانهم فيموتون موت نفس واحدة فيرسل الله تعالى عليهم طيرا فتلقيهم في البحر ثم يرسل مطرا يغسل الارض ويطهرها من نتنهم حتى يتركها كالزلفة ثم يوضع فيها البركة وذلك بعد نزول عيسى عليه الصلاة والسلام وقتل الدجال (ونفخ في الصور) هي النفخة الثانية بقضية الفاء في قوله تعالى (فجمعناهم) ولعل عدم التعرض لذكر النفخة الاولى لانها داهية عامة ليس فيها حالة مختصة بالكفار ولئلا يقع الفصل بين ما يقع في النشأة الاولى من الاحوال والاهوال وبين ما يقع منها في النشأة الآخرة أي جمعنا الخلائق بعدما تفرقت أوصالهم وتمزقت أجسادهم في صعيد واحد للحساب والجزاء (جمعا) أي جمعا عجيبا لا يكتنه كنهه (وعرضنا جهنم) أي أظهرناها وأبرزناها (يومئذ) أي يوم إذ جمعنا الخلائق كافة (للكافرين) منهم حيث ﴿ والذين ﴾ جعلناها بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظا وزفيرا (عرضا) أي عرضا فظيعا هائلا لا يقادر قدره وتخصيص العرض بهم مع انها بمرأى من أهل الجمع قاطبة لان ذلك لاجلهم خاصة (الذين كانت أعينهم) وهم في الدنيا (في غطاء) كثيف وغشاوة

قرنه الايسر فمات فبعثه الله فسمي بذي القرنين وملك ملكه (الثاني) سمي بذي القرنين لانه انقرض في وقته قرنان من الناس (الثالث) قيل كان صفحتا رأسه من نحاس (الرابع) كان على رأسه ما يشبه القرنين (الخامس) لتاجه قرنان (السادس) عن النبي صلى الله عليه وسلم سمي ذا القرنين لانه طاف قرني الدنيا يعني شرقها وغربها (السابع) كان له قرنان أي ضفيرتان (الثامن) ان الله تعالى سخر له النور والظلمة فاذا سرى يهديه النور من امامه وتمده الظلمة من ورائه (التاسع) يجوز أن يلقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشا كأنه ينطح أقرانه (العاشر) رأى في المنام كأنه صعد الفلك فتعلق بطرفي الشمس وقرنيها وجانبيها فسمي لهذا السبب بذي القرنين (الحادي عشر) سمي بذلك لانه دخل النور والظلمة (والقول الرابع) ان ذا القرنين ملك من الملائكة عن عمر انه سمع رجلا يقول يا ذا القرنين فقال اللهم اغفر ما رضيتم ان تسموا باسماء الانبياء حتى تسموا باسماء الملائكة فهذا جملة ما قيل في هذا الباب والقول الاول أظهر لاجل الدليل الذي ذكرناه وهو ان مثل هذا الملك العظيم يجب أن يكون معلوم الحال عند أهل الدنيا والذي هو معلوم الحال بهذا الملك العظيم هو الاسكندر فوجب أن يكون المراد بذي القرنين هو هو الا ان فيه اشكالا قويا وهو انه كان تلميذ ارسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه فتعظيم الله اياه يوجب الحكم بان مذهب ارسطاطاليس حق وصدق وذلك مما لا سبيل اليه والله أعلم (المسئلة الثالثة) اختلفوا في ذي القرنين هل كان من الانبياء أم لا منهم من قال انه كان نبيا واحتجوا عليه بوجوه (الاول) قوله انا مكناه في الارض والاولى حمله على التمكين في الدين والتمكين الكامل في الدين هو النبوة (والثاني) قوله وآتيناه من كل شيء سببا ومن جملة الاشياء النبوة فمقتضى العموم في قوله وآتيناه من كل شيء سببا هو انه تعالى آتاه في النبوة سببا (الثالث) قوله تعالى قلنا يا ذا القرنين اما ان تعذب واما ان تتخذ فيهم حسنا والذي يتكلم الله معه لا بد وأن يكون نبيا ومنهم من قال انه كان عبدا صالحا وما كان نبيا (المسئلة الرابعة) في دخول السين في قوله سأتلو معناه اني سأفعل هذا ان وفقني الله تعالى عليه وانزل فيه وحيا وأخبرني عن كيفية تلك الحال وأما قوله تعالى انا مكناه في الارض فهذا التمكين يحتمل أن يكون المراد منه التمكين بسبب النبوة ويحتمل أن يكون المراد منه التمكين بسبب الملك من حيث انه ملك مشارق الارض ومغاربها والاول أولى لان التمكين بسبب النبوة أعلى من التمكين بسبب الملك وحمل كلام الله على الوجه الاكمل الافضل أولى ثم قال وآتيناه من كل شيء سببا قالوا السبب في أصل اللغة عبارة عن الحبل ثم استعير لكل ما يتوصل به الى المقصود وهو يتناول العلم والقدرة والآلة فقوله وآتيناه من كل شيء سببا معناه أعطيناه من كل شيء من الامور التي يتوصل بها الى تحصيل ذلك الشيء ثم ان الذين قالوا انه كان نبيا قالوا من جملة الاشياء النبوة فهذا يدل على انه تعالى أعطاه الطريق الذي به يتوصل الى تحصيل النبوة

غليظة محاطة بذلك من جميع الجوانب (عن ذكرى) عن الآيات المؤدية لاولى الابصار المتدبرين فيها الى ذكرى بالتوحيد والتمجيد أو كانت أعين بصائرهم فى غطاء عن ذكرى على وجه يليق بشأنى أو عن القرآن الكريم (وكانوا) مع ذلك (لا يستطيعون) لفرط تصامهم عن الحق وكمال عداوتهم للرسول عليه الصلاة والسلام (سمعا) استماعا لذكرى وكلامى الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهذا تمثيل لاعراضهم عن الادلة السمعية كما أن الاول تصوير لتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالابصار والموصول نعت للكافرين أو بدل منه أو بيان جئ به لذمهم بما فى حيز الصلة وللاشعار بعلية ذلك لاصابة ما أصابهم من عرض جهنم لهم فان ذلك انما هو لعدم استعمال مشاعرهم فيما عرض لهم فى الدنيا من الآيات واعراضهم عنها مع كونها أسبابا منجية عما ابتلوا به فى الآخرة (أفحسب الذين كفروا) أى كفروا بى كما يعرب عنه قوله تعالى عبادى والحسبان بمعنى الظن وقد قرئ أفظن والهمزة للانكار والتوبيخ على معنى انكار الواقع واستقباحه كما فى قولك أضربت أباك لا لانكار الوقوع كما فى قوله أأضرب أبى والفاء للعطف على مقدر يفصح عنه الصلة على توجيه الانكار والتوبيخ الى المعطوفين جميعا كما اذا قدر المعطوف عليه فى قوله تعالى أفلا تعقلون منفيا أى ألا تسمعون فلا تعقلون لا الى المعطوف

والذين أنكروا كونه نبيا قالوا المراد به وآتيناه من كل شئ يحتاج اليه فى اصلاح ملكه سببا الا أن لقائل أن يقول ان تخصيص العموم خلاف الظاهر فلا يصار اليه الا بدليل ثم قال فأتبع سببا ومعناه انه تعالى لما أعطاه من كل شئ سببه فاذا أراد شيئا أتبع سببا يوصله اليه ويقربه منه قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو فاتبع بتشديد التاء وكذلك ثم اتبع أى سلك وسار والباقون فأتبع بقطع الالف وسكون التاء مخففة ثم قوله تعالى (حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا ياذا القرنين اما أن تعذب واما أن تتخذ فيهم حسنا قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا) اعلم ان المعنى انه أراد بلوغ المغرب فأتبع سببا يوصله اليه حتى بلغه أما قوله وجدها تغرب فى عين حمئة ففيه مباحث (الاول) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم فى عين حامية بالالف من غير همزة أى حارة وعن أبى ذر قال كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على جمل فرأى الشمس حين غابت فقال أتدرى يا أباذر أين تغرب هذه فقلت الله ورسوله أعلم قال فانها تغرب فى عين حامية وهى قراءة ابن مسعود وطلحة وابن عامر والباقون حمئة وهى قراءة ابن عباس واتفق ان ابن عباس كان عند معاوية فقرأ معاوية حامية بالالف فقال ابن عباس حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف تقرأ قال كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه الى كعب الاحبار كيف تجد الشمس تغرب قال فى ماء وطين كذلك نجده فى التوراة والحمئة ما فيه ماء وحمأة سوداء واعلم انه لا تنافى بين الحمئة والحامية فجائز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعا (البحث الثانى) انه ثبت بالدليل ان الارض كرة وان السماء محيطة بها ولا شك ان الشمس فى الفلك وأيضا قال ووجد عندها قوما ومعلوم ان جلوس قوم فى قرب الشمس غير موجود وأيضا الشمس أكبر من الارض بمرات كثيرة فكيف يعقل دخولها فى عين من عيون الارض اذا ثبت هذا فنقول تأويل قوله تغرب فى عين حمئة من وجوه (الاول) ان ذا القرنين لما بلغ موضعها فى المغرب ولم يبق بعده شئ من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب فى عين وهدة مظلمة وان لم تكن كذلك فى الحقيقة كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب فى البحر اذا لم ير الشط وهى فى الحقيقة تغيب وراء البحر هذا هو التأويل الذى ذكره أبو على الجبائى فى تفسيره (الثانى) ان للجانب الغربى من الارض مساكن يحيط البحر بها فالناظر الى الشمس يتخيل كأنها تغيب فى تلك البحار ولا شك ان البحار الغربية قوية السخونة فهى حامية وهى أيضا حمئة لكثرة ما فيها من الحمأة السوداء والماء فقوله تغرب فى عين حمئة اشارة الى أن الجانب الغربى من الارض قد أحاط به البحر وهو موضع شديد السخونة (الثالث) قال أهل الاخبار ان الشمس تغيب فى عين كثيرة الماء والحمأة وهذا فى غاية البعد وذلك لانا اذا أرصدنا كسوفا قمريا فاذا اعتبرناه ورأينا ان المغربيين قالوا حصل هذا

الكسوف فى أول الليل ورأينا المشرقيين قالوا حصل فى أول النهار فعلمنا ان أول الليل عند أهل المغرب هو أول النهار الثانى عند أهل المشرق بل ذلك الوقت الذى هو أول الليل عندنا فهو وقت العصر فى بلد ووقت الظهر فى بلد آخر ووقت الضحوة فى بلد ثالث ووقت طلوع الشمس فى بلد رابع ونصف الليل فى بلد خامس واذا كانت هذه الاحوال معلومة بعد الاستقراء والاعتبار وعلمنا ان الشمس طالعة ظاهرة فى كل هذه الاوقات كان الذى يقال انها تغيب فى الطين والحمأة كلاما على خلاف اليقين وكلام الله تعالى مبرأ عن هذه التهمة فلم يبق الا أن يصار الى التأويل الذى ذكرناه ثم قال تعالى ووجد عندها قوما الضمير فى قوله عندها الى ماذا يعود فيه قولان (الاول) انه عائد الى الشمس ويكون التأنيث للشمس لان الانسان لما تخيل ان الشمس تغرب هناك كان سكان هذا الموضع كأنهم سكنوا بالقرب من الشمس (والقول الثانى) أن يكون الضمير عائدا الى العين الحامية وعلى هذا القول فالتأويل ماذكرناه ثم قال تعالى قلنا ياذا القرنين اما ان تعذب واما ان تتخذ فيهم حسنا وفيه مباحث (الاول) ان قوله تعالى قلنا ياذا القرنين اما ان تعذب واما ان تتخذ فيهم حسنا يدل على انه تعالى تكلم معه من غير واسطة وذلك يدل على انه كان نبيا وحمل هذا اللفظ على ان المراد أنه خاطبه على ألسنة بعض الانبياء فهو عدول عن الظاهر (البحث الثانى) قال أهل الاخبار فى صفة ذلك الموضع أشياء عجيبة قال ابن جريج هناك مدينة لها اثنا عشر ألف باب لولا أصوات أهلها سمع الناس وجبة الشمس حين تغيب (البحث الثالث) قوله تعالى قلنا ياذا القرنين اما ان تعذب واما ان تتخذ فيهم حسنا يدل على ان سكان آخر المغرب كانوا كفارا فخير الله ذا القرنين فيهم بين التعذيب لهم ان أقاموا على كفرهم وبين المن عليهم والعفو عنهم وهذا التخيير على معنى الاجتهاد فى أصلح الامرين كما خير نبيه عليه السلام بين المن على المشركين وبين قتلهم وقال الاكثرون هذا التعذيب هو القتل وأما اتخاذ الحسنى فيهم فهو تركهم أحياء ثم قال ذو القرنين أما من ظلم أى ظلم نفسه بالاقامة على الكفر والدليل على ان هذا هو المراد انه ذكر فى مقابلته وأما من آمن وعمل صالحا ثم قال فسوف نعذبه أى بالقتل فى الدنيا ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا أى منكرا فظيعا وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم جزاء الحسنى بالنصب والتنوين والباقون بالرفع والاضافة فعلى القراءة الاولى يكون التقدير فله الحسنى جزاء كما تقول لك هذا الثوب هبة وأما على القراءة الثانية ففى التفسير وجهان (الاول) فله جزاء الفعلة الحسنى والفعلة الحسنى هى الايمان والعمل الصالح (والثانى) أن يكون التقدير فله جزا المثوبة الحسنى ويكون المعنى فله ذا الجزاء الذى هو المثوبة الحسنى والجزاء موصوف بالمثوبة الحسنى واضافة الموصوف الى الصفة مشهورة كقوله ولدار الآخرة وحق اليقين ثم قال وسنقول له من أمرنا يسرا أى لا نأمره بالصعب الشاق ولكن بالسهل الميسر من الزكاة

فقط كما اذا قدر مثبتا أى أتسمعون فلا تعقلون والمعنى أكفروا بى مع جلالة شأنى فحسبوا (أن يتخذوا عبادى من دونى) من الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام وهم تحت سلطانى وملكوتى (أولياء) معبودين ينصرونهم من بأسى وما قيل انها للعطف على ماقبلها من قوله تعالى كانت الخ وكانوا الخ دلالة على أن الحسبان ناشئ من التعامى والتصام وأدخل عليها همزة الانكار ذما على ذم وقطعا له عن المعطوف عليهما لفظا لا معنى للايذان بالاستقلال المؤكد للذم يأباه ترك الاضمار والتعرض لوصف آخر غير التعامى والتصام على أنهما أخرجا مخرج الاحوال الجبلية لهم ولم يذكرا من حيث انهما من أفعالهم الاختيارية الحادثة كحسبانهم ليحسن تفريعه عليهما وأيضا فانه دين قديم لهم لا يمكن جعله ناشئا عن تصامهم عن كلام الله عز وجل وتخصيص الانكار بحسبانهم المتأخر عن ذلك تعسف لا يخفى وما فى حيز صلة أن ساد مسد مفعولى حسب كما فى قوله تعالى وحسبوا أن لا تكون فتنة أى أفحسبوا انهم يتخذونهم أولياء على معنى أن ذلك ليس من الاتخاذ فى شئ لما انه انما يكون من الجانبين وهم عليهم الصلاة والسلام منزهون عن ولايتهم بالمرة لقولهم سبحانك أنت ولينا من دونهم وقيل مفعوله الثانى محذوف أى أفحسبوا اتخاذهم نافعا لهم والوجه هو الاول لان فى هذا تسليما لنفس الاتخاذ واعتدادا به فى الجملة وقرئ أفحسب الذين كفروا

﴿ والخراج ﴾

والخراج وغيرهما وتقديره ذا يسر كقوله قولا ميسورا وقرئ يسرا بضمتين * قوله تعالى (ثم أتبع سببا حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا) اعلم انه تعالى لما بين أولا انه قصد أقرب الاماكن المسكونة من مغرب الشمس أتبعه ببيان انه قصد أقرب الاماكن المسكونة من مطلع الشمس فبين الله تعالى انه وجد الشمس تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا وفيه قولان (الاول) انه ليس هناك شجر ولا جبل ولا ابنية تمنع من وقوع شعاع الشمس عليهم فلهذا السبب اذا طلعت الشمس دخلوا فى اسراب واغلة فى الارض أو غاصوا فى الماء فيكون عند طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف فى المعاش وعند غروبها يشتغلون بتحصيل مهمات المعاش حالهم بالضد من أحوال سائر الخلق (والقول الثانى) ان معناه انه لا ثياب لهم ويكونون كسائر الحيوانات عراة أبدا ويقال فى كتب الهيئة ان حال أكثر الزنج كذلك وحال كل من يسكن البلاد القريبة من خط الاستواء كذلك وذكر فى كتب التفسير ان بعضهم قال سافرت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء القوم فقيل بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم فاذا أحدهم يفرش اذنه الواحدة ويلبس الاخرى ولما قرب طلوع الشمس سمعت كهيئة الصلصلة فغشى على ثم أفقت وهم يمسحوننى بالدهن فلما طلعت الشمس اذا هى فوق الماء كهيئة الزيت فادخلونا سربا لهم فلما ارتفع النهار جعلوا يصطادون السمك ويطرحونه فى الشمس فينضج ثم قال تعالى كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا وفيه وجوه (الاول) أى كذلك فعل ذو القرنين اتبع هذه الاسباب حتى بلغ ما بلغ وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به (والثانى) كذلك جعل الله أمر هؤلاء القوم على ما قد أعلم رسوله عليه السلام فى هذا الذكر (والثالث) كذلك كانت حالته مع أهل المطلع كما كانت مع أهل المغرب قضى فى هولاء كما قضى فى أولئك من تعذيب الظالمين والاحسان الى المؤمنين (والرابع) انه تم الكلام عند قوله كذلك والمعنى انه تعالى قال أمر هؤلاء القوم كما وجدهم عليه ذو القرنين ثم قال بعده وقد أحطنا بما لديه خبرا أى كنا عالمين بأن الامر كذلك * قوله تعالى (ثم اتبع سببا حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا قالوا يا ذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الارض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما) اعلم ان ذا القرنين لما بلغ المشرق والمغرب أتبع سببا آخر وسلك الطريق حتى بلغ بين السدين وقد آتاه الله من العلم والقدرة ما يقوم بهذه الامور وههنا مباحث (الاول) قرأ حمزة والكسائى السدين بضم السين وسدا بفتحها حيث كان وقرأ حفص عن عاصم بالفتح فيهما فى كل القرآن وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بالضم فيهما فى كل القرآن وقرأ ابن كثير وأبو عمرو السدين وسدا ههنا بفتح السين فيهما وضمها فى يس

أى أفحسبهم وكافيهم أن يتخذوهم أولياء على الابتداء والخبر أو الفعل والفاعل فان النعت اذا اعتمد الهمزة ساوى الفعل فى العمل فالهمزة حينئذ بمعنى انكار الوقوع (انا اعتدنا جهنم) أى هيأناها (للكافرين) المعهودين عدل عن الاضمار ذما لهم واشعارا بأن ذلك الاعتاد بسبب كفرهم المتضمن لحسبانهم الباطل (نزلا) أى شيئا يتمتعون به عند ورودهم وهو ما يقام للنزيل أى الضيف مما حضر من الطعام وفيه تخطئة لهم فى حسبانهم وتهكم بهم حيث كان اتخاذهم اياهم أولياء من قبيل اعتاد العتاد واعداد الزاد ليوم المعاد فكأنه قيل انا اعتدنا لهم مكان ما أعدوا لانفسهم من العدة والذخر جهنم عدة وفى ايراد النزل ايماء الى أن لهم وراء جهنم من العذاب ما هو انموذج له وقيل النزل موضع النزول ولذلك فسره ابن عباس رضى الله عنهما بالمثوى (قل هل ننبئكم) الخطاب الثانى للكفرة على وجه التوبيخ والجمع فى صيغة المتكلم لتعيينه من أول الامر وللايذان بمعلومية النبأ للمؤمنين أيضا (بالاخسرين أعمالا) نصب على التمييز والجمع للايذان بتنوعها وهذا بيان لحال الكفرة باعتبار ما صدر عنهم من الاعمال الحسنة فى أنفسها وفى حسبانهم أيضا حيث كانوا معجبين بها واثقين بنيل ثوابها ومشاهدة آثارها غب بيان حالهم باعتبار أعمالهم السيئة فى أنفسها مع كونها حسنة فى حسبانهم (الذين ضل سعيهم) فى اقامة تلك الاعمال أى ضاع وبطل

في الموضعين قال الكسائي هما لغتان وقيل ماكان من صنعة بني آدم فهو السد بفتح السين وماكان من صنع الله فهو السد بضم السين والجمع سدد وهو قول أبي عبيدة وابن الانباري قال صاحب الكشاف السد بالضم فعل بمعنى مفعول أي هو مما فعله الله وخلقه والسد بالفتح مصدر حدث يحدثه الناس (البحث الثاني) الاظهر ان موضع السدين في ناحية الشمال وقيل جبلان بين أرمينية و بين أذربيجان وقيل هذا المكان في مقطع أرض الترك وحكى محمد بن جرير الطبري في تاريخه ان صاحب اذربيجان أيام فتحها وجه انسانا اليه من ناحية الخزر فشاهده ووصف انه بنيان رفيع وراء خندق عميق وثيق منيع وذكر ابن خرداذ في كتاب المسالك والممالك ان الواثق بالله رأى في المنام كأنه فتح هذا الردم فبعث بعض الخدم اليه ليعاينوه فخرجوا من باب الابواب حتى وصلوا اليه وشاهدوه فوصفوا انه بناء من لبن من حديد مشدود بالنحاس المذاب وعليه باب مقفل ثم ان ذلك الانسان لما حاول الرجوع أخرجهم الدليل على البقاع المحاذية لسمرقند قال أبو الريحان مقتضى هذا أن موضعه في الربع الشمالي الغربي من المعمورة والله أعلم بحقيقة الحال (البحث الثالث) ان ذا القرنين لما بلغ مابين السدين وجد من دونهما أي من ورائهما مجاوزا عنهما قوما أي أمة من الناس لايكادون يفقهون قولا قرأ حمزة والكسائي يفقهون بضم الياء وكسر القاف على معنى لايمكنهم تفهيم غيرهم والباقون بفتح الياء والقاف والمعنى انهم لايعرفون غير لغة أنفسهم وماكانوا يفهمون اللسان الذي يتكلم به ذو القرنين ثم قال تعالى قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الارض فان قيل كيف فهم ذو القرنين منهم هذا الكلام بعد ان وصفهم الله بقوله لايكادون يفقهون قولا والجواب ان نقول كاد فيه قولان (الاول) ان اثباته نفي ونفيه اثبات فقوله لايكادون يفقهون قولا لايدل على انهم لايفهمون شيئا بل يدل على انهم قد يفهمون على مشقة وصعوبة (والقول الثاني) ان كاد معناه المقاربة وعلى هذا القول فقوله لايكادون يفقهون قولا أي لايعلمون وليس لهم قرب من أن يفقهوا وعلى هذا القول فلابد من اضمار وهو أن يقال لايكادون يفهمونه الا بعد تقريب ومشقة من اشارة ونحوها وهذه الآية تصلح أن يحتج بها على صحة القول الاول في تفسير كاد (البحث الرابع) في يأجوج ومأجوج قولان (الاول) انهما اسمان أعجميان موضوعان بدليل منع الصرف (والقول الثاني) انهما مشتقان وقرأ عاصم يأجوج ومأجوج بالهمز وقرأ الباقون ياجوج وماجوج وقرئ في رواية آجوج ومأجوج والقائلون بكون هذين الاسمين مشتقين ذكروا وجوها (الاول) قال الكسائي يأجوج مأخوذ من تأجج النار وتلهبها فلسرعتهم في الحركة سموا بذلك ومأجوج من موج البحر (الثاني) ان يأجوج مأخوذ من تأجج الملح وهو شدة ملوحته فلشدتهم في الحركة سموا بذلك (الثالث) قال القتيبي هو مأخوذ من قولهم أج الظليم في مشيه يئج أجا

بالكلية (في الحيوة الدنيا) متعلق بالسعي لابالضلال لان بطلان سعيهم غير مختص بالدنيا قيل المراد بهم أهل الكتابين قاله ابن عباس وسعد بن أبي وقاص ومجاهد رضي الله عنهم ويدخل في الاعمال حينئذ ماعملوه من الاحكام المنسوخة المتعلقة بالعبادات وقيل الرهابنة الذين يحبسون أنفسهم في الصوامع ويحملونها على الرياضات الشاقة والأولى مايعمهم وغيرهم من الكفرة ومحل الموصول الرفع على انه خبر مبتدا محذوف لانه جواب للسؤال كأنه قيل من هم فقيل الذين الخ وجعله مجرورا على انه نعت للاخسرين أو بدل منه أو منصوبا على الذم على أن الجواب ماسيأتي من قوله تعالى أولئك الآية يأباه أن صدره ليس منبئا عن خسران الاعمال وضلال السعي كما يستدعيه مقام الجواب والتفريع الاول وان دل على حبوطها لكنه ساكت عن أنباء ماهو العمدة في تحقيق معنى الخسران من الوثوق بترتب الربح واعتقاد النفع فيما صنعوا على أن التفريع الثاني مما يقطع ذلك الاحتمال رأسا اذ لامجال لادراجه تحت (مر بقضية نون العظمة (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) الاحسان الاتيان بالاعمال على الوجه اللائق وهو حسنها الوصفي المستلزم لحسنها ﴿ اذا هو ل ﴾ الذاتي أي يحسبون أنهم يعملون ذلك على الوجه اللائق وذلك لاعجابهم بأعمالهم التي سعوا في اقامتها وكابدوا في تحصيلها والجملة حال من فاعل

اذا هرول وسمعت حفيفه في عدوه (الرابع) قال الخليل الأج حب كالعدس والمج الريق فيحتمل أن يكونا مأخوذين منهما واختلفوا في أنهما من أي الاقوام فقيل انهما من الترك وقيل يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والديلم ثم من الناس من وصفهم بقصر القامة وصغر الجثة يكون طول أحدهم شبرا ومنهم من وصفهم بطول القامة وكبر الجثة وأثبتوا لهم مخاليب في الاظفار وأضراسا كأضراس السباع واختلفوا في كيفية افسادهم في الارض فقيل كانوا يقتلون الناس وقيل كانوا يأكلون لحوم الناس وقيل كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون لهم شيئا أخضر وبالجملة فلفظ الفساد محتمل لكل هذه الاقسام والله أعلم بمراده ثم انه تعالى حكى عن أهل ما بين السدين انهم قالوا لذي القرنين فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا قرأ حمزة والكسائي خراجا والباقون خرجا قيل الخراج والخرج واحد وقيل هما أمران متغايران وعلى هذا القول اختلفوا قيل الخرج بغير ألف هو الجعل لان الناس يخرج كل واحد منهم شيئا منه فيخرج هذا أشياء وهذا أشياء والخراج هو الذي يجبيه السلطان كل سنة وقال الفراء الخراج هو الاسم الاصلي والخرج كالمصدر وقال قطرب الخرج الجزية والخراج في الارض فقال ذو القرنين ما مكني فيه ربي خير فأعينوني أي ما جعلني مكينا من المال الكثير واليسار الواسع خير مما تبذلون من الخرج فلا حاجة بي اليه وهو كما قال سليمان عليه السلام فما آتاني الله خير مما آتاكم قرأ ابن كثير ما مكنني بنونين على الاظهار والباقون بنون واحدة مشددة على الادغام ثم قال ذو القرنين فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما أي لا حاجة لي في مالكم ولكن أعينوني برجال وآلة ابني بها السد وقيل المعنى أعينوني بمال أصرفه الى هذا المهم ولا أطلب المال لآخذه لنفسي والردم هو السد يقال ردمت الباب أي سددته وردمت الثوب رقعته لانه يسد الخرق بالرقعة والردم أكثر من السد من قولهم ثوب مردوم أي وضعت عليه رقاع * قوله تعالى (آتوني زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا قال هذا رحمة من ربي فاذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا) اعلم ان زبر الحديد قطعه قال الخليل الزبرة من الحديد القطعة الضخمة قراءة الجميع آتوني بمد الالف الا حمزة فانه قرأ ائتوني من الاتيان وقد روى ذلك عن عاصم والتقدير ائتوني بزبر الحديد ثم حذف الباء كقوله شكرته وشكرت له وكفرته وكفرت له وقوله حتى اذا ساوى بين الصدفين فيه اضمار أي فأتوه بها فوضع تلك الزبر بعضها على بعض حتى صارت بحيث تسد ما بين الجبلين الى اعلاهما ثم وضع المنافخ عليها حتى اذا صارت كالنار صب النحاس المذاب على الحديد المحمى فالتصق بعضه ببعض وصار جبلا صلدا واعلم ان هذا معجز قاهر لان هذه الزبر الكثيرة اذا نفخ عليها حتى صارت كالنار لم يقدر الحيوان على القرب منها والنفخ

ضل أي بطل سعيهم المذكور والحال انهم يحسبون انهم يحسنون في ذلك وينتفعون بآثاره أو المضاف اليه لكونه في محل الرفع نحو قوله تعالى اليه مرجعكم جميعا أي بطل سعيهم والحال انهم الخ والفرق بينهما أن المقارن لحال حسبانهم المذكور في الاول ضلال سعيهم وفي الثاني نفس سعيهم والاول أدخل في بيان خطئهم (أولئك) كلام مستأنف من جنابه تعالى مسوق لتكميل تعريف الاخسرين وتبيين سبب خسرانهم وضلال سعيهم وتعيينهم بحيث ينطبق التعريف على المخاطبين غير داخل تحت الامر أي أولئك المنعوتون بما ذكر من ضلال السعي مع الحسبان المزبور (الذين كفروا بآيات ربهم) بدلائله الداعية الى التوحيد عقلا ونقلا والتعرض لعنوان الربوبية لزيادة تقبيح حالهم في الكفر المذكور (ولقائه) بالبعث وما يتبعه من أمور الآخرة على ما هي عليه (فحبطت) لذلك (أعمالهم) المعهودة حبوطا كليا (فلا نقيم لهم) أي لأولئك الموصوفين بما مر من حبوط الاعمال وقرئ بالياء (يوم القيامة وزنا) أي فنزدري بهم ولا نجعل لهم مقدارا واعتبارا لان مداره الاعمال الصالحة وقد حبطت بالمرة وحيث كان هذا الازدراء من عواقب حبوط الاعمال عطف عليه بطريق التفريع وأما ما هو من أجزية الكفر فسيجيء بعد ذلك أو لا نضع لاجل وزن أعمالهم ميزانا لانه انما يوضع لاهل الحسنات

عليها لا يمكن الا مع القرب منها فكأنه تعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين عليها قال صاحب الكشاف قيل بعد ما بين السدين مائة فرسخ والصدفان بفتحتين جانبا الجبلين لانهما يتصادفان أي يتقابلان وقرئ الصدفين بضمتين والصدفين بضمة وسكون والقطر النحاس المذاب لانه يقطر وقوله قطرا منصوب بقوله أفرغ وتقديره آتونى قطرا أفرغ عليه قطرا فحذف الاول لدلالة الثانى عليه ثم قال فما اسطاعوا فحذف التاء للخفة لان التاء قريبة المخرج من الطاء وقرئ فما اصطاعوا بقلب السين صادا أن يظهروه وأن يعلوه أى ما قدروا على الصعود عليه لاجل ارتفاعه وملاسته ولا على نقبه لاجل صلابته وثخانته ثم قال ذو القرنين هذا رحمة من ربى فقوله هذا اشارة الى السد أى هذا السد نعمة من الله ورحمة على عباده أو هذا الاقتدار والتمكين من تسويته فاذا جاء وعد ربى يعنى فاذا دنا مجئ القيامة جعل السد دكا أى مدكوكا مسوى بالارض وكل ما انبسط بعد الارتفاع فقد اندك وقرئ دكاء بالمد أى أرضا مستوية وكان وعد ربى حقا وههنا آخر حكاية ذى القرنين * قوله تعالى (وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا) اعلم ان الضمير فى قوله بعضهم عائد الى يأجوج ومأجوج وقوله يومئذ فيه وجوه (الاول) ان يوم السد ماج بعضهم فى بعض خلفه لما منعوا من الخروج (الثانى) ان عند الخروج يموج بعضهم فى بعض قيل انهم حين يخرجون من وراء السد يموجون مزدحمين فى البلاد يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ثم يأكلون الشجر ويأكلون لحوم الناس ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس ثم يبعث الله عليهم حيوانات فتدخل آذانهم فيموتون (والقول الثالث) ان المراد من قوله يومئذ يوم القيامة وكل ذلك محتمل الا أن الاقرب ان المراد الوقت الذى جعل الله ذلك السد دكا فعنده ماج بعضهم فى بعض وبعده نفخ فى الصور وصار ذلك من آيات القيامة والكلام فى الصور قد تقدم وسيجئ من بعد وأما عرض جهنم وابرازه حتى يصير مكشوفا بأهواله فذلك يجرى مجرى عقاب الكفار لما يتداخلهم من الغم العظيم وبين تعالى أنه يكشفه للكافرين الذين عموا وصموا أما العمى فهو المراد من قوله كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى والمراد منه شدة انصرافهم عن قبول الحق وأما الصمم فهو المراد من قوله وكانوا لا يستطيعون سمعا يعنى ان حالتهم أعظم من الصمم لان الاصم قد يستطيع السمع اذا صيح به وهؤلاء زالت عنهم تلك الاستطاعة واحتج الاصحاب بقوله وكانوا لا يستطيعون سمعا على ان الاستطاعة مع الفعل وذلك لانهم لما لم يسمعوا لم يستطيعوا قال القاضى المراد منه نفرتهم عن سماع ذلك الكلام واستثقالهم اياه كقول الرجل لا أستطيع النظر الى فلان * قوله تعالى

أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء انا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا

والسيآت من الموحدين ليتميز به مقادير الطاعات والمعاصى ليترتب عليه التكفير أو عدمه لان ذلك فى الموحدين بطريق الكمية وأما الكفر فاحباطه الحسنات بحسب الكيفية دون الكمية فلا يوضع لهم الميزان قطعا (ذلك) بيان لمآل كفرهم وسائر معاصيهم اثر بيان مآل أعمالهم المحبطة بذلك أى الامر ذلك وقوله عز وجل (جزاؤهم جهنم) جملة مبينة له أو ذلك مبتدأ والجملة خبره والعائد محذوف أى جزاؤهم به او جزاؤهم بدله وجهنم خبره أو جزاؤهم خبره وجهنم عطف بيان للخبر (بما كفروا) تصريح بأن ما ذكر جزاء لكفرهم المتضمن لسائر القبائح التى أنبأ عنها قوله تعالى (واتخذوا آياتى ورسلى هزوا) أى مهزوا بهما فانهم لم يقتنعوا بمجرد الكفر بالآيات والرسل بل ارتكبوا مثل تلك العظيمة أيضا (ان الذين آمنوا) بيان بطريق الوعد لمآل الذين اتصفوا باضداد ما اتصف به الكفرة اثر بيان مآلهم بطريق الوعيد أى آمنوا بآيات ربهم ولقائه (وعملوا الصالحات) من الاعمال (كانت لهم) فيما سبق من حكم الله تعالى ووعده وفيه ايماء الى أن أثر الرحمة يصل اليهم بمقتضى الرأفة الازلية بخلاف ما مر من جعل جهنم للكافرين نزلا فانه بموجب ما حدث من سوء اختيارهم (جنات الفردوس) عن مجاهد ان الفردوس هو البستان بالرومية وقال عكرمة هو الجنة بالحبشية وقال الضحاك

﴿ قل ﴾

قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما بين من حال الكافرين انهم أعرضوا عن الذكر وعن استماع ماجاء به الرسول أتبعه بقوله أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء والمراد أفظنوا انهم ينتفعون بماعبدوه مع اعراضهم عن تدبر الآيات وتمردهم عن قبول أمره وأمر رسوله وهو استفهام على سبيل التوبيخ (المسئلة الثانية) قرأ أبو بكر ولم يرفعه الى عاصم أفحسب الذين كفروا بسكون السين ورفع الباء وهى من الاحرف التى خالف فيها عاصما وذكر انه قراءة أمير المؤمنين على ابن أبى طالب وعلى هذا التقدير فقوله حسب مبتدأ أن يتخذوا خبره والمعنى أفكافيهم وحسبهم أن يتخذوا كذا وكذا وأما الباقون فقرؤا أفحسب على لفظ الماضى وعلى هذا التقدير ففيه حذف والمعنى أفحسب الذين كفروا اتخاذ عبادى أولياء نافعا (المسئلة الثالثة) فى العباد أقوال قيل أراد عيسى والملائكة وقيل هم الشياطين يوالونهم و يطيعونهم وقيل هى الاصنام سماهم عبادا كقوله عباد أمثالكم ثم قال تعالى انا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا وفى النزل قولان (الاول) قال الزجاج انه المأوى والمنزل (والثانى) انه الذى يقام للنزيل وهو الضيف ونظيره قوله فبشرهم بعذاب أليم ثم ذكر تعالى مانبه به على جهل القوم فقال قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا قيل انهم هم الرهبان كقوله تعالى عاملة ناصبة وعن مجاهد أهل الكتاب وعن على أن ابن الكواء سأله منهم فقال هم أهل حروراء والاصل أن يقال هو الذى يأتى بالاعمال يظنها طاعات وهى فى أنفسها معاصى وان كانت طاعات لكنها لاتقبل منهم لاجل كفرهم فأولئك انما أتوا بتلك الاعمال لرجاء الثواب وانما أتعبوا أنفسهم فيها لطلب الاجر والفوز يوم القيامة فاذا لم يفوزوا بمطالبهم بين انهم كانوا ضالين ثم انه تعالى بين صنعهم فقال أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) لقاء الله عبارة عن رؤيته بدليل انه يقال لقيت فلانا أى رأيته فان قيل اللقاء عبارة عن الوصول قال تعالى فالتقى الماء على امر قد قدر وذلك فى حق الله تعالى محال فوجب حمله على لقاء ثواب الله والجواب ان لفظ اللقاء وان كان فى الاصل عبارة عن الوصول والملاقاة الا أن استعماله فى الرؤية مجاز ظاهر مشهور والذى يقولونه من ان المراد منه لقاء ثواب الله فهو لايتم الا بالاضمار ومن المعلوم ان حمل اللفظ على المجاز المتعارف المشهور أولى من حمله على مايحتاج معه الى الاضمار (المسئلة الثانية) استدلت المعتزلة بقوله تعالى فحبطت اعمالهم على أن القول بالاحباط والتكفير حق وهذه المسئلة قد ذكرناها بالاستقصاء فى سورة البقرة فلا نعيدها ثم قال تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا وفيه

هو الجنة الملتفة الاشجار وقيل هى الجنة التى تنبت ضروبا من النبات وقيل هى الجنة من الكرم خاصة وقيل ما كان غالبه كرما وقال المبرد هو فيما سمعت من العرب الشجر الملتف والاغلب عليه أن يكون من العنب وعن كعب أنه ليس فى الجنان أعلى من جنة الفردوس وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجنة مائة درجة مابين كل درجتين مسيرة مائة عام و الفردوس اعلاها وفيها الانهار الاربعة فاذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فان فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة (نزلا) خبر كانت والجار والمجرور متعلق بمحذوف على انه حال من نزلا أو على انه بيان أو حال من جنات الفردوس والخبر هو الجار والمجرور فان جعل النزل بمعنى مايهيأ للنازل فالمعنى كانت لهم ثمار جنات الفردوس نزلا أو جعلت نفس الجنات نزلا مبالغة فى الاكرام وفيه ايذان بأنها عندما أعد الله لهم على ماجرى على لسان النبوة من قوله أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بمنزلة النزل بالنسبة الى الضيافة وان جعل بمعنى المنزل فالمعنى ظاهر (خالدين فيها) نصب على الحالية (لايبغون عنها حولا) مصدر كالعوج والصغر أى لايطلبون تحولا عنها اذ لايتصور أن يكون شئ أعز عندهم وأرفع منها حتى تنازعهم اليه أنفسهم وتطمح نحوه أبصارهم و يجوز أن يراد نفى التحول

وجوه (الاول) انا نزدري بهم وليس لهم عندنا وزن ومقدار (الثاني) لا نقيم لهم ميزانا لان الميزان انما يوضع لاهل الحسنات والسيآت من الموحدين لتميز مقدار الطاعات ومقدار السيآت (الثالث) قال القاضي ان من غلبت معاصيه صار ما في فعله من الطاعة كان لم يكن فلا يدخل في الوزن شيء من طاعته وهذا التفسير بناء على قوله بالاحباط والتكفير ثم قال تعالى ذلك جزاؤهم جهنم فقوله ذلك أي ذلك الذي ذكرناه وفصلناه من أنواع الوعيد هو جزاؤهم على أعمالهم الباطلة وقوله جهنم عطف بيان لقوله جزاؤهم ثم بين تعالى ان ذلك الجزاء جزاء على مجموع أمرين (أحدهما) كفرهم (الثاني) انهم أضافوا الى الكفر أن اتخذوا آيات الله واتخذوا رسله هزوا فلم يقتصروا على الرد عليهم وتكذيبهم حتى استهزؤا بهم * قوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما ذكر الوعيد اتبعه بالوعد ولما ذكر في الكفار ان جهنم نزلهم اتبعه بذكر ما يرغب في الايمان والعمل الصالح فقال ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا (المسئلة الثانية) عطف عمل الصالحات على الايمان والمعطوف مغاير للمعطوف عليه وذلك يدل على ان الاعمال الصالحة مغايرة للايمان (المسئلة الثالثة) عن قتادة الفردوس وسط الجنة وأفضلها وعن كعب ليس في الجنان أعلى من جنة الفردوس وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وعن مجاهد الفردوس هو البستان بالرومية وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مسيرة مائة عام والفردوس أعلاها درجة ومنها الانهار الاربعة والفردوس من فوقها فاذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فان فوقها عرش الرحمن ومنها تتفجر أنهار الجنة (المسئلة الرابعة) قال بعضهم انه تعالى جعل الجنة بكليتها نزلا للمؤمنين والكريم اذا أعطى النزل أولا فلا بد أن يتبعه بالخلعة وليس بعد الجنة بكليتها الا رؤية الله فان قالوا أليس انه تعالى جعل في الآية الاولى جملة جهنم نزلا للكافرين ولم يبق بعد جملة جهنم عذاب آخر فكذلك ههنا جعل جملة الجنة نزلا للمؤمنين مع انه ليس له شيء آخر بعد الجنة والجواب قلنا الكافر بعد حصول جهنم مرتبة أعلى منها وهو كونه محجوبا عن رؤية الله كما قال تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم فجعل الصلاء بالنار متأخرا في المرتبة عن كونه محجوبا عن الله ثم قال تعالى لا يبغون عنها حولا الحول التحول يقال حال من مكانه حولا كقوله عاد في حبها عودا يعني لا مزيد على سعادات الجنة وخيراتها حتى يريد أشياء غيرها وهذا الوصف يدل على غاية الكمال لان الانسان في الدنيا اذا وصل الى أي درجة كانت في السعادات فهو طامح الطرف الى ما هو أعلى منه * قوله تعالى (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما

﴿ الهكم ﴾

وتأكيدا للخلود والجملة حال من صاحب خالدين أو من ضميره فيه فيكون حالا متداخلة (قل لو كان البحر) أي جنس البحر (مدادا) وهو ما تمد به الدواة من الحبر (لكلمات ربي) لتحرير كلمات علمه وحكمته التي من جملتها ما ذكر من الآيات الداعية الى التوحيد المحذرة من الاشراك (لنفد البحر) مع كثرته ولم يبق منه شيء لتناهيه (قبل أن تنفد) وقرئ بالياء والمعنى من غير أن تنفد (كلمات ربي) لعدم تناهيها فلا دلالة للكلام على نفادها بعد نفاد البحر وفي اضافة الكلمات الى اسم الرب المضاف الى ضميره صلى الله عليه وسلم في الموضعين من تفخيم المضاف وتشريف المضاف اليه ما لا يخفى واظهار البحر والكلمات في موضع الاضمار لزيادة التقرير (ولو جئنا) كلام من جهته تعالى غير داخل في الكلام الملقن جيء به لتحقيق مضمونه وتصديق مدلوله مع زيادة مبالغة وتأكيد والواو لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفة المقابلة لها المحذوفة لدلالة المذكورة عليها دلالة واضحة اي لنفد البحر من غير نفاد كلماته تعالى لو لم نجئ بمثله مددا ولو جئنا بقدرتنا الباهرة (بمثله مددا) عونا وزيادة لان مجموع المتناهيين متناه بل مجموع ما يدخل تحت الوجود من الاجسام لا يكون الا متناهيا لقيام الادلة الناطقة على تناهي الابعاد وقرئ مددا جمع مدة وهي ما يستمده الكاتب وقرئ مدادا (قل) لهم بعد ما بينت لهم شأن كلماته تعالى

الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما ذكر فى هذه السورة أنواع الدلائل والبينات وشرح فيها أقاصيص الاولين نبه على كمال حال القرآن فقال قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى والمداد اسم لما تمد به الدواة من الحبر ولما يمد به السراج من السليط والمعنى لو كتبت كلمات علم الله وحكمه وكان البحر مدادا لها والمراد بالبحر الجنس لنفد قبل أن تنفد الكلمات وتقرير الكلام ان البحار كيفما فرضت فى الاتساع والعظمة فهى متناهية ومعلومات الله غير متناهية والمتناهى لا يفى البتة بغير المتناهى قرأ حمزة والكسائى ينفد بالياء لتقدم الفعل على الجمع والباقون بالتاء لتأنيث كلمات وروى ان حيى بن أخطب قال فى كتابكم ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ثم تقرؤن وما أوتيتم من العلم الا قليلا فنزلت هذه الآية يعنى ان ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله (المسئلة الثانية) احتج المخالفون على الطعن فى قول أصحابنا ان كلام الله تعالى واحد بهذه الآية وقالوا انها صريحة فى اثبات كلمات لله تعالى وأصحابنا حملوا الكلمات على متعلقات علم الله تعالى قال الجبائى وأيضا قوله قبل أن تنفد كلمات ربى يدل على ان كلمات الله تعالى قد تنفد فى الجملة وما ثبت عدمه امتنع قدمه وأيضا قال ولو جئنا بمثله مددا وهذا يدل على انه تعالى قادر على ان يجئ بمثل كلامه والذى يجاء به يكون محدثا والذى يكون المحدث مثلا له فهو أيضا محدث وجواب أصحابنا ان المراد منه الالفاظ الدالة على تعلقات تلك الصفة الازلية واعلم انه تعالى لما بين كمال كلام الله أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يسلك طريقة التواضع فقال قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أى لا امتياز بينى وبينكم فى شئ من الصفات الا أن الله تعالى أوحى الى انه لا اله الا الله الواحد الاحد الصمد والآية تدل على مطلوبين (الاول) ان كلمة انما تفيد الحصر وهى قوله أنما الهكم اله واحد (والثانى) ان كون الاله تعالى الها واحدا يمكن اثباته بالدلائل السمعية وقد قررنا هذين المطلوبين فى سائر السور بالوجوه القوية ثم قال فمن كان يرجو لقاء ربه والرجاء هو ظن المنافع الواصلة اليه والخوف ظن المضار الواصلة اليه وأصحابنا حملوا لقاء الرب على رؤيته والمعتزلة حملوه على لقاء ثواب الله وهذه المناظرة قد تقدمت والعجب انه تعالى أورد فى آخر هذه السورة ما يدل على حصول رؤية الله فى ثلاث آيات (أولها) قوله أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه (وثانيها) قوله كانت لهم جنات الفردوس نزلا (وثالثها) قوله فمن كان يرجو لقاء ربه ولا بيان أقوى من ذلك ثم قال فليعمل عملا صالحا أى من حصل له رجاء لقاء الله فليشتغل بالعمل الصالح ولما كان العمل الصالح قد يؤتى به لله وقد يؤتى به للرياء والسمعة لا جرم اعتبر فيه قيدان أن يؤتى به لله وأن يكون مبرأ عن جهات الشرك فقال ولا يشرك بعبادة ربه أحدا * قيل نزلت هذه الآية فى جندب بن زهير قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انى أعمل العمل لله تعالى

(انما أنا بشر مثلكم) لا أدعى الاحاطة بكلماته التامة (يوحى الى) من تلك الكلمات (أنما الهكم اله واحد) لا شريك له فى الخلق ولا فى سائر أحكام الالوهية وانما تميزت عنكم بذلك (فمن كان يرجو لقاء ربه) الرجاء توقع وصول الخير فى المستقبل والمراد بلقائه تعالى كرامته وادخال الماضى على المستقبل للدلالة على ان اللائق بحال المؤمن الاستمرار والاستدامة على رجاء اللقاء أى فمن استمر على رجاء كرامته تعالى (فليعمل) لتحصيل تلك الطلبة العزيزة (عملا صالحا) فى نفسه لائقا بذلك المرجو كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) اشراكا جليا كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ولا اشراكا خفيا كما يفعله أهل الرياء ومن يطلب به أجرا وايثار وضع المظهر موضع المضمر فى الموضعين مع التعرض لعنوان الربوبية لزيادة التقرير وللاشعار بعلية العنوان للامر والنهى ووجوب الامتثال فعلا وتركا روى ان جندب بن زهير رضى الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انى لاعمل العمل لله تعالى فاذا اطلع عليه سرنى فقال عليه الصلاة والسلام ان الله لا يقبل ما شورك فيه فنزلت تصديقا له وروى انه صلى الله عليه وسلم قال له لك أجران أجر السر وأجر العلانية وذلك اذا قصد أن يقتدى به وعنه عليه السلام اتقوا الشرك الاصغر قيل وما الشرك الاصغر قال الرياء * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

فاذا اطلع عليه أحد سرني فقال عليه الصلاة والسلام ان الله لا يقبل ما شورك فيه وروى أيضا انه قال له لك أجران أجر السر وأجر العلانية فالرواية الاولى محمولة على ما اذا قصد بعمله الرياء والسمعة والرواية الثانية محمولة على ما اذا قصد أن يقتدى به والمقام الاول مقام المبتدئين والمقام الثانى مقام الكاملين والحمد لله رب العالمين والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين قال المصنف رضى الله عنه تم تفسير هذه السورة يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر صفر سنة اثنين وستمائة فى بلدة غزنين ونسأل الله أكرم الاكرمين وأرحم الراحمين أن يخصنا بالمغفرة والفضل فى يوم الدين انه ذو الفضل العظيم

❊(سورة مريم رضى الله عنها ثمان وتسعون آية مكية)❊

❊(بسم الله الرحمن الرحيم)❊

(كهيعص) قبل الخوض فى القرا آت لابد من مقدمات ثلاثة (المقدمة الاولى) ان حروف المعجم على نوعين ثنائى وثلاثى وقد جرت عادة العرب أن ينطقوا بالثنائيات مقطوعة ممالة فيقولوا با تا ثا وكذلك أمثالها وان ينطقوا بالثلاثيات التى فى وسطها الالف مفتوحة مشبعة فيقولوا دال ذال صاد ضاد وكذلك اشكالها أما الزاى وحده من بين حروف المعجم فمعتاد فيه الامران فان من أظهر ياءه فى النطق حتى يصير ثلاثيا لم يمله ومن لم يظهر ياءه فى النطق حتى يشبه الثنائى يمله (أما المقدمة الثانية) ينبغى أن يعلم ان اشباع الفتحة فى جميع المواضع أصل والامالة فرع عليه ولهذا يجوز اشباع كل ممال ولا يجوز امالة كل مشبع من المفتوحات (المقدمة الثالثة) للقراء فى القرآآت المخصوصة بهذا الموضع ثلاثة طرق (أحدها) ان يتمسكوا بالاصل وهو اشباع فتحة الهاء والياء (وثانيها) أن يميلوا الهاء والياء (وثالثها) ان يجمعوا بين الاصل والفرع فيقع الاختلاف بين الهاء والياء فيفتحوا احدهما ايهما كان ويكسروا الآخر ولهم فى السبب الموجب لهذا الاختلاف قولان (الاول) ان الفتحة المشبعة اصل والامالة فرع مشهور كثير الاستعمال فاشبع احدهما وأميل الآخر ليكون جامعا لمراعاة الاصل والفرع وهو احسن من مراعاة احدهما وتضييع الآخر (القول الثانى) ان الثنائية من حروف المعجم اذا كانت مقطوعة كانت بالامالة واذا كانت موصولة كانت بالاشباع وها ويا فى قوله تعالى كهيعص مقطوعان فى اللفظ موصولان فى الخط فأميل أحدهما واشبع الآخر ليكون كلا الجانبين مرعيا جانب القطع اللفظى وجانب الوصل الخطى اذا عرفت هذا فنقول فيه قرآآت (احداها) وهى القراءة المعروفة فيه فتحة الهاء والياء جميعا (وثانيا) كسر الهاء وفتح الياء وهى قراءة أبى عمرو وابن مبادر والقطعى عن أيوب وانما كسروا الهاء دون الياء ليكون فرقا بينه وبين الهاء الذى للتنبيه فانه لا يكسر قط (وثالثها) فتح الهاء وكسر الياء وهو قراءة حمزة والاعمش وطلحة والضحاك عن عاصم وانما كسروا الياء دون الهاء لان الياء أخت الكسرة واعطاء الكسرة اختها أولى من اعطائها الى

من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت نورا من قرنه الى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الارض الى السماء وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ عند مضجعه كان له من مضجعه نورا يتلألأ الى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم وان كان مضجعه بمكة كان له نورا يتلألأ من مضجعه الى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ الحمد لله سبحانه على نعمه العظام *(سورة مريم عليها السلام مكية الا آية السجدة وهى ثمان أو تسع وتسعون آية)* *(بسم الله الرحمن الرحيم)*

(كهيعص) بامالة الهاء والياء واظهار الدال وقرئ بفتح الهاء وامالة الياء وبتفخيمهما وباخفاء النون قبل الصاد لتقاربهما وقد سلف أن ما لا يكون من هذه الفواتح مفردة ولا موازنة لمفرد فطريق التلفظ بها الحكاية فقط ساكنة الا عجاز على الوقف سواء جعلت أسماء للسور أو مسرودة على نمط التعديد وان لزمها التقاء الساكنين لكونه مغتفرا فى باب الوقف قطعا فحق هذه الفاتحة الكريمة أن يوقف عليها جريا على الاصل وقرئ بادغام الدال فيما بعدها لتقاربهما فى المخرج ﴿أجنبية﴾ فان جعلت اسما للسورة على ما عليه اطباق الاكثر فمحله الرفع اما على انه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير هذا كهيعص أى مسمى به وانما صحت الاشارة اليه مع عدم جريان ذكره لانه باعتبار كونه على جناح الذكر

أجنبية مفتوحة المناسبة (ورابعها) امالتهما جميعا وهو قراءة الكسائى والمفضل ويحيى عن عاصم والوليد بن أسلم عن ابن عامر والزهرى وابن جرير وانما أمالوهما للوجهين المذكورين فى امالة الهاء وامالة الياء (وخامسها) قراءة الحسن وهى ضم الهاء وفتح الياء وعنه أيضا فتح الهاء وضم الياء وروى صاحب الكشاف عن الحسن بضمهما فقيل له لم تثبت هذه الرواية عن الحسن لانه أورد ابن جنى فى كتاب المكتسب ان قراءة الحسن ضم أحدهما وفتح الآخر لا على التعيين وقال بعضهم انما أقدم الحسن على ضم أحدهما لا على التعيين لانه تصور أن عين الفعل فى الهاء والياء ألف منقلب عن الواو كالدار والمال وذلك لان هذه الالفات وان كانت مجهولة لانها لا اشتقاق لها فانها تحمل على ماهو مشابه لها فى اللفظ والالف اذا وقع عينا فالواجب أن يعتقد انه منقلب عن الواو لان الغالب فى اللغة ذلك فلما تصور الحسن ان ألف الهاء والياء منقلب عن الواو جعله فى حكم الواو وضم ماقبله لان الواو أخت الضمة (وسادسها) هايا باشمامهما شيئا من الضمة (المسئلة الثالثة) قرأ أبو جعفر كهيعص بفصل الحروف بعضها من بعض بأدنى سكتة مع اظهار نون العين وباقى القراءة يصلون الحروف بعضها ببعض ويخفون النون (المسئلة الثالثة) القراءة المعروفة صاد ذكر بالادغام وعن عاصم ويعقوب بالاظهار (البحث الثانى) المذاهب المذكورة فى هذه الفواتح قد تقدمت لكن الذى يختص بهذا الموضع ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن قوله تعالى كهيعص ثناء من الله على نفسه فمن الكاف وصفه بانه كاف ومن الهاء هاد ومن العين عالم ومن الصاد صادق وعن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا انه حمل الكاف على الكبير والكريم ويحكى أيضا عنه انه حمل الياء على الكريم مرة وعلى الحكيم أخرى وعن الربيع بن أنس فى الياء انه من مجير وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى العين أنه من عزيز ومن عدل وهذه الاقوال ليست قوية لما بينا أنه لا يجوز من الله تعالى أن يودع كتابه مالا تدل عليه اللغة لا بالحقيقة ولا بالمجاز لانا ان جوزنا ذلك فتح علينا قول من يزعم ان لكل ظاهر باطنا واللغة لا تدل على ماذكروه فانه ليست دلالة الكاف على الكافى أولى من دلالته على الكريم أو الكبير أو على اسم آخر من أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم أو الملائكة أو الجنة او النار فيكون حمله على بعضها دون البعض تحكما لا تدل عليه اللغة أصلا * قوله تعالى (ذكر رحمة ربك عبده زكريا) فيه مسائل (المسئلة الاولى) فى لفظة ذكر أربع قرآت صيغة المصدر أو الماضى مخففة أو مشددة أو الامر أما صيغة المصدر فلا بد فيها من كسر رحمة ربك على الاضافة ثم فيها ثلاثة أوجه (أحدها) نصب الدال من عبده والهمزة من زكرياء وهو المشهور (وثانيها) برفعهما والمعنى وتلك الرحمة هى عبده زكرياء عن ابن عامر (وثالثها) بنصب الاول ورفع الثانى والمعنى رحمة ربك عبده وهو زكرياء وأما صيغة الماضى بالتشديد فلا بد فيها من نصب رحمة وأما صيغة الماضى بالتخفيف ففيها وجهان (أحدهما) رفع الباء من ربك

صار فى حكم حاضر المشاهد كما يقال هذا ما اشترى فلان او على انه مبتدأ خبره (ذكر رحمة ربك) المسمى به ذكر رحمة الخ فان ذكرها لما كان مطلع السورة الكريمة ومعظم ما انطوت هى عليه جعلت كأنها نفس ذكرها والاول هو الاولى لان ما يجعل عنوانا للموضوع حقه أن يكون معلوم الانتساب اليه عند المخاطب واذ لا علم بالتسمية من قبل فحقها الاخبار بها كما فى الوجه الاول وان جعلت مسرودة على نمط التعديد حسبما جنح اليه أهل التحقيق فذكر الخ خبر لمبتدا محذوف هو ما ينبئ عنه تعديد الحروف كأنه قيل المؤلف من جنس هذه الحروف المبسوطة مرادا به السورة ذكر رحمة الخ أو اسم اشارة أشير به اليه تنزيلا لحضور المادة منزلة حضور المؤلف منها أى هذا ذكر رحمة الخ وقيل هو مبتدأ قد حذف خبره أى فيما يتلى عليك ذكرها وقرئ ذكر رحمة ربك على صيغة الماضى من التذكير أى هذا المتلو ذكرها وقرئ ذكر على صيغة الامر والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال مع الاضافة الى ضميره عليه السلام للايذان بأن تنزيل السورة فيه عليه الصلاة والسلام تكميل له عليه السلام وقوله تعالى (عبده) مفعول لرحمة ربك على أنها مفعول لما أضيف اليها وقيل للذكر على أنه مصدر أضيف الى فاعله على الاتساع ومعنى ذكر الرحمة بلوغها واصابتها كما يقال ذكرنى معروف فلان أى بلغنى وقوله عز وعلا (زكريا) بدل منه أو عطف بيان له

والمعنى ذكر ربك عبده زكرياء (وثانيها) نصب الباء من ربك والرفع فى عبده زكرياء وذلك بتقديم المفعول على الفاعل وهاتان القراءتان للكلبى وأما صيغة الامر فلابد من نصب رحمة وهى قراءة ابن عباس واعلم أن على تقدير جعله صيغة المصدر والماضى يكون التقدير هذا المتلو من القرآن ذكر رحمة ربك (المسئلة الثانية) يحتمل أن يكون المراد من قوله رحمة ربك أعنى عبده زكرياء ثم فى كونه رحمة وجهان (أحدهما) أن يكون رحمة على أمته لانه هداهم الى الايمان والطاعات (والآخر) أن يكون رحمة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى أمة محمد لان الله تعالى لما شرح لمحمد صلى الله عليه وسلم طريقه فى الاخلاص والابتهال فى جميع الامور الى الله تعالى صار ذلك لفظا داعيا له ولامته الى تلك الطريقة فكان زكرياء رحمة و يحتمل أن يكون المراد أن هذه السورة فيها ذكر الرحمة التى رحم بها عبده زكرياء * قوله تعالى (اذ نادى ربه نداء خفيا) راعى سنة الله فى اخفاء دعوته لان الجهر والاخفاء عند الله سيان فكان الاخفاء أولى لانه أبعد عن الرياء وأدخل فى الاخلاص (وثانيها) اخفاه لئلا يلام على طلب الولد فى زمان الشيخوخة (وثالثها) اسره من مواليه الذين خافهم (ورابعها) خفى صوته لضعفه وهرمه كما جاء فى صفة الشيخ صوته خفات وسمعه تارات فان قيل من شرط النداء الجهر فكيف الجمع بين كونه نداء وخفيا والجواب من وجهين (الاول) انه أتى بأقصى ما قدر عليه من رفع الصوت الا ان الصوت كان ضعيفا لنهاية الضعف بسبب الكبر فكان نداء نظرا الى قصده وخفيا نظرا الى الواقع (الثانى) انه دعا فى الصلاة لان الله تعالى اجابه فى الصلاة لقوله تعالى فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ان الله يبشرك بيحيى فكون الاجابة فى الصلاة يدل على كون الدعاء فى الصلاة فوجب أن يكون النداء فيها خفيا * قوله تعالى (قال رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا يرثنى و يرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا) القراءة فيها مسائل (المسئلة الاولى) قرئ وهن بالحركات الثلاث (المسئلة الثانية) ادغام السين فى الشين عن أبى عمرو (المسئلة الثالثة) وانى خفت الموالى بفتح الياء وعن الزهرى باسكان الياء من الموالى وقرأ عثمان وعلى بن الحسين ومحمد بن على وسعيد بن جبير وزيد بن ثابت وابن عباس خفت بفتح الخاء والفاء مشددة وكسر التاء وهذا يدل على معنيين (أحدهما) أن يكون ورائى بمعنى بعدى والمعنى انهم قلوا وعجزوا عن اقامة الدين بعده فسأل ربه تقويتهم بولى يرزقه (والثانى) أن يكون بمعنى قدامى والمعنى انهم خفوا قدامه ودرجوا ولم يبق من به تقو واعتضاد (المسئلة الرابعة) القراءة المعروفة من ورائى بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة وعن حميد بن مقسم كذلك لكن بفتح الياء وقرأ ابن كثير وراى كعصاى (المسئلة الخامسة) فى يرثنى و يرث وجوه (أحدها) القراءة المعروفة بالرفع فيهما صفة (وثانيها) وهى قراءة أبى عمرو

(اذ نادى ربه نداء خفيا) ظرف لرحمة ربك وقيل لذكر على أنه مضاف الى فاعله اتساعا لا على الوجه الاول لفساد المعنى وقيل هو بدل اشتمال من زكريا كما فى قوله واذكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت ولقد راعى عليه الصلاة والسلام حسن الادب فى اخفاء دعائه فانه مع كونه بالنسبة اليه عز وجل كالجهر أدخل فى الاخلاص وأبعد من الرياء وأقرب الى الخلاص عن لائمة الناس على طلب الولد لتوقفه على مبادلا يليق به تعاطيها فى أوان الكبر والشيخوخة وعن غائلة مواليه الذين كان يخافهم وقيل كان ذلك منه عليه السلام لضعف الهرم قالوا كان سنه حينئذ ستين وقيل خمسا وستين وقيل سبعين وقيل خمسا وسبعين وقيل ثمانين وقيل أكثر منها كما مر فى تفسير سورة آل عمران (قال) جملة مفسرة لنادى لا محل لها من الاعراب (رب انى وهن العظم منى) اسناد الوهن الى العظم لما أنه عماد البدن ودعام الجسد فاذا أصابه الضعف والرخاوة اصاب كله ولانه اشد أجزائه صلابة وقواما وأقلها تأثرا من العلل فاذا وهن كان ماوراءه أوهن وافراده للقصد الى الجنس المنبئ عن شمول الوهن لكل فرد من أفراده ومنى متعلق بمحذوف هو حال من العظم وقرئ وهن بكسر الهاء وبضمها أيضا وتأكيد الجملة لابراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونها (واشتعل الرأس شيبا) شبه عليه الصلاة والسلام الشيب فى البياض والانارة بشواظ النار وانتشاره

والكسائى والزهرى والاعمش وطلحة بالجزم فيهما جوابا للدعاء (وثالثها) عن على بن أبى طالب وابن عباس وجعفر بن محمد والحسن وقتادة يرثنى جزم وارث بوزن فاعل (ورابعها) عن ابن عباس يرثنى وأرث من آل يعقوب (وخامسها) عن الجحدرى أو يرث تصغير وارث على وزن أفيعل (اللغة) الوهن ضعف القوة قال فى الكشاف شبه الشيب بشواظ النار فى بياضه وانارته وانتشاره فى الشعر وفشوه فيه وأخذه كل ماخذ كاشتعال النار ثم أخرجه مخرج الاستعارة ثم أسند الاشتعال الى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس واخرج الشيب مميزا ولم يضف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب انه رأس زكريا فمن ثم فصحت هذه الجملة وأما الدعاء فطلب الفعل ومقابله الاجابة كما ان مقابل الامر الطاعة وأما اصل التركيب فى ولى فيدل على معنى القرب والدنو يقال وليته أليه وليا اى دنوت وأوليته أدنيته منه وتباعد مابعده وولى ومنه قول ساعدة ✵ وعدت عواد دون وليك تشعب ✵ وكل مما يليك وجلست مما يليه ومنه الولى وهو المطر الذى يلى الوسمى والولية البرذعة لانها تلى ظهر الدابة وولى اليتيم والقتيل وولى البلد لان من تولى أمرا فقد قرب منه وقوله تعالى فول وجهك شطر المسجد الحرام من قولهم ولاه ركنه اى جعله مما يليه واما ولى عنى اذا ادبر فهو من باب تثقيل الحشو للسلب وقولهم فلان اولى من فلان اى احق افعل التفضيل من الوالى او الولى كالادنى والاقرب من الدانى والقريب وفيه معنى القرب ايضا لان من كان احق بالشئ كان اقرب اليه والمولى اسم لموضع الولى كالمرمى والمبنى اسم لموضع الرمى والبناء واما العاقر فهى التى لا تلد والعقر فى اللغة الجرح ومنه اخذ العاقر لانه نقص اصل الخلقة وعقرت الفرس بالسيف اذا ضربت قوائمه وأما الآل فهم خاصة الرجل الذى يؤل امرهم اليه ثم قد يؤل امرهم اليه للقرابة تارة وللصحبة اخرى كآل فرعون وللموافقة فى الدين كآل النبى صلى الله عليه وسلم واعلم ان زكريا عليه السلام قدم على السؤال امورا ثلاثة (احدها) كونه ضعيفا (والثانى) ان الله تعالى ما رد دعاءه البتة (والثالث) كون المطلوب بالدعاء سببا للمنفعة فى الدين ثم بعد تقرير هذه الامور الثلاثة صرح بالسؤال (اما المقام الاول) وهو كونه ضعيفا فأثر الضعف اما ان يظهر فى الباطن او فى الظاهر والضعف الذى يظهر فى الباطن يكون أقوى مما يظهر فى الظاهر فلهذا السبب ابتدأ ببيان الضعف الذى فى الباطن وهو قوله وهن العظم منى وتقريره هو ان العظام أصلب الاعضاء التى فى البدن وجعلت كذلك لمنفعتين (احداهما) لان تكون أساسا وعمدا يعتمد عليها سائر الاعضاء الآخر اذ كانت الاعضاء كلها موضوعة على العظام والحامل يجب أن يكون أقوى من المحمول (والثانيه) انه احتيج اليها فى بعض المواضع لان تكون جنة يقوى بها ما سواها من الاعضاء بمنزلة قحف الرأس وعظام الصدر وما كان كذلك فيجب أن يكون صلبا ليكون صبورا على ملاقاة الآفات بعيدا من القبول لها اذا ثبت هذا فنقول اذا كان

فى الشعر وفشوه فيه واخذه منه كل ماخذ باشتعالها ثم اخرجه مخرج الاستعارة ثم اسند الاشتعال الى محل الشعر ومنبته وأخرجه مخرج التمييز وأطلق الرأس اكتفاء بما قيد به العظم وفيه من فنون البلاغة وكمال الجزالة ما لا يخفى حيث كان الاصل اشتعل شيب رأسى فاسند الاشتعال الى الرأس كما ذكر لافادة شموله لكلها فان وزانه بالنسبة الى الاصل وزان اشتعل بيته نارا بالنسبة الى اشتعل النار فى بيته ولزيادة تقريره بالاجمال أولا والتفصيل ثانيا ولمزيد تفخيمه بالتنكير وقرئ بادغام السين فى الشين (ولم أكن بدعائك رب شقيا) أى ولم أكن بدعائى اياك خائبا فى وقت من أوقات هذا العمر الطويل بل كلما دعوتك استجبت لى والجملة معطوفة على ما قبلها أو حال من ضمير المتكلم اذ المعنى واشتعل رأسى شيبا وهذا توسل منه عليه السلام بما سلف منه من الاستجابة عند كل دعوة اثر تمهيد ما يستدعى الرحمة ويستجلب الرأفة من كبر السن وضعف الحال فانه تعالى بعد ما عود عبده بالاجابة دهرا طويلا لا يكاد يخيبه أبدا لا سيما عند اضطراره وشدة افتقاره والتعرض فى الموضعين لوصف الربوبية المنبئة عن اضافة ما فيه صلاح المربوب مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام لا سيما توسطه بين كان وخبرها لتحريك سلسلة الاجابة بالمبالغة فى التضرع ولذلك قيل اذا أراد العبد أن يستجاب له دعاؤه فليدع الله تعالى بما يناسبه من اسمائه وصفاته (وانى خفت الموالى)

العظم أصلب الاعضاء فتى وصل الامر الى ضعفها كان ضعف ماعداها مع رخاوتها أولى ولان العظم اذا كان حاملا لسائر الاعضاء كان تطرق الضعف الى الحامل موجبا لتطرقه الى المحمول فلهذا السبب خص العظم بالوهن من بين سائر الاعضاء وأما أثر الضعف في الظاهر فذلك استيلاء الشيب على الرأس فثبت ان هذا الكلام يدل على استيلاء الضعف على الباطن والظاهر وذلك مما يزيد الدعاء توكيدا لما فيه من الارتكان على حول الله وقوته والتبري عن الاسباب الظاهرة (المقام الثاني) انه ما كان مردود الدعاء البتة ووجه التوسل به من وجهين (أحدهما) ماروى أن محتاجا سال واحدا من الاكابر وقال أنا الذي أحسنت الي وقت كذا فقال مرحبا بمن توسل بنا الينا ثم قضى حاجته وذلك انه اذا قبله اولا فلو انه رده ثانيا لكان الرد محبطا للانعام الاول والمنعم لا يسعى في احباط انعامه (والثاني) وهو ان مخالفة العادة شاقة على النفس فاذا تعود الانسان اجابة الدعاء فلو صار مردودا بعد ذلك لكان في غاية المشقة ولان الجفاء ممن يتوقع منه الانعام يكون اشق فقال زكرياء عليه السلام انك ما رددتني في أول الامر مع اني ما تعودت لطفك وكنت قوي البدن قوي القلب فلو رددتني الآن بعد ما عودتني القبول مع نهاية ضعفي لكان ذلك بالغا الى الغاية القصوى في ألم القلب واعلم ان العرب تقول سعد فلان بحاجته اذا ظفر بها وشقي بها اذا خاب ولم ينلها ومعنى بدعائك أي بدعائي اياك فان الفعل قد يضاف الى الفاعل تارة والى المفعول أخرى (المقام الثالث) بيان كون المطلوب منتفعا به في الدين وهو قوله واني خفت الموالي من ورائي وفيه ابحاث (الاول) قال ابن عباس والحسن اني خفت الموالي أي الورثة من بعدي وعن مجاهد العصبة وعن أبي صالح الكلالة وعن الاصم بنو العم وهم الذين يلونه في النسب وعن أبي مسلم المولى يراد به الناصر وابن العم والمالك والصاحب وهو ههنا من يقوم بميراثه مقام الولد والمختار ان المراد من الموالي الذين يخلفون بعده اما في السياسة أو في المال الذي كان له أو في القيام بأمر الدين فقد كانت العادة جارية ان كل من كان الى صاحب الشرع أقرب فانه كان متعينا في الحياة (الثاني) اختلفوا في خوفه من الموالي فقال بعضهم خافهم على أفساد الدين وقال بعضهم بل خاف ان ينتهي امره اليهم بعد موته في مال وغيره مع انه عرف من حالهم قصورهم في العلم والقدرة عن القيام بذلك المنصب وفيه قول ثالث وهو انه يحتمل أن يكون الله تعالى قد أعلمه انه لم يبق من أنبياء بني اسرائيل نبي له أب الا واحد فخاف أن يكون ذلك من بني عمه اذ لم يكن له ولد فسأل الله تعالى أن يهب له ولدا يكون هو ذلك النبي وذلك يقتضي أن يكون خائفا من أمر يهتم بمثله الانبياء وان لم يدل على تفصيل ذلك ولا يمتنع أن زكرياء كان اليه مع النبوة السياسة من جهة الملك وما يتصل بالامامة فخاف منهم بعده على أحدهما أو عليهما أما قوله واني خفت فهو وان خرج على لفظ الماضي لكنه يفيد انه في المستقبل أيضا كذلك يقول الرجل قد خفت أن

عطف على قوله تعالى انى وهن العظم مترتب مضمونه على مضمونه فان ضعف القوى وكبر السن من مبادي خوفه عليه السلام من يلي أمره بعد موته ومواليه بنو عمه وكانوا أشرار بني اسرائيل فخاف أن لا يحسنوا خلافته في أمته و يبدلوا عليهم دينهم وقوله (من ورائي) أي بعد موتي متعلق بمحذوف ينساق اليه الذهن أي فعل الموالي من بعدي أو جور الموالي وقد قرئ كذلك أو بمعنى الموالي من معنى الولاية أي خفت الذين يلون الامر من ورائي لا بخفت لفساد المعنى وقرئ وراي بالقصر وفتح الياء وقرئ خفت الموالي من ورائي أي قلوا وعجزوا عن القيام بأمور الدين بعدي أو خفت الموالي القادرون على اقامة مراسم الملة ومصالح الامة من خف القوم أي ارتحلوا مسرعين أي درجوا قدامي ولم يبق منهم من به تقو واعتضاد فالظرف حينئذ متعلق بخفت (وكانت امرأتي عاقرا) أي لا تلد من حين شبابها (فهب لي من لدنك) كلا الجارين متعلق بهب لاختلاف معنييهما فاللام صلة له ومن لابتداء الغاية مجازا وتقديم الاول لكون مدلوله أهم عنده و يجوز تعلق الثاني بمحذوف وقع حالا من المفعول ولدن في الاصل ظرف ﴿ يكون ﴾ بمعنى أول غاية زمان أو مكان أو غيرهما من الذوات وقد مر تفصيله في أوائل سورة آل عمران أي أعطني من محض فضلك الواسع وقدرتك الباهرة بطريق الاختراع

يكون كذا وخشيت أن يكون كذا أى أنا خائف لا يريد انه قد زال الخوف عنه وهكذا قوله وكانت امرأتى عاقرا أى انها عاقر فى الحال وذلك لان العاقر لا تحول ولودا فى العادة ففى الاخبار عنه بلفظ الماضى اعلام بتقادم العهد فى ذلك وغرض زكريا من هذا الكلام بيان استبعاد حصول الولد فكان ايراده بلفظ الماضى أقوى والى هذا يرجع الامر فى قوله وانى خفت الموالى من ورائى لانه انما قصد به الاخبار وعن تقادم الخوف ثم استغنى بدلالة الحال وما يوجب مسئلة الوارث واظهار الحاجة عن الاخبار بوجود الخوف فى الحال وايضا فقد يوضع الماضى مكان المستقبل وبالعكس قال الله تعالى واذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس والله أعلم واما قوله من ورائى ففيه قولان (الاول) قال ابو عبيدة اى قدامى وبين يدى وقال آخرون اى بعد موتى وكلاهما محتمل فان قيل كيف خافهم من بعده وكيف علم انهم يبقون بعده فضلا من ان يخاف شرهم قلنا ان ذلك قد يعرف بالامارات والظن وذلك كاف فى حصول الخوف فربما عرف ببعض الامارات استمرارهم على عادتهم فى الفساد والشر واختلف فى تفسير قوله فهب لى من لدنك وليا فالاكثرون على انه طلب الولد وقال آخرون بل طلب من يقوم مقامه ولدا كان او غيره والاقرب هو الاول لثلاثة اوجه (الاول) قوله تعالى فى سورة آل عمران حكاية عنه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة (والثانى) قوله فى هذه السورة هب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب (والثالث) قوله تعالى فى سورة الانبياء وزكريا اذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وهذا يدل على انه سأل الولد لانه قد اخبر فى سورة مريم ان له موالى وانه غير منفرد عن الورثة وهذا وان امكن حمله على وارث يصلح ان يقوم مقامه لكن حمله على الولد اظهر واحتج اصحاب القول الثالث بأنه لما بشر بالولد استعظم على سبيل التعجب فقال أنى يكون لى غلام ولو كان دعاؤه لاجل الولد لما استعظم ذلك (الجواب) انه عليه السلام سأل عما يوهب له أيوهب له وهو وامرأته على هيئتهما أو يوهب بأن يحولا شابين يكون لمثلهما ولد هذا يحكى عن الحسن وقال غيره ان قول زكريا عليه السلام فى الدعاء وكانت امرأتى عاقرا انما هو على معنى مسئلته ولدا من غيرها ومنها بأن يصلحها الله للولد فكأنه عليه السلام قال انى آيست ان يكون لى منها ولد فهب لى من ادنك وليا كيف شئت اما بأن تصلحها فيكون الولد منها أو بأن تهب لى من غيرها فلما بشر بالغلام سأل أيرزق منها أو من غيرها فأخبر بأنه يرزق منها واختلفوا فى المراد بالميراث على وجوه (أحدها) ان المراد بالميراث فى الموضعين هو وراثة المال وهذا قول ابن عباس والحسن والضحاك (وثانيها) ان المراد به فى الموضعين وراثة النبوة وهو قول أبى صالح (وثالثها) يرثنى المال ويرث من آل يعقوب النبوة وهو قول السدى ومجاهد والشعبى وروى أيضا عن ابن عباس والحسن والضحاك (ورابعها) يرثنى العلم ويرث من آل يعقوب النبوة وهو مروى عن مجاهد واعلم ان هذه الروايات ترجع الى أحد أمور خمسة وهى

لا بواسطة الاسباب العادية (وليا) أى ولدا من صلبى وتأخيره عن الجارين لاظهار كمال الاعتناء بكونه الهبة له على ذلك الوجه البديع مع ما فيه من التشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مستشرفة له فعند وروده لها يتمكن عندها فضل تمكن ولان فيه نوع طول بما بعده من الوصف فتأخيرهما عن الكل أو توسيطهما بين الموصوف والصفة مما لا يليق بجزالة النظم الكريم والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان ما ذكره عليه الصلاة والسلام من كبر السن وضعف القوى وعقر المرأة موجب لانقطاع رجائه عليه السلام عن حصول الولد بتوسط الاسباب العادية واستيهابه على الوجه الخارق للعادة ولا يقدح فى ذلك أن يكون هناك داع آخر الى الاقبال على الدعاء المذكور من مشاهدته عليه السلام للخوارق الظاهرة فى حق مريم كما يعرب عنه قوله تعالى هنالك دعا زكريا ربه الآية وعدم ذكره ههنا للتعويل على ذكره هناك كما أن عدم ذكر مقدمة الدعاء هناك للاكتفاء بذكرها ههنا فان الاكتفاء بما ذكر فى موطن عما ترك فى موطن آخر من النكت التنزيلية وقوله تعالى (يرثنى) صفة لوليا وقرئ هو وما عطف عليه بالجزم جوابا للدعاء أى يرثنى من حيث العلم والدين والنبوة فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام لا يورثون المال قال صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركنا صدقة وقيل يرثنى الحبورة وكان عليه السلام حبرا

(ويرث من آل يعقوب) يقال ورثه وورث منه لغتان وآل الرجل خاصته الذين يؤل اليه أمرهم للقرابة أو الصحبة أو الموافقة فى الدين وكانت زوجة زكريا أخت أم مريم أى ويرث منهم الملك قيل هو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام وقال الكلبى ومقاتل هو يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان من نسل سليمان عليه السلام وكان آل يعقوب اخوال يحيى بن زكريا قال الكلبى كان بنوماثان رؤس بنى اسرائيل وملوكهم وكان زكريا رئيس الاحبار يومئذ فاراد أن يرثه ولده حبورته ويرث من بنى ماثان ملكهم وقرئ ويرث وارث آل يعقوب على انه حال من المستكن فى يرث وقرئ أو يرث آل يعقوب بالتصغير ففيه ايماء الى وراثته عليه السلام لما يرثه فى حالة صغره وقرئ وارث من آل يعقوب على أنه فاعل يرثنى على طريقة التجريد أى يرثنى به وارث وقيل من للتبعيض اذ لم يكن كل آل يعقوب عليه السلام أنبياء ولا علماء (واجعله رب رضيا) مرضيا عندك قولا وفعلا وتوسيط رب بين مفعولى اجعل للمبالغة فى الاعتناء بشان مايستدعيه (يازكريا) على ارادة القول أى قال تعالى يازكريا (انا نبشرك بغلام ﴿فاراد﴾ اسمه يحيى) لكن لا بأن يخاطبه عليه الصلاة والسلام بذلك بالذات بل بواسطة الملك على أن يحكى له عليه الصلاة والسلام هذه العبارة عنه عز وجل على نهج قوله تعالى قل ياعبادى الذين أسرفوا الآية وقد مر تحقيقه فى سورة آل عمران

المال ومنصب الحبورة والعلم والنبوة والسيرة الحسنة ولفظ الارث مستعمل فى كلها أما فى المال فلقوله تعالى أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأما فى العلم فلقوله تعالى ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى اسرائيل الكتاب وقال عليه السلام العلماء ورثة الانبياء وان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم وقال تعالى ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان داود وهذا يحتمل وراثة الملك ووراثة النبوة وقد يقال أورثنى هذا غما وحزنا وقد ثبت ان اللفظ محتمل لتلك الوجوه واحتج من حمل اللفظ على وراثة المال بالخبر والمعقول أما الخبر فقوله عليه السلام رحم الله زكريا ما كان له من يرثه وظاهره يدل على ان المراد ارث المال وأما المعقول فمن وجهين (الاول) ان العلم والسيرة والنبوة لا تورث بل لا تحصل الا بالاكتساب فوجب حمله على المال (الثانى) انه قال واجعله رب رضيا ولو كان المراد من الارث ارث النبوة لكان قد سأل جعل النبى صلى الله عليه وسلم رضيا وهو غير جائز لان النبى لا يكون الا رضيا معصوما وأما قوله عليه السلام انا معشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة فهذا لا يمنع أن يكون خاصا به واحتج من حمله على العلم أو المنصب والنبوة بما علم من حال الانبياء ان اهتمامهم لا يشتد بأمر المال كما يشتد بأمر الدين وقيل لعله أوتى من الدنيا ما كان عظيم النفع فى الدين فلهذا كان مهتما به أما قوله النبوة كيف تورث قلنا المال انما يقال ورثه الابن بمعنى قام فيه مقام أبيه وحصل من فائدة التصرف فيه ما حصل لابيه والا فملك المال من قبل الله لا من قبل المورث فكذلك اذا كان المعلوم فى الابن أن يصير نبيا بعده فيقوم بأمر الدين بعده جاز أن يقال ورثه أما قوله عليه السلام انا معشر الانبياء فهذا وان جاز حمله على الواحد كما فى قوله تعالى انا نحن نزلنا الذكر لكنه مجاز وحقيقته الجمع والعدول عن الحقيقة من غير موجب لا يجوز لاسيما وقد روى قوله انا معاشر الانبياء لا نورث والاولى أن يحمل ذلك على كل ما فيه نفع وصلاح فى الدين وذلك يتناول النبوة والعلم والسيرة الحسنة والمنصب النافع فى الدين والمال الصالح فان كل هذه الامور مما يجوز توفر الدواعى على بقائها ليكون ذلك النفع دائما مستمرا (السابع) اتفق أكثر المفسرين على ان يعقوب ههنا هو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام لان زوجة زكريا هى اخت مريم وكانت من ولد سليمان بن داود من ولد يهوذا بن يعقوب وأما زكرياء عليه السلام فهو من ولد هرون أخى موسى عليه السلام وهرون وموسى عليهما السلام من ولد لاوى بن يعقوب بن اسحق وكانت النبوة فى سبط يعقوب لانه هو اسرائيل صلى الله عليه وسلم وقال بعض المفسرين ليس المراد من يعقوب ههنا ولد اسحق بن ابراهيم عليه السلام بل يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان وكان آل يعقوب أخوال يحيى بن زكرياء وهذا قول الكلبى ومقاتل وقال الكلبى كان بنو ماثان رؤس بنى اسرائيل وملوكهم وكان زكريا رأس الاحبار يومئذ

فاراد أن يرثه ولده حبورته و يرث بنى ماثان ملكهم واعلم انهم ذكروا فى تفسير الرضى وجوها (أحدها) ان المراد واجعله رضيا من الانبياء وذلك لان كلهم مرضيون فالرضى منهم مفضل على جملتهم فائق لهم فى كثير من أمورهم فاستجاب الله تعالى له ذلك فوهب له سيدا وحصورا ونبيا من الصالحين لم يعص ولم يهم بمعصية وهذا غاية ما يكون به المرء رضيا (وثانيها) المراد بالرضى أن يكون رضيا فى أمته لا يتلقى بالتكذيب ولا يواجه بالرد (وثالثها) المراد بالرضى أن لا يكون متهما فى شئ ولا يوجد فيه مطعن ولا ينسب اليه شئ من المعاصى (ورابعها) ان ابراهيم واسمعيل عليهما السلام قالا فى الدعاء ربنا واجعلنا مسلمين لك وكانا فى ذلك الوقت مسلمين وكان المراد هناك ثبتنا على هذا أو المراد اجعلنا فاضلين من أنبيائك المسلمين فكذا ههنا واحتج أصحابنا فى مسئلة خلق الافعال بهذه الآية لانه انما يكون رضيا بفعله فلما سأل الله تعالى جعله رضيا دل على ان فعل العبد مخلوق لله تعالى فان قيل المراد منه ان يلطف له بضروب الالطاف فيختار ما يصير مرضيا فينسب ذلك الى الله تعالى والجواب من وجهين (الاول) ان جعله رضيا وحملناه على جعل الالطاف وعندها يصير المرء باختياره رضيا لكان ذلك مجازا وهو خلاف الاصل (والثانى) أن جعل تلك الالطاف واجبة على الله تعالى لا يجوز الاخلال به وما كان واجبا لا يجوز طلبه بالدعاء والتضرع * قوله تعالى (يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا) فيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى من المنادى بقوله يازكريا فالاكثرون على انه هو الله تعالى وذلك لان ما قبل هذه الآية يدل على ان زكريا عليه السلام انما كان يخاطب الله تعالى و يسأله وهو قوله رب انى وهن العظم منى وقوله ولم أكن بدعائك رب شقيا وقوله فهب لى وما بعدها يدل على انه كان يخاطب الله تعالى وهو يقول رب أنى يكون لى غلام واذا كان ما قبل هذه الآية وما بعدها خطابا مع الله تعالى وجب أن يكون النداء من الله تعالى والا لفسد النظم ومنهم من قال هذا نداء الملك واحتج عليه بوجهين (الاول) قوله تعالى فى سورة آل عمران فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ان الله يبشرك بيحيى (الثانى) ان زكريا عليه السلام لما قال أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا قال كذلك قال ربك هو على هين وهذا لا يجوز أن يكون كلام الله فوجب أن يكون كلام الملك (والجواب) عن الاول انه يحتمل أن يقال حصل النداآن نداء الله ونداء الملائكة (وعن الثانى) انا نبين ان شاء الله تعالى ان قوله قال كذلك قال ربك هو على هين يمكن أن يكون كلام الله (المسئلة الثانية) فان قيل ان كان الدعاء باذن فما معنى البشارة وان كان بغير اذن فلماذا أقدم عليه والجواب هذا أمر يخصه فيجوز أن يسأل بغير اذن ويحتمل انه اذن له فيه ولم يعلم وقته فبشر به (المسئلة الثالثة) اختلف المفسرون فى قوله لم نجعل له من قبل سميا على وجهين (أحدهما) وهو قول ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة انه لم يسم أحد قبله بهذا الاسم (الثانى) ان المراد

وهنا جواب لندائه عليه الصلاة والسلام ووعد باجابة دعائه لكن لا كلا كما هو المتبادر من قوله تعالى فاستجبنا له ووهبنا له يحيى الخ بل بعضا حسبما تقتضيه المشيئة الالهية المبنية على الحكم البالغة فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام وان كانوا مستجابى الدعوة لكنهم ليسوا كذلك فى جميع الدعوات ألا يرى الى دعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام فى حق أبيه والى دعوة النبى عليه الصلاة والسلام حيث قال وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها وقد كان من قضائه عز وعلا أن يهبه يحيى نبيا مرضيا ولا يرثه فاستجيب دعاؤه فى الاول دون الثانى حيث قتل قبل موت أبيه عليهما الصلاة والسلام على ما هو المشهور وقيل بقى بعده برهة فلا اشكال حينئذ وفى تعيين اسمه عليه الصلاة والسلام تأكيد للوعد وتشريف له عليه الصلاة والسلام وفى تخصيصه به عليه السلام حسبما يعرب عنه قوله تعالى (لم نجعل له من قبل سميا) أى شريكا له فى الاسم حيث لم يسم أحد قبله بيحيى مزيد تشريف وتفخيم له عليه الصلاة والسلام فان التسمية بالاسامى البديعة الممتازة عن اسماء سائر الناس تنويها بالمسمى لا محالة وقيل سميا شبيها فى الفضل والكمال كما فى قوله تعالى هل تعلم له سميا فان المتشاركين فى الوصف بمنزلة المتشاركين فى الاسم قالوا لم يكن له عليه الصلاة والسلام مثل فى أنه لم يعص الله تعالى ولم يهم بمعصية قط وأنه ولد من شيخ فان وعجوز عاقر وأنه كان حصورا فيكون هذا اجمالا لما نزل بعده من قوله تعالى مصدقا بكلمة

بالسمي النظير كما في قوله هل تعلم له سميا واختلفوا في ذلك على وجوه (أحدها) انه سيد وحصور لم يعص ولم يهم بمعصية كأنه جواب لقوله واجعله رب رضيا فقيل له انا نبشرك بغلام لم نجعل له من قبل شبيها في الدين ومن كان هكذا فهو في غاية الرضا وهذا الوجه ضعيف لانه يقتضي تفضيله على الانبياء الذين كانوا قبله كآدم ونوح وابراهيم وموسى وذلك باطل بالاتفاق (وثانيها) ان كل الناس انما يسميهم آباؤهم وأمهاتهم بعد دخولهم في الوجود وأما يحيى عليه السلام فان الله تعالى هو الذي سماه قبل دخوله في الوجود فكان ذلك من خواصه فلم يكن له مثل وشبيه في هذه الخاصية (وثالثها) انه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر واعلم ان الوجه الاول أولى وذلك لان حمل السمي على النظير وان كان يفيد المدح والتعظيم ولكنه عدول عن الحقيقة من غير ضرورة وانه لا يجوز وأما قول الله تعالى هل تعلم له سميا فهناك انما عدلنا عن الظاهر لانه قال فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا ومعلوم ان مجرد كونه تعالى مسمى بذلك الاسم لا يقتضي وجوب عبادته فلهذه العلة عدلنا عن الظاهر اما ههنا لا ضرورة في العدول عن الظاهر فوجب اجراؤه عليه ولان في تفرده بذلك الاسم ضربا من التعظيم لانا نشاهد ان الملك اذا كان له لقب مشهور فان حاشيته لا يتلقبون به بل يتركونه تعظيما له فكذلك ههنا (المسئلة الرابعة) في انه عليه السلام سمي بيحيى روى الثعلبي فيه وجوها (أحدها) عن ابن عباس رضي الله عنهما ان الله تعالى احيا به عقر أمه (وثانيها) عن قتادة ان الله تعالى أحيا قلبه بالايمان والطاعة والله تعالى سمي المطيع حيا والعاصي ميتا بقوله تعالى أومن كان ميتا فاحييناه وقال اذا دعاكم لما يحييكم (وثالثها) احياؤه بالطاعة حتى لم يعص ولم يهم بمعصية لما روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من أحد الا وقد عصى أو هم الا يحيى بن زكريا فانه لم يهم ولم يعملها (ورابعها) عن أبي القاسم بن حبيب انه استشهد وأن الشهداء احياء عند ربهم لقوله تعالى بل احياء عند ربهم (وخامسها) ما قاله عمرو بن عبد الله المقدسي أوحى الله تعالى الى ابراهيم عليه السلام ان قل لسارة وكان اسمها كذلك باني مخرج منها عبدا لا يهم بمعصية اسمه حيي فقال هبي له من اسمك حرفا فوهبته حرفا من اسمها فصار يحيى وكان اسمها يسارة فصار اسمها سارة (وسادسها) ان يحيى عليه السلام أول من آمن بعيسى فصار قلبه حيا بذلك الايمان وذلك ان أم يحيى كانت حاملا به فاستقبلتها مريم وقد حملت بعيسى فقالت لها أم يحيى يا مريم أحامل أنت فقالت لماذا تقولين فقالت اني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك (وسابعها) ان الدين يحيا به لانه انما سأله زكريا لاجل الدين واعلم ان هذه الوجوه ضعيفة لان اسماء الالقاب لا يطلب فيها وجه الاشتقاق ولهذا قال أهل التحقيق أسماء الالقاب قائمة مقام الاشارات وهي لا تفيد في المسمى صفة البتة * قوله تعالى (قال رب انى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائي عتيا وصليا وجثيا

من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين والاظهر أنه اسم أعجمي وان كان عربيا فهو منقول عن الفعل كيعمر ويعيش قيل سمي به لانه حيي به رحم أمه أو حيي دين الله تعالى بدعوته (قال) استئناف مبني على السؤال كأنه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام حينئذ فقيل قال (رب) ناداه تعالى بالذات مع وصول خطابه تعالى اليه بتوسط الملك للمبالغة في التضرع والمناجاة والجد في التبتل اليه تعالى والاحتراز عما عسى يوهم خطابه للملك من توهم أن علمه تعالى بما يصدر عنه متوقف على توسطه كما أن علم البشر بما يصدر عنه سبحانه متوقف على ذلك في عامة الاوقات (أنى يكون لي غلام) كلمة أنى بمعنى كيف أو من أين وكان اما تامة وأنى واللام متعلقتان بها وتقديم الجار على الفاعل لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق الى ما أخر أي كيف أو من أين يحدث لي غلام ويجوز أن تتعلق اللام بمحذوف وقع حالا من غلام اذ لو تأخر لكان صفة له أي أنى يحدث كائنا لي غلام أو ناقصة اسمها ظاهر وخبرها اما أنى ولي متعلق بمحذوف كما مر أو هو الخبر وأنى نصب على الظرفية وقوله تعالى (وكانت امرأتي عاقرا) حال من ضمير المتكلم بتقدير قد وكذا قوله تعالى ﴿ وبكيا ﴾ (وقد بلغت من الكبر عتيا) حال منه مؤكدة للاستبعاد اثر تأكيد أي كانت امرأتي عاقرا لم تلد في شبابها وشبابي فكيف وهي الآن عجوز وقد بلغت انا من أجل كبر السن جساوة وقحولا في المفاصل والعظام أو بلغت من مدارج الكبر

و بكيا بكسر العين والصاد والجيم والباء وقرأ حفص عن عاصم بكيا بالضم والباقي بالكسر والباقون جميا بالضم وقرأ ابن مسعود بفتح العين والصاد من عتيا وصليا وقرأ أبي بن كعب وابن عباس عسيا بالسين غير المعجمة والله أعلم (المسئلة الثانية) في الالفاظ وهي ثلاثة (الاول) الغلام الانسان الذكر في ابتداء شهوته للجماع ومنه اغتلم اذا اشتدت شهوته للجماع ثم يستعمل في التلميذ يقال غلام ثعلب (الثاني) العتي والعسي واحد تقول عتا يعتو عتوا وعتيا فهو عات وعسا يعسو عسوا وعسيا فهو عاس والعاسي هو الذي غيره طول الزمان الى حال البؤس وليل عات طويل وقيل شديد الظلمة (الثالث) لم يقل عاقرة لان ما كان على فاعل من صفة المؤنث مما لم يكن للمذكر فانه لا تدخل فيه الهاء نحو امرأة عاقر وحائض قال الخليل هذه صفات مذكرة وصف بها المؤنث كما وصفوا المذكر بالمؤنث حين قالوا رجل ملحة وربعة وغلام نفعة (المسئلة الثالثة) في هذه الآية سؤالان (الاول) ان زكريا عليه السلام لم تعجب بقوله أنى يكون لي غلام مع أنه هو الذي طلب الغلام (السؤال الثاني) ان قوله أنى يكون لي غلام لم يكن هذا مذكورا بين أمته لانه كان يخفي هذه الامور عن أمته فدل على انه ذكره في نفسه وهذا التعجب يدل على كونه شاكا في قدرة الله تعالى على ذلك وذلك كفر وهو غير جائز على الانبياء عليهم السلام (والجواب) عن السؤال الاول أما على قول من قال انه لم يطلب خصوص الولد فالسؤال زائل وأما على قول من قال انه طلب الولد فالجواب عنه أن المقصود من قوله انى يكون لي غلام هو التعجب من انه تعالى يجعلهما شابين ثم يرزقهما الولد أو يتركهما شيخين و يرزقهما الولد مع الشيخوخة بطريق الاستعلام لا بطريق التعجب والدليل عليه قوله تعالى وزكريا اذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه وما هذا الاصلاح الا أنه اعاد قوة الولادة وقد تقدم تقرير هذا الكلام وذكر السدي في الجواب وجها آخر قال انه لما سمع النداء بالبشارة جاءه الشيطان فقال ان هذا الصوت ليس من الله تعالى بل هو من الشيطان يسخر منك فلما شك زكريا قال أنى يكون لي غلام واعلم ان غرض السدي من هذا أن زكريا عليه السلام لو علم ان المبشر بذلك هو الله تعالى لما جاز له أن يقول ذلك فارتكب هذا وقال بعض المتكلمين هذا باطل قطعا اذ لو جوز الانبياء في بعض ما يرد عن الله تعالى انه من الشيطان لجوزوا في سائره ولزالت الثقة عنهم في الوحي وعنا فيما يوردونه الينا ويمكن أن يجاب عنه بان هذا الاحتمال قائم في أول الامر وانما يزول بالمعجزة فلعل المعجزة لم تكن حاصلة في هذه الصورة فحصل الشك فيها دون ما عداها والله أعلم والجواب عن السؤال الثاني من وجوه (الاول) ان قوله انا نبشرك بغلام اسمه يحيى ليس نصا في كون ذلك الغلام ولدا له بل يحتمل ان زكريا عليه السلام راعى الادب ولم يقل هذا الغلام هل يكون لي ولد أم لا بل ذكر اسباب تعذر حصول الولد في العادة حتى ان تلك البشارة ان كانت بالولد فالله تعالى يزيل الابهام و يجعل الكلام صريحا فلما ذكر ذلك صرح الله تعالى بكون ذلك الولد منه فكان الغرض من كلام زكريا هذا لا أنه كان شاكا

ومرتبة ما يسمى عتيا من عتا يعتو وأصله عتوو كقعود فاستثقل توالي الضمتين والواوين فكسرت التاء فانقلبت الاولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ثم قلبت الثانية ايضا لاجتماع الواو والياء وسبق احداهما بالسكون وكسرت العين اتباعا لها لما بعدها وقرئ بضمها ولعل البداءة ههنا بذكر حال امرأته على عكس ما في سورة آل عمران لما انه قد ذكر حاله في تضاعيف دعائه وانما المذكور ههنا بلوغه اقصى مراتب الكبر تتمة لما ذكر قبل وأما هنالك فلم يسبق في الدعاء ذكر حاله فلذلك قدمه على ذكر حال امرأته لما ان المسارعة الى بيان قصور شأنه أنسب وانما قاله عليه الصلاة والسلام مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله لاسيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة في سورة آل عمران استعظاما لقدرة الله تعالى وتعجيبا منها واعتدادا بنعمته تعالى عليه في ذلك باظهار أنه من محض لطف الله عز وعلا وفضله مع كونه في نفسه من الامور المستحيلة عادة لا استبعادا له وقيل انما قاله ليجاب بما أجيب به فيزداد المؤمنون ايقانا و يرتدع المبطلون وقيل كان ذلك منه عليه الصلاة والسلام استفهاما عن كيفية حدوثه وقيل بل كان ذلك بطريق الاستبعاد حيث كان بين الدعاء والبشارة ستون سنة وكان قد نسي دعاءه، وهو بعيد (قال) استئناف كامر مبني على سؤال نشأ مما سلف والكاف في قوله تعالى (كذلك قال ربك) مقحمة كما في مثلك لا يبخل محلها اما النصب على انه مصدر تشبيهي لقال الثاني وذلك اشارة الى مصدره الذي هو عبارة

فى قدرة الله تعالى عليه (الثانى) انه ما ذكر ذلك للشك لكن على وجه التعظيم لقدرته وهذا كالرجل الذى يرى صاحبه قد وهب الكثير الخطير فيقول أنى سمحت نفسك باخراج مثل هذا من ملكك تعظيما وتعجبا (الثالث) ان من شأن من بشر بما يتمناه ان يتولد له فرط السرور به عند أول ما يرد عليه استثبات ذلك الكلام اما لان شدة فرحه به توجب ذهوله عن مقتضيات العقل والفكر وهذا كما ان امرأة ابراهيم عليه السلام بعد ان بشرت باسحق قالت أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا الشئ عجيب فازيل تعجبها بقوله أتعجبين من أمر الله واما طلبا للالتذاذ بسماع ذلك الكلام مرة أخرى واما مبالغة فى تأكيد التفسير ❊ قوله تعالى (قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله قال كذلك قال ربك هو على هين وجوه (أحدها) ان الكاف رفع أى الامر كذلك تصديقا له ثم ابتدأ قال ربك (وثانيها) نصب بقال وذلك اشارة الى مبهم تفسيره هو على هين وهو كقوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين (وثالثها) ان المراد لا تعجب فانه كذلك قال ربك لا خلف فى قوله ولا غلط ثم قال بعده هو على هين بدليل خلقتك من قبل ولم تك شيئا (ورابعها) انا ذكرنا ان قوله أنى يكون لى غلام معناه تعطينى الغلام بان تجعلنى وزوجتى شابين أو بان تتركنا على الشيخوخة ومع ذلك تعطينا الولد وقوله كذلك قال ربك أى نهب الولد مع بقائك و بقاء زوجتك على الحالة الحاصلة فى الحال (المسئلة الثانية) قرأ الحسن وهو على هين وهذا لا يخرج الا على الوجه الاول أى الامر كما قلت ولكن قال ربك هو مع ذلك على هين (المسئلة الثالثة) اطلاق لفظ الهين فى حق الله تعالى مجاز لان ذلك انما يجوز فى حق من يجوز أن يصعب عليه شئ ولكن المراد انه اذا أراد شيئا كان (المسئلة الرابعة) فى وجه الاستدلال بقوله تعالى وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا فنقول انه لما خلقه من العدم الصرف والنفى المحض كان قادرا على خلق الذوات والصفات والآثار وأما الآن فخلق الولد من الشيخ والشيخة لا يحتاج فيه الا الى تبديل الصفات والقادر على خلق الذوات والصفات والآثار معا أولى ان يكون قادرا على تبديل الصفات واذا أوجده عن عدم فكذا يرزقه الولد بان يعيد اليه والى صاحبته القوة التى عنها يتولد الماآن اللذان من اجتماعهما يخلق الولد ولذلك قال فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه فهذا وجه الاستدلال (المسئلة الخامسة) الجمهور على ان قوله قال كذلك قال ربك يقتضى ان القائل لذلك ملك مع الاعتراف بان قوله يازكريا انا نبشرك قول الله تعالى وقوله هو على هين قول الله تعالى وهذا بعيد لانه اذا كان ما قبل هذا الكلام وما بعده قول الله تعالى فكيف يصح ادراج هذه الالفاظ فيما بين هذين القولين والاولى أن قائل هذا القول أيضا هو الله تعالى كما أن الملك العظيم اذا وعد عبده شيئا عظيما فيقول العبد من أين يحصل لى هذا فيقول ان سلطانك ضمن لك ذلك كأنه ينبه بذلك على أن كونه سلطانا ناما يوجب عليه

عن الوعد السابق لا الى قول آخر شبه هذا به وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى وكذلك جعلناكم امة وسطا وقوله تعالى (هو على هين) جملة مقررة للوعد المذكور دال على انجازه داخلة فى حيز قال الاول كانه قيل قال الله عز وجل مثل ذلك القول البديع قلت أى مثل ذلك الوعد الخارق للعادة وعدت هو على خاصة هين وان كان فى العادة مستحيلا وقرئ وهو على هين فالجملة حينئذ حال من ربك والياء عبارة عن ضميره كما ستعرفه أو اعتراض وعلى كل حال فهى مؤكدة ومقررة لما قبلها ثم أخرج القول الثانى مخرج الالتفات جريا على سنن الكبرياء لتربية المهابة وادخال الروعة كقول الخلفاء امير المؤمنين يرسم لك مكان انا أرسم ثم اسند الى اسم الرب المضاف الى ضميره عليه السلام تشريفا له واشعارا بعلة الحكم فان تذكير جريان أحكام ربوبيته تعالى عليه عليه الصلاة والسلام من ايجاده من العدم وتصريفه فى أطوار الخلق من حال الى حال شيئا فشيئا الى أن يبلغ كماله اللائق به مما يقلع أساس استبعاده عليه الصلاة والسلام لحصول الموعود ويورثه عليه الصلاة والسلام الاطمئنان بانجازه لامحالة ثم التفت من ضمير الغائب العائد الى الرب الى ياء العظمة ايذانا بأن مدار كونه هينا عليه سبحانه هو القدرة الذاتية لا ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام خاصة وتمهيدا لما يعقبه وقيل ذلك اشارة الى مبهم يفسره قوله تعالى هو على هين على طريقة قوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر أن دابر هؤلاء

الوفاء بالوعد فكذا ههنا * قوله تعالى (قال رب اجعل لى آية قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال بعضهم طلب الآية لتحقيق البشارة وهذا بعيد لان بقول الله تعالى قد تحققت البشارة فلا يكون اظهار الآية أقوى فى ذلك من صريح القول وقال آخرون البشارة بالولد وقعت مطلقة فلا يعرف وقتها بمجرد البشارة فطلب الآية ليعرف بها وقت الوقوع وهذا هو الحق (المسئلة الثانية) اتفقوا على ان تلك الآية هى تعذر الكلام عليه فان مجرد السكوت مع القدرة على الكلام لا يكون معجزة ثم اختلفوا على قولين (أحدهما) انه اعتقل لسانه أصلا (والثانى) انه امتنع عليه الكلام مع القوم على وجه المخاطبة مع انه كان متمكنا من ذكر الله ومن قراءة التوراة وهذا القول عندى أصح لان اعتقال اللسان مطلقا قد يكون لمرض وقد يكون من فعل الله فلا يعرف زكريا عليه السلام ان ذلك الاعتقال معجز الا اذا عرف انه ليس لمرض بل لمحض فعل الله تعالى مع سلامة الآلات وهذا مما لا تعرف الا بدليل آخر فتفتقر تلك الدلالة الى دلالة أخرى أما لو اعتقل لسانه عن الكلام مع القوم مع اقتداره على التكلم بذكر الله تعالى وقراءة التوراة علم بالضرورة ان ذلك الاعتقال ليس لعلة ومرض بل هو لمحض فعل الله فيتحقق كونه آية معجزة ومما يقوى ذلك قوله تعالى آيتك ان لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا خص ذلك بالتكلم مع الناس وهذا يدل بطريق المفهوم انه كان قادرا على التكلم مع غير الناس (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى معنى سويا فقال بعضهم هو صفة لليالى الثلاث وقال أكثر المفسرين هو صفة لزكريا والمعنى آيتك ان لا تكلم الناس فى هذه المدة مع كونك سويا لم يحدث بك مرض * قوله تعالى (فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم ان سبحوا بكرة وعشيا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى فخرج على قومه من المحراب قيل كان له موضع ينفرد فيه بالصلاة والعبادة ثم ينتقل الى قومه فعند ذلك أوحى اليهم وقيل كان موضعا يصلى فيه هو وغيره الا أنهم كانوا لا يدخلونه للصلاة الا باذنه وانهم اجتمعوا ينتظرون خروجه للاذن فخرج اليهم وهو لا يتكلم فأوحى اليهم (المسئلة الثانية) لا يجوز أن يكون المراد من قوله أوحى اليهم الكلام لان الكلام كان ممتنعا عليه فكان المراد غير الكلام وهو أن يعرفهم ذلك اما بالاشارة أو برمز مخصوص أو بكتابة لان كل ذلك يفهم منه المراد فعلموا انه قد كان ما بشر به فكما حصل السرور له حصل لهم فظهر لهم اكرام الله تعالى له بالاجابة واعلم ان الاشبه بالآية هو الاشارة لقوله تعالى فى سورة آل عمران ثلاثة أيام الا رمزا والرمز لا يكون كتابة الكلام (المسئلة الثالثة) اتفق المفسرون على انه أراد بالتسبيح الصلاة وهو جائز فى اللغة يقال سبحة الضحى أى صلاة الضحى وعن عائشة رضى الله عنها فى صلاة الضحى انى لاسبحها أى لأصليها اذا ثبت هذا فنقول روى عن أبى العالية ان البكرة صلاة الفجر والعشى صلاة العصر ويحتمل أن يكون انما كانوا يصلون معه فى محرابه هاتين الصلاتين فكان يخرج اليهم فيأذن لهم بلسانه فلما اعتقل

منطوع مصححين ولا يخرج هذا الوجه على القراءة بالواو لانها لا تدخل بين المفسر والمفسر واما الرفع على انه خبر مبتدا محذوف وذلك اشارة الى ما تقدم من وعده تعالى اى قال عز وعلا الامر كما وعدت وهو واقع لا محالة وقوله تعالى قال ربك الخ استئناف مقرر لمضمونه والجملة المحكية على القراءة الثانية معطوفة على المحكية الاولى أو حال من المستكن فى الجار والمجرور وأياما كان فتوسيط قال بينهما مشعر بمزيد الاعتناء بكل منهما والكلام فى اسناد القول الى الرب ثم الالتفات الى التكلم كالذى مر آنفا وقيل ذلك اشارة الى ما قاله زكريا عليه الصلاة والسلام أى قال تعالى الامر كما قلت تصديقا له فيما حكاه من الحالة المباينة للولادة فى نفسه وفى امرأته وقوله تعالى قال ربك الخ استئناف مسوق لازالة استبعاده بعد تقريره أى قال تعالى هو مع بعده فى نفسه على هين والقراءة الثانية ادخل فى افادة هذا المعنى على أن الواو للعطف وأما جعلها للحال فمخل بسداد المعنى لان ما له تقرير صعوبته حال سهولته عليه تعالى مع أن المقصود بيان سهولته عليه سبحانه مع صعوبته فى نفسه وقوله تعالى (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) جملة مستأنفة مقررة لما قبلها والمراد به ابتداء خلق البشر اذ هو الواقع اثر العدم المحض لا ما كان بعد ذلك بطريق التوالى المعتاد وانما لم ينسب ذلك الى آدم عليه الصلاة والسلام وهو المخلوق من العدم حقيقة بان يقال وقد خلقت اباك أو آدم من قبل ولم يك شيئا مع كفايته فى ازالة الاستبعاد

لسانه خرج اليهم كعادته فأذن لهم بغير كلام والله أعلم ۞ قوله تعالى (يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) اعلم انه تعالى وصف يحيى فى هذه الآية بصفات تسع (الصفة الاولى) كونه مخاطبا من الله تعالى بقوله يا يحيى خذ الكتاب بقوة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان قوله يا يحيى خذ الكتاب يدل على ان الله تعالى بلغ بيحيى المبلغ الذى يجوز ان يخاطبه بذلك فحذف ذكره لدلالة الكلام عليه (المسئلة الثانية) الكتاب المذكور يحتمل أن يكون هو التوراة التى هى نعمة الله على بنى اسرائيل لقوله تعالى ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ويحتمل أن يكون كتابا خص الله به يحيى كما خص الله تعالى الكثير من الانبياء بذلك والاول أولى لان حمل الكلام ههنا على المعهود السابق أولى ولا معهود ههنا الا التوراة (المسئلة الثالثة) قوله بقوة ليس المراد منه القدرة على الاخذ لان ذلك معلوم لكل أحد فيجب حمله على معنى يفيد المدح وهو الجد والصبر على القيام بأمر النبوة وحاصلها يرجع الى حصول ملكة تقتضى سهولة الاقدام على المأمور به والاحجام عن المنهى عنه (الصفة الثانية) قوله تعالى وآتيناه الحكم صبيا اعلم ان فى الحكم أقوال (الاول) انه الحكمة ومنه قول الشاعر

واحكم كحكم فتاة الحى اذ نظرت * الى حمام سراع وارد الثمد

وهو الفهم فى التوراة والفقه فى الدين (والثانى) وهو قول معمر انه العقل روى انه قال ما للعب خلقنا (والثالث) انه النبوة فان الله تعالى أحكم عقله فى صباه وأوحى اليه وذلك لان الله تعالى بعث يحيى وعيسى عليهما السلام وهما صبيان لا كما بعث موسى ومحمدا عليهما السلام وقد بلغا الاشد والأقرب حمله على النبوة لوجهين (الاول) ان الله تعالى ذكر فى هذه الآية صفات شرفه ومنقبته ومعلوم ان النبوة أشرف صفات الانسان فذكرها فى معرض المدح أولى من ذكر غيرها فوجب أن تكون نبوته مذكورة فى هذه الآية ولا لفظ يصلح للدلالة على النبوة الا هذه اللفظة فوجب حملها عليها (الثانى) ان الحكم هو ما يصلح لان يحكم به على غيره ولغيره على الاطلاق وذلك لا يكون الا بالنبوة فان قيل كيف يعقل حصول العقل والفطنة والنبوة حال الصبا قلنا هذا السائل اما ان يمنع من خرق العادة أولا يمنع منه فان منع منه فقد سد باب النبوات لان بناء الامر فيها على المعجزات ولا معنى لها الا خرق العادات وان لم يمنع فقد زال هذا الاستبعاد فانه ليس استبعاد صيرورة الصبى عاقلا اشد من استبعاد انشقاق القمر وانفلاق البحر (الصفة الثالثة) قوله تعالى وحنانا من لدنا اعلم ان الحنان أصله من الحنين وهو الارتياح والجزع للفراق كما يقال حنين الناقة وهو صوتها اذا اشتاقت الى ولدها ذكر الخليل ذلك وفى الحديث انه عليه السلام كان يصلى الى جذع فى المسجد فلما اتخذ له المنبر وتحول اليه حنت تلك الخشبة حتى سمع حنينها فهذا هو الاصل ثم قيل تحنن فلان على فلان اذا تعطف عليه ورحم وقد اختلف الناس

بقياس حال ما بشر به على حاله عليه الصلاة والسلام لتأكيد الاحتجاج وتوضيح منهاج القياس حيث نبه على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من انشائه عليه الصلاة والسلام من العدم اذ لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه بل كانت انموذجا منطويا على فطرة سائر آحاد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان ابداعه عليه الصلاة والسلام على ذلك الوجه ابداعا لكل أحد من فروعه كذلك ولما كان خلقه عليه الصلاة والسلام على هذا النمط السارى الى جميع أفراد ذريته أبدع من أن يكون ذلك مقصورا على نفسه كما هو المفهوم من نسبة الخلق المذكور اليه وأدل على عظم قدرته تعالى وكمال علمه وحكمته وكان عدم زكريا حينئذ أظهر عنده وأجلى وكان حاله أولى بان يكون معيارا لحال ما بشر به نسب الخلق المذكور اليه كما نسب الخلق والتصوير الى المخاطبين فى قوله تعالى ولقد خلقناكم ثم صورناكم توفية لمقام الامتنان حقه فكأنه قيل وقد خلقتك من قبل فى تضاعيف خلق آدم ولم تكن اذ ذاك شيئا أصلا بل عدما بحتا ونفيا صرفا هذا وأما حمل الشىء على المعتد به أى ولم تكن شيئا معتدا به فيأباه المقام ويرده نظم الكلام وقرئ خلقناك ﴿ فى ﴾ ﴿ قال رب اجعل لى آية ﴾ أى علامة تدلنى على تحقق المسؤل ووقوع الحبل ولم يكن هذا السؤال منه عليه الصلاة والسلام لتأكيد البشارة وتحقيقها كما قيل فان ذلك مما لا يليق بمنصب الرسالة وانما كان ذلك

لم يعرف وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه وهو أمر خفي لا يوقف عليه فاراد أن يطلعه الله تعالى عليه ليتلقى تلك النعمة الجليلة بالشكر من حين حدوثها ولا يؤخره الى أن تظهر ظهورا معتادا ولقد مرت الاشارة في تفسير سورة آل عمران الى أن هذا السؤال ينبغي أن يكون بعد ما مضى بعد البشارة برهة من الزمان لما روى أن يحيى كان أكبر من عيسى عليهما الصلاة والسلام بستة أشهر أو بثلاث سنين ولا ريب في أن دعاء زكريا عليه الصلاة والسلام كان في صغر مريم لقوله تعالى هنالك دعا زكريا ربه وهي انما ولدت عيسى عليه الصلاة والسلام وهي بنت عشر سنين أو بنت ثلاث عشرة سنة والجعل ابداعي واللام متعلقة به وتقديمها على المفعول به لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر أو بمحذوف وقع حالا من آية اذ لو تأخر لكان صفة لها وقيل بمعنى التصيير المستدعي لمفعولين أولهما آية وثانيهما الظرف وتقديمه لانه لا مسوغ لكون آية مبتدأ عند انحلال الجملة الى مبتدا وخبر سوى تقديم الظرف فلا يتغير حالهما بعد ورود الناسخ (قال آيتك أن لا تكلم الناس) اى أن لا تقدر على تكلمهم بكلام الناس مع القدرة على الذكر والتسبيح (ثلاث ليال) مع أيامهن للتصريح بها في سورة آل عمران (سويا) حال من فاعل تكلم مفيد لكون انتفاء التكلم بطريق الاضطرار دون الاختيار أى تمنع الكلام فلا تطيق به حال كونك سوى الخلق

في وصف الله بالحنان فاجازه بعضهم وجعله بمعنى الرؤف الرحيم ومنهم من أباه لما يرجع اليه أصل الكلمة قالوا لم يصح الخبر بهذه اللفظة في اسماء الله تعالى اذا عرفت هذا فنقول الحنان هنا فيه وجهان (أحدهما) أن يجعل صفة لله (وثانيهما) أن يجعل صفة ليحيى أما اذا جعلناه صفة لله تعالى فنقول التقدير وآتيناه الحكم حنانا أي رحمة منا ثم ههنا احتمالات (الاول) أن يكون الحنان من الله ليحيى المعنى آتيناه الحكم صبيا ثم قال وحنانا من لدنا أي انما آتيناه الحكم صبيا حنانا من لدنا عليه أي رحمة عليه وزكاة أي وتزكية له وتشريفا له (الثاني) أن يكون الحنان من الله تعالى لزكريا عليه السلام فكأنه تعالى قال انما استجبنا لزكريا دعوته بأن أعطيناه ولدا ثم آتيناه الحكم صبيا وحنانا من لدنا عليه أي على زكريا فعلنا ذلك وزكاة أي وتزكية له عن أن يصير مردود الدعا (والثالث) أن يكون الحنان من الله تعالى لأمة يحيى عليه السلام كأنه تعالى قال وآتيناه الحكم صبيا وحنانا منا على أمته لعظيم انتفاعهم بهدايته وارشاده أما اذا جعلناه صفة ليحيى عليه السلام ففيه وجوه (الاول) آتيناه الحكم والحنان على عبادنا أي التعطف عليهم وحسن النظر على كافتهم فيما أوليه من الحكم عليهم كما وصف نبيه فقال فبما رحمة من الله لنت لهم وقال حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم ثم أخبر تعالى أنه آتاه زكاة ومعناه أن لا تكون شفقته داعية له الى الاخلال بالواجب لان الرأفة واللين ربما أورثا ترك الواجب ألا ترى الى قوله تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله وقال قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة وقال اذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم فالمعنى انما جعلنا له التعطف على عباد الله مع الطهارة عن الاخلال بالواجبات ويحتمل آتيناه التعطف على الخلق والطهارة عن المعاصي فلم يعص ولم يهم بمعصية وفي الآية وجه آخر وهو المنقول عن عطاء بن أبي رباح وحنانا من لدنا والمعنى آتيناه الحكم صبيا تعظيما اذ جعلناه نبيا وهو صبي ولا تعظيم أكثر من هذا والدليل عليه ما روى انه مر ورقة بن نوفل على بلال وهو يعذب قد ألصق ظهره برمضاء البطحاء ويقول أحد أحد فقال والذي نفسي بيده لئن قتلتموه لاتخذنه حنانا أي معظما (الصفة الرابعة) قوله وزكاة وفيه وجوه (أحدها أن) المراد وآتيناه زكاة أي عملا صالحا زكيا عن ابن عباس وقتادة والضحاك وابن جريج (وثانيها) زكاة لمن قبل منه حتى يكونوا أزكياء عن الحسن (وثالثها) زكيناه بحسن الثناء كما تزكي الشهود الانسان (ورابعها) صدقة تصدق الله بها على أبويه عن الكلبي (وخامسها) بركة ونماء وهو الذي قال عيسى عليه الصلاة والسلام وجعلني مباركا أينما كنت واعلم ان هذا يدل على أن فعل العبد خلق لله تعالى لانه جعل طهارته وزكاته من الله تعالى وحمله على الالطاف بعيد لانه عدول عن الظاهر (الصفة الخامسة) قوله وكان تقيا وقد عرفت معناه وبالجملة فانه يتضمن غاية المدائح لانه هو الذي يتقي نهي الله فيجتنبه ويتقي أمره فلا يهمله وأولى الناس بهذا الوصف من لم يعص الله ولا يهم بمعصية

سليم الجوارح ما بك شائبة بكم ولا خرس (فخرج على قومه من المحراب) أي من المصلى أو من الغرفة وكانوا من وراء المحراب ينتظرونه أن يفتح لهم الباب فيدخلوه و يصلوا اذ خرج عليهم متغيرا لونه فانكروه وقالوا مالك (فاوحى اليهم) أي أوما اليهم لقوله تعالى الا رمزا وقيل كتب على الارض وأن في قوله تعالى (أن سبحوا) اما مفسرة لاوحى أو مصدرية والمعنى أي صلوا أو بان صلوا (بكرة وعشيا) هما ظرفا زمان للتسبيح عن أبي العالية أن المراد بهما صلاة الفجر وصلاة العصر أو نزهوا ربكم طرفي النهار ولعله كان مأمورا بان يسبح شكرا و يأمر قومه بذلك (يا يحيى) استئناف طوى قبله جمل كثيرة مسارعة الى الانباء بانجاز الوعد الكريم أي قلنا يا يحيى (خذ الكتاب) أي التوراة (بقوة) أي بجد واستظهار بالتوفيق (وآتيناه الحكم صبيا) قال ابن عباس رضي الله عنهما الحكم النبوة استنبأه وهو ابن ثلاث سنين وقيل الحكم الحكمة وفهم التوراة والفقه في الدين روى انه دعاه الصبيان الى اللعب فقال ما للعب خلقنا (وحنانا من لدنا) عطف على الحكم وتنوينه للتفخيم وهو التحنن والاشتياق ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة له مؤكدة لما افاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أي وآتيناه رحمة عظيمة عليه كائنة من جنابنا أو رحمة في قلبه وشفقة على أبويه وغيرهما (وزكوة) أي طهارة من الذنوب أو صدقة تصدقنا به على ابويه أو وفقنا للتصديق على الناس

وكان يحيى عليه الصلاة والسلام كذلك فان قيل ما معنى وكان تقيا وهذا حين ابتداء تكليفه قلنا انما خاطب الله تعالى بذلك الرسول وأخبر عن حاله حيث كان كما أخبر عن نعم الله عليه (الصفة السادسة) قوله وبرا بوالديه وذلك لانه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى مثل تعظيم الوالدين ولهذا السبب قال وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا (الصفة السابعة) قوله ولم يكن جبارا والمراد وصفه بالتواضع ولين الجانب وذلك من صفات المؤمنين كقوله تعالى واخفض جناحك للمؤمنين وقال تعالى ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ولان رأس العبادات معرفة الانسان نفسه بالذل ومعرفة ربه بالعظمة والكمال ومن عرف نفسه بالذل وعرف ربه بالكمال كيف يليق به الترفع والتجبر ولذلك فان ابليس لما تجبر وتمرد صار مبعدا عن رحمة الله تعالى وعن الدين وقيل الجبار هو الذي لا يرى لاحد على نفسه حقا وهو من العظم والذهاب بنفسه عن أن يلزمه قضاء حق أحد وقال سفيان في قوله جبارا عصيا انه الذي يقبل على الغضب والدليل عليه قوله تعالى اتريد ان تقتلني كما قتلت نفسا بالامس ان تريد الا أن تكون جبارا في الارض وقيل كل من عاقب على غضب نفسه من غير حق فهو جبار لقوله تعالى واذا بطشتم بطشتم جبارين (الصفة الثامنة) قوله عصيا وهو أبلغ من العاصي كما أن العليم أبلغ من العالم (الصفة التاسعة) قوله وسلام عليه يوم ولد و يوم يموت و يوم يبعث حيا وفيه أقوال (أحدها) قال محمد بن جرير الطبري وسلام عليه أي أمان من الله يوم ولد من أن يناله الشيطان كما ينال سائر بني آدم و يوم يموت أي وأمان عليه من عذاب القبر و يوم يبعث حيا أي ومن عذاب القيامة (وثانيها) قال سفيان بن عيينة أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن يوم يولد فيرى نفسه خارجا مما كان فيه و يوم يموت فيرى قوما ما شاهدهم قط و يوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم فأكرم الله يحيى عليه الصلاة والسلام فخصه بالسلام عليه في هذه المواطن الثلاثة (وثالثها) قال عبد الله بن نفطويه وسلام عليه يوم ولد أي أول ما يرى الدنيا و يوم يموت أي أول يوم يرى فيه أول أمر الآخرة و يوم يبعث حيا أي أول يوم يرى فيه الجنة والنار وهو يوم القيامة وانما قال حيا تنبيها على كونه من الشهداء لقوله تعالى بل أحياء عند ربهم يرزقون (فروع) الاول هذا السلام يمكن أن يكون من الله تعالى وأن يكون من الملائكة وعلى التقديرين فدلالة شرفه وفضله لا تختلف لان الملائكة لا يسلمون الا عن أمر الله تعالى (الثاني) ليحيى مزية في هذا السلام على ما لسائر الانبياء عليهم السلام كقوله سلام على نوح في العالمين سلام على ابراهيم لانه قال و يوم ولد وليس ذلك لسائر الانبياء عليهم (الثالث) روى ان عيسى عليه السلام قال ليحيى عليه السلام أنت أفضل مني لان الله تعالى سلم عليك وانا سلمت على نفسي وهذا ليس بقوي لان سلام عيسى على نفسه يجري مجرى سلام الله على يحيى لان عيسى معصوم لا يفعل الا ما أمر الله به (الرابع) السلام عليه يوم ولد لا بد وأن يكون تفضلا من الله تعالى لانه لم يتقدم منه

﴿ مايكون ﴾

مايكون ذلك جزاء له وأما السلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث فى المحشر فقد يجوز أن يكون ثوابا كالمدح والتعظيم والله تعالى اعلم القول فى فوائد هذه القصة (الفائدة الاولى) تعليم آداب الدعاء وهى من جهات (أحدها) قوله نداء خفيا وهو يدل على ان أفضل الدعاء ماهذا حاله ويؤكده قوله تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية ولان رفع الصوت مشعر بالقوة والجلادة واخفاء الصوت مشعر بالضعف والانكسار وعمدة الدعاء الانكسار والتبرى عن حول النفس وقوتها والاعتماد على فضل الله تعالى واحسانه (وثانيها) ان المستحب ان يذكر فى مقدمة الدعاء عجز النفس وضعفها كما فى قوله تعالى عنه وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ثم يذكر كثرة نعم الله على ما فى قوله ولم أكن بدعائك رب شقيا (وثالثها) أن يكون الدعاء لاجل شئ متعلق بالدين لا لمحض الدنيا كما قال وانى خفت الموالى من ورائى (ورابعها) أن يكون الدعاء بلفظ يارب على ما فى هذا الموضع (الفائدة الثانية) ظهور درجات زكريا ويحيى عليهما السلام أما زكريا فأمور (أحدها) نهاية تضرعه فى نفسه وانقطاعه الى الله تعالى بالكلية (وثانيها) اجابة الله تعالى دعاءه (وثالثها) ان الله تعالى ناداه وبشره أو الملائكة أو حصل الامران معا (ورابعها) اعتقال لسانه عن الكلام دون التسبيح (وخامسها) انه يجوز للانبياء عليهم السلام طلب الآيات لقوله رب اجعل لى آية (الفائدة الثالثة) كونه تعالى قادرا على خلق الولد وان كان الابوان فى نهاية الشيخوخة ردا على أهل الطبائع (الفائدة الرابعة) صحة الاستدلال فى الدين لقوله تعالى وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا (الفائدة الخامسة) ان المعدوم ليس بشئ والآية نص فى ذلك فان قيل المراد ولم تك شيئا مذكورا كما فى قوله تعالى هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا قلنا الاضمار خلاف الاصل وللخصم أن يقول الآية تدل على ان الانسان لم يكن شيئا ونحن نقول به لان الانسان عبارة عن جواهر متألفة قامت بها اعراض مخصوصة والجواهر المتألفة الموصوفة بالاعراض المخصوصة غير ثابتة فى العدم انما الثابت هو أعيان تلك الجواهر مفردة غير مركبة وهى ليست بانسان فظهر ان الآية لا دلالة فيها على المطلوب (الفائدة السادسة) ان الله تعالى ذكر هذه القصة فى سورة آل عمران وذكرها فى هذا الموضع فلنعتبر حالها فى الموضعين فنقول (الاول) انه تعالى بين فى هذه السورة انه دعا ربه ولم يبين الوقت وبينه فى آل عمران بقوله كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة والمعنى ان زكريا عليه السلام لما رأى خرق العادة فى حق مريم عليها السلام طمع فيه فى حق نفسه فدعا (الثانى) وهو ان الله تعالى صرح فى آل عمران بأن المنادى هو الملائكة لقوله فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب وفى هذه السورة الاظهر أن المنادى بقوله يازكريا انا نبشرك هو الله تعالى وقد بينا أنه لا منافاة بين الامرين (الثالث) انه قال فى آل عمران أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر فذكر اولا كبر

(وكان تقيا) مطيعا متجنبا عن المعاصى (وبرا بوالديه) عطف على تقيا أى بارا بهما لطيفا بهما محسنا اليهما (ولم يكن جبارا عصيا) متكبرا عاقا لهما أو عاصيا لربه (وسلام عليه) من الله عز وجل (يوم ولد) من أن يناله الشيطان بما ينال به بنى آدم (ويوم يموت) من عذاب القبر (ويوم يبعث حيا) من هول القيامة وعذاب النار (واذكر فى الكتاب) كلام مستأنف خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام وأمر بذكر قصة مريم اثر قصة زكريا لما بينهما من كمال اشتباك والمراد بالكتاب السورة الكريمة لا القرآن اذ هى التى صدرت بقصة زكريا المستتبعة لذكر قصتها وقصص الانبياء المذكورين فيها أى واذكر للناس (مريم) أى نبأها فان الذكر لا يتعلق بالاعيان وقوله تعالى (اذ انتبذت) ظرف لذلك المضاف لكن لا على أن يكون المأمور به ذكر نبئها عند انتباذها فقط بل كل ما عطف عليه وحكى بعده بطريق الاستئناف داخل فى حيز الظرف متمم للنبأ وقيل بدل اشتمال من مريم على أن المراد بها نبأها فان الظروف مشتملة على ما فيها وقيل بدل الكل على أن المراد بالظرف ما وقع فيه وقيل اذ بمعنى أن المصدرية كما فى قولك أكرمتك اذ لم تكرمنى أى لان لم تكرمنى فهو بدل الاشتمال لا محالة وقوله تعالى (من أهلها) متعلق بانتبذت وقوله (مكانا شرقيا) مفعول لها باعتبار ما فى ضمنه من معنى الاتيان المترتب وجودا واعتبارا على أصل

نفسه ثم عقر المرأة وهو فى هذه السورة قال أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا وجوابه ان الواو لا تقتضى الترتيب (الرابع) قال فى آل عمران وقد بلغنى الكبر وقال ههنا وقد بلغت من الكبر وجوابه ان ما بلغك فقد بلغته (الخامس) قال فى آل عمران آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا وقال ههنا ثلاث ليال سويا وجوابه دلت الآيتان على ان المراد ثلاثة أيام بلياليهن والله أعلم (القصة الثانية) قصة مريم وكيفية ولادة عيسى عليه السلام اعلم انه تعالى انما قدم قصة يحيى على قصة عيسى عليهما السلام لان خلق الولد من شيخين فانيين أقرب الى مناهج العادات من تخليق الولد لا من الاب البتة وأحسن الطرق فى التعليم والتفهيم الاخذ من الاقرب فالاقرب مترقيا الى الاصعب فالاصعب * قوله تعالى (واذكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اذ بدل من مريم بدل اشتمال لان الاحيان مشتملة على ما فيها وفيه ان المقصود بذكر مريم ذكر وقت هذا الوقوع لهذه القصة العجيبة فيه (المسئلة الثانية) النبذ أصله الطرح والالقاء والانتباذ افتعال منه ومنه فنبذوه وراء ظهورهم وانتبذت تنحت يقال جلس نبذة من الناس ونبذة بضم النون وفتحها أى ناحية وهذا اذا جلس قريبا منك حتى لو نبذت اليه شيئا وصل اليه ونبذت الشئ رميته ومنه النبيذ لانه يطرح فى الاناء واصله منبوذ فصرف الى فعيل ومنه قيل للقيط منبوذ لانه يرمى به ومنه النهى عن المنابذة فى البيع وهو أن يقول اذا نبذت اليك هذا الثوب أو الحصاة فقد وجب البيع اذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا معناه تباعدت وانفردت على سرعة الى مكان يلى ناحية الشرق ثم بين تعالى انها مع ذلك اتخذت من دون أهلها حجابا مستورا وظاهر ذلك انها لم تقتصر على ان انفردت الى موضع بل جعلت بينها وبينهم حائلا من حائط أو غيره ويحتمل انها جعلت بين نفسها وبينهم سترا وهذا الوجه الثانى أظهر من الاول ثم لا بد فى احتجابها من أن يكون لغرض صحيح وليس مذكورا واختلف المفسرون فيه على وجوه (الاول) انها لما رأت الحيض تباعدت عن مكانها المعتاد للعبادة لكى تنتظر الطهر فتغتسل وتعود فلما طهرت جاءها جبريل عليه السلام (والثانى) انها طلبت الخلوة لئلا تشتغل عن العبادة (والثالث) قعدت فى مشرفة للاغتسال من الحيض محتجبة بشئ يسترها (والرابع) انها كان لها فى منزل زوج أختها زكريا محراب على حدة تسكنه وكان زكريا اذا خرج أغلق عليها فتمنت أن تجد خلوة فى الجبل لتفلى رأسها فانفجر السقف لها فخرجت الى المفازة فجلست فى المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك (وخامسها) عطشت فخرجت الى المفازة لتستقى واعلم ان كل هذه الوجوه محتمل وليس فى اللفظ ما يدل على ترجيح واحد منها (المسئلة الثالثة) المكان الشرقى هو الذى يلى شرقى بيت المقدس أو شرقى دارها وعن ابن عباس رضى الله عنهما

معناه العامل فى الجار والمجرور وهو السرقى تاخيره عنه أى اعتزلت وانفردت منهم وانتحت مكانا شرقيا من بيت المقدس أو من دارها لتخلى هنالك للعبادة وقيل قعدت فى مشرفة لتغتسل من الحيض محتجبة بحائط أو بشئ يسترها وذلك قوله تعالى (فاتخذت من دونهم حجابا) وكان موضعها المسجد فاذا حاضت تحولت الى بيت خالتها واذا طهرت عادت الى المسجد فبيناهى فى مغتسلها أتاها الملك عليه الصلاة والسلام فى صورة آدمى شاب أمرد وضئ الوجه جعد الشعر وذلك قوله تعالى (فأرسلنا اليها روحنا) أى جبريل عليه الصلاة والسلام عبر عنه بذلك توفية للمقام حقه وقرئ بفتح الراء لكونه سببا لما فيه روح العباد الذى هو عدة المقربين فى قوله تعالى فأما ان كان من المقربين فروح وريحان (فتمثل لها بشرا سويا) سوى الخلق كامل البنية لم يفقد من حسان نعوت الآدمية شيئا وقيل تمثل فى صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس وذلك لتستأنس بكلامه وتتلقى منه ما يلقى اليها من كلماته تعالى اذ لو بدا لها على الصورة الملكية لنفرت منه ولم تستطع مفاوضته وأما ما قيل من أن ذلك لتهييج شهوتها فتنحدر نطفتها الى رحمها فمع مخالفته لمقام بيان آثار القدرة الخارقة للعادة ﴿ انى ﴾ يكذبه قوله تعالى (قالت انى أعوذ بالرحمن منك) فانه شاهد عدل بأنه لم يخطر ببالها شائبة ميل ما اليه فضلا عما ذكر من الحالة المترتبة على أقصى مراتب الميل والشهوة نعم كان تمثله على

ذلك الحسن الفائق والجمال الرائق لابتلائها وسبر عفتها ولقد ظهر منها من الورع والعفاف مالاغاية وراءه وذكره تعالى بعنوان الرحمانية للمبالغة في العياذ به تعالى واستجلاب آثار الرحمة الخاصة التي هي العصمة عما دهمها وقوله تعالى (ان كنت تقيا) أي تتقي الله تعالى وتبالي بالاستعاذة به وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة السياق عليه أي فاني عائذة به أو فتعوذ بتعوذي أو فلا تتعرض لي (قال انما أنا رسول ربك) يريد عليه الصلاة والسلام اني لست ممن يتوقع منه ما توهمت من الشر وانما أنا رسول ربك الذي استعذت به (لاهب لك غلاما) أي لاكون سببا في هبته بالنفخ في الدرع ويجوز أن يكون ذلك حكاية لقوله تعالى ويؤيده القراءة بالياء والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرها لتشريفها وتسليتها والاشعار بعلة الحكم فان هبة الغلام لها من أحكام تربيتها وفي بعض المصاحف أمرني أن أهب لك غلاما (زكيا) طاهرا من الذنوب أو ناميا على الخير أي مترقيا من سن الى سن على الخير والصلاح (قالت أنى يكون لي غلام) كما وصفت (ولم يمسسني بشر) اى والحال أنه لم يباشرني بالنكاح رجل وانما قيل بشر مبالغة في بيان تنزهها من مبادي الولادة (ولم اك بغيا) عطف على لم يمسسني داخل معه في حكم الحالية مفصح عن كون المساس عبارة عن المباشرة بالنكاح أي ولم أكن فاجرة تبغي الرجال وهي فعول بمعنى الفاعل أصلها بغوي فأدغمت الواو بعد قلبها ياء

انى لاعلم خلق الله لأى شئ اتخذت النصارى المشرق قبلة لقوله تعالى مكانا شرقيا فاتخذوا ميلاد عيسى قبلة (المسئلة الرابعة) انها لما جلست في ذلك المكان أرسل الله اليها الروح واختلف المفسرون في هذا الروح فقال الاكثرون انه جبريل عليه السلام وقال أبو مسلم انه الروح الذي تصور في بطنها بشرا والاول أقرب لان جبريل عليه السلام يسمى روحا قال الله تعالى نزل به الروح الامين على قلبك وسمي روحا لانه روحاني وقيل خلق من الروح وقيل لان الدين يحيا به أو سماه الله تعالى بروحه على المجاز محبة له وتقريبا كما تقول لحبيبك روحي وقرأ أبو حيوة روحنا بالفتح لانه سبب لما فيه روح العباد واصابة الروح عند الله الذي هو عدة المتقين في قوله فاما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم أو لانه من المقربين وهم الموعودون بالروح أي مقربنا وذا روحنا واذا ثبت انه يسمى روحا فهو هنا يجب أن يكون المراد به هو لانه قال انما أنا رسول ربك لاهب لك غلاما زكيا ولا يليق ذلك الا بجبريل عليه السلام واختلفوا في أنه كيف ظهر لها (فالاول) انه ظهر لها على صورة شاب أمرد حسن الوجه سوي الخلق (والثاني) انه ظهر لها على صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس وكل ذلك محتمل ولا دلالة في اللفظ على التعيين ثم قال وانما تمثل لها في صورة الانسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه فلو ظهر لها في صورة الملائكة لنفرت عنه ولم تقدر على استماع كلامه ثم ههنا اشكالات (أحدها) وهو انه لو جاز أن يظهر الملك في صورة انسان معين فحينئذ لا يمكننا القطع بأن هذا الشخص الذي أراه في الحال هو زيد الذي رأيته بالامس لاحتمال أن الملك أو الجني تمثل في صورته وفتح هذا الباب يؤدي الى السفسطة لا يقال هذا انما يجوز في زمان جواز البعثة فاما في زماننا هذا فلا يجوز لانا نقول هذا الفرق انما يعلم بالدليل فالجاهل بذلك الدليل يجب أن لا يقطع بأن هذا الشخص الذي أراه الآن هو الشخص الذي رأيته بالامس (وثانيها) انه جاء في الاخبار أن جبريل عليه السلام شخص عظيم جدا فذلك الشخص العظيم كيف صار بدنه في مقدار جثة الانسان أبأن تساقطت أجزاؤه وتفرقت بنيته فحينئذ لا يبقى جبريل أو بأن تداخلت أجزاؤه وذلك يوجب تداخل الاجزاء وهو محال (وثالثها) وهو انا لو جوزنا أن يتمثل جبريل عليه السلام في صورة الآدمي فلم لا يجوز تمثله في صورة جسم أصغر من الآدمي حتى الذباب والبق والبعوض ومعلوم ان كل مذهب جر الى ذلك فهو باطل (ورابعها) ان تجويزه يفضي الى القدح في خبر التواتر فلعل الشخص الذي حارب يوم بدر لم يكن محمدا بل كان شخصا آخر تشبه به وكذا القول في الكل (والجواب) عن الاول ان ذلك التجويز لازم على الكل لان من اعترف بافتقار العالم الى الصانع المختار فقد قطع بكونه تعالى قادرا على أن يخلق شخصا آخر مثل زيد في خلقته وتخطيطه واذا جوزنا ذلك فقد لزم الشك في ان زيدا المشاهد الآن هو الذي شاهدناه بالامس أم لا ومن أنكر الصانع المختار واسند الحوادث الى اتصالات الكواكب وتشكلات الفلك لزمه تجويز ان يحدث

انصال غريب في الافلاك يقتضي حدوث شخص مثل زيد في كل الامور وحينئذ يعود التجويز المذكور (وعن الثاني) أنه لا يمتنع أن يكون جبريل عليه السلام له أجزاء أصلية وأجزاء فاضلة والاجزاء الاصلية قليلة جدا فحينئذ يكون متمكنا من التشبه بصورة الانسان هذا اذا جعلناه جسمانيا أما اذا جعلناه روحانيا فأي استبعاد في ان يتدرع تارة بالهيكل العظيم وأخرى بالهيكل الصغير (وعن الثالث) ان أصل التجويز قائم في العقل وانما عرف فساده بدلائل السمع وهو الجواب عن السؤال الرابع والله أعلم * قوله تعالى (قالت اني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا) وفيه وجوه (أحدها) أرادت ان كان يرجى منك أن تتقي الله ويحصل ذلك بالاستعاذة به فاني عائذة به منك وهذا في نهاية الحسن لانها علمت انه لا تؤثر الاستعاذة الا في التقي وهو كقوله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين أي ان شرط الايمان يوجب هذا لا أن الله تعالى يخشى في حال دون حال (وثانيها) ان معناه ما كنت تقيا حيث استحللت النظر الي وخلوت بي (وثالثها) انه كان في ذلك الزمان انسان فاجر اسمه تقي يتبع النساء فظنت مريم عليها السلام ان ذلك الشخص المشاهد هو ذلك التقي والاول هو الوجه (قوله تعالى * قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لما علم جبريل خوفها قال انما أنا رسول ربك ليزول عنها ذلك الخوف ولكن الخوف لا يزول بمجرد هذا القول بل لابد من دلالة تدل على انه كان جبريل عليه السلام وما كان من الناس فههنا يحتمل أن يكون قد ظهر معجز عرفت به جبريل عليه السلام ويحتمل انها من جهة زكريا عليه السلام عرفت صفة الملائكة فلما قال لها انما أنا رسول ربك أظهر لها من باطن جسده ما عرفت انه ملك فيكون ذلك هو العلم وسأل القاضي عبد الجبار في تفسيره نفسه فقال اذا لم تكن نبية عندكم وكان من قولكم ان الله تعالى لم يرسل الى خلقه الا رجالا فكيف يصح ذلك وأجاب ان ذلك انما وقع في زمان زكريا عليه السلام وكان رسولا وكل ذلك كان عالما به وهذا ضعيف لان المعجز اذا كان مفعولا للنبي فاقل ما فيه أن يكون عليه السلام عالما به وزكريا ما كان عنده علم بهذه الوقائع فكيف يجوز جعله معجزا له بل الحق ان ذلك اما ان يكون كرامة لمريم أو ارهاصا لعيسى عليه السلام (المسئلة الثانية) قرأ ابن عامر ونافع ليهب بياء مفتوحة بعد اللام أي ليهب الله لك والباقون بهمزة مفتوحة بعدها أما قوله لاهب لك ففي مجازه وجهان (الاول) ان الهبة لما جرت على يده بان كان هو الذي نفخ في جيبها بأمر الله تعالى جعل نفسه كأنه هو الذي وهب لها واضافة الفعل الى ما هو سبب له مستعمل قال تعالى في الاصنام انهن أضللن كثيرا من الناس (الثاني) ان جبريل عليه السلام لما بشرها بذلك كانت تلك البشارة الصادقة جارية مجرى الهبة فان قال قائل ما الدليل على ان جبريل عليه السلام لا يقدر على تركيب الاجزاء وخلق الحياة والعقل والنطق فيها والذي يقال فيه ان جبريل عليه السلام جسم والجسم لا يقدر على هذه الاشياء اما انه جسم فلانه محدث وكل محدث اما متحيز أو قائم بالمتحيز وأما ان الجسم لا يقدر على هذه الاشياء فلانه

في الياء وكسرت الغين للياء وقيل هي فعيل بمعنى الفاعل والاقيل بغو كما يقال فلان نهو عن المنكر وانما لم تلحقه التاء لانه من باب النسب كطالق أو بمعنى المفعول أي يبغيها الرجال للفجور بها (قال) أي الملك تقرير المقالة وتحقيقا لها (كذلك) أي الامر كما قلت لك وقوله تعالى (قال ربك) الخ استئناف مقرر له أي قال ربك الذي أرسلني اليك (هو) أي ما ذكرت لك من هبة الغلام من غير أن يمسك بشر أصلا (علي) خاصة (هين) وان كان مستحيلا عادة لما أني لا أحتاج الى الاسباب والوسايط وقوله تعالى (ولنجعله آية للناس) اما علة لفعل محذوف أي ولنجعل وهب الغلام آية لهم وبرهانا يستدلون به على كمال قدرتنا نفعل ذلك أو معطوف على علة أخرى مضمرة أي لنبين به عظم قدرتنا ولنجعله آية الخ والواو على الاول اعتراضية والالتفات الى نون العظمة لاظهار كمال الجلالة (ورحمة) عظيمة كائنة (منا) عليهم يهتدون بهدايته ويسترشدون بارشاده (وكان) ذلك (أمرا مقضيا) محكما قد تعلق به قضاؤنا الازلي أو قدر وسطر في اللوح لابد من جريانه عليك البتة أو كان أمرا حقيقا بأن يقضى ويفعل لتضمنه حكما بالغة (فحملته) بأن نفخ جبريل عليه الصلاة والسلام ﴿ لو ﴾ في درعها فدخلت النفخة في جوفها قيل انه عليه الصلاة والسلام رفع درعها فنفخ في جيبه فحملت وقيل نفخ من بعد فوصل الريح اليها فحملت في الحال وقيل ان النفخة كانت

لوقدر جسم على ذلك لقدر عليه كل جسم لان الاجسام متماثلة وهو ضعيف لان للخصم ان يقول لانسلم ان كل محدث اما متحيز أو قائم به بل ههنا موجودات قائمة بانفسها لا متحيزة ولا قائمة بالمتحيز ولا يلزم من كونها كذلك كونها أمثالا لذات الله تعالى لان الاشتراك فى الصفات الثبوتية لايقتضى التماثل فكيف فى الصفات السلبية سلمنا كونه جسما فلم قلت الجسم لا يقدر عليه قوله الاجسام متماثلة قلنا نعنى به انها متماثلة فى كونها حاصلة فى الاحياز ذاهبة فى الجهات أو نعنى به انها متماثلة فى تمام ماهياتها والاول مسلم لكن حصولها فى الاحياز صفات لتلك الذوات والاشتراك فى الصفات لا يوجب الاشتراك فى ماهيات الموصوفات سلمنا ان الاجسام متماثلة فلم لا يجوز أن يقال ان الله تعالى خص بعضها بهذه القدرة دون البعض حتى انه يصح منها ذلك ولا يصح من البشر ذلك والجواب الحق أن المعتمد فى دفع هذا الاحتمال اجماع الامة فقط والله أعلم (المسئلة الثالثة) الزكى يفيد أمورا ثلاثة (الاول) انه الطاهر من الذنوب (والثانى) انه ينمو على التزكية لانه يقال فيمن لا ذنب له زكى وفى الزرع النامى زكى (والثالث) النزاهة والطهارة فيما يجب أن يكون عليه ليصح أن يبعث نبيا وقال بعض المتكلمين الاولى أن يحمل على الكل وهو ضعيف لما عرفت فى أصول الفقه ان اللفظ الواحد لا يجوز حمله على المعنيين سواء كان حقيقة فيهما أو فى أحدهما مجازا وفى الآخر حقيقة (المسئلة الرابعة) سماه زكيا مع انه لم يكن له شئ من الدنيا وأنت اذا نظرت فى سوقك فمن لم يملك شيئا فهو سنى عندك وانما الزكى من يملك المال والله يقول كان زكيا لان سيرته الفقر وغناه الحكمة والكتاب وأنت فانما تسمى بالزكى من كانت سيرته الجهل وطريقته المال * قوله تعالى (قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) أنها انما تعجبت مما بشرها جبريل عليه السلام لانها عرفت بالعادة أن الولادة لا تكون الا من رجل والعادات عند أهل المعرفة معتبرة فى الامور وان جوزوا خلاف ذلك فى القدرة فليس فى قولها هذا دلالة على انها لم تعلم انه تعالى قادر على خلق الولد ابتداء وكيف وقد عرفت أنه تعالى خلق أبا البشر على هذا الحد ولانها كانت منفردة بالعبادة ومن يكون كذلك لابد من أن يعرف قدرة الله تعالى على ذلك (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول قولها ولم يمسسنى بشر يدخل تحته قولها ولم أك بغيا فلماذا أعادتها ومما يؤكد هذا السؤال ان فى سورة آل عمران قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق مايشاء فلم تذكر البغاء والجواب من وجوه (أحدها) انها جعلت المس عبارة عن النكاح الحلال لانه كناية عنه لقوله من قبل أن تمسوهن والزنا ليس كذلك انما يقال فجر بها أو ما أشبه ذلك ولا يليق به رعاية الكنايات (وثانيها) ان اعادتها لتعظيم حالها كقوله حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فكذا ههنا ان من لم تعرف من النساء بزوج فاغلظ

فى فيها وكانت مدة حملها سبعة اشهر وقيل ثمانية ولم يعش مولود وضع لثمانية أشهر غيره وقيل تسعة أشهر وقيل ثلاث ساعات وقيل ساعة كما حملت وضعته وسنها حينئذ ثلاث عشرة سنة وقيل عشر سنين وقد حاضت حيضتين (فانتبذت به) أى فاعتزلت وهو فى بطنها كما فى قوله * تدوس بنا الجماجم والتريبا * فالجار والمجرور فى حيز النصب على الحالية أى فانتبذت ملتبسة به (مكانا قصيا) بعيدا من أهلها وراء الجبل وقيل أقصى الدار وهو الانسب بقصر مدة الحمل (فأجاءها المخاض) أى فألجأها وهو فى الاصل منقول من جاء لكنه لم يستعمل فى غيره كآتى فى أعطى وقرئ المخاض بكسر الميم وكلاهما مصدر مخضت المرأة اذا تحرك الولد فى بطنها للخروج (الى جذع النخلة) لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة وهو ما بين العرق والغصن وكانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا خضرة وكان الوقت شتاء والتعريف اما للجنس أو للعهد اذ لم يكن ثمة غيرها وكانت كالمتعالم عند الناس ولعله تعالى ألهمها ذلك ليريها من آياته ما يسكن روعتها ويطعمها الرطب الذى هو خرسة النفساء الموافقة لها (قالت ياليتنى مت) بكسر الميم من مات يمات كخفت وقرئ بضمها من مات يموت (قبل هذا) أى هذا الوقت الذى لقيت فيه مالقيت وانما قالته مع أنها كانت تعلم ماجرى بينها وبين جبريل عليه السلام من الوعد الكريم استحياء من الناس وخوفا من لائمتهم أو حذرا من

أحوالها اذا أتت بولد أن تكون زانية فافرد ذكر البغاء بعد دخوله فى الكلام الاول لانه أعظم ما فى بابه (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف البغى الفاجرة التى تبغى الرجال وهو فعول عند المبرد بغوى فادغمت الواو فى الياء وقال ابن جنى فى كتاب التمام هو فعيل ولو كان فعولا لقيل بغوا كما قيل نهوا عن المنكر (المسئلة الرابعة) ان جبريل عليه السلام أجابها بقوله قال كذلك قال ربك هو على هين وهو كقوله فى آل عمران كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون لا يمتنع عليه فعل ما يريد خلقه ولا يحتاج فى انشائه الى الآلات والمواد (المسئلة الخامسة) الكناية فى هو على هين وفى قوله ولنجعله آية للناس تحتمل وجهين (الاول) أن تكون راجعة الى الخلق أى ان خلقه على هين ولنجعل خلقه آية للناس اذ ولد من غير ذكر ورحمة منا يرحم عبادنا باظهار هذه الآيات حتى تكون دلائل صدقه أبهر فيكون قبول قوله أقرب (الثانى) ان ترجع الكنايات الى الغلام وذلك لانها لما تعجبت من كيفية وقوع هذا الامر على خلاف العادة اعلمت ان الله تعالى جاعل ولدها آية على وقوع ذلك الامر الغريب فاما قوله تعالى ورحمة منا فيحتمل أن يكون معطوفا على ولنجعله آية للناس أى فعلنا ذلك ورحمة منا فعلنا ذلك ويحتمل أن يكون معطوفا على الآية أى ولنجعله آية ورحمة فعلنا ذلك (المسئلة السادسة) قوله وكان أمرا مقضيا المراد منه انه معلوم لعلم الله تعالى فيمتنع وقوع خلافه لانه لو لم يقع لانقلب علم الله جهلا وهو محال والمفضى الى المحال محال فخلافه محال فوقوعه واجب وأيضا فلان جميع الممكنات منتهية فى سلسلة القضاء والقدر الى واجب الوجود والمنتهى الى الواجب انتهاء واجبا يكون واجب الوجود واذا كان واجب الوجود فلا فائدة فى الحزن والاسف وهذا هو سر قوله عليه السلام من عرف سر الله فى القدر هانت عليه المصائب * قوله تعالى (فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكر الله تعالى أمر النفخ فى آيات فقال فنفخنا فيه من روحنا أى فى عيسى عليه السلام كما قال لآدم عليه السلام ونفخت فيه من روحى وقال فنفخنا فيها لان عيسى عليه السلام كان فى بطنها واختلفوا فى النافخ فقال بعضهم كان النفخ من الله تعالى لقوله فنفخنا فيه من روحنا وظاهره يفيد ان النافخ هو الله تعالى لقوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ومقتضى التشبيه حصول المشابهة الا فيما أخرجه الدليل وفى حق آدم النافخ هو الله تعالى لقوله تعالى ونفخت فيه من روحى فكذا ههنا وقال آخرون النافخ هو جبريل عليه السلام لان الظاهر من قول جبريل عليه السلام لأهب لك انه أمر أن يكون من قبله حتى يحصل الحمل لمريم عليها السلام فلا بد من احالة النفخ اليه ثم اختلفوا فى كيفية ذلك النفخ على قولين (الاول) قول وهب انه نفخ جبريل فى جيبها حتى وصلت الى الرحم (الثانى) فى ذيلها فوصلت الى الفرج (الثالث) قول السدى أخذ بكمها فنفخ فى جنب

في المعصية بما تكلموا فيها أو جريا على سنن الصالحين عند اشتداد الامر عليهم كما روى عن عمر رضى الله عنه انه أخذ تبنة من الارض فقال ياليتنى هذه التبنة ولم أك شيئا وعن بلال انه قال ليت ﴿ ٧٨٢ ﴾ بلالا لم تلده أمه (وكنت نسيا) أى شيئا تافها شأنه أن ينسى ولا يعتد به أصلا وقرئ بالكسر قيل هما لغتان فى ذلك كالوتر والوتر وقيل هو بالكسر اسم لما ينسى كالنقض اسم لما ينقض وبالفتح مصدر سمى به المفعول مبالغة وقرئ بهما مهموزا من نسأت اللبن اذا صببت عليه الماء فصار مستهلكا فيه وقرئ نسا كعصا (منسيا) لا يخطر ببال أحد من الناس وهو نعت للمبالغة وقرئ بكسر الميم اتباعا له بالسين (فناداها) أى جبريل عليه السلام (من تحتها) قيل انه كان يقبل الولد وقيل من تحتها أى من مكان أسفل منها تحت الاكمة وقيل من تحت النخلة وقيل ناداها عيسى عليه السلام وقرئ فخاطبها من تحتها بفتح الميم (أن لا تحزنى) أى لا تحزنى على أن ان مفسرة أو بان لا تحزنى على أنها مصدرية قد حذف عنها الجار (قد جعل ربك تحتك) أى بمكان اسفل منك وقيل تحت أمرك ان أمرت بالجرى جرى وان أمرت بالامساك أمسك (سريا) أى نهرا صغيرا حسيا روى مرفوعا ﴿ درعها ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنه ان جبريل عليه السلام ضرب برجله الارض فظهرت عين ماء عذب فجرى جدولا وقيل فعله عيسى عليه السلام وقيل كان هناك نهر يابس أجرى الله عز وجل فيه

درعها فدخلت النفخة صدرها فحملت فجاءتها أختها امرأة زكريا تزورها فالتزمتها فلما التزمتها علمت انها حبلى وذكرت مريم حالها فقالت امرأة زكريا انى وجدت ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك فذلك قوله تعالى مصدقا بكلمة من الله (الرابع) ان النفخة كانت فى فيها فوصلت الى بطنها فحملت فى الحال اذا عرفت هذا ظهر ان فى الكلام حذفا وهو وكان أمرا مقضيا فنفخ فيها فحملته (المسئلة الثانية) قيل حملته وهى بنت ثلاث عشرة سنة وقيل بنت عشرين وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل وليس فى القرآن ما يدل على شئ من هذه الاحوال (المسئلة الثالثة) فانتبذت به أى اعتزلت وهو فى بطنها كقوله تنبت بالدهن أى تنبت والدهن فيها واختلفوا فى علة الانتباذ على وجوه (أحدها) ما رواه الثعلبى فى العرائس عن وهب قال ان مريم لما حملت بعيسى عليه السلام كان معها ابن عم لها يقال له يوسف النجار وكانا منطلقين الى المسجد الذى عند جبل صهيون وكان يوسف ومريم يخدمان ذلك المسجد ولا يعلم فى أهل زمانهما أحد أشد اجتهادا ولا عبادة منهما وأول من عرف حمل مريم يوسف فتحير فى أمرها فكلما أراد أن يتهمها ذكر صلاحها وعبادتها وانها لم تغب عنه ساعة قط واذا أراد أن يبرئها رأى الذى ظهر بها من الحمل فاول ما تكلم ان قال انه وقع فى نفسى من أمرك شئ وقد حرصت على كتمانه فغلبنى ذلك فرأيت ان الكلام فيه أشفى لصدرى فقالت قل قولا جميلا قال أخبرينى يا مريم هل ينبت زرع بغير بذر وهل تنبت شجرة من غير غيث وهل يكون ولد من غير ذكر قالت نعم ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر وهذا البذر انما حصل من الزرع الذى أنبته من غير بذر ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الشجرة من غير غيث وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجر بعد ما خلق كل واحد منهما على حدة أو تقول ان الله تعالى لا يقدر على أن ينبت الشجرة حتى استعان بالماء ولولا ذلك لم يقدر على انباتها فقال يوسف لا أقول هذا ولكنى أقول ان الله قادر على ما يشاء فيقول له كن فيكون فقالت له مريم أولم تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى فعند ذلك زالت التهمة عن قلبه وكان ينوب عنها فى خدمة المسجد لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل وضيق القلب فلما دنا نفاسها أوحى الله اليها أن اخرجى من أرض قومك لئلا يقتلوا ولدك فاحتملها يوسف الى أرض مصر على حمار له فلما بلغت تلك البلاد أدركها النفاس فألجأها الى أصل نخلة وذلك فى زمان برد فاحتضنتها فوضعت عندها (وثانيها) انها استحيت من زكريا فذهبت الى مكان بعيد لا يعلم بها زكريا (وثالثها) انها كانت مشهورة فى بنى اسرائيل بالزهد لنذر أمها وتشاح الانبياء فى تربيتها وتكفل زكريا بها ولان الرزق كان يأتيها من عند الله تعالى فلما كانت فى نهاية الشهرة استحيت من هذه الواقعة فذهبت الى مكان بعيد لا يعلم بها زكريا (ورابعها) انها خافت على ولدها لو ولدته فيما بين اظهرهم واعلم ان هذه الوجوه محتملة وليس فى القرآن ما يدل على شئ منها (المسئلة الرابعة) اختلفوا فى مدة حملها على وجوه (الاول) قول ابن عباس رضى الله عنهما أنها كانت تسعة أشهر كما فى سائر النساء بدليل ان الله تعالى ذكر مدائحها فى هذا

الماء حينئذ كما فصل مثله بالنخلة فانها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ورق فضلا عن الثمر وكان الوقت شتاء فجعل الله لها اذ ذاك رأسا وخوصا وثمرا وقيل كان هناك ماء جار والاول هو الموافق لمقام بيان ظهور الخوارق والمتبادر من النظم الكريم وقيل سريا أى سيدا نبيلا رفيع الشان جليلا وهو عيسى عليه السلام فالتنوين للتفخيم والجملة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهى عنه والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرها لتشريفها وتأكيد التعليل وتكميل التسلية (وهزى) هز الشئ تحريكه الى الجهات المتقابلة تحريكا عنيفا متداركا والمراد ههنا ما كان منه بطريق الجذب والدفع لقوله تعالى (اليك) أى الى جهتك والباء فى قوله عز وعلا (بجذع النخلة) صلة للتأكيد كما فى قوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم الخ قال الفراء تقول العرب هزه وهز به وأخذ الخطاب وأخذ بالخطاب أو لالصاق الفعل بمدخولها أى افعلى الهز بجذعها أو هزى الثمرة بهزه وقيل هى متعلقة بمحذوف وقع حالا من مفعول الهز أى هزى اليك الرطب كائنا بجذعها (تساقط) أى تسقط النخلة (عليك) اسقاطا متواترا حسب تواتر الهز وقرئ تسقط ويسقط من الاسقاط بالتاء والياء وتتساقط باظهار التاءين وتساقط بطرح الثانية وتساقط بادغامها فى السين ويساقط بالياء كذلك وتسقط ويسقط من السقوط على أن التاء

في الكل النخلة والباء للجذع وقوله تعالى (رطبا) على القراآت الثلاث الاول مفعول وعلى الست البواقي تمييز وقوله تعالى (جنيا) صفة له وهو ماقطع قبل يبسه فعيل بمعنى مفعول أي رطبا مجنيا أي صالحا للاجتناء وقيل بمعنى فاعل أي طريا طيبا وقرئ جنيا بكسر الجيم للاتباع (فكلي واشربي) أي ذلك الرطب وماء السري أو من الرطب وعصيره (وقري عينا) وطيبي نفسا وارفضي عنها ما احزنك واهمك فانه تعالى قد نزه ساحتك عما اختلج في صدور المتعبدين بالاحكام العادية بأن أظهر لهم من البسائط العنصرية والمركبات النباتية ما يخرق العادات التكوينية ويرشدهم الى الوقوف على سريرة أمرك وقرئ وقري بكسر القاف وهي لغة نجد واشتقاقه من القرار فان العين اذا رأت ما يسر النفس سكنت اليه من النظر الى غيره أو من القر فان دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة ولذلك يقال قرة العين وسخنة العين للمحبوب والمكروه (فاما ترين من البشر أحدا) أي آدميا كائنا من كان وقرئ ترئن على لغة من يقول لبأت بالحج لما بين الهمزة والياء من التآخي (فقولي) له ان استنطقك ﴿ انسيا ﴾ (انى نذرت للرحمن صوما) أي صمتا وقد قرئ كذلك أو صياما وكان صيامهم بالسكوت (فلن أكلم اليوم انسيا) أي بعد أن أخبرتكم بنذري وانما أكلم الملائكة وأناجي ربي وقيل أمرت بان تخبر

الموضع فلو كانت عادتها في مدة حملها بخلاف عادات النساء لكان ذلك أولى بالذكر (الثاني) انها كانت ثمانية أشهر ولم يعش مولود وضع لثمانية الا عيسى بن مريم عليه السلام (الثالث) وهو قول عطاء وأبي العالية والضحاك سبعة أشهر (الرابع) انها كانت ستة أشهر (الخامس) ثلاث ساعات حملته في ساعة وصور في ساعة ووضعته في ساعة (السادس) وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما أيضا كانت مدة الحمل ساعة واحدة ويمكن الاستدلال عليه من وجهين (الاول) قوله تعالى فحملته فانتبذت به فأجاءها المخاض فناداها من تحتها والفاء للتعقيب فدلت هذه الفاآت على ان كل واحد من هذه الاحوال حصل عقيب الآخر من غير فصل وذلك يوجب كون مدة الحمل ساعة واحدة لا يقال انتباذها مكانا قصيا كيف يحصل في ساعة واحدة لانا نقول السدي فسره بأنها ذهبت الى أقصى موضع في جانب محرابها (الثاني) ان الله تعالى قال في وصفه ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون فثبت ان عيسى عليه السلام كما قال الله تعالى له كن فيكون وهذا مما لا يتصور فيه مدة الحمل وانما تعقل تلك المدة في حق من يتولد من النطفة (المسئلة الخامسة) قصيا أي بعيدا من أهلها يقال مكان قاص وقصي بمعنى واحد مثل عاص وعصي ثم اختلفوا فقيل أقصى الدار وقيل وراء الجبل وقيل سافرت مع ابن عمها يوسف وقد تقدمت هذه الحكاية (المسئلة السادسة) قال صاحب الكشاف أجاء منقول من جاء الا أن استعماله قد تغير بعد النقل الى معنى الالجاء فانك لا تقول جئت المكان وأجاءنيه زيد كما تقول بلغته وأبلغنيه والمعنى ان طلقها ألجأها الى جذع النخلة ثم يحتمل انها انما ذهبت الى النخلة طلبا لسهولة الولادة للتشبث بها ويحتمل للتقوي والاستناد اليها ويحتمل للتستر بها ممن يخشى منه الغائلة اذا راها ولذلك حكى الله عنها انها تمنت الموت (المسئلة السابعة) قال في الكشاف قرأ ابن كثير في رواية المخاض بالكسر يقال مخضت الحامل مخاضا ومخاضا وهو تمخض الولد في بطنها (المسئلة الثامنة) قال في الكشاف كان جذع نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمر ولا خضرة وكان الوقت شتاء والتعريف اما أن يكون من تعريف الاسماء الغالبة كتعريف النجم والصعق كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة مشهور عند الناس فاذا قيل جذع النخلة فهم منه ذلك دون سائره واما أن يكون تعريف الجنس اى الى جذع هذه الشجرة خاصة كأن الله أرشدها الى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو أشد الاشياء موافقة للنفساء ولان النخلة أقل الاشياء صبرا على البرد ولا تثمر الا عند اللقاح واذا قطعت رأسها لم تثمر فكأنه تعالى قال كما أن الانثى لا تلد الا مع الذكر فكذا النخلة لا تثمر الا عند اللقاح ثم اني أظهر الرطب من غير اللقاح ليدل ذلك على جواز ظهور الولد من غير ذكر (المسئلة التاسعة) لم قالت يا ليتني مت قبل هذا مع انها كانت تعلم ان الله تعالى بعث جبريل اليها وخلق ولدها من نفخ جبريل عليه السلام ووعدها بأن يجعلها وابنها آية للعالمين والجواب من وجهين (الاول) قال وهب

أنساها كربة الغربة وما سمعته من الناس بشارة الملائكة بعيسى عليه السلام (الثانى) ان عادة الصالحين اذا وقعوا فى بلاء أن يقولوا ذلك و روى عن أبى بكر انه نظر الى طائر على شجرة فقال طوبى لك يا طائر تقع على الشجر وتأكل من الثمر وددت أنى ثمرة ينقرها الطائر وعن عمر انه أخذ تبنة من الارض وقال ليتنى هذه التبنة يا ليتنى لم أك شيئا وقال على يوم الجمل يا ليتنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة وعن بلال ليت بلالا لم تلده أمه فثبت أن هذا الكلام يذكره الصالحون عند اشتداد الامر عليهم (الثالث) لعلها قالت ذلك لكى لا تقع المعصية ممن يتكلم فيها والا فهى راضية بما بشرت به (المسئلة العاشرة) قال صاحب الكشاف النسى ما من حقه أن يطرح وينسى كخرقة الطمث ونحوها كالذبح اسم ما من شأنه أن يذبح كقوله وفديناه بذبح عظيم تمنت لو كانت شيئا تافها لا يؤبه به ومن حقه أن ينسى فى العادة وقرأ ابن وثاب والاعمش وحمزة نسيا بالفتح والباقون نسيا بالكسر قال الفراء هما لغتان كالوتر والوتر والجسر والجسر وقرأ محمد بن كعب القرظى نسأ بالهمز وهو الحليب المخلوط بالماء ينساه أهله لقلته وقرأ الاعمش منسيا بالكسر على الاتباع كالمغير والمنخر والله أعلم * قوله تعالى (فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقرى عينا فاما ترين من البشر أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فناداها من تحتها القراءة المشهورة فناداها وقرأ زر وعلقمة فخاطبها وفى الميم فيها قراءتان فتح الميم وهو المشهور وكسره وهو قراءة نافع وحمزة والكسائى وحفص وفى المنادى ثلاثة أوجه (الاول) انه عيسى عليه السلام وهو قول الحسن وسعيد بن جبير (والثانى) انه جبريل عليه السلام وانه كان كالقابلة للولد (والثالث) ان المنادى على القراءة بالكسر هو الملك وعلى القراءة بالفتح هو عيسى عليه السلام وهو مروى عن ابن عيينة وعاصم والاول أقرب لوجوه (الاول) ان قوله فناداها من تحتها بفتح الميم انما يستعمل اذا كا قد علم قبل ذلك ان تحتها أحدا والذى علم كونه حاصلا تحتها هو عيسى عليه السلام فوجب حمل اللفظ عليه وأما القراءة بكسر الميم فهى لا تقتضى كون المنادى جبريل عليه السلام فقد صح قولنا (الثانى) ان ذلك الموضع موضع اللوث والنظر الى العورة وذلك لا يليق بالملائكة (الثالث) ان قوله فناداها فعل ولا بد وأن يكون فاعله قد تقدم ذكره ولقد تقدم قبل هذه الآية ذكر جبريل وذكر عيسى عليهما السلام الا أن ذكر عيسى أقرب لقوله تعالى فحملته فانتبذت به والضمير ههنا عائد الى المسيح فكان حمله عليه أولى (والرابع) وهو دليل الحسن بن على رضى الله عنه أن عيسى عليه السلام لو لم يكن كلمها لما علمت انه ينطق فما كانت تشير الى عيسى عليه السلام بالكلام فأما من قال المنادى هو عيسى عليه السلام فالمعنى انه تعالى أنطقه لها حين وضعته تطييبا لقلبها وازالة للوحشة عنها حتى

بنذرها بالاشارة وهو الاظهر قال الفراء العرب تسمى كل ما وصل الى الانسان كلاما بأى طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر فاذا أكد لم يكن الا حقيقة الكلام وانما أمرت بذلك لكراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام فانه نص قاطع فى قطع الطعن (فأتت به قومها) اى جاءتهم مع ولدها راجعة اليهم عند ما طهرت من نفاسها تحمله أى حاملة له (قالوا) مؤنبين لها (يا مريم لقد جئت) اى فعلت (شيئا فريا) أى عظيما بديعا منكرا من فرى الجلد أى قطعه أو جئت مجيئا عجيبا عبر عنه بالشئ تحقيقا للاستغراب (يا أخت هرون) استئناف لتجديد التعيير وتأكيد التوبيخ عنوا به هرون النبى عليه السلام وكانت من أعقاب من كان معه فى طبقة الاخوة وقيل كانت من نسله وكان بينهما ألف سنة وقيل هو رجل صالح أو طالح كان فى زمانهم شبهوها به أى كنت عندنا مثله فى الصلاح أو شتموها به (ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) تقرير لكون ما جاءت به فريا منكرا وتنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش (فأشارت اليه) أى الى عيسى عليه السلام أن كلموه والظاهر أنها حينئذ بينت نذرها وأنها بمعزل من محاورة الانس حسبما أمرت ففيه دلالة على أن المأمور به بيان نذرها بالاشارة لا بالعبارة والجمع بينهما مما لا عهد به (قالوا) منكرين

لجوابها (كيف نكلم من كان في المهد صبيا) ولم نعهد فيما سلف صبيا يكلمه عاقل وقيل كان لايقاع مضمون الجملة في زمان ماض مبهم صالح لقريبه و بعيده وهو ههنا لقريبه خاصة بدليل انه مسوق للتعجب وقيل هي زائدة والظرف صلة من وصبيا حال من المستكن فيه أو هي تامة أو دائمة كما في قوله تعالى وكان الله عليما حكيما (قال) استئناف مبني على سؤال نشا من سياق النظم الكريم كانه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل قال عيسى عليه السلام (اني عبد الله) أنطقه الله عز وجل بذلك أولا لانه أول المقامات وللرد على من يزعم ربوبيته قيل كان المستنطق لعيسى زكريا عليهما الصلاة والسلام وعن السدي رضي الله عنه لما أشارت اليه غضبوا وقالوا لسخريتها بنا أشد علينا مما فعلت وروى أنه عليه السلام كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار اليهم بسبابته فقال ما قال الخ وقيل كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان (آتاني الكتاب) اى الأنجيل (وجعلني نبيا وجعلني) مع ذلك (مباركا) نفاعا معلما للخير والتعبير بلفظ الماضي في الافعال الثلاثة اما باعتبار ماسبق في القضاء المحتوم أو بجعل ما في شرف الوقوع لامحالة واقعا وقيل أكمله الله عقلا واستنبأه طفلا (أينما كنت) اى حيثما كنت (وأوصاني بالصلوة) اى أمرني بها أمرا موكدا

تشاهد في أول الامر ما بشرها به جبريل عليه السلام من علو شأن ذلك الولد ومن قال المنادي جبريل عليه السلام قال انه أرسل اليها لينا ديها بهذه الكلمات كما أرسل اليها في أول الامر ليكون ذلك تذكيرا لها ما تقدم من أصناف البشارات وأما قوله من تحتها فان حملناه على الولد فلا سؤال وان حملناه على الملك ففيه وجهان (الاول) أن يكونا معا في مكان مستو و يكون هناك مبدأ معين كتلك النخلة ههنا فكل من كان أقرب منها كان فوق وكل من كان أبعد منها كان تحت وفسر الكلبي قوله تعالى اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم بذلك وعلى هذا الوجه قال بعضهم انه ناداها من أقصى الوادي (والثاني) أن يكون موضع أحدهما أعلى من موضع الآخر فيكون صاحب العلو فوق صاحب السفل وعلى هذا الوجه روى عن عكرمة أنها كانت حين ولدت على مثل رابية وفيه وجه ثالث يحكى عن عكرمة وهو أن جبريل عليه السلام ناداها من تحت النخلة ثم على التقديرات الثلاثة يحتمل أن تكون مريم قد رأته وانها ما رأته وليس في اللفظ ما يدل على شئ من ذلك (المسئلة الثانية) اتفق المفسرون الا الحسن وعبد الرحمن بن زيد ان السري هو النهر والجدول سمي بذلك لان الماء يسري فيه وأما الحسن وابن زيد فجعلا السري عيسى والسري هو النبيل الجليل يقال فلان من سروات قومه أى من أشرافهم وروى ان الحسن رجع عنه وروى عن قتادة وغيره ان الحسن تلا هذه الآية و بجنبه حميد بن عبد الرحمن الحميري قد جعل ربك تحتك سريا فقال ان كان لسريا وان كان لكريما فقال له حميد يا أبا سعيد انما هو الجدول فقال له الحسن من ثم تعجبنا مجالستك واحتج من حمله على النهر بوجهين (أحدهما) انه سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن السري فقال هو الجدول (والثاني) ان قوله فكلي واشربي يدل على انه نهر حتى ينضاف الماء الى الرطب فتأكل وتشرب واحتج من حمله على عيسى بوجهين (الاول) ان النهر لا يكون تحتها بل الى جانبها ولا يجوز أن يجاب عنه بأن المراد منه انه جعل النهر تحت أمرها يجري بامرها و يقف بامرها كما في قوله وهذه الانهار تجري من تحتي لان هذا حمل للفظ على مجاز ولو حملناه على عيسى عليه السلام لم يحتج الى هذا المجاز (الثاني) انه موافق لقوله تعالى وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين والجواب عنه ما تقدم ان المكان المستوي اذا كان فيه مبدأ معين فكل من كان أقرب منه كان فوق وكل من كان أبعد منه كان تحت فرعان (الاول) ان حملنا السري على النهر ففيه وجهان (أحدهما) أن جبريل عليه السلام ضرب برجله فظهر ماء عذب (والثاني) انه كان هناك ماء جار (والاول) أقرب لان قوله قد جعل ربك تحتك سريا مشعر بالحدوث في ذلك الوقت ولان الله تعالى ذكره تعظيما لشانها وذلك لا يثبت الا على الوجه الذي قلناه (الثاني) اختلفوا في أن السري هو النهر مطلقا وهو قول أبي عبيدة والفراء أو النهر الصغير على ما هو قول الاخفش (المسئلة الثالثة) قال القفال الجذع من النخلة هو الاسفل وما دون الرأس الذي عليه

الثمرة وقال قطرب كل خشبة فى أصل شجرة فهى جذع وأما الباء فى قوله بجذع النخلة فزائدة والمعنى هزى اليك أى حركى جذع النخلة قال الفراء العرب تقول هزه وهز به وخذ الخطام وخذ بالخطام وزوجتك فلانة و بفلانة وقال الاخفش يجوز أن يكون على معنى هزى اليك رطبا بجذع النخلة أى على جذعها اذا عرفت هذا فنقول قد تقدم أن الوقت كان شتاء وان النخلة كانت يابسة واختلفوا فى أنه هل أثمر الرطب وهو على حاله أو تغير وهل أثمر مع الرطب غيره والظاهر يقتضى انه صار نخلة لقوله بجذع النخلة وانه ما أثمر الا الرطب (المسئلة الرابعة) قال صاحب الكشاف تساقط فيه تسع قرآآت تساقط بادغام التاء وتتساقط باظهار التاءين وتساقط بطرح الثانية و يساقط بالياء وادغام التاء وتساقط وتسقط و يسقط وتسقط و يسقط التاء للنخلة والياء للجذع (المسئلة الخامسة) رطبا تمييز أو مفعول على حسب القراءة الجنى المأخوذ طريا وعن طلحة بن سليمان جنيا بكسر الجيم للاتباع والمعنى جمعنا لك فى السرى والرطب فائدتين (احداهما) الاكل والشرب (والثانية) سلوة الصدر بكونهما معجزتين فان قال قائل فتلك الافعال الخارقة للعادات لمن قلنا قالت المعتزلة انها كانت معجزة لزكريا وغيره من الانبياء وهذا باطل لان زكريا عليه السلام ما كان له علم بحالها ومكانها فكيف بتلك المعجزات بل الحق انها كانت كرامات لمريم أو ارهاصا لعيسى عليه السلام (المسئلة السادسة) فكلى واشربى وقرى عينا قرئ بكسر القاف لغة نجد ونقول قدم الاكل على الشرب لان احتياج النفساء الى اكل الرطب أشد من احتياجها الى شرب الماء لكثرة ما سال منها من الدماء ثم قال وقرى عينا وههنا سؤال وهو أن مضرة الخوف أشد من مضرة الجوع والعطش والدليل عليه أمران (أحدهما) ان الخوف ألم الروح والجوع ألم البدن وألم الروح أقوى من ألم البدن (والثانى) ما روى انه أجيعت شاة ثم قدم العلف اليها و ربط عندها ذئب فبقيت الشاة مدة مديدة لا تتناول العلف مع جوعها الشديد خوفا من الذئب ثم كسرت رجلها وقدم العلف اليها فتناولت العلف مع ألم البدن فدلت هذه الحكاية على ان ألم الخوف أشد من ألم البدن اذا ثبت هذا فنقول فلم قدم الله تعالى فى الحكاية دفع ضرر الجوع والعطش على دفع ضرر الخوف والجواب ان هذا الخوف كان قليلا لان بشارة جبريل عليه السلام كانت قد تقدمت فما كانت تحتاج الى التذكير مرة أخرى (المسئلة السابعة) قال صاحب الكشاف قرأ ترئن بالهمز ابن الرومى عن أبي عمرو وهذا من لغة من يقول لبأت بالحج وحلأت السويق وذلك لتآخ بين الهمز وحرف اللين فى الابدال صوما صمتا وفى مصحف عبد الله صمتا وعن أنس بن مالك مثله وقيل صياما الا أنهم كانوا لا يتكلمون فى صيامهم فعلى هذا كان ذكر الصوم دالا على الصمت وهذا النوع من النذر كان جائزا فى شرعهم وهل يجوز مثل هذا النذر فى شرعنا قال القفال لعله يجوز لان الاحتراز عن كلام الادميين وتجريد الفكر لذكر الله تعالى قربة ولعله

(والزكوة) زكاة المال ان ملكته أو بتطهير النفس عن الرذائل (مادمت حيا) فى الدنيا (و برا بوالدتى) عطف على مباركا أى جعلنى بارا بها وقرئ بالكسر على أنه مصدر وصف به مبالغة أو منصوب بمضمر دل عليه أوصانى أى وكلفنى برا و يؤيده القراءة بالكسر والجر عطفا على الصلاة والزكاة والتنكير للتفخيم (ولم يجعلنى جبارا شقيا) عند الله تعالى لفرط تكبره (والسلام على يوم ولدت و يوم أموت و يوم أبعث حيا) كما هو على يحيى على أن التعريف للعهد والاظهر أنه للجنس والتعريض باللعن على أعدائه فان اثبات جنس السلام لنفسه تعريض باثبات ضده لاضداده كما فى قوله تعالى والسلام على من اتبع الهدى فانه تعريض بأن العذاب على من كذب وتولى (ذلك) اشارة الى من فصلت نعوته الجليلة وما فيه من معنى البعد للدلالة على علو مرتبته و بعد منزلته وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره ونزوله منزلة المشاهد المحسوس (عيسى ابن مريم) لا ما يصفه النصارى وهو تكذيب لهم فيما يزعمونه على الوجه الابلغ والمنهاج البرهانى حيث جعله موصوفا باضداد ما يصفونه (قول الحق) بالنصب على أنه مصدر مؤكد لقال انى عبد الله الخ وقوله تعالى ذلك عيسى ابن مريم اعتراض مقرر لمضمون ما قبله وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى هو قول الحق الذى لا ريب فيه والاضافة للبيان والضمير للكلام السابق

لايجوز لما فيه من التضييق وتعذيب النفس كنذر القيام فى الشمس وروى انه دخل ابو بكر على امرأة قد نذرت أنها لاتكلم فقال أبو بكر ان الاسلام هدم هذا فتكلمى والله أعلم (المسئلة الثامنة) أمرها الله تعالى بأن تنذر الصوم لئلا تشرع مع من اتهمها فى الكلام لمعنيين (أحدهما) ان كلام عيسى عليه السلام أقوى فى ازالة التهمة من كلامها وفيه دلالة على ان تفويض الامر الى الافضل أولى (والثانى) كراهة مجادلة السفهاء وفيه أن السكوت عن السفيه واجب ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها (المسئلة التاسعة) اختلفوا فى أنها هل قالت معهم انى نذرت للرحمن صوما فقال قوم انها ماتكلمت معهم بذلك لانها كانت مأمورة بأن تأتى بهذا النذر عند رؤيتهم فاذا أتت بهذا النذر فلو تكلمت معهم بعد ذلك لوقعت فى المناقضة ولكنها أمسكت وأومأت برأسها وقال آخرون انها ما نذرت فى الحال بل صبرت حتى أتاها القوم فذكرت لهم انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا وهذه الصيغة وان كانت عامة الا أنها صارت بالقرينة مخصوصة فى حق هذا الكلام * قوله تعالى (فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريا ياأخت هرون ماكان أبوك امرأ سوء وماكانت أمك بغيا فأشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى انها كيف أتت بالولد على أقوال (الاول) ماروى عن وهب قال أنساها كرب الولادة وماسمعته من الناس ماكان من كلام الملائكة من البشارة بعيسى عليه السلام فلما كلمها جاءها مصداق ذلك فاحتملته وأقبلت به الى قومها (الثانى) ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن يوسف انتهى بمريم الى غار فأدخلها فيه أربعين يوما حتى طهرت من النفاس ثم أتت به قومها تحمله فكلمها عيسى فى الطريق فقال ياأماه أبشرى فانى عبد الله ومسيحه وهذان الوجهان محتملان وليس فى القرآن مايدل على التعيين (المسئلة الثانية) الفرى البديع وهو من فرى الجلد روى انهم لما رأوها ومعها عيسى عليه السلام قالوا لها لقد جئت شيئا فريا فيحتمل أن يكون المراد شيئا عجيبا خارجا عن العادة من غير تعيير وذم ويحتمل أن يكون مرادهم شيئا عظيما منكرا فيكون ذلك منهم على وجه الذم هذا أظهر لقولهم بعده ياأخت هرون ماكان أبوك امرأ سوء وماكانت أمك بغيا لان هذا القول ظاهره التوبيخ وأما هرون ففيه أربعة أقوال (الاول) انه رجل صالح من بنى اسرائيل ينسب اليه كل من عرف بالصلاح والمراد انك كنت فى الزهد كهرون فكيف صرت هكذا وهو قول قتادة وكعب وابن زيد والمغيرة بن شعبة ذكر أن هرون الصالح تبع جنازته أربعون ألفا كلهم يسمون هرون تبركا به وباسمه (الثانى) انه أخو موسى عليه السلام وعن النبى صلى الله عليه وسلم انما عنوا هرون النبى وكانت من أعقابه وانما قيل أخت هرون كما يقال ياأخا همدان أى ياواحدا منهم (والثالث) كان رجلا معلنا بالفسق فنسبت اليه بمعنى التشبيه لابمعنى النسبة (الرابع) كان لها أخ يسمى هرون من صلحاء

أو لقيامها مقامه وقيل صفة عيسى أو بدلها أو خبر ثان ومعناه كلمة الله وقرئ قال الحق وقول الحق فان القول والقول والقال فى معنى واحد (الذى فيه يمترون) اى يشكون أو يتنازعون فيقول اليهود ساحر والنصارى ابن الله وقرئ بتاء الخطاب (ماكان لله) اى ماصح وما استقام له تعالى (أن يتخذ من ولد سبحانه) تكذيب للنصارى وتنزيه له تعالى عما بهتوه وقوله تعالى (اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون) تبكيت لهم ببيان أن شأنه تعالى اذا قضى أمرا من الامور أن يتعلق به ارادته فيكون حينئذ بلا تأخير فمن هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد وقرئ فيكون بالنصب على الجواب وقوله تعالى (وان الله ربى وربكم فاعبدوه) من تمام كلام عيسى عليه السلام قيل هو عطف على قوله انى عبد الله داخل تحت القول وقد قرئ بغير واو وقرئ بفتح الهمزة على حذف اللام أى ولانه تعالى ربى وربكم فاعبدوه كقوله تعالى وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا وقيل معطوف على الصلاة (هذا) اى الذى ذكرته من التوحيد (صراط مستقيم) لايضل سالكه والفاء فى قوله تعالى (فاختلف الاحزاب من بينهم) لترتيب مابعدها على ماقبلها تنبيها على سوء صنيعهم بجعلهم ما يوجب الاتفاق منشأ للاختلاف فانما حكى من مقالات عيسى عليه السلام مع كونها نصوصا قاطعة فى كونه عبده تعالى

بني اسرائيل فعيرت به وهذا هو الاقرب لوجهين (الاول) ان الاصل في الكلام الحقيقة وانما يكون ظاهر الآية محمولا على حقيقتها لو كان لها أخ مسمى بهارون (الثاني) انها أضيفت اليه ووصف أبواها بالصلاح وحينئذ يصير التوبيخ أشد لان من كان حال أبويه وأخيه هذه الحالة يكون صدور الذنب عنه أفحش (المسئلة الثالثة) القراءة المشهورة ماكان أبوك امرأ سوء وقرأ عمرو بن رجاء التميمي ماكان أباك امرؤ سوء (المسئلة الرابعة) انهم لما بالغوا في توبيخها سكتت وأشارت اليه أي الى عيسى عليه السلام أي هو الذي يجيبكم اذا ناطقتموه وعن السدي لما أشارت اليه غضبوا غضبا شديدا وقالوا لسخريتها بنا أشد من زناها روي أنه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابته وقيل كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان وقيل ان زكرياء عليه السلام أتاها عند مناظرة اليهود اياها فقال لعيسى عليه السلام انطق بحجتك ان كنت أمرت بها فقال عيسى عليه السلام عند ذلك اني عبد الله فان قيل كيف عرفت مريم من حال عيسى عليه السلام أنه يتكلم قلنا ان جبريل عليه السلام أو عيسى عليه السلام ناداها من تحتها أن لا تحزني وأمرها عند رؤية الناس بالسكوت فصار ذلك كالتنبيه لها على أن المجيب هو عيسى عليه السلام أو لعلها عرفت ذلك بالوحي الى زكرياء أو لعلها عرفت بالوحي اليها على سبيل الكرامة (بقي ههنا بحثان الاول) قوله كيف نكلم من كان في المهد صبيا أي حصل في المهد فكان ههنا بمعنى حصل ووجد وهذا هو الاقرب في تأويل هذا اللفظ وان كان الناس قد ذكروا وجوها أخر (الثاني) اختلفوا في المهد فقيل هو حجرها لما روي انها أخذته في خرقة فأتت به قومها فلما رأوها قالوا لها ماقالوا فأشارت اليه وهو في حجرها ولم يكن لها منزل معد حتى يعد لها المهد أو المعنى كيف نكلم صبيا سبيله أي ينام في المهد * قوله تعالى (قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلوة والزكوة مادمت حيا وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) اعلم أنه وصف نفسه بصفات تسع (الصفة الاولى) قوله اني عبد الله وفيه فوائد (الفائدة الاولى) أن الكلام منه في ذلك الوقت كان سببا للوهم الذي ذهبت اليه النصارى فلا جرم أول ماتكلم انما تكلم بما يرفع ذلك الوهم فقال اني عبد الله وكان ذلك الكلام وان كان موهما من حيث انه صدر عنه في تلك الحالة ولكن ذلك الوهم يزول ولا يبقى من حيث انه تنصيص على العبودية (الفائدة الثانية) انه لما أقر بالعبودية فان كان صادقا في مقاله فقد حصل الغرض وان كان كاذبا لم تكن القوة قوة الهية بل قوة شيطانية فعلى التقديرين يبطل كونه الها (الفائدة الثالثة) ان الذي اشتدت الحاجة اليه في ذلك الوقت انما هو نفي تهمة الزنا عن مريم عليها السلام ثم ان عيسى عليه السلام لم ينص على ذلك وانما نص على اثبات عبودية نفسه كأنه جعل ازالة التهمة عن الله تعالى أولى من ازالة التهمة عن

ورسوله قد اختلف اليهود والنصارى بالتفريط والافراط أو فرق النصارى فقالت النسطورية هو ابن الله وقالت اليعقوبية هو الله هبط الى الارض ثم صعد الى السماء تعالى عن ذلك علوا كبيرا وقالت الملكانية هو عبد الله ونبيه (فويل للذين كفروا) وهم المختلفون عبر عنهم بالموصول ايذانا بكفرهم جميعا واشعارا بعلة الحكم (من مشهد يوم عظيم) اي من شهود يوم عظيم الهول والحساب والجزاء وهو يوم القيامة أو من وقت شهوده أو من مكان الشهود فيه أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وهو أن يشهد عليهم الملائكة والانبياء عليهم السلام وألسنتهم وآذانهم وأيديهم وأرجلهم وسائر آرابهم بالكفر والفسوق أو من وقت الشهادة أو من مكانها وقيل هو ماشهدوا به في حق عيسى وأمه عليهما السلام (أسمع بهم وأبصر) تعجب من حدة سمعهم وأبصارهم يومئذ ومعناه ان أسماعهم وأبصارهم (يوم يأتوننا) للحساب والجزاء اى يوم القيامة جدير بان يتعجب منهما بعد أن كانوا في الدنيا صما عميا أو تهديد بما سيسمعون ويبصرون يومئذ وقيل أمر بأن يسمعهم ويبصرهم مواعيد ذلك اليوم وما يحيق بهم فيه والجار والمجرور على الاول في موقع الرفع وعلى الثاني في حيز النصب (لكن الظالمون اليوم) اى في الدنيا (في ضلال مبين) لا يدرك غايته حيث أغفلوا الاستماع والنظر بالكلية ووضع الظالمين موضع الضمير

للإيذان بأنهم فى ذلك ظالمون لانفسهم (وأنذرهم يوم الحسرة) اى يوم يتحسر الناس قاطبة أما المسيء فعلى اساءته وأما المحسن فعلى قلة احسانه (اذ قضى الامر) اى فرغ من الحساب وتصادر الفريقان الى الجنة والنار روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك فقال حين يجاء بالموت على صورة كبش أملح فيذبح والفريقان ينظرون فينادى المنادى يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت فيزداد أهل الجنة فرحا الى فرح وأهل النار غما الى غم واذ بدل من يوم الحسرة أو ظرف للحسرة فان المصدر المعرف باللام يعمل فى المفعول الصريح عند بعضهم فكيف بالظرف (وهم فى غفلة) أى عما يفعل بهم فى الآخرة (وهم لا يؤمنون) وهما جملتان حاليتان من الضمير المستتر فى قوله تعالى فى ضلال مبين أى مستقرون فى ذلك وهم فى تينك الحالتين وما بينهما اعتراض أو من مفعول أنذرهم اى أنذرهم غافلين غير مؤمنين فيكون حالا متضمنة لمعنى التعليل (انا نحن نرث الارض ومن عليها) لا يبقى لاحد غيرنا عليها وعليهم ملك ولا ملك أو نتوفى الارض ومن عليها بالافناء والاهلاك توفى الوارث لارثه (والينا يرجعون) اى يردون للجزاء لا الى غيرنا استقلالا أو اشتراكا (واذكر) عطف على أنذرهم (فى الكتاب) اى فى السورة أو فى القرآن (ابراهيم) اى اتل على الناس قصته وبلغها اياهم كقوله

الام فلهذا أول ما تكلم انما تكلم بها (الفائدة الرابعة) وهى أن التكلم بازالة هذه التهمة عن الله تعالى يفيد ازالة التهمة عن الام لان الله سبحانه لا يخص الفاجرة بولد فى هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة وأما التكلم بازالة التهمة عن الام لا يفيد ازالة التهمة عن الله تعالى فكان الاشتغال بذلك أولى فهذا مجموع ما فى هذا اللفظ من الفوائد واعلم أن مذهب النصارى متخبط جدا وقد اتفقوا على أنه سبحانه ليس بجسم ولا متحيز ومع ذلك فانا نذكر تقسيما حاصرا يبطل مذهبهم على جميع الوجوه فنقول اما أن يعتقدوا كونه متحيزا أو لا فان اعتقدوا كونه متحيزا أبطلنا قولهم باقامة الدلالة على حدوث الاجسام وحينئذ يبطل كل ما فرعوا عليه وان اعتقدوا أنه ليس بمتحيز فحينئذ يبطل ما يقوله بعضهم من أن الكلمة اختلطت بالناسوت اختلاط الماء بالخمر وامتزاج النار بالفحم لان ذلك لا يعقل الا فى الاجسام فاذا لم يكن جسما استحال ذلك ثم نقول للناس قولان فى الانسان منهم من قال انه هو هذه البنية أو جسم موجود فى داخلها ومنهم من يقول انه جوهر مجرد عن الجسمية والحلول فى الاجسام فنقول هؤلاء النصارى اما أن يعتقدوا ان الله أو صفة من صفاته اتحد ببدن المسيح أو بنفسه أو يعتقدوا أن الله أو صفة من صفاته حل فى بدن المسيح أو فى نفسه أو يقولوا لا نقول بالاتحاد ولا بالحلول ولكن نقول انه تعالى أعطاه القدرة على خلق الاجسام والحياة والقدرة وكان لهذا السبب الها أو لا يقولوا بشئ من ذلك ولكن قالوا انه على سبيل التشريف اتخذه ابنا كما اتخذ ابراهيم على سبيل التشريف خليلا فهذه هى الوجوه المعقولة فى هذا الباب والكل باطل أما القول الاول بالاتحاد فهو باطل قطعا لان الشيئين اذا اتحدا فهما حال الاتحاد اما أن يكونا موجودين أو معدومين أو يكون أحدهما موجودا والآخر معدوما فان كانا موجودين فهما اثنان لا واحد فالاتحاد باطل وان عدما وحصل ثالث فهو أيضا لا يكون اتحادا بل يكون قولا بعدم ذينك الشيئين وحصول شئ ثالث وان بقى أحدهما وعدم الآخر فالمعدوم يستحيل أن يتحد بالموجود لانه يستحيل أن يقال المعدوم بعينه هو الموجود فظهر من هذا البرهان الباهر أن الاتحاد محال (وأما الحلول) فلنا فيه مقامان (الاول) ان التصديق مسبوق بالتصور فلا بد من البحث عن ماهية الحلول حتى يمكننا أن نعلم أنه هل يصح على الله تعالى أو لا يصح وذكروا للحلول تفسيرات ثلاثة (أحدها) كون الشئ فى غيره ككون ماء الورد فى الورد والدهن فى السمسم والنار فى الفحم واعلم أن هذا باطل لان هذا انما يصح لو كان الله تعالى جسما وهم وافقونا على أنه ليس بجسم (وثانيها) حصوله فى الشئ على مثال حصول اللون فى الجسم فنقول المعقول من هذه التبعية حصول اللون فى ذلك الحيز تبعا لحصول محله فيه وهذا أيضا انما يعقل فى حق الاجسام لا فى حق الله تعالى (وثالثها) حصوله فى الشئ على مثال حصول الصفات الاضافية للذوات فنقول هذا أيضا باطل لان المعقول من هذه التبعية الاحتياج فلو كان

الله تعالى فى شىء بهذا التفسير لكان محتاجا فكان ممكنا فكان مفتقرا الى المؤثر وذلك محال واذا ثبت أنه لا يمكن تفسير هذا الحلول بمعنى ملخص يمكن اثباته فى حق الله تعالى امتنع اثباته (المقام الثانى) احتج الاصحاب على نفى الحلول مطلقا بان قالوا لو حل لحل اما مع وجوب ان يحل أو مع جواز أن يحل والقسمان باطلان فالقول بالحلول باطل وانما قلنا انه لا يجوز أن يحل مع وجوب أن يحل لان ذلك يقتضى اما حدوث الله تعالى أو قدم المحل وكلاهما باطلان لانا دللنا على ان الله قديم وعلى أن الجسم محدث ولانه لو حل مع وجوب أن يحل لكان محتاجا الى المحل والمحتاج الى الغير ممكن لذاته والممكن لذاته لا يكون واجبا لذاته وانما قلنا انه لا يجوز أن يحل مع جواز أن يحل لانه لما كانت ذاته واجبة الوجود لذاتها وحلوله والمحل أمر جائز والموصوف بالوجوب غير ما هو موصوف بالجواز فيلزم أن يكون حلوله فى المحل أمرا زائدا على ذاته وذلك محال لوجهين (أحدهما) ان حلوله فى المحل لو كان زائدا على ذاته لكان حلول ذلك الزائد فى محله زائدا على ذاته ولزم التسلسل وهو محال (والثانى) ان حلوله فى ذلك المحل لما كان زائدا على ذاته فاذا حل فى محل وجب أن يحل فيه صفة محدثة وذلك محال لانه لو كان قابلا للحوادث لكانت تلك القابلية من لوازم ذاته وكانت حاصلة أزلا وذلك محال لان وجود الحوادث فى الازل محال فحصول قابليتها وجب أن يكون ممتنع الحصول فان قيل لم لا يجوز أن يحل مع وجوب أن يحل لانه يلزم اما حدوث الحال أو قدم المحل قلنا لا نسلم وجوب أحد الامرين ولم لا يجوز أن يقال ان ذاته تقتضى الحلول بشرط وجود المحل ففى الازل ما وجد المحل فلم يوجد شرط هذا الوجوب فلا جرم لم يجب الحلول وفيما لا يزال حصل هذا الشرط فلا جرم وجب سلمنا انه يلزم اما حدوث الحال أو قدم المحل فلم لا يجوز قوله انا دللنا على حدوث الاجسام قلنا لم لا يجوز أن يكون محله ليس بجسم ولكنه يكون عقلا أو نفسا أو هيولى على ما يثبته بعضهم ودليلكم على حدوث الاجسام لا يقبل حدوث هذه الاشياء قوله ثانيا لو حل مع وجوب أن يحل لكان محتاجا الى المحل قلنا لا نسلم وجوب أحد الامرين بل ههنا احتمالان آخران (أحدهما) أن العلة وان امتنع انفكاكها عن المعلول لكنها لا تكون محتاجة الى المعلول فلم لا يجوز أن يقال ان ذاته غنية عن ذلك المحل ولكن ذاته توجب حلول نفسها فى ذلك المحل فيكون وجوب حلولها فى ذلك المحل من معلولات ذاته وقد ثبت ان العلة وان استحال انفكاكها عن المعلول لكن ذلك لا يقتضى احتياجها الى المعلول (الثانى) أن يقال انه فى ذاته يكون غنيا عن المحل وعن الحلول الا أن المحل يوجب لذاته صفة الحلول فالمفتقر الى المحل صفة من صفاته وهى حلوله فى ذلك المحل فاما ذاته فلا ولا يلزم من افتقار صفة من صفاته الاضافية الى الغير افتقار ذاته الى الغير وذلك لان جميع الصفات الاضافية الحاصلة له مثل كونه أولا وآخرا ومقارنا ومؤثرا ومعلوما ومذكورا مما لا يتحقق الا عند حصول الغير وكيف لا

تعالى واتل عليهم نبأ ابراهيم فانهم ينتمون اليه عليه السلام فعساهم باستماع قصته يقلعون عما هم فيه من القبائح (انه كان صديقا) ملازما للصدق فى كل ما يأتى ويذر أو كثير التصديق لكثرة ما صدق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله والجملة استئناف مسوق لتعليل موجب الامر فان وصفه عليه السلام بذلك من دواعى ذكره (نبيا) خبر آخر لكان مقيد للاول مخصص له كما ينبئ عنه قوله تعالى من النبيين والصديقين الآية اى كان جامعا بين الصديقية والنبوة ولعل هذا الترتيب للمبالغة فى الاحتراز عن توهم تخصيص الصديقية بالنبوة فان كل نبى صديق (اذ قال) بدل اشتمال من ابراهيم وما بينهما اعتراض مقرر لما قبله أو متعلق بكان أو بنبيا وتعليق الذكر بالاوقات مع أن المقصود تذكير ما وقع فيها من الحوادث قد مر سره مرارا اى كان جامعا بين الاثرتين حين قال (لابيه) آزر متلطفا فى الدعوة مستميلا له (يا أبت) اى يا أبى فان التاء عوض عن ياء الاضافة ولذلك لا يجتمعان وقد قيل يا أبتا لكون الالف بدلا من الياء (لم تعبد ما لا يسمع) ثناءك عليه عند عبادتك له وجؤارك اليه (ولا يبصر) خضوعك وخشوعك بين يديه أو لا يسمع ولا يبصر شيئا من المسموعات والمبصرات فيدخل فى ذلك ما ذكر دخولا اوليا (ولا يغنى) اى لا يقدر على أن يغنى (عنك شيئا) فى جلب نفع أو دفع ضر ولقد سلك عليه السلام

والاضافات لابد فى تحققها من أمرين سلمنا ذلك فلم لا يجوز أن يحل مع جواز أن يحل قوله يلزم أن يكون حلوله فيه زائدا عليه و يلزم التسلسل قلنا حلوله فى المحل لما كان جائزا كان حلوله فى المحل زائدا عليه أما كون ذلك الحلول حالا فى المحل أمر واجب فلا يلزم ان يكون حلول الحلول زائدا عليه فلا يلزم التسلسل قوله ثانيا يلزم أن يصير محل الحوادث قلنا لم لا يجوز ذلك قوله يلزم أن يكون قابلا للحوادث فى الازل قلنا لا شك ان تمكنه من الايجاد ثابت له اما لذاته أو لأمر ينتهى الى ذاته وكيف كان فيلزم صحة كونه مؤثرا فى الازل فكل ما ذكرتموه فى المؤثرية فنحن نذكره فى القابلية والجواب انا نقرر هذه الدلالة على وجه آخر بحيث تسقط عنها هذه الاسئلة فنقول ذاته اما أن تكون كافية فى اقتضاء هذا الحلول أو لا تكون كافية فى ذلك فان كان الاول استحال توقف ذلك الاقتضاء على حصول شرط فيعود ما قلنا انه يلزم اما قدم المحل أو حدوث الحال وان كان الثانى كان كونه مقتضيا لذلك الحلول أمرا زائدا على ذاته حادثا فيه فعلى التقديرات كلها يلزم من حدوث حلوله فى محل حدوث شىء فيه لكن يستحيل أن يكون قابلا للحوادث والا لزم أن يكون فى الازل قابلا لها وهو محال على ما بيناه وأما المعارضة بالقدرة فغير واردة لانه تعالى لذاته قادر على الايجاد فى الازل فهو قادر على الايجاد فيما لا يزال فههنا أيضا لو كانت ذاته قابلة للحوادث لكانت فى الازل قابلة لها فحينئذ يلزم المحال المذكور هذا تمام القول فى هذه الادلة ولنا فى ابطال قول النصارى وجوه أخر (أحدها) انهم وافقونا على ان ذاته سبحانه وتعالى لم تحل فى ناسوت عيسى عليه السلام بل قالوا الكلمة حلت فيه والمراد من الكلمة العلم فنقول العلم لما حل فى عيسى ففى تلك الحالة اما أن يقال انه بقى فى ذات الله تعالى أو ما بقى فيها فان كان الاول لزم حصول الصفة الواحدة فى محلين وذلك غير معقول ولانه لو جاز أن يقال العلم الحاصل فى ذات عيسى عليه السلام هو العلم الحاصل فى ذات الله تعالى بعينه فلم لا يجوز فى حق كل واحد ذلك حتى يكون العلم الحاصل لكل واحد هو العلم الحاصل لذات الله تعالى وان كان الثانى لزم أن يقال ان الله تعالى لم يبق عالما بعد حلول علمه فى عيسى عليه السلام وذلك مما لا يقوله عاقل (وثانيها) مناظرة جرت بينى و بين بعض النصارى فقلت له هل تسلم ان عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول أم لا فان أنكرت لزمك أن لا يكون الله تعالى قديما لان دليل وجوده هو العالم فاذا لزم من عدم الدليل عدم المدلول لزم من عدم العالم فى الازل عدم الصانع فى الازل وان سلمت انه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول فنقول اذا جوزت اتحاد كلمة الله تعالى بعيسى أو حلولها فيه فكيف عرفت ان كلمة الله تعالى ما دخلت فى زيد وعمرو بل كيف عرفت انها ما حلت فى هذه الهرة وفى هذا الكلب فقال لى ان هذا السؤال لا يليق بك لانا انما أثبتنا ذلك الاتحاد أو الحلول بناء على ما ظهر على يد عيسى عليه السلام من احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص فاذا لم نجد شيئا من ذلك على يد غيره فكيف نثبت الاتحاد أو الحلول

فى دعوته أحسن منهاج وأقوم سبيل واحتج عليه ابداع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل لئلا يركب متن المكابرة والعناد ولا ينكب بالكلية عن محجة الرشاد حيث طلب منه علة عبادته ما يستخف به عقل كل عاقل من عالم وجاهل ويأبى الركون اليه فضلا عن عبادته التى هى الغاية القاصية من التعظيم مع أنها لا تحق الا لمن له الاستغناء التام والانعام العام الخالق الرازق المحيى المميت المثيب المعاقب ونبه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل لداعية صحيحة وغرض صحيح والشىء لو كان حيا مميزا سميعا بصيرا قادرا على النفع والضر مطيقا بايصال الخير والشر لكن كان ممكنا لاستنكف العقل السليم عن عبادته وان كان أشرف الخلائق لما يراه مثله فى الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبة فما ظنك بجماد مصنوع من حجر أو شجر ليس له من أوصاف الاحياء عين ولا أثر ثم دعاه الى أن يتبعه ليهديه الى الحق المبين لما أنه لم يكن محظوظا من العلم الالهى مستقلا بالنظر السوى مصدرا لدعوته بما مر من الاستمالة والاستعطاف حيث قال (يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك) ولم يسم أباه بالجهل المفرط وان كان فى أقصاه ولا نفسه بالعلم ﴿ فتلت ﴾ الفائق وان كان كذلك بل أبرز نفسه فى صورة رفيق له أعرف بأحوال ما سلكاه من الطريق فاستماله برفق حيث قال (فاتبعنى أهدك صراطا سويا) اى مستقيما موصلا

فقلت له انى عرفت من هذا الكلام انك ما عرفت أول الكلام لانك سلمت لى ان عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول فاذا كان هذا الحلول غير ممتنع فى الجملة فأكثر ما فى الباب انه وجد ما يدل على حصوله فى حق عيسى عليه السلام ولم يوجد ذلك الدليل فى حق زيد وعمرو ولكن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول فلا يلزم من عدم ظهور هذه الخوارق على يد زيد وعمرو وعلى السنور والكلب عدم ذلك الحلول فثبت انك مهما جوزت القول بالاتحاد والحلول لزمك تجويز حصول ذلك الاتحاد وذلك الحلول فى حق كل واحد بل فى حق كل حيوان ونبات ولا شك ان المذهب الذى يسوق قائله الى مثل هذا القول الركيك يكون باطلا قطعا ثم قلت له وكيف دل احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص على ما قلت أليس ان انقلاب العصا ثعبانا أبعد من انقلاب الميت حيا فاذا ظهر ذلك على يد موسى عليه السلام ولم يدل على الهيته فبأن لا يدل هذا على الهية عيسى أولى (وثالثها) انا نقول دلالة أحوال عيسى على العبودية أقوى من دلالتها على الربوبية لانه كان مجتهدا فى العبادة والعبادة لا تليق الا بالعبيد فانه كان فى نهاية البعد عن الدنيا والاحتراز عن أهلها حتى قالت النصارى ان اليهود قتلوه ومن كان فى الضعف هكذا فكيف تليق به الربوبية (ورابعها) المسيح اما أن يكون قديما أو محدثا والقول بقدمه باطل لانا نعلم بالضرورة انه ولد وكان طفلا ثم صار شابا وكان يأكل ويشرب ويعرض له ما يعرض لسائر البشر وان كان محدثا كان مخلوقا ولا معنى للعبودية الا ذلك فان قيل المعنى بالهيته انه حلت صفة الالهية فيه قلنا هب انه كان كذلك لكن الحال هو صفة الاله والمسيح هو المحل والمحل محدث مخلوق فاهو المسيح عبد محدث فكيف يمكن وصفه بالالهية (وخامسها) ان الولد لا بد وأن يكون من جنس الوالد فان كان لله ولد فلا بد وأن يكون من جنسه فاذن قد اشتركا من بعض الوجوه فان لم يتميز أحدهما عن الآخر بأمر ما فكل واحد منهما هو الآخر وان حصل الامتياز فما به الامتياز غير ما به الاشتراك فيلزم وقوع التركيب فى ذات الله وكل مركب ممكن فالواجب ممكن هذا خلف محال هذا كله على الاتحاد والحلول (أما الاحتمال الثالث) وهو أن يقال معنى كونه الها انه سبحانه خص نفسه أو بدنه بالقدرة على خلق الاجسام والتصرف فى هذا العالم فهذا أيضا باطل لان النصارى حكوا عنه الضعف والعجز وان اليهود قتلوه ولو كان قادرا على خلق الاجسام لما قدروا على قتله بل كان هو يقتلهم ويخلق لنفسه عسكرا يذبون عنه (وأما الاحتمال الرابع) وهو أنه اتخذه ابنا لنفسه على سبيل التشريف فهذا قد قال به قوم من النصارى يقال لهم الارميوسية وليس فيه كثير خطأ الا فى اللفظ فهذا جملة الكلام على النصارى وبه ثبت صدق ما حكاه الله تعالى عنه انه قال انى عبد الله (الصفة الثانية) قوله تعالى آتانى الكتاب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلف الناس فيه فالجمهور على أنه قال هذا الكلام حال صغره وقال أبو القاسم

الى نيل المطالب منجيا من الضلال المؤدى الى مهاوى الردى والمعاطب ثم ثبطه عما كان عليه بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل ببيان انه مع عرائه عن النفع بالمرة مستجلب لضرر عظيم فانه فى الحقيقة عبادة الشيطان لما انه الآمر به فقال (يا أبت لا تعبد الشيطان) فان عبادتك للاصنام عبادة له اذ هو الذى يسولها لك ويغريك عليها وقوله (ان الشيطان كان للرحمن عصيا) تعليل لموجب النهى وتأكيد له ببيان انه مستعص على ربك الذى أنعم عليك بفنون النعم ولا ريب فى أن المطيع للعاصى عاص وكل من هو عاص حقيق بأن تسترد منه النعم وينتقم منه والاظهار فى موضع الاضمار لزيادة التقرير والاقتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جناياته لانه ملاكها أو لانه نتيجة معاداته لآدم عليه السلام وذريته فتذكيره داع لابيه الى الاحتراز عن موالاته وطاعته والتعرض لعنوان الرحمانية لاظهار كمال شناعة عصيانه وقوله (يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن) تحذير من سوء عاقبة ما كان عليه من عبادة الشيطان وهو ابتلاؤه بما ابتلى به معبوده من العذاب الفظيع وكلمة من متعلقة بمضمر وقع صفة للعذاب مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية واظهار الرحمن للاشعار بأن وصف الرحمانية لا يدفع حلول العذاب كما فى قوله عز وجل ما غرك بربك

الكريم (فتكون للشيطان وليا) أى قرينا له فى اللعن المخلد وذكر الخوف للمجاملة وابراز الاعتناء بأمره (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل فاذا قال أبوه عندما سمع منه عليه السلام هذه النصائح الواجبة القبول فقيل قال مصرا على عناده (اراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم) أى أمعرض ومنصرف أنت عنها بتوجيه الانكار الى نفس الرغبة مع ضرب من التعجب كأن الرغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل فضلا عن ترغيب الغير عنها وقوله (لئن لم تنته لارجمنك) تهديد وتحذير عما كان عليه من العظة والتذكير أى والله لئن لم تنته عما كنت عليه من النهى عن عبادتها لارجمنك بالحجارة وقيل باللسان (واهجرنى) أى فاحذرنى واتركنى (مليا) أى زمانا طويلا أو مليا بالذهاب عنى مطيقا به (قال) استئناف كما سلف (سلام عليك) توديع ومتاركة على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة أى لا أصيبك بمكروه بعد ولا أقول لك ما يؤذيك ولكن (سأستغفر لك ربى) أى استدعيه أن يغفر لك بأن يوفقك للتوبة و يهديك الى الايمان كما يلوح به تعليل قوله تعالى واغفر لابى بقوله تعالى انه كان من الضالين والاستغفار بهذا المعنى للكافر قبل تبين انه يموت على الكفر مما لا ريب فى جوازه وانما المحظور استدعاء المغفرة له مع بقائه على الكفر فانه مما لا مساغ له عقلا ولا نقلا وأما الاستغفار له بعد

البلخى انه انما قال ذلك حين كان كالمراهق الذى يفهم وان لم يبلغ حد التكليف أما الاولون فلهم قولان (أحدهما) أنه كان فى ذلك الصغر نبيا (الثانى) روى عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال المراد بان حكم وقضى بأنه سيبعثنى من بعد ولما تكلم بذلك سكت وعاد الى حال الصغر ولما بلغ ثلاثين سنة بعثه الله نبيا واحتج من نص على فساد القول الاول بأمور (أحدها) ان النبى لا يكون الا كاملا والصغير ناقص الخلقة بحيث بعد هذا التحدى من الصغير منفرا بل هو فى التنفير أعظم من أن يكون امرأة (وثانيها) أنه لو كان نبيا فى هذا الصغر لكان كمال عقله مقدما على ادعائه النبوة اذ النبى لا بد وأن يكون كامل العقل لكن كمال عقله فى ذلك الوقت خارق للعادة فيكون المعجز متقدما على التحدى وانه غير جائز (وثالثها) انه لو كان نبيا فى ذلك الوقت لوجب ان يشتغل ببيان الاحكام وتعريف الشرائع ولو وقع ذلك لاشتهر ولنقل فحيث لم يحصل ذلك علمنا أنه ما كان نبيا فى ذلك الوقت أجاب الاولون عن الكلام الاول بأن كون الصبى ناقصا ليس لذاته بل لامر يرجع الى صغر جسمه و نقصان فهمه فاذا أزال الله تعالى هذه الاشياء لم تحصل النفرة بل تكون الرغبة الى استماع قوله وهو على هذه الصفة أتم وأكمل وعن الكلام الثانى لم لا يجوز أن يقال اكمال عقله وان حصل مقدما على دعواه الا أنه معجزة لزكريا عليه السلام أو يقال انه ارهاص لنبوته أو كرامة لمريم عليها السلام وعندنا الارهاص والكرامات جائزة وعن الكلام الثالث لم لا يجوز أن يقال بمجرد بعثته اليهم من غير بيان شئ من الشرائع والاحكام جائز ثم بعد البلوغ أخذ فى شرح تلك الاحكام فثبت بهذا أنه لا امتناع فى كونه نبيا فى ذلك الوقت وقوله آتانى الكتاب يدل على كونه نبيا فى ذلك الوقت فوجب اجراؤه على ظاهره بخلاف ما قاله عكرمة اما قول أبى القاسم البلخى فبعيد وذلك لان الحاجة الى كلام عيسى عليه السلام انما كانت عند وقوع التهمة على مريم عليها السلام (المسئلة الثانية) اختلفوا فى ذلك الكتاب فقال بعضهم هو التوراة لان الالف واللام فى الكتاب تنصرف للمعهود والكتاب المعهود لهم هو التوراة وقال أبو مسلم المراد هو الانجيل لان الالف واللام ههنا للجنس أى آتانى من هذا الجنس وقال قوم المراد هو التوراة والانجيل لان الالف واللام تفيد الاستغراق (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى انه متى آتاه الكتاب ومتى جعله نبيا لان قوله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا يدل على أن ذلك كان قد حصل من قبل اما ملاصقا لذلك الكلام أو متقدما عليه بأزمان والظاهر أنه من قبل ان كلمهم آتاه الله الكتاب وجعله نبيا وأمره بالصلاة والزكاة وأن يدعو الى الله تعالى والى دينه والى ما خص به من الشريعة فقيل هذا الوحى نزل عليه وهو فى بطن أمه وقيل لما انفصل من الام آتاه الله الكتاب والنبوة وانه تكلم مع أمه وأخبرها بحاله وأخبرها بأنه يكلمهم بما يدل على براءة ساحتها فلهذا أشارت اليه بالكلام (الصفة الثالثة) قوله وجعلنى نبيا قال بعضهم أخبر أنه نبى ولكنه ما كان

﴿ رسولا ﴾

رسولا لانه في ذلك الوقت ما جاء بالشريعة ومعنى كونه نبيا انه رفيع القدرة على الدرجة وهذا ضعيف لان النبي في عرف الشرع هو الذي خصه الله بالنبوة وبالرسالة خصوصا اذا قرن اليه ذكر الشرع وهو قوله وأوصاني بالصلاة والزكاة (الصفة الرابعة) قوله وجعلني مباركا أينما كنت فلقائل أن يقول كيف جعله مباركا والناس كانوا قبله على الملة الصحيحة فلما جاء صار بعضهم يهودا وبعضهم نصارى قائلين بالتثليث ولم يبق على الحق الا القليل والجواب ذكروا في تفسير المبارك وجوها (أحدها) أن البركة في اللغة هي الثبات وأصله من بروك البعير فمعناه جعلني ثابتا على دين الله مستقرا عليه (وثانيها) انه انما كان مباركا لانه كان يعلم الناس دينهم ويدعوهم الى طريق الحق فان ضلوا فمن قبل أنفسهم لا من قبله وروى الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أسلمت أم عيسى عليهما السلام عيسى الى الكتاب فقالت للمعلم أدفعه اليك على أن لا تضربه فقال له المعلم اكتب فقال أي شيء اكتب فقال اكتب أبجد فرفع عيسى عليه السلام رأسه فقال هل تدري ما أبجد فعلاه بالدرة ليضربه فقال يا مؤدب لا تضربني ان كنت لا تدري فاسئلني فأنا أعلمك الالف من آلاء الله والباء من بهاء الله والجيم من جمال الله والدال من أداء الحق الى الله (وثالثها) البركة الزيادة والعلو فكأنه قال جعلني في جميع الاحوال غالبا مفلحا منجحا لاني ما دمت أبقى في الدنيا أكون على الغير مستعليا بالحجة فاذا جاء الوقت المعلوم يكرمني الله تعالى بالرفع الى السماء (ورابعها) مبارك على الناس بحيث يحصل بسبب دعائي احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص عن قتادة انه رأته امرأة وهو يحيي الموتى ويبرئ الاكمه والابرص فقالت طوبى لبطن حملك وثدي أرضعت به فقال عيسى عليه السلام مجيبا لها طوبى لمن تلا كتاب الله واتبع ما فيه ولم يكن جبارا شقيا اما قوله اينما كنت فهو يدل على ان حاله لم يتغير كما قيل انه عاد الى حال الصغر وزوال التكليف (الصفة الخامسة) قوله وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا فان قيل كيف أمر بالصلاة والزكاة مع انه كان طفلا صغيرا والقلم مرفوع عنه على ما قال صلى الله عليه وسلم رفع القلم عن ثلاث عن الصبي حتى يبلغ الحديث وجوابه من وجهين (الاول) أن قوله وأوصاني بالصلاة والزكاة لا يدل على انه تعالى أوصاه بأدائهما في الحال بل بعد البلوغ فلعل المراد انه تعالى أوصاه بهما وبادائهما في الوقت المعين له وهو وقت البلوغ (الثاني) لعل الله تعالى لما انفصل عيسى عن أمه صيره بالغا عاقلا تام الاعضاء والخلقة وتحقيقه قوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم فكما أنه تعالى خلق آدم تاما كاملا دفعة فكذا القول في عيسى عليه السلام وهذا القول الثاني أقرب الى الظاهر لقوله ما دمت حيا فانه يفيد أن هذا التكليف متوجه عليه في جميع زمان حياته ولكن لقائل أن يقول لو كان الامر كذلك لكان القوم حين رأوه فقد رأوه شخصا كامل الاعضاء تام الخلقة وصدور الكلام عن مثل هذا الشخص لا يكون عجيبا فكان ينبغي أن لا يعجبوا فلعل الاولى أن يقال انه تعالى جعله مع صغر جثته قوي التركيب كامل العقل بحيث

موجهة على الكفر فلا تأباه قضية العقل وانما الذي يمنعه السمع الا يرى الى انه عليه السلام قال لعمه أبي طالب لأزال أستغفر لك ما لم أنه عنه فنزل قوله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية والاشتباه في أن هذا الوعد من ابراهيم عليه السلام وكذا قوله لاستغفرن لك وما ترتب عليهما من قوله واغفر لابي الآية انما كان قبل انقطاع رجائه عن ايمانه لعدم تبين أمره لقوله تعالى فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه كما مر في تفسير سورة التوبة واستثناؤه عما يؤتسى به في قوله تعالى الا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك لا يقدح في جوازه لكن لا لان ذلك كان قبل ورود النهي أو لموعدة وعدها اياه كما قيل لما أن النهي انما ورد في شأن الاستغفار بعد تبين الامر وقد كان استغفاره عليه السلام قبل التبين فلم يتناوله النهي أصلا وأن الوعد بالمحظور لا يرفع حظره بل لان المراد بما يؤتسى به ما يجب الائتساء به حتما لورود الوعيد على الاعراض عنه بقوله تعالى لقد كان لكم فيهم اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فان الله هو الغني الحميد فاستثناؤه عن ذلك انما يفيد عدم وجوب استدعاء الايمان للكافر المرجو ايمانه لا سيما وقد انقطع ذلك عند ورود الاستثناء وذلك مما لا يتردد فيه أحد من العقلاء وأما عدم جوازه قبل تبين الامر فلا دلالة للاستثناء عليه قطعا وتوجيه الاستثناء الى العدة بالاستغفار لا الى

كان يمكنه أداء الصلاة والزكاة والآية دالة على ان تكليفه لم يتغير حين كان فى الارض وحين رفع الى السماء وحين ينزل مرة أخرى (الصفة السادسة) قوله تعالى وبرا بوالدتى أى جعلنى برا بوالدتى وهذا يدل على قولنا ان فعل العبد مخلوق لله تعالى لان الآية تدل على ان كونه برا انما حصل بجعل الله وخلقه وحمله على الالطاف عدول عن الظاهر ثم قوله وبرا بوالدتى اشارة الى تنزيه أمه عن الزنا اذ لو كانت زانية لما كان الرسول المعصوم مأمورا بتعظيمها قال صاحب الكشاف جعل ذاته برا لفرط بره ونصبه بفعل فى معنى أوصانى وهو كلفنى لان أوصانى بالصلاة وكلفنى بها واحد (الصفة السابعة) قوله ولم يجعلنى جبارا شقيا وهذا أيضا يدل على قولنا لانه لما بين انه جعله برا وما جعله جبارا فهذا انما يحسن لو أن الله تعالى جعل غيره جبارا وغير بار بأمه فان الله تعالى لو فعل ذلك بكل أحد لم يكن لعيسى عليه السلام مزيد تخصيص بذلك ومعلوم أنه عليه السلام انما ذكر ذلك فى معرض التخصيص وقوله ولم يجعلنى جبارا أى ماجعلنى متكبرا بل أنا خاضع لامى متواضع لها ولو كنت جبارا لكنت عاصيا شقيا وروى أن عيسى عليه السلام قال قلبى لين وأنا صغير فى نفسى وعن بعض العلماء لاتجد العاق الا جبارا شقيا وتلا وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ولاتجد سيئ الملكة الا مختالا فخورا وقرأ وماملكت أيمانكم ان الله لايحب من كان مختالا فخورا (الصفة الثامنة) هى قوله والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال بعضهم لام التعريف فى السلام منصرف الى ماتقدم فى قصة يحيى عليه السلام من قوله وسلام عليه أى السلام الموجه اليه فى المواطن الثلاثة موجه الى أيضا وقال صاحب الكشاف الصحيح أن يكون هذا التعريف تعريضا باللعن على من اتهم مريم بالزنا وتحقيقه ان اللام للاستغراق فاذا قال والسلام على فكأنه قال وكل السلام على وعلى اتباعى فلم يبق للاعداء الا اللعن ونظيره قول موسى عليه السلام والسلام على من اتبع الهدى بمعنى ان العذاب على من كذب وتولى وكان المقام مقام اللجاج والعناد ويليق به مثل هذا التعريض (المسئلة الثانية) روى بعضهم عن عيسى عليه السلام أنه قال ليحيى أنت خير منى سلم الله عليك وسلمت على نفسى وأجاب الحسن فقال ان تسليمه على نفسه بتسليم الله عليه (المسئلة الثالثة) قال القاضى السلام عبارة عما يحصل به الامان ومنه السلامة فى النعم وزوال الآفات فكأنه سأل ربه وطلب منه ما أخبر الله تعالى انه فعله بيحيى ولا بد فى الانبياء من أن يكونوا مستجابى الدعوة وأعظم أحوال الانسان احتياجا الى السلامة هى هذه الاحوال الثلاثة وهى يوم الولادة ويوم الموت ويوم البعث بجميع الاحوال التى يحتاج فيها الى السلامة واجتماع السعادة من قبله تعالى طلبها ليكون مصونا عن الآفات والمخافات فى كل الاحوال واعلم ان اليهود والنصارى ينكرون ان عيسى عليه تكلم فى زمان الطفولية واحتجوا عليه بأن هذا من الوقائع العجيبة التى تتوفر الدواعى على نقلها فلو

نفس الاستغفار بقوله واغفر لابى الآية لانها كانت هى الحاملة له عليه السلام عليه وتخصيص تلك السنة بالذكر دون ماوقع ههنا لورودها على نهج التأكيد القسمى ﴿ ٧٩٦ ﴾ وأما جعل الاستغفار دائرا عليهما وترتيب الخبر على تبين الامر فقد مر تحقيقه فى تفسير سورة التوبة وقوله (انه كان بى حفيا) أى بليغا فى البر والالطاف تعليل لمضمون ماقبله (وأعتزلكم) أى أتباعد عنك وعن قومك (وماتدعون من دون الله) بالمهاجرة بدينى حيث لم تؤثر فيكم نصائحى (وأدعو ربى) أعبده وحده وقد جوز أن يراد به دعاؤه المذكور فى تفسير سورة الشعراء ولا يبعد أن يراد به استدعاء الولد أيضا بقوله رب هب لى من الصالحين حسبما يساعده السباق والسياق (عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا) أى خائبا ضائع السعى وفيه تعريض بشقائهم فى عبادة آلهتهم وفى تصدير الكلام بعسى من اظهار التواضع ومراعاة حسن الادب والتنبيه على حقيقة الحق من أن الاجابة والاثابة بطريق التفضل منه عزوجل لابطريق الوجوب وأن العبرة بالخاتمة وذلك من الغيوب المختصة بالعليم الخبير مالايخفى (فلما اعتزلهم ومايعبدون من دون الله) بالمهاجرة الى الشام (وهبنا له ﴿ وجدت ﴾ اسحق ويعقوب) بدل من فارقهم من أقر بائه الكفرة لكن لاعقيب المهاجرة فان المشهور أن الموهوب حينئذ اسمعيل عليه السلام لقوله تعالى فبشرناه بغلام

وجدت لنقلت بالتواتر ولو كان ذلك لعرفه النصارى لاسيما وهم من أشد الناس بحثا عن أحواله وأشد الناس غلوا فيه حتى زعموا كونه الها ولا شك أن الكلام في الطفولية من المناقب العظيمة والفضائل التامة فلما لم تعرفه النصارى مع شدة الحب وكمال البحث عن أحواله علمنا انه لم يوجد ولان اليهود أظهروا عداوته حال ما أظهر ادعاء النبوة فلو انه عليه السلام تكلم في زمان الطفولية وادعى الرسالة لكانت عداوتهم معه أشد ولكان قصدهم قتله أعظم فحيث لم يحصل شيء من ذلك علمنا انه ما تكلم أما المسلمون فقد احتجوا من جهة العقل على أنه تكلم فانه لولا كلامه الذي دلهم على براءة أمه من الزنا لما تركوا اقامة الحد على الزنا عليها ففي تركهم لذلك دلالة على انه عليه السلام تكلم في المهد وأجابوا عن الشبهة الاولى بأنه ربما كان الحاضرون عند كلامه قليلين فلذلك لم يشتهر وعن الثاني لعل اليهود ما حضروا هنالك وما سمعوا كلامه فلذلك لم يشتغلوا بقصد قتله

* قوله تعالى (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ عاصم وابن عامر قول الحق بالنصب وعن ابن مسعود قال الحق وقال الله وعن الحسن قول الحق بضم القاف وكذلك في الانعام قوله الحق والقول والقال والقول في معنى واحد كالرهب والرهب والرهب أما ارتفاعه فعلى انه خبر بعد خبر أو خبر مبتدا محذوف وأما انتصابه فعلى المدح ان فسر بكلمة الله أو على انه مصدر مؤكد لمضمون الجملة كقولك هو عبد الله الحق لا الباطل والله أعلم (المسئلة الثانية) لا شبهة ان المراد بقوله ذلك عيسى ابن مريم الاشارة الى ما تقدم وهو قوله اني عبد الله آتاني الكتاب أي ذلك الموصوف بهذه الصفات هو عيسى ابن مريم وفي قوله عيسى ابن مريم اشارة الى أنه ولد هذه المرأة وابنها لا أنه ابن الله وأما قوله الحق ففيه وجوه (أحدها) وهو ان نفس عيسى عليه السلام هو قول الحق وذلك لان الحق هو اسم الله فلا فرق بين أن نقول عيسى كلمة الله وبين أن نقول عيسى قول الحق (وثانيها) أن يكون المراد ذلك عيسى ابن مريم القول الحق الا انك أضفت الموصوف الى الصفة فهو كقوله ان هذا لهو حق اليقين وفائدة قولك القول الحق تأكيد ما ذكرت أولا من كون عيسى عليه السلام ابن مريم (وثالثها) أن يكون قول الحق خبر المبتدا محذوف كأنه قيل ذلك عيسى ابن مريم وصفناه هو قول الحق فكأنه تعالى وصفه أولا ثم ذكر أن هذا الموصوف هو عيسى بن مريم ثم ذكر ان هذا الوصف أجمع هو قول الحق على معنى انه ثابت لا يجوز أن يبطل كما بطل ما يقع منهم من المرية ويكون في معنى ان هذا لهو الحق اليقين فأما امتراؤهم في عيسى عليه السلام فللمذاهب التي حكيناها من قول اليهود والنصارى وقد تقدم ذكر ذلك في سورة آل عمران روى ان عيسى عليه السلام لما رفع حضر أربعة من أكابرهم وعلمائهم فقيل للاول ما تقول في عيسى فقال هو الله، والله هو أحد اله فتابعه على ذلك ناس وهم الاسرائيلية وقيل

حليم أو رحما أنه جعلهما نبيين بدل من الصالحين ولعل ترتيب هبتهما على اعتزاله هنا لبيان كمال عظم النعم التي أعطاها الله تعالى اياه بمقابلة من اعتزلهم من الاهل والاقرباء فانهما شجرتا الانبياء لهما أولاد وأحفاد أولو شأن خطير وذوو عدد كثير هنا وقد روى انه عليه السلام لما قصد الشام أتى أولا حران وتزوج بسارة وولدت له اسحق وولد لاسحق يعقوب والاول هو الاقرب الاظهر (وكلا) أي كل واحد منهما أو منهم وهو مفعول أول لقوله تعالى (جعلنا نبيا) قدم عليه للتخصيص لكن لا بالنسبة الى من عداهم بل بالنسبة الى بعضهم اى كل واحد منهم جعلنا نبيا لا بعضهم دون بعض (ووهبنا لهم من رحمتنا) هي النبوة وذكرها بعد ذكر جعلهم نبيا للايذان بانها من باب الرحمة وقيل هي المال والاولاد وما بسط لهم من سعة الرزق وقيل هو الكتاب والاظهر انها عامة لكل خير ديني ودنيوي أوتوه مما لم يؤته أحد من العالمين (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) يفتخر بهم الناس ويثنون عليهم استجابة لدعوته بقوله واجعل لي لسان صدق في الآخرين والمراد باللسان ما يوجد به من الكلام ولسان العرب لغتهم واضافته الى الصدق ووصفه بالعلو للدلالة على انهم احقاء بما يثنون عليهم وأن محامدهم لا تخفى على تباعد الاعصار وتبدل الدول وتحول الملل والنحل (واذكر في الكتاب موسى) قدم ذكره على ذكر اسمعيل

الرابع ما تقول فقال هو عبدالله و رسوله وهو المؤمن المسلم وقال أما تعلمون ان عيسى كان يطعم و ينام وأن الله تعالى لا يجوز عليه ذلك فخصمهم أما قوله ما كان لله أن يتخذ من ولد فهو يحتمل أمرين (أحدهما) ان ثبوت الولد له محال فقولنا ما كان لله أن يتخذ من ولد كقوله ما كان لله ان يقول لاحد انه ولدي لان هذا الخبر كذب والكذب لا يليق بحكمة الله تعالى وكماله فقوله ما كان لله أن يتخذ من ولد كقولنا ما كان لله أن يظلم أي لا يليق ذلك بحكمته وكمال الهيته واحتج الجبائي بالآية بناء على هذا التفسير انه ليس لله أن يفعل كل شئ لانه تعالى صرح بأنه ليس له هذا الايجاد أي ليس له هذا الاختيار وأجاب أصحابنا عنه بأن الكذب محال على الله تعالى فلاجرم قال ما كان لله أن يتخذ من ولد أما قوله سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى لما قال سبحانه ثم قال عقيبه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون كان كالحجة على تنزيهه عن الولد و بيان ذلك ان الذي يجعل ولدا لله اما أن يكون قديما أزليا أو يكون محدثا فان كان أزليا فهو محال لانه لو كان واجبا لذاته لكان واجب الوجود أكثر من واحد هذا خلف وان كان ممكنا لذاته كان مفتقرا في وجوده الى الواجب لذاته غنيا لذاته فيكون الممكن محتاجا لذاته فيكون عبدا له لانه لا معنى للعبودية الا ذلك واما ان كان الذي يجعل ولدا يكون محدثا فيكون وجوده بعد عدمه بخلق ذلك القديم وايجاده وهو المراد من قوله اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون فيكون عبدا له لا ولدا له فثبت أنه يستحيل أن يكون لله ولد (المسئلة الثانية) احتج الاصحاب بقوله اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون على قدم كلام الله تعالى قالوا لان الآية تدل على انه تعالى اذا أراد احداث شئ قال له كن فيكون فلو كان قوله كن محدثا لافتقر حدوثه الى قول آخر ولزم التسلسل وهو محال فثبت ان قول الله قديم لا محدث واحتج المعتزلة بالآية على حدوث كلام الله تعالى من وجوه (أحدها) انه تعالى أدخل عليه كلمة اذا وهذه الكلمة دالة على الاستقبال فوجب أن لا يحصل القول الا في الاستقبال (وثانيها) ان حرف الفاء للتعقيب والفاء في قوله فانما يقول له يدل على تأخر ذلك القول عن ذلك القضاء والمتأخر عن غيره محدث (وثالثها) الفاء في قوله فيكون يدل على حصول ذلك الشئ عقيب ذلك القول من غير فصل فيكون قول الله متقدما على حدوث الحادث تقدما بلا فصل والمتقدم على المحدث تقدما بلا فصل يكون محدثا فقول الله محدث واعلم ان استدلال الفريقين ضعيف أما استدلال الاصحاب فلانه يقتضي أن يكون قوله كن قديما وذلك باطل بالاتفاق وأما استدلال المعتزلة فلانه يقتضي أن يكون قول الله تعالى هو المركب من الحروف والاصوات وهو محدث وذلك لا نزاع فيه انما المدعى قدم شئ آخر (المسئلة الثالثة) من الناس من أجرى الآية على ظاهرها فزعم انه تعالى اذا أحدث شيئا قال له كن وهذا ضعيف لانه اما أن يقول له كن قبل حدوثه أو حال

لئلا ينفصل عن ذكر يعقوب عليهما السلام (انه كان مخلصا) موحدا أخلص عبادته عن الشرك والرياء أو أسلم وجهه لله تعالى واخلص نفسه عما سواه وقرى مخلصا على ان الله تعالى أخلصه (وكان رسولا نبيا) أرسله الله تعالى الى الخلق فانبأهم عنه ولذلك قدم رسولا مع كونه أخص وأعلى (وناديناه من جانب الطور الايمن) الطور جبل بين مصر ومدين والايمن صفة للجانب أي ناديناه من ناحيته اليمنى من اليمين وهي التي تلي يمين موسى عليه السلام أو من جانبه الميمون من اليمن ومعنى ندائه منه انه تمثل له الكلام من تلك الجهة (وقربناه نجيا) تقريب تشريف مثل حاله عليه السلام بحال من قربه الملك لمناجاته واصطفاه لمصاحبته ونجيا أي مناجيا حال من أحد الضميرين في ناديناه أو قربناه وقيل مرتفعا لما روي أنه عليه السلام رفع فوق السموات حتى سمع صريف القلم (ووهبنا له من رحمتنا) أي من أجل رحمتنا وراُفتنا له أو بعض رحمتنا (أخاه) أي معاضدة أخيه وموازرته اجابة لدعوته بقوله واجعل لي وزيرا من أهلي هرون أخي لا نفسه لانه كان أكبر منه عليهما السلام وهو على الاول مفعول لوهبنا وعلى الثاني بدل وقوله تعالى (هرون) عطف بيان له وقوله تعالى (نبيا) حال منه (واذكر في الكتاب اسمعيل) فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه لابراز كمال الاعتناء بأمره بايراده مستقلا وقوله تعالى (انه كان صادق

حدوثه فان كان الاول كان ذلك خطابا مع المعدوم وهو عبث وان كان الثانى فهو حال حدوثه قد وجد بالقدرة والارادة فأى تأثير لقوله كن فيه ومن الناس من زعم ان المراد من قوله كن هو التخليق والتكوين وذلك لان القدرة على الشئ غير وتكوين الشئ غير فان الله سبحانه قادر فى الازل وغير مكون فى الازل ولانه الآن قادر على عوالم سوى هذا العالم وغير مكون لها والقادرية غير المكونية والتكوين ليس هو نفس المكون لانا نقول المكون انما حدث لان الله تعالى كونه فأوجده فلو كان التكوين نفس المكون لكان قولنا المكون انما وجد بتكوين الله تعالى نازلا منزلة قولنا المكون انما وجد بنفسه وذلك محال فثبت ان التكوين غير المكون فقوله كن اشارة الى الصفة المسماة بالتكوين وقال آخرون قوله كن عبارة عن نفاذ قدرة الله تعالى ومشيئته فى الممكنات فان وقوعها بتلك القدرة والارادة من غير امتناع واندفاع يجرى مجرى العبد المطيع المسخر المنقاد لاوامر مولاه فعبر الله تعالى عن ذلك المعنى بهذه العبارة على سبيل الاستعارة * قوله تعالى (وان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضى الامر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون انا نحن نرث الارض ومن عليها والينا يرجعون) اعلم ان قوله وان الله ربى وربكم فاعبدوه فيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ المدنيون وأبو عمرو بفتح ان ومعناه ولانه ربى وربكم فاعبدوه وقرأ الكوفيون وأبو عبيدة بالكسر على الابتداء وفى حرف أبى ان الله بالكسر من غير واو أى بسبب ذلك فاعبدوه (المسئلة الثانية) انه لا يصح أن يقول الله وان الله ربى وربكم فاعبدوه فلا بد وأن يكون قائل هذا غير الله تعالى وفيه قولان (الاول) التقدير فقل يا محمد ان الله ربى وربكم بعد اظهار البراهين الباهرة فى ان عيسى هو عبد الله (الثانى) قال ابو مسلم الاصفهانى الواو فى وان الله عطف على قول عيسى عليه السلام انى عبد الله آتانى الكتاب كأنه قال انى عبد الله وانه ربى وربكم فاعبدوه وقال وهب بن منبه عهد اليهم حين أخبرهم عن بعثه ومولده ونعته ان الله ربى وربكم أى كلنا عبيد الله تعالى (المسئلة الثالثة) قوله وان الله ربى وربكم يدل على ان مدبر الناس ومصلح أمورهم هو الله تعالى خلاف قول المنجمين ان مدبر الناس ومصلح أمورهم فى السعادة والشقاوة هى الكواكب ويدل أيضا على أن الاله واحد لان لفظ الله اسم علم له سبحانه فلما قال ان الله ربى وربكم أى لا رب للمخلوقات سوى الله تعالى وذلك يدل على التوحيد اما قوله فاعبدوه فقد ثبت فى أصول الفقه ان ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بالعلية فههنا الامر بالعبادة وقع مرتبا على ذكر وصف الربوبية فدل على أنه انما تلزمنا عبادته سبحانه لكونه ربا لنا وذلك يدل على أنه تعالى انما تجب عبادته لكونه منعما على الخلائق بأصول النعم وفروعها ولذلك فان ابراهيم عليه السلام لما منع

الوعد) تعليل لموجب الامر وايراده عليه السلام بهذا الوصف لكمال شهرته به وناهيك انه وعد الصبر على الذبح بقوله ستجدنى ان شاء الله من الصابرين فوفى (وكان رسولا نبيا) فيه دلالة على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة فان أولاد ابراهيم عليه السلام كانوا على شريعته (وكان يأمر أهله بالصلوة والزكوة) اشتغالا بالاهم وهو أن يقبل الرجل بالتكميل على نفسه ومن هو أقرب الناس اليه قال تعالى وأنذر عشيرتك الاقربين وأمر أهلك بالصلوة قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقصدا الى تكميل الكل تكميلهم لانهم قدوة يؤتسى بهم وقيل أهله أمته فان الانبياء عليهم السلام آباء الامم (وكان عند ربه مرضيا) لاتصافه بالنعوت الجليلة التى من جملتها ما ذكر من خصاله الحميدة (واذكر فى الكتاب ادريس) وهو سبط شيث وجد أبى نوح فانه نوح بن لمك بن متوشلخ بن اخنوخ وهو ادريس عليه السلام واشتقاقه من الدرس يرده منع صرفه نعم لا يبعد أن يكون معناه فى تلك اللغة قريبا من ذلك فلقب به لكثرة دراسته روى انه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفة وانه أول من خط بالقلم ونظر فى علم النجوم والحساب (انه كان صديقا) ملازما للصدق فى جميع أحواله (نبيا) خبر آخر لكان مخصص للاول اذ ليس كل صديق نبيا (ورفعناه مكانا عليا) هو شرف النبوة والزلفى عند الله عز وجل وقيل علو الرتبة بالذكر الجميل

فى الدنيا كما فى قوله تعالى ورفعنا لك ذكرك وقيل الجنة وقيل السماء السادسة أو الرابعة روى عن كعب وغيره فى سبب رفع ادريس عليه السلام انه سار ذات يوم فى حاجة فأصابه وهج الشمس فقال يارب انى قد مشيت فيها يوما وقد أصابنى منها ما أصابنى فكيف من يحملها مسيرة خمسمائة عام فى يوم واحد اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرف فقال يارب ما الذى قضيت فيه قال ان عبدى ادريس سألنى أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته قال يارب اجعل بينى وبينه خلة فأذن الله تعالى له فرفعه الى السماء (أولئك) اشارة الى المذكورين فى السورة الكريمة وما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى (الذين أنعم الله عليهم) صفته أى أنعم عليهم بفنون النعم الدينية والدنيوية حسبما أشير اليه مجملا وقوله تعالى (من النبيين) بيان للموصول وقوله تعالى (من ذرية آدم) بدل منه باعادة الجار ويجوز أن تكون كلمة من فيه للتبعيض لان المنعم عليهم أعم من الانبياء وأخص من الذرية (وممن حملنا مع نوح) اى ومن ذرية من حملنا معه خصوصا وهم من عدا ادريس عليه السلام فان ابراهيم كان من ذرية سام بن نوح (ومن ذرية ابراهيم) وهم الباقون (واسرائيل) عطف على ابراهيم أى ومن ذرية

أباه من عبادة الاوثان قال لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا يعنى انها لما لم تكن منعمة على العباد لم تجز عبادتها وبهذه الآية ثبت ان الله تعالى لما كان ربا ومربيا لعباده وجبت عبادته فقد ثبت طردا وعكسا تعلق العبادة بكون المعبود منعما أما قوله هذا صراط مستقيم يعنى القول بالتوحيد ونفى الولد والصاحبة صراط مستقيم وانه سمى هذا القول بالصراط المستقيم تشبيها بالطريق لانه المؤدى الى الجنة أما قوله تعالى فاختلف الاحزاب من بينهم ففى الاحزاب أقوال (الاول) المراد فرق النصارى على ما بينا أقسامهم (الثانى) المراد النصارى واليهود فجعله بعضهم ولدا وبعضهم كذابا (الثالث) المراد الكفار الداخل فيهم اليهود والنصارى والكفار الذين كانوا فى زمن محمد صلى الله عليه وسلم واذا قلنا المراد بقوله وان الله ربى وربكم فاعبدوه أى قل يا محمد ان الله ربى وربكم فهذا القول أظهر لانه لا تخصيص فيه وكذا قوله فويل للذين كفروا مؤكد لهذا الاحتمال وأما قوله من مشهد يوم عظيم فالمشهد اما أن يكون هو الشهود وما يتعلق به أو الشهادة وما يتعلق بها (أما الاول) فيحتمل أن يكون المراد من المشهد نفس شهودهم هول الحساب والجزاء فى القيامة أو مكان الشهود فيه وهو الموقف أو وقت الشهود وأما الشهادة فيحتمل أن يكون المراد شهادة الملائكة والانبياء وشهادة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الاعمال وأن يكون مكان الشهادة أو وقتها وقيل هو ما قالوه وشهدوا به فى عيسى وأمه وانما وصف ذلك المشهد بأنه عظيم لانه لا شئ أعظم مما يشاهد فى ذلك اليوم من محاسبة ومساءلة ولا شئ من المنافع أعظم مما هنالك من الثواب ولا من المضار أعظم مما هنالك من العقاب اما قوله تعالى أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قالوا التعجب هو استعظام الشئ مع الجهل بسبب عظمه ثم يجوز استعمال لفظ التعجب عند مجرد الاستعظام من غير خفاء السبب أو من غير أن يكون للعظم سبب حصول قال الفراء قال سفيان قرأت عند شريح بل عجبت ويسخرون فقال ان الله لا يعجب من شئ انما يعجب من لا يعلم فذكرت ذلك لابراهيم النخعى فقال ان شريحا شاعر يعجبه علمه وعبد الله أعلم بذلك منه قرأها بل عجبت ويسخرون ومعناه انه صدر من الله تعالى فعل لو صدر مثله عن الخلق لدل على حصول التعجب فى قلوبهم وبهذا التأويل يضاف المكر والاستهزاء الى الله تعالى واذا عرفت هذا فنقول للتعجب صيغتان (احداهما) ما أفعله (والثانية) أفعل به كقوله تعالى أسمع بهم وأبصر والنحويون ذكروا له تأويلات (الاول) قالوا أكرم بزيد أصله أكرم زيد أى صار ذا كرم كأغد البعير أى صار ذا غدة الا أنه خرج على لفظ الامر ومعناه الخبر كما خرج على لفظ الخبر ما معناه الامر كقوله تعالى والمطلقات يتربصن بأنفسهن والوالدات يرضعن أولادهن قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا أى يمده الرحمن مدا وكذا قولهم رحمه الله خبر وان كان معناه الدعاء والباء زائدة (الثانى) أن يقال انه أمر لكل أحد بأن يجعل زيدا

﴿ كريما ﴾

كريما أي بأن يصفه بالكرم والباء زائدة مثل قوله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ولقد سمعت لبعض الادباء فيه تاويلا ثالثا وهوان قولك أكرم بزيد يفيدأن زيدا بلغ في الكرم الى حيث كأنه في ذاته صار كرما حتى لو أردت جعل غيره كريما فهو الذي يلصقك بمقصودك ويحصل لك غرضك كما أن من قال أكتب بالقلم فمعناه أن القلم هو الذي يلصقك بمقصودك ويحصل لك غرضك (المسئلة الثانية) قوله أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا فيه ثلاثة أوجه (أحدها) وهو المشهور الاقوى ان معناه ما أسمعهم وما أبصرهم والتعجب على الله تعالى محال كما تقدم وانما المراد ان سماعهم وابصارهم يومئذ جدير بأن يتعجب منهما بعد ما كانوا صما وعميا في الدنيا وقيل معناه التهديد بما سيسمعون وسيبصرون مما يسوء بصرهم ويصدع قلوبهم (وثانيها) قال القاضي ويحتمل أن يكون المراد أسمع هؤلاء وأبصرهم أي عرفهم حال القوم الذين يأتوننا ليعتبروا وينزجروا (وثالثها) قال الجبائي ويجوز أسمع الناس بهؤلاء وأبصرهم بهم ليعرفوا أمرهم وسوء عاقبتهم فينزجروا عن الاتيان بمثل فعلهم أما قوله لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين ففيه قولان (الاول) لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين وفي الآخرة يعرفون الحق (والثاني) لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين وهم في الآخرة في ضلال عن الجنة بخلاف المؤمنين وأما قوله تعالى وأنذرهم فلا شبهة في انه أمر لمحمد صلى الله عليه وسلم بأن ينذر من في زمانه فيصلح بأن يجعل هذا كالدلالة على أن قوله فاختلف الاحزاب أراد به اختلاف جميعهم في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وأما الانذار فهو التخويف من العذاب لكي يحذروا من ترك عبادة الله تعالى وأما يوم الحسرة فلا شبهة في أنه يوم القيامة من حيث يكثر التحسر من أهل النار وقيل يتحسر أيضا في الجنة اذا لم يكن من السابقين الواصلين الى الدرجات العالية والاول هو الصحيح لان الحسرة غم وذلك لا يليق بأهل الثواب أما قوله تعالى اذ قضي الامر ففيه وجوه (أحدها) اذ قضي الامر ببيان الدلائل وشرح أمر الثواب والعقاب (وثانيها) اذ قضي الامر يوم الحسرة بفناء الدنيا وزوال التكليف والاول أقرب لقوله وهم لا يؤمنون فكأنه تعالى بين أنه ظهرت الحجج والبينات وهم في غفلة وهم لا يؤمنون (وثالثها) روي انه سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله قضي الامر فقال حين يجاء بالموت في صورة كبش أملح فيذبح والفريقان ينظران فيزداد أهل الجنة فرحا على فرح وأهل النار غما على غم واعلم أن الموت عرض فلا يجوز أن يصير جسما حيوانا بل المراد أنه لا موت البتة بعد ذلك وأما قوله وهم في غفلة أي عن ذلك اليوم وعن كيفية حسراته وهم لا يؤمنون اي بذلك اليوم ثم قال بعده انا نحن نرث الارض ومن عليها اي هذه الامور تؤل الى أن لا يملك الضر والنفع الا الله تعالى والينا يرجعون أي الى محل حكمنا وقضائنا لانه تعالى منزه عن المكان حتى يكون الرجوع اليه وهذا تخويف عظيم وزجر بليغ للعصاة

القصة الثالثة قصة ابراهيم عليه السلام ❁ قوله تعالى (واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان

اسرائيل وكان منهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية (وممن هدينا واجتبينا) أي ومن جملة من هديناهم الى الحق واجتبيناهم للنبوة والكرامة وقوله تعالى (اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) خبر لأولئك ويجوز أن يكون الخبر هو الموصول وهذا استئناف مسوق لبيان خشيتهم من الله تعالى . واخباتهم له مع مالهم من علو الرتبة وسمو الطبقة في شرف النسب وكمال النفس والزلفى من الله عز سلطانه وسجدا وبكيا حالان من ضمير خروا أي ساجدين باكين عن النبي صلى الله عليه وسلم اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا والبكي جمع باك كالسجد جمع ساجد وأصله بكوي فاجتمعت الواو والياء وسبقت احداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء وحركت الكاف بالكسر لمجانس للياء وقرئ يتلى بالياء التحتانية لان التأنيث غير حقيقي وقرئ بكيا بكسر الباء للاتباع قالوا ينبغي أن يدعو الساجد في سجدته خا بما يليق بآيتها فههنا يقول اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهديين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك وفي آية الاسراء يقول اللهم اجعلني من الباكين اليك

صديقا نبيا اذ قال لابيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا) اعلم أن الغرض من هذه السورة بيان التوحيد والنبوة والحشر والمنكرون للتوحيد هم الذين أثبتوا معبودا سوى الله تعالى وهؤلاء فريقان منهم من أثبت معبودا غير الله حيا عاقلا فاهما وهم النصارى ومنهم من أثبت معبودا غير الله جمادا ليس بحى ولا عاقل ولا فاهم وهم عبدة الاوثان والفريقان وان اشتركا فى الضلال الا أن ضلال الفريق الثانى أعظم فلما بين تعالى ضلال الفريق الاول تكلم فى ضلال الفريق الثانى وهم عبدة الاوثان فقال واذكر فى الكتاب والواو فى قوله واذكر عطف على قوله ذكر رحمة ربك عبده زكريا كأنه لما انتهت قصة عيسى وزكريا عليهما السلام قال قد ذكرت حال زكريا فاذكر حال ابراهيم وانما أمر بذكره لانه عليه السلام ما كان هو ولا قومه ولا أهل بلدته مشتغلين بالعلم ومطالعة الكتب فاذا أخبر عن هذه القصة كما كانت من غير زيادة ولا نقصان كان ذلك اخبارا عن الغيب ومعجزا قاهرا دالا على نبوته وانما شرع فى قصة ابراهيم عليه السلام لوجوه (أحدها) ان ابراهيم عليه السلام كان أب العرب وكانوا مقرين بعلو شأنه وطهارة دينه على ما قال تعالى ملة أبيكم ابراهيم وقال تعالى ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه فكأنه تعالى قال للعرب ان كنتم مقلدين لآبائكم على ما هو قولكم انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون ومعلوم أن أشرف آبائكم وأجلهم قدرا هو ابراهيم عليه السلام فقلدوه فى ترك عبادة الاوثان وان كنتم من المستدلين فانظروا فى هذه الدلائل التى ذكرها ابراهيم عليه السلام لتعرفوا فساد عبادة الاوثان وبالجملة فاتبعوا ابراهيم اما تقليدا واما استدلالا (وثانيها) ان كثيرا من الكفار فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون كيف نترك دين آبائنا وأجدادنا فذكر الله تعالى قصة ابراهيم عليه السلام وبين انه ترك دين أبيه وأبطل قوله بالدليل ورجح متابعة الدليل على متابعة أبيه ليعرف الكفار أن ترجيح جانب الاب على جانب الدليل رد على الاب الاشرف الاكبر الذى هو ابراهيم عليه السلام (وثالثها) ان كثيرا من الكفار كانوا يتمسكون بالتقليد وينكرون الاستدلال على ما قال الله تعالى قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وقالوا وجدنا آباءنا لها عابدين فحكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام التمسك بطريقة الاستدلال تنبيها لهؤلاء على سقوط هذه الطريقة ثم قال تعالى فى وصف ابراهيم عليه السلام انه كان صديقا نبيا وفى الصديق قولان (أحدهما) انه مبالغة فى كونه صادقا وهو الذى يكون عادته الصدق لان هذا البناء ينبئ عن ذلك يقال رجل خمير وسكير للمولع بهذه الافعال (والثانى) انه الذى يكون كثير التصديق بالحق حتى يصير مشهورا به والاول أولى وذلك لان المصدق بالشئ لا يوصف بكونه صديقا الا اذا كان صادقا فى ذلك

الخاشعين لك وفى اية تنزيل السجدة يقول اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك من أن أكون من المستكبرين عن أمرك (فخلف من بعدهم خلف) يقال لعقب الخير خلف بفتح اللام ولعقب الشر خلف بالسكون اى فعقبهم وجاء بعدهم عقب سوء (أضاعوا الصلاة) وقرئ الصلوات اى تركوها أو أخروها عن وقتها (واتبعوا الشهوات) من شرب الخمر واستحلال نكاح الاخت من الاب والانهماك فى فنون المعاصى وعن على رضى الله عنه هم من بنى المشيد وركب المنظور ولبس المشهور (فسوف يلقون غيا) اى شرا فان كل شر عند العرب غى وكل خير رشاد كقوله * فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره * ومن يغو لا يعدم على الغى لائما * وعن الضحاك جزاء غى كقوله تعالى يلق أثاما اى جزاء أثام أو غيا عن طريق الجنة وقيل غى واد فى جهنم تستعيذ منه أوديتها وقوله تعالى (الا من تاب وآمن وعمل صالحا) يدل على أن الآية فى حق الكفرة (فأولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه ﴿ التصديق ﴾ بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد منزلتهم اى فأولئك المنعوتون بالتوبة والايمان والعمل الصالح (يدخلون الجنة)

التصديق فيعود الامر الى الاول فان قيل أليس قد قال تعالى والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء قلنا المؤمنون بالله ورسله صادقون فى ذلك التصديق واعلم أن النبى يجب أن يكون صادقا فى كل ما أخبر عنه لان الله تعالى صدقه ومصدق الله صادق والالزم الكذب فى كلام الله تعالى فيلزم من هذا كون الرسول صادقا فى كل مايقول ولان الرسل شهداء الله على الناس على ماقال الله تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا والشهيد انما يقبل قوله اذا لم يكن كاذبا فان قيل فما قولكم فى ابراهيم عليه السلام فى قوله بل فعله كبيرهم هذا وانى سقيم قلنا قد شرحنا فى تأويل هذه الآيات بالدلائل الظاهرة ان شيئا من ذلك ليس بكذب فلما ثبت ان كل نبى يجب أن يكون صديقا ولا يجب فى كل صديق أن يكون نبيا ظهر بهذا قرب مرتبة الصديق من مرتبة النبى فلهذا انتقل من ذكر كونه صديقا الى ذكر كونه نبيا وأما النبى فمعناه كونه رفيع القدر عند الله وعند الناس وأى رفعة أعلى من رفعة من جعله الله واسطة بينه و بين عباده وقوله كان صديقا قيل انه صار وقيل ان معناه وجد صديقا نبيا أى كان من أول وجوده الى انتهائه موصوفا بالصدق والصيانة قال صاحب الكشاف هذه الجملة وقعت اعتراضا بين المبدل منه و بدله أعنى ابراهيم واذ قال ونظيره قولك رأيت زيدا ونعم الرجل أخاك و يجوز أن يتعلق اذ بكان أو بصديقا نبيا أى كان جامعا لخصائص الصديقين والانبياء حين خاطب أباه بتلك المخاطبات أما قوله يا أبت فالتاء عوض من ياء الاضافة ولا يقال يا أبتى لئلا يجمع بين العوض والمعوض عنه وقد يقال يا أبتا لكون الالف بدلا من الياء واعلم انه تعالى حكى أن ابراهيم عليه السلام تكلم مع أبيه بأربعة أنواع من الكلام (النوع الاول) قوله لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ووصف الاوثان بصفات ثلاثة كل واحدة منها قادحة فى الالهية و بيان ذلك من وجوه (أحدها) ان العبادة غاية التعظيم فلا يستحقها الا من له غاية الانعام وهو الاله الذى منه أصول النعم وفروعها على ما قررناه فى تفسير قوله وان الله ربى وربكم فاعبدوه وقال كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم الآية وكما يعلم بالضرورة انه لا يجوز الاشتغال بشكرها ما لم تكن منعمة وجب أن لا يجوز الاشتغال بعبادتها (وثانيها) أنها اذا لم تسمع ولم تبصر ولم تميز من يطيعها عن يعصيها فأى فائدة فى عبادتها وهذا ينبهك على ان الاله يجب أن يكون عالما بكل المعلومات حتى يكون العبد آمنا من وقوع الغلط للمعبود (وثالثها) ان الدعاء مخ العبادة فالوثن اذا لم يسمع دعاء الداعى فأى منفعة فى عبادته واذا كانت لا تبصر تقرب من يتقرب اليها فأى منفعة فى ذلك التقرب (ورابعها) ان السامع المبصر الضار النافع أفضل ممن كان عاريا عن كل ذلك والانسان موصوف بهذه الصفات فيكون أفضل وأكمل من الوثن فكيف يليق بالافضل عبادة الاخس (وخامسها) اذا كانت لا تنفع ولا تضر فلا يرجى منها منفعة ولا يخاف من ضررها فأى فائدة

بموجب الوعد المحتوم وقرئ يدخلون على البناء للمفعول (ولا يظلمون شيئا) اى لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئا أو لا ينقصون شيئا من النقص وفيه تنبيه على أن كفرهم السابق لا يضرهم ولا ينقص أجورهم (جنات عدن) بدل من الجنة بدل البعض لاشتمالها عليها وما بينهما اعتراض أو نصب على المدح وقرئ بالرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف أى هى أو تلك جنات الخ ومبتدأ خبره التى وعد الخ وقرئ جنة عدن نصبا ورفعا وعدن علم لمعنى العدن هو الاقامة كما أن فينة وسحر وأمس فيمن لم يصرفها أعلام لمعانى الفينة وهى الساعة التى أنت فيها والسحر والامس فجرى لذلك مجرى العدن أو هو علم لارض الجنة خاصة ولولا ذلك لما ساغ ابدال ما أضيف اليه من الجنة بلا وصف عند غير البصريين ولا وصفه بقوله تعالى (التى وعد الرحمن عباده) وجعله بدلا منه خلاف الظاهر فان الموصول فى حكم المشتق وقد نصوا على أن البدل بالمشتق ضعيف والتعرض لعنوان الرحمة للايذان بأن وعدها وانجازه لكمال سعة رحمته تعالى والباء فى قوله تعالى (بالغيب) متعلقة بمضمر هو حال من المضمر العائد الى الجنات أو من عباده أى وعدها اياهم ملتبسة أو ملتبسين بالغيب أى غائبة عنهم غير حاضرة

فى عبادتها (وسادسها) اذا كانت لاتحفظ أنفسها عن الكسر والافساد على ماحكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام انه كسرها وجعلها جذاذا فأى رجاء للغير فيها واعلم أنه عاب الوثن من ثلاثة أوجه (احدها) لايسمع (وثانيها) لايبصر (وثالثها) لايغنى عنك شيئا كأنه قال له بل الالهية ليست الا لربى فانه يسمع و يجيب دعوة الداعى و يبصر كما قال اننى معكما أسمع وأرى و يقضى الحوائج أمن يجيب المضطر اذا دعاه واعلم أن قوله ههنا لم تعبد محمول على نفس العبادة واما قوله فى المقام الثالث لاتعبد الشيطان لايقال ذلك بل المراد الطاعة لانهم ما كانوا يعبدون الشيطان فوجب حمله على الطاعة ولانا نقول ليس اذا تركنا الظاهر ههنا الدليل وجب ترك الظاهر فى المقام الاول بغير دليل فان قيل اما أن يقال ان أبا ابراهيم كان يعتقد فى تلك الاوثان انها آلهة بمعنى انها قادرة مختارة موجدة للناس والحيوانات أو يقال انه ماكان يعتقد ذلك بل كان يعتقد انها تماثيل الكواكب والكواكب هى الآلهة المدبرة لهذا العالم فتعظيم تماثيل الكواكب يوجب تعظيم الكواكب أو كان يعتقد ان هذه الاوثان تماثيل أشخاص معظمة عند الله تعالى من البشر فتعظيمها يقتضى كون أولئك الاشخاص شفعاء لهم عند الله تعالى أو كان يعتقد ان تلك الاوثان طلسمات ركبت بحسب اتصالات مخصوصة للكواكب قلما يتفق مثلها وأنها تشفع بها أو غير ذلك من الاعذار المنقولة عن عبدة الاوثان فان كان أبو ابراهيم من القسم الاول كان فى نهاية الجنون لان العلم بأن هذا الخشب المنحوت فى هذه الساعة ليس خالقا للسموات والارض من أجلى العلوم الضرورية فالشاك فيه يكون فاقدا لاجلى العلوم الضرورية فكان مجنونا والمجنون لايجوز ايراد الحجة عليه والمناظرة معه وان كان من القسم الثانى فهذه الدلائل لاتقدح فى شئ من ذلك لان ذلك المذهب انما يبطل باقامة الدلالة على ان الكواكب ليست احياء ولا قادرة على خلق الاجسام وخلق الحياة ومعلوم ان الدليل المذكور ههنا لايفيد ذلك المطلوب فعلمنا ان هذه الدلالة عديمة الفائدة على كل التقديرات قلنا لانزاع انه لايخفى على العاقل ان الخشبة المنحوتة لاتصلح لخلق العالم وانما مذهبهم هذا على الوجه الثانى وانما أورد ابراهيم عليه السلام هذه الدلالة عليهم لانهم كانوا يعتقدون ان عبادتها تفيد نفعا اما على سبيل الخاصية الحاصلة من الطلسمات أو على سبيل أن الكواكب تنفع وتضر فبين ابراهيم عليه السلام انه لامنفعة فى طاعتها ولا مضرة فى الاعراض عنها فوجب أن لاتحسن عبادتها (النوع الثانى) قوله ياأبت انى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا ومعناه ظاهر وطمع فى التمسك به أهل التعليم وأهل التقليد أما أهل التعليم فقالوا انه أمره بالاتباع فى الدين وما أمره بالتمسك بدليل لايستفاد الا من الاتباع وأما أهل التقليد فقد تمسكوا به ايضا من هذا الوجه ومن الناس من طعن انه أمره بالاتباع لتحصل الهداية فاذن لاتحصل الهداية الا باتباعه ولا تبعية الا اذا اهتدى لقولنا انه لابد من

أو غائبين عنها لا يرونها وانما امنوا بها بمجرد الاخبار أو بمضمر هو سبب للوعد أى وعدها اياهم بسبب ايمانهم (انه كان وعده) أى موعوده كائنا ما كان فيدخل فيه الجنات الموعودة دخولا أوليا ولما كانت هى مثابة يرجع اليها قيل (مأتيا) أى يأتيه من وعد له لامحالة بغير خلف وقيل هو مفعول بمعنى فاعل وقيل مأتيا أى مفعولا منجزا من أتى اليه احسانا أى فعله (لايسمعون فيها لغوا) أى فضول كلام لاطائل تحته وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها وفيه تنبيه على أن اللغو مما ينبغى أن يجتنب عنه فى هذه الدار ما أمكن (الاسلاما) استثناء منقطع أى لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم او تسليم بعضهم على بعض او متصل بطريق التعليق بالمحال أى لايسمعون لغوا الاسلاما فحيث استحال كون السلام لغوا استحال سماعهم له بالكلية كما فى قوله

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب *

او على أن معناه الدعاء بالسلامة وهم أغنياء عنه فهو من باب اللغو ظاهرا وانما فائدته الاكرام وقوله تعالى (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) وارد على عادة المتنعمين فى هذه الدار وقيل المراد دوام رزقهم ودروره والا فليس فيها بكرة ولا عشى (تلك الجنة)

اتباعه فيقع الدور وانه باطل (والجواب) عن الاول ان المراد بالهداية بيان الدليل وشرحه وايضاحه فعند هذا عاد السائل فقال انا لا أنكر انه لابد من الدلالة ولكنى أقول الوقوف على تلك الدلالة لا يستفاد الا من له نفس كاملة بعيدة عن النقص والخطا وهى نفس النبي المعصوم أو الامام المعصوم فاذا سلمت انه لابد من النبي فى هذا المقصود فقد سلمت حصول الغرض أجاب المجيب وقال انا ما سلمت انه لابد فى الوقوف على الدلائل من هداية النبي ولكنى أقول هذا الطريق أسهل وان ابراهيم عليه السلام دعاه الى الاسهل والجواب عن سؤال الدور أن قوله فاتبعنى ليس أمر ايجاب بل أمر ارشاد (والنوع الثالث) قوله يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا أى لا تطعه لانه عاص لله فنفره بهذه الصفة عن القبول منه لانه أعظم الخصال المنفرة واعلم أن ابراهيم عليه السلام لامعانه فى الاخلاص لم يذكر من جنايات الشيطان الا كونه عاصيا لله ولم يذكر معاداته لآدم عليه السلام كأن النظر فى عظم ما ارتكبه من ذلك العصيان غمى فكره وأطبق على ذهنه وأيضا فان معصية الله تعالى لا تصدر الا عن ضعيف الرأى ومن كان كذلك كان حقيقا أن لا يلتفت الى رأيه ولا يجعل لقوله وزن فان قيل ان هذا القول يتوقف على اثبات أمور (أحدها) اثبات الصانع (وثانيها) اثبات الشيطان (وثالثها) اثبات ان الشيطان عاص لله (ورابعها) انه لما كان عاصيا لم تجز طاعته فى شيء من الاشياء (وخامسها) ان الاعتقاد الذى كان عليه ذلك الانسان كان مستفادا من طاعة الشيطان ومن شان الدلالة التى تورد على الخصم أن تكون مركبة من مقدمات معلومة مسلمة ولعل أبا ابراهيم كان منازعا فى كل هذه المقدمات وكيف والمحكى عنه انه ما كان يثبت الها سوى نمروذ فكيف يسلم وجود الاله الرحمن واذا لم يسلم وجوده فكيف يمكنه تسليم أن الشيطان كان عاصيا للرحمن ثم ان على تسليم ذلك فكيف يسلم الخصم بمجرد هذا الكلام ان مذهبه مقتبس من الشيطان بل لعله يقلب ذلك على خصمه قلنا الحجة المعول عليها فى ابطال مذهب آزر هو الذى ذكره أولا من قوله لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا فاما هذا الكلام فيجرى مجرى التخويف والتحذير الذى يحمله على النظر فى تلك الدلالة وعلى هذا التقدير يسقط السؤال (النوع الرابع) قوله يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا قال الفراء معنى أخاف أعلم والاكثرون على انه محمول على ظاهره والقول الاول انما يصح لو كان ابراهيم عليه السلام عالما بأن أباه سيموت على ذلك الكفر وذلك لم يثبت فوجب اجراؤه على ظاهره فانه كان يجوز أن يؤمن فيصير من أهل الثواب ويجوز أن يصر فيموت على الكفر فيكون من أهل العقاب ومن كان كذلك كان خائفا لا قاطعا واعلم أن من يظن وصول الضرر الى غيره فانه لا يسمى خائفا الا اذا كان بحيث يلزم من وصول ذلك الضرر اليه تألم قلبه كما يقال أنا خائف على ولدى أما قوله فتكون للشيطان وليا فذكروا فى الولى

مبتدأ وخبر جيء به لتعظيم شان الجنة وتعيين أهلها فلن ما فى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها وعلو رتبتها (التى نورث) اى نورثها (من عبادنا من كان تقيا) اى نبقيها عليهم بتقواهم ونمتعهم بها كما نبقى على الوارث مال مورثه ونمتعه به والوراثة أقوى ما يستعمل فى التملك والاستحقاق من الالفاظ من حيث انها لا تعقب بفسخ ولا استرجاع ولا ابطال وقيل يورث المتقون من الجنة المساكن التى كانت لاهل النار لو آمنوا وأطاعوا زيادة فى كرامتهم وقرئ نورث بالتشديد (وما نتنزل الا بأمر ربك) حكاية لقول جبريل حين استبطأه رسول الله عليهما الصلاة والسلام لما سئل عن أصحاب الكهف وذى القرنين والروح فلم يدر كيف يجيب ورجا أن يوحى اليه فيه فأبطأ عليه أربعين يوما أو خمسة عشر فشق ذلك عليه مشقة شديدة وقال المشركون ودعه ربه وقلاه ثم نزل ببيان ذلك وأنزل الله عز وجل هذه الآية وسورة والضحى والتنزل النزول على مهل لانه مطاوع للتنزيل وقد يطلق على مطلق النزول كما يطلق التنزيل على الانزال والمعنى وما نتنزل وقتا غب وقت الا بأمر الله تعالى على ما تقتضيه حكمته وقرئ وما يتنزل بالياء والضمير

و جوها (أحدها) انه اذا استوجب عذاب الله كان مع الشيطان فى النار والولاية سبب للمعية واطلاق اسم السبب على المسبب مجاز وان لم يجز حمله على الولاية الحقيقية لقوله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وقال ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض و يلعن بعضكم بعضا وحكى عن الشيطان انه يقول لهم انى كفرت بما أشركتمونى من قبل واعلم أن هذا الاشكال انما توجه اذا كان المراد من العذاب عذاب الآخرة أما اذا كان المراد منه عذاب الدنيا فالاشكال ساقط (وثانيها) أن يحمل العذاب على الخذلان أى انى أخاف أن يمسك خذلان الله فتصير مواليا للشيطان ويبرأ الله منك على ما قال تعالى ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا (وثالثها) وليا أى تاليا للشيطان تليه كما يسمى المطر الذى يأتى تاليا وليا فان قيل قوله أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا يقتضى أن تكون ولاية الشيطان أسوأ حالا من العذاب نفسه وأعظم فما السبب لذلك والجواب أن رضوان الله تعالى أعظم من الثواب على ما قال ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم فوجب أن تكون ولاية الشيطان التى هى فى مقابلة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه وأعظم واعلم أن ابراهيم عليه السلام رتب هذا الكلام فى غاية الحسن لانه نبه أولا على ما يدل على المنع من عبادة الاوثان ثم أمره باتباعه فى النظر والاستدلال وترك التقليد ثم نبه على أن طاعة الشيطان غير جائزة فى العقول ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الاقدام على مالا ينبغى ثم انه عليه السلام أورد هذا الكلام الحسن مقرونا باللطف والرفق فان قوله فى مقدمة كل كلام يا أبت دليل على شدة الحب والرغبة فى صونه عن العقاب وارشاده الى الصواب وختم الكلام بقوله انى أخاف وذلك يدل على شدة تعلق قلبه بمصالحه وانما فعل ذلك لوجوه (أحدها) قضاء حق الابوة على ما قال تعالى وبالوالدين احسانا والارشاد الى الدين من أعظم أنواع الاحسان فاذا انضاف اليه رعاية الادب والرفق كان ذلك نورا على نور (وثانيها) ان الهادى الى الحق لابد وأن يكون رفيقا لطيفا يورد الكلام لا على سبيل العنف لان ايراده على سبيل العنف يصير كالسبب فى اعراض المستمع فيكون ذلك فى الحقيقة سعيا فى الاغواء (وثالثها) ماروى أبو هريرة انه قال عليه السلام أوحى الله الى ابراهيم عليه السلام انك خليلى فحسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الابرار فان كلمتى سبقت لمن حسن خلقه أن أظله تحت عرشى وأن أسكنه حظيرة قدسى وأدنيه من جوارى والله أعلم * قوله تعالى (قال أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم لئن لم تنته لارجمنك واهجرنى مليا قال سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا) اعلم أن ابراهيم عليه السلام لما دعا أباه الى التوحيد وذكر الدلالة على فساد عبادة الاوثان وأردف تلك الدلالة بالوعظ البليغ وأورد كل ذلك مقرونا باللطف والرفق قابله

الوحى (له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك) وهو ما نحن فيه من الاماكن والازمنة ولا ننتقل من مكان الى مكان ولا نتنزل فى زمان دون زمان الا بأمره ومشيئته (وما كان ربك نسيا) أى تاركا لك يعنى أن عدم النزول لم يكن الا لعدم الامر به لحكمة بالغة فيه ولم يكن لتركه تعالى لك وتوديعه اياك كما زعمت الكفرة وفى اعادة اسم الرب المعرب عن التبليغ الى الكمال اللائق مضافا الى ضميره عليه السلام من تشريفه والاشعار بعلة الحكم ما لا يخفى وقيل أول الآية حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة مخاطبا بعضهم بعضا بطريق التبجح والابتهاج والمعنى وما نتنزل الجنة الا بأمر الله تعالى ولطفه وهو مالك الامور كلها سالفها ومترقبها وحاضرها فما وجدناه وما نجده من لطفه وفضله وقوله تعالى وما كان ربك نسيا تقرير لقولهم من جهة الله تعالى أى وما كان ناسيا لاعمال العاملين وما وعدهم من الثواب عليها وقوله تعالى (رب السموات والارض وما بينهما) بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى فان من بيده ملكوت السموات والارض وما بينهما كيف يتصور أن يحوم حول ساحة سبحاته الغفلة والنسيان وهو خبر مبتدأ محذوف أو بدل من ربك والفاء فى قوله تعالى

أبوه بجواب يضاد ذلك فقابل حجته بالتقليد فانه لم يذكر في مقابلة حجته الا قوله أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم فاصر على ادعاء الهيتها جهلا وتقليدا وقابل وعظه بالسفاهة حيث هدده بالضرب والشتم وقابل رفقه في قوله يا أبت بالعنف حيث لم يقل له يا بني بل قال يا ابراهيم وانما حكي الله تعالى ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم ليخفف على قلبه ما كان يصل اليه من أذى المشركين فيعلم ان الجهال منذ كانوا على هذه السيرة المذمومة اما قوله أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم فان كان ذلك على وجه الاستفهام فهو خذلان لانه قد عرف منه ما تكرر منه من وعظه وتنبيهه على الدلالة وهو يفيد أنه راغب عن ذلك أشد رغبة فما فائدة هذا القول وان كان ذلك على سبيل التعجب فأي تعجب في الاعراض عن حجة لا فائدة فيها وانما التعجب كله من الاقدام على عبادتها فان الدليل الذي ذكره ابراهيم عليه السلام كما أنه يبطل جواز عبادتها فهو يفيد التعجب من أن العاقل كيف يرضى بعبادتها فكان أباه قابل ذلك التعجب الظاهر المبني على الدليل بتعجب فاسد غير مبني على دليل وشبهة ولا شك ان هذا التعجب جدير بأن يتعجب منه أما قوله لئن لم تنته لارجمنك واهجرني مليا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) في الرجم ههنا قولان (الاول) انه الرجم باللسان وهو الشتم والذم ومنه قوله والذين يرمون المحصنات اى بالشتم ومنه الرجيم اى المرمي باللعن قال مجاهد الرجم في القرآن كله بمعنى الشتم (والثاني) انه الرجم باليد وعلى هذا التقدير ذكروا وجوها (أحدها) لارجمنك باظهار أمرك للناس ليرجموك ويقتلوك (وثانيها) لارجمنك بالحجارة لتتباعد عني (وثالثها) عن المؤرج لاقتلنك بلغة قريش (ورابعها) قال أبو مسلم لارجمنك المراد منه الرجم بالحجارة الا أنه قد يقال ذلك في معنى الطرد والابعاد اتساعا ويدل على انه أراد الطرد قوله تعالى واهجرني مليا واعلم ان أصل الرجم هو الرمي بالرجام فحمله عليه أولى فان قيل فما يدل قوله تعالى واهجرني مليا على ان المراد به الرجم بالشتم قلنا لا وذلك لانه هدده بالرجم ان بقي على قربه منه وأمره أن يبعد هربا من ذلك فهو في معنى قوله واهجرني مليا (المسئلة الثانية) في قوله تعالى واهجرني مليا قولان (أحدهما) المراد واهجرني بالقول (والثاني) بالمفارقة في الدار والبلد وهي هجرة الرسول والمؤمنين اى تباعد عني لكي لا أراك وهذا الثاني أقرب الى الظاهر (المسئلة الثالثة) في قوله مليا قولان (الاول) مليا اى مدة بعيدة مأخوذ من قولهم أتى علي فلان ملاوة من الدهر اى زمان بعيد (والثاني) مليا بالذهاب عني والهجران قبل أن أثخنك بالضرب حتى لا تقدر أن تبرح يقال فلان ملي بكذا اذا كان مطيقا له مضطلعا به (المسئلة الرابعة) عطف اهجرني على معطوف عليه محذوف يدل عليه لارجمنك أي فاحذرني واهجرني لئلا أرجمنك ثم ان ابراهيم عليه السلام لما سمع من أبيه ذلك أجاب بأمرين (أحدهما) أنه وعده التباعد منه وذلك لان أباه لما أمره بالتباعد أظهر الانقياد لذلك الامر وقوله سلام عليك توادع ومتاركة كقوله تعالى لنا أعمالنا

(فاعبده واصطبر لعبادته) لترتيب ما بعدها من موجب الامرين على ما قبلها من كونه تعالى رب السموات والارض وما بينهما وقيل من كونه تعالى غير تارك له عليه السلام أو غير ناس لاعمال العاملين والمعنى فحين عرفته تعالى بما ذكر من الربوبية الكاملة فاعبده الخ فان ايجاب معرفته تعالى كذلك لعبادته مما لا ريب فيه أو حين عرفت انه تعالى لا ينساك أو لا ينسى اعمال العاملين كائنا من كان فأقبل على عبادته واصطبر على مشاقها ولا تحزن بابطاء الوحي وهزء الكفرة فانه يراقبك ويراعيك ويلطف بك في الدنيا والآخرة وتعدية الاصطبار باللام لا بحرف الاستعلاء كما في قوله تعالى واصطبر عليها لتضمينه معنى الثبات للعبادة فيما تورد عليه من الشدائد والمشاق كقولك للمبارز اصطبر لقرنك أي اثبت له فيما يورد عليك من شدائده (هل تعلم له سميا) السمي هو الشريك في الاسم والظاهر أن يراد به ههنا الشريك في اسم خاص قد عبر عنه تعالى بذلك وهو رب السموات والارض وما بينهما والمراد بانكار العلم ونفيه انكار المعلوم ونفيه على أبلغ وجه وآكده فالجملة تقرير لما أفاده الفاء من علية ربوبيته العامة لوجوب عبادته بل لوجوب تخصيصها به تعالى ببيان استقلاله عز وجل

ولكم أعمالكم سلام عليكم لانبتغى الجاهلين واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وهذا دليل على جواز متاركة المنصوح اذا ظهر منه اللجاج وعلى أنه تحسن مقابلة الاساءة بالاحسان ويجوز أن يكون قد دعا له بالسلامة استمالة له ألا ترى أنه وعده بالاستغفار ثم انه لما ودع بقوله سلام عليك ضم الى ذلك ما دل به على انه وان بعد عنه فاشفاقه باق عليه كما كان وهو قوله سأستغفر لك ربى واحتج بهذه الآية من طعن فى عصمة الانبياء وتقريره ان ابراهيم عليه السلام فعل ما لا يجوز لانه استغفر لابيه وهو كافر والاستغفار للكافر لا يجوز فثبت بمجموع هذه المقدمات أن ابراهيم عليه السلام فعل ما لا يجوز انما قلنا انه استغفر لابيه لقوله تعالى حكاية عن ابراهيم سلام عليك سأستغفر لك ربى وقوله واغفر لابى انه كان من الضالين وأما أن أباه كان كافرا فذلك بنص القرآن وبالاجماع وأما أن الاستغفار للكافر لا يجوز فلوجهين (الاول) قوله تعالى ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين (الثانى) قوله فى سورة الممتحنة قد كانت لكم اسوة حسنة فى ابراهيم الى قوله لاستغفرن لك وأمر الناس الا فى هذا الفعل فوجب أن يكون ذلك معصية منه والجواب لانزاع الا فى قولكم الاستغفار للكافر لا يجوز فان الكلام عليه من وجوه (أحدها) ان القطع على أن الله تعالى يعذب الكافر لا يعرف الا بالسمع فلعل ابراهيم عليه السلام لم يجد فى شرعه ما يدل على القطع بعذاب الكافر فلا جرم استغفر لابيه (وثانيها) ان الاستغفار قد يكون بمعنى الاستمالة كما فى قوله قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله والمعنى سأسأل ربى أن لا يخزيك بكفرك ما كنت حيا بعذاب الدنيا المعجل (وثالثها) انه عليه السلام انما استغفر لابيه لانه كان يرجو منه الايمان فلما أيس من ذلك ترك الاستغفار ولعل فى شرعه جواز الاستغفار للكافر الذى يرجى منه الايمان والدليل على وقوع هذا الاحتمال قوله تعالى ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم فبين أن المنع من الاستغفار انما يحصل بعد أن يعرفوا أنهم من أصحاب الجحيم ثم قال بعد ذلك وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه فدلت الآية على أنه وعده بالاستغفار لو آمن فلما لم يؤمن لم يستغفر له بل تبرأ منه فان قيل فاذا كان الامر كذلك فلم منعنا من التأسى به فى قوله قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم الى قوله الا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك قلنا الآية تدل على أنه لا يجوز لنا التأسى به فى ذلك لكن المنع من التأسى به فى ذلك لا يدل على أن ذلك كان معصية فان كثيرا من الاشياء هى من خواص رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يجوز لنا التأسى به مع أنها كانت مباحة له عليه السلام (ورابعها) لعل هذا الاستغفار كان من باب ترك الاولى وحسنات الابرار سيآت المقربين أما قوله انه كان بى حفيا اى لطيفا رفيقا يقال أحفى فلان فى المسئلة بفلان اذا لطف به وبالغ فى الرفق ومنه قوله تعالى ان يسألكموها

بذلك الاسم وانتفاء اطلاقه على الغير بالكلية حقا أو باطلا وقيل المراد هو الشريك فى الاسم الجليل فان المشركين مع غلوهم فى المكابرة لم يسموا الصنم بالجلالة أصلا وقيل هو الشريك فى اسم الاله والمراد بالتسمية التسمية على الحق فالمعنى هل تعلم شيئا يسمى بالاستحقاق الها وأما التسمية على الباطل فهى كلا تسمية فتقرير الجملة لوجوب العبادة حينئذ باعتبار ما فى الاسمين الكريمين من الاشعار باستحقاق العبادة فتدبر (ويقول الانسان) المراد به اما الجنس باسره واسناد القول الى الكل لوجود القول فيما بينهم وان لم يقله الجميع كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا وانما القاتل واحد منهم واما البعض المعهود منهم وهم الكفرة أو أبى بن خلف فانه اخذ عظاما بالية ففتها وقال يزعم محمد أنا نبعث بعدما نموت ونصير الى هذا الحال أى يقول بطريق الانكار والاستبعاد (أئذا ما مت لسوف أخرج حيا) أى أبعث من الارض أو من حال الموت وتقديم الظرف وايلاؤه حرف الانكار لما أن المنكر كون ما بعد الموت وقت الحياة وانتصابه بفعل دل عليه أخرج لا به فان ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها وهى ههنا مخلصة

فعنكم تجلوا أى وان لطفت المسئلة والمراد أنه سبحانه لطفه بى وانعامه على عودنى الاجابة فاذا أنا استغفرت لك حصل المراد فكانه جعله بذلك على يقين انه هو تاب ان يحصل له الغفران (الجواب الثانى) من الجوابين قوله وأعتزلكم وما تدعون من دون الله الاعتزال للشئ هو التباعد عنه والمراد أنى أفارقكم فى المكان وأفارقكم فى طريقتكم أيضا وأبعد عنكم وأتشاغل بعبادة ربى الذى ينفع و يضر والذى خلقنى وأنعم على فانكم بعبادة الاصنام سالكون طريقة الهلاك فواجب على مجانبتكم ومعنى قوله عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا أرجو أن لا أكون كذلك وانما ذكر ذلك على سبيل التواضع كقوله والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين وأما قوله شقيا مع مافيه من التواضع لله ففيه تعريض بشقاوتهم فى دعاء آلهتهم على ماقرره أولا فى قوله لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا * قوله تعالى (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق و يعقوب و كلا جعلنا نبيا ووهبنا لهم من رحمتنا و جعلنا لهم لسان صدق عليا) اعلم انه ماخسر على الله أحد فان ابراهيم عليه السلام لما اعتزلهم فى دينهم وفى بلدهم واختار الهجرة الى ربه الى حيث أمره لم يضره ذلك دينا ودنيا بل نفعه فعوضه أولادا أنبياء ولا حالة فى الدين والدنيا للبشر أرفع من أن يجعل الله له رسولا الى خلقه و يلزم الخلق طاعته والانقياد له مع ما يحصل فيه من عظيم المنزلة فى الآخرة فصار جعله تعالى اياهم أنبياء من أعظم النعم فى الدنيا والآخرة ثم بين تعالى أنه مع ذلك وهب لهم من رحمته أى وهب لهم مع النبوة ماوهب و يدخل فيه المال والجاه والاتباع والنسل الطاهر والذرية الطيبة ثم قال وجعلنا لهم لسان صدق عليا ولسان الصدق الثناء الحسن وعبر باللسان عما يوجد باللسان كما عبر باليد عما يعطى باليد وهو العطية واستجاب الله دعوته فى قوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين فصيره قدوة حتى ادعاه أهل الاديان كلهم وقال عز وجل ملة أبيكم ابراهيم ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا قال بعضهم ان الخليل اعتزل عن الخلق على ماقال وأعتزلكم وما تدعون من دون الله فلا جرم بارك الله فى أولاده فقال و وهبنا له اسحق و يعقوب و كلا جعلنا نبيا (وثانيها) انه تبرأ من أبيه فى الله تعالى على ماقال فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لأواه حليم لا جرم ان الله سماه أبا المسلمين فقال ملة أبيكم ابراهيم (وثالثها) تل ولده للجبين ليذبحه على ماقال فلما أسلما وتله للجبين لا جرم فداه الله تعالى على ماقال وفديناه بذبح عظيم (ورابعها) أسلم نفسه فقال أسلمت لرب العالمين فجعل الله تعالى النار عليه بردا وسلاما فقال قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم (وخامسها) أشفق على هذه الامة فقال ربنا وابعث فيهم رسولا منهم لا جرم أشركه الله تعالى فى الصلوات الخمس كما صليت و باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم (وسادسها) فى حق سارة فى قوله وابراهيم الذى وفى لا جرم جعل موطئ قدميه مباركا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى (وسابعها)

للتوكيد بمجرده عن معنى الحال كما خلصت الهمزة واللام للتعويض فى يا ألله فساغ اقترانها بحرف الاستقبال وقرئ اذا مامت بهمزة واحدة مكسورة على الخبر (أولا يذكر الانسان) من الذكر الذى يراد به التفكر والاظهار فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والاشعار بان الانسانية من دواعى التفكر فيما جرى عليه من شؤن التكوين المنجية بالقلع عن القول المذكور وهو السر فى اسناده الى الجنس أو الى الفرد بذلك العنوان والهمزة للانكار التوبيخى والواو لعطف الجملة المنفية على مقدر يدل عليه يقول أى أيقول ذلك ولا يذكر (أنا خلقناه من قبل) أى من قبل الحالة التى هو فيها وهى حالة بقائه (ولم يك شيئا) أى والحال انه لم يكن حينئذ شيئا أصلا فحيث خلقناه وهو فى تلك الحالة المنافية للخلق بالكلية مع كونه أبعد من الوقوع فلأن نبعثه بجمع المواد المتفرقة وايجاد مثل ماكان فيها من الاعراض أولى وأظهر فماله لا يذكره فيقع فيما يقع فيه من النكير وقرئ يذكر ويتذكر على الاصل (فوربك) ﴿ ١٠٢ ﴾ اقسام باسمه عزت أسماؤه مضافا الى ضميره عليه السلام لتحقيق الامر بالاشعار بعليته وتفخيم شأنه عليه الصلاة والسلام ورفع منزلته (لنحشرنهم) لنجمعنهم من القائلين بالسوق الى

عادى كل الخلق فى الله قال فانهم عدولى الارب العالمين لاجرم اتخذه الله خليلا على ماقال واتخذ الله ابراهيم خليلا ليعلم صحة قولنا انه ماخسر على الله أحد (القصة الرابعة) قصة موسى عليه السلام * قوله تعالى (واذكر فى الكتاب موسى انه كان مخلصا وكان رسولا نبيا وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيا ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا) اعلم انه تعالى وصف موسى عليه السلام بأمور (أحدها) انه كان مخلصا فاذا قرئ بفتح اللام فهو من الاصطفاء والاجتباء كأن الله تعالى اصطفاه واستخلصه واذا قرئ بالكسر فمعناه أخلص لله فى التوحيد فى العبادة والاخلاص هو القصد فى العبادة الى أن يعبد المعبود بها وحده ومتى ورد القرآن بقراءتين فكل واحدة منهما ثابت مقطوع به فجعل الله تعالى من صفة موسى عليه السلام كلا الامرين (وثانيها) كونه رسولا نبيا ولا شك انهما وصفان مختلفان لكن المعتزلة زعموا كونهما متلازمين فكل رسول نبى وكل نبى رسول ومن الناس من أنكر ذلك وقد بينا الكلام فيه فى سورة الحج فى قوله تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى (وثالثها) قوله تعالى وناديناه من جانب الطور الايمن من اليمين أى من ناحية اليمين والأيمن صفة الطور أو الجانب (ورابعها) قوله وقربناه نجيا ولما ذكر كونه رسولا قال وقربناه نجيا وفى قوله قربناه قولان (أحدهما) المراد قرب المكان عن أبى العالية قربه حتى سمع صرير القلم حيث كتبت التوراة فى الالواح (والثانى) قرب المنزلة أى رفعنا قدره وشرفناه بالمناجاة قال القاضى وهذا أقرب لان استعمال القرب فى الله قد صار بالتعارف لايراد به الا المنزلة وعلى هذا الوجه يقال فى العبادة تقرب ويقال فى الملائكة عليهم السلام انهم مقربون وأما نجيا فقيل فيه أنجيناه من أعدائه وقيل هو من المناجاة فى المخاطبة وهو أولى (وخامسها) قوله ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا قال ابن عباس رضى الله عنهما كان هرون عليه السلام أكبر من موسى عليهما السلام وانما وهب الله له نبوته لا شخصه واخوته وذلك اجابة لدعائه فى قوله واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى اشدد به أزرى فأجابه الله تعالى اليه بقوله قد أوتيت سؤلك ياموسى وقوله سنشد عضدك بأخيك (القصة الخامسة) قصة اسمعيل عليه السلام * قوله تعالى (واذكر فى الكتاب اسمعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا) اعلم ان اسمعيل هذا هو اسمعيل ابن ابراهيم عليهما السلام واعلم ان الله تعالى وصف اسمعيل عليه السلام بأشياء (أولها) قوله انه كان صادق الوعد وهذا الوعد يمكن أن يكون المراد فيما بينه وبين الله تعالى ويمكن أن يكون المراد فيما بينه وبين الناس (أما الاول) فهو أن يكون المراد أنه كان لا يخالف شيئا مما يؤمر به من طاعة ربه وذلك لان الله تعالى اذا أرسل الملك الى الانبياء وأمرهم بتأدية الشرع فلا بد من ظهور وعد منهم يقتضى القيام بذلك ويدل على القيام بسائر

المحشر بعدما اخرجناهم من الارض أحياء ففيه اثبات للبعث بالطريق البرهانى على أبلغ وجه وآكده كأنه أمر واضح غنى عن التصريح به وانما المحتاج الى البيان مابعد ذلك من الاهوال (والشياطين) معطوف على الضمير المنصوب أو مفعول معه روى أن الكفرة يحشرون مع قرنائهم من الشياطين التى كانت تغويهم كل منهم مع شيطانه فى سلسلة وهذا وان كان مختصا بهم لكن ساغ نسبته الى الجنس باعتبار أنهم لما حشروا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين فقد حشروا معهم جميعا كما ساغ نسبة القول المحكى اليه مع كون القائل بعض أفراده (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) ليرى السعداء ما نجاهم الله تعالى منه فيزدادوا غبطة وسرورا وينال الاشقياء ما ادخروا لمعادهم عدة ويزدادوا غيظا من رجوع السعداء عنهم الى دار الثواب وشماتتهم بهم والجثى جمع جاث من جثا اذا قعد على ركبتيه وأصله جثوو بواوين فاستثقل اجتماعهما بعد ضمتين فكسرت الثاء للتخفيف فانقلبت الواو الاولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها فاجتمعت واو وياء وسبقت احداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت فيها الياء الاولى وكسرت الجيم اتباعا لما بعدها وقرئ بضمها

﴿ ما يخصه ﴾

مايخصه من العبادة (وأما الثانى) فهو أنه عليه السلام كان اذا وعد الناس بشئ أنجز وعده فالله تعالى وصفه بهذا الخلق الشريف وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه وعد صاحباله أن ينتظره فى مكان فانتظره سنة وأيضا وعد من نفسه الصبر على الذبح فوفى به حيث قال ستجدنى ان شاء الله من الصابرين وروى ان عيسى عليه السلام قال له رجل انتظرنى حتى آتيك فقال عيسى عليه السلام نعم وانطلق الرجل ونسى الميعاد فجاء لحاجة الى ذلك المكان وعيسى عليه السلام هنالك للميعاد وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه واعد رجلا ونسى ذلك الرجل فانتظره من الضحى الى قريب من غروب الشمس وسئل الشعبى عن الرجل يعد ميعادا الى أى وقت ينتظره فقال ان واعده نهارا فكل النهار وان واعده ليلا فكل الليل وسئل ابراهيم بن زيد عن ذلك فقال اذا واعدته فى وقت الصلاة فانتظره الى وقت صلاة أخرى (وثانيها) قوله وكان رسولا نبيا وقدم تفسيره (وثالثها) قوله وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة والاقرب فى الاهل ان المراد به من يلزمه أن يؤدى اليه الشرع فيدخل فيه كل امته من حيث لزمه فى جميعهم مايلزم المرء فى أهله خاصة هذا اذا حمل الامر على المفروض من الصلاة والزكاة فان حمل على الندب فيهما كان المراد انه كما كان يتهجد بالليل يأمر أهله أى من كان فى داره فى ذلك الوقت بذلك وكان نظره لهم فى الدين يغلب على شفقته عليهم فى الدنيا بخلاف ما عليه أكثر الناس وقيل كان يبدأ بأهله فى الامر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم كما قال تعالى وأنذر عشيرتك الاقربين وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها قوا أنفسكم وأهليكم نارا وأيضا فهم أحق أن يتصدق عليهم فوجب أن يكونوا بالاحسان الدينى أولى فأما الزكاة فعن ابن عباس رضى الله عنهما انها طاعة الله تعالى والاخلاص فكأنه تأوله على ما يزكو به الفاعل عنده به والظاهر انه اذا قرنت الزكاة الى الصلاة أن يراد بها الصدقات الواجبة وكان يعرف من خاصة أهله أن يلزمهم الزكاة فيأمرهم بذلك أو يأمرهم أن يتبرعوا بالصدقات على الفقراء (ورابعها) قوله وكان عند ربه مرضيا وهو فى نهاية المدح لان المرضى عند الله هو الفائز فى كل طاعاته بأعلى الدرجات

(القصة السادسة) قصة ادريس عليه السلام * قوله تعالى (واذكر فى الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا ورفعناه مكانا عليا) اعلم ان ادريس عليه السلام هو جد أبى نوح عليه السلام وهو نوح بن لملك متوشلخ بن أخنوخ قيل سمى ادريس لكثرة دراسته واسمه أخنوخ ووصفه الله تعالى بأمور (أحدها) انه كان صديقا (وثانيها) انه كان نبيا وقد تقدم القول فيهما (وثالثها) قوله ورفعناه مكانا عليا وفيه قولان (أحدهما) أنه من رفعة المنزلة كقوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ورفعنا لك ذكرك فان الله تعالى شرفه بالنبوة وأنزل عليه ثلاثين صحيفة وهو أول من خط بالقلم ونظر فى علم النجوم والحساب وأول من خاط الثياب ولبسها وكانوا يلبسون الجلود (الثانى) أن المراد به الرفعة فى المكان الى موضع عال وهذا أولى لان الرفعة المقرونة بالمكان تكون رفعة

ونصبه على الحالية من الضمير البارز أى لنحضرنهم حول جهنم جاثين على ركبهم لما يدهمهم من هول المطلع أولانه من توابع التواقف للحساب قبل التواصل الى الثواب والعقاب فان أهل الموقف جاثون كما ينطق به قوله تعالى وترى كل أمة جاثية على ما هو المعتاد فى مواقف التقاول وان كان المراد بالانسان الكفرة فلعلهم يساقون من الموقف الى شاطئ جهنم جثاة اهانة بهم أو لعجزهم عن القيام لما اعتراهم من الشدة (ثم لننزعن من كل شيعة) أى من كل أمة شاعت دينا من الاديان (أيهم أشد على الرحمن عتيا) أى من كان منهم أعصى وأعتى فنطرحهم فيها وفى ذكر الاشد تنبيه على انه تعالى يعفو عن بعض من أهل العصيان وعلى تقدير تفسير الانسان بالكفرة فالمعنى انا نميز من كل طائفة منهم أعصاهم فأعصاهم وأعتاهم فأعتاهم فنطرحهم فى النار على الترتيب أو ندخل كلا منهم طبقتها اللائقة به وأيهم مبنى على الضم عند سيبويه لان حقه أن يبنى كسائر الموصولات لكنه أعرب حملا على كل وبعض للزوم الاضافة واذا حذف صدر صلته زاد نقصه فعاد الى حقه ومنصوب المحل بننزعن ولذلك قرئ منصوبا ومرفوع عند غيره بالابتداء على انه استفهامى وخبره أشد والجملة

فى المكان لا فى الدرجة ثم اختلفوا فقال بعضهم ان الله رفعه الى السماء والى الجنة وهو حى لم يمت وقال آخرون بل رفع الى السماء وقبض روحه سأل ابن عباس رضى الله عنهما كعبا عن قوله ورفعناه مكانا عليا قال جاءه خليل له من الملائكة فسأله حتى يكلم ملك الموت حتى يؤخر قبض روحه فحمله ذلك الملك بين جناحيه فصعد به الى السماء فلما كان فى السما الرابعة فاذا ملك الموت يقول بعثت وقيل لى اقبض روح ادريس فى السماء الرابعة وأنا أقول كيف ذلك وهو فى الارض فالتفت ادريس فرآه ملك الموت فقبض روحه هناك واعلم ان الله تعالى انما مدحه بأن رفعه الى السماء لانه جرت العادة أن لا يرفع اليهـا الا من كان عظيم القدر والمنزلة ولذلك قال فى حق الملائكة ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته وههنا آخر القصص * قوله تعالى (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل وممن هدينا واجتبينا اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) اعلم انه تعالى أثنى على كل واحد ممن تقدم ذكره من الانبياء بما يخصه من الثناء ثم جمعهم آخرا فقال أولئك الذين أنعم الله عليهم أى بالنبوة وغيرها مما تقدم وصفه وأولئك اشارة الى المذكورين فى السورة من لدن زكريا الى ادريس ثم جمعهم فى كونهم من ذرية آدم ثم خص بعضهم بأنه من ذرية من حمل مع نوح والذى يختص بأنه من ذرية آدم دون من حمل مع نوح هو ادريس عليه السلام فقد كان سابقا على نوح على ما ثبت فى الاخبار والذين هم من ذرية من حمل مع نوح هو ابراهيم عليه السلام لانه من ولد سام بن نوح واسمعيل واسحق ويعقوب من ذرية ابراهيم ثم خص بعضهم بأنهم من ولد اسرائيل أى يعقوب وهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى من قبل الام فرتب الله سبحانه وتعالى أحوال الانبياء عليهم السلام الذين ذكرهم على هذا الترتيب منبها بذلك على انهم كما فضلوا بأعمالهم فلهم مزيد فى الفضل بولادتهم من هؤلاء الانبياء ثم بين انهم ممن هدينا واجتبينا منبها بذلك على انهم اختصوا بهذه المنازل لهداية الله تعالى لهم ولانه اختارهم للرسالة ثم قال اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا تتلى عليهم أى على هؤلاء الانبياء فبين تعالى انهم مع نعم الله عليهم قد بلغوا الحد الذى عند تلاوة آيات الله يخرون سجدا وبكيا خضوعا وخشوعا وحذرا وخوفا والمراد بآيات الله ما خصهم الله تعالى به من الكتب المنزلة عليهم وقال أبو مسلم المراد بالآيات التى فيها ذكر العقاب المنزل بالكفار وهو بعيد لان سائر الآيات التى فيها ذكر الجنة والنار الى غير ذلك أولى أن يسجدوا عنده ويبكوا فيجب حمله على كل آية تتلى مما يتضمن الوعد والوعيد والترغيب والترهيب لان كل ذلك اذا فكر فيه المتفكر صح أن يسجد عنده وأن يبكى واختلفوا فقال بعضهم فى السجود انما الصلاة وقال بعضهم المراد سجود التلاوة على حسب ما تعبدنا به وقيل المراد الخضوع والخشوع والظاهر يقتضى سجودا مخصوصا عند التلاوة ثم يحتمل أن يكون المراد سجود التلاوة

محكية والتقدير لتنزعن من كل شيعة الذين يقال لهم أيهم أشد أو معلق عنها لتنزعن لتضمنه معنى التمييز اللازم للعلم أو مستأنف والفعل واقع على كل شيعة على زيادة من أو على معنى لتنزعن بعض كل شيعة كقوله تعالى ووهبنا لهم من رحمتنا وعلى للبيان فيتعلق بمحذوف كأن سائلا قال على من عتوا قيل على الرحمن أو متعلق بأفعل وكذا الباء فى قوله تعالى (ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا) اى هم أولى بصليها أو صليهم أولى بالنار وهم المنتزعون ويجوز أن يراد بهم وبأشدهم عتيا رؤساء الشيع فان عذابهم مضاعف لضلالهم واضلالهم والصلى كالعتى صيغة واعلالا وقرئ بضم الصاد (وان منكم) التفات لاظهار مزيد الاعتناء بمضمون الكلام وقيل هو خطاب للناس من غير التفات الى المذكور ويؤيد الاول انه قرئ وان منهم أى ما منكم أيها الانسان (الا واردها) اى واصلها وحاضر دونها يمر بها المؤمنون وهى خامدة وتنهار بغيرهم وعن جابر انه صلى الله عليه وسلم سئل عنه فقال اذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار فيقال لهم قد وردتموها وهى خامدة وأما قوله تعالى أولئك عنها مبعدون فالمراد به الابعاد عن عذابها

القرآن ويحتمل انهم عند الخوف كانوا قد تعبدوا بالسجود فيفعلون ذلك لا لاجل ذكر السجود فى الآية قال الزجاج فى بكيا جمع باك مثل شاهد وشهود وقاعد وقعود ثم قال الانسان فى حال خروره لا يكون ساجدا فالمراد خروا مقدرين للسجود ومن قال فى بكيا انه مصدر فقد أخطأ لان سجدا جمع ساجد وبكيا معطوف عليه وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا وعن صالح المرى قال قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى يا صالح هذه القراءة فاين البكاء وعن ابن عباس رضى الله عنهما اذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فان لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن نزل بحزن فاقرؤه بحزن وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اغرورقت عين بمائها الاحرم الله على النار جسدها وعن أبى هريرة رضى الله عنه لا يلج النار من بكى من خشية الله وقال العلماء يدعو فى سجود التلاوة بما يليق بها فان قرأ آية تنزيل السجدة قال اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك ان أكون من المستكبرين عن أمرك وان قرأ سجدة سبحان قال اللهم اجعلنى من الباكين اليك الخاشعين لك وان قرأ هذه السجدة قال اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم المهتدين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آيات كتابك * قوله تعالى (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا الا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا) اعلم انه تعالى لما وصف هؤلاء الانبياء بصفات المدح ترغيبا لنا فى التأسى بطريقتهم ذكر بعدهم من هو بالضد منهم فقال فخلف من بعدهم خلف وظاهر الكلام ان المراد من بعد هؤلاء الانبياء خلف من أولادهم يقال خلفه اذا أعقبه ثم قيل فى عقب الخير خلف بفتح اللام وفى عقب الشر خلف بالسكون كما قالوا وعد فى ضمان الخير ووعيد فى ضمان الشر وفى الحديث فى الله خلف من كل هالك وفى الشعر لبيد

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم * وبقيت فى خلف كجلد الاجرب

ثم وصفهم باضاعة الصلاة واتباع الشهوات فاضاعة الصلاة فى مقابلة قوله خروا سجدا واتباع الشهوات فى مقابلة قوله وبكيا لان بكاءهم يدل على خوفهم واتباع هؤلاء لشهواتهم يدل على عدم الخوف لهم وظاهر قوله أضاعوا الصلاة تركوها لكن تركها قد يكون بأن لا تفعل أصلا وقد يكون بأن لا تفعل فى وقتها وان كان الاظهر هو الاول وأما اتباع الشهوات فقال ابن عباس رضى الله عنهما هم اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمر واستحلوا نكاح الاخت من الاب واحتج بعضهم بقوله الا من تاب وآمن على أن تارك الصلاة كافر واحتج أصحابنا بها فى أن الايمان غير العمل لانه تعالى قال وآمن وعمل صالحا فعطف العمل على الايمان والمعطوف غير المعطوف عليه أجاب الكعبى عنه بانه تعالى فرق بين التوبة والايمان والتوبة من الايمان فكذلك العمل الصالح يكون

وقيل ورودها الجواز على الصراط الممدود عليها (كان) أوورودهم اياها (على ربك حتما مقضيا) أى أمرا محتوما أوجبه الله عز وجل على ذاته وقضى انه لا بد من وقوعه البتة وقيل اقسم عليه (ثم ننجى الذين اتقوا) الكفر والمعاصى بما كانوا عليه من حال الجثو على الركب على الوجه الذى سلف فيساقون الى الجنة وقرئ ننجى بالتخفيف وينجى وينجى على البناء للمفعول وقرئ ثمة ننجى بفتح الثاء أى هناك ننجيهم (ونذر الظالمين) بالكفر والمعاصى (فيها جثيا) منهارا بهم كما كانوا قيل فيه دليل على أن المراد بالورود الجثو حواليها وأن المؤمنين يفارقون الفجرة بعد تجاثيهم حولها ويلقى الفجرة فيها على هيآتهم وقوله تعالى (واذا تتلى عليهم) الآية الى آخرها حكاية لما قالوا عند سماع الآيات الناعية عليهم فظاعة حالهم ووخامة مآلهم أى واذا تتلى على المشركين (آياتنا) التى من جملتها هاتيك الآيات الناطقة بحسن حال المؤمنين وسوء حال الكفرة وقوله تعالى (بينات) أى مرتلات الالفاظ مبينات المعانى بنفسها أو ببيان الرسول عليه الصلاة والسلام أو بينات الاعجاز حال مؤكدة من آياتنا (قال الذين كفروا) أى قالوا

من الايمان وان فرق بينهما وهذا الجواب ضعيف لان عطف الايمان على التوبة يقتضى وقوع المغايرة بينهما لان التوبة عزم على الترك والايمان اقرار بالله تعالى وهما متغايران فكذا فى هذه الصورة ثم بين تعالى ان من هذه صفته يلقون غيا وذكروا فى الغى وجوها (أحدها) ان كل شر عند العرب غى وكل خير رشاد قال الشاعر

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره * ومن يغو لا يعدم على الغى لائما

(وثانيها) قال الزجاج يلقون غيا أى يلقون جزاء الغى كقوله تعالى يلق أثاما أى مجازاة الآثام (وثالثها) غيا عن طريق الجنة (ورابعها) الغى واد فى جهنم يستعيذ منه أوديتها والوجهان الاولان أقرب فان كان فى جهنم موضع يسمى بذلك جاز ولا يخرج من أن يكون المراد ما قدمنا لانه المعقول فى اللغة ثم بين سبحانه ان هذا الوعيد فيمن لم يتب وأما من تاب وآمن وعمل صالحا فلهم الجنة لا يلحقهم ظلم وههنا سؤالات (الاول) الاستثناء دل على انه لابد من التوبة والايمان والعمل الصالح وليس الامر كذلك لان من تاب عن كفره ولم يدخل وقت الصلاة أو كانت المرأة حائضا فانه لا يجب عليها الصلاة والزكاة ايضا غير واجبة وكذا الصوم فههنا لو مات فى ذلك الوقت كان من أهل النجاة مع انه لم يصدر عنه عمل فلم يجز توقف الاجر على العمل الصالح والجواب ان هذه الصورة نادرة والمراد منه الغالب (السؤال الثانى) قوله ولا يظلمون شيئا هذا انما يصح لو كان الثواب مستحقا على العمل لانه لو كان الكل بالتفضل لاستحال حصول الظلم لكن من مذهبكم انه لا استحقاق للعبد بعمله الا بالوعد الجواب انه لما أشبهه أجرى على حكمه * قوله تعالى

(جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب انه كان وعده مأتيا لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا) اعلم انه تعالى لما ذكر فى التائب انه يدخل الجنة وصف الجنة بأمور (أحدها) قوله جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب والعدن الاقامة وصفها بالدوام على خلاف حال الجنان فى الدنيا التى لا تدوم ولذلك فان حالها لا يتغير فى مناظرها فليست كجنان الدنيا التى حالها يختلف فى خضرة الورق وظهور النور والثمر وبين تعالى انها وعد الرحمن لعباده وأما قوله بالغيب ففيه وجهان (أحدهما) انه تعالى وعدها وهى غائبة عنهم غير حاضرة أو هم غائبون عنها لا يشاهدونها (والثانى) ان المراد وعد الرحمن الذين يكونون عبادا بالغيب اى الذين يعبدونه فى السر بخلاف المنافقين فانهم يعبدونه فى الظاهر ولا يعبدونه فى السر وهو قول أبى مسلم (والوجه الاول) أقوى لانه تعالى بين ان الوعد منه تعالى وان كان بأمر غائب فهو كأنه مشاهد حاصل فلذلك قال بعده انه كان وعده مأتيا أما قوله مأتيا فقيل انه مفعول بمعنى فاعل والوجه ان الوعد هو الجنة وهم يأتونها قال الزجاج كل ما وصل اليك فقد وصلت اليه وما أتاك فقد أتيته والمقصود من قوله انه كان وعده مأتيا بيان أن الوعد منه تعالى وان كان بأمر غائب فهو كأنه مشاهد حاصل والمراد تقرير ذلك

ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه على انهم قالوا ما قالوا كافرين بما يتلى عليهم رادين له أو قال الذين مردوا منهم على الكفر ومرنوا على العتو والعناد وهم النضر بن الحرث واتباعه الفجرة واللام فى قوله تعالى (للذين آمنوا) للتبليغ كما فى مثل قوله تعالى وقال لهم نبيهم وقيل لام الاجل كما فى قوله تعالى وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه أى قالوا لاجلهم وفى حقهم والاول هو الاولى لان قولهم ليس فى حق المؤمنين فقط كما ينطق به قوله تعالى (أى الفريقين) أى المؤمنين والكافرين كأنهم قالوا أينا (خير) نحن أو أنتم (مقاما) أى مكانا وقرئ بضم الميم أى موضع اقامة ومنزلا (وأحسن نديا) أى مجلسا ومجتمعا يروى انهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنونها ويتطيبون ويتزينون بالزين الفاخرة ثم يقولون ذلك لفقراء المؤمنين يريدون بذلك أن خيريتهم حالا وأحسنيتهم منالا مما لا يقبل الانكار وأن ذلك لكرامتهم على الله سبحانه وزلفاهم عنده اذ هو المبنى على الفضل والنقصان والرفعة والضعة وأن من ضرورته ﴿ ق ﴾ هوان المؤمنين عليه تعالى لقصور حظهم العاجل وما هذا

فى القلوب (وثانيها) قوله لايسمعون فيها لغوا الا سلاما واللغو من الكلام ما سبيله ان يلغى ويطرح وهو المنكر من القول ونظيره قوله لاتسمع فيها لاغية وفيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو حيث نزه الله تعالى عنه الدار التى لاتكليف فيها وما أحسن قوله واذا مروا باللغو مروا كراما واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لانبتغى الجاهلين أما قوله الا سلاما ففيه بحثان (الاول) ان فيه اشكالا وهو ان السلام ليس من جنس اللغو فكيف استثنى السلام من اللغو والجواب عنه من وجوه (أحدها) ان معنى السلام هو الدعاء بالسلامة وأهل الجنة لاحاجة بهم الى هذا الدعاء فكان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث لولا ما فيه من فائدة الاكرام (وثانيها) ان يحمل ذلك على الاستثناء المنقطع (وثالثها) أن يكون هذا من جنس قول الشاعر

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

(البحث الثانى) ان ذلك السلام يحتمل أن يكون من سلام بعضهم على بعض أو من تسليم الملائكة أو من تسليم الله تعالى على ما قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وقوله سلام قولا من رب رحيم (ورابعها) قوله تعالى ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا وفيه سؤالان (السؤال الاول) ان المقصود من هذه الآيات وصف الجنة بأحوال مستعظمة ووصول الرزق اليهم بكرة وعشيا ليس من الامور المتعظمة والجواب من وجهين (الاول) قال الحسن أراد الله تعالى ان يرغب كل قوم بما أحبوه فى الدنيا ولذلك ذكر أساور من الذهب والفضة ولبس الحرير التى كانت عادة العجم والارائك التى هى الحجال المضروبة على الاسرة وكانت من عادة اشراف العرب فى اليمن ولا شئ كان أحب الى العرب من الغداء والعشاء فوعدهم بذلك (الثانى) ان المراد دوام الرزق كما تقول أنا عند فلان صباحا ومساء وبكرة وعشيا تريد الدوام ولا تقصد الوقتين المعلومين (السؤال الثانى) قال تعالى لايرون فيها شمسا ولا زمهريرا وقال عليه السلام لاصباح عند ربك ولا مساء والبكرة والعشى لايوجدان الا عند وجود الصباح والمساء (والجواب) المراد انهم يأكلون عند مقدار الغداة والعشى الا انه ليس فى الجنة غدوة وعشى اذ لا ليل فيها ويحتمل ما قيل انه تعالى جعل لقدر اليوم علامة يعرفون بها مقادير الغداة والعشى ويحتمل أن يكون المراد لهم رزقهم متى شاؤا كما جرت العادة فى الغداة والعشى (وخامسها) قوله تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا وفيه ابحاث (الاول) قوله تلك الجنة هذه الاشارة انما صحت لان الجنة غائبة (وثانيها) ذكروا فى نورث وجوها (الاول) نورث استعارة أى نبقى عليه الجنة كما نبقى على الوارث مال المورث (الثانى) ان المراد انا ننقل تلك المنازل ممن لو أطاع لكانت له الى عبادنا الذين اتقوا ربهم فجعل هذا النقل ارثا قاله الحسن (الثالث) ان الاتقياء يلقون ربهم

القياس العقيم والرأى السقيم الا لكونهم جهلة لايعلمون الا ظاهرا من الحياة الدنيا وذلك مبلغهم من العلم فرد عليهم ذلك من جهته تعالى بقوله (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا) أى كثيرا من القرون التى كانت أفضل منهم فيما يفتخرون به من الحظوظ الدنيوية كعاد وثمود واضرابهم من الامم العاتية قبل هؤلاء أهلكناهم بفنون العذاب ولو كان ما آتيناهم لكرامتهم علينا لما فعلنا بهم ما فعلنا وفيه من التهديد والوعيد ما لايخفى كأنه قيل فلينتظر هؤلاء أيضا مثل ذلك فكم مفعول أهلكنا ومن قرن بيان لابهامها وأهل كل عصر قرن لمن بعدهم لانهم يتقدمونهم مأخوذ من قرن الدابة وهو مقدمها وقوله تعالى هم أحسن أثاثا فى حيز النصب على انه صفة لكم وأثاثا تمييز النسبة وهو متاع البيت وقيل هو ما جد منه والخرثى ما لبس منه ورث والرئى المنظر فعل من الرؤية لما يرى كالطحن للمطحون وقرئ ريا على قلب الهمزة ياء وادغامها أو على انه من الرى وهو النعمة والترفه وقرئ ريئا على القلب وريا بحذف الهمزة وزيا بالزاى المعجمة من الزى وهو الجمع فانه عبارة عن المحاسن المجموعة

يوم القيامة وقد انقضت اعمالهم وثمراتها باقية وهي الجنة فاذا أدخلهم الجنة فقد أورثهم من تقواهم كما يرث الوارث المال من المتوفى (ورابعها) معنى من كان تقيا من تمسك باتقاء معاصيه وجعله عادته واتقى ترك الواجبات قال القاضي فيه دلالة على ان الجنة يختص بدخولها من كان متقيا والفاسق المرتكب للكبائر لا يوصف بذلك والجواب الآية تدل على أن المتقي يدخلها وليس فيها دلالة على أن غير المتقي لا يدخلها وأيضا فصاحب الكبيرة متق عن الكفر ومن صدق عليه انه متق عن الكفر فقد صدق عليه انه متق لان المتقي جزء من مفهوم قولنا المتقي عن الكفر واذا كان صاحب الكبيرة يصدق عليه انه متق وجب أن يدخل تحته فالآية بان تدل على ان صاحب الكبيرة يدخل الجنة أولى من أن تدل على أن لا يدخلها * قوله تعالى (وما نتنزل الا بامر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا رب السموات والارض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) اعلم ان في الآية اشكالا وهو ان قوله تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا كلام الله وقوله وما نتنزل الا بامر ربك كلام غير الله فكيف جاز عطف هذا على ما قبله من غير فصل والجواب انه اذا كانت القرينة ظاهرة لم يقبح كما أن قوله سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون هو كلام الله وقوله وان الله ربي وربكم كلام غير الله وأحدهما معطوف على الآخر واعلم ان ظاهر قوله تعالى وما نتنزل الا بامر ربك خطاب جماعة لواحد وذلك لا يليق الا بالملائكة الذين ينزلون على الرسول ويحتمل في سببه ما روي ان قريشا بعثت خمسة رهط الى يهود المدينة يسألونهم عن صفة محمد صلى الله عليه وسلم وهل يجدونه في كتابهم فسألوا النصارى فزعموا انهم لا يعرفونه وقالت اليهود نجده في كتابنا وهذا زمانه وقد سألنا رحمن اليمامة عن خصال ثلاث فلم يعرف فاسئلوه عنهن فان أخبركم بخصلتين منها فاتبعوه فاسئلوه عن فتية أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح قال فجاؤا فسألوه عن ذلك فلم يدر كيف يجيب فوعدهم ان يجيبهم بعد ذلك ولم يقل ان شاء الله فاحتبس الوحي عنه أربعين يوما وقيل خمسة عشر يوما فشق عليه ذلك مشقة شديدة وقال المشركون ودعه ربه وقلاه فنزل جبريل عليه السلام فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أبطأت عني حتى ساء ظني واشتقت اليك قال اني كنت أشوق ولكني عبد مأمور اذا بعثت نزلت واذا حبست احتبست فانزل الله تعالى هذه الآية وأنزل قوله ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله وسورة الضحى ثم اكدوا ذلك بقولهم له ما بين أيدينا وما خلفنا أي هو المدبر لنا في كل الاوقات الماضي والمستقبل وما بينهما أو الدنيا والآخرة وما بينهما فانه يعلم اصلاح التدبير مستقبلا وماضيا وما بينهما والغرض ان أمرنا موكول الى الله تعالى يتصرف فينا بحسب مشيئته وارادته وحكمته لا اعتراض لاحد عليه فيه وقال أبو مسلم قوله وما نتنزل الا بامر ربك يجوز أن يكون قول أهل الجنة والمراد وما نتنزل الجنة الا بامر ربك له ما بين أيدينا أي في الجنة مستقبلا وما خلفنا

(قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) الى أن عاقبة أمر الامم المهلكة مع ما كان لهم من التمتع بفنون الحظوظ العاجلة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بان يجيب هؤلاء المفتخرين بما لهم من الحظوظ ببيان مآل أمر الفريقين اما على وجه كلي متناول لهم ولغيرهم من المنهمكين في اللذة الفانية المبتهجين بها على أن من على عمومها واما على وجه خاص بهم على أنها عبارة عنهم ووصفهم بالتمكن لذمهم والاشعار بعلة الحكم أي من كان مستقرا في الضلالة مغمورا بالجهل والغفلة عن عواقب الامور فليمدد له الرحمن أي يمد له ويمهله بطول العمر واعطاء المال والتمكين من التصرفات واخراجه على صيغة الامر للايذان بان ذلك مما ينبغي أن يفعل بموجب الحكمة لقطع المعاذير كما ينبئ عنه قوله عز وجل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر أو للاستدراج كما ينطق به قوله تعالى انما نملي لهم ليزدادوا اثما وقيل المراد به الدعاء بالمد والتنفيس واعتبار الاستقرار في الضلالة لما أن المد لا يكون الا للمصرين عليها اذ رب ضال يهديه الله عز وجل والتعرض لعنوان ﴿ مما ﴾ الرحمانية لما أن المد من أحكام الرحمة الدنيوية وقوله تعالى (حتى اذا رأوا ما يوعدون) غاية للمد الممتد لا لقول

عما كان في الدنيا وما بين ذلك أي ما بين الوقتين وما كان ربك نسيا الشيء مما خلق فيترك اعادته لانه عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة وقوله وما كان ربك نسيا ابتداء كلام منه تعالى في مخاطبة الرسول صلى الله وسلم ويتصل به رب السموات والارض أي بل هو رب السموات والارض وما بينهما فاعبده قال القاضي وهذا مخالف للظاهر من وجوه (أحدها) ان ظاهر التنزل نزول الملائكة الى الرسول صلى الله عليه وسلم لقوله بأمر ربك وظاهر الامر بحال التكليف أليق (وثانيها) انه خطاب من جماعة لواحد وذلك لا يليق بمخاطبة بعضهم لبعض في الجنة (وثالثها) ان ما في سياقه من قوله وما كان ربك نسيا رب السموات والارض وما بينهما لا يليق الا بحال التكليف ولا يوصف به الرسول صلى الله عليه وسلم فكأنهم قالوا للرسول وما كان ربك يا محمد نسيا يجوز عليه السهو حتى يضرك ابطاؤنا بالتنزل عليك الى مثل ذلك ثم ههنا أبحاث (البحث الاول) قال صاحب الكشاف التنزل على معنيين (أحدهما) النزول على مهل (والثاني) بمعنى النزول على الاطلاق والدليل عليه انه مطاوع نزل ونزل يكون بمعنى أنزل وبمعنى التدريج واللائق بمثل هذا الموضع هو النزول على مهل والمراد ان نزولنا في الاحايين وقتا بعد وقت ليس الا بأمر الله تعالى (البحث الثاني) ذكروا في قوله ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وجوها (أحدها) له ما قدامنا وما خلفنا من الجهات وما نحن فيه فلا نتمالك أن ننتقل من جهة الى جهة ومن مكان الى مكان الا بأمره ومشيئته فليس لنا أن ننقلب من السماء الى الارض الا بأمره (وثانيها) له ما بين أيدينا ما سلف من أمر الدنيا وما خلفنا ما يستقبل من أمر الآخرة وما بين ذلك ما بين النفختين وهو أربعون سنة (وثالثها) ما مضى من أعمارنا وما غبر من ذلك والحال التي نحن فيها (ورابعها) ما قبل وجودنا وما بعد فنائنا (وخامسها) الارض التي بين أيدينا اذا نزلنا والسماء التي وراءنا وما بين السماء والارض وعلى كل التقديرات فالمقصود انه المحيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة فكيف نقدم على فعل الا بأمره وحكمه (البحث الثالث) قوله وما كان ربك نسيا أي تاركا لك كقوله ما ودعك ربك وما قلى أي ما كان امتناع النزول الا لامتناع الامر به ولم يكن ذلك عن ترك الله لك وتوديعه اياك أما قوله رب السموات والارض وما بينهما فالمراد أن من يكون ربا لها أجمع لا يجوز عليه النسيان اذ لا بد من أن يمسكها حالا بعد حال والا بطل الامر فيهما وفيمن يتصرف فيهما واحتج أصحابنا بهذه الآية على ان فعل العبد خلق الله تعالى لان فعل العبد حاصل بين السماء والارض والآية دالة على انه رب لكل شيء حصل بينهما قال صاحب الكشاف رب السموات والارض بدل من ربك ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هو رب السموات والارض فاعبده واصطبر لعبادته فهو أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بالعبادة والمصابرة على مشاق التكاليف في الاداء والابلاغ وفيما يخصه من العبادة فان قيل لم لم يقل واصطبر على عبادته

المتغيرين كما قيل ابليس فيه امتداد بحسب الذات وهو ظاهر ولاستمرار بحسب التكرار لوقوعه في حيز جواب اذا وجمع الضمير في الفعلين باعتبار معنى من كما أن الافراد في الضميرين الاولين باعتبار لفظها وقوله تعالى (اما العذاب واما الساعة) تفصيل للموعود بدل منه على سبيل البدل فانه اما العذاب الدنيوي بغلبة المسلمين واستيلائهم عليهم وتعذيبهم اياهم قتلا وأسرا واما يوم القيامة وما ينالهم فيه من الخزي والنكال على طريقة منع الخلو دون منع الجمع فان العذاب الاخروي لا ينفك عنهم بحال وقوله تعالى (فسيعلمون) جواب الشرط والجملة محكية بعد حتى أي حتى اذا عاينوا ما يوعدون من العذاب الدنيوي والاخروي فقط فسيعلمون حينئذ (من هو شر مكانا) من الفريقين بان يشاهدوا الامر على عكس ما كانوا يقدرونه فيعلمون انهم شر مكانا لا خير مقاما (وأضعف جندا) أي فئة وأنصارا لا أحسن نديا كما كانوا يدعونه وليس المراد أن له ثمة جندا ضعفاء كلا ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا وانما ذكر ذلك ردا لما كانوا يزعمون أن لهم أعوانا من الاعيان وأنصارا من الاخيار

بل قال واصطبر لعبادته قلنا لان العبادة جعلت بمنزلة القرن فى قولك للمحارب اصطبر لقرنك أى اثبت له فيما يورد عليك من شداته والمعنى ان العبادة تورد عليك شدائد ومشاق فاثبت لها ولا تهن ولا يضق صدرك من القاء أهل الكتاب اليك الاغاليط عن احتباس الوحى عنك مدة وشماتة المشركين بك أما قوله تعالى هل تعلم له سميا فالظاهر يدل على أنه تعالى جعل علة الامر بالعبادة والامر بالمصابرة عليها انه لاسمى له والاقرب هو كونه منعما بأصول النعم وفروعها وهى خلق الاجسام والحياة والعقل وغيرها فانه لا يقدر على ذلك أحد سواه سبحانه فاذا كان هو قد أنعم عليك بغاية الانعام وجب ان تعظمه بغاية التعظيم وهى العبادة ومن الناس من قال المراد انه سبحانه ليس له شريك فى اسمه وبينوا ذلك من وجهين (الاول) انهم وان كانوا يطلقون لفظ الاله على الوثن فما أطلقوا لفظ الله على شئ سواه وعن ابن عباس رضى الله عنهما لايسمى بالرحمن غيره (الثانى) هل تعلم من سمى باسمه على الحق دون الباطل لان التسمية على الباطل فى كونها غير معتد بها كلاتسمية والقول الاول هو الصواب والله أعلم * قوله تعالى (ويقول الانسان أئذا مامت لسوف أخرج حيا أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا) اعلم انه تعالى لما أمر بالعبادة والمصابرة عليها فكأن سائلا سأل وقال هذه العبادات لامنفعة فيها فى الدنيا وأما فى الآخرة فقد أنكرها قوم فلا بد من ذكر الدلالة على القول بالحشر حتى يظهر ان الاشتغال بالعبادة مفيد فلهذا حكى الله تعالى قول منكرى الحشر فقال ويقول الانسان أئذا مامت لسوف أخرج حيا وانما قالوا ذلك على وجه الانكار والاستبعاد وذكروا فى الانسان وجهين (أحدهما) أن يكون المراد الجنس بأسره فان قيل كلهم غير قائلين بذلك فكيف يصح هذا القول قلنا الجواب من وجهين (الاول) ان هذه المقالة لما كانت موجودة فيما هو من جنسهم صح اسنادها الى جميعهم كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا وانما القاتل رجل منهم (والثانى) ان هذا الاستبعاد موجود ابتداء فى طبع كل أحد الا أن بعضهم ترك ذلك الاستبعاد المبنى على محض الطبع بالدلالة القاطعة التى قامت على صحة القول به (الثانى) ان المراد بالانسان شخص معين فقيل هو أبو جهل وقيل هو أبى بن خلف وقيل المراد جنس الكفار القائلين بعدم البعث ثم ان الله تعالى أقام الدلالة على صحة البعث بقوله أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا والقراء كلهم على يذكر بالتشديد الا نافعا وابن عامر وعاصما فقد خففوا أى أولا يتذكر الانسان انا خلقناه من قبل واذا قرئ أولا يذكر فهو أقرب الى المراد اذ الغرض التفكر والنظر فى انه اذا خلق من قبل لا من شئ فجائز أن يعاد ثانيا قال بعض العلماء لو اجتمع كل الخلائق على ايراد حجة فى البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها اذ لاشك ان الاعادة ثانيا أهون من الايجاد

ويفتخرون بذلك فى الاندية والمحافل (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) كلام مستأنف سيق لبيان حال المهتدين اثر بيان حال الضالين وقيل عطف على فليمدد لانه فى معنى الخبر حسبما عرفته كأنه قيل من كان فى الضلالة يمده الله ويزيد المهتدين هداية كقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى وقيل عطف على الشرطية المحكية بعد القول كأنه لما بين أن امهال الكافر وتمتيعه بالحياة ليس لفضله عقب ذلك ببيان أن قصور حظ المؤمن منها ليس لنقصه بل لانه تعالى أراد به ما هو خير من ذلك وقوله تعالى (والباقيات الصالحات خير) على تقديرى الاستئناف والعطف كلام مستأنف وارد من جهته تعالى لبيان فضل اعمال المهتدين غير داخل فى حيز الكلام الملقن لقوله تعالى (عند ربك) أى الطاعات التى تبقى فوائدها وتدوم عوائدها ومن جملتها ما قيل من الصلوات الخمس وما قيل من قول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر خير عند الله تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره لتشريفه ﴿ اولا ﴾ عليه السلام (ثوابا) أى عائدة مما يتمتع به الكفرة من النعم المخدجة الفانية التى يفتخرون بها لاسيما ومآلها

أولا ونظيره قوله قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وقوله وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه واحتج أصحابنا بهذه الآية على ان المعدوم ليس بشئ وهو ضعيف لان الانسان عبارة عن مجموع جواهر متألفة قامت بها اعراض وهذا المجموع ماكان شيئا ولكن لم قلت ان كل واحد من تلك الاجزاء ماكان شيئا قبل كونه موجودا فان قيل كيف أمر تعالى الانسان بالذكر مع ان الذكر هو العلم بما قد علمه من قبل ثم تخللهما سهو قلنا المراد أولا يتفكر فيعلم خصوصا اذا قرئ أولا يذكر الانسان بالتشديد أما اذا قرئ أولا يذكر بالتخفيف فالمراد أولا يعلم ذلك من حال نفسه لان كل أحد يعلم انه لم يكن حيا في الدنيا ثم صار حيا ثم انه سبحانه لما قرر المطلوب بالدليل أردفه بالتهديد من وجوه (أحدها) قوله فوربك لنحشرنهم والشياطين وفائدة القسم أمران (أحدهما) ان العادة جارية بتأكيد الخبر باليمين (والثاني) ان في اقسام الله تعالى باسمه مضافا الى اسم رسوله صلى الله عليه وسلم تفخيم لشأنه صلى الله عليه وسلم ورفع منه كما رفع من شأن السماء والارض في قوله فورب السماء والارض انه لحق والواو في والشياطين يجوز أن تكون للعطف وأن تكون بمعنى مع وهي بمعنى مع أوقع والمعنى انهم يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم يقرن كل كافر مع شيطان في سلسلة (وثانيها) قوله ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا وهذا الاحضار يكون قبل ادخالهم جهنم ثم انه تعالى يحضرهم على أذل صورة لقوله تعالى جثيا لان البارك على ركبتيه صورته صورة الذليل أو صورته صورة العاجز فان قيل هذا المعنى حاصل للكل بدليل قوله تعالى وترى كل أمة جاثية والسبب فيه جريان العادة ان الناس في مواقف المطالبات من الملوك يتجاثون على ركبهم لما في ذلك من الاستنظار والقلق أو لما يدهمهم من شدة الامر الذي لا يطيقون معه القيام على أرجلهم واذا كان هذا عاما للكل فكيف يدل على مزيد ذل الكفار قلنا لعل المراد أنهم يكونون من وقت الحشر الى وقت الحضور في الموقف على هذه الحالة وذلك يوجب مزيد الذل في حقهم (وثالثها) قوله ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا والمراد بالشيعة وهي فعلة كفرقة وفئة الطائفة التي شاعت أي تبعت غاويا من الغواة قال تعالى ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا والمراد انه تعالى يحضرهم أولا حول جهنم جثيا ثم يميز البعض من البعض فمن كان أشدهم تمردا في كفره خص بعذاب أعظم لان عذاب الضال المضل يجب أن يكون فوق عذاب من يضل تبعا لغيره وليس عذاب من يتمرد ويتجبر كعذاب المقلد وليس عذاب من يورد الشبه في الباطل كعذاب من يقتدى به مع الغفلة قال تعالى الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون وقال وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم فبين تعالى انه ينزع من كل فرقة من كان أشد عتوا وأشد تمردا ليعلم ان عذابه أشد ففائدة هذا التمييز التخصيص بشدة العذاب لا التخصيص بأصل العذاب فلذلك قال في جميعهم ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها

النعيم للقيم ومآل هذه الحسرة السرمدية بقوة العذاب الاليم كما أشير اليه بقوله تعالى (وخير مرادا) أي مرجعا وعاقبة وتكرير الخير لمزيد الاعتناء ببيان الخيرية وتأكيد لها وفي التفضيل مع أن ما للكفرة بمعزل من أن يكون له خيرية في العاقبة تهكم بهم (أفرأيت الذي كفر بآياتنا) أي بآياتنا التي من جملتها آيات البعث نزلت في العاص بن وائل كان لخباب بن الارت عليه مال فاقتضاه فقال لا حتى تكفر بمحمد قال لا والله لا أكفر به حيا ولا ميتا ولا حين بعثت قال فاذا بعثت جئني فيكون لي ثمة مال وولد فاعطيك وفي رواية قال لا أكفر به حتى يميتك ثم تبعث فقال اني لميت ثم مبعوث قال نعم قال دعني حتى أموت وأبعث فساوفى مالا وولدا فاقضيك فنزلت فالهمزة للتعجيب من حاله والايذان بانها من الغرابة والشناعة بحيث يجب أن ترى ويقضى منها العجب ومن فرق بين ألم تر وأرأيت بعد بيان اشتراكهما في الاستعمال لقصد التعجيب بان الاول يعلق بنفس المتعجب منه فيقال ألم تر الى الذي صنع كذا بمعنى انظر اليه فتعجب من حاله والثاني يعلق بمثل المتعجب منه فيقال أرأيت مثل الذي صنع كذا بمعنى انه من الغرابة بحيث

صليا ولا يقال أولى الامم اشتراك القوم في العذاب واختلفوا في اعراب أيهم فعن الخليل انه مرتفع على الحكاية تقديره لننزعن الذين يقال فيهم أيهم أشد وسيبويه على انه مبني على الضم لسقوط صدر الجملة التي هي صلة حتى لو جيء به لأعرب وقيل أيهم هو أشد ٭ قوله تعالى (وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) واعلم انه تعالى لما قال من قبل فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم قال ثم لنحضرنهم حول جهنم أردفه بقوله وان منكم الا واردها يعني جهنم واختلفوا فقال بعضهم المراد من تقدم ذكره من الكفار فكنى عنهم أولا كناية الغيبة ثم خاطب خطاب المشافهة قالوا انه لا يجوز للمؤمنين أن يردوا النار ويدل عليه أمور (أحدها) قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون والمبعد عنها لا يوصف بانه واردها (والثاني) قوله لا يسمعون حسيسها ولو وردوا جهنم لسمعوا حسيسها (وثالثها) قوله وهم من فزع يومئذ آمنون وقال الاكثرون انه عام في كل مؤمن وكافر لقوله تعالى وان منكم الا واردها فلم يخص وهذا الخطاب مبتدأ مخالف للخطاب الاول ويدل عليه قوله ثم ننجي الذين اتقوا أي من الواردين من اتقى ولا يجوز أن يقال ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا الا والكل واردون والاخبار المروية دالة على هذا القول ثم هؤلاء اختلفوا في تفسير الورود فقال بعضهم الورود الدنو من جهنم وأن يصيروا حولها وهو موضع المحاسبة واحتجوا على ان الورود قد يراد به القرب بقوله تعالى فأرسلوا واردهم ومعلوم ان ذلك الوارد ما دخل الماء وقال تعالى ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون واراد به القرب ويقال وردت القافلة البلدة وان لم تدخلها فعلى هذا معنى الآية ان الجن والانس يحضرون حول جهنم كان على ربك حتما مقضيا أي واجبا مفروغا منه بحكم الوعيد ثم ننجي أي نبعد الذين اتقوا عن جهنم وهو المراد من قوله تعالى أولئك عنها مبعدون ومما يؤكد هذا القول ما روي انه صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل النار أحد شهد بدرا والحديبية فقالت حفصة أليس الله يقول وان منكم الا واردها فقال عليه السلام فمه ثم ننجي الذين اتقوا ولو كان الورود عبارة عن الدخول لكان سؤال حفصة لازما (القول الثاني) ان الورود هو الدخول ويدل عليه الآية والخبر (أما الآية) فقوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون وقال فأوردهم النار وبئس الورد المورود ويدل عليه قوله تعالى أولئك عنها مبعدون والمبعد هو الذي لولا التبعيد لكان قريبا فهذا انما يحصل لو كانوا في النار ثم انه تعالى يبعدهم عنها ويدل عليه قوله تعالى ونذر الظالمين فيها جثيا وهذا يدل على أنهم يبقون في ذلك الموضع الذي وردوه وهم انما يبقون في النار فلا بد وأن يكونوا قد دخلوا النار (وأما الخبر) فهو أن عبد الله بن رواحة قال أخبر الله عن الورود ولم يخبر بالصدور فقال عليه السلام يا ابن رواحة اقرأ ما بعدها ثم ننجي الذين اتقوا وذلك يدل على ان ابن رواحة فهم من الورود الدخول والنبي صلى الله

لا يرى له مثل فقد حفظ شيئا وغابت عنه أشياء وكأنه ذهب عليه قوله عز وجل أرأيت الذي يكذب بالدين والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أنظرت فرأيت الذي كفر بآياتنا الباهرة التي حقها أن يؤمن بها كل من يشاهدها (وقال) مستهزئا بها مصدرا لكلامه باليمين الفاجرة والله (لأوتين) في الآخرة (مالا وولدا) أي انظر اليه فتعجب من حالته البديعة وجراءته الشنيعة هذا هو الذي يستدعيه جزالة النظم الكريم وقد قيل ان أرأيت بمعنى أخبروا والفاء على أصلها والمعنى أخبر بقصة هذا الكافر عقيب حديث أولئك الذين قالوا أي الفريقين خير مقاما الآية وأنت خبير بان المشهور استعمال أرأيت في معنى أخبرني بطريق الاستفهام جاريا على أصله أو مخرجا الى ما يناسبه من المعاني لا بطريق الامر بالاخبار لغيره وقرئ ولدا على انه جمع ولد كاسد جمع أسد أو على انه لغة فيه كالعرب والعرب وقوله تعالى (أطلع الغيب) رد لكلمته الشنعاء واظهار لبطلانها اثر ما أشير اليه بالتعجيب منها أي أقد بلغ من عظمة الشان الى أن ارتقى الى علم الغيب الذي استأثر به العليم الخبير حتى ادعى أن يؤتى في الآخرة مالا وولدا وأقسم عليه

عليه وسلم ما أنكر عليه فى ذلك وعن جابر انه سئل عن هذه الآية فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر الا دخلها فتكون على المؤمنين بردا وسلاما حتى ان للنار ضجيجا من بردها والقائلون بهذا القول يقولون المؤمنون يدخلون النار من غير خوف وضرر البتة بل مع الغبطة والسرور وذلك لان الله تعالى أخبر عنهم انهم لا يحزنهم الفزع الاكبر ولان الآخرة دار الجزاء لا دار التكليف وايصال الغم والحزن انما يجوز فى دار التكليف ولانه صحت الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الملائكة تبشر فى القبر من كان من أهل الثواب بالجنة حتى يرى مكانه فى الجنة ويعلمه وكذلك القول فى حال المعاينة فكيف يجوز أن يردوا القيامة وهم شاكون فى أمرهم وانما تؤثر هذه الاحوال فى أهل النار لانهم لا يعلمون كونهم من أهل النار والعقاب ثم اختلفوا فى انه كيف يندفع عنهم ضرر النار فقال بعضهم البقعة المسماة بجهنم لا يمتنع أن يكون فى خلالها ما لا نار فيه ويكون من المواضع التى يسلك فيها الى دركات جهنم واذا كان كذلك لم يمتنع أن يدخل الكل فى جهنم فالمؤمنون يكونون فى تلك المواضع الخالية عن النار والكفار يكونون فى وسط النار (وثانيها) ان الله تعالى يخمد النار فيعبرها المؤمنون وتنهار بغيرهم قال ابن عباس رضى الله عنهما يردونها كانها اهالة وعن جابر بن عبد الله انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض أليس وعدنا ربنا أن نرد النار فيقال لهم قد وردتموها وهى خامدة (وثالثها) ان حرارة النار ليس بطبعها فالاجزاء الملاصقة لابدان الكفار يجعلها الله عليهم محرقة مؤذية والاجزاء الملاصقة لابدان المؤمنين يجعلها الله بردا وسلاما عليهم كما فى حق ابراهيم عليه السلام وكما أن الكوز الواحد من الماء كان يشربه القبطى فكان يصير دما ويشربه الاسرائيلى فكان يصير ماء عذبا واعلم انه لا بد من أحد هذه الوجوه فى الملائكة الموكلين بالعذاب حتى يكونوا فى النار مع المعاقبين فان قيل اذا لم يكن على المؤمنين عذاب فى دخولهم النار فما الفائدة فى ذلك الدخول قلنا فيه وجوه (أحدها) ان ذلك مما يزيدهم سرورا اذا علموا الخلاص منه (وثانيها) ان فيه مزيد غم على أهل النار حيث يرون المؤمنين الذين هم أعداؤهم يتخلصون منها وهم يبقون فيها (وثالثها) ان فيه مزيد غم على أهل النار من حيث تظهر فضيحتهم عند المؤمنين بل وعند الاولياء وعند من كان يخوفهم من النار فما كانوا يلتفتون اليه (ورابعها) ان المؤمنين اذا كانوا معهم فى النار يبكتونهم فزاد ذلك غما للكفار وسرورا للمؤمنين (وخامسها) ان المؤمنين كانوا يخوفونهم بالحشر والنشر ويقيمون عليهم صحة الدلائل فما كانوا يقبلون تلك الدلائل فاذا دخلوا جهنم معهم أظهروا لهم انهم كانوا صادقين فيما قالوا وان المكذبين بالحشر والنشر كانوا كاذبين (وسادسها) انهم اذا شاهدوا ذلك العذاب صار ذلك سببا لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة كما قال الشاعر

(أم اتخذ عند الرحمن عهدا) بذلك فانه لا يتوصل الى العلم به الا باحد هذين الطريقين والتعرض لعنوان الرحمانية للاشعار بعلية الرحمة لايتاء ما يدعيه وقيل العهد كلمة الشهادة وقيل العمل الصالح فان وعده تعالى بالثواب عليهما كالعهد وهذا مجاراة مع اللعين بحسب منطوق مقاله كما ان كلامه مع خباب كان كذلك وقوله تعالى (كلا) ردع له عن التفوه بتلك العظيمة وتنبيه على خطئه (سنكتب ما يقول) أى سنظهر أنا كتبنا قوله كقوله * اذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة * أى تبين أنى لم تلدنى لئيمة * أو سننتقم منه انتقام من كتب جريمة الجانى وحفظها عليه فان نفس الكتبة لا تكاد تتأخر عن القول لقوله عز وعلا ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد فمبنى الاول تنزيل اظهار الشئ الخفى منزلة احداث الامر المعدوم بجامع أن كلا منهما اخراج من الكمون الى البروز فيكون استعارة تبعية مبنية على تشبيه اظهار الكتابة على رؤس الاشهاد باحداثها ومدار الثانى تسمية الشئ باسم سببه فان كتابة جريمة المجرم سبب لعقوبته قطعا (ونمد له من العذاب مدا) مكان ما يدعيه لنفسه من الامداد بالمال والولد أى نطول له من العذاب ما يستحقه

و يضدها تتبين الاشياء * فاما الذين تمسكوا بقوله تعالى أولئك عنها مبعدون فقد بينا انه أحد ما يدل على الدخول فى جهنم وأيضا فالمراد عن عذابها وكذا قوله لا يسمعون حسيسها فان قيل هل ثبت بالاخبار كيفية دخول النار ثم خروج المتقين منها الى الجنة قلنا ثبت بالاخبار ان المحاسبة تكون فى الارض أو حيث كانت الارض و يدل عليه أيضا قوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض وجهنم قريبة من الارض والجنة فى السماء ففى موضع المحاسبة يكون الاجتماع فيدخلون من ذلك الموضع الى جهنم ثم يرفع الله أهل الجنة و ينجيهم و يدفع أهل النار فيها أما قوله كان على ربك حتما مقضيا فالحتم مصدر حتم الامر اذا أوجبه فسمى المحتوم بالحتم كقولهم خلق الله وضرب الامير واحتج من أوجب العقاب عقلا فقال ان قوله كان على ربك حتما مقضيا يدل على وجوب ما جاء من جهة الوعيد والاخبار لان كلمة على للوجوب والذى ثبت بمجرد الاخبار لا يسمى واجبا والجواب ان وعد الله تعالى لما استحال تطرق الخلف اليه جرى مجرى الواجب أما قوله ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين قرئ ننجى وننجى و ينجى على ما لم يسم فاعله قال القاضى الآية دالة على قولنا فى الوعيد لان الله تعالى بين ان الكل يردونها ثم بين صفة من ينجوا وهم المتقون والفاسق لا يكون متقيا ثم بين تعالى ان من عدا المتقين يذرهم فيها جثيا فثبت ان الفاسق يبقى فى النار أبدا قال ابن عباس المتقى هو الذى اتقى الشرك بقول لا اله الا الله واعلم أن الذى قاله ابن عباس هو الحق الذى يشهد الدليل بصحته وذلك لان من آمن بالله و برسله صح أن يقال انه متق عن الشرك ومن صدق عليه انه متق عن الشرك صدق عليه انه متق لان المتقى جزء من المتقى عن الشرك ومن صدق عليه المركب صدق عليه المفرد فثبت ان صاحب الكبيرة متق واذا ثبت ذلك وجب أن يخرج من النار لعموم قوله ثم ننجى الذين اتقوا فصارت هذه الآية التى توهموها دليلا من أقوى الدلائل على فساد قولهم قال القاضى وتدل الآية على فساد قول من يقول ان من المكلفين من لا يكون فى الجنة ولا فى النار قلنا هذا ضعيف لان الآية تدل على انه تعالى ينجى الذين اتقوا وليس فيها ما يدل على انه ينجيهم الى الجنة ثم هب أنها تدل على ذلك ولكن الآية تدل على ان المتقين يكونون فى الجنة والظالمين يبقون فى النار فيبقى ههنا قسم ثالث خارج عن القسمين وهو الذى استوت طاعته ومعصيته فتسقط كل واحدة منهما بالاخرى فيبقى لا مطيعا ولا عاصيا فهذا القسم ان بطل فانما يبطل بشئ سوى هذه الآية فلا تكون هذه الآية دالة على الحصر الذى ادعاه ومن المعتزلة من تمسك فى الوعيد بقوله ونذر الظالمين فيها جثيا ولفظ الظالمين لفظ جمع دخل عليه حرف التعريف فيفيد العموم والكلام على التمسك بصيغ العموم قد تقدم مرارا كثيرة فى هذا الكتاب أما قوله جثيا قال صاحب الكشاف قوله ونذر الظالمين فيها جثيا دليل على ان المراد بالورود الجثو حواليها وان المؤمنين يفارقون الكفرة الى الجنة بعد تجاثيهم وتبقى

أو نزيد عذابه ونضاعفه له لكفره وافترائه على الله سبحانه واستهزائه بآياته العظام ولذلك أكد بالقسم دلالة على فرط الغضب (ونرثه) بموته (ما يقول) أى مسمى ما يقول ومصداقه وهو ما أوتيه فى الدنيا من المال والولد وفيه ايذان بأنه ليس لما يقوله مصداق موجود سوى ما ذكر أى ننزع عنه ما آتيناه (ويأتينا) يوم القيامة (فردا) لا يصحبه مال ولا ولد كان له فى الدنيا فضلا أن يؤتى ثمة زائدا وقيل نزوى عنه ما زعم انه يناله فى الآخرة ونعطيه من يستحقه و يأباه معنى الارث وقيل المراد بما يقول نفس القول المذكور لا مسماه والمعنى انما يقول هذا القول مادام حيا فاذا قبضناه حلنا بينه و بين ان يقوله و يأتينا رافضا له منفردا عنه وأنت خبير بان ذلك مبنى على أن صدور القول المذكور عنه بطريق الاعتقاد وأنه مستمر على التفوه به راج لوقوع مضمونه ولا ريب فى أن ذلك مستحيل ممن كفر بالبعث وانما قاله بطريق الاستهزاء وتعليق أداء دينه بالمحال (واتخذوا من دون الله آلهة) حكاية لجناية عامة للكل مستتبعة لضد ما يرجون ترتبه عليها اثر حكاية مقالة الكافر المعهود واستتباعها لنقيض مضمونها أى اتخذوا

الكفرة فى مكانهم جانبين * قوله تعالى (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا) اعلم انه تعالى لما أقام الحجة على مشركى قريش المنكرين للبعث أتبعه بالوعيد على ما تقدم ذكره عنهم انهم عارضوا حجة الله بكلام فقالوا لو كنتم أنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم فى الدنيا أحسن وأطيب من حالنا لان الحكيم لا يليق به أن يوقع أولياءه المخلصين فى العذاب والذل وأعداءه المعرضين عن خدمته فى العز والراحة ولما كان الامر بالعكس فان الكفار كانوا فى النعمة والراحة والاستعلاء والمؤمنين كانوا فى ذلك الوقت فى الخوف والذل دل على ان الحق ليس مع المؤمنين هذا حاصل شبهتهم فى هذا الباب ونظيره قوله تعالى لو كان خيرا ما سبقونا اليه ويروى انهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون ويتطيبون ويتزينون بالزينة الفاخرة ثم يدعون مفتخرين على فقراء المسلمين انهم أكرم على الله منهم بقى بحثان (الاول) قوله آياتنا بينات يحتمل وجوها (أحدها) انها مرتلات الالفاظ مبينات المعانى اما محكمات أو متشابهات قد تبعها البيان بالمحكمات أو بتبيين الرسول قولا أو فعلا (وثانيها) انها ظاهرات الاعجاز تحدى بها فلم يقدروا على معارضتها (وثالثها) المراد بكونها آيات بينات أى دلائل ظاهرة واضحة لا يتوجه عليها سؤال ولا اعتراض مثل قوله تعالى فى اثبات صحة الحشر أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا (البحث الثانى) قرأ ابن كثير مقاما بالضم وهو موضع الاقامة والمنزل والباقون بالفتح وهو موضع القيام والمراد المكان والموضع والندى المجلس يقال ندى ونادى والجمع الاندية ومنه قوله وتأتون فى ناديكم المنكر وقال فليدع ناديه ويقال ندوت القوم اندوهم اذا جمعتهم فى المجلس ومنه دار الندوة بمكة وكانت مجتمع القوم ثم أجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا) وتقرير هذا الجواب أن يقال ان من كان أعظم نعمة منكم فى الدنيا قد أهلكهم الله تعالى وأبادهم فلو دل حصول نعم الدنيا للانسان على كونه حبيبا لله تعالى لوجب فى حبيب الله أن لا يوصل اليه غما فى الدنيا ووجب عليه أن لا يهلك أحدا من المتنعمين فى دار الدنيا وحيث أهلكهم دل اما على فساد المقدمة الاولى وهى أن من وجد الدنيا كان حبيبا لله تعالى أو على فساد المقدمة الثانية وهى أن حبيب الله لا يوصل الله اليه غما وعلى كلا التقديرين فيفسد ما ذكرتموه من الشبهة بقى البحث عن تفسير الالفاظ فنقول أهل كل عصر قرن لمن بعدهم لانهم يتقدمونهم وهم أحسن فى محل النصب صفة لكم ألا ترى انك لو تركت هم لم يكن لك بد من نصب أحسن على الوصفية والاثاث متاع البيت أما رئيا فقرئ على خمسة أوجه لانها اما أن تقرأ بالراء التى ليس فوقها نقطة او بالزاى التى فوقها نقطة فأما الاول فاما أن يجمع بين الهمزة والياء أو يكتفى بالياء أما اذا جمع بين الهمزة والياء ففيه وجهان (أحدهما) بهمزة ساكنة بعدها ياء وهو المنظر والهيئة فعل بمعنى مفعول من رأيت رئيا (والثانى) ريئا

الاصنام آلهة متجاوزين الله تعالى (ليكونوا لهم عزا) أى ليتعززوا بهم بأن يكونوا لهم وصلة اليه عز وجل وشفعاء عنده (كلا) ردع لهم عن ذلك الاعتقاد الباطل وانكار لوقوع ما علقوا به أطماعهم الفارغة (سيكفرون بعبادتهم) أى ستجحد الآلهة بعبادتهم لها بأن ينطقها الله تعالى وتقول ما عبدتمونا أو سينكر الكفرة حين شاهدوا سوء عاقبة كفرهم عبادتهم لها كما فى قوله تعالى والله ربنا ما كنا مشركين ومعنى قوله تعالى (ويكونون عليهم ضدا) على الاول تكون الآلهة التى كانوا يرجون أن تكون لهم عزا ضدا للعز أى ذلا وهوانا أو تكون عونا عليهم وآلة لعذابهم حيث تجعل وقود النار وحصب جهنم أو حيث كانت عبادتهم لها سببا لعذابهم واطلاق الضد على العون لما أن عون الرجل يضاد عدوه وينافيه باعانته له عليه وعلى الثانى يكون الكفرة ضدا وأعداء للآلهة كافرين بها بعد أن كانوا يحبونها كحب الله ويعبدونها وتوحيد الضد لوحدة المعنى الذى عليه تدور مضادتهم فانهم بذلك كشئ واحد كما فى قوله عليه السلام وهم يد على من سواهم وقرئ كلا بفتح الكاف والتنوين على قلب الالف نونا فى الوقف قلب ألف الاطلاق

على القلب كقولهم راء فى رأى أما ان اكتفينا بالياء فتارة بالياء المشددة على القلب الهمزة ياء والادغام أو من الرى الذى هو النعمة والترفه من قولهم ريان من النعيم والثانى لياء بالعطف حذف الهمزة رأسا ووجهه أن يخفف المقلوب وهو ريئا بحذف الهمزة والقاء حركتها على الياء الساكنة قبلها وأما بالزاى المنقطة من فوق زيا فاشتقاقه من الزى وهو الجمع لان الزى محاسن مجموعة والمعنى أحسن من هؤلاء والله أعلم * قوله تعالى (قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا حتى اذا رأوا ما يوعدون اما العذاب واما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا) اعلم ان هذا هو الجواب الثانى عن تلك الشبهة وتقريره لنفرض ان هذا الضال المتنعم فى الدنيا قد مد الله فى أجله وأمهله مدة مديدة حتى ينضم الى النعمة العظيمة المدة الطويلة فلابد وان ينتهى الى عذاب فى الدنيا أو عذاب فى الآخرة بعد ذلك سيعلمون ان نعم الدنيا ما تنقذهم من ذلك العذاب فقوله فسيعلمون من هو شر مكانا مذكور فى مقابلة قولهم خير مقاما وأضعف جندا فى مقابلة قولهم أحسن نديا فبين تعالى انهم وان ظنوا فى الحال ان منزلتهم أفضل من حيث فضلهم الله تعالى بالمقام والندى فسيعلمون من بعد ان الامر بالضد من ذلك وانهم شر مكانا فانه لا مكان شر من النار والمناقشة فى الحساب وأضعف جندا فقد كانوا يظنون وهم فى الدنيا ان اجتماعهم ينفع فاذا رأوا أن لا ناصر لهم فى الآخرة عرفوا عند ذلك انهم كانوا فى الدنيا مبطلين فيما ادعوه * بقى البحث عن الالفاظ وهو من وجوه (أحدها) مد له الرحمن أى أمهله وأملى له فى العمر فاخرج على لفظ الامر ايذانا بوجوب ذلك وانه مفعول لا محالة كالمأمور الممتثل ليقطع معاذير الضال ويقال له يوم القيامة أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وكقولهم انما نملى لهم ليزدادوا اثما (وثانيها) ان قوله اما العذاب واما الساعة يدل على ان المراد بالعذاب عذاب يحصل قبل يوم القيامة لان قوله واما الساعة المراد منه يوم القيامة ثم العذاب الذى يحصل قبل يوم القيامة يمكن أن يكون هو عذاب القبر ويمكن أن يكون هو العذاب الذى سيكون عند المعاينة لانهم عند ذلك يعلمون ما يستحقون ويمكن أيضا أن يكون المراد تغير أحوالهم فى الدنيا من العز الى الذل ومن الغنى الى الفقر ومن الصحة الى المرض ومن الأمن الى الخوف ويمكن أن يكون المراد تسليط المؤمنين عليهم ويمكن أيضا أن يكون المراد ما نالهم يوم بدر وكل هذه الوجوه مذكورة واعلم انه تعالى بين بعد ذلك انه كما يعامل الكفار بما ذكره فكذلك يزيد المؤمنين المهتدين هدى واعلم انا نبين امكان ذلك بحسب العقل فنقول انه لا يبعد أن يكون بعض أنواع الاهتداء مشروطا بالبعض فان حاصل الاهتداء يرجع الى العلم ولا امتناع فى كون بعض العلم مشروطا بالبعض فمن اهتدى بالهداية لتى هى الشرط صار بحيث لا يمتنع أن يعطى الهداية التى هى المشروط فصح قوله ويزيد الله الذين اهتدوا هدى مثاله الايمان

* فى قوله أقلى اللوم عاذل والعتابن * وقولى ان أصبت لقد أصابن * أو على معنى كل هذا الرأى كلا وقرئ كلا على اضمار فعل يفسره ما بعده أى سيجحدون كلا سيكفرون الخ (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين) تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما نطقت به الآيات الكريمة السالفة وحكته عن هؤلاء الكفرة الغواة والمردة العتاة من فنون القبائح من الاقاويل والافاعيل والتمادى فى الغى والانهماك فى الضلال والافراط فى العناد والتصميم على الكفر من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم والاجماع على مدافعة الحق بعد اتضاحه وانتفاء الشك عنه بالكلية وتنبيه على ان جميع ذلك منهم باضلال الشياطين واغوائهم لا لان له مسوغا ما فى الجملة ومعنى ارسال الشياطين عليهم اما تسليطهم عليهم وتمكينهم من اضلالهم واما تقييضهم لهم وليس المراد تعجيبه عليه السلام من ارسالهم عليهم كما يوهمه تطبيق الرؤية به بل مما ذكر من أحوال الكفرة من حيث كونها من آثار اغواء الشياطين كما ينبئ عنه قوله تعالى (تؤزهم أزا) فانه اما حال مقدرة من الشياطين أو استئناف وقع جوابا عما نشأ من صدر الكلام كأنه قيل ماذا يفعل الشياطين

﴿ هدى ﴾

هدى والاخلاص فى الايمان زيادة هدى ولا يمكن تحصيل الاخلاص الا بعد تحصيل الايمان فمن اهتدى بالايمان زاده الله الهداية بالاخلاص هذا اذا اجرينا لفظ الهداية على ظاهره ومن الناس من حمل الزيادة فى الهدى على الثواب اى ويزيد الله الذين اهتدوا ثوابا على ذلك الاهتداء ومنهم من فسر هذه الزيادة بالعبادات المترتبة على الايمان قال صاحب الكشاف يزيد معطوف على موضع فليمدد لانه واقع موقع الخبر تقديره من كان فى الضلالة يمده الرحمن مدا ويزيد أى يزيد فى ضلال الضلال بخذلانه بذلك المد ويزيد المهتدين هداية بتوفيقه ثم انه تعالى بين ان ما عليه المهتدون هو الذى ينفع فى العاقبة فقال والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وذلك لان ما عليه المهتدون ضرر قليل متناه يعقبه نفع عظيم غير متناه والذى عليه الضالون نفع قليل متناه يعقبه ضرر عظيم غير متناه وكل أحد يعلم بالضرورة ان الاول أولى وبهذا الطريق تسقط الشبهة التى عولوا عليها واختلفوا فى المراد بالباقيات الصالحات فقال المحققون انها الايمان والاعمال الصالحة سماها باقية لان نفعها يدوم ولا يبطل ومنهم من قال المراد بها بعض العبادات ولعلهم ذكروا ما هو أعظم ثوابا فبعضهم ذكر الصلوات وبعضهم ذكر التسبيح وروى عن أبى الدرداء قال جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وأخذ عودا يابسا فأزال الورق عنه ثم قال ان قول لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله يحط الخطايا حطا كما يحط ورق هذه الشجرة الريح خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن هن الباقيات الصالحات وهن من كنوز الجنة وكان أبو الدرداء يقول لاعملن ذلك ولاكثرن منه حتى اذا رآنى جاهل حسب انى مجنون والقول الاول أولى لانه تعالى انما وصفها بالباقيات الصالحات من حيث دوم ثوابها ولا ينقطع فبعض العبادات وان كان أنقص ثوابا من البعض فهى مشتركة فى الدوام فهى بأسرها باقية صالحة نظرا الى آثارها التى هى الثواب ثم انه تعالى أخبر انها خير عند ربك ثوابا وخير مردا ولا يجوز أن يقال هذا خير الا والمراد انه خير من غيره فالمراد اذن أنها خير مما ظنه الكفار بقولهم خير مقاما وأحسن نديا * قوله تعالى (أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ونرثه ما يقول ويأتينا فردا) اعلم انه تعالى لما ذكر الدلائل أولا على صحة البعث ثم أورد شبهة المنكرين وأجاب عنها أورد عنهم الآن ما ذكروه على سبيل الاستهزاء طعنا فى القول بالحشر فقال أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا قرأ حمزة والكسائى ولدا وهو جمع ولد كأسد فى أسد أو بمعنى الولد كالعرب فى العرب وعن يحيى بن يعمر ولدا بالكسر وعن الحسن نزلت الآية فى الوليد بن المغيرة والمشهور أنها فى العاص بن وائل قال خباب بن الارت كان لى عليه دين فاقتضيته فقال لا والله حتى تكفر بمحمد قلت لا والله لا اكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم لا حيا ولا ميتا ولا حين تبعث فقال فانى اذا مت بعثت قلت نعم

بهم حينئذ فقيل تؤزهم أى تغريهم على المعاصى تهييجا شديدا بأنواع الوساوس والتسويلات فان الاز والهزو والاستفزاز أخوات معناها شدة الازعاج (فلا تعجل عليهم) أى بأن يهلكوا حسبما تقتضيه جناياتهم ويبيدوا عن آخرهم وتطهر الارض من فساداتهم والفاء للاشعار بكون ما قبلها مظنة لوقوع المنهى عنه محوجة الى النهى كما فى قوله تعالى ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة وقوله تعالى (انما نعد لهم عدا) تعليل لموجب النهى ببيان اقتراب هلاكهم أى لا تستعجل بهلاكهم فانه لم يبق لهم الا أيام وأنفاس نعدها عدا (يوم نحشر المتقين) منصوب على الظرفية بفعل مؤخر قد حذف للاشعار بضيق العبارة عن حصره وشرحه لكمال فظاعة ما يقع فيه من الطامة التامة والدواهى العامة كأنه قيل يوم نحشر المتقين اى نجمعهم (الى الرحمن) الى ربهم الذى يغمرهم برحمته الواسعة (وفدا) وافدين عليه كما يفد الوفود على الملوك منتظرين لكراماتهم وانعامهم (ونسوق المجرمين) كما تساق البهائم (الى جهنم وردا) عطاشا فان من يرد الماء لا يرده الا العطش أو كالدواب

قال انى اذا بعثت وجئتنى فسيكون لى ثم مال و ولد فأعطيك وقيل صاغ خباب له حليا فاقتضاه فطلب الاجرة فقال انكم تزعمون أنكم تبعثون وأن فى الجنة ذهبا وفضة وحريرا فانا اقضيك ثم فانى أوتى مالا وولدا حينئذ ثم أجاب الله تعالى عن كلامه بقوله أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا قال صاحب الكشاف أطلع الغيب من قولهم اطلع الجبل أى ارتقى الى أعلاه و يقال مر مطلعا لذلك الامر أى غالباله مالكاله والاختيار فى هذه الكلمة أن تقول أوقد بلغ من عظم شأنه أنه ارتقى الى علم الغيب الذى توحد به الواحد القهار والمعنى ان الذى ادعى انه يكون حاصلا له لا يتوصل اليه الا بأحد هذين الامرين اما علم الغيب واما عهد من عالم الغيب فبأيهما توصل اليه وقيل فى العهد كلمة الشهادة عن قتادة هل له عمل صالح قدمه فهو يرجو بذلك ما يقول ثم انه سبحانه بين من حاله ضد ما ادعاه فقال كلا وهى كلمة ردع وتنبيه على الخطأ أى هو مخطئ فيما يقوله ويتمناه فان قيل لم قال سنكتب ما يقول بسين التسويف وهو كما قاله كتب من غير تاخير قال تعالى ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد قلنا فيه وجهان (أحدهما) سيظهر له ويعلم انا كتبنا (الثانى) ان المتوعد يقول للجانى سوف انتقم منك وان كان فى الحال فى الانتقام و يكون غرضه من هذا الكلام محض التهديد فكذا ههنا أما قوله تعالى ونمد له من العذاب مدا أى نطول له من العذاب ما يستأهله ونزيده من العذاب ونضاعف له من المدد و يقال مده وأمده بمعنى و يدل عليه قراءة على بن أبى طالب عليه السلام ونمد له بالضم أما قوله ونرثه ما يقول أى يزول عنه ما وعده من مال وولد فلا يعود كما لا يعود الارث الى من خلفه واذا سلب ذلك فى الآخرة يبقى فردا فلذلك قال و يأتينا فردا فلا يصح أن ينفرد فى الآخرة بمال و ولد ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة والله أعلم ❁ قو

تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم و يكونون عليهم ضدا ألم تر انا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا فلا تعجل عليهم انما نعد لهم عدا يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين الى جهنم وردا لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا) اعلم انه تعالى لما تكلم فى مسئلة الحشر والنشر تكلم الآن فى الرد على عباد الاصنام فحكى عنهم انهم انما اتخذوا آلهة لانفسهم ليكونوا لهم عزا حيث يكونون لهم عند الله شفعاء وأنصارا ينقذونهم من الهلاك ثم أجاب الله تعالى بقوله كلا وهو ردع لهم وانكار لتعززهم بالآلهة وقرأ ابن نهيك كلا سيكفرون بعبادتهم أى كلهم سيكفرون بعبادة هذه الاوثان وفى محتسب ابن جنى كلا بفتح الكاف والتنوين و زعم ان معناه كل هذا الاعتقاد والرأى كلا قال صاحب الكشاف ان صحت هذه الرواية فهى كلا التى هى للردع قلب الواقف عليها ألفها نونا كما فى قواريرا واختلفوا فى ان الضمير فى قوله سيكفرون يعود الى المعبود أو الى العابد فمنهم من قال انه يعود الى المعبود ثم قال بعضهم أراد بذلك الملائكة لانهم فى الآخرة يكفرون بعبادتهم

التى ترد الماء نفعل بالفريقين من الافعال مالا يفى بيانه نطاق المقال وقيل منصوب على المفعولية بمضمر مقدم خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم أى اذكر لهم بطريق الترغيب والترهيب يوم نحشر الخ وقيل على الظرفية لقوله تعالى (لا يملكون الشفاعة) والذى يقتضيه مقام التهويل وتستدعيه جزالة التنزيل أن ينتصب بأحد الوجهين الاولين و يكون هذا استئنافا مبينا لبعض ما فيه من الامور الدالة على هوله وضميره عائد الى العباد المدلول عليهم بذكر الفريقين لانحصارهم فيهما وقيل الى المتقين خاصة وقيل الى المجرمين من الكفرة وأهل الاسلام والشفاعة على الاولين مصدر من المبنى للفاعل وعلى الثالث ينبغى أن تكون مصدرا من المبنى للمفعول وقوله تعالى (الا من اتخذ عند الرحمن عهدا) على الاول استثناء متصل من لا يملكون ومحل المستثنى اما الرفع على البدل أو النصب على أصل الاستثناء والمعنى لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم الا من استعد له بالتحلى بالايمان والتقوى أو من أمر بذلك من قولهم عهد الامير الى فلان بكذا اذا أمره به فيكون ترغيبا للناس فى تحصيل الايمان ﴿ و يتبرؤن ﴾

و يتبرؤن منهم و يخاصمونهم وهو المراد من قوله أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون وقال آخرون ان الله تعالى يحيي الاصنام يوم القيامة حتى يوبخوا عبادهم و يتبرؤا منهم فيكون ذلك أعظم لحسرتهم ومن الناس من قال الضمير يرجع الى العباد أى ان هؤلاء المشركين يوم القيامة ينكرون انهم عبدوا الاصنام ثم قال تعالى ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين أما قوله و يكونون عليهم ضدا فذكر ذلك فى مقابلة قوله لهم عزا والمراد ضد العز وهو الذل والهوان أى يكونون عليهم ضدا لما قصدوه وأرادوه كأنه قيل و يكونون عليهم ذلا لهم لا عزا أو يكونون عليهم عونا والضد العون يقال من أضدادكم أى من أعوانكم وكان العون يسمى ضدا لانه يضاد عدوك و ينافيه باعانته لك عليه فان قيل ولم وحد قلنا وحد توحيد قوله عليه السلام وهم يد على من سواهم لاتفاق كلمتهم فانهم كشئ واحد لفرط انتظامهم وتوافقهم ومعنى كون الآلهة عونا عليهم انهم وقود النار وحصب جهنم ولانهم عذبوا بسبب عبادتها واعلم انه تعالى لما ذكر حال هؤلاء الكفار مع الاصنام فى الآخرة ذكر بعده حالهم مع الشياطين فى الدنيا فانهم يسئلونهم و ينقادون لهم فقال انا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج الاصحاب بهذه الآية على ان الله تعالى مريد لجميع الكائنات فقالوا قول القائل أرسلت فلانا على فلان موضوع فى اللغة لافادة انه سلطه عليه لارادة أن يستولى عليه قال عليه السلام سم الله وأرسل كلبك عليه اذا ثبت هذا فقوله انا أرسلنا الشياطين على الكافرين يفيد أنه تعالى سلطهم عليهم لارادة أن يستولوا عليهم وذلك يفيد المقصود ثم يتأكد هذا بقوله تؤزهم أزا فان معناه انا أرسلنا الشياطين على الكافرين لتؤزهم أزا و يتأكد بقوله واستفزز من استطعت منهم قال القاضى حقيقة اللفظ توجب أنه تعالى أرسل الشياطين الى الكفار كما أرسل الانبياء بأن حملهم رسالة يؤدونها اليهم فلا يجوز فى تلك الرسالة الا ما أرسل عليه الشياطين من الاغواء فكان يجب فى الكفار أن يكونوا بقبولهم من الشياطين مطيعين وذلك كفر من قائله ولان من العجب تعلق المجبرة بذلك لان عندهم ان ضلال الكفار من قبله تعالى بأن خلق فيهم الكفر وقدر الكفر فلا تأثير لما يكون من الشيطان واذا بطل حمل اللفظ على ظاهره فلا بد من التأويل فنحمله على انه تعالى خلى بين الشياطين و بين الكفار وما منعهم من اغوائهم وهذه التخلية تسمى ارسالا فى سعة اللغة كما اذا لم يمنع الرجل كلبه من دخول بيت جيرانه يقال أرسل كلبه عليه وان لم يرد أذى الناس وهذه التخلية وان كان فيها تشديد للمحنة عليهم فهم متمكنون من أن لا يقبلوا منهم و يكون ثوابهم على ترك القبول أعظم والدليل عليه قوله تعالى وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم هذا تمام كلامه ونقول لا نسلم انه لا يمكن حمله على ظاهره فان قوله الشياطين لو أرسلهم الله الى الكفار لكان الكفار مطيعين له بقبول قول الشياطين قلنا الله تعالى

والتقوى المؤدى الى نيل هذه المرتبة وعلى الثانى استثناء من الشفاعة على حذف المضاف والمستثنى منصوب على البدل أو على أصل الاستثناء أى لا يملك المتقون الشفاعة الا شفاعة من اتخذ العهد بالاسلام فيكون ترغيبا فى الاسلام وعلى الثالث استثناء من لا يملكون أيضا والمستثنى مرفوع على البدل أو منصوب على الاصل والمعنى لا يملك المجرمون أن يشفع لهم الا من كان منهم مسلما (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) حكاية لجناية اليهود والنصارى ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا اثر حكاية عبدة الاصنام بطريق عطف القصة على القصة وقوله تعالى (لقد جئتم شيئا ادا) رد لمقالتهم الباطلة وتهويل لامرها بطريق الالتفات المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجراءة والاد بالكسر والفتح العظيم المنكر والادة الشدة وأدنى الامر وآدنى أثقلنى وعظم على أى فعلتم أمرا منكرا شديدا لا يقادر قدره فان جاء وأتى يستعملان فى معنى فعل فيعديان تعديته وقوله تعالى (تكاد السموات) الخ صفة لادا أو

ما أرسل الشياطين الى الكفار بل أرسلها عليهم والارسال عليهم هو التسليط لارادة أن يصير مستوليا عليه فأين هذا من الارسال اليهم قوله ضلال الكافر من قبل الله تعالى فأى تأثير للشيطان فيه قلنا لم لايجوز أن يقال ان اسماع الشيطان اياه تلك الوسوسة يوجب فى قلبه ذلك الضلال بشرط سلامة فهم السامع لان كلام الشيطان من خلق الله تعالى فيكون ذلك الضلال الحاصل فى قلب الكافر منتسبا الى الشيطان والى الله تعالى من هذين الوجهين قوله لم لايجوز أن يكون المراد بالارسال التخلية قلنا كما خلى بين الشيطان والكفرة فقد خلى بينهم وبين الانبياء ثم انه تعالى خص الكافر بأنه أرسل الشيطان عليه فلابد من فائدة زائدة ههنا ولان قوله تؤزهم أزا أى تحركهم تحريكا شديدا كالغرض من ذلك الارسال فوجب أن يكون ذلك الأز مرادا لله تعالى ويحصل المقصود منه فهذا ما فى هذا الموضع والله أعلم (المسئلة الثانية) قال ابن عباس تؤزهم أزا أى تزعجهم فى المعاصى ازعاجا نزلت فى المستهزئين بالقرآن وهم خمسة رهط قال صاحب الكشاف الاز والهز والاستفزاز أخوات فى معنى التهييج وشدة الازعاج أى تغريهم على المعاصى وتحثهم وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات أما قوله تعالى فلا تعجل عليهم انما نعد لهم عدا يقال عجلت عليه بكذا اذا استعجلته به أى لا تعجل عليهم بان يهلكوا أو يبيدوا حتى تستريح أنت والمسلمون من شرورهم فليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم الا أيام محصورة وأنفاس معدودة ونظيره قوله تعالى ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ عن ابن عباس انه كان اذا قرأها بكى وقال آخر العدد خروج نفسك آخر العدد دخول قبرك آخر العدد فراق أهلك وعن ابن السماك رحمه الله انه كان عند المأمون فقرأها فقال اذا كانت الانفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد وذكروا فى قوله نعد لهم عدا وجهين آخرين (الاول) نعد أنفاسهم وأعمالهم فنجازيهم على قليلها وكثيرها (والثانى) نعد الاوقات الى وقت الاجل المعين لكل أحد الذى لا يتطرق اليه الزيادة والنقصان ثم بين سبحانه ما سيظهر فى ذلك اليوم من الفصل بين المتقين وبين المجرمين فى كيفية الحشر فقال يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا قال صاحب الكشاف نصب يوم بمضمر أى يوم نحشر ونسوق نفعل بالفريقين ما لا يحيط به الوصف أو اذكر يوم نحشر ويجوز أن ينتصب بلا يملكون عن على رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده ان المتقين اذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها أجنحة عليها رحال الذهب ثم تلا هذه الآية وفيها مسائل (المسئلة الاولى) قال القاضى هذه الآية أحد ما يدل على ان أهوال يوم القيامة تختص بالمجرمين لان المتقين من الابتداء يحشرون على هذا النوع من الكرامة فهم آمنون من الخوف فكيف يجوز أن تنالهم الاهوال (المسئلة الثانية) المشبهة احتجوا بالآية وقالوا قوله الى الرحمن يفيد ان انتهاء حركتهم يكون عند الرحمن وأهل التوحيد يقولون

استئناف ببيان عظم شأنه فى الشدة والهول وقرئ يكاد بالتذكير (يتفطرن منه) ينشققن مرة بعد أخرى من عظم ذلك الامر وقرئ ينفطرن والاول أبلغ لان تفعل مطاوع فعل وانفعل مطاوع فعل ولان أصل التفعل التكلف (وتنشق الارض) أى وتكاد تنشق الارض (وتخر الجبال) أى تسقط وتتهدم وقوله تعالى (هدا) مصدر مؤكد لمحذوف هو حال من الجبال أى تهد هدا أو مصدر من المبنى للمفعول مؤكد لتخر على غير الصدر لانه حينئذ بمعنى التهدم والخرور كأنه قيل وتخر الجبال خرورا أو مصدر بمعنى المفعول منصوب على الحالية أى مهدودة أو مفعول له أى لانها تهد وهذا تقرير لكونه ادا والمعنى أن هول تلك الكلمة الشنعاء وعظمها بحيث لو تصورت بصورة محسوسة لم تطق بها هاتيك الاجرام العظام وتفتتت من شدتها أو ان فظاعتها فى استجلاب الغضب واستيجاب السخط بحيث لولا حلمه تعالى لخرب العالم وبددت قوائمه غضبا على من تفوه بها (أن دعوا للرحمن ولدا) منصوب على حذف اللام المتعلقة بتكاد ﴿ المعنى ﴾ أو مجرور باضمارها أى تكاد السموات يتفطرن والارض تنشق والجبال تخر لأن دعوا له

المعنى يوم نحشر المتقين الى محل كرامة الرحمن (المسئلة الثالثة) طعن الملحد فيه فقال قوله يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا هذا انما يستقيم أن لو كان الحاشر غير الرحمن أما اذا كان الحاشر هو الرحمن فهذا الكلام لا ينتظم أجاب المسلمون بأن التقدير يوم نحشر المتقين الى كرامة الرحمن أما قوله ونسوق المجرمين الى جهنم وردا فقوله نسوق يدل على انهم يساقون الى النار باهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق الى الماء والورد اسم للعطاش لان من يرد الماء لا يرده الا للعطش وحقيقة الورود السير الى الماء فسمى به الواردون أما قوله لا يملكون الشفاعة أى فليس لهم والظاهر ان المراد شفاعتهم لغيرهم أو شفاعة غيرهم لهم فلذلك اختلفوا وقال بعضهم لا يملكون أن يشفعوا لغيرهم كما يملك المؤمنون وقال بعضهم بل المراد لا يملك غيرهم أن يشفعوا لهم وهذا الثانى أولى لان حمل الآية على الاول يجرى مجرى ايضاح الواضحات واذا ثبت ذلك دلت الآية على حصول الشفاعة لاهل الكبائر لانه قال عقيبه الا من اتخذ عند الرحمن عهدا والتقدير ان هؤلاء لا يستحقون أن يشفع لهم غيرهم الا اذا كانوا قد اتخذوا عند الرحمن عهدا التوحيد والنبوة فوجب أن يكون داخلا تحته ومما يؤكد قولنا ما روى ابن مسعود انه عليه السلام قال لاصحابه ذات يوم أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدا قالوا وكيف ذلك قال يقول كل صباح ومساء اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انى أعهد اليك بانى أشهد أن لا اله الا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبدك ورسولك فانك ان تكلنى الى نفسى تقربنى من الشر وتبعدنى من الخير وانى لا أثق الا برحمتك فاجعل لى عهدا توفينيه يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد فاذا قال ذلك طبع الله عليه بطابع ووضع تحت العرش فاذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين لهم عند الرحمن عهد فيدخلون الجنة فظهر بهذا الحديث ان المراد من العهد كلمة الشهادة وظهر وجه دلالة الآية على الشفاعة لاهل الكبائر وقال القاضى الآية دالة على مذهبه وقد ظهر ان الآية قوية فى الدلالة على قولنا والله أعلم * قوله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا ادا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا ان دعوا للرحمن ولدا وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) اعلم انه تعالى لما رد على عبدة الاوثان عاد الى الرد على من أثبت له ولدا فقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت العرب الملائكة بنات الله والكل داخلون فى هذه الآية ومنهم من خصها بالعرب الذين أثبتوا أن الملائكة بنات الله قالوا لان الرد على النصارى تقدم فى أول السورة أما الآن فانه للرد على العرب الذين قالوا بعبادة الاوثان تكلم فى فساد قول الذين قالوا بعبادة الملائكة لكونهم بنات الله أما قوله لقد جئتم شيئا ادا فقرئ ادا بالكسر والفتح [illegible]

سبحانه ولدا وقيل اللام متعلقة بهدا وقيل الجملة بدل من الضمير المجرور فى منه كما فى قوله * على جوده لضن بالماء حاتم * وقيل خبر مبتدا محذوف أى الموجب لذلك أن دعوا الخ وقيل فاعل هدا أى هدها دعاء الولد والاول هو الاولى ودعوا من دعا بمعنى سمى المتعدى الى مفعولين وقد اقتصر على ثانيهما ليتناول كل ما دعى له ولدا أو من دعا بمعنى نسب الذى مطاوعه ادعى الى فلان أى انتسب اليه وقوله تعالى (وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا) حال من فاعل قالوا او دعوا مقررة لبطلان مقالتهم واستحالة تحقق مضمونها أى قالوا اتخذ الرحمن ولدا أو أن دعوا للرحمن ولدا والحال أنه ما يليق به تعالى اتخاذ الولد ولا يتطلب له لو طلب مثلا لاستحالته فى نفسه ووضع الرحمن موضع الضمير للاشعار بعلة الحكم بالتنبيه على أن كل ما سواه تعالى إما نعمة أو منعم عليه فكيف يسمى أن يجانس من هو مبدأ النعم ومولى أصولها [illegible]

قوله عز قائلا (ان كل من فى السموات والارض) [illegible] الا وهو مملوك له يأوى اليه بالعبودية والانقياد [illegible]

وقيل المنكر العظيم والادة الشدة وأدنى الامر وآدنى أثقلنى قرئ يتفطرن بالتاء بعد الياء أعنى المعجمة من تحتها واختلفوا فى يكاد فقرأ بعضهم بالياء المعجمة من تحتها وبعضهم بالتاء من فوق والانفطار من فطر مااذا شقه والتفطر من فطره اذا شققه وكرر الفعل فيه وقرأ ابن مسعود يتصدعن وقوله وتخر الجبال هدا أى تهد هدا أو مهدودة أو مفعول له أى لانها تهد والمعنى أنها تتساقط أشد مايكون تساقط البعض على البعض فان قيل من أين يؤثر القول باثبات الولد لله تعالى فى انفطار السموات وانشقاق الارض وخرور الجبال قلنا فيه وجوه (أحدها) ان الله سبحانه وتعالى يقول أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبا منى على من تفوه بها لولا حلمى وأنى لاأعجل بالعقوبة كما قال ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا (وثانيها) أن يكون استعظاما للكلمة وتهويلا من فظاعتها وتصويرا لاثرها فى الدين وهدمها لاركانه وقواعده (وثالثها) ان السموات والارض والجبال تكاد أن تفعل ذلك لوكانت تعقل من غلظ هذا القول وهذا تأويل أبى مسلم (ورابعها) ان السموات والارض والجبال كانت سليمة من كل العيوب فلما تكلم بنو آدم بهذا القول ظهرت العيوب فيها أما قوله أن دعوا للرحمن ولدا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى اعرابه ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون مجرورا بدلا من الهاء فى منه أو منصوبا بتقدير سقوط اللام وافضاء الفعل أى هذا لان دعوا أو مرفوعا بانه فاعل هدا أى هدها دعاء الولد للرحمن والحاصل انه تعالى بين ان سبب تلك الامور العظيمة هذا القول (المسئلة الثانية) انما كرر لفظ الرحمن مرات تنبيها على انه سبحانه وتعالى هو الرحمن وحده من قبل ان أصول النعم وفروعها ليست الا منه (المسئلة الثالثة) قوله دعوا للرحمن هو من دعا بمعنى سمى المتعدى الى مفعولين فاقتصر على احدهما الذى هو الثانى طلبا للعموم والاحاطة بكل من ادعى له ولدا أو من دعا بمعنى نسب الذى هو مطاوعه ما فى قوله صلى الله عليه وسلم من ادعى الى غير مواليه قال الشاعر

* انا بنى نهشل لاندعى لاب *

أى لاننتسب اليه ثم قال تعالى وماينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا أى هو محال أما الولادة المعروفة فلامقال فى امتناعها وأما التبنى فلان الولد لابد وأن يكون شبيها بالوالد ولا مشبه لله تعالى ولان اتخاذ الولد انما يكون لاغراض لاتصح فى الله من سروره به واستعانته به وذكر جميل وكل ذلك لايليق به ثم قال ان كل من فى السموات والارض الاآتى الرحمن عبدا والمراد انه مامن معبود لهم فى السموات والارض من الملائكة والناس الا وهو يأتى الرحمن أى يأوى اليه ويلتجئ الى ربوبيته عبدا منقادا مطيعا خاشعا راجيا كما يفعل العبيد ومنهم من حمله على يوم القيامة خاصة والاول أولى لانه لاتخصيص فيه وقوله لقد أحصاهم وعدهم عدا أى كلهم تحت أمره وتدبيره وقهره وقدرته فهو سبحانه محيط بهم ويعلم مجمل أمورهم وتفاصيلها لايفوته شئ من

الرحمن على الاصل (لقد أحصاهم) اى حصرهم وأحاط بهم بحيث لايكاد يخرج منهم أحد من حيطة علمه وقبضة قدرته وملكوته (وعدهم عدا) أى عد اشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم وكل شئ عنده بمقدار (وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) أى كل واحد منهم آت اليه تعالى منفردا من الاتباع والانصار وفى صيغة الفاعل من الدلالة على اتيانهم كذلك البتة ماليس فى صيغة المضارع لو قيل يأتيه فاذا كان شأنه تعالى وشأنهم كما ذكر فأنى يتوهم احتمال أن يتخذ شيأ منهم ولدا (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) لما فصلت قبائح أحوال الكفرة عقب ذلك بذكر محاسن أحوال المؤمنين (سيجعل لهم الرحمن ودا) أى سيحدث لهم فى القلوب مودة من غير تعرض منهم لاسبابها سوى مالهم من الايمان والعمل الصالح والتعرض لعنوان الرحمانية لما أن الموعود من آثارها وعن النبى عليه الصلاة والسلام اذا أحب الله عبدا يقول لجبريل عليه السلام انى أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء ان الله أحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ﴿ احوالهم ﴾ ثم يوضع له المحبة فى الارض والسين لان السورة مكية وكانوا اذ ذاك ممقوتين بين الكفرة فوعدهم ذلك

أحوالهم وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفردا ليس معه من هؤلاء المشركين أحد وهم برآء منهم * قوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا وكم اهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) اعلم انه تعالى لما رد على أصناف الكفرة و بالغ فى شرح أحوالهم فى الدنيا والآخرة ختم السورة بذكر أحوال المؤمنين فقال ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا وللمفسرين فى قوله ودا قولان (الاول) وهو قول الجمهور انه تعالى سيحدث لهم فى القلوب مودة و يزرعها لهم فيها من غير تودد منهم ولا تعرض للاسباب التى يكتسب الناس بها مودات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع معروف أو غير ذلك وانما هو اختراع منه تعالى وابتداء تخصيصا لاوليائه بهذه الكرامة كما قذف فى قلوب أعدائهم الرعب والهيبة اعظاما لهم واجلالا لمكانهم والسين فى سيجعل اما لان السورة مكية وكان المؤمنون حينئذ ممقوتين بين الكفرة فوعدهم الله تعالى ذلك اذا جاء الاسلام واما أن يكون ذلك يوم القيامة يحببهم الى خلقه بما يعرض من حسناتهم و ينشر من ديوان أعمالهم عن النبي صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية اذا أحب الله عبدا نادى جبريل قد أحببت فلانا فأحبوه فينادى جبريل عليه السلام بذلك فى السماء والارض ، واذا أبغض عبدا فمثل ذلك وعن كعب قال مكتوب فى التوراة والانجيل لا محبة لاحد فى الارض حتى يكون ابتداؤها من الله تعالى ينزلها على أهل السماء ثم على أهل الارض وتصديق ذلك فى القرآن قوله سيجعل لهم الرحمن ودا (القول الثانى) وهو اختيار أبى مسلم معنى سيجعل لهم الرحمن ودا أى يهب لهم ما يحبون والود والمحبة سواء يقال آتيت فلانا محبته وجعل لهم ما يحبون وجعلت له وده ومن كلامهم يود لو كان كذا ووددت أن لو كان كذا أى أحببت ومعناه سيعطيهم الرحمن ودهم أى محبوبهم فى الجنة (والقول الاول) أولى لان حمل المحبة على المحبوب مجاز ولانا ذكرنا ان الرسول صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وفسرها بذلك فكان ذلك أولى وقال أبو مسلم بل القول الثانى أولى لوجوه (أحدها) كيف يصح القول الاول مع علمنا بأن المسلم المتقى يبغضه الكفار وقد يبغضه كثير من المسلمين (وثانيها) ان مثل هذه المحبة قد تحصل للكفار والفساق أكثر فكيف يمكن جعله انعاما فى حق المؤمنين (وثالثها) ان محبتهم فى قلوبهم من فعلهم لا أن الله تعالى فعله فكان حمل الآية على اعطاء المنافع الاخروية أولى والجواب عن الاول ان المراد يجعل لهم الرحمن محبة عند الملائكة والانبياء وروى عنه عليه السلام انه حكى عن ربه عز وجل انه قال اذا ذكرنى عبدى المؤمن فى نفسه ذكرته فى نفسى واذا ذكرنى فى ملا ذكرته فى ملا أطيب منهم وأفضل وهذا هو الجواب عن الكلام الثانى لان الكافر والفاسق ليس كذلك والجواب عن الثالث انه محمول على فعل الالطاف وخلق داعية اكرامه فى قلوبهم أما قوله تعالى فانما يسرناه

ثم أنجزه حين ربا الاسلام أو لان الموعود فى القيامة حين تعرض حسناتهم على رؤس الأشهاد فينزع ما فى صدورهم من الغل الذى كان فى الدنيا ولعل افراد هذا بالوعد من بين ما سيؤتون يوم القيامة من الكرامات السنية لما أن الكفرة سيقع بينهم يومئذ تباغض وتضاد وتقاطع وتلاعن (فانما يسرناه) أى القرآن (بلسانك) بأن أنزلناه على لغتك والباء بمعنى على وقيل ضمن التيسير معنى الانزال أى يسرنا القرآن منزلين له بلغتك والفاء لتعليل أمر ينساق اليه النظم الكريم كأنه قيل بعد ايحاء السورة الكريمة بلغ هذا المنزل أو بشر به وأنذر فانما يسرناه بلسانك العربي المبين (لتبشر به المتقين) أى الصائرين الى التقوى بامتثال ما فيه من الأمر والنهى (وتنذر به قوما لدا) لا يؤمنون به لجاجا وعنادا واللد جمع الالد وهو الشديد الخصومة اللجوج المعاند وقوله تعالى (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى ضمن وعيد الكفرة بالاهلاك وحث له عليه الصلاة والسلام على الانذار أى قرنا كثيرا أهلكنا قبل هؤلاء المعاندين وقوله تعالى (هل تحس منهم من أحد) استئناف مقرر لمضمون ما قبله أى هل تشعر باحد

بلسانك لتبشر به المتقين فهو كلام مستأنف بين به عظيم موقع هذه السورة لما فيها من التوحيد والنبوة والحشر والنشر والرد على فرق المضلين المبطلين فبين تعالى انه يسر ذلك بلسانه ليبشر به و ينذر ولولا أنه تعالى نقل قصصهم الى اللغة العربية لما تيسر ذلك على الرسول صلى الله عليه وسلم فأما أن القرآن يتضمن تبشير المتقين وانذار من خرج منهم فبين لكنه تعالى لما ذكر انه يبشر به المتقين ذكر فى مقابلته من هو فى مخالفة التقوى أبلغ وأبلغهم الالد الذى يتمسك بالباطل و يجادل فيه و ينسد وهو معنى لدا ثم انه تعالى ختم السورة بموعظة بليغة فقال وكم أهلكنا قبلهم من قرن لانهم اذا تأملوا وعلموا أنه لا بد من زوال الدنيا والانتهاء الى الموت خافوا ذلك وخافوا أيضا سوء العاقبة فى الآخرة فكانوا فيها الى الحذر من المعاصى أقرب ثم أكد تعالى ذلك فقال هل تحس منهم من أحد لان الرسول عليه السلام اذا لم يحس منهم أحدا برؤية أو ادراك أو وجدان ولا يسمع لهم ركزا
وهو الصوت الخفى ومنه ركز الرمح اذا غيب طرفه فى الارض والركاز المال المدفون
دل ذلك على انقراضهم وفنائهم بالكلية والاقرب فى قوله أهلكنا ان المراد به
الانقراض بالموت وان كان من المفسرين من حمله على العذاب
المعجل فى الدنيا والله أعلم بالصواب واليه المرجع
والمآب والحمد لله رب العالمين وصلى الله
على سيدنا محمد النبى الأمى
وعلى آله وصحبه
وسلم

تم الجزء الخامس و يليه الجزء السادس أوله سورة طه عليه السلام

منهم وترى (أو تسمع لهم ركزا) أى صوتا خفيا وأصل الركز هو الخفاء ومنه ركز الرمح اذا غيب طرفه فى الارض والركاز المال المدفون المخفى والمعنى أهلكناهم بالكلية واستأصلناهم بحيث لا يرى منهم أحد ولا يسمع منهم صوت خفى * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة مريم اعطى عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به و يحيى وعيسى ومريم وسائر الانبياء المذكورين فيها و بعدد من دعا الله تعالى فى الدنيا ومن لم يدع الله تعالى